الصراع بين الإسلام والوثنية

تأليف

عبد الله علي القصيمي

الطبعة الثانية

القاهرة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

الصراع بين الإسلام والوثنية

تأليف

عبد الله علي القصيمي

الجزء الأول

« نداء ورجاء ونصيحة الى
خميني ايران واتباعه
ايقرأوا هذا الكتاب
بكل الصدق والحماس
والاخلاص والايمان
والتقوى »

الطبعة الثانية

القاهرة ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٢ م



الطبعــة الأولى ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م
الطبعــة الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الأنبياء والمرسلين ، أما بعد .
فاننا بعد أن كتبنا هذا الجزء ونثرنا فيه ماسوف يجده القارىء من المذاهب الشيعية ظفرنا بنصوص شيعية أخرى مدونة فى كتاب معدود لدى القوم من أوثق الكتب بل يكاد يكون أوثقها إطلاقا ، واسم هذا الكتاب « أصول الكافى » تأليف محمد ابن يعقوب المعروف بالكلينى ، وهذا الكتاب ومؤلفه محسوبان عند الشيعة كصحيح البخارى ومؤلفه عند أهل السنة ، وهو مطبوع فى فارس حيث تربض عصبية التشيع وعصابته . وقد استحسنا أن نضع أمام القارىء نماذج مختلفة من هـذا الكتاب فى هذه المقدمة إتماماً للغرض الذي قصدناه ، وتثبيتاً لما قد يخالفنا بعض رجال الشيعة فى ثبوته عنهم

(الأئمة يوحى اليهم عند الشيعة)

قال فى الكافى : « كتب الحسن بن العباس الى الرضا يقول : ما الفرق بين الرسول والنبى والامام ؟ فقال : الرسول هو الذى ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحى ، والنبى ربما سمع الكلام وربما رأى الشخص ولم يسمع ، والامام هو الذى يسمع الكلام ولا يرى الشخص » ص ٨٢ وقال « والأئمة لم يفعلوا شيئاً ولا يفعلونه إلا بعهد من الله وأمر منه لايتجاوزونه » ص ١٣٥

وفى الكتاب نصوص أخرى متعددة فى هذا المعنى ، فالأئمة لدى هؤلاء أنبياء يوحى اليهم ، ورسل أيضا ، لأنهم مأمورون بتبليغ ما يوحى اليهم ، وهذا هو معنى ادعائهم فى أئمتهم العصمـة وأنهم لايقولون خلاف الحق لا سهواً ولا عمداً ، بل وأنهم لا ينسون ولا يسهون . والأئمة بهـذا أعظم من الأنبياء والرسل عند أهل

السنة ، لأن أهل السنة لا يزعمون أن الأنبياء لا ينسون ولا يسهون ، بل عندهم أن محمداً عليه السلام كان ينسى ، وكان يقول إنما أنا بشر أنسى كما تنسون . والنقل فى هذا بالغ مبلغ التواتر المعنوي ، ونسيان الأنبياء فى حوادث معلومة نازل به القرآن الكريم

ولاعتقاد الشيعة أن الأئمة يوحى اليهم كالأنبياء يكفّرون من أنكر أحداً منهم أو شك فيه ، أو لم يفضلهم على سائر الخلق ، وكذلك يكفرون من لم يتبعهم من المسلمين ، ولأجل هـذا يجعلون الامامة أساس الدين وقاعدته التى عليها النجاة والهلاك ، فالأئمة عندهم كالأنبياء فيما هم به أنبياء ، بل هم عندهم أعظم وأجل من أكثر النبيين ، وهذا أمر لايختلفون فيه وسوف يمر بالقارىء فى أثناء هذا الكتاب الذى تولينا مناقضته أن صاحبه يفضل العلماء ، بله الأئمة ، على بعض الأنبياء . وهذه مآس علمية لا يكع القوم عن الجهر بها

وعلماء الاسلام اليوم يرون أن فرقة القاديانية خارجة من نطاق الاسلام لزعمها أن باب النبوة لا يزال مفتوحا ، فما قولهم فى هؤلاء الذين يزعمون أن الأئمة أنبياء ثم يزعمون أن الامامة واجبة على الله فى كل زمان ، ومعنى هـذا أن النبوة بأبلغ معانيها واجبة على الله وموجودة أيضاً فى كل زمان ؟

(الائمة عند الشيعة يعلمون كل شيء)

ثم قال : « والأئمة اذا شاءوا أن يعلموا شيئاً أعلمهم الله إياه ، وهم يعلمون متى يموتون ، ولا يموتون إلا باختيارهم ، وهم يعلمون علم ما كان وعلم ما يكون ولا يخفى عليهم شيء » ص ١٢٥ و ص ١٢٦

وفى الكتاب نصوص أخرى أيضاً فى المعنى ، فالأئمة يشاركون الله فى هذه الصفة ، صفة علم الغيب وعلم ما كان وما سيكون ، وأنه لا يخفى عليهم شيء ،

والمسلمون كلهم يعلمون أن الأنبياء والمرسلين أنفسهم لم يكونوا يشاركون الله فى هذه الصفة ، والنصوص فى الكتاب والسنة وعن الأئمة فى أنه لا يعلم الغيب إلا الله متواترة لا يستطاع حصرها فى كتاب . وهذا غنى عن الادلاء بشواهده ، ومن المؤسف المخجل لعمر الله أن يزعموا أن الأئمة يعلمون الغيب ، ويعلمون ما كان وما سيكون ، ويزعمون أنه لا تخفى عليهم خافية ، وهم يصفون الله جلت قدرته وعظمته بالبداء كما سوف يمر بالقارىء . ومعنى البداء أنه تعالى يعلم ما لم يكن يعلم ويبدو له من الأمر ما لم يكن باديا . فالأئمة عند القوم أعلم من الأنبياء والمرسلين وأعلم من الله نفسه !

وعلى أساس هذه العقيدة الغالية فى الأئمة اتجه لهم أن يضرعوا اليهم كما يضرع الناس الى الله ، وأن يدعوهم فى السراء والضراء كما يدعو المؤمنون ربهم ، وأن يسألوهم كل ما يسأله الموحد ربه من عظيم الحاجات وجليل المطالب

(الائمة أعلم من الأنبياء عند الشيعة)

ثم قال : « وعند الأئمة جميع الكتب التى نزلت من عند الله ، وهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها ص١٠٧ وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين . ثم أورث الله الأئمة الكتاب الذي فيه تبيان كل شيء ص ١٠٧ وعند الأئمة اسم الله الأعظم ص ١١٠ و ص ١١٢ وعندهم الجفر وهو وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين وعلم الذين مضوا من بنى اسرائيل ص ١١٥ وقال أبو جعفر إن لله علماً علمه ملائكته ورسله فما علمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه » ص ١١٣

وقال فى الوشيعة : « كان الصادق يقول على ما تروى كتب الشيعة إنى لأعلم ما فى الجنة وما فى النار ، وأعلم كل ما كان وكل ما يكون ، ولو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أنى أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس لهما » ص ٩٣

فالأئمة أعلم من الأنبياء ومن الملائكة و من جميع العالمين ، لأنهم يعلمون علم الملائكة ، وعلم الأنبياء ، وعلم جميع الغابرين من بنى اسرائيل ، بل ويعلمون كتاب الله المبين الذى أحاط بالغيوب الكائنة فى الأرض أو فى السماء ، ويعلمون جميع اللغات التى نزلت بها كتب الله على أنبيائه ، ولا يتنازع المسلمون فى أن نبياً من الأنبياء مهما عظم قدره ومنزلته لم يكن يعلم ذلك كله ولا يحيط بجميع ماذكروه لأئمتهم خبرا ، ولا أحد من المسلمين المهتدين يزعم أن سيد الأنبياء كان يعلم علم جميع الأنبياء وجميع العالمين ، وعلم جميع الملائكة ، وعلم ما فى الكتاب المبين الذى ضمن كل غائبة في الأرض أو فى السماء ، وأنه يعلم جميع اللغات التى نزلت بها كتب الله . هذا من الأمور الضرورية ، والنصوص على ذلك لا يحصيها محص

فالأئمة أعلم من الأنبياء جميعاً فى مذاهب الشيعة ! فما يقول العلماء فيمن يزعمون هذا المزعم ؟

(القرآن ضائع منه ثلاثة أرباعه عند الشيعة)

ثم قال : «ولم يجمع القرآن كله إلا الأئمة. وهم يعلمون علمه كله ، وقد كذب من ادعى من الناس أنه جمع القرآن كله ، فما جمعه وحفظه كما أنزله الله إلا على بن أبي طالب والأئمة من بعده ص١١٠ وعند الأئمة مصحف فاطمة وفيه مثل قرآننا ثلاث مرات . وليس فيه من قرآننا حرف واحد » ص ١١٥

هذا قول الشيعة ورأيهم في كتاب الله ، والمسلمون لا يختلفون في أن من زعم أن القرآن قد نقص منه حرف واحد فقد ارتد ، وليس من شك أن من زعموا أنه قد ضاع ثلاثة أرباع القرآن أو زعموا أن هذا المصحف الذي بين أيدى المسلمين ليس هو كلام الله الذى أنزله على نبيه قوم أدعياء فى الاسلام ، وأن أمرهم فوق أمر المرتدين ، بل لا نرتاب أن هذه مزاعم زنادقة قالوا انهم أسلموا ليقوضوا

دعائم الاسلام وليضربوه الضربة القاتلة المميتة ، ولا نتأثم من أن نقول ان أهل الملل الأخرى المصارحين للاسلام بالعداوة والبغضاء ، أقرب اليه من هؤلاء ، واننا ننبه هؤلاء المسلمين الذين يحفلون ويحتفلون برجال هذه الطائفة ويدعونهم اخوانهم المخلصين ، ويبالغون فى إكرامهم ورعاية ضيافتهم الى هذه الحقيقة المرة ونقول لهم ان الاسلام أجل فى نفس المسلم من أن يتقبل مصانعة قوم هذا زعمهم فى كتاب الله ، وما أقر عيون القادحين فى الاسلام لو ظفروا بهذه الآراء الشيعية فى أمر الاسلام وكتابه ! وما عسى خصم الاسلام يقول فيه شراً من هذا أو ينال منه أعظم مما نالته منه الشيعة !

(الناس عبيد للائمة والأرض ملك للامام عند الشيعة)

ثم قال الكافى « قال الرضا : الناس عبيد لنا فى الطاعة موال لنا فى الدين ، فليبلغ الشاهد الغائب ص ٨٨ والأرض كلها للامام . قال الله « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وأهل البيت هم الذين أورثهم الله الأرض وهم المتقون ، وفى كل من الغنائم والغوص والكنوز والمعادن والملاحة الخمس ، قال الله « واعلموا أنما غنمتم من شىء فان لله خمسه الآية » وماالله ولرسوله ولذى القربى للامام ص ٢٨٩ وكذلك الآجام والمعادن والبحار والمفاوز فهى للامام خاصة . فان عمل فيها قوم باذن الامام فلهم أربعة أخماس وللامام الخمس» ص ٢٨٨

قال فى الوافى [1] : « كل أنهار الأرض خرقت بابهام جبريل هى لنا ولشيعتنا وليس لعدونا من ذلك شىء ، وان ولينا لفى أوسع مما بين السماء والأرض» . وقال فى الوافى والتهذيب [2] أيضاً « الأرض كلها لنا وما أخرج الله منها من شىء فهو لنا

---

(١) الوافي أحد كتب الشيعة المعتمد عليها لديهم

(٢) التهذيب أحد كتب الشيعة القديمة

وقد أحللناها لشيعتنا ، وسائر الناس يتقلبون فى حرام الى يوم القيامة ، وقال الصادق إنا أحللنا أمهات شيعتنا لآباء شيعتنا لتطيب ولادة الشيعة ، وكل الأموال رقابها يختص بها الامام دون سائر الناس ، فلا يحل لأحد نكاح ولا تجارة ولا طعام على وجه من الوجوه وسبب من الأسباب إلا باباحة من الامام وإطلاق منه فى التصرف »

فالناس كما ترى عبيد لأئمة الشيعة ، والأرض وما فيها ملك أيضا لامامهم ، فالعالم الأرضى بناسه وحيواناته ومعادنه وكنوزه وبحاره وكل ما فيه ملك الامام يتصرف فيه تصرف المالك فى ملكه ، فليس فى هذه الأرض انسان واحد حر وليس فيها مالك سوى الامام إلا ما يهبه هذا الامام لمن يشاء من عبيده تفضلا منه وأجراً لكدحهم وأعمالهم ! نحن لا نسمى مثل هذا خروجا على الدين أوعلى الأديان كلها ، فهو أقل من هذا كله ، بل هو الفناء الدينى والانتحار العلمى الشنيع . ولا نعلم كيف يمكن أن يعطى الامام نصيبه من هذه المغانم والكنوز والملاحات وغير ذلك مما يملكه ، وهو كما تزعم الشيعة مختف منذ أكثر من ألف عام فى مغارة من المغارات المجهولة المنقطعة ، لا تمكن معرفتها ولا معرفته ولا الاتصال بها أو به ؟ هذا لعمر الله سوءة الدهر وقاصمة الظهر

(الائمة خزان علم الله وكل ما لم يكن من عندهم فهو ضلال)

ثم قال فى الكافى : « قال أبو جعفر نحن خزان علم الله ونحن تراجمة وحى الله ص ٩١ . . . وليس من الحق فى أيدي الناس الا ما خرج من عند الأئمة . وإن كل شيء لم يخرج من عندهم فهو باطل » ص ٢١٢

والنقول عندهم فى هذا المعنى كثيرة . فالأئمة المعلومون المعدودون لدى الشيعة هم الخزان لعلم الله وهم التراجمة لكلام الله ووحيه ، وهم المخصوصون بمعرفة الهدى

والحق . فلن يصل الى ملك مقرب ولا الى نبي مرسل قبس من علم الله الا من طريق الائمة والا باذنهم وامرهم ، ولن يعرف عبد من عباد الله معنى من معانى وحى الله ولا سراً من أسراره ولا أمراً أو نهياً من أوامره ونواهيه الا ما ترجمه الأئمة وبينوه ، والا ما شاءوا لعبيدهم الناس أن يعلموه . وكل علم لم يأت من طريق الأئمة فهو جهل ، وكل هدى لم يخرج من عندهم فهو ضلال ، وكل حق لم يصدر من ساحتهم فهو باطل ، لأنهم هم الخزان والتراجم لعلم الله ووحيه وكلامه . فلا الملائكة مهتدون ولا عالمون ، ولا غيرهم مهتدون ولا عالمون ان لم يتفضل عليهم أئمة الشيعة بالهداية والعلم . ولا أحد يستطيع أن يفهم من كلام الله آية واحدة ولا حرفا واحداً إن لم يترجمه له تراجمة كلام الله ووحيه من أئمة الشيعة . فلا هدى إذن ولا علم ولا سعادة ولا نجاة إلا للشيعة ! ؟ والمصيبة الكبرى أن يكون لعلم الله خزان تعالى الله عن ذلك ! ولا ريب أن خازن علم الله أعلم من الله أو مساوٍ له ! جل الله وتعالى جده وأعلى شأن أنبيائه ورسله وملائكته ! !

(الشيعة للجنة وإن أساءوا ، وأهل السنة للنار وإن أحسنوا)

ثم قال فى الكافى : « قال الله تبارك وتعالى لأعذبن كل رعية فى الاسلام دانت بولاية كل إمام جائر ليس من الله وان كانت الرعية فى أعمالها برة تقية ، ولأعفون عن كل رعية فى الاسلام دانت بولاية كل إمام عادل من الله وان كانت الرعية فى أنفسها ظالمة مسيئة » ص ١٩٠ وقال فى الكافى أيضاً « قيل للصادق أنى أخالط الناس فيكثر عجبى من أقوام لا يتولونكم ويتولون أبا بكر وعمر لهم أمانة وصدق ووفاء ، ومن أقوام يتولونكم ليس لهم أثر من صدق ولا وفاء ولا أمانة ، فاستوى الصادق جالساً ، فأقبل كالغضبان ! ثم قال لا دين لمن دان الله بولاية إمام جائر ، ولا عتب على من دان الله بولاية إمام عادل . قلت لا دين لأولئك ولا

عتب ولا ذنب على هؤلاء ؟ ! قال الصادق نعم ! ألا تسمع الى قول الله « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » من ظلمات الذنوب الى نور التوبة والمغفرة بولاية إمام عادل من الله « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » كانوا على نور الاسلام فلما تولوا كل إمام جائر ليس من الله خرجوا من نور الاسلام الى ظلمات الكفر » . وقال فى الكافى أيضاً وهو فى التهذيب أيضاً : « قلت للصادق أ أنزل مكة ؟ قال لا تفعل . أهل مكة يكفرون بالله جهرة . قلت أ أنزل فى حرم النبى ؟ قال هم شر منهم . أهل المدينة أخبث من أهل مكة سبعين ضعفا . عليك بالعراق بالكوفة . أهل الشام شر من الروم ، والمخالف شر من سائر الكفار . لعنة الله عليهم وعلى أسلافهم ... »

والنصوص فى كتب القوم فى تثبيت هذا البلاء متواترة . فأهل السنة الموالون لأبى بكر وعمر لن تقبل منهم حسنة ، والشيعة المجافون لأبى بكر وعمر المؤمنون بالامام المنتظر لن يؤاخذوا بسيئة واحدة ! فاظلم الشيعة صائر الى الجنة ولا بد ! وأتقى أهل السنة صائر الى النار ولا بد ! فهؤلاء لن تنفعهم الحسنات ، وهؤلاء لن تضرهم السيئات ! فليعمل خصوم أبى بكر ما يشاؤن من الفسوق والمروق ، فلن يسألوا عن شىء مما يعملون ، وليقلل أولياء أبى بكر وعمر من البر والصلاح فلن يجزوا بحسنة مما يصنعون ؟ !

وهذه الآراء تصير بأصحابها، وأسفاه، الى الفوضى والاباحية المطلقة ، وسيجد القارىء أنها قد حملت طوائف من الشيعة على أن دانوا برفع التكاليف الالهية عنهم لاعتقادهم أن من وصل الى الاعتراف بالامام فقد وصل الى الكمال ، فلا جناح عليه أن يعمل ما يشاء وأن يدع ما يشاء ! فلا حلال ولا حرام ولا واجب ولا محظور . فلتغتنم الشهوات إذن قبل الفوات ، ولترتشف النفوس حاجاتها من هذه الحياة ، فكل ذنب مغفور، فمن ترك شهوة خوف عقباها فقد جهل وخسر . ونحن

لا نشك أن وضعة هذه الأقوال التى تعزوها كتب الشيعة الى أئمة آل البيت ـ قوم ما كرون منافقون . ناوءوا الاسلام بهذا السلاح المرذول ، ومن أعظم الهجاء لآل البيت عزو هذه الأقاويل اليهم ، ومن الواضح أن النواصب لم ينالوا منهم ما نال هؤلاء الشيعة

(الامام عند الشيعة)

ثم قال فى الكافى : « وقال الرضا : إن الامامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء . إن الامامة خلافة الله وخلافة الرسول ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين . إن الامامة زمام الدين ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا وعز المؤمنين . الامامة أس الاسلام النامى وفرعه السامى ، وبالامامة تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج وتوفير الفيء والصدقات وامضاء الحدود والأحكام ومنع الثغور والأطراف . الامام يحل حلال الله ويحرم حرام الله ، ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله . الامام الماء العذب على الظمأ ، والدال على الهدى ، والمنجى من الردى . الامام المطهر من الذنوب والمبرأ من العيوب ، المخصوص بالعلم الموسوم بالحلم . الامام واحد دهره ، لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم ، ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير . مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب بل اختصاص من المفضل الوهاب ، فمن ذا الذى يبلغ معرفة الامام أو يمكنه اختياره ؟ هيهات هيهات ، ضلت العقول وتاهت الحلوم وحارت الألباب ، وكلت الشعراء وعجزت الأدباء وعييت البلغاء عن وصف شأن من شأنه أو فضيلة من فضائله وأقرت بالعجز والتقصير . وكيف يوصف بكله أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من أمره أو يوجد من يقوم مقامه ويغنى غناه ، وهو بحيث النجم من يد المتناولين ووصف الواصفين ؟ لقد راموا صعبا وقالوا إفكا إذ تركوا أهل بيته عن

بصيرة . ورغبوا عن اختيار الله ورسوله الى اختيارهم والقرآن ينادى « وربك يخلق مايشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة من أمرهم » فكيف لهم باختيار الامام ؟ عالم لا يجهل ، وداع لا ينكل ، معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة ، والعلم والعبادة . مخصوص بدعوة الرسول . إن العبد اذا اختاره الله لأمور عباده شرح صدره وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم الهاماً ، فلم يعى بجواب ، ولا يحيد فيه عن الصواب . فهو معصوم ، قد أمن من الخطأ والزلل والعثار . يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه ص ٩٦ و ص ٩٧ . والله لم يعلم نبيه علماً إلا أمره أن يعلمه عليا ، وانه كان شريكه فى العلم ص ١٢٧ ثم انتهى هذا العلم الى الأئمة ولو كان لألسنة الناس أوكية لحدثتهم الأئمة بما لهم وما عليهم ص ١٢٨ ، والله أمر بطاعتهم ونهى عن معصيتهم ، وهم بمنزلة رسول الله إلا أنهم ليسوا بأنبياء ولا يحل لهم من النساء مايحل للانبياء ، فأما ماخلا ذلك فهم بمنزلة رسول الله ص ١٣١ ، وكان مع رسول الله روح أعظم من جبرائيل وميكائيل ، وهذا الروح مع الأئمة ص ١٣٢ ، وكل امام يؤدى الى الامام الذى بعده الكتب والعلم والسلاح ص ١٣٣ ، والامام لا يلهو ولا يلعب ولا يستطيع أحد أن يطعن عليه فى فم ولا بطن ولا فرج ص ١٣٨ ، وكل امام يعهد الى الذى يليه ويترك له كتاباً ملفوفا ووصية ظاهرة ، وفى هذا الكتاب مايحتاج اليه ولد آدم منذ خلق الله آدم الى أن تفنى الدنيا . وللامام غيبة وللامام الثانى عشر غيبة قال الله « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » ص ١٤٩ وقال . « قال أبو عبد الله من ادعى الامامة وليس من أهلها فهو كافر » ص ١٨٧ ، وقال أبو جعفر كل من دان الله بعبادة يجهد نفسه فيها وليس له امام من الله فسعيه غير مقبول وهو ضال متحير والله شانيء لأعماله ص ١٨٩ ، والامام اذا مات لا يغسله إلا امام ، وقال أبو عبد الله اذا أراد الله أن يخلق الامام من الامام بعث ملكا فأخذ شربة من

تحت العرش ودفعها الى الامام فشربها فيمكث فى الرحم أربعين يوماً لا يسمع الكلام . فاذا وضعته أمه بعث الله اليه ذلك الملك فكتب على عضده الأيمن « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » فاذا قام بهذا الأمر رفع الله له فى كل بلدة مناراً ينظر به الى أعمال العباد ص ١٩٦ ، والملائكة تدخل بيوت الأئمة وتطأ بسطهم وتأتيهم بالأخبار ص ١٩٩ ، والأئمة هم أركان الارض أن تميد بأهلها وحجته على من فوق الأرض ومن تحت الثرى » ص ٩٣ ، وفى الوافى « قال الصادق كنا عند الله وليس عنده أحد سوانا لا ملك ولا غيره . ثم بدا له فى خلق السموات والأرض فخلق ونحن معه ، وكان الصادق يقول إن الله خلق أرواحنا من نور عظمته ثم خلق أبداننا من طينة مكنونة تحت العرش . فنحن خلق نورانيون لم يجعل الله لأحد فى مثل الذي خلقنا منه نصيبا ، وخلق أرواح شيعتنا من طينتنا وخلق أبدان الشيعة من طينة مخزونة أسفل من تلك الطينة ولم يجعل لأحد فى مثل الذى خلق الشيعة منه نصيبا إلا للانبياء ، ولذلك صرنا نحن والشيعة «الناس» وصار سائر الناس همجاً للنار والى النار » الباب السابع والثامن بعد المائة. وفى الوافى أيضا « علىّ مثل النبى كلفه الله بمثل ما كلف به نبيه فى التبليغ والهداية بيده مفتاح الجنة والنار ، لا يدخلهما داخل إلا على حد قسمته . وهو المؤدى عن كل من تقدم لا يتقدمه أحد إلا أحمد هو والنبى على سبيل واحد ، وقد أعطى الست . المنايا والبلايا والوصايا وفصل الخطاب ، وهو صاحب الكرات والدولة والعصا والميسم ، وهو الدابة التى تكلم الناس »

وفى كتاب الوشيعة ص ١٠١ « روت كتب الشيعة مثل الكافى والوافى والتهذيب أن الله خلق محمداً وعلياً وفاطمة أول ماخلق فمكثوا ألف دهر . ثم خلق العالم وأشهد هؤلاء الثلاثة خلق العالم ثم فرض طاعة هؤلاء على العالم وفوض أمور العالم اليهم . فهم يفعلون ما شاءوا ويحلون ما شاءوا ويحرمون ماشاءوا »

هذه بعض صفات الامام وبعض مايخلعونه عليه من التقديس . فالامام عندهم يفعل ويقول مايشاء ، وكل مايقول وما يفعل فهو كما يقول وكما يفعل . فهو معصوم من الخطأ والزلل وسائر أعراض البشرية ، وهو عالم لا يجهل شيئاً فطاعته لأجل ذلك فرض على الجميع فمن خالفه أو حاد عنه أو قدم مخلوقاً عليه فهو من الكافرين وهو كالنبى فى رفعة الشأن ، وهو شريكه فى العلم ، والشركة هنا يجب أن تفهم فهماً يخالف أن يكون المراد أنه يتلقى عنه مايوحى اليه لأن الناس جميعا مثل على فى هذا ، وإنما الشركة هنا هى الشركة فى الرسالة . فعلىّ شريك محمد عليه السلام وقد قدمنا أن الأئمة يوحى اليهم وأن الملائكة تأتيهم بالاخبار كالانبياء . ثم الامام مخصوص بالفضل كله محض تفضل من الله . فلا فضل إلا والامام مخصوص به فهو كامل من جميع الوجوه ، والفضل هنا كل معنى جميل . فالامام مخصوص بالعلم وبالقدرة وبفهم شرائع الله والاحاطة بجميع أسراره وشئونه ، وفى الاحاطة بجميع العلوم واللغات ، وبالاجمال مخصوص بكل وصف حسن من أوصاف الانبياء وصفات الله . ثم هو يحل حلال الله ويحرم حرامه . فمن خالفه فقد خالف الله لأنه ينطق بمراد الله نصلته به ، وهذا المعنى مستعار من عقيدة النصارى ، ومن قولهم ماحل الاحبار والرهبان فى الارض فهو محلول فى السماء وما ربطوه فى الارض فهو مربوط فى السماء . ثم الامام هو المنجى من الردى فهو الذى يدفع عن العباد الآفات وأفانين الاقدار الفادحة ، وهو المطهر من العيوب والذنوب ، وهو المخصوص بالعلم كما هو المخصوص بالفضل ، وكلمة مخصوص فيها معنى الانفراد فالأئمة هم العلماء وحدهم لا يشاركهم فى العلم مشارك والناس لا يعلمون إلا ما علمهم اياه الائمة والامام لا يدانيه أحد إذ ليس له نظير لأنه هو الكامل الجامع لأشتات الفضائل . ثم لا تستطاع معرفته ولا اختياره لعظم شأنه ، وفى هذا المعنى قال أحد الشيعة فى الامام على :

ألا انما الاسلام لولا حسامه　　كعفطة عنز أو قلامة ظافر

يجل عن الاعراض والأين والمتى　　ويكبر عن تشبيه بالعناصر

وقد عجز الناس عن أن يصفوا شأناً من شؤونه أو يقدروا فضيلة من فضائله فلا يمكن أن يعرف شيء من أموره وأسراره أو يوجد من يقوم مقامه ، فليس كمثله شيء . ثم هو مقدس ، بل هو معدن القداسة ، فهو مقدس فى نفسه مقدس غيره ، وقد ألهم الحكمة والعلم الهاما فأحاط بافراد الحكم والعلوم فلا يعجزه جواب ولا يحيد عن صواب ، بل كل أمره علم وحكمة وصواب . ثم ان علوم الامام لا تستطاع الاحاطة بها ، ولو كان للناس استعداد لحدثهم بمالهم وما عليهم دنيا وأخرى ، وقد أمر الله بطاعته ونهى عن معصيته تخصيصاً وتنصيصا . فهو كالرسول فى كل شيء إلا فى النساء ، وأما فيما خلا ذلك فهو كهو ، ولهذا فان له جميع النواميس النبوية ، وقد كان مع رسول الله روح أعظم من جبرائيل وميكائيل وهذا الروح مع الامام ، ولا نعلم ماذا يريدون بالروح ، وأية روح هي أعظم من جبريل وميكائيل ؟ ولعلهم يريدون الحلول المشهور عنهم كما سوف يجيء . ثم هنالك سلاح وعلم وكتب تتوارثها الائمة ، وكل امام يعهد الى الامام الذى بعده كتاباً فيه جميع مايحتاج اليه البشر ، ولهذا فان الائمة أركان الارض يمسكونها عن الميدان والزلزال ولولاهم لا نكفأت بأهلها ، ومن ادعى أنه امام وليس كذلك فهو كافر كما أن من ادعى انه إله أو رسول فهو كافر ، والامام مخالف للمخلوقات فى خلقته وفى موته وفى كل شيء . فهو مخلوق من شربة تحت العرش ، واذا ماولد جاءه ملك وكتب على يده آية ثم رفع له منار يرى به أعمال العباد أين كانوا . والائمة متقدمو الوجود على الموجودات ، فقد كانوا مع الله قبل أن يكون معه أحد ثم بدا له أن يخلق فخلق وهم معه . وأرواح الائمة وأبدانهم مغايرة لارواح الناس وأبدانهم . فأرواحهم من نور عظمة الله فهى المهية ، وأبدانهم مخلوقة من

طينة تحت العرش ، وأما سائر الناس فهمج للنار والى النار ، والامام مكلف بمثل ما كلف به النبى من البلاغ والهداية لانه مثله يوحى اليه ، وبيده الخير والشر والاسعاد والاشقاء . فلا يدخل الجنة داخل ولا يدخل النار داخل إلا بقسمته وأمره ، وقد أعطى التصرف فى ست فى المنايا والبلايا يميت ويحيي ويبتلى ويعافى من يشاء ، وقد وكل اليه أمر الوصايا وفصل الخطاب وفوض اليه أمور العالم فهو يحل ويحرم ويفعل كل مايشاء

هـذه مجموعة من الاوصاف اذا ما نسقت لموصوف واحد ونسق معها ما قدمنا خرج من بينها رب عظيم جامع لاوصاف الربوبية ، فاذا ما أضيف الى هذا ما يمنحونه الائمة من التضراعات ومعانى العبودية خرج من ذلك إله عظيم معبود ، ولا فرق بين الامام عنـد الشيعة وبين اللاهوت والناسوت وروح القدس أو المسيح عند النصارى ، ولعل هـذه مستعارة من تلك ، والشيعة تقول بحلول اللاهوت فى ناسوت الأئمة ، وقد جهر قدامى الشيعة بهـذا ، وهذه الأوصاف التى يخلعونها على الامام لا فرق بين قولهم بها وبين أن يقولوا ان الامام شريك لله أو مساو له أو هو هو ، لأن هذه الأوصاف الامامية هى أخص أوصاف الله . ولهذا كثيراً ما يجهر المتشيعون بتأليه أئمتهم وبتأليه أنفسهم كما صنع الفاطميون ودعاتهم ، ومن هذا الطريق دخل الى الاسلام القائلون بوحدة الوجود وبحلول الخالق فى خلقه ، وكان هذا أصل الأصول لما أصاب الاسلام والمسلمين من الفساد واعتلال العقائد

(المسلمون فى رأى الشيعة)

للشيعة فى سائر الأمة ولا سيما الصدر الأول رأى شنيع وقد تعبدوا بتأليف اللعنات الملتهبة وارسالها على المسلمين ، وقد خصوا بأشد ذلك أكابر المسلمين كالخلفاء وقد ملئوا كتبهم بهذه اللعنات وأبدعوا أي ابداع فى إجادتها وإسباغ الأثواب الشعرية الخيالية عليها ، وهم لا يشكون فى كفر كبار الصحابة كالخليفتين وكفر من

تولوهم فى جميع العصور . والنقل فى كتبهم لا يحصره كتاب . وفى كتابنا هـذا أفانين من هذا النوع . وقد تقدم قولهم ان الشيعة والأئمة هم الناس وأن المسلمين وغيرهم همج للنار والى النار ، وأن الله لا يتقبل من مسلم حسنة مهما أحسن وبالغ فى الاحسان إن لم يكن شيعياً . وتقدم أن من أنكر أحداً من أئمتهم فهو كافرضال والله شانيء لأعماله ، وأن من تولى اماماً جائراً كأبى بكر وعمر فهو كافر للنار والى النار . وقد روى الوافى « ان أول من بايع أبا بكر هو إبليس ، وأن النبى قال أول من يبايع أبا بكر فى منبري هذا هو ابليس » وفى الوافى أيضاً عن الصادق « ان قول الله وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » نزل فى أبى بكر وعمر حين قالا يوم وصاة النبي بالامر لعلى انظروا الى عينيه (أي عيني النبى) تدوران كأنهما عينا مجنون » وفى الكافى : « أن النبى قال لابى بكر لما رأى جزعه فى الغار أسكن ثم أراه النبى معجزات فأضمر أبو بكر فى نفسه حينذاك أن النبى ساحر فسمى صديقاً » وفى الكافى والوافى « ان قول الله ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ـ الآية نزل في عائشة وحفصة وإنهما كافرتان منافقتان خالدتان فى النار » وروى الوافى وغيره عن الصادق أنه قال « ما من مولود يولد الا وابليس من الأبالسة بحضرته فان علم الله أن المولود من شيعتنا حجبه من الشيطان وإن لم يكن من شيعتنا أثبت الشيطان اصبعه فى دبر الغلام فكان مأبوناً وفى فرج الجارية فكانت فاجرة » وفى التهذيب : « كان الصادق يقول خذ مال الناصبى حيث ما وجدته وادفع الينا الخمس » وفى الوافى قال : « كل راية ترفع قبل قيام القائم فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله » وقال فى الوافى أيضاً « الجهاد مع غير الامام حرام مثل حرمة الميتة والخنزير ، ولا شهيد الا الشيعة ، والشيعى شهيد ولو مات على فراشه حتف أنفه ، والذين يقاتلون فى سبيل الله من غير الشيعة فالويل يتعجلون »

وفي الوافي « قال رجل للباقر قد حججت وأنا مخالف فقال أعد حجك » وفي الوافي : « ما اختص بروايته الامة فلا تلتفت اليه » وفي الكافي « أن قول الله (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآية قد نزل في الصحابة بعد موت النبي » وفي الكافي « ان قول الله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) الآية نزل في أولياء أبي بكر وعمر » وفي الكافي أيضا أن قوله « ان الذين آمنوا ثم كفروا » الآية نزل في أبي بكر وعمر وعثمان آمنوا بالنبي ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية علي ، ثم آمنوا بالبيعة لعلي ، ثم كفروا بعد موت النبي ، ثم ازدادوا كفراً بأخذ البيعة من كل الأمة »

(تفسير الشيعة للقرآن)

لم يعتد على كتاب الله بتفسيره التفاسير المنكرة المضحكة مثل الشيعة . وقد وضعنا أمام القارىء نماذج من هذه التفاسير . فيفسرون الجبت والطاغوت بأبي بكر وعمر ، ويفسرون الأنداد في قوله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) بالخليفتين أيضا . ويقولون في قول الله (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) الآية أنهم هم الصحابة اذ تولوا الخلفاء . ويقولون إن امرأة لوط وامرأة نوح الكافرتين المذكورتين في القرآن هما عائشة وحفصة ، ويقولون في قول الله (كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر) الآية أنه نزل في أبي بكر وعمر . ويقولون في أئمة الكفر في قوله (قاتلوا أئمة الكفر) أنهم طلحة والزبير ، وأن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية ، وأن البقرة التي أمر بذبحها هي عائشة ، ويقولون في « مرج البحرين » انهما علي وفاطمة وفي « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » انهما الحسن والحسين وقد حمل طوائف منهم الفرائض والمحرمات على أنها رجال ، فاستحلوا المحرمات وتركوا الواجبات ، ومن الظريف أن شيخا منهم واسمه بيان كان يزعم أن الله يعنيه بقوله « هذا بيان للناس » وكان آخر منهم يلقب بالكسف

فزعم هو وزعم له أنصاره أنه المعنى بقول الله « وإن يروا كسفاً من السماء » الآية ، وقد جاء المختار بن أبي عبيد من ذلك بأعاجيب الأعاجيب

كربلا أفضل من مكة عند الشيعة :

لما ان كان مذهب الشيعة قائما على عداء الصحابة وعلى الغلو فى آل البيت كره المتشيعون كل أرض يوالى أهلها الصحابة وقدسوا كل أرض يعاديهم أهلها ، ولهذا فانهم يكرهون الحجاز أشد الكراهة لأن أهله لم يزالوا من أولياء أبى بكر وعمر ولأن فى الحجاز جسدي هذين الخليفتين ، وقد قدمنا أن بعض الناس سأل أحد أئمة الشيعة عن النزول فى مكة والمدينة فنهاه وسبّ أهلها أمر السب ، ونصح له بالنزول فى العراق . وهجوم القرامطة على مكة وتخريبها وانتهاب الحجر الأسود وقتل الحجيج مرجعه هذا ، لأن القرامطة فرقة من فرق الشيعة . ولأجل هذا فانه يندر أن يحج الشيعة وهم يعتقدون أن بلداً يحله مشهد من مشاهد آل البيت أفضل من مكة ، وزيارة واحدة لمشهد من المشاهد أفضل من الحج . ومن أفظع ذلك أن ثلاثة من رجال الشيعة وهم محسن الأمين العاملى وأحمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان وعبد الحسين شرف الدين ألفوا رسالة سموها « الشيعة والمنار » وقد جاء فى هذه الرسالة ص ٢٥ أن كربلاء أفضل من مكة وأن زيارة آل البيت فيها أفضل من حج بيت الله وذكروا فى وجه ذلك أن كربلاء تضم رفات آل البيت . ومن الجراءة أنهم ذكروا لهذا عنوانا فى رأس الصفحة ونصه : « وجه تفضيل كربلاء على مكة عند الشيعة »

فكربلاء أفضل من مكة ، وزيارة المشاهد أفضل من الحج ، والأئمة أفضل من الأنبياء ، وظلمة الشيعة أفضل من أبى بكر وعمر ، ومن أتقى أهل السنة ، وسيئات الشيعة أبر وأفضل من حسنات أهل السنة ، وأهل السنة لاتقبل لهم حسنة

والشيعة لا يؤاخذون بسيئة ، والأئمة يعلمون كل شيء ، ويقدرون على كل شيء ، ويصنعون كل ما يصنعه الله ، ويُسألون كل ما يُسأله الله . هذا كله من عقل الشيعة ودينها وإسلامها منقولا من أصح كتبهم . وإننا ندع للقارىء وحده هذا السؤال : هل يمكن أن يكون أصحاب هذه الآراء من أصدقاء الاسـلام ؟؟ أما أنا فلا أشك أن مذهبا هذه الروايات بعض نصوصه لا بد أن يكون قائما على عداء الاسلام والكيد للمسلمين ، ولا أستطيع أن أفهم أن مرجع هـذا هو الخطأ والزلل ، والله العليم بذات الصـدور غير أن لفحات النفاق لا تشتبه بنفحات الايمـان ، وسمائم الكذب المحرقة لا تلتبس بنسائم الصدق المنعشة . ومن العجيب أن يحاول هؤلاء النيل من أهل السنة ومن الحكومة السعودية غيرة على الاسلام والمسلمين فيما يزعمون ! ان الحكومة السعودية اليوم هي الأمل المنبلج للمسلمين والعرب بين دياجي اليأس القاتمة المحيطة بأرجاء الاسلام وأرجاء كل شيء عربي . فمن قدح فيها كان قدحه مسدداً الى فؤاد الاسلام النابض وقلب العروبة الخاشي الراجي . ها نحن وا أسفاه نرى حكومات البلاد العربية والاسلامية تتنكر للاسلام وتقلب لكل شيء عربي واسلامي ظهر المجن ، اجابة لدسائس الغرب وخدعه المجرمة ، فحق على كل مسلم الغيرة على هذه الحكومة ما استطاع ، وحق على كل مسلم وعربي النصح لها ولربان سفينتها

ان الحكومات الاسلامية وا أسفاه تسعى بخطوات جريئة الى الهوة السحيقة ، فواجب علينا المحافظة على معانينا وعقائدنا وأخلاقنا من هذا المرض العنيف الذي ألح على أكثر الناس حتى وقعوا صرعى على مذبح المدنية الطائشة . والويل للمسلمين والعرب وحدهم إن لم يحافظوا على أنفسهم وإن لم يتماسكوا إزاء هذه العواصف . والويل لهم ان تركوا الفرص تمر بهم وهم عنها غافلون نيام ؟

عبد الله على القصيمى

الشعاع الهابط

فى سنة (؟) ميلادية فصلت الارض من السماء فصلا تاما وغلّقت جميع أبواب السماء دون الارض وأهلها وفزعت الاملاك الى أقطار السماء وانقطع ذلك المدد الروحى الذى كانت تمان به الارض وأهلها على اجتياز ظلمات المادة وفسق المادة وكثافات المادة سيراً الى عالم الارواح ومستقر الروحانيين ، فخبط الناس فى ظلمات ثلاث : ظلمة العقائد ، وظلمة القانون ، وظلمة الانفس . أما العقائد فلا يجد المتأمل فيها بصيص نور يهتدى به الى هداية أو يخلص به من ضلالة . وأما القوانين فلا يجد المتأمل فيها مايبين على عدالة أو مايخرج من ظلامة . وأما الانفس فلا يجد المتأمل فيها مكانا لعقيدة صحيحة سليمة ولا لقانون عادل إنسانى رحيم

فبظلمة العقائد استبد رجال الدين بقلوب الناس وعواطفهم ، وبظلمة القانون استبد رجال السلطة الزمنية بأموال الناس وظهورهم ، وبظلمة الانفس واتى رجالَ الدين ورجال السلطة الزمنية الاستبدادُ بأموال الناس وقلوبهم وعواطفهم وظهورهم

فما زالت الانسانية تتخبط فى هذه الظلمات الثلاث ، وتنحدر الى الهاوية السحيقة ، وتتخلى من المعانى الانسانية شيئا فشيئا ، ومن تراث رسالات السماء وبقايا تعاليم الانبياء ، حتى تمخضت عن أمم كان من قسوتها وفظاعتها أن تقتل بنيها شر القتلات خيفة أن يشاركوهم فى مآكلهم ومكسبهم ، ومن عقلها ودينها أن تصنع بأيديها معبوديها ، ومن مجدها الذى يتغنى به الرائح والغادى والطفل والشيخ وتنسج له برود الثناء الحذق فى انتزاع الارواح والمهارة فى إيتام الاطفال وإرمال النساء واثكال الامهات والآباء ، ومن كرمها وخلقها أن تغتصب أموال العاجزين عن الذياد عنها لتقدمها للاضياف مكرمة ونزلا . حتى لقد صدق فى تلك الامم قول الحق « أولئك كالانعام بل هم أضل »

وفى ذات ليلة من عام ٦١٠ ميلادية بينا كان الكون ساكنا صامتا والاشياء راكدة مصغية متوجسة كأنها تتوقع حدوث أمر عظيم ، انفتحت فرجة من السماء تعلقت بها الأبصار انبعث منها شعاع قوى وهاج باهر فهبط على غار يقيم هنالك فى جانب من جوانب قرية تقع هنالك فى جانب خامل مهجور من جوانب أركان الارض الخاملة المهجورة يقيم فى ذلك الغار رجل لا كالرجال يحمل نفسا لا كالأنفس وقلبا لا كالقلوب ، هرب بنفسه وقلبه وفطرته من أولئك الناس وعقائدهم وأعمالهم الى السكون والدعة والى الطهارة التى لا يظفر بها بين الناس فى حدود القرية والمدينة مخليا بين روحه وما فطرت عليه من الطهر والنبل والعظمة والتأملات السامية الحادة النافذة ، واصلا بين نفسه وربه بصلة هذا الكون وما أودع فيه من آياته وبيناته

فكان هذا الشعاع الهابط هو ما عرف بعد بالاسلام ، وكان هذا الغار هو ما عرف بعد بغار حراء ، وكان هـذا الرجل الذى لا كالرجال هو منقذ الانسانية الأكبر من كبوتها محمد بن عبد الله ﷺ ، وكانت هذه القرية هى مكة المكرمة الواقعة فى قلب بلاد العرب الجدباء العتيدة .

تسلل ذلك النور الموصول بالسماء العليا ، من غار حراء الى مكة متوجسا مترجحا فى صدر محمد ﷺ مشعا من جوانب صدره . فغمر بيوت مكة وفجاجها ، وسال فى طرقاتها ونواديها ، وتناثر على وجوه الرائحين فيها والغادين .

فانبهر الناس ودهشوا لهذا النور الوهاج الذى لم يعهدوه ولم يبصروه ولم يسمعوا به . فوقفوا منه موقفين متباينين متخاصمين : وقف الجمهور الأكثر منه موقف الوجل الخائف الكاره المنكر فأوصدوا دونه أبوابهم ونوافذهم ، ثم قلوبهم ونفوسهم ، وقاموا منه مقام العداء والنضال الحاد العنيف .

ووقف منه القليل النزر موقف الراضى المسرور المعجب المغتبط ، ففتحوا له

أبوابهم وتوافذهم وفتحوا له قبل هـذا قلوبهم ونفوسهم وطلبوه فى مكانه وسعوا اليه خفافا وثقالا .

فكان من هذا القليـل النزر بيوت عرفت بالسبق الى الهداية والاسـلام ونصرته ، وكان من هذه البيوت أبيات أبى بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، هؤلاء الذين عرفوا فيما بعد بالخلفاء الأربعـة الراشدين ، وكان من هذا القليل النزر غير هؤلاء .

فقبست هذه الصدور من نور محمـد ﷺ ، كلّ صدر بقدره وما أهّل له ، فتعددت مصادر هـذا النور الالهى وزاد إشعاعه واتقاده وزاد فى مكة وضوحا وإشراقا وتوهجا ، وهكذا ظل يتزايد إشعاعا وإشراقا فى تلك القرية المحـدودة الضيقة حتى ضاقت به فسال منها وتناثر الى الجارات ، ثم انتقـل مصدره الأول الأكبر الى قرية عرفت فيما بعـد بالمدينة المنورة ، فغشاها هـذا النور الوهاج الهابط وتدفق الى بيوتها ، فقبست منه الصدور ، فازداد إشعاعه وإشراقه ، حتى ضاقت به تلك المدينة ، ولم تعد واسعـة له ، فتدفق منها الى هاهنا وهاهنا ، الى الشرق والغرب ثم الى الشمال والجنوب ، هازما كل ما أمامه من الظلمات الثلاث ظلمة القانون ، وظلمة العقائد ، وظلمة الأنفس ، وما استطاعت ظلمة من هـذه الظلمات الثلاث أن تثاقفه أو تواقفه لا طويلا ولا قصيراً

تكاثف هذا النور واتسع نطاقه فى السماء وفى الأرض ، وتفاعل تفاعلا إلهيا وتجسد تجسداً سمـاويا ، حتى صار دينا قيما باهراً ، ذا تعاليم وقوانين ، وشرائع محكمة سامية يعشقها القلب إن لم يحبها العقل ، ويحبها العقل إن لم يعشقها القلب ، ويدينها عشقا من لم يدنها برهانا ، ويدينها برهانا من لم يدنها عشقا .

ثم صار لهذا الدين أنصار وقواد ، يحملونه فى إحدى اليـدين وفى الأخرى الحديد ذو البأس الشديد ، ويعرضونه على الناس فى حالة مفرغة من الأسياف الظماء

فى قلب نطاق من الأبطال الأشداء ، يذودون عنه الايذاء والاعتداء ، ويخلون له الطريق الى القلوب والعقول ، وما أجمل الحق تمرضه القوة ، وما أحل القوة تنصر الحق ، وما أوضح الحق متدرعا !!!

فأصبح ذا قوتين عظيمتين : قوة تعاليمه ، وقوة رجاله وأنصاره ، فتعاليمه قوية بالغة نهاية القوة لأنها مفهومة ميسورة ، لا تعقيد فيها ولا اضلال ، فالعبد يتصل بربه مباشرة فيدعوه ويعبده ويرفع اليه حاجاته مباشرة لا وسيط ولا شريك ، ويخصه بكل معانى عبادته ودينه وحده ، والمعرض المبعد عن ربه إذا ما أراد التوبة والرجوع اليه فما عليه إلا أن يخلص له قلبه وعمله ، ويبسط اليه تعالى يد المتاب فيقبله ويغفر له ذنوبه وإن كانت عدد ذنوب الخلق جميعا ، ولا يحتاج الى أن يذهب الى قسيس أو راهب أو وثن أو حجر أو قبر رجل صالح ، فيذل له ويشكو اليه ليرفع أمره وتوبته الى الله ، كى يغفر له ، وكى يعفو عنه ، فتعاليمه ليست سوى إيقاظ الفطرة الانسانية وتخليصها من الأخلاط والأغلاط ، فالله كما خلق الخلق وحده بلا شريك ولا معين ، فكذلك ليعبدوه وحده لا شريك له ولا نديد

وأين من هذه التعاليم الأقانيم الثلاثة : الآب ، والابن ، والروح القدس شىء واحد ، وحلول اللاهوت فى الناسوت ، والاعتراف ، وبيع الجنة ، والصلب والفداء . وما فى هذه من التخليط والتضليل ! ؟ وأين من هذا إلها المجوس ، وأوثان العرب ودعاوى اليهود وتشبيههم وأقوالهم العظيمة فى الله وفى أنبيائه والاغلال والآصار التى كانت عليهم

وأما رجاله وقواده فكانوا أقوياء أيضاً غاية القوة لأنه علمهم ألا يخاف العبد إلا ربه وذنبه ، وألا يذل إلا لمن ذل له كل شىء وخلق كل شىء ، ولمن بيديه أسباب الخوف وأسباب الأمن وحده ، وألا يتأخر عن الموت من طلب الحياة وأحبها . . فان من رغب فى الموت ذلت له ناصية الحياة ، ومن رغب فى الحياة

ذلت ناصيته هو الموت .. فكانوا يقدمون على الموت إقدام من ليست حياته ملكا له .
فأخذوا بنواصي الأكاسرة والقياصرة وذروا التراب على جباه العظماء الطاغين الذين طالما جرعوا الانسان جرع الذل والهوان وأذاقوه غصص الخسف والاستبداد ..

فتهاوت العروش المتيدة الظالمة تحت أقدامهم وحوافر خيولهم ، وتساقطت تحت مناسم إبلهم شرفات إيوانات طالما تساقطت تحتها رؤوس الملوك والعظماء والقواد . فطاروا بأطراف سيوفهم وعصيهم وقسيهم ممالك وملوكا كانت تستعدى على الدهر ويشتكى اليها الزمان . ووضعوا كل أنف عات أشم فى الرغام ، وأنزلوا كل بطريق متأله من سماء الأحلام والالوهية الى أرض الحقيقة وبساط العبودية ، فكانت فترة من الزمن تجمع فيها الزمن ، ورواية فصولها ثلاثة : الايمان ، والشجاعة ، والعدالة . خاتمتها تلك السعادة التى تمتع بها الانسان أحيانا متطاولة . طأطأ الخصوم رؤوسهم حينئذ وعلموا أنه لا قبل لهم بمواقفة هذا الدين ولا بمثاقفة أنصاره ورجاله من طريق الحرب والنضال المادى العسكرى ، وعلموا أن منازليه ولا محالة مصيرهم الى الفناء ، وعلموا أيضا أنه لا قبل لهم بمنازلته علميا برهانيا وأنه لا يمكن من هذه السبيل أن ينتصر عليه دين من الأديان ، ولا أن يواقفه حينا من الزمان

فماذا إذن يصنعون لاضعاف هذا الدين الهائل العظيم الذى فعل بهم وبقومهم وملكهم الطاغى الباغى ما فعل من الغلب والاحباط ؟؟ وهم لا بد فاعلون شيئا بل أشياء ، فاتقون حيلة بل حيلا . أيقدحون فيه ويحشدون عليه الشبهات والشكوك ليزعزعوا عقيدة أهله وإيمانهم به ؟ كلا ان هذا أمر غير ممكن لأن هذا الدين ليس دين شكوك وشبهات لأنه دين الفطرة الخالصة من الأخلاط والاغلاط . ثم ان أهله لن يدعوه للشكوك والمشككين يعبثون به . فهذا ما لا يستطاع . فماذا إذن يصنعون ؟ أينتحرون استشفاء مما فى صدورهم من غيظ وحسد ؟ كلا إن موتهم هم لا يشفى صدورهم بل موت هذا الدين . أيهربون الى حيث لا يرون هذا الدين

ولا يسمعون به ؟ وأين يهربون ؟ أليس قد سار مسير الليل والنهار ، وبلغ مبلغ الليل والنهار ؟ أيدخلون فيه كما دخل الناس باخلاص وصدق ؟ كلا ان الاخلاص يملك ولا يملك ، وإن الاخلاص لشيء مع احتقاب الحسد له أمران لا يجتمعان أبداً . هذا إذن كله ليس برأى ولا عقل ، فماذا إذن يفعلون ؟؟

إن ها هنا حيلة واحدة لانفاذ هذا المشروع الهدام لا حيلة غيرها ولا حيلة أفضل منها . هذه الحيلة هي أن يدخلوا فى هذا الأمر لا إيماناً وتصديقاً ، ولكن نفاقا ومكيدة ليستطيعوا افساده والعبث به من كثب فيبتدعون فيه ويدخلون فيه الأباطيل والضلالات باسم الدين والتقوى وبحجة الاستزادة من العبادة والتقرب الى الله فيخدع بذلك المؤمنون ويتقبلونه بسلامة نية وطهر قصد ، وتخفى عليهم الأغراض الباعثة على هذا ويخفى عليهم ما يضمره هؤلاء الخادعون المنافقون ، فيحسب على مرّ الدهور ما ليس من الدين دينا ، بل ويحسب ما ينابذ أصول الدين وأسسه من أصوله وأسسه . والحق اذا لابسه الباطل أصبح نسيب الباطل وعز تخليص أحدهما من الآخر ، والحق نزيه كريم اذا نزل به الباطل ارتحل عنه

وهذه حيلة من حيل أهل النفاق والدهاء المرّ ، مازال يلجأ اليها المكرة الدهاة حتى عصرنا هذا

وقد افتن الاوربيون فى هذه الحيلة والمكيدة أيما افتنان فلا يرى الواحد منهم بأسا فى أن يتظاهر بالاسلام عشرات الأعوام ويبدى ضروبا من الزهد وملاء الورع والتقشف ليدل المسلمين على صحة اسلامه وايمانه باطنا وظاهراً . وقد لبس ثوب الاسلام من وراء بشرته رجل هولندى وجاور فى مكة المكرمة خمسة وعشرين عاما مظهراً الاسلام والايمان والزهد والورع كل هذه الأعوام صابرا مصابرا حتى ان القمل كان يتناثر من أثوابه ومن بدنه فى طرق مكة المكرمة وفى المسجد الحرام حتى استطاع أن يخدع المسلمين ، وأن يقنعهم بأنه مسلم الباطن والظاهر وأنه من

كبار الزاهدين وحتى استطاع أن يفقه الاسلام وأن يلم بفقه المذاهب الأربعة الفقهية واستطاع أن يمتحن نفوس المسلمين وأن يسبر مبلغ تدينهم واسلامهم ، وأن يلمس أماكن الضعف والقوة فيهم إن كانت القوة فيهم أماكن وحتى تم له أن يعرف من أحوال المسلمين فى أنحاء الأرض وما يشتملون عليه من آلام وآمال ما لم يعرفه المسلمون من أنفسهم وما لن يعرفوه فيما أظن

وهـذا الرجل الهولندى كان يشتغل الى وقت قريب أعظم منصب حكومى فى الشئون الاسلامية فى حكومة هولندة الجاوية

وأمثال هذا الرجل كثيرون اليوم وقبل اليوم ومنهم من يدعى حب العرب والحرص على حقوقهم وانصافهم كى يقرّبوه ويطمئنوا بجانبه فيطلعوه على أسرارهم وعلى ذات صدورهم ، ويدلوه على ثغورهم . ولهم فى هذا حيل غريبة ...

وهذا من شر أنواع النضال ومن شر ماجبل عليه رجل الغرب من لؤم ونذالة ودهاء كريه مرذول . وقد كان رجل الجاهلية العمياء يتنسم من مثل هذا الدهاء ويأنف منه ويرى به من الصغار مايحمله على الرغبة والعزوف عنه . وحكومات أوروبا العاتية الجبارة البالغة من القوة المادية مالا مطمع وراءه لطامع ، تلجأ الى هذا الدهاء والنفاق ، لايقاع الدويلات الصغيرة الضعيفة فى فخاخ كيدهم ومكرهم ، ولسلبهم مابقى فى أيديهم من حرية وحصانة . ولكن هيهات ثم هيهات ، فقد برح الخفاء وعرف الناس هذه المكايد والمصايد ، وصاروا لا يثقون بأمر من أمور أوروبا لما شهدوا وعلموا من خداعها وتضليلها . والمغرور لعمر إلهك من غروه بعد اليوم . .

صمم هؤلاء الاعداء الالداء للاسلام على إنفاذ هذا الامر ، وعلى التظاهر بالاسلام إرادة إفساده واحباطه وإفساد أهله ، فدخل فيه من هذا الصنف لأجل هذا الغرض رجال من اليهود ورجال من المجوس الفرس ورجال من غير هؤلاء

وغير هؤلاء وكل منهم يحتقب أنواعا من الضلال والخبال وكل منهم مصمم على إنفاذ ماهمّ به وما ادعى الاسلام لأجله ، وكان من برنامجهم أيضا اغتيال الخلفاء الذين تم على أيديهم تحطيم ممالك الظالمين واجتياح ظلمهم وظلماتهم . وبأيدى هؤلاء الأئمة قتل الخليفتان بلا ريب عندنا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وكذلك قتل الخليفة على وأريد قتل معاوية وعمرو بن العاص وغير هؤلاء ، وذلك أن هؤلاء ماعدا عمر قتل منهم من قتل وأريد قتل من أريد بدعوى الغيرة على الدين والخروج على الظلم والظالمين لأنهم زعموا أن هؤلاء الخلفاء والامراء كفروا فحق قتالهم واغتيالهم انتصاراً للدين والحق . هذه هى دعوى القوم . ولكن الفاحص لحوادث النافذ فى أحشائها المستقرىء لما أحاط بها يعلم أن هذه الآراء الغريبة فى الاسلام الشاذة الباطلة انما دخلت على جماعات المسلمين من سبيل هؤلاء الأدعياء الخونة الضلال ومنهم انبعثت فى الجماعات الاسلامية وخيلت رشداً وديناً وقد أشار الى هذا النبى الكريم إذ حذر فى أخبار معلومة كثيرة المنافق المتأول للقرآن الواضع له فى غير موضعه

ويقرّب هذا الينا أننا إذا ما تتبعنا تاريخ كل بدعة ورأى شاذ فى الاسلام وجدنا مصدر ذلك من غير العرب من الأمم الموتورة من الاسلام وأهل الاسلام كاليهود والمجوس الفرس وكغير هؤلاء . أما المبتدعة من العرب فهم تبع لهؤلاء مستقون منهم أصول ما عندهم من البدع والشذوذ مخدوعون بهم . والعربى بطبعه نزاع الى التصديق لأنه مجبول على الصدق . والصادق فى نفسه ميال الى تصديق غيره . ولا شك عندنا فى أن كل الاخلاط التى أصيب بها الدين الاسلامى ترجع الى غير العرب . ومن أشهر الفرق المبتدعة فى الاسلام الرافضة والمعتزلة والخوارج . وقد اجتمع لهذه الفرق الثلاث من أصول الابتداع والشذوذ مالم يجتمع لغيرها من الفرق المنتسبة للاسلام . والواضعون لأصول هذه الفرق الثلاث

المنافية لأصول الاسلام مباشرة يرجعون الى أصول غير عربية. فان الواضع لأصول مذهب التشيع والرفض هم اليهود كما سوف يجيء. والخوارج ليسوا سوى فرقة من الشيعة خالفوا عليا وشيعته فخرجوا عليه وعليهم وأكفروهم وأكفروه. وضلالات المعتزلة منها ما يرجع الى هؤلاء ومنها ما يرجع الى هؤلاء والباقى يرجع الى الفرس وكذلك جميع ما أصيب به الدين الاسلامى من الآراء الفاسدة كالقول بوحدة الوجود والتناسخ وإنكار صفات الله والقول بعصمة الأئمة والغلو فيهم وعبادة القبور والانقطاع الى الاموات وما تبع هذا من زخرفة القبور والبناء عليها ، الى غير هذا من التشبيه والاقوال المنكرة فى الله وفى صفاته وفى رسله من مستبشع الآراء

وكان من أشهر هؤلاء الذين زعموا للناس أنهم أسلموا ليخرجوهم من الاسلام رجل ماكر خبيث يهودى من يهود صنعاء يقال له عبد الله بن سبأ ، ويعرف أصحابه من فرق الشيعة بالسبئية .

نبغ هذا اليهودى فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه ، وأظهر الاسلام والزهد والغيرة على الدين وأهل الدين وبالغ ظاهراً فى حب آل البيت النبوى وموالاتهم والعطف عليهم لأنهم مظلومون ، مهتضمو الحق كما زعم هذا الرجل وكما زعم أصحابه وكما زعمت فرق الشيعة من بعده ، وراح يزعم ويدعو سراً وجهراً الى ما يزعم أن الخليفة بعد رسول الله هو على بن أبى طالب ، ثم أولاده من بعده وراثة ويزعم أن رسول الله قد أوصى بهذا الأمر وصاية جلية ظاهرة عرفها الخاص والعام ، ودل الناس على هذه الوصية دلالة واضحة فى المجامع الحافلة العامة ، وربما زعم أن شيئاً من هذه الوصية كان فى القرآن يتلى ، وزعم أن الصحابة أنفسهم ومنهم الخلفاء الثلاثة الراشدون ما كانوا يجهلون أمر هذه الوصية ولا يجهلون هذا الوصى صاحب هذا الأمر الحقيق به ، ولكنهم لعداوتهم عليا وولده ولحرصهم

على الدنيا و الملك و الرئاسة ، ثم تمكن مرض الحسد فى صدورهم كتموا هذه الوصية ، وأخفوا هذا الأمر ، وحاربوا هذا الوصى ، واغتصبوا حقه وما قضى به له رسول الله وما قضى به القرآن . ثم أخذ يزعم ثانيا ويدعو الى زعمه أن علياً رضى الله عنه كان ملتقى الفضائل ، ملتقى المعجزات كما تسمى الشيعة الكرامات معجزات ، وراح يملى عليه خياله من هذه الفضائل والمعجزات ما لايقره العلم والعقل والدين ، ومالا تسنده الرواية الصحيحة ، وراح يبالغ فى تكثير هذه الفضائل وهذه المعجزات حتى طفق ينزل كثيراً من آيات الكتاب الحكيم فى فضل على ويقسرها على هذا قسرا ، وراح يزعم أن هناك آيات قرآنية نزلت فى فضل على قرأها الناس أزمانا متطاولة قد صادرها الصحابة المنافقون ومحوها من المصاحف كتماناً لفضل هذا الفاضل الوصى والخليفة بنص النبى ، ثم تهور وتطور فى المبالغة والدعاوى حتى تفوه بالسوءة الكبرى وأتى بالجريمة العظمى فزعم أن الله سبحانه تنزل من عليائه تعالى فحل فى على رضى الله عنه إعظاما لقدره كما قال النصارى ان الله حل فى عيسى وزعم أنه لحلول الاله فى شخصه يستحق العبادة والتأليه ، ويستحق مايستحقه الرب فى عليائه تعالى فدعا جهرة الى عبادة على وتأليهه والقيام له على قدم العبودية الخالصة ، وأخلص فى دعوته هذه وصابر عليها حتى أضل بها قوما خلقوا للضلال وللنار فآمنوا بدعواه النكراء وصدقوه فى هذه السوءة الفاضحة وجهروا بها وراحوا الى الامام على رضى الله عنه وقالوا له : أنت الله ، أنت خالقنا ورازقنا ! فارتاع على لهذه المقالة وفزع أشد الفزع وهاله الأمر واهتزت له جوانب قلبه وحلمه فدعا القوم الى التوبة والرجوع الى العقل فأصروا على دعواهم وأبوا المتاب فأمر باضرام نيران عظيمة فقذفهم فيها أحياء وقالوا وهم يحترقون فيها : الآن صح عندنا أنك أنت الله إذ لايعذب بالنار إلا رب النار

و اصرار هؤلاء الضلال على دعواهم هذه على رغم تكذيب الاله فى زعمهم لهم وعلى رغم قوله لهم انكم كاذبون فى مقالتكم هذه كافرون بالله تستحقون غضبى وغضب الله معا و نارى في الدنيا و نار الله فى الآخرة يستوقف النظر ، إذ كيف يكذب الاله اذا كانوا يظنون حقاً أنه إله و كيف يغضب الاله عباده اذا ما عبدوه وقاموا له بفروض العبودية ؟؟؟ !!! ان الجواب المعقول المقبول على هذا السؤال لسير . ولأجل هذا أذهب الى أن دعواهم هذه حيلة مدبرة ومكيدة يخفى مكانها على الألباب الألمعية . وأذهب الى أن القوم ما كانوا صادقين فيا زعموا . ولكن هذا الزعم كان تضليلا والاصرار عليه أيضا كان تضليلا والأمر كله كان ضلالا فى تضليل .

أما واضع بذور هذه الضلالة ومتولى كبرها عبد الله بن سبأ فطلبه على ليوقع به أشد العذاب ولكنه كان أحذر من الغراب فهرب وترك له البلاد ، وما كان هروبه وضعاً لأوزار هذه الفتنة المدمرة وتسليما بالهزيمة بل كان هروبا بهذه الآراء ضنا عليها بالقبر والقتل ، ليضل بها المسلمين ويفتن بها المفتونين وتبقى عارا وناراً الى يوم الدين

تطايرت دعاوى هذا الرجل ومبتدعاته فى كل جانب ورنّ صداها فى أركان المملكة الاسلامية رنينا مرا مزعجا واهتزت لها قلوب ومسامع وطربت لها قلوب ومسامع ورددت صداها أفواه خلقت لهذا ورددتها أفواه أخرى وطال الترديد والترجيع حتى نفذت إلى قلوب رخوة لا تماسك تخللها حلول العقيدة ثم تفاعلت حتى صارت عقيدة ثابتة تراق الدماء فى سبيلها ويعادى الأهل والصحاب غضباً لها وصارت فيا بعد معروفة بالمذهب الشيعى والعقيدة الشيعية وقوامها الغلو ظاهراً فى على وبنيه إلى حد التأليه والعبادة ثم الغلو فى معاداة سائر المسلمين ومنهم الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان والكرام الآخرون إلى حد المقت والا كفار والقذف

العانى .. وقوامها أصالة فى صدور مبتدعيها نسف الاسلام وتحطيم ما شيده من ملك ثابت الأساس ثابت المبادىء والشرائع ..

ثم دخل هذا المذهب الشيعى كسائر المذاهب الصحيحة والباطلة التحوير والتطوير والتكميل والتغيير وسائر ما تقضى به طبيعة الأشياء وطبيعة العقائد والآراء وقام بزعامته وقيادته رجال كثيرون كل منهم يحتقب أغراضاً خاصة وآراء خاصة وأساليب لانفاذ هذه الآراء والأغراض خاصة ولكل من هؤلاء الزعماء أسلوب خاص فى زعامته وقيادته وطريف يضيفه الى هذا المذهب وهذه النحلة وبدعة خاصة تكمل بها .. حتى خلص من هذا كله المذهب الشيعى أو المذهب الرافضى وصارت له فروع وأصول فى أكثر الممالك الاسلامية وأصيب به الاسلام وأهله في عصور مختلفة إصابات لاتزال دماؤها تتقاطر ولا تزال جراحاتها مفتوحة لم تلتئم فى أعماق القلوب المسلمة .. وهل تصاب قلوب المؤمنين حقاً بأشد إيجاعاً وإيلاما من إكفار أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأزواج النبى وخالد ابن الوليد وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وطارق بن زياد .. وأمثال هؤلاء الذين بهم لا بغيرهم تنطلق اليوم كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله من أربعمائة مليون شفة تجلجل فى أفواه السماء ومسارب الأرض والهواء لا يستطيع رادّ أن يردها ولا كاظم أن يكظمها ولو كان أهل الأرض جميعا ؟؟؟ وهل تصاب قلوب المسلمين بأشد إيجاعاً وإيلاماً من رمى هؤلاء السادة القادة بالنفاق والخيانة حتى فى كتاب الله وكلام الله كما تدعى الشيعة الرافضة أن هؤلاء الصحابة حرفوا القرآن وحذفوا منه أشياء نفاقا وبغضا وحسدا لعلى وبنيه

وتنفرد هذه الطائفة بأمور تخصها دون سواها من طوائف الأهواء .. فما تنفرد به أنها تمقت العرب أشد المقت وتكرههم كراهة تكاد تكون مرضا يأكل صدر صاحبه ويستل منه الحياة ومعانى الحياة . ومن كره القوم للعرب كرهوا كل ما

أتوا به من دين ولغـة وأدب وكرهوا ملوك العرب الذين جمـع الله كلمتهم بهم ورفع بهم ذكرهم وأعلى شأنهم. ولعل من الشواهد على هذه القضية مقتهم أمثال أبي بكر وعمر وعثمان. وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وبنى أمية وبنى العباس جميعا فان هؤلاء قد أعز الله بهم العرب، ورفعهم بهم أيام خلافتهم وبعدها الى اليوم ولعل من الشواهد على هذه القضية أيضا موقف أكثر الشيعة من الحكومة العربية السعودية بعد أن رأوا بوارق نصرها ونصر العرب والاسلام بها تتألق فى سماء العروبة وبعد أن جمع الله بها قلب جزيرة العرب ولفهم تحت رايتها وراية الدين الحق والاسلام الصحيح بعد الشتات والضلال والفتن الهوج، فان كثيرا من رجال الشيعة المسئولين وقفوا من هذه الحكومة موقفا لايغبطون عليه بحجة الغيرة على الدين وعلى آل النبى اذ هدمت بعض القباب المقامة على بعض القبور وإذ منع العامة الجهلاء من الاستغاثة بالأموات والانقطاع الى القبور والتقبيل لها والتمسح بها وغير ذلك من الأمور الشاذة الخارجة عن حدود الدين والعقل. وقد حاولوا نسف هذه الحكومة وحاولوا اثارة العالم الاسلامي بها وأرجفوا أيما إرجاف بعد أن دخلت جيوشها الحجاز ظافرة وبعد أن تألق نجمها ونجم العرب بها وملأ اسمها فم الزمان وحديثها اذن الجوزاء واتخذت من خيوط الشمس سلما الى مجد السماء

ولرجال الشيعة المسئولين محاولات فى هذا معروفة مؤلمة ومن هذه المحاولات العقيمة التي قاموا بها ذلك الكتاب الذى قام باختلاقه وطبعه الشيخ محسن الأمين العاملى أحد كبار علماء الشيعة ومجتهديهم فى جبل عامل فى سوريا. وهذا الكتاب ألف بعيد دخول العساكر السعودية الحجاز وتمزق القوات الهاشمية واستبشار المسلمين فى أطراف المعمورة بهذه النتيجة الحاسمة وهذا الانقلاب الذي علقوا عليه سعادة الجزيرة ورفعـة شأنها وحفظها من أخطار كانت توعدها وتهددها

وكان الغرض من هذا الكتاب تغيير نفوس المسلمين وانهاضهم لمقاومة الحكومة العربية وإخراجها من الحجاز والقضاء عليها واحلال دولة أخرى حتى ولو غير مسلمة محلها فى الحجاز وفى قلب الجزيرة العربية . وذلك أن هذا الكتاب مملوء بالأكاذيب الفاضحة الواضحة وبالاعتقادات التى يندى لها جبين الحق وجبين الاسلام الصحيح ومملوء بالحملات على الحكومة العربية وعلى سياستها ودينها وعلى ادارتها ورجالها وزعمائها وعلمائها ، أشياء صريحة بأنه لا يراد بها سوى التحريض والارجاف لا النقد العلمى الاعتقادى ، فان رجال الشيعة بعيدون عن هذا

ولا تزال مجلات شيعية تلحّن هذا الكتاب تلحيناً مشجيا مبكيا وتضرب أو تاره ضربات تبعث الأسى فى أعماق الصدور المؤمنة

وصاحب هذا الكتاب واخوانه يزعمون أنهم ما فعلوا ذلك الا دفاعا عن الاسلام والا غيرة على الحق وعلى القباب المهدمة ...

وليت هذا هو الباعث لهم على هذا الموقف المريب المعيب ، ولو أن الأمر هو هذا لقلنا لا بأس ، قوم خرجوا عن سبيل الله وضلوه فيوشك أن يعرفوه فيتبعوه ، ونشأوا فى الباطل فأحبوه ولزموه فيوشك أن ينكروه فيهجروه ، واستوحشوا من الحق فأبغضوه ونبذوه فيوشك أن يأنسوا به فيحبوه ، لكن الأمر كما ما ذكرنا هو مقت العرب بلا ذنب سوى نصرتهم الدين وانتصارهم على الأعداء المهاجمين

وقد ذكر الأمير الجليل شكيب أرسلان فى كتاب حاضر العالم الاسلامى أنه التقى بأحد رجال الشيعة المثقفين البارزين فكان هذا الشيعى يمقت العرب أشد المقت ويزرى بهم أيما إزراء ويغلو فى على بن أبى طالب وولده غلوا يأباه الاسلام والعقل فعجب الأمير الجليل لأمره وسأله كيف تجمع بين مقت العرب هذا المقت وحب على وولده هذا الحب ؟! وهل على وولده الا من ذروة العرب وسنامها الأشم ؟! فانقلب الشيعى ناصبيا محضا واهتاج وأصبح خصما لعلى وبنيه ، وقال

ألفاظا فى الاسلام والعرب مستكرهة

ولو أن هؤلاء الشيعة صادقون فيما فعلوا ، صادقون فى أنهم ما فعلوا هـذا الا غيرة وذيادا عما حسبوه حقا ودينا لوجدوا لحلائهم وارجافاتهم منادبح وفسحا فى غير هذا الجو ولوجدوا من الحكومات الأخرى ومن الملحدين المحسوبين على الاسلام والمسلمين ما يشغلون به وقتهم وعلمهم وهجاءهم ونقدهم عن السلفيين السعوديين ، ولوجدوا أعراضا خصبة المذام يصدر عنها المهاجم الذام ريان شبعان ، ولكن نيات القوم وعقائدهم مدخولة

ومما ينفردون به أنهم يكرهون المرء بمقدار ما عنده من حب الدين ومناصرته وإعزازه ، وبمقدار ماله من آثار فى خذلان الكفر وأهله والظلم ونصرائه .. فمن كان حظه من نصرة الاسلام وتأييده ومن دحر الكفر واجناده عظيما كان حظه من مقت هؤلاء وبغضائهم عظيما ، ومن كان دون ذلك كان حظه عندهم من هذا المعنى دون ذلك .. وهذا أمر مشهور معلوم عن طائفة الشيعة الغالية .. ومن الدلائل التى لاترد على وجود هذا المعنى فيهم أنهم يخصون أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعائشة وحفصة وغير هؤلاء من عظماء الاسلام وأبطاله بأشد الكراهة ويمقتونهم مقتا لا يمقتونه أحدا من البشر . حتى إنهم ليتأولون الآيات النازلة فى صناديد الكفر وأركان الشرك فى هؤلاء الصحابة الاجلاء بل ويتأولون آيات نزلت فى الشيطان الرجيم فى أبي بكر وعمر وقد قالوا ان قوله تعالى « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر » نزل فى أبي بكر وعمر وقالوا فى قوله تعالى « فقاتلوا أئمة الكفر » إنه نزل في طلحة والزبير ، فى قوله « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » إن البقرة هي السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق أحظى أزواج النبي إليه . ونظائر هذه الروايات والأقاويل عن الشيعة سوف يأتى فى كتابنا هذا نقلها من مصادرها الشيعية الثابتة عندهم وعند الناس جميعا

وهؤلاء لا يتنازعون فى أن هؤلاء الصحابة كفروا وفسقوا وضلوا السبيل وطوائف منهم تزعم أنهم كانوا منافقين وأنهم ماز الوا كذلك في حياة الرسول وبعد وفاته وأن الرسول كان مخدوعا بهم أو كان يداريهم ويتقيهم لأنه عالم نفاتهم وكفرهم المضمر

ثم يجيء بعد هؤلاء الصحابة فى كراهية هؤلاء أئمة السنة والحديث كالأئمة الأربعة وكأئمة الحديث أمثال البخارى ومسلم ومن يفضلهم أو يفضلونه وهكذا يتسفلون فى عداوتهم وينحدرون فى بغضائهم يبدؤن بالخلفاء الثلاثة من الصحابة وبكبار المهاجرين ثم بعامة الصحابة ثم بأعاظم التابعين ثم بأعاظم الأئمة المشهورين المعروفين بنصرة السنة والعناية بجمع الحديث وتدوينه وهكذا يظلون يهوون فى عداوتهم ومقتهم من الأعلى الى الأدنى الى أن يصلوا الى جمهور أهل السنة والعامة من المسلمين

والشيخ محمد أمين العاملى قد وضع القناع عن هذا وقطع الظنون وجاء بالأمر اليقين . وذلك أنه فى كتابه المذكور الذى سوف ننقضه عليه راح يدافع وينافح دون جهلاء المسلمين ودهمائهم المنقطعين الى الأموات والى الأجداث متأولا لهم أخطاءهم وألفاظهم المستكرهة الدالة على الاعتقادات الشنعاء وراح يغضب لهم وينضح عنهم آبيا أن تضاف اليهم ضلالة أو خطيئة مهما فعلوا وقالوا ومهما زلوا وضلوا . بل كل ما يقولونه من أقاويل الضلال والسوء واجب أن يتأول لهم وأن يحمل على المجاز ولا يصح أبدا غير هذا . هذا هو رأى هذا المجتهد الشيعى فى هؤلاء الجهلاء الضلال أما الصحابة وأما الخلفاء الرشدون أمثال أبى بكر وعمر وعثمان فهم عند هذا الشيعى العاملى وعند الشيعة قديما وحديثا كفار منافقون وجماع للآثام والخطايا . . ومن لم يقل فيهم هذا القول فهو كافر منافق مثلهم ومن أراد التأويل وإحسان الظن بما يعده الخصم لهم سيئات فهو ضال منافق مثلهم وهو من الضالين الهالكين . فما تأويل هذا فى عالم التأويل والفهم ؟؟؟ . .

قوم يمقتون صحابة رسول الله ﷺ والخلفاء منهم ويمقتون من لايمقتهم ومن يروى فضائلهم وجلائل أعمالهم من المحدثين ، ثم يقومون يدفعون عن الجهلاء وعامة الناس الذين ليس لهم من الاسلام الا أن قالوا انهم مسلمون ، حاملين كل مايصدر عنهم من أعمال الضلال وأقواله أحسن المحامل ، مخرجين لها أحسن التخريج ، لايقبلون فيهم قدحا ولا انتقادا لا لشيء غير انتسابهم إلى الاسلام وغير أن ولدوا فى جو يقال انه جو اسلامى ، فما تأويل هذا ؟؟؟ إنه لاتأويل له غير ما ذكرناه من مقتهم الرجل بقدر ما معه من الايمان والدين ، وبقدر جهاده خصوم الدين .

وعلى هذا السبيل وبهذه الطريقة كرهوا النجديين وعلماء النجديين ، وكرهوا الحكومة العربية وكرهوا علماء السلف والسنة مثل ابن تيمية وابن القيم ، وغضبوا للجهلاء المبتدعين وامتدحوا هؤلاء وذموا أولئك ولم يقبلوا فى هؤلاء قدحا ولا فى أولئك مدحاً

ومما تنفرد به هذه الطائفة أن هواها أبدا مع خصوم الاسلام الكائدين له المريدين به كل داهية دهياء . وما تقاتل المسلمون والمشركون أو تناضلوا أو اختلفوا إلا ركنت طائفة الشيعة الغالية إلى خصوم الاسلام والا كانت معهم فى الهوى وفى العمل وفى الظاهر والباطن بل وربما سعوا لتمكين الكفار من نواصى المسلمين ومن جز رقابهم وافتتاح بلادهم . وهذه أشياء معلومة يحفظها التاريخ الحفيظ ولا ينساها قد سجلها على حساب هذه الطائفة المغبونة

وحادثة ابن العلقمى الشيعى مع هولاكو طاغية التتار محفوظة تقطر ألما ودما على صفحات التاريخ وصفحات قلوب المسلمين إلى اليوم وإلى يوم الدين . فان ابن العلقمى هذا كان شيعيا وكان وزيرا للمستعصم آخر خلفاء بنى العباس ، فلما أن قدم الطاغية هولاكو لمهاجمة عاصمة الاسلام ومقر عرش الخلافة دار

السلام سهل هذا الوزير الشيعي ابن العلقمي لجيش التتار افتتاح العاصمة ومكنه من فتحها ودخولها وقد كاتبهم بذلك .. ثم جمع الخليفة وكبار رجال الدولة وكبار علماء المسلمين وذهب بهم إلى هولاكو ليقتلهم صبرا وغدراً ومؤامرة كلها نذالة وضعة فكان هذا . ولهذا كان جزاء ابن العلقمي من هولاكو أعدل الجزاء فانه قتله بعد ذلك شر القتلات بعد أن قتله لوما وتعنيفا

وكذلك كان النصير الطوسي الشيعي شر المواقف من الاسلام والمسلمين فى هذه الفتنة النادرة ، وقد سعى جهده لاستئصال العلماء وكبار المسلمين

وقد ذكر علامة العراق الألوسي المرحوم محمود شكرى أن الشيعة فى إيران نصبوا أقواس النصر ورفعوا أعلام السرور والابتهاج فى كل مكان من بلادهم لما أن انتصر الروس على الدولة العثمانية فى حروبها الأخيرة .

وذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه « الفاطميون فى مصر[١] » راويا عن الحافظ مؤرخ الاسلام الامام الذهبي أن أبا القاسم بن عبيد الله الفاطمى الشيعى أمر بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادى بلعن الغار ومن لاذ بالغار وانه كان يكاتب القرامطة الذين ابتلى بهم الاسلام والمسلمون ينصح لهم بتحريق الكعبة والمصاحف . وفى بلاد إيران الشيعية تحارب اليوم اللغة العربية وآدابها حرباً زعم أنها لأجل السمو باللغة الفارسية

وهذه أمور يطول عدها وتؤلم ذكراها المريرة النفوس المؤمنة

ومما تتفرد به هذه الطائفة الغلو فى على وذريته رضى الله عنهم . فهى تبالغ فى تقديسهم مبالغة هى فوق الهوس وفوق حدود العقول . ولا نعنى بهذا أنها ترفعهم فوق الناس أجمعين ، وفوق أبى بكر وعمر وعثمان والصحابة الآخرين ، أو أنها ترفعهم على الانبياء والمرسلين ، أو أنها تضعهم فوق حدود البشرية وآفاقها

---

(١) ص ٢٧٤

بل نعنى أنها تسويهم بالله رب العالمين بل قد ترفعهم على الله . أما من جهة التعظيم والتقديس والرغبة و الرهبة فليس من شك أنها تمنحهم من ذلك كله مالا تمنحه الله . وقد قالت بالحلول وزعمت أن الله حل فى على وأن الأئمة فيهم جزء الهى وأنهم لهذا يستحقون العبادة وكل مايستحقه الله من عباده . وقد زعم هذا أصحاب عبد الله بن سبأ وغيرهم من فرق الشيعة وقالوا لعلى أنت الله أنت خالقنا ورازقنا . وقد روى الامام ابن الامام عبد الله بن أحمد بن حنبل فى كتاب السنة له عن الشعبى عن علقمة قال لقد غلت هذه الشيعة فى على كما غلت النصارى فى عيسى بن مريم . قال : وكان الشعبى يقول لقد بغضوا إلينا حديث على .

وهذا حق لاريب فيه . فان هؤلاء إن خالفوا النصارى فى شىء إنما يخالفونهم فى الاسماء أما فى الحقائق فلا . . فهم قائلون فى على و بنيه قول النصارى فى عيسى بن مريم سواءاً مثلا من القول بالحلول و التقديس والمعجزات ، ومن الاستغاثة به وندائه فى الضراء والسراء والانقطاع اليه رغبة ورهبة وما يدخل فى هذا المعنى . ومن شاهد مقام على أو مقام الحسين أو غيرهما من آل البيت النبوى وغيرهم فى النجف وكربلاء وغيرهما من بلاد الشيعة وشاهد مايأتونه من ذلك هنالك علم أن ماذكرناه عنهم دون الحقيقة وأن العبارة لا يمكن أن تفى بما يقع عند تلك المشاهد من هذه الطائفة . ولأجل هذا فان هؤلاء لم يزالوا ولن يزالوا من شر الخصوم للتوحيد وأهل التوحيد المتمسكين بالكتاب والسنة وبالاسلام الصحيح المنقى من المبتدعات والاخلاط النكراء

ومن العجيب غير العجيب أن توجد هنالك نبوءات نبوية صادقة تحدث عن خروج هذه الطائفة وعما تحدثه فى الاسلام من الاحداث الجسام . و ما كان هذا الا لعظم خطر هذه الفرقة ولعظم ماتأتى به من الارزاء العظيمة فى الملة والدولة . وقد عهد كثيرا أن يحدث النبى الكريم عن الحوادث المقبلة المستقبلة وعما سوف

يصيب أمته من أشتات المصائب المادية والمعنوية الخاصة والعامة وعما سوف يصيبها من الضعف والفرقة والشتات وفساد الدين والدولة . ولكن هذا عهد بالاجمال والابهام . أما التحديث والانباء عن هذه الفرقة الخطيرة فقدكان بالتعيين والتصريح باسمها ووصفها اللذين لايختلف الناس فيهما البته

وذلك مارواه الامام ابن الامام عبد الله بن أحمد بن حنبل فى كتابه السنة بأسانيده قال حدثنى محمد بن أبى جعفر أبو عمران الوركانى حدثنا أبو عقيل يحيى بن المتوكل عن كثير النواء عن ابراهيم بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب عن أبيه عن جده قال قال على بن أبى طالب قال رسول الله « يظهر فى أمتى فى آخر الزمان قوم يسمون الرافضة يرفضون الاسلام » ثم ذكر هذا الحديث بأسانيد أخرى وذكر بعده باسناد آخر عن على بن أبى طالب قال قال النبى عليه السلام : « يا على أنت وشيعتك فى الجنة . وإن قوما لهم نبز يقال لهم الرافضة إن أدركتهم فاقتلهم فانهم مشركون » قال على ينتحلون حبنا أهل البيت وليسوا كذلك . وآية ذلك أنهم يشتمون أبا بكر وعمر

وذكر هذا الحديث أيضاً الحافظ ابن قتيبة فى كتاب تأويل مختلف الحديث عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ . وقطع ابن قتيبة بثبوت لفظه النبوى . وذكر القاضى عياض فى آخر كتاب الشفاء أحاديث أخرى فى معانى هذه الأحاديث بألفاظ أخرى . وروى أيضاً الامام ابن الامام عبدالله بن أحمد فى كتاب السنة بسنده عن علىّ قال : دعانى رسول الله ﷺ فقال : « ان فيك مثلا من عيسى بن مريم ، أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس به » قال على : ألا وانه يهلك فىّ اثنان محب مفرط يقرظنى بما ليس فىّ ومبغض مفتر يحمله شنآنى على أن يبهتنى . ورجال الشيعة يعترفون بأن عليا قال : يهلك فىّ اثنان غال وقال . ولا ريب أن هذه الأحاديث إنباءات صادقة عن خروج هذه الطائفة وعما

تصيب به الاسلام وأهل الاسلام من الأرزاء الكبرى . والواقع قد صدق هذه الانباءات وهذه الأنباءات قد صدقت الواقع فصدق الخبر والمخبر

وللعاقل أن يسأل ـ لو كان أمر هؤلاء القوم يدخل تحت مساءلة العقلاء : كيف أمكن أن يتفق لهم حب على وذريته وموالاتهم مع مقتهم العرب جملة ، ومع مقتهم أعظم رجالات الاسلام وأعظم قواده وفاتحيه الممكنين له فى امتلاك الرقاب والبلاد وهذا السؤال قد سأله الأمير شكيب أرسلان ذلك الشيعى المتغالى فى على وولده ، وفى كره العرب ومقتهم كما تقدم . لأن من الغرابة والنكارة بمكان بعيد أن تكره العرب لأنهم عرب والمسلمين لأنهم مسلمون ، ثم تذهب تغالى فى حب طائفة منهم وتقديرها لأنها من العرب ولأنها من المسلمين ومن نصراء الدعوة الاسلامية . هذا أمر ظاهره الاستحالة أو أمر متناقض متدافع على الأقل . ولكن جواب هـذا السؤال أن يقال إن في الأمر أسراراً غير شريفة وأموراً معروفة للقوم . ومن جواب هذا السؤال أن يقال إن زعماء هذا المذهب ومبتدعيه لم يكونوا حقا يحبون عليا ولا بنيه ولا يضمرون لهم ولاء ومودة نظير عبد الله بن سبأ وإخوانه ولكنهم لجأوا الى هذه الحيلة وإلى هذا الحب لأنهم وجدوا مشروعهم الهدام فى حاجة الى هذا الحب الكاذب والى هذه الدعوى المنافقة . وذلك أنهم وجدوا شئون المسلمين قد انتظمت وسياستهم قد ارتقت وأحكمت بقيادة أبى بكر وعمر وعثمان ، وان جانب المسلمين والاسلام قد عز فى تلك العهود ووطىء كل جانب عزيز فى الأرض ، فأرادوا إثارة الناس على تلك الخلافة والخلفاء ، وأرادوا بالتالى تفريق المسلمين وتمزيق كلمتهم ثم اضعافهم وتقويض ملكهم الثابت الدعامات . وعلموا أن علياً و بنيه من بعده هم أولى من يدعى أنهم أصحاب الحق المعلوم فى الخلافة وفى قيادة المسلمين وزعامة الاسلام الحسية والمعنوية لقرابتهم من النبى الكريم ، ولعظم مكانتهم من الدين ، والفضل والمجد ومن قلوب المسلمين ونفوسهم . وعلموا أن هذه الدعوة لا محالة أن

مجد قلوبا وآذانا تلتهمها التهاما . بيد أن الهدف الأقصى لهذا كله هو إثارة المسلمين بخلافتهم التى عزوا بها وسادوا وركبوا كاهل المجد ، ثم قتل أولئك الخلفاء بأيد مسلمة أو بأيد أخرى كافرة . ولو أن الأمر كان بيد على وبنيه وكانوا هم الخلفاء الذين قام عليهم أمر المسلمين وعمود الاسلام لـكانت دعوى هؤلاء القوم غير دعواهم اليوم ولسعوا بلا ريب لتأليب المسلمين ضد على وآل بيته ، ولمقتوهم كما مقتوا أبا بكر وعمر والخلفاء الآخرين ، لأنه ليس المراد من هذه المناورة حب على وبغض أبى بكر وغيره ولا معاداة فلان وموالاة فلان ، ولكن المراد الذى عودى من أجله من عودى وقدس من قدس هو القضاء على هذا الدين ونسف هذا الملك الذى قام على هذا الدين بقيادة هؤلاء الخلفاء

أولم تر كيف عادى هؤلاء المدعون حب النبى وعترته دولة بنى العباس وخلفاء العباسيين كما عادوا أبا بكر وعمر وعثمان وبنى أمية والخلفاء الأمويين ؟؟؟ أفلم يكن بنو العباس من عترة النبى الكريم وقرابته الأقربين ؟! فإنهم بنو العباس عم النبى وعم الرجل من عترته ولا ريب ومن أولى الناس به . ولكن هؤلاء المدعين التشيع لآل النبى وقرابته يمقتون بنى العبـاس أمرَّ المقت ، ويكفرونهم ويسبونهم السب العلنى الصريح .. فلماذا هذا يارعاك الله ؟؟؟ وكيف يمقت الرجل بنى عم من يتعصب لقرباه وأقربيه التعصب الأعمى الأهوج ؟

الجواب عن هذا أن بنى العباس عُودوا وعدوا من زمرة المغضوب عليهم الممقوتين لأنه تم لهم الامر واجتمع عليهم المسلمون وعز بهم الاسلام وحموا بيضته وثغوره من العوادى والخصوم ما شاء الله أن يعز وأن يحموها . ولو أن بنى العباس أخفقوا ولم يتم لهم ما تم ولم ينالوا من الخـلافة ما نالوا لما عودوا وكرهوا ، وهذا ما لا شك فيه

والعجب فى الأمر أن هؤلاء كانوا ينشرون الدعاية لبنى العباس قبل أن

تصير اليهم الخلافة فلما أن صارت إليهم عادوهم وجعلوا الدعاية ضدهم والدعوة لغيرهم وذلك كله لأن الغرض هو إفساد هذا الأمر يدورون معه كيف دار ، فان قضى هـذا بمعاداة النبي وعترته عادوهم ولا كرامة ، وإن قضى بموالاتهم والغلو الشديد فيهم والوهم وغلوا فى موالاتهم ، وإن قضى بغير ذلك لم يتأخروا عنه . ولكنهم ليسوا صادقين فى الولاية وإنما هم صادقون فى العداوة

نحن لا ننكر أن في هـذه الطائفة من يحبون عليا وبنيه ظاهرا وباطنا حبا متجاوزا الحد المشروع بل ويغلون فيهم أشد الغلو ، ولكن هذا الفريق هو الفريق المقلد المخدوع السليم النية والطوية من لا يريد سوى الحق والخير لكنه مخدوع مضل بأهواء الزعماء الدهاة الخونة . وهذا له وجه وذاك له وجه . والله العليم بما تشتمل عليه صدور الجميع

ومن الجواب على هذا السؤال أن نقول من المعلوم أن الفرس هم أنزع الناس الى هذا المذهب ، وأكثرهم تعلقا واستمساكا به ، ومكانته ومكانه فى قلب بلادهم وعصبيته وعصائبه هنالك ، والغلو فيه منهم يبدأ واليهم يعود . فماذا هذا وإلام يرجع سببه فان فيه مخالفة لطبائع الأشياء فى الظاهر وإلا فلماذا كانت بلاد الفرس دون سواها شيعية محضة خالصة ولماذا آثروا التشيع على مذهب أهل السنة ولماذا انتشر هذا المذهب فى إيران ولم ينتشر فى الحجاز وبلاد العرب والأقطار الأخرى ولماذا امتاز المسلمون من الفرس بموالاة على وأهله دون أكثر المسلمين بل دون جمهرة العرب بل دون بنى هاشم وآل على من أهل السنة ؟ ولا ريب أن هذه أسئلة تتطلب الجواب . والجواب عنها سهل على من ألم بأغراض ما قدمناه . ولهؤلاء نظرة تعصب جنسى فى تحيزهم الى على وبنيه . وذلك أنهم يذكرون أن عليا كان بطبعه ومواقفه ميالا إلى الفرس والى موالاتهم وصداقتهم ويذكرون لذلك شواهد يذكر بعضها التاريخ وان كانت ليست فى سبيل مما أرادوا : من هـذه الشواهد التى

يتملقون بها انهم يذكرون أن عليا رضى الله عنه قد وقف موقف المدافع المناضل عن الهرمزان الفارسى حينما قتله عبيد الله بن عمر بعد أن قتل أباه عمر أبو لؤلؤة الغلام المجوسى . وقد كان عبيد الله بن عمر اتهم هذا الهرمزان بأنه كان متآمرا مع أبى لؤلؤة ممالئا له على جريمته المنكرة . فهؤلاء يزعمون أن عليا طالب عثمان بقتل عبيد الله بن عمر قصاصا اذ قتل الهرمزان

ومن الشواهد عندهم على هذه القضية أنهم يذكرون أن عليا كان مواليا لسلمان الفارسى كل الموالاة وانه كان يهواه ويقول سلمان منا والينا أهل البيت وانه كان يقول فى سلمان ما تقولون فى رجل أوتى حكمة لقمان الى أشياء أخرى يتخذها هؤلاء برهانا على أن عليا كان نزاعا الى الفرس محبا لهم مظهرا حبهم وولاءهم لتجانس تام بينه وبينهم لم يغيره أمر من تلك الأمور التى غيرت غيره . ثم يذهبون مذهبا آخر وينظرون فى هذا نظرة أكثر دخولا فى الجنسيات وهوى الجنسيات العمياء . وذلك وانهم يذكرون لآل على مصاهرة فارسية وأن أولاد على يمتون بهذه المصاهرة الى الفرس وأنهم محسوبون من أجلها فرسا لان الدم الفارسى يجرى حارا متدفقا فى عروقهم فمن والاهم وأحبهم فقد والى الدم الفارسى وأحبه . ومن دعا اليهم وطلب الأمر لهم فقد دعا الى آل ساسان وطلب الأمر لفروع أنوشروان . فالفارسى إذ اما تعصب لآل على انما يتعصب لقومه ولآل جرثومته واذا فضلهم على الصحابة وعلى سائر العرب الأولين والآخرين وطلب انتزاع الخلافة من أبى بكر وعمر وسائر الخلفاء لوضعها فى أيدى العلويين انما يفضل قومه وبنى ارومته ويطلب الأمر لهم لا لسواهم

وحقيقة هذه المصاهرة أنهم يذكرون ان الحسين بن على بن أبى طالب قد تزوج شهربانوه ابنة يزدجرد آخر ملوك ساسان الفارسيين وبهذه المصاهرة أصبح العلويون فرس الدم واللحم فحق التعصب لهم والدعوة اليهم على الفارسيين . هذا سر من

أسرار تشيع الفارسيين وغلوهم الظاهر فى آل على . ولسنا نزعم أن أمثال هذه الأسرار والمعانى يعرفها ويحيط بها الجمهور الفارسى الشيعى وانه يرمى اليها . كلا لا نزعم هذا وانما نزعم أن هذه الأسرار والمعانى يعرفها الزعماء والعلماء ويرمون اليها ويحيطون بها ، أما الجماهير أما الدهماء فلا ننكر أن يكونوا مخلصين حقا متدينين حقا محبين لآل النبى و للنبى و للعرب كافة حبا خالصا ظاهرا و باطنا و انهم لا يريدون سوى وجه الله الاعلى وسوى الدار الاخرى ، ولكن الجماهير تبع لآراء الزعماء والقادة . على أننا نزعم أيضا أن جماعات من العلماء الفارسيين قد يكونون طاهرى القصد والنية محبين للحق و للعرب ولكن هذا القسم تناقص أخيرا كثيرا

ونحن نعوذ بالله من الهوى و من التعصب لغير الحق ووجه الحق الاعلى و نعوذ بوجهه من أن نبغض مؤمناً لشهوة نفس أو أن نحب ظالماً باغيا لهوى باغ ظالم

فى المذهب الشيعى معتقدات فى غاية الشذوذ والنكارة وآراء لا يمكن أن تقر فى قلب قرّ فيه الايمان بالله ورسوله وكتابه ، ولا يمكن أن تقر في قلب فيه موضع للاسلام ومكان حرمة لأهل الاسلام . وسيجد القارىء من هذه المعتقدات أفانين مبثوثة فى كتابنا هذا . وهذه الآراء فى هيكل الاسلام والمسلمين تشبه الجرثومة المرضية النازلة فى الجسم النامى الحى لا يمكن علاجه ولا يرتجى شفاؤه إلا بقتل تلك الجرثومة وإبعادها من الجسم وتعقيم جوه من وبائها وضرائها أما محاولة العلاج وارتجاء الشفاء مع ترك تلك الجرثومة والمواد المرضية ترعى فى الجسم فمحاولة عابثة ناصبة وارتجاء لما لا يمكن أن يكون . وشفاء تحته مادة الأمراض ان أمكن أن يكون ليس سوى وضع قناع شفاف سريع البلى والفناء على الخطر القريب الا كثب لا يلبث أن يتكاثف ويتكاثر ثم يعود ويظهر جليا عنيفا حاداً . وكذلك لا يمكن البتة التوحيد بين سائر المسلمين وبين هذه الطائفة إلا بتطهير الجو من هذه المعتقدات وإبعادها من البين اما باقبار الكتب التى تحمل هذه الآراء الخطيرة وتحريقها واما ببراءة القوم من هذه الكتب ومما فيها

من تلك المعتقدات والبراءة من كاتبيها ووازريها . وأما بغير هذا افهيرات الوحدة والصفاء التام بين المسلمين وبين هذه الطائفة . والذين يرجون هذه الوحدة وهذا الصفاء مع ثبوت هذه المعتقدات فى كتب القوم ورضاهم بها وعنها إنما هم عابثون فى رجائهم وأنا لا أحسب شخصا يؤمن بالله وباليوم الآخر يستطيع أن يصافى قوما يكفرون أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وسائر قواد الاسلام وفاتحيه فى جميع عصوره الاموية والعباسية وما بعد ذلك . ولا أحسب قلبا استشعر الايمان بالله وحمل احترام الاسلام يستطيع أن يحمل وداً وولاء لقوم يسبون أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وطلحة والزبير وطارق بن زياد وموسى بن نصير وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان سبا علنيا ويضيفون اليهم كبريات الجرائم والتهم الفاضحة الواضحة كدأب الشيعة المغبونة الغابنة . ان امرءاً يصافى هؤلاء لخليق بأن لا يكون من المؤمنين بالله ورسوله . وان فرقة فيها منابذة هؤلاء لخير من وحدة فيها موالاتهم ، وان عداء فيه مغاضبتهم لخير من صداقة وسلم فيهما مراضاتهم

إنه يجب أن نكون هنا صرحاء كل الصراحة ، ويجب أن نجانب الأدهان والأمور المغطاة والجمجمة بالحقيقة الواحدة الخالدة ، فنقول اننا نكذب ان ادعينا مصافاة خصوم الصحابة وخلفاء المسلمين ونضل ضلالا مبينا ان دعونا المسلمين الى ذلك وأن أمرءاً يدعى مصافاة هؤلاء أو مصادقتهم لـكاذب اما فى اسلامه ودينه واما فى دعواه هذه الصداقة والمصافاة واما فى هذا كله

أنت لاتستطيع أن تكون صديقا مخلصا لمن تعلم أنه يمقتك ويكرهك ويرميك بـكل صيلم . والمؤمن المسلم لا يستطيع أن يكون صديقا مخلصا لخصم أبي بكر صاحب النبى الأكبر ولخصم جميع الصحابة والخلفاء ولمن يرميهم بالطامات المفظعات هما اثنتان لابد منهما اما كره حماة الاسلام وكره الاسلام نفسه ، واما كره

خصوم حماة الاسلام والبراءة لله منهم . أما أن تحب الاسلام وحماته وتحب من يكرههم فأمر لايكون ولا يستطاع ومدعى هذا كاذب . ولو أراد من قلبه ونفسه ذلك لأراد تكليفها مالا يستطيعانه ، ولاراد منهما شيئا ليس فى طوقهما ولا في طبعهما حمله

فعلى هؤلاء الذين يريدون التوحيد بين طائفة الشيعة الغالية وبين سائر المسلمين ويسعون لذلك أن يسعوا أولا وقبل كل شيء لحمل الشيعة على رفض هذه المعتقدات وتطهير كتبهم وصدورهم وألسنتهم منها . أى عليهم أن يسعوا أولا لاستئصال الداء وجراثيمه التى هي مرعى علة الاختلاف والافتراق والنزاع والصراع . فاذا ما قضوا على هذه الجراثيم بالموت والفناء كانت نتيجة ذلك بلا شك زوال أعراض هذه الجراثيم التى هى الخلاف والنزاع والصراع بين الحزبين وعلاج الداء بانتزاع جرثومته أشفى واحجى من محاولة علاجه بالأعراض عنه ونسيانه واغماض العينين عنه . بل هذا ليس علاجا طبعيا وهو قمين بأن يزيد الداء وينمى جرثومته ومادته ، ولا ريب أيضا أن العلاج بهذه الطريقة أيسر وأقرب من العلاج بالطريقة التى يتبعها هؤلاء المترنمون بأناشيد الوحدة وأغانى الجماعة . الوحدة والجماعة لفظان لذيذان وألذ منهما معناهما وليس من ريب فيما لهما من الأثر النافع فى الدولة والدين والأمة ولكن الأمر كما قيل:

فان الجرح ينفر بعد حين اذا كان البناء على فساد

فان ذلك كما تقضى طبيعة الأشياء ليس ممكنا ولا مستطاعا . والسعى له كذلك سعى عابث ناصب لا أجر ولا حمد

وأنت إذا أردت أن تشيد بناء منيعا باقيا على العوادي وجب عليك أن تشيده على أساس ثابت قوى بعيد عن الضعف والخلل من مادة قوية سليمة صلبة ووجب أن تبعد عن ذلك المواد الضعيفة ومابه خلل وضعف أو قبول للخلل والضعف ،

وإلا انهار عليك بناؤك وخسرت نفسك وأهلك ومالك . وكل صلح بين اثنين ان لم يكن صادراً عن القلب والضمير فليس صلحاً وليس إلا كذبا وخداعا وزوراً سميت أسماء صالحة وليس سوى مكيدة مشتركة بين اثنين يصطلحان عليها ويوقعانها على أنها خديعة وجريمة نالت الرضا بالاجماع أى اجماع المتخادعين

فالصلح يجب أولا أن يعمد الى القلب فيغسله من غسلين العداوة وينتزع منه موادها وغذاءها انتزاعاً تاماً شاملا ثم يضع فيه حب المحبة ويسقيه بحباب الحب الانسانى الصحيح ، فاذا ما كان كذلك وهذا هو ما يجب أن يكون فقد تم الصلح وتم توقيعه بوثيقة لا يمكن أن تحل ولا أن تمسها يد النكث والنقض وان لم توقع هذا الصلح يد وان لم يعقد له مؤتمر وتؤلف له جمعية . فاذا ما تقاطعت القلوب فقد قطع البلى وثائق الصلح وان كانت لا تزال كما وقعت جدة ووضوحا بل وان كان مدادها لايزال رطبا لم يجف بل اذا ما كانت القلوب كذلك فقد تمد احدى يديها للصلح ولتوقيع معاهدة الصداقة والمحبة وتمد يدها الأخرى فى الساعة نفسها للقتل والضرب ولتمزيق ما وقعته اليد الأخرى . وهذا هو البلاء الأحمر العتيد التليد الذي لا تفتأ الانسانية الغابنة المغبونة تصرخ وتستصرخ منه

ان الصلح لا يوقع توقيعاً ولا يطلب طلباً وهو شيء لا يكتب بالأقلام ولا يدون فى القراطيس ، كل صلح احتاج الى هـذا فليس صلحاً ولو كان صلحاً لما احتاج اليه ، ولكن الصلح يقوم بين النـاس حين تزول عوارض العداوة ومواد الشرور من غير أن يطلبوه وأن يسعوا اليه . فاذا ما انتزعت أسباب العـداوات والضغائن لم تبق هنالك حاجة الى الصلح الرسمى المذيل بالأسمـاء الضخمة . وهم ما احتاجوا الى هذا الصلح وما بادروا اليه وأجمعوا عليه إلا لما يبصرونه في الأفق العام من بوارق الشر وهام الفتن وصراخ الويلات ، وان صلحاً يوقعه بنان الظلم لا يقال مه اذا مزقته يداه وإن صداقة تبعث عليها الحاجة لايقال كيف اذا أفسدتها

الحاجة نفسها ، ووحدة تنال بالسؤال تفقد أيضا بالسؤال وبغير السؤال

ولو كنت دولة لماعاهدت دولة ، وذلك أنى أعلم أن دولة من الدول لن تلتزم القيام بشروط معاهدة وقعتها بدمائها قبـل أن توقعها بمدادها إلا حين تضطر الى ذلك اضطراراً وحين تعلم أن بقاءها وحياتها فى الوفاء بتلك المعاهدة ، ودولة من الدول اذا ما اضطرت الى أمر لأنها شعرت أن بقاءها وحياتها فيه لا بد أن تأخذ به وقعته بمعاهدة أم لم توقعه ، ولو عاهدتها لكنت أتقيها وأحذر شرها فوق ما كنت أتقيها وأحذرها قبل إبرام المعاهدة التى وصفت بمعاهدة الصداقة والمحالفة ولما قدرت تلك المعاهدة إلا أنها إعلان بالعداوة وإعلام بأن الشر قد تفاقم واقترب لأخذ الحذر والحيطة

ما هذه الحفلات التى تؤلف لاحلال الصلح والمحبـة بين الدول أو الأفراد والمعاهدات التى توقع و تسمى بأسماء المحالفات و مبادلة المنافع و الصداقات إلا مناظر سينمائية يراد بها التأثير الماجم من طريق الخيال وحده على مواطن الضعف والوهن فى الانسان فاضحا كه حينًا و إبكاؤه أحيـانًا أخرى و خديعته قبل كل شىء على ما يملكه من معانى القوة وأسباب الحياة الفانية فاستلاب ماله وإضحا كه بما ينطوي على البكاء و إفراحه بما يشتمل على الحزن المجسم و ترقيصه بما لو أبصره بعين ليست سينمائية لاستصرخ وصرخ ولأعول ولدم

اذهب الى هذه السينمات وانظر ما تعرضه من مناظر الحب والبغض والحزن والسرور والحرب والسلم ومناظر ما شئت واعلم قبل أن تبصر شيئا من ذلك أنك لست أمام شىء مما تحسب وتنظر وأن من حبسوا هذه الصور والمواقف لعلهم كانوا يبكون حينما أروك أنهم يضحكون ، ولعلهم كانوا يضحكون حينما أروك أنهم يبكون وأنهم ما لونوا هذه الألوان الكاذبة المزرية بالانسان إلا حرصا على مالك واغتصابا لك ما تملك لا لشىء غير هذا ؟ اذهب الى هذه السينمات واعلم هذا كله وضع خيالك

وحواسك تحت سلطان عقلك وانظر هل تستطيع بعد هذا أن تضحك مع الناس حينا يضحكون أو تطرب معهم حينما يطربون أو تصفق حينما يصفقون أم هل تعود الى هذه المعارض المزرية مرة أخرى ، لا ريب انك إن فعلت هـذا كله سوف تنظر الى هؤلاء المصفقين المتضاحكين الطربين حينما يكشف الغطاء عن هذه المناظر نظرنا الى الأطفال والى ذوى الأمراض العقلية نظر الرثاء والرحمة

ولو أن هؤلاء المصفقين المهللين بهذه المناهدات والحالفات والصداقات السينمائية نظروا اليها نظرتنا الساعة الى حقيقة السينما ، وما طويت عليه ، وما قامت لأجله ، لصفقوا تصفيق الحسرة ، ولأهلوا بالاعوال واللوعة ، ولنظروا الى هؤلاء المعجبين المسرورين بذلك نظرتهم الى الاطفال والى ذوى الامراض العقلية ، أعنى نظرة الرثاء والرحمة والعطف

لقد أخرجنا هذا الحديث المثير للاشجان الكامنة ، الحاشد للذكريات المرة الشتيتة عما كنا فيه ، فلنقطعه اضطرارا ، ولنعد الى ما كنا بصدده :

أما شعاعنا الهابط فقد ادركه ما ادرك الشمس من اختلاط أشعتها النيرة القوية بخيوط الليل المظلمة الضعيفة ، ومن تشويهها بما يعلو طبعها النورى الناري فيما يرى الرائى بما تضعه الطبيعة والهواء على محياها الالهى المشرق الوضاء من تراب مظلم كثيف وقسطل أهوج بليد ، ومن طفول نحو المغيب فى أحشاء هذا الفضاء اللانهائى . ولـكن سوف يدركه بلا ريب ما أدرك الشمس أيضا من اشراق وصفاء وجمال واكتمال . وليس من شك عندنا أن الاسلام لم يحارب بيد هى أقوى وأمضى من يد تدس فيه الخرافات والمبتدعات المكروهة باسم الدين والتدين وبدعوى التزيد من عبادة الله والتعديل على شرعه . فاننا نعلم أن الاسلام دين الله الحق بحجج كثيرة معلومة حسية ومعنوية ولكن أبين البراهين وأ نطقها على أنه دين الله الحق هو أنه جاء كما جاء ونزل كما نزل أسمى مايتصوره العقل

البشرى من سمو وجمال وحكمة ومطابقة للفطر الالهية التى لم تكدرها الأهواء والدعاوى والدعايات المدخولة. فان العقل الفنى البارع فى معرفة الحق من حيث هو حق ولأنه حق يدرك من صدق هذا الدين وصحته ما لا يدركه الرجل الحسى بما يشاهده من المعجزات الكونية المادية على أنه دين الله الحق النازل من تحت سدرة المنتهى، وهذا هو السر العظيم فى خلود هذا الدين، وفى معاركته الخطوب والعوادى وخروجه من بين أيديها مظفرا عزيز الجانب.. ولا ريب أن أقوى ما فى الحق هو ما فيه من صفة الحق ومعنى الحق، ولكن هذا الدين الجميل البالغ الجمال القويه لن يبقى له هذا الوصف حينما تدخله الآراء البشرية التى مصدرها التراب والانسان

وليس مثله حينئذ الا صورة فنية رائعة الصنعة والجمال جاءت وفق مايتخيله أفرس خيال فنان سيال بارع وضعت عرضة لكل اقتراح يلقيه من يلقيه من مريض العقل الى مريض القلب إلى طفل النفس الى أسير الهوى والحسد. وكل من اقترح اقتراحا فى هذه الصورة الفنية أجيب اقتراحه وعدل فيها ما اقترح تعديله: ألا ترى أن هذه الصورة سوف تصبح ولا محالة من أقبح ماينتجه الخيال وما تراه العين

وهكذا الدين إذ ماترك عرضة لابتداع المبتدعين ولاقتراح المقترحين لا محالة من أن يشوه وجهه وينطفىء جماله وحسنه: وهذا هو ما أصاب الاسلام وما فطن له خصومه الدهاة فجدوا فى حربه من هذه الناحية وفى أخذه من وجهها.

ويقال بنحو آخر ان الله تعالت قدرته وحكمته قد بنى شرعه أفضل بناء فجاء علاجا لكل ما بنيت عليه النفوس من داء وأفضل مايوصف لها وما تحتاج اليه من دواء لأنه تعالى وهو العليم بداء النفوس ودوائها قد قدر شرعه على ماجبلت عليه النفوس تقديراً محكما متقنا وفصله عليها تفصيلا تاماً موجبا بحيث لا يصلحها

غيره ولا تصلح هي بغيره وبحيث لا يروضها ولا يسوسها في أمورها كلها مثل أن تأخذه جملة كما جاء لا زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تحوير. ولو دخله شيء من ذلك لأفسده ولأبطل حكمته وما وضع من أجله

وذلك أن الشرع الالهى وضع كعلاج لأمراض النفوس التى جبلت عليها من شهوة وشبهة وفسوق. وكل علاج يضعه حكيم عارف بصنعته يفسد لا محالة اذا تناولته يد التغيير والتبديل والزيادة والنقصان. بل ويعود ضاراً مؤذيا وان يكون علاجا نافعا مجديا إلا اذا أخذ كما وضع وركب عن طواعية ورضى

ولو أن مريضا أراد أن يتصرف وأن يجتهد فيما يركبه له طبيبه من علاج ودواء حسب علته ومرضه فناله بالتغيير والتحوير والزيادة أو النقصان وغير الوقت الموقوت لتعاطيه لكان خليقا بأن يضر نفسه بل ربما قتلها ولكان خليقا بأن يعد من السفهاء الجهلاء

والذين يتعدون على الشريعة وعلى حدودها بالتغيير كالزيادة والنقصان لا يقلون عن هذا المريض سفاهة وجهالة وإفساداً لهذا العلاج السماوى الهابط به جبريل سيد الملائكة من لدن رب العالمين الى محمد سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ليبلغه أفضل الأمم وسيدتها سابقها ولاحقها

فالذين يتناولون هذا الدين بالتغيير والتحوير وقد نزل محكما متقنا وأعد إعداداً حكيما لمعالجة أدواء النفوس ومعالجة ماجبلت عليه من ضعف خلقى وشهوة وشبهة ولدت جرثومتها يوم أن ولدت جرثومة الانسان الأول إنما يعملون بهذا جهلا وقد يكون قصدا لافساد الدين ولابطال الحكمة التى أنزل الله دينه لأجلها وابطال أثره الجليل الحميد الفعال فى هذه النفوس التى هى أبدا فى حاجة الى علاج سماوى قدسى لينتشلها من ورطات المادة ونقصان المادة الأثيمة الفاسقة وليسمو بها فوق هذا العالم الأرضى وما كبّل به من أنكال الضعة والهبوط والضعف اللازم

الوجود ولتتعلق بأسبابه الموصولة بأعلى السماوات العليا لتعلو بها الى حيث يكون مستقر هذا الدين ومهبطه الأول الأعلى

ولهذا فاننا نحمّل الدعاة الى الابتداع فى هذا الدين أوزار ضعف أثره فى النفوس وأوزار صدوفها عنه رغبة عما مزج به من مبتدعات المبتدعين السخفاء الأغبياء . . ونعد دعاة البدع من شر خصوم الأديان وخصوم الانسان ، ونهيب بالمؤمنين إلى أن يتضافروا على تطهير الدين وتخليصه من هذه الزلات والعورات والترهات التى حملت عليه فشوهت محاسنه أو بالأصح ألقت عليه سرادقا كثيفا من جفاء وغباء ووحشة ينظر اليها بعين الحذر والريبة والزراية الأليمة والمضاضة المرة .

ونحن فى كتابنا هذا نهد إن شاء الله ركنا من أركان هذا الباطل ونهتك حجابا من هذه الحجب التى ضربت على الدين والتى فرضت على عقول جمهرة كبيرة من الناس

وليس فى المخلوقات كلها ما هو أعجب أمراً من الانسان ولا ما هو أكثر جمعا للمختلفات منه . فالانسان أمره كله عجب . انظر اليه فبينما ترى فريقا منه ينازع الملائكة الطهر والسمو الروحى والجمال المعنوى النفسى إذا بك ترى فريقا آخر منه ينازع الشياطين الخبث والانحطاط الروحى والقبح المعنوي النفسى

ثم انظر اليه فبينما ترى فريقاً منه يسمو ويمعن فى سموه حتى يتصل بالملأ الأعلى بل ويتجاوزه حتى يتصل بالرب الأعلى فيحظى بخطابه نجيا فيصطفيه بكلامه وبرسالاته إذا أنت ترى فريقا آخر منه يهوى ثم يغلو فى هويه فى دركات الصغار والضعة والهوان المزرى حتى يرضى لنفسه بأن تتعبد الأحجار والأشجار والجماد الصامت الوضيع وتتلمس حاجاتها وشفاء كلومها تحت أطباق الرغام وبين ضرائح الرمم وعظام الموتى وهيا كل الانسان الفانية البالية وحتى تشكو قضاء السماء الى

وهين الثرى و البلى وحتى يفزع الانسان الحى السوى الى الانسان الميت يستدفع به فوادح الأقدار

ضل الانسان وغوى فعبد الشمس و القمر و الأجرام العلوية فقيل أغراه بهذه الضلالة و بهذا النزول الفكرى الاعتقادى ما رآه فى هذه الأفلاك العلوية النيرة من الجلال و الجمال و الاشراق الباهر والمنظر المشهود الفتان ، ثم ضل و غوى فعبد الملائكة فقيل أغراه بعبادتهم ما أكرمهم الله به من طهارة وعلو ومن اتصال به تعالى ومن خصائص خلقية عجيبة ، ثم ضل وغوى فعبد هذه الأنهار المتدفقة عن اليمين وعن الشمال فقيل أغراه بعبادتها ما أودعها الله من المنافع للانسان والحيوان ، ثم ضل وغوى وانحط غيه وضلاله فعبد الأحجار و الأخشاب و الستائر المنصوبة على هيكل مخلوق ضعيف عاجز عن نفع نفسه وعن ضرها حيا . فلما أن قيل ما الذى أغراه بعبادة هذه الأخشاب والأحجار والأجداث وما الذى أبصره هنالك حتى ضل هذا الضلال المبين لم يكن الجواب سوى أن يقال أغراه بهذا نقص الانسان وإفلاس الانسانية و انحدار مداركها انحداراً يصرخ في وجه الانسان المزهو بإنسانيته قائلا : ها هنا ينتحر العجب الانسانى وها هنا تنتحر الانسانية

عرج على قبر من تلك القبور ثم استمع حشرجة تلك الصدور بهتافات الرغبة وإعوال الرهبة وتسمع تساقط الرغبات الملحة من تلك الشفاه الذابلة بحرارة الذعر و توهج الرجاء وانظر الى تلك الوجوه الذاهلة الساهمة بنشوة الخضوع وجلال الخشوع و الى تلك الدموع المتحدرة فى الحس ماء من العين وفي العقل عبادة واستسلاما لغير الله من القلب والعقل و إهانة كبرى للانسانية أينما كانت ، والى تلك الأيدى المبسوطة ظاهراً بالآمل المبسوط على تلك الستائر والأبواب والأخشاب والعمد المبسوطة معنى الى كرامة الانسان ومجد العبودية الالهية لتمزيقها شر ممزق و الى الشرف الانسانى الرفيع لتهبط به تحت أقدام الموتى وأشلاء

الفناء وانظر الى تلك الوفود المختلفة المزدحمة ذات الحاجات المختلفة المزدحمة والجموع المتدافعة على تلك القباب والأبواب ذات الأنواط والحبال وعلى تلك لأضرحة رجاء البعيد القصى وقرة عين القريب النجى

انظر الى ذلك كله وتسمع ما هنالك كله ثم صب الدمع سخينـاً غزيراً على كرامة الانسان ومجده وعلى عزة العبودية الماجدة الواحدة الموحدة المراقة بلا ثمن سوى الخزى والعار فى الدنيا ثم الويل والنار فى الأخرى ثم قل والخطاب للمسلم وحده :

ويحك أيها المسلم ماذا دهاك ؟ !! ان أسلافك الأماجد لم يقنعوا بهذا العالم كله مطلباً وغاية حتى عقدوا من أسيافهم وصالح أعمالهم درجات يتطون بها ثبج الهواء ويشقون بها حواجز المادة والطبيعة ليتصلوا بغاية الغايات ونهاية كل موجود فما أنت والرضا بالتراب ؟؟ ولقد كان المسلم يتلو قول الله « أليس الله بكاف عبده » فيحمل سيفه المثلم ورمحه المحطم من مسايفـة الأبطال ومقارعة الصناديد المغاوير فيقذف نفسه فى غمرات الموت يطعن ويضرب فلا يفكر فى أن ينهزم وصدره يعى هذه الآية ومعناها العلوى السماوى ، حتى لو وقف العالم كله ليصـده عما أراد وليحول بينه وبين الانتصار للحقيقة الواحدة الخالدة . فما أنت وخشية التراب ؟ ؟

ولقد كان الأعرابى يلقى محمداً ﷺ فيتلو عليه قول الله : « كل شىء هالك الا وجهه » فتتضاءل المخلوقات وتتـلاشى فى عينه ومن نفسه حتى يدركها الفناء فيروح يضرب الباطل ويفلق هامات الضلال غير حاسب لغير الله حسابا وغير قابل إلا لخالقه حكما وغير محس لغير الحق وحده وجوداً . فيكبر هو فى عين الوجود وفى نفسه حتى يتصدع له بناء الطبيعة ويخشع له إجلالا قانون المادة ، ويجل فى حساب الباطل والضلال حتى يبصرا فى كل شعرة منه ألف جحفل يقاتل فى سبيل الله . فما أنت والرغبة فى التراب ؟؟

وكان المشرك الدنس يتلق لا إله إلا الله فتتمشى فيه فتعقم جسمه ونفسه وتطهرهما من معانى الشهوة والفسوق والحيوانيـة النهمة فيسمو على الشهوات وحاجات النفوس وعلى مآرب الطبيعة وحاجات المـادة فيزوح ويغدو ملكا فى أثواب انسان ومعنى طاهرا مقدساً فى صورة مادة . فمـا أنت ومساءلة الأطلال الفانية ؟؟ !

وكان المسلم الأول يمر على قول الله « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » فتحول بينه وبين الخلق جميعا وتسد عليه طريق الرغبـة في العباد كافة فتمر به مصائب الناس جميعاً ويلتى فى حياته معنى صفة الله الجبار الممحص في معناها الجلى الظاهر الكامل فلا يدل مخلوقا على مكان ألمه ولا يكشف لغير الله عن موضع علته ولا تسمع منه أذن مخلوقة قولة آه ولا يسأل مخلوقا عونا حتى لقد كان تسقط منه عصاه فلا يقول لأحد ناولنيه . فمـا أنت ودعوة الأموات والشكوى الى الرمم والعظام النخرة

ويلك أيها المسلم ماذا غرك بهذه الأنصاب والأجداث ؟؟ أرأيت شيئا منها خلق شيئا منك فاستحق خضوعه وعبادته ورغبته ورهبته . أم علمت أن شيئا منها خلق شيئا من هذا العالم فملكه حتى طمعت فيما خلق وملك فرحت تسأله وتستوهبه إياه برغب ورهب . أم وجدت أن شيئا منها امتنع على الله حتى رحت ترجو منعته أو أعانه وشاركه حتى رغبت فى معونته ومشاركته . أم وجدت هذه الأخشاب والأبواب والأموات أقرب اليك من الله وأرحم بك وأعلم بحاجتك منه أم أسرع إجابة وأوسع سلطانا وأعظم فضلا من رب العالمين فطفقت تسألها حاجاتك يوم يسأل المؤمنون ربهم . أم علمت أن الله لا يسمع دعاءك ولا يتقبل عبادتك حتى تذل لعبيده وحتى تسألهم أن يعطوك ما لايملكه وما لايقدر على ملكه واعطائه سوى رب العالمين . . ؟؟؟

ويحك أيها المسلم رغبت عن الله فرغب الله عنك ، ورغبت فى غير الله فرغب من رغبت فيه فى الله عنك . فلا أنت أدركت رضا الله ولا أنت أدركت رضا من رغبت فى رضاه فخسرت الرضوانين وهذا هو أشد الخسران ، فتخلى الله عنك بنصره وعونه إذ تخليت أنت عن استنصاره واستعانته ، وتخلى عنك الخيار من عباده إذ تخليت عن إرشادهم وسنتهم فخلا بك الشرار من خلقه فافترسوك فهلكت بين نسيان الله والخيار من عباده لك وبين ثورة الشرار من خلقه بك ، فأصبحت فى الهالكين الغابرين

ويحك أيها المسلم؟ !! شرب المؤمنون صفواً وشربت أنت كدراً ، ودعوا هم رباً واحداً ودعوت أنت ألف رب « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ، ورغبوا هم فى السماء ورغبت أنت فى الارض ، ونادوا هم خالق الاحياء وناديت أنت أشلاء الاموات ، ورفعوا أبصارهم الى السماء ونكست طرفك وخفقت برأسك أنت الى الثرى ، وأين الثرى من السماء وأين عابد الأموات من عابد المحيى المميت الذى لا يموت ؟ « هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون »

أو لم يبلغك أيها المسلم مصارع المشركين الأولين وكيف فعل الله بمن عدلوا به غيره من الاوثان والصالحين والأنبياء ؟ ألم يأخذ الله اولئك المشركين كلهم الى الهلاك ثم الى النار سوقاً بكلمة لا إله إلا الله إذ تواصوا بآبائها قائلين « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ؟ »

أما وجدت فى كتاب الله مثلات الاولين والآخرين وأمثال الهدى والضلال المبين ؟ ويلك لقد انقطعت الرسالات واحتبست السماء الكتب فلا رسالة بعد رسالة محمد عليه السلام ولا كتاب بعد كتاب الله القرآن فان لم تجد فيهما الهدى فلن تجده ولن تكون من المهتدين

هذا في المسلمين بلاء أي بلاء ومنكر مافوقه منكر . وليس هنالك ماهو شر منه سوى أن يقوم رجال محسوبون على العلم والعلماء وعلى الاسلام والمسلمين يذودون عن ذلك بغيرة لا أدري بماذا أصفها ، ويثابون من أنكره من صالح المؤمنين ثلباً مراً مزعجاً ويملئون عليه الفضاء صراخاً واعوالا ويرجفون به وبأمره ارجافا رنانا هائلا زاعمين أنه خرج على الاسلام والمسلمين وعاند الكتاب والسنة وقال قول الفرقة الضالة الملحدة متهميه بإرادة السوء بالاسلام وبالهوى وبالشنع الاخرى متلمسين في كتاب الله ورسالة نبيه البراهين على بطلان أمره وضلال رأيه مزورين هذا في كتب وقراطيس مطبوعة محاولين اقناع المسلمين بها وخديعتهم بأمرها

هذا من شر مافي المسلمين ومن أظهر مافيهم من باطل قامت عليه عيونهم المشهودة المشهود أثرها في كل حال من حالاتهم

وسيشهد القارىء لكتابنا هذا أسلوباً من هذه الاساليب الملتوية وصراعاً عظيما بين هذا الداء العتيد في الانسانية الضالة وبين علاجه الحاسم . والله من وراء كل قصد واليه المآب وعليه الحساب

١٤ رمضان سنة ١٣٥٥ — المؤلف

لماذا ألفت هذا الكتاب ؟

في ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هجرية بعث إليّ الوجيه الحجازي المعروف محمد أفندي نصيف بكتاب « كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب » وقد كتب حضرته على طرته العبارة الآتية : « إن مؤلف هذا الكتاب قد أتى بأشياء لم يأت بها أحد قبله من أعداء الدعوة الاسلامية . فأرسلته لكم لابداء رأيكم فيه ، وللرد عليه »

فقلبت صفحات الكتاب مرة ومرة فرأيت فيه ما جعلني أتردد في الكتابة عنه . ثم بعث هـذا الوجيه خطاباً الى أحد الاعزّة في مصر يطلب اليه فيه أن يطلب إليّ الرد على الكتاب . فصح عزمي و كتبت ما يأتي :

ليس عجيباً أن تسيء الشيعة الى أهل نجد وغيرهم من أهل السنة وتضيف اليهم من المعايب والشنع أفظعها وأ كذبها ، أو ترميهم بالفسوق والكفور وبالامور الكبريات الأخريات ، أو تجدّ في مناوأتهم وايقاع الأذى بهم ، أو تؤلف الكتب المملوءة بذاءة ووقاحة . ليس شيء من ذلك عجيباً من طائفة الشيعة وقد أ كفروا خيار البشر وقدحوا فيهم أمرّ القدح وأ كذبه ، فلسنا نطمع منهم في ولاء أو ثناء وقد عادوا أبا بكر وعمر والسيدة عائشة وحفصة وطلحة والزبير وفضلاء المهاجرين والانصار ومن تولاهم . وآذوا الله عز شأنه فوصفوه بالبداء ومعناه أنه يفعل الامر فيبدو له منه ما كان خافياً فيستأنف الحكم والعمل . ومعنى هذا وصفه بالجهالة ، وقد وصفه اشياخهم ايضاً بصفات النقص كالحلول والجسمانية كما سوف ترى ذلك . وآذوا رسول الله ﷺ فقال فريق من اشياخهم : إن الرسالة كانت للامام علي ولكن جبريل غلط فأداها الى محمد عليه الصلاة والسلام . وآذوا جبريل

نفسه فوصفوه بالغلط فى أشرف الأمور وهو أداء رسالة الله . فعدوه لذلك عدوّهم المبين . وآذوا سائر المسلمين إذ لم يوافقوهم على عداوة صحابة رسول الله ، وعلى الغلو فى من يعدونهم أئمتهم المعصومين ، فدعوا المسلمين لذلك (النواصب) ، ويعنون بذلك أنهم أعداء بيت النبوة ، فقدحوا فى عقائدهم ودينهم وأئمتهم ، واستحلوا دماءهم وأموالهم . ومن أقوال كتبهم عن أئمتهم : « خذ مال الناصبى وادفع الخمس » وفارقوهم فى الجمع والجماعات ، وخالفوهم فى شعائر الاسلام كالصلاة والحج والشعائر الاخرى ، وتخلفوا عنهم فى الجهاد ، وناصبوا أمراءهم العداوة والبغضاء وسعوا فى تمكين أعدائهم منهم وأخذ نواصيهم . وأعانوا أخصام الاسلام نقمة من أمراء النواصب وسلاطينهم ـ كما يزعمون ـ وقعدوا عنهم فى كل أمر به نصرة الاسلام أو نصرة أوطان المسلمين ، وأتوا كل ما من شأنه إلقاء العداوة والفشل بين صفوف الاسلام ، وكل ما من دأبه أن يبعث الأحقاد القديمة الكامنة والحزازات الساكنة

ولا يزالون يأتون ذلك فى كل المناسبات وفى كل وقت تتحرك به نفوس المسلمين الى نصرة الاسلام أو نصرة أوطانه . وقى الله دينه وعباده شرهم

وقد كان أول أمر هذه الطائفة أن رجلا يهودياً يقال له عبد الله بن سبأ فى فجر الاسلام رأى سلطان الاسلام وقوته وعلوه على سائر الأديان وتهاوى عروش الباطل تحت عرشه الحق فغاظه ذلك فأراد الكيد له والايقاع الفظيع بأهله . وقد يكون عضواً قويا لجمعية سرية هائلة أنشئت لهدم الاسلام . وليس ببعيد أن يكون من أعضاء هذه الجمعية أبو لؤلؤة الغلام المجوسى الذى قتل الخليفة عمر . فان طوائف من الشيعة يحبون هذا الغلام المجوسى ويرون أنه قد أسدى اليهم يداً إذ قتل عمر . فتظاهر هذا اليهودى بالاسلام وادعى الايمان بالله وبرسوله ولجأ الى الزهد والى عون المظلومين فى زعمه فجهر بأن علياً مظلوم ظلمه أصحاب محمد النواصب

حسداً منهم وطمعاً في الرئاسة والملك ، فاغتصبوا الخلافة منه وهى حقه المعلوم ، واستبدوا بالأمر دونه فهم الظالمون وهو وآله المظلومون وهم الخونة المستبدون وهو وآله المستضعفون المغبونون . وطوبى لمن رجع الحق الى أهله ومستحقيه ، فدعا إلى الانتقام من صحابة رسول الله ﷺ خصوم علي ، والى عون على صاحب الامر ووليه ولم يقف أمر هذا اليهودى الخائن عند هذا الحد بل غلا وأسرف في غلوه طمعاً منه في تفاقم الفتن والفشل والهرج والمرج فادعى في علي الالوهية وزعم أن فيه جانباً إلهياً ، وربما زعم أن الله قد حل فيه كدعوى المسيحيين في المسيح . فأنت علياً دعواه فهمّ بالانتقام منه ، وأراد الايقاع به ، فهرب منه وظل يتنقل من بلد الى بلد مدعياً دعواه المنكرة داعياً الناس اليها ، وليس أمثال هذا الرجل منا ببعيد فكثير من الاوروبيين اليوم يدعون الاسلام ، أو يدعون حب العرب ونصرتهم . ومرادهم الذي يضمرون وله يسعون ، هو هدم الاسلام ، وافتراس أهل الاسلام كيداً وغشاً

فتطاير صدى دعوى هذا اليهودى الى بعض الأذهان المريضة ، ونادى قوم بألوهية علي وبأنه الله سبحانه وتعالى . فتنة يهودية محكمة . فاستتابهم الامام على فلم يتوبوا ، فأضرم نيراناً عظيمة وقذفهم فيها فازدادوا بذلك ضلالا وكفرا وقالوا الآن علمنا بأنك أنت الله ، إذ لا يعذب بالنار الا رب النار . فأخاف عقاب علي قوماً منهم فكتموا كفرهم وضلالهم لا أبداً ولكن الى حين ، الى أن تتهيأ لهم الفرصة ويأتى اليوم الذى به يستطيعون أن يقولوا كل ما يضمرون ، والتقية والنفاق من أبرز صفات الشيعة وعقائدهم . وهؤلاء هم أهل الدهاء منهم والمكر السيىء

وكانت هاتان الحادثتان أساس المذهب الشيعي والحجر الأول في بنائه ، عليهما أقيم المذهب وعنهما تفرعت حماقات الشيعة وعقائدهم الباطلة الآثمة ، ومن هذا الطريق أتى أهل الالحاد المدعون التشيع والغلو في علي وأولاده كالفاطميين والاسماعيليين والمختاريين

حماقات الشيعة

فى هذا الفصل ننقل من أوثق المصادر التاريخية طائفة من حماقات الشيعة ومعتقداتهم السخيفة فى الله ورسوله وآله وفى المؤمنين

قال ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان « فصل فى مذاهب الشيعة » :

« ومن الشيعة طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان فى القول بألوهية هؤلاء الأئمة ، إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الالوهية أو أن الاله حل فى ذاته البشرية . وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى فى عيسى صلوات الله عليه . ولقد حرق على رضى الله عنه بالنار من ذهب فيه الى ذلك منهم ، وسخط محمد بن الحنفية المختار بن أبى عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه ، فصرح بلعنته والبراءة منه . وكذلك فعل جعفر الصادق رضى الله عنه بمن بلغه مثل هذا عنه . ومنهم من يقول إن كمال الامام لايكون لغيره فاذا مات انتقلت روحه الى امام آخر ليكون فيه ذلك الكمال ، وهو قول بالتناسخ

ومن هؤلاء الغلاة من يقفون عند واحد من الأئمة لايتجاوزونه الى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم ، وهؤلاء هم الواقفية . فبعضهم يقول هو حى لم يمت وأنه غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك بقصة الخضر . قيل مثل ذلك فى على رضى الله عنه وأنه فى السحاب والرعد صوته والبرق فى سوطه . قالوا مثل ذلك فى محمد بن الحنفية وانه فى جبل رضوى من أرض الحجاز . وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثنا عشرية منهم يزعمون أن الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدى دخل فى سرداب بالحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الارض عدلا وهم الى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك . ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب

وقد قدموا مركبًا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الأمر الى الليلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد ، وبعض هؤلاء الواقفية يقول ان الامام الذى مات يرجع الى حياته الدنيا »

وقال أبو حفص بن شاهين فى كتاب اللطف فى السنة : حدثنا محمد بن أبى القاسم بن هرون حدثنا أحمد بن الوليد الواسطى حدثنا جعفر بن نصير الطوسى الواسطى عن عبد الرحمن بن مالك بن مغول عن أبيه قال : قال الشعبى « أحذركم أهل هذه الأهواء المضلة وشرها الرافضة . لم يدخلوا فى الاسلام رغبة ولا رهبة ولكن مقتاً لأهل الاسلام وبغياً عليهم قد حرقهم على رضى الله عنه ونفاهم الى البلدان منهم عبد الله بن سبأ يهودى من يهود صنعاء نفاه الى ساباط وعبد الله بن يسار الى خازر . وأية ذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود : قالت اليهود لا يصلح الملك إلا فى آل داود وقالت الرافضة لاتصلح الامامة إلا فى ولد على . وقالت النصارى لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال وينزل سيف من السماء وقالت الرافضة لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى وينادى مناد من السماء ، واليهود يؤخرون الصلاة الى اشتباك النجوم وكذلك الرافضة يؤخرون المغرب الى اشتباك النجوم . والحديث عن النبى ﷺ أنه قال : لا تزال أمتى على الفطرة مالم يؤخروا المغرب الى اشتباك النجوم . واليهود تزول عن القبلة شيئا وكذلك الرافضة ، واليهود تنود فى الصلاة وكذلك الرافضة ، واليهود تسدل أثوابها فى الصلاة وكذلك الرافضة ، واليهود لا يرون على النساء عدة وكذلك الرافضة . واليهود حرفوا التوراة وكذلك الرافضة حرفوا القرآن . واليهود قالوا افترض الله علينا خمسين صلاة وكذلك الرافضة ، واليهود لا يخلصون السلام على المؤمنين انما يقولون السام عليكم والسام الموت وكذلك الرافضة ، واليهود لايأ كلون

الجرى و المرماهى [١] وكذلك الرافضة ، واليهود لا يرون مسح اثنين و كذلك الرافضة ، واليهود يستحلون أموال الناس كلهم وكذلك الرافضة ، وقد أخبرنا الله عنهم بذلك فى القرآن قالوا « ليس علينا فى الأميين سبيل » واليهود تسجد على قرونها فى الصلاة وكذلك الرافضة ، واليهود لاتسجد حتى تخفق برؤسها مراراً تشبيها بالركوع وكذلك الرافضة ، واليهود ينتقصون جبريل ويقولون هو عدونا من الملائكة وكذلك الرافضة يقولون غلط جبريل بالوحى على محمد ، وكذلك الرافضة وافقوا النصارى فى خصلة ، النصارى ليس لنسائهم صداق انما يتمتعون بهن تمتعاً وكذلك الرافضة يتزوجون بالمتعة ويستحلون المتعة . وفضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين : سئلت اليهود من خير أهل ملتكم ؟ قالوا أصحاب موسى ، وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم ؟ قالوا حوارى عيسى ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم ؟ قالوا أصحاب محمد . أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم ، والسيف عليهم مسلول الى يوم القيامة . لا تقوم لهم راية ولا يثبت لهم قدم ولا يجتمع . ولا تجاب لهم دعوة ، دعوتهم مدحوضة وكلمتهم مختلفة وجمعهم متفرق وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله »

وقال الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل تحت عنوان « الشيعة » :

« ومنهم الكيسانية أصحاب كيسان مولى أمير المؤمنين على رضى الله عنه وقيل تلميذ السيد محمد بن الحنفية يعتقدون فيه اعتقاداً بالغاً من إحاطته بالعلوم كلها واقتباسه من السيدين الأسرار بجملتها . ويجمعهم القول بأن الدين طاعة رجل حتى حملهم ذلك على تأويل الاركان الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج

---

(١) نوعان من السمك تزعم الشيعة أن عليا رضى الله عنه وقف على البحر فخرج اليه أنواع السمك وسلمت عليه ماسوى هذين النوعين فهما حرام لذلك

وغيرها على رجال فحمل بعضهم على ترك القضايا الشرعية بعد الوصول الى طاعة الرجل. وحمل بعضهم على ضعف الاعتقاد بالقيامة وحمل بعضهم على القول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت، فمن مقتصر على واحد معتقد أنه لا يموت ولا يجوز أن يموت حتى يرجع، ومن معد حقيقة الامامة الى غيره ثم متحسر عليه متحير فيه ومن يدع حكم الامامة فليس من الحيرة. وكلهم حيارى منقطعون ومن اعتقد أن الدين طاعة رجل ولا رجل له فلا دين له. وأعوذ بالله من الحيرة والحور بعد الكور»

قال ومنهم الهاشمية أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية وفرقة من أتباع هذا الرجل قالت إن أبا هاشم أوصى الى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى. وكان من مذهب عبد الله أن الارواح تتناسخ من شخص الى شخص وأن الثواب والعقاب فى هذه الاشخاص اما أشخاص بنى آدم وإما أشخاص الحيوانات

قال وروح الله تناسخت حتى وصلت اليه وحلت فيه. وادعى الألوهية والنبوة معاً وأنه يعلم الغيب فعبده شيعته الحمقى وكفروا بالقيامة لاعتقادهم أن التناسخ يكون فى الدنيا والثواب والعقاب فى هذه الاشخاص. وتأول قول الله تعالى «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فى ماطعموا» الآية على أن من وصل الى الامام وعرفه ارتفع عنه الحرج فى جميع ما يطعم ووصل الى الكمال وعنه نشأت الخرّمية والمزدكية بالعراق وهلك عبد الله بخراسان وافترقت أصحابه فنهم من قال إنه حى لم يمت ويرجع. ومنهم من قال بل مات وتحولت روحه الى اسحاق بن زيد بن الحارث الانصارى وهم الحارثية الذين يبيحون المحرمات ويعيشون عيش من لا تكليف عليه. قال ومنهم البنانية أتباع بنان بن سمعان قالوا بانتقال الامامة من أبى هاشم اليه. وهو من الغلاة القائلين بالهية أمير المؤمنين على. قال حل فى على جزء إلهى واتحد جسده فيه. كان يعلم الغيب اذا أخبر عن الملاحم وصح اخبر وبه كان يحارب الكفار وله النصرة والظفر، وبه قلع باب خيبر

وعن هذا قال والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانيه ولا بحركة غذائية ولكن قلعته بقوة ملكوتية بنور ربها مضية . فالقوة الملكوتية فى نفسه كالمصباح فى المشكاة والنور الالهى كالنور فى المصباح . قال وربما ظهر على فى بعض الأزمان . وقال فى تفسير قوله تعالى « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » أراد به عليا فهو الذى يأتى فى ظلل ، والرعد صوته والبرق تبسمه . ثم ادعى بنان أنه قد انتقل اليه الجزء الالهى بنوع من التناسخ . ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة وذلك الجزء هو الذى استحق به آدم سجود الملائكة . وزعم أن معبوده على صورة إنسان عضوا فعضواً جزءاً فجزءا . وقال يهلك كله إلا وجهه لقوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه » . ثم قال الشهرستانى ومنهم الرزامية أتباع رزام ادعوا حلول روح الاله فى أبى مسلم الخراسانى وقالوا بتناسخ الارواح . والمقنع الذى ادعى الألوهية لنفسه كان على هذا المذهب وتابعه مبيضة ماوراء النهر وهؤلاء صنعة من الخرمية دانوا بترك الفرائض وقالوا الدين معرفة الامام فقط . ومنهم من قال الدين أمران معرفة الامام وأداء الامانة ، من حصل له الأمران وصل الى حال الكمال وارتفع عنه التكليف» قال ومنهم الغالية الذين غلوا فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم بأحكام الالهية فربما شبهوا واحداً من الائمة بالاله وربما شبهوا الاله بالخلق وهم على طرفى الغلو والتقصير . وانما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق والنصارى شبهت الخلق بالخالق ، فسرت هذه الشبهات فى أذهان الشيعة الغالية حتى حكمت بأحكام إلهية فى حق بعض الأئمة . وكان التشبيه بالأصل والوضع فى الشيعة وبدع الغلاة محصورة فى أربع التشبيه والبدء والرجعة [1] والتناسخ

---

(١) المراد بالرجعة رجوع من مات أو غاب من أئمتهم الى الدنيا

قال : ومنهم السبائية أصحاب عبد الله بن سبأ الذى قال لعلى : أنت أنت . يعنى أنت الاله ، وزعموا أنه كان يهودياً فأسلم وعنه انشعبت أصناف الغلاة ، وزعموا أن علياً حى لم يقتل وفيه الجزء الالهى ، ولا يجوز أن يستولى عليه ، وهو الذى يجىء بالسحاب والرعد صوته والبرق تبسمه ، وأنه سينزل بعد ذلك الى الأرض ، وهم أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة وقالت بتناسخ الجزء الالهى فى الأئمة بعد على

قال : ومنهم الكاملية أصحاب أبى كامل أكفر جميع الصحابة بتركهم بيعة على وطعن في على بتركه طلب حقه ، قال : وكان عليه أن يخرج ويظهر الحق ، على أنه غلا فى حقه . وكان يقول الامامة نور يتناسخ من شخص الى شخص وذلك النور فى شخص يكون نبوة وفى شخص يكون إمامة ، وربما تتناسخ الامامة فتصير نبوة وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت . والغلاة على أصنافهم متفقون على التناسخ والحلول[1] ، ولقد كان التناسخ مقالة لفرقة فى كل أمة تلقاها من المجوس المزدكية والهند البرهمية ومن الفلاسفة والصابئة ، ومذهبهم أن الله قائم بكل مكان ناطق بكل لسان ظاهر بشخص من أشخاص البشر ، وذلك معنى الحلول ، وقد يكون الحلول بجزء وقد يكون بكل

قال : ومنهم العليائية أصحاب العلياء بن ذراع الدوسى ، كان يفضل علياً على النبى عليه الصلاة والسلام ، وزعم أنه الذى بعث محمداً وسماه إلهاً وكان يقول بذم محمد لأنه بعث ليدعو الى على فدعا الى نفسه ، ويسمون هذه الفرقة الذمية ، ومنهم من قال بالهيتهما معاً ويقدمون علياً فى أحكام الالهية ويسمونهم العينية ، ومنهم من قال بالهيتهما معاً ويقدمون محمداً فى الالهية ويسمونهم الميمية ، ومنهم من قال بالهية خمسة أشخاص أصحاب الكساء محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين ، وقالوا :

---

(١) المراد بالحلول فى كلام القوم حلول ذات الله فى بعض ذوات المخلوقين

خمستهم شيء واحد والروح حالة فيهم بالسوية لا فضل لواحد على الآخر وكرهوا أن يقولوا فاطمة بالتأنيث بل قالوا فاطم

قال ومنهم المغيرية أصحاب المغيرة بن سعيد العجلى ادعى أن الامام بعد محمد ابن على بن الحسين محمد بن عبد الله بن الحسن وزعم أنه حى لم يمت . وكان المغيرة مولى لخالد بن عبد الله القسرى ، وادعى الامامة لنفسه بعد الامام محمد وبعد ذلك ادعى النبوة وغلا فى حق على غلواً لايعتقده عاقل وزاد على ذلك قوله بالتشبيه فقال ان الله صورة وجسم ذو أعضاء على حروف الهجاء وصورته صورة رجل من نور على رأسه تاج من نور وله قلب تنبع منه الحكمة . وزعم أن الله لما أراد خلق العالم تكلم بالاسم الأعظم فطار فوقع على رأسه تاجا . قال وذلك قوله : « سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى » ثم اطلع على أعمال العباد وقد كتبها على كفه فغضب من المعاصى فعرق فاجتمع من عرقه بحران أحدهما مالح والآخر عذب والمالح مظلم والعذب نير . فاطلع فى البحر النير فأبصر ظله فانتزع عين ظله فخلق منها الشمس والقمر وأفنى باقى ظله . وقال لا ينبغى أن يكون معى إله غيرى . قال ثم خلق الخلق كله من البحرين المؤمنين من البحر النير والكافرين من البحر المظلم وخلق ظلال الناس . وأول ما خلق هو ظل محمد وعلى قبل ظلال الكل ثم عرض على السموات والأرض والجبال أن يحملن الأمانة وهي أن يمنعن على بن أبىطالب من الامامة فأبين ذلك ثم عرض على الناس فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك وضمن أن يعينه على الغدر به على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده فقبل منه وأقدما على المنع متظاهرين . فذلك قوله « وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا » وزعم أنه نزل فى عمر قوله تعالى « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك » . ولما أن قتل المغيرة اختلف أصحابه فمنهم من قال بانتظاره ورجعته ، ومنهم من قال بانتظار إمامة محمد كما كان يقول

هو بانتظاره . وقد قال المغيرة لأصحابه انتظروه فانه يرجع وجبريل وميكائيل يبايعانه بين الركن والمقام »

وقال « ومنهم المنصورية أصحاب أبى منصور العجلى. زعم هذا الرجل أن عليا رضى الله عنه هو الكسف الساقط من السماء وربما قال الكسف الساقط من السماء هو الله عز وجل . وزعم حين ادعى الامامة لنفسه أنه عرج به الى السماء ورأى معبوده فمسح بيده رأسه وقال له : يابنى انزل فبلغ عنى ثم أهبطه الى الأرض فهو الكسف الساقط من السماء . وزعم أن الرسل لاتنقطع أبداً والرسالة لاتنقطع . وزعم أن الجنة رجل أمرنا بموالاته وهو امام الوقت وأن النار رجل أمرنا بمعاداته وهو خصم الامام . وتأول المحرمات كلها على أسماء رجال أمرنا الله بمعاداتهم وتأول الفرائض على أسماء رجال أمرنا بموالاتهم . واستحل أصحابه قتل مخالفيهم وأخذ أموالهم واستحلال نسائهم . وإنما مقصودهم من حمل الفرائض والمحرمات على أسماء رجال هو أن من ظفر بذلك الرجل وعرفه فقد سقط عنه التكليف وارتفع عنه الخطاب إذ وصل الى الجنة وبلغ الكمال . ومما أبدعه العجلى أن قال أول « ماخلق الله هو عيسى بن مريم ثم على بن أبى طالب »

قال « ومنهم الخطابية أصحاب أبى الخطاب محمد بن أبى زينب الأسدى . زعم أن الأئمة أنبياء ثم آلهة ،وقال بالهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه وهم أبناء الله وأحباؤه . والالهية نور فى النبوة والنبوة نور فى الامامة ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار . وزعم أن جعفرا هو الاله فى زمانه وليس هو المحسوس الذى يرونه ولكن لما نزل الى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها . ولما وقف عيسى ابن موسى صاحب المنصور على خبث دعوته قتله بسبخة الكوفة : وافترقت الخطابية بعده فرقا : زعمت فرقة أن الامام بعد أبى الخطاب رجل يقال له معمر ودانوا به كما دانوا بأبى الخطاب وزعموا أن الدنيا لاتفنى وأن الجنة هى ما يصيب الناس من

خير ونعمة وعافية وأن النار هي ما يصيب الناس من شر ومشقة وبلية واستحلوا الخمر والزنى وسائر المحرمات ودانوا بترك الصلاة والفرائض وتسمى هذه الفرقة المعمرية . وزعمت طائفة أن الامام بعد أبي الخطاب بزيغ وكان يزعم أن جعفراً هو الاله أي ظهر بصورته للخلق وزعم أن كل مؤمن يوحى اليه وتأول قول الله « وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله » أي إلا بوحي من الله إليه . وكذلك قوله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل » وزعم أن في أصحابه من هو أفضل من جبريل وميكائيل وزعم أن الانسان إذا بلغ الكمال لايقال إنه مات لكن الواحد منهم اذا بلغ النهاية قيل رفع إلى الملكوت وادعوا كلهم معاينة أمواتهم وزعموا أنهم يرونهم بكرة وعشيا : وتسمى هذه الطائفة البزيغية . وزعمت طائفة أن الامام بعد أبي الخطاب عمير بن بنان العجلي وقالوا كما قالت الطائفة الأولى ، الا أنهم اعترفوا بأنهم يموتون وكانوا قد نصبوا خيمة بكناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة الصادق فرفع خبرهم إلى يزيد بن عمر بن هبيرة فأخذ عميرا فصلبه في كناسة الكوفة وتسمى هذه الطائفة العجلية . وزعمت طائفة أن الامام بعد أبي الخطاب مفضل الصيرفي وكان يقول بربوبية جعفر دون نبوته ورسالته »

وقال « ومنهم المشامية أصحاب الهشامين هشام بن الحكم صاحب المقالة في التشبيه وهشام بن سالم الجواليقي الذي نسج على منواله في التشبيه . حكى ابن الراوندي عن هشام أنه قال : ان بين معبوده وبين الأجسام تشابها ما بوجه من الوجوه ولولا ذاك لما دلت عليه . وحكى الكعبي عنه أنه قال هو جسم ذو أبعاض له قدر من الاقدار ولكن لايشبه شيئا من المخلوقات ولا يشبهه شيء . ونقل عنه أنه قال هو سبعة أشبار بشبر نفسه وأنه في مكان مخصوص وجهة مخصوصة وأنه يتحرك وحركته فعله وليست من مكان الى مكان . وقال هو متناه بالذات غير متناه بالقدرة . وحكى عنه أبو عيسى الوراق أنه قال ان الله تعالى مماس لعرشه لا يفضل

منه شيء من العرش ولا يفضل على العرش شيء منه

وقال هشام بن سالم إنه تعالى على صورة انسان أعلاه مجوف وأسفله مصمت وهو نور ساطع يتلألأ وله حواس خمس ويد ورجل وأنف وأذن وعين وفم وله وفرة سوداء وهو نور أسود لكنه ليس بلحم ولا دم . وقد نقل عنه أنه أجاز المعصية على الأنبياء مع قوله بعصمة الائمة

وقال « ومنهم اليونسية أصحاب يونس بن عبد الرحمن القمي ، زعم أن الملائكة تحمل العرش والعرش يحمل الرب . وهو من مشبهة الشيعة وقد صنف لهم كتبا في ذلك [1] »

وقال الامام ابن حزم في كتاب الملل والنحل تحت عنوان « ذكر شنع الشيعة » :

ومن قول الامامية كلها قديما وحديثا أن القرآن مبدل زيد فيه ماليس منه ونقص منه كثير وبدل منه كثير . حاشا على بن الحسن بن موسى وكان إماميا يتظاهر بالاعتزال مع ذلك . فانه كان ينكر هذا القول ويكفر من قاله. وكذلك صاحباه أبو يعلى وأبو القاسم الرازي . قال ابن حزم : والقول بأن بين الوحيين تبديلا كفر صحيح وتكذيب لرسول الله . وقالت طائفة من الكيسانية بتناسخ الأرواح وبهذا يقول السيد الحميري الشاعر . قال وبلغ الأمر بمن يذهب الى هذا الى أن يأخذ أحدهم البغل أو الحمار فيعذبه ويضربه ويعطشه ويجيعه على أن روح أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فيه وكذلك يفعلون بالعنز على أن روح أم المؤمنين رضي الله عنها فيها . وجمهور متكلميهم كهشام بن الحكم الكوفي وتلميذه أبي على الصكاك وغيرهما يقول ان علم الله محدث وانه لم يكن يعلم شيئا حتى أحدث لنفسه

---

(١) هذا بعض ما كتبه الشهرستاني عن فرق الشيعة مع أنه قد اشترط على نفسه في مقدمته أنه لاينقل عن طائفة الا شيئا وجده في كتبها

علما . وقد قال هشام هـذا فى حين مناظرته لأبى الهذيل العلاف . وكان داود الجوازى من كبار متكلميهم يزعم أن ربه لحم ودم على صورة الانسان ، ولايختلفون فى أن الشمس ردت على علىّ بن أبى طالب مرتين ، وطائفـة منهم تقول ان الله يريد الشىء ويعزم عليه ثم يبـدو له فلا يفعله ، ومنهم من يحرم الكرنب لأنه انما نبت على دم الحسين ولم يكن قبـل ذلك ، وكان يزعم كثير منهم أن علياً لم يكن له سمى قبله . ومنهم طائفة تقول بفناء الجنة والنار » . ثم قال بعد كلام « فهذه مذاهب الامامية وهى المتوسطة فى الغلو من فرق الشيعة ، وأما الغالية من الشيعة فهم قسمان قسم أوجب النبوة بعد النبى لغيره والقسم الثانى أوجبوا الالهيـة لغير الله فلحقوا بالنصارى واليهود وكفروا أشنع الكفر ، فالطائفة التى أوجبت النبوة بعـد النبى فرق فنهم الغرابية وقولهم ان محمداً ﷺ كان أشبه بعلى من الغراب بالغراب وأن الله عز وجل بعث جبريل عليه السلام بالوحى الى على فغلط جبريل بمحمد ولا لوم على جبريل فى ذلك لأنه غلط ، وقالت طائفة منهم بل تعمد ذلك جبريل وكفروه ولعنوه »

« وفرقة قالت بنبوة على وفرقة قالت بأن على بن أبى طالب والحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمـد وموسى بن جعفر وعلى بن موسى ومحمد بن على والحسن بن محمـد والمنتظر بن الحسن أنبياء كلهم . وفرقة قالت بنبوة محمد بن اسماعيل بن جعفر . وفرقة قالت بنبوة على وبنيه الثلاثة . وفرقة قالت بنبوة المغيرة بن سعيد وهو الذى أحرقه خالد بن عبـد الله القسرى ، وكان يقول ان معبوده على صورة رجل على رأسه تاج وأن أعضاءه على عدد حروف الهجاء »

« وذكر هشام بن الحكم الرافضى فى كتابه المعروف بالميزان وهو أعلم الناس بهم لأنه جارهم بالكوفة وجارهم فى المذهب : « ان الكسفية خاصة يقتلون من كان منهم ومن خالفهم ويقولون نعجـل المؤمن الى الجنة والكافر الى النار .

وكانوا بعد موت أبي منصور يؤدون الخمس مما يأخذون ممن خنقوه الى الحسن ابن أبي منصور . وقالت فرقة بنبوة بزيغ الحائك . وفرقة قالت بنبوة معمر بائع الحنطة بالكوفة . وقالت فرقة بنبوة عمير التبان بالكوفة ، وكان يقول لأصحابه : لو شئت أن أعيد هذا التبن تبراً لفعلت »

ثم نقل ابن حزم أشياء كثيرة من شنع الشيعة أعرضنا عن نقلها ، وقال فى آخره : « اعلموا أن كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة ممن ينتمى الى الاسلام فانما عنصرهم الشيعة والصوفية ، فان من الصوفية من يقول ان من عرف الله تعالى سقطت عنه الشرائع وزاد بعضهم واتصل بالله . وبلغنا أن « بنيسابور » اليوم فى عصرنا هذا رجلا يكنى أبا سعيد من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ومرة لا يصلى لا فريضة ولا نافلة ونعوذ بالله من الضلال »

***

مع اعتقاد الشيعة هذه العقائد الشنعاء الموبقة تقتضيها التى لا أحصيها أن تتناول أهل نجد وأهل الحجاز وغيرهم من أهل السنة بالقدح والتجريح وتلصق بهم كبريات التهم وعظائمها وترميهم بإكفار المسلمين ، ومفارقة جماعة المؤمنين وتصنف الكتب الآثمة فى ثلبهم وافساقهم واحراج صدورهم بما تختلقه عليهم وعلى عقائدهم وأخلاقهم وعلى أئمتهم وزعمائهم من البهائت المنكرة والمختلقات المفضوحة

ثم تحاول أن تفهم المسلمين أن أهل نجد وحدهم هم أهل الزيغ والكفر والحماقة . ومع هذه العقائد المشبهة المجسمة التى تصف الحق بصفات الحدوث والضعف والنقص والجهالة والرعونة تجرؤ أن تجاهر بأن السلف من أهل نجد وغيرهم هم الكفار المجسمون الضالون ، لأنهم آمنوا بعلو الله على خلقه كما ذكر القرآن علواً يليق به ليس كمثله شىء وهو السميع البصير

إن هذه لهى الصفاقة التى لا تقف عند حد ، والظلم الذى لا يجرؤ عليه سوى هذه الطائفة الباغية . .

وبهذا الغلو الذى رأيت من طائفة الشيعة فى أئمتهم وبهذا التأليه الذى سمعت منهم لعلى وولده ، عبدوا القبور وأصحاب القبور وأشادوا المشاهد وأتوها من كل مكان سحيق وفج عميق ، وقدموا لها النذور والهدايا والقرابين ، وأراقوا فوقها الدماء والدموع ، ورفعوا لها خالص الخضوع والخشوع . وأخلصوا لها ذلك وخصوها به دون الله رب الموحدين . وعلى هذا الأساس الواهى كرهوا من يريد الله وحده ومن يدعوه وحده . ومن جعل محياه ومماته وصلاته ونسكه وخضوعه وخشوعه لله وحده لا شريك له . وعلى هذا الأساس الواهى كانت كراهية القوم لمن دعا الى عبادة الله وحده ، والى دعائه ورجائه وخوفه وحبه ، وتعظيمه والرجوع اليه وحده . ومن هذا الطريق ـ لا من غيره ـ مقتوا أهل نجد وخصوهم بشديد العداوة والبغضاء والكراهية والأذى . فان طائفة الشيعة مقت القوم بمقدار ما عندهم من

الدين والايمان والاخلاص لله . وتحب القوم بمقدار ما عندهم من الشرك والالحاد والكفر بالله . ولهذا كانت كراهتهم لأبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وطلحة والزبير لا تعادلها كراهة ، فانهم لا يكرهون أبطال الكفر والضلالة من العرب وقريش وغيرهم كراهتهم لخيار الصحابة والأنصار والمهاجرين الأولين ، بل قد يحبون الكافرين بالله وبرسوله لأنهم يبغضون هؤلاء الصحابة ، أو لأن هؤلاء الصحابة حاربوهم ووقعوا معهم فى خصام ، مثل ذلك أن طوائف من أئمة هؤلاء الشيعة الامامية يخلصون الود والولاية لبنى حنيفة الكفار الذين آمنوا بمسيلمة الكذاب المتنبىء و يعتبرونهم مسلمين موحدين ، وذلك ليدعوا أن أبا بكر والصحابة الذين كانوا معه ما كانوا محقين ولا راشدين يوم أن حاربوا بنى حنيفة وقاتلوهم وعدوهم مارقين من الاسلام ، ومثله أيضا أن قوما منهم يترضون عن أبى لؤلؤة الغلام المجوسى الذى قتل الخليفة عمر رضى الله عنه وقد يعدونه من أهل الجنة ولا فضل له عندهم سوى قتله الطاغوت عمر فى زعم القوم أبعدهم الله

والسبب فى هذا كله هو ما ذكرناه من كراهيتهم أهل الايمان والاخلاص والتوحيد ، وجنوحهم الى أهل النفاق والالحاد والاشراك

و يوضح هذا أن هؤلاء الشيعة الامامية لا يرون فى بنى حنيفة الذين آمنوا بمسيلمة المتنبىء الكذاب وكفروا بالله ورسوله بأساً ولا يجدون لهم ذنباً يؤاخذونهم عليه كخروجهم فى بلاد نجد الممقوتة عندهم التى قال فيها الرسول : من هاهنا تخرج الفتنة والكفر والفسوق كما يدعون ، ولكنهم يذمون النجديين ولا يرضونهم اليوم ، و يعدون من الدلائل على ضلالتهم وكفرهم خروجهم من بلاد نجد التى قال فيها الرسول ما قال كما زعموا ، وقد يعدون من ذنوبهم خروجهم فى بلاد بنى حنيفة ومسيلمة ، و ينسون فى سبيل ذلك أن بنى حنيفة من اخوانهم أعداء أبى بكر وعمر والمهاجرين والأنصار كما ينسون أن أشياخهم القدماء كانوا من أنصار بنى حنيفة ،

كما ذكر ذلك ابن المطهر فى كتابه الذى رد عليه شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتابه منهاج السنة ، وذلك قبل أن تصير نجد بلاد التوحيد والايمان واقامة شعائر الاسلام ، والسبب فى ذلك كله هو ما ذكرناه من خلق الشيعة ودينهم

وعلى هذا النحو ألف الشيعة كتاب « كشف الارتياب فى أتباع محمد بن عبد الوهاب » فجاء آية فى أفانين النقص واختلاق الكذب والارتجاج الفكرى وسوء المصير

يشتمل هذا الكتاب على موضوعين أحدهما تاريخ الوهابيين ومبدأ دعوتهم كما يقول صاحب هذا الكتاب ، والموضوع الثانى فى عقيدتهم ، وبيان مذهبهم والرد عليهم تفصيلا وجملة كما ذكروا

اما الموضوع الأول :

أى الموضوع التاريخى فاننا لن نعرض له فى هذا الكتاب . فلسنا نعبأ أو يعبأ الله أو يعبأ أحد من عباده المؤمنين أن تغلط الشيعة فى تاريخ إمام من أئمتنا أو زعيم من زعمائنا أو فى نعت موقعة من مواقع حروبنا دفاعا عن الدين والوطن والخلق . غير أنا نقول هنا إن كل ما يذكره هذا الرافضى فى هذا الموضوع من قتل الأطفال والنساء والرجال غير المحاربين ، وأخذ الأموال بكل ما لا تجيزه الحروب المشروعة دفاعاً عن العدل والدين ، فكذب واختلاق ، ليس له من سند غير التعصب ونضوب الحياء والدين . وكل ما يذكره من القدح فى سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كقوله إنه كان مولعاً بتتبع أخبار مدعى النبوة وأخبار الضلال وكقوله إن أهله وعشيرته كانوا يتنبئون له الشر والمروق والالحاد ، أقول إن كل ما يذكره فى هذا الموضوع من أمثال هذه المقادح كذب مبين . وكذلك ما يذكره على طريق التهويل والتشنيع والارجاف

اما الموضوع الثانى من الكتاب :

وهو ما يخص العقائد والمباحث العلمية التى طرقها هذا الكتاب فهو الموضوع الذى سوف نتناوله . . . ونميز فيه الحق من الباطل والصحيح من السقيم . ونسأل الله أن يعيننا على اجتناب الهوى والتعصب الباطل مع من نحب ومع من نكره . وطريقة صاحب هذا الكتاب فى هذا الموضوع على سبيل الاجمال أنه عمد الى جميع ما ابتدعه المنتسبون للاسلام سواء فى ذلك الخاصة والعامة من أكارين وحمالين وزبالين وصنعة وفعلة ، وسواء في ذلك أيضاً المنافقون والمخادعون الذين دخلوا فى الاسلام لافساده وإفساد أهله وكتابه ، ومن لا خلاق لهم من طلاب الدنيا والشهوات والأغراض على حساب اختراع الغريب من الأقوال والعقائد فى الدين والعلوم والفنون ، وما أكثر هذه الأصناف ، عمد إلى ما ابتدعه هؤلاء وما قد يبتدعونه فحكم عليه كله بأنه حق ودين وذوق وهدى . وحكم بأن من رد منه أو أنكره أو شك فيه فهو جامد الفكر ضيق العطن قليل الحيلة عدو لأولياء الله والمسلمين . ثم تحيل لاستخراج الدلائل من الكتاب والسنة والعقل والاجماع ـ وما أبعد هذا الرجل عن هذه الأمور ـ على أن كل ما يعمله من يقول إنه مسلم حق لا باطل فيه وخير لا شر معه ولو كان ظاهره الكفر والاشراك والنفاق . ولو كان ظاهره الحق البارد والصفاقة المكشوفة بل وإن كان ظاهره ما كان وما قد يكون فان كل ما يقع من ذلك إن لم يجد له دليلا من الكتاب والسنة حسب فهمه فهو محمول على المجاز العقلى والمجاز بالاسناد والمجاز بالكذب وفساد الذوق . وعلى ذلك أجاز للمسلم أن يقول يا رسول الله اغفر ذنبي واكشف كربى . ويا سيدة زينب أغيثينى واشفينى واهدى قلبي ونحو ذلك وما هو أعظم منه مما سوف يأتيك

ومن رأى هذا المؤلف أنه ما دام هنالك مجاز فى كلام العرب فلا مانع من أن

يقول من ينتسب إلى الاسلام أو من يقول إنه مسلم ما شاء من الألفاظ والأقوال ولا مانع من أن يستغيث بالأموات ويسألهم غفران الذنوب وكشف الكروب وهداية القلوب ويهبهم ما يشاء من كلمات التعظيم والاكبار . فان كلام العرب لن يضيق أن يجد لذلك مخرجا من مخارج التأويل أو ضربا من ضروب المجاز قرب ذلك المخرج أو بعد . وإذا ما جاز أن يقول المؤمن أنبت الربيع البقل جاز أن يقول شفانى رسول الله أو أغنانى أو غفر لى ذنوبى أو هدى قلبى ، فان هذا مجاز عقلى قرينته إيمان القائل ومثله الأول والقرينة هى هى ولا فارق بين الأمرين

ولو أننا أبينا جواز شفانى الرسول لأبينا جواز أنبت الربيع البقل أو أنبت الماء العشب ، لأن الأمرين سواء ، واذا جاز هذا جاز ذاك واذا امتنع امتنع ، والتفريق بينهما جهل وتحكم ، ولا ريب فى جواز أنبت الربيع البقل فليكن مثله شفانى رسول الله أو أغنانى

ومصاصة هذا الكلام أنه يجوز لمن يدعى الايمان أن يقول ما يشاء وأن يفعل ما يشاء فان كل كلام فى الدنيا يستطاع أن يحمل على المجاز وأن يلتمس له ضرب من ضروب التأويل [illegible] فيوجد وليس هنالك كلام يعيا صاحبه أو سامعه عن أن يجد له نوعا من ذلك ، ولو كان ظاهراً فى ارادة الحقيقة كل الظهور ، فان قول القائل : عيسى ابن الله أو هو الله نفسه يستطاع أن يحمل على المجاز ، مثل أن يراد أنه ابن أمة الله أو أن الله يعطف عليه عطوف الوالد على ولده ، أو نحو ذلك ، وهذا له نظائر فى خطاب العرب لا يستطاع جحدها ، وليست أبعد عن قبول المجاز من قول القائل شفانى الولى أو الرسول ، والقرينة فى المثالين واحدة ، بل ان قول القائل الله ليس موجوداً يستطاع على هذا الجنون المسمى بالمجاز أن يحمل على وجه صحيح كأن يراد أنه ليس موجوداً لذاته فى كل مكان أو فى الأرض مثلا ، والقرينة على هذا التأويل هى حال القائل لأنه من المدعين الايمان ، وهذا غاية الكفر والجنون

وكذلك لو سمعنا مدعياً للاسلام يقول ان محمد بن عبد الله ليس رسولا ولا نبيا لما جاز لنا أن نبادر الى الحكم بكفره ، بل وجب أن نقول انه يريد ليس رسولا للأمم التى كانت قبله أو ليس رسولا الى الملائكة وأشباه ذلك من التأويل البارد السقيم الذى من اتبعه وحافظ عليه عده الناس من الحمق ، ولو صح هذا القانون لصح لمن شاء أن يقول ما شاء فيمن شاء ولما استطاع قانون أن يؤاخذ أحدا على كلام ما إذ يقدر كل أحد على أن يؤول كل كلامه وأن يمره على أنواع المجازات ويمر أنواع المجازات على كل كلامه بحيث لا يستطيع قانون ولا قضاء أن يؤاخذه بشىء إذا ما قال انى عنيت بكلامى كذا وكذا وذكر احتمالا بعيداً أو قريبا

وهذا فساد فى الدين والدنيا ، وسيجىء نقضه . وانما نقول هنا ان دفاع صاحب هذا الكتاب عن جميع ما يقوله ويعمله من انتسب للاسلام وادعاه أن ذلك كله من الدين باطل ضرورة وعادة وشرعا وعقلا فانه لا العقل ولا الشرع ولا العادة تتقبل أن يكون هناك كتاب من الكتب سماويا كان أو أرضياً يأتى بأحكام وقوانين وشرع فى جميع شئون الدين والدنيا وتؤمن بذلك الكتاب أمم كثيرة مختلفة الأغراض والبيئات والأفهام والاستعداد فتظل تلك الامم الكثيرة موافقة أعمالها كلها وأعمال أفرادها اعتقادية وقولية وعملية لذلك الكتاب الذى آمنت به موافقة تامة بحيث لا تخالف عقيدة فرد من أفراد تلك الامم لما جاء فى ذلك الكتاب من العقائد وبحيث لا تضل جماعة من جماعات تلك الامم فى فهم من أفهامها لذلك الكتاب وبحيث يجىء كل عمل وكل عقيدة وكل رأى يراه كل فرد من أفراد تلك الأمم مطابقاً للكتاب الذى آمنت به لا خلاف ولا خلل . أحسب أن مثل هذا لم يقع فيما مضى ولا يمكن أن يقع فيما سيأتى وأحسب أن ادراك هذا جيداً كاف للنقض على صاحب هذا الكتاب الذى أراد فى كتابه هذا أن يجعل كل ما صدر أو يصدر ممن ادعى الاسلام أو ممن كان مسلم الأب والمولد من دين الله الذى ضمنه رسالة جبريل

الى محمد بن عبد الله ، وهذه مخرقة لم يأت بها أحد قبل صاحب هذا الكتاب ، وهو فى الواقع لايؤمن بها . كيف وطائفة الشيعة تكفر الصحابة ، فكيف يعدون مسلمى أهل هذا العصر مسلمين

هذا ونحن نعلم أن عامة الناس ودهماءهم لا يصدرون في أعمالهم وعقائدهم عن كتاب أو سنة أو برهان أو قول إمام حجة ، ولكنهم يصدرون فى الأكثر الغالب عن العادة والهوى أو العاطفة والتعصب والغرض . وهذه الأمور أو الأدواء لا يمكن أن تساير الكتاب والبرهان والحجة أبداً بل هى فى الغالب الخصم المبين للكتاب والسنة والبرهان . وما نحسب عالما يستطيع أن يدعى أن جمهور الناس ولا سيما اليوم يعملون ما يعملون ويعتقدون ما يعتقدون ويقولون ما يقولون لأنهم علموا له دليلا من الشرع أو العقل أو الحس أو يدعى أنهم لا يصدرون إلا عن ذلك الدليل . وإذا كان ذلك كذلك كان من الحق المبين أن يقوم من يدعى العلم والايمان والعقل يزعم أن جميع ما تمليه عواطف الجمهور وعاداته وأهواؤه وغباواته من دين الله وبما يصدقه كتاب الله كما فعل هذا الرافضى المتعصب ...

هذا من جهة النظر والمعقول . أما من جهة الشرع والدين فقد تواتر عن النبى الكريم ما معناه أن الأ . الاسلامية لا بد أن تصير إلى مثل ما صارت اليه الأمم السالفة من المخالفات والوقوع فى البدع المنكرة والشرك الخفى والجلى والغلو في المخلوق غلواً يفارق الايمان والتوحيد . ولقد تواتر عنه عليه السلام ما معناه : لتتبعن سنن من كان قبلكم سواء سواء ومثلا مثلا . وتواتر عن علماء الأمة سلفا وخلفا أن هذه الأمة لا محالة صائرة مصاير الأمم قبلها وواقع منها الشرك والضلال والجهل بالدين والايمان . وهذا من أوليات الدين . ومن عجب أن هذا الشيعى يدافع عن عامة من ادعى الاسلام ويؤول لهم كل ما يأتونه من المنكرات والخرافات ويحملها محملا حسنا متكلفا أو غير متكلف وإن كان ظاهرها الكفر والشرك ،

والشيعة يدعون أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا منافقون أو مرتدون بعد وفاة رسول الله ﷺ ويحملون كل ما يعملونه من البر والتقوى على النفاق والخداع والغش . وقد يزعمون أنهم قد ارتدوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعقابهم ويحتجون بالحديث المشهور : « ليذادن أقوام عن حوضى ، فأقول أصحابى أصحابى فيقال انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، انهم ما زالوا على أعقابهم مرتدين فأقول سحقاً سحقاً « أى بعداً بعداً » ولكن الحق أن الشيعة لا يرون أحداً من المسلمين لا من الصحابة ولا ممن بعدهم مسلماً ما لم يطابقهم على عقائدهم الغالية الهوجاء من الايمان بالرجعة و بالأئمة المعصومين وتكفير من لم يغل فى علىّ وولده غلو تأليه وعبادة ، وما يدعيه صاحب هذا الكتاب من الدفاع عن عقائد المسلمين ومن ادعائه الاعتراف بايمانهم هو اختلاق اضطره اليه طمعه فى أن يجد لأهل نجد عيباً يشنع عليهم به ، ومثله فى هذا مثل اليهود : كانوا يشنعون قبل بعثة الرسول على العرب و يعيبون عقائدهم ويدعونهم الوثنيين المشركين . فلما أن بعث الله رسوله ﷺ ودعا الى الاسلام وتوحيد الله ، الأمر الذى يفخر به اليهود ، رجعت اليهود الى ما كانت تعيب من عقائد العرب فأثنت عليهم وعلى دينهم وما هم فيه . وما يريدون من ذلك غير عناد الاسلام والوقوف فى سبيله وتقدمه . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك بقوله « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا »

وهذا الكتاب أى كشف الارتياب موضوع فى ثلاث مقدمات وثلاثة أبواب وخاتمة . « المقدمة الأولى فى تاريخ الوهابية ، والثانية فى أمور يتوقف عليها المقصود من رد شبهات الوهابية ، والمقدمة الثالثة فى شبه الوهابيين بالخوارج

أما الأبواب : فالأول فى ذكر جميع معتقدات الوهابيـة ومحور مذهبهم ، والثانى فى معتقدات الوهابيـة التى كفّروا بها المسلمين وحججهم وردها على وجه العموم ، والباب الثالث فى تفصيل الأمور التى كفّر بها الوهابية المسلمين ورد كل واحد منها بخصوصه . أما الخاتمة ففى متفرقات من مقالات الوهابيين »

هذا ما ذكره صاحب هذا الكتاب فى كتابه وهذه هى عناصر ما كتب عنه وهذا ما ننقض عليه فيه باطله

أما المقدمة الخاصة بالتاريخ فلا نعرض لها كما ذكرنا آنفا السبب المذكور نفسه

والسبيل الذى نسلكه فى هذا النقض أننا لن نلتزم ذكر عبارات الكاتب بنصها دائماً لأننا لو فعلنا ذلك لطال بنا القول . وإنما نعمد الى غرضه والى حججه وشبهه و نستقصى ذكرها بعبارتنا غالباً ، وقد نبقى على عبارات الرافضى نفسها أحيانا ونحن أيضا لن نلتزم ابطال كل ما فى كلامه من الباطل كالتهاويل والأخطاء التاريخية أو اللغوية وكسوء الأدب الذى يتناول به علماء الاسلام والأئمة وكل ما لا يتصل بالموضوع الذى نحن بصدده فان القيام بذلك كله يحتاج الى مجلدات ضخام والى زمن قد يكون طويلا ، وأخطاء هـذا الرجل أقل عندنا من أن نضيع لها وقتاً طويلا ولكن النقض عليه فى الصميم يغنى عن ذلك كله واذا ما هدمنا له البناء الذي أسس كتابه عليه أغنانا عن أن ندل على كل ما فى كتابه من خطأ وضلال مبين

مقدمة الكتاب الثانية

هذه المقدمة هي أول شروع الكتاب في الموضوع وقد ذكر فيها أموراً :

الامر الاول :

ذكر أن الأحكام الشرعية منها ضروري ومنها نظري . أي منها مالايحتاج إلى الاجتهاد لوضوحه ، ومنها ما يحتاج إلى ذلك لخفائه . وذكر أن منكر الضروري كافر . وأن منكر النظري الاجتهادي لايكفر ولا يفسق بل هو معذور مأجور لا تجوز معارضته ولا ممانعته . وذكر من مُثل القسم الاول وجوب الصلاة والزكاة وتحريم الكذب والزنى . وذكر من مثُل القسم الثاني حكم البناء على القبور وحكم شرب الدخان والتبرك بقبر الرسول وتقبيله وشد الرحال إليه والاختلاف في خلق أفعال العباد ورؤية الله والكلام النفسي وهل صفات الله عين ذاته وهل الامامة بالنص أو باختيار الأمة . هذا ماذكره في هذا الأمر . ونحن نقول إن في هذا الكلام مآخذ :

(أولا)

لاريب أن الأحكام الشرعية منها ضروري ومنها نظري ولكن الشأن كله في معرفة الضروري من النظري وتمييز أحدهما من الثاني . . ولا مماراة أن ذلك قد يخفى . وان الناس قد يختلفون فيه . فقد يرى عالم أن أمرا معينا ضروري ثم يراه عالم آخر نظريا اجتهاديا . وقد يكون أهل جهة من الجهات يرون أشياء نظرية يراها غيرهم من أهل الجهات الأخرى ضرورية فيختلف الناس في الحكم على الأمر الواحد نظرا الى هذا الاختلاف . ولا مماراة أن المسلمين إذا

ما أخرجنا من بينهم الشيعة يعدون ايمان أبي بكر وعمر وحفصة وعائشة وكبار الأنصار والمهاجرين أمراً ضروريا لايخالج أحداً منهم الشك فيه ، ولكن الشيعة ينكرون هذا الأمر الضروري وينكرون ايمان أبي بكر وعمر وفضلاء الصحابة ويصرون على اكفارهم والقدح فيهم وعلى أنهم مرتدون منافقون . فالشيعة على حكم هذه القاعدة التي ذكرها هذا الشيعي ورضيها كفار مارقون ، لانهم نازعوا في أمر ضروري من الدين

ولا مماراة أيضا في أن المسلمين ماخلا الرافضة يعلمون علماً ضروريا أن ادعاء الشيعة عصمة أئمتهم وادعاءهم تلقيهم العلوم عنهم ووجود الامام المنتظر في السرداب ادعاء كاذب بالضرورة الدينية . فالشيعة على هذا كفار مارقون لأنهم خالفوا أمراً ضروريا . ثم هم يزعمون أن هنالك قسما من القرآن الكريم نزل في حق على وولده وفيه الوصاة بالخلافة له ولمن يدعونهم أئمتهم قد حذفه الصحابة وكتموه ليدعوا الأمر لأنفسهم وينتهبوا الخلافة من على وولده كما فعل الخلفاء الثلاثة . ويزعمون أن النسخة الكاملة من القرآن قد كتبها على رضى الله عنه وهى موجودة إلى اليوم في الارض سوف يبرزها الامام المنتظر عند مايخرج ويزعمون أيضاً أن محمداً المهدي ابن الحسن العسكري قد دخل في سرداب في « سر من رأى » منذ أكثر من ألف عام وأنه خارج لامحالة وآت بالنسخة الكاملة من القرآن . والمسلمون جميعاً يرون أن هذه الدعاوى الرافضية كاذبة بالضرورة . ولا يعدون بطلان شيء منها نظريا البتة . . فالشيعة مخالفون إذن في أمور ضرورية . فهم خارجون كما يقول هذا الرافضي من الاسلام . وليس من ريب أننا نحن نعلم بالبداهة الحاكمة أنه لم يكن رسول الله ولا أحد من أصحابه ولا أحد من الأئمة الأربعة ولاغيرهم من علماء الأثر والحديث والفقه في الدين يصنعون ماتصنعه الشيعة ونظراؤهم من العكوف

على الأجداث والانقطاع اليها والذبح والنذر لها والاستغاثة بأصحابها والتمسح بها وبأبوابها ونظير ذلك من منكر القول والفعل . ولا نشك فى أن ذلك كله من البدع المحمولة على الاسلام حملا لاشبهة فيه . ولا نرتاب أن من يدعو إلى ذلك أو يدّعى جوازه إنما يدعو الى أمر نعلم بطلانه ضرورة . وكذلك نعلم بداهة أن تشييد المشاهد على النحو الموجود اليوم فى بلاد الشيعة « كالنجف وكربلاء » ومن يحاكيهم أمر مبتدع مخالف لروح الدين ونصوصه وإجماع العلماء ، مخالف لحكم العقل والمنطق ، وكذا نعلم أن الشيعة مخالفون فى أمور ضرورية أخرى

وهذا الرجل ذكر ما ذكر هنا لأجل القدح فى النجديين والقدح فى دينهم . ذلك ليقول ان البناء على القبور والطواف بها ودعاء المقبورين على النحو الذى يدعو اليه ، ليس من ضرورات الدين ولايعلم بطلانه إذا افترض بطلانه بالضرورة ، وإذن فالذين ينهون عنه ويمانعون فيه غالطون آثمون

ولكن ما ذكر إذا صح هو رد عليه كما رأيت وليس فيه شيء يتوقف عليه النقض على الوهابيين كما زعم بل هو نقض عليه وعلى شيعته

(ثانيا)

قوله : ان منكر غير الضرورى لايمانع ولا يعارض ، لايصح على وجه الاطلاق فان علماء الاسلام فى كل مكان وزمان ما زالوا يعارض بعضهم بعضا ويمانع بعضهم بعضاً فى مسائل غير ضرورية ، بل ويرد بعضهم على بعض ويضعون فى ذلك الكتب والمجلدات وتنشب بينهم المعارك القولية والمساجلات القلمية ، وقد يكون فى ذلك نوع من الشدة غير يسير ، وقد يكون فيه شيء من الجرح والايلام وأكثر مثارات الجدل والنزاع عند علماء الاسلام قد كان فى ما لايعده هذا الرجل

ضروريا وأهل السنة وأهل الحديث ينكرون على الشيعة انكاراً شديداً لاهوادة فيه انكارهم صفات الله السمعية وينكرون عليهم انكارهم رؤية الله وزعمهم أن العباد خالقون لأفعالهم وإنكارهم أن يكون الله خالقهم وينكرون عليهم استحلال متعة النساء وإنكارهم المسح على الخفين وإنكارهم غسل الرجلين وجمعهم بين الصلاتين . وينكرون عليهم جميع ما اختصوا به من الأمور التي يزعم هذا الرافضي أنها ليست ضرورية وليس منكرها كافراً

بل المسلمون كلهم ينكرون على الشيعة ومن طابقها هذه الأمور ويشتدون في في الانكار ويعدّونهم لأجلها ضلالا يستحقون اللوم والتثريب . وقد صنفوا في الرد على الشيعة كتباً وما زالوا كذلك . وهل هذا الرجل في مقالته هذه صادق أم هل يعمل بها ؟ كلا . فان طائفة الشيعة ينكرون على أهل السنة تحريمهم هذه الأمور الشيعية ويعدون أهل السنة لأجل ذلك ضلالا يستحلون لأجله لعنهم ومعاداتهم . وفي كتب القوم الوعيد الشديد واللعن العنيف لمن ينكر متعة النساء أو يستحل غسل الرجلين أو يجيز المسح على الخفين . وهـذه الأمور كلها نظرية في زعم هذا الرافضي .

وكيف يصدق في مقاله ان منكر النظرى لايعارض ولا يعالم ولا يفسق ، ولدى الشيعة أن من لم يؤمن بالامام المنتظر ومن لم يعترف بالعصمـة له ويعترف بوجوده يمت ميتة جاهلية كما يقولون في كتبهم المطبوعة ، إلا أن يدعى أن ذلك كله ضرورى وحينئذ يصير الى اكفار المسلمين ، لأنهم ينكرون هذه الأمور ، وحينئذ يقع في الأمر الذى اتهم به أهل السنـة من أهل نجد وغورّ وأنجد في ذمهم لأجله .

ثم لندع هذا كله جانبا ولنبطل قوله هـذا بكتابه الذى بين أيدينا . فانه في هذا الكتاب قد رد على النجـديين في أمور لا يستطيع هو مطلقاً أن يزعم أنهـا ضرورية ولا يستطيع أن يمارى في كونها نظرية . ولا يمكن مهما أسرف في

ضروب الابتداع والغلو أن يدّعى أن جواز الاستغاثة بالأموات والعكوف على القبور وشد الرحال اليها أمر ضرورى يكون المخالف فيه كافراً . فلا ريب أنه يعد هذه الأمور التى ادعى الرد على النجديين بها أموراً نظرية فاذا ما كانت كذلك وكان زعمه أن منكر النظرى لا يعارض ولا يمانع ولا يفسق صحيحاً ، فلماذا عارض أهل السنة من أهل نجد فى هذه الأمور النظرية ، ولماذا غدا وراح فى إيذائهم ؟ ولماذا حرص على تأليب المسلمين عليهم وحرص على أن يبعثها شعواء وهو لايراهم غلطوا إلا فى أشياء نظرية اجتهادية وهو يسلم أن المجتهد فى النظرى يثاب وإن أخطأ ؟؟ لا ريب أن الرجل مخطىء فى تأليف هذا الكتاب أو فى مقاله هذا أو فى الأمرين معاً . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور

على أننا نسائل هذا الشيعى ونأتيه من طريق لايمارى فيها وذلك أن نقول إما أن تجوّز معارضة المخالف فى النظرى وممانعته أو لاتجوز ذلك فان قال بالجواز بطل قوله هذا . وإن قال بالامتناع صار الى أمر كبير وهو أن كل متنازعين إما أن يكون نزاعهما فى أمر نظرى وإما فى أمر ضرورى . فان كان فى الأول كان أحدهما عاصياً فاسقاً . وذلك لأن المعارضة والمنازعة لاتجوز فى النظريات كما يذكر هذا الرجل ، وإن كان النزاع فى أمر ضرورى كان أحدهما كافراً ولا محالة . لأنه خالف فى الضرورى والخلاف فيه كفر كما ذكر ، فالنزاع بين المسلمين لايجوز البتة سواء أكان في ضرورى أم فى نظرى وهذا باطل بالضرورة والاجماع . وهو لا يرضاه أحد وهذا ما يقضى به كلام هذا الرافضى

ولا ندرى علم الله لماذا لا تجوز المعارضة فى النظرى ؟! وهل يكشف الصوابَ إلا المعارضة ؟ وهل تسمو المدارك إلا بذلك وهل تزدهر العلوم على اختلافها إلا بالبحث والنزاع والممانعة ؟ وهل اذا ارتكب مسلم أو انسان ما ذنباً من الذنوب أو خطأً من الأخطاء أدعه على ذنبه وخطئه لأن ما فعله ليس من الأمور الضرورية

وأنا أعلم أنه غالط وأنه بعيد عن الصواب ؟ ان الناس كلهم لا يقرون هـذا القول لا فى أمور دينهم ولا فى أمور دنياهم

ويريد هذا الرافضى أن يصل بقوله هذا هو وشيعته الى الفساد الكبير ولا يتعرض لهم أهل الحق ، لأنه يزعم أن أغلب منكرات الشيعة ليست معلومة البطلان بالضرورة . فلهم أن يسبوا صحـابة رسول الله ﷺ ويكفروهم ويستحلوا متعة النساء وكل ما سمعت من عقـائدهم العوجاء . ولا يجوز للمسلمين نزاعهم وجدالهم لأنه نظرى والمنازعة فى النظرى لاتجوز بل كل معذور مأجور . فالشيعة معذورة مأجورة فى اكفارها الصحـابة وفى ثلبها المسلمين ، وهذا هو الفساد الكبير والقول الزور

(ثالثا)

تذهب الشيعة تبعاً للمعتزلة الى انكار رؤية الله يوم القيـامة وإنكار صفاته وإنكار أن يكون خالقاً أفعال العباد لشبهات باطلة معلومة . وقد أجمع العلمـاء من أهل الحديث والسنة والأثر كالأئمة الأربعـة على الايمان بذلك كله ليس بينهم خلاف فى أن الله خالق كل شىء حتى العباد وأفعـالهم ولا فى رؤية الله يوم القيامة ولا الايمان بصفاته التى جاءت بها النصوص الثابتة ، والنصوص فى الكتاب والسنة على هذه الأمور لا تحصى

وهذا الرجل جاء بذكر هـذه الأمور عرضاً ليست من موضوع كتابه وإلا لكتبنا عليها كتابة مسهبـة . والشبهات التى أنكروا ذلك لأجلها شبهات واهيـة ردها عليهم أهل السنة حديثاً وقديما

ومن عجب أن تنكر الشيعة ذلك خوف التشبيه وهم كما تقـدم يقولون بالحلول بالتشبيه الصريح وبتأليه البشر ووصف الله بصفات النقص . وأهل السنة يعدون

الشيعة و المعتزلة مبتدعين غير مهتدين فى جحدهم هذه الصفات

وقوله « ان الامامة بالنص أو باختيار الأمة » نقول عليه ان الشيعة ترى أن الامامة بالنص وأنه قد نص على خلافة على رضى الله عنه وخلافة أئمتهم نصاً جلياً واضحاً ولكن الصحابة لعداوة على وذريته وطمعهم فى الرئاسة والملك جحدوا ذلك النص وحرفوه ليولوا أبا بكر وعمر وعثمان . والشيعـة تكفـّر الصحابة أو تفسقهم لذلك ، بل قد يكفرون من ينكر ذلك النص ممن بعـد الصحابة . وصاحب هذا الكتاب لقلة إنصافه ومخادعته أهل السنة يدعى أن هذه المسألة من المسائل النظرية التى لا يضل بها أحد ولا يفسق بل ولا يعارض أو يمانع ، ومذهب الشيعة قائم على هذه المسألة والدعوة اليها ، ولا تشك الشيعة فى أن من أنكر النص على خلافة على وولده فهو ظالم فاسق ، فما ذكره هنا كله مخادعة وتضليل ..

وأما التبرك بقبر الرسول وتقبيله وشد الرحال اليه فسوف يجىء الكلام فيه وكذلك لعله يجىء على شرب الدخان

الامر الثانى

قال فيه ما معناه . « إن القرآ ن كلام الله وهو يقينى السند ولكن منه المجمل والمتشابه والمنسوخ والمطلق والمجاز والعام والخاص . ولوجود هذه الأمور فيه استطاعت كل فرقة حتى الضالة المبطلة أن تحتج لأقوالها الباطلة به ، حتى الوهابيون استدلوا على عقيدتهم بقوله « فلا تدعوا مع الله أحداً » وقوله : « قل لله الشفاعة جميعاً » . وغيرهم استدل به أيضاً ، كما سوف تجىء أدلتهم »

هذا خلاصة الأمر الثانى فى مقدمته الثانية

ونحن نقول :

(أولا)

ان الشيعة لا تقول هذه المقالة ولا تعتقد هذه العقيدة ، بل تقول أن القرءان قد زيد فيه وحرّف كما تقدم ذلك فى كلام ابن حزم وغيره وقد قال : « ومن قول الامامية قديماً وحديثاً ان القرآن مبدل زيد فيه ما ليس منه ونقص كثير منه وبدل منه كثير . . . »

ولعلهم يعنون بالآيات المزيدة الآيات التى فيها الثناء على الصحابة كافة ، والتى فيها الثناء على أبى بكر أو عمر أو عائشة خاصة . . . لأنهم يقدحون فى الصحابة ويستثنون بضعة رجال . . . والآيات المثنية على الصحابة تناقض قولهم هذا كل المناقضة فهم فى حاجة الى تكذيبها . فقول هذا الرافضى كذب وخداع

(ثانيا)

ثم وان صدّقوا بأن كل ما فى المصحف كلام الله لا يصدقون بأنه كل كلام الله بل يرون بأنه بعض كلام الله . وان هنالك آيات نزلت فى الثناء على علىّ وولده جحدها الصحابة النواصب المنافقون وحذفوها من المصحف عمداً وذلك قد سلف

وقد ألف بعض علماء الشيعة كتاباً سماه « اثبات تحريف كلام رب الأرباب » وهذا الكتاب قد طبع فى ايران . وفى كتاب « الوشيعة » : « القول بتحريف القرءان الكريم باسقاط كلمات وآيات قد نزلت وبتغيير ترتيب الكلمات والآيات أجمع عليه كتب الشيعة . وأخبار التحريف مثل أخبار الامامة متواترة عند الشيعة . من رد أخبار التحريف أو أوّلها يلزم عليه رد أخبار الامامة والولاية . وللأئمة مثل الباقر والصادق في تحريف الكتاب الكريم أيمان بالغة ، ولهم في تكذيب ماثبت فى القرآن الكريم والمصاحف على التواتر كلمات شديدة ، والأحرف السبعة والوجوه العربية قد أتت فى القرآن الكريم متواترة عن الأمة كافة فى القرون كافة : ويقول

فيها الصادق كذبوا على الله أعداء الله لكن القرءان نزل على حرف واحد من عند الله الواحد ، ويروى الكافى[1] عن الصادق أن القرآن الذى نزل بهجبريل على محمد سبعة آلاف آية والتى بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون والبواقى مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه على . ويروى الكافى أن القائم يخرج المصحف الذى كتبه على وأن المصحف غاب بغيبة الامام . . . »

فهذا الكلام من هذا الشيعى خداع فاضح

(ثالثا)

زعمه أن كل مبطل يمكنه الاحتجاج بالقرءان على صحة ما ذهب اليه زعم كاذب قبيح ، وهو من أشد المطاعن فى القرءان . فانه اذا كان ذلك كذلك لم يكن القرآن هدى وشفاء لما فى الصدور ولم يكن فى نزوله رحمة للعالمين بل ولم يكن فيه فائدة مطلقاً بل يكون نقمة وزيادة فى الفتن والضلال والهرج والمرج . وأية فائدة فى كتاب تكون فيه الدلائل على كل شىء حتى على الكفر والنفاق والضلالات جميعا ؟! وهل يقال فى مثل هذا الكتاب انه هدى وانه شفاء وانه نور وبيان وانه الصراط المستقيم وانه آية الله الكبرى وحجة الله على العالمين ؟ ولماذا يؤمر بالرد اليه عند التنازع اذا كان فيه كل شىء وقد قال الله تعالى « وان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ولكن الشيعة لا تعنى بالقرءان ولا بما فيه وليست له قيمة فى صدور القوم

وفى كتاب (الوشيعة) : « لم أر بين علماء الشيعة ولا بين أولاد الشيعة لا فى العراق ولا فى إيران من يحفظ القرا ن ولا من يقيم القرآن بعض الاقامة بلسانه ولا من يعرف وجوه القرآن الأدائية »

---

(١) الكافى أحد كتب الشيعة الأربعة المعتمدة

وذلك لأنهم يرون أن هذا المصحف الموجود محرف فهم لايعتمدون عليه ولا يرون فيه الهدى المبين. واذا كان هذا الشيعي صادقا في قوله إن القرآن حجة لكل مبطل وصاحب حق فهل يستطيع أن يأتي بآية واحدة تعد دليلا له ولاخوانه على قدحهم في صحابة رسول الله ﷺ وإكفارهم إياهم وتخصيصهم بأشد ذلك ابا بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة ؟ وهل يستطيع أن يأتينا بحرف واحد يعارض قول الله في الصحابة « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » وقوله « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » وقوله « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » . وغير ذلك من الآيات المثنية على الصحابة عموما ؟ أم هل يستطيع أن يجيء بحرف واحد من القرآن يدل على قول الشيعة بتناسخ الارواح وحلول الله في أشخاص أئمتهم وقولهم بالرجعة وعصمة الأئمة وتقديم علي على أبي بكر وعمر وعثمان أو يدل على وجود علي في السحاب وأن البرق تبسمه والرعد صوته كما تقول الشيعة الامامية ؟ أم هل يقدر على الاتيان بحرف واحد من القرآن يدل على جواز دعوة الأموات والذبح والنذر لهم والعكوف على الأجداث والتمسح بها والتقبيل لها الى غير ذلك مما تأتيه الشيعة عند قبور آل البيت وسائر المشاهد ؟ ؟

ليس من ريب أنه لا يستطيع أن يدعي القدرة على الاتيان بشيء من ذلك إلا أن يلجأ الى التأويل والتحريف ويصير الى المحالات

وأما ما ذكره من استدلال الوهابيين واستدلال غيرهم معاً بالقرآن وأن الطائفتين استطاعتا الاحتجاج على دعواها به ، فنرجيء القول فيه الى مواضعه

الخاصة به الآتية . وسوف يرى هو وغيره أنه لم يكن صادقا ولا راشداً فى دعواه هذه

وأما ما زعمه هذا الرجل وغيره من أصحاب الاهواء من أن القرآن يدل على رؤية الله يوم القيامة بقوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » . وعلى ضدها بقوله تعالى « لاتدركه الأبصار » . وعلى الجبر بقوله تعالى « وخلق كل شيء » وقوله « قل كل من عند الله » الى آيات فى ذلك كثيرة . وعلى ضد الجبر بقوله « وما الله يريد ظلماً للعباد » وقوله « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » الى غير ذلك . وعلى التجسيم بقوله « بل يداه مبسوطتان » وقوله « تجرى بأعيننا » الى نظائر ذلك . وعلى ضده بقوله « ليس كمثله شيء » . الى آخر المثل التى يدلون بها فى هذا المقام . فليس كتابنا هذا موضوعا للجواب عن مثل ذلك فنتوسع فيه ولكن لما كان كتاب هذا الرجل قد وضع لايراد الشبهات على القرآن وعلى عقائد الاسلام اليقينية فلا مانع من أن ننبه الى غلط القائلين بذلك بذكر جواب وجيز عما ذكرناه هنا ليكون جواباً يحتذى عما لم نذكر . . فنقول :

أما مسألة الرؤية فالآيتان فيها لاتتعارضان البتة وكل واحدة منهما واردة فى جهة كما هو واضح من اللفظ نفسه . فان قوله « الى ربها ناظرة » صريحة فى رؤية الله يوم القيامة وقوله « لاتدركه الابصار » صريحة فى نفى إدراك الابصار إياه ، ومعلوم أن الادراك أخص من مطلق الرؤية ولا يدل نفى الأخص على نفى الأعم بالضرورة البينة . فقد يصدق أن تقول رأيت الشمس ولا يصدق أن تقول أدركت الشمس أو أدركت الشمس ببصري وذلك لاختلاف الادراك والرؤية معنى . والذين ينفون رؤية الله يوم القيامة ينفونها بحجة العقل كما يدعون وكما يؤخذ من كلامهم ولا يحتجون بالآية . ولكنهم يزجون بها هنا زجاً ترشيحاً لدعواهم المنتزعة مما يدعونه العقل وعلى كل حال لا يصح لمدع أن يدعى أن الآيتين تتعارضان حتى

يذكر الحجة التى لا تدفع على أن الادراك والرؤية يتفقان معنى . وبغير ذلك لا يصح الادعاء . . هذا عن الرؤية

وأما الجبر وضده فنقول : ان قوله تعالى « وخلق كل شىء » وقوله « كل من عند الله » . لاينافيان قوله « وما الله يريد ظلماً للعباد » وقوله « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فان معنى الآيتين الأوليين أن الله هو الخالق لكل شىء المسبب لكل شىء يصيب الانسان من خير وشر . وليس فى هذا المعنى ما ينافى كون الله لايظلم الناس ولا يريد بهم إلا اليسر . بل قد يكون خلقه لكل شىء من إرادة التيسير لا التعسير . ولكن قوماً قد يرون بعقولهم أنه اذا كان الله خالق كل شىء وخالق أفعال العباد كان من الظلم المبين عندهم ومن إرادة التعسير عليهم أن يؤاخذهم عليها وأن يعذبهم لأجل الأعمال التى خلقها الله . لأن ذلك عندهم تكليف على عمل لم يجنوه . فيذهبون لأجل ذلك يتعلقون بالآيات احتجاجا واعتماداً والآيات لا دليل فيها لولا الشبهات المأخوذة من المعقولات . فالتعارض ليس بين الآيات نفسها ولكنه بين الآيات وما ويزعمونه معقولات . هذا عن الجبر وضده

وأما التجسيم وضده فنقول : الآيات التى ذكروها فى باب التجسيم إما أن تكون دالة على ذلك أم لا

فان كانت دالة على التجسيم لم يكن ذلك منافياً لقوله ليس كمثله شىء بالبداهة اللغوية . فانك تقول فلان ليس كمثل فلان وتقول القط ليس كمثل الليث ونحو ذلك ولا تريد أن أحدهما غير جسم وأنه مخالف للآخر من هذه الجهة . وأما ان كان الثانى أى بأن كانت الآيات غير دالة على التجسيم بطل الاحتجاج وخرجت المسألة من أن تكون من مثل هذا الموضوع . وعلى كل الافتراضات لم يبق بين الآيات فى ذلك تعارض

وليعلم القارىء أننا لسنا هنا بصدد بيان هذه المسائل بياناً كافياً وانما الغرض إبطال زعم هذا الرافضى أن بين آيات الكتاب العزيز تعارضاً واختلافا يعسر معه تمييز الحق من الباطل . . وليقس على هذه المثل باقيها مما لم نذكره

وهذا المؤلف الرافضى أتى بهذه المسألة فى مقدمات كتابه ليدعى أن مايذكره الوهابيون من الدلائل فى هذه المسائل هى ظواهر من القرآن مؤولة غير معمول بها وكل أحد يستطيع الاتيان بالظواهر وليس فى ذلك برهان على صدق الدعوى ولا دليل على وجوب اتباع من جاء بذلك . ولكن سيرى القارىء قيمة كلام هذا الرجل عند عرضنا الدلائل عرض بسط وبيان

الامر الثالث

قال فيه « السنة قول المعصوم أو فعله أو تقريره وشرط الاحتجاج بالفعل ظهور الوجه فلو فعل المعصوم شيئاً وجهل وجهه على عدم تحريمه مع تردده بين الوجوب والندب والكراهة ولم يثبت واحد منها . ولا تثبت السنة لنا الا بالخبر المتواتر وهو إخبار جماعة كثيرة يمتنع عند العقل تواطؤهم على الكذب أو المحفوف بقرائن توجب القطع بصدوره . ولا يثبت بخبر الفاسق ولا مجهول الحال لعدم افادته العلم وعدم الدليل على حجيته بل الدليل قائم على عدمها من قوله تعالى « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » والنهى عن اتباع الظن

أما خبر الثقة العدل مع عدم افادته العلم فقد اختلف فى حجيته فمنعها قوم لاصالة عدم حجية الظن وأثبتها آخرون واستدلوا بأدلة مذكورة فى الأصول

واثبات عدالة من بعد عنا زمانهم من أصعب الأمور لانحصار الأمر فى علمنا بها فى اخبار الغير » وهو مفقود غالباً الا من اخبار البعض المستند على الظنون والاجتهادات التى تخطىء كثيراً لا على الممارسة والمعاشرة مع اختلاف الآراء فيما

يوجب الجرح وما لا يوجبه ولذلك وقع الاختلاف كثيراً فى الجرح والتعديل فما عدله واحد جرحه آخر والقاعدة أن الجرح مقدم على التعديل لجواز اطلاع الجارح على ما لم يطلع عليه المعدل . فعلم من هذا أن التسرع الى القول بمضمون الخبر بمجرد وجوده فى أحد كتب الحديث أو بمجرد قول واحد انه صحيح وتخطئة الغير بذلك فضلا عن الحكم بكفره أو شركه خطأ محض . ويشترط لجواز العمل بالخبر عدم مخالفته لدليل قطعى من اجماع المسلمين وسيرتهم أو نص القرآن أو نص خبر آخر متواتر بل وعدم مخالفته للمشهور بين علماء المسلمين مع كونه بمرأى منهم ومسمع وعدم معارضته بدليل أقوى منه . والخبر فيه الأقسام السابقة فى الكتاب كلها وما يحتج به من الكتاب من تلك الأقسام يحتج به من الخبر وما لا فلا . ويشترط فى العمل بالخبر ما اشترط فى العمل بالكتاب مما مرّ فى الأمر الثانى

وبسبب وجود هذه الأقسام فى الخبر أمكن لكل ذى قول حق أو باطل الاستناد الى ظاهر رواية حتى ان البابية يحتجون على ضلالتهم بخبر أن المهدى يأتى بأمر جديد وقرآن جديد . وأتباع القاديانى يحتجون على ضلالتهم بخبر لا مهدى إلا عيسى » . انتهى

وفى هذا الكلام ما يأتى :

(اولا)

يقول : السنة قول المعصوم ولم يقل قول الرسول عليه الصلاة والسلام . والذى يجهل مذاهب الرافضة وهذا الرجل منهم يحسب أن هذه العبارة لا بأس بها إذ يحسب أنه يعنى بالمعصوم رسول الله ﷺ إذ لا معصوم غير الانبياء عند المسلمين ، ولكن الشيعة تقول إن الأئمة ـ أى أئمتهم ـ معصومون كالأنبياء أو أكثر ولا يخلو زمان عندهم من امام معصوم يتلقى منه الهدى والدين . وهذا الرجل نفسه ذكر

هذا فى كتابه ص ٩٦ إذ قال « أو لوجود معصوم بينهم بناء على عدم خلو العصر من معصوم كما يقوله أصحابنا ـ أى الشيعة ـ وهو رئيس أهل الحل والعقد »

وهذا أمر لا نزاع فى وجوده عند طائفة الشيعة وهم يعترفون به بل ويفاخرون فالسنة عندهم غير السنة عند سائر المسلمين ، فهى عندهم الروايات المكذوبة فى كتبهم التى يزعمون أنهم تلقوها عن أئمتهم المعصومين إما بطريق الكشف والالهام أو بطريق الرقاع التى يزعمون أنهم يضعونها فى مكان معلوم فيكتب فيها الامام المنتظر المختفى فى جهة من الأرض ما يسألونه عنه . أما السنة عند المسلمين فهى أقوال النبى الكريم محمد بن عبد الله ﷺ وتقريراته وأفعاله . وللاختلاف بين أهل السنة والشيعة فى هذا الموضوع لا تحتج الشيعة بأحاديث رسول الله ﷺ التى يرويها أهل السنة

فما ذكره هذا الرجل تضليل فاضح

(ثانيا)

قوله « ولو فعل المعصوم شيئا وجهل وجهه علم عدم تحريمه مع تردده بين الوجوب والندب والكراهة ولم يثبت واحد منها »

إن كان يريد بالمعصوم الرسول كان قوله هذا خطأ ، فان الذى يفعله الرسول بالصفة المذكورة يدور بين الوجوب والندب والجواز إذا لم يتبين واحد منها ، ويثبت أقل ذلك وهو الجواز والعلم بأنه ليس محرماً ولا مكروها ولو كان محرما أو مكروها لما أقدم على عمله رسول الله ﷺ فان أعمال الرسول تدور على الوجوب والندب والجواز ، ولا تدور على المكروه كما لا تدور على المحرم فان فعل المكروه لا يليق برسول كريم من رسل الله الكرام إلا أن يكون ذلك على وجه الزلة الصغيرة التى لا ينجو منها البشر والتى يبادر الى التوبة منها . ولسنا فى هذا

ومع ادعاء هذا الرافضى أن فعل الرسول يتردد بين الوجوب والندب والكراهة يدعى فى ص ٩٢ من كتابه أن فاعل المكروه ملعون فى الشرع . وذكر مثال ذلك لعن المحلل والمحلل له . ومن بين قوليه هذين يخلص أن الرسول الكريم قد يفعل ما يستوجب به لعنة الله ، بل إنّ فعله دائما يتردد بين الوجوب وبين الندب وبين ما يستحق أن يلعن عليه ، وهذا من أعظم التنقص لرسول الله ﷺ ، وصاحب هذا القول هو الذى يتهم السلفيين بتنقص الرسول وأولياء الله إذ قالوا لا يستغاث بالأموات ، انما يستغاث بالله وحده

وأما ان كان هذا الرافضى يريد بالمعصوم غير الرسول كأئمتهم كان هـذا القول خطأ أيضا . فان المعصوم لا يفعل ما يستوجب به اللعنة وإلا لما كان معصوماً وقد فرضناه معصوماً ، هذا تناقض

على أن أفعال الرسول فيها تفصيـل طويل فى علم الأصول ، فان ما يفعله ويكثر من فعله ويواظب عليه مما يراد به العبادة ومما يدخل فى معنى الدين لايمكن أن يقال فيه انه يتردد بين الوجوب والندب والجواز فضلا عن الكراهة بل لابد أن يكون هذا النوع واجباً أو مستحباً على الأقل فان أفعال الرسول مما هو عبادة محمول على التقرب الى الله وعلى ما يراد به ثوابه ورضاه . ولا يتقرب الى الله إلا بالواجبات والمستحبات ولا يتقرب اليه بالجائزات فضلا عن المكروهات ، ولكن أفعال الرسول التى تحمل على الجواز لاغير اذا لم يتعين غير ذلك هى الأفعال التى تدخل فى معنى العادة والشئون الدنيوية مما اعتاد الناس أن يفعلوه ، أو الأفعال التى تكون فى مقابلة التحريم والمنع

فأقوال هذا الرافضى ظلمات فوق ظلمات والعياذ بالله

(ثالثا)

قوله « أما خبر الثقة العدل فمع عدم افادته العلم فقد اختلف فى حجيته »

نقول : ذهب أكثر علماء الكلام والجدل الى أن خبر الواحد لايفيد اليقين ولا العلم أبداً بل لايفيد سوى الظن والترجيح وذهبت طوائف من علماء الحديث والأخبار الى أنه قد يفيد ذلك ، واحتجت الطائفتان بحجج كثيرة ليس هذا موضعها

ولا ريب أن من قال ان خبر الواحد لايفيد العلم مطلقا غالط غلطا بينا . كما أن من قال بأن خبر الواحد يفيد ذلك دائما غالط كذلك . ولكننا لا نرتاب فى أن خبر الواحد قد يفيد العلم بل واليقين أحيانا . ولا شك فى صحة هذا وصدقه . وأحيل كل قارىء الى نفسه يجد ما أقول صحيحاً فى كثير مما يسمعه . فلقد يخبرك بعض الناس خبراً لا تجد فى نفسك أقل شك فى صدقه وثبوته ولا تجد مناصا لا فى زوايا نفسك ولا فى زوايا عقلك من الاعتراف بصحة ذلك الخبر ، وكل أحد فيما أعلم يجد ذلك أحيانا فى نفسه ، ومن رد هذا فقد كابر الحق وجهل أسرار النفوس

وقد قام بينى وبين عالم كبير من العلماء العصريين الذين يقولون ان خبر الواحد لا يفيد العلم جدال فى ذلك : قلت له هبك كنت معاصراً لأبى بكر الصديق أو عمر الفاروق أو عثمان أو على كرم الله وجهه أو أحد كبار الأنصار والمهاجرين فحدثك أبو بكر أو عمر أو عثمان أو أحد هؤلاء أن رسول الله ﷺ الساعة هذه قد صعد المنبر فوعظ الناس موعظة بليغة أسالت الدموع ودعت الخشية حتى سمعنا البكاء والعويل . . فهل ترتاب فى هذا الخبر أو هل تشك في إفادته العلم . فقال لا أرتاب فى ذلك . فقلت له هبك كنت معاصراً للامام أحمد بن حنبل رجل الورع أو الامام الشافعى عالم قريش أو الامام مالك امام دار الهجرة أو غيرهم من

الأئمة الموسومين بالتقوى والصدق والامانة فحدثك أحدهم حديثاً قال لك انه سمعه الساعة هذه من المحدث فلان . أو شهد أمام القاضى على شخص لمصلحة شخص آخر فهل ترتاب فى هذا الخبر ؟ فقال كلا . قلت له : إذن خبر الواحد قد يفيد العلم بل واليقين أحياناً كثيرة . فقال : نعم

وإذن لا يجوز أن نطلق القول اطلاقا بأن خبر الواحد ظنى بل يجب أن نقول إن ذلك يختلف باختلاف القائل والسامع فقد يشك أحد الناس اليوم فى أحاديث البخارى أو أحاديث غيره لشكه فى صاحب الكتاب ورواة أحاديثه لقلة معرفته بهم وقلة معرفته مكانتهم من الرجاحة والصدق والعقل والحفظ لأنه لم يتجرد لمعرفة أخبارهم ودراسة سيرهم ، ولكن قوماً آخرين درسوا رجال هذه الأحاديث ودرسوا ما كانوا عليه من الأمانة والرجاحة والايمان وواظبوا على ذلك كله حتى أتقنوه لا يشكون في ثبوت ما يروون وما يقولون ، وليس بجائز أن نعيب هؤلاء اذا وصلوا الى ما لم نصل إليه من أحوال الرجال وانما نعيب القوم الذين جهلوهم فلم يطمئنوا الى أخبارهم فذهبوا يعيبون من عرف القوم فاطمأن الى أخبارهم ، وهؤلاء يقال لهم ادرسوا تعرفوا وتعذروا وتؤمنوا بأن خبر الواحد قد يفيد العلم

وما يقال هنا فى رجال الحديث يقال مثله فى رجال التاريخ والأدب والفلسفة وسائر العلوم ، فان من شغل بدراسة أساطين التاريخ يعلم من حالهم ما لا يعلمه من شغل بدراسة رجال الأدب مثلا ، ومن شغل بدراسة رجال الأدب عرف من حالهم ما لا يعرفه من شغل بدراسة رجال التاريخ ، وهكذا يقال فى كل فن من الفنون ، فقد تصل معرفة الرجل بالعالم من علماء التاريخ أو الأدب أو الفلسفة الى أن يؤمن ايمانا ثابتاً بأنه لا يكذب ولا يغش أبداً ، والى أن مايرويه حق لا ريب فيه والى أن لا يقبل الشك فى نقله وقوله وصدقه ، ورجال الحديث أولى وأجدر بالثقة والاطمئنان الى نقلهم من كل الطوائف ، فانهم قد جمعوا من صفات الصدق

والصلاح والورع والحيطة لما يروون مالم يتفق لطائفة من الطوائف المنسوبة للعلم . وقد بلغ الاحتياط بكثير منهم الى حد الوسوسة والاسراف . وقد يردون حديث الرجل لأقل الهفوات التى لا يباليها غيرهم من رجال التاريخ والفلسفة . وعلم الاسناد أى علم الرواية أى رواية الحديث النبوى وما يشترط له من الشروط لم يكن لأحد سوى رجال الحديث وعلمائه كما أنه من خصائص الأمة الاسلامية

على أن قول الرافضي هذا لايؤمن هو به ولا طائفته ، وليس مما يوافق أصولهم . فان القوم يعتقدون فى أئمتهم العصمة أى العصمة من الكذب والغلط وكل ما يشين ويعاب . وهم لا يشكون فيما يحدث به واحد من أئمتهم ولا يقولون إنه لا يفيـد العلم بل يرون أن ما يحدث به واحد منهم يفيـد أعلى درجات اليقين

ونحن نعلم بالضرورة أن الأئمة الاربعة وكبار علماء الحديث كالبخاري ومسلم ونظرائهم لا يقلون عن أئمة الشيعة صدقاً وحفظاً للرواية ونأياً عن الغلط والغش وما يعيب النقل . وإن خالفت الشيعة فى ذلك فان أهل السنة كلهم يعلمونه ولا يرتابون فيه . فما ذكره هذا الرافضى خلط وتضليل مقصود مع سبق الاصرار

وأما العمل بخبر الواحد الثقة فى الحالة التى لا يفيد فيها العلم فأهل السنة كلهم يعملون به ، بل نوشك أن نقول ان المسلمين كافة يعملون به فى الواقع . والذين يرفضون العمل به موضوعا يقبلون العمل به شكلا . وأعمالهم شاهدة على ما نقول . وما زال المسلمون يعملون بخبر الواحد فى كل المناسبات والوقائع . ومن شك فى ذلك فقد شك فى أمر جمع كل معانى التواتر . ومن يأب العمل به يلجأ الى العمل بالرأى المختل المدخول ويتناقض فى آرائه ولا محالة . . .

(رابعا):

قوله وإثبات عدالة من بعد عنا زمانهم من أصعب الأمور قول ليس صحيحا فان اثبات عدالة الماضين العدول ميسرة على من أراد أن يعرف فبحث ونقب ودرس ودارس . ومن ذا يصعب عليه إثبات عدالة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر والحسن والحسين والسعدين « سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة » والعبدين « عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس » وأمهات المؤمنين؟؟ أم كيف يصعب اثبات عدالة أئمة الحديث والفقه أمثال أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ؟!! ومن ذا لا يستطيع اثبات عدالة أئمة رجال المذاهب المشهورين؟! إن هذا كله سهل ميسور .. والمسلمون لا يشكون فى عدالة أئمتهم وعلمائهم بما تواتر لديهم من أخبارهم . وقد عنى علماء الحديث بتراجم رجال الرواية عناية فائقة لا يمكن أن يظفر بأفضل منها بحيث يستطيع الباحث أن يعرف الثقة العدل من المتهم المريب بسرعة وسهولة . وقد سطروا جزاهم الله عن الاسلام والعلم خير الجزاء ..! كل ما يمكن أن يكون شاهداً على عدالة الرجل وما يكون شاهداً على ضعفه بقدر الطاقة والامكان ، وما تركوا من ذلك شيئاً معلوماً . وقد ينقلون عن الرجل الأمورالتافهة الصغيرة ، التى لا تمس عدالته ، حرصا على الوصول الى الواقع والى ما كان عليه الرجل . ولعل المعاصر لرجال الحديث لا يستطيع أن يلم بتراجمهم وما يحملونه من عدالة أو كذب إلمام كتب التراجم أو الملم من درس هذه الكتب . وليس الشأن لمعرفة عدالة الرجل وضدها تقدمه عنا زمنا وتأخرنا عنه . ولكن الشأن فى ذلك لمعرفة سيرته وترجمة حياته . ولقد تعرف عدالة من ذهب من مئات الاعوام ولا تعرف عدالة من يعيش معك ومن تراه صباح مساء والعدالة وضدها أمران نفسيان قد لا يعرفهما المعاصر المعاشر وقد يعرفهما من تأخر

اذا جمع أطراف سيرة الرجل وقلبها وامتحنها ثم وازن ورجح

أجل قد يصبح قول هذا الرجل فى رجال الرافضـة وحدهم فانه يصعب عليهم حقاً أن يعرفوا حال رجالهم ومكانتهم من عدالة وضعف إلا إذا رجعوا الى كتب أهل السنة ، فان الشيعة ليست لها كتب تراجم يميزون بها العـدول من غيرهم ، والأحاديث الموجودة فى كتبهم غالبها مختلق مكذوب لهذا السبب ولأسباب أخرى

والرافضى يريد بقوله هـذا القدح فى السنة وفى الاحتجاج بالأخبار النبوية ، لأن القوم لا يعتمدون فى دينهم على الأخبار النبوية الصحيحـة ، وانما يعتمدون على الرقاع المزورة المنسوبة كذبا الى الأئمة المعصومين فى زعمهم وحدهم . ولكنه يحور فى الكلام لبساً على من لا يعرف حاله من أهل السنة

(خامسا)

قوله « فعلم من هـذا أن التسرع الى القول بمضمون الخبر بمجرد وجوده فى أحد كتب الحديث أو بمجرد قول واحد انه صحيح وتخطئة الغير بذلك فضـلا عن الحكم بكفره أو بشركه خطأ محض »

نقول سوف يجيء البيان أن هذا الرجل لم يعمل بما قاله هنا ، وسوف يجيء استدلاله بالأحاديث المكذوبة باتفاق أهل الحديث فضلا عن الضعيفة والمنكرة والمجهولة وبالأحاديث التى لم ترد فى كتاب من الكتب

ومَن هؤلاء القوم الذين يتسرعون الى القول بالأخبـار بمجرد وجودها فى الكتب !! ومن هؤلاء القوم الذين يكفرون الناس ان خالفوا حديثاً قال بعض الناس انه حديث صحيح ! ! ! ومن هؤلاء الذين يعنون بكلام هـذا الرجل الشيعى ! ! !

ان الجماعة التى يرد عليها بكلامه هـذا تدعو الى أمر أطبقت عليـه

آى الكتاب العزيز وأطبقت عليه السنة الصحيحة فى روايات يعز احصاؤها . وما كان منهم الاستغاثة بالأموات ودعاءهم والنذر والذبح لهم اعتماداً على حديث أو أحاديث ، ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على القرآن بجملته وعلى السنة ، وعلى العقل وعلى الضرورة الدينية ، وقد جاء القرآن بجملته ناهياً عن ذلك أشد النهى منددا بمن فعله أعظم التنديد . وسوف ترى هذا . وقول هذا الرافضى يوهم أننا نستدل على ذلك بأحاديث مقدوح فى أسانيدها ورواتها

وقوله « وبسبب وجود هذه الأقسام فى الخبر أمكن لكل ذى قول حق أو باطل الاستناد على ظاهر رواية » قد تقدم الكلام على مثله فى الأمر الثانى

(سادسا)

الحديثان اللذان ذكرهما هنا . الأول : وهو أن المهدى يأتى بأمر جديد وقرآن جديد ، حديث مكذوب لا أصل له ، وهو من الأخبار التى توافق معتقد الشيعة فى الامام المنتظر ، لانه عندهم يأتى بأمر جديد وقرآن جديد وهو المصحف الكامل الذى كتبه على رضى الله عنه فى زعمهم . والحديث الثانى : وهو لامهدى إلاَّ عيسى حديث ضعيف . وهذه حال أكثر أحاديث الرافضة ، ضعيف أو موضوع

الامر الرابع

قال ما معناه « إن الأحاديث المتعارضة عن الرسول الكريم كثيرة وسبب التعارض أن يكون أحد الحديثين المتعارضين مكذوبا ، كذبه بعض الناس تقربا الى أصحاب الدنيا طمعاً فيها . أو يكون سبب التعارض الخطأ فى فهم المعنى ، أو الاطلاع على المنسوخ دون الناسخ والعام دون الخاص والمطلق دون المقيد . وعند وجود هذا النوع المتعارض يصار الى الترجيح . وسبيل الترجيح أن يعرض

الحديثان المتعارضان على القرآن وعلى الثابت من السنة . فما وافق عمل به وما خالف طرح . ويعرض أيضا على الاجماع والسيرة المشهورة بين علماء المسلمين وما كان عليه الصحابة والتابعون . فالموافق حينئذ هو الصحيح . أو يرجح أحد الحديثين المتعارضين على الآخر برجاحة سنده أو بلاغة لفظه أو جودة نظمه » انتهى

ونحن نقول : إن التعارض بين الاحاديث الصحيحة قليل جداً لا يقال انه كثير

نعم يوجد التعارض بين الاحاديث الضعيفة والمكذوبة كثيرا ، وعند من ليس لأحاديثهم كالشيعة أسانيد . والكذابة حقاً كثيرة فى رجال الشيعة وأصحاب الاهواء طمعاً فى الدنيا وتزلفاً الى أصحابها أو كيداً للدين والسنة وحنقاً على أهلهما ولكن علماء السنة كشفوا ذلك وأبانوه أتم البيان ، ومازوا الاحاديث الموضوعة والضعيفة من الصحيحة ، ووضعوا كتباً خاصة حشدوا فيها الاخبار المختلقة كما وضعوا كتباً خاصة بالرجال الضعفاء والمتهمين بالكذب والغش والخداع وكما وضعوا مثل ذلك فى الاحاديث الصحيحة والرجال الثقات وسموها « الصحاح » وكتب « الثقات » ومن قدح فيهم من الرجال العدول : كل ذلك بأقصى ما يمكن أن يصل اليه الفكر البشرى والقريحة الانسانية من الجودة والاتقان والضبط ، وليس فى رجال الحديث من أهل السنة من هو متهم بالوضع والكذابة طمعاً فى الدنيا وازدلافاً الى أهلها وانتصاراً للاهواء والعقائد المدخولة الباطلة

نعم قد يوجد بينهم من ساء حفظه أو من كثر نسيانه أو من انخدع بالمدلسين الضعفاء . ولكن رجال التراجم والجرح والتعديل قد بينوا هذا النوع كله ، حتى انهم يقولون : هذا الرجل ضعيف فيما روى عن فلان فقط وفيما يريه عن أهل هذا البلد فقط ، ثقة فى غير ذلك ، كما يقولون ان هذا الرجل كان حافظاً فى أول عمره سيء الحفظ فى آخره . ويقولون إذا قال كذا فهو غير صحيح الحديث ، وإذا قال

كذا فهو صحيحه ، وأشباه ذلك من الضبط والحيطة المتقنة . وهذا الفن لا يوجد لغير أهل السنة والحديث ، وهو من خصائص الامة الاسلامية . فانه لا يوجد لغيرها أسانيد لما ترويه عن أنبيائها

وكلام هذا الرافضى يفهم منه أن الكذابين المنافقين اختلطوا بالعدول الثقات ومُزجوا مزجاً لا يستطاع تمييز خبيثه من طيبه فلا يمكن التمييز بينهم . وأن الاحاديث المكذوبة مزجت بالصحيحة مزجاً لا تستطاع معه معرفة أحدها من الآخر ، وأن معرفة الحق فيه عصية عسيرة وأن الواجب لأجل ذلك أن تلتمس معرفة الصحيح والحق بالقرائن الخارجية . وهذا لا يصح فى أحاديث أهل السنة أهل الأسانيد وأهل الجرح والتعديل ، ولكنه يصح فى أحاديث الشيعة ونظرائهم من أهل الاهواء والبدع الذين قصارى أمر أحاديثهم أن تكون بلا إسناد ولا رواية وان تستطيع الشيعة أن تعرف مكانة رجل من رجالها إلا إذا مارجعت الى كتب أهل السنة والى بيانهم وتراجمهم المعروفة بكتب الجرح والتعديل وكتب نقد الرجال

وأما قول هذا الرافضى إن من أسباب التعارض بين الأخبار الاطلاع على المنسوخ والعام والمطلق ، دون الناسخ والخاص والمقيد ، فخلط فظيع لا يقع فيه إلا من لم تكن له يدان ولا يد واحدة فى هذا الشأن ، ومن لم يعرف قواعد أهل العلم واصطلاحاتهم . فانه اذا كان هنالك ناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومطلق ومقيد لم يقل ان هنالك تعارضاً : لا من اطلع على الخاص والعام والناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد ولا من جهل ذلك . فان من اطلع على ذلك لم يكن لديه تعارض البتة . بل كان عنده خاص وعام ومنسوخ وناسخه ومطلق ومقيده . ومن جهل ذلك لم يكن هنالك تعارض عنده أيضا ، فانه اذا عرف المنسوخ دون الناسخ عمل بالمنسوخ ولم يعلم أن هنالك ناسخاً مثلا . فلا تعارض البتة . ومثل الناسخ والمنسوخ العام والخاص والمطلق والمقيد

مثل ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى عن زيارة القبور فى أول الامر ثم أباح ذلك وقال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم بالآخرة » فمن اطلع على النهى عن الزيارة ولم يطلع على الناسخ المبيح لم يكن عنده تعارض مطلقا ، بل كانت الزيارة لديه محرمة ، وكان هذا هو الحكم الثابت عنده ومن اطلع على الناسخ والمنسوخ فى الزيارة علم أن الزيارة كانت محرمة ممنوعة ثم جائزة مباحة . ولم يكن هنالك شىء من التعارض فلا تعارض على الفرضين والحالتين . وكذا يقال فى العام والخاص وفى المطلق والمقيد. فزعم هذا الرجل أن مثل هذا النوع من التعارض زعم غير صحيح ولا كرامة وما هو من الحق فى صدر ولا ورد

وأما العرض على الكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة والتابعون والمسلمون ، والترجيح ببلاغة اللفظ وجودة النظم ، فصحيح إذا ما افترض وجود التعارض . بل لابد من الرجوع الى الكتاب والسنة الثابتة وسيرة الصحابة والمسلمين في كل شىء ، ونحن في هذا المقام الذى يدعى هذا الرجل الرد علينا فيه إنما ندعو الى أمور أطبق عليها الكتاب والسنة والاجماع فى صدر الاسلام وفى القرون الاولى كلها ، وما كان ذلك للاستدلال بحديث فرد أو رواية منكرة ضعيفة ، أو رأي رجل من الناس جل ذلك الرجل أو دق . وإنما ندعو الى أساس الاسلام الاول وهو ما أنزلت لأجله الكتب وابتعثت الرسل وهو عبادة الله والرجوع اليه فى كل الحالات . وما كان هذا المعارض راجعاً الى كتاب أو سنة لا صحيحة ولا ضعيفة ، ولا الى رأى من يعتد به من العلماء . وما كان فى يديه سوى تأويل النصوص الاسلامية البينة وتسليط الشبهات الواهية عليها والتحيل للخلاص منها بالتكذيب حيناً والتحريف حيناً آخر وبالأمرين أحياناً كما سوف ترى ذلك كله

ولسنا فى هذا المقام ندعو الى أمر فيه ترجيح ومفاضلة إنما ندعو الى الدين

جملة والى نصوص الكتاب والسنة المتواترة العملية التى لاخلاف فيها . وليس الامر الذى ندعو اليه وندعيه قائماً على روايات تعارض بروايات أخرى أصح أو أضعف ، ولكنه التوحيد يعارضه الشرك والنور يعارضه الظلام الحالك والسنة البيضاء تعارضها البدع السوداء . ولا يستطيع مخالف لديه شيء من العقل أن يدعى أن هنالك روايات تجيز الذبح والنذر للاموات والطواف بالأجداث والاستقبال والتقبيل لها ، وسؤال الموتى مختلف الحاجات ، أو تجيز البناء عليها وتشييدها ، ذلك التشييد الذى لايستطيع أن يظفر به جمهور الأمة ليسكنه . فليس هنالك عاقل يدعى وجود شيء من ذلك لا صحيح ولا ضعيف ، ولكن المعارضين لنا فى هذه المسائل العالية يعارضون الامور المتواترة المتفقة بالآراء الفاسدة المدخولة والشبهات المنكرة ويحرفون النصوص لأجلها

الامر الخامس

قال فيه « الكتاب والخبر عربيان وفيهما كسائر كلام العرب الحقيقة والمجاز ومما جاء منه فى القرآن « يد الله فوق أيديهم » « يا حسرتا على مافرطت فى جنب الله » « كل شيء هالك إلا وجهه » « الرحمن على العرش استوى » « فكان من ربه[1] قاب قوسين أو أدنى » « الا من رحم الله » « غضب الله عليه » « الله يستهزىء بهم » « وجاء ربك والملك »

وفى الحديث : لا تمتلىء النار حتى يضع الله قدمه فيها . وكذلك ورد اضافة الضحك والعجب الى الله

---

(١) هكذا ذكر الآية بزيادة من ربه ، وهذه الزيادة ليست موجودة فى مصاحف المسلمين ويظهر أنها فى مصحف الشيعة المدخر المدعى

والقرينة في الكل على المجاز عدم امكان ارادة المعنى الحقيقي المستلزم للتجسيم والتحيز والوجود في مكان دون غيره ، وكونه محلا للحوادث ، ولا بد للمجاز في الاسناد أيضاً من قرينة لفظية أو عقلية . كقول الموحد أنبت الربيع البقل فان كونه موحداً كاف في حمل كلامه على المجاز . ومثله لو قال المسلم الموحد يا رسول الله اغفر لي أو اشف ولدي أو طول عمري أو ارزقني أو رد غائبي أو نحو ذلك فيجب حمل كلامه على المجاز في الاسناد . أي كن سبباً في ذلك بشفاعتك ودعاء الله لي ، ويكفي قرينة على ذلك كونه مسلماً موحداً ولا يجوز تخطئته في هذا اللفظ فضلا عن الحكم بكفره وشركه الموجب لحل دمه وماله ، الا من غبي غير عارف بأساليب كلام العرب أو معاند

وقد اختلف في الأمر كافعل هل هو للوجوب أو للندب أو مشترك بينهما وفي النهي كلا تفعل هل هو للتحريم أو الكراهة أو مشترك بينهما ، وقد كثر استعمال اللفظين في الندب والكراهية بحيث يصعب الحكم بالوجوب أو الحرمة بمجرد ورودهما إذ لعلهما صارا مجازاً مشهوراً بملاحظة خصوصيات المقامات المبعدة للحمل على الوجوب أو التحريم

وفي الكتاب والخبر المبالغات كسائر كلام العرب . ومن المبالغات الواقعة في الكتاب والسنة تسمية الذنب أو العظيم منه كفراً وفاعله كافراً ، واطلاق المعصية على فعل المكروه خصوصاً اذا صدر من الأنبياء والأولياء ، وذلك كما قال بعض العظماء « بلسان الورع والتقوى لا بلسان الفقه والفتوى » ومنه المعاصي المنسوبة في القرآن الى الأنبياء بعد قيام الدليل على وجوب عصمتهم وامتناع صدور المعاصي منهم » انتهى

هذا ما ذكره الرافضي في هذا الأمر . ونحن نقول رداً على ما فيه من باطل :

(أولا)

أما ان فى القرآن حقيقة ومجازاً فلا نخالفه فيه هنا . ولكننا نقول ان دعواه بأن ما فى هذه الآيات من صفات الله مجـاز دعوى باطلة لا برهان له بها ، وهى دعوى مخالفة لما اتفق عليه السلف من الصحابة وعلماء الحديث والأثر ومنهم الأئمة الأربعة . فقد اتفق هؤلاء وهم القوم على وجوب الايمان بمـا جاء فى الـكتاب والسنة الصحيحة من صفات الله بلا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ، وما جاء عن أحد منهم أنه ادعى بأن شيئاً من ذلك مجاز ولا قال انه غير حقيقة ، وهذه كتب المقالات والعقائد مبثوثة فى كل أنحاء المعمورة ، وقد أنكر السلف أشد الانكار على الجهمية ومن ذهب مذهبهم يوم أن ابتدعوا تأويل صفات الله وعدوهم ضالين مبتدعين ، ووضعوا كتباً خاصة فى ابطال أقوالهم ونقض مذاهبهم

وأنت اذا كلفت نفسك مراجعة كتاب من كتب الحديث والسنة كالبخاري ومسلم والكتب الستة وسائر كتب الحديث وجدت ذلك ماثلا فى كل كتاب كثيراً كثرة تصيره من الضروريات ، وتجد أن هؤلاء المحدّثين يقولون مثلا : (باب فيما أنـكرت الجهمية من صفات الله) أو (باب فى الرد على الجهمية) ونحو ذلك ثم يذكرون ما ورد فى الكتاب والسنة من صفات الله كهذه التى أنكرها هذا الرجل وعدها تجسيماً ونقصاً !؟

ولو كلف انسان نفسه ليعثر على رواية واحدة عن واحد من الصحابة وعلماء السنة بأنه أوّل آية من هذه الآيات لكلف نفسه أمراً لا يستطاع ، ولسنا نشك فى أن الصحابة كانوا راشدين فى ذلك ، وكانوا يعرفون ما يجوز من وصف الله وما لايجوز ، وانهم لو كانوا يعلمون أنه لايجوز وصفه تعالى بصفة من هذه الصفات التى يقال انها نقص فى حقه لبادروا إلى تأويلها وبيان وجهها الصحيح . لأن سكوتهم

عنها وهم يعلمون أن ظاهرها باطل أمر لايحل ، فانه سكوت عن بيان الحق واقرار المنكر الذي يخفى على غير الراسخين في العلم

وإنما دخل التأويل وانكار صفات الله على المسلمين من طريق الكتب اليونانية التي نقلت الى العربية ، وتعشقها أهل الجدل وعدوها أعلى أنواع الفلسفة ونهاية اقدام العقول ، ومن طريق الفلسفة البوذية وغيرها من الفلسفات العجمية

ولسنا في حاجة الى التدليل على أن السلف ما كانوا ينكرون صفات الله ، وما كانوا يؤولون ذلك فان هذا ضروري واضح لاينازع فيه انسان ولا أحد من المخالفين

ولكن هؤلاء المنكرين والمؤولين لما يزعمون أن العقل وحده هو الذى ألجأهم الى التأويل والانكار ، ولولا ذلك العقل الواضح لما أنكروا ولما أولوا . فهم في حاجة إذن الى التدليل على أن العقل لا يأبى الايمان بصفات الله الواردة في النصوص ، كآيات الرحمة والرضا والغضب والاستواء على العرش والعلو على المخلوقات وسائر ما أتى في نصوص الكتاب ونصوص السنة الصحيحة الصريحة ، وأنت اذا ما تتبعت أقوالهم وجدت أن الحجة التي بها يخاصمون هذه النصوص وبها يأبون اقرارها هي زعمهم أن هذه الصفات تقضي بالتجسيم وتشبيه الله بمخلوقاته ، واذا ما تتبعت أقوالهم مرة أخرى لتعرف كيف تقضي هذه الصفات بالتجسيم والتشبيه لم تجد لهم من دليل على ذلك غير أمثال قولهم « نحن لا نعرف يداً مثلا إلا جارحة مؤلفة من اللحم والدم والأعصاب والعظام » ، « ولا نعرف الغضب إلا أنه ثوران النفس رغبة في الانتقام » ، « ولا نعرف الرضا إلا أنه خفة الروح » ، « ولا نعرف الاستواء على العرش إلا أن يكون استقرار جسم على جسم آخر » وهكذا سائر الصفات المثبتة لله» . « ولانستطيع أن نفهم من هذه الصفات غير هذه المعاني إذا ما أريد حقيقة الكلمات العربية » ، « لأننا لم نجد لهذه الكلمات

معنى غير هذه المعانى » ، « وهذا باطل فى حق الله فلا بد من الحمل على المجاز . ولا بد من المصير الى التأويل تنزيهاً لله وتقديساً له عن سمات الحدوث والنقائص » هكذا يبدأون حجتهم على وجه الاجمال وهنا ينتهون منها

ونحن اذا ما أردنا الاسترسال معهم وأردنا النسق على حجتهم قلنا أنتم تذهبون الى تأويل الاستواء بالاستيلاء وتأويل الرضا بارادة الاحسان ، والغضب بارادة الانتقام ، والوجه بالذات ، والعين بالرعاية والحفظ ، وهلم جراً . وهذه المعانى التى هربتم اليها وفسرتم النصوص بها هى مثل ما هربتم اليه لزوماً واقتضاء سواء . فاننا لانستطيع سيراً معكم أن نفهم من الاستيلاء فى كلام العرب إلا أن ذاتا أى جسما استولى على جسم آخر أو أن معنى من المعانى القائمة بالأجسام استولى على جسم آخر أو معنى آخر ، ولا نعلم مستولياً على غيره إلا أن يكون جسما قائما بنفسه أو معنى قائما بغيره ، وكذلكم ارادة الاحسان والانتقام اللذان فسرتم بهما الرضا والغضب يقضيان بما هربتم منه ، فان معنى الارادة تعلق النفس أو الضمير بالشيء أو تصميمهما على المراد . فلا بد من النفس والضمير والتصميم في الارادة ، والنفس والضمير والتصميم هذه الأمور الثلاثة أشياء فى حاجة الى الأجسام ، وهى من صفات المخلوقات أيضاً . وكذلكم تأويل الوجه بالذات فانه ينصبّ على الذات من الاعتراضات والشبهات ما ينصب على الوجه انصباباً لامهرب منه فاذا قيل الوجه لا بد أن يكون جسما أو جزءاً من جسم ، قيل وكذلك الذات لابد أن تكون جسما ذا أعضاء وأجزاء وحدود ونهايات . وهكذا فى كل الصفات التى يؤمن بها هؤلاء . فما يرد على ظواهر النصوص من الاعتراضات والشبهات يرد على المعانى التى فسروها بها وروداً لامناص منه . فمن أول نصوص الدين لشبهة ادعاها غلبت عليه نفسه ، أو دسها بعض الدساسين لم يكن فاعلا شيئاً غير العدوان على حرمة الدين وافساده وإحلاله محل المتهم المزنّ بتأويل نصوصه وتفسيرها

تفاسير تنزع منها القداسة التي كانت لها في صدور المؤمنين الأولين وصدور الذين تلقوها بالاطمئنان واليقين

وقد عرفنا بالاستقراء أن من اعتاد تأويل نصوص الكتاب والسنة استهتر بالدين وانتزع من صدره برد اليقين ثم هيبة الله . وهذا أول مفاسد التأويل . ولما سمعت كان كلام السلف شديداً في المؤولين لأنهم يدرون ما يعقب ذلك من الفوضى والفساد

فادعاء هذا الشيعي أن هذه الصفات والآيات مؤولة ادعاء باطل لأنه لا دليل عليه كما رأيت ، فان الشبهة التي حملتهم على التأويل هي أن الحقيقة في هذه الصفات تقتضي التجسيم والتشبيه ، لأنهم لم يعهدوها الا صفات أجسام ، فهم لا يعقلون أن تكون صفة لغير جسم . هذا هو مجموع الشبهة ، ولكننا نقول لو أن هذه الشبهة صحيحة لقضت بألا يوصف الله بصفة ما ، فما الفرق بين هذه الدعوى وبين قول القائل : العلم عرض من الأعراض ، والعرض مفتقر الى محل يقوم به من الاجسام . فالله ليس له علم لئلا يوصف بالاعراض . أو قول القائل الله ليست له حقيقة ، لانه لو كان له حقيقة لكانت هذه الحقيقة جوهراً أو عرضاً ، أي جسما أو معنى ، لانا لا نعرف حقيقة الا جوهراً أو عرضاً . والله لا يصح أن يكون جوهراً ولا عرضا . ويصبح بقية المقدمة فالله ليست له حقيقة . وهكذا يقال في الصفات التي يقرون بها لله

وهذه الشبهة وأمثالها طلائع الالحاد والجحود ومن ثم فان الامر يؤول بهؤلاء الى الزيغ والتمرد على الاديان ، ولهذا مواضع أخرى يبسط فيها القول وإنما هذه كلمة خاطفة نبهنا بها هؤلاء المؤولين الى أنهم غالطون غلطين : غلطا في المنطق ، وغلطا في الدين ، ومسيئون اساءتين : إساءة الى الدين بتأويل نصوصه وتحريفها ، واساءة الى المنطق بالخروج على قواعده وسبيله الواضحة

فالآيات التى ذكرها هذا الرافضى فى هذا المقام ليست مجازاً ، بل هى حقيقة على معنى يليق بذات الله ، لا كما يكون ذلك فى المخلوقات والمحدثات

على أن هؤلاء المؤولين خوف التشبيه هم فى الحق المشبهون من حيث لا يدرون فانهم ماجردوا الله من هذه الصفات إلا لزعمهم غلطا أن الصفة لاتثبت لله الا كما تثبت للمخلوق ، وأن المعنى لا يكون لله الا مثل مايكون لخلقه ، ومن هنا زعموا أنهم لو وصفوا الله بشيء من هذه الصفات التى وصفت بها المخلوقات لكان وصفه تعالى بها تشبيها وتجسيما كما أن ذلك فى المحدثات . فزعموا أن الله لا يوصف بها سيراً وراء هذه الأوهام و الأغلاط ، ولو عقلوا أن وصف الله بالصفة ليس كمثل ، صف غيره بها ، وأن قيام المعنى به ليس كمثل قيامه بغيره من خلقه ، لما احتاجوا الى هذه العثرات . والله من وراء الكل محيط

على أنه من العجب أن تؤول الشيعة هذه الصفات فراراً من التشبيه والتجسيم وأشياخ الشيعة من أصرح الناس أقوالا فى التشبيه والتجسيم ، كما تقدم في باب حماقات الشيعة ، حتى انهم ليقولون بحلول ذات الله وصفاته فى بعض عباده

فالقوم حيارى لا يهتدون الى الحق أية سلكوا

(ثانيا)

أما زعمه أنه يجوز للموحد أن يطلب من الرسول وغيره غفران الذنب وشفاء الولد وتطويل العمر واغداق الرزق ورد الغائب ، وغير ذلك . وزعمه أنه ليس فى ذلك خطأ ولا غلط ، وأنه مجاز اسنادى كقول الموحد أنبت الربيع البقل . وأن القرينة فى الأمرين هى ايمان القائل وتوحيده ، فهى مقالة ما كنت أحسب عاقلا يقولها قبل هذا المصنف الرافضى ، ولى أن أقول ولا أخشى أن أخالف الحق ان كثيراً من المشركين أنفسهم ما كانوا يقولون هذه المقالة كلها ولا كانوا

يتوسعون فى دعاء الأصنام والعوذ بها كل هذا التوسع ، وما كان مثل هذا القول يحتاج الى الرد عليه لولا أن كل قول يقال وإن كان السخف نفسه لابد أن يجد آذانا وقلوبا تحله محل الحق المبجل ، وتنزله منها أفضل منزل . ومثل هذا الرجل لا يقنعه أن يرد عليه بالكتاب والسنة وأقوال المسلمين ، بل هو لايستحق ذلك ولا يجدر بمجادله أن يصنعه ، وما يغنى مثله أن تسرد عليه آيات الكتاب الكريم الناهية عن دعاء غير الله أشد النهى ، الزاجرة عن ذلك أعظم الزجر . هين على مثله أن يؤول القرآن والسنة ، وهين عليه أن يدخل من باب المجاز ويخرج من ذلك الى حيث شاءت له نفسه وشاء له ربه ، وهين عليه أن يقول إن الدعاء أقسام منه الجائز والواجب ، وأن يضرب ذلك كله بعضه ببعض فلا يهتدى سبيلا ، وإنما نرد عليه بعبث نكسر عليه به قوله ، ونأتيه بأشياء لنا فيها اللهو المباح وفيها بعد ذلك إدحاض حجته إن كان لمثل هذا الباطل أن يسمى حجة

فنقول : إما أن يقول ان كل ما يطلب من الله يصح أن يطلب من خلقه إذا استطيع حمله على المجاز بضرب من ضروبه الكثيرة ، وإما أن يقول لايجوز ذلك

فان قال بالاول ، قيل إذن يجوز أن يقول المسلم الموحد ان الرسول الكريم خالق السموات والأرض وبديع السموات والأرض ، ورب السموات والأرض ورب كل شىء ومالكه ويقدر كلمة محذوفة هى « رب الرسول » على أن يكون ذلك مجازاً بالحذف كما يقولون فى قوله تعالى واسأل القرية ، وهذا جائز فى كلام العرب لاخلاف فى جوازه

وكذا عليه يجوز أن يقول من يدعى الاسلام ان الامام الشافعى هو الذي يدفع عن مصر البلاء ، وهوالذى يسوق لها الخير والنماء ، وهوالذي بيده إسعادها وإشقاؤها وعزها وذلها وحياتها وموتها . بل ويقول هو الذي يحيي ويميت وهو الذي يعطى ويمنع وهو رب كل شيء وخالقه ، أو يقول إن الامام الحسين هو

الرب الأعلى والإله الأكبر . وأمثال ذلك ممـا يستطاع أن يقدر فيه « رب » فيراد رب الحسين ورب الشافعى ، نظير واسأل القرية أى أهل القرية

بل ويجوز أن يقول : ان الشمس (على اضمار رب الشمس) هى إلهنا الذي نفرده بالركوع والسجود والدعاء والخشية وكل معانى الانقياد والعبادة ، وتكون الحكمة فى تخصيص الشمس هنا هى أنها من أعظم نعم الله علينا ، وبالاجمال يجوز على هذه القاعدة لمن يدعى الاسلام أن يقول كل شىء اذا كان يستطيع أو يستطيع أمثال هـذا الرافضى أن يؤول قوله وأن يقدر فيه مضافا أو يجعله مجازاً أو غير ذلك : فيسب الله . ويقال انه يعنى عباده الاشرار ويسب الانبياء فيقال أنه يريد معنى من المعانى . ويقذف من يشاء ويرميه بما يشاء ويؤول ذلك كله . والقرينة فى ذلك كله ادعاؤه الاسلام أو الصلاح أو التقوى أو تسميه بأسماء المسلمين . وفى هذا أعظم الكفور والجنون والفساد فى الارض

هذا ان قال بالأول ـ وهو مايلزم كلامه ـ وأما إن قال بالثانى ، أى ان قال : ليس كل مايصح فيه المجاز يصح أن يطلب من العباد على سبيل المجاز ، بل من ذلك ماهو كفر صراح وخروج من الدين ، قيل : إذن كيف جاز عندك طلب غفران الذنوب وهداية القلوب وشفـاء المرضى من الرسول أو من غيره ؟؟؟ ولعل هذا الطلب من الكفر ومن مفارقة الملة ، وحينئذ لن يجد جواباً عن هذا ، ولا مناص له من التزام أحد الأمرين الأول أو الثانى ، وهو على كل حال خاسر القضية ، وهو على الفرضين واقع فى الغلط المبين ، وهذا ما نريد

ويمكننا صياغة هـذا الدليل بعبارة أخرى ، بأن نقول مثـلا : دعواك بأنه جائز أن يطلب من المخلوق مالا يستطيعه إلا الله كالشفاء والهداية وغفران الذنوب على أن يكون مجـازاً ذلك الطلب لاتصح ، لأنها لو صحت لمـا أمكن أن يحكم على أحد بالردة والكفر ، ولا بالخطأ والغلط ، ولما استطيع أن يحكم على من ادعى

الاسـلام بغلط ، لا كفر ولا مادون الكفر ، مهما قال ومهما أسرف فى القول وجنف فيه ، وان سب الله وسب الأنبيـاء وقدح فى المصحف وقدح فى الاسلام وقدح فى الأديان كلها . بل وإن أنكر وجوب الايمان بالله ووجوب الصلاة والصيام وسائر الفرائض ، بل وإن أنكر البعث والحشر والجنة والنار والجزاء كله ، بل وإن أباح الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن وادعى إباحة الزنا والخمر وجميع المنكرات ، بل وإن ادعى الألوهية والربوبية لنفسه أو لغيره وقال أنا ربكم الأعلى أو قال ما علمت لكم من إله غيرى كما قال فرعون ، أو قال مافى الجبة إلا الله كما قال الحلاج أو غيره ، أو قال سبحانى عز شأنى كما قال الآخر ، أو قال إن كلمة لا إله إلا الله كلمة فاسدة كما قاله من قاله من الضلال ، أو قال ان الأنبياء لم يأتوا إلا بالشرك كما قاله بعض الزنادقة ، بل وإن قال كل ما يستطيع أن يؤلفه من حروف الهجاء . وذلك لأنه يجب أن يحمل كل ما يقوله المنتسب للاسلام المحمل الصحيح من المجازات والتأويلات والتخريجات فراراً من تكفير المسلم الموحد . والقرينة على ذلك كله إسلام القائل أو ادعاؤه الاسلام والايمان

ولا يشك عاقل فى بطلان هذا ، كما لا يشك فى لزومه كلام هـذا الرافضى المؤلف لزوماً لا خلاص له منه . أو يقال : لو كان هـذا الكلام صحيحاً لما كانت العرب الذين قاتلوا رسول الله كفاراً ولا مشركين ، لأنه اذا كان المراد بالتوحيد هو الاعتقاد بأن الله الخالق لكل شيء الفاعل لكل شيء فقد كان العرب مؤمنين بذلك كله كما جاء فى آيات القرآن أنهم اذا سئلوا من خلق السموات والأرض ، ومن يدبر الأمور ، ومن يجير ولا يجار عليه ومن ... ومن .. ؟ يقولون ان ذلك هو الله وحده لا أحد غيره ، حتى انهم عند اشتداد البلاء والضراء ليدعون كل من سوى الله من الأصنـام والأنداد ويخلصون لله كل شيء « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » وذلك لاعتقادهم بأن الله هو الفاعل وأن

كل شيء ما خلاه باطل وأنه ليس وراء الله للمرء مذهب ، فالعرب مؤمنون بأن الذي يعطي ويمنع ويحيي ويميت ويفعل ما يريد ، لا معقب عليه هو الله رب كل شيء وخالقه ، فلماذا إذن كانوا مشركين كافرين إذا كانت العقيدة كما ذكر منجاة من الكفر والشرك منجاة من عذاب الله ؟ ! فانهم ما كانوا يطلبون من الأصنام والأنداد أكثر من أن يطلبوا منهم الشفاء والرزق ورد الغائبين وكشف ما بالمكروبين . هذه الأمور التي يقول هذا الرافضي انه يجوز طلبها من غير الله ، وما الفرق بين ما كانوا يصنعون وما يدعو اليه هذا الشيعي المتعصب ؟ ؟ ان كان الفرق عنده هو ايمان هؤلاء بالله فقد كانت العرب كذلك كما ذكرنا ؟ ! لا ريب أنه لو صح وهم هذا الرجل لما كان العرب كافرين ولا مشركين ولكانوا من المؤمنين الموحدين

ثم نقول أيضاً ان أمثال هذه الاستغاثات والمطالب من غير الله كطلب الشفاء والهداية وإزالة الكروب هي شرك وكفر لامرية فيه ، سواء أقيل انها مجازات أم قيل انها حقيقة ، وسواء أكان القائلون الطالبون مؤمنين بأن الله الفاعل الخالق لكل شيء أم كانوا مؤمنين بأن معه شركاء في الملك والخلق ، وسواء اعتقدوا ما قالوا أم لم يعتقدوه ، وسواء أفهموا ذلك أم جهلوه

فهذه المطالب شرك بالله على كل الوجوه ، وعلى جميع الافتراضات ، وعلى رغم أنف التأويلات

وليس هنالك من ينازع أن من الأقوال ما هو كفر وخروج من الدين وان لم تعرف عقيدة القائل ومراده ، وان كانت عقيدته ما كانت ، وأن الرجل قد يقول القول يلحقه بالكافرين وإن لم يقصد ظاهر ما قال وما يفهمه الناس منه . بل هو كفر بالوضع الديني ، ولو أن مسلماً سخر من الاسلام أو من الله أو من رسوله مازحا غير جاد لكان كافراً ولا ريب ، أو لو أنه تكلم في الله أو في دينه

أو في كتابه أو في رسوله أو في الجنـة والنار كلاماً فاحشاً لأجل إضحاك الناس وإدخال السرور على بعض القلوب أو إرضـاء لأعداء الله وخصومه لكان بذلك القول كافراً خارجا من الملة وإن كان لا يصدق ما يقول ولا يعتقده

وهذا فى الأقوال والأفعال . فان الرجل يفعـل الفعل يكفر به ولو كانت عقيدته وإيمـانه فى جانب آخر من فعله وما ظهر منه . فلو تظاهر مسلم بموافقـة الكافرين على أفعالهم وما يختصون به من عباداتهم فصلى صلاتهم وصام صيامهم ، واستقبل قبلتهم وتزيا بزيهم - وكان ذلك منه تقرباً إليهم وطمعاً فيما لديهم - لكان بذلك الفعل كافراً يهودياً أو نصرانياً أو ما شاء ، وإن لم يعتقـد شيئا مما صنع ، وان كان مؤمن الباطن والضمير

فالكفر يكون بالقول والفعل كما يكون بالقلب والعقيدة ، وكذلك أيضا الايمان ، وذلك أن الايمان كما يقول السلف قول وعمل وعقيدة

وإذن فالعقيدة وحدها ليست ضماناً من الوقوع فى الكفر والشرك مالم تصن الأقوال والأفعال من ذلك ، وهذا لاخلاف فيه بين علماء الأمة المهتدين

وإذن قول هذا الرافضى أن المطالب العالية من غير الله لاتوجب الكفر بل ولا الخطأ مادام الطالب يعتقد أن الفاعل هو الله وحده قول باطل بالاتفاق

ثم نقول أيضا نحن لا نستطيع أن نسلم بأن أولئك الذين يستغيثون الأموات ويسألونهم ضروب الحاجات ، ويطلبوا منهم تلك المطالب العالية التى لايستطيعها سوى الله مثل قولهم يا رسول الله اشفنى أو يافلان اهد قلبى ، أو ياسيدة ارزقينى أو ردي غائبى ، لانستطيع أن نسلم بأن هؤلاء المستغيثين لا يعتقدون فى الأموات المسئولين القدرة على الاعطاء والمنع ، والضرر والنفع ، والشفاء والهدى وضروب ما يطلبونه منهم ، ولا نسلم بأن هؤلاء موحدون الله توحيـد الربوبية على ما يفهم هؤلاء المخالفون ، وأنهم لا يريدون من الموتى سوى الشفـاعة والوساطة ، بل

لا نرتاب فى أن من يطلب من غير الله الشفاء وهداية القلب يؤمن بأن ذلك المخلوق المسئول قادر على إعطائه وشفائه وإغنائه ومنحه جميع ما يسأله إياه ، ثم لا نرتاب فى أنه لولا هذه العقيدة ورسوخها في نفوس السائلين الطالبين لما طلبوا منهم ولما استغاثوا بهم ، ولما فكروا فى استحالة ذلك وبعد جدواه ، فان النفوس مجبولة على الاعراض عمن لا يستطيع نفعها وضرها ، وأى انسان يملك عقله يقول لمن يعلم أنه لا يملك من الحياة قليلا ولا كثيراً ، هب لى من المال كذا وكذا ، ومن القصور كيت وكيت ، ومن الجواهر مامقداره كذا وكذا ، أو يقول لأمي لايقرأ ولايكتب اكتب لىهذا الكتاب بخط واضح جيد ، أو صحح هذا الكتاب أو يقول لأعمى يعلم أنه أعمى خذ هذا الكتاب واقرأه ، ونظائر ذلك ، بل وأى عاقل يطلب جاهلا أن يعالج مرضاً ألم به ، وهو يدرى أنه لا يعرف الطب ولا يملك من أسبابه شيئاً ، لاريب أن ذلك وأمثاله مستحيل أن يصنعه عاقل يملك عقله ، ولا شك أننا اذا ما وجدنا إنساناً يطلب إنساناً آخر حاجة من الحاجات علمنا بأن ذلك الطالب السائل يعتقد فى المطلوب القدرة والكفاءة وإلاَّ لما سأله أو رغب فيه

فلا شك أن هؤلاء الذين يسألون الموتى الحاجات يعتقدون فيهم القدرة على ما يطلبون وهبة ما يسألون وغير هذا لا يكون معقولا ، والدلائل الخارجية على هذه العقيدة كثيرة ، منها : أنهم يسمون هؤلاء الموتى « أهل التصريف » ويسمونهم « الأقطاب » وهم لا يفهمون من كلمة التصريف غير تصريف الكون من الاعطاء والمنع والايجاد والاعدام . ولايعنون بالأقطاب الا أنهم الذين تسير الشئون حسب ارادتهم وما يحبون مأخوذ من قطب الرحا ذلك العصا الذى تدور عليه . ويقولون قطب الأقطاب » و « قطب الوجود » وذلك خاص بمن كانت وظيفة تصريفه ودائرة « قطبيته » أوسع وأعمق .

ومن ذلك أن الواحد منهم اذا ما نذر لأحد هؤلاء الأقطاب نذراً فتأخر في إنفاذه أو أخلف ، فاصيب بأمر من الله قال ان ذلك الشيخ أصابني لأني لم أوف بنذره ، فاجتهد ذلك المسكين في التقرب الى الشيخ من تقديم النذور والقرابين ، والصدقات ، واتيانه من المكان السحيق ، حتى يرضيه ويطمئن الى رضاه . وهذا لا نزاع في وجوده بين كثيرين من المدعين الاسلام . ولا ريب أن هذه الأعمال كلها دلائل لا حيلة في دفعها على إيمانهم بقدرة الأموات واستطاعتهم النفع والضر

ومن ذلك أن هؤلاء الغلاة في القبور اذا وجدوا من لا يعنى عنايتهم بها ، يحذرونه الشر والمصيبات وينصحون له بزيارة المشايخ وتقديم ما يمكن تقديمه والا فبيته صائر الى الخراب ، وبنوه متتابعون الى الهلاك ومصبحون جزر الأحداث والأرزاء الجسام . ومن ذلك ما نلحظه من الخشوع الذي يعلو هؤلاء الغلاة عند زيارتهم شيخاً من الأشياخ وما يرهقهم من الذلة الممزوجة بالمهانة المخلوطة بالدموع الحرى والأنفاس المتتابعة والتأوهات العميقة

هذه الأمور التي لا تكون الا فيمن سما به الأمل حتى جاوز السماوات ، وخفضه الوجل حتى هوى في أسفل الدركات . ولن تكون هذه الأعمال بين يدي من يعلم أنه لا يستطيع الضر والنفع والاعطاء والمنع . اللهم انا نشهدك أن هذا غير معقول

أما خرافة المجاز وما يدعيه المحرفون هنا من المستغيثين بالأموات الداعين لهم أنهم يريدون بذلك المجاز العقلي الاسنادي ، وانهم لا يقصدون أكثر من ذلك ، فهذا القول مهزلة من مهازل عباد القبور والغلاة في الأجداث

ونحن لا نشك في أن أكثر هؤلاء الدعاة للأموات لا يعرفون هذه المسألة المجازية أصلا ولا يدرون ما المجاز لا الاسنادي ولا غيره ، ولا ما الحقيقة فضلا عن أن يعرفوا أن هذه المسألة بعينها مجاز وأن القرينة هي التوحيد والايمان ولا يدرون

من هذه العملية الاصطلاحية قليلا ولا كثيراً . وهؤلاء الدعاة أقل وأغبي من أن يقصدوا بقولهم اعطنى يا رسول الله كذا سؤاله أن يكون سبباً فيما يطلبون . ولو كانوا يريدون ذلك لفاهوا [بما يريدون واختصروا الطريق وجاءوا المسألة من بابها

وما أبعد عقول الدهماء والجهال عن أن يقولوا اشفنا أو رد غائبنا يا رسول الله وهم لا يريدون الا كن لنا سبباً وشفيعاً فيما نرجوه ، وما أظن أمثال هذا المؤلف يريد ذلك حينما يستغيث ويلجأ الى موتاه

وغريب أن يريد الانسان شيئاً ويطلب سواه من غير فائدة ولا حكمة معقولة

فنحن ننازع هذا الرافضى فى ادعائه أن دعاة الاموات لا يريدون منهم إلا الشفاعة ولا يريدن بقولهم الا المجاز

على أننا نقول هب الأمر كما ذكر ، وهب أن مرادهم سؤال الشفاعة والوساطة لا غير ، ولكننا نمنع جواز طلب الشفاعة من الأموات ، ونقول ان هذا من أعمال المشركين الذين يتقربون الى الله بالرجوع الى الأموات ، وبيان هذه المسألة يأتى فيما بعد في الباب الخاص بها

ثم ان هذا الرافضى لم يوفق حتى ولا فى المثل التى يجعلها حججاً يتشبث بها فى دعاويه . فانه زعم أن قول القائل يا رسول الله اشفنى جائز كقوله أنبت الربيع البقل . وهو فى هذا غالط غلطاً فاحشاً بيناً . وذلك أن قول القائل يا رسول الله اشفنى إنشائى طلبى . وقوله أنبت الربيع البقل خبرى . والشبهة قد تجوز لو كان جائزاً للمسلم الموحد أن يرغب الى الربيع وأن يطلبه طلباً حقيقياً إنبات البقل . ونحن نقول ولا نخشى مخالفاً إن من ضرع الى الربيع وطلب اليه بخشوع وذلة وأمل ووجل أن ينبت البقول وأن يخرج الأثمار والازهار كما يفعله بين يدي الميت من المشايخ المعظمين ، نقول ان من يطلب من الربيع ذلك الأمر خاشعاً خاضعا مستكينا

فهو خارج من الملة خروجا صريحًا لا شبهة فيه ولا ريب . ومثله من يضرع الى الشمس والى القمر والى الاجرام العلوية طالبًا منها الحياة والشفاء . فان هذا هو عبادة الشمس والقمر والافلاك . وهذا لا فرق بينه وبين من يطلب من الربيع إنبات البقل طلبًا كالطلب من الأموات

ولو أن انسانًا طلب من الشمس الشفاء والحياة والرزق لكان فى نظرنا أقرب الى الحق ممن يطلب الى الاموات ذلك . والفرق بين الامرين واضح جلى

فاستبان أن المثال الذي ظفر به هذا المؤلف الشيعى هو رد عليه وإبطال لدعواه إبطالا لا حيلة له فيه . وذلك جزاء الظالمين ، وما للظالمين من أنصار

هذا ومن جهل المرء بما لا يستطاع جهله التسوية بين الاستغاثة بالأموات وسؤالهم ضروب الحاجات ، وبين قول القائل أنبت الربيع البقل . فان سؤال الموتى لن يكون إلا مصحوبًا بالخشوع والخضوع والخشية الظاهرة والباطنة ، ثم التمسكن والخنوع لذلك الميت المسئول . وهذه الأمور هى لباب العبادة وخلاصتها . وليس كذلك قولهم أنبت الربيع البقل . فان أحداً من الناس فيما نعلم لا يمكن أن يصطحب قوله أنبت الربيع البقل شيء من الخشية والخضوع للربيع . وما يزيد هذا عن قولنا : مات فلان وجاء فلان ، وجاء الربيع وذهب الربيع ، إخبار فقط . ومن ذا لا يفرق بين الحالين ؟ !

ثم إن سؤال الأموات موضع غلو وافتتان ، يكون أبداً خطراً على العقيدة والتوحيد ، دَفّاعًا الى الكفر والشرك بخلاف قولهم أنبت الربيع البقل . وقد عبد البشر البشر ولا يزال يعبده . وقد أله أوائل الشيعة الخليفة عليا فأحرقهم وهم الى اليوم يؤلهونه هو وذريته ويرون حلول ذات الله فى ذواتهم . فن المعقول أن يفرق بين الأمرين لما يوجد بينهما من الفرق فى الجوهر والمعنى

بعد هذا كله نستطيع أن نرد على هذا الضلال بنوع آخر من الرد ، كأن

نقول مثلا إذا كان مثل هذه الاستغاثات بالعباد معناه طلب الوساطة والشفاعة لغة ، وكان هذا جائزاً دينا ولغة ، فلماذا لا نجد أحداً من المسلمين المهديين لامن الصحابة ولا ممن جاءوا بعدهم واتبعوهم باحسان فعلوا ذلك فدعوا الاموات وطلبوا منهم الشفاء والغنى والرزق ورد الغائبين وشفاء المرضى ، وهذا الرافضي وإن أسرف في الدعاوى الباطلة لا يستطيع أن يدعى أن أحداً من الصحابة طلب من الرسول ولا من غيره حياً ولا ميتاً شفاء ولا هداية قلب ولا رد غائب ولا إغاثة مكروب محروب ، ولا غير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله فما جاء لا بسند صحيح ولا ضعيف أن أحداً من الصحابة قال يا رسول الله إغفر ذنوبنا أو اهد قلوبنا أو أغثنا أو ارزقنا أو ماشابه ذلك . بل كانوا يأتونه عليه السلام ويقولون له ـ اذا ما نابهم نائب ـ يا رسول ادع لنا ربك ينزل علينا الغيث والمطر ويشفي مرضانا ويبارك لنا في كذا وكذا . فيقوم رسول الله فيدعو الله لهم . وهذا متواتر معلوم . واننا نعلم يقيناً وكل المسلمين يعلمون أن أحداً من أصحاب رسول الله لم يقل يوماً يا رسول الله أغثنا أو وسع رزقنا أو اشف مرضانا . ونعلم أن أحداً منهم لو قال ذلك لأنكره عليه رسول الله كل الانكار ولما رضيه منهم . ولقد قال له رجل يوماً ماشاء الله وشئت فقال له عليه السلام « اجعلتني لله ندا . بل ماشاء الله وحده » ولما استغاث به بعض الصحابة وهو حي بين أظهرهم من منافق كان يؤذي المؤمنين قل لهم « إنه لا يستغاث بي وانما يستغاث بالله » ولقد قال خطيب يوماً أمامه ومن يطلع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال له عليه السلام بئس الخطيب أنت قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى »

وذلك لجمعه بين الضمير العائد على الله والضمير العائد على الرسول الكريم وما يكون ذلك بالنسبة الى طلب الشفاء والرزق من الرسول وغيره ونحسب أن رجلا لو طلب منه ﷺ شيئا من ذلك لأنكره عليه كل الانكار

ومكان القول فى الرد على هذا الضلال واسع جداً يستطاع أن يؤتى من طرق كثيرة ، كل منها يوصل الى هدمه وتقويضه . فان الله الذى خلق الحق والحقيقة خلق الباطل ذليلا أين وجد وحيث كان ، لا يستطيع مقاومة الحق ولا يخفى على من أراد الهداية الفرق بينهما . وسوف يجىء لهذا زيادة بيان فى الأبواب الآتية

(ثالثا)

قوله وقد اختلف فى الأمر هل هو للوجوب أو للندب أو مشترك بينهما وفى النهى هل هو للتحريم أو للكراهة أو مشترك بينهما ؟ يقال فيه نعم قد وجد الخلاف فى ذلك بين علماء الكلام والنظر . ولكن اتفقت كلمة السلف وقر رأى عامة المسلمين على أن الأمر « كافعل » وما يتصرف من هذه الكلمة مثل : أنتم مأمورون ، أو أمرناكم للوجوب والالزام ، بحيث أن من ترك ما أمر به يؤاخذه الله يوم الدين الا إذا قامت قرينة على أن أمراً معيناً ليس للوجوب والالزام . وحينئذ يصار حيث تدل القرينة ، واذا قامت القرينة على أن أمراً معينا ليس للوجوب تردد بين الندب والاباحة فقد يكون ندبا وقد يكون اباحة ، والأخير يكون اذا ما أتى الأمر بعد الحظر كقوله تعالى « واذا حللتم فاصطادوا » وقوله : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » وقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح « كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى فوق ثلاثة أيام فادخروا وكلوا وتصدقوا » ، وقوله عليه السلام فى الحديث الآخر الصحيح « كنت نهيتكم عن الانتباذ بكذا وكذا من الأوانى فانتبذوا بما شئتم غير أن لا تشربوا مسكراً »

وظاهر كلام هذا الرافضي أن الأمر يدور بين الوجوب والندب والاشتراك

بينهما دائما ، ولكن الأمر كما ذكرنا نحن ، واذا لم يكن هنالك قرينة على الندب والاباحة فلا بد من الحمل على الوجوب والدلائل على هذا لا تحصى ، ولولا ذلك لما استطعنا أن نفهم أن الحج والزكاة والصلاة والصيام وسائر فرائض الاسلام واجبة فان الذى جاء فيها هو أوامر شديدة ووعيد شديد لمن ترك تلك الفرائض فاذا ما كانت الأوامر ليست للوجوب وكان الوعيد الشديد يكون لترك المندوب كما يقول هذا المؤلف فكيف يستطيع أن يقطع بأن أمراً من الأمور أو فريضة من الفرائض واجبة ؟

لا ريب أن الذهاب الى هذا الرأي انحلال من الدين جملة وتفصيلا

وكذلك اتفقت كلمة السلف واستقر رأى المسلمين على أن النهى مثل « لاتفعل » وما تصرف من ذلك مثل أنت منهى ، أو نهيتك للتحريم ما لم تكن فى الكلام قرينة تبين أن النهى المبين ليس للتحريم ، وحينئذ يصار الى ما تدل عليه القرينة ، وأما عند فقدان القرينة فلا بد من الحمل على التحريم ، ومن لم يصنع ذلك لم يستطع أن يقطع بأن الفواحش الظاهرة والباطنة محرمة من النهى عنها ، بل قد تكون مكروهة كراهة تنزيه فقط ، وأما الوعيد عليها باللعنات والنار فلا يدل على التحريم أيضاً عند هذا المصنف ، فقد ذكر أن تارك المندوب أو فاعل المكروه يوعد بالنار ويلعن . وهذا مؤد ولا محالة الى الاباحية المطلقة . وهذا هو ما يرمى اليه هذا المؤلف وهذا هو قيمة ردوده على النجديين أهل السنة والجماعة الذين ينهون عن الفواحش بصرامة ، ويأمرون بالطاعات بصرامة ، ولا يقبلون من يتهاون فى ذلك

وليعلم أن الدلائل الدينية واللغوية والعقلية على أن الأمر المطلق للوجوب ، والنهى المطلق للتحريم كثيرة جداً مذكورة فى كتب أصول الفقه تستطاع مراجعتها بسهولة ، ونحن إنما غرضنا هنا ذكر ما يقتضى كلام هذا الرجل من الفساد

والانحلال حيث ادعى أن معرفة المحرم والواجب من النصوص عزيزة عصية

ويح هذا الرجل وطائفته !!! تارة يدعون أن الكتاب والسنة يدلان على كل شيء حتى على العقائد الفاسدة وعلى كل الضلالات كما تقدم ، وتارة يدعون أنه تعز معرفة الواجب والمحرم ومعرفة فرائض الاسلام ، وتارة يدعون أن الكتاب محرف مزيد فيه منقوص منه ، وتارات يدعون أقبح من هـذا وهذا كما سوف يمر بك الشيء الكثير من هذا الخلط فى أثناء هذا الكتاب . وأنت اذا ما فكرت فى الحامل لهذا الرجل على الاصطدام بهـذه الحقائق الاسلاميـة العليا ، وفى محاولته القدح فى النصوص وقيمة النصوص عرفت إن كنت فطيناً أن الحامل له على ذلك كله هو طمعه فى التنصل من حجج القرآن والسنة التى يدلى بها أهل الكتاب والسنة على امتناع دعوة الأموات وامتناع الرعونات الشيعية . فان هذا الشيعى يعرف أن نصوص الاسلام ضده وضـد ما يدعو اليه ، فلا سبيل له إلا القدح فيهـا بايراد الشبهات عليها ، ولو كان معه شيء من النصوص لما ذهب هـذا المذهب الأبعد ، ولما غص بالكتاب والسنة كل هذه الغصص ، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

(رابعا)

قوله وفى الكتاب والسنة المبالغات كسائر كلام العرب ، الجواب عليه أن يقال ان المبالغة فى كلام العرب أقسام منها الكذب الصراح المستهجن والمجازفات المنكرة على الشاعر ومن الشاعر نفسه . وهذا القسم من المبالغـة لا يمكن أن يدخل كلام الله ولا أن يدخل كلام رسوله . وهذا القسم لو ارتكبه عالم من العلماء لكان غالطاً ولكان فاعلا ما لا يجوز مثله من مثله ، ومن مثل هذا القسم قول الشاعر :

كفى بجسمى نحولا اننى رجل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقوله أيضاً :

ان كان مثلك كان أو هو كائن ... فبرئت حينئذ من الاسلام

وقول الآخر :

لأخفت أهل الشرك حتى انه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

***

وهذا النوع من المبالغات قد أباها علماء الأدب والنقد على الشعراء أنفسهم ، وهم يقولون ان أحسن الشعر أكذبه ، فكيف يمكن أن يدخل كلام الله وكلام رسوله ؟ هذا مالا يكون ، وكلام هذا المصنف صريح فى أنه يجوز عنده هذا النوع فى الكتاب والسنة ، والمسلمون والعقلاء جميعاً ينزهون كلام الله وكلام رسوله عن هذا الهراء القبيح ، فكلامهما لن يتصل به شىء من المبالغة التى تخرج عن نطاق الصدق والحق ، وذلك أنه لا يراد منهما سوى الصدق والحق ، ولهذا نجده يقول تعالى « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » ويقول « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » وانتظر الى تقييد الكلام « بيكاد » فى الموضعين بعداً عن المبالغة الكاذبة التى يترا كض الى تصيدها الشعراء

ولا يظن القارىء أن قوله تعالى « ومكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال» من هذا النوع الممنوع بل ان « ان » هنا نافية والمعنى وما كان مكرهم لتزول منه الجبال لحقارته وضآلته وضعفه ، وقد جاء فى بعض القراءات « ما » بدل « ان » أى وما كان مكرهم والمراد من الآية أن القوم وان كانوا شديدى المكر والدهاء والحال فهم أقل وأضعف من أن يغالبوا الله سبحانه فيزيلوا ما وطد أو يهدموا ما شيد كقوله تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا» أو يكون المراد بالجبال هنا آيات الله وبيناته أى انهم لا يستطيعون أن يزلزلوا براهيننا وآياتنا التى أعطيناك إياها فنفسوها عليك وغاظهم ذلك منك ، والمعنى على كل صحيح سليم جيد

وهذا هو سبيل القرآن والسنة الذى لا يختلف لا يصل الى المبالغة الخارجة عن الواقع والصدق

وكلام هذا المؤلف ينبؤنا أنه باطنى غال متعصب ، فانه يسعى طاقته للتفصى من ظواهر النصوص ونزع الدلائل منها بما استطاع من ادعائه ضروب الاحتمالات تارة بادعائه المجازات وتارة بادعائه المبالغات وتارة بادعائه الاشتباه وتارة بقدحه فى الروايات والرواة وتارة بغيرذلك من الدعاوى الرامية عن قوس قرمطية هوجاء ولكنه فى كل ذلك لا يريش ولا يبرئ

وأما تسمية بعض المعاصي كفراً كقول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « اذا أبق العبد من مواليه فقد كفر » وقوله : « اثنتان فى الناس هما كفر الطعن فى الأنساب والنياحة على الميت » وأشباه ذلك فليس من المبالغة فى شىء كما يدعى هذا الرافضى

فان حاصل قوله : إن ذلك ليس كفراً ، ولكن الشارع سماه كفراً تهويلا وإرهابا ، أو كذباً بالعبارة الصريحة . وهل يكون الالحاد والقدح فى الدين غير هذا

هذا منزع للملحدين قديم يرمون من ورائه الى انتزاع الثقة من الأديان . يقولون إن ما فى النصوص من أهوال يوم القيامة المعدة للكافرين ، ومن اللذات المعدّة للمؤمنين هى أقوال غير صحيحة يراد بها المبالغة وحفز الناس الى الطاعات ، واجتناب المعاصى ، ولكن لا شىء من ذلك واقع صادق . ونحن نقول : كذبوا والله هم ، وصدق الله ورسوله فى وعده وايعاده ، والله لا يقول للشىء إلا ما يستحق ، فلا يسمى ما ليس كفراً كفراً ، كما لا يسمى ما ليس إيماناً ايماناً ، لا على سبيل المبالغة ولا على سبيل غير سبيلها ، بل لا يسمى الأمر غير اسمه

أما تسمية المعاصى كفرا فليست مبالغة بل هو وضع شرعى لها . فهى كفر حقيقة . ولكن الكفر أنواع كما جاء عن عبد الله بن عباس « كفر دون كفر » فانكار الله كفر ، وانكار الاديان كلها كفر ، والشرك بالله مع الايمان به كفر والمعاصى التى سماها الشارع كفراً كفر . ولكن هذا الكفر ليس فى مرتبة واحدة من الشناعة والقبح . فكفر يخرج من الملة وكفر لا يخرج منها ، بل يكون صاحبه مسلماً آتيا بما يسمى كفراً . وكذلك كل مافيه مخالفة لأمر الله ، يقال فيه ذلك . فالظلم مثلا أنواع منه المخرج من الدين كالشرك بالله كقوله تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » ومنه مالا يخرج منه ، وهو مادون ذلك . ومنه المخلد فى النار ومنه ماليس مخلداً . وكذلك الشرك منه الأصغر الذى لا يوجب الخلود فى العذاب ومنه الأكبر الذي يوجب الخلود فى العذاب المقيم الأليم

ومثل ذلك الايمان بالله نفسه . فمنه الايمان الصحيح البرىء من الشرك ومنه الايمان الممزوج بالشرك الذى لاينجى صاحبه كايمان الكافرين بأن الله خالقهم وخالق كل شىء حتى أصنامهم . كقوله تعالى « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » هذا هو سبيل هذه النصوص . وبها ينجو المرء من مزالق وقع فيها كثيرون . أما ماذكره من التأويل لما أضيف الى بعض الانبياء وزعمه أن ذلك بلسان الورع والتقوى لا بلسان الفقه والفتوى، فهو تأويل بعيد عن الورع والتقوى بعيد عن الفقه والفتوى . فانه يقضى بأن يكون للكتاب والسنة لسانان وخطابان : لسان للورع ولسان للافتاء أحدهما يخالف الآخر ، وخطاب للاولياء والانبياء وخطاب لعامة الناس ، أحد الخطابين يخالف الآخر . وهذا كذب وانحلال فان خطاب الشارع هو خطاب فتوى وتقوى . فخطاب التقوى لابد أن يكون خطاب فتوى . وخطاب الفتوى لابد أن يكون خطاب تقوى . والخاصة والعامة فى ذلك سواء . فما سماه الله من نبى معصية أو ذنباً لا يمكن أن يسميه من غيره

طاعة وقربة . وما سماه من عامة الناس طاعة وقربة لايمكن أن يسميه من الانبياء والأولياء ذنبا . ولو كان الأمر كذلك لما صح للعامة أن يقتدوا بالخاصة من الانبياء والاولياء إذ يكون حينئذ لكل من الطائفتين خطاب ولسان وعمل خاص به ونحن اذا ما نظرنا الى ما نسب الى بعض الأنبياء تبين لنا فساد قول هذا الرجل بوضوح وجلاء ، فننظر مثلا الى ما نسب الى آدم عليه السلام من خطيئة ، فنجد أن الله نهاه عن الأ كل من الشجرة وحذره ذلك تحذيراً واضحاً ، ثم نجد أنه قد أ كل من الشجرة ، فقال الله له اخرج من الجنـة ، فأخرجه منها وقال فى هذه المخالفـة « وعصى آدم ربه فغوى » ثم ندم على أ كله من الشجرة واستغفر ربه وأناب اليه فتـاب الله عليه ، فهل يسمى الله أ كله من الشجرة طاعة ، أو هل يقول انها ليست معصيـة لو كان الخطاب بلسان الفتوى لا بلسان الورع المدعى ، أو لو كان المنهى عن الأ كل من الشجرة الآ كل منها واحداً من عامة الناس ؟ ؟ كلام هذا الرجل يقضى بأن يكون الجواب « نعم » ولـكننا نحن نقول اللهم لا

ثم ننظر الى ما حكاه الله عن نبيه موسى عليه السلام من قتـل القبطى بوكزة كانت هى القاضية عليه ، فاذا ما افترضنا هـذا القتل غير مشروع أو افترضنا أن موسى عليه السلام كان متعمداً القتل ، اذا افترضنا ذلك فهل يقال ان موسى عاص مقترف ذنباً لأنه يخاطب بلسان الورع والتقوى ويقال لفاعل مثل فعله من عامة الناس كأن يقتل رجلا بوكزة انه غير عاص ولا مذنب لأنه يخاطب بلسان الدين والفتوى ؟ كلام هذا الرافضي يقضى بأن يكون الجواب « نعم » ولـكننا نحن نقول اللهم لا

هذان مثالان من الأمور المضافة الى بعض الأنبياء يفسدان على هذا الشيعى قوله وتأويلاته الباطنية ، وليقس عليهما ما لم نذكره

أما الذي نقوله نحن ويقوله جمهور المسلمين ويشهد له الكتاب والسنـة ، فهو

أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد تقع منهم أحيانا ذنوب صغيرة وأخطاء يسيرة إقراراً للانسانية فيهم ، واعترافا لهم بالضعف أمام الله وأمام جبروته وكمالاته ، ولكنهم يتوبون من ذلك بلا ريث ولا تأخير « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » ثم ان الله لا يقرهم على تلك الذنوب الصغيرة بل يعاتبهم وينبههم فيزدادون بذلك رجوعا الى الله وإنابة اليه

وكم من مرء يزداد بالذنب قربا الى ربه ، ويزيده تعالى تقريبا اليه ، لما يعقب ذلك من الندم والانابة والخشية والوقوف بين يديه ضارعا مستكينا ، كما قد يزداد بالطاعة بعداً من الله لما يكون مع ذلك عند المانين على الله من الاغترار والانخداع والامتداح بما عملوا

وبهذا التفسير لا حاجة الى التأويلات الباطنية التى حشدها الشيعى فى كتابه هذا تضليلا وجهلا

الامر السادس

قال فيه ما مختصره « ليست جميع المعاصي ولا الكبائر كفراً لكن قد يطلق على كثير من الذنوب اسم الكفر والشرك والنفاق تعظيما للذنب وتحذيراً منه أو تشبيها لمؤاخذته لعظمها بمؤاخذة الكفر كما قد جاء التهديد بالنار واللعن على ترك بعض المستحبات أو بعض المكروهات بيانا لتأكد الاستحباب حتى كأنها واجبة ، ولشدة الكراهة حتى كأنها محرمة ، أو لأن التهاون بها ربما يجر الى التهاون بالواجب ، كما ورد أن من ترك فرق شعره فرق بمنشار من نار . ونظير ذلك اللعن على فعل المكروه كلعن المحلل والمحلل له ، ولعن النائم فى البيت وحده والمسافر وحده وآكل طعامه وحده ، واطلاق المعصية على فعل المكروه ، كما فى المعاصي المنسوبة الى الأنبياء . قال: وحكم

الوهابيون بكفر تارك الصلاة وإن لم يكن مستحلا واستحلوا القتل بترك بعض فرائض الاسلام أو شعائره على عادتهم فى تكفير المسلمين وإحلال دمائهم اقتداء بالخوارج »

وهنا نقل من كتاب الهدية السنية لعلماء نجد كلاماً فى حكم تارك الصلاة وفيها أن العلماء مختلفون فى إكفار تارك الصلاة ، وذكر أدلة الفريقين وذكر بعض الأحاديث الدالة على كفر تارك الصلاة وفيه أيضا أن العلماء مختلفون فى قتل تارك الصلاة وأن الجمهور ومنهم الأئمة الأربعة خلا أبا حنيفة قائلون بقتله وذكر من دلائلهم قوله تعالى فى سورة التوبة « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » وقوله ﷺ فى الحديث الصحيح : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)

ثم قال بعد ذلك :

« ونقول أما الأحاديث التى أطلق فيها الكفر على جملة من المعاصى فقد عرفت أنه لم يرد بها الحقيقة ، وأما الاستدلال بآية فاقتلوا المشركين فغير صحيح لأن الاسلام قول باللسان وعمل بالأركان فمن كان مشركا وتشهد الشهادتين ولم يأت بأعمال الاسلام لا يحكم باسلامه بخلاف المسلم الموحد المولود على فطرة الاسلام الملتزم بأحكامه الفاعل لها اذا عصى بترك فرض يعتقد وجوبه ويعلم أنه عاص بتركه فالآية واردة فى الأول لافى الثانى . والحاصل أنه لايجوز التهجم على دماء المسلمين بأخبار غير ظاهرة وبأقوال الاجهورى والأذرعى والحرانى والهيتمى »

ونحن نسأل الله أن يفرغ علينا صبره كى نستطيع مجابهة مافي هذا الكتاب من العناء والبلاء والخروج عن الصراط المستقيم

(اولا)

قوله : ليست جميع المعاصى كفراً ، لا معنى لحشره هنا لأن القوم الذين يزعم أنه يرد عليهم لا يقولون ان جميع المعاصى ولا جميع الكبائر كفر . فلا يدعون أن الزانى والسارق والقاتل وظالم الناس وآكل الربا وأموال الناس بالباطل ، لا يدعون أن أحداً من هؤلاء كافر إذا ما كان مؤمنا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ايمانا صحيحاً ، واذا ما سلم عمله من الشرك بالله وعبادة غيره . بل هم يبرءون ممن يكفّرون المؤمنين العصاة ، ويعدونهم مخالفين الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة المهديين ، ويوردون من الدلائل على ذلك أشياء كثيرة لا يعلمها هذا المؤلف ولا طائفته ، وهذا مذكور فى كتبهم المطبوعة لا يخالف فيه واحد منهم

فما الذى دعا هذا الرافضى الى حشده هذا الأمر فى هذا الكتاب ؟ ؟ ؟ انه يريد بذلك التضليل وترويج الكذابة على أهل نجد وغيرهم من أهل السنة بزعمه أنهم يكفّرون بالذنوب ليدعى أنهم هم الخوارج كما سوف يجىء فى مقدمته الثالثة

(ثانيا)

ان الشيعة فى الحق هى التى تكفّر بالذنب لا من يرد عليهم هذا الشيعى العنيد فانهم يكفّرون من لا يؤمن بامامهم المعصوم المنتظر ، ومن لا يؤمن بالعصمة لأئمتهم ومن لا يقدم علياً على أبى بكر والخلفاء ، ومن لا يبرأ من معاوية وعمرو بن العاص وعائشة والآخرين ، بل ويكفّرون الخلفاء الراشدين الثلاثة لأنهم كما زعموا اغتصبوا الخلافة من الخليفة الحق على ، ويكفرون من مكن هؤلاء الخلفاء من الخلافة وقدمهم على علي رضى الله عن الجميع ولا رضى عمن سب أحداً منهم ، وقد يكفرون كل من لا يكون شيعيا من المسلمين الأولين والآخرين وفى هذا الكتاب الذي نتولى الرد عليه ص ٦٥ بيتان من الشعر فى غاية البذاءة والوقاحة يقدح

قائلهما فى غير الشيعة من آل البيت أشنع القدح ، مع العلم بأن أكثر آل البيت ليسوا شيعة ، والبيتان هما :

اذا علوى تابع ناصبيا لمذهبه فما هو من أبيه
فان الكلب خير منه طبعا لأن الكلب طبع أبيه فيه

والناصبى عند هؤلاء القوم البعداء هو من قدم أحداً على علي فى الخلافة أو فضله عليه ، فكل علوى يفضل أبا بكر أو عمر أو عثمان أو يقدمهم على علىّ فليس لأبيه ولا منه ، أى انه ابن زنا ، وهو شر من الكلاب خلقاً وطبعاً لمحافظة الكلاب على طباع آبائها بخلاف العلوى الذى يفضل أحداً على علىّ . فالمسلمون الذين لا يفضلون علياً على جميع الصحابة هم شر من الكلاب ، والكلاب خير منهم طباعا عند الرافضة والشيعة ، وهذا شر مايكون من القدح والأذى . وقد ثبت فى البخارى وغيره من طرق لا تحصى أن علياً نفسه كان يفضل أبا بكر وعمر على نفسه وعلى غيره فهو ناصبى وهو شر من الكلاب عند هؤلاء القوم المبعدين

وفى كتاب الوشيعة (ص ٢٤) تحت عنوان : « كتب الشيعة فى الفرق الاسلامية » :

« صرحت كتب الشيعة أن الفرق الاسلامية كلها كافرة ملعونة خالدة فى النار إلاّ الشيعة . والمخالف مطلقاً شر من الكفار . وصرحت كتب الشيعة أن دم الناصب وماله حلال إلا امرأته لأن نكاح أهل الشرك جائز . والناصب على حسب بيان كتب الشيعة من يقدم الأول والثانى على على أو يعتقد إمامة الأول والثانى . وتقول كتب الشيعة ان الله قد نصب علياً علماً بينه وبين خلقه من أنكره فهو كافر ومن أشرك معه آخر فهو مشرك وإن ايمان المخالف فى الامامة لا إيمان له هو للنار والى النار . والمخالف فى الامامة حكمه حكم المشرك والكافر فى جميع الأحكام ، لكن أجرى عليهم زمن الهدنة حكم المسلمين رحمة للشيعة . واذا ظهر القائم قائم آل محمد أجرى على المخالف فى الامامة حكم المشرك والكافر فى جميع الأحكام . ويقول

الامام الباقر والصادق : لولا أنا نخاف عليكم أن يقتل رجل منكم برجل منهم والرجل منكم خير من مائة الف رجل منهم لأمرنا كم بقتلهم كلهم ، ويقول الامام فى أئمة المذاهب الأربعة من هذه الأمة : لا تأتهم ولا تسمع منهم لعنهم الله ولعن مللهم المشركة . وفى التهذيب[١] كان الصادق يقول خذ مال الناصب حيث ما وجدته وادفع الينا الخمس[٢] »

فهذا القول الذى ذكره هذا المصنف هنا يوجّه الى طائفته وبنى دينه الرافضة لا الى أهل السنة

(ثالثا)

أما إطلاق الكفر والنفاق والشرك على بعض الذنوب فقد تقدم الكلام عليه فى الأمر الذي قبل هذا وتقدم أن هذه الاسماء ، الكفر والنفاق والشرك أنواع صغرى وكبرى مخرج من الملة وغير مخرج كشأن جميع الاسماء الشرعية وغيرها منها ما يكون للمعنى الأكبر ، ومنها ما يكون للمعنى الأصغر ، ومنها ما يكون لما بين ذلك فالاستغاثة بالموتى مثلا شرك أكبر ، والحلف بغير الله شرك أصغر ، كما جاء فى الاحاديث . فكلا العملين يسمى شركا تسمية حقيقية شرعية ، ولكن أحدهما أكبر مخرج من الاسلام ، والثانى أصغر غير مخرج من الاسلام . وكذلك جحود القرآن والاسلام مثلا كفر ، وقتال المسلمين كفر ، كما جاء فى الاحاديث الصحاح ، ولكن الكفر الاول كفر أكبر مخلد فى النار ، والثانى دون ذلك

---

(١) التهذيب أحد كتب الشيعة المعتمدة

(٢) يلاحظ أن الشيعة تنسب الى أئمة آل البيت كذبا وهى تسبهم فيما تحسب أنها تستدل بأقوالهم

والكذب على الله وعلى كتابه وادخال ماليس منه فيه من أفظع أنواع الكذب وأكبرها وهو كذب مخرج صاحبه من دين الله . والكذب على الناس لأسباب دنيوية كذب لكنه دون الاول فظاعة وعاقبة وعقوبة . وكلا النوعين كذب ولكن شتان ما بين النوعين . بل والايمان بالله منه الايمان الصحيح النقى المستوجب رضا الله . ومنه الايمان المشوب بالشرك والكفر بالله ، كايمان المشركين . وهذا قد تقدم

أما التأويلات التى ذكرها الشيعى فهى تأويلات فاسدة قرمطية

(رابعا)

أما زعمه أنه جاء التهديد بالنار واللعن لمن ترك بعض المستحبات أو فعل بعض المكروهات ، فزعم يأباه الله ورسوله والمؤمنون . فان الله لا يمكن أن يوعد بالنار أو يلعن إلا من يستحق ذلك الوعيد وتلك اللعنة . ولا يستحق النار واللعن إلا من فعل فعلا منكراً أو ترك أمراً واجبا . فانه لو قال من فعل كذا فله النار وكان ذلك الفعل الموعد عليه أمراً مستحباً ليس واجباً فعله ولا مؤاخذا فاعله لكان ذلك القول كذبا صحيحاً صريحا ، والله لن يكذب أو يخلف فى وعده أو إيعاده . ولو قال من فعل هذا الامر فهو ملعون ، وكان ذلك الامر فى الواقع أمراً غير واجب ولا معاقبًا عليه ، لكان ذلك القول كذبا أيضا . لان اللعن معناه الابعاد من رحمة الله ورضاه ، كما يقول العلماء ، وكيف يبعد من رحمة الله من لم يفعل محرماً ومن لم يدعْ واجبا ؟ ! هذا مالا يكون

واذا كان الله يلعن ويوعد بالنار من يدع المستحبات ومن يفعل المكروهات فكيف يمكن أن يعلم الواجب من غيره والحرام من الحلال ! ؟ أمن الامر والنهى مثل (افعلوا) و (لا تفعلوا) ! ؟ إن هذا الرجل قد ذكر فى (الأمر الخامس)

أن هاتين الصيغتين أي الأمر والنهى لا يدلان على الوجوب ولا على الحرمة دلالة بينة لكثرة اللبس والاختلاف . وذكر هنالك أيضاً أنه يصعب معرفة الواجب والمحرم من الأمر والنهى

فاذا كان الأمر بالشيء والوعيد بالنار واللعن لايدل شيء منها على وجوبه شرعاً ، فمن أين يعلم وجوب الواجبات ؟ واذا كان النهى عن الشيء والوعيد بالنار واللعن على فعله لا يدل على أنه حرام شرعاً فكيف يعلم أن شيئاً من الأشياء حرام شرعا ؟ لاجرم أن أقوال هذا الرافضى تقضى بأن لايعلم الحلال من الحرام والواجب من غيره . وهذا عين الفوضى والانحلال والاباحية المسرفة وهل يستطيع هذا المصنف أن يتنصل من هذا الالزام المحرج ؟ ليفعل إن كان مستطيعا

والأحاديث التى استدل بها هنا قوله (من ترك فرق شعره فرق بمنشار من النار) وقوله (لعن النائم وحده والمسافر وحده وآكل طعامه وحده) هى أحاديث تحتاج الى الصحة والاثبات وبغير ذلك لا تقبل . وهذا خالف ما قاله (فى الامر الخامس) وتقدم من أنه من الخطأ المحض القول بمضمون الخبر لوجوده فى الكتب أو لتصحيح بعض الناس له . وهذه الأخبار لو صحت لكان فرق الشعر واجبا ولكان نوم الرجل وحده وأكله وحده وسفره وحده حراما. فهل يستطيع تصحيح هذه الاحاديث ؟ هذا مايعسر عليه

وأما حديث المحلل والمحلل له فهو حديث رواه الامام أحمد والنسائى والترمذى وصححه وروى مثله من طرق أخرى صحيحة

و (المحلل) هو الذى يتزوج المرأة قاصداً أن تحل لزوجها الأول . و (المحلل له) هو الذى يرضى ذلك ويطلبه . وهذا العمل من الفاعلَين في غاية الخسة وضعة وصغارها وهو حرام شنيع على الاثنين معاً (المحلل والمحلل له) وعلى المرأة

أيضاً اذا كانت عالة وقد جاء فى حديث آخر أن الرسول ﷺ قال (ألا أخبركم بالتيس المستعار قالوا بلى يا رسول الله قال هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له) رواه ابن ماجه ، ولا نحسب إنساناً يشتمل على شىء من اباء النفس والرجولة الحرة يرضى بأن يقدم زوجه الى رجل وحش ليفترسها كى يفترشها هو من بعده

وعندنا أن هذا النوع من أقبح أنواع الزنا المنكر . فمن ذا الذى قال لهـذا الرافضى إن هذا العمل ليس حراماً ، وقد اعترف أن الرسول ﷺ لعن فاعله ، ومن ذا الذى أعلمه أن ذلك حلال مكروه فقط ؟ ان منطقه فى هذه المسألة هكذا : فاعل المكروه ملعون والدليل على أنه ملعون لعن المحلل و المحلل له . والدليل على أن هذا التحليل مكروه فقط وليس حراما أن مرتكبه وراضيه ملعونان . هكذا منطق هذه المسألة ، وهو منطق خليق بأن يعزى للمجان

نعم الشيعة تحلل (التحليل) لأنها ترى جواز ما هو أفظع منه ، أعنى متعة النساء وهي شر من التحليل وأبعد تحليقا فى جواء الاثم والجريمة . فمن أباح متعة النساء فكيف يحرم فعل (المحلل والمحلل له) والمتعة التى تتعاطاها الرافضة أنواع صغرى وكبرى ، فمن أنواعها أن يتفق الرجل والمرأة المرغوب فيها على أن يدفع اليها شيئاً من المال أو من الطعام والمتاع وإنْ حقيراً جداً على أن يقضى وطره منها ويشبع شهوته يوماً أو أقل أو أكثر حسب ما يتفقان عليه ثم يذهب كل منهما فى سبيله كأنهما لم يجتمعا ولم يتعارفا . وهذا من أسهل أنواع هذه المتعة

وهناك نوع آخر أخبث من هذا يسمى عندهم بالمتعة الدورية ، وهي أن يحوز جماعة امرأة واحدة فيتمتع بها واحد من الصبح الى الضحى ثم يتمتع بها آخر من الضحى الى الظهر ، ثم يتمتع بها آخر من الظهر الى العصر ، ثم آخر الى المغرب ، ثم ثم آخر الى العشاء ، ثم آخر الى نصف الليل ، ثم آخر الى الصبح . وهم يعدون هذا النوع ديناً لله يثابون عليه . وهو من شر أنواع المحرمات

فالرافضة يحلون « التحليل » ويحلون ماشاءوا من الفواحش ماداموا يحلون هذا النوع من المتعة المنكرة

أما نحن فنقول ان « التحليل » حرام والدليل على ذلك عندنا أن الرسول الكريم لعن فاعله وقابله . ورسول الله ﷺ لايلعن الا من استحق اللعن . ومن لم يفعل محرماً أو يدع واجبا فلن يستحق اللعن

وأما الأمور المنسوبة الى الانبياء فقد تكلمنا عليها فى الأمر الذى قبل هذا

(خامسا)

أما قوله « فحكم الوهابيون بكفر تارك الصلاة وإن لم يكن مستحلا » فنحن نقول : الكلام على هذا فى مقامين :

(المقام الاول) أن الوهابيين ليسوا منفردين بهذا الحكم ولا مبتدعيه . بل هم تابعون ائمة الاسلام : الامام أحمد وغيره . وقد شاركهم فيه جماهير من الأئمة وعلماء الحديث والصحابة ومن بعدهم ومن قبلهم

و (المقام الثانى) بيان أن الحق مع من كفر تارك الصلاة .أما المقام الاول فقد سبق (الوهابيين) اليه صحابة رسول الله . فروى الترمذى والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم ، عن عبد الله بن شقيق العقيلى قال : كان أصحاب رسول الله لايرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة ، وذكر فى نيل الاوطار عن على رضى الله عنه بخصوصه أنه كان يكفر تارك الصلاة . والشيعة تدعى كذبا أنها تابعة على ٍ وولده

وروى البخاري أن حذيفة الصحابى الكبير رأى رجلا لايتم الركوع والسجود فقال ماصليت ولو مت مت على غير الفطرة التى فطر الله عليها محمداً ﷺ

وقال ابن حزم : « قد جاء عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل

وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة أن من ترك صلاة فرض واحد متعمداً حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد . قال ولا نعلم لهؤلاء الصحابة مخالفا »

وروى ابن رجب فى كتاب (جامع العلوم والحكم) عن أيوب السختيانى أنه قال : ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه . وهو يعنى بذلك إجماع الصحابة . وروى ابن رجب فى الكتاب المذكور أيضاً عن اسحاق أنه قال أجمع أهل العلم على ذلك . والعلماء المتقدمون إذا أطلقوا الاجماع يذهب أول ما يذهب الى الصحابة وكبار التابعين . وقد لا يعنون غيرهم ولا يعتدون بالمخالفين بعدهم

اذن فقد سبق الوهابيين الى هذه المسألة الصحابة أجمعين كما رأيت وسبقهم بعد الصحابة طوائف من علماء المذاهب والأخبار . فمذهب الامام أحمد واحدى الروايتين عن الامام الشافعى اكفار تارك الصلاة

قال ابن رجب فى (جامع العلوم والحكم) : « قد وردت أحاديث متعددة تدل على أن من ترك الصلاة فقد خرج من الاسلام . وقال عمر لا حظّ في الاسلام لمن ترك الصلاة . وقال سعد وعلى بن أبى طالب من تركها فقد كفر »

وفي (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذرى « قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم الى تكفير من ترك الصلاة متعمداً لتركها حتى يخرج وقتها منهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وأبو الدرداء . ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وعبد الله ابن المبارك والنخعى والحكم بن عتيبة وأيوب السختيانى وأبو داود الطيالسى وأبو بكر بن أبى شيبة وزهير بن حرب وغيرهم »

إذن فالوهابيون لم ينفردوا بهذه المسألة . وإذن تخصيصهم بها ظلم أو قلة علم : ظلم إن كان يعلم ذلك فكتمه خداعاً وتغريراً ، وقلة علم إن كان يجهل ذلك، ولا يعلم أن أحداً قال قبل من يسميهم (الوهابيين) باكفار تارك الصلاة . وما هذا الرجل من الظالمين ببعيد . على أنى أقول فيه قولا لا أخاف أن أخالف به

الحق وباطن الأمر فأقول : إن هذا المصنف الرافضى جعل من سماهم (الوهابيين) رمزاً للمسلمين الحق الذين يمثلون الاسلام الحق البرأ من الشوائب والجهالات والبدع : جهالات الرافضة وبدعها وحماقاتها . فهو يقول قال (الوهابيون) وفعل (الوهابيون) و (الوهابيون) يكفرون المسلمين و يستحلون دماءهم وأموالهم . ويعنى بالوهابيين كل من جانب آراء الشيعة وباطلها الأحمق ، ويعنى بالمسلمين الشيعة ومن دان دينهم وقبل خرافاتهم وضلالهم المبين . فكل من يأبى ذلك المعتقد الشيعى فهو وهابى فى هذا الكتاب وعند صاحب هذا الكتاب . وكل من يطابق الشيعة ويتقبل آراءهم فى الله وفى دينه وأنبيائه والصحابة والأئمة فهو المسلم الذى يجدر به الكرامة ويستوجب العطف والحنو والرضا . هذا الأمر الذى أقوله فى هذا الرافضى ، والدليل على صحة ما أذهب اليه ، أنه قد عد كل من يقول من المسلمين باكفار تارك الصلاة وهابيا مستحلا دماء المسلمين وأموالهم ، وقد رأيت أن الصحابة — وقد كانوا قبل أن تعرف كلمة الوهابيين بأكثر من ألف عام — يقولون باكفار تارك الصلاة ، فهم وهابيون . ورأيت أيضا أن علماء الحديث والسنة يقولون باكفار تارك الصلاة ، وقد كانوا قبل الوهابيين بمئات الأعوام فهؤلاء الصحابة وهؤلاء المحدثون والأئمة وهابيون ضلال تجب مقاتلتهم ومعاداتهم عند هذا الرافضى أخزاه الله . إذن فالوهابيون ليسوا هم أهل نجد الذين نسبوا الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى ولد منذ مائتى عام تقريبا

والدليل على ذلك أيضا أنه يعد كل علماء الحديث والسنة وهابيين اذا ماوجدهم يأبون البدع فى الدين وفى العقائد مثل الاستغاثة بالأموات والبناء على القبور والحج اليها ونذر النذور لها والحلف بغير الله . إنه يجعل كل من أنكر شيئا من ذلك وهابيا ، وان كان قبل أن يوجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمئات الاعوام وفى ص ٣٢٨ و ص ٣٢٩ جعل الامام أبا حنيفة وأتباعه وهابيين لأنهم

منعوا سؤال الله بحق أحد من خلقه ، وفى ص٣٣٧ ثم ٣٣٨ وما بعد ذلك جعل ابن عبد البر الامام المحدث المشهور والامام البيهقى والنووى والقسطلانى وهابيين أيضاً لأنهم حظروا الحلف بغير الله ، وهكذا يصنع فى جميع الذين يخالفونه من السابقين واللاحقين ، ولا أحسبه بعد محمد بن عبد الله ﷺ وسائر الأنبياء بل وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه إلا وهابيين ، لو عرضت عليه أقوالهم ولم يدر من قالها ، إنه يجعل كل الناس إذا ما تمسكوا بالسنة وهابيين تقدموا أم تأخروا كثروا أم قلوا

وأما المقام الثانى ـ وهو بيان أن الحق فى جانب الذين يقولون باكفار تارك الصلاة ـ فنقول لا خلاف بين الناس أن دعوة الرسول الكريم كانت مرتبة هكذا : الايمان بالله إيماناً صحيحا ، ثم الايمان بالرسول الكريم إيماناً صحيحا ، ثم إقام الصلاة ثم سائر فروض الاسلام الخمسة ، ثم شعب الايمان ، ولا خلاف بين الناس أن الرسول الكريم لم يقبل الاسلام من أحد على أن يدع الصلاة مطلقا ، وعلى أن يكتفى بالشهادتين والايمان الباطن ، ثم لا خلاف بين الناس أنه لم يكن أحد من صحابة رسول الله يدع الصلاة لوجه من الوجوه أو يعذر أحداً من المسلمين فى أن يدعها ، ولا خلاف بعد ذلك أنه لم يكن يعرف فى صدر الاسلام اسلام بلا صلاة ، ولا دين بلا صلاة ، ولا إيمان بلا صلاة . بل لم يكن المسلمون يعرفون هذه الأسماء (الاسلام) و (الدين) (والايمان) إلا أن تكون مقرونة بالصلاة وإلا أن يكون صاحبها مصلياً راكعاً لله ساجداً قائما بين يديه قيام الخاضع الخاشع المستكين ، ولم يكونوا يعرفون المسلم إلا أنه المصلى لربه الساجد الراكع له

هذه أمور لاخلاف فيها . ثم لاخلاف أن أشرف مواقف العبودية هو موقف الصلاة ذات الركوع والسجود ، والقيام والقعود ، ولا أدل على عبادة العبد لمولاه من الصلاة التى يمرغ فيها أشرف أعضاء جسده فى التراب ، ويضع أرفع مافى جسمه فوق الارض ذلا لله وعبادة له . ولاخلاف لأجل ذلك أن الصلاة أكبر برهان

يقدمه المرء المؤمن بالله على إيمانه به ، وعلى اعترافه بأنه عبده المطيع وأن من يسجد له معبود مشكور ، وأنها أعظم وسيلة تقدم لاستنزال رضا الله واستهباط الرحمة من السماء الى الارض، ثم لاريب بعد ذلك فى ان صلاة المسلم أدل على إيمانه بالله من اعترافه بذلك قولا وشهادة ، وأدل من الشهادتين . لأن الصلاة شهادة فعلية كبرى بالغة . والشهادة الفعلية أدل من الشهادة القولية . على أن الصلاة فيها الشهادتان بل لن يجد المؤمن بالله دليلا يقدمه على إيمانه فى أنواع العبادات كلها أبلغ من الصلاة

هذه أشياء لاخلاف فيها . فمن ترك الصلاة فقد ترك أبلغ العبادات وأدلها على الايمان وأشرفها غاية ، وأكبرها وسيلة بين يدى الله وأعظمها استنزالا لرحمته ورضاه ، وأكثرها خضوعا وخشوعا لرب الموجودات . ومن ترك مثل هذه العبادة فأين يكون إيمانه وما برهانه على صدقه فى دعواه الايمان ؟ ومن ترك هذه العبادة فكيف يقال له انه ممن عبد الله وممن أسلم له ؟ ان كل أحد يستطيع أن يقول ، فالانسان يستطيع أن يقول انه مسلم ، وانه مؤمن ، وانه محسن ، وانه صديق ولى ، وأنه فوق ذلك . ولكن العمل هو الذي يصدق ذلك أو يكذبه ، واذا كان من يأبى الشهادة بأن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله مع ايمانه بقوله لا يعد مؤمنا ولا من الناجين ، فأنى يكون مؤمنا ناجيا من لم يركع لله فى حياته ركعة واحدة ولا سجدة واحدة مع وفور صحته وسلامة بدنه ؟ لسنا نستطيع أن نفهم أن من يأبى الشهادتين يكون كافراً مع ايمان قلبه ، ومن لا يصلى فى حياته كلها مع ما وهبه الله من القوة والصحة والفراغ يكون مؤمنا مع المؤمنين المصلين الذين هم على صلواتهم يحافظون ؟ نحن نعلم بالضرورة أن الشهادتين ليستا أدل على الايمان والاسلام من الصلاة . وما أعظم شأن الصلاة لو يشعرون . ومن يشك فى هذا ؟

هذا من جهة ، ثم نقول من جهة أخرى اننا لانستطيع أن نتصور رجلا موفور

الصحة قوي البدن واسع الفراغ يقضي عمره الطويل العريض كله فى لهوه ولعبه ، وسروره ومرحه وخدمة شهواته ومآربه ، وخدمة دنياه وعاطفته ليلا ونهاراً ثم لا يرضى أن يركع لله الذى وهبه كل ما هو فيه من سرور وقوة وحياة ركعة واحدة ولا سجدة واحدة فى حالاته كلها ثم لا يكون من الكافرين الذين لا يوجد فى قلوبهم شيء من بصيص الايمان أو الاسلام

ونحن لا نستطيع أن نتصور أن مثل هذا الانسان يكون مسلما ، أو أنه يحمل فى قلبه مثقال ذرة من الايمان بالله ومن خوفه وحبه والخضوع له والاعتراف به ، أو أن يكون لدى مثل هذا الانسان تفكير فى معاده ومقامه بين يدي الله يوم الدين للحساب ثم الثواب أو العقاب ، كلا ان مثل هذا الانسان لن يكون فى قلبه شيء من الله ومن الايمان به والرجاء له ، وان قلب مثل هذا الانسان لا يمكن أن يكون لله فيه شيء لا قليل ولا كثير فان الأمر كما قيل :

واذا حلت الهداية قلبًا نشطت للعبادة الأعضاء

وكما قيل أيضاً :

ان المحب لمن يحب مطيع

وإنسان يكون فارغًا من الله فارغا من كل لوازم العبادة لن يكون مسلما ولا مؤمنا . فالذى يدع الصلاة يكون كافراً ، لا لأنه ترك فريضة من الفرائض ، بل لأن تركه الصلاة دليل على فراغ قلبه من الايمان ومن خشية الله وخوفه وتعظيمه وإكباره ومن فرغ قلبه من ذلك فليس مؤمنًا ولا كرامة . هذه فلسفة هذه المسألة

ثم نقول على نحو آخر : لو كان ترك الصلاة لا يوجب الكفر ولا ينافى الايمان والاسلام لكان ترك جميع الأعمال صغيرها وكبيرها دقيقها وجليلها من أعلاها الى أدناها لا يوجب الكفر ولا ينافى الاسلام والايمان . لأن من لا يكفر بترك الصلاة لن يكفر بترك غيرها من الأعمال . والذى يترك جميع الأعمال كلها

الصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجميع أفعال البر والخير من الضال والضلال أن يكون من المؤمنين المسلمين الداخلين الجنات مع الداخلين . هذا محال نظراً وعقلا ودينا

هذا من طريق النظر ، وأما من طريق النص فالمسألة أوضح وأظهر . فقد أطنب الكتاب العزيز والسنة الصحيحة فى مسألة الصلاة أى اطناب ، وأوعدا من تركها أو تهاون فى أدائها أنواع الايعاد وهددا غير المصلين بالنار والغى والويل والكفر والشرك ، فقال تعالى « ماسلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين » وقال « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وقال تعالى « واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويل يومئذ للمكذبين » وقال تعالى « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون » وقال تعالى « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين » وقال « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » الى غير ذلك من الآيات المعلومة

وأما الأحاديث فروى مسلم وغيره عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة) وروى أصحاب السنن أنه قال عليه السلام (العهد الذى بيننا و بينكم الصلاة فمن تركها فقد كفر) وروى الامام أحمد عن رسول الله أنه ذكر الصلاة يوماً فقال (من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهانا ولا نجاة يوم القيامة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبيّ بن خلف) وروى البخارى أنه عليه الصلاة والسلام قال (من ترك الصلاة فقد حبط عمله) وروى أحمد بن حنبل وابن ماجه أنه قال (من فاتته صلاة العصر حبط عمله) وروى البخارى ومسلم أنه قال عليه السلام (بنى الاسلام على خمس شهادة أن

لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان) وفى حديث جبريل المشهور الصحيح : أنه لما سأل النبى عليه السلام عن الاسلام قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة الحديث. والأحاديث فى هذا الموضوع كثيرة جدا والقرآن بجملته مبين فى آيات لا نحصيها الآن أن المؤمنين الذين يحوزون هذا اللقب هم الذين يقيمون الصلاة ويحافظون عليها وهذا مذكور فى أوائل السور كأوائل سورة البقرة ، وسورة الأنفال ، وسورة المؤمنون ، وغير ذلك . كما قد بين بجملته أيضا أن أهل الجنة الوارثين لها هم العاملون الصالحات ، وأول مايفهم من الأعمال الصلاة ولا شك ، وكم فى القرآن من أمثال قوله « ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » وقوله « هل تجزون إلا بما كنتم تعملون » وقد وضع البخارى فى صحيحه بابا جعل عنوانه (باب من قال الايمان هو العمل) لقوله تعالى « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون »

وما يوجد فى الكتاب العزيز على ما أذكر أن الله قال لأحد من أهل الجنة ادخل الجنة بايمانك المجرد من العمل وعقيدتك بأن الله وحده خالق كل شيء ، والشيطان نفسه مؤمن بالله وبأنه الخلاق وحده فلما أن قيل له اسجد لآدم فأبى السجود أصبح من الكافرين المبعدين من رحمة الله ولم ينفعه ايمانه بالله وبأنه خالق كل شيء ورب كل شيء بل قيل له اخرج منها انك رجيم ، وهذا أمر يطول بنا القول فيه اذا أردنا استقصاءه

وثمت أمر يجب أن يعرف ، ذلك أننا وجدنا بالاستقراء أن الذين لا يصلون يتجردون من الخير ومن كل عاطفة دينية لا يتأثمون من غشيان المحارم أصغرها وأكبرها ولا يتهيبون اقتحام السبل المضلة الأثيمة ولا يدعون من الشر الا ما عجزوا عنه ولا يفعلون من الخير الا ما اضطروا اليه ، وبالاجمال يدعون أنفسهم تذهب وراء سجياتها والظلم من بعض سجاياها ولا شيء يحجزها عن آثامها سوى

مراقبة الله وخشيته ومن لم يصلّ لله فلن يراقبه ولن يخافه ولن يعبأ بثوابه أو عقابه وقد قال الله فى هذا « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقد بولغ في تكرار الصلاة فى اليوم مرات لهذا الغرض الاجتماعى العظيم غرض تنقية النفوس من آثامها وذنوبها ، فالذين لا يصلون هم ولا ريب جوارح الآثام وغذاء المعاصى والجرائم فهم لا يصلحون لأن يحملوا اسم المؤمنين أو يجازوا ما يجازى به المؤمنون . هذا مضاف الى ما تقدم من اجماع الصحابة على اكفار تارك الصلاة

هذا عن اكفار تارك الصلاة . وأما قتل تاركها ، فقد ذهب أكثر أئمة الاسلام ومنهم الأئمة الثلاثة احمد والشافعى ومالك الى وجوب قتله حداً عند من لا يقول بكفره أو كفراً وردة عند من يقول بذلك . وذهب الامام أبو حنيفة كما هو مشهور فى مذهبه وآخرون الى أنه لا يقتل بل يعزر مثل أن يضرب ويسجن ويهان حتى يصلى . واحتج القائلون بوجوب قتله بقوله تعالى « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » . وبالحديث المتفق عليه « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة » الحديث . وقد ورد هذا الحديث وصح من طرق كثيرة . ولا خلاف بين أهل الحديث فى صحته . واحتجوا أيضا بالأحاديث الكثيرة التى فيها أنه يقال للرسول الكريم « ألا نقتل فلاناً » أو « ألا تأمرنا بقتله » لمن قال أقوالا تنبىء عن نفاقه وغدره فيكون جواب الرسول الكريم : لا ، لعله يصلى . أو نهيت عن قتل المصلين . أو لا ما أقاموا الصلاة . ونحو ذلك واحتجوا أيضا بالأدلة السالفة الدالة على كفر من ترك الصلاة فان من يقول بكفر التارك يقول بقتله

هذه بعض دلائل القائلين بالقتل . ويدل عليه أيضا أن الصحابة أجمعوا على قتال من منعوا الزكاة بعد وفاة رسول الله وقال أبو بكر فى ذلك كلمته المشهورة الخالدة "والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم على منعه" واحتج

الصحابة على ذلك بالحديث المذكور « أمرت أن أقاتل الناس » . الحديث .
والاحاديث صريحة فى هذه المسألة كما أن الآية المذكورة صريحة أيضا فان الآية قيدت تخلية سبيل الناس بثلاثة أمور: التوبة من الشرك ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة - فمن لم يجمع هذه الأمور الثلاثة لم يخلَّ سبيله ، ولم يعصم ماله ودمه من سيوف المؤمنين

وأما جواب هذا الرافضى عن الآية بادعائه الفرق بين من ولد مسلما وبين من دخل الاسلام بعد كفره وادعاؤه أن الآية خاصة بالأول دون الثانى فجواب وادعاء باطلان ، لأنه اذا سلم بأن من أراد الدخول فى الاسلام بعد كفره فشهد الشهادتين وتظاهر بمظاهر المؤمنين المسلمين إلا أنه لم يصل ولم يزك كسلا ، مع اعترافه بوجوب ذلك كله ، إذا سلم بأن ذلك الانسان لا يحكم باسلامه ، ولا يخلى سبيله ولا ينجو من أسياف المؤمنين فكيف يدعى بأن من ولد على الاسلام وصار مسلماً بالتقليد والمحاكاة يحكم باسلامه ويخلى سبيله ولا ينال بسوء وإن ترك الصلاة والزكاة والفرائض أجمع ؟ لا يدرى ما الفرق بين الرجلين فى الخيال الرافضى . . ؟
أنا أحسب أن الداخل فى الاسلام حديثاً أولى بالعذر والصفح من المولود فى الاسلام إذا لم يصلّ ويزك ويعمل لله عملا . ولكن هذا الرجل لا يدع المنطق يسير فى وجهه وسبيله الصحيح

وماذا يقول فى نصرانى أو يهودى أو ملحد أراد الدخول اليوم فى الاسلام والايمان بالقرآن وبالنبى الكريم وبالدين جملة ، فآمن كذلك ولم يأت بأمر يقدح فى ايمانه واسلامه إلا أنه ترك الصلاة والأعمال كسلا مع اقراره بوجوبها وايمانه بأنها فريضة من الفرائض اللازمة . مثل هذا الرجل لا يحكم باسلامه هذا الشيعى كما قال هنا ، ولكن يحكم باسلام جهال الشيعة الذين ولدوا شيعة رافضة يقدحون فى خيار الصحابة من الأنصار والمهاجرين ويعبدون الأموات ويأتون من المعاصي

بالأقانين ، وان لم يصلوا لله ركعة واحدة ولم يعملوا خيراً قط . هؤلا عند هذا الرجل مسلمون لا يؤذون ولا يساءون أما ذلك المسلم الحديث الفيلسوف مثلا المؤمن بالحجة والدليل فليس مسلماً ولا مؤمنا عنده ، بل هو كافر يجب إزهاق روحه

فالآية عامة لا يصح تخصيصها . والله لم يخصصها ولا رسوله ولا أحد من المؤمنين المقتدى بهم

أما قوله ان الأحاديث التي أطلق فيها الكفر لم يرد بها الحقيقة فجوابنا عليه ما قدمناه فى الأمر الخامس

وأما الحديث الذى زعم أنه يعارض الأحاديث الصحيحة فى إكفار تارك الصلاة فهو حديث ضعيف لأن فيه راويا غير معروف . والحديث هو ما روى عنه ﷺ أنه قال « خمس صلوات كتبهن الله على العباد من أتى بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة . ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ان شاء عذبه وان شاء غفر له » . رواه الامام أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه »

فهذا لا يستطيع معارضة الأحاديث الكثيرة الصحيحة والآيات السالفة

(سادسا)

قوله « واستحلوا القتل بترك بعض فرائض الاسلام على عادتهم فى تكفير المسلمين وإحلال دمائهم اقتداء بالخوارج »

نقول فيه إن هذا القول من هذا الرافضى طعن وجيع فظيع فى جميع الصحابة وجميع العلماء الذين قالوا بوجوب قتل تارك الصلاة وهم أكثر العلماء كما قدمنا ، بل هو طعن وجيع فظيع في جميع المسلمين فى جميع العصور ، لأنه لا يوجد مسلم فى الأرض ولا امام من أئمة الاسلام الا ويكفر بترك بعض فرائض الاسلام . ولو أن أهل

بلدة من البلدان الاسلامية اجتمعوا على ترك جميع فرائض الاسلام كالصلاة والصيام والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك لوجب قتالهم فى جميع المذاهب الاسلامية

وقد أجمع الصحابة بقيادة أبى بكر على قتال مانعى الزكاة ولم يخالف فى ذلك أحد لا على ولا غيره ، وأجمعوا على اكفار تارك الصلاة كما قدمنا ، وأتى عن على نفسه أنه كان يكفر تارك الصلاة

فالصحابة كلهم وهؤلاء الأئمة كلهم ضلال يستحلون دماء المسلمين وأموالهم اقتداء بالخوارج لأنهم قاتلوا مانعى الزكاة وأجمعوا على كفر تارك الصلاة كالوهابيين فهم إذن وهابيون . وهذا الرافضى إذن يرد عليهم فى كتابه « كشف الارتياب فى أتباع محمد بن عبد الوهاب » . وهم كلهم من أتباع محمد بن عبد الوهاب المقتدين بالخوارج

واذا ما كان هذا الشيعى يرد على هؤلاء المسلمين جميعاً ويقدح فيهم كافة ، وينازعهم ويخالفهم فمن هم المسلمون الذين يدعى الغيرة لهم والدفاع عنهم وانقاذهم من تكفير الوهابيين وأسيافهم ؟ أهم جهال الرافضة أعداء أبى بكر والصحابة الكرام وأعداء أهل السنة والجماعة ؟ ويل لصاحب هذا الكتاب من كتابه وويل للشيعة من عالمهم هذا

نحن نعلم أن الشيعة تقدح فى هؤلاء المسلمين وتفاخر بالقدح فيهم وتجاهر ، ونعلم أنه لا يسوءهم أن نقول فيهم هذا . ولكن لما كان هذا الرجل يدعى فى هذا الكتاب أنه موافق المسلمين ماخلا الوهابيين ، وأنه يغار لهم ويعدهم مسلمين ويعد أقوالهم حججاً وبراهين كان عدلا أن نرد عليه بما رددنا

وقوله (انه لا يصح الهجوم على دماء المسلمين بأخبار غير ظاهرة وبقول الأجهورى والاذرعى والحرانى والهيتمي) نقول جوابا له : ومن ذا الذى قال إن

أقوال هؤلاء حجة فى الشرعيات فضلا عن أن تباح دماء المسلمين بآرائهم ؟ ليعلم إن كان لا يعلم أننا معشر السلفيين لا نحتج فى أصول ديننا إلا بأمرين: كتاب الله وسنة رسوله . ونحن لا نذكر آراء العلماء إلا تقوية واستئناسا وردا على من يدعي أننا منفردون بما نقوله فى هذه المطالب العليا ، أو اقناعاً لمن يدعى التقليد والذهاب مع العلماء المهتدين ، وهذا الرجل الذى يزعم أن هؤلاء العلماء غالطون متشددون وأنه لا يجوز تكفير المسلمين انسياقا وراء آرائهم سوف يمر بك أنه يحتج بأقوالهم ويتعصب لها ويعارض بها الوحيين ، ولا سيما أقوال ابن حجر الهيتمى ، بل ويكاثر بذلك ويفاخر ، وسيمر بك أنه يستحل لحوم أكابر علماء السنة كشيخ الاسلام ابن تيمية ومن كان مثله بأقوال الهيتمى ومن هو أقل من الهيتمى من أرباب البدعة الغلاة . فالرجل لدى هذا الشيعى فاضل محقق قوله حجة اذا ماوجد عنده بدعة نكراء ، وجاهل غبى لايعتد بآرائه ولا بما يقول اذا وجد عنده سنة أو حقا وهذا صنيع أسرى الاهواء

وأما أن الاخبار فى اكفار تارك الصلاة غير ظاهره فجواب ذلك قد سلف

الامر السابع

قال مامعناه « الاجماع حجة شرعية ، وهو قولى وفعلى ، والقولى هو ما اتفقت عليه أقوال أهل الحل والعقد من أمة محمد ، والعملى هو ما اتفقت عليه سيرة المسلمين » قال « وهو حجة شرعية لقوله ﷺ (لا تجتمع أمتى على خطأ) أو لوجود معصوم بينهم بناء على عدم خلو العصر من معصوم ، كما يقول أصحابنا ، وهو رئيس أهل الحل والعقد ، أو للكشف عن أن ذلك مأخوذ عن صاحب الشرع » قال : « والوهابيون يسلمون الاحتجاج بالاجماع » ونقل لهم كلاما فى ذلك . قال « ولكن الصنعانى وهو منهم أنكر وجود الاجماع وأنكر العلم به قائلا : "ان العلماء كثيرون

مبثوثون فى أطراف المعمورة ، فما أبعد أن يتفقوا على مسألة اجتهادية ، ثم ما أبعد أن يعلم ذلك لو وقع » . قال الشيعى « ولكن كثرة العلماء لاتمنع وقوع الاجماع ولا تمنع العلم به إذا ماوقع ، فاننا نعلم بالضرورة اجماع العلماء على أن للبنتين ثلثى الميراث فرضا إذا لم يكن معهما اخوة وإن لم نشافه جميع العلماء ، ونر فتاويهم . كما نعلم بالضرورة إجماعهم على استحباب زيارة النبى ﷺ وتعظيم قبره وحجرته ورجحان بنائها والتبرك به وبها ، وجواز بناء القبور وبناء القباب عليها ، لاستمرار سيرتهم على ذلك قولا وعملا فى كل العصور . بل ليست هنالك مسألة اتفق عليها المسلمون قولا وعملا من جميع المذاهب مثل هذه المسألة » انتهى كلامه

(أولا)

قلت : اذا ما كان هذا الشيعى يسلم الاحتجاج بالاجماع ، ويسلم أن الوهابيين الذين يرد عليهم بكتابه يسلمون ذلك ويعترف لهم به ، أى اذا كان هو وهم متفقين على الاحتجاج بالاجماع فما الفائدة فى حشر هذه المسألة فى الكتاب ؟؟؟ أهو يريد تضخيم حجم الكتاب وتكثير ورقاته ليرهب به الخصوم وليخدع الناظرين وليقال رد على الوهابيين بكتاب عدد ورقاته كذا . ومثل هذا ما ذكره فى مقدمات الكتاب الثلاث فانه لايتعلق بأكثره شىء من الموضوع

(ثانيا)

قوله الاجماع حجة لقوله لا تجتمع أمتى على خطأ فيه نزاع . فان هذا الحديث رواه الترمذى وغيره بلفظ ضلالة بدل خطأ . وهو حديث فيه رواة ضعفاء فلا يصح ومثله لا يقوى على أن يكون دليلا على أن الاجماع حجة شرعية . وهو لو كان فى بيان حكم من أحكام الفروع كالوضوء والطهارة لكان غير مقبول وغير

لازم العمل به لأجل ضعفه ، فكيف يقوى أن يكون دليلا على الاحتجاج بالاجماع ومسألة الاحتجاج بالاجماع مسألة عظمى لا يستدل لها بالأخبار الواهيـة الضعيفة ، فلو كانت دلائل الاجماع ما ذكر هذا الرافضي لما كان الاجماع حجة بلا ريب ، ولكن للاحتجاج بالاجماع دلائل أخرى كثيرة قوية من الكتاب والسنـة والعقل مذكورة فى كتب الأصول ، وفى كتب أخرى غابت عن هذا الرجل المؤلف

(ثالثا)

قوله : « أو لوجود معصوم بينهم » هـذا الرأي خاص بالرافضـة وحدهم لا يشاركهم فيه أحد من المسلمين ، وهو خطأ قائم على أخطاء . أولها اعتقادهم عصمة الأئمة ، ثانيها اعتقادهم وجود الامام المعصوم فى كل وقت ، ثالثها اعتقادهم الاتصال به ولقاءه ، رابعها اعتقادهم أنهم يتلقون الدين من ذلك الامام المعصوم مباشرة أو بوساطات . وهذه كلها أخطاء لا يصدق منها شيء ولا يقبل أهل العقل منها شيئاً وليس للرافضة على واحد منها دليل واحد

فالأئمة ليسوا معصومين ، بل هم بشر يصيبون ويخطئون وهم يموتون كسائر الناس ، ولا يختفون فى المغارات والكهوف ، كما تدعى الشيعـة . ومن مات منهم لا يبعث حتى يبعث الناس للثواب والعقاب

واذا كان المسلمون جميعاً ما خلا الشيعة لا يعتقـدون عصمة الأئمة ، بل ولا يعتقدون وجود أحد من هؤلاء الائمة الذين تعنيهم الشيعة ، ولا يصدقون بامكان الاتصال بهم ، كما لا يصدقون أن الدين يجوز تلقيه عنهم ، فكيف يقال إن دليل صحة الاحتجاج بالاجماع هو وجود الامام المعصوم . فاذا كان المجمعون لا يؤمنون بوجود هذا الامام فضلا عن أن يؤمنوا بعصمته فأنى يكون دليل اجماعهم هو هذا الأمر الذى يجحدونه ولا يعترفون به ؟ قوم لا يعترفون بوجود فلان أو فلان هل

يمكن أن يكون ذلك « الفلان » هو مصدر هداهم وعلومهم وفتاويهم . أو هل يمكن أن يتعلموا منه مسألة واحدة أو يتلقوا عنه أمراً من أمور الدنيا والدين ، وهم يؤمنون ايمانا لا شك فيه أنه غير موجود بل وهم لا يفكرون فى هذا الفلان وفى انكاره بل وهم يرون أن المؤمنين به جهلة كذبة يجب أن يزجروا وأن ينهروا على هذه المهزلة الفاضحة ؟

إنه لا جواب عن هذه الأسئلة الا أن يدعوا أن هذا الامام المعصوم المزعوم يوحى الى الناس من حيث لا يشعرون ويقذف فى صدورهم المعارف والعلوم قذفا خفيا لا يحسونه ولا يعلمونه ، ويلقى فى قلوبهم الاجماع على المسألة ويهديهم اليها ، ويجمعهم عليها ، وهم لا يدرون من ذلك شيئاً ، فيجمعون بفعل هذا المعصوم الخفى ويكونون مصيبين فى إجماعهم بتوفيق هذا الامام الذي لا يعرف ، فاذا ما صار هذا الرافضى وشيعته الى هـذا الجواب فقد صاروا الى تأليه ذلك الامام المعصوم واعطائه صفة الربوبية كما قدمنا فى أول الكتاب أن شيوخهم يؤلهون علياً ويؤلهون غيره من ولده وغيرهم

واذا ما صاروا الى هذا الجواب قيل لهم : ولعل مخالفيكم لا يخالفونكم الا بالهام الامام المعصوم وهدايته وارشاده . ولعلهم يتلقون منه بالطريقة المذكورة المسائل التى لا يوافقونكم عليها . ولعل المسلمين الذين لا يرتضون مذهب الشيعة ويعدونه مروقا وخروجا مدفوعون الى ذلك بالهام ذلكم المعصوم . وحينئذ يكون مذهب الشيعة غلطا ، ومن مذهبهم كل ما يقوله صاحب هذا الكتاب . لأن الامام المعصوم هو الذى ألهم بطلان مذهبهم وبغضه الى الناس . ويصير هـذا المؤلف غالطا على جميع الفروض

فان شغبوا شغباً آخر وقالوا إن الله هو الذي يجمع المجمعين على المسألة التى ادعى فيها الاجماع ولكنه تعالى يجمعهم على رأي الامام المعصوم ويريهم ما يرى

ويرشدهم الى القول الذى يرضاه ويريده ؛ ان شغبوا هذا الشغب قيل إذن ما فائدة الامام المعصوم وما الحكمة فى وجوده وعصمته والناس لم يستفيدوا من ذلك فائدةما لا قليلة ولا كثيرة . فليس له فى اجماع المجمعين أثر ولا شىء يذكر . وغاية مافى هذا أن الله أرى المعصوم رأيا وأراه الناس المجمعين . فصار الناس والامام المعصوم متفقين فى ذلكم الرأى . ولكن لم يأخذ أحد عن أحد . فالامام لم يأخذ عن المجمعين والمجمعون لم يأخذوا عن الامام . وهذا خلاف المفروض وخلاف ما تريده الشيعة وتدعيه ؟

ولو ادعى مدع العصمة للاجماع نفسه بدليل شرعى أو عقلى لكان أهدى سبيلا من ادعاء الشيعة فى هذا الامام وعصمته . وعقيدة الرافضة فى هذا الامام المدعى من أشنع المهازل والنقائص الفكرية . فان هذا الامام الذى يدعون الايمان به ويدعون أن من لم يؤمن به غير ناج من عقاب الله ليس هنالك دليل واحد على وجوده فضلا عن عصمته وتبليغه الناس . فان أحداً لم يحسه باحدى الحواس الخمس ، أو يحس أثراً من آثاره أو تتصل به رواية عنه ، لاعن الله ولا عن رسوله الكريم ولا عن أحد من الثقاة العدول ، ولا اضطره الى الايمان به عقل ولا نظر ولا شىء من الأشياء التى يعدها النـاس العقلاء حججاً أو أنصاف حجج أو أشباه حجج

واذا ماقيل لهؤلاء اذا ما كان هذا الامام المعصوم المزعوم موجوداً بين أظهر الناس وأنتم تصفونه بأكمل الأوصاف من العصمة والقوة والعلم والعدل والرحمة بالخلق وحب الحق ، فلماذا لايظهر للناس أو لكم وحدكم ليقول الحق وينصره ويخذل الباطل ويكسره ، وليدفع عن دين الله المهتضم ، وليقضى بين الناس فيما اختلفوا فيه ، بل وليقضى بين الشيعة أنفسهم فى المسائل والاعتقادات التى اختلفوا فيها ، أو اذا كان موجوداً كما تدعون فلماذا لا يخرج المصحف الصحيح الذي

تدعونه ، والأمر الجديد فى الدين الذى تزعمونه ، ولماذا يظل مختفياً هارباً بنفسه وأتباعه ومن به يؤمنون وإياه ينتظرون ، بل وذرية على وولده مظلومون مضطهدون كما تدعون ، اذا ماقيل لهم لماذا لايخرج لأجل هذه الاغراض الشريفة والمطالب العالية لم يجدوا جوابا غير هروبهم إلى وصفه بالجبانة والمخافة والاختفاء خوف الأعداء . ما أهونها من دعوى وأهونه من جواب !

ما آن للسرداب أن يلد الذى ثلثتموه بزعمكم ما آنا ؟
فعلى عقولكم العفاء فانكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ومن ذا الذى لا يستطيع أن يدعى دعوى الشيعة فى الامام المنتظر المعصوم فيزعم مثلا أن ثمت معصوماً آخر منتظراً خروجه يخالف معصوم الشيعة ويكذبه ويكذب قولهم فيه !!! ثم يزعم كما تزعم الشيعة أنه يتلقى من المعصوم المفروض وجوده عقائده وآراءه ومذاهبه وكل ما يتصل برأيه ودينه وصلته بالله وبالعالمين الدنيوى والأخروى . ثم يزعم فيه كل ما تزعم الشيعة فى منتظرها من العصمة والمعرفة والقوة والكمال وغير ذلك !!! وحينئذ تتعارض الدعاوى ويتكاثر المعصومون المدعون ، وتزعم كل طائفة أنها تتلقى ما تقوله فى الطوائف الأخرى عن معصومها الذي لايغلط ولا يخطىء ولا يكذب ولا يسهو ولا يذنب ، وهذا نهاية الضلال والفوضى ، وهذا ما يقضى به كلام الشيعة ودعاواها . والعجب أن يكون هذا الامام المعصوم المعدوم رئيس أهل الحل والعقد !!! فأين كانت هذه الرئاسة ومتى كانت ومن الذى اعترف لصاحبها بالوجود فضلا عن الاعتراف له بالرئاسة والزعامة ؟!

واعجباً لقوم يعترفون بالزعامة والرئاسة لمن لا يرى ولا يحس ولا يسمع له قول أو يرى له أثر أو تشم له رائحة أو يدل على زعامته ورئاسته شيء من الأشياء المحسة أو المعقولة ، والناس يعجبون ممن يزعّمون عليهم جاهلا ضعيفاً عن القيام بفروض الزعامة وحقوقها . فكيف بقوم يسلمون قيادة زعامتهم عن رضا وطواعية

الى ميت من مئات الأعوام بل الى معدوم لم يوجد بالصفة المذكورة عند الشيعة

واذا ضلّت البصائر يوما فماذا تقوله النصحاء ؟

وقوله أو الكشف كلام باطل أيضاً ، فليس هنالك كشف بالمعنى الذي يريده هذا المؤلف ، والكشف لا يكون طريقاً من طرق الدين والأحكام الشرعية لو افترض وجوده عند بعض الناس . وما ادعى هذا الكشف أحد من سلف الأمة لا الصحابة ولا من بعدهم من الأئمة الراشدين . وادعاء الكشف هو الخطوة الجريئة الى ادعاء النبوة ثم تغيير الشرع والتلاعب به ، وما ادعى الكشف إلا ضالّ مارق أفسد عقله الخبال ، أو ملحد زنديق يكتم كفرانه وإلحاده ، واذا ما افتتح هذا الباب باب الكشف ولجه كل غوى مبين واستطاع به إفساد الشرائع وإفساد العقول والضمائر

فهذا الرافضى مثلا هو وشيعته الرافضة يدعون الكشف وغيرهم يدعى الكشف وكل يدعى وصلا لليلى فتفسد (ليلى) من كثرة من يدعيها ويدعى وصلها كذبا وفسوقا

(رابعا)

وأما ما أنكره الشيعى على الصنعانى من قوله إنه يعسر وقوع الاجماع وتعسر معرفته لو وقع لكثرة العلماء وانتشارهم فى أطراف الأرض فهو ليس إنكاراً على الصنعانى وحده ولكنه على جماهير كثيرة من العلماء سبقوا الصنعانى الى هذه المقالة فذهبوا الى أنه غير ممكن حصول الاجماع ، وذهبوا الى أنه غير مستطاع علمه لو حصل ، وذلك لكثرة العلماء ولما بين الأنظار والأذهان من التفاوت والاستعداد والاختلاف الى ما مع ذلك من تأثير البيئات واختلاف الأمزجة ، ومن تأثير الصحة والمرض والرضا والغضب ، وما يلحق ذلك من جزر الآراء ومدها ، فذهبوا

لهذه الأسباب ولأسباب أخرى الى أنه غير ممكن وقوع الاجماع ، والى أنه لو أمكن فوقع لما أمكنت معرفة وقوعه ، فان العلماء لا يمكن أن يتفقوا أجمعين على رأى واحد كما لا يمكن أن يتفقوا في ساعة واحدة على أن يأ كلوا طعاماً واحداً ، أو يلبسوا زياً واحداً ، أو يفعلوا فعلا واحداً ، أو يقولوا قولا واحداً ، أو يكونوا على هيئة واحدة كجلسة واحدة ، أو نومة واحدة أو قومة واحدة أولبسة واحدة ، وما أشبه ذلك مما لا يمكن الاجتماع عليه فى ساعة واحدة عادة ، وان كان العقل بالعرف المنطق لا يرى فى ذلك مانعاً ، فان دائرة جائزات المعقولات أوسع من دائرة جائزات العاديات

ثم لو وقع ذلك فكيف تقع معرفته ، وهى لا طريق لها إلا الرؤية أو السماع أو الكتابة ، ولا يمكن أن يرى انسان جميع العلماء المجتهدين المعاصرين . وعليه لا يمكن أن يسمع أقوالهم كلها ؟ وأما الكتابة فلا يمكن أن يكتب كل عالم كل آرائه وكل ما يقوله ، ولو كتب كل عالم جميع آرائه لأمكن أن يكون قد رجع عن بعض ذلك مما قدر فيه الاجماع ، ولو فرض أنه كتب ذلك كله ، وفرض أنه لم يرجع عن شىء منه فهل يستطيع انسان ما أن يقرأ جميع ذلك كى يعرف أنهم أجمعوا على تلك المسألة المفترض فيها الاجماع ، ولو افترض أنه قدر على قراءة ذلك كله فقرأه فهل يمكن أن يحصر آراءهم كلهم فى ذهنه فى مسألة ما كى يعرف أنهم قالوا كلهم فيها قولا واحداً متفقاً مجتمعاً ، ثم ألا يمكن أن يكون أحد من هؤلاء قد كتب رأيه تحت تأثير غيره وتحت تأثير قوة قاهرة !!! وهذا قريب على أصول الشيعة ، لأن الكذب الذى يسمونه التقية جائز عندهم بمعنى واسع كثير بل هو مرغوب فيه مثاب عليه فى مذهب القوم

لهذه الأسباب ولغيرها ذهب جماهير من العلماء ـ وقد روى عن الامام احمد ـ الى أن الاجماع لا يمكن أن يحصل والى أنه لو أمكن فحصل لما عرف

وهؤلاء العلماء يفرقون فى ذلك بين عصر الصحابة والعصور المتأخرة ، وبين اجماع الصحابة واجماع غيرهم ، فقد يرون الاجماع ممكنا ويرون معرفته ممكنة فى عصر الصحابة وعصر التابعين لفقدان تلك الأمور الآنفة في صعوبة وقوع الاجماع وصعوبة معرفته لو وقع ، فيرون أن الاجماع قد يحصل فى عهد الصحابة فيعرف حصوله ، فلا إجماع عندهم غير اجماع الصحابة ، وهذا ما يقوله طوائف من أهل العلم والحديث

وأما قوله اننا نعرف بالضرورة إجماع العلماء على أن للبنتين الثلثين ، فهو ضلال عن محل النزاع . فان النزاع فى مسألة لم ينص عليها القرآن نصاً صريحاً أو السنة الثابتة نصاً صريحاً لا يقبل الاختلاف ، أما المسائل المذكورة فى النصوص بنحو ظاهر بين فليست مما يحتج لها بالاجماع . ومعرفة هذا النوع من المسائل ليست قائمة على الاجماع ولا على معرفته . وانما طريق هذا أن يقول القائل القرآن ناص نصا جليا على أن للبنتين الثلثين مثلا . ولا يمكن أن يخالف مؤمن بالقرآن نص القرآن والا لما كان مؤمنا وقد فرضناه مؤمنا . فكل مؤمن بالقرآن يقول ان للبنتين منفردتين الثلثين . فالمسلمون اذن مجمعون على هذه المسألة ومثل هذا أن يقول القائل المسلمون مجمعون على أن كتاب الله حق وهدى ، ومجمعون على أن محمد بن عبد الله رسول الله ونحو ذلك . فهل يقال ان مثل هذا من الاجماع ، أو من دلائل وقوع الاجماع والاحتجاج بالاجماع ؟!؟ كلا . ان هذا لا يقوله عاقل . ونظيره قول القائل : ان المسلمين مجمعون على أن البنتين ترثان الثلثين . وليتفطن القارىء لهذا جيداً

وما ذكره من الاجماع على استحباب زيارة قبر الرسول وتعظيمه الى آخره نرجىء القول فيه الى مواضعه الخاصة به

وأما قوله « ان المسلمين ما أجمعوا على مسألة مثل اجماعهم على جواز البناء على القبور وعقد القباب فوقها ، فهو من أعظم المجازفات الكاذبة بل هو قول

مشتمل على أنواع كثيرة من أنواع الكفر والضلال والخروج على اصول الدين واصول العقل.

أفليس من أعظم الضلال والخبال أن يقال ان المسلمين مجمعون على جواز البناء على القبور وعقد القباب فوقها قولا وعملا أعظم من اجماعهم على وجوب الصلاة والصيام والحج والزكاة وسائر فرائض الاسلام ، وأعظم من اجماعهم على الايمان بالله وبرسوله وبيوم الدين ؟؟ أفليس هذا من أعلى أنواع الالحاد ونقض قواعد الاسلام ؟؟ والا فان مسلما عاقلا لن يقول ان المسلمين مجمعون على جواز البناء على القبور أكثر من اجماعهم على وجوب الصلاة والصيام والحج وجميع الفرائض التى لا يتم الاسلام الا بها ..

وهذا القول آت على اصول الشيعة من الغلو فى القبور والاموات والتفانى فى ذلك . فهم يفضلون الحج الى المشاهد على الحج الى بيت الله الحرام ، بل على الصلاة والصيام وجميع العبادات ويفضلون المشاهد على المساجد ويعمرونها ويهجرون بيوت الله وان عمروا شيئا من ذلك فلأجل الاموات الموجودين فيه . . وقول هذا الرجل دليل أي دليل على ذلك .. وبعد هذا القول ينكر على شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره أن قالوا ان الشيعة يحجون الى المشاهد ويفضلون الحج اليها على الحج الى بيت الله الحرام وأنهم يهجرون المساجد ويعمرون المشاهد ، ونحمد الله أن أنطقهم بما كانوا يضمرون وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا أن المسلمين مجمعون على التبرك بالقبور والبناء عليها وعقد القباب فوقها أكثر من اجماعهم على الصلوات الخمس وفرائض الاسلام قولا وعملا أي واعتقادا أيضا بل وأكثر من اجماعهم على الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وعلى الايمان بالجنة والنار والثواب والعقاب لأنه يقول « بل الانصاف أنه ما من مسألة اتفق عليها المسلمون قولا وعملا من جميع المذاهب مثل هذه المسألة »

ونحن نعوذ بالله من خذلان الدنيا ويوم الدين ، واذا ما كانت مسألة البناء على القبور ورفع القباب فوقها والتبرك بها بهذه المنزلة عند الشيعة ، فلا ريب أنهم يكفرون من ينكر من ذلك شيئا ، لانه يكون منكراً حينئذ أعظم أمر ضروري في دين الاسلام - ونذكر هذا الرجل أنه قال في الامر الاول ص ٨١ وأن من الاحكام الشرعية ما هو نظرى ، وجعل من أمثال ذلك البناء على القبور وقال هنالك ان المخالف في الامور النظرية لا يضلل ولا يفسق كما لا يعارض ولا يمانع !! وما أكثر ما بين القولين من التخاذل

الامر الثامن

قال « ان الأصل في الأشياء أن تكون حلالا ما لم يقم دليل على أنها حرام واحتج بأنه قبيح في العقل العقاب بلا بيان واحتج بقوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » وبقوله « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وقوله « قل لا أجد في ما أوحي اليّ محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به »

(اولا)

قلت : لا داعي الى ذكر هذا الأمر في هذا الكتاب ، لأن القوم الذين يدعي الرد عليهم ليس لهم كلام خاص في هذه المسألة . ولا يمتازون عن العلماء فيها بكلام ، وما أظنهم تكلموا فيها خاصة . أو أن لهم فيها رأيا خاصا بل ولعلهم لم يتكلموا فيها لا نفياً ولا اثباتا

ولا يتوقف موضوع رده على شيء من ذلك . لأنه يزعم أنه يرد بالكتاب وبالسنة وباجماع المسلمين وبسيرتهم التي لا تختلف وبالمعقولات الباهرة القاهرة

(ثانيا)

قوله هذا مخالف لقوله فى الأمر التاسع الذى يلى هذا فانه يقول فيه « البدعة ادخال ما ليس من الدين فى الدين ولا يحتاج تحريمها الى دليل خاص لحكم العقل بعدم جواز الزيادة على أحكام الله ولا النقص منها لاختصاص ذلك بالله وبأنبيائه » فاذا كان العقل عنده يحكم بأنه لا يجوز الحكم بزيادة شيء ولا نقصانه تحليلا ولا تحريما لأن التحليل والتحريم أمران خاصان بالله وبأنبيائه فكيف يحكم هنا بأن الأصل فى الأشياء أن تكون حلالا ؟

واذا ما كان الاصل فى الأشياء عنده أن تكون حلالا فكيف لا يجوز أن تكون الأشياء التى لم يذكرها الشارع بتحريم ولا تحليل ولا مدح أو قدح حلالا اوتسمى بدعة لأن الشارع لم يحللها ولم يحللها أو يحرمها ! ؟

وبيان هذا بوضوح ان مضمون كلامه فى الأمر الثامن أن العقل يحلل ويحرم ومضمون قوله فى الأمر التاسع أن العقل لا يحلل ولا يحرم ولا يحكم بشيء ما لم يحكم الله به فهو فى أحد القولين إذن غالط ولا محالة

(ثالثاً)

قوله : ان الأصل أن تكون الأشياء حلالا مالم يكن هنالك دليل . يقال فيه : هذا الدليل إما أن يدخل فيه الدليل العقلى أو لا يدخل على أن يكون المراد بالدليل هنا قول الشارع خاصة ؟ ان أراد الأول وأراد أن الأشياء حلال ما لم يقم دليل لا عقلي ولا نقلي على أنها حرام كان هذا الكلام فارغا من الفائدة والمعنى . إذ يكون تلخيص الكلام وبيانه هكذا : الأشياء قد يحكم العقل بأنها حرام ، وقد يحكم النص بأنها حرام وما لم يحكم العقل ولا النص بتحريمه فهو حلال . ومعنى هذا أن الأشياء قبل

ورود النص اما أن تكون حلالا واما أن تكون حراما والعقل يحكم بهذا تارة وبذاك تارة أخرى . ولا بد أن يحكم بأحد الحكمين ولا يتوقف أو يشك

واذا كان معنى الكلام كذلك فكيف يقال ان الأصل فى الأشياء التحليل ما لم يقم الدليل ؟!! فان هذا يمكن عكسه ويكون مثله بأن يقال ان الأصل فى الأشياء التحريم ما لم يقم الدليل على التحليل . والقولان سواء لايقدم أحدهما على الآخر إذا كان المعنى كذلك ، وما يراد بالدليل دليل العقل والنقل ، وعلى هذا لافرق بين قوله هنالك وبين عكسه . بل هما يفيدان معنى واحدا وكلاهما يكون صحيحا . وكيف يكون الحكم بالأمر وضده يفيد معنى واحداً ؟

هذا ان اريد بالدليل دليل العقل والنقل . وأما ان اريد بالدليل قول الشارع خاصة وأراد أن الاشياء كلها حلال ما لم يحرمها الشارع ، قيل هذا لا يصح على اصول الشيعة الذاهبين مذاهب المعتزلة فى التقبيح والتحسين العقليين . وهذا أيضا يقضى بأن يكون قتل الانفس البريئة واغتصاب أموال الناس اغتصابا ، ونهب أعراضهم ، والكذب ، والبذاءة ، والشرك بالله وعبادة الاصنام وكل العظائم والكبير حلالا .. ولا ريب !!! وهذا غريب !!! فاننا لا نشك أن انسانا لم تبلغه كتب الله ومحارمه وما جاءت به رسله لو عرضت عليه هذه المنكرات وكان سليم العقل والذوق لبادر الى القول بأنها حرام لا يصح الاقدام عليها ولا غشيانها

فما اختاره هذا الرجل من الآراء باطل على الفروض كلها ..

(رابعا)

هذه المسألة فيها خلاف ومذاهب ذات عدد مذكورة فى كتب أصول الفقه : قالت طائفة ان الأصل فى الأشياء أن تكون حلالا قبل ورود الشرع ، وقالت طائفة أخرى ان الأصل فى الأشياء أن تكون حراماً قبل ذلك وطائفة ثالثة توقفت

فى المسألة لم تختر شيئاً من الآراء . وطائفة رابعة فصلت فى المسألة تفصيلا طويلا ، وأدلت كل طائفة بدلائل كثيرة معلومة . وهذا الرجل ذكر مذهباً من المذاهب واختاره وقطع به بلا دليل ولا حجة

أما الآيات المذكورة فلا دليل فيها لدى التحقيق . أما قوله (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) فمعناها أنه تعالى أوجد كل ما فى الأرض من ماء وهواء ونبات وثمار ومعادن وخيرات وغير ذلك لأجلكم ولأجل أن تنتفعوا به . لكن لا يمكن أن يقال ان الآية تريد أن كل شىء من ذلك حلال لكل انسان منكم ، لأنها لو أرادت ذلك لكان هذا الحكم باقياً أبداً ولكان كل شىء فى الأرض حلالا لكل انسان منا ، لأن إخبار الآية إما أن يكون قدريا قضائياً وإما أن يكون شرعياً . فان كان قدريا كان المعنى أن الله قدر أن يكون كل شىء فى الأرض لكل انسان منكم حلالا ، ووجب أن يكون ذلك المقدر دائما فى كل الأوقات ، لأن ما قدره الله لايمكن أن يختلف ، وباطل أن يقال بعد مجىء الشرع ان كل شىء فى الأرض حلال لكل انسان فى الأرض . ثم الشىء الذى قدره الله لايلزم أن يكون حلالا فى الشرع ، لأن الله قدر كل شىء حتى الحرام وسائر الكائنات والموجودات الضارة والنافعة

وأما ان كان الاخبار شرعياً وجب أن يكون حكمه مستمراً الى اليوم والى غد والى قيام الساعة ولكن باطل أن يكون كل شىء فى الأرض حلالا لكل انسان فى الأرض

وتوضيح هذا أنه لا يمكن أن يفهم من الآية أنها تريد أن كل شىء فى الأرض حلال لكل انسان فى الأرض . وذلك لأننا نقول وكل مسلم يقول كما فى القرآن : ان الله خلق لنا ما فى الأرض جميعا ، مع وجود الحرام والحلال ومع وجود التحريم والتحليل . فاذا ما كان الله يقول (خلق لكم ما فى الأرض جميعا) فى

الوقت الذى كان ينزل فيه التحليل والتحريم ، وفى الوقت الذى لايمكن أن يقال فيه ان كل شيء فى الأرض حلال لكل انسان فى الأرض ، فكذلك لايمكن أن تدل هذه الآية البتة على أن جميع ما هو فى الأرض حلال مباح لكل فرد من أهل الأرض

ومثل الآية : قول الناس جميعا (مصر للمصريين) و (فلسطين للفلسطينيين) والبلاد الاسلامية للمسلمين ونظائرهذا ، ولا يمكن أن يفهم انسان من ذلك أن كل شيء فى مصر حلال لكل مصرى ، وأن كل شيء فى فلسطين حلال لكل فلسطينى وأن كل شيء فى البلاد الاسلامية حلال لكل مسلم

ومثل ذلك هذه الآية فهى بعيدة جداً عن محل النزاع وعن المعنى الذى يريده منها هذا الرافضى

وأما قوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فالذي فى الآية أن الله تعالى برحمته ورفقه لا يعذب الناس حتى يقيم عليهم الحجج بارسال الرسل بالبينات وبالآيات . ولكن ليس فيها أن الأشياء كلها قبل إرسال الرسل محللة بحيث يباح تناولها لكل انسان . لأن هذا معنى كونها حلالا ، ومن المستحيل أن تكون الآية دليلا علىأنه حلال للناس أن يزنوا وأن يقتلوا ويشركوا بالله وأن يعبدوا الأصنام وأن يغشوا كل الآثام قبل ورود الشرع

ولقد تكون الأشياء حراماً قبل تحريم الشارع ونصه على أنها حرام ، ولكن لا يعذب على ذلك قبل إرسال الرسل لأنه تعالى قد بعث الى جميع الأمم الرسل والمنذرين كما قال (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا)

وأما قوله (قل لا أجد فيما أوحى إلى . . . الآية) فلا شيء فيها مما يريده ، لأنها تقول قل لا أجد فيما أوحى إلى ، والنزاع ليس فى الأمور التى فى الوحى وبعد

الوحى وإنما هو فيما قبل الوحى . فالآية تقول قل لا أجد من المحرمات المطعومات شيئا خلا المذكور فى الآية . ولكن هل معنى هذا أن الأشياء كلها المأكولات وغير المأكولات حلال مباح قبل الوحى ، اللهم لا

على أن ما فى هذه الآية خاص بالمطعومات ، والمسألة المفروضة هى أوسع نطاقا من المطعومات ، فلو افترض أن الآية دالة على أن كل المطعومات مباح حلال قبل ورود الشرع لما دل على أن كل شىء كذلك ، ثم ان هنا أمراً غفل عنه هذا الرافضى ومن احتج بحججه على المسألة ، ذلك الأمر هو أن النزاع فى الأشياء قبل مجىء الشرع وقبل حكمه عليها بالتحليل والتحريم ، فان كانت هذه الآيات دلائل على أن كل شيء حلال سوى ما نص على تحريمه كانت هذه الأشياء حلالا بالنص بعد وروده لا بالبراءة الأصلية والاصالة قبل وروده كما يقولون . وعلى هذا تخرج المسألة من النزاع لأن النزاع لم يكن فى ما قام الدليل على إحلاله أو تحريمه . فان ذلك لا نزاع فيه

والذى نذهب اليه فى اختيار هذه المسألة أن الحلال والحرام هنا إن كان يراد بهما الشرعيان ، أي اللذان نص الشارع على أنهما حلال أو حرام ، فالأشياء قبل ورود النص من الشارع لا حلال ولا حرام بهذا المعنى . لأن الحرام الشرعى هو الذى قال الشارع انه حرام ، والحلال الشرعى هو الذى قال الشارع انه حلال . والكلام مفروض فى الأشياء قبل الشرع وقبل حكمه بالاحلال والتحريم ، وقبل ورود الشرع بهذا أو بهذا لا يمكن أن يحكم على شىء لا بهذا ولا بهذا وهو بين

وإن أريد بالحلال والحرام ما دل العقل على أنهما حرام وحلال أي قبيح لا يجوز فعله ، وقد يعاقب عليه وحسن يجمل فعله وقد يثاب عليه . إن أريد هذا فالأشياء فى الأصل منها الحلال ومنها الحرام ولا جرم . هذا اختيارنا فى هذه المسألة وعلى كل حال فالمسألة تكاد تكون افتراضية

الامر التاسع

قال الشيعي « البدعة ادخال ما ليس من الدين فى الدين بقصد الدين ، وهي حرام لايحتاج تحريمها الى دليل خاص لأن العقل يحكم بقبح الزيادة على حكم الله أو النقص منه لأن ذلك خاص بالله وبالأنبياء . ولكن تشخيص البدعة يقع فيه اختلاف واشتباه فكم بدعة عدت سنة وكم سنة عدت بدعة . ويكفى للحكم على الأمر بأنه ليس بدعة دخوله تحت الاطلاقات الشرعية العامة . لهذا أخطأ قوم منعوا القيام عند ذكر ولادة النبى عليه السلام فقد علم بالاطلاقات الشرعية العامة لزوم احترام النبى ﷺ وتعظيمه حياً وميتاً كل أنواع الاحترام التى لم ينص الشارع على منعها وأخطأ (الوهابيون) اذ منعوا الترحيم والتذكير وعدوها بدعتين ، وذلك خطأ لدخولها تحت الاطلاقات الشرعية الحاضة على ذكر الله ودعائه ، وعلى الصلاة على النبى الكريم ، وتخصيص ذلك ببعض الأزمان والأمكنة لغرض من الأغراض مع عدم اعتقاد أن ذلك التخصيص وارد فى الشرع لا يجعله بدعة . وكذلك أشياء عدوها بدعا يجيء الكلام عليها » انتهى . قلت :

(أولا)

نحن ندع له هذا التعريف للبدعة على ما فيه من نزاع . وندع له قوله : إن البدعة لا يحتاج تحريمها الى برهان خاص . ولكن نقول اذا ما اعترفت بأن البدعة حرام واعترفت بأنها ادخال ماليس من الدين فى الدين إرادة الدين ، فكيف يقع الاختلاف والاشتباه فى تشخيصها ومعرفتها ، وقد أعطيتها التعريف الجامع المانع لديك . والاشتباه فى ذلك يقع لدى من جهل ما هى البدعة أو جهل ما هي السنة فعز عليه تمييز هذه من هذه لجهله بحقيقتهما . ومن عرف البدعة بأنها ما أدخل فى

الدين ، أي زيد فيه بقصد الدين عرّف السنة أنها هي العبادة المأثورة عن صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام قولا أو فعلا تصريحاً أو تلويحاً

وما على من اعترف بأن البدعة حرام وعرفها بأنها المزيد فى الدين لأجل الدين الا أن يعلم الدين من مصادره النقية الصحيحة فيمسك بها بكلتا يديه ، ويرد ما لم يجده فى المصادر الصحيحة النقية ردّ قالٍ هاجر : فانه واجد فى مصادر الاسلام الصحيحة أن رسول الله ﷺ كان اذا زار القبور يدعو لأهلها ولنفسه ثم ينصرف وواجد أنه عليه السلام كان يعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يدعوا لأصحابها ولأنفسهم . ولا يجد غير ذلك من الاستغاثة بالأموات ، والتمسح بالأجداث وتقبيلها وقراءة القرآن والاحزاب والاوراد فوقها . فهل يقع اختلاف أو اشتباه لدى المسلم المتبع سنة الرسول ﷺ أن السنة فى زيارة القبور هي أن يدعو الزائر لمن زاره ولنفسه ثم ينصرف . وأن كل ما زاده الناس بعد ذلك هو من البدع المنكرة

ثم يرجع الى مصادر الاسلام الصحيحة الصافية فيجد أن رسول الله ﷺ وأصحابه ما كانوا يبنون على القبور ، ولا يضعون فوقها ما يضعه الناس اليوم ولا يسرجونها أو يكسونها أو يرصدون لها السدنة والحجاب لابتزاز أموال الناس وسرقتها العلانية باسم الدين . بل يجد أن الرسول الكريم نهى عن ذلك أشد النهى وأوعد فاعله أنواع الايعاد ، ويجد أن علماء الاسلام الحق نهوا عنه أيضاً وشددوا فى النهى . فهل يشتبه على من أراد السنة حقاً أن يعرف أن ذلك كله بدع فيجانبه بعيداً لانه يعلم أن الابتداع حرام لأنه تشريع والتشريع خاص بالله وبأنبيائه

ثم يرجع أيضاً الى المصادر النقية فيجد أن الأذان الشرعي فىزمن النبى ﷺ وزمن الخلفاء الراشدين والتابعين الى قرون بصفة محدودة معلومة محفوظة متواترة يملأ آذان الملايين في اليوم خمس مرات ، ويتدفق من موجات الهواء الى منافذ

حجرات المخدرات فى خدورهن والقاعدات الملازمات بيوتهن ، وان أول كلمة فيه (الله أكبر) وآخر كلماته هى (لا إله الا الله) ولا يوجد فى رواية ولو ضعيفة أن مؤذنا كان فى ذلك العهد المرضى عنه يختتم الأذان بالصلاة والسلام على الرسول الكريم جهراً مثل ما يفعله الناس اليوم . كما لا يجد أن مؤذناً فى ذلك العهد النبوى كان يفعل شيئاً مما يفعله كثيرون اليوم قبل الأذان من الدعوات المبتدعة والاشعار الجوفاء الجاهلة والاناشيد الكاذبة فيعلم أن السنة هى الأذان المبدوء (بالله أكبر) المختتم (بلا إله الا الله) وأن ما قبل ذلك وما بعده بدع منكرة مزدراة فلن يصل اليه شىء من الاختلاف والاشتباه

وهكذا يصنع فى جميع العبادات والاعتقادات يتعلم ما جاء عن صاحب الرسالة فيعرفه ويتبعه اعتقاداً وعملا وقولا ويجانب غيره ولا كرامة . وهذا من اليسر المبين على من أراده فان الله الرحيم بعباده لم يضع الشرع فى قالب عسير يعز فهمه ولم ينزل كتابه ألغازاً وأحاجى يصعب ادراكها بل وضع شرعه فى قالب يسير وأنزل كتابه ميسراً قريبا لأنه دين الجميع الخاصة والعامة ، ولانه دين الفطرة

ومن أراد ذلك ففعله خلص من الاشتباه والاختلاف ولم يحسب السنة بدعة ولا البدعة سنة بل يضع هذه فى موضعها وهذه فى موضعها . وهكذا كان علماء الحديث والسنة كالأئمة الأربعة وكأئمة الحديث . وكذلك كان الصحابة والتابعون لهم باحسان كانوا من أهل السنة الخالصة المبرأة من الشوائب والمبتدعات لم يتمسكوا بالبدع حاسبيها سنناً ولم يهجروا السنن حاسبيها بدعا ، ولم يقولوا : إن معرفة السنة من البدعة عسيرة كما يقول هذا الرجل ، أو يقولوا إن السنن التى هى دين الله ودين رسوله ودين أبى بكر وعمر والصحابة ودين الاسلام والتوحيد تشتبه بالبدع التى هى دين الجاهلين الضالين وبقايا دين المشركين الغابرين ورشاش أديان اليهود والنصارى والصابئين . لم يقعوا فى شىء من ذلك لا قولا ولا عملا ولا

اعتقادا . وهذا لاريب فيه ، وهل يستطيع المخالف أن يظفر بشيء منه ؟ وانما يقع في ذلك ويغوص فيه الى أذنيه وفرق رأسه أشباه المعترض ممن ردوا البدعة موضوعاً وقبلوها شكلا ، وبعبارة أوضح ردوها جملة وقبلوها تفصيلا متعلقين بالاطلاقات والعمومات وبأقل مايمكن أن يتعلق به صاحب ضلالة وبدعة أو هوى وهذا كله بريء منهم عند اصابة النظر . فان قوله (ويكفي للحكم بأن الأمر ليس بدعة دخوله تحت العمومات والاطلاقات الشرعية) قول يراد به ادخال جميع البدع في الشريعة ومزج كل الخرافات في السنن النبوية المطهرة . ثم يراد به النقض على قوله الأول في إنكار البدع أو التنصل منه أو الرجوع عنه بهذا النحو الذي رضيه واختاره من اتباع العمومات والاطلاقات الشرعية ، وهو يعلم ـ وقد يكون لا يعلم ـ أنه بهذا القول يمكن الاستدلال على جميع البدع والاحتجاج لها بالعمومات والاطلاقات كما يدعي هو وكما يحتج وكما فعل في كتابه هذا . فانه قد أدخل جميع البدع المتعلقة بالقبور وأصحاب القبور من الاستغاثة بهم وشد الرحال اليهم والحلف بهم ، ونذر النذور وتقريب القرابين لهم تحت ماادعاه من وجوب التعظيم والاحترام لهم ، وهكذا صنع في جميع المحدثات التي حشدها في هذا الكتاب ودعا اليها من غير تفصيل ، وعلى هذا الأساس الواهي قال « وقد أخطأ قوم منعوا القيام عند ذكر ولادة النبي عليه الصلاة والسلام » فاذا ما قيل له إن هذا القيام لم يؤثر عن أحد من صحابة رسول الله وقد كانوا ولا ريب يذكرون ولادته عنده وبعد موته ، وقد كانوا أيضا حراصاً كل الحرص على العمل الصالح وعلى تعظيم النبي واحترامه بكل مايستطاع ويحل من أنواع الاحترام ، وقد كانوا أيضا بصراء بما يجب لرسول الله وما يستحب وما يمنع من ذلك ، وكذلك لم يؤثر هذا القيام عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى من رجال الحديث والسنة ونقلة الأخبار لا بسند صحيح ولا ضعيف فاذا ماقيل له ذلك كله ، وقيل له أيضا ان الرسول الكريم كان

حريصاً على تعليم أصحابه ما به يدركون ثواب الله ورضاه ، وعلى تعريفهم كل ما يقتربون به من الجنة وما يبتعدون به عن النار ، وما أتى عنه ﷺ أنه أشار عليهم بالقيام عند ذكر ميلاده ، ولا أرشدهم اليه أو حضهم عليه . اذا ماقيل لهذا الرافضى هذا وأكثر منه كان جوابه : ان القيام عند ذكر ميلاده من أنواع التعظيم والاحترام ، وإطلاقات الشرع حاضة على تعظيمه عليه السلام ، فهو مأمور بالقيام عند ذلك تضمناً لا نصا . لكننا نقول هذا باطل لأمور :

(أولها)

أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يعلمون هذه الاطلاقات المدعاة ، وكانوا يعلمون أنه واجب اعظام النبى الكريم واحترامه ، وكانوا أتقى لله وأسبق الى الخيرات والطاعات من رجال الرافضة وجهال الشيعة ، وقد يكون قولنا هذا مثل ما قيل :

ألم تر أن السيف ينقص قدره اذا قيل ان السيف أمضى من العصا

ونحن نستغفر الله من ذلك . بل كانوا أتقى الأنام على الاطلاق وأعرفهم بالله وبرسوله وما يجب لهما على الاطلاق أيضا . انهم كانوا كذلك علماً وعملا ، ومع هذا كله لم يؤثر عن أحد منهم أنه قام عند ذكر ولادته عليه السلام ، ولا عند ذكر ولادة غيره من الأنبياء والصالحين ، ولا عند ذكر شىء من الأشياء المعظمة فى دين الاسلام وفى أعماق الصدور المسلمة ، ومن ادعى ورود شىء من ذلك كان عليه البيان والتبيين

أفلا يدل هذا على أحد أمرين : اما على القدح فى الصحابة لأنهم قصروا فى حق الرسول الكريم ، وفى تعظيمه فسبقتهم الرافضة وجهالهم ، وإما على القدح فى الشيعة ومن يقول قولهم هذا ، لأنهم ابتدعوا فى الدين مالم يكن منه ارادة الدين وخالفوا سيرة المسلمين الأولين المعلومة بالتواتر العملى والسيرة الفعلية ؟ اننا نختار

القدح فى هؤلاء المبتدعين كلهم على أن نقدح فى أحد من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام

(ثانيها)

لم يكن القيام للرسول ﷺ مشروعا يوم أن كان حيا ، ولم يكن صحابته يقومون له يوم أن كان بين أظهرهم يبصرونه ويسمعونه حينما يدخل أو يخرج وحينما يقعد أو يقوم . بل لقد أنكر ذلك منهم وكرهه . « فروى مسلم فى صحيحه أنه قال لأصحابه إذ قاموا وراءه يصلون إن كنتم تفعلون فعل فارس والروم فلا تفعلوا » وفعل فارس والروم هنا هو أنه يقوم بعضهم لبعض ويقومون لكبرائهم وأهل الكبرياء منهم تعظيما واكباراً وذلة وخضوعا ، وروى الامام أحمد باسناد صحيح عن أنس بن مالك قال لم يكن شخص أحب اليهم أى الى الصحابة من رسول الله وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمونه من كراهيته لذلك ، والكراهة يراد بها فى الكلام الأول البغض . فيقال للمحرم انه مكروه ، أى حرام فظيع كقوله تعالى « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » وقوله « ولكن كره الله انبعاثهم » وفى الحديث الصحيح (ان الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال) ونظائر ذلك كثيرة . وروى أبو داود باسناد زعم الهيتمى أنه صحيح وروى الترمذي وقال حسن أنه عليه السلام قال : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار وروى أبو داود باسناد زعم الهيتمى أنه حسن أن الرسول خرج على أصحابه فقاموا فقال لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا

واذا لم يكن القيام مشروعا له ﷺ حينما كان حيا عند حضوره وقيامه وكان هو يكرهه أي يبغضه وكان أصحابه يدعون ذلك وهم لايحبون أحداً بعد الله حبهم له لأنه هو لايريده ولايرضاه منهم ، فاعجبْ أن يكون ذلك مشروعا عند ذكر

ولادته بعد وفاته وانتقاله الى الرفيق لأعلى ، والخطاب هنا لمن يفهمون ولا يقلدون

(ثالثها)

لو كان القيام عند ذكر ولادته مشروعاً لأنه تعظيم لكان ذلك مشروعاً عند ذكر الله تعالى وعند ذكر كلامه وذكر القرآن الكريم ، وعند ذكر الانبياء والأولياء والصالحين ـ وعند ذكر الاسلام والأديان ، وعند ذكر كتب الحديث والسنة ، وعند ذكر الأئمة الهداة ، وعند ذكر كل شيء يشرع بالجملة احترامه وتعظيمه ومن قام عند ذكر هذه الامور كلها أو قال ان القيام عند ذلك مشروع كان الى الهوس أقرب منه الى العقل الذى تجدر به المخاطبة

ولا ريب أن هذا لازم كلام هذا الرافضى لزوماً لا انفكاك له منه

والدليل على أن القيام عند ذكر هذه الأمور مشروع ما ذكره هو من الدليل على أن القيام عند ذكر الولادة مشروع ، والدليل هو الاحترام والتعظيم ووجودهما فى الجميع . ولا يشك أحد من المسلمين فى أنه اذا كان القيام لدى الذكرى تعظيما كان الله وصفاته وكلامه أولى بذلك من الرسول ﷺ ومن جميع الخلائق . بيد أننا نعلم بالضرورة أن القيام ليس مشروعاً للمسلمين عند ذكر الله أو ذكر كتابه أو ذكر صفاته وأسمائه وأفعاله ، ومثل هذا عند من يفهم القيام عند ذكر ولادة النبى ﷺ

(رابعها)

نحن لا نسلم أن القيام تعظيم دائما حتى يتجه ما قاله ، بل قد يكون التعظيم فى خلاف القيام . وهذا أمر تختلف فيه الأنظار وتتشعب لديه المذاهب والآراء . فقد يرى بعض الناس فى بعض البلاد ، فى بعض الأماكن ، فى بعض البيئات : أن تعظيمه فى أن يجد الناس أمامه جالسين خاضعين منصتين يستمعون لما يقول

ويتلقفون ما يتفوه به ، كما قد يرى آخرون أن التعظيم الجم فى أن يجلس المعظم بين أيديهم واضعاً يديه على ركبتيه إجلالا وهيبة ، هيئة جلوس المتشهدين . كما يرى المتكبرون أن تمام تعظيمهم وتقديسهم فى أن يخر الناس لهم على الأذقان ركعا وسجداً عند رؤياهم أو عند ذكراهم ونحو ذلك ، والدليل القاطع على أن التعظيم قد يكون فى غير القيام صفة الصلاة لله رب العالمين ، فان الجلوس بين السجدتين وفى التشهدين تعظيم لله أى تعظيم والقيام فى وقتهما لا تعظيم فيه بل هو حرام لا يحل فعله ومثل ذلك السجود فانه أبلغ تعظيما من القيام والركوع والجلوس وهو في وقته التعظيم وحده وغيره ليس تعظيما ، بل لا يجوز عمله

فالقيام إذن ليس تعظيما في كل زمان ومكان فى جميع الحالات . بل قد يكون حراماً ممنوعا لأنه خال من التعظيم والوقار ، فالدليل الذى ذكره على استحباب القيام عند ذكر ميلاده ﷺ وهو التعظيم ليس دليلا مقبولا لما ذكرنا

(خامسها)

اذا كان كل ما فيه تعظيم مشروعا تقديمه للرسول الكريم . فان السجود والركوع والجلوس كهيئة التشهد ، كل ذلك تعظيم ولا ريب . فهل يقول هذا ان ذلك كله جائز أن يفعل عند ذكرى ميلاد الرسول أو عند ذكر اسمه ﷺ . فيجلس من يجلس ويركع من يركع ويسجد من يسجد تعظما واحتراماً ؟؟ ان هذا لازم لكلامه ، ولكنه قول يرغب كل مسلم بنفسه عنه فان قيل انه قد جاء النهى عن السجود لغير الله . قيل ان الأخبار الناهية عن السجود للرسول وللمخلوق هى أحاديث آحاد على مذهبكم تردون ما هو أصح منها وأكثر أسانيد وأجود رواية فلا تصلح لمعارضة ما علمتموه بالضرورة والاجماع والتواتر والقرآن والسنة من وجوب تعظيم الرسول الكريم واحترامه أنواع الاحترام والتعظيم والأحاديث التى وردت فى النهى عن السجود لغير الله أحاديث ليست قوية ، ولكن ذلك

معلوم تحريمه بنص القرآن وبإجماع المسلمين بطريقة لا يرتضيها هؤلاء كما سوف يأتى

وإذا ما سلمنا مسألة السجود بقى غيرها كالجلوس هيئة المتشهد ، وبقى الركوع أيضا ، والتكفير [1] عند الأعجام ، فإذا ما قيل ان المسلمين مجمعون على أن السجود لغير الله لا يجوز بحال قلنا ليس إجماعهم على امتناع السجود لغير الله بأظهر من إجماعهم على امتناع الاستغاثة بالأموات ، وسؤالهم ما لا يقدر عليه إلا الله كطلب الرزق والهداية وغفران الذنوب وشفاء المرضى ورجع الغائبين . وقد أباح هذا الرافضى هذا كله كما سلف وكما سوف يأتى ، وإذا لم يكن الاجماع حجة فى هذا لم يكن حجة فى هذا . ثم نقول أيضا هب أن السجود عند ذكر ولادته لله لا له ، أيجوز ذلك . ان هذا يلزم قوله لزوما لا مفر منه ولكنه باطل بالضرورة والاجماع فالاحتجاج للقيام بالادعاء أنه تعظيم احتجاج لا يثبت على حال

وأما قوله ان الوهابيين أخطأوا أيضا في منع الترحيم والتذكير واحتجاجه لجواز ذلك بما جاء عاما من الحض على ذكر الله ، والصلاة على النبى الكريم فهذا القول وهذا الاحتجاج سبيلهما سبيل أقواله الأول ، وأظنه يعنى بالترحيم والتذكير تلك الأشعار التى يشاد بها فوق المنارات قبيل صلاة الصبح ، وهى أشعار فائضة بالغلو المنكر ، وبالأدعية الفاسدة ، والتوسلات الباطلة الممنوعة شرعا وذوقا وأدبا من التغزل بالرسول ومن ذكر الخد الأسيل ، والطرف الكحيل ، والوجه الجميل ، ومن دعاء الأموات كشيخ العرب وغير شيخ العرب ومن الاشادة بمذهب وحدة الوجود ، ومن غير ذلك من الأمور الباطلة التى اشتمل عليها ذلك الترحيم والتذكير ، اللذان يدافع عنهما هذا الرجل . ولا ريب أن ما ادعاه باطل بدلائل كثيرة :

---

(١) التكفير هو وضع اليد فوق اليد هيئة القائم فى الصلاة

(أولها)

أن ذلك لم يكن شيء منه على عهد الصحابة ولا عهد من بعدهم من أهل القرون المثنى عليها المفضلة باخبار الرسول الكريم وبالقرآن العظيم . ولو كان ذلك خيراً لما تركوه ليظفر به المتأخرون الجاهلون بأسرار الشريعة وما تنطوي عليه من سمو وبراءة وحكم عليا تدق على أفكار هؤلاء

(ثانيها)

أن فى هذه الأشعار من التوسل ودعاء الاموات الذاهبين والغلو فى الرسول ﷺ وغيره ما ستجيء البراهين على بطلانه ، فان فيها الاستغاثة بشيخ العرب وفيها الاسراف فى الدعاء وفى المديح بل وفى كثير منها تأليه الرسول الكريم واعطاؤه ما لا يكون الا لله وحده

(ثالثها)

لو كان هذا الدعاء مشروعا بالجملة لكان ممنوعا بهذه الصفة . فان المطلوب فى الدعاء أن يكون خفية سراً الا فى حالات معلومة لوظائف لا يؤديها الاخفات . والاسرار بالدعاء مأمور به على سبيل الاجمال في آيات وأحاديث كثيرة ، وذلك لأغراض شريفة عليا نفسية . منها : الابتعاد عن مواطن الرياء والنفاق ، ومنها : أن الاسرار أقرب الى الخشية والخشوع وحضور القلب ومنها غير ذلك . وقد قال الله فى ذلك « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » ومن الظاهر جداً أن يتسر هنا الاعتداء بالجهر بالدعاء وقال « واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال » وفى الحديث الصحيح المشهور أنه ﷺ سمع أصحابه يجهرون بالدعاء فقال : « أيها النـاس اربعوا على أنفسكم ، فانـكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، انمـا تدعون سميعاً بصيراً أقرب الى أحدكم من عنق

راحلته » وفى الحديث أيضاً أن قوما سألوا الرسول قالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله قوله « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » الى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على أن المطلوب فى الدعاء ما خلا مواضع معلومة أن يكون سراً لا جهرا . وقد كره لذلك كثيرون من أئمة الاسلام الدعاء بعد الصلاة جهرا في المساجد وان كان أصل الدعاء عقب الصلوات وارداً فى أخبار صحيحة بل وإن كان قد جاء فى الأحاديث ما يدل على أن الجهر بالدعاء عقب الصلوات كان على عهد الرسول الكريم ولكن هؤلاء العلماء رأوا أن النصوص فى الاخفات أظهر وأكثر . وقد ذكر هذا الشاطبى فى كتابه الاعتصام المشهور . ولا ريب أنه لم يأت خبر واحد يخص هذا الترجيع وهذا التذكير من هذه العمومات المطلقة الطالبة من الناس أن يسروا بدعواتهم ، ولو جاء ذلك لبادرنا الى القول به . وفى الاخفات بالدعاء فى هذه المواضع أسرار عظيمة لحظها الشارع الحكيم وغفل عنها هؤلاء المغالون المخالفون . وذلك أننا وجدنا بالاستقصاء والاستقراء أن هؤلاء الذين يدعون هذه الأدعية فوق المنارات جهراً انما يرون ذلك صنعة ووظيفة يؤدونها أداء آلياً بعيداً عن مراقبة الله وارادة الله نائين عن الخضوع والخشوع ، مملوئين زهواً وغروراً ، مملوئين بالخداع والنفاق . وهذا كله آت من طريق الجهر والمظاهرة بالدعاء وذكر الله وفى هذا ابطال حكمة الله فى دعائه ومناجاته

واذا ما كان الداعون لله المتظاهرون بدعائه بعيدين حين دعائهم عن الخشية ومراقبة الله كان لذلك أثر عظيم فى نفوس السامعين وما الله بغافل عن شيء من ذلك ولا مهمل له . بل وفى دعاء الله بهذه الطريقة الجوفاء امتهان لهذه العبادة العليا التى قال فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام « الدعاء مخ العبادة »

(رابعها)

ان السلف الصالحين قد أنكروا ماهو أقل من ذلك توغلا فى البدعة وأقل إثما وعاقبة ، وذلك منهم محافظة على السنة وعلى الطريقة الاسلامية العملية الأولى إذ هم يعلمون ولا يشكون أن الاسلام أراد من أهله المحافظة الشديدة عليه والتمسك الشديد بالمأثور ومجانبه بنيات الطريق بشدة وصرامة ، وقد ذكر الامام الشاطبي فى كتابه المشهور « الاعتصام » قال « وحكى ابن وضاح قال ثوّب المؤذن بالمدينة فى زمان مالك فأرسل اليه مالك لجاءه فقال له ماهذا الذى تفعل فقال أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر فيقوموا . فقال له مالك لا تفعل . لاتحدث في بلدنا شيئا لم يكن فيه ، وقد كان رسول الله فى هذا البلد عشر سنين وأبو بكر وعمر وعثمان فلم يفعلوا هذا ـ فلا تحدث فى بلدنا مالم يكن فيه . فكف المؤذن عن ذلك وأقام زمانا ثم انه تنحنح فى المنارة عند طلوع الفجر فأرسل اليه مالك فقال له ماهذا الذى تفعل ؟ قال أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر فقال له ألم أنهك ألا تحدث عندنا مالم يكن . فقال إنما نهيتنى عن التثويب فقال لاتفعل فكف زمانا ثم جعل يضرب الأبواب فأرسل اليه مالك فقال ماهذا الذى تفعل ؟ فقال أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر ، فقال له مالك لاتفعل لا تحدث فى بلدنا مالم يكن فيه » وقال الشاطبى أيضا فى الكتاب المذكور :

« وروى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه دخل مسجداً أراد أن يصلى فيه فثوب المؤذن فخرج عبد الله بن عمر من المسجد وقال اخرج بنا من عند هذا المبتدع ولم يصلّ فيه . قال ابن رشد وهذا نحو مما كان يفعل عندنا بجامع قرطبة من أن يفرد المؤذن بعد أذانه قبل الفجر النداء عند الفجر بقوله : حى على الصلاة . قال وقيل إنما عنى بذلك قول المؤذن في أذانه حى على خير العمل لأنها كلمة زادها في

الأذان من خالف السنة من الشيعة ، ووقع فى المجموعة أن من سمع التثويب وهو فى المسجد خرج منه كفعل ابن عمر ، وفى المسـألة كلام المقصود منه التثويب المكروه الذي قال فيه مالك انه ضلال ، والكلام يدل على التشـديد فى الأمور المحدثة أن تكون فى مواضع الجماعة أو فى المواطن التى تقام فيها السنن والمحافظة على المشروعات أشد المحافظة لأنها اذا أقيمت هنالك أخذها الناس وعملوا بهـا فكان وزر ذلك عائداً على الفاعل أولا فيكثر وزره ويعظم خطر بدعته . وقد فسر التثويب الذى أشار اليه مالك بأن المؤذن كان اذا أذن فأبطأ الناس قال بين الأذان والاقامة قد قامت الصلاة . حى على الصلاة . حى على الفلاح . وهذا نظير قولهم عندنا : الصلاة رحمكم الله

وقد أحدث بالمغرب المتسمى بالمهدي تثويبا عنـد طلوع الفجر وهو قولهم أصبح ولله الحمد اشعاراً بان الفجر قد طلع لالزام الطاعة ولحضور الجمـاعة وللغدوّ لكل ما يؤمرون به فيخصه هؤلاء المتأخرون تثويبا بالصلاة كالأذان ، ونقل أيضا الى أهل المغرب الحزب المحدث بالاسكندرية وهو المعتـاد فى جوامع الأندلس وغيرها فصار ذلك كله سنة فى المساجد الى الآن ، فانا لله وإنا اليه راجعون . »
اهـ الشاطبى

واذا كان مثل هذا التثويب وما ذكر هنا من التنحنح وضرب الابواب حراما غير جائز عند عبد الله بن عمر وعند الامام مالك وعند الامام الشاطبى وعند هؤلاء العلماء فكيف يجوز هذا النشيد الهراء العامي المكسر لغة وشعرا وذوقا ونحوا ؟ وكيف يجوز أن يقذف به من فوق المنارات منصات الداعين الى الله والى الفلاح والى الصلاة رهان الصلاح . .؟ ولقد جاء أبلغ من هذا كله فى المحافظة على المأثور وهجر المبتدعات عن أئمة السلف . فذكر الامام الشاطبى فى الـكتاب المذكور قال :

« قال أبو مصعب : قدم علينا ابن مهدى فصلى ووضع رداءه بين يدى الصف فلما سلم الامام رمقه الناس بأبصارهم ورمقوا مالكا وكان قد صلى خلف الامام فلما سلم قال من هاهنا من الحرس ؟ فجاءه نفسان فقال خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه فحبس فقيل له إنه ابن مهدى فوجه اليه وقال له ما خفت الله واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك فى الصف وشغلت المصلين بالنظر اليه وأحدثت فى مسجدنا شيئاً ما كنا نعرفه . وقد قال النبى ﷺ : من أحدث فى مسجدنا حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فبكى ابن مهدى وآلى على نفسه ألا يفعل ذلك أبداً في مسجد النبى ﷺ ولا فى غيره . وفى رواية عن ابن مهدى قال : فقلت للحرسيين تذهبان بى الى أبى عبد الله ، قالا إن شئت . فذهبنا اليه فقال ياعبد الرحمن تصلى مستلباً ؟ فقلت يا أبا عبد الله انه كان يوماً حاراً كما رأيت فثقل ردائى علىّ . فقال آلله ما أردت بذلك الطعن على من مضى والخلاف عليه ؟ قلت الله . قال خلياه » انتهى ما نقله الشاطبى

وما يكون وضع الرداء أمام المصلى فى جانب المسائل المذكورة ؟ ان البون لشاسع . وهذا نوع من كراهة السلف للمحدثات ومقتها واجتنابهم إياها يعرف بها أتكون هذه الأناشيد من التذكير والترحيم حلالا أم حراماً

(خامسها)

ان ملازمة المؤذنين هذه الأناشيد والأغانى وجهرهم بها فوق المنارات من الدعاء والصلاة على الرسول والاستغاثة بالمخلوقين يوهم الجمهور والعامة أن ذلك واجب لايصح تركه وقد وقع هذا فعلا فان جماهير من العامة يرون وجوب الصلاة على الرسول عقب الأذان جهراً ولا يرون الأذان يصلح بدون ذلك ، وقد كان من جراء ذلك أنهم يثورون بمن أذن الأذان الشرعى ولم يأت بهذه

البدعة المحدثة ، وقد وقع هذا مرات فى بلاد مصر . وكان من جراء ذلك أن وقع قتل وجنايات وذلك لاعتقادهم وجوب هذه الصلاة وهم يعدون من لا يصلى كذلك مبغضاً للرسول الكريم ، تاركا واجباً من أعظم الواجبات وأقدسها ، وكذلك شأنهم فى الكثير من المبتدعات التى يشاهدونها صباح مساء . واذا كان ذلك كذلك كان اللازم هجران هذه المبتدعات خشية أن تحسب سنناً واجبة . ولقد كان بعض السلف يدعون السنن خشية أن يظنها الناس فروضاً واجبة ، فكيف بالبدع ؟ ؟ ؟ قال الامام الشاطبى فى كتابه الاعتصام :

« لقد كان السلف يتركون السنن خوف اعتقاد العوام أمراً هو أشد من ترك السنن وأولى أن يتركوا المباحات ألا يعتقد فيها أمر ليس بمشروع . فقد ذكروا أن عثمان كان لا يقصر فى السفر فيقال له أليس قد قصرت مع رسول الله؟ فيقول بلى ولكنى إمام الناس فينظر الى الأعراب وأهل البادية أصلى ركعتين فيقولون هكذا فرض . قال الطرطوشى تأملوا رحمكم الله فان فى القصر قولين لأهل الاسلام . منهم من يقول فريضة فمن أتم فانما يتم ويعيد أبدا . ومنهم من يقول سنة يعيد من أتم فى الوقت . ثم اقتحم عثمان ترك الفرض أو السنة لما خاف من سوء العاقبة أن يعتقد الناس أن الفرض ركعتان . وكان الصحابة [1] رضى الله عنهم لا يضحون . قال حذيفة بن أسد : شهدت أبا بكر وعمر رضى الله عنهما لا يضحيان مخافة أن يرى أنها واجبة ، وقال بلال : لا أبالى أن أضحى بكبشين أو بديك . وعن ابن عباس أنه كان يشتري لحماً بدرهم يوم الأضحى ويقول لعكرمة من سألك فقل هذه أضحية ابن عباس . وقال ابن مسعود : انى لأترك أضحيتى وانى لمن أيسركم مخافة أن يظن أنها واجبة . وقال طاوس ما رأيت بيتاً أكثر لحما وخبزاً وعلماً من بيت ابن عباس ، يذبح وينحر كل يوم ثم لا يذبح

(١) أى بعضهم

يوم العيد ، وإنما كان يفعل ذلك لئلا يظن الناس أنها واجبة وكان إماما يقتدى به . قال الطرطوشي والقول فى هـذا كالذي قبله ، وان لأهل الاسلام قولين فى الأضحية أحدهما سنة ، والثانى واجبة . ثم اقتحمت الصحابة ترك السنة حذراً من أن يضع الناس الأمر على غير وجهه فيعتقدونها فريضة . قال الامام مالك فى الموطأ فى صيام ستة بعد الفطر من رمضان : أنه لم ير أحداً من أهل العلم والفقه يصومها . قال ولم يبلغنى ذلك عن أحد من السلف ، وان أهل العـلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته ، وأن يلحق أهل الجهـالة والجفاء برمضان ما ليس منه لو رأوا فى ذلك رخصة من أهل العلم ورأوهم يقولون ذلك فكلام مالك هنا ليس فيه دليل على أنه لم يحفظ الحديث كما توهم بعضهم ، بل لعـل كلامه مشعر بأنه يعلمه ، لكنه لم ير العمل عليه وإن كان مستحبا فى الأصل لئلا يكون ذريعة لما قال ، كما فعل الصحابة فى الأضحية وعثمان فى السفر . وحكى الماوردى ما هو أغرب من هـذا وإن كان هو الأصل ، فذكر أن الناس كانوا اذا صلَّوا فى الصحن من جامع البصرة ورفعوا من السجود مسحوا جباههم من التراب لأنه كان مفروشاً بالتراب فأمر زياد بالقاء الحصى فى صحن المسجـد . وقال لست آمن من أن يطول الزمن فيظن الصغير إذا نشأ أن مسح الجبهة من أثر السجود سنة فى الصلاة . وهـذا فى مباح فكيف به فى المكروه أو الممنوع [1] (انتهى كلام الشاطبى)

وذكر الشاطبى فى موضع آخر أن من ذلك نهى الرسول الكريم ﷺ أن يتقدم شهر رمضان بصيام يوم أو يومين وقال ان وجه ذلك عند العلماء مخافة أن يعد ذلك من جملة رمضان

بهذا ليعتبر المعتبرون

وأما ما يتعلق به هـذا الرجل من العمومات والاطلاقات ، فجوابنا عليه أن

(١) نحن لا نتقيد بكل ما نقلناه هنا ولكننا سقناه لغرضنا المذكور

نقول له اعلم أن هنالك أمراً يسمى البدعة الاضافية . والبدعة الاضافية هى الأمر المحدث على نحو لم يكن فى الاسلام ولا فى عصر الرسول الكريم ﷺ وعصر خلفائه الراشدين ، إذا ما كان أصل هذا الأمر موجوداً مشروعاً بالجملة لكن على نحو آخر وفى هيئة أخرى ، أي على شكل لم يكن معروفا فى صدر الاسلام ولا فى أيامه الأولى . نظير ذلك مثلا صلاة النوافل والسنن الرواتب التى تكون قبل الصلوات الخمس وبعدها ، فان هذه السنن وهذه الرواتب مشروعة مرغب فيها بالجملة على أن تؤدى كما جاءت عن صاحب الشرع عليه السلام . ولكن لو أن قوماً اجتمعوا واتفقوا على أن يصلوها جماعة بامام كما يصلون الفروض ثم واظبوا على تأديتها كذلك كانوا مبتدعين غالطين فى هذه الصلاة غلطاً يلامون عليه ، ووجب لما ذكرنا زجرهم ونهيهم نهياً شديداً . وكان هذا العمل بدعة إضافية لا أصلية فان أصل النافلة مشروع مطلوب ولكنها بهذا الشكل المجتمع عليه غير مشروعة ولا جائزة

وكذلك الأذان للصلوات مشروع فى أوقاتها المعلومة وهيئته المعروفة عن صاحب الرسالة . ولكن لو أذن لكل صلاة مرتان أو ثلاث أو أكثر خلا ماجاء فى صلاة الفجر والجمعة كان ذلك غير جائز ولا مشروع ، وكان بدعة نكراء يجب اطراحها وإزالتها . هذا مع أنه لاريب أن الأذان مشروع بالجملة وهو تعظيم لله وتوحيد وثناء وشهادة للرسول الكريم بالرسالة ودعاء الى الله والى الفلاح والصلاة ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله والى الصلاة والى الفلاح ؟!

وكذلك لو كرر أكثر مما حفظ أو لو وضع فى أوقات غير أوقات الصلوات أو لو غير ترتيبه . كل هذا يكون من الابتداع المذموم

وكذلك الصلاة على الرسول الكريم مرغب فيها مثاب عليها مطلوبة طلباً مطلقاً ومن صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً ولكن هنالك أوقات لا تجوز فيها

هذه الصلاة . وهنالك هيئات لا تجوز عليها ، فلا تجوز الصلاة على الرسول ﷺ في مواضع من الصلوات المفروضة ذات الركوع والسجود ، فلا يجوز ذلك في أثناء القيام ولا في مواضع أخرى منها . وكذلك لو صلى عليه في التشهد جهراً لكان ذلك عملا باطلا . مع أن الصلاة عليه في التشهد مطلوبة وكذلك الجهر بالأدعية الواردة في الصلوات هو غلط ومبتدعات . مع أن أصل ذلك مشروع كله . ولكن وضعه في غير موضعه أو في غير هيئته يصيره من الأعمال المحرمة الممنوعة

وليس لصلاة العيدين أذان ولا إقامة ، فلو أذن وأقيم لها لأن الأذان والاقامة مشروعان بالجملة للصلوات ولأنهما توحيد ودعاء الى العبادة والفلاح والخير لكانا بدعتين محرمتين ، ولكان فاعلهما آثما محسوبا من المبتدعين الملومين ولم ينفعه أن كان أصل الأذان والاقامة مشروعا . ومثل هذا أو أكثر مناسبة للموضوع الجهر بكلمات الاقامة كما يجهر بكلمات الأذان ، فان ذلك يكون ولا ريب عملا باطلا وبدعة مذمومة ، مع أن الاقامة مشروعة ومع أن أصل الجهر بكلمات الاقامة أيضاً مشروع . مع هذا كله لا يكون هذا الجهر جائزاً ولا مستحباً ، ونظائر ذلك مما لا خلاف فيه ومما يوضح الموضوع الذى معنا كثيرة

وبالاجمال فان الشريعة الاسلامية يجب أخذها كما جاءت كاملة تامة بهيئاتها وأوقاتها وأعدادها « وكمها وكيفها » لا ينال ذلك تغيير لازيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تأويل . فان زمان العبادة معتبر كما أن عددها معتبر وهيئتها معتبرة كما أن موضعها معتبر . فلا يجوز تغيير شكلها كما لا يجوز تغيير عددها ، فلا تجوز الزيادة فيها كما لا يجوز النقصان منها ، ولا يجوز الاخفات بما كان يجهر به كما لايجوز الجهر بما كان يخفت به وهكذا . وهذه أشياء لا خلاف فيها بين علماء الاسلام . والنقل في ذلك عنهم متواتر وكذا عن الرسول الكريم وعن صحابته

والشيعة متناقضة لا تسير على هدى ولا على عقل ، فان هذا الشيعى يمتدح

هذه المبتدعات وينافح عنها ويكافح ، ويدعى أنها ليست بدعاً لأن أصلها مشروع وارد بالجملة ، هذا قوله هنا . والشيعة يرون أن صلاة التراويح التى يصليها المسلمون فى كل مكان جماعة يعدونها كذلك بدعة وضلالة . وكذلك يرون الأذان الاول يوم الجمعة بدعة وضلالة ، كما يرون الدعاء فى خطب الجمعات للخلفاء الراشدين بدعة وضلالة وكذلك يرون أشياء كثيرة أطبق عليها المسلمون فى كل مكان قولا وعملا واعتقاداً من المبتدعات

هذه الأشياء : صلاة التراويح والأذان الأول يوم الجمعة والدعاء للخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة مبتدعات مذمومة عند الشيعة . أما صلاة التراويح فقد صلاها رسول الله ﷺ فى أصحابه ليالى ذات عدد ثم تركها ـ أى ترك صلاتها ـ جماعة قائلا « خفت أن تفرض عليكم » وفى خلافة عمر رأى الناس يصلونها فرادى فى المسجد فأشار عليهم بالاجتماع عليها فاجتمعوا فصلوها جماعة ، واتفق الصحابة على ذلك لم يخالف منهم أحد فيما نقل لا علىّ ولا غيره . ثم تتابع المسلمون على صلاتها كذلك جماعة فى المساجد وواظبوا عليها الى اليوم فى سائر البلدان الاسلامية . بيد أن الرافضة أبوها وعدوها بدعة وزيادة فى الاسلام ، وإن كانت الاحاديث الصحاح جاءت مرغبة فى قيام رمضان وإن كان رسول الله ﷺ صلاها بأصحابه مرات ورغب فى ذلك ثم خاف أن تفرض فتركها لا لأن صلاتها جماعة ممنوعة ، بل لخوفه أن تفرض . والأمر الذى كره هذه الصلاة الى الرافضة جماعة هو أن عمر رضى الله عنه هو الذى أشار بالاجتماع عليها بعد رسول الله ﷺ فكان ذلك ، لأن الشيعة يكرهون عمر ويكرهون ما يأتى به عمر من السنن والدين . ولو أن بعض الجهال الفسقة هو الذى أشار بالاجتماع لهذه الصلاة لقالت الشيعة ولقال صاحب هذا الكتاب إن هذه سنة وعمل صالح مستدلا بأن أصلها مشروع مثل ما فعل فى الترحيم والتذكير والقيام عند ذكر ولادة الرسول ﷺ وفى الصلاة على

على النبي الكريم عقب الأذان جهراً

وأما الأذان الأول يوم الجمعة فان الذى أشار به هو الخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه لما أن كثر الناس فى عصره واحتيج الى دعوتهم لصلاة الجمعة واسماعهم النداء واعلامهم حلول وقتها ، وهم كثر لا يعلمون الوقت إلا بالأذان والاعلان فأشار بهذا الأذان وأشار بأن يكون على الزوراء ، فكان ذلك ، ولم ينكره من الصحابة أحد ، وجرى العمل عليه فى خلافة على رضى الله عنه ومن بعده لم يغيروه وبقى الى اليوم معمولا به فى أطراف الأرض ، وهذا من أعظم أنواع الاجماع ، ولكن الرافضة يعدون هذا الأذان بدعة قبيحة مع أن الأذان بالجملة مشروع مذكور فى القرآن الكريم ، ومع أن تثنية الأذان للصلاة الواحدة وارد بالجملة كما فى صلاة الصبح ، ومع أن الصحابة أجمعوا عليه ، ولكن كراهية القوم للخليفة عثمان أرتهم هذا باطلا أو حملتهم على أن يدعوا أنه باطل

وأما الدعاء للخلفاء فوق المنابر يوم الجمعة فقد ورد بالجملة فى الشريعة الدعاء المؤمنين فى الخطب وأتى الحث على الدعاء للمسلمين إطلاقا وإجمالا فى القرآن وفى السنة . وأما الدعاء بالشكل الموجود اليوم فقد روى أنه قد كان فى عهد عمر بن الخطاب ، وروى أنه كان فى عهد خلافة عمر بن عبد العزيز

فالعجب للرافضة أن يعدوا هذا كله من المبتدعات المنكرة المضلة ثم يعدون القيام عند ذكر ميلاد الرسول ﷺ والصلاة عليه جهراً فوق المنارات والترحيم والتذكير والأناشيد الجوفاء بتلك الأصوات النكراء سننا وأعمالا صالحة ! !

ويحك ياهذا ! أمن العدل والحق أن تكون صلاة التراويح جماعة ، والأذان الأول يوم الجمعة ، والدعاء للخلفاء الراشدين بدعا منكرة تذمون أهل السنة والجماعة وتذمون الخلفاء الراشدين لها ولاجماعهم عليها . ثم تروحون تدّعون أن الأغانى والأناشيد المملوءة بالاستغاثات ودعاء الاموات المملوءة بالأخطاء اللغوية

والنحوية والشعرية سنن ممتدحة ؟ أمن العدل والحق أن يكون ما أجمع عليه الصحابة والمسلمون فى كل زمان ومكان إذا ما استثنينا شراذم خارجة ضلالات وبدعا قبيحة ، وأن يكون ما اخترع الجهال والأغمار المتأخرون من الأمور الفاسدة كالرقص والغناء والحداء فوق المنارات أعز مكان وأشرفه أعمالا صالحة ؟ ماهذا لعمر الله بانصاف ولا دين

وأما زعمه أن تخصيص ذلك ببعض الأزمنة والامكنة لفائدة ما مع عدم اعتقاد ورود ذلك التخصيص عن الشارع لايجعله بدعة فزعم باطل منكر . بل إن ذلك يجعله بدعة ذميمة ولا شك على كل الأحوال ، فلو أن إنسانا خص بصلاته على الرسول الكريم مكانا معينا ووقتا معينا لايعدوهما ولا يقصر عنهما لكان بذلك مبتدعاً ضالا فى رأي جميع علماء السنة والحديث ، ولو أنه خص بذكره الله وقتا معلوما ومكانا معلوما لا يعدوهما ولا يقصر دونهما لكان ضالا مبتدعا فى جميع المذاهب الاسلامية ، أو لو أنه خص بصلاته لله وقت طلوع الشمس ووقت غروبها وحين زوالها عند القبور وعند الشيخ فلان أو الضريح المعظم لكان بذلك ضالا مبتدعا وآتيا أمراً نكرا عند جميع الفرق الاسلامية

وقد صحت الاحاديث النبوية من طرق كثيرة مختلفة أن الرسول الكريم نهى عن ذلك أشد النهى . ولم يختلف علماء الحديث فى صحة الاخبار بذلك . ولو أنه خص يوم الجمعة وليلة الجمعة بقيامه وصيامه لكان من الضالين المبتدعين بلا ريب . وقد صحت الروايات النبوية فى النهى عن ذلك . ولو أنه خصص مسجداً من المساجد ذات المشايخ المعظمين لصلاته وصيامه وعبادته وأذكاره وقراءته القرآن لا يتجاوز ذلك المسجد لكان من الضالين المبتدعين باجماع المسلمين الأولين

وقد نهى السلف الصالحون عن ذلك أشد النهى وحذروا فاعليه . أتى ذلك من طرق كثيرة صحيحة معلومة عنهم

ومن ذلك ما رواه الامام أبو يعلى فى مسنده أن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رأى رجلا يجىء الى فرجة كانت عند قبر النبى فيدخل فيها فيدعو فنهاه فقال ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله ﷺ أنه قال (لاتتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً فان تسليمكم يبلغنى أينما كنتم) وروى سعيد بن منصور أن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رأى رجلا عند القبر فناداه وهو فى بيت فاطمة يتعشى ، فقال مالى رأيتك عند القبر فقال سلمت على النبى فقال إذا دخلت المسجد فسلم عليه ثم قال ان رسول الله عليه السلام قال (لاتتخذوا بيتى عيدا ولا بيوتكم مقابر . لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وصلوا علىّ فان صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم . ما أنتم ومن بالأندلس منه إلا سواء

وهذان الخبران من رواية أهل البيت . والشيعة تدعى اتباعهم ونهجها منهجهم وتلقيها الأحكام عنهم . والخبر الأول عن على بن الحسين المعروف بزين العابدين عن الحسين عن على رضى الله عن الجميع . والثلاثة فيما ترى الشيعة من الأئمة المعصومين الذين لا يسهون ولا يغلطون ولا يقولون إلا الحق لا عمداً ولا سهواً فهذه رواية أهل البيت وهذه آراؤهم

وقال الامام الشاطبى فى كتاب الاعتصام : « وقد نهى الأكثر عن اتباع الآثار كما خرج الطحاوى وابن وضاح وغيرهما عن معرور بن سويد الأسدى ، قال : وافيت الموسم مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فلما انصرفنا الى المدينة انصرفت معه فلما صلى لنا صلاة الغداة فقرأ فيها « ألم تر كيف فعل ربك » و « لإيلاف قريش » ثم رأى اناسا يذهبون مذهبا ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ قالوا : يأتون مسجدا هاهنا صلى فيه رسول الله ﷺ فقال : إنما هلك من كان قبلكم بهذا . يتبعون آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعا . من أدركته الصلاة فى شىء من هذه المساجد التى صلى فيها رسول الله ﷺ فليصل فيها وإلا فلا يتعمدها

وقال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس مفتى أهل طرسوس يقول أمر عمر ابن الخطاب بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى عليه السلام فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة . قال ابن وضاح : وكان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون اتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبى ﷺ ماعدا قباء وحده . وقال : وسمعتهم يذكرون أن سفيان دخل مسجد بيت المقدس فصلى فيه ولم يتبع تلك الآثار ولا الصلاة فيها . وكذلك فعل غيره أيضا ممن يقتدي به وقدم وكيع أيضا مسجد بيت المقدس فلم يعدُ فعل سفيان . قال ابن وضاح فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين ، فقد قال بعض من مضى كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكرا عند من مضى . وقد كان مالك يكره كل بدعة وإن كانت فى خير وجميع هذا ذريعة لئلا يتخذ سنة ما ليس سنة أو يعد مشروعا ما ليس معروفا

وقد كان مالك يكره المجىء إلى بيت المقدس خيفة أن يتخذ ذلك سنة . وكان يكره مجىء قبور الشهداء ويكره مجىء قباء خوفا من ذلك مع ما جاء فى الآثار من الترغيب فيه ولكن لما خاف العلماء عاقبة ذلك تركوه . وقال ابن كنانة وأشهب سمعنا مالكا يقول : لما أتاه [1] سعد بن أبى وقاص قال : وددت أن رجلى تكسرت وأنى لم أفعل . وسئل ابن كنانة عن الآثار التى تركوا بالمدينة فقال : أثبت ما فى ذلك عندنا قباء الا أن مالكا كان يكره مجيئها خوف أن يتخذ سنة » اهـ كلام الشاطبى

فهذه أقوال الرسول ﷺ وهذه أقوال أصحابه وأهل بيته وعلماء السلف أهل البصر بالدين و بأسرار الدين . فعلى من تعتمد الشيعة والى أين تذهب وعمن تأخذ وبمن تقتدى ؟

---

(١) كذا وجد فى الاعتصام

الامر العاشر

قال الرافضى : « الأفعال تختلف أحكامها باختلاف القصد بها وباختلاف الأزمان والأمكنة والاحوال والاشخاص . فضرب اليتيم مثلا محرم بقصد الايذاء راجح بقصد التأديب . وغيبة المسلم محرمة بقصد الانتقاص واجبة بقصد نهيه عن المنكر [1] والسجود عند قبر النبى مستحب بقصد شكر الله أن وفقه لزيارته . محرم بقصد السجود لغير الله . وكذلك مثلا لبس الثوب الازرق اذا عد زينة فى بعض الازمان والامكنة حرام على الزوجة فى أيام الحداد مستحب اذا أرادت التزين لزوجها ، وكذلك لباس الشهرة ولباس النساء المحرم على الرجال ، ولباس الرجال المحرم على النساء يختلف باختلاف الأزمان والاماكن والأشخاص . وكدفن المؤمن العظيم بجوار المزبلة فانه حرام لانه يعد إهانة له بخلاف دفن الزبال أو من صناعته نزح الكنيف وكذلك انزال الضيف الشريف فى مرابط الدواب معدود اهانة ، وليس كذلك المكارى . وقد يكون ترك القيام للمرء فى زمان أو بلاد معدوداً إهانة فيحرم ، وفى زمان آخر فى بلاد أخرى لا يعد كذلك فلا يحرم وملبوس الزهد ومأكوله يختلف باختلاف الازمان والأحوال والاماكن وكذلك هدم قبور الانبياء والاولياء وقبابهم ومشاهدهم . فهب أنه منهى عن ذلك نهى كراهة أو تحريم الا أن الهدم فى هذا الزمان صار يعد اهانة لهم فيتعارض واجب وهو الهدم ومحرم وهو الاهانة ، فيقدم الاهم . ولا شك أن مراعاة عدم اهانة النبى أو الولى أولى من كل شيء » انتهى كلام الرافضى

قلت : هذا الكلام وان عده قائله من أعلى أنواع الفلسفة وأصدقها أو عده

---

(١) الغيبة هي ذكر المرء بما يكرهه غائباً فكيف يتأتى نهيه عن المنكر بذمه غائباً ؟ ! هذا ما لا يكون

بعض من لم يحط به علماً حقاً وصواباً ـ حاو لانواع كثيرة من أنواع الخلط وارتجاج المنطق وركاكة التصور وضآلة البصر بالدين وضعف التأليف ولو أريد بيانه كله لاحتمل وحده كتاباً مستقلا . ونحن ندل على بعض ما فيه دلالة سريعة عجلى ، وذلك بأمور :

(أولا)

الصحيح أن يقال ان أحكام القصد بالأفعال تختلف تبعاً لاختلاف القصد بها ، لا أن يقال ان الأفعال تختلف أحكامها باختلاف القصد بها كما ذكر هـذا . فان الفعلين المتساويين كما هو المفروض هنا لا يمكن أن يختلفا حكما وهما متساويان شكلا ودلالة إذا ما اختلف القصد بهما ، فيكون أحدهما حلالا والآخر حراماً ، أو يكون أحدهما واجباً والآخر جائزاً . وهكذا . ولكن الذى يختلف فى ذلك هو حكم القصد لهذه الأفعال وما ينوى بها . فان نوي بها شر كانت هذه النية شراً محرماً وإن نوى بها خير كانت خيراً حلالا مثابا عليها . فرجلان ضربا يتيما كما ذكر هذا الرجل انتفع هـذا اليتيم بالضرب أو ضر ، وكان أحد الضاربين ينوى فى نفسه العدوان والايذاء وكان الآخر ينوى التأديب والاصلاح ، فانه لا يقال هنا ان حكم هذين الضربين اختلف لاختـلاف القصد فى نفس الضاربين ، فكان أحد الفعلين حراماً وكان نظيره حلالا مستحباً أو واجباً ، ولكن يقال ان القصد بالفعلين اختلف فكان قصد خير وكان قصد شر . أو فكان أحد القصدين خيراً مثابا عليه وكان الثانى شراً معاقباً عليه ، فالقصدان هما اللذان اختلفا ، لا الفعلان ، ولا حكم الفعلين . ويوضح ذلك جيداً أن يعمل انسان طاعة من الطاعات المشروعة ، فيصلي مثلا أو يصوم أو يحج أو يزكى أو يعمـل عملا آخر من أعمال البر : يصلى مرة ، والحامل له على الصلاة غير الله كأن يرائى الناس ، أو يصلى طمعاً فى شهوة دنيوية

يريد قضاءها بصلاته ، ويصلى مرة أخرى ، ويريد بصلاته وجه الله وحده والدار الآخرة ، فالقصدان هنا مختلفان والفعلان متفقان صورة وشكلا فلا يقال فى مثل هذا يقيناً ان حكم الصلاتين اختلف تبعاً لاختلاف القصدين ، بأن تكون إحدى الصلاتين حلالا والآخرى حراماً . ولكن الذى يقال هنا ان الذى اختلف هو القصد بالصلاتين فاختلف الجزاء على ذلك تبعاً لاختلاف القصد والنية ، لأن الأعمال بالنيات والمقاصد ، وبيان ذلك توضيحاً أن الأفعال إما أن تكون فى الأصل أفعال طاعة وخير كذكر الله ودعائه وكقصد المساجد وكالعطف على المنكوبين والبائسين وإما أن تكون أفعال معصية وشر كجحد الله وكالقدح فى الأديان والأنبياء ، وكالخضوع لغير الله من الأموات ، وكقهر الأيتام ونهر السائلين والمحتاجين ، وإما أن تكون دائرة بين هذه وهذه وإما ألا تكون لا هذه ولا هذه

فالقسم الأول من الأفعال إذا ما جاء على وجهه المشروع لايمكن أن يكون معصية حراماً وإن كانت نية فاعلة ما كانت ، ولكن قصد الفاعل هو الذي قد يكون إثماً وبغياً محرماً ، وقد يكون طاعة وبراً وخيراً ، فالقصد بهذه الأفعال هو الذى يختلف فيكون حيناً حراماً وإثماً ، وحيناً آخر براً حلالا . أما الأفعال الظاهرة نفسها من هذا القسم فلن تكون حراماً ، فمن ذكر الله ودعاه وأحسن الى الفقير واليتيم والمنكوب ، وكان فى ذلك غير تقى القصد والنية لم تكن هذه الأفعال ذكر الله ودعاؤه والاحسان الى المحتاجين حراماً وجريمة ، بل ذلك طاعة ولاريب ولكن قصد بها معنى آخر

وأما القسم الآخر من الأفعال وهى أفعال المعصية والشر كالقدح فى الأديان والأنبياء وكالزنا والسرقة ونهر السائل وقهر اليتيم ونظائر ذلك ، فليس يمكن أن يكون طاعة ، ولا يمكن أن يكون حلالا مثاباً عليه . لكن لو فرض أنه رخص فى شيء من ذلك فى حالة من الحالات لغرض من الأغراض فى زمن من الأزمان لم

يكن ذلك الترخيص لأنه طاعة أو لأنه صار غير معصية . بل حكمه هو لم يختلف وإنما عارض حرمته معنى آخر ، كأن يكون وسيلة الى قهر معصية أكبر منه أو جلب طاعة نفعها أكبر من ضرره هو ، فيؤتى أخف الضررين ، كما يقولون لنيل كبرى الفائدتين ، فيؤتى الحرام ليقهر ما هو أحرم منه أو لتكتسب فائدة نفعها أعظم من ضرر ذلك الحرام المقترض ، ويكون ذلك كجائع خاف هلاك نفسه فوجد ميتة فأكل منها ليحتفظ برمقه . فالميتة ميتة لم تتغير ، وحكم الميتة هو لم يختلف لأنها حرمت للضرر الذي فيها . وضررها لايذهب أن وقعت فى يد جائع يخشى على نفسه الملكة . ولكن هذا الضرر يحتمل لدفع ضرر أكبر منه ، وكذلك يقال فى سائر الضرورات وما يباح عند الضرورات فيه المعنيان معاً المقتضى والمانع كما يقولون . ولكن يُقدم على الأخف الأسهل . وليس فى هذا أن شيئا من الأشياء خرج عن حقيقته ، من حسن الى قبيح أو من قبيح الى حسن

وأما القسم الدائر بين أفعال الطاعات والخير وأفعال المعصية والشر كمثل السفر مثلا . فقد يكون سفراً يراد به طاعة وخير ، وقد يكون سفراً يراد به معصية وشر على حسب ما فى نفس المسافر ، فهذا القسم فى الواقع ليس طاعة فى نفسه ولا معصية . فلا يستحق صاحبه لذاته ثوابا ولا عقابا ولا قدحا ولامدحا ، ولكن القصد فيه هو الذى يكون تارة هذا وتارة هذا ، فتارة يكون شراً فيكون القصد نفسه هو الحرام والمعصية ، وتارة يكون خيراً فيكون القصد نفسه هو الطاعة . أما السفر نفسه فانه لم يوضع لا لهذا ولا لهذا فلا يكون بظاهره لاهذا ولا هذا

وأما القسم الرابع فكالكلام المباح العادي وكالحركات العادية ونظائر ذلك فهذا أيضاً لا يقال له طاعة ولا معصية ، ولكن قد يكون فى نية فاعله شىء من ذلك

وإذن لايصح قوله « ان الأفعال تختلف أحكامها لاختلاف القصد بها » وإنما الصحيح أن يقال ان القصد بالأفعال يختلف كثيراً ، ولو أنه صح قوله لكانت صلاة

من أراد بها غير الله حراماً معصية يطالب بتركها ويطالب بالتخلي عنها ، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون ، فالصلاة طاعة مطلوبة من الناس وإن قصدوا بها غير الله كانوا معاقبين على القصد لا على الصلاة نفسها ، وكذلك من تصدق بماله في وجوه الخير والبر والاحسان وكان يقصد بعمله وصدقاته الفخر والمديح من الناس لاجزاء الله سبحانه وحده ، لا يقال ان عمل مثل هـذا إثم وحرام ومؤاخذ عليه ، لأنه لو كان كذلك لكان مطالبًا بتركه وهجرانه ، ولن يطالب محسن بترك احسانه لأن نيته مدخولة ، بل أعمال البر والخير تقبل من فاعلها وحساب ضميره الى الله وحده والله لن يقول له لماذا أنفقت مالك على المحتاجين والمعوزين ، ولا لماذا حنوت على الأيتام والأطفال ؟ وانما يقول له لماذا لم تقصد وجهى بذلك الانفاق وأنا الذى موّلك وأعطاك وأغناك ويسر لك سبل جمع الأموال ثم يسر لك سبل انفاقها والجود بها ألستُ أحق بأن ترعى رضاي وارادتى بأعمالك وبانفاق مالك ؟ وإذا ما جاء فى الكلام خلاف ذلك ، فهو متوسع فيه بضرب من ضروب المجاز والتأويل السائغ فى الكلام الذى لا يعنى به التحقيق العلمى

(ثانيا)

قوله : « ان السجود عند القبر النبوى مستحب راجح بقصد شكر الله على أن وفقه لزيارته » قول قائم على أمرين : أحدهما أن من زار قبر الرسول ﷺ يستحب له أن يسجد لله شكراً على تلك الزيارة وذلك التوفيق . وثانيهما أنه جائز بلا كراهة ولا تحريم السجود عند القبر النبوى وعند القبور على وجه العموم . والمقدمتان كلاهما باطلة كاذبة وكلاهما خلاف سنة المسلمين العملية التى لا تختلف ولا يتنازع فيها اثنان من العلماء الذين لهم لسان صدق فى العالمين وإمامة فى المسلمين . أما الأمر الأول وهو استحباب سجود الشكر لدى زيارة القبر الشريف فلا ريب

أن ذلك عمل غير صالح وعمل غير مشروع . فلم يأت فيه خبر صحيح ولا ضعيف لا عن رسول الله ﷺ ولا عن صحابته ولا عن أحد من أهل البيت وأئمة البيت ولا عن أحد من علماء الحديث وعلماء الفقه كالأئمة الاربعة ، ولا عن أحد ممن يشابه هؤلاء دينا وعلماً . بل لقد كان الناس يزورون الرسول الكريم نفسه ويرون ذاته الكريمة ووجهه الكريم ويسمعون كلامه ويتمتعون بلقائه ، ولم يأت عن أحد منهم أنه سجد عند لقائه شكراً لله على رؤياه ولقياه ، ولقد كان أصحابه الكبار يفارقونه عليه الصلاة والسلام في الغزوات وفي الاسفار المطوحة وفي المهاجرة ثم يلاقونه بعد الفراق وبعد اصطلائهم بنيران الاشواق فلا يسجد أحد من هؤلاء الصحابة لله شكراً على أن ظفر بلقاء أحب الناس اليه وظفر بزيارته . انه لم يأت عن أحد من هؤلاء أنه فعل ذلك أو همّ به أو تحدث عنه ولا جاء عنه عليه السلام أنه أمر بذلك أو أشار به أو ذكر له فضلا وقربة أو أباحه ، لا خلاف أنه لم يكن شيء من ذلك فممن إذاً يجوز هذا العمل ، وبأي دليل يعلم انه يشرع لمن زار القبر النبوى أن يسجد شكراً لله ، بل وأين البرهان على أن زيارة القبر الشريف عمل عظيم يستحق أن يسجد لله شكراً لاجله ، انه لم يأت حديث واحد صحيح يدل على أن في ذلك فضلا وثوابا ، وأجراً كبيراً . وما جاء من الأحاديث في ذلك كلها غير صحيح ، كما سوف يجيء بحث ذلك في الباب الخاص به . ولا عرف أن أحداً من صحابة الرسول أو أن أحداً من شيوخ السنة والحديث والفقه كان يحرص على ذلك ويتطلب أجره وثوابه ، بل لقد جاء نهيهم عن ذلك من طرق مختلفة كما مر عن علي بن الحسين ، وعن الحسن بن الحسن وعن غيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد صح عن الامام مالك امام دار الهجرة ومدينة الرسول ووكر الأنصار والمهاجرين أنه كره أن يقال زرنا قبر النبي . وقد روى هذا عنه القاضي « عياض » في الشفاء وغيره ، وذلك لأنه لم يعرف في ذلك

نقلا ولم يجده من سنة المسلمين التى وجد عليها أهل المدينة . كيف ذلك والسفر الى الرسول الكريم لما أن كان حيّا لم يكن مطلوبا لذاته ومرغوبا فيه نفسه ، وانما كان السفر اليه مطلوبا وواجبا حينما كان الناس يهربون بدينهم وعقائدهم وأنفسهم اليه والى المدينة عاصمة الاسلام ، وحينما كانوا يذهبون اليه ليتلقوا عنه الاسلام وتعاليمه ، أما بعد ذلك فلم يكن السفر اليه مطلوبا ولا مرغوبا فيه ، والحجة على ذلك أنه عليه السلام كان يقول للناس بعد انتشار الاسلام وعلو سلطانه (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) . وكان يأبى مبايعة الناس على الهجرة بعد الفتح ولكن يبايعهم على الاسلام والايمان والجهاد والنية ، وذلك لأن السفر الى ذاته الشريفة لم يكن مطلوبا لذاته كما قلنا . بل يطلب ذلك لدى الفائدة كالرغبة فى التعليم منه والجهاد معه ومناصرته والفرار بالدين اليه فى دار منعته وعزه ودار جيوشه وجنود الله الأنصار . أما بعد ذلك فلا فائدة فى الذهاب اليه بهذه الدلائل

أتراه لا يرغب فى السفر اليه حينما كان حيّاً ويرغب فيه بعد انتقاله الى الله والى الرفيق الأعلى ؟ هذا مالا يكون ، كيف والزائر اما أن يكون من أهل المدينة أو يكون من أهل الأقطار والبلدان الأخرى النائية فان كان من أهل المدينة نفسها فذهب الى القبر الشريف وزاره وطاف به ، فأى فضل حازه بهذه الزيارة ، وأية منقبة نالها يسجد لله شكراً لأجلها ؟ لا أظن أحداً يستطيع أن يثبت أن فى ذلك أي فى الوصول الى القبر الشريف فضيلة أو ثواباً . وأما الثواب الذى يكون بالصلاة والسلام عليه فانه يحصل للقريب من قبره والبعيد عنه ولا فرق . وقد جاء فى الحديث أنه عليه السلام قال : « إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » وتقدم حديث على بن الحسين الذى فيه (وصلوا عليّ فان صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم) وتقدم قول الحسن بن الحسن (ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء) وروى البيهقى وابن أبى شيبة أنه عليه السلام قال « من صلى عليّ عند قبرى سمعته

ومن صلى على نائياً بلغته) فالأشياء المشروعة كالصلاة والسلام على الرسول الكريم لافرق فيها بين القرب والنأى فانها حاصلة فى الحالتين . وأما مشاهدة القبر الشريف نفسه ومشاهدة الأحجار نفسها فلا فضل فيها ولا ثواب بلا خلاف بين علماء الاسلام . بل ان مشاهدته عليه الصلاة والسلام حينما كان حياً لا فضل لها بذاتها ، وانما الفضل فى الايمان به والتعلم منه والاقتداء به والنهج منهجه ومناصرته . وبالاجمال ان أحداً من الناس لن يستطيع أن يثبت لزيارة القبر الشريف فضلا ما وهذا واضح من سيرة المسلمين الأولين ، فانهم ما كانوا يتهافتون على الزيارة كما كانوا يتهافتون على الطاعات واتباع الرسول الكريم والسير على آثاره والنهج منهاجه فى أعمال البر والخير . بل الذى جاء عنهم النهى عن الحرص على زيارة القبر الشريف كما سبق فى حديث على بن الحسين وحديث الحسن بن الحسن . ولا يصلح آخر هذه الامة إلا ما أصلح أولها كما قال الامام مالك

هذا اذا فرضنا الزائر من أهل المدينة المنورة

وأما ان كان من أهل الاقطار الأخرى النائية فهذا لا تشرع له الزيارة التى تكون بسفر مقصود كما سوف يجىء فى الموضع الخاص به من الكتاب . فمشاهدة القبر المطهر لا فضل فيها على الحالين والافتراضين

وأما المقدمة الثانية وهى السجود عند القبر فنقول : ان ذلك لا يجوز ولا يشرع مطلقاً بل هذا من أعظم الذرائع والوسائل الى عبادة الرسول الكريم والغلو فيه وفى الأموات . وما فعل هذا أحد من علماء الاسلام الحق أو رضيه أو دعا اليه أو أباحه ، وقد جاءت الاحاديث الصحاح ناهية عن ذلك أشد النهى بأساليب مختلفة وطرق مختلفة وعبارات مختلفة فجاء فى الصحيح (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وجاء فيه أيضاً (ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن

ذلك) وفى صحيح مسلم عن أبى مرثد الغنوى أن النبى عليه السلام قال « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها » ، وروى الامام أحمد وغيره أنه عليه السلام قال « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » وقال « لا تجعلوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا علىّ فان صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » رواه أبو داود ، وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه الامام مالك فى الموطأ

والأحاديث فى هذا الباب بالغة مبلغ التواتر المعنوى وستأتى فى الباب الخاص بها ان شاء الله

وقد تقدم أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن اتباع آثار الرسول الكريم خوف الفتنة والغلو . وتقدم أنه لما رأى الناس يذهبون الى المسجد الذى صلى فيه الرسول عليه السلام ليصلوا فيه أنكر ذلك ونهى عنه . وقال ان مثل هذا هو الذى أهلك الامم السابقة . وأنه أمر بقطع الشجرة التى بويع تحتها الرسول ﷺ لما رأى أناساً يقصدون الصلاة عندها

وتقدم أن على بن الحسين زين العابدين وأن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أنكرا على الرجل الذى كان يدعو عند القبر ونهياه وأخبراه أن الرسول ﷺ نهى عن ذلك ومنعه

فاذا ما كان الصحابة ، الخلفاء وآل البيت ، وكان الأئمة كمالك وغيره ينهون عن الدعاء وقصد الدعاء عند القبر الشريف . فكيف تكون حال الصلاة عند القبر بل كيف تكون حال السجود الذي يسميه هذا الرجل سجود شكر لله ؟ ان الفرق بين الأمرين عظيم جداً . وليس من ريب أن السجود مفرداً فى هذا المقام أشد خطراً على العقيدة وأكثر ابهاماً من الصلاة التامة ذات الركوع والسجود والقيام

والقعود فان السجود المفرد عند القبر يشعر إشعاراً قويا يكاد يكون صريحاً أن السجود لصاحب القبر . وبعيد جداً أن يفهم أحد أن ذلك السجود سجود شكر لله على أن وفق للزيارة

وروى الامام أحمد وابن ماجه أن رجلا قال الرسول ﷺ إنى نذرت لله نذراً فى مكان كذا فقال الرسول له : أ كان بهذا المكان الذى نذرت لله فيه وثن أو طاغية ؟ فقال الرجل لا . فقال له الرسول (أوف بنذرك) . ومعنى هذا أنه لو كان فى ذلك المكان الذي نذر أن يذبح لله فيه وثن أو طاغية كان يعبده أهل الجاهلية لما جاز أن يذبح لله فيه ولا أن يعبد الله فيه ، وإن كان العابد والذابح لا يقصد شيئا مما كان يقصده أهل الجاهلية . وإن كان لا يقصد إلا وجه الله . ولا ريب أن مثل الذبح الصلاة والركوع والسجود ونظائر ذلك . ولماذا هذا ؟؟؟ لاريب أن ذلك نأى عن مواقع الشبهات ووسائل الضلالة ، ومشابهة المشركين الناذرين لغير الله الذابحين للأصنام والأوثان . واذا كان ذلك كذلك فلا ريب أن السجود عند القبر الشريف فيه هذا المحذور بشكل أعظم وأكبر ، لأن الرسول الكريم ﷺ يخشى من الغلو فيه ومن عبادته أكثر مما يخشى ذلك فى غيره لما له من المقام العظيم فى نفوس المؤمنين ، ولما له من المكانة العظيمة عند الله ، ومن كان بهذه المنزلة كان ولا شك الغلو فيه ذريعة الى إعطائه أكثر من حقه . وقد عبدت الأنبياء وعبد الصالحون ، وعبد النصارى عيسى وعبدت الشيعة عليًا كما تقدم ، وعبد قوم نوح عليه السلام وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً — كما فى القرآن — وهم رجال صالحون كما روى ذلك البخارى عن عبد الله بن عباس ، وغيره عن غيره . ولقد جاء فى الشرع أبلغ من هذا كله فى مجانبة مواطن الفتن وإفساد العقيدة ومحاكاة المشركين والكافرين ، وصحت الأحاديث من طرق كثيرة فى كتب الصحاح أن الرسول الكريم نهى عن الصلاة لله وقت طلوع الشمس ووقت غروبها

ووقت زوالها ، وذلك خوف أن يثب الى الأذهان أن الصلاة فى هـذه الأوقات للشمس لا لله ، لأن المشركين كانوا أو كان طوائف منهم يسجدون للشمس فى هذه الأوقات : وقت طلوعها تحية لها وسروراً بها ، ووقت غروبها توديعاً لها وتودداً اليها لتعود طالعة . وهكذا دواليك ، وليس من ريب عند المسلمين أن خوف الفتنة فى الرسول الكريم وفى الصالحين والأشياخ المعظمين أعظم وأظهر منه فى الشمس والقمر وسائر الأفلاك . فان غلوهم فى الرسول وفى الأوليـاء مخوف ، بل وواقع اكثر منه فى الشمس ، بل لا مناسبة بين الأمرين مطلقاً . والذى وقع وحق أنهم غلوا فى الرسول وفى الأولياء ، ولكنهم لم يغلوا فى الشمس ولا فى غيرها من الأجرام العلوية . ولا ريب أنه يجب أن يعطى الشىء من التقدير بقـدر ما له من التأثير ، وإلا كان الحكم جوراً لا عدلا والعدل مطلوب فى جميع الحالات وفى كل الأشياء . وقد جاء عن السلف من المبالغة فى هـذا الشىء الكثير ، حتى أنهم تركوا بعض السنن خوفا أن تكون وسيلة وذريعـة الى باطل ، وهو أن يظن الجهال أن هذه السنن واجبات وفرائض . فكيف اذا كان الشىء يخشى أن يكون ذريعة الى عبـادة المخلوق وإعطائه حق الله ؟ ! ان الفرق واسع بين . وقد سلف ما نقلناه فى ذلك من كتاب الشاطبى الاعتصام عن السلف الصالحين . فانظر أيدك الله فهم القوم روح الدين وتخوفهم من الباطل وفرارهم من الخطأ غايات ووسائل

ولو ذهبنا نعدد الدلائل على أن السجود عند القبر الشريف من أكبر الضلال وأعظم مكايد الشيطان لطال بنا القول ولخرج بنا من المقصود . ولكن هذا الرجل لو طلب منه دليل واحد على جواز السجود عنـد القبر النبوى سواء أكان هـذا السجود جائزاً أم ممنوعاً لما استطاع اليه سبيلا ، بل ولما وجد عالماً من علماء الاسلام المشهورين يوافقه عليه . وقول هذا حاله لا يعبأ به ، ويا ويح طائفة الشيعة ! ! ! كم لقى الاسلام والمسلمون من مبتـدعاتهم واختراعاتهم وغلوهم فى عباد الله وانتقاصهم

حق الله . فأوّلوهم عبدوا علياً وألهوه ، ثم ظلوا يشيدون المشاهد ويزخرفون القبور ويعظمونها شتى التعظيم بالأقوال وبالأعمال وبكل ما استطاعوا ، وما اقتصروا على ذلك ، بل غلوا وغلوا حتى ادعوا العصمة فى أئمتهم ، وادعوا أنهم لا يخطئون ولا يقولون إلا الحق لا عمداً ولا سهواً ، وحتى ادعوا أن من لم يدع فيهم العصمة ومن لم يقدمهم على كل الناس فليس له إيمان ولا إسلام ، وها هم بقاياهم يدعون الى الاستغاثة بالأموات وطلبهم ما لا يقدر عليه إلا الله ، ويدعون الى السجود عند القبور وفوقها مضللين على الناس مرادهم ، مدعين بأن ذلك سجود شكر لله أو مدعين أن فى ذلك مجازاً أو تأويلا . هذه وثنية ولكنها وثنية مخادعة مغررة غير صريحة ولا صادقة . بل هى وثنية منافقة مضللة . والله بقصدهم محيط . فالسجود لأجل الوصول الى القبر كما يدعون ، ثم هو عند القبر وقبالته . فما بقى بعد هذا ؟؟؟ انهم يحشدون فى الكلام « شكراً لله » دريئة وتقية لا أقل ولا أكثر

(ثالثا)

قوله « وقد يكون ترك القيام للمرء في زمان ومكان إهانة فيحرم وقد لا يكون إهانة فى بلاد أخرى وزمان آخر فلا يحرم »

لا يدرى ما معنى هذا ولا ما موضعه إن كان يريد أن الشرع جاء مفصلا هذا التفصيل ، أي قائلا اذا كان ترك القيام للمرء إهانة فواجب عليكم أن تقوموا وإلا أثمتم لأن إهانة الناس جريمة . وإذا كان ترك القيام لا يعد إهانة فليس واجبا عليكم القيام ، بل جائز أو مندوب أو مكروه أو حرام ، إن كان يريد أن الشرع جاء بهذا التفصيل فهذا القول غلط فاضح واضح لا دليل عليه سوى الدعوى والتحكم . وأما إن كان يريد أن الشرع جاء بتحريم القيام تعظيما للناس ، ولكن مع هذا إذا ما كان أناس فى زمن من الأزمان يعدون ترك القيام لهم إهانة وجب

القيام للناس ، ولذلك الانسان الذي يعد ترك القيام اهانة له تخصيصا لما جاء في الشرع وتغييراً لما حكم به تبعاً لاختلاف العادات والأزمان والبلاد والأحوال والأشخاص ، فهو أيضاً غلط واضح ، فان شرع الله لا يغير ولا يخالف بمثل هذا ولو فتح هذا الباب لفسد الدين جملة . فقد يرى المتكبرون أن من الاهانة لهم أن يدعوا خدمهم ومن تحت سلطانهم فلا يلبوا نداءهم ولا يبادروا الى المثول بين أيديهم ، حتى ولو كانوا وقوفاً بين يدى رب العالمين ، يؤدون الواجبات الدينية فهل يقال انه واجب على الخدم فى هذه الحالة وهذا الموقف أن يخرجوا من صلاتهم ويقطعوا عباداتهم ليقوموا برغبات أولئك المخدومين المتكبرين لئلا تلحقهم إهانة أو يستشعروا أن خدمهم أهانوهم ؟؟؟ الذى يقضى به كلام هذا الرجل إذا كان مراده ما ذكرنا أن يكون جوابه على هذا السؤال « نعم » ، وقد يرى كثيرون من البغاة الطغاة أن من الاهانة الكبرى لهم أن يسمع الجالس لهم النداء الى الصلاة فيقوم ويتركهم ليؤدى صلاته وليقوم بواجبه الدينى فهل يحرم القيام للصلاة فى هذه الحالة لئلا يشعر هؤلاء بالاهانة ؟ ؟ وقد يرى كثيرون من المتسمين بالعلم والمعرفة أن مطالبتهم بالدليل على ما يقولون اهانة لهم ، وأن معارضتهم بالدلائل إهانة أيضاً ، فهل يتقبل قولهم على علاته وتقتفى آثارهم ويترك جدالهم بالبرهان لئلا تلحقهم إهانة ؟ وكثيرون يرون أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر إهانة لهم . فهل يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خوف إهانة الناس ؟ هذا ما لا يكون

وأما إن كان يريد أن الشرع جاء مبيحاً القيام للناس إباحة مطلقة فى كل الحالات . ولكن قد يجب ذلك لمن يعدون تركه إهانة لهم وجرحاً فى عزتهم او كبريائهم فهو أيضاً غلط فاضح واضح ، ولا يوجد مثل هذا التفصيل فى دين الاسلام المسوى بين الناس ، الموعد المتكبرين ذوى الغطرسة والعنجهية بالعذاب الأليم الأشد . ومحال أن يقال ان القيام مباح فى الاسلام لكل الناس ، وجائز

لكل قادم . ولكنه واجب لمن يعدون تركه اهانة لهم ، فان فى هذا الاعتراف بالتفرقة بين الناس ، وجعلهم طبقات أشرافا وأطرافا وصغاراً وكباراً . وفي هذا الدعاية للكبرياء والتعاظم . وأى نفس لا تحب من الناس تعظيمها واكبارها بالقيام وبغير القيام وبكل ما يشعر بالاحترام والتعظيم وهذا هو الفوضى بعينها

إذن انه لا معنى لقوله هنا . وقد قدمنا فى الأمر الذي قبل هذا أن أصحاب رسول الله عليه السلام ما كانوا يقومون له لما يعلمون من كراهيته القيام ، وتقدم أنه نهاهم عنه وقال : ان ذلك فعل فارس والروم ، فلاتفعلوا

(رابعا)

أما قوله « فهب أنه كان منهياً عن البناء على القبور ورفع القباب فوقها ولكن لا يجوز هدم ذلك لأن هدمه صار يعد إهانة الى آخره » فقول يدعو للاسف والرثاء . فانه يقال لقائله : إما أن تريد أن ذلك أصبح يعد إهانة عند من يعتقد أن الاسلام نهى عنه ، ومن يعتقد أن الانبياء والعلماء نهوا عنه ؟ واما أن تريد أنه إهانة عند من لم يعلم النهى عنه ، أو تريد أنه اهانة عند الفريقين ؟ أما الاول فليس بصحيح ، وكذا الثانى . فان الذين يعرفون أن الاسلام نهى عن هذا البناء وأمر بهدمه لا يمكن أن يعدوا القيام بالشرع والعمل بما جاء عن الرسول الكريم اهانة لا للرسول الكريم ولا للاولياء المتقين الذين لا يتعشقون مثل أن يروا الشرع قائماً معمولا به . هذا محال . بل إنهم يعلمون أن ترك الشرع وإهمال العمل بأقوال الشارع وأقوال العلماء الأعلام هو الاهانة الكبرى البينة ، وهذا لا ينازع فيه من يعرف مايقال ، ونحن لانستطيع ولا عاقل والله يستطيع أن يدعى أن انفاذ قول الرسول فى هدم القباب يعد اهانة للرسول ! نعوذ بالله ! ! هذا من أعظم القدح فى الرسول وفى العلماء وفى المسلمين عموما

وأما إن أراد ان ذلك معدود اهانة عند من لم يعرف الشرع ولا حكم الله في هذه المسألة . فالجاهل يُعلم ويعرّف ، ولا يجارى على جهله وضلاله . فان في هذا الاعتراف عملياً بالجهالات والضلالات ، والاسلام إنما جاء بالتعليم تعليم الجاهلين ، لا الاعتراف لهم بالحالة الراهنة الجاهلة ، وإلا لما كان هنالك حاجة الى الرسالة والرسل والكتب

وقد كان الاسلام بجملته معدوداً عند الجاهلين اهانة للاولياء والاصنام وللآباء والأجداد والاشياخ . والنصارى يعدون ما جاء به الاسلام من التوحيد وتقديس الله اهانة لعيسى وأمه وللاحبار والرهبان والقسيسين والآلهة الآخرين ، وما ترك الاسلام ولا الرسول الكريم الشرائع والتعاليم مجاراة للجاهلين واعترافا بالجهالات والضلالات مخافة أن يهينوا أحداً أو يؤذوا أحداً هذا محال وواضح في وقت واحد . فما قاله هذا الرجل بعيد جداً عن المعرفة بعيد عن المنطق الصحيح السليم بعيد عما يجب أن يكتب ويذاع، وأيضاً لاريب أن كل طائفة منحرفة تغلو في أشياخها ومن تعتقد لهم الكرامة والتبريز غلواً ترى من الاهانة معه لهم أن يحملوا على الشرع وأن يؤخذوا به وبآدابه . فالرافضة ترى أن من الاهانة الكبرى لعلي وبقية أئمتهم المعصومين أن يقال انهم غير معصومين أو أن يقال انهم يخطئون ويصيبون كبقية الناس ، وترى أيضاً أن من الاهانة تقديم أبي بكر وعمر وعثمان على عليّ وذريته فهل تجارى الرافضة على هذا الاثم والعدوان أم تُعلم وتدل على الطريق القويم ؟ الجواب معروف واضح

وكذلك الجهال الذين يغلون في مشايخهم ويرونهم لا يخطئون ولا يغلطون ولا يجادَلون ولا يعترض عليهم ، ولو فسقوا وكفروا وجهلوا وخرجوا على الحشمة والأدب ، ولو تركوا الصلوات وفرائض الاسلام . فهل يجارى هؤلاء على هذا الجهل أم يعرّفون ويعلمون ويردعون ؟ ان الجواب واضح معلوم

بل أن كثيرين من الغلاة الجهال يرون من الاهانة العظمى للرسول الكريم القول بأنه لايعلم الغيب ولا يقدر على اجابة طلبات الطالبين . فهل يجارى هؤلاء الجهال ويتركون وجهلهم أم ينهون ويعلمون ؟ الجواب واضح معلوم

على أننا نعارض هذا القول ونقول إننا نعرف بالضرورة أن من أعظم الاهانة للرسول أن ندع قوله والعمل به بعدا عن وهم اهانته وخوفا من الاساءة المزعومة فان فى هذا الاعتراف ضمنا بأنه عليه السلام يكره العمل بما جاء به فى هذه المسألة وأنه يحب أن يغلى فيه أكثر من المشروع والمطلوب الذي أتى به عن الله . ومن ظن فيه هذا الظن فقد قدح فيه أشنع القدح . بل اننا نعرف بالضرورة أن فى ترك العمل بما قاله اهانة له مقصودة أو غير مقصودة ، والاحترام والاكرام له ولغيره فى إنفاذ قوله والعمل بما جاء به وما قاله من الحق والهدى ، وهو لا يقول غير الحق والهدى

ولو أن رجلا معظما كملك أراد تعظيم مرء فطلب منه برغبة والحاح وتوكيد شديد أن يجلس بجانبه . فأبى ذلك المرء الجلوس بدعوى التأدب والاحترام للملك وخوف الاهانة له لكان ذلك المرء غالطاً جديراً بالملامة والاهانة ، ولو قبل قول الملك وقبل كرامته فجلس بجانبه لما عد أحد ذلك اهانة للملك البتة . هذا على أن بين المثالين فرقا عظيما يعلمه من يعلم مقام الرسول الكريم عليه السلام

وبالاجمال الدول بمقتضى ماقال هذا الرافضى مفسد للدين والدنيا والمعقولات

وهنا نذكر أن هذا الرجل يخلط بين القبر وبناء القباب والمساجد عليه ، وفرق بين الأمرين . فالقبر لايصح هدمه بتاتا ولا يقول بهذا أحد من المسلمين وانما تهدم القباب والمساجد المشيدة فوق القبور لا القبور نفسها . فليفطن لهذا

هذا ماتصلح مناقشته مما كتب هنا والباقى حشو وغثاء لايتعلق بموضوعنا منه شيء ، وسوف يجيء بيان أكثر من هذا

الامر الحادى عشر

قال الرافضي « قد يتعارض محرم وواجب فيقدم الأهم ، وذلك كلمس جسم المرأة الأجنبية فانه محرم ولكن اذا توقف على ذلك انقاذها وعلاجها وجب أو جاز . وكالنظر الى العورة ، فانه حرام ويباح للطبيب ، وعلى هذا كان واجبا على الوهابيين ألا يتعرضوا لهدم القبور فان هدمها يسوء ثلاثمائة وخمسين مليون مسلم ومراعاة هؤلاء أهم فى نظر الشارع من البناء على القبور . وهدم القبور لو كان ذلك مشروعاً مطلوبا فان فى هدمها شق عصا المسلمين وتفريق كلمتهم . أفلا أبقوا عليها كما أبقوا على القبر النبوي وهو عندهم محرم ولكن تركوه دفعاً لأعظم المفسدتين ومراعاة لأهم المصلحتين » انتهى كلام الرافضى . قلت :

(أولا)

كلامه هنا مفروض فيه أن هدم القبور واجب والبناء عليها غير جائز . ولكن يترك ذلك لأن فعله يقابل مفسدة كبرى وهي اغضاب المسلمين وتفريق كلمتهم . فيترك هذا الواجب حذار هذا المحرّم . فاذا كان ذلك كذلك قيل له أنت تدلى بهذا الكلام وهذه النصيحة بعد أن انتهى الأمر وقضى ، وهدمت القبور التى تحذر من هدمها الفتنة والفرقة كما تزعم . فلماذا هذا الكلام وهذه النصيحة اليوم ، ولماذا هذا النزاع وقد حم الأمر وهدم ماوجب هدمه وكان ما كان ؟ انه لافائدة فى كلامك هنا اليوم البتة لأنه لو فرض أن الحق فيما تقول وفرض أنه كان من الحق أن تترك القبور كما هى مشيدة مرفوعة حتى ولو كان واجباً هدم ما فوقها من القبب مراعاة لشعور المسلمين حسب قوله . ولكن هذا الكلام على هذا النحو إنما ينفع قبل وقوع الأمر حينما كان مستقبلا يمكن امتثاله . أما بعد انتهائه واستدباره فلا فائدة فى الكلام اليوم غير تأريث العداوة التى يخافها وإحداث الفرقة التى يتقيها ، وغير زيادة الفتنة فتنا

والمداوة عداوات ، هذا لا ريب فيه . بل كان الواجب عليه اذا كان كما يفرض وكما يقول أن يجهر وقد انتهى الأمر وحم المقدور بأن النجديين لم يفعلوا إلا واجبا ولم يزيلوا سوى ماوجب زواله ، وذلك لتسكين الفتنة التى يذكرها وتثبيط الفرقة التى يخوف بها ويخاف منها والتى يرضى ترك الواجب حذارها ، لا أن يذهب ينادى بأن النجديين هدموا القبور وآذوا المسلمين والصالحين وآذوا الرسول الكريم ، وأمثال هذه الكلمات التى لا يراد بها غير احداث البغضاء ، واحراج الصدور ، وتفاقم الفتن . .

وأيضا أنت أيها القائل اذا ما كان قولك حقا وكنت صادقا فيه حريصا على جمع كلمة المسلمين حريصا على نماء المودة ما بينهم أفلا كان الواجب عليك حينئذ ألا تهاجم أهل السنة بهذا الكلام الفاسد الباطل المثير لو فرض أنه صحيح وألا تكتب ما كتبت فى هذا الكتاب وألا تتعرض لأهل السنة من أهل نجد ولدولتهم القائمة فى ملجأ الدين وفى الحرمين الشريفين بالشريعة الاسلامية الغراء وبالقسط والعدل حذار الفوضى والتقاطع بين أهل الاسلام . أفما تخاف اذا ما كنت صادقا فى النصيحة من أن يحدث كلامك حربا أو حقداً أوعداوة ؟ فهلا نصحت نفسك قبل أن تنصح أهل السنة القائمين بالشرع النبوي ، أفلا تتلو الكتاب الكريم : « أتأمرون الناس بالبر . . » الآية

وأيضاً إذا ما كان هذا الشيعى محقاً فيما قال حريصاً حقاً على لم شعث المسلمين صادقا فى هذه النصيحة ، فلماذا لا ينصح بنى دينه وجلدته الرافضة وينهاهم ويذودهم عن سب سادات المهاجرين والأنصار وخيار صحابة الرسول الكريم وخيار المسلمين من أهل السنة فى كل زمان ومكان ؟ . فان طائفته الرافضة تجاهر كما قدمنا بتكفير كبار الصحابة وأمهات المؤمنين أزواج النبى الكريم ورميهم ورميهن بكبر الكبريات التى لا يستطيع الكثيرون من عقلاء الكفار حكايتها فضلا عن اختراعها والايمان بها ؟

بل أفلا ينصح نفسه هو فيزجرها بالأ يهاجم الصحابة وأمهات المؤمنين وأئمة المسلمين بالاكفار والمقادح الظالمة الآثيمة ؟ أعدل أن ينصح من يهدمون القباب المشيدة فوق القبور امتثالا لأقوال الرسول ﷺ ولسنته وسنة أصحابه ومن تبعهم بالاحسان والايمان ، ولا تسدى هذه النصيحة الى من يكفّرون الخلفاء الراشدين المهديين ، ومن يكفرون زوجات النبي ﷺ في الدنيا والآخرى ، ومن يكفرون أفضل البشر بعد الأنبياء لدى المسلمين أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ؟ أمن الحق أن يكون هدم القبور يسوء المسلمين ويفرق كلمتهم ويشتت شملهم ثم لايكون شيء من ذلك في إكفار أبي بكر وعمر وعثمان وكبار المهاجرين والأنصار ؟ أمن الحق أن ينصح من هدموا القباب المزخرفة عبثا وجهلا وغلوا ، فيقال لهم لاتفرقوا كلمة أهل الاسلام ولاتؤذوا المسلمين ولا يقال لمن كفّر أئمة الاسلام وأنصار الرسول وجنود الله لاتؤذوا الله ورسوله والمسلمين ولا تفرقوا كلمة المؤمنين

فاعجب أيها الانسان ممن يقول ان أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير كفار أو فسقة ظلمة إذا ما راح ينصح من يهدم الأبنية المقامة عبثا على القبور عصيانا لله ولرسوله ولصحابته ولأئمة المسلمين قائلا ان في هذا اساءة الى المسلمين . فاعجب ثم اعجب ثم اسأل الله السلامة ، سلامة الدين والعقيدة والضمير

(ثانيا)

لنسلم أن في هدم القباب المشيدة شيئا من خوف الفتنة ، وشيئا من إيلام بعض النفوس . ولكننا نقول مع ذلك ان هدم القباب أرجح وأولى من إبقائها بدلائل كثيرة . (أولاها) أن المحذور في هدمها الذى ذكره هذا الرجل هو خوف الفتنة والعداوة ما بين المسلمين ، هذا هو الذى يخشى ويرعى جانبه . ولكن هذا المحذور

غير صحيح وغير واجب الرعاية . بل ولا كان مشكوكا فيه عند المتأملين ، والشاهد على ذلك الواقع نفسه . فان القباب هدمت كما يدعى هو وقضي الأمر وعمل بالسنة الآمرة بهدمها وفض النزاع ، ومع هذا لم يحصل المحذور الذى خشيه الرافضى وعده مانعاً من العمل بالسنة مانعاً من هدم القباب ، والواقع أكبر دليل . بل المسلمون اليوم راضون عن الحكومة السعودية كل الرضا ، وهم يزدادون مودة لها ورضا عنها كل يوم وكل ساعة ، وما كان هدم القباب مانعاً من هـذه المودة ومن نمائها ومن هذا الرضا ومن نموه . بل لقد كان ذلك من أسباب هذه المودة وهذا الرضا ، بل لقد كان هذا من الدلائل القائمة على أن الحكومة السعودية هى الحكومة الشرعية السلفية حقاً ، و الواقع أفصح شاهد ، و الدلائل على رضا المسلمين وانصباب أهوائهم نحوها تتناثر من كل جانب ، فلينظر ذلك من يريد الاعتراف بالحقيقة الخالدة والحق الصراح

وإذا ما كان العمل بالواجب يعارضه خوف الوقوع فى أحضان المحرم ثم تبين أن هذا المحرم المخشي القائم فى وجه العمل بالواجب لا يصح أن يخشى ولا أن يرعى لأنه لن يكون ولن يقع ، كان العمل بالواجب لازماً ولا ريب ، وكان الغاء تخوف المحرم فرضاً ولا شك . وهذه المسألة التى معنا هى كذلك . فان الواجب وهو هدم القباب المشيدة قد نفذ وانتهى منه ولم يقع شيء من المحذور الذى هو خوف الفتنة والفرقة . فكان الصواب الذي لا صواب فى غيره القيام بهذا الواجب والاسراع الى انفاذه (ثانيها) أن الذي فرضه هذا الرجل فى المسألة أن هدم القباب واجب ، ولكن يعارض هذا الواجب محرم ، وهو الفتنة والتعادى بين أهل الاسلام ، فيتعارض الأمران فيرجح فى رأيه الأخير أي خوف الفتنة واتقاؤها على الأول . ونحن نقول اذا كان الأمر كما ذكر كان العمل بالواجب ولا شك أرجح من تركه خيفة الحرام ، وذلك أن فى بقاء هذا

المحرم محرمات أخرى متعددة كالغلو فى أصحاب القبور ودعائهم والاستغاثة بهم والرجوع اليهم حين النكبات والحاح الحاجات ، ولتقديم القرابين والنذور والهدايا ، وإيقاد السرج والأنوار فوقها وسائر المحدثات فوق القباب المشيدة وهذه كلها محرمات شرعا وعقلا وذوقا كما سوف يأتى ، واذا ما كان ذلك كذلك فلا ريب فى أن بقاء القباب وزخرفتها هو الذى يغرى بارتكاب هذه المآثم واجتراح هذه الكبائر المحرمة ، وهو الذى يقول للجاهلين باللسان الصامت والشاهدة الصامتة اعملوا هذه الأعمال واغلوا أكثر مما كنتم تغلون

ولا ريب أن قبراً سواء أكان قبر نبى أم قبر ولى لا تكون فوقه هذه الزخارف والمظاهر من القباب والسرج والزينات والبناءات الهائلة لا يمكن أن يغلى فيه مثل مايغلى فى القبر الذى تكون فوقه هذه الأمور ، والدليل على ذلك أن طائفة الشيعة تغلو فى قبور آل البيت وغير آل البيت من المقبورين عندهم فى النجف وكربلاء المزينة قبورهم بالقباب والسرج والزينات غلواً لا يجعلونه بل ولا بعضه للانبياء وأولى العزم منهم كعيسى وموسى وابراهيم وغيرهم بل وخاتمهم ﷺ . بل ولعلهم لا يفكرون فى هؤلاء الانبياء . فلا يستغيثونهم ولا يدعونهم أو يحلفون بهم أو يرجونهم أو يخافونهم ، والسبب فى ذلك هو ما ذكرناه من اغراء القبور بالغلو فى المقبور وعبادته ، وما كان اعراضهم عن الأنبياء الا لأنهم ليست لهم مشاهد مزخرفة مزينة بالقباب والزينات الباهرة ، ولا ريب أن الانبياء أولى بالغلو إن كان جائزاً من آل البيت الامام على وأولاده رضى الله عنهم جميعا

فلا شك اذن أن هدم القباب ـ اذا افترض الامر كما يزعم هذا المصنف ـ أولى من ابقائها حذار حدوث العداوات والحزازات ، لأجل هذه المفاسد الكثيرة التى أشرنا الى بعضها ، والتى تنجم من بناء القباب وبقائها

(ثالثا)

اذا فرض أن المسلمين كلهم كما يدعى هذا الرجل يساؤون بذلك ويخشون به وقوع خلاف يتبعه قتال يتبعه ضعف الاسلام كما يقول ، إلا أنه يقابل ماذكره أمر خطير لم يفطن له هو ، ذلك أنه يخاطب بكلامه هذا من بأيديهم الحل والعقد والسلطة والسلطان من رجال الحكومة السعودية ، الذين يأمرون وينهون وينفذون ولا شك ، واذا كان ذلك كذلك وكانت الحكومة السعودية مطالبة بالترجيح بين الأمرين اللذين ذكرهما ، ومطالبة باتقاء أكبرهما ضرراً : هدم القباب المحرمة شرعا ، واجتناب ما يحدث العداوة وما يؤذى النفوس المسلمة ، فلا ريب أن بقاء القباب أعظم فساداً وخطراً وفتنة من هدمها ، ذلك أن النجديين الذين هم جند الحكومة وجيشها وعدتها وعتادها في سلمها وحربها لا يرضون أبداً بابقاء القباب ، وهم يعلمون ولا يشكون أن ابقاءها خلاف الشريعة التى يتفانون فى تطبيق أحكامها على أعمالهم ، ولا يرضون أبداً بتركها قائمة يطوف بها الطائفون ويلثمها اللاثمون ويمسحها الماسحون ويدعوها الداعون ويجترح فوقها جميع الآثام والأعمال المزدراة وهم يعلمون أيضاً أن هذا حرام كله بلا نزاع ، ويعلمون أنهم مافتحوا الحجاز وغيره إلا لاقامة الشرع والعدل والسنة ولمحاربة البدعة والدجل والخرافة ، وهم لا يعشقون شيئاً مثل عشقهم بعث السنة النبوية وابرازها كما كانت وكما يريد الرسول الكريم والصحابة والعلماء : أنهم لن يرضوا عن ذلك البتة ولن يقبلوا من حكومتهم سوي تقويض هذه المنكرات والمخالفات . هذا لا ريب فيه ، واذا كان كذلك فهل من الحكمة والعقل والشرع أن تتعمد الحكومة اهمال الشريعة والعمل بالسنة النبوية ، ثم اغضاب شعبها واحراج صدره بابقاء البدع التى لا يشكون فيها لنيل رضا الشيعة ، واثلا تغضب الشيعة وتغضب الجاهلين بالشرع وقواطع

الاسلام ، ولئلا تنمو العداوة فى هذه الصدور الجاهلة ؟ هذا الرجل يريد هذا ، ولكن العقلاء جميعاً يعرفون أنه عين الجهالة والغباوة والسفاهة

ولن ترضى الشيعة عن الحكومة السعودية ، ولا عن غيرها من الحكومات الاسلامية ما دامت تعرف لله حقه وللمخلوق حقه ، فلا تخلط بين الحقين ، ولا تهب هذا حق هذا . وما دامت تغضب لسادات المسلمين ، ولامهات المؤمنين ، وللخلفاء الراشدين . وما دامت تقتفى آثارهم قولا وعملا وعقيدة . فالمانع من رضا الشيعة قائم عند أهل السنة دائماً . واذا كانت الشيعة لم يرضها أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علىّ نفسه ولا أمهات المؤمنين رضى الله عنهم ، فعبث لعمر الله أن نحاول نحن إرضاءها أو نأمل رضاها . ومحال أن نظفر بذلك حتى نغضب الله ونجانب سبيل الأولين وسبيل الخلفاء الراشدين . ولن نجانب ذلك أبداً إلا أن يشاء الله أن نضل ونغوى . ولكننا نسأله الهداية والثبات عليها ، ونعوذ به من الغواية وأسبابها

(رابعا)

أن فيما قاله هنا تركا لأوامر الشرع وابقاء على المحرمات لأسباب باطلة ، وخيالات متوهمة لم يأت دليل من الشرع ولا من العقل يدل على أنه يجب ترك الأوامر الشرعية لأجلها ، ويجب إبقاء المحرمات خوفا منها . وما كان كذلك فلن يعبأ به ، ولو بالى المسلمون بأمثال هذه العلل والأوهام لما عدموا من يذكر لهم عللا وأوهاماً مثل هذه وأحسن وأجود يتوسل بها الى اهمال الشريعة جملة وتفصيلا والغاء أحكام القرآن والسنة المتواترة . مثل أن يقول الجاهلون لو عمل المسلمون بشرعهم وحدوده ومعاملاته وعقوباته وتسويته بين الطبقات الأشراف والأطراف لحدث كيت وكيت من المفاسد والأخطار والفتن الموبقة . وبأمثال هذا تهمل

الشريعة جملة وتفصيلا . وهـذه آخرة الشيعة وهدفها الأقصى . ولكننا معاشر المسلمين نقول أبينا « وان أرادوا فتنة أبينا »

(خامسا)

زعمه أن هدم القباب يسوء ثلاثمائة وخمسين مليون مسلم — أى يسوء المسلمين تقريباً — زعم بعيد عن الحقيقة كل البعد . وما يسوء سوى الشيعة ، وسوى الجهال بالشريعة من العوام . وأما العالمون من المسلمين على اختلاف مذاهبهم والناس لهم تبع فانهم لم يساءوا بذلك ولم يذموه . بل انهم استبشروا به وفرحوا ، وحمدوا الحكومة السعودية وشكروها على إقامة السنة واحيائها بازالة القباب والبنايات التى حملت على الشريعة وعلى القبور حملا ، وذلك لأنهم يعلمون أن الاسلام يأبى بصرامة البناء على الأضرحة ويأبى رفع القباب فوقها . وهذا موجود فى كل كتاب من كتب الحديث والفقه تقريباً بأسانيد متواترة تواتراً معنويا . ويعلمون أن المذاهب الاربعة تأبى ذلك بصرامة وشدة ، وتأمر بهدم ما يكون من ذلك . وهذا موجود فى جميع المذاهب الاربعة وفى كتبها . وقد ذكر ذلك الامام الشافعى فى كتابه (الأم) أعظم كتب الفقه . وسوف يجىء الكلام فى هذا الموضوع . وها هى مشيخة الأزهر أكبر معهد دينى اسلامى قد ألفت لجنة من علماء الأزهر مختلفة المذاهب لتؤلف كتاباً فى محاربة البدع ، ومن جملة ما عدّته من البدع البناء على القبور وتشييدها واسراجها وتعليق التعاليق فوقها

ومن الدلائل على أن هذا الشيعى غير صادق فيما قال أن المسلمين أجمعوا أو كادوا يجمعون بالجملة على الرضا عن حكومة الحجاز وعلى أنها هى الحكومة السلفية القائمة بالشريعة كما كانت منقاة من البدع والضلال . وهـذا قد أصبح واضحاً ملموساً فى كل صحيفة عربية تقريباً ، فان الاعتراف لهـذه الحكومة بهذه الفضيلة

يكاد يقرأ فى جميع الصحف الاسلامية على اختلاف منازعها ، وأنت واجد ذلك كثيراً واضحاً فى أيام الحج وفى الايام التى تلى الحج بعد أن يرى الناس بأبصارهم هذه الحقيقة الخالدة والفضيلة المميزة ، وقد كتب الناس كثيراً بعد دخول الحكومة السعودية الحجاز وأيدوها فى مسألة هدم القباب وغيرها من المسائل التى ينكرها الرافضة بل وأشادوا بمدحها والثناء عليها ، والشواهد على هذا كثيرة عديدة

وهل يستطيع هذا الرافضى أن يدلنا على رجل واحد من رجالات الاسلام أهل السنة الذين لهم قدم راسخة فى الدين والعلم والايمان أنكر هدم القباب ، ورفع صوته ساخطا على حكومة الحجاز أن فعلت ذلك ؟ أحسبه يعلم أن ذلك غير مستطاع

وهذا الأزهر أكبر معهد اسلامى وأجمعه وأشهره هل سخط أهله ذلك أو أنكروه أو احتجوا عليه ، اذا كانوا يرونه مخالفاً للاسلام والدين كما يدعى هذا الرجل ، فانه لم ينكر ذلك من علماء الأزهر سوى بعض المغمورين الذين ليست لهم قدم راسخة فى العلم وهؤلاء معلومون بالخنوع للاهواء والأغراض التى كانوا يخدمونها فى ذلك الوقت . أما اليوم فكلمة الأزهر المسموعة التى لا تتنازع الموافقة التامة للحكومة السعودية فى هذه المباحث ، والرضا عنها ، والاعتراف لها بأنها المحيية للسنة ولسيرة السلف الصالح . وما يقال فى الأزهر يقال فى غيره من المعاهد الاسلامية

فالمسلمون لم يساءوا من هدم القباب ، ولم يغضبوا لذلك على وجه الاجمال ، وانما كان هذا من بعض الجاهلين بالدين الجاهلين بأسراره . ثم ان هؤلاء المنكرين الجاهلين أخذوا يرجعون عن ذلك ، وأخذوا يعترفون بالحقيقة الواضحة الخالدة

(سادسا)

هب أن المسلمين كافة أنكروا ذلك وغضبوا له ، وأنت فرضت هنا أن هدم القباب واجب وكلامنا هنا على هذا الافتراض ، أفلا يكون المسلمون حينئذ غالطين في الانكار والغضب والاستياء ؟

لا شك أنهم حينئذ غالطون ، لأنهم أنكروا القيام بالواجب وسيئوا به ، فهم غالطون وجاهلون معاً بلا ريب ، واذا ما كانوا غالطين جاهلين أفلا يجب تعليمهم وارشادهم ؟ ثم ألا يجب علينا القيام بالسنة والشرع غير حافلين بانكارهم واستيائهم مما كانوا فيه غالطين ؟

لا ريب أن المسلم يجب أن ينصر الاسلام وأن يقوم به ، وان غضب الناس ، وأن طالب الحق يجب أن يجهر به وأن ينصره قبله الناس أم ردوه ، علموه أم جهلوه والاجماع نفسه ما قال القائلون به إلا لأنهم يعلمون أنه لابد أن يكون له دليل شرعي من الكتاب أو السنة وإن لم يطلعوا عليه ، ولولا افتراض هذا الدليل الشرعي لما كان الاجماع حجة ولا مقبولا ، والشيعة نفسها لاتعتد بالاجماع إلا لأنها تدعي المعصوم ، فهي في نفس الأمر تخالف الاجماع وتنكره

فاذا ما أبى المسلمون قبول الحق وأنكروه لم يوافقوا على ذلك بل وجب تعليمهم وارشادهم ، ولكن المسلمين لن يغضبوا من الحق ولن ينكروه مجمعين فان المسلمين لايجمعون على جهل الحق . وكلام هذا الرافضي من أسوأ القوادح في المسلمين والزراية بهم لأنه يجعلهم يغضبون ممن قام بالاسلام ونصر السنة وأحياها بعد اندثارها . وقد برأ الله المسلمين مما رماهم به فانه وإن وجد من الكثيرين الانكار لبعض الحق والاستياء منه ، وهذا مالابد منه ، فانهم لن يجمعوا على ذلك ولن تتفق كلمتهم عليه . والحق لابد أن يوجد بينهم بالجملة

وأما الكلام على القبر النبوي الشريف فنرجىء القول فيه الى الأبواب الآتية :

الامر الثانى عشر

قال الرافضى « تكفير المقر بالشهادتين المتبع طريقة المسلمين ، وإحلال دمه وماله وعرضه عظيم لايجوز الاقدام عليه استناداً الى نظريات واجتهادات يكثر فيها الخطأ ، والى أخبار ظنية قابلة للتكذيب وللتأويل مثل الاجتهادات والأخبار التى يستند عليها الوهابيون فى تكفير المسلمين ولا يكفر المسلم إلا بشىء قطعى . وكانت سيرة النبى ﷺ والصحابة والتابعين وتابعى التابعين معاملة الناس على الا كتفاء باظهار الشهادتين والتزام أحكام الاسلام . روى البخارى أنه عليه‌السلام قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا حرمت علينا دماؤهم وأموالهم » وقال عليه السلام : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله » . وقال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فاذا فعلوا ذلك عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله » .

«فيستفاد من هذه الأخبار أنه بعد إظهار الشهادتين يبنى على الاسلام مالم يعلم شىء ينافيه ، ولا يلزم التفتيش والتجسس . ولسنا نقول ان المقر بالشهادتين الذي يصلي ويزكى لا يمكن الحكم بكفره مع ذلك لجواز أن يحكم بكفره مع ذلك كالخوارج والمجسمة ومنكر الضرورى . ولكنا نقول الاقرار بالشهادتين والتزام أحكام الاسلام كاف للحكم بالاسلام حتى يثبت ما ينافيه باليقين لا بالاجتهادات الظنية والأخبار الظنية وحتى ينتفى التأويل . وما كفّر به الوهابيون المسلمين لم تجتمع فيه هذه الشروط » انتهى كلامه . قلت :

(أولا)

يا ليت الشيعة صدقوا ما قاله هذا الشيعى ، فلم يكفّروا المقر بالشهادتين ، المتبع طريقة المسلمين الملتزم لأحكام الاسلام وشرائع الايمان . ياليتهم صدقوا هذا ، ولكنهم لم يصدقوه بل هجموا على صحابة رسول الله ﷺ وأنصاره وأنصار الله وجنود الاسلام بالا كفار والافساق وقذفوهم بأشنع التهم الكبريات ، وهجموا أيضا على من تولوهم من المسلمين بالا كفار والافساق والتضليل ودعوهم «بالنواصب» أي عداة آل البيت الذين ناصبوهم العداء ، وقد عدوا سائر المسلمين ما خلاهم هُمْ من النواصب الجناة الظلمة ، فاستحلوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم وقدحوا فى دينهم ومعتقداتهم ، ونقلوا فى كتبهم عن أئمتهم « خذ مال الناصبى وادفع الخمس » كما سوف يجيء ذلك مستوفى . وقد نزّلوا آيات القرآن الكريم الواردة فى رؤوس من المشركين معينين معلومين على كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وطلحة والزبير . وقد قالوا ان الجبت والطاغوت المذكورين فى القرآن هما أبو بكر وعمر ، وقالوا ان البقرة المذكورة فى قوله : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الى آخر الآيات هي السيدة عائشة ، ونظائر ذلك من قبيح الرأى وفظيع القول مما سوف يأتى . فالشيعة لايتقيدون بما قاله هذا الشيعى ولا يذعنون له . بل هم من أول من استحل دماء المسلمين وكفرهم بل دماء سادات المسلمين وأموالهم وأعراضهم فان كان فى قوله هذا حق فليوجه الى الشيعة أولا

(ثانيا)

يقال لهذا الرافضى مَن من مخالفيك فى هذا الموضوع لايحكم باسلام من أقر بالشهادتين واتبع طريقة المسلمين والتزم أحكام الاسلام وصلى وصام وزكى وقام بشرائع الاسلام والايمان ولم يأت بشيء يخالف ذلك ؟؟؟ ومن من مخالفيك يقول

ان مثل هذا المرء كافر حلال الدم والمال ؟؟؟

ان جميع من يزعم الرد عليهم فى كتابه هـذا لايخالفون فى أن الذى يقوم بما ذكر ويلتزمه ويقوم بأحكام الاسلام ويتبع طريقة المسلمين ويصلى ويصوم ويزكي ويستقبل قبلة المسلمين ويجمع أشراط الايمان والاسـلام مؤمن من خيار المؤمنين ومسلم من أفضل المسلمين ، بل وولى من أولياء الله المتقين المقربين ، فليعلم هذا إن كان لا يعلمه

ولكن ها هنا أمراً يجب أن يفهمه . هذا الأمر هو أن يعلم أن المراد من الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسول الله هو معناها لا لفظهما ، وأن المقصد منهما ما يدلان عليه من التوحيد والايمان بأن الله وحده هو الاله الحق والايمان بأن الرسول صادق فيما بلغ عن ربه ، وليس المقصـد منهما النطق بهما مجردتين من اللوازم والموانع ، ومن الشروط والأحكام ، ثم أن يعـلم أيضاً أن لهاتين الشهادتين شروطا ونواقض ، وأن من قالها بلسانه ليلا ونهاراً معتقـداً أو غير معتقد لايمكن أن ينفعاه ولا أن ينجياه لا فى الدنيا ولا يوم الدين اذا ما ظل يأتى بما يفسدها وينقضهما من قول وعمل ، ولا خلاف فى هذا لدى العقلاء والعلماء وهذا الرجل نفسه لا يخالف فيه بالاجمال ، وهو إن خالف إنما يخالف فى أن هذه الأمور منافية للشهادتين مناقضة لها . فلا يقول ان هذه الأشياء تناقض الشهادتين ، وإلا لو سلم هذا لسلم أن من قال الشهادتين وجاء بمـا يناقضهما يسلم أن الشهادتين لاغيتان فاسدتان ، وهذا لأن الألفاظ دلائل المعانى . فمن جاء بما ينقض قوله فقد ألغى قوله وألغى دلالته بالنسبة اليه هو . فمن قال لا إله إلا الله وهو يعبـد غير الله ويجعل معه آلهة أخرى لم ينفعه قول لا إله إلا الله بالاجماع والبـداهة ، وكذلك من شهد أن محمداً رسول الله ثم جاء بما يفسد هـذه الشهادة وما يبطلها من قول أو عمل فقد ألغاها وأفسدها ، وهذه أوليات لانزاع فيها ، ولكن النزاع يقع فيما يدعى

أنه يفسد الشهادتين وينافيهما لا فى أن من جاء بهما فقد فاز ونجا وإن أتى بما يفسدهما من الأعمال والأقوال

فنحن نقول مثلا ان الاستغاثة بالأموات والضراعة اليهم عند الرغبة والرهبة والعكوف على قبورهم والانقطاع اليها وتقريب القرابين والنذور والصدقات لها ـ نقول ان هذه الأعمال والأقوال تفسد شهادة أن لا إله إلا الله وتبطلها فلا تنفع قائلها الآتى بهذه الأشياء لأن الاله معناه المعبود وهذه الأعمال والأقوال عبادة بل من أعلى أنواع العبادات ، فاذا ما قدمها لغير الله فقد عبده بلا ريب ، والشهادة التى قالها بلسانه كلمة لم يعرف معناها فلم يعمل بما تدل عليه فصارت كلمة لاغية لاقيمة لها وصار فى هذه الشهادة كجاهل باللغة قال هذا « ليث » عند ما رأى فأراً حاسباً أن هذا اللفظ لهذا المخلوق . فاذا قال ذلك فلا ريب أن قوله هـذا ليث ، يعنى الفأر لا يدل على أنه رأى ليثاً لا بالنظر اليه هو ولا بالنظر الى من فهم ما يعنى

وهذا الشيعى وبعض الناس لا يعلمون أن هذه الأعمال والأقوال تنافى لا إله إلا الله وتنقضها فيذهبون يحسبون أن من قال لا إله الا الله فهو مؤمن موحد مخلص الدين لله وإن استغاث الاموات وسألهم مالايقدر عليه الا الله كشفاء المرضى وهداية القلوب وغفر الذنوب ، وان انقطع اليهم وسألهم صباح مساء . فهذا كله وأكثر منه لا يضير قائل لا إله إلا الله عند هؤلاء ولا ينافى الشهادة لا من قريب ولا من بعيد لا فى الظاهر ولا فى الباطن لا تصريحا ولا تلويحا فالنزاع إذن فى هذه الأمور وفى معنى الشهادة ومعنى العبادة ومعنى التوحيد والايمان والاخلاص. فالذى على هذا الشيعى إذن أن يبين أن هذه الاعمال والاقوال لاتنافى الشهادة ولا تفسدها . والذى علينا نحن أن نبين أنها تنافيها وتفسدها . وهذا هو الذي يفض النزاع ويزيل الخلاف والا فان مثل قول هذا الشيعى حشو عبث لا حد له ولا ضابط . فهو يقول المقر بالشهادتين المتبع طريقة المسلمين الملتزم لأحكام

الاسلام مسلم ليس بكافر . أو ليس هذا الكلام كأن يقول قائل من قال فهو قائل ومن صلى فهو مصل ومن زكى فهو مزك . أو أن يقول المسلم مسلم والمؤمن مؤمن أو الاثنان اثنان والثلاثة ثلاثة ! ومن ذا الذى يحتاج لمثل هذا الكلام ومن ذا الذى لا يعرف أنه عبث حشو؟ فان قوله « المقر بالشهادتين المتبع طريقة المسلمين الملتزم لأحكام الاسلام ليس بكافر » بمثابة أن يقال المسلم ليس بكافر . لأن الذى يأتى بهذه الأمور هو المسلم . لأن من التزم أحكام الاسلام واتبع طريقة المسلمين صار مسلما يقينا . وهل يصح أن يقال ان المسلم حقا ليس بكافر مادام مسلما ؟ وهذا هو معنى كلامه . ولا ريب أن مثل هذا الكلام لايجدي ولا يستفيد منه أحد لا من المخالفين لهم ولا من الموافقين . والذي ينفع هو أن يقيم البرهان على أن دعاء الاموات وسؤالهم ضروب الحاجات وتقديم النذور والهدايا إليهم والعكوف على قبورهم ليس بعبادة وليس بمناف للاسلام والايمان والتوحيد فاذا ما أقام الدليل على هذا أغناه عن هذا العبث والحشو . أما نحن فنعد القارىء أن نقيم الدلائل على أن ذلك عبادة وعلى أن من اجترحه فقد طعن إيمانه فى صميمه . ومكان هذا الأبواب الآتية الخاصة به . .

(ثالثا)

كلامه هنا قلق متخاذل . فهو يقول فيه « المقر بالشهادتين المتبع طريقة المسلمين لا يكفر » ويقول « إن الرسول والصحابة والتابعين وتابعى التابعين كانوا يكتفون من الناس بالشهادتين وبالتزام أحكام الاسلام » ثم بعد هذا القول ينقل الأحاديث النبوية القائلة بأن المسلم الذي يحرم دمه وماله هو من شهد الشهادتين ومن صلى وزكى وعمل بالاسلام : يقول هذا ، ثم يرجع ويغتصب هذه النتيجة الكاذبة : « فيستفاد من هذه الاخبار أنه بعد إظهار الشهادتين يبنى على الاسلام » فهل هذه

المقدمات وما ذكره هنا تكون نتيجته أن المقر بالشهادتين مسلم وأن يحكم باسلامه ؟ كلا والله . فان الكلام الذي ذكر والأحاديث التى روى يجب أن تكون نتيجتها مغايرة للنتيجة التى اغتصبها اغتصابا ويجب أن يقال فيها إن المقر بالشهادتين القائم باعمال الاسلام ومظاهره من صلاة وصيام وزكاة وحج الملتزم لذلك ظاهراً يحكم باسلامه ولا يكفر ولا يقدم على إكفاره يجب أن تكون النتيجة هكذا . وإن كان الكلام على وجه الاجمال حشوا وعبثا . فاحداهما ـ النتيجه أو المقدمات ـ يجب ألا تكون كما ذكر

(رابعا)

قد قدم فى كتابه ص ٩١ وما بعدها فى الأمر السادس أن تارك الصلاة والزكاة والصيام أو فريضة من فرائض الاسلام لايكفر ولا يخرج من الاسلام بل يكون بالشهادتين مؤمنا معصوم الدم والمال لأنه مسلم ، وتقدم أنه عاب من يكفر تارك الصلاة وفرائض الاسلام أو يستحل قتله وهجاه وسماه وهابياً مقتفياً أثر الخوارج فى إكفار المسلمين وفى الاكفار بالذنب . هذا تقدم كله من هذا الشيعى ، ولكنه هنا نسى ما كتب هناك وحكم أن المسلم هو الذى يقبل الشهادتين ويتبع طريقة المسلمين ويلتزم أحكام الاسلام ويصلى ويزكى ، وحكم بأن من ترك شيئاً من ذلك لايكون مسلماً ولا معصوم الدم والمال بل يقاتل ويقتل حتى يقوم به كله وحتى يلتزمه أجمع بدليل ما ذكر وبدليل الأحاديث التى رواها من قوله عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس) الى قوله (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) الى آخر الحديث . فأى شيء هذا الخلط وأية ناحية يذهب وأى قول يقول ؟

واذا ما كانت هذه الأحاديث صحيحة لديه حجة مقبولة وهى تصرح بأن تارك الصلاة والزكاة وفرائض الاسلام يقاتل ويقتل وأن الشهادتين وحدها

لا يعصمان الدم والمال ولا يكفيان فى إسلام المرء فما القول الذى قدم وما الهجاء الذى حمله على من قال با كفار تارك تلك الصلاة أو قال بقتله ؟ أما قال هنالك فى الأمر السادس :

« وحكم الوهابيون بكفر تارك الصلاة أو الزكاة واستحلوا القتل بترك بعض فرائض الاسلام على عادتهم فى التسرع الى تكفير المسلمين واستحلال دمائهم ، وتشددهم فى ذلك اقتفاء بالخوارج » هذا نصه ، فما هذا القول هناك مع اعترافه هنا أن الرسول الكريم أمر بمقاتلة الناس واستحلال دمائهم وأموالهم حتى يقيموا الصلاة ويؤدوا الزكاة ؟ ألا يكون فى هذا قادحا فى الرسول الكريم قادحاً في قوله رامياً إياه باستحلال دماء المسلمين وأموالهم اقتداء بالخوارج ؟ وإلا اذا ما سلم أن هذا هو حكم الرسول الكريم وسلم أنه حكم حق لا ريب فيه فلماذا يهجو من قال بقوله وحكم بحكمه ؟ لاجرم أنه لا بد من القول بأن المتبوع غالط ويرأه الله مما قال ، أو القول بأن التابع راشد مهتد ، وأما القول بأن المتبوع راشد مهتد والتابع ضال غوى فى المسألة الواحدة فقول متدافع ، فالى أين يذهب هذا الرافضي؟ وهذه الأحاديث التى ذكرها دالة ولا محالة على أن الشهادتين منفردتين لا يعصمان الدم ولا يكفيان فى إسلام المرء ودالة على أن تارك الصلاة مقاتل فمقتول ، وقد قدمنا ان هذا ما ذهب اليه أكثر أهل العلم ، ودالة على أن الشيعة غير راشدة فيما قالته هنالك وما قالته هنا

(خامسا)

نحن نقول قبله انه لا يجوز الاكفار اعتماداً على اجتهادات ظنية يكثر فيها الخطأ وعلى أخبار ظنية قابلة التأويل والتكذيب كما صنعت الشيعة فى اكفار المسلمين وخيار المؤمنين ولكنا نقول له إن الوهابيين لم تكن أدلتهم في هذه المطالب العالية

اجتهادات ظنية أو اخبارا فردية قابلة التأويل والتكذيب . ولكن دلائلهم القرآن بجملته والسنة المحمدية عمليا وقوليا كما سوف يجيء ذلك مفصلا فى أبوابه ، فان القرآن اجمالا أتى زاجرا أقصى أنواع الزجر وناهيا بأشد عبارات النهى عن دعاء غيره وعن الاستغاثة بالمخلوقين والانقطاع اليهم . وهذا لا يقبل التأويل ولا التكذيب البتة ، ثم هو آمر أيضا بافراد الله بالعبادة وافراده بالرجاء والخوف والخشوع والخضوع . وهذا لا يقبل التأويل ولا التكذيب البتة . وعن هذه الاصول تتفرع جميع المسائل التى نطالب المخالفين بها ويطالبهم بها الاسلام جملة . فليعلم هذا . ولكن الشيعة هى التى تعتمد لا أقول على الاخبار الظنية والاجتهادات المدخولة فان الأمر أقل من ذلك . بل هى تعتمد فى اكفار الصحابة وأئمة المسلمين على روايات موضوعة بلا ريب وعلى تحريف القرآن التحريف الذي لا يقبله من أراد الله به خيراً ومن كان له دين يحاسبه أو ضمير يؤنبه

(سادسا)

أما اعترافه بكفر الخوارج والمجسمة ومنكر الضروري . فسوف يعلم القارىء أن الخوارج على ما فيهم من الضلال والمروق والبدعة خير وأفضل من الشيعة إن كان فى هؤلاء ، أو أولئك خير وفضل . وانه اذا قيس شر الخوارج بشر الشيعة تلاشى وتضاءل ، وسوف يعلم القارىء أن السلف وعلياً رضي الله عنه بالخصوص لم يكفروا الخوارج ، وأما المجسمة فقد اتفقت كلمة المؤلفين فى النحل والفرق الاسلامية على أن أول من قال بالتجسيم وشهره وأذاعه هم شيوخ الشيعة وومضعة مذهبها وسوف يجيء البيان لهذا ، وقد تقدم جزء كبير من هذا النوع فى أول كتابنا ، وأما انكار الضرورى فان الشيعة هي أفرس الطوائف فى هذا الميدان وأجراها بلا خلاف ، أليسوا ينكرون إيمان أبي بكر وعمر وعثمان وإيمان عائشة

وحفصة وطلحة والزبير وغيرهم ؟ أليسوا يزعمون أن المسلمين أجمعوا على جواز البناء على القبور أعظم من اجماعهم على الايمان بالله وعلى الصلاة والصيام وسائر فرائض الدين ؟ أليسوا يزعمون أن القرآن محرف مزيد فيه ومنقوص منه ، ويزعمون أن نسخة القرآن التامة الصحيحة عند إمامهم المنتظر سوف يخرجها ؟ أليسوا ؟ أليسوا ... ؟ فهذه الأمور التى كفّر بها هى مجتمعة بلا مشاحة فى فرق الشيعة ، بل وشر منها بأضعاف مضاعفة ، فان كان هؤلاء كفاراً بدليل واحد فان الشيعة كذلك بدلائل عديدة

الامر الثالث عشر

قال الرافضى « أقوال المسلمين وأفعالهم المحتملة أن تكون صحيحة وأن تكون فاسدة يجب حملها على الصحيح ولا يجوز مطلقا حملها على الفاسد الا مع العلم . وعلى ذلك سيرة المسلمين واجماعهم وبه انتظام معاشهم ومعاملاتهم . فاذا رأينا مثلا مسلما يضرب يتيما وأمكن أن يكون ضربه تأديبا وإيذاء وجب حمله على الصحيح وهو التأديب ولم تنتقض عدالته ان كان عدلا وكذا لو رأينا مسلما يضاجع امرأة ولم نعلم أنها زوجته أو رأيناه يشرب شرابا أحمر ولم نعلم أنه خل أو خمر أو سجد أو نذر أو اشترى أو باع ونحو ذلك وجب حمل هذه الأعمال على الصحيح إلا أن يعلم الفساد ولا يكفى الظن . وكذلك اذا قال المسلم قولا أو فعل فعلا له وجه أو معنى يوجب الكفر والردة وكان يمكن حمله على وجه أو معنى صحيح لا يوجب الردة ولا الكفر وجب حمل قوله وفعله على الوجه الصحيح الذى لا يوجب الكفر ، ولو كان احتمال هذا الوجه الصحيح ضعيفا فضلا عما لو كان ظاهراً أو مساويا الوجه الفاسد فى الاحتمال . فاذا استغاث مسلم بنبى [1] أو ولى وجب حمله على معنى

---

(١) هنا بيت القصيد الذى ساق له هذه المقدمة

لا يلزمه الكفر أو الخطأ . وكذلك لو قال لذلك النبي أو الولي ارزقني وعاف ولدي وانصرني على عدوي ونحو ذلك ، واحتمل أنه يريد أن يكون له واسطة وشفيعاً على أن اسناد الفعل اليه من باب اسناده الى السبب كما في بنى الأمير المدينة ، ولم يجز الحكم بشركه فضلا عما لو علمت ارادته ذلك ، أو لو كان ظاهر حاله ذلك باعتباره مسلماً يعلم أن هذه الأمور لا يقدر عليها غير الله » انتهى

بعد أن نستعيذ بالله من الشيطان ومن وساوسه وأوهامه وأغلوطاته نقول الكلام هنا في ثلاث مقامات :

(المقام الأول)

هل من الصحيح والحق أن أفعال المسلمين الفاسقين والصالحين ، الأتقياء والأشقياء ، العلماء منهم والجهلاء ، من يعرف الاسلام ومن لا يعرف منه غير كلمات « الله » و « النبي » والاسلام ، ومن لا يستطيع أداء كلمة الشهادتين أداء صحيحاً ومن لا يخشى الله ولا يخاف مقامه ، ومن لا يملك من الدين سوى اسمه ومولده وشكله وزيه ؟ هل من الصحيح أن أفعال هؤلاء وأقوالهم يجب حملها مطلقاً على الصحيح أي على أنها طاعات لم تشبها معصية ولم تخالطها بدعة أو ضلالة ؟؟ هذا هو المقام الأول ، وجوابنا نحن عليه أن نقول كلا والله لا يمكن أبداً أن نحمل أفعال هؤلاء جميعاً وأقوالهم جميعاً على أنها طاعات بريئة من الاثم ومن المعصية والبدعة ، ولا يستطيع أحد متبصر يزن ما يقول قبل أن يقول أن يدعى ذلك . وانما الصحيح هنا الذى يصح أن يكتب وأن يقال التفصيل والتقسيم ، وأما إجمال ذلك بلا مثنوية فلا أحسب انساناً يماري في بطلانه إلا أن يكون متعصباً له هوى يتبعه

أرأيت هاتيك النساء المتمايلات في الطرقات الطاليات وجوههن وأكفهن بالأصباغ والمساحيق والألوان النكراء المتلونة ، ثم أرأيت تلك الملابس التي ما وضعت على

الأجسام إلا كى تعرى وإلا كى تكون قيد الأبصار وشرك الفسق ثم أرأيت تلك النظرات الحادة الفاترة وتلك المشية المتكسرة المتمارضة ، ثم أسمعت تلك الضحكات السكرى الذابلة الداوية ، ورأيت تلك الابتسامات والاشارات والتنهدات . أرأيت ذلك كله وسمعته كله ، ثم أرأيت غير ذلك مما في الطرقات العامة والمجامع المزدحمة بالصدور المضطرمة والأبصار الطامحة الى اقتطاف الفسق ومطارحة الهوى : أرأيت ذلك كله ، أتراك تستطيع أن تحمل هذا كله على الوجه الصحيح ، وعلى الأدب والعفاف والصون . وأتراك تتأثم من أن تحمل شيئاً من ذلك على الخروج عن الآداب وعن الحصانة والعفاف ، لأن ذلك ما تفعله المسلمات العارفات بأن ذلك حرام فى الاسلام ، لا يبيحه دين الله ولا ترضاه شريعته المطهرة ؟ وأتراك تستطيع أن تحمل نفسك على أن تتطلب لذلك كله المخارج البريئة والتأويلات الصحيحة ، لتقول ان هؤلاء النساء المسلمات لم يصنعن ذلك كله إلا لغرض شريف بارّ يتقبله الاسلام وتتقبله الآداب العفيفة ، كأن تقول انهن ماصنعن شيئاً من ذلك إلا لأجل أزواجهن ادخالا للسرور على قلوبهم وصوناً لأبصارهم عن أن تمتد الى محيا واضح وجبين مشرق . أو أن تقول انهن ما فعلن شيئاً من ذلك الا شكراً لله على ما وهبهن من جمال وصحة وغنى ، وإظهاراً لأيادى الله عليهن وعلى الانسان أجمع . أو أن تقول انهن ما فعلن ذلك الا تهيؤاً لعبادة الله وتزيناً لمناجاته وتجملا للغدو والرواح الى بيوت الله للصلاة والعبادة . أو تقول غير ذلك مما لا يضن عليك الخيال بالشيء الكثير منه ؟

ان كنت تستطيع أن تذهب هذا المذهب فى هذا الفجور المعروض للناظرين فى الطرقات العامة والمزدحمات فقد يكون لك شيء من العذر اذا قلت ان أفعال المسلمين وأقوالهم جميعاً يجب أن تحمل على انها طاعات وعلى ما لا إثم فيه ولا خطأ . أما اذا ذهبت الى أن ذلك فسق ظاهر ، وفجور لا ريب فيه ، ودعارة فاضحة ،

وخروج على الآداب والأخلاق ، وعدوان على أهل أولئك النسوة وعلى الناظرين اليهن أيضاً لأنهن يرينهن ما لا يقدرون على نيله كله وما لا يصبرون عنه كله . فأنت ذاهب ولا شك الى أن زعم هذا الشيعى زعم لا يتقبله الله وزعم لا يتقبله الناس الذين لم يؤسروا بالأهواء والأغراض

ثم أرأيت أولئك الشبان المتخنثين ، الصانعين بأجسامهم ما تصنعه الفتيات بأجسامهن من تنميص وتفليج وتزجيج وتصفيف وتفريج . المتراكضين وراء الفتيات ، الرامين لهن بأحر الألفاظ وأبردها ، المغازلين لهن ، المشيرين المادحين المثنين ، أرأيت هؤلاء فى آفاق المجامع والطرقات ؟ أتراك تستطيع أن تبرئهم من الاثم ومن الاتهام بسوء النية وفسق الضمير . أتراك تستطيع أن تحمل جميع ذلك على وجه صحيح ومعنى برىء عفيف وأن تتطلب له ضروب التأويل والتفاسير التى لايضن بها خيال . لأن هؤلاء الشبـان مسلمون . ولأن المسلمين يجب ألا يتهموا ويجب أن تحمل أقوالهم وأفعالهم المحامل الصحيحة البريئة مهما بعدت تلك المحامل وشطت ؟ إن كنت تستطيع أن تذهب هذا المذهب فى هذا فقد يكون لك بعض العذر إذا ادعيت أن أقوال المسلمين وأفعالهم لازم حملها على البراءة والطهر ؟

أما إذا ما أبيت إلا اتهام هؤلاء الرجال بالفسوق والدعارة ، وإلا رميهم بالانسلاخ والانملاص من الآداب الفضلى والأخلاق المطهرة ، واصررت على أنهم فى حاجة الى تأديب صارم حاسم وعقاب رادع عارم ، فلا ريب فى أنك قائل ان ما زعمه هذا الشيعى زعم أقل ما يقال فيه أنه زعم من هو فى حاجة الى أن يتعلم ، وزعم من العلم فى غنى عن أن يؤلف فيه كتابا يتصدى فيه لأسمى المباحث البشرية ، أعنى المباحث الالهية . ثم أرأيت إنسانا مسلما رأيته يقبل فتاة في الطريق العام ويراشقها الألفاظ البذيئة ، أتراك تستطيع ألا تظن بهذا الفتى السوء والمكروه أو أتراك تستطيع أن تقول إن هذا زوج هذه بلا ريب ؟ إن كلام هذا الرافضى

يقضى بأن يكون الجواب نعم ؟ ثم أرأيت مسلما وجدته يضرب رجلا ضربا مبرحا وجيعا على مرأى ومسمع من النـاس ، والرجل المضروب يستصرخ ويستغيث ويطلب النجدة والعافية . أترانا مطالبين بأن نحمل هذا الضرب على التأديب والعقاب المشروع ، فلا نمد أيدينا لانقاذ ذلك المضروب المستصرخ الصارخ لأن ذلك الضرب مشروع مطلوب لايجوز منعه ؟ ان كلام هـذا الرافضى يقضى بأن يكون الجواب نعم ، أما نحن فنقول كلا والله . ثم أرأيت رجلا مسلمًا رأيناه حاملا سيفه على رجل لانعرفه ليقتـله ، أترانا مطالبين بأن نحمل ذلك القتل على القتل المشروع القصاص وأن نفهم لزومًا أن المقتول مستوجب القتل لذنب جنـاه ؟ أو رأينا مدعيًا الاسلام ممن فظعت أخلاقهم وخشنت طبـاعهم يضرب غلامًا ضربا فظيعًا وجيعًا والغـلام يصيح بأندى صوته : أغيثونى أغيثونى ، أترانا مطالبين لزومًا بأن نبادر فنقول ان هـذا الضرب ضرب تأديب لازم فيه حكمة وفيه فائدة كمسألة اليتيم الذي افترضه هذا الرافضى؟ ان الجواب عنده نعم ، وعند الجميع لا

ثم أرأيت لو وجدنا مدعيًا للاسلام يغتاب إنسانًا أقبح الاغتياب أو وجدناه يسبه كفاحًا أقبح السب ، أترانا مطالبين بأن نحكم أن ذلك الاغتياب وذلك السب مشروعان وطاعتان إما لأجل تأديب ذلك المسبوب المغتـاب وإما لأجل النصح والتحذير منه أو لأجل أغراض أخر ؟ جواب الرافضى نعم ، وجواب الجميع لا

الى غير ذلك من المثل التى تبين فساد كلام هذا الرجل وخلطه العظيم

أما المثل الذى ضربه لنا من ضرب اليتيم ، فهذا على حسب القرائن والشواهد فقد نحكم بأن ذلك الضرب إثم وإيذاء وجريمـة ، وقد نحكم بغير ذلك . أما اذا لم تكن هنالك قرائن ولا شواهد لا فى الغـلام المضروب ولا فى الضارب فالراجح لدينا فى هذه الحالة أن نقضى بأن ذلك الضرب ضرب غير مشروع وأن الضارب ظالم والمضروب مظلوم ، وذلك لأن الغـالب على النفوس الظلم والشر والعدوان

ولأن الانسان ظلوم كفار جبلة وطبعاً ، والظلم من شيم النفوس ، كما فى الحكمة الطائرة ، وفى القرآن الكريم ان الانسان لظلوم كفار . وأما الرجل الذى يضاجع امرأة لاندرى حالها ولا حاله فعلى حسب القرائن أيضا يكون الحكم فى هذه المسألة . فلو رأيناه يضاجعها فى مكان مريب وحالة مريبة لرجحنا ألا يكونا زوجين ، وأن يكونا فاسقين عاهرين ، ولا سيما اذا علمنا رقة دينهما . وأما اذا ما وجدناه يضاجعها فى بيته مع الطمأنينة والهدوء والشواهد الزوجية ففى هذه الحالة نرجح أنهما زوجان ، لا لأنا مطالبون بأن نحسن الظن بالرجل لأنه مسلم ولأن المسلم يجب أن تحمل أفعاله وأقواله على الطاعة ، كلا . وإنما نرجح ذلك بالقرائن الموجودة حتى ولو كان ذلك المضاجع غير مسلم . فالعلة هنا فى هذا الحكم ليست هى الاسلام بل هى القرائن المحيطة

أما شارب الشراب الأحمر فعلى حسب ما تقضى القرائن أيضاً . فمن رأيناه يشرب ذلك الشراب الآخذ لون الخمر فى حانات الخمر ودور الفسوق وجب أن نرجح أو أن نقطع أن ذلك الشراب خمرة لا خل ، وأن ذلك الشارب آثم عاص ولا سيما اذا كان ذلك الشارب معلوماً بقلة الدين ورقته ، أو رأينا علامات الثمل بادية عليه قائمة فى عينيه وخديه وشفتيه . وهكذا يكون الجواب عن جميع المثل التى يذكرها هذا الرجل أو غيره

وليعلم أن ترجيح أحد الأمرين فى هذه الحالات ليس بالاسلام ولا بالكفر بل بالقرائن والشواهد الحافة بالموضوع ولا ريب ، فان اسلام أغلب الناس اليوم بل وفى أكثر الأيام لايمكن أن يكون حاجزاً عن غشيان المحارم وركوب الآثام والجرائم ، واذا كان الأمر كذلك فلا يكون ادعاء المرء الاسلام برهاناً على أنه لا يعمل إلا الصالح من الأعمال ، وأنه لا يعمل السوء والاثم ، هذا خلاف الواقع المشهود

ثم يقال لهذا الرجل : اذا كان صحيحاً واجباً حمل أقوال المسلمين وأفعالهم على الطاعة والصحة وعلى البراءة من الاثم والخطأ فلماذا لاتحمل أقوال مخالفيك ومن تزعم الرد عليهم على ذلك ؟ ولماذا لاتتطلب المخارج الصحيحة البريئة لما يقولون ويفعلون فتبرئهم من التضليل والتخطئة واللائمة ؟ أتراه حقاً أن تؤول لعامة الناس ودهمائهم وفساقهم وجهالهم ولاتؤول لجهابذة الاسلام و نصراء الملة كشيخ الاسلام ابن تيمية وتلامذته ؟ بل لماذا لا تؤول هذا التأويل لصحابة رسول الله ﷺ فلا تكفروهم أو تفسقوهم . أترى التأويل والتخريج يسع جهال الشيعة وفاسقيهم وفى كل قوم فاسقون ولا يسع أبا بكر وعمر وعثمان وأزواج النبى المطهرات وصحابة رسول الله ﷺ . أترون هذا من الحق والصواب ؟ ويحكم ! أترون فى هذا شيئاً من الهدى والرشاد ؟

يسير جداً على من وجد تأويلا بريئاً لجاهل يقول يافلان اشفنى ويافلانة اهدى قلبى واغفرى ذنبى أن يجد ذلك التأويل البرىء لأبي بكر وعمر وأن يجده لمن قال وهو من الدعاة الى الله ومن نصراء دينه « لا يستغاث إلا بالله ، والأموات لا يدعون ولا يستغاثون ولا ينفعون أو يضرون » أو قال « ان الله تعالى يجب أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من الاستواء على العرش والعلو على المخلوقات »

أما أن توجد التأويلات الصحيحة للجهلاء الظالمين اذا استغاثوا بالأموات ودعوهم وانقطعوا اليهم ثم لاتوجد لمصاصة الناس وجهابذة الاسلام فهذا مالا يصطبر عليه مسلم وما لا يطيق احتماله منصف

ثم ألا يعلم هذا الرافضى أن القرآن الكريم يقول فى الشهادة والشهود : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » فى مواضع من كتابه . ألا يعلم لماذا يشترط فى الشهود أن يكونوا ذوي عدل ؟ ألا يعلم أنه لو كان الواجب أن تحمل أفعال من

ادعى الاسلام وأقواله على الصحة والصدق والطاعة لما احتاج القرآن الى هذا الشرط شرط العدالة ، هذا واضح بين ثم ألا يعلم ما يشرطه المحدثون لرجال الرواة من معرفة حال الراوى والعلم بعدالته . ومن قولهم انه لا يكفى فى عدالته ادعاؤه الاسلام وظهوره بشعائره . فكيف اذا ما كان فاسقاً واضح الفسق . وألا يعلم أنه لو كان واجباً الحمل على العدالة والصحة لما كانوا فى حاجة الى اشتراط معرفة عدالة الراوى ، بل كان يكفى فى عدالته ادعاؤه الاسلام ، ومعرفته بأن الكذب حرام ! ؟ . هذا عن المقام الأول

(المقام الثانى)

يقال فيه نحن ــ وان سلمنا أن أفعال المدعين الاسلام وأقوالهم يجب أن تحمل على الوجه الصحيح البريء اذا كانت محتملة وجوها صحيحة وفاسدة ــ لا نسلم بأن الاستغاثة بالأموات وطلب الرزق والعافية منهم والنصرة على الأعداء من هذا النوع المحتمل الوجوه الذى يجب أن يذهب فيه الى الوجه الصحيح البريء . بل نقول ان الاستغاثة بالأموات ، كقولهم يا فلان أغثنى ويا رسول الله ارزقنى واهد قلبى واغفر ذنبى وأشباه ذلك من الأقوال الصريحة الصحيحة فى البطلان وفساد العقيدة ، ولا تحتمل وجوهاً ولا وجهين يمكن أن تحمل على وجه صحيح بريء لايمس العقيدة والايمان . بل هي لا تحتمل غير وجه فاسد صريح فى فساده وهو الاعتقاد أن الأموات قادرون على اعطائهم ما يسألونه استقلالا ، إما بتفويض الله التصريف إليهم واما بغير ذلك . ولولا هذه العقيدة ورسوخها فى نفوسهم لما فزعوا الى الأموات ولما جاءوهم طامعين آملين ، ولوجدوا مندوحة عنهم وعن هذه الكلمات المملوءة بالطمع والاطمئنان إليهم والى قدرتهم على التصريف والامداد والاعطاء والمنع والضر والنفع . ولا يمكن أن يفهم أبداً لهذه الاستغاثات والضراعات موجب

ولا معنى اذا ما كان الداعون يعلمون أن من يدعونهم عاجزون عن نفعهم وعن إعطائهم ومنعهم . . ولا يستطيع إنسان عاقل أن يدعى أن انسانا يطلب شيئا وحاجة ممن لا يقدر على شيء وممن هو عاجز عن نفع نفسه عنده

أترون هؤلاء الداعين المستغيثين بالأموات غير مالكين لألسنتهم ؟ أترونهم غير مختارين ولا كاملى التصرف ؟ وإلا فلماذا يقولون لمن يعلمون أنه عاجز عن نفعهم وعن نفع نفسه أغثنا ، ارزقنا ، اهد قلوبنا . ألا يقدرون أن يقولوا غير ذلك اذا ما كانوا يريدون غير ما يفهم من هذه الكلمات وغير ما وضعت له فى الخطاب العام ؟ أية حكمة لهؤلاء الجهال فى عدولهم عن استعمال الكلمات فيما وضعت لتدل عليه واستعمالهم من الكلام ما يدل على معنى لمعنى آخر بعيد عنه جداً ؟ أيجد المرء لهذا شيئا من الحكمة والفائدة ؟ ولا ريب أن هذه الأقوال والدعاوى أقوال قرمطية باطنية . وسوف يعلم القارىء أن هذا الشيعى من الشيعة الباطنية الغالية ، وليس من الشيعة المعتدلين الذين يرعون للدين حرمة ولله وقاراً . وسيمر بالقارىء أنه على مذهب الفاطميين الذين استولوا على مصر وأفسدوها أعواما طويلة

فهذه الأقوال والاستغاثات صريحة فى الضلالة لا ينازع فى ذلك الا من ينازع فى أن قول القائل « سبحانى عز شانى » وقول الآخر ان « لا إله الا الله ، ما فى الجبة الا الله » وقول الآخر « أنا ربكم الأعلى » وقوله « ما علمت لكم من إله غيرى » أقوال مؤوّلة مفسرة تفسيراً صحيحاً ، وانها ليست صريحة في الكفر والالحاد ، ولا ينازع فى ذلك الا من نازع فى قول بعض الملاحدة المدعين الاسلام « ان الأنبياء لم يأتوا الا بالشرك والالحاد » وقولهم « ان كلمة لا اله الا الله فاسدة ، و ان القرآن كله تشبيه وضلال ، وان الدين الاسلامي دين للعامة دون الخاصة » وقول أحد هؤلاء الملحدين :

عقد الأنام على الاله عقيدة … وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ونظائر ذلك من أقوال الملحدين . فالذى يحسن الظن بهذا يحسن الظن بذاك والذى يقول إن هذا كفر ولا ريب لأنه إنباء عظيم عن فساد العقيدة يقول إن ذلك أيضا كفر لأنه إنباء عظيم أيضا عن فساد الدين . والتفريق بين الأمرين اضطراب والتأويل لهذا كله من أكبر أنواع الضلال والمروق من الدين والعقل ومما يردّ على هذا الشيعي دعاواه فى التأويل لهؤلاء الداعين الاموات أن على بن ابى طالب رضى الله عنه حرق أولئك القوم باذرى بذور الشيعة لما أن قالوا له : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا . وهم كانوا من المتظاهرين بالتشيع الغالين فيه . فأضرم علىّ نيرانا عظيمة ورماهم فيها مستحلا دماءهم . وقد عدهم بهذه الاقوال كفاراً لاحظ لهم فى الاسلام وقضى عليهم بالموت تحريقاً . فلماذا لم يؤول لهم على إذا ما كان هنالك شيء اسمه التأويل ولماذا لم يعد أقوالهم هذه مجازات يراد بها غير ظاهرها وما يبدر منها فلم يبح دماءهم إذا ما كان للتأويل أصل ؟ بل لماذا لم يشكّ فى مرادهم فيسألهم عما يريدون . ولعلهم يريدون غير ظاهر قولهم . ولعلهم يعرفون المجازات وضروبها ؟ ! لايقال إن بين أقوالهم هذه ودعواهم فيه وبين أقوال هؤلاء الدعاة للاموات فرقا . فلا يمكن التسوية بين هذا وهذا . فاننا نقول ليس المقام هنا مقام التسوية بين ما قاله الذين حرقهم على وبين ما يقوله هؤلاء المنقطعون الى الأموات وإنما الكلام فى المجاز واللجوء الى التأويل . فان جاز التأويل فى أحد هذين الأمرين جاز فى الامر الآخر وإن امتنع فى أحدهما امتنع فى الآخر ولا فرق . والمخالف يوافق أن ظاهر أمر دعاة الأموات كفر ، ولكنه أول ذلك وحمله على المجاز . ولولا التأويل والمجاز لحكم عليهم بالكفر والردة . وكذلك يقال في مقالة من حرقهم على هي كفر ظاهر ولكن التأويل واللجوء إليه يمنع التكفير ويدل على أن الظاهر غير مراد

ثم أى فرق بين قول القائل أنت ربنا وخالقنا ورازقنا لمخلوق وبين قول

الآخر أنت شافينا وغافر ذنوبنا وهادى قلوبنا ومغيثنا مما نزل بنا من الكروب والخطوب لميت تحت الثرى . أظن أنه لافرق بين الأمرين . فان هذا كله فعل الله لا يقدر عليه سواه . وقد أضيف إلى غيره سبحانه

وكذلك أيضا الامام على لم يؤول للخوارج لما رموه بالكفر والخروج من الدين لما أن قبل التحكيم ورضى بما قاله الحكمان . فلما أن قالوا له إنك قد كفرت فاعترف على نفسك بالردة بعد الايمان ثم ارجع الى الاسلام من جديد وإلا فلسنا منك واست منا ونحن منك براء عد قولهم هذا صريحا فى ضلالهم لايقبل التأويل ولا الحمل على المجازات . فرد عليهم رضى الله عنه رد العارف بغرضهم وما يريدون ولقد كان هينا عليه أن يحمل كلامهم على المجازات وأن يحمله من التأويل مثل مايدعيه هذا الرافضى . ولكنه لم يصنع شيئا من ذلك

هذا وليعلم أنه إذا ما استطيع تأويل هذا استطيع تأويل كل شيء . وهذا عين الخبال وغاية الفساد . هذا عن المقام الثانى

(وأما المقام الثالث)

فالجواب أن يقال نحن وإن سلمنا أن أقوال المسلمين وأفعالهم يذهب بها الى الصحيح البريء . وسلمنا أن الاستغاثة بالأموات من هذا النوع الذي يصح أن يؤول وأن يحمل على الصحيح إلا أنا نقول واثقين مطمئنين إن الاستغاثة بالأموات وسؤالهم مالا يقدر عليه إلا الله كطلب الشفاء والهداية وغفران الذنب حرام بلا ريب وخروج على الدين وعلى التوحيد وإساءة أدب مع الله مهما أراد به قائله ومهما كان سليم النية والقصد . بل وإن كان لايريد بقوله شيئا من الاشياء أو أراد المجاز والتأويل أو عقد فى ضميره معنى من المعانى التى لا تخالف الدين ولا تحمل سوء أدب لله . فهذه الاستغاثات بالموتى وسؤالهم المطالب العالية التى لا يستطيعها

مخلوق لا حي ولا ميت لا اشتراكا ولا استقلالا بل هي من عمل الله وحده وفعله وحده هي قلة أدب مع الله تمس إيمان قائليها وتصدم عقائدهم وتفسدها على كل وجه من الوجوه المفترضة في قصد المستغيث السائل . ولا ينازع مسلم في أن هنالك كلمات تقضي بكفر قائلها وخروجه من الاسلام وتقضي بردته وإن كان قائلها لا يريد ما يبدو منها ، بل وإن صرح بأنه لا يعني ما دلت عليه ألفاظه وكلماته وصرح أنه ينتحل المجازات والكنايات فيما يقول وإن ادعى ما ادعى من ذلك ، فان من قدح في الاسلام أو في الله أو في الأنبياء حكم بكفره وردته بظاهر ما قال وإن زعم أنه يريد غير ما يفهم الناس من قوله بل وإن زعم أنه يحكي وينقل أو ذكر احتمالا من الاحتمالات ، فلا يمكن أن يقبل شيء من ذلك

وكذلك لو قال قائل ان القرآن ليس فيه ما يعرف العقيدة الصحيحة والدين الحق أو قال انه جاء بالباطل أو انه يخالف العلوم والواقع أو قال أنه متناقض متدافع أو زعم أنه جاء بالشر والفساد أو قال ان الرسول جاهل مثلا ونظائر ذلك فمن قال شيئا من ذلك كفر وحكم عليه السامع بالردة وحكم عليه المسلمون بذلك ولم يتساءلوا عن ضميره وعما يعتقده في نفسه وعما ينويه ، بل ولم يشكوا أو يتوقفوا أو يختلفوا ، وبهذا ينتظم الأمر ويقمع الزيغ ويوأد الالحاد في صدور الملحدين ويضيق على الشر فلا يجد مناديح وفسحا فلا ينمو أو يشب أو ينتشر . وبغير ذلك يختل النظام ويقلق حبل الأمن ويجد الضلال المخارج والمولج والمصادر والموارد ويبدى كل صفحته ويرفع كل عقيرته فيتنفس الملحد إلحاده والضال ضلالته ويقول كل ما يشاء من الكلام الفاسد ومن سوء الأدب مع الله ومع الدين والمؤمنين والنبيين ويذهب بكل شيء من ذلك الى المجاز والتأويل ويفزع صاحبه إن أوخذ الى ذلك فلا يستطاع أخذه أو مؤاخذته بقول من الأقوال وكلمة من الكلمات فتفسق النفوس وتشيع الفوضى الاعتقادية ولا محالة . وهذا ما حصل لبعض الناس الذاهبين

هذا المذهب الفاسد حتى ان من قال « ما فى الجبة الا الله » ومن قال « سبحانى عز شانى » وجد من يؤول له كلامه ويحمله المحمل الحسن ومن يحسن الظن به ، وكذلك قال قوم ان كلمة لا اله الا الله فاسدة ، وان الأنبياء لم يأتوا الا بالشرك والشر وأن القرآن كله تشبيه وتجسيم ، وأن الأولياء أفضل من الرسل وقال أحدهم : أنا أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين ، وقال بعض المنتسبين للاسلام أكثر من هذا وأشنع ، فوجد من أحسن الظن بهذه الاقوال ومن أولها وفسرها تفاسير جميلة أو مقاربة ، ومن صدق الدفاع والذياد عن أصحاب هذه المقالات حتى رموا من عارضوا قائليها بفساد العقيدة وبالكفر ، وهذا معلوم مدوّن فى كتب مطبوعة يحسن بها الظن اليوم وقد يحسن بها الى ما بعد اليوم الى ما شاء الله . وهذا البلاء دخل من هذا الباب باب التأويل المبنى على حسن الظن بمن ادعى الاسلام أو ولد بين آباء مسلمين ومدعين للاسلام

ولا نعرف لماذا لايسع هؤلاء من الكلام المعروف البرىء ما وسع المسلمين الأولين وما وسع خيار المؤمنين اذا كان هؤلاء صادقين فى الاسلام والايمان ؟ ولماذا لم يسعهم ماوسع رسول الله وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً والأكرمين من الأنصار والمهاجرين ؟ وما الذى اضطرهم إلى تعشق هذه الألفاظ الموحشة والكلمات العظيمة الشنعاء اذا كانوا لا يريدون ظاهرها ، وان كانت لا تنبىء عن نبأ محبوس فى صدورهم ؟ أهم يرون فى هذه الالفاظ المخيفة زيادة قرب الى الله أو فضل فلسفة أو عمق بحث ؟ كلا ان ذلك لا يكون ، وأنهم لا يدعون هذا ، بل لماذا لا يسعهم ما وسع عقلاء البشر من مسلمين وغير مسلمين من وضع الكلمات فيما وضعت لتدل عليه ؟ إنه لا جواب عن هذه السؤالات الا أن يكون الجواب ان فى نفوس قائليها أمراً نكراً عظيما ، وإن من وراء هذه الألفاظ عقيدة قذف بها الزيغ ، وهزها هزات متوالية تساقطت بها هذه الألفاظ المنكرة ، وأمطرت هذه الكلمات المخيفة

وإذا كان من الكلام ماهو كفر بظاهره كما رأيت فلا ريب لدينا أن من هذا النوع الاستغاثة بالأموات وطلبهم ما لا يقدر عليه الا الله وأن من هذا النوع أن يقول القائل الرسول خالقنا ورازقنا ومغيثنا ومحيينا ومميتنا وباعثنا. ومثله ولا خلاف أن يقول القائل انه عليه السلام يشفي مرضانا ويهدي قلوبنا ويغفر ذنوبنا ويرد غائبينا ويوسع رزقنا. فقائل هذا كافر ولا ريب، وقد أجازه صاحب هذا الكتاب مخالف إجماع المسلمين بل وإجماع العقلاء من غير المسلمين، وهذا لا فرق بينه وبين قول القائل ان الرسول أو غيره خالقنا ومحيينا ومميتنا ومحاسبنا ومعاقبنا أو مثيبنا، بل هذا كله يبيحه هذا الشيعي ويزعم أنه لا خطأ فيه ولا غلط ولا شيء من المؤاخذة بل هو مجاز معروف مشهور وارد في كلام العرب بكثرة لاتنكر

وقد قدمنا في الأمر الخامس أن هذه المطالب من الأموات متضمنة بلا ريب الاعتراف بأنهم يعلمون الغيوب وأنه لاتخفى عليهم خافية قريبة أو بعيدة، ولهذا يدعونهم من كل مكان وفي كل مكان، وهذا الرافضي يقول أنهم يريدون بهذه الأدعية والضراعات أن يكونوا لهم شفعاء ووسطاء. فاذا سلمنا هذا كان برهاناً صارخاً بأنهم يعتقدونهم يسمعون دعاءهم من كل مكان بعيد أم قريب ولا يخفى عليهم شيء من هذا، وهذا كفر مستقل، لأن الله وحده هو الذي يسمع من كل مكان وفي كل مكان لا يشغله صوت عن صوت ولا هتاف عن هتاف، فمن اعترف بهذه الصفة لمخلوق فقد باء والله بها والعياذ بالله، وهذا لا ينازع فيه على ما أعلم هذا المصنف المتغالي في تعصبه، وأيضاً هذه الأدعية مشتملة على التعظيم الجم والتمسكن الوافر لهؤلاء الأموات وهذا نوع من أنواع فساد العقيدة سوف يجيء القول فيه

وأما ما ذكره من المجاز كقولهم بني الأمير المدينة فقد أسلفنا القول فيه مشبعاً في الأمر الخامس وسوف يأتي زيادة بيان لهذا

الامر الرابع عشر

قال الرافضي « العبادة في اللغة الذل والخضوع ومنه بعير معبد أى مذلل ، وطريق معبد أى مسلوك مذلل ، ونقلت في الشرع الى معنى جديد أو أريد بها معنى خاص من المعاني اللغوية

« فالعبادة بمعناها اللغوى الذى هو مطلق الذل والخضوع والانقياد ليست شركا ولا كفراً قطعاً وإلا لزم كفر الناس جميعاً من لدن آدم الى يومنا هذا لأن العبادة بمعنى الطاعة والخضوع لايخلو منها أحد ، فيلزم كفر المملوك والزوجة والولد والخادم والأجير والرعية والجنود بل كفر الأنبياء

« ثم أنه ورد فى الشرع إطلاق العبادة والعباد على مطلق المطيع والطاعة فورد أن العاصى عبد الشيطان وعبد الهوى وقال الله تعالى « أفمن اتخذ إلهه هواه [1] » « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » مع ما ورد أنهم ما صاموا لهم ولا صلوا وإنما حرموا عليهم حلالا وأحلوا لهم حراماً فاتبعوهم ، وان الانسان عبد الشهوات ، وإن من أصغى الى ناطق فقد عبده ، فان كان ينطق عن الله فقد عبد الله وان كان ينطق عن غير الله فقد عبد غير الله . ومن هذا القبيل قول رابعة العدوية :

لك ألف معبود مطاع أمره دون الاله وتدعى التوحيدا

« ولا ريب أن هذه الأمور التى سميت عبادة لا توجب الكفر والارتداد ، وإلا لم يسلم منه أحد والضرورة قاضية بخلافه

« ثم ان من جملة العبادة السجود وقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، وسجد يعقوب وزوجته وبنوه ليوسف كما أخبر عن ذلك القرآن الكريم . فدل على أن

(١) وصحة الآية « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه »

السجود ليس فى نفسه قبيحاً وممنوعا منه موجباً للشرك والكفر وان سمى عبادة ، وإلا لم يأمر به الله وأنه ليس مثل اتخاذ الشريك للبارى فى جميع صفاته ، فان هذا لا يعقل أن يأمر الله به أو يجيزه ولا يمكن الا أن يكون شركا وكفراً . وعلم من ذلك أيضاً أنه ليس مطلق الخضوع والتعظيم حتى السجود لغير الله قبيحاً فى نفسه ، وشركا وكفراً

« ثم انه ورد اطلاق العبادة على دعاء الله تعالى فى القرآن بقوله تعالى « ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى » والأخبار بقوله عليه السلام « الدعاء مخ العبادة » ولكن ليس المراد بالدعاء هنا معناه اللغوي قطعاً وهو النداء ، وإلا لكان كل من نادى أحداً وسأله شيئا عابداً له ، بل المراد به نداء الله وسؤاله والقيام بغاية الخضوع والتذلل بين يديه وانزال حاجات الدنيا والآخرة به على أنه الفاعل المختار والمالك الحقيقى لأمور الدنيا والآخرة والمتصرف فيها كما يشاء . فمن دعا مخلوقا على هذا النحو كان عابداً له . أما من دعاه ليشفع له الى الله بعد ثبوت أن الله جعل له الشفاعة فلا يكون عابداً له ولا فاعلا ما لا يحل

« فظهر أنه ليس كل ما يطلق عليه اسم العبادة موجبا للشرك والكفر اذا وقع لغير الله بل ولا محرما ، الا أن ينص الشارع على تحريمه كالسجود للشمس والقمر المنهى عنه فى القرآن والسجود لغير الله متفق على تحريمه ، وأن مطلق الخضوع والانقياد لغير الله لا يوجب ذلك ولو فرض أنه سمى عبادة وأن العبادة التى يترتب عليها ذلك ليست العبادة اللغوية بل عبادة خاصة لا يمكن معرفتها الا ببيان الشارع ، وبدون بيانه تكون مجملة ، وأنه لا يجوز ترتيب حكم الشرك والكفر بل ولا التحريم على ما يسمى عبادة الا اذا علم أنها من تلك العبادة الخاصة ومع الشك أو الظن لا يجوز ترتيب ذلك الحكم . فاذا فرض ورود النهى عن عبادة غير الله فما علم أنه من المنهى عنه حرم وما لم يعلم لم يلحقه الحكم كالتكفير والانحناء عند العجم ورفع

اليد عند الجنود وكشف الرأس عند الافرنج وغير ذلك للعلم بأن المنهى عنه ليس مطلق ما يسمى عبادة وخضوعا

«ثم ان الذى علم ترتب حكم الشرك والكفر عليه من العبادات أو الاعتقادات أمور (الأول) اعتقاد المساواة لله فى جميع الصفات أو أنه هو الله كما يقول عبدة المسيح وأمه فيما حكاه عنهم القرآن ، وكما يقوله السبئية فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب وكما يقوله الدروز فى الحاكم أحد الخلفاء العلويين المصريين وغيرهم من الألوهية لشخص من الأشخاص ولو بطريق الحلول (الثانى) انكار الشرائع وتكذيب الرسل وان اعترف فاعله بتوحيد الله ولم يعبد وثنا بل بقى على شريعة منسوخة (الثالث) ما ذكر مع عبادة الأوثان بما لم يأذن به الله بل نهى عنه من سجود ونحر وذبح لها وذكر اسمها عليه وطلبها بدمه وتعظيم باعتقاد استحقاق ذلك بالاستقلال لرفعة ذاتية واعتقاد أن له تدبيراً واختياراً كما كان يفعله عبدة الأصنام سواء كان مع الاعتراف بوجود الله وعدمه » انتهى كلام العاملى

قلت : وهذا الكلام ينم على حيرة متمكنة وقلق مستول على عقيدة صاحبه حتى ليكاد القارىء يمس الحيرة والقلق والاضطراب مساً ، وقد جمع أنواعا من الخطأ فى اللغويات والعقليات والمرويات والاعتقاديات ، وبيان هذا بامور :

(أولا)

يقول ان العبادة معناها فى اللغة الذل والخضوع والانقياد . وعليه فكل من ذلّ لشىء أو خضع له أو انقاد فهو عابد له لغة . وهذا باطل بالاجماع لا يختلف فى بطلانه رجلان يعرفان مواقع كلام العرب . فانه لم يقل واحد من علماء اللسان ان كل خضوع عبادة ولا ان كل ذل عبادة ولا ان كل انقياد عبادة . ولا يوجد فى كلام العرب كلة واحدة تشهد لهذا القول لا من قريب ولا من بعيد . بل ان

الضرورة قاضية ببطلان هذا القول وفساده ، والناس مجمعون على خلافه لا يظن إنسان يتكلم اللغة العربية أن كل خضوع عبادة وكل ذل وانقياد عبادة . ولا يمكن أن يقول انسان لمن رآه يخضع لأمر والده أو أمر رئيسه خضوعا مشروعاً لا إسراف فيه انه عبد أباه أو عبد رئيسه ولا أن يقول لمن ذل لمن هو أقوى منه ولمن هو قادر عليه أو انقاد له انقياداً لا غلو فيه بل انقياداً عاديا وخضوعا عاديا وذلة عادية : انه عبده أو انه عابده ولا يخطر هذا على بال انسان ، والناس كلهم يعلمون أن تسمية مثل هــذا عبادة غلط ولا ريب ، وهم لايمكن أن يعدوا أنفسهم عابدين لسلطة الحكومة وقانونها اذا خضعوا لذلك وانقادوا طوعا أو كرها ، ولا يرتابون في أن تسمية هذا الانقياد والخضوع عبادة غلط مبين ، ولو كان هذا القول صحيحاً لكان المسلمون والمؤمنون حتى خيارهم وفضلاؤهم بل ورسلهم وأنبياؤهم يعبد بعضهم بعضاً عبادة لغوية حقيقية لأن من الايمان أن يذل بعضهم لبعض ذل تواد وتراحم وتعاطف لا ذل هون وهوان . قال الله تعالى فى وصفهم « أذلة على المؤمنين » وقال تعالى « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وقال فى بر الأبوين « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، ولأن من الايمان أن يطيع بعضهم بعضاً فى المعروف وأن ينقادوا لأوامر أولى الأمر منهم فى غير معصيــة ولا إثم ، ولكن من الاثم والسخف أن يقال ان المسلمين باتباعهم هذه الأخلاق السماوية الساميــة عابد بعضهم بعضاً عبادة لغوية ، أو أن يقال انهم بهذه الآداب الالهية الفضلى العليا يؤمرون بأن يعبد فريق فريقاً وأن تعبد طائفة منهم طائفة أخرى ، بل يؤمرون بأن يكون كل فريق عابداً معبوداً

ومن أكبر الاثم والجرم أن يقال : ان أبا بكر كان يعبد رسول الله وأن الصحابة كانوا يعبدونه ﷺ ، لأنهم كانوا مأمورين بطاعته والانقياد له والخضوع

لما يأمرهم به وقد كانوا كذلك ، أو يقال ان الصحابة كانوا يعبدون خلفاءهم وكانوا يؤمرون بعبادتهم ، والضرورة قاضية بأن من المدح والثناء أن يقال ان الصحابة والمؤمنين كانوا متطاوعين ، وكانوا أذلة على المؤمنين ، وكانوا منقادين لأوامر زعمائهم الراشدين الآمرين بالمعروف ، ولكن من الهجاء المر والذم القبيح أن يقال انهم كانوا متعابدين ، وأنه كان كل منهم عابداً معبوداً ، بل هذا من الكذب والضلال المبين ، ولو كان الأمران سواء لافرق بينهما ، وكانت العبادة هي الطاعة والذلة والانقياد مطلقاً بلا قيد ولا شرط لكان الأمران مديحاً أو هجاء ولكانا جائزين معاً أو ممنوعين معاً ، فاذا ما كان أحدهما مديحا وثناء وكان الآخر ذماً وهجاء علم يقيناً بأنهما ليسا سواء وأنه ليس معناهما واحداً ؟ وهذا واضح بين

فالعبادة لغة ليست هي مطلق الذل والانقياد والخضوع بالاجماع والضرورة .
بل العبادة أمر أسمى من ذلك وأخص وأشرف

قال الزمخشري في تفسيره الكشاف : « العبادة غاية الخضوع والتذلل » .
وكذلك قال غيره . وقالت العرب سبيل معبد . وبعير معبد . ويعنون بالسبيل المعبد : الطريق الذي وطئته الاقدام وطأ شديداً كثيراً حتى صار طريقا لاحبا بينا . ويعنون بالبعير المعبد المذلل المخضع شديداً بكثرة الحمل عليه واقتياده إلى الخسف والهون والمتاعب حتى سلس قياده وذهب شماسه . ولايقولون السبيل المعبد إلا إذا كان مطروقا موطوءا بشدة وكثرة حتى أصبح بينا واضحاً . ولا يقولون أيضا بعير معبد إلا إذا كان مذللا مسلسا مقوداً كثيرا حتى صار طوع يد الصغير والكبير وطوع يد الصبي والمرأة . وأما ماليس كذلك من السبل والبعران فلا يقال له معبد ولا يحمل عليه هذا اللفظ

ويقال شعب معبد إذا ما أذل وأخضع كثيرا . ويقال عبّد هذا الطاغية الناس أو استعبدهم إذا أرهقهم ذلة وهونا وهوانا وأشبعهم خسفاً وعسفا . حتى

انقادوا له انقياد العبدان المماليك . قال الله تعالى حكاية عن نبى الله موسى مخاطبا عدوه فرعون « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل » أى أن أخضعت بنى اسرائيل وجرعتهم من الذل أمره وأنكره حتى ذلت نفوسهم وتضاءلت وتخلت من العزة والحمية حتى رحت تذبح أبناءهم صبرا وقهراً بلا ذنب ولا جريمة ، وتستحيي نساءهم أى تستبقيهن للخدمة والاذلال وللأمور الأخريات الكبريات ؛ ويقال عاشق عبده الحب واستعبده إذا ما غلبه الحب على أمره وقاده هواه وهوى من أحب انقياداً لا عقل له ولا اختيار فوهبه حبه وعقله وجسمه . وقد قال الله فى مثل هذا « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله » ويقال هذا عبد الدنيا وعبد الشهوات والمآرب الوضيعة ، لمن تهالك على خدمة الدنيا وانصرف اليها بقلبه وقالبه ووهبها نفسه وقلبه ووقته وذله وخضوعه وصارت شغله الشاغل ومأربه الأول والآخر . وفى الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ أنه قال « تعس عبد الدينار . تعس عبد الدرهم . تعس عبد الخميصة . تعس عبد الخميلة . تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط » وهذا وصف الغلاة فى خدمة الدنيا وما فيها من آكال وملابس ، من لا يبالون شيئاً إذا نالوا ذلك وظفروا به . ويقال لمن غلا فى شيخه فى حبه وتعظيمه وخوفه ورجائه فأحله أعمق جوانب نفسه حتى انقاد لارادته ودفع اليه زمام اختياره زمام نفسه وذاته وكان كما يعبر أهل الطريق مثل الميت فى يد غاسله يقلبه كما يشاء يقال لمن غلا هذا الغلو فى شيخه انه عبده . وفى القرآن الكريم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم » وهذا كما جاء فى تفسير هذه الآية عن الرسول الكريم ﷺ أنه قال « انهم أحلوا لهم الحرام فأحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه » وقال « تلك عبادتهم للأحبار والرهبان » هذا معنى الحديث . وهؤلاء من غلوهم في الأحبار والرهبان يرون أن ما أحلوه فهو محلل عند الله ما

حرموه فهو محرم عنـده لصلتهم بالله الوثيقة الخاصـة ، وقربهم منه واطلاعهم على ما يريد ، وصلتهم بأسراره وأسرار تشريعه . وعلى هذا الاعتبار ذلوا لهم أبلغ الذل وأخلصه ، فانقادوا لما يهوون ويريدون بلا عقـل ولا اختيار ، حتى بلغ بهم الغلو أن راحوا يشترون لهم المنازل فى الجنة من أحبارهم ورهبانهم ، ويأخذون بها الصكوك والوثائق المختومة بخواتيم الكنائس والقسيسين ، كما راح المذنبون الجنـاة منهم ينثرون أسرارهم بين أيديهم وينشرون ما اجترحوه من الآثام والزلات الخفية المطوية حتى العذراء راحت تعترف لهم بما جنته على عفافها وعرضها وتنثر سرها بين أيديهم ، ويرون أنهم بذلك لا يؤاخذون ولا يعاقبون على ما قدمت أيديهم من ذنوب بعد هذا الاعتراف للقسيسين والرهبان

وقد صار الى هذا الغلو الفظيع كثيرون من جهال المسلمين ومن جهال الشيعـة خاصة ، فغلوا فى مشايخهم غلواً قبيحاً مزدرى فخافوهم خوفا نفسياً غيبياً عظيما عميقـا وراقبوهم فى الحضور وفى المغيب وعظموهم فى صـدورهم وفى أعمالهم تعظيما جعلهم يعتقدون أنهم يدخلون بينهم وبين أنفسهم ، وينفضون الى ذات صدورهم وينفذون بينهم وبين سرائر أنفسهم ، فراحوا يزعمون ويا بئس ما يزعمون أنهم يعلمون ما يجول فى زوايا أنفسهم وأنهم يسمعون دبيب الخطرات النفسيـة ويرونها تتقلب على صفحات القلوب والصدور بعيون نورانية إلهية ، ليست كهذه العيون المحدودة الجسدية الانسانية ، وأنهم يلمسون الأفكار والخلجات المترددة فى صدور مريديهم ومعتقديهم بأيد لا تحس ولا تمس ولا تدفع . وعلى هـذا الغلو راحوا يدعون أن مشايخهم أعلم بهم منهم بأنفسهم . ولا تسأل عما لازم هذه العقيدة وعما أثمرته من الذلة والخضوع والانقياد والطاعة العمياء لهؤلاء المشايخ أعاذنا الله من ذلك

ومن استسلم للذة نفسه وشهوتها وأخدمها عقله وقلبه وأعضاءه وسعى لها وحدها وحاسب نفسه لها وحدها ، من فعل ذلك فقد عبد لذته وشهوته ، وبتعبير أصح فقد

عبد حيوانيته . وفى الناس عباد شهوات ولذات كما أن فيهم عباد أوثان وأصنام ، وكلا الفريقين عابد غير ربه ، وكلا الفريقين مؤاخذ ملوم ، وقد قال الله تعالى فى عباد شهواتهم ولذاتهم « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه . أفأنت تكون عليه وكيلا » وقد جاء عن السلف أنهم قالوا « الهوى معبود » واستدلوا بهذه الآية الكريمة : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » ومن هذه المثل يرى القارىء أن العبادة فى لغة العرب ليست هى مطلق الذل والخضوع والانقياد والطاعة بلا قيد ولا شرط كما يدعى هذا الرافضى ، بل يرى القارىء من هذه المثل أن العبادة أمر أبلغ من ذلك وأخص ، ويرى أنها هى الذل البليغ المستولى على الظاهر والباطن ، مع الخضوع البليغ المستولى على الظاهر والباطن، مع الحب القوى المستولى على الظاهر والباطن مع الرغبة والرهبة المستوليتين على الأعمال وعلى القلب والنفس ، فمن ذل لشىء هذا الذل ، وخضع له هذا الخضوع ، وأحبه هذا الحب ورغب فيه هذه الرغبة ورهبه هذه الرهبة فقد عبد ذلك الشىء سواء أكان هو الله أم كان غير الله ، وسواء أكان فى ذلك مفرداً أم مشركا ، وسواء أسمى ذلك عبادة أم سماه غير ذلك ، وسواء أكان ذلك الشىء انسانا أم حيوانا أم جماداً حيا أم ميتا

أما من أحب شيئا كحب الزوج زوجته وحب الرجل أولاده ولم يخضع له فليس عابداً له لا لغة ولا شرعا . وكذلك من خضع لشىء كخضوع المرء لمن هو أقوى منه كالخضوع للاسد وكخضوع الشعب لسلطان الحكومة ولم يذل له ذلك الذل ولم يحببه ذلك الحب ولم يرهبه ويرغب فيه تلك الرهبة والرغبة فليس عابداً له وليس ذلك الشىء معبوداً . وكذلك من ذل لشىء ذلا مفرداً مجرداً لم يكن عابداً له لا لغة ولا شرعا . وهذا واضح

أما من جمع هذه الأمور كلها لشىء : للمخلوق أم للخالق فقد عبده ولا محالة لغة وشرعا . فمن أحب زوجته ذلك الحب وخضع لها ذلك الخضوع وذل لها ذلك

الذل ورهبها ذلك الرهب ورغب فيها ذلك الرغب فقد عبدها لغة وشرعاً ، وبلغة أخرى فقد عبد هواه وشهوته . ومثل هـذا المرء لن يكون عبد الله ما دام عبد امرأته وشهوته

ومن أحب شيخه هذا الحب وذل له هذا الذل وخضع له هذا الخضوع ورهبه ورغب فيه تلك الرهبة والرغبة فقد عبده لغة وشرعاً . أما من أحبه فقط حب احترام وإجلال فليس عابداً له ، أو خضع له ولأمره لأجل مصلحة عاجلة أو آجلة فليس عابداً له أيضاً ، وكذا لو رغب فيه أو رهبه لمـآرب خاصة

وهؤلاء المتعلقون بالأموات فى الشدائد لا ريب أنهم يحبونهم الحب الجم ، ويخضعون لهم الخضوع الوافر ، ويذلون لهم الذلة البالغة ، ويرغبون فيهم الرغبة الغزيرة ، ويرهبونهم الرهبة الكبرى . ولولا هذه الأمور وتغلغلها فى نفوسهم لما تجاوزوا إليهم كل صعب وذلول ، واقتحموا الى الوقوف بين أيديهم كل شقة ومشقة وعقبة كئود ، لم ينهنهم عن المثول بين أيديهم وفى حضراتهم منهنه ولم يعقهم عن ذلك عائق لا فقر ولا حاجة ولا مرض ولا شغل شاغل . وهؤلاء الذين يدعون الأموات حاضرين بين أيديهم وغائبين وينادونهم من كل مكان شاحط بعيد عند ما تحزبهم الحوازب وتمضهم المصائب لا شك أنهم خاضعون لهم أذلة محبون راغبون راهبون . ولا شك أنهم يحملون لهم من هذا المعنى فى قلوبهم وفى أعمالهم وأقوالهم النصيب الأوفر الأكثر . ولا شك أيضاً أن مخافتهم وحبهم والرغبة فيهم والرهبة من غضبهم ومنهم والخضوع والذلة لهم قد اخترقت أجسام هؤلاء الدعاة وتخللت عظامهم وجرت فى مساربها حتى اقتحمت القلوب والعقول والنفوس فتألفت فيها ذرات وقطرات فتكاثرت حتى صارت هى وحدها عناصر القلوب والعقول والنفوس وجواهرها وإن رؤيت بالابصار دما ولحماً وأعصابا ثم ذهبت تقسم على الأعضاء من لسان وعيون وجوارح من ذات نفسها فصارت

فى اللسان دعاء وضراعة واستغاثة ، وفى العينين نظرات ساهمة متلهفة شاردة ، وفى القدمين خطوات عجلى خاطفة ، وفى اليدين لمساً ومسحاً لتلك الأعتاب والأبواب والعمد والشبابيك ، وفى الشفاه لثماً وتقبيلا . وهذا كله لو حلل وتحلل فعاد الى مادته الأولى لصار ذلة وخضوعا وحبًا ورغبة ورهبة ، ولصارت تلك فى أوفر حالاتها . وهذا ظاهر لا ريب فيه

ومن المحال أن يدعو انسان إنسانا وهو غير خاضع له أو غير محب أو غير ذليل أو غير راغب فيه وراهب منه. فالذى يستغيث الأموات ويستجديهم ضروب الحاجات لا محالة من أن يرغب فيهم وأن يرهب منهم وأن يذل ويخضع لهم وأن يقف بين الخوف والرجاء وقفة يقف معها القلب والعقل والنفس وتتابع بينهما ضربات القلب ولهفات النفس . وهذا مما لا ريب فيه

فالعبادة ليست هي مطلق الذل والخضوع والانقياد كما يزعم هذا الشيعى بل العبادة لغة هى ماذكرناه . وإننا نتحدى هذا الشيعى ونطالب اليه أن يذكر دليلا واحداً من كلام العرب نثرها أو شعرها ، أو من كتاب الله أو من حديث رسوله على أن مطلق الذل ومطلق الخضوع يسمى عبادة ، وأن كل خاضع وذليل ومطيع ومنقاد يسمى فى كلام العرب أو فى نصوص الدين عابداً . وأما ما ذكر فسوف نذكر ما فيه

(ثانيا)

وأما زعمه أن العبادة قد نقلت من معناها اللغوي الى معنى آخر أو أريد بها معنى خاص من معانيها اللغوية فزعم غير صحيح ، وهو مبنى على زعمه أن العبادة فى اللغة معناها مطلق الذل والخضوع و الانقياد ، وقد رأيت وسمعت أن العبادة ليست هى هذا لغة وأنه لم يقل أحد من العرب أن كل ذل وخضوع وانقياد عبادة ولم

يشهد لذلك شاهد . بل الشواهد التى قدمناها كلها تبين كذب هذا الزعم

وإذ قد رأيت أن العبادة معناها غاية الخضوع والتذلل المتضمن للرغبة والرهبة والحب والانقياد والطاعة ، فلا يمكن الادعاء أن العبادة التى معناها هذا قد نقلت الى معنى آخر أو أريد بها معنى خاص من هذه المعانى . فان مسلماً لا يمكن أن يدعى أن هذه الأمور مجتمعة يصح أن تكون لغير الله لا لرسول ولا ملك ولا من دونهما . بل هذه كلها يجب أن تكون لله وحده لاشريك له وهي من حقه الخاص به ، ومن الدلائل على كذب هذا الزعم أنه لم يدع أحد من العلماء لا من السلف ولا من الخلف أن العبادة في اللغة ليست عبادة فى الشرع . ولم يدع أحد منهم أنه تحل عبادة غير الله ، وأنه لم يقل أحد من الناس للرسول الكريم لما طالب الناس بعبادة الله وحده إننا لانعرف معنى العبادة التى تطالبنا بها فما هي ؟ مهما لنا لنرى أنكون معك أم نكون ضدك ؟ ولنخص الله بها وحده ألا يلزم أن يسأل الصحابة عن العبادة المطلوبة منهم اذا كانت ليست هي التى يعرفون . ثم ألا يعرفها لهم الرسول أو القرآن وإن لم يسألوا عنها كما عرفوا الصلوات والصيام والحج وسائر العبادات ! ؟ ثم ألا يكون سكوت القرآن والسنة عن تعريف الناس ذلك مع مطالبتهم بعبادة الله وحده ثم سكوت الناس عن بيان ذلك برهاناً لا يدفع على أن العبادة هي مايعرفه الناس فى خطابهم ؟ أنا أحسب أن الجواب نعم

ومن الدلائل على ذلك أن القرآن والسنة والناس جميعاً يسمون ما يصنعه الناس قبل الاسلام للاوثان والأصنام عبادة . والذى كانوا يصنعونه هو الخضوع لها والانقياد والذلة والرغبة والرهبة وما يتفرع عن ذلك من الدعاء والنحر والنذر لها والتمسح بها وأشباه ذلك فسماهم القرآن والحديث والمسلمون جميعاً عباد الأصنام والأوثان وعباد غير الله . فهذا برهان لا ينازع على أن ذلك عبادة في الشرع وفى القرآن والسنة وفى كلام الناس جميعا

ومن الدلائل على خطأ مزعم هذا الشيعى أنه لو لم تكن العبادة فى الشرع هى هذا أى ما كانت لغة لكانت غير معلومة ولا مفهومة ولكان الأمر بهـا فى القرآن والسنة والحديث عبثا لا فائدة فيه مطلقا . لأنه أمر بما لا يعلم ولا يعرف بل هو تكليف مالا يستطاع . وهذا باطل على مذهب الشيعة الذاهبين مذهب المعتزلة . وذلك أن هذا الرجل زعم هنا وفى مواضع من كتابه أن الذل والخوف والرغبة والرهبة والخضوع والاستغاثة والدعاء والنذر والحج وتقريب القرابين بل والسجود والركوع والصلاة والصيام ، زعم أن هذه الأمور كلها ليست عبادة شرعا . وإذا كان ذلك كذلك فما هي العبادة في الشرع إذن ؟ انها حينئذ لا تعلم ولا تعرف وان الأمر بها حينئذ أمر بما لا يستطاع علمه ومعرفته . وهذا فى غاية الركاكة والقلق الفكري . وعلى هذا أيضا فان المسلمين لا يعرفون ماهى العبادة شرعا الى اليوم ، ولا يعرفون ما أمرهم الله به من ذلك فى آيات كثيرة جداً وأخبار لا يحصرها حاصر فى السنة . وهذا محال على مافيه من القدح فى جميع المسلمين السلف والخلف . وما جر الى هذا فهو باطل بلا نزاع

(ثالثـا)

وقوله حينئذ « فالعبادة بمعناها اللغوي الذى هو مطلق الذل والخضوع والانقياد ليست شركا ولا كفرا » الى آخر قوله قول غير صحيح . لأنه قائم على غلطه الفاحش الآنف وهو زعمه أن كل ذل وخضوع وانقياد عبادة فى اللغة ، وهذا غلط فى اللغة كما قدمنا . ولو كان هذا القول صحيحا لكان الناس جميعا عابدين معبودين ولكان الصحابة عابدين رسول الله ولكان هو أيضا عابداً الصحابة لغة ولكان من قال بلسان العرب إن رسول الله كان يعبد الناس وكان الناس يعبدونه صادقا لم يكذب . وكفى بهذا دليلا على بطلان هذا الزعم وما شيد عليه

(رابعا)

وقوله « انه ورد فى الشرع اطلاق العباد والعبادة على مطلق المطيع والطاعة » قول أيضاً فى غاية الغرابة والنكارة . وما قال انسان قبل هذا الرجل إن مطلق الطاعة يسمى عبادة لا لغة ولا شرعاً وان مطلق المطيع يسمى عابداً لا لغة ولا شرعا . وما دل على هذا القول دليل . ولو كان هذا القول حقاً لكان قول الله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) بمنزلة أن يقال اعبدوا الله واعبدوا الرسول واعبدوا أولى الأمر منكم . ولكان قول الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) مثل أن يقال من يعبد الرسول فقد عبد الله . ولكان معناها هو هذا . وهذا عند المسلمين وعند غير المسلمين سخف وخروج من الدين

وأما قوله « فورد أن العاصى عبد الشيطان وعبد الهوى » فهذا غلط فى الشرع لم يقله رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه ولا أحد من العلماء المهتدين بل هو من صنع الشيعة وعملها

وأما قوله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » فليس المراد بهذا مطلق من أطاع هواه من المسلمين فألم ببعض الآثام ولبس ببعض الذنوب اختطافا ولماماً . وانما المراد بهذا أولئك الذين أعرضوا عن الله وعن دينه وعن رسوله وعما جاءهم به من الهدى والدين والخير . لم يرفعوا بشىء من ذلك رأسا ولم يحملوا أنفسهم على أن يفكروا فى شىء منه أو يعنوا بشىء منه ، فظلوا على كفرهم وغيهم وضلالهم وعنادهم عاكفين لا يريمون ، فأنفقوا أعمارهم سادرين فى الشهوات متخمين باللذات ممتطين أهواءهم تخب بهم الى كل فاحشة نحشاء وتخدى بهم الى كل ضلالة عمياء ، لم يستفيقوا بهزاهز الواقع الصداح المشئوم المجموم ، ولم يصيخوا لهتافات السماء ونداء الحق الصادع حتى غشيهم الحق اليقين واحتبس أنفاسهم الحمام فسيقوا الى غضب الله والى ناره ، وذلك مصير المعرضين عما خلقوا له ، العائشين كما تعيش الأنعام والأغنام

للأكل والشهوات الحيوانية ، فهـذا الذى اتخذ إلهه هواه فسعى لرضاه وحـده ولعبادته وحده ، فلم يعبأ بالله ولا بأمر الله ، فلم يعبأ الله به ولم يعبأ بأمره

أما ذلك المسلم الذى يلم الأحيان ببعض الذنوب طاعة لداعى الانسانية الضعيفة وشطرها الحيوانى ، فلا ينشب أن يفيق وأن يعلم أن قدمه على حافة هوة عميقة لا قرار لها فيبادر الى النجاة بنفسه والهروب الى ربه فيجد فى تطهير نفسه وقلبه مما لوثهما من أدران الخطيئة وأوضار المعصية فيزداد الى ربه رجوعا وقربا ، وعن هواه وداعية نقصه فراراً وبعداً . فليس هذا ممن اتخذ إلهه هواه ولكنه من الذين قيل فيهم "ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون" ، فهذا الذى عناه الله بهذه الآية ليس هو مطلق من أطاع هواه فدحضت فى المعصية قدماه ، ولكنه هو ممن ذكرنا من المعرضين عن الله وعن الدار الآخرة وعن الرسول وعن هداه ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وذلك مبلغه من العلم

وأما قوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » فهؤلاء هم الألى غلوا فى أحبارهم ورهبانهم فأنزلوهم منازل من التقديس والتبجيل لم ينزلهم إياها الله ولم تنزلهم إياها أقدارهم وأعمالهم ، فأعطوهم من أنفسهم وقلوبهم ومن دينهم ما لم يكن خليقاً إلا بالله وحده الذى خلق ورزق وهدى وأغنى وأقنى فراحوا يعظمونهم أفضل التعظيم ويذلون لهم وينقادون . فغلوا فى حبهم وفى الذلة والانقياد لهم وفى الرغبة فيهم والرهبة منهم ، حتى أحلوهم رتبـة التحليل والتحريم والتشريع ورتبة غفران الذنوب وتقسيم الجنـات على الأصفياء ومن ينقدون لهم الثمن غاليـا فراحوا يشترون لهم منازل فى الجنات من الأحبار والرهبان برفيع الأثمان ويتسلمون الصكوك الموقعة بأيدى هؤلاء الأحبار والرهبان كما أسلفنا ، فوهبوهم بذلك أفضل معانى العبودية من التقـديس والتعظيم ، ومن إعطائهم وظيفة التحليـل والتحريم والتشريع ، فأحلوا لهم الحرام فأحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه . وهذا معنى

قوله ﷺ « أليسوا قد أحلوا لهم الحرام فأحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه » فكانوا بذلك مشركين بهم ، غير موحدين الله ، ولم يكن قول الله هذا فيهم لأنهم أطاعوهم مطلق الطاعة كما يدعى هذا الرجل . وآخر الآية برهان صارخ بتخطئة هذا القول

وقوله « وإن الانسان عبد الشهوات » إن كان يريد أن الرسول ﷺ قال هذا كما يدل عليه قوله « فورد فى الشرع » فهو غلط واضح وعزو الى الرسول ﷺ لا يصح . وإن كان يريد أن بعض الناس يقول هـذا أو قاله فما الفائدة فى وضعه هنا ، وكيف يكون من الشرع أم كيف يزعم أن هذا وارد فى الشرع ؟؟؟ وليس الكذب على الرسول هينا ولا سهل التبعة ، بل الكذب عليه كذب على الله والكذب على الله هو المهلكة عينها « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا »

وقوله « وإن من أصغى الى ناطق فقد عبده » الى آخره الرواية من أضعف الغلط وأبعده عن الصواب ، ومن أعظم الاثم والجناية على الاسلام وعلى رسول الله ﷺ نسبة مثل هذا القول الى الشرع . فهلا يتقى الله صانع هـذا ، وهلا يعلم أن مثل هذا من أشد القادح فى الاسلام ونبى الاسلام ؟ وهذا القول لو عزى الى قائل ما أو الى زعيم ما لكان عيباً فيه وسبة فاضحة ، فكيف نسبته الى الرسول ﷺ المبلغ عن الله رسالته وما ينطق عن الهوى ، ولن يقول مثل هـذا الكلام إلا غبى سخيف أحمق وإلا فان عاقلا أو نصف عاقل - ان كان للعاقل نصف - لا يمكن أن يقول إن من أصغى الى ناطق فقد عبده ، ثم يزعم أن هذه العبادة للناطق المصغى اليه هى فى الواقع للمنطوق عنه ، فان كان ناطقاً عن الله فالمعبود هو الله ، وإن كان ناطقا عن شاعر أو كاهن أو كذاب فالمعبود هو ذلك الشاعر ، أفيرى هذا الشيعى أن الرسول ﷺ اذا ما أصغى الى شـاعر أو كافر يقول قولا ما عابد لذلك الشاعر والكافر ، وهل يرى أن الكفار إذا ما أصغوا للرسول ﷺ وهو ينطق عن الله

عابدون للرسول ولله معاً ؟ أي خطأ هذا وأي بعد ونأى عن سبيل الرشاد

وأما قول رابعة العدوية :

لك ألف معبود مطاع أمره (البيت)

إن صح عنها فهو من المبالغات الشعرية التى لا يوجد مثلها فى الشرع لا فى القرآن ولا فى السنة على أنها تريد بهذا أولئك المعرضين عن الله وعن عبادته وعن القيام بواجباته اشتغالا باللذات والشهوات ، ذهابا وراء المطامع الدنيا أولئك الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ولم يريدوا سواها ، أو يفكروا فى أن يسعوا لدار الجزاء الأكبر أو يقدموا من صالح الأعمال المبرورة ما به يحلصون الى مائدة الله التى أعدها في دار كرامته لمن عملوا الصالحات وخلصوا من الأدناس والأرجاس

وهؤلاء كأكثر من تراهم اليوم من المدعين الاسلام والايمان والتوحيد وهم فى الحقيقة الواضحة من أزهد الناس فى التوحيد والايمان ومن أزهد الناس فى الجنات وفى الجزاء إن كانوا يفكرون فى ذلك أو يمرونه على أذهانهم . وهؤلاء من المحال أن يكونوا موحدين أو مؤمنين أو مسلمين . فما يقال فيهم من عبادة غير الله والاشراك به هو صحيح لاريب فيه ، بل لو قيل إنهم موحدون . أعنى أنهم موحدون الدنيا وما فيها من شهوات ولذات تشاركهم فيها الحيوانات الناهقة والراغية والثاغية كلها لكان ذلك القول صحيحاً لا مبالغة فيه ولا كذب . ويعرف هذا من علم واهتدى

ولم تكن هذه الأقوال للموحدين القائمين بفرائض الاسلام وشرائط الايمان لزلات زلجت فيها أقدامهم بلا ريب

وقوله : « ولا ريب أن هذه الأمور التى سميت عبادة لا توجب الكفر يقال فى جوابه : لا ريب أن الذين قال الله فيهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » والذى قال الله فيه « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله

الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا يتذكرون » يقال لا ريب أن هؤلاء الذين عناهم الله فى هــذه الآيات ليسوا مسلمين ولا مؤمنين ، وما قال أحد قبل هذا الشيعى فيما نعرف أنهم غير كافرين والآيات واضحة جداً . ولا ريب أيضاً أن أقواماً كثيرين باتباعهم أهواءهم وغلوهم فى أشياخهم كفروا وقد كفر قدامى الشيعة إذ غلوا فى على رضى الله عنه وادعوا حلول الله فيه ، بخرقهم

(خامسا)

قوله : « ومن جملة العبادة السجود وقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وسجد يعقوب وبنوه ليوسف فدل على أن السجود ليس فى نفسه قبيحاً ولا ممنوعا موجباً الشرك والكفر وان سمى عبادة والا لم يأمر الله به » الى آخره . يقال فيه اما أن يريد أن السجود قد أمر الله به لبعض الخلق وهو الى الآن جائز مأمور به لأنه نوع من التعظيم وتعظيم العظيم مطلوب دائماً . واما أن يريد أن ذلك قد وقع فى ظروف خاصة وأزمان خاصة لأناس خاصة . ولــكنه اليوم غير جائز ولا مباح لغير الله ، بل هو من أكبر المحرمات شرعا ؟

ان كان يريد الأمر الأول ويريد أن السجود اليوم مشروع مأمور به لمن عظمه الله كالأنبياء والأولياء كان هذا مروقا من الاسلام بلا مرية لدى المسلمين عامة فان المسلمين لا يختلفون فى أن السجود لغير الله كفر وخروج من الاسلام . فان السجود أفضل هيئات الصلاة وأفضل أركانها . وقد جاء فى الحديث الصحيح « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ومن صلى لغير الله لولى من الأولياء أو نبى من الأنبياء تعظيما وإكباراً فقد كفر باجماع العقلاء واجماع المسلمين . بل علم هذا محسوب من الضروريات الدينية التى لا يتنازع فيها . ولا خلاف بين

المسلمين أن من أباح الصلاة لغير الله فقد ارتد ووجب عليه حد المرتد ان كان فى بلد يقيم حدود الله . ومثل الصلاة السجود ولا خلاف . بل السجود هو أفضل هيئات الصلاة وأركانها . وهو أكثرها اقراراً بالخضوع والعبادة والذى يجوّز السجود لغير الله أو يقول انه ليس شركا ولا كفراً يقول بجواز الصلاة لغير الله أو يقول إنها لغير الله لا توجب الكفر والردة . ومن أجاز الصلاة لغير الله أجاز الصيام والزكاة والحج والذبح والنذر والضراعة والرغبة والرهبة وكل ما يعبد الله به ويتقرب اليه بعمله من الأعمال الظاهرة والباطنة ، ومن أجاز ذلك كله لمخلوق فقد انغمس ولا ريب فى حمأة الكفر والشرك والحماقة ، فان العقلاء لا يرتابون فى أن من تقرب بهذه الأعمال الى مخلوق عاجز مربوب فهو مارق من العقل ومن الدين

وأما ان أراد الثانى أي إن أراد أن السجود أبيح لأفراد تخصيصا فى وقت مضى لا يجوز تعديه ولا القياس عليه ، بل يوقف لدى القدر المعلوم بلا زيادة ولا قياس ، إن أراد هذا لم يكن له فى إيراد هذه الأمور هنا فائدة ولا حجة يناط بها فاننا لا نخالف أن القرآن قد أخبر أن الملائكة سجدوا لآدم وأن يعقوب وبنيه وزوجه سجدوا ليوسف ولا نخالف أن الله يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لأمره ، فله أن يخص ما يشاء بما يشاء من التعظيم والاجلال لا يسأل عما يفعل وهم يسألون عما يفعلون وهو رب العباد ، والعباد مربوبون له يتصرف فيهم كما يشاء ويأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يشاء ، لا اعتراض ولا ممانعة ، ومن عارض أو مانع كان من أتباع الشيطان الذي اعترض على أمره بالسجود لآدم ومانع فكان من الكافرين المقضي عليهم بالشقاوة الآبدية ، والعبادة حقه على عباده فلو أمرهم بعبادة من يشاء لكان عدلا منه وللزمهم أن يطيعوه وأن يعبدوا ما أمرهم بعبادته مذعنين مسلمين لا معترضين ولا آبين . ولكنه تعالى أمرنا بألا نعبد إلا إياه لا شريك له

مخلصين له الدين فى كتابه وعلى لسان رسوله فقال تعالى « أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وقال « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » وقال « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله » وقال « وما أمروا إلا ليعبدوا الله » وقال « فاعبد الله مخلصا له الدين » والاجماع قائم على أن عبادة المخلوق كفر بالله وشرك لا يختلف فى ذلك المسلمون ، وقائم على أن كل ما يسمى عبادة هو من خصائص الله وحده لا ندّ له

فقول هذا الشيعى هنا : « فدل على أن السجود غير ممنوع ولا موجب الكفر وإن سمى عبادة » قول فاسد باتفاق المسلمين بل هو خروج من الدين ولا ريب فيه . فانه لاخلاف بين أهل الاسلام أن كل أنواع العبادة من حق الله وان صرف شىء من ذلك لعبد ردة على جميع الحالات ، ولهذا لا يقول أحد من المسلمين إن سجود الملائكة لآدم وسجود يعقوب وولده وزوجه ليوسف كان عبادة . بل هم لا يشكون فى أن ذلك السجود لم يكن عبادة لآدم ويوسف وهم يرون أن ذلك أمر غير العبادة ، وذلك لعلمهم أن العبادة حق الله وحده ليس لمخلوق منها قليل ولا كثير . فقال قائلون : إن سجود الملائكة لآدم إنما كان استقبالا له لاسجوداً حقيقة ، وقال قائلون إن المراد بالسجود هنا هو التذلل له أى الخضوع والقيام بمصالحه ومصالح ذريته ، وقال قائلون فى سجود يعقوب وأولاده إن معناه التذلل وقال قائلون إن معنى ذلك القيام عليه بالخدمة والأدب ، وقال قائلون غير ذلك ولم يقل أحد منهم إن ذلك السجود كان عبادة بوجه من الوجوه لاجماعهم على أن المخلوق لايعبد البتة ، وعلى كل حال فالمسلمون متفقون على أن ذلك السجود لم يكن عبادة سواء أعرفوا معناه الحقيقى والمعنى به أم لم يعرفوه . إلا أنهم مجمعون على أنه ليس عبادة

وليس بعيداً أن يكون المراد بالسجود هنا الخضوع . فان السجود كما تقول

كتب اللغة من معانيه الذلة والانقياد ، وقد قيل ان قوله تعالى « ادخلوا الباب سجداً » معناه خاضعين منقادين لأن السجود الذى هو وضع الجبهة على الارض لا يستطاع حين الدخول ، وقال تعالى « النجم والشجر يسجدان » أي ينقادان لأمر الله الكونى . وقال تعالى « ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة » وقال « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا و كرها وظلالهم بالغدو والاصال » الى غير ذلك من آي الذكر الحكيم . ولا يراد بذلك السجود الحقيقى المعروف ، وانما يراد ولا محالة الانقياد لأمر الله الكونى القدرى كما هو ظاهر ، ولهذا القول شواهد أخرى من كلام العرب كثيرة ، وقد قال عمرو ابن كلثوم فى معلقته المشهورة :

اذا بلغ الفطام لنا صبى تخر له الجبابر ساجدينا

وقال المتنبى :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا

وقال الآخر :

فلما أتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا

ولا أحسب هؤلاء الشعراء يريدون بالسجود هنا وضع الجبهة على الأرض ولا أحسبهم يريدون سوى الخضوع والطاعة

وفى كتاب غريب الحديث لابن الأثير :

« وفى الحديث إن كسرى كان يسجد للطالع " والطالع هو السهم الذي يجاوز الهدف . والمعنى أنه كان يسلم لراميه ويستسلم . قال الأزهرى معناه أنه كان يخفض رأسه . يقال أسجدَ طأطأ رأسه وانحنى قال الشاعر :

وقلن له أسجد لليلى فأسجدا

يعنى البعير . أي طأطأ لها لتركبه . فاما سجد فبمعنى خضع » انتهى

فالسجود بمعنى الخضوع والانقياد له شواهد من كلام العرب لا تجحد كما رأيت

والذى يزعم أن السجود لآدم ويوسف كان هو السجود الاصطلاحى المعروف عليه أن يقيم الدليل على أنه كان كذلك وبغير ذلك لا يستمع لقوله واذا ما قال إن السجود المعروف الشرعى هو المفهوم من الكلمة عند الاطلاق قيل له نعم إن ذلك كذلك فى الاصطلاح المتأخر وفى كلام الفقهاء والشرعيين ، أما فى كلام العرب القديم فلا نجد دليلا على أن ذلك هو السابق الى الفهم عند الاطلاق ، ولا شك أن ذلك يحتاج الى الحجة وإلا فمردود على من زعمه

ونحن نجد بعيداً جداً أن يكون سجود يعقوب و بنيه ليوسف سجوداً اصطلاحياً ، أى وضع الجبهة على الأرض ، ومن البعيد القريب من المحال أن يكون معنى الآية هكذا : ورفع أبويه على العرش وسجدوا له فوق الأرض ، فان ظاهر الآية السابق الى الفهم منها أن السجود كان بعد رفعهم على العرش ، وهل يمكن لمن هو فوق العرش أن يسجد على الأرض ؟

لا يقولن قائل إن « الواو » لا تقضى بالترتيب والتعقيب مباشرة ، لأننا نقول نحن : نرجع القارىء الى ذوقه وفهمه البرىء من المؤثرات الخارجية ، ليعرف صحة قولنا ، ومن البعيد القريب من المحال أيضاً أن يسجد نبى عظيم من أنبياء الله العظام لابنه عند لقائه ثم يرضى ابنه وهو نبى عظيم بسجود أبيه له ، والابن مأمور أبداً باكرام والده واحترامه الاحترام المشروع كله ، والسجود إذا كان هو السجود العرفى فلا ريب أنه سجود غير واجب على يعقوب وبنيه وزوجه ليوسف وإنما هو سجود جائز ، ولا أحسب أن عالماً يستطيع أن يدعى أنه كان واجباً على هؤلاء أن يسجدوا ليوسف سجوداً حقيقياً ، واذا كان ذلك كذلك أى إذا كان هذا السجود سجوداً حقيقياً فهل من اللائق أن يتعمد يعقوب وبنوه وزوجه القيام

بهذا الجائز ؟ أفلا يكون من اللائق حينئذ ترك هذا الجائز وإهماله ؟ ومن الدلائل على بعد هذا أنه لم يعهد مثله ، أى أنه لم يعهد أن نبياً عظيما سجد لابنه ، بل لم يعهد أن نبياً سجد لانسان آخر سجوداً اصطلاحياً

ولو كان هذا السجود هو ما يعنون لكان خاتم الأنبياء وسيد المرسلين خليقاً به ، ولكان أحق بأن يسجد الناس له وأن يسجد له الصحابة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك وهو ممنوع بالاتفاق وباعتراف هذا الرافضى . بل انه ﷺ أنكر السجود له وأنكر ماهو أقل من السجود ، والمسلمون متفقون على أن من سجد للرسول أو لغيره من الخلق فقد ارتد وأن مأواه النار وبئس القرار

وقد يقرب ما نقول ويقويه أن يوسف عليه السلام كان رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، فلما سجد أبوه وبنوه وأمه له قال هذا تأويل رؤياى فى سجود الكواكب والشمس والقمر ، وسجود الكواكب والشمس والقمر لايمكن أن يكون سجوداً اصطلاحياً ولا ريب . فالسجود الذى هو تأويل سجود الكواكب والشمس والقمر من القريب المتبادر أن يكون كذلك أيضاً ، أى أن يكون سجوداً على غير الشكل المعروف الذي هو وضع الجبهة على الأرض ، وقد قدمنا أن سجود النجوم وما لا يعقل معناه الخضوع والانقياد فكذلك سجود هذه الكواكب وسجود الشمس والقمر وكذلك سجود يعقوب وبنيه وزوجه الذى هو تأويل رؤيا يوسف

هذا . وما يقال فى سجود يعقوب يقال فى سجود الملائكة ، فما زعمه هذا الرجل من أن هذا السجود كان سجود عبادة زعم لم يقم عليه من الدليل غير أنه يسمى سجوداً . ولكننا ذكرنا أن السجود فى كلام العرب قد يكون غير عبادة وقد يكون غير وضع الجبهة على الأرض

ثم يقال أيضاً ان فى هذا لرداً كافياً عليه لو تفطن ، ووجه هذا أنه مسلم بأن

السجود لغير الله اليوم كفر وخروج من الاسلام ، ولا أحسبه ينازع فى هذا وإن نازع فهو لن ينازع فى أنه ضلال وحرام لأنه قال « ان المسلمين مجمعون على أن السجود لايجوز لغير الله » وغير الجائز دائر بين أن يكون محرماً وأن يكون كفراً وشركا واذا كان ذلك كذلك قيل له إذن يجوز أن يكون الأمر الواحد فى بعض الأزمان لبعض المخلوقين جائزاً ولا ريب ، بل ويكون عبادة لله وطاعة ثم يكون فى أزمان أخرى لأشخاص آخرين حراماً معصية بل وشركا بالله وكفراً . واذا كان كذلك قيل له إذن لا مانع من أن يكون الخضوع والتذلل والدعاء والنداء لبعض الناس وبعض الخلق حراماً معصية بل كفراً بالله وشركا ، ثم يكون ذلك فى وقت آخر لأناس آخرين ومخلوق آخر فى حالات أخرى جائزاً لا بأس به بل طاعة مثاباً عليها . وإذا كان ذلك كذلك قيل له إذن لامانع من أن يكون دعاء الأموات والاستغاثة بهم والخضوع لهم حراماً ممنوعاً وشركا وإن كان ذلك جائزاً مشروعاً فى حق الأحياء وفى حق من هم قادرون على ما سألوه فاذا ما وصلنا الى هذه النتيجة ـ ولا بد أن نصل اليها ـ وسلمها ولا بد أن يسلمها ، قيل له هذا خلاف قولك لأنك تقول فى كتابك هذا فى مواضع كثيرة إذا كان هذا الأمر مثل الاستغاثة شركا وحراما إذا ما طلب من الأموات فلا بد أن يكون شركا وحراماً إذا ما طلب من الأحياء ، وإذا كان جائزاً أن يطلب من الأحياء فلا بد أن يكون جائزاً من الأموات ولا يجوز غير ذلك . لأن الشيء الواحد إذا كان قبيحاً فى وقت وجب أن يكون قبيحا فى كل وقت وإذا كان حسنا فى وقت وجب أن يكون حسنا فى كل وقت ، وإذا كان شركا فى حالة وجب أن يكون شركا فى كل حالة ، واذا لم يكن شركا فى حالة وجب ألا يكون شركا فى حالة من الحالات . وهذه الحجة يكررها ويبديها ويعيدها فى كتابه . ولكن ما ذكرناه هنا ينسفها من أساسها نسفاً ويقوض دعائمها سواء أقال ان السجود اليوم لغير الله شرك أم قال انه حرام دون

الشرك ، فالحجة قائمة على الفرضين والتقديرين ، إلا أن يلجأ الى القول بجواز السجود لغير الله فى هذا العصر ، ولكنه يقول إن المسلمين مجمعون على أنه لايجوز السجود لغير الله ، ويقول كما سلف إن اجماع المسلمين حجة شرعية يجب احترامها . فهو حينئذ قائل أحد أمرين : قائل ان السجود لغير الله حرام فقط ، أو قائل انه شرك وكفر . فان قال بالأول وما أظنه يجرؤ على القول به ــ لأنه باطل بالاجماع ــ قيل له أليس الحرام قبيحا فى أثناء كونه حراما ؟ فلا بد أن يكون جوابه نعم ، فيقال له حينئذ قد يكون الشيء الواحد فى وقت قبيحا حراما وفى وقت آخر حسنا حلالا ، فلا مناص من الاعتراف بهذا ، وإن قال بالثاني أى إن قال بأن السجود لغير الله شرك وكفر فقد ألقى السلاح وسلم بكل فمه ، فهو محجوج على الفروض كلها

وليعلم أن هذا خلاف أصول الشيعة الضاربين على أعقاب المعتزلة فى التقبيح والتحسين العقليين

وقوله « وعلم من هذا أن مطلق التعظيم والخضوع ليس قبيحا ولا كفراً أو شركا » نقول فى جوابه إننا لم نقل ان مطلق ذلك شرك وكفر ولا قبيح ولا حرام

(سادسا)

قوله « وقد ورد إطلاق العبادة على دعاء الله بقوله تعالى « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » وقوله ﷺ « الدعاء مخ العبادة » نقول فى جوابه لاريب أن العبادة إذا ما ورد ذكرها فى القرآن أو فى السنة مطلقة كقوله « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وقوله « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » وقوله « فاعبد الله مخلصاً له الدين » وقوله « عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً » وقوله « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ... والى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدو الله » وقوله « والى

مدن أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله » وقوله « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » ونظائر ذلك من آى الكتاب العزيز . فلا ريب أن العبادة إذا أطلقت كما أطلقت فى هـذه الآيات تضمنت الدعاء وغيره من أنواع العبادة كالصلاة والصيام والحج والزكاة والنـذور وسائر الأعمال والأقوال التى يزدلف بها المسلم الى لله ويلتمس بها رضاه ، ولا يمكن أن تكون هذه الآيات تخص معنى دون معنى من هذه المعانى ، فلا يمكن ألا يكون من ضمن العبادة المطلقة فى هذه الآيات الصلاة أو الصيام ، أو الاستغفار أو التضرع أو الخشية أو الدعاء ، كما لا يمكن ألا يكون من ضمنها النداء والمناجاة بل ذلك كله داخل فى معنى العبادة المطلوبة المأمور بها ، ولا يختلف المسلمون فى ذلك ، ولا يقول أحد منهم ان هذه العبادة المطلوبة فى القرآن ليس منها الدعاء والمناجاة ، بل علم الناس بأن هذه الأمور منها علم ضرورى لا يقبل الخلاف والنزاع ، ولا يختلف أن من دعا الله وأمعن فى دعائه وناداه وأكثر من ندائه فقد أطاع هذه الأوامر بعبادة الله بالجملة ، وأن من لم يدع الله تعالى وإن قام بجميع الفرائض وآمن به الايمان الصحيح البرىء فقـد عصى هذه الأوامر بالجملة وترك نوعاً من أنواع العبادة ، وهذا أمر لا يسمو اليه خلاف

فالعبادة فى الشرع ـ أي فى القرآن والسنة وأقوال العلماء ـ هى عند الاطلاق كل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال وما يقرب اليه تعالى كالمراقبة والخشية والخشوع والخضوع والخوف والرجاء ونظائر ذلك ، ولا يختلف الناس أن من دعا الله فقد قام بجزء من العبادة المأمور بها ، بل ولا يختلفون أن الدعاء من أفضل أجزاء العبادة كما جاء فى الحديث الذى ذكره الشيعى وهو قوله ﷺ « الدعاء مخ العبادة » وفى رواية « الدعاء هو العبادة » وذلك لشرفه وسمو منزلته حتى كأنه خلاصة العبادة وأطيبها ولا يختلف الناس أيضاً أن الدعاء والنداء كانا من أجزاء عبادة المشركين للأصنام وأنه اذا ما قيل « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم » أو قيل « والذين

اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » أو قيل غير ذلك من الآيات والأخبار المصرحة بأن المشركين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله ، تناول دعوتهم الأصنام بلا خلاف ، وقد ينص القرآن والسنة نصاً جلياً على أن الدعاء عبادة ، وحينئذ ينحسم النزاع ، وذلك كقوله تعالى « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » فان هذه الآية نص جلى على أن الدعاء عبادة وعلى أنه من أفضل أجزائها وأشرفها وكذلك الحديث القائل (الدعاء مخ العبادة) والقائل فى الرواية الأخرى (الدعاء هو العبادة)

وأما قول هذا الشيعى « انه لا يراد بالدعاء هنا النداء وأن المراد نداء الله وسؤاله والقيام بغاية الخضوع والتذلل وإنزال الحاجات به على أنه الفاعل المختار والمالك الحقيقى لكل الأمور المتصرف فيها . فمن دعا مخلوقا كذلك فقد عبده ، أما من دعاه ليشفع له فلا يكون عابداً له ولا فاعلا مالا يحل » فنقول فى جوابه : لا شك فى بطلان هذا وخروجه عن السبيل الصحيح ، فان هذا الذى زعمه ليس من معانى الدعاء يقيناً ، فان العبد يدعو الله بضراعة وخشية فازعاً اليه فيكون عابداً له ويكون دعاؤه إياه عبادة وهو غافل عن هذه المعانى التى ذكرها الشيعى ، نعم لاخلاف أن بعض هذه الأمور التى ذكرها عبادة ولكنها عبادة مستقلة غير الدعاء وبعض هذه الأمور التى ذكر ليست عبادة مطلقا ، وذلك كالايمان بأنه تعالى الفاعل المختار والمالك الحقيقى والمتصرف فى كل شيء ، فان هذه الأمور ليست عبادة وليست من أجزاء العبادة ، ومن آمن بها لايقال له انه عبد الله أو عابد له ، ونحن نعلم أن الشيطان مؤمن بذلك إيمانا لا شك فيه ، ولا يجرؤ مسلم أن يدعى أن الشيطان يعبد الله بهذا الايمان ويؤدي اليه عبادة ، وكذلك كثيرون من الكفار والضلال يعلمون هذه الأمور لله ويؤمنون بها له تعالى ولكن لا يقال انهم يعبدون

الله إلا اذا عملوا له تعالى أعمالا صالحة

فهذه الأمور ليست عبادة ولا ريب ، ولكن لا بد من الايمان بها والاعتراف لله بجملتها ومن لم يؤمن بها لم يكن مؤمنا وإن عبد الله أنواع العبادة ، فالعبادة بدون ذلك لا تقبل فهي شرط في قبول الأعمال وإن كان الايمان بها ملازماً العمل ، ولا يمكن أن يعمل لله إلا من آمن له بذلك ، ولكن هذا كالاعتراف مثلا بوجوده تعالى ، فليس يمكن أن يعمل أحد لله عملا خالصاً لوجهه إلا اذا آمن بوجوده ، ولكن هل يقول أحد من الناس ان الايمان بوجوده عبادة له أو يقول انه من أجزاء العبادة ؟ كلا . فان هذا شيء وذلك شيء آخر ، فهما أمران متباينان فقول الشيعي ان العبادة عبارة عن مجموع هذه الأشياء قول لا يوافقه عليه أحد من أهل العلم والعرفان ، ولن يجد له شاهداً من كلام العرب أو من رواية أئمة اللغة ونقلتها . ثم يقال ان ما قاله هنا يدل على أن من دعا مخلوقا مؤمناً بهذه الأمور كلها أي مؤمناً له بأنه الفعال المختار والمالك الحقيقي لأمور الدنيا والآخرة والمتصرف فيها كما يشاء ثم قام له بغاية الخضوع والتذلل وأنزل حاجات الدنيا والآخرة به . فمن دعا مخلوقا على هذا النحو كان عابداً له حسب قوله ، وأما من دعاه على نحو أقل من هذا النحو وأضأل فليس عابداً له حسب ظاهر قوله ، فمن دعا مخلوقا بغاية الذلة والخضوع والخشية والهيبة وسأله حاجات الدنيا والآخرة واعتقد بأنه قادر على إعطائه ومنعه وعلى ضره ونفعه واعتقد أنه فاعل مالك ومتصرف إلا أن ذلك الملك والتصرف والفعل أمور محدودة ليست مطلقة ، فليس بعابد له وليس مشركا بالله بل لا يكون عابداً له حسب قول هذا المصنف حتى يجعله في المنزلة التي يجعل المسلمون الله بها من العظمة والقوة وسعة السلطان واتساع الملك وإطلاق القدرة ، أما من دعا مخلوقا ، وقام له بغاية الذلة والخضوع والضراعة والطاعة والهيبة والخشية معتقداً بأنه فاعل وقادر ومالك ومتصرف إلا أن ذلك كله محدود بحدود العبودية

وحدود الألوهية فليس بكافر ولا مشرك ، وهذا الزعم فى غاية الفظاعة والغرابة وفي غاية الخروج على الاسلام والاساءة الى الله والى الدين ، ولو كان هذا القول حقا لما كان عباد الأصنام والأوثان ولا عباد الأشجار والأحجار مشركين ولا كافرين ، فان هؤلاء القوم ما كانوا يعتقدون أن آلهتهم هى الفاعلة المتصرفة المختارة بلا حد ، بل هؤلاء المشركون يعلمون بأن الله من وراء هذه الأصنام والأوثان ويعلمون بأنه المالك لها المتصرف فيها نفسها كما يشاء ، وأنها لا أمر لها ولا سلطان معه تعالى ، وأنه غالب عليها وعلى أمرها وأمر عبدتها ، فهم يعلمون ذلك كله ، وقد اتخذوها لتقربهم الى الله زلفى ولتشفع لهم عنده تعالى ، وما كانوا يسوونها بالله التسوية التامة أو يرونها الله عز سلطانه وشأنه ، وهذه أمور لا يختلف فيها العلماء من المفسرين والمؤرخين ونقلة الأخبار وجهابذة الفقه والحديث ، ولا يختلف هؤلاء أن شرك المشركين لم يكن بجمع هذه الأمور كلها للأصنام والأوثان

فما قاله هذا الشيعى لن يوافقه عليه أحد لا من المسلمين ولا من غير المسلمين العقلاء . . .

أما الكلام على الشفاعة وطلبها من الأموات فنرجىء القول فيه الى المواضع الخاصة به

(سابعا)

قوله « فظهر أنه ليس كل ما يطلق عليه اسم العبادة موجبا الشرك والكفر اذا وقع لغير الله بل ولا محرما ، الا أن ينص الشارع على تحريمه كالسجود للشمس والقمر للنهى عنه فى القرآن والسجود لغير الله المتفق على تحريمه » الى قوله مايسمى عبادة وخضوعا ـ قول فاسد أيضا باتفاق كلمة المسلمين وبنص الكتاب والسنة . فان القرآن قد نص فى غير ما آية على أن العبادة كلها حق الله وحده وقد نهى فى غير

ما آية عن عبادة غيره تعالى فقال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » وقال « أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وقال : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله » وقال « فاعبد الله مخلصاً له الدين » وقال « بل الله فاعبد » إلى غير ذلك من آيات الكتاب الحكيم . وهذه نصوص تحرم بصراحة عبادة غير الله على أية حال كانت العبادة ، وتنادى أن العبادة لله وحده لا شريك له وأنها حق الله المفرد . وقد اتفق على ذلك المسلمون قاطبة ، فانهم لا يختلفون فى أن كل عبادة لغير الله شرك وخروج من دائرة الاسلام . لا يخصون بهذا القول نوعا دون نوع ولا عبادة دون عبادة . وما أجازوه لغير الله من التعظيم وما يدخل فى هذا لا يسمونه عبادة ولا يجوزون أن يسمى عبادة بل لو علموا أنه عبادة لعلموا أنه لا يجوز إلا لله وحده ، وعلموا أن صرفه لغيره تعالى خروج من الاسلام وذلك لاتفاقهم ولعلمهم الضرورى أن عابد المخلوق مشرك بالله . ولعلمهم بأن الأدلة جميعاً جاءت بافراد الله بالعبادة وتخصيصه بها لا يخرجون من ذلك قسما دون قسم ولا جزءاً دون جزء . ولن يجد المنقب فى كلام المسلمين أن عالما من علمائهم قال بجواز بعض أنواع العبادة لمخلوق كما يدعى هذا المخلوق ، ولا قال أحد منهم إن العبادة أنواع بعض أنواعها لله وحده وبعضها مشاع بين الله وبين عباده وبعضها من حق عباده وحدهم كما يدعى هذا المخلوق . ونحن نطالب هذا الشيعى أن يدلى بكلمة واحدة عن واحد من علماء المسلمين أنه قال بجواز صرف بعض أنواع العبادة أو صرف شيء مما يسمى عبادة لعبد من عباد الله . ولن يظفر بشيء من ذلك

ولعل أعجب الأمور أن يدعى بأن العبادة ليست لله وحده ، وأن المخلوقين تجوز عبادتهم . وكم لطائفة الشيعة من أحداث ورزايا فى الاسلام وعلى أهل الاسلام ، ودعواه هنا بأنه لا يحكم بأن شيئا مما يسمى عبادة شرك إذا جعل لغير

الله بل ولا حرام حتى يخصه الشرع بالتحريم يقضي بأن تكون الصلاة للمخلوق جائزة . وكذا الصيام والحج والنذور والركوع وغير ذلك . ويقضي بأن من صلى وركع وصام وحج ونذر وذبح وحلق رأسه ونسك لرسول أو ولي أو صنم أو وثن لا يكون مشركا ولا فاعلا حراما . وذلك لأننا لا نعلم دليلا خاصا فيه مقنع لهذا الشيعي يدل نصا على تحريم هذه الأمور لغير الله فضلا عن أن نجد دليلا ينص على أن جعلها لمخلوق يكون شركا وكفراً . فلا ريب أن من لم يقل بأن العبادة لله وحده لا شريك له يلزمه لزوما لا انفكاك له منه أن يقول إن المصلي والصائم والحاج والناسك لغير الله غير مشرك وغير آثم ، وقول يلزمه أن يبيح الصلاة والصيام والحج والنسك لغير الله ، قول يرغب العاقل المسلم بنفسه عنه بل هو قول يستوجب لصاحبه الرثاء والعطف

وقوله « إلا أن ينص الشارع على تحريمه كالسجود للشمس والقمر المنهي عنه في القرآن » دليل على أن القرآن عنده لا يدل وحده على تحريم السجود لغير الشمس والقمر من الأوثان والأصنام ومن الأنبياء والأولياء . فلا يدل القرآن عند الشيعي على أن السجود والركوع للانبياء والأولياء والأحجار والأشجار والأصنام والأوثان شرك ولا حرام . ولزعمه أن القرآن لا يدل على تحريم هذا يلجأ في تحريمه إن كان صادقا بزعم تحريمه لغير الله الى الاجماع لا الى القرآن والسنة ، واذا لم يكن القرآن دالا على تحريم السجود للاصنام والأوثان والأحجار والأشجار وجميع العباد فعلام إذن يدل ؟ أيكون القرآن دالا على كل شيء ولكل شيء حتى على الضلالات كلها وعلى الخرافات والأمور المكفرة كما زعم هذا المصنف في ما قدمنا ثم لا يكون دالا على تحريم السجود للانبياء والأولياء والأصنام والأوثان ؟ الله أكبر على هؤلاء المعرضين عن الله وعن دينه ورسله وعما جاءوا به من العلم والهدى

وليعلم هذا أن أناساً ممن ينتسبون الى الملة يبيحون السجود لغير الله بل ويسجدون هم لأشياخهم ومن يعظمونهم ، وقد أثبت التاريخ المجد أن خلفاء الفاطميين وكانوا من المظهرين التشيع يلزمون الناس السجود لهم ، وكانوا أحياناً يقضون بالموت الناجز على من لم يسجد لهم عند ظهورهم ، وهؤلاء الفاطميون عند هـذا الشيعى من أفضل المسلمين ، فالمسلمون على زعمه لم يتفقوا على تحريم السجود لغير الله ، ونعنى بالمسلمين المنتمين الى الاسلام ، فعلام يعتمد فى تحريم السجود لغير الله وبأية حجة يقول ذلك وهو لا يرى فى القرآن دليلا واحداً على أن ذلك حرام ؟؟

على أن الشيعة فى الواقع لا يعتدون بالاجماع ولا يحتجون به ، وانما الحجة عندهم فى قول المعصوم المختفى : ونحن نعلم يقيناً أنه لا معصوم حسب ما تزعم الشيعة فلا حجة فى الاجماع ، فلا دليل إذن على تحريم السجود لغير الله ، وهو حينما ذكر فيما مضى أن الاجماع حجة وأراد أن يذكر دليله لم يذكر له من الدلائل إلا حديثاً واحداً واهياً ضعيفاً فأنى يكون الاجماع حجة بمثل ذلك الحديث الضعيف ؟!

وليعلم إن كان يعتمد على الاجماع حقا أن طلب الأموات مالا يقدر عليه إلا الله كسؤالهم الشفاء وهداية القلوب وغفران الذنوب أمر مجمع على تحريمه ومجمع على أن فاعله لانصيب له فى الاسلام . ودليل الاجماع على تحريم السجود لغير الله عنده هو دليل الاجماع على تحريم طلب الأموات هذه المطالب العالية عندنا . فاما تحريمها معا وإما إحلالها معاً . والتفريق بينهما تحليلا وتحريما باطل لاوجه له . فليعلم هذا

وقوله « إذا فرض ورود النهى عن عبادة غير الله فما علم أنه من المنهى عنه حرم وما لم يعلم لم يلحقه الحكم » قول غريب . فما معنى الافتراض هنا ؟ أفلم يبلغه قوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه » وقوله « أمر ألا تعبدوا إلا إياه »

وقوله « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله » الى غير ذلك

وأما التكفير [١] والانحناء اللذان يصنعهما الاعجام للتعظيم والاكبار فلا يحل عملهما لغير الله . فان التكفير هيئة من هيئات الصلاة وجزء من أجزائها والصلاة كلها وأجزاؤها كلها لله وحده . ليس لغير الله منها قليل ولا كثير . والصلاة كلها عبادة لله والعبادة جميعها لله لا شريك له . ولو جاز التكفير وهو أحد أجزاء الصلاة لغير الله لجازت الصلاة كلها لغير الله ، ولو جاز هذا الجزء من الصلاة لمخلوق لجازت الأجزاء الأخرى كالسجود والركوع والقيام والقعود والجلوس كهيئة المتشهد وعامة أجزاء الصلاة ، ولو جازت أجزاء الصلاة كلها لغير الله لجازت الصلاة كلها بالصفة التي تكون لله ومن صلى لغير الله كفر باجماع المسلمين وإجماع العاقلين من غير المسلمين . ومثل هذا يقال في الانحناء فانه عند الأعاجم ركوع ، والركوع من أجزاء الصلاة أيضا . وما قيل في التكفير يقال في الانحناء فهما سواء ، ومن الجهل الفظيع بدين الله القول بجواز الركوع والتكفير لغير الله . ولقد كان عليه السلام يكره القيام له ويكره من أصحابه أن يقوموا عند مجيئه . فكانوا لعلمهم كراهته ذلك لايقومون له . بل لقد أنكر على الذين صلوا خلفه قياماً وقال « إن كدتم أن تفعلوا اليوم فعل فارس والروم . فلا تفعلوا » وقد روى ذلك مسلم في صحيحه كما قدمنا . وقد نهى أن يوطأ عقب الرجل أي أن يسير الناس خلفه تعظيما وإكباراً رواه عنه عليه السلام ابن ماجه ، فاذا كان ينهى عليه السلام عن ذلك ويكرهه أفما يكون من الجهل الشنيع القول بجواز الركوع والتكفير لمخلوق والاسلام جاء بل الأديان كلها باخلاص الدين وإسلام الوجوه والقلوب لله رب العالمين والنأى الشديد البعيد عن غير الله وعن كل مافيه رائحة العبادة أو صورتها أو محاكاتها . وكم في قوله تعالى « وقوموا لله قانتين » وقوله « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي

---

(١) التكفير . هو الوقوف مع وضع الكف الأيمن على الأيسر هيئة المصلى

ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك امرت وأنا أول المسلمين » وقوله « فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص » وقوله « فلا تخشوا الناس واخشون » ونظائر ذلك من الحث على أن يكون العبد خالصا لله قلبه وقالبه ، وروحه ووجهه وظاهره وباطنه وكل شئ فيه ومنه ، وكم في هذه الآيات الصريحة البينة من الحض على أن يكون المرء عبد الله وحده ، وأن يوحده وحده كما خلقه هو وحده ، وألا يكون لغيره تعالى حظ فيه ولا فى عبادته ولا فى أعماله وأقواله ، كما لم يكن لغير الله تعالى حظ فى خلقه وايجاده وهبته كل مايتمتع به من معنويات وماديات وأن يكون اختياره كله لله تعالى كما كان اضطراره كله لله

وأما رفع اليد وكشف الرأس عند الافرنج فهذان العملان ليسا من الاعمال الخاصة بالعبادة فلا يحرمان من هذه الناحية ، وإن حرما فمن ناحية التشبه بالأعداء فان التشبه بالأعداء منهى عنه شرعا ، وذلك لأن فيه انسلاخا من القومية وركونا ولو صوريا الى الأعداء الذين لا يريدون بنا الا الهلاك وما هو شر من الهلاك ، وفى الركون اليهم ولو صوريا اعلاء لشأنهم واعزاز معنوي يتلوه اعزاز حسى لهم واعزازهم هم يلزمه ولا ريب الاضعاف لنا والتهوين لشأننا معنويا وماديا ، والامة لن يقوم لها شأن ما دامت تهون من شأنها وتحتقر نفسها ولو فى الامور العادية الصورية ، وان أمة تزهد فى مقوماتها وشخصيتها وترغب فى محاكاة غيرها ومحاكاة أعدائها وفى مقوماتهم وعاداتهم لا ينتظر لها إلا الانحدار والهوىّ الابدى فى أعماق الضعة والدرجات السفلى ، فمن يعتبر من الناس المفتونين المخدوعين بأعدائهم وبتقليدهم

(ثامنا)

قوله « ان الذى علم من المكفرات ثلاثة أمور الأول اعتقاد المساواة لله فى

جميع الصفات واعتقاد شيء من الاشياء هو الله أو اعتقاد حلول ذات الله في ذات مخلوق ، ثانيها إنكار الشرائع وا كذاب الرسل ، ثالثها عبادة الاوثان من السجود والنحر والذبح لها وذكر أسمائها على الذبائح وطليها بدمائها وتعظيمها باعتقاد استحقاقها ذلك استقلالا واعتقاد أن لها تدبيراً واختياراً » قول باطل لا يوافقه عليه أحد من أهل الملل ، فان المكفرات سوى ما ذكر كثيرة جداً ولا ينازع فيما نقوله أحد من أهل البصر بالأديان والمعقولات

أما المكفر الأول عنده وهو الاعتقاد أن شيئا مساو لله في جميع الصفات أو الاعتقاد أنه هو الله أو أن الله حال فيه ، فما يقول في من اعتقد بأن مخلوقا مساو لله في بعض الصفات لا في جميعها ، كأن يعتقد بأن مخلوقا مساوٍ لله في صفة العلم فقط ، أو صفة القدرة فقط ، أو صفة الارادة فقط ، أو في القدم أو في البقاء ، أو في الكمال والبراءة من النقص ، أو في صفة السمع والاحاطة ، أو في صفة من صفاته تعالى ؟ أفلا يكون ذلك المعتقد كافراً خارجاً من الملة باعتقاد جميع أهل الملة بل باعتقاد أهل الملل جميعاً ؟ ولكن كلام هذا الشيعي نص صريح في أن المعتقد لا يكفر حتى يعتقد أن مخلوقاً مساوٍ لله في جميع الصفات لا في بعضها ، ولا ريب أن هذا باطل

وأما المكفر الثاني عنده ، وهو إنكار الشرائع وإكذاب الرسل ، فما يقول في من أنكر بعض الشرائع وأكذب بعض الرسل لا كل الشرائع ولا كل الرسل؟ أفلا يكون ذلك لديه من الكافرين الهالكين ؟ وما يقول في من أنكر بعض شريعة من الشرائع ، مثل أن ينكر أمراً واحداً من أمور الشريعة الاسلامية الثابتة في القرآن صراحة كالصلاة والحج والزكاة ونحو ذلك ؟ أفلا يكون ذلك لديه من الهالكين المبعدين وإن آمن بعد ذلك بسائر الشرائع وبالشريعة الاسلامية كلها ما خلا تلك المسألة المفروضة بل وإن أدى جميع الفروض على أتم الوجوه وأصحها ؟

ان قوله هنا نص جلى فى أن ذلك لا يكفر ما لم ينكر جميع الشرائع ويكذب جميع الرسل ، وهذا باطل بالضرورة

وأما الكفر الثالث عنده وهو السجود والنحر والذبح والتعظيم للأوثان باعتقاد استحقاقها ذلك لرفعتها الذاتية وباعتقاد أن لها اختياراً وتدبيراً ، فما يقول فى من سجد ونحر وذبح وعظم الأوثان على نحو غير الذى ذكره هو ، مثل أن يفعل ذلك لها على اعتقاد أن الله أمر بذلك وطلبه من عبـاده فهو يرضيه ويريده منهم لا على اعتقاد أن لها تدبيراً واختياراً ورفعة ذاتية مستقلة ؟ أفيقول ان من يسجد الأوثان ويذبح وينحر ويعظم بل ويصلى ويحج ويصوم ويعمـل الأعمال الأخرى لا يمسه الكفر حتى يعتقد أن لها تدبيراً واختياراً ورفعة ذاتيـة وحتى يعتقد أنها تستحق ذلك بالاستقلال لا بالشرك مع الله ولا بفرض الله ذلك لها ؟ ان كلام هذا الشيعى نص فى أن ذلك ليس كفراً ، ولكنه على الرغم مما زعم باطل بالضرورة وبالاجماع وبالنص ، ولا يختلف المسلمون فى أن من سجد لوثن أو ركع له أو عظمه أو ذبح ونذر له أو ذكر اسمه على ذبيحته فقد ارتد سواء اعتقد أن لذلك الوثن تدبيراً واختياراً أم اعتقد أنه صنم من الأصنام لا يقدم ولا يؤخر ولا يريش ولا يبرى . ولا يختلف المسلمون أن المشركين الذين أبوا الاسلام والايمان برسول الله ﷺ أو جمهورهم ما كانوا يعتقدون هذه الأمور جميعها لأصنامهم وأوثانهم ، ولا يختلفون أيضاً أنهم أو أكثرهم كانوا بالجملة يعلمون أن الله خالق أصنامهم وما يعبدون ، وأنهم ما كانوا يعبـدونهم إلا لأجل أن يقربوهم الى الله خالقهم وربهم الأعلى ، والقرآن ناص على ذلك فى آيات كثيرة معلومة

على أن كلامه هنا باطل ضعيف على جميع الافتراضات والحالات ، وذلك أن الذى يعتقد هـذه الأمور التى ساقها هنا لصنم أو وثن ثم يذبح ويسجـد وينحر ويعظم لذلك الوثن أو الصنم ويكون ذلك المعتقد الذابح الناذر الساجد كافراً عند

هذا الشيعى فكفره إما أن يكون لأجل اعتقاده أن هـذا الوثن تدبيراً واختياراً واستحقاقا ورفعة ذاتية ، وإما لأجل سجوده له وذبحه ونذره وتعظيمه وذكر اسمه على الذبيح ، وإما أن يكون لأجل الأمرين معاً . فان كان كفره عنـد الشيعى لأجل هذا الاعتقاد لم تكن هنالك فائدة فى اشتراطه الكفر بهذه الأعمال من السجود والنذر والنحر بل يكون حينئذ هـذا الاشتراط لاغياً باطلا مفسداً للمعنى الذى عناه ، وكان الواجب الصحيح أن يقول حينئـذ ان من اعتقد التدبير والاختيار للأوثان واعتقد استحقاقها ذلك استقلالا كفر على جميع الفروض سواء أعمـل لها شيئاً أم لم يعمل شيئاً ، وسواء أسجد لها أم لم يسجد ، ولا ريب أن من اعتقد هذه العقيدة فى وثن من الأوثان فقد كفر بلا قيد ولا شرط

وأما إن كان كفره عنده لأجل عمله هذه الأعمال من السجود والنذر والذبح والتعظيم للأوثان لم تكن هنالك فائدة فى تقييـد ذلك بالاعتقاد المذكور ، بل لم يكن من الصحيح الحق تقييـده به ولا بغيره ، وكان الصحيح الواجب أن يقول ومن سجد للأوثان وعظمها ونذر لها وذبح وذكر أسماءها على الذبيح كفر سواء اعتقد غير ذلك فيها أم لم يعتقد ، أما تقييد هذا بالاعتقادات التى ساقها فانه يفسد عليه المعنى الذي أراده بكلامه ، واذا ما افترضنـا أن هذا هو ما يريد بقوله هذا قيل له إذن قد أقررت أن السجود للأوثان والتعظيم والنذر والذبح وذكر أسمائها على النحائر كفر وخروج من الاسلام على كل الوجوه سواء اعتقد الفاعل غير هذه الأعمال للصنم أم لم يعتقد شيئاً ، واذا كان ذلك كذلك ، واذا أقر بأن الأعمال للأوثان كفر قيل له ما تقول فى من عمل هذه الأعمال لرسول أو ولى أو عبد من عباد الله الصالحين الأموات أتقول انه كفر كما قلت فى من عملها للأوثان أم لا تقول ذلك ؟ فان قلت بالكفر أو فان قال بالكفر قيل له اذن أقررت بالحقيقة ، وهى أن تعظيم الأموات والنـذر والذبح لهم والعكوف على قبورهم شرك بالله وردة عن

الاسلام ، وهذا أ كبر مواطن الخلاف بين الشيعى وبين من كتب محاولا الرد عليهم ، وأما ان قال بالسلب ، أى ان قال ان عمل هذه الأمور للأنبياء والأولياء والصالحين الأموات ليس كفراً وليس مخالفاً للدين بل هو طاعة وقرب الى الله ، قيل له اذا كانت هذه الأعمال للأوثان عبادة لها وشركا بالله العظيم فكيف لاتكون كذلك اذا عملت للأنبياء والأولياء ؟ أو ليس الشرك شركا سواء أ كان لملك مقرب و نبى مرسل أم لحجر وشجر؟ وهل عبادة غير الله تجوز للأولياء والأنبياء ولا تجوز للأحجار والأشجار ، وهل يتفق هذا مع سائر أقوال الشيعى فى كتابه ومع قوله فى الأمر الخامس عشر ان الأحكام على الاشياء لا تغير الموضوعات ؟ واذا كان ذلك كذلك كان جائزا حينئذ أن يكون الأمر الواحد تارة شركا وتارة ايمانا باختلاف محله وزمنه لا باختلاف ماهيته ومادته وكان جائزاً أن تكون الصلاة للرسول والولى ايمانا بالله ولغيرهما ممن ليس رسولا ولا وليا كفراً بالله وأن يكون دعاء الرسول الكريم والاستغاثة به والضراعة اليه ، وتقديم النذور والقرابين الى قبره ايمانا وطاعة لله ، وأن تكون هذه الاشياء نفسها لو كانت لمن هو دون الرسول منزلة وقدراً كفراً وشركا بالله ، وأن يكون الحج الى بيت معلوم كبيت الله الحرام طاعة وقربا الى الله ، وأن يكون الى غيره كالقبور والمشاهد معصية وخروجا من حدود الدين ودائرة الاسلام ، بل وأن يكون الطواف ببعض الاماكن ايماناً واسلاماً كالطواف ببيت الله وبين الصفا والمروة وأن يكون الطواف بالاماكن الاخرى كفراً كالطواف بالاضرحة والمشاهد والقبور ، وأن يكون الحلف بمخلوق ايمانا ودينا وبمخلوق آخر كفراً فيكون مثلا الحلف بالرسول من الاسلام والتقى وبغيره كالحلف بأبى بكر وعلى والحسن والحسين وبالكعبة وبالمساجد كفراً بالله ونظائر ذلك . وهذا كله خلاف رأى هذا الرجل وخلاف ما كتب فى كتابه فما هو قاعل ؟

ويقال بأسلوب آخر أقرب إلى اصابة الغرض : إذن يجوز أن يكون دعاء الأموات والاستغاثة بهم وشد الرحال اليهم وتعظيمهم دينا وتقوى، واموراً جائزة وأن يكون دعاء الأموات والاستغاثة بهم وتعظيمهم وشد الرحال الى قبورهم والانقطاع اليهم كفرا وردة . وهذا ماياباه هذا المؤلف وينكره

وقد كانت حجة هـذا الرجل المرددة قوله : « لو كان دعاء الأموات والاستغاثة بهم شركا وحراما لكان دعاء الأحياء والاستغاثة بهم كذلك ، واذا كان دعاء الأحياء لا شرك فيه ولا مانع فكذلك دعاء الأموات . فاذا كان ذلك فى احدى الطائفتين شركا وحراما كان كذلك في الطائفة الأخرى . وليس بممكن أن يكون فى حالة شركا وفى حالة إيمانا . وهذا باطل » هذا معنى كلامه

وهذه الحجة إن كانت صحيحة كانت حجة ضـده هنا ، وان كانت باطلة فاسدة بطلت هـذه الحجة التى بها يصول ويجول ويدعى أنه اذ ظفر بها قد ظفر بالحقيقة الخالدة

هذا على الافتراضين . وأما على الافتراض الثالث وهو أن يكون الكفر عنده بمجموع الأمرين المذكورين أي باعتقاد التدبير والاختيار والاستحقاق والرفعة الذاتية للاوثان ، ثم بالسجود والنذر والذبح والتعظيم لها ، فيقال على هـذا الافتراض انه باطل ولا شك فى بطلانه كما قدمنا فان أحد الامرين كفر بالاجماع ولا يتنازع المسلمون أن من اعتقد هذه العقيدة فى الأوثان فقد ارتد وان لم يعمل لها عملا . وأن من عمل لها هذه الأعمال فقد ارتد وان لم يعتقد فيها هذه العقيدة المذكورة ، ولا أحسب الرافضى ينازع فى هـذا . فهذا الافتراض باطل أيضاً فماذا يصنع ؟

ثم نقول بعد هذا فى المكفر الأول وهو الاعتقاد أن مخلوقا ما مساو لله فى اننا نستبعد جداً أن يوجد مخلوق عاقل يؤمن بالله يزعم أن مخلوقاً ما مساوٍ لله

فى جميع صفاته نفياً واثباتاً ويزعم أن ما يجوز على الله يجوز على ذلك المخلوق وما يجب له يجب له وما يستحيل عليه يستحيل عليه . فهذه العقيدة نرى من البعيد القريب من المحال أن يتقلدها انسان يؤمن بالله

ومثل هذا مايذكره بعض الناس أن من الفرق الاسلامية فرقة تزعم أن صفات الله كصفات المخلوقين . فتزعم أن لله يداً كأيدينا وسمعا كأسماعنا وبصراً كابصارنا وهلم جرا . فهذا القول وإن كتب وشهر فهو على ظاهره وحقيقته باطل كذب عندى لا أظن إنسانا يدعى الاسلام والايمان يقوله ويعتقده . وهذا والله اعلم قد دخل على الناس من طريق الاشتباه والاشتراك . فان قوما يبالغون فى اثبات ماجاء فى النصوص من صفات الله ويحافظون على هذا الاثبات ويبالغون فى المحافظة لايرضون التأويل والتفسير بغير الظاهر المفهوم من النصوص فيثبتون لله تعالى الصفات الواردة فى النصوص حقيقة بلا تأويل . فيحسب المخالفون لهم المؤولون الظانون أن هذه الصفات تقتضى التجسيم والتشبيه ان ذلك الاثبات عين التشبيه وأنه لايمكن اثبات اليد لله إلا اذا كانت جارحة مركبة من الدم والعظام والأعصاب كأيدى المخلوقين . فيروح هؤلاء يزعمون أن المثبتين يشبهون الله بخلقه حقيقة . وأنهم يقولون ان صفات العباد كصفات الاله . وهذا غلط عظيم ووهم أظن طريقه ماذكرنا

نعم هنالك قوم قالوا بالحلول حلول الاله فى ذوات الخلق كقول النصارى فى الله وعيسى ، وكقول طوائف من الشيعة ـ حدثائهم وقدمائهم ـ ان الله حل فى ذات على وذوات ذريته . وقد كان من الخلفاء الفاطميين وهم من المتشيعين من يذهب هذا المذهب ويجاهر به ، ويدعى حلول ذات الله فى ذواتهم ، وكان الحاكم منهم ينزع هذا المنزع ويدعو اليه تصريحاً وتعريضاً ، حتى وجد من اعتقد فيه هذه العقيدة ، ويوجد اليوم من ينحله هذه الصفة ، وكان أقوام كثيرون غير هؤلاء

وهؤلاء يدينون عقيـدة الحلول حلول الله فى ذوات ما يعبدون ويعظمون ، وهذا مشهور عن طوائف من المدعين الاسلام الممزوج بالفلسفة البوذية الطاغية العابثة ، ولكن هؤلاء المصابين بداء الحلول والانحلال تنحصر دعواهم فى أن ذات الله العظيم حلت فى هذا الجسم المرئى المشهود لأمر من الأمور وغرض من الأغراض ولكنهم على رغم هذا لايقولون ان الذات الالهية الحالة فى الجسم الانسانى الناسوتى مثل هذا الجسم الذى حلت فيه الذات المقدسة . انهم لايقولون هـذا القول ، وهم انما قالوا بالحلول لأجل أن يعظموا من شأن من زعموا أن الحلول وقع فى ذاته . فالنصارى مثلا يقولون ان المسيح هو الله أو ابن الله ، وهم يريدون بهـذا القول معنى قولهم حل اللاهوت فى الناسوت ، وهم يقصدون إعظام أمر عيسى عليه السلام والرافضة الذين يزعمون أن الله حل فى علي وولده والذين يزعمون أنه حـل فى الحاكم وغيره من الخلفاء ، إنما يريدون بذلك إعظام ذلك الشخص الذي افترض فيه الحلول ، ولكنهم لا يدعون أن الله مساوٍ لغيره سواء اعتقـدوا حلوله أم لم يعتقدوا . فليس هنالك فيما أحسب من المؤمنين بالله من يزعم أن مخلوقا مساو لله فى جميع الصفات نفياً وإثباتاً

وهذا الحلول الذى جعله الشيعى أول الكفرات أول من زج به فى الاسـلام فيما نعلم هم شيوخ الشيعة ومخترعو المذهب الشيعى ، وهـذا الرجل يسلم أن عبد الله ابن سبأ ـ أول واضع المذهب الشيعى ـ كان يدعى ذلك فى على رضي الله عنه ، وعبد الله بن سبأ اليهودي المدعى الاسـلام والتشيع هو أول من زقا بالنحلة الشيعية الغالية وهو المخترع الأول لهـذه الترهات الفاضحة فى المذهب الشيعى المسرف ، وخلفاء الفاطميين كانوا يدعون الى ذلك ، أى الى مذهب الحلول جهرة ويدعون حلول الله جل شأنه وتقدس فى ذواتهم ، والفاطميون من الشيعـة فى الظاهر ومن المؤمنين العلويين لدى هـذا الشيعى كما ذكرهم فى كتابه ، فالبناة الأول لمذهب

الشيعة لدى هذا الشيعي كفار مرقة من دين الاسلام حسب اعترافه

وبعد هذا يقال لاريب أن حصره المكفرات فى الأمور الثلاثة التى ذكرها هنا باطل لايصح باعترافه هو وباعتراف كل شيعى أيضاً ، أو لايذكر هو أنه فى الأمر الثانى عشر صفحة ١٠٢ كفّر بغير هذه الأمور الثلاثة ، فأكفر منكر الضرورى ، والخوارج ، والمجسمة ، وهم لم يقعوا فى أحد الأمورالثلاثة التى حصر المكفرات فيها

الامر الخامس عشر

قال الرافضى « لا شك أن الله فاوت بين مخلوقاته فى الفضل : فنى الأزمنة فضل شهر رمضان على سائر الشهور وجعل فيه ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر ، وفضل يوم الجمعة على سائر الأيام . وفى الأمكنة فضل الكعبة على سائر بقاع الأرض وتعبد الناس بالحج اليها والطواف حولها وفضل مكة والمساجد الأربعة والمسجد الحرام على غيرها . وفى الأحجار فضل الحجر الأسود على غيره وتعبد الناس باستلامه وتقبيله ، وفي الآبار فضل زمزم على غيرها . وفى الحيوانات فضل الخيل على غيرها وجعل بعض دم الغزال مسكا . وفى بنى آدم فضل الأنبياء على غيرهم وفضل محمداً ﷺ على سائر الأنبياء وفضل الشهداء على غيرهم والعلماء على الشهداء وعلى بعض الأنبياء ، بل الشيء الواحد له فضل فى حال دون حال . فالكنيف لافضل له وهو فى منتهى الخسة ، فاذا جعل مسجداً صار معظما عند الله وحرم تنجيسه ووجب تعظيمه ، وجلد الشاة يجعل نعلا فيكون فى منتهى الاهانة ويعمل جلداً للقرآن فيكون فى منتهى الاكرام والاعظام ، والرجل يكون كسائر الناس فيبعثه الله بالنبوة فتجب طاعة أمره ونهيه ، أو ينصبه النبى بعده خليفة أو المسلمون ، بناء على أن الامامة باختيار الأمة فيدخل فى قوله تعالى « وأطيعوا الله

وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ومن هذا القبيل البقعة من الأرض تكون كسائر البقاع فيدفن فيها نبي أو ولي فتكتسب شرفا وفضلا وبركة [1] لم تكن لها من قبل الدفن ويجب احترامها وتحرم اهانتها ، ومن احترامها قصدها لزيارة من فيها وبناء القباب فوقها والحجر حولها لتقي زائريها من الحر والبرد ، وعمل الأضرحة لها التي تصونها عن كل إهانة وإيقاد المصابيح عندها لانتفاع زائريها واللاجئين اليها ، وجعل الخدمة والسدنة لها ، وتقبيلها والتبرك بها ووضع الخلع عليها والمعلقات فوقها وغير ذلك ، ومن اهانتها هدمها وهدم ما فوقها من البناء وتسويتها بالأرض وجعلها معرضاً لوقوع القاذورات ووطء الدواب والكلاب والآدميين وبول الدواب والكلاب وغير ذلك . وما ورد مما يوهم المنافاة لذلك مما سيأتي في محله على فرض صحته مخصوص بغيرها أو منصرف بحكم التبادر الى غيرها لما علم من الشرع من لزوم تعظيم أصحابها أحياء وأمواتا وهذا من تعظيمهم وحرمة اهانتهم أحياء وأمواتاً وهذا منها ، وهل يشك في هذا عاقل وهو يرى أن الله جعل احتراماً لصخرة صماء بسبب وقوف ابراهيم الخليل عليها فقال « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » أفيجعل الله لمقام رجل خليله احتراماً ولا يجعل احتراماً لمدفن جسده أو جسد سيد الأنبياء ، وإذا كان له هذا الاحترام فلماذا حرم تقبيله والطواف والتبرك به والصلاة عنده ودعاء الله ، كما يصلى عند مقام ابراهيم ويدعى ؟ فان كان لتوهم أنه عبادة له كعبادة الأصنام فهو توهم فاسد ؛ لأن احترام من جعل الله له حرمة احترام لله وعمل بأمر الله وعبادة وإطاعة لله ، فهو كتقبيل الحجر الأسود وتعظيم الكعبة والحرم والمقام والمساجد والتبرك بماء زمزم وسجود الملائكة لآدم وإن كان لزعم ورود النهي فستعرف أنه لا نهي » انتهى كلام الشيعي . قلت والكلام في هذا من وجوه :

---

(١) ومن هنا يبتديء بيت القصيد

(أولا)

التفضيل لبعض المخلوقات على بعض قسمان : قسم منه يرجع لمزايا وجدت فى المفضل دون المفضل عليه ، وذلك كتفضيل الخيل على غيرها من العجماوات كالحمير والبغال والأغنام .و كتفضيل الشهداء على غيرهم ممن قعدت بهم أنفسهم عن الجهاد وعن الموت قصفاً بالسيوف وطعناً بالرماح . وكتفضيل العلماء على الجهلاء ، وتفضيل الأنبياء على من ليسوا أنبياء . وتفضيل الاولياء الاتقياء على الفسقة والعصاة المذنبين ونظائر هذا . فهذا القسم فضل على غيره لاختصاصه بفضائل لا توجد فيما سواه استحق بها عدلا وحكمة أن يكون مفضلا على غيره ممن لم تقدر لهم تلك الفضائل . وهذا القسم لا كلام لنا فيه هنا ، فانه لا ينازع أحد من الناس أن الشيء يشرف ويفضل بقدر ما له من الفضائل النفسية والخصال الحميدة الشريفة ، وبقدر ما يحدثه من آثار نافعة للامة والدولة والدين . هذا قسم

وقسم آخر فضل على غيره من غير أن نعرف له فضيلة ذاتية ترجع الى ذاته هو ولا مزية فيه تقضى بتفضيله وتقديمه على ما سواه فيما يبدو . وقد يكون شيء من ذلك لم نعرفه ولم يبد لنا . والله أعلم بالسرائر والخفيات . ومن هذا القسم تفضيل يوم الجمعة على سائر الأيام . وتفضيل شهر رمضان على سائر الشهور ، وتفضيل ليلة القدر منه على سائر الليالى وتفضيل الكعبة على سائر البلاد وتفضيل المسجد الحرام على سائر المساجد وأشباه هذا . فان هذه الاشياء فضلت على غيرها لا لأجل فضيلة خصت بها ترجع الى ذاتها ونفسها حسب ما نعلم بل فضلت محض تفضل من الله ومحض اختيار لحكمة تدق على الأفكار ويسمو منالها على العقول

وقد يقول قائلون إن التفضيل لهذه الأشياء التى ذكرت وأشباهها لم يكن عن اختيار محض وقضاء غالب صرف لا سبب له غير ذلك بل تفضيلها راجع لأمور

امتازت بها عن سواها لفضائل خصها الله بها وحدها دون ما فضلت عليه : فيوم الجمعة فضل على بقية الأيام لما امتاز به من المزايا الكثيرة . وقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة الا يوم الجمعة » وروى الترمذى وأحمد أنه عليه السلام قال (سيد الأيام يوم الجمعة فيه خمس خلال خلق الله فيه آدم وأهبطه فيه الى الارض وتوفاه فيه . وفيه ساعة لايسأل العبد الله فيها شيئاً إلا أعطاه إياه ما لم يسأل حراماً وفيه تقوم الساعة) الى غير ذلك من فضائل يوم الجمعة . ومن فضائل هذا اليوم أيضا اجتماع المسلمين فيه لصلاة واحدة ولاستماع موعظة عامة أسبوعية فيوم الجمعة فضل على أيام الاسبوع لأجل هذه الفضائل التى انفرد بها وكذلك شهر رمضان فضل على سائر الشهور لأنه أنزل فيه القرآن فيه هدى للناس وبينات . وشرع فيه الصيام والقيام وصلاة التراويح ومداوسة القرآن الكريم . وقد كان جبريل يدارس الرسول الكريم القرآن فى رمضان كل عام . ولأنه أيضا خص بليلة القدر دون سائر الشهور وليلة القدر خير من ألف شهر . وفضلت ليلة القدر على الليالى لأن القرآن نزل فيها ولأن الملائكة والروح يتنزلون فيها حتى مطلع الفجر كما قال تعالى « تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر » وكذا فضلت مكة على غيرها لأنها جعلت مثابة للناس وأمناً فيها يقضون أتفاثهم ويغسلون ذنوبهم وخطاياهم ويتطهرون فيها من أوضار المعاصى وأدناس القلوب ، يرجعون فيها الى الله خالصين من كل شىء إلا من ذكر الله والضراعة اليه وتلبية دعوته العامة والخاصة يجتمعون هنالك يشكون الى ربهم عدوان ضعفهم على قوتهم وتغلب مادتهم وحيوانيتهم على انسانيتهم وروحانيتهم ، ويهربون من نفوسهم ومن طبيعتها الجائرة العادية الى تلك البقعة مهبط وحى السماء ورسالة جبريل الى محمد بن عبد الله ﷺ

ويبثون إخوانهم آلامهم وآمالهم التى تعجز موجات الأثير عن أن تقذفها فى الآذان المسلمة القصية ، ويلتقى المحبون لدى ذلك المحبوب الذى يولون وجوههم مع قلوبهم شطر وجهه وسناه فى اليوم الواحد والليلة الواحدة المرات الكثيرة ، وتتنور قلوبهم وأبصارهم نور ذلك المعشوق الذى لا يحول ولا يخونون كل يوم ماشاء الله على حسب ما ضمنته القلوب من شوق وهوى

وكذلك فضلت مكة لوجود بيت الله الحرام فيها ، وفضله وفضـل المسجد الحرام على غيره من المساجد فضـل بانيه وهو ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ولأن الله أمرهما ببنائه وتطهيره للطائفين والعـا كفين والركع السجود ، ولكثرة من صلى فيه من الأنبياء والأتقياء والصالحين والخلفاء الراشدين ، ولأنه قبلة أبصار المسلمين ومهوى قلوبهم فى الشرق والغرب حينما يقفون أفضل مواقف العبد وهو موقف الصلوات لله رب العالمين الى غير ذلك من الفضائل التى قضت بتفضيل هذه الأشياء على غيرها : إذا قال قائلون ذلك قيل لهم هذا أمر لاريب فيه ولا خلاف . فان هذه الأزمان والأماكن المفضلة قد خصت بفضائل لم يخصص بها غيرها من الأماكن والأزمان . بيد أن هذه الفضائل على كل حال فضائل ليست راجعة الى ذات هذه الأماكن والأزمان ولا الى طبيعتها ولا الى اختيارها وارادتها ، بل هى فضائل خصها الله بها محض تفضل ومنة ومحض اختيار قاهر غالب . ولا شك أن لله فى ذلك حكما عالية لازمة ، ولم يكن تخصيصها بهذه الفضائل راجعاً الى أمر قام بذاتها وطبعها قضى بتفضيلها على فاقد ذلك من الزمان والمكان ، وعلى هـذا يقال ان هذه الأماكن والأزمان قبـل تخصيصها بذلك كانت كغيرها ذاتا واستعداداً وطبيعة فلماذا خصت وحدها بهذه الفضائل ؟ ولو أن الله خص يوم الأربعاء بفضل يوم الجمعة لما كان لهذا مانع ، ولكان يوم الأربعاء أفضل من يوم الجمعة ، ويقال فى سائر أيام الأسبوع مثل هـذا ، ولو خص أحد شهور السنة بمـا خص به شهر

رمضان من الفضائل المذكورة مثل إنزال القرآن وإنزال الآيات البينات ومثل تخصيصه بليلة القدر لما كان هنالك مانع ولكان ذلك الشهر أفضل شهور السنة وأفضل من رمضان ، وكذلك لو خصت إحدى ليالى السنة بما خصت به ليلة القدر من الفضل لما كان ثمة مانع ولكانت تلك الليلة المفترضة أفضل من ليلة القدر وهكذا يقال فيما ذكر كله فالسؤال باق ، وهو لماذا فضلت هذه الأماكن وهذه الأزمان على غيرها بتلك الفضائل التى قضت بأن تفضل ما سواها ، ولا شيء من هذه الفضائل يرجع الى ذات تلك الأزمان والأماكن ، وقد كان ممكنا ومعقولا أن تكون تلك الفضائل لغيرها ، وممكناً أن يكون غيرها أفضل منها على هذا النحو الذي قوامه اختيار المولى ، و تفضله الذي لا يقف عند حد ولا يدع أحداً إلا يشمله ويعمه ، وهذا هو السؤال عينه ، وهو سؤال جوابه فى الظاهر الذى لا يمكن غيره أن يقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

وليس كذلك القسم الأول فى الظاهر ، فانه قد امتاز بفضائل نفسية كسبية قضت بتفضيله على ما سواه ممن فقدوا تلك الفضائل والمزايا ، فان الذى فضل العالم على الجاهل هو العلم ، والذي فضل التقى على الفاسق الفاجر التقوى ، والذى فضل الرسول والنبى على سائر الناس ما امتازا به من الفضائل النفسية والفضائل الالهية التى مرجعها فضل الله ، والذى فضل الشهيد على غيره فضائله النفسية من قوة الايمان التى زجت به فى غمرات الموت طائعاً مختاراً ، ومن الشجاعة التى رمت به فى أحضان الحمام المكروه ، ومن الدفاع عن دين الله الحق وعن العدالة ، ومن دفاع الظالمين والظلم ، ثم ما أصابه على ذلك من الآلام والموت المعتبط العنيف الناجز ، كما أن الذى فضل الخيل على غيرها من البهائم ما خصت به من كرامة النفس وجمال الصورة وشدة الجرى وطول الشوط وتعطفها طوع إرادة راكبها ، واقتحامها لجج الحروب والحتوف والصروف والأشياء الأخرى

اذا علم هذا قيل ان تفضيل الأمر يرجع الى أمرين كما ذكرنا : أمر يرجع الى ما امتاز به المفضل من فضائل نفسيـة كسبية ، وأمر يرجع الى فضل الله المحض وجميل اختياره ، وعلى هذا يقال لهذا الرافضي : أما القسم الأول من ذلك الذي حكم بتفضيله بمقتضى ما فيه من الفضل فلا كلام لنا هنا فيه إذ لا ريب أن ما ثبتت له فضائل لزم تفضيله بقدر فضائله لا كما يقضى هوى المفضل وارادته الذى ليس له من الأمر شيء

وأما القسم الثاني أي القسم الذى ترجع فضائله الى خالص فضل الله واختياره الجميل فلا خلاف فى وجوب تفضيله على مقتضى ماتدل النصوص الصحيحة الواردة فيه ، ولا خلاف فى لزوم القول بما جاء فى النصوص من ذلك الفضل المقدور ، فما قال الشارع فيه انه أفضل من غيره يقول المسلمون سمعا وطاعة وما قال فيه أن غيره أفضل منه يقول له المؤمنون سمعا وطاعة ، لا عصيان ولا اعتراض على رب العالمين

يدق على الأفكار ما هو فاعل فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يضع فضله وتفضيلـه ، وحيث يأمر وينهى ويقول ويفعل لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ولن تحيط العقول المحدودة بحدود العبودية وبحدود الالهية ، العقول الضيقة الحادثة بأسرار علم من لايحد علمه ومن لا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ، واذا ما كان المريض لايعترض على أوامر طبيبه وهما انسانان مخلوقان محدودا العلم فكيف يعترض الحادث العبد على رب العالمين خالق كل شيء العالم بما كان وما يكون

ولكن هذا القسم لايمكن القياس عليه ولا يمكن إلحاق غيره به مما لم يدل الشرع على إلحاقه وفضله وتفضيله ، لأن هذا القسم فى منزلة تسمو على متناول العقول وهبوطها ، وفى منتهى تقصر عن الصعود اليه الأذهان البشرية الكليلة ، وفى مستوى رفيع من الحكمة الرفيعة تحار فيه البصائر وتقف الأبصار حيرى تائهة مشدوهة

لاتستطيع التقدم ولا التأخر ولا الذهاب يميناً ولا شمالا ، وما كانت حكمته كهذا من الدقة والخفاء فلن يمكن القياس عليه بالاجماع والبداهة والضرورة

أرأيت لو لم يدل الشرع على فضل رمضان أو فضل يوم الجمعة مثلا ، أفيمكن للعقول أن تهتدى إلى تفضيل رمضان على مجموع الشهور وتفضيل يوم الجمعة على مجموع أيام الاسبوع ؟ أو لو لم تدل النصوص على تفضيل مكة المكرمة ووجوب استقبالها حين الصلاة وقصدها من كل مكان لقضاء فريضة الحج إحدى فرائض الاسلام المقدسة ، وأن اسلام المرء لايكون تاما كاملا إلا إذا ماقصد تلك المشاعر والمعالم وطاف بها وصلى وجأر إلى الله ودعاه وقبّل بعض ذلك ورمى الجمرات وأحرم وأحل وحلق وقصر وذبح وأهدى ، أفيمكن أن تهتدى العقول إلى معرفة ذلك كله لولا النصوص والرسالات النبوية ؟ كلا إن ذلك كله من وراء العقول وفوق مستواها وفى منقطع تنقطع فيه أشواط الاذهان وما كان كذلك لا يمكن القياس عليه ولا يمكن تعدى النصوص ، بل يوقف فى هذا القسم حيث وقفت النصوص ويذهب حيث ذهبت

فمن قال لما أن ثبت تفضيل مكة وتفضيل الكعبة وتفضيل تلك المشاعر والمعالم وتفضيل الحجر الأسود وجب قياساً على هـذا تفضيل المشاهد والقبور وتفضيل آثار الأنبياء والصالحين وتفضيل ما لامس أبدانهم وما لمسوه بأجسامهم وما نزلوا فيه وطافوا به من الأرض والزمان ونحو ذلك كان غالطا غلطا فاحشا واضحاً . وكان قائلا ما لم يقله أحد من المسلمين والعقلاء أجمعين . وهـذا القول مثل قول القائل الآخر لما ثبت فضل يوم الجمعة وهو فى معناه وصورته كسائر الأيام وجب تفضيل يوم السبت أو يوم الأربعاء أو يوم الثلاثاء أو يوم الخميس . لأنه لا فرق بين هذه الأيام فى معناها ومادتها . فلا يوجد فى يوم الجمعة أمر يفضله على سائر الأيام . فتجب التسوية بينه وبين أيام الأسبوع . وكن قال لما ثبتت فضائل شهر

رمضان وتفضيله وجب تفضيل سائر شهور السنة كلها لأنه لا فرق بين هذه الشهور في المعنى ولأن تفضيل هذا الشهر على جميع الشهور تفضيل لا موجب له ، وترجيح بلا مرجح

وهذا النحو من القول كقول هذا الشيعي هنا . ولا ريب أن هذين القولين سواء . ولا ريب أنهما خارجان عن حدود الدين مخالفان اجماع الاولين والآخرين من المسلمين

وهذا أيضاً مثل أن يقول القائل : إذا ما فضلت مكة المكرمة ووجب الحج إليها ووجب الاتجاه نحوها وقت الصلاة ووجب صنع كل ما يصنعه الحاج هناك من الطواف والاحرام والاحلال ورمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة وتقديم الهدى وإشعاره الى غير ذلك من أعمال الحج وجب أن يفضل غيرها أيضاً من مواقف الانبياء والاولياء وآثارهم ومنازلهم وما عبدوا الله فيه وصلوا فيه وقاموا وكانوا الاله فيه أو فوقه ووجب أن يكون ذلك الفضل كله لمدينة الرسول وقبره الشريف المطهر ولكل مكان وقف فيه النبي الكريم وصلى فيه وعبد الله فيه وعنده من المساجد والمنازل والفلوات والجبال والنيران كغار حراء وغار ثور . ووجب أن يقوم القادمون الى مسجد الرسول الكريم وإلى منازله وآثاره في المدينة المنورة ومكة وما بينهما وغيرهما بما يقوم به الحاج وما يصنعه من الاحرام والتلبية والتحليق والتقصير وجميع أعمال هذه الفريضة المقدسة فريضة الحج ، ووجب أيضاً أن يستقبل ذلك المصلون في صلواتهم ، ووجب ذلك أيضاً لمنازل الانبياء ومساجدهم وآثارهم وما بهم عرف وكل ما هنالك في الشام وفي مصر وفي كل مكان ومنزل وفي كل مصر وفلاة . هذا القول وهذا الخيال مثل خيال هذا الرافضي ومثل قوله سواء ومثل قياسه واستنتاجه . ومن قال هـذا أو شك فيه خرج من حظيرة الاسلام باجماع المسلمين ووجبت استتابته إن كان في بلد إسلامي وإلا نالته عقوبة المرتدين

ولا خلاف في ذلك

فالقياس على هذه المواضع يستلزم القول بهذه الاقوال ، وهي أقوال يكفى في إبطالها والنقض عليها تصويرها وتصورها . فانها فاسدة بالاجماع والضرورة المحكمة

فالذى يذهب يستدل على تفضيل القبور وتفضيل الصلاة فيها والیها وتقبيلها واستلامها والسفر اليها وتقديم الهدى لها واشعاره مستدلا بأن هذه الأمور مشروعة فى مكة المكرمة ومشروعة فى معالم الحج هنالك يلزمه لزوما صريحًا صحيحًا أن يجوّز أعمال الحج كلها من التحليق والتقصير ورمي الجمرات والفدية والاحرام وسائر واجبات الحج ومستحباته للقبور قبور الأنبياء والصالحين . بل وأن يجوز استقبال القبور فى الصلوات قصداً وعمداً . لأنه إذا وجب هذا التعظيم للكعبة فكيف لا يجب لمسجد سيد الأنبياء ومدفن أكرم رفات وأشرفه على الله وعلى عباده المؤمنين ، وهو رفات سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام ؟ وكيف لايجب لغار حراء وهو الغار الذى كان النبى الكريم يعبد الله فيه ويهرب اليه من شرك المشركين وضلالات الضالين . وهو الغار الذى نزل فيه أول ما نزل الوحى وكتاب الله أفضل الكتب على أفضل الرسل لأفضل الأمم ؟ وكيف لا يشرع ذلك لغار ثور وهو الغار الذى نجا فيه رسول الله وصاحبه من طلب المشركين وأذاهم ومنه خرج ليضع أعظم شريعة إلهية سماوية ، وليدرب أعظم أمة ، ويجند أعظم جند لمحاربة الرذائل ، وليخرج أعظم العلماء والفلاسفة والقواد لاصلاح البشر ولانقاذ البشرية ولافلات المعانى الانسانيـة المكفوفة المكبوتة بسلطان الحيوانية وحدودها ؟ وكيف لا يشرع ذلك لمنازل الرسول الكريم ومنازل أزواجه الطاهرات فى المدينة المنورة وغير المدينة . وقد أقام فيها أكرم جسد على الله وتلا فيها أكرم لسان أكرم كلام . وقد نزل فيها أكرم ملك على أكرم رسول بأكرم كلام . وقد سجد فيها أكرم ساجد وركع فيها أكرم راكع وقام

فيها قانتا أكرم قائم وقانت؟ ان الذى يذهب يقيس كفعل هذا الشيعى ويستدل كاستدلال هذا الرافضى يلزمه أن يجوّز الحج أو يوجبه بفروضه وسننه الى هذه المنازل وإلى هذه الآثار فى المدينة المنورة وفى غيرها من المدن والبلاد وأن يجوز استقبال ذلك فى الصلوات الخمس وفى غير الصلوات الخمس أو يوجبه مثل ما كان هذا واجبا لمكة المكرمة وكما استدل بهذا هذا الشيعى على جواز ذلك ووجوبه للمشاهد والقبور

إن الاستدلال بهذا النحو الذى ذهب اليه هـذا الشيعى استدلال أقل مايوصف به أن يقال انه فاسد باطل ، وأن من احتذاه فقد أفسد الشرائع ومثل بها أشنع التمثيل وصيرها أمثولة ومثلة . وأصبح هو مثلا الاولين وللآخرين من ذوى التفكير المضطرب والآراء النية الفجة والمنطق المريض القلق

(ثانيا)

هب هذا القياس صحيحاً مقبولا بالجملة . ولكن هل يدل بعد ذلك على ما يريده منه هذا الرافضى؟! كلا وبيان ذلك أن الذي يريده هو اذا كان الله قد فضل المساجد وفضل مكة وفضل يوم الجمعة وفضل شهر رمضان وفضل ليلة القدر وفضل العلماء والشهداء والأنبياء . اذا كان فضل ذلك كله وأوجب احترامه وتعظيمه كله وجب أن يكون هذا التفضيل والتعظيم والاحترام لقبور الانبياء وقبور الصالحين والعلماء ولآثارهم ولا يمكن أن تكون هذه المساجد والأحجـار والبلاد والأيام والشهور أولى بالتفضيل والاحترام والتعظيم من قبور الانبياء والصالحين ومن آثارهم ومخلفاتهم . فيجب إذن أن يكون ذلك كله لهذه القبور والآثار والمخلفات على الوجه الاتم الافضل ويجب الاعتراف لهذا بهذا : هكذا استدلاله واحتجاجه وهكذا مقدماته ونتيجته : ولكننا نحن نقول هب هذا الاستدلال صحيحا مقبولا

مرضيا بالجملة وهب تفضيل قبور الانبياء والأولياء واجبا وكذا احترامها وتعظيمها ولكن هل يلزم التفضيل والاحترام والتعظيم جواز سائر ما ينتحله هذا الشيعي ويدعيه من وجوب تقبيل القبور واستقبالها والبناء فوقها وعقد القباب عليها وتقديم القرابين اليها وتزيينها بفاخر الزينات من الذهب والفضة والمعلقات والمجوهرات، ومن شد الرحال اليها وقصدها من الأقطار الشاسعة النائية، ومن الحلف بها والاقسام على الله بذواتها؟ هل هذه الأشياء المبتدعة تلازم التفضيل والاحترام والتعظيم؟ هذا الرافضي يدعى هذا ويدعى هذا التلازم ويدعى أنه لا احترام ولا تعظيم ولا تفضيل بغير ذلك. أما نحن فنقول كلا. انه لا يلزم هذا هذا. والدليل على انفكاك هذا التلازم المدعى أن المساجد مفضلة محترمة معظمة كما يقول هذا المصنف الشيعي وهي مما قاس عليها مزاعمه ومع هذا لا يجوز استقبالها في الصلوات البتة اذا ما استثنينا المسجد الحرام ولا يجوز تقبيلها ولا تقبيل أرضها وجدرها وسقفها ولا التمسح بها ولا تقريب القرابين اليها ولاشد الرحال لزيارتها ولا للصلاة فيها كما جاء فى الحديث الصحيح المعروف « لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجد المدينة » وكذلك لا يجوز تقبيل بيوت مكة ولا التمسح بها ولا التمرغ عليها طلبا للبركة والتعبد. ولا يجوز شيء من ذلك فى الكعبة وفى المسجد الحرام سوى ما ورد فى النصوص الصحيحة من تقبيل الحجر الاسود واستلام الركنين اليمانيين. فلا يجوز من ذلك إلا ما جاء فيه النص الصحيح عن الرسول الكريم. وقد قال الخليفة عمر بن الخطاب عند تقبيله الحجر الاسود قوله المشهور « والله انى لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع، ولو لا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » رواه البخارى ومسلم وغيرهما. وعمر يريد أن مثل هذه العبادات تؤخذ كما أتت عن الشارع أخذاً بايمان واستسلام لا يزاد فيها ولا ينقص منها. وهو فى معنى قول على رضى الله عنه « لو كان الدين بالعقل لكان

أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه » وكلهم يريد بهذا أن ثمت أشياء من شئون الدين تحار فيها العقول ولا تهتدى فيها الى عين الصواب لخفائها وبعد منالها ولو كان فى استطاعة العقول الوصول الى أحكام الشريعة وادراكها استقلالا وبلا توقيف ورسالة إلهية لما كانت هنالك حاجة الى ابتعاث الرسل والانبياء والى الكتب المنزلة فيها الشرائع والاحكام . واطلب من الناس تحكيم عقولهم واتباع ما تراه وما تحسبه حقا ودينا . ولكن الله يقول لأوفر الناس عقلا وأصفاهم ذهنا وقريحة « إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » ومن هو دون الرسول أجدر بلا شك بألا يحكم الا بما أراه الله

ولا يختلف الناس أنه لا يجوز تقبيل حيطان مكة المكرمة ولا تقبيل بيوتها ومنازلها ولا التمسح بها ولا الاستقبال لها فى الصلاة مع العلم بتفضيل مكة والاعتراف بذلك ومع تعظيمها وكذلك لا يجوز استقبال العلماء والشهداء والانبياء فى الصلوات قصداً وعمداً طلبا للبركة والاجر ، كما لا يجوز التمسح بهم ولا الطواف بمنازلهم ومساكنهم ولا اللثم لاثوابهم وما تباشر أجسامهم من شعار ودثار ولا النذور ولا تقريب القرابين لهم ، ولا الحلف بهم ولا الأقسام على الله بذواتهم : إن شيئا من ذلك لا يجوز عقلا ولا شرعا مع تفضيل هؤلاء ، ومع قول الرافضى بوجوب تعظيمهم واحترامهم ومع اعترافنا له به ، وكذلك لا يجوز شىء من ذلك ليوم الجمعة ولا ليلة القدر ولا شهر رمضان ، فلا يجوز الحلف بهذا اليوم ولا بهذا الشهر ولا بهذه الليلة ولا يجوز تقديم النذور ولا الهدايا والقرابين لذلك ، مع أنها أزمان مفضلة ممتدحة . وهذا واضح

إذن ليس هنالك تلازم بين تعظيم الشىء وبين هـذه المبتدعات والخرافات التى يدعيها هذا الرجل ويدعى أنها من شرائط التعظيم والاحترام المأمور بهما شرعا وإذن يمكن القول باحترام الشىء وإعظامه من غير القول بهذه المبتدعات ومن غير

الالتزام لها ، بل هذا هو ما يجب وما يلزم المصير اليه عقلا ونقلا ونظراً

والسر فى هذا أن المراد بالتعظيم هنا هو التعظيم الشرعى ، أي التعظيم الذى يقبله الشرع ويحله ويرضاه ولا يرى فيه مفسدة دينية أو دنيوية ، ولا يمكن أن يراد بالتعظيم كل ما يمكن أن يعده الانسان تعظيما ولا كل ما يفهمه مشمولا بمعنى التعظيم ، ولا ما قد يعد فى بعض الأزمان فى بعض البلاد فى بعض البيئات تعظيما واحتراما ، إذ لو أريد ذلك لنسفت الشرائع جميعاً من أساسها ودعائمها ، ولأبيحت أنواع المحرمات والشرك والضلال المبين وعبادة الأصنام والأوثان ، ولأبيح من ذلك الأمر الكثير ، فان عبادة الملائكة والجن والأنبياء والأولياء بل والأصنام والأوثان جميعاً لا يراد بها إلا تعظيم أولئك المعبودين والتعظيم من شأنهم والرفعة لمقامهم ، وعباد الأحجار والأشجار يريدون بذلك إعظام الله وإعظام من جعلوا هذه الأحجار والأشجار رمزاً وإشارة اليهم ، لأنهم يزعمون أن الله أرفع وأعلى سلطاناً من أن يكونوا ـ وهم العباد الأذلة المذنبون ـ أهلا لخطابه ودعائه كفاحاً ، فينصبون نصباً يعبدونها ويدعونها ليصلوا بذلك الى الله غاية كل عبد ، وليقربوهم الى الله عز سلطانه ، لأن هؤلاء المعبودين أهل لدعاء الله ولخطابه لعلو مقامهم ورفعة شأنهم لديه تعالى ، وأهل لأن يجيب دعواتهم ويقضى حاجاتهم ، فيذهبون يعبدون الأصنام والأوثان والملائكة والأولياء والأنبياء ، ويأتون من ذلك بالطرف والأفانين ، وقد يمثلون الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورونهم فيذهبون يعبدون تماثيلهم وصورهم ، وفى هذا فى زعمهم أبلغ التعظيم والاحترام لهم ، ولكن شيئاً من ذلك لا يجوز فى دين الله وإن عدوه تعظيما وعدوه احتراماً وتفضيلا ، وما يدعيه هذا الرافضى من تعظيم الأجداث وتعظيم من فيها من الأنبياء والأولياء سبيله سبيل هذه الخارق الجاهلية الوثنية والأباطيل المنتسبة للشرك أصلا وفرعاً والمنتزعة من الوثنية صورة ومعنى

فالقول الفاصل فى هذا الموضوع أن يقال لا ريب أن الله تعالى قد فاوت بين مخلوقاته في الفضل ففضل بعضها على بعض ، ورفع بعضها فوق بعض درجات فى الأخلاق والأذواق والدين والفهم والاستعداد والصلاح ، وفى الرزق أيضاً وفى كل شيء . ولكن ليس معنى تفضيل بعض الخلق على بعض أن يغلى فى المفضل وأن يعطى أكثر من حقه وأن يوهب حق الله وأن تضاف اليه الخرافات والمعتقدات الباطلة الفاسدة على حساب التفضيل ، وعلى حساب ما ميزه الله به من الفضائل والمكرمات . كلا . ليس الحق هو هذا ، ولكن الحق الذى يجب أن يصار اليه أن يعلم أن الله الذى فضل الفاضل ووهبه تلك الفضائل هو الذى يحد لفضله وتفضيله الحدود ويعرف تلك الحدود ، فلا تتعدى ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم عين الظالمين الملومين ، وما أتى الضالون الخارجون إلا من هذه الناحية ناحية الغلو فى الفاضل وأهل التفضيل الذين قضى الله بأن يكونوا من المفضلين ومن أهل الفضل ، وما ضلت النصارى فى عيسى عليه السلام وفى الأحبار والرهبان إلا من ناحية الغلو وناحية المبالغة فى التعظيم والتفضيل ، وما ضل قوم نوح وعبدوا آلهتهم وداً ونسراً ويعوق ويغوث إلا من هذه الناحية نفسها ناحية الغلو وناحية المبالغة فى التعظيم والتفضيل ، وما ضل العرب المشركون وغيرهم وغيرهم إلا من ناحية الغلو والمبالغة فى الغلو والاسراف فى التعظيم لما كانوا يعبدونه من الملائكة والصالحين كما عبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ولا ضلت طائفة الشيعة وزاغت عقيدتها فى علي وذرية علي ، وما زعموا فيهم الألوهية والارتفاع عن أفق البشرية ، وزعموا حلول الله فى ذواتهم كما قال عبد الله بن سبأ ومن قال قوله منهم وهم كثر إلا من هذه الناحية المريضة ، ناحية الغلو والمبالغة فى الغلو ، وما قدحوا فى خيار الصحابة وسادات المهاجرين والأنصار ومن تولاهم من المسلمين والمؤمنين إلا من هذه الناحية المدخولة المريضة فى الانسان ، ناحية الغلو فى على رضى الله عنه وفى أولاده ، والا

من زعمهم غلواً وإسرافاً أنهم أهل الخلافة وخدمها وأربابها وحسدهم ، ولا ضل كثيرون من أهل الطريق وأهل الأحوال والتصوف إلا من هذه الناحية نفسها ، فقد طوح بهم وذهب بهم الغلو فى الأشياخ المعظمين كل مذهب حتى وقف بهم على حافة الهوة المهلكة العميقة حتى عبدوهم بل وألهوهم وادعوا عصمتهم وأكفروا من ينازعهم فى حال من الأحوال ومخرقة من مخارقهم الباردة الفاسقة عن الدين والعقل ، وقد روى الراوون من هذا النوع الشىء الكثير المخجل للانسانية جمعاء عن هذه الناحية المريضة حقاً فى الانسان ، أعنى ناحية الغلو والاطراء الذي لا يقف بالانسان عند حد ، وقد بلغ الغلو بالانسان والتعظيم لمن يحب ويرضى الى حالة مزدراة حقاً فاضحة حقاً ، وقد بولغ فى هذه الناحية حتى وجدنا من يدافع عمن قال الأقوال المنكرة العظيمة فى الله ورسله ودينه ، الأقوال التى لا يستطيع أن يتفوه بها الملحدون أعداء الأديان كلها وأعداء الاله والمرسلين ، فقد دوفع عمن قال ان كلمة لا إله إلا الله فاسدة المعنى ، وعمن قال سبحانى عز شانى ، وعمن قال ان الأنبياء لم يأتوا إلا بالشرك والكفر ، ومن قال القرآن كله ضلال وكذب ، ودوفع عمن قال أفظع من ذلك ، وقد دافع عن صاحب هذه الأقوال المنكرة جماعات من الموسومين بالصلاح والفقه والعلم ، وكلفوا أنفسهم مؤنة تأويل هذه الأقوال الشنعاء وتخريجها التخريج الصحيح ، وتطلبوا لها الوجوه الصحيحة والتفاسير المقبولة ، وما دفع بهم الى هذه المضايق والمآزق إلا الغلو والمبالغة فى التعظيم والاحترام ، وقد ألفينا الانسان وقد زعم أنه صفوة المخلوقات لا يقف عند حد فى هذه الناحية ، وألفيناه يأتى بالأفانين والطرف والأعاجيب ، وهذا ما يحصل منه كل وقت ، ولولا ذلك لما وجدوا مندوحة تبرر ركونهم الى هذه المضايق المخيفة المذمومة بلا ريب

وقد حدث المحدثون عن الحلاج وأصحابه ورووا عنهم من هذا النوع الشىء الكثير المفظع المنكر ، وقد حدث الامام الشاطبى فى كتابه الاعتصام راوياً عن

الفرغاني مذيل تاريخ الطبرى أن أصحاب الحلاج غلوا فيه وفى التبرك به حتى كانوا يتمسحون ببوله ويتبخرون بعذرته ، وحتى ادعوا فيه الألوهية تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وقد حدثوا والى اليوم يحدثون أن هذا الرجل المريض أعنى الحلاج لما أن حكم عليه بالقتل لأجل هذه الأقوال الباطلة وقتل وتناثرت دماؤه الآثمة المجرمة زعم أصحابه والغلاة فيه أن دماءه صارت تكتب اضطراراً أو اختياراً وهى سائلة هذه الكلمة « لا إله إلا الله ، الحلاج ولى الله »

ورعياً لهذه الناحية الواهية فى الانسان كان من أقوال الرسول ﷺ المتواترة المعنى « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ولهذا أنكر ﷺ على من قالوا له أنت سيدنا وابن سيدنا ، فقال ما معناه « لا يغوينكم الشيطان ولا يفتننكم ، وما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله بها » ، وأنكر على من قال له ما شاء الله وشئت وقال « أجعلتنى لله نداً بل ما شاء الله وحده » وأنكر على من استغاثوا به من منافق فى عصره يؤذي المؤمنين ، فقال لهم « إنه لا يستغاث بى وانما يستغاث بالله » وقال ذات يوم خطيب بين يديه من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى ، فقال له ﷺ « بئس الخطيب أنت ! قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » أنكر ﷺ أن يجمع بين الضمير العائد على الله ، والضمير العائد عليه هو حذر الغلو والذهاب مع الغلو ، والغلو كما عرفت لا يقف عند حد ، ومن هذا السبيل أمر الخليفة النافذ البصر عمر رضي الله عنه بقطع الشجرة التى بويع تحتها الرسول الكريم ﷺ حينما رأى الناس يقصدون الصلاة عندها ، ولما رأى قوماً يتعمدون الصلاة فى مسجد كان رسول الله ﷺ صلى فيه أنكر ذلك ونهى عنه ، وقال انما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، يتبعون آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً ، وقال من أدركته الصلاة فى هذه المساجد فليصل وإلا فلا يتعمد الصلاة فيها ، وقد سلفت رواية هذا . وقد جاء عن

هذا الخليفة الراشد النافذ البصر بدين الله وبما جبلت عليه النفوس من فلسفة باطلة ومن ترهات متنوعة أبلغ من هـذا محافظة على عقائد الناس وحذراً من الغلو فى الاعظام والاحترام ، وجاء أيضاً عن غيره من الصحابة والتـابعين وأهل المعرفة والبصر ، فجاء عنهم أنهم أحيـاناً كانوا يأبون الدعاء لمن طلبه منهم ويزجرون من طلب منهم الدعاء ، وذلك خيفة الغلو فيهم ، لأنهم فهموا من حال الطالب ومقامه روح الغلو ومزيد التعظيم والتبجيل ، فذكر الامام الشاطبى فى كتابه الاعتصام فى الجزء الثانى صفحة ١٥٨ أن الطبرى روى عن مدرك بن عمران قال كتب رجل إلى عمر رضى الله عنه : فادع الله لى ، فكتب اليه عمر إنى لست بنبى ، ولكن اذا أقيمت الصلاة فاستغفر الله لذنبك ، قال الشاطبى « فاباية عمر رضى الله عنه فى هذا الموضع ليس من جهة أصـل الدعاء ولكن من جهة أخرى وإلا تعارض كلامه مع ما تقدم ، فكأنه فهم من السائل أمراً زائداً على الدعاء ، فلذلك قال لست بنبى ، ويدلك على هذا ما روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه لـما قدم الشام أتاه رجل فقال استغفر لى فقال غفر الله لك ، ثم أتاه آخر فقال استغفر لى ، فقال لا غفر الله لك ولا لذاك ، أنبى أنا ؟ فهذا أوضح فى أنه فهم من السائل أمراً زائداً وهو أن يعتقد فيه أنه مثل النبى أو وسيلة الى أن يعتقد ذلك أو يعتقد أنه سنة تلزم أو يجرى فى الناس مجرى السنن الملتزمة

ونحوه عن زيد بن وهب أن رجلا قال لحذيفة استغفر لى . فقال لا غفر الله لك ، ثم قال هذا يذهب الى نسائه فيقول استغفر لى حذيفة ، أترضى أن أدعو الله ان تكن مثل حذيفة ؟ ، فدل هذا على أنه وقع فى قلبه أمر زائد يكون الدعاء له ذريعة حتى يخرج عن أصله لقوله بعد مادل على الرجل هذا يذهب الى نسائه فيقول كذا ، أى فسيأتى نساؤه لمثلها ويشتهر الأمر حتى يتخذ سنة ويعتقد فى حذيفة مالا يحبه هو لنفسه ، وذلك يخرج المشروع عن كونه مشروعا ويؤدى الى التشيع

واعتقاد أكثر مما يحتاج اليه

وقد تبين هذا المعنى بحديث رواه ابن علية عن ابن عون قال جاء رجل الى ابراهيم فقال يا أبا عمران ادع الله أن يشفيني . فكره ذلك ابراهيم وقطب . وقال جاء رجل الى حذيفة فقال : ادع الله أن يغفر لى فقال لا غفر الله لك فتنحى الرجل فجلس فلما كان بعد ذلك قال فأدخلك الله مدخل حذيفة أقد رضيت ؟ الآن يأتى أحدكم الرجل كأن قد أحصر شأنه . ثم ذكر ابراهيم السنة فرغب فيها وذكر ما أحدث الناس فكرهه . وروى منصور عن ابراهيم قال كانوا يجتمعون فيتذاكرون فلا يقول بعضهم لبعض استغفر لنا . فتأملوا يا أولى الألباب ما ذكره العلماء من هذه الأصنام المنضمة الى الدعاء حتى كرهوا الدعاء اذا انضم اليه ما لم يكن عليه سلف الامة . فقس بعقلك ما ذا كانوا يقولون فى دعائنا اليوم بآثار الصلاة بل فى كثير من المواطن »

هذا كله ما ذكره الشاطبى . وقال هذه الآثار قد خرجها الطبرى فى تهذيب الآثار له . قال « وعلى هذا ينبنى ما خرجه ابن وهب عن الحارث بن نبهان عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن ناسا من أهل الكوفة يقرؤون عليك السلام ويأمرونك أن تدعو لهم وتوصيهم فقال أقرؤا عليهم السلام ومروهم أن يعطوا القرآن حقه فانه يحملهم أو يأخذ بهم على القصد والسهولة ويجنبهم الجور والحزونة . ولم يذكر أنه دعا لهم » ثم قال الشاطبى « وقد جاء فى دعاء الانسان لغيره الكراهية عن السلف لا على حكم الاصالة بل بسبب ما ينضم اليه من الامور المخرجة عن الأصل »

وما هذا الا قطع لمادة الغلو وحسم لجرثومة الضلالة المتفرعة عن الغلو فى التعظيم والاحترام الذى ينادي اليه الجاهلون المسرفون . وهذا كله يفسر قول الله تعالى « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق »

وليقارن العاقل الناصح لنفسه بين أقوال الرسول الكريم وأقوال السلف النيرة وبين أقوال هذا الرجل وشركائه ليعرف الفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والنور والظلام ، ثم ليسأل الله السلامة والعافية فى الدين والدنيا والنجاة من مخابط الفتن والغوايات ومن شبهات الشياطين وشبهات الضالين المفتونين

(ثالثاً)

قوله « وفضل العلماء على الشهداء وعلى بعض الأنبياء » قول فى غاية الفظاعة والنكارة . وقد يكون والعياذ بالله من أقوال الكفر والردة . فان غير الانبياء لا يمكن أن يكونوا أفضل من الانبياء ولا يمكن أن يكونوا مثل الانبياء لا فى دين ولا فى علم ولا فى سمو أخلاق ولا فى شيء من الأشياء الممتدحة . ومن ادعى أن العلماء أفضل من بعض الانبياء كما ادعى هـذا الرجل فقد أعظم على الله الفرية ، وأعظم القدح فى الانبياء وفى التهوين من شأنهم . ولن يقول من يؤمن بالله وباليوم الآخر ان أحداً من العلماء غير الانبياء أفضل من نبى الله موسى أو ابراهيم أو عيسى أو محمد ﷺ أو غيرهم من الانبياء ، ولا يمكن أن يقول من يؤمن بالله وباليوم الآخر وبالملائكة والانبياء ان أحداً من الناس أفضل من نبى اصطفاه الله بنبوته وبكلامه وخطابه . واذا ما وجد ذلك العالم المزعوم أنه أفضل من بعض الانبياء هو والنبى فى زمان واحد أفلا يكون واجباً على ذلك النبى أن يتعلم من ذلك العالم المزعوم أنه أفضل منه وأن يسأله علم ما يخفى عليه وما لا يعرفه وأن يتبع أمره وارشاده . ثم ألا يجب عليه أن يحترمه وأن يعظمه احترام المفضول للفاضل وتعظيم التابع المتعلم للمتبوع المعلم ؟ لان معنى تفضيل العالم على النبي الحكم على ذلك العالم بأنه أعلم من ذلك النبى ، لان العالم ما فضل على النبى الا من جهة أنه عالم . فالعلم هو الموجب التفضيل على ما زعم . ومن زعم أن نبياً من الانبياء يلزمه أن

يقوم مع أحد الناس ممن ليس نبيا هذا المقام فما هو من الراشدين ولا من المهديين وليعلم أن هذا الزعم أى زعم تفضيل بعض العلماء على الانبياء من أقوال الرافضة ولقد كفرهم القاضي عياض فى كتابه الشفاء لقولهم هذا ومن أقوال بعض الفلاسفة الكافرين والصوفية الزائغين أيضا . فالفلاسفة الضلال يفضلون الفيلسوف على النبى لامور زعموها وفلسفة باطلة ادعوها والصوفية الضلال يفضلون الصوفى والولى على الرسول والنبى لفلسفة ومزاعم أيضًا لفقوها . والرافضة تدعى أن أئمتها الاثنى عشر أفضل من الانبياء . وهذا من عيون الضلالات والعياذ بالله

وقد قال أحد هؤلاء التائهين المنقطعين فى تيه الضلالة :

مقام النبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولى

فالولى عند هؤلاء الحيرى أفضل من النبى والنبى أفضل من الرسول . فالولى أفضل من النبى ومن الرسول لديهم . والقرآن والسنة مملوءان دلائل على كذب هذا القول . والمسلمون لا يختلفون فى ضلالة قائله ومنتحله . ومن الدلائل على ذلك أنه لا خلاف فى أن من سبّ نبيًا أو قدح فيه أو كفر به فقد ارتدّ ووجب قتله كفراً . وليس كذلك حكم من سب عالما أو قدح فيه أو كفر به . ولو كان العالم أفضل من النبى لكان الحكم بالعكس فى العالم الذى زعم أنه أفضل من النبى وفى النبى الذى زعم أن العالم أفضل منه

(رابعا)

أما جعل الكنيف مسجداً وجعل جلد الشاة حذاء ونعلا وجعله أيضًا جلداً للقرآن الكريم كما افترض الرافضى وأن ذلك في حالته الاولى لا فضل له بل هو مهين محتقر وأنه فى الحالة الاخرى مكرم مبجل . فيقال ليس كون الكنيف مهانًا معناه أن مادته مادة ناقصة قذرة مغايرة لسائر المواد التى صنعت منها . وليس معنى

جعله مسجداً كما افترض الرافضى أنه بذلك ينقلب مادة أخرى مطهرة مقدسة مخالفة للمادة التى تنتسب اليها من الحجارة والطوب والآجر والجص . ولا أن جدار المسجد وسقفه وأرضه أشياء مقدسة معظمة يلزم الناس اعظامها واحترامها وتقديسها وأن جدر الكنيف وسقفه وأرضه أشياء محقرة مزدراة ناقصة يلزم الناس احتقارها وازدراؤها وتنقيصها . كلا . . ليس هذا من الحق وليس هذا من الصحيح ، فان الأشياء هي الأشياء وحقائقها هى حقائقها لم تتغير ولم تنتقل من حقيقة الى حقيقة ولا من شيء الى شيء

ولو كان هذا حقا لكان ما ينقل من المساجد من الأحجار والأخشاب والتراب معظما مقدسا محترما وان فصل عن المسجد . ولكان ما ينقل من الكنيف من الأحجار والأخشاب والتراب محتقراً مزدرى وإن فصل عن الكنيف وأزيل منه . ولكن المحترم لدى المسلمين المعظم هو معنى المسجد وما تدل عليه كلمة مسجد لأجل ما يدل عليه ويقارنه من عبادة وصلاة وركوع وسجود لله . ولا يجوز تنجيس تلك البقعة المعدة للصلاة لأن الطهارة الحسية مطلوبة فى الطهارة المعنوية من الصلوات والعبادات جميعا والطهارتان مقترنتان غالبا فان من طهر معناه طهر ظاهره ومن طهر ظاهره طهر باطنه . وتلويث هذه المواضع المعدة للصلاة بالقاذورات والنجاسات يشعر باحتقار العبادة نفسها التى هي الصلاة . وهذا مأبى لأن أماكن الصلاة يلزم ابعادها عن النجاسات كلها حسية ومعنوية

وأما بنيان المسجد نفسه فليس معظما من حيث مادته وبنيانه ؛ ومن ادعى ذلك فقد أبعد الانتجاع . ومن الدلائل على ما نقول أنه قد صح فى الأحاديث المتكاثرة عن النبى الكريم أنه قال « جعلت لى الأرض مسجداً وطهورا » وقد اتفق العلماء على معنى هذا الحديث سوى ماخصص من عمومه . فهل يجرؤ جرىء أن يدعى أن الأرض كلها معظمة مقدسة لأنها كلها ـ الا مواضع مخصوصة معلومة ـ

مساجد يصلى فيها المسلم ويتجه فيها الى الله

ومن الدلائل القاطعة أن المساجد ما عظمت التعظيم المشروع إلا لأجل الصلوات ولأجل إعدادها مواضع لها . فالصلوات بلا ريب هي التى رفعت شأن المساجد فهى بلا نزاع أفضل من بنيان المساجد وأكرم . ومع هذا لا يجوز تعظيم الصلوات ذات الركوع والسجود والقيام والقعود والدعاء والتسابيح التعظيم الذى يعنيه هذا الرافضى . وإنما معنى تعظيم الصلاة هو أن الله يحبها ويطلبها من عباده ويجازى فاعلها الجزاء الأوفى ويعاقب تاركها العقاب الصارم الوجيع . أما التعظيم الذي يريده هذا الرافضى فتعظيم من نوع آخر ، وهو تعظيم الخاضع الذليل للقهار المذل وتعظيم الصغير للكبير . وهذا النوع من التعظيم مأبى من المسلم لا يشرع له أن يفعله . ومعلوم أنه لا يشرع للمسلم أن يعظم أعماله من صلاة وصيام وحج وزكاة ودعاء . هذا النوع من التعظيم بل هذا لا يعرفه الناس ولا يخطر على بال سليم ، وعلى كل حال هذا القول لا ينفع هذا المصنف شيئاً ولو سلم له هذا التعظيم المزعوم . لأنه هو يريد أن يتوسل بهذا الزعم الى إباحة تقبيل الأضرحة والبناء عليها والتمسح بها والسفر اليها من أقاصى البلاد الى آخر مازعم وما ادعى . ولكن أحداً من المسلمين لم يقل ان هذه الأعمال المذكورة مشروعة فى المساجد وان عظمت وقدست وزعم لها ما زعم . ولا نحسب هذا الشيعى يخالفنا فى هذا . واذا كان غير مشروع فى المساجد فلن يكون مشروعاً فى الضرائح وفى القبور ولدى الأشجار والأحجار

وكذلك لا يعنى بجعل الجلد نعلا وجلداً للقرآن انه اذا كان جلداً للمصحف كان مقدس المادة معظمها . لا يقول هذا أحد من العقلاء ، ولكن المعظم هو كلام الله وقرآنه . فلما أن كانت اهانة المصحف بأوراقه وجلده تدل عرفا وعادة على اهانة كلام الله واحتقاره حرم ذلك وامتنع وطلب من المسلمين إظهار الاحترام

لكلام الله ، والذي يظهر الاحترام للمصحف ولجلده وأوراقه لا يريد بذلك إلا احترام كلام الله ولا يريد البتة احترام الأوراق والجلد والحبر إلا أن يكون جاهلا وهذا يجب تعليمه ، ولهذا صح احراق المصاحف بأوراقها وجلودها وحبرها . أفيرى هذا أن جلدة المصحف نفسها وورق المصحف نفسه معظمان لذاتهما فيصح مع هذا إحراقهما وجعلهما للنار وقودا ؟

وها هنا برهان قاطع على فساد كلام هذا الرجل نذكره . هذا البرهان هو أن صدور حفاظ القرآن تقوم مقام الأوراق والجلود والحبر للقرآن الكريم على أقل الأحوال . أفيرى أن الصدور الحافظة للقرآن يجب تعظيمها واحترامها لأنها حافظة فقط ؟ أو لايرى أن من هذه الصدور مايجب إهانته وقرعه لأنه يحمل داء دويا ولأنه يحمل مرضا يسمى مرض القلوب ومرض الاعتقاد ومرض الهوى ومرض الشهوات

فزعم هذا الرجل بأن جلدة المصحف فى نهاية الاكرام والاعظام من الأقوال الصادرة عن الخطل وضلال الرأي

(خامسا)

وأما قوله « ومن هذا القبيل البقعة في الأرض كسائر البقاع فيدفن فيها نبي أو ولىّ فتكتسب فضلا وشرفا وبركة » الى آخر قوله فهو كسائر أقواله بعيد عن التوفيق وعن الصواب فان الأرض لا تتشرف ولا تفضل ولا تعظم بوجود العظماء من الأنبياء والأولياء أحياء فيها . فكيف يكون لها ذلك إذا ما وجدوا فيها أمواتا أو وجد فيها رفاتهم وجثمانهم كما أنها لا تفقد الشرف والفضل والبركة إن كان لها شيء من ذلك لوجود الأشقياء فيها من المجرمين والمشركين ومن المفسدين والملحدين فانه لم يضر مكة والمدينة أن حلهما المشركون والظالمون

ورؤوس الكفر والضلالة ولم ينفع غيرها أن حل فيه الأنبياء والأولياء والعلماء والشهداء ، ولو كانت البقاع تعظم وتشرف بوجود العظماء فيها أمواتا لعظمت وشرفت بوجودهم فيها أحياء ، واذا لم تشرف ولم تعظم بوجود الأنبياء والأولياء فيها أحياء لم تشرف ولم تعظم بوجودهم فيها أمواتا ، ولو كانت البقاع تعظم وتشرف لوجود العظماء فيها من الأنبياء وغيرهم لكانت تحقر ويضيع شرفها وفضلها بوجود الأشقياء فيها ، واذا لم يضرها من هذه الناحية وجود هؤلاء الأشقياء فيها لم ينفعها من الناحية نفسها وجود الصلحاء من الأنبياء وغيرهم فيها وهذا واضح بين ، وليس هنالك دليل واحد يدل على أن الأرض تكتسب شرفا وفضلا وبركة بمقدار من يحل فيها ممن لهم شرف وفضل ومنزلة رفيعة سامية ، ولو كلف هذا الشيعى الدليل على ذلك لما استطاع الظفر به ، والدلائل العقلية والشرعية كلها تخالف ما قاله وما ادعاه ، ولو أن القبور تشرف وتبارك وتفضل بدفن الصالحين فيها وحلول رفاتهم فيها أيضا لشرفت البيوت والثياب والازياء وبوركت بنزول هؤلاء فيها ولبسهم إياها ، ولن يجرؤ بصير بالدين وبالمعقول أن يدعى أن ثوب التقى والولى وبيتهما أشرف وأفضل من ثوب الفاجر والكافر ومن بيته ، ولن يدعى عاقل بأن كفن الصالح أفضل وأكرم من كفن الرجل الطالح . أو يدعي أن البنايات المشيدة على القبور متفاضلة كتفاضل أصحابها والذين يدعون مثل هذه الدعاوى ويقولون مثل هذه الأقاويل هم فى حاجة الى التعليم لا الى المجادلة والمساجلة

والشيعة مصابة بهذا البلاء بلاء الغلو فيما يتصل بالصالحين وما يتصل بمن يعدونهم صالحين فاضلين فانهم يغلون فى هؤلاء غلواً قبيحاً مستكرها تتجافى عنه العقول وتقتحمه الأبصار . حتى لقد بلغ الغلو بالقوم أن يحملوا معهم الأتربة من قبور الصالحين وآل البيت النبوى ويتزودوا بها أينما ذهبوا كى يسجدوا عليها

ويضعوا جباههم فوقها حينما يصلون لله غلواً وتعظيما ، وهذا من شر الغلو ومن أنباه عن العقل والدين

ولولا التقليد الذى لا عقل له ولا بصر لما وجد من يصنع هذا فى هذا العصر ولكن وا أسفاه فما أضيع البرهان عند المقلد !

وأما البركة التى ادعاها لمدافن الصالحين والنبيين فلا يدرى المسلمون ماهى ولا يدرون أية بركة في القبور ، وكل ماذكره هنا من تقبيل القبور والبناء عليها وتعليق الستائر والمعلقات فوقها وإرصاد الخدم والسدنة لها ندع القول فيه الى الأبواب الآتية الخاصة به ، وسوف يرى القارىء أن ما قاله هذا المصنف هنا مصادم لنصوص الشريعة مصادمة بينة جلية ، وكذلك ما ذكر من تعريضها للقاذورات والنجاسات ووطء الدواب والكلاب لها، ثم ماذكر من تأويل النصوص وتحريفها لأجل مازعمه من الدليل على ذلك كله وكل مالم نتكلم عليه هنا ندع القول فيه الى الأبواب الخاصة به من هذا الكتاب

(سادسا)

قوله إن الله جعل احتراماً لصخرة صماء بسبب وقوف ابراهيم عليها فقال « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » الى آخره يقال فى جواب ذلك إن الاحتجاج بهذه الآية على وجوب تعظيم القبور والصلاة فيها واليها وتقبيلها والطواف بها كالاحتجاج بقوله تعالى « فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » الى آخر الآيات على وجوب الصلاة الى القبور والى شطر القبور وكالاستدلال بقوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » على وجوب الحج الى المشاهد وقبور الصالحين من النبيين والأولياء وكالاستدلال بقوله تعالى « وليطوفوا بالبيت العتيق » على

وجوب الطواف بالأضرحة وبالمقامات ويقال فى ذلك كله مثل ما قال هذا الرجل هنا : اذا كان الله أوجب استقبال المسجد الحرام وقت الصلاة لأن ابراهيم عليه السلام هو الذى بناه احتراما وتيمنا وتعظيما فكيف لا يكون هذا الاستقبال واجبا لمسجد خير الخلق وخاتم النبيين وسيدهم وفيه جسده الطاهر وقبره الشريف وقد صلى فيه ما شاء أن يصلى وقام فيه لله ما شاء أن يقوم ودعا فيه الى الله ما شاء الله أن يدعو . وهو الذى أمر ببنائه وقد بنى مع البانين بيديه الشريفتين . وقد جاءت فيه الفضائل المتكاثرة وقال فيه عليه السلام « ما بين منبرى و بيتى روضة من رياض الجنة » وقد دفن معه هناك أكرم الأجساد على الله وعلى المسلمين بعد الرسول الكريم جسدا أبى بكر وعمر . وان مثل هذا البناء وهذا المسجد لخليق بالاحترام والتعظيم وخليق بأن يكون فرضاً على المؤمنين استقباله فى الصلاة وواجبا كما كان ذلك واجبا على المسلمين الى المسجد الحرام لأن ابراهيم خليل الله قد بناه ورفع قواعده وطهره للطائفين والراكعين والساجدين ؟

وكذلك يقال اذا كان الله أوجب الحج الى البيت العتيق وأوجب الطواف به وأوجب سائر أعمال هذه الفريضة ، وهذا البيت لا يزيد فى الظاهر عن أن يكون أحجاراً وبناءاً وترابا ، فكيف لا يكون الحج واجبا الى مشاهد الأنبياء والأولياء ومطارح أجسادهم الطاهرة ورفاتهم الكريم ونفوسهم الزكية : ان مثل هذه المشاهد لخليقة بوجوب هذه الفريضة اليها كما وجبت الى البيت العتيق الذى بناه نبى الله ابراهيم ! !

فان كان هذا الاحتجاج وهذا القول صحيحين مقبولين كان احتجاج هذا الشيعى وقوله صحيحين مقبولين ، وإن لم يكن هذا صحيحا ولا مقبولا وهو بلا شك غير صحيح وغير مقبول لم يكن قوله صحيحا ولا مقبولا فهما سواء فان صح أحدهما صح الآخر وإن بطل أحدهما بطل الآخر ، وهذا تلميح لا توضيح ، على

أن هذا الرجل لو كان بصيراً حقا بما يقوله عليما بواقع كلامه لعلم أنه غالط فى هذا الاستدلال والقياس غلطا مبينا ، وذلك أنه يستدل بقوله : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » على أنه يشرع تقبيل القبور والتمسح بها والتبرك وشد الرحال اليها وسائر هاتيك الدعاوي ، ولكن من ذا الذي قال له ان هذه الأعمال تجوز كلها وتشرع كلها فى مقام ابراهيم ؟ ومن الذي سلم له وقال انه يجوز تقبيل مقام ابراهيم والتمسح به والاستشفاء وطلب البركة حتى يصح أن يكون دليلا أو شبه دليل على جواز ذلك فى غيره ؟ وقد أخرج الطبرى فى تفسير هذه الآية عن قتادة أنه قال : أنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه

وقد اختلف المفسرون ما المراد بمقام ابراهيم فى الآية ، فذهب ذاهبون الى أن مقام ابراهيم هو الحرم كله . أفيرى هذا الرجل أن الحرم كله يجوز تقبيله والتمسح والاستشفاء به وكل ما يدعيه هـذا المصنف فى المشاهد والقبور ؟ ان كان يجيب بالايجاب لم يعبأ به ولا بجوابه ، لأنه خلاف الاجماع والضرورة . وقد ثبت فى صفة حج النبي الكريم ﷺ أنه قام خلف مقام ابراهيم وصلى وقرأ « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

والذي نراه ونرضاه ، أن الأمر بالصلاة فى المقام ليس لأجل أن ابراهيم قام فيه وصلى ، وليس لأنه مقام ابراهيم أو مقام غيره من النبيين ، بل انما كان ذلك لأنه من بيت الله ، ولأن الله أراد من المؤمنين الصلاة فيه لأمر يعلمه وإن جهلوه ؛ وإنما قيل مقام ابراهيم لأنه معلوم بهذا الاسم معروف به ، ولو كان ذلك لأجل ما ذكر الشيعى لكان مقام سيد الأنبياء وخاتمهم أولى وأجدر بهذا الأمر وهذا الايجاب ، ولكان اتباع آثاره والصلاة فيها مطلوبا مشروعا ، ولكن ذلك ليس مطلوبا وليس مشروعا بل هو منهى عنه كما تقدم عن الصحابة ومن بعدهم من الخلفاء وأئمة آل البيت ، وقد تقدم أن عمر أنكر على الذين رآهم يتعمدون الصلاة

فى المسجد الذى صلى فيه الرسول ﷺ وأمر بقطع الشجرة التى وقعت تحتها بيعة الرضوان لما رأى قوماً يتعمدون الصلاة تحتها ، وتقدم رأى على بن الحسين المعروف بزين العابدين وروايته ورأى الحسن بن الحسن وروايته ، وتقدم قول الامام مالك وقول غيره من علماء السلف ، وتقدم قول الامام الشاطبى وغيره من علماء الاسلام والسنة . تقدم أن السلف بالاجمال كانوا يكرهون اتباع آثار الأنبياء والصالحين ويرون فى ذلك ذريعة عظمى الى عبادة المخلوق والى فساد العقيدة والذوق والعقل

وليس من ريب أنه لو كان اتباع آثار الأنبياء والصالحين مرغوباً فيه لفعله السلف وتعمدوه ولفعله الصحابة وأئمة الاسلام المرغوب فيهم وفى الاقتداء بهم ، ولكن لايحفظ عن أحد من الصحابة ولا عن أحد من الأئمة المعترف لهم بالامامة الدينية أنه تعمد شيئاً من ذلك ، فلا يحفظ عن أحد منهم أنه تعمد غار حراء أو غار ثور أو غيرهما ليصلي فيه أو ليدعو أو يتحنث كما كان يفعل ذلك رسول الله ﷺ ، ولو أنهم كانوا يعلمون فى ذلك فضيلة وأجراً لتسابقوا اليه ولبادروا الى الأخذ به ، ولو أنهم كانوا يفهمون من شرعة الحج وقصد مشاعره ومن قوله تعالى : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » هذه الروح وهذا المعنى الذى يذكره هذا الرافضى لكانوا بلا شك من السابقين اليه العاملين به ، ولا يجرؤ لا هذا الرجل ولا غيره أن يدعى أنهم كانوا يقصدون ذلك ويفعلونه كما لا يقدر أن يدعى أنهم كانوا يعرفون فى ذلك فضلا وأجراً فيرغبون عنه ، كما لا يقدر أن يدعى أنهم كلهم جهلوا هذا الفضل جهلا تاماً عاماً حتى جاء هذا الرجل وغيره من الغلاة فهُدوا اليه. هذه أمور واضحة بينة

وقد قال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى الجزء الثامن من كتاب فتح البارى شرح صحيح البخاري ما يأتى :

« تكلة : قال ابن الجوزى إنما طلب عمر رضى الله عنه الاستنان [١] بابراهيم عليه السلام مع النهى عن النظر فى كتاب التوراة لأنه سمع قول الله فى حق ابراهيم « انى جاعلك للناس إماما » وقوله « أن اتبع ملة ابراهيم » فعلم أن الائتمام بابراهيم من هذه الشريعة ، ولكون البيت مضافا اليه وأن أثر قدميه فى المقام كرقم البانى فى البناء ليذكر به بعد موته ، فرأى الصلاة عند المقام كقراءة الطائف بالبيت اسم من بناه . انتهى وهى مناسبة لطيفة » انتهى كلام ابن حجر ومعنى هذا الكلام أن الله أمر بالصلاة فى مقام ابراهيم اقتداء به عليه السلام لا كما يدعى هذا الرافضى

وقوله هنا « لأن احترام من جعل الله له حرمة احترام لله وعبادة » نقض على ما قاله فى الأمر الرابع عشر فى معنى العبادة فانه زعم هنا أن الاحترام عبادة لله وفى الأمر الرابع عشر ارتاب جداً فى معنى العبادة ولم يدر ماهي وأيقن أنها ليست هى العبادة اللغوية ولم يجعل منها نهاية التعظيم والاحترام ولا الدعاء والتضرع لله بل ولم يجعل دعاء الله هنالك عبادة لله شرعية ، وهنا اعترف بأن الاحترام عبادة ، بل اعترف بأن احترام الصالحين والأنبياء عبادة لله

وحينئذ يقال له اذا كان احترام الصالحين عبادة لله فكيف لا يكون احترام الأحجار والاشجار عبادة إما لله وإما لغيره ؟ وأحسب أن هذا الرجل لا يمكن أن يدعى أن احترام الاحجار والاشجار عبادة لله ، واذا لم يكن عبادة لله كان عبادة غيره اذا ما كان الاحترام عبادة كما يدعى هنا وأما لو ادعى أن احترام الاشجار والاحجار وتعظيمها عبادة لله لكان هذا ادعاء أن المشركين وعبدة الاحجار والاشجار والتماثيل غير مخطئين وغير ضالين ، ولكان هذا ادعاء يخالف الاسلام جهرة ، ومن ادعى وجوب احترام القباب المشيدة على القبور ، واحترام الشبابيك والستائر المنصوبة على أضرحة الصالحين والنبيين ، واحترام الأبنية القائمة فوقها

(١) وذلك أن عمر طلب الى الرسول الصلاة فى مقام ابراهيم

ـ لأن ذلك كله متصل بذلك النبي أو بذلك الولي ومنسوب اليه ـ لكان مثل هذا الادعاء وجوب احترام الارض التي وطئها الصالحون والنبيون ، والمنازل التي نزلوها ، والبيوت التي ملكوها وسكنوها ، والكهوف التي حلوها ، والأثواب التي لبسوها ، والاشياء التي لمسوها ولامسوها ، ومن ادعى وجوب تعظيم ذلك كله واحترامه على النحو الذي يريده هذا الرافضي كان بلا ريب من الهالكين المبعدين ولا مسرة ولا كرامة

وليعلم أن من جملة معاني التعظيم والاحترام بل من شروط ذلك لدى هذا المصنف التقبيل والطواف والتمسح والتبرك والبناء وتعليق الستائر والزينات الى آخر ماتصنعه الشيعة لدى القبور المعظمة . فمن تعظيم الامر واحترامه عند هذا الشيعي تقبيله والطواف به والتمسح والتبرك والاستشفاء به . فاذا ما ادعى وجوب تعظيم كل مايتصل بالأنبياء والصالحين ـ وهذا مايدعيه ـ فقد ادعى جهرة وجوب تعظيم كل البلاد والمنازل والغيران والاحجار والاشجار والاثواب والجمادات والحيوانات التي اتصل بها نبي أو ولي ، وبعبارة أوضح وأصح فقد ادعى وجوب تقبيل ذلك كله واستلامه والطواف به والتمسح والتبرك والاستشفاء به ، ومن ادعى أن هذه الأمور كلها من الدين فقد اعترف جهاراً بالشرك وبعبادة الأصنام والأحجار وأتى بأم الدواهي وكبرى الكبريات ، ونعوذ بالله من هذا

وقوله : « فهو كتقبيل الحجر الأسود وتعظيم الكعبة والمساجد والتبرك بماء زمزم وسجود الملائكة لآدم » جوابه أن نقول قد قدمنا الكلام عليه في صدر هذا الكلام

وقوله : « وان كان لورود النهي فانه لانهي كما سوف يجيء » جوابه يأتي فيما يأتي

الامر السادس عشر

قال الرافضي : « الأحكام لاتغير الموضوعات . فاذا كان الموضوع على حالة أو صفة قبل الحكم كان كذلك بعد الحكم ، وهذا من البديهيات التي لا يشك فيها من عنده أقل إلمام بالعلوم . مثلا اذا حرم الشرع شتم زيد أو أوجبه وكان الشتم في نفسه مع قطع النظر عن الحكم بتحريمه أو وجوبه إهانة لزيد لايصير بعد التحريم أو الوجوب احتراماً له ، وكذا لو أوجب إضافة زيد أو حرمها وكانت في نفسها إكراماً له لا تصير بعد ايجابها أوتحريمها إهانة له ، واذا كان تعظيم المخلوق واحترامه والتبرك به والقيام في خدمته بغاية الذل والخضوع وما أشبه ذلك عبادة له وشركا بالله فاذا أوجب الله تعظيم المخلوق واحترامه والتبرك به وإطاعته والذل والخضوع له ، ونحو ذلك لم يخرجه هذا الوجوب عن كونه عبادة وشركا ، بل يكون الله قد أوجب الشرك وعبادة المخلوق ، لأن الحكم لايغير الموضوع

« اذا عرفت هذا فاعلم أن وجوب تعظيم المخلوق من جماد وانسان واحترامه والتبرك به وإطاعته والقيام في خدمته بغاية الذل والخضوع وما ينتظم في هذا ثابت في الشرع بلا شك ، فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، ويعقوب وأولاده بالسجود ليوسف ، والولد بتعظيم الوالدين وخفض جناح الذل لهما ، وأمر باطاعة الرسول وأولى الأمر وبالائتمار بأمره والانتهاء عن نهيه وعدم رفع أصواتنا فوق صوته ، وأمر بتعظيم المساجد والكعبة والطواف بها وتعظيم المقام والحجر الأسود وبئر زمزم والتبرك بمائه وتعظيم الحرم الى غير ذلك مما ورد في الشرع ، فلا بد حينئذ من التزام أحدأمرين إما القول بأنه ليس كل تعظيم عبادة وشركا ، أو القول بأن الله أمر بالشرك وعبادة غيره ، ولما كان الشرك قبيحاً منهياً عنه موجباً للخلود في جهنم ، يغفر الله ما دونه ولا يغفره بنص القرآن لم يمكن أن يأمر الله به ، فتعين

القول بأنه ليس كل تعظيم عبادة موجبة للشرك ، انتهى كلام الشيعى
والجواب على هذا من وجوه :

(أولا)

قوله الأحكام لا تغير الموضوعات الى آخره ، إما أن يريد أن الأحكام لا تغير أحكام الموضوعات أو يريد أن الأحكام لا تغير حقيقة الموضوعات وماهيتها ؟ انه يريد بلا شك الأول بدليل ما ذكره من المثل بعد ذلك كشتم زيد وإضافته وكذا ما ذكر من تعظيم المخلوقات والتبرك بها وسائر ما ذكره فى هذا ، فانه كله يدل على أنه يريد أن أحكام الموضوعات لاتغير أحكام الموضوعات ، وليس بممكن أن يكون يريد أن الأحكام لاتغير نفس حقيقة الموضوعات وماهيتها ، فان ذلك لا يناسب موضوع البحث ، ولا يخالف فيه أحد ، ثم لا يحتاج الى الكلام والاحتجاج ، ولو أنه أراد هذا وأقام عليه الدليل الجلى لما أفاده شيئا البتة ، لأن موضوعنا هنا يتعلق بأحكام الشرعيات وأحكام الأشياء ولا يتعلق بحقائق الأشياء وحقائق الموضوعات ، وهكذا مباحث الشرعيين جميعاً متعلقها أحكام الأشياء لا حقيقة الأشياء ، وإلا لو فرض أنه يريد الثانى أى يريد أن الأحكام لا تغير حقيقة الأشياء نفسها ثم أتى عليه بالحجج الكافية لما كان هذا دالاً على ما يريد إثباته هنا ، فاننا نقول آمنا واعترفنا أن أحكام الأشياء لاتغير حقيقة الأشياء ولا تغير حقيقة الموضوعات ، فماذا عساه يستفيد من هذا ؟ انه لا يدل مطلقا على أن أحكام الموضوعات لاتتغير وهو يريد هنا تناول الأشياء وأحكامها لا حقيقتها وماهيتها

وإذ قد علم أنه يريد ها هنا أن الأحكام لا تغير أحكام الموضوعات احتيج مرة أخرى الى معرفة الأحكام التى لا تغير الأحكام ، وورد سؤال : ما معنى الأحكام لاتغير الأحكام ؟ فان ظاهره فاسد متهافت متدافع . وليس هذا من

الكلام الواضح الصحيح ، فليس من الصحيح أن يقال ان أحكام الموضوعات لا تغير أحكام الموضوعات ، فانه ان كان يعنى بالأحكام فى الأول والثانى الأحكام الشرعية كان هذا غير صحيح ، فان الأحكام الشرعيـة إذا وردت على الأحكام الشرعية كانت الأحكام الأخرى ناسخة للأحكام الأولى ان كانت مخالفة لها ، ومؤيدة مقوية ان كانت موافقة لها ، ومن المعهود في الشرع النسخ والتأييد والتقوية فاذا يريد إذن ؟ الذى يبدو لنا أنه يعنى أن الأحكام الشرعية على الأشياء لا تغير أحكام الأشياء العادية ، فاذا كان عند الناس زواج الأمهات والبنات فى عصر من العصور فى قطر من الأقطار حسناً وجيلا فنزلت شريعة من السماء تنادى بتحريم هذا النوع من الزواج ذاكرة أنه من القبائح المحرمة شرعاً ، لم يكن هـذا الحكم الشرعى السماوى مغيراً لحكم العادة القاضي بأن هذا النوع من الزواج حسن لا قبيح وهذا كالمثلين المذكورين فى إضافة زيد وشتمه . فاذا كان هذا هو ما يعنى قيل له لا ريب أنه غلط جلى ظاهر ، فان أحكام الشريعة على الأشياء أو الموضوعات كما يعبر الشيعى تغير أحكام العادة والعرف على الأشياء أو الموضوعات كما يعبر الشيعى بلا خلاف بين المسلمين ، فقد تحكم العادة بأن شيئا من الأشياء حسن جيل لا يخجل فاعله ولا يتندم بل وأنه ايمان وطاعة لله فتأتى الشريعة المنزلة من السماء فتغير حكم العادة والعرف وتبـدل معالمه ، وتقضى بأن ذلك الشىء الذى حكم عليه العرف بالحسن والجمال والايمـان قبيح وشر وكفر وشرك بالله ، وقد يكون عكس ذلك تماما . فتحكم العادة على الشىء بالقبح والشر فتأتى الشريعـة فتحكم عليه بالحسن والطاعة . وهذا مما لا نزاع فيه

والشرائع السماوية ما جاءت بالاجمال إلا لتغير أحكام العادات البـاطلة ، وتبدل معالمها

ولقد كان حكم العادة عند الناس قبل الاسلام جواز عبادة الأحجار

والأشجار ، وعبادة الأصنام والأوثان والصالحين . وكانت هذه العبادة عند أولئك القوم جميلة ورضا لله وللآلهة المعبودة . فأتى الاسلام وحكم بأن تلك العبادة قبيحة وكفر بالله وغضب له وعصيان . وعصيان لنفس من كانوا يعبدونهم من الأنبياء والصالحين . فغيرت الشريعة السماوية حكم العادة . فصار الناس الذين كانوا يرون تلك العبادة عقلا وطاعة لله يرونها جهلا وعصيانا له . وكذلك كان حكم العادة فى ذلك العصر عند أولئك الناس يرى من الحسن والطاعة وأد البنات والبنين خشية الفقر وخشية العار ، فجاء الاسلام وحكم بأن هذا الوأد قبيح شنيع ، وإثم كبير ، فصار الناس يعدونه قبيحا شنيعا حتى الذين كانوا يصنعونه

وكذلك كانت عند الناس فى ذلك العصر أنكحة كثيرة يصفونها بالجمال والجواز والحسن . فجاء الاسلام حاكما على تلك الأنكحة بأنها القبح والشناعة الشنعاء فصارت قبيحة شنيعة عند الله وعند الناس

وكذلك يقال فى كثير من عبادات المشركين وعاداتهم فانهم كانوا يرونها جميلة فجاء الاسلام وحكم عليها بالقبح فصارت كذلك ولم يبق لها ما كان يظنه الجاهلون من الحسن والحل والجواز

وقد تجرى عادة قوم فى عصر من العصور على أن شيئا من الأشياء القولية والفعلية أمر يتمدح به ويفتخر ، فتأتى شريعة الاله وتحكم على ذلك الشيء المتمدح به المفتخر أنه أمر قبيح يذم فاعله ويعاب فيصبح كذلك فى عرف أولئك القوم الذين كانوا يرون ذلك الرأى فيه . وقد يكون عكس ذلك . وهذا أمر لا يتنازع فيه . . .

وإذا كانت العادة تغير حكم العادة ـ وهذا مما لا خلاف فيه أيضا ـ فان حكم الشريعة الالهية لن يكون دون ذلك ، ولن يعجز عما قدرت عليه العادة وحكم العادة . وقد تحكم عادة عصر وقوم بأن أمراً من الأمور حسن فتأتى عادة عصر

آخر وقوم آخرين فتحكم بأن ذلك الأمر عينه قبيح مذموم فاعله ، واذا ما كانت العادة كذلك فالشريعة لن تقل عن أن تصنع صنع العادة بالعادة . هذه حقائق واضحة جلية أولية . وهي لا تتعلق بموضوعنا كثيراً لولا أن هذا الرافضي حشدها ، وحشرها في بحثه . فكان لزاما علينا أن نتعرض لها تعرضَ موجز مختصر عجل ...

وما ذكر من شتم زيد وإضافته ليس صحيحا ولا حقا أيضا ، فان المثالين كما ذكرا ليسا موافقين لبحث المسألة ولا ملائمين لما يراد ، وإنما يصح المثالان أن يقال ليفرض أن شتم زيد كان عدلا وجائزاً وفخرا لشاتمه فجاء الشرع وحكم بأن شتم زيد ظلم وعيب في شاتمه ، أفلا يكون بعد حكم الشرع عليه بأنه ظلم وعيب كذلك ؟ وكذا ليفرض أن الضيافة كانت مطلقا مكروهة معيبة في الضيف والمضيف ، فجاء الشرع وحكم عليها بأنها جميلة وفضيلة في الاثنين معا ، أفلا تكون كذلك ؟ أظن الجواب نعم ، هذا ما لا شك فيه

فلا ريب إذن أن أحكام الشرع تغير أحكام العادة واصطلاحات الناس على الموضوعات وتريهم ما كانوا يعدونه عيبا وعارا فضيلة وفخرا ، وما كانوا يعدونه فضيلة وفخرا عارا وعيبا

(ثانيا)

قوله : « وإذا كان تعظيم المخلوق والتبرك به والقيام في خدمته بغاية الذل والخضوع عبادة له وشركا بالله فاذا أوجب الله ذلك لمخلوق ، لم يخرجه الايجاب عن أن يكون عبادة وشركا ، بل يكون الله قد أوجب عبادة المخلوق والشرك به »

يقال في جوابه محال أن يوجب الله تعظيم مخلوق والتبرك به والقيام في خدمته بغاية الذل والخضوع ، ومحال أن يبيح الله ذلك لعبد من عبيده لا الأنبياء ولا من

دون الأنبياء . والله لا غيره هو الذي يجب على العباد أن يعظموه غاية التعظيم وأن يقوموا فى خدمته وطاعته بغاية الذل والخضوع . وغيره سبحانه لا يجوز له ذلك البتة

وأى مسلم يجرؤ أن يقول إن العبد المسلم يعظم عبدا آخر غاية التعظيم ويقوم فى خدمته بنهاية الذل والخضوع ؟ وإذا ما كانت غاية التعظيم جائزة لغير الله وكانت غاية الذل جائزة لغيره تعالى وكانت غاية الخضوع جائزة لعباد الله فما الذى بقى لله من ذلك . وما الذى يجب إفراده به من التعظيم والخدمة والخضوع والذلة ؟ انه لا شىء لله حينئذ من ذلك

أليس أكبر مظاهر الخضوع والذل والتعظيم هو السجود والركوع . ثم الصلاة جملة ! وهل هنالك مظهر لغاية الذل وأبلغ الخضوع أعظم من السجود والركوع والصلاة ؟ أيقول هذا الشيعى ان السجود والركوع والصلاة لغير الله من جماد وحيوان وحجر وشجر جائزة لأن هذه الأمور هي أعظم مظاهر الخضوع وأبلغ الذل والتعظيم ، وقد قال إن ذلك جائز لغير الله ، ان كان يجب عنده حقا أن يعظم المخلوق من جماد وحيوان وإنسان غاية التعظيم ويذل له غاية الذل ويخضع له غاية الخضوع تقربا الى الله وتدينا كان ولا ريب واجبا السجود والركوع والصلاة للمخلوق : الأنبياء ومن دون الانبياء . لأن هذه الاشياء هى غاية مظاهر الخضوع والذلة البالغة ؟ واذا كان السجود والركوع والصلاة جائزة لغير الله كان غير الصلاة من العبادات كالحج والنذر والذبح والصيام والزكاة وغير ذلك جائزا أيضا لغير الله . وكان جائزاً للمسلم المؤمن أن يؤدى جميع العبادات العملية والقولية من واجبات وسنن للانبياء وغير الأنبياء من حجر وشجر وناطق وصامت تقربا الى الله بذلك إذ لا يمكن أن يقول قائل يعقل مايقول بجواز الصلاة والركوع والسجود للمخلوق ثم يقول ان العبادات الأخرى كالصيام والزكاة والحج لا تجوز

إلا لله فالنتيجة التى لا ريب فيها لكلام هذا الرجل جواز جميع العبادات الفعلية والقولية لغير الله تقربا الى الله

واذا كانت العبادات كلها تجوز بل تجب للعباد فما الذى بقى لله وحده لا شريك له ، وبماذا يوحده الموحدون ؟ الجواب وا أسفاه لا شيء

ما أبعد مزاعم هذا الرجل عن القرآن وعن روح الاسلام ومعنى الاسلام وما اتفقت عليه كلمة المسلمين ، وعقدت عليه ضمائرهم ! وما أكثر هذه المزاعم مخاصمة لقوله تعالى « قل إن صلاتى ونسكى ومحياي ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » وبقوله تعالى « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين » ولنظير قوله « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله » ولقوله أيضا « وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له » وقوله « فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص » وقوله « فاياي فارهبون » وقوله « فلا تخشوا الناس واخشون » وغير ذلك من آى الكتاب

ولو أن فطينا تدبر كلمة « ومحياي ومماتى لله رب العالمين » وخلص من الأوهام وعقابيل العقائد الطاغية لكفته دليلا وحجة على أن الاسلام يريد من أهله أن يخلصوا لله جملة وأن يهبوه كل خضوعهم وخشوعهم وذلهم وخوفهم وقلوبهم وقوالبهم وأن يهبوه ذلك كله وحده لا شريك له وألا يهبوا غيره منه لا قليلا ولا كثيرا

وقد سمى الله الدين المنزل على جميع الانبياء (الاسلام) وكلمة الاسلام صريحة فى أن المسلم هو الذى يستسلم لله وحده ويسلم له كل شيء فيه ويمنحه ظاهره وباطنه ومادته ومعناه لا يشرك به شيئا . ولعل من العجائب أن تكون هذه الآيات بعض مافى القرآن ثم يذهب من يدعى الايمان بالقرآن ومن يدعى الاسلام يزعم ويكتب زعمه فى كتاب ينشره على الناس أنه واجب على المسلم أن يخضع غاية

الخضوع ويذل غاية الذل للمخلوقات لا الأنبياء وحدهم بل ولا الانسان وحده بل للجماد من أحجار وأشجار . وقد قدمنا أن الصحابة ما كانوا يقومون للرسول الكريم تعظيما له وإكبارا . لأنهم كانوا يعلمون كراهيته ذلك وقدمنا أنه أنكر عليهم القيام وراءه فى الصلاة قائلا « ان كدتم تفعلون فعل فارس والروم . فلا تفعلوا » وأنه نهاهم عن القيام له فى مواضع معلومة . ولهذا ما كانوا يقومون له وهذا معلوم بالنقل الصحيح . وعجيب أن يتأبى الرسول القيام لنفسه ولمن هو دونه ويدع ذلك المسلمون وعيًا لكراهية النبى عليه السلام ثم يقوم مسلم يدعى بأن الجمادات والمخلوقات يجب تعظيمها غاية التعظيم ويجب الخضوع لها غاية الخضوع والذل لها غاية الذل !

وفى كتاب نهج البلاغة المنسوب الى الامام على الذى تزعم الشيعة أنه أعلى وأسمى مما ثبت فى البخارى ومسلم ما يأتى :

« قال ولقد لقى عليا رضى الله عنه عند مسيره الى الشام دهاقين (١) الانبار (٢) فترجلوا له واشتدوا بين يديه . فقال ماهذا الذى صنعتموه ؟ فقالوا خلق منا نعظم به أمراءنا . فقال على والله ماينتفع بهذا أمراؤكم ، وانكم لتشقون به على أنفسكم فى دنياكم وتشقون به فى آخرتكم . وما أخسر المشقه وراءها العقاب . وأربح الدعة معها الامان من النار »

فاذا كان مثل هذا منكراً عند على رضى الله عنه مؤاخذاً عليه عند الله فاعجب أن يجوز ما يدعيه هذا الرافضى للانسان والجماد من التعظيم والذلة والخضوع وقد قدمنا أيضا أن رسول الله عليه السلام أنكر على رجل قال له ماشاء الله وشئت وقال له أجعلتنى لله نداً بل ما شاء الله وحده . وأنكر على من قام بين يديه وقال خطيباً : من يطع الله ورسوله فقد رشد . ومن يعصهما فقد غوى . وقال له بئس

---

(١) الدهاقين زعماء الزراع (٢) الأنبار بلدة فى العراق

الخطيب أنت . قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى . وهذا فى صحيح مسلم وأنكر على من قالوا له نستشفع بك على الله قائلا « شأن الله أعظم من ذلك . انه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » . وقد حضر سارق بين يديه وقال أتوب الى الله لا الى محمد . فقال عليه السلام : « أما هذا فقد عرف الحق لأهله » وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من السماء وقال لها أبواها قومى الى رسول الله واشكريه : كلا والله لا أحمد إلا الله ولا أحمد غيره فهو الذى أنزل براءتى . وهذا فى صحيح البخارى وغيره . وأنكر قول من قالوا له أنت سيدنا وابن سيدنا قائلا لهم : أيها الناس لا يغوينكم الشيطان ولا يفتننكم ، وكان من أقواله المشهورة الصحيحة : "لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله". الى أشياء أخرى كثيرة فى هذا الباب

فمن العجب أن تكون هذه من أقوال الرسول الكريم ﷺ ثم يقوم من يدعى الاسلام مدعياً أن المسلم يجب عليه أن يخضع لعبد مثله غاية الخضوع وأن يذل له غاية الذل وأن يعظمه غاية التعظيم ، ثم يزهى هذا القائل بأقواله هذه ويعجب بها فيضعها فى قرطاس يحاول أن ينشره بين الناس ليروا رأيه

ثم من العجب ألا يكون هذا التعظيم وهذا الذل والخضوع واجباً للأنبياء وللانسان فقط بل يدعى أنه واجب للحيوان والجماد والحجر والشجر أيضا ، ثم يقول بعد هذا إذا فرضنا أن هذه الأشياء المذكورة عبادة لمن كانت له ، ثم فرضنا أن الشارع أمر بها لمخلوق نبى أو ولى أو حيوان أو جماد لم يلزم أن يكون الشارع أمر بعبادة غير الله ولا بالاشراك به ولم يلزم أن تكون الأمور المذكورة المأمور بها عبادة وإن كانت قبل الأمر بها عبادة ، هذا معقول على رأى هذا المصنف ، ونظيره عنده أنه ذكر فى الأمر الرابع عشر أن السجود من جملة العبادة ، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وأن يعقوب و بنيه وزوجه سجدوا ليوسف ثم ذكر فى

هذا الأمر أن الله لا يمكن أن يأمر بعبادة غيره ولا أن يأمر بالاشراك به ، فالسجود إذن باعترافه عبادة والله أمر به للمخلوق باعترافه أيضا ، والله لا يأمر بعبادة غيره باعترافه أيضا ، إذن فالسجود كان عبادة فلما أن أمر الله به المخلوق لم يكن عبادة ولا أمراً بعبادة غيره لأن الله لا يمكن أن يأمر بعبادة غيره كما يقول هذا الشيعي وهذا نقض على قوله هذا بين ظاهر لاحيلة له فى دفعه

(ثالثا)

قوله « ان وجوب تعظيم المخلوق من جماد وانسان واحترامه والتبرك به وطاعته والقيام فى خدمته بغاية الذل والخضوع وما ينتظم فى هـذا السلك ثابت فى الشرع » قول هو احدى مصائب الدهر ومآسيه

كان الناس العقلاء يزدرون عقول عباد الشمس والقمر وعباد النار والبقر وعباد الكواكب والحيوانات وعبـاد الانسان والجان والملائكة : كانوا يزدرون عقول هؤلاء الذين فتنوا بهذه المخلوقات فعظموها وذلوا لها واستبطنوا الخضوع والمهانة والخوف والرجاء لها ، فاذا بامام من أئمة الشيعـة ومجتهديهم ، من يدعى بالمجتهد المطلق وبالسيد الأمين يتوقل الدرجات ويسمو ثم يسمو فيسمو على الأقران والفرسان فى هـذا الميدان ، فيذهب يزعم أن المسلم صاحب دين التوحيد المصفى الخالص ، وصاحب القرآن دين التوحيـد والافراد يجب عليه أن يهون ثم يهون ويذل ثم يذل ويخضع ثم يخضع حتى يهوى ويسرف فى الهوىّ والانحدار حتى يضع نفسه فى سفلى الدركات ، ويصير تحت أرذل المخلوقات فيذل غاية الذل للجمادات ويخضع لها غاية الخضوع ويعظمها غاية التعظيم ، ثم لا يكفيه هـذا كله بل يذهب يقول ويكتب ما يقول : انه واجب على المسلم أن يقوم فى خدمة الجمـاد من حجر وشجر بغاية ما يقدر عليه من خشوع وخضوع وذلة وخشية ، ثم لا يكفيه هذا كله

بل يذهب يطلب البركات من الجماد كالأحجار والأشجار ، والبركات هى الزيادات ، أى يذهب يطلب الزيادة من هذه الجمادات ، الزيادة فى العمر وفى المال والعقل والروح والدين والبنين ، وفى الماديات والروحانيات ، ممن يطلب هذا ؟ انه يطلبه من الجمادات الأحجار والأشجار والصخور والرمال ، ماذا يطلب منها ؟ انه يطلب منها البركات ، وعلى حد تعبيره هو يتبرك بها ، وماذا يعنى بالتبرك ؟ انه يعنى به طلب البركات أى الزيادات ، ثم يعنى به العكوف عليها والتمسح بها والتقبيل لها وتقريب القرابين اليها والانقطاع على وجه الاجمال اليها ، أهذا كله يصنعه المسلم للجماد الصامت ؟ أجل ، ثم لايكفى كل هـذا بل يجب عليه أيضا أن يطيع الجمادات وأن ينقادلأوامرها وينزجرعن نواهيها ، أوَ يمكن أن تأمر الجمادات وأن تتكلم حتى تمكن طاعتها والامتثال لأمرها ؟ أجل انها تقول وتتكلم ولولا ذلك لما قيل تجب طاعتها

يا لله لدين الاسلام ودين التوحيد من أصدقائه الذين هم أضر عليه من أعدائه ومن القائمين للدفاع عنه الذين هم أشد ايقاعاً به من خصومه ؟ ويحك يا هذا ! ! اذا كان هذا كله جائزاً أن يعمله المسلم للمخلوقات كلها حتى الجمادات والصامتات فما الذى بقى لعبدة الأصنام والمشركين والكفار ؟ وبماذا كان المشركون مشركين والكفار أعداء النبوة والأنبياء كافرين اذا كان تعظيم الجمادات غاية التعظيم والذل لها غاية الذل والخضوع لها غاية الخضوع من الاسلام ومن الايمان بالله ؟

أليس غاية الذل والخضوع والتعظيم هو الصلاة والركوع والسجود كما قدم آنفاً . فهل تقول انه جائز أن يصلى المسلم وأن يركع ويسجد للجماد وأن يصوم له ويزكى ويحج وينذر ويذبح ؟ ويح هذا ! ماذا بقى للمشركين بعد هذا ؟

ارجع الى كتب (الملل والنحل) وكتب (السير والأصنام) والى كتاب

(الملل والنحل للشهرستانى) فى مباحث عبدة الأصنام وعبدة الأفلاك والشمس والقمر والكواكب كى تعلم كيف كانت عبادة هؤلاء للاصنام والكواكب وكيف كانت الوثنية والشرك والكفر . إنك اذا رجعت الى ذلك وجدتهم ينقلون ويصفون شرك المشركين بشكل قد لا يبلغ من الغلو والمغالاة فى الغلو ما تزعمه للجماد والانسان من التعظيم والذلة والخضوع ، وطلب البركات ، وضروب الحاجات

قال الشهرستانى فى كتابه المذكور تحت عنوان « عبدة الأصنام » :

« ولكن القوم لما عكفوا على التوجه الى الأصنام وربطوا حوائجهم بها من غير إذن ولا حجة ولا برهان ولا سلطان من الله ، كان عكوفهم ذلك عبادة وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها ، وعن هذا كانوا يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ، فلو كانوا مقتصرين على صورها فى اعتقاد الربوبية والالوهية لما تعدوا عنها الى رب الارباب »

وقال تحت عنوان (عبدة الكواكب) : « وهي (أي الشمس) ملك الفلك يستحق التعظيم والسجود والتبخير والدعاء ، ومن سنة عباد الشمس أن اتخذوا لها صنما له بيت خاص ووقفوا عليه ضياعا وقرى وله سدنة وقوام ، فيأتون البيت ويصلون ثلاث كرات ويأتيه أصحاب العلل والامراض فيصومون له ويصلون ، ويدعون ويستشفعون به » . وقال الشهرستانى أيضا تحت عنوان « آراء العرب فى الجاهلية » :

« أول من وضع الاصنام فى البيت عمرو بن لحى لما ساد قومه بمكة واستولى على أمر البيت ثم صار الى مدينة البلقاء فى الشام ، فرأى قوما يعبدون الاصنام ، فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقى بها فنسقى ، فأعجبه ذلك وطلب منهم صنما

من أصنامهم فدفعوا له « هبل » فسار به الى مكة ووضعه فى الكعبة وكان معه أساف ونائلة ، فدعا الناس الى تعظيمهما والتقرب اليهما والتوسل بهما الى الله »
قال « والعرب أصناف فى ذلك صنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الاعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله فى الآخرة وحجوا اليها ونحروا لها الهدايا وقربوا لها القرابين وتقربوا اليها بالمناسك والمشاعر وحللوا وحرموا وهم الدهماء من العرب »
ثم قال الشهرستانى بعد هذا :

« فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتى ملك من السماء (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة منا الى الله تعالى هم الاصنام المنصوبة . أما الامر والشريعة من الله الينا فهو المنكر فيعبدون الاصنام التى هى الوسائل ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا . وكان ود لكلاب وهو بدومة الجندل وسواع لهذيل وكانوا يحجون اليه وينحرون له . ويغوث لمذحج ولقبائل من اليمن . ويعوق لهمدان . ونسر لذي الكلاع بأرض حمير . وأما اللات فكانت لثقيف بالطائف والعزى لقريش وجميع بنى كنانة ومناة للاوس والخزرج وغسان . وهبل أعظم أصنامها عندهم ، وكان على ظهر الكعبة أساف ونائلة على الصفا والمروة وضعهما عمرو بن لحى وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة وكان لبنى ملكان من كنانة صنم يقال له سعد وهو الذى يقول فيه قائلهم :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الارض لا يدعو لغى ولا رشد

وكانت العرب إذا لبت وأهلت قالت : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » ونقل غير ذلك وكذا نقل غيره كابن هشام وغيره وأنت ترى من هذه النقول التى لا خلاف فيها بالجملة بين أهل العلم أن عبادة

الأصنام كانت عبارة عن تعظيم صور الافلاك وصور البشر المختارين المصطفين وتعظيم الاحجار والاشجار والذلة والخضوع لها وتقريب القرابين والهدايا اليها والاستشفاع والاستشفاء بها. وما يشابه هذا. وهذا هو ما يزعم هذا الرجل أنه مطلوب من المسلمين أن يعملوه كله للجماد وللانبياء والصالحين على أن هذا الرجل يفوقهم فى تعميم هذه العبادة وهذا التعظيم والخضوع والتبرك والذلة للمخلوقات من الاحجار والاشجار وآثار الأنبياء والأولياء. أما المشركون الذين حدثنا عنهم المؤلفون الثقات وحدثنا عنهم القرآن فما كانوا يعممون بعبادتهم جميع المخلوقات من إنسان وحجر وشجر وجماد صامت بل كانوا يختارون من ذلك ما يختارون ويخصون ما يخصون من صور الافلاك النيرة العلوية وصور البشر العظماء المخصوصين بالنبوة والولاية. كما يخصون الملائكة لرفعة قدرهم وقربهم من الله، وما زعموا زعم هذا المسلم الشيعى ولا عمموا تعميمه ولا أباحوا ما أباح وهذا ظاهر جلى

والمؤلم حقاً أن يزعم أن هذا ثابت فى الشرع ! وأين فى الشرع ما يأمر بتعظيم الجمادات وما يأمر بالذلة والخضوع لها وطاعة أوامرها لو كانت لها أوامر وما يأمر بالقيام فى خدمتها بغاية الذل والخضوع وما يقوم هذا المقام ؟ هذا مالا يجد اليه سبيلا وهذا ما يعيى طالبه

هذا القرآن من الدفة الى الدفة، ومن الفاتحة الى المعوذتين، ومن المعوذتين الى الفاتحة: أو من ألفه الى يائه كما يقولون، يأمر بالحاح وصرامة بعبادة الله والذلة له والرغبة والرهبة منه والخشوع والخضوع بين يديه وأن يخلص له الدين والرجاء والقصد والتوجه والاستسلام ظاهراً وباطناً قلباً وقالبا، ولكن لن تجد حرفا واحداً يأمر بتعظيم الجماد أو الذلة والخضوع له أو الطاعة لأوامره والقيام فى خدمته قيام ذلة وخضوع على وجه من الوجوه. وها هو القرآن وها هى السنة

بل لقد تواتر فى القرآن وفى السنة الصحيحة الحث على افراد الله بالدين واخلاصه له واخلاص العبادة بكل معانيها . وليس هنالك ريب فى دخول هذه المعانى كلها فى مضمون الدين ومشتقات العبادة . كما سلف هذا فى الفصل الخاص بالعبادة

ومن أعجب ما فى هذا أن الشرع نهى عن الصلاة لله وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ووقت انحرافها خوفا من أن يكون فى ذلك شبهة فى أن للشمس فى هذه العبادة حظا أو نصيبا ما ، ونهى عن زيارة القبور فى بدء الاسلام وقال طوائف من أهل العلم ان ذلك كان خوفا من أن ينقدح فى صدر الزائر أو يقع على لسانه أو على جوارحه شيء من الغلو فى الاموات المزورين ، وقد تقدم أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن اتباع آثار الرسول الكريم ومنازله ، وينهى عن عبادة الله فى الاماكن التى كان النبى الكريم يعبد الله فيها ، وكذلك كان العلماء من السلف كالامام مالك ينهون عن ذلك

ومن أعجب ذلك وأبلغه ما رواه الترمذى وغيره عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن حدثاء العهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عليها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فقلنا يارسول الله اجعل لناذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال الرسول الكريم « الله أكبر . انها السنن . قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة »

ولا ريب أن الصحابة ما كانوا يريدون بهذا الطلب أن يجعلهم يعتقدون أن الشجرة الههم وخالقهم ورازقهم ولا يريدون أن يصلوا لها وأن يصوموا وأن يركعوا وأن يسجدوا ، على أن المخالف لايرى فى السجود لغير الله شركا . لايمكن أن يكونوا يريدون شيئا من ذلك ، لأنهم انما نقلوا من هذا وكفروا به فى دخولهم الاسلام ، وانما كانوا يريدون تعظيم الشجرة والتبرك بها والعكوف عليها وتعليق الأسلحة وربط الحاجات بها والنزول تحتها للبركة والاستشفاع ، فقال لهم

النبي الكريم ﷺ ان ما طلبتموه اليوم هو الشرك عينه وهو ما طلبته بنو إسرائيل من نبيهم موسى بلا فرق وان كان هنالك فرق فني اللفظ فقط . ولهـذا تحقيق سيأتي . فلا ريب أن قول هذا الشيعي هنا قول عظيم

(رابعا)

قوله « وقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم والولد بتعظيم الوالدين وخفض جناح الذل لهما وإطاعة الرسول وأولى الأمر الى آخره »

جواب هذا تقدم فى الأمر الذي قبل هذا الأمر أي في الأمر الخامس عشر وفى الأمر الرابع عشر

(خامسا)

قوله « ولا بد حينئذ من أحد أمرين : إما القول بأنه ليس كل تعظيم عبادة وشركا ، أو القول بأن الله أمر بالشرك وعبـادة غير الله . والله لا يأمر بالشرك فتعين القول بأنه ليس كل تعظيم عبادة موجبة للشرك »

يقال فى جواب هذا : ان مثل هذا الرجل فيما قاله هنا كمثل من قيل فيه المثل المشهور « وفسر الماء بعد الجهد بالماء » وذلك أن مخالفيه لم يدعوا قط أن كل تعظيم عبادة لمن عظم ، فانهم يرون وجوب تعظيم الرسول ﷺ وتعظيم سـائر الأنبياء والمرسلين ، وسائر الصحـابة وأئمة الدين ، وهم يعظمونهم التعظيم الخليق بهم ، ويرون أن من لم يعظم الأنبيـاء والمرسلين فليس بمسلم ولا بمؤمن ، ولا يرون أنهم بتعظيمهم إياهم يعبدونهم ويجعلونهم لله شركاء ولكنهم مع هـذا لا يعظمونهم كما يعظمون الله ، ولا يبالغون فى تعظيمهم مبالغة تخرج بهم عن نطاق الذوق والدين والأدب السماوى ، ولا يعظمون أحداً كالله كما لا يحبون أحداً كالله ، ولا يرجون

أحداً كالله ، ولا يخافون أحداً كالله ، ولا يأملون أحداً كالله ، ولا يرهبون أحداً كالله ، ولا يرغبون الى أحد كرغبتهم الى الله ، ولا يطيعون مخلوقا كطاعتهم لله ، وهم يرون أن من سوّى بين الله وبين عباده فى هـذه المعانى والأمور فقد فارق الاسلام واعتزل التوحيد المفترض على كل العبيـد ، ثم هم يعظمونهم تعظيم العاقل لا تعظيم الجاهل فهم لا يهبونهم حق الله وما وجب له باسم هذا التعظيم وبحجة هذا الاحترام كما صنع أقوام ضلوا سبيـل الله وسبيل العقل وتعدوا حدود الله وحدود العقل . فانهم بهـذا انتقلوا من تعظيم العباد الى انتقاص رب العباد ، وهذا شر الضلال . ولاشك فى أن من انتقص الله وفرط فى حقه أخلق باللائمة والاثم العظيم ممن تهاون فى تعظيم عباده المصطفين المعظمين وفرط فى حقهم فراراً من إعطائهم حق الله الذي لايكون إلا له لأنه ربهم ورب العالمين

فالمخالفون لهذا الرجل لم يدعوا قط أن كل تعظيم عبادة ولم يتفوهوا بهذه الدعوى لا تصريحا ولا تلويحاً ، فان كان كلامه قائماً على أنه ليس كل تعظيم عبادة فليبشر بأنه لا خلاف بينه وبين من يحاول الرد عليهم ، وليعلم أن السلفيين أو الوهابيين كما يعبرهو لايقولون ولا يدعون أن كل تعظيم عبادة . فلينعم بهذا عيناً وليطب بهذه النتيجـة نفساً ! ولكنهم يقولون ان من التعظيم ما هو عبـادة ومن المعظمين من هم معبودون . فالخلاف هو فى هذا فانّ كان يوافقهم على هذا كما يبدو من كلامه هنا فقد انقطع حبل النزاع واعترف بأن من التعظيم ما هو عبادة ومن المعظمين من هم معبودون ، واذا ما اعترف بهـذا لم يكن له أن ينازع من قال ان هؤلاء المعظمين للأموات المنقطعين اليهم فى سرائهم وضرائهم وفى شدتهم ورخائهم خارجون على عبادة الله عابدون لغير الله . وهذا هو محل الخلاف ومعترك الخصام فان سلم هذا كما هو ظاهر كلامه فقـد خسر الموقعة وألقى السلاح ، وان لم يسلم أن من التعظيم ما هو عبادة بأن زعم أن كل تعظيم ليس عبادة البتة فقد صار الى ما لا

يصير اليه عاقل ، فانه حينئذ يلزمه القول بأن من عظم مخلوقا ما من صامت وناطق أبلغ التعظيم وأعمقه بل وإن عظمه فوق تعظيمه لله لا يكون مخالفا للاسلام ولا واقعا فى أمر يستوجب الكفر ، وهذا لا يقوله مسلم بل ولا عاقل غير مسلم ، وهذا رأس ما ننكره عليه وعلى إخوانه فى كتابنا هذا ، على أننا نقول ان هذا الشيعى لا يسير على نمط واحد ولا على منطق متسق متماسك بل هو يسير على نحو قلق مضطرب ومنطق متدافع متهافت ، وذلك أنه يقول هنا انه لا يمكن أن يأمر الله بعبادة غيره لأن ذلك قبيح شنيع تدفعه العقول وتتأباه الألباب الصحيحة السليمة . هذا ما قاله هنا وقد قال فى الأمر الرابع عشر السابق فى معنى العبـادة ان الله قد أمر بعبادة غيره كما أمر الملائكة بالسجود لآدم ويعقوب وأولاده بالسجود ليوسف ، وزعم هنالك أنه ليس كل العبادة لله خاصة ، بل الخاص بالله من العبادة قسم مجهول غير معروف ولا معلوم ، وقال أيضا انه لا يمكن أن يزعم أن كل أقسام العبادة خاص بالله وحده لا شريك له

وهذا التدافع فى كلام هـذا الرجل سببه أن صاحبه ليس على صواب وحق فيما يقول وما يكتب ، ولكنه يكتب تموجات فكرية وخطرات غير ثابتة ولا قارة بل هى مضطربة لا تستقر على حال ولا تسير الى وجه سوىّ بل هنا وهنالك والله هو الهادى وحده ومن وراء كل قصد

الامر السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر

هذه الأمور الثلاثة خاصة بحياة النبى الكريم وبحياة سائر الأنبياء والشهداء بل وبحياة سائر الناس فى قبورهم ، وخلاصة ما ذكره فى هذه الأمور الثلاثة أن الأموات كلهم حتى الكفار منهم أحياء فى قبورهم ، وقد ذكر فى ذلك روايات غالبها ضعيف ، وفيها ما هو موضوع مختلق

ونحن نقول لسنا نتنازع فى أن الأموات كلهم أحياء حياة برزخية روحية غيبية بل و لسنا ننازع فى حياة الكفار منهم هذه الحياة الغيبية الروحية ، وقد دلت على هذا الدلائل المتكاثرة من الكتاب والسنة ، وأجمع عليه أهل السنة من المسلمين ، وذلك أن المرء بموته تنتقل روحه الى النعيم إن كان من المؤمنين الصالحين ، والى العذاب الأليم إن كان من الكافرين المفسدين ، وقد جاءت الآيات والأحاديث النبوية فى ذلك وأجمع عليه المسلمون ما خلا شراذم أنكرت وجود العالم الروحانى مستقلا ، وهذه الشراذم المنكرة محجوجة بنصوص الدين التى ليس هذا مكان بسطها وبيانها ، ولكن الشيء الذي نقوله هنا : أن يعلم أن وجود العالم الروحى ووجود الأرواح بعد موت أصحابها فى الجنة أو فى النار ليس دليلا على أنهم يستغاثون ويستصرخون ويسألون الحاجات ، لأن وجود أرواحهم كما ذكر ليس برهانا على أنهم يسمعون دعاء من يدعوهم واستصراخ من يستصرخهم ، وليس برهانا على أنهم يقدرون على ذلك وعلى إعطاء ما يسألون لو كانوا يسمعون الاستغاثة والاستصراخ ، ثم لو فرض أنهم يسمعون ويقدرون على إعطاء ما يسألون لم يكن هذا برهانا على أنهم يفعلون ذلك . ثم لو فرض أنهم يفعلونه لم يكن برهانا على أنه مباح للناس أن يسألوهم إياه ، وأن يستغيثوهم لأجله . وذلك لأنه ليس كل ما يفعل ويصنع يكون مباحا طلبه جائزاً سؤاله ممن يقضيه ويعطيه ، وليس من ريب أن من ذلك ما هو ممنوع شرعا محرم عقلا ، وذلك كاستجداء الغنى غير المحتاج وكطلبه الصدقة من المتصدقين ، فانه اذا سأل وهو غير معروف الحال ولا معروف الغنى يعطى شرعا ولا يجوز منعه ، مع أن استجداء الغنى محرم ممنوع دينا ، فيعطى ما هو عليه حرام فى الشرع وفى العقل ، وليس إعطاؤه ولا وجوب إعطائه دليلا على جواز سؤاله ما يعطى

ولهذا نظائر كثيرة معلومة ، ولا ريب أن هذه الأشياء كلها لا بد لها من

الدلائل والحجج كى تكون مقبولة ، وأما بغير ذلك فلن تقبل ، وإننا نعلم بالضرورة وبالحجج الكثيرة أنه غير جائز الاستغاثة بالأرواح ولا سؤالها ولا سؤال الأموات واستغاثتهم بحجة وجود أرواحهم وحياتها ، ويدل على ما نقول أمور كثيرة عقلية ونقلية :

(أولها)

أن أعلم الناس بالاسلام وأنفذهم بصراً بالدين وأتقاهم لله وأحرصهم على العمل الصالح ، الذين شهدوا تنزل الوحى ونزول القرآن ، وعرفوا أسباب نزوله ومواقعها وعرفوا مصادرها ومواردها ، والذين شهدوا الرسول الكريم يفسر لهم الكتاب الكريم بأقواله تارة وأفعاله تارة أخرى وعباداته تارة تلويحا وتصريحًا وإيماء وتنبيهاً ، والذين هم أعلم الناس على الاطلاق بمرامى القرآن ومقاصد السنة وروحها ونحواها ، وأعنى بهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار . . . . أقول : إن هؤلاء كلهم يعلمون - ولا يشكون - وجود الأرواح بعد الموت : أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ويعلمون ما ذكر الله فى ذلك من دلائل الكتاب والسنة . ولكن أحدا منهم مع هذا لم يحاول يوما أن يسأل ميتا حاجة من حاجاته لا الرسول الكريم ولا من هو دونه لا فى حالات السراء ولا فى حالات الضراء ، ولم يحاول أن يطلب ميتاً قضاء حاجة واحدة من حاجاته التى تلازمه كل وقت والتى لا تنقضى ، وحاجة من عاش لا تنقضى ، ولم يستصرخ الرسول ﷺ ولا غيره بعد الموت لنازلة نزلت أو عظيمة وقعت لازالتها أو تخفيفها أو تلطيفها

وقد أصيب الصحابة بعد موت النبى ﷺ بمصائب متنوعة دينية ودنيوية ووقعوا فى أفانين من أشراك البلاء ووقعوا فى نزاع فى مسائل كثيرة وفى حروب

طاحنة مؤلمة وفى خلاف حاد فى أمور صغرى و كبرى جوهرية وغير جوهرية باعتراف هذا الشيعى وباعتراف طائفة الشيعة كلها ، ولكنهم مع هذا لم يحاولوا أن يفضوا النزاع أو يكشفوا ما بهم من بلاء بالرجوع الى الرسول ﷺ وبالرجوع الى سؤاله ، والاستغاثة به والاستصراخ بشفاعته لهم عند الله ليكشف ما بهم ، وما أصابهم

وقد كان من السهل الميسور عليهم أن يفزعوا الى النبى الكريم أو الى غيره من الصحابة والشهداء فيطلبوه أن يحكم بينهم فى مسائل الخلاف والنزاع وأن يغيثهم وأن يشفع لهم عند الله ليخلصهم مما حل بهم من شرائم البلاء والضراء ويطلبوه العون والامداد اما بالفعل واما بالدعاء والشفاعة وإما بهما معاً وإما بغير ذلك مما يصنعه هؤلاء المفتونون المتغالون لدى قبور أهل البيت النبوى

وقد كانوا رضى الله عنهم يرجعون الى النبى الكريم يوم أن كان حيا بين أظهرهم عند احمرار البأس واشتداد البلاء ، يسألونه الشفاعة والدعاء ويسألونه ما فى استطاعة مخلوق مختار مثله أن يصنعه من العون والامداد والشفاعة والدعاء والحكم والقضاء بينهم . وهذا وارد كثير فى كتب السنة الصحيحة بل هو متواتر عنهم بالأسانيد الصحيحة ، وهو أمر لا ينازع فيه أحد أو يجحده أحد من أهل العلم ، ومثله لا يحتاج الى ايراد الشواهد عليه لظهوره ولعلم الناس به ، ولأنهم لا يتنازعون فيه

فاقصار الصحابة عن ذلك كله بعد موت النبى الكريم وقد اصطدموا بحاجات ملحة إليه وبأمور طاغية باغية يتعلق المصطدم بها بالأسباب كلها قويها وضعيفها ، برهان لا يرام اضعافه ولا القدح فيه على أنهم يرون ذلك بعد الموت غير جائز وغير مشروع وعلى أنهم لا يختلفون فى هذا ، لأنه لم يأت عن أحد منهم بسند يعبأ به أنه فعله ، وعلى أن الأموات مع وجود أرواحهم وحياتها لا يدعون ولا

يستصرخون ولا يفزع اليهم البتة

وقد اصطدم الامام علي رضي الله عنه على وجه الخصوص بمصائب جسيمة محطمة وبأمور نكراء جبارة ، وقد أحاطت الأرزاء بسماواته وجهاته بحيث يعيي القدمة الشجاع الحطمة الخروج منها ناجيا من داخلية الى خارجية ومن دينية الى دنيوية الى غير ذلك ، ومع هذا كله لم يحاول يوما أن يرجع الى النبي الكريم ، والى الاستغاثة به والفزع اليه لطلب الشفاعة وطلب المدد والعون . ولن يجيء عنه في ذلك نقل يشبه الحجج ويحرز اسم البراهين . وهذه خطبه وأقاويله المتنوعة الكثيرة المجموعة في كتاب « نهج البلاغة » كما يدعى الشيعيون ليس فيها لفظ واحد من هذا ، فلماذا أعرض عن الرسول ﷺ بعد موته ، إذا كان دعاؤه مستطاعا مشروعا لديه . .

وكذلك ابنته فاطمة رضى الله عنها واجهتها أمور تغرى بالفزع الى والدها عليه الصلاة والسلام وتغرى بالرجوع اليه لطلب النجدة والعون لكنها لم تفعل شيئا من ذلك ولم تحاوله على وجه من الوجوه

وكذلك الخليفة الحيي الأمين المبين اللين المبتلى عثمان رضى الله عنه ، قد ابتلى باعظم ما ابتلى به خليفة صالح مثله . ثار به الأشرار وحاصروه فى بيته وضيقوا عليه ، ثم ولجوا عليه داره وقتلوه قتلة سوء فى مدينة الرسول الكريم وجوار القبر النبوي الشريف ، وقد صحب هذا ما لا يطاق من البلاء والأرزاء الجسيمة ولكنه لم يسأل الرسول شيئا فى هذه النوازل ، ولم يطلب منه اغاثة ولا شفاعة ، ولا عونا ولا مدداً . ولا ريب أنه قد كان فى أشد الحاجات الى ذلك كله ، وأنه لا يمكن أبداً أن يصدف عنه وهو يعلم أنه مجديه ونافعه شيئاً

ومثل هؤلاء وهؤلاء غيرهم من الصحابة والتابعين ومن تبعهم باحسان وإيمان ، أصابهم ما أصابهم وحل بهم ما حل وانتقصت دنياهم ودولتهم وتناوبتهم

المصائب الخاصة والعامة فلم يستغيثوا بالأموات ولم يسألوهم شيئا لا الرسول ولا من دون الرسول من الصحابة وآل البيت الطاهرين

فلماذا هذا الاقصار عن الرجوع الى الأموات والفزع اليهم والاستعانة بهم وطلب الشفاعة منهم اذا ما كان ذلك مشروعا مستطاعاً ، واذا ما كان فيه خير فى الدين أو الدنيا ؟

ان الجواب الصحيح لهذا السؤال الصحيح هو الاعتراف بأن طلب الأموات وسؤالهم والاستغاثة بهم والرجوع اليهم ليس جائزاً وليس مشروعاً ولا مستطاعا باتفاق الصحابة ومن تبعهم باحسان وباجماع سيرتهم العملية الصامتة ، ثم الاعتراف بأن الاستغاثة بالموتى باطلة غير جائزة بالضرورة وبالاجماع الصامت وكل جواب غير هذا هو جواب باطل مدخول متكلف . فأن من جاوب عن هذا زاعماً بأنهم كانوا يصنعون ذلك غير أنه لم ينقل الينا كان متكلفاً وقائلا قولا باطلا لا ريب فى بطلانه ووهنه . فان علماء الرواية والنقل كانوا يروون كل مايتصل بعلمهم من سير الصحابة ومن دون الصحابة ، وكانوا لا يدخرون وسعا فى إثبات ما يعلمون من ذلك وفى روايته وتدوينه حتى لقد كانوا يلاقون المشاق ويقتحمون الشقق النائية المضنية برضى وطواعية فى سبيل رواية شىء من ذلك ، ولقد كانوا ينقلون عنهم ماقد يعدونه وما قد يعده غيرهم مآخذ وعيوبا فى حق الصحابة الكرام ، كما كانوا ينقلون التافة النزر من الأخبار . كل ذلك قد كان وأ كثر منه حرصاً على الرواية والتدوين وعلى اثبات سير الأولين . فكيف بعد هذا كله يعرضون عن أمثال ماذكرناه من الشئون الكبرى التى هي فى صميم الدين وصميم العقيدة ؟ لا ريب أن من اختار هذا الجواب فقد تكلف وقال قولا باطلا

وكذلك من أجاب عن هذا بأنهم كانوا يجهلون جواز هذه الأمور والمسائل ولا يعرفونها مع ثبوتها وجوازها . أو أجاب بأنهم يعرفون هذا كله ولا يجهلونه

ولكنهم أعرضوا عنه زهداً فيه وفى ثوابه ورغبة عنه وعما فيه من الأجر فقد انتحل جوابا باطلا جداً وضعيفا جداً ، وفى هذا مافيه من القدح فى قادة المسلمين وفى علمهم ودينهم ، وأن المؤمن يرغب بنفسه ودينه عن هذا وعن القدح فى سلف الامة الاكرمين ، ويرغب بدينه ونفسه عما رغب عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والانصار والمهاجرون والتابعون والائمة الآخرون

(ثانيها)

إن الله تعالى قد قطع النزاع والخلاف فى هذه المسألة وأبانها وشفى فى بيانها فى آيات صريحة واضحة لا تنازع ولا تؤول . فقد أبان أن الأموات قد أفضوا الى عالم آخر بعيد قصى غيبى لا يسمعون ولا يعلمون عن أهل الدنيا وعمن دعاهم فى الدنيا شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، وأبان أنهم لو علموا ذلك لما استطاعوا أن يعملوا شيئا ولا أن يقضوا مسألة سائل ولا حاجة محتاج ولا أن يجيبوا طلبة طالب ، وسائل من لا يجيب كمجيب من لا يسأل كما قيل

وهذا فى آيات عدة . قال تعالى « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون »

وهذه الآية بوضوحها وبينونة مغزاها غنية عن أن نقول انها نص واضح صريح على أن من كان يعبده المشركون من عباد الله الذين هم مثل العابدين بشر مابين رجال ونساء إلا أنهم قد ذهبوا وأفضوا الى العالم الباقى الأخروى ـ لا يسمعون دعاء من دعاهم ولا يبصرون أعمال من أشرك بهم وفزع اليهم وقدم لهم ماشاء من القرابين والنذور وأنهم لو سمعوا الدعاء وأبصروا الداعين ثم أرادوا نفعهم ودفع

الضرع نهم لما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وذلك لأنهم فقدوا الآلات التى بها يستطيعون أن يعملوا وأن ينفعوا ويضروا . فقد فقدوا الأيدى التى بها يبطشون والارجل التى بها يمشون فهم لا يستطيعون حراكا ولا بطشا ولا مشيا . فهم لا يتقدمون ولا يتأخرون ، ومن لا يسمع ولا يبصر ولا يبطش ولا يعمل ولا يمشى كيف يرجى لدفع البلاء أم كيف ينقطع اليه رجاء نفعه وعونه ؟ ان هذا مالا يسوغ ومن شك فى هذا أو خالف فيه فهاهم الاموات ليدعهم وليستجيبوا له ان كان صادقا محقا (فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) . إن هذا تسجيل أى تسجيل على هؤلاء الضالين المشركين

لا يقولن قائل : إن المراد بهؤلاء هى الجمادات من الأحجار والأشجار ومالا يعقل ، وأنه ليس المراد بهم الصالحين من الأنبياء والأولياء الذين يدعون ويستغاثون فان هؤلاء يسمعون ويقضون الحاجات ويصلح سؤالهم ودعاؤهم والفزع اليهم . فالآية ليست دليلا على أن الصالحين الأموات لايدعون لأنهم لا يسمعون ولا يعملون شيئا . لا يقولن قائل هذا فانه غير صحيح لدى من تدبر وفهم ؛ ذلك أن الآية تقول « عباد أمثالكم » ولو كان المراد بالعباد هنا الاحجار والاشجار والجماد الصامت - كما يزعم المخالفون - لقالت الآية عباد أقل منكم وأضعف من أضعفكم وأقل من أقلكم . لا أن تقول « عباد أمثالكم » فان المقام هنا مقام تهويل وتهوين . تهويل لدعوة الاصنام وعبادتها ، وتهوين لشأن من دعاها فالمطلوب هنا الاتيان بأوصاف المعبود الحقيرة والاشادة بنقصه وضعفه وهوانه فلا يليق - والحالة كما ذكرنا - أن يقال فى ذم الاحجار والاشجار والجماد الصامت لعابديها إنها عباد أمثالكم . بل الاحجار والاشجار والجماد كله أضعف وأنقص من هؤلاء ومن الانسان على جميع الوجوه

فاذا ماقيل والأمر كما ذكرنا إن الاحجار والاشجار والجماد مثل الانسان

كان هذا القول تقريظاً للاحجار والاشجار ومديحاً للجمادات ورفعاً من شأنها واعظاماً لأمرها . ولكنه ليس بلائق مدح هذه الاشياء والثناء عليها فى مقام ذمها لمن عبدها وهام بها فصلى لها وصام وعمل لها أفضل الأعمال وأعطاها خالص لبه وصفوة معناه . ان هذا لواضح

هذا وجه ، وفى الآية وجه آخر

وذلك أنها تقول « ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم آذان يسمعون بها أم لهم أعين يبصرون بها » أى ألهم هذه الموصوفات التى هي الجوارح بصفاتها التى هى المشى والبطش والسمع والأبصار . فكأن الانكار هنا للصفات أى كأن الانكار هو للبطش بالأيدى والمشى بالأرجل والابصار بالأعين والاسماع بالآذان ، وليس الانكار لهذه الجوارح نفسها : أى كأن الآية على هذا النظم تنكر وجود هذه الصفات لهذه الموصوفات مع الاعتراف بالموصوفات ووجودها ، وهذا معلوم من نظم الآية المذكورة . فلو كان المراد بالمدعوين فى الآية الاحجار والاشجار والجماد دون المعبودين العقلاء من الأموات والبشر لكان نظم الآية غير ماذكر على نحو آخر : وذلك أن الاحجار والاشجار والجمادات فاقدة هذه الجوارح فضلا عن أن تكون لهذه الجوارح صفات تنكر أو تقر

فكان ينبغى أن يكون تأليف الآية اذا كان الأمر كما قدر هؤلاء هكذا ألهم أرجل أم لهم أيد أم لهم أعين أم لهم آذان لأن المراد حينئذ انكار هذه الجوارح ونفيها عن الجماد لأنها ليست له وليس له منها شىء

هذا وجه ، وفى الآية وجه ثالث ، وهو أن الضمائر المذكورة فى الآية كلها ضمائر عقلاء ، وذلك فى قوله (ادعوهم) وفى قوله (ليستجيبوا لكم) وفى (ألهم) كذا ، وكذلك الاسم الموصول « الذين » وهذه الضمائر ليست موضوعة فى اللغة للجمادات من الاحجار والأشجار ومالا يعقل ، وانما هى موضوعة للعاقلين . فهذا برهان على

أن المدعوين فى الآية هم المدعوون من العقلاء كالأنبياء والأولياء الاموات هذا وجه ، وفى الآية وجه رابع

وذلك أن المشركين كانوا بلا خلاف يدعون الملائكة والجان والانسان أنبياء وغير أنبياء ويعبدونهم كما كانوا يعبدون غير هؤلاء من الاحجار والاشجار والصور والتماثيل والاجرام العلوية والحيوان ، فجاءت الآية ناصة على أن هؤلاء المدعوين المعبودين جميعا لا يسمعون ولا يبصرون ولا يبطشون ولا ينفعون أو يضرون من دعاهم وطلبهم شيئا من الاشياء ، ولم تخص الآية من هؤلاء المعبودين صنفاً دون صنف ولا طائفة دون طائفة . بل عمتهم كلهم وحدثت عنهم جميعاً بذلك وهذا جلى واضح . فالذين يخرجون من هذه الاصناف صنفاً أو من هذه الأنواع المذكورة نوعاً يفعلون مالا دليل لهم عليه . بل يفعلون ما ينازعه ظاهر القرآن وظاهر اللغة . فالآية نص فى المطلوب والمسألة

وقال تعالى : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » وما قيل فى الآية الأولى يقال فى هذه الآية من السؤال والجواب . فان هذه الآية بينة أيضاً فى أن من يدعون من البشر وغير البشر من الملائكة وغير الملائكة من الجن وغير الجن من الجمادات والحيوانات ومن الاحجار والأشجار فى غفلة وشغل شاغل عن دعاء الداعين وسؤال السائلين وفى انقطاع تام عن الدنيا وعما فى الدنيا وعمن تعلق بهم من أهلها . فلا يسمعون دعاء من دعاهم لانقطاع الأسباب بين الداعين والمدعوين ، ولبعد المسافات بين العابدين والمعبودين ، ولتباين ما بين العالمين عالم الدنيا مستقر الداعين ، وعالم الأخرى مستقر المدعوين ، ولفرق مابين هذين العالمين من الوسائل والغايات ومن الأحكام والشئون ، وفرق عظيم بين عالم الغيب وبين عالم الشهادة وبين

العالم الروحانى والعالم الجسمانى أو بين عالم الأرواح وعالم الأشباح . فهم لهذا كله لا يسمعون صرخات الصارخين وهتافات المستغيثين

ثم لو قدر أنهم سمعوا ذلك بطريق مباشر أو بوساطات كثيرة أو قليلة خارقة أو عادية ، فهل ينفع الداعين والطالبين ذلك شيئا وهل يهبونهم شيئا مما يطلبون ويسألون ، لأن الغاية التى تطلب من الدعاء والاستغاثة هى الظفر بالمطلوب وبالحاجة التى أملت الدعاء والرجاء والسؤال والطلب ؟ كلا ، انهم لن يستجيبوا لهم شيئا ولن يهبوهم بعض ما يسألون ولن ينفعوهم أو يضروهم أيضا لأنهم قد أفضوا الى حالة أخرى وعالم آخر لا يستطاع فيه النفع ولا الضر ولا الكدح والعمل ولا السعى والنضال ، بل ما هنالك افضاء الى مكان الجزاء والمكافأة على الأعمال الخالية في الأيام الخالية ، فهو عالم لا يستطيع العبد فيه نفع نفسه ولا العمل لها ، فأنى يستطيع نفع غيره من أهل الدنيا وعالم المادة ! ؟

ولقد صح فى الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه أنه عليه السلام قال « إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »

ذلك : ثم هل ينتهى الأمر عند هذا الحد ، ويطوى البساط على هذا بحيث لا نفع ولا ضر ، فلا ينال الداعين من دعائهم هؤلاء الذين لا يسمعون دعاءهم ولا يستجيبون لهم نفع ولا ضر ؟ كلا . ان الأمر لن ينتهى عند هذا المقدار ، ولن يطوى البساط عليه . بل الأمر غير ذلك ، فسوف يلاقى هؤلاء الداعون من جراء دعائهم الذي حسبوه لهم نافعاً بلاء غير مقطوع ورزءاً عظيما . ونعوذ بالله من الخذلان ومن الخزى يوم الدين ، فسوف يخذلهم المدعوون المأمولون وهم أحوج ما يكونون الى نصرهم وتأييدهم وهم أرجى ما يكونون لنصرهم ونفعهم ، فيتبرأون منهم فى ذلك اليوم العصيب ، ذلك اليوم الذى كانوا يدخرون له شفاعتهم ووساطتهم وأخذهم بأيديهم

وسوف يكفرون باشراكهم بهم وعبادتهم إياهم ، فيلومونهم ويعنفونهم ثم يتبرأون الى الله منهم ، فيصبح ذلك كله حسرات على أولئك الداعين المساكين وخسرانا لا يجبر . وذلك هو الخسران المبين والخطب الجسيم

وهذا مثل قوله تعالى « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه »

فالآية إذاً بينة فيما نقول ، بينة فى أنها تعنى المدعوين من الأموات الصالحين من الأنبياء وغير الأنبياء ، فان الضمائر الموجودة فى الآية والاسم الموصول فيها حجج متماسكة على أنها تعنى غير الجمادات وغير الأحجار والأشجار وأنها تعنى العقلاء

وقوله فى الآية « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » حجة أخرى قائمة على أنها نازلة فى العقلاء المعبودين ، لأن الذين يكفرون بالشرك عادة وعرفا هم العقلاء لا الجمادات الصامتة ، إلا أن يصار الى القول بخرق العادة فى هذه الآية ، ولكن لا نحسب أن ثمة حاجة الى هذا المصير

وفى الآية شىء آخر صريح فيما نزعم محقق ما نرمى اليه ، ذلك أن الآية تقول « ولو سمعوا ما استجابوا لكم » ويعنى بهذا أن هؤلاء المدعوين لا يستجيبون للداعين البتة على جميع الحالات حتى ولو سمعوا دعاءهم وهتافهم بأن كانوا من العقلاء البشر أو كانوا من غيرهم كالجماد فخلق الله لهم الأسماع والأفهام تمزيقا لقانون العادة فسمعوا وفهموا ، وهم فى هذه الحالة من هذه الناحية يكونون مثل العقلاء أصالة ، فهؤلاء المدعوون لا يستجيبون للداعين إذاً سواء أكانوا عقلاء أصالة أم كانوا عقلاء توقيتا بخرق العادة لهم ، فهم لا يدعون ولا يستجيبون لمن دعاهم على الافتراضين ، أى على افتراض أن يكونوا عقلاء ، وافتراض أن يكونوا غير عقلاء فخلقت لهم آلة العقل فى زمن ما ، وهذا فى غاية الصراحة والوضوح فيما ذكرنا وحاولنا . فالآية حجة ظاهرة على أن الموتى لا يسمعون ولا يستجيبون مع

وجود أرواحهم ومع حياتهم البرزخية

وقال تعالى « وما أنت بمسمع من فى القبور » وقال فى آية أخرى « فانك لا تسمع الموتى » وهاتان الآيتان على رغم ما يحملان من التأويل والتفسير صريحتان فى أن الموتى وأهل القبور لا يسمعون الخطاب الذي يوجهه اليهم أهل الدنيا إلا فى حالات معلومة لأغراض أيضا معلومة

والذين يؤولون الآيتين يدعون أن المراد بالموتى ومن فى القبور فى الآيتين هم الكفار الذين لا يفهمون الدعوة ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها ولا يجيبون الى خير يدعون اليه ، وهو الاسلام والدعوة المحمدية ، فهم كالأموات من هذا الوجه وبهذا السبيل

ولا يراد بالأموات عند المؤولين الأموات حقيقة وانما المراد ما ذكرنا

هذا هو التأويل للآيتين عند طائفة المؤولين ، ولكن يقال لنفرض أن هذا التأويل صحيح ثم لنفترض أن الأموات ومن فى القبور هم الكفار الأغبياء الصم البكم الذين لا يعقلون . لنفترض هذا كله ، ولكننا نقول بعد هذا الافتراض ان الآيتين تدلان على قولنا دلالة صحيحة واضحة لا ريب فيها ، ذلك أن وجه التأويل وتوضيحه هو أن الكفار مثل الأموات فى أن الفريقين لا يسمعون دعوة النبى الكريم ولا ينتفعون بدعوة الاسلام ، لأنهم لا يفقهونها ولا يعلمونها ، فهم لا يتبعون النبى ﷺ ولا يستفيدون من دعوته اياهم الى الخير شيئا ، فالفريقان اللذان هما الكفار والأموات يشتركان فى هذه الأمور والمعانى . هذا ما نقول

واذا كان الأموات لا يسمعون دعوة النبى الكريم الى الاسلام ولا يفقهونها ولا ينتفعون بها مهما وجهت اليهم فكيف يسمعون دعوة من يسألهم حاجاته الخاصة الدنيوية المادية واستغاثة المستغيثين الطالبين منهم الحاجات السخيفة الباردة ؟ ثم كيف يفقهون هذه الدعوات ويفهمونها ويقبلونها مع أنهم كما فرضنا لا يفقهون

دعوة النبي الكريم الى خيرى الدنيا والآخرى ولا يفهمونها أو يقبلونها ؟ هذا ما لا يمكن أن يكون

فالآيتان مؤولتين وغير مؤولتين برهانان ناطقان على أن الأموات بشراً وغير بشر لا يسمعون ولا يدعون ولا يستجيبون مع وجود أرواحهم ومع حياتهم الروحية الغيبية

فهذه الآيات الأربع تستأصل شأفة الخصام والخلاف في هذا الموضوع الجلل مع الاعتراف الصريح بحياة الانسان الروحية العجيبة ومع وجوب الايمان بها

وفى القرآن آيات أخرى تدل على ما دلت عليه هذه الآيات التى أوردنا أعرضنا عن إيرادها لأن المراد هنا الاشارة والتلويح لا الاستقصاء الجامع لأن ذلك يطول فيمل

(ثالث الأمور)

لو كان جائزاً دعاء الأموات والاستغاثة بهم احتجاجاً بأن أرواحهم حية حياة روحية برزخية واحتجاجا بوجود أرواحهم واتصالها بهم ان كانت متصلة لجازت دعوة الملائكة والجان والحور فى الجنان ، ولجازت الاستغاثة بهم وطلب الشفاعة منهم كما جاز ذلك كله من الأموات وأصحاب القبور ، فان حياة الملائكة والجن ولا سيما المؤمنين وحياة الحور المخلوقة فى الجنان لا تقل عن حياة الأموات الروحية البرزخية ، وهؤلاء لا ينقصون عن أموات الانسان جدارة بالرجاء وبالانقطاع اليهم ، بل لا ريب أن الملائكة والجن أولى بأن يدعوا ويستغاثوا وأن يستجيبوا من الأموات وأصحاب القبور ، لأنهم بلا ريب أقدر منهم على ما يسألون وأجدر بالاجابة والسماع والاعطاء والنفع والضر ان كان الاموات قادرين على شيء من ذلك

ولا نحسب انسانا يفهم ما يقال أو يفهم حقيقة الأشياء يذهب يجوز دعاء الأموات والاستغاثة بهم وسؤالهم الحاجات وضروب المآرب احتجاجا بأنهم أحياء حياة روحية برزخية ، ثم لا يذهب يجوز دعوة الملائكة والجان والحور التى خلقت فى الجنان وسؤالهم ضروب الحاجات ، بل ان من أعطى الأشياء ما هى أهله من التقدير والانصاف والعدل قد يحكم بجواز الاستغاثة بالملائكة والجان ثم يمنع ذلك بالأموات من البشر ، لأن أولئك ولا ريب أحق عما ذكرنا ، فقد خلقوا أعظم استعداداً من البشر وأقدر على الأعمال والسعى وأوسع قوى حينما كان البشر أحياء ، فكيف بهم بعد الممات ؟؟ هذا ما لا ريب فيه وهذا ما لا خلاف فى صحته ووجاهته

ولكننا بعد هذا نقول اننا نعلم بالضرورة وبالبداهة الناطقة أنه من الحمق بمكان قصي ومن الجهالة التى لا ينادى وليدها سؤال الملائكة والجان والحور والاستغاثة بهم وطلب الحاجات منهم على حالة من الحالات ووجه من الوجوه . بل اننا نعرف معرفة الضرورة أن دعوة هؤلاء الخلق وسؤالهم الحاجات ليست من دين الاسلام وليست من دين هبط من السماء وليست من شريعة نبعت من عقل حكيم سليم . بل نعرف بالضرورة أن الرسول ﷺ وأصحابه ما كانوا - بل ولا كان أحد منهم - يستغيثون الملائكة والجان الخلق الآخر فى عالم الغيب ، ولا كانوا يفزعون اليهم من وجه المصائب والنوازل راغبين راهبين ، وأنهم لم يطلبوهم مطلقا شفاعة ولا عونا ولا مدداً ، بل ولم يفكروا فى ذلك فى يوم من الأيام كما نعرف معرفة الضرورة أنهم لو وجدوا من يصنع ذلك لردوه عليه ولعابوه وذموه ولحجزوا بينه وبينه

ولقد كانوا يبتلون بأشتات المصائب وأصناف الآلام فى الدين والدنيا خاصة وعامة حتى تضيق عليهم حلقات النجاة والخلاص ، وحتى يتطلبوا المخرج فيعز عليهم ويتلمسوا النجاة فتفر من بين أيديهم ، حتى يلموا بجميع أسباب الخلاص ويجربوا

ذلك كله ويفعلوا كل ما ظنوه مخلصاً مخرجا مما هم فيه ، ولكنهم على رغم هذا كله ما كانوا يرغبون بل ولا كان أحد منهم الى الملائكة والى الجان طمعاً في شفاعتهم والاستعانة بهم ودعائهم ، وهم يعلمون أنهم منهم في كثب وأن لهم من حياة الخلق أكلها

ولن يظفر الطالب لذلك برواية من هذا النوع لا صحيحة ولا ضعيفة ، وهذه كتب الاسلام ، هذا القرآن وكتب الرواية متوافرة ميسورة ، فمن شك في ذلك فليطلبه ليعلم أنه يطلب مالا يوجد

ثم مالنا ولهذا الاستدلال ؟ فان هذه المسألة معدودة عند المسلمين من ضرورات الاسلام وقواطعه التي لا يتسع لها الخلاف ، فلا يرتاب المسلمون البصراء بالاسلام أن من راحوا يدعون الملائكة والحور العين والجان فقد هووا في أعماق الوثنية وأركسوا في طبقات الشرك السحيقة التي لاقرار لها ، فان المشركين الأولين كانوا يدعون الملائكة ويدعون الجان ويستغيثونهم عند ما تلم بهم الملمات رغباً ورهباً فكانوا بذلك مشركين وثنيين ، وهذا ما لايختلف فيه أهل الرواية والدراية ، وهذا كله حق لا تتسع له سبل الخلاف . واذا ما علم هذا وعلم أن دعوة الملائكة والجان والخلق الآخر في العالم الآخر ليست من الدين بحال من الأحوال ولا من العقل مع الاعتراف بأنهم أحياء وموجودون وقادرون على الأشياء التي لا يقدر عليها البشر الأحياء بله الأموات ، علم بداهة أن حياة الأموات وحياة أرواحهم الحياة البرزخية لا تقضي بدعائهم والاستغاثة بهم والرغبة اليهم والاعتماد عليهم ، وفي هذا فساد هذه الحجة التي تعلق بها هذا المصنف الرافضي حاسباً أنه اذ ظفر بها ظفر بأمر ذي بال وبحجة فاصلة ، وليس لديه من دفع لهذه الحجة والمعارضة إلا أن يقول بجواز دعاء الملائكة والاستغاثة بهم وطلبهم كل ما يطلب اليوم من الأموات البشر ، واذا صار الى ذلك صار الى محادة الضرورة والاجماع الصامت والى

الوثنية فى أبشع معانيها وصورها

وهذا مايهرب منه الحراص على دينهم وعقولهم وعلى سمعتهم ومن احتاطوا لأنفسهم

(رابع الأمور)

هذا المخالف ذكر هنا أن الأموات مؤمنين وكافرين أحياء هذه الحياة الروحية البرزخية ، فللكافرين هذه الحياة كما هى للمؤمنين وليست من خصائص المؤمنين المسلمين ، وهذا ظاهر ، وقد دلت الدلائل الشرعية عليه ولا ينازع فيه هذا المخالف ، بل هو قد ذكر هذا فى كتابة هذا ، فهى من مسائل الاجماع بينه وبين مخالفيه ، بيد أن الكافرين معذبون العذاب الاليم فى جهنم وفى العرض عليها وأن المؤمنين منعمون النعيم الاوفى فى جنات النعيم يغدون عليها ويروحون كما فى القرآن والسنة . وإذا كان ذلك كذلك قيل له إذا ما كانت الحياة حياة الاموات دليلا لديك على جواز سؤال الأموات لأنهم أحياء كما كانوا يسألون أيام كانوا فى الدنيا ، فهذا المعنى لا فرق فيه بين الكفار والمؤمنين من الأموات من هذه الناحية وكذا الفاسقون والفجار ، فاذا كان الأموات من المؤمنين الصالحين يدعون ويستغاثون ويجيبون احتجاجا بحياتهم البرزخية والحى صالح لأن يدعى ويستغاث ويجيب فكذلك الأموات من الكافرين والفاسقين والظالمين يجوز دعاؤهم والاستغاثة بهم احتجاجاً بحياتهم البرزخية كما كان ذلك جائزاً كله يوم أن كانوا فى الحياة الأولى المادية وليس ثمت فرق بين الفريقين فى هذا المعنى من هذه الناحية

فاذا ما كانت حياة المؤمنين البرزخية دليلا على جواز سؤالهم والاستغاثة بهم في قبورهم كانت حياة الأموات من الكافرين والفاسقين والظالمين دليلا أيضا على جواز سؤال هؤلاء والاستغاثة بهم ، أو ليكن ذلك . واذا لم تكن حياة هؤلاء .

الكفار والظالمين برهانا على جواز الاستغاثة بهم والاستعانة فلـاذا كانت حياة المؤمنين برهانا على جواز الاستعانة والاستغاثة بهم ، والدليـل الذى هو الحياة موجود لدى الفريقين المؤمنين والكافرين ؟ فاما أن يقـال ان الحياة تدل على الاستغاثة بالطائفتين أو لاتدل على جواز الاستغاثة باحدى الطائفتين لا هـذه ولا هذه ، والتفريق بين الطائفتين بالطريقة المذكورة مع الاستدلال المذكور غير صحيح وغير مقبول

بيد أن أحداً من الناس لا هذا المخالف ولا غيره من المتشيعين للبدع لن يزعم جواز الاستغاثة بالأموات الكفار والفسقـة ، ولن يزعم جواز طلبهم حاجة من الحاجات على النحو المعمول عند القبور ، والبرهان كما رأيت وسمعت يحكم بأنه لافرق بين الفريقين فى هذا المعنى ، فاذا ما علم بأن احدى الطائفتين لا يجوز سؤالها ولا الاستغاثة بها علم ولا ريب أن الطائفة المساوية لها فى ناحية من نواحيها مثلها فى هذه الناحية المساوية ، وقد علم أن إحدى الطائفتين لا يجوز سؤالها ولا الاستغاثة بها بالضرورة ، فلتكن الطائفة الأخرى مثلها فى هذا المعنى ، وهذا أمر واضح ، وذلك أن حجة هؤلاء على جواز الاستغاثة بالأموات وسؤالهم مختلف الحاجات محصورة فى أنهم أحياء وفى أن أرواحهم موجودة حية عاملة كاسبة متصرفة ، لأن الأرواح كما يزعمون لا تموت ، وقد احتج بهذه الحجة قوم آخرون قبل هذا الرجل فلهم فضل السبق عليه ، فاذا ما كانت الحجة على هذه المسألة كذلك فلا ريب في أنه لافرق بين المؤمنين والكافرين فى الأمر الذي ذكرناه ، وهؤلاء يرون هذه الحجة صحيحة مقبولة ، واذا كان الأمر كذلك عندهم فلاريب فى دلالتها على الاستغاثة بالأموات الكفار وشمولها إياهم ، ولكن لا هم ولا غيرهم يقولون بجواز الاستغاثة والتوسل بهؤلاء ، وهذا يدل في التحقيق على أن هذه الحجة مدخولة فاسدة ، ولولا ذلك لما كانت بعض دلالاتها فاسـدة باطلة ، أما اذا فرقوا بين الطائفتين بأن زعموا أن

دليلا قد دل على جواز سؤال الأموات المؤمنين ولم يدل دليل على جواز سؤال الأموات الكافرين ، فلزم التفريق بينهما بالدليل الذي قضى بالفرق : إن فرقوا بينهما بهذه الطريقة قيل لهم إذن الحجة ليست هى حياة الأرواح ووجودها ، وانما هى الدليل الخاص الدالّ على جواز الاستغاثة بالأموات المؤمنين ، ولكننا نحن افترضنا أن ما ذكر هنا حجة قائمة بنفسها . وقيل أيضا مستحيل أن يجد المخالف دليلا على أنه يجوز السؤال للأموات الكفار والظالمين دون الأموات المؤمنين الصالحين بل إن كل دليل ينهض على بطلان الاستغاثة بأموات الكافرين والظالمين كذلك هو دليل قائم على بطلان الاستغاثة بأموات المؤمنين

وقيل أيضاً سوف يجيء الكلام على ما زعم دلائل على سؤال الأموات ، وسوف يعلم أنه ليس هنالك دليل واحد صحيح يكون حجة على ما زعموا

وبعد هذا الذى قدمناه نقول : ان حال الأموات بعد كل فرض وتقدير ، وبعد تسليم كل ما زعموه من حياتهم وقدرتهم وتصرفهم وسعة سلطانهم ، وبعد إقصارنا عن جميع ما أسلفنا من المناقضات والدلائل نقول : إن حال الأموات بعد تسليم هذا كله لا تعدو أن تكون كحال الأحياء الذين فى أماكن بعيدة قصية فان الأموات أيضا وإن كانوا أحياء قادرين هم فى أماكن أقصى وأنأى كما دلت على ذلك الدلائل الدالة على حياتهم وما زعموا لهم من تصرف وعمل . وقد أخبر القرآن الكريم أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . وجاء فى صحيح مسلم ما يعد تفسيراً للآية أن أرواحهم فى حواصل طير تروح وتغدو فى الجنان . وجاء فى أحاديث أخرى أن أرواحهم تتنقل فوق أشجار الجنة وأزاهيرها الى يوم القيامة ، وفى المعنى أحاديث وآيات معلومة ، ومثل الشهداء – بل أعلى وأكمل من هذه الناحية – الأنبياء ثم سائر المؤمنين . وكذلك دلت الدلائل على أن الكفار والمجرمين في أطباق النيران الحامية ، وأنهم يعرضون على النار غدواً وعشياً حتى

يرجوا فيها يوم الجزاء

واذا كان كذلك وكان قصارى أمر الأموات من النبيين والصالحين وغيرهم أن يكونوا كالأحياء الموجودين فى أماكن قصية فمن ذا يزعم أنه تجوز الاستغاثة بمن كان فى مكان قصي عن المستغيث . . . واذا علم ذلك كله قيل إذن لا يجوز سؤال الأموات والاستغاثة بهم حتى يجوز سؤال الأحياء البعداء الموجودين فى الأماكن القصية ومن ذا يجوز الاستغاثة بهم وطلبهم إلا أن تكون ثمت آلة تنقل الأصوات . ولا ريب أن من استغاث بالأحياء البعداء وسألهم الحاجات المذكورة مدخول فى عقله أو مصاب فى دينه وعقيدته أو فى الأمرين معاً

وقد يرى كثيرون من المشوشين في عقولهم ودينهم أن شيوخهم متصلون بهم على القرب والبعد عالمون بهم وبما يعملون فى الحضر والمغيب سامعون لأصواتهم وهتافهم بهم من كل مكان مبصرون لهم على كل حال وفي كل مكان قربوا أم بعدوا ، ويرون بهذه الطريقة أن شيوخهم موجودون فى كل مكان حالون فى كل ذات يخترقون كل مادة كثيفة إذ لا تحجبهم الحجب ولا تحول بين أسرارهم ومن يريدون نفعهم أو ضرهم الحوائل . وقد ادعى هذه الدعوي قوم زعموا من أهل العلم والدين فى النبي الكريم وفى الأولياء والصالحين

وهؤلاء الذين يزعمون هذه المزاعم فى شيوخهم وعلمائهم المعظمين المعتقدين يذهبون يدعونهم ويستصرخونهم فى كل مكان ومن كل مكان ، ويرون أنهم سامعون حاضرون مبصرون لا يخفى عليهم مكان من دعاهم ، ولا من هتف بأسمائهم ولا ما هم فيه . وهؤلاء بهذه المعتقدات الباطلة والاستغاثات القائمة على هذه المعتقدات جامعون أنواعا من الضلال والجهالات الطريفة متقلبون فى طبقات من العمه والحيرة والشرك المبين والتشبيه برب العالمين

وهؤلاء الذين يدعون الأموات من كل مكان وفى كل زمان معتقدين أنهم

يسمعونهم ويعلمونهم ويرونهم فيجيبونهم لا ريب فى أنهم يرونهم موجودين فى كل مكان أو يسمعون ويعلمون ما يكون فى كل مكان ، ولولا هذه المعتقدات لم يهتفوا بأسمائهم من كل مكان ولم يدعوهم على النأي والقرب . فالذين يسألون النبى الكريم وغيره من الصحابة والمشايخ وهم فى أقصى الأرض لا ريب فى أنهم يرونهم موجودين سامعين من كل مكان وحيثما كانوا ، وإلا لما دعوهم فى جميع الحالات فى المحضر والمغيب . . وهم اذا كانوا يعتقدون فيهم هذه المعتقدات لا ريب فى فساد عقيدتهم وفى ضلالهم المبين وفى تشبيههم المخلوقين الضعفاء العاجزين المحدودين من كل وجه ذواتا ومعانى برب العالمين الذى لا يخفى عليه شىء في الأرض ولا فى السماء والذي يعلم البعيد كعلم القريب ويرى الباطن كرؤيته الظاهر

وهذا أقل ما يقدر فى من دعا الأموات معتقداً أنهم أحياء وأن أرواحهم موجودة حية عاملة كاسبة ، والله العليم بما كان وبما يكون

وهنا انتهت مقدمته الثانية وتأتى بعدها المقدمة الثالثة وهى حسب زعمه فى شبه الوهابيين بالخوارج

مقدمته الثالثة

فى تشبيهه الوهابيين بالخوارج

قال الرافضى : « المقدمة الثالثة فى شبه الوهابيين بالخوارج ، وذلك من عدة وجوه : (أولا) كما أن الخوارج شعارهم لا حكم إلا لله ، وهي كلمة حق يراد بها باطل كذلك الوهابيون شعارهم لا اله إلا الله لا توسل إلا بالله لا استغاثة إلا بالله . وهى كلمات حق يراد بها باطل . كلمات حق لأن المدعو والمتوسل به حقيقة لرفع الضر وجلب النفع والمغيث الحقيقى ومالك أمر الشفاعة هو الله ، يراد بها باطل وهو منع تعظيم من عظمة الله بدعائه والتوسل به ليشفع عند الله ويدعوه لنا ، وعدم جواز التشفع والاستغاثة والتوسل بمن جعله الله شافعاً مغيثاً وجعل له الوسيلة كجملة من كلماتهم المزخرفة . كقولهم لمن يقول يا محمد ويا فلان : هل الله أعطاك القوة أو محمد ﷺ فلا بد أن يقول الله . فيقولون له : لم لاتدعو الله وتدعو محمدا وهذا تمويه وتضليل يراد به باطل إذ لا يوجد أحد يعتقد أن محمداً أو غيره بيده الأمر أصالة ، وانما هو التوسل وطلب الشفاعة ممن له الوسيلة والشفاعة ، واعتراضهم هذا يرجع الى الاعتراض على الله الذى جعل الشفاعة لمحمد ﷺ ، والا فمتى جعلها له فعلينا أن نطلبها منه . ولو صح اعتراضهم هذا لتوجه على من يسأل الدعاء من الغير فيقال له الله الذى يجيب دعاءك أو أخوك المؤمن فلابد أن يقول الله فيقال له لم لا تدعو الله وتطلب من أخيك أن يدعو لك

وكقولهم لمن يقبل ضريح النبى أو المنبر الموضوع فى مسجده وفى مكان منبره إنما تقبل حديداً أو خشباً جىء به من بلاد الافرنج ، ولم يعلموا أنه كما يحترم جلد الشاة بعمله جلداً للمصحف والورق والمداد بكتابة المصحف عليه وبه كذلك يحترم الحديد والخشب الذى وضع على قبر النبى ﷺ أو فى مسجده وفى مكان

منبره ، ومر بيانه فى الأمر الخامس عشر » انتهى

قلت : ذكر الرافضى فى هذه المقدمة ثلاثة عشر أمراً من أمور الخوارج وزعم أن الوهابيين قد أتوا بهذه الأمور واتصفوا بهذه الصفات ، والنتيجة التى يسعى لها هى أن يزعم أن أهل السنة من أهل نجد هم الخوارج الضلال الذين جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة ذامة لهم قادحة فى دينهم آمرة بقتالهم واستئصالهم ونحن هنا إن شاء الله نثبت هذه الامور التى ذكرها هنا واحداً واحدا ، ونذكر بالبرهان الصارخ المسكت أن أهل السنة أو من يشتهى أن يسميهم الوهابية بريئون من صفات الخوارج التى خصوا بها وذموا لأجلها . ثم نكشف أنهم ليسوا هم الخوارج وأنهم بريئون منهم كل البراءة بدلائل كثيرة تاريخية وحسية وعقلية ، لأن هذه الدعوى أى دعوى أنهم هم الخوارج أو منهم دعوى قديمة قد رددها كثيرون من أهل البدعة والجهالة وأنسوا بها وحسبوها مقدحاً فى أهل السنة لايظفر بأهدم منه لهم ، وقد تواصى بهذه الدعوى كل من نالوا هذه الدعوة الاصلاحية السلفية بالذم والقدح ورجع آخرهم ما زقا به أولهم ، وقد زادها الآخر تلحينا . ثم نذكر بعد هذا بالحجة الصارخة أن كل مافى الخوارج من شر وضلالة يوجد لدى الرافضة قوم هذا الرجل مايقابل هذا الشر وهذه الضلالة بشكل أفظع وأوسع وأخبث . ثم بعد هذا نذكر شبه الرافضة بشرّ الأمم أى بالأمة اليهودية عدوة كل الأمم من وجوه كثيرة . ثم نذكر فضل اليهود على الرافضة وما فاقوهم به من الحق والهدى إن كان عندهم فضل أو حق أو هدى . ولسنا نقول هذا ثلبا وتهريجا ولا مقابلة القدح بمثله ، بل إن هذه الامور سوف نذكرها مؤيدة بالحجج الحسية والتاريخية مؤيدة بالكتاب والسنة وبأقوال أئمة الاسلام الأقدمين الثقات الذين لا تمس امامتهم ودرايتهم ونصفتهم بمس سوء ، والله بالمقاصد محيط عليم واليه يرجع الأمر كله

أما قوله هنا «إن شعار الوهابيين لادعاء إلا لله ولا شفاعة إلا لله ، ولا توسل إلا بالله ، ولا استغاثة إلا بالله » فيقال فى جوابه ان هذا الزعم على الاطلاق افتراء جريء لم يقله الوهابيون ولم يعتقدوه ولم يذكروه فى كتاب من كتبهم فضلا عن أن يكون شعارهم الذي به يعرفون ويمتازون . فانهم لا يقولون اطلاقا لادعاء الا لله ، ولكنهم يقولون ان الأموات لايدعون لأنهم لا يجيبون ولا يقدرون وكذلك الاحياء لا يدعون لما لايقدرون عليه ولا يقدر عليه الا الله ، وهذا كهداية القلوب وغفران الذنوب وشفاء المرضى ورد الغائبين وانزال المطر ونحو ذلك ، وكذلك الغائبون لايدعون لما لايمكن عادة أن يكونوا قادرين عليه سماعاً وفعلا . أما من كان يقدر على شيء عادة وعرفا وكان مشروعاً طلبه لا محذور فى سؤاله فلا مانع من دعائه وطلب العون منه بالاسباب المعقولة المشروعة بل أنهم يرون دعوة هذا أحياناً واجبة يؤاخذ تاركها ويعاقب عند الله وعند الناس ، وذلك كغريق أشفى على الهلكة رأى من يستطيع انجاءه والأخذ بيده . فمثل هذا واجب عليه عندهم شرعا أن يطلب النجدة والعون ممن رآه مستطيعاً انقاذه اذا لم يكن ثمت مانع شرعى ، ولو هلك ولم يدعه الى نجدته لكان ملوماً مؤاخذاً عند الله والناس

وكذلك يجب على المسلمين أن يدعو بعضهم بعضاً الى فعل المعروف والخير والى التعاون على البر والتقوى ، وأن يدعو بعضهم بعضاً الى الله والى سبيل الله وهداه والى مافيه قوتهم وسعادتهم الدنيوية والأخروية بالاسباب العادية المشروعة ، فهذا وأمثاله لابد من الدعاء اليه ولابد أن يتداعى المسلمون والناس كافة الى القيام به بقدر المستطاع المقدور عليه ولا خلاف بين الوهابيين فى ذلك بل لاخلاف بينهم فى وجوبه شرعاً ، وعقلا ولا خلاف بينهم أن من لم يصنعه آثم واقع فى معصية الله ومحادّته

والدعاء الذى يأبونه هو دعاء الأموات ودعاء الاحياء الى مالا يقدر عليه

عادة الا الله كأن يطلب منهم هداية القلوب وغفران الذنوب وانزال الغيث ونحو ذلك

فزعم هذا الشيعي أنهم يقولون اطلاقا لا دعاء الا لله زعم أقل ما يقال فيه انه غير صحيح وأشد ما يقال فيه مما يستحقه أنه هوى وخيانة وبهتان مبين

وكذلك هم لا يقولون على سبيل الاطلاق لا شفاعة الا لله بالمعنى الذى يعنيه وهو إنكارهم الشفاعة فانهم يؤمنون بالشفاعة للنبى الكريم وللأنبياء جميعاً والمؤمنين والملائكة بل وللاطفال كما جاءت بذلك الآثار والاخبار عن النبى الكريم وعن السلف الصالح ويؤمنون بالشفاعة فى الدنيا ويوم القيامة على الوجه المشروع الوارد فى النصوص الشرعية نصوص القرآن والسنة ويؤمنون بأن المؤمن يشفع للمؤمن فى الدنيا بمعنى أنه يدعو له ويسأل الله له الهدى والعفو ونحو ذلك، وليست الصلاة على الجنازة سوى شفاعة للميت، ويؤمنون بأن الشفاعة يوم القيامة أقسام صغرى وكبرى وأن الشفاعة الكبرى هى الشفاعة لجميع الخلائق ليخلصوا من هول الموقف وعذابه . وهذه الشفاعة الكبرى هي من خصائص محمد عليه الصلاة والسلام . والشفاعة الصغرى بل الشفاعات الصغرى هى أقسام كثيرة وليست من خصائص واحد من الناس بل الانبياء يشفعون وللملائكة يشفعون والمؤمنون يشفعون والاطفال يشفعون لآبائهم وأولى قرباهم

وهذه الشفاعات الصغرى هى لأغراض عديدة منها ما يكون لرفع درجات المشفوع له، ومنها ما يكون لتخفيف عذاب بعض الناس، ومنها ما يكون لاخراج قوم مسلمين من النار لأنهم أدخلوها لذنوب اجترحوها وأتوها، ومنها ما يكون لغير ذلك . فهذه الشفاعات يؤمن بها السلفيون كل الايمان لا ينازعون فيها ولا يختلفون . وهذا مذكور فى جميع كتبهم الصغير منها والكبير، وكلهم يقولون ذلك ويصرحون به ولا يختلف النقل عنهم فى هذا ، بل وهم يسألون الله جل شأنه أن

يوم نصيبهم من هذه الشفاعات شفاعات سيد الأنبياء وشفاعات جميع الشافعين ، ولكنهم ينكرون من ذلك أن ينقطع المسلمون الى الأموات راغبين وراهبين يسألونهم الشفاعة ويطلبون منهم أن يشفعوا لهم قارنين ذلك بصنوف الآثام والمنكرات المهلكات ، زاعمين أنهم بهذه الشفاعة وبهذا الاستشفاع يغفر لهم ما أتوه من أفانين الضلال وسيء الأعمال ، بل وإن كانوا ليسوا أهلا للشفاعة ولا من أربابها لجلالة ما يأتونه من عصيان الله ولكثرة ما يؤذونه بالعداوة والمناوأة ، مدعين أن هؤلاء الشفعاء يشفعون ولا محالة لكل من طلب منهم الشفاعة وأن الله يشفع كل شافع فى كل مشفوع له ، وظانين أن هؤلاء الأموات يسمعون دعاءهم وضراعاتهم وهتافاتهم باسم الشفاعة والاستشفاع ، وما علم هؤلاء أنه لن يشفع أحد الا من بعد أن يأذن الله بالشفاعة للشافع ، ولن يأذن إلا لمن رضيه من عباده الجديرين بالشفاعة وبالعفو . وما علموا أيضاً أن هؤلاء المدعوين فى شغل عنهم وعن هتافهم شاغل وانهم ان يدعوهم لا يسمعوا دعاءهم وانهم لو سمعوا دعاءهم ما استجابوا لهم ولا شفعوا وانهم يوم القيامة يبرؤن منهم ومن دعائهم ودعواهم ولا علموا أن الله تعالى قد أعظم اللائمة على الجاهليين لتعلقهم بهذه الدعوى ولتعلقهم بالشفاعة والشفعاء ، وانه قد أغلظ لهم الخطاب والملامة لأنهم كانوا يقولون هذه المقالة ، ويدعون هذه الدعوى ، ولا علموا أيضا أن الشفاعة تكون لمن عبد الله مخلصاً له الدين ولمن أتاه بقلب سليم ، ولمن رضى عنه لا لمن طلبها وألحف فى طلبها وعاذ بالأموات وانقطع الى المالكين . وقد روى البخاري عن أبي هريرة أنه قال قلت يا رسول الله : من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » ولم يقل كما سمعت أحق الناس بشفاعتى من طلبها وأوغل فى الطلب

هذه حقائق لا ريب فيها وقد نص عليها الكتاب والسنة فى آيات وأحاديث

يعز إحصاؤها على المحصين ، وسوف نتكلم عليها فى الباب الخاص بالشفاعة ، وهى حقائق لا خلاف بين أهل السنة فيها ولا خلاف فيهـا بين من يسميهم المؤلف الوهابيين . فانهم سلفيون بالمعنى الصحيح الخاص والعـام ، بمعنى أنهم لا يخالفون السلف فى صغـيرة ولا كبيرة بل ولا يستحلون خلافهم والخروج على هداهم . فهم إذن لا ينكرون الشفاعة ولا يقولون لا شفاعة إلا لله بالمعنى الذى يريده الرافضى ، بل هم يؤمنون بالشفاعة كل الايمان ويرجونها ويسألون الله أن يكتبهم من أهلها وأن يزيد نصيبهم منها ، وإنما ينكرون الشفاعة الباطلة التى ردها القرآن وزجرها على طالبيها وآمليها فى آيات كثيرة معلومة

وإذن زعم هذا الشيعى أن من شعارهم لا شفاعة إلا لله بالمعنى الذي يريده هو زعم أخف ما يقال فيه أنه غير صحيح ، وأثقل ما يقال فيه على أنه حق : انه هوى وخيانة وبهتان للمؤمنين وإصرار على إيذاء المؤمنين وإحداث الشحناء والبغضاء . والله بأسرار الصدور عليم محيط

وكذلك هم لا ينكرون الاستغـاثة بالمخلوق إطلاقا على الوجه المشروع المعقول العادي ، فلا ينكرون أن يستغيث المسلم بالمخلوق فى الأمر الذى جعل الله فى استطاعة المخلوق القيام به وعمله بأسبابه الظاهرة ، ولكنهم ينكرون بصرامة وإباء الاستغاثة بالأموات بل الاستغاثة بالمخلوق مطلقا فى ما لا يقدر عليه إلا الله . وما قيـل فى الدعاء من التفصيـل ومن التجويز والمنع يقال فى الاستغاثة ، وقد قدمنا فى فاتحة الكلام القول فى الدعاء

وأما قوله لا توسل إلا بالله فقول غريب ، ومن ذا الذى يقول لا توسل إلا بالله وأى تركيب هذا وأي غلط يحمله ؟ فان من المحال أن يجد هذا القول بهذه الصيغة فى كلام من يزعم الرد عليهم . والله يتوسـل اليه لا يتوسل به كما قال فى القرآن « اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيـلة » وقال « أولئك الذين يدعون يبتغون

الى ربهم الوسيلة ، وهكذا جاء التعبير فى الأحاديث ، وإذا ما أريد نفى الوسيلة نفياً عاماً بانا قيل لا توسل الى الله ، أو لاتوسل ، ولكن لن يقال لا توسل إلا بالله فى هذا المعنى ، فان معنى هذه العبارة أنه لا يتوسل إلا بالله ، والى من يتوسل بالله لو كان هذا المصنف الشيعى يعرف مواقع الكلام ؟ هذا مالا يعقل وما يتقدس الله عنه ، وعلى ما فى هذه الكلمة من الخطأ اللغوي والمعنوى الاعتقادي يقال ان من البهتان الصريح الصحيح الزعم أن الوهابيين ينكرون التوسل والوسيلة إنكاراً مطلقاً عاماً ، وإن من البهتان المتعمد أن يقال انهم يقولون لا وسيلة ولا توسل ، فان الوسيلة الصحيحة والتوسل المشروع مذكوران فى جميع كتبهم المطبوعة المشهورة لا يختلف فى ذلك ولايختلف النقل عنهم فيه ، وأنهم يتوسلون الى الله الليل والنهار التوسل الصحيح ويسألونه الوسيلة الليل والنهار وهم لا يرون الاسلام يصح إلا بهذه الوسيلة وهذا التوسل وذلك أنهم لا يختلفون أن من الوسيلة والتوسل الى الله الايمان به وبالأنبياء وحبهم واتباعهم والحذو حذوهم ورجاء شفاعتهم وتشفيع الله إياهم بهم ، كما لا يختلفون أن من التوسل الى الله الأعمال الصالحة والأقوال الصالحة والعبادات على اختلاف أنواعها ، وأن من ذلك كل ما دلت الدلائل الشرعية على أنه يقرب الى الله ، والى رضاه وكل ما يحبه الله ويطالب به عباده ، فالوسيلة التى هي الأعمال الصالحة وكل ما دل الشرع على أنه من الايمان والدين هم لاينكرونها بل يرونها لازمة بل هم يرون الدين كله توسلا ووسيلة الى الله والى رضاه ، وهذا لايختلف فيه

ولكنهم ينكرون من ذلك توسل الجاهلية الذى هو عبارة عن الاستغاثة بالأموات والانقطاع الى القبور وسؤال أصحابها مالا يقدر عليه إلا الله عز شأنه وسلطانه . ثم ينكرون جميع هذه الأمور الشنعاء التى يجترحها هؤلاء العاكفون على الأجداث النازلون بأصحابها من الخضوع والخشوع والتمسكن المشبع بالتأله كما سوف

يجيء . فزعم هذا المصنف أنهم ينكرون الوسل والوسيلة ويبوحون بهذا الانكار إطلاقا افتراء عليهم مقصود . فان هذا فيما أحسب لا يخفى على مثل هذا المصنف لأنهم يذكرون فى جميع كتبهم التوسل المشروع والوسيلة المشروعة . فلن يند هذا كله عن بال هذا الرجل ، ولكنه يتعمد مايتقوله عليهم تعمدا ، والله يتولى جزاء المتقولين ، وسوف نرى فيما بعد أن هذا الخلق خلق طائفتين اليهود والشيعة ونعوذ بالله من هذا

هذا كله يقال ، ويقال بعده هب الوهابيين قالوا لا دعاء إلا لله ، ولا استغاثة إلا بالله ، ولا شفاعة الا لله . فاذا يكون ولماذا عددتهم غالطين بهذه المقالة اذا لم ينفوا حقاً ثابتا ولم ينصروا باطلا معلوما ؟ أو ليس الله قد قال هذه المقالة اطلاقا بقوله «وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا» وقال «له دعوة الحق» وقال « قل لله الشفاعة جميعا » وقال « له ملك السموات والارض » وقال « أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء أإله مع الله » وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث رواه الطبرانى « انه لا يستغاث بى وانما يستغاث بالله » وقال الله وقال رسوله غير ماذكرنا . فاذا ماقالوا هذه المقالة التى زعمها هذا الشيعى كانوا فى الظاهر موافقين لهذه الآيات ولهذا الحديث ولغير ذلك من النصوص ، ومن قال قولا موافقا النصوص الشرعية لا يمكن أن يلام عليه ولا أن يضاف اليه خطأ وضلالة ، وهذا معلوم لا يشك فيه المسلمون ، ولكن القائل ان كان يريد بما قاله موافقاً النصوص معنى باطلا فاسدا أو كان يفهم من النصوص فهما باطلا فاسداً ليم على ذلك المعنى الذى أراده وعلى ذلك الفهم الذى قصده وأوخذ بما كان باطلا ضلالا فقط لا على الأقوال التى يقولها وفاقا للنصوص الدينية وسيراً معها

والخوارج لم يؤاخذوا على قولهم لا حكم الا لله ، ولكن أوخذوا على أن فهموا هذه الكلمة فهما باطلا فاسداً وعلى أن خالفوا بذلك النصوص الأخرى واجماع

المسلمين وما دلت عليه المعقولات ، ولأجل هذا قال الامام على ان كلمتهم هذه كلمة حق يراد بها باطل . فهم اذن مبطلون فى فهمهم هذه المقاله لافى قولهم اياها كما يبدو من كلام على نفسه . وعلى هذا فالوهابيون لو كانوا يقولون أقوالا باطلة ويدعون الى باطل كانوا غالطين لهذا الباطل ولهذه الأقوال الباطلة لا لقولهم لا دعاء الا لله ولا شفاعة الا لله ولا استغاثة الا بالله ، وهذا الرجل يدعى أنهم يريدون بهذه الأقوال أموراً باطلة فهو اذن لايلومهم على نفس هذه الأقوال وانما يلومهم على الباطل الذى زعم أنهم يريدونه بها . فعليه اذن أن يثبت أن عقيدتهم فى دعاء الأموات والاستغاثة بهم وجميع مارده عليهم في هذا الكتاب ضلال مخالفه الشرع ، وعلينا نحن أن نهدم مايدعى وأن نثبت بالبرهان أنهم مصيبون وأنهم على صراط مستقيم وهدى مستبين من الكتاب والسنة ، وبهذا يماز الحق من الباطل ويفصل فى المسأله فصلا حاسما تاما

وأما زعمه أنهم يريدون بذلك باطلا وهو منع تعظيم من عظم الله بدعائه والتوسل به وعدم جواز التشفع والاستغاثة والتوسل بمن جعله الله شافعاً مغيثا وجعل له الوسيلة . فيقال جوابا له : أما تعظيم من عظمه الله فان القوم الذين يحاول هذا الشيعى الرد عليهم من أوفر الناس تعظيما له ومن أعظمهم اعترافا بقدره وفضله وجاهه . ولكن ليعلم أن تعظيم من عظمه الله حقاً هو اخلاص الطاعة والانقياد له وتقديم قوله وحكه وسنته على أقوال جميع القائلين وعلى جميع شهوات النفس وحاجاتها المدخولة كما قال تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وقد قال القاضى عياض فى كتاب « الشفاء » تحت عنوان (معنى المحبة للنبى عليه السلام) : « قال سفيان المحبة اتباع الرسول عليه السلام »كأنه التفت الى قوله « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى » وقال بعضهم محبة الرسول اعتقاد نصرته والذب عن سنته والانقياد لها وهيبة مخالفته ، وقال بعضهم المحبة دوام الذكر للمحبوب ، وقال

آخر : إيثار المحبوب . وقال بعضهم : المحبة الشوق الى المحبوب . وقال بعضهم : المحبة مواطأة القلب لمراد الرب ، يحب ما أحب ويكره ما كره . وقال آخر : المحبة ميل القلب الى موافق له . هذا كله ذكره القاضى عياض

وليعلم أنه ليس من التعظيم فى شىء الافتآت عليه والابتداع فى شريعته ، وتقديم أقوال الرجال على قوله وعلى ما جاء به من الهدى والبينات ، كما أنه ليس من التعظيم له عليه السلام الزعم بأن الأئمة معصومون كعصمته أو أشد ، وليس من التعظيم له أيضاً الوقيعة فى خيار أصحابه وإكفارهم ، أصحابه الذين نصروه وآووه إذ خذله الناس وأخرجوه ، وليس من ذلك أيضاً رمى أزواجه بمعظمات الكبائر وسبهن والعيب لدينهن الى غير ذلك من الفظائع الشيعية المعروفة ، وليس كذلك من التعظيم له فى شىء عصيانه وعصيان الله جهرة ومنابذة الكتاب والسنة بدعوى إعظام من عظمه الله وبدعوى حبه والقيام بحقه والانقطاع اليه إعراضا عن الله ، ونأيا عن جانبه . وليس من تعظيمه كذلك سؤاله ما لا يسأل إلا الله وما لا يستطيعه الا الله بزعم حبه وإعظامه . هذا كله ليس من التعظيم له ولا من الاحترام ، بل هو من الاساءة اليه والعصيان والاغضاب له . كما أنه ليس غلو النصارى فى عيسى وفى الأحبار والرهبان بدعوى تعظيمهم واحترامهم احتراماً لهم وتعظيما ، بل ذلك إساءة الى عيسى والى الصالحين من الأحبار والرهبان . ومثل هذا وذاك غلو الشيعة فى على ودعواهم فيه العصمة والألوهية أو الرسالة أو ما لا يستحق من أفانين التعظيم الخاطىء . فهذا كله ليس من التعظيم وإن حسبه فاعله تعظيما . ولو فرض أنه تعظيم لغة أو عرفا خاصا أو عاماً لكان تعظيما محرما ممنوعا لا يجوز ارتكابه ، لأنه عدوان ومجاوزة لحدود الله . والقانون العادل الصحيح فى هذا بل وفى كل أمر دينى هو السير قولا وعملا واعتقاداً على ما نهجه الكتاب والسنة تقدما وتأخراً وقوفا وذهابا . فهما الشاهدان العدلان اللذان لا يخونان ولا يخطئان . وليس من

العدل والصواب والدين مخالفتهما ومحادتهما اتباعا للأهواء والأغراض ووساوس الشياطين المضلين وابتداع المبتدعين المخدوعين . فالمتمسك بالكتاب والسنة هو المعظم لله ولمن عظمه الله ، وهو الراشد المهتدي بلا ريب . والنابذ المخالف لهما غير معظم لله ولا لمن عظمه الله بلا شك ، وان ظن غير ذلك وادعى خلافه ، وهذا لا شك فيه بين أهل الملة الاسلامية . وهـذا هو برهان التعظيم وحجته الناطقة العادلة

وأما دعاء الرسول عليه السلام والسؤال له فليس بلازم أن يكون تعظيما له واحتراما لا شرعا ولا عرفا ، لا خاصا ولا عاما ، بل السؤال والدعاء كثيراً ما يكون محرما ممنوعا لأنه لا تعظيم فيه ولا احترام ، بل قد يكون إساءة للمسئول واغضابا له ، وقد كان الناس يسألون الرسول عليه السلام يوم أن كان حيا بين أظهرهم فيغضب لذلك ويذم المسألة والسائلين ، ويمتدح التعفف والمتعففين ، ويقول « لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم » وقد كان يشترط على أصحابه فى البيعة ألا يسألوا أحداً فكانوا كما اشترط عليهم حتى كان السوط كما ورد فى الحديث يسقط من يد أحدهم فلا يقول لأحد ناولنيه وقد كان كبار أصحابه عليه السلام من أقل الناس سؤالا له ومن أندرهم ، حتى قيل ان أبا بكر الصديق لم يسأله شيئا فى مدى صحبته إياه كلها . وهـذا المعنى لا ريب فيه

فلو كان السؤال أو الطلب تعظيما ومشروعا دائما لما كان منهيا عنه محرما بصرامة وشدة وإن كثيرين من هؤلاء الذين يسألون النبى الكريم وغيره من الموتى يسألون مسائل محرمة منهيا عنها لو كان المسئول قادراً على اعطائها ومنحها . وهذه المسائل التى يسألها هؤلاء الجاهلون الرسل والأولياء وغيرهم من الأموات هى مسائل ما كان الصحابة يسألونها الرسول الكريم يوم أن كان حيا يرونه

ويراهم ويسمعونه ويسمعهم بل ولو سألوه شيئا منها لأنكره ولفاظه ذلك لأنها مسائل محرمة شرعا وذوقا

فالمسألة بالجملة محرمة ولكن تباح عند الضرورة الملحة كما تباح سائر المحرمات مثل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ونظائر هذا . والأحاديث النبوية فى هذا المعنى بالغة مبلغ التواتر المعنوى

وهذا الرافضى يدعى أن تعظيم الرسول هو دعاؤه ، فمن لم يدعه فليس معظما له ولا معترفا ولا قائما بحقه المفروض اللازم من التعظيم ، وليكن معلوما هنا أن مراده بدعائه هو دعاء الجاهلين والعامة الذين يسألونه ضروب الحاجات الشخصية المادية ، كمن راح يسأله أن يزوجه أويسأله أن ينصره على فلان أو فلان ، ويوليه مركز كذا أو يعطيه مقدار كذا من المال وأن يرد عليه غائبه وإن كان حيوانا ، وأن يشفى مريضه وأشباه ذلك من غرائب المسائل التى لوسئلها النبى ﷺ حيا لكان إساءة اليه وقلة احترام له ، بل قديكون تحديا له ، ونحن نعرف أن من سأل الرسول هذه الحاجات يوم أن كان حيا فقد آذاه واحتقره فى كثير منها ، ونعلم أن مثل هذا لن يكون له تعظيما البتة

ولينظر الفرق بين من قال ان تعظيم الرسول هو سؤاله هذه الحاجات المادية الشخصية وبين من يقول ان تعظيمه ﷺ هو الاتباع له ظاهراً وباطناً ، والنهج منهاجه قولا وعملا واعتقاداً ، وألا يقدم قول أحد من الناس على قوله ، بل وألا يكون لأحد معه قول . لينظر القارىء أي القائلين أكثر تعظيما له واحتراما له ﷺ ، وأى هذين القولين هو التعظيم

على أن الدعاء المشروع نحن لا ننكره كما قلنا آنفا بل نوجبه أحيانا ليس من الرسول فحسب ، بل من سائر المسلمين والمؤمنين ، والقانون الفاصل فى هذا كما قلنا مراراً هو تحكيم النصوص الشرعية فما جاء فيها كان حقا واجبا على المسلمين

فعله ، وما لم يرد فيها أو ما أنكرته كان باطلا واجبا على المسلمين رفضه واجتنابه .
ونكرر أيضا قولنا بأننا لا ننكر الاستغاثة والتوسل المشروعين ولا الاستشفاع الصحيح . وقد ذكرنا مراراً الفرق بين هذه الأمور ، وذكرنا أن منها ماهو مشروع ومنها ما ليس مشروعا ، فما ذكره إطلاقا بأننا نمنعه هو افتراء متعمد كما قلنا ، وما ذكره من أنهم يقولون لمن يسأل الرسول الكريم ﷺ وغيره من الأموات : من الذى أعطاك القوة ؟ فاذا قال الله قالوا له لم تدعو فلانا وتدع الله الذى أعطاك القوة ؟ يقال فى جوابه ان هذا الكلام صحيح لا ريب فيه ، فالذى يعلم أن الله خالق كل شيء أقرب اليه من كل شيء وأرحم به من كل شيء وأعدل من كل شيء ثم يعلم أن جميع مابه من النعم روحية ومادية حسية ومعنوية من الله وحده لا شريك له ولا معين ، من يعلم ذلك كله كيف يهجر الله ويهجر سؤاله ، ويذهب يدعو مخلوقا عاجزاً عن نفع نفسه وعن دفع الأذى عنها ، مخلوقا خاضعاً لله فى كل شيء ؟ وكيف يذهب يسأل ميتاً أن يرزقه وأن يشفيه وأن يغنيه وأن يكشف بلاءه وضراءه وكل ما به من الأوصاب والخطوب ، وهو يعلم أن ذلك المخلوق المسئول وان جل قد وقع به أشد الخطوب وأمر المصائب وذلك هو الموت المحتوم ، ألا يعلم أنه لو كان يقدر على ما يسأل لجاد به على نفسه ولنفعها ودفع عنها ؟
ويشبه هذا من قريب قول الله تعالى على لسان رسوله ﷺ « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير » فالذى يعرض عن الله ويسأل المخلوق الميت رهين البلى والثرى كبريات المسائل مما لا يقدر عليها إلا الله مصاب ولاشك فى عقله أو دينه أوفيهما معاً ، وأين من يفهم قول الله « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ،وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ؛ ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز » ؟ وما أجمل ختم الآية بقوله إن الله لقوي عزيز !

ها هنا الاعجاز ، وها هنا البلاغة التى تتطامن عنـدها أعناق فحول البيان إجلالا وهيبة وصغاراً

وقول الرافضى « ان هذا تضليل إذ لا يوجد أحد يعتقـد أن الأمر بيد محمد أو غيره أصالة وانما هو التوسل وطلب الشفاعة ممن له الوسيـلة والشفاعة » يقال فى جوابه : ان الغرابة والاشكال من هذه الجهة ! فانه اذا كان المرء لا يعتقد أن الأمر بيد من يسأله ويطلبه ويعلم أن من يطلبه منه لا قدرة له عليه مطلقا بل هو من صنع الله وحده فكيف يسأله إياه ولماذا يدعوه رغبـة فيه ؟ وكيف لا يطلبه ممن يعلم أنه بيده وأن بيـده كل شيء وكل ما كان وما سوف يكون ؟ ثم يقـال كذلك كان المشركون لا يعتقدون أن الأمور بيد الأصنام أصالة كما سوف يجيء . ثم لا ندري كيف يقول انه لا يوجد أحد يعتقد أن الأمر بيد غير الله أصالة ، ولا ندري كيف عرف أنه لا يوجد من يعتقد هذه العقيدة ؟ أو ليس نظير هذه العقيدة موجوداً فى الناس فى كل زمان ؟ أو ليس أوائل الشيعة أعنى السبئية ، اعتقدوا الألوهية فى علي باعتراف هذا الرجل ؟ فاذا ما وجد من اعتقد فى علي الألوهيـة فكيف لا يوجد من يعتقد فى الرسول ﷺ ذلك أو مادونه من التصريف والاعطاء والمنع ؟ ومنطق هذا الرجل منطق مريض بلا شك

وقوله هنا لا يوجد من يعتقد أن الأمر بيد الرسول أو غيره أصالة يدل على أنه لا يرى بأسا فى من اعتقد أن الأمر بيد غير الله لا أصالة بل نيابة عن الله فى تصريف الأمور وتدبير الكائنات

وقوله « وإنما هو التشفع والتوسل » يقال فى جوابه كلا والله ، فان من يقول يا فلان أغثنى أو ارزقنى أو اشف مريضى أو اهد قلبى أو اغفر ذنبى لا يمكن أن يقال فى حقه انه متشفع ومتوسل البتة . والذي يسمى هذا بهذا الاسم غالط غلطين غلطاً لغويا إذ سمى هذا توسلا واعتقاديا إذ أباح مثل هذا وحسبه من الدين ، واذا

فرض أنه توسل وتشفع قيل من الذى قال ان كل ما يسمى تشفعا وتوسلا يصح طلبه من المخلوقات ؟ هذا هو رأس المسألة ومبدؤها وهذا هو محل الخلاف ، وسوف يأتى بيانه

وقوله : « ولو صح اعتراضهم هذا لتوجه على من يطلب الدعاء من الغير فيقال له الله الذي يجيب دعاءك أو أخوك المؤمن ؟ فلابد أن يقول الله . فيقال له لم لا تدعو الله وتطلب من أخيك أن يدعو لك ؟ » يقال جوابا له : إن هذا الاعتراض اعتراض فاسد ، وذلك أن الذى يطلب من أخيه أن يدعو الله له لم يطلبه أن يجيب دعوته وأن يعطيه ماطلب أن يطلبه له من الله ولم يسأله شيئا غير قادر عليه ولو كان ذلك كذلك لتوجه هذا الاعتراض ، ولكنه يطلب منه أن يوحد الله وأن يعبده بدعائه وسؤاله والضراعة اليه . فهو انما يسأله أن يدعو الله ، والمسئول قادر على أن يسأل الله ، وهو لم يسأله أن يعطيه أو أن يجيب دعاءه أو أن يقضى له حاجة من الحاجات ، والاعتراض الذى ذكره الشيعى لا يتجه إلا على من سأل مخلوقا شيئا لا يقدر عليه بل لا يقدر عليه إلا الله

وبأمثال هذه الشبهات يهدم الدين من أساسه ، وتباح عبادة الأخشاب والأبواب والأنبياء والاولياء وغيرهم ، وبها يعارض القرآن والسنة والاجماع ويحارب المسلمون المخلص وتباح أعراضهم والوقوع فيها ، ونعوذ بالله من مقت الله

وما ذكره من تقبيل ضريح النبى أو منبره وما بعده تقدم بعض الكلام عليه فى الأمر الخامس عشر من مقدمته الثانية ونترك باقى الكلام فيه إلى الباب الخاص به.

هذا ثم لو أردنا أن نقابل أدبه بمثله فى هذا الوجه من الوجوه التى زعم أن الوهابيين شابهوا الخوارج فيها لقلنا راشدين صادقين : إن هذا المعارض الشيعى هو واخوانه يشبهون خصوم النبى الكريم وخصوم الدعوة الاسلامية من وجوه كثيرة ..منها أن خصوم النبى والاسلام كانوا ينقمون من النبى ومن الاسلام

التوحيد الخالص وينكرونه أشد الانكار ، وهذا مذكور فى آيات القرآن قال تعالى « واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون » وقال أيضاً حكاية عن هؤلاء الخصوم « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب » الى قوله « ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا الا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا » ؟ وقال تعالى « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل انما ادعو ربى ولا أشرك به أحدا » الى غير ذلك من الآيات المصرحة بأن خصوم الاسلام والنبى الكريم كانوا ينقمون من ذلك التوحيد الخالص النقى الذي يريد من أهله أن يسموا الى الله فى عليا سمواته وأن يتجاوزوا المادة وحدودها فيصلوا اليه تعالى بقلوبهم وعقولهم وايمانهم واعتقادهم وأرواحهم وألا يكونوا فى هذه الأرض مع المادة والماديات إلا بمادتهم فقط . أما أرواحهم وايمانهم وتوحيدهم فمع الله فوق سمواته حتى اذا ما أراد بهم مريد من عوادى الطبيعة كيداً أو أذاة أو إرهاقا لم يستطع الوصول ان استطاع الا الى مادتهم والى مافى تركيبهم من تراب وهيا كل جسدية مادية . أما ايمانهم وقلوبهم وما كانوا به أهلا لعبادة الله وخطابه ورسالته ووحيه فأسمى من ذلك وأبعد على المتناول المتطاول

كان خصوم الاسلام والنبى ينقمون هذا التوحيد النقى ، وكذا هذا الشيعى واخوانه ينقمون هذا التوحيد نفسه من الموحدين اليوم . فاذا قالوا لهم الله وحده وادعوا الله وحده ، ولا تدعوا مع الله أحدا ، واذا ذكروه سبحانه لا شريك له ولا معين اشمأزت قلوب هؤلاء المعارضين وهاجوا وماجوا وقدحوا وصخبوا واذا ذكر من دونه من المشايخ والمعتقدين ودعوا واستغيثوا وانقطع اليهم فرحوا واستبشروا وطاروا على أجنحة السرور الى حيث لا يرجعون ، وأنسوا بذلك ورجوا به الخير والسعادة والعافية

فالفريقان : هؤلاء المخالفون وأولئك المخالفون للنبي المناوئون للاسلام يصدران عن عقيدة واحدة ويغترفان من منهل واحد وحجة واحدة . أفما ترى أن الليلة كالبارحة سواء كما يقولون في التعبير الصميم القديم

هذا جواب عن الوجه الأول من وجوه التشابه بين الوهابيين والخوارج

ثم قال الرافضي : « (ثانيا) كما أن الخوارج مواظبون على الصلوات وتلاوة القرآن والعبادة متصلبون في الدين طالبون للحق كذلك الوهابيون متصلبون في الدين ، يؤدون الصلاة لأوقاتها ويواظبون على العبادة ويطلبون الحق وان أخطأوه ويتورعون عن المحرمات »

ونحن نقول في جواب ذلك إن التصلب في الدين والمحافظة على الصلوات والعبادة وطلب الحق بنية خالصة صالحة واجتناب المحرمات والآثام ، ان هذه الأمور كلها لا يمكن أن تعد معاصي وعيوبا ولا يمكن أن تكون مكان ذم ومقدح وعيب في صاحبها . بل هذه الأمور كلها فضائل وطاعات يثاب عاملها ويمتدح ويجازى عليها الجزاء الأوفى ، وان سعادة المرء في الأخرى موقوفة على هذه الأمور ، وبقدر حظه منها يكون حظه من السعادة ، وان الاولياء ما كانوا أولياء وان المؤمنين ما كانوا مؤمنين إلا بجمعهم هذه الأمور ومحافظتهم عليها وتصلبهم فيها ، وما كان الشقي شقيا ولا العاصي عاصيا ولا أهل النار من أهل النار إلا بمخالفة هذه الأمور واهمالها ، وما استحق أهل الجنة الجنة ثم الخلود الأبدي فيها الا بالايمان وبالمحافظة على الصلوات والعبادات واخلاص النية في التماس الحق وطلب الحقيقة العليا والا بالتورع عن المحرمات . هذا مالا ريب فيه وما كان كذلك لا يمكن أن يعد مكان ذم وقدح وعيب ، والخوارج لم يؤاخذوا ويضلوا ويستحقوا عقاب الضالين الخارجين بتصلبهم في الدين ومواظبتهم على الطاعات وباجتنابهم المحرمات . هذا ليس هو موضع الذم فيهم بلا ريب ، ولكن

القوم ضلوا وضلوا لما ابتدعوه فى كتاب الله وسنة رسول الله عليه السلام من البدع القبيحة الشنيعة ، وبوضعهم كتاب الله خلاف مواضعه وبخروجهم على سنة الصحابة والتابعين والرعيل الأول الأفضل جهلا منهم وضلالا وقصوراً فى الفهم وعرفان الحقيقة . حتى وقعوا فى اكفار الخلفاء واكفار الصحابة الراشدين ، وحتى طفقوا يعدّلون عليهم ويحاولون تعليمهم وارشادهم . فأكفروا عليا وعثمان ومعاوية وعمرو ابن العاص ومن تولاهم أو سار سيرتهم واهتدى هديهم ونهج منهجهم واعترف بفضلهم وحقهم ، وقد طالبوا الخليفة عليا بأن يعترف على نفسه بالكفر والردة والا فالحرب بينهم وبينه ، والعداوة المشبوبة المهلكة بين فريقهم وفريقه فضلوا بذلك وأضلوا كثيرا

وأصل ضلالتهم قائم على القدح فى الخلفاء وفي الصحابة ، وفروع ضلالاتهم متفرعة عن هذا الأصل الباطل الذى هو الوقوع فى السلف ، حتى أنهم بعد المحاولات الكثيرة والمناوآت التى قاموا بها تآمروا على اغتيال ثلاثة من كبار الصحابة وهم علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، فقتلوا عليًا وجرحوا معاوية وأصابوا خارجة مكان عمرو بن العاص الى تمام محنتهم وضراتهم الموجعة ، فما هنا كان داء القوم وبلاؤهم ، ولم يكن آتيًا من جهة طاعاتهم ومواظبتهم على الصلوات والعبادات والتصلب فى الدين وإخلاص النيـة فى طلب الحق . كيف والشيعة يزعمون أن أئمتهم كانوا فى غاية من المحافظة والمواظبة على الطاعات والعبادات والصلوات وعلى غاية كبرى من التصلب فى الدين واجتناب الآثام حتى زعموا أن عليا كان يصلى فى الليلة الواحدة ألف ركعة مع قيامه بالجهاد وقتال الأعداء ، وزعموا أن علياً بن الحسين بن على بن أبي طالب كان يصوم نهاره ويقوم ليله ، وأنه كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة ، وأنه كان يبكى من خشية الله حتى خددت الدموع لحم خديه وأنه سجد وأطال السجود حتى سمى ذا الثفنات ، وقد سموه زين العابدين ، وزعموا

أن ابنه محمداً الباقر كان أعظم الناس زهداً وعبادة حتى لقد بقر السجود جبهته ودعى لهذا بالباقر ، وزعموا أن ابنه جعفر الصادق كان أفضل أهل زمانه وأعبدهم وكذا كان ابنه موسى الكاظم وكذا كان جميع أئمتهم في زعمهم أعبد الناس وأخشاهم لله وأعظمهم مواظبة على حقوق الله ورعياً لجانبه واجتناباً لمحارمه ، وهم ينسبون اليهم هذه المبالغات لتقوم لهم دعواهم بأنهم هم الأئمة المعصومون وأنهم أفضل الناس على الاطلاق وأحقهم بالامامة والخلافة

إذن لن تكون مواظبة الوهابيين على الصلوات والعبادات واجتنابهم المحرمات قدحا ولا عيبا ، بل ان هذه فضائل يسلمها لهم خصومهم وأعداؤهم ويعترفون بها اضطراراً وكرها ، وإذ قد علم أن أصل ضلال الخوارج هو الوقيعة فى سلف الأمة ورعيلها الأول وإكفارهم ومناصبتهم العداوة والحرب ، ثم الابتداع فى الاسلام والخروج على السيرة الأولى الاسلامية سيرة الخلفاء ، ثم وضع كتاب الله خلاف وضعه ومواضعه فسوف نرى القارىء أن نصيب الشيعة من هذه البدعة أوفر نصيب وأوفر من نصيب الخوارج أنفسهم ، لأن الخوارج ان كانوا قد ابتدعوا اكفار على ومعاوية وعمرو بن العاص ومن تولاهم فان الشيعة قد ابتدعوا اكفار أبي بكر وعمر وعثمان وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأزواج النبي الكريم ومن تولى هؤلاء وسار سيرتهم ونهج نهجهم من الصحابة والتابعين وأئمة الحديث والفقه والافتاء وسائر المسلمين ، وشتان ما بين البدعتين فظاعة ونكرا !

وإذ قد اعترف للوهابيين وهو الخصم المبين بالمواظبة على الطاعات والعبادات والصلوات وبهجران المحرمات واخلاص القصد فى التماس الحق والهدى ، فمن ذا يشهد لشيعته الرافضة باحدى هذه الفضائل الجلائل والأمور الكبرى ؟ إن التاريخ من ألفه الى يائه كما يعبرون يشهد بصراحة أن الرافضة كانوا أبداً وفى كل وقت على نقيض ذلك تماما وكانوا على غاية من إهمال الواجبات والطاعات والعبادات

وعلى غاية من اقتحام مغاضب الله ومساخطه . وان التاريخ من ألفه الى يائه كما يقول بعض الكتاب يتهم هؤلاء وهو على الحق الصادع بسوء القصد والنية وباتباع الأهواء المضلة وبارادة السوء بالدين وبالمسلمين . وإن من أنطق الدلائل التاريخية على ذلك ما جاء به الفاطميون وهم احدى طوائف الشيعة من المنكرات والمبتدعات الدالة على إرادة هدم هذا الدين وافساده عمداً وقصداً . ويكفي تدليلا على هذه القضية أن يعلم أن واضع بذور هذا المذهب هو عبد الله بن سبأ اليهودي المعروف . دع عنك طائفة القرامطة وما جاءوا به من البلاء المصبوب على الاسلام والمسلمين وعلى الأخلاق والفضائل جمعاً . ومعلوم أن القرامطة كانوا متشيعين وكان وضعة مذهبهم فرسا ، وبين أحضان الفرس ترعرع المذهب الشيعي الرافضي الغالي وهنالك نما وشب وفاض على الآفاق فان أبا طاهر والحسن بن بهرام المعروف بأبي سعيد الجنابي وغير هؤلاء من أئمة القرامطة وناشري مذهبهم كانوا فرسا من بلدة جنابة احدى البلاد الفارسية

ذلك واذا أردنا أن نقابل أدبه بمثله قلنا صادقين راشدين : ان هذا الشيعي واخوانه من المبتدعين يشبهون خصوم الاسلام والنبي والمسلمين من وجوه كثيرة أحد هذه الوجوه قدحهم وعيبهم المؤمنين الصالحين ولمزهم اياهم بالطاعات وباجتناب عصيان الله قال الله في خصوم الاسلام والمسلمين : « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم . سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » الى غير ذلك من الآيات المعلومة في هذا المعنى

وكذلك هذا الشيعي واخوته يلمزون المؤمنين السلفيين ويعيبونهم ، بماذا يعيبونهم وبماذا يلمزونهم ؟ بالطاعات والمحافظة على الصلوات وباجتناب المآثم والمحارم . فالفريقان : هذا الشيعي واخوته ، وأولئك المخاصمون للاسلام ولأوائل المسلمين يصدران عن رأي واحد وحجة واحدة . هذا عن الوجه الثاني الذي زعم

فيه هذا الصنف مشابهة الوهابيين للخوارج . ثم قال الرافضي :

« (ثالثا) كما أن الخوارج كفروا من عداهم من المسلمين وقالوا مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار واستحلوا دماءهم وأموالهم وسبى ذراريهم ، كذلك الوهابيون حكموا بشرك من خالف معتقدهم من المسلمين واستحلوا ماله ودمه ، وبعضهم استحلّ سبى الذرية ، ولم يخاطبوه الا بقولهم : يا مشرك ، وجعلوا دار الاسلام دار حرب ودارهم دار إيمان تجب الهجرة اليها ، وحكموا بقتال تارك الفرض وان لم يكن مستحلا . وكذلك خرجوا عن السنة وجعلوا ما ليس سنة سنة مثل الخوارج »

قلت : وجواب ذلك أن يقال ان من عجائب الأيام وفكاهاتها المضحكة قوماء المبكية قوما آخرين أن تذهب الشيعة تتهم أهل السنة من أهل نجد باكفار المسلمين واحلال دمائهم وأموالهم فى حين أن الشيعة تعلن على رؤوس الأملاء ومسامع العالمين اكفار خيار الأمة واكفار كبراء الصحابة ومن تولاهم من فرق المسلمين على اختلاف العصور واعتقاب الليالى !! والذي يكفر أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص كيف لا يمنعه الحياء أو كيف لا يجد عنده الحياء ، يمنعه من أن يتهم أحداً باكفار المسلمين ، وكيف لا يجد في نفسه زاجراً يزجره عن التفوّه بهذه الحديث حديث اكفار المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم وكيف لا يندى جبينه ويحمر وجهه خجلا عند الخوض في هذه المسألة أعنى مسألة تكفير المسلمين ؟! ان الشيعة لا تهيب المجاهرة باكفار هؤلاء الصحابة وباكفار من يأخذ اخذهم من المسلمين ، ولا تهيب أن تسجل هذا الذنب العظيم عليها فى تاريخها وفي كتبها المطبوعة المبذولة لعامتها . قال فى كتاب الوشيعة :

« كتب الشيعة تكفر عامة الصحابة كافة ، لم ينج من التكفير سوى قليـل

منهم لاتزيد عدتهم على سبعة ، وللشيعة الأماميـة فى تكفير الأول والثانى أبى بكر وعمر صراحة شديدة ومجازفة طاغية ، وفى كتب الشيعة عن الباقر والصادق (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : من ادعى أمامة ليست له ، ومن جحد اماما من عند الله ، ومن زعم أن أبا بكر وعمر لهما نصيب فى الاسلام) وفي المجلد الثانى من الوافى [1] صفحة ٤٤ وبعدها كلمات لا يقبلها الأدب . الأول والثانى أبو بكر وعمر فى كتب الشيعة رجسان ملعونان . هما الجبت والطاغوت وهما فرعون هذه الأمة وهامانها ، وهما أشد أهل النفاق نفاقا وعداء للنبى وضررا للاسلام . وفى كتب الشيعة أن أبا بكر أب لكل الشرور . لم يسم صديقا إلا بعد أن رأى فى الغار معجزات أدهشته وحيرته فأضمر فى قلبه (الآن صدقت يامحمد انك ساحر عظيم) . وفى كتب الشيعة فى الكافى والتهذيب والوافى [2] لعنات على أبى بكر وعمر وعائشة وحفصة وعلى العامة وهم كل الأمة بعبارات ثقيلة شنيعة وللشيعة فى اللعن على الصحابة وعلى الأمة أدعية مأثورة ، وفى كتاب الوافى فى كتابه الثامن وفى غيره كلام طويل ثقيل يدل على أن دأب الشيعة فى الكتب والكلام والمجالس الانبساط فى اللعنات . يقول الوافى لم يدع الامام أحداً ممن يجب أن يلعن الا لعنه وسماه وأول من بدأ بأبى بكر وعمر وعثمان . ثم مر على الجماعة ولعن الكل ، وللباقر والصادق على حسب ماترويه كتب الشيعة دبر كل صلاة مكتوبة أوراد لعنات على أربعة من الرجال منهم الاول أبو بكر والثاني عمر وعلى أربع من النساء منهن عائشة وحفصة وفى الكافى والتهذيب أدعية مأثورة عند زيارة قبور الأئمة فى اللعن على العصر الأول وعلى كل الامة تقول كتب الشيعة ولله وراء هذا العالم سبعون ألف عالم . فى كل عالم سبعون ألف أمة . كل أمة

---

(١) الوافى أحد كتب الشيعة المعتمدة عندهم

(٢) هذه الكتب الثلاثة عمدة الشيعة

أكثر من الجن والانس لاهم لهم إلا اللعن على أبي بكر وعمر وعثمان

« وفى الكافى (٣ ـ ٣٩١) أن عائشة وحفصة كافرتان منافقتان مخلدتان فى النار ، وفى صحائف الكافى كلمات تشمئز منها جلود الشياطين » ثم قال فى الوشيعة أيضاً « ما تقول كتب الشيعة فى الدول الاسلامية : حكومات الدول الاسلامية وقضاتها وكل علمائها طواغيت ، ومن تحاكم الى الطاغوت وحكم له فان أخذه فانما يأخذه سحتا ، وان كان حقه فى الواقع ثابتا له لأنه يأخذه بحكم الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويحرم على الشيعة أن تتحاكم الى الطاغوت ، وكل راية ترفع قبل قيام القائم فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله « الوافى » (٣ ـ ٢٨) فكيف يكون أساس الدول الاسلامية على وجه الارض من أول الاسلام الى يوم القيام والقيامة ان كانت عقيدة شعوبها وعقيدة رعاياها هذه العقيدة !

« وصرحت كتب الشيعة بأن كل الفرق الاسلامية كافرة ملعونة خالدة فى النار إلا الشيعة والمخالف مطلقا شر من الكفار ، وصرحت كتب الشيعة أن دم الناصب[1] وماله حلال إلا امرأته لأن نكاح أهل الشرك جائز ، والناصب على حسب بيان كتب الشيعة من يقدم الخليفتين أبا بكر وعمر على علىّ أو يعتقد أمامتهما وتقول كتب الشيعة ان الله قد نصب علياً علماً بينه وبين خلقه من أنكره فهو كافر ومن أشرك معه آخر فهو مشرك وان ايمان المخالف فى الامامة لا ايمان له هو للنار والى النار . والمخالف فى الامامة حكمه حكم المشرك والكافر فى جميع الأحكام لكن الله أجرى عليهم زمن المدنة حكم المسلمين رحمة للشيعة ، واذا ظهر القائم قائم آل محمد أجرى على المخالف فى الامامة حكم المشرك والكافر فى جميع الأحكام يقول الامام الباقر والصادق (لولا أنا نخاف عليكم أن يقتل رجل منكم برجل منهم ، والرجل منكم خير من مائة ألف رجل منهم لأمرناكم بقتلهم كلهم) ويقول الامام

(١) الناصب جمعه نواصب وهم أهل السنة فى اصطلاح الشيعة

فى أئمة المذاهب الأربعة (لا تأتمهم ولا تسمع منهم لعنهم الله ولعن مللهم المشركة) وفى التهذيب (٢ : ١١٦) ، (٢ : ٢٥٢) كان الصادق يقول خذ مال الناصب حيث ماوجدته وادفع الينا الخمس » هذا ما أردنا نقله من كتاب الوشيعة ، وقد قدمنا فى أول كتابنا أشياء من عقائد الشيعة فى الصحابه وفى المسلمين كافة ، وقوم يقولون هذه الاقوال كيف يجرؤون على اتهام أحد با كفار المسلمين ؟ ولا ريب أن غضب صاحب هذه الأقاويل الشنيعة للمسلمين وقيامه للذياد عنهم أفظع من هذه الأقوال نفسها وأغرب

أما زعمه أن الوهابيين يكفرون كل من خالف معتقدهم وانهم يبادرون الى الحكم عليه بالشرك . فهذه دعوى قديمة تقلدها رجال عدة من أركان البدعة والجهالة ، وتناقلوها واحداً عن واحد وتواصوا بها السابق يوصى بها اللاحق واللاحق يوصى بها من بعده حتى جاءت النوبة هذا الشيعى فاستخفته سروراً وطربا فطفق يتغنى بها مسروراً طربا فى كتابه هذا فى مواضع منه مضيفا اليها بعض التلحين والتنغيم خداعاً وتضليلا . وما ربك بغافل عما يعملون . وقد كان أهل السنة من أهل نجد سابقا وفى كل وقت يقابلون هذه التهمة المرددة والدعوى المعادة المكررة ــ وقد رموا بها من يوم أن ذر قرن سعدهم ــ بقولهم سبحانك هذا بهتان عظيم

ومن عجيب أمر هؤلاء المدافعين عن البدع والعقائد المريضة أن يصروا رغم كل شىء ورغم أنف الحقيقة على اتهام هؤلاء القوم بهذه التهمة ، تهمة إكفار المسلمين ، فى حين أن هؤلاء القوم ينادون فى جميع كتبهم المطبوعة ويسمعون الآذان الدانية والقصية بأنهم يبرؤن الى الله من هذه الاكذوبة ويصرحون بأنهم لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب وإن كان عظيما جليلا ، ويصرحون بأنهم على مذهب السلف وأهل الحديث نفيا وإثباتا لا يزيدون ولا ينقصون ولا يبغون

عن ذلك مذهبًا ولا حولا ، وأنهم يتولون جميع المسلمين المؤمنين وإن جاءوا بالذنوب العظيمة مالم يقعوا فى كفر وشرك، بل ويصرحون فى جميع كتبهم بالبراءة من الخوارج إذ تقلدوا تكفير المسلمين بالآثام وإذ خرجوا على الخلفاء الراشدين ، مثل مايتبرؤن من الشيعة إذ تقلدوا تكفير الصحابة والخروج على الخلفاء الراشدين والوقيعة فى دينهم ويتبرؤن من جميع هذه الآثام قديمها وجديدها وفي أقوالهم مشافهة وفى مجالسهم وفى كل مكان وفى كل أداة بيان . ثم بعد ذلك يصر هؤلاء المخالفون على اتهام هؤلاء القوم بهذه التهمة وهذه الاكذوبة الباطلة وإننا نعيد القديم فنقول إننا نبرأ الى الله من أن نكفر المسلمين ومن أن نكفر أحداً بذنب ، ونبرأ الى الله من قول الخوارج : ان مرتكب الكبيرة كافر ، ومن قول الشيعة فى إكفار الصحابة وأزواج النبى ، ونسجل على أنفسنا راضين مختارين أننا على معتقد الأئمة الأربعة ومعتقد المحدثين وأئمة السنة نفيا وإثباتا . وذلك لأننا نعرف أن هؤلاء السلف هم أهل الحق والهدى وأنهم أجمعوا فى العقائد على الهداية والايمان والبصيرة النافذة فى دين الله وأن المخالفين لهم من أهل البدع يتسكعون فى ضلالات وجهالات يجهلون مصادرها ومواردها وتذهب بهم الى حيث لا يجدون إلا غضب الله وسخطه ، ولهذا نحن لهم مجانبون و لبدعهم آ بون هاجرون

هذا واذا ما أردنا أن نناقش قوله هنا مناقشة منطقية جدلية علمية قلنا : قوله « وحكموا بشرك من خالف معتقـدهم » الى آخره إما أن يريد به أنهم حكموا بشرك من خالفهم فى أصول الدين وأمهات العقائد بمعنى أنهم كفروا المخالفين لهم الذين وقعوا فى الشرك والكفر على ما تقضي به الأصول التى علموها ودانوها . وإما أن يريد به أنهم حكموا بشرك من خالفهم مطلق مخالفة ولو فى أمر لا يوجب الخلاف فيه الشرك والكفر على ما تقضي به الأصول التى علموها ورضوها . إن كان يريد الأول قيل له : ان جميع الناس جماعات وآحاداً كذلك يصنعون لا يخالفون

في هذا ولا ينازعون أو يرتابون . فان كل انسان يؤمن بالايمـان والكفر يحكم بكفر من وقع في الكفر على مقتضى أصوله التي علمهـا ورضيها ، ولا معنى الكافر عند الناس إلا أنه من وقع في الكفر حسب ما يفهمون ، ولا معنى للمشرك عنـدهم إلا أنه من صار الى الشرك كما يفهمون ويعلمون . فالمشرك عنـدك وعند غيرك هو الذي خالفك فصار الى الاشراك ، والكافر عندك وعند غيرك هو الذي خالفك فصار الى الكفر على مقتضى علمك وفهمك أنت ، ولو لم يكن المشرك عندك هو من وقع في الشرك لم يكن ثمت مشرك عندك ، ولو لم يكن أيضا الكافر عندك هو من وقع في الكفر حسب ما تفهم لما كان هنالك كافر لديك . وهذا لا خلاف فيه بين العقلاء . فان الناس جميعاً يحكون بشرك من وقع في الشرك وبكفر من أتى بالكفر حسب ما يفهمون ، كما يحكمون بطول من حسبوه طويلا وبحمرة من حسبوه أحمر ، وبقيام من حسبوه قائما . وإذا ما أريد الانكار على أحد في هذا لم يقل له كيف تحكم على من اعتقدت انه كافر بالكفر وعلى من اعتقدت أنه مشرك بالشرك ، ولكن يقال له كيف اعتقدت بأن هذا العمل شرك وكفر أو ملازم للكفر والشرك ؟ وما الدليل لديك على أن من عمل كيت وكيت فهو مشرك أو كافر في حين أنه لادليل لك على ذلك بل الدليـل قائم على خلاف قولك ، دال على خلاف ما تحسب ؟ وكذلك لا يقال كيف حكمت بأن من وقع منه القيام قائم وبأن من اتصف بالحمرة والطول فهو أحمر وطويل ، ولكن يقال كيف علمت وحكمت بأن فلاناً قد وقع منه القيام وبأنه قد اتصف بالحمرة والطول ، كيف والناس يخـالفونك في ذلك ولهم مثلك أعين بها يبصرون وآذان بها يسمعون ، ولستَ أعلم منهم . هذا ما يقال في مثل هذا ، وهذا ما تقضي به القوانين المنطقية الموروثة الطريفة والتليدة

إذن فالذي على هذا الرافضي أن يقيم الدليل على أن مخالفيه يحكمون بالشرك والكفر على من ليس مشركا ولا كافراً ، لا أن يقول إنهم يحكمون بالشرك والكفر

على من اعتقدوه كافراً مشركا . فان هذا المعنى يشترك فيه جميع الناس العقلاء كما ذكرنا . فعليه مثلا أن يقيم الدليل على أن طلب الأموات ما لا يقدر عليه إلا الله ليس كفراً ولا شركا ، فاذا ما استطاع ـ ولن يستطيع ـ إقامة الدليل على ذلك صح له أن يقول إن مخالفيه يحكمون على المسلم بالشرك والكفر اذا ما كفروا من طلب الأموات هذه المطالب العليا التى لا يستطيعها إلا الله وحده . أما غير هذا من القول فعبث وحشو

هـذا إن أراد الأول ، وأما ان أراد الثانى : أي ان أراد أنهم يحكون بالشرك على من خالفهم مطلق مخالفة ، ولو فى أمر لا يوجب الشرك والكفر قلنا هذا تناقض باطل وقول لا يعقل فانهم هم وغيرهم لا يمكن أن يحكموا على أحد بالشرك والكفر حتى يعتقدوا أنه قد جاء بالشرك والكفر وحتى يعتقـدوا أن ما حكموا عليه لأجله بذلك كفر أو شرك وهم إذا حكموا على أحد بأنه مشرك أو كافر فلا ريب أنه قد عمل الكفر والشرك حسب اعتقادهم ولو لم يعتقدوا ذلك لما حكموا عليه به . وهذا من الضروريات الواضحة التى لا يتنازع فيها العقلاء

وهذا قصارى فلسفة كلام هذا الرافضى المعارض ، وقصارى ما فيه من دخل ودخن

وقوله : « واستحلوا ماله ودمه وبعضهم استحل سبى الذرية » الى آخره من الأكاذيب الطائرة المقصودة التى لا شبهة لها يمكن أن يتعلق بها جارمها

وقد حارب النجديون المخالفين المعتدين عليهم عشرات المرات وانتصروا فى مواقع كثيرة معلومة . وقد كان المخالفون لهم هم البادئين المهاجمين ، وكان النجديون هم المدافعين المظلومين ، وهذا ما لا ريب فيه ، ولكن لن يستطيع هذا المعارض أن ينقل عنهم صادقا أنهم سبوا الذرية فى موقعة من المواقع ، ولينقل ذلك عنهم إن استطاع ، ولن يستطيع أن ينقل عنهم أنهم استحلوا مال أحد من القوم الذين

استطاعوا التغلب عليهم والظفر بهم . وهذه حروبهم في الحجاز واليمن الأخيرة والقديمة تشهد صادقة جاهرة على ما نقول ، وعلى أن هذا لم يصدق فيما قال

أما إن كان يريد أنهم استحلوا الأموال التي تكسب من المحاربين المقاتلين كالذخائر والعدد الحربية ونحوها مما جمعه المحاربون الغازون فمثل هذا كل الناس مسلمين وغير مسلمين يأخذونه ويستحلون أخذه ، لا لأن صاحبه كافر خارج من الاسلام بل لأن قوانين الحروب تقضي به ، وتبيحه السياسة العامة ، لأنه مجموع من مال الأمة

وقوله « وجعلوا دار الاسلام دار حرب ودارهم دار إيمان تجب الهجرة اليها » قول تبطله أفعال الحكومة السعودية اليوم ومواقفها من سائر الحكومات الاسلامية ؟ وها هي قد بعثت مفوضين لها في أقطار يزعم هذا الرجل أنهم يعدونها ديار حرب تجب الهجرة منها ولا يجوز المقام فيها ، وها هي خطابات جلالة الملك عبد العزيز كل عام بين وفود الحجاج تبطل هذا الزعم ، وها هي حكومة جلالته تبعث البعوث العلمية دينية ومدنية الى الأزهر والى غير الأزهر ، وفي هـذا نقض صريح لزعم هذا الشيعي

نعم نحن لا ننكر أن في بلاد نجد قوماً لم يضربوا في الأرض ولم يفارقوا بلادهم فلم يعرفوا ما في الخارج ، سمعوا أنه في كثير من البـلدان الاسلامية تفشو المعاصي وتباح وكذا سائر المنكرات من الكفر والالحاد والقدح في الأديان عامة وفي الاسلام خاصة وفي الأنبياء ، وسمعوا أن المسلم لا يستطيع أن يجهر بدينه أو أن يقول كلمة الحق أو أن يعادي الباطل ولو بالكلام والملام . ان قوما هنالك سمعوا هذه الروايات المبالغة ، وهم لم يروا ولم يعلموا الحقيقـة فقالوا بناء على هذا ان المقـام هنالك حيث لا يستطيع المسلم أن يعبـد الله وأن يقول الحق وأن يحفظ عرضه ودينه لا يجوز ولا يباح ، بل يجب عليه الهجرة فراراً بنفسه وبدينه وبعرضه الى حيث يستطيع أن ينجو

بذلك من هذا البلاء وبحيث يستطيع أن يقول الحق . وهـذا كله قائم على جهل الحقيقة ثم على المبالغات فى الحديث والرواية ، ويقـابل هذا أن فريقا من المسلمين فى البلاد العربية وغير العربية مثل مصر والشام والعراق وغير هذه البلدان يسمعون أن النجديين أوالوهابيين كما يقولون خصوم النبى الكريم ﷺ وللأولياء والصالحين وللمسلمين أجمعين ، وأنهم يأبون الصلاة والسلام على النبى ﷺ ، وأنهم يضربون وقد يقتلون من يصلى عليه ﷺ ، وأن من يذهب الى ديارهم على خطر عظيم فى ماله و نفسه ودينه ، ويسمعون أيضاً غير ذلك من الأكاذيب الشائعة التى أذاعها دعاة السوء والهوى طاعة لأغراض دنيئة دنيوية ، فيحكم هؤلاء الذين سمعوا هذه الروايات بأن أولئك القوم المعروفين بالوهابيين قوم خارجون ضالون لا يصلح البقاء بين أظهرهم ولا فى بلادهم لذلك ، ومبعث هذا كله هوالكذب والارجاف وإذاعة السوء والفاحشة ، وقد قال واحد من هؤلاء الموسومين عنـد العامة بالفقه والدين فى حلقة درسه الحافل بالدهماء الجهـلاء : ان الهجرة اليوم تجب من الحجـاز لأجل ما هنالك من الضلال والمروق ، وهذا كله من الجهل والغرارة ودواؤه العلم والمعرفة

ولكن هل من الانصاف والحكمة أخذ أمة بأسرها بمـا يقوله بعض الأغرار انخداعا باشاعات سمعوها لا عن عقيـدة اعتقدوها ، وهل اذا قال بعض الأغرار ممن لم يخبروا الدنيا وممن لم يعرفوا ما فيها قولامن الأقوال المبنية على السماع المخدوع المضل يؤاخذ أولو الأمر والشأن بما قالوا ؟ هذا عين الضلال والخطأ ، وهذا مالا نرضاه لأنفسنا ولا لأخواننا ، وهذا ما نذكره إنصافاً للحق والحقيقة

وقوله « وحكموا بقتل تارك الفرض وإن لم يكن مستحلاً » قد سلف الجواب عليه فى الأمر السادس من مقدمته الثانية ، وتقدم أن قوله هـذا طعن فى المسلمين جميعا وفى جميع الفرق الاسلامية حتى فى الشيعة نفسها

وأما زعمه أن الوهابيين خرجوا عن السنة وخالفوها فجوابه يعرف من كتابنا

هذا ومن أقوال هذا الشيعي التي نرد عليها ، ومن الظريف الطريف أن تتهم الرافضة والشيعة أهل السنة من أهل نجد بمخالفة السنة وبالخروج عليها

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

هذا واذا أردنا أن نقابل أدبه بمثله قلنا صادقين راشدين : ان الرافضة يشبهون المنحلين من الأديان جملة من وجوه كثيرة ، منها أن الفريقين لا يبالون الأديان فلا يغضبون لله ولا لمحارمه فلا يؤاخذون أو يلومون من كفر بالله ومن جعل له أنداداً ولا من عبد خلقه وضرع الى الأموات ولا من أعرض عن ربه وعن رضاه وعن حكمته فى خلقه ، وإنما يغضبون للجهال الأغرار المنحلين من الدين ومن الفضائل ويدفعون عنهم ، حاملين على من غضب لله فناوأ خصوم دينه وخصومه ، كما فعل هذا الشيعي هنا ، فالفريقان يصدران عن عقيدة واحدة ويغترفان من منهل واحد ، فمن الأحق باللائمة يا ترى ؟

ثم قال الرافضى « رابعاً ـ كما أن الخوارج استندوا فى شبهتهم هذه الى ظواهر من الآيات والأدلة التى زعموها دالة على أن كل كبيرة كفر ، كذلك الوهابيون استندوا فى هذه الشبهة الى ظواهر بعض الآيات والادلة التى توهموها دالة على أن الاستغاثة والاستعانة بغير الله شرك وعلى غير ذلك من معتقداتهم »

قلت : وجواب ذلك أن يقال لا يعاب القوم بأن استدلوا على عقائدهم بظواهر الكتاب والسنة والمعقولات بل هذا أمر لابد منه . فان العقائد التى لا تستند على أدلة الكتاب والسنة لا تقبل ولا يجوز التعلق بها ، وليس يعيب العقيدة أن تشهد لها ظواهر الكتاب والسنة وظواهر الأدلة الشرعية ، بل الذي يعيب العقيدة ألا تكون لها مستندات شرعية لامن الكتاب ولا من السنة هذا هو مايضير العقيدة وما يعيبها وما يقضى بردها . أما استنادها على الكتاب والسنة والأدلة الشرعية فليس هذا بدليل على بطلانها وعلى استحقاقها الرد والنقض . فان عقائد المسلمين الراشدين

كافة مستندة على ظواهر الكتاب والسنة وظواهر الدلائل الشرعية ، وأن من دلائل صدق العقيدة وصوابها استنادها على كتاب الله وسنة نبيه ، ومن دلائل بطلانها ألا تكون لها مستندات شرعية . فانه اذا لم يكن لها ذلك لامن الكتاب ولا من السنة كانت عقيدة باطلة لأنه لم يدل عليها الكتاب والسنة . وما لم يدل عليه الكتاب والسنة غير مفروض على المسلم احترامه دينا . أما ان كان يريد أن هذه الظواهر هى ظواهر كاذبة خادعة وهذا هو مايريد قلنا ان الكلام على هذه المسألة سوف يأتى بيانه وسوف يعلم أن دلائلنا على هذه المطالب العليا هى دلائل بينة لا تقبل الجدل والنزاع وسوف يعلم أنه لم يوجد مايعارضها من المعقول ولا من المنقول ، وأن المعارضات التى يقابلون بها ظواهر الكتاب والسنة هى معارضات وهمية ترجع الى الظن والتخرص والتمحلات التى يستطاع تسليطها على جميع الكلام الموجود فى الدنيا وما سوف يوجد كما صنع ذلك أقوام ولا يزالون يصنعونه فيما يضعونه بينهم من عقود ومعاهدات ومحالفات راحوا يؤولونها ويفسرونها كما يشتهون وكما تقضى مصالحهم وأهواؤهم لا كما تقضى نصوص الكلام اتباعاً للاهواء والأنانية الظالمة الخاسرة ، وهؤلاء المخالفون المعارضون من المحال أن يظفروا بآية واحدة أو حديث واحد صحيح يدل - ولو بوجه ضعيف - على جواز الاستغاثة بالأموات والانقطاع الى القبور رغبة ورهبة . أما النهى عن دعوة الاموات الذى هو قولنا وما ندعو اليه فالقرآن والسنة مملوآن بذلك باعتراف هذا الرجل إلا أنه يلجأ الى التأويل والتحريف ويفزع من دلالتها الصادعة الى التمحل البعيد . والتأويل والتحريف لن يعجزا أحداً من الناس ولن يعصم منهما كلام في الأرض أو فى السماء ، ولكن هذا ليس دليلا على أن من استطاع ذلك أو حاوله فأدركه راشد بل تحريف الكلام والذهاب به عن سبيله الواضحة المعلومة هو سنة اليهود كما ذكر الله ذلك عنهم فى آيات من كتابه ناعياً عليهم . وهذا الرافضى يذكر هذا

هنا ليدفع به مالا بد أن يقوله له من يقرأ كتابه وهو أن يقال شتان ما بينك وبين مخالفيك ! فانك تلجأ أنت فيما تدعى وتقول الى التأويل البعيد والاستمساك بالآراء المتطرفة الغالية التى لا مستند لها من الكتاب والسنة ، وأما مخالفوك فانهم يقابلونك بقول الله وقول رسوله وأقوال الأئمة من أهل الحديث والسنة ، ويضعون أمامك ألوانا وأفانين من دلالات القرآن والحديث وأقوال أئمة المسلمين بعبارات واضحة بينة وأساليب صريحة ظاهرة وأشياء لا يوجد ما يعارضها أو ما يقوى على معارضتها ، واذا ما كان ذلك كذلك فكيف ترجو من القراء أن ينصروك على مخالفيك وهذا مقدار ما بينكم من الفرق والبون ؟ فهذا الرافضى ذكر ماذكر هنا دفعا لهذا الاعتراض الذى لا بد منه قائلا إن استناد العقيدة على دلائل الكتاب والسنة ليس دليلا على الاقتران بالحق ، وهذا كما وقع للخوارج . ولكن يقال له ان الخوارج لم يضلوا لأنهم استندوا في عقائدهم على ظواهر الشرع ولكنهم ضلوا لأنهم ابتكروا عقائد ضالة باطلة . فاذا ما استطاع الشيعى أن يقيم الدليل على أن عقائد مخالفيه فى هذه المسائل العالية ضلال أدرك مايريد أن يقول واذا لم يفعل ذلك لم ينفعه ماقال ولم ينفعه أن يستند مخالفوه على ظواهر النصوص ولم يضرهم هم ذلك

هذا واذا أردنا أن نقابل أدبه بمثله قلنا ونحن صادقون : ان هذا الرافضى واخوانه يشبهون أخصام الاسلام والوحدة الالهية من وجوه كثيرة . منها أنهم يغلون فى العباد حتى يضعوهم فى أفق أسمى من أفقهم بلا سلطان من الله ، وانما ينتحلون ذلك بشبهات ومقاييس مضطربة مختلة وأمور مركبة من أمزاج الأوهام المختلة كما قال الله فيهم «ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم» ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا إلا ليقربونا الى الله زلفى) وهذا كهذا ولا فرق

ثم قال الرافضي : « خامساً - كما أن الخوارج استحلوا قتال ملوك الاسلام والخروج عليهم كذلك الوهابيون استحلوا قتال ملوك الاسلام وأمرائه لأنهم باعتقادهم أئمة ضلال ناصرون للشرك والبدع » قلت وهذا أيضا من الأكاذيب الشهيرة . فان الوهابيين لم يبدؤا أحداً من ملوك الاسلام وأمراء المسلمين بالقتال ولم يخرجوا على أحد منهم الخروج الذى يريده ، وهذه التواريخ المختلفة هل يستطيع أن يظفر منها بالدليل على ما قال من استحلال الوهابيين قتال ملوك الاسلام وأمراء المسلمين وخروجهم عليهم ؟ وهذه حكومة الحجاز القائمة اليوم . هل خرجت على أحد من ملوك الاسلام وأمرائه وهل بدأت أحداً منهم بالقتال والمناوأة المزعومة ؟ وهذه الحكومات الاسلامية محيطة بجهاتها وحدودها ليس بينها وبينها حاجز سوى رعاية الله وامتثال أمره ثم الضن بدماء العرب والمسلمين ثم وفاء النفس فهل بدأت أحداً من هذا الحكومات بالقتال والخروج أو هل استحلت قتال ملك من ملوكهم ؟

وقد تحرش كثير من هذه الحكومات بها وأساءت اليها ونالتها بألوان من الأذى والسوء ، فهل قابلت هذه الاساءات بالقتال والثورة والجزاء العادل المشروع أم كانت تدفع بالتى هى أحسن ، وتجزي الاساءة بالاحسان والذنب بالغفران ؟ أو ليست كما يشهد الناس كلهم ما زالت تزدلف من الحكومات الاسلامية كلما ابتعدت عنها هذه الحكومات وتلين عليها كلما قست هى عليها ، أو ليس هذا مما لا ريب فيه ومما لا ينكره منكر أو يجحده جاحد ؟ وان أكبر دليل وأقربه على ذلك وعلى تعمد هذا الشيعى الوقيعة الجريئة ذلك الموقف الذى اختارته الحكومة السعودية من حكومة اليمن فى الحرب الأخيرة المعلومة ، فقد وقفت الحكومة السعودية الوهابية من تلك الحرب أشرف موقف وأنبله قبل وقوع الكارثة ، وفى أثناء وقوعها ثم فى تدبير وقفها ثم بعد انتهائها . وصنعت يوم ذاك صنعاً هو غاية ما يصنعه

أعدل الناس وأرأف الناس وأحلمهم وأعفاهم ، فقد تحرشت بها حكومة الامام يحيى الشيعية المتدلة مرات وفى كل مرة تغض الطرف عن ذلك بل وتتجاهله وتعده من الأحداث المحلية الهينة ، بل وتتودد الى الحكومة اليمانيــة وتجدد لها الولاء حتى حسب ذلك ضعفــاً ، وحسب موقفَ الضعيف العاجز أمام القوى الغالب ، حتى تطورت المسألة فهاجمت حكومة اليمن أطراف المملكة السعودية مريدة التوغل فى أحشائها ، فأرسلت الحكومة السعودية الى ملك اليمن الاحتجاج بلطف وتودد ورفق مراراً ، فلمــا لم يفد ذلك الاحتجاج المكرر لجأت الى أن تقابل المغير المهاجم بما يفرضه عليها الدين الحنيف وتبيحه القوانين الحربيــة كلها ففعلت ذلك مكرهة ، فتغلبت بسرعة مدهشة عجيبة على جيوش اليمن وا كتسحتها وامتلكت ناصية النصر فى جميع الميادين ، واتفقت كلة الناس حين ذاك على أن حكومة اليمن صائرة الى الفناء والتلاشي وأن الحكومة السعودية داخلة صنعاء عاصمة اليمن ولا بد وأجمعت على ذلك ولهجت به جميع الصحف العربيــة فى مصر وغير مصر ، وصار هذا الأمر حديث النــاس ورأيهم الذى لا يشكون فيه ولا يرتابون ، ولكن !

ولكن حدث حادث عدَّ خارقة لا مثيل لها فى سجل الحروب العالمية وفى الصراع بين داعى العفو والكرم وداعى الواجب ، واجب النفس وواجب الأمة المتفوقة الغالبة بأموالها ودمائها ، وحدث حادث عدَّ المثل الأعلى للتسامح والكرم فى أمر لم يعهد الناس فيه تسامحاً ولا كرماً ، وهو أمر الحرب واجتناء ثمار النصر : دعى الملك عبد العزيز سيد الحكومة الوهابية الى وقف الحرب ووقف تقدم جيوشه فلبى ذلك الدعاء وأولئك الداعين طائعا مختــاراً ، ثم دعى الى الصلح فلبى ذلك الدعاء وأولئك الداعين طائعا مختاراً ، ثم دعى الى ما هو أ كثر من ذلك وأعز على النفس دعى الى إخراج جيوشه من البــلاد التى احتلوها بالدماء والخسائر الفادحة على أن يتحمل وحده تلك الخسائر وتلك المغــارم دون من جناها وأصلاها ، فلبى ذلك

الدعاء وأولئك الداعين طائعاً مختاراً ، ثم دعي الى ماهو أسمى من ذلك كله وأدخل في ضروب البطولة ، دعي الى عقد معاهدة مع حكومة اليمن التى بالأمس آذته ثم حاولت اقتحام بلاده ثم اقتحمتها فلم يكن منه إلا أن يلبى ذلك الدعاء وأولئك الداعين طائعا مختاراً

لبى ذلك كله غير مكره ، ولو لم يلبه لما كان ظالما ولا ملوما ، ولما كان فاعلا أكثر مما يفعله أعدل الناس وأرأفهم وأحلمهم

انتهى هذا كله وقابله العالم فى أطراف المعمورة بالاعجاب والدهشة والثناء الحار المتواصل ، وصار هذا الصلح السعودى والعفو الوهابي حديث الناس وأغنية المتحدثين المعجبين ، وصار مثلهم المضروب في الكرم الحربي وتعشق السلم وحقن دماء المسلمين والحرص على ولاء أهل الاسلام ، وراح الناس المعجبون المغالون بأمم الغرب ومدنيتها وسلمها ورحمتها يدلونها على مكان الشرف ومكان الحلم ومكان الشفقة والتعلق بالسلم ويُرونها مكان ذلك فى جزيرة العرب المحرقة المتيبدة بين هضبات نجد منبت الشيح والقيصوم . تلك البلاد الدائنة بالقرآن المتمسكة بسنة النبى العربى ﷺ

هذا أول فصول هذه القصة النادرة المعجزة ، ثم يلى هذا فصل آخر لايقل عن الأول روعة وجلالا وجمالا ، وهذا الفصل هو فصل محاولة الاعتداء على حياة جلالة الملك عبد العزيز فى الشهر الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام واليوم الحرام . وذلك أن نفراً من رجال حكومة اليمن وموظفيها المقربين لم يرضهم عفو جلالة الملك وكرمه العجيب وتسامحه النادر المثال ، أو بالأصح لم يرضهم انتصاره الباهر ، وإن كان هو لم يجن زهر ذلك الانتصار وثمره ماديا عاجلا ، بل وإن كان هو المدافع وهم المهاجمين ، فائتمروا باغتياله وانتزاع حياته التى هى حياة أمة وملة غيلة وخيانة على رغم أنف المعاهدة المبرمة والصداقة المعقودة والاحسان الجليل الجميل الذي وقفه

منهم و اختاره طائعا مختاراً : هجموا على جلالته محاولين اغتياله وهو يطوف فى بيت الله الذى جعله الله أمنا وجعل من دخله آمنا يؤدى نسكه وشعائر حجه وعبادة ربه . ولكن ! ولكن الله أنزل لطفه ورحمته وأهبط أحد شئونه الخفية التى تهبط الأحيان فى الأرض لرفع أمر عظيم ، فدفعت الكارثة عن عباده المؤمنين وبيته الحرام وبلده الحرام ، فكفّ تلك الأيدى الأثيمة وجعل بينها وبين حياة عماد هذه الأمة ورجائها برزخا موصولا بالسماء منسوجا من سلطان الله ورحمته لايستطاع اجتيازه إلا بسلطان من الله ، ولكن سلطان الله لاينال الظالمون المعتدون الغادرون

مرّت القارعة ومر ما كان مخوفا أن يتلوها من المحن والارزاء والمصائب الجسام بسلام وبقيت حياة الملك الغالية ، وعرف مصدر هؤلاء الأئمة وأثبت التحقيق أموراً عظيمة خطيرة كان الناس يظنون أنها سوف تعيد البلاء جذعا ، والشر فى عنفوانه وعنفه . ولكن حدث حادث آخر عدّه الناس خارقة أخرى ومثلا أعلى فى الصفح والعفو ، وفى النزاع العنيف بين داعى الجزاء العادل وداعى العفو الشامل ، جرّت ارادة الملك عبد العزيز على هذه الحادثة وعلى ما اكتشفه التحقيق فيها من أمور ودخائل عظيمة أذيال العفو والاغضاء والصفح الجميل ، ووهبت الحقوق كلها لرضا الله ولوجهه الكريم ، لمن لا يضيع لديه حق ولا ينسى لديه إحسان وعرف ، فعدّ الناس هذا الفصل من فصول هذه القصة أروعها وأجلها وهبّ الناس المفتونون المعجبون بأوربا ومدنيتها وشرفها وغرامها بالسلام والتريث لدى حمية الأنوف العزيزة الأبية يدلونها على مكان المدنية ومكان الشرف الرفيع ومكان عشاق السلام عند التهاب المعاطس أنفا وحمية . هنالك فى جزيرة العرب فى هضبات نجد حيث يدان لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ

أفيمكن أن يكون أصحاب هذه المثل الرائعة والمواقف العجيبة يستحلون قتال ملوك الاسلام والخروج عليهم لاعتقادهم أنهم دعاة شرك ونصراء ابتداع ؟ أو يمكن

أن يكون قوم يتزعمهم هذا السيد الجليل الذى رفع رؤوس العرب والاسلام بصفحه وعفوه يستحلون قتال ملوك الاسلام وأمراء المسلمين لاعتقادهم أنهم دعاة شرك ونصراء بدعة ؟ اللهم سبحانك ! اللهم ان هذا لبهتان عظيم

أفيغضى هذا الشيعى عن خطوات هذه الحكومة نحو اكتساب صداقات الحكومات الاسلامية وملوك المسلمين ، والسعى الحثيث الى الاقتراب منهم وتجديد الولاء والمودة لهم فى كل وقت ، ثم ما تعقده معهم من معاهدات الصداقة والمحالفات الدفاعية عن بيضة العرب وقلب الاسلام ؟

أما إن كان يريد بقتالهم ملوك الاسلام ما وقع من القتال بين زعماء هذه الدعوة وبين الجيوش العثمانية وولاتها وما وقع بينهم وبين والى مصر محمد على باشا وبينهم وبين أشراف مكة الأقدمين . ان كان يريد هذا قيل له : إنك أنت قد ذكرت فى أول كتابك أن الدولة العثمانية وولاتها قد حاربوا الوهابيين فى قلب بلادهم وهاجموهم فى أقصى مأمنهم حتى خربوا عاصمتهم واكتسحوها وحتى أخذوا أميرهم عبد الله بن سعود هو ورجاله وقتلوهم صبراً فى بلاد الخلافة ، وذكرت أيضاً فى أول كتابك أن شريف مكة غالباً المعاصر لظهور هذه الدعوة قد غزا الوهابيين ما يزيد على خمسين غزوة مدى خمسة عشر عاما مهاجماً لهم فى أحشاء بلادهم ، وذكرت أنت فى هذا الكتاب أن هذا الشريف كان يغزو كل من قبل دعوة الوهابيين موقعاً بهم الخسائر الهائلة في الرجال والمال ، وذكرت غير ذلك من اضطهاد النجديين والبغى عليهم ومحاولة قتالهم واذلالهم . فاذا كان حقاً ما ذكرت أو بعض ما ذكرت فهل يصلح معه أن تدعى أن الوهابيين يستحلون قتال ملوك الاسلام والخروج عليهم ؟

أفما كان الصحيح الذى يطرد مع ما ذكرت أن تدعى أن ملوك الاسلام هم الذين كانوا يستحلون قتال الوهابيين والقضاء عليهم وغزوهم فى ديارهم لأن بعض

المحمولين على العلم من المشايخ الرسميين أفتوهم بكفرهم وبلزوم الخروج عليهم وباستئصال شأفتهم كما تقول وكما تدعى

نعم انهم حاربوا أشراف مكة وافتتحوا الحجاز أولا وأخيراً ولكن بعد ماذا ؟ بعد أن اعتدى عليهم الأشراف وبعد أن بدؤهم بالقتال والسوء والأذاة وبعد أن ألبوا عليهم الأضغان وأثاروا بهم الحفائظ والعداوات ، وبعد أن أشاعوا عنهم مقالات السوء من كفر وبدعة وخروج على المسلمين وعلى الاسلام أيضاً ، وأخيراً بعد أن حالوا بينهم وبين حج بيت الله الحرام الذى جعل فيه سواء الحاضر والباد ومنعوهم من أداء هذه الفريضة المقدسة ، ويعترف بهذا الشيعى فى كتابه ؛ ثم نعم حاربوا بعض الجيوش التركية ولكن بعد ماذا ؟ بعد أن اعتدت تركيا عليهم مرات وبدأت بقتالهم وأذاتهم . ومن ذا يقول من العقلاء إن المدافعين عن أنفسهم وبلادهم يستحلون قتال ملوك الاسلام لذلك ؟ ثم لو فرضنا أنهم بدؤا الدولة العثمانية بالقتال والثورة المدمرة ـ وهذا ما لم يكن ـ لما كانوا فاعلين أكثر مما فعله سائر العرب والمسلمين إبان الحرب الكبرى وقبلها وبعدها . أوليس شريف مكة الذى يدافع عنه هذا الرجل هوى وتغريراً ، بل أوليس جماهير رجالات العرب وزعمائهم قد قاموا فى صفوف الحلفاء والدول الغربية الظالمة فى الحرب العالمية يحاربون تركيا الدولة المسلمة ويحاربون الخلافة الاسلامية فى هيكلها ؟ ؟ أفما أعلن هؤلاء كلهم الخروج والثورة على الدولة العثمانية واقفين فى صفوف بريطانيا وفرنسا وايطاليا وغير هؤلاء من دول أوربا الظالمة الباغية ؟ أو ما أبى الملك عبد العزيز امام الوهابيين الانضمام الى دول أوروبا لحرب تركيا مثل ما فعل رجالات العرب وهو يعلم ما صنعته بآبائه وبلاده من العسف والتخريب . أفما رغبه الحلفاء فى الانضمام اليهم ، فبقى مصراً على الحياد باعتراف هذا الشيعى فى كتابه

ثم اذا كان يعتبر وقوع الحرب بين جيوش الامبراطورية العثمانية وبين أمراء النجديين السعوديين ـ وهم مبدوؤن بالحرب كما ذكرنا ـ دليلا على أنهم يستحلون قتال ملوك الاسلام والخروج عليهم فليعلم أن الحرب قد قامت بين جيوش الدولة العثمانية وبين دولة ايران الشيعية مرات ، وحدث قتال بين جيوش الدولتين والأمتين عنيف ، فليعتبر هذا القتال وهذه الحرب برهانين على أن الشيعة يستحلون الخروج على ملوك الاسلام وقتالهم

ولو كان هذا الشيعي يرعى الحق ويحرص على قوله لقال مبادراً ان الشيعة هم الذين يستحلون قتال ملوك الاسلام وأمراء المسلمين ويستحلون الخروج عليهم وتبديد شملهم وتفريق كلمتهم فان الشيعة بجملتها ما كانت الا خروجاً على الخلفاء الراشدين وعلى الملوك المسلمين وأمراء المؤمنين ، فهي مؤسسة على هذا الغرض والمعنى . أعني على منابذة الخلفاء ومناصبتهم العداء والبغضاء . فان أول وضعة المذهب الشيعي أعني عبد الله بن سبأ كان أول أمره وأول ماقام به وسعى لنشره وكذا كان غيره هو القدح في الخلفاء الراشدين والحث على الخروج عليهم وعلى قتالهم . لأنهم فيما زعموا ظلمة مغتصبون ماليس لهم قد ظلموا علياً وآله فاغتصبوا حقهم المشروع الواجب وهو الخلافه . وعبد الله بن سبأ هذا هو الذي دبر أبعده الله ثورة الناس بخليفتهم عثمان حتى راح قتيلا شهيدا ، وهو الذي ملأ صدور الناس عليه ضغينة وحقداً بما أبداه من الغيرة الكاذبة لآل النبي والولاء الخادع لهم والفضائل المزورة والدعاوى الباطلة الحق . فكان أول وضعة هذا المذهب هو أول السعاة الى القيام على الخلفاء واغتيالهم والثورة بهم . ثم تتابع الشيعة والمتشيعون على المناداة بمعاداة الخلفاء والأمراء المسلمين الشرعيين والخروج عليهم واغتيال من استطاعوا اغتياله وخضد شوكة من استطاعوا خضد شوكته ، ولايزالون هكذا الى يومنا هذا كما فعل هذا الشيعي العاملي هو واخوانه نحو الحكومة العربية النجدية

ولقد لقيت دولة بنى أمية من هؤلاء البلاء الأحمر والشر المستطير . فقد نسجوا الثورات المحكة تلو الثورات المدمرة عليها وكادوا لها بكل ماوصلت اليه حيلهم وأذهانهم من مكايد وحاكوا لها مااستطاعوه من حبالات الشر والخداع وجاءوا من ذلك بالأفانين حتى زال ملك بنى أمية وخرج الأمر من بين أيديهم وهلكت خلافتهم . وكذلك لقيت دولة بنى العباس من هؤلاء أيضا ألوان البلاء والدسائس والثورات المتلاحقة . وجاءوا من ذلك بالأفانين حتى زال ملكهم أيضا وطاحت خلافتهم وخرج الأمر من بين أيديهم . ودولة بنى العباس ودولة بنى أمية هما دولتا الاسلام العظيمتان اللتان رفعتا الاسلام والمسلمين حقبا متطاولة وهذه حقائق لا تنازع . وما كان الشيعة والمتشيعون يدعون من الكيد للخلفاء والامراء والاغتيال لهم والخروج عليهم إلا ما عجزوا عنه وخافوا من عقباه حز الغلاصم وتطاير الرؤوس . وليذكر من لا يذكر من هؤلاء البغاة المتشيعين المختار ابن أبى عبيد الثقفى الشيعى وما قام به من ثورة دامية أثيمة مقرونة بدعوة دينية هوجاء طائشة . وليذكر من هؤلاء المتشيعين دولة بنى بويه ودولة الصفويين الفارسيين . ثم ليذكر دولة الفاطميين العبيديين وما أنزلوه من الاضرار الجسيمة بالاسلام والمسلمين والخروج على خلفائهم وأمرائهم واغتصاب السلطان والأمر منهم بالكيد والغدر والدعاوى على الله وعلى الاسلام وعلى النبي الكريم وعلى آله الطاهرين ثم بالحروب والقتال وامتشاق حسام الفتنة والتمرد والخروج

دع عنك القرامطة البغاة وما أصابوا به الخلافة الاسلامية والمسلمين من إصابات هزت جنبات الاسلام هزات لا تزال آثارها مشهودة ماثلة فى معنى الاسلام وفى نفوس المسلمين وفى أخلاقهم ورجولتهم ، والقرامطة كما يعلم كانوا من الشيعة الغالية . ولهذا كانوا يصالحون الفاطميين العبيديين عند هذا المعنى . وقد كان مخرج زعماء القرامطة ودعاتهم من بلاد فارس مثل أبى سعيد الحسن بن

بهرام واخوته . فان هؤلاء وغيرهم من مشهورى القرامطة البارزين فى حلبة العدوان والطغيان كانوا من بلدة جنابة إحدى البلاد الفارسية . وكان مخرج آخرين منهم فى اليمن مثل على بن الفضل القرمطى ، وقد أظهر هذا الدعوة فى بدء أمره للمهدى المنتظر فخدع به كثيرون من أهل اليمن وترقى أمره الى أن تغلب على اليمن ، ودخل صنعاء وزبيد وأصبح ذا ملك واسم مهيب . ثم ادعى النبوة وأحل المحرمات ، وكان مؤذنه يقول بين يديه أشهد أن علي بن الفضل « يعنى نفسه » رسول الله . ثم ارتخى حبل طغيانه فى وادى الاثم والخطيئة فراح يكاتب أصحابه بمثل هذه الكلمات : « من باسط الأرض وداحيها، ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل الى عبده فلان » . وقد سالت نفس هذا الطاغية فى صنعاء اليمن بعد أن شقى به الملك ثلاثة عشر عاما ، وكان مخرج آخرين منهم في العراق مثل حمدان قرمط . وقد نبغ فى سواد الكوفة ، قال المقريزي [١] « وكان ابتداء أمر قرمط هذا فى سنة أربع وستين ومائتين وكان ظهوره بسواد الكوفة فاشتهر مذهبه بالعراق وقام من القرامطة ببلاد الشام صاحب الخال والمدثر والمطوق ، وقام بالبحرين منهم أبو سعيد الجنابى من أهل جنابه وعظمت دولته ودولة بنيه من بعده حتى أوقعوا بعساكر بغداد وأخافوا خلفاء بنى العباس وفرضوا الأموال التى تحمل اليهم فى كل سنة على أهل بغداد وخراسان والشام ومصر واليمن ، وغزوا بلاد الشام وبغداد ومصر والحجاز وانتشرت دعاتهم بأقطار الأرض فدخل جماعات من الناس فى دعوتهم ومالوا الى قولهم الذى سموه علم الباطن وهو تأويل شرائع الاسلام وصرفها عن ظاهرها ، الى أمور زعموها من عند أنفسهم وتأويل آيات القرآن ودعواهم فيها تأويلا بعيداً انتحلوا القول به بدعا ابتدعوها بأهوائهم فضلوا وأضلوا كثيرا »

---

(١) فى الخطط ص ١٨٣ الجزء الرابع

وكان مخرج آخرين منهم فى البحرين . وقد اتخذوا لهم بلدة فى العراق سموها الهجرة وذاعت دعوتهم فى القطيف والاحساء وأحدثوا ما شاء الله من الفساد والضلال . وقد كان من فعل القرامطة سبى الذرية

وقد ادعى هذا الشيعى (١) أن القرامطة خرجوا ونبغوا فى نجد زاعماً أنه أرشده الى هذا العلم بعض العلماء الذين سأل الله أن يكثر فى المسلمين من أمثالهم . ولعمر الله انه لو وجد لكل ماقاله من خطأ تأويلا صحيحاً لما وجد لهذا شيئاً من هذا ، أما ان كان يريد قيامهم فى القطيف والاحساء فلعمر الله انه أبعد المرمى. فان القطيف والاحساء أولا لم يكونا مظهراً لدعاة هذا المذهب ولكنه سال اليهما من سماء فارس والعراق كما تقدم ، وثانياً فان الاحساء والقطيف لم يكونا من البلاد النجدية البتة ولكنهما يقعان تحت سلطان نجد اليوم . ويغلب فيهما الى هذه الساعة مذهب التشيع وبالأخص القطيف ، ولعل هذا من بقايا القرامطة

فالقرامطة من الشيعة وإليهم منشأ وعقيدة وأصلا وفرعا ، وعندي أن ثورات الشيعة ووقائعها فى أركان الخلافة الاسلامية ورجرجتها إياها أحياناً طويلة من الأسباب البارزة فى عجز الخلافة عن مقاومة موجات التتار المندفعة وفى ذوبها أمامها ثم فى عجز المسلمين عن سد سيل الصليبيين الجارف وانهيال مجدهم الرفيع ، حينما اصطدم بأول عاصفة من تلك العواصف بعد أن كان نسيمهم الناعس يستطيع تقويض ما اجتمع على تشييده وبنائه الظلم كله ، ولله الأمر من قبل ومن بعد

ومن دأب الشيعة أنهم لا يتركون دولة يكونون تحت سلطانها وسلطتها تهدأ أو تستريح من الثورات ومن الاغتيال الدنىء ، وقد لقيت حكومات العراق منهم الأمرين لوفرتهم هنالك بما يحدثونه من الشغب والعدوان ، وقد نال شر الشيعة كل أحد . وهؤلاء الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان لم ينجوا منهم ، وهم اذا عجزوا عن

---

(١) ص ٤٨٦ من كتابه هذا

الشر جهرة وبراحا تسنموه وركبوه خديعة وغدراً . ونذكر هنا على سبيل المثال حادثة مشهورة ، هذه الحادثة هي أن أحد أئمة آل سعود البررة وهو الامام عبد العزيز بن سعود قد وقع صريعاً مقتالا بيد شيعى من أهل العراق ذهب الى الدرعية عاصمة آل سعود يوم ذاك مدعيا الورع والتقوى والزهد ، فأحسن اليه الامام عبد العزيز وأكرم مثواه ، وكان فى الواقع قد حضر لاغتيال هذا الامام ونحن لا نشك فى أنه دسيسة جمعية شيعية هدامة ثورية قد دبرت هذا الاغتيال ، ويسرت أسبابه ، فلما أن وثق هذا الشيعي الخائن من إمكان أداء مهمته المجرمة أخرج خنجراً كان قد استبطنه معه وطعن الامام وهو يؤدى فرض صلاة العصر في مسجد الدرعية عاصمة ملكه فخرّ صريعاً وقضى نحبه بتلك اليد الشيعية الأثيمة ومن عهد قريب يذكره القراء حاول جماعة من الزيدية — والزيدية محسوبون من طوائف الشيعة — اغتيال جلالة الملك عبد العزيز هو وولى عهده حينما كانا يطوفان فى بيت الله يؤديان نسكهما فى الحادثة المعروفة المنكرة فوقاهما الله شر ما حاولوا وما راموا ، الى أمور يطول وصفها من أحداث الشيعة ومصائبهم فى الاسلام والمسلمين . فلو كان هذا الشيعى يريد قول الحق قال صادقا : ان الشيعة هم الذين يستحلون قتال ملوك الاسلام وأمرائهم والخروج عليهم لاعتقادهم أنهم نواصب نصبوا العداء لآل النبى عليه السلام . ولو لم يكن جريئاً على أن يغضب الحق أو لو كان يكره الجهر بالباطل الصريح الصحيح لأعرض عن هذا

ثم قال الرافضى : « سادساً — كما أن الخوارج لا يبالون الموت لأنهم رائحون بزعمهم الى الجنة كذلك الوهابيون يظهرون بسالة وإقداماً لأنهم بزعمهم رائحون الى الجنة ويقولون فى حروبهم مع المسلمين :

هبت هبوب الجنـة وين انت يا باغيها »

قلت لاريب أن الشجاعة والاقدام على الموت فى الحروب من صفات المدح

والرجولة الكاملة ومن صفات المؤمنين المتقين وصفات الأنبياء والمرسلين ، وقد اتفقت كلمة العقلاء على امتداح الشجعان والثناء عليهم واحلالهم محل الاحترام والاجلال كما اتفقوا على هجاء الجبناء واحتقارهم والزراية بهم والقدح فيهم . وقد أثنى الله كثيراً فى كتابه على الشجاعة والشجعان وأمر بالاقدام وخوض غمار الموت بالرضا والثبات كما ذم الجبن والجبناء وأوعدهم العذاب ووصفهم بصفات يرغب المؤمن بنفسه عنها . والقرآن بجملته واصف المؤمنين بالشجاعة والاقدام على حلبات الموت بثبات ورباطة قلب وجاش ، وواصف الكافرين والمنافقين والفاسقين بخلاف ذلك ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم وخيار المسلمين من الأئمة فى غاية الشجاعة والاستهانة بالموت والخطر . وكانوا يمتازون على جميع المخالفين لهم من الكفار والمنافقين بهذه الصفة أعنى الشجاعة والتهوين لشأن الموت . والشيعة تدعى أن علياً كان أشجع الشجعان على الاطلاق وكان أعظم الخلق إقداماً على مهابط الموت ومساقط الردي ، ويدعون أنه لولا شجاعته لما قام للاسلام عمود ولما اخضر له عود وينشدون فى ذلك :

ألا إنما الاسلام لولا حسامه ... كعفطة عنز أو قلامة ظافر
يجل عن الأعراض والأين والمتى ... ويكبر عن تشبيهه بالعناصر[1]

وهذا من الغلو الموبق . وفيه مافيه من التحقير للنبى الكريم ولسائر المسلمين الذين نشروا الاسلام وأعزوه بمهجهم الغالية ومن التحقير للاسلام نفسه . حفظنا الله من السوء ومن الغلو الممقوت

فالشجاعة ممدوحة بكل لسان والجبن مذموم بكل لسان . فلا يمكن أن

---

(١) يقال إن هذين البيتين لابن أبى الحديد ولكننى أشك فى هذا لأن الرجل عنده شىء من الاعتدال بل هما لبعض غلاة الشيعة المؤلهة

تكون الشجاعة والهجوم على الموت مما يذم به مخالفو هذا الرجل بالضرورة والبداهة والاجماع

وأما زعمه أن ذلك كان فى حرب المسلمين فنقول قد قدمنا فى الأمر الذى قبل هذا أن النجديين كانوا فى جميع حروبهم مبدوئين بالظلم والأذى وأنهم كانوا فى ذلك كله مدافعين ذائدين عن أنفسهم ومن دعوتهم ودينهم وبلادهم من هاجموهم واقتحموا عليهم أرضهم وديارهم ومن أساءوا اليهم مختلف الاساءات والمظلوم المبدوء بالحرب والايذاء واجب عليه أن يدافع بشدة وقوة ثم واجب عليه أن يطمئن الى حسن عقباه وأخراه وواجب عليه أن يقدم ببسالة وشجاعة بكل نفسه وجسمه

وهل يعلم هذا الرجل من القوم الذين قاتلهم النجديون أو يعلم ماذا كانوا يعملون وما كان حظهم من الاسلام والدين والأخلاق الانسانية الفضلى، أو هل يعلم كيف كانوا يعيشون ومن أين يعيشون وكيف كانوا يفعلون ويعبثون بمهج الناس المسالمين الوادعين وبأموالهم وما كانوا ينشرونه من الغارات والثورات والفوضى والأذى فى كل مكان على كل إنسان وعلى كل خلق مرضى كريم.. ثم ماذا كانوا يجنون على الدولة والأمة وأخلاق الانسان الكريمة وعلى العدالة من الويل والتخريب والافساد ؟

وليعلم أن من قاتلهم النجديون ليسوا خيراً من معاوية بن أبى سفيان وعمرو ابن العاص وأهل الشام الذين كان على ـ رضى الله عن الجميع ـ هو وأصحابه يقاتلونهم ويستبيحون قتالهم واستئصالهم وتخريب قواعدهم وبنيانهم كما تقول الشيعة وتدعى على علىّ بل وكان على ومن معه يقولون إن قتلانا فى الجنة وقتلى الشام من جند معاوية فى النار كما تنقله طائفة الشيعة عنهم، وفى كتاب نهج البلاغة المنسوب لعلى الشىء الكثير من هذا بل وفيه التصريح الواضح بوجوب

قتال أهل الشام وهذا لا تنازع فيه الرافضة بل هي تدعيه وتبالغ فيه . فاذا ما كان قتال معاوية ، ذلك الصحابى الجليل الذى قد لم الله شعث المسلمين بذكائه ودهائه وحلمه ، وقتال من معه من الصحابة والتابعين والمسلمين يجوز شرعاً الهنات التى تدعيها الشيعة فكيف ينكرون على النجديين قتال قوم بدأوهم بالأذى والظلم والعدوان وملئوا الارض بالفساد والمنكرات الفاضحة وإتيان الفواحش كبيراتها وصغيراتها ظاهراً وباطنا ، والدفاع عمن أستحل ذلك وغمس فيه جسمه وقلبه حتى فرق رأسه ، ومن تركوا شرع الله وراء الظهور فأضاعوا الصلوات والصيام والحج والزكاة ، وتحاكموا الى الطاغوت والجبت وهجروا كتاب الله قولا وعملا واعتقادا وحاربوا من دان بكتاب الله وسنة رسوله وعادوه صنوف العداء وبالاجمال من أرقلوا فى كل فاحشة واستحقبوا كل إثم ؟ ألا يعلم هذا الرجل أنه لولا هؤلاء النجديون ولولا غيرتهم الملتهبة للدين ولله ولرسوله وكتابه ثم لولا شجاعتهم النادرة فى الدفاع والنضال لكانت جزيرة العرب اليوم ـ ومنها الحرمان مكة والمدينة والحجاز كله ـ غيرها اليوم ولأصابها والله أعلم بما يكون ماأصاب غيرها من بلاد العرب والاقطار الاسلامية المفجوعة بكرامتها وحريتها ؟ فهلا يتدبر هذا جيدا ؟

اذا محاسنى اللاتى أدل بهـا ... كانت ذنوبي فقل لى كيف أعتذر ؟

ثم قال الشيعى : « سابعا ـ كما أن الخوارج على جانب من الجمود والغباوة كذلك الوهابيون على جانب من الجمود . فبينما هم يحرمون الترحيم والتذكير لأنه بزعمهم بدعة وأمثال ذلك ويتوقفون فى التلغراف لعدم وقوفهم على نص فيه ويحرمون التدخين ويعاقبون عليه ، تراهم يكفرون المسلمين ويستحلون أموالهم ودماءهم ويقاتلونهم بالبنادق والمدافع لطلب الشفاعة ممن جعل الله له الشفاعة وتوسلهم بمن له عند الله الوسيلة »

قلت : وجواب ذلك أن يقال إن أغبى الأغبياء وأجمد الجامدين عند الناس

أجمعين من يتأثمون من أن يضيفوا إلى جهال العامة وفساقهم إثما أو خطأ تورعا وتدينا فى حين أنهم يضيفون الى أصحاب النبى الكريم وأزواجه وإلى خيار البشر أفظع الأقوال وشر التهم . وإن أغبى الأغبياء وأجمد الجامدين من يكفرون أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص ثم يتورعون ويلج بهم تورعهم حتى يأبوا أن يضيفوا إلى من ادعى الاسلام غلطا وإثما أو ضلالة فيكلفون أنفسهم أن يؤولوا كل مايقوله جهال المدعين الاسلام من ألفاظ الكفر والردة والاساءة الى الله . وإن أغبى الأغبياء وأجمد الجامدين من تحملهم عداوة أبى بكر وعمر واخوانهم من كبار الصحابة على اجتناب أسمائهم ومعاداتها بحيث لايسمون أو يتسمون بها . وهذا ماتصنعه الشيعة الغالية . فانك لاتجد فيهم من اسمه ابو بكر أو عمر أو عثمان أو معاوية أو عمرو . وإن أغبى الأغبياء وأجمد الجامدين من يأتون بشاة مسكينة وينتفون شعرها ويعذبونها أفانين العذاب موحيا إليهم ضلالهم وجرمهم أنها السيدة عائشة زوج النبى الكريم وأحب أزواجه اليه . ومن يأتون بكبشين وينتفون أشعارهما ويعذبونهما ألوان العذاب مشيرين بهما الى الخليفتين أبى بكر وعمر وهذا ماتأتيه الشيعة الغالية . وإن أغبى الأغبياء وأجمد الجامدين من يقيمون المناحات والمآتم الباكية الضاحكة السخيفة كل عام حاشدين فيها أنواع المضحكات المبكيات : يضربون خدودهم ويشقون جيوبهم بل ويضرب بعضهم بعضا بالمدى ويصنعون الصنائع المنكرة . وذلك ماتفعله طائفة الشيعة كل عام يوم عاشوراء حزنا على من مات منذ أكثر من الف عام . وإن أغبى الأغبياء وأجمد الجامدين هم الذين غيبوا إمامهم فى السرداب وغيبوا معه قرآنهم ومصحفهم . ومن يذهبون كل ليلة بخيولهم وحميرهم الى ذلك السرداب الذى غيبوا فيه أمامهم ينتظرونه وينادونه ليخرج اليهم . ولا يزال عندهم كذلك منذ أكثر من ألف عام . وإن أغبى الاغبياء وأجمد الجامدين هم

الذين يزعمون أن القرآن محرف مزيد فيه ومنقوص منه ، وأن الصحابة هم الذين فعلوا ذلك وأن ذلك وقع منذ ثلاثة عشر قرنا ولم يستطع أحد فى هذه العصور كلها أن يأتى بالقرآن الصحيح الكامل . فهم ينتظرون ذلك القرآن المشتمل على فضائل آل البيت النبوى . وأن أغبى الأغبياء وأجمد الجامدين من يزعمون أن جبريل قد غلط فى أداء رسالته فنزل بها على محمد وكان مرسلا الى على . وإن أهل الغباوة والجمود هم الذين قالوا لعلى أنت خالقنا ورازقنا . . فلما أمر بهم فطرحوا فى النار قالوا وهم يحترقون : الآن عرفنا أنك أنت الله اذ لا يعذب بالنار إلا رب النار . وان أهل الغباوة والجمود هم الذين يزعمون أن الأئمة أفضل من الأنبياء وأنهم معصومون وأنهم لا يقولون إلا الحق أبدا لا عمدا ولا خطأ ولا ينسون أو يسهون وأن أقوالهم حجج كحجج القرآن بل أقوى وأصح . وان أهل الغباء والجمود هم من نرد عليهم بكتابنا هذا . وسوف نرى القارىء من آرائهم وعقائدهم ومسائلهم الخاصة بهم ما يجعله يقول غير شاك إن وصف الغباء والجمود لا ينطبق تمام الانطباق على طائفة مثل انطباقه على طائفة هذا الرجل : قال الامام ابن قتيبة فى كتابه تأويل مختلف الحديث صفحة ٨٤ :

« وأعجب من هذا تفسير الرافضة للقرآن وما يدعونه من علم باطنه بما وقع اليهم من الجفر الذي ذكره هرون بن سعيد العجلى وكان رأس الزيدية فقال :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا إمام ومنهمو ... طوائف سمته النبى المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم ... برئت الى الرحمن ممن تجفرا
برئت الى الرحمن من كل رافض ... بصير بباب الغى فى الدين أعورا
اذا كف أهل الحق من بدعة مضى ... عليها وإن يمضوا على الحق قصرا
ولو قال ان الفيل ضب لصدقوا ... ولو قال زنجى تحول أحمرا

وأخلف من بول البعير فانه اذا هو للاقبال وجه أدبرا
فقبح أقوام رموه بفرية كما قال فى عيسى الفرى من تنصرا

« وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب فيه لهم الامام كل ما يحتاجون الى علمه وكل ما يكون الى يوم القيامة . فمن ذلك قولهم فى قول الله « وورث سليمان داود » أنه الامام ورث النبى علمه ، وقولهم فى قول الله « ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » انها عائشة ، وفى قوله « فقلنا اضربوه ببعضها » انه طلحة والزبير ، وقولهم فى الخمر والميسر انهما أبو بكر وعمر وفى الجبت والطاغوت أنهما معاوية وعمرو بن العاص ، مع عجائب أرغب عن ذكرها ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها وكان بعض أهل الأدب يقول : ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن الا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر فانه قال ذات يوم ما سمعت بأكذب من بنى تميم ، زعموا أن قول القائل :

بيت زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

انه فى رجال منهم . قيل له : فما تقول أنت فيهم ؟ قال البيت بيت الله وزرارة الحجر ، قيل فمجاشع ؟ قال زمزم جشعت بالماء . قيل فأبو الفوارس ؟ قال أبو قبيس قيل له فنهشل ؟ قال نهشل ؟ وفكر ساعة ثم قال : نهشل مفتاح الكعبة لأنه طويل أسود فذلك نشهل . والرافضة أكثر أهل البدع افتراقا ونحلا ، فمنهم قوم يقال لهم البيانية منسوبون الى رجل يقال له بيان قال لهم إلىّ أشار الله اذ قال « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » وهم أول من قال بخلق القرآن ، ومنهم المنصورية أصحاب أبى منصور الكسف وكان قال لأصحابه فىّ نزل قوله : « وان يروا كسفاً من السماء ساقطا » ومنهم الخناقون والشداخون ومنهم الغرابية وهم الذين ذكروا أن عليا كان أشبه بالنبى عليه السلام من الغراب بالغراب فغلط جبريل حين بعث الى على لشبهه به ، ولا نعلم فى أهل البدع والأهواء أحداً ادعى الربوبية لبشر

غيرهم فان عبد الله بن سبأ ادعى الربوبية لعليّ فأحرق علي أصحابه بالنار ، وقال في ذلك :

لما رأيت الأمر أمراً منكرا   أججت نارى ودعوت قنبرا

ولا نعلم أحداً ادعى النبوة لنفسه غيرهم فان المختار بن أبي عبيد ادعى النبوة لنفسه ، وقال ان جبريل وميكائيل يأتيان الى جهته ، فصدقه قوم واتبعوه وهم الكيسانية » . هذا كله ذكره ابن قتيبة ، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته المشهورة أنه مر ببعض بلاد الشيعة فوجدهم يتحامون لفظ العشرة فراراً من العشرة الصحابة المبشرين بالجنة فكان الباعة في الأسواق اذا ما أرادوا أن يقولوا عشرة قالوا تسعة وواحد فحضر تركي فسمع واحدا منهم يقول ذلك فضربه بسلاح معه ، وقال قل عشرة بالدبوس، وذكر أنهم بنوا مسجدا وجعلوا له تسع قباب لم يجعلوها عشرا سيرا مع مذهبهم

وقد ذكر المقريزي في خططه وذكر غيره أشياء مضحكة عن الخلفاء الفاطميين الشيعيين وخاصة الحاكم بأمره منهم ، وقد ذكر هو وغيره عن هذا أنه كان قد أصدر أمره بتحريم الملوخية والزبيب ومأكولات أخرى وأنه عاقب من باعوا ذلك أشد العقاب الى أشياء أخرى مخجلة

ونحن نعجب والله أن هؤلاء لم يلجئونا الى نشر هذه الترهات . وقال المقريزي « وفي سنة ٣٩٣ قبض الفاطميون على ثلاثة عشر رجلا ضربوا وشهروا على الجمال وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى ، وفي سنة احدى وثمانين وثلثمائة ضربوا رجلا وطافوا به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ للامام مالك . وقرىء سجل فيه منع الناس من أكل الملوخية المحببة لمعاوية بن أبي سفيان ومنهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضي الله عنها ومن المتوكلية المنسوبة الى المتوكل . ومنع من عجين الخبز بالرجل ومن أكل الدلنيس ومن ذبح

البقر إلا ذا عاهة ماعدا أيام النحر ومنع أن يباع شيء من السمك بغير قشر وألا يصطاده أحد من الصيادين ، وكتب في شهر صفر من هذه السنة على سائر المساجد وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه وعلى أبواب الحوانيت والحجر وعلى المقابر سب السلف ولعنهم ونقش ذلك ولون بالاصباغ والذهب وعمل على أبواب الدور والمقاصير وأكره الناس عليه وتسارع الناس الى الدخول في دعوتهم . وفى سنة ٣٩٧ قبض على جماعة ممن يعمل الفقاع ومن السماكين والطباخين وكبست الحامات فأخذ عدة ممن وجد بغير مئزر فضرب الجميع ثم قرىء سجل فى ربيع الآخر فى سنة ٣٩٩ أن لا يعمل شيء من النبيذ والموز ولا شيء من الفقاع والدلنيس والسمك الذى لا قشر له والترمس العفن . وفى سنة ٤٠٠ شهر جماعة بعد ماضربوا بسبب بيع الفقاع والملوخية والدلنيس والترمس » وقد ذكر المقريزي غير ذلك [1]

وقد ألف جماعة من الشيعة قديماً رسالة سموها « المنار والشيعة » وكان أحد مؤلفيها هذا الرجل أعنى الشيخ محسن أمين العاملى ، وقد جاء فى هذه الرسالة أن كربلاء أفضل من مكة لوجود آل النبى فيها ، وفى الرسالة أيضا أن زيارة آل البيت أفضل من الحج

فمن أغبى من هؤلاء وأجمد ؟ وان أغبى الأغبياء وأجمد الجامدين من يقدحون فى أهل السنة من أهل نجد مع ارتكابهم هذه الموبقات التى لو أضيف أحدها الى من اجتمعت له أنواع الفضائل لغمر فضائله . فكيف اذا كانت هذه الأمور مجتمعة فى طائفة أفضل ماتدعيه لنفسها من الفضائل والأعمال الصالحة غلوها فى آل البيت وحبها إياهم الحب الذى لا عقل له حتى زعموا في فريق منهم الالوهية وفى آخر النبوة وزعموا فى الائمة العصمة كالأنبياء

أما ماعده للوهابيين من الجمود فان ذلك جمود منه لا منهم ، وبيان ذلك هو

(١) انظر صفحة ١٥٧ من خططه الجزء الرابع

هذا : أما الترحيم والتذكير فقد تكلمنا عليهما فى الأمر التاسع من المقدمة الثانية وأما توقفهم فى التلغراف ان صح النقل عنهم فيقال : ان توقفهم فى هذا كان قبل أن يعرفوا حقيقته وقبل أن يدخل بلادهم وأن يعلموا عنه شيئاً ولا كيف هو . ولا عيب عليهم فى هذا وليس فيه شىء مما يدل على الجمود والغباء ، ولسنا نشك أن مخترع التلغراف نفسه لو حدث عنه قبل أن يكون لارتاب فيه بل لهجم على التكذيب والمبادرة الى الحكم باستحالته ، ولئن قارب جداً وتزمت جداً ليقولن انه سحر ، وكذا أكثر الناس ، بل كل الناس . وقد نشرت إحدى المجلات من قريب أن أحد فلاسفة أوروبا كان يقسم بأن التلغراف سحر وأنه من عمل الشياطين بعيد اختراعه ، وفى الحكاية المعلومة أن أحد الخلفاء أهدى ساعة الى أحد ملوك أوروبا فخاف منها هو ووزراؤه وحسبوها شيطانا وان أعرق الناس حضارة اليوم ومدنية وأعظمهم اختراعاً وافتتاناً بالمخترعات لو لم يروا عجائب هذا العصر ولم يعلموا كيف صنعها فحدثوا عنها لبادروا الى الانكار والى عزوها الى الخرافة والخبل ولحكم المتزمتون منهم بأنه كله سحر وهذا لا يرتاب فيه . فان الانسان لم يخلق عالماً بكل ما كان وبكل ما يكون ولم يخلق محيطاً بأسرار الوجود ومساتيره ومغاليق الطبيعة ، ولا عيب عليه اذا جهل هذا إلا اذا عيب بأنه لم يكن ربا عليما بكل حقائق الأشياء تعالى الله عن المشابهة والانداد والعاقل من الناس هو من يتوقف فى الحكم على مالا يعلم حقيقته حتى يعلمها ، وليس العاقل هو الذى يعلم كل شىء . فان ذلك هو الله وحده ، والذى قاله بعض النجديين من التوقف فى التلغراف اذا صحت الرواية عنهم هو أخف مما يروى عن سائر الناس فان الناس أول ماحدثوا بذلك قابلوه بالتكذيب والجحود ، ومثل هذا ليس عقيدة للمرء يدين الله بها فيؤ اخذ عليها وبها وإنما هى أمور ترجع الى اطلاع المرء وتعليمه وسعة مداركه التجريبية ، ولا يعيب النجديين بهذا إلا جامد متعصب

وأما تحريم الدخان فلا شك أن العقلاء يوافقون عليه ويحمدونهم ويعدونه من فضائلهم ومحامدهم ، فان فى الدخان ثلاثة أضرار لاريب فيها (أولها) اضعاف الصحة واضعاف الصدر خاصة والجناية على الصحة محرمة فى جميع الاديان والقوانين (ثانيها) إضاعة المال و تبذيره فى شيء لاينفع بل يضر كما ذكرنا ومن الخرق والسفه والله أن يباح الدخان للفقراء المساكين الذين لا ينالون الخبز إلا اغتصابا وانتهابا واقتتالا . (ثالثها) أن فى هذا تقوية الاجانب الأعداء علينا عن أى على الاسلام وبلاد المسلمين وعلى العرب وبلاد العرب . لأن المال الذى يضيع من المسلم فى الدخان هو راجع الى الجيوب الأجنبية بل الى المصانع الاجنبية التى تصنع الطيارات والدبابات والمدافع وسائر المدمرات لتحطمنا بها ولتغتصب بلادنا وخيراتنا وحياتنا من جيوبنا ودمائنا

هذه أمور ثلاثة لا ريب فيها ، ولأجل هذا حرم الدخان كثيرون من الناس لايدينون بدين لا بالاسلام ولا بغيره . وكثيرون من الأطباء يحرمونه بتاتا لأجل بعض الأسباب التى سردناها ، وكذا الاقتصاديون ، لا لأجل الدين والايمان . وياليت المسلمين يحرمون هذا الدخان ويمنعون تعاطيه ألبتة . وياليت حكومة الحجاز تشتد فى منعه وفى مراقبته الشديدة حتى لا يصل بلادها منه شيء كى تشترى بأثمانه أشياء ضرورية تنفع الدولة والملة والأفراد والجماعات والاسلام والمسلمين . إذن لفرح بذلك المؤمنون ولا مبالاة بما يقوله المتعصبون المعاندون

وأما زعمه أنهم يكفرون المسلمين ويقاتلونهم بالبنادق والمدافع ، فنقول ان هذا من المزاعم التى قد ذكرنا مرات أنها افتراء محض وسيجزي الله المفترين . وليراجع الوجه الخامس من هذه الوجوه ثم الوجه السادس ففيهما الجواب عن هذه التهمة وسنزيد الموضوع بيانا

وهلا يكتفى هذا الرجل منا بأن نقول له وللناس أجمعين اننا نشهد الله والعالم

أننا لا نكفر أحداً من المسلمين ولا نستحل قتال أحد منهم ولا ماله بل ونبرأ الى الله ممن يستحل ذلك ونصرح بأن الصحابة والتابعين والمحدثين والأئمة الأربعة ومن سار سيرتهم راشدون كلهم مؤمنون بالله إيمانا صحيحاً ناجون من العذاب بل وأنهم من أهل الجنة والنعيم . فهلا يقنعه هذا ، أم هو مصر على هـذه التهمة لأنه لا يريد غيرها ، وعلى الله حساب الجميع وسيجزي كل امرىء ما هو أهله

ثم قال « ثامنا ـ كما أن الخوارج قال بمقالتهم جماعة ممن ينسب الى العلم لظهورهم بمظهر مقاومة أئمة الضلال ورفع الظلم كذلك الوهابيون قال بمقالتهم جماعة ممن ينسب الى العلم لظهورهم بمظهر رفع البدعة التى لا شك فى وجودها بالجملة وأنه لا عبادة ولا شفاعة الا لله ولا استعانة ولا استغاثة الا بالله وهذه كتلك كلمة حق يراد بها باطل كما عرفت »

قلت : والجواب أن نقول لا ريب أن رضا أهل العلم والدين عن مقالة من المقالات وذهابهم مذهب أهل تلك المقالة وانتسابهم اليهم وموافقتهم إياهم لا يدل على بطلان المقالة وبطلان مذهب قائليها ولا يدل على أنها ضلال وأن أصحابها من الخوارج المذمومين الذين أمر رسول الله ﷺ بقتالهم والذين قاتلهم أصحابه . بل لا ريب أن موافقة أهل العلم من المسلمين الموصوفين بالورع والمعرفة لمقالة من المقالات وعقيدة من العقائد تقوية لها واحترام . وأن ذلك إن لم يكن دليلا على أنها صواب وعقل وهدى لم يكن دليلاً على أنها خطأ وضلال وجهل . ولا نزاع فى هذا

وما رأينا علم الله أعجب ولا أشذ من هذا الشيعى ومن آرائه فى كتابه هذا الذى تعرض به لهذه المطالب العالية الرفيعة ، ولا نعلم أحداً علم الله قبله زعم أن قول جماعة من أهل العلم بمقالة من المقالات وعقيدة من العقائد برهان على أن أهل تلك المقالة وأهل تلك العقيدة إخوان الخوارج فيما يذمون به . ولوكان هذا صحيحا لكان جميع الناس إخوانا للخوارج مذمومين ملومين ضالين . فان كل طائفة من

طوائف المسلمين إذا ما استثنينا طائفة الشيعة الغالية قد قال بمقالاتهم ومذاهبهم جماهير من أهل العلم والدين وما من مقالة لامام من الأئمة المشهورين إلا وقد قال بها رجال كثيرون من أهل العلم المشهورين ورضوها وتعبدوا الله بها . بل ما من مقالة قالها الامام عليّ إلا وقد قال بها غيره من الصحابة ومن بعدهم من أهل الصلاح والامامة وكالحوا عنها . بل ما من مقالة صحيحة إلا ولا بد أن تكون مقالة جماهير من العلماء البارزين فى ميدان المعرفة والدين والصلاح . فهل يكون الناس أهل الحق جميعا مشبهين الخوارج الضالين فيما اختصوا به عند هذا الشيعى ؟ ولو كان حقاً ما قال لكان ذلك كذلك . واذا كان هذا كان المسلمون جميعا ضالين ومن إخوان الخوارج الضالين ، وكان هذا الرافضى رادا على جميع المسلمين حتى على الصحابة وعلى على وعلى آل البيت النبوى وعلى أئمتهم المعصومين . واذا كان يريد أن المسلمين جميعا يشبهون الخوارج وكان يريد أن يقرر ذلك فاننا حينئذ لا نأبى بل لا يغيظنا أن نشابههم كما يشابههم جميع المسلمين ، بل لسنا نرضى غير ذلك . لأننا مع المسلمين ومع الصحابة والتابعين ومع المحدثين ومع الائمة المشهورين ومع أصحابهم ومن تبعهم بالاحسان والهدى . وهذا المصنف لا يدرى أنه ليست جميع أعمال الخوارج باطلة أو لا يدرى أن من أعمالهم ما هو هدى وحق بلا ريب . بل كذلك جميع الطوائف حتى الضالة . ولا يعلم أنه لا يجب مخالفة الخوارج فى كل شىء قالوه أو عملوه وأنهم لا يخالفون إلا فيما ضلوا وزلوا به . وإن مامعهم من الحق والهدى لا يخالفون فيه ولا يترك ذلك لأجل مخالفتهم : كأن الرجل لا يعلم من هذا شيئاً ، ولهذا يعد على النجديين وعلى سائر المسلمين موافقة الخوارج كما قال هنا فى كل مقالة قالوها وعقيدة اعتقدوها . حتى لم يبق عليه إلا أن يقول انهم يشبهون الخوارج فى تحريم الفواحش كالزنا والربا والخمر ، وفى الايمان بالله وتصديق النبى والرضا عن أبى بكر وعمر ، وما بقى الا أن يقول انهم يشبهون الخوارج فى

حب العدالة والانصاف وفى الورع وفى الاتسام بالاخلاق الفضلى التى اتسم بها بعض الخوارج كالشجاعة والاقدام والتضحية والصدق والصراحة والجهر بالحق إذا ما عرفوه . وقد عد عليهم من مشابهة الخوارج الشجاعة والاقدام . كلا أيها الرجل إن الخوارج بل كل طائفة فى الدنيا لا تخالف الا فى ضلالها وباطلها وجهلها لا فى كل ما قالته وعملته . وهذا لا يخالف فيه عاقل

فموافقة أهل العلم والدين لأهل السنة من أهل نجد لا تضيرهم ولا تدل على أنهم غالطون قائلون باطلا . ولا شك أن أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين البصراء بالدين يوافقوننا على هذه المطالب العالية ، أعنى عبادة الله وحده ، والانقطاع اليه وحده وهجران المهازل والخرافات الشيعية وغيرها من الاحداث فى الدين والآراء المدخولة المكروهة

حقا ان الذين يقولون المقالات التى لا يوافقهم عليها أحد من المسلمين لا الخوارج ولا غيرهم هم الرافضة الغالون وأمثال هذه المقالات الخاصة بهم كثيرة قدمنا أشياء منها فى أوائل هذا الكتاب وفى أثنائه

ثم ان اعترافه هنا بأن البدع موجودة في الاسلام بالجملة يخالف ماصنع فى كتابه هذا . فانه دافع عن جميع المبتدعات صغيرها وكبيرها التى نحرص نحن كل الحرص على تطهير الاسلام منها زاعماً أن ذلك كله من سنن المسلمين العملية التى تناقلوها خلفاً عن سلف بالاجماع والتواتر المشهور . فأين البدع إذن الموجودة بالجملة التى اعترف بها اذا ما كانت جميع أعمال العامة الجهلاء من صميم الاسلام والايمان ومما جاء به كتاب الله وأجمع عليه المسلمون ؟

وأما ماذكره من الشفاعة والاستعانة والاستغاثة بغير الله فسوف يجيء الكلام عليه

ثم قال الشيعى : « تاسعاً — كما أن الخوارج قال فيهم رسول الله يمرقون من

الدين كما يمرق السهم من الرمية وفى رواية يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية كذلك الوهابيون أشار اليهم رسول الله عليه السلام بقوله « اللهم بارك فى شأمنا اللهم بارك فى يمننا قالوا وفى نجدنا قال اللهم بارك لنا فى شأمنا اللهم بارك لنا فى يمننا قالوا وفى نجدنا قال هنالك الزلازل والفتن أو قال بها يطلع قرن الشيطان » رواه الامام أحمد و أخرج البخارى عن عبدالله بن عمر أنه عليه السلام قال اللهم بارك لنا فى شأمنا اللهم بارك لنا فى يمننا قالوا يارسول الله وفى نجدنا فأظنه قال فى الثالثة هنـاك الزلازل والفتن وبهـا يطلع قرن الشيطان وأخرج مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله قال وهو مستقبل المشرق رأس الكفر من ها هنـا من حيث يطلع قرن الشيطان ، وأخرج البخارى عن عبد الله ابن عمر أن النبى عليه السلام قام الى جنب المنبر فقال الفتنة هاهنا الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان أو قال قرن الشمس »

ثم ذكر الشيعى بعد هذا أن هذه الأخبار تعنى نجدا بلاد الوهابيين نصا لا تتحمل غير ذلك . وذكر أن بعض الوهابيين قال ان الأحاديث تعنى نجد العراق ذاكرا أن النجد نجدان فأكذب هذا القول مصرا على أن الأخبار تعنى بلاد نجد مبعث هذه الدعوة السلفية وأنها تشير بذلك أي بالزلازل والفتن الى معتقد الوهابيين فيكون هذا القول نصا واضحا من النبى عليه السلام فى ذم هـذه العقيدة وهجائها و بطلانها

ونحن نقول ليس من ريب فى صحة هذه الأخبار ولا في ثبوت ألفاظها عن النبي الكريم ، ولكن الشأن فى دلالتها وفى صحة ما حملها عليه هـذا الرجل ، وفي المزاعم التى انتزعها منها ثم فى النتيجة التى اغتصبها واخترعها من هذه الأحاديث

والكلام هنا فى مقامين : الأول ما هى البلاد التى عناها النبى الكريم بأقواله هذه . والثانى : هل يمكن أن تكون دليلا على ما زعم من ذم العقيدة السلفية

النجدية اذا ما ثبت أن النبي الكريم عنى بأقواله هذه البلاد النجدية المعروفة التي ترعرعت فيها هذه الدعوة وسالت منها فى أطراف المعمورة بعد أن كادت تقضي عليها المحدثات وينساها المسلمون ، وبعد أن تضاءلت فانكمشت فى بقايا صدور حفظها الله من غبار الفتن وبخار الضلال الشامل العنيف

أحاديث ذم المشرق

أما المقام الأول وهو ما البلاد المعنية بهذه الأخبار النبوية ، فنقول : ان الذي ورد فيها هو ذم المشرق مصرحاً به وباسمه أو مشارا اليه مثل قوله هاهنا الفتنة وهو متجه الى الشرق ومشير اليه . والثاني مما ورد ذكر لفظ نجد تصريحا وتخصيصاً إذ قالوا وفى نجدنا يا رسول الله قال هناك الزلازل والفتن . الى آخر الأحاديث . هذا ما ورد اجمالا مما يستدل به على معرفة البلاد المقصودة بهذه الأخبار المذكورة

فيقال أما ذم الشرق إجمالا فلا يمكن ان يكون دليلا على ذم نجد صريحاً يقيناً ولا يمكن أن يكون دليلا على ذم هذه البلاد وذم عقائدها بالضرورة الواضحة . وذلك أن ذم المشرق اطلاقا بلا تعيين ولا تقييد إما أن يراد به كل ما هو مشرق للمدينة المنورة والنبي عليه السلام حينما أشار وقال قوله . وإما أن يراد به جهة واحدة من الجهات الواقعة شرقى المدينة ، وعلى الأول لا تكون هذه الأحاديث فى نجد تعييناً لمعنى يخصها وحدها كالعقيدة السلفية مثلا وانما يكون الذم للمشرق عاماً لمعنى يقوم بالمشرق كله ليس هو العقيدة والدين بلا شك . وعلى الثاني أي على أن الأحاديث تعني جهة من جهات شرقى المدينة جهة غير معينة فلا يمكن أن يكون ذلك أيضاً مراداً به البلاد النجدية تخصيصاً الا بدليل خاص لأن البلاد النجدية مثلا على قول الخصوم قطر واحد من أقطار كثيرة واقعة شرقى المدينة المنورة وليست البلاد النجدية أولى بهذا الهجاء وبهذه الزلازل والفتن من البلاد التي تشاركها فى الوقوع شرقى المدينة وفى الشرق مطلقا إذ لا ريب أن البلاد

النجدية لم يقع فيها من الأحداث التي يصح أن تسمى زلازل وفتناً أعظم مما وقع في الأقطار الأخرى الشرقية باعتراف هذا الرجل كما سوف ترى . وذلك أن بلاداً كثيرة وأقطاراً متعددة هي في الشرق وفي شرق المدينة المنورة . فالعراق مثلا في الشرق وفي شرق المدينة وبلاد العجم منشأ كل البلاء في الشرق أيضاً وكل ما هو شرق العراق وبلاد فارس وبلاد نجد أيضاً هو شرق المدينة صالح أن تكون الأحاديث المذكورة متناولة له ، وهذا لا خلاف فيه ولا ريب . وإذن من الظلم ومما لا يقبل ولا يرضى أن يدعى أن ذم الشرق في الأحاديث النبوية يعني البلاد النجدية لما قام فيها من دعوة مخلصة دون البلدان الكثيرة والأقطار التي هي شرق المدينة وشرق نجد أيضاً وشرق مطلقاً ، وليس هنالك دليل واحد يدل في هذه الأحاديث التي ذكرت فيها الزلازل والفتن يعين البلاد النجدية ويعين أنها المعنية بهذا الهجاء دون البلاد الأخرى التي هي شرق الحجاز

ولو أن مؤرخاً من المؤرخين المنصفين المطلعين على ما وقع في هذه الأقطار من الفتن والزلازل والضلال من أول ما عرف التاريخ تدوين الأحداث الى يومنا هذا أو من أول ظهور الاسلام الى يومنا هذا طرح عليه هذا السؤال : أي هذه الأقطار أكثر انتاجا للفتن والزلازل والضلال ، وأيها أفرس وأجرى في هذا الميدان ميدان الزلازل والفتن والضلالات . وأيها أولى بهذه الأحاديث وما فيها من ذم وهجاء وأيها يصح أن يكون مفسرا لها معنياً بها . أقول : لو أن مؤرخاً عارفا واسع المعرفة منصفاً ألقيت عليه هذه الأسئلة لما استطاع أن يذكر البلاد النجدية في جوابه هذه الأسئلة ، ولو أنه ذكرها لما استطاع أن يقدمها على غيرها من هذه الأقطار الشرقية من جهة الحجاز والمدينة ولما استطاع أن يقول انها أولى بهذه الأخبار من بلاد فارس وبلاد العراق وبلاد التتر الأتراك الذين جاءوا واندفعوا من جهة الشرق فملئوا البلاد بالبغي والفساد وأوسعوا المسلمين إعناتاً

وتقتيلا ورزايا تقطر منها القلوب المؤمنة وصفحات التاريخ الجد دما حتى يومنا هذا . حتى لقد تطاولوا على مقام الخلافة فى دار السلام فصرعوا الخليفة وصرعوا غيره من أركان الخلافة وأركان العلم الاسلامي وزلزلوا عزة الاسلام زلزلة ظلت شرفاته وأركانه من هولها تتساقط الى يومنا هذا تباعا بوساطة واحدة أو بوساطات ذات عدد . وظلت تلك الزلزلة تهز أبراج الاسلام والمسلمين هزات لم تهدأ الى يومنا هذا ولم تفتأ تهد من معاقل الاسلام ودوره ما تهد والله شهيد على هذا وشهيد على أن الشيعة ورجال الشيعة البارزين كانوا إذ ذاك أعوانا لهؤلاء الطغاة المدمرين ودلا"لا لهم على الاهتداء الى ثغور الاسلام ، حتى صنعوا ما صنعوا من الآثام والفضائح بالخليفة والخلافة والعلماء ورجال الدولة العظماء . اذن من الظلم المبين الذي لا يجرؤ عليه محب للعدل والانصاف والحق والذى لا يرضاه لنفسه المؤمن بالله أن يزعم أن النبى الكريم إذا ما ذم المشرق لضلال وزلزال يحدث فيه يقال انه يعنى بذلك الذم البلاد النجدية دون الشرق كله ودون بلاد فارس وبلاد العراق وبلاد التتر وما يقع شرق ذلك من البلاد والأقطار

ومما يدل على قولنا هذا ومما يفسر هذه الأحاديث ما رواه مسلم فى صحيحه عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه قال لجماعة من أهل العراق : « يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة . سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : ان الفتنة تجيء من ها هنا وأومأ بيده نحو المشرق حيث يطلع قرن الشيطان ، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض ، وانما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله له « وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا »

هذا وأغلب روايات هذا الحديث تدور على عبد الله بن عمر ، وكذا الحديث الذى فيه ذكر نجد نصاً ، فكأن هذه الأحاديث حديث واحد قيل في مكان واحد

وحادثة واحدة وقد فسره هذا الحديث بما سمعت ، وهذا النص احدى روايات الحديث فهو يفسر باقى الروايات

وقال الحافظ ابن حجر فى كتابه فتح البارى شرح صحيح البخارى [1] فى شرح قوله عليه الصلاة والسلام رأس الكفر نحو المشرق : « وفى ذلك إشارة الى شدة كفر المجوس لأن مملكة الفرس ومن أطاعهم من العرب كانت من جهة المشرق بالنسبة الى المدينة وكانوا فى غاية القوة والتكبر والتجبر حتى مزق ملكهم كتاب النبى عليه الصلاة والسلام كما سوف يأتى فى موضعه . واستمرت الفتن من قبل المشرق كما سوف يأتى بيانه واضحاً فى الفتن » ثم قال فى كتاب الفتن (الجزء الثالث عشر ص ١٠) بعد قوله عليه الصلاة والسلام اني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر : « وانما اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضى الله عنه كان بها ثم انتشرت الفتن فى البلاد بعد ذلك . فالقتال بالجمل وصفين كان بسبب قتل عثمان والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين . وكل قتال وقع فى ذلك العصر انما تولد عن شيء من ذلك أو عن شيء تولد منه . ثم ان قتل عثمان كان أشد أسبابه الطعن على امرائه ثم عليه بتوليته لهم . وأول مانشأ ذلك من العراق وهي من جهة المشرق فلا منافاة بين حديث الباب وبين الحديث الآتى ان الفتن من قبل المشرق »

وبعد هذا نقول : ما أعجب أمر الشيعة وما أغربه ! تارة يدعون أن هذه الأحاديث النبوية تعنى بالمشرق الذى يخرج الزلازل والضلالات والفتن البلاد النجدية كما قال هذا الشيعى ، وتارة يزعمون أنها تعنى بذلك العراق مطلع الخوارج الذين خرجوا على الامام على وقاتلوه وأكفروه ومطلع الحجاج وغيره . وتارة يقولون ان الأحاديث تشير الى أم المؤمنين وزوج النبى الكريم السيدة عائشة

---

(١) الجزء السادس ص ٢٢٠

رضى الله عنها وان الاشارة نحو المشرق كانت الى حجرتها وبيتها انباء عما سوف تمنى به الاسلام والامام من الضلال والفتن والخروج والقتال إذ قاتلت عليا وجنده

قال المجتهد الشيعى النجفى الشيخ جعفر ابن الشيخ خضر فى كتاب كشف الغطاء وهو من كتب الشيعة المرجوع اليها (ص ١٧) : « المثالب الثابتة للصحابة التى تأبى الاسلام فضلا عن الايمان والعدالة كثيرة لا يمكن حصرها » ثم قال (ص ١٩) : « روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال : قام النبى عليه الصلاة والسلام خطيبا فأشار نحو مسكن عائشة وقال الفتنة تخرج من هنا قالها ثلاثا حيث يخرج قرن الشيطان وروى البخارى قال خرج النبى من حجرة عائشة وقال رأس الكفر من هنـا من حيث يطلع قرن الشيطان ، وان كتب الامة مملوءة من ذم عائشة وذم أبيها بأحاديث النبى عليه الصلاة والسلام [1] فهذا مايقوله المجتهد الشيعى الشيخ جعفر ابن الشيخ خضر فى تفسير هذه الأخبار النبوية وكذا قال صاحب كتاب (رسالة الشيعة) وفى المكان المعنى بها الذى تنشأ منه هذه الزلازل والاحداث وأسباب الشيطان وذلك المكان هو بيت السيدة عائشة الذى كان مهبطا لوحى الله وقرآنه ودينه بوساطة سيد الملائكة جبرائيل عليه السلام والذى كان يتلقى فيه محمد عليه الصلاة والسلام رسالة ربه وآيات كتابه وشرائع السماء . وذلك الذي ذكرناه آنفا هو مايقوله المجتهد الشيعى الآخر الشيخ محسن الأمين العاملى فى تفسير هذه الأحاديث وفى المكان المعنى بهـا ، وهذا المكان على تفسير هذا المجتهد هي البلاد النجدية التى أطلعت هذه الدعوة المخلصة السلفية النقية التى تطالب أهلها بالرجوع الى هدى السيدة عائشة وهدى أبيها وهدى سائر السلف من الصحابة ومن بعدهم الذين تزعم الشيعة ان المثالب الثابتة لهم لا تحصر لكثرتها ووفورها . فاى هذه التفاسير الحق

---

(١) انظر كتاب الوشيعة ص ١٦

الصحيح ياقوم . وأى هذه الأقوال ماعناه النبى الكريم أيها الناس . وأى الامامين المجتهدين الشيعيين المصيب فى ماقال وما اختار . وأيهما المحروم من لقاء الحق والحقيقة فى هذه الأقوال النبوية الصحيحة ؛ فانه ان كان المعنى بالأحاديث البلاد النجدية كما يقول الشيخ محسن الأمين العاملي في كتاب « كشف الارتياب فى اتباع محمد بن عبد الوهاب » لم يصح ماقاله الشيخ جعفر ابن الشيخ خضر فى كتاب « كشف الغطاء » وان صح ما قاله الشيخ جعفر خضر فى أنهما تشير الى بيت السيدة عائشة لم يصح ما قاله الشيخ محسن الأمين العاملي . فاذا صح أحد القولين بطل الآخر واذا ما أصاب أحد الشيخين أخطأ الآخر إلاأن يزعموا أن الاحاديث تشمل هذا وهذا بمعنى أنها تعنى البلاد النجدية وبيت السيدة عائشة بالذم والهجاء فاذا زعموا هذا الزعم قلنا لهم إن لنا الشرف الأعظم والفضل المبين أن نجمع نحن والسيدة عائشة بنت الصديق الأكبر وزوج النبى الكريم فى خبر أو أمر من الأمور ، واننا نسأل الله أن يجعلنا من حزبها وأوليائها وجلسائها فى دار الجزاء وفى هذه الحياة الدنيا ونبرأ الى الله من خصومها وممن استطابوا ثلبها والوقيعة فيها

هذا جواب الاحاديث التى فيها ذم المشرق اطلاقا وتعميما . وأما الجواب عن الاحاديث التى فيها ذكر نجد بالاسم ، فنحن ندع الجواب عن هذا للحافظ ابن حجر المحدث المصرى الشافعى الشهير فى كتابه فتح البارى وللامام الخطابى ولصاحب القاموس . قال الحافظ ابن حجر فى كتابه فتح الباري (الجزء الثالث عشر صفحة ٣٦) :

« كان أهل المشرق يومئذ أهل كفر . فأخبر النبى أن الفتنة تكون من تلك الناحية فكان كما أخبر . وأول الفتن كان من قبل المشرق فكان ذلك سببا للفرقة بين المسلمين وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به . وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة . قال الخطابى : نجد من جهة المشرق ومن كان بالمدينة كان نجده بادية

العراق ونواحيها وهي مشرق أهل المدينة . وأصل النجد ما ارتفع من الأرض وهي خلاف الغور فانه ما انخفض منها ، وتهامة كلها من الغور ومكة من تهامة . انتهى . وعرف بهذا وهاء ماقاله الداودي إن نجداً من ناحية العراق فانه توهم أن نجدا موضع مخصوص ، وليس كذلك بل كل شيء ارتفع بالنسبة إلى مايليه يسمى المرتفع نجدا والمنخفض غورا » انتهى كلام ابن حجر .

وقال في القاموس : « النجد ما أشرف من الأرض . الجمع أنجد وأنجاد ونجود ونجد . والطريق الواضح المرتفع وما خالف الغور أي تهامه وتضم جيمه مذكر [1] . أعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام وأوله من جهة الحجاز ذات عرق »

هذا جواب المقام الأول من المقامين وهو الكلام في تعيين البقعة المعنية بهذه الأحاديث . وأما المقام الثاني وهو بعد التسليم بأن هذه الأحاديث تشير الى البلاد النجدية المعروفة ، فهل تدل على بطلان العقيدة السلفية القائمة فيها اليوم ، التي يدعوها هـذا الشيعي بالمذهب الوهابي ؟ هذا ما سوف نتكلم عليه هنا .

فنقول : لنفترض أن هذه الأحاديث نص صريح في ذم البلاد النجدية ، ونص صريح في أنه منها تخرج الفتن والزلازل وقرون الشياطين بل والشياطين أنفسهم : لنفترض هذا كله . ولـكننا نقول إن هذا لايدل على فساد هـذه العقيدة المترعرعة في تلك البقعة من الأرض بالمنطق السليم الواضح . والدليل على ذلك أمور :

أولها ــ هذه الأخبار إما أن تدل على ذم جميع المعتقدات التي وجدت والتي

---

(١) قد جاء في شعر العرب تذكير نجد وهو الاكثر وتأنيثها وقد جاء هذا في الشعر العربي خلافا لمن أنكر التأنيث

سوف توجد فى هذه البلاد فى كل زمن وعلى كل حال . وإما أن تدل على ذم بعض هذه العقائد لا كلها . بمعنى أنها لاتعنى بطلان جميع المعتقدات هنالك بل تذم نوعا خاصا منها . أما الافتراض الاول فليس بممكن أن يكون صحيحا . إذ لا يمكن أن يدعي انسان أن كل العقائد التى يدين الله بها أهل البلاد فى جميع الاوقات مهما اختلفت وتضاربت باطلة فاسدة ومردودة غير مقبولة . هذا ما ليس بممكن وإن المخالف نفسه لا يستطيع أن يدعيه لأنه يزعم أو لابد أن يزعم أن العقائد النجدية كانت صحيحة سليمة لا عوج فيها ولا ضلال قبل طروء هذه الدعوة التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأيقظها فى الجزيرة العربية منذ مائتى عام تقريباً ، ويزعم هذا المخالف أن الذى أفسد عقائد النجديين أو أن الفاسد منها هو هذه الدعوة الجديدة وصاحبها ويزعم أن أهل نجد كانوا قبل ذلك منذ أكثر من مائتى عام راشدين مسلمين مؤمنين ويزعم هو وغيره من المبتدعين أن أهل الشيخ محمد ابن عبد الوهاب صاحب هذه الدعوة كابيه وأخيه وغيرهم كانوا سليمى العقيدة غير فاسديها لأنهم كانوا يرفضون الدعوة ويزعمون أنهم كانوا ناقمين من الشيخ محمد ومن دعوته ومن ناشريها حتى ألفوا الكتب فى الرد عليه وعلى دعوته كما صنع أخوه الشيخ سليمان واعتمد هذا الشيعى على ما كتبه هذا الأخ فى مواضع من كتابه . فهذا الافتراض إذن لا يمكن أن يدعى ولو ادعى ما أمكن أن يكون صحيحاً ولا مقاربا للصحيح . فلم يبق إلا الافتراض الثانى وهو أن يكون الذم فى هذه الأحاديث صائراً الى بعض العقائد النجدية لا إليها كلها . وهذا لا يمكن أن يزعم أحد لا المخالف ولا غيره بطلانه واذا كان ذلك كذلك أى اذا كانت هذه الأخبار دليلا على ذم بعض العقائد النجدية إطلاقاً بلا تعيين ولا تعريف فكيف علم المخالفون أن المذموم هو هذه الدعوة لا ماخالفها من المبتدعات ؟ ومن أين جاءهم أنها هى الباطلة المهجوة دون سواها ؟ ولماذا لا يكون غيرها أعنى المخالف

لما أعنى مايدعو اليه هؤلاء هو الفاسد الباطل المهجو ؟ لا ريب أن المخالف لادليل له على دعواه أن هذه الدعوة هى المذمومة نصا بهذه الأخبار . ولا ريب أنه لابد من الدليل وإلا كانت الدعوى باطلة مردودة ولا كرامة . ونحن نستطيع أن ندعى وأن نقول إن هذه الأحاديث دليل على بطلان ماخالف هذه الدعوة السلفية ودليل على فسادها خلاف ماادعى المخالفون فنزعم أن الأخبار تشير الى ذم تلك المعارضة الأثيمة التى وقفت فى وجه هذه الدعوة السلفيه النقية فى أول أمرها يوم أن ذرت شمسها من وراء تلك الصحراء تلك المعارضة التى دبرها أولئك الخصوم ثم هؤلاء الخصوم ، والتى سوف يلحقهم وزرها فى الدنيا ويوم يبعثون ، وليست تشير الى ذم هذه الدعوة نفسها بل هى تشير الى امتداحها والثناء عليها من هذا الطريق وبهذا النحو الذى ذكرنا . فان الدعوة قد لقيت مقاومة شديدة واهوالا مزعجة فى بدء أمرها الى يومنا هذا الى مايشاء الله من أهل البلاد أنفسهم من أولئك الذين نشئوا على هذه الأمراض الاعتقادية السخيفة التى يدعو اليها هذا الشيعى ويدعى جهرة أنها من صميم الاسلام ومن مصاصة التوحيد

فما المانع من أن يراد بالزلازل وبالفتن ويقرن الشيطان الطالع فى هذه الاخبار مقاومة هذه الدعوة ومناوأتها والقيام فى سبيلها وسبيل انتشارها وظهورها . هذا يمكن أن يقال بلا ريب . واذا ما قيل فلن يستطيع المخالف أن يجد له ردا أو مردا ، لأنه ليست دعواه العكس أولى وأصح وأحق بالقبول والرضاء والبرهان . والدعويان من هذه الناحية — مع الاغضاء عن القرائن الاخرى الخارجة — سواء لا تقدم إحداها على الأخرى إلا ببرهان جلى . فاذا ما ادعى المخالف أن الدليل على أن الأحاديث لا تعنى سوى ذم هذه الدعوة الوهابية بمعنى أنها تشير الى بطلانها وفسادها ، قلنا له هذا هو محل النزاع ومعترك الآراء . فان أصل دعواك أن هذه الدعوة السلفية باطلة مخالفة لدين الاسلام . فاذا ما أثبت هذا لم تحتج الى

هذه الأحاديث لاثبات بطلان هذه الدعوة. غير أننا ندعى بحق وصدق ولا شك أن هذه الدعوة ليست سوى الاسلام قبل أن تشوبه الشوائب ويهدى اليه الدخيل الغريب الضال

وقد ذكرنا دلائل متنوعة على ذلك وسوف نذكر غير ما ذكر إن شاء الله.

واذا ما ثبت أن هذه الدعوة هى الاسلام نفسه نقيا خالصا من الدخيل والغريب الممقوت فلا ريب فى أن هذه الأحاديث النبوية لا يمكن أن تعنيها وأن تكون مشيرة الى ذمها وهجائها. وعلى ذلك لا ريب أنها تشير الى ذم ما خالفها وما لم يكن منها ولا بأمرها. وعليه لا مانع من أن الأحاديث تشير الى ذم تلك المقاومة الطاغية التى لقيتها الدعوة، والى تلك المناوأة الظالمة التى ابتدأتها بالصدام والخصام: هذا كله يمكن أن يقال ويمكن أن يصح نظراً وبحثاً. وليس ما زعم الرافضى المخالف أولى منه بالقبول والتسليم، ولا أظهر فى عين الحجة والدليل. وما كان كذلك لن يكون حجة ولا دليلا له إلا أن يكون دليلا وحجة عليه، فاما أن يكون عليه وله ان أمكن ذلك ولكنه غير ممكن، واما أن يكون عليه فحسب، واما أن يكون له لا عليه فلا يمكن دليلا ونظرا لما سمعت

فهذه الأحاديث لا دليل له فيها ألبتة ولا يستطيع أن ينتزع منها شبهة يمكن أن تروج وأن تجوز على غير الجاهلين والمقلدين الذين لم يوهبوا ملكة التفريق بين الصحيح والمريض والحق والباطل والظلام والنور

(ثانيها) قد جاءت نصوص الدين ذامة لبعض البلاد إجمالا ذماً إن لم يكن مثل ما فى هذه الأحاديث التى يدعون أنها فى البلاد النجدية فليس دونه وليس أقل منه.

فجاء فى القرآن الكريم قول الله: «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون»

وليس من شك أن هذه القرية ليست فى البلاد النجدية وقد قيل إنها هى مكة المكرمة فهى التى كفرت بأنعم الله برسالة محمد عليه السلام وما جاء به من الهدى والنور ومجد الدنيا والاخرى ، ولا ريب فى أن الآية أشد لهجة ذم من الأحاديث وقال تعالى « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم إلا تكذبون » الى آخر الآيات وليس من شك فى أن هذه القرية ليست فى نجد. وقال تعالى « سأريكم دار الفاسقين » والخطاب لموسى وقومه ، ولا خلاف فى أن دار الفاسقين فى هذه الآية الكريمة ليست البلاد النجدية وليست منها بل لقد عم الله البلاد كلها بالتفنيد والتقريع بعد أن خص كل قرية وأهلها بذلك فقال « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ـ الى قوله ـ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون »

والآيات فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى كثيرة معلومة . وكذلك جاء أيضا فى السنة وفى مقالات الصحابة ومقالات من تعدهم الشيعة معصومين لا ينطقون إلا صوابا وحقا ذم بعض الأقطار وهجاؤها تخصيصاً مثل هذه الأحاديث المدعى أنها فى البلاد النجدية ، فروى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد قال : أشرف رسول الله ﷺ على أطم من آطام المدينة فقال : هل ترون ما أرى ؟ قالوا لا ، قال « فانى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر » وهذا فىالمدينة المنورة ، وهناك أحاديث أخرى . وقد تقدم ما رواه الامام مسلم فى صحيحه عن سالم بن عبد الله بن عمر أنه قال : يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة . سمعت أبى عبد الله ابن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو يشير نحو المشرق : « الفتنة من هاهنا » وهـذا فى العراق . وفيه أحاديث أخرى كثيرة منها أحاديث الخوارج

وغيرها ، وفى كتاب نهج البلاغة ـ وهو من الكتب الشيعية المزعوم اتصال نسبها بالامام على رضى الله عنه ـ أن علياً كتب لعبد الله بن عباس يقول : « واعلم أن البصرة مهبط إبليس ومغرس الفتن » وفى نهج البلاغة أيضا عبارات قاسية شديدة فى ذم أهل العراق وفى ذم شيعة على والزراية بهم ، والشيعة تدعى أن علياً قال ذلك كله . وفى كتاب الوشيعة : « وفى الكافى (٢ : ٣٩٦) وفى كتاب التهذيب (٢ : ١٥) أن بعض الناس قال للصادق أحد أئمة الشيعة : أأنزل مكة ؟ قال : لاتنزل ، أهل مكة يكفرون بالله جهرة . قال : أأنزل فى حرم النبى ؟ قال هم شر منهم ، أهل المدينة أخبث من أهل مكة سبعين ضعفاً ، عليك بالعراق بالكوفة ، أهل الشام شر من الروم ، والمخالف شر من سائر الكفار ، لعنة الله عليهم وعلى أسلافهم » الى غير ذلك من هذا الصنف ، واذا ما كان ذلك كذلك وكانت سائر البلاد قد ذمت تخصيصاً وأضيفت اليها أنواع خاصة من الكفر والضلال والفتن ، وكانت المدينة المنورة دار الاسلام ودار النصرة ودار الهجرة قد اقتحمتها الفتن وسالت اليها وابلا ورذاذاً فى حالات مختلفة ، وأخبر عن ذلك النبى ﷺ وأرى ذلك يتساقط بين بيوت أصحابه من المهاجرين والأنصار كتساقط المطر الهاطل ، وكان هذا كله قد وقع ، ثم اذا ما كانت مكة والشام التى دعا لها النبى الكريم ، وكانت جميع بلاد المخالفين للشيعة هي مأوى للضلال والكفر ومغرس الشر والجبت والحيدة عن الصواب الواضح المتبلج ، وكانت الكوفة مهبطاً من مهابط الشيطان ومغرسا من مغارسه التى ثمرها الشياطين الصغار والكبار . إذا كان ذلك كله واقعاً لاريب فيه باعترافات الشيعة وبنقل كتبهم المعتمدة الصحيحة لديهم ، فلماذا يتخذ ما ورد فى البلاد النجدية ـ اذا ما افترض وروده ـ من هذه النصوص أمراً صريحاً فى ذم نجد وأمراً صريحاً فى ضلالها وضلال أهلها وبطلان عقائدهم واختصاصهم بمزيد الضلال والفتن والمخالفة ؟

و لماذا لم تتخذ هذه الآيات وهذه الأحاديث التي وردت في البلاد الأخرى برهانا على ضلال أهل تلك البلاد وفساد عقائدهم ومذاهبهم وما ينتحلون ؟ ولأى أمر كانت الأحاديث الواردة في نجد حجة على أن النجديين أهل ضلال وفتن وعقائد باطلة فاسدة ولم تكن تلك الآيات والاحاديث والروايات عن الأئمة المعصومين لدى الشيعة الواردة في مكة والمدينة والعراق والكوفة ومصر والشام والبلاد الأخرى حجة على أن أهل هذه البلدان أهل ضلال وفتن وزيغ وخروج على شرع الله وطريقة رسوله والمسلمين والمهتدين ؟ ولماذا لم تكن هذه الآيات والاحاديث والروايات دلائل على اختصاص أهل هذه الأقطار بالضلالات والكفر وعصيان الله العظيم . كما كانت الاحاديث التي زعمت نصاً في ذم البلاد النجدية برهانا عندكم على اختصاص النجديين وولعهم بالضلال والعقائد الباطلة ؟ إن الجواب الذي لا يكون غيره جوابا القول بذم هذه الأقطار جميعا وهجائها جميعا والاعتراف بأنها مطرح الفتن وملاعب الشياطين ومطالع قرونهم جميعا لافرق بين حجازها وعراقها وشامها ومصرها ويمنها ونجدها وغورها وتهامها كل على قدر مافيه من هذا الضلال وهذا العصيان أو الاعتراف بأن اضافة ذلك الى البلاد النجدية تخصيصاً ضلال وظلم وهوى متمرد : اما إفراد البلاد النجدية بالمذمة والملامة دون هذه البلدان الاسلامية ــ وقد جاء فيها باعترافكم وعن أئمتكم من الذم والقادح أضعاف ما جاء من ذلك في البلاد النجدية ــ فهو صنع من لايحترم الحق ولا القراء ومن لايرجو لله وقارا ولا يخاف له مقاما

فالنتيجة التي نخرج بها من هذا ويخرج بها القارىء هي الاعتراف بأنه لم يجىء في البلاد النجدية على كل الافتراضات والوجوه ذم يختصها دون سائر البلدان الاسلامية ، وانه ان لم تفضلها البلاد بهذه المعاني معاني الضلال والفتن وقرون الشياطين فلن تفضلها هي

هذا اذا نظرنا الى الروايات والنقل مغضين عن الأمر الواقع المشهود . لأن الكلام مع هؤلاء هكذا فرض وكذا كان . أما اذا مانظرنا الى الأمر الواقع المشهود فاننا لانرضى بهذا الحكم وهذه التسوية اليوم ، ولا يرضاها أحد من ذوى الصدور البريئة من الحقد والهوى . فان انسانا يعقل وينصف لايستطيع أن يدعى أن فى البلاد النجدية اليوم مثل مافى سائر البلدان الاسلامية الأخرى من الافتتان واتباع الشيطان ومن الزلازل المعنوية والمادية ومن العقائد الملحدة الفاسدة هذا مالا يمكن أن يدعيه منصف وان فرض فى نجد مافرض من هذا بل وان بولغ فيه

والذى نريد أن ندعيه ونزعمه هو الاعتراف بأن جميع الأقطار المأهولة الاسلامية وغير الاسلامية قد رتعت وسوف ترتع أيضا فى أنواع كثيرة من الضلال والعصيان والخروج على قانون الله وعلى العدالة وعلى الشرع وعلى كل فضيلة منها المقل ومنها المكثر فى أوقات مختلفة وفترات من الزمن متعاقبة منها الطويل ومنها القصير ومنها البارز الجلى ومنها المستور الخفى ولكن ذلك لا يعنى الدوام والملازمة فى كل الأوقات وجميع الحالات ولا يعنى أن ذلك لاينفك عن القطر الذى وقع فيه فان الاخلاق والاعمال والعقائد وكل شيء دول تتعاقب الطيب يتلو الخبيث والخبيث يتلو الطيب ، والباطل يتلو الصحيح والصحيح يتلو الباطل ، وهكذا كل شيء . فالناس وأنفسهم لايبقون على حالة واحدة ووتيرة منتظمة . فلا ينعمون بطاعة الله وهداه أبدا كما لا يرتطمون بعصيان الله وبالضلال أبدا ، ولكن مرة ومرة وحالة بعد حالة : ميل ثم اعتدال واعتدال ثم ميل هدى فهوى وهوى فهدى والله يفعل مايشاء ويهدي من يشاء كما يضل من يشاء ، وعلى هذا المعنى نعترف لهم أن نجدا وكذلك جميع البلدان المعمورة قد وقعت فيها الفتن المدمرة ووقع فيها أنواع وأفانين من الضلال وطاعة الشيطان ، وهذا لا ينازع ولا يمانع ، ولكن الذي نأباه ونمنعه هو زعم هؤلاء المغموسين فى الاهواء المقوتة

أن هذه الدعوة التى طهرت البلاد من أسباب الفتن والضلال والفوضى والعدوان والمجاهرة بالآثام وعبادة الاحجار والاشجار وسائر ما هنالك هى ماعنته هذه الاحاديث وما دعته بالفتن والزلازل . هذا مانأباه وما يأباه المنصفون معنا

(ثالث الأمور) : نقول لايمكن البتة أن تكون هذه الأخبار تشير الى ذم هذه الدعوة الاصلاحية وبيان ذلك أن هذا الشيعى وجميع المخالفين يدعون أن واضع هذه العقيدة الأول وباذر بذورها هو شيخ الاسلام ابن تيمية ثم حواريوه الذين أخذوا عنه هذه المعارف والعقائد كابن القيم وابن عبد الهادي ونظرائهما ويدعى هذا الشيعى تبعا لغيره أن هذه الدعوة لم تكن معروفة قبل ابن تيمية وحوارييه فى الاسلام ويدعون أن هؤلاء هم الذين وضعوا هذه العقيدة وهم الذين جلوها وهذبوها ونشروها وحشدوا لها أنواع الدلائل والشبهات من القرآن والسنة والمعقولات ، وهم الذين ألفوا فيها الكتب والرسائل الكثيرة المختلفة ودعوا الناس بشدة وصرامة وإقدام اليها حتى أجابهم قوم وثار بهم الباقون وعذبوهم وسجنوهم واستتابوهم . ثم يدعون أن حدوث هذه الدعوة فى البلاد النجدية طارىء جديد غريب منذ مائتى عام بسعى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ناشر هذه العقيدة فى بلاد العرب ، ويدعون أن الشيخ محمداً والنجديين كلهم بل وكل من يدين لهذه العقيدة وكل من ينعم بها ويرتضيها إنما ارتشفوا ذلك كله ارتشافا من هذا الرجل ونقلوه نقلا تاما بلا زيادة ولا نقصان ولا استدلال من كتبه وكتب أنصاره الأبرار . وقد ألفت هذه الكتب منذ ستمائة عام على وجه التقريب

هذا ما يقوله هؤلاء كتابة ومشافهة . فنقول لهم نحن حينئذ لاخلاف فى أن شيخ الاسلام ابن تيمية وأعوانه المشهورين الذين وقفوا معه حياتهم على نشر هذه المبادىء كانوا جميعا شاميين مولداً ومنشأ ومستقرا ووفاة ، وأن دعوتهم هذه أول ما قاموا بها كانت فى الشام وأنها هناك نشأت وظهرت وانتشرت ، وأنها عرفت

فى الشام ودانها أهل الشام قبل أن تعرف فى نجد وقبل أن يدينها النجديون ، وأن الناس نقلوها عن مولدها الشام قبل أن تنقلها البلاد النجدية بأعوام ، ولكن بشكل لم يكن منظما وعاما ومجديا مثلما كان فى البلاد النجدية بفضل آل سعود الذين هبوا لنصرتها ونشرها وتوسيع نطاقها باللين والشدة

فهذه الدعوة كانت شامية كما ترى قبل أن تكون نجدية ، بل انها ما أتت البلاد النجدية على قول هؤلاء المخالفين إلا من طريق الشام ومن كتب شيخ الاسلام وتلامذته الأبرار ، فاذا ما كانت هذه الدعوة شامية قبل أن تكون نجدية واذا ما كان رجالها وواضعتها القدامى كما يقول المخالف شاميين وكانت عنهم عرفت وأخذت كما جاءوا بها بلا تصرف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان ، وكان رجالها العظيم الذى ألف الكتب القوية الحية فى نصرتها والدفاع عنها والدعوة اليها شاميا ، وكان الناس الى اليوم يصدرون عن هـذه الكتب الشامية التيمية وبها ينتفعون ويحتجون اذا كان ذلك كله صحيحا وكانت هذه الدعوة فتنة وضلالا كما يزعمون أفلا يكون من الانصاف حينئذ والصواب أن يدعو رسول الله ﷺ على الشام ، وأن يمتنع من الدعوة لها لأنها هي التى أخرجت هذه الدعوة ، وهي التى فتنت الناس بها ومنهم النجديون كما يزعم الشيعى . أفلا تكون حينئذ البلاد الشامية أولى بالمذمة والملامة والهجاء والتوقف عن الدعوة لها من البلاد النجدية لأن الشام هى التى أخرجت هذه الدعوة ونصرتها قبل نجد ، بل هى التى وضعتها ودعت الناس اليها حتى أجابها النجديون وغيرهم من أفراد الرجال وغربائهم

واذا كانت الزلازل والفتن المشار اليها بالاحاديث المتقدمة هي هذه العقيدة وكانت البلاد التى عناها النبى الكريم بقوله هي البلاد النجدية فكيف يكون الحديث النبوي هكذا : اللهم بارك لنا فى شأمنا وفى يمننا . قيل وفى نجدنا ، قال هناك الزلازل والفتن وهناك قرن الشيطان ، بل كان يجب حينئذ أن يمتنع من الدعاء

الشام ويأباه قائلا هناك الزلازل والفتن وهناك قرن الشيطان قبل أن يقول هذا فى البلاد النجدية اذا ما كان المعنى هو ما يقوله المخالفون . وهذا ما لا ريب فيه ولا إحجام عنه

وكذا يقال لو كانت الفتن هنا والزلازل هى هذه العقيدة السليمة وكان المعنى بذلك هى البلاد النجدية لأبى الدعاء أيضاً لليمن ، وذلك لأن الشيخ الصنعانى والشوكانى يمنيان ، وهما من وضعة هذه العقيدة ومن المؤلفين فيها الحاملين على ما خالفها أشد الحملات ، وما كتباه فيها مطبوع مقروء منشور . ومما كتباه كتاب « تطهير الاعتقاد من أدران الالحاد » وكتاب « الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد» وقد كانا معاصرين لشيخ الاسلام محمدبن عبد الوهاب وكانا قائمين بنشر الدعوة والدعوة اليها فى بلاد اليمن حينما كان شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب قائما بنشرها والدعوة اليها فى بلاد نجد . وهذا الشيعى يعترف فى كتابه هذا أن الصنعانى كان من وضعة هذا المذهب ويتعرض للرد عليه أحيانا فى كتابه . فاذا كان هذا كله صحيحاً فلماذا خصت البلاد النجدية بهذا الذم دون الشام وهى منشأ هذه الدعوة ودون اليمن وقد كانت من مناشىء هذه الدعوة . والناس الى عصرنا هذا يقرؤن ما كتبه الصنعانى والشوكانى فى هذه المباحث العليا ــ وهما يمنيان ــ وينتفعون بما كتباه ؟ انه لو كان حقا كلام الخصوم لامتنع النبى الكريم من الدعاء لهذه الأقطار الثلاثة الشام واليمن ونجد ، ولدعا عليها كلها وحدث عنها وعن فتنها وزلازلها وقرون شياطينها كلها ، ولا بتدأ بالشام وخصها بمزيد ذلك وأوفره وأكثره ثم ثنى بنجد أو باليمن ثم ثلث بثالثهن ، ولما كانت نجد شر الثلاث ولما كانت سوى حديأها . هذا وليذكر هذا الشيعى أن الشآم قبل أن تكون مقر شيخ الاسلام ابن تيمية باذر بذور المذهب الوهابى كما يقول ومقر تلامذته كانت مقر معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ويزيد بن معاوية وسائر ملوك الدولة

الأموية ، ومعاوية هو الذى قاتل عليا وقتل من أصحابه وشيعته فى الحرب التى قامت بينهما الخلق الكثير ، ويزيد هو الذي قتل السبط الشهيد الحسين بن على بن بنت رسول الله ﷺ كما يقولون واستباح المدينة المنورة وفعل بأهلها الأفاعيل العظام ، ومع هذا كله ومع غيره يدعو رسول الله ﷺ للشآم ثم تزعمون أنه عليه السلام يخص البلاد النجدية بالمذمة والملامة ويصفها تخصيصا بالفتن والزلازل وكثرة الشياطين ، ولا يمكن أن تعتقد الشيعة أن الوهابيين مهما غلوا فى الضلال وقتل المسلمين ومهما ابتدعوا من الفتن والزلازل يعدلون في ذلك معاوية بن أبى سفيان ويزيد بن معاوية وعمرو بن العاص أو عبد الملك بن مروان أو غيرهم من خلفاء الأمويين فكيف بهم مجتمعين ، وكيف بهم منضمين الى شيخ الاسلام ابن تيمية وتلامذته وما جاءوا به من الزلازل والفتن على رأى الشيعة ، لا ريب أن شيعيا واحداً لا يمكن أن يدعى أن الوهابيين أولى بالمذمة والملامة من هؤلاء كلهم : الأمويين والتيميين ، ولا يمكن أن يدعى أن الضلال والفتن والزلازل التى وقعت فى البلاد النجدية أعظم وأكثر من الزلازل والفتن التى خبطت فيها البلاد الشامية بسبب الأمويين والتيميين . فلا يمكن على ما ذكر أن تكون البلاد النجدية أخلق بالهجاء وبالتجريح من الشآم لدى الشيعة . ولا يمكن أن تكون فتنها وزلازلها أولى بالتحديث عنها والتحذير منها من زلازل الشام وفتنها . هذا ما لا ينازع فيه الشيعة فما يصنعون ؟

ليفكر فى هذا جيداً هؤلاء المخالفون مجانبين الهوى والتعصب الذميم ، فانى زعيم حينئذ بأن القوم سيغيرون آراءهم وعقائدهم فى هذه الدعوة السلفية والفكرة الاسلامية البريئة من المبتدعات المرذولة

وبعد هذا نقول : إن الفتن والزلازل فى هذه الاخبار لا يراد بها العقائد والآراء سواء أكان مقرها البلاد النجدية أم غيرها من البلدان . وإنما يراد بها الحروب

والاضطرابات والمصائب الآكلة الشاربة . ولا نزاع أن البلاد النجدية خبطت كثيرها فى حروب واضطرابات دامية لا يرضاها الشرع ولا يرضاها النجديون أنفسهم . ولكن هذه الدعوة السلفية الوهابية هى التى قضت على هذه الفتن والاضطرابات والقلاقل وهى التى وترت أسبابها ووسائلها باستئصال ومهارة وأذاقت تلك البلاد طعم الأمن والاستقرار والهدوء والراحة وألبستها عصوراً مختلفة لا تزال كذا إلى اليوم وإلى الابد إن شاء الله لباس الأمن والايمان والاسلام والسلام . فهذه الدعوة ليست فتنة ولا زلزالا وإنما هى خصم ذلك ومحطمته ومبدلته بما يتمتع به أهل تلك البلاد اليوم وقبل اليوم وما بعد اليوم من الطمأنينة الشاملة والاستقرار الخاطر فى كل مكان وفى كل شيء . فهذه الأحاديث على افتراض أنها تعنى البلاد النجدية مستقر هذه الدعوة السلفية لا تعنى بالفتن والزلازل هذه العقيدة بل ولا غيرها من العقائد والآراء الصحيحة والباطلة . ولكنها تعنى الحروب والاضطرابات والمصائب الغاشمة . ولا ينازع أحد فى حدوث هذا المعنى فى جميع الأقطار ومنها البلاد النجدية . ولكن شيئا من ذلك لا يعنى فساد العقيدة التى تقع فى البلدة التى وقعت فيها الحروب والقلاقل ، وهذا ظاهر

وبما ذكرنا هنا يعلم أن من الباطل القوى الصارخ الزعم أن هذه الأحاديث تدل على فساد هذه العقيدة الخالصة لله حتى لو افترضنا أن الأخبار تشير الى البلاد النجدية إشارة صريحة واضحة . وبهذا يعلم وينادى بفشل هذه الحجة وإفلاسها السرمدى الأبدى وقد عنيت بعض العناية ببيان هذه المسألة وهذه الأحاديث لأن أقواماً كثيرين يرددون هذه الشبهة ويكثرون من ترديدها ويطربون لها أشد الطرب ، ومن شدة طرب المخالفين وإعجابهم بها أنه يقل أن تجد من يكتب فى هذا الموضوع فلا يتخذ هذه الشبهة حجة من حججه وسلطانا من سلاطينه التى بهـا يصاول ويطاول ، ويتغنى ويتحجى ، والهوى يعظم الشبهة الصغيرة

الكاذبة حتى يراها أكبر من الحجة الكبيرة الصادقة ، والهوى هو الهوان قلب اسمه كما يقولون

ثم قال الرافضي « ومن الاخبار المرجح ورودها في الوهابية قوله عليه السلام في ذي الخويصرة التميمي إن من ضئضيء هذا قوما يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام مروق السهم من الرمية يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ، والضئضيء الاصل والمعدن فيكون المراد من ضئضئه أي من أصله وعشيرته لامن نسله وعقبه لأن عشيرة الرجل هي أصله ومعدنه ، وذو الخويصرة وابن عبد الوهاب من أصل واحد وعشيرة واحدة فكلاهما تميمي كما أن جملة من رؤساء الخوارج كانوا من بني تميم . فبعد انطباق أكثر صفات الخوارج على الوهابية يترجح كون هذه الاخبار شاملة لهم » انتهى

قلت هذا زعم من لا يتقي الله ولا يخاف حسابه ولا حساب الضمير المؤنب ، فأين هذا الرجل التميمي من هؤلاء الذين يسميهم الوهابيين لو كان يخاف الله ويرجو لقاءه ؟ فان هذا الرجل أعني ذا الخويصرة شهد النبي عليه السلام يقسم الغنائم فأنكر قسمته واتهمه بالجور فقال له اعدل فان هذه قسمة لا يراد بها وجه الله . فغضب رسول الله وقال « ويحك فمن يعدل إن لم أعدل » فقال بعض الصحابة دعنا يارسول الله نضرب عنقه . ثم قال « إن من ضئضيء هذا الرجل قوما يقرؤن القرآن ولا يجاوز حناجرهم يقاتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الاوثان » فأين من يقول للنبي الكريم في وجهه اعدل فانك لم تعدل من قوم لا يرون لأحد إسلاماً ولا نجاة حتى يستسلم ظاهراً وباطناً بلسانه وعقيدته وعمله لما جاء به النبي الكريم من الهدى والدين ، ويرون أن من شك في عدل الرسول أو في أمر من الأمور التي جاء بها أو من عارض قوله أو فعله أو خطّأه أو أضاف اليه نقصاً ما أو عيباً ما

فقد حبط إسلامه إن كان مسلما وارتد ولزمه عقاب المرتدين ، ويرون أن أفضل الاولياء والمؤمنين وخيار المسلمين هم الذين يتشبهون به عليه السلام وهم الذين ينهجون منهاجه ويسلكون سبيله ويعضون على ماجاءهم به بالنواجذ والاسنان مااستطاعوا وقدروا ؟ بل وأين هذا الرجل القائل لرسول الله اعدل وأين أصحابه ومن اتبعه من قوم أغضبوا هذا الشيعي وقومه وأساءوا حفائظهم وأغضبوا كثيراً من الناس قديماً وحديثا وهاجوهم عليهم وعلى الايقاع بهم وعلى إيذائهم لاستمساكهم بسنته وتشددهم فيها ودعوتهم الناس الى ذلك وحملهم على ماجاء به من الهدى والنور ومكافحة كل ماخالف سنته وهديه وإبائهم كل مبتدع بصرامة وجراءة وحزم وعزم ؟ أين ذلك الرجل الذى قال اعدل لأعدل الخلق وأعرفهم بوجوه العدل ومواضعه على الاطلاق من قوم لايستحلون لمسلم فى الارض أن يرغب بنفسه عن سنة من سنن رسول الله لا صغيرة ولا كبيرة لا شكلية ولا معنوية ولا أن يدع قوله وحكمه لقول إنسان ما وحكمه وان كان من كان من الفضل والورع والدين والعلم ، ولا يرون لأحد معه كلاماً ورأيا ويرون أن من فعل شيئاً من ذلك فقد خاب وخسر الى غير نهاية وأصبح من الهالكين الخالدين فى هلاكهم ؟ أين هذا الرجل من قوم يعدون فضل المرء وقيمته وشرفه وصلاحه وورعه وحب الله إياه وحبهم هم إياه بقدر ما لديه من الاعظام لرسول الله والاستسلام لما جاء به ولسنته وهديه قولا وعملا وعقيدة ورأيا ؟ أين هذا الرجل القادح فى رسول الله كفاحاً فى وجهه من قوم لا ينطقون إذا جد الجد الا بقال الله وبقال رسول الله وقال الصحابة « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » ولكن هذا الشيعي لو كان جريئاً على أن يصدع بالحق لقال إن الشيعة قد فرست الخوارج فى هذا المضمار مضمار القدح فى الرسول وفى الاعتراض على أحكامه وأقضيته وما جاء به ، واتهامه بالجنف والعدول عن

العدل والنصف . فقد ردت هذه الطائفة ما رضيه نبي الله وقضى به فى أمور كثيرة معلومة فقد رضي صحبة أبي بكر الصديق الخاصة له ومؤازرته إياه ومرافقته فى أرهب الاوقات وأخلد الساعات ، وقضى بامامتيه : الصغرى و الكبرى . إمامة الصلاة وإمامة الخلافة ، وقضى له بالايمان الذى لايلحق وبالفضل الذي لاينال ولا يطال ، ورضي عنه الرضا الذى لاسخط بعده وأحبه الحب الذى لم يحبه أحدا من الناس غيره ومات على ذلك وأجمع الصحابة والمسلمون عليه ، ولكن الشيعة لم ترض ذلك كله فعدلت عنه لانها لم تجد فيه العدل والصدق ، فقضت بضده وبمخالفته . فخالفت قضاء رسول الله وما أحبه ورضيه ، وخالفت قوله وفعله . وكذا لم ترض الشيعة قضاءه عليه السلام فى حبه عائشة والرضا عنها وتفضيلها على النساء . فقدحوا فيها وفى دينها ورأيها وأدبها فآذوها وآذوا المؤمنين بايذائها وكذلك لم يرضوا قضاءه فى أصحابه وحبهم والرضا عنهم وقضاءه بأنهم من أهل الجنة وأهل الايمان والدين والتقى وخوف الله وأن الله رضي عنهم فأحبهم وأحبوه ورضوا عنه ورضي عنهم . فقضوا هم بكفرهم ونفاقهم وخداعهم وإيثارهم الدنيا على الله وعلى رسوله وعلى آل بيته . فاتهموهم بالكبائر من الشرور وبالعظيمات من الأمور وكذلك لم يرضوا بقضائه عليه السلام فى على بن أبي طالب وآل بيته الأطايب فادعوا لهم وفيهم فوق ماقضى به عليه السلام لهم وفيهم من الحق والمكانة والرتبة العالية فادعوا فيهم العصمة بل والنبوة والألوهية كما قدمنا فى أول الكتاب وفضلوهم على من فضله عليه السلام عليهم . بل وفضلوهم على الأنبياء والمرسلين وزعموا أن كل مايقولونه حق لا ريب فيه وأنهم لا يغلطون أبداً لا عمداً ولا سهواً . بل وقد حوا فى رسول الله أعظم من قدح ذى الخويصرة التيمى وإخوانه فيه فزعموا أن الرسالة كانت لعلى بن أبي طالب ولكن جبريل غلطاً أو عمداً نزل بها على محمد عليه السلام . فالرسول فى الواقع هو على وأما محمد فليس رسولا إلا

بغلط جبريل أو تعمده الغلط ، وهذا قول لطائفة من الشيعة معروفة تسمى الغرابية وقد قدمنا هذا فى صدر الكتاب الى فظائع وعظائم معلومة مبثوث كثير منها فى هذا الكتاب . قدحت فيها الشيعة على القضاء النبوى وعدلت عنه فيها زاعمة أن ذلك ليس عدلا ولا حقا بشكل هو أفظع وأعظم من دعوى ذي الخويصرة واخوانه الخوارج . وسيجد القارىء لكتابنا الشواهد العديدة الصادقة على قولنا هذا

وحينئذ يقال من أين انتزع زعمه أنه يرجح ورود حديث ذى الخويصرة فى النجديين . ؟ إما أن يكون من كون ذى الخويصرة تميميا لأن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب تميمى فكلاهما من قبيلة واحدة والحديث أخبر أن هؤلاء القوم الذين وصفوا بهذه الصفات يخرجون من ضئضىء ذى الخويصرة أى من أصله وقبيلته . أى أنهم يكونون من بنى تميم وإما أن يكون انتزعه من الصفات الواردة فى الحديث وهى أن هؤلاء القوم المنبأ عنهم يمرقون من الاسلام مروق السهم من الرمية وأنهم يقرؤن القرآن ولا يجاوز حناجرهم وأنهم يقاتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الاوثان . وإما أن يكون انتزع ذلك من الامرين معا . فان كان الاول أى إن كان زعم ترجيح هذا الحديث فى الوهابيين لأن ذا الخويصرة هو وصاحب هذه الدعوة تميميان قيل له لقد أبعدت المرمى وادعيت المستحيل : هب أن الرسول الكريم أخبر أنه يخرج من قبيلة بنى تميم قوم يكونون شر الناس يكفرون بالله وباليوم الآخر وبالأنبياء ويملئون الارض جوراً وضلالا وإلحاداً ويتوقلون كل فاحشة فحشاء ويستبطنون كل ريبة نكراء فكيف يعلم أنه يعنى بهؤلاء القوم المنبأ عنهم فلانا ومن تبعه أو فلانا ومن ناصره ؟ ! وكيف يعلم أنه لا يعنى غير هؤلاء وهؤلاء ؟ إن معرفة مثل ذلك مستحيلة لا يمكن إدراكها بهذا النحو . وإذا ما زعم زاعم أن المنبأ عنه هو فلان ونصراؤه استطاع آخر أن يزعم أن ذلك هو فلان آخر ومن سار سيرته . واذا قال قائل إن المعنى بهذا الخبر هو من جاء بكذا

وكذا من الآراء استطاع آخر أن يقابله فيقول إن المعنى به هو من جاء بكيت وكيت من الآراء والعقائد التى تخالف ما جاء به الأول . فاذا زعم زاعم بأن الرسول الكريم يعنى بحديثه هذا الوهابيين من التميميين كما زعم هذا الرافضى قيل له ولماذا لا يكون يعنى به التميميين المخالفين لهذه العقيدة المنابذين لما ولما جاء به أصحابها من الاصلاح والدعوة الاسلامية السلفية ؟ ولماذا لا يكون يعنى أقواما آخرين غير هؤلاء وغير هؤلاء من بنى تميم الذين جاءوا بما أخبر به الحديث أو سيجيئون به ؟ وكيف يعلم أنه يعنى الوهابية بهذا الخبر ؟

إن مخالفه يستطيع أن يزعم أن القوم المنبأ عنهم بهذا الخبر هم التميميون الذين يصيرون إلى مذهب الشيعة ويميلون اليه والى ما فيه من المقادح فى الصحابة وفى السلف وفى المسلمين وأنهم هم الذين يمرقون من الاسلام مروق السهم من الرمية . وأنهم هم الذين يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الاوثان ، وأنهم إذا قرءوا القرآن لا يجاوز حناجرهم . وذلك لما قالوه فى الله ورسوله وفى الصحابة وفى على بن أبى طالب وذريته من التألية والغلوّ وماقالوه فى خلفاء الاسلام وعلمائهم من القدح والاكفار الجرىء وماجاءوا به من المبتدعات فى القبور والمشاهد إلى غير ذلك من بدع القوم . والشيعة من يوم أن خلقها الله لم تقاتل أحدا من أهل الاوثان والمشركين . بل انها تكون أبدا فى صف هؤلاء خصومة للاسلام . ولكنها قاتلت المسلمين وأهل التوحيد منهم كما سوف يرى

وهل كانت الخوارج الذين قاتلهم علي إلا احدى فرق الشيعة راحوا يحبون عليا الى حد الغلو المذموم والاسراف المستبشع ورجعوا يبغضونه ويمقتونه الى حد الاكفار والتضليل الباطل . فما كانوا سوي فرقة من فرق الشيعة . فالشيعة انقسمت فرقتين متعاديتين ممسكتين بطرفي الافراط والتفريط : فرقة كفرت عليا وذمته وهم الخوارج ، وفرقة غلت فيه حتى ادعت فيه الألوهية وما لا يليق إلا بالله

وزعمت فيه العصمة وفى ذريته وزعمت أن الخلافة وراثية فيهم ، فمن نازعهم فيها أو قال خلاف قولهم فهو كافر خارج . وزعمت فرق منهم فيهم الالوهية والنبوة والرسالة . وهذه الفرق من الشيعة هى بلا ريب شر من الخوارج . وهم أبعد عن الاسلام وعن على وذريته منهم . فان من غلا فى حق الله فاكفر عليا أو غيره لزعمه أنه خالف حكم الله وتعدى على حقوقه تعالى أقل شرا وضلالا ممن غلا فى مخلوق فوهبه حق الله وزعم أنه حال فيه أو انه هو الله أو أنه هو الرسول أو كالرسول فى العصمة وفى وجوب اتباعه فيما قال . وسوف يجىء بيان هذا

فانباء النبى الكريم أنه سوف يخرج من بنى تميم قوم يأتون بأفانين من الضلال الكفر والمروق لايستطاع أن يفهم أنه نص فى قوم معينين لا فى الوهابيين ولا فى غيرهم الا أن ينبىء الحديث عن أولئك الذين سوف يخرجون بأوصاف وأشياء معينة فتأتى بتلك الصفات والأشياء جميعا فرقة من الفرق فيقرب حينئذ جداً أو يكون يقينا لا ريب فيه أن الحديث انباء عن هذه الفرقة . فاذا ادعى المخالف أن الوهابيين قد جمعوا الصفات والأمور التى أنبأ عنها الخبر النبوي وأتوها كلها قيل له هذا هو أساس المسألة وقاعدة الدعوى وهذه هى المصادرة فى رأس البحث . فاذا استطاع هذا الرافضى اثبات أن الوهابية مرقوا من الاسلام الى آخر ما في الحديث قام له ما ادعى وأغناه هذا عن كون هذا الرجل الذى قدح فى حكم الرسول ﷺ تميمياً أو غير تميمي ، وهذا هو الاعتراض الثانى ، وسنتكلم عليه . أما الأخبار المطلقة عن قبيلة من القبائل بأنه يخرج قوم أو أقوام منها يكفرون بالله ويمرقون من الاسلام ويقرؤن القرآن ولا يؤمنون . فلا يمكن أن يكون هذا الاخبار المطلق قدحا في كل من كان من تلك القبيلة من هذه الناحية أي من ناحية انحداره من القبيلة المذكورة المنبأ عنها ، ولا يمكن أن يكون دليلا ولا شبه دليل على ضلال هذا الرجل المعين وفسقه وكفره لأنه انحدر من القبيلة التى قيل

إنه سيخرج منها قوم يكفرون ويفسقون ويحاربون الله ورسوله ويقتلون المسلمين .. هذا ما يعد فى نظرنا من المحال

وقد أخبر النبى الكريم عن قبائل كثيرة من العرب وغير العرب بأنهم سوف يحدثون أشياء منكرة ويحدثون فى الأرض وفى الاسلام أموراً عظيمة . وقد صح عنه عليه السلام أنه قال « يكون هلاك أمتى على يد غلمة من قريش » وصح عنه أنه قال « اللهم العن رعلا وذكوان وعصية عصوا الله ورسوله » وصح عنه أنه دعا على مضر وقال « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » وفى الصحيح أنه عليه السلام كان يقنت فى صلاة الفجر ويقول فى صلاته « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسنى يوسف ، اللهم العن لحيان ورعلا وذكوان وعصية عصت الله ورسوله » وصح عنه أشياء كثيرة فى ذم غير هؤلاء من القبائل والأحياء فهل هذه الأخبار تدل على القدح فى شخص معين ينتسب الى احدى هذه القبائل والأحياء أو هل تدل على أن انسانا بعينه ملعون مذموم عاص لله ورسوله لأن النبى الكريم دعا عليهم جملة لأشياء جاؤا بها ؟ وهل يقال فى كل قرشى انه يهلك الامة الاسلامية لقوله عليه السلام هلاك امتى على يد غلمة من قريش ؟

هذا ما يقضى كلام هذا الشيعى ولكنه باطل بلا ريب ، ويمكن أن يكون هذا من الأجوبة عن قوله عليه السلام قالوا وفى نجدنا قال هناك الزلازل والفتن

وكذلك جاءت أحاديث صحيحة نبوية يثنى بها على بعض القبائل والاحياء فصح عنه عليه السلام أنه قال : «غفار غفر الله لها . وأسلم سالمها الله» وفى الصحيح أنه قال « الانصار ومزينة وجهينة وغفار وأشجع ومن كان من بنى عبد الله موالىّ دون الناس والله ورسوله مولاهم » إلى نظائر لذلك كثيرة . فهل يستطيع عاقل أن يدعى أن مثل هذه الاخبار دليل وبرهان على فضل كل رجل انتسب لاحدى هذه القبائل والاحياء ودليل على أن إنسانا بعينه مولى لله ورسوله راض عنه الله

ورسوله بدليل هذه الاحاديث لا بدليل أعماله وصلاحه ؟ اللهم لا

ومثل ذلك ما جاء ذما زعيبا على سبيل الاجمال لقبيلة من القبائل وحي من الأحياء أو بلد من البلدان فانه لا يدل على ذم كل فرد وإنسان انحدر من تلك القبيلة أو نبت في ذلك البلد . وهذا كهذا سواء فهما لا يدلان على ذم ولا مدح معينين بالضرورة والاجماع .

فقبيلة بنى تميم كغيرها من قبائل العرب جاء فيها ذم مجمل مطلق إن كان لمثل هذا أن يسمى ذماً وقدحا في القبيلة إجمالا . بل هو ذم لطائفة منها مبهمة تأتي بالأعمال الشنعاء التي ذمت من أجلها . وهذا أقل من الذم العام للقبيلة على أن هذا الحديث في بنى تميم يعارضه ماهو مثله أو ماهو أقوى منه في مديحهم . ففي نهج البلاغة أن عليا رضى الله عنه قال لعامله في البصرة عبد الله بن عباس « قد بلغني تنمرك لبني تميم وغلظتك عليهم وإن بنى تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر وانهم لم يسبقوا بوغم (أى حرب) في جاهلية ولا اسلام وان لهم بنا رحما ماسة وقرابة خاصة نحن مأجورون على صلتها ومأزورون على قطيعتها » هذا قول على مرجع الشيعة كما تزعم . وروى البخاري ومسلم أن أبا هريرة قال لا أزال أحب بنى تميم لثلاث سمعتهن من رسول الله سمعته يقول « هم أشد أمتى على الدجال » وجاءت صدقاتهم فقال هذه صدقات قومنا ، وكانت سبية منهم عند عائشة فقال اعتقيها فانها من ولد اسماعيل . فهذا يقابل ذاك . فان كان حديث ذى الخويصرة دالا على هجاء بنى تميم كان هذا الحديث وكان قول أبي هريرة وقول الامام على دالين على فضل بنى تميم وامتداحهم . وان دل خبر ذى الخويصرة على بطلان الدعوة السلفية الوهابية لأن بعض دعاتها كان تميميا كان هذا الحديث وهذان الاثران عن على وأبي هريرة دلائل ثلاثا على صحة هذه الدعوة وقوتها . واذا قيل إن القوم الذين أشار اليهم حديث ذى الخويصرة هم الوهابيون كما زعموا

أمكن أن يقال معارضة لهذا القول الباطل : إن القوم الذين أشار اليهم النبي عليه السلام بقوله هم أشد أمتي على الدجال وباقى الحديث هم الوهابيون وان النجوم التى تتعاقب واحداً إثر واحد كلما غاب نجم طلع نجم آخر من بنى تميم فى حديث على رضى الله عنه هم النجوم الوهابية أو الوهابيون من هذه النجوم التى حدث عنها على مرجع الشيعة فيما تزعم ، وقيل أيضا ان الحديث النبوى والأثر العلوي انباءان عن هذه الدعوة وعن رجالها ونصرائها ، وكان هذا القول لايقل عن قول الرافضى فى حديث ذى الخويصرة قوة ولا يفوقه ضعفا ، وكانت هذه بتلك ونحن لانقول هذا القول احتجاجا وبحثا . ولكننا نقوله معارضة ومقابلة ونعنى أنه إن صح قول الرافضى فى حديث الذم فلن يقل عنه صحة قولنا فى حديث المدح حديث أبى هريرة وقول على ولا يمكن أن يكون احتجاج الشيعى صحيحا و هذا الاحتجاج باطلا . بل إن كان احتجاجنا باطلا كان احتجاجه أبطل وأوغل فى البطلان ، وان كان احتجاجه هو صحيحاً كان احتجاجنا أصح وأوغل فى الصحة . فما هو فاعل ؟ وأين هو ذاهب ؟

هذا ثم يقال لهذا الرجل ان هذه الدعوة ليست دعوة تميمية كما تحسب وليست خليقة بهذا الوصف وليست هذه النسبة بأصح من نسبتها إلى قبيلة أخرى من قبائل العرب الذين أجابوا الدعوة وقابلوها بالتسليم والرضوان وصالحوها مصالحة إذعان . فان هذا الشيعى يزعم أن باذر بذور هذه الدعوة الاول هو ابن تيمية ثم تلامذته وأنها عنهم أخذت وعرفت وأن النجديين نقلوها عن هؤلاء نقلا تاما . وابن تيمية وتلامذته سوريون وليسوا من بنى تميم . ثم ان النجديين الذين قبلوها ونصروها ليسوا قبيلة واحدة وليسوا كلهم ينحدرون من أصلاب تميمية بل بنو تميم احدى القبائل النجدية العربية التى انشرحت صدورها لهذه الدعوة ودانتها وأحبتها وآل سعود الكرام الذين نصروا الدعوة بالقوة واللين ونشروها ودافعوا عنها

وداموا على عهدها وولائها فى السراء والضراء ليسوا من بنى تميم كما سوف يأتى . فالذين ابتدعوا الدعوة كما يدعى الشيعى وهم ابن تيمية وتلامذته ليسوا تميميين والذين نصروها وآووها ودافعوا عنها كل الاوقات وهم آل سعود ليسوا تميميين ، والذين قبلوها ودانوها ليسوا من قبيلة واحدة بل من قبائل مختلفة . وان من دعاتها ووضعتها كما يقول الشيعى الصنعانى و كذا الشوكانى وهما ليسا تميميين

واذا كان ذلك كذلك فلماذا تكون هذه الدعوة تميمية ولماذا تذم اذا ما ذم بنو تميم وغاية ما فى ذلك أن أحد دعاة الدعوة القائمين بنشرها وإحيائها تميمى وهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؟ ولكن هذا لا يقضى بأن تكون الدعوة تميمية يقينا ونسبتها الى بنى ذهل بن شيبان القبيلة التى نمت آل سعود أولى من نسبتها الى بنى تميم ونسبتها الى آل تيمية الذين نجلوا شيخ الاسلام ابن تيمية أولى من نسبتها الى بنى تميم الذين نجلوا شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب باعث علم السلف فى جزيرة العرب

فهذه الدعوة ليست تميمية صرفا ، فلو ذم التميميون قاطبة وخصوا بأوفر الملامات وأوفى النقائص لم يلحق هذه الدعوة من ذلك شىء على جميع الوجوه والافتراضات . فليعلم هذا الشيعى

وكم نجل بنو تميم من عالم لا يبارى فى علم ولا فى دين ، ومن شجاع لا يصاول ولا يطاول ، ومن مصلح فذ ومن عابد زاهد من عباد الله الاخيار المقربين

وقول الشيعى ان جملة من الخوارج كانوا من بنى تميم يقال عليه ان الخوارج كانوا من قبائل عديدة وليسوا من قبيلة واحدة ولا كان هذا المذهب الشاذ مذهب قبيلة من القبائل أو حى من الأحياء وقد كان الخوارج من بنى تميم وكانوا من طى ومن بنى يشكر ومن مراد ومن غير هؤلاء وكان أشقى الخوارج

وقد يكون أشقى الناس قاطبة عند الشيعة من قبيلة مراد وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى الخارجى قاتل علي رضى الله عنه ، فاشتراك بنى تميم فى هذا المذهب مذهب الخوارج كاشتراك غيرهم فيه من قبائل العرب وغيرهم . وليس بنو تميم أولى بهذا المذهب من سائر الناس ، وهذه حقائق يقينية . هذا جواب الافتراض الأول ، وهو تقدير أنه انتزع الحجة من الحديث المذكور من كون ذى الخويصرة تميميا . وأما الافتراض الثانى وهو أنه انتزعها من اجتماع هذه الصفات صفات الذين يخرجون من ضئضىء ذى الخويصرة فى الوهابية فنقول ان هذا هو أصل المسألة ومبدؤها وهذا هو معترك الخصام بين أهل السنة والشيعة . فاذا قال الشيعى ان هذه الصفات ـ وهى أنهم يقرؤن القرآن ولا يجاوز حناجرهم وأنهم يمرقون من الاسلام مروق السهم من الرمية ، وأنهم يقاتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان ـ اذا ما قال ان هذه الصفات قد اجتمعت في أهل السنة من النجديين قيل له كلا والله . ويتبين جواب هذا الافتراض من قراءة كتابنا هذا . واذا ما علم جواب الافتراضين علم جواب الافتراض الثالث

تنزيل الآيات النازلة فى الكفار على من عمل عملهم

« عاشرا — كما أن الخوارج عمدوا الى الآيات الواردة فى الكفار والمشركين فجعلوها فى المسلمين والمؤمنين وكذلك الوهابيون جعلوا الآيات النازلة فى المشركين منطبقة على المسلمين . أما صدور ذلك من الخوارج فيدل عليه مارواه البخارى عن عبد الله بن عمر فى وصف الخوارج أنهم انطلقوا الى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها فى المؤمنين وفى رواية فى غير البخاري أنه عليه السلام قال أخوف ما أخاف على أمتى رجل متأول للقرآن يضعه فى غير موضعه .

وعن ابن عباس لا تكونوا كالخوارج تأولوا آيات القرآن فى أهل القبلة وإنما نزلت فى أهل الكتاب والمشركين فجهلوا علمها فسفكوا الدماء وانتهبوا الأموال . وأما صدور ذلك من الوهابيين فيدل عليه ما سيأتى من جعلهم الآيات الكثيرة النازلة فى المشركين منطبقة على المسلمين مثل : أغير الله أتخذ وليا . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا . فلا تجعلوا لله أندادا . له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء . الى غير ذلك من الآيات الكثيرة النازلة فى المشركين والكفار فيجعلونها منطبقة على المسلمين انطباقا من غير مائز ولا فارق » انتهى

قلت وما ذكره هنا هو من الخرافات المبتذلة والآراء الساذجة الفاترة وما لما ذكر وجه فى العلم ولا نسب فى المنطق ولا انتماء الى الحق ، وبيان ذلك أن القرآن الكريم قد جاء قانونا عامّا شاملا صالحا لكل زمان وفى كل مكان . لا يخص عصراً دون عصر ولا مكانا دون مكان . وقد جاء بجمل الأشياء المحمودة والمذمومة الصالحة والطالحة وجاء بالخير وبالشر وبالايمان والكفر ذاما قسما مادحا قسما آمراً بقسم ناهيا عن قسم داعيا الى قسم زاجراً عن قسم مخبراً أن جزاء قسم من ذلك الجنات والرضا وأن جزاء القسم الآخر النار والغضب الالهى . ولم يعرف ذلك الخير والشر أو الصالح والطالح بمن عمله من الناس ولم يمدح الخير من ذلك لأن العامل له فلان أو فلان ولم يذم الشر لأن العامل له فلان أو فلان . بل إنما عرف العامل بعمله فعرف الخير بمن جاء بالخير والشرير بمن جاء بالشر وعمله وأثنى على من أثنى عليه بما عمل من صالح وذم من ذم بما عمله من عمل طالح . فالأخيار هم الذين عملوا الصالحات والخيرات ليس لهم مكان معين ولا زمان معين ولا سمة غير ذلك ، والاشرار هم من عملوا الأعمال الطالحة والشرور الفاضحة ليست لهم سمة غير ذلك وليس لهم مكان معلوم ولا زمان معلوم ، والمؤمنون هم

الذين جاءوا بأشراط الايمان وشرائطه والكافرون هم الذين جاءوا بأشراط الكفر وشرائطه ، فمن جاء بأعمال الايمان فهو المؤمن ومن جاء بأعمال الكفر فهو الكافر ، ومن جاء بهذا حينا وبهذا حينا فهو فى كل حين حكمه حكم ما جاء به ففى الحين الذي يأتى فيه بأعمال الايمان يكون مؤمنا ، وفى الحين الذي يأتى فيه بأعمال الكفر يكون كافراً ، والذي يأتى بهذا وهذا فى وقت واحد يكون مؤمنا من جهة كافرا من جهة أخرى أى انه يكون مؤمنا وكافرا « وما يؤمن أكثر بالله الا وهم مشركون » ومعرفة الخير والشر والايمان والكفر وصالح الأعمال وطالحها تكون بالاجمال بمعرفة ما فى القرآن وما فى السنة النبوية فما أنبأ عنه القرآن أو السنة بأنه خير وإيمان فهو خير وايمان والذى عمله مؤمن خير . وما أنبأ عنه القرآن أو السنة بأنه شر وكفر فهو كذلك ومن عمله فهو من الكافرين الاشرار . فالناس يعرفون بالاعمال خيرها وشرها ويحكم عليهم بما يعملونه من ذلك ويعطون الاسماء من أعمالهم وأفعالهم . فما أنبأت عنه نصوص الدين لانه كفر فمن عمله فهو كافر وان كان من كان وان كان من سلالة النبيين وما أنبأت عنه نصوصه بأنه إيمان فهو ايمان وعامله مؤمن وان كان من سلالة المنافقين والمتنبئين والمتألهين ، بل وان كان من هؤلاء فى سابق أمره . وما أنبأت عنه النصوص بأنه طاعة فهو طاعة وان كان عاملها من كان ، وما أنبأت عنه بأنه معصية فهو معصية وعامله عاص وإن كان من كان من الصالحين والأولياء الفاضلين والعلماء المشهورين . وما أنبأ عنه الاسلام بأنه شرك فهو شرك وعامله مشرك وان كان قبل ذلك من خلاصة المؤمنين الموحدين . وما أنبأ عنه بأنه توحيد فعامله موحد وان كان قبل ذلك من رؤوس المشركين والملحدين

وهكذا يقال فى جميع أعمال العباد مما يثاب عليها ويعاقب . فالصدق مثلا ممدوح مثاب عليه ، فمن جاء به فهو صادق ومثاب على صدقه . والكذب مذموم

ومعاقب عليه فمن جاء به فهو كاذب ومعاقب على كذبه . والزنا محرم شنيع مجازى عليه الجزاء الأليم فمن عمله فهو زان آت بأمر شنيع وفاحشة شنعاء وهو لاق على ذلك جزاءه العظيم . والعفاف عمل صالح مثاب عليه فمن عفّ فهو عفيف صائن نفسه عن أمر شنيع وهو لاق على ذلك الجزاء الأوفى . وترك الصلاة كفر بالله أو فسق على الرأى الآخر فمن ترك الصلاة فهو كافر أو فاسق على الرأيين وجزاء التارك جزاء العاصين أو الكافرين وان كان من كان . وإقام الصلاة صلاح وإيمان بالله فمن أقام الصلاة فهو من التائبين المصلين . وسب الأنبياء كفر فمن سب نبياً فقد كفر وإن كان من كان . وعبادة الأصنام والأوثان شرك بالله فمن عبد وثناً أو صنما فهو من عبدة الأصنام والأوثان المشركين بالله فهو من أصحاب الجحيم

وهكذا دواليك بلا خلاف ولا نزاع بين العقلاء والعلماء العارفين بل وأنصاف الجاهلين . فدعاء غير الله من الأموات والأصنام والملائكة والجان وكذا دعاء الأحياء وسؤالهم ما لا يقدر عليه إلا الله إما أن يكون خيراً جائزاً أو شراً محرما فان كان الثانى لم يكن جائزاً عمله لا للمشركين والكافرين ولا للمؤمنين المسلمين ولا فرق . وان كان الأول كان جائزا عمله للمشركين وللمؤمنين ولا فرق . ولم يكن جائزا لهؤلاء ممنوعا على هؤلاء بالاجماع والبداهة . وهو لو كان جائزا لم يكن جائزا لأن المشركين لم يعملوه واذا كان ممنوعا لم يكن ممنوعا لأن المشركين عملوه ، كلا لا لهذا ولا لهذا ، وانما منع لما فيه من الشر والقبح ولأن الله أراد منعه مطلقاً

ويجاز الأمر لما فيه من الحسن ولأنه لا قبح فيه ولأن الله يريد أن يجيزه ولا تأثير لغير ذلك مطلقاً . وكل شىء ينهى الله المشركين عنه فى القرآن أو فى السنة فالمسلمون منهيون عنه أيضاً ، وكل شىء يحكم عليهم بالكفر والشرك لأجله فالمسلمون مشركون كافرون اذا فعلوه . وكل شىء يبيحه الله للمشركين أو يمتدحهم على فعله فهو مباح للمسلمين وهم ممدوحون عليه اذا ما فعلوه . هذا اذا لم

يكن هنالك نسخ وإلا فالحكم للناسخ

ولا يمكن أن ينهى الله المشركين والكافرين عن أمر من الأمور لأنه شرك أو كفر ويكفرهم ويحكم عليهم بالشرك لفعلهم إياه ، ثم يكون ذلك الأمر حلالا للمسلمين وطاعة وإيمانا وتوحيدا ، بل اذا ما قال الله فى كتابه لقد كفر المشركون وكفرت اليهود والنصارى ، ونحو ذلك لأنهم دعوا الأموات وعبدوا الأصنام والأوثان وضرعوا الى الأحجار والأشجار ورجعوا الى ذلك وطافوا به وذبحوا ونذروا له ، فكل من يفعل هذه الأمور من المسلمين وغير المسلمين فهو كافر ومشرك والمسلمون جميعاً يحكمون على فاعلى ذلك بالكفر والردة والخروج من الملة وهذا معنى قولهم المشهور « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » وذلك أنه ينظر الى المعنى العام الذي تريد الآية النهى عنه والذم له بالاغضاء عن سبب نزولها من هذه الناحية فينهى عنه وينظر الى المعنى العام المباح فى الآية بالاغضاء عن سبب نزولها وعن الحادثة التى نزلت بمناسبتها فيمتدح ذلك المعنى العام ويباح ، ولا تقيد الآية المحللة والمحرمة المادحة والذامة مطلقاً بالحادثة التى نزلت بمناسبتها ولا بفعل العبد المكلف اذا نزلت الآية لأجل فعل فعله وأمر قام به من الطاعات أو المعاصى فنزلت مادحة أو ذامة مبيحة أو حاظرة . ولو أن الآيات قيدت بأسباب نزولها لما كان القرآن عاما لكل الحوادث ولكل أعمال المسلمين ولما أمكن العمل به فى كل زمان ولما استطيع أخذ الأحكام اليوم وقبل اليوم منه ولكان ضيق الدائرة محدود الفائدة . وذلك أن الكثير من النصوص نزل لمناسبات خاصة وحوادث خاصة إما من المسلمين وإما من غير المسلمين . وقد ألفت الكتب فى هذا الموضوع موضوع أسباب النزول وسميت بهذا الاسم « أسباب النزول » وذكر من ذلك الشيء الكثير . وقد تكون آيات الحدود والعقوبات فى القرآن أسبابها خاصة . وقد يكون أكثر الأوامر والنواهى أسبابها كذلك خاصة . واذا

ما كانت الآيات مقصورة على أسبابها استطيع أن يقال بقصر هذه الآيات آيات التشريع كلها على الأسباب الخاصة التى نزلت أوان حدوثها . وهذا القول الذى قاله هذا الشيعى ـ ان للمشركين آيات وللمسلمين آيات وأن ما نهى عنه المشركون وأكفروا به لا ينهى عنه المسلمون ولا يكفرون به ـ هو قول بقصر الآيات على أسبابها ، وقول بتحديد معانيها بالأمر الذى نزلت من أجله . وهـذا هو الغلط العظيم البعيد

والسر فى هذا كله أن الأمر ينهى عنه ويحرم لأمر يرجع اليه هو لا إلى نفس عامله . وأن الأمر يباح ويؤمر به لأمر يرجع اليه هو لا الى نفس عامله . وهذا مالا خلاف فيه بين العاقلين . فالشرك منهى عنه لأجل مافيه هو من القبح والظلم والشناعة لا لأن عامله فلان أو فلان . والتوحيد مأمور به مطلوب من العباد لأجل مافيه من الحسن والعدل والعقل . لا لأن عامله فلان أو فلان ، واذا كان ذلك كذلك فلا ريب أن مانهى عنه المشركون فى القرآن الكريم وأكفروا بفعله فالناس كلهم مسلمين وغير مسلمين منهيون عنه وكافرون إذا هم فعلوه ، وأن ما أمر به المسلمون من الصحابة ومن بعد الصحابة مأمور به كل الناس مسلمين وغير مسلمين صالحين وفاسقين ، وهذا ظاهر لا يسمو اليه شك ، وما زال المسلمون والعلماء والأئمة الأعلام يستدلون بالآيات العامة النازلة فى الكفار والمشركين وفى اليهود والنصارى وفى سائر الفرق الخارجة على دين الله وعلى فطرته الاولى على ما يفتون به المسلمين وما يريدون أن يفعلوه هم ، وما زالوا يأخذون من تلك العمومات الحجج والدلالات على معتقداتهم وإيمانهم ، ولا خلاف عندهم أن القرآن إذا مانهى اليهود أو النصارى أو المجوس عن أمر من الامور أو أخبر أن ذلك كفر فيهم أنهم هم أيضا منهيون عن ذلك الامر وأنه كفر فيهم اذا ماهم صنعوه ولا ريب أنهم لن يقولوا إن ذلك الامر كفر فى اليهود والنصارى ومن نزل فيهم

النص فقط وأما نحن فلا جناح علينا أن نفعل ذلك ولسنا مطالبين بفعله أو تركه

وقد عقد الامام الشاطبي في أول كتابه الاعتصام فصلا مبسوطا رد به على البدع والمبتدعين محتجا بعموم الآيات النازلة في أهل الكتاب من اليهود والنصارى وفي المشركين والكافرين ، ومستدلا بالاطلاق والعموم ، وقد ذكر في ذلك الفصل روايات وأقاويل كثيرة وردت عن السلف من الصحابة ومن بعد الصحابة من التابعين ومن بعد التابعين قد احتجوا فيها بالآيات المطلقة النازلة أصلا في طوائف الشرك وأهل الكتاب على إثم البدعة وخطأ المبتدعين من المسلمين ، وعلى ما أوعدهم الله به من العقاب الأشد الاليم . قال في الفصل المذكور : « والنقل يدل على بطلان البدعة والابتداع من وجوه أحد الوجوه ماجاء في القرآن مما يدل على ذم من ابتدع في دين الله بالجملة » ثم ذكر قوله تعالى في أول سورة آل عمران « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » وذكر في تفسير الآية الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي الكريم قال « اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » وذكر رواية أخرى عن عائشة قالت : تلا رسول الله الآية وقال « فاذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم » قال وجاء عن أبي غالب واسمه حزور قال كنت بالشام فبعث المهلب سبعين رأساً من الخوارج فنصبوا على درج في دمشق . فكنت على ظهر بيت لي فمر أبو أمامة فنزلت فاتبعته فلما وقف عليهم دمعت عيناه وقال سبحان الله ! ما يصنع السلطان ببني آدم قالها ثلاث مرات كلاب جهنم كلاب جهنم . شر قتلى تحت ظل السماء ثلاث مرات . خير قتلى من قتلوه . طوبى لمن قتلهم أو قتلوه . ثم التفت الي وقال يا أبا غالب إنك بأرض ... كثير فأعاذك الله منهم . قلت رأيتك بكيت حين رأيتهم . قال بكيت رحمة

حين رأيتهم كانوا من أهل الاسلام . هل تقرأ سورة آل عمران ؟ قلت نعم فقرأ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات الآية ، و إن هؤلاء كان فى قلوبهم زيغ ثم قرأ قوله تعالى « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » قلت هؤلاء هم يا أبا أمامة ؟ قال نعم . قلت من قبلك تقول أو شيء سمعته من النبي عليه السلام ؟ قال إنى اذن لجرىء . بل سمعته من رسول الله لا مرة ولا مرتين حتى عد سبعا . قلت ألا ترى الى مافعلوا قال عليهم ماحملوا وعليكم ماحملتم . قال وروى ذلك اسماعيل القاضى وغيره

قال ونقل حميد بن مهران قال سألت الحسن : كيف يصنع أهل هذه الاهواء الخبيثة بهذه الآية فى آل عمران « ولا تكونوا كالذين تفرقوا » الآية ؟ قال نبذوها ورب الكعبة وراء ظهورهم . قال ابن وهب سمعت مالكا يقول ما آية فى كتاب الله أشد على أهل الاختلاف من أهل الاهواء من هذه الآية « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين » الآية . قال مالك فأى كلام أبين من هذا ؟ فرأيته يتأولها لأهل الاهواء . ورواه ابن قاسم قال لى مالك : إنما هذه الآية لأهل القبلة

قال الشاطبي : وما ذكره مالك فى الآية نقل عن غير واحد كالذي تقدم للحسن . وعن قتادة فى قوله « ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا » يعنى أهل البدع . وعن ابن عباس يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . قال تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة

قال الشاطبي : ومن ذلك قوله « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست

منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » . قال وهذه الآية جاء تفسيرها فى الحديث من طريق عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ ياعائشة ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا من هم ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : هم أصحاب الأهواء وأصحاب البدع وأصحاب الضلالة من هذه الامة . ياعائشة ان لكل ذنب توبة ما خلا أصحاب البدع والأهواء ليست لهم توبة وأنا منهم برىء وهم منى براء . قال ابن عطية هذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ فى الفروع وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدال والخوض فى الكلام . هذه كلها عرضة للزلل وسوء المعتقد . وحكى ابن بطال فى شرح البخاري عن أبى حنيفة أنه قال لقيت عطاء بن أبى رباح بمكة فسألته عن شىء فقال من أين أنت قلت من أهل الكوفة . قال أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . قلت نعم . قال من أى الاصناف أنت ؟ قلت ممن لايسب السلف ويؤمن بالقدر ولا يكفر أحدا بذنب . قال عطاء عرفت فالزم . وعن الحسن قد خرج يوما عثمان بن عفان يخطبنا فقطعوا عليه كلامه فتراموا بالبطحاء حتى جعلت لا أبصر أديم السماء . قال وسمعنا صوتا من بعض حجر أزواج النبى عليه السلام فقيل هـذا صوت أم المؤمنين . قال فسمعتها وهى تقول ألا إن نبيكم قد برىء ممن فرق دينه واحتزب وتلت : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » وعن أبى هريرة أنها نزلت فى هـذه الأمة . وعن أبى أمامة انهم هم الخوارج . قال القاضي : ظاهر القرآن يدل على أن كل من ابتدع فى الدين بدعة من الخوارج وغيرهم فهو داخل فى هـذه الآية لأنهم إذا ابتدعوا تجادلوا وتخاصموا وتفرقوا وكانوا شيعا

ثم قال الشاطبي : ومنها قوله تعالى : « ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون » . وقد قرىء

« فارقوا دينهم » وفسر عن أبي هريرة أنهم الخوارج . ورواه أبو امامة مرفوعا : وقيل هم أصحاب الاهواء والبدع . قال : روته عائشة مرفوعا الى النبي عليه السلام . وذلك لأن هذا شأن من ابتدع حسبما قاله القاضي اسماعيل . وكما تقدم في الآيات الأخرى

ثم قال الشاطبي : وفي البخاري عن عمر بن مصعب قال سألت أبي عن قول الله « هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » هم الحرورية ؟ قال لا . هم اليهود والنصارى أما اليهود فكذبوا محمدا وأما النصارى فكذبوا بالجنة وقالوا لاطعام فيها ولا شراب ، والحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه . وكان شعبة يسميهم الفاسقين

قال : وفي تفسير سعيد بن منصور عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبي « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » أهم الحرورية ؟ قال لا . أولئك أصحاب الصوامع . ولكن الحرورية الذين قال الله فيهم « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وقد جاء عن علي بن أبي طالب أنه فسر الأخسرين أعمالا بالحرورية أيضا ؛ فروى عبد الله بن حميد عن أبي الطفيل قال قام ابن الكواء إلى علي فقال يا أمير المؤمنين من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ قال منهم أهل حروراء . وهو أيضا منقول في تفسير سفيان الثوري . وفي جامع ابن وهب أنه سأل عن الآية فقال له ارق إلي أخبرك وكان على المنبر فرقى اليه فتناوله بعصا كانت في يده فجعل يضربه بها . ثم قال له علي : أنت وأصحابك . وخرج عبد بن حميد أيضا عن محمد بن جبير ابن مطعم قال أخبرني رجل من بني أود أن عليا خطب الناس بالعراق وهو يسمع فصاح به ابن الكواء من أقصى المسجد فقال يا أمير المؤمنين من الأخسرين اعمالا ؟ قال أنت . فقتل ابن الكواء يوم الخوارج . ونقل أهل التفسير أن ابن

الكواء سأله فقال أنتم أهل حروراء وأهل الرياء الذين يحبطون الصنيعة بالمنة . فالرواية الأولى تدل على أن أهل حروراء بعض من شملتهم الآية . ولما قال الله فى وصفهم « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا » فوصفهم بالضلال مع ظن الاهتداء دل على أنهم هم المبتدعون فى أعمالهم عموما كانوا من أهل الكتاب أو لا ، من حيث قال النبي كل بدعة ضلالة . فقد يجتمع التفسيران فى الآية : تفسير سعد بأنهم اليهود والنصارى ، وتفسير على بأنهم أهل البدعة . لأنهم قد اتفقوا على الابتداع ، ولذلك فسر كفر النصارى بأنهم تأولوا فى الجنة غير ماهى عليه ، وهو التأويل بالرأى فاجتمعت الآيات الثلاث على ذم البدعة وأشعر كلام سعد بن أبى وقاص بأن كل آية اقتضت وصفا من أوصاف المبتدعة فهم مقصودون بما فيها من الذم والخزى وسوء الجزاء ، إما بعموم اللفظ وإما بمعنى الوصف

ثم قال : وجاء عن سفيان وأبي قلابة وغيرهما أنهم قالوا كل صاحب بدعة أو فرية ذليل واستدلوا بقول الله « ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين » وخرج ابن وهب عن ابن عون عن محمد بن سيرين أنه قال : إنى لأرى أسرع الناس ردة أصحاب الأهواء . قال ابن عون وكان ابن سيرين يرى أن هذه الآية فى أصحاب الاهواء «واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » الآية . وذكر الآجري عن أبى الجوزاء أنه ذكر أصحاب الأهواء فقال : والذى نفس أبى الجوزاء فى يده لأن تمتلىء دارى قردة وخنازير أحب الى من أن يجاورنى رجل منهم ، ولقد دخلوا فى هذه الآية « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور » قال : والآيات المصرحة

والمشيرة الى ذمهم والنهى عن ملابسة أحوالهم كثيرة

هذا بعض ما ذكره الامام الشاطبى فى الفصل المتقدم الذكر من كتابه الاعتصام الذائع الاسم ، وقد تركنا من الفصل أشياء أخرى رغبة فى الايجاز .

ومما نقلناه هنا تعلم أن السلف من الصحابة والتابعين وسائر علماء الحديث والفقه والدين لم يزالوا يحتجون بعموم الآيات على ما يشمله لفظها أو معناها من أفعال المسلمين وأقوالهم ، وان كانت قد نزلت أصالة فى أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وفى المشركين والكافرين والملحدين . والتفاسير القديمة والحديثة المشحونة بتفاسير السلف والخلف ملأى بذلك . ومن طالع ابن جرير وابن كثير والرازى وغير هؤلاء وجد من ذلك الشىء الكثير

وقد حكى الامام الشاطبى فى مكان آخر من كتابه قال : حكى الباجى عن الامام مالك أنه قال لا تجالس القدرى ولا تكلمه الا أن تجلس اليه فتغلظ عليه لقوله تعالى « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله » فلا توادوهم . قال وحكى ابن وهب عن مالك أيضاً أنه كان اذا جاءه بعض أهل الأهواء يقول أما أنا فعلى بينة من ربى وأما أنت فشاك فاذهب الى شاك مثلك ، فخاصمه ثم قرأ قوله تعالى : « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »

قال الشاطبى أيضاً : وحكى عياض عن سفيان بن عيينة قال سألت مالكا عمن أحرم من المدينة وراء الميقات ؟ فقال هذا مخالف لله ورسوله أخشى عليه الفتنة فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة ، أما سمعت قوله تعالى « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » وقد أمر النبى ﷺ أن يهل من الميقات

وقد استدل الشاطبى فى كتابه المذكور بكثير من الآيات النازلة فى المشركين

والكافرين على ذم الأهواء وأصحاب الأهواء والبدع وأصحابها من المسلمين ، وذكر من ذلك نماذج كثيرة ، وروى عن علماء السلف من الصحابة ومن جاءوا بعدهم أشياء متعددة من هذا النوع وهذا الاستدلال

تكفير الرازى المتعلقين بالقبور

وقد ذكر فخر الدين الرازي ـ وهو الخصم الألد للسلفيين كما يزعم المخالفون ـ فى تفسيره ما هو أدخل فى موضوعنا وأظهر فى النقض على هذا الخصم ومن جرى معه فى هذا الشوط ، فذكر فى تفسير قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » قال : « ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم اذا عظموا قبورهم فانهم يكونون لهم شفعاء عند الله تعالى »

وهذا نص من هذا الشيخ لا يقبل الخلاف والخصام فى أنه يرى تعظيم القبور والاشتغال بها والعكوف عليها كفراً وخروجاً من حظيرة الاسلام وإن كان الفاعل لذلك من المسلمين ومن المدعين التوحيد . بل هو قد أكفر بقوله هذا هؤلاء المتوسلين الداعين للاموات صراحة

وقد تأول السلف قول الله تعالى حكاية عن ذلك الشقى الذي قال فى القرآن « إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر » فى من زعم من المبتدعين أن القرآن مخلوق فأكفروا من قال هذه المقالة من مبتدعة أهل الاسلام أهل الاهواء ، وكذلك احتج العلماء من السلف وغيرهم بقوله تعالى « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » على أن تارك الصلاة من المسلمين يقتل والآية نازلة اصالة فى المشركين . واحتج من يقول باكفار تارك الصلاة من المسلمين بالآية الأخرى « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين » والآية نازلة فى الكافرين ، واحتجوا بقوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت

مصيرا » على الاحتجاج بالاجماع وأن من خالفه فهو ضال أو كافر ، وهذه الآية صريحة فى أنها نزلت أصلا فى غير المسلمين ، ولكن احتجوا بالاطلاق والعموم واستدلوا بقوله تعالى فى أهل الكتاب « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » مضافا اليها الحديث النبوي الآتى فى تفسيرها على تحريم التقليد وفظاعته وان المقلدين على خطر عظيم ، واستدلوا بقوله تعالى : «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » على تحريم تحريف الكلام وعظم جريرة المحرفين للقول عن سبيله المعلوم ، واستدلوا بقوله تعالى « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم » على تحريم الغلو فى الدين وعظم جريرة من يفعلون ذلك من المسلمين وغيرهم ، واحتجوا بقوله تعالى « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » على عظم جريمة من دعى الى كتاب الله وسنة رسول الله فأبى أن يجيب وأعرض عن الداعى ، واحتجوا بقوله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » على أن من يصنع ذلك من المسلمين يكون جزاؤه عند الله مافى هذه الآية من الايعاد الاشد ومن الطرد عن رحمة الله واحتجوا بقوله تعالى «ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » على ذنب من لم يصنع ذلك من المؤمنين على عهد الرسول الكريم بل والمخالفون أنفسهم احتجوا بالآية على الذهاب الى قبر الرسول بعد وفاته وطلب الاستغفار والشفاعة منه ودعائه والضراعة اليه . مع أن الآية نازلة اصالة فى جماعة من المنافقين الى غير ذلك من احتجاج المسلمين فى جميع العصور بالآيات النازلة في جماعات أهل الكتاب والمشركين ، وعلماء الاسلام لا يختلفون فى أن كل أمر ينهى الله المشركين والكافرين عنه ويعيبهم به ويوعدهم عليه بالنار والعذاب لا يختلفون فى أن ذلك الامر محرم على المسلمين لا يحل لهم أن يقربوه بوجه من

الوجوه إلا أن يكون من الامور التى تختلف فيها الشرائع الالهية اذا جاء دليل على النسخ

فقول الشيعى إن الوهابيين ينزلون الآيات النازلة فى المشركين والكافرين في المسلمين قول يوجه الى المسلمين جميعاً كما رأيت

هذا مايقال أولا . ثم يقال بعد هذا : إما أن يريد هذا الرجل أن الوهابيين يتأولون هذه الآيات فى من هو مسلم حقيقة وفى من جمع شرائط الاسلام والايمان فيكفرونه ويحكمون عليه بالردة والكفر وهو مسلم مؤمن ، وإما أن يريد أنهم يتأولون هذه الآيات فى قوم ادعوا الاسلام والايمان وهم ليسوا كذلك بل وهم مشركون كافرون وغاية ماعندهم ادعاؤهم الاسلام والايمان ادعاء وليس عندهم وراء ذلك الادعاء شيء من الاسلام والايمان

هذا هو مايمكن أن يريده بقوله هذا . فان كان يريد الأول . قيل له هذا محال باطل . فانهم لايكفرون المؤمنين ولا يستحلون إكفارهم والقدح فى عقائدهم بل يرون اكفار المؤمن من أكبر الكبائر وأجل الذنوب ، وأما إن كان يريد الافتراض الثاني أي إن كان يريد أنهم يتأولون الآيات النازلة فى المشركين فى قوم ادعوا الاسلام والايمان وهم ليسوا مؤمنين ولا مسلمين بل هم مشركون لعملهم ما كان يعمله المشركون . قيل له هذا حق منهم لاريب فيه ، وكل الناس يصنعون صنيعهم ويرون رأيهم . فان الكافر كافر سواء ادعى الاسلام أم ادعى الكفر ، والفاسق فاسق وإن زعم أنه صالح تقى ، والكاذب كاذب وان ادعى الصدق والقاتل قاتل وان قال انى برىء ، والظالم ظالم وان قال بملء شدقيه انه لم يظلم أحداً وانه المثل الأعلى للعادل ، وهذا لا ريب فيه فان الحقائق ثابتة كما هى وان سميت بأسماء غير أسمائها بل وان لم تسم مطلقا والحق حق وإن سمي باطلا ، والباطل باطل وإن سمى حقا . فمن ادعى لنفسه الاسلام وهو ليس كذلك فلا

ريب أنه ليس كذلك . ولا أحد من المسلمين العارفين يدعى أن أحداً بادعائه الاسلام والايمان ادعاء فقط يكون مسلماً مؤمنا وهو يعمل أعمال المشركين ويأتى ما يأتيه الكافرون من الشرك والتنديد . هذا باطل فلا بأس حينئذ فى أن نتأول الآيات النازلة فى المشركين في من عملوا أعمالهم وفعلوا أفعالهم ، سواء أتقدموا أم تأخروا ، وسواء أشعروا بحقيقتهم أم لم يشعروا

فان قال الشيعى ، ولا بد أن يقول ، إن الوهابيين يتأولون هذه الآيات فى المسلمين الذين يسألون الأموات ويدعونهم من كل مكان ويطلبونهم ضروب الحاجات دينية ودنيوية ، عاكفين على قبورهم منقطعين اليها ، وهؤلاء مسلمون وان فعلوا ذلك ، بل وان فعلوا أكثر منه وأشد . فان هذا لا يوجب الكفر ولا الشرك . إن قال الشيعى هذا ، وهذا هو ما يقول ، قيل له قد رجعنا بهذا الى أصل المسألة ورأسها وصادرتَ القضية المطروحة بيننا وبينك ، فان أصل قضيتنا نحن أن دعاة الأموات المنقطعين اليهم السائليهم جميع الشئون مثل ما نشاهده اليوم عند كل ولى بل عند غير الأولياء : قضيتنا أن هؤلاء ليسوا مسلمين ولا مؤمنين وأنهم فى هذه المطالب وهذا الغلو ضاربون الاسلام فى الصميم ، ومصيبون التوحيد فى المقتل . . وأنهم بذلك لاحقون عبدة الأصنام . وهذا ما سوف نتولى إقامة الدليل عليه من الكتاب والسنة . وهذا ما نثبته إن شاء الله فى هذا الكتاب ، أما مخالفونا كهذا الشيعى فانهم لا يخالفوننا فى أن هؤلاء إذا كانوا كافرين عاملين أعمال الكفار يصح تأول الآيات النازلة اصالة فى المشركين والكافرين فيهم وإن كانوا يدعون الاسلام ، ولكن هؤلاء المخالفين يخالفوننا فى أن هؤلاء الداعين للأموات كافرون أو مشركون ، بل هم يزعمون أنهم مؤمنون ويزعمون أن دعاء الأموات وسؤالهم الحاجات لا يستوجب الكفر والشرك ، بل يدعون أن ذلك من الايمان والدين الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب السماوية

فهذا هو أصل القضية والدعوى . فالخلاف بيننا وبين هؤلاء هو فى دعاء الأموات والانقطاع اليهم أكفر هو أم إيمان ، ونحن نقول إنه كفر وهم يقولون انه إيمان ، ولا خلاف بيننا فى أن المشركين والكافرين من المدعين الاسلام والايمان تشملهم الآيات النازلة فى الكافرين والمشركين . فالذى على هذا الشيعى إذن أن يقيم الدليل على أن هذه الأعمال التى تجترح فوق الأضرحة ليست شركا ولا كفراً وعلينا نحن إقامة الدلائل على أنها شرك بالله ، وإلا فان اعتراضه بالشكل الذى ذكر منطلق الى جميع المسلمين . فان كل مسلم يعتقد أن كل كافر تشمله الآيات النازلة فى المشركين والكافرين وان ادعى الايمان والتوحيد والاخلاص . بل وان كان يحفظ القرآن والسنة ويعظمهما ويعظم شعائر الله ودينه وكتبه ورسله . هذا مالاريب فيه ولا يتنازع الناس فى أن من كفروا وأشركوا من المسلمين أى المدعين الاسلام واقعون تحت إيعاد الآيات النازلة فى المشركين والكافرين الأوائل ، ولكن الخلاف يقع بينهم هل هذا الانسان المعين كافر وهل ذلك العمل المعين كفر . فاذا اعتقد أحد منهم أن إنسانا كافر فلابد أن يوقعه تحت الآيات النازلة فى الكافرين . فالكلام هنا راجع الى أساس المسألة وهي هل الاستغاثة بالأموات وسؤالهم مالا يقدر عليه إلا الله ايمان أم كفر . فان كانت كفراً بطل كلام هذا الشيعى وان لم تكن كفراً كان اعتراضه منطلقاً الى الزعم أن هذه الأعمال كفر لا الى تنزيل الآيات النازلة فى المشركين والكافرين فيمن ليسوا مشركين ولا كافرين ، وهذا لاريب فيه ، وذلك أن من يتأول آية نزلت فى المشركين فيمن ليس مشركا إنما تأولها كذلك لاعتقاده أن ذلك الذى تأولها فيه مشرك كافر ، ولولا هذا الاعتقاد لما تأولها كذلك . فالاعتراض ان كان ثم اعتراض راجع الى الاعتقاد بأن ذلك الانسان المعين عمل أعمال المشركين لا الى تأول الآيات العامة فيه اذا اعتقد أنه مشرك كافر . هذا مايقال فى المسألة .

من الجهة الفنية الجدلية ، وهذا ما يقال ثانيا

ثم يقال بعده : إن من الخطأ الظاهر الزعم أن الآيات التى استدلوا بها على أن الأموات لا يدعون ولا يسألون نازلة كلها فى الكافرين والمشركين أصالة فان هذا الزعم ليس صحيحا ، فكثير من هذه الآيات نزل خطابا للمسلمين والمؤمنين ، وبعضها نزل خطابا للرسول الكريم خاصة . فقول الله « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » من يقول من العلماء إنه نازل فى المشركين خاصة ؟ وليس من شك أن الآية إن لم تكن خطابا للمسلمين منفردين فهى خطاب عام للفريقين المؤمنين والكافرين . وقوله تعالى « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل إن هدى الله هو الهدى » هو فى دعاء المسلمين غير الله من الأصنام والملائكة والأولياء وغيرهم . وقوله تعالى « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » عام كل من دعا غير الله . وقوله « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون » عام كذلك . وقوله « أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء أإله مع الله » خطاب موجه للعباد كافة . وقوله « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذن من الظالمين » ان لم يكن خاصا بالرسول فليس خاصا بالمشركين والكافرين . وقوله تعالى خطابا لرسوله « قل أغير الله أتخذ وليا » نص فى أن الرسول ومن تبعه من المؤمنين لا يتخذون من دون الله أولياء . وقوله تعالى « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير » خطاب لنبيه كما هو ظاهر . وقوله « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له » خطاب للنبى أيضا ، وقوله « فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين

الخالص ، خطاب أيضا للنبي . ونظائر ذلك كثيرة معلومة لانستطيع حصرها كلها فى هذا الكتاب

فزعم هذا الشيعى أن هذه الآيات التى يستدلون بها على امتناع دعوة الأموات نازلة فى المشركين خاصة غلط مبين ، وهذا ما يقال ثالثا

ثم يقال بعد ما تقدم : ان هذا الشيعى لو كان جريئا على أن يقول الحق لقال إن الشيعة هى التى تتأول الآيات النازلة فى أئمة الكفر والشرك فى خلاصة المؤمنين والمسلمين خيار أصحاب النبى وجنود الله من الانصار والمهاجرين ، وهذا أمر لا يختلف الناس فيه وأمر لا تنكره الشيعة ، بل هى تفاخر به وتكاثر ، وكتبهم المعتمدة المطبوعة ملأى بهذا أى بتأول الآيات النازلة فى المشركين فى صحابة رسول الله ومن دونهم

قال ابن قتيبة فى كتاب تأويل مختلف الحديث صفحة ٨٦ « وقد قالوا فى قول الله عز وجل إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة انهـا عائشة ، وفى قوله فقلنا اضربوه ببعضها انه طلحة والزبير ، وقولهم فى الخمر والميسر انهما أبو بكر وعمر وفى الجبت والطاغوت أنهما معاوية وعمرو بن العاص مع عجائب أرغب عن ذكرها ويرغب من بلغه كتابنا عن استماعها »

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : « ان الذين أدخلوا فى دين الله ما ليس منه وحرفوا أحكام الشريعة ليسوا في طائفة أكثر منهم فى الرافضة فانهم أدخلوا فى دين الله من الكذب على الرسول مالم يكذبه غيرهم وردوا من الصدق ما لم يرده غيرهم ، وحرفوا القرآن تحريفا لم يحرفه غيرهم مثل قولهم ان قوله تعالى (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) نزلت فى على . وقوله تعالى (مرج البحرين) على وفاطمة (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) الحسن والحسين (وكل شىء أحصيناه فى امام مبين) على بن أبى طالب

« ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » آل أبي طالب واسم أبي طالب عمران . « فقاتلوا أئمة الكفر » طلحة والزبير . والشجرة الملعونة فى القرءان هم بنو أمية . « ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » عائشة . ولئن أشركت ليحبطن عملك أي ان أشركت بين أبي بكر وعلى فى الولاية . وكل هذا وأمثاله وجدته فى كتبهم . ثم من هذا دخلت الاسماعيلية والنصيرية فى تأويل الواجبات والمحرمات[1] »

وقال صاحب كتاب الوشيعة ص ٦٣ : « أما التحريف الذى وقع والذى يقع فان كتب الشيعة كلها قد حرفت وتحرف آيات كثيرة وسوراً عديدة فى تأويلها وتنزيلها . وقد جمعتُ آيات تزيد على مائتين من أمهات كتب الشيعة حرفتها كتب الشيعة أشنع تحريف . ومن أشنعها أن قول الله (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أنها قد نزلت فى الصحابة بعد وفاة النبي وأن الصحابة والأئمة قد أنكرت ما لعلى ولأولاده حسداً وبغياً . أصول الكافى (٢ : ١٥٨) وهذه الصحائف فى أصول الكافى موضوعة على ألسنة الأئمة إن ثبتت فهى عيب على الأئمة لا ريب فى وضعها وضعتها كتب الشيعة وحرفت الكتاب الكريم تحريفاً شنيعاً ومنها أن قول الله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) يقول الكافى هم أولياء أبي بكر وعمر اتخذوهم أئمة دون الامام الذى جعله الله وهو على . قيل للصادق ألم يكن على قويا في دين الله ؟ قال بلى قيل فكيف ظهر عليه القوم وكيف لم يدفعهم وما منعه من ذلك . قال الصادق آية فى كتاب الله منعته . قيل أى آية قال « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » كان لله ودائع مؤمنون فى أصلاب قوم كافرين ومنافقين ولم يكن علي

---

(١) منهاج السنه الجزء الثانى ص ٩٠

يقتل الآباء حتى يخرج الودائع . فلما خرجت على عليّ ظهر من ظهر فقتلهم . عن الكافى فى الوافى (٢ : ١٥٢) . وروى العباس عن الباقر قال : لما قال النبى « اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » أنزل الله « وما كنت متخذ المضلين عضدا »

« وأصول الكافى ذكرت كل الآيات محرفة تحريفا يخرجها عن أن تكون كلام عاقل . وكل آية نزلت فى الكفار وجهتها الشيعة إلى الصديق والفاروق ومن اتبعهما إلى كل الأمة : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا » تقول أصول الكافى (٣ : ٣٢٥) إن هذه الآية نزلت فى أبي بكر وعمر وعثمان . آمنوا بالنبى أولا ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية علي. ثم آمنوا بالبيعة لعلى ثم كفروا بعد موت النبى ثم ازدادوا كفرا بأخذ البيعة من كل الأمة » وقال أيضا صاحب الوشيعة ص ٤١ : « وروى الوافى عن التهذيب والكافى (٢ : ٤٥) عن الباقر لما أخذ النبى يوم الغدير بيد على صرخ إبليس فى جنوده صرخة لم يبق منهم أحد فى بر ولا بحر الا أتاه . فقالوا ماذا دهاك ما سمعنا لك صرخة أوحش من هذه . فقال نعم فعل هذا النبى فعلا ان تم لم يعص الله أحد أبداً . فقالوا يا سيد أنت كنت لآدم أغويته . ولما قال المنافقون إنه ينطق عن الهوى وقال أحدهما لصاحبه (أبو بكر لعمر) أما ترى عينيه تدوران فى رأسه كأنه مجنون ، يعنون النبى صرخ ابليس صرخة تطرب فجمع أولياءه ثم قال أما قلتم انى كنت لآدم من قبل قالوا نعم قال آدم نقض العهد ولم يكفر بالرب وهؤلاء أنكروا العهد وكفروا بالرسول . ولما قبض النبى وأقام الناس أبا بكر لبس إبليس تاج الملك ونصب منبراً وقعد فى ألويته وجمع خيله ورجله ثم قال لهم اطربوا فلن يطاع الله أبداً حتى يقوم إمام ثم تلا الباقر (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) قال الباقر : كان تأويل هذه الآية لما

قبض النبي والظن من ابليس حين قالوا انه ينطق عن الهوى صدقوا ظن ابليس .
وفى الوافى (٢ ــ ٢٥) عن سلمان عن على ان أول من بايع أبا بكر هو ابليس و ان
النبي قد قال ان أول من يبايع أبا بكر فى منبرى هذا هو ابليس . وفى الوافى
(٢ : ٤٧) قال الصادق : ان قول الله (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك
بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون) نزل فى أبى بكر وعمر حين قالا
يوم الغدير انظروا الى عينيه تدوران كأنهما عينا مجنون . ويقول الصادق (ما يكون
من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم) نزلت فى أبى بكر وعمر
وأبى عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وسالم والمغيرة حين كتبوا الكتاب وتعاهدوا
وتقاسموا لئن مضى محمد لا تكون الخلافة فى بنى هاشم ولا النبوة أبداً . ونزل
(أم أبرموا أمراً فانا مبرمون أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم) هاتان
الآيتان نزلتا فى هؤلاء . وعن الباقر والصادق إن أبا بكر ساعة موته دعا بالويل
والثبور فجعل يقول هذا محمد وهذا على يبشرانى بالنار وبيده الصحيفة التى تعاهدنا
عليها فى الكعبة وهو يقول : لقد وفيت بها يا منافق تظاهرت على ولى الله فابشر
بالدرك الأسفل من النار فى أسفل السافلين . وفى الكافى (٢ ــ ٥١) عن الصادق
عن الباقر أن الرسول أقبل يقول على أبى بكر وهو فى الغار يرتعد اسكن فان الله
معنا وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن . فلما رأى النبي ﷺ حاله قال له أتريد أن
أريك أصحابى من الأنصار فى المجالس يتحدثون وأريك جعفرا وأصحابه فى
البحر يغوصون ؟ قال نعم : فمسح النبى بيده على وجهه فنظر أبو بكر الى الأنصار
يتحدثون ونظر الى جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون ، فأضمر فى تلك الساعة
انه ساحر ، فسمى صديقاً »

ومن الظريف أن تكون الشيعة مخترعة هذه الغرائب والعظائم ثم يجرؤ هذا
الشيعى على اتهام أهل السنة بتأويل الآيات النازلة فى الكافرين فى المؤمنين

والأحاديث التي ذكرها هنا أما الأول وهو قول عبد الله بن عمر في الخوارج انهم انطلقوا الى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين . فيقال فيه إنه يعني بذلك مثلما ذهبت اليه الشيعة إذ جعلوا الآيات النازلة في رؤوس الكفار وصناديد الشرك في خيار الصحابة من الأنصار والمهاجرين أمثال أبي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة وحفصة وغير هؤلاء من سادات المسلمين ، وذلك أن الخوارج قد أكفروا الخلفاء في عصرهم وأكفروا من تولاهم ورضي حكمهم من المسلمين . فأكفروا عثمان وعليًا ومعاوية وعمرو بن العاص ومن تولى هؤلاء أو أطاعهم أو دان لحكومتهم ، والشيعة فعلت ماهو أشنع من فعل الخوارج . فانهم كفروا الخلفاء الأربعة إلا عليًا وبعضهم تناول عليًا أيضًا بالتجريح والتكفير وأكفروا الصحابة ماخلا طائفة قليلة تولت عليًا في زعمهم وعرفت له الحق الذي عرفته له الشيعة : وأما من عدا هؤلاء من الصحابة والخلفاء فكفار لدى الشيعة وتأولت فيهم الآيات النازلة في الكفار كما سبق . فأكفرت سائر المسلمين الذين يتولون الخلفاء الثلاثة أو يقدمونهم على علي والذين يتولون معاوية وغيره من الأمويين والذين لا يكفرون هؤلاء ، وتأولوا أيضًا الأحاديث في إكفار المسلمين كما تأولوا الآيات ، وتأولوا قوله عليه السلام : « ليذادن أقوام عن حوضي يوم القيامة فأقول أصحابي أصحابي ، فيقال إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك . إنهم مازالوا على أعقابهم مرتدين فاقول سحقا سحقا » فزعموا أن هذا الحديث يدل على أن الصحابة ومنهم الخلفاء ومنهم أمهات المؤمنين كعائشة وحفصة قد ارتدوا بعد وفاة النبي عليه السلام . وبعض الشيعة يزعمون أنهم كانوا منافقين ومخادعين للنبي ، وأنهم ما آمنوا ولا أسلموا . وكذلك تأولوا حديث الفتنة من قبل المشرق الفتنة ها هنا بأن الاشارة كانت إلى عائشة رضي الله عنها كما تقدم عن أحد شيوخهم في أحد كتبهم وهو كشف الغطاء

وفعل الشيعة فى هذا الباب مثل فعل الخوارج إلا أن الفرق بين الطائفتين أن الشيعة أفرس وأعدى فى هذا الميدان ميدان العدوان على المسلمين وعلى عقائدهم فان الشيعة يكفرون أقواماً لا يكفرهم الخوارج بل يتولونهم ويحبونهم كأبى بكر وعمر اللذين تخصهما الشيعة بأشد الهجاء والمذمة والتضليل . فقول عبد الله بن عمر يعنى هذا النوع من الاكفار والاعتداء على المسلمين ومن التأويل الفاضح لكتاب الله ، ولا يمكن أن يعنى بقوله هذا أن الخوارج يكفرون عباد القبور المنقطعين اليها . فان الخوارج لم يصنعوا ذلك لأن عبادة القبور بدعة محدثة فى الاسلام بعد ما تناقص العلم وتزايد الجهل وكثر الداخلون في الاسلام من الزنادقة الذين ما ادعوا الدخول فيه إلا لأجل الدس فيه وإفساده ونحن لا نرتاب أن عباد القبور بالنحو الموجود اليوم وبالنحو الذى يدعو اليه هذا الشيعى لو كانوا موجودين فى عهد الصحابة وعهد أئمة الاسلام لما توقفوا في إكفارهم وفى الحكم عليهم بالردة وهذا ما يأتى بيانه وعلى كل حال هذا راجع الى أصل القضية . فان كان عباد القبور كفاراً ومشركين فلا ريب فى أنهم داخلون فى الآيات النازلة فى المشركين ولا يشك فى هذا أحد لا عبد الله بن عمر ولا غيره ولا هذا المخالف ، وان كانوا غير كفار أمكن أن ينطلق هذا الاعتراض الى هؤلاء الذين كفروا عبدة القبور

وأما الرواية الأخرى التى قال انها فى غير البخاري عن عبد الله بن عمر ان الرسول قال أخوف ما أخاف على أمتى رجل متأول للقرآن يضعه فى غير موضعه فيقال فى الجواب قال أحد علماء الهند وهو الشيخ محمد بشير من كبار المحدثين فى عصره فى كتابه صيانة الانسان إن هذا الحديث ليس من رواية عبد الله بن عمر وإنما هو من رواية عمر رضى الله عنهما رواه عنه الطبرانى فى الأوسط كما فى مجمع الزوائد ، وفى سنده اسماعيل بن قيس الأنصارى وهو متروك الحديث ذكر

ذلك في مجمع الزوائد . فالحديث عن عمر لا عن عبد الله بن عمر ثم هو حديث ضعيف . هذا من جهة السند واما من جهة معناه فلا ريب في صحته . فان المتأولين للقرآن الكريم وللسنة النبوية الواضحين لها في غير مواضعهما هم أكبر المصائب التي زعزعت العقائد الاسلامية الصحيحة النقية من الاخلاط والفضلات الضارة ، والفرق المتأولة للقرآن والسنة هي من أعظم المعاول الهدامة لصرح الاسلام المشمخر وبنائه الرفيع المنيع ، وما أكثر ما أتى الاسلام من هذه الناحية ناحية التأويل والتفسير الباطل لنصوصه . فان المتأولين لم يدعوا في الاسلام عقيدة يقينية ولا نصاً ثابتاً لا شك فيه إلا تناولوها بالتشكيك وبالاعتراضات الفاشلة وبالتأويلات السخيفة . أليست الشيعة قد أولت فرائض الاسلام الخمس بأن المراد بها رجال . أليس قد تأول أحد شيوخهم واسمه بيان قول الله « هذا بيان للناس » في نفسه ، وتأول شيخ آخر منهم وهو المغيرة بن سعيد العجلي قوله « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك » في الخليفة عمر ، وتأول قوله « إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » فزعم أن الأمانة التي عرضت على السموات وعلى الارض والجبال هي منع علي رضي الله عنه من الخلافة فتورعت هذه المخلوقات عن هذا الاثم فقام أبو بكر بالحيلولة بين علي وبين الخلافة بارشاد عمر ومعونته على شريطة أن تكون له الخلافة من بعده ، والانسان الجهول الظلوم في الآية هو أبو بكر ، وتأولت فرقة منهم وهي المعروفة بالمنصورية أصحاب أبي منصور العجلي أحد شيوخ الشيعة قوله تعالى « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطا » في صاحبهم هذا ، وزعموا أنه الكسف الساقط من السماء ، وهكذا زعم هو لنفسه ، وتأول أحد شيوخهم وهو بيان وأصحابه البيانية قول الله « كل شيء هالك إلا وجهه » في أن الاله يهلك كله حاشا وجهه ، وزعمت طائفة منهم أن كل مؤمن يوحى اليه

وتأولوا قول الله « وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله » على معنى الا بوحى اليه من الله ، وكذا تأولوا قوله « وأوحى ربك الى النحل » فى ذلك ، وتاول أحد شيوخهم وهو أحمد الكيال وأتباعه الكيالية الصراط المستقيم فى نفسه والجنة فى الوصول الى علمه من البصائر والنار فى الوصول الى مايضاده ، وزعم أحد شيوخهم أن قول الله تعالى « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » يعنى به على بن أبى طالب ، وزعموا أن قوله « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » يدل على أن من وصل الى الامام وعرفه ارتفع عنه الحرج فى جميع ما يطعم ووصل الى الكمال ، وهذا كله ذكره الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل والشهرستانى قد شرط على نفسه فى مقدمة كتابه ألا يعزو الى قوم إلا ماوجده فى كتبهم لا فى كتب مخالفيهم ، وقد ذكر هذا أيضاً غير الشهرستانى ، وتقدم بعض هذه التأويل الفاضحة مثل قولهم إن قول الله يأمركم أن تذبحوا بقرة يعنى بها السيدة عائشة وقولهم في فقاتلوا أئمة الكفر أنهم طلحة والزبير وأن الشجرة الملعونة فى القرآن هم بنو أمية ، وأن المراد بقوله ولئن أشركت ليحبطن عملك الشرك بين على وأبى بكر فى الولاية ، وقالوا إن المراد بالبحرين فى قوله مرج البحرين على وفاطمة وأن اللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين ، وقالوا فى قوله تعالى « وكل شيء أحصيناه فى امام مبين » أنه على وقالوا فى قوله «ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » ان هؤلاء هم آل أبى طالب واسم أبى طالب عمران ، وتأولوا الجبت والطاغوت الواردين فى الكتاب العزيز بابى بكر وعمر ونظائر ذلك من الأقوال التى اعتدوا بها على كتاب الله وعلى الاسلام وعلى المسلمين وعلى الصحابة وعلى الرسول وعلى اللغة وعلى الذوق وعلى الأدب والمنطق وعلى كل فضيلة

وكذلك تأولوا آيات التوحيد توحيد الأسماء والصفات وتوحيد العبادة

والألوهية بتأولات فى نهاية الفساد والنأى عما أراده الله وعما تدل عليه اللغة التى نزل بها القرآن فحرفوا الآيات الآمرة بتوحيد الله وعبادته وإفراده بالدعاء والرجاء والألوهية تحريفا سوف يرى القارىء منه ضروبا منوّعة فى هذا الكتاب وكذلك حرفوا آيات الصفات أشنع التحريف كما يجد القارىء ضروبا من ذلك فى هذا الكتاب أيضا ، حتى زعموا أنه يجوز سؤال العباد كل مايسأل الله من المطالب العالية التى لايقدر عليها سوى الله . فجوزوا أن يطلب العبد من الميت أن يهدى قلبه وأن يغفر ذنبه وأن يزيد فى أجله وأن يرجع له غائبه وأن يدخله الجنات ونظائر ذلك . وحرفوا الآيات الزاجرة أقسى الزجر عن دعاء المخلوق ورجائه وندائه وعن التعلق به والانقطاع اليه بل لقد حرفوا القرآن كله . فان أهم مسألة عنى بها القرآن هى مسألة توحيد الله وإفراده بالعبادة من النداء والدعاء والرجاء دون الأموات ومن لايقدرون على شىء من خلقه العاجزين الضعفاء . ثم لم يقفوا عند هذا الحد من التحريف الشائن المشوه حتى ذهبوا يؤولون كلام هؤلاء الداعين للاموات المنقطعين إلى الأجداث فزعموا أن قول القائل من عبدة القبور يافلان اشفنى واغفر ذنبى معناه كن لى وسيطا وشفيعا ، وزعموا أنهم لايعنون ظاهر قولهم وما يثب إلى الأذهان منه . فجمعوا بذلك بين أنواع كثيرة من الأخطاء والأوهام والتحريف الشنيع لكلام الله وكلام خلقه

فهذا الحديث إذا صح كان يعنى هؤلاء ونظراءهم من المحرفين المؤولين لكلام الله وسنة رسوله الواضعين لهما فى غير مواضعهما . فالحديث رد على الشيعة وإخوانهم إن كان صحيحا

وأما أهل السنة من أهل نجد الذين يدعى الرد عليهم فانهم مستمسكون بسنة السلف وطريق الرعيل الأول من المؤمنين المعظمين لكلام الله وسنة رسوله الواقفين حيث وقفا . وهم من أبعد الناس عن التأويل المعوج ، بل هم من أمقت

الناس لهذا التأويل ولمن يتعاطونه ويجنحون اليه . فهم لايجيزون تأويلا واحدا لم ينقل عن السلف وعن خير القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وعلماء الحديث والفقه والدين وأئمة الفتوى المشهورين بالعلم وبالصلاح والامامة . بل هم لا يقولون قولا واحداً أو يرون رأيا واحداً لم يؤثر عن السلف لافى الأصول ولا فى الفروع وهم لايقولون فى التوسل ودعاء الاموات وغير ذلك إلا بما نقل عن السلف وعن أئمة الاسلام . لايسبقون الى رأى فى ذلك ولا يبتدعون بدعة واحدة . وهم فى تفسير كتاب الله لا يعدلون عن تفاسير السلف من الصحابة والتابعين ، ولا يرغبون عن ذلك البتة ، بل ويرون أن الذين يرغبون عن تفسير السلف من الصحابة وأئمة الدين غالطون مبتدعون ولا ريب ، ومن طالع كتبهم عرف لهم ذلك

وقوم هكذا يفعلون لا يمكن أن يكونوا من الذين يتأولون القرآن ويضعونه فى غير مواضعه ، الا أن يكون السلف كذلك لأنهم لهم تبع . وحاشا الله السلف عن هـذا

فلا يمكن تأول هذا الحديث فيهم . ومن تأوله كذلك فقد صار هو تأويلا له . وهذا الشيعى الذى أول أحـ يث الخوارج وهذا الحديث فى أهل السنة من أهل نجد هو في الحق واقع تحت تاويل هذا الحديث وغيره من الأحاديث فى هـذا المقام . فانه قد تأول النصوص الواردة فى الخوارج الضالين الذين أ كفروا الصحابة والمسلمين فى أهل السنة من النجديين المتمسكين بالوحيين وبما جاء عن السلف الصالح نفيا واثباتا لا يزيدون ولا ينقصون فكان الرافضى بهذا التأويل من المؤولين الواضعين للنصوص فى غير مواضعها . لأنه تأول أحاديث الخوارج الضلال فى أهل السنة . فما أخلقه بما فى هذا الحديث من ملامة وهجاء !!

وما أقبح قول الباطل ، ولكن أقبح منه أن تحمل ما فيك من باطل على

البرىء إلا من الحق

وأما الرواية الثالثة التى عزاها الى عبد الله بن عباس فالقول فيها ان كانت صحيحة كالقول فى الروايتين قبلها ، بيد أنى لا أحسبها صحيحة عن ابن عباس فان ظاهرها بعيد عن الحق وذلك أنه يقول ان آيات القرآن نزلت فى المشركين وأهل الكتاب إطلاقا . وليس من الحق ولا مما يشابه الحق الزعم أن آيات القرآن كلها نزلت فى المشركين وأهل الكتاب ، بل هذا الزعم خلاف الحق وخلاف الاجماع والمعلوم بالبداهة . ومن الاسراف الذي لا يتقبل الادعاء أن القرآن قد نزل فى المشركين وأهل الكتاب خاصة . واذا ما كان قد نزل فى المشركين وأهل الكتاب خاصة وكان كل ما نزل فى المشركين وأهل الكتاب لا يجوز الاحتجاج به على أعمال المسلمين وأقوالهم ، فبماذا يحتج على أعمال المسلمين وعقائدهم ، ومعرفة الصحيح والباطل منها ، فبماذا يعرف المسلمون عقائدهم ودينهم وما يصح من ذلك وما لا يصح اذا ما كان القرآن قد نزل فى المشركين الكافرين خاصة ؟؟ انه لا مرجع حينئذ لعقائد أهل الاسلام ولما يجمل من الآراء وما لا يجمل . وهذا عين الانسلاخ والتنصل من الدين جملة

ثم قال الرافضى : « حادى عشر ــ كما أن الخوارج سيماهم التحليق والتسبيد كما جاء فى الأخبار الكثيرة ، ومن المرجح أو المعلوم انطباق تلك الأخبار على الوهابية أو عليهم وعلى الخوارج ، وفى خلاصة الكلام أن التابعين لمحمد بن عبد الوهاب كانوا يأمرون من اتبعهم بحلق رأسه ولا يتركون من اتبعهم يفارقهم حتى يحلقوا رأسه ، وكان عبد الرحمن الأهدل يقول لا يحتاج الى التأليف فى الرد على ابن عبد الوهاب ويكفى فى الرد عليه قوله عليه السلام فى الخوارج « سيماهم التحليق » فانه لم يفعله أحد من المبتدعة وكان ابن عبد الوهاب يأمر بحلق رؤوس من اتبعه من النساء . فدخلت فى دينه امرأة وجددت إسلامها بزعمه فأمر بحلق رأسها

فقالت شعر الرأس للمرأة بمنزلة اللحية للرجل فلو أمرت بحلق لحى الرجال لساغ أن تأمر بحلق رؤوس النساء فلم يحر جوابا » . انتهى كلامه

ونحن نقول : لاريب أن الخوارج كانوا يحلقون رؤوسهم ، ولا ريب أن النبي الكريم ﷺ قد أخبر أن من علاماتهم وصفاتهم التحليق . فانه قال فيهم سيماهم التحليق والتسبيد . والتسبيد قيل هو الحلق وقيل هو التشعيث . هذا لاريب فيه عندنا ، ولكن قول الشيعي : « ومن المرجح أو المعلوم انطباق هذه الأخبار على الوهابية » قول فاسد مردود ، وبيان ذلك أن حجته في هذا القول هي أن النجديين فيهم من يحلقون رؤوسهم . بل أكثرهم يصنعون ذلك ، ولكن فات الشيعي النظر الى معنى السيمى فان سيمى القوم وهي علاماتهم مابه يتميزون عن غيرهم وما به يعرفون ويختصون ، وإلا اذا كان الأمر مشتركا بين الناس مشاعاً بين أصنافهم فليس سيمى لطائفة ولا علامة . فان السيمى فيها معنى التسمية والعلامة فيها معنى التعليم . فالأكل والشرب ليسا سيمى لطائفة من الناس ، وذلك لأن الأكل والشرب أمران يشترك فيهما الناس بل ويشاركهم فيهما الحيوان . وكذلك اللباس ليس سيمى ولا علامة لأحد من الانسان لأنه مشاع بين أفراده . وكذلك الكلام والمشي وجميع الأشياء المشتركة المشاعة وهذا مالاريب فيه . فالسيمى هي العلامة المميزة لصاحبها عن غيره وهي قد تكون إضافية وقد تكون حقيقية نظراً لاختلاف الزمان والمكان والبيئة . فالصلاة والصيام وحج البيت الحرام وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كل هذه الأشياء سيمى للمسلمين تميزهم عن غيرهم من الأمم التي ليست مسلمة . وذلك لأن هذه الأمور خاصة بالمسلمين لا يفعلها سواهم ، ولكن الايمان بالله أي الاعتراف بوجوده والضراعة اليه ودعاءه ليس سيمى للمسلمين ، وذلك أن هذه الأمور يشارك المسلمين فيها غيرهم من الالهيين المقرين بالأنبياء وبالديانات لا ينفرد بها المسلمون . وكذلك مثلا الاقرار بالبعث والجزاء والحساب والدار الآخرة

لا يقال إن ذلك سيمى المسلمين . لأن جميع المؤمنين بالأنبياء وبالوحى الالهى يؤمنون بذلك ويعترفون به لا ينكرونه ، ولكن هذا قد يكون سيمى للمؤمنين بوجود الاله . لأن من لا يؤمن بالله لا يمكن أن يؤمن بذلك . فهو سيمى لمن آمن بالله لأنه يميزهم عن الجاحدين الملحدين ، وهكذا يقال فى أشباه ذلك مما لم نذكره واذا ماعلم هذا قيل إن « التحليق » لا يمكن أن يكون سيمى لأحد اليوم لأن التحليق أمر تفعله أمم كثيرة فى أقطار كثيرة من الاقطار الاسلامية . فلا يمكن أن يكون سيمى للنجديين يقينا ، وذلك أنهم ليسوا هم وحدهم الذين يحلقون رؤوسهم . فأكثر العرب فى جزيرتهم يحلقون رؤوسهم كالنجديين سواء . فالحجازيون يحلقون ، وأهل اليمن يحلقون ، وأهل عمان يحلقون ، وفى العراق من يحلقون ، وفى الشام (سوريا وفلسطين) من يحلقون ، وفي مصر من يحلقون ، وفى النجديين من يحلقون ، ومنهم من يوفرون شعورهم كما فى غيرهم من يصنعون ذلك ، ولا فرق بين النجديين وبين غيرهم من العرب فى هذه المسألة مسألة التحليق . فهم لا يتميزون عن أهل اليمن أو عن أهل الحجاز أو عن أهل عمان أو عن أهل البحرين والكويت والعراق والشام بذلك . فلا يمكن أن يكون مظهر ذلك علامة لأحد من هؤلاء لا للنجديين ولا لغيرهم من أهل هذه البلاد . فكل هؤلاء فيهم من يحلقون ، وفيهم من يقصرون ، وفيهم من يوفرون ويطيلون وهؤلاء يوجدون فى نجد كما يوجدون فى هذه الأقطار أيضا ، ولهذا لا يمكن أن يكون حلق الرأس علامة لأهل قطر من هذه الاقطار ولا لأهل مذهب من هذه المذاهب . فمن رأى محلوق الرأس لم يمكن أن يستدل بهذا على بلده وقطره أو عقيدته ومذهبه ، وكذلك من رأى من يوفر شعره ومن يقصره لم يمكن أن يستدل بذلك على قطره وبلده أو عقيدته ومذهبه . فاذا مارأيت من حلق شعر رأسه واستأصله فلن تحكم لأجل هذا بأن هذا الحالق المستأصل نجدي ، واذا رأيت

من وفر شعره وبالغ فى توفيره فلن تستطيع أن تحكم عليه بانه غير نجدى بمجرد توفيره شعره . بل أمكن أن يكون ذلك نجديا وأمكن أن يكون غير نجدى وكذلك الحالق يمكن أن يكون نجديا ويمكن أن يكون غيره ، وهذا لاريب فيه ، وهذا لأن حلق الرأس ليس من خصائص النجديين ولأن توفيره ليس من خصائص غيرهم . فالحلق ليس سيمى لهم يقينا والتوفير والاعفاء ليس سيمى لغيرهم بلا شك . بل هما أمران مشتركان موجودان فى النجديين وفى غيرهم

وإذا كان ذلك كذلك فلا يمكن البتة أن يعد حلق الرأس سيمى لأهل نجد ، لأنه كما ذكرنا شائع فيهم وفى غيرهم . وذلك كما أنه لايمكن أن يكون لبس (العقال) أو العباءة سيمى لهم ، لأن غيرهم من العرب يلبسون ذلك . وكذلك مثلا اعفاء شعر الوجه لايمكن أن يكون سيمى للنجديين ولا لغيرهم من المسلمين وغير المسلمين . لأن ذلك كله يفعله خلق كثيرون فى بلاد العرب وفى غيرها من العرب وغير العرب من المسلمين وغير المسلمين كحلق الرأس ولا فرق . والخبر القائل فى الطائفة الضالة « سيماهم التحليق » لايمكن أن يعنى بهذه السيمى أمرا عاما مشتركا يوجد فى الطائفة المذمومة وفى غيرها . وإنما يعنى سيمى خاصة مميزة فارقة لاتوجد الا فى الطائفة وحدها فى عصرها الكائنة فيه . وإلا إذا كان يعنى أمرا يوجد فى الطائفة وفى غيرها وفى مخالفيها الذين يقاتلونها ويظفرون بها ويثابون على قتالها فكيف يكون سيمى لها وعلامة عليها . والسيمى كما ذكرنا هى الخاصة الفارقة . ومثل هذا لايمكن أن يكون خاصا بالطائفة المشار اليها ، كما أن مجرد الصلاة والصيام والقيام بفرائض الاسلام لايمكن أن يعد علامة على الخوارج . لأن هذه الأمور يؤديها جميع المسلمين ليست من فرائض الخوارج . ومن عد هذه العبادات سيمى للخوارج أو لطائفة خاصة من طوائف أهل الاسلام فقد غلط

غلطا ظاهرا للخاصة والعامة

فالسيمى المذكورة في الحديث لابد أن تكون خاصة بأهلها وبالطائفة المقصودة بالخبر وبالمذمة . وهذا واضح معلوم . وعلى هذا ليس التحليق سيمى للنجديين بالضرورة البينة ، واذا ماقال قائل كهذا الشيعى إن المعنيين بهذا الخبر هم النجديون لأنهم يحلقون شعورهم قيل له ولماذ لايكون به غير النجديين من الحالقين شعورهم أو قيل له على سبيل البت إن المعنيين به قوم كذا ممن يحلقون . وإذا قال إن هذا الحديث يدل على مذمة النجديين لانهم يشاركون الخوارج فى التحليق قيل له إذن هو دليل على مذمة جميع العرب وجميع المسلمين الذين يحلقون وحينئذ لايكون الذم متوجها الى هذه العقيدة التى تنكرها وتأباها . لأن الذم قد انطلق حينئذ الى من لايدينون لهذه العقيدة السلفية ممن يحلقون شعورهم من المسلمين سوى النجديين . وإذا كان هذا الذم منطلقا إلى أصحاب هذه العقيدة السلفية وإلى خصومها ومن لاينعمون بها عينا لم يكن ذكر هذه المذمة فى النقض على أصحاب هذه العقيدة حقا ولا صوابا ولم يكن جعلها من الدلائل على فساد هذه العقيدة إنصافا ولا عدلا ، ولم يكن فى هذا دلالة لا قوية ولا ضئيلة على ذم هذا المذهب وضعفه وبطلانه . واذا كان المخالف يريد أن هناك ذنبا يشترك فيه النجديون وغيرهم من الناس لا يتعلق بالدعوة السلفية بل بشىء آخر ، اذا كان المخالف يريد هذا وكان ما ذكر هنا لايثبت غيره قيل له : نحن لانتعرض فى كتابنا هذا الا لابطال المقالة التى توجه الى هذه الدعوة وأصحابها خاصة . وأما من قدح فى المسلمين كافة فهذا له مقام آخر . وإذا قال هذا المخالف إن هذا يدل على أن الوهابيين من الخوارج لأنهم يوافقونهم فى حلق الشعر قيل له إذن المخالفون للوهابيين الذين يحلقون شعورهم من الخوارج أيضا . وإذا كان الوهابيون والمخالفون لهم خوارج فالمسلمون كلهم خوارج . وهذا

محال باطل لا يقال

هذا ، وها هنا شيء آخر في المسألة . وهو أن النجديين كانوا قبل هـذه الدعوة وبعدها يحلقون ويعفون ، وكان الذين قبلوها في أول أمرها والذين ردوها وحاربوها يحلقون ويعفون أيضاً ، لا ينفرد أصدقاء الدعوة بذلك دون خصومها ، ولا يختص خصومها بشيء منه أيضا . ولا يمتاز أحد الحزبين عن الآخر لا بهذا ولا بهذا . . فليس أصدقاء الدعوة يحلقون خاصة ولا خصومها يعفون خاصة ، ولم يكن النجديون قبل ظهور هـذه الدعوة يعفون شعورهم ثم صاروا بعد ظهورها يحلقون ، ولم يحدث في هذا تغيير في الحالتين ولا في الطائفتين ، ولم يكن هـذا مقارنا الدعوة ولا ضده مقارنا ضدها . وهذا لا ريب فيه . واذا كان هذا الأمر موجودا فاشياً في النجديين قبل الدعوة وبعدها ، وكان هـذا الأمر بعد ظهور الدعوة كما كان قبل ظهورها ، وكان خصوم الدعوة في ذلك مثل أصدقائها وكان أصدقاؤها مثل خصومها ، أعني أنهم يحلقون ويعفون ويقصرون ، يفعلون هـذا وهذا وهذا في الحالتين والزمنين . اذا كان هذا كله صحيحاً ـ وهو صحيح ـ فكيف يكون دليلا على ذم الدعوة وبطلانها ، ولا يكون دليلا على ذم ما خالفها وبطلانه ، وكيف يكون فيمن قبل الدعوة ذما ولا يكون فيمن ردها كذلك ؟ أم كيف يكون قدحا في النجـديين بعد ظهور هـذه الدعوة ولا يكون قدحا فيهم قبلها ؟ ولا ريب أنه ان لم يكن ذنبا في خصوم الدعوة وقدحا في البلاد قبل ظهورها فلن يكون كذلك في أصدقاء الدعوة وفي بلادها بعد ظهورها . وان كان ذنبـا لأصدقائها فلابد أن يكون كذلك لخصومها ، وان كان قدحا في البلاد بعد انتشار الدعوة فيها فلا بد أن يكون كذلك قبلها . وهذه أوليات واضحة جلية . ولـكن المخالفين لا يرضون هذا ولا يقبلونه . وهو يدل دلالة جلية ظاهرة على غلط هؤلاء المخالفين وعلى غلط هذا الشيعي المتعصب

فما ذكره هنا لن يعده نقصا وعيبا فى هذه العقيدة إلا أصحاب الأهواء الجائرة

هذا الذى ذكرناه خاص بالرجال. أما النساء فما كن يحلقن شعورهن فى تلك البلاد ألبتة ، بل ما زلن الى اليوم يوفون الشعور ويرغبن فى توفيرها وكثافتها وطولها وهن يفخرن بذلك . وما ذكره هذا الشيعى عن الشيخ دحلان من أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه كانوا يأمرون النساء بحلق شعورهن هو كذب صريح وبهتان لا شبهة لصاحبه فيه ، فما يوجد فى نجد امرأة واحدة تحلق شعرها لا اليوم ولا قبل اليوم الا أن يكون ذلك لمرض ألم يدعو اليه وجوبا ؛ ولا يوجد في النجديين رجل واحد يأمر نساءه بأن يحلقن شعورهن لا اليوم ولا قبل اليوم ، وهم لا يشكون في إثم من يأمر بذلك ويحث عليه ، فهذا الذى ذكره هنا والذى ذكره من حكاية المرأة المعترضة على الشيخ محمد كذبه قبيح ، وهذا الكذب الجرىء يكفى والله العاقل دليلا على بطلان أمر هؤلاء المعترضين وفساد مايدعون اليه وما يحاولون الانتصار له . فان الكذب لا يلجأ اليه إلا أهل الباطل والكذب ، وأما أهل الحق فهم لا يحتاجون الى ذلك فى نصرة حقهم وعقيدتهم ودينهم . بل هم يجدون فى الحق الذى معهم متسعا ومقنعاً يغنيهم عن الرجوع الى اختلاق الأكاذيب ، ولا يفترى الكذب الا من فى قلوبهم مرض ودغل مر قبيح ، ولهذا كانت النبوة مقارنة للصدق وكان الصدق مقارنا للنبوة لا يفترقان ، وكانت التنبؤات مقارنة للكذب وكان الكذب مقارنا لها لا يفترقان أبدا ، وكان النبي أصدق الصادقين ، وكان المتنبىء أكذب الكاذبين ، وبرهان النبوة الواضح هو الصدق ، وبرهان النبوة الكاذب هو الكذب : فالحق قرين الصدق والصدق قرين الحق لا يفترقان . والكذب قرين الباطل والباطل قرين الكذب لا يفترقان . وهذا الذى ذكره هذا الشيعى كذب صريح ، وكذلك قوله : أنهم كانوا يأمرون أتباعهم بأن يحلقوا شعورهم قبل أن يفارقوهم كذب أيضا

وعند الله جزاء الكاذبين المفترين

والقول الذى نقله عن عبد الرحمن الأهدل وهو قوله انه لم يفعله ـ أي حلق الرأس ـ أحد من المبتدعة قول يبطله ما نقله الشيعي نفسه من أن الخوارج كانوا يفعلونه ، وما أخلق أهل الباطل بالتناقض والهوى ، وما أبعدهم عن الحق والهدى ، والى الله يرجع الجميع الأوائل والأواخر ، واليه الاياب والحساب ثم الثواب والعقاب . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا

ثم قال الرافضى : « ثانى عشر ـ كما أن الخوارج يقتلون أهل الاسلام ؛ ويدعون أهل الأوثان كما أخبر النبى كذلك الوهابيون يقتلون أهل الاسلام ، ويدعون أهل الأوثان . ولم ينقل عنهم أنهم حاربوا أحدا سوى المسلمين أو قتلوا أحدا من أهل الأوثان . وفى قتلهم أهل الطائف أولا وآخرا بلا ذنب وقتلهم أهل كربلاء سنة ١٢١٦ وغزوهم بلاد الاسلام المجاورة لهم كالعراق والحجاز واليمن وشرق الأردن وغيرهم ، وقتل من ظفروا به من المسلمين . وقتلهم نحو الف رجل من اليمنيين جاءوا لحج بيت الله الحرام سنة ١٣٤٠ وعدم غزوهم لأهل الأوثان . وقد امتلأت الأرض الحادا وكفرا ، وتوجيه بأسهم وحربهم كله الى المسلمين خاصة بعد ما ضعفت قواهم واستعمرت بلادهم وصار الاسلام غريباً فى وطنه أقوى شاهد على ذلك »

انتهى كلام الرافضى

قلت : وهذا قائم على خطئه القديم وهو زعمه أن الوهابيين يستحلون قتال المسلمين ، ويستحلون أموالهم ودماءهم . وقد ذكرنا مرات ومرات أن هذا كذب مشهور ، فالوهابيون لا يستحلون قتال أحد من المسلمين ، بل هم لا يختلفون أن قتل المسلم من أكبر الذنوب التى تقرن بالشرك والكفر بالله . وذلك لأنهم سلفيون

عقيدة وعملا وقولا لا يختلفون على السلف ولا يطلبون سوى النهج منهاجهم . ولو فرض أنهم أو أن طائفة منهم كفروا طائفة من المسلمين أو قاتلوهم ، أو شكوا فى أيمانهم لم يكن ذلك لأن من مذهبهم اكفار المسلمين وقتالهم كلا ، وانما يكون هذا لو وقع من الأغلاط التى يقع فيها بعض الجماعات وبعض الآحاد . وأغلاط الأفراد والجماعات ليست معدودة يقينا مذهباً للطائفة التى ينتمون اليها . ومثل هذا مثلا أن يغلط بعض علماء الشافعية أو الحنابلة أو الحنفية ، أو غير هؤلاء ، فيكفرون بعض المسلمين لاعتقادهم أنهم كفروا وأنهم قد جاءوا بما يستوجب الكفر . فاذا ما وقع مثل هذا وهو يقع كثيرا في كل زمان ومكان لم يقل ان أهل المذهب الذي ينتمى اليه هذا العالم الذى غلط فاكفر غير الكافر يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم وأموالهم . وكذلك اذا ما قاتل ملك أو أمير أو قائد يعزى الى مذهب من المذاهب الأربعة أو غيرها طائفة من المسلمين أو ملكا من ملوك المسلمين أو غزا بلادا من بلاد المسلمين لأسباب صحيحة أو باطلة لم يدل مثل هذا على أن أهل مذهب ذلك الملك أو الأمير أو القائد يستحلون قتال المسلمين ويبيحون دماءهم وأموالهم ، كلا ، كلا . ان مثل هذا لن يكون ، ومن قال به وذهب اليه فهو من الضالين الآثمين . ولو صح مثل هذا لقيل أن جميع المسلمين وجميع أهل المذاهب الاسلامية يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم وأموالهم وذلك لأنه ما من مذهب من المذاهب المشهورة الظاهرة فى الاسلام الا وقد قاتل بعض رجاله وبعض المحسوبين عليه قوما مسلمين ، وغزوا بلادا إسلامية لأسباب قد تكون صحيحة ، وقد تكون فاسدة ، وقد تكون مبيحة ذلك القتال ، وقد لا تكون مبيحة ، وما من مذهب من هذه المذاهب الا وقد أكفر بعض رجاله وبعض المحسوبين عليه قوما من المسلمين وقوما ليسوا بكافرين لشبهة قامت لديهم حسبوها موجبة الكفر والقدح وقد يظهر لهم بعد ذلك أنهم غالطون ومخطئون . ثم قد يرجعون عن ذلك

وقد يصرون عليه لأنه لم يظهر لهم غلطهم . وقد يخالف فى هـذا بعض رجال المذاهب الاخرى ، وقد ينازعونهم ويجادلونهم ، هذا ما يقع كثيرا فى كل زمان وفى كل دولة وفى كل مذهب وفى كل أمة ومن جعل مثل هذه الاعمال الفردية التى يأتيها الاحيان بعض الافراد والجماعات مذهبا عاما وعقيدة عامة لتلك الطائفة التى كان أولئك من أفرادها ومن علمائها أو جهالها ، فقد أخطأ خطأ لا أظنه يعذر عليه ولا يسلم من تبعته ومعاقبته

ومثل هذا لو وقع من بعض الوهابيين ونحن نفترض هذا افتراضا اكفار أحد من المسلمين أو مقاتلته أو القدح فى دينه وعقيدته ومذهبه : اذا وقع مثل هذا لم يكن دليلا ولا شبه دليل على أن الوهابيين يبيحون قتال المسلمين ويكفرونهم ويقدحون فى عقائدهم ومذاهبهم يقينا . ومن ذهب هذا المذهب وأبى الا إياه فقد لزمه أن يقول ان جميع المسلمين وجميع أهل المذاهب الاسلامية يبيحون قتال أهل الاسلام ويستحلون قتالهم واكفارهم والقدح فى عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم على النحو الذى ذكرناه . وهذا عين الضلال وهذا عين القدح فى المسلمين عامة

والمذهب بل والدين كله يؤخذ من قواعده وأساسه وأصوله العامة الثابتة التى يرجع اليها حين الاختلاف والنزاع ، والتى رضيها رجال المذهب أو الدين كلهم بلا خلاف بينهم إلا أن يكون شاذاً مردودا . أما أن يؤخذ المذهب أو الدين ويحكم عليه بما يعمله بعض أفراده أو بعض جماعاته أحيانا إما غلطاً وإما صوابا فليس ذلك من الحق فى شىء ، وليس هذا فعل أهل الانصاف والعدل . بل هذا هو فعل أهل الاهواء . وأصول المذهب الوهابى هى أصول مذهب السلف الصالح والرعيل الأول من الأصحاب والتابعين والفقهاء والمحدثين وأصول مذاهب الأئمة الأربعة ، ومن هذه الأصول المرجوع اليها أنهم لا يكفرون مسلما بذنب مهما كان الذنب جليلا ، وأنهم لا يستحلون دماء المسلمين . بل وأنهم يرون قتال

المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم من أعظم العظائم وأفحشها عند الله وفي دين الله وأنهم يلتزمون الآيات والأحاديث في تحريم دماء أهل الاسلام وتحريم أموالهم والقدح فيهم والايذاء لهم وأنهم يبرؤن الى الله ممن لا يلتزمون ذلك وممن لا يقفون عنده نفياً وإثباتاً . بل ومن أصولهم المرجوع اليها أنهم يتولون المسلمين كافة ويحبونهم كافة ، ويغضبون لهم ويغارون لهم كافة ، ويودون لهم الخير كافة ، ويحبون المسلم البعيد الوطن أكثر من حبهم القريب النسب والوطن ممن ليس مسلماً ولا عابئاً بالاسلام . هذه الأمور من أصول هذا المذهب لا يتنازعون فيها ولا يختلفون ، وهذا ما يذكرونه في جميع كتبهم المشهورة المقروءة المعلومة للخاص والعام ، وهذا هو مايجب أن يؤخذ به المذهب وما يجب أن يحسب عليه أوله وكل ماسواه يجب أن يرد اليه . فهو الأصل والمرجع الأعلى ، وهذا الأصل يتقبله جميع أهل السنة والجماعة لا ينكره منهم أحد

هذا ما يقال إجمالا عما يدعيه هذا الشيعي من أن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم ، وأن أهل القبلة جميعا كفار مارقون من الاسلام والملة عندهم

وأما قوله إنه لم ينقل عن الوهابيين أنهم حاربوا أحداً سوى المسلمين أو قتلوا أحداً من أهل الأوثان فيقال في جوابه : إن كان يريد بغير المسلمين وبأهل الأوثان الذين لم يحاربهم الوهابيون ولم يقتلوهم هم من لا يؤمنون بأصل الاسلام ولا بالرسالة المحمدية من اليهود والنصارى والمجوس وإخوان هؤلاء . فصحيح أن السلفيين الذين قاموا في نجد منذ مائتي عام وتقبلوا إرشاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته الصحيحة للرجوع بالناس الى الاسلام قبل أن يصاب بالاخلاط والاحداث فنهضوا نهضتهم المعروفة الفتية الملتهبة التي قلبت الأحوال والأحكام في البلاد النجدية وفي الجزيرة العربية ، فاجتمعوا على إمام واحد بعد أن كان لكل بيت

امام ، وعلى عقيدة واحدة بعد أن كان لكل واحد منهم عقيدة ، وقاموا بفروض الاسلام كاملة تامة باخلاص ووفاء ومحافظة وتقوى : ان كان هذا الشيعي يريد أن هؤلاء السلفيين لم يقاتلوا اليهود والنصارى والمجوس ومن لا يدينون بأصل الاسلام وبالنبوة المحمدية ، فنحن نسلم له أن هذا صحيح وأنه حق لاشك فيه . ولكن هل يرى أنهم مؤاخذون بهذا وأنهم مقصرون ، وأنهم لم يقوموا بالواجب ؟ إن كان يريد هذا فقد أبعد والله المرمى . فهل يريد منهم أن يقاتلوا انجلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا وأن يجتازوا البحار والقفار والليل والنهار ليقاتلوا الوثنيين فى اليابان وفى الصين وفى طرفى الارض الشرق والغرب ؟ أفيريد منهم هذا وهو يعترف فى كتابه بأن الأتراك والأشراف والمصريين قد اجتمعوا على حربهم ومناوأتهم والتضييق عليهم فى دارهم وفى كل مكان ، وتمالئوا على غزوهم فى بلادهم مرات ، وأنهم مازالوا يحاربونهم ويبعثون الأجناد والجيوش الكثيفة الجرارة لاستئصالهم والقضاء عليهم ، وأنهم ما زالوا يوقعون بهم الخسائر الفادحة فى الرجال والأموال ويدقون قوتهم وينتقصونها من جميع أطرافها . مازالوا كذلك وما زالوا حراصاً عليهم حتى قهروهم واحتلوا ديارهم وخربوا عاصمتهم وأخذوا أميرهم وأسرته أسرى ثم قتلوهم صبراً فى بلاد الخلافة ، أفيريد منهم أن يركبوا الى هذه الأمم فيصلوا اليها فى ديارها ليغزوها وينازلوها وهو يذكر فى كتابه أن شريف مكة غزا النجديين فى بلادهم فى مدة خمسة عشر عاما أكثر من خمسين غزوة حينما كانوا ضعافا حديثى العهد بالوجود والظهور ، وفي عصر لم يكونوا قد لموا شعثهم ولا جمعوا كلمتهم فيه وفى وقت لم يصيروا القوة المرهوبة التى بها يستطيعون مصادمة الباغين ومقارعتهم ، إن كان يريد منهم هذا فالرجل فى حاجة الى أن يخلق له عقل آخر ليفكر به وليناظر ويجادل وليكتب به على الوهابيين كتابا ينقد به عقائدهم وأعمالهم ويهجو به رجالهم وشيوخهم وكتبهم ويؤلف به الشبهات

والأوهام على عبادة الاجداث

ليفرض هذا الشيعى أن النجديين أرادوا غزو هذه الأمم وحربها بعد أن يفرض استعدادهم التام لذلك . أفيرى أن أولئك المسلمين الذين غزوهم فى بلادهم يتركون لهم السبيل الى وجوههم ويدعونهم يصلون الى هذه الغاية ؟ ألا يرى أن هؤلاء الذين قاتلوهم فى أحشاء بلادهم سوف يقاتلونهم حينئذ ، وسوف يكونون لهم الخصوم اللد ؟ اذا كان يعترف بأن الاتراك والاشراف وغيرهم لم يدعوهم يحجون ويقرون ويعملون بالشريعة الاسلامية الصحيحة ، ولم يدعوهم يهدؤن يوما بل مازالوا يتربصون بهم الدوائر وينتظرون بهم الانحدار ، واذا كان يعترف بأن هذه القوى العديدة المنوعة ما زالت تناوئهم وما زالت تغرى بهم وتقاتلهم وكان يعترف بأن قوتهم المادية لم تكن كفئا يوماً لمنازلة هذه القوى المادية الغاشمة فما له يريد منهم المحال . فيريد منهم أن يسافروا الى أقصى الشرق وأقصى الغرب ليغزوا الوثنية والنصرانية لئلا يكونوا عنده من الخوارج المارقين ؟ ولعمرو الله ماهذا بمنطق يزهى به وتتكلف نفقات طبعه ونشره

وليس من الذنب والخطيئة فى المسلم أن يكون عاجزاً عجز مادة ومشغولا بنفسه وحاله عن مناهضة أعدى أعدائه وألد أخصامه ، وليس من الذنب له والخطيئة أن يعتدى عليه من هم أقرب اليه ممن يراد منه أن يعتدي عليهم من الخصوم ، وليس من الذنب للنجديين أن تجتمع على اضعافهم ووقف حركتهم وتقدمهم قوى متكاثرة تفوق قواهم وما يمتلكونه من ذلك : ليس فى هذا عيب البتة

وإذا شئنا تقريب هـذه المسألة لهذا المخالف العنيد قلنا له هذا على بن أبي طالب أفضل البشر عندكم ــ وهو المعصوم الذى لايفعل ولا يقول سوى الحق ــ قد قضى مدة خلافته كلها فى حرب المسلمين وقتالهم والاستعداد لمناجزتهم . وما

امتشق فى خلافته كلها حساما على أحد من الكفار والمشركين ، ولا على أحد من اليهود والنصارى والمجوس . فحارب معاوية بن أبى سفيان ومن معه من المسلمين والصحابة ، وحارب عائشة وطلحة والزبير ومن معهم من المسلمين ، وحارب الخوارج وأنت تعترف أن عليا ما كان يكفر الخوارج وما كان يراهم قد خرجوا من نطاق الاسلام : فعاطى على هؤلاء كلهم الحسام ، ولم يعاطه جيشا من جيوش الكفر فى مدة خلافته كلها . أتقول إنه كان ممن يقاتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان ؟ إن قلت إنه كان مدفوعا إلى ذلك دفعاً وأنه كان يقاتل هؤلاء بحق لأنهم هم الباغون عليه الخارجون ، وان قتالهم كان واجبا فرضا لخروجهم على الامام الحق المنصوص عليه ، ومحاولتهم اغتصاب حقه الواجب المفروض ، وقلت إنه كان مشغولا بذلك عن قتال الكفار والمشركين فلم تواته فرصة حربهم فى مدة خلافته كلها . إذا قلت هذا قلنا لك : وهذا هو جوابنا عن النجديين ولا ريب . فانهم كانوا هم المبدوئين فى هذه الحروب كلها . وإذا كان الامام على رضى الله عنه لم يحارب المشركين فى خلافته كلها وكان مشغولا عن ذلك بحرب المسلمين ، وكنت واجدا له رضى الله عنه معذرة وحجة تخلصه من الذنب والملام ، وهذا مالا شك فيه عندكم ، فمالك تقطع بانه لاعذر للنجديين فى حروبهم ؟ بل تقطع أنهم بذلك ضالون مستوجبون المؤاخذة والعقوبة ، وأنهم به خوارج أو كالخوارج . ولعل الحصول على العذر للوهابيين فى هذه المسألة اقرب من الحصول على العذر للامام على . وذلك أن عليا كان لديه من العدد الحربية وعدد الجيوش أعظم مما عند النجديين بأضعاف مضاعفة ، وكان سبيل غزو الكفار والمشركين أيسر وأقرب على على وأجناده منه على النجديين ، ولم يكن فى طريق على ـ إذا ما أراد غزو الكفر والشرك ـ ما فى طريق النجديين من المخاطر والعقبات والموانع إذا ما أرادوا ذلك . ولكن الامام عليًا كان لدى الشيعة معذوراً

كل العذر ، فلماذا لايعذر هؤلاء القوم النجديين اذا ما تركوا ماتركه الامام علي ، بل ان عجزوا عما عجز عنه علي رضى الله عنه وهو الخليفة المعصوم عندكم المؤيد من الله العالم بما كان وبما يكون ، وهو البطل الفرد الذي لايسامى ولا يجارى

هذا ولنقل لهذا الشيعي من من الشيعة والمتشيعين قاتل الكفار والمشركين وغزاهم فى ديارهم . ومن من الشيعة والمتشيعين من أصحاب السلطة وان ضئيلة حقيرة لم يحاربوا المسلمين ويشبوا عليهم السيوف ويسفكوا دماءهم وينهبوا أموالهم بكل الطرق الممكنة ؟ ليدلنا على من شاء من الشيعة لم يفعلوا ذلك ولم يتركوا ذاك ؟ من منهم لم يحاربوا المسلمين ويقاتلوهم ؟ ومن منهم لم يدعوا الكفار والمشركين بل ويهبوا الكفار بلاد المسلمين عن رضى وطواعية

هذا التاريخ ليحتل نواحيه وليغص فى أحشائه ، وليخرج لنا منه قصة واحد تخالف ما نقول وتكذبه . إن أشهر سلطان كان للشيعة هو سلطان الفاطميين الذين قامت لهم دولة كبيرة مرهوبة حينا من الزمان فى مصر والشام . فهل يعرف هذا الشيعي كيف نشأت هذه الدولة ، وكيف قامت ، وكيف ظهرت ، وكيف انتصرت ، وكيف كانت ؟ إنها لم تظهر ولم تنتصر ولم تكن ولم تقم الا على أشلاء المسلمين وعلى بحار من دمائهم وعلى الكيد للخلافة الاسلامية ، والغارات عليها ومناوأتها تارات بالنفاق والدس وتارات بالحرب والضرب وامتشاق الحسام على الرقاب المسلمة المؤمنة ، هذا هو ماقامت به هذه الدولة الشيعية إزاء المسلمين وازاء الخلافة الاسلامية . ولكن ماذا فعلت بالكفار والمشركين فى ابان سلطانها وعنفوانها ؟ وما كان موقفها من الصليبيين المغيرين على الاسلام وعلى الممالك الاسلامية ؟ وماذا افتتحت من بلاد الشرك والكفر ؟ ليفكر هو ولينظر بماذا يجيب وماذا يكون جوابه ، ثم ليجب ان استطاع ونحن نذكره بأقرب من هذا . وذلك أن

نقول له هاتان دولتا الشيعة القائمتان اليوم احداها فى إيران والاخرى فى اليمن هل يستطيع أن يقول لنا انهما غزتا الكفار والمشركين، وانهما حاربتا دولة من دول الكفر والشرك، وقد اعتدى على هاتين الدولتين الكفار ولا يزالون يعتدون واغتصبوا أجزاء معلومة من مملكتيهما ظلماً وعدوانا، ولا يزالون يحاولون المزيد من هذا النصيب. فماذا فعلتاه هاتان الدولتان الشيعيتان إزاء هؤلاء الظالمين ؟ وهل فتحت هاتان الدولتان شبراً من أرض الكفر والشرك ؟ هذا ما يطالب هو بجوابه. ثم هل يعلم أن هاتين الدولتين قد حاربتا المسلمين كثيراً وسفكتا دماء مسلمة غزيرة فى عصور مختلفة. ليدعنا نرخ الأستار على هذا كله ونضرب عنه صفحاً، فاننا لا نتعشق هذه الذكرى ولا هذا الغرام. وما ذكرناه إلا ضرورة وجزاء بجزاء

ومن الحقائق التى لا ريب فيها أن الشيعة ما زال هواها وحبها منصبا مندفعاً جهة خصوم الاسلام وهدامه فى كل العصور. ويتجلى هذا حين نكبات الاسلام ومحن المسلمين. وقد ذكر علامة العراق المرحوم محمود شكرى الألوسى أن أهل ايران الشيعيين قد زينوا بلادهم وحوانيتهم فرحا وسرورا يوم أن انتصر الروس على المسلمين وعلى الدولة العثمانية، وعدوا ذلك اليوم عيدا. وروى الحافظ الذهبى أن أبا القاسم بن عبيد الله الفاطمى أمر بلعن الأنبياء وأطلق منادياً ينادى بلعن الغار ومن لاذ بالغار يعنى النبى وصاحبه أبا بكر، وأنه هو الذى أغرى أبا طاهر القرمطى بغزو مكة وبتحريق الكعبة وانتهاب الحجر الأسود وقتل الحجيج

وقد كانت الشيعة عونا للتتار الذين غزوا الاسلام والممالك الاسلامية حتى دخلوا دار الخلافة وقتلوا الخليفة بمعونة النصير الطوسى الاسماعيلى ومكيدة ابن العلقمى الشيعى وزير المستعصم. وهكذا كانت الشيعة فى كل الأوقات اعوانا للكفار والمشركين على الاسلام والمسلمين، لا يدخرون وسعا عن الايقاع بالاسلام

وأهله ، ولا يحجمون عن نصرة الكفار والضلال بغية إذلال المسلمين وتحطيم أهل السنة ، ولا عجب فى هذا فانهم يستحلون قتال الخلفاء الراشدين أمثال أبى بكر وعمر فضلا عمن دونهم من أهل السنة ، ويزعمون أن المسلمين قد اتفقوا على قتل الخليفة عثمان وأن خيار الصحابة كانوا يرون وجوب قتله والخروج عليه ، ويزعمون أن عليا كان من الخارجين عليه المشيرين بقتله الراضين به ، ويزعمون أن قتله كان واجبا ، وأن الخروج عليه كان واجبا ، وأن انتزاع الخلافة والأمر منه كان واجبا ويزعمون لأجل هذا أن قتلته الأئمة مجزيون عند الله خيرا ، وأنهم ما فعلوا إلا الحق والواجب

وكذلك يرون أن الخروج على أبى بكر وعمر كان واجبا وأن قتلهما كان واجبا ، وأن من خرج عليهما وقتلهما كان عند الله مشكورا مجزيا ولهذا فان طوائف منهم يمتدحون أبا لؤلؤة الغلام المجوسى القاتل لعمر ويدعون لهذا الغلام ويرجون له المغفرة والثواب جزاء فعلته هذه . ولهذا تذكر كتب الشيعة أن المنتظر اذا ما ظهر هدم مساجد المسلمين وهدم مسجد المدينة ، وهدم حجرة النبى ونبش قبر صاحبيه وأخرجهما وهما حيان طريان ثم صلبهما على خشبة وحرقهما ، لأن جميع ما ارتكبه البشر من المظالم والجنايات والآثام ومن ظلم آل على من يوم أن خلق آدم الى يوم القيامة انما صدر عنهما ، فالأوزار منحطة عليهما راجعة اليهما

وكذلك يرون وجوب الخروج على جميع الخلفاء العباسيين والأمويين وقتالهم والحاق جميع الخطوب والأضرار بهم ، وهكذا غيرهم من الأمراء والخلفاء

وهذه أمور لا خلاف فيها عند الشيعة الغالية وهذا كله هو ما تقضى به أصول الشيعة وقواعد مذهبهم . وما كان يمنع طائفة الشيعة من أن تسدى الى المسلمين الاضرار والمحن الا العجز . ولا كان يقعدها عن الثورة على الخلفاء والامراء والملوك الا العجز أيضا والحذر . ومن دين الشيعة التقية التى قد يلجأ اليها كل

انسان منهم

واذا كانوا يرون الخروج على الخلفاء كأبي بكر وعمر ويرون وجوب قتالهم وقتلهم فكيف لا يرون وجوب الخروج على جميع من جاءوا بعدهم من الملوك من أهل السنة ، وكيف لا يرون وجوب قتالهم بكل الوسائل المؤدية الى قتلهم حربا معلنة أو اغتيالا وغدرا ؟

هذا مانقوله أولا . ثم نقول إن زعمه ان الوهابيين لم يقاتلوا أحداً من أهل الاوثان قائم على خطئه القديم ، وقائم على أن عبادة القبور والصالحين الاموات بالشكل الشائع اليوم بين الشيعة ومن ضاهاهم لدى قبور الصالحين وآل البيت ليس من الشرك ولا من الوثنية الصريحة الصحيحة ولا من عبادة غير الله ولا مما يمنعه الاسلام وغيره من دين الله ولا مما دلت الدلائل الصحيحة على أنه من الشرك ومن الغلو المنهى عنه نهيا صريحا واضحا فى آيات القرآن وفى الاحاديث الصحيحة المتواترة . ولو أنه علم أن هذا كله شرك بالله العظيم وعلم أن دعاء الاموات والاستغاثة بهم وسؤالهم جميع المطالب كما يفعله جمهور العامة والخاصة والعامة من الشيعة وكما يدعو اليه فى كتابه هذا وفى غير هذا الكتاب وثنية صريحة لو علم ذلك كله لما قال ما قاله هنا ولما شك فى أن النجديين قد قاتلوا الوثنية وطهروا جزيرة العرب والبلاد النجدية من هذا الشرك وهذا الغلو القبيح الجافى الفظيع الذي لا يتنازع العقلاء اليوم في أنه من عبادة غير الله

وقد كانت بلاد العرب وكانت البلاد النجدية قبل ظهور هذه الدعوة ملأى بعبادة الأحجار والاشجار وعبادة القبور والمشايخ والصالحين ، وكان الناس يستنجدون بالقبور ويطوفون بها ويحجون اليها وينذرون ويذبحون لها ويحلفون بها ويرجونها ويخافونها ويرغبون فيها كما يرهبونها ، وكان طلاب الحاجات يقصدونها من كل مكان على اختلاف حاجاتهم وتكاثر طلباتهم ، فكان الفقير يأتيها مرجيا

الغنى ، والمريض يأتيها مرجياً الشفاء ، والمنكوب مرجياً العافية ، والعانس مرجية الزواج ، والعاقر العقيم مرجية البنين والبنات ، والرقوب التى لا يعيش أولادها مرجية أن يعيشوا ، والخائف المطلوب مرجياً الأمن والسلامة ، وكان من أصيب بشر ظنه من الشيخ فلان لأنه قد قصر فى حقه وأعرض عن بره فلم يهد اليه ولم ينذر له ولم يقدم له شمعاً ولا وقودا . فبادر الى الشيخ طالباً الصفح والغفران مقدما اليه والى حجابه وسدنته مايستطيعه وما لا يستطيعه من الهدايا والنذور ومن الضراعة والمسكنة مقدماً اليه قلبه وجسمه ، وكان من أصيب بخير ظن ذلك الخير قد جاءه من الشيخ فلان لأنه عنه راض وبه معجب ومعنىّ لأنه اليه لجأ ورجم و به تعلق ولاذ وله أهدى ونذر وله رعى ودعا فجد فى برّ ذلك الشيخ و بر حجابه وسدنته وجعل له من وقته ومن قلبه ومن لسانه ومن ماله ومن ذريته نصيباً موفوراً وسهما وفيراً . فعاش بين الناس وبين أهله بجسمه ، وأما قلبه فلذلك الشيخ صاحب ما يتقلب هو وأهله فيه من خير ونعمة . فان ذكر الله ذكر الشيخ ، وان ذكر ماهو فيه من نعمة ذكر الشيخ ، وان ذكر السلامة ذكر الشيخ ، وان رأى مصابا ذكر الشيخ ، وان رأى معافى ذكر الشيخ ، وان نام ذكر الشيخ وان استيقظ ذكر الشيخ ، وان حلف حلف بالشيخ ، فعند كل شىء يذكر الشيخ ، وفى كل وقت يهتف باسمه وكل مافيه من خير ومعنى هو للشيخ والى الشيخ منسوب . وما كان هذا نصيباً للمشايخ وحدهم ، ولا كان الناس للمشايخ فقط ، ولعل من هم للاحجار والاشجار والابواب أكثر وأسمن ممن هم للاشياخ والاولياء ، ولعل نصيب الشجيرات المزورة المعظمة ، والاحجار المزورة المعظمة من ذلك لا يقل عن نصيب الاشياخ والاولياء

هذا بعض ما كان هناك قبل هذه الدعوة ، وهذا ما كان فى كل مكان من بلاد العرب وغيرها من البلدان الاسلامية ، وهذا ماحاربه النجديون وما طهروا

البلاد منه حتى وجعوها حنيفية اسلامية ، وهذا ان لم يكن شركاً وعبادة للاصنام فما هو الشرك وما هى عبادة الاصنام ؟ وان لم يكن محارب هذا محاربا للشرك والوثنية ومحاربا للاصنام والأوثان فكيف تكون محاربة الاصنام والأوثان ، ومن هم المحاربون للوثنية والشرك ؟

إننا نقول واثقين مما نقول : ان هذه وثنية مضاعفة ، وان من حاربها فقد حارب الوثنية ، و براهيننا ماسوف نذكره فى كتابنا وهذا مانهضنا لاثباته ولانهاض الدلائل عليه ، والشيعى يزعم أن هذه الأمور كلها من الايمان بالله ومن توحيده وعبادته ، وقوله هنا ان الوهابيين لم يحاربوا الأصنام والأوثان قائم على زعمه أن الأمور المذكورة ليست شركا ولا عبادة لغير الله بل وليست حراماً ولا إثماً ، فهذا الخطأ قائم على ذاك الخطأ . ولا يصدق زعمه أن الوهابيين لم يحاربوا الوثنية حتى يصدق زعمه أن ما يصنعه الناس اليوم وقبل اليوم على جوانب الأضرحة ولدى الاحجار والاشجار ليس وثنية ممقوتة . فزعمه هنا هو مايسمى عند علماء الجدل مصادرة الدعوى . فاذا عجز عن إقامة الدليل على أن هذه المخازي فى احشاء الأضرحة ولدى الاحجار والاشجار ليست شركا بالله فقد بطل زعمه أن النجديين لم يحاربوا الوثنية ، واذا ما أقمنا البراهين نحن على أن ذلك شرك ووثنية فقد بطل زعمه هذا . فهو لا يصدق حتى يصدق قوله إن عبادة القبور والمشايخ ليست شركا ولا وثنية وليس أحد قوليه بأصدق من الآخر

وأما ماذكر من قتلهم أهل الطائف وأهل كربلاء وغزوهم العراق وشرق الاردن . فيقال هذا القتال إما أن يكون مشروعاً وإما أن يكون غير مشروع . فان كان مشروعاً لم يجز لومهم عليه لأنه أمر مشروع ، وان لم يكن مشروعاً فبل غاية هذا أن يكون خطأ ولده الاحتكاك والمجاورة ، والاحتكاك والمجاورة يولدان أمثال ذلك دائما ، وهذا معهود فى جميع العصور بين جميع الطوائف والأمم

وهذا أمر لايختص به مذهب دون مذهب ، ولا عقيدة دون عقيدة . فكما يقع من أهل الحق يقع من أهل الباطل وكما يقع من أهل السنة يقع من الشيعة والمتشيعين وكما يبدأ به الظالمون قد يبدأ به المظلومون أحيانا ، وأية طائفة من الطوائف وأمة من الأمم لم يقع بينها وبين جيرانها الخلاف الباعث على امتشاق السيوف من اغمادها وعلى سفك الدماء والمصادمات الدامية ؟ هذا يقع كثيرا ، ولكن أحدا من العلماء والمؤرخين لن يعد مثل هذا عقيدة ولن يجعله دليلا على أن من وقع منه ذلك يستحل قتال المسلمين ودماءهم أو يستحل قتال الناس كافة . كلا ان أحدا من العلماء لا يذهب هذا المذهب ولا يسلك هذا المسلك . أوليس هذا الشيعي قد ذكر في مقدمة كتابه أن غالبا شريف مكة قد غزا النجديين في بلادهم وقاتلهم مرات ، وأنه قتل ونهب منهم ما استطاع ، وأن الاتراك قد حاربوا النجديين وغزوهم عدة مرات ، وقتلوا منهم ومن أمرائهم صبراً وغدرا خلقا كثيرا ، وأن محمد على باشا وأولاده قد غزوا النجديين في أحشاء بلادهم وألبوا عليهم العرب والأعراب والاتراك والسودان ، وبعثوا الى حربهم العدد والعدد العظيم وأنهم مازالوا كذلك حتى تمكنوا منهم فقتلوا منهم وفعلوا بهم الافاعيل ، وشتتوا أمراءهم وزعماءهم وعلماءهم ؟ فال هذا القتال لا يكون منكرا ولا دالا على استحلال قتال المسلمين وقتلهم ، ثم يكون قتال النجديين أهل الحجاز أو غيرهم بعد ان ظلموهم ومنعوهم من الحج منكراً ودالا على أن النجديين يستحلون قتال المسلمين وقتلهم ومال قتال الاتراك للنجديين وهجومهم عليهم في مأمنهم يعد عرفا ودينا وطاعة ثم يكون قتال النجديين لبعض ولاة الاتراك وعمالهم بعد أن بدؤوهم بالظلم منكراً ، عصيانا وذهابا مذهب الخوارج أو ماذكر هو في كتابه أن محمد على باشا وابنه ابراهيم قد حاربوا الدولة العثمانية وهزموها وقهروها ؟ فال هذا القتال لايكون دالا على شيء ثم يكون قتال النجديين للاتراك بعد اعتدائهم عليهم منكراً ودالا على

الضلال والخروج على المسلمين وعلى استحلال قتالهم ودمائهم ؟ ماهذا لعمر الله بعدل ولا عقل

هذا نوع من الرد على هذا الشيعى نقول بعده : إن هذه الحروب التى ينكرها على النجديين هى حروب بعضها مشروع ولا شك ، وذلك كافتتاح الحجاز أولا وآخرا . وذلك لأسباب خاصة بالنجديين وأسباب أخرى عامة المسلمين . فان الأشراف الذين هم ولاة الحجاز والذين غزاهم النجديون قد أفسدوا البلاد وملئوها بغيا وإثما ومنكرات متنوعة ، حتى فسدت النفوس والعقائد وتضعضعت الأخلاق ، وصارت البلاد المقدسة جحيما وأتون رجس وبلاء من جميع الوجوه لا يطاق . الحجاج يسلبون فى الطرق ويقتلون . ويحتال الدجالون والمبتدعون الكذابون على ما بقى معهم من المال على حساب الدين والعقيدة الباطلة . فالحجيج فى الطريق يقتلون وينهبون ، وفى المدن والحرم الآمن يخدعون ويضللون ، ثم لا يجدون نصيرا ولا مغيثا ولا عونا يشكى اليه . وكانت البلاد معرضة لأعظم الأخطار الخارجية ، كما قد أصابتها أعظم الأضرار الداخلية . هذا بعض ما كان هناك من الاسباب العامة للمسلمين

وأما الاسباب الخاصة بالنجديين ، فذلك أنهم قد أوذوا وتحدوا وأغير على بلادهم وغزوا فى ديارهم وسبوا وسبت عقيدتهم ودينهم وأذل وطورد من ظهر بودهم وولائهم ثم منعوا من الحج ومن القيام بهذه الفريضة . وألبت عليهم الضغائن وحيكت حولهم المكايد : كل هذا بعض ما كان . فكان بعض هذا مبيحا غزو البلاد وانقاذها من الاخطار المحدقة بها من دينية إلى سياسية إلى أدبية إلى اجتماعية . وكان هذا ما لا بد منه . وكان هو عين الحكمة والصواب كما شهد الناس وذكروا وكما وقع وكان

وأما غزو كربلاء فكان غزواً لتلك المنكرات الشيعية الفاضحة التى تتأباها جميع

الأذواق السليمة بل والأذواق المريضة التى لم تمت بعد . على أن كربلاء كانت ولاية من ولايات الدولة التركية . والدولة التركية كانت معلنة الحرب على النجديين كما يعترف الشيعى نفسه . فكان غزو النجديين لأرض الدولة التركية غزواً لعدو ظالم محارب . وهذا لا يمنعه أحد . وكذلك ما يذكره من هجومهم على العراق .

وأما ما ذكر من قتال أهل اليمن ، فجوابه أن نذكره بالحرب اليمنية السعودية الأخيرة ، ثم ما تلاها من محاولة اغتيال جلالة الملك عبد العزيز ، ثم موقف حكومة جلالته من ذلك ، وما أظهرته من الحلم والصفح والحرص على حقن الدماء المسلمة . بل هذا يبدد كل ما حاكه هذا الشيعى من التهم المهلهلة .

وأما ما ذكره من قتل حجاج اليمن ، فهذا قد وقع خطأ . فان النجديين ظنوا أولئك اليمنيين عونا ومددا لجند الشريف ملك الحجاز اذ ذاك حينما كان يغازى النجديين ويعاديهم ويعتدى عليهم . وكانت هذه الحادثة بعد موقعة حربية قامت بين النجديين وبين الجيوش الحجازية الهاشمية ، وقد اعتذر جلالة الملك عبد العزيز لجلالة الامام يحيى عن هذه الحادثة بأنها وقعت خطأ . وانه يقدم للامام يحيى الاعتذار والدية . فتم الرضا بين الملك عبد العزيز والامام يحيى وزال ما بينهما من أثر فى النفوس يرجع الى هذه الحادثة

وهل يظن الشيعى أن النجديين يستحلون قتل الحجاج المخالفين لهم فى بعض الاعتقاديات ؟ أفلا يعلم أن الحجاز اليوم تقصده جميع الطوائف الاسلامية ، ويقصده فريق قليل من الشيعة ؟ أفيظن أن هؤلاء الحجاج يقتلون هنالك وأن النجديين يستحلون قتالهم ، وأن من ذهبوا إلى الحجاز لا يرجعون ؟ أو لا يعلم أن الحجاج لم يكونوا فى عصر من العصور آمن منهم فى هذا العصر على عهد السلطان السعودي الوهابى ، وان الناس لم يأمنوا على دمائهم وأموالهم فى عصر من العصور أمنهم على ذلك فى هذا العهد . والعالم كله شهيد بهذا

وكذلك يقال فيما ذكره من غزو شرق الاردن فان هذا الغزو قد كان من بعض القبائل النجدية جزاء غزو بعض القبائل فى شرق الاردن وفى العراق بعض الحدود النجدية . ولم يكن هذا الغزو إلا مكافأة وجزاء بجزاء ، ولم يكن صادراً عن أمر الحكومة . والحكومة لم تسير ذلك الجيش الغازى . وإنما سبيله ما ذكرناه . ومثل هذا لا تؤاخذ به الحكومة ، ولا يؤاخذ به أولو الأمر منها . ولو أن هذا الغزو كان برضى الحكومة لكان له فى ذلك الوقت مبيح ومبرر ظاهر . وذلك أن الاساءات كانت تتلاحق نحو النجديين ونحو حكومتهم وبلادهم من جهة تلك الأقطار . وكانوا هنالك يسيئون اليها ويتعسفون فى المطالب ويحوكون لها الدسائس ويبثون القلاقل . وكانوا يريدون القضاء عليها . وكان زعيمهم الاكبر لا يفتأ يسعى لايقاع أعظم الضرر بالنجديين . وهذه أشياء معلومة . وقد كانت الحكومة السعودية تتلقى من أولئك أمورا كان يكفى بعضها أن يكون مبيحا الغزو وامتشاق الحسام . ولكنها كانت كما شهد الناس أزهد الحكومات فى الحرب وفى سفك الدماء . والحرب اليمنية النجدية الاخيرة أنصع دليل على هذه القضية

ومن تهافت الشيعى ومن الدليل على سوء نيته قوله ان النجديين لم يحاربوا أحداً غير المسلمين ، مع قوله انهم هاجموا شرق الاردن والعراق . وقد ذكر فى موضع آخر من كتابه صفحة ٥٦ أنهم لما أن هاجموا شرق الاردن قاتلتهم الطيارات والدبابات البريطانية فقتلت منهم وأسرت ، وأن الاسرى اطلقوا بأمر الانجليز . فالبلاد التى تدافع عنها الدبابات والطيارات البريطانية أليست بلاداً بريطانية ؟ أو ليس من غزا تلك البلاد المحمية بالطيارات والدبابات البريطانية فقد غزا بريطانيا ، ومن غزا بريطانيا كيف يقال له انه يغزو المسلمين . وكيف يعد غزو بريطانيا دليلا على أن ذلك الغازى يغزو المسلمين ويقاتلهم ؟

وذكر (ص ٥٨) أن النجديين لما أن غزوا العراق اشتكى العراقيون الى

الانجليز قائلين إما أن تدفعوا عنا وتحمونا من النجديين ، واما أن تدعونا ندفع عن أنفسنا . وذكر أن معتمد الحكومة البريطانية فاوض جلالة الملك عبد العزيز فى أمر هذا الغزو ، وأن الملك أجابه بأنه لا علم له بذلك وأنه سيسأل قائد تلك الغزوة عما فعل . وذكر فى الصفحة نفسها أن الطيارات الانجليزية قد ردت الغزاة النجديين عن العراق وقذفتهم بقنابلها

فكيف يتماسك هذا الكلام الشيعى ! وأحسب أن النجديين لو غزوا الهند لقال هذا الرافضى إنهم غزوا المسلمين واستحلوا قتالهم . ذلك أنه لا يريد إلا أن يقول ان النجديين خوارج مستحلون دماء المسلمين وأموالهم والخروج عليهم شاء الواقع أم أبى . فكل شيء يقف فى سبيل هذا الغرض ينكره و يأباه ويلج به إباؤه وهذا كما قيل فى المثل (معزى ولو طارت)

ومن أكذب ما كتب قوله : « وقتلهم من ظفروا به من المسلمين » فاننا لا ندرى والله كيف يجرؤ على أن يزعم أن النجديين يقتلون كل من ظفروا به من المسلمين والناس كلهم يرون المسلمين يؤمون الحجاز كل عام من جميع الأطراف ليؤدوا فريضة الحج ، ثم يؤوبون الى بلادهم سالمين موفورين لم تقتل منهم نفس واحدة ولم يرزأ منهم أحد ولم ينل منه النجديون منال سوء لا فى مال ولا فى نفس ولا فى شيء من الأشياء . بل ويشهد كل من رجع من هنالك أن الأمان والسلام لا يجدهما المرء الا هناك حيث يرفرف العلم السعودى الوهابى ذو السيفين وذو الشهادتين . ولو كان هذا الرافضى صادقا فى زعمه لما أبقى على الرافضة فى الاحساء والقطيف من قلب المملكة السعودية . والرافضة بلا خلاف من شر الفرق المبتدعة ومن شر أهل الضلالة عقيدة ورأيا وقولا ، ومن أبعد المنحرفين عن النجديين منزعا ومذهبا ، لأن الرافضة أغلى الفرق المنتسبة للاسلام فى الباطل ، وأفظعها عقيدة فى الخلق . فانها بينما تكفر خيار الأمة تضع آخرين منهم فى مصاف الآلهة

وتهيهم حق الله المعلوم . ولكن الرافضة فى المملكة السعودية لا ينالون بسوء ويكتفى منهم باظهار الاسلام وبألا يشيعوا عقائدهم الخاصة الباطلة كاكفار الصحابة . وهذا وحده يكفينا وحده نقضا لما قاله فى جميع كتابه من التهم

ثم قال الرافضى « ثالث عشر - كما أن الخوارج كلما قطع منهم قرن نجم قرن كما أخبر عنهم أمير المؤمنين على عليه السلام . كذلك الوهابيون كلما قطع منهم قرن نجم قرن . فقد حاربهم محمد على باشا واستأصل شأفتهم ووصل ولده ابراهيم باشا الى قاعدة بلادهم الدرعية وأخربها . ثم نجم قرنهم بعد ذلك وقطع ثم نجم وقطع مراراً » انتهى

قلت وما لما ذكره هنا حاصل ، فانه ان كان يريد بالمشابهة بين الوهابيين والخوارج هنا بقاء كلتا الطائفتين وتعاقبهما ، فما لهذا من حاصل ، فان الاسلام الصحيح يشبه هذا أيضا ، فانه باق الى قيام الساعة ، كما قال ﷺ فى الحديث الصحيح المشهور : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » فالاسلام الصحيح بل والاسلام الذى يعرفه هذا الرافضى باق غير زائل حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فهل يضره أن يكون المذهب الخارجى الباطل باقيا كذلك ، يطفو تارة ويرسب أخرى ، ويعلو ويسفل ؟ بل وكذلك شأن كل مذهب وفكرة فى الدنيا فان من دأبها التعاقب ، الظهور حينا والخفاء آخر ، والقوة مرة والضعف مرة ، وما من مذهب إلا وهو كذلك حتى المذهب الشيعى الرافضي الباطل ، فانه مازال يقوى ويضعف ويبدو ويخفى ، وكلما اختفى منه قرن ظهر له قرن آخر ، ولن يزال كذلك حتى يغمسه الله فى محيط العدم اللانهائي ، فالحق والباطل والهدى والضلال والايمان والكفر : كل أولئك تشترك فى هذا المعنى الذى ذكره ، لا يختص بهذا الضلال دون الهدى ، ولا الهدى دون الضلال ، ولا الحق دون الباطل ، ولا

الاسلام دون غيره من الأديان ، ولا الأديان دون الاسلام ، ولا المذهب الخارجي دون غيره من المذاهب الأخرى ، فلا ينفرد بهذا دين الاسلام الصحيح دون المذهب الشيعي الرافضي الباطل وما يقاربه أو يباعده

فهذا المعنى بالاجمال مشترك مشاع بين جميع الآراء والمذاهب الثابتة ذات الأنواع ، لاينفرد بها شيء دون شيء . فاذا فرض أن المذهب الخارجي كاذكره الشيعي ، وفرض أنه باق خالد يعلو ويهبط وفرض أن المذهب الوهابي ـ في تعبيره والمذهب السلفي في تعبيرنا ـ كذلك أيضا يعز حينا ويظهر ، ويضعف آخر وينزوي لم يكن في هذا شيء من الدلالة التي يعنيها الشيعي ويحاول إثباتها ، كما أن الاسلام نفسه إجمالا كذلك ، يعز حينا ويظهر ، ويضعف آخر وينكمش ، وهكذا جميع الفكر كما ذكرنا ، فليس ها هنا شيء يختص به المذهب الخارجي أو الشيعي أو غيرهما ، وهذا واضح لا ريب فيه ، وكذلك محاربة المذهب السلفي ومحاربة أهله بعض الأزمان والتغلب عليهم وعليه ، والتحدي له ولهم ، لا يدل شيء من ذلك على بطلان المذهب ومخالفته الحق ، بل هذا المعنى ان لم يدل على صحته وصدقه فلن يدل على ضعفه وبطلانه ، بل هذا لايدل على أحد الأمرين لا دلالة قوية ولا ضعيفة ، فان الحق قد يحارب ويغلب أهله ، كما أن الباطل قد يحارب أيضا ويقهر نصراؤه ، وقد تكون النتيجة العكس ، يحارب الحق فيكون الغالب الظاهر ، كما أن الباطل قد يحارب فيكون الغالب القاهر ، على حسب ما تقضي به سنة الله الكونية ومشيئته النافذة ، وهذا كله مشهود مشهور في كل زمان ومكان ، وهذا الاسلام نفسه تارة يعز ويعز به أهله ، وتارة يضعف فيضعف أهله ، ولم يكن تغلب الكفر والكفار عليه دليلا على أنه هو في نفسه باطل ، ولم يكن خنوعه للكفر والكفار دليلا على أنهم في أنفسهم مهتدون ، وكذلك هزيمة أهل هذا المذهب بعض الأوقات لما منوا به من الضعف الخلقي أو النفسي أو الاهمال لما يفرضه

الاسلام والعقل من الاستعداد لنبوات الزمن وجمع الأهبة للطواريء والطوارق المفاجئة أبداً ، لا يدل على أن المذهب فى نفسه باطل غير صحيح ، حتى يدل قهر الأديان والأخلاق والعفاف فى بعض البلدان والأزمان على بطلان هذه الأمور فى أنفسها . وهذا مما لا يتنازع فيه الناس ، فما لما ذكره هنا من حاصل يطمع طامع فى التمسك به ، وأبعد الله الهوى ! فانه يرمي بصاحبه كل مرمى ، ويقتحم به كل صعب وذلول !

وهنا انتهت وجوه الشبه التى زعمها الرافضى بين النجديين والخوارج ، وهنا انتهينا من النقض على وجوهه وتسويدها ، وبعد هذا نذكر هنا ثلاثة أمور لازم ذكرها : أولها إقامة البراهين على أن الوهابيين ليسوا هم الخوارج ولامنهم ، ثانيها الحجج على أن الشيعة شر من الخوارج ، ثالثها شبه الرافضة بشر الأمم أعنى باليهود

ليسوا من الخوارج

حاول هذا الرافضى كما حاول غيره من نصراء البدعة والهوى تلفيق الدعاوى على أن أهل السنة من أهل نجد الداعين الى الرجوع بالاسلام سيرته الأولى نقيا من الشوائب والأخلاط والدخيل هم الخوارج الذين جاءت الأنباء النبوية الصحيحة فى مذمتهم وهجائهم وفى الأنباء عن عظم مصائبهم على الاسلام والمسلمين وقد حشد هذا الرافضي بكل قوته الشبهات التى تغنى بها من قبله ، وحاول بها إثبات هذه القضية ، وقد كتبنا عليها ما رآه القاريء قبل هذا . ونحن هنا نذكر الدلائل الواضحة على خطأ هؤلاء القوم فى هذه الدعوى وهذه المحاولة ، ونذكر الحجج الكافية على أن أهل السنة الذين يسميهم هؤلاء بالوهابيين برءاء من الخوارج ومن آراء الخوارج ، وبرءاء من أن يكون بينهم وبينهم شبه يختصون به دون أهل الحق من المسلمين والرعيل الأول الصالح

فنقول ان أصل المذهب الخارجى قائم على القدح فى النبى الكريم وفى عدله وقضائه ، ولذلك قال أولهم ذوالخويصرة لما أن شاهد بعض قسمة الرسول وأقضيته قوله المشهور : اعدل يا محمد ! فان هذه القسمة قسمة لا يراد بها وجه الله ! فغضب النبى الكريم وقال قوله المشهور فى الخوارج « ان من ضئضيء هـذا قوما يقرؤن القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرميـة » والوهابيون بحمد الله من أبعد الناس عن هـذا البلاء بلا ريب ، والشيعى نفسه يعترف أن مذهب الوهابيين قائم على مضادة هذا المعنى والقول ، وهم لا يشكون أن من قدح فى عدل الرسول وقضائه وقسمته أوشك فى ذلك فهو بريء من الاسلام لاحظ له فيه ، ودعوتهم قائمة على دعوة الناس الى الاقتداء بالنبى الكريم فى صغير الأمور وكبيرها وفى أقوالها وأفعالها ، وقائمة على أن المسلم لن يفلح ولن يكون مسلماً إلا اذا اقتدى بالرسول ﷺ وتشبه به وعلم أنه ينال رضا الله وسعادته الابدية بذلك ، فالوهابيون بلا شك من أبعد الناس عن الخوارج فى هذه الصفة ومن أبعد الناس عن مشابهتهم فى ذلك ثم ان ن أصل مذهب الخوارج أيضا اكفار على بن أبى طالب وعثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان ومن وافق هؤلاء الصحابة من الصحابة والتابعين ومن سار سيرتهم من بعد ، ولهذا يكفرون الخلفاء الأمويين والعباسيين ومن رضي حكومتهم وخلافتهم

وفكرة الخوارج قائمة على هذا ، ولكن الوهابيين يبرءون الى الله من هذا القول وقائليه ، ويشهدون بحق وصدق أن هؤلاء الذين أكفرهم الخوارج وحكموا بردتهم من أفضل البشر وأصدقهم ديناً وإيماناً وسيرة وسريرة ، ويشهدون لهؤلاء الصحابة والخلفاء ولمن انتهج منهجهم بسلامة العقيدة ووفور الايمان . ثم يشهدون أيضاً أن غاية المسلم القوى الاسلام أن يتشبه بهم وأن يقبس منهم عقيدته وفعله وأن يفعل ما كانوا يفعلون ويعتقد ما كانوا يعتقدون ، وأن يعلم أن من حاد عن

سبيلهم ورغب عن سنتهم وطريقهم فهو من الهالكى الضالين وأن من قدح فيهم أو شك فى أمرهم فما هو من أهل السعادة والهداية

ثم ان الخوارج أيضا يرون فاعل الكبيرة ـ وبعضهم يقول وفاعل الصغيرة ـ كافراً مرتداً مأواه النار خالداً فيها لا يخرج منها بل يبقى فى عذابها الأليم مابقى عبدة الاصنام والأوثان والكواكب والبشر ، ولكن الوهابيين برءاء من هذا القول ومن قائليه فهم لا يرون ان ذنباً من الذنوب وان جل قاض بكفر مرتكبه ولا مخرج له من جماعة المؤمنين ولا موجب له الخلود فى النار . بل يرون أن المسلم وان فعل الذنوب الكبيرة من المسلمين الناجين من الخلود فى النار : وما فعله من الاثم له جزاء دون جزاء الكفر والشرك ، ولله أن يجازيه على ذلك ليطهره ثم يخرجه الى الجنة بعد الجزاء والتطهير ، ولله أن يعفو عنه وأن يغفر ذنبه وأن يدخله الجنة ابتداء بلا سابقة عذاب ولا عقاب كما قال تعالى « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » . فلن يلتقى إذا الوهابيون والخوارج أبدا مع افتراق مبادئهم وأصول مذاهبهم

والخوارج يأبون تحكيم الرجال ويعدون ذلك كفرا ، ولهذا أكفروا علياً والذين معه وخرجوا عليه لما أن قبل التحكيم بينه وبين خصمه معاوية ، وقد طلبوا منه الاعتراف على نفسه بالكفر ثم الاعتراف بالرجوع الى الاسلام أنفا . فابى على ذلك فأبوا الاعتراف له بالايمان وأصروا على إكفاره والخروج عليه ، وقد قالوا فى ذلك الحين قولتهم المشهورة « لا حكم إلا لله » فقال على كلمته المشهورة رداً على كلمتهم (كلمة حق يراد بها باطل) والوهابيون بريئون من هذا الرأى ومن أصحابه بل هم يرون رأى الامام على حينما قال لهم : ان المصحف لا يتكلم فلا بد من رجال يتكلمون عنه ، وقال ابن حزم فى كتاب الملل والنحل تحت عنوان « شنع الخوارج » من الجزء الرابع صفحة ١٤٤ ان فرقة من الأباضية وبينهم رجل يدعى زيد بن أبى

أنيسة كان يقول إن فى هذه الأمة شاهدين عليها هو أحدها ، والآخر لا يدرى من هو ، وإن من كان من اليهود والنصارى يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله الى العرب لا الينا كما تقول العيسوية من اليهود . قال فانهم مؤمنون أولياء الله وان ماتوا على هذا العقد وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى ، وان دين الاسلام سينسخ بنبى من العجم يأتى بدين الصابئين وبقرآن آخر ينزل عليه جملة واحدة إلا ان جميع الأباضية يكفرون من قال بشىء من هذه المقالات ويستحلون دمه وماله ، وقالت طائفة من الأباضية إن من زنا أو سرق أو قذف فانه يقام عليه الحد ثم يستتاب من فعله فان تاب ترك وإلا قتل على الردة ، وشاهدنا الاباضية بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب ويحرمون أكل قضيب التيس والثور والكبش ويوجبون القضاء على من نام نهاراً فى رمضان فاحتلم ، ويتيممون وهم على الآبار التى يشربون منها إلا قليلا منهم ، وقال أبو اسماعيل البطيحى وأصحابه لا صلاة واجبة إلا ركعة واحدة بالغداة وأخرى بالعشى ، ويرون الحج فى جميع شهور السنة ويحرمون السمك حتى يذبح ، ولا يرون أخذ الجزية من المجوس ويكفرون من خطب فى الفطر والأضحى ، ويقولون ان أهل النار فى النار فى لذة ونعيم ، وأهل الجنة كذلك ، وقالت سائر الأزارقة بابطال رجم من زنا وهو محصن ، وقطع يد السارق من المنكب وأوجبوا على الحائض الصلاة والصيام فى حيضها وقال بعضهم لا ، ولكن تقضى الصلاة اذا طهرت كما تقضى الصيام ، وأباحوا دم الأطفال ممن ليس فى عسكرهم وقتل النساء أيضا ممن ليس فى عسكرهم وبرئت الازارقة ممن قعد عن الخروج لضعف أو غيره ، وكفروا من خالف هذا القول بعد موت أول من قال به منهم ، ولم يكفروا من خالفه فى حياته وقالوا باستعراض كل من لقوه من غير عسكرهم ويقتلونه إذا قال أنا مسلم ويحرمون قتل من انتمى الى اليهود أو النصارى أو المجوس ، وبهذا شهد رسول الله عليهم بالمروق

من الدين كما يمرق السهم من الرمية . إذ قال عليه السلام « أنهم يقتلون أهل الاسلام ويتركون أهل الأوثان » وهذا من أعلام نبوته ، وهو من جزئيات الغيب فخرج نصاً كما قال ، وقالت النجدات ليس على الناس أن يتخذوا اماما انما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم ، وقالوا من ضعف عن الهجرة لعسكرهم فهو منافق واستحلوا دم القعدة وأموالهم ، وقالوا من كذب كذبة صغيرة أو عمل عملا صغيراً فأصر على ذلك فهو كافر مشرك ، وكذلك أيضا فى الكبائر وان من عمل من الكبائر غير مصر عليها فهو مسلم ، وقالوا جائز أن يعذب الله المؤمنين بذنوبهم لكن في غير النار واما النار فلا ، وقالوا أصحاب الكبائر منهم ليسوا كفارا وأصحاب الكبائر من غيرهم كفار ، وقد بادت النجدات . وقالت طائفة من الصفرية بوجوب قتل كل من أمكن قتله من مؤمن أو كافر ، وكانوا يؤولون الحق بالباطل ، وقد بادت هذه الطائفة ، وقالت الميمونية وهم فرقة من العجاردة بجواز نكاح بنات البنات وبنات البنين ، وذكر ذلك عنهم الحسين بن على الكرابسى وهو أحد الأئمة فى الدين والحديث ولم يبق اليوم من فرق الخوارج الا الاباضية والصفرية ، وقالت طائفة من البيهسية وهم أصحاب أبى بيهس وهم من الصفرية ان كل صاحب كبيرة فيها حد لا يكفر حتى يرفع الى الامام . فاذا أقام عليه الحد فحينئذ يكفر ، وقالت النونية وهم طائفة من البيهسية ان الامام اذا قضى قضية جور وهو بخراسان أو بغيرها ففي ذلك الحين نفسه يكفر هو وجميع رعيته حيث كانوا من شرق الارض وغربها ولو كانوا بالأندلس واليمن ، وقالوا أيضاً لو وقعت قطرة خمر فى جب ماء بفلاة من الارض فان كل من خطر على ذلك الجب فشرب منه وهو لايدرى ما وقع فيه كافر بالله قالوا الا أن الله يوفق المؤمن لاجتنابه ، وقالت الفضيلية من قال لا اله الا الله محمد رسول الله بلسانه ولم يعتقد ذلك بقلبه بل اعتقد الكفر أو الدهرية أو اليهودية أو النصرانية فهو مسلم

عند الله مؤمن ، ولا يضره اذا قال بلسانه ما اعتقد بقلبه ، وقالت طائفة من الصفرية أن النبي اذا بعث في حين بعثه يلزم جميع أهل المشرق والمغرب الايمان به وان لم يعرفوا جميع ما جاء به من الشرائع . فمن مات منهم قبل أن يبلغه شيء من ذلك مات كافراً . وقالت العجاردة : ان من بلغ الحلم من أولادهم وبناتهم فهم براء منه ومن دينه حتى يقر بالاسلام فيتولوه حينئذ . وقالت طائفة من العجاردة : لا نتولى الأطفال قبل البلوغ ولا نبرأ منهم لكن نقف فيهم حتى يلفظوا بالاسلام بعد البلوغ . وكان من قول المكرمية ان من أتى كبيرة فقد جهل الله فهو كافر ، ليس من أجل الكبيرة لكن لأنه جهل الله . وقالت طائفة من الخوارج : ما كان من المعاصي فيه حد كالزنا والسرقة فليس فاعله كافراً ولا مؤمناً وأما ما كان من المعاصي لا حد فيه فهو كفر وفاعله كافر . وقالت الحفصيه : من عرف الله وكفر بالنبي فهو كافر وليس بمشرك وان جهل الله أو جحده فهو حينئذ مشرك . وقال بعض أصحاب الحارث الأباضي : المنافقون على عهد رسول الله انما كانوا موحدين لله أصحاب كبائر . ومن حماقاتهم قول بكر ابن أخت عبد الواحد بن زيد فانه كان يقول : كل ذنب صغير أو كبير ولو كان أخذ حبة من خردل بغير حق أو كذبة خفيفة على سبيل المزاح فهو شرك بالله وفاعلها كافر مشرك مخلد في النار إلا ان يكون من أهل بدر فهو مشرك من أهل الجنة ، وهذا حكم طلحة والزبير رضي الله عنهما عندهم . ومن حماقاتهم قول عبد الله بن عيسى تلميذ بكر ابن أخت عبد الواحد المذكور ، فانه كان يقول : ان المجانين والبهائم والأطفال ما لم يبلغوا الحلم فانهم لا يألمون البتة لشيء مما ينزل بهم من العلل وحجته في ذلك أن الله لا يظلم أحداً » . هذا كله ما ذكره ابن حزم

وقال الشهرستاني تحت عنوان « مذاهب الخوارج » :

« وبدع الأزارقة ثمان : احداها اكفار علي وتصويب ابن ملجم قاتله . الثانية

ا كفار القعدة عن القتال وان كانوا موافقين . الثالثة جواز قتل أطفال المخالفين ونسائهم . الرابعة إسقاط الرجم عن الزانى إذ ليس فى القرآن ذكره وإسقاط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء . الخامسة الحكم بأن أطفال المشركين فى النار مع آبائهم . السادسة أن التقية غير جائزة فى قول ولا عمل . السابعة تجويز أن يبعث الله نبياً يعلم أنه يكفر بعد نبوته أو كان كافراً قبل البعثة . الثامنة اجتمعت الأزارقة على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر ملة وخرج به عن الاسلام جملة وكان مخلدا فى النار مع سائر الكفار واستدلوا بكفر إبليس» . هذا بعض ماذكره ابن حزم والشهرستانى . وهذا ما ينقله عنهم عامة من كتبوا فى الملل والنحل ومقالات الاسلاميين . وهذه البدع التى خالفوا بها أهل السنة والجماعة وعرفوا بها وأضيفت اليهم وحدهم وابتدعوها وحدهم يتبرأ منها الوهابيون ومن القول بها ، ويتبرؤن من أهلها ولا يوافقونهم على واحدة منها ولا يوافقونهم الا على الحق الذي معهم ، الذى يوافقهم عليه أهل السنة والجماعة ، والذى قام البرهان على أنه حق لا باطل ، وهذا كما يوافقهم غيرهم من المسلمين ، لأن الحق قد يكون مشتركا ، وقد يقول الحق من قال الباطل ، وبالهدى من قال بالضلال ، ومثل هذا لا يضير ولا يمنع القول به ، وانما الذى يمنع هو مااختص به أهل الضلال وحدهم وما انفردوا به عن أهل الحق .

واذا كان الوهابيون يخالفون الخوارج فى جميع ضلالاتهم وبدعهم الخاصة بهم التى ذموا لأجلها وكانوا لا يشاركونهم إلا فيما شاركهم فيه أهل الحق فمخطىء كل الخطأ من زعم أنهم يشبهونهم أو أنهم منهم ، وما أبعد المسافة بين الخوارج وبين من يسميهم هؤلاء الوهابيين ! فان الأمور التى يأخذها هؤلاء المخالفون على أهل السنة لم يذكرها التاريخ ولم يذكر أن أحداً من الخوارج قال بها أو دعا اليها أو رضيها وامتدحها ، ولم يذكر أن الناس أنكروها عليهم فى عصرهم ولاذموهم لأجل

شيء منها ، فان الأمور التى ينكرها المخالفون على أهل السنة هى مسائل التوسل والتعلق بالقبور والعكوف عليهـا ودعوة الموتى وما يقارن ذلك من تقديم النـذور والقرابين وما يضاف الى هذا من الحلف بهم والتعظيم القوى لهم والانقطاع اليهم والى قبورهم رغبة ورهبة ، ثم مناوأة البدع والمبتدعين ومحاولة تخليص الاسلام منها بقوة ، ثم الوقوف بالمسلمين مواقف السلف الأول من الصحـابة والتابعين ومن جاءوا بعدهم من المحدثين والفقهاء والعلماء الربانيين ، ممن اتفقت كلمة المسلمين على امتداحهم والثناء عليهم وعلى أنهم من أهل الدين والصلاح والاعتصام بالكتاب والسنة ، ثم مسألة صفات الله التى نصت عليها الكتب المقدسـة كلها والأحاديث النبوية ، وذلك كمسألة علو الله على عرشه . هذه هى أشهر المسائل التى يعيبها هؤلاء المخالفون على أهل السنة ، وهذه الأمور لم يقل بها الخوارج ولم يتكلموا فيها مطلقا إلا كما يقول وكما يتكلم فيها غيرهم من السابقين ، ولم يرد عن أحد منهم فى هذه المسائل شيء ، لأن الناس في ذاك العصر لم يكونوا يبحثون فى هذه المباحث ،لأنه لم يوجد من يصنع ذلك ومن يغلون فى القبور هذا الغلو الشنيع وما يتصل بذلك من الأوهام والأحداث الباطلة

فالبدع التى ابتدعتها الخوارج ودعت اليها وقاتلت لأجلها لا يقول بهـا أحد من الوهابيين بل هم كلهم يبرؤن الى الله منها ، والأمور التى يأخذها هؤلاء عليهم لم يقل بها الخوارج ولم يدعوا اليها كما ذكرنا ، فكيف اذن يقال ان هؤلاء هم أولئك أو منهم أو أنهم يشبهونهم وينهجون منهاجهم ؟ وكيف لا يخجل مدعى هذا وكيف لا يرجو لقاء الله ؟ أليس هذا من أبطل الباطل وأرذل الهوى ؟

الشيعة شر من الخوارج

على ما لدى الخوارج من الباطل والشر والمنكر نعترف بأن الشيعة أكثر منهم شراً وباطلا ومنكراً ، ونعترف بأن الشيعة أبعد عن الاسلام وعن الدين والعقل وعن فعل الخير من الخوارج ، ونعترف بأن الخوارج خير منهم من كل الوجوه أو من أكثرها . وبيان هذا فيما يأتى :

(أولا)

لا يختلف أهل البصر والدراية بالتاريخ أن أصل المذهب الشيعى موضوع على الالحاد والكيد للاسلام وأهله والغدر بالعرب والدس لهم ولحكوماتهم ومحاولة تقويض خلافتهم وسلطانهم حسدا وبغيا وبغضا للدين الذى نشروه ونصروه فانتصروا هم به . وذلك أن واضع أساس هذا المذهب هو عبد الله بن سبأ الذى أظهر الاسلام خداعا ونفاقا لافساده وافساد أهله وللايقاع بهم وبه . ولقد نال بعض غرضه وألحق بالاسلام والمسلمين هو وأصحابه ما ألحق من الأضرار المادية والمعنوية ومن الفتن الجارفة المدمرة . فانه أظهر فى أول أمره التقى وحب النبى وآل بيته ، ثم ادعى أن آل البيت مظلومون ، وأن المسلمين لهم ظالمون وأنهم هم أهل الخلافة وحدهم ، لا يجوز خروجها منهم ولا انتقالها عن على وذريته وراح يدعو الى هذا القول هو وأصحابه بمكر ودهاء محكمين بارعين ، وصار يترنم بهذه النغمة وهذا الطنبور بمثابرة عجيبة حتى تغيرت النفوس ووقع فيها ما وقع من التنكر للخلفاء وللصحابة والمسلمين الذين ولوهم الخلافة ورضوا بتلك الصفقة وأخذ هذا المعنى ينمو فى بعض الصدور ويتضاعف شيئا فشيئا حتى فاضت به فحدث ما حدث فى فجر الاسلام من الفتن المقتالة والخلاف الطاحن المدمر وجميع ما حدث

فى ذلك العصر يرجع الى هـذه الفتنة وأخواتها إما بوساطة واحدة وإما بوساطات ثم ذهب هذا اليهودى الشيعى يرتل مدائح على ويعدد فضائله وأخذ يبالغ فى هذا ويسرف ، متنقلا من خطوة الى خطوة ومن دركة الى دركة أوهد حتى صاح بتلك الدعوة الهائلة ، وأحدث أكبر الأحداث فى الاسلام فادعى فى على الالوهية ، وأن جزءا إلهيا حل فيه ، وأظهر هذا الجزء الالهى صفاته ومعانيه وأفعاله وخواصه فى ذات علي وعلى أعضائه وجوارحه ، ولهذا كانت أفعاله خارقة معجزة وكان قوله فوق أقوال البشر ، وكانت أفعاله أفعالا لايستطيعها المخلوقون. فهو لهذا يستحق العبادة ويستحق التأليه واسم الربوبيـة وسمتها ، وهو إذاً يستحق أن يخاطب خطاب الاله ويدعى دعاء الرب وينادى نداءه ، فترا كضت هذه الدعاوى والمزاعم الشيعية فى الظاهر ، الالحادية فى الباطن ، الى بعض النفوس والصدور ، فنزلت فيها منزلة التقـديس والتبجيل وتمكنت منها وانتشرت على أعضائها فراح هؤلاء الى على وقالوا له أنت الله أنت الخالق الرازق وخلعوا عليه أخص صفات الله الفرد الصمد ، فكان رأى على فى هؤلاء أن يعاقبوا أشد العقوبات . لأن دعوام هذه من شر الدعاوى ، فأضرم النيران وقذفهم فيها غير مأسوف عليهم ، وقضوا بالتحريق ، فقالوا وهم يحترقون الآن صح أنك أنت الله إذ لا يعذب بالنار إلا رب النار . وهـذه المقالة منهم العجيبة فى تلك الساعة الرهيبة تدل على أحد أمرين : على الدهاء والخبث اللذين ما فوقهما دهاء وخبث وإما على رسوخ هذه العقيدة الباطلة فى تلك الصدور رسوخا ألقى على وجه الدلائل ولحجج السافر قناعا من أبخرة الباطل والعمى حتى راحت لا تبصرها ولا تبصر شيئا . وأما هذا اليهودي مفترى هذه النحـلة فقد هرب وذهب يجتاب البلاد الاسلامية جاداً فى نشر دعوته هاربا معه بهروبه مذهبه المنافق المـاكر واضعا فى كل أرض يحتلها جذور هذا المذهب ، وهكذا اتسع وانتشر . وما زال الى يومنا

هذا يطفو ويرسب ويفعل ما يفعل من الفساد والفوضى ، ويصنع ما يصنع من الضلالات المبتكرة الخبيثة . قال الامام ابن حزم فى آخر صفحة من الجزء الرابع من كتاب الملل والنحل « وما توصلت الباطنية الى كيد الاسلام وإخراج الضعفاء منه الى الكفر إلا على ألسنة الشيعـة » وقال في آخر كلامه على فرق الشيعة « واعلموا أن كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة ممن ينتمى الى الاسلام فانما عنصرهم الشيعة والصوفية ، فان من الصوفية من يقول ان من عرف الله سقطت عنه الشرائع وزاد بعضهم واتصل بالله » بل نحن نقول إنما عنصر ذلك هم الشيعة وحدهم والصوفية أنفسهم انما عنصرهم الشيعة . فالى الشيعة يرجع هذا البلاء كله . ومنهم بدأ ، وقال ابن قتيبة في كتاب تأويل مختلف الحديث : « ولا نعلم فى أهل البدع أحداً ادعى الربوبية غير الرافضة . فان عبد الله بن سبأ ادعى الربوبية لعلي ، ولا نعلم أحداً ادعى النبوة لنفسه غيرهم . فان المختـار بن أبي عبيد ادعى النبوة لنفسه وقال ان جبريل وميكائيل يأتيان الى جهته فصدقه أصحابه واتبعوه وهم الكيسانية » وقال الامام المقبلى فى كتابه العلم الشامخ « قال بعض العلماء ائتنى بزيدى صغير أخرج لك منه رافضيا كبيرا ، وائتنى برافضى صغير أخرج لك منه زنديقا كبيرا يريد أن مذهب الزيدية يجر الى الرفض ، والرفض يجر الى الزندقة » هذا كلام المقبلى ، ولهذا كانت الدول المنتسبة الى الرافضة من أكفر الخلق وأكثرهم افتتانا بالالحاد والضلال ومخاصمة الاسلام والمسلمين ، والمثـل الأعلى لهم الفاطميون والاسماعيلية والقرامطة ، وكم لقى الاسلام والمسلمون من ويلات هؤلاء المتشيعين . فالمؤرخون البصراء بالتاريخ وبنشوء النحل والأهواء فى الاسـلام لا يشكون أن أصل مذهب التشيع مؤسس بالنفاق والكيد للاسلام ، وأن وضعته ما كانوا مؤمنين بل كانوا ملحدين كذابين ادعوا الاسلام لحربه من قريب ، وهؤلاء هم رؤساؤهم أما جمهور الشيعة فقد يكونون مخدوعين حسنى النية والقصد لا يضمرون الكفر

والغدر بالاسلام ، ولكن جاءهم هذا البلاء من جانب الجهالة والضلالة وخديعة زعمائهم المحكمة المبرمة ، هذا ما كان من مذهب الشيعة وابتدائه

وأما أصل مذهب الخوارج فلا ريب أنه ليس قائما على الالحاد والكفر وارادة السوء بالاسلام ، ولكنه قائم على الجهالة والضلالة وضعف البصر بالدين وضآلة العقل . فداؤهم هو الجهل ، وهذا الشيعي يعترف بهذه الحقيقة ، ويعترف أن الخوارج كانوا يطالبون الحق ، ولكنهم قد أخطأوه ، وقد نقل عن على فى كتابه أنه قال « لا تقاتلوا الخوارج بعدى فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه » ولهذا كان الخوارج فى غاية الاجتهاد والحرص على العبادة والخير وأشتات الطاعات ، وكانوا يتهالكون على نصرة الحق الذي يقتنعون به ، ويقذفون بأنفسهم فى أكناف الموت والهلكة فى سبيل نصرة عقيدتهم ونصرة الأمر الذى يرونه حقاً وهدى ، وقد كانوا يجاهرون بعقيدتهم فى كل مكان وزمان لا يرهبون سلطانا ولا يرهبون قتلا أو سجناً أو مصادرة ، وكانوا يمقتون التقية التى يقول بها الشيعة ، وكانوا ميالين نزاعين للصدق وقول الحق يمقتون الكذب والنفاق والادهان فى الدين وفى أمر الله وهذا كله لأجل إرادتهم الله ولأجل مالديهم من حسن النية وسلامة القصد ، وما كان بلاؤهم سوى الضلالة والجهالة ولأجل ذلك رجع أكثرهم لما خرجوا على على وأكفروه فذهب اليهم هو وعبد الله بن عباس فكلماهم وأرياهم مواقع غلطهم ، وذلك لأنه لا غرض لهم أو لأكثرهم غير الحق ونصرته ؛ ولهذا رجعوا لما أن سفر لهم جبين الهدى فأبصروه وعرفوه بخلاف وضعة مذهب الشيعة . فانهم ادعوا الألوهية فى على فأنكر ذلك عليهم وهاله فاستتابهم . فأصروا على ماقالوا وأبوا تصديق من زعموه الهاً وكيف يكون إلهاً ثم يكذب ؟ أم كيف يكون إلهاً فيعصوه كفاحا لأجل طاعته على مازعموا ؟ وكيف يعذبهم على ماقالوا إذا ما كان حقا ؟ وكيف يطالبهم بالرجوع عن مقالة

الحق ؟ وكيف يهرب منه زعيمهم عبد الله بن سبأ ؟ وأين المفر من الاله ؟ لاريب أن بعض هذا يدل على أنهم منافقون ، وأنهم لا يريدون الحق ، وأنهم فى زعمهم ألوهية علىّ كاذبون مخادعون لا معتقدون ولا مؤمنون ، وهذا من الامور الظاهرة لدينا ولدى أهل البصر بالدين ونشوء الأهواء والعقائد فى الاسلام . واذا كان ذلك كذلك فلا ريب أن من ادعوا الاسلام والايمان نفاقا وخداعا واضرارا به وبأهله شر ممن دخلوا الاسلام وأرادوه حقا باخلاص وصدق ، ولكنهم ضلوا وأخطئوا فقالوا أقوالا باطلة منكرة وابتدعوا بدعا سخيفة كما أتيح للخوارج ، فلا ريب إذن أن الشيعة شر من الخوارج وأنأى عن الحق والدين ، وهذا كما نقل هذا الرافضى عن الامام على أنه قال : « ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه »

ومما يدل على أن الرافضة أبعد من الخوارج أن عليًا حرق الشيعة الغالية وقضى عليهم بالموت تحريقا لما أن بلغته مقالتهم وظفر بهم ولم يدع منهم إلا من لم يستطعه . أما الخوارج فانه لم يقاتلهم ولم يبدأهم بالحرب حتى بدؤه هم وقتلوا من قتلوا من أصحابه ، والمحفوظ عنه أنه قال للخوارج لما أن خرجوا عليه : « لكم علينا ألا نمنعكم من المساجد وألا نمنعكم من الفىء وألا نقاتلكم حتى تقاتلونا » وحفظ عنه أنه سئل عنهم : أكفار هم ؟ فقال : لا . فقيل له : أمنافقون ؟ قال لا . فهو لم يحكم بكفرهم ولم يقاتلهم إلا بعد أن قاتلوه وقتلوا من قتلوا وقطعوا الطريق وأخافوا السبيل وأقلقوا الأمن والسلام . أما الشيعة الغالية فانه عاقبهم أصرم العقوبات بمجرد أن سمع مقالتهم فأصروا عليها . وهذه براهين تدل على مقدار الفرق بين الطائفتين وتدل دلالة جلية على أن الشيعة شر من الخوارج

(ثانى الأمور)

ان باطل الخوارج وأول منكر جاءوا به هو قدحهم فى الامام على وفى خلافته ثم الخروج عليه واستحلال قتله وقتاله ، وهذا أول منكر جاءوا به وأعلنوه ، وهذا ولا ريب ذنب عظيم . ولكن ما عند الشيعة من هذا أفظع وأعظم . وذلك أن الشيعة يكفرون من هم أفضل من على ومن معه من الصحابة ، ويستحلون قتالهم وقتلهم . فهم يكفرون أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة وطلحة والزبير وجميع الصحابة ما خلا شرذمة قليلة . وأما الجمهور فكفار منافقون لديهم يجب قتالهم والخروج عليهم بلا ريث ولا هوادة . وقد نقلوا فى كتبهم وعن أئمتهم من القدح والطعن فى الصحابة ما هو فى غاية المنكر والبذاءة والفحش ، مقالات نحسب الخوارج لا يستطيعون روايتها والتحدث بها فضلا عن ابتداعها ثم اعتقادها . وقد نقلنا فى هذا الكتاب أشياء من ذلك غاية فى الخروج على الأدب والحياء . مثل قولهم ان الجبت والطاغوت هما أبو بكر وعمر ، وأن البقرة المأمور بذبحها هى عائشة ، وأن أئمة الكفر هم طلحة والزبير ، وأن الذى قال للانسان اكفر هو عمر ، الى غير ذلك من المقالات التى لا يقولها ملحد عاقل فضلا عن مؤمن بالله ورسوله وباليوم الآخر ، ولا نحسب الخوارج يستطيعون التفوه بهذه المقالات لما فيها من فساد الذوق وفحش التعبير

ولا ريب أن من يكفر الصحابة جميعاً إلا القليل ، ومن يكفر أفضل الأمة كأبى بكر وعمر وأمهات المؤمنين شر ممن يكفر عثمان فى شطر من حياته وعلياً فى شطر من حياته أيضا فلا شك إذن أن الشيعة شر من الخوارج من هذه الناحية : ناحية العدوان على عقائد المسلمين وإيمانهم ، وهذه الناحية هى أبرز ناحية فى الخوارج ، وهى من أعظم ما ابتدعوا وابتكروا . وقد بذتهم فيها طائفة الشيعة

وسبقتهم سبقا مبينا كما رأيت ، فهى بلا شك شر منهم

(ثالث الأمور)

لا نشك فى أن لدى الخوارج من الأخلاق الفضلى والسجايا المحمودة كالصدق والاستقامة والشجاعة والدين والتقوى والجد فى العبادات والنأى عن مواطن الذم والضعف والسوء مالم يوجد لدى طائفة الشيعة ، فان الخوارج كانوا من أصدق الناس والشيعة من أكذبهم ، والخوارج من أشجع الناس والشيعة من أجبنهم ، والخوارج من أعبد الناس كما جاءت بذلك النصوص وكما قرر ذلك التاريخ ومنه تاريخ المخالفين والشيعة من أقل الناس دينا ، والخوارج من أقول الناس للحق وأجرئهم عليه والشيعة من أكتمهم للحق وأبعدهم وأجبنهم عنه . وإجمالا ما من خلق فاضل طيب صالح إلا والخوارج يفضلون الشيعة فيه ويسبقونهم اليه ، وان لدى الخوارج أخلاقا وفضائل مرضية لم يكن للشيعة منها لا قليل ولا كثير فقد دلت حروب الخوارج ومنازلتهم مخالفيهم ودلت مواقفهم الصارمة مع الخصوم على أنهم من أشجع الناس وأصدقهم وأفرسهم وأخلصهم نية وقصداً وعلى أنهم من أزهد الناس فى الدنيا ومن أبعدهم عن الحرام وركوب الآثام ودلت حروب الشيعة ومواقفهم الخصوم على أنهم بعكس الخوارج فى ذلك كله وأنهم من أكذب الناس وأسوئهم قصداً وأضعفهم قلوبا وأجزعهم عند الحروب ، وأكثرهم تهافتاً على الدنيا ولذاتها . وقد دل على ذلك كله خذلانهم علياً وبنيه ذلك الخذلان المتواصل المتلاحق المسبوق بأنواع الخداع والتغرير . وقوام أمر الشيعة شيئان : النفاق والدس . وقوام أمر الخوارج شيئان : الشجاعة والاندفاع فى نصرة مايعتقدونه حقاً . فالخوارج يعملون بما يعلمون بصبر وجلد ومثابرة عجيبة ، ويجاهدون مخالفيهم بشجاعة وإقدام وصدق وصرامة ، والشيعة لا ينصرون

ما يزعمونه الحق من المعتقدات الا بالخداع والمكر والدسائس ، ولهذا كانت التقية قوام أمرهم ، وكانت هي الأمر الذي به يعنون وله يهتمون . لخروبهم هي اغتيال وكيد ونفاق وتحريش ، ولهذا نجد علماء الحديث والرواية يفرقون بين الخوارج والشيعة فهم يروون عن غلاة الخوارج ويصححون أخبارهم ويحتجون بها لأن الخوارج وان كانوا ضلالا تائهين عن الحق لا يكذبون ، وكيف يكذبون وهم يعدون الكذب كفرا موجباً الدخول في النيران . ولكنهم لا يروون عن غلاة الشيعة ولا يحتجون برواياتهم والمحدثون لا غرض لهم في حب هؤلاء ولا بغض هؤلاء ، ولكن غرضهم هو الحق وحده . وكثيرون من أهل الحديث يرغبون عما رواه الرافضة مطلقا . لأنهم أجرياء على الكذب والزور كما فعل هذا الشيعي في كتابه هذا . فانه حشاه وطمه بالأكاذيب المفوتة تعمدا وقصدا ، وقد روى الامام البخاري في صحيحه عن عمران بن حطان شاعر الخوارج وخطيبهم المفوه وداعيتهم الأشهر ، وهو الذي امتدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي رضي الله عنه وأبياته في هذا مشهورة أولها :

يا ضربة من تقي ما أراد بها   إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

فهذا الخارجي معدود لدى المحدثين ولدى أهل السنة جميعاً من غلاة الخوارج الضلال ومن دعاتهم ومع هذا كله روى عنه البخاري في صحيحه والبخاري معروف أمره وتشدده في الرواية ، وكتابه معدود أصح كتب الحديث عند أهل السنة من المسلمين وأدقها شروطا وشرائط ، ونحن نعلم يقينا أن البخاري لا غرض له في هذا سوى الحق والحق وحده ، وقد قال أبو داود : ليس في أهل الأهواء أصح رواية من الخوارج ، وقيل ان حديثهم أصح الأحاديث ، وقال الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري « . . . والبدعة الموصوف بها اما أن تكون مما يكفر به أو يفسق ، فالمكفر بها لا بد أن يكون ذلك التكفير متفقا عليه من قواعد جميع الأئمة

كما فى غلاة الرافضة من دعوى بعضهم حلول الالهية فى على أو غيره ، أو الايمان برجوعه الى الدنيا قبل يوم القيامة ، أو غير ذلك ، وليس فى الصحيح من حديث هؤلاء شيء ألبتة ، والمفسق بها كبدع الخوارج والروافض الذين لا يغلون هذا الغلو وغير هؤلاء من الطوائف المخالفة لأصول السنة خلافا ظاهرا لكنه مستند الى تأويل ظاهره سائغ ، فقد اختلف أهل السنة فى قبول حديث من هذا سبيله اذا كان معروفا بالتحرز من الكذب ، مشهورا بالسلامة من خوارم المروءة ، موصوفا بالديانة والعبادة : فقيل يقبل مطلقا ، وقيل يرد مطلقاً ، وقيل بالتفصيل »

فالرافضة الغلاة مردودو الرواية مطلقاً كما ذكر الحافظ ابن حجر وأما الخوارج وبعض الشيعة غير الغلاة ففى هؤلاء الخلاف على ما ذكر . وفى الواقع أن الرافضة كلهم غلاة الا من شاء الله ، ولكنهم يستترون بالتقية ويكتمون أحيانا غلوهم الشديد عملا بهذه التقية . وأنت اذا راجعت ما ذكره ابن حزم والشهرستانى فى كتاب الملل والنحل عن طوائف الشيعة علمت أن القوم كلهم غلاة وفوق الغلاة أيضا . وليراجع ما نقلناه فى صدر الكتاب عن الشيعة

فليس فى فرق الخوارج من يرد حديثه مطلقا على ما ذكر الحافظ ابن حجر أما الشيعة فيرد حديث الغلاة منهم مطلقا ، وذلك لسوء اعتقادهم وجراءتهم على الكذب وشهادة الزور . قال أشهب سئل مالك عن الرافضة ، فقال : لا تكلمهم ولا ترو عنهم فانهم يكذبون . وقال حرملة سمعت الشافعى يقول لم أر أحدا أشهد بالزور من الرافضة . وقال يزيد بن هرون نروى عن كل صاحب بدعة اذا لم يكن داعية الا الرافضة فانهم يكذبون . وقال شريك احمل العلم عن كل من لقيت الا الرافضة فانهم يضعون الحديث ويتخذونه دينا .. وقال الأعمش أدركت الناس لا يسمونهم الا الكذابين . وقال الأعمش أيضا : لا عليكم أن تذكروا هذا ، فانى لا آمنهم أن يقولوا : انا أصبنا الأعمش مع امرأة

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هذه آثار ثابتة صحيحة رواها أبو عبد الله بن بطة فى كتاب « الابانة » الكبرى هو وغيره ذكره فى منهاج السنة الجزء الاول ص ١٤

ومن تأمل فى كتب الرجال وكتب الجرح والتعديل القديمة والحديثة وجد المحدثين ونقدة الرجال وعلماء السنة والأثر يحاذرون الشيعة والرواية عنهم كل الحذر ويزهدون فى أخبارهم ويوهنون الاحاديث المروية عنهم كل التوهين ، لان الرافضة معروفون لديهم بالكذابة وصنع الأخبار تدينا ، أو خداعا وضرارا بالاسلام والمسلمين . ولا تجد نقدة الرواة والروايات يقدحون في طائفة مثل قدحهم في الرجال المشهورين بالرفض وفى ما يروون . ومن أشد القدح فى الرجل أن يقولوا : رافضى ومن أشد التوهين للحديث أن يقولوا ان فى سنده راويا رافضيا أو شيعيا غاليا

وبالاجمال لا خلاف بين علماء السنة والحديث والأدب والتاريخ أن الخوارج خير حالا من الرافضة ، ولا خلاف أنهم يفضلونهم ويفوقونهم فى أكثر أبواب الخير والفضل وأفانين المحاسن والفضائل وان الرافضة يفضلون الخوارج ويفوقونهم فى النفاق والخداع والكذب وخبث الطوية والسريرة وفى الضعف والجبن والعجز عن القيام بالحق الذى معهم والانتصار لما قالوا انه حق

واستمع الى موقف أحد الخوارج بين يدى زياد ابن أبيه ... قال الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل : « ونجا عروة بن اذينة من حرب النهروان وبقى الى أيام معاوية ثم أتى الى زياد ابن ابيه ومعه مولى له ، فسأله زياد عن أبى بكر وعمر فقال فيهما خيرا ، ثم سأله عن عثمان ، فقال كنت أتولاه على أحواله ست سنين ثم اتبرأ منه بعد ذلك للاحداث التى أحدثها وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن على رضى الله عنه فقال أتولاه الى أن حكم ثم اتبرأ منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن معاوية فسبه سبا قبيحا ، ثم سأله عن نفسه ، فقال : أولك لزنية ، وآخرك لدعوة ، وأنت ما بين ذلك عاص ربك . فأمر به زياد فضربت عنقه ، ثم دعا

مولاه وقال صف لى أمره واصدق ، فقال أطنب أم اختصر ؟؟ فقال بل اختصر ، فقال ما أتيته بطعام فى نهار قط ، ولا فرشت له بليل فراشا قط . هذه معاملته واجتهاده ، وذلك خبثه واعتقاده »

وهذا مثل من أمثال صدق القوم وشجاعتهم وقولهم لما يرونه حقا لا يخشون سلطانا ولا قتلا ولا تعذيبا . وفى هذا الدليل على شدة اجتهادهم فى الدين والعبادة وعلى أنهم ما اصيبت مقاتلهم الا من جهة الجهل والضلال ، ونصيب الرافضة من هذا أوفر من نصيبهم بلا شك

فالخوارج خير منهم حالا بلا نزاع بين أهل العلم والبصر

(رابع الأمور)

ان لدى الشيعة عقائد منكرة انفردوا بها وحدهم لا يقول بها الخوارج ولا يشاركونهم فيها ، وهذا النوع كثير معروف . من ذلك قولهم بعصمة الأئمة ، وأنهم لا يغلطون ولا يقولون غير الحق لا سهواً ولا عمداً ، وأنهم مثل الأنبياء فى ذلك بل أفضل وأصدق . ومثل قولهم برجوع الأئمة بعدالموت وبعد الغيبة الطويلة وكزعمهم أن علياً فى السحاب وأن البرق تبسمه والرعد صوته ، ومثل قولهم فى آخر أئمتهم الثانى عشر أنه غاب واختفى فى سرداب فى سر من رأى وأنه سوف يعود الى الظهور فينتقم من النواصب أي أهل السنة ، ومن ذلك قولهم بالتناسخ تناسخ الأرواح . ومن ذلك أيضا زعمهم أن القرآن محرف وأنه حذف منه ثلاثة أرباعه ، ومن ذلك زعمهم أن هنالك نسخة هى الصحيحة للقرآن كتبها علي وأنه سوف يظهرها ، وأنه كان لدى فاطمة أيضاً مصحف ، ومن ذلك اتهامهم جبريل بالغلط ، وزعمهم أنه كان مرسلا الى على فغلط فنزل بها على محمد ﷺ . وهؤلاء هم الغرابية منهم . ومنهم من يزعمون أن جبريل تعمد ذلك ولهذا يعادونه ويمقتونه

ومن ذلك تحريفهم القرآن التحريف الذى لا يخطر على بال من يريد الحق ورضا الله ، وقد ذكرنا من هذا التحريف نماذج فى أول الكتاب وفى ثناياه ، ومن ذلك قولهم بالبداء على الله أى وصفه بالعلم بعد الجهل . ومن ذلك نزوعهم الى التشبيه كما كان ينزع الهشامان منهم ، وأن الله على صورة الانسان ، وأن طوله كذا وعرضه كذا ، وقد تقدم نقل هذا عنهم ، ومن ذلك قول بعضهم بفناء الجنة والنار ، قال ابن حزم : « وفى الكيسانية من يقول ان الدنيا لا تفنى أبداً » ومن ذلك قولهم بالنبوة بعد محمد ﷺ وقولهم بأنبياء كثيرين بعد النبوة المحمدية ، قال ابن حزم فى الملل والنحل : « وقالت طائفة منهم ان على بن أبى طالب والحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلى بن موسى ومحمد بن على والحسن بن محمد والمنتظر . ان هؤلاء أنبياء كلهم » . وقد ذكرنا فى مقدمة الكتاب نقلا عن كتبهم ما يثبت أنهم يرون الأئمة أنبياء وفوق الأنبياء ، ومن ذلك قول طوائف منهم باسقاط الشرائع وإحلال الحرام وكل شيء ذكره ابن حزم والشهرستانى فى الملل والنحل وغيرهما ، وكذلك أسقطوا الواجبات من الصلاة والصيام والحج والفرائض الأخرى . ومن ذلك قولهم بالهية آدم والأنبياء بعده نبياً نبياً الى محمد ﷺ ، ثم بالهية على عليه السلام . قال ابن حزم : « وفرقة قالت بالهية آدم والنبيين بعده الى محمد ﷺ ثم بالهية على ثم بالهية الحسن ثم الحسين ثم محمد بن على ثم جعفر بن محمد . وأعلنت ذلك الخطابية نهاراً بالكوفة فى ولاية عيسى بن موسى ، فخرجوا لصدر النهار فى جموع عظيمة ينادون بأعلى أصواتهم : لبيك جعفر ، لبيك جعفر . قال ابن عياش وغيره كأنى أنظر اليهم يومئذ فخرج اليهم عيسى بن موسى فقاتلوه فقتلهم واصطلمهم . ثم زادت فرقة على ما ذكرنا فقالت بالهية محمد بن اسماعيل بن جعفر وهم القرامطة . ومنهم من قال بالهية أبى سعيد الحسن بن بهران الجنابى وأولاده من بعده . ومنهم من قال بالهية أبى القاسم النجار

القائم باليمن في بلاد همدان المسمى بالمنصور » هذا ما ذكره ابن حزم وساق بعده كثيرين ألهتهم طوائف من الشيعة . قال « وكل هذه الفرق ترى الاشتراك فى النساء » ومن ذلك قول طوائف منهم بحلول الله فى ذوات أئمتهم ومشايخهم . ومن ذلك أنه قد نبغت منهم فرق هى أكفر من جميع أهل الملل وأشد حمقا من جميع الحمقى المشركين وهؤلاء كالنصيرية والاسماعيلية والقرامطة . فهذه الفرق معدودة من فرق الشيعة بلا خلاف بين المؤلفين فى الملل والنحل كالشهرستانى وابن حزم وغيرهما ، بل الشيعة أنفسهم يعدونهم منهم ، وهذه الفرق أشد ضرراً على الاسلام والمسلمين من اليهود والنصارى ، وأبعد عن الاسلام وعن جميع الأديان وأكفر بالله وبرسله وكتبه وباليوم الآخر وبأصول الأخلاق التى اتفقت عليها كل الديانات الى غير ذلك من عيون الضلالات التى انفردت بها طائفة الشيعة دون الخوارج بل ودون أعظم الطوائف إلحاداً وزيغاً ، وهذه الضلالات الشيعية لا يوجد لدى الخوارج ما يعادلها ويساويها حماقة وقبحا ونأيا عن المعقول والمنقول . واننا نحيل القارىء الى ما ذكر فى أول هذا الكتاب عن طوائف الشيعة وما اختصت به من الجهل والهوى

وحينئذ يبدو للقارىء الفرق واضحاً جليا بين الشيعة والخوارج ويعلم حينئذ أن الخوارج وهم من الضلال التائهين خير من الشيعة وأدنى الى الخير والدين والمعقول والأخلاق الفضلى

والبرهان القاطع على أن هؤلاء شر من هؤلاء أن هذين المذهبين قد بزغ قرناهما فى زمن الخليفة على وزمن الصحابة وأئمة التابعين ، فعاقب على الطائفتين وأوقع بالفريقين ، ولكن لينظر الفرق بين ما فعله بهما من العقاب والعذاب . أما الخوارج فانه لم يقاتلهم ولم يستحل دماءهم حتى بدؤا هم بالقتال وحتى قتلوا من المسلمين من قتلوا وحتى أخافوا الطريق وأقلقوا الأمن . بعد هذه الأمور وبعد أن استتابهم

ودعاهم الى الحق والى الاقصار عن سفك الدماء وعن هذا العدوان كى يدعهم وما يعتقدون بعد هذه الأمور كلها قاتلهم فى حكم الدفاع واستأصل شأفتهم اضطرارا وقد حفظ عنه أنه لم يكفرهم ولم يحكم عليهم بالردة وبالخروج من الاسلام . ولهذا لم يستحل أموالهم ولا سبى نسائهم وذرياتهم ، وقد سئل عنهم : أهم منافقون ومشركون ؟؟ فكان جوابه : انهم ليسوا مشركين ولا كافرين فقيل له : ما هم إذن ؟ قال : هم اخواننا بغوا علينا فقاتلناهم . وقد نقل الرافضى عن على أنه قال : لا تقاتلوا الخوارج من بعدى ، فانه ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فاصابه ، وقد تقدم هذا ، والشيعة يزعمون أن عليا عنى بالذين طلبوا الباطل فأصابوه معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين كما فسره صاحب نهج البلاغة ، فمعاوية ومن معه من المسلمين هم شر عند القوم وعند على على زعمهم من الخوارج ، هذا موقف على من الخوارج ، أما موقفه من أوائل الشيعة الذين نبغوا فى عصره ، فكان موقفا أصرم وأشد ، وذلك أنه ما ظفر بهم ووقعوا فى قبضته حتى أعظم أمرهم وما جاءوا به فاستتابهم فأصروا فأضرم النيران وحرقهم فيها ، وما سلم من ذلك إلا من أعياه طلبه ومن فر بكفره وجلده الى سقر الله وعذابه . هكذا كان موقف على من الطائفتين ، وهذا الموقف يبين لنا الفرق واضحا بين الطائفتين ، ويوضح جليا أن الشيعة شر من الخوارج وأحق بمزيد العقاب والعذاب والتأديب الوجيع

ومن أبين البراهين على أن الشيعة الغالية شر من الخوارج أن السبئية والاسماعيلية ومن غلا غلوهم من فرق الشيعة كفار باتفاق المسلمين وباتفاق العلماء الذين أدركوهم وعلموا ما كانوا عليه

وأما الخوارج فقد اتفق الصحابة على أنهم غير كفار ، وقد تقدم قول على فيهم ، وأنه لم يكفرهم لا هو ولا أحد من الصحابة ، بل كانوا يعدونهم مسلمين

ظالمين خارجين . ولهذا قاتلوهم واتفقوا على حربهم ، ولكنهم لم يستحلوا أموالهم ولا نساءهم وذرياتهم ، لأنهم قاتلوهم دفعا لشرهم وعدوانهم لانهم يكفرون مخالفيهم ويستحلون قتالهم وقتلهم . ولو كانوا يعتبرونهم كفارا لاستحلوا أموالهم وذرياتهم لان الكفار هكذا يعاملون . ولما أن ضرب عبد الرحمن بن ملجم عليا رضى الله عنه وقبضوا عليه وأرادوا قتله قال على دعوه فان مت فاقتلوه قصاصا وان عشت رأيت فيه رأيي . وهذا يدل على أنه لايعده كافرا والا لأمر بقتله لردته . وقد كان رجال من الخوارج ومن زعمائهم يستفتون الصحابة كعبد الله بن عباس فيفتونهم كما يفتون المسلمين ، وقد قدمنا أن المحدثين كانوا يروون عن الخوارج وعن زعمائهم ورجال دعوتهم . وقدمنا أن البخارى قد روى فى صحيحه عن عمران بن حطان شاعر الخوارج الذي امتدح قاتل على عبد الرحمن بن ملجم . وأحاديث البخاري من أصح الاحاديث عند المسلمين . ولو كانوا كفاراً لما استجازوا الرواية عنهم ولما روى عنهم البخارى فى أصح كتب الاسلام بعد القرآن . فالصحابة والتابعون ومن بعدهم من أئمة الدين لم يعدوا الخوارج كفارا . أما غلاة الشيعة كالسبئية والاسماعيلية والقرامطة فلا خلاف فى كفرهم . وهذا برهان مستقل على أن هؤلاء القوم شر من الخوارج وأبعد عن الله وعن دينه وعن أهل السنة والجماعة

وقد جاءت أحاديث نبوية فى ذم الشيعة والتحذير منهم تنصيصاً وتخصيصاً . وقد قدمنا هذه الأحاديث فى صدر كتابنا . وتلك الأحاديث سواء أصحت أسانيدها أم لم تصح فمعناها صحيح . فان القوم رفضوا الاسلام ولفظوه ، وعبدوا المخلوق وألهوه ، وادعوا أعظم دعوى فى الاسلام ، وخرقوا فيه أعظم خرق فى إبان عنفوانه وفورته فى عصر الخلفاء الراشدين ، وقد قالوا لأحد أركان التوحيد الذين لا تزال أسيافهم تقطر من دماء الشرك والمشركين ، والكفر والكافرين : أنت الله ! أنت خالقنا ورازقنا . فقال لهم ويحكم ، انما أنا عبد من عباد الله ، بشر

مأسور بأعراض البشرية ، آكل وأشرب وأحتاج حاجات الانسان ، وحاجات المخلوق الضعيف المربوب المسير المصير ، فما أنا وما تدعون ، وأين أنا من مقام الألوهية ؟ ويحكم ! ارجعوا عن هذا الاثم وهذا الحدث الأعظم . ان سيفي وسيوف اخواني الصحابة لم تجف بعد من دماء الشرك والوثنية . أأليوم تدعون هذه الدعوى ولما يمض إلا قليل ، وهذه معالم الشرك لا تزال ماثلة خاوية محطمة تبصرونها وتبصرون فيها آثار طعنات التوحيد وضرباته تنذركم بأننا ماقمنا ولا كنا إلا لمناهضة الشرك وتدمير الوثنية ؟ أفيّ تدعون هذه الدعوى ثم تأتون لتنشروها بين يدي ؟ ويلكم مني ثم ويلكم من الله ربكم ، ثم ويلكم من ناره وعقابه . ثم الويل لكم أبداً حيث تحلون وحيث ترحلون ؟ فماذا قالوا لالههم الذي زعموا ، وربهم الذي ألهوا عندما سمعوا قوله هذا ؟ انهم قالوا له لقد كذبت ، وما صدقت . فأنت إلهنا حقاً ولكنك تكذب وما تصدق ! ويل القوم أو يكذب الاله ، أو ينهى عن عبادته ويغضب على من عبده ؟ أي اله هذا ، وأي نفوس هذه ؟ ويل القوم يعبدون الها لم يأمرهم بعبادته ثم لما أن رأوا ذلك الاله وسمعوا قوله ونهيه أكذبوه ولم يطيعوه ! أفيعبدون من يقولون له كذبت شفاها . أفيعبدون من يعاقب على عبادته ومن ينهى عنها ؟ لقد ضعف الطالب والمطلوب والرب والمربوب

هؤلاء هم الرافضة ، وهؤلاء هم الذين رفضوا الاسلام حقا ، ولفظوه بلا شك وهؤلاء هم شر من الخوارج ومن غير الخوارج وممن هم شر من الخوارج

شبه الشيعة باليهود

تشبه الشيعة اليهود من وجهات ووجوه كثيرة . ولا عجب في الأمر ، فان أصل المذهب الشيعي كما قد ذكرنا مرات قد وضعه اليهود وأسسوه ودعوا اليه سرا وجهرا حتى قام وصار مذهبا مستقلا مباينا المذاهب والنحل مخالفا لها بميزاته

وخصائصه الكثيرة المختلفة ، فان عبد الله بن سبأ وهو من أصل يهودي ، أظهر الاسلام لما رأى فعلاته ووثباته القوية التى سحقت اليهود وغير اليهود من أهل الأديان الباطلة والملل الفاسدة ، ولم يكن أسلم قلبه ولا آمن باطنه ولكنه ادعى الاسلام مكيدة وغدراً ونكاية لها نظائر وأشباه اليوم بين المسلمين وبين خاصة المؤمنين ، وغريب من هؤلاء أن ينكروا الدعوة الى الدين الصحيح قسراً وهم يبيحون الدعوة الى الأديان الباطلة والالحاد المر خداعا ونفاقا ! فلما أن أظهر هذا اليهودى الاسلام الممزوج بالتشيع ووجد من لبوا دعوته راح فى جد ونشاط ودؤوب يهودي يملى العقائد اليهودية على المسلمين الضالين ، والعقائد الباطلة الملحدة حتى قام من ذلك المذهب الشيعى خليطا من الوثنية واليهودية والنصرانية ومن شر الأديان ، ومن الاسلام خير الأديان أيضا . وقد كان منافقو الأمم ودهاتها الخبثاء يجدون لمكايدهم ومصايدهم مراتع خصبة بين طوائف الشيعة ينثرون فيها آراءهم وبذورهم ، فلا تلبث أن تثمر الثمرات المرة ، ولا تلبث أن يتكاثر ثمرها المرير وتتفرع عنها الفروع والأصول والأشياء الأخرى ، وكان هؤلاء الكائدون المنافقون لا يجدون مأوى يرضونه ولا قبولا يرتاحون الى نتيجته عند غير طوائف الشيعة ، حتى انهم لا يجدون ذلك عند الخوارج أنفسهم الذين هم من أضل الفرق ومن أكثرها شراً وبلاء وجهلا ، ولأجل هذا ادعى الاسلام المتشيع أقوام كثيرون كان غرضهم محاربة الاسلام الصحيح ومحاربة أهله من كثب . فادعى هذا الاسلام المتشيع آحاد وجماعات من سائر الأمم والشعوب والملل خصوا بالدهاء العظيم والمكر السيء والطوية الماكرة الخبيثة . فأحدثوا فى الشيعة المحسوبة على الاسلام الأحداث الكبرى والآراء النكراء ، ومثلوا بالاسلام أشنع التمثيل . وأنت اذا درست المذهب الشيعى واجد فيه من كل الملل أفسدها وأبطلها وأقربها الى الجهالة والنكارة . ولكن المذهب يمتاز بالمفردات اليهودية المتكاثرة . والسبب الظاهر فى

هذا أن المذهب كان واضعه الأول يهوديا كما ذكرنا . وقد أدخل فيه ما استطاع من اليهودية وغيرها من أثيم الآراء والعقائد

قال الشهرستاني في كتابه الملل والنحل : « وإنما نشأت شبهاتهم (أى الشيعة) من مذاهب الحلولية ، ومن مذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى ، إذ اليهود شبهت الخالق بالمخلوق ، والنصارى شبهت الخلق بالخالق فسرت هذه الشبهات فى أذهان الشيعة الغلاة ، حتى حكمت بأحكام إلهية فى حق بعض الأئمة ، وكان التشبيه بالأصل والوضع فى الشيعة » فالشيعة تشابه اليهود من وجوه كثيرة

من ذلك أن الشيعة تقول بالبداء على الله واليهود تقول بذلك أيضا ، والمراد بالبداء أن الله يقول شيئا ثم يبدو له أى يظهر له أن المصلحة والحكمة فى خلاف ذلك فيبدل ذلك القول ويريد غيره ، وهذا وصف لله بالجهالة . تعالى الله عن قول الجاهلين

ومن ذلك أن اليهود يقولون بالتشبيه تشبيه الله بخلقه ، فيصفونه بالحزن والبكاء واللغوب وأعراض النقص ، وكذلك الشيعة يشبهون ، ويصفون الله بصفات الخلق والنقص ، وقد قدمنا ذلك ، قال الشهرستانى « وكان التشبيه بالأصل والوضع فى الشيعة » وقال مثل هذا فى غير موضع من كتابه الملل والنحل ، وكذا قال غيره كالأشعري وابن حزم ، وقال ابن حزم : « وكان داود الجوازى من كبار متكلمى الشيعة يزعم أن ربه لحم ودم على صورة الانسان »

ومن ذلك أن اليهود يعادون جبريل عليه السلام ويمقتونه ويقولون هو عدونا وكذلك الشيعة تقدح فيه وتمقته ، لأنه في زعمهم قد أرسل إلى على فغلط فنزل على محمد عليه السلام . وبعضهم يزعم أن جبريل تعمد ذلك . وقد تقدم الكلام على هذا مرات

ومن ذلك أن الطائفتين قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة فاليهود قد أخبر الله

عنهم بذلك وسجله عليهم فى الكتاب العزيز وقد أنبأنا به منذ أربعة عشر قرنا ونصف وأبانه بيانا صريحا واضحا ، ومن ذلك اليوم إلى اليوم واليهود لا يزالون يتقلبون فى الذلة والمسكنة والهوان ، لم تقم لهم قائمة ، ولم تثبت لهم دولة وقد حاولوا هذا مرات وإلى اليوم يحاولونه واستخدموا أموالهم الكثيرة الوافرة فى هذه الأمنية ولكنهم فشلوا وسيلازمهم الفشل في هذا أبداً ما داموا يهوداً ، وما داموا يخضعون للاخلاق والمعانى اليهودية ، وما دامت نفوسهم نفوسا يهودية . وكذلك الشيعة قد حاولوا مرات فى عصور مختلفة الاستبداد بالأمر والنهوض بأعباء الملك والسلطان وانتزاعه من أيدى أهله ، وقد نالوا جزءاً طفيفا من ذلك فى فترات من الزمن ، ودانت لقوتهم بعض الأقطار أحيانا قصيرة زائلة ، ولكنهم ما زالوا أذلة صاغرين حتى فى أيام دولتهم وسلطانهم ، وحتى فى الاقطـار التى دانت لهم فى الظاهر واعترفت لهم بالملك . فانهم ما زالوا يخافون غيرهم من أهل السنة وغير أهل السنة وما زالوا يصانعونهم وينافقونهم ويستعينون بهم فى تثبيت دعائم ملكهم واقرار الأمر فى أيديهم وما استغنوا عن أهل السنة أو عن غيرهم فى عصر من العصور فى ضبط الملك وإقرار الأمر ، وما استغنوا عن مداهنتهم ومداجاتهم فى عهد من العهود عهود عزهم وعهود ذلهم ، بل كانوا أبدا فى حاجة إلى غيرهم ومصانعتهم ومعاونتهم فى جميع أمورهم سياسية وغير سياسية ، وما استقلوا بالأمر وضبطه من جميع الوجوه يوما من الأيام . ولهذا كانوا دائما في حاجة الى التقية أى النفاق ، وهم يمتدحون التقية ويروون لها فضائل ويستدلون لها بالقرآن ويروون عن أهل البيت النبوى فيها أشياء منكرة مكذوبة بلا ريب ، وما احتاجوا الى هذه التقية وافتقروا الى المصانعة دائما إلا لهوانهم وذلهم المؤبد ، وتجدهم فى كل مكان يكتمون مذهبهم ولا يكادون يبوحون به فى مكان غير مكانهم وعش غير عشهم وهذا المصنف نفسه يحوم حول هذه التقية كثيراً فى كتابه ويلجأ اليها فى أغلب مباحثه . ويقال انه يظهر الاعتـدال

والقصد اذا ما جلس الى أهل السنـة وخاطبهم وخاطبوه . وأنه لايبوح بمذهبه وتعصبه ضد الصحابة وأهل السنة بين أهل السنة ، وهذه تقيـة ومصانعة ان كان يفعل ذلك . وإلا فالرجل من الشيعة الغلاة ، وهو فى كتابه هذا يحتج كثيراً بكلام أهل السنة وكلام المحدثين و الأئمة الأربعة وكلام أصحابهم من الفقهاء الذين يكفرون الرافضة الغلاة ويرمونهم بأشد المقادح ، ويُرى القارىء تلبيساً وغشا أنه يرضى قول هؤلاء العلماء ويقيم لأقوالهم وزنا وأنه يرى مايقولونه حججا ، ولكنه فى نفس الأمر ليس كذلك ، بل هو لا يرضى بأبى بكر وعمر وخيـار الصحابة والمهاجرين حاكمين ولا يعتد بآرائهم وما أجمعوا عليه فكيف يعتد بأقوال الأئمة الأربعة وغيرهم من المحدثين الذين نهاية الكمال والفضل لديهم أن يتشبهوا بالصحابة وأن يكونوا من حزبهم المقتدين بهم

ولولا ما ضرب على هؤلاء من الذلة والمسكنة والصغار كما ضرب ذلك على اليهود لما كانوا فى حاجة الى هذه التقية أو هذا النفاق . والعزيز الحمى الأبى لا يرضى بالتقية ولا يلجأ اليها. وليس هنالك مايضطره اليها ولاما يقضي عليه بها وانما الذى يلجأ اليها هو الأذل أو الجبان . وهذا واضح . ولأجل هذا لايقول أهل السنة بهذه التقية الرافضية ولايبيحونها . بل هم يرونها من النفاق المزدرى المهين

فاليهود والرافضة فى هذا سواء وإخوان شركاء

ومن ذلك أن اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه كما قال الله «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » وكذلك الرافضة يحرفون الكلم عن مواضعه بل هم عندى وعند من رأى تفاسيرهم للقرآن أفرس من اليهود في هذا الميدان وأسبق ، وقد وضعنا نماذج من ذلك فى ثنايا هذا الكتاب وفى مقدمته . وذلك كقولهم فى البقرة وفي الجبت والطاغوت وفى أئمة الكفر وفى الشجرة الملعونة فى القرآن ، وفى اللؤلؤ والمرجان وفى الكسف الساقط من السماء وفي البيان . الى غير ذلك من

تأويلهم القرآن ، ولقد جمح بهم هذا حتى أولوا الواجبات والمحرمات بأن المعنى بها رجال يراد موالاتهم ومعاداتهم . وقد دخل الباطنيون والملحدون من بابهم وسبيلهم ومذهبهم كما تقدم عن ابن حزم وغيره

ومثل هذه التأويلات هي عند المسلمين شر من الكفر بالنصوص . فلو أن الرافضة كفروا بتلك الآيات وكذبوها وقالوا انها من كلام البشر وكفروا بالقرآن لكان أخف من هذه التأويلات الباطلة ولا ستراحوا هم وأراحوا غيرهم من عنائهم وعناء تأويلاتهم ، ولبقى هـذا الباب باب التحريف الأحمق الأعوج مقفولا دون الاسلام ونصوصه ، فلم يلجه الملاحدة والباطنية وأهل النفاق والمكايد

وأرباب هذه التأويلات يعرفون ولا شك أنهم يحتالون للخلاص من هـذه النصوص احتيالا ، ويعلمون أنهم يفسرونها تفسيراً هوخلاف مايريده الله وخلاف ما يفهم جميع العقلاء منها ، ولهـذا فانهم في الباطن يكفرون بالنصوص وينكرونها ويقابلونها بالجحود والانكار والازدراء ، وذلك أن المذهب أصـالة موضوع على الالحاد والزندقة والكيد للاسلام ، وان كان هذا قد يخفى على عامة الرافضة وبعض خاصتهم ، فاليهود والرافضة في هذا إخوان شركاء

ومن ذلك أن اليهود والرافضة لا يعدلون في حبهم ولا بغضهم ، ولا يقتصدون في توليهم ولا في تبريهم ، بل كلتا الطائفتين مسرفة في هذا وهـذا ، ظالمة في هذا وذاك . فبينا ترى اليهود يغلون في بعض الأنبياء وفي بعض الأحبار ويتخـذونهم آلهة وأربابا ، ويعبدونهم أنواع العبادات ويذلون لهم أعظم الذل ، إذا بهم يقدحون في فريق آخر من الأنبياء ويهـدون اليهم شر التهم والعظائم ويرمونهم بالخبث وبما هو فوق الخبث كذبا وزوراً . كذلك الرافضة ، فبينما تراهم يغلون في الامام علي وبعض ذريتـه ويؤلهونهم ويزعمون أن الله حل في ذواتهم لشرفهم وقداستهم ، إذا بهم يقـدحون في الفريق الآخر من الصحابة والمسلمين أمر القدح

ويرمونهم بالكفر والنفاق وسوء الطوية وسائر الأدواء النفسيـة الاعتقادية كذبا وزوراً ، خلق يهودى وفعلة اسرائيلية موروثة مستعارة

ومن ذلك أن اليهود يستحلون دماء المسلمين العرب وأموالهم بكل الوسـائل بالخداع والربا الفاحش والاغتيال والغش وبمـا استطاعوا من الوسائل اليهودية ، ويقولون ليس علينا فى الأميين سبيـل كما فى القرآن ، كذلك الرافضة يستحلون دماء أهل السنة جميعا وأموالهم بكل الوسائل بالاغتيال والغـدر والاحتيال والغش وبما استطاعوا من صنوف الوسائل الباطلة ، والرافضة لا يستطيعون شيئا من ذلك إلا فعلوه وارتكبوه واعتقـدوه دينًا وقربة الى الله لأن أهل السنة جميعا نواصب كافرون لابأس فى النيـل منهم كل منال ، وقد نقلنا فيما مضى عن أحـد أئمتهم المعصومين عندهم قوله « خذ مال النـاصبى حيثما وجدته وادفع الينا الخمس » وقد ذكرنا نماذج من هذا فى مقدمة الكتاب

ومن ذلك أن اليهود يتعشقون القبور ويهيمون بها هياما ويصيرونها مساجد غلوا وافتتانا . وقد قال ﷺ « لعن الله اليهود والنصارى اتخـذوا قبور أنبيائهم مساجد » الى غير ذلك من الأحاديث التى سوف تأتى ، وكذلك الرافضة يغلون فى القبور والمشاهد غلواً قبيحاً ، غلو اليهود أو أشد ، ويتعشقونها كاليهود أو أشد حتى أصاروها مشاهد ومعابد ومساجد بل أصاروها كالكعبة ومشاعر الحج يحجون اليها كما يحج المسلمون الى بيت الله الحرام من كل مكان ، ويطوفون بها كما يطوف الموحدون ببيت الله ، ويسعون حولها كما يسعى المؤمنون بين الصفا والمروة ، ويشدون اليها الرحال من كل مكان كما يشد عبد الله الرحال الى حج بيت الله وأداء فريضة الحج المقدس . ان هؤلاء يصنعون ذلك كله حول القبور بل ويصنعون ماهو أكثر ويعظمون المشاهد أكثر من تعظيمهم بيت الله ، ويفضلونها عليه كما قد قدمنا فى مقدمة الكتاب أنهم يفضلون كربلاء لأن فيها بعض المشاهد على مكة المكرمة وهم يزينون

الأضرحة بفاخر الزينات ، ويعلقون عليها مختلف الملقات . يفعلون ذلك كله ويزيدون عليه ، ويغلون غلواً شنيعا . وهذا أمر لا ينكره أحد حتى أنهم أنفسهم لا ينكرونه بل إنهم به يفاخرون ويكاثرون . وهـذا الكتاب الذى هو كشف الارتياب مؤلف لهذا العرض والدفاع عنه ومحاولة إقامة الدلائل على أن ذلك كله من دين الله الحنيف

ومن ذلك أن اليهود يغلون فى تقـديس الأحبار والرهبان الى حد العبادة والتأليه كما قال تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وقد جاء فى الحديث تفسيراً للآية أنهم من غلوهم فى تقديسهم وإبعادهم عن مواضع الاتهام والارتياب كانوا إذا أحلوا لهم الحرام أحلوه ، واذا حرموا عليهم الحلال حرموه ، لأنهم لقداستهم وقربهم من الله ، كما يزعمون ، لا يقولون سوى ما يريده الله ، ولا يشرعون إلا ما يريد أن يشرعه ، ولا ينطقون سوى الحق والهدى . وكذلك الرافضة يغلون فى أئمتهم غلو تأليه وعبادة ، ويقدسونهم حتى يضعوهم فى درجات هى فوق مستوى البشر والخلق ، فهم يقولون بعصمتهم من الأخطاء والذنوب والنسيان ، ويقولون أنهم لا ينطقون سوى الحق لا ساهين ولا عامدين ، ولا يفعلون سوى الحق أيضا لا اختياراً ولا اضطراراً ، ولا يريدون سوى ما يريده الله ، فهم مع الحق والحق معهم أينما كانوا لا يفارقهم ولا يفارقونه . لأنهم يعبرون عما يريده الله ويترجمون شئونه وحكمه لصلتهم به واطلاعهم على أسراره

ومن ذلك أن اليهود وغيرهم كالنصارى ليس لديهم ولما يأثرونه ويذكرونه عن أنبيائهم أسانيد لا صحيحة ولا ضعيفة ، ولا لمن يروون عنهم كتب تراجم صحيحة معتبرة لها أسـانيد متصلة ، بها يعرف حال ذلك الراوي المحدث وتعرف قيمته الدينية والعلمية والخلقية ، بل كل ما عندهم أشياء مجهولة منقطعة الأسانيد مظلمة المعانى ، لا يعرف من رواها ولا كيف رواها ولا أنى وصلت الى المتأخرين

والأجيال الغابرة . ولهذا غيرت اليهودية وغيرها من الأديان وداخلها ما داخلها من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ومن الضياع والفساد ، ونفق على أهلها مانفق من الأكاذيب والأعاجيب والمناكير المحجلة . ولهذا فان أهل هذه الأديان لا يستطيعون أن يثبتوا صحة ما يعزون الى الله والى أنبيائهم من الروايات والشرائع على الطريقة العلمية الصحيحة ، ولا يستطيعون أن يستيقنوا هم صحة ذلك وصحة عزوه الى من يعزونه اليه . وإنما يأخذون ذلك ويقبلونه مغضين عن اعتراضات القوانين العلمية ، ومناقضات القضايا المنطقية ، وكذلك الرافضة ليس لعقائدهم ومفرداتهم التى بها باينوا أهل السنة والجماعة واختصوا بها وصاروا بها رافضة مستقلين عن غيرهم اسانيد صحيحة ولا روايات متصلة مقبولة ، ولا لمن يروون عنهم مايروون من هذه المفاريد والخصائص تراجم معروفة صحيحة ينقدون بها هؤلاء الرواة ، ويعلمون بها مكانتهم العلمية والدينية والخلقية ، ويعرفون بها أهم أهل للرواية والنقل والتحديث عنهم ، أم هم قوم منافقون دأبوا على الكيد للاسلام وأهل الاسلام ، وسعوا لافساد الشريعة من طريق الرافضة والازدلاف اليهم . وقد ذكرنا أن الرافضة هم المأوى الرحب ، ينضوى اليه كل مناوى الاسلام خداعا وغشا ، وأن الرفض هو الصلة المحكمة المبرمة لمن أراد الاتصال بالدين الحنيف لكيده وافساده . فليس لدى الرافضة رواية يصح الاعتماد عليها والركون اليها الا أن تكون من روايات أهل السنة والجماعة والا أن تكون مروية فى كتب أهل السنة والجماعة ، والا أن يكون رواتها من أهل السنة والجماعة ، ولا يمكن معرفة رجل من رجال الشيعة ولا معرفة ما كان عليه من صحة وضعف ومن دين ومروق الا من طريق كتب أهل السنة وتراجمهم ، ولا يمكن معرفة ما ترويه الشيعة وتضيفه الى الرسول والأخيار من آل البيت والى الدين إلا من طريق أهل السنة وبأقوالهم وكتبهم ، كما أنه لا يمكن معرفة ما كان عليه الأنبياء

موسى وعيسى وغيرهما ، ولا معرفة ما جاءوا به من الشرائع والكتب الا من طريق المسلمين وكتب الاسلام فان المسلمين شهداء على الناس ، ودينهم شهيد على الأديان بما أنزل الله من الهدى والنور والبينات على قلب خاتم الأنبياء ، فهم الذين يعرفون صحيح الأديان من باطلها ، وهم الذين يشهدون للحق بأنه حق وعلى الباطل بأنه باطل ، وهم الذين يبرئون الأنبياء مما أضيف اليهم من الجهالات والضلالات والرعونات الفاضحة التى ألصقها بهم الجاهلون والأنصار الأغبياء . ولولا الاسلام وكتابه ونبيه لما عرف ما عند أهل الكتاب من حق وباطل ، ولما عرف ما جاءت به أنبياؤهم لاختلاط ذلك على أهل الأديان أنفسهم ، ولضياع الأسانيد والروايات التى بها يميز الكذب من الصدق ، ويعرف الصادق من الكاذب . وهذا ما أشار اليه الله بقوله « وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وهـذا هو شأن الرافضة مع أهل السنة ، لا يمكن أن يعرفوا حق ما عندهم روايات وآراء من باطله الا من طريق أهل السنة . ولهذا يلجأ الرافضة الى العمل بالرقاع المزورة ، ويزعمون أن صاحب الوقت أو إمام الوقت هو الذي يكتب الرقاع ويضع فيها ما يراد من الشرائع ويبث فيها جواب الأسئلة الموجهة اليه تبيانا لشيعته . ولأجل هذا أيضا ، أي لأجل فقدهم الأسانيد يزعمون أنهم يروون عن رسول الله عن الله ، وأن الناس يروون عن الناس . كما قال أحد أئمتهم : « ذروا الناس فان الناس أخذوا عن الناس ، وانكم أنتم أخذتم عن رسول الله » ذكره في الوافي

هذا والرافضة يزعمون أن القرآن محرف ، ويزعمون أن التقية جائزة بل واجبة ، ويزعمون أن أهل الحق وآل البيت ما زالوا يكتمون الحق ويخفون الهدى طيلة تلك العصور التى كانوا فيها مظلومين تقية عندهم ، ويزعمون لذلك أن عليا وغيره من الأئمة الراشدين كانوا كاتمين النصوص الواردة فى فضلهم وحقهم وفى

الوصاية بالخلافة وولاية الأمر لهم واحدا فواحداً ، وأنهم كانوا كاتمين المصحف الصحيح الذى كتبه على وكذا مصحف فاطمة طيلة هذه العصور تقية أيضا ، وان عليا كان يرى الصحابة المنافقين خصومه وخصوم آل بيته يحرفون القرآن ويبدلونه ويحذفون منه مايحذفون من فضائله وفضائل آل بيته وذريته وهو موافق لهم فى الظاهر تقية أيضا ، ويزعمون أن المصحف الكامل الصحيح سوف يظهره الامام المنتظر اذا ماظهر ، ويزعمون أن الامام المنتظر هارب بنفسه مختف عن الانظار ، أنظار أعدائه وأصدقائه كاتم أمره ومامعه من الحق والهدى تقية أيضا ، ويروون عن آل البيت روايات فى غاية الغرابة فى هذه التقية وفى فضل العمل بها

فاذا كان هذا كله صحيحاً : أى اذا كان القرآن محرفا مبدلا ، وكانت التقية أى كتمان الحق والهدى خيفة الأعداء جائزة وواجبة فى كل هذه العصور والعهود ، وكانت هذه التقية تقضى باخفاء الحق وترك الناس فى لبسهم وضلالهم يعمهون فى هذه العصور المتطاولة كلها ، وان الامام منهم قد يقول القول وهو لايريده ولا يرى مايقول حقا ، ولكنه يقوله تقية ، فكان ينفى الواقع ويثبت ماليس واقعا تقية أيضا

اذا كان هذا كله صحيحا فكيف تمكن عندهم معرفة حق ما من القرآن أو من السنة وكل ماهنالك يتطرق اليه احتمال التحريف واحتمال عبث التقية وما تقضى به من كتمان وموافقة على الباطل ؟ إن هذا مالا يمكن معرفته . وهذا مالا حيلة للشيعة فى دفعه ولا فى الانفكاك منه

فالشيعة اذن لايمكن أن يعرفوا الحق من الباطل الا أن يرجعوا الى أهل السنة والى كتبهم وأسانيدهم وهداهم ، كما أن اليهود وغيرهم من أهل الكتاب الاديان لايمكن أن يعرفوا ماجاءت به أديانهم وأنبياؤهم الا أن يرجعوا الى

الاسلام وكتابه ونبيه خاتم الأنبياء

ومن ذلك أيضا أن اليهود يقولون بالتقية وكتمان الحق والموافقة على الباطل ، قال الله تعالى محدثا عنهم « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » أي آمنوا واكفروا على حسب ما ترون من الاضرار بالمؤمنين والخديعة لهم ، أي آمنوا واكفروا تقية ومكيدة ، وكذلك الرافضة يقولون هذه المقالة ويدعون هذه الدعوى ويسرفون فى ذلك ، أى يقولون غير الحق ويكتمونه كما قدمنا ، ولهم فى هذه التقية روايات غريبة ، من ذلك ما يقوله الباقر والصادق : « من أظهر الحق وترك التقية فى دولة الباطل كان ممن لم يرض بقضاء الله ومن خالف أمر الله وضيع مصلحته التى اختارها لعباده ، فهو مارق من الدين » . ذكره فى أصول الكافى ، وكما كان هؤلاء الذين حدث الله عنهم من أهل الكتاب يظهرون الايمان بما آمن به المؤمنون خداعا وحيلة لردهم عن دين الله كذلك كان رجال من الشيعة يدعون الاسلام ويظهرون التشيع نفاقا وغشا للذين آمنوا كما صنع ذلك واضع المذهب الشيعى الأول ، والله أعلم بما كانوا يمكرون

هذا ومشابه الشيعة لليهود كثيرة متعددة ، ومن أجمع ذلك ماورواه الامام ابن شاهين في كتاب اللطف . وقد ذكرنا هذا فى أول الكتاب صفحة ٤٣ فليراجع

وكذلك الشيعة يشبهون النصارى من وجوه عديدة نضرب عنها صفحا . ثم ان اليهود والنصارى يفضلون الشيعة فى أشياء غير ما ذكر فى تلك الرواية التى أحلنا القارىء عليها فى أول الكتاب فلنضرب عن ذلك صفحا أيضا

وبهذا تمت مقدمات الكتاب وتم النقض عليها والابطال لباطلها بالشكل الذى رأى القاريء ، ويلى المقدمات من الكتاب الباب الأول منه

باب كتاب الرافضى الاول

وعنوان هذا الباب فى كتاب الشيعى « باب فى ذكر جميع معتقدات الوهابية ومحور مذهبهم الذى يدور عليه . »

ونحن نلخص ما فى هذا الباب ونذكر كل ما اشتمل عليه من الدعاوى ونذكر الجواب عما فى ذلك من غلط وخلط . .

الاجتهاد

ذكر أولا ما خلاصته أن الوهابيين يدعون جواز الاجتهاد فى بعض الأمور والمسائل لا فى الأمور كلها ولا فى المسائل كلها . وذكر أنهم يقولون لا يجوز لنا أن ندع السنة النبوية إذا ما بانت لنا وعلمت لأجل تقليد بعض الأئمة ، ولكن التقليد لا يجوز إلا عند الضرورة وعند خفاء السنة النبوية المخالفة للمأثور عن الامام المراد تقليده . ثم ذكر عن بعض علمائهم أنه قال : « ولا نعترض على أحد في مذهبه إلا إذا اطلعنا على نص جلى مخالف لأحد الأئمة وكانت المسألة مما يحصل بها شعائر ظاهرة كامام الصلاة فنأمر الحنفى والمالكى مثلا بالطمأنينة فى الاعتدال والجلوس بين السجدتين لوضوح ذلك بخلاف جهر الشافعى بالبسملة فلا نأمره بالاسرار . ولا مانع من الاجتهاد فى بعض المسائل دون بعض ، وقد اختار جمع من أئمة المذاهب الأربعة خلاف مذهب مقلدهم »

هذه خلاصة ما ذكر الشيعى عن الوهابيين فى الاجتهاد وفى نظرهم الى هذه المسألة المدونة فى كتب الأصول . ونحن لاندرى هل الشيعى يريد بهذا ذمهم أم مدحهم ، وموافقتهم أم مخالفتهم . فان هذا الرأى الذى نقله عنهم فى الاجتهاد

هو من أعدل الآراء وأبعدها عن الافراط والتفريط وعن الغلو فى التقليد والغلو فى الاجتهاد . فان هنالك طرفين مذمومين فى هذه المسألة : طرفا مفرطاً وطرفاً مفرّطا . طرف يقول : يلزم التقليد مطلقا وعلى كل حال ، ولا يصح الاجتهاد ولا مخالفة الماضين ولو صحت بذلك النصوص وقامت الدلائل الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وشيوخ الاسلام ، بل لا تصح محاولة ذلك ، ولا محاولة فهم الكتاب والسنة ، ومحاولة أخذ الأحكام منهما والاستقلال فى فهم نصوصهما ، وان كانت واضحة جلية وظاهرة قوية . ثم يغلو هذا الطرف المتطرف فيزعم أن باب الاجتهاد ، أى باب الاغتراف من منهل الكتاب والسنة قد أغلق منذ أزمان قصية وأن هذا الباب لا يجوز اجتيازه ولا فتحه ألبتة . ثم يغلو هذا الطرف فى التطرف فيذهب يزعم أن من حاول الاستقلال فى فهم شيء من كتاب الله أو سنة رسوله وحاول الاجتهاد ومخالفة الامام المقلد فى مسألة من المسائل التى ظهر له دليلها قوياً ظاهراً فقد ارتد أو كاد . . . فحرم هذا الطرف من الطرفين المذمومين استعمال العقول فيما خلقت له ، وحال بينها وبين وظيفة الفهم لأشرف كلام وأجل موضوع ، وهو كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، وحرمها لذة الدليل والبرهان ولذة الظفر بالدليل والبرهان ، البرهان على الله وعلى عبادته ومعرفته وشرعه . وحرم الإنسان أخص وصف له وأجله وهو وصف العلم والمعرفة القائمين على الدليل والحجة فجنى هذا الفريق على الدين وعلى كتاب الله وعلى العقول وعلى الانسان أكبر جناية وأشدها ضرراً . فصدئت العقول والأذهان والقرائح من طول الرقود ، وركدت ثم تناقصت ، وتكامل نقصها وركودها حتى ماتت أو كادت . فضعف الدين وضعف أثره في تلك النفوس ، وقلت ثمرته التى كانت تظهر على الأعضاء والجوارح والأعمال ، وتناقص العلم بين المسلمين ، ووقف الانتاج والثقافة حتى نسيت المؤلفات القوية النافعة ، الناحية منحى الفهم والاستقلال

فى الفهم ومطالبة الدليل ، ورُغب عن هذا الصنف من الكتب حتى هجر ونسى وأصبح مطموراً تحت أكداس النسيان والجهالات واستبدل الناس بهذا النوع الذي هو أدنى وأحط ، فانحط التأليف ونزل جداً ، وتبع نزول ذلك نزول اللغة وانحطاطها وفسادها وتدهورها ، هذا التدهور الذى لاتزال آثاره بادية فى التأليف وفى اللغة نفسها وفى سائر العلوم ، ولا يزال ذلك يحتاج الى العلاج والتطبيب ، ولحق هذا سلسلة أمراض لغوية ودينية وعقلية انفرطت حباتها حينما سقطت الحبة الأولى من هذا العقد المتماسك الحبات . وفى سبيل الشيطان ما لقى الاسلام والمسلمون من جراء هذا الطرف المتطرف

وأما الطرف الثانى فزعم أن الاجتهاد أمر مباح لكل أحد ولكل قائل وناطق بلا قيد ولا شرط ، وليس بلازم أن يكون فى حدود الكتاب والسنة ، ولا تحت نطاق الشريعة المعلومة بالاجماع والتواتر ، ونطاق الاسلام المضروب على كل المسلمين من قاص ودان ، ولا تحت نطاق اللغة العربية التى نزل بها الكتاب والسنة . بل الاجتهاد أمر مشاع مباح لكل وارد وقائل فى جميع المسائل وجميع ضروب الأصول المعلومة للخاصة والعامة . فمن ارتشف رشفات عجلى خاطفة من علوم الفلسفة العابثة ـ هب يجتهد فى أصول الاسلام ويتحكم فيها ، ويؤولها تحريفا وإفساداً ، وينزلها على ما اختطف من هذه الفلسفة الثاوية . فخالف الأصول والقواعد والعقائد التى هى أصل الدعوة الاسلامية ، وخرج على الاجماع وعلى الكتاب والسنة وعلى سنن المسلمين فى جميع العصور الاسلامية الذهبية ، ومن انغمس فى الصوفية البوذية البرهمية الاتحادية وابتل بمائها وبحماها الماذية المازلة راح يهذو فى ذات الله وفى صفاته ودينه وشرعه ، وفى الأنبياء والملائكة وفى الكتب المقدسة وراح يبعث الكلمات الملحدة الفاسقة الكافرة ، وراح يدعى دعاوى الكافرين الملحدين ، ويقول أقاويل الغاوين المنكرين . فخالف الاجماع وخالف أصول الاسلام

وخالف الكتاب والسنة وما اتفق عليه المسلمون فى جميع العصور ، وذهب يقدح فى المسلمين وفى الأنبياء والمرسلين ونفض هو الدين ووداءه من على كتفيه فأصبح إمام المارقين المتجردين ، بل وراح يدعى فى نفسه الألوهية والربوبية والنبوة أن تواضع ، فصار رأساً فى كل ضلالة وفى كل حماقة وفى كل بلية ، ومن شام برق المعرفة والعلم ولم يرد ، وقصدت به نفسه وحاله عن البلوغ والورود راح يحاول الاجتهاد فى كتاب الله وفى سنة رسول الله وفى اللغة وفى وسائل ذلك كله ، وهو لم يملك وسيلة واحدة من تلك الوسائل الأولية ، فعبث بالكتاب وبالسنة وباللغة وبكل شيء . فخالف الاجماع والأصول والعقائد الأولية ، فصار هو بدعة سيئة فى الدين وفى الأمة وفى اللغة . وفى سبيل الشيطان ما لقى الاسلام والمسلمون من بلاء هذا الفريق

فهذان الطرفان المتقابلان طرفان مذمومان مخالفان للشرع والعقل ولاجماع المسلمين قبل أن يلامس عقائدهم وعقولهم هذا الضعف والفساد ، وذلك الانحطاط الشنيع

وأما ذلك الفريق الوسط المعتدل الواقع بين هاتين المنطقتين الحارة جداً والقارة جداً ، فهو الفريق الذى لا يفرط إفراط هؤلاء ، ولا يفرّط تفريط أولئك بل يقول ان القصد كله هو معرفة حكم الله وحكم رسوله ﷺ وسنة المسلمين العملية العلمية فى عصور الاسلام الفتية . فهذا هو ما يراد معرفته والعلم به لأن الدين لله ومن الله واليه وحده يرجع ، فالمسلم واجب عليه أولا أن يعرف كتاب الله وما جاء فيه من الهدى والنور وأن يعرف سنة رسوله ﷺ وما جاء فيها من الهدى والنور وأن يعرف ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المصطفين . فما عرفه من ذلك بوسائله اللازمة الصحيحة وجب عليه الاستمساك به والعزوف عما خالفه من الآراء والأقوال والأعمال ، لأنه لا غاية للمسلم وراء

الله ووراء رسوله المبلغ عن الله ، ولأن ذلك هو قول علماء الاسلام الهداة كافة ، ولأن ذلك هو ما أنزل لأجله كتاب الله وسنة رسوله وجعله باقيا محفوظا الى قيام الساعة للرجوع الى الله للجزاء من ثواب وعقاب ، ولكن اذا كان المرء المسلم عاجزاً عن معرفة دليل مسألة من شرع الله من الكتاب والسنة ، وعاجزاً عن الاستقلال واستخراج البراهين من النصوص ودار الأمر بين أن يعمل برأيه هو واجتهاده ، وبين رأى امام كبير من أئمة الاسلام واجتهاده اختار رأي ذلك الامام على رأيه هو واجتهاده ، وأحسن الظن بذلك الامام المعروف بالعلم والدين قبل أن يحسن الظن بنفسه وباجتهاده هو ، لأن المسألة حينئذ مسألة رأي واجتهاد لا مسألة برهان وحجة ، والمسلم الصحيح هو من لا يأخذ الغرور بيديه ، فلا يفضل دينه وعلمه وعقله على عقل امام من أئمة الاسلام الهداة وعلى دينه وعلمه . أما اذا وضح له البرهان من الكتاب والسنة فليس بجائز له ترك هذا البرهان الشرعى تعللا بالتقليد وباتباع فلان أوفلان . فان الذي يفعل ذلك يكون مخالفاً للاسلام والكتاب والسنة وللامام الذى زعم تقليده ، يزعم أنه ترك الكتاب والسنة اعتلالا بالتقليد له . وذلك أن أئمة الاسلام جميعا ولا سيما الصدر الأول ومنهم الأئمة الأربعة كانوا يمقتون مثل هذا التقليد أشد المقت ، وينهون عنه أشد النهى ولا يرتضونه للمسلم أبداً . بل لقد جاء عنهم جميعاً النهى عن التقليد واتباع الرجل ما لم يعرف دليله وحجته . وكل واحد منهم قال اذا صح الحديث فهو مذهبي ، وقال قائلهم اذا خالف الحديث قولي فاضربوا بقولي الحائط ، وقال الآخر : لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا غيرهما وانظر من حيث أخذوا وخذ . وهذا المعنى متواتر عن الأئمة

فمن ترك النصوص الواضحة تقليداً لامام فقد خالف الدين وخالف ذلك الامام وفاته التقليد الذى ترك النصوص له ، لأنه لو كان مقلداً لذلك الامام تقليداً عاقلا لما خالفه فى أمره بالأخذ بالدليل والنهى عن التقليد مع وضوح الحجة وظهورها .

فهؤلاء لا مقلدون ولا مجتهدون ولا متبعون فماذا يصنعون ؟؟

وهؤلاء الجامدون على هـذا التقليد يتعللون بعلل واهية فى تركهم النصوص الواضحة المخالفة لمن زعموا تقليده ، مثل قولهم : لعل هذا النص منسوخ ، ولعله ضعيف ، ولعله متروك الظاهر ، ولعله مخصوص . ومثل قولهم : ان الكتاب والسنة عربيان ونحن لا نعرف اللغة العربية ، فان فى اللغة المجاز والحقيقة والتورية والكناية وأنواع المجازات ، ونحن لا نعرف هذا كله ويخفى علينا الشىء الكثير منه . يتعللون بهذه العلل فى هجران النصوص ، وما علموا أن هذه الايرادات ترد على كلام الامام الذين زعموا الاستمساك بتقليده واتباعه وعلى كل المؤلفين الذين ينقلون لهم مذهب ذلك الامام . فان كلام الأئمة لا يخلو أيضا من المجازات والكناية والاستعاره وضروب البلاغة ، فهذه الأمور الموجودة فى كلام الله وكلام رسوله موجودة بشكل قد يكون أخفى وأغمض فى كلام الأئمة ومن يقلدونهم ، وكذلك يوجد المنسوخ والمخصوص فى كلام الأئمة . ويراد بالمنسوخ هنا الرأى المرجوع عنه . وقد عرف كثيراً أن الامام من الأئمة يقول القول ، ويفتى الفتوى ، ويرى الرأي استناداً الى دلائل مخصوصة ثم تبدو له دلائل أخرى ومعارضات غير تلك فيرجع عن ذلك الرأي والقول وتلك الفتوى الى رأي آخر وفتوى أخرى اعتمادا على الدلائل الاخرى ، فيكون الرأى الأول منسوخا أى مرجوعا عنه . ولهذا قد ينقل عن الامام الواحد فى المسألة الواحدة مذاهب متعددة ، ويوجد لبعض الأئمة الكبار ما يسمى بالمذهب القديم والمذهب الجديد ، أي المذهب المرجوع عنه والمرجوع إليه

فان كان مثل هذه الايرادات تقضى بالاعراض عن الأخذ من الكتاب والسنة ومحاولة فهمهما قضت هى نفسها بوجوب الاعراض أيضا عن كلام الأئمة وكتبهم والاعراض عن محاولة الفهم لما كتبوا وقالوا ، لأن هذه الايرادات ترد على كلام

الأئمة وكتبهم ولاسيما الفصحاء القدماء منهم مثل الامام الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد . وهذا لا يقبله المخالفون أنفسهم . فما كان مثله فهو مثله في الحكم ، فهذه الشبهات التي تردد وتقال لمن دعا الى الكتاب والسنة الواضحة شبهات داحضة لأنها لو صحت لامتنع العمل بالكتاب والسنة وبأقوال الأئمة أيضا ، وهذا لا يصير اليه أحد ، لانه وسيلة الى باطل بالاجماع والضرورة ، وإذن لا مفر من وجوب العمل بما دلت عليه السنة الصحيحة وبما دل عليه كتاب الله وإن خالف ذلك ما جاء عن الامام المقلد ، لان الامام مهما كان ليس معصوما . والعصمة لكتاب الله ولسنة رسوله فقط . أما إذا لم يكن هنالك دليل صريح صحيح من الكتاب والسنة ودار الامر بين رأى المرء ورأى الامام حسن المصير الى رأى الامام واجتهاده لدينا . هذه هي الخطة الوسطى المثلى القصية عن الافراط والتفريط ، وهذا قول أهل السنة من أهل نجد وغيرهم ، وهذا قول المحققين من علمائهم قديما وحديثا ، وهذه هي خطة فحول علماء المذاهب الاربعة وكبارهم فانهم يأخذون برأى الامام ويفتون به ويحكمونه مع احترام الكتاب والسنة ومحاولة فهمهما واستخراج الدلائل منهما ، فاذا ما عنت لهم سنة أو آية مخالفة لما صح عن الامام ، والامام إنسان يخطىء ويصيب ، كما يعلمون لم يعدلوا عن الكتاب والسنة ، ولم يبغوا عنهما مذهبا ولا بهما بدلا ، بل حكموهما وأفتوا بهما وقالوا : إن هذا هو مذهب إمامنا بمقتضى القاعدة التي وضعها بقوله : اذا صح الحديث فاشهدوا أنه مذهبي ، فوافقوا بهذا الكتاب والسنة وإجماع أهل البصر بالدين ، ووافقوا امامهم القائل اذا صح الحديث فهو مذهبي . فجمعوا بذلك بين أشتات الحق ومفاريده ، وما من مذهب من المذاهب الاربعة وغيرها الا وعلماؤه الفضلاء المحققون يسلكون هذا المسلك ، وينهجون هذا المنهاج المستقيم . ولهذا يوجد في المسألة الواحدة في المذهب الواحد الآراء المختلفة ، منها رأى الامام نفسه ، ومنها رأى أصحاب الامام أو بعض أصحابه ،

فيقال هذه المسئلة قال فيها الامام كذا وقال فيها صاحبه فلان ، أو صاحباه فلان وفلان كذا وكذا ، فجاء فلان من المتأخرين فرجح رأى الامام على آراء الاصحاب أو فرجح آراء الاصحاب على رأى الامام نفسه ويقولون في هذه المسألة رأي لأحد أصحاب الامام الشافعى أو أصحاب الامام مالك أو أصحاب الامام أحمد أو الامام أبى حنيفة . ويقسمون المجتهدين قسمين : قسم هو المجتهد المطلق كالأئمة الأربعة ، وقسم هو مجتهد المذهب . وهؤلاء هم من دون القسم الأول . ويقسمون الاجتهاد نفسه قسمين : اجتهادا مطلقا عاما واجتهادا خاصا فى بعض المسائل دون بعض . وهذا مايسمى بتجزئة الاجتهاد ، وهو الاجتهاد فى بعض الامور دون بعض . وهذا يجيزه جماهير من علماء المذاهب والأصول . وهذا مدون فى كتب أصول الفقه . وتجزئة الاجتهاد معقولة ومنقولة لاريب فى جوازها وصحتها . وهذا مايقوله علماء نجد وغيرهم من أهل السنة والجماعة . وهذا ما كان عليه السلف الصالح فى كل زمان ومكان . فهل الرافضي يريد بما قاله هنا مدحهم أو القدح فيهم ؟

أما الشيعة فانهم يجتهدون ذلك الاجتهاد المتهور الماذى ، الذى لايتقيد بكتاب ولا سنة ولا لغة ولا معقول ولا اجماع ولا ضرورة ، ويفخرون بهذا النوع من الاجتهاد ، ويزهون به على أهل السنة ، ويدعون . علماءهم بالمجتهدين ، والعالم منهم بكبير مجتهدى الشيعة ، وبالمجتهد الأكبر ، وأمثال هذه الألقاب المتصمية الأندلسية وقد أرينا القارىء أفانين من هذه الاجتهادات الرافضية ، ونماذج من اجتهادات صاحب هذا الكتاب أحد كبار مجتهدي الرافضة فى هذا العصر . ولعمر الله ان التقليد الأعمى الأصم الابكم لخير من هذه الاجتهادات وأفضل عند الله وعند عباده . وإن اجتهادا واحداً من هذه الاجتهادات لشر من تقليد البهائم السائمة

وأما طريقة أهل السنة من النجديين الذين يحاول الرد عليهم صاحب هذه الاجتهادات ، فانها طريقة لايمكن أن يعيبها الا جاهل بها أو بالدين والنظر أوبهما معا أو صاحب هوى قاسر قاهر . وهذا الرافضى يحاول بجهده وبكل طاقته أن يجمع لهم زلات واغلوطات يستطيع بها مس سمعتهم وإيذاء عقائدهم ، فما استطاع أن يفعل سوى أن يعد عليهم انكارهم هذا الضلال المنكر الفاشى الذي سوف نقوضه بهذا الكتاب . وسوف نبين ان شاء الله أن جميع ماقالوا فى هذا الباب صواب بلا غلط ، وحق بلا باطل ، ويقين بلا شك . والله بكل شيء محيط وهو من وراء كل قصد

الاستواء على العرش واثبات صفات الله

ثم هجم هذا الرافضي ثانيا على هذه المسألة الخطيرة وقال ماخلاصته :

« إن الوهابيين وامامهم ابن تيمية قد اباحوا حمى التوحيد ونسبوا الى الله مالا يليق . فأثبتوا له جهة الفوق والاستواء على العرش والنزول الى سماء الدنيا والمجيء والقرب . وغير ذلك من الصفات كالوجه واليدين والأصابع والعينين والمحبة والرضا والغضب ، وأنه يتكلم بحرف وصوت ، فجعلوه محلا للحوادث ، وأثبتوا هذه الصفات كلها وغيرها لله بمعانيها الحقيقية من دون تأويل . وهذا تجسيم صريح

« أما ابن تيمية فقال بالجهة والتجسيم والاستواء على العرش حقيقة . وأنه تعالى يتكلم بحرف وصوت ، وهو أول من زقا بهذا القول وتبعه تلاميذه ، وقد حكم علماء عصره بكفره وألزموا السلطان قتله أو حبسه فحبس ومات محبوسا

« ونحن ننقل ما حكوه عنه فى ذلك . وما قالوه فيه لتعلم قيمة ابن تيمية عند العلماء » وهنا نقل بعض المقادح فيه عن ابن حجر الهيتمى المكى وما ذكره

الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه « الدرر الكامنة » من مقادح الخصوم فيه ، وما ذكره بعض الغلاة من المتأخرين . . والمقادح التي نقلها تنحصر في أمرين أحدهما كذب وبهتان مبين ، والآخر صحيح ، ولكن الحق هو ما قاله كما سوف ترى . أما الأمر الذي هو كذب فهو ما ذكر من أن ابن تيمية كان يسعى للامامة الكبرى ويضمر هذا في قلبه ، وإنه كان لهذا يتتبع أخبار ابن التومرت ويتمدحه ، وماذكر من أنه كان يقدح في الخلفاء من الصحابة ، وأنه كان يقول ان عثمان كان يحب المال ، وأن عليا كان مخذولا حيثما توجه ، وأنه كان يقاتل للرئاسة والملك لا للدين ، وأنه أسلم صبياً ، والصبي لا يصح اسلامه ، وأنه كان يبغض عليا ، وأنه قدح في أهل البيت . وكذا ما ذكر من أنه كان يقول إن الله جسم وأنه في جهة . هذا أحد نوعي المقادح . وهذا كله كذب صحيح صريح . وأما الأمر الآخر من المقادح فهو ما ذكر من أنه كان يقول ان الله مستو على العرش ، وأنه فوق المخلوقات ، وأنه يقر لله سائر الصفات الواردة في النصوص الصحيحة ، وأن الله يتكلم بحرف وصوت . فهذا كله صحيح عن ابن تيمية . هذا خلاصة ماذكره من المقادح في هذا الامام . وبعد هذا قال : « وقد اقتفى محمد ابن عبد الوهاب وأتباعه آثار ابن تيمية فأثبتوا لله الجهة والجسم واليدين والأصابع واستدلوا بالآيات والأحاديث في ذلك . ومن هذه الدلائل أن حبراً من أحبار اليهود جاء إلى رسول الله فقال: إنا نجد أن الله يجعل السموات على اصبع والأرض على اصبع وسائر الخلق على اصبع ، فيقول أنا الملك ، فضحك النبي عليه السلام حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر اليهودي ، ونزلت الآية « وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه » . وهذا خطأ فان ضحك النبي ليس تصديقاً لقول اليهودي بل تكذيب وتعجب منه » واثبات هذه الصفات الاستواء على العرش وإثبات المحبة والرحمة والرضا

والغضب واليدين والأصابع هو عين التجسيم الذي أجمع المسلمون على كفر معتقده لاستلزامه التركيب والتحيز والوجود فى جهة ، ويلزم من اثبات المحبة والرضا والغضب والرحمة بمعانيها الحقيقية ، وهى ميل القلب ورقته وهيجان النفس وعدم هيجانها ، كونه محلا للحوادث الموجب حدوثه

« والقول بالاستواء يلزمه أحد أمرين : التجسيم أو القول بالمحال ، وكلاهما محال . لأن حصول حقيقة الاستواء مع عدم الكيف محال بحكم العقل ومع الكيف تجسيم فلا بد من التأويل والمجاز

« ومن هذا تعلم أن ما يروى عن الامام مالك من قوله : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » كذب لا يكاد يصح . وذلك أنه ان أراد أنه معلوم بمعناه الحقيقى فهو ممنوع بل عدمه معلوم لاستحالة الجسمية على الله ، واستحالة الاستواء الحقيقى بدون الجسمية ، وإن أراد أنه معلوم بالمعنى المجازى فلا يصلح شاهداً لقوله تثبت حقيقة الاستواء ، ولا يكون السؤال عنه حينئذ بدعة ، ولا يلزم الكيف حتى يقال انه مجهول ، وإن أراد أننا نؤمن به على حسب ما أراده الله وان لم نعلمه تفصيلا ، فان كان يحتمل أنه أراد حقيقة الاستواء ففاسد لما عرفت وان كان الترديد بين المعانى المجازية فقط فأين حقيقة الاستواء التى أثبتناها ؟

« واذا كان ما قال الامام مالك حجة عند هؤلاء فلمَ لم يقولوا ان الراجح استقبال القبر الشريف والتوسل بصاحبه عند الدعاء حسبما أمر به مالك المنصور ؟

« والجحود للحقيقة والاقرار بها حكم عليها والحكم على الشيء فرع معرفته ، فيلزم أولا أن نعرف ما أريد بهذا اللفظ هل هو معناه الحقيقى أو المجازى لنعرف ما وصف به نفسه فنقر به . وإذا كان المعنى الحقيقى يستحيل إرادته فلا يكون مما وصف به نفسه ، فلا يكون جحوده كفراً . وما أشبه هذا بقول النصارى فى الابن والأب وروح القدس . والأمر الذى يكون فوق العقل لا يمكن للعقل الاذعان به »

هذا خلاصة ما ذكره الرافضي هنا ، ويعلم الله وحده ما فى هذا الكلام من الهوى والخلط والاصطدام بالحقائق الخالدة . وسوف نذكر من هذا ضروبا كثيرة والكلام عليه من وجوه :

التشبيه

(أولا)

يقال ان الذين أباحوا حمى التوحيد وهتكوه ونسفوه وأضافوا الى الله مالا يليق بقدسه وجلاله وكماله من التشبيه والتمثيل هم طائفة الشيعة لا غيرهم ، وهم شيوخ هذا الرجل ، لا من يحاول الرد عليهم كابن تيمية وتلاميذه الأبرار ، ولا خلاف بين علماء الملل والنحل أن التشبيه والتمثيل ، تمثيل الله بخلقه ، لم يوجدا فى طائفة من الطوائف المنحرفة مثلما وجدا فى طائفة الرافضة ، ولا خلاف بين علماء الملل والنحل أن التشبيه أول ما دخل على الطوائف الدائنة للاسلام انما دخل عليها من شطر الرافضة وجانب شيوخها القدامى ، ولا خلاف أيضاً أن التشبيه كان أصلا ووضعاً فى طوائف الشيعة وشيوخها وواضعة مذهبها وبناة نحلتها كما سوف ترى هذا منقولا عن الكاتبين فى الملل والنحل . وتأويل هذا ووجهه أن واضع مذهب الشيعة هو رجل يهودى وهو عبد الله بن سبأ الصنعانى ، كما ذكر مرارا . واليهود هم أهل التشبيه والتنقص لله جل وعلا فهم يضيفون اليه تعالى من التشبيه والتمثيل أقله وأرذله فيزعمون أن الله يبكى وأنه يحزن ويتعب ، وأنه يستريح وأنه فقير وهم أغنياء كما فى القرآن ، وأن يده مغلولة ، غلت أيديهم . فادخل هذا اليهودى المتشيع هذه العقيدة اليهودية وهذا التنقص اليهودي فى مذهب الشيعة وعقائدها كما قال الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل وكما قال غيره . ثم ابتدعت طوائف الشيعة بدعا منكرة مخزية أخرى ، وقاسوا على ما نقل اليهم من اليهود وزادوا وأضافوا وابتكروا

واخترعوا ، حتى فرست الشيعة اليهود فى هـذا النقص الذى هو التشبيه والقدح فى الله

فاليهود وضعوا لهم البذور وفيهم كان النبات والنمو والربح الذي هو خسران . ونحن لا نقول هذا اجتهاداً من عند أنفسنا ، ولا استخراجا من دلائل غامضة معماة ولا نقلا عن الوهابيين الذين تطيب لهذا الرجل مخاصمتهم ، ويطيب له أن يدعى عليهم هذه الدعاوى . ولكننا ننقل عمن اتفقت كلمة الناس على أنهم لا هوى لهم فى القدح فى الشيعة والذم لمذهبهم وعن علماء ثقات أثبات اتفقت كلمة الناس على صدقهم ودينهم ، وعلى إرادتهم الحق والصدق ، وعن علماء شرطوا على أنفسهم مثل الشهرستانى ألا يعدوا على طائفة مذهبا لها الا ما وجدوه فى كتبها المعروفة

قال الشهرستانى فى باب مذاهب الشيعة : « ومنهم الغالية ، وهم الذين غلوا فى حق أئمتهم وأخرجوهم من حدود الخلقية ، وحكموا فيهم بأحكام الألوهية . فربما شبهوا واحداً من الأئمة بالاله وربما شبهوا الاله بالخلق ، وهم على طرفى الغلو والتقصير . وانما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية ، ومذاهب التناسخية ، ومذاهب اليهود والنصارى . إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق ، والنصارى شبهت الخلق بالخالق . فسرت هذه الشبهات فى أذهان الشيعة الغلاة ، حتى حكمت بأحكام إلهيـة في حق بعض الأئمة ، وكان التشبيه بالأصل والوضع فى الشيعة ، وانما عاد الى بعض أهل السنة بعد ذلك ومنهم الكاملية . ومذهبهم أن الله قائم بكل مكان ، ناطق بكل لسان ، ظاهر بشخص من أشخاص البشر ، وذلك معنى الحلول . وقد يكون الحلول بجزء وقد يكون بكل . أما الحلول بجزء فهو كاشراق الشمس فى كوة ، أو كاشراقها على البلاد ، وأما الحلول بكل فهو كظهور ملك فى شخص ، أو كشيطان بحيوان

« ومنهم المغيرية أصحاب المغيرة بن سعيد العجلى . غلا فى حق على رضى الله عنه غلواً لا يعتقده عاقل ، وزاد على ذلك قوله بالتشبيه ، وقال ان الله صورة وجسم

ذو أعضاء على حروف الهجاء ، وصورته صورة رجل من نور على رأسه تاج من نور ، وله قلب تنبع منه الحكمة . وزعم أن الله لما أراد خلق العالم تكلم بالاسم الأعظم فطار فوقع على رأسه تاجا . قال وذلك قول الله « سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى » ثم اطلع على أعمال العباد وقد كتبها على كفه فغضب من المعاصي فعرق فاجتمع من عرقه بحران ، أحدهما مالح ، والآخر عذب ، والمالح مظلم والعذب نير . فاطلع في البحر النير فأبصر ظله فانتزع عين ظله فخلق منها الشمس والقمر وأفنى باقي ظله ، وقال لا ينبغي أن يكون معي إله غيري

« ومنهم المنصورية أصحاب أبي منصور العجلي ، زعم أنه عرج به الى السماء ورأى معبوده فمسح بيده رأسه وقال : يابني انزل وبلغ عني

« ومنهم الخطابية أصحاب أبي الخطاب . زعم أن جعفراً هو الاله في زمانه ، وليس هو المحسوس الذي يرونه ، ولكن لما نزل هذا العالم لبس هذه الصورة فرآه الناس فيها . وقد قتل لهذه الدعوى

« ومنهم الهشامية أصحاب هشام بن الحكم صاحب المقالة في التشبيه ، وهشام الجواليقي الذى نسج على منواله في التشبيه . حكى ابن الراوندى عن هشام أنه قال ان بين معبوده وبين الأجسام تشابها ما بوجه من الوجوه ولولا ذلك لما دلت عليه وحكى الكعبي عنه أنه قال هو جسم ذو أبعاض، له قدر من الأقدار ولكن لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ونقل عنه أنه قال هو سبعة أشبار بشبر نفسه ، وأنه في مكان مخصوص وجهة مخصوصة ، وأنه يتحرك وحركته فعله ، وليست من مكان الى مكان ، وأنه متناه بالذات غير متناه بالقدرة . وحكى عنه أبو عيسى الوراق أنه قال : ان الله تعالى مماس لعرشه لا يفضل منه شيء من العرش ، ولا يفضل عن العرش شيء منه . وقال هشام بن سالم الجواليقي ان الله على صورة انسان أعلاه مجوف ، وأسفله مصمت ، وهو نور ساطع يتلألأ ، وله حواس خمس ويد ورجل

وأنف وأذن وعين وفم ، وله وفرة سوداء ، وهو نور أسود ، ولكنه ليس لحما ولا دما . ونقل عنه أنه أجاز المعصية على الأنبياء مع قوله بعصمة الأئمة ، ويفرق بينهما وغلا هشام بن الحكم فى حق على رضى الله عنه حتى قال انه إله واجب الطاعة

« ومنهم النعمانية أصحاب محمد بن النعمان ، وافق هشام بن الحكم فى أن الله لايعلم شيئا حتى يكون ، وقال : ان الله على صورة انسان . ويأبى أن يكون جسما ، ولكن قال قد ورد فى الخبر أن الله خلق آدم على صورته وعلى صورة الرحمن فلابد من تصديق الخبر

« ومنهم اليونسية أصحاب يونس بن عبد الرحمن القمى . زعم أن الملائكة تحمل العرش وأن العرش يحمل الله ، وهو من مشبهة الشيعة ، وقد صنف لهم كتباً فى هذا

« ومنهم طائفة النصيرية والاسحاقية ، وبينهم خلاف فى إطلاق اسم الالهية على الأئمة ، قالوا ظهور الروحانى بالجسد الجثمانى أمر لاينكره عاقل . اما فى جانب الخير فكظهور جبريل ببعض الأشخاص والتصور بصورة أعرابى والتمثل بصورة البشر . وأما فى جانب الشر فكظهور الشيطان بصورة الانسان حتى يعمل الشر بصورته ، وظهور الجن بصورة بشر ، حتى يتكلم بلسانه ، وكذلك نقول ان الله ظهر بصورة أشخاص ، ولما لم يكن بعد رسول الله من هو أفضل من على بن أبى طالب وبعده أولاده المخصوصون وهم خير البرية ظهر الحق بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم وعن هذا أطلقنا اسم الالهية عليهم . وانما أثبتنا هذا الاختصاص لعلى دون غيره لأنه كان مخصوصاً بتأييد من عند الله مما يتعلق بباطن الأسرار . قال النبى ﷺ : أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر . وعن هذا كان قتال المشركين الى النبى وقتال المنافقين الى على . وعن هذا شبهه بعيسى بن مريم ، وقال لولا أن يقول الناس ما قالوا فى عيسى بن مريم لقلت فيك مقالا ،

وربما أثبتوا له شركة فى الرسالة ، وقلع باب خيبر لا بقوة حيوانية من أدل الدلائل على أن فيه جزءاً إلهيا وقوة ربانية ، أو يكون هو الذى ظهر الاله بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . وعن هذا قالوا كان هو موجوداً قبل خلق السموات والأرض وقال كنا ظلة عن يمين العرش فسبحنا فسبحت الملائكة بتسبيحنا . والنصيرية أميل الى تقرير الجزء الالهى والاسحاقية أميل الى تقرير الشركة فى النبوة »

ذكر هذا كله الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل وقد ذكر غير هذا تركنا نقله ، وقد ذكر كثيراً من هذا ابن حزم فى كتابه الملل والنحل ، وكذلك ذكره المقريزي فى الجزء الرابع من الخطط ، وذكره جميع من كتبوا فى مقالات المسلمين ولا يختلفون فى نقل هذا عن الشيعة لأنه متواتر عنهم مثل تواتر قولهم فى الامامة وفى الصحابة وفى عصمة الأئمة قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب منهاج السنة قد اتفق على نقل هذا عن الشيعة حتى الشيعة نفسها تنقل هذا كابن النوبختى وغيره منهم . قال الأشعرى فى كتابه مقالات الاسلاميين : « اختلف الرافضة أصحاب الامامة فى التجسيم ، وهم ست فرق الفرقة الأولى الهشامية أصحاب هشام بن الحكم الرافضي يزعمون أن معبودهم جسم وله نهاية وحد طويل عريض عميق طوله مثل عرضه وعرضه مثل عمقه لايوفى بعضه عن بعض ، وزعموا أنه نور ساطع له قدر من الأقدار فى مكان دون مكان كالسبيكة الصافية ، يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها . ذو لون وطعم ورائحة ومجسة ، والفرقة الثانية من الرافضة يزعمون أن معبودهم ليس بصورة ولا كالأجسام ، وانما يذهبون فى قولهم إنه جسم الى أنه موجود ولا يثبتون البارى ذا أجزاء مؤتلفة وابعاض متلاصقة ويزعمون أن الله مستوٍ على العرش بلا كيف ولا مماسة ، والفرقة الثالثة من الرافضة يزعمون أن ربهم على صورة الانسان ويمنعون أن يكون جسما ، والفرقة الرابعة من الرافضة الهشامية أصحاب هشام بن سالم الجواليقى يزعمون أن ربهم على

صورة الانسان ، وينكرون أن يكون لحماً ودما ، ويقولون انه نور ساطع يتلألأ بياضا ، وانه ذو حواس خمس كحواس الانسان . له يد ورجل وأنف وأذن وفم وعين ، وأنه يسمع بغير مايه يبصر ، وكذا حواسه كلها متقاربة عندهم . وحكى أبو عيسى الوراق عن هشام هذا أنه كان يزعم أن لربه وفرة سوداء ، وأن ذلك نور أسود ، والفرقة الخامسة يزعمون أن لله ضياء خالصاً ونوراً بحتاً وهو كالمصباح من حيث ماجئته يلقاك بنور ، وليس بذي صورة ولا أعضاء ولا اختلاف فى الأجزاء ، وأنكروا أن يكون على صورة الانسان أو على صورة شيء من الحيوان . والفرقة السادسة يزعمون أن ربهم ليس بجسم ولا بصورة ولا يشبه الأشياء ولا يتحرك ولا يسكن ولا يماس

« واختلفت الرافضة فى حملة العرش . أيحملونه أم يحملون الله ! وهم فرقتان فرقة يقال لها اليونسية أصحاب يونس بن عبد الرحمن القمى يزعمون أن الحملة يحملون البارى ، واحتج يونس أن الحملة تطيق حمله وشبههم بالكركى وأن رجليه تحملانه وهما دقيقتان ، وقالت فرقة أخرى إن الحملة تحمل العرش ، والباري يستحيل أن يكون محمولا » انتهى كلام الأشعرى

وهذه النقول متواترة عن الرافضة وطوائفها ، ولأجل انحراف القوم الى التشبيه وانصبابه فى نفوسهم وعقائدهم انصبابا قالوا ماقالوا من العقائد والأقاويل الباطلة فى الله وفى الأئمة . فزعم مبتكر مذهبهم وأصحابه أن الله حالّ فى على وفى ذريته ، فزعموه آلها وزعموهم آلهة ، وقالوا له أنت الله أنت خالقنا ورازقنا ! وعن هذا التشبيه ألهوا الأئمة وعبدوهم فى كل عصر ومصر . فهم أكثر الناس بلا خلاف تشبيهاً وتنقصاً لرب العالمين . فمذهب الرافضة قائم أصالة على رفع المخلوق وخفض الخالق ، وعلى تنقص الله فى سبيل إعظام عباده ، وعلى هذا الأساس ألف هذا الشيعى كتابه هذا وسلك هذا المسلك ، ومن العجب أن الشيعة قد جمعوا

بين رذيلتى التعطيل والتمثيل ، ورذيلتى التشبيه والجحود . فطوائف منهم كما رأيت يقولون هذه الأقوال المنكرة في الله ، ويضيفون الى قدسه وكماله هذه النقائص ويشبهونه هذا التشبيه المخزى ، ويمثلون خلقه به ويمثلونه بخلقه هذا التمثيل المردى وطوائف أخرى منهم يذهبون الى نقيض هذا المذهب ، ويقولون نقيض هذه الأقاويل فيغلون فى التجريد والتعطيل ، فيجردونه من الأوصاف ومن صفات الكمال خوف التشبيه كما يزعمون . فينكرون جميع الصفات ويجحدون ما علم بالضرورة عقلا وشرعاً من أوصاف الله ، ويجردونه تجريداً لا يقبله العقل ولا الدين . حتى انهم يرفعون عنه النقيضين فى وقت واحد . فيقولون إن الله لا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، ولا موجود ولا معـدوم . ويقولون لا يصح أن يقال انه حى ولا أنه ميت ، ولا أنه كبير ولا أنه صغير ، ولا أنه موجود ولا أنه معدوم ، ولا أنه قادر ولا أنه عاجز ، ولا أنه خالق ولا أنه غير خالق ، ولا أنه مريد ولا أنه غير مريد . أى انهم لا يصفونه بالنفى ولا بالاثبات . وهـذا باطل بداهة عند جميع الخلائق العقلاء ، لأنهم لو وصفوه بصفة من هـذه الصفات كما يزعمون لكان مثل خلقه الذين يوصفون بها ، ولو جردوه من هذه الصفات لقام به ضدها ، وهـذا محال فلا يصح حينئذ النفى ولا الاثبات ، ولا وصفه بصفة ولا بضدها ، وهذا معلوم عنهم ، وقد ذكره الشهرستانى وغيره كالمقريزى فى خططه عن طائفة الاسماعيلية منهم ومن هذه الطائفة كانت دولة الفاطميين

وليعلم أن هذا الشيعى صاحب هذا الكتاب من المدافعين عن الفاطميين كما سوف يجىء ، قال الشهرستانى فى هذه الطائفة : « ووضعوا كتبهم على منهاج الفلاسفة ، فقالوا فى البارى لانقول موجود ولا لاموجود ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، وكذلك جميع الصفات ، فان الاثبات الحقيقى يقتضى شركة بينه وبين سائر الموجودات في الجهة التى أطلقنا عليها وذلك تشبيه ، فلم يمكن الحكم

بالاثبات المطلق ولا النفي المطلق ، بل هو اله المتقابلين ، وخالق الخصمين والحاكم بين المتضادين ، وينقلون هذا عن محمد بن على الباقر وأنه قال لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو قادر وعالم ، بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة ، أو وصف بالعلم والقدرة . فقيل فيهم انهم نفاة الصفات حقيقة ، معطلة الذات عن جميع الصفات . وكذلك نقول فى القدم إنه ليس بقديم ولا محدث ، بل القديم أمره وكلمته والمحدث خلقه وفطرته »

هذا مانقله الشهرستانى ، وقد ذكره عنهم وعن الفاطميين المقريزى فى خططه وذكره غيرهما من المؤلفين فى هذا الباب ، وقد ذهبت طوائف منهم الى أشنع من هذا وأقبح فزعموا أن الله خلق صفاته كالعلم والارادة بعد أن كانت معدومة .
قال الأشعرى « اختلفت الرافضة فى القول بأن الله عالم وقادر وسميع و بصير وهم تسع فرق : فالفرقة الأولى منهم الزرارية أصحاب زرارة بن أعين الرافضي يزعمون أن الله لم يزل غير سميع ولا عليم ولا بصير حتى خلق ذلك لنفسه . والفرقة الثانية السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ ، يقفون فى هذه المعانى ، ويزعمون أن القول فيها ما يقول جعفر كائنا قوله ما كان ، ولا يعرفون هذه الأشياء قولا . والفرقة الرابعة يزعمون أن الله لم يزل لا حياً ثم صار حياً . والفرقة الخامسة وهم أصحاب شيطان الطاق يزعمون أن الله عالم بنفسه وليس بجاهل ، ولكنه انما يعلم الأشياء اذاقدرها وأرادها ، فأما قبل أن يقدرها ويريدها فمحال أن يعلمها ، لا لأنه ليس بعالم ولكن الشيء لايكون شيئا حتى يقدره والتقدير عندهم الارادة . والفرقة السادسة أصحاب هشام بن الحكم يزعمون أنه محال أن يكون الله لم يزل عالما بالأشياء بنفسه وأنه انما يعلم الأشياء بعد أن لم يكن عالما بها ، وأن العلم صفة ليس هو هو ولا هى غيره ولا بعضه ، فلا يجوز أن يقال العلم محدث أو قديم ، لأن العلم صفة والصفة لا توصف . ولو كان لم يزل عالما لكانت المعلومات لم تزل لأنه لايصح عالم إلا

بمعلوم موجود ، ولو كان عالما بما يفعله عباده لم تصح المحنة والاختيار . وقال هشام في سائر صفات الله كقدرته وحياته وسمعه وبصره وإرادته انها صفات الله لا هي الله ولا غير الله ، وقد اختلف عنه في القدرة والحياة فنهم من يحكي عنه أنه كان يقول : ان الله لم يزل قادراً حياً ، ومنهم من ينكر أن يكون قال ذلك . والفرقة السابعة من الرافضة يزعمون أن الله عالم بنفسه كما قال شيطان الطاق ، ولكنهم يزعمون أن الله لا يعلم الشيء حتى يؤثر فيه أثره والتأثير عندهم الارادة . فاذا أراد الشيء علمه و اذا لم يرده لم يعلمه ، ومعنى أراد عندهم أنه يتحرك حركة هي ارادة فاذا تحرك علم الشيء وإلا لم يجز وصفه بأنه عالم . و الفرقة الثامنة يزعمون أن معنى أن الله يعلم أنه يفعل ، فان قيل لهم ان الله لم يزل عالما بنفسه ، اختلفوا فنهم من يقول لم يزل لا يعلم نفسه حتى فعل العلم لأنه قد كان ولم يفعل ، ومنهم من يقول لم يزل يعلم نفسه . فان قيل لهم فلم يزل يفعل قالوا نعم ، ولا نقول يفعل الفعل . ومن الرافضة من يزعم أن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون إلا أعمال العباد ، فانه لا يعلمها إلا حال كونها . والفرقة التاسعة يزعمون أن الله لم يزل حياً عالما قادراً ، ويميلون الى نفي التشبيه ولا يقرون بحدوث العالم

« واختلفت الرافضة في ارادة الله ، فنهم من يقول هي حركة ، فاذا أراد الشيء تحرك فكان ما أراد . ومنهم من يقول إن ارادة الله ليست حركة »

هذا ماينقله عن الرافضة سائر العلماء مثل الشهرستاني والأشعري وابن حزم والمقريزي ، وغير هؤلاء . وهذه أمور منقولة عنهم بالتواتر لايمكن جحدها ولا إبايتها . وفي منهاج السنة أن شيوخ الرافضة المؤلفين يذكرون هذه الأمور عن الشيعة بلا خلاف . ومن أقبح خطل الشيعة في التشبيه قولهم على الله بالبداء ، أي بعلمه الشيء بعد جهله إياه ولهذا يغير ارادته . وقد أسلفنا هذا . ومن أقبح هذا القبيح قولهم : إنه تعالى يحل في المخلوقات وفي أجسام بعض خلقه مثل الأئمة ،

وهذا من شر التشبيه وأخبثه . وقولهم إنه تعالى يبدو فى صور بعض عباده وأن هؤلاء العباد الذين يحل الله فى ذواتهم يستحقون العبادة والتقديس ، كما كان يذهب هذا المذهب الفاطميون ، وكانوا يدعون الى عبادة أنفسهم ويصرحون للناس بأنهم آلهة

والعجب أن جميع طوائف الشيعة ما بين مفرط ومفرط فى هذه المطالب العالية فطوائف غالية مشبهة تشبيهاً شنيعاً ، وطوائف أخرى غالية فى التعطيل والجحود كما رأيت ، فهما طرفان متباعدان فقد بينهما الوسط المعتدل القائم بالقسط والعدل فالشيعة ما بين مشبه لله بخلقه ، واصف له بالصفات التى لا تكون إلا للمخلوقين ، وما بين معطل لله مجرد له من جميع الصفات والأوصاف . وليس فى الرافضة فيما رأيت من هم على مذهب السلف ، بل كلهم ينقمون من السلف ومن أهل الحق والاعتدال فالمشبهون المجسمون منهم يرمون السلف بالتعطيل والجحود ، لأنهم أنكروا التشبيه والتجسيم ، والمجردون المعطلون منهم يرمون السلف بالتجسيم والتشبيه والايمان بالباطل ، اذ آمنوا بما جاء فى النصوص المتواترة الصحيحة . فالسلف ممقوتون عند هؤلاء وهؤلاء ، عند المعطلين وعند المشبهين المجسمين ، والفريقان أنفسهما متنابذان متلاعنان لأنهما متباعدان جداً . فالمشبهون منهم يذمون المعطلين ويقعون فيهم ، والمعطلون يذمون المشبهين ويقعون فيهم ، فكلا الفريقين عائب معيب ، وكلاهما ذام مذموم ، والله ورسوله وعباده الصالحون منهم براء ، والحق عن هؤلاء وهؤلاء فى مكان قصى . ومن العجيب المؤلم أن تكون هذه عقائد الشيعة وآراؤهم فى الله ما بين تشبيه قبيح صريح ، وما بين تعطيل صريح قبيح ، ثم يقوم واحد منهم ، من هؤلاء المشبهين المعطلين يرمي أهل السنة والحديث كابن تيمية وتلاميذه الأبرار ، بأنهم مشبهون لله ، وأنهم قائلون عليه الأباطيل اذ وصفوه بما وصف هو به نفسه فى كتابه ووصفه رسوله فى سنته نفيا واثباتا ، لا زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا

تمثيل ، زاعما أن ذلك يلزمه التشبيه والباطل ثم زاعما أن هذه الصفات لا تكون الا للاجسام ولا يوصف بها غيرها

وأما دعواه أن شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وتلاميذه وأهل السنة من أهل نجد يقولون ان الله جسم وأنه فى جهة ، وأنه يشبه أحداً من خلقه فى صفة من صفاته ونعت من نعوته ، فهذه دعوى يتقلدها ويبوء بأثمها هو ومن افتجرها له وقلده فيها ، ممن تعبدوا الله بالأكاذيب والاختلاق على رجال السنة والحديث تغريراً وتنفيراً وخداعا مزريا . ولو لم تكن كتب ابن تيمية وتلاميذه الأبرار وأهل السنة من أهل نجد مطبوعة منشورة في أنحاء العالم ، معروفة للخاصة والعامة لقلنا كذب على غائب مجهول ، قد يروج وقد ينفق ، وقد يحسب من الحقائق الصادقة ، وقد يكون كذلك ، وقد يخادع الكاذب نفسه و يغش علمه ويظلم دينه . أما الكذب على معلوم حاضر فلا يجرؤ عليه إلا أناس قليلون استهانوا بالحق وبالخالق ، واستهانوا بالعلم وبأنفسهم وضمائرهم ، ثم استهانوا بالناشرين والطابعين والقارئين . هذه كتب ابن تيمية وكتب تلاميذه وكتب النجديين موجودة فى كل مكان ، قد طبع الشيء الكثير منها . وهذه مقالاتهم وآراؤهم فى هذه المطالب المتنازع فيها بينهم وبين هؤلاء الخلوف المخالفين . وهذه أقاويلهم فى الله وفى صفاته ، مثل الاستواء على العرش ومثل كلامه ونزوله إلى سماء الدنيا وسائر صفاته تعالى، هل يستطيع أحد من الناس أن يجد فيها أنهم زادوا على النصوص الصحيحة من الآيات والأحاديث الثابتة ، أو أنهم قالوا على الله قولا لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة نبيه أو أنهم وصفوه بصفة غير متواترة النصوص ، أو أنهم قالوا ان الله جسم أو عرض ، أو أنه يشبه خلقه فى ذاته أو فى صفاته أو فى شيء من الاشياء ، أو يجد أنهم يشكون فى ذلك أو يجوزونه أو يلاينون من قاله من أهل البدع والأهواء والافتئات على الله ؟ هل يستطيع هذا المخالف المدعى أو غيره من الناس أن يجد

واحدا من هذه الامور فى كتب شيخ الاسلام ابن تيمية أو كتب النجديين ؟ إن أبلغ التعجيز وأبلغ اظهار الثقة بالقول هو التحدى . وإننا لهذا نتحدى هذا المخالف وغيره من المخالفين لنا ، ونقول لهم جميعا: أرونا أمراً واحداً من هذه الامور التى زعمتموها على القوم إن كنتم صادقين أرونا أن شيخ الاسلام أو ابن القيم أو الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو أحداً من هؤلاء قال ان الله جسم ، أو قال إنه يشبه خلقه فى ذاته أو فى صفاته أو فى شأن من شئونه أو قال انه يوصف بما لم يصفه به الكتاب أو السنة ، أو ما أجمع عليه سلف الأمة ، أو أن أحداً من هؤلاء جوز وصفه تعالى بذلك . أرونا ذلك فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا الله واحترموا القارئين واحترموا العلم . ومن جمع أكاذيب وأموراً مناهضة للواقع وألفها وطبعها فى كتاب فلا يمكن إلا أن يكون قد علم أن كتبه لن تقرأ ، لاستخفافه بنفسه ، أو ممن استخف هو بالقراء وتغفلهم ، وإننا لا نتحدى المخالفين فى هذا ونطلب اليهم نقل ما زعموه لأن الأمر يحتاج الى هذا التحدى ، بل انما تحديناهم زيادة إعجاز وإقناع وإلا فقد كتب هؤلاء العلماء الذين اتهموا بأنهم يقولون ان الله جسم وأنه فى جهة وأنه يشبه خلقه فى غير ما كتاب من كتبهم المطبوعة الانكار الصريح على من قال من أهل الابتداع كالرافضة وغيرهم ان الله جسم أو أنه فى جهة أو أنه يشبه خلقه وعلى من وصف الله وصفاً لم يرد فى الكتاب ولا فى السنة . وقد ذكر ابن تيمية وتلاميذه فى كتبهم المطبوعة ما لانحصيه من التصريحات بأنهم لايقولون ان الله جسم أو أنه فى جهة من الجهات ، وقد ذكروا ما لا نستطيع إحصاءه أن من قال ذلك فقد ابتدع وقال فى الله الباطل وما لايليق ، وأنه تجاوز الحدود وهجم على المنكر . وقد ذكر فى منهاج السنة فى الرد على الشيعة فى غير موضع منه ، وذكر فى غيره من كتبه المطبوعة ، أنه لا يصح أن يقال ان الله فى جهة ولا أن يقال انه ليس فى جهة ، ولا أن يقال انه جسم أو أنه غير جسم ، أى ان ذلك لاينفى ولا يثبت ،

قال لأن ذلك النفي وذلك الاثبات لم يردا في كتاب ولا سنة ، ولم ينقلا عن سلف الأمة ، قال ولأن النافي قد ينفي حقًا ثابتا ، والمثبت قد يثبت باطلا ، فان القائل ذلك ، أي القائل ان الله ليس في جهة قد يكون يريد بهذا انه ليس على العرش ولا فوق السماء ، فيكون بقوله هذا مخالفاً الكتاب والسنة وإجماع السلف ، وقد يريد القائل انه في جهة أنه حالٌ في مكان أو أنه محمول على شيء من خلقه مثل العرش أو غيره ، فيكون بهذا قائلا على الله الاثم والضلال ، وقد يكون القائل انه جسم يريد أنه مثل الأجسام المؤلفة من اللحم والدم والأعصاب والعظام ، وهذا باطل وضلال ، وقد يريد من قال أنه ليس بجسم أنه ليس قائما بنفسه ، وأنه ليس مستويا على العرش ولا بائنًا عن خلقه ، فيكون بهذا مخالفًا الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، وإذن لا النفي يجوز ولا الاثبات خوف الابتداع والوقوع في الضلال وإذن لا يصح المصير الى ما لم يرد لا نفيًا ولا إثباتًا ، وانما حسب المسلم أن يلتزم قول الله وقول رسوله ﷺ ، وأن يرغب عما رغبا عنه ولا سيما في باب العلم بالله وبصفاته ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه

فابن تيمية وتلاميذه والنجديون يصرحون جهرة بأنه لا يجوز القول بالجهة ولا بالجسم لا نفيا ولا اثباتا ، ويأبون القول على الله وفي صفاته بما لم يرد في النصوص وما لم يؤثر عن السلف ، ويرون أن من قال شيئا من ذلك فقد ابتدع وقال في الله وعليه الباطل والاثم . وهذا مذكور في كتبهم كلها . فمن الاثم إذن والجناية الكبرى اتهامهم بذلك ، ومن الاقدام على الذنب الاقدام على هذا الاتهام وإذا لم تؤخذ مذاهب الناس من كتبهم وكلامهم فمم تؤخذ ؟ وإذا لم يؤخذ الرجل بما كتب وقال فبماذا يؤخذ ؟ ان كل انسان يستطيع أن يكذب ويستطيع أن يتهم الأبرياء ويستطيع أن يضيف الى عظماء الرجال ما يمليه عليه هواه أو نقصه ولكن الشأن في تصديق ذلك وإقامة البراهين على صدقه ومن ذا الذي يعمى أو

يتعامى عما كتبه الرجل مذهبا له ليتقبل طوعا أو كرها ما ينسبه اليه أهل الضغن والخصومة الظالمة الاختلاق كما قلنا لا يعجز أحدا وقد اختلق الضغن والهوى على الصديق والفاروق وعثمان وعلى غيرهم ممن هم دونهم أو فوقهم . وهل يعجز من اقترف على هؤلاء وساق إليهم التهم سوقا من كل وجه أن يسوق ذلك أو بعضه أو أكثر منه إلى ابن تيمية وتلاميذه وإلى التجديين كافة ؟ إن ذلك لن يعجزه ولكن الذى يعجزه حقا هو تصديقه وإقامة البرهان عليه

فان قيل إن أحد الناس طبع فى هذه الايام رسالة زعم فيها أن شيخ الاسلام ابن تيمية قال فى كتابه منهاج السنة إن الله فى جهة ، وقال أشياء أخرى فى المنهاج وفى كتابه العقل والنقل ، وأن صاحب هذه الرسالة زعم أنه دلّ على المواضع التى قال فيها ابن تيمية ذلك من كتابيه المذكورين بالصفحة ؛ إن قيل هذا قلنا إن صاحب هذه الرسالة لم يرد الحق والصدق ، ولم يرد أن يكون امينا فى نقله وقوله . وبالرجوع الى المواضع التى دل عليها من ذينك الكتابين يعرف أن صاحب هذه الرسالة لم يكن صادقا ولا حريصا على أن يكون صادقا ، ويعرف أنه كان يتصيَّد الكذب ويحتال على الاختلاق . ولعل كثيرين من الناس لم يكونوا يحسبون أن عالما يحترم نفسه ويحترم العلم والتأليف ، يمكن أن يقول خلاف الحق متعمدا ، ثم يذهب يدل على مواضع جريمته فى صفحات الكتاب الذى اجترم على صاحبه ما اجترم ثم يذهب يرشد الناس إلى أنه غير صادق فى علمه وتأليفه ! ولعل هذا اللون من الابتكار نوع من أنواع الخداع وترويج الجريمة والبهيتة وابعاد الظنة والتهمة ، وذلك أن الناس كلهم أو جلهم لم يبلغ بهم سوء الظن بالناس ، وبالعلماء المؤلفين منهم خاصة أن يظنوا ان الرجل منهم يذهب ينقل عن كتاب مطبوع مقروء موجود فى المكاتب الخاصة والعامة ويدل على ما نقل بالصفحة ثم لا يكون فى ما نقل وكتب صادقا ! ان هذا النوع من الابتكار فى الخداع لم يكن الناس يألفونه ويعرفونه .

ومن ثم كان من صنع هذا واقترفه جاهداً فى وضع نفسه عن الاتهام وسوء الظن بعيدا ، جاهدا فى الاضلال والخداع ، اللذين لا ينفسان على أحد !

وانا نرجو من وقعت فى يده هذه الرسالة أن يرجع الى المواضع التى ذكر أنه وجد فيها ضلال ابن تيمية وزيغه ليعلم من الضال الزائغ حقا ، وأما من لم يطلع على هذه الرسالة فيكفيه أن يتناول ما شاء من كتب هذا الامام وكتب تلاميذه ويقرأ ما شاء من هذه الكتب ، فانه لن يجد فيها قولا واحدا فى الله أو في صفاته إلا أن يكون موجودا فى الكتاب أو فى السنة الصحيحة ، وأما ما ليس كذلك فلن يقولوه

فان قلت إنا نعترف بأن ابن تيمية وتلاميذه ، وكذا النجديون ، لا يقولون بالجهة ولا بالتجسيم والتشبيه صراحة ونصا ، ولكن ايمانهم بهذه الصفات ، مثل الاستواء والصفات الأخرى على ظاهرها ، يقضى بالتشبيه والتجسيم والقول بالجهة فهو كذلك لزوما واقتضاء ولا معنى للايمان بهذه الصفات الا الايمان بهذه الأمور اللازمة لها ، ان قلت ذلك قلنا : هذا ما سوف نتناوله بالبيان فى الفصل الآتى :

الاستواء على العرش

نعم ان هؤلاء الأئمة يؤمنون بأن الرحمن على العرش استوى ، وأنه فوق جميع المخلوقات ، كما جاء ذلك فى جملة الكتاب الكريم والسنة وسائر الكتب السماوية ، ويؤمنون أيضا بسائر الصفات التى صحت نصوصها مثل أن الله يرحم عباده رحمة عامة ورحمة خاصة ، وأنه يرضى من عباده الايمان وأعمال البر ، ويكره الكفر والعصيان والشر ، ويمقت الاثم والفسوق وأنواع الفساد ومن عملوا ذلك ، ويحب عباده الطاهرين المتقين أهل الدين والعدل والصدق والمروءة وأنواع الفضائل ويبغض أهل الظلم والكذب والخبث وأفانين الرذائل ، ومثل أن له يداً ليست كأيدينا ، ووجهاً ليس كوجوهنا ، وكلاماً بحرف وصوت كما جاء فى الأحاديث

الصحيحة ولكن ليس ككلامنا ولا كحروفنا وأصواتنا ، وأن له ذاتاً ووجوداً وحقيقة وارادة وعلماً ومشيئة وحياة واختياراً وغير ذلك من صفات الكمال الواردة فى الكتب المقدسة والتى أرشدت اليها العقول السليمة . ولكن شيئا من ذلك لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين فى وجه من الوجوه ولا معنى من المعانى ، فكما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق فكذلك صفاته لا تشبه صفاتهم ، والكلام فى الصفات كالكلام فى الذات ، فاذا كانت ذاته تعالى لا تشبه ذوات المخلوقين ، وللمخلوقين ذوات ، فكذلك صفاته لا تشبه صفاتهم يقينا

والأمر الجامع لهذا أن نؤمن بجميع ماورد لله فى كلامه وكلام أنبيائه من الصفات والشئون ايمانا خالصاً بريئا من التعطيل والتمثيل ومن التجريد والتشبيه ، فلا يجوز لنا نفى ما ورد له من الصفات كما لايجوز لنا تشبيه ذلك بصفات الحادثات فمن شبه فقد ضل ومن نفى فقد ضل ، والنافى كالمشبه كلاهما غالط ضال ، وكلاهما قائل على الله غير الحق . والنفى والتشبيه متقارنان متلازمان لاينفصلان ، فكل مشبه ناف وكل ناف مشبه ، ولولا التشبيه لما كان النفى ، ولولا النفى لما كان التشبيه فان النافى ينفى هذه الصفات عن الله لظنه أنها فى الله لا بد أن تكون مثل صفات الخلق ، ولا بد أن تكون مشابهة ما يسمى باسمها من أوصاف العباد ، ولا يمكن أن تكون مخالفة صفاتهم أبداً ، ولأجل هذا الظن لجأ الى النفى والتعطيل ، فقد شبه أولا ونفى ثانيا ، فهو مشبه ناف ، فهو إذن جامع الضلالتين ، ولو أنه لم يعتقد هذا التشبيه لما كان هنالك ما يضطره الى النفى ، ولو أنه علم أن صفات الله كذاته لا تشابه ولا تماثل ، لما لجأ الى الابطال والنفى والى تأويل النصوص . فالنافى كما قلنا مشبه ناف ، ولأجل هذا نجد المنزهين الذين يعلمون أن هذا التشبيه المزعوم مرفوع ممنوع، والذين يعلمون أن الله وصفاته لاشبه يشيئا لايرون ثمة أمراً يدعوهم الى التأويل والى التعطيل . فقد علموا أن صفات الله ليست كصفات عباده

فآمنوا بها مع هذا التنزيه فخلصوا من هاتين الضلالتين ، أعنى التشبيه والتعطيل ، وخلصوا بذلك من مخالفة النصوص والخروج على الاجماع الأول ، ولهذا فانك غير واجد حجة واحدة عند نفاة الصفات غير دعواهم ان الايمان بها يقضي بهذا التشبيه ، ولهذا يسمون المؤمنين مشبهين مجسمين . ويدعون عليهم خطأ أنهم يقولون بذلك صراحة ، وذلك لحسبانهم أنه غير ممكن الايمان بهذه الصفات الا مع التشبيه والتشبيه باطل بلا ريب . ولأجل ما ذكرنا نجد الطوائف المشبهة تصير آخرة الى التعطيل وتنبت بينها طوائف أخرى معطلة ملحدة فى التعطيل ، وقد ذكرنا آنفا أن هذا المرض ـ أعنى التشبيه ـ أصلا ووضعا كان في طوائف الشيعة وأنهم هم الذين ابتكروه فى الاسلام . وهم الذين غلوا وبالغوا فيه أشد المبالغة والغلو ، وذكرنا أن طوائف منهم كالاسماعيلية كانوا يقولون بالتعطيل الصريح التام ، حتى انهم يأبون وصفه تعالى بصفات الوجود والحياة والقدم والبقاء والعلم والخلق والارادة وأخص صفات الربوبية ، لزعمهم أن وصفه بهذه الصفات عين التشبيه والتشبيه لاريب باطل ، ولأن وصفه بصفة من هذه الصفات الوجودية يقضي بأن يكون مشاركا خلقه الموصوفين بها ، والله لا يشاركه مشارك فى صفة من الصفات وأمر من الأمور وإلا لو شاركه مشارك فى شيء من ذلك لكان هو مثل ذلك المشارك . فباطل إذن وصفه تعالى بشيء من تلك الأوصاف ، حتى امتنع أن يقال انه موجود أو حى أو خالق أو رازق خيفة ذلك المحذور فلزم تجريده تجريداً عاما ، ووجب جحد جميع صفاته جحداً تاما ، فكانوا بهذا حقًا معطلين ملحدين ، بل كانوا أئمة هؤلاء الخاسرين الضالين ، وكانوا أيضًا قائلين بما يستحيل وجوده وما لايعرف مثله ، فان الناس ، ما خلا هؤلاء ، يعلمون بداهة بأن أحداً موجوداً قائما بنفسه لايمكن أن يكون مجرداً من جميع الصفات ، ولا يمكن أن يعترف انسان بوجود شيء وهو ينفى عنه جميع الصفات ، ان هذا من أبين الأمور المستحيلة ،

وأن القول به من أعظم الخارق والهازل التى يصاب بها العلم والدين الفرط من الزمان . وأما إن كانوا يريدون أن هذه الصفات ثابتة لله قائمة به ولا ريب ، ولكن مع هذا يمتنع وصفه بها ويمتنع الاخبار عنه بأنه متصف بها فهذا أيضا واضح البطلان ، لأنه اذا كان المانع عندهم من وصفه بالصفات هو خيفة مشاركة المخلوقين له لم يكن السكوت عن وصفه بها وقيامها به نافعا ولا دافعاً شيئا مما حذروه وخافوه لأن الخوف هو من مشاركته تعالى الخلق فى الصفات لا من الاخبار عنه بتلك الصفات . فان التشابه يكون بين الموجودين بما يتصفان به من الأمور الوجودية لا بالاخبار عنهما بأنهما متشاركان أو متماثلان فى حقيقة من الحقائق . فان الاخبار عن الموجودين بأنهما متشابهان وهما ليسا كذلك لايقضي بأن يكونا متشابهين ، والاعراض عن وصف المتشابهين بالتشابه لايقضى بان يكونا غير متشابهين . وهذا ضرورى لايرام نزاعه ، فالشيء الثابت فى الواقع ثابت فى نفسه سواء أأخبر عنه بالثبوت أم لم يخبرعنه ، بل هو ثابت وان قيل انه غير ثابت . فالموجودان المتماثلان متماثلان سواء أأخبر عنهما بذلك التماثل أم لم يخبر ، والموجودان المتباينان اللذان لا يتماثلان هما غير متماثلين سواء أقيل انهما متماثلان أم قيل انهما ليسا كذلك . وحينئذ فالله إما أن يكون موصوفا ، وإما أن لا يكون موصوفا ، فان كان موصوفا فالشبهة التى أنكروا لأجلها وصفه واردة ، وهى أنه يكون بذلك شبيه خالقه الموصوفين ، وحينئذ فالاخبار عنه بالصفات لا يضر شيئا ولا يقوى الشبهة المذكورة والاعراض عن الاخبار بذلك لا ينفع شيئا ولا يدفع هذه الشبهة أو يضعفها . وأما ان قيل انه مجرد من جميع الصفات فى الواقع قيل هذا مستحيل استحالة لايدفعها عاقل ، فان كل موجود موصوف ، وما لا يوصف هو معدوم بلا شك . فالذى يقول ان الله ليست له صفات انما يقول بتعبير آخر ان الله ليس موجوداً وليس لهذا العالم رب . ولهذا كان مصير هؤلاء الى الالحاد المطلق والجحود الصريح .

فانه لافرق فى التحقيق بين من يقول ان الله موجود ولكنه ليس له وصف من الأوصاف الوجودية ولا يمكن وصفه بشيء من ذلك ، وبين من يقول ان الله غير موجود . فان القولين فى المعنى والنتيجة واحد وحاصلهما واحد فهما سواء غير أن القول الأول يفوق الثانى تناقضاً ومكانة فى الاستحالة ، فان إنكار وجود الموجود أقرب فى العقول من القول بأن هنالك موجوداً قائماً بنفسه لكن ليس له صفة ما من الصفات ولا يمكن الاخبار عنه بأمر من الأمور ، وهذا أثبت المستحيلات نسبا وأظهرها فى أوليات العقول الصحيحة بل والمريضة . ومن ثم فاننا نزعم ، ولا نشك فى صحة زعمنا ، أن أصحاب هذه المقالات المستحيلة هم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا بأن لهذا العالم خالقاً ولا يؤمنون بالشرائع ، بل هم ملحدون خالصون ولا ريب عندنا فى هذا ، فان مقالات المؤمنين لاتشتبه بمقالات الملحدين ، وان نفحات الايمان لا تلتبس بلفحات الكفران ، وان لموارد الأقوال دلائل على مصادرها ولمصادرها فلتات تنم على مواردها

ثم نعود الى أول المسألة فنقول : لا ريب فى أن القرآن بجملته ، بل الكتب السماوية بجملتها ، دلائل ناطقة وظواهر قاطعة على أن الله فى السماء مستو على العرش استواء يليق به ، وأن السنة النبوية بجملتها دالة على ذلك دلالة لا ريب فيها ، وأن كلام السلف الأول ، الصحابة فمن دونهم من أهل السنة وعلماء الأثر والحديث مؤيد ذلك كله تأييداً لا شك فيه . لا ريب فى ذلك كله ، ثم لا ريب أن الفطرة والضرورة بعد ذلك شاهدا عدل وصدق على هذه القضية ، قضية علو الله على خلقه . هذا ظاهر عندنا غنى عن ذكر دلائله ، ويكفى من أراد أن يعلم هذه الحقيقة أن يقرأ ما تيسر له من القرآن أو من السنة ، وأن يلم إلمامة سريعة قصيرة بآثار السلف وعلمهم والمروي عنهم . وقد ألفت فى ذلك الكتب كما فعل الحافظ الذهبي فى كتابه « العلو » وابن القيم فى كتابه « اجتماع الجيوش الاسلامية » وقد

تفنن الكتاب العزيز فى هذه المسألة أى تفنن . وأثبتها بعبارات مختلفة واضحة ، وبأساليب منوعة ظاهرة ، وبطرق من القول والكلام كثيرة . كل ذلك ينبىء عن معنى واحد ، عن علو الله على خلقه إنباء لا شك فى صدقه ، فتارة يخبر عن ذلك بلفظ الاستواء على العرش ، وقد أتى هذا اللفظ فى جملة سور من القرآن ، وتارة يخبر بلفظ الاستواء الى السماء ، وتارة يخبر بقوله « يخافون ربهم من فوقهم » وتارة يخبر بأنه العلىّ وأنه الأعلى ، وتارة يخبر بأن الملائكة تعرج اليه وبأنه ذو المعارج ، وتارة يخبر بأنه رفع اليه عبده عيسى ، ويقول « بل رفعه الله اليه وتارة يخبر بأن الكلم الطيب يصعد اليه ، وتارة يخبر بأنه فى السماء ، وتارة يخبر بأن الكتاب ينزل من عنده وأن الملائكة ينزلون من لدنه ، وتارة يخبر بأن كل خير وفضل ونعمة بالناس آت من جانب السماء ، وتارة يخبر بأنه عرج بعبده محمد عليه السلام اليه وبأنه كان يقلب وجهه فى السماء انتظار أمر ربه بقوله : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » وتارة يخبر بأن موسى عليه السلام قال لفرعون إن ربى فى السماء فقال فرعون « يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فاطلع الى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا » أي فى قوله ان ربى فى السماء وتارة يخبر بأنه يدبر الأمر من السماء الى الأرض ، وتارة يخبر بأن الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عنده والشهداء فى السماء ، وتارة يخبر بأنه رفيع الدرجات وتارة يخبر بأن الملائكة عنده ، والملائكة فى السماء قال : « ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته » وتارة يخبر عن تلك المرأة الصالحة بأنها قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، وتارات يخبر عن ذلك بغير هذه الألفاظ بما لو أوّل كله لعاد الشرع كله مؤولا وما لو عد كله متشابهاً لعاد الشرع كله متشابهاً كما قال الفيلسوف ابن رشد فى كتابه مناهج الأدلة المطبوع مع كتابه الآخر المعروف بفلسفة ابن رشد . فانه قال فى هذا الكتاب : ان ظواهر الشرع ونصوصه تدل

كلها على أن الله فى السماء ، قال : وهذه النصوص لا يصح عدها من المتشابهات لأنها لو عدت من ذلك لعاد الشرع كله متشابهاً ، ولا يصح أيضاً تأويل هذه النصوص ، لأنها لو أولت لعاد الشرع كله مؤولا ، وذلك لأن أحكام الشريعة تؤخذ من نصوصها الظاهرة لا من شىء آخر ، فاذا أمكن أن تكون نصوص علو الله على خلقه ، وهى نصوص لا تحصى ، مؤولة أو متشابهة أمكن أن تكون نصوص جميع الأحكام الشرعية مؤولة أو متشابهة لأنها ليست أبعد عن التأويل وعن عدها من المتشابهات من نصوص هـذه المسألة التى معنا ، أعنى مسألة علو الله ، فان نصوص العلو ليست أقل ولا أغمض من نصوص دلائل البعث الجثمانى وحشر الأجساد ودلائل وجوب الصيام والصلاة والزكاة والفرائض الأخرى ، ونصوص دلائل رؤية الله ودلائل الشفاعة وتخليد الكافرين أبداً فى الجحيم ، والمؤمنين أبداً فى جنات النعيم واخراج المؤمنين من النار بعد تطهيرهم من ذنوب اجترحوها وغير ذلك ، وإذا أمكن أن يؤول كل هذا أو يعد كله من المتشابه فالشرع إذن كله مؤول متشابه ، وحينئذ تبطل الشريعة وتبطل نصوصها وتصير لغواً لا فائدة فيه بل لا يستفاد منها حينئذ غير الشبهات وغير عناء التأويل وتطلب وجوهه ومخارجه ، وفى هذا غاية الفساد والبلاء على الأمة والدولة ، وما يدعيه هـذا المصنف هو مقدمات لهذا البلاء . وقد وقع ما حذره القاضى ابن رشد . فقد بالغ الناس فى التأويل وفى الادعاء على النصوص بأنها متشابهة حتى تناول التأويل كل شىء وكل نص حتى زعم بعض المؤولين أن المراد بالصلاة والصيام والحج والزكاة رجال عظماء يراد ولاؤهم واحترامهم وحتى أولت دلائل التوحيد وعبادة الله وحده كما فعل الرافضى . وهذا بلاء تكفى طلائعه

هذا الذى ذكرناه أفانين من جملة تعبير القرآن الحكيم عن هذه المسألة ، وأما السنة فالأمر فيها أكثر وأظهر وما فيها من هذا لا يحصى ولا يحصر ، وقد أراد

بعض الحفاظ أن يجمعوا بعض ذلك فوضعوا كتباً خاصة كما فعل الحافظان الذهبي وابن القيم فى الكتابين المذكورين ، وعلى من يشك فى هذا ومن يريد أن يلم به أن يراجع هذين الكتابين . أو كتاب التوحيد لابن خزيمة . أو كتاب الأسماء والصفات للبيهقى . أو كتاب التوحيد للبخاري وما كتبه عليه ابن حجر العسقلانى أو كتاب السنة لابن الامام أحمد أو ما شاء من كتب السنة والحديث التى ألفها حفاظ الاسلام وحملة الشريعة . وأمامه ما يشاء من كتب الصحاح والمسانيد والجوامع مثل صحيح البخارى ومسلم والسنن وغير ذلك من كتب الحديث لانخص كتابا دون كتاب ولا إماماً دون إمام . وقد جمع الحافظ الذهبي من ذلك فى كتابه المسمى بالعلو من الأحاديث ماجاء فى صفحة ١٥١ من الكتاب المذكور وجمع ابن القيم من ذلك ما يقارب هذا أو مايزيد ، وقد عد الذهبي بعض ألفاظ الأخبار التى رواها فى كتابه متواترة وجعل من ذلك حديث معاوية بن الحكم الذى فيه إنه جاء رسول الله بجارية سوداء يريد أن يعتقها فقال لها رسول الله من أنا ؟ قالت أنت رسول الله . قال لها أين الله ؟ قالت فى السماء . فقال رسول الله أعتقها فانها مؤمنة ، وقد خرج هذا الحديث مسلم فى صحيحه وخرجه من لانحصيهم من المحدثين ، وقد صدر الذهبي به الأخبار التى رواها فى كتابه ، وجعله النسائى تفسيراً لقوله تعالى « ثم استوى الى السماء » وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة مختلفة بعبارات مختلفة عن معاوية بن الحكم وعن غيره من الصحابة ، وهذا الحديث لاريب فى صحته عن رسول الله عليه السلام ولا ريب فى وضوحه ودلالته على المسألة دلالة قاطعة لا يمكن النزاع فيها ولا الاختلاف ، ولا يمكن تأويله ولا الانفصال عنه بتأويل أو تخريج بعيد أو الدعوى بأنه من المتشابهات ، وقد حاول بعض المتأخرين الانفصال منه ومن معناه فذكر له تأويلات باطلة فاسدة . فمن ذلك أنه زعم أن النبى الكريم أقر هذه الجارية على قولها إن الله فى السماء وهو يعلم

أن قولها هذا كفر وتشبيه لأنها كانت جاهلة فا كتفى منها بهذا القول الذى هو باطل . وهذا تأويل يؤول الى القدح في النبي وفى الشريعة وفى القرآن وفى كل دين لأن محصل هذا الجواب أن الرسول الكريم يقر على الكفر بل ويمتدحه ويثنى عليه وعلى صاحبه بل ويحكم بأنه إيمان ! وهذا غاية الضلال . ثم ألا يعلم هذا المؤول أن الجاهل يعلّم ويعرف ولا يقر على جهله وكفره وضلاله ؟ واذا كان الرسول يقر الجاهلين على الجهل وعلى خلاف الحق فمن ذا بعد الرسول يعلم الجاهلين ويهدى الضالين ؟ ثم اذا كان اقرار النبى الكريم الجارية على ضلالها وكفرها إنما كان لأجل جهلها وغبائها كما يدعون ، فلماذا لم يذكر هذا ولماذا لم يذكر فى لفظ واحد فى رواية واحدة أن الله ليس فى السماء وليس مستويا على العرش تحذيراً من هذا الضلال الذى أقره وجعله إيمانًا واسلاما وشهد لقائلته بأنها مؤمنة ؟ ولماذا لم يقل النبى الكريم اذا كان الأمر كما يذكرون للجارية أو لرب الجارية جئنى بها بعد كى أعرّفها أن قولها هذا كفر ومروق من الاسلام ؟ بل ولماذا يشهد لها بالايمان حينما قالت الكفر وكان يمكن أن يقتصر على قوله اعتقها دون أن يقول فانها مؤمنة لئلا ينساق هذا الباطل الذى هو الايمان بأن الله فى السماء الى بعض الأذهان ؟ بل لماذا لم يقل لها : لا تقولى هذا بل قولى إن الله ليس فى السماء ولا فوق العرش ولا فى جهة من الجهات ؟ وهل فى مثل هذا صعوبة أو خفاء ، وقد كان ممكنا أن ينتفع بهذا غير الجارية من الحاضرين إذا فرض أن عقل هذه الجارية كان ضيقاً لا يتسع لفقه لمثل هذه العقيدة ولا يمكن أن تؤمن إلا بالحسيات ؟ واذا ماتركنا كل ماقلنا وفرضنا أن ما قاله المخالفون حق فلماذا لا يصنعون صنع النبى الكريم فيدعوا الجهال يعتقدون أن الله فى السماء . لأنهم جهال لا يؤمنون إلا بمثل ما آمنت به تلك الجارية ولماذا يكتبون كتباً يقولون فيها إن من دان هذه العقيدة فهو كافر ثم ينشرون هذه الكتب بين العامة الجهلاء ؟

وفى هذا الحديث دلالة أخرى من ناحية أخرى على أن الله فى السماء ، وذلك أنه يدل على أن الناس كانوا فى عصر النبوة وعصر نزول القرآن والشرائع يؤمنون بعلو الله ، وقد جاء هذا فى أخبار وروايات وأشعار معلومة ومع هذا لم يجىء فى القرآن ولا فى السنة لفظ واحد يقول إن الله ليس فى السموات أو يطلب من الناس أن يخالفوا فطرتهم المجبولة على الايمان بعلو الله . بل قد جاء القرآن والسنة شاهدين لعقيدتهم هذه مقرين لما جبلوا عليه من أن الله فوق كل شيء ، ولا ريب أنه كان لازماً تغيير هذه العقيدة لو كانت باطلة ، ولو كانت عقيدة تشبيه وتجسيم كما يقول المؤولون . فلا شك إذن فى بطلان أمثال هذه التأويلات وشناعتها ، وقد ذكر بعضهم للحديث تأويلا آخر أبعد من الأول . ذلك أنه زعم أن قولها ان الله فى السماء ليس معناه أنه تعالى فى السماء كما يراد ، وإنما معنى قولها هذا إيمانها بالله وتوحيدها وهجرانها الأصنام وعبادتها . لأن قولها إن الله فى السماء اعتراف منها بهجران الأوثان وما يعبد من دون الله فى الأرض ، ومثل هذا القول لا يستحق عندنا أن يسمى تفسيراً أو تأويلا بل هو قول دون ذلك ، وما هو إلا تلاعب أطفال ، ومجانة [illegible] ، وهو كقول أحد شيوخ الشيعة واسمه « بيان » فى قوله تعالى « هذا بيان للناس » إنه هو المعنىّ ، وقول آخر منهم واسمه الكسف فى قوله تعالى « وان يروا كسفاً من السماء ساقطا » انه هو المراد بالآية وكقولهم فى البقرة المأمور بذبحها انها هى عائشة وأشباه ذلك ، ومثل هذا يقل عن أن يسمى تأويلا وعن أن ينقل لأنه رأى فى الحديث ، ولكن ينقل ان نقل عبرة وعظة وما من قول ونص فى الدنيا الا ويمكن تسليط أمثال هذه المزاعم الباطلة عليه ويمكن افساده والخروج منه ومن دلالته بأمثال هذا المراء والعناء ، وهذا يؤدي الى الانفصال من كل شيء ، وهذا ماصار اليه المفتونون بأشباه هذا العناء المسمى عندهم بالتأويل حتى عاد الشرع كله مؤولا ولكن أهل الحق يرغبون بدينهم

و بلغهم عن هذا

ذلك ، وأما ما نقل عن السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المعروفين المشهود لهم بالسبق والتبريز فى هذه المسألة فشيء لا يحصره حاصر ولا يجمعه من حاول الجمع والاحاطة . فان القوم كانوا لا يختلفون فى أن الله فوق سماواته وجميع خلقه ، وقد نقل اتفاقهم على ذلك جميع المؤلفين فى المسألة من أهل السنة قديما وحديثا ، فنقل اتفاقهم القاضى المالكى الفيلسوف ابن رشد فى كتابه مناهج الأدلة وقال ان أهل الشرع ما زالوا يثبتون ذلك ويصرحون به حتى جاءت المعتزلة والمتأخرون من الأشعرية فنفوه لمزاعم زعموها غير صحيحة ، قال وظواهر الشريعة ظاهرة فى إثبات هذا بحيث لا يمكن تأويلها ولا عدها من المتشابهات . ونقل ذلك القرطبى فى تفسير قوله ثم استوى على العرش قال وقد كان السلف لا يقولون بنفى علو الله على خلقه ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة باثبات ذلك لله كما نطقت كتبه وأخبرت رسله ، قال ولم ينكر أحد من السلف أن استواءه على عرشه حقيقة وانما جهلوا كيفية الاستواء فانه لا يعلم حقيقة كيفيته ، ونقل اتفاقهم ابن قتيبة فى كتاب تأويل مختلف الحديث ، وقال ان الأمم كلها عربها وعجمها تقول ان الله فى السماء بقاضى فطرها ، قال ولا ينكر علو الله على خلقه إلا من لقن الأنكار تلقينا وعلمه تعليما . ونقل ذلك أيضاً ابن عبد البر فى شرح موطأ الامام مالك وفى غيره كما ذكره عنه الحافظ الذهبي فى كتابه العلو ، قال أجمعت الصحابة والتابعون على أن الله على العرش وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم فى هذا أحد يحتج بقوله وقال ان أهل السنة مجمعون على الاقرار بالصفات الواردة فى الكتاب العزيز والسنة وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، قال وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقر بها فهو مشبه ، قال وهم عند من أقر بها نافون للمعبود ، ونقل هذا وأشباهه ابن حجر العسقلانى الشافعى فى فتح

البارى شرح صحيح البخارى فى الجزء الثالث عشر فى تفسير قوله تعالى « وكان عرشه على الماء » ونقل الاتفاق الذهبى فى كتابه العلو ونقل عن غير واحد من علماء السنة والجماعة أنه نقل الاتفاق على ذلك ، ونقله أيضا ابن القيم ، ونقل الامام الأشعرى اتفاق أهل السنة على أن الله فى السماء ، ذكر ذلك فى كتابه « الابانة » وهو كتاب مطبوع معروف وذكره فى غير هذا الكتاب . ونقله ابن الامام أحمد ابن حنبل فى كتاب « السنة » والكتاب مطبوع ، ونقله ابن خزيمة فى كتاب التوحيد وهو كتاب مطبوع مشهور ، ونقل الاتفاق أيضا غيرهم ممن لا يحصون من علماء السنة وحملة الآثار وقد حاول الحافظ الذهبى وابن القيم أن يجمعا جملا من أقوال الصحابة ومن بعدهم فى كتابيهما العلو واجتماع الجيوش الاسلامية فجمعا شيئا كثيراً يجعل المطلع على ذلك لا يشك فى أن المسألة من قواطع الاسلام وضرورياته ، ومن الاجماع المتناقل فى جميع العصور والأوقات ، وقد جاء ما جمعه الذهبى من ذلك فى مائة وتسعين صفحة وجاء ماجمعه ابن القيم مايقرب من هذا أو مايزيد عليه ، وللراغب فى علم هذا أن يراجع الكتابين أو يراجع ما كتبه ابن حجر على تفسير قوله « وكان عرشه على الماء » من صحيح البخارى ، أو يراجع كتاب التوحيد لابن خزيمة ، أو كتاب السنة لابن الامام أحمد أو كتاب الأسماء والصفات للبيهقى ، أو غير ذلك من آثار السلف . وما من كتاب من كتب السنة إلا وفيه الروايات العديدة عن الأئمة يقررون بها صفة العلو لله وينكرون على من أنكرها . وقد نقل هذا الذهبى فى كتابه المذكور عمن يقارب مائتين من علماء الاسلام الفحول المشهورين ، كلهم يقول باستواء الله وكلهم ينكر على من أنكر هذه الصفة لله وكثيرون منهم ينقلون على ذلك اجماع أهل السنة والجماعة فى جميع العصور والبلدان ، وهذا غير ما ذكره من ذلك عن الصحابة والتابعين . ومن جملة من نقل عنهم هذا الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل

ونقله عن زعماء اللغة كابن الأعرابي والأصمعي وابن قتيبة وثعلب ونفطويه ، ونقله عن أئمة المفسرين أمثال ابن جرير الطبري والبغوي والقرطبي ، وحكاه عن أئمة علماء الكلام والنظر نظير أبي المعالي امام الحرمين والأشعري والباقلاني وأبي بكر ابن فورك ، وحكاه أيضا عن أئمة الصوفية والزاهدين كعبد القادر الجيلاني وشيخ الاسلام أبي بكر اسماعيل الهروي الانصاري صاحب كتاب « منازل السائرين » وغير هؤلاء ، وحكاه عن أئمة الحديث وحملة الآثار أمثال البخاري ومسلم صاحبي الصحيحين . قال البخاري في آخر صحيحه من كتاب التوحيد : « باب وكان عرشه على الماء ، قال أبو العالية : استوى الى السماء ارتفع ، وقال مجاهد : استوى علا على العرش » ثم أورد بعض الأحاديث الواردة في علو الله على عرشه وخلقه مثل قول زوج النبي الكريم زينب : ان الله زوجني في السماء . ثم قال البخاري : «باب قول الله تعرج الملائكة والروح اليه وقوله اليه يصعد الكلم الطيب ، وقال أبو جمرة عن ابن عباس بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ فقال لأخيه اعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ، قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . يقال ذو المعارج الملائكة تعرج الى الله » ثم ساق بعض الأخبار النبوية الناصة على علو الله على عرشه وخلقه ثم عقد أبوابا كثيرة في ما تنكره الجهمية المعطلة من صفات الله كصفة اليد والعين والذات والوجه والرؤية ونحو ذلك ، ذاكراً الآيات والأحاديث الناصة على إثبات هذه الصفات لله ، مريداً بذلك الرد على المعطلين نفاة هذه الأوصاف ، زاعمين أنهم بنفيها ينفون عن الله التشبيه والتجسيم كما يزعم هذا الشيعي المؤلف . وممن حكى عنهم الذهبي الايمان بهذه الصفة أي صفة العلو لله كبار التابعين كمجاهد ومسروق وكعب الأحبار وسعيد بن جبير وآخرين كثيرين غير هؤلاء . وكذلك حكاه عن طوائف من كبار الصحابة وساداتهم . وإجمالا جمع من هذه النقول كتابا كبيراً مستقلا أسماه « العلو للعلي الغفار » وكذلك صنع

الحافظ ابن القيم الحنبلى المشهور

فالثلاثة : الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح الأول ، متفقة على أن الله في السموات مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله ، ومتفقة على أن انكار هذه الصفة ضلالة ظاهرة وبدعة منكرة ، وخلاف لدين الاسلام ولضرورياته ولنصوصه المتعددة المتكاثره ، ولكن دليلا واحداً من أحد الأمور الثلاثة : الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح يدل على جحد هذه الصفة لن يظفر به طالبه ، أو يجده ملتمسه

فما فى كتاب الله ولا في سنة نبيه لفظ واحد يدل على نفى هذه الصفة وجحدها ويدل على أنه لا يصح وصف الله تعالى بها . وكذلك لن يظفر بكلمة واحدة من كلام السلف والأئمة المشهورين الواقفين حيث وقف الكتاب والسنة والمنتهين حيث انتهيا تدل على أن الله ليس فى السماء وليس مستويا على عرشه ، أو تقول إن إثبات هذه الصفة لله تشبيه أو تجسيم ، ولا جاء عن أحد من هؤلاء أنه أول النصوص الواردة فى هذا ، ولا أنه فسر شيئا بخلاف الظاهر البادى منها لفصحاء الناس . ومن المطالبة بما لا يمكن إدراكه أن نطالب المخالفين لنا بكلمة من الكتاب أو من السنة أو من كلام السلف كالصحابة والأئمة الأربعة مثلا تدل على انكار هذه الصفة أو تدل على أن فى اثباتها لله نقصا أو تشبيهاً أو تجسيما ، أو ما يزعمه هؤلاء الخلوف المخالفون . ولعل العاقل يعرف أنه من المستحيل البين أن يكون القول بعلو الله على عرشه وخلقه ضلالا أو تنقصاً لله ، ثم لا يوجد لفظ واحد فى الكتاب ولا فى السنة يشير اشارة قريبة أو بعيدة الى بيان هذه الحقيقة وكشف هذه القضية الاعتقادية ! أو يليق أن يبين الكتاب والسنة أحكام الوضوء والطهارة والحيض ونحو ذلك ويدلا على أنواع المحرمات دلالات واضحة بينة ، ثم لا يذكر فيهما لفظ واحد يشير الى أن الله ليس فى السماء وأن القول بذلك بدعة موبقة ،

وعقيدة فاسدة ، بل وأن يملأ الكتاب والسنة نصوصاً ودلائل على عكس ما يدعون وعلى أن الله فى السماء فوق عرشه وفوق جميع خلقه ، ثم لا يرد عن السلف من الصحابة ومن بعدهم أنهم أولوا شيئا من ذلك أو أنكروه أو زعموا ما يزعمه هؤلاء النفاة الجحدة ؟

أفيمكن أن يبلغ استخفاف السلف بأصول الاسلام وعقائده وفى صفات الله أن يعلموا أن ظاهر الكتاب والسنة كفر وتشبيه ثم لا يحذروا المسلمين القارئين للكتاب والسنة المؤمنين بهما من هذه الظواهر الباطلة المصروفة عن ظاهرها . ثم لا يكشفوا لهم عن وجه الحق والصواب ولا يعرفوهم التأويل الواجبة لتلك النصوص وهم يعلمون أن فى الناس الجاهل والعالم ، والذكي والغبى ، والعربى والأعجمى ، وهم يعلمون ما بين العقول البشرية من اختلاف وتفاوت ، وسمو وهبوط ، وصحة ومرض ، وضعف وقوة ، وانحراف واعتدال ، وثورة وهدوء ، الى غير ذلك من أسباب الاختلاف وأسباب الوقوع فى الضلال ، وجنوح الألباب عن هداها وعن الوصول الى الحقيقة مفردة بلا هاد ولا مرشد ؟ ثم لا يقفوا عند هذا الحد من السكوت عن بيان هذه الظواهر التى زعمت باطلة فاسدة . بل تتوارد أقوالهم والروايات عنهم على إقرار هذه النصوص والايمان بها والأمر بإمرارها على ظاهرها والقول بأن من أولها أو فسرها بخلاف ما بدا منها فقد أخطأ وصار الى الضلالة البادية ، بل ويجهرون بأن الله فى السماء وعلى العرش ، ثم يجهرون بأن المنكرين لذلك قائلون على الله وعلى دينه وكتابه الباطل والاثم الصريح الصحيح كما تقدم النقل عنهم

ان مثل هذا معدود نهاية القدح فى السلف وفى حملة الاسلام وصحابة النبى الكريم ونعوذ بالله من هذا

هذه حقائق لا خلاف فيها ، والمخالفون أنفسهم يعترفون بأن ظواهر النصوص

ونصوص الكتاب والسنة دالة على إقرار هذه الصفة لله ، ودالة على أن الله فى السماء ولكنهم بعد هذا الاقرار والاعتراف يزعمون أن هذه النصوص الظاهرة مؤولة مصروفة عن ظاهرهامفسرة بغيرما يفهم منها عند التلاوة . والأمر الذى حملهم على التأويل بخلاف الظاهر المتبادرهو فى زعمهم المعقول وقضاياه القاهرة التى لا تكذب فيما زعموا ، فانهم قدزعموا أن هذه الظواهر لا يصح أخذها كما هى ولا التسليم بها تسليما مطلقاً على طول الخط كما يقولون ، بل يجب عرضها على المعقول وقضاياها فان قبلتها قبلت وإن ردتها ردت وأولت وفسرت . والمسائل الاعتقادية عند هؤلاء تتلقى من المنطق المؤسس على المعقول لا من النصوص وظواهرها

قال هؤلاء النافون : وقد عرضنا هـذه المسألة ، مسألة علو الله على عرشه وأخواتها على العقل فما قبلها ولا دان لها بل قضى بانكارها ولزوم تأويل نصوصها فصار حتما علينا ذلك فذهبنا حيث ذهب العقل وأنكرنا ما أنكره العقل ، ولم نخالفه قيد شعرة ، قالوا : ولولا العقل لكنا من أول المؤمنين بعلو الله . لأننا لا نستطيع أن ندعى أن الكتاب والسنة لا يدلان على اقرار هذه الصفة . كلا بل الكتاب والسنة دالان بجملتهما على ذلك وعلى كل الصفات التى أنكرناها كالرحمة والغضب والرضا والصفات الأخرى ، ولهذا نسمى أنفسنا مؤولين ، ونعترف بأن مانفسر به النصوص هو مجازات دل عليها العقل وأوجب المصير اليها ولا يمكن أن نزعم لأنفسنا أننا مستمسكون بالظاهر ، وانما نزعم أننا راشدون بهـذا التأويل وبالعدول عن ظاهر ، لأن العقل ، وهو مصدر الاعتقادات ، أرشدنا الى هذا وقضى علينا به فما علينا فى هذا من حرج وما لنا منه بد . ونحن لأجل هذا نؤثم من تمسك بالظواهر وندعوه الى التأويل لأننا نعده غالطا وقائلا على الله ما لايسلمه العقل وما هو من سمات الحدوث وصفات العباد

هذه هى حقيقة أمر هؤلاء المؤولين النافين لعلو الله على إحسان الظن بهم

وتبرئتهم من فساد القصد ، فوجب علينا حينئذ أن نضع اللثام عن هـذه القضية العلمية الكبرى ، وأن نكشف أمر دعوى هؤلاء وما معهم من قضايا زعمت عقلية ، وزعمت قاضية بالتأويل وبانكار علو الله . واذا ما استطعنا تبديد الشبهات أو الحجج التي زعموها حائلة بينهم وبين اقرار هذه النصوص والايمان بهذه الصفة هان علينا رجع هؤلاء الى الحق والى الحقيقة ، وهان عليهم هم الرجوع الى ذلك والنكوص عن التأويل البعيد وصاروا الى مالا بد من المصير اليه وهو الايمـان بالله وبكتاب الله وبسنة رسوله ظاهراً وباطنا وهذا ما نرجوه ونحاوله . ولكن يشترط قبل هذا في مثل هذه المباحث العليا لأجل الوصول للحقيقة فيها أن يتنازل المرء عن هواه وعن كبريائه ، وعن التقليد الذي لاعقل له وعن العصبية الجاهلية الباطلة كي يشيم لمعان الحق عند ابتسامه وعند وضوح ناره ونوره . فان للحق نوراً باهراً ولكن لا يبصره إلا المتواضعون ، أما المتكبرون فانهم وان غشيهم وأحاط بجهاتهم لا يبصرونه . والحق أشرف على الله وعلى الحق من أن يبذل لأصحاب الأهواء وأسرى التقليد وأهل الصدور الموغرة بالحقد والهوى والحسد . واننا بعون الله نذكر هنا عمدة ما يحتجون به من العقليات على هذه القضية ونكشف غلطها وضعفها كيلا يبقى لهم عذر ولا حجة . ولا بد من سؤال الله العون والمدد ، ولا بد من الضراعة اليه كي يلهمنا السداد والرشاد ، ويمنحنا التوفيق والعناية فان عبداً يتخلى ربه عنه وعن عونه لا يفلح أبداً ، وإن عبداً يرعاه الله ويسدد خطاه لا يمكن أن يضل سبيله

فنقول نرجع الى شبهات هؤلاء التي احتجوا بها على نفيهم فنجدها تنحصر في أمور نأتي على ذكرها وعلى ذكر ذي الشان والبال منها . وإننا نذكر الشبهات على المسألة الكبرى مسألة علو الله ونذكر جوابها . وهذا يغني عن ذكر الشبهات على باقي الصفات . فاننا اذا حسمنا مادة الاعتراضات على العلو فانكشفت باطلة لم تبق الاعتراضات الأخرى على الصفات الأخرى ، فان هذه أم الصفات وباب المسألة ورأسها كما هو ظاهر

شبهات النافين علو الله

(الشبهة الأولى)

قالوا لو كان الله فوق العرش لكان جسما ، والتجسيم باطل ، فكونه فوق العرش باطل إذن

هذه إحدى شبهاتهم يذكرها بعضهم مطلقة هكذا وبعضهم يزيد فى التدليل وصياغة الشبهة . ونحن نقول ان هذه الشبهة قائمة على دعويين : الأولى أن كل ما هو فى جهة فهو جسم ، والثانية وباطل أن يكون الله جسما . أما الدعوى الأولى فباطلة بأمرين ضروريين : أحد الأمرين أن الأعراض والمعانى فى جهات بالمشاهدة والضرورة ، وهي ليست بأجسام لأنها قسيمة الأجسام ، وثانى الأمرين أن المخالفين يسلمون لله صفات كثيرة كالعلم والحياة والقدرة والخلق والارادة والوجود ونظائر ذلك ، ومع هذا لا يقولون : ان الله جسم ، بل يصرحون بأنه غير جسم ويكفرون من قال ذلك ، فاذا كانت هذه الصفات لله لا تقضى بأن يكون جسما ، كما يدعون ، لم تكن صفة العلو والاستواء على العرش قاضية بذلك . وهذا إلزام لامخلص ولا مفر منه . ولو طلع المخالفون الى السموات ونزلوا الى أعماق الأرضين ، وجمعوا الجن والانس والذاهب والغابر على أن يجدوا فرقا بين الأمرين ومخلصاً من هذه الحجة وهذا الالزام لما وجدوا ذلك ولما استطاعوا اليه سبيلا . وبهذين الأمرين تبطل المقدمة الأولى من هذه الحجة . ونزيد على هذين الأمرين أمراً ثالثا ، هو أن نقول : إدعاء المخالف أن كل ما هو فى جهة جسم ليس أظهر ولا أبين من أن يقال كل ما ليس فوق ولا تحت ـ الى آخر النفى ـ معدوم لا وجود له . فهذا المعنى الذى تؤدى اليه هذه الحجة هو أظهر بطلانا فى الموازين العقلية من المعنى الذى أقاموا له هذه الحجة . ولن يكون حقاً ما يؤدى الى باطل ،

ولن يكون حقًا ما يلزمه الباطل لزوما عقليا لا محيد ولا فرار عنه . ونزيد أمراً رابعا بأن نقول : هذه الحجة ليست واردة على الله من حيث هو مستو على العرش ومن حيث هو فى السماء بل هى واردة عليه من حيث هو موجود ولا شك ، كأن يقال الله موجود والموجود إما أن يكون جسما قائما بنفسه ، أو عرضا قائما بغيره ، ولا ثالث لهذين الأمرين إذ الموجودات كلها كذلك ، والله موجود ، فاما أن يكون جسما وإما أن يكون عرضا ، وباطل أن يكون الله عرضا ، فلم يبق إلا أن يكون جسما فهو جسم إذن ، فثبت أنه جسم سواء أقيل انه فى السماء أم لا فى السماء ولا فى غيرها . فلا ضرر إذن من القول بأنه فى السماء لأنه لايلزم هذا معنى فاسد من حيث هذه الصفة نفسها . وحينئذ يقال : إن أمكن أن يكون ثم موجود ليس جسما أمكن أن يكون ثم موجود فى السماء أو فى غير السماء وليس جسما بالضرورة ، وإن لم يمكن ذلك ، بأن لزم أن يكون كل موجود جسما أو عرضا لم يبق فى نفى مسألة الاستواء والعلو على العرش فائدة ، لأن المفروض أن هذه الصفة نفيت خوف التجسيم . وقد ثبت أن التجسيم منصب على الله من حيث وجوده لامن حيث علوه وما يلزم الموجود لازم له . أما الاستواء على العرش وعلى الخلق أو الكون فى جهة من الجهات فهو من لوازم الوجود نفسه فهو لازم لا ملزوم من الناحية المذكورة . وهذا واضح جداً وما على المرء إلا أن يتدبره جيداً ليتضح له جيداً . وبهذه الأمور الأربعة فسدت المقدمة الأولى من الشبهة الأولى

وأما المقدمة الثانية ، وهى قولهم والله باطل أن يكون جسما ، فنقول اننا نحن لانقول ان الله جسم ولا نستجيز هذا القول ، كما لانقول ان الله فى جهة ولا نستجيز هذه المقالة ، وانما نقول : الرحمن على العرش استوى كقول السلف قاطبة ، لأننا قيدنا أقوالنا وعقائدنا بالكتاب والسنة لا زيادة ولا نقصان ، والنقصان عندنا كالزيادة ، والزيادة مثل النقصان لأنهما كليهما قول على الله وفى الله بلا برهان من

الله ، بيد أنا نقول إن المخالف لم يذكر برهانا على صحة هذه المقدمة كى تكون مقبولة يحق له أن ينفى بها ما تواردت عليه نصوص كتب الله ، ويحق له بها أن يؤول الكتاب والسنة ، ولا ريب أن قولا يقضى بنبذ النصوص وتحريفها غير حقيق بالقبول إذا لم يكن له حجة قائمة ولا ريب عندنا أن من علم أن إثبات استواء الله على عرشه يقضى بأن يكون جسما قضاء لا شك فيه يلزمه أن يؤمن بما يقضي به ذلك وبما تقضي به هذه الصفة ، لأن هذه الصفة التى هى علو الله قد اتفقت عليها النصوص بلا خلاف . أما ما زعم بأنه ترك النصوص وأولها لأجله فانه لم يذكر عليه برهانا واحداً . ولا يجوز نبذ النصوص المتواترة وعيا لشبهة لم يذكر لها برهان واحد

والمخالفون إذا ماقيل لهم : مابرهانكم على أن الله ليس جسما ، ولماذا تنكرون أن يكون جسما اذا كنتم تزعمون أن الايمان بهذه النصوص يقضى بأن يكون جسما وما يلزم الحق حق وما يقضى به الهدى هدى : اذا ماقيل لهم هذا المقال ، وسئلوا هذا السؤال قالوا انه لا يصح الايمان بالنصوص الدالة على أنه جسم لأن الأجسام حادثة . فلو كان الله جسما لكان حادثا ، ولكن الله غير حادث بل هو قديم يرجع اليه جميع الحادثات ، ولأجل هذا أولنا النصوص ان استطعنا تأويلها ودفعناها إن لم نستطيع التأويل ؟ ثم لو سئلوا مرة أخرى وقيل لهم : مابرهانكم على أن الله لو كان جسما كان حادثاً لقالوا لأن الاجسام كلها حادثة فلو كان جسما لكان حادثا مثلها ، ولكن لم يدر هؤلاء أن قولهم : لو كان الله جسما لكان حادثا لأن الاجسام كلها حادثة مثل قول من يقول : لو كان الله موجوداً لكان جسما أو عرضا . لأن الموجودات كلها اما أجسام واما أعراض ، ومثل أن يقال لو كان موصوفا بصفة لكان مركبًا متعدداً ولكان جائزاً سلبه صفته وتجريده منها لأن كل موصوف فى الشاهد يجوز أن يفقد أوصافه ، وأن يقال : لو كان حيًا لجاز موته ، لأن كل حى

فى الشاهد يجوز أن يموت وأن يفقد حياته ، ولو كان بصيراً لجاز أن يعود أعمى لأن كل بصير فى الشاهد يجوز أن يصير أعمى ، وأشباه هذا الكلام الذى يعارض هذه الشبهة التى يحاول هؤلاء المؤولون أن يبطلوا بها قواطع الاسلام ، ولا ريب أن هذا الكلام مثل قول النافين : لو كان جسما لكان حادثا ، وهذه الأقوال كلها باطلة فاسدة لا برهان لها غير القياس الفاسد الباطل

ولا شك عندنا أن من قال ان الله جسم لا كالأجسام كما يقال ذات لا كالذوات وشيء لا كالأشياء أرشد وأهدى ممن راح يجرد الله من صفات الكمال وأوصافه الثابتة له فى جميع كتبه على ألسنة جميع رسله خوف التشبيه والتمثيل ولا شك أيضاً أنه اذا كان يمكن أن يكون الله لا فوق ولا على العرش ولا فى جهة من الجهات ، وهو الرب العظيم الموصوف بأوصاف الكمال ، أمكن أن يكون جسما وهو الاله العظيم القديم المنزه عن سمات الحدوث وصفات الحوادث ، ولا شك أيضا أن تعطيله سبحانه وتعالى من أوصافه الثابتة له عقلا ونقلا كصفة العلو وغيرها أدخل فى النقصان من القول بأنه جسم لا كالاجسام ان كان فى هذا نقص كما يقال شيء لا كالأشياء ، وذات لا كالذوات

فهذه الحجة باطلة ، ومقدمتاها باطلتان مدخولتان وهذه هى الحجة الأولى

(الشبهة الثانية)

قالوا : لو كان الله فوق العرش أو فى السماء لكان متحيزاً والله منزه عن الأحياز . فالله ليس فوق العرش ولا فى السماء اذن

هذه هى الشبهة الثانية ، وجوابها أن نقول : هم يريدون بالحيز هنا المكان فيريدون بقولهم : انه ليس متحيزاً انه ليس فى مكان ، وحينئذ يقال : هذا الحيز أو المكان الذى قيل ان الله منزه عنه اما أن يراد به شيء وجودى مخلوق

فيكون المعنى ان الله ليس حالاً فى مكان مخلوق حادث ، وليس مظروفا في شيء من ذلك ، واما أن يراد به شيء عدمى اعتبارى ، فيكون المعنى أنه تعالى ليس فى الجهة التى يراد بها الفضاء المحض أى انه ليس فوق الخلائق ولا فوق العالم . فان كان المعنى الأول هو المراد قيل : أجل اننا ننزه الله جل شأنه عن أن يحل فى شيء من مخلوقاته أو أن يحل فيه شيء منها بل هو تعالى بائن عن خلقه وخلقه بائن عنه ، وهو سبحانه فوق جميع الخلائق منفصل عنها منفصلة عنه . فهذا المعنى منفى عن البارى باطل فى حقه . وأما ان كان التقدير الثانى هو المراد ، وكان يراد بالحيز هنا الفضاء فيراد أنه تعالى ليس فوق الخلق ولا بائنا عن العالم ، قيل هذا باطل وهذا ما تأباه إذ هو خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف والرعيل الاول . فان مافوق العالم وما فوق الخلائق فضاء محض وعدم صرف ليس شيئاً وجوديا مخلوقا وليس حادثا لأنه عدم ، والعدم قديم ، لأنه ليس مخلوقا . إذ المخلوق هو الشيء الوجودي فالذى يخلق هو الموجود لا المعدوم . فان الفضاء عبارة عن لا شيء والعالم المخلوق المربوب الحادث واقع فى الفضاء حالّ فيه ، والفضاء ليس حالا فى شيء لأنه عدمى اعتبارى ، و لو كان كائنا فى شيء مخلوق حادث لكانت المخلوقات المعينة المشخصة فى الخارج لا نهاية لها ، وهذا باطل ضرورة ، وعلى هذا إذا قيل ان العالم كائن فى مكان ، وان المخلوقات واقعة فى مكان أو حيز قيل ماذا يعنى بالمكان أو بالحيز الذى زعم أن المخلوقات كائنة فيه ؟ أيعنى أن الخلائق كلها حالة فى شيء مخلوق حادث بعد أن لم يكن ؟ أم يعنى أن العالم المخلوق قائم كله فى العدم الذي يعبر عنه بالفضاء والخلاء أو باللاشيء ؟ أما الاول فلا يمكن أن يعنى لأننا اذا قلنا العالم أو الخلائق عنينا بذلك جميع ماخلقه الله وجميع ماحدث بعد ان كان فى عالم العدميات ، واذا كان ذلك كذلك فلا يمكن أن تكون الخلائق كلها كائنة فى خلائق أخرى ، بحيث مامن مخلوق يفرض إلا وقد حل فى مخلوق

آخر وهلم جرا . فان هذا يلزمه المحال الممتنع . لأننا اذا قدرنا أن المخلوقات سلسلة متواصلة الوحدات ، كل واحدة منها واقعة فى أخرى ، وقف بنا التقدير ولا محالة عند آخر السلسلة ثم قيل : وآخر السلسلة بماذا يحل ؟ فلا بد ألا يكون آخر السلسلة حالا فى مخلوق من السلسلة نفسها . لأننا فرضناه آخرها ولو كان ما فرضناه آخرها كائناً فى مخلوق آخر لما كان هو آخرها ، وما من شىء يقدر الآخر للسلسلة والنهاية للخلائق إلا ويسأل عنه هذا السؤال ويورد عليه هذا الاشكال حتى ينتهى السؤال عند آخر نهاية الخلائق ، ولا يمكن أن يكون بعد نهايتها شىء منها والا لما كان ما سميناه نهايتها نهايتها ، وهذا باطل ، ولا بد أن يكون للخلائق نهاية ، ونعنى بالخلائق الاشياء الحادثة المعينة ، وهذا ضرورى . فالمخلوقات المعينة الخارجية محدودة بحدود جعلها الله لها . ومالا يكون له حدود لا يمكن أن يكون مخلوقا مربوبا بلا شك ، وعلى هذا لنفترض العالم كله — ونعنى به المخلوقات — مخلوقا بشكل كروى يشبه البيضة أو البطيخة أو القبة أو ما ماثل ذلك . فاذا ما افترضنا العالم كله كذلك فلابد من أن نفترض لهذا العالم الكروى المحدود سطحا ، ونعنى بالسطح النهايات من جميع جهاته الخارجية كسطح البيضة مثلا . فاذا ما افترضنا هذا كله فلا بد من أن نفترض أن سطح العالم قائم فى الفضاء المحض العدمى ، ولا بد أن نقول إنه قائم فى شىء غير مخلوق ، بل قائم فى الفضاء ، وحينئذ اذا قال قائل : ان العالم قائم فى مكان أو حيز قيل له ماتعنى بهذا ؟ أتعنى أن العالم قائم فى عالم آخر ؟ إن كنت تعنى هذا فهذا باطل ضرورة وان كنت تعنى أنه قائم فى الفضاء الذى هو ليس مخلوقا وليس فى الحقيقة شيئا وإنما تعنى أنه قائم فى لا شىء قيل هذا حق صحيح ، ولكن تسمية هذا حيزاً أو مكانا يجب ألا يفهم منه معنى غير صحيح يترتب عليه معنى آخر غير صحيح فان الاسماء كثيراً ما تغير الحقائق فى أنفس المسمين لها لا فى ذاتها هى .

فليرع هذا جيدا

وعلى هذا فاذا قال قائل : ان الله فى حيز أو فى مكان قيل له ماذا تريد بالحيز والمكان ؟ أتريد أنه فوق العالم أجمع وفوق المخلوقات كلها ليس فى شىء منها وليس منها شيء فيه ، وتعنى أنه منفصل عنها ومنفصلة عنه وأنه على العرش استوى ؟ فان كنت تعنى هذا قلنا : هذا حق صحيح لا ريب فيه ، ولكن الكلام فى تسمية هذا حيزاً أو مكانا ، فاننا نأبى اطلاق هذا اللفظ على هذا المعنى لأن فيه اشترا كا ، ولأن فيه إيهاما ، ولأن بعض الناس قد يعنى به باطلا ليس فيه ، ولأنه لم يرد شرعا والخلاف يرجع حينئذ الى الألفاظ . أم تريد بقولك إنه فى حيز أو فى مكان أنه حالّ فى شيء مخلوق مظروف فيه ؟ فان كنت تريد هذا فهو باطل فان الله سبحانه منزه عن أن يحل فى شيء من خلقه أو أن يحل فيه شيء منهم بل هو بائن عن المخلوقات وهذا معنى قول السلف ان الله بائن عن خلقه وخلقه بائن عنه . وبهذا التفصيل ينكشف الاشكال ، وتنكشف هذه الشبهة

(الشبهة الثالثة)

قالوا : لو كان الله فوق العرش وفى السموات لكان على احدى حالات ثلاث بلا ريب : إما أكبر من العرش وإما أصغر وإما مساويا له ، قالوا : والحالات الثلاث باطلة . فالقول بأنه على العرش باطل إذن ، قالوا أما القول بأنه أصغر من العرش أو مساو له فلا ينازع عاقل فى بطلانه ، وأما القول بأنه أكبر منه فباطل أيضا ، لأنه لو كان كذلك لكان تعالى مركبا من أمرين اثنين : من القدر المساوي للعرش ومن القدر الزائد عليه الذى صار به أكبر منه ، والباري مبرأ من التركيب والأجزاء لأن المركّب لابد أن يكون له مركِّب ، والمركَّب مخلوق حادث ، لأنه على وزن مفعول ، ولا بد له من فاعل ، وهذا محال باطل ،

وبهذا صح أن البارى ليس مستويا على العرش وليس فى السماء

والجواب أن نقول : هذه الشبهة ـ ان كانت صحيحة أو كانت باطلة ـ ليست واردة على الله ـ ان صح أن ترد ـ من جهة استوائه على العرش وعلوه على خلقه ، وانما هى واردة عليه تعالى ان أمكن الورود من حيث وجوده تعالى . فان الله موجود والعرش موجود فهما موجودان فهما داخلان تحت هذا الاعتراض وارد عليهما هذا التقسيم بأن يقال مثلا : ان الله موجود والعرش موجود ، فاما أن يكونا متساويين أو يكون العرش أكبر أو يكون الله أكبر، لأن كل موجودين إما متساويان أو أحدهما أكبر من الآخر ولابد ، وباطل أن يكون الله أصغر من العرش أو أن يكون مساويا له إذ لا يقول عاقل إن ربه أصغر من العرش أو أنه مثله ، وأما القول بأنه أكبر فلا يمكن أيضاً ، لأنه اذا كان أكبر كان مركبا من أمرين اثنين : من القدر المساوى للعرش ومن القدر الزائد عليه ، وباطل أن يكون الله مركبا لأن المركب مفعول والمفعول لا بد له من فاعل ، وتقدس البارى عن التركيب والحدوث وسماته أو يقال مثلا : الله موجود والعالم موجود ، فهما إما متساويان وإما أن يكون العالم أكبر أو يكون الله أكبر والأقسام الثلاثة باطلة لما ذكر . أو يقال الخالق موجود والمخلوق موجود فاما أن يكونا متساويين ، وإما أن يكون الخالق أكبر أو يكون المخلوق أكبر ، ولا فرار من الأقسام الثلاثة ، والأقسام الثلاثة باطلة لما ذكر أيضاً ، أو يقال نحو ذلك من الأقسام والتقسيمات التى لا تخرج عما ذكر الخصوم . والنتيجة التى تلازم هذه المقدمات الصحيحة عند المخالفين معلومة باطلة بالضرورة والاجماع لأن النتيجة تكون حينئذ هكذا : فاما أن يكون الله غير موجود أو يكون العالم غير موجود ، والأمران باطلان بالاتفاق ، فلا بد إذن أن تكون المقدمات التى ألفت هذه النتيجة مقدمات باطلة فاسدة وإذا ما كانت المقدمات هكذا لم تكن صالحة لأن تكون دافعة النصوص الكثيرة من الآيات والأحاديث

فى استواء الله على عرشه وخلقه ، بل لم تبق صالحة لشىء من الأشياء . وهـذا هو المطلوب

وليس من شك عندنا فى أن هـذه الشبهة واردة على الموجودين من حيث الوجود لا من حيث ان أحدهما فى جهة من الآخر ولا من حيث ان أحدهما مستو على الآخر فاننا إذا عرضنا على العقول موجودين منفضين عن جميع الأحوال الأخرى من علو وهبوط وقرب وبعد ، واستواء وغيره ، فلا محالة أن تفترض العقول أن هذين الموجودين إما متساويان ، وإما أن يكون أحدهما أكبر والآخر أصغر ، ومن المحال الظاهر ألا توجب العقول هذه القسمة وأحد هـذه الأقسام قبل أن يعرض عليها أو يعرض فيها مكان أحد الموجودين من الآخر وحيزه من حيزه ، وقبل أن تعرف ان أحدهما مستو على الآخر والآخر مستوى عليه ، أو أنهما متباينان منفصل كل واحد منهما عن قرينه ، هذا ما لا بد منه . فاذا عرض على العقول بعد هذا أن أحد هذين الموجودين مستو على الآخر أو فوقه أو تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو نحو ذلك لم يزدها هـذا شيئاً ولم يغير حكمها وتقديرها أحد الأقسام الثلاثة وقضاءها بأنه لا انفصال عن تلك القسمة المفروضـة . فكان أحد الموجودين من الموجود الآخر لا تأثير له مطلقا من هذه الناحية فى وجوب افتراضها هذه الأقسام الثلاثة وإيجابها لأحد الأقسام . فان كان ممكنا أن يكون هناك موجودان لا تجب فيهما هذه القسمة ولا يجب لهما أحد الأقسام أمكن أن يكون هناك موجودان مستو أحدهما على الآخر ، وكل واحد منهما فى جهة من أخيه مع القول بأن هـذه القسمة ليست واردة عليهما وليس أحد الأقسام واجباً لهما ، وإن لم يمكن أن يكون هناك موجودان إلا ولا بد أن ترد عليهما هذه القسمة والشبهة فلا فائدة فى نفى الاستواء مخافة ورود هذه القسمة وأحد هـذه الأقسام ، لأن ذلك وارد على الموجود من حيث هو موجود لا من حيث أن ذلك الموجود في مكان وجهة . وهذه أمور أولية

لا يمكن أن ينازع فيها من تصورها تصوراً جيداً فهذه الشبهة إذن داحضة لا يعبأ بها

ومما يبين بيانا قاطعاً أن هذه القسمة واردة على الوجود لا على الاستواء أننا نعلم بالبرهان العقلى القاطع أن المكان الذى هو الفضاء المحض الذى هو ظرف الخلائق الحادثة ليس في مكان ولا يحتاج الى مكان ، لأننا لو قلنا ان المكان يحتاج الى مكان لكان هذا قولا باطلا مستحيلا . فالمكان الذي هو الفضاء الذى هو الظرف للخلائق لا يحتاج الى مكان ولا يمكن أن يكون فى مكان . واذا علم أن المكان الذي هو الفضاء والخلاء ليس فى مكان قيل ان العقول كافة اذا عرض عليها هذا المكان الذى هو الفضاء والذى ليس فى مكان ، ثم عرض عليها موجود آخر ، فتصورت هذا الموجود وتصورت المكان الذى هو الفضاء ، فلا بد أن تفرض أن هذين الأمرين أعنى الفضاء والموجود المفترض إما أن يكونا متساويين فى القدر وإما أن يكون الفضاء أكبر ، وإما أن يكون الموجود الآخر المفترض أكبر ، ولا يمكن أبداً ألا تفترض هذه القسمة ولا يمكن الا أن تقضى بأحد هذه الأقسام ، ولا يمكن أن تقدر امكان الخروج من هذه القسمة العقلية ، هذا غير ممكن مع العلم بأن المكان الذى هو الفضاء ليس فى مكان ولا يمكن أن يكون فى مكان ، ولا يحتاج اليه البتة . إذن هذه القسمة وهذه الأقسام الثلاثة المذكورة ترد على الأمرين بلا ريب وان كان أحدهما ليس فى مكان ، بل وان كان ليس مستويا على شيء ولا محتاجا الى هذا الاستواء مطلقا ، كما وردت هذه القسمة على المكان المفترض وعلى الموجود المخلوق

واذا كان ذلك كذلك علم أن هذه الشبهة وهذه القسمة تعرض للأمرين لا لأن كلا منهما فى مكان ، ولا لأن أحدهما فوق الآخر ومستو عليه ، بل الشبهة أو القسمة ترد على الأمرين من حيث ذاتهما ووجودهما ، أما الاستواء أو العلو فأمر

لا تأثير له من هذه الناحية يقينا

وشيء آخر يدل على هذا دلالة واضحة ، ذلك أننا اذا افترضنا وجود أمرين قبل وجودهما وقبل كونهما ، فلا بد أن نقدر أن هذين الأمرين حينما يوجدان إما متساويان وإما أن يكون أحدهما أكبر أو أصغر ، ولا بد أن تقدر هذه القسمة وأن تعلمها وتحكم بها جميع العقول على هذين الأمرين اللذين قدر وجودهما تقديراً وفرض فرضا قبل أن يوجدا ويخلقا ، فاذا وجدا وخلقا بعد التقدير والافتراض لهذه القسمة لم يتغير هذا التقدير ، ولم يختلف هـذا الافتراض يقينا ، وانما يطلب بعد وجودهما معرفة أحد هذه الأقسام المفترضة ، أما ايجاب وجود هذه الأقسام الثلاثة وهذه القسمة الثلاثية فأمر معلوم قبل وجودهما وقبل خلقهما فى مكان ما ، بل وقبل التفكير فى المكان وفى وجوب المكان لهما إذ هذا أمر آخر . هذه أشياء واضحة جلية لاخلاف فيها عند من تصورها تصوراً جيداً

وهؤلاء لما وجدوا أن الموجود المستوى على الشيء لا بد أن يكون أكبر من ذلك الشيء المستوى عليه أو أصغر أو مساويا حسبوا أن وجوب هذه القسمة آت من جهة صفـة العلو والاستواء ، وما علموا أن ذلك آت ان كان آتيا من جهة الوجود ، فاختلط عليهم الأمر فقالوا ما قالوا ، وهذا غلط بلا ريب

وعلى كل حال فان هؤلاء لن يظفروا بفرق بين قولهم هـذا وحجتهم هذه ، وبين أن يقول غيرهم : الله موجود والعرش موجود ، فاما أن يكونا متساويين أو أو أن يكون الله أكبر أو يكون العرش أكبر ، والأقسام الثلاثة باطلة . فهذه الحجة واردة ولا محالة ، فلا فائدة إذن فى نفى الاستواء فراراً منها إذ هى واردة سواء أقيل بالاستواء أم بانكاره

هذا ما يقال من جهة ، ثم يقال من جهة أخرى : ولمـاذا لا يقال الله تعالى أكبر من العرش بل أكبر من جميع المخلوقات ؟ بل لماذا لا يجب هذا القول ولماذا

لايجب أن يكون كذلك كما يقول المسلمون فى صلواتهم وفى كل حالاتهم : الله أكبر ، أى أكبر من كل كبير ومن كل شىء فى الأرض وفى السماء ، كما يقولون الله أعظم وأعلم وأمثال ذلك مما لا يختلف المؤمنون بالله فى جوازه ووروده فى الشرائع جميعا ، وفى اتفاق الناس المقرين بالله تعالى عليه ؟ وهم اذا قالوا أمثال هذا الكلام كان مرادهم أنه أكبر وأعظم وأعلم من جميع المخلوقات والموجودات ، لا يتنازعون فى هذا كما لا يتنازعون فى جوازه وجواز قوله ، بل كما لا يتنازعون فى وجوب قوله واعتقاده . ومتى اختلف المؤمنون فى أن الله أكبر وأعظم وأعلم من جميع الكبراء والعظماء والعلماء ؟ ومتى كان مثل هذا القول واعتقاده باطلا أو مختلفا فيه أو مشكوكا فى جوازه ؟ فالله أكبر من العرش ومما تحت العرش ومن كل شىء فى الأرض أو فى السماء ، وهل ينازع فى هذا مؤمن أو يأباه عارف بالله ؟

ياويح هؤلاء المخالفين ! ويالما أكثر حيرتهم وأطول حسرتهم ! أنكروا علو الله على خلقه واستواءه على عرشه وفارقوا نصوص الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح وعاندوا الفطرة والبداهة ، فجحدوا هذه الصفة ثم شعبوا عن هذه البدعة ما شعبوا ، وفرعوا عنها ما فرعوا ، وما زالوا يفرعون ويشعبون ، حتى قالوا بانكار أن يكون الله أكبر من عرشه ومن خلقه ، فأنكروا أن يكون الله كبيراً ثم أنكروا أن يكون أكبر من غيره ! وليس إنكارهم أن يكون الله أكبرمن خلقه بأقل قبحا وضلالا من انكارهم علوه واستواءه على عرشه ، وهذه عاقبة من ينبذ كتاب الله وسنة رسوله وما أجمع عليه السلف زاعما أنه هدى الى ما لم يهد اليه السلف الصالح وزاعما أنه قد اخترق طباق الظواهر حتى نفذ فى قلب الحقيقة وغرق فى أحشاء الحق القصى المكتتم المضنون به على أهل النصوص والظواهر والآيات الظنية وأحاديث الآحاد ! أما المسلمون جميعا الذين لم تفسد فطرهم وقلوبهم ، والذين وقفوا حيث وقف الكتاب والسنة وانتهوا حيث انتهيا فيعلمون أن الله أكبر من العرش

ومن كل شيء ، ويعلمون أن من أنكر هذا فقد ضل الضلال البعيد وجحد صفة من صفات الحق لا يتنازع العقل والنقل في وجوبها لله . وأما ما يقال في الشبهة بأنه لو كان أكبر من العرش لكان مركبا من القدرين المساوى والزائد فهو قول مركب من أمشاج الباطل منسوج من خيوط الأوهام الواهية ، وبيان هذا أن هذه الشبهة أو الحجة مثل أن يقال : لو كان لله صفات وذات لكان مركبا من أمرين من الذات والصفات ، والمركب لابد له من مركب لأنه مفعول فلا بد له من فاعل يخلق فيه التركيب والامتزاج ، فالله إذن إما أن يكون مركبا وإما أن لا يكون له صفات أو لا يكون له ذات لئلا يكون مركبا . وهذه أشياء فاسدة باطلة ، وهذا مثل أن يقال : لو كان الله موجوداً لكان محتاجا الى موجد إذ ما من موجود في الشاهد إلا وهو محتاج الى من يوجده ومن يحفظ له الوجود ، وعلمنا هذا كعلمنا أن كل كبير وكل ما هو أكبر من غيره فلا بد له من فاعل قاهر أوجد له الكبَر وخلق فيه صفة الكبير وألف أجزاءه وما هو به كبير حتى صار كبيراً وحتى أصبح أكبر من غيره فان كان هذا القول صحيحا كان ذلك مثله صحيحا ، وان كان باطلا كان ذلك مثله باطلا . لأنه لافرق بينهما في القانون العقلي يقينا مع مراعاة أن الاشياء العقلية لا تؤخذ بالالفاظ والعبارات

ومثل هذه الحجة أو الشبهة أيضا أن يقال : لاريب أن صفات الله متغايرة كل صفة خلاف الصفة الأخرى لفظاً ومعنى ، وكذلك اسماؤه . فلا ريب أن صفة علمه غير صفة خلقه ، وان صفة خلقه غير صفة إرادته ، وصفة ارادته غير صفة أمره ونهيه ، وصفة أمره ونهيه غير صفة وجوده . فصفاته تعالى وكذلك أسماؤه متغايرة متعددة . فان اسمه الرحمن غير اسمه المنتقم الجبار ، واسمه الخلاق غير اسمه العالم والمريد وأشباه هذا ، واذا كان ذلك كذلك قيل إذن صفات الله وأسماؤه مركبة من أشياء مختلفة متعددة ، والمركب مخلوق مصنوع . فاما أن

تكون صفات الله وأسماؤه مخلوقة حادثة ، واما ألا يكون له أسماء ولاصفات . لان القول بأن له ذلك قول بأنه مركب مخلوق محتاج الى من يركبه ، ولا شك أن هذه الاقاويل ونظائرها أقاويل فاسدة باطلة مع أنها لا فرق بينها وبين حجتهم هذه يقينا . والدلائل التى تؤلف نتائج باطلة لابد أن تكون هى باطلة أيضا وان لم يعرف مكان فسادها وبطلانها ، وهذا غير لازم فى معرفة بطلان الامر وفساده

وكشف الغطاء عن هذا أن كلمة « التركيب ، والمركب » فيها اشتراك واشتباه يلبسان الحق بالباطل كثيراً ويقنعان وجه الحق حتى تضل عنه الابصار والبصائر وهذا شأن جميع الألفاظ المحدثة المبتدعة التى لم ترد فى الكتاب ولا فى السنة الصحيحة . فان المركب قد يراد به الشيء الذى كان مفرقا فجمع وألف بعد أن لم يكن كذلك ، وهذا كما يقال الساعة أو الطيارة مركبة ، والانسان مركب من مواده الاولية كما قال الله تعالى « فى أى صورة ماشاء ركبك » أى جمعك بعد أن كنت أجزاء مفرقة فى الماء والهواء والغذاء ، ومثل هذا مركب حقيقة لغة وشرعا وعقلا ، وأهل اللغة يسمون هذا النوع تركيبًا ومركبا لا يختلفون فى هذه التسمية وهذا الاسم

وقد يراد بالمركب ما يمكن أن يفترض العقل جواز تركيبه وجواز أن يكون قد جمع وركب بعد أن كان مفرقا مبعثراً . والعقل قد يفترض المحالات وما لايمكن وجوده فى الخارج . فقد يفترض أن القديم الواجب الوجود قد لا يكون واجب الوجود ولا قديما وقد يفترضه حادثا وغير موجود فى زمن من الأزمان وحالة من الحالات ، كما قد يفترض الحادث الوجود المخلوق المربوب قديما واجب الوجود لا يمكن فناؤه ولا عدمه ، وقد يفترض أيضاً كل موصوف وان كان قديم الوصف والصفة ، فاقداً صفاته مجرداً من أوصافه ، كما قد يفترض كل حى ميتاً فانيا ، بل قد يفترض الشيء لا قديمًا ولا حادثا ولا واجب الوجود ولا جائزه ، ولا خالقاً

ولا مخلوقا . وقد يفترض غير ذلك من الحالات التى لا يمكن أن تقع فى عالم الوجود والحقيقة المشهودة ، كما قد يسمى أقوام علم الله وإرادته وسائر صفاته وأسمائه تركيبا فيفزعون الى انكار الأسماء والصفات لأجل ذلك ولأجل أنهم حسبوا هذا تركيبا لا بد له من مركب يوجد فيه التركيب والامتزاج ، كما سمى هؤلاء النفاة لعلو الله عظمته و كبره تركيبا ففزعوا منه وأنكروا أن يكون الله كبيراً وأ كبر من عرشه وخلقه فعاندوا النصوص والضرورة والفطرة والدلائل العقلية التى لا تعد ، وجعلو هذه البدعة المنكرة حجة على البدعة الأخرى وهي انكار علو الله واستوائه على خلقه وعرشه ، ولكن لا ريب أن هذه الأقوال وأمثالها أوهام متماسكة آخذ بعضها برقاب بعض أخذت تقليداً واتباعا مجرداً من الاختيار ، وقلد فيها الآخر الاول بلا نظر ولا بصر فعز أمرها وشأنها حتى حسبت حقاً لا يدفع ولكنها في الحق من أضعف الباطل وأهونه ! و ذلك ان التركيب هو الجمع والتأليف بين الوحدات المتفرقة المبعثرة كتركيب الانسان والآلات المصنوعة مثل الطيارات والساعات وأشباه هذا فهذه أشياء مركبة حقيقة لغة وشرعا وعقلا لأن مركبًا قد ركبها وأوجد لها صفة التركيب والمركب ، وقد كانت قبل هذا ليست كذلك ، فهي مصنوعة مخلوقة حادثة ، وأما ما ليس هنالك برهان على أنه مركب وأنه أوجد له التركيب غير افتراض العقل ذلك وافتراضه جوازه ، وافتراض أنه كان له التركيب بعد التفريق فهذا ليس مركبًا يقينًا لا لغة ولا شرعا ولا عقلا حتى يقوم الدليل على أنه قد لحقه وصف التركيب والمركب بعد عدمه . فان التركيب وصف ، أو نسبة بين أمرين أو أمور ، حادث باحداث قادر عليه متقدم عليه زمانا ومكانا. هذا هو التركيب بلا خلاف بين أهل اللغة والعقل ، وحينئذ فما علم بالبرهان أنه كذلك فهو مركب قد لحقه تركيب مركب فاعل ، وما لم يعلم أنه كذلك سوى افتراض العقل أو الوهم فلا يقال انه مركب ولا يوصف بالتركيب يقينا . وهذا

جلى واضح . وهكذا سائر المعانى وما يسمى بالاعراض أو الصفات ، فالخلق مثلا يراد به الايجاد المسبوق بالعدم . وكل موجود من قديم وحادث قد يفترضه العقل أو الوهم مخلوقا وقد يفترض أن صفة الخلق الذى هو الايجاد قد لحقته بعد عدمها ، كما قد يفترضه قديما واجب الوجود لم يطرأ عليه عدم ولا خلق ، وكما قد يفترض أن كل موصوف ، وان كان قديم الوصف حادث الوصف مخلوقه ، كما قد يفترض الحى وان كان قديما يجوز أن يموت ويفنى ، الى أشباه ذلك مما مصدره الوهم والافتراض والتصور العام والقياس الناقص ، ولكن شيئا من ذلك لا يقبل ولا يصح أن يقبل حتى يقام عليه البرهان القوى الصحيح والحجة الظاهرة القوية ، فلا يقال ان موجوداً ما مخلوق حادث حتى يدل البرهان الصحيح عليه ، ولا يقال ان حياً من الأحياء يمكن أن يموت وأن يفقد حياته حتى يقام على ذلك البرهان الصحيح أيضا ، ولا يقال ان موجوداً ما مركب حتى يقام على هذا القول البرهان أيضا . وقد يتوهم العقل كما ذكرنا أن القديم الواجب الوجود ، الذى وجوده من ذاته حادث مخلوق لا لدليل سوى أنه موجود ، والموجود قد يكون كذلك ، أي قد يكون حادثا مخلوقا كما جاء فى الحديث الصحيح أن النبى الكريم ﷺ قال : « يجىء أحدكم الشيطان فيقول هذا الله خالق العالم فمن خلق الله ! فاذا وجد أحدكم ذلك فلينته » وهذا العارض يرد على عقول كثيرين من المؤمنين ، وقد يجثم فى صدورهم حتى يعسر زياله فيذهبون يتساءلون عن ذلك ويذهب الشيطان يلقى السؤال المذكور فى الحديث ويصوغه على ألسنة المصابين بهذا الوسواس كما ورد على عقول هؤلاء المخالفين أنه لو كان الله كبيراً وأكبر من العرش لكان مركبا مؤلفا ! فأنكروا لذلك أن يكون كبيراً ، ثم أنكروا تبعاً لهذا الاستواء والعلو . والعقول تعلم بداهة بطلان هذا الوهم والسؤال ، وتعلم بداهة أنه لا بد من الايمان بقديم واجب الوجود لا يفتقر الى غيره بوجه واحد من وجوه الافتقار والاحتياج . وإلا لو كانت الموجودات

كلها حادثة مخلوقة لكانت الحوادث تحدث بلا محدث وبلا سبب حادث . وهذا باطل فاسد بنظرات العقول الأولى . فان من أظهر علوم البشر وأدومها علمهم أن الحوادث لا تحدث بأنفسها بلا محدث سابق عليها

وعلى هذا فاذا قال المنكرون لعلو الله انه لو كان تعالى أكبر من العرش لكان مركبا قيل لهم ماذا تريدون بالتركيب ؟ أتريدون أنه مركب لمركب فاعل أوجد فيه التركيب بعد أن كان فاقداً ذلك ؟ ان كنتم تريدون هذا المعنى قيل لكم : كيف علمتم أنه اذا كان كبيراً وأكبر من عرشه وخلقه فلا بد أن يكون مركبا ذلك التركيب ، وما البرهان عليه ؟ لاشك أن مثل هذه المقالة لا بد لها من الحجة الظاهرة ، كما أن قول القائل : الموجود لابد أن يكون حادثا مخلوقا ولا بد أن يكون له موجد لا يقبل ولا يسمع إلا ببرهان . وهذا المقال مثل ذلك المقال عند التبصر . فان قولهم : الكبير والأكبر لابد أن يكون مركبا لمركب وهبه صفة التركيب مساو للقول بأن الموجود لابد أن يكون حادثا مخلوقا لخالق محدث ، ومساو للقول بأن الموصوف من حيث هو موصوف حادث الصفة مخلوقها فهو جائز أن يفقد ذلك وأن يعود غير موصوف ، ومساو للقول بأن الحي من حيث هو حي موهوب الحياة معطاها ليس واجبها ولا قديمها ، فهو جائز عليه أن يفقدها الى أشباه هذا . وهذه أقوال كلها فاسدة باطلة

وأما ان كانوا يريدون أنه لو كان كبيراً وأكبر من عرشه وخلقه لكان مركبا ، بمعنى أن العقل أو الوهم قد يفترضه كذلك ، قيل لهم هذا لا يضير شيئا ، وذلك أن العقل يفترض المحالات التي لا يمكن أن تقع في الخارج ، كما أنه قد يفترض موجوداً لا قديما ولا حادثا ، ولا واجب الوجود ولا جائزه ، وهذا محال صدقه ووقوعه ، وكما قد يفترض القديم حادثا والحادث قديما . وقد يفترض جسما قائماً بنفسه ليس في مكان ولا جهة من الجهات بحيث لا تمكن الاشارة اليه

وقد قال قائلون : ان هناك رباً قديما قائماً بنفسه مصدراً لجميع الحوادث مجرداً من جميع الصفات الوجودية والعدمية . وهذا من أظهر المحالات في العلوم البشرية ، فان موجوداً ما لا يمكن أن يتجرد من جميع الصفات العدمية والوجودية ، وليس الموجود إلا الموصوف بصفة الوجود والثبوت والامتياز عن غيره وعن المعدومات وإلا فان الموجود المجرد من الصفات مساو للمعدوم بل هو المعدوم عينه . ومن قال ان الله موجود وهو مجرد من جميع الصفات فقد قال بانكاره ولكن بعبارة منافقة غبية ، وبعبارة جاهلة مراوغة ، ولا فرق عندنا بين أن تقول : ان عندى شيئا لا يميناً ولا شمالا ولا فوق ولا تحت ، ولا فى جهة من الجهات ، وليس له وجود ولا عدم ولا امتياز ، ولا يوصف بصفة من قلة و كثرة ، وبين أن تقول ليس عندى شيء . فالقولان سواء فى أن كلا منهما يعبر عن العدم والفقدان ، بيد أن القول الثانى أصرح وأخف وأوضح فى المراد ، و كذلك لا فرق بين أن تقول ان للعالم رباً مجرداً من جميع الأوصاف بحيث لا يوصف بعلم ولا حياة ولا وجود ولا قدرة ولا علو ، وبحيث لا يوصف بصفة من الصفات وبحيث لا يشار اليه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل به ولا منفصل عنه ، وبين أن تقول ليس للعالم رب ولا خالق . ولهذا كانت أقوال هؤلاء المعطلين معدودة عند السلف من الالحاد الصريح والجحود لرب العالمين ، وكانوا لأجل هـذا يشتدون فى الحكم على الجهميـة أئمة التعطيل ، ويسمونهم الملحدين والكفار أحيانا ، ويفتون بقتلهم ردة ، لأن مقالاتهم هذه هى من شر أنواع الانكار والالحاد . ولا ريب عندنا أن الذين ابتدعوا هذه العقائد الجهمية المعطلة فى الاسـلام كانوا خونة ادعوا الايمان والاسـلام خداعا وكيداً ليفسدوا ذلك . وهنالك أقوال رواها عنهم السلف مثبتـة فى كتاب السنة لابن الامام أحمد بن حنبل ، وفى كتاب خلق أفعـال العباد للبخارى تدل دلالة قوية على ما نقول . وقد حدثوا عن الجهم بن صفوان أحد مراجع التعطيل والتجريد

أنه أنكر وجود الله أربعين صباحا ، وذكروا عنه أنه مرّ بآية الرحمن على العرش استوى فتمعر وجهه غيظا وغضبا ورمى بالمصحف من يده، وقال : لو استطعت أن أحك هذه الآية من المصحف لفعلت . ولا ريب أن مثل هذا القول لايصدر عن قلب لامسه الايمان وعقد على الاسلام . وقد علم أن جماعات كثيرة دخلوا في الاسلام أو ادعوا الدخول فيه على الأصح مكيدة للاسلام وخداعا لأهله كما فعل ابن سبأ واضع المذهب الشيعي الغالي ، وكذلك فعل غيره ، علم منهم من علم ، وجهل من جهل

(الشبهة الرابعة)

قالوا : لو كان الله فوق عرشه وخلقه لكان محدوداً بحدود ذاتية مكانية ، والله ليس محدوداً بحد ما

والجواب أن نقول : ان هذه الحجة كما قد قدمنا ترد على الموجود من حيث هو موجود ، ومن حيث هو قائم بنفسه ، لا من حيث انه مستو على العرش أو على شيء من الأشياء . فان كانت هذه الحجة صحيحة واردة فهي واردة على كل حال لايدفعها نفي الاستواء والعلو على العرش ، وان لم تكن صحيحة ولا واردة لم يوردها ولم يقض بورودها القول بالاستواء والعلو . فالقول بالاستواء ـ سواء أكان حقاً أم باطلا ـ لا يضر ولا ينفع في هذه المسألة يقيناً . وذلك أن يقال لو كان الله موجوداً لكان محدوداً ، لكن الله لا يحد بحدود ذاتية مكانية ، أو يقال الله موجود وكل موجود محدود فلا بد أن يكون محدوداً . فان أمكن أن يكون ثمت موجود قائم بنفسه ، موصوف بكل صفات الكمال ، وليس محدودا أمكن أن يكون هنالك موجود مستو على الخلق ، وليس محدوداً بحد ما لا زماني ولا مكاني ولا ذاتي وإن لم يمكن وجود شيء ما وقيامه بنفسه إلا أن يكون محدوداً بحدود ونهايات لم يفد نفي

الاستواء والعلو في دفع هذه الحدود والنهايات لأنها واردة على الموجود لازمة له . فالقول إذن بنفي الاستواء والعلو لا يضر ولا ينفع في هذه المسألة ألبتة . وهذا واضح

وإذا كان ذلك كذلك لم يجز القول بانكار ما اتفقت عليه الكتب المقدسة والفطر كلها والضرورة والاجماع دفعاً لشبهة هي غير مدفوعة ولا باطلة . وهذا لا نزاع فيه عند من تبصر وفهم

والقول بالحد لذات الله لم يرد في الكتاب ولا في السنة تنصيصاً وتصريحاً فيما أعلم . ولكن جاء هذا القول عن السلف الصالح ونطقوا به وجعلوه معنى لاستواء الله على عرشه وعلوه على خلقه، وانفصاله عنهم وانفصالهم عنه تعالى ، فان مذهب السلف الذي لا يختلف فيه بينهم أن الله سبحانه مستو على عرشه عليّ على خلقه بائن عن غيره بائن غيره عنه . وهذا هو الفصل بينهم وبين أهل البدعة والضلالة ، لأن فريقاً من المبتدعين صار الى القول بحلول الله في خلقه وحلوله في كل مكان وذات ! ! وهذا شر من قول النصارى والحلولية . وفريق آخر متأخر صار الى القول بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا بائن عنه ولا حالّ فيه ولا فوق ولا تحت ولا يميناً ولا شمالا ولا وراء ولا قدام ولا تمكن الاشارة اليه بوجه من الوجوه . وهذا القول مساو لقول الملحدين المنكرين لوجود الخالق إلا أنه بعبارة مراوغة منافقة . وهذا مثل أن يقال : ان الله لا موجود ولا معدوم ، ولا خالق ولا غير خالق ، ولا قديم ولا حادث ، كما يقول هذا الاسماعيلية وغيرهم من فرق الشيعة . وهذا كله جحود والحاد بلا خلاف بين العقلاء

فلم يبق بعد هذين القولين الباطلين الكاذبين سوى قول السلف وصدر الأمة الأول من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وهو القول بأن الله فوق خلقه مستو على عرشه منفصل عن المخلوقات منفصلة عنه . وهذا عند السلف هو معنى القول بالحد ولا بد من الحد بهذا المعنى . ويراد بالحد التمييز بين الخالق والمخلوق والتفريق بينهما

بالذات والصفات وكل شيء . ومعناه عندهم أن الله ليس حالا في خلقه وأن خلقه ليسوا حالين فيه ، لأن القول بالحلول قول أهل الكفر والغباء . ولا يراد بالحد غير هذا المعنى ، ومن ظن أنهم يعنون بالحد سوى ما ذكرنا فقد غلط عليهم . ونصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف مجتمعة على هذا المعنى لا تختلف فيه ، وان كان هذا اللفظ خاصة لم يرد في كتاب الله ولا في سنة نبيه ، وانما قاله كثير من أئمة السلف والسنة لما شاعت البدع ، بدع الجهمية المعطلة وبدع المعتزلة والشيعة تمييزاً لعقيدتهم وعقيدة السلف عن عقائد هؤلاء المعطلين ، فقالوا : ان الله فوق خلقه مستو على عرشه بحد كما قال الامام أحمد ، نقله عنه ابنه عبد الله في كتاب السنة . وقال هذا غير الامام أحمد كابن المبارك وعثمان بن سعيد الدارمي من أئمة السنة والأثر . وهؤلاء الأئمة الذين قالوا هذا يعلمون أن الأفضل هو الوقوف مع ألفاظ الكتاب والسنة سلباً وإيجاباً ، ويعلمون أن هذا اللفظ لم يرد في نصوص الشريعة فيما نعلم وإن كان معناه وهو ما ذكرناه في تفسيره متواتراً في النصوص ، متواتراً عن الصحابة والتابعين . ولكن لما ظهر المبتدعون النفاة وقالوا تلك المقالات التي لا تعقل قال السلف ان الله مستو على عرشه وفوق خلقه بحد تمييزاً لمقالاتهم ومقالات السلف عن أقوال الجهمية والمعطلة ومعنى قولهم بحد هو ما ذكرناه من أنه فوق خلقه لا كما يقول أهل التعطيل والحلول

وهؤلاء المتكلمون يضعون ألفاظا مبتدعة لمعان صحيحة ثابتة لا يختلف فيها فينفرون الناس عن الحق بما يعبرون عنه به من العبارات المخترعة الموحشة والألفاظ المبهمة المشتركة بين المعاني الصحيحة والباطلة . والتعبير عن المعنى المقام الأول في قبوله ورده . وذلك مثل تعبيرهم عن الصفات والأفعال بالاعراض وحلول الحوادث في ذات الله ، ومثل تعبيرهم عن علو الله بالتحيز وبالحد والتجسيم ، ومثل تعبيرهم عن صفات الذات بالجوارح ونظائر ذلك من الألفاظ المبهمة المشتركة التي يراد

بها حينا حق ويراد بها حينا آخر باطل . ولو أن هؤلاء القوم تأدبوا بآداب الله وآداب كتابه وآداب رسوله فوقفوا عند عبارات الكتاب والسنة وعبارات السلف الصالح وعبروا عن صفات الله وأسمائه بالالفاظ الشرعية المنقولة ، ولم يخترعوا ألفاظا مبتدعة ولا عبارات مصنوعة حادثة لوقفوا بمنجى من هذا الضلال فى أنفسهم ، والتضليل لغيرهم ممن يؤخذون بالألفاظ والكلمات المنحوتة التى أريد بها الاستفزاز والتهويل والتخويف . ولأجل هذا كان السلف الأول لايعدلون عن ألفاظ الشرع ، ولا يقولون لفظا لم يرد ، وان كان معناه صحيحا حقا ، وإن كان مرادفا للفظ الوارد فى الشرع الا أن يلجئوا الى شىء من ذلك الجاء ، ويفرض عليهم فرضا ، وكانت بدع المخالفين تقضى بالتصريح والتعبير بألفاظ أخرى أمس بفهم المخالفين المعاصرين ، كما جاء عنهم فى الحد والعلو على العرش بالذات والبينونة عن الخلق . ولكن العاقل الحازم لايدع الحق الصحيح استيحاشا من تعبير مبهم مشترك ، أو تعبير فاسد باطل ، بل العاقل ينظر إلى الحق حيثما كان وأين كان ، فينتزعه من مكانه وينزع اليه لايتهيبه خوف تعبير أو تعيير

(الشبهة الخامسة)

قالوا : الاستواء على العرش إما أن يكون حادثا ، وإما أن يكون قديما ، ولا بد من أحد هذين الأمرين ، والأمران مستحيلان ، أما الثانى فلا يمكن البتة فان العرش حادث كائن بعد عدم ، وما كان حادثا لايمكن أن يكون الاستواء عليه قديما ، فهذا لايمكن بالبداهة . فالاستواء إذن لايمكن أن يكون قديما فلم يبق إلا أن يكون حادثا ، ولكن الاستواء الحادث على البارى مستحيل أيضا ، وذلك أنه يلزمه أمران احدهما قيام الحوادث فى ذات الله ، وهذا باطل ، وثانيهما

أن هذا انتقال وحركة والانتقال والحركة مستحيلان فى حقه تعالى . فالقول بالاستواء إذن باطل

والجواب أن نقول : أجل ان الاستواء على العرش الحادث حادث ولا ريب كما قال تعالى « خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش » فى آيات عدة ، فالاستواء على العرش بعد خلق السموات والأرض الحادثة . أما ماذكروه من أن فى هذا قيام الحوادث فى ذات الله وهو باطل ، فجوابه أن يقال : قد اتفقت نصوص الأديان كلها ، واتفقت الروايات عن السلف الأول ومن المسلمين جميعا بل عن المؤمنين بالله كافة ، على أن الله لا يزال يفعل ويقول ويحيي ويميت إذا شاء ، كل يوم هو فى شأن ، وقد دلت المخلوقات الحوادث على ذلك ودلت الكائنات المشهودة على أنه كل يوم هو فى شأن ، ودلت الضرورة على هذا . وما من مؤمن بالله إلا وهو يعلم أن الله يفعل مايشاء متى شاء لامانع ولا معترض عليه ، ولأجل هذا يدعوه ويضرع اليه فى حالاته كلها فى السراء والضراء وفي الرخاء والشدة ، لأنه يعلم علم اليقين أن الله دائم الفعل دائم التصريف ، دائم الخلق دائم الاحياء والاماتة والرزق ، يحدث من أمره مايريد ، ويريد فى خلقه مايحدث ، يكلم من شاء إذا شاء ويرزق من شاء متى شاء ويميت من يميت اذا شاء ويحيي من شاء متى يشاء ، ويشفى من شاء حين يشاء ، ويمرض من شاء حين يشاء ويقرب ممن يشاء ويبعد عمن يشاء ، يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . اليوم يقضى بحياة أقوام وغداً يقضى بموتهم ، واليوم يقضى بافقار عبده فلان وغداً يقضى باغنائه . واليوم يقضى بعز هذه الدولة وغداً يقضى بذلها واليوم يقضى بذلها وغدا يقضى بعزها ، واليوم يقضي بابعاد عبده فلان وغدا يقضى بتقريبه ، واليوم يقضى بصلاحه وغدا يقضى بفساده ، يفعل ما يشاء ويختار وهو شديد المحال . لا خلاف بين الأديان ، ولا خلاف بين أهل الأديان ، ان هذا

كله بعض شأن الله فى خلقه وملكه ، ولا خلاف بينهم وبيننا أن خلقه اليوم غير خلقه غدا ، وأن ايجاده أمس غير ايجاده اليوم ، ولا خلاف بينهم وبيننا أن من أوجده اليوم ليس قديما ، وأن شفاءه اليوم من كان بالأمس مريضا ليس أزليا ، وأن اغناءه اليوم من كان بالأمس فقيرا ليس قديما ، وأن استواءه على العرش الحادث له بداية زمنية ، وأن نداءه عباده موسى وعيسى وابراهيم ونوحا ومحمدا ﷺ كائن بعد خلقه إياهم ، وأن خلقه إياهم حادث له ابتداء ، ولا خلاف بين أهل الأديان السماوية في هذا وفى أمثاله ، ولا خلاف بينهم فى أن أفراد هذا كله حادثة كائنة بعد ان لم تكن ، ولا خلاف بينهم فى أن هذا هو معنى كونه مختارا يفعل ما يشاء حين يشاء وأن هذا لازم القدرة والربوبية ، وأن من لا يفعل متى شاء ليس قادرا ولا جميل الوصف ، ولا ريب أن من أنكر هذا الوصف لله فقد سلبه أخص أوصاف الربوبية وسلبه القدرة والكمال ، وأن القادر هو الذى تتجدد أفعاله ويتعاقب خلقه وصنعه ويحدث من أمره ما يشاء ثم يفعل وأنه لا يزال كذلك وهذا هو معنى وصفه القادر والرب المدبر ، ومن جملة صفاته المتجددة الاستواء على العرش والعلو على الخلق ، فان كان ممتنعا عليه الاستواء لأن فى ذلك قيام الحوادث فى ذاته كان ممتنعا عليه خلق العرش وخلق غيره من الحوادث ، لأن فى ذلك أيضا قيام الحوادث بذاته . فان الخلق وصف ذات كالاستواء والعلو إلا أن الفرق بينهما أن الخلق وصف متعد والاستواء وصف لازم ، ولكن كلاهما كائن بعد أن لم يكن ، فكما أن الاستواء على العرش لايمكن أن يكون قديما ، لأن العرش حادث والاستواء على الحادث حادث ، فكذلك خلق العرش وغيره من المخلوقات لا يمكن أن يكون قديما بل لا بد أن يكون حادثا ، لأن إيجاد الحادث لا بد أن يكون حادثا ، بل الايجاد من حيث هو ايجاد معين لا بد أن يكون حادثا كائنا بعد أن لم يكن . وان أمكن أن يكون خلق الحادث قديما أمكن أن يكون الاستواء

على الحادث قديما ولا فرق وإن لم يمكن هذا لم يمكن هذا . فالكلام فى الاستواء على العرش كالكلام فى سائر الصفات من الخلق والايجاد والاحياء والاماتة ونظائر ذلك . فان كانت افراد هذه الصفات حادثة متجددة كما دلت النصوص والمعقولات واجماع المؤمنين بالله ، فلا مانع إذن من القول بالاستواء على العرش وعلى المخلوقات جميعاً ، ولا مانع من القول بأن الاستواء على هذا حادث ، وان لم تكن أفراد هذه الصفات متجددة كائنة بعد أن لم تكن ، بأن كانت قديمة أزلية قيل ان الاستواء كذلك قديم أزلى ليس حادثا . فاذا قيل : كيف يمكن أن يكون الاستواء على الحادث قديما ؟ قيل كيف يمكن أن يكون إيجاد الحادث قديما ؟ فان كان هذا معقولا كان ذاك معقولا ، وإن لم يكن لم يكن . فاذا قالوا اننا قلنا إن أفراد صفات الله ، مثل الايجاد والخلق والاحياء والاماتة قديمة لأنها لو كانت حادثة لكان فى هذا قيام الحوادث والأعراض فى ذات الله وهذا محال ، قيل كذلك ليقل : ان الاستواء على العرش الحادث قديم ، لأنه لو كان حادثا لكان فى هذا قيام الحوادث ، والاعراض فى ذات الله وهو محال . وكل ما يوردون على الاستواء على العرش من هذه الجهة المذكورة يورد على سائر الصفات المذكورة ، وما كان جوابا لهم عن هذه الصفات كان جوابا لنا عن الاستواء على العرش ، وما كان وارداً على الاستواء فوق العرش كان وارداً على الصفات المذكورة . وبالاجمال الاستواء على العرش صفة من هذه الصفات ، والقول فيه كالقول فيها واذا كان ذلك كذلك فلا وجه لتخصيص الاستواء بهذه الشبهة دون غيره . بيد أنه لا ريب عندنا فى أن صفات الله وأفعاله متجددة ، وأنه يحدث كل يوم من أمره ما يشاء حسب تجدد الكائنات . فان الكائنات متجددة دائمة حادثة مشهود حدوثها وتخليقها وتغيرها وتطورها ، وهذه الحوادث المشهودة المرئية ، وهذا التغير المشهود المرئى ، لابد من القول بأنها وبأنه متغيرة متغير باحداث محدث وتغيير

مغير قاهر فاعل ، ولا بد أن ترجع هـذه الأحداث ويرجع هـذا التغيير الى علة موجبة ضرورة ، والقول بخلاف هذا قول بحدوث الحوادث بلا محدث خالق غالب ، وهذا باطل عقلا ونقلا وإجماعا . فلا ريب أن محدث هـذا كله هو الله رب العالمين

اذا علم هذا كله قيل هذه الحوادث المتجددة المتغيرة كل وقت إما أن يكون خلق الله اياها وارادته خلقها قديما أو حادثا ، لابد من أحد القولين ، أما القول بأن خلقه اياها وارادته لها قديمان فباطل ، لأنه اذا كان الله قديما وكان خلقه المخلوقات قديما وارادته خلقها قديمة وجب أن تكون هى أيضا قديمة ضرورة ، لأن المعلول المخلوق لايمكن أنه يتأخر عن علته الموجبة التامة الخالقة ، وإلا لو تأخر المعلول المخلوق عما فرض أنه علته الموجبة التامة لما كان معلولا لذلك ولا مخلوقا له ، ولكننا فرضناه معلولا مخلوقا ، فلم يبق الا القول بأن خلقه المخلوقات حادث كائن بعد أن لم يكن .

أو يقال بعبارة أخرى حدوث هذه الحوادث المشهودة المتجددة إما أن يكون باحداث محدث أو بلا احداث ، الافتراض الثانى باطل ، فلم يبق إلا أن يكون حدوثها باحداث محدث . وهذا الاحداث الذى حدثت به الحوادث إما أن يكون قديما وإما أن يكون حادثا ، لكنه لا يمكن أن يكون قديما ، لأنه لو كان كذلك لكانت الحوادث أيضا كذلك ضرورة كون الاحداث إحداثا لها ، فاحداث الحوادث لابد أن يكون حدوثها مقارنا له ، كما أنه لايمكن أن يحدث ضرب بدون مضروب وبدون قبول المضروب للضرب ، ولأن الاحداث لا معنى له إلا أن يكون حادثا ، فان معنى الاحداث هو الايجاد لشىء من الأشياء أتت عليه أطوار من الزمن لم يكن موجوداً فيها ، ولا معنى للاحداث سوى هذا . فلم يبق إلاالقول بأن احداث الحوادث وحدوثها حادثان

أو يقال بعبارة أخرى : الحوادث التى سوف تحدث بعد اليوم إما أن يكون الله أحدثها وإما أن يكون لم يحدثها بعد وسوف يحدثها اذا شاء ، أما القول بأنه أحدثها فباطل بالضرورة والمشاهدة ، لأنه لو كان أحدثها لحدثت ولوجدت ، ولا يمكن أن يقول عاقل : ان الله قد أقام الساعة وحشر الناس وحاسبهم وأدخلهم الجنة أو النار اليوم . فلم يبق إلا القول : بأن الله لم يحدث الحوادث التى لم تحدث بعد وأنه سوف يحدثها اذا شاء

أو يقال بعبارة أخرى : إما أن يكون الله ـ بجميع صفاته حقيقيها وإضافيها ـ قديما أزليا بحيث لا يقوم به تعالى فعل ولا كلام ولا خلق ولا ايجاد ولا نفع ولا ضر ولا إحياء ولا إماتة بعد أن لم يكن ، وإما أن لايكون كذلك ، بل يكون الله بصفاته الحقيقية النوعية قديما لم يزل ولم تزل أفراد صفاته تتجدد وتقوم به ، فيتكلم ويفعل ويخلق ويهلك اذا شاء ويصنع مايشاء متى يشاء أزلا وأبداً انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . أما الافتراض الأول فلا يمكن القول به عقلا ، لأنه لو كان كذلك للزم أحد أمرين باطلين ، أحدهما أن تكون الحوادث المخلوقة قديمة ، وثانيهما أنه يلزمه ألا تحدث الحوادث وألا يوجد مخلوق ما . والأمران باطلان بالمشاهدة . وذلك أنه اذا كان الله بجميع صفاته ـ من خلق وإيجاد ونفع وضر وإحياء وإماتة ـ قديما لم يزل فكيف حدثت الحوادث اذن وبماذا حدثت وما من زمن يفرض إلا وكان يمكن أن تحدث فيه ؟ ولماذا حدثت فى زمن دون زمن وقد كانت جميع الأزمان سواء بالنظر الى حدوثها فيه ؟ وما الذي رجح أن تحدث فى الزمن الذى حدثت فيه على الأزمان الأخرى التى لم تحدث فيها وقد فرضنا كل شىء قديما وفرضنا أنه لم يحدث مرجح ما لحدوث الحوادث فى الزمان الذى حدثت فيه على غيره من دولات الزمن ؟ وما الذى جعل ما حدث اليوم لم يحدث أمس أو قبله أو بعده وهذه الأوقات كلها سواء

بالنظر الى ذات الخلاق وصفاته القديمة ؟ ان القول بهذا قول بحدوث الخلائق بلا خالق ولا فاعل . فلم يبق الا الافتراض الثانى ، وهو أن الله بصفاته قديم لم يزل لكن افراد صفاته وأفعاله لم تزل تتجدد ولم يزل يريد فيخلق ويشاء فيفعل ، كما قال انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وهذه أمور ظاهرة تدل دلالة قاطعة على أن الله يفعل ما يشاء ويخلق ما يريد متى أراد ومتى شاء ، وتدل على أن من أنكر ذلك زاعما أنه أنكر قيام الحوادث بذات الله فقد عاند الضرورة والمعقول ونصوص الأديان كلها ، فان الشرائع قائمة على أن الله دائم الفعل ودائم الخلق والايجاد وتصريف هذا الكون من حال الى حال ومن طور الى طور . ولا ريب أن من أنكر أفعال الله متى شاء وحين يريد فراراً من القول بقيام الحوادث بذاته تعالى فقد تنقصه وسلبه أخص أوصاف الكمال والربوبية . فان الكامل هو الذى لا يزال يفعل ويخلق ويقول ويصرف خلقه وعباده ، وينقلهم من حال الى حال ومن شأن الى شأن ويفعل ما يشاء متى يشاء . وأما من ليس كذلك فلا شك أنه ناقص عاجز مغلوب على أمره . ولو عرض على العقول موجودان ، أحدهما دائم الفعل والايجاد والتصريف والآخر جامد ساكن ، لا يمكن أن يقوم به فعل ولا ايجاد ولا تصريف ولا كلام ولا ارادة ولا يقوم به شيء مما يسمى حوادث ، لحكمت العقول جميعا بأن ذلك الموجود الدائم الفعل والايجاد هو الكامل الأعظم ، وأن الثانى الذي لا يمكن أن يقوم به فعل ناقص مهين فاقد أشرف الأمثال وأسماها

وقد عاب الله فى غير ما آية من الكتاب الأصنام والأوثان بعجزها عن الفعل وعن الكلام وعن الضر والنفع . وذلك لأن من لا يفعل ولا يمكن أن يفعل اذا شاء ناقص معلوم نقصه فى جميع العقول وقرارات الفطر . ولهذا قال السلف : من زعم أن الله لا يتكلم اذا شاء فقد زعم أنه يعبد صنما : ذلك أن الصنم عاجز عن

الكلام وعن الفعل . فالذين يقولون ان الله لا يتكلم ولا يفعل حين يريد خوف قيام الحوادث والأعراض به يضربون له تعالى أسوأ الأمثال وأدناها وهى الأصنام والأوثان العاجزة عن أن تفعل وأن تقول وأن تحدث شيئا ما ، فمثلها هو المثل الأدنى للعاجز الضعيف ، ولله المثل الأعلى والصفات الحسنى « إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »

وهؤلاء النفاة المعطلون يضعون لصفات الله وأفعاله وأسمائه أسوأ الأسماء فيسمونها بالأعراض والحوادث ، ثم يقولون : ان الله منزه عن الاعراض والحوادث ، فلا يقوم به عرض ولا حادث ، فيلبسون ويمثلون أولا ، ويجحدون ويعطلون آخراً ، فيجمعون بين الرذيلتين : التشبيه والتعطيل . والناس الذين لا يحيطون بمراميهم ولا يسمون على أغراضهم يخدعون ويؤخذون بهذه العبارات والأسماء ، فانهم اذا قيل لهم : ان الله منزه عن الأعراض والحوادث حسبوا هذا صحيحاً فلم ينازعوا فيه ، لأنهم يحسبون أن الأعراض والحوادث التى ينزهون الله عنها هى ما يعرفونه فى كلام الناس واصطلاحهم فان ذلك فى كلام الناس هى التغيرات والاستحالات ، والحوادث عندهم هى الأشياء المخلوقة والطوارىء المفاجئة المؤذية . ولاريب أن الله منزه عن هذا كله ولكن ليس هذا هو ما يريدون تنزيه الله عنه ، وإنما يريدون به تعطيله من أفعاله وصفاته وما يقوم به من أوصاف الربوبية كالخلق والايجاد والضر والنفع والخطاب والكلام ، وغير ذلك من الصفات اللازمة للفعال لما يريد ، القاهر فوق عباده ، ولكنهم ترجموا الأفعال والصفات بالاعراض والحوادث تنفيراً وايحاشا من الايمان بصفاته وأفعاله فكان هذا كما قال ابن الرومى :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت ذا قىء الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

ولو أن هؤلاء النفاة سموا الأشياء أسماءها فسموا صفات الله وأفعاله بالصفات والأفعال كما سماها الله وأنبياؤه والسلف قاطبة وجمهور المسلمين وقالوا ان الله منزه عن الأفعال والصفات ومنزه عن أن يفعل وأن يقول وان ينادى وأن يخلق ويوجد مايشاء اذا ما شاء لما آمن لهم الناس ولما خدعوا بقولهم وتعطيلهم . وهذا كما وصفوا الاستواء على العرش بالاسماء المنفرة الباطلة فسموه بالاحتياج الى الجهة والتمكن والتحيز والتجسيم والتشبيه والتحديد وأشباه هذه الكلمات الموضوعة إرادة الاستفزاز والتشنيع . ومن جهلوا مايرمى اليه النفاة وسمعوا منهم هذه الألفاظ انخدعوا وانقادوا لهم ولما يريدونه من التعطيل ووقعوا فيما وقعوا فيه من حيث لايشعرون ولا يعلمون ، ولهذا وجب التفصيل والتفسير ومحاذرة الألفاظ المبتدعة . فان للالفاظ سلطانا أحيانا غالبا على المعانى . والبصير لا يصرفه سوء التعبير عن الحق وقبوله . هذا ما يقال أولا عن شطر هذه الشبهة الأول

ويقال فى الجواب أيضا : لنفرض أن ذات الله لايقوم بها فعل ما ، لاخلق ولا استواء ولا غير ذلك ، ولكن هل يلزم من استوائه على عرشه بعد خلقه وبعد خلق السموات والأرض أن يكون قام بذات الله فعل هو الاستواء على العرش والعلو على الخلق ؟ اننا نقول فى جواب هذا السؤال كلا انه لا يلزم هذا هذا . وذلك أننا نفرض ان الله كان كما كان أزلا وكما يكون أبداً ثم خلق العرش وخلق سائر خلقه من سماوات وأرضين تحت ذاته المقدسة فصارت المخلوقات من عرش وغيره تحته تعالى وكان هو فوق ذلك مستويا عليه كله من غير أن يقوم بذاته شيء ومن غير أن يقوم به الاستواء وهذا ظاهر جلى . ومثله أن نفترض أن العرش كان قديما فى مكانه الذى هو فيه فخلقت السموات والأرض تحته فأصبح هو فوق ذلك وأصبح مستويا عليه من غير أن يقوم به فعل ولا تغير ولا وصف ما

ذاتى ، ومن غير أن يقوم به عرض من الأعراض . فالشطر الأول من هذه الشبهة باطل على جميع الافتراضات سواء أقيل ان الله تقوم به الأفعال المتجددة المتكررة ، أم قيل انه لا يقوم به وصف ما متجدد

وأما الجواب عن الشطر الثانى من الشبهة وهو أنه يلزم استواءه على العرش اذا كان حادثا الانتقال والحركة ، والانتقال والحركة فى حق البارى باطلان ، فيقال : الجواب عن هذا أمران ظاهران ، أحدهما أنه لامانع من القول بالانتقال على الله ، وقد دلت الدلائل التى لا تحصى من الآيات والأخبار الصحيحة المتواترة على أنه تعالى يجىء يوم القيامة لحساب الخلائق ولفصل القضاء ولمجازاة المؤمن بأعماله والكافر بأعماله كما قال تعالى : « وجاء ربك والملك صفا صفا » . وقال : « هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك » والآيات فى هذا كثيرة معلومة . وقد تواتر قوله عليه الصلاة والسلام « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا » وما يذكر المعطلون النافون من الشبهات على أخبار إتيانه باطل ضعيف وذلك أنه ما من اعتراض يوجه الى صفة اتيانه الا ويوجه الى صفاته كلها حتى المعلوم منها بالعقل ، بل ويوجه الى ذاته ووجوده ، فان الكلام فى الذات مثل الكلام فى الصفات ، والكلام فى الصفات كالكلام فى الذات ، فاذا قال النفاة : لا يأتى إلا الأجسام قيل لهم ولا تقوم الصفات إلا بالأجسام وأنتم تعترفون له ببعض الصفات ولا يوجد أيضا الا ماهو جسم أو عرض ، وأنتم لاتقولون انه جسم ولا عرض ، فان أمكن أن يكون موصوف بالصفات وليس جسما أمكن أن يأتى وهو ليس جسما ، وان كان لايمكن ذلك الا اذا كان جسما فالله جسم سواء أقيل بجواز الانتقال أم قيل بامتناعه فالقول إذن بامتناع الانتقال عليه لا وجه له ، وما يورد النفاة من شبهة على أخبار اتيانه إلا ويورد مثل ذلك على ما يعترفون به من الصفات له . ولو أن النفاة جمعوا الجن والانس والحاضر

والغابر وجهدوا على أن يفرقوا بين صفة الاتيان وغيرها من الصفات لما وجدوا الى ذلك سبيلا

هذا هو الجواب الأول . والجواب الثانى أن يقال إنه ليس بلازم استواءه على عرشه بعد خلقه أن يقوم بذاته انتقال أو حركة ، وذلك أننا نفترض أن الله كان كما كان أزلا وكما يكون أبداً ثم خلق العرش تحتـه فصار مستويا عليه من غير أن تقوم به نقلة ولا حركة . ومثل ذلك أن نفترض السموات قديمة كما هي فى مكانها فخلقت الأرض تحتها فصارت السماء فوقها من غير أن يقوم بهـا انتقال ولا حركة . فهذه الشبهة باطلة على جميع الافتراضات وهى باطلة أيضا بوجوه أخرى كثيرة ، ولكننا نوجز ايجازا

(الشبهة السـادسة)

قالوا : استواء الله على العرش اما أن يكون واجبا واما أن يكون جائزا ، ويعنى هنا الجواز والوجوب العقليان . أما القول بأنه واجب فباطل ضرورة ، وذلك أننا نعلم بالبداهة الظاهرة انه ليس واجبا عقلا استواء الله على عرشه ، بل نعلم بداهة أنه ليس واجبا خلق العرش ووجوده فضلا عن وجوب الاستواء عليه ، كيف والعرش مخلوق حادث وهو لذلك جائز عليه الفناء بقدرة الله وارادته القاهرة . وما كان كذلك لايمكن ان يكون الاستواء عليه واجبا ضرورة . وأما ان قيل : ان استواءه على العرش جائز ، قيل اذا كان ازلا وقبل خلق العرش ليس مستويا على شيء وكان ممكنا عقلا وشرعا ألاّ يكون فوق العرش ولا فوق غيره ، بل وألا يكون فى جهة من الجهات بحيث يصدق ان يقال انه لافوق ولا تحت ولا يمينا ولا شمالا ولا متصل ولا منفصل وجب ان يكون اليوم وان يكون أبدا كما كان أزلا لافوق العرش ولا فوق غيره . قالوا : وحجة القائلين باستوائه

على العرش القوية القاهرة هي زعمهم ان موجودا قديما كان أو كان حادثا لايمكن أن ينفك من ان يكون فى احدى الجهات ، فاذا أمكن ألا يكون الله فوق ولا تحت ولا فى جهة من الجهات قبل خلق العرش وخلق غيره من الخلائق كما سلمتم بطلت هذه الحجة ، وكان غير واجب ان يكون الموجود فى جهة من الجهات ، وكان ممكنا عقلا ألا يكون الله بعد خلقه العرش والمخلوقات الأخرى فى أحدى الجهات ، وممكنا ان يقال انه تعالى لافوق ولا تحت ولا ، ولا ، قالوا : وفى المسئلة قولان لاثالث لهما ، أحدهما انه واجب ان يكون الله فى جهة من العالم وهذه الجهة هي الجهة العليا ، إذ مستحيل عقلا ان يكون هنالك موجود قائم بنفسه ثم لا تمكن الاشارة اليه بانه هنا أو هناك ، والقول الثانى انه باطل عقلا وشرعا ان يكون الله فى جهة من الجهات وان تكون الاشارة الحسية اليه ممكنة . هذان هما القولان المعروفان فى هذه المسئلة ، أما اختراع قول ثالث وهو ان يكون النفى والاثبات كل منهما جائزا ممكنا لا واجبا ولا لازما فهو شىء مخالف الاجماع مخالف المعروف فهو باطل لذلك . وبهذا بطل القول باستواء الله لاجوازاً ولا وجوبا

والجواب عن هذه الحجة أن نقول : اننا لا نزعم ان الاستواء على العرش واجب لاعقلا ولا شرعا

ولكن نقول : ان استواءه على العرش بعينه جائز عقلا ثابت شرعا ، وكذا استواؤه على ما يشاء من خلقه ولا يلزم كون الاستواء على العرش ليس واجبا أنه لا يقع البتة

وهذه الحجة تشبه أن يقال : خلق هـذا العالم إما أن يكون واجبا وإما أن يكون جائزاً ، أما الأول فلا يمكن يقينا ، إذ العقول تجوز كلها ألا يخلق الله شيئا من العالم وألا يخلق السماء أو الأرض أو العرش أو فلانا أو فلانا . وأما الثانى ، وهو أن يكون خلق العالم جائزاً لا واجبا ، فلا يمكن أيضا ، لأن الله تعالى يجب

أن يكون اليوم وأن يكون أبداً كما كان أزلا ، وقد كان أزلا بلا خلق ، وكان لم يخلق هذا العالم ، وكان ولا شيء معه فيجب أن يكون في كل وقت على ما كان عليه في الأزل قبل أن يكون هناك موجود سواه . فثبت أن الله لم يخلق هذا العالم لا وجوبا ولا جوازاً ، أو فيجب ألا يخلق الله شيئاً لا على سبيل الوجوب ولا على سبيل الجواز

وهذا الاحتجاج يشبه هذه الشبهة على نفي الاستواء ، ولكن هذا الاحتجاج باطل وكاذب بالضرورة والمشاهدة ، ومثله هذه الشبهة . فالاحتجاجان باطلان مثلان

هذا قبل خلق العرش وقبل خلق المخلوقات ووجود شيء غير الله ، أما بعد ذلك فلا يمكن القول بأنه تعالى ليس في جهة من العالم ، ولا القول بأنه لا فوق ولا تحت ولا بمتصل ولا بمنفصل كما يقولون بل هذا مستحيل بداهة ، إذ كل موجودين لابد أن يكون أحدهما في جهة من الآخر بحيث تمكن الاشارة الحسية الى كل منهما بأنه هنا أو هناك ، ولا يمكن غير هذا . وإنما كان هذا ممكنا في حق الله قبل خلق العرش وخلق غيره لأن هـذه المسألة ، أي مسألة العلو مسألة اضافية لا تصدق إلا بين اثنين أو أكثر ، فيقال ان هذا فوق هذا أو تحته أو أمامه أو خلفه ومتصل به أو منفصل عنه وقريب منه أو بعيد عنه . أما اذا كان الموجود واحداً فقط فيمتنع هذا التضايف ، لأنه لا يكون كما قلنا إلا بين ذوي العـدد . وكون الله قبل خلق العرش وخلق الكائنات لا فوق ولا تحت ولا أمام الى آخر النفي لا يدل على أنه بعد خلقه ذلك يكون كذلك ، بل ولا يدل على جوازه وإمكانه . والدليل القاطع على هذا أننا اذا فرضنا أن الله خلق مخلوقا واحداً وانفرد ذلك المخلوق بالوجود ، فهذا المخلوق لا يقال له في حالة انفراده إنه فوق أو تحت أو يمينا أو شمالا أو متصل أو منفصل ، أو قريب أو بعيد على رأي هؤلاء يقينا ، وذلك أن هذه الأمور والنسب لا تصدق إلا بين متضايفات من اثنين فأكثر ، وقد فرضنا أن الموجود

واحد فلا تضايف وقتئذ يقينا إلا أن يزعم أن هذا المخلوق الواحد لا بد أن يكون في جهة من الله ومتصلا به أو منفصلا عنه ، فاذا ما زعم هذا ورضيه المخالفون فقد سلموا مسألة النزاع ، ولكن هذا خلاف المفترض ، بيد أن هـذا المخلوق المتفرد بالوجود الذى امتنع عليه أن يقـال انه فوق أو تحت أو أو . حينما كان منفرداً لا يمكن أن يكون كذلك بعد مشاركة غيره له فى الوجود ، ولا يمكن أن يقال انه لا فوق ذلك المخلوق الآخر المشارك ولا تحته ولا متصل به أو منفصل عنه ولا في جهة من جهاته ، لأنه كان كذلك قبـل أن يوجد غيره وحينما كان هو الموجود وحده ، هذا كله لا يمكن ، بل لا بد أن يكون فى جهـة من الآخر ، ولا بد أن يكون قريباً أو بعيداً منه ، وهـذا أمر ضرورى . واذا كان ذلك كذلك قيل إذن كون الله قبل أن يخلق شيئا ، وقبل أن يكون معه موجود لا يقال له انه فوق ولا نحو ذلك لا يدل على أنه بعد خلقه العرش وخلقه المخلوقات كذلك بل لا يدل على أنه يمكن هذا عقلا كما رأيت فى المثل الذي ضربناه ، وهذا بين

فالكلام فى هذه المسألة له حالتان : حالة قبل خلق الخلق وقبل وجود شيء سوى الله ، وحالة بعد وجود العرش وبعد وجود غيره من المخلوقات ، ففى الحالة الأولى التى لا يوجد فيها غير الله يمتنع أن يقال إن الله فوق أو نحو ذلك . وذلك أن معنى فوق أنه فوق شيء من الأشياء ، وممتنع بداهة أن يقال انه فوق شيء فى حين أنه لا شيء هذا ممتنع ضرورة وامتناع ذلك منسوب لما ذكرناه من أن الفوقية ونحوها من الأمور النسبية التى لا تصدق الا بين الشيء ذى العدد ، لا لأجل أنه ممتنع ذلك على الله كما ظن المخالفون ، ولهذا فانه لا فرق بين القديم والحادث ، وبين الخالق والمخلوق من هذه الناحية . وأما فى الحالة الثانية ، أى فى حالة وجود المخلوقات المتضايفات ، فليس بممكن أن يقال إنه تعالى لا فوق العالم ولا فى جهة ، أو يقال انه لا قريب ولا بعيد ، لأن هذا مستحيل على الموجود من

حيث هو موجود . والذين يقولون بالاستواء على العرش يعلمون أنه قبل أن يخلق شيئاً لا يمكن أن يقال انه فوق أو نحو ذلك لأجل ما ذكر ، والذين ينكرون الاستواء يعلمون أن موجوداً واحداً إذا لم يشاركه غيره فى الوجود لا يمكن أن يقال إنه فى جهة من الجهات وقت انفراده بالوجود، وإن كانوا يعلمون أنه فى حالة مشاركة غيره له فى ذلك لا بد من أن يكون فى جهة من ذلك الموجود الآخر . هذا كله معلوم ، ووجهه هو ما ذكرناه

هذا وليعلم أن قولنا انه تعالى قبل خلق العرش والعالم ليس فى جهة معناه أنه لا يمكن أن يقال انه فوق أو تحت أو نحو ذلك ، لأن هذه الألفاظ موضوعة لتعبر عن النسبة بين الأمرين أو الأمور . فاذا قيل هذا فوق هذا كان معناه أنه فوق شىء موجود ، فاذا لم يكن إلا موجود واحد لم يصح أن يقال انه فوق ، وهذا ككلمة « مع » فان هذه الكلمة لا تقال إلا حيث تعبر عما فوق الواحد ، فاذا لم يكن إلا واحد فقط لم تقع هذه الكلمة فى الكلام . ولا يفهمن أحد من قولنا أنه قبل خلق العالم ليس فى جهة أننا نعنى أنه لا يمكن أن يكون فوق شىء ولا أن يستوى على شىء كما فهم المخالفون ، فان كان أحد من الناس يعنى بالقول بأنه كان فى الأزل ليس فى جهة أنه لا يمكن أن يستوى على العرش لم يسلم لهذا أن يقول انه كان أزلا ليس فى جهة ، وانما يسلم له التعبير الذى لا ينفى حقاً ولا يتخذ طريقاً لابطال أمر من الأمور الصحيحة . والألفاظ انما جعلت لتعبر عن الحقائق والأمور الموجودة فى النفوس ، فهى ليست سوى آلة

فمن قال انه لم يكن فى الأزل فى جهة ، وكان يعنى بهذا أنه لا يمكن أن يكون فوق الخلق ولا فوق العرش ، كان غالطا فى التعبير غالطا فى نفسه ، وحينئذ لا نسلم له هذا التعبير . ومن قال هذا وكان مراده ما ذكرناه كان قوله صحيحاً لغة ومعنى ولكن هذا لا يشهد لقول المخالفين المنكرين لهذه الصفة ، صفة العلو والاستواء ،

فهذه الحجة ، كيفما صرفت وقلبت ، باطلة داحضة

(الشبهة السابعة)

قالوا : ان القائلين بالاستواء وبالعلو على العرش يزعمون أن الله لابد أن يكون أزلا وأبداً فى جهة ، وأنه لا يمكن عقلا أن يكون هنالك موجود ، سواء أ كان قديما أم حادثا ، الا ولا بد من أن يكون فى جهة من الجهات بحيث تمكن الاشارة الحسية اليه فيقال انه هنا أو هناك أو هنالك ، وأنه لا يستغنى عن الجهة إلا المعدوم الذى لم يوجد . قالوا : ولو كان هذا صحيحاً لوجب أن تكون الجهة قديمة مع الله ، ولكن المسلمين يعلمون أن ما سوى الله حادث كائن بعد العدم ، ثم لو كانت الجهة قديمة لكانت غير مخلوقة ولا مربوبة ، إذ القديم لا يعقل أن يكون مخلوقا ، إذ المخلوق هو الكائن بعد العدم ، وكل المسلمين يعلمون أن ما عدا الله مخلوق مربوب لله وحده . ثم قالوا : والله كيف يحتاج فى وجوده الى شىء غيره كالجهة أو غيرها فان المحتاج فى وجوده الى غيره لايكون واجب الوجود ، فان واجب الوجود الذى وجوده من ذاته لايحتاج الى غيره مطلقا . قالوا : وبهذا يعلم أن الله تعالى لايحتاج الى الجهات ولا الى غير الجهات كالاستواء وغير الاستواء

والجواب أن يقال : ان هذه الشبهة أو الحجة قائمة كلها على غلطة واحدة واضحة ، هذه الغلطة الواحدة الواضحة هى أنهم ظنوا انه اذا قيل أن الله فوق العرش أو فوق السموات أو فوق المخلوقات ، أو قيل انه فى جهة ـ وهذا القول ممنوع شرعا لأنه لم يجىء ذكره فى النصوص ـ عنى بذلك كون الله عز شأنه وسلطانه حالا وكائنا فى شىء مخلوق وفى ظرف محيط به موجود فيه ، وعنى بالجهة أمر وجودي يحتاج اليه البارى تعاظم أمره لا يستغنى عنه ، ولا يمكن وجوده إلا ملزوما لذلك الأمر الوجودى مقارنا له فى الوجود الزمانى و المكانى ، وأنه لو فقد

ذلك الأمر الوجودى اللازم لوجوده افتقد ذلك اللزوم الذى هو الوجود ، لأن الأمرين متلازمان مقترنان لاينفك أحدهما عن الآخر وجوداً زمانيا ومكانيا . هذا مثار الغلط ومأتاه ، وهذا هو منشأ الشبهة وموضعها . فيقال لهؤلاء الغالطين : ان القائلين بذلك والقائلين بأنه تعالى فى جهة من الجهات فوق ، أو فوق الخلائق كلها أو هنا أو هناك أو هنالك ، لا يعنون بالجهة هنا أمراً وجوديا لا حادثا ولا قديما ، ولا جائز الوجود ولا واجبه . ولكنهم يعنون بذلك أنه تعالى بائن عن خلقه وأن له وجوداً حسيا ووجوداً من جميع جهات الوجود ومعانيه ، بحيث تمكن الاشارة الحسية اليه وبحيث يرى بالأبصار فوق الرائى مواجهة ، وبحيث يقال انه فوق العالمين وفوق العرش ، وأنه يقرب من خلقه ويبعد كما يشاء أنواع القرب اللائقة به كلها : لا يعنون بذلك القول أكثر من هذا . ولفظ الجهة فيه اشتباه واشتراك يوقعان كثيراً فى اللبس والضلال . وذلك أن قوما يطلقون الجهة ويريدون بها المكان المخلوق الموجود الكائن بعد العدم ، وقوم آخرون يطلقون الجهة ويريدون بها الفضاء المحض ، الذى هو العدم المحض ، ويعنون بالفضاء المحض الفراغ الذى تشغله الموجودات بوجودها ، والجهة على التفسير الأخير لا مانع من القول بأنها قديمة ، بل لا بد من ذلك وذلك أنها كما ذكرنا عدم خالص ، والعدم قديم عريق فى القدم إذ هو خلاف الوجود . وإذا كان الوجود الذى هو وجود المخلوق حادثا كان عدمه ولا محالة قديما ، فان عدم الحادث بلا ريب قديم ، إذ لو لم يكن عدمه قديما لكان وجوده قديما ، وإذا كان وجوده قديما كان هو قديما ، والقديم ليس مخلوقا ضرورة ، وقد فرضناه قديما . فاذا علم هذا وعلم أن الجهة بهذا المعنى الذى هو الفراغ البحت قديمة ، وهى العدم المحض ، علم أن هذه الشبهة واهية باطلة وعلم أنه لامانع من القول بأن الفراغ كان بلابداية زمنية وقتية ، وعلم أن قول النفاة ان الله يكون حينئذ محتاجا الى الجهة قول مبنى على هذا الغلط وهذا الاشتباه اللفظى

وذلك أن هذا القول مثل أن يقال : ان الله محتاج الى عدم الشريك له والى عدم قدم الخلق والى عدم وجوبهم لذواتهم وأشباه ذلك . وهذا كلام لامعنى له ولا طائل تحته ، وهو مثل أن يقال: ان الله محتاج الى وجوده والى امتيازه على جميع الخلائق ومباينته لهم فى الصفات والذات وما يدخل تحت هذا . وهذه الأقوال والفلسفات خليق بالعاقل ألا يهبها شيئا من وقته ونفسه وعلمه . بل هذه الفلسفات وأمثالها من أمراض الفكر البشرى التليدة والطريفة . وهذا يشبه ما قال نفاة الصفات : لو كان لله صفات قديمة لكان القدماء غير واحد ، وهم الله وصفاته ، ولكان بذلك محتاجاً الى غيره ، ويعنون هنا بالغير الصفات اللازمة لله . وقد يشبه قولهم هذا فى قدم الفراغ والفضاء أن يقال لو كان قديما بلا بداية زمانية لكان الزمان قديما ولكان الله فى قدمه ووجوده محتاجا الى الزمان لا يستغنى عنه فى وجوده ، فان الانسان عندما يتصور الزمان وحقيقته يعسر عليه جدا أن يتصور وجود أمر من الامور الا ولا بد أن يكون هنالك زمان تتعاقب دولاته وأطواره على وجود ذلك الموجود المفروض وجوده فى وقت من الاوقات

اذن فالجهة أو الفراغ أو الفضاء الذى يعنى به العدم البحت لا بد من القول بأنه قديم لا بداية لقدمه ، لأنه لو لم يكن قديما لكان عدمه حادثا ، واذا كان العدم حادثا كان الوجود قديما . ولكن قدم الوجود أي وجود المخلوق باطل . واذا علم المخالفون هذا علموا بطلان هذه الشبهة بلا شك

ونحن نقول ، كما قدمنا ، اذا كانوا يفهمون من الجهة معنى باطلا فليعلموا أن هذا المعنى الباطل لاتصح ارادته . واذا كانوا لايستطيعون التعبير عن المعنى الصحيح الا بذلك اللفظ الذى يقع فيه الاشتباه والاشتراك وجب هجران ذلك اللفظ ووجب التعبير بتعابير الشرع المفهومة فرارا من الاشتراك والاشتباه وما يسوق الى الباطل أو يدفع عن الحق . فاذا كانوا لايفهمون من الجهة الا المعنى

الباطل الفاسد لزم هجران هذه الكلمة وإنكارها ولزم الوقوف عند كلام الشرع وما لا اشتباه فيه . وحينئذ لا علينا نحن أن تنكر هذه اللفظة معبرة عما يعنون بها من المعنى الفاسد الباطل ، ووجب أن نقول : ان الله فوق العباد وفوق العرش والقاهر فوق عباده ، لا نزيد على هذا ولا ننقص منه ، فلا نطلق الجهة ولا الحيز ولا الفراغ ولا الفضاء ولا ما لم يرد فى النصوص الصحيحة فى هذا المعنى هروبا من الاندفاع فى الأخطاء الآتية من جانب الالفاظ المبتدعة التى تحتمل حقا وتحتمل باطلا ، وتحمل هدى وتحمل ضلالا . أما كلام الشرع فيجب الأخذ به على كل حال ، لا يصح العدول عنه بحال ، لأنه هو الحق ومن فهم منه باطلا أبين له باطله وكشف له خطؤه مع الاستمساك بما قال الشارع على كل حال

(الشبهة الثامنة)

قالوا : لو كان الله مستويا على العرش لكان محمولا له . وتعالى الله عن أن يحمله شىء وعن أن يكون فى حاجة إلى حامل يحمله

والجواب أن يقال ان استواءه على العرش لم يكن لاحتياج إليه ولا لضرورة دعت لذلك الاستواء ، بل الله الغنى عن كل شىء ، وكل شىء فقير اليه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولا يقوم بنفسه دونه تعالى فى لحظة من اللحظات . استوى على العرش وهو الحامل للعرش ولغيره من الخلائق . وتعالى الله أن يحمله حامل أويفتقر الى قوة حامل . ولكن استواؤه على العرش وعلوه على الخلق فعل من أفعاله وصفة من صفاته وشأن من شؤونه لحكمة من حكمه العالية ، لا عن فقر واحتياج، ولا عن ضرورة موجبة ملزمة . فلم يكن فى هذه الصفة التى هى العلو على الخلق والاستواء على العرش مفتقراً الى ذلك ، كما أنه فى خلقه العالم لم يكن مفتقراً الى الخلق ، وكما أنه لم يكن فى فعل من أفعاله مفتقراً ولا محتاجا ، وكما لم يكن فى أوامره ونواهيه وشرائعه

وأفعاله محتاجا ، ولو كان يلزم استواءه على العرش أن يكون محتاجا للزم أن يكون ذلك الاحتياج لازما جميع أفعاله الاختيارية ، وجميع أوامره ونواهيه وشرائعه . واذا لم يكن فى شيء من ذلك محتاجا فلن يكون فى صفة الاستواء والعلو كذلك بالضرورة . فان الكلام فى صفة الاستواء كالكلام فى سائر الصفات والأفعال فما كان واجبا وجائزاً على نوع الصفات والأفعال كان واجباً وجائزاً على أفرادها وما كان ممتنعاً على أفرادها كان ممتنعاً على نوعها . وليس هنالك فرق بين صفة الاستواء والعلو وصفة الخلق والايجاد من هذه الناحية نفسها . وكل ما يمكن أن يعد شبهة على الاستواء والعلو من هذه الناحية يمكن أن يعد شبهة على الخلق والايجاد من الناحية المذكورة

ولكن لا ريب فى بطلان كل ما يعد شبهات على صفة الخلق والايجاد والأفعال المتعدية . فكذلك لا ريب فى بطلان ما يعده المخالفون شبهات على الاستواء والعلو

والاستواء على العرش لا يلزمه شيء مما ذكروه لا عقلا ولا لغة ولا عرفا . فهذه المخلوقات ، ولله المثل الأعلى ، قائم بعضها فوق بعض ، مستو بعضها على بعض ، ولم يقض هذا بأن تكون كلها متحاملة بلا انفكاك ، ولم يلزم أن يكون الأعلى محمولا بالأسفل ، أو يكون الأسفل حاملا للأعلى . فهذه السموات وهذه الأجرام العلوية قائمة فوقنا وفوق الأرض ، ولم تكن الارض حاملة لها ، ولم نكن نحن حامليها ، بل وهذا السحاب ناهض فوقنا وفوق الأرض ولسنا حامليه وليست الأرض حاملة له . وكذلك يقال فى الهواء وغير الهواء مما فى هذا الملك العريض . فان أجزاءه مخلوق بعضها فوق بعض وليس الأعلى محمولا بالأسفل، بل الأسفل والأعلى قائمان بقدرة الله وبأمره وسلطانه ، وهما فى الافتقار اليه تعالى سواء ، وهما فى العجز عن الاستغناء والقيام بالنفس صنوان

وإذا كانت المخلوقات كذلك فالله خالق المخلوقات أعلى وأولى بألا يكون فى استوائه على العرش وعلوه على الخلق محتاجا ولا محمولا لشىء من هذا العالم المخلوق القائم باذنه وأمره تعالى فهذه الشبهة لا تعدو أن تكون عارض وهم تحرقه هبة من هبات الحق

(الشبهة التاسعة)

قالوا : لو كان الله فوق العرش وفوق الخلائق كما تزعمون دون الارض ودون الجهات الاخرى وهذا هو ما تزعمون وتقولون ، لكان محدوداً ، ويعنى أنه يكون ذا حدود ونهايات ذاتية تنتهى عندها الذات ، قالوا : ومن الباطل الصارخ الزعم أن ذات البارى محدودة بهذا المعنى

والجواب أن يقال : ان هذا الاعتراض يرد ، ان كان صحيحاً ، عليه تعالى من حيث هو موجود ، لا من حيث هو مستو على العرش علىّ على الخلق بأن يقال الله موجود ، والموجود اما أن يكون متناهى الذات واما أن يكون غير متناهيا ، ولو لم يكن متناهيا لكان ممزوجا مخلوطا بالوجود ، حالا فى المخلوقات حالة هى فيه وهذا باطل ، ثم محال ألا يكون متناهى الذات ، لأن هنالك موجودات أخرى مالئة فراغا ما ، وهذا الفراغ المملوء بهذه المخلوقات لا يمكن أن يكون فيه غيرها اذ لو كان كذلك لما كانت هذه المخلوقات شاغلة فراغا ما ، وهذا باطل بالاتفاق . وعلى كل حال لا يمكن أن يزعم أن هنالك موجوداً مالئا بذاته الفراغ كله ، اذ لو كان كذلك لما وجد غيره . فلو فرضنا أن ذات الله غير متناهية بالمعنى الجاف الحسى الذى يعنيه هؤلاء المجردون المعطلون لما أمكن أن يوجد غيره من الموجودات الحسية المادية ، إذ لا مكان لها حينئذ فى هذا الوجود

واذن لا يمكن القول بأن ذات الله غير متناهية بالمعنى الحسي الجاف ، فلم

يبق إذن غير القول بأن ذاته متناهية سواء أقيل بالاستواء على العرش أم لم يقل به فهذا القول لا يزيد هذه القضية ثبوتا وصحة ، وإنكاره لايدفعها ولا يدفع لزومها . فالايمان بالاستواء لايضر المؤمن بذلك ، والجحـد له لاينفع الجاحد له ، فلا يصح ـ والأمر كما ذكر ـ إنكار صفة من صفات الله الواردة في جميع كتب الله وعلى جميع ألسنة الأنبياء فراراً من أمر لايمكن الفرار منه وحذار قضية لايمكن حذارها

فهذه الشبهة واردة على جميع المؤمنين بالله لا تختص القـائلين بالاستواء والعلو انفراداً . فالجواب إذن عنها مشترك بين جميع الالهيين من المؤمنين بالاستواء والمنكرين له . فان كان يمكن عند هؤلاء ألا ترد هذه الشبهة على الموجود من حيث هو موجود ، ولا على الله إذ هو موجود وأمكن ألا يكون الله متناهي الذات ، أو أمكن أن يكون متناهياً مع القول بأنه ليس محدوداً . إن أمكن هذا عند المخالفين أمكن بلا شك القول بالاستواء على العرش والعلو على الخلق مع إنكار أن يكون متناهي الذات ومحدودها ، ومع القول بانكار هذه الشبهة جملة ، وإن لم يمكن هذا لم يمكن هذا ، ولا حيلة للمخالف فى هذا البتة . ولاريب أنه اذا عرض على العقلاء موجود وثب الى عقولهم افتراض أن يكون هذا الموجود محدود الذات متناهيها ، وإن لم يفكروا فى علوه واستوائه على غيره ، بل وإن لم يفكروا فى صفة من صفاته اللازمة له . واذا عرض على عقولهم بعد هذا علو ذلك الموجود واستواؤه على مكان كذا وفى جهة كذا لم يزد هذا افتراضهم أن ذلك الموجود لابد أن يكون محدود الذات متناهيها . فهذه الصفة التى هى صفة الاستواء لاتزيد فى لزوم هذا الافتراض ونسيان هذه الصفة لا ينقص الافتراض لزوما ووجوبا

وكل شبهة تقدح فى وجود البارى لاريب في أنها شبهة داحضة لا يعبأ بها ، فهذه الشبهة حكمها كذلك لأنها تنقض على وجود غاية كل موجود . هـذا ما يقال من وجه ، ثم يقال من وجه آخر : ان كلمة محدود الذات ـ وما شابهها ـ كلمة ذات

وجوه على حسب اختـلاف فهم الناس إياها ، ولما من ذلك ماهو حق ، وما هو باطل ، وكذلك أكثر صفـات الله، والذين يصيرون الى الانكار والجحود انما أتوا من هذه الناحية ، ناحية الابهام القائمة على اختلاف الناس فى فهم ما يقال وما يسمعون ، فكن أقواماً كثيرين صاروا الى إنكار أمور صحيحة ثابتة لأنهم فهموها وعقلوها على غير الوجه الصحيح الذى فهمه وعقله المؤمنون ، وهـذا علة من علل الاختلاف على الحق والنزاع فيه ، ولعله علة العلل فى كثير من هذا !

لحق واجب على من يخافون الانزلاق فى مدارج البـاطل ودركات الغى أن يرعوا هذا جيداً وأن يتجنبوه بحذر وانتباه . وعلى هذا وجب علينا أن نقابل كلة محدود بالتريث العاقل ، فلا نبادر الى ردها ودفعها جملة بلا امتحان لمعناها ولما تحمل من حق أو باطل كحال أغلب الصفات التى ينكرها هؤلاء النفاة الجحدة ، وقد جربنا عليهم انكار الحق المعلوم الثابت وحشة من ألفاظ وضعوها له بدون نفوذ فى أحشـائه وبواطنه . وهذا خطأ قديم ، وحديث أيضا ، تتابع عليه الناس وقلد فيه آخرهم مذهب أولهم . وقد يقول بعض الناس الحريصون على الدقة التى لا خير فيها فى هـذا المعنى : ان المخلوقات محـدودة ولا ريب ، لأنها لو لم تكن محدودة لما كانت مخلوقة ، واذا ما كانت محدودة فلا ريب أن الفعل الذى وجدت به محدود أيضا . والفعل الذى وجدت به المخلوقات هو فعل الله أى خلقه وإيجاده . وغير ممكن البتة أن تكون المخلوقات محدودة ثم يكون الأحداث الذي به حدثت ووجدت غير محدود . . فتكون نتيجة هذا أن يقول صاحب هذا القول الدقيق الجانح الى الفلسفة : ان الخلق الذى هو الايجاد ـ وهو صفة من صفات الله ـ محدود . فتكون صفة من صفات الله محدودة ، ولكن هذا يأباه أمثال هؤلاء بهذا النحو . ومثل هذا يقال فى صفات أخرى من صفات الحق جلت قدرته وتسامت حكمته . وهذا من الدقة التى لا خير فيها كما قلنا ومن الفلسفة

المفاسة . وأقرب من هذا فى افهام هؤلاء خطأهم أن ينبهوا على أنهم يعدون لله صفات محصورة لايزيدون عليها ولا ينقصون منها ، ثم يزعمون أنه جائز ألا يكون لله سوى تلك الصفات المحصورة التى يعدون ويعهدون . وهذا عند هؤلاء من أصول التوحيد والتنزيه . فاذا كانوا يحدون صفات الله أو يجوزون ذلك ، أو لا يرون مانعاً أن تكون صفات الله محدودة فما لهم لا يقبلون هذا المعنى فى الذات ؟ وهذا لو كان باطلا فى الذات لكان باطلا فى الصفات ، واذا كان جائزاً فى الصفات كان جائزاً فى الذات . وهذا عندى ظاهر جلى . وتحديد الصفات على هذا المعنى المقصود عندهم معلوم من بطلان أن يكون الله موصوفا بكل الصفات . فان نفى بعض الصفات الموجودة عن الله ـ سواء أ كانت نقصا أم كانت كمالا ـ قول بتحديد الصفات فانه اذا قيل : هو موصوف بكذا غير موصوف بكذا ، وقيل إن هذه الصفات واجبة له وتلك باطلة فى حقه ، كان هذا صريحا فى هذا التحديد . فهو على الأول قول بتحديد صفاته تعالى بالكامل من الصفات . ولكن هذا على كل حال تحديد للصفات بالقسم المحمود منها دون الناقص المذموم . وليس من شك فى أن انكار صفة الاستواء وغيرها من الصفات تحديد صريح فى وصف البارى ، فان من أقر له بجميع الصفات ثم أنكر صفة الاستواء فقد حد صفاته تعالى وقال بتناهيها ، وكذلك انكار صفة ما من صفاته هو قول بالتحديد والتعديد . فان المفهوم المعقول من قولهم : حدد هذا الأمر أنه جعل له حد وغاية يقف عندها لا يجوزها . والذين ينكرون بعض أوصاف الله أو ينكرون أن يكون موصوفا بنوع كذا من الصفات هم يحددون بهذا ـ ولا ريب ـ أوصاف الحق ويحصرونها فى غير ماينكرون وما يأبون من الصفات التى ظنوها نقصا فى ذات الله . واذا كان هذا التحديد الفلسفى الدقيق عند النفاة جائزا فى صفات الله القائمة بذاته القديمة بقدم ذاته ، بل اذا كانوا قائلين بهذا التحديد راضين به فلماذا ينكرونه فى

الذات لينكروا بانكاره أمرا ثابتا فى جميع الكتب المقدسة وعلى جميع السنة الأنبياء وألسنة جميع المليين ؟ وماذا يعنون ويريدون بقولهم : أنه يكون محدوداً اذا ما كان فوق العرش وفوق الخلق دون الأرض ودون الجهات الأخرة؟ أيعنون أنه يكون حينئذ محدوداً بفعل حاد محدد أو جد له ذلك الحد المفترض ؟ ان كان هذا أو نحوه من المعانى الباطلة هو مايعنونه قيل لهم : كلا ان الله ليس بمحدود على هذا الاعتبار والتفسير ، ولا يجوز أن يكون محدوداً ، وهذا لا يلزم القول بالاستواء والعلو . ومن قال ان هذا يلزم هذا كان قائلا قولا باطلا بلا شك ، بل وكان مصادراً فى أصل المسألة ، وكان قوله هذا كأن يقول قائل : اذا كان الله موصوفا بصفة ما فلا بد أن يكون غيره أوجدها له . وذلك أن الحد لايعدو أن يكون صفة من الصفات ، لأنه فى الشاهد هيئة من الهيئات ، وهذا هو حقيقة الصفات . أم يعنون بذلك أنه يكون حينئذ فى السماء وفوق العرش دون الأرض ودون الجهات الأخرى ؟ فان كان هذا هو ما يعنون قيل لهم : هذا هو حقيقة الدعوى وهذا هو ما نقوله وما يقوله المثبتون وما جاءت به كتب الله ورسالات الأنبياء كما سبق ، فما المانع منه ، ولماذا كان القول به باطلا عندكم ؟ هذا مالا تجدون له دليلا يركن اليه العقل ويأنس به العلم المنافى للجهل

هذا وليعلم أن إطلاق الحد على الله قد ورد عن بعض الأئمة الكبار أمثال الامام أحمد رأس علماء السنة ، وقد ذكر هذا عنه ابنه عبد الله فى كتاب السنة ، وجاء هذا أيضا عن عبد الله بن المبارك ، وأطلقه عثمان بن سعيد الدارمي وأشاد به فى كتابه النقض على المريسى من شيوخ الجهمية المعطلة ، وقد جعل الدارمى إنكار ذلك من أقوال الجهمية ، وجاء هذا عن غير هؤلاء من شيوخ الاسلام المجتمع على إمامتهم وزعامتهم العلمية والدينية وهم يريدون بالحد ما ذكرناه من أن الله تعالى بائن عن خلقه بائنون عنه ليس حالا فيهم وليسوا حالين فيه ، ويعنون أنه فوق

المخلوقات ليس تحت شيء منها وليس فوقه منها شيء وفاق النصوص

فهذه الشبهة لا تخرج عن أن تكون حلقة من سلسلة هذه الشبهات الواهية التفطام التي أرينا القارىء حلقات منها . ومن البلاء أن تردّ النصوص التي لا تدخل تحت الاحصاء ، وأن تردّ المعقولات القاهرة المنادية بعلو الله على خلقه وسموه فوق سماواته احتراما لأمثال هذه الأوهام العارضة ، التي تمكن معارضتها باضعاف أضعافها من أمثالها . وما كان ممكنا أن تقبل العقول أمثال هذه الأوهام لولا أنه ليس كالعقول البشرية قبولا للحق وقبولا للباطل ، وصعوداً في معارج الكمال ونزولا في دركات النقصان . وما ان كالعقول البشرية تقلبا بين هوى الضلال وتعشق الهداية ، وحيرة بين داعي الحق ومنادي الباطل . لهذا كان الحق عزيزاً وصاحبه أعز ، وكان الباطل ذليلا وصاحبه أذل . وعلى الله وحده قصد السبيل

(الشبهة العاشرة)

قالوا : قد ثبت علميا أن الأرض كروية الشكل [١] وأن الناس يسكنون سطوحها من جميع جهاتها ، بل والعالم كله كروى الشكل ، فما كان فوق من هم في اقصى الشرق كان تحت من هم في أقصى الغرب ، وما كان تحت أهل المشرق كان فوق أهل المغرب وما كان فوق رءووس من يسكنون أقصى الشمال كان تحت أقدام من يسكنون أقصى الجنوب . وبالاجمال فما كان تحت أقوام كان فوق أقوام آخرين . وكل ما كان قابلا أن يكون في الجهات فلا بد أن يكون فيها كلها لأجل ما ذكرنا ، فالشمس مثلا اذا كانت فوقنا معشر الشرقيين كانت في الوقت نفسه تحت الغربيين ، واذا كانت فوقهم كانت تحتنا ، وهكذا الأمر

(١) قد قال علماء الاسلام بكروية الارض ومن القائلين بهذا ابن تيمية وابن القيم وابن حزم والرازي وابن الجوزى وابن المنادى وغيرهم

فى جميع الأفلاك العلوية ، ومعنى هذا أنه ليس هنالك جهة ثابتة حقيقية لشىء من الأشياء الموجودة فى الجهات ، وهـذا كالكرة مثلا فانه ليس لسطحها بالنسبة اليها جهة حقيقية بل كل مايفرض لها فوقا يمكن أن يفرض لها تحتا ، وهكذا ، والعـالم مثل هذا لأنه كروى . وحينئذ لو فرض أن الله فوق العرش أو فوق العالم أو فوق السموات لكان معنى هذا أنه فوقها وتحتها ، أو فوق بعضها وتحت بعضها ، ولكان قولنا : إنه فوق العالم مساويا لقولنا : إنه تحت العـالم ، ولجاز أن يقال : انه تحت السماوات وتحت العرش وتحت الخلق ، كما يقـال انه فوق ذلك ، أو لكان ممتنعا هذا وهذا ، أو واجبا هذا وهذا لما ذكرنا ، كما نقول ان الشمس تحتنا حينما تكون فوق من هم تحتنا فى الجهة المقابلة من سطح الأرض ، وكما يقول من هم تحتنا : ان الشمس تحتهم حينما تكون فوقنا نحن ، وهلم جرا . ولكن القول بأن الله تحت خلقه أو تحت بعض خلقه قول باطل بالاتفاق بين نفاة الاستواء ومثبتيه . والقول الذى يلزمه هذا الباطل باطل ، فالقول بأن الله فوق العرش أو فوق الخلق باطل لأجل ذلك . قالوا وذلك أننا نعلم أن المثبتين لعلو الله على خلقه لا يجوزون بوجه من الوجوه القول بأنه تعالى تحت المخلوقات أو تحت شىء منها لا العرش ولا غيره ، كما لا يجوزون أن يتجه اليه عباده فى جهـة غير جهة العلو والسماء . قالوا ولأجل هذا ـ ولأجل هذه المقـدمات الضرورية المسلمة بالاجماع ـ ذهبنا الى إنكار علو الله ، واضطرتنا هذه المقدمات الصحيحة الى هـذه النتيجة الصحيحة اضطراراً لا يستطاع عقلا ونظراً الانفكاك منه بحال من الأحوال . فالقائلون إذن بالاستواء والعلو غالطون خارجون على قضاء هذه الحقائق الصريحة الصحيحة

قلت هذا خلاصة هذه الشبهة ، والجواب أن يقال : إن بعض أجزاء هـذه المقدمات غير صحيح وبعضها صحيح ، ولكنها على كل حال لاتؤدى الى هذه النتيجة التى هى إنكار علو الله واستوائه على عرشه . وبيان ذلك أن يقال : ان علم العقلاء

اليقيني بأن كل موجود لا بد من أن يكون في إحدى الجهات لا انفكاك ولا مهرب أبين وأثبت من علمهم هذه المقدمات ثم علمهم إنتاجها هذه النتيجة القاضية بنفي علو الله على خلقه ، ثم علمهم لزوم هذه النتيجة لهذه المقدمات ، فالعقلاء يعلمون أن الموجود ـ قديما كان أو حادثا ـ لا يمكن أن ينفك عن أن يكون في إحدى الجهات من الموجودات الأخرى اذا افترض وجود موجودات أخرى أعظم وأثبت من علمهم أن الموجود الكائن في إحدى الجهات ـ كالعلو مثلا ـ لا بد أن يكون فوق وتحت وفي كل الجهات أو لا بد أن يكون فوق شيء تحت شيء آخر ، بل العقلاء يعلمون أن الموجود من حيث هو موجود لامناص من أن يفرضوه في إحدى الجهات من الجهة التي هم فيها ، ولا يمكن أن يعلموا موجوداً أو يفرضوه دون أن يعلموا فوراً أنه لا بد أن يكون في إحدى الجهات . أما علمهم أن ذلك الموجود ـ اذا كان في احدى الجهات ، فلابد أن يكون فيها كلها ، او أن يكون في جهة بالنسبة الى قوم وأخرى بالنسبة الى آخرين ، إن أمكن أن يعلموا ذلك ـ فعلم نظري مكتسب قائم على مقدمات يطول فيها النزاع والاختلاف ، وجماهير الناس اليوم وفي كل يوم يعلمون أن الموجود هو وإحدى الجهات لاينفكان ، ولكنهم يجهلون هذه المقدمات التي أريد بها نفي العلو جهلا تاماً واضحاً ، بل لو عرضت عليهم هذه الأشياء وذكرت لهم ، ثم طلب منهم الايمان بها لردوها وأنكروها ، ولما استطاعوا أن يدركوها فيصدقوها ، بل ولعجبوا من المسلمين بها القائلين ، لأنها لديهم أشياء باطلة وفلسفة واهية

واذا علم هذا قيل : اننا لو أنكرنا علو الله واستواءه على عرشه ـ قائلين انه لا فوق ولا تحت كما يقولون فراراً من هذه الشبهة ـ لكنا غالطين غلطاً فاحشا . وذلك أننا نكون حينئذ قد أبطلنا الأمر الضروري اليقيني ، الذي هو أن الموجود قديما كان أو كان حادثا لا بد أن يكون في جهة ، فراراً من الاصطدام بالخطأ

النظري الظني الذي هو ان ما كان في جهة من الجهات فلابد أن يكون فيها كلها ، أو أن يكون في جهة بالنسبة الى قوم وفي أخرى بالنسبة الى آخرين ، ثم فراراً مما في هذا المعنى من الخطأ والضلال . ولكن الذي عليه العقلاء في جميع العصور والأمم بلا خلاف أن الأمر الضروري لا يبطله الأمر النظرى الظنى ، وأن الحقائق الثابتة بالضرورة لا تدفع هروبا من الوقوع في خطأ نظرى ظنى . فمثلا العلم بأن المفعول المحدث الكائن بعد عدم لا محالة من أن يكون له فاعل محدث خالق وهبه صفة الوجود والظهور علم ضرورى تلتقى على تصديقه والاذعان له جميع العقول والأذهان بلا تواطؤ ولا ممالأة ولا ادارة نظر أو اعمال فكرة لا قريبة ولا بعيدة ، فلو أراد مريد أن ينازع هذا العلم الضرورى ، وأن ينتزعه من العقول بما استطاع وبما يمكن أن يستطيع من المعارضات والشبه التي قد تهوى اليها بعض الرؤوس ، والتي قد تحتل زوايا بعض الأذهان الرخوة الضعيفة إزاء كل داع ودعوة ، والتي لا بد أن تكون نظرية باطلة واهية ، لكان هذا المريد غالطاً غلطا جليا ، ولكان جميع ما يدلى به من الشبهات والمعارضات باطلا بلا تعرف لمكان بطلانه وموضع خلله سوى أنه يراد به إبطال أمر ضروري ، والأمور الضرورية لا تبطلها النظريات وإلا لبطلت الضروريات والنظريات ، إذ ما من أمر نظرى إلا ولا بد أن ينتهى الى ضرورى يسلمه الجميع ، فالضرورى قاعدة النظرى ، والنظرى فرع له ، والفرع كما يقولون لا يقدح في أصله وقاعدته وإلا لبطل الأصل وفرعه

وكذلك نعلم بالضرورة أن الأمر الواحد المعين المشخص لا يمكن أن يكون في زمن واحد في مكانين مختلفين محتلا لذينك المكانين بذاته الواحدة المعينة المشخصة ، فكل ما يورد على هذا العلم الضروري من الشبهات لا نتردد في ردها ورجمها على قائليها ، لأنه يراد بها القدح في شيء اجتمعت العقول كلها على علمه والاعتراف به والتسليم له بلا تواطؤ ولا ممالأة ولا اعمال فكرة . وهكذا يقال في

أمثال هذا من الحقائق الانسانية المجتمع عليها

وكذا يقال : ان العقلاء بل وغير العقلاء يعلمون يقيناً بلا تواطؤ ولا ممالأة أو تواص أن الموجود من حيث هو موجود ـ ويستوي فى ذلك القديم الواجب الوجود ، والحادث الجائز الوجود ـ لا بد أن يكون فى جهة من المتصور وجوده المسلم بوجوده ، ولا يمكن بداهة أن يقول قائل : ان هـذا أو ذاك موجود الا ويثب ذهنه فوراً الى جهة من جهاته يتلمس وجود ذلك الموجود ويتطلب الاتصال به أو الانفصـال عنه . ولن يقول قائل سليم العقل ـ ولا أعنى سليم العقل من الضعف والمرض ، بل سليم العقل من الدعايات المدخولة البلهاء ـ : الله موجود إلا ويحاول ذهنه الوثوب الى جهة من الجهات أو الى كل الجهات متلمساً ذلك الموجود ولن يقول قائل : يا فلان أو يا من اسمه كذا وصفته كذا ، الا ويتحرك ذهنه إلى جهة من الجهات التماساً لذلك المدعو المهتوف باسمه وصفته . هـذا ما لا شك فيه بين العقل والمنطق ذى المقدمات المنتزعة من الواقع المشهود ، والاجماع الانسانى الموروث الذى يتغير فى هذا الوجود ما يتغير وهو حيث هو ثابت مكانه لا يتحلحل ولا يزول

وإذن فكل ما يورد على هذا العلم لا يمكن الا أن يكون باطلا ، لأنه قدح فى الضرورى ، والضرورى ـ كما قلنا ـ لا يتحمل القدح ولا يقبل القدح فيه بوجه من الوجوه ، لأن للبشر علوما ومدارك ثابتة لا يمكن أن تنتزع ، ولا يمكن أن يتغير فيها الحكم والعلم مهما تغير الزمان وأهل الزمان ، وذلك العلم والحقيقة التى هي أن الموجود لا يتصور الا أن يكون فى احدى هذه الجهات المعلومة للبشر أحد هذه العلوم والمدارك البشرية الثابتة التى هى احدى قواعد وأساس المدارك الانسانية التى تلتقى عليها جميع الأذهان فى جميع العصور والبيئات المختلفة . فلو أنك سـألت إنسانا ما فى أقصى المشرق ، ثم سألت آخر فى أقصى المغرب عن هذه المسألة لما

خافرت باختلاف بينهما ، وان كان بينهما من الاختلاف فى أمهات المسائل الاجتماعية والدينية والأدبية مقدار ما بين وطنيهما المشرق والمغرب من الأبعاد والمسافات . وقد قام قائمون منذ قرون عديدة يعالجون هذه الضرورة علاجا شديداً ويحاولون أن يقنعوا أنفسهم أولا ، وأن يقنعوا غيرهم من الأتباع والمخالفين ثانياً بأن ربهم ليس منهم قريبا ولا بعيداً ، وأنه ليس بمتصل بهم ولا منفصل عنهم ، وأنه لا تمكن الاشارة والاتجاه اليه بحال من الأحوال مستعينين بما نبغوا فيه وفى حذقه من صناعة الجدل ، وصناعة السفسطة ، وصناعة التهريج المضل ، واضعين ذلك فى كتب ضخمة معروفة بذلوا فيها غاية جهدهم وغاية جهد الانسان وما أوتيه من نبوغ وذكاء ومهارة ، ولكنهم رجعوا كما بدؤا وانتهوا حيث ابتدؤا ، ثم نظروا فاذا هم لم يخرجوا من هذا المعمعان الا بقيل وقالوا واعترض وأجيب . أما الحقيقة فهى باقية كما كانت ، وكما سوف تكون كذلك ابداً والى النهاية ، وأما أنفسهم فكانت أيضا كما كانت وكما سوف تكون أبداً والى النهاية ، لا تعترف إلا بالحقيقة ، ولا تخضع فى هذه المسألة إلا لما لا يمكن الانفلات من الخضوع له . أما ما قالوا وما كتبوا فانه لم يعدُ نطاق الأوراق ، ولم يكن إلا غباراً لحرب شعواء يشنوها على الحق أولا وعلى الأهل والاخوان ثانيا انخداعا بأقوام ما كانوا قط شرفاء ، واتباعا لأهواء ما كانت قط صالحة بارة . ومثل هذا لا يمكن أن يكون فى مقدوره إطفاء نار الحق ونوره

ومن العجيب أن هؤلاء الماهرين بهذا التعطيل لم يستطيعوا إخفاء الحق بجوارحهم إذ استطاعوا اخفاءه ونكرانه بألسنتهم فان واحداً من هؤلاء المنكرين لم يستطع أن يملى هذا الانكار على شيء من جوارحه سوى لسانه . أما بقية أعضائه فهو عاجز وكل شيء عاجز عن املاء هذا الكذب عليها . ألسنا نجد أشد هؤلاء الجاحدة وإنكاراً وتعطيلا تغلبه يداه وعيناه وجملة جسمه على هذا كله وعلى ما قال

وما كتب فى حياته كلها . فتجد عينيه تشخصان الى السماء ، ويديه ترتفعان حيث تلتمس العقول باوثها غاية كل حى ؟ ألسنا نجد جسمه كله عند ثورة الارض به يريد السمو والسماء . لا يريد غير ذلك ليهرب الى الله من الارض وأهلها ، ومن كذب الارض وكذب أهلها ، ومن هذه الكذبة الاعتقادية التى وضعها غير الحق على لسانه ؟ ألسنا نجد الناس جميعا المنكرين والمؤمنين قد اتفقوا على هذا بأفعالهم حينما يرغبون أو يرهبون ناسين كل ماقالوا وكل ما كتبوا ؟ ومن غريب مافى الانسان أن تجد من ينكر استواء الله وعلوه يسمو ببصره الى السماء حينما يقول لك إن الله ليس فى السماء ! كأن بصره وطبعه أبيا الا تكذيب لسانه فى جميع حالاته أفلا ترى فى هذا كيف يستخلص الحق من الباطل ! وكيف تبقى للحق أعلام يهتدي بها المهتدون وان جهد الباطل كله على طمس أعلام الحق كلها ! بل ألست ترى أن الحق أوضح مايكون وألمع مايرى حينما تحيط به ظلمات الباطل وحنادسه الكثيفة ! أفلست تجد فى هذا كله مقنعاً بأن كل مايعارض علو الله واستواءه على عرشه باطل باطل ، وضلال ضلال ؟ أما اذا ماحاول المعطلون المخالفون الا نفلات من هذا الالزام وهذا العلم الضروري الناضج بمحاولة من محاولاتهم المعلومة . كأن يقولوا مثلا : ان الموجود - وان كان من حيث هو موجود لا بد أن يكون فى احدى الجهات كما تذكرون - بيد أنا نستثنى من هذا القانون العام الشامل الله رب العالمين . لأنه ليس كالموجودات فلا يشمله قانون عام يشملها كلها بضرورة مخالفته إياها فى الصفات وفى ما يجوز وما يجب وما يمتنع فهو - وان كان لا يعقل موجودان البتة إلا ولا بد أن يكون أحدهما فى جهة من الموجود الآخر - فالله ليس كذلك لأنه ليس كمثله شىء : ان حاول المخالفون المعطلون الا نفلات مما ذكرناه من الالزام بهذا قلنا جوابا عن هذه المحاولة : إن صح لكم هذا المذهب فى هذا الهرب صح لنا جماعة أهل الاثبات المسكين بالنصوص الشرعية أن

نجاوب عن هذه الشبهة التى ألقيت على علو الله واستوائه بهذا الجواب الذى اخترتموه بأن نقول مثلا : هذه الشبهة التى ألقيتموها على الاستواء والعلو بنظرية كروية الارض والعالم ـ وان كانت ترد على كل موجود يكون فى احدى الجهات لا ترد على الله وعلى علوه واستوائه ، ولا يصح أن ترد ، وان وردت على المخلوقات كلها ضرورة مخالفته إياها فى الصفات وفي ما يجب وما يجوز وما يمتنع فالله ليس كمثله شىء لافى علوه واستوائه ولا فى غير ذلك من الصفات ، وحينئذ فكل مايورد على جوابنا يورد على جوابكم ، وكل ما تجيبون عنه بهذه الطريقة نجاوب عنه نحن بالطريقة أيضاً نفسها سواء بسواء مثلا . فتتكافأ الشبهتان على أقل الاحوال وساعتئذ لا يبقى إلا الرجوع الى دلائل أخرى فنرجع الى نصوص الاديان فنجدها متفقة أعظم اتفاق على استواء الله وعلوه بلا خلاف . فلا يبقى إلا الايمان بالاستواء والعلو على جميع الافتراضات والاحوال ، وهذا هو المطلوب . هذا مايقال فى جواب هذه الشبهة أولا

ثم يقال ثانيا : ان الذى نقوله نحن وندعيه هو أن الله مستو على عرشه علىّ على خلقه كما جاءت بذلك النصوص المتواترة فى الكتاب والسنة . لانزيد على هذا ولا ننقص منه ، ولا نتقدمه ولا نتأخر عنه . فان كان يلزم هذا القول وهذا الاعتقاد شىء مما ذكره المعارضون فى هذه الشبهة فهو حق يلزم المصير اليه والقول به . لأن ما يلزم الحق لا يمكن أن يكون باطلا ، ولأن مايقضى به الحق لا يصح القضاء بخلافه ، والحق لايمكن أن يلزمه الباطل ، وإلا لو لزمه لما كان من الحق فى شىء يقينا والصحيح لا بد أن يكون صحيحاً بنتائجه ولوازمه وكل مالا ينفك عنه فان كان حقاً ماذكروه فى هذه الشبهة من أنه يلزم استواءه على العرش ـ مع كون الارض كروية الشكل ، وكذلك العالم أجمع ـ أن يكون تعالى محيطا بالخلائق محيطا بكل شىء لم يقم هنالك مانع عقلى أو نقلى يمنع من المصير الى هذا ، ويمنع

من القول بأنه محيط بالعباد وبالخلائق أجمعين إحاطة تليق بذاته وصفاته وجلاله لا كما يحيط المخلوق بالمخلوق تعالى الله عن ذلك وعن شبه المخلوقات ، وقد جاءت النصوص دالة على احاطته كما ذكرنا قال الله « وكان الله بكل شيء محيطا » الى آيات أخرى معلومة فى هذا المعنى ، ولكن يلزم أن يرعى فى هذا رفع التشبيه والمبالغة فى التنزيه ، كما يلزم هذا المعنى فى جميع صفات الله وجميع شئونه الظاهرة والباطنة واذا رعى هذا وحفظه المثبتون انقطع لجاج المنكرين الجاحدين وخصامهم وشغبهم وشبهاتهم

وكذلك ان كان يلزم علوه على خلقه واستواءه على عرشه وفاق النصوص المتواترة أن يكون فوق بعض الخلق وتحت البعض الآخر بالنحو المذكور فى فاتحة الشبهة وجب القول بهذا ولزم المصير اليه إذعانا وتسليما لا اعتراض ولا ممانعة ولم يكن فى هذا المعنى نقص ما . فان هذا بالصفة المذكورة فى الاعتراض ليس فيه ما يؤذى وينكر ، والناس اذا فهموا فى صفة « التحت » نقصاً أو ضعفاً أرادوا به « التحت » المعهود لهم وللعامة فى الاصطلاح العام الساذج . لا التحت الذى عنوه بهذه الشبهة ، فان هذا تحت من نوع آخر لا نقص فيه ولا ضعف . ومن ذا مثلا يستطيع أن يفهم فى الشمس نقصاً أو ضعفا اذا قيل : انها تحت الأرض وأهل الأرض على النحو المذكور فى الشبهة المذكورة فى طالعة هذا الكلام . وليس من ريب أن القول بالتعطيل الذى ينتحله هؤلاء النفاة من أنه لا فوق ولا تحت ولا قريب ولا بعيد أقرب الى الاستحالة والبطلان والنقص والضعف من القول بالاستواء والعلو وان لزم بهذا ما ذكروه . هذا ما يقال ثانيا

ثم يقال ثالثا : ان هذه الشبهة فاسدة باطلة من أساسها ، ذلك أن كلمة « فوق » وكلمة « تحت » كلمتان اصطلاحيتان عرفيتان تواضع الناس على اطلاقهما ليعبرا عما يفهمه عامة العارفين باللغة منهما عند الاطلاق المجرد ، وليس للعقل الفلسفى والمنطق

الفنى تصرف فى ذلك البتة ، فلو أريد بكلمة « التحت » ما يراد بكلمة « الفوق » وأريد بكلمة « الفوق » ما يراد بكلمة « التحت » لما نازع ذلك العقل ولما وجد فيه مكانا ومساغا للاعتراض والموافقة ، وذلك أن مثل هذا ليس من خصائص العقل ولا من وظائفه ، وكذا أمثاله مما مرده الى العرف المجرد الخاص أو العام ، فما معنى كلمة « فوق » وما معنى كلمة « تحت » ؟ وعلى ماذا يدلان عند عامة أهل اللغة واللسان ؟ ان الجواب عن هذا السؤال هو الفصل فى هذه المسألة

لاريب أن الأرض تحتنا ـ سواء ارتكزنا عليها بأرجلنا أم اتجهنا اليها برءوسنا أو جنوبنا أو ظهورنا أو غير ذلك من سطوح أجسامنا ، ولا ريب أن السماء فوقنا سواء اتجهنا اليها برءوسنا أم بأرجلنا أم بأية ناحية من نواحى أبداننا ، إذن فالفوق ليس هو ما يلى رأسك ، والتحت ليس هو ما يلى رجليك ، وليس أحد هذين المعنيين هو ما يلى سطحا معينا من سطوح جسمك ، وهذا كما رأيت فى مثالى السماء والأرض ، فما الفوق وما التحت إذن ؟

لا شك أننا نحس أجسامنا تهوى الى الأرض وتريد الانغماس فيها ، ونضطر الى ذلك اضطراراً لا حيلة لنا فيه ولا فى دفعه ورفعه ، ثم نحس أنه لولا صلابة الأرض ورفعها ايانا لتجلجلنا فى أحشائها ولذهبنا فى بطنها المخيف المظلم ، وبعبارة أخرى نحس أنه لولا ما وهب الله الارض من القوة والأيد على دفعنا ورفعنا لابتلعتنا ولانغمسنا فى قلبها الى قرار معلوم لا يعدى

هذا هو ما نحسه نحو الارض التى نقول أنها تحتنا ، والتى هى تحتنا حقيقة ولا شك

ثم ان أجسامنا تأبى الاتجاه على كل الحالات الى السماء وتعانى ما تعانى فى محاولة الدنو منها والوصول اليها مهما خفت أجسامنا ومهما ثقلت ومهما وضعت واتجهت . هذا ما نحسه نحو السماء التى نقول أنها فوقنا والتى هى فوقنا ولا شك .

ونحن اذا ما امتطينا أجنحة العلم فحلقنا فى الهواء على متن طائرة كانت الارض تحتنا والسماء فوقنا مهما اتجهنا ومهما ذهبنا . وكذلك كل ما هو فوق الارض من هواء وسحاب وخلائق أخرى ، فالسماء فوقه والارض تحته كيف كان وكيف عرض واتجه ، فما هو الفوق والتحت إذن ، وكيف يعرف هذان من هذه الامثال المذكورة ؟؟

اننا اذا امتحنا ماذكرناه جيدا وسبرناه حقا ظهر لنا ان التحت هو الجهة التى نجد أجسامنا مدفوعة نحو الانحدار اليها والهوى فيها والارتكاز عليها ، أو بعبارة أخرى ان التحت هو الجهة التى تجذب اجسامنا جذبا وتجرها اليها جرا طبعيا دائما كما نجد نحو الأرض التى هى تحتنا بلا شك ، وظهر لنا أيضا أن الفوق هو الجهة التى نجد أجسامنا بطبعها تأبى الاندفاع اليها والذهاب نحوها دائما وعلى كل حال كما نجد نحو السماء التى هي فوقنا بلاشك . إذن فالتحت هو الجهة الجاذبة والفوق هو الجهة المضادة لذلك ، وإذن فالسماء فوقنا وفوق أهل الأرض كافة سواء أكانت محيطة بالأرض من جميع الجهات أم كانت غير ذلك ، وذلك أن أهل الأرض أينما كانوا فالسماء كائنة منهم فى الجهة المضادة للجهة الجاذبة التى هى التحت ، فالسماء فوق جميع من هم فوق سطح الأرض لأنهم حيثما كانوا ـ فى الشرق والغرب والشمال والجنوب والجهات كلها ـ يجدون أنفسهم فى الجهة التى حيث تكون السماء منها فوق على النحو الذى ذكرناه من جهة الجذب وضده . ولو أن هابطا هبط فى جوف الأرض حتى المركز الذى ينتهى عنده الجذب لكانت السماء فوقه من الجهة الأخرى ، أي من الجهة التى هبط نحوها مجذوبا بمركز الأرض . ولو أن انسانين هبطا الى المركز من جهتين متقابلتين ـ كالشرق مثلا والغرب ، حتى التقت أرجلهما وتلامست ـ لما كان أحدهما فوق الآخر ولا تحته لأجل ما ذكرناه من معنى الفوق والتحت ، واذا كان الهابط من جانب سطح الأرض الشرقى نحو مركزها

حتى وصله فعلا لايقال له ان سطح الأرض الغربي الذى نزل نحوه تحته عندمايصل المركز فيكون مما يلى رجليه فكيف يقال ان أهل المشرق تحت أهل المغرب مثلا إذا ما افترضت الأرض كروية وكانت كذلك وأن أهل الجنوب تحت أهل الشمال ؟ ان هذا مالا يكون وما لا يصح ، وكيف يصح هـذا وهو لو صح لكان أهل المشرق تحت أهل المغرب ، ولكان أهل المغرب تحت أهل المشرق ، وأهل الجنوب تحت أهل الشمال ، وأهل الشمال تحت أهل الجنوب ؟ وهذا باطل ، لأن الشيء اذا كان تحت شيء كان ذلك الشيء فوقه لا تحته ، وأما أن يكون هذا تحت هذا وفوقه فأمر باطل كاذب ، وليعتبر هذا المعنى بالأشياء الكروية الهيئة كالبيضة والبطيخة مثلا ، فانهما كرويتا الشكل ولا يقال لما ان هذا السطح تحت هذا السطح وأن هذا فوق ذلك ، بل يقال ان سطحهما هو الأعلى من جميع الجهات

وعلى هذا فاذا توهم متوهم أن الشمس تكون تحتنا نحو نصف الليل كان غالطا غلطاً واضحاً ظاهراً ، وذلك أن الشمس فى تلك الساعة التى يتوهم الواهم فيها أنها تحتنا هى فوق أهل الأرض الذين يحسبون تحتنا فى سطح الأرض الشرقى المقابل واذا كانت فوق من هم تحتنا على النحو المذكور فكيف يقال انها تحتنا ؟ بل هى فوقنا كما هي فوقهم فى جميع الأوقات والحالات ، وقد ذكرنا أن من هبط الى مركز الأرض حتى وصله لا يكون ما بعد المركز تحته ، فكيف يكون تحته ما بعد المركز وما فوق المركز ؟ واذا ما افترضنا السموات ، أو شيئا آخر غير السموات كرويا مثل القبة ، ثم افترضنا وجود شيء فى مستوى الدائرة دائرة القبة كانت القبة فوق ذلك الشيء من جميع الجهات ، ولم يكن شيء من سطوح القبة المجوفة تحت ذلك الشيء الموجود فى دائرتها ، وكان كل من وقف فوق سطح ذلك الشيء يرى القبة فوقه ويشير اليها اشارته الى السموات والعلويات ، فالسماء فوق الأرض ومن عليها مطلقا وعلى جميع الحالات والاعتبارات ، وكذلك الاجرام التى

ينظر اليها من عل هى فوق الأرض وأعلها على كل حال . واذا علم هذا جيداً قيل فالله الذى هو فوق كل شىء ، والذى له العلو المطلق التام على كل شىء فى الأرض أو فى السماء . ليس هو تحت شىء وليس فوق شىء دون شىء ، بل هو القاهر فوق عباده علويهم وسفليهم وهو العلي الأعلى . وكل عبد يتجه اليه تعالى أينما كان ويضرع الى مقامه العلى من جهة السماء وجانب العلو لا من جانب السفل والأرض فهذه الشبهة باطلة على كل الأحوال . هذا ما يقال ثالثا

ثم يقال رابعا : ان هذه الحجة واردة على الموجود من حيث هو موجود لا على العلي من حيث هو عليّ فهى - ان كانت صحيحة - واردة على البارى لأنه موجود لا لأنه فوق الخلق والعرش ، وذلك أن يقال : الله موجود ، والموجود اما أن يكون فى جميع الجهات واما أن يكون فى جهة دون الجهات الأخرى ، ولكن لا يمكن أن يكون فى كل الجهات لأجل ماذكرناه ، ولا يمكن أن يكون فى جهة دون الجهات الأخرى لأجل ماذكرناه أيضا وذكروه هم فى الشبهة . ولا ريب أن ورود هذا الاعتراض على الموجود لأنه موجود أوضح وألزم من وروده على المستوى والاعلى من حيث هو مستو وأعلى . ولا يمكن أن ترد الشبهة على الاستواء والعلو ثم لا ترد من الوجود والامتياز . فمن استطاع أن يعلم موجوداً ليس فى جهة من الجهات وليس عرضة لذلك استطاع ولا شك أن يعلم موجوداً مستويا عاليا وليس عرضة لهذا الاعتراض ، ومن لم يستطع أن يعلم مستويا عاليًا الا ولا بد أن تخلص اليه هذه الحجة لم يستطع أن يعلم موجوداً ما يمكن أن يخلص من هذا الاعتراض . فالاعتراض - ان كان صحيحا - وارد على كل حال سواء أقيل ان الله فوق الخلائق مستو على العرش أم قيل غير ذلك . فانكار الاستواء والعلو لا يدفع الشبهة ، والايمان بالاستواء والعلو لا يزيد الشبهة قوة وصحة كما ذكرنا وحينئذ لامعنى لانكار الاستواء هروبا مما لامهرب منه . فوجب الايمان بما دلت

عليه النصوص من علو الله واستوائه على عرشه وخلقه ، وسائر الصفات الثابتة النصوص ، وبهذه الأمور الاربعة خلصت صفة الاستواء والعلو من هذه الحجة المقامة على مسئلة كروية الارض والعالم

هذه شبهات عشر طالما صال بهـا المعطلون على استواء الله وعلوه قد أرينا القاريء لهذا الكتاب حقيقة أمرها ومقدار حظها من الضعف والخلل والركاكة وقد وضعنا أمام كلتا عينيه البراهين على أنها شبهات داحضة كاذبة ، وعلى أنها لابد أن تحترق عند اصطدامها بأول لفحة من لفحات المنطق الصحيح المؤلف من الواقع ومن المعقول الصريح والمنقول الصحيح

وهذه الشبهات العشر هي أفضل مامع المعارضين علو الله وأقوى مافي أيديهم من سلطان وحجة يصولون بها على النصوص المتواترة في جميع كتب الله قديمها وحديثها ، وعلى الفطر البشرية التي لا تختلف ولا تضل مجتمعة متفقة

وإذ قد كشفنا الغطاء عن هذه الشبهات ، وعريناها من بهارج الخداع والضلال وأسمال الباطل البالية ، وألبسناها لباسها الحقيقي الذي هو بخار الاغلاط وغبار الجدل الآثيم ، وزينة الشيطان المضل . فلا نرى بنا ولا بالقاريء الكريم حاجة الى غيرها مما مرده الى هذه الشبهات العشر . على أن كل ما يجده المؤمن الفطين في سبيله الى عرفان الحقيقة ولقاء الحق من عقبات ومعارضات يستطيع أن يقضي عليها حساماً قاطعا وينتزع سلاحاً حاداً من صميم ما ذكرناه هنا . أما هذا المؤلف الشيعي فانه لم يذكر شبهة واحدة من هذه الشبهات ولا من غيرها على ماقال وعلى قدحه في النصوص وقدحه في المؤمنين بها . بل رمي بهـا دعوى خزيى متعثرة بصخرات الحق القوي الصلب . فما ذكرنا هنا من هذه المباحث والمعارضات والأجوبة عنها . ليس جوابا ولا دفعا لما كتبه هذا الرجل في كتابه هذا . لأنه لم يأت بشيء من ذلك . وانما هذه حقائق علينا نقدمها لمن يقرءون كتابنا ممن

قدر لهم أن عثروا . أو سوف يقدر لهم مآلا أن يعثروا ببعض هذه المزالق العلمية الاعتقادية التى خطت بأقلام لم يرد الله أن يذيقها طعم الحقيقة ، ولا أن يسيغ لها شراب الاطمئنان والايمان الشبم

أما ما يزعمه بعض الناس من أن هنالك نصوصا دينية يصح أن تؤخذ براهين على انكار استواء الله على عرشه وعلوه على خلقه ، فليس لدينا من جواب لهـذا الزعم سوى أن نطلب الى القارىء أن يرجع الى الـكتاب والسنة ويتقصاهما آية آية وحديثا حديثا ، فان وجد آية واحدة أو حديثا واحداً تقول أو يقول ان الله ليس فى السماء وليس على العرش ، أو نحو ذلك من أنواع الدلالات ، فكل ما كتبناه باطل عابث ، بل ان لم يجد الكتاب والسنة بالجملة دالين أنواع الدلائل على ما نقول فاننا راجعون عن جميع ما قلناه في هذا الباب من الحجج والبينات . ولكن هيهات هيهات لما يزعمون ولما يحاولون ويقولون !!

مذاهب السلف فى علو الله واجماعهم عليه

وأما قول هذا الرجل : ان أول من زقا بعلو الله هو ابن تيمية . ثم تبعه الوهابيون . فالجواب أن يقال :

فان كنت لا تدرى فتلك مصيبة وان كنت تدرى فالمصيبة أعظم

لا ريب أن هذا القول وأمثاله من أعظم المآسى العقلية الدينية ، بل ان هذه الدعوى ونظائرها من المصائب التى شاء الله وهو الفاعل لما يشاء أن تكون جرحا بالد داميا فى صميم الانسانية ومكان الشرف والغرور منها لا يلتئم على رغم ما يبديه الانسان من ضروب الذكاء والدهاء والمعارف المبتكرة المغروررة ، وانى وأيم الحق لا أعلم بماذا أعلل هذا الانتحار العلمى الدينى الذي ينساق اليه هذا الرجل بخطا واسعة حثيثة ! ولو أن رجلا لم يعلق بأسباب العلم أو لم يحترف صناعة العلم

ادعى هذه الدعوى لكان عندنا وعند العلم من الملومين المأخوذين بما قالوا ، فماذا نقول ويقول العلم فى رجل يدعى هذه الدعوى بعدأن اشتغل بالعلم مدة أعمار رجال؟ من المستبعد أن يكون مرجع هذا هو النقصان العلمى ، ومن المستبعد أيضا عند من لم يلم بأمراض الانسانية أن يكون مرجعه الانحدار فى هوة الهوى السحيقة التى لا قرار لها عن رضا واختيار

لا يدري أن الناس سبقوا شيخ الاسلام ابن تيمية الى القول بهذه المسألة وتقريرها وهتك حجاب من أنكرها من الجهمية المعطلة واخوانهم التائهين الحيرى هذا مصيبة على العلم وعلى المشغولين بأسباب العلم ، هذا ان كان لا يدري ، وأما ان كان يدرى هذه الحقيقة الاعتقادية العلمية ، ويدري مكانها من الحق والواقع والعلم والعلماء فاختار أن يلقى عليها حجاب الانكار والجحود انسياقا مع الهوى ، وامتهانا للعلم واستهانة بالقراء ، وانتقاما من العلماء الأبرياء ، ثم استهتاراً بأمر الله ، ونسيانا لحسابه وللموقف بين يديه للثواب والعقاب فالمصيبة أعظم وأجل ، وهما أمران أحلاهما مر

يقول المجتهد الشيخى ان أول من زقا ـ أي نادى ـ بعلو الله واستوائه على عرشه هو شيخ الاسلام ابن تيمية النابغ فى القرن الثامن الهجرى ، ثم قلده من قلده من تلاميذه وأتباعه !

ونحن نقول له : لا والله لم تصب أيها الشيخ المحترم ولم ترشد ، وا أسفاه ! بل نقول بالبرهان والاثبات : لقد سبق ابن تيمية وأتباعه ومن جاؤا بعده الله رب العالمين فى كتابه العزيز فى آيات بينات خالدات يعز علينا احصاؤها الآن ، ويعرف عامة المسلمين ــ بله الخاصة ــ الشيء الكثير الكافى منها . ومن هــذه الآيات الخالدات قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » وقد جاء هذا اللفظ في سور ذات عدد من كتاب الله . ومن هذه الآيات البينات الخالدات قوله تعالى : « بل

رفعه الله اليه » وقد جاء معنى هذه الآية فى غيرها من السور المحكمة ، ومن هذه الآيات البينات الخالدات قوله تعالى « تعرج الملائكة والروح اليه » ومن ذلك قوله « أ أمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الارض » الى غير ذلك من الآيات البينات الخالدة المنادية بعلو الله واستوائه على عرشه ، وقد ذكرنا أطرافا كثيرة من هذا النوع آنفا

ولقد سبق أيضا ابن تيمية وأتباعه والوهابيين الى ذلك محمد بن عبد الله عليه صلوات ربه وتحياته المتطالة ، وهذا فى ما لا يجمعه جامع من أقواله الصحيحة الصريحة المعلومة . وقد جمع من ذلك الحفاظ ، حفاظ السنة كتبا خاصة كبيرة ، كما فعل الحافظان الذهبى وابن القيم فى كتابيهما « العلو » و « اجتماع الجيوش الاسلامية » وفى هذين الكتابين الشىء الكثير المقنع كل من جانب الهوى ، وهذا أشهر وأظهر من أن تضرب له الأمثال ويدل على وجوده بالآحاد

ومن ذلك الحديث المشهور ، أعنى حديث الجارية التى قال لها رسول الله : « أين الله ؟ » فقالت : فى السماء ، فقال رسول الله لمولاها : « اعتقها فانهامؤمنة » وقد عد الحافظ الذهبى فى كتاب العلو هذا الحديث من الأحاديث المتواترة ، وقد أسند له طرقا وأسانيد كثيرة . ومعنى هذا الحديث فى الأحاديث النبوية الصحيحة أعظم من أن تضرب له الأمثال أو يدل على صحته ومكانه . والمخالفون أنفسهم لا يخالفون فى هذا ، ولكن الخلاف بيننا وبينهم فى التأويل والتفسير ، فهم يدعون ذلك ويدعون إمكانه ، وأما نحن فنرفضه ونأبى إمكانه لغة وشرعا وعقلا وقد ألممنا الى هذا فى ما غبر من الكتاب

ثم لقد سبق شيخ الاسلام ابن تيمية وتلاميذه والوهابيين الى ذلك جميع الصحابة ومن بعدهم من التابعين ومن بعدهم من أعلام السنة الذين وقفت عندهم الامامة والزعامة الاسلامية والعلمية ، أمثال الأئمة الأربعة ، وأمثال شيوخ الحديث

ومجاهدته وقتاده ، نظراء البخـارى ومسلم والترمذى وأبي داود والنسائى والآخرين ، وغيرهم وغيرهم كما سوف ننقل ذلك من مصادره الصحيحة المعلومة ، والشيعة يعترفون بهذه الحقيقة ويعرفونها لعلماء السنة ويقدحون فيهم لاجلها . ويضيفونها الى معايبهم المزعومة المعدودة فى كتب القوم ، وقد ذكر هذا ابن المطهر الحلى الشيعى فى كتابه الذي ألفه فى الامامة وفى القدح فى الصحابة وفى الخلفاء الراشدين خاصة ، ثم القدح فى جميع المسلمين الذين لا يرغبون في الانتماء الى الشيعة والى آرائها الخاصة الخاطئة ، وهذا الكتاب هو الكتاب الذى نقضه عليه شيخ الاسلام ابن تيمية بكتابه الكبير « منهاج السنة » وذكر ابن المطهر هذا فى كتابه هذا أن من الدلائل على بطلان مذاهب أهل السنة وفساد أمرهم الاعتقادى قول طوائف منهم ومن أئمتهم بعلو الله واستوائه على عرشه وما فى ذلك من التشبيه ، وهذا اذا صح من ابن المطهر الشيعى بطل قول هذا الشيعى الآخر : انه لم يقل أحد بعلو الله قبل ابن تيمية وتلاميذه ، واذا صح قول الشيخ محسن العاملى بطل قول ابن المطهر الحلى

والقوم لا يتبعون طريقة واحدة ولا يسلكون منهاجا واضحا معلوما ، بل هم يتحرفون مع الهوى هنا وهناك ، ويسيلون فى أودية الاغراض الظالمة ، فحينما يريدون القدح فى ابن تيمية وتلاميذه الابرار يقولون انه لم يقل بعلو الله أحد قبلهم وحينما يريدون الوقيعة فى المسلمين كافة يقولون انهم كانوا مشبهين مجسمين قائلين بعلو الله وبجلوسه على العرش ، قائلين غير ذلك من الآراء الممقوتة الباطلة ، وهذا مع الاسف المر – ليس من دأب أهل الايمان ولا من أخلاق العلماء والمتقين . حفظنا الله من السوء والمقت والغضب

هذا وقد قدمنا فى طالعة هذا الكتاب بعنوان « حماقات الشيعة » أن شيوخ الشيعة كانوا مشبهين ومجسمين . قائلين فى الله شر الأقوال من وصفه بالحلول

والجهل والبداء وسمات الخلق الأخرى الناقصة ، وكانوا قائلين باستواء الله وعلوه ولكن بشكل رديء لا يليق بذات الله وكمالاته وعظمته ، وليراجع هذا في صفحة ٤٢ من هذا الكتاب ، وقد ذكرنا هذا المعنى في غير موضع من الكتاب عن شيوخ الشيعة القدماء الذين وضعوا أحجار هذا المذهب وطافوا بأركانه عصوراً غير قصيرة متسلمين قيادة هذه الطائفة ، وذكرنا عن أئمة النقل الذين كتبوا في النحل مثل الشهرستاني أن أول من زقوا بالتشبيه في الاسلام هم شيوخ الرافضة نقلا عن الأمة اليهودية العريقة في التشبيه ونعت الله بما لا يليق به من سمات الخلق العاجزين الضعفاء . فما عير به هذا الرافضي شيخ الاسلام ابن تيمية وزعم أنه هو المبتكر له قد سبقه اليه شيوخ الشيعة والرافضة . غير أن الفرق بينه وبينهم في هذا واضح جلي . فابن تيمية كجميع السلف الصالحين يقولون بالاستواء والعلو كما في النصوص مع التقديس والتنزيه ورفع التشبيه وقوفا مع النصوص الصحيحة بلا تقدم ولا تأخر أما شيوخ الرافضة فانهم يقولون ذلك وغيره مما لا يليق بذات الباري من النقائص بشكل ناقص ممقوت مع التشبيه الصريح الممقوت . بل ويهوون في هذه الهوة البعيدة القرار فيزعمون أن الملائكة تحمل العرش والعرش يحمل الله ! تعالى الله عن ذلك ، وقد تقدم هذا عن شيوخهم القدامى ، ويزعمون أيضاً أن الله ينزل من عليا سمواته فيحل في أجسام تأكل وتشرب وتجوع وتظمأ وتلاقي ما يلاقي الآكل الشارب من الأعراض والعوارض المادية الترابية المفروضة عليها في كتاب الأزل المحكم

يقول هذا الشيعي المجتهد : ان أول من زقا بعلو الله هو ابن تيمية وأتباعه والوهابيون ! ونحن نقول : ان السلف قاطبة كانوا مجمعين على الاقرار لله بهذه الصفة ، ومجمعين على مذمة من أنكرها من الجهمية والمبتدعين الضالين ، ونقول : أيضاً انه لم يسند عن واحد منهم لا من الصحابة ولا ممن بعدهم من أئمة التابعين

والمحدثين ، كالأئمة الاربعة ومن سار سيرتهم ونهج نهجهم السوىّ انه انكر هذه الصفة أو أول شيئا من نصوصها ودلائلها الشرعية المتواترة . وعلينا نحن ان نثبت هنا البراهين المتكاثرة على دعوانا هذه وصدقها

قال القاضى الفيلسوف ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هجرية فى المجموع له المطبوع المعروف « بفلسفة ابن رشد » : « القول فى الجهة ، وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية ، وظواهر الشرع كلها تقضى باثبات الجهة » وبعد هذا أورد بعض النصوص ثم قال : « الى غير ذلك من الآيات التى ان سلط التأويل عليها عاد الشرع كله مؤوّلا ، وإن قيل فيها إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشابها لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء . وأن منه تتنزل الملائكة بالوحى الى الانبياء ، وأن من السماء نزلت الكتب ، وإليها كان الاسراء بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة فى السماء كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك . والشبهة التى قادت نفاة الجهة الى نفيها أنهم اعتقدوا أن اثبات الجهة يوجب إثبات المكان ، واثبات المكان يوجب اثبات الجسمية . ونحن نقول ان هذا كله غير لازم » فأفسد هذه الشبهة وذكر كلاما قال بعده : « فقد ظهر لك من هذا أن اثبات الجهة واجب بالشرع وبالعقل ، وانه هو الذى جاء به الشرع وانبنى عليه ، وان ابطال هذه القاعدة ابطال للشرائع »

هذا بعض ما ذكره فيلسوف المغرب وعالمه قاضى القضاة فى عصره ، الامام المالكى محمد بن رشد ، وهو متوفى قبل أن يولد ابن تيمية وتلاميذه ، وقبل أن يعرف الوهابيون بأزمان

وقال مؤرخ مصر الكبير المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ فى كتاب الخطط الجزء الرابع ص ١٨١ : « اعلم أن الله لما بعث نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام من

العرب رسولا الى الناس جميعا وصف لهم ربهم بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه عليه الصلاة والسلام الروح الأمين وبما أوحى اليه ربه تعالى ، فلم يسأله عليه السلام أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرذلك مما لله فيه أمر ونهى ، وكما سألوه عليه السلام عن أحوال القيامة والجنة والنار ، اذ لو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه عليه السلام فى أحكام الحلال والحرام ، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث معاجمها ومسانيدها وجوامعها . ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد عليه الصلوات والتحيات بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام فى الصفات ، نعم ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وانما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحداً ، وهكذا أثبتوا رضى الله عنهم ما أطلقه الله على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك . مع نفى مماثلة المخلوقين فأثبتوا رضى الله عنهم بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم الى تأويل شيء من هذا ، ورأوا باجمعهم اجراء الصفات كما وردت ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله وعلى اثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام سوى كتاب الله ، ولاعرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ، ولا مسائل الفلسفة ، فمضى عصر الصحابة على ذلك »

ثم قال المقريزي ص ١٨٨ من هذا الجزء أيضا « وقد كان الناس قبل انزال الشرائع ببعثة الرسل عليهم بالله إنما هو بطريق التنزيه له عن سمات الحدوث وعن التركيب والافتقار ، ويصفونه سبحانه بالاقتدار المطلق ، وهذا التنزيه هو المشهور عقلا . فلما أنزل الله شريعته على رسوله محمد ﷺ وأكمل دينه كان سبيل العارف بالله أن يجمع فى معرفته بالله بين معرفتين : احداهما المعرفة التى تقتضيها الأدلة العقلية ، والأخرى المعرفة التى جاءت بها الاخبارات الالهية وأن يرد علم ذلك الى الله تعالى ويؤمن به وبكل ماجاءت به الشريعة على الوجه الذى أراده الله من غير تأويل بفكره ، ولا تحكم فيه برأيه ، وذلك أن الشرائع انما أنزلها الله لعدم استقلال العقول البشرية بادراك حقائق الأشياء على ماهى عليه فى علم الله وأنى لها ذلك وقد تقيدت بما عندها من إطلاق ماهنالك ؟ فان وهبها علما بمراده من الأوضاع الشرعية ومنحها الاطلاع على حكمه فى ذلك كان من فضله تعالى فلا يضيف العارف هذه المنة الى فكره . فان تنزيهه لربه بفكره يجب أن يكون مطابقا لما أنزله سبحانه على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام من الكتاب والسنة وإلا فهو تعالى منزه عن تنزيه عقول البشر بأفكارها . فانها مقيدة بأوطارها فتنزيهها كذلك مقيد بحسبها وبموجب أحكامها وآثارها إلا اذا ضلت عن الهوى فانها حينئذ يكشف الله لها الغطاء عن بصائرها ويهديها الى الحق فتنزه الله عن التنزيهات العرفية بالأفكار العادية ، وقد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة فى الصفات ، ونقلها وتبليغها من غير خلاف بينهم فى ذلك . ثم أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الاحاديث مصروفة عن احتمال مشابهة الخلق لقوله تعالى « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [1] » : فاذا ثبت اجماع المسلمين

---

(١) وهذا صحيح ، فان الذين يقرون لله هذه الصفات وغيرها يعلمون أنها لا تشابه صفات المخلوقين البتة ، بل الله بصفاته وذاته ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

على جواز رواية هذه الأحاديث ونقلها مع اجماعهم على أنها مصروفة عن التشبيه لم يبق فى تعظيم الله بذكرها إلا نفى التعطيل لكون أعداء الله سموا ربهم أسماء نفوا فيها صفاته. فقال رسول الله هذه الاحاديث المشتملة على ذكر صفات الله. ونقلها عنه أصحابه البررة، ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين حتى انتهت الينا، وكل منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشىء منها. مع علمنا أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير. ففهمنا من ذلك أن الله أراد بما نطق به رسوله عليه الصلاة والسلام من هذه الاحاديث، وتناولها عنه الصحابة وبلغوها لأمته أن يغص بها حلوق الكافرين، وأن يكون ذكرها نكتا فى قلب كل ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع وعباد العلل. فلذلك وصف الله نفسه الكريمة بها فى كتابه، ووصفه أيضا رسوله بما صح عنه وثبت. فدل على أن المؤمن اذا اعتقد أن الله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد كان ذكره لهذه الأحاديث تمكين الاثبات وشجا فى حلوق المعطلة، وقد قال الشافعى رحمه الله «الاثبات أمكن» نقله الخطابى ولم يبلغنا عن أحد من الصحابة وتابعيهم أنهم أولوا هذه الأحاديث والذى يمنع من تأويلها اجلال الله من أن نضرب له الامثال، وأنه اذا نزل القرآن بصفة من صفات الله كقوله «يد الله فوق أيديهم» فان نفس تلاوة هذا يفهم منه السامع المعنى المراد به، وكذا قوله «بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» فان نفس تلاوة الآية بيان المعنى المقصود، وأيضا فان تأويل هذه الاحاديث يحتاج أن يضرب لله فيها المثل. نحو قولهم فى قوله «الرحمن على العرش استوى» الاستواء هو الاستيلاء كقولك استوى الأمير على البلد، وأنشدوا:

قد استوى بشر على العراق

فلزمهم تشبيه البارى ببشر. وأهل الاثبات نزهوا جلال الله عن أن يشبهوه

بالأجسام حقيقة ولا مجازا ، وعلموا مع ذلك أن هذا النطق يشتمل على كلمات متداولة بين الخالق وخلقه ، وتحرجوا أن يقولوا مشتركة لأن الله لاشريك له ، ولذلك لم يتأول السلف شيئا من أحاديث الصفات مع علمنا قطعا أنها عندهم مصروفة عما يسبق الى ظنون الجهال من مشابهتها لصفات المخلوقين (١)

« واعلم ان السبب فى خروج اكثر الطوائف عن ديانة الاسلام ان الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة فى أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الملك منهم على أيدى العرب ، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى أوقات شتى ، وفى كل ذلك يظهر الله الحق . فرأوا ان كيده على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، واستبشاع ظلم على بن أبى طالب ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى . فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدي عنده حقيقة الدين ، إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار ، إذ نسبوا أصحاب رسول الله الى الكفر . وقوم خرجوا الى القول بادعاء النبوة . وقوم سلكوا بهم الى القول بالحلول وسقوط الشرائع . وآخرون تلاعبوا بهم ، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة . وآخرون قالوا : بل هى سبع عشرة صلاة فى كل صلاة خمس عشرة ركعة . وهو قول عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندى قبل أن يصير خارجيا صفريا . وقد أظهر عبد الله بن سبأ اليهودى الاسلام ليكيد أهله ، فكان هو أصل اثارة النـاس على عثمان رضى الله عنه . وأحرق على منهم

---

(١) وهؤلاء الجهال كالنفاة لأنهم ما نفوا إلا لاعتقادهم ان هذه الصفات لا تكون لله الا كما تكون لخلقه

طوائف أعلنوا إلهيته . ومن هذه الأصول حدثت الاسماعيلية والقرامطة ، والحق الذى لاريب فيه أن دين الله ظاهر لا باطن فيه ، وجوهر لاسر تحته ، وهو كله لازم كل أحد لامسامحة فيه ، ولم يكتم رسول الله عليه السلام من الشريعة ولا كلمة ولا أطلع أخص الناس به - من زوجة أو ولد عم - على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والاسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده عليه الصلاة والسلام سر ولا رمز ولا باطن غير مادعا الناس كلهم اليه . ولو كتم شيئا لما بلغ كما أمر . ومن قال هذا فهو كافر باجماع الامة

« وأصل كل بدعة فى الدين البعد عن كلام السلف والانحراف عن الصدر الاول » انتهى كلام المقريزى وقال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى شرح صحيح البخارى الجزء الثالث عشر ٣١٥ : « وقد نقل أبو اسماعيل الهروى فى كتاب الفاروق بسنده إلى داود بن على بن خلف ، قال كنا عند أبى عبد الله بن الاعرابى فقال له رجل : « الرحمن على العرش استوى » فقال هو على العرش كما أخبر ، قال يا أبا عبد الله إنما معناه استولى . فقال اسكت . لا يقال : استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد . ومن طريق محمد بن أحمد بن النضر الازدي سمعت ابن الاعرابى يقول أرادنى أحمد بن أبى دواد أن أجد له فى لغة العرب « الرحمن على العرش استوى » بمعنى استولى فقلت : والله ما أصبت هذا . وقال غيره لو كان بمعنى استولى لم يختص بالعرش لأنه غالب على جميع المخلوقات . ونقل محيى السنة البغوى فى تفسيره عن ابن عباس وأكثر المفسرين أن معناه ارتفع ، وقال أبوعبيد وغيره بنحوه ، وأخرج أبو القاسم اللالكائى فى كتاب السنة من طريق الحسن البصرى عن أمه عن أم سلمة أنها قالت : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول . والاقرار به إيمان والجحود به كفر . ومن طريق ربيعة بن أبى عبدالرحمن أنه سئل : كيف استوى على العرش ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير

معقول وعلى الله الرسالة ، وعلى رسوله البلاغ ، وعلينا التسليم . وأخرج البيهق بأسناد جيد عن الأوزاعى قال كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول ان الله على عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته . وأخرج الثعلبى من وجه آخر عن الاوزاعى أنه سئل عن قول الله « ثم استوى على العرش » فقال هو كما وصف نفسه . وأخرج البيهق باسناد جيد عن عبد الله بن وهب قال : كنا عند الامام مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ ! فأطرق مالك فأخذته الرحضاء . ثم رفع رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما وصف به نفسه ولا يقال « كيف » وكيف عنه مرفوع ، وما أراك إلا صاحب بدعة أخرجوه . ومن طريق يحيي بن يحيي عن مالك نحو المنقول عن أم سلمة لكن قال فيه : والاقرار به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وأخرج البيهقى من طريق أبي داود الطيالسى قال كان سفيان الثوري وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحددون ولا يشبهون ، ويروون هذه الاحاديث ولا يقولون كيف . قال أبو داود : وهو قولنا قال البيهقى وعلى هذا مضى أكابرنا وأسند اللالكائى عن محمد بن الحسن الشيبانى قال : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق الى المغرب على الايمان بالقرآن وبالأحاديث التى جاءت بها الثقات عن رسول الله فى صفة الرب من غير تشبيه ولا تفسير . فمن فسر شيئا منها وقال بقول جهم فقد خرج عما كان عليه النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه وفارق الجماعة لأنه وصف الرب بصفة لا شيء [1] . ومن طريق الوليد بن مسلم سألت الأوزاعى ومالكا والثوري والليث بن سعد عن الأحاديث التى فيها الصفة . فقالوا أمرّوها كما جاءت بلا كيف . وأخرج ابن أبي حاتم فى مناقب الامام الشافعى عن يونس بن

(١) ومثل الجهمية الشيعة المعطلة الغالية الذين ينكرون صفات الله ويحرفون نصوصها ويصفونه بصفة لا شيء

عبد الأعلى سمعت الشافعي يقول : لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر ، وأما قبل قيام الحجة فانه يعذر بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالروية والفكر . فنثبت هذه الصفات وننفى عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال « ليس كمثله شيء » وأسند البيهقى باسناد صحيح عن أحمد بن أبى الحوارى عن سفيان بن عيينة قال كل ما وصف به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه ، ومن طريق أبى بكر الضبعي قال مذهب أهل السنة فى قوله « الرحمن على العرش استوى » قال بلا كيف ، والآثار فيه عن السلف كثيرة وهذه طريقة الشافعى وأحمد بن حنبل . قال الترمذى فى الجامع عقب حديث أبى هريرة فى النزول : وهو على العرش كما وصف به نفسه فى كتابه كذا قال غير واحد من أهل العلم فى هذا الحديث وما يشبهه من الصفات ، وقال فى باب فضل الصدقة : قد ثبتت هذه الروايات فنؤمن بها ولا نتوهم ولا يقال كيف : هكذا جاء عن مالك وابن عيينة وابن المبارك أنهم أمروها بلا كيف ، وهذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وأما الجهمية فأنكروها وقالوا هذا تشبيه ، وقال اسحاق بن راهويه : إنما يكون التشبيه لو قيل يد كيد ، وسمع كسمع . وقال فى تفسير سورة المائدة : قال الأئمة نؤمن بهذه الأحاديث من غير تفسير ، منهم سفيان الثورى ومالك وابن عيينة وابن المبارك . وقال ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الاقرار بهذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة ولم يكيفوا شيئا منها ، وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج [1] فقالوا : من أقر بها فهو مشبه ، فسماهم من أقربها معطلة . وقال امام الحرمين فى الرسالة النظامية : اختلفت مسالك العلماء فى هذه الظواهر ، فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك فى آيات الكتاب وما يصح من السنن ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف

---

(١) وكذا الشيعة أيضا

عن التأويل واجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله تعالى . والذى نرتضيه دينا وندين الله به عقيدة اتباع سلف الامة للدليل القاطع على أن اجماع الامة حجة ، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتما لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، واذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الاضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع انتهى . وقد تقدم النقل عن أهل العصر الثالث وهم فقهاء الأمصار كالثورى والأوزاعى ومالك والليث ومن عاصرهم ، وكذا من أخذ عنهم من الائمة ، فكيف لا يوثق بما اتفق عليه أهل القرون الثلاثة وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة »

هذا بعض ما قاله الحافظ ابن حجر العسقلانى وما نقله فى شرح كتاب التوحيد من صحيح البخارى أصح كتب المسلمين بعد كتاب الله

وقال امام الائمة محمد بن اسحاق بن خزيمة المتوفى سنة ٣١١ هـ فى كتاب التوحيد ص ٦٨ : « باب ذكر استواء خالقنا على عرشه ، فكان فوقه وفوق كل شيء عاليًا كما أخبر فى قوله « الرحمن على العرش استوى » وقال « هو الذي خلق السماوات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش » فنحن نؤمن بخبر الله أن خالقنا مستو على عرشه لا نبدل كلام الله ، ولا نقول قولا غير الذى قيل لنا كما قالت المعطلة الجهمية انه استولى على عرشه لا استوى ، فبدلوا قولا غير الذى قيل لهم كفعل اليهود لما أمروا أن يقولوا حطة فقالوا حنطة ، مخالفين لأمر الله ، وكذلك الجهمية »

ثم ساق بعد هذا الاحاديث الدالة على العلو والاستواء . فذكر حديث العباس بن عبد المطلب الذى عدد فيه رسول الله أشياء من خلائق الله وكونه والذى فى آخره : « والله فوق ذلك » وذكر حديث الاعرابى الذى استسقى برسول الله وقال : انا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك ، فغضب رسول الله

وقال : ويحك انه لا يستشفع بالله على أحد من جميع خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، أتدري ما الله ؟ ان الله على عرشه ، وعرشه على سمواته ، وسمواته على أرضه . وذكر حديث أبى هريرة الذى فيه ان رسول الله قال : « وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فانه وسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » ثم ذكر حديث إبى هريرة الآخر الذي فيه أن الرسول قال : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى » وساق هنا أحاديث أخرى معلومة . ثم قال : « باب ذكر البيان ان الله عز وجل فى السماء كما أخبر فى محكم كتابه وعلى لسان رسوله عليه السلام وكما هو مفهوم فى فطر المسلمين ، علمائهم وجهالهم ، أحرارهم ومماليكهم ، ذكرانهم وإناثهم ، بالغيهم وأطفالهم ، كل من دعا الله جل وعلا فانما يرفع رأسه إلى السماء ، ويمد يديه إلى الله إلى أعلاه لا إلى أسفله ، وقد ذكرنا استواء ربنا على العرش فى الباب قبل ، فاسمعوا الآن ما أتلو عليكم من كتاب ربنا الذي هو مسطور بين الدفتين ، مقروء فى المحاريب والكتاتيب مما مصرح فى التنزيل ان الرب عز وعلا في السماء لا كما قالت الجهمية المعطلة إنه فى أسفل الارضين . فهو فى السماء . قال : « أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الارض » وقال : « أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا » . أفليس قد أعلمنا خالق السموات والارض وما بينهما فى هاتين الآيتين أنه فى السماء. وقال« إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه». أفليس العلم محيطا أن الرب فوق من يتكلم بالكلمة الطيبة فتصعد إلى الله كلمته، لا كما زعمت الجهمية المعطلة . ألم تسمعوا يا طلاب العلم قول الله لعيسى بن مريم : « ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ». أفليس انما يرفع الشيء من أسفل إلى أعلى ، لامن أعلى الى أسفل . وقال : « بل رفعه الله إليه » ومحال أن يهبط الانسان من ظهر الارض الى بطنها أو إلى موضع أخفض منه وأسفل ، فيقال : رفعه الله اليه ، لان الرفعة فى لغة

العرب الذين بلغتهم خوطبنا لاتكون الا من أسفل الى أعلى وفوق ألم تسمعوا قول الله « وهو القاهر فوق عباده » ، أوليس العلم يحيط أن الله فوق جميع عباده من الجن والانس والملائكة الذين هم سكان السموات جميعاً ، أو لم تسمعوا قوله تعالى « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » فأعلمنا فى هذه الآية أن ربنا فوق ملائكته وفوق ما فى السموات وما فى الأرض من دابة ، وأعلمنا أن ملائكته يخافون ربهم الذى هو فوقهم ، والمعطلة تزعم أن معبودهم تحت الملائكة . ألم تسمعوا قوله « يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه » أليس معلوماً فى اللغة السائرة بين العرب التى خوطبنا بها وبلسانهم نزل الكتاب أن تدبير أمر السماء الى الأرض انما يدبره المدبر ، وهو فى السماء لا فى الأرض ، كذلك مفهوم عندهم أن المعارج المصاعد قال تعالى « تعرج الملائكة والروح اليه » وانما يعرج الشيء من أسفل الى أعلى وفوق ، لامن أعلى الى دون وأسفل . فتفهموا لغة العرب ولا تغالطوا . وقال : « سبح اسم ربك الأعلى » فالأعلى مفهوم فى اللغة أنه أعلى كل شيء وفوق كل شيء ، والله قد وصف نفسه فى غير موضع من كتابه وأعلمنا أنه العلي العظيم أفليس العلي ـ يا ذوى الحجا ـ ما يكون عالياً ، لا كما تزعم المعطلة الجهمية أنه أعلى وأسفل ووسط ومع كل شيء وفى كل موضع من أرض وسماء وفى أجواف جميع الحيوانات . ولو تدبروا الآيات من كتاب الله لعقلوا أنهم جهال لا يفهمون ما يقولون وبان لهم جهل أنفسهم وخطأ مقالتهم

« ثم اسمعوا يا ذوى الحجا دليلا آخر من كتاب الله أن الله عز وعلا فى السماء مع الدليل على أن فرعون مع كفره وطغيانه قد أعلمه موسى بذلك ، وكأنه قد علم أن خالق البشر فى السماء ، ألا تسمع قوله تعالى يحكى عن فرعون « ياهامان ابن لى صرحا ، لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات ، فاطلع الى إله موسى

ففرعون يأمر ببنائه صرح لحسب أنه يطلع الى اله موسى، وفي قوله « واني لأظنه كاذبا » دلالة على أن موسى قد كان أعلمه أن ربه أعلى وفوق، وأحسب أن فرعون انما قال لقومه « واني لأظنه كاذبا » استدراجا منه لهم أخبرنا الله في قوله « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّاً » فأخبر تعالى أن هذه الفرقة جحدت – يريد بألسنتهم – لما استيقنتها قلوبهم، فشبه أن يكون فرعون انما قال لقومه « واني لأظنه كاذبا » وقلبه أن كليم الله من الصادقين لا من الكاذبين. والله أعلم أكان فرعون مستيقنا بقلبه – على ما أولت – أم مكذبا بقلبه ظانا أنه غير صادق. وخليل الله ابراهيم عليه السلام عالم في ابتداء النظر الى الكوكب والقمر والشمس أن خالقه عال فوق خلقه حين نظر الى الكوكب والقمر والشمس. ألا تسمع الى قوله « هذا ربي » ولم يطلب معرفة خالقه من أسفل انما طلبه من أعلى مستيقنا عند نفسه أن ربه في السماء لا في الأرض »

ثم قال بعد هذا الذي سقناه من كتابه المذكور:

« باب: ذكر سنن النبي عليه الصلاة والسلام المثبتة أن الله عز وجل فوق كل شيء، وأنه في السماء كما أعلمنا في وحيه على لسان رسوله، إذ لا تكون سنته أبداً المنقولة عنه بنقل العدل عن العدل موصولا اليه الا موافقة لكتاب الله لا مخالفة له »

ثم أورد جملة من الأحاديث الدالة على العلو والاستواء، فاورد قوله عليه الصلاة والسلام « أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء » وأورد قوله عليه الصلاة والسلام: « الملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج اليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم. كيف تركتم عبادي؟ قالوا: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم

يصلون » ثم أورد قوله عليه السلام : « أنا أمين من فى السماء » ثم ذكر حديث المعراج بالنبى الى الله ثم قال « وفى الاخبار دلالة واضحة أن النبى عليه الصلاة والسلام عرج به من الدنيا الى السماء السابعة ، وأن الله تعالى فرض عليه الصلوات على ما جاء فى الأخبار . فتلك الأخبار كلها دالة على أن الخالق فوق سبع سموات لا على ما زعمت المعطلة . وفى خبر الأعمش عن المنهال عن زاذان عن البراء فى قصة قبض روح المؤمن وروح الكافر ، قال فى قبض روح المؤمن : « فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجى الى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء لا يتركونها فى يده طرفة عين ، فيصعدون بها الى السماء فلا يمرون بها على جند من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بأحسن أسمائه ، فاذا انتهى بها الى السماء فتحت لها أبواب السماء ، ثم يشيعها من كل سماء مقربوها الى السماء التى تليها حتى ينتهى بها الى السماء السابعة ، ثم يقال اكتبوا كتابه فى عليين » ثم أورد الحديث الذى فيه أن قريشا جاءت الحصين وكانت تعظمه ، فقالت له كلم هذا الرجل لنا فانه يذكر آلهتنا ويسبها ، فجاؤا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى عليه السلام ودخل الحصين فلما رآه النبى عليه السلام قال أوسعوا للشيخ ــ وعمران وأصحابه متوافدون ــ فقال الحصين : ما الذى يبلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها ، وقد كان أبوك جفنة وخبزاً ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : يا حصين كم إله تعبد ؟ قال : سبعة فى الارض وواحداً فى السماء قال فاذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال الذى فى السماء . قال : فاذا هلك المال من تدعو ؟ قال الذى فى السماء . قال فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟

ثم قال : « باب ذكر الدليل على أن الاقرار بأن الله فى السماء من الايمان » وذكر فى هذا الباب حديث الجارية المشهور الذى فيه أن الرسول الكريم قال لجارية جىء بها اليه . أين الله ؟ فقالت فى السماء فقال لمولاها أعتقها فانها مؤمنه

وقد أورد هذا الحديث من طرق و بعبارات ذات عدد ثم قال « باب ذكر أخبار ثابتة السند رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي عليه الصلاة والسلام فى نزول الرب كل ليلة الى سماء الدنيا ، نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما فى هذه الاخبار من ذكر نزول الرب من غير أن نصف الكيفية ، لان نبينا عليه السلام لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا ، وأعلمنا عليه السلام أنه ينزل ، لم يترك بيان ما بالمسلمين اليه الحاجة من أمر دينهم ، فنحن قائلون مصدقون بما فى هذه الاخبار من ذكر النزول ، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية اذ النبى لم يصف لنا كيفية النزول . وفى هذه الاخبار ان الله عز وجل فوق سماء الدنيا الذى أخبرنا نبينا أنه ينزل اليه ، اذ محال فى لغة العرب أن يقول ينزل من أسفل الى أعلى ، ومفهوم فى الخطاب أن النزول من أعلى الى أسفل »

ثم ساق الاحاديث المشهورة فى نزول الرب كل ليلة الى سماء الدنيا فى النصف الآخر أو فى الثلث الآخر . وهذه الأحاديث ثابتة عن رسول الله يقينا .

هذا بعض ما ذكره أمام الائمة ابن خزيمة فى كتاب التوحيد

وقال الذهبى فى مقدمة كتاب « العلو » بعد أن أورد بعض الآيات فى علو الله واستوائه على عرشه « فان أحببت ياعبد الله الانصاف فقف مع نصوص القرآن والسنة . ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير فى هذه الآيات ، وما حكوه من مذاهب السلف . فاما أن تنطق بعلم واما أن تسكت بحلم ، ودع المراء والجدال ، فان المراء فى القرآن كفر . كما نطق بذلك الحديث الصحيح ، وسترى أقوال الأئمة فى ذلك على طبقاتهم بعد سرد الاحاديث النبوية . جمع الله قلوبنا على التقوى

« وإيماننا بما ثبت من نعوته كايماننا بذاته المقدسة عن الأشباه من غير أن نتعقل الماهية فكذلك القول فى صفاته نؤمن بها ونعقل وجودها ونعلمها فى الجملة

من غير أن نتعقلها أو نشبهها أو نكيفها أو نمثلها بصفات خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فالاستواء - كما قال الامام مالك وجماعة غيره - معلوم والكيف مجهول .
ومن الأحاديث الواردة فى العلو حديث معاوية بن الحكم ، ثم أخذ فى ذكر الأحاديث والآثار وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة أئمة المفسرين ، وأئمة المحدثين ، وأئمة الفقهاء ، وأئمة علماء الكلام والصوفية ، وأئمة أهل اللغة ، وغير هؤلاء ، فجاء الكتاب فى ٣٤٧ ص كلها دلائل على علو الله واستوائه على عرشه

وقال الامام الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ ﻫ فى كتاب « الابانة ، فى أصول الديانة » ص ٣٣ :

« باب ذكر الاستواء على العرش . ان قال قائل : ما تقولون فى الاستواء ؟ قيل له : نقول ان الله مستو على عرشه كما قال : « الرحمن على العرش استوى » . ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم نحو السماء اذا دعوا ، لأن الله مستو على العرش الذى فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها اذا دعوا نحو الأرض

« وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : ان قول الله « الرحمن على العرش استوى » انه استولى وملك وقهر وأنه عز وجل فى كل مكان ، وجحدوا أن يكون على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا فى الاستواء الى القدرة ولو كان هذا كما ذكروا لكان لا فرق بين العرش والأرض ، فالله قادر عليها وعلى كل ما فى العالم . فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها ، لكان مستويا على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الأفراد ، لأنه قادر على الأشياء مستول عليها ، واذا كان قادراً على الأشياء كلها ، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول ان الله مستو على الحشوش والأخلية ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذى هو

عام فى الأشياء كلها ، ووجب أن يكون معناه استواء يختص العرش دون الأشياء كلها

« ويقال لهم : اذا لم يكن مستوياً على العرش بمعنى يختص العرش دون غيره كما يقول ذلك أهل العلم ونقلة الأخبار وحملة الآثار ، وكان الله فى كل مكان ، فهو تحت الأرض التى السماء فوقها ، واذا كان تحت الأرض والأرض فوقه والسماء فوق الأرض ، ففى هذا ما يلزمكم أن تقولوا ان الله تحت التحت والأشياء فوقه ، وأنه فوق الفوق والأشياء تحته ، وفى هـذا ما يجب أنه تحت ما هو فوقه وفوق ماهو تحته . وهذا المحال المتناقض . تعالى الله عن افترائكم عليه علواً كبيراً

« ومما يؤكد أن الله مستو على عرشه دون الأشياء كلها ما نقله أهل الرواية عن رسول الله ﷺ (وهنا ذكر حديث النزول المعروف ثم قال) :

« دليل آخر ، قال الله : (يخافون ربهم من فوقهم) ... فكل ذلك يدلك على أن الله فى السماء مستو على عرشه ، والسماء باجماع الناس ليست الأرض ، فدل على أن الله منفرد بوحدانيته مستو على عرشه

« دليل آخر ، قال الله : (وجاء ربك والملك صفا صفا) وقال لعيسى : (انى متوفيك ورافعك إلى) . وأجمعت الأمة على أن الله رفع عيسى الى السماء . ومن دعاء أهل الاسلام جميعا إذا هم رغبوا الى الله فى الأمر النـازل بهم يقولون : يا ساكن العرش ، ومن حلفهم جميعا : لا والذي احتجب بسبع سموات

« دليل آخر ، وقال الله (ثم ردوا الى الله مولاهم الحق) وقال (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) وقال : (ولو ترى إذ المجرمون نا كسو رؤوسهم عند ربهم) وقال : (وعرضوا على ربك) ، كل ذلك يدل على أنه ليس فى خلقه ولا خلقه فيه وأنه مستو على عرشه ، وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، فلم يثبتوا له فى وصفهم حقيقة ، ولا أوجبوا بذكرهم إياه وحدانية ، إذ كل كلامهم يؤول الى

التعطيل ، وجميع أوصافهم تدل على النفي ، أتريدون بذلك التنزيه ونفي التشبيه ؟ فنعوذ بالله من تنزيه يوجب النفي أو التعطيل

« دليل آخر ، روت العلماء عن النبي ﷺ أنه قال : ان العبد لاتزول قدماه من بين يدى الله حتى يسأله ، وروت العلماء أن رجلا أتى النبي ﷺ بأمة سوداء فقال يا رسول الله أنى أريد أن أعتقها في كفارة فهل يجوز عتقها ؟ فقال لها النبي ﷺ : أين الله ؟ قالت في السماء ، قال فمن أنا ؟ قالت أنت رسول الله ، فقال النبي اعتقها فانها مؤمنة ، وهذا يدل على أن الله على عرشه فوق السماء »

هذا بعض ماذكره الامام الأشعري في كتابه « الابانة في أصول الديانة » وقد ذكر مثل هذا في جميع كتبه المؤلفة في هذه المطالب العليا ، وهذه نماذج من النقول عن السلف وأئمة الاسلام والفقهاء المشهورين في جميع الأمصار الاسلامية في جميع العصور . والنقل في هذا المعنى عن السلف والعلماء لا يجمعه كتاب جامع ولا يحيط به محيط ، والغرض هنا الاشارة الخفيفة والالمامة العجلى ، لا الاحاطة الجامعة الشاملة وقد جمع الحفاظ من ذلك كتباً كباراً كما فعل الحافظان الذهبي وابن القيم في كتاب « العلو » وكتاب « اجتماع الجيوش الاسلامية » ، وقد نقلا في هذين الكتابين الاقرار بعلو الله والانكار على من أنكره عن جميع علماء الأمصار المشهورين بالعلم والامامة والتقى والدين والسنّة ، وممن نقلا عنهم ذلك الأئمة الأربعة وكبار أئمة الحديث والفقه كالبخارى ومسلم ونظرائهما ، وفي كتاب « السنة » تأليف الامام ابن الامام عبد الله بن أحمد بن حنبل المولود في مطلع القرن الثالث الهجرى نقول كثيرة متواترة عن أساطين السنة والحديث والفقه الاسلامي ، تقرر كلها صفة العلو والاستواء لله رب العالمين بحماسة وصراحة ، وتنادى بملامة المنكرين الجاحدين لهذه الصفة من الجهمية المبتدعين ، والكتاب موضوع اصالة لهذا الغرض وللاغراض الأخرى المتصلة به من صفات الله والرد على المنكرين المحرفين

ونحن نقف عند هذا الحد ، ونحيل الراغب فى المزيد من هذه المعارف والعلوم الالهية على كتب السنة كلها ، لا نخص كتابا دون كتاب

أفلا يرى القارىء بعد هذا أنه يسوغ لنا أن نعد قول هذا الشيعى : « ان ابن تيمية هو أول من زقا بعلو الله » انتحاراً علمياً فظيعا ، ولكنه انتحار لا تعقبه راحة المنتحرين ان كان للمنتحرين أن يراحوا ؟ ! ثم ألا يحس القارىء الاشفاق على هذا المصنف الشيعى الجرىء على ما الخير فى الاحجام عنه والتهيب له ؟ !

يا ما أضعف رأى من يريد نصرة رأيه ومذهبه واضعاف مخالفيه بقول غير الحق وانتحال غير الصدق ! ! وصدق الله العظيم إذ يقول : « وأما الزبد فيذهب جفاء »

قصة الحبر اليهودى وغلط الرافضى

ومن الخلط الشنيع ما زعمه هذا الرافضى فى قصة الحبر اليهودى الذى جاء النبى عليه السلام وقال : انا نجد أن الله يجعل السماوات على اصبع ، والأرضين على اصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، ثم يقول : أنا الملك . فضحك النبى عليه السلام عند مقالة الحبر وتلا الآية الكريمة « ما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه » . فقد زعم هذا الرافضى أن ضحك النبى عليه السلام لم يكن تصديقاً لذلك الحبر ، ولكنه كان انكاراً وتكذيبا وذلك ليقوم له انكار هذه الصفات والكفر بها

وهذا الزعم غلط شنيع باطل يرده الحديث نفسه ، وترده الآية الكريمة ، وترده الأحاديث الاخرى المتواترة فى إثبات هذه الصفات لله . أما الآية فانها تقول : « ما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » فهى إذن تصريح صريح بمعنى هذا الحديث ، واعتراف به ،

واقرار له ، وذلك أنها أثبتت أن الأرض بما فيها تقع فى قبضة الله يوم الدين ، وأن السموات يوم ذاك تطوى بيمينه أيضا . وهـذا هو معنى قوله : ان الله يجعل السموات على اصبع والأرض على اصبع وجميع الخلق على اصبع فيقول أنا الملك ، واذ كان معنى الحديث ثابتا فى القرآن لم يصح لمسلم انكاره استيحاشا من معناه ، والا لكان الانكار له انكاراً لمعنى الآية . فان قال الشيعى أو غيره ان الفرق بين الآية والحديث أن الحديث فيه اثبات الأصابع لله بخلاف الآية فليس فيها ذكر لذلك ، قيل له ان فى الآية أن الأرض تكون يوم القيامة فى قبضة الله ، وأن السموات تكون ذلك اليوم أيضا مطوية بيمينه ، ففى الآية القبض والطى وفيها أثبات اليمين لله . فاذا لم يكن معنى القبض للأرض والطى للسموات ومعنى اليمين لله منكراً باطلا لم يمكن أن يكون معنى الأصابع وجعل الخلائق على الأصابع باطلا منكراً ، فان كان هذا وصف كمال كان ذاك وصف كمال أيضا ، وان كان وصف نقص كان الآخر أيضا وصف نقص ، ولا بد ، فهذا كهذا والحديث فى معنى الآية والآية فى معنى الحديث ، واذا كان هذا كله صحيحا ـ وهو صحيح ـ لم يصح يقينا أن يكون ضحك النبى الكريم تكذيبا لما قاله الحبر ، لأن تلاوته الآية برهان لا يدفع على أنه يريد بذلك تقرير قول اليهودى وتصديقه إذ قد نزل عليه مثله فى كتاب الله وصار بهذا مصدقا لرسالات الأنبياء قبله ، ولرسالة نبى الله موسى التى منها مقالة ذلك الحبر اليهودى فى شأن من شئون الله وصفة من صفاته . وجليّ جداً أن تلاوة النبى الكريم للآية الكريمة ـ بعد أن قال الحبر ما قال ـ تقرير أى تقرير ، وإثبات أى إثبات !

على أن هذا الحديث مصدق لجملة القرآن المثبت لله فى غير ما آية صفة اليدين والصفات الأخرى . ولا يمكن إقرار نصوص اليـدين وإنكار نصوص الأصابع الصحيحة الثابتة ، فان المعنى فى الأمرين واحد كما ذكرنا

هذا من جهة القرآن الكريم ، فهو دال على إقرار هذا الحديث لا على إنكاره وأما من جهة الحديث نفسه فانه راد على الرافضي صراحة ، راد ما قاله من أن الضحك كان تعجبا وتكذيبا صراحة أيضا ، وذلك أنه قدجاء فيه نصاً ان الضحك كان تصديقاً لمقالة اليهودي كما رواه البخارى كذلك فى كتاب التوحيد و كتاب التفسير من صحيحه ، وكذا رواه غير البخاري . فزعم الرافضى أن الضحك لم يكن تصديقا ـ بعد تصريح الحديث نفسه بأنه كان تصديقا ـ زعم مزهود فيه مرغوب عنه

هذا من جهة الحديث نفسه ، وأما من جهات الأحاديث الأخرى فهى أيضا رادة قول الشيعى أبلغ رد ، ذلك أن معنى هذا الحديث قد جاء من طرق أخرى من كلام النبوة ابتداء ، فروى البخارى فى كتاب التفسير و كتاب التوحيد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله يقبض الأرض يوم القيامة ، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » وروى أبو هريرة عن رسول الله أنه قال : « يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ، ثم يقول أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » روى هذين الحديثين البخاري وغيره ، وهذان الحديثان ـ وهما من كلام النبوة ابتداء ـ فى معنى قول الحبر اليهودي ، فهما يدلان يقيناً على أن ضحك النبى الكريم كان تصديقا واستحسانا ، لا إنكاراً ولا كذابا كما يزعم الشيعى

على أن الأحاديث النبوية الصحيحة فى إثبات هذه الصفات لله أحاديث متواترة معلومة لا يمكن المؤمن جحدها ، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « ان القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء » رواه مسلم فى الصحيح وروى أيضا أنه عليه السلام قال « المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن » وفى المعنى أحاديث أخرى ذات عدد

فهذا الحديث صحيح ، وضحك النبى ﷺ تصديق واقرار ، ولا شك . ولا

فدرى كيف يمكن أن يكون قول هذا اليهودى باطلا ومنكراً فى حق الله ـ كما يزعم الشيعى ـ ثم لا ينكره النبى ﷺ بل يقابله بالضحك والهدوء ! ولا شك عندنا أن هذا القول لو كان كما يزعم الشيعى باطلا وتنقصاً لله لأنكره النبى ولأظهر الانكار والامتعاض الشديدين كما كان دأبه المعلوم حينما يسمع فى الله أو فى دينه أو فى أنبيائه و كتبه ما ليس حقاً ولا صدقا . وأقل الناس حماسة لدينه ولربه لا يستطيع أن يقابل القول الباطل الضلال فى الله وفى صفاته بالضحك والابتسام ، بل لابد من الانكار والغضب والتصريح بذلك . وأما من زعم أن النبي الكريم يسمع القبيح فيضحك ولا ينكر فقد زعم زعما لا نقره ولا نرضاه لنبى الله ﷺ أبداً . وأما تلاوة الآية فليس إنكاراً بل هى إقرار وتصديق كما ذكرنا ، وقوله : « ماقدروا الله حق قدره » معناه أنهم لم يعظموا الله كما يجب لجلاله وعظمته وسلطانه الواسع الذى منه ما فى الخبر مما سوف يصنعه تعالى بالخلائق يوم الدين . والمعنى أنهم لم يعبدوه العبادة اللازمة المطلوبة من العبد للرب ، ومن المخلوق الضعيف للخالق القوى القاهر . فما زعمه هذا الشيعى فى هذا الحديث غير صحيح ولا كرامة . أما ما يذكرون على هذه الصفات من الاعتراضات المعلومة من لزوم الجارحة ، والتجسيم والتشبيه . فجواب هذا كله يؤخذ مما ذكرناه آنفا فى صفة الاستواء والعلو

زعم الرافضى أن قيام الصفات بالله

يعاند صفة القدم

وأما قوله : « ويلزم من اثبات المحبة والرضا والغضب والرحمة بمعانيها الحقيقية ـ وهى ميل القلب ورقته ، وهيجان النفس وعدم هيجانها ـ كونه محلا للحوادث الموجب حدوثه » فقول لم يؤسس على شيء من أجزاء المنطق الصحيح المحترم .

وذلك أن هذا القول قائم على أمرين اثنين ، أحدهما أن هذه الصفات حوادث ثانيهما ـ ان الحوادث لا تقوم بذات الله ، لأن ما قامت به الحوادث حادث ، فقوله هذا قائم على هذين الأمرين ، ولكن يقال له : اذا صح لديك أن يوصف الله بمعانى « التكوين » كالخلق والايجاد والاحياء والاماتة والنفع والضر والاحداث وسائر معانى التكوين ولم يلزم هذه الصفات هذا المعنى الباطل الذى أنكرت فراراً منه صفات الرحمة والمحبة والغضب والرضا ، فكيف يلزم هذا المعنى هذه الصفات ؟ وما الفرق بين أنواع هذه الصفات ، التى أنكرت والتى سلمت ؟ وهل هذا إلا تحكم محض فى الله ودينه ، وفى المعقولات لا نصيب له من المنطق والبرهان والدليل ؟ ألا ترى أنه لو كان هذا الاحتجاج المذكور صحيحا لامتنع به وصف الله بصفة من الصفات ولامتنع أن يقوم به فعل من الأفعال وأن يحدث شأنا من الشئون ، لأن قيام هذه الأمور بذات الله معناه قيام الحوادث به : ولو قامت به الحوادث لكان حادثا ، لأن الحادث لا يقوم بذات القديم . ولا شك أن من ذهب يحتج هذا النوع من الاحتجاج صار به احتجاجه ـ ولا محالة ـ الى انكار جميع صفات الله وأفعاله ، اللازمة والمتعدية حتى يروح ينظم دينه وعقله وعلمه غزلا ونسيبا فى امتداح أطلال التعطيل . والتعطيل لم يزل خصم الاله والنبى والايمان ، ولم يزل جرثومة الكفر ومادة الالحاد

فهذا القول قائم على أمرين باطلين فاسدين ، أحدهما تسمية صفات الله حوادث وثانيهما إنكار الصفات على حساب إنكار الحوادث ، وكلا الأمرين إثم وجناية . فان تسمية صفات الله حوادث من الأسماء الباطلة المنكرة ، ومن القول على الله وفى الله من غير ما حجة ولا برهان . ومن أظلم ممن فعل ذلك ! وإنكار صفات الله على حساب إنكار الحوادث إثم وجناية أيضا ، فهما جنايتان قائمة إحداها على الأخرى ومن القبيح أن يسمى الحق بأسماء الباطل كى ينكر على حساب انكار الباطل ، ومن

الأقبح أن يسمى الباطل بأسماء الحق كي يقبل ويحترم على حساب قبول الحق واحترامه ، وهاتان جريمتان متلازمتان قديمتان لم يزالا عون الباطل وحرب الحق !

أو ليس ما قاله هنا فى معنى أن يقال : ان إثبات صفات الرضا والغضب والمحبة والرحمة بمعانيها الحقيقية اللائقة بالله يلزمه قيام الصفات بالله ؟ ان هذا هو معنى ما قال الشيعى ، ولكن الفرق بينهما هو الفرق ما بين العبارتين ، فالشيعى اختار ألفاظا منكرة مبتدعة وعبارة زرية مرذوله ، فكان ملبسا مضللا ، ونحن اخترنا عبارة شرعية دينية معهودة ، فكانت مقبولة مرضية . وما من صفة من صفات الله إلا ويمكن تشويهها والتنفير من الايمان بها بالتعبير عنها التعابير المبتدعة الزرية المخيفة ، ولكن هذا لا يفعله من يريدون الحق والهداية . فقول هذا الرافضى إذن : ان إثبات هذه الصفات لله يلزمه أن يكون محلا للحوادث معناه فى التحقيق : ان اثبات الصفات لله يلزمه قيام الصفات بالله ، فاذا قيل : نعم ، ولماذا لا يجوز أن تقوم بالله صفات ، وهل يمكن غير هذا ؟ لم يكن لهم من جواب سوى تلك الحجج الواهية التى أنكروا بها الاستواء والعلو ، وقد أرينا القارىء الكريم حقيقة ذلك

أما تفسيره المحبة بميل القلب ، والرحمة برقته ، والغضب بهيجان النفس ، والرضا بعدم هيجانها ، فتفسير باطل كاذب ، وذلك ان هذا التفسير ان أمكن أن يصح فى صفات المخلوقين لم يمكن أن يصح فى صفات الله ، وذلك ان صفات الله لا تفسر بصفات خلقه وعباده ولا تقاس عليها كما أن ذاته لا تفسر بذوات خلقه ولا تقاس عليها ، وكما أن شؤونه لا تقاس على شؤون المخلوقين العاجزين الضعفاء . ومن فعل ذلك فقد ضل ضلالا بعيداً . وذلك أن الله بصفاته وذاته أعظم وأجل من أن تحيط به العقول المخلوقة المحدودة وأن تتحكم فيه ، ثم أجل وأعلى من أن تفهمه كما تفهم المخلوق المهين . والشىء لا يفسر بالشىء ولا يقاس عليه إلا اذا كان مثله أو قريباً منه ، أما اذا كان مباينا له كل المباينة فلن يكون ذلك التفسير وذلك

القياس إلا باطلين كاذبين . ولكن جل الله أن يكون له مثل أو شبه . ونحن نجد معانى هذه الصفات ومعانى غيرها من الصفات مختلفة فى المخلوقات اختلاف حقائق وخصائص كما اختلفت المخلوقات أنفسها ، فأنى تتفق إذن صفات الله وصفات العباد وكيف تكون صفات من ليس كمثله شيء شبه صفات عباده ؟

وإذا كان معلوماً لدى جميع المؤمنين بالله أن ذات الله لا تشبه ذوات العباد ، فليكن معلوماً أيضا أن صفاته لا تشبه صفاتهم ، وإذا كانت ذات الله ليست مادة ولا مركبة من أمثال اللحم والعظام والأعصاب وذوات الخلق لا تكون إلا كذلك فكذلك رحمته ومحبته ورضاه وغضبه ليست معانيها ما ذكره الشيعى وان كانت فى المخلوقات لاتكون إلا ما ذكر . وإذا كان علم الله وخلقه وإرادته وكلامه وجميع صفاته المعترف بها ليست كصفات البشر وغيرهم من الخلق فأنى تكون هذه الصفات : الرحمة ، والمحبة ، والرضا ، والغضب ، مثل صفات عباده ـ ميلا ورقة وهدوءاً وهيجانا ، كما فسر ذلك الشيعى ؟ !

ان مما يرمي المنطق بالحيرة والعجز أن يجد لهذه الاسئلة جوابا الا أن يلجأ الى الاعتراف بما قلناه من أنه لا فرق بين مايقرونه من ذات الله وصفاته ، وما ينكرونه من ذلك

ياهذا ! ان المسألة سهلة ميسورة قريبة ، فأنت تعترف بمخالفة ذات الله لذوات خلقه ـ وله ذات ولهم ذوات ـ فكيف تعجز بعد هذا أن تعترف بمخالفة صفاته لغيرها من صفات العباد ؟! وإن من المعقول المعروف ان الذوات اذا اختلفت اختلفت الصفات ، وان الذاتين المتباينتين لا يمكن أن تتفق صفاتهما ومعانيهما ، اذ لا شك أن الصفات تابعة للموصوفات ، فأمر يخالف أمراً فى الذات لا بد أن يخالفه فى الصفات ، ولا تتفق الصفات حتى تتفق الموصوفات . فيسير اذن على من آمن بأن ذات الله لا تشبه ذوات الخلق أن يؤمن بأن صفاته لا تشبه صفاتهم ،

فهذه من هذه ، والبابان سواء . واذا كان فى المسألة عسر أو غموض كان فى الايمان باختلاف الذوات لا فى اختلاف الصفات المختلفة الذوات . ولكنك أنت يا هـذا مؤمن بأن الذوات مختلفة ، وان الايمان بذلك الاختلاف سهل ميسور ، فما عليك بعد من غضاضة فى أن تؤمن بما ذكرنا من اختلاف الصفات التى ذواتها مختلفة

يا هذا ، ان القول باتفاق الصفات مع اختلاف الذوات قول باطل مخالف لمبادىء العلوم المنطقية ، وللمعقولات الاولية المشتركة بين العقلاء ، ومن زعم أن صفات ذاتين مختلفتين متماثلة متشابهة فقد نازع المنطق الصحيح والمعقول الصريح ، وقال قولا تأباه كل العلوم البشرية الصحيحة الثابتة . وما عليك ياهذا الا أن تفهم هذا فهما جيداً بعيداً عن ارث الهوى والعصبية والتقليد

ومن المناسب بعد هذا أن نذكر كلمة جاءت فى كتاب « نهج البلاغة » الشيعى ترد على هذا الشيعى ما زعم هنا فى تفسير هذه الصفات فنقول جاء فى احدى الخطب المنسوبة الى الامام على فى وصف الله وتفسير صفاته قوله : « يريد ولا يضمر ، ويحب ويرضى من غير رقة ، ويبغض ويغضب من غير مشقة » هذا صريح من علىّ فى ابطال ما زعمه الشيعى فى تفسير هذه الصفات ، فهل هم سامعون ؟

لا يلزم الاستواء معرفة الكنه

واما قوله : « والقول بالاستواء يلزمه أحد أمرين التجسيم أو القول بالمحـال وكلاهما محال ، لأن حصول حقيقة الاستواء مع عدم الكيف محال بحكم العقل ، ومع الكيف تجسيم ، فلا بد من التأويل » فقول باطل أيضا غاية البطلان . أما أن الاستواء لا يلزمه التجسيم فقد سبق بيانه فى فصل « شبه النافين لعلو الله » وأما أن ذلك أيضا لا يلزمه المحال فقد سبق بيانه أيضا فى الفصل المذكور . وأما قوله : « ان حصول الاستواء مع عدم الكيف محال بحكم العقل » فيقال له : ما تقول فى ذات الله

وفي وجوده وحقيقته ؟ ألست تقر بأن لله ذاتا وحقيقة ووجودا ؟ ان الجواب لا بد أن يكون « نعم » ثم نستأنف السؤال ونقول ما تقول في الذات والوجود والحقيقة ؟ أتقول ان هذه الامور حاصلة بكيف أم بغير كيف ؟ فان قلت انها حاصلة بكيف قلنا هذا تجسيم وهو باطل كما ذكرت ، وان قلت بغير كيف قلنا هذا محال كما ذكرت في الاستواء وانكاره ، وما كان جوابا عن هذا كان جوابا عن الاستواء والعلو ولا فرق . وهذا إلزام لما ذكره على الاستواء والعلو لو أعير عقول العقلاء كافة ، ووهب بيان ملوك البيان جميعا ، ثم جهد على أن يجد مخرجا منه لما استطاع ، ولما كان منتهاه الا حيث كان مبتداه

هذا ما يقال من جهة الالزام ، وأما من جهة البحث الخالص فنقول : لا ندرى كيف لا يمكن الايمان بالشيء الا مع علم كيفه وكنهه ، ولا ندرى كيف يصح هذا القول أو كيف يطمع في صحته !! ألسنا نؤمن بأرواحنا ايمانا لا شك فيه ، ولكننا نجهل كيف هي وكيف حصولها في أبداننا . ولو زعمنا أننا نعلم كيف أرواحنا وكيف حلولها في أجسامنا ، وكيف خروجها منها ، لزعمنا ما لا يصح زعمه . بل أليس كل انسان . يعلم أن له ادراكا وشعورا ، واحساسا ، وعلما ، وسمعا ، وبصرا وغير ذلك من أعراض الحي النامي ؟ ولكن انسانا منا لا يدري كيف يحصل له ذلك ، ومن عرف أسباب هذه المعاني القريبة جهل ـ ولا شك ـ أسبابها البعيدة وجهل أسباب الاسباب ، وجهل كيف تحصل هذه الاسباب ، وكيف تكون هذه القوة المودعة في هذه الاعضاء ، أعنى القوة التي تحصل بها هذه المعاني والمشاعر ... ولكننا مع جهلنا هذا كله لا نشك في وجود شيء منه

بل نستطيع أن نقول ان كل موجود ـ مهما كان وجوده ـ لا نعلم كيف هو ، ولا كيف يكون ، ولا كيف يتطور ، ولا كيف يصرعه الزوال والاضمحلال ، مع قربه منا وقربنا منه ، ومشاهدتنا إياه الليل والنهار . هذه الكهرباء أقرب شيء

الينا وألصق شيء بنا، نشاهد آثارها وأعمالها وخصائصها، ونستخدمها ونستمد منها ما نستمد، ومع هذا كله لايعرف كيف هي ولا كنف كنهها وحقيقتها

اذن من الخطل العظيم الزعم أن الايمان بالشيء مقارن لمعرفة كنهه وكيف هو واذن من الخطل العظيم قول الشيعي في هذا الفصل الذي نقلناه : « والجحود للصفة والاقرار بها حكم عليها، والحكم على الشيء فرع معرفته، والأمر الذي يكون فوق العقل لا يمكن للعقل الاذعان به »، وإذن فالحكم على الله بالوجود فرع معرفته والله لا يمكن أن يعرف المعرفة التي يعنيها الشيعي، وإذاً لايمكن الحكم بوجوده، ولا الاذعان به، لأنه فوق العقول، وفوق إدراكها وأفهامها، فمن آمن بالله فقد زعم أنه في متناول عقله وأنه ليس فوق إدراكه، ومن زعم أن الله ليس فوق عقله وأن في قوة إدراكه أن يفهم ذاته وحقيقتها فقد كذب وضل الضلال الأبعد، فكيف يخلص هذا الرجل المؤلف من عاقبة أقواله ؟

يعز عليَّ والله أن أعرف بأي قلم يكتب هذا الرافضي وبأي عقل يفكر، ويعز عليَّ أن أعرف كيف يرضى لنفسه أن تتساقط في هذه الدركات، وأن ينتحر هذا الانتحار العلمي الشنيع طائعا مختاراً، ويعز علي والله أن ينغمس في هذا النقصان العلمي العقلي قلم من يشهد ألا اله الا الله وأن محمداً رسول الله . يعز عليَّ كل هذا، ثم يعز علي أن يقوم صاحب هذه المزاعم ينعى على أنجب عقلية اسلامية في جميع القرون الاسلامية الوسطى، ويسمها بالجهالة والغبارة، كما سوف يجيء، يعز علي والله كل هذا، ثم يعز علي أن يتدحرج في هذا النقص رجال يؤمنون بالله وبرسوله رسول الحكمة والعقل والصواب، هذا يعز علي، ثم يعز علي أن يكذّب قول الامام مالك المشهور : « الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة » بأمثال هذه الأوهام الحزبية . وهذه الرواية عن الامام مالك التي زعم أنها كذب رواية صحيحة المعنى والاسناد، وقد جاءت عن مالك وعن غيره بأسانيد صحاح قال

الحافظ الذهبي في كتاب العلو ان الرواية ثابتة عن مالك صحيحة ، وقال الحافظ ابن حجر في شرح صحيح البخاري : ان سند الرواية قوى ، وقال أيضاً قد أخرجها الامام أبو القاسم اللالكائي في كتاب السنة بالاسناد الى أم سلمة زوج النبي ، قال : ورواها أيضا اللالكائي بالاسناد عن الامام ربيعة شيخ مالك ، وذكرها عن ربيعة الحافظ الذهبي في كتاب العلو بالاسناد ، ورواها غير هؤلاء .
وقد تواتر معنى هذه الرواية عن السلف والأئمة ، فقد كان السلف قاطبة يؤمنون بذلك ويرفعون عنه الكيف ، ويشتدون على من أنكره أو سأل عن الكيف . وأى مسلم يأبى الايمان بذلك أو يظن أنه يستطيع أن يعرف كيف هو ، أو كيف ذات الله أو كيف صفاته ، أو يأبى الايمان بهذه الأمور حتى يعلم الكنه والكيف ؟ أو ليس كل مؤمن يقول : ان الايمان بالله واجب ومعلوم ، وأن الكيف مجهول ، وأن السؤال عنه – أى عن الكيف – بدعة ؟ وأي عارف بالله يسأل سؤال مالك فلا يجاوب جوابه ؟ الله موجود ، فكيف وجوده ؟ ألا يكون الجواب الذى لابد منه أن الوجود معلوم ، وأن الله موجود معروف بدلائل مخلوقاته ، وآثاره الظاهرة والباطنة ، وأن الكيف مجهول ، والسؤال عنه – عن الكيف – بدعة ؟ ان هذا جواب لا يختلف العلماء أهل البصر فيه اذا سئلوا السؤال المذكور ، وهذا السؤال وهذا الجواب كالسؤال والجواب المذكورين فى الحكاية المروية عن الامام مالك التى لم يتسع لما صدر هذا الرافضى ولا عله فأكذبها

« الرحمن على العرش استوى »

كيف استوى ؟

ان الاستواء معلوم بالفطرة وبالعقل وبالاجماع وبالنصوص المتواترة عن السلف ، وان الكيف مجهول ، إذ كيف يعلم المخلوق – المحدود ذهنا وعقلا وجسما

وبداية ونهاية وكل شيء ـ الله أو صفاته أو صفة من صفاته ؟! وكيف يعلم هـذا المخلوق الحقير الزرى كنه الله وكنه استوائه ، وهو عاجز عن أن يعلم كنه نفسه وكنه روحه وكنه ما يحيط بجهاته ؟! ان هـذا ما لا يكون ، وان السؤال عن الكيف بدعة ، لأنه لم يؤثر فى الاسلام ، ولأن علمه فوق الطاقة ، ولأنه يوقع فى الاثم والضلالة ، ولأنه قول على الله وفى الله بلا علم ولا دراية . هذا جواب لا يختلف المؤمنون بالله فيه اذا سئلوا ذلك السؤال الذى سئله الامام مالك . فماذا ينكر الشيعى ، وبماذا يكذب بهذا الصدق عن أئمة الصدق؟ ان هذه الرواية صحيحة الاسناد ، صحيحة المعنى بلا شك ولا ريب

أما ما ذكره عن الامام مالك من استقبال القبر الشريف والتوسل بصاحبه عليه الصلاة والسلام فندع الكلام فيه للباب الخاص به الآتى

ابن تيمية

ولم أر أمثال الرجال تفاوتوا لدى الفضل حتى عد ألف بواحد

ان التفاوت المقدور بين افراد النوع الانسانى تفاوت لم يقدر بين أفراد نوع آخر من أنواع هذه الخليقة الغريبة المظيمة ، فالتفاوت الكائن بين أفراد فصائل هذه المخلوقات هو تفاوت محدود ضئيل بقدر محدود ضئيل أيضا ، قريب النسبة والشبه ، قريب « الكم » و « الكيف » تفاوت لا يجل حتى يسود فضيلة فرد منها ويزن العدد الكثير فضلا واستحقاقا وجدارة . أما التفاوت بين أفراد نوع الانسان فهو تفاوت عظيم لا يقف عند حد ، ولا تحيط به غاية من الغايات ، ولا يخضع لقانون من قوانين الطبيعة المحدودة الضئيلة العاجزة . فأكثر أفراد الانسان كهؤلاء الذين نراهم يلجون هذه الدنيا من بابها الخشبى ثم تقذف بهم وراء سورها الفولاذى ، لم يخلفوا وراءهم فيها من آثار سوى « عملية » الولادة

وعنائها ، ثم عملية الاكل والشرب وبلائها ، ثم « عملية » الموت والتكفين والدفن وأرزائها ، ثم ما بين ذلك وما بعده من ذكرى خانقة رياحها أرواح فضائل الانسان الكامل

ثم من الانسان أفراد ـ وما أقلهم ـ ليسوا كهؤلاء الذين نراهم صباح مساء الا بقدر ما كستهم يد الله من الثوب الظاهر المساوي لأثواب هؤلاء الجماهير الظاهرة لكي يستطيعوا الاتصال بهم ، ولكي يأنسوا بمرآهم اذا أوحش ما بينهم وبينهم سمو السماء على الارض ومفارقة الرذيلة للفضيلة واستيحاش معنى الشيطان من معنى النبي

وقد جلّ هذا التفاوت بين أفراد هذا النوع ، حتى ان الفرد منه ليسمو به معناه حتى يصبح أهلا لأن يتصل بالله ، وأن يقربه منه نجيا ، ويحمله رسالاته وشرائعه وأسراره ، حتى يفترض على جميع أفراده أن يخضعوا معانيهم وعقائدهم ونفوسهم لمعنى هذا الفرد وعقيدته ونفسه وماجاء به من الآداب والشرائع ... وتنزل بأفراد آخرين معانيهم ونفوسهم حتى لا يقدروا على الانفلات من معنى من معانى الحيوان الأعجم البهيم ، بل حتى يروحوا يعلمون الحيوان فنونا من أفانين الحيوانية « الانسانية » المبتكرة فيصبحون أساتذة لهذا المخلوق الأعجم البهيم . وهذا شأن جماهير هذا الانسان المغرور . وليس مابين هذا النجم المالىء للدنيا نوراً وحبوراً وحياة وجمالا ، هذا النجم الذى نسميه « بالشمس » وبين أضأل نجم لا تكاد العين الحادة تراه يبص مطلا من خلال الظلم الحالكة بصيص الأمل المريض فى الجبهة المحدودة المريضة من تفاوت بأعظم مما بين أفراد نوع الانسان العجيب من التفاوت المنقطع النسبة ، وليست حاجة ما في هذه الأرض من حيوان ونبات الى هذه الشمس والى نورها وحرارتها وسائر معانيها وخصائصها بأشد من حاجة معانى هؤلاء الأفراد والجماهير ، وحاجة أرواحهم ، بل وبقائهم فى هذه الدنيا إلى

هؤلاء الأفراد المتازين منهم ، والى نبوغهم بينهم الحين بعد الحين حتى لا تنقطع آثارهم وتعاليهم ومعانيهم وما جاؤا به من المعانى والآداب السماوية التى لولا وجود هذا القدر الضئيل منها بين نقائص هذه الجماهير ومخازيهم المطبوعة لأصبحت الأرض غيرها اليوم ، ولكان الانسان شيئاً آخر غيره اليوم ، فان كل ما تشهده الأحيان الفارطة العجلى من المعنى الصالح الجميل ، والفعل الطاهر المقدس الغريب لامعاً على مسرح هذا الكون الآثم الفاسق الدنس إنما مردّه الى هؤلاء الأفراد المتازين ، من بقايا ما خلفوه من الآثار والمعانى المتازة ، ولولا هذا لأصبحت الأرض بأهلها جحيما لا يطاق ، وأتون رجس لا يطهر أبداً ، ولهذا فان الجانب الذي ينقص حظه من هؤلاء المتازين ومن آثارهم وهداياتهم ومعانيهم الموروثة ينقص حظ أهله من ذلك بقدره من الطهارة والسمو الروحى النفسى ، ويزداد بقدر ما نقص من الشقاء والآثام والنزول الروحى والرجاسة النفسية ، وكل ما لهذا المعنى من آثار ومعان قبيحة مجرمة تعانيها اليوم أمم وصفت بالمدنية وبالزعامة العالمية الثقافية المخذولة ، ومن أبصر علم

وهنالك فريق آخر دون هذا الفريق الذى نسميه ممتاز المتاز ليسوا بالأنبياء ولا بالمرسلين ، ولا بالمتصلين برب العالمين ، ولكن الله القدير ،مريد قد أعدهم لحمل ما يخلفه الأنبياء والمرسلون من المعارف والآثار والعلوم ، فاختصهم بقسم من السمو الروحى والعظمة النفسية ، تجىء الأمم تلو الأمم ، ثم تذهب تباعا ، ولم يقدَّر لها كلها معرفة ما خصهم الله به من هذا القسم ، ولا معرفة ما كانت عليه نفوسهم التى عاشوا بها بين الجماهير من السمو والعظم والفضل الذى لا يه قدره إلا واهبه وواهب كل فضل وخير ونعمة بالغة سابغة

ومن الغريب فى هذا القسم المتاز أنه كلما أمعن ذهاباً فى عالم الخفاء وضح أمره وفضله ، وان من تخلفوا عنه زماناً ومكانا يعرفون من حسن آثاره وأياديه

البيضاء على الجميع ما لم يعرفه المعاصرون له ، الذين كانوا يرونه صباح مساء ، وهذا لأن عيون المعاصرة عمياء ، ولأن هوى المعاصرة شيطان قوى ، لا شغل له إلا منازلة الحسنات والقضاء على أصحابها بسلاح الشيطان نفسه ، لا بسلاح الخاصمة المحترمة المنصفة ، فما أحسن أثرهم فى الناس ، وأقبح أثر الناس فيهم !

وقد كان من ألمع هؤلاء الممتازين الذين أعدتهم ارادة الله لحمل رسالة الاصلاح الثقيلة ، شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، الحرانى ثم الدمشقى ، النابغة المشهور المولود سنة ٦٦١ هـ ، المتوفى سنة ٧٢٨

افتر ثغر السماء عن نجم هذا النابغة ، وأضاء كوكبه الوقاد فى أفق العالم العربى الاسلامى بعد أن نكب الاسلام والمسلمون والعرب على وجه الخصوص بأعظم النكبات المادية والمعنوية الروحية ، الخاصة والعامة ، وبعد أن اصطلحت عليهم وعليه جميع الأرزاء الجسام التى طاحت بأفضل المعانى الروحية الخلقية الاعتقادية ، التى نشر العرب والمسلمون بها رسالة لله ، واستطاعوا بها وحدها أن يقصوا أجنحة أعظم ظلم كان يسود الأرض إذ ذاك ، وقلموا أيضا بها وحدها أظفار أطغى الأمم الطاغية ، العريقة فى نسب الطغيان ، ونسب القوة المادية الآثمة . فقد أصيب الاسلام وأممه قبل تلألؤ هذا النجم الثاقب في الأفق العربى الاسلامى المحمدى بأشتات المصيبات التى صرعت أعز ما كان يفتخر به المسلم ، وأعظم ما كان يفل به الحديد ، ويشقق نظام الجموع الظالمة الباغية ، ويفلق به هامات الباطل ، ويذل به كل عزيز بغير الحق وبغير الله الحق ، فقد أصيب الاسلام بدسائس الشيعة الباطنية الملحدة ، وبثوراتهم المظهرة والمضمرة ، وبما نسجوه من حيل ومكايد سلطوها على جوهر الاسلام وصميم التوحيد ، وعلى مكان الايمان والعقيدة والفضل من النفوس المسلمة فقتلت من قتلت ، وجرحت من جرحت . ثم أصيب بالقرامطة ، أحد فروع الشيعة الغالية الباغية ، وبالتتار وبالصليبيين ، وبغير هؤلاء من الأرزاء الآخذ بعضها

برقاب بعض ، سلسلة طويلة الحلقات ، متماسكة النظام ، يجر أولها آخرها ، مندفعة كلها بحماسة وحرارة نادرتين الى معنى القرآن ومعانى أهله للايقاع به وبهم إيقاعا يظل التاريخ يتحدث عنه ما دام للتاريخ حديث ، وما دام له محدثون . فتم لها حقا أعظم ما أرادت وما اشتهت . فنالت من الاسلام ومن المسلمين أعظم منال ، ومثلت به وبهم أقبح تمثيل ، ولا يزال يئن كما لا يزالون يئنون من تلك الجراحات والضربات القوية ، ولا يزال مقيداً كما لا يزالون مقيدين بتلك الأصفاد التى كبل بها وكبلوا ، والله المستعان على تحطيم ذلك كله

أفسدت هذه الفتن معنى الاسلام ومعنى المسلم ، حتى صار الاسلام غير الاسلام وصار المسلمون غير المسلمين : استبدلوا الشرك بالتوحيد ، وعبادة الأموات بعبادة الله ، وهذيان اليونان ، وهذيان فلان وفلان بالقرآن ، ورعونات ابن سينا ، وأخلاط مزدك وخازر وقرمط بسنة محمد ﷺ ، واستبدلوا ماتناثر عليهم من عقائد اليهود الباطلة ، وفضلات المجوس والفرس ودسائسهم العقلية والدينية بسنة المسلمين وطريق السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، فوضعوا على كل شيء فى الاسلام جميل مشرق الصورة والمعنى نطاقا كثيفا من القبح والسخف الممقوت والحماقات المرذولة ، فانطفأت تلك الشعل الالهية المقدسة الأخاذة بالأبصار والبصائر ، وانطمس ذلك الدين الأغر البهيج تحت تلك الاطلال والانقاض المخلفة من بقايا تلك الأديان البالية المحرفة ، فاستعجمت الأنفس والعقول ، واستعجمت الألسنة والعادات ، واستعجمت الحكومات والسياسات والادارات وكل شيء كان اسلاميا عربيا مبينا ، فاختفى وجه الحق وبعد مناله على طالبيه ، فاستشعر المسلمون الذلة والضعف ، ورضوا بالدون والهون والقسمة الخاسرة الضيزى ، وخفقت الرؤوس والنفوس ، وكان ما كان بنتائجه وغاياته الالهية الطبعية اللازمة . وكان احدى هذه النتائج والغايات أن ذاب المسلمون أمام سيل التتار والصليبيين ، فنالوا

منهم ومن الاسلام ما نالوا ، وضربوه وضربوهم ضربات هـذه بقايا جراحاتها وآثارها مشهودة منظورة فى العالم الاسلامي المنكوب ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يظلم ربك أحدا

هذه بعض حالة الاسلام والمسلمين الاجمالية حينما تلألأ هذا الكوكب الوهاج بين هذه الحنادس الحالكة التى أعدت لتبديدها هذه النفس التى نظر الله اليها نظرة واحدة أعدتها لحمل هذه الرسالة العليا ، ولاحياء رسالة خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ان الحمل لثقيل باهظ منقض كاهل العزم الجبار العنيد ، ولكن حرارة الايمان تستطيع أن تصهر وتذيب كل شىء يقف فى سبيل الخير والهدى والرشاد . فماذا إذن يفعل ؟

نظر فيمن حوله وما حوله . فوجد كل شىء فاسداً يحتاج الى الاصلاح والعلاج والثورة الحازمة ، ووجد أن هذا الاصلاح المطلوب لا يمكن أن يكون إلا بمعاداة أكثر هؤلاء الجماهير الضالة عن سبيل الله ، ووجد أن هذه المعاداة لا بد لها من الأخطار ، ولا بد لها من الاستهانة بالأخطار . فالنفس والجسم رخيصان فى سبيل أداء رسالة الله وإصلاح خلقه ، والنفس والجسم ملك لله . فهو واهبها وآخذها متى شاء رغم كل شىء فلا ربح فى الضن بهما ، والنفس والجسم ان لم يضح بهما فى سبيل الله ويباعا لله ولدينه ضحى بهما وبيعا فى سبيل الشهوات . أو ضحت بهما الأمراض والنكبات ، وان لم يذبهما الجهاد فى سبيل الحق والاصلاح للخلق أذابهما الأكل والشرب ، وإن لم يصرعا فى ميدان الحق صرعا فى ميدان الباطل فما أضل اذن وأغبى من يبخل بنفسه وجسمه على الله وعلى الحق وهداية الخلق ثم يسخو بهما ـ مغتبطاً بصفقته ـ على هذه الشهوات الحيوانية التى يشارك الانسان فيها جميع الحيوانات والدواب ! إن هذا لشر الضلال وأخسر الصفقات

أترى هؤلاء ـ الذين يعيشون ليعيشوا ، ويأكلون ليأكلوا ، ويشربون ليشربوا

ويحيون ليحيوا - راشدين مهتدين ؟ أو ترى هؤلاء الذين يرضون بالهزيمة الروحية والانتحار النفسي والعيش فى كنف الذل والباطل والهوان خيفة أن يعرضوا شهواتهم ولذاتهم وآكالهم وأشربتهم وحاجات أجسامهم الأخرى للنقصان والضياع راشدين مهتدين ؟ أو ترى هؤلاء الذين يطلبون الحياة والعز بمداراة الموت والذل راشدين فى سجل الوسائل والغايات ؟ أو ترى هذه النفس الانسانية خليقة بأن تكون خادمة لهذه الدنيا ، بل لحاجات هذا الجسم الضئيل المادي ؟ وما حاجاته سوى الاكل والشراب المستحيلين بعد الى مايؤنف من ذكره واسمه ! أترى أحداً من هؤلاء الناس عاقلا أو سالكا سبيل العاقلين ؟ بل أترى الانسان الذى زعم لنفسه أنه صفوة المخلوقات خلق هذا الخلق البديع وخص بهذا العقل العجيب ثم لا تكون الغاية منه سوى غاية أكثر هؤلاء الجماهير من هذا الانسان المغبون ، حياة البهائم : أكل وشرب ، وما يتبع الاكل والشرب ، ثم موت كموت البهائم ؟

تراكضت هذه الأسئلة عجلى على خاطر هذا النابغة الشفاف المشرق فكان جوابه عليها كلها بلا توقف ولا تريث : كلا والله ، ان الأمر لغير ذلك وان حياة الانسان لأعلى وأغلى من أن تباع لشهوات هذه الدنيا التى هي ممر مختصر الى منزل الانسان الاول والآخر . فلا بد من اجتياز هذا الممر بغاية مايستطاع من النشاط والحزم والعزم والسرعة والحركة : هذا ما لا بد منه وليكن بعد ذلك ما يكون . فالعاقبة معروفة مضمونة على كل حال . إذن فليهاجم الباطل من كل نواحيه ، ولتدك قلاعه وحصونه فوق من لاذوا بها ومن ناموا تحت ظلها البارد العيش . هؤلاء العلماء قد قعدوا عن نصرة الحق وعن مقالته رغبة فى الدنيا . فركبهم رجال الدنيا الظالمون مطايا الى شهواتهم ومآربهم الدنيا ولبئس ما كانوا يفعلون ! بل وأكثرهم جهلوا الحق وضلوه فأضلوا كثيرا

وهؤلاء جماهير العامة نهب مقسم بين ضلالات العلماء وظلامات الرؤساء ،
فليهاجم هؤلاء كلهم على منهاج الشرع المضاع ومنهاج العدل المنسى

نهد هذا النابغة لكل فرقة من هذه الفرق يدعوها الى الحق بعد أن يعرضه عليها عرضا جليا واضحا مؤيدا بالكتاب والسنة والمعقولات الخالدة المشتركة . فوضع كتبا خالدة فى جميع الفرق المنحرفة عن الحق ، وفى نقد ما عندها من ضلال وباطل وعدول عن منهاج الحكمة والصواب . وكان قد اجتمع له من أسباب المقدرة على نقد الباطل وكشف خباياه ما قد يقل أن يجتمع لسواه . وهذا من أسرار حكم الله اللطيفة الخفية ، لأن العصر الذى كان فيه ، والميدان الذى وقف على شطيه وضفافيه كانا يحتاجان الى ذلك ، وقد اعترف له بجميع هذا أجحد جاحدى فضله ومنكرى شمسه . فهاجم الفلاسفة الملحدين ، وهاجم المتكلمين الخلطين ، وهاجم المشبهين والمعطلين ، وهاجم سائر المبتدعين ، وهاجم القبوريين ، أو القبريين على قول المتنطعين ، وهاجم غير هؤلاء من أصناف المبتدعة الضالين . وقد هاجم الرافضة والفرق المتفرعة عنهم كالقرامطة بحدة وشدة ، وذلك لكثرة مصائب هؤلاء وعظم ما نكب الاسلام والمسلمون بهم . فالرجل نفاذ البصيرة ، حادّ الذهن ، لا يقول فى طائفة قولا ، ولا يضعها وضعا ، الا ويكاد لا يخطىء مرماه ، وقد كان صريحا جداً ، شجاعا جداً ، وكان شجاعا فى صراحته ، صريحا فى شجاعته ، فكان لا يتهيب أن ينقد الرجل الكبير الشهير ، ذا الاتباع والأنصار الاكثرين ، بل ولا يورّى أو يصانع اذا نقد أحد هؤلاء ، فنجده ينقد مثل الغزالى وابن رشد والرازى من المتكلمين المتفلسفين بصراحة وجراءة ، ويسميهم فى نقده ويعدد عليهم الأغلاط التى صاروا اليها ، ونجده ينقد مثل ابن عربى وابن الفارض ، والحلاج وغيرهم من المتصوفين الاتحاديين بصراحة وجراءة ويسميهم بأسمائهم ولا يهاب أن يقول للجانب الأسود فيهم انه جانب أسود ، أو أن يقول للابيض

انه أبيض وان زعموه جميعا أسود ، فيعدد عليهم أغلاطهم وما قاله العلماء فيهم من المقادح والتهم الكبيرة ، ولكن على شرط أن تكون صحيحة ، ونجده ينقد الأشاعرة وغيرهم من الطوائف المشهورة بصراحة وجراءة ، ويعدد ما لديهم من الأغلاط والأخلاط ، وينقد كبار الفقهاء والمفسرين والمؤرخين اذا انحرفوا عن الصواب بالصراحة المعهودة

كان شجاعا صريحا كما ذكرنا ، فكان لا يهاب أن ينقد هؤلاء الرجال وسواهم اذا خرجوا عن جادة السلف الصالح والرعيل الأول نقداً لا مصانعة فيه ولا ظلم ولا عدوان ، بل يعترف للمخطىء بمحامده وفضائله ، وما كان غضبه على الرجل ورده عليه ما عنده من الأخطاء ليمنعه من أن يعترف له بالفضل الثابت ، فكان غضوبا للحق صريحا فى غضبه ، ولكنه كان عادلا فى ذلك منصفا ، وكان كل ما يريده من هؤلاء الذين ينقدهم ويعرض للرد عليهم ومهاجمتهم هو أن يأخذوا أخذ السلف الأول من الصحابة والتابعين المهتدين ، والائمة الراشدين كالائمة الاربعة وشيوخ الاحاديث والاخبار ، ولهذا كان معظما للسلف كل التعظيم ، مشيداً بفضائلهم ومناقبهم كل الاشادة ، غضوبا لهم أشد الغضب ، شديدا على من عابوهم وسبوهم أعظم الشدة ، ومن هنا كان شديدا على الرافضة والشيعة الغالية السبابة العيابة ، ولهذا السبب نفسه كان مغضوبا عليه مكروها أشد الكراهية لدى هذه الطائفة . وقد وضع فى الدفاع عن الصحابة والسلف ، وفى نقد خصومهم والمعتدين عليهم من الشيعة كتابا خالدا عظيم القدر جليل المباحث ، وهذا الكتاب هو المعروف « بمنهاج السنة » فهو بحق يعد مدره السلف الفصيح ، ولسانهم الناطق ، وصوتهم الدائم الندى ، وحجتهم الظاهرة ، وآيتهم القاهرة الباهرة ، وكتابهم المنشور الخالد ، وهو المذيع لعلومهم ، الناشر لها

كانت هذه المباحث الجليلة العليا قبل أن يكتب عنها هذا النابغة ، وقبل أن

يمسها بقلمه الالهى البليغ مفرّقة الدلائل ، مشتتة البراهين ، فاترة جامدة ، وكانت مطموسة مغمورة تحت طبقات هائلة كثيفة من أبخرة الضلال وقساطل الباطل الخيف ، وكان طالبها القليل النادر يعز عليه أن يظفر بها وأن يراها كما ذكرنا ، وكان اذا وجدها وجدها بشكل ضعيف لا يدعو الى الاطمئنان التام والرضا الشافى ، وكان لقلة النصير والموافق هيوبا مستخفيا ، كثير التردد والاحجام والوقوف ، وكان يعانى غير ذلك ، فلما أن قام هذا النابغة الماثل فسها بقلمه البليغ وخطها ببيانه الباهر وحججه الظاهرة القاهرة ، ووقف بها وقفة طويلة وقصيرة ، وأخيرا لما أن كتب فيها وقال بصوته الرنان المقيم المقعد : أيها الضالون ، أيها المترددون ، ألا ، ألا ، ها هو الحق ، ها هى الحقيقة ، ها هو مراد الله ودينه وشرعه . أجابه كل شيء ـ ما سوى الهوى والحسد ـ : أن قد صدقت وهديت وبررت ، والى اليوم لا يزال هذا هو جواب كل شيء ما سوى الهوى والحسد ، قاتل الله الهوى والحسد ، وقاتل من طاف بكعبتهما وأمّ قبلتهما

من الذي جعل عبادة القبور والانقطاع الى الاموات علماً مدروساً مجموع الاطراف والبراهين قبل هذا النابغة العظيم ؟ ومن الذى جعل الكلام فى صفات الله وأسمائه علماً مدروساً محبوك الأطراف مجموع الحجج قبل هذا النابغة العظيم ؟ ومن الذى هتك الأستار وكشف الأسرار عن أولئك الاتحاديين الملحدين قبل هذا النابغة العظيم ؟ ومن ألذي رد جيوش الرافضة أعداء السلف وخصوم الصحابة وشنأة ملوك الاسلام وخلفائه ، مدحورين مكسورين ، ينعب على جموعهم غراب الذلة ، وبومة الهوان قبل هذا النابغة العظيم . نضر الله وجهه ونضر وجه والدين نجلاه ، وأعز أرضا حملته وأظلته ؟ ومن الذى كشف نيات الباطنية الملحدين وسدد الى مراميهم الخبيثة سهم الله القاتل المصمى قبل هذا النابغة العظيم ؟ ومن الذي دحر عباد الصلبان ، وعباد الأحبار والرهبان ، ووضع على جباههم تراب

الهون والهوان قبل هذا النابغة العظيم ؟ ومن الذي مثل بمنطق اليونان الذى عده المفتونون فوق القرآن . فأضلوا به أهل الايمان . وحكموه فى كلام الله وكلام الأنبياء والمرسلين ، وأصاروه الحكم المحكم فى عقائدهم ودينهم وإيمانهم : — من الذى أصار هذا المنطق أضحوكة المؤمنين قبل هذا النابغة العظيم ؟ ومن الذي حكم بين دولتى المعقول والمنقول ، وماز بين هذا وهذا وأبان وظيفة هذا ووظيفة هذا ، ومن الذي أبلغ النـاس هذا البلاغ أن المعقولات الصريحة لا يمكن أن تخالف المنقولات الصحيحه ، بعد أن حار فى هذه القضية كبار النظار وضل فيها فحول المتكلمين ، مثل فخر الدين الرازى ونظرائه : — من الذي فعل هذا كله قبل هذا النابغة العظيم ؟ ومن الذى استطاع أن يهجم على ضلالات كبار الاتحادية الملحدين ، أمثال ابن عربى الطائى والحلاج وابن الفارض وابن سبعين ، ومن الذى جلى دخائلهم وخفيات أغراضهم وما يرمون اليه من إلحاد جارف ، و كفر كثيف عنيف قبل هذا النابغة العظيم ؟ ومن الذي أظهر زيغ أهل الفلسفـة الضالة الهازلة ، وأظهر جناياتهم على الأديان والعقائد والعقول ، أمثال ابن سينا والفارابى ، وأشباههما من قادة الكفر المحلى بأثواب الايمان والاسلام قبل هذا النابغة العظيم ؟

ارفضت الانسانية بعد عناء عن هذا الرجل الذي لا كالرجال ، فنظر حوله فوجد أمهات المسائل الاعتقادية الكبرى ، وأشدها غموضاً وخفاء تنتظر رجلها الموقوت المنتظر ، ثم وجد هذه المسائل الكبرى الغامضة قد عقد نطاق بعد نطاق من الشبهات والريب الموبقة حول نارها المحرقة للايمان ، المذيبة لبرده وبرده ، وقد ترامى فيها الخاصة قبل العامة من أهل ذلك العصر الضال أهله : هؤلاء هم الفلاسفة الملحدون ، قد أوردوا على ايمان المؤمنين ، ويقين الموقنين مالا قبل لهم بدفعه أو رفعه من الشبهات والمعارضات الهائلة التى أوقعوا فى حبائلها من شاء الله

من قادة الفكر والفلسفة في ذلك العهد ، فأوردوا مشاغباتهم وشبهاتهم على قدم العالم وخلوده ، وعلى اختيار الله ، وعلى العقل الأول ، وعلى الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وعلى النبوات وأعظم الالهيات ، وعلى غير ذلك مما هو معلوم مدون ، ومما لا تزال شظاياه تلفح قلوب وعقول قوم أعرضوا عن مهابط اليقين ، ورغبوا عن تراث المرسلين ، وهؤلاء هم الاتحادية السخفاء المترنمون بأناشيد وحدة الوجود واتحاد الخالق والمخلوق ، بمعنى أنه ليس هنالك رب ومربوب ، ولا مؤمن وكافر ولا عالم وجاهل ، بل ليس هنالك انسان وحيوان ، ولا ملك وشيطان ، الى آخر هذا الهذيان الذى أصيب بمكروبه القاتل قوم وصفوا بالايمان والولاية ، والعلم والتحقيق المرجوع اليه . وقد طاح فى هذا الميدان رجال ما كان أحذقهم وأذكاهم وأصفاهم أذهانا وألبابا ، ولكن أسرار مشيئة الله من وراء ذلك كله ، ومن فوق الذكاء والعلم وجميع المواهب الكاملة والناقصة : هؤلاء الاتحادية المرضى قد أصابوا من شاء الله من أهل الايمان والدين ، وأفسدوا العقول والفطر بمرض الاتحاد الموبوء ، وأطالوا فى تجميل هـذا المرض ونشره ، وجهدوا لايقاع من وصلوا الى قلبه وعقله فيه من خاصة الناس وعامتهم ، وهؤلاء المفتونون بفلسفة اليونان ومنطقهم الناقص المتهافت قد احتاشوا المؤمنين الى ناره فأحرقوا بها تلك الدائرة المكفوفة على احترام القرآن ونصوصه ، وكلام النبوة وأحاديثها ، إذ راحوا يزعمون لهم أن القرآن وأن الأخبار النبوية وأن جميع النصوص المنزلة على الأنبياء والمرسلين ليست أداة إيقان ، ولا مصدر ايمان ، فلا يليق الرجوع اليها فى نسق الاعتقاديات المطلوب فيها اليقين الذى لا يناله الشك ، وأنه لا مناص من الرجوع فى أمر كهذا الى منطق اليونان ، والى ما قاله فلان وفلان ، فراجت هذه الدعاية الضالة ، ووجدت فى المؤمنين من زادوها تنغيما وتلحينا ، فزلت أقدام ، وضلت أفهام . وهؤلاء المعطلون لذات الله ، المجردون لذاته من الصفات ، من أركان المبتدعين ،

وأصناف الفرق الحيرى كالمعتزلة والشيعة ، والمؤمنين من طريق الفلسفة الناقصة ، وغير هؤلاء قد أطالوا الشغب والاحتجاج على تجريد ذات الله من الصفات الثبوتية ثم وصفه بالأوصاف العدمية السلبية ، ومن القول بخلق القرآن ، الى غير ذلك من أقوال الضالين عن صحيح المعقول والمنقول ، وقد دانت لهؤلاء الشبهات ودان لهم سلطان الاشكالات ، حتى كادت أصواتهم تكبت كل صوت

وهؤلاء الباطنية المنافقون المخادعون قد أجادوا إخفاء أمرهم ، وترويج كفرهم ، بما أضفوه على ذلك من لبوس الايمان ، والتحقيق الدقيق ، والفلسفة العتيدة العميقة ، حتى ضللوا على الناس أمورهم وأغراضهم الحقيقية ، فأضلوا كثيراً . وهؤلاء الرافضة قد رفعوا أصواتهم وعقائرهم بسب السلف ، والوقيعة فى صحابة النبوة ، وقد مردوا على إكفار المؤمنين ، وثلب المسلمين ، حتى زوروا فى ذلك الكتب والأسفار ، ودعوا اليها الناس بلا حياء ولا حذار ، فأغووا بعض من بأيديهم السلطة الحاكمة ، فنيلت ظهور المؤمنين ، وجرحت مشاعرهم وعقائدهم ونفوسهم ، وكان ماكان ، وأحدثوا ما أحدثوا من الشبهات والمعارضات والمشاغبات فى ايمان الصحابة — ولا سيما الكبار منهم — وفى دينهم . وها هم عباد الصلبان قد استطالوا على المسلمين وعلى نبيهم ودينهم ، ونسجوا ما نسجوا من الأكاذيب والأوهام والمغالطات القوية المضلة ، وهاهم غير هؤلاء وهؤلاء من خصوم الشعلة الالهية المقدسة المتقدة فى جزيرة العرب لاخراج الانسانية — أينما كانت — من ظلمات المادة ، وظلمات ما اختلفت المادة من العقائد و المذاهب المردية الفاسدة ، فقد صاروا إلبا واحداً ، وصفاً صفا لاطفاء هذه الشعلة المتقدة هنالك بين الصحراء والسماء ، أنقى البقاع جوا وهواء ، وأطهرها أرضا وسماء ، وأعفها نفوساً وقلوبا وعقولا : قد هبوا كذلك فأذلوا المؤمنين وكموا صوت الحق المبين ، وبعثوا مابعثوا من الهيعات والجلبات حول نداء السماء ، حتى ظهر الباطل على الحق ، وساد

المفسدون فى الأرض . كان هذا كله وكأنه لم يكن إلا إرهاصاً لهذه المعجزة الاسلامية الباهرة ، وتوطئة لنزولها وبروزها البروز الذي قدر لها

رأى هذا النابغة العظيم هذه العوادى الهائلة محدقة بجهات الاسلام وبجهات أهله ، منطلقة كلها الى خنقه وخنقهم ، ورأى من أهله الاستخذاء والخنوع والاستسلام ، هذه الأمراض التى ينكرها الاسلام الحار الملتهب . فما لبث أن اندفع الى الميدان وحاديه ما لايمكن وصفه من الايمان والعزمات ، التى لو جسمت لما كانت حديداً ولا فولاذاً ولا غير ذلك من شديد المادة وصلبها ، والتى لو جسمت لما كانت سوى الايمان وعزماته . فما هنالك أصلب من الايمان اذا وجد مكانا قابلا وقلوبا تخصب به . فما لبث أن ظهر فى الميدان وصار ملء الأفواه والأسماع والقلوب والنفوس

صمد الى هذه العوادي المحدقة بجهات الاسلام وبجهات أهله ، وسلط عليها أشياء لا يدرى ما هى ولا كيف كانت إلا أن الناس يسمونها النقل والعقل ، ويسمونها أحيانا أخرى الحجج والبراهين . فقد انتزع من هذا النقل وهذا العقل ، ومن هذه الحجج والبراهين أشعة ليست من الشمس ولا من القمر ، ولا من النار أو النور ، ولا غير ذلك من الأشياء المشرقة الوضاءة ، ولكنها أشعة تنتسب الى العقل والى النقل ، والى الايمان وعزماته وثباته . فما هى إلا جولات صادقة مؤمنة حتى انجلت تلك الظلمات ، وانجاب ذلك العثير الأدكن ، فاذا الميدان ملآن بجثث الأبطال ، أبطال الضلالات ، وبجثث الصناديد ، صناديد الشبهات ، واذا بالبقايا المنهزمة تنادى بالويل والحرب ، وتعج صاخبة مولولة قائلة بصوت واحد : هذا ما لايطاق ، هذا عدو الجميع ، فليحاربه الجميع ، وليكن إلباً واحداً عليه ، وليقاتله بكل سلاح ، وليكن هذا السلاح ما يكون من الكذب والنفاق والخداع وشهادة الزور وقول الزور والباطل والوشايات ، لا يتورع من شىء ولا يتأثم من أمر

وضع هذا النابغة كتباً خالدة فى هذه الفرق الضالة كلها جاءت آيات خالدة فى التأليف من اسعاد البيان ، ومواتاة البرهان ، بل جاءت ثورة راشدة مظفرة على ذلك الضلال الجارف الحيف ، وكان هو أعز قائد ساق الحملات المظفرة الى عساكر الجهالات والترهات الغازية للقلوب والعقول والمعتقدات ، وأصبح هو - بعد ذلك - زعيم المصلحين ، ومن أشرف الهبات الالهية السماوية التى يرسلها الله الأحيان الفارطة العجلى على أوضار هذه الأرض وأوضار أهلها لترحضها ، ولتغسلها ولتدفع ما يمكن دفعه منها عن هذه الخليقة الغرقى فى سيئات أعمالها واختيارها الناقص الخداج . وقلّ ان كتب كاتب فى الاصلاح ، وفى غزو الجهالات والمبتدعات الا كان صادراً عن تراث هذا الامام وعما خلف من الكتب الخالدة ، والمعين العلمى الذى لا ينضب ولا يغيض

كان الرجل - كما رأيت - مهاجماً عنيفا قويا ، وكانت حياته وكتبه مهاجمة عنيفة متواصلة الحلقات . وأى شىء كان فى ذلك العصر لا يجب الهجوم عليه لاصلاحه ولتنقيته مما أصابه من الاخلاط والأوضار الضارة الفاسدة ! ولأجل هذا كثر خصومه ومناوئوه ومعادوه ، وكثرت الوقيعة فى دينه وعلمه وأخلاقه وما كان يرمى اليه من المطالب العليا الشريفة ، وقد زاد العداوات والخصومات به ضراوة واستشلاء ما كان عليه من المجاهرة بالحق ومصادقة الحق ، ومن كان صديقا للحق فلا يطمع فى صداقة أكثر هؤلاء الناس . ومن كان حريصا على صداقة الناس فلن يكون من أصدقاء الحق والصدق ، وقد قال بعض السلف قديما : ان كلمة الحق لم تدع لنا من هذا الخلق صديقا ، أو ما هذا معناه

فكان هذا الامام لا يبالى فى مقالة الحق والمعروف شيئا ولا يرهب أمراً ، فكان يصدع بالحق للقريب والبعيد ، ويأمر بالمعروف الصديق والعدو ، والكبير والصغير وكل أحد ، وكان لا يتحرى مسالمة شعور خصم الحق ، فكان لا يتحرى

من الألفاظ أخفها أو أقبلها للتأويل والمنازعة ، لأنه كان بعيداً عن المصانعة والمداهنة فى إرضاء الله ، فكان فى ذلك شبيه السلف الاول الصالح ، وبقية ذلك الطراز الواضح من سلفنا الماجد . وقد كانت هذه الصفة من أبرز ما فى حياته البارزة ، وكان لأجل هذا صابراً على صنوف الأذى والظلم من السجن والتعذيب والتشريد والتكفير الذي كان يقاتله به خصومه العاجزون الهائمون بالدنيا ولذاتها وصابرا على رقة الحال التى رافقته طول حياته حتى خرج من الدنيا كما دخلها مخفا من تبعاتها وتكاليفها ، ولولا هذه الصفة المكينة فيه ، ثم لولا زهادته فى ما هنالك لاستطاع أن يرقى إلى أعلى المناصب العليا ولاستطاع أن يعيش من المترفين المنعمين وأن تسقيه الدنيا المترفة بكفيها أفضل ما فيها من لذة وشهوة ، كما سقت غيره من العلماء الذين لا يدانونه فى شىء من فنون العلوم والمعارف ، ولكن لكل وجهة هو موليها

والقصة التى كانت بينه وبين أبى حيان النحوى امام عصره ومصره فى العلوم العربية تدلنا على مقدار ولع هذا الشيخ بمقالة الحق لا مداجاة ولا مصانعة ذلك أنه بعد أن ذاع اسمه وأمر أمره ، قدم الى مصر فعقد عدة مجالس ألقى فيها عدة محاضرات فى التفسير والشؤون الاجتماعية والدينية العامة ، فحضر أبو حيان أحد مجالسه فأخذ بما سمع واستولى على مكان الاعظام والاكبار منه ، فلما انتهى من محاضرته قام أبو حيان وأنشده على البديهة قصيدة يمتدحه بها ويزجى إليه اعجابه وسروره واغتباطه به ، جاء فى هذه القصيدة :

قام ابن تيمية بنصر شرعتنا مقام سيد تيم اذ عصت مضر

وبهذا المجلس أصبح أبو حيان من أنصار هذا الشيخ المخلصين ، ومن أعوانه وأعوان حبه وإجلاله وتقديره . ثم بعد هذا قدر أن قام بينهما كلام فى بعض المسائل النحوية وجاء اسم سيبويه ، فاستدل ابن تيمية على مقاله ورأيه بأشياء

اجتهادية فعارضه أبو حيان بأقوال سيبويه . فغضب ابن تيمية وأغلظ القول ، وقال ان سيبويه ليس رسولا للنحو والعربية حتى يقبل قوله بلا حجة ولا برهان وحتى يلزم الناس الأخذ بكل ماقال ، وقال ان سيبويه قد أخطأ فى كذا وكذا موضعا من كتابه أنت لا تعرفها . وبهذا تنكر أبو حيان للشيخ وصرم حبل وده وقطع علاقاته به ، وعاد ذاما له ، واقعاً فى دينه وعقيدته . وما كان دينه وعقيدته قبل هذه الحادثة غير دينه وعقيدته بعدها ، ولكن المتغير هو الهوى . فبعدا للهوى ! وما كان أشد حاجة الشيخ الى صداقة ابى حيان ومدجاته فيها لو كان يركن الى شىء من هذا أو يقيم له وزنا فى حياته وأمره ! ولكنه لم يأب لطم هذه الصداقة حينما وجدها تستحق اللطم ، فاستراح منها حين علم أنها سوف تكلفه مالا يستطيع ومالا يريد من المصانعة والمداجاة المقوتة لديه ، وهكذا كان خصما للمداجاة في الحق والمصانعة فى الله . ولو أن الله خلق فيه شيئاً يقبل شيئا من هذه الأخلاق لاستراح من كثير مما لقيه وأصابه من العذاب والاذى فى سبيل الحق ، ولكان فى استطاعته ووسعه أن يمن على العلماء الرسميين وغيرهم من رجال الدنيا بشيء من المداجاة والمصانعة ، والتلطيف من خلافهم وابطال أمرهم ، فينال بذلك رضاهم . بل ينال أشد احترامهم وتقديرهم لأنهم كانوا فى حاجة عظيمة الى مسالمته ورضاه عنهم لخوفهم من دينه على دنياهم ومن زهده على جشعهم ، ومن قوته بإيمانه على ضعفهم بمناصبهم ورتبهم الدنيوية ، وقد كان فى مجالس المناظرة التى عقدت بينه وبينهم يبدى من ذلك ضروب العجائب . حتى انه كان لا يدع كلمة تمر بالمجلس إلا ويوليها ما تستحق من المقت والغضب والثورة إذا كانت من ذلك النوع الباطل الذى يمقته ويزدريه ويكرهه ، ولا يبالى أن تكون كلمة من بيده الفصل فى أمره والقضاء عليه بالحياة والموت والسجن أو ما كان من ذلك ان كان لمخلوق من هذا الأمر شىء فكان الناس الخصوم والاصدقاء يعجبون من

أمره عجبا ممزوجا بالاعجاب ثم بالاحترام والهيبة المكظومة ، وكان بعض العلماء الفضلاء فى تلك المجالس يتعمدون تفسير كلام الشيخ تفاسير ذات وجهين أو وجوه ، ويحملونه معانى لا تثير حفائظ الخصوم الشانئين كثيرا . ولا تنأى عما يريده الشيخ كثيراً أيضا ، وكانوا يريدون بذلك الدفع عنه وإبعاده عن سخط الخصوم وأذاهم وظلمهم بما فى أيديهم من السلطة ، سلطة المناصب الرسمية . ولكن الشيخ كان لا يرضى هذا التوفيق ولا هذا الدفاع ، ولا ذاك التفسير ، ولا تلك المداجاة فى الحق خيفة خصومه ، وكان يرى انه اذا كان صاحب الباطل والدنيا شجاعا قويا فى الدفاع عن باطله ودنياه ، وجب أن يكون صاحب الحق والدين أشجع وأقوى فى الدفاع عن دينه وحقه . فكان لذلك يثور وكان يفسر كل ما قاله وأراده تفسيراً واضحا جريئاً تاماً غير مبال بأن يغضب من يغضب وأن يخجل من يخجل ، وأن يتخلى عن صداقته من يتخلى ممن لا يثورون ثورته على غير الحق ، وممن ليسوا صرحاء صراحته فى قول الحق والصبر عليه ، فكان فى أمره كله أعجوبة الأعاجيب ، وذلك أنه كان يعلم حق العلم انه إن لم يكن صريحا هذه الصراحة ، قويا هذه القوة ، صلباً تلك الصلابة فلن يفصل بين الحق والباطل ولن يتميز الفريقان ، فريق الدنيا وفريق الاخرى ، وحزب الله وحده وحزب الشهوات والآكال والمشارب

وقد كانوا ثلاثة رجال وقفوا ثلاثة مواقف متشابهة : أبو بكر الصديق يوم أن أراد الأعراب والأمم الموتورة أن يضربوا الاسلام وخلافته ووحدته الضربة القاتلة ، وأحمد بن حنبل أيام فتنة المعتزلة والقول بخلق القرآن والبدع الأخرى الجارفة التى لعبت بالاسلام وقلوب أهله وعقولهم أدواراً كان لها الأثر الأسوأ فى معنى الاسلام وفى معنى المسلم ، والثالث هذا الامام فى قيامه على الضلال والابتداع والجحود والموت الدينى العقلى الشامل . فكان الثلاثة ـ نضر الله وجوههم ـ

متشابهين فى صدق العزمات والمقامات ، وفى الصلابة فى الحق والاستهانة بكل مافى سبيل ذلك من الأخطار والأضرار . وبالثلاثة اندفع عن الاسلام والمسلمين ما اندفع من الأرزاء والمصائب النكراء ، ولله فى خلقه صفايا يصنعهم على عينه ويربيهم التربية التى تعدهم لوظائفهم التى أعدها لهم وأعدهم لها ، وهو أعلم حيث يضع أمره وسره

وبهذه الصفات والخلائق التى طبع عليها هذا الامام لم يكن عجيباً أن يكثر أعداؤه المعاصرون له من العلماء الرسميين ، ورجال الدنيا الطاغية ، ولم يكن عجيبا أن يناله ما ناله من الأذى والاهانة والتجريح والوقيعة فى دينه وعقيدته ، ومن صنع الأكاذيب عليه ، فانه لم يأت أحد بمثل ما جاء به إلا كان نصيبه مثل نصيبه ، وإلا لقى مثل ما لقى من الظلم والاعنات الجائر الغاشم وقد قيل :

وكأنما علم العليم وفضله جرم جناه على الوضيع الجاهل

فهذا عالم رسمى يخدم السلطة الجائرة التى هى على كل حال لا يمكن أن ترضى الحق أبداً ليصيب عندها ما يصيب من أعراض الدنيا الملعونة ، فهذا العالم يخاف على منصبه ودنياه التى ابتلى بها حتى أصبح غير قادر ولا صابر على قلاها وفراقها بعد أن علق بأسبابها وأخذت هى بمقادته وناصيته ، فهو يخاف هذا الامام أن يفسد عليه أمره ودنياه ، وأن يبعد عنه العامة وهو لم يكن إلا بهم . فهذا العالم الرسمي الحكومي لايمكن أن يرضى عن هذا الشيخ وعن دعوته ، فلابد له إذن من حربه وخصومته لتسلم له دنياه وجاهه الكاذب الزائف

وهذا شيخ ضريح كبير مزور معظم ينطف عليه ذهباً وفضة ، ويزجى الى ساحته الصدقات والنذور الحرام بجهالات الأمة والجماهير المسكينة ، فهو يخاف مثل هذا الامام أن يفسد عليه أمره بعلمه ودينه وفتاويه ، فيخرجه مما دخل فيه من الدنيا فما أحوجه الى مناوأته ومخاصمته !

وهذا وال ظالم ، يضرب ظهور الناس ويغتصب أموالهم ، فهو يخاف هـذه النزعة الزاهدة فى الدنيا على أمره وجبايته وسلطانه القـائم على الظلم . ولن يعجب مثل هذا الوالى من العلماء إلا الراغب فى الدنيا ، ليستمتع هذا بدينه المنافق ويستمتع ذاك بفضلات دنياه ، وإذن لا بد لهذا الوالى من مناوأة هذا الامام ، ولا بد له من إخفاء صوته والحيلولة بينه وبين الجماهير لئـلا ينسدم عليه ، ثم لا بد له من إجابة رغبات الراغبين فى ظلمه ومطاردته ، من علماء الدنيا ، وعبيد السوط والعصا ليخلو لهم الجو

وهذا شيخ نحلة فاسدة مريضـة تدر عليه الرزق الوافر والجاه العريض ، وتمده على عرش الزعامة الالهية وتلف بجبوته الولاية والنبوة ، بما يدعيه ويدعو اليه من مظالم الآراء ومفسد العقائد والدعاوي . فلابد لهذا الشيخ ـ ابقاء على ملكه وملكوته ـ من منازعة هذه الدعوة الاصلاحية التى يدعو اليها هذا الامام المصلح

وهؤلاء قوم ترعرعوا فى كنف الابتداع والخرافات ، فتعشقوها صغاراً حتى صاروا لا يطيقون فراقها ولا النزع عنها ، فهم إذن يمقتون من يريد منهم أن يدعوا ذلك وأن يسلوه ، ومن غزاه وثار به من أهل الاصلاح والتطهير

وهؤلاء قوم رافضة يعبدون الله بلعن السلف وسب صحابة رسول الله ، ويقولون فى الله وفي الأنبياء والأولياء والمسلمين الأقوال المنكرة الشنعاء ، فهم يكرهون أمثال هذا المصلح العظيم لأنه هو الذى يهتك أستارهم ، ويكشف أسرارهم ويذلهم بسلطان الحق وملك البرهان ، ويضرب على رقابهم وأيديهم السـلاسل والأغلال يطؤهم المؤمنون وتدوسهم عساكر الله ، فلابد لهؤلاء الرافضة من معاداة هذا الامام والحط من قدره والوقيعة فى دينه وشرفه غضباً لباطلهم المقهور وطاغوتهم المحطم بيده الله الغالب

وهؤلاء قوم ملحدون قد استطالوا على ضعفاء المؤمنين فأذلوهم بشبهاتهم

ومشاغباتهم وحيلهم المنكرة يرون أنهم فى حاجة الى عداء هذا الشيخ واتهامه بأمهات الكبائر تنفيراً عنه وحطاً من قدره ، لأنه هو الذى استطاع أن ينتقم منهم للحق وأن يثأر منهم لله ولحزبه ودينه ، ولأنه هو الذى استطاع أن يلقى فوق رءوسهم ما رفعوه ليلقوه على دين الله وعلى عباده المؤمنين ، فهذه الطوائف كلها وغيرها وغيرها من طوائف الالحاد والضلال والأهواء لا تستطيع إلا معاداة هذا الشيخ وإلا انكاره وانكار فضله ودينه وإصلاحه ، لأن الاعتراف له بذلك ينافى الأغراض والأهواء التى يخدمون والتى وهبوا لها حياتهم وأنفسهم ودينهم وكل ما يملكون من المعانى الانسانية

فليس بعجيب إذن ولا بمنكر أن يلاقى من هؤلاء القوم فى عصره وفى أغلب العصور الكراهية المرة والعداء العنيف ، وأن يلقى الأذى وكل ما تستطيع النفس الانسانية الظالمة الناقصة من الاجرام ومعانيه ، وليس بعجيب أن يسعى هؤلاء غير راقبين الله ، ولا راقبين معنى من المعانى الحاجزة عن التساقط فى هوة الأهواء التى لا يسرها مثل أن تلغ فى دماء الفضائل ، وأن ترتم فى الشهوات المتخمة على أشلاء أهل الفضل والشرف الماجد المطهر الى انشاب أظافر العدوان في سالفته ، وليس بمنكر أن يناله أذاهم كما نال الأنبياء وجميع المصلحين فى كل زمان ومكان ؛ وليس هذا بناقص من قدره ، ولا بدال على أنه من الخارجين على الحق ، بل هذا كله معدود زيادة فى قدره ، وحسنات يخصه الله بها لما أن صابر وصبر وجاهد فى سبيله وسبيل دينه ودافع عن حرمه ومحارمه . فلا تقرر عينا هذا الشيعى أن ظفر بقدح وعيب فى هذا الامام ، وأى ذي عرض نقى أبيض لم يوجد من يقول له انه لذو عرض أسود ! وأى ذى قدر رفيع لم يوجد من يحاول خفضه والهبوط به تحت أقدام الرذائل ! بل وأية فضيلة فى هذه الأرض لم تحارب وتطارد ! وأى معنى ماجد شريف سلم من المطاردة والأذى !

هذا الله فى عليا سمواته قد أنكروه وسبوه وآذوه وأضافوا اليه من النقائص والمعايب ما نزهوا أنفسهم عنه . وهؤلاء الرسل قد كذبوا وأوذوا وقتلوا وألحق بهم أنواع الايذاء والبلاء . وهؤلاء الصحابة لم يسلموا من عدوان الشيعة ومقادحهم وباطلهم ، فأكفروهم وسبوهم وقالوا فيهم الصيالم . وهذا على رضى الله عنه إله طوائف منهم ، ونبى طوائف ، ووصي الجميع قد أكفر وسبّ وقدح فيه وفى آله الطاهرين الطيبين ، وهكذا كان سبيل جميع المصلحين ، وهكذا كان سبيل هذا النا مة الفذ ، وهكذا كان سبيل من قالوا للجانب الأسود فى هذه الانسانية : إنه أسود ، وقليل فى هذه الأرض انه ليل . فان هذا الانسان المغرور لا يرضيه إلا من يقول للجانب الاسود فيه : انه أبيض شديد البياض ، ولليل الحالك الظلام انه شديد الضياء !

فهل ضارّ الأنبياء والمرسلين وجميع المصلحين تنقص المتنقصين وقدح القادحين واتّهام المتهمين ؟ أم عاد ذلك كله حسنات موفورة وارتفاعاً لأقدارهم الرفيعة وبرهاناً لهم على محاربتهم الفساد والزور والضلال والظلام وكل نقائص الانسان ؟

قال ابن عساكر فى كتاب بيان كذب المفترى : « قال عبد الرحمن بن مهدى : لولا أنى أكره أن يعصى الله لتمنيت ألا يبقى فى هـذا المصر أحد إلا وقع فىّ واغتابنى ، وأي شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل فى صحيفته يوم القيامة لم يعملها ولم يعلم بهـا ؟

وليس من يذكر بالسوء مغبونا ، بل الذام واللاعن له يصير ملعونا ، وكيف يكون المذكور بسيء الذكر مرجوما ، وقد صار مثابا وذاكره بمـا قال فيه مأثوماً ؟ . . . »

وذكر ابن عساكر أيضا بالسند قال قال رجل لعمرو بن عبيد : يا أبا عثمان إنى لأرحمك مما يقول الناس فيك ، قال يا ابن أخى أسمعتنى أقول فيهم شيئا ؟ قال :

لا ، قال: إياهم فارحم . قال : وأرسل اليه بعض الناس يذكره بالسوء والأذى ، فقال لحامل الرسالة : قل لمرسلك القيامة تضمنا ، والموت يجمعنا ، والله يحكم بيننا .
وروى ابن عساكر أيضا بالسند قال قيل للحسن البصرى : ان قوما يحضرون مجلسك ليتتبعوا سقط كلامك فقال الحسن : يا هذا انى قد أطمعت نفسى فى جوار الله فطمعت ، وأطمعتها فى الحور العين فطمعت ، وأطمعتها فى السلامة من الناس فلم تطمع انى لما رأيت الناس لا يرضون عن خالقهم علمت أنهم لا يرضون عن مخلوق مثلهم . ثم روى ابن عساكر بالاسناد الموصول الى مجاهد قال سأل يحيى بن زكريا ربه ، قال يا رب اجعلنى أسلم من ألسنة الناس ، فأوحى اليه : يا يحيى لم أجعل هذا لى فكيف أجعله لك ؟ قال ابن عساكر : « ولا شك أن الله لما قبضهم الى رحمته ، وتوفاهم عند منتهى آجالهم ، أراد أن يجرى لهم الثواب بعد توفيهم بأن يكتب لهم أجراً بما يقال فيهم مع أجر ما قدموا من صالح الأعمال ، وعلموا الناس فى سائر الأحوال ، لئلا ينقطع عنهم الأجر بعد مماتهم ، ويكون ذلك زيادة لهم فى الحسنات ... »

ثم روى بالسند عن عائشة رضى الله عنها أنه قيل لها ان قوما يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى انهم ليتناولون أبا بكر وعمر ، فقالت أتعجبون من هذا ؟ ! انما قطع عنهم العمل وأحب ألا يقطع عنهم الأجر . ثم روى عن الامام الشافعى بالسند أنه قال : ما أرى الناس ابتلوا بشتم أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام الا ليزيدهم الله بذلك ثوابا عند انقطاع أعمالهم . وروى ابن عساكر فى هذا الفصل من هذا الكتاب فى الامام أحمد بن حنبل :

أضحى ابن حنبل فتنة مأمونة ... وبحب أحمد يعرف المتنسك
فاذا رأيت لأحمد متنقصا ... فاعلم بأن ستوره ستهتك

واذن ليس لهذا الرافضى مسرة فى أن يجد من يقدحون فى شيخ الاسلام

ابن تيمية ومن يكفرونه وينالونه بأفانين العدوان والمقادح ، وليس فى هـذا شيء من الدلالة على فساد أمره أو عقيدته ، فلا تقرر عين الشيعى ولا أعين اخوانه من أهل الزور والابتداع والضغن المر اذا وجدوا هاجيا لهـذا النابغة العظيم ، وفى ديوان حكمة الشعر :

واذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وما قدح فى ابن تيمية الا أهل النقص والجهل والغباء ، أو من آثروا الدنيا وشهواتها على الله وعلى الحق . وهؤلاء لم يكونوا يوما من الأيام قائلين للحق ، ولا راضين عنه

ابن تيمية أيضا

قال الرسول عليه الصلاة والسلام « ان لله عند كل بدعة كيد بها الاسلام وليا يذب عنه ويتكلم بعلاماته ، فاغتنموا تلك المجالس » رواه أبو القاسم ابن عساكر فى كتاب بيان كذب المفترى

ويح الانسان ! ما أقساه وما أظلمه إذا قدر ، وما أضعفه اذا عجز ! هـذا أنبغ المسلمين قاطبة فى القرون الاسلامية الوسطى كلها ، وهذا أجمعهم لشمائل الرجل المسلم الكامل من الاقدام والشجاعة ، والصراحة والصرامة والذكاء ووفور المعرفة وسعة الأفق العلمى والزهد فى الدنيـا ولذاتها وشهوات النفس ومآربها والاعراض عن وسائل العلو والشهرة وذيوع الاسم والذكر ، الى غير ذلك من الشمائل التى تحدث عنها الكتب ولا تحصل عليها العين : هذا أفضل المسلمين ذهنا ونفسا فى تلك العصور كلها يقسو عليه ظلم الانسان وطغيانه وولعـه بالنقص والنـاقصين فتتوافر همه ، وتصطلح مآربه المختلفة على اضطهاده وعلى نيله بألوان الأذى والظلم ، فيحارب فى حياته كلها ، ويمس بالسوء والبلاء ، ويراد به كل منكر لولا دفع الله ، فيظل عمره

كله مطارداً محاربا لا ينتفع بشيء من حياته سوى ما فى نفسه من الايمان وبرد الايقان ، ولذة الروح والقلب بالله وبرضاه بما قدم من صالح ، وما قام به وأسداه الى ظالميه ومطارديه من نصح وإرشاد . حتى يغار الله على روحه الطاهرة ، ونفسه الذكية المعذبة بآثام الانسان الآثم ، فينتزعها ـ جلت قدرته وحكمته ـ من بين جدران سجن وضعه فيه الانسان غيرة منه على باطله وجهله وفساده ومآثمه فيذهب الى الله تاركا لهم دنياهم يتصاولون عليها كما كان تاركها لهم يوم أن كان حياً بين أظهرهم ، مخلفاً وراءه عقله وعلمه وجهاده الطويل المضنى زهرات دانية يجتنيها من يجتنى. ثم لا يكتفى ظلم الانسان الانسان أن يقف عند هذه المرحلة من التعذيب والمطاردة والجناية على العلم والفضل والدين . لم ينته هذا عند انتهاء حياة هذا الشيخ وخروجه من الدنيا القاسية موجع الفؤاد والنفس على ما لاقى من ظلم وأذى ونفى وتشريد وسجن وتعذيب لا لشيء غير قوله للظلام : هذا ظلام ، وللأسود : هذا أسود . فيظل خصومه وأعداؤه يمتحون له التهم ، ويبعثون الى روحه ـ فى الملأ الأعلى ـ الافساق والاكفار والنقائص الأخرى على أجنحة الهوى والحقد والحسد والجبلة الناقصة الآثمة ، ويظلون يشرّقون ويغربون فى تطلاب المثرات والمهلكات للرجل وفى لم شعث ما يحسبونه ثلمة فى دينه ، أو نقصاً فى علمه ، أو خدشاً فى نفسه وشرفه وورعه ، ثم لا يقنعهم هذا كله ، فيروحون يختلقون عليه الأباطيل فى دينه وورعه وعلمه ونفسه اختلاقاً لاشبهة فيه ولا سمة للحق فى سمائه ، ثم يذهبون يستصدرون الفتاوي فى كفره وفساد أمره ، ثم يظلون يتوارثون هذا الظلم وهذا الكذب فى العلم ، ثم يتسع أفق هذا الظلم وهذا الكذب فى العلم كلما اتسعت حلقات الزمان ، وكلما بعد الرجل عن خصومه وظالميه ، ثم يبدع الآخر من هذه الجرائم والمآثم ما قصر عنه جواد الأول ، أول خابط فى هذا الاثم الانسانى ، وأول آكل من شجرة هذه الخطيئة ، ثم لايكون بعد ذلك لتوفر دلائل البراءة ووضوحها لدى

هؤلاء الخصوم الباغين قيمة ما ؛ فلا يعدلون عن تهمة رموا الشيخ بها مهما قامت الدلائل صارخة فى آذانهم قائلة : انكم لكاذبون ، وإنكم لباغون ظالمون

ويح الانسان ! ما أظلمه وأبغاه ! أفما شفع لهذا النابغة عند أولئك الناس علمه ووفور معارفه ؟ ثم أما شفع له دينه وزهده واعراضه عن الدنيا ؟ ثم أما شفع له إخلاصه وحبه الخير وغيرته على الدين والحق ؟ ثم أما شفع له إقدامه وشجاعته وهجومه على الخطر والعذاب رغبة فى الحق وإسعاد الخلق ؟ ثم أما شفع له ما فتق لهم من أكمام المعارف والعلوم ، وما دل عليه من وجوه الدلائل وسبل العلم ؟ ثم أما شفع له عندهم ما رفع عنهم من ضغط المارقين الملحدين ، وما دحر وهزم من جحافل الباطل والضلال ؟ ثم أما شفع له ما أخرج من كتب خالدة يانعة الفوائد والمعارف ، تجد فيها جميع الطوائف — على اختلافها — فوائد ومعارف يعز عليها أن تجدها فى غيرها ، ويصدر عنها كل وارد ظمآن الى مناهل العلم والعرفان ريان شبعان ؟ ثم أما شفع له ما أضاف الى خزائن العلم وما أفاد دولة المعارف من علوم ومعارف ؟ ثم أما شفع له انصافه وعدله وما كان عليه من بعد عن السوء والشر ؟ أما شفع لهذا النابغة الفذ شىء من هذه الفضائل ، أو أما شفعت له كلها مجتمعة فخففت عنه ما لاقى من أذى ، وما مسه من ظلم ، وما ناله من تكفير وإفساق واتهام عظيم ؟ أفليس للعلم حرمة ، وللدين شفاعة ، وللورع مكانة فى هذه الدنيا المجرمة الفاجرة ؟ !

أيها الناس هبوه قد أخطأ الصواب فى أشياء ، وهبوه قد زل وقال أقوالا كان الصواب ألا يكون قالها ، وهبوكم قد أحصيتم عليه كما زعمتم سيئات وذنوبا : هبوا ذلكم كله صحيحا ، ولكن ألا تنظرون بعد هذا الى حسنات الرجل وأياديه البيضاء التى قلد بها جيد العلوم والمعارف ، ودفع بها عن الاسلام والحق ، وعن الأخلاق والفضل ، أفمن الانصاف أيها الناس أن تغرق بحار فضائله وحسناته ومحاسنه فى

ضحضاح سيئاته المفتراة المزعومة ؟!

ان أساس التهمة التى راموا بها اصابة دين هذا الشيخ ، واصابة علمه وعقيدته هو زعمهم أنه ما كان معظما للنبى الكريم ، ولا معترفا بما يجب له من الاحترام والاعظام والحب ، وانه كان يقول أقوالا هي تنقص له عليه الصلاة والسلام واهباط له من رتبه العالية الرفيعة ، ومن مقامه السامي الرفيع . هذه هي التهمة التى شادوا عليها جميع مقادحهم وعدوانهم الظالم ، ولقد كان منشأ هذه التهمة عندهم هو تمسك هذا الشيخ بالسنة النبوية الصحيحة ووقوفه عند النصوص الثابتة . فما جاء فى النصوص كان حقا لازما الاحترام له والعمل به وإلا فلا ، وعلى هذا الأساس الصحيح الثابت الدعائم منع الاحداث التى أحدثها الجهال الأغرار طاانيها رفعا لقدر الرسول عليه الصلاة والسلام واحتراما له وإعظاما ، وهى فى الواقع والدين ليست كذلك ، فمنع مثلا الاستغاثة بالرسول عليه السلام وبغيره بعد الممات ، ومنع سؤاله مالا يقدر عليه إلا الله حيا وميتا ، ومنع شد الرحال والأسفار لأجل زيارة قبره الشريف . لأنه هو الذى منع هذا عليه الصلاة والسلام بقوله « لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد المدينة » ولأن السلف كانوا يكرهون ذلك ويأبونه فلا يفعلونه ، ومنع أيضا التمسح بقبره الشريف وتقبيله ، وأمثال هذه المبتدعات المنكرة التى لم يكن السلف الصالح يعرفونها ولا يعملونها ، والتى جاءت النصوص بالاجمال ناهية عنها . وجاء الاسلام بالاجمال أيضا منكراً لها

فزعم هؤلاء أنه بأقواله هذه قد أساء الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنه أنكر حقه المعلوم المفروض على جميع المؤمنين ، وأنه قد تنقص له ! وساء ما زعموا وما قالوا

ومن يُسر له أن يعرف هذا الامام وأن يقرأ شيئا من كتبه الخالدة فلا يشك

فى أنه معظم للنبي الكريم عليه السلام ، عارف لمقامه ولحقوقه ، قائم بها ، محب له عليه الصلاة والسلام أعظم مما عند هؤلاء المعارضين جميعا ، وأنه لم يقم أحد منهم بحقوقه عليه السلام قيام هذا الامام ، بل وأنهم كلهم مجتمعين لم يؤدوا حقه المشروع المفروض مثل ما أدّاه هذا الامام مفرداً واحدا

أو ليس هو الذي أغضب هؤلاء الخصوم وتقبل عدوانهم وظلمهم واذاهم راضيا مسرورا انتصاراً للسنة النبوية وقياماً بحقها وغضبا لها ، ودفعاً للبدع والجهالات والضلالات المخالفة لها ؟ أو ليس هو الذى كتب كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول » فى بيان حقوق النبى الكريم ، وتعديد فضائله ورفعة قدره وماله من الواجبات على المسلمين أفراداً وجماعات . حكومة وشعبا ؟ وقد جمع فى هذا الكتاب وأبان من فضل الرسول فيه مالم يصنعه ، و مالا يستطيع أن يصنعه هؤلاء الخصوم المخالفون القادحون مجتمعين متعاونين ، أو ليس هو الذي قد كتب كتاب « العقل والنقل » الذى مافى الوجود له نظير ثان ، كما يقول تلميذه البار ابن قيم الجوزية ؟ وقد ألف هذا السفر المفرد المنقطع النظير فى بابه دفاعاً عن النصوص من قرآن وحديث ، وذودا عن الكتاب والسنة ، واقصاء واحباطا للشبهات والمعارضات التى أحدقت بالنصوص الثابتة وأحاطت بها من كل جانب حتى عظم الويل وجل أمر الشكوك والشاكين والمشككين حتى زعم رجال من الموصوفين بالايمان وبالزعامة والأمامة والنبوغ فى العلوم العقلية والفلسفية والدينية وغيرها ، ان النصوص أبداً لا تستطيع أن تفيد العلم والمعرفة واليقين المطلوب فى الاعتقاديات ، وإنما غاية جهدها وحولها وطولها أن تكون مفيدة الظن لا غير وأنها لذلك لا تصلح أن تكون مرجعاً من مراجع الايمان والاعتقاد ، وأن المؤمن لا يصح له أن يأخذ منها وصفاً ولا شأنا من أوصاف الله وشؤونه ، ولا أن يتلقى عنها نظرية علمية البتة ، وأن المرجع ـ ولا مرجع سواه ـ للاعتقاديات هو العقل

وحده ، والبحث القائم على المقدمات العقلية لا غير ثم زعم هؤلاء أن النصوص المتواترة قد تخالف العقل وقد يخالفها العقل ، بحيث لا يمكن التوفيق ولا إيقاع الصلح بينهما البتة ، وأنه اذا ما عرض شيء من هذا النوع وجب تقديم العقل وتحكيمه في النصوص مهما كان أمرها ، ومهما كانت واضحة الدلالة ، متواترة الرواية ، وأن المسلك الذي لا مسلك غيره حينئذ اما رد النصوص وإنكارها وسلكها في نظام المكذوبات ، وأما تفسيرها تفسيراً يشهد العقل والنقل وكل شيء أنه ليس هو التفسير المراد بها ، وهو مايسمونه بالتأويل ، هذا قانون وضعه قوم وصفوا بالايمان وبالفلسفة وقوة الحجة وبالامامة والزعامة ، وقد حافظوا على العمل بهذا القانون بدقة ووفاء وإخلاص له ، فسلطوه على الكتاب والسنة حتى أضاعوها ونزعوا منهما سلطانهما القوى الواسع في القلوب ، الذي وهبهما إياه الايمان وبرد اليقين

وقد فتن كثيرون من المؤمنين ومن العلماء أيضا بهذا الطاغوت ، فهابه الناس وأكبروه وحسبوه الحقيقة الخالدة الواحدة حتى نهد له هذا الامام الالمعي فوضع كتاب « العقل والنقل » أو « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » فهد به هذا البناء المشمخر ، وحطم به هذا الصنم الذي عبد المعقول فسجدت له العقائد الرخوة والايمان المريض وشهدت بألوهيته القلوب العجفاء . فعزز به سلطان النصوص ورده ، وقوى أمرها ، وشرد من حولها تلك الأوهام والشبهات ، بل نفخها فلم تقم الا حيث شاء الله أن تقم ، ثم أحاط النصوص بنطاق بعد نطاق من التقديس والاكبار والجلال حتى أعاد لها ما فقدته من سلطان وشأن ، وحتى أقام شهود الصدق من المعقول والمنقول على أن النصوص الصحيحة لا يمكن أن تنازعها المعقولات الصريحة ، وأن كل ما زعم منازعة ومعارضة هو أغلاط باطلة غزت المسلمين وعقائدهم من جهات الفلسفات الأعجمية الضالة الناقصة التي انبعثت في

الجو الاسلامى بعد اتساع نطاق الحضارة والفتوحات الاسلامية ، وأبان لأجل ذلك أن الواجب على المسلمين كافة تحكيم النصوص الصحيحة فى كل ما زعم من المعقولات والفلسفات ، فرجم لها قدسها وجلالها وقوتها وكل ما كان لها أيام أن كان الاسلام غضا طريا ، وأيام ان كانت عقـائد المسلمين خالصة قوية نقية من هذه الأمراض ، والذى يرجع الى هذا الكتاب يعرف هذا جيدا

وما كان فى هذا الكتاب إلا معظما للرسول ﷺ أصح التعظيم ، قائما بالدفاع عنه وعن حقوقه أفضل القيام ، عارفا له من الواجبات والرتب الرفيعة ما لم يعرفه هؤلاء الخصوم الزاعمون أنه كان غير معظم له ﷺ وغير معترف بحقه وعظيم شرفه

ومَن من هؤلاء الخصوم القادحين دافع دفاعه فى فصل واحد من فصول هذا الكتاب ؟ ومن منهم أغنى غناءه فى هذا الذياد عن الكتاب والسنة ؟ أو ليس هو الرجل الذي أنفق عمره كله وراحته فى مناصرة السنة والدفاع عنها ، ومناضلة البدع والأحداث النكراء حتى أخرج من المؤلفات فى هذا ما لا يستطيع إخراجه أحد فيما أحسب والله أعلم . ولا نضيق فضل الله الواسع ، وحتى أخرج من ذلك ما يعد ثروة علمية باقيـة على الدهر وحدثانه حينما كان غيره من المشايخ الرسميين عاكفين على شهواتهم ، مشغولين بأنفسهم ومآربها عن الله وعن دينه وعن نصرة الحق ؟ أو ليس هو الرجل الذى استطاع أن يرفع أعلام السنة بعد تنكيسها ، وينكس رؤوس البدع والاحداث فى الدين بعـد ارتفاعها بمهارة فائقة ؟ أو مثل هذا الامام أيها الناس يوصم بتنقص النبى الكريم وبانكار حقوقه ؟

ثم ان ها هنا تهمة أخرى يرددها الخصوم كثيراً ، وهـذه التهمة هى زعمهم أنه كان ينزع الى عقيـدة التشبيه ، وأنه كان يقول أقوالا مآلها تمثيل الله بخلقه ووصفه بصفات الحوادث وسماتهم ، وقد أعادوا هذه التهمة وأبدوها ، وأكثروا من إبدائها واعادتها ، وقد أنسوا بها كل الأنس ، وحسبوها الحسام القاتل لخصمهم

وافضائله ، وهذه التهمة من أكذب التهم وأفجرها ، فانه لاريب أن هـذا العالم كان من أعظم الناس تنزيهاً لله وبعداً عن هذه النقيصة ، ومن أعظم الحاملين على المشبهين الضالين ، وهذا يظهر من جملة كتابنا هذا ومن جميع كتبه . وما أخلقه بأن يكون القائل :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

أجل لقى هذا النابغة خصومات نكراء ظالمة ، خصومات قاسية عنيفة من بنى عصره ومن بعدهم ، ونالوا منه كل منال تجريحا وقدحا واتهاما مزريا ، وإكفاراً وإفساقا ، وأمعنوا كل الامعان ، وجهدوا غاية الجهد ارادة اثبات أنه ضال فاسد الأمر والدين والعقيدة ، وارادة ترويج هـذه البهيتة على الجماهير وإقناعهم بها ، وبأنها حق لا باطل فيها ، وجدوا غاية الجد ابتغاء النيل منه وإلحاق أعظم الأذى به ونثر أشد أنواع الظلم فى سائر جهاته ، وراموا ـ لو استطاعوا ـ ألا يدعوا للخير والسعادة اليه منفذاً يخلصان اليه منه ، وألا يدعوا للحياة ومعانيها لديه منها نصيبا ، وما كان مقامهم هذا منه إلا برهانا ناصعا قاهراً يقدمه الخصوم أنفسهم بأيديهم على ما لهذا الامام النابغة من القدر والمكانة فى النفوس التى تنكره وتنكر مكانه بألسنتها وما أقام هؤلاء وأقعدهم إلا ما يجدونه فى أنفسهم وفى ثنايا سرائرهم من اعظام مبعثه المعظم الذاتى الذى شاءه الله له ، ومن إكبار منشؤه الكبر الذى قسمه مقسم الحظوظ والخلائق والفضائل ، وأحفظ فى هذا المقام أبياتا شعرية جاء فيها :

لو لم تكن لى فى القلوب مهابة لم يطعن الأعداء فىّ ويقدحوا

كالليث لما هيب خط له الزبا وعوت لهيبته الكلاب النبح

يرمونني شزر العيون لأننى غلست فى طلب العلى وتصبحوا

ووجدت من يعزو هذه الأبيات لهذا الامام ، ولكنى أشك فى هـذا العزو

لأن الرجل لم يكن تيـاها ولا مزهواً ولا فخوراً بنبوغه وما خصّ به من آيات القدرة الالهيـة ، وما أذكر فيما قرأت له ما يدل على إدلاله واعتزازه بنفسه وعلمه ومواهبه النادرة ، وقد يتاح لك أن تقرأ له الآيات الخالدة فى التحقيق وفى الهبوط على أسرار الحقائق الغامضة ، فلا تحس منه إلا أنه يكتب أشياء عادية قريبة يستطيع كل واحد أن يكتبها وأن يلم بها ، وقد يورد ما يورد من الآراء النادرة الطريفـة التى لم تشرئب اليها أعناق العلماء الربانيين لبعدها عن مطارح العقول ومهابط الفطن فيأخذ يصغرها ويهون من شأنهـا حتى يحسب القارىء أن ذلك يعرفه كل الناس وأنه من المعارف العامة التى لا يختص بعلمها قوم دون قوم ولا طائفة دون طائفـة ولن تجده البتة يذهب يقول للقارىء انى سابق الى رأي من هـذه الآراء وان لى فضلا في بيانه وتقريبه ، وهذا الخلق من فضائل هذا الامام . وقد نجد الكثيرين من العلماء الكبار المقدمين يحبرون المقدمات الطوال فى تقريظ مواهبهم وامتداح كفاياتهم وعلومهم ، والاشادة بعظم تبريزهم وتفوقهم وإحاطتهم بالعلوم وأسرارها والفنون وطرائفها ، الى آخر ما يقال فى هذا الباب

ولأجل هذا أشك فى صحة نسب هذه الأبيات الى هذا الامام ، بل أكاد أوقن أنها لغيره من التيـاهين بعلومهم ومعارفهم ، والمعهود عنه مثل قصيدته التائية المشهورة التى مطلعها :

أنا الفقير الى رب البريات   أنا المسيكين فى مجموع حالاتى

وروح صاحب هذه القصيدة غير روح صاحب هذه الأبيات

ولكن هذه الأبيات ـ سواء أكانت له أم كانت لغيره ـ هي فى معنى ما ذكرناه من أن مقام الخصوم العنيف الطاغى من هـذا الامام برهان يقدمه الخصوم على رفعة قدره ، وعظم أمره ، فاننا قد وجدنا الفضائل كثيرة الحساد الشانئين ، ووجدنا أنه لا يصطدم بالخصومات العنيفة والمداوات الملحة إلا النابغون

العظماء ، وانه بقدر حظ المرء من هـذه يكون حظه من النبوغ والفضل ، وهـذا معقول مفهوم المعنى ، وذلك أن كل ما فى هذا الوجود خلق زوجا : فالليل والنهار ، والنور والظلام ، والحر والبرد ، واليبوسة والرطوبة ، والخير والشر ، وغير هـذه الأمور كلها أشياء خلقت أزواجا متقارنة ، وأضداداً متخاصمة ، هذا ضد ذاك ، وذاك ضد هذا ، وكل ضد يغالب ضده ، فحيث تكثر المحاسن والفضائل تكثر أضدادها ، وحيث يشتد معنى العلم يشتد معنى الجهل ، وحيث تجد السمو العظيم تجد الهبوط العظيم ، وحيث تجد التقى والورع والدين تجد الفجور والفسوق ، وحيث يستيقظ معنى الفضيلة يستيقظ معنى الرذيلة ، موقف الضرة من الضرة ، وحيث ينبعث معنى النبى ينبعث معنى الشيطان ، وحيثما تجدّ النبوة فى فعلها فعلها تجدّ الكذابة فى فعلها فعلها ، ولأجل هذا كان أشد الخصومات والعداوات هى التى يصطدم بها الأنبياء والمرسلون ، لأن أشد المعاني الالهية التى يرسلها الله الى الأرض هى المعانى التى جاء بها الأنبياء والمرسلون ، ولأجل هذا كانت خصومة الرافضة واخوانهم ، وعداواتهم لأبى بكر وعمر وكبار الصحابة والمسلمين عنيفتين قويتين ، لأن معانى هؤلاء الصحابة النبوية الالهية قوية عنيفة ، فكانت المعانى المضادة لها من المعانى الشيطانية قوية عنيفة أيضا . ولأجل هذا كانت عداوة الرافضة لهـذا الامام شديدة قوية ، لأن معانيه المضادة للمعانى الرافضية الباطلة قوية عنيفة . ولقد لحظ الشاعر هذا المعنى حيث قال :

لقد زادنى حبا لنفسى أننى بغيض الى كل امرىء غير طائل

واهتدم هذا المعنى شاعر القوة والواقع بقوله :

واذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

والمعنى فى هذا كله هو ما ذكرناه من أن المعانى هى التى تتعادى وتتخاصم فمعنى الرجل الناقص لا يمكن أن يعجبه معنى الرجل الكامل ، ومعنى الرجل الورع

الصالح لا يمكن أن يعجب معنى الرجل الفاجر الفاسق ، ومعنى الضعة والهبوط والخسة لا يمكن أن يرضى عن معنى الرفعة والمجد والشرف الرفيع ، والعلم لا يمكن أن يرضى عنه الجهل ، والظلام لا يمكن أن يصالح النور . فمعاني الرسل والأنبياء والعلماء الفضلاء لا يرجى أن ترضى عنها وأن تعجب بها معاني الشياطين والفساق والجهلاء والسفلة الوضعاء ، وإذا كنا لا نرجو من السارق أن يرضى عن حد السرقة الصارم ولا من الزاني أن يرضى عن حد الزنى الصارم ، ولا من القاتل أن يرضى عن حد القتل الصارم فلن نرجو من الناقص أن يرضى عن معنى الرجل الكامل ، ولا من عبد الشهوات والأهواء أن يرضى عن عبد الله وحده لاشريك له ، ولا من الجاهل أن يعرف كنه العالم الجليل ، وقد ألم بهذه المعاني كلها بألفاظ موجزة قوله ﷺ « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » وهذا تأويل ما تجده بين الرجال الكاملين كالأنبياء ومن دونهم ، وبين الناقصين الكاملين في النقصان من خلاف ونزاع لا يهدأ ، وهـذا هو تأويل ما تجده أيضا بين عشاق الفضيلة وعباد الرذيلة من بغضاء وخلاف حاد عنيف ، وهذا هو تأويل ما نجده من تناكر بين الظلام والنور . ونحن اذا ما أردنا من وضيع ناقص أن يرضى عن رفيع شريف كامل كان معنى هذا أن نقتل معنى ذلك الناقص الوضيع وأن نجرده من معناه وطبعه ، أو أن نقيم الدلائل له على أن ذلك الشريف الكامل ناقص وضيع مثله ، وأنه لا يمت الى الشرف والكمال الا بالأسباب التي يمت هو بها الى ذلك ، وأما أن نطلب منهما الائتلاف والاتفاق ، وهما مختلفان ـ في المعنى ـ كل الاختلاف ، فهذا بعيداً عن أن يكون صحيحا مقبولا في طبائع الأشياء وفي القانون العام الذي قيد الخلاق خلقه بوثاقه القاهر القاسر . وهذا كأن نطلب من الحيوان أن يكون إنسانا عاقلا فاضلا ، وأن ما بين أفراد النوع الانساني من التفاوت والخلاف أعظم وأظهر مما بين نوع الانسان ونوع الحيوان

وإذن لن نرجو من هذه المعانى الناقصة الوضيعة أن ترضى عن هذا المعنى الحر الشريف الربانى الذى وهبه الله - جلت قدرته وحكمته - هذا الامام النابغة العظيم ، وإذن لا تقرر عينا هذا الشيعى الرافضى بأن أنكر معناه ومعانى اخوانه معنى هذا الامام ، أو ان وجدوا لذة روحية هائلة فى ثلبه والوقيعة فى عرضه ودينه وعقيدته ، فان مرجع هذا هو ما ذكرنا لا الى نقص وعيب فى الشيخ نفسه

ابن تيمية أيضا

كان العلماء الناهلون بكاسات الفلسفة ، الذين استقوا طويلا وطويلا بكفى علم الكلام المطعم بالفلسفة أسرى خاضعين للفلسفة اليونانية وغيرها من الفلسفات الأعجمية ، لا يعدون ما قاله - ولو تظنيا - ارسطو وتلاميذه وأشياخه من الآراء فى الالهيات والنبوات والطبيعيات ، وكان قصارى جهد العالم الفاضل وحادى فضله ونبوغه وعلمه أن يفهم ما قاله أولئك السادة وما أثر عنهم ، وأن يحتج لآرائه وعقيدته وكل ما يقوله برواية - ولو ضعيفة محتملة - عن أحد هؤلاء الاشياخ وكان فضل الرجل ووفور علمه يوزن بمقدار اطلاعه على آثار هؤلاء الفلاسفة وإلمامه بأغراضهم وما يرمون اليه من معان عميقة عزيزة سابحة فى الاحشاء الكونية البعيدة القرار وكان الغريب عن هذه العلوم اليونانية الناقصة جاهلا أو ناقصا وإن كان من كان ، وان جمع ما جمع من علوم وثقافات يغرق ضحضاحها هؤلاء الفلاسفة أجمعين . وبالاجمال كان كل شيء خاضعا لهذه الفلسفة الخادعة وكانت هى مرد أولئك القوم ، وكعبة عقولهم ومصدر ايمانهم وعقائدهم . وكانوا يغضبون غضبا شديداً لهذه الفلسفة ، وينالون ما استطاعوا ممن أراد أن ينال منها وأن يظهر لها عيبا أو نقصا . هذا الامام الغزالى - وحسبك به ذكاء وعلما ودينا - قد سبح فى هذه الفلسفة سبحا طويلا ، ونفذ الى أعماقها وأحشائها محاولا إخراج تلك اللآلىء والدرر المذكورة

بين طوائف الأنصار والمعجبين المخلصين ، ثم محاولا أن يتطهر ببحارها الغزيرة من أوضار الشكوك والريب ، ومن معانى الأمية والجهالة الموصوف بها من لم يغرق دينه وعلمه وعقله وقلبه فى قاموس هذه الفلسفة المريضة الموبوءة ، وبعد أن سبح هذا الامام — أعنى الغزالى — فى هذه الفلسفة ، واكتشف أمرها وما طويت عليه ، وقلبها ظهراً لبطن ، وبطنا لظهر — كما يقولون — فرأى عيوبها ونقائصها وضلالاتها وضع كتابا فى نقدها وفى النقض على أصحابها وأربابها أسماه « تهافت الفلاسفة » ، وقد نقض فى هذا الكتاب من آرائهم ومذاهبهم أشياء كثيرة نقضا فريا ، وأبان من أغلاط القوم وتهافتهم الشىء الكثير ، ورد به كفرهم وإلحادهم بالله وبالأنبياء ، وجلى أغراضهم التى كانت تدق على أفكار الجماهير من عشاقها ، المسبحين بحمدها الناذرين لوجهها عقولهم وقلوبهم وعقائدهم وإيمانهم بالله ! أفتظن أن هذا الكتاب أرضى جميع المسلمين أو شكروه لمؤلفه ؟ كلا ، ان طوائف من العلماء المعظمين لهذه الفلسفة غضبوا لها وهبوا للدفاع عنها وعن أصحابها ، مؤولين كل ما فيها من الخروج على الايمان والأديان ، محاولين اصلاحها والنيل من الغزالى الثائر بها وعلى رجالها وكان من هؤلاء الغاضبين على الغزالى لفلك القاضى الفيلسوف ابن رشد ، فانتصر لها من صاحب « تهافت الفلاسفة » ووضع كتابا سماه « تهافت التهافت » ردَّ به على الغزالى وتحامل عليه وما أنصفه فى كثير ، ثم ألف ثالث كتابا ثالثا حاول به الحكم بين الغزالى وابن رشد . وإلى اليوم يوجد من يقضون لابن رشد على الغزالى . وهذا الذى فعله القاضى ابن رشد يدلنا على قدر هيام الناس بهذه الفلسفة ، وقدر إكبارهم إياها وافتتانهم بها وبأربابها حتى انتقم الأخ من أخيه غيرة وغضبا لها . وهذا من أبلغ ما يكون التعظيم والغلو فى التعظيم

وقد كان للغلو فى هذه الفلسفة أثر بارز قوى فى عقائد المسلمين وعلماء الكلام منهم على وجه الخصوص ، فانهم قد حكموا هذه الفلسفة فى كتاب الله وسنة رسوله

ﷺ ، وفى عقائد الاسلام الضرورية القاطعة ، وسلطوها على النصوص حتى سلبتها سلطانها وحكمها ، حتى صارت هى المرجع لها والحكم المتحكم فيها . وحتى لم يبق للكثيرين من هؤلاء غرض فى النصوص غير الاشتغال بتأويلها وتحميلها التفاسير الباطلة المنكرة لغة وعقلا وذوقا ودينا لتصبح موافقة أوساجدة خاضعة لهذا المعشوق المعبود ، وتجد هذا واضحاً جليا فى كتب أمثال ابن سينا والفارابى والآمدى والرازي ، وغير هؤلاء كشيوخ المعتزلة وغيرهم ، وأما الرافضة فهم أقل من ذلك ولهذا الغلو الأثر القوي فى انحراف عقائد كثيرين من المسلمين من طريق علم الكلام والجدل . والى اليوم يوجد من يحلون هذه الفلسفة المحل الأول من نفوسهم وعقائدهم وايمانهم

هكذا كان سلطان هذه الفلسفة اليونانية وغيرها من الفلسفات العجمية التى نقلت الى اللغة العربية فى عصور الاسلام القوية

وقد كان من أسباب هيام المسلمين بهذه الفلسفة أن بعض الخلفاء قد وقعوا فى حبائلها وغرامها فمنوا بها وشجعوها ، ونثروا الأموال الطائلة على القائمين بنشرها وتعليمها ونقلها الى اللسان العربى الفتى . فأكبر الناس هذه الفلسفة وعظموها تعظيم هيبة واحترام وإجلال ، وتهيبوا أن يقولوا فيها شيئا غير المديح والثناء ، وغير التشبيب وصنع النسيب فى خيالها وطيفها ومحاسنها الفاتنة ، فاجتمعت لها جميع أسباب السلطان والزعامة على العقائد والثقافات المختلفة ما بين إلهية ومادية الى عصر هذا الامام

أما هذا الامام فقد كان أول من أعلن الثورة والتمرد على هذه الفلسفة وعلى هذا السلطان الغريب ، وأول من رفع النداء والصوت بسقوطها وانحدارها ، وأول من قام بجد ونشاط لاحباطها وتقويض سلطانها ، وإظهار عوارها وعيوبها ونقصها ضعفها وتهافتها ، وكان أول من هاجم شيوخها وأساطينها بجراءة وصراحة نادرتين

فقد تصدى لهذه الفلسفة وأنصارها فى مختلف كتبه بالنقـد والتجريح القائمين على المباحث العلمية الصادقة ما بين عقلية ونقليـة ، ونقد شيوخها وواضعتها نقداً جريئاً صريحاً بخبرة ومعرفة واسعتين محيطتين ، وتناول سائر نظرياتهم فى الالهيـات والنبويات والطبيعيات بالانتقاد الصريح القوى ، وأورد من أغلوطاتهم الشيء الكثير وفى أكثر كتبه تجد ألوانا كثيرة من هذا ، بل يكاد القاريء يجد هـذا النوع فى كل كتاب من كتبه . فقد نقدهم نقداً قويا شديداً فى مسألة قدم العالم ، ونقـد المتأخرين المقلدين لهم كابن سينا واخوانه فى قولهم ان العـالم قديم وحادث معا ، وقديم ومخلوق لله أيضا ، ويعنون بهذا أنه قديم الوجود الزمانى ، بمعنى أنه لم يكن حادثا وجوده بعد عدمه ، ومع قدمه الزمانى هو مخلوق لله وحادث أيضا ، ويعنون بهذا أن وجوده تابع لوجود الله قديم بقدمه ، فهو لازم له تعالى لزوم المعلول للعلة الموجبة ، وتأويل هذا أن العالم لم يكن حادثاً بخلقه تعالى واختياره ، وأنه لهذا ليس مختاراً ولا فعالا لما يريد ، وقد نقد هذا القول فى مواضع من كتبه ، وتجد شيئا من هذا فى أول كتاب منهاج السنة . وكذلك نقدهم فى قولهم : الواحد لا يصـدر عنه إلا واحد ، وكذا فى إنكارهم الصفات ، وفى قولهم انه علة موجبـة ، تعالى الله ، وكذا نقد أقوالهم فى الأفلاك وفى الفلك الأول ، وما قالوه من أن حركات الأفلاك هى السبب فى حدوث الحوادث اليومية ، وكذلك نازعهم فى الجوهر الفرد وفى تماثل الأجسام ، وكذلك كشف أغلاطهم فى النبوات والوحى ، وكذلك أكثر ما قالوه فى الفلكيات ، وأظهر ما شاء الله من خلطهم ودعاويهم ، وكذلك هاجم منطقهم المؤله ، وأظهر ما فيه من النقصان والدوران والتخليط والتضليـل ، وما أحسن قوله فى هذا المنطق : « ان معرفته لا تفيد الغبى ، وجهله لا يضر الذكى » وكذلك هاجمهم فى غير هذا . وقد كان فى جميع مهاجماته شديداً عنيفا وحاداً قويا لكنه مع هذا يعترف لهم بما معهم من الحق والصواب ، ويمتدحهم لأجله وينصفهم اليهم

والعجيب أنه فى نقده هؤلاء الفلاسفة يعتمد على الفلسفة أكثر من اعتمادهم عليها ، ويبدى من المعرفة بها ما يجعل قارىء كلامه يتضاءل ويصغر فى أفق نفسه وأفق الوجود مهما كان ذلك القارىء تياها مغروراً . وعندى أن كتب هذا الامام تصلح علاجا لمرض المغرورين بعلومهم وثقافاتهم وذ كائهم الفياش . فما علينا إلا أن نقول لكل مغرور تياه : اقرأ كتب هذا الامام يفارقك غرورك ويذب كبرك .
وما أذ كر أنى قرأت شيئاً من كتب هذا النابغة إلا أحسستنى أتضاءل وأقل فى نفسى ، وأحسست ذلك الأفق الذى أراه لنفسى يضيق ثم يضيق حتى يكاد العدم يغلب الوجود . وما فتحت له كتابا إلا أحسست ذلك الغرور الذى يغلب المرء وعقله وحقيقته فى فجر حياته يذوب شيئا فشيئا حتى يكون مكانه ذلك الانهزام النفسانى الخاذل الذي يهاجم النفس أحيانا فيهزها هزاً عنيفاً حتى تكاد تترك كل شىء مما يتعاطاه الناس الراغبون الآملون فى هذه الدنيا السعادة والنجاح والفوز ولقد كدت مرات ، ومرات أيضاً أطلق القلم وكل شىء وأ كب على دراسة كتب هذا الامام عند ما يعروني هذا التخاذل النفساني الذى يعرو نفساً رأت فجأة ، وعلى غير انتظار أعظم الأمثال البشرية . وما أحسب انسانا يفهم ما يقرأ يوفق لقراءة بعض كتب هذا الشيخ ثم لا يجد الرغبة الملحة فى الاستزادة ، أو لا يجد الاندفاع اليه والا كبار له والايمان الصادق بصدق نظراته وآرائه . وقد عرفنا أن أقواما ربوا على مقت هذا الشيخ والخوف منه ومن كتبه كانوا يتحامون أن يقرءوا له شيئا خيفة أن يجذبهم الى سحره أو ضلاله على ما علموا ، فكانوا يتقونه اتقاءهم المرض المعدى . وقد كان هـذا دأب خصوم الأنبياء والمصلحين العالميين ، فانهم يلجؤون الى تحذير الجماهير الاتصال بهؤلاء المصلحين من الأنبياء فمن دونهم بحجة الغيرة عليهم وعلى عقائدهم القديمة الموروثة ، التى يريد هؤلاء المصلحون تغييرها وانتزاعها من بين سرائر قلوبهم ، وكان هؤلاء الخصوم يعلمون أن هـذا

أعظم سلاح يلجؤون اليه فى مناهضة الاصلاح ومناهضة المصلحين وذلك أن سلطان الحق لا تستطاع الحيلولة بينه وبين أعماق النفوس السليمة إلا بالابتعاد عن مهابطه ومهابط أهله ، الذين يعرضونه على القلوب والعقول عرضا واضحا صحيحا ، ولهذا فان الناس يؤتون أكثر ما يؤتون من ناحية التضليل والمضلين

ولو أن المعجبين بالغربيين وبعلومهم وتحليلاتهم الموصوفة بالدقة والتحقيق ، وبغوصهم فى أحشاء الحقائق الخفية أتيح لهم أن يقرءوا لهذا النابغة الفذ لتبدلت نظراتهم الى الغربيين والى المسلمين أيضا ، ولأصبحوا مسلمين شرقيين لا غربيين ثم لطفوا من غلوهم واعجابهم بكل ما يقذف به الغرب الغابن هذا الشرق المغبون ، ولكن ضل القائد فضل المقود وضعف الطالب والمطلوب

ومما اتفق لهذا الشيخ مما لم يتفق لسواه أنه فى كل علم يسبق المتخصصين المبرزين فيه : فهو فى عصره يفوق المحدثين فى علوم الحديث رواية ودراية وحفظا ونقداً ، ويسبق علماء الكلام في علم ما قيل وما يقال ، وما فى ذلك من آراء ومذاهب ، وما لكل مذهب من استدلال وحجة ووجه ، ويفوق الفقهاء فى معرفة الفقه ووجوهه ومذاهبه ، ويعرف فقه كل مذهب أعظم من معرفة رجال المذهب له ، ويفوق المفسرين بما قيل في تفسير الآية من الآراء والمعانى حديثا وقديما ، عن السلف وعن الخلف ، وما فى الآية من وجوه واحتمالات وروايات وآثار ، ويفوق الفلاسفة فى معرفة فلسفتهم ، وما قاله المتقدمون والمتأخرون منهم ، من المسلمين وغير المسلمين ، هذا الفارابى وابن سينا وابن رشد والفخر الرازى معدودون فى الطليعة الأولى من فلاسفة المسلمين المعنيين كل العناية بما قاله أرسطو واخوانه من فلاسفة اليونان ، ولكنه مع هذا اذا تعرض لنقد أحد هؤلاء الفلاسفة أو لنقدهم جميعا أورد الشىء الكثير من آراء أولئك الفلاسفة القدامى مما فات هذه الطبقة من فلاسفة الاسلام ، ويفوق علماء الملل والنحل فى علم ذلك ، أما فى علوم

السلف الصالح والاحاطة بآرائهم وما قالوه فى كل وجه من وجوه العلم والمعرفة فهو لا يجارى ولا يلحق له غبار ، وهـذه الناحية أبرز ناحية فى نواحيه ، وأما فى العلوم العربية : النحوية والصرفية ودقائق اللغة وأسرارها وأفرادها فله الباع الطولى والقدم الراسخة ، وما بثه من هذا فى سائر كتبه يعرفنا مقدار نبوغه فى هذه العلوم وقصته السابقة مع أبى حيان النحوى تدلنا على قوة هذا الجانب فيه ، وقد قيل أنه سئل عن حرف « لو » وما فيه من الوجوه وما له من المعانى ، فكتب فيه كتابا مستقلا ، ولله من الأسرار والحكم في خلقه ما لا يستطيع النفوذ اليه كله ذهن ثاقف وهذه الصفة المحيطة فيه لم تتفق فيما أذكر لغيره من العلماء ، فان من المستقرأ أن من نبغ فى علم أو علمين أو علوم قصر ـ ولا بد ـ فى العلوم الاخرى أو جهلها جهلا تاما ، وهذا ما اتفق لجهابذة العلماء وفحولهم ، أنظر هذا الامام الغزالى مثلا عالم بالكلام وبالفلسفة وبالفقه وأصوله ، ولكنه متأخر جداً فى علوم الحديث رواية ودراية ، وفى علوم السلف رواية ودراية أيضا ، وفي علوم التفسير ، وفى علوم اللغة ، وفى غير ذلك ، وهذا أيضا الفخر الرازى نابغ فى الجدل وفى صناعة الحجة المسفسطة وفى علوم الكلام ، ولكنه بعد ذلك متأخر جداً فيما تأخر فيه الغزالى ، وهذا أيضا الفيلسوف القاضي ابن رشد ليس خيراً من هذين الشيخين فى ما تأخرا فيه . وعلى هذا النحو انظر الى جميع العلماء ـ الا من شاء الله ـ تجدهم كذلك ، نابغين فى جانب أو جوانب ، مقصرين فى الجوانب الأخرى ، ولله من خلقه صفايا ممتازة

فهذا الامام إذ ينقد الفلاسفة ويهاجمهم ينقدهم ويهاجمهم بعلم واسع وخبرة مستفيضة ، تارة بعلومهم وفلسفاتهم ، وتارات باحسن من ذلك . ثم هو معدود أول رافع لعلم الثورة والتمرد على هذه الفلسفة الاجنبية الباطلة التى ألحقت بالاسلام واصله ماشاء الله من الاضرار المادية والمعنوية الخاصة والعامة ، وأول مناد باجلاء

هذا الغريب الثقيل المؤذى من ساحة المسلمين المؤمنين المحمديين ، وأول من حمل الفأس لتحطيم هذا الوثن المعبود دون الله فى بلاد الاسلام والتوحيد والايمان والقرآن ، وأول من رفع الكأس القاتلة ليفرغها فى جوف هذا العدو المحتل لغزو قلوب المسلمين وعقائدهم . وليس الاحتلال للعقائد والايمان والاخلاق دون الاحتلال العسكرى للديار أخطارا وأضرارا ونتائج مشؤومة . وليس الحامل على محتل العقائد والقلوب دون الحامل على المحتل العسكرى ثوابا وفضلا . فابن تيمية بهذا المكان المحمود غير مدفوع

آثار ابن تيمية فى العالم الاسلامى

الآثار التى ترتبت على ظهوره

ولقد كان هذا الامام من أفذاذ الرجال القلائل الذين يمدون الى تاريخ الانسانية الأسود القاتم فيلونونه بالوانهم الالآهية النورانية الناصعة ، ويمدون الى صحائف مظلمة مخيفة أملاها دين الانسان الجاهل ، وعقله الناقص ، ونقصه الكامل فيمزقونها بأسلات أقلامهم ، ويجللون مالم يمزقوه بخيوط من نور الله المشرق فى جوانب معاني الانسان المريضة المظلمة اشراق الشمس فى جوانب المادة الكثيفة المظلمة ، ويغسلون من وجه هذا الوجود معانى ظلمه ، كما تغسل الشمس معانى ظلماته ، ويطهرونه من جراثيم امراضه العقلية والقلبية ، كما تطهره الشمس من جراثيمه الجسدية المادية . ولولا هذه المعانى الالآهية المشرقة فى بعض القلوب الممتازة لما عرف الانسان الفرق بين المعنى الاسود والأبيض ، وبين المعنى المشرق والمعنى القاتم ، كما لايستطيع ان يميز الجسم الأسود من الجسم الأبيض ، والحالك من الناصع لولا نور الله الذى أظهره فى بعض الجماد من خلقه . وليست مادة الانسان بأحوج إلى النور المادى من معناه الى النور المعنوي ، وليس

بصره بأحوج الى نور الشمس من بصيرته الى نور المعنى . والناس قد يعيشون فى ظلمات المادة كما يعيش العميان ، ولكنهم لايعيشون فى ظلمات المعنى الا بقدر ماتبقى بينهم من أنواره

ولهذا الامام آثار كثيرة بارزة فى بناء هيكل الاصلاح الاسلامي العظيم ، وفى توجيه الناس وجوها ما كانوا ـ فيما يظن ـ مهتدين اليها ـ الا ماشاء الله ـ لولا جهاده الصابر المصابر ، وما خلق معدا له من النبوغ فى جميع نواحى النبوغ البشرى المستعمل فى مايرضى واهب النبوغ وواهب كل شيء . وقد قامت على يد هذا الامام هياكل كثيرة من هياكل الاصلاح :

١ ـ فلا شك أنه هو الرجل الفرد الفذ الذى قد بعث فى العلوم الاسلامية الحياة والنشاط والحركة الدؤوب بعد الركود والرقود والجمود ، وهو الذى شحذ عزائم العلماء وألهب جهودهم وأشواطهم نحو الكمال والفضل والخير والسمو ، وذلك بما قام به من الهجوم والنضال العلمى العنيف ، والحملات الشديدة القوية التى صبها على أهل النقص والضعف والقصور والتقليد والركود والرجوع القهقرى ، ثم بما أرى الحاسدين المطاولين المسامين من التفوق والتبريز القاهر الواضح ، وبما أبداه من النشاط وغزارة العلم ووفور الذكاء والمعرفة ، وتطلب الحقيقة الخالدة الواحدة بالجد الذى لا يدرك ولا يطال ، ثم بما أكسبه ذلك كله من هيبة الصدور ومحبتها ، وبعد الصيت ورفعة القدر والشأن ، والاستهانة بالدنيا وأهلها ، فان هذه الأمور الفاضلة التى فاز بأشرفها وأطيبها هزت أناس ذلك العصر هزات أيقظت النائم ، وشحذت الكليل ، وحركت الساكن ، واصطدمت بهم اصطدام الموجب بالسالب أو المغلوب بالغالب ، وأحدث هذا الاصطدام مايحدث التقاء موجب الكهرباء بسالبها من الاشراق والنور والقوة وابراز أشد ما فى الطبيعة من السر الكامن والطبع القوي الحاد . فان لاصطدام المعنى القوى بالمعنى الضعيف مثل ما لاصطدام الجسم

القوي بالجسم الضعيف من ذلك : فاما حطم القوى الضعيف، وإنما دفعه الى جهته ووجهه فراح يفعل فعله ويقصد قصده . وهذا هو ما كان من معنى هذا الامام ، فانه حطم ما لا يصلح للبقاء وكبته وأذله ، ووجه الصالح الطيب الى الخير والنافع المفيد ، فقامت نهضة علميـة زاهرة ، وقوية ناجحة ، هو الباعث الموقظ لها ، فكثر العلماء النابغون ، والمؤلفون الخالدون فى عالم التأليف الخالد الصالح ، واتسعت آفاق العلم والعلماء وجلت منازعهم ومناحيهم ، فقامت سوق العلم والمعرفة ، وقام فى تلك الآونة رجال عدوا ـ والى اليوم يعدون ـ من أفذاذ العلماء ونوابغ المؤلفين المحيطين بآفاق المعارف والعلوم والفنون ، ما بين عقلية ونقلية . ولنذكر من هؤلاء الرجال أمثال ابن قيم الجوزية وابن عبد الهادى والحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير وغير هؤلاء من الرجال المعاصرين لهذا الامام ، والمعاصرين للمعاصرين ، من المخالفين له والموافقين ، فان المخالفين قد استفادوا منه مثل ما استفـاد الموافقون ، فالمخالف وان أبى الاعتراف له والموافقة فقد حملته المنافسة ، وحمله حب البقاء وخوف الفناء على مديد المنافس والاستعداد له والتسلح بمـا تسلح هو به . وقد تلاحقت سلسلة هذه النهضة العلمية وامتد أثرها الى الامام عصوراً طوالا أفاد بهـا العلم والتأليف والدين مالا يقدر من الفوائد القيمة الباهرة الظاهرة ، وفضـل هذا كله يرجع الى مصدر هذه النهضة الأول

وقد خطت عصور وقرون على هام الأمم الاسلامية والعربيـة قبل ظهور هذا الامام ركدت فيها العلوم والمعـارف والثقافات ركوداً يشبه الموت فى معانيه ، وتبلدت فيها الأذهان تبلداً كاد يقطع الصلات بين حاضر الاسلام وغابره ، وبين المسلمين والاسلام . ولو أنك طالبت عصوراً ضخمة سبقت مولد هـذا الشيخ بعالم واحد يشار اليه كأولئك العلماء الذين ولدت عصور الاسلام الأولى ، وكأولئك الذين كانوا فى عصر هذا الامام وما بعد عصره من المتأثرين بعلومه ووجوده ،

وعلوم تلاميذه ووجودهم ، لما أجابتك تلك العصور إلا بالعجز والاعتراف بالافلاس الظاهر

فهذا الامام هو بلا ريب أبو النهضة العلمية الاسلامية فى عصور الاسلام الوسطى ، وما زال المصلحون فى الاسلام من ذلك العهد الى اليوم يذكرون بذلك الرأس وينتزعون منه معانى الاصلاح وحججه ، عرف ذلك من عرفه ، وجهله من جهله

٢ ـ لاريب أن هذا الشيخ هو أول ثائر ثورة قوية منظمة ثابتة ذات قواعد وآساس وبراهين قاهرة معلومة على الدخيل الغريب فى الدين ، وعلى المبتدعات الحق ، وأنه هو أول من أرسل الصوت المدوى القارع مطالبا بابعاد كل غريب فى الدين عن الدين ، ومطالبا بأخذه غضاً طريا كما جاء ونزل ، وكما تلقاه المسلمون الأولون من محمد بن عبد الله ﷺ

أجل ، لاريب أنه هو أول من آذن الابتداع والمبتدعين بالحرب والعداء ، وأول من أقام سوق الحرب العنيفة بين أنصار السنة وأنصار البدعة ، وأنه هو القائد الأعظم المظفر لزعماء الاصلاح الحاملين على كل غريب فى الدين : عملياته واعتقادياته وما نعلم أن عالما أبلى بلاءه فى معاجزة الابتداع والمبتدعين ، وما نعلم من أحسن مهاجمة ذلك وتأليف الدلائل لمهاجمة مثله ، ولا نعلم من ألف ما ألفه فى هذه المطالب العليا من الكتب المنقطعة المثال فى جودة تأليف الحجج وتصنيف الدلائل عقلية ونقلية ، ثم فى ذيوع الاسم ، وما من باب من أبواب البدع المحمولة على الاسلام حملا إلا وقد كتب فيه وأجاد ما شاءت له الاجادة ، وإلا وقد حشر من البراهين العقلية والنقلية ، على الانتصار للسنة ما لا أمل لأحد ـ فيما نعلم ـ بأن يسبقه فيه . وقد أخرج فى جميع أبواب الابتداع ـ التى لم تطرق قبله إلا لماما واختطافا وكلمات طائرة قصيرة ـ كتبا عظيمة كبيرة مملوءة بالدلائل والبراهين القاهرة ، حتى أصار

هذه المباحث مطروقة ميسورة ، معلومة الدلائل مجموعتها ، يسهل على كل أحد الالمام بها وعرفانها سريعاً بسهولة ، بعد أن كانت كلمات شاردة قصيرة ، أو كتباً مشوشة لم تنضج ، ولم تصبح جديرة بالبقاء والانتشار اللذين قدرا لمؤلفات هـذا الامام الفذّ ، وآية ذلك أنه ما من داع من دعاة الابتداع الا ويمقته ويمقت اسمه ، ويتمنى لو استطاع محو اسمه من بطون الكتب وقلوب الرجال ، وصفحات الدهر والوجود ، وما من داع من دعاة البدعة الا وقد آذاه ، وأضاف اليه من التهم والاكفار والافساق واختلاق الأكاذيب ما استطاع . وقد أنكر ما أنكره هو من البدع جماهير العلماء من جميع المذاهب وجميع البلدان ، وألف فريق منهم في ما ألف هو فيه ، ولكن قدح المبتدعين وهجاءهم ــ على رغم ذلك ــ ينطلقان اليه وحده ، وهـذا لأنهم يعلمون أنه هو القائد الأكبر المظفر لغزو المبتدعات والجهالات . وآية ذلك أيضا أنه ما من داع من دعاة السنة الا ويجله ويوده ، ويزجي اليه أجل الثناء الخالص العاطر ، ويفاخر بالانتماء اليه وطائفته ، ويعجب به وبكتبه ، ويحرص على قراءتها والاستفادة منها ، ويعترف له بالامامة والزعامة ، ويرجع اليه كثيراً مما عنده من المعرفة والهداية الى السنة وحبها والحرص عليها والقيام بنصرتها والذياد عنها ، فهو العدو الأشهر للبدع وأربابها ، والصديق الأكبر للسنة وأصحابها ، فما عادى المبتدعون في عصره وبعده مثله ، ولا أحب أهل السنة والاعتصام بها في عصره وبعده مثله ، فقد نال من أهل السنة أخلص الولاء والرضاء ، وناله من أنصار البدعة أشد الكراهة والمقت ، فله أجل ثناء أولئك وأكبر عداء هؤلاء ، فله أعظم العداء وأعظم الولاء ، فهو محبوب مكروه ، محبه يحبه بشدة ، وكارهه يكرهه أيضا بشدة ، وهذان برهانان على أنه هو رجل السنة الأوحد ، وخصم المبتدعات المفرد ، فعلى يديه تمّ نصر السنة على المبتدعات ، وانتصار أهل السنن على أهل البدع ، وبه قام الفرقان واضحا جليا بين

الحزبين والطائفتين والآمرين ، وهذا لا يدفعه الا مكابر للحق ، مغموس فى الهوى أو فى الجهل أو فيهما معا

٣ ـ لا ريب أنه هو الذى استطاع بمهارة وقوة أن يوفق بين نصوص الشريعة الثابتة وبين المعقولات الصريحة ، وأن يزيل ما بينهما من اختلاف مدعى وتعارض حسب حقا عصوراً طويلة ، حتى أسيء الى المعقولات والى المنقولات معا

وقد جاء هذا الامام وامهات الدين الاعتقادية قد عقدت حولها وعليها ألوان من الشبهات والمعارضات المختلفة المخيفة : فكانت على الصفات السمعية عقد ، وعلى قيام الصفات بذات القديم عقد ، وعلى الافعال الاختيارية وقيامها به تعالى عقد ، وعلى مغايرة الصفات للذات عقد ، وعلى صفات الحكمة والتعليل والاختيار عقد ، وعلى صفة الكلام عقد ، وعلى صفة الاستواء والعلو عقد ، وعلى حدوث العالم عقد ، وعلى بعث الاجسام عقد ، وعلى النبوات والكرامات والمعجزات عقد بعد عقد ، وعلى التوفيق بين العقل والنقل عقد أية عقد . وبالاجمال كانت على سائر أمهات الدين الاعتقادية عقد معقدة ، وكانت الفلسفات الاجنبية المعرّبة قد نسجت على قطعيات الاسلام الضرورية العقد والاشكالات من كل جانب ووجه ، حتى صار أكثر الناس المصابين بهذه الفلسفة ازاء النصوص فريقين فريقا زهد فيها وسخر منها بعد أن أيقن مخالفتها للمعقولاتِ الضرورية التى لاتنازع ، فكان موقفه منها موقف المحرف المؤول ان اصطدم شيء منها بشيء من عقلياته . وفريقا قبلها بايمان واستبسلام ظاهر على مضض مع اعترافه بأنه لا يمكن الاصلاح بينها وبين المعقولات فى الظاهر ومع اعترافه بأنه لا يمكن إقناع العقليين بها ، وكان غاية أمره أن قال إنها فوق العقول البشرية . فلا مناص من التفويض والاعراض عن محاولة فهمها وعلمها . وكان موقف هذا الفريق موقف القادح المعادى للمعقول ودلائله ، كما كان موقف الفريق الأول موقف القادح المعادى للنصوص . وكان موقف كل

ريق من الآخر موقف المتنقص الذام ، فكان أهل العقليات يسمون أهل النصوص بأنهم لا يعقلون فلا يليق بهم الخطاب ، وكان أهل النصوص يسمون أهل العقليات بأنهم ملحدون كافرون ، فواجب على المؤمن الفرار بدينه وإيمانه منهم ومن عقلياتهم لئلا يضلوه ويفسدوه . وكان إحلال الصلح بين الفريقين بعيداً لا يرتجى وكان لكل من الفريقين أتباع وأنصار ، وكان الظفر ـ أعنى الظفر بكثرة الأتباع والأنصار ـ غالباً فى جانب العقليين ، لأن الناس مجبولون على الفرار مما لا يفهمون ولا يدركون ، وعلى الاستمساك بما فهموا وعلموا . وبهذا كان للمعتزلة التفوق على خصومهم فى عهد المأمون والواثق والمعتصم ، حتى لقد استطاعوا أن يكسبوا هؤلاء الخلفاء العظام ، وأن يجعلوهم من أنصارهم ، الحاملين الناس على عقيدتهم وآرائهم بالسيف والسوط والسجن . ولست أشك أن هذا الامام لو كان هو الخصم المناهد للمعتزلة فى ذلك العهد لاستطاع رفع المحنة عن أهل الحديث ولاستطاع أن يقف أولئك الخلفاء عن الاندفاع في تيار الاعتزال الجارف ، ولاستطاع أن يدهده ذلك السلطان العلمى الاعتزالى الذى طاح برقاب كانت بريئة ، وأشاط بدماء ما كان أخلقها بأن تصان وتستبقى

هذا ما كان من الأمر بين المعقولات والمنقولات قبل ظهور هذا الامام . فلما أن ألقى الأمر كما ذكرنا عمد إلى تبديد هذه الغمة ، وتصدى للاصلاح بين العقل الصريح والنقل الصحيح . فأشاد البراهين على أنهما اخوان لا يختلفان أبداً ، وأن كل نص صحيح صريح لا بد أن يسير العقل الصحيح الصريح فى جانبه مؤيداً مقويا لا مخالفا منابذا ، فتم له ما حاول وأشاد صرح ما أراد . فكان فيصلا من فياصل الله وفاروقا من فواريقه ، فكان هو أول من تم له التوفيق بين المعقولات والمنقولات والاصلاح بينهما بمهارة خارقة عجيبة . فلنضعه بهذا المكان بلا جمجمة ولا احجام

٤ ـ ثم ليس من شك فى أن النهضة الاصلاحية الاسلامية المشهودة فى هذا

العصر ، والقائمة منذ قرنين بشكل واضح جلى ، والمدوّى صوتها منذ قرون الحين بعد الأحيان ، هذه النهضة الرامية الى تخليص الدين من الترهات والزيادات — مرجعها الى هذا الامام والى كتبه القيمة المضمنة آراءه وعلومه ونظرياته الناضجة الصحيحة ، وما من اصلاح دينى في هذا العصر الا وهو السبب له إما مباشرة منتزعا من كتبه مباشرة ، واما بوساطات قليلة أو كثيرة تتصل حلقتها الأخيرة به وبمؤلفاته الخالدة فالعالم العربي والاسلامي المنادي بالاصلاح الدينى الاعتقادى الرامي الى تخليص الدين والعقل من كل دخيل غريب باطل — مدين كله لهذا الامام ولكتبه بأفضل ما معه وهو فكرة الاصلاح وإبعاد الدين عن الترهات ، بل لاريب أن دعاة البدع والضلالات الاعتقادية المريضة القادحين فى هذا الامام وفى إصلاحه مدينون له بالفضل واستنارة الأذهان وصقل العقائد ، وذلك أنه بثوراته ومهاجماته ومؤلفاته التى لجوا فى عدائها ومطاردتها وهجائها قد هزّ نفوسهم وعقائدهم ودخائلهم هزات تطايرت من هولها وشدتها أنواع كثيرة من رخيص الآراء ، وهجين العقائد ، فانصقلت عقائدهم وأذهانهم وآراؤهم شيئا فشيئا ، وفارقوا كثيراً من المبتدعات المرذولة الناقصة تحت ضغط قانون المنافسة والمجاذبة والمساجلة اما بعلم منهم وإما بغير علم ، فله عليهم بذلك الفضل العظيم ، والأيادى التى لا يستطيعون جزاءها عرفوا ذلك أم جهلوه

وقد قامت على هيا كل هذه النهضة الاصلاحية الراجعة إليه حركات سياسية نافعة ، ويرجى لها المزيد والقوة والنشاط والانتشار والعز الباذخ ، وإليه يرجع الفضل فى قيام الدولة العربية السعودية أولا وأخيراً . وذلك أن هذه الدولة الفتية قائمة على قواعد الاصلاح الدينى وتخليص الاسلام مما لوثه من الأوضار الاعتقادية والعقلية ، ولا ريب أنه هو الدال على هذا الاصلاح الذى قامت عليه هذه الدولة بوساطة شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رضى الله عنه ، فهما مشتركان فى هذا

الفضل العظيم . ولهذا فان رجال هذه الحكومة وأنصارها يحملون له خالص الولاء والاجلال

فالنهضة الاصلاحية الاسلامية فى العالم العربى والاسلامي اليوم وقبل اليوم بعدة قرون مدينة لهذا الامام ، راجعة إليه وإلى كتبه الخالدة ، فهو ـ ولا شك ـ أبو النهضة الاسلامية الحديثة ، وهو ـ ولا شك ـ الواضع لأساسها و قواعدها الراسية الثابتة . ولو أننا أردنا معرفة جميع دعاة الاصلاح فى هذا العصر لوجدناهم جميعا من المتخرجين على كتبه الدارسين لها . وهذا أمر لا يدفع ولا ينكر

٥ ـ ثم لاريب أن هذا الشيخ أول من أبدى عيوب الفلسفات الأعجمية من يونانية وغير يونانية ، وأول من أبدى أضرار مزج هذه الفلسفات بالعقائد الاسلامية الصافية ، وأول من عدد ما نال ايمان المؤمنين من جراء هذه الفلسفات وجراء مزجها بالعقيدة التى مصدرها القرآن والرسالة المحمدية ، وأول من أبدى مخالفتها لنصوص الدين ، ودلل على أنها هي الباطلة عقلا ونقلا ، وعلى أن النصوص هي الصحيحة عقلا ونقلا ، ثم هو أول من هاجم الفلاسفة المهاجمة القوية البارعة ، ووضع القثام من أغلاطهم وأخلاطهم ، وأول من أبدى للمخدوعين المغرورين بهم أمكنة الضعف والنقص فيهم بأساليب مختلفة كثيرة

٦ ـ ثم لاشك أنه هو أول من خرج على ذلك الأسلوب اللفظى المغتصب الأسجاع والأوزان ، الشائع بين العلماء والأدباء قبيل خروجه وفى عصره . بعد أن ركدت العلوم وتناقص العلماء فى عصور الانحطاط والجهل والضعف الشامل كل شيء فى الاسلام لأسباب ذات عدد أصابت الاسلام وأهله اصابات بالغة موجعة . فكان العلماء والكتاب والأدباء أيضا مقيدين بالسجعات المريضة والألفاظ المهلهلة ، الممسوحة بكلف التكلف ، الملونة بألوان البلاغة اللفظية الفارغة . فكانت الأساليب أساليب لفظية لأن اللفظ ومحاولة تزيينه ـ على حساب ذلك الذوق المالك ـ كان

هو المقصود المرعى أولا وآخرا . فكان القول والتأليف يجىء – ولا محالة – ركيكا فارغا هالكا ، لايمكن أن يصل مكان الشعور أو يلامس النفس والقلب والعقل ، وكان غايته أن يطرب الأسماع لتوقيعه سجعاته المتناكرة المتعادية ، فكان أئمة العلماء والأدباء والكتاب خاضعين لهذا العرف البلاغى الميت

أما هذا الامام فانه كان ثائراً على كل بدعة وعلى كل ضعف ونقص ، حتى على بدعة الأسلوب وضعف التأليف ، ونقص الكتابة ، فكانت أقواله وألفاظه وآراؤه ومعانيه لاتتقيد إلا بوثاق الحق والقوة ، ولا تخضع إلا للبرهان والحجة ، أما الناس وعاداتهم وعرفهم الخاص والعام ومبتدعاتهم وأهواؤهم : أما ذلك كله فليس جديراً بأن يقيد المرء به نفسه وعقله ودينه وألفاظه وعاداته . فكان لذلك يرسل ألفاظه كما كان يرسل معانيه وآراءه حرة طليقة غير مقيدة إلا بالمعنى الذى أراد أن يفهمه الناس وأن يعلموه . فالمعنى هو المقصود والمراد ، وأما الألفاظ فمعارض له وأزياء فيجب أن تكون تابعة له خاضعة . فكما يجب أن يكون الثوب ملائما لذلك الجسم المعروض فيه وأن يكون بقدره فكذلك يجب أن يكون اللفظ ملائما لمعناه وبقدره أيضا . ولهذا جاءت أساليبه أساليب علمية محكمة مفهومة المعنى بسهولة ويسر ووضوح ، بعيدة عن التكلف وعن الزخارف اللفظية المشوشة ، بعيدة عن خدمة الأوزان والتوقيع الأدائى الآلى ، لاتكلف قارئها فى فهم معناها والاحاطة بمرماها إلا بقدر ما يكلفه انتقال المعنى القريب من صفحة هذا الوجود الى صفحة قلبه ونفسه . ولهذا أيضا كانت مؤلفاته خالدة لأنها تلامس شعور القارىء قبل أن تمر بأذنه ، ولأنها قد أفرغت فى قالب الفطرة الالهيـة الأولى ، فما من قارىء لها إلا ويجد فطرته المولودة مع شعوره وفهمه وعلمه وجسمه ، فهى حبيبة الى كل قلب وهى خالدة ما خلدت القلوب والمشاعر

ولو أنك عرضت فصلا من فصوله العلمية التى كتبها منذ أكثر من ستة قرون

على كتاب هذا العصر وعلمائه لما حسبوا ذلك إلا من توليد عصرهم ومن نتاج الأقلام والألباب العصرية . وهذا هو آية الخلود ، ومثل هذا هو الجدير بالبقاء والذيوع من الكلام العالي ، فهذا الامام مجدد فى الاسلوب والتأليف كما كان مجدداً فى الآراء والنظريات والمعانى

وقد تأثر صفوة تلاميذه أساليبه كما تأثروا معانيه واصلاحاته ، فكانوا بذلك ممتازين .

هذه بعض النواحى الاصلاحية التى قدمها هذا الامام الى الاسلام والمسلمين ، والى العرب والعربية ، فما أعظم بركته ! وما أحسن أثره فى نفسه وفى أمته !

المقادح فى ابن تيمية

وأما ما ذكره هذا الشيعى وما ذكره غيره من المقادح فى هذا الشيخ فيقال فى الجواب عن ذلك : ان المقادح التى ذكروها قسمان : قسم كذب على الرجل لا أصل له ، وقسم صحيح النسبة اليه ولكن الحق هو ما قاله فيه . أما قسم الأكاذيب فهو ما ذكروه من أنه كان يقول ان علياً كان مخذولا حيثما توجه ، وأنه عالج الخلافة مراراً ففاتته ، وأنه كان يقاتل للرئاسة لا للديانة ، وأنه كان يحب الملك ، وأن عثمان كان يحب المال ، وأن أبا بكر أسلم شيخاً يدري ما يقول وأن علياً أسلم صبياً لايدرى ما يقول وأن الصبى لايصح إسلامه ، فهذا كله كذب صريح ، وكذلك ماذكروه من أنه كان يبغض آل البيت النبوى ، وأنه كان يسعى للخلافة والامامة ، وأنه كان ينسب الجسم والجهة الى الله ويضلل من لم يقل ذلك ، وأنه كان يقول بأن شيئا من المخلوقات قديم . فهذه الأمور كلها كذب صريح وبهتان عند الله جزاؤه . ولقد صرح فى أكثر كتبه المعروفة المقروءة بانكار هذه التهم وإبطالها والرد على القائلين بها ، فقد أنكر صراحة فى غير ما كتاب من كتبه القول بأن الله جسم أو أنه فى جهة ، ولكن يقر ما جاء فى النصوص من الاستواء

والعلو المطلق ، لا يزيد ولا ينقص ، وصرح كذلك فى جميع كتبه بأن كل ماسوى الله وصفاته حادث كائن بعد عدم ، وقد رد ردوداً باهرة على الفلاسفة وغيرهم من القائلين بقدم شىء من العالم ، وألف الحجج الخالدة القاهرة على حدوث العالم وجميع أجزاء هذا الكون ، وقد دافع عن الصحابة عموما وعن آل البيت خصوصا فى مالا نعلمه من كتبه ولا سيما كتاب « منهاج السنة » الذى ردّ به آثام الشيعة وعدوانهم على الصحابة وعلى المسلمين ، وأحرق شبهات النواصب القادحين فى آل النبى ﷺ ، وشبهات الشيعة القادحين فى الصحابة وفى الأمة الاسلامية عامة .
وما كتب كاتب – فيما نعلم – دفاعا عن الصحابة كافة ، وعن المسلمين كافة مثله فى كتابه « منهاج السنة » وفى غير هذا الكتاب من كتبه الذائعة الاسم ، المطبوعة وغير المطبوعة . وقد دافع خاصة عن الخليفة المبين الأمين عثمان رضى الله عنه وحرق مقادح الشيعة الظالمة فيه ، وحل ما نسجوه من التهم والمذام حول دينه وعدله وإيمانه حتى انقشع ذلك الجهام المدلهم عن سماء صحابة رسول الله ﷺ وأركان دينه ودعوته رضى الله عنهم جميعا . وقد كانت مقادح الرافضة قبل ذلك غشاء كثيفا حائلا بين الأبصار وبين محاسن أولئك الصحابة الكرام

وأنا أشهد لله شهادة حق أسأل عنها بين يدى الله يوم القيامة أننى لا أعرف عالما أحسن الدفاع وصدق الذياد عن صحابة رسول الله ﷺ وآل بيته مثله فى كتاب منهاج السنة ، وأشهد لله شهادة حق وصدق أسأل عنها يوم الدين أننى لاأعلم من رد عدوان الرافضة وعدوان النواصب على الصحابة وعلى آل النبى ﷺ مثل هذا الامام الربانى

فهذا القسم كله كذب ظاهر على الشيخ ، وعند الله جزاء الكاذبين . ومن شك فى هذا تحديناه وطلبنا اليه أن يدلنا على شبهة واحدة من هذه الشبه فى كتاب من كتبه ، بل ليدلنا على شبهة من هذه الشبه لم يصرح هو بضدها وبإبطالها وبالرد

على القائلين بها فى سائر مؤلفاته . أما ان يقول حاقد ذو ضغن ان فلانا كان كذا وكذا ، وكان فى دينه وعقيدته كيت وكيت - فى حين أن جميع كتبه تنادي بخلاف قول ذلك الحاقد - فأمر لا يعبأ به العاقل ولا ينعم به الحق عينا

ومن مصائب الدنيا والله أن يقول هذا الشيعى ان ابن تيمية منافق لأنه قال فى عثمان ما ذكر من حب المال فى حين أنه هو وإخوته الشيعة يكفرون عثمان ويكفرون أبا بكر وعمر وعائشة وغيرهم ، ويقولون فيهم أعظم الأقاويل وينسبون اليهم من الآثام ما قد يتأثم من غشيانه أعلام الفجار والكفار ! ويل للانسان ! فما أظلمه وما أجهله !

واذا كان من قال ان عثمان يحب المال وأن عليا كان مخذولا وأنه كان يحب الرئاسة والملك ، اذا ما كان قائل هذا منافقا وزنديقا ، فما يكون من قال فى أبى بكر وعمر وعائشة وفى سائر الصحابة والمسلمين ما ذكرناه في مقدمة هذا الكتاب وفى أثنائه ؟ !

هذا جواب القسم الأول من القادح التى هي كذب واختلاق . وأما القسم الثانى من القادح التى هى صدق ولكنها ليست مقادح وانما هى فضائل قائمة فهى انه يقول بعلو الله على خلقه وعرشه ، وأنه يؤمن بجميع ماجاء فى الآيات والأخبار الثابتة من صفات الله كالنزول الى سماء الدنيا ، والمجيء والقرب والوجه واليدين والأصابع ، والرضا عن المؤمنين والصالحين ، والغضب على الظالمين والكافرين وكالمحبة للحق والايمان والاستقامة ، والكره للباطل والفسوق والمروق ، وأنه تعالى يتكلم بحرف وصوت - كما دلت عليه الدلائل - فهذه الصفات وغيرها وغيرها من أوصاف الكمال لله يؤمن بها هذا الامام إيمانا خالصا قويا ، ويدعو الى الايمان بها جميع المؤمنين ويخطىء من لم يؤمن بها ، ولكنه يؤمن بها مع التنزيه ورفع التشبيه كما يؤمن بذاته تعالى وأسمائه وسائر صفاته مع التنزيه ورفع التشبيه . فلا يقول :

ان هذه الصفات لله تشبه صفات المخلوقات . كما لا يقول : ان ذاته تعالى تشبه ذوات الخلائق ، ولا ينكر هذه الصفات خوف التشبيه وبحجة التنزيه . كما لا ينكر ذات الله وأسماءه وصفاته الأزلية خوف التشبيه وبحجة التنزيه ، واذا كان ممكنا الايمان بالذات والحقيقة والوجود وسائر مالا يمكن الانكار له من الصفات ـ مع المحافظة على التنزيه والاستمساك به ـ كان ممكنا الايمان بهذه الصفات المذكورة مع المحافظة على التنزيه والاستمساك به أيضا ، ولو كان الايمان بهذه الصفات قاضيا بالتمثيل ـ كما يزعمون ـ لكان الايمان بالذات والوجود والحقيقة قاضياً أيضا بذلك فالذات والصفات فى هذا المعنى سواء لزوما واقتضاء ، والتفريق بينهما غلط لا حيلة فى دفعه أو رفعه ، ولا ريب أنه اذا لم يكن المؤمن بالذات لله والوجود و بعض الصفات مشبها أو ممثلا لم يمكن أن يكون المؤمن بسائر الصفات الثابتة مشبهاً ولا ممثلا ، وأنه اذا ما كان المؤمن بسائر الصفات مشبها وممثلا فلا بد أن يكون المؤمن بالذات و ببعض الصفات كذلك أيضا ، ومن المحال عقلا ونظرا وجدلا الخلاص من هذا الالزام . ولو استعان المخالف بالجن والانس وكل ماخلق الله على أن يجد مخرجا من هذا الالزام لما وجده ، ولو أعير عقله عقول العقلاء جميعا ثم جهد على أن يظفر بفرق بين الأمرين لاعياه ذلك الفرق

فابن تيمية ـ كسائر السلف والعلماء المستمسكين بالنصوص والآثار ـ يؤمن بما جاء من الصفات لله رب العالمين بلا تفريق بين صفة وصفة ، ولا بين نص صحيح ونص آخر صحيح . إذ كل ذلك من عند الله . ثم يعلم بعد أن الايمان بذلك ليس فيه شىء من تشبيه الله بالحادثات والمخلوقات ، وليس فى شىء من ذلك نقص ولا ضعف لا يليق بالله . بل ثم يسلم أن الايمان بذلك هو عين التنزيه والتقديس والاجلال والاكبار لله رب العالمين ، ويعلم أن المعطلين المجردين هم المشبهون الممثلون حقا . إذ لولا شعورهم بذلك ، وشعورهم بأن النصوص بظاهرها تشبيه

وتمثيل لما فزعوا الى التأويل والتجريد ، زاعمين أنهم ما فزعوا إلا من تشبيه الله وتمثيله بخلقه ، ومن وصفه بصفات الحدوث التى دلت عليها نصوص الكتاب والسنة . فالتشبيه أولا قد وقر ـ ولا بد ـ فى نفوس المؤولين المنكرين . فالذين ينكرون على ابن تيمية وغيره من السلف الصالح الايمان بالصفات الثابتة النصوص ويزعمون أنهم ان آمنوا بذلك كانوا مشبهين ـ فى حين أنهم هم يؤمنون بذات الله ووجوده وأنواع أخرى من صفاته ، ولا يرون أنهم شبهوا ولا مثلوا ـ غالطون غلطاً فاحشاً ظاهرا ، وتحقيق هذا البحث قد ألممنا به فى ثنايا هذا الكتاب وأول هذا الفصل

إذن شيخ الاسلام ابن تيمية يؤمن بصفات الله الواردة فى النصوص الثابتة ايمانا قويا حازما ويدعو الى الايمان بذلك بلا تفريق بين صفة وصفة ، كما يؤمن السلف قاطبة ، وهذا من حسناته لا من سيئاته

وأما قوله « ومنهم من ينسبه الى الزندقة لأنه قال ان النبى عليه الصلاة والسلام لا يستغاث به » فيقال فى جواب ذلك أولا انه لم يقل أن النبى لا يستغاث به مطلقا حياً وميتا في ما يقدر عليه ومالا يقدر عليه . بل الذى قاله ودونه فى جميع كتبه وشهره فى الفصول الطوال هو أنه لا يستغاث بالنبى عليه السلام ولا بغيره فى مالا يقدر عليه إلا الله من ضروب الحاجات وضروب المطالب العليا . كما لا يستغاث به بعد وفاته وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، ولا وهو غائب لا يسمع الداعى ولا يسمع دعاءه ولا يقدر على اجابته عادة . أما فى الحياة فلا خلاف فى جواز الاستغاثة به فى مايقدر عليه من الشؤون والحاجات التى جعل الله له القدرة على أن ينفع فيها شيئا . بل ولا خلاف فى جواز الاستغاثة بسائر المؤمنين فى ذلك فضلا عن أكرم الخلق على الله وعلى المؤمنين ، وكذلك فى الدار الآخرى فى مايقدر عليه . فهذا كله لا ينكر منه ابن تيمية شيئا . بل لقد ذكره وذكر

جوازه ووجوبه أحيانا فى جميع مؤلفاته ، وهذا أمر لم يختلف المسلمون فيه قط فالقول بأنه ينكر الاستغاثة بالرسول إطلاقا حيا وميتا قول كاذب ، والمخالف نفسه يعلم أنه كاذب ، وأنه خلاف مذهب الرجل المعروف

ثم يقال ثانياً : كيف يكون قائل ذلك ـ لو فرضنا أن أحداً قاله ـ زنديقاً وهو لفظ حديث نبوى مشهور ، وقد ذكره الشيخ فى كثير من كتبه ؟ والحديث هو أنه كان فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعض المسلمين : لنستغث برسول الله من هـذا المنافق ، فكان رد النبىُ عليه السلام : « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » وإذا كان المتكلم بالنصوص زنديقاً فما يكون المسلم المؤمن ، وبماذا يتكلم الصدّيق الولى ؟ ! نعوذ بوجه الله من سوء المنقلب

هذا ، وليعلم أن كمال الأنبياء وغيرهم من عباد الله الأبرار ليس فى أنهم يغيثون الناس ويقضون حاجات الخلق ، ويقدرون على الاعطاء والمنع والضر والنفع ولا فى أنهم يسألون ويستغاثون ويدعون . ليس كمال الأنبياء والصالحين فى شىء من ذلك حتى يكون منكر ذلك منكراً كمالهم وفضلهم وشرفهم ، ولكن كمالهم وفضلهم وشرفهم فى أن الله جعلهم موضع سره وهدايته ورسالته ، وجعلهم الهداة اليه والدلال عليه ، المعرفين لمهابط رضاه ومواقع سخطه . فمن أنكر هـذا كان ـ ولا ريب ـ منكراً قدرهم وشرفهم وفضلهم قادحا فيهم أيضاً ، لا من أنكر الاستغاثة بهم ، وأنكر قدرتهم على إغناء العباد وقضاء حاجاتهم ومآربهم ، وهـذا لا يتنازع فيه العارفون بالإسلام وبأصل دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهذا ما دلّ عليه الكتاب والسنة جملة وتفصيلا . ولهذا كان أعظم أصحاب النبى عليه السلام أقل الناس سؤالا له واستجداء ، وكان الأعراب والجفاة وغلاظ الطباع أكثر الناس سؤالا له واستغاثة به ورغبة فى عطاياه ومنحه ، وكانوا يتفننون فى اقتراح المسائل عليه واقتراح المطالب والحاجات المختلفة ، وقد يذهب الضلال

وضآلة العقل والفهم بكثيرين الى أن القدرة على الأمور المستحيلة عادة وشرعا مقارنة للنبوة ومعنى النبي ، فكانوا يذهبون الى أن النبي هو الذى يستطيع أن يصنع لهم ما يريدون وما يشتهون وما يتمنون على دنياهم وتقترحه عليهم شهواتهم وأنفسهم ولهذا كثيراً ما طالبوه بمعجز المطالب كايجاد الكنوز والأنهار والجنات فى الصحارى المقفرة وأمثال ذلك من المطالبة برقى السماء وانزال الملائكة ، والكتب المكتوبة ، الى آخر ما قصه القرآن من مسائل المعاندين الكافرين للانبياء عليهم السلام . وهذا كله مبنى عندهم على أن النبي هو القادر الفعال لما يريد المعطى لما يسأل ويطلب ويقترح عليه ، ولأجل هذا كان جواب الله عن رسله أمثال قوله : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » « انما أنت منذر ولكل قوم هاد » « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » وهذا كله رد على أولئك القوم الذين يريدون من النبي والنبوة نيل المآرب الدنيوية والاغاثة والغوث . . ولكن وظيفة النبوة هي غير ذلك ، هى أسمى وأجل ، هى وظيفة التعليم والارشاد والهداية الى الله ، والى الصلاح والفلاح ، والى كسر ناموس الشهوات الطاغى العنيف ، والى الأخذ بيد الروح والمعانى الروحية لتنتصر على المادة والماديات ، فناموس النبوة مضاد لناموس الشهوات المادية ، ملطف من حدته وعنفه ، فاذا ما عزّت دولة الأرواح والمعانى الفاضلة ذلت - ولا محالة - دولة المادة الشهوانية بعنف وشدة ، هذه هى وظيفة النبوة

أما الاعطاء والمنع والخلق والايجاد والاغاثة والغوث ونحوه ، فذلك كله لله رب العالمين لا شريك له ولا معين ، وما كان لله لا يصح أن يضاف الى خلقه ولا أن يطلب منهم ، ومن فعل ذلك فقد ضل وجهل ، فيجب التفريق بين الحقين : حق الله وحده وحق رسله وأنبيائه وعباده جميعا ، والضلال العظيم هو الخلط بين الحقين ، أو إعطاء هذا حق هذا

إذن ليس الزنديق هو الذى يقول: ان الأنبياء - بل والخلق جميعاً - لا يستغاث بهم فى ما لا يقدر عليه الا الله وحده ، وانما ذلك هو المؤمن حقا ، العارف بحق الله وحق عباده ، المعطى كلا حقه ، لا خلط ولا ضلال

هذه هى جملة المقادح التى حورب بها هذا الامام ، وأراد المخالفون أن يبلغوا بها ما يشتهون من ايذاء دينه وعقله وعلمه وسمعته ، وان القارىء المنصف حكما عادلا من نفسه يحكم بين هذا الشيخ وبين خصومه الشانئين بعد أن وضعنا بين يديه ما زعموه له من السيئات والعيوب ، وقليلا مما كان له من الحسنات ، وان الحق لا يضيع بين الله والناس ، وان المفلس حقا ، المغبون حقا ، هو ذلك الذى أعدم من الفضائل والحسنات ، فراح يعادى أهل ذلك انتقاما لنقصه وعيبه من كمال الكاملين وفضل الفاضلين

ماذكره ابن بطوطة عن ابن تيمية

يوجد هنالك فى رحلة الرحالة المشهور ابن بطوطة حكاية عن ابن تيمية اتخذها الخصوم حجة على ما يذهبون اليه من اتهام الرجل واتهام دينه وعقيدته . وخلاصة هذه الحكاية ما يأتى قال : وكان فى دمشق الشام من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيمية كبير الشام ، يتكلم فى الفنون الا أن فى عقله شيئا ، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، وكان يعظهم على المنبر . وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فحبس ، فألف فى السجن تفسيراً للقرآن سماه « البحر المحيط » يقع فى نحو أربعين مجلداً ، ثم أطلق من السجن فعاد الى وعظ أهل دمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ، فكان من جملة ما تكلم به أن قال : ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا ، ونزل درجة من درج المنبر ، فأنكر عليه فقيه مالكى ، فقام الجمهور الى هذا الفقيه فضربوه بالنعال

والأيدى ضرباً شديداً ، ثم حملوه الى دار قاضى الحنابلة فأمر بسجنه وتعزيره ، فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ثم كتب الى الملك الناصر فى ما حدث وذكر له قول ابن تيمية أن الطلاق الثلاث بلفظة واحدة يقع طلقة واحدة وأن المسافر بقصد زيارة القبر النبوى لا يقصد الصلاة وسوى ذلك مما يشبهه ، فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن حتى مات

هذا خلاصة مافى رحلة ابن بطوطة من هذه الرواية والذى يعنينا من الحكاية هو ما ذكر عنه أنه قال ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا . أما ما قاله فى الطلاق الثلاث فقد اعترف له الناس أخيراً بأن ما قاله هو الحق الذى يرجع اليه وقد رجعوا الى العمل بذلك فى محاكمهم الشرعية ، وأما ما ذكر فى السفر الى زيارة القبر الشريف فندع القول فيه الى الباب الخاص به ، وأما ما ذكره فى النزول فهو ما نتكلم عليه هنا فنقول ان هذه الحكاية مفرغة — كما رأيت — فى قالب المدح والاطراء فهو — على ماقيل فيها — من كبار الفقهاء ، وهو كبير الشام ، والناس هنالك كانوا يعظمونه أشد التعظيم ، وهو يتكلم فى جميع الفنون ، وهو لا يدع الاشتغال بالعلوم والتأليف حتى فى أدق الساعات واحرج الأوقات ، وقد وضع وهو مسجون معذب القلب والبدن كتابا في تفسير كلام الله يقع في ما يقارب أربعين مجلدا . والناس يحبونه جداً ويغارون له جدا حتى ان من أنكر عليه شيئا مما قال ضرب واهين وعنف وعزر وسجن وهو من الفقهاء العلماء . هذا ما ذكره ابن بطوطة من كلمات الثناء والاطراء لهذا الامام ، فالحكاية مفرغة فى قالب الامتداح والثناء . أما انه قال ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا فهذا هو مكان الغمز والخطأ لو كان حقا قال ذلك ، ولكننا نقول — واثقين مما نقول — ان الرواية على ظاهرها وسياقها المذكور غير صحيحة ولا ثابتة لأمرين اثنين لاشك فيهما أمر يرجع الى سياق القصة ، وأمر يرجع الى أنها خلاف المتواتر عن الشيخ

فى جميع كتبه . أما مايرجع الى سياق القصة فيقال : لا ريب أنه لو كان قال ذلك حقا لغضب عليه الناس جميعا ، ولوقفوا كلهم منه موقف ذلك الفقيه المنكر المحتج لأن المسلمين جميعا لا يشكون فى أن من قال ان الله ينزل كنزول الخلق ، أو أن صفة من صفات الله تشبه صفة من صفات الخلق فقد ضل ضلالا بعيدا ، ولو كانت الرواية صحيحة عنه كما ذكرت لما عاقب قاضى الحنابلة ذلك الفقيه المنكر الغاضب بل لشكره وجازاه بالامتداح والثناء ، والغضب للشيخ لا أحسبه يبلغ بذلك القاضى الحنبلى أن يذهب يعذب من أنكر تمثيل الله بخلقه من العلماء ، هذا مالا نظنه بذلك القاضى . ثم لو كانت هذه الرواية صحيحة عن الشيخ كذلك لكان كلام ابن بطوطة فيه غير كلامه المذكور فى الرحلة ، وأيضاً لو كانت صحيحة لما استجاز ابن بطوطة ولا ذلك الفقيه ولا غيرهما من الحاضرين الصلاة خلفه . وظاهر القصة أنه صلى بهم الجمعة ، وظاهرها أيضا أنهم لم يدعوا الصلاة وراءه . هذه أمور راجعة الى القصة نفسها والى سياقها تدل بمجموعها دلالة قوية ظاهرة على أن الرواية غير صحيحة بالنص المذكور

وأما الأمور الدالة على بطلان الرواية ، التى لاترجع الى القصة نفسها ، فهى : ان هذه المقالة مخالفة لأقواله التى لاتحصى من التنزيه والأخذ بطريقة السلف الصالح ومخالفة لما علم عنه بالضرورة من أنه لا يقول ان صفة من صفات الله تشبه صفة من صفات العباد ، وهذا معلوم عن الشيخ بالضرورة والتواتر ، وهذا ماصرح به فى ما لايعد من كتبه المطبوعة المشهورة . ومما يدل دلالة لا تكذب على كذب الرواية واختلاقها أنه قد كتب كتابا شرح به حديث النزول الى سماء الدنيا ، وقد طبع الكتاب ، وهو بجملته وتفصيله اكذاب لهذه الرواية ، وقد قال فى مواضع لا نعدها من هذا الكتاب : ان نزول الرب وسائر صفاته ليست كصفات المخلوقات ، ولن يوجد فى هذا الكتاب ولا فى غيره من كتبه لفظ واحد يشير الى

صحة الرواية وإقرار معناها أو يتهاون فى إكذابها وإنكارها ، بل كل ما كتبه إكذاب لها صريح . ولا ريب أن مذهب الرجل يجب أن يؤخذ مما كتبه بيده ومما دونه ليكون رأياً له وعقيدة لا مما يتلقفه بعض الناس عنه من ألسنة الريح ومنطق الهوى والهواء . ولو أن آتيا أتانا وحدثنا عن الامام مالك أو الشافعى أو أحمد أو غير هؤلاء كالبخاري أو مسلم أو ابن حزم أو ابن تيمية أو غيرهم بحديث يخالف ماهو مدون فى كتبهم وما هو معلوم عنهم فى مذاهبهم بالتواتر والضرورة لما كان منا إلا أن نرد ذلك الحديث وأن نكذبه وأن نلج فى تكذيبه وإنكاره ، ولما أجزنا البتة أن يكون ذلك الحديث صحيحا مقبولا ، وهذا أمر لا شك فيه عند جميع العقلاء العارفين بالموازين العقلية

فهذه الرواية كذب على الشيخ لأنها مخالفة لجميع ما كتب فى جميع كتبه ، ولأنها مخالفة لما قاله فى الكتاب الذي شرح به حديث النزول ، فلا يصح الاعتماد عليها بحثا ومنطقا

هذا ما يقال من جهة ثم يقال من جهة أخرى : ان الدلائل على كذب هذه الحكاية كثيرة ، منها أنها لم تذكر فى مجالس مناظرته لخصومه فى الجلسات التى عقدها السلطان له ، ولو كانت صحيحة لأخذه بها مجادلوه ومناظروه . ومجالس مناظراته مدونة معلومة ، ومنها أن الذين ردوا عليه وقدحوا فيه من المتصلين به المواطنين الشانئين له لم يذكروها ، وهى لو كانت صحيحة فذكروها لكانت من أعظم المقادح فيه ، وكانت أقوى من جميع ما ذكروه لأجل امتحان سمعته وعلمه ودينه ، ومنها أن رجلا مسلماً لا يمكن أن يقول ان صفة من صفات الله تشبه صفة من صفاتى ، هذا ما لا يمكن أن يقوله مسلم يؤمن بالله مهما كان نزوعا الى الزيغ والخبال الاعتقادى فضلا عن عالم معدود من أكبر علماء المسلمين . هذا كله يدل على أن القصة على ظاهرها كذب ولا ريب

وحينئذ يقال : هل تعمد ابن بطوطة الكذاية على الشيخ ؟ هذا ما لا نميل اليه وان كان ابن خلدون قد ارتاب فى كثير مما ذكره في رحلته ، ومال الى أن الكذب أو الخلط والنسيان قد داخل ذلك حتى ارتفعت الثقة عن الرحلة بما فيها من غرائب وأخبار ، ذكر ذلك ابن خلدون فى المقدمة ، بل وان كانت دلائل الخلط فى الرحلة واضحة جلية عديدة ، فان فيها أشياء من البعيد جداً أن تكون من الصدق الحق . اننا لا نميل الى التكذيب رغم ذلك كله ، وإذن يقال كيف تخرجون هذه الحكاية ؟ فنقول من القريب أن يكون هنالك حرف سقط من الكلام ، على أن يكون قد قال : « ان الله ينزل (لا) كنزولى هذا » ، فسقط حرف (لا) ، وقد سمعت السيد رشيد رضا رحمه الله يذكر هذا الاحتمال ويميل اليه ، واذا ما اختير هذا الاحتمال التأم سياق القصة وتماسكت أجزاؤها ودانت للواقع وللمذهب الشيخ المعلوم الذى لا يختلف

وها هنا احتمال ثان لا مانع من الذهاب اليه ، وهذا الاحتمال هو أن يكون النسيان قد غلب الرحالة فى هذه القصة ، وهذا قريب لأن الرحلة لم تجمع إلا بعد أن طوّف ما طوّف ، وآب الى بلاده متعب الجسم والنفس بعد الأعوام الطوال المُنسية ، وبعد الأسفار الشاقة المضنية ، ويظهر أنه ما كان يفكر فى جمع الرحلة وجعلها كتابا إلا بعد أن ألقى عصا التسيار واستقر به النوى ، وهذا كله يجعل احتمال النسيان قريبا

هذا ثم انه لم يكن هو الجامع للرحلة المؤلف لأجزائها ، وانما جمعها وألفها تلميذه ابن جزى ، ولهذا يوجد فيها كلام كثير ليس من كلام الرحالة وانما هو من كلام الجامع الراوى ابن جزى . وهذا واضح من قراءة الرحلة

ثم يقال بعد هذا أن ابن بطوطة لم يذكر — على ما فى الرحلة — انه سمع ألفاظ ماذكر من ابن تيمية مشافهة ، وانما زعم أنه قال ذلك فقط . وحينئذ يقال : لعل

غير صادق أبلغه هذه المقالة الكاذبة فخالها حقاً وصدقا ، والله العليم . ولو لم يبق إلا إكذاب ابن بطوطة لعصرنا الى إكذابه لأجل الدلائل المذكورة

القادحون فى ابن تيمية

افخر فان الناس فيك ثلاثة مستعظم أو حاسد أو جاهل

لو أنك أردت أن تترجم موقف الناس ازاء كل عظيم من عظماء هذه الدنيا لما ترجمته بأحسن ولا أصدق من هذا البيت الشعري الصادق . فان الناس ـ مهما اختلفوا طباعاً وجهات ـ ثلاثة رجال ازاء كل عظيم بارز رفيع القدر والجاه رجل معظم مستعظم ، وهذا هو من أفلت من وثاق الجهل وصنوه الحسد . ورجل ثان حاسد حاقد ، وهذا هو من آمن قلبه رغما ، وكفر لسانه رغما أيضا . ورجل ثالث جاهل لا يعرف العظيم ولا العظمة ، لأنهما فوق سمائه وفوق مذاهب عقله ونفسه وطبعه ، فهو يعيبهما ويزدريهما ويحتقرها لأنه لا يعرفهما ولا يعرف قيمهما

فمواقف الناس فى كل الأمم والعصور والبيئات من كل عظيم لا تعدو ثلاثة مواقف : موقف المعظم المعجب ، وموقف الحاسد الحاقد ، وموقف الجاهل الغر وفتش عن كل عظيم فى هذا العالم العجيب فلن تجده إلا معظما محسداً مجهولا ، ولن تجد الناس ازاءه الا معظما أو حاسداً أو جاهلا ، ومن حكم الله البالغة أن كل حق ومحق فى هذه الدنيا لابد أن يكون لهما أنصار وعشاق يصدقون الدفاع عنهما فى هذا العالم الصاخب بالآثام والجرائم . ثم يتولون حفظ ذلك وإبلاغه وإيصاله الى الاجيال الآتية والنائية لتقوم الحجة الظاهرة على الشانئين الجاحدين ، وما من فضيلة فى هذه الارض إلا ولا بد أن يكون لها حاسدون محنقون ، تطرف أعينهم رؤيتها ، وينضج أكبادها استذكارها . حتى ان الناس كانوا ـ وهم الى

اليوم كذلك ـ يستدلون بكثرة الحاسدين على عظم المحسود وكثرة فضائله

وابن تيمية كان أحد هؤلاء العظماء الذين كان لهم مستعظمون معظمون وكان لهم حاسدون حاقدون ، وكان بهم الأغرار الجاهلون ، وقد اقتتلت عليه هذه المعاني الثلاثة : الحسد والتعظيم والجهل أى اقتتال منذهب معناه يفعل فعله في المعاني الثلاثة ويضرم في كل معنى أثره المحتوم . أما المعظمون له المستعظمون فهم كل من سما بنفسه ودينه وأدبه على رذيلة الحسد والحقد ، وارتفع به قدره وجده واستعداده عن وهدة الجهل والغباء ، وأما أعداؤه وخصومه فهم أسرى الحسد والجهل إذ خافوه على مكاناتهم العلمية الجمهورية ، وعلى مناصبهم المادية الدنية ، واذ قصرت أنفسهم عن علم مادعا اليه من الاصلاح والهداية المحمدية فأنكروا أمره وتناولوه بالتجريح والتفكير والتهم الموبقة الكاذبة

فاذا قال هذا الرافضي : ان ابن تيمية قد سب وقدح فيه وكفر وحبس وعذب ومات مسجونا معذبا ، قلنا له : أجل ، وأى مصلح عظيم لم ينله نصيب من ذلك ؟ ! ومتى كان هذا دليلا على فساد أمر الرجل وفساد ما دعا اليه وجاهد لأجل اعلائه ونصرته ؟ ! ونحن لو عكسنا الاحتجاج لكان هذا العكس أهدى وأصدق من احتجاج الرافضي ، وذلك أن المعهود الأكثر أن السلطة تلج بمحاربة المصلح الداعي الى العدل والحق عادة ، وكثيراً ما يصطدم رضا السلطة والزعامة الزمنية برضا الحق وأهله ، وقليل أن تتفق وجهة الحق ووجهة السيف والسوط . وما زال الناس يستدلون بمناصرة العالم الديني للحكومات على فساد أمره وحرصه على الدنيا وزهده في الآخرة والدين ، ولا يزالون يستدلون بمغاضبته الحكومات ومغاضبتها هي اياه ، وازوراره عنها وازورارها هي عنه على صلاح أمره ورغبته في الله وفي الدار الآخرة وفي قول الحق وارغام الباطل والظلم ، ونحن نرى بأبصارنا في الحاضر ونقرأ في بطون الكتب في الغابر أن أكثر العلماء الذين تمتعوا برضا

السلطة وبذهبها وورقها انما نالوا من ذلك بقدر ما فقدوا من دينهم وعقولهم وشرفهم وضمائرم وحرياتهم وعلمهم وآدابهم

وإذن لن يدل تعذيب ابن تيمية وحبسه ومطاردته على نقص فى دينه أو خلل في علمه أو ضلال فى عقيدته ، وان كانت لهذا دلالة كانت على قوة دينه وصلاح أمره وعقيدته واعلان الحق وان رغم كل كاره له

فاذا قال هذا الرافضى أو غيره من الخصوم لهذا الامام : ان العلماء فى عصره أو بعد عصره قد أجمعوا على إكفاره ، واضلاله ، واجتمعوا على الرغبة عنه وعن دينه ومذهبه ، قيل : كلا والله ، وما اجتمع على عداوته وخصومته الا خدام الدنيا ، وحساد الفضائل ، وأحلاس البدع ، وشيع الترهات المخجلة ، هؤلاء الذين اصطدمت شهواتهم ومآربهم بما يدعو اليه هذا الامام هم الذين جدوا فى عداوته وإيذائه والحاق الأذى الأعظم به ، أما العلماء الربانيون الذين يريدون وجه الله وحده ويريدون أن ينتصروا للحق قبل أن ينتصروا لشهواتهم وهوى أنفسهم فقد كانوا من أنصاره المبجلين له ، المعترفين بسبقه وإمامته وديانته وفضله وقيامه لله مقام الصديقين المجاهدين . وقد اجتمع فضلاء المذاهب الأربعة وغيرها وكبارهم على الثناء عليه والاعتراف له بالتبريز فى فنون العلوم وبالقيام بحق العلم قولا وعملا . وثناء الناس عليه ، المعاصرين له والمتأخرين ، لا يجمعه كتاب جامع . وقد ألفت الكتب الضخمة فى تعداد فضائله وفى امتداح العلماء الكبار له ، وقد وضعت فى ترجمته الأسفار الكبار ، ومن الكتب المؤلفة فى الثناء عليه وفى نقل مدح العلماء المعاصرين والمتأخرين له كتاب « الرد الوافر » تأليف شمس الدين محمد بن أبي بكر الشافعى المتوفى سنة ٨٤٢ هـ ، وكتاب « القول الجلى فى ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية الحنبلى » تأليف الشيخ صفى الدين الحنفى البخاري ، وكتاب « الكواكب الدرية فى مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية » تأليف الشيخ مرعى الحنبلى . وهناك

كتب أخرى غير هذه الكتب منها المطبوع ومنها غير المطبوع . والنقول فى هـذه الكتب امتداحاً وثناء على هـذا الامام ، والشهادات له ، شهادات أكابر العلماء والكتاب والأدباء ومدحهم لا يستطاع جمعها فى كتاب واحد . ولشهرة هـذه الكتب وذيوعها نستغنى عن ايراد شىء من ذلك ، ونحيل القارىء اليها . والذى نريد هنا هو أن نقول لهذا الرافضى : ان من الهوى الموبق والانحطاط المسف قوله : « ان العلماء فى عصره حكموا بضلاله وكفره ، وألزموا السلطان قتله أو حبسه » ، أفعمى هذا الشيعى عن هذا الشهادات المدونة فى الكتب الكبار فى الثناء عليه وفى تعداد حسناته ومحاسنه ؟! وكيف يستطيع من يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يزعم أن علماء عصر هذا الامام قد أجمعوا على إكفاره والمطالبة بقتله وقداستطاع رجال عدة أن يجمعوا كتباً ضخمة من شهادات العلماء المعاصرين بالثناء عليه والاعتراف له بالامامة والزعامة العلميـة ؟! ما أغنى الدين والحق عن الكذابة واتهام الأبرياء إذا كان هؤلاء يزعمون أو يظنون أنهم ينصرون الدين ويخدمون الحق ! وماأخلق العلماء بالصدق ومقالة الحق اذا كان هؤلاء ينصبون أنفسهم مناصب العلماء المرشدين ! وما أقبح الكذب ولكن أقبح هـذا القبيح أن يكون ممن يقولون للناس انهم هم المؤمنون وحدهم ، وهم الناجون المستمسكون بخلائق آل النبى ﷺ وحدهم ! ولكن أقبح هـذا القبيح أيضا أن يكون صادراً ممن لم ترضهم سيرة أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة والصحابة الآخرين !

ولا نعلم كيف يتفق قوله هنا انهم أجمعوا على ضلاله وكفره ، وأنهم مع هذا « طالبوا السلطان بقتـله أو حبسه » ؟ فانهم اذا كانوا يرونه كافراً لم يصح أن يكتفوا بحبسه دون قتله بل لا بدمن القتل ، إذ هذا هوحد المرتدين المغيرين لدينهم ! ما أجدر الباطل بالتناقض !

واننا نسأل هذا الشيعى : مَن من العلماء نال من الثناء مثل ما نال هذا الامام

الفذ ؟ ومن من العلماء كتب فيه من المديح والاطراء مثل ما كتب فيه ؟ ومن منهم وضعت فيه المجلدات الكبيرة ثناء ومديحاً قبل هذا الشيخ أو بعده ؟ اننا ندع جواب هذه الأسئلة للواقع الذى لا يكذب ولا يحابى ولا ينافق

نعم نحن نسلم للرافضى أن ابن حجر الهيتمى المكى قد قدح فى ابن تيمية وسبه وأضاف اليه ما شاء من الاتهام والتضليل والاكفار ، ولكننا نقول ان الجواب عن ذلك هو معرفة الفرق بين ابن تيمية و بين ابن حجر الهيتمى و بعد ما بينهما من بون الأفق العلمى . وما مثل قدح الهيتمى فى ابن تيمية إلا كقدح جاهل من جهال الشيعة فى أبى بكر الصديق أو عمر بن الخطاب أو عثمان أو عائشة أو غير هؤلاء من الصحابة وأركان الاسلام ، وما قيمة هذا القدح فى الميزان العلمى الصادق ؟! ثم ان الجواب عن هذا أيضا أن ننظر ما الذى نقمه الهيتمى من ابن تيمية ، وما ضلاله وزيغه لديه ! ان القدح الذى نقله الرافضى عن هذا الهيتمى فى ابن تيمية هو ما زعم أنه كان يقول بالجهة والتجسيم ، وهذا كذب على الشيخ كما قدمنا ، فان ابن تيمية ينكر صراحة القول بالجهة والتجسيم فى جميع كتبه ، ولكنه يقر الاستواء على العرش والعلو على الخلق وينكر ما سوى ذلك من الأقوال المبتدعة فاذا كان قدح الهيتمى فى هذا الامام كذبا صريحا فما قيمة الكذب ؟ ومتى كان الكذب واضعا من قيم حقائق الأشياء الصادقة ؟ ! ثم يقال : ان ابن حجر هذا ، القادح فى شيخ الاسلام ابن تيمية هو القادح أيضا أمرَّ القدح فى الشيعة ، وقد أنضجهم مقادح وملاوم فى كتابيه « الزواجر » و « الصواعق » . فان كان قدحه فى انسان ما يدل على نقص ذلك الانسان وفساده ونقص دينه وفساده كان قدحه فى الشيعة دالاّ على ضلالهم وفساد أمرهم ودينهم ، وإلا لم يدل قدحه فى ابن تيمية على ما أراد هذا الشيعى . فالشيعى على كل حال غير خارج من الميدان إلا بعكس ما أراد

وأما ما نقله عن كتاب « الدرر الكامنة » فنقول له : ان كتاب « الدرر » ليس من تأليف الهيتمى كما زعم ، وانما هو من تأليف الحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث المشهور ، مؤلف كتاب « فتح البارى » شرح صحيح البخارى . ثم نقول : ان الذي فعله هذا الرافضى يدل على خنوعه الفاضح لهواه ، وذلك أن ابن حجر فى هذا الكتاب قد ذكر ترجمة طويلة لشيخ الاسلام ابن تيمية فيها المقادح وفيها الممادح أيضا دأب جميع كتب التراجم الحافلة ، فذكر فى الترجمة ثناء المثنين كما ذكر مقادح القادحين ، وان كان هو لا يرتضى القدح فيه ولا يصدقه ولا يقره ، وإنما نقله استيفاء للبحث وإتماماً للترجمة . أما هو فانه يبالغ فى الثناء على الشيخ وإعظام أمره ودينه وعلمه وذكائه الخارق النادر المثال ، وينقل أقوال التزكية الكثيرة الطيبة فيه ، التى قالها كبار العلماء المعاصرين للشيخ . وفى الترجمة من الثناء والاطراء الشيء الكثير ، ومما ذكره فى الترجمة بعد الثناء الحار الطويل : ان القاضى امام الدين القزوينى وأخاه جلال الدين قالا : من قال عن الشيخ تقى الدين ابن تيمية شيئا عزرناه . وذكر من المنتصرين له من جميع المذاهب ومن كبار القضاة والمحدثين والفقهاء والأدباء الخلق الجم . ومن شاء معرفة ذلك فليراجع الترجمة فى الكتاب المذكور

أما هذا الشيعى فانه فعل فعل من تغلبت خصومته وحقده على دينه وعلى جلال السن ووقار الامامة . وذلك أنه اقتصر قصداً وعمداً من الترجمة الحافلة على المقادح كأنه لم تكن الترجمة سواها ، وكأنه لا مادح لهذا الامام ، ثم ورّى أن ذلك هو رأى صاحب الكتاب فيه وهو يعلم أن الأمر ليس كما ورّى . فكان بذلك صانعا ما لا يصنعه « السيد الأمين » ، وصانعا ما لا يقره الافتخار بالانتماء الى آل النبوة ، والافتخار بالانتصار للحق . وما كان أولياء النبوة والحق إلا المتقون ، وما كان المتقون إلا من يتقون الظلم والكذب والعدوان على أنصار الحق والدين . ويسير

على من أراد أن يعرف ما اختار هذا الرجل لنفسه ولدينه ولسمعته من الظلم للعلم والعلماء أن يراجع هذه الترجمة فى كتاب « الدرر الكامنة »

فابن حجر العسقلانى مؤلف كتاب الدرر الكامنة من المعجبين بهذا الامام المطرين له ، وكل ماذكر من القادح فى الترجمة لم يكن من رأيه ولكنه نقله على عادة الناس من استيفاء الترجمة قدحاً ومدحا

هذا ثم يقال أن لابطال مقادح القادحين فى الشيخ طريقا آخر غير ماذكر وهو طريق صحيح لا ريب فى صحته ، وذلك أن يقال : هبوا أننا لم نظفر بمادح للشيخ ، وأننا لم نجد من قال فيه كلمة خير وثناء وتزكية لا فى عصره ولا فى العصور الآتية من بعده ، وهبوا أننا وجدنا كثيرين من القادحين فيه الخاصمين له الناقمين منه ومن مذهبه وعقيدته وآرائه وعلومه : هبوا هذا كله صحيحا فهل يدل على ضلال الشيخ وفساد أمره واعتقاده ، وعلى أن القادحين فيه صادقون راشدون ؟

والجواب أن يقال : كلا ان شيئا من هذا لايدل على شىء من هذا . وبيان ذلك أن المخالفين والموافقين ، القادحين والمادحين ، متفقون على أن هذه الكتب المشهورة المطبوعة المنسوبة الى هذا الشيخ هى كتبه حقا ، وأنها هى علمه ومذهبه واعتقاده وآراؤه ظاهراً وباطنا ، ومتفقون على أن المآخذ الموجهة اليه هى مادوّنه فى هذه الكتب من آراء زعم أنه بها خالف الجمهور وخالف الحق والاسلام وحينئذ علينا الرجوع الى هذه الكتب والحكم عليه وعلى عقيدته وعلمه بما فيها من حق وباطل وهدى وضلال ، ولا يصح التعويل على ماليس فيها ولا أخذه بما خالفها ، وكل مايقوله الخصوم ويزعمونه لا قيمة له . لأن كتب الرجل هى الحكم الحاكم له أو عليه ، وما دوّنه الرجل بيده فى سائر كتبه هو أصدق شاهد عليه أو له . هذا مالا شك فيه ومالا ريب فى صحته ووجاهته ، واذا علم ذلك كله

قيل لا شك أن المخالفين للشيخ والموافقين متفقون على أن الرجل كان من أصدق الناس دفاعاً عن الدين والحق ، ومن أعظمهم غيرة له ، وأنه كان من أغزر الناس علماً وذكاء ، وأنه كان من أزهدهم فى الدنيا وأرغبهم فى الآخرى ، وهذا كله مادلت عليه جميع كتبه ، وأما ما خالفه الخصوم فيه وما قدحوا فيه لأجله — وهو الموجود فى كتبه — فهو جملة أمور معروفة . أشهرها دعوته الى الأخذ بنصوص صفات الله كالاستواء وغيره بدون تشبيه ولا تعطيل . ثم دعوته الى توحيد الله القاضي بأن الأموات لا يدعون ولا يستغاثون . ثم ما قال فى مسألة الطلاق الثلاث . ثم الحلف به ، أى تعليقه على أمر من الأمور ، الى مسائل أخرى هينة دون ماذكر باعتراف الخصوم له ، وهذه الأمور صحيحة عنه مثبتة فى كتبه لا شك أنه قال بها ودعا الناس اليها بشدة وحماسة ، وهذه هى مايمكن أن يثبته له خصومه من السيئات والمقادح لو كانت هذه سيئات ومقادح . فاذا ماقام الدليل القاهر على أن هذه المسائل من حسناته المشهورة القائمة الواضحة لم يبق فى أيدى الخصوم القادحين مقدح واحد فيه . ومن كتابنا هذا تؤخذ الدلائل على أن الحق قرين هذا الامام فى هذه المطالب العليا المذكورة

أما مسألة الطلاق الثلاث والحلف به فقد رجع الناس الى العمل بما قاله ودعا اليه ، وما كان يقدح فى دينه لأجله ، وقد تكلم الناس هذا العصر فى هذا كثيراً وأشادوا الدلائل على اصابته الحق والرشد . بل رجّموا دلائله على هذه المسائل الاجتماعية الخطيرة . فلم يبق إذن لدى الخصوم من القادح فى هذا الامام شىء يعتد به أو يقام له وزن

هذه كلمات موجزة فى الدفاع عن هذا الامام الفذ ، وفى ابطال مقادح طالما تغنى بها الشنآن والظلم والخصومة والهوى ، وطالما أهين بها العلم والفضل والتقى سطرناها على عجل دون أن نراجع كتابا أو أن نستمير منها حرفا واحدا ، ودون

أن نستعين بترجمة من تراجم الامام الكثيرة المعلومة ، ولم ننقل فى هذه الكلمات كلة مما قاله معاصرو الشيخ فيه من الثناء والامتداح والاطراء لأن ذلك كله مدوّن فى تراجم الأقدمين من تلاميذ الشيخ وغيرهم يسهل على من أراد الاستزادة من ذلك الرجوع اليها والالمام بها ؛ وإنما كان كل غرضنا أن نضم جملا لم يسبق اليها أحد فى ترجمة الشيخ منتزعة من كتبه وعلمه وما أحاط به من زمان ومكان وإنسان ، ونحن نرى أن أصدق التراجم هو ما كان منتزعا من كتب المترجم وعلمه وزمانه ومكانه . أما التراجم التى يقال فيها : قال فلان ، وقال فلان فهى تراجم يكثر أن تكون غير صادقة ، وذلك ان مثل هذه التراجم يبنى غالباً على المبالغة والاسراف فى القدح والمدح والتجريح والتعديل ، وهذه حال أكثر كلام الناس فى من يحبون ويكرهون ويذمون ويمتدحون ، ولم يسلم من هذا النقص إلا قوم خصوا من الله بأن يكونوا موازينه فى الأرض لتوزن بهم معاني الناس وأقدارهم ومعانى غير الناس وأقدارهم ، ولكن هؤلاء الموازين قليل ماهم

وإننا نرجو من الله المثوبة والأجر الجزيل على كل حرف نسطره دفاعا عن هذا الشيخ وعن علمه وإصلاحه ، فانه إن كان ذنب من اعتدى على العلماء المجاهدين عظيما فان ثواب من قام بالدفاع عنهم أعظم ، وان كان شانىء الحق ظالما فان شانىء أهله أظلم

ونحن لا نذكر عالما فذاً لقى من الظلم والأذى والسوء والعدوان ـ فى حين استحقاقه خلاف ذلك كله ـ مثل هذا الرجل العظيم . ولا نعلم سمعة نال منها الحقد والحسد والجهل والخصومة مثل ما نالت هذه الأدواء من سمعة هذا الشيخ العظيم ولا نعلم ذكرى غمطت وأهينت وكبتت ـ وهي من أحق الذكريات بالنشر والاظهار والامتداح ـ كذكراه ، ولكن قضت حكمة الله الغالبة القاهرة ان العدل لا بد أن يأخذ مجراه ، وإن طالت أيام الظلم والجور ، حتى يقال متى نصر الله ؟!

العبرة فى حياة هذا الشيخ

نشأ هذا الشيخ طريداً غريباً ، ثم شبّ فقيراً معوزاً ، ثم اكتهل وشاخ مطارداً معذبا ، ثم لج به تقادم السن وخصومة الخصم حتى أودع السجن وحرم لذة الحرية ولذة التطواف لهداية الناس ، وحيل بينه و بين القلم والقرطاس ، خيفة أن يقيد اصلاحه وعلمه ودينه ، فحرم بذلك أعظم اللذات وأشرفها عليه . وهكذا ظل تحت تقادم السن وكابد هذا الظلم ، حتى فزعت روحه الى الله فى سمائه تشكو اليه ظلم الانسان الانسان ، وجور الباطل على الحق ، مخلفاً وراءه ما استطاع أن يخلف من العلم والاصلاح ، منزويا فى بعض زوايا القلوب وعلى صفحات الأوراق . فعاش ما عاش فى هذا العالم بعيداً عن الدنيا وعن أهلها وعن لذاتها ومتعها ، بعيداً عن السلطان وعن أهل السلطان ، قليل الأنصار والأعوان من حملة السيف والسوط ومن أهل الثراء والجاه الكاذبين الظالمين القائمين على غير تقوى الله وعلى غير الحق حتى استطاع الأعداء الظالمون أن ينالوا منه وأن يظلموه وأن يتمادى ظلمهم إياه فلا ينقطع حتى يبعث الله اليه رسولا من رسله فيستخلص روحه الزكية من بين جدر سجن الظالمين وعلى أعين حرسه . هذا ما كان نصيبه من هذه الدنيا

أما خصومه وظالموه ومعذبوه فقد كانوا ينتقلون - بينما كان ينتقل هو بين السجون ومطاردة المطاردين - بين الآكال الشهية ، والأثواب الفضفاضة ، والفرش الرفيعة ، والقصور الضخمة الفخمة ، ويخطرون بين السيف والصولجان فى الخول والعبيد والعديد بين الآمر والنهى . وهذا ما كان من نصيبهم فى هذه الدنيا فماذا كان ؟

نعم . دار الفلك دورات ، ودار بدورته كل شىء فيه فاذا الظالم والمظلوم ، واذا الشيخ والخصوم ، واذا كل شىء رهين أمر الله المحتوم . انقطعت اللذات والشهوات

وتحطم السيف والصولجان تحت « عجل » الفلك الدوّار ، وتداعت تلك القصور وتهاوت تلك السجون ، وذهب كل شيء وأمعن في الذهاب والخفاء ، وأمعن الفلك في الدوران أيضا ، فكان فى كل دورة من دوراته يقذف بخصوم ذلك الشيخ الجليل المظلوم قذفة قوية الى عالم الفناء وظلمات الخفاء ، ويقذف بالشيخ الجليل المظلوم قذفة أقوى وأشد الى الحياة والى الظهور والبروز ، وكان فى كل دورة من دوراته يحطم أثرا من آثار أولئك الخصوم تحت « عجلاته » ويظهر أثرا من آثار ذلك الشيخ على رغم الباطل وحداته . فمازال الشيخ يحيي وخصومه يموتون ، ويظهر وهم يختفون ، حتى صار هو فى موته أحيي منه فى حياته ، وصار فى بطن الأرض أظهر منه على ظهرها ، وحتى صار خصومه بعد حياتهم أفنى منهم قبل الحياة ، وبعد وجودهم أخفى منهم قبل الوجود ، حتى اذا بقارىء يقرأ قول الله : « فاما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » واذا بهاتف يهتف وأكثر العيون نائمة : أيها العلماء ! انما هما أمران ، دنيا ودين ، أما الدنيا فبئست المرضعة ثم بئست الفاطمة ! انما هى كالحبيبة التى قيل فيها :

ويلاه ان نظرت وان هى أعرضت وقعُ السهام ونزعهن أليم

ان الدنيا كلها بمالها من شرف ومجد وخطر لا تعدو أن تكون حاجة الجسم ، حاجة البطن ، حاجة ما دون البطن ، حاجة أغبى حيوان أعجم فى هذا الوجود . انما الدنيا كلها بمادحها ومحاسنها لا تتجاوز أن تكون ذرات متنقلة طوّافة مرت بأجسام هذا الوجود ومواضع شهواته ، واستمتع بها هذا الوجود من حيوانه أرذله وأشرفه ، ومن أناسيه أرذلهم وأشرفهم ، ومن نباتاته أرذلها وأشرفها

فهل يدري الآكل والشارب ماذا يأكل وماذا يشرب ؟ لعله لو درى ذلك لخفف من غلوه وغلوائه فى هذه الدنيا : دنيا المآكل والمشارب . . . انما الدنيا هى الدنيا

وأما الدين فهو لله ، منه نزل وإلى جلاله يصعد ويعرج ، أنزله ووضعه فى ذلك المكان المحفوظ « القلب » ليحفظه من طغيان الجسم ومكروه الذى هو الشهوة لتكون شهوته الفضيلة التى هى ثمرة الدين ، ولتظهر فيه بعض آثار الإلهية وآثار العبودية الصادقة الوحدة لترحض ما ترحض ، وتمحو ما تمحو من ظلام هذه الارض وظلمها ، ولتخفف ما تخفف من كلب الاعضاء الفاسقة فى هذا الانسان ، ولتحد من طغيانها واغتلامها ، ولتنثر عليها من برده وبرده ما يلطف اضطرامها ولهيبها المحرق لمكان الفضيلة

أيها العلماء ، إنما العالم ملك أو شيطان ، وما من شىء فى هذا الوجود نفيسه كنفيس العلماء وخسيسه كخسيسهم ، وما أعز العلم محروما من الشهوات وما أذله مغموساً فيها ، وما أخسر العالم صفقة يبين بعلمه لصوص هذه الأرض « الشرفاء » ليصيب الفضلات مما يسرقون وينهبون على حساب علمه المزيف وما أربحه صفقة ينفق علمه ليصيب رضا الله ، وليخلص به الى مائدته المعدّة لمن صاموا عن موائد هؤلاء اللصوص « الشرفاء »

ويح العلماء ! ان فى استطاعة العالم أن يهز أعظم عرش فى هذا العالم لو أنه صان علمه وضن به على غير الله ثم قام بحقه !

أيها العلماء . انظروا ، انظروا ، كيف عاش من مات ليحيى علمه ، وكيف مات من عاش ليحيى شهوته ! انهما مثلان ما أعظمهما ! أجل ، صدق الله العظيم « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض »

عبد الله على القصيمى

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى إن شاء الله

فهرس

الجزء الأول من كتاب الصراع بين الاسلام والوثنية

صفحة

صفحة

كتب المؤلف

١ البروق النجدية

٢ شيوخ الأزهر

٣ الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم

٤ مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها

٥ نقد كتاب حياة محمد

٦ الثورة الوهابية

رقم الإيداع ٣١٥٦ / ١٩٨٢

مصنع القاهرة للظروف والطباعة

امام المسجد الحرام يسجل قصيدته عن :

الصراع بين الاسلام والوثنية

لم نجد أبلغ من ان ننقل سطورا من القصيدة البارعة التى كتبها الاستاذ الجليل الشيخ عبد الظاهر ابو السمح امام المسجد الحرام وخطيبه ومدير دار الحديث بمكة المكرمة فى هذا الكتاب لنقدمها ..
يقول الاستاذ الشيخ :

الا فى الله ما خط اليراع ... لنصر الدين واحتدم الصراع
« صراع » لا يماثله صراع ... تميد به الاباطح والقلاع
صراع بين إسلام وكفر ... يقوم به القصيمي الشجاع
خبير بالبطولة عبقرى ... له فى العلم والبرهان باع
يقول الحق لا يخشى ملاما ... وذلك عنده نعم المتاع

اعبد الله من على الاسارى ... واطعمهم هدى فهمو جياع
ابنت عوارهم وصرعت منهم ... اكابرهم ، ولم ينج الرعاع
لقد احسنت فى رد عليهم ... وجئتهم بما لا يستطاع
لقد كنا نعد الرفض جرما ... فبين كفره هذا « الصراع »
كتاب قد حوى علما غزيرا ... له من نور صاحبة شعاع

الا لله درك يا ابن « نجد » ... كبت الخصم ، فانقطع النزاع
وكم لك من مواقف خالدات ... بها للحق عز وارتفاع
« بروقك » فى سما الحق تعلو ... وفيها للذى عمى انتفاع
« وفصلك » ما يزال يشع نورا ... وفى راس العدى منه انصداع
« ونقدك » هيكلا احلى واحلى ... به للناس ما مرضوا انتفاع

لقد رابطت فى مصر فاغنى ... لعمرى منك عن جيش دفاع
وكم سيف لدى الهيجاء ينبو ... ولا يجدى بها الا اليراع
وان يراعك السيال سيف ... إذا ما شمته اندكت قلاع
هدم واسلم لاهل الحق تقضى ... على من ليس عندهم اتباع

عبدالظاهر ابوالسمح

مكة : عام ١٣٥٧

الصراع بين الإسلام والوثنية

تأليف

عبد الله علي القصيمي

الجزء الثاني

الخميني يسمع

نداء ورجاء وتذكير مخلص للخميني ولأهل عقيدته :

كم هى خطيئة معاداة من نصروا الدين ونشروه بادعاء الانتصار والانتقام لمن ارادوا نصره ونشره

وكم هى خطيئة أن يشوه الدين بتحويله الى بغضاء وأحقاد وعداوات وعدوان وحروب بزعم تجميله ونصره ونشره

وكم هى خطيئة أن يسحب من النفوس المحبة للمحبة والسلام .. المحتاجة الى المحبة والسلام بحجة غرسه وتوكيده فى النفوس بالرصاص والخناجر والسيوف

ما أنذل وأفجر وأكفر البغضاء والاحقاد والحروب باسم المحبة والسلام . باسم السلام .. باسم الاسلام

الطبعة الثانية

القاهرة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م



الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٧ م
الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

رقم الايداع بدار الكتب
٥٦٣١ / ١٩٨٢

﴿ تقريظ الجزء الأول من كتاب الصراع ﴾

ننشر فى ما يلى هذه القصيدة البارعة التى قرظ بها الاستاذ الجليل الشيخ عبد الظاهر أبو السمح إمام المسجد الحرام، وخطيبه، ومدير دار الحديث بمكة المكرمة الجزء الأولّ من كتاب « الصراع » قال حفظه الله :

ألا فى الله ما خط اليراع ... لنصر الدين واحتدم الصراع
« صراع » لا يماثله صراع ... تميد به الأباطح والتلاع
صراع بين إسلام وكفر ... يقوم به القصيمىّ الشجاع
خبير بالبطولة عبقرى ... له فى العلم والبرهان باع
يقول الحق لا يخشى ملاماً ... وذلك عنده نعم المتاع
يريك «صراعه» أسداً هصوراً ... له فى خصمه أمر مطاع
كأن بيانه سيل أتىّ ... تفيض به المسالك والبقاع
تسايره جنود الحق حتى ... لتخشاه الأساود والسباع
إلى صرعاه فانظر كيف أمسوا ... عليهم من مذلتهم رقاع
فبعضهم أسير أو قتيل ... و بعضهم يصيح ولا دفاع
أعبد الله منّ على الأسارى ... وأطعمهم هدًى فهمو جياع
أبنت عوارهم وصرعت منهم ... أكابرهم، ولم يتج الرعاع
لقد أحسنت فى رد عليهم ... وجئتهم بما لا يستطاع
لقد كنا نعد الرفض جرماً ... فبين كفره هذا «الصراع»
كتاب قد حوى علماً غزيراً ... له من نور صاحبه شعاع
يرد به على الضلال طراً ... و ينقض ماافتروه وما أذاعوا
و يصلى الرافضى به سعيراً ... تلظى، مالها عنه انقطاع

يخزى كل ذى رفض غوى | خلاصة دينه السوءى خداع
يسبون الصحابة خير صحب | وأزواجَ النبى ولم يراعوا
ومن شهد الرسول لهم بفوز | بما ضحوا بأنفسهم وباعوا
ويحمل قلبهم بغضاً شنيعاً | لخير الخلق ليس له قناع
يقولون : الأمين حبا بوحى | وخان . ومالهم عن ذا ارتداع
فهل فى الأرض كفر بعدهذا | وحزبهو لمن يهوى متاع
فما للقوم دين أو حياء | بحسبهم من الخزى «الصراع»
ألا لله درك يا ابن « نجد » | كبت الخصم ، فانقطع النزاع
وكم لك من مواقف خالدات | بها للحق عز وارتفاع
« بروقك » فى سماء الحق تعلو | وفيها للذى عمى اتضاع
«وفصلك» مايزال يشع نوراً | وفى رأس العدى منه انصداع
«ونقدك» هيكلاً أحلى وأحلى | به للناس ما مرضوا انتفاع
وكل ردودك الحسنى متاع | تلذ لمن له فيها استماع
ومنها مادحرت به «شيوخا» | لهم فى الدين جهل وابتداع
لجاهد فى سبيل الله تؤجر | من الرحمن إن قوم أضاعوا
لقد رابطت فى عسر فأغنى | لعمرى منك عن جيش دفاع
وكم سيف لدى الهيجاء ينبو | ولا يجدى بها إلا اليراع
وان يراعك السيال سيف | إذا ما شمته اندكت قلاع
فدم واسلم لأهل الحق تقضى | على من ليس عندهم اتباع

عبد الظاهر أبو السمح

حاجة المسلمين الى الكفاح

﴿ لماذا سميت هذا الكتاب : « الصراع » ؟ ﴾

الجواب أننى سميته هذا الاسم لأنى لم أجد المسلمين يحتاجون فى هذا العصر إلى شئ احتياجهم إلى الصراع و إلى ما للصراع من آثار ونتائج . فما نكبوا فى بلد من بلدانهم ، ولا فى حرمة من حرماتهم ، ولا فى مجد من أمجادهم ، ولا فى حق من حقوقهم ، ولا فى شئ من أشيائهم إلا بعد أن نسوا الصراع ، و بعد أن ملوه وهجروه ومالوا إلى الدعة والركود والهدوء الذليل الجبان . وما بلغ المسلمون الأولون ما بلغوا ، ولا نال الاسلام ما نال من ملك أذل كل ملك ، وسلطان صرع كل سلطان ، ومجد وطئ كل مجد إلا بالصراع ، و إنهم ـ اليوم و بعد اليوم وفى كل وقت ـ لن ينالوا حقا من حقوقهم ، أو يستردوا كرامة من كراماتهم ، أو يثأروا من عدو ظالم ، أو يجدوا فى هذا العالم الجياش بالمظالم إنصافا إلا بالصراع و بالخصومة العنيفة الحادة الملتهبة .

الصراع ضرورى لحياة الشعوب ولبقائها . وكل شعب فقد هذا الدواء فقد ـ ولا محالة ـ الحياة ، وأكلته الشعوب ، وطحنه تنازع البقاء ، وذهب أقساماً بين أشتات المطامع والأهواء ، ولقى مثل ما لقى الشرق الوديع المسالم من الغرب الهائج المحارب .

لقد صار اليوم أغبى الأغبياء من يحاول أن ينال حقه باسم العدالة والرحمة أو باسم القوانين الخاصة أو العامة ، أو باسم المدنية والانسانية ! وصار المغبون حقاء المجنون حقا ذلك الضعيف المهزول المسالم ، الجاثى على ركبتيه الضعيفتين

المهزولتين أمام ذلك الجبار القوى الظالم ، يستجديه حقه ، ويسأله إنصافه
ويطلب إليه بدمعه ، لا بدفعه ، أن يمسح الدم عن أظفاره الدامية ، ويطع
فمه من لحوم الضعفاء الأبرياء ، ويناديه باسم المدنية ، وباسم الحقوق الانسانية
وصار لا يوجد العدل إلا حيث يوجد الجور ، ولا توجد السلم إلا حيث توج
الحرب ، ولا يوجد الحب إلا حيث توجد الكراهية والبغضاء ، ولا يوجد القانو
إلا حيث يوجد من يمزقه ، ولاتوجد الانسانية ولاالتحدث عن حقوقها إلاحيه
يوجد من يضربونها الضربات القاتلة . وصار الأقوياء الباطشون لا يذكرو
العدالة ، ولاالحقوق ، ولاالقوانين ، ولاالمعاهدات ، ولاالشرف ، ولاسائرهاتيك
الفضائل النارية إلا إذا تحدثوا إلى الأقوياء الباطشين الظالمين أمثالهم . أ
الضعيف العاجز عن الصراع ، الهارب إلى الدعة والسلم فماله عند هؤلاء الأقويا
الشرفاء إلا التمدين ومعناه إفساد الأخلاق والأذواق والعقائد ، وإلا الاستعما
ومعناه الجوع والجهل والذل والمرض وسائر ما للبؤس والشقاء من مظاهر ومعان
وإلا الانتداب ومعناه مافى فلسطين .

كان فى الناس فى الزمان الأول من يظنون أن القتال هوالذى يحدث القتل
وأن الشجاع المقاتل يقتل دون الجبان المسالم الراضى بالذلة ، المقر للخسف فى
دينه ووطنه وشرفه ، وكانوا يحسبون أن الجبناء أطول آجالا من الشجعان فقالوا

يقرب حب الموت أجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول

وقالوا أيضاً :

فيم الشماتة إعلاناً باسد وغى ؟ * أفنام الصبر إذ أبقاكم الجزع

وكانوا يظنون أن من كره الموت ففرمن وجهه ومن أسبابه نال الحياة الطويلة :
لأنهم كانوا يظنون الأقوياء الظالمين لايقاتلون إلا المقاتلين ، ولا يحاربون إلا
المقاومين ، وكانوا يحسبون الانسان يأنف من قتل المسالم المستسلم . ولهذا كا

كان من يحرصون على الحياة يهرعون إلى السلم والاستسلام . وكان لا يقدم على الحرب والمقاومة إلا من رخصت لديهم الحياة وهان عليهم القتل . وعلى هذا كانت تكون الحرب ، وكانت تكون السلم . أما اليوم فقد تبين للناس كافة حتى للجبناء البلداء منهم أنه لا يقتل إلا الجبان ، ولا يقع فى الحرب إلا الهارب إلى السلم ، ولا ينال الشر إلا أهل الخير والدعة واللين والسلام ، وأنه لاينجو من الموت إلا المقاومون المصارعون ، الموقدون الحرب بموقديها ، الجازون الشر أضعافه ، الثائرون إلى كل هيعة ، وعلموا أنه لاأمل لطالب الحياة فيها إلا أن يكون أبداً رجل حرب وكفاح وصراع وإقدام . إذن ليقل للجبناء : إنكم بالجبن تقتلون أنفسكم ، وبالهرب من الحرب تقعون فيها .

لقد سالم المسلمون وأخلصوا للسلم ، وأحبوا فبالغوا فى حبهم ، وكرهوا الحروب وأخلصوا فى كراهتهم حتى نفروا من كل حرب ومقاومة ، وتخلوا من كل بغضاء وحقد وكره لهذا الغرب الحقود الظالم المحارب قروناً طويلة ، وقد ظلوا يتقون الحروب ويتقون أسبابها حتى ذهبت بلادهم ، وزال ملكهم ، وتلاشت هيبتهم ، ومنوا بكل ما هم فيه اليوم من هوان وذلة وفقر وجهل وعجز وخزى حتى صاروا ، وهم يعدون بأربعمائة مليون ، لايحسب لهم حساب ، ولايقام لإرادتهم ورأيهم وزن ، ولايذكرون حين تقتسم الأسلاب والمغانم ـ وليست الأسلاب ولا المغانم سواهم وسوى بلادهم وحقوقهم . وصارت أقل دولة وأذلها تأخذ منهم ماتريد ، وتنال من بلادهم ماتشتهى دون أن تستأذنهم أو تسألهم أو يخطر لهم حساب على بالها . وكان من أروع مظاهر هذا البلاء الذى أصاب المسلمين عامة أن استعمرت دويلة أوربية ضئيلة ، لايزيد عددها على خمسة ملايين شعبا من المسلمين يبلغ تعداده ستين مليوناً ، وهذه فى الغرب وهؤلاء فى الشرق . وكان من أبلغ هذا الخزى الذى شمل المسلمين أن تقدم هذه الدولة العجوز على فعلتها

المنكرة فى فلسطين ، هذه الفعلة التى لم يسبق لها نظير فى تاريخ الظالمين المتوحشين كلها ، ثم لا تهتز جنبات العالم الاسلامى اهتزازاً ترتفع به أمم وتسقط به أخرى .

إن المسلمين لو لم يصابوا بهذا الفشل الذى لا مثيل له ، ولو لم يحلوا الصراع المقدس ما استطاعت بريطانيا أن تكشف سوءتها وحقارتها ومدنيتها الزائفة فى فلسطين على منظر العالم الاسلامى العربى ومسمعه ، وعلى رغمه ، ثم لا يغضب غضبة يتحطم بها أكبر عرش مرصع بالجواهر المنهوبة من خزائن المسلمين ومن عروشهم المحطمة ، الواحد تلو الآخر بدسائس هذه العجوز وطغيانها وكيدها .

هذا شعب عربى مسلم ، فى بلد عربى إسلامى ، يقع فى قلب البلدان العربية الاسلامية ، تغير عليه دولة أوربية ، فتحكه وتتحكم فيه أخبث أنواع الحكم والتحكم باسم الانتداب الملعون ، فتسلبه أولاً كل معانى السيادة والعزة ، ثم لا يكفيها هذا ، بل تمتد يداها إلى مكان العقائد والايمان والخلائق الفاضلة من أهله فتحاول إفساده وتخبيثه ليسهل عليها ما تريد ، ثم لا يكفيها هذا أيضاً بل تبسط يديها إلى القصور وإلى الأكواخ لتنزل فيهما الفقر والبؤس ، ولتملأهما من معانى الشقاء والفاقة ، وتبسطهما إلى الجيوب لتنتزع منها ما بقى فيها من مال قليل ، فتبلغ أقصى ما تريد ، ثم لا يكفيها ـ ويلها ـ كل ذلك ، بل تقوم تجهز جيوشها وأساطيلها وطياراتها وسائر قواتها المزودة بأموال المسلمين وأموال العرب لتشرد هذا الشعب المنهوك بانتدابها ـ قاتله الله ـ من وطنه ووطن آبائه وأجداده ووطن دينه منذ القرون القصية ، وفيه مقدساته الدينية ، وفيه رفات أسلافه الأكرمين الأولين وفيه كم أراق دماءه وبذل مهجه لحمايته وصون حرماته من عدوان العادين ، وفيه كم ساد وحكم وذاد عنه المغيرين . . . لتشرده من وطنه كى تهبه التائهين المشردين المنبوذين من اليهود الممقوتين فى كل مكان وزمان ، ليزرعوا

فيه خبثهم وحقدهم وفسادهم الجبلى ، وليشروا فيه المعانى اليهودية المجرمة ، وليكونوا الجرثومة الفتاكة القتالة فى قلب الشعوب العربية الاسلامية حتى يغلبها الفناء ، وليكونوا فى وطنهم ذاك الموهوم المزعوم مصدراً خصباً لشقاء المسلمين وشقاء العرب ، ومصدراً لتهديد بلادهم بالمعانى الاسرائيلية الذميمة من كثب . . . فلما أن قام هذا الشعب العربى الباسل المتبوك بانتداب هذه الدولة العجوز قائلا : لا ، لن أخرج عن وطنى ليكون وطناً لبنى إسرائيل الأنذال و إن رغمت بريطانيا القوية ، و إن رغم كل ظالم على وجه الأرض ، وقائلا: إن وطناً قد حميته ودفعت عن سيادته وعن عروبته و إسلامه أربعة عشر قرناً من القرون القاسية العاصفة لا يمكن أن أتركه فى عام واحد ، ولا فى عشرين عاماً ، ولا فى عشرين قرناً إن شاء الله ، ولو ساقت بريطانيا كل قواتها وأساطيلها وجيوشها وشياطينها لتحارب إرادة الله القوى ، ولتقاوم مشيئته . فإن شعباً لا يعرف إلا الله لن يغلبه من لا يعرف الله ، و إن من لا يعرف إلا الحق لن يذل لمن لا يعرف إلا الباطل ، وان شعباً تنميه آباؤه وجدوده إلى السلطان صلاح الدين ، ثم ترتفع به إلى المعتصم وعبد الملك بن مروان ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ثم تسمو به صعداً إلى الصديق و إلى الفاروق و إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وطارق بن زياد وموسى بن نصير ، ثم تسمو به أكثر حتى تصله بسيدنا و سيد العالمين محمد بن عبد الله ﷺ — لن يقر هذا الظلم والخسف أبداً فى وطنه ودينه ، ولن يقبل هذا العقوق الفظيع لآبائه وسلفه — و إن شعباً دينه الاسلام ، وقد ثل عروش القيصرية والكسروية ، وأذل اليهودية والنصرانية والمجوسية وكل دين باطل أو محرف بحفنة من الأعراب والعرب الأميين الذين لم يفارقوا الصحراء الجرداء إلا إلى الفتح والملك ، والا إلى مدائن كسرى وخزائنه و إلى القصور البيضاء والجنات الخضراء فى الشام ومصر وفى الشرق والغرب — لن يترك وطنه الاسلامى

العربي يتهود و يتنصر و يصبح كفناً للمجرمين من اليهود المشردين المطردين بقوة الانجليز وجبروتهم أو بقوة أوربا كلها .

فلما أن قام هذا الشعب الباسل وقال قولته هذه ، ورفعها على أطراف السنان بعد أن لم يجد رفعها على أطراف اللسان لم يكن من هذه الدولة القوية الموصوفة ـ كذبا وخداعاً ـ بالعدالة والتمدن ، إلا أن تسحب أصناف مكايدها ودسائسها وقواتها إلى هذا الشعب العربي الأبي ، تفعل به مالم يفعله شعب همجي منذ كانت الدنيا : تأتي المدينة فتهدمها بأسرها وتنسف مبانيها التاريخية وغير التاريخية فتجعلها في ساعات أو لحظات خرابا كأن لم تمسها يد العمران منذ آلاف السنين ، ثم تأتي المدينة الأخرى وتسوق جميع رجالها إلى السجن ، وفي السجن من العذاب والقسوة مالا يعرفه إلا زبانيته و إلا عرب فلسطين المساكين ، ثم تأتي المدينة الثالثة فتحشر جميع أهلها وتضع على أيديهم الأختام ، سمة الإجرام ، كأنهم بهائم توضع عليها المياسم ، ثم تأتي المدينة الرابعة وتطلب إلى سكانها أن يخرجوا كل مافي جيوبهم وأيديهم و بيوتهم من مال ، وكل مافي أفواههم من خبز ، وما على ظهورهم المحطمة من ثياب بالية ـ وماترك الانتداب ومراباة اليهود من ذلك شيئاً باسم الغرامات . وهذه أخبث سرقة يحلها القانون الانجليزي المتمدن ، وهي سرقة لاتماثلها سرقات اللصوص العاديين ، وهي سرقة بالقانون كما أن المنتدبين والمستعمرين قطاع طريق بالقانون السحري الفظيع . ثم تأتي المدينة الخامسة فتجمع كل من فيها ، فتسدد إلى صدورهم ورؤوسهم المدافع والمسدسات ، تفنناً في الإرهاب ، ووحشية يقصر عنها إن شاء الله كل شعب شرقي و إن بلغ مابلغ من القسوة والاجرام ، ثم تأتي المدينة السادسة فتروح تقتل وتنهب بلا حساب ولا قانون . ثم بعد ذلك كله تبعث وزارة المستعمرات في لندن إلى حاكمها بأمره في فلسطين تهبه السلطة المطلقة في أعمال النهب والتقتيل والتخريب واللصوصية

المسماة بالغرامات . . . فيقتل العربى إذا وجد فى منزله أو فى أرضه رصاصة أو حديدة أو مدية أو بندقية صيد .

هذا شعب عربى مسلم فى بلد إسلامى عربى ، يقع فى قلب البلدان العربية الاسلامية ، تغير عليه هذه الدولة الأوربية ، فتفعل به هذه الفعلات السوداء فى تاريخها و فى وجوه العرب والمسلمين ، ثم لاينتطح فيهما عنزان ، ولا تقط رقاب ، ولا تفنى جيوش ، ولا تحطم عروش ، بل ثم لانجد كلاماً فيه قوة ، وفيه جد ، وفيه صرامة ومرارة ، وفيه حسرة ولوعة ، بل ثم تبقى العلاقات والصداقات والمعاهدات والمحالفات مع هذه الدولة كما هى ، لاتصاب بالاختلال ولا بالانحلال ولا بالتخمة ، بل تذهب نصالحها باحدى يديها و يدها الأخرى ممدودة جهاراً نهاراً إلى هذا القطر الإسلامى العربى لتسلخه من العروبة والاسلام لتصيره يهوديا انجليزياً لتعاد نكبة الأندلس من جديد .

إننى أطلب إلى كل قارئ لهذه الكلمة أن يتذكر ما يأتى : فلسطين بلاد عربية وأهلها عرب ، والانجليز ليسوا عرباً ـ فلسطين بلاد إسلامية وأهلها مسلمون ، والانجليز مسيحيون أو ملحدون ـ فلسطين بلاد شرقية وأهلها شرقيون والانجليز غربيون أوربيون — أهل فلسطين لا يريدون الانجليز ولا يريدون تمدينهم ،والانجليز لايخافونهم على بلادهم ومستعمراتهم ـ أهل فلسطين لهم أخلاق وللانجليز أخلاق أخرى تخالف أخلاق أهل فلسطين وأخلاق العرب عامة — أهل فلسطين لايجدون فى حكم الانجليز إلا البؤس والفقر وكل ألوان الهوان ، والانجليز يعرفون هذه الحقيقة : — هذا كله صحيح ، إذن ما المسوغ لتحكم الانجليز فى فلسطين وفى أهلها ؟ وأى قانون بشرى عادل يحل هذا التحكم المقرون بهذه النكبات ؟ وما الفرق بين هذا العمل المسمى بالانتداب و بين عمل اللصوص المهاجين لبيوت الآمنين المسالمين، ليأخذوا مافيها بقوة السلاح والارهاب ؟ نعم

إن بين العملين فرقا ، هو أن اللصوص لايفعلون ذلك إلا تحت ضرورة الفاقة والحاجة ، أما الانجليز وغيرهم من المستعمرين والمنتدبين فانهم يفعلون ذلك عن غنى وثروة طائلة ، وفرقا آخر ، هو أن اللصوص لايهاجمون غالباً إلا بيوت الأغنياء والمثرين ، أما الانجليز فلا يهجمون إلا على الفقراء العاجزين ، أما الأغنياء الأقوياء فانهم لايجرءون عليهم بل يساعدونهم على التهام الضعفاء [1] وفرقا آخر ، هو أن اللصوص لا يقومون بعملهم إلا خفية وانسلالا ، أما الانجليز فانهم يفعلون ذلك فى وضح النهار بكل تبجح وافتخار، على سمع العالم كله ومرآه فيها وفرقاً آخر هو أن اللصوص لايعتقدون إلا أنهم لصوص مذنبون . أما الانجليز فانهم يفعلون ذلك و يزعمون أنهم بفعلهم هذا يمدّنون الشعوب المنحطة ، و ينشرون فيها العلوم والثقافات ، و يهدون لها الخير والرحمة ، و ينزلون عليها المن والسلوى، وفرقا آخر هو أن الانجليز يفعلون ذلك بالقانون ، أما اللصوص فلايدعون أن لهم قانونا ، وفرقا آخر هو أن اللصوص لاتمتد أيديهم إلى غير المال ، أما هؤلاء فتمتد أيديهم الناعمة الصفراء إلى كل شئ حتى إلى مكان الايمان والاعتقاد لتحرقه وتمزقه

لنتخل أيها القارئ بنفسك ساعات أو لحظات ، ولنتذ كر فعل الانجليز فى فلسطين وفى غيرها من البلدان العربية الإسلامية ، وفعل غير الأنجليز بالعرب.

---

(١) ومن الغباوة ان يقوم قاسمون منا يمتدحون موقف الحكومة البريطانية من المشكلة الألمانية التشكوسلوفاكية، وقدسموا رئيس وزارتها رسول السلام ، لانه قام بعمل يعد من أكبر الخيانات الانجليزية، اذ أطاق المانيا القوية على التهام تشكو سلوفاكيا الضعيفة خوفا على دولته من الوقوع فى الحرب . وهذا العمل الذى استحق به تشمبرلن ان يسمى رسول السلام هو عمل جدير بأن يعطيه لقب « رسول المتآمرين على الضعفاء » ، وغدا تطلب إيطاليا وفرنسا وأمريكا وألمانيا أيضا وغيرهن العدوان على الدول الضعيفة فيخرج رجل سلام آخر من لندن ليعطى القوى الضعيف خوفا من الحرب . فكيف تأمن الدول الصغيرة بعد الآن ؟ والا ان كانوا رسل سلام حقا فاين رسالتهم عن الحبشة والصين وعن فلسطين ؟

والمسلمين فى كل مكان ، ولتتذكر موقفك من هـذه النكبات الدينية الوطنية ، ولتفرض نفسك مع جماعة من أصدقائك وأقربيك و بنى دينك ولغتك فى فلاة من الارض، ففاجأهم اللصوص وقطاع الطريق،فأخذوا أموالهم وما يملكون، ثم أفسدوا أخلاقهم ، ثم أعملوا أسلحتهم فى رقابهم ومقاتلهم ،وكان ذلك على مسمع ومشهد منك وكان فى استطاعتك أن تعمل شيئاً لإنقاذهم فلم تفعل شيئاً ، بل ولم تقل شيئاً ولم تتمنب نفسك . فما ترى موقفك هـذا ؟ ألا تود أن تبتلعك الأرض ولا تقف هـذا الموقف الذليـل الجبان ؟ فهـل ترى أيها القارئ فرقا بين موقفى وموقفك وموقف جميع المسلمين من فلسطين و بين ذاك الموقف الجبان المخزى ؟ و يزداد الموقف شـناعة إذا كان اللصوص غرباء يغيرون و يغزون من بعيـد ، ثم يزداد فظاعة إذا كان اللصوص أقل عدداً من خصومهم أضعافاً مضاعفة ، ثم يزداد فظاعة وشناعة إذا ظلت علاقاتنا بهؤلاء اللصوص « المقدسين » علاقة العبد الذليل بسيده الجبار ، بل أقل وأذل والله ، لأن العبد قد يطغى على سيادة سيده ، وقد يثور به و ينازعه البقاء إذا أمعن فى إذلاله وعذابه .

إن المانيا ــ وعددها ستون مليونا ــ قامت فى وجه العالم كله لتقاتله إذا لم يخضع لإرادتها من أجل ثلاثة ملايين من الألمان، محكومين بدولة أور بية مسيحية، متمتعين بأفضل ماتتمتع به « الأقليات » . وأخيراً انتصرت ألمانيا انتصاراً لا مثيل له ، وانهزم أمام إرادتها شيوخ الاستعمار الجشع ، وادركت فرقا منها هيا كل الدمقراطيات القائمة على غـير الحق . ونال الألمان ما أرادوا بالنحو المعلوم المخزى لفاعليه إلى الأبد . وأنتم أيها المسلمون ــ وعددكم أربعمائة مليون ــ وأنتم أيها العرب ــ وعددكم سبعون مليوناً ــ تقرون هذه المظالم التى لاتقرها البهائم فى أنفسكم ودينكم وأوطانكم . و والله لو كان عـددكم هذا لألمانيا أو لغيرها من الدول الحية لحاربت العالم كله بأيديها عزلاء من كل سلاح إلا من هـذا العـدد الهائل ، ثم لملـكت

ناصية النصر . ووالله لو لم تملوا الصراع « المقدس » لكان لكم ولهؤلاء شأن آخر . ولكن كرهتم الصراع فاجترأت على آسادكم وآجامكم ثعالب الامم ومن لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم . إنكم أيها المسلمون غالطون إذ تظنون أنكم تنجون من طغيان الغرب بالمسالمة والمجاملة والملاينة ، ولكن كلا والله ، لن تنجوا منهم إلا بالحرب والمخاشنة ، فان فلسطين لم تنج من الانجليز واليهود بمسالمتها ، وأن قطراً عربيا أو إسلاميا واحداً لم تنجه المسالمة والملاينة . بل لقد ذهبت البلدان العربية ، والممالك الاسلامية ضحايا اللين والركون إلى الدعة والسلم رغبة فى الحياة ، ولكن السلم لا تنال بالسلم ، والحياة لا تدرك بالرغبة فيها ، والحقوق لا تطلب بالنوم عنها .

ووالله لو أنكم وقفتم من انجلترا موقفاً جريئاً حازماً ، ورفعتم فى وجه ظلمها عصاً ، لكان أجدى وأنفع من كل احتجاجاتكم وضراعاتكم الذليلة ! ووالله لو علمت أنكم سوف تقابلون عدوانها بغير البكاء لوقفت هى منكم موقفكم اليوم منها : موقف المحتج المتوسل الضارع ! هذا مصطفى كمال ، قد زأر فى وجه فرنسا زأرة واحدة ، فتركت له لواء الاسكندرونة السورى العربى صاغرة هاربة رغم كل شئ . وأين مصطفى كمال وقومه الأتراك من أحفاد الأكرمين : العرب نجدة وشجاعة وأخلاقاً وعدداً ؟ ولكن مصطفى كمال زأر وأفهم فرنسا أنه يريد أن يهجم ، وأما أنتم فبكيتم وأفهمتم انجلترا أنكم لا تريدون إلا أن تبكوا ، وإلا أن يقال : إنكم قد أعذرتم بالبكاء

ماذا تعزون لو كنتم أنتم فى مكان بريطانيا ، وكانت بريطانيا فى مكانكم ؟ أعنى لو كنتم تفعلون ببلدان انجليزية وبأهلها مثل ماتفعله انجلترا فى فلسطين وأهلها من العدوان الصارخ : أتظنون انجلترا تقبل ذلك منكم أو تنام عليه ؟ أو تظنونها إن عجزت عن حربكم العسكرية تحجم عن أن تعلن الحرب عليكم من

جهات أخرى ؟ أتظنونها تبقى على صداقتكم وعلاقاتها السلمية بكم ؟ لاتظنوا شيئا من ذلكم أبداً .

إنكم لن تخلصوا من عدوان هؤلاء الأعداء إلا بالكره العميق ، و بالبغضاء الحادة . و إنكم لن تعزوا حتى تكونوا جرآء على أن تقولوا لأعظم فيلسوف فيهم : إنه أحمق جاهل ، ولأبرع حكمة يأتون بها : إنها سفاهة ، ولأرقى مدنية يشيدونها : إنها همجية ، وحتى تقولوا للذهب الذى يمطر ونكم به من السماء : إنه طوب ، إنه حجارة قاتلة ، إنه قنابل . . . . الغربيون لا يضمرون لكم إلا البغض والحقد والاحتقار . فمن الجهل أن تقابلوا هذه النفسيات بالحب والإخلاص والامتداح والتعظيم . . . الأوربيون مجردون من القلوب ومن العواطف الانسانية ، وهم إن لم يعدلوا خوفاً وقسراً ، فلن يعدلوا رحمة و إنسانية . . . لقد أخلصتم لهم وأحسنتم بهم الظن و بعدوانهم وطغيانهم حتى خضتم الحروب انتصاراً لهم . فماذا لقيتم عندهم وماذا كانت النتيجة ؟ لقد ذهبت بلادكم وكاد يذهب دينكم وأخلاقكم ، ثم هاهم الآن يحاولون إفناءكم . و إنهم لن يتأخروا عن ذلك إن استطاعوا . . . يجب عليكم أن تقابلوا الداء بالداء ، والشر بالشر ، والحقد بالحقد والبغضاء بمثلها . . . يجب أن تقولوا لهم :

لاتطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنا لانحبكم ولانلومكم أن لا تحبونا
كل له نية فى بغض صاحبه فى ذمة الله نقليكم وتقلونا

إن كل إنسان فينا يحتاج إلى أن يكون شديد الكفاح ، شديد المقاومة . فالصانع عندنا يحتاج إلى الكفاح ، ليتماسك إزاء صناع أوربا وأمريكا واليهود ، والتاجر يحتاج إلى الكفاح لينجو بن تجار هؤلاء الغزاة المنافسين ، وسائر أصناف العمال يحتاجون إلى هذا الكفاح لئلا تقضى عليهم منافسة هؤلاء الأعداء المهرة ،

والعالم الدينى يحتاج إلى هذا السلاح لئلا تطغى أفكار هؤلاء القوم وعقائدهم على عقيدته وعقله ، فيذهب يحرف دينه و ينسل منه انسلالاً خدعة وضلة ، والعالم المدنى يحتاج إلى هذا السلاح ،لئلا يغلبوه و يصرعوه و ينسوه آباءه وسلفه ، وماجاؤا به من علوم ومعارف ، فيذهب يضيفها إلى هؤلاء الكذبة إن قبلوها واعتقدوها صحيحة ، و يذهب يردها و يسخر منها إن لم يقبلوها جهلاً أو حسداً وكراهة للعرب والمسلمين ، وللشرق والشرقيين ، والغنى الثرى يحتاج إلى هذا الصراع لينافس هؤلاء الذين قبضوا على زمام الثروات وأمسكوا بناصية الأسواق كلها بشركاتهم ومصانعهم ومعاملهم ومضارباتهم ومقامراتهم ، والزعيم عندنا يحتاج أيضاً إلى هذا الصراع لئلا تذوب زعامته فى زعامات هؤلاء الأعداء المكرة ، ولئلا يكون لهم تابعاً ، وعلى أهوائهم ومشوراتهم الماكرة سائراً دائباً ، ولئلا يقود أمته وقومه بزعامته الرخوة الذائبة إلى الهاوية ، والهاوية هنا ليست سوى الركون إلى الغرب الظالم ، فان الغربيين لا يمكن أن يخلصوا لنا معشر المسلمين ، وإن أخلصوا للشياطين . بل هم أبداً يرون الاسلام والمسلم العدوين الواجب حربهما ما أمكنت الحرب . والصحفى والكاتب والمؤلف يحتاجون إلى هذه المقاومة ، لئلا يفنوا فى رجال صحافة أوربا ومؤلفيها وكتابها . وكل مخلوق عندنا يحتاج إلى هذا السلاح .

ولو أننا لم نمل هذا النوع من الجهاد « المقدس » لما تقدم فينا أهل النفاق والخيانة والمروق والفسوق، وتأخر أهل الصلاح والاستقامة والايمان والاخلاص والكفاية، ولما أمكن أن يكون كل شئ لدينا فى أيدى هؤلاء الأعداء من اليهود والأوربيين الخصوم غير الشرفاء ، ولما كان كل شئ سائراً طبق أهوائهم ومصالحهم ، ولما كانت مظاهر البلدان الاسلامية مظاهر إفرنجية أوربية خالصة : تنظر إلى الشركات القوية الرابحة فتجدها فى أيدى هؤلاء الدخلاء ، وتنظر إلى المصانع والمعامل النشيطة النافقة فلا تحتاج إلى أن تسأل : لمن هذه ، إذ هى للقوم بلا

شك ، وتنظر إلى المتاجر الكبرى المزدحم عليها فلا تشك فى أنها ملك لهم ، وتنظر إلى الأحياء الحية الحافلة بمظاهر النعيم والغنى والترف فتجدها خاصة بهؤلاء الضيوف ، وتسمع بأصحاب الثروات الطائلة فلا تتردد فى أنهم منهم . وتنظر وتسمع كل شئ فلا تجد إلا ما يسوءك ويدمى شعورك إذا كنت من أولئك المتألمين الشاعرين . والذى يؤلم حقاً أن الذين ينمون هؤلاء المستعمرين وينمون ثرواتهم هم المسلمون والعرب ، ثم لا ينالون منهم إلا الاحتقار والازدراء والاحتكار الذى مثيل له ، حتى إن أصحاب المصانع والأعمال منهم يستعملون — إذا سمحوا — المسلمين الوطنيين العمال بما لا يشبعهم خبزاً حافا . ولهم على ذلك أن يسبوهم ويسبوا دينهم ووطنهم وزعماءهم ونبيهم ، وعلى العمال المسلمين أن يشكروهم على ذلك وأن يتقبلوه بالرضا والتسليم ، وإلا فالويل لهم ولوطنهم معهم ! وا عجباً من جريح لا يتألم من جراحته ! وياويلتاه للذليل لا يشعر بذلته ، وللمظلوم يتعبد ظالمه !

إن الأمر أيها الاخوان جد الجد ، إنه الحياة أو الموت ، وإن الخطاب إلى البقايا التى لما يقتلها هؤلاء الأعداء ، لعلهم يمدون أيدى الانقاذ والانتشال ، أو لعلهم يهربون ، على الأقل ، بأنفسهم من هذه الأشراك القاتلة ! أما هؤلاء الذين وقعوا فى أيدى هؤلاء الضيوف الظالمين لمضيفيهم السنين والأعوام فهم على بساط الموت ، قد فقدوا كل حول وقوة ، فلا يستطيعون شيئاً من الخير لأنفسهم ، وإنما هم فى انتظار الطبيب الرحيم الماهر المنقذ ! فهل يوجد فيكم أيها الاخوان ذلكم الطبيب ؟ وإذا لم يكن موجوداً أفلا تعملون لإيجاده ؟

انظروا أيها الاخوان إلى حقائق الأشياء نظرات تتجاوز المظاهر لتشعروا أن الهاوية فى الانتظار ، وأنكم إن لم تستيقظوا فالويل للنائم تحت سياط الاعداء الذين لا يرحمون ! أليس من البلاء أيها الاخوان أن يستولى هؤلاء على كل شئ

فى بلاد المسلمين حتى على الماء وعلى النور وعلى النار، حتى إن الوطنى المتحمس لوطنيته لو أراد الاستغناء عما ليس وطنيا ، وأراد أن يعيش وطنيا فى ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، وضروريات حياته ما أمكنه ذلك ! أو ليس من المؤلم حقا ألا يوجد فى بلاد المسلمين أجنبى واحد فقير أو عاطل ، وأن يكون المسلمون كلهم فى بلادهم فقراء بؤساء ، لا يظفرون بالكفاف من العيش المر إذا استثنينا الموظفين والوارثين وأمثالهم والقليل النزر من غيرهم . على أن هؤلاء أنفسهم منطلقون إلى الفاقة العامة بخطوات واسعة ، ومنطلق ما معهم إلى جيوب هؤلاء الأجانب بسرعة مدهشة و بطريقة تترك المحب لدينه ووطنه وقومه حيران مكبوتاً ، حتى صار المسلمون كلهم كما قيل :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا

لكن يمر عليها وهو منطلق (إلى الخواجات)

اذهب إلى المتاجر والشركات والمصالح الاجنبية، وانظر كيف يتدفق عليها الوطنيون المسلمون ، وكيف ينثرون بقايا ما معهم من مال قليل على موائد هؤلاء الأجانب بجود لا نظير له ، ثم عرج على المتاجر والمصالح الوطنية المسلمة إن كان شئ من ذلك ، وانظر كيف يخيم عليها الفقر والكساد والبؤس، وانظر كيف يهرب منها الوطنيون المسلمون ، وكيف يضنون عليها بالمعاملة ، ثم لك بعد ذلك أن تتألم ما وسعك الألم ، وأن تحزن ما شاء لك الحزن ، وأن تخشى كما خشى الأكثرون البصراء أن تصبح البلاد الاسلامية — المستقلة وغير المستقلة — خالصة لهؤلاء الضيوف بكل مرافقها ومواردها ، وأن ينقرض المسلمون تحت عوامل الفاقة وما يلزم الفاقة من الأمراض والتشريد والشقاء العام القاتل .

ومن الحكايات المؤلمة أنى كنت يوماً أحادث أحد الاصدقاء فقال ذاك الصديق على سبيل الدعابة المرة : إننا معشر المسلمين الوطنيين نطلب

الاستقلال لبلادنا مع أن الجاليات الأجنبية أولى منا بهذا الطلب فى بلادنا نفسها لكثرة مصالحهم ولاستيلائهم على كل شىء فيها ! ! وما أصدق هذا القول ! وما أشد وقعه على ذوى الدين والوطنية وعلى ذوى النفوس اليقظة الشاعرة .

إذن ما أحوجنا إلى الصراع ! وما أحوج صراعنا إلى القوة والشدة ! وما أحوجنا إلى أن نكون من الحديد والفولاذ ، لا من اللحم والدم والعظام !

اللهم أيقظ قومى فإنهم نائمون ! !   عبد الله على القصيمى

شعبان سنة ١٣٥٧   بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين . أما بعد فهذا هو الجزء الثانى من كتاب « الصراع بين الاسلام والوثنية » الذى ننقض به إن شاء الله كتاب الشيعة « كشف الارتياب فى اتباع محمد بن عبد الوهاب » وقبل الأخذ بموضوعه نقول :

ظن بعض الذين قرؤا الجزء الأول من كتابنا أننا قد نحلنا الشيعة ما لم يكن من قولهم ولا من اعتقادهم ، وأننا قد تكذبنا عليهم وعزونا إلى مذهبهم ما هم منه بريئون . وقد جاء هؤلاء الظانين ظنهم هذا من غرابة ما وجدوه هنالك من عقائد القوم وأقوالهم التى لا يقولها مجتمعة من يؤمن بالله وبرسوله . ونحن نقول لهؤلاء الظانين هذا الظن المستبعدين أن يكون كل ما ذكرناه فى الجزء الأول عن الشيعة صحيحا ثابت النسب إليهم : إننا قد كنا نحن مثلكم لا نصدق بعض هذا الصدق فضلا عن أن نصدقه كله . وكنا لا نشك فى أن مسلماً لا يمكن أن يذهب إلى القول بتلك الأباطيل التى قالتها الشيعة ، والتى نقلناها من كتبهم التى كتبوها بأيديهم وطبعوها بمطابعهم فى بلادهم . وكنا نحسب أن أمثال تلك المنكرات التى تضاف إلى هذه الجماعة لا منشأ لها فى الأكثر سوى الخصومة

وكذبها وهواها وزورها . وكنا نمر بما نجده فى كتب التاريخ والملل والكلام لأهل السنة من هذه الاعتقادات التى يقال إن قوماً من المسلمين يزعمونها ويعتقدونها ويكفرون منكرها ، فلا نحسب ذلك إلا من مبالغة الخلاف وإسراف الخصومة ولجاجة الهوى وشهوة الانتقام . وكنا نظن أن الخلاف وإن كان ذا دين وتقوى وحسب ونسب معرق فى الفضل والنبل لا يمكن أن يخلص من التزيد والافتعال ولا ينجو من التكذب والتقول : هكذا كنا نقول حتى لمسنا هذه هذه الحقيقة المرة التى كتبناها بأيدينا ووجدناها سافرة مبتذلة فى كتب الطائفة قديمها وحديثها سفيهها وعاقلها فما وجدنا مناصاً من الاقتناع ولا مفرا من الايمان بأن الخبر قد كان دون المخبر وأن السماع دون العيان ، وأن الباطل فى كتب القوم لا يحيط بأطرافه ولا يطلع على جميع آفاقه باحث ولا عليم ما خلا الله وحده . وقد قرأت بعض كتب القوم قبل كتابة الجزء الأول من الصراع وقرأت بعضها فى أثناء كتابته وبعضا آخر بعد ذلك ، وكنت كلما قرأت لهم من هذه الكتب وجدت ما لم أجد ، وعلمت مالم أكن أعلم ، وما لم يكن يخطر لى على بال من عظيم المقالات وشنيع الآراء وغريب الزور .

جهل حقيقة الشيعة

وقد تبين لى بعد أن قرأت عدداً غير عديد من هذه الكتب أن جميع الذين كتبوا فى نقد الشيعة ونقد معتقداتها لم يكن فيهم كاتب واحد عرف الحقيقة كلها ولا علم ما كان يجب أن يعلم من مذاهبهم ونحلهم الغريبة . ولا قرأ ما كان يجب أن يقرأه من مؤلفاتهم وما سجلوه على أنفسهم وعلى أئمتهم من الباطل والعدوان ومن الحنث العظيم . بل جميع الذين كتبوا فى هذه الأبواب كانوا يجهلون الأمور الكثيرة من معتقدات هذه الفرقة وكانوا لا يعلمون منها إلا اليسير الأقل . والسبب فى هذا والله أعلم أن جماعة الشيعة كانوا فى أكثر الأعصار والأمصار لا يجرؤن على نشر كتبهم ولا إذاعة معتقداتهم كما هى ، بل كانوا أبداً

يفرو ن إلى التقيـة و إلى المصانعة والمداهنـة . وكانوا يجدون فى الـكتمان المـكان المتسع الفسيح لإيواء هذه الـكتب ولوضعها كما يشاءون و يريدون محملة بأخطر هـذه الأفـكار المنبوذة بين جميع الأملاء التى لا يستطاع البوح بها فى بلد يرعى أهله الإسلام والحق . ولهذا الـكتمان وهـذه التقية كانت كتب القوم المفعمة بعقائدهم الخطيرة بعيـدة عن أيدى الناس بعيدة عن متناول العامة . فـكان يعسر على من أراد كتبهم أن يظفر بها وعـلى من أراد الرد عليهم أن يعرف حقيقتهـم . فـكانت الردود عليهم كلها حتى الردود المبالغ فيها المدفوعة بأعنف التعصب تقع دون المرمى وتقصر عن الغاية كما هى عندهم . وعلى هـذا فـكل ما يقرؤه القارىء فى نقد هـذه الجماعة ونقد عقائدها فليعلم أن الحقيقـة السافرة فى كتبهم أنفسهم فوق ذلك كله . .

كتاب فرق الشيعة

وبين يدى الساعـة كتاب « فرق الشيعة » طبع النجف سـنة ١٣٥٥ من الهجرة تأليف أبى محمـد الحسن بن موسى النوبختى أحـد علماء الشـيعة الإماميـة ومؤلفيها الـكبار ، صححه وعلق عليـه السيد محمـد صادق آل بحر العلوم ، وكتب مقدمته هبـة الدين الشهرستانى ، وقامت عـلى طبعه المطبعة الحيدرية الإمامية . والـكتاب كما يدل اسمه موضوع لبيان عقائد من يشملهم اسم الشيعة العام : الإثنا عشرية وغيرهم . وقد قال فى هذا الـكتاب : « فلما

قول الشيعة فى الشيعة

قبض النبى افترقت الشيعة ثلاث فرق:فرقة قالت إن عليا امام مفترض الطاعة بعـد رسول الله واجب على الناس القبول منه والأخذ عنه ولايجوز غيره . وقد وضع عنـده النبى من العـلم ما يحتاج إليـه الناس من الدين والحلال والحرام وجميع منافع دينهـم ودنياهم ومضارهم وجميع العلوم جليلها ودقيقها واستودعه ذلك كله واستحفظه إياه . ولذلك استحق الإمامة ، ومقام النبى لعصمته وطهارة مولده وسابقته . . . وقالوا إنه لابد مع ذلك من أن يقوم مقامه بعده رجـل من

من ولده من ولد فاطمة بنت محمد عليه السلام . معصوم من الذنوب طاهر من العيوب مبرأ من الآفات والعاهات فى كل من الدين والنسب والمولد ، يؤمن منه العمد والخطأ والزلل منصوص عليه من الإمام الذى قبله مشار إليه باسمه وعينه الموالى له ناج والمعادى له كافر هالك ، والمتخذ دونه وليجة ضال مشرك . وأن الإمامة جارية فى عقبه ما اتصلت أمور الله وأمره ونهيه . . وفرقة منهم يسمون الجارودية. قالوا بتفضيل على ولم يروا مقامه يجوز لأحد سواه . وزعموا أن من دفع عليا عن هذا المكان فهو كافر ، وأن الأمة كفرت وضلت فى تركها بيعته وجعلوا الإمامة بعده فى الحسن بن على ثم فى الحسين ثم هى شورى بين أولادهما.

من قول الجارودية

فلما قتل على عليه السلام افترقت التى ثبتت على إمامته وأنها فرض من الله ورسوله فصاروا فرقا ثلاثا : فرقة منهم قالت إن عليا لم يقتل ولم يمت ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلماً وجوراً . وهى أول فرقة قالت فى الاسلام بالوقف بعد النبى من هذه الأمة وأول من قال منها بالغلو . وهذه الفرقة تسمى السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ وكان ممن أظهر الطعن على أبى بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم ، وقال إن علياً أمره بذلك فأخذه على فسأله عن قوله هذا فأقر به فأمر بقتله فصاح عليه الناس : يا أمير المؤمنين أتقتل رجلاً يدعو إلى حبكم أهل البيت وإلى ولايتكم والبراءة من أعدائكم ! فسيره إلى المدائن . وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب على أن عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأسلم ووالى عليا وكان يقول وهو على يهوديته فى يوشع بن نون بعد موسى بهذه المقالة فقال فى اسلامه بعد وفاة النبى فى على بمثل ذلك.وهو أول من شهر القول بفرض إمامة على وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه . ومن هنا قال من خالف الشيعة إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية ولما بلغ ابن سبأ نعى على بالمدائن قال للذى نعاه كذبت لو جئتنا بدماغه فى

من قول عبدالله بن سبأ

الرفض مأخوذ من اليهودية

سبعين مرة وأقمت عـلى قتله سبعين عدلاً لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ولا يموت حتى يملك الأرض . . . وفرقة قالت بامامة محمـد بن الحنفية فسموا الـكيسانية وإنما سموا بذلك لأن المختار بن أبى عبيد الثقفى كان رئيسهم وكان يلقب كيسان وهو الذى طالب بدم الحسين وادعى أن محمد بن الحنفية أمره بذلك وأنه الإمام بعد أبيه . و إنما لقب المختار كيسان لأن صاحب شرطته المـكنى بأبى عمرة كان اسمه كيسان وكان أفرط فى القول والفعل والقتل من المختار جدا . وكان يقول إن ابن الحنفية وصى على بن أبى طالب وأنه الإمام وأن المختار قيمه وعامله و يكفر من تقدم عليا و يكفر أهـل صفين والجمل ، وكان يزعم أن جبريل يأتى المختار بالوحى من عند الله فيخبره ولا يراه . ثم قال النوبختى بعد كلام : « و بقى أصحاب الحسين عـلى القول الأول بإمامته حتى مضى ثم افترقوا بعده ثلاث فرق : فرقة قالت بإمامة ابن الحنفية . وفرقة قالت : إن ابن الحنفية هو الإمام المهدى وهو وصى على بن أبى طالب ليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه ولا يخرج عن إمامته ولا يشهر سيفه إلا بإذنه . و إنما خرج الحسن بن عـلى إلى معاوية محاربا له بإذن محمـد وودعه وصالحه بإذنه ، و إن الحسين إنما خرج لقتال يزيد بإذنه ولو خرجا بغـير إذنه هلـكا وضلا ، و إن من خالف ابن الحنفية كافر مشرك ، وأن محمداً استعمل المختار على العراقين بعد قتل الحسين وأمره بالطلب بدمه وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا . وسماه كيسان لـكيسه ولما عرف من قيامه ومذهبه فيهم . فهم يسمون المختارية و يدعون الـكيسانية . فلما توفى ابن الحنفية تفرق أصحابه فصاروا ثلاث فرق : فرقة قالت إن ابن الحنفية هو المهدى سماه على مهديا لم يمت ولا يموت ولا يجوز ذلك ، ولـكنه غاب ولا يدرى أين هو وسـيرجع و يملك الأرض ولا إمام بعـد غيبته إلى رجوعه . وهم أصحاب ابن كرب و يسمون الـكربية . وكان حمزة بن عمار البربرى منهـم ، وكان من أهل المدينة ففارقهم

الكيسانية

وادعى أنه نبى وأن ابن الحنفية هو الله وأن حمزة هو الإمام وأنه ينزل عليه سبعة أسباب من السماء فيفتح بين الأرض و يملكها . فتبعه على ذلك ناس من أهل المدينة والكوفة فلعنه أبو جعفر و برىء منه وكذبه و برئت منه الشيعة . فاتبعه على رأيه رجلان يقال لأحدهما « صائد » وللآخر « بيان » وكان بيان تبانا بالكوفة ثم ادعى أن محمد بن على بن الحسين أوصى إليه . وكان حمزة بن عمار نكح ابنته وأحل جميع المحارم . وقال : من عرف الإمام فليصنع ما شاء فلا إثم عليه . فأصحاب ابن كرب وأصحاب بيان وأصحاب صائد ينتظرون رجوعهم ورجوع أصحابه و يزعمون أن ابن الحنفية يظهر بنفسه بعد الاستتار عن خلقه ينزل إلى الدنيا و يكون أمير المؤمنين وهذه آخرتهم . وفرقة قالت إن ابن الحنفية حى لم يمت وأنه مقيم بجبال رضوى بين مكة والمدينة تغذوه الارام وعن يمينه أسد وعن يساره أسد يحفظانه إلى أوان خروجه ومجيئه وقيامه وهو عندهم الامام المنتظر الذى بشر به النبى وأنه يملأ الأرض عدلاً وقسطا . فثبتوا على ذلك حتى فنوا وانقرضوا إلا قليلا من أبنائهم . وهم إحدى فرق الكيسانية .ومن الكيسانية السيد الحميرى وهو الذى يقول :

إحلال جميع المحارم

ياشعب رضوى مالمن بك لايرى * حتى متى تخفى وأنت قريب
لو غاب عنا عمر نوح أيقنت * منا النفوس بأنه سيئوب

وفيه يقول أيضا :

ألا حى المقيم بشعب رضوى * وأهد له بمنزله السلاما
أضر بمعشر والوك منا * وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرا * مقامك عنهم سبعين عاما
لقد أمسى بجانب شعب رضوى * تراجعه الملائكة الكلاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت * ولا وارت له أرض عظاما

وإن له به لمقيل صدق * وأندية تحدثه كراما

«و يروى قوم أن السيد الحميرى رجع عن قوله هذا وقال بإمامة جعفر بن محمد وقالت فرقة مثل قول الكيسانية فى أبيه بأنه المهدى ، وأنه حى لم يمت وأنه يحيى الموتى وغلوا فيه» . و بعد هـذا ذكر فروعا للفرقة السابقة ثم قال : «فهم كلهم غلاة يقولون من عرف الامام فليصنع ما شاء. وفرقة قالت أوصى عبدالله بن محمد ابن الحنفية إلى محمد بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب لأنه مات عنده بأرض الشراة بالشام . ذلك أن محمـد بن على كان صغيرا عند وفاة أبى هاشم وأمره أن يدفعها إليه إذا بلغ فلما بلغ دفعها إليه . فهو الإمام وهو الله وهو العالم بكل شئ ومن عرفه فليصنع ما شاء . وهؤلاء غـلاة الروندية . وفرقة قالت إن الامام القائم المهدى هو أبو هاشم وولى الخلق و يرجع فيقوم بأمور الناس و يملك الأرض ولا وصى بعده وغلوا فيه وهم البيانية أصحاب بيان النهدى . وقالوا إن أبا هاشم نبىّ بيانا عن الله فبيان نبىّ وتأولوا فى ذلك قول الله «هـذا بيان للناس وهدى» وادعى بيان بعد وفاة أبى هاشم النبوة وكتب إلى أبى جعفر يدعوه إلى نفسه وإلى الإقرار بنبوته و يقول له أسلم تسلم . . . ولما قتل أبو مسلم عبـد الله بن معاوية افترقت فرقته بعده ثلاث فرق وقد كان مال إلى عبد الله بن معاوية شـذاذ من صنوف الشيعة برجل يقال له عبد الله بن الحارث وكان أبوه زنديقا من أهـل المدائن فأخرج من شيعة عبدالله جمعا فأدخلهم فى الغلو والقول بالتناسخ والأظلة والدور وأسند ذلك إلى جابر بن عبد الله الأنصارى ثم إلى جابر الجعفى فخدعهم بذلك حتى ردهم عن جميع الفرائض والشرائع والسنن . وفرقة منهم قالت إن عبد الله بن معاوية حى لم يمت وأنه مقيم فى جبال أصفهان . لا يموت أبدا حتى يقود نواصيها إلى رجـل من ولد فاطمة . وفرقة قالت إن عبد الله بن معاوية قد مات ولم يوص وليس بعـده إمام فتاهوا وصـاروا مذبذبين بين صنوف الشيعة

من عرف الامام فليصنع ما شاء

فرقة البيانية

المنكرة فى فلسطين ، هذه الفعلة التى لم يسبق لها نظير فى تاريخ الطالبين الفاتحين كلها ، ثم لا تهتز جنبات العالم الاسلامى اهتزازاً ترتفع به أمم وتسقط به أخرى .

إن المسلمين لو لم يصابوا بهذا الفشل الذى لا مثيل له ، ولو لم يملوا الصراع المقدس ما استطاعت بريطانيا أن تكشف سوءتها وحقارتها ومدنيتها الزائفة فى فلسطين على منظر العالم الاسلامى العربى ومسمعه ، وعلى رغمه ، ثم لا يغضب غضبة يتحطم بها أكبر عرش مرصع بالجواهر المنهوبة من خزائن المسلمين ومن عروشهم المحطمة ، الواحد تلو الآخر بمساأس هذه العجوز وطغيانها وكيدها .

هذا شعب عربى مسلم ، فى بلد عربى إسلامى ، يقع فى قلب البلدان العربية الاسلامية ، تغير عليه دولة أوربية ، فتحكه وتتحكم فيه أخبث أنواع الحكم والتحكم باسم الانتداب الملعون ، فتسلبه أولاً كل معانى السيادة والعزة ، ثم لا يكفيها هذا ، بل تمتد يداها إلى مكان العقائد والايمان والاخلاق الفاضلة من أهله فتحاول إفساده وتخبيثه ليسهل عليها ما تريد ، ثم لا يكفيها هذا أيضاً بل تبسط يديها إلى القصور وإلى الأكواخ لتنزل فيهما الفقر والبؤس ، ولتملأهما من معانى الشقاء والفاقة ، وتبسطهما إلى الجيوب لتنتزع منها ما بقى فيها من مال قليل ، فتبلغ أقصى ما تريد ، ثم لا يكفيها — ويلها — كل ذلك ، بل تقوم بجيوشها وأساطيلها وطياراتها وسائر قواتها المزودة بأموال المسلمين وأموال العرب لتشرد هذا الشعب المنهوك بانتدابها — قاتله الله — من وطنه ووطن آبائه وأجداده ووطن دينه منذ القرون القصية ، وفيه مقدساته الدينية ، وفيه رفات أسلافه الأكرمين الأولين وفيه كم أراق دماءه وبذل مهجه لحمايته وصون حرماته من عدوان العادين ، وفيه كم ساد وحكم وذاد عنه المغيرين . . . لتشرده من وطنه كى تهبه التائهين المشردين المنبوذين من اليهود الممقوتين فى كل مكان وزمان ، ليزرعوا

بدن خبيث يعذبه فيه بالدنيا،وجعله فى أقبح صورة ورزقه أنتن رزق وأقذره. وتأولوا فى ذلك قول الله « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » فكذب الله هؤلاء ورد عليهم قولهم لمعصيتهم إياه فقال : « كلا بل لا تكرمون اليتيم » وهو النبى «ولا تحاضون على طعام المسكين» وهو الامام « وتأكلون التراث أكلا لما » ولاتخرجون حق الامام كما رزقكم وأجراه عليكم ... ومنهم فرقة تسمى المنصورية وهم أصحاب أبى منصور وهو الذى ادعى أن الله عرج به إليه فأدناه منه وكلمه ومسح يده على رأسه وقال له بالسريانية : أى بنى . وذكر أنه نبى ورسول وأن الله اتخذه خليلا . وكان أبو منصور هذا من أهل الكوفة وكان لا يقرأ ولا يكتب فادعى بعد وفاة أبى جعفر أنه فوض إليه أمره وجعله وصيه من بعده ثم ترقى به الأمر إلى أن قال كان على بن أبى طالب نبيا ورسولاً وكذا الحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وأنا نبى ورسول والنبوة فى ستة من ولدى يكونون من بعدى أنبياء آخرهم القائم . . . وكان يأمر أصحابه بخنق من خالفهم وقتلهم بالاغتيال ويقول من خالفكم فهو كافر مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خفى وزعم أن جبريل يأتيه بالوحى من عند الله وأن الله بعث محمدا بالتنزيل وبعثه هو بالتأويل.ثم ظفر عمر الخناق بابنه الحسين بن أبى منصور ، وقد تنبأ وادعى مرتبة أبيه وجبيت إليه الأموال وتابعه على مذهبه بشر كثير وقالوا بنبوته . قال النوبختى : « فهذه صنوف الغالية من أصحاب عبدالله بن معاوية والعباسية الراوندية وغيرهم . غير أن أصحاب عبدالله بن معاوية يزعمون أنهم يتعارفون فى انتقالهم فى كل جسد صاروا فيه على ما كانوا فيه مع نوح عليه السلام فى السفينة ومع النبى عليه السلام . ويسمون أنفسهم بأسماء أصحاب النبى ويزعمون أن أرواحهم فيهم ويتأولون فى ذلك قول على بن أبى طالب وقد روى عن النبى « إن الأرواح

فرقة المنصورية

قتل المخالفين

جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» فنحن نتعارف كما قال على عليه السلام . وقال بعضهم بالتناسخ وتنقل الأرواح .. وبعد هذا نقل النوبختى كلاما كثيرا فى التناسخ وفى تفصيله وتفصيل قولهم فيه قال بعده :

قول الكيسانية فى الرجعة

«وقالت الكيسانية يرجع الناس فى أجسامهم التى كانوا فيها، ويرجع محمد وجميع الأنبياء فيؤمنون به، ويرجع على بن أبى طالب فيقتل معاوية بن أبى سفيان وآل أبى سفيان ويهدم دمشق ويغرق البصرة . وأما أصحاب أبى الخطاب ومن قال بقولهم فإنهم افترقوا لما بلغهم أن أبا عبد الله لعنه وبرىء منه ومن أصحابه . . . فصاروا أربع فرق فغرقة منهم قالت إن أبا عبد الله جعفر بن محمد هو الله وأن

ترك جميع الفرائض والشرائع

أبا الخطاب نبى مرسل وأحلوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض وقالوا من سأله أخوه ليشهد له على مخالفيه فليصدقه ويشهد له فإن ذلك فرض عليه واجب ، وجعلوا الفرائض رجالا سموهم والفواحش والمعاصى رجالاً وتأولوا على ما استحلوه قول الله (يريد الله أن يخفف عنكم) وقالوا خفف عنا بأبى الخطاب ووضع عنا الأغلال والآصار يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج . . فمن عرف الرسول النبى الإمام فليصنع ما أحب . وفرقة قالت بزيع نبى رسول مثل أبى الخطاب . وفرقة قالت «السرى» رسول مثل أبى الخطاب أرسله جعفر وقال إنه قوى أمين وهو موسى القوى الأمين وفيه تلك الروح وجعفر هو الاسلام والاسلام هو السلام وهو الله ونحن بنو الاسلام كما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه . وقد قال رسول الله « سلمان ابن الاسلام » فدعوا إلى نبوة السرى ورسالته وصلوا وصاموا وحجوا لجعفر بن محمد بن جعفر ولبوا له وقالوا لبيك ياجعفر .. وفرقة قالت جعفر هو الله وإنما هو نور يدخل فى أبدان الأوصياء فيحل فيها فكان ذلك النور فى جعفر ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطاب فصار جعفر من الملائكة ثم خرج

من أبي الخطاب فدخل في معمر وصار أبو الخطاب من الملائكة فعمر هو الله ! فخرج ابن اللبان يدعو إلى معمر وقال إنه الله وصلى له وصام وأحل الشهوات كلها ما حل منها وما حرم . وليس عنده شيء محرم . وقال لم يخلق الله هذا إلا لخلقه فكيف يكون محرما ؟ وأحل الزنا والسرقة والميتة ولحم الخنزير ونكاح الأمهات والبنات ونكاح الرجال وزعم أن كل شيء أحله الله في القرآن وحرمه فإنما هو أسماء رجال . فخاصمه قوم من الشيعة » .

الى من يرجع الغلاة من الشيعة

و بعد هذا ساق كلاما كثيرا في تأليه المخلوق قال بعده : « فهذه فرق الغلو ممن انتحل التشيع . و إلى الخرمدينية والمزدكية والزنديقية والدهرية مرجعهم جميعا . وكلهم متفقون على نفي الربوبية عن الخالق و إثباتها في بدن مخلوق على أن البدن مسكن لله وأن الله نور وروح ينتقل في هذه الأبدان . ثم إن الشيعة العباسية الروندية افترقت ثلاث فرق » وفصل أقوال هذه الفرق الثلاث ثم أخذ في بيان أقوال فرق الشيعة حتى ختم الكتاب .

وهذا الذي نقلناه بنصه من الكتاب نموذج صحيح للكتاب كله . وقد ذكر عن طوائف منهم أن الامام يعلم كل شيء وأنه مثل النبي في جميع أموره . وذكر عن طائفة أنها زعمت أن المنصور هو الله وأنه يعلم سرهم ونجواهم . وذكر عن طائفة أنها ادعت أن آل النبي وذريته صغارهم وكبارهم في المعارف والعلوم سواء وأن الطفل في المهد يعلم ما يعلمه الكبير لا يفضل عليه بشيء . وأن منهم من قال : من زعم أن من كان في المهد والخرق ليس علمه مثل علم الرسول فهو كافر بالله مشرك . وأن منهم من قال ليس أحد من آل النبي يحتاج إلى أن يتعلم من أحد لا منهم ولا من غيرهم بل العلم ينبت في صدورهم كما ينبت الزرع بالمطر . وذكر عن طوائف منهم أنهم ألهوا أشياخهم وأنهم زعموهم رسلاً وآلهة . وحكى عن طوائف القول بالتناسخ و بالحلول وعن طوائف أخرى القول بالبداء وحكاه عن أئمتهم المعصومين . وحكى

عن طوائف أخرى أنهم قالوا الامام واحد وهو روح تنتقل فى سائر الأئمة ولكنه واحد لايتعدد . وحكى عن فرقة أنها زعمت أن النبى انقطعت عنه الرسالة فى حياته فى اليوم الذى أعلن فيه إمامة على بن أبى طالب وهو يوم « غدير خم » قالوا وقد انتقلت الرسالة فى ذلك اليوم من النبى إلى على . واعتلوا لهذا بقول النبى « من كنت مولاه فعلى مولاه » قالوا وهذا القول خروج من النبوة والرسالة وتنازل عنهما لعلى . وحكى عن فرقة أنها ذهبت إلى أن الشريعة الاسلامية سوف تنسخ ينسخها القائمة ، واعتلوا بالروايات التى نقلوها عن أئمتهم الذين زعموهم معصومين مثل قولهم لو قام قائمنا علمتم القرآن جديدا . وحكى عن طوائف أنهم ذهبوا إلى وجوب قتل أهل القبلة وأخذ أموالهم والشهادة عليهم بالكفر . واعتلوا بقول الله « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وذهبوا إلى سبى النساء وقتل الأطفال واعتلوا بقول الله (لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) وزعموا أنه يجب البدء بقتل من قال بالامامة ممن ليس على قولهم . واحتجوا على ذلك بالقرآن . وحكى عن فريق احلال الفروج والغلمان وجميع المحرمات واحتج هذا الفريق بقول الله (أو يزوجهم ذكرانا و إناثا) وعن فريق آخر احلال نكاح الرجال زاعمين أن ذلك من التواضع . وحكى عن غير هؤلاء غير هذا البلاء . وما من فرقة من فرق الشيعة إلا وحكى لها آفة من هذه الآفات .

نسخ الشريعة الاسلامية

الاستدلال بالقرآن على احلال نكاح الرجال

وهذا الذى حكاه أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى فى كتابه « فرق الشيعة » يوافق ما حكاه عنهم جميع من كتبوا فى الملل والنحل كالأشعرى وابن حزم والشهرستانى والمقريزى وغيرهم من أهل السنة وغير أهل السنة . وهذا الذى نقلناه عن هذا الكتاب الشيعى الإمامى لهذا المؤلف الشيعى الامامى يصدق ما حكيناه عن الطائفة فى الجزء الأول ناقلين له من كتب أهل السنة . وكنا حين ذاك لم نر كتاب فرق الشيعة و إلا لنقلنا منه لامن كتب أهل السنة ليكون

ذلك أمكن فى اظهار الحجة وتقليم أظافر النزاع والعناد .

نعم قد يقولون إن هذه الفرق التى يحكى عنها النوبختى وغيره هذه الآفات الاعتقادية والآفات العقلية ليست موافقة لما تذهب إليه طائفة الامامية الاثناعشرية المحقة . بل هى تبرأ من هذه الفرق جميعا وتضللها جميعا وتحكم عليها بالزيغ فمن العدوان إذن ذكر هذه الفرق فى معرض الرد على طائفة الإمامية ، ومن العدوان أيضا مزج هـذه الفرق الضالة بها وهى تعوذ بالله منها . . . إذا قالوا هذه المقالة قلنا لهم : إن أئمتكم أنفسكم فعلوا هذا الذى فعلناه ، وذكروا هـذه الفرق التى يشملها لفظ الشيعة العام وإن لم يكونوا اثنا عشرية مع طائفة الاثنا عشرية كما فعل النوبختى وغيره من علماء الشيعة . وقلنا لهم إن الجامع بين هذه الفرق وبين فرقة الامامية هو الذهاب إلى التشيع والاستمساك به وإن كان بينهم فرق وخلاف فى التفصيل فلا يضر ولا يمنع هذا الذى فعلناه وفعله غـيرنا من أهـل السنة ومن الشيعة وممن كتبوا فى عقائد الناس وإن كانوا غـير مسلمين . ولهذا نجـد مؤلفى الشيعة عندما يريدون تعداد الشيعة وبيان كثرتهم وعظمتهم وشأنهم فى العالم الاسلامى يذكرون كل من يشمله لفظ الشيعة والتشيع ، فيذكرون الزيدية والاسماعيلية . ويذكرون أيضا غيرهم . وقـد فعل هذا الشيـخ محسن الأمين العاملى فى كتابه « أعيان الشيعة » فى مواضع ، وهو وغـيره يشيدون بذكر الفاطميين ويفاخرون بهم ويعـدونهم منهم وإليهم مع أن الفاطميين ليسوا اثنا عشرية وإنما هم إسماعيلية . وقد وجدنا مؤلفى الامامية يذكرون حين الرد على أهل السنة كل من قابل الشيعة وإن كان من يذكرون بعيدين جدا عن أهـل السنة بالمعنى الخاص . فهم عندما يتعرضون لنقد أهل السنة وللرد عليهم يذكرون أقوال الجهمية والجبرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة ويسبونهم بما تقوله إحدى هذه الطوائف من الاغلاط والمنكرات مع أن هذه الفرق ليست جميعا من أهل السنة

بل أهل السنة يبرؤون منها ومن باطلها ، بل بعض هذه الفرق أقرب إلى الشيعة منهم إلى أهل السنة كالمعتزلة مثلا . فإن أصولهم تجنح إلى أصول الشيعة أكثر من جنوحها إلى أصول أهل السنة . فعد المعتزلة من الشيعة أصدق من عدهم فى أهل السنة ، ولكن كتاب الشيعة يعدون المعتزلة فى أهل السنة لأنهم يخالفونهم فى أصول الامامة . ومقياس الناس عند الشيعة مسألة الامامة والغلو فى على وولده ، ثم القدح فى أعدائهم أو من زعموهم لهم أعداء وإن كانوا أصدقاء . ويصدق هذا الذى ذكرناه أننا وجدنا هؤلاء القوم مثل محسن الأمين فى كتابه « أعيان الشيعة » ومثل غيره يذكرون فى عداد الشيعة مثل محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى ومثل الحافظ أبى نعيم ومثل ابن اسحاق صاحب السيرة ومثل غيرهم بل يذكرون فى تعدادهم كل من قال كلمة غلو فى آل البيت من الشعراء والكتاب والعلماء والفقهاء وغيرهم . ولهذا يذكرون من شعراء الشيعة مثل كعب بن زهير وأبى الأسود الدؤلى وأمثال الفرزدق وأبى نواس الفاسق ومسلم بن الوليد وأبى تمام والبحترى والمتنبى وغيرهم من أهل الفسق والشعر والأدب ، لأنهم قالوا بيت شعر أو كلمة فيها ريح غلو أو ريح تفضيل لعلى . ومن غريب أمر هذا الرجل — أعنى صاحب كتاب أعيان الشيعة — أنه عمد إلى جميع الشعراء الفحول والكتاب البارزين وأصناف العلماء وحملة الأقلام فعدهم فى كتابه شيعة . ولو صدق هذا الذى فعل لكان أبو حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل والبخارى ومسلم وغيرهم وغيرهم من عيون الشيعة . بل لكان الوهابيون الذين يقدح فيهم ويستحل الوقيعة فى أعراضهم من متعصبى الشيعة . لأن هؤلاء جميعا يمتدحون عليا وذريته ويوالونهم ويعادون من يعاديهم ويقولون إن من الايمان ومن الاسلام حبهم وموالاتهم . ولا يشك مؤمن بالله وباليوم الآخر أن أئمة الحديث والفقه والسنة أمثال الأئمة الأربعة وأمثال شيوخ الحديث وغيرهم أقرب إلى

على وإلى حبه وإلى أهـل بيته وموالاتهم من أمثال أبى نواس والبحترى وأبى تمام وأبى الطيب المتنبئ . والقوم يعدون هؤلاء الشعراء جميعا شيعة ولا يعدون الأئمة الأربعة ولا غيرهم من شيوخ السنة شيعة ، بل يعدونهم من خصوم على وخصوم آل النبى ومن أعدائهم الفجار الكفار . ومن غريب أمر هذا الرجـل أنه أنكر فى كتابه على من عد هذه الفرق الزائغة غير الاثنا عشرية من الشيعة وزعم أن هذا من التضليل والتلبيس . ولكن ها نحن وجـدنا علماء الشيعة أنفسهم يعدون هذه الطوائف النائية عن الحق التى ذكرنا بعض عقائدها من فرق الشيعة وهو نفسه يفعـل ذلك أحياناً . ونحن لم ندع قط أن كل قول تقوله طائفة من طوائف الشيعة يكون قولا لجميع طوائفها ، ولـكن ندعى أن الباطل الموجود فى طوائفها كلها لا يوجد مجموعا فى أهل نحلة من النحل ولا ملة من الملل بل هم يفوقون العالم بأسره فى وفرة الأخطاء والخطايا والضلالات الـكبرى . ولم توجد هذه الآفات الشيعية التى ذكرها النوبختى فى فرق الشيعة مجتمعة فى فريق ولا فرق من خلق الله فيما نعلم . على أنه قد اجتمع فى طائفة الامامية الاثنا عشرية من ذلك ماطم الوادى . ونحن هنا نورد نماذج من هـذه الآفات ناقلين لها من كتبهم المطبوعة فى مطابعهم المسماة بأسماء أئمتهم :

﴿ النبى هو موجد العالم عند الشيعة ﴾

ايجاد الرسول للعالم اقل فواضله وفضائله

قال السيد محسن الأمين العامـلى فى كتاب أعيان الشيعة الجزء الخامس ص ٥٢٠ قال الشيخ ابراهيم بن يحيى الشيعى الاثنا عشرى فى امتـداح النبى عليه الصلاة والسلام :

ساد الورى بفضائل وفواضل * وأقلها ايجاد هذا العالم
أنا عبدك القن الذى لا يبتغى * إلا رضاك وأنت أرحم راحم

فأقل فواضل النبي وفواضله إيجاده العالم وهذا كفر بلا مرية .

﴿ رجوع الأمر كله إلى على ﴾

ثم ذكر السيد محسن فى هذا الجزء عن الشيخ ابراهيم بن صادق أحد علمائهم ص ٢٢٠ أنه قال فى على :

رجوع الامور كلها إلى على بن أبى طالب

يا مَنْ إليه الأمر يرجع فى غد * ولديه أعمال الخلائق ترفع
وله مآل ثوابها وعقابها * يعطى العطاء لمن يَشاء ويمنع

﴿ على عندهم غير محدود الذات والصفات ﴾

وفى هذه القصيدة يقول :

وأرى الألى لصفات ذاتك حددوا * قد أخطأوا معنى علاك وضيعوا
ولأى مجدك يا عظيم المجد لم * يتدبروا وحديث قدسك لم يعوا
ولك الرمام تهب مِنْ أجداثها * والشمس بعد مغيبها لك ترجع
والشمس بعد مغيبها إن ردها * بالسر منك وصى موسى يوشع
فهى التى بك كل يوم لم تزل * من بدء خطرتها تغيب وتطلع
والدهر عبدك طائع لك لم يزل * وكذا القضا لك من يمينك أطوع
ولئن أطاع البحر موسى بالعصا * ضربا فموسى والعصا لك أطوع
ولئن نجت بالرسل قبلك أمة * فلقد نجت بك رسل ربك أجمع
وصفاتك الحسنى يقصر عن مدى * أدنى علاها كل مدح يصنع
والحمد مقصور عليه ثناؤه * وعلى سواك لواؤه لا يرفع

وهذا لا يقوله مسلم ولا مؤمن بالله وقوله « فموسى والعصا لك أطوع » وقوله « نجت بك رسل ربك أجمع » وقوله « بالسر منك » البيت ، هى أقوال لا يتفوه بها المؤمنون وهى تشير الى ألوهية على وقدمه ، ونعوذ بالله من هذا.

﴿ وجود علي واسع كل الوجود ﴾

وقبل هذه الأبيات من هذه القصيدة يقول الشيخ إبراهيم هذا في علي :

ووجوده وسع الوجود وهل خلا * في عالم الامكان منه موضع
كشاف داجية القضاء عن الورى * بعزائم منها القضاء يروع

وجود علي بن أبي طالب في كل مكان

﴿ آل النبي يملكون أمور العالمين ﴾

ونقل في الجزء الخامس ص ٦٧٣ في ترجمة الشيخ ابراهيم العاملي قوله في آل النبي :

العالمون بكل علم أحجمت * عنه الخواطر غير كنه الذات
ملكوا أمور العالمين فأمرهم * ماض على الأحياء والأموات

ملك آل النبي لأمور العالمين

وفي ص ٦٨٧ من هذا الجزء عن هذا الشيخ بعد أن ذكر الرسول وفاطمة والحسن والحسين وجعفر وحمزة وعقيلاً وعبد مناف قال:

هم التسعة الغر الذين إليهم * أمور الورى في النشأتين تئول
ولولاهم ما ساغ فعل لفاعل * ولا طاب منه القول حين يقول

﴿ الدنيا والأخرى أقل عطايا السيدة زينب ﴾

وذكر ص ٥٨٨ من الجزء الخامس للشيخ إبراهيم بن يحيى العاملي قوله في السيدة زينب :

وكيف لا يطلب الدنيا وضرتها * مولاكم وهما أدنى عطاياك

﴿ مجاورة أحد قبور أهل البيت يعصم من سؤال القبر ﴾

وذكر في ص ٣٥٠ من الجزء الخامس للشيخ إبراهيم الكفعمي أحد علمائهم قوله طالبا أن يدفن في كربلاء :

سألتكم بالله أن تدفنوني * إذا مت في قبر بأرض عقير

فانى به جار الشهيد بكربلا * سليل رسول الله خير مجير
فانى به فى حفرتى غير خائف * بلا مرية من منكر ونكير

قتل على لأحد المشركين أفضل من عبادة الخلائق أجمعين

﴿ أحد ضربات على أفضل من عبادة الخلائق أجمع ﴾

ومن أقبح الغلو الذى يتخبطون فيه ماذكره السيد محسن الأمين فى كتاب « أعيان الشيعة » ص ٢٣٤ من الجزء الثانى وص ١١٣ من الجزء الثالث قال: إن قتل على بن أبى طالب لعمرو بن عبدود افضل من عبادة الجن والانس والملائكة وملايين العوالم أمثالهم إلى قيام الساعة ، قال ولولا هذه القتلة لما عبدالله فى الأرض . قال وفى قراءة « وكفى الله المؤمنين القتال بعلى »

ولا يخفى ما فى هـذا من الاثم والباطل ومن التنقص للأنبياء والمرسلين وللملائكة وللمؤمنين ، ومن التهوين لهم ولعباداتهم وطاعتهم لله . ولن يقول مسلم إن عليا كله بجهاده وأعماله وجميع أحواله أفضل من أحد الأنبياء فضلا عن أن يقول إن قتله لرجل من المشركين أفضل من عبادة جميع الأنبياء والمرسلين ومن عبادات الجن والانس والملائكة وملايين العوالم من أمثال الجن والانس والملائكة ، وفيهم الأنبياء والرسل ، وفيهم محمد وموسى وعيسى و إبراهيم ونوح وغيرهم ، وفيهم جبريل وميكائيل و إسرافيل وغيرهم . وقد ذكر هذا الرجل فى مواضع من كتابه أن عليا كان يقتل فى جميع غزوات المسلمين وحده أكثر من الشطر وأن المسلمين جميعا مع الملائكة يقتلون الباقى وهو مادون الشطر ، فجميع أبطال الصحابة مع الملائكة المسومين لا يستطيعون مجتمعين أن يقتلوا العدد الذى يقتله على وحده . وهذا ضرب من ضروب الجنة والهوس . وقد ذكر أيضا ص ٤٤٦ من الجزء الثانى أنه لا كفء لفاطمة غير على وأنه لولا على لما كان آدم ولا من بعده كفئاً لها .

﴿ إنكارهم لبنات النبي ﴾

إنكار بنات النبي عليه السلام

ومن عجيب أمر القوم ومن لجاجتهم فى عداوة الخلفاء الراشدين وانحدارهم فى جحد فضائلهم أنهم ينكرون أن تكون رقية وأم كلثوم زوجا عثمان وابنتا النبي عليه السلام : ينكرون أن تكونا من بنات النبي ويزعمون أنهما ليستا ابنتين له . ذكر هذا الانكار أحد علمائهم وفقهائها وهو السيد محمد مهدى القزوينى الكاظمى فى كتابه منهاج الشريعة الجزء الثانى ص ٢٨٩ وص ١٩١ والقوم يريدون بهذا تجريد عثمان من فضائله التى قلده الله إياها حتى ألبسه فخر مصاهرة نبيه وتزويجه بابنتين من بناته،وهذا مجد لم ينله على نفسه . ولكن إنكارهم هذا يدل على استهتارهم بدينهم ونبيهم و بآله وذريته وأهل بيته . وولاؤهم للبيت النبوى هو أعظم مالديهم من المفاخر التى يدلون بها فيما يزعمون . فأين مايزعمون وأين ما به يفاخرون ويدلون ؟؟؟ ومما يلحق بهذا أن هذا الشيخ نفسه أعنى محمدمهدى القزوينى زعم فى هذا الجزء من كتابه ص ١١٨ أن التتار الذين هجموا على عاصمة الاسلام بغداد فخربوها وقتلوا خليفة المسلمين المستعصم كانوا مسلمين مؤمنين بالله . وفى الصفحة التى بعدها امتدح كل من أعان على قتل الخليفة وتمزيق خلافته ، وذكر أن ابن العلقمى إن كان حقا قد خامر ومالأ المغيرين على بغداد وصرع خليفتها فقد فعل حسنا وأتى جميلا يشكر عليه . وهم يريدون بهذا القول الثناء على التتار وامتداحهم لأنهم فى رأيهم قد أتوا بما يشكرون عليه وهو قتلهم الخليفة العباسى وقتل رجاله وعلمائه .

﴿ ذرية النبي جميعا محرمون على النار معصومون من كل سوء ﴾

أولاد النبي محرمون على النار وعلى العصيان

وفى الجزء الثانى صفحة ٣٢٧ من كتاب « منهاج الشريعة » المتقدم زعم مؤلفه أن الله قد حرم جميع أولاد فاطمة بنت النبي على النار . وأن من فاته الحق

منهم أولا فلا بد أن يوفق إليه قبل وفاته ، قال : ثم الشفاعة من وراء ذلك . وقال فى «أعيان الشيعة» الجزء الثالث صفحة ٦٥ إن أولاد النبى عليه الصلاة والسلام لا يخطئون ولا يذنبون ولا يعصون الله إلى قيام الساعة .

بنو أمية من الروم لا من العرب

﴿ بنو أمية ليسوا من قريش ولا من العرب ﴾

ومن فظيع ماخطوه بأيديهم عداوة للعرب وخصومة لملوكهم وتحريفا لكتاب الله ما ذكروه فى كتاب « ذخيرة الدارين فى مايتعلق بالحسين » تأليف السيد عبدالمجيد الحسينى الحائرى الأمامى . قال صفحة ٤٨ الجزء الأول (طبع النجف) بعنوان « نسب معاوية ويزيد وزياد وعمرو بن العاص » : « ذكر الحلى فى كتاب « نهج الحق » عند نقل مثالب الصحابة أن معاوية كان لأربعة من الرجال قال السيد التسترى فى كتاب « احقاق الحق فى بيان نسب بنى أمية » إن نسبهم بطريق علماء أهل البيت أنهم ليسوا من قريش وإنما كانوا لعبد رومى اسمه «أمية» قال ونسبهم النسابون الجهلاء إلى قريش. وفى تفسير الصافى الفاضل القاشانى فى سورة الروم قال وقرئ فى الشواذ « غلبت الروم (بفتح الحرف الأول) وهم من بعد غلبهم سيغلبون » بضم حرف الياء . قال وقد روينا من طريق علماء أهل البيت فى علومهم وأسرارهم التى خرجت منهم إلى علماء شيعتهم أن قوما ينسبون إلى قريش وأن أصلهم من الروم ، وفيهم تأويل هذه الآية ، « غلبت الروم» ومعناها أنهم غلبوا على الملك وسيغلبهم بنو العباس » انتهى كلامه ونحن نترك هذا الكلام بدون تعليق .

ملوك أهل السنة أولاد زنا عند الشيعة

﴿ ملوك أهل السنة أولاد زنا عند الشيعة ﴾

وفى هذا الجزء من هذا الكتاب صفحة ٥٠ قال : فبنوا أمية جميعهم ليسوا من صلب قريش وإنما هم ملحقون . . . والعجيب أنهم يشهدون على أئمتهم

بأنهم أولاد زنا وأولاد مخانيث ثم يقدمونهم على من ليس فيهم عيب ، ولا فى نسبهم ريب . انتهى كلامه .

وأهل السنة لم يقدموا على على وعلى الحسن والحسين وذريتهم الصالحين غير أبى بكر وعمر وعثمان . فكأن هؤلاء المخذولين يعنون بهذه المقادح الملعونة هؤلاء الخلفاء : الصديق والفاروق وعثمان . وقد ذكر صاحب كتاب أعيان الشيعة (الجزء الثالث صفحة ٣٦) هذا المعنى بعبارة لاأستطيع نقلها وحكايتها . وذكر صاحب «ذخيرة الدارين » أيضا أن عمرو بن العاص وطلحة بن عبيد الله وسعد ابن أبى وقاص وابنه عمر والزبير وابنه عبدالله : ذكر أن هؤلاء جميعا أولاد زنا

الباكى على الحسين محرم على النار

﴿ من بكى أو تباكى على الحسين حرم على النار ﴾

وفى « ذخيرة الدارين » صفحة ١١٥ قال: من بكى أو تباكى على قتل الحسين حرم جسده على النار .

على بن أبى طالب قسيم النار

﴿ على قسيم النار وهو مخلص الخلائق يوم القيامة منها ﴾

وفى صفحة ١١٦ قال : إن عليا يذود الخلق يوم العطش فيسقى منه أولياءه ويذود عنه أعداءه ، وإنه قسيم النار وإنها تطيعه يخرج منها من يشاء ، وإنه هو الذى يخلص الخلائق يوم القيامة عند الله .

زيارة الحسين نجاة

﴿ زائر الحسين ناج و زيارته أفضل من الحج والاعتمار ﴾

وفى هذه الصفحة قال : «ومن أتى الحسين زائراً كان فى ضمان الله وكان بمنزلة من حج واعتمر ولم يخل من الرحمة طرفة عين وإن مات مات شهيداً وإن بقى لم يزل يحفظه حتى يفارق الدنيا » .

الشفاء وإجابة الدعاء فى قبر الحسين

﴿ الشفاء واجابة الدعاء فى قبر الحسين ﴾

وفى صفحة ١١٩ قال : « إن الله عوض الحسين من قتله أن جعل الامامة فى

ذريته والشفاء فى تربته و إجابة الدعاء عند قبره ، ولا تعد أيام زائره جائيا وذاهبا من عمره » .

الامام المنتظر يأتى بدين جديد

﴿ الامام المنتظر يأتى بأمر جديد وكتاب جديد ﴾

وفى كتاب « أعيان الشيعة » (الجزء الرابع القسم الثانى صفحة ٥٣٠) قال قال الصادق عليه السلام : إذا قام القائم دعا الناس إلى الاسلام جديدا وهداهم إلى أمر دثر وضل عنه الجمهور . و إنما سمى القائم مهديا لأنه يهدى إلى أمر مضلول عنه ، وسمى القائم لقيامه بالحق . وعنه عليه السلام قال : إذا قام القائم هدم المسجد الحرام حتى يرده إلى أساسه ، وحول المقام إلى الموضع الذى كان فيه، وقطع أيدى بنى شيبة وعلقها بالكعبة وكتب عليها : هؤلاء سراق الكعبة . وعنه عليه السلام قال : إذا قام القائم جاء بأمر جديد كما دعا رسول الله فى بدء الاسلام إلى أمر جديد . وعن الباقر نحوه . وعن الباقر أيضا قال : إذا خرج يقوم بأمر جديد وكتاب جديد وسنة جديدة وقضاء جديد على العرب شديد . ليس شأنه إلا القتل لا يستبقى أحدا ولا تأخذه فى الله لومة لائم . وعنه فى حديث : لكأنى أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس بأمر جديد وكتاب جديد وسلطان جديد من السماء . وعنه عليه السلام قال : إذا قام القائم سار إلى الكوفة ، فيهدم بها أربعة مساجد . ولم يبق على وجه الأرض مسجد له شرف الا هدمه ، ووسع الطريق الأعظم وكسر كل جناح خارج فى الطريق ، وأبطل الكنف والميازيب إلى الطرقات .

هذه أقوال الأئمة المعصومين عند القوم ومقالاتهم . وهى صريحة فى أن هنالك كتابا صحيحا وقرآنا غير هذا القرآن وغير هذا الكتاب الذى بين أيدى المسلمين . و بعد هذا يحاول محاولون من مؤلفى هذه الطائفة التضليل على من لم

يعرف حقيقتهم وحقيقة دعاويهم فيذهبون يقولون : كلا ، إننا معشر الشيعة الاثنا عشرية لانقول بشئ من هذه المقالات بل نبرأ منها ومن قائليها . وهم يفرون إلى التقية والخداع والتضليل وإلا فهذه مقالات الأئمة الذين يزعمونهم معصومين كالأنبياء والمرسلين ، بل أعظم وأفضل وأصدق عندهم من أولى العزم من الأنبياء بينة فى هذا الأمر الذى يحاولون اخفاءه وكتمانه .

هدم الشيعة مساجد المسلمين

أما هدم المساجد وزعمهم أن القائم المنتظر يهدم كل مسجد له شرف فقد جاء عن هؤلاء الأئمة من طرقهم هم أن القائم إذا ظهر هدم مسجد النبى عليه الصلاة والسلام وأخرج أبا بكر وعمر منه طريين فصلبهما ثم حرقهما . وجاءت روايات كثيرة فى كتبهم أنه يهدم جميع المساجد . والشيعة أبداً هم أعداء المساجد ولهذا يقل أن يشاهد الضارب فى طول بلادهم وعرضها مسجداً .

وحسن لهم هم أن يهدموا مساجد المسلمين وأن يهدموا مسجد النبى والمسجد الحرام وكل مسجد له شرف ، وغير حسن من أتباع السنة المحمدية الصافية أن يهدموا القباب والبنايات المشيدة على الأموات ترغيبا فى عبادتهم وإشراكهم بالله

وقولهم فى الرواية : « وقضاء على العرب شديد » لا يدرى من لم يعرف مقدار حنقهم على العرب لماذا خصوهم دون سواهم من الأمم والشعوب بشدة ذلك القضاء المنتظر . ولحا الله هذه الجماعة ! فلقد غذيت بعداوة العرب وبغضائها منذ أن كانت إلى قيام منتظرها من غير ما سبب أتاه العرب المساكين سوى نشرهم هذا الدين . والله المطلع على ذات صدورهم .

بطلان الجهاد فى سبيل الله

﴿ كل جهاد فى سبيل الله باطل ومعصية عند الشيعة ﴾

ومن أشنع ما ذهبت إليه هذه الفرقة أنها زعمت أن الجهاد فى سبيل الله باطل موضوع، وأن المجاهدين فاسقون عاصون ان لم يكن ذلك تحت لواء على بن أبى طالب أو أحد أولاده المعصومين ! فعندهم أن جميع فتوح الاسلام التى

تمت فى عصر الخلفاء الراشدين وفى عصور من بعدهم من الخلفاء والأمراء والملوك فتوح قائمة على عصيان الله ومخالفة أمره وشرعه . وعندهم أن كل من اشترك فى فتح بقعة من بلاد الكفر والشرك بعد النبى آثم عاص لله ولرسوله سواء أكان قائداً أم كان مقوداً ، وسواء أكان أميراً أم كان مأموراً . وهم يذكرون روايات فى هذا الباطل و الاثم العظيم عن أئمة البيت النبوى. والروايات بلاريب مكذوبة . ولو كانت صحيحة عنهم لما كانوا عندنا ولا عند المسلمين من المرضيين.

وقد ذكرت هذه المسألة فى كتاب « أعيان الشيعة » (الجزء الرابع القسم الأول صفحة ١٣١) . وقد ذكر قول أحد الكتاب عن الحسين رضى الله عنه وعن جهاده مع المسلمين : « ويتنقل مع جيوش المسلمين إلى أقطار الأرض فى فتح افريقيـة وغزوة جرجان وطبرستان وقسطنطينية » . فقال الشيعى مؤلف « أعيان الشيعة » تعقيبا علـى ما ذكر من جهاد الحسين : « ولا يخفى أن ذلك كله اختلاق . فالحسين لم يكن ليسير تحت تلك الرايات التى يراها رايات ضلالة ، وخصوصا راية يزيد بن معاوية . ولم يكن ليؤيد سلطنة الظلم والملك العضوض ، وأخوه الحسن الذى كان أقرب منه إلى المسالمة لم يرض أن يحارب الخوارج تحت راية معاوية ، وقد قال مامعناه : أنت أحق بأن أجاهدك من الخوارج . فالحسين الذى علم حاله فى إباء الضيم والمجاهرة بالحق هل يمكن أن يسير تحت مثل تلك الرايات وأمير المؤمنين عليه السلام قد قال : لا تحاربوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه . وأئمة أهل البيت كانوا يرون مسير أبى أيوب الأنصارى لمحاصرة القسطنطينية قلة فقه منـه . فهل يمكن أن يفعلوا ما عابوه على غيرهم ؟ » انتهى كلامه فض الله فاه .

فهل سمع المسلم بأعجب من هذا ؟ وهل يقول مثل هذا القول من يؤمن بالله وباليوم الآخر ومن يريد أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الكفر والشرك هى

السفلى ؟ وأبو أيوب الأنصارى مات غازيا مجاهدا فى بلاد الروم فى خلافة معاوية رضى الله عنهما . ومتى كان المجاهد فى سبيل الله الذاهب إلى ربه فى جهاده قليل الفقه ياقومنا ؟ هبوا أيها الناس معاوية شر الخليقة كلها فلماذا لاتجوز معاونته على الخير والطاعات . ولماذا لا يجوز جهاد الكفر والفساد والجهل والظلم معه وتحت رايته وفى إمرته ؟ إن المسلم - يامن يزعمون أنهم مسلمون - مأمور بأن ينصر الحق وأن يكون مع الحق وأن يجاهد فى سبيل الله وفى سبيل اعزاز دينه وكلمة الله أين كان وحيث كان ومع من كان . ولو أن المسلمين وجدوا كفارا يناصرون الاسلام وأهله لكانوا معهم .

والقوم يظنون أن قول على المذكور : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى » الحديث ، إبطال للجهاد فى سبيل الله ، ويحسبونه يعنى أن كل مسلم يجب عليه أن يغمد سيفه وأن يحطم رمحه فلا يجاهد ولا يقاتل لأن كل جهاد وقتال بعده باطل موضوع لأن الملوك والخلفاء القائمين بالجهاد بعده كلهم من غير المعصومين . وهذا باطل والرواية عن على باطلة ولو صحت لما أمكن أن يكون معناها مازعموا .

وقول الرافضى : « ولم يكن ليؤيد سلطنة الظلم والملك العضوض » قول غريب باطل . لأن الجهاد فى سبيل الله ليس تأييداً للظلم والملك العضوض وإنما هو تأييد لدين الله ونشر له . وإذا لزم الجهاد فى الحق أن يكون فيه إعزاز لدولة أحد الخلفاء الظالمين عند الشيعة لم يكن هذا الجهاد باطلا ولا تأييدا للظلم والملك العضوض . وهل يجوز للمسلم أن يترك الجهاد فى سبيل الله مع المسلمين المجاهدين خيفة أن يكون فى جهاده تقوية لخلافة أبى بكر أو عمر أو عثمان أو معاوية أوغيرهم من الخلفاء والملوك ؟ وهل ينهب من يؤمن بالله واليوم الآخر إلى أن إبقاء ديار الكفر والظلم والشرك تحت الكفار والمشركين والجاهلين أفضل وأولى من إدخالها

فى حوزة المسلمين والاسلام تحت سلطنة معاوية أو خلافة أبى بكر أو عمر أو عثمان لئلا يكون فى هذا توسيع لسلطان أحد هؤلاء الخلفاء والملوك الظالمين ؟ وهل يقول مؤمن بالله وباليوم الآخر إن عمرو بن العاص مثلا آثم فى غزواته فى سبيل الله وفى فتحه مصر وفتح غيرها من بلاد الكفار والمشركين ، أو يقول إن كل من اشتركوا فى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص أو فتح فارس أو الشام أو المغرب أو غير ذلك مما فتح فى سبيل الله : هل يقول من يؤمن بالله وباليوم الآخر إن كل من اشتركوا فى هذه الفتوحات الاسلامية عاصون آثمون لأنهم يجاهدون تحت رايات الملوك الظالمين ، ولأنهم بذلك يؤيدون سلطنات الخلفاء والملوك المعتدين المغيرين على حقوق غيرهم وعلى الخلافة والسلطان ؟ ألا جازى الله هذه الطائفة أعدل جزائه،فما أشد خصومتها لله ولدينه ولعباده المؤمنين .

إن المؤمن لا يشك فى أن هذه الاقاويل لا تصدر إلا من قلوب ترشح بغضا للاسلام وكراهة لله ولرسوله ولأنصاره الابرار المجاهدين .

الرجعة وحقيقتها

﴿ الرجعة ومعناها عندهم ﴾

تروى فرقة الشيعة الاثنا عشرية عن علماء أهل البيت النبوى روايات كثيرة فى الرجعة والايمان بها والحملة على من ينكرها أو يشك فيها حتى رووا عن أئمة البيت إكفار من لم يؤمن بها . ومن رواياتهم عنهم قولهم : « من لم يؤمن برجعتنا، ويقر بمتعتنا فليس منا » . وهم يزعمون أن مسألة الرجعة من ضروريات مذهبهم،ومنكر الضرورى لديهم كافر كما تقدم عن الشيخ محسن الأمين العاملى فى الجزء الأول من كتاب « الصراع ». فالقوم لا يختلفون فى الايمان بالرجعة ، ومن خالف فيها عندهم فليس إماميا اثنا عشريا أى فليس مسلما . وقد ألفوا فيها وفى اثباتها كتبا كثيرة قديمة وحديثة . وكلمة « الرجعة » تمر كثيرا بمن ينظر فى

كتب الرجال وكتب الجرح والتعديل ، فيجدهم يقولون مثلا : «فلان يؤمن بالرجعة ، أو يقول بالرجعة» . وقد يخفى ماتريده الشيعة من هذه الكلمة على كثير من الناس وعلى الخاصة منهم . وقد كنت حينما كتبت الجزء الأول من الصراع أجهل مرادهم الحقيقي من هذه الكلمة ، وكنت أظنهم يعنون بذلك رجوع على ابن أبي طالب أو رجوع أحد الأئمة الاثنى عشر إلى الحياة الدنيا ، أو نحو ذلك . وما كنت أعرف غرضهم الحقيقي كما هو ، وقد ظهر لى بعد مايعنون حقيقة بالرجعة بعد أن راجعت شيئاً من كتبهم .

فالرجعة عندهم معناها رجوع جميع المؤمنين : الأنبياء فمن دونهم والأئمة المعصومين وغيرهم ليقاتلوا جميعا تحت راية على بن أبي طالب ، ورجوع جميع الكافرين : أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم من أتباعهم والموالين لهم ليثأر على وآله والمؤمنون منهم ، وليجازوهم ما فعلوه بهم من ظلم وعدوان وتغلب . فكل من محض الايمان يرجع ليكون تحت راية على ، وكل من محض الكفر يرجع للثأر والانتقام منه . فالرجعة ليست خاصة بعلى ولا بالأئمة ولا بالمؤمنين ولا بالكافرين . وأنا أورد هنا بعض رواياتهم عن علماء أهل البيت الذين هم عندهم معصومون :

رواياتهم في الرجعة

١ — عن أبى عبد الله الصادق فى قول الله «ويوم نحشر من كل أمة فوجا» قال ليس أحد من المؤمنين قتل إلا يرجع حتى يموت ، ولا أحد من المؤمنين مات إلا يرجع حتى يقتل .

٢ — وعن موسى الحناط قال سمعت أبا عبد الله الصادق يقول : أيام الله ثلاثة يوم يقوم القائم ، ويوم الكرة ، ويوم القيامة .

٣ — وعن فيض بن أبى شيبة عن أبى عبد الله الصادق يقول وتلا هذه الآية « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم » الآية ، قلت ليؤمنن برسول الله

ولينصرن على بن أبى طالب ، قال والله من لدن آدم وهلمجرا . فلم يبعث الله نبيا ولارسولا إلا أرجعهم جميعا إلى الدنيا حتى يقاتلوا بين يدى على بن أبى طالب

٤ — وعن جابر الجعفى عن أبى جعفر فى قول الله : « يا أيها المدثر قم فأنذر » يعنى محمدا وقيامه فى الرجعة فينذر فيها ، وفى قوله : « إنها لاحدى الكبر » يعنى محمدا نذيرا للبشر فى الرجعة ، وفى قوله « وما أرسلناك إلا كافة للناس » يعنى فى الرجعة .

٥ — وعن جابر الجعفى عن أبى جعفر قال سئل عن قول الله : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم » . فقال ياجابر أتدرى ماسبيل الله ؟ قلت : لا والله، فقال القتل فى سبيل على وذريته . فمن قتل فى ولايته قتل فى سبيل الله ، وليس أحد يؤمن بهذه الآية إلا وله قتلة وموتة . إنه من قتل نشر حتى يموت ، ومن مات نشر حتى يقتل .

٦ — وعن أبى عبد الرحمن القصير عن أبى جعفر قال قرأ هذه الآية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » فقال أتدرى من يعنى ؟ فقلت يقاتل المؤمنون فيقتلون ، فقال لا . ولكن من قتل من المؤمنين رد حتى يموت ، ومن مات رد حتى يقتل . وتلك القدرة .

٧ — وعن جميل بن دراج عن أبى عبد الله قال قلت له : قول الله : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » فقال ذلك والله فى الرجعة . أما علمت أن أنبياء الله كثيرا لم ينصروا فى الدنيا وقتلوا ، وأئمة قتلوا ولم ينصروا . فذلك فى الرجعة . قلت : « واستمع يوم ينادى المنادى » الآية. قال : هى الرجعة .

٨ — وعن أحمد بن عقبة عن أبيه عن أبى عبد الله أنه سئل عن الرجعة أحق هى ؟ قيل له : من أول من يخرج ؟ قال الحسين يخرج على أثر القائم .

٩ — وعن حنان بن سدير عن ابيه قال سالت ابا جعفر عن الرجعه فقال : ينكرها القدرية ثلاثا .

١٠ — وعن داود البرقى قال قلت له عليه السلام : إنى قد كبرت ودق عظمى وأحب أن يختم عمرى بقتل فيكم ، فقال : وما من هذا بد ، إن لم يكن فى العاجلة يكون فى الآجلة .

١١ — وعن فضيل بن شاذان عن أبى جعفر قال : إذا ظهر القائم ودخل الكوفة بعث الله من ظهر الكوفة سبعين ألف صديق فيكونون فى أتباعه وأنصاره.

هذه الروايات قد نقلناها كلها من كتاب «النجعة فى الرجعة» طبع النجف صفحة ٢٧ وما بعدها ، تأليف محمد رضا الطبسى الخراسانى،وقد قال بعد أن ساق هذه الروايات : «ومن أراد أكثر من ذلك فليراجع فى مظانها.وقد ذكر المحدث الحر العاملى فى كتابه « الأيقاظ » أكثر من ستمائة حديث . وقال فى ذيل كلمة « مؤمن بإيابكم » : ان فيها دلالة واضحة على رجوع رسول الله وأوصيائه الأئمة . و إنى قد اطلعت على ستمائة وعشرين حديثا » انتهى قوله .

وقال صفحة ٢٥ ومابعدها : روى الشيخ حسن بن سليمان فى كتابه المختصر بإسناده عن سلمان الفارسى قال : دخلت يوما على رسول الله فنظر إلى ، إلى أن قال يا سلمان خلقنى الله من صفوة نوره وخلق من نورى عليا ، وخلق من نورى ونور على فاطمة ، وخلق منى ومن على وفاطمة الحسن والحسين فسماها بخمسة أسماء من أسمائه ، ثم خلق منا ومن نور الحسين تسعة أئمة فدعاهم فأطاعوه قبل أن يخلق الله سماء ولاأرضا ولاهواء ولا ماء ولا ملكا ولا بشراً . وكنا بعلمه أنواراً نسبحه ونسمع له ونطيع . وهنا ذكر له أسماء الأئمة الاثنى عشر إلى آخرهم وهو القائم المهدى . قال سلمان فبكيت ثم قلت يا رسول الله وأنى لى بادرا كهم ؟ قال: ياسلمان إنك مدركهم وأمثالك . قلت يا رسول الله إنى مؤجل إلى عهدهم ؟ قال

خلق النبى وآله من صفو نور الله

يا سلمان اقرأ : « فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددنا كم بأموال و بنين وجعلنا كم أكثر نفيرا » قال سلمان فاشتد بكائى وشوقى وقلت : يارسول الله بعهد منك ؟ فقال إى والذى أرسل محمدا إنه لبعهد منى و بعلى وفاطمة والحسن والحسين وتسعة أئمة وكل من هو مظلوم منا وفينا ، إى والله ياسلمان ثم يحضر إبليس وجنوده وكل من محض الايمان ومحض الكفر محضا حتى يؤخذ بالقصاص والثارات ولايظلم ربك أحدا ، ونحن تأويل هذه الآية : « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض » الآية . قلت وقبح الله الكذابين .

وفى هذا الكتاب أيضا صفحة ٢٣ قال : كانت لمؤمن الطاق مع أبى حنيفة حكايات كثيرة منها أنه قال يوما ياأبا جعفر تقول بالرجعة ؟ قال نعم . قال أبو حنيفة أقرضنى خمسمائة دينار فاذا عدت أنا وأنت رددتها إليك . فقال له : أريد ضميناً أنك تعود إنسانا وإنى أخاف أن تعود قردا فلا أتمكن من استرجاع ما أخذت . وقد ذكرت فى الكتاب روايات كثيرة من هذا النوع الشنيع . وقد أشار مرات إلى كفر من أنكر هذه الرجعة أو شك فيها . ونقل عن أحد شيوخهم ومؤلفيهم أنه قال : يقينى بالرجعة أشد من يقينى بالقيامة . وذكر فى مواضع أن الايمان بالرجعة من ضرورات مذهب الأمامية وأنها من أصول اعتقاداتهم ... ومن أشنع مازعموه فى هذه المسألة الشنيعة أنهم قد حددوا للرجعة ٨٠ ألف سنة .

هذا هو قولهم بالرجعة وهذا هو معناها لديهم ومايريدونه منها . و لينظر بعد هل هؤلاء ممن آمنوا بالله و برسوله و بالاسلام !

الهدى فى مخالفة المسلمين

بماذا يعرف الشيعي الحق ؟

الناس كلهم مؤمنوهم وكافروهم يستدلون على الأمر بدلائله العقلية والنقلية

إلا هذه الفرقة ، فانها تستدل على الأمر بغير ذلك وتعرف الحق من الباطل بما يخجل المسلم ذكره ونقله ... فأنا وأنت والعقلاء كافة نعرف أن هذا حق وأن ذاك باطل لأن هذا دلت عليه دلائل الحق وذاك دلت عليه دلائل الباطل، أما الشيعى الاثنا عشرى فيعرف الحق بانه ما اعتقده أهل السنة باطلا فتركوه ، و يعرف الباطل بأنه ما اعتقده أهل السنة حقا ففعلوه . فاذا أراد الشيعى أن يعرف أحلال هذا أم حرام ، أحق أم باطل، نظر إلى عمل أهل السنة ومن ليسوا شيعة فاعملوه وقبلوه فهو حرام وباطل بلا شك، وماهجروه وجانبوه فهو حلال وحق بلا ريب .

هذا هو فيصل التفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام والاسلام وغير الاسلام عندطائفة الشيعة. ونحن ننقل رأيهم و رواياتهم فى هذا الباطل وهذا الخزى الفاضح.

لا يجوز التحاكم إلى المسلمين ولا الى محاكمهم وقضاتهم

روى المشايخ الثلاثة بالاسانيد عن عمر بن حنظلة قال سألت أبا عبد الله عن رجلين من أصحابنا تكون بينهما منازعة فى دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة ، أيحل ذلك ؟ قال : من تحاكم إليهم فى حق أو باطل فانما يتحاكم إلى الطاغوت ، ومايحكم له به فانما يأخذه سحتا وإن كان حقه الثابت لأنه أخذه بحكم الطاغوت و إنما أمر الله أن يكفر به قال : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » . قلت فكيف يصنعان ؟ قال ينظران من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به فانى قد جعلته عليكم حاكما، فاذا لم يقبل حكمنا فانما بحكم الله استخف وعلينا قد رد . والراد علينا راد على الله وهو على حد الشرك بالله ، إلى أن قال : ينظر ماوافق حكمه حكم الكتاب والسنة وخالف العامة فيأخذ به و يترك ما خالف الكتاب والسنة ووافق العامة. قلت أرأيت إن كان الفقيهان عرفا حكما من الكتاب والسنة فوجدنا أحد الخبرين موافقا للعامة والآخر مخالفا لهم بأى الخبرين يؤخذ ؟ قال بما خالف العامة فان الرشاد فيه . قلت فان وافقهم الخبران جميعا ؟ قال ينظر إلى

ماهم أميل إليه . قلت فان وافق حكامهم الخبرين جميعا ؟ قال إذا كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك فان الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام فى الهلكات »
قال صاحب الكتاب الذى ننقل منه هذه الروايات بعد ذكره هذه الرواية :
« كذا يوجه الجمع بين موافقة الكتاب والسنة ومخالفة العامة مع كفاية واحدة منهما إجماعا » . يريد أن مخالفة العامة مطلوبة على كل حال بلا نظر إلى الكتاب والسنة فان فى خلافهم الرشاد والهداية إجماعا .

وعن زرارة قال سألت أبا جعفر قلت يأتى عنكم الخبران المتعارضان فبأيهما آخذ (إلى أن قال) أنظر ماوافق منهما العامة فاتركه وخذ بما خالف ، فان الحق فى خلافهم ، قلت ربما كانا موافقين لهم أو مخالفين فكيف أصنع ؟ قال اذن خذ بما فيه الحيطة لدينك .

وفى رسالة القطب الراوندى باسناده الصحيح عن الصادق قال إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فذروه فان لم تجدوه فى كتاب الله فاعرضوهما على أخبار العامة فما وافق أخبارهم فذروه ، وماخالف أخبارهم فخذوه . وروى بسنده أيضا عن ابن السرى قال قال أبو عبد الله : إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فخذوا بما خالف القوم. وروى بسنده أيضا قال خذ بماخالف القوم وماوافق القوم اجتنبه. وبسنده أيضا عن محمد بن عبدالله قال قلت للرضا كيف نصنع بالخبرين المختلفين؟ قال : إذا ورد عليكم خبران مختلفان فانظروا ماخالف منهما العامة فخذوه وانظروا ماوافق أخبارهم فذروه . وبسنده عن ابن مهران قال قلت لأبى عبد الله : يرد علينا حديثان واحد ينهانا وواحد يأمرنا قال لا تعمل بواحد منهما حتى تلقى صاحبك وتسأله . قلت لابد أن نعمل بواحد منهما. قال خذ بمافيه خلاف العامة. وعن على بن أسباط قال قلت للرضا يحدث الأمر لابد من معرفته وليس فى البلد

الذى أنا فيه أحد من مواليك أستفتيه ، قال اعط فقيه البلد واستفته فى أمرك فاذا أفتاك بشئ فخذ بخلافه فان الحق فيه . وعن أبى إسحاق الأرجانى قال قال أبو عبد الله : أتدرى لم أمرتم بالاخذ بخلاف ما يقوله العامة ؟ فقلت لا أدرى فقال إن عليا لم يكن يدين الله بشئ إلا خالف عليه العامة ، إرادة لابطال أمره ، وكانوا يسألونه عن الشئ الذى لا يعلمونه فاذا أفتاهم جعلوا له ضدا من عندهم ليلبسوا على الناس . وفى مرسلة ابن الحصين : أن من وافقنا خالف عدونا فى قول أو عمل فليس منا ولا نحن منه . كذا الرواية والظاهر أنها محرفة . وفى رواية الحسين بن خالد قال : شيعتنا المسلمون لأمرنا ، الآخذون بقولنا ، المخالفون لأعدائنا . ومن لم يكن كذلك فليس منا ، ويكون حالهم حال اليهود الوارد فيهم قوله ﷺ : « خالفوهم ما استطعتم » . وقال أبو عبد الله الصادق أيضا : ماسمعته منى يشبه كلام الناس ففيه التقية ، وماسمعته منى لا يشبه كلام الناس فلا تقية فيه . وعن أبى بصير عن أبى عبد الله قال ما أنتم والله على شئ مما هم فيه ولاهم على شئ مما أنتم فيه ، فخالفوهم فانهم ليسوا من الحنيفية على شئ .

روى هذه الأخبار كلها الشيخ مرتضى الأنصارى التسترى الامامى الاثنا عشرى فى كتابه « فرائد الاصول » صفحة ٣٢٥ وما بعدها .

والشيعة إذا قالوا « العامة » أو « الجمهور » كانوا يعنون أهل السنة ومن ليسوا شيعة . فهم يعرفون الحق بانه ماخالفه أهل السنة ، والباطل بانه ما كان عليه أهل السنة . وأهل السنة عندهم لا يمكن أن يكونوا على شئ من الرشاد والهدى والحنيفية بل كل أمرهم باطل وضلال وخلاف على الدين . والتحاكم إليهم وإلى علمائهم وقضاتهم وسلاطينهم وخلفائهم من التحاكم إلى الطواغيت . وقد أمر الله بالكفر بهم لابالتحاكم إليهم . والمتحاكمون إلى الطاغوت منافقون ضالون بلا ريب ، فمن تحاكم إلى قاض أو حاكم أو سلطان أو خليفة من أهل السنة فقد نافق وضل

وخالف نهى الله وشرعه .ولايجوز استحلال شئ مايحكمهم وقضائهم ،حتى صاحب الحق نفسه لايجوز له أن يأخذ حقه المعلوم الواضح بحكم أهل السنة . ومن أخذ حقه بحكمهم وقضائهم فقد أخذه حراما وسحتا !!

وما ندرى ماذا يقولون فى المتحا كمين إلى المحا كم الافرنجية والالحادية منهم ومن شيعتهم ، وماذا يقولون فى من أخذ حقه أو حاول أخذه بقضاء هذه المحا كم ؟! أظن هذا لابأس به عندهم ولا عقوبة فيه ولاحوب .

وقولهم إن عليا لم يكن يدين الله بشئ مما عليه العامة قول نعوذ بالله منه ومن قائليه . فان العامة يدينون بوجود الله وبانه واحد وبأن رسوله صادق ، ويدينون بالاسلام وبالجنة والنار ، ويؤمنون بالانبياءوالملائكة والرسل وبالحساب والعقاب . فهل كان على يخالفهم فى شئ من هذا أولا يدين بشئ منه ؟

الحق أن القوم يسرفون على أنفسهم فى عداء أهل السنة وكراهتهم، والحق أنهم بهذا أبعد عن المسلمين من غير المسلمين ، والحق أنهم ينحلون المسلمين من العداوة والشنآن مالا يستطيع أن ينحلهم إياه أعداء الشعوب والامم جميعا ! فاننا ما رأينا ولا سمعنا أن طائفة تعرف الحق والباطل بموافقة طائفة أخرى ومخالفتها غير طائفة الشيعة . ومهما عشت أراك الدهر عجبا !

المصاحف غير القرآن

« مصحف فاطمة ، جامعة على ، الجفر »

تزعم الشيعة فى ماتزعم أن لديها ولدى الأئمة من آل البيت كتبا ثلاثة غير القرآن ، فى كل كتاب من الكتب الثلاثة كل مايحتاج إليه الناس من أمور الدين وأمور الدنيا ، بل كل كتاب يشتمل على جميع الحلال والحرام ، وجميع الإحداث التى تقع إلى قيام الساعة : احد هذه الكتب الثلاثة مصحف فاطمة بل مصحفها ، فقد ذكروا فى جميع كتبهم الموضوعة لبيان هذه الشؤون أن

هنالك مصحفا لفاطمة كان عندها وكان الأئمة من ولدها يتوارثونه من بعدها .

وقد ذكر هـذا المصحف فى الجزء الأول من كتاب « أعيان الشيعة » .

ومؤلف « أعيان الشيعـة » هو مؤلف كتاب « كشف الارتياب » وقـد أطال الـكلام عليه صفحة ١٨٧ ـ ١٩٣ ، وذكر روايات عديدة عن الأئمة فيه : فنقل عن الصادق أنه قال : وعندنا مصحف فاطمة ومايدريهم مامصحف فاطمة ؟ قال فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، وليس فيه من قرآنكم حرف واحد، وإنما هو شئ أملاه الله عليها أو أوحى إليها. وعنه أيضا قال : وعندنا مصحف فاطمة وفيه مايكون من حادث وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة . وعن محمد بن مسلم قال كانوا يأتون أبا عبد الله الصادق يسألونه عما خلف رسـول الله فقال لهم كلاما جاء فيـه : وخلفت فاطمة مصحفا ماهو قرآن ولكـنه كلام من كلام الله أنزله عليها باملاء رسول الله وخط عـلى بن أبى طالب . وذكر روايات أخرى دل بعضها على أن المصحف أوحى إليها وأنزل عليها فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام وهو الذى أملاه وعلى كتبه . ودل بعضها على أنه أنزل عليها بعـد وفاة رسول الله ، نزل به جبرئيل وأملاه عليها . . . فجمع صاحب الكتاب بين الروايات بأن زعم أن لفاطمة مصحفين لامصحفا واحـدا ، أحـدهما أوحى اليها فى حياة الرسول ، والثانى أوحى إليها بعـد وفاته عليـه الصلاة والسلام . فلفاطمة إذن مصحفان لامصحف واحد ، كلاهما قد أوحى إليها . وقـد قدمنا فى الجزء الأول أن القوم يزعمون أن أئمة آل البيت يوحى إليهم ، وأن الملائكة تأتيهم بالوحى من الله ومن السماء . وتقدم قولهم إن الأئمة لايفعلون شيئا ولايقولونه إلا بوحى من الله ، وتقدم أن الفرق عندهم بين محمـد رسول الله و بين الأئمة من ذريته أن محمدا كان يرى الملك النازل عليه بالوحى وأما الأئمة فيسمعون الوحى وصوت الملك وكلامه ولا يرون شخصه . وهذا هو الفرق لديهم بين النبى والامام وبين الرسل والأئمة . وهو فرق

لا فرق بين الامام والرسول عند الشيعة

لاحقيقة له . فالأئمة من آل البيت عندهم أنبياء ورسل بكل مافى كلمة النبى والرسول من معنى . لان النبى الرسول هو إنسان أوحى الله إليه رسالة وكلفه تبليغها ونشرها ، سواء أكان وحى الله اليه بواسطة الملك أم بلا واسطة . وسواء أرى شخص تلك الواسطة أم لم يره بل سمع منه وعقل عنه . هذا هو النبى الرسول . ورؤية الملك لادخل لها فى حقيقة معنى النبى والرسول بالاجماع . ولهذا يقولون الرسول هو إنسان أوحى اليه وأمر بالبلاغ ، والنبى هو إنسان أوحى اليه ولم يؤمر بالبلاغ . ولم يجعلوا لرؤية الملك دخلا فى حقيقة النبى وحقيقة الرسول . وهذا لاينازع فيه أحد من الناس ، فالشيعة يزعمون لفاطمة وللأئمة من ولدها ما يزعمون للانبياء والرسل من المعانى والحقائق فهم يزعمون أنهم معصومون وأنهم يوحى اليهم وأن الملائكة تتنزل عليهم بالرسالات وأن لهم معجزات أقلها إحياؤهم الأموات كما يقولون فى أفضل كتبهم . ويزعمون أن طاعتهم مفترضة كالانبياء والمرسلين ، وأن كل مايجب للانبياء والرسل يجب لهم . بل يزعمون أنه يجب لهم أكثر مما يجب لأولى العزم من رسل الله . ولهذا يفضلون الأئمة عليهم . ولديهم أن على بن أبى طالب وأولاده المعصومين أفضل من إبراهيم وموسى وعيسى ونوح وغيرهم . ومن ثمة يقولون إن هؤلاء الانبياء والمرسلين سوف يعادون فى الحياة الدنيا عند عودة على وعودة بنيه كى يقاتلوا بين يديه ، وكى يكونوا من أجناده . ففاطمة وعلى بن أبى طالب وأولادهما أنبياء رسل لدى هذه الفرقة بلا ريب ولا شك ، بل هم أفضل الرسل والانبياء . وهم وإن ماءموا فى شئ من ذلك ففى التسمية والاسماء . أما الحقيقة فيسلمونها بكل مافيها . وهؤلاء المصابون يدعون أن الوحى الذى نزل على فاطمة أكثر من الوحى الذى نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، فانهم يقولون إن فى مصحف فاطمة مثل القرآن ثلاث مرات ويقولون مع هذا إن لها مصحفا آخر . فاذا فرض أن المصحفين

متساويان كثرة كانا مثل القرآن ست مرات . فالوحى الذى أوحاه الله إلى فاطمة مثل القرآن الذى أوحاه إلى عبده محمد ست مرات وهذا غاية الخذلان والاملاص من الدين والعقل . . والعجيب أنهم يكفرون من قال بنزول الوحى أو بالنبوة بعد محمد عليه السلام كما يكفرون من ادعى النبوة . قال الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى كتاب « أصل الشيعة وأصولها » (الطبعة الثانية صفحة ١٠١) : « و يعتقد الامامية أن كل من اعتقد أو ادعى نبوة بعد محمد أو نزول وحى او كتاب فهو كافر يجب قتله » هذا نص كلام آل كاشف الغطاء فى « أصل الشيعة وأصولها » وعلى هذا الذى ذكره فالامامية وأئمتهم المعصومون كفار كلهم يجب قتلهم والخلاص منهم لأنهم يدعون نزول الوحى بعد رسول الله على الأئمة جميعا إلا أنهم يدعون أنهم لا يرون الملك النازل بالوحى عليهم ، ويدعون نزول الوحى على فاطمة بعد وفاة والدها . وأنه قد أوحى اليها مثل قرآننا هذا ثلاث مرات وليس فيه من قرآننا حرف واحد ، وأنه قد أوحى إليها كتاب وهو المعروف بمصحف فاطمة عندهم ، بل كتابان هما مصحفاها ، ويدعون أن الأئمة المعصومين : عليا فمن بعده كانوا يتوارثون هذين المصحفين ويقولون للناس إنهما قد أوحيا إلى فاطمة بعد وفاة النبى وفى حياته . وهذا لا يختلفون فيه ولا فى نصوصه . وليراجع كتاب « أعيان الشيعة » الجزء الاول صفحة ١٨٧ ـ ١٩٣ ، بل لتراجع كتبهم كلها التى يسمونها الكتب الحديثية

تكفيرهم لأئمتهم وتكفير بعضهم لبعض

فمذهب الامامية الاثنا عشرية قائم على الكفر والالحاد ، وأئمتهم كفار يجب قتلهم وقتالهم على ماقال آل كاشف الغطاء . فماذا يقولون ؟ نحن نعرف أن هذا الذى قاله آل كاشف الغطاء وأمثاله من إنكارهم ماهم مجمعون عليه واخفائهم إياه انما يذهبون فيه إلى التقية والمداهنة التى هى أصل مذهبهم ومبناه . وقد نقلوا عن أئمتهم انهم قالوا : « ابى الله أن يعبد الاسرا » . وبهذه التقية لهم أن ينكروا

أبى الله ان يعبد الاسرا

كل شئ وأن يقروا كل شئ ولا يصح لى ولا لك أن نأخذ من انكارهم انكارا ولا من اقرارهم إقرارا مادام الذى انكروه أو أقروه يصح أن يدخل فى باب التقية وأن يكون منها، ولهذا يزعمون أن الأئمة من آل البيت كانوا يقولون لاتباعهم وشيعتهم هذا حرام وهم يرونه حلالا ، وهذا حلال وهم يرونه حراما وان لم يكن بينهم أحد ممن يتقون أو يخافون ولكنهم يفعلون ذلك لايقاع الخلاف بينهم كيلا يعرف انهم شيعة أو لاجل أن يظن انهم ليسوا من الشيعة . وقد استفتى أحد الشيعة إماما من أئمتهم ، لاأدرى اهو الصادق ام غيره ، فى مسئلة من المسائل فافتاه فيها ثم جاءه من قابل واستفتاه فى المسئلة نفسها فافتاه بخلاف ما أفتاه عام اول ، ولم يكن بينهما أحد حينما استفتاه فى المرتين ، فشك ذلك المستفتى فى إمامه وخرج من مذهب الشيعة وقال : ان كان الامام انما افتانى تقية فليس معنا من يتقى فى المرتين وقد كنت مخلصا لهم عاملا بما يقولون ، وإن كان مأتى هذا هو الغلط والنسيان فالأئمة ليسوا معصومين إذن والشيعة تدعى لهم العصمة . ففارقهم وانحاز إلى غير مذهبهم . وهذه الرواية مذكورة فى كتب القوم . وهكذا الأمر فى ماقال آل كاشف الغطاء فى « أصل الشيعة وأصولها » .هذا هو مصحف فاطمة أو مصحفاها .

جامعة على وما فيها من العلوم والمعارف

وأما الجامعة فهى كتاب من كتب على بن أبى طالب ، على مايقولون ، املاه رسول الله وكتبه على بيده ، طوله سبعون ذراعا ، وهو من الجلد ، يزعمون أن فيه كل شئ من الاحكام والحلال والحرام ومن الأحداث والحوادث . وفيه كل قضية وفيه مالا يحتاجون معه إلى غيره وغيرهم ، والناس يحتاجون اليه و إليهم . عن أبى مريم قال قال أبو جعفر : عندنا الجامعة وهى سبعون ذراعا ، فيها كل شئ حتى أرش الخدشة ، أملاه رسول الله وخطه على بن أبى طالب . وعن أبى عبد الله الصادق أنه سئل عن الجامعة : فقال تلك صحيفة طولها سبعون ذراعا

فيها كل مايحتاج الناس اليه ، وليس من قضية الا و هى فيها حتى أرش الخدش . وعن أبى بصير عن أبى عبد الله قال : ان عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة ؟ هى صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله ، فيها كل حلال وحرام وكل شئ يحتاج الناس اليه حتى الأرش فى الخدش . وفى البصائر بعدة أسانيدعن الصادق: ولكن عندنا الجامعة فيها الحلال والحرام . وعنه أيضا وعندنا الجامعة كتاب طوله سبعون ذراعاً ، أملاه رسول الله وخطه على بن أبى طالب فيه والله جميع مايحتاج اليه الناس إلى يوم القيامة حتى إن فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة . وعن الباقر قال فى كتاب على كل مايحتاج اليه حتى أرش الخدش. وعن الصادق قال اما والله إن عندنا مالا نحتاج إلى أحد والناس يحتاجون الينا ، أن عندنا الكتابا املاه رسول الله و كتبه على بن أبى طالب ، على صحيفة فيها كل حلال وحرام . وعن الفضيل قال قال الباقر : عندنا كتاب على سبعون ذراعاً ، ما على الأرض شئ يحتاج اليه إلا وهو فيه حتى أرش الخدش . وعن محمد بن مسلم عن الباقر قال : إن عندنا صحيفة من كتب على فنحن نتبع مافيها لا نعدوها ، وقال إن علياً كتب العلم كله : القضاء والفرائض والحديث . وعن الصادق قال : أما والله ان عندنا مالا نحتاج معه الى الناس و إن الناس ليحتاجون إلينا .

ذكر هذه الروايات كلها الشيخ محسن الأمين العاملى فى كتاب « أعيان الشيعة » صفحة ١٦٦ — ١٧٣ من الجزء الأول . وقد ذكر روايات أخرى كثيرة فى هذا المعنى . كلها تنص على وجود هذه الجامعة عند على ، وتنص على أنها من إملاء رسول الله وكتابة على ، وعلى أن فيها كل شئ وكل الحلال والحرام ، وكل العلوم على اختلافها واختلاف أصنافها ، وتنص على أنها تغنى عن كل شئ وأنها لايغنى عنها شئ وأنهم لايحتاجون معها الى شئ . فهى تغنى عن القرآن وعن السنة وعن كل مامع المسلمين من نصوص وعلوم وقرآن وحديث ، لأنهم

يذكرون أن فيهـا أصغر المسائل وأكبرها وبيان مايحتاج اليـه البشر إلى قيام الساعة من العلوم والمعارف . وإذا كان ذلك كذلك فما حاجتهم إلى القرآن وإلى الحـديث وإلى مامع المسلمين من ذلك . ولهذا تجـد القوم لايبالون بالقرآن ولا بقراءته أو حفظه ، ويقل جدا أن يقتنوا المصاحف أو يعنوا بطبعها ، لأنهـم فى غنى عن ذلك : تغنيهم الجامعة ويغنيهم مصحف فاطمة ، ثم يغنيهم الجفر ، فمـا حاجتهم إلى كتاب الله ! ومن نظر فى كتب القوم علم أنهم لايرفعون بكتاب الله رأسا . وذلك أنه يقل جـدا أن يستشهدوا بآية من القرآن فتأتى صحيحة غـير ملحونة مغلوطة . ولا يصيب منهـم فى إيراد الآيات الا المخالطون لاهل السنة العائشون بين أظهرهم . على أن إصابة هؤلاء لابد أن تـكون مصابة . أما البعيدون منهم عن أهل السنة فلا يكاد أحد منهم يورد آية فتسلم من التحريف والغلط . وقـد قال من طافوا فى بلادهم : إنه لايوجد فيهم من يحفظون القرآن . وقالوا إنه يندر جداً أن توجد بينهم المصاحف . وقد قالوا فى الرواية المتقدمة : « إننا لانعدو العمل بما فى الجامعة » وقالوا : إننا لا نحتاج إلى أحـد ومعنا الجامعة . ومرادهم أنهـم لايحتاجون إلى مافى أيدى الناس من قرآن وحديث وسـنة . وقد سموها الجامعة ويعنون أنها قد جمعت كل شئ . ومن عندهم علم كل شئ عن الله وعن رسوله كيف يحتاجون إلى القرآن أو إلى الحديث ؟ وإنما يحتاج اليهما الظمآن إلى المعرفة وإلى ورود الحقيقة ، أما من خصه الله بعلم كل شئ فلن يحتاج إلى شئ من العلوم والتعليم . هـذه هى الجامعة أو الـكتاب الذى يسمونه الجامعة ، وهذا هو رأيهم وقولهم فيها .

الـكلام على الجفر ومعناه

وأما الجفر فقد قالوا : إنه أحد مؤلفات على بن أبى طالب . وقد زعموا أيضا أن فى الجفر كل شئ وكل العلوم حلالها وحرامها ، أحـداثها وحوادثها . ما كان وما سيكون فى غابر الزمان وحاضره وآتيه . قال المحقق الشريف : « الجفر والجامعة

كتابان من كتب على ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث إلى انقراض العالم . وكان الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونهما و يحكمون بهما » . وعن أبي مريم قال قال أبو جعفر الباقر : وعندنا الجفر وهو أديم عكاظي قد كتب فيه حتى امتلأت أكارعه فيه ما كان وما هو كائن إلى قيام الساعة . وقال الصادق : هو جلد ثور مدبوغ كالجراب فيه علم مايحتاج اليه الناس إلى يوم القيامة من حلال وحرام . وقال : إنما هو جلد شاة ليست بالصغيرة ولا بالكبيرة ، فيها خط على و إملاء رسول الله ، ما من شيء يحتاج اليه إلا وهو فيه حتى أرش الخدش وفي رواية أخرى قال : فيه كل ما يحتاج اليه حتى أرش الخدش والظفر ، و في رواية أخرى عنه قال : عندي الجفر الأبيض ، قلنا و أي شيء فيه ؟ قال زبور داود ، وتوراة موسى ، و إنجيل عيسى ، وصحف إبراهيم والحلال والحرام ومصحف فاطمة . وفيه مايحتاج اليه الناس الينا ولانحتاج إلى أحد ، حتى إن فيه الجلدة بالجلدة ونصف الجلدة وثلث الجلدة و ربع الجلدة وأرش الخدش . قال وعندي الجفر الأحمر ، قلنا : وأي شيء في الجفر الأحمر ؟ قال السلاح ، وذلك أنه يفتح للدم ، يفتحه صاحب السيف للقتل . وهذه الرواية نص في أن عندهم في مايدعون جفرين أبيض وأحمر ، أحدهما للعلوم كلها وللكتب كلها ، والآخر للدم والقتال والسلاح . ونعوذ بوجه الله من الجفرين : الأبيض والأحمر . و في رواية أخرى عنه : وفيه علم الانبياء والاوصياء .

لدى القوم جفران

ذكر هذه الروايات وكثيرا غيرها الشيخ محسن الأمين العاملي في كتاب « أعيان الشيعة » صفحة ١٧٣ — ١٨٤ من الجزء الأول . وقد قال بعد ذكره الروايات : « والظاهر من الاخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال وحرام وقضايا وأصول ما يحتاج اليه الناس في أحكام دينهم وما يصلحهم في دنياهم » قال وما أحسن ما قال المعري :

لقد عجبوا لآل البيت لما * أروهم علمهم فى جلد جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى * أرته كل عامرة وقفر

اشتمال الجفر على جميع العلوم وعلى علم الله

فالجفر عند القوم جلد فيه جميع العلوم النبوية وفيه علوم الانبياء كلهم وعلوم الأوصياء كلهم وفيه الكتب المقدسة وفيه جميع الحلال والحرام ، وفيه باختصار وايجاز علم الله كله . لأنهم يزعمون أن فيه ما كان وما يكون . وهذا يعنى كل العلوم . ففيه علم الله كما هو . وهذه المزاعم تنحط عن أن تناقش مناقشة علمية أو أن توضع تحت امتحان البرهان أو فى كفة الحجج ، وإنما هى مزاعم أشنع سب لها ورد عليها أن تقدم للقراء وأن تساق اليهم على علاتها وبألفاظها ، وهكذا نصنع نحن بها .

والذى لا يمكن أن يعقله أحد مهما تخرق عقله زعمهم أن جلد شاة يمكنه أن يحوى جميع العلوم والمعارف على اختلافها وكثرتها بالتفصيل حتى يذكر فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة وثلثها وربعها ، وهذا يكنى عن غاية التفصيل وغاية البيان . ومامثل هذا إلا أن يقول قائل : إن الخلائق كلها من سموات وأرضين وشموس وأقمار ونجوم وكواكب وأفلاك وكل شئ موضوعة كلها فى جلد نملة أو جلد ذرة ! ومن يعقل هذا أو يصدقه سوى الشيعة الامامية الاثنا عشرية أهل العقول والمعارف ؟ !

والذى نريد أن نقوله للقوم هو : أين عزب هذا الجفر عن المسلمين ، وأين عزبت الجامعة ، وأين عزب مصحف فاطمة أيضا ، وأين عزبت مؤلفات على التى تدعون وتذكرون ؟ أين عزبت هذه عن المسلمين جميعا ، ولماذا لم يظهرها رسول الله ، ولماذا خص بها عليا وبنيه دون سائر الصحابة وسائر المسلمين ؟ أفما كان واجبا عليه البيان والبلاغ والتسوية بين الناس كافة فى أداء رسالة ربه التى بعثه بها ليكون بشيرا ونذيرا للخلق أجمع ؟ وليبلغ القاصى والدانى ، وإلا فما بلغ

رسالة ربه ولا بين البيان المفروض عليــه وعلى كل رسول مثله ؟ ثم لماذا لم يظهر هــذه الـكتب عــلى بن أبى طالب كما أظهر القرآن فى ماتدعون ، ولماذا تركها مكتومة خاصة به و بأولاده وذريته ، وهل يفعل ذلك إمام معصوم مثل على ، بل لماذا لم يظهرها سائر الأئمة المعصومين الوارثين لهـا ، ولماذا أجازوا لأنفسهم أن أن يحتازوها دون سائر المسلمين ، وأن يبخلوا بها على العالمين ، وهل يفعل هذا من يؤمن بالله و باليوم الآخر ؟؟ أجيبوا يامن يزعمون أنهم مسلمون ، وأنهم موالون لآل البيت محبون لهم قائمون بما يجب لهـم من الموالاة والحب والتـكريم دون أهل الاسلام قاطبة .

أيليق بالنبى و بعلى و بالأئمة المعصومين أن يكتموا هذه الكتب وأن يبالغوا فى كتمانها والاستئثار بها حتى يدركها الضيــاع والفناء ؟ أجيبوا أيها المسلمون . بل ولماذا ضاعت هذه الكتب من بيننا ومن بينكم كلها ولم يضع كتاب الله مع أن كتاب الله إذا صدق ما زعمتم ليس إلا نقطة من بحار بالنسـبة إلى تلك الـكتب الضائمة . وذلك أن مصحف فاطمة فيه مثل القرآن بضع مرات والجامعة فيها كل شئ بالتفصيل ، والجفر فيه جميع العلوم والـكتب والاحداث والحوادث بالتفصيل الدقيق البالغ حتى الجلدة ونصفها وثلثها و ربعها وأرش الخدش والظفر وليس كـذلك القرآن بالاجماع ، بل هو فى بيان الحلال والحرام محتاج إلى السنة ، لا يقوم بنفسه فى بيانها و بيان الحلال والحرام وسائر شرائع الهدى ، فضلا عن أن يدعى أن فيه كل شئ تفصيلا . فهذه الكتب إذن أولى بالمحافظة عليها وأولى بالرعاية والصيانة من القرآن ومن كل شئ إذا صدقتم فى مازعمتم . فلماذا ضاعت كلها ولم يضع القرآن ، بل ولم يضع منه حرف واحد والحمد لله على ذلك ؟؟

مؤلفات على بن أبى طالب

ومن البلاء ذيبر مامر من أصنافه أنهم عددوا لعلى بن أبى طالب فى كتاب « أعيان الشيعة » من المؤلفات أحد عشر : أولها جمع القرآن وتأويله ، ثانيهما

كتاب أملى فيه ستين نوعا من أنواع العلوم ، ثالثها الجامعة ، رابعها الجفر ، خامسها صحيفة الفرائض ، سادسها كتاب فى زكاة الانعام ، سابعها كتاب فى أبواب الفقه . ثامنها كتاب فى الفقه ، تاسعها كتاب عهده للاشتر ، عاشرها وصاته لمحمد ابن الحنفية ، الحادى عشر كتاب عجائب أحكامه . وقد ذكروها فى الكتاب المذكور صفحة ١٥٤ — ١٨٧ بعنوان مؤلفات أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد زعموا أن الأئمة من ولده كانوا يتوارثون هذه المؤلفات العلوية وكانت عندهم . فاين هى اليوم وأين ذهبت ؟

والحاصل أن دعاويهم هذه هى التى أفسدت عليهم الأمر وصرفتهم عن كتاب الله وعن سنة رسوله . لأنهم إذا زعموا أن لديهم من الكتب كالجامعة ومصحف فاطمة والجفر مافيه كل شئ من أمور الدنيا وأمور الدين على وجه التفصيل الدقيق والبيان التام فما حاجتهم إلى مامع المسلمين من القرآن والحديث والسنة ! وعلى هذا فما أخلقهم بالانصراف عن كتاب الله وعن السنة وعن كل علم وهدى .

ماتم عاشوراء

﴿ مواكب البكاء والعويل واللطم واللدم هى الدين عند الشيعة ﴾

سئل حجة الشيعة الامامية الاثنا عشرية فى هذا العصر الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء : « عن المواكب المشجية التى تقيمها الشيعة فى يوم عاشوراء تمثيلا لفاجعة الحسين ، وعما يصحب تلك المواكب من ندب ونداء ، وعويل وبكاء ، وضرب بالاكف على الصدور . وبالسلاسل على الظهور : هل هذه الاعمال مباحة فى الشرع ؟ فأجاب ، قال : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى » . ولاريب ان تلك المواكب المحزنة من أعظم شعائر الفرقة الجعفرية : وما أحسب التعرض للسؤال عن تلك الأعمال

التى استمرت عليها منذ مئات الأعوام ، وذلك بمشاهدة أعاظم العلماء مع عدم النكير مع انها بمرأى ومسمع منهم : ما أحسب وضعها فى مجال السؤال والتشكيك إلا دسيسة أموية ، أو نزعة وهابية ، يريدون أن يتوصلوا بذلك إلى اطفاء ذلك النور الذى أبى الله إلا أن يتمه ولو كره الكافرون . كما أنى لا أرتاب فى أنه لو تمت لهم هذه الحيلة وعطلت تلك المواكب سرى الداء واستفحل الخطب وجعلوا ذلك باباً إلى إماتة تلك المحافل التى باحيائها احياء الدين و بإماتتها إماتة ذكرى الأئمة الطاهرين (إلى أن قال) والرجاء ترك الخوض فى هذه الامور المتسالم عليها خلفا عن سلف والتى هى من أعظم الوسائل إلى نيل الشفاعة والدخول فى سفينة النجاة وأبواب الرحمة (الى أن قال) فلا إشكال فى أن اللطم على الصدور وضرب السلاسل على الظهور وخروج الجماعات فى الطرقات بالمشاعل والأعلام مباحة مشروعة ، بل راجحة مستحبة وهى وسيلة من الوسائل الحسينية و باب من أبواب سفينة النجاة . وأما الضرب بالسلاسل والخناجر والادماء فهو كسوابقه مباح بمقتضى أصل الاباحة بل راجح بقصد اعلان الشعار للاحزان الحسينية (إلى أن قال) وأما الشبيه فلا ريب فى أن أصل تشبيه شخص بآخر مباح جائز وقد ألقى الله شبه عيسى عليه السلام على أبغض خلقه وهو يهوذا الاسخر يوطى (إلى أن قال) بل فى ذلك (والاشارة إلى المواكب) من الحكم والاسرار السامية المقدسة ما يقصر عنه اللسان و يضيق به البيان . . . »

وجاء فى هذا الجواب أيضا قوله : « سألتم عن المواكب الحسينية زاد الله شرفها وعما يجرى فيها من ضرب الرؤوس والصدور بالسلاسل والسيوف والادماء وقرع الطوس والطبول والشبيه والخروج فى الشوارع بالهيئات المتعارفة ، ولعمرى ما كنت أحسب أن هذا الموضوع يعرض على النقد والتشكيك » .

ثم فصل الجواب وكان حاصله أنه لاشك أن أهل البيت قد لطموا خدودهم

ولدموا صدورهم على الحسين ، ولا شك فى أنه يشرع التأسى بهم . . . هذا فى بيان حسن اللطم والدم . وأما خروج المواكب والزمات فقال فى بيان استحبابه أو بيان وجوبه : « ولولا خروج المواكب فى الطرقات لبطلت الغاية وفقدت الثمرة وانتفى الغرض من التذكار الحسينى بل ومن الشهادة الحسينية » هذا هو لفظ الجواب . ولا ريب أنه إذا لزم ترك المواكب بطلان الغرض من استشهاد الحسين وشهادته كان القيام بها من أعظم الواجبات الدينية .

وقال عن ضرب الرءوس والظهور بالسيوف والسلاسل : « لا ريب أن جرح الأنسان نفسه و إخراج دمه بيده فى حد ذاته من المباحات الأصلية ، ولكنه قد يجب تارة وقد يحرم أخرى . وحسبك قصد مواساة الحسين وآل بيته واظهار التفجع عليهم وتمثيل شبح من حالتهم أمام عيون محبيهم . ناهيك بهذه الغايات والمقاصد جهات محسنة وغايات شريفة ترتقى بتلك الأعمال إلى أعلى مراتب الكمال » . قال . « أما ترتب الضرر أحياناً بنزف الدم المؤدى إلى الموت أو إلى المرض المقتضى لتحريمه فذاك كلام لاينبغى صدوره من ذى لب . أما أولا فاننا مارأينا أحدا مات أو تضرر من تلك المحاشد الدموية . وأما ثانيا فعلى فرض حصول تلك الأمور فانما هى عوارض وقتية .. » ثم تكلم على ضرب الطبول ونفخ الأبواق وقرع الطوس فامتدحها كلها . وكذا امتدح إقامة « الشبيه » و « التمثيل » ثم قال : « ولعمر الله إن تعطيل تلك المظاهرات لايلبث رويداً حتى يعود ذريعة إلى سد أبواب المآتم الحسينية ، وعندها لايبقى للشيعة أثر ولا عين ، ولتذهبن الشيعة ذهاب أمس الدابر . فان الجامعة الوحيدة والرابطة الوثيقة لها هى المنابر الحسينية . وما تلك الهنابث والوساوس ، إلا من جراء هاتيك الدسائس ــ نزعة أموية ، ونزغة وهابية ، يريدون إحياء بنى أمية ، و إزهاق الحقيقة المحمدية ، و يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون . . » إلى آخر جوابه.

هذه الفتوى نقلناها كلها من كتاب ألفه هذا الشيخ اسمه « الآيات البينات فى قمع البدع والضلالات » طبع النجف فى المطبعة العلوية سنة ١٣٤٥ من الهجرة .

فعند القوم أن هـذه المواكب المخجلة الفاضحة التى يزعمون أن فيها تأسيا بالحسين وآله ومواساة له ولهم : يزعمون أن هـذه المواكب من شعائر الدين وأن تعظيمها من تقوى القلوب ، وأن فيها منافع لهم وللاسلام ، وأنها من أعظم شعائر الشيعة الامامية . وأن السؤال عنها ومحاولة التشكيك فيها من دسائس الوهابيين والأمويين - يشيرون بهذا إلى الكفر والشرك ، ويزعمون أن هـذه المواكب بصراخها وعويلها ومافيها من لطم ولدم ومنكرات - يزعمون أنها هى قوام الدين وحياته ويزعمون أن فى إحيائها احياءه وإن فى اماتتها اماتة الأئمة الطاهرين وإماتة ذكراهم . ولا شك أن هذا كفر صراح عندهم بل هو عندهم من شر أنواع الكفر . ويزعمون أن هذه المواكب من أعظم الوسائل إلى نيل الشفاعة وإلى النجاة من النار ، ويزعمون أن تمثل أشخاص بأنهم عداة الحسين وقاتلوه داخل فى هـذه الفضائل المزعومة المكذوبة . ويزعمون أن فى ذلك كله أسراراً وحكما سامية مقدسة يعجز عن بيانها اللسان والبيان . ويزعمون أن إقامة هـذه المآتم أو المآتم قيام بفرض الاستشهاد الحسينى ومحافظة على حكمة شهادته ، ويزعمون أن إبطال المآتم إبطال لشهادته ولحكمتها وغرضه منها : يزعمون هذا كله ويزعمون غيره مما ذكروه فى هذا الكتاب وفى غيره ومما يفعلونه فى أيام عاشوراء ...

سبة الانسانية

ولا ريب أن هذه المزاعم من أشنع المخازى الانسانية التى عرفها التاريخ فى كل أطواره وعصوره ، والتى وقع عليها بصر الوجود قديمه وحديثه ، وأنها عار وشـنار يلحقان فصيلة الانسان أين كانت ومتى كانت ويلقيان بأنف كبريائها تحت الرغام !

أى شئ هذه المواكب والمآتم والمآتم ؟ وأى عقل أو دين يجيزها أو يرضاها ؟

ومتى أجاز الدين أو أجازت العقول أن يكون الناس العقلاء مثل النساء النوادب المعولات فى الطرقات : يضربن الصدور والخدود ، ويشققن الجيوب وينتفن الشعور ، وينادين بالويل والثبور ؟ أى شئ هذا وأى عقل أو دين يجيزه ؟

ذاك كله خزى بين ولكن أشد هذا الخزى زعمهم أن إقامته والقيام به من أعظم مظاهر الدين وأعلى مراتب الكمال وزعمهم أن فى إحيائه أحياء الدين وفى إماتته إماتته ، ثم زعمهم أن ذلك كله من أعظم شعائر الشيعة !! برأ الله خير الأديان من هذا الخزى .

هم يدعون أن هذه المآتم مظاهرات ، نعم ، مظاهرات ، ولكن يراد بها التظاهر على من ؟ إن كانوا يتظاهرون بها على يزيد وقاتلى الحسين فما أجهل من يتظاهرون على الأموات ! وإن كانوا يتظاهرون بها على المسلمين من أهل السنة فأهل السنة ينقمون من قاتلى الحسين أشد النقمة ويحملونهم تبعة ذلك ووزره . فما وجه التظاهر عليهم إذن وهم ينكرون قتل الحسين ويكرهون قاتليه ؟ فعلى من التظاهر إذن ؟

ثم هم يزعمون أيضا أن البكاء والعويل وضرب الخدود والصدور وسائر الجسم بالسيوف وبالخناجر والسلاسل والآلات الحادة وإن أفضى إلى الموت من دين الله ومما يرضى الله ويرضى النبى والحسين وآله . ونحن نقول لهم : إذا كان هذا كله من الدين وكان فيه مواساة للحسين وتأس به فما تقولون فى قتل المرء نفسه لهذا الغرض نفسه : تأسيا بالحسين ومواساة له وجزعاً عليه وعلى مانأله من السوء والظلم والبلوى ؟ إن قلتم إن هذا جائز ودين مشروع قلنا ياليتكم صدقتم وفعلتم ، وإن قلتم : غير جائز وغير مشروع قلنا لكم : وكيف جاز جرح المرء نفسه بالسيف وبالحديد وإدماء جسمه ثم امتنع قتله نفسه والعلة فى الأمرين واحدة ؟ فان قلتم إن فى القتل إزهاقا وفناء وأما الضرب والجرح فليس فيهما شى من ذلك قلنا نعم ،

ولكن القتل أدل على المواساة وعلى التأسى وعلى قوة الجزع وغزارته من الضرب بلا قتل وأنتم تزعمون أن الحسين قتل نفسه تعمداً وتزعمون أن إظهار أقصى غايات الجزع عليه مطلوب مشروع مثاب عليه ، وأقصى غاياته هو القتل والفناء . وإذا كان من الجزع المشروع على الحسين ضرب الجسم والبدن بالسيف وبالحديد القاطع كان من الجزع المشروع عليه بلا شك قتل النفس . فانه إذا دل الضرب على الوفاء والجزع والتأسى كان القتل أدل على ذلك . ولا يوجد دليل واحد يدل على جواز ضرب الجسم والنفس بالحديد وبالسيوف والخناجر والسلاسل إلا ويدل على جواز قتل النفس وإزهاق الروح . . . وذلك أن القوم إذا سئلوا : ما الدليل على جواز ضربكم أجسامكم بالآلات الحادة القاتلة قالوا : الدليل أن هذا الفعل يدل على التأسى بالحسين والمواساة له والجزع عليه وهذه الأمور مطلوبة مثاب عليها وحينئذ يقال لهم قولوا إذن إن القتل جائز مشروع مثاب عليه لأنه أدل على هذه الأمور التى زعمتموها مطلوبة مشروعة . وهذا أظهر وأولى من ذلك لوجوه كثيرة مفهومة . فاذا قالوا : إن الله قد نهى عن قتل النفس وعن قتل المرء نفسه قلنا وكذلكم نهى عن الجزع والحزن وإيذاء النفس أو الجسم عند المصيبة وأمر بالصبر والتسليم له ولإرادته وحكمه ورغب المصاب فى أن يقول عند مصيبته : إنا لله وإنا إليه راجعون . وقد قال تعالى : « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » وقال فى جزائهم : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » . وقد نهى نبيه وعباده المؤمنين كثيرا عن الحزن والجزع وحثهم على الاستمساك بعرا الصبر والاحتساب والتسليم لقضائه وقدره وقدرته . وهذا لا يحصى فى كتاب الله . وقد قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا » الآية . وهذا باب

لايحاط به ولا يحتاج إلى بيانه لأنه معروف مشهور . أما الاحاديث فلا نذكرها القوم فى هذه المسألة لأنهم يفاخرون بردها وتكذيبها .

والجزع لا يمدح أبداً ولا يؤمر به أبداً ، وكذا الحزن . والذى يجوز من ذلك لايجوز إلا لأنه اضطرارى قهرى خارج عن طاقة البشر ، ولكن لا يؤمر بشئ منه ولا يمتدح شئ منـه أو يثاب عليه . أما القتل فقد قال الله فيه : « كتب عليكم القتال وهو كره لـكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لـكم » الآية ، وقال « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليـل منهم ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لـكان خـيراً لهـم » الآية ، وقال : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلـكم خير لـكم » الآية .

والقتل والقتال بالجملة مطلوبان ، أما الجزع والحزن فمكروهان منكران أبداً ، ولايجوز منهما إلا ماغلب عليـه المرء . فمن جزع وحزن قسراً عذر لان ذلك فوق الطاقة والله لايكلف عبـده فوق طاقته وصبره ولكن لا يؤمر المرء بشئ من هذا . فما يستدلون به من ذلك عـلى مايذهبون إليه لايدل على شئ من أمرهم . فانه إذا فرض أن بعض علماء آل البيت بكى على الحسين وتوجع عليه أو حزن و أسف لم يدل هذا على أن شيئاً من هذه الانفعالات مطلوب مأمور به ، و إنما يدل على أن المؤمن القوى الصابر قد يجزع وقد يبكى ، فيكون معذوراً غير ملوم .

فلا ريب إذن أنه إذا جاز ضرب الجسم بالحديد و بالسيف ونحوه جزعاً على شهيد كربلاء ومواساة له وتأسياً به جاز قتل المرء نفسه لهذه الأغراض نفسها ، فما يقولون ؟ ولا يدرى كيف تشرع هذه المآتم والمواكب بكاء على قتيل كربلاء ولا تشرع على سواه ! وقد قتل قبله الأنبياء ، وقتل الأولياء وقتل أصحاب الحسين وقتل أولاده المعصومون وقتل أخوه الحسن : قتل هؤلاء جميعاً اغتيالا بالسم على ماتزعم الشيعة ، وقتل عـلى بن أبى طالب وقتل حمزة ، وقتل من هم أفضـل من

الحسين من أنبياء الله و رسله ، فلماذا لايقيمون شيئاً من المآتم على أحد من هؤلاء ولماذا خصوا الحسين بها ؟ بل قد مات رسول الله عليه الصلاة والسلام وموته أشد المصائب ولا شك على المسلمين ، فلما ذالا يقيمون مواكب الجزع والحزن والبكاء عليه وعلى افتقاده . وهذا إن شرع على المقتول شرع على الميت فمن كان فقده رزءاً عظيما حزن عليه الناس سواء أكان فقده بالموت أم بالقتل ومن لافلا ، وآلة الموت لادخل لها فى جواز الجزع ولا فى منعه . فلا يحسن الجزع على مفقود لأنه فقد بالقتل ، ولا يقبح على آخر لأنه فقد بالموت . وهذا واضح جلى ، فماجوابهم ؟ فانهم إذا جزعوا على الحسين ولم يجزعوا على النبى ﷺ ولا على غيره من الأنبياء وأبطال الملة دل ذلك على أن جزعهم لم يكن على الحسين ولم يكن تأسيا به ولا مواساة له و إنما هو الجهل والعناد والثورة على سلاطين المسلمين وخلفائهم ومحاولة إضرام الفتن و إيقاظ النائم منها ، ولو لم يكن هذا هو مايريدون و يعنون لما خصوا قتيل كربلاء بذلك دون العالمين جميعا . والدليل على أن هذا هو غرضهم ومايرمون إليه أنهم يسمون هذه المواكب مظاهرات كما تقدم والمظاهرات ظاهر مايعنى بها ومايراد منها . والدليل أيضا زعمهم الآنف : أن ترك هذه المآتم تضييع لغرض استشهاد الحسين ولما أراده من وراء تقديمه نفسه ضحية . وقد ذكروا أن لهذه المواكب أسرارا وحكما سامية مقدسة يعجز عن بيانها اللسان والبيان . وماهذه الأسرار والحكم المزعومة سوى محاولة الثورة والفتن المحرقة وتغيير النفوس على أوائل المسلمين وعلى خلفائهم وملوكهم وسلاطينهم .

وكل هذا قد يهون ولكن الذى لايهون أبدا هو زعمهم أن العويل فى الطرقات وضرب الخدود والصدور بالحديد والآلات الجارحة ونتف الشعور والمناداة بالويل والثبور — من أعظم شعائر الايمان وشعائر الاسلام ومن أعظم ماتنال به الشفاعة ، ويركب به فى سفينة النجاة ! وكيف يزعم مسلم أن شيئاً من هذا

فيه إعلاء للدين و إحياء له وأن فى تركه إماتته و إماتة الأئمة المعصومين الطاهرين ؟ وكيف يقول من يؤمن بالله وباليوم الآخر : إن إقامة إنسان لضربه والتمثيل به ولسبه ومحاولة الهجوم عليه على توهم أنه هو قاتل الحسين : كيف يدعى من يؤمن بالله و باليوم الآخر أن ذلك من العقل أو من الدين فضلا عن أن يقال إنه من أعلى مراتب الكمال وشعائر الدين ومشاعره ؟ هذه هى الفاضحة ، وهذه هى سبة الانسانية أين ذهبت و وجدت .

ولقد كنا نظن أن هذه المواكب من أعمال جهال القوم ودهمائهم وحدهم لا يرجعون فيها إلى رأى عالم منهم ولا مشورة مثقف من رجالهم ، وما كنا نحسب أن علماءهم بل كبار علمائهم وفضلائهم يفتون بجواز شئ منها ، والآن علمنا أن علماءهم وجهالهم سواء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

هذه شذرات من خطايا القوم أثبتناها على عجل ننتقل منها إلى موضوع الكتاب ونقض ما فى « كشف الارتياب » .

لا بد من الغيرة لاصحاب النبى.

وقبل ترك هذه المقدمة أقول : ليتحطم هذا القلم ولتتناثر هذه الأنامل ، وليودع رسيس هذه الحشاشة ، ولينطفئ هذا الشعاع إن لم أشف صدور المؤمنين من هؤلاء الذين مازالوا يشفون صدر الشيطان وصدر الباطل والاثم من صحابة النبى ومن خلفاء الأمة ومن أركان الملة وأبطال الاسلام ومجاهديه وفاتحيه . ولن نحفل بمن لا يرضيهم هذا الصنيع ومن لا يعجبهم هذا السبيل ، فانه إذا حق للناس أن يغاروا على مبادئهم الحزبية ، وأن يتقاتلوا حفاظا على رجالها أو من زعموا من رجالها ، فما أخلق المسلم بأن يغار على أمثال الصديق والفاروق وخالد وعمرو وأبى عبيدة وسائر أولئك الأبطال الذين علقوا الاسلام وفتوحه بقرص الشمس مشرقة ومغربة . و إذا كان الناس اليوم يحطم بعضهم بعضا ، فيحطم الأثم أخاه فى بلاد قيل فى وصفها : إنها مطلع النور ومصنع الحريات والعرفان —

غيرة علـى تلك الأحزاب المبسوطة على العـدوان والظلم ، السائمة فى حقول الشهوات واللذاذات المحرمة ، فكيف لا يحق المسلم الصادق أن يدفع عن المسلمين وعن أبطال الاسـلام ومفاخر الانسانيـة دفاعا موقوفاً عـلى القلم والكلام !

لا يمكن تأليف الشيعـة ولا يجدى لو أمكن

ولا يفكرن أحـد فى الوحدة وفى التأليف بين المسلمين و بين هذه الجماعة ، فان مذاهبها ومبادئها لا تمكنها أبدا من الرضا عن المسلمين ومن الاقتراب اليهم و إلى ودهم و ولايتهم . و إذا كانت هذه القرون الطويلة التى مرت بهم لم تستطع أن تأكل من صدورهم ومن كتبهم العداوات التى يحملونها لأبى بكر وعمر وعثمان والآخرين ـ بل ظلت فى صـدورهم وفى كتبهم حتى اليوم تزداد ذكاء واتقادا وتوهجا ـ فكيف نرجو نحن منهم محبة أو ولاية أو صداقة ؟ ! ثم ما الذى نرجوه من الاتحاد بهـم والاقتراب اليهم ؟ إنهـم لن ينفعونا شيئاً ، ولن يزيدونا إلا ضعفا وهونا وهوانا وخبالا !

انريد منهم أن يجاهدوا معنا أعداءنا وأعداء الاسلام ، وهم يقولون إن الجهاد باطل موضوع لا يجوز إلا تحت راية الامام المنتظر ، وهم يقولون أيضا : إن الذين فتحوا بلاد الكفر والشرك من المسلمين آثمون عاصون لانهـم تحت إمرة غير معصوم أمثال عمر و وخالد وأبى عبيدة وأسامة ؟ بل أنريد منهـم أن يجاهـدوا معنا أعداءنا وهم يقولون إننا أحق بجهادهم من الكفار والمشركين كما تقدم ؟ إذن أنى نرجو شيئاً منهم ؟ أم نريد منهم العلوم والمعارف وقـد وضعنا أمام القارئ نماذج من علومهم ومعارفهم ؟ أم نريد منهم القوة وهم مازالوا الضعف فى الاسلام والوهن فى صفوف المسلمين ؟ أم نريد منهـم كثرة العدد ، وماذا تفعل بكثرة العدد ؟ والمسلمون لم يؤتوا من قلة العدد . إنه الغثاء والوباء والبلاء . ومسلم واحد مثل خالد بن الوليد خير للاسلام من الشيعة فى جميع عصورها . أم نريد منهم

أن يقيموا فى بلادنا تلك المواكب المخزية فى أيام عاشوراء وتلك المآتم التى تقدم القول فيها ، فيصبحوا فينا نوادب متنقلة ، تصيح وتعول وتلطم وتلدم وتسب فى الطرقات . . . كأنهم نسوة فى زار ، أو عار فى نار ؟ أنحاول إرضاءهم كى يمثلوا هذه الفضائح بين أعيننا وعلى مسامعنا فيربو فى الرجال معانى النساء الضعاف الجزعات التى لاسلاح لهن إزاء المصائب سوى العويل وشق الجيوب ونتف الشعور واللطم واللدم والصراخ المفزع الرنان ؟

سائلوا التاريخ

أم ماذا نريد منهم وقد كانوا أبدا حربا على المسلمين ، وعونا لأعداء المسلمين ، المريدين بهم الفواقر ؟ سائلوا التاريخ قولوا له : فى أى عصر من عصورك كتبت فى صفحاتك لهذه الطائفة جهادا أو نصرا للاسلام أو دفاعا عنه بين صفوف المجاهدين من المسلمين ؟ بل قولوا له فى أى عصر من عصورك لم تكتب على هذه الطائفة انحيازها إلى غير المسلمين وانكفاءها شطر أخصام الاسلام فرارا من المسلمين ؟ قولوا للتاريخ وهو أصدق ناطق ومجيب : أما كانوا أعوانا وعيونا لطاغية التتار على المسلمين وعلى خليفتهم ، ثم أما حاولوا قتل البطل المجاهد السلطان صلاح الدين بينا هو يناجز عبدة الصلبان ويحاربهم ولكن الله أنجاه منهم ومن عدوانهم ؟ وقد خصوا هذا البطل العظيم بمزيد العداوة وعنيف الخصومة . بل قولوا أى بطل من أبطال الاسلام وفاتحيه ومجاهديه لم يكرهوه ويمقتوه ماخلا على بن أبى طالب ، وما ولاؤهم له بولاء ولكنه البلاء ؟

إذن ماذا نريد منهم ومن الاقتراب اليهم وتألفهم لو كان ذلك ممكنا ميسورا ؟ إننا نريد مسلما واحدا سليما قويا ولا نريد ألف مريض هالك ، ونريد جيشا مؤلفا من ثلاثمائة بطل كأبطال بدر ولا نريد جيشا مؤلفا من أربعمائة مليون من أمثال هؤلاء المسلمين الذين يسبون أمثال أبى أيوب الأنصارى وخالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وغيرهم لغزوهم بلاد الكفار وفتحهم إياها تحت رايات وصفوها بالظلم

والعدوان . لانريد صورا ولا أسماء ولاعددا ولكن نريد رجالا و إيمانا وقوة وتفانيا في نصرة الحق وفناء في خدمة الاسلام .

وأخيرا نقول : ألا أسخن الله عين من يحرص على إرضاء أعـداء الصديق والفاروق وعثمان وخالد وعمرو والمغيرة وأبي أيوب وأبي عبيـدة وطارق وموسى ابن نصير وصلاح الدين

ولن نسالم مرءاً كان حربهم   حتى يعود بياضاً حالك القار

كتبه في يوم ٤ شهر صفر سنة ١٣٥٧

عبد الله علي القصيمي

بالقاهرة

﴿اعتقاد الوهابيين فى النبى عليه السلام وفى الانبياء والصالحين فى قبورهم﴾

ثم قال الرافضى فى كتابه « كشف الارتياب فى أتباع محمد بن عبدالوهاب » تحت العنوان المذكور : « واعتقادهم فى النبى عليه الصلاة والسلام أن الاستغاثة به وطلب الشفاعة منه والتوسل به إلى الله والتبرك بقبره والصلاة والدعاء وتعظيمه كل ذلك شرك وعبادة للأوثان والاصنام محلة للمال والدم . . . وأنه يحرم السفر لزيارته ويجب هدم ضريحه وتقبيله وأن ضريحه صنم من الأصنام ووثن من الأوثان بل هو الصنم الأكبر والوثن الأعظم ، وكذلك سائر الانبياء والصالحين. وفى خلاصة الكلام : كان محمد بن عبد الوهاب يقول عن النبى إنه طارش، وإن بعض أتباعه كان يقول عصاى هذه خير من محمد لأنه ينتفع بها فى قتل الحية ونحوها ومحمد قد مات ولم يبق فيه نفع وإنما هو طارش ومضى ، وكان يقال ذلك بحضرته ويبلغه فيرضى ، وكان يقول وجدت فى قصة الحديبية كذا وكذا كذبة . » انتهى كلام الرافضى .

والجواب أن يقال ماصدق الرافضى ولا أنصف حيث زعم أن هذا الذى ذكره هو اعتقاد الوهابيين فى النبى وفى الانبياء وفى الصالحين . وقاتل الله الكذابين وقتل هذه الفرقة فما يوجد على الأرض أكذب منها ولا من يستحل الكذب والظلم والزور مثلها . . . واعتقاد الوهابيين فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه يجب على كل مسلم أن يعظمهم التعظيم المشروع كله أحياء وأمواتا وأن يحبهم الحب الصادق العاقل أكثر من حبه لنفسه ولأهله وللناس أجمعين ، وأن يعلم أنه لانجاة له فى أخراه وفى أولاه أيضا إلا بطاعتهم واتباعهم والأخذ بهديهم واقتفاء آثارهم أحياء وأمواتا ، وأن يعلم أنهم هم وحدهم ـ دون البشر جميعا ـ وساطات البلاغ والبيان بين الله وبين عباده ، بين الأرض والسماء ، وأن يعلم أنهم هم دون غيرهم المعصومون الذين افترض الله على البشر أن يطيعوهم

وأن يصدقوهم فى كل ماقالوا وما أخبروا . وفى كل مانهوا وأمروا، وأنه لايجب على إنسان واحد فى هذه الأرض أن يدع هواه واختياره وأمره إلا لأمرهم واختيارهم وأنه يجب حفظ عهودهم فى آلهم الصالحين وأولى قرباهم كأزواجهم وذرياتهم وأصولهم وفروعهم المؤمنة الصالحة . ولهذا فانهم يتبرءون من الرافضة القادحين فى أزواج النبى عليه السلام وفى طوائف من أقربيه وآله وذوى وده وحبه ورضاه الغالين فى فريق آخر حتى أحلوهم غير محلهم المقدور لهم اللائق بهم .
ثم من عقيدة الوهابيين فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم أحياء فى قبورهم حياة برزخية غيبية روحية ليست كهذه الحياة الدنيوية ، بل حياة لايعلم حقيقتها وكنهها سوى من يعلم الغيب والشهادة ، ومن يعلم كل شئ ، وأن كل مايجب لهم أحياء من الحب والاجلال والتعظيم والطاعة يجب لهم أمواتا ولا فرق .

وبالاجمال فعقيدة الوهابيين فى الأنبياء لاتعدو مافى الكتاب والسنة نفيا وإثباتا . وكذلك عقيدتهم فى الصالحين من الأحياء والأموات: يحبونهم ولكن لايعبدونهم ، ويعظمونهم ولكن لايتجاوزون الحدود ، ويعرفون فضلهم ولكن لايجحدون فضل من هم أفضل منهم لأجل تخصيصهم بذلك ، كما فعلت الرافضة عادت خيار الصحابة ، وخيار الأمة ، زاعمة أنها بهذه المعاداة المجرمة تحافظ على ولاء آل النبى وعلى فضائلهم وحقوقهم بحيث لا تشرك بهم غيرهم فى الايمان بالفضائل والكمالات

هذا كله من عقيدة الوهابيين فى الأنبياء والصالحين ، فعقيدتهم فيهم أنهم بشر ولكن اختارهم الله لرسالته المقدسة ففرض على الخلق طاعتهم واتباعهم والنهج منهاجهم ، وبالتالى فرض حبهم وموالاتهم وتوقيرهم فى المحيا وفى الممات جزاء ما أسدوا من هداية وشكر ماقدموا من رسالة عقباها رضا الله وجزاؤه الأوفى لمن أطاعهم وامتثل ماجاؤا به من الشرائع والآداب والاخلاق الفاضلة . فعقيدتهم

قائمة على التفريق بين الخالق والمخلوق و بين العبد والرب . فالرسل ، مهما جاءوا وعظموا وقربوا من الله ومن مكان الحظوة لديه ، لا يخرج أحد منهم عن منطقة التخليق ولا يعدو بساط العبودية العامة . فأعظم رسل الله مع سائر الخلق تحت بساط العبودية سواء ، لا عابد ومعبود ، ولا رب ومربوب . بل الجميع عابدون الها واحدا وربا واحدا . بل لاشك أن أفضل خلق الله وأقربهم إليه من الرسل والانبياء والصالحين هم أكثر العباد خضوعاً لفروض العبودية ، عبودية الله .

فضل الأنبياء ليس فى مقدرتهم ولكن فى عبادتهم

وفضل النبي ليس فى قدرته ونفوذ سلطانه ، ولا فى مقدرته على النفع والضر : كلا ليس فضل النبي فى شئ من ذلك و إنما فضله فى مايجئ به من الهدى والنور والآداب التى فيها سعادة متبعيها فى دنياهم وأخراهم فى إخلاصه العبادة لله ، وفى دعوته الناس إلى خالقهم وخالق كل شئ ليعبدوه وحده كما خلقهم وحده .

وقد يكون شر خلق الله من الكفار والمشركين أقدر على شؤون الدنيا و إعطاء مايسألون منها من خير الخلق كالانبياء والمرسلين والصالحين . و إذا لم يكن فضل الأنبياء فى قدرتهم المادية لم يكن فى سؤالهم والانقطاع اليهم رغبة و رهبة شئ من تعظيمهم ولا شئ من عرفان أقدارهم والقيام بحقوقهم . بل قد يكون فى هذا إحراجهم و إيذاؤهم والتحدى لهم ، ولم يكن فى الاعراض عن سؤالهم النفع والضر والحاجات وشؤون الدنيا شئ من التنقص لهم والانكار لحقهم . . .

ليس فى سؤال الأنبياء شئ من التعظيم لهم والقيام بحقوقهم

و إذن فليس الطالب للانبياء السائل لهم هو المعظم القائم بما يجب لهم ، وليس الداعى لله الراغب فيه وحده متنقصالهم ولا جاحدا شيئاً من فضلهم وكمالاتهم يقيناً . وعلى هذا دل الدين جملة وتفصيلاً وقد قال الله تعالى لرسوله : «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » .

وهذه اعتقادات صحيحة لا غبار عليها ولا نصيب للباطل فيها ، ولكن الاعتقاد الباطل الموبق هو اعتقاد الشيعة فى النبي و فى سائر الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام ، وفى الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين . وذلك أنهم قدذهبوا إلى أن الأنبياء ليسوا وحدهم المخصوصين بالعصمة من الخطأ والزلل ، وليسوا وحدهم المخصوصين بالوحى وبنزول الملائكة . بل قد زعموا أن الأئمة معصومون من ذلك ومن أكثر منه مثل الأنبياء والرسل ، وأنهم يوحى إليهم كما يوحى إليهم. وذهبوا كما تقدم إلى أن الله قد أنزل بعد موت النبى وحيا ومصاحف على فاطمة وعلى غير فاطمة . وقد قدمنا أشياء من بيان ذلك . وذهبوا أيضا إلى أن الأئمة أفضل من الأنبياء ومن أولى العزم من المرسلين . فعندهم أن على بن أبى طالب وسائر ولده أفضل من إبراهيم وموسى وعيسى ونوح وغيرهم من الانبياء والرسل. وذهبوا إلى أن الاسلام لم تقم له قائمة ولم يعبد الله فى الأرض إلا بعلى بن أبى طالب وبجهاده وسيفه . وقالوا إنه لولا على وجهاده ومقاماته لما اخضر للاسلام عود ولما قام له عمود . وقد أنشدوا :

ألا إنما الاسلام لولا حسامه * كعفطة عنز أو قلامة ظافر

يجل عن الاعراض والأين والمتى * ويكبر عن تشبيهه بالعناصر

وهذا من شر الهجاء لرسول الله ولصحابته وللمسلمين الذين ما بخلوا بشئ من أموالهم ولا أولادهم ولا أهليهم ولا أنفسهم على الله وعلى رسوله وعلى دينه حتى استطال عموده فى الآفاق وحتى سار الشمس مشرقة ومغربة ، وقد قالوا إن ضربة على بن أبى طالب لعمرو بن عبدود أفضل من عبادة الجن والانس والملائكة وجميع الخلائق وملايين العوالم أمثالهم وفيهم الأنبياء والرسل إلى قيام الساعة وهذا من أشنع التحقير والزراية بالأنبياء والملائكة وعباد الله الصالحين . وقد ذهبوا أيضا إلى أن خيار صحابة النبى عليه السلام كفروا وارتدوا بعد وفاة نبيهم فحرفوا القرآن وحرفوا السنة : زادوا فيهما ونقصوا منهما ، وتكذبوا على النبى وجحدوا دينه ووصاياه وظلموا أهل بيته وسلبوهم حقوقهم كفرا وغدرا . وكذا زعموا فى خيار

زوجاته عليه الصلاة والسلام أمثال عائشة وحفصة . ثم ذهبوا إلى أن اتباع خيار الصحابة، المهتدين بهديهم كفار مارقون : هذا كله وغيره من اعتقادات شيعة هذا الرجل الهاجي لأهل السنة المتقول عليهم الأباطيل والأكاذيب بغيا من عند نفسه وظلما للحق وأهله . وهذا كله بلا ريب من شر الاعتقادات .

ما يمنع من التوسل والاستغاثة والاستشفاع .

أما ماذكره عن الوهابيين فبعضه كذب صريح لاشبهة له فيه ، و بعضه مجمل يحتمل حقا ويحتمل باطلا . فما ذكر بأنهم يقولون : إن الاستغاثة به عليه الصلاة والسلام وطلب الشفاعة منه والتوسل به إلى الله كفر فمجمل يحتاج إلى البيان والتفصيل . وذلك أنهم لا يرون الاستغاثة به عليه الصلاة والسلام وطلب الشفاعة منه ، والتوسل به إلى الله ممنوعة مطلقا ، وعلى كل حال ، بل هم يرون أن الاستغاثة به فى الدنيا فيما يقدر عليه عادة جائزة لامنع فيها ، وكذلك يرون فى طلب الشفاعة التى هى الدعاء وكذلك يرون فى التوسل الذى هو طاعته والايمان به واتباعه وتعظيمه وحبه وطلب الدعاء والاستغفار منه ، وغير ذلك من الأمور المشروعة التى هى أصل الايمان والاسلام . فهذه الأمور كلها وغيرها من المنقول والمعقول لا يأباها الوهابيون ولا يمانعون فيها ، بل هم يرون بعضها واجبا فرضا لا يتم الاسلام والدين إلا به و بعضها مستحبا و بعضها جائزاً ، لا يأبون شيئا من ذلك ألبتة . ولكن الذى يأبونه و يمنعونه ولا يرضونه هو الاستغاثة به عليه السلام وطلب الشفاعة منه فى قبره بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ! وهو أيضا التوسل العامى الجاهل القائم اليوم على قبور المشايخ والصالحين وقبور من هب ودب . هذا هو الممنوع المحرم ، وهذا هو ما يأباه الوهابيون وما يردونه على فاعليه . فهذه الأشياء لها جانبان ، جانب باطل وهو طلبها من الاموات ، سواء كانوا أنبياء أم كانوا غير أنبياء ، وجانب مشروع جائز . وهو طلبها ممن يقدر عليها عادة إذا لم يكن ثمة مانع شرعى . فزعم الرافضى أن الوهابيين يمنعون ذلك كله جملة زعم

يجازى عليه جزاء الكاذبين إن شاء الله .

وأما التبرك بقبره عليه السلام والدعاء عند القبر فأمور ممنوعة حقا وسوف تجئ الدلائل على ذلك .

وأما زعمه أنهم يمنعون تعظيمه عليه الصلاة والسلام ، وأنهم يرونه كفرا وعبادة للأصنام فمن الأكاذيب التى سيسود لها وجه مفتريها عند الله يوم تبلى السرائر . بل هم لا يشكون أن تعظيمه التعظيم المشروع هو أصل الايمان والاسلام . ولا يشكون أن من لم يعظمه صلى الله عليه وسلم هذا التعظيم فليس بمسلم ولا مؤمن .

وأما السفر لمجرد زيارة القبر فباطل ممنوع وسوف نذكر براهين ذلك والأصل فى هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث . وقد روى هذا الحديث من طرق عن جماعة من الصحابة ورواه صاحبا الصحيحين البخارى ومسلم ، وقد جاء بصيغة النهى وبصيغة الإخبار ، وقد استدل به جماعة من الصحابة وجماعات من بعدهم على امتناع السفر إلى آثار الأنبياء وزيارتها . وبحث هذا يجئ إن شاء الله فى فصل خاص فيما بعد .

وأما قوله : إن الوهابيين ذهبوا إلى وجوب هدم الضريح النبوى فمن أكذب الكذب وأفجر الفجور . وذلك أن الضريح الذى هو القبر لم يقل أحد من المسلمين بوجوب هدمه أو جوازه . والذى قيل إن الشرع يأمر بهدمه هو القباب والبنايات المشيدة جهلا وخلافا للرسول ولشريعته على القبر ، أما الضريح نفسه فلا خلاف فى وجوب بقائه . وفرق عظيم بين الضريح وبين البناء المقام على الضريح . ولا يقول عاقل ولا بصير بالاسلام وبدين الله إن فى هدم البناء المقام على القبر طاعة لله ولرسوله شيئاً من التنقص أو شيئاً من الاهانة لصاحب القبر ، ونترك تحقيق

هذا المقام إلى الفصل الخاص به الآتى .

وأما قوله : ويحرم التبرك بتربته ولمس ضريحه وتقبيله ، فالجواب أن يقال لا ريب أن ذلك كله باطل وخلاف على الدين وأنه خلاف المأثور عن السلف الصالح قاطبة ، وخلاف ماعلم من الاسلام بالضرورة والتواتر ، ولا شك أن ذلك كله من بقايا الجاهلية الأولى التى جاء الاسلام لنقضها والقضاء على بنيانها وكيانها . ولا يرتاب العارفون بالاسلام ، الملمون بأغراضه أن هذه الأفعال وأمثالها منافية لأفضل شئ دعا إليه الدين الحنيف وهو الاخلاص لله والانقطاع إليه وحده بالجملة والتفصيل ، بالقلب والقالب : ثم لا يرتابون فى أن ذلك من أعظم الفساد ، فساد العقل والدين والذوق .

وقد كان الصحابة الذين تلقوا الاسلام نصوصه ومعانيه ، أفعاله وأقواله ، من صاحب الرسالة كفاحاً بلا وسيط يحبونه عليه الصلاة والسلام حباً لم يحبه أحد أحداً من الخلق ، ويحرصون على الأخذ بأطراف الفضائل وأشتات الصالحات حرصا تفنى دون أدناه أشواط السابقين من الأولين والآخرين ، وكانوا يفهمون شرع الله فهما تنزو عن بلوغ حقيقته جياد الأفهام ، وكان هؤلاء الصحابة يزورون رسول الله ويدخلون مسجده فى اليوم والليلة مرات ، وكانوا يودون لو أبيح لهم أن يكتحلوا بتراب قبره وأن يسفوه حبا وإخلاصاً ، ولكنهم مع ذلك لم يقبلوا ولم يتمسحوا رجاء شئ مما زعمه هذا الشيعى لأنهم يعلمون أن ذلك خلاف على نبيهم ، ولأنهم يعلمون أن الخلاف عليه — بزعم حبه والقيام بحقه — هو الهلاك والجهل ، بل لقد خشوا هذا الذى يدعو إليه الرافضة وإخوانهم فحالوا بين الناس وبين الوصول إلى القبر بالبناء الذى أحاطوه به وبوضعه عليه الصلاة والسلام فى حجرة زوجه عائشة . ولو أرادوا هذا الذى أراده المخالفون الجاهلون لكشفوا قبره ولوضعوه فى العراء ليستطيع الناس الوصول إليه كى يقبلوه ويتمسحوا

بجدرانه وأركانه . وقد قالت عائشة رضى الله عنها فى ذلك قولها المشهور : « ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشى أن يتخذ مسجدا » . وقد كانوا وكان السلف قاطبة ينهون عن اتباع آثار الأنبياء كما ذكرنا فى الجزء الأول ، وكان الخليفة النافذ البصيرة عمر بن الخطاب من أشد الناس نهيا عن ذلك حتى لقد نهى عن قصد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه رسول الله ، وأمر بقطع الشجرة ، شجرة الرضوان ، لما رأى فريقا يقصدونها . ولو كان ذلك من دين الله الاسلام لوجدنا المسلمين الأولين يتسابقون إلى مواطن النبوة وآثار الأنبياء ، أيهم السابق المستولى على الامد ، ولو جدنا هم يتنافسون فى قصد غار حراء وغار ثور وغيرهما من الأماكن التى وطئتها أقدام النبوة ، للتقبيل والتمسح والتبرك ، ولكان لهم مغدى ومراح إلى تلك الآثار وإلى حجر أزواجه ومواطن قدميه ومواقع وجهه الشريف ، فى مسجده وفى غير مسجده للفوز بتلك الفضيلة . ولكن لا نزاع بين أهل العلم البصراء بالآثار والروايات أنه لم يكن شئ من ذلك .

تقبيل القبر ليس من الدين ولا من سنة المسلمين

على أن من العجيب فى الدين والنظر أن يكون تقبيل قبر النبى عليه الصلاة والسلام مشروعاً ودينا يثاب عليه فاعله فى حين أن تقبيله ذاته لأجل ذلك لم يكن معهودا ولا معروفاً بين أصحابه يوم كان حيا بين أظهرهم يرونه ويقدرون على تقبيله إذا كان مشروعاً جائزا . وماجاء ذلك إلا فى حوادث معلومة خاصة لأسباب كذلك خاصة معلومة غير مايذهب إليه هؤلاء القوم ، وما روى شئ من هذا فى كتب الصحاح كالبخارى ومسلم . فما جاء أن يهوديين أتيا رسول الله عليه السلام فسألاه عن عدة مسائل فأخبرهما فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد أنك نبى . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . وعن عبد الله بن عمر قال كنت فى سرية من سرايا رسول الله فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبتنا ، ثم قلنا :

لو عرضنا أنفسنا على رسول الله فان كانت لنا توبة و إلا ذهبنا فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج وقال : من الفرارون ؟ فقلنا نحن الفرارون ، قال بل أنتم العكارون ، قال فأتيناه حتى قبلنا يده . رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد . وقد ذكر شيئا من ذلك البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » . ولا تخلو رواية من هذه الروايات من مقال . على أنه واضح من السياق أن ذلك التقبيل لم يكن طلبا لما يزعمه الشيعى وأنه لم يكن عادة معهودة للقوم . و إنما كان ذلك للاعتراف بالشكر والاغتباط . و إلا لو كان الامر كما زعم القوم لكان ذلك دأبا للصحابة وعملا من أعمالهم التى يواظبون عليها و يتسابقون اليها ، ولما وقف على الفرط النادر من الاحيان . و إننا نعلم بالتواتر الصامت أن الصحابة لم يكونوا يحاولون أن يقبلوا جسم النبى أو ثوبه أو شيئاً من آثاره ، أو يحاولون أن يتمسحوا ببعض ذلك كلما واتت الفرصة . ونعلم أيضا أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن يدلهم لا تصريحاً ولا تلميحاً على أن هذا من الدين ومن أعمال البر والطاعات ، بل انه ﷺ كان ينهاهم عن هذا النوع من الغلو أنواع النهى ، و يدلهم أنواع الدلالات على أنه مأبى محرم . وكم ينهى عن ذلك أمثال قول الله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » وقوله : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .وقوله . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، وأمثال قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » . ومن العجيب فى هذا الحديث أنه قدم العبودية على الرسالة وهكذا جاء فى التشهد : « أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » ،وهكذا جاء فى غير ذلك.

تقديم وصف العبودية على وصف الرسالة

والكتاب الكريم حينما ذكر أوصاف النبوة والنبى لم يزد على وصفه بالعبودية و بالرسالة و بما يلازمها من الهداية والانذار والبلاغ والبيان . والعبودية هى المذكورة

في مواطن الامتداح والثناء في مثل قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ، وقوله : « و إنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » . وما جاء وصفه ﷺ بالقدرة وسعة السلطان وامتلاك ناصية التصريف والضر والنفع ، بل لقد جاء نفي ذلك عنه وعن الخلق جميعاً ، قال تعالى :« ليس لك من الأمر شيء » وقال : « وما أنت عليهم بجبار » وقال : « ليس عليك هداهم » وقال : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير و بشير » وقال « قل إنى لاأملك لكم ضرا ولارشدا . قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » وقال : « ألا له الخلق والأمر » . وهكذا ينسق الكتاب الآيات نسقا في حرمان الخلق كافة من أن يشاركوه في ملكه أو في خلقه أو أمره أو شأنه ، وهكذا ينسق الآيات نسقا في تجريد الأنبياء ومن دون الأنبياء من القدرة والسلطان والضر والنفع والتصريف ، وهكذا يحصرهم جميعا في منطقة العبودية ، و رواق الملكية ، لايعدو ذلك نبي مرسل ، ولا ملك مقرب « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا »

وأما زعمه أن الوهابيين يقولون إن ضريح النبي عليه الصلاة والسلام صنم من الأصنام بل هو الصنم الأكبر ، و إنهم كذلك يقولون في سائر قبور الانبياء والصالحين ـ فزعم كاذب . وقد قال ﷺ : « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد » وقد استجاب الله دعوة رسوله فأحيط قبره الشريف بالبناء الذى حال بين الجهلة و بين الوصول إليه ، فلم يقدروا على الوصول اليه كما وصلوا إلى قبور غيره من آله وغيرهم من الصالحين والطالحين فعبدوهم من دون الله وعبدوا قبورهم وعكفوا عليها عكوف أهل الجاهلية كلهم على أصنامهم وعلى أوثانهم : يدعون و يسألون

ويستغيثون ويستشفون ويرجون الدنيا والأخرى هناك ، ناسين أن فى السماء رباً له الخلق والأمر وإليه يرجع كل شئ . . . ولو فرض أن الجهال عبدوا الرسول أو عبدوا قبره ، كما عبد غيره من الأنبياء والصالحين ، فقيل إنه معبود أو إن قبره معبود أو مؤله لدى العامة الجهلاء لما كان ذلك نقصا فيه ولا عيباً أو ذما له يقيناً . والمسلمون يقولون : إن عيسى بن مريم وأمه إلهان معبودان لدى النصارى وليس فى هذا القول ماينقصهما أو يعيبهما . وكذلك يقولون إن الملائكة معبودة مؤلهة من دون الله ، وكذا يقولون فى على بن أبى طالب وفى ذريته لان قوماً من الشيعة عبدوهم وزعموهم آلهة كما تقدم . وليس فى هذا مايضير أحدا من هؤلاء . فاذا عبد الرسول أو عبد قبره فقيل إنه معبود أو إن قبره معبود لم يكن فى هذه المقالة ماينقصه عليه الصلاة والسلام كما لم ينقص الملائكة وعيسى بن مريم ومريم وعليا والمعبودين من ولده عبادة من عبدوهم . وهم يتبرؤون منهم ومن عبادتهم بين يدى الله .

لايضر الرسول ولا قبره عبادة من عبدوه

أما ماذكره عن خلاصة الكلام تأليف شيخ الكذب دحلان من أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يقول إن النبى طارش وأن بعض أتباعه كان يقول إن العصا خير من الرسول ، وإن ذلك كان يقال فى حضرة الشيخ فيسمعه ويرضاه وأنه كان يقول إنى وجدت فى قصة الحديبية كذا وكذا كذبة ــ فهذا كله وأمثاله من أرذل الاكذوبات وأرخصها . وإننا نتحدى هذا الرافضى وإخوانه ونطلب إليهم جميعاً أن يسندوا شيئاً من هذه الأقوال عن أحد الوهابيين . لانطالبهم أن يسندوه عن الشيخ محمد ولا عن عالم من علمائهم ، فالمسألة أسمى من أن نطلب اليهم ذلك .بل إننا نطالبهم أن يسندوه عن جاهل من جهلائهم ، وإلا فالكذب يقدر عليه أقل الناس عقلا وعلما وفهما . وأجرأ الناس على الكذب هم أقلهم دينا وعلما وفهما وحيلة . وإذا استعان الخصم على خصمه بالكذب والاختلاق

فقد لجأ إلى ركن غير وثيق ، وأخذ بسبب مقطوع ، وباع نفسه وعلمه فى سوق الكاسب فيها خاسر . . . وأنا لا أشك أن هذا الرافضى لا يعتقد صحة مايذكره هنا ، بل لا أشك فى أنه يعتقد كذبه وتزويره . ولكن خصومته للحق ولأهله أباحت له أن يروى الكذب وأن يقاتل به وأن يزعم للناس أنه جاد غير هازل ، وأنه صادق غير كاذب ، بل وأنه محرم على الكذب وقول الكذب . وطائفة يبلغ عشق الانتقام والظلم بكبار علمائها ومجتهديها أن يستجيزوا رواية مثل هذا الباطل وأن يدونوه فى كتبهم يحق أن يقال لها : لتسقط من السحاب ، أو ليسقط عليها السحاب ، فلن تضيرا الله والحق شيئاً .

ليسقطوا من السحاب

إنى أقول لهذا الرافضى ولغيره من الكذابين : إن من قال عن النبى عليه الصلاة والسلام هذه الاقاويل التى رواها عن شيخ الكذب دحلان فقد ضل ضلالا كبيرا ، واحتقب نكراء يثقل وزرها كاهل قائلها ، ثم أقول لهم إن كل وهابى على وجه الأرض يقول قولى هذا .

﴿ المسلمون فى نظر الوهابيين ﴾

ثم ذكر الشيعى تحت عنوان : « اعتقادهم فى عموم المسلمين » ماخلاصته : إن المسلمين فى نظر الوهابيين قد كفروا وأشركوا منذ ستمائة سنة قبل خروج الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وإنهم قد ابتدعوا فى الاسلام . قال : « وهذا محور مذهب الوهابية الذى يدور عليه . . . وفرع الوهابية على هذا الاعتقاد وجوب قتال المسلمين واستحلال دمائهم وجعل بلادهم دار حرب وأنه تجب الهجرة منها إلى بلاد الإسلام التى أهلها وهابية » قال : « وأما سبى ذرارى المسلمين فهو مقتضى قواعد مذهبهم » قال « وقسموا التوحيد إلى توحيد الربوبية وهو الاعتقاد بأن الخالق المدبر للأمر هو الله ، وتوحيد العبادة وهو صرف العبادة كلها إلى الله . قالوا ولا ينفع الأول دون الثانى . وقالوا الكفر نوعان : مطلق ومقيد . فالمطلق

أن يكفر بجميع ماجاء به الرسول ، والمقيد أن يكفر ببعض ذلك » .

هذا خلاصة ماذكر فى هذا الفصل . ثم بعد ذلك أخذ فى التفصيل وفى إيراد دلائله على دعاويه هذه دافعاً جميع شهادات العلماء وشهادات الوهابيين أنفسهم على تكذيب هذا الكذب وعلى أن المسلمين عندهم مسلمون لاشك ولاريب وعلى أن هذه الدعوى كاذبة افتجرها قوم آثروا جهلهم على علمهم وشهواتهم على دينهم ، وآثروا هوى المخلوق على رضا الخالق ، فقلدهم فيها فريقان : فريق الجهل وفريق الاثم فأخذ الفريقان بطرفيها يشدانهما حتى أوصلاها المشارق والمغارب ومازالت بأيديهم تطوى وتنشر وتخفض وترفع حتى تلقفها هذا الشيعى الظالم « بدوره » فراح يلوح بها يميناً وشمالا ، يبغى الفتنة ، ويبغى الشر ويريدما الله خاذله فيه هو وشيعته .

لايدل على عقيدة المرء سوى أقواله وأفعاله

ونحن نقول ردا على هذ الدعوى إن عقيدة المرء تؤخذ من أمرين : من أقواله ومن أفعاله . فالاقوال تدل على العقيدة وكذلك الأفعال . فاذا فعل المرء شيئاً يدل على عقيدة من العقائد قلنا إنه فى الظاهر يعتقد كذا ، وإذا قال إنى أعتقد كذا قيل إن عقيدته فى الظاهر على ما ذكر . ولا شئ يدل على عقيدة المرء غير الاقوال والافعال لدينا . فمن ادعى على إنسان مابأنه يعتقد عقيدة لم تدل عليها أقواله ولا أفعاله أو دلت أقواله وأفعاله على أنه لايعتقدها كان ذلك المدعى غالطا كاذبا ظالماً . وكانت دعواه مرجوعة عليه ولا كرامة . فان الدعاوى بلا بينات أولادها أدعياء . ولو قبلت الدعاوى بلا بينات لكان سهلا على كل من انقطعت الصلات بينه وبين الحياء والدين أن يتكذب وأن يتقول وأن يزعم على الشمس بأنها جرم مظلم أسود ، وعلى الليل الأسود بأنه نور مشرق ، وكان سهلا عليه أن يقول للسماء : ما أسفلك ، وللأرض ماأرفعك ، وكان سهلاعلى هذا الرافضى وغيره من المخالفين أن يقولوا إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم

وأموالهم ، وأن يدعوا عليهم مايريدون و يشتهون ، وكانت هذه الدعوى للذيذة المذاق فى أفواه أعـداء الحق والحقيقة ، ولـكن الله الذى خلق الحق والباطل أعز الأول ببراهينه وأذل الآخر ببراهينه أيضا و بيناته ووسم وجوه الكاذبين بسمات الكذب وطبع الكذب بطابع الكاذبين ، وأقام الحق له منه عليه شواهد تسم الباطل واهله عـلى الخرطوم . ومما يعزى صاحب الحق المكنوب على أثره أنه ما جاء صاحب حق ودعوة فاضلة نبيلة الا كثر الجناة عليه ، وأن جناة الكذب وفرسان الزور لابد أن يفتضحوا وأن يتحطموا فوق صخرة الحق العتيدة التليدة و إن غالبوا الموت طويلا .

إذا علم هذا قيل للرافضى : أى الأمرين أعنى الاقوال والافعال ، دل على أن الوهابيين يكفرون المسلمين و يستحلون دماءهم وأموالهم بل أى الأمرين لم يدل عـلى كذب هـذه الدعوى وكذب ناقليها ؟ لاشك أن الرافضى لن يجد فى أقوال هذه الطائفة ولا فى أفعالها مايؤيد ماقال و زعم كما سوف يعلم ذلك واضحا جليا .

الدلائل على أن الوهابيين لا يكفرون المسلمين

و بيان ذلك أن أفعال الحكومة الوهابية وأقوالها ، وأفعال أفراد الوهابيين وأقوالهم بينة صريحة فى أنهم بريئون من هـذه التهمة وهذه البهيتة وفى أنهم لايكفرون المسلمين ولايعدونهم إلا إخوانهم و إلا منهم و إليهم . وذلك أن الحكومة الوهابية تعامل سائر الحكومات الاسلامية وسائر أفراد المسلمين معاملة المسلمين الاخوة ، وتخاطبهم مخاطبة المسلمين الاخوة ، وتعطف عليهم عطفها على المسلمين الاخوة وتشعر إزاءهم شعورها إزاء المسلمين الاخوة ، وتتقرب إليهم تقربها إلى المسلمين الاخوة ، وتحنو عليهم حنو المسلم على أخيه المسلم . وهذا كله واضح فى كل موقف من مواقفها إزاء المسلمين حين الافراح والاتراح ، فى السراء والضراء ، فى السلب والايجاب . وهاهم المسلمون يذهبون عشرات الألوف كل عام إلى بيت الله يؤدون

فريضتهم فيتمتعون تحت الراية الوهابية بالامن الذى يتحدث اليوم عنه الناس وبالمعاملة الأخوية الممتازة حتى الشيعة منهم وهم أكثر الفرق الاسلامية انحرافاً عن الصراط المسلوك ، وأكثرها ضراوة وولوعاً بالدخيل المدخول . فهل حالت دون بيت الله أو وقفت فى سبيل من يريدون الحج بحجة أنهم كفار مشركون ، وأن الكفار والمشركين لايباح لهم أن يصلوا إلى بيت الله وإلى معقل الاسلام والمسلمين ؟ أو هل سفكت دم أحد من أولئك الحجاج أو شامت عليهم سيفاً أو شرعت رمحاً بحجة أنهم مشركون ، وأن المشركين حلال الدم والمال ؟ أم هل استحلت مال أحد من أولئك الزوار بحجة أنه كافر وأن الكافر حلال المال ؟ أو قالت كما نقل الرافضى الظالم لأحد من أولئك المسلمين : يامشرك أو يا كافر ، أو أن بلدك بلد حرب وشرك يجب عليك الفرار منها ، ويجب عليك بعد أن تسلم وأن تنطق بالشهادتين أن تقيم فى بلادنا بلاد الإسلام والمسلمين ، وألا ترجع إلى بلدك أبدا : هل فعلت الحكومة الوهابية أو قالت شيئاً من ذلك أو قاله أو فعله أحد من أفرادها وعلمائها حتى يتجه لهذا الشيعى الظالم أن يقول وأن يطبع ما يقول : إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم وقتالهم وأنهم لاينادونهم إلا بيامشركون ؟؟

بل هاهى الحكومة الوهابية تبعث البعوث العلمية دينية ومدنية إلى أنحاء البلاد الاسلامية وتنشئ المفوضيات فى تلك البلاد فيعامل هؤلاء كلهم المسلمين معاملة المسلم أخاه المسلم ، فيجتمعون بهم فى العبادات الخاصة بالمسلمين فيصلون معهم فى مساجدهم ويأتمون بهم ويتلقون منهم العلوم الدينية وغيرها ويمتزجون بهم امتزاج الارحام : فيتزوجون منهم ويزوجونهم ويتصلون بهم الاتصال الذى لايكون إلا بين المسلمين وحدهم . ولا يرون فى شئ من ذلك مانعا ولا حراما . ولا يعترض عليهم أحد من الوهابيين ولا يرون أنهم بذلك قد أتوا إثما أو ذنباً أو خالفوا مبدأ

من مبادى الاسلام التى يحافظون عليها ويذهبون إليها . فهل هؤلاء ياقوم يرون المسلمين غير مسلمين ، أو هل يمكن أن يكون أمثال هؤلاء يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وقتالهم ؟ ما أرخصها من دعوى وما أرخص مدعيها لدى نفسه ولدى الحق!

ولقد زار ولى عهد الحكومة السعودية مصر غير مرة فكان يؤدى الصلوات فى المساجد العامة وكان يأتم بالأئمة الذين يزعم الشيعى أن الوهابيين يرونهم غير مسلمين بل يرونهم مشركين كافرين .

بل أليست الحكومة الوهابية مازالت تستقدم الرجال من جميع الأقطار الاسلامية فتوليهم ماتوليهم من أعمال الدولة السياسية والعلمية وغيرها وتستعملهم فى كبريات المناصب وعظائم الوظائف ، وتوليهم من الثقة ماتولى رجالها وبنى وطنها ، وتعاملهم المعاملة التى لايعامل المسلم بها إلا أخاه المسلم . فهـل حاولت الحكومة أن تطرد هؤلاء الموظفين أو أن تنالهم بسوء . أو هل حاول الشعب شيئاً من ذلك بحجة أنهم غير مسلمين وبحجة أن الكفار والمشركين حلال الدماء والاموال والأعراض؟؟

بل أليست فى المملكة الوهابية السعودية ولاية شيعية ــ هى مقاطعة الاحساء والقطيف . والشيعة كما ذكرنا من أبعد الناس عن الاعتـدال والحق ، وأكثرهم غلوا فى الاموات وعبادة لهم وعكوفاً على أجداثهم . وقد كان فى استطاعة الوهابيين أن يبيدوهم أو ينفوهم من تحت سلطانهم وسمائهم ، ولـكنهـم لم يفعلوا شيئا من ذلك ولم ينالوهم بسوءما ، ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم فى العدل والحكم والمعاملة وإنما منعوهم فقط من التظاهر بالمنكرات الخاصة بهـم كسب الصحابة والسلف وإكفارهم ، وكمنكرات أيام عاشوراء ومآتمها ومآتمها .

أفلا يزال الشيعى بعد هذا مصرا على دعواه أن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهـم وقتالهـم ؟ ليعلم أنه هو نفسه لو ذهب هنالك ووقع تحت أيدى الوهابيين لمـا استحلوا دمـه ولا ماله ولا قتاله ، بل لأضافوه

وأكرموه ورجعوه سالماً موفوراً .

هذه بعض أفعال الحكومة الوهابية مما يكذب هذه الدعوى التي تبرع بها لهم الرافضي وإخوته في الكذب والظلم .

الوهابيون لايباينون غيرهم من المسلمين في شيء

وأما أفعال أفراد الوهابيين فهي أنطق وأفصح في رد هذه الدعوى الكاذبة والأمر فيها أوضح وأظهر . وذلك أن الوهابيين ما زالوا ولا يزالون يسافرون إلى جميع الاقطار الاسلامية كمصر والعراق والشام وغيرها ، ولهم تجارات مختلفة في تلك الأقطار ، ولهم أصدقاء وأصهار وأرحام وذريات وعلاقات مختلفة قوية ، هي علاقة المسلم بأخيه المسلم . وجميع هؤلاء الوهابيين الذين يردون هذه البلدان يخالطون أهلها المسلمين مخالطتهم لأهل بلادهم الأولى، فيصاهرونهم : يتزوجون منهم ويزوجونهم ويشاركونهم في عباداتهم وعواطفهم ، فيصلون معهم ويأتمون بأئمتهم ولا يفارقونهم في شيء من أعمال المسلمين ، ولا يحسون بينهم وبينهم فرقا إلا مثل ما يكون بين أفراد الأمة الواحدة من الخلاف والفرق ، وما اختلفوا عليهم في أمر من أمور المسلمين : فما اتخذوا لهم مسجدا خاصاً ولا إماما خاصاً ولا حيا خاصا ولا زيا خاصا ولا بلدا خاصاً ، ولا شيئاً من الأشياء خاصاً بهم ، ولا قاضيا خاصاً بهم ولا غير ذلك مما يوهم أنهم يخالفون غيرهم من المسلمين ، أو أن لهم عقدا سيئا في عقائد المؤمنين ، ولا يشعر من يراهم ويرى أحوالهم وأعمالهم أنهم يذهبون إلى شيء يخالفون به غيرهم . ولو أنهم دخلوا بلدا إسلامياً وكان إمام الجماعة فيه هو هذا الرافضي نفسه الهاذي بهذه التهم لما تخلفوا عن الصلاة وراءه ولما استجازوا لأنفسهم التخلف عن الجماعة إلا أن يعلموا منه أمراً يمنع الاقتداء به عند جميع أهل السنة ، مثل أن يعلموا منه أنه يكفر الصحابة ويستحل الوقيعة في أعراض السلف والوقيعة في دينهم ، ومثل أن يعلموا منه أنه يقول بتحريف القرآن أو غلط جبريل في الرسالة ، أو نحو ذلك من عظائم ما ذهبت

إليه الشيعة ، أو غيره مما يمنع أهل السنة جميعا من الاقتداء بصاحبه والاحترام له . ولا أظن مسلماً يستجيز الصلاة خلف من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان . فمثل هذا يأبون الاقتداء به ولا كرامة . ومن الصدف الطريفة أن قابلت فى هذه الأيام أحد رجال الشيعة الواردين على القاهرة لأسباب علمية ، وهو من بيت علم معروف فى النجف وفارس . وقد كانت المقابلة يوم جمعة . فسألته : أين صليت الجمعة ؟ فأخبرنى أنه لم يصل ، وأن لصلاة الجمعة عند الشيعة شرائط لم تجتمع لديه . هذا وكل يعلم أن فى مصر جماعات من النجديين الوهابيين ، وأنهم صلوا جميعاً ذلك اليوم فى مساجد مصر المختلفة ، وأنه لم يتخلف أحد منهم عن الصلاة محتجا بتلك الحجة الشيعية ولا بغيرها . وإننا كلنا نصلى فى مساجد القاهرة الجمع والجماعات وما خطر لنا أن ندع الصلوات الجامعة لأجل ما ذكر الشيعى . وهذا صاحب السعادة الشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية السعودية بمصر ، وهو من أتقى المسلمين ومن أعرفهم بالاسلام وحقائقه ، ومن أشدهم غيرة عليه واستمساكا به ، هذا هو يقيم الصلوات فى مساجد مصر ، ويحافظ على صلاة الجمعة فى مساجدها ويأتم بالأئمة المختلفين لا يرى فى ذلك حرجا ولا مانعاً وهو أكبر رجل للدولة السعودية بمصر ، وكذلك أخوه الشيخ عبد العزيز السابق وكذلك جميع أقاربهما ومن يمتون إليهما بالمعرفة اللازمة يصلون الجمع والجماعات فى المساجد العامة لا يتخلفون عنها لسبب من الأسباب التى يذكرها هذا الرافضى وشيعته . بل إن الشيخ فوزان إذا مازاره أحد العلماء فى مستقر عمله الحكومى أو فى بيته فحضرت الصلاة قدم العالم للصلاة به وبجماعته فأتموا به جميعاً — إلى غير ذلك مما يطول شرحه وبيانه . فهل بعد هذا يقول من يقيم للحق وللصدق وزناً وحرمة ومن يرعى لله وقاراً : إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم ؟؟ هذه هى أفعال الحكومة الوهابية وأفعال أفرادها كلها شواهد ناطقة صادقة

أكبر رجل سعودى فى مصر يصلى الجمع والجماعات فى المساجد العامة

على أن الشيعي لم يكن صادقا ولا ناطقا بالحق إذرماهم بإكفار المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم وقتالهم .

الوهابيون ينفون عن أنفسهم تكفير المسلمين

وأما أقوالهم في تكذيب هذه الدعوى فهي أنطق وأشهر، فمازالوا يكذبون الدعوى ويكذبون مدعيها وزاعميها . والشيعي نفسه ذكر في هذا الفصل المذكور عن علمائهم القدامى والمتأخرين أنهم يتبرأون من ذلك ومن قائليه ، ويهتفون بأنهم يتهمون به إتهاماً تنفيرا عنهم وعن دعوتهم الاصلاحية . ولكنه يصر على أنهم كاذبون في ما نفوا عن أنفسهم ، وعلى أنهم ملطخون بما زعموا أنهم منه بريئون . وإذا كانوا يقولون ويذيعون ما يقولون في كتب منشرة معروضة للخاصة والعامة: إنهم لا يكفرون مسلما ولا يستحلون دمه ولا ماله ولا عرضه ولا حرمة من حرماته فيقوم هذا الشيعي يقول لهم : كلا إنكم كاذبون غالطون فيما قلتم وذكرتم وأنكم تكفرون المسلمين وتستحلون أموالهم وقتالهم فماذا عساهم يذكرون من الدلالات لانتزاع هذه التهمة من رأسه ، وماذا عسى البراهين الصادقة تفعل لديه لتحرق هذه البهيتة في رأسه !! قوم يقولون مختارين غير مكرهين : إن المسلم مسلم لا يحل دمه ولا ماله ولا عرضه فيقال لهم : لا ، إن المسلم لديكم كافر حلال الدم والمال والعرض ، فهل يستطيعون أن ينفوا عن أنفسهم هذه التهمة إلا بأن يقولوا : إن المسلم مسلم ، فاذا قالوا ذلك فقيل لهم : كلا ، إن المسلم عندكم كافر مشرك فقد بطل الكلام والحجاج ، وتحكم العناد واللجاج ، وإذا قلت إني لا أحس ألما فقال لك قائل : بل إنك لتحس ألماً مبرحا . فهل ترد على ذلك القائل بأصدق من أن تعيد ما قلت : فتقول إني لا أحس ألماً . وإذا قال الشيعي وغيره إن الوهابيين يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم فهل يردون عليه بأصدق من أن يقولوا : إننا لا نكفر المسلمين فلا نذهب إلى إكفارهم وهذا واضح ظاهر .

ومن أقرب الدلالات على ذلك أن علماء المملكة السعودية عقدوا في هذه

الاسابيع المؤتمرات بمناسبة مشروع تقسيم فلسطين مستنكرين لذلك ، وقد أرسلوا إلى جلالة الملك الاحتجاجات الحارة الملتهبة غضبا ونقمة من الحكومة البريطانية ومن مشروعها الظالم الممقوت ... وقد نشرت تلك الاحتجاجات فى جريدة الحكومة الرسمية جريدة أم القرى وفى غيرها من الصحف المصرية وغير المصرية وقرأها الناس . وهذه الاحتجاجات كلها تصريحات بأن فلسطين بلد إسلامى وأن أهله إخوان مسلمون . ونعوذ بالله من الشك فى هذا وممن اضطرونا إلى الاحتجاج له . ولو أن الشيعى صادق فى دعواه أنهم يكفرون المسلمين لما استجاز علماء نجد وغير نجد من علماء المملكة السعودية أن يطالبوا جلالة الملك « بمناصرة إخواننا أهل فلسطين » و بمناصرة : « فلسطين المسلمة » و بالعمل لابقائها « بلدة إسلامية » و برفع لواء الجهاد على الظالمين المحاولين : « تهويد فلسطين المسلمة » ولوسعهم السكوت كما وسع غيرهم من علماء الشيعة وغيرهم . وأسكت الله أصوات من يسكتون على مأساة فلسطين ، ولا أقر أعين من يغمضون على نكبتها و بلواها .

شبهاتهم على أن الوهابيين يكفرون المسلمين

نعم ، إن الدلائل على كذب هذه الدعوى لا يستطاع إحصاؤها ولا حصرها . فما شبهة هذا الرجل و إخوانه إذن على ذلك ؟ لهم شبهتان فعلية وقولية ، أما الاولى وهى الفعلية فهى أن حروبا قد شبت بين الوهابيين و بين طوائف من المسلمين أو أن الوهابيين قد شبوها بادئين على بعض البلاد الاسلامية ، وهذه الحروب هى الحروب التى قامت بينهم و بين الدولة التركية و بينهم و بين الجيوش المصرية و بينهم و بين أشراف الحجاز فى القديم وفى الحديث ، و بينهم و بين أعراب الجزيرة العربية و بينهم و بين غير هؤلاء مما هو معلوم لا شك فيه . وقد زعم هؤلاء أن هذه الحروب دلائل على أن الوهابيين يستحلون قتال المسلمين وأخذ أموالهم وافتتاح بلادهم ، وذلك لانهم لديهم كفار مشركون ، و إلا لولم يعتقدوا فيهم

هذه العقيدة لما استجازوا قتالهم ولما استجازوا أن تقوم بينهم و بينهم حرب .

هذه هى الشبهة الفعلية ، وقد أقام عليها الرافضى من التهم وسوء الرأى القصور والعلالى . والشبهة فى الواقع من أفسد الشبهات وأبطلها وأسخفها ، والرد عليها سهل ميسور وذلك أن يقال لصاحبها المسرور بها :

الحروب بين الناس لاتدل على نوع العقيدة

أولا أن الحرب بين طائفتين أو أمتين لم تكن يوما من الايام دليلا على أن إحدى الطائفتين أو الأمتين تكفر الأخرى وتستحل قتالها ودماءها وأموالها لأنها فى رأيها كافرة مشركة بالله ، بل أغلب الحروب تقوم بين الناس و بين الشعوب والأمم لغير ذلك من الأسباب ، لأسباب قد تكون صحيحة وقد تكون باطلة ، وقد تكون مجيزة الحرب وقد لاتكون كذلك . وهذا معروف مشهور فى جميع العصور . وقد شبت الحروب بين جيوش على بن أبى طالب وعساكر معاوية ، و بين على وعسكر الجمل . ونحن نوقن بان إحدى الطائفتين لم تكن تكفر الأخرى ، ونوقن بأن الباعث على الحرب لم يكن الكفر والشرك ، و إن زعم الشيعة خلاف هذا . وكذلك لم تزل الحروب تضطرم بين جماعات المسلمين منذ صدر الاسلام إلى اليوم ، أحيانا بشدة وقوة ، وأحيانا أخرى بلين وقلة . ولكن أحدا من الناس لم يزعم أن تلك الحروب بين المسلمين دليل على أن أحد الجيشين يكفر الجيش الآخر ، وأن الباعث على الحرب هو الكفر والشرك . والحرب كثيرا ماتقع بين المرء وأخيه حيث لاخلاف فى العقيدة ولا فى المذهب ولا فى شئ من ذلك . وقد شبت الحروب بين الايرانيين وهم من الشيعة و بين الخلافة التركية . فهل يقول الرافضى إن الشيعة يكفرون الترك و يستحلون قتالهم. أو يقول إن الخلافة التركية هى التى كانت تستحل ذلك من الشيعة ؟ وكذلك شبت بين العساكر المصرية و بين الجيش التركى ، وشبت بين الأتراك وأهل اليمن وهم زيدية ، والزيدية فرقة من فرق الشيعة ، وكذلك شبت بين الأتراك

و بين أشراف مكة ، وكذلك حارب العرب وغيرهم من المسلمين تركيا فى الحرب الكبرى و فى غيرها . . . فهل يدعى الشيعى أن الباعث على هذه الحروب هو الكفر والتكفير والطعن فى الاعتقاد ؟ هو يزعم أنه لا يزعم ذلك فلنا أن نأخذه وأن نحجه بما زعم ، و يقال له كيف ادعيت أن محاربة الوهابيين لغيرهم، أو محاربة غيرهم لهم لم تكن إلا لأن الوهابيين يكفرون المسلمين و يستحلون قتالهم وأموالهم ؟ ؟ وهذا مالا جواب له عليه وهو مما يلقى شبهته فى الحضيض الأسفل

دلالة الحرب مشتركة بين المتحاربين

ثم يقال ثانيا ــ إن الحرب أمر مشترك بين الفريقين المتحاربين فالنجديون إذا حاربوا الأتراك والأشراف فقد حاربهم الأتراك والأشراف وهذا لابد منه . و إذا كان الأمر كذلك قيل لماذا زعمت أن الوهابيين، وهم أحد الفريقين المتحاربين يكفرون الفريق الآخر المحارب لهم و يستحلون قتاله وماله ، ولماذا لم تزعم العكس والعكس ممكن فى قضايا العقول وحقائق الواقع ، ولافرق بين الزعمين . فان كان الأول ممكنا كان الثانى كذلك ، و إن لم يكن ممكنا كان الثانى أيضا غير ممكن ؟ كيف والشيعى قد ذكر غير مرة فى كتابه هذا أن الأشراف والأتراك قد بدؤا الوهابيين بالحروب والقتال ، وأنهم قد غزوهم فى ديارهم مرات ، لأنهم ــ فى مازعم ــ قد جاؤا بأمر جديد يستحقون عليه التحطيم والابادة ، و يستحقون عليه أن يعاطوا حد الحسام وصدر القناة . وقد حشى كتابه بهذا الزعم وأعاده وأبداه مسرورا مغتبطا به كل السرور وكل الغبطة . بل لقد تأول مستيقناً صحة تأوله الاحاديث الواردة فى الخوارج فى الوهابيين ، وقد صدر عن هذا بأنه واجب على الناس قتالهم و إبادتهم ، وأن فى ذلك أجرا جزيلا لمن قام به من المسلمين لتخليص الناس فيما زعم من شرهم و بلائهم ومن عقائدهم الضالة الباطلة . فهو يقول : إن بدء الوهابيين بالقتال واجب وعمل صالح مبرور ، ويقول : إن المسلمين

كالأتراك والأشراف وغيرهم لم يزالوا يقاتلونهم ويتقربون إلى الله بقتالهم ويبعثونها عليهم وعلى عقائدهم وبلادهم شعواء عادية ... وإذاً فالوهابيون مبدوؤن بالتكفير والقتال والحرب والعدوان كما اعترف ، فماذا إذن ينقم ويريد منهم بعد هذا ؟ أيريد منهم أن يضعوا رقابهم تحت أسياف العادين عليهم الغازين لهم فى ديارهم وإلا كانوا عنده قوماً ضالين يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم ودماءهم ؟ إن كان يريد هذا منهم ولهم فهم لا يريدونه منه لأنفسهم ولا الله يريده منهم ولا لهم ، وإن كان فى علمهم هذا ضلال فهو أحب إليهم وإلى الله من الهدى الذى يدعوهم اليه الشيعى ويعرضه عليهم

الباعث على الحروب فى غالب سياسى لا دينى

ليعلم هذا الشيعى الظالم أن الحروب التى تشب بين المسلمين ، وكذلك التى تكون أيضا بين الكافرين ، أكثرها سياسى محض لا باعث عليه من الدين ولا سلطان للعقيدة فيه . ولهذا فانها تقع كثيرا بين أهل الدين الواحد والملة الواحدة ، كما تقع بين أهل الأديان والنحل المختلفة ، وتقع بين المرء وأخيه وقريبه ، كما تقع بين الأباعد والأخلاط . ومن زعم أن الباعث على هذه الحروب النصرانية الأوروبية بين الأوربيين أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم من الأمم الوثنية وغيرها هو الدين ، وهو إكفار كل أمة لأختها فهو كمن زعم أن الباعث للأتراك وللأشراف ولغيرهم على حرب الوهابيين هو الدين وعقيدة الكفر فيهم . ولكن أى عاقل يزعم شيئاً من هذا . فالحروب مجردة لم تكن قط دليلا على الاكفار أو القدح فى الاعتقاد

تكفير المستغيث بالاموات

وأما الشبهة الثانية ، وهى القولية ، فهى أن علماء أهل السنة أو علماء الوهابية فى تعبيره هو ، يذكرون فى كثير من كتبهم المطبوعة المشهورة أن أشياء كثيرة مما يأتيه المسلمون الجهال وأمثالهم من الاشياخ الأغرار كفر وضرب للتوحيد والايمان فى الصميم ، فيذكرون أن الاستغاثة بالأموات ، وسؤالهم

المطالب العليا التي لايقدر عليها إلا الله ، وأن الانقطاع إلى الاجداث وكتابة الرقاع ورفعها إلى سكانها : يذكرون أن ذلك كله وأمثاله هو من أعمال المشركين ومن المنكرات التى جاءت أديان الله كلها منادية ببطلانها وفسادها ومنافاتها للتوحيد وللايمان .ويذكرون أن هذا كله وثنية فى الصورة والمعنى ، وثنية كثيفة صريحة باطلة . هذا مايذكره هؤلاء العلماء وهذا مالا شك فيه لديهم ولدى جميع العارفين بحقائق الدين .

فقال هؤلاء المعارضون المخالفون الحريصون على هذه البدع والمنكرات : إن هذه الأقوال والآراء إكفار للمسلمين ظاهر لأن المسلمين كلهم يعملون تلك الأعمال ويمتدحونها ويدعون اليها ويرونها من الدين والاسلام . فالوهابيون إذن أصحاب هذه الاقوال والآراء يكفرون المسلمين ويستحلون قتالهم وأموالهم هذه هى الشبهة القولية .

والجواب أن يقال : لاريب أن العلماء يقولون ذلك ويدونونه فى كتبهم ويصرحون به ، ولاريب فى أن ذلك حق كله لاباطل فيه كما سوف ترى الدلائل عليه . ولكن هذا لايصدق ماقاله الرافضى وإخوانه لأمرين اثنين : أول الأمرين أن هذه الأشياء المنكرة المبتدعة لم يتفق المسلمون عليها فى عصر من العصور ، لا القريبة ولا البعيدة ، ولم يتفقوا على الرضا عنها ، ولا على أنها من الدين أومما يجوز فى الدين . بل مازال المسلمون العارفون بأسرار الاسلام وحقائق الدعوة المحمدية ينهون عنها ويوردون دلائل الله على بطلانها وخلافها على دينه وشرعته ، وقد وضعوا المؤلفات الكثيرة فى هذا . فالمسلمون لم يجمعوا إذن على تلك المنكرات الباطلة حتى يقال إنه يلزم القول بأنها كفر وشرك إكفار المسلمين والحكم عليهم جميعاً بالردة والضلال . ومارضى ذلك الزور الاعتقادى إلا الجهلاء الاغبياء كما سوف يجئ البيان . فبطلت الشبهة إذن .

قد يعذر الجاهل شرعاً

وثانى الأمرين أنه لا يلزم حكمهم بان الأمر كفر وشرك ، أن يكون كل فاعل له مشركا كافرا . وذلك أنه قد يكون لقيام الوصف بالفرد المعين موانع ، والموانع كثيرة . ومثل هذا دخول العامل للمعصية الخاصة الموعد عليها تحت الوعيد الخاص . فاننا نعلم أن الشريعة قد أوعدت أصناف العصاة والمذنبين بالعذاب والنكال الشديد ، ففى الزناة وعيد و فى السارقين وعيد ، وفى القاتلين وعيد ، وهكذا ، ولكن لا يلزم أن يدخل تحت ذلك الوعيد كل من قارف إحدى هذه المعاصى ، إذ قد يكون لديه مانع فى نفسه أو فى غيره يمنع دخوله تحته . وذلك المانع قد يكون أعمالا صالحة كثيرة عملها ذلك العاصى كفرت سيئاته وغفر له ذنبه من أجلها . وقد يكون المانع مصائب مؤلمة أصابته فتلقاها بالصبر والرضا والتسليم فاستحق الغفران والصفح . وقد يكون المانع غير ذلك . وهكذا هؤلاء العاملون لهذه الأعمال الباطلة الوثنية من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والانقطاع إليهم ، وكتابة الرقاع و رفعها إلى اصحاب القبور ، وغير ذلك مما ابتلى به المسلمون فغيروا به معالم دينهم وحقائقه الأولى الناصعة — لعل الله يقيم لهم عذرا لجهلهم والجهل قد يكون عذرا مانعا من المؤاخذة والعقاب الأخروى إذا ما كان ذلك الجاهل حسن القصد نقى النية صادق الاتجاه إلى الله ، و إذا كان حريصا على الحق وعلى العمل به متى بان ووضح له ، ومتى بذل أقصى جهده فى تطلاب الحقيقة والتماسها ومتى لم يكن للهوى عليه سلطان ولا للتعصب فى وجه الحق لديه مكان . . فمثل هذا المرء قد يعذره الله و يغفر له خطأ وقع فيه رغم أنفه وأنف رغبته الشديدة الاكيدة فى أن يكون أبدا مع الحق وأن يكون أبدا مجانبا الباطل والضلال ، والله أعلم بما فى قلوب خلقه من صدق وكذب و إخلاص له واتباع للاهواء والشهوات وأعلم بمن يليق به الغفران والعفو والصفح الجميل . ونحن عباده لا نتقدم بين يديه بحكم ولا نقول عليه مالم نعلم ومالا يدخل فى دائرة حقنا ، و ربك الفعال لما يريد

ولهذا نظائر شرعية كثيرة لايمكن نسيانها ولا نكرانها .

ومما يقرب إلينا فهم ذلك ويكشفه أننا نعلم أن الميتة محرمة على المسلم تحريما باتا صريحاً ، ونعلم أن من قارف المحرم فقد تعرض لغضب الله وعقابه . ولكن لو أكل مسلم لحم ميتة غير عالم بأنها ميتة لما قيل شرعاً : إنه أكل محرماً عليه ، وإنه تعرض لما يغضب الله عليه . بل لاشك أنه فى ذلك معذور بجهله غير ملوم ولا مؤاخذ ، وأنه لم يتعرض لغضب الله ولا لعقابه . وهذا لأنه جاهل ، ولانه لم يرد أن يقارف مانهاه الله عنه ولم يقصد محادته وعصيانه تعالى . ويقرب هذا أيضا أن الله قد أوعد من لم يحكم بما أنزل أشد الايعاد فقال : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وفى آية « الفاسقون » وفى أخرى « الكافرون ». ولكن لو حكم مسلم صالح بغير ماأنزل الله غير عالم بما أنزل وغير عالم بأنه خالف ما أنزل لم يدخل تحت هذا الوعيد الصارم ، ولم يصح إطلاق ذلك عليه ولا وسمه بتلك السمة الهائلة الرائمة من الكفر والظلم والفسق والحكم بغير ما أنزل الله . بل ذلك المسلم معذور إذ أخطأ مغفور له ذنبه شأن أئمة الاسلام ، إذ لايسلم من أن يقع فى الخطأ إنسان عدا من عصم الله من الانبياء والمرسلين . هذا مع أن ظاهر الآيات دخول كل من أخطأ حكم الله تحت وعيدها . ومثله أن المسلمين يعلمون جميعاً بأن من ترك سنة النبى عليه الصلاة والسلام أو ترك حكم الله رغبة عنه وتفضيلا لسواه عليه فهو مرتد كافر بالاجماع . ولكن كثير بين من فضلاء المسلمين وخيارهم يقع ذلك منهم اجتهادا وخطأ كثيرا . وكل من رأى منهم رأيا واجتهد اجتهادا يخالف فى نفس الأمر ما أنزل الله وماأتى عن رسوله يعتقد ويقول إن ذلك الرأى وذلك الاجتهاد المخالفين لحكم الله هما أفضل من حكم الله الذى أخطأه وعزب عنه ، ولولا ذلك الاعتقاد لما أخذ بما رآه وبما أدى إليه اجتهاده . ولكن هؤلاء المسلمين المجتهدين المخالفين لسنة النبى ولحكم الله باجتهادهم لاباختيارهم وأهوائهم لايتناولهم

وعيد من خالف حكم الله أو سنة نبيه رغبة عنهما وتفضيلا لغيرهما عليهما . ونظائرهذا كثيرة معلومة . وهذا كله بناء على الفرق بين العالم والجاهل ، بين الذى ترك الحق جهلا وخطأ ، والذى تركه عنادا وكبرياء ، أو زهدا فيه وتقصيرا عن طلبه . وقدفرق الدين والعقل بين الفريقين ، فلا يستويان جزاء وعقبى ، لا عند الله ولاعندعباده ، لافى قضايا العقول ولافى أصول الدين .

إذن لايلزم القول بان الاستغاثة بالأموات والانقطاع إلى القبور شرك و وثنية كثيفة سخيفة أن يكون كل من وقع منه ذلك كافرا مشركا صائرا إلى مقت الله ونقمته وناره ، لجواز أن يكون للحوق هذا الحكم وهذا الجزاء بالشخص المعين مانع أو موانع ، إذ مامن حكم من الأحكام إلا وقد يكون له موانع ، سواء فى ذلك الحكم الشرعى وغير الشرعى من الوضعى والعادى والعرفى . وهذا ما يقال له : تعارض المانع والمقتضى

و بهذا البيان تبطل الشبهتان و يضح أن الوهابيين بريئون من هذه التهمة التى هى إكفار المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم وقتالهم . وما كانت براءة هؤلاء من هذه البهيتة تحتاج إلى تأليف الحجج وصناعة البراهين لولا أنه مامن قول يقال ولا رأى يبدى ، مهما أعرقا فى أنساب الباطل والضلال ، إلا وجدا آذانا سميعة وقلوبا واعية مفتحة الابواب .. فان للكذب والكاذبين أنصارا مخلصين ، كما أن للصدق وللصادقين أنصارا كذلك مخلصين ، ولكن الله الذى جعل الكذب حلوا فى مذاق الباطل جعل الصدق أحلى فى مذاق الحق. هذامايقال عن قوله : إنهم يكفرون المسلمين ، وإنهم فرعوا على ذلك وجوب قتالهم واستحلال دمائهم وأموالهم ، و إن دارهم دار حرب وشرك تجب الهجرة منها إلى ديار الوهابيين.

لا ريب أن المسلمين قد أحدثوا فى [illegible]

وأما قوله : « و إن المسلمين قد ابتدءوا فى الاسلام » فيقال عن ذلك :

لا [illegible] مسلم ولا [illegible] غير مسلم فى أن المسلمين وقع فيهم ومنهم ابتداع كثير فى

العبادات والاعتقادات ، وفى أصول الدين وفروعه ، ولا شك أن من اعتقد بأن جميع ما يأتيه المسلمون اليوم وقبل اليوم بقرون كثيرة من الإسلام ومن صميم الدعوة المحمدية فقد أساء إلى الله و إلى رسوله و إلى دينه إساءة بالغة منكرة يستحق عليها التأديب والعقوبة الرادعة الوجيعة . ومن زعم أن دين الاسلام هو هذا الذى صار إليه جمهور المسلمين وعامتهم ودهماؤهم من الغباوات والجهالات والترهات العملية والاعتقادية والقولية ، فقد أعظم الفرية على الله وبالغ فى هجاء خيرة الأديان . وما أبعدما عليه الناس اليوم وقبل اليوم بقرون كثيرة متقادمة عما كان عليه رسول الله وما كان عليه أصحابه ، وما أعظم الفرق بين الدين فى القرآن وفى السنة و بين الدين عند عامة المسلمين ، وما أكذب من زعم أن الاسلام لم يزل نقيا طاهرا خالصا ، كما جاء وكما نزل على خاتم الأنبياء لم ينله خطل فى القول ، ولا سخف فى الاعتقاد ، ولا فضيحة فى العمل ، وما أكذب من زعم أن جميع المسلمين لم يزالوا محافظين على حقائق الاسلام الأولى ، وعلى أقواله وعقائده وكل شئ فيه كما جاء منذ جاء ، لا انحراف ولا ميل . وما أسخف من زعم أن عامة المسلمين طيلة هذه العصور العجفاء لم ينالوا دينهم ـ ولم ينله غيرهم فيتبعوه ـ بالتبديل والتغيير والافساد والتشويه ! !

فماذا يريد الشيعى بما قال ؟ أيريد أن الوهابيين قد اخطأوا إذ قالوا إن المسلمين قد أصابوا دينهم بالابتداع والخلاف له ، أم يريد أنهم أصابوا إذ قالوا ذلك ؟ أمادح هو أم قادح ؟

ما أعجب أمر الشيعة !

ما أعجب أمر هؤلاء الشيعة ! هم يقولون إن المسلمين بعد وفاة نبيهم كفروا وارتدوا ، وهذا كان مصير كبار الصحابة كالخلفاء الثلاثة ومن ساروا سيرتهم ، و يقولون إن أهل السنة جميعاً كفار مرتدون ! و بعد هذه السوءاء يقومون يردون على من قالوا إن المسلمين المتأخرين قد ابتدعوا فى دينهم وأدخلوا فيه ماليس منه

خطأ وجهلا ! نعم ، ما أعجب أمر هؤلاء الشيعة ! يعتقدون أن أهل السنة لم يزالوا يتقلبون في البدع والمنكرات والضلالات ، ولم يزالوا يتخبطون في حضيض الغوايات ، و يعتقدون أن أمر أهل السنة أكثره ابتداع في ابتداع ، وأن أصل أمرهم قائم على الابتداع ، الابتداع الكافر الموبق ، وعندهم أن أمثال أبي حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل من شر المبتدعين المحرفين للشريعة الخارجين على الدين . ومع هذا كله يقومون يدافعون عن الجهال و يغضبون لهم إذا ما قيل إنهم ابتدعوا أو أحدثوا في الدين ماليس منه خطأ وجهلا ! !

و يحك ياهذا ! أما زعمتم أن بيعة الصديق والفاروق وعثمان وخلافتهم وماقام عليها بدع منكرة ، تقلدها المسلمون وباؤا بإثمها ؟ ثم أما زعمتم أن غسل الرجلين في الوضوء بدعة ، وأن المسح على الخفين بدعة ، وأن تحريم متعة النساء بدعة ، ابتدعها عمر فقلده المسلمون فيها ، وأن صلاة التراويح بدعة ، وأن صلاة الضحى بدعة ، وأن الدعاء للخلفاء فوق المنابر يوم الجمعة بدعة ، وأن القول بالقياس بدعة وأن المذاهب الأربعة بدعة ، وأن الأذان الأول يوم الجمعة بدعة ، ابتدعها عثمان فاتبعه الناس ، وأن الكثير الغالب من عقائد أهل السنة وأعمالهم بدع فاحشة ، وأن هذا الابتداع قد نال الأصول والفروع : الاعتقاديات والعمليات ، وأن كلامهم في النبوة وفي الخلافة والامامة والالهيات ابتداع في ابتداع : أما زعمتم أن أهل السنة قد ابتدعوا ذلك كله وأنهم مازالوا يبتدعون و يغالون في الابتداع حتى عددتموهم من الفرق الهالكة ، وعددتم فرقتكم وحدها الفرقة الناجية ؟ ؟ إذن كيف تستطيعون أن تنكروا قول من قال إن كثيرين من متأخري المسلمين وجهالهم قد صاروا إلى الابتداع في دينهم من حيث لايشعرون حتى شوهوه وابتذلوه ونسخوا محاسنه وألقوا عليها حجباً من المبتدعات الرخيصة النكراء حتى رمقته الإبصار بالزراية والاحتقار

ونحن لاندرى هل الشيعى يريد امتداح الوهابيين أم هجاءهم حينما حكى عنهم ماحكى . وذلك أنه لايشك أحد لامن المبتدعين ولامن المحافظين المتبعين فى أن طوائف من المسلمين قد ابتدعوا فى دينهم وأسرفوا فى الابتداع . وكل فرقة تزعم أن الفرقة المخالفة لها هى الفرقة المبتدعة ، وتزعم لنفسها أنها هى الفرقة الراشدة المتبعة. وأهل السنة جميعاً يقولون و يعتقدون أن جميع ماخالفت به الشيعة واختصت به دونهم هو مبتدعات بلا ريب . فلا يوجد مسلم واحد يزعم أن المسلمين جميعاً سالمون من الابتداع والانحراف عن الصراط الأول ، صراط محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام وصراط صحابته الأبرار . فما معنى إذن تخصيص الوهابيين بذلك ، ومامعنى الرد عليهم إذ قالوا ماقاله كل مسلم ؟ إننا نعلم بالضرورة أنه لا يمكن أن يظل جميع المسلمين فى جميع العصور محافظين بدقة ووفاء على دينهم : اعتقادياته وعملياته وقولياته ، بحيث لايخطئون ولايضلون و بحيث لايزيدون ولاينقصون ولايغيرون ؛ و بحيث لايقولون الا الحق لا عمدا ولا خطأ . فان هذا مما لايتقبله العقل ولاالعادة التى لاتختلف ولاتخطئ . فالقول بان الابتداع قد أصاب المسلمين أمر قد دل عليه العقل دلالة لاريب فيها ، وأمر قد قضت به العادة قضاء لامرد له . هذا من جانب النظر وحكم القياس . أمامن جانب الشرع وحكمه فان نصوصه المتواترة قد دلت دلالات مختلفة لاموضع للخلاف والنزاع فيها على أن جماهير من المسلمين صائرون ولا محالة إلى ماصارت اليه الأمم الغابرة الذاهبة . وهذه النصوص سوف نورد منها جملا فى الفصل الآتى فالعقل والنص والاجماع : كل ذلك قد دل على أن جماهير المسلمين سوف يقعون فى الابتداع ولامحالة . فماذا إذن يريد أن يقول هذا المصنف الظالم ؟ إن كان يريد أن الوهابيين يزعمون أن المسلمين جميعاً قد ابتدعوا فهذا كذب ، و إن كان يريد أنهم يقولون إن طوائف منهم صاروا إلى ذلك فهذا لاينكر . فماذا يريد أن يقول؟

وقوع الابتداع ضرورى

سبي ذريات المسلمين وكذب الرافضي

وقوله : « وأما سبي ذراري المسلمين فهو مقتضى قواعد المذهب الوهابي »
فالجواب على هذا أن يقال : لقد علم الخاص والعام والقاصي والداني أن الوهابيين قد التحموا في حروب كثيرة معلومة في القديم والحديث : فحاربوا الأتراك وحاربوا الأشراف ، وحاربوا غيرهم في عصور مختلفة وحالات مختلفة بقيادة غير واحد من أئمتهم آل سعود ، وإمامة غير واحد من علمائهم آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب هذا الاصلاح القائم المنشور ، وبامامة غير آل الشيخ من علمائهم المعروفين . وقد ملكوا النصر في غير وقعة من حروبهم وشتتوا قوات محاربيهم وخصومهم أروع تشتيت . ولكنهم مع ذلك كله لم يفعلوا مرة واحدة الذي اتهمهم به الرافضي الظالم ... وحروبهم ومواقعهم ليست مما يخفى على الناس ولا مما يعرفه فريق دون فريق حتى يمكن أن تروج مثل هذه الاكذوبة أو أن يخفى على أحد أمرها . ولو أمكن أن يصدق كذبه أحد وقوله : إنهم يكفرون المسلمين ويستحلون دماءهم وقتالهم وأموالهم ، لما أمكن أن يصدق قوله : إنهم يسبون ذراري المسلمين ونساءهم . وذلك أن هذا كذب مكشوف مفضوح وهو مثل أن يقول إن الوهابيين حينما فتحوا الحجاز الفتح الأخير قتلوا جميع النساء والأطفال وحرقوا جميع البلاد ونهبوا جميع مافيها من الأموال والمتاع ، وأنهم هدموا بيت الله الحرام وصدوا الناس عن أداء الحج . . . فان كان لا يجرؤ على اختلاق هذا الكذب لأنه لن يصدقه ديار فليعلم أن زعمه أنهم يسبون ذراري محاربيهم من المسلمين مثل ذلك . فليكذب إن شاء أو ليدع .

ياهذا ! إن الوهابيين ليسوا من سكان المريخ ولا من سكان الاجرام العلوية حتى يحتمل كل هذا الكذب عليهم ، بل هم سدنة بيت الله وجيرة حرمه ، يلتقي بهم المسلمون كل عام من كل فج وصوب ، ويعرفون عنهم وعن عقائدهم ودينهم مالا يعرفونه عن أهل بلادهم التي ولدوا وربوا فيها . فالمسلمون لا يجهلون

أمر الوهابيين ولا يخفى عليهم ما هم عليه من الديانة واستقامة المذهب ونصاعة الاعتقاد . فالكاذب عليهم مسيء إلى نفسه لا إليهم ، محتقر لمن أراد منهم أن يقبلوا كذبه و إن أراد احتقارهم هم .

وأما زعمه أن سبي الذرية هو مايقضي به المذهب الوهابي ، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك كانوا متناقضين ، لأنهم يكفرون المسلمين وذريات الكفار المحاربين تسبي وتستحل ، فالجواب عن هذا الزعم أمران : أولهما أننا قد بينا أنهم بريئون من إكفار أحد من المسلمين ، وأن هذه دعوى كاذبة عليهم . وثاني الأمرين أن نذكر الشيعي بحروب علي بن أبي طالب وحروب أئمة الشيعة الآخرين .. فان علي بن أبي طالب قد حارب عسكر طلحة والزبير وعائشة وحارب جيش معاوية ابن أبي سفيان ، وحارب الخوارج . وهؤلاء الذين حاربهم علي رضى الله عنه كلهم كفار مرتدون عند الشيعة لا يشكون في كفرهم ولا في ارتدادهم . ولكن عليا لم يسب ذرية هؤلاء الكفار المرتدين ولم يستبح شيئاً من ذلك ، مع أنه قاتلهم وتغلب عليهم أحيانا ، ومع أنه معصوم لدى هؤلاء القوم لا يقول ولا يفعل إلا الحق الصواب و إلا ما أراده الله . وهذا لاخلاف فيه عندهم ، فما جواب المعارض عنه وما رأيه فيه ؟ أيقول إن علياً كان متناقضا إذ لم يسب الذرية ، أم يقول إنه كان مخطئا ضالا ، أم يقول إن أولئك القوم كلهم ليسوا كافرين ولا مرتدين بل هم مسلمون مؤمنون ؟؟ إنه لا يقول شيئاً من ذلك كله لأنه خلاف مذهبهم المجمع عليه . فماذا يقول و بماذا يجاوب ؟ ليفكر في الجواب طويلا .

وماذا يقولون في حروب علي بن أبي طالب ؟

وأما قوله : « إنهم قسموا التوحيد إلى نوعين توحيد الربوبية ، وهو الاعتقاد أن الله هو الخالق المالك للأمر ، وتوحيد العبادة ، وهو صرف العبادة كلها لله » فالجواب أن نقول : ما كنا نظن أن مسلما يخالف في أنه مطلوب من المسلم أن يؤمن بان الله هو الخالق لكل شيء وهو المالك المدبر لجميع الأمور ، لا شريك

توحيد الالوهية وتوحيد الربوبية

ولا معين له ، ثم مطلوب منه بعد ذلك أن يصرف عبادته كلها ظاهرها و باطنها ، صورها وحقيقتها إلى ذلك الخالق الرازق القابض على ناصية كل شئ ! ولاخلاف بين المسلمين فى أن هـذين الأمرين هما أول مايطالب به المسلم ليكون مسلما مؤمنا موحـدا ، ولا خلاف بينهـم فى أن المرء لا يكون مسلما ناجياً إلا إذا جمع الأمرين لله ثم أخلص فى جمعه لهما ظاهراً و باطناً ، ولاخلاف بينهم فى أن أحدهما لاينفع دون الثانى ولا ينجو به العبد من عذاب الله وعقابه ، ثم لاخـلاف بينهم فى أنهما أمران متباينان متغايران مفهوماً وحقيقة ، لفظا ومعنى . كل هذا لاخلاف فى شئ منه بين المسلمين و إن اختلفوا فى ماعـداه من الأصول والفروع . فماذا إذن يريد الشيعى بما قال ، أهو جاد أم هازل ؟

لاينجو المرء الا بالتوحيدين معا

ولا يجهل أحد من الناس أن من آمن بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور صغيرها وكبيرها ، لا شريك له ولا نديد ، ثم وقف عنـد هذا إزاء ربه وذهب يعبد غيره من الأموات أو من الأحياء : لا يجهل أحد أن مثل هذا المرء مشرك بالله العظيم كافر به ، مصيره إلى عذاب الله وأليم عقابه . ولايجهل أحـد من الناس أن هذا ممكن ، أى ممكن أن يؤمن العبد بأن الله هو الخالق وحـده ، الفاعل لكل شيء ثم بعد هـذا الايمان يظل يعبد خلقه تعالى عـلى اعتبار من الاعتبارات ووجـه من الوجوه التى تلقى بالانسان أحيانا كثـيرة فى حضيض الشرك وتحت أقـدام المخلوقين الضعفاء العاجزين ، يعبدهم و يرجوهم كما يعبـد و يرجو ربه العبد المؤمن الموحد الخالص من الشرك والضلال . ولا يجهل أحد أن المؤمن بالله حقا ، الموحد حقا ، هو من آمن بأن الخلق والأمر كله لله رب العالمين ، ثم خص صاحب الخلق والأمر بعبادته كلها . فان من خلقك وحـده كان من حقه عليك أن تعبده وحده ، ومن لم يخلق فيك شيئاً لم يكن من الحق أن تهبه من عبادتك شيئاً ، و إلا كنت من الجاهلين الظالمين المعتدين . ومن شر الجهل أن

تجهل حق من وهبك الوجود والحياة وكل شيء فيك وكل شيء لك ... ثم لا يجهل أحد أن هـذين الأمرين ، أو التوحيدين ، أمران مختلفان متباينان حقيقة ومفهوماً واشتقاقاً ومادة ، وأن أكثر الذين نازعوا الرسل والأنبياء الطاعة والايمان كانوا مقرين بالتوحيد الأول منـكرين للثانى لاغير . وقد دل عـلى ذلك جملة القرآن وجملة الدين ، قال الله تعالى «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» قال المفسرون من السلف والخلف فى معنى الآية : تسألهـم من خلق السموات والأرض فيقولون الله، ومع هذا يعبدون غيره من الأوثان والاصنام . والآيات فى هذا المعنى كثيرة معلومة ، وسوف نورد منها نماذج فيما يأتى وفى غضون الـكتاب كله . وقد ذكر القرآن وجه الجمع بين هذا التوحيد وهذا الشرك عند المشركين فقال : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . فعقيدة المشركين والمؤمنين قائمة على التسليم بأن الله هو غاية الغايات، المنفرد بصفات الخلق والرزق والايجاد وسائر معانى التكوين ، لا شريك له فى ذلك ولا معين . . . أما الآلهة المعبودة من دونه تعـالى فغاية ما يرجونه منها جزاء عبادتها أن تقوم بوظيفة تقريبهم إلى الاله الأعظم ، غاية كل موجود ، ومصدر كل خير ولطف فى هـذا الوجود ، وأن تؤدى وظيفة الوسيط الصادق المخلص بينهم وبين رب العالمين . فهم معترفون بتوحيد ، منكرون لتوحيد ، ولـكن ذلك الاعتراف لم ينفعهم شيئاً مع ذلك الإنـكار . فلم يجدهم توحيـد الربوبية وهم مشركون فى توحيد الألوهية . فـكان من أغراض ابتعاث الرسل أن يدعوا هؤلاء المشركين فى العبادة إلى التوحيد فيها . وكانت دعوتهم جميعاً لأقوامهم : « اعبدوا الله ما لـكم من إله غيره » ، «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » . ولهذا لم يكلفوا دعوة أقوامهم إلى الايمان بوجود الله والايمان

إيمان المشركين بأن الله الخالق لـكل شئ

بأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، إلا فى ما قل وشذ كفرعون، وذلك الذى حاج إبراهيم فى ربه — على خلاف فى هذا — وإنما كلفوا أن يدعوا أقوامهم إلى إخلاص العبادة كلها لله. ولهذا يقل أن تجد فى القرآن إذ تقرأ قصص الأنبياء وقصص أقوامهم أن نبيا من الانبياء قال لقومه: آمنوا بأن الله الخالق لكم الخالق لكل شيء، أو قال لهم: اعلموا أنه لا خالق إلا الله، أو مالكم تعتقدون بأن مع الله خالقين آخرين متعددين أو نحو ذلك. ولاجاء أنهم أنكروا توحيد الربوبية أو نازعوا أنبياءهم فيه، وما كان إنكارهم إلا مثل ماقالوا: «أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب». ولا خلاف فى أن الكلمة التى يطالب بها المشرك ليكون مسلما هى كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأنه لو قال: لا خالق إلا الله لما صار بهذه الكلمة مسلماً ولا مؤمناً. وهذا لأن الكلمتين مختلفتان، ولأن المشركين كانوا مؤمنين بالثانية دون الأولى. ومن ثم كانت كلمة: «لا إله إلا الله» أفضل الكلام كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله. وقد جاءت هذه الكلمة فى مالا نقدر على إحصائه من الأذكار: والمسلمون يقولونها فى مواضع يعز احصاؤها وحصرها من مواضع عباداتهم اليومية وغير اليومية، ويقولها المسلم فى يومه وليلته عشرات المرات، بل مطلوب من كل مسلم أن تكون هذه الكلمة هى هجيراه وأنشودته المرتلة فى الليل والنهار، وأن لايزال لسانه رطبا بها، وقلبه محشوا بمعناها: يفزع إليها كلما حز به حازب، وكلما هم بالاقدام على أمر جسيم أو غير جسيم. وقد كان ﷺ يقول لما سأله عمه أبو طالب ما تريد من قومك يا ابن أخى؟ فيقول: «أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية» قال كلمة واحدة؟ قال صلى الله عليه وسلم: «كلمة واحدة. قولوا لا إله إلا الله» فيقولون «أجعل الآلهة إلها واحداً. إن هذا لشيء عجاب».

الكلمة التى يصير بها المرء مسلما

كلمة لا خالق إلا الله ليست من الذكر المرغوب فيه

وأما كلمة لاخالق إلا الله فلم يرد على ما أذكر أنها من الذكر المرغوب فيه المثاب عليه . بل لا أذكر أنها من الأذكار الاسلامية مطلقا ، بل هى مثل أن يقال : الله موجود وأزلى وقديم وأبدى ، ونحو هذا مما يشترك فى الاقرار به ومعرفته المؤمن والكافر والموحد والمشرك ، ومما لا يدل على الاقرار لله بالعبودية التى عليها يقوم الحساب ، والثواب والعقاب . فالكلمتان مختلفتان معنى ولفظا ومادة واشتقاقاً . والتوحيد توحيدان : توحيد عبادة وتوحيد ربوبية ، والاسلام مؤلف من التوحيدين معاً ، والثواب لا ينال إلا بهما معاً ، والتوحيدان غير متلازمين ، فقد يوحد توحيد الربوبية من ينكر توحيد العبادة ، وهذا كان شأن المشركين ، وهذا هو مرض الانسانية فى كل عصورها ، وهذا هو المرض الذى أصاب جماهير من المسلمين كما أصاب سواهم من أهل الأديان الأخرى.فأصابهم غضب الله ومقته . . . وهذه أمور أولية لا يختلف فيها أهل العلم . ولو أردنا إيراد النقول فيها لطال بنا القول . وسوف تجئ أشياء من ذلك فى أثناء الكتاب وفى مواضع منه . فلا ندرى ماذا ينكر الرافضى وماذا يعيب على الوهابيين . والأفظع قوله : « وقالوا الكفر نوعان : مطلق ومقيد ، فالمطلق أن يكفر بجميع ما جاء به الرسول، والمقيد أن يكفر ببعضه . . . »

وما كنا نحسب أن إنساناً بلغ رتبة التأليف فى أصول الدين وكبريات المسائل الالهية يروح ينازع فى أن الكفر منه مطلق ومنه مقيد ، وأن الكافر قد يكفر بالكل وقد يكفر بالبعض و يؤمن بالبعض الآخر . وأن الناس منهم قوم خالصون للكفر والالحاد والانكار العام التام ليس فيهم للايمان شئ ، ومنهم فريق آخر آمن وكفر ، آمن بشيء وكفر بشيء.وقد قال الله فى هذا الفريق: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ،وقال : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا

للكافرين عذاباً مهيناً » . وقال : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض »

الكفر المطلق والكفر المقيد

ومن ذا يشك فى أن من آمن بالقرآن كله خلا سورا أو آيات ، أو آمن بالقرآن كله ثم كفر بالسنة كلها ، أو آمن بفرائض الاسلام كلها ما عدا فريضة الصلاة أو الصيام أو الحج ، أو آمن بالجنة وكفر بالنار ، أو آمن بالثواب وكفر بالعقاب ، أو آمن بالغيب كله ثم كفر بالملائكة أو بالجان : من يشك فى أن من آمن كذلك فهو كافر ببعض مؤمن ببعض فهو كافر كفراً مقيدا ؟ ؟ ومن ذا يشك فى أن من كفر بذلك كله وبالأديان كلها وبالاله وبالانبياء والكتب كلها : من يشك فى أن ذلك كافر كفرا مطلقا ، كفرا تاماً خالصا ؟

وإذا كان هذا لا ينازع فيه إنسان فما ينكر الشيعى على الوهابيين إذ قالوا : إن الكفر منه مطلق ومنه مقيد ، ومنه الكفر بكل والكفر ببعض ، ومنه التام ومنه الناقص ، وهذا يقوله الناس جميعاً : يقوله المؤمن ويقوله الكافر ، لا يختلفون فيه لأنه بدهى ضرورى لدى الجميع ، لأن العلم به من العلم بأن للشىء المنقسم كلا وجزءاً وأن الكل أكبر من الجزء أبدا ؟

إذا كان مثل هذه المقالة من معايب الوهابيين وأخطائهم عند الشيعة فلا أقل الله معايبهم وأخطاءهم ، ولا أكثر من صواب مخالفيهم وفضائلهم ، إذا كانت هى ما يحدو به هذا الشيعى وإخوانه .

هذا ومن الأكاذيب التى ذكرها فى الفصل المذكور أنه روى نقلا عن شيخ الكذب دحلان أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان ينهى الناس عن الصلاة والسلام على النبى ليلة الجمعة ، وأنه قتل مؤذناً صالحا كان يجهر بذلك فوق المنارة بعد أن نهاه فلم يدع ، وأنه قال : إن صوت الربابة فى بيت الزانية لأقل إثما ممن ينادى بالصلاة فوق المنارات ، فهذا كله من الكذب المفضوح .

﴿ هل المسلمون فى أمان من الشرك ؟ ﴾

ثم قال الشيعى فى خاتمة هـذا الفصل : « وحيث ذكرنا معتقدات الوهابية إجمالا فيناسب أن نذكر هنا بعض مايدل إجمالا على فساد شبهتهم بشرك جميع المسلمين وهو مارواه البخارى ومسلم أن النبى عليه الصلاة والسلام قال « إنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعـدى ولـكن أخاف الدنيا أن تنافسوا فيها » وفى رواية لمسلم « أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلـكوا كما هلك من قبلـكم » . ولو كان كما زعمت الوهابيـة من أن الناس أشركوا قبل ظهورهم وأنهم جاءوا ليـدعوهم إلى التوحيد للزم تكذيب هذه الأحاديث كلها . وقوله ﷺ « إن الشيطان قد أيس أن يعبـد فى بلدكم هـذا أبدا ولـكن ستـكون له طاعة فى بعض ماتحقرون من أعمالـكم فيرضى بها » . رواه أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه . وهذا ينافى حكم الوهابيين باشراك أهل مكة ، بل قالوا إنهم لم يروا بلدا تعبد فيه الأموات والقبور مثل مكة . وقوله عليه الصلاة والسلام « إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن رضى منهم بما دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات» رواه الحاكم وصححه وأبو يعلى والبيهقى . وفى رواية أنه عليه السلام قال : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب» ومكة والمدينة من جزيرة العرب قطعا بل قد حكى فى النهـاية عن أنس بن مالك أنه قال أراد بجزيرة العرب المدينة نفسها. وهذا ينافى حكمهم باشراك أهل الجزيرة بعبادة الأصنام عدا نجدا .وقال عليه السلام : « إن الايمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » ذكره ابن الأثير فى النهاية . وفيه من المبالغة فى ثبوت الإيمان و رسوخه فى المدينة مالا يخفى المنافى لما يدعيه الوهابيـة من رسوخ الـكفر فيها وجعـل بلادهم بلاد الايمان » انتهى كلام الرافضى . ونقول : يريد الشيعى أن يقول إن هذه الأحاديث نصوص صريحة فى أن المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا ، والوهابيون يزعمون أنهم قـد

يأس الشيطان أن يعبد فى جزيرة العرب

كفروا وأشركوا ، أو قد أشرك وكفر طوائف منهم ، فالوهابيون كاذبون غالطون. وعلى هذا يجب أن يقال إن كل مايقع من المسلمين مما يحاكى الشرك والكفر أو مما يقال إنه كفر أوشرك ليس كفرا وليس شركا . وذلك كالاستغاثة بالأموات والانقطاع إليهم والعكوف على أجداثهم رغبة ورهبة ، لأن هذا كله مما فعله المسلمون وأقروه ورضوه ، والمسلمون كلهم أعمالهم كلها إسلام وإيمان وهم لن يفعلوا ماهو شرك وماهو كفر ولن يرضوا ذلك أو يقروه للأحاديث السابقة . فهذا الذى يقع فى أضرحة المشايخ من عامة المسلمين وجهالهم ليس بمناف للاسلام ولا بمخالف لأصوله ولا لفروعه بل هو كله من الدين ومن عمل المسلمين . فما قال الوهابيون فى هذه المطالب وما كتبوه وذكروه وانتحلوه باطل باطل وخطأ خطأ.

هذا مايريد أن يقوله الشيعى ، والجواب أن نقول : إما أن يريد أن هذه النصوص دلائل على أن المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا كلهم ، أو يقول : إنها دلائل على أنه لن تقع طوائف منهم فى شىء من ذلك ، وعلى أنه لن يكفر ولن يشرك أحد من المسلمين ولا أحد من أهل مكة والمدينة والحجاز والجزيرة العربية . ولا انفكاك له من أن يريد أحد الأمرين . فان كان يريد الأول قلنا هذا حق وصدق فان المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا كلهم ، بل لن تزال طائفة منهم على الحق لا يضرهم خاذلهم ولا مخالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، ولن يزال هذا الدين القيم قائما فى الأرض معروفا بين طوائف من أهله وإن قلوا وضعفوا . هذا حق لاريب فيه . وأما إن كان يريد الثانى أى يريد أنه لن يشرك أحد من المسلمين أو يكفر ، ولن يقع فى الحجاز أو بلاد العرب أو البلاد الاسلامية شىء من الشرك والكفر والخروج عن الاسلام الصحيح ، قلنا : هذا ممنوع باطل ، ليس صحيحاً لاعقلا ولا نقلا ولا نظرا . بل إن المسلمين كغيرهم من أهل الأديان الأخرى السابقة لابد أن يقع منهم التغيير والتبديل والخروج على دينهم الصحيح المأثور،

ولا بد أن تترامى طوائف منهم فيما ترامت به الامم الاولى من الشرك والكفر والجهل والخروج على أمهات الدين الجلية الواضحة ، وهذا ماتدل عليه النصوص والنظر : أما النصوص من الاسلام نفسه فانها متواترة فى أن جماعات من المسلمين سوف يصابون بداء الأمم وداء الانسانية العتيد التليد، بعبادة المخلوقين العاجزين الضعفاء ، و بعبادة الأموات من أهل الصلاح وأهل الفساد أيضا . وإذا دلت النصوص على ذلك دلالة واضحة لاريب فيها لم يصح هذا الاحتمال ولا ذلك التأويل.

﴿ بعض النصوص الدالة على أن طوائف من المسلمين يصيرون إلى الشرك ﴾

قال مسلم فى صحيحه بتبويب الامام النووى : باب ذهاب الايمان فى آخر الزمان . حدثنى زهير بن حرب ...عن أنس بن مالك أن رسول الله قال « لاتقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله » وفى رواية « لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله . الله » وفى رواية غير مسلم « لا تقوم الساعة وفى الارض من يقول لا إله إلا الله » رواه الامام أحمد . وقال أيضا مسلم فى آخر الصحيح بتبويب النووى : باب اتباع سنن اليهود والنصارى . حدثنى سويد بن سعيد . . . عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله . قال « لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا فى جحر ضب لا تبعتموهم » قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال «فمن؟؟؟» وهذا الحديث ينقله علماء الشيعة عن أئمتهم ويدعون أنه متواتر ويحتجون به على الرجعة والايمان بها ففى كتاب النجعة فى الرجعة« وقد روى الخبر المذكور بعينه و بمضمونه (يشير إلى هذا الحديث) فى كثير من أصول الشيعة وجوامعهم . ففى عيون أخبار الرضا فى رواية حسن بن الجهم وسؤال المأمون للرضا : ماقولك يا ابن رسول الله فى الرجعة فقال حق ، وكانت فى الأمم السابقة وقد نطق بها القرآن . وقال رسول الله « يكون فى هذه الامة كل ما كان فى الأمم السابقة حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة » . وقد ورد أيضا فى الفقيه وإكمال الدين

اتباع المسلمين للامم الغابرة واعتراف الشيعة بذلك

الدين ، ومختصر البصائر ، والكافى ، و إعلام الورى ، والاعتقادات لابن بابويه[1] ونقل نظيره الكشى والعياشى فى كتاب الاحتجاج والخرائج والجرائح فى ذيل خطبة سلمان ، وذكره الطبرسى فى مجمع البيان ،وحسن بن خازن القمى وابن طاوس فى كشف المهجة والمجلسى والقمى فى الاربعين ، والسيد بن طاوس أيضا فى كتاب الفتن والملاحم بعدة طرق. وبالجملة الخبر من المتواترات ، وهو يصرح بأنه لابد من أن يقع فى هذه الامة كل ماوقع فى الامم السالفة . ومنها إحياء الموتى ، فلا بد من وقوعه فى هذه الامة . ونقل الميرزا محمد الاسترابادى خطبة سلمان فى ترجمته وفيها ذكر ذلك الحديث عن عبد الله بن سنان عن الصادق قال : خطب سلمان فقال : الحمد لله الذى هدانا لدينه بعد جحودى إلى أن قال : قال رسول الله فى حق على : « وصيى وخليفتى » إلى أن قال : وقال « لتركبن طبقا عن طبق سنة بنى إسرائيل القذة بالقذة » انتهى كلام النجعة . . ص ٢٥ . ثم قال مسلم بتبويب النووى : باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة . حدثنى محمد بن رافع[1] . . . عن أبى هريرة عن رسول الله قال : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذى الخلصة » وكانت صنما تعبدها دوس فى الجاهلية . حدثنا أبو كامل الجحدرى . . . عن عائشة قالت سمعت رسول الله يقول: « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » . وقال أيضا بتبويب النووى : باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن فى آخر الزمان . حدثنا شيبان بن فروخ . . . عن أنس بن مالك قال قال رسول الله : « من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، و يثبت الجهل ، و يشرب الخمر و يظهر الزنا ». حدثنا محمد بن عبدالله . . . قال قال رسول الله : « إن بين يدى الساعة أياما يرفع فيها العلم ، و ينزل فيها الجهل ، و يكثر فيها الهرج ، والهرج القتل » . حدثنى حرملة بن يحيى . . . أن أبا هريرة قال قال رسول الله: « يتقارب الزمان و يقبض العلم وتظهر الفتن و يلقى الشح و يكثر الهرج » . قالوا : وما الهرج؟

عبادة اللات والعزى والاصنام

قال القتل . حدثنا قتيبة بن سعيد ... سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول سمعت رسول الله يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » . وقالا أي مسلم والنووي : باب فى خروج الدجال ومكثه فى الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والايمان و بقاء شرار الناس وعبادتهم الاوثان . ثم ذكر مسلم الأحاديث الدالة على أن أهل الخير والايمان يذهبون فلا يبقى إلا شرار الناس الذين لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكراً ، وأن الشيطان يتمثل لهم ويدعوهم إلى عبادة الاوثان فيستجيبون . وذكر أحاديث الدجال وأتباعه وأنه يطأ كل البلاد ماخلا مكة والمدينة .

وقال البخارى فى الصحيح : باب قول النبى عليه السلام : لتتبعن سنن من كان قبلكم . حدثنا أحمد بن يونس . . . عن أبى هريرة أن النبى قال : « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع » فقيل يارسول الله : كفارس والروم ؟ فقال « ومن الناس إلا أولئك » : !! حدثنا محمد بن عبدالعزيز... عن أبى سعيد الخدرى عن النبى عليه السلام قال :« لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم».قلنا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ ! قال . « فمن » وقال البخارى : باب تغير الزمان حتى تعبد الاوثان . حدثنا أبو اليمان . . . أخبرنى أبو هريرة أن رسول الله قال « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذى الخلصة» ، وذو الخلصة طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية . وقال فى باب علامات النبوة : حدثنا يحيى بن موسى . . أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت يارسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم . قلت

وهل بعد هـذا الشر من خير ؟ قال نعم وفيـه دخن ، قلت ومادخنه ؟ قال قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنـكر ، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال نعم ، دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها ، قلت يارسول الله صفهم لنا ، قال هم من جلدتنا و يتـكلمون بألسنتنا ، قلت فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ قال تلزم جماعة المسلمين و إمامهم ، قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت عـلى ذلك . وروى هو ومسلم وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال ليذادن أقوام يوم القيامة عن حوضى فأقول يارب أصحابى أصحابى ، فيقال : إنك لاتدرى ما أحـدثوا بعدك ، إنهم مازالوا مرتدين على أعقابهم ، فأقول بعدا بعدا لمن بدل بعدى . ومن هـذا الباب حديث افتراق الامة المشهور الذى قيل فيه « وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة » . قيل من هى يارسول الله ؟ قال « هى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » . ومن ذلك حديث الغربة المعروف الذى رواه مسلم فى الصحيح وهو قوله عليه الصلاة والسلام : بدأ الإسلام غريبا وسـيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء . وعن ثوبان قال قال رسول الله لاتقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان ، و إنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهـم يزعم أنه نبى وأنا خاتم النبيين لانبى بعدى . رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح . وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : لاتقوم الساعـة حتى يرجع ناس من أمتى إلى أوثان يعبدونها من دون الله . رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده . وقال الحافظ الهيثمى فى كتاب مجمع الزوائد : باب فى اتباع سـنن من مضى . عن سهل بن سعد الأنصارى عن النبى عليـه السلام قال « والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلـكم مثلا بمثل » وعن شداد بن أوس عن رسول الله قال : « ليحملن

شرار هذه الامة على سنن الذين خلوا من أهل الكتاب حذو القذة بالقذة » رواه أحمد والطبرانى ورجاله مختلف فيهم . وعن ابن عباس قال قال رسول الله : « لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعاً بباع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه لفعلتم » . رواه البزار ورجاله ثقات . وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله : « أنتم أشبه الأمم ببنى إسرائيل لتركبن طريقهم حذو القذة بالقذة حتى لايكون فيهم شئ إلا كان فيكم مثله ، حتى إن القوم لتمر عليهم المرأة فيقوم إليها بعضهم فيجامعها ثم يرجع إلى أصحابه يضحك لهم ويضحكون إليه » . رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه . وعن المستورد بن شداد أن رسول الله قال : « لاتترك هذه الأمة شيئا من سنن الأولين حتى تأتيه » . رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات . ثم قال الهيثمى : باب نقض عرى الاسلام . عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله قال « لتنتقض عرى الاسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها ، وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة » . رواه أحمد والطبرانى ورجالهما رجال الصحيح . وقد ذكر الهيثمى أحاديث كثيرة فى هذا المعنى .

إلى غير ذلك من الأخبار الصحاح الدالة على أن أهل الاسلام يغيرون كما غير من كانوا قبلهم . والأخبار فى هذا متواترة لايختلف أهل العلم فى صحتها وصحة دلالتها ، ولايختلفون فيما دلت عليه من أن طوائف من المدعين للاسلام يفسقون عن الاسلام الصحيح ويتنكبونه ويأخذون عنه ذات اليمين وذات الشمال ويقعون جهالة وضلالة فى الاشراك الجلى والخفى وفى الكفر الأصغر والأكبر ، بل وفى الالحاد والردة . وهذا كله مشهود مرئى يسمو على النزاع والخلاف سمو المحسوسات على ذلك . وقد وضع الفقهاء جميعا على اختلاف مذاهبهم أبوابا خاصة بأحكام المرتدين من المسلمين ، يقولون من قال كذا أو فعل كذا فقد ارتد ،

و يقولون : إن حكم المرتد المغير لدينه القتل الناجز لقوله عليه الصلاة والسلام : من بدل دينه فاقتلوه . وما اعترض أحد من أهل العلم على أبواب أحكام المرتدين ولا قال لماذا هـذا والمسلمون لايرتدون لقول النبى « إن الشيطان قـد أيس أن يعبد فى جزيرة العرب » ولقوله « وإنمـا أخاف عليكم أن تشركوا بعدى » ولم يكن شئ من هذا لأن المسألة أظهر من أن يتناولها هـذا الخلاف . فالمسلمون لايتنازعون فى أن طوائف من المنتسبين للاسـلام ارتدوا وكفروا .ولا يختلفون أن هذا يقع لها كل عصر، كما لايختلفون أن جماعات من العرب ارتدوا بعد وفاة النبى عليه السلام فقاتلهم الصديق وقاتلهم الصحابة ، وقد قام متنبئون كاذبون فى جزيرة العرب فضـل بهم أقوام من المسلمين فقاتلهم الصحابة وقاتلهم الصديق فاجتثوا أصولهم ، وكل هذا معروف . وهنالك فى كتب الفقه والحـديث كتاب يسمى بكتاب قتال المرتدين أى المرتدين من المسلمين ، يذكر فيه أحكام الاسلام فيمن يكفرون ويشركون من أهل الاسلام وكيف يقاتلون . وكل هذا لاخلاف فيه كما قلنا ، ففيم خـلاف الشيعى وفيم لغطه ؟؟! كيف ونحن نرى أمما كانت عريقة فى الاسلام أثيلة النسب فى الدين المحمدى ، تنادى حكوماتها اليوم بحرب الإسـلام ومطاردة قرآنه ولسانه وتهـدم المساجـد وتتحدى المصلين والمتقين وتغذى نشأها وبنيها بعداء القرآن ومحمد والاسلام والمسلمين ومايتصل بذلك من لغة وأدب وعادات ؟ كيف ذلك وقـد تقلبت الامور بالاسـلام والمسلمين حتى صرنا نسمع جميع خطباء المساجد يلهجون بالخبر المشهور « إنه لم يبق من الاسلام إلا اسمه ، ولامن القرآن إلا رسمه » وقد شهدنا المستمعين يطربون لهذه الـكلمة لانهـم يجدون صدقها فى كل مكان وفى كل بلاد المسلمين وفى أنفسهم أيضا .
و يناسب هذا أن نورد كلمة قالها أحد أئمة القرن الثامن الهجرى فى التفجع على غربة الاسلام وانطماس سننه وفشو البدع والمنكرات . ذلك هو ماذكره الامام

كلام الشاطبى فى فساد الناس وفى فشو البدع والمحدثات

الشاطبى فى كتابه « الاعتصام ». قال فى أول ذاك الكتاب تعليقا على حديث بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ : « ثم استمر تزايد الاسلام واستقام طريقه مدة حياة النبى ومن بعد موته وأكثر قرن الصحابة إلى أن نبغت فيهم نوابغ فى الخروج عن السنة وأصغوا إلى البدع المضلة كبدعة القدر وبدعة الخوارج ، ثم لم تزل الفرق تكثر حسبما وعد به الصادق عليه السلام فى قوله : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » . وفى الحديث الآخر : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم » . . وكان الاسلام فى أوله مقاوماً بل ظاهرا وأهله غالبين ، وسوادهم أعظم الأسودة . . . فسار على استقامة وجرى على اجتماع واتساق ، إلى أن أخذ اجتماعه فى الافتراق الموعود ، وقوته إلى الضعف المنتظر ... وتكالبت على سواد السنة البدع والاهواء فتفرق أكثرهم شيعاً ، وهذه سنة الله فى الخلق : أن أهل الحق فى جنب أهل الباطل قليل ، لقوله تعالى : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » وقوله : « وقليل من عبادى الشكور ». ولينجزن الله ماوعد به نبيه عليه الصلاة والسلام من عود وصف الغربة إليه ، فان الغربة لاتكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم وذلك حين يصير المعروف منكرا والمنكر معروفاً ، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة ، فيقام على أهل السنة بالتثريب والتعنيف كما كان أولا يقام على أهل البدعة طمعا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة ، فلا تجتمع الفرق كلها على كثرتها على مخالفة السنة عادة وسمعاً بل لابد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتى أمر الله ، غير أنهم لكثرة ماتناوشهم الفرق الضالة وتناصبهم العداوة والبغضاء — إستدعاء إلى موافقتهم — لايزالون فى جهاد ونزاع ومدافعة وقراع ، فيضاعف الله لهم الأجر الجزيل ... فلما أردت الاستقامة على الطريق

وجدت نفسى غريباً فى جمهور أهل الوقت لكون خططهم قدغلبت عليها العوائد ودخلت على سننها الاصلية شوائب من المحدثات الزوائد ؛ ولم يكن ذلك بدعاً فى الازمنة المتقدمة فكيف فى زماننا هذا ؟ فقد روى عن السلف الصالح من التنبيه على ذلك كثير ، كما روى عن أبى الدرداء أنه قال : لو خرج رسول الله عليكم ماعرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة . قال الأوزاعى : فكيف لو كان اليوم ! قال عيسى بن يونس : فكيف لو أدرك الأوزاعى هذا الزمان ! وعن أم الدرداء قالت : دخل أبو الدرداء وهو غضبان ، فقلت : ما أغضبك ؟ فقال والله ما أعرف شيئاً فيهم من أمر محمد إلا أنهم يصلون جميعاً . وعن أنس ابن مالك قال : ما أعرف منكم ما كنت أعهده على عهد رسول الله غير قولكم : لا إله إلا الله . قلنا : بلى يا أبا حمزة . قال : صليتم حتى تغرب الشمس ، أفكانت تلك صلاة رسول الله ؟ وعن أنس قال : لو أن رجلا أدرك السلف الأول ثم بعث اليوم ماعرف من الاسلام شيئاً ، قال ووضع يده على خده ثم قال إلا هذه الصلاة . ثم قال : أما والله على ذلك لمن عاش فى هذا المنكر ولم يدرك ذلك السلف الصالح فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه فعصمه الله من ذلك وجعل قلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح يسأل عن سبلهم ويقتص آثارهم ليعوض أجراً عظيما ، وكذلك فكونوا إن شاء الله . وعن ميمون ابن مهران قال : لو أن رجلا أنشر فيكم من السلف ماعرف غير هذه القبلة . وعن سهل بن مالك قال : ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة .. إلى ما أشبه هذا من الآثار الدالة على أن المحدثات تدخل فى المشروعات وأن ذلك قد كان قبل زماننا ، وإنما تتكاثر على توالى الدهور إلى الآن

« فتردد النظر بين أن اتبع السنة على شرط مخالفة مااعتاد ، فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفى العوائد ، لاسيما إذا ادعى أهلها أن ماهم عليه هو

السنة لاسواها ، إلا أن فى ذلك العبء الثقيل مافيه من الأجر الجزيل ، وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح فأدخل تحت ترجمة الضلال — عائذا بالله من ذلك . إلا أنى أوافق المعتاد وأعد من المؤالفين لامن المخالفين ، فرأيت أن الهلاك فى اتباع السنة هو النجاة ، وأن الناس لن يغنوا عنى من الله شيئاً . فأخذت فى ذلك على حكم التدريج فى بعض الأمور ، فقامت على القيامة ، وتواترت على الملامة ، وفوق العتاب سهامه ، ونسبت إلى البدعة والضلالة ، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة . . . »

هذا بعض ماذكره الامام الشاطبى فى مقدمة كتابه « الاعتصام » وقد أطال الكلام فى هذا النحو ، والكتاب كله موضوع للكشف عن البدع وأصولها ، وعما أصاب السنة والشريعة الغراء من أحداث ومبتدعات نكراء .

كلام ابن وضاح فى فشو البدع والمحدثات

وقد ألف محمد بن وضاح القرطبى الأندلسى أحد أئمة القرن الثالث الهجرى كتابا قيما فى هذا الموضوع سماه « البدع والنهى عنها » جاء فيه بالعجب العجيب من هذا النوع . وفى الكتاب فصل عنوانه « باب فى نقض عرى الاسلام ودفن الدين وإظهار البدع » ننقل منه بعض مايدخل فى بحثنا :

عن حذيفة بن اليمان أنه أخذ حجرين فوضع أحدهما على الآخر ثم قال لأصحابه : هل ترون مابين هذين الحجرين من النور ؟ قالوا : مانرى بينهما من النور إلا قليلا ، قال : والذى نفسى بيده لتظهرن البدع حتى لايرى من الحق إلا قدر ماترون بين هذين الحجرين من النور . والله لتفشون البدع حتى إذا ترك منها شئ قالوا تركت السنة . وساق بسند آخر عن حذيفة أيضا رضى الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها فى كفه ثم قال : إن هذا الدين قد استضاء إضاءة هذه ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ، ثم قال والذى نفسى بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين كما دفنت هذه الحصاة وليسلكن

طريق الذين كانوا قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل .

وعنه رضى الله عنه أنه قال أول ماتفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ماتفقدون الصلاة ولتنقضن عرى الاسلام عروة عروة ، ولتصلين نساؤكم حيضا ، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل ، لاتخطئون طريقهم ولايخطئ بكم ، وحتى تبقى فرقتان تقول إحداهما مابال الصلوات الخمس ؟ لقدضل من كان قبلنا ، إنما قال الله : « أقم الصلاة طرفى النهار و زلفا من الليل » ، لايصلون إلا ثلاثا . وتقول الأخرى : أيها المؤمنون بالله كايمان الملائكة ! مافينا كافر ولا منافق . حق على الله أن يحشرهم مع الدجال . قال ابن وضاح المؤلف : لم يعمل أحد من الأمم شيئا إلا ستعمله هذه الأمة ، والخير بعد الانبياء ينقص والشر يزداد ، و إنما هلكت بنو إسرائيل على أيدى قرائهم وفقهائهم ، وستهلك هذه الامة على أيدى قرائهم وفقهائهم . ثم بعد هذا أورد الحديث المتقدم الذى فيه : « إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك » .وعن غير واحد من أهل العلم أن رسول الله قال : « كيف بكم إذا فسق شبانكم ، وطغت نساؤكم ، وكثر جهالكم» ؟ قالوا: و إن ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : وأشد من ذلك . كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : و إن ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال : وأشد من ذلك . كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟

وعن محمد بن على قال قال رسول الله ﷺ : ويح هذه الأمة ماذا يلقى فيها من أطاع الله ! كيف يكذبونه و يضربونه . قال عمر بن الخطاب يارسول الله: الناس يومئذ على الاسلام ؟ قال : نعم يا عمر . قال عمر يارسول الله : ولم يبغضون من أمرهم بطاعة الله ؟ فقال ، ياعمر ترك القوم الطريق فركبوا الدواب ولبسوا لين الثياب وخدمهم أبناء فارس وتزين الرجل منهم بزينة المرأة لزوجها وتبرجت النساء ، زيهم زى الملوك الجبابرة يتسمنون كالنساء فاذا تكلم أولياء الله

وأمروهم بطاعة الله قيل : أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة ، مكذب بالكتاب ، تحرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا به أولياء الله .

وعن أبى الدرداء قال : لو خرج إليكم اليوم رسول الله ماعرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة ، قال الأوزاعى : فكيف لو كان اليوم ؟ قال عيسى فكيف لو أدرك الأوزاعى هذا الزمان ؟

وعن الحسن قال : أدركت عشرة آلاف من أصحاب النبى لو رأوكم لقالوا : مال هؤلاء مجانين ؟ ولو رأيتموهم لقلتم : هؤلاء مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب ، ولو رأوا شراركم لقالوا : مالهؤلاء عند الله من خلاق. قال المؤلف ابن وضاح : يقال تخرج الفتن من عند أصحاب الكتب وإليهم تعود.

وعن أوفى بن دلهم العدوى قال : بلغنى عن على بن أبى طالب أنه قال : تعلموا العلم تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله . فانه سيأتى زمان من بعدكم ينكر الحق فيه تسعة أعشارهم ، لاينجو فيه إلا كل مؤمن نومة . أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم .

وعن عدى بن حاتم أنه قال : إنكم فى زمان معروفه منكر زمان قد مضى ، ومنكره معروف زمان آت . وقال الفضيل : فى آخر الزمان يمشى المؤمن بالتقية وبئس القوم قوم يمشى فيهم بالتقية .

وعن أبى حمضة عن أبى هريرة : قال كيف بك إذا كنت فى زمان لاينكر خياركم المنكر ؟ قلت : سبحان الله ما أولئك بخيار ، قال بلى ولكن يخاف أن يشتم عرضه وأن يضرب بشره .

وعن بكر بن عمرو المعافرى قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : طوبى للغرباء الذين يمسكون بكتاب الله حين يترك ، ويعملون بالسنة حين تطفأ . وقال

رسول الله : بدأ الاسلام غريباً ،ولاتقوم الساعة حتى يكون غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء حين يفسد الناس ، ثم طوبى للغرباء حين يفسد الناس . وعن ربيعة بن يزيد قال سمعت أبا إدريس الخولانى يقول : سمعت أن للاسلام عرى يتعلق الناس بها وإنما يتملخ عروة عروة . فأول ما يتملخ منها الحلم ، وآخر ما يتملخ منها الصلاة . وعن عبد الله الديلمى قال : تذهب السنة سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة . وآخر الدين الصلاة ، وليصلين أقوام لا خلاق لهم . وعن مالك بن أنس عن عمه أبى سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال : ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة . وعن أنس بن مالك قال ما أعرف منكم شيئاً كنت أعهده على عهد رسول الله ليس قولكم : لا إله إلا الله . قلنا بلى يا أبا حمزة الصلاة ، فقال قد صليتم حين تغرب الشمس ، أفكانت تلك صلاة رسول الله؟

وعن الحسن قال : لو أن رجلا أدرك السلف الأول ثم بعث اليوم ماعرف من الاسلام شيئاً . ثم قال إلا هذه الصلاة . أما والله لمن عاش فى هذه النكراء ولم يدرك السلف الصالح فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه فعصمه الله وجعل قلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح : يسأل عن سبيلهم ويقتص آثارهم ويتبع سبيلهم ليعوض أجراً عظيما . فكذلك فكونوا إن شاء الله .

وعن ميمون بن مهران قال : لو أن رجلا أنشر فيكم من السلف ماعرف فيكم غير هذه القبلة .

وعن أم الدرداء قالت : دخل على أبو الدرداء وهو غضبان فقلت له ما أغضبك؟ فقال : والله ما أعرف فيهم من أمر محمد شيئاً إلا أنهم يصلون جميعا . وعن سالم قال قال أبو الدرداء : لو أن رجلا تعلم الاسلام ثم تفقده ماعرف منه شيئاً

وعن مالك بن أنس قال بلغنى أن أبا هريرة تلا : « إذا جاء نصر الله والفتح

ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا » ثم قال : والذى نفسى بيده إن الناس ليخرجون اليوم من دين الله أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خليا بمصحفهما فى بعض هذه الأودية لأتيا الناس اليوم لا يعرفان شيئاً مما كانا عليه .

وعن أبى وائل قال قال عبد الله : أتدرون كيف ينقض الاسلام ؟ قالوا نعم كما ينقض صبغ الثوب .

وعن حذيفة قال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون ، أو يضلوا وهم يشعرون .

وعن سعيد أخى الحسن يرفعه قال : إنكم اليوم على بينة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى الله ولم تظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش . وستحولون عن ذلك فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون فى الله وتظهر فيكم السكرتان ، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين .

وعن عطاء بن أبى رباح : قال مر بعلى بن أبى طالب رجل له سمت فقال من أهل خراسان أنت ؟ قال : لا ! قال من أهل فارس أنت ؟ قال : لا ، قال : فمن أنت ؟ قال أنا من أهل الأرض ، قال فانى سمعت رسول الله يقول : « لا يزال الدين معتدلا صالحاً مالم يسلم نبط العراق ، فاذا أسلم نبط العراق أدغلوا فى الدين وقالوا فيه بغير علم فعند ذلك يهدم الاسلام وينثلم » .

وعن ابن مسعود قال كان عمر بن الخطاب حائطا حصيناً على الاسلام يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه ، فانثلم الحائط فالناس يخرجون منه ولا يدخلون فيه .

وعن حذيفة قال كيف أنتم إذا انفرجتم عن دينكم انفراج المرأة عن قبلها لا تمنع من يأتيها ؟ فقال رجل : قبح العاجز . فقال بل قبحت أنت .

وعن على رضى الله عنه قال ينقض الدين حتى لايقول أحد لا إله إلا الله . قال بعضهم حتى لايقال : الله ، الله .

وعن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : لايأتى عليكم عام إلا والذى بعده شر منه ، ولا أعنى أن عاما أخصب من عام ولا أمطر من عام ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم . ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فيهدم الاسلام ويثلم .

وعن إسماعيل بن نافع القرشى عن عبد الله بن المبارك قال : اعلم أخى أن الموت اليوم كرامة لكل مسلم لقى الله على السنة ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، و إلى الله نشكو وحشتنا وذهاب الاخوان وقلة الأعوان وظهور البدع . و إلى الله نشكو ماحل بهذه الأمة من ذهاب العلماء أهل السنة وظهور البدع . وقد أصبحنا فى زمان شديد وهرج عظيم . إن رسول الله تخوف علينا ماقد أضلنا وماقد أصبحنا فيه لحذرنا وتقدم الينا بقول أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : أتتكم فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً و يمسى كافرا ، و يمسى مؤمنا و يصبح كافرا ، يبيع فيها أقوام دينهم بعرض الدنيا .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : يأتى على الناس زمان تكون السنة فيه بدعة والبدعة سنة ، والمعروف منكرا والمنكر معروفا . وذلك إذا اتبعوا واقتدوا بالملوك والسلاطين فى دنياهم .

وعن عمار بن ياسر قال : يأتى على الناس زمان خير دينهم دين الأعراب . قيل ، ومم ذاك ؟ قال تحدث أهواء و بدع يحضون عليها .

وعن الأعمش قال قال لى شقيق أبو وائل : حدثنا سليمان : ما شبهت قراء زمانك إلا بغنم رعت حمضاً ، فمن رآها ظن أنها سمان ، فاذا ذبحها لم يجد فيها شاة سمينة . وذكر عن ابن مسعود مثله .

وعن خلاد بن سليمان قال : سمعت دراجاً أبا السمح يقول : يأتى على الناس

زمان يسمن الرجل راحلته حتى تعقد شحما ثم يسير عليها فى الأمصار يلتمس من يفتيه بسنة قد عمل بها فلا يجد من يفتيه إلا بالظن . قال ابن وضاح المؤلف : سمعت سحنونا يقول منذ خمسين سنة فى الحديث الذى جاء يسمن الرجل راحلته قال سحنون : إنى أظن أنا فى ذلك الزمان : فطلبت أهل السنة فى ذلك الزمان فكانوا كالكوكب المضىء فى ليلة مظلمة . قال ابن وضاح : فاذا طلبت الشىء الخالص لاتجده و إذا كان مختلطا فهو الكامل . كتاب الله قد بدل ، وسنة رسوله قد غيرت ، ودماء قد سفكت وكرائم قد سبيت وحدود قد عطلت وترأس أهل الباطل وتكلم فى الدين من ليس من أهل الدين ، وخاف البرىء وأمن النطيف (أى المريب) وحكم فى أمر المسلمين وسود فيهم من هو مسخوط عليه فيهم

عبادة الاصنام فى المحاريب

وعن الحسن بن سمرة بن جندب قال : لا تقوم الساعة حتى تروا أمورا عظاما لم تكونوا ترونها ولا تحدثون بها أنفسكم . قال ابن وضاح : أنا أقول لا تقوم الساعة حتى تعبد الأصنام فى المحاريب

وعن حذيفة قال : لا تقوم الساعة حتى تنصب فيها الأوثان وتعبد — يعنى فى المحاريب —

وقد وقع مصداق هذا فإن الأموات اليوم يعبدون فى المساجد وفى المحاريب ونعوذ بوجه الله من السوء ومن الشرك

وعن على بن أبى طالب قال : لا تقوم الساعة حتى تكون هذه الأمة على بضع وسبعين ملة كلها فى الهاوية و واحدة فى الناجية

وعن ابن عمر عن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « لا تقوم الساعة حتى تنصب الأوثان وأول من ينصبها أهل حضر من تهامة »

وعن حذيفة قال قال رسول الله عليه السلام : « اقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق فإنه سيجىء من بعدى قوم يرجعون القرآن

ترجيع الغناء والرهبانية والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم

وعن عمر بن الخطاب قال : أخذ رسول الله بلحيتي وأنا أعرف الحزن فى وجهه فقال : إنا لله و إنا إليه راجعون ، قلت أجل ، إنا لله و إنا إليه راجعون. فما ذاك يا رسول الله ؟ قال أتانى جبريل فأخبرنى أن أمتك مفتتنة بعد قليل من الدهر غير كثير . قلت فتنة كفر أم فتنة ضلالة ؟ قال : كل سيكون . قلت : ومن أين يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله ؟ قال بكتاب الله يضلون من قبل قرائهم وأمرائهم . قال ابن وضاح : إن فتنة الكفر هى الردة يحل فيها السبى والأموال ، وفتنة الضلالة لا يحل فيها السبى ولا الأموال . وهذا الذى نحن فيه فتنة ضلال لا يحل فيها السبى ولا الأموال .

وعن عبد الله قال : كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنة يجرى عليها فاذا غير منها شىء قيل غيرت السنة . قيل متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم وكثرت أموالكم وقل أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الدين .

روى هذه الأخبار كلها محمد بن وضاح فى كتابه « البدع والنهى عنها » . وفى الكتاب روايات كثيرة من هذا النوع . والروايات كلها بالاسناد .

حديث ذات الانواط

ومن أصرح النصوص فى هذا الباب حديث ذات الأنواط المشهور . فروى الترمذى فى جامعه عن أبى واقد الليثى ، واسمه الحارث بن عوف على ما ذكر الترمذى ، قال: خرجنا مع رسول الله إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عليها و ينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى

« اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » لتركبن سنن من كان قبلكم قال الترمذى : حديث حسن صحيح . ورواه الطبرانى من حديث عمرو بن عوف قال : غزونا مع رسول الله عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله مكة وحنيناً حتى إذا كنا بين حنين والطائفة أبصر شجرة يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله ، فلما رآها رسول الله انصرف عنها فى يوم صائف إلى ظل هو أدنى منه ، فقال رجل : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال له رسول الله : انها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . قال فى مجمع الزوائد : فيه كثير بن عبد الله ضعفه الجمهور وحسن الترمذى حديثه .

وهذا الخبر صريح فى أن طوائف من أهل القبلة يصيرون ولا محالة مصاير الامم الأولى الواقعة فى الشرك وعبادة المخلوق . وذلك أنهم لما طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم شجرة يشركون بها ويعبدونها مع الله أنكر ذلك عليهم وأخبر أن طلبهم هذا كطلب بنى إسرائيل وكقولهم لموسى : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . ثم أخبر أن المسلمين سوف يركبون طرق الذين كانوا قبلهم من المشركين العابدين لغير الله من الأحجار والاشجار وأصناف المخلوقات التى لا تضر ولا تنفع ولا تغنى شيئاً .

ومع هذا كله يجرأ الشيعى أن ينكر على الوهابيين أن قالوا : إن طوائف من المسلمين وقعوا فى الابتداع وفى مخالفة السنة ، ويزعم أنهم انفردوا بهذه المقالة وبذلك الاعتقاد دون عامة المسلمين وجماهيرهم .

الكتب الموضوعة فى انكار البدع

ومازال العلماء الأعلام يضعون المؤلفات القيمة الكثيرة فى تحذير المسلمين من المبتدعات ومن الوقوع فيها فى الأصول والفروع . وقد وضعت فى هذا الكتب الكثيرة المعلومة ، منها المطبوع ومنها غير المطبوع . وقد اشتهر من

هذه الكتب « الاعتصام » للشاطبى ، و « الباعث على إنكار البدع والحوادث » لأبى شامة ، و « الحوادث والبدع » لأبى بكر الطرطوشى . ومن أقدمها كتاب « البدع والنهى عنها » للأمام الأندلسى محمد بن وضاح ، وأفضل هذه الكتب « الاعتصام » بلا نزاع . وقد أكثر المتأخرون من التأليف فى الموضوع . ومامن كتاب وضعه السلف أو الخلف إلا و يشكو مؤلفه من البدع ومن شيوعها وتغلبها على السنن ، ومن تهافت المسلمين عليها . وكلام السلف : الصحابة فمن بعدهم كثير مأثور فى ذلك ، و يكفى الطالب للعلم والهدى أن يرجع إلى أحد الكتب التى ذكرناها .

هذه بعض دلالات السنة وكلام السلف على أن طوائف من المسلمين سوف ينحطون فى أصناف الاشراك والكفر من حيث لا يعلمون ولا يريدون ، وقد قام على ذلك الإجماع ، سلفا وخلفا ، ودل عليه النظر والعادة والقياس الصحيح فانه من المحال الباطل عادة ونظراً وقياسا أن يظل جميع طوائف المسلمين فى جميع العصور والأوقات والحالات محافظين على الاسلام : على أصوله وفروعه وحقائقه الصحيحة الأولى بحيث لا يضل ولا يزل منهم أحد ، وبحيث لا يكفر ولا يشرك منهم إنسان لاعمدا ولاجهلا، والناس هم ماهم من أصالة أنسابهم و رسوخ أعراقهم فى الجهالات ، والناس هم الناس ، ما زالوا معمين مخولين فى الانساب الوثنية والضلالات الانسانية . هذا ما يدفعه القياس والعادة والنظر . وقد دل على ذلك أيضا جملة القرآن الكريم دلالات مختلفة منها البين ومنها الخفىّ . وذلك أنه قد أنبأ فى غير آية أن المسلمين ماداموا مسلمين هم الغالبون وهم الظاهرون فى الأرض ، وهم أصحاب السلطان والشوكة والقوة المرهوبة المخشية . قال تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » وقال : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » . وقال « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» . وقال

دلالة القرآن على ذلك

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وقال : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ». إلى غير ذلك من الآيات الناصة على أن نصيب المسلمين فى هذه الأرض خير الأنصبة من العزة والغلب والمجد الباذخ والشرف الشامخ والسلطان القاهر الظاهر . ولكننا نرى المسلمين اليوم أذل أمم الأرض وأهونها وأعجزها عن الزعامة والسيادة : مسبوقين إلى كل خير ، قاصرين عن كل مجد ، متأخرين عن جميع الأمم فى كل أمر محمود . فلماذا كل هذا ؟ أيكذب القرآن أهله ؟ كلا . أم يكذب الذين قالوا إنهم مسلمون وماهم بمسلمين ولامؤمنين . لأن للمسلمين حقوقا مفروضة معلومة واجبة فى هذا العالم قد شاءها الله لهم ، وكل ما شاءه الله كائن ولا بد . ومن أعظم حقوقهم العزة وضخامة المجد . وما فقدوا العزة والمجد الابعد أن فقدوا سببهما وهو الاسلام الصحيح والايمان القوى الملتهب . ولا ريب أننا لو زعمنا المسلمين اليوم مسلمين حقا وصدقا لكان زعمنا هذا قدحاً فى صدق كتاب الله . وجل الله وجل كتابه عن المقادح ... فالكتاب والسنة والاجماع والقياس والنظر — كل أولئك — دال على أن المسلمين قد نالوا دينهم بالتغيير والتبديل ، وأنهم قد باينوه ، فاستحقوا ما لقوه ، فما هذا الخلاف وما هذا الشغب ، وما هذا الذى ينقمه الشيعى الظالم من هؤلاء الناس ؟ ؟

كيف ذلك وطوائف الشيعة هم أعظم الناس خلافا وتكذيبا لما قال هذا الشيعى ، فانهم يعتقدون أن الناس بعد رسول الله قد كفروا وارتدوا . و يستدلون على هذا الاثم العظيم والاعتقاد المو بق بآيات من كتاب الله و بأخبار ثابتة صحيحة . فمن الآيات قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » . ومن الاخبار قوله عليه الصلاة والسلام : «ليذادن يوم القيامة أقوام عن حوضى » الحديث . وطوائف من الشيعة — لارعاها الله — تدعى أن

جماهير الصحابة ما زالوا كافرين فى حياة النبى عليه السلام و بعد وفاته ، وتدعى أنهم كانوا منافقين مخادعين للنبى وللمؤمنين ، وأنهم كانوا يكفرون كفرهم وشركهم . . . وهؤلاء لا يشكون فى أن بنى أمية وولاتهم وعمالهم كانوا كفارا مارقين ، وكانوا ملحدين جاحدين لا يؤمنون بإيمان ولا يكفرون بكفر . ويصرح كثيرون من علمائهم المتقدمين والمتأخرين بأن معاوية و بأن أباه أبا سفيان كانا إمامين فى الالحاد وفى الكفران الخالص التام ، وكذلك يقولون فى عبد الملك ابن مروان ومن بعد هؤلاء ، وكذلك يقولون فى عمرو بن العاص وفى بنى العباس جميعاً ، وكذلك قولهم فى غير هؤلاء وهؤلاء ، وبالاجمال هم يعتقدون ، ويكتبون ما يعتقدون ، أن جماهير الصحابة وجماهير التابعين وجماهير المسلمين ـ أعنى كل من قاوموا خرافات الشيعة وغلوها وباطلها ـ يعتقدون أن هؤلاء جميعاً كفار مشركون ، وزنادقة ملحدون ، ينطوون على الالحاد والكفر الخالص الفاضح ، وقد يرشحون ذلك أحياناً . وهذا الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وهو من أعقل القوم وأكثر الطائفة تزمتاً ، ومن أوسعهم صدرا وعطناً للخلاف والنزاع وأكثرهم تظاهراً بالتسامح إزاء الخلاف بينهم و بين أهل السنة ، يقول فى كتابه الموضوع للدعاية الشيعية الاثنا عشرية ، وهو كتاب « أصل الشيعة وأصولها » بعد أن ذكر بالسوء والضغينة المضطرمة معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء : « فهل هذه الاعمال تسيغ أن يكون صاحبها مسلما فضلا عن أن يكون خليفة المسلمين وأمير المؤمنين . ثم سارت المروانية كلها على تلك السيرة وماهو أشق وأشق منها عدا ما كان من العبد الصالح عمر بن عبد العزيز . ثم خلفتها الدولة العباسية فزادت ، كما يقال ، فى الطنبور نغمات حتى قال أحد مخضرمى الدولتين :

يا ليت جور بنى مروان دام لنا * وليت عدل بنى العباس فى النار . . . » .

وقال أيضا هذا الشيخ فى رسائل له سموها « الآيات البينات ، فى قمع البدع والضلالات » وهى مطبوعة فى النجف تحت عنوان « الزندقة فى الاسلام ، وزنادقة المسلمين » بعد أن ذكر الملحدين والزنادقة فى المسلمين وفى الاسلام وذكر أصنافهم وكثرتهم والباعث لهم على احتقاب هذا الداء القتال ، والمرض العضال ، وأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام ويبطنون شر أنواع الكفران وشر أنواع الالحاد والضلال ، قال هناك : « بيد أن أكبر العوامل نفوذا وأشدها إنما هو أن المتغلبين على السلطة والآخذين على أزمة المسلمين بزعم الخلافة ، كانوا على ذلك الرأى وبتلك الصفة ، والناس ، كما قيل ، على دين ملوكهم . فأول المتغلبين على المسلمين بغير رضا منهم الدولة السفيانية وماهى إلا معاوية ونغله يزيد . ثم تلاها الدولة المروانية ، وكلهم يضربون على ذلك الوتر ويطربون على تلك النغمات — اللهم إلا الأشج والناقص (حنانيك بعض الشر أهون من بعض) . وحسبك بالوليد بن اليزيد بن عبد الملك أكبر زنديق متخلع فى الاسلام . وأقاصيصه فى ذلك مشهورة ، وربما نأتى على بعضها فى غير هذا المكان . وفى عصره تكاثرت الزنادقة وانتشرت وأخذت فى النمو والاتساع واتصل ذلك إلى زمان الخلافة العباسية ، واحتوت تلك البرهة اليسيرة على أكابر من علماء العربية ونوابغ فى الأدب والشعر ، اشتهروا بالزندقة بل جاهروا . . . وما حمل هؤلاء أجمع على الزندقة والالحاد ، وحببها اليهم إلا حب السراح لأنفسهم وإطلاقها فى مسارح الشهوات وفكها من قيود الشريعة ونواميس الدين . فينكح الرجل كل أنثى أعجبته ولو كانت أمه وأخته ، ويغدر فيقتل كل أحد ولو أعطاه ألف ألف عهد وميثاق كما فعل عبد الملك فى ابن عمه عمرو بن سعيد الأشدق وغيره . . . »

وقال هذا الشيخ عينة فى هذه الرسائل عينها فى آخر الفصل الذى عقده للكشف عن مساوى البابية والبهائية وكفرهم وإلحادهم وزندقتهم : « وتالله

ما ارتسم على لوح الوجود ، ولا انتظم على رقعة هذه الأرض أجهل وأضل وأمكر وأكفر وأدهى وأخبث من تلك الأمة الخبيثة والطغمة التى خنقت أنفاس الحقيقة وأزهقت روح شرف العلم والفضيلة . . . » ثم قال بعد هذا القول تحت عنوان : « الأموية الحديثة » : « ولكن ألا أدلك على أمكر وأكفر وأضل وأجهل وأشد صلفا ووقاحة وأقل حياء وصيانة وأضعف عقلا وحصانة — أولئك شرذمة من رعرعة الدمشقيين وزعانفهم فى هذا العصر من كل أف وقف ، وجورب وخف ، أحقر من قمامة ، وأقل من قلامة ، وأقذر من نخامة ، يريد هؤلاء الشذاذ التعصب والتحزب لبنى أمية وإحياء ذكرها الخامد ، واسمها البائد ، وما أدرى أغاب عن عقولهم السخيفة ، أنهم بذلك ينبشون عن جيفة ـ جيفة تملأ العالم نتنا وعفونة . . وهل ترك بنو أمية السفيانية والمروانية من غدر أو كفر أو مكر أو عهر أو فجور أو ظلم أو بغى أو عدوان . . . » ـ

من هدايا الشيعة لاهل السنة

إلى غير ذلك من أقوال علماء الشيعة وعقائدهم فى ملوك الاسلام والمسلمين فهم عندهم كما ترى ، من شر الكفار والملحدين والزنادقة الفاسقين ، فكيف يستطيعون بعد هذا ، أو كيف يحاولون ، الاستدلال على ان المسلمين لن يكفر منهم أحد ولن يضل منهم إنسان ؟ لو كانت هذه المحاولة من غير طائفة الشيعة لهان الأمر ، أما منهم فلن يهون .

﴿ الكلام على أخبار يأس الشيطان أن يعبد فى جزيرة العرب ﴾

بقى الكلام على الأخبار التى ذكرها الرافضى ، فنقول : إن عنها جوابين جوابا مجملا وجوابا مفصلا . أما المجمل فيقال : هذه الأخبار لاتقاوم الدلائل والنصوص التى ذكرناها فى الفصل السابق ، فان ما أوردناه أكثر وأظهر وأصح . ولا يصح أن يرد الأقوى بالاضعف أو يعارض الاكثر بالاقل .

جواب حديث والله ما أخاف أن تشركوا بعدى

أما الجواب المفصل فيقال أما الحديث الاول وهو قوله عليه الصلاة والسلام « والله ما اخاف عليكم ان تشركوا بعدى » الحديث فهو رد لما ذهبت إليه جماعة الشيعة ولزعمها أن صحابة النبى عليه الصلاة والسلام قد كفروا وارتدوا بعد وفاته ، أو أنهم كانوا كذلك فى حياته . وذلك أن الحديث خاص بالصحابة رضوان الله عليهم . فقد أعلم الله نبيه بأن أصحابه لن يكفروا ولن يشركوا بعده أبدا ، ولكن سوف يمتحنون بالدنيا و زهراتها ولذاذاتها بما يرغس لهم من النعم والآلاء ، وبما يفتح لهم من أبواب الممالك المترفة الخصبة . . . فتهفو إلى ذلك قلوب ونفوس ، ولكن سوف يعصم الله الأكثرين منهم و يغنيهم بايمانهم و إسلامهم وتقاهم عن الدنيا وعما فيها من لذات و زهرات وشهوات تستنزل أحيانا النفوس من أعلى سماء الكمالات . . . وهذا هو ما كان ، فقد عصم الله ، وله الحمد ، صحابة رسوله من شوائب الشرك وعقابيل الكفر ، فلم يحم حول ذلك منهم أحد . أما الدنيا فقد انغمست فيها بعض الأيدى ودحضت فى زلقها بعض الأقدام . فنالت تبعات ذلك عاجلا ، فكانت العبرة ، وكانت العظة البالغة . أما الخيار المصطفون منهم فقد حال بينهم و بين النهل والعلل من تلك المكارع أن كانت قلوبهم وعقولهم وشهواتهم ملأى بالله وحده ، فدافعت ما سواه من الأغيار فدفعته . فسروا بهذا الزاد ، ولا زاد غيره ، عابرين ، فأدركوا ساحل النجاة موفورين سالمين من كل خوف وتبعة . و يغفر الله للجميع كل ذلك .

فالحديث علم من أعلام النبوة الظاهرة إذ قد أنبأ بأن تلك النخبة المختارة من البشر ، وهم صحابة النبوة وأنصارها سيظلون معتصمين بالايمان ، لا يدفعهم عنه دافع ، ولا يحملهم على خلافه والخروج عليه حامل ، فكانوا كذلك كما أخبر فصدقت النبوة وتمت المعجزة وظهرت الآية . . . وقد أورد هذا الحديث لما ذكرناه فى علامات النبوة كما فعل الامام البخارى فى الصحيح . هذا وجه الحديث

وسبيله . فهو إنباء عن الصحابة خاصة كما هو ظاهر من لفظه وكما دل عليه الواقع وكما قضت به الدلائل الظاهرة السابقة المخبرة بأن طوائف من المسلمين ، ولا محالة ، سوف يكفرون و يشركون و يعبدون غير الله من الأصنام والأوثان والمخلوقات الأخرى العاجزة . ولا يمكن حمل الحديث على ما أراده الشيعى لأجل ما قدمنا من البراهين .

وجه آخر فى الحديث

وفى الحديث وجه آخر وهو أن يقال : لعل النبى عليه السلام قد قال ذلك قبل أن يعلم و يوحى إليه بأن طوائف من الأمة سوف يضلون و يشركون فيهلكون كما هلك من كانوا قبلهم . ولا مانع من هذا الوجه فى الحديث ، فإن الدين ، بأعلامه ونصوصه ، لم ينزل مرة واحدة ولا جملة واحدة ، و إنما نزل نجوما مفرقة بمجموعها تم وكمل وكان الدين الاسلامى . والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما يعلمون بإعلام الله إياهم و بما يوحى إليهم . ووحى الله لا يأتى جملة واحدة و إنما يأتى نجوماً مفرقا .

وجه ثالث فى الحديث

وفى الحديث وجه ثالث وهو أنه ﷺ يريد بقوله هذا أن هلاك أمته وضياع دولتها ومجدها وتلاشى سلطانها وملكها سيكون سببه القريب المباشر هو التنافس فى الدنيا والتغالب عليها وعلى ملكها ومافيها من متع ولذات وشهوات ...وهذا هو ما كان وحدث ، وهذا هوما أصاب المسلمين فأودى بملكهم ودولتهم وثل عروشهم القائمة الفخمة ، وطاح بمجدهم الشامخ الباذخ ، فهبطوا من أعالى الذرى والغوارب إلى أعماق الحضيض الأوهد الذليل . . . فأصبحوا فى الهالكين الغابرين ، وأصبحوا فى هذه الضعة الشاملة المنكرة ، وصاروا نهبا مقسما بين حملان الأمم وذؤبانها .

فهذا البلاء الذى أصاب المسلمين يرجع كله مباشرة ، بسبب واحد أو بأسباب ذات عدد ، إلى التنافس فى الدنيا والتغالب عليها والرغبة الحادة المجرمة الفاسقة فيها وفى ما بين ثناياها من بروق كاذبة خالبة : وكل ما اصطدم به الاسلام والمسلمون

من جهل ونقص أو ضعف أو ذلة وهوان ، مرجعه الرغبة فى الدنيا والتقاتل عليها ولاجلها . فان هذه الرغبة فى هذه الحبيبة الغادرة أجرى بين القوم عقارب العداوات والسداوات دفعتهم إلى خوض غمار الحروب المفنية الطاحنة . فتحطم الفريقان : الظالم والمظلوم ، العزيز والذليل ، الغالب والمغلوب ، فذل الفريقان وضعفا . والضعف أبدا يلزمه الانحطاط والنقصان فى المدارك والآداب والعلوم وكل أسباب الكمال والعظمة ؛ فاذا ذلت أمة من الأمم وضعفت فقد جهلت وخرفت ونسيت ، ولامحالة ، مقوماتها الفاضلة الحية التى بها نالت ماحسدت عليه من مطارف الأمجاد وطرائف العلياء . . . فالضعف هو أول ما يصيب الامة المطلة على الهاوية ثم يتبعه كل أسباب الفشل والتأخر والسقوط . فالجهل والشرك الذى هو وليد الجهل ، نتيجتان من نتائج الضعف الذى هو وليد انقسام الأمة والانقسام هو وليد التنافس والرغبة فى الدنيا كما تقضى السلسلة الطبعية... وإذن فأول هذه السلسلة ، الذى هو التنافس فى الدنيا والحرص عليها هو الذى يخاف على الأمة ويخشى بأسه على بأسها . وإذن فالتنافس فى الدنيا هو الذى خشية رسول الله على أمته وعلى سلطانها ومجدها ، لان كل ماعداه من أفنان البلاء نتائج لازمة له . فالشرك الذى وقع من الامة والذى سوف يقع هو إحدى نتائج التنافس فى الدنيا ولا شك . فاذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم » لم تكن الخشية من التنافس على الدنيا فقط دون الخشية من نتائج هذا التنافس ولوازمه بل لابد أن تكون الخشية من التنافس ومن نتائجه الطبعية اللازمة ، والتنافس على الدنيا لم يخش ويحذر إلا لأجل ماله من النتائج والآثار المحذورة المنكرة . . . فقوله عليه السلام : « ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » معناه أنى لا أخشى عليكم الشرك فقط ولكن أخشى الرغبة فى الدنيا وفى الحياة والحرص عليها ،

وأخشى عليكم ما يتولد عن هذا كله من الشرك والكفر والجهل والانحطاط العام في العقول والعقائد وفي كل شئ . فالخشية لم ترفع عن الشرك لأنه لن يقع أبداً كلا وإنما رفعت عنه منفرداً مخصوصاً ، ولأنه لن يقع لولا وقوع الرغبة الباطلة في الحياة الدنيا الباطلة . فالخشية من الشرك واقعة لزوماً لا تخصيصاً . .. وفي الحديث وجه رابع ، وهو أن يقال : إن الحديث لم يرد لبيان ماسوف يقع ومالن يقع مما يخشى ويخاف على الامة ، وإنما ورد لبيان أعظم وأقرب ما سوف يهد مجد المسلمين وينسف سلطانهم . والامة الاسلامية إنما نسف سلطانها وقوض دعائم مجدها الخلاف على الدنيا والشح عليها ، حتى قاتل المسلم أخاه المسلم صبوة إليها . وهذا هو ما أودى بالاسلام وبالمسلمين مباشرة ، وهذا أفظع ما أصابه وما أصابهم من أعاصير القضاء . أما الشرك وتبديل الدين وغير ذلك مما انكفأ فيه المسلمون فقد انتشر بينهم بعد ذلك بأزمان . ومثل هذا الاسلوب لهذا المعنى لا يدل على النفي الخالص البات ، وإنما هو مثل أن يقول القائل : أنا لا أخشى على الاسلام والمسلمين الاعداء وإنما أخشى على المسلمين المسلمين . وهو مثل أن يقال إنما داء المسلمين من أنفسهم لا من أعدائهم ونحو ذلك من الاسلوب المألوف المعروف في هذا المعنى ، وهو يشبه الحديث المشهور أعني قوله ﷺ : « وسألت ربي ألا يسلط على أمتي عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم فأعطاني ذلك » . والأعداء اليوم مسلطون على الامة الاسلامية المحمدية أفظع تسليط ، مستبيحون لبيضتها في كل مكان ـ إلا ماشاء الله . ومع هذا فالحديث صحيح الاسناد والمعنى لان المراد منه أن أعداء الاسلام والمسلمين لن ينالوا منه ولا منهم ابتداء حتى يكون المسلمون هم الذين يمكنون لهم من أنفسهم ومن دينهم وبلادهم . وهذا كما جاء في روايات الحديث أن الله قد قال في الخبر القدسي لنبيه : « ولا أسلط عليهم (أي على المسلمين) عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من

وجه رابع في الحديث

بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا و يسبى بعضهم بعضا » . ولا يراد بالنفى هنا النفى الخالص البات ، و إنما يراد تفضيل أمر على أمر فى القدم والعظم . فالتنافس فى الدنيا سوف يكون أسبق إلى تحطيم الامة الاسلامية من الشرك ومن الكفر ، اللذين هما ، ولا محالة ، واقعان من طوائف المسلمين ، ولهذا خشى على الامة وحدث عنه بالانذار والتحذير قبل سواه . فالحديث لا يدل يقيناً على أن الشرك لن يقع من المسلمين .

جواب يأس الشيطان من أن يعبد فى جزيرة العرب

وأما الحديث الآخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : : « إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى جزيرة العرب » إلى آخر رواياته فالجواب أن يقال : قد روى الحديث عن جماعة من الصحابة بطرق ولكن لايخلو طريق من كلام ونقد . وقد بين ذلك الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد . والحديث له ألفاظ بعضها يقول : « إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون » و بعضها يقول : « لقد برأ الله هذه الجزيرة من الشرك مالم تضلهم النجوم » . و بعضها يقول : « إن الشيطان أيس أن يعبد فى بلدكم هذا » و بعضها يقول : « إن الشياطين أيست » ولكن كل ذلك لايخلو سنده من النقد والكلام . فالخبر لايبلغ درجة الصحيح الذى يحتج به فى مثل هذه المطالب وهذه الخلافات إن صح أن فى هذا خلافا .

ثم يقال ثانيا : هذا الحديث إذا فرض فى غاية الصحة والقوة لا يصح أن يكون دليلا على ما أراده الشيعى الظالم . وذلك أنه قد قيل فيه : إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى جزيرة العرب . ولكن ليست الحجة فى أن يمتلئ الشيطان يأساً وقنوطاً ، و إنما الحجة فى أن يقول الصادق المصدوق : إن الشيطان لن يعبد فى بلاد العرب . أو لن يعبده المصلون أو نحو هذا . وذلك أنه يجوز أن يرى الشيطان من قوة الاسلام وسطوته ومن سلطانه ومن علو التوحيد وخذلان الشرك فى تلك الأحيان المختارة مايملأ نفسه يأساً وقنوطا من أن تعود للشرك والكفر

فى تلك الديار والأقطار دولة أو سلطان ، أو أن يحل للاسلام والتوحيد هناك بناء ، هذا يجوز ، ولكن يجوز أيضا معه أن يكون الشيطان غالطا فى يأسه وقنوطه ، غير عالم بما جبلت عليه النفوس من الحنين إلى الاشراك والتعديد ، وما جبلت عليه من العراقة والأصالة فى الوثنية والجهالات ... فيخلف الانسان ظنه و يحقق طلبه فيعيد الشرك فى تلك الربوع المطهرة ، و يبعث الوثنية بعد الموت والشتات ، فيحى أمل الشيطان ثانيا فيرجع له زهوه ورضاه وسروره فيطمئن على دولة الأصنام والأوثان و يجلس على عرشها منزهوا فخورا . . . هذا كله يجوز ولاريب . وعليه لا يبقى للشيعى فيه رسيس من حجة ، ولا وميض من نور وهدى لأننا نقول له : سلمنا أن الشيطان قد أيس حقيقة من أن يعبد غير الله فى بلاد العرب وفى غيرها من البلدان الإسلامية ، ولكن كيف تستطيع أن تقيم الحجة على أن الشيطان ما أيس من ذلك إلا لأنه لن يقع ولن يكون ؟ ولماذا لا يكون الشيطان غالطا واهماً جاهلا فى يأسه وقنوطه ؟ ولماذا لا يكون يأسه الغالط قد جاء ، لما رأى من وثبات الاسلام وفعلاته ، فلما ان اختفت هذه الوثبات والفعلات، عاد إليه رجاؤه وأمله فى غلبة الشرك والكفر والهلاك فى الأرض وعلى البشر ؟ اننا إذا قلنا له هذا ، وهذا هو ما نقول ، فلن يظفر بجواب صحيح مقبول .

جواب آخر عن الحديث

ثم نقول ثالثا : إن الحديث يقول : إن الشيطان أيس أن يعبد . وظاهر لفظه أنه أيس من أن يعبد هو نفسه لا من أن يعبد غيره من المخلوقات كالأنبياء والملائكة والصالحين والأحجار والأشجار . و إذا كان ذلك كذلك قلنا لهذا الشيعى : إن مخالفيك لم يزعموا أن الشيطان عبد نفسه فى جزيرة العرب ، ولم يزعموا أن أحدا وجه إليه عبادته مباشرة وكفاحاً . لم يزعموا هذا و إنما زعموا أن جماهير من المسلمين عبدوا كثيراً من الانبياء والصالحين وممن خالوهم صالحين وليسوا كذلك فى واقع أمرهم . والحديث لا يدل فى ظاهره على بطلان ما ذهبوا

إليه ، و إنما يدل على أنه لن يعبد هو عنــد نفسه . ومخالفو الشيعى لم يزعموا أنه عبد هو نفسه و إنما أطيع فى عبادة بعض المخلوقات ، وقد تضاف إليه هذه العبادة ولـكنها إضافة مجازية غـير حقيقية والعلاقة فى الاضافة كونه هو الآمر بها . وحقيقة عبادة الشيطان نفسه أن توجه إليه العبادة كفاحاً مباشرة . وهذا لم يزعم خصوم الشيعى ان الناس وصلوا إليـه فى جزيرة العرب . فلا يستطيع المخالف أن يأخذ من الحديث شيئاً .

اعتراض وجوابه

فان قيل هذا الوجه فى الحديث صحيح لولا أنه لم يعهد أن العرب المشركين فى جاهليتهم كانوا يعبدون الشيطان نفسه ، وانما عهد أنهـم أطاعوه فى عبادة الأصنام والأوثان التى عبدوها فى الجاهلية وفى دولة الشرك والضلال. والحديث يجب أن يوجه معناه ، نفيا و إثباتا ، إلى ما عهد وعلم لا إلى مالم يعهد ومالم يعلم ، فيجب أن يقال : إن هذه العبادة التى أيس الشيطان منها هى العبادة التى كان أهـل الجاهلية يقدمونها إليه وهى طاعته فى عبادة غـيره من المخلوقات ناطقها وصامتها . فالحديث بهذا يدل على أنه لن يعبد غير الله فى جزيرة العرب . وهذا هو قول الشيعى وغرضه واحتجاجه : إن قيل هذا ، وكان صحيحاً أن الشيطان لم يعبد حقيقة فى بلاد العرب ، وهـذا من المشكوك فيـه لدينا ، قلنا فى جوابه : لا مانع من أن الشيطان كان يسعى جهـده لايقاع المشركين ، عبـدة الأصنام والأوثان ، فى عبادته نفسه ، وأنه كان يأمل أن يعبدوه حقيقة مباشرة كما كانوا يعبـدون الأحجار والأشجار والإنسان والحيوان وغـير ذلك من أصناف المعبودات ، وأنه كان عظيم الرجاء فى أن يصل إلى هذه الغاية الشيطانية العظيمة ، وأنه كان يرى فى كل وقت تباشير نجاح ذاك الرجاء بما ينساق إليـه المشركون الضالون من أشتات الغوايات والجهالات ــ والشيطان كما علم وعرف لا يقنع من عابديه ومطيعيه بشىء، ولايقف بهم عند غاية من غايات الضلال والخزى ــ : فلم

لامانع من ذلك كله ، ثم لامانع من أن يكون انتشار الاسلام هناك وتوثبه قد قطع على الشيطان رجاءه هذا ، وأفسد عليه أمنيته هذه ، وحال بينه و بين ذلك الأمل اللذيذ البسام ، وأراه الإسلام وارتفاع شأنه أنه قد ظن باطلا و رجا ما لن يكون أبدا ، فانقلب ذلك الرجاء يأسا والأمل قنوطاً والسعى خيبة . فأعلن يأسه و باح بإفلاسه ونادى بويله وثبوره . فأعلن رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الحقيقة وقال : إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى جزيرة العرب . فقام علما من أعلام النبوة الخاتمة. هذا كله لامانع منه وهو يفسد هذا الاعتراض .

معنى عبادة الاصنام

غير أنه يقال : إن هذا الجواب لا يصح إلا فى رواية « إن الشيطان قد أيس ان يعبد فى جزيرة العرب » أما الرواية الأخرى القائلة : « إن الشيطان أيس أن تعبد الأصنام فى جزيرة العرب » . فلا يستقيم لها هذا الجواب الأخير ، ولكن يقال إن لهذه الرواية جواباً آخر يخصها ، ذلك اننا نقول : « إن عبادة الأصنام » لا يراد بها مطلق الشرك ولا مطلق عبادة غير الله ، و إنما يراد بها الرجوع إلى الوثنية الخالصة ، والجاهلية الأولى المتجردة من الكتاب. ومن النبوة الخاصة كحال مشركى العرب وغيرهم من عبدة الأصنام والأوثان . ولهذا فانه لا يقال : إن اليهود والنصارى من « عبدة الأصنام » ،ولا يصدق عليهم هذا الاسم ، مع أنهم فى حقيقتهم مشركون يعبدون غير الله، و يعبدون الأحبار والرهبان ، و يعبدون عيسى ومريم وعزيراً . والمؤلفون فى الملل والنحل لايعدونهم فى عبدة الاصنام بل يضعون لهم باباً خاصاً بهم كما فعل الشهرستانى. وغيره من المؤلفين فى الملل والنحل .

فقوله ﷺ . « إن الشيطان قد أيس أن تعبد الاصنام فى جزيرة العرب» معناه على ماذكرنا أن الشيطان قد أيس من أن يرجع العرب إلى حالهم الوثنية الأولى الخالصة ، فينكروا كتابهم ، و ينكروا نبيهم، و يرجعوا إلى عبادة الاصنام

ن التماثيل والجثث المنحوتة من الذهب والفضة والنحاس ، ونحو ذلك كما هو
لأصل فى معنى « الأصنام » على ماذكره الراغب فى غريب القرآن ، وغير
لراغب . وهذا صحيح لانزاع فيه . فان الذى وقع فيه العرب من المسلمين هو
لغلو فى الصالحين من الانبياء وغيرهم إلى حد العبادة والتأليه ، وإلى حد أن
عطوهم حق الله الخالص كما فعل ذلك أهل الكتابين : اليهود والنصارى . ولهذا
لما قال رسول الله فى الحديث الصحيح السابق : « لتتبعن سنن من كان قبلكم
حذو القذة بالقذة » وقالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن القوم
إلاهم ؟ » فالمسلمون فعلوا مافعله أهل الكتاب قبلهم من الغلو فى الانبياء والصالحين
وغير الصالحين أيضا . وقد كان النبى عليه السلام يحذر أمته الوقوع فيما وقع فيه
اليهود والنصارى ويقول كثيرا : إنهم فعلوا كيت وكيت ، يحذر فعلهم : ويقول :
افترقت اليهود والنصارى على كذا وكذا فرقة وستفترق أمتى على كذا وكذا
فرقة ، ويقول : لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد
فقولوا : عبد الله ورسوله . وهنالك فرق معلوم معروف بين أهل الكتاب : اليهود
والنصارى ، وبين عبدة الاصنام والأوثان فى الحقيقة والحكم وفى الشريعة
الإسلامية . وقد فرق بين الفريقين بأشياء عديدة ، فأهل الكتاب يجوز الزواج
منهم ويحل طعامهم وذبائحهم وتقبل منهم الجزية ، وعبدة الاصنام يحكم عليهم
بخلاف ذلك . والتفريق بينهما فى الأحكام راجع إلى الفرق بينهما فى الحقيقة.

فالعرب بهذا الحديث لا يرجعون إلى الوثنية المعروفة الصريحة ، ولا إلى
عبادة الأصنام بالمعنى المتبادر المفهوم ، وإنما يقعون فى الغلو الاشنع فى أنبيائهم
وصالحيهم وعبادهم وفيما يتصل بهم من القبور والآثار ، وهذا هو ما كان ، والله
المستعان .

أجوبة أخرى فى الحديث

وفى الحديث أجوبة أخرى غير ما ذكرنا ، كأن يقال مثلا : المراد أن

الشيطان قد أيس من أن يعبد أو تعبد الاصنام فى بلاد العرب فى كل وقت وزمان ،فهذا لن يكون إن شاء الله . وقد يشهد لهذا لفظة « أبداً » المذكورة فى الرواية التى ذكرها الشيعى . وكأن يقال أيضا : إنه أيس من أن يعبد فى ذلك العصر الذى هبط فيه الاسلام على العرب وعلى بلادهم . ويكون المعنى إن الشيطان كان إذ ذاك يصارع الدعوة المحمدية محاولا كبتها وخنقها ، وكان يرجو الظفر بها والنيل منها والقضاء عليها قبل اكتمالها وانتشارها . فصار حظه الغلب والهزيمة ، فصرعه الاسلام وصرع حيلته وكيده فأيس من النجاح فأعلن الافلاس . على أن هذا الحديث بلا ريب فيه امتداح للعرب ظاهر وامتداح لبلادهم عام . ففيه امتداح ضمناً للدعوة السلفية التى يسمونها بالوهابية إذ هى دعوة عربية إسلامية خالصة ، ظهرت وعزت، وانتشرت فى بلاد العرب وفى الجزيرة العربية . فالبلاد التى أنبتتها عربية ، والرجال الذين قاموا بنصرتها وتاييدها وإعلاء شأنها عرب . . . فالحديث اذن منطو على امتداحها والثناء عليها من هذا السبيل . ولا يكون مادحها ذامها فى وقت واحد من وجه واحد . هذا وجه وجيه بلا ريب

وعلى كل حال لا يمكن أن يدعى أنه لن يعبد غير الله فى بلاد العرب فى وقت من الأوقات ، فان هذا باطل كاذب بالإجماع والضرورة والنصوص المتواترة وقد كان فى بلاد العرب يهود ونصارى وهم يعبدون غير الله حينما قال رسول الله هذا الحديث إن صح أنه قاله . وإلى اليوم يوجدون فى بلاد اليمن وغير اليمن من بلاد العرب . وقد ارتد بعض العرب بعد موت النبى عليه السلام فقاتلهم الصديق والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . كيف والشيعة يزعمون أن خيار الصحابة وكبارهم ارتدوا وكفروا بعد موت نبيهم . وفريق منهم يزعمون أنهم ما زالوا كافرين مرتدين مضمرين لكفرهم ونفاقهم ، ويزعمون أن خلفاء بنى أمية وبنى العباس كانوا ملحدين زنادقة كما تقدم النقل عنهم ؟ ثم كيف وهم يزعمون أن

الخوارج وغيرهم ممن قاتلوا علياً كانوا من شر الكفار، وقد كانوا ، أو كانت طوائف منهم فى بلاد العرب ؟ بل كيف و فى الناس فى كل زمن من يعبد المرءة وفيهم من يعبد المال ، وفيهم من يعبد الشرف والجاه ، وفيهم من يعبد نفسه ، وفيهم من يعبد هواه ، وفيهم من يعبد غير ذلك من صنوف المعبودات الباطلة . . . كل هذا ينادى بفشل هذه الحجة وفسادها و يلقى بها فى الحضيض الأسفل .

حديث أروز الايمان إلى المدينة

وأما الحديث الذى ذكر الشيعى أن صاحب النهاية ذكره وهو قوله عليه السلام « إن الايمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » فهو حديث صحيح رواه الامامان البخارى ومسلم ، ولكن ما أبعد ما بينه وما بين حجة الشيعى وشبهته ، فإن هذا الحديث قد يكون رداً بيناً عليه ، وذلك أن معناه أن الايمان يلجأ و يندفع إلى المدينة حينما يطارد و يشرد من كل مكان . ومعلوم أن الوهابيين قد فتحوا الحجاز وفتحوا المدينة المنورة ،وطهروه من أوضار الضالين والظالمين والمبتدعين وأقاموا فيه سوق الصلاح والايمان والسنة أزمانا طويلة بعد تلاشى ذلك كله . . فلماذا لا يكون هذا الايمان الذى يأرز إلى المدينة هو هذا الايمان الملتهب المتقد الذى يسميه هؤلاء وهابية متطرفة مشددة ؟ هذا مالا يستطيع الرافضى دفعه بالحجة ، ونحن لو ذهبنا إليه وقلناه لما قلنا قولاً منكراً باطلا

وعلى كل حال فالحديث لم يقل إن المدينة لن يقع فيها نوع من أنواع الشرك والضلال فى وقت من الأوقات حتى يكون للشيعى فيه مستمسك إذ قد يأرز اليها الايمان حينا دون حين كما هو ظاهر الحديث ، وقد يأرز اليها مع وجود غيره فيها فيجتمع فيها الايمان والكفر ، والهدى والضلال ، والسنة والبدعة فى عصر واحد وقد قال تعالى : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم » وقد كانت فى زمن النبى عليه السلام مستقراً لجماعة من كبار المنافقين خصوم الاسلام والمسلمين وخصوم النبى الكريم ، ومع هذا يقول النبى عليه السلام إن الايمان ليأرز إلى

المدينة . أولسنا قد قدمنا أن أحد أئمة الشيعة ، على قول كتبهم ، سئل عن سكنى المدينة فنهى عن ذلك وقال : « أهل المدينة أخبث من أهل مكة سبعين ضعفا » فهذا الحديث على الشيعى لا له . وهكذا تجد أغلب حجج الرجل لا عقل ولا علم ولا عدل .

﴿ الباب الثانى من كتاب الرافضى ﴾

قال الرافضى : « الباب الثانى فى ذكر معتقدات الوهابية التى كفروا بها المسلمين وحججهم على ذلك وردها على وجه العموم ناقلين لها من كتبهم الموضوعة المشهورة » .

وهذا الباب خلاصة للباب الثالث الآتى بعد هذا كما سوف يجئ وكما سوف يجئ النقض عليه إن شاء الله . وهو فى هذا الباب لم يأت بمسألة خاصة من مسائل النزاع وإنما نقل جملا من كتب مخالفيه فرد عليها بقدر علمه وهواه . ونحن هنا نورد مافى هذا الباب من الأخطاء الكبرى مجملين الرد إجمالا ثم ننتقل إلى الباب الثالث مفصلين القول تفصيلا .

﴿ بماذا كان المشركون مشركين ؟ ﴾

ذكر الرافضى فى أول هذا الباب قول إمام الطائفة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إن المشركين الذين قاتلهم رسول الله كانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرازق المدبر ولم يدخلهم ذلك فى الإسلام لأنهم كانوا مشركين فى العبادة . فقال الشيعى رداً عليه ما خلاصته : « إن ذلك لم يدخلهم فى الإسلام لأنهم كانوا مكذبين للرسول منكرين جميع شرائعه قادحين فيه دائنين بدين الجاهلية . . .

« فكيف يقاس بهم المسلمون المتوسلون المؤمنون بجميع ماجاء به النبى ﷺ » . . هذا خلاصة الرد وخلاصة الفرق بين الفريقين لدى الشيعى .

والجواب أن يقال إذا ما كان القوم الذين بعث فيهم النبي من المشركين والكافرين من العرب وغير العرب إنما كانو غير مسلمين لأنهم كذبوا الرسول وقدحوا فيه وردوا ما جاءهم به فماذا يقول فيهم قبل ابتعاث الرسول وقبل أن ينكروا ما جاءهم به ، وقبل أن يكذبوه لأنهم ما كذبوه ولا قدحوا فيه إلا بعد ابتعاثه إليهم ؟ أيقول إنهم كانوا مسلمين وكانوا مؤمنين وموحدين ، وكانوا غير كافرين وغير مشركين ، وكانوا ناجين مرضيين ، ويقول : إن النقمة والغضب والسخط لم تنزل بهم إلا بعد إبتعاث النبي فيهم ، ويقول إنهم لم يكونوا مشركين ولا كافرين أو ضالين إلا بعد أن جاءهم كتاب الله يحمله رسول الله ؟ إن ماقاله هنا يقضي بأن يكون الجواب على هذه الأسئلة هو « نعم » ولكن هذا باطل بالاجماع والضرورة والبداهة . فان المسلمين لايختلفون في أن العرب الذين ابتعث فيهم محمد عليه السلام كانوا مشركين وكافرين وضالين قبل أن يبتعث ، وأنه عليه السلام إنما بعث لاخراجهم من تلك الظلمات : ظلمات الشرك والكفر والانحطاط الاعتقادي العقلي الشنيع ، وأنهم ما كذبوه ولانازعوه ولاردواما جاءهم به إلا لأنه خلاف ما كانوا عليه وخلاف ما كان عليه الآباء والجدود والسادة والاشراف ولهذا كانو يقولون لما جاءهم بخلاف ماعرفوا وورثوا ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ الآية ، وكان يقول لهم : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجوا وتدن لكم العرب وتؤد إليكم العجم الجزية . فكانوا ينكرون ذلك ويجحدونه ويعجبون منه ، لانه غريب بينهم مجهول لديهم . وكانت الدعوة المحمدية قائمة على أن أولئك الناس قد أشركوا بخالقهم وعبدوا المخلوقين العاجزين الضعفاء . فوجب إخراجهم من هذا النقصان ، وهذه الورطة الاعتقادية المنكرة ، وهذا الضعف العقلي الفظيع ، وكانوا هم لايرضون هذا ولا ينعمون به عينا ، ولا يقبلون النبوة هذه التي تريد منهم أن يفارقوا ماوجدوا عليه الآباء والجدود ، وماوجدوا عليه

الكبراء والاشراف الأقدمين الذين هم زين العشيرة ، وعماد القبيلة وكانوا يقولون « أأنزل عليه الذكر من بيننا » . ولهذا فانهم لو آمنوا بالرسول وبالكتاب وبالاسلام ثم بقوا على ما كانوا عليه من عبادة غير الله لما خرجوا بذلك عن الشرك والكفر ، ولما كانوا مسلمين ولا مؤمنين . وهذا لاخلاف فيه وهو يكشف غلط الشيعى ويفضحه

وتحقيق هذا أن أهل العلم قالوا : إن المشركين كانوا مقرين بأن الله هو الخالق لاخالق غيره ، وهو المدبر لجميع الأمور لامدبر غيره ، ومع هذا لم يكونوا مسلمين ولا مؤمنين لأنهم كانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا يشركون بالله : فجاء هذا الشيعى ورد على هؤلاء بأن قال : نعم إن أولئك المشركين المقرين لله بالربوبية لم يكونوا بذلك الاقرار مسلمين ولا ناجين لأنهم كانوا مكذبين للنبى وقادحين فيه ورادين ما جاءهم به . . . فرددنا نحن عليه بأن قلنا : لو كان هذا حقا لكانوا قبل مجىء الرسول إليهم وقبل تكذيبهم إياه مؤمنين مسلمين مهتدين . لأن تكذيبهم الرسول وقدحهم فيه وردهم ما جاءهم به ـ وذلك هو موجب كفرهم وإشراكهم فيما زعموا ـ لم يكن إلا بعد البعثة والدعوة النبوية، وبعد أن أعلن دعوتهم ومجاهرتهم بالتضليل والتجهيل . وقلنا أيضا رداً على الشيعى : لو كان هذا حقا لكانوا مسلمين مؤمنين ناجين لو أنهم آمنوا بالنبى وما جاءهم به ثم ظلوا بعد هذا الايمان على ما كانوا عليه من العقائد الخرقاء . وقلنا : لو كان هذا حقا لم يدعهم الرسول الكريم إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده ، وإلى أن يقولوا لا إله إلا الله لاشريك له ، بل لاقتصر على دعوتهم إلى الايمان والتصديق بماجاء به . وقلنا أيضا : إن المشركين لم يأبوا دعوة الاسلام فى الأكثر ويردوها إلا لأنها كانت تطالبهم بأن يتركوا معتقداتهم التى ورثوها عن الأسلاف ، ولو أنها لم تطالبهم بذلك،بل كانت تريد إقرارهم على ما كانوا عليه، لما لجوا هذا اللجاج

فى عنادها و إبائها ومطاردتها . ولـكن الله جل شأنه إنما بعث رسوله ، و بعث سائر رسله لأجـل الدعوة إلى عبادته وتوحيـده و إفراده بكل معانى العبودية كما قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله » وذكر الـكتاب الكريم فى قصص الأنبياء والمرسلين أن كل رسول كان يبادىء قومـه بقوله : « يا قوم اعبدوا الله مالـكم من إله غيره » . فالأنبياء بعثوا لدعوة الخلق إلى الهدى الذى تركوه وجانبوه ، ولاخراجهـم من الظلمات التى اركسوا فيها ، لا لأجل دعوتهم إلى الايمان بهم فقط . ولو أن الناس كانوا مهتدين راشدين قبل مجىء النبيين لما كانت هنالك ضرورة إلى إرسال الرسل وانزال الـكتب . .

فالمشركون الذين قاتلهم الرسول عليـه السلام وقاتلوه ، وطاردهم وطاردوه كانوا قبله ضالين مشركين هالـكين كما قال تعالى فى الفريق الذى آمن منهـم : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » ولو أنهم آمنوا به عليـه السلام و بكل ماجاءهم به ، ولـكنهم بقوا على عقائدهم الأولى ، لما كانوا بذلك مسلمين بلا ريب . فكيف يزعم الشيعى أن المشركين كانوا مشركين وغـير مؤمنين لا لشئ إلا لأنهـم كذبوا الرسول وقدحوا فيـه وعابوه وعاندوه ؟ بل هم كافرون مشركون لعبادتهم غـير الله من المخلوقين الضعفاء . وقد كذبوا الأنبياء وردوا ما جاءهم به لأنهم يدعونهم إلى النزوع عن عقائد ورثوها وألفوها يعز عليهـم النزوع عنها والفراق لها . فماذا يقول هذا المؤلف أم أين يفر ويهرب ؟

و إننا نعيد هذه المعانى بعبارات الأسئلة إيضاحا وزيادة بيان فنقول لهذا المصنف : بماذا كان العرب الجاهليون مشركين كافرين ؟ فان قال بأ كذابهـم الرسول وردهم ماجاء به ، قيل له : كلا ، لانه لو كان هذا هو موجب كفرهم و إشراكهم لـكانوا قبل مجئ الرسول غير مشركين وغير كافرين ، لأنهم قبل مجيئه لم يكذبوه يقينيا ، ولانهم لو آمنوا به وظلوا على عقائدهم لـكانوا أيضا مشركين كافرين بلا

خلاف بين الناس . . . و إن قال. إنهم كانوا كافرين مشركين لانكارهم البعث والحياة الأخروية ، قيل له أيضا : كلا ، لانه لاخلاف فى أنهم كانوا مشركين كافرين فوق انكارهم البعث والحياة الأخرى ، ولانهم لو آمنوا بالبعث بل و بكل ماجاءهم به الرسول ثم لم ينزعوا عن أعمالهم وعقائدهم ما كانوا مسلمين ولامؤمنين يقينا . و إن قال : إنهم كانوا مشركين لانهم كانوا منكرين لله ، أو لانهم كانوا يرون معه شركاء فى الخلق والقدم والبقاء ، قيل له : كلا ، لانهم كانوا مؤمنين بالله و بانه خالق كل شئ و بأن بيده الامور كلها ، والدليل على ذلك الآيات المتكاثرة الصريحة القائلة : إنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض ، ومن خلق كل شئ ومن بيده كل شئ . . يقولون : ذلك هو الله وحده لاشريك له . والمخالف معترف بهذا مقر به ، فليس محل خلاف بينه و بين مخالفيه ، ولانه لا خلاف أيضا بين المسلمين فى أنهم لو أقروا بذلك كله إلا أنهم بقوا على عقائدهم ما كانوا مسلمين ولاناجين . فهذا لايصح جوابا مطلقا .

و إن قال : إنهم كانوا مشركين لأنهم عبدوا غير الله ، ولانهم عبدوا الاصنام والأوثان ، قيل هذا هو سر المسألة ومضطرب الأذهان فيها . فما كانت عبادتهم للأصنام والاوثان ، وما هى الأصنام والأوثان ؟ و فى الجواب على هذين السؤالين جواب كاف عن جوهر المسألة وسرها . ولا مفر من أن يقول : إن عبادتهم الأصنام هى سجودهم و ركوعهم ونذرهم وذبحهم لها ، وهى أيضا خشيتهم ودعاؤهم وخوفهم و رجاؤهم إياها، وانقطاعهم إليها وما يصاقب هذه المعانى .فاذا قال ذلك قلنا له : انتهى إذن كل شىء فى المسألة ، و بهذا رجع إلينا كرها أو طوعا ، وقال بقولنا اختياراً أو اضطراراً . فاننا نحن نزعم أن هذه الأمور هى العبادة بصورها ومعانيها ، ونزعم أن كثيراً من المدعين للاسلام يفعلون ذلك كله فوق أضرحة الأموات لا ينقصون منه شيئاً إن لم نقل إنهم يزيدون عليه كثيراً . و بهذا

انحلت المسألة وانكشف غطاؤها . . . ثم لا مفر من أن يقول : إن الأصنام والأوثان هي كل ما عبد من دون الله إما حقيقة وإما حكما ومعنى فقط ، ولا مفر من أن يقول إن عبادة الأنبياء والأولياء والصالحين والأئمة لا تجوز كما أن عبادة الأحجار والاشجار والأصنام والأوثان لاتجوز ، وأن عبادة الصالح كفر بالله كما أن عبادة الحجر والصنم كفر كذلك ، لأننا لا نعلم خلافا فى أن عبادة غير الله شرك بالله سواء أكان المعبود أقرب الخلق إلى الله أم كان أبعدهم عنه . وهذه حقائق فى معزل عن الخلاف .

﴿ هل كان العرب المشركون ينكرون الله ﴾
﴿ أو يقولون إن الاصنام تضر وتنفع ؟؟ ﴾

عقيدة المشركين فى أصنامهم

بقى قول الشيعى فى هذا الباب : « إنه لاشئ يدلنا على أنهم (أى مشركى العرب) لايعتقدون فى الأصنام ومعبوداتهم من الجن والانس والملائكة أنه لاتأثير لها فى الكون ، وأن التأثير لله وحده ، إذ يجوز أن يعتقدوا أن لها تأثيرا بنفسها ، فتشفى المرضى ، وتنصر على الأعداء ، وتكشف الضر وغير ذلك ، وأنها تشفع عند الله حتما ولا يرد شفاعتها ، أو أن الله جعل لها قسطا من التأثير أو كله إليها ، بل ظاهر الآيات هو ذلك مثل قوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » . بل ظاهر قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وماالرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً » أنهم كانوا يسجدون لغير الأصنام ، ولا يعتقدون إلها غيرها ، وظاهر قوله عن أهل جهنم « تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . . » اعتقادهم أنها مساوية لله وإن لم يكن من جميع الوجوه ، وذلك كاف فى الشرك والكفر ، وذلك أيضا ظاهر جميع الآيات الدالة على اتخاذهم إلهاً من دون الله وشركاء لله

ونحو ذلك مثل « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا » « أجعل الآلهة إلهاً واحداً »
ومنهم من كان ينكر الله وينكر البعث، وهم الذين قالوا كما حكى الله عنهم : « ماهي
إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » انتهى كلام الرافضي .

المشركون لم ينكروا الله ولم ينكروا ربوبيته لكل شيء

والجواب أن يقال لاريب أن المشركين من العرب كانوا مؤمنين بأن الله
وحده هو الخالق لكل شيء، وهو المدبر لكل أمر، وهو القاضي على كل حي،
وهو المجير على كل كائن في السماء وفي الارض، ومؤمنين بأن أصنامهم مخلوقة لله
نافذ فيها قضاؤه وحكمه وأمره، راجعة إليه خلقا وحكما وبداية ونهاية، خاضعة له
خضوع العبيد الأرقاء الاذلاء، لاتستطيع عما شاءه وأراده لها خروجا ولامفرا .
والدلائل على ذلك متضافرة متكاثرة، والقرآن بجملته دال عليه ضروب الدلالات
وقد نص في غير ما آية على أنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض، ومن خلق
كل شيء يقولون ذلك هو الله وحده كما قال تعالى «ولئن سألتهم من خلق السموات
والأرض ليقولن الله، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر
هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته، قل حسبي الله
عليه يتوكل المتوكلون » وقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم
من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي
ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » وقال « قل لمن الأرض ومن
فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله، قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات
السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت
كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى
تسحرون » إلى غير ذلك من الآيات البينات الدالات على أنهم مؤمنون بالله
وبأنه القابض على كل شيء، القاضي على كل موجود، الآخذ بناصية كل
حي، ليس وراءه مذهب، ولا عنه مهرب، ولا إلى سواه منقلب، لا إله إلا هو

الحق وما سواه الباطل ، الباق وما سواه الفانى . . . وليس بعد هذه الآيات الواضحة بيان لمن أراد البيان ، وبرهان لمن طلب البرهان ، وإيمان لمن شاء الإيمان . . .

توحيد المشركين فى حالة الشدة

هذا ضرب من ضروب دلالات القرآن على إيمان المشركين بالله . وقد نص أيضاً على أنهم كانوا يدعون كل من سوى الله ، وينسون كل معبود سواه حينما تعضهم الشدائد ، وتلتحم بهم المصائب ، ويسمون إليه سبحانه وحده برغباتهم ورهباتهم ، ويجدون اليه المفزع والمنزع ، لامفزع ولا منزع إلا هو عز شأنه وتعالى سلطانه وعظم جده . وهذا فى غير ما آية قال تعالى : « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » وقال : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » وقال تعالى « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه ان شاء وتنسون ماتشركون » . وما انقطعوا الى الله وحده ولارغبوا عن كل من سواه فى تلك الساعات إلا لأنهم يعلمون أن كل شئ إليه يصير ، وأن كل من دونه باطل حقير ، وأن كل عزيز لديه ذليل ، وكل كبير لدى كبريائه صغير . فالله أكبر كلمة وسعت كل شىء ولكن لم يسعها شىء ، كلمة آمن بها المؤمن والكافر ، ونطق بها الناطق والصامت بلسانه أو كيانه وبنيانه ، فالله أكبر . ولو كان أولئك المشركون الكافرون يعتقدون ، على ما يقول الشيعى ، أن الله جعل لتلك الأصنام والاوثان بعض التأثير أو كله ، أو يعتقدون أنها تنفع وتضر وتشفى المرضى وتنصر على الأعداء وتزيل البلاء ، وأنها تشفع لديه حتما فيقبل شفاعتها حتما ، أو لو أنهم كانوا ينكرون الله : أقول لو أن المشركين كانوا يعتقدون ذلك للأصنام والأوثان لما نسوها فى شدتهم وضرائهم ، بل لتعلقوا بها حينئذ أعظم التعلق ، ولكنهم أعرضوا عنها لأنهم

يعلمون عجزها وهوانها عند ما يغضب الله ، وعند ما يريد أن ينزل بعض عذابه وعقابه على بعض العصاة من خلقه .

احتجاجهم بمشيئة الله

وقد نص القرآن أيضاً فى غير ما آية على أن المشركين كانوا يحتجون لكفرهم وشركهم بمشيئة الله كما قال الله « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم » وقال : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » وقال : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ »

فهم يحتجون لمعاصيهم وخطاياهم وشركهم وكفرهم بارادة الله ومشيئته ، ويزعمون أن الله هو الذى ألجأهم واضطرهم إلى ذلك ، فأتوه مكرهين ، فهو يريد منهم مايعملون ويرضاه وإلا لحجزهم عنه وحال بينهم وبينه ، لأنه المتصرف المطلق ، والفاعل المطلق ، الكائن ما يريده ويشاؤه لاما يشاؤه ويريده غيره من الخلق والأصنام والأوثان والمعبودات الأخرى ، لامعقب لحكمه ولا راد لقضائه . أما الأصنام والأوثان ، أما كل ما دون الله فذلك كله لله يصرفه كما يشاء تصريف قهر وملك واضطرار . فهو وعابده فى الخضوع له سواء . ولا أدل من هذا على أن القوم مؤمنون بالله ومؤمنون بأن كل شيء يدين له بالعبودية الخالصة من جميع أطرافها .

الأصنام شافعة فقط

وقد نص القرآن أيضا على أنهم كانوا يريدون من أصنامهم ومعبوداتهم أن تقربهم إلى الله زلفى ، وأن تقوم لهم لديه تعالى مقام الشفعاء ، لأنه هو غايتهم وغاية كل شيء ، ولأنه هو الذى يعطى ويمنع ، أما الآلهة والاصنام فتدعو وتشفع . ومقام الداعى الشافع غير مقام المدعو المشفع ، ومقام الوسيلة غير مقام الغاية : فالله عند القوم هو المشفع والغاية ، والاصنام والمعبودات الاخرى هى الشافعة

والوسيلة . قال الله تعالى : « يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال : «والذين اتخذوا من دونه أولياء ،مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، أى إنهم يقولون فى توجيه عبادتهم للاصنام ذلك . فهل هذه الاقوال ، ياقوم ،أقوال من ينكرون الله ، أو من يرون للأصنام التأثير كله أو بعضه أو من يقولون إنها مساوية لله و إنها مثله ، أم هى أقوال قوم يؤمنون بالله و يعترفون له بكل معنى من معانى الربوبية والقوة ؟ وليفكر فى هذا أولو الالباب خالصين من عقابيل الاهواء وأدران الجهالات

إيمان المشركين وشركهم

وقال تعالى : « ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » . قال السلف والمفسرون : معنى ذلك أنهم يؤمنون بأن الله خالقهم و رازقهم وخالق كل شئ من علوى وسفلى ومع هذا يعبدون غيره تعالى . قال ابن جرير فى تفسير الآية : « يقول تعالى وما يقرأ كثر هؤلاء الذين وصف صفتهم بقوله : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » بالله أنه خالقهم و رازقهم وخالق كل شئ إلا وهم به مشركون فى عبادتهم الأصنام والاوثان واتخاذهم من دونه أربابا و زعمهم أن له ولدا ، تعالى الله عما يقولون » . ثم روى عن عبد الله بن عباس قال : من إيمانهم اذا قيل لهم : من خلق السماء ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال قالوا : الله وهم مشركون . وذكر عن عكرمة قال تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فيقولون الله ، فذلك إيمانهم بالله ، وهم يعبدون غيره . وعن عكرمة وعمرو قالا يعلمون أنه ربهم وأنه خلقهم وهم به مشركون . وعن عكرمة وعامر ومجاهد أنهم قالوا فى هذه الآية : ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض . فهذا إيمانهم وهم يكفرون بما سوى ذلك . وعن قتادة قال : لست تلقى أحداً منهم إلا نبأك أن الله ربه وهو الذى خلقه ورزقه ، وهو مشرك فى عبادته . وعن الضحاك قال : كانوا يشركون به فى

أقوال المفسرين

تلبيتهم . وعن عطاء قال : يعلمون أن الله ربهم وهم يشركون به بعد . وعن ابن زيد قال : ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ، ويعرف أن الله ربه وأن الله خالقه ورازقه وهو يشرك به . قال : فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به ، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . نقل هذه الروايات كلها ابن جرير في تفسير الآية .

قول الرازي بعد ابن جرير

وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : « ... ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » من سورة يونس : « لما ذكر بعض تلك التفاصيل عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي، ثم بين أن الرسول إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون انه الله . وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به . وهم الذين قالوا في عبادتهم الأصنام : إنها تقربنا إلى الله زلفى ، وإنها شفعاؤنا عند الله ، وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر . فعند ذلك قال لرسوله : « فقل أفلا تتقون » يعني أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في المعبودية مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه ، واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر ألبتة » .

قول النيسابوري

وقال النيسابوري في تفسير قوله تعالى « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » «ورابعها أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون فيه أنه مجاب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله اتخذوا صنماً على صورته وعبدوها على اعتقاد أن ذلك الانسان يكون لهم شفيعاً يوم القيامة عند الله «ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ».وخامسها لعلهم اتخذوها قبلة لصلاتهم وطاعاتهم ، ويسجدون إليها لا لها كما أننا نسجد إلى القبلة لا للقبلة . ولما استمرت هذه الحال ظن جهالهم أنه يجب عبادتها . . . ولما تقربوا إليها وعظموها وسموها آلهة أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله ،

قادرة على مخالفته ومضادته ، فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم ، وكما تهكم بهم بلفظ الند شنع عليهم واستفظع شأنهم بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصلح أن يكون له ند ، ولا يفيد فى طريق عبادته إلا الحنيفية والاخلاص و رفع الوسائط من البين » .

إيمان أكفر الناس بالله وبربوبيته

وقال أمثال هذه الأقوال سائر المفسرين من الأولين والآخرين . وقد حدث القرآن عن أطغى الخليقة بأنه كان مؤمنا بالله و بعظمته وسلطانه فقال تعالى حكاية عن رسوله موسى أنه قال لعدوه فرعون : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر و إنى لأظنك يافرعون مثبوراً » ، وقال تعالى فى فرعون وقومه الطاغين : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا» بل حدث عن إبليس إمام الكافرين وزعيم طوائف المشركين أنه مؤمن بالله و بربوبيته وملكه وسلطانه المطلق . وهذا مذكور فى آيات معلومة . هذه بعض دلالات القرآن على إيمان المشركين بوجود الله و بربوبيته . ففيم الخلاف بعد هذا إذن ؟ .

دلالة السنة على ذلك

وقد دلت السنة أيضا على ذلك دلالات مختلفة ظاهرة . وهذا فيما لا يحصى من الأخبار الصحيحة الثوابت ، من ذلك حديث الصحيحين المشهور وهو أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم إذ هم حجاج : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » . وقد كان رسول الله يسمعهم يقولون ذلك فيقول عند قولهم «لا شريك لك» : « قط قط » أى حسب حسب . وكذلك دلت على ذلك أقوال جميع المفسرين من السلف والخلف من المحدثين والمتقدمين ، وتفاسير أمثال ابن جرير الطبري وابن كثير ، والبغوى ، والرازى ، وغيرهم طافحة بهذا . وهو غنى عن إيراد أفراد شواهده.

دلالة كلام المشركين أنفسهم

وقد دل على ذلك أيضا كلام المشركين أنفسهم ، ودل عليه ما حفظ من

شعرهم ونثرهم دلالات قاطعة كل نزاع وخصام . وليتناول من شاء ما شاء من دواوين العرب وكتب آدابهم وعلومهم . ومن أبلغ ذلك قول لبيد :

ألا كل شيء ماخلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل

وقد أنشد هذا الشعر فى المسجد الحرام بين أظهر المشركين الكافرين بالله و بنبيه عليه الصلاة والسلام فأقروه جميعاً وهم يحاربون الاسلام ونبي الاسلام ودعوة الاسلام . وقد كان أحد المسلمين حاضراً لبيدا وهو ينشد شعره هذا فلما قال : « وكل نعيم لا محالة زائل » قال له : كذبت فإن نعيم الجنة لا يزول . وقال لبيد أيضا :

أرى الناس لايدرون ما قدر أمرهم * بلى كل ذى رأى إلى الله واسل

وقال أيضا فى هذا المعنى :

أحمد الله فلا ند له * بيده الخيرات ما شاء فعل

وقال النابغة الذبيانى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وقال حاتم طيء :

كلوا الآن من رزق الاله وأيسروا * فان على الرحمن رزقكم غدا

وقال عنترة العبسى :

ياعبل أين من المنية مهرب * إن كان ربى فى السماء قضاها

هذه قطرات من بحار والسير كلها ملأى بأمثال ذلك شعرا ونثرا . ومن العبث محاولة جمع دلائل إيمان القوم بالله و بأنه الآخذ بناصية كل حى وميت .

استحالة ذلك عقلا وعادة

على أن من الأمور البدهية العلم بأن عقلاء المشركين ودهاتهم وذوى الرأى والأرب منهم لم يكونوا يرون تلك الأحجار والأشجار والتماثيل والصور التى كانو يعبدونها و يعملونها بأيديهم ، والتى كانوا يأكلونها أحيانا متى جاءوا خالا

لعبادها أو أنها قديمة مع الله أو شريكة له فى الملك والربوبية . ونحن ـ مهما أسأنا الظن بالمشركين والكافرين ، وبالغنا فى هجاء عقولهم وفطرهم ـ لا نحسب أن أمثال عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق وعثمان بن عفان وخالدبن الوليد وعمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة وأبى سفيان ومعاوية وأبى طالب وغيرهم من دهاة الرجال وذوى الرأى والأرب منهم ، كانوا ،حينما كانوا مشركين ،يعتقدون أن الاصنام والأوثان والصور والتماثيل التى كانوا يعبدون خالقة لهم أو خالقة السموات والأرض ، أو مساوية لله فى القوة والقدرة والسلطان والقدم والبقاء وسعة العلم وإحاطته ، أو نحو ذلك من صفات الربوبية وأوصاف الرب . إن العلم ببطلان هذا وفساده من العلوم الضرورية الجلية . ولكن القوم كانوا يتخذون تلك الأصنام والأوثان قربانا إلى الله ربهم كما قال تعالى: « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ، بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون » وقال: « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله».

هذه أمور وبراهين يكفى بعضها لرد ما قاله الشيعى من أن المشركين كانوا ينكرون الله،أو كانوا يقولون ان الله أعطى الاصنام والأوثان التأثير كله أو بعضه.

﴿ الآيات التى احتج بها الشيعى ﴾

أما الآيات التى احتج بها هذا الرجل على هذه الدعوى فلا حجة فيها مطلقا

الجواب عن الآية الأولى

أما قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » فما أتاها عما رام منها ، فهى تقول خطابا للنبى عليه الصلاة والسلام : قل لأولئك المشركين بالله،العابدين معه ماخلق : قل ادعوا الذين زعمتوهم آلهة ، وزعمتوهم جديرين بالعبادة والتأليه ، وزعمتم أنهم يدعون ويستغاثون فيجدى دعاؤهم والاستغاثة بهم : ادعوهم فلن ينفعوكم شيئاً ، ولن

يستطيعوا أن يكشفوا عنكم ضرا نازلا بكم ، ولا أن يحولوه عنكم إلى غير كم لعجزهم عن ذلك، ولا نفرادا لله به دون من خلق ودون كل شئ فى الأرض وفى السموات . ثم قل لأولئك المشركين أيضا : إن هؤلاء الذين تدعونهم رجاء خير أو دفع ضير ، بشفاعتهم ووساطتهم ، هم يدعون الله و يرجونه ماترجونهم من الوسيلة إليه ، والقرب لديه ، والحظوة عنده . وهم يرجون رحمته لفقرهم و إحتياجهم ، ويخافون عذابه لضعفهم وعجزهم . فما أضعف من تدعون وترجون ، وما أضعف الطالب والمطلوب . . . وليس فى الآية أن أولئك العابدين المشركين كانوا يعتقدون أن أولئك المعبودين مساوون لله ، أو خالقون للسموات والأرض ، أو خالقون لأنفسهم أو لغيرهم ، أو يعتقدون أن الله أعطاهم تصريف هذا العالم كله أو تصريف بعضه : ليس فى الآية الكريمة شئ من هذا حتى يسوغ للشيعى الاحتجاج بها ، بل غاية ما يمكن أن يفهم منها أنهم كانوا يدعونهم و يعبدونهم أنواع العبادات ، من الخضوع والخشوع والخوف والرجاء ، رجاء أن ينفعوهم عند الله ربهم و ربهم بوساطتهم وشفاعتهم ومكانتهم . وسوف نبين إن شاء الله أن عبدة القبور هكذا يفعلون و يرجون ، وهكذا يضرعون و يلسجون . فان إنسانا واحدا عاقلا لا يمكن أن يدعو شيئا ما وهو لا يرجو منه شيئا لا بوساطته ولا بقدرته .

الجواب عن الآية الثانية

وأما قوله تعالى : « و إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ، و زادهم نفورا » فاحتجاج الشيعى بها مناقض لأقواله الكثيرة ، لأنه معترف فى غير مكان من هذا الباب ومن الأبواب الأخرى أن المشركين كانوا مؤمنين بالله وكانوا يعبدونه أيضا ، ولكنهم كانوا يعبدون غيره من الأصنام والأوثان ، وكانوا يكذبون الرسول و ينكرون شرائعه وشرائع الإسلام ، و ينكرون البعث والحساب والثواب والعقاب . فالجواب عن الآية إذن مشترك بينه و بين مخالفيه . ومما لا ريب فيه أن هذه الآية لا يمكن أن تقوى على معارضة الآيات

والدلائل الأخرى السابقة فى إيمان المشركين بالله وعبادتهم غيره

والآية لها معنى آخر غير ماذهب اليه الرافضى . وهـذا المعنى مذكور فى كتب الحديث الصحاح وفى كتب التفسير وأقوال المفسرين من السلف والخلف ، وفى كتب اللغة ، وذلك أن المشركين من العرب كانوا ينكرون هذا الأسم الذى هو « الرحمن » لأنهم لم يكونوا يعرفون أنه من أسماء الله ، أو لأنهم لم يعتادوا إطلاقه على الله . فهم ينكرون هذا الاسم من الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأنه ، فيمازعوا ، ابتدعه وأحدثه ، ولاينكرون الله ذاته . وهذا معروف مذكور فى كتب الحديث والتفسير . وقد روى البخارى وغيره فى خبر صلح الحديبية بين المسلمين والمشركين أن الرسول عليه السلام لما أملى على الكاتب عبارات الصلح وقال له قل : بسم الله الرحمن الرحيم قال له سهيل بن عمر زعيم المشركين : أما الرحمن فلا نعرفه ، ولكن اكتب باسمك اللهم . وهكذا ذكر المفسرون فى معنى الآية من المتقدمين والمتأخرين . فالذى أنكره المشركون هو الاسم لا المسمى . وهذا واضح . ولهذا فانهم كما حكى الله عنهم أنكروا الرحمن ولم ينكروا الله ولا الاله ولا الرب ولا غير ذلك من أسماء الله وأوصافه وصفاته المعروفة فى كلامهم .

معنى آخر فى الآية

على أن للآية الكريمة معنى آخر أراه قريبا وجيها . ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يدعو القوم إلى عبادة الله وحده لاشريك له فى نوع من أنواع العبادات ولا فى مظهر من مظاهرها . فكان يدعوهم إلى توحيده تعالى فى الدعاء والرجاء والخوف والرغبة والرهبة والسجود والركوع ... وكانواهم ينكرون ذلك التوحيد ويلجون فى الأنكار أقبح اللجاج ، وكانوا يتهكمون به عليه السلام إذا دعاهم إلى ذلك ، إلى الله وحده ضروب التهكم ، فكان رسول الله يقول لهم فيما يقول : اسجدوا للرحمن وحده ، فكانوا يردون عليه ساخرين هازئين :

« وما الرحمن » ، ماهذا الاله الذى تدعونا إلى عبادته والسجود له وحده ؟ صفه لنا ، وصف لنا حقيقته وحقيقة أمره وماتعرفه عنه مما نجهله نحن عنـه إن كنت صدقا عالماً مالم نعلم، مطلعا على مالم نطلع عليه من شؤونه وصفاته وأوصافه ، وإن كنت حقا نبيه وصفيه من خليقته ورسـوله الينا وإلى الخلق جميعا . . . وكانوا يريدون بذلك التعجيز والافحام والزراية ، لاالعـلم والمعرفة والدراية . وما كانوا يريدون حقيقة السؤال والعلم لانهم كانوا منكرين عليه عليـه الصلاة والسـلام الرسالة والصلة الالهية التى خصه الله بها دونهم. فكان المراد بقولهم« وماالرحمن » التعجيز والافحام والعدوان . وما كانوا يعنون إنكار الله أو إنكار وجوده تعالى ، فان لفظ الآية لا يعين عـلى إرادة هذا الانكار . ولو كانوا يريدون الانكار والجحود حقاً لقالوا له : إنه لارحمن ولا إله ولا خالق ، فمن ذا الذى تدعونا إلى عبادته وحده والسجود له ؟ والقوم كانوا كل الحراص عـلى مجابهة نبيهم بالخلاف والاكذاب والـكفران ، وإنما قالوا : « وما الرحمن » . ومثل هـذا الاستفهام والـكلام يسأل به عن حقيقة الأمر وماهيته ، ولا يراد به حقيقة الجحود إلا أن يكون القول ضرباً من ضروب المجازات المعـلومة الـكثيرة . ولكن لاشئ هنا يحمل على تحميل الآية المجاز والخروج بها عن الحقيقة ، بل كل شئ يدل عـلى ألا مجاز ولا إنكار ولا جحود ، وإنما هنا الشرك والحرص الأصم الأعمى عليه.

آية تسوية الاصنام برب العالمين

وأما قوله تعالى . « تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين » فهى ليست بسبيل مما ذهب إليه المخالف ، ويتبين ذلك بايراد ماقبل الآية . قال تعالى من سورة الشعراء : « وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهـم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ، فـكبـكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صـديق

حميم ...». فلينظر القارئ فى الآية يجد أنها خصام وحوار بين المشركين التابعين و بين رؤسائهم المضلين المتبوعين ، و يجد أن هذه الآية مثل قوله تعالى من سورة الأحزاب : « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبداً لايجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا » ومثل قوله تعالى من سورة إبراهيم « و برزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، مالنا من محيص » . فهذه الآيات كلها من نهر واحد ، هى خصام وجدال بين فريقى الضالين المعذبين : بين أئمة الكفر والضلال ودعاة جهنم من الملوك والزعماء والعلماء وسائر الرؤساء الذين ملكوا عقول الجماهير وقلوبهم وعقائدهم وعواطفهم بخداعهم ومكرهم وسلطانهم ودرهمهم وديناره فاقتادوهم ، وهم ينظرون ، إلى جهنم بأمراس الزعامة والرئاسة التى قدموها إليهم عن طاعة ورضا وجهل وغباوة ، ليقودوهم بها إلى عذاب النكر والهون والجحيم فى حياتيهم : الدنيا والأخرى — و بين هذه الجماهير الضالة الغبية التى استعبد عقولها وقلوبها وعقائدها وعواطفها أناس مثلهم يلبسون الثياب خوف الحر والقر و يأكلون الطعام لطرد الجوع والإعياء والألم ... فالآية حوار قاس بين الرؤساء والمرؤسين من المشركين والمضلين ، لا بين المشركين وأصنامهم وأوثانهم التى ألهوها وعبدوها . وذلك أن الآية قد أنبأت بأن أولئك المعبودين المسوين برب العالمين لا ينصرون ولا هم ينتصرون ، وأنهم كبكبوا جميعاً فى الجحيم ، وأنبأت أن فريق الاختصام والحوار هم المشركون والغاوون وجنود إبليس أجمعون . وهذا كله لا يكون إلا للرؤساء الضالين المضلين ، لا للأوثان الجامدة ،

ولا للمعبودين من الأنبياء والصالحين .

والمراد هنا بتسوية المرؤسين للرؤساء برب العالمين أنهم قد أطاعوهم في عصيان الله وفي الخروج على شرعه ودينه وسننه ، وأنهم قد شرعوا لهم شرائع باطلة لم يأذن بها الله فأطاعوهم وأذعنوا لهم، واستبدلوها بشرائع الله خالقهم ورازقهم، وبشرائع أنبيائه وصفوة عباده. وفي هذا المعنى قال الله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . وقد جاء في تفسير الآية عن النبي عليه الصلاة والسلام أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وفي تحريم الحلال ، فكانوا بذلك متخذيهم لهم أرباباً . وفي هذا المعنى أيضا قوله تعالى « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ؟» وفي هذا المعنى أيضاً على بعد قول الله: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

ولا ريب أن من أطاع الملوك الظالمين ، والزعماء الجاهلين ، في تحريم الحلال ، وإحلال الحرام والخروج على شرع الله ، إرادة إرضائهم وكسب عطفهم، ومودتهم ،فقد سواهم بالله بل فضلهم عليه تعالى وفضل رضاهم على رضاه . وهذا هو الخذلان المبين والجهل الفاضح . والله المرجو أن يحفظنا ويسددنا

ثم إذا فرض أن الآية نازلة في المشركين وفي أوثانهم وأصنامهم لم يمكن أن تفسر بأن المشركين كانوا يسوون الأصنام والأوثان بالله رب العالمين تسوية تامة من كل وجه ، فإنه لا يوجد عاقل مؤمن بالله يسوي بينه وبين معبوده من الاحجار والأشجار والحيوان والانسان ، وأكثف الخلق شركا وكفرا لا يمكن أن يبلغ به فساد الذوق والعقل والعقيدة إلى هذا المدى والانحطاط ، وإنما غاية المشرك أن يعبد مع الله آلهة أخرى لا أن يسوي هذه الآلهة بالله متى كان مؤمنا به . فالمراد بالتسوية هنا هي عبادة الأصنام مع الله وإشرا كها في حقه على عبيده. كما قال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله»

تفسير الانداد في القرآن

والنـد فى اللسان هو المثال . فمن أحب شيئا مثل حبه الله فقد سواه به ، وقـد قال تعالى « فلا تجعـلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » قال ابن عباس فى تفسيرها : لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه ربكم لا يرزقكم غيره . وقال قتادة ومجاهد : لا تجعلوا لله أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله . وقال ابن زيد : الأنداد هى الآلهة التى جعلوها معـه . وروى ابن أبى حاتم فى تفسير الآية عن عبد الله بن عباس أنه قال : هو أن تقول والله وحياتك يافلان وحياتى ، وتقول لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل : ماشاء الله وشئت ، ولولا الله وفلان . هذا كله من تفسير الآية عند عبـد الله بن عباس . ومثل هذا أن رجلا قال للنبى عليه السلام : ماشاء الله وشئت،فقال : « أجعلتنى لله ندا؟بل ماشاءالله وحده » . ومثل الذى قلناه فى تفسير الآية قال سائر المفسرين ، وهـذا مالا شك فيـه . عـلى أن الدلائل المتقدمة فى إيمـان المشركين بالله و بأنه خالق كل شئ وخالق أصنامهم وما يعبدون كافٍ لصرف هذه الآية عن ظاهرها لو فرض أن ظاهرها هو ما ذكره المخالف .

ومما رد على الشيعى

ثم إن هاهنا أمراً يجب أن يذكره الشيعى وألا ينساه ، هذا الأمر هو أنه ذكر فى كتابه فى غـير موضع أن من آمن بالله و بصفاته العلية كالاستواء والعلو والرفعة الحقيقية فهو مشـبه الله بخلقه ومسويه بهم و إن صرح بنفى التشبيه ونفى المماثلة والتسوية . وهو لهذا يعـد السلف الصالح الواقفين مع النصوص المثبتين لهذه الصفات النافين للمماثلة والتشبيه مجسمين ، و يدعوهم مشبهين ممثلين . وهو لايراهم يقيناً قـد سووا الله بخلقه من جميع الجهات ، ولا اعتقدوا أنهـم مثله فى كل الخصائص والأوصاف . فالتسوية إذن باعترافه تطلق ولا يراد بها التسوية التامة الحقيقية . وبهذه التسوية الجزئية تفسر الآية إذاً مابطل جميع ماذكرناه فى

تفسيرها . والقرآن يجب أن يذهب به حيث تذهب اللغـة التى نزل بها ، واللغة لاتريد من التسوية ونحوها التسوية بين المسوى والموسوى به من كل وجـه بالضرورة ، فاذا قلت : سويت بين فلان وفلان ، وسويت هذا بهذا ، لم ترد هذه التسوية التامة الدقيقة بلا خلاف . ولو كانت هذه التسوية التامة هى المرادة هنا لدلت الآية على أن جميع من فى النار قـد سووا معبوداتهم وأصنامهم بالله رب العالمين من جميع الوجوه ، وفى جميع الأشياء الثبوتية والسلبية تسوية تامة عامة ! ومن ذا يمارى فى بطلان هذا .

معنى الإله

أما الآيات التى فيها اتخاذ الآلهة مع الله فلا تدل مطلقا على شئ مما زعموه . وذلك أن الاله هو المعبود ، والمعبود ليس بلازم أن يعتقد فيه عابده أنه مثل الله أو أنه قديم معه ، أو أنه خالق السماء والأرض ، أو خالق العالم . و إنما الاله هو المعبود لاغير . ولهذا سمى الله الهوى المطاع إلها فقال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » قال السلف : الهوى معبود . ولا يمكن أن يقول إنسان إن هواه مثل الله ، أو أنه خالق أو متصرف فى الكون . ومثـل هـذا قول الله : « اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وهم لم يعتقدوا فى الأحبار والرهبان أنهم خالقون أو رازقون أو مساوون لله أو نحو ذلك ، كما جاء فى تفسير الآية عن النبى عليه الصلاة والسلام . فزعم الشيعى أن اتخاذ المشركين مع الله آلهة أخرى يدل على أكثر من عبادتهم إياها زعم باطل .

لم يكن فى العرب من ينكر الله

أما زعمه أن فى العرب المشركين من كان ينكر الله بدلالة قوله تعالى حكاية عنهم « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلـكنا إلا الدهر » فزعم فيـه نظر . ذلك أن الآية نازلة، على مايظهر ، فى إنكار المشركين للبعث لافى إنكارهم الخالق ، وهذا ظاهر من سياق الآية ومن الآيات الأخرى المتكاثرة الدالة على إيمانهـم بالله وعـلى إنكارهم البعث والحساب . أما سياق الآية فهو

هكذا : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

تفسير : «وما يهلكنا إلا الدهر »

فقولهم « وما هى إلا حياتنا الدنيا » إنكار للبعث ولدار الجزاء . وقولهم « نموت ونحيا » لعلهم يعنون أن الدنيا خالدة باقية لانهاية لها وسنظل هكذا أبداً فيها ، نتوالد ونتعاقب و يموت آباؤنا فنخلفهم ، ثم نموت نحن فيخلفنا أبناؤنا ، وهكذا دواليك ، لأنه لاحساب ولا عقاب ولا بعث ولا حياة سوى هذه الحياة الدنيا . وهذا نتيجة إنكار البعث و يوم الجزاء . وقولهم « ومايهلكنا إلا الدهر » لعلهم يعنون أننا لانموت إلا بطول الزمان وتعاقب كراته ودولاته ، و بما يحدثه هذا التعاقب وما يلزم هذا الطول من أعراض وأمراض ومصيبات تقتلنا وتميتنا بما جبلنا عليه من صفة التغير وصفة الانفعال بالمؤثرات الجوية الزمنية على حد ما قالوا :

أشاب الصغير وأفنى الكبير * كر الغداة ومر العشى

ونظيره من كلامهم المعروف المشهور . ولكن ليس معنى هذا إنكار الله أو إنكار أن يكون الدهر مخلوقا للخلاق العظيم . كلا ، فان إضافة أمثال الاماتة والاحياء إلى بعض ماخلق الله لايدل على إنكار الله . فالناس كلهم يقولون : سطا عليه سيف الهرم وطول العمر ، وهم لايريدون بتلك الأقاويل والعبارات إنكار الله وجحده ، فان أشد الناس إيمانا و يقينا يقول ذلك . وأى إنسان يسمع قول الشاعر مثلا :

نعد المشرفية والعوالى * وتقتلنا المنون بلا قتال

فيقول : إن هذا القائل يريد إنكار الله بماقال هنا أو إنكار أن يكون

سبحانه هو وحده خالق الموت والحياة وخالق كل شئ . وان يدل قولهم « وما يهلكنا إلا الدهر » على إنكار الخالق حتى يدل على ذلك قولهم وقول الناس جميعا : أساء إلى الدهر وأحسن إلى فلان ، والدهر سلم الغبى الوضيع ، وحرب الذكى الرفيع . وقولهم : أخنى عليه الزمان وقتله الجديدان ، وقولهم :

رمى الحدثان نسوة آل حرب * بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا * ورد وجوههن البيض سودا

وهذا ،بلا خلاف ولاريب، لايراد بهجحد الخالق ولا إنكار أفعاله ،ولكن الناس المؤمنين بالله وغير المؤمنين قد يضيفون الحوادث إلى أسبابها القريبة الظاهرة المباشرة مع الاحتفاظ بسبب الأسباب ومسببها ، وغاية الغايات وخالقها وهذا معروف لهم ،ولوكانوا يريدون بقولهم : وما يهلكنا إلا الدهر جحد الخالق لقالوا : ماخلقنا ولا أحيانا ولايهلكنا ولا يفنينا إلا الدهر أونحو ذلك، ولكنهم أضافوا الاهلاك فقط إلى الدهر . ولعلهم كانوا يريدون تنزيهه تعالى عن أن يضيفوا اليه الشرور والآفات ، مثل الاهلاك والموت . وقولهم بعد قولهم هذا : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » يشهد لما قلنا ، ويدل على أن الانكار كان للبعث والحساب فقط لا للخلاق ، وقوله تعالى بعد ذلك « قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون » يدل على ما قلناه دلالة صادقة ناطقة .

فسياق الآية نفسه واضح فى أن الإنكار ليس للرب ولا للخالق ، وإنما هو للبعث وللحساب ، وأما الدلائل الأخرى على ذلك فلا تخفى ، وقد قدمنا جملا من دلالات القرآن على أن المشركين كانوامؤمنين بالله ، وبأنه خالق السماء وخالق الأرض والعالم وخالق كل شئ ، وأن داءهم وبلاءهم هو الشرك وعبادة

المخلوقين العاجزين الضعفاء .

الالحاد لايكون في الشعوب الفطرية

ومشركو العرب الذين نزلت فيهم هذه الآية قوم أميون ساذجون فطريون تقريبا ، بعيدون عن البحث وأعماقه فى الآلهيات وغير الآلهيات . والأمم الأمية الفطرية من المستبعد أن تهتدى إلى الالحاد الذى هو إنكار الخالق ، وإنما يقع الالحاد فى الأمم الحضرية المدنية العريقة فى الفلسفات البشرية المغرورة المدخولة . وذلك أن الخالق قريب جداً من الفطرة الأولى، بعيد جداً من الفلسفة المتعمقة المتنطعة ، لأن هذه الفلسفة مصابة أبداً بداء الغرور والكبرياء . والكبرياء تأبى على صاحبها التسليم للحق والخضوع للقدرة الخفية القاهرة ، بل هى أبداً تجنح إلى التغلب على كل شئ ، والاستهتار بكل شئ ، والجحود لكل ما أعجزها وقهرها وحيرها . فمن البعيد القريب من المحال أن يصاب العرب بداء الالحاد ، ومن البعيد إذن أن يفسر قوله تعالى حكاية عن الكافرين المشركين منهم : « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر » بهذا الداء.

ولو فرض أن هذه المقالة لا يراد بها إلا الإلحاد لما كانت إلا مقالة طارئة اختطفها بعض المشركين من بعض الأمم المجاورة اختطافا ، فنقلها نقلا ، وقالها قولاً لا يلبث أن يرجع عنه وأن ينقاد لوحى فطرته الأولى المولودة فى الصحراء التى لا تعرف غير الإيمان بالله وبملكه وسلطانه الأعظم . ولا يصح أبداً أن تكون عقيدة راسخة دائما ، ولا أن تكون مذهب الجمهور المعروف الواضح . ومن يسر له أن يقرأ بعض ما خلفه العرب الغارقون فى الشرك من شعر ونثر لم يستطع أن يمارى فى إيمانهم بالله وإيمانهم بأنه رب السموات والأرضين ورب العالمين ، لا شريك له ولا معين .

﴿هل يرى المنقطعون إلى الاموات﴾
﴿أنهم ينفعون أو يضرون ؟﴾

أما قول الشيعي: « إنه لا شئ يدلنا على أن المشركين ما كانوا يعتقدون في أصنامهم ومعبوداتهم من الجن والإنس والملائكة أنها لاتأثير لها في الكون. إذ يجوز أن يعتقدوا لها تأثيرا بنفسها فتشفي المرضى وتنصر على الأعداء وتكشف الضر، وأنها تشفع عند الله حتما ولا يرد شفاعتها ، أو أن الله جعل لها قسطا من التأثير أو كله اليها » .

المرء لايدعو إلا من يعتقد أنه قادر على نفعه

فنقول في جوابه: لاشك أن المشركين مادعوا الأصنام والأوثان، ولارغبوا إلى الأولياء والأنبياء فعبدوهم ، إلا لاعتقادهم أنهم يستطيعون نفعهم وضرهم ، وأن لديهم شيئا من النفع والضر والاعطاء والمنع ، وأنهم قد يشفعون ، وقد ينصرون : كل ذلك بأمر الله وقدرته و إذنه وفضله . ولولا هذه العقيدة لما دعوهم، ولا سألوهم ولا رغبوا إليهم ولا رهبوهم . فان الناس مجبولون على الانصراف إلى مايظنون أن لهم فيه فائدة ، والانصراف عما يعلمون أنه لاينفعهم ولا يجديهم شيئا . فمن دعا غير الله فلا بد من أن يكون قد اعتقد في قرارة نفسه أن ذلك المدعو قادر على شئ ، وأن له تأثيرا ما . وهذا هو الحامل له على الرغبة فيه والانقطاع إليه ، ولو فقد هذا الأمل لفقد ذاك العمل . وهذا مالا يصح الخلاف فيه .

أما دعاة الأموات المنقطعون إلى القبور من المسلمين فلا ريب أيضا في تحكم هذه العقيدة ، عقيدة نفع الأموات وضرهم في قرارات نفوسهم ومسارب أذهانهم وأبدانهم ، ولو أنهم اعتقدوا وعلموا أن أولئك المقبورين فاقدون مايطلبونه منهم عاجزون عنه وعن إيصال النفع إليهم ودفع الضر عنهم، لما وجدتهم عاكفين

عليهم باسطين أكفهم إليهم ، تغشى وجوههم الذلة والمسكنة ، وتضطرم فى قلوبهم الرغبة وحب المنفعة ، ولما تحملوا المشاق واجتابوا الشقق المرهقة من كل فج عميق ، ومن كل مكان سحيق ، توضع بهم نجائب الأمل الحلو اللذيذ ليقفوا على تلك الأطلال والمعالم ، ليسكبوا على ترابها العبرات، ويبثوا على أعتابها أنواع الشكايات ، وليقوموا بين الخوف والرجاء مقاماً يلطم شرف الانسان ويضرب مجد العبودية الموحدة فى المقتل — : نعم لولا رسوخ هذه العقيدة عقيدة نفع الأموات وضرهم فى نفوس هؤلاء الداعين ما فعلوا من ذلك شيئاً ولا هتفوا عند الشدائد بأسمائهم ، ولا قدموا لهم القرابين والهدايا من حر أموالهم وغاليها ، وهم يبخلون بأخسها وأقلها على الفقراء والمعوزين الذين أمرت الأديان والآداب جميعاً ببرهم والاحسان إليهم والتصدق عليهم ، وإلا فللممسكين من الله أليم العذاب والعقاب . هذا ما لاريب فيه والشواهد عليه كثيرة منظورة : من ذلك أنهم يسمون الأموات «أهل التصريف» أى تصريف العالم، ويسمونهم : «الأقطاب» أى أقطاب الكون ، ويدعون لواحد منهم «بالمتولى» أى متولى أمر الوجود . . ويقولون للشيخ من هؤلاء : « سقت ربك عليك » ، ومن ذلك أنهم يعزون إليهم حكايات كاذبة تدل دلالات قاطعة على أنهم يرونهم قادرين على أشياء لا يقدر عليها إلا الله : فيحكون أن البدوى فعل كذا ، وأن الدسوقى صنع كذا من غرائب الأفعال والحكايات الدالة على كامل القدرة والتصريف لو صحت عنهم . وقد ألفوا كتباً ضمنوها هذا الداء ونشروها على جهلاء الناس وعلمائهم .

دعاة الأموات يعتقدون فيهم النفع والضر.

ومن ذلك أنهم يحتجون لدعوتهم والاستغاثة بهم بأمثال قول الله : « لهم ما يشاؤن عند ربهم » وقوله « ولسوف يعطيك ربك فترضى » واحتجاجهم بهذه الآيات صريح فى أنهم يرون من يدعون من دون الله من الأشياخ الموتى يفعلون كل ما يشاءون ، وينالون ما يشاءون ، لأن لهم عند ربهم ما يشاءون ،

ولأن الله سوف يعطيهم حتى يرضيهم ، وهم لا يرضون أن يضام ، أو يعذب ، أو يدخل النار ، أو يخيب أحد ممن دعاهم ولاذ بهم من المريدين والمنقطعين ، وهم يشاؤون أيضا نفع السائلين لهم ، العائذين بهم و بأجداثهم . فطوبى إذاً لمن وقف بأبوابهم وعلى أطلالهم ، ولمن عاذ بحماهم ، والويل كله لمن أعرض عنهم ونأى بجانبه عن رحابهم وأعتابهم . . . وأنت إذا سألت أحد هؤلاء الملكى عن ذلك وقلت له : كيف تدعو ميتا تحت أطباق التراب ؟ وكيف ترجو أن ينالك منه شيء ؟ قال لك : يا أخى « لهم ما يشاءون عند ربهم » « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فيضع هذه الآيات مواضع الحجج والبراهين على دعاء الأموات والانقطاع إليهم وتأميلهم . وهذا توكيد أى توكيد لاعتقادهم فيهم النفع والضر وسائر معانى الايجاد والقدرة . وأنت إذا ما وقفت بضريح من هذه الضرائح وسمعت الدعوات والهتافات ، ورأيت ما هنالك من الأكف المرفوعة ، والأدمع المذروفة ، والوجوه المصفرة ، والوجوه المعترة ، لم تشك فى أن للقوم فى تلك الحفر آمالا عراضا طوالا تتضاءل أمامها آمالهم فى الله رب العالمين . وهذا الشيعى المخالف لايخالف فى أن الأموات ينفعون و يضرون و يعطون و يمنعون ، ولكن يقول : إن ذلك كله من الأموات الصالحين يكون بدعائهم وشفاعتهم و وساطاتهم عند الله . و يقول : إن ذلك كله يكون منهم لكن لا على سبيل الاستقلال والاستبداد ، و إنما يكون بإذن الله و إقداره ورضاه . فهم يضرون و ينفعون و يعطون و يمنعون بما ملكوا من الشفاعة والجاه ، و بما وهبوا من القدرة والسلطان . وقد تفوه بهذا فى غير موضع من كتابه تصريحا وتلويحا ، فهو يقول فى هذا الباب الثالث : « فإن المسلمين لا يعنون بالسيد إلا أن له منزلة عند الله أوجبت امتيازه عن غيره ، وأن يقبل الله شفاعته و يسمع دعاء من تشفع به إليه كرما منه تعالى وفضلا . فهم لم يثبتوا له إلا ما أثبته الله . أما الوهابيون فنفوا

اعتراف المخالف بضر الاموات ونفعهم

ما جعله الله له » ثم قال فى هذا الباب أيضا : « والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء والصالحين ينفعون بدعائهم وشفاعتهم أحياء وأمواتا كما نصت عليه أحكام دينهم وأدلته التى ستعرفها ، والتى أثبتت لهم الشفاعة والدعاء ، و يضرون بترك ذلك وبالبعد عن نيل بركتهم ، وهو إعتقاد صحيح مطابق لأدلة الدين الاسلامى . فطلبوا منهم ما جعله الله لهم من دعائه والشفاعة لديه » ، ثم قال من هذا الباب أيضا « فهم يقربون - يعنى الموتى - إلى الله بدعائهم لنا و يشفعون لنا عنده » ، ثم يقول دفاعا عن هؤلاء الضلال : « فالظاهر أنهم لا يعتقدون فى مشايخهم الاستقلال فى التصرف » . وظاهر هذا القول أنهم إذا اعتقدوا أنهم يتصرفون لكن لا استقلالا بل مع الله و بقدرته و إذنه ، فلاشئ فى هذا الاعتقاد، بل ظاهر كلامه أن هذا هو اعتقادهم، ولهذا فإنه دافع فى هذا الباب عما روى عن الشعرانى أنه قال : إن الله وكل بقبر كل ولى ملكا يقضى حاجة من سأل ذلك الولى ، كما دافع عما روى أن امرأة كف بصرها فنادت وليها قائلة : أما الله فقد صنع ما ترى ولم يبق إلا حبك . ويقول فى آخر القصيدة التى وضعها فى آخر كتابه فى نفع القبور والمقبور :

الدعاء فى المساجد غير مقبول وفى القبور مقبول

إن القبور بساكنيها شرفت * فلساكنيها منزل لم يجحد
بركاتها ترجى لداع إنها * بركات شخص فى الضريح موسد
لا بدع إن كان الدعاء إليه فيها صاعداً و بغيرها لم يصعد
إن الأئمة من سلالة أحمد * نقل النبى وقدوة للمقتدى
قالوا : الصلاة لدى محل قبورنا * فى الفضل تعدل مثلها فى المسجد
عنهم روته لنا الثقات فبالهدى * منهم إذا شئت الهداية فاقتد

فدعاء العبد ربه فى بيوت الله فى الأسحار وفى سويعات الاجابة وسويعات الفيوضات الإلهية لن يتقبله الله من عبده ولن يعبأ به ولن ينظر إليه . أما الدعاء

فى القبور فهو الدعاء الذى لا يرد وهو الذى يعرج إليه تعالى مخترقاً الأطباق والحجب والمسافات . والصلاة فى القبور وعند أقدام الموتى تفضل الصلاة فى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبى عليه السلام وجميع المساجد . ولا يختلف المسلمون البصراء بالاسلام أن هذا من شر الالحاد وشر الضلال ــ عياذا بالله . فيالله للاسلام من عدوان الشيعة وضلال الشيعة و بهتان الشيعة ! ألا لا أقر الله عينا تكتحل بالرضا عمن هذه أقوالهم ، ولا أثلج قلبا يحمل لهم المودة والحب ما داموا هكذا يقولون .

الشيعة مفوضة ومعنى ذلك

ذلك كله يدل على أن القوم يعتقدون فى أمواتهم أنهم ينفعون و يضرون و يتصرفون ، غير أن ذلك كما يدعى هذا الشيخ ، ليس استقلالا لأنهم و إنما هو بمشيئة الله وقدرته . . وهذا يضاهى قول المفوضة ، وهم جماعة من الشيعة يزعمون أن الله خلق ، أو ماخلق ، جماعة من آل البيت النبوى ، ففوض إليهم خلق العالم وتدبيره والقيام به وعليه . ولهذا فان هذا المصنف كثيراً مايقول فى كتابه هذا : إن الفرق بين المشركين الأولين و بين هؤلاء المتوسلين : أن المشركين كانوا يدعون مالا ينفع ومالا يضر من الأحجار والأشجار ، ومن الصور والتماثيل ، و يدعون من لم يجعل الله فيهم نفعا ولا ضرا ولا شفاعة ولا أمرا . وأما المسلمون فانهم يدعون من جعل الله لهم ذلك ووهبهم إياه تفضلا منه ونعمة . ومما يقوى أن هذا المصنف وطائفته من المفوضة أشياء ذكرها فى كتابه « أعيان الشيعة » عن شيوخهم الكبار المجمع على إمامتهم وجلالتهم عندهم ، فذكر فى الجزء الخامس من هذا الكتاب ص ٥٢٠ من قول الشيخ إبراهيم بن يحيى العاملى فى النبى ــ برأه الله مما قالوا ــ قوله :

ساد الورى بفضائل وفواضل * وأقلها إيجاد هذا العالم
أنا عبدك القن الذى لا يبتغى * إلا رضاك وأنت أرحم راحم

وقوله أيضا فى مدحه :

وكان وسيلة الراجين منهم * ومفزع كل ملهوف مضام

وقوله فى مدح الحسن:

ذو المعجزات الواضحات أقلها * إحياؤه الموتى من الأحياء

وقولهم فى مدح آل النبى :

وحامى حمى الزوراء موسى بن جعفر * ملاذ بنى الأيام والدهر مجحف

ضامن دار الخلد للزائر الذى * أتاه يؤدى حقه ، لا يسوف

وقولهم فى امتداح على :

حاشاك أن تنسى ولياء اله * إلاك ياغوث الورى من مفزع

وذكر ص ٥٨٨ من هذا الجزء قول أحد أشياخهم فى السيدة زينب :

وكيف لا يطلب الدنيا وضرتها * ولا كو ، وهما أدنى عطاياك

وفى هذا الجزء أيضا ص ٢١٩ فى ترجمة الشيخ إبراهيم بن صادق أحد علمائهم فى امتداح على :

ووجوده وسع الوجود وهل خلا * فى عالم الامكان منـه موضع

كشاف داجية القضاء عن الورى * بعزائم منها القضاء يروع

يامن إليه الأمر يرجع فى غد * ولديه أعمال الخلائق ترفع

وله مآل ثوابها وعقابها * يعطى العطاء لمن يشاء ويمنع

وأرى الألى لصفات ذاتك حددوا * قد أخطأوا معنى علاك وضيعوا

ولأى مجدك ياعظيم المجد لم * يتدبروا وحديث قدسك لم يعوا

ولك الرمام تهب من أجداثها * والشمس بعد مغيبها لك ترجع

والشمس بعـد مغيبها إن ردها * بالسر منك وصى موسى يوشع

فهى التى بك كل يوم لم تزل * من بدء فطرتها تغيب وتطلع

والدهر عبـدك طائع لك لم يزل * وكذا القضا لك من يمينك أطوع

ولئن أطاع البحر موسى بالعصا * ضربا فموسى والعصا لك أطوع

ولئن نجت بالرسل قبلك أمة * فلقد نجت بك رسل ربك أجمع

وصفاتك الحسنى يقصر عن مدى * أدنى علاها كل مدح يصنع

والحمد مقصور عليك ثناؤه * وعـلى سواك لواؤه لا يرفع

وذكر ص ٦٧٣ من هذا الجزء فى ترجمة الشيخ إبراهيم العاملى قوله فى امتلاك العترة لأمور العالمين جميعا :

العالمون بكل علم أحجمت * عنه الخواطر غير كنه الذات

ملـكوا أمور العالمين فأمرهم * ماض على الاحياء والأموات

ثم نقل عن هذا الشيخ أيضا ص ٦٨٧ قوله بعـد أن ذكر النبى وعليـا وفاطمة والحسن والحسين وجعفراً و حمزة وعقيـلا وعبـد مناف فى مصير أمور العالمين إليهم :

هم التسعة الغر الذين اليهمو * أمور الورى فى النشأتين تئول

فلولاهمو ماساغ فعـل لفاعل * ولا طاب منه القول حين يقول

هذه نماذج من أقوال أئمة الشيعة وشيوخهم فى مذهب التفويض ، تفويض أمور العـالم من خلق و إيجاد و إحياء و إماتة و تصريف إلى النبى وآله ، وهذه دلائل لا يختلف فيهـا عـلى أن القوم لا يعتقدون فى موتاهم الضر والنفع والاعطاء والمنع فقط ، بل يعتقدون أنهم يخلقون ويحيون و يميتون و يتصرفون فى هذا العالم الزخار تصرفا كاملا تاما ، ويقـدرون عـلى كل شئ قدرة كاملة غير محدودة ولا معدودة ، بل مطلقة تامة ، وهذا شر الشرك وشر أنواع الـكفر بالله العظيم . ولا خلاف أن هذا الـكفر وهذا الشرك هما شر من كفر الـكافرين و إشراك المشركين الأولين الذين تأبوا الدعوة المحمدية وحاربوها ، مريدين تحطيمها والوقوف فى

أين إيمان هؤلاء من شرك أولئك

سبيلها ، فان أولئك الكفار وأولئك المشركين كانوا يعتقدون بأن خالق العالم وخالق كل شئ هو الله وحده لاشريك له ،وهؤلاء الضلال الحيرى يقولون إن آل النبي هم الخالقون الموجدون لكل شئ ، الصائرة إليهم جميع الأمور . وأين هذه الأشعار من قول أولئك المشركين :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وقولهم :

ألا كل شئ ماخلا الله باطل * وكل نعيم لامحالة زائل

وقولهم أيضا :

تعز فلا شئ على الأرض باقيا * ولا وزر مما قضى الله واقيا

وقولهم أيضا :

أحمد الله فلا ندله * بيده الخيرات ماشاء فعل

وقولهم أيضا :

يا عبل أين من المنية مهرب * إن كان ربي في السماء قضاها

فأين هذه الأشعار التي قالها المشركون من تلك الأشعار التي قالها من قالوا : إنهم مسلمون ؟ فياليت كفر أولئك وشركهم كان إيمانا لهؤلاء وتوحيدا ، و ياليت هؤلاء كانوا فداء لأولئك ، و ياليت لنا رأسا واحدا من أولئك بألف رأس من هؤلاء ، و إننا نحن الرابحون إذن .

منهب الشيعة يقضى بأن يكون الأموات متصرفين

فلا ريب أن هؤلاء الهاتفين بأسماء الموتى يعتقدون أنهم ينفعون و يضرون و يعطون و يمنعون . ولو لا هذا الاعتقاد لما هتفوا بأسمائهم ، ولما رجعوا إليهم عند اكفهرار الأقدار وتشعب الآمال . والشيعة لابد أن يعتقدوا ذلك ، ولابد أن يقولوه ، لأن من مذهبهم أن العباد خالقون موجدون لأعمالهم ،وهم يفارقون أهل السنة في هذه القضية . فالأحياء خالقون لدمهم موجدون متصرفون حقيقة ،

والأموات عندهم مثل الأحياء سواء ، بل هم أحياء عندهم حقيقة . فالأحياء والاموات يقينا متصرفون ينفعون و يضرون و يعطون و يمنعون . فالشيعى إذا ماسأل ميتا فلا بد أن يعتقد أنه قادر على ما يطلبه منه، وأن يعتقد أنه فاعل، وأنه معط مانع ، وضار نافع . وهذا هو الاعتقاد الذى زعم أنه يكون شركا وكفرا بصاحبه ، وهذا هو اعتقاد الكفار والمشركين فى أصنامهم وأوثانهم ، على ماذكر فى مواضع من الكتاب ، و إن كان يزعم فى مواضع أخرى أن الفرق بين هذا الاعتقاد الذى هو اعتقاد المتوسلين من المسلمين، و بين اعتقاد المشركين الغابرين أن المسلمين يعتقدون ذلك فيمن ينفعون و يضرون و يدعون و يشفعون من الأنبياء والصالحين . وأما المشركون فإنهم اعتقدوا فيمن ليس لهم ذلك من الأحجار والأشجار والصور والتماثيل . وهذا هو الفرق بين الفريقين ، ولكن يقال : إذا لم يكن هذا الاعتقاد فيمن يقدرون شركا وكفرا ،لم يكن فيمن لا يقدرون لا شركا ولا كفرا ، على ما ذهب إليه . وذلك أنه طالما قال لمخالفيه : لو فرضنا أن الأموات لا يقدرون على شيء ولا يسمعون شيئا ، وأنهم لا يدعون ولا يشفعون فدعاهم داع على اعتقاد أنهم قادرون ،لما كان فى ذلك بأس ولا شيء ولكان ذلك كمن طلب القيام من مقعد ظانا أنه غير مقعد ، وكمن طلب القراءة من أعمى ظانا أنه مبصر ، وكمن طلب من ميت حاجة ظانا أنه نائم .وحينئذ يقال: له لو لم تكن الاستغاثة بالأموات شركا ولا خطأ ، لأنهم قادرون على الاغاثة والشفاعه والدعاء ، وهذا كاف فى تصحيح دعوتهم والاستغاثة بهم ، لما كانت الاستغاثة بالأحجار والأشجار والصور والتماثيل شركا ولا خطأ ، فمن استغاث بها ظانا أنها قادرة على الإغاثة والشفاعة والدعاء كان كمن طلب من أعمى القراءة ومن مقعد القيام ومن ميت حاجة ظانا أنهم ليسوا كذلك كما قال هو وكما قاس . وعلى هذا لا يكون المستغيثون بالأحجار والأشجار والصور والتماثيل مشركين

إلزام للمخالف

ولا ضالين، وعليه فكفار قريش ومشركوهم ليسوا مشركين ولا كافرين ، وعليه فلا مشرك فى هذه الدنيا .

﴿ ما الفرق بين العاكفين على الأصنام ﴾
﴿ والعاكفين على القبور؟ ﴾

حاول المخالف فى هذا الباب أن يكثر الفروق بين أولئك المشركين العاكفين على الأصنام والأوثان، وبين هؤلاء العاكفين على الأجداث المنقطعين إلى الأموات . ونحن نلخص هذه الفروق هنا ، ونضع إن شاء الله كل شئ فى نصابه .

الفرق بين المشركين العاكفين على القبور عند المخالف

قال : «أما عبادة المشركين للأصنام والأوثان فهى أنهم عمدوا إلى أصنام من حجر أو نحاس أو خشب أو غيرها على صور قوم صالحين متوهمة أو غير متوهمة عملوها بأيديهم ، و إلى أشجار فعبدوها من دون الله وسجدوا لها ونحروا وذبحوا وأهلوا بذبائحهم لها وذكروا أسماءها عليها دون اسم الله ، وطلوها بدمائها وطلبوا منها كل ما يطلب من الله ، وأعرضوا عن عبادة الله فكانوا يقولون : لا طاقة لنا على عبادة الله ، فنحن نعبدها لتقربنا إلى الله . وهذا صريح فى أن عبادتهم لها غير طلبهم الشفاعة منها ، وتشفعوا بها وخالفوا أمر الله وأنبيائه فى نهيهم عن عبادتها وطلب شئ منها ، وخالفوا مقتضى عقولهم الحاكمة بأنها جماد لا تضر ولا تنفع ، ولا تعقل ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع ، ولو كانت على صورة نبى أو صالح . فان الشافع هو النبى أو الصالح لا صورته المتوهمة ، ولا تدفع عن نفسها بول الثعالب ولا روث الدواب فوقها . ومنهم من عمل صنماً من تمر فسجدوا له أول النهار فلما كان آخر النهار جاعوا فأكلوه . وكانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله ، وأشياء منها لآلهتهم . فاذا ما زكا ما جعلوه لله رجعوا

فجعلوه للآلهة، وإذا ما زكا ما جعلوه للأصنام تركوه . وذلك قول الله : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا : هذا لله، بزعمهم ،وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون » . ولم يفعل أحد من المسلمين شيئاً من ذلك مع نبي ولا ولي ولا قبر ولا غيره . . . فهذه الاعتقادات والأعمال والتكذيب للرسول هي التي قاتلهم النبي عليها ودعاهم إلى تركها ، لا على مجرد التشفع بنبي أو صالح والتوسل به . وأما عبادتهم الملائكة فقد اتخذوهم أرباباً من دون الله كما يدل عليه قول الله : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ » . وفي هذا دليل على أنهم فعلوا واعتقدوا بالنسبة إليها ما هو من خصائص الربوبية من سجود ونحوه من أنواع العبادات والاعتقادات . وكانوا يقولون في الملائكة : إنهم بنات الله . وبهذا ظهر أن كفرهم ليس بمجرد استغاثتهم بالملائكة وتشفعهم وتوسلهم بهم . فالمتشفع بهم ليس مخطئاً فضلا عن أن يكون مشركا . . . » .

ثم قال : « مع أنهم (يعني المشركين) كانوا يعبدون صور الأنبياء والصالحين لا أنفسهم » قال : « ولم يقاتلهم على مجرد التشفع بالصالحين بل على عدم قبولهم أحكام الإسلام وتكذيبهم للنبي مع ظهور المعجزات على يديه وارتكابهم الموبقات والعظائم حتى من يعبد صور الصالحين من الأحجار المنحوتة » قال : « وجميع هذه الأمور (يشير إلى الاستغاثات بالأموات وكل ما يعمل لدى القبور) سواء سميت عبادة أو لا لا تعد شركا ولا كفرا ، لأن الممنوع منه الموجب للشرك هي عبادة خاصة وهي ما كان عن غير أمر الله ، أو عناداً له أو بقصد الاستحقاق الذاتي كاستحقاق الله .

« فالمشركون كذبوا الرسول وأنكروا ما جاء به ، ومنهم من قال عيسى هو

الله . والمسلمون أقروا بالله و برسوله و بكل ما جاء به . فكيف يقاس أحدهما بالآخر و يجعل مساويا له ؟ والمشركون اعتقدوا فى أحجار وأشجار وجمادات لاتضر ولا تنفع ، ولا تعقل ولا تسمع ، ولا تغيث ولا تشفع ، سواء أ كانت صور صالحين أو غيرهم ـ فالشافع الصالح لا صورته ـ أنها تضر وتنفع وتغيث وتشفع، فتشفعوا بها واستغاثوا وعظموها ، ولم يجعل الله لها شيئاً من ذلك ، بل نهى عن التشفع والاستغاثة بها وتعظيمها . والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء والصالحين ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، و يضرون بترك ذلك . والمشركون عظموا مالا يستحق التعظيم سواء كان صورة صالح متوهمة أو غيره . فان الصور لا تستحق تعظيما . وطافوا وتبركوا بمالم يجعله الله مباركاً . والمسلمون عظموا من أمر الله بتعظيمه حيا وميتاً من الأنبياء والصالحين وقبورهم ، وطافوا وتمسحوا وتبركوا بها لتشرفها بأجسادهم الشريفة . فهل يسوى بين هؤلاء وهؤلاء إلاجاهل أو معاند ؟ والمشركون عبدوا تلك الأحجار والأشجار بأنواع العبادات التى نهاهم الله عنها ، فسجدوا لها وذبحوا ونحروا مهلين بأسمائها على ذبائحهم دون اسم الله ، وطلوها بدمائها وأعرضوا عن عبادة الله بالكلية ، وقالوا: لاقدرة لنا على عبادته ، فنحن نعبدها لتقربنا إليه ، واعتقدوا أن لها شرفاً ذاتيا واستحقاقا للعبادة بالاستقلال واختيارا وتدبيرا . وكانوا يقولون : «اعل هبل» قاصدين أن تكون كلمة الأصنام ودين الجاهلية هى العليا ، وكلمة الله ودين الاسلام هى السفلى . فأعرضوا عن ذكر الله واكتفوا بذكرها . وكذبوا الرسل الذين نهوهم عن عبادتها ولم يكتفوا بذلك بل بدلوا دين الله وغيروا أحكامه . والمسلمون لم يعبدوا نبيا ولا صالحا ولا قبره . فهل يسوى بين عمل المسلمين هذا و بين عمل المشركين إلا جاهل ؟ » .

هذه خلاصة الفروق التى ذكرها فى هذا الباب بين العاكفين على الأصنام

الأوثان و بين العاكفين على القبور والأجداث . وهذه الأمور هى التى قضت عنده بكفر الكافرين وشركهم. وقضت بأن يفرى بهم الحسام إن لم يقبلوا الاسلام .

﴿ خلاصة هذه الفروق ﴾

وهذه الفروق تتلخص على ماذكر فيما يأتى

اجمال الفروق بين المشركين وبين العاكفين على القبور

أولا ـ : أن المشركين عمدوا إلى أحجار وأشجار وصور قوم صالحين فعبدوها من دون الله فسجدوا وذبحوا ونذروا وأهلوا بذبائحهم لها وذكروا أسماءها عليها دون اسم الله ، وطلوها بدمائها وطلبوا منها كل مايطلب من الله ، وأعرضوا عن عبادة الله ، وكانوا يقولون: لاقدرة لنا على عبادته وتشفعوا بها وخالفوا أمر الله وأمر أنبيائه فى نهيهم عن عبادتها وطلب شئ منها ،وخالفوا حكم عقولهم بأنها جماد لاتضر ولاتنفع ولاتشفع ولاتعقل شيئا، ولوكانت صورة نبى أو صالح ، فان الشافع هو النبى والصالح لاصورتاهما .وأما المسلمون فانهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ،فكيف يسوى بين الفريقين ؟

ثانيا ـ : أن منهم من عمل معبوده بيده فعبده كما صنع بعضهم له صنماً من تمر فسجدوا له أول النهار ثم أكلوه آخره . وهذا لم يفعله أحد من المسلمين، فكيف يسوى بين الفريقين ؟

ثالثا ـ : أنهم كانوا يجعلون أشياء مما خلق الله ومما رزقهم له تعالى و باسمه ، و يجعلون أشياء من ذلك لأصنامهم . وكانوا لايعدلون بين الله و بين خلقه فى هذه القسمة وذاك الصنيع ، بل كانوا يفضلون أصنامهم وأوثانهم عليه تعالى ، فكانوا إذا ما نما وزكا ماجعلوه لله عدلوا فصرفوه لأصنامهم ، و إذا مازكا ونما ماجعلوه لأصنامهم لم يجعلوا لله منه شيئاً ، و إلى هذا يشير قول الله : « وجعلوا لله مماذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » الآية . والمسلمون لم يفعلوا من ذلك شيئاً ، فهم لايستوون مثلا .

رابعاً : المشركون اتخذوا الملائكة أربابا وصرفوا لهم ما هو من خصائص الرب كالسجود وغيره من أنواع العبادات ، وكانوا يزعمون أنهم بنات الله . والمسلمون لم يصنعوا من ذلك شيئاً

خامسا — : المشركون كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام وردوا ما جاءهم به . والمسلمون مصدقون مؤمنون بما جاء به عليه الصلاة والسلام

سادسا — : المشركون اعتقدوا فى أحجار وأشجار أنها تنفع وتضر وتشفع وتغيث ـ وهى لا تقدر على شئ من هذا ـ فتشفعوا بها واستغاثوها وعظموها ، والله لم يجعل لها ذلك ، بل نهى عنه . والمسلمون اعتقدوا أن الأنبياء والصالحين ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، ويضرون بترك ذلك . فلاهم إذن سواء

سابعا — : المشركون عظموا مالا يستحق التعظيم سواء أكان صورة عبد صالح أم غيره ، فان الصورة لا تستحق تعظيما ، وطافوا وتبركوا بما لم يجعل الله فيه من البركة شيئاً . والمسلمون فعلوا ذلك بمن أمر الله بتعظيمه من الأنبياء والصالحين . وشتان ما بين الأمرين والفريقين !

ثامنا : المشركون اعتقدوا أن للأصنام من الأحجار والأشجار شرفاً ذاتياً ، واستحقاقا للعبادة بالاستقلال ، واعتقدوا أن لها اختيارا وتدبيراً ، وقد كانوا يقولون لأصنامهم : « اعل هبل » يريدون أن يكون دين الجاهلية والشرك هو الظاهر الأعلى . ولم يكتفوا بذلك بل بدلوا دين الله وغيروا شرائعه وأحكامه . والمسلمون لم يفعلوا هذا فكيف تجوز التسوية بين الفريقين ؟ ؟

هذا إجمال الفروق بين المشركين العابدين للأصنام والأوثان وبين المستغيثين بالأموات المنقطعين إلى القبور الطالبين من سكانها جميع حاجاتهم وآمالهم الدنيوية والأخروية .

﴿ لافرق بين الفريقين ﴾

وهـذه الفروق كلها فروق باطلة كاذبة فـلا فرق بين الحزبين فى الحقيقـة وبيان ذلك :

أما الفرق الأول وهو أن المشركين عبـدوا الأحجار والأشـجار وصور الصالحين ، فذبحوا ونذروا لها وتشفعوا بها ـ إلى آخر ماذكر فى الفرق الأول ، فيقال : إذا سلم أن الاستشفاع والاسـتغاثة بالأحجار والأشجار والصور ، وأن الذبح والنذر لها ودعاءها ونداءها وسؤالها مايسأل الله من عظيم المطالب والحاجات إذا سلم أن ذلك شرك كله موجب غضب الله وسخطه ونقمته فقد سلم مانازع فيه وأقر ما كان أنكر ، ورجع إلى قول مخالفيه . وذلك أن نزاعه كله قائم على أن هذه الأعمال من الاستغاثات والاستعانات والضراعات والنذور والذبح ليست عبادة ما ، وليس صرفها إلى غير الله شركا بالله ولا خلافا له ، وليس التوجه إلى المخلوق بها موجباً كفرا ولا ضـلالا . وكان وجه هـذا القول ودليله لديه أن ذلك لو كان عبادة لما جاز أن يتوجه به إلى غير الله ، لا إلى الأحياء ولا إلى الأموات ، فى حالة من الحالات .ولكن لاخلاف فى أن هذه الأمور يجوز التوجه بها إلى المخلوقين فيجوز الاستغاثة والاسـتعانة بالاحياء فيما يقـدرون عليه عادة ، ويجوز سؤالهـم مافى طاقتهم فعله والقيام به .ويجوز نداؤهم إلى مايستطيعون أن يجيبوا إليه ، كما يجوز النذر للفقراء ، والذبح للعظماء ، على معنى الاحسان والاكرام ، وكان جوابه إذا قيل له : إن الاستغاثة بالأموات ضلال وخروج على الدين أن يقول : كلا ، فانه لو كان ذلك كذلك لما جازت الاسـتغاثة بالأحيـاء وهى جائزة بالاجمـاع فيما يقدرون عليه . فاذا قيل له : ليسوا سواء: الأحياء والأموات.لأن الأحياء يقدرون والأموات لايقدرون ، قال : إن الأموات مثل الأحياء سواء يقدرون عـلى مايقدرون عليه بلا فرق ، وقال : إذا فرض أن الأموات حقا لايقدرون

إبطال الفرق الاول

على شيء لم تكن الاستغاثة بهم شركا ولا ضلالا بل تكون كطلب القراءة من الأعمى على زعم أنه مبصر ، وطلب القيام من المقعد على ظن أنه غير مقعد ، وطلب الحاجات من الميت على ظن أنه نائم.فليس فى هذا ضلال ولا شرك ولا كفر وكان يأبى أن ينزع عن هذه الحجة أو يتهاون فيها . . . فنحن حينئذ نقول له : إذا أقررت أن الاستغاثة والاستعانة بالأحجار والأشجار والصور ، وأقررت أن النذر والذبح لها والاستشفاع بها من أعمال المشركين التى أكفرهم الله بها ، وقاتلهم رسوله عليها ،فلا بد أن تكون كذلك سواء أصرفت للأحجار والأشجار والصور والتماثيل ، أم صرفت للأنبياء والأولياء والصالحين . لأن عبادة الصالحين والانبياء لاتجوز ، كما أن عبادة الأحجار والأشجار والصور لاتجوز.و إذا كانت عبادة الجمادات من الأحجار والأشجار والصور كفرا وشركا بالله،فلابد أن تكون عبادة الانبياء والأولياء والصالحين كذلك كفرا وشركا بالله . إذ لا خلاف بين الناس أن عبادة المخلوق ، مهما كان ذلك المخلوق المعبود ، من العقلاء أو من غير العقلاء ، خروج على الدين وعلى التوحيد ،وإشراك لاريب فيه ولاخلاف . وذلك أن المطلوب من العباد ، المفروض عليهم أن يعبدوا الله وحده لاشريك له ولاند وأن يصرفوا ذلك كله له لا إله إلا هو رب العالمين.وليس المطلوب منهم أن يعبدوا فريقا من الخلق دون فريق ، وأن يختاروا لعبادتهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، أو أن يختاروا لها عقلاء الخلق دون جمادهم.ولايختلف الناس أن عابد النبى والولى ضال ، كما أن عابد الحجر والشجر ضال ، وأنه إذا لم يكن عابد الأنبياء والصالحين كافراً ولامشركا فعابد الاحجار والأشجار والجمادات كذلك ليس كافرا ولا مشركا . وما قال أحد من المسلمين : إنه تجوز عبادة مخلوق دون مخلوق .

الشرك شرك وجه إلى الأنبياء أم إلى الجمادات

فاذا قال هـذا الشيعى : إنه لا تصح التسوية بين الأنبياء والصالحين والجمادات لأن الله أمر بالاستغاثة بالأنبياء والاستشفاع بهم ، وقد جعلهم أهلاً

لذلك قادرين عليه ، دون الجماد ، فإنه لا يشفع ولا يغيث ولا يدعى ، فكيف يسوى بينهما ! ؟ قيل: نحن لا نزعم التسوية بينهما ولا ندعيها ،ولكن نقول : إذاكانت الاستغاثة والاستعانة بالاحجار والصور عبادة لها وشركا بالله ،فلابد أن تكون الاستعانة والاستغاثة بالانبياء والصالحين كذلك:عبادةلهم وشركا بالله ،كما قال الشيعى نفسه فى غير ما موضع من كتابه : « لو كانت الاستغاثة بالأموات ضلالاً وكفرا لكانت كذلك بالأحياء ». وكما قال : «إذا لم يكن سؤال الأحياء الغوث والعون والمدد شركا بالله لم يكن سؤال الأموات ذلك شركا، لأن الشرك شرك سواء أوجه إلى الأحياء أم إلى الأموات ، وما ليس شركا ليس شركاوجه إلى الميت أم إلى الحى » . هذا معنى كلامه .

ثم نقول أيضا : هب الأموات ، من الانبياء والصالحين ، يقدرون على مايسألون ، وهب الأحجار والاشجار والصور لا تقدر على شئ من ذلك ، وهى حقا لا تقدر ، فهل يلزم هذا أن تكون دعوة الأموات والاستعانة بهم وسؤالهم ما يقدرون عليه جائزة ، ويكون سؤال الأحجار والأشجار والصور العون والغوث ، بزعم أنها تقدر على ذلك، شركا وضلالا ؟ إننا نقول هذا لا يمكن أن يصح على ماذهب إليه المخالف ،فإنه طالما زعم أن من ظن شيئاً قادراً على إغاثته وعونه فاستغاثه واستعانه لم يكن فى هذا الظن الخاطئ ، ولا فى دعائه واستعانته المبنيين على ظنه الخاطئ ، ضلال ولا كفر ، بل كان ذلك كمن طلب من أعمى القراءة ظانا أنه غير أعمى .وأمثال هذا . . وقد قال هذا القول ولجأ إليه فراراً من تخطئة دعاة الأموات ، لأن مخالفيه قالوا له : إن الأموات لا يقدرون ولا يسمعون ولا يشفعون ولا يعملون لمن لاذ بهم شيئاً ، فقال مجاوباً :لو فرض أن هذ كله صحيح لم يوجب تضليل من دعاهم واستغاثهم حاسبا أنهم قادرون فاعلون ، بل هو كمن طلب من المقعد القيام حاسبا أن غير مقعد ، فليس فيه

ضلال ولا كفر ولا شئ من التأثيم . ونحن نقول : إذا كان هذا صحيحا كان رداً عليه هنا ، وإذا لم يكن صحيحا بطل قوله فى دعوة الأموات ودعائهم ، وبطل قياسه دعاة الموتى العاجزين بمن طلب من العميان القراءة ، ومن المقعدين القيام والذى نريد أن نستخلصه من كلامه هذا إقراره أنه قد كان من إشراك المشركين وكفر الكافرين استغاثتهم واستعانتهم بالأحجار والأشجار ، وسؤالهم إياها كل مايسأل الله ، وكذا الاستشفاع بها والذبح والنذر لها ، فانه إذا أقر أن ذلك كله عبادة لتلك الحجارة ، ثم أقر بأن تلك العبادة شرك بالله ، قيل له : إن عبادة غير الله لاتجوز ألبتة ، فلا تجوز عبادة الأنبياء وأهل الصلاح ، كما لاتجوز عبادة الأحجار والأشجار . فاذا كان المستغيث المستشفع بالحجر ظانا أنه قادر كافرا وجب أن يكون المستغيث المستشفع بالأموات كذلك ، لأن العبادة عبادة ، ولأن الشرك شرك ، أين وضعا وحيث صرفا .

إقراره أن من الشرك دعوة المخلوق واستغاثته

على أننا نقول كما قال الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل : « وبالجملة وضع الأصنام حيث قدر إنما هو على معبود غائب حتى يكون الصنم المعمول على هيئته وشكله وصورته نائبا منابه وقائما مقامه . وإلا فنعلم قطعاً أن عاقلا ما لاينحت بيده خشباً صورة ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه وخالق الكل ، إذ كان وجوده مسبوقا بوجود صانعه ، وشكله محدثاً بصنعة صانعه . ولكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها وربطوا حوائجهم بها من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله كان عكوفهم ذلك عبادة ، وطلبهم الحوائج منها إثبات ألوهية لها . وعن هذا كانوا يقولون: « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فلو كانوا مقتصرين على صورها فى اعتقاد الربوبية لما تعدوا عنها إلى رب الأرباب » انتهى قول الشهرستانى

كلام الشهرستانى فى أن عبدة الاصنام لايعبدن جماداً وإنما يعبدون أحياء

ونقول حينئذ : إن المشركين عبدة الأصنام لم يكونوا يعبدون الأحجار والأشجار فيذبحون وينذرون لها ويدعونها ويستغيثونها ويستشفعون بها ، وهم

يعلمون انها أحجار وأشجار مجردة عن كل معنى وعن كل قصد ، فان هذا ظاهر البطلان ، ولكنهم عبدوها رامزين بها إلى معبودات أخرى أعظم وأرق . فقد كانوا يصنعون تماثيل الأنبياء والصالحين فيعبدونها وهم يريدون عبادة أصحابها ، فيتوجهون إليها وهم يريدون التوجه إلى الأنبياء والصالحين أنفسهم ، كما يعبد النصارى صورة المسيح وصورة العذراء وصور القديسين ، وهم يريدون بلا شك عبادة نفس المسيح ونفس مريم ونفس القديسين ، لا عبادة صورهم التى عملوها بأيديهم والتى يحطمونها متى شاؤا بأيديهم أيضاً . ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام عند ماذكرت له كنيسة بأرض الحبشة ،وذكر له مافيها من الصور قال: « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح ،أو العبد الصالح ،بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » فان القوم يصورون صور الصالحين فى معابدهم فيتوجهون إليها بالعبادة وبأنواع الضراعات والاستغاثات وهم لا يعنون سوى التوجه إلى أصحاب الصور ، ولكنهم نصبوا صورهم بين أيديهم وتحت أبصارهم ليكون فى هذا لهم تحضيض وتنشيط على العبادة والتقوى كما قد يقصدون به الاحترام والاجلال. ولاجل ذلك كان نهى الاسلام شديدا صريحا عن اتخاذ الصور والتماثيل ،ولاسيما إذا كانت صوراً وتماثيل لصالحين روحانيين من الأنبياء والمرسلين . فإن فى هذا الخطر الأكبر ، والبلاء الأحمر . وقد أتى المشركون ـ أكثر ما أتوا ـ من هذه الناحية ، ناحية التعلق بآثار الصالحين ومعالمهم وأطلالهم من صور وتماثيل ومعابد . وقد كان ضلال قوم نوح وفساد عقيدتهم آتيا من هذه الناحية ، كما ذكر أهل العلم . فقد حكوا أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كانوا رجالا صالحين فى قوم نوح ،يأمرون بالطاعات والمعروف ، وينهون عن المعاصى ، فكانوا مرضيين محبوبين فى قومهم . فلما أن ماتوا وأرادوا استبقاء ذكراهم، استبقاء لما كانوا يأمرون به ويدعون إليه ،صور

مبدأ شرك المشركين من الصور والتماثيل

صورهم ونصبوها فى معابدهم وميادينهم لتذكرهم بهم وبما كانوا عليه من الخير والاستقامة: هكذا كانوا فى بدء الأمر ثم دب فيهم دبيب الغلو ثم طفر بهم الغلو حتى عبدوهم ، وقد كانوا يأمرونهم بعبادة الله وحده، وأشركوا بهم فى عبادة من كانوا ينهونهم عن أن يشركوا به شيئاً ، ونسوا عهود الحى ، ونسوا الغرض الأول ، ونسوا ما كان عليه أولئك وما كانوا يدعون إليه من التوحيد والإخلاص لله . وقد حكى أهل العلم وأهل السير أيضا أن هذه الأصنام كانت فى العرب من بعد قوم نوح: أما ود فكان فى كلب ، وأما سواع فكان لهذيل ، وأما يغوث فكان لمراد ، وأما يعوق فكان لهمدان ، وأما نسر فكان لحمير . ولاريب أن الذى بقى للعرب من هؤلاء هى تماثيلهم وصورهم . فكانوا يعبدون الصور ويتوجهون إليها بالأدعية والضراعات والمعنى بذلك هم أصحابها. وقد كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مصورين فى الكعبة فى العهد الجاهلى ، وكانت أصنام العرب كذلك تماثيل وصوراً . وقد كان أعظم أصنامهم «هبل» . وقد ذكر الكلبى فى كتاب الأصنام وغيره أن « هبل » هذا كان على صورة الانسان وكان من العقيق الأحمر . وذكر هو وابن إسحاق وغيرهما أن « أساف ونائلة » وهما من أصنام العرب ، رجل وامرأة مسخا حجرين . وكانا ، فيما ذكروا، عشيقين فسقا فى جوف الكعبة فمسخا حجرين فنصبوهما ليتعظ الناس بهما ، فلما طال لبثهما وعبدت الأصنام عبدا معها . وذكر الكلبى أيضا على وجه التعميم أن الأصنام معناها التماثيل ، وقال : ما صنع من خشب أو فضة أو ذهب على صورة إنسان فهو صنم، وما صنع من حجارة فهو وثن . وهذا يدل على أن أصنام العرب وأوثانهم كلها ما كانت إلا صوراً وتماثيل لقوم صالحين أو طالحين ظنوا من الصالحين. وقد وجد حول الكعبة يوم الفتح ثلثمائة وستون صنما مرصعة بها فجعل رسول الله يطعنها بقوسه فى عيونها و وجوهها (وهذا يدل أيضا على ما قال الكلبى من أن الاصنام

أصنام العرب وصفتها

والأوثان لم تكن سوى صور وتماثيل) ويقول حين طعنها « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » فتساقطت على رؤسها ، ثم أمر بها فأخرجت منها وحرقت . وكل هذا يدل على أنها كانت صوراً وتماثيل ذوات رؤس وعيون ووجوه . وذكروا أن اللات، وهو من أعظم أصنامهم ، كان رجلا صالحاً يعمل الطعام للحجيج فلما مات عبدوه ، وكذلك ذكر فى العزى ثانية الأصنام الكبرى .

اللات والعزى وودوغيرها من الاصنام لم تكن الا رجالا

وقد قيل فى صفة « ود » وهو يعبد فى جاهلية العرب : « كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، عليه حلتان ، متزر بحلة مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، وجعبة فيها نبل » . وقد كان قوم إبراهيم مرضى بهذا الداء، داء عشق التماثيل ، فبعث الله خليله إبراهيم ليدعوهم إلى الله وحده ليدعوا تلك الآلهة التى عملوها بأيديهم . فدعاهم ليلاً ونهاراً فلما لم يسمعوا لدعوته ولم ينتهوا عن غيهم سطا على تماثيلهم فجعلها جذاذاً وترك لهم كبيرهم ليتحداهم بسؤاله واستنطاقه . ولكن القوم كانوا قد بلغوا حالة لا يسمعون معها صريف حجة ولا يصيخون إلى جلجلة برهان . وهكذا كان غيرهم من عبدة الصور والتماثيل فى أول الزمان إلى آخره . وبهذا قضت سنة الله . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

من أسباب عبادة الاصنام

وقد ذكر ابن إسحاق والكلبى أنه كان من أسباب عبادة الأصنام والأوثان فى العرب أن الواحد منهم كان إذا أراد سفرا حمل معه حجراً من حجارة البيت تبركا به وتعظيما ، فكان فى سفره يطوف بذلك الحجر ويتبرك به كلما طاف برأسه الشوق إلى البيت . فظلوا يتنقلون فى درجات الغلو والجهالات حتى بلغوا القمة ، وحتى صاروا إلى عبادة الأحجار والجماد . ولا ريب أنهم ما عظموا البيت وحجارته إلا تعظيماً لبانيه وواضع قواعده ، وإلا تعظيما لآثار الأنبياء .

وهذا الذى ذكرناه كله لاريب فيه ، وهو يدل على أن القوم ما كانوا يعبدون

المشرك لم يعبد جماداً

حجارة مجردة ولا جماداً جامداً ، لا لشيء غير اعتقادهم أنه إله من حجر ، ورب من جماد . فإن هذا مستحيل فى بدائه العقول . . بل كانوا يعبدون تماثيل الصالحين وتماثيل الكواكب العلوية ويتوجهون إليها ، وهم يقصدون أصحابها . فالمعبودون فى الحقيقة هم الأحياء المختارون . وعلى هذا لا فرق بين أولئك المشركين العاكفين على أصنامهم فى جاهليتهم ، وبين هؤلاء العاكفين على قبورهم وأجداثهم فى إسلامهم . فإن الجميع عبدوا الصالحين واستغاثوهم وضرعوا إليهم واستشفعوا بهم ، والجميع عكفوا على الجمادات ، إلا أن أولئك عكفوا على تماثيل وصور ، وهؤلاء عكفوا على قبور وأجداث ، ولكن الجميع جماد ، ولكن الجميع موات لا يضر ولا ينفع ، ولا يسمع أو يشفع

على أننا نقول : إن هؤلاء الضالين من المسلمين قد عبدوا الاحجار والأشجار ولم يقفوا عند عبادة الأنبياء والصالحين ، حتى لقد اختلقوا لذلك حديثا زعموه نبوياً — وقد كذبوا — وهذا الحديث هو ما شاع على أفواه العامة وأشباههم من علماء السوء ، وهو : «لو اعتقد أحدكم فى حجر لنفعه» وقالوا : إن الله قد وكل بقبر كل ولى ملكا يقضى حاجات من جاء ذلك القبر فدعا واستغاث . وقد افتتن هؤلاء بهذا الضلال وجنوا به حتى جاءوا بكل طريف ولون : فطوائف منهم عمدوا إلى باب صنعوه بأيديهم فاعتقدوا فيه سر الأسرار ومفتاح ما أغلق من الحاجات ، واعتقدوا أن ثم قطبا من أعاظم الأقطاب المتصرفين فى الوجود يقضى حوائج من جاؤا إلى ذلك الباب وطافوا به وتعلقوا وربطوا به الخرق والحبال فراحوا إليه من كل فج وصوب فتطوفوا وقبلوا وعلقوا وتعلقوا وخضعوا وضرعوا وجاءوا بكل إفك مبين . وهذا «كباب المتولى» فى القاهرة .

أنواع الآلهة المعبودة اليوم

وطوائف أخرى صنعوا جملة أضرحة لميت واحد فزخرفوها وغالوا فى تشييدها ورفع شأنها ، وحلوها بكل فن من الزينة وكل لون من طرائف المعلقات . فذهبوا

يطوفون بهذه القبور ويحجون إليها من كل مكان ، ويربطون بها حوائجهم وراحوا يستغيثون ويستشفعون ويسألون ويقدمون ألوان الهدايا والنذور من الأنعام والخبز والشموع والنيران .

ومنهم من اعتقدوا فى شجرة وزعموا فيها سرا ، وأنه لديها تنال المآرب والحاجات . فقصدوها فأملوا بركتها وشفاعتها وطلبوا حولها كل رغيبة . فأريقت تحتها المدامع ، ونثرت حولها الرغبات والشكايات .

ومنهم من اعتقدوا فى غار من الغيران ، لأنهم زعموا أن وليا من الأولياء أو نبيا من الأنبياء قد نزل ذلك الغار فوضع فيه أحد أسراره وإحدى بركاته فأصبح غارا مزورا معظما ترجى بركاته وتتعهد زياراته .

ومنهم من وجدوا حجرا مخدوشاً مثقوبا فزعموا أن ذلك الثقب أو الخدش أثر لأحد عباد الله الممتازين الذين تدرك بمجىء آثارهم المطالب وتنال بالطواف بها الآمال . فقدسوا ذلك الحجر وأموه ورجوه فغدا من الأحجار المزورة المقدسة

ومنهم من وضعوا حيوانا مهينا كحمار أو كلب فى تربة من الترب وأعطوها هيئة المقام المقصود المزور ، فتهافت الناس إليه فزاروه ، واستغاثوه وطافوا به وقدموا له أصناف الهدايا حتى صار وليا من الأولياء الكبار . ولعل كثيرا من هذه المقامات لا تعدو حقيقتها هذا

ومنهم غير هؤلاء وهؤلاء مما هو قائم فى كل مكان، ماثل فى كل قطر إلا القليل النزر . وهؤلاء فى نفس الأمر إنما يدعون جمادات ويتعلقون بأحجار وخلقان وإن زعموا أنهم لا يقصدون غير أولياء الله المقربين ، وعباده الصالحين الذين لهم ما يشاؤن : بل نقول . إن جميع هؤلاء المنقطعين إلى القبور والمقامات إنما يقصدون أحجاراً وبنايات ، ويتعلقون بجمادات من ستائر ومعلقات وشموع ونيران والدليل القاطع على ذلك أن هؤلاء الحيرى يعطون القبر ويلجؤن اليه ويتعلقون به

العاكفون على القبور لا يرجون إلى غير الجماد

مافوقه وما حوله من الزينات والمعلقات ، و بقدر مايصل اليه من النذور والهدايا، و بقدر كثرة الطائفين به والمنقطعين إليه إن قليلا فقليل و إن كثيرا فكثير. ولهذا فانهم مثلا فى مصر يعظمون البدوى أكثر من تعظيمهم للامام الشافعى والليث بن سعد ، ومن تعظيمهم لأبى بكر وعمر وسائر الصحابة ، بل و يلهجون باسم هذا البدوى عندالشدائد والملمات أكثر من لهجتهم باسم النبى عليه السلام وأسماء الصحابة وكرام الأمة ، بل لعلهم لايذكرون أحداً من هؤلاء عند احمرار الاقدار واتساع الآمال . وهذا هو الشأن فى كل قطر و بلد : يعظم أهله صاحب المقام الرفيع الفاخر ، دون ذى الذكر الباهر ، ويدعون من شيدت على قبره القباب والمعلقات ، دون من شيدت حياته وسيرته على الصالحات ، و ينقطعون إلى من كثرت حول تربته النذور ، و ينسون صاحب العمل المبرور . كل هذا حق لا نزاع فيه . فاذا سألت ماسر ذلك ، قلنا لك : إن السر فيه أن هؤلاء الجاهير لايعبدون أشخاصا و رجالا،ولا أولياء وأنبياء و إنما يعبدون مايرونه من الزينات والمعلقات والقبور والقباب الضخمة الفخمة،والبنايات المشيدة على جهل الجهلاء . فهذا هو مايعبدون ، وهذا هو مايدعون و يرجون ، وهذا هو مايزورون وما يقصدون . أما الطلسم الذى من أجله عبدت هذه المشاهد فهو مايزعم فيها من الأسرار والبركات المتدفقة اليها من أولئك الأولياء والمشايخ المجهولين . فالمعبود هو الجماد والزخارف،وطلسم هذه العبادة هو أسرار قوم غائبين مجهولين . فمن قال إن ضلال المسلمين لم يعبدوا جمادا ولا حجرا كما عبد أهل الجاهلية : فقد كذب أو جهل .

من الدليل على ذلك

لا يعبدون أشخاصاً و[illegible] يعبدون [illegible] وزينات

نعم نحن لا ننكر أن هؤلاء إنما تعلقوا بهذه الجمادات و بهذه القبور والاحجار لأجل مايظنون فيها من أسرار الصالحين ، ومايدعونه من بركاتهم الحالة فى هذه الجمادات المائلة فيها : نعم نحن لا ننكر هذا ، ولكن نقول : إن هذا عينه هو

بلاء المشركين وقصدهم فى كل عصر ومصر. فالمشرك لن يعبد الحجر وهو يعلم أنه حجر لا أكثر ولا أقل، ولكنه يعبده ويضرع إليه لأن فيه بزعمه سرا إلهيا ومعنى روحيا من أسرار ومعانى عباد الله المقربين، لأنه مثلا صورة صالح أو تمثال نبى أو أثر من آثارهم، وإلا فان عاقلا لا يمكن أن يلجأ إلى جماد مجرد من كل معنى.

وعباد الكواكب والأفلاك العلوية ما عبدوها إلا لظنهم أنها عاقلة متصرفة فاهمة، ولو علموا أنها جماد مجرد ما عبئوا بها ولا قصدوها بشىء من عباداتهم. ولا ريب فى هذا عند من أعمل النظر وأحكم الفكرة. فان العاقل لا يمكن أن يرغب فى غير العاقل. وما ضرع الحى إلا لحى أو لجماد يحسب أنه ينتسب إلى الأحياء أو إلى معنى معانيهم وسر من أسرارهم. والناس كافة مجبولون على الاعتراف بنقصان الميت وفاقد الحياة والشعور. فعابد الجماد إنما يعبد فى زعمه حيا عاقلا أكمل منه حياة وعقلا، وهذا هو السر فى عبادته إياه. ولولا هذا الوهم الخاطئ لما استجاز لنفسه أن يعبده وأن يرغب إليه ولوجد فى نفسه وإنسانيته من الأنفة والكبرياء ما يسمو به على عبادة الجماد وعبادة فاقد الحياة. وقد كان العرب المشركون يقولون فى أصنامهم ومعبوداتهم من دون الله: إنها تقربنا إلى الله زلفى، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويقولون: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» وهم يعلمون بداهة أن الأحجار والأشجار المجردة عاجزة عن أن تقرب أحداً إلى الله، وعن أن تشفع لاحد لديه تعالى، وعن أن تعلم من أمر عابديها شيئاً. ويعلمون بالضرورة أن الذى يشفع ويقرب ويعلم هو العاقل الحى. وهذا علم يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم. فالمشركون العاكفون على الأصنام والاوثان يعبدون أصناماً وأوثانا يظنونها عاقلة فاهمة عالمة كحال عبدة القبور ولا فرق.

الانسان لا يمكن ان يقصد بعبادته غير الحى

وقد اعترف الشيعى هنا أنه قد كان من شرك المشركين دعاؤهم صور الصالحين، وسؤالها ما يسأل الله، وذبحهم ونذرهم لها، واستشفاعهم بها. ومما

لاشك فيه أنهم إذا دعوا الصور واستغاثوها واستشفعوا بها وسألوها فانما يريدون بذلك كله أصحابها أصالة وقصداً . أما الصور نفسها فلا ريب فى أنهم يعلمون أنها لاتستحق عبادة ولا شيئاً ، و يعلمون أنها عاجزة عن أن تعمل عملا وعن أن تقدم أو تؤخر ، أو تدعو وتشفع لمن دعاها واستشفع بها و رجع إليها كل وقته وحياته . فداعى الصورة لايدعو فى قصده صورة ولكن يدعو صاحبها . وهذا أمر لايجهله أحد ولايخفى مكانه على أبلد الناس طبعاً ، لا على أحد من المشركين ولا على أحد من المسلمين . فاذا كان داعى صورة الصالح ـ وهو لايدعو فى نفسه يقيناً غير الصالح نفسه ـ كافراً مشركا ، باعتراف المخالف ، فلا شك أن مثله العاكف على القبور ، الداعى لأصحابها ، المنقطع إليهم . فان الداعى للقبور العاكف عليها ، الفازع اليها لم ير صالحاً يدعوه ، ولا نبيا يرجوه ، و إنما رأى بناء مشيداً ، وقبرا مشرفاً مزخرفاً يدعى و يقصد و يؤمل و يرجى ، فراح يدعوه مع الداعين ، و يسأله مع السائلين ، و يضع على عاتقه آماله الطوال العراض ، على زعم أن الذى أمامه عبد من عباده تعالى ، أعطاه ربه التصرف المطلق أو المحدود ووهبه الدلال عليه ، حتى إن له مايشاء لديه ، وحتى خصه بالقدرة والكمال ، وبالقوة الفاعلة . ومثل هذا داعى الصورة سواء . ولا يمكن أن يوجد فرق بين داعى صورة الصالح المنقطع إليها ، و بين داعى قبره المنقطع اليه . ولهذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يجمع بين الصور والبناء على القبور فى النهى الشديد فيقول فى أصحاب الصور والقبور : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » . وقد قال على بن أبى طالب لأحد أصحابه : ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله ؟ ألا تدع قبرا مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته . رواه مسلم فى الصحيح . وقد نهى الاسلام أشد النهى عن هذين الأمرين ، أعنى الصور

داعى الصورة لا يدعوغير صاحبها

فتنة الصور والقبور

والبناء على القبور ، وذلك لما يؤديان اليه من الاضرار بالعقائد والافساد للنفوس وقد تجلت حكمة الاسلام فى النهى عنهما واضحة ظاهرة فى هذا العصر ، فان فتنة الصور والبناء على القبور أصبحت اليوم لاتخفى على أحد إلا هالك . أما الصور فقد أفسدت القلوب ، وأما القبور فقد أفسدت العقول . فالاولى مادة الشهوات الهوجاء ، والثانية مادة الشبهات على التوحيد وعلى عبادة الله وحده ، ومادة الاشراك والضلال الأبعد . والشهوات والشبهات - أو فالفسوق الذى مصدره الشهوة ، وضلال العقيدة الذى مصدره الشبهة ، هما غذاء ومثار مافى هذا الوجود من بلاء ومنكر عظيم . فالقبر المزخرف المشرف هو والصورة فرسارهان فى الدعوة الصامتة الندية الحارة إلى إضلال العباد ، وإمراض النفوس والفطر ، والاخلال بالتوحيد والايمان الصحيح فى هذه الأنفس المغبونة الحيرى . والله من وراء كل شئ .

فاعتراف الشيعى بان دعاء الصور والاستغاثة والاستعانة والاستشفاع بها شرك بالله ، اعتراف منه صريح بأن دعاء القبور والاستغاثة والاستعانة والاستشفاع بها كذلك أيضا شرك بالله .

زعمه أن المشركين لايعبدون الله

أما زعمه أن المشركين قد أعرضوا عن عبادة الله قائلين : إنه لاطاقة لنا بعبادته تعالى ، فزعم كاذب ، فان المشركين لم يعرضوا عن عبادة الله،ولم يقولوا : لاقدرة لنا على عبادته . بل كانوا يعبدونه تعالى أصناف العبادات ، ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة أخرى لابرهان لهم بها . وكانوا - كما قدمنا الدلائل - يخلصون الدعاء والعبادة حين الشدة والبلاء ، وينسون كل ماسواه تعالى ، ويخلصون اليه وحده لاشريك له كما قال تعالى : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » ، وكما قال : « وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » . والآيات فى هذا كثيرة معلومة .

وقد كانوا يحجون لله و يحافظون على كثير من شعائر الحج و يقولون فى تلبيتهم: «لبيك اللهم لبيك ،لاشريك لك إلاشريك هو لك تملكه وماملك »فالمشركون لم يعرضوا عن الله ودن عبادته ، ولم يقولوا إنه لاقدرة لنا على عبادته تعالى . فهذا الذى قاله المصنف الشيعى كذب لايقوم له ظل من الحق . وما كان بلاء المشركين إلا الشرك الذى هو بلاء هؤلاء العاكفين على القبور أيضا .

السجود للاصنام

أما مسألة سجود المشركين للاصنام والأوثان فلا أعرف أكانوا يسجدون لها حقيقة أم لا . والذى ذكره القرآن وأطنب فى ذكره ، ونعاه عـلى المشركين ، وأطنب فى نعيه هو دعوتهم الأصنام وعبادتها . أما السجود فلا أذكر له دليلا ، على أنه لامانع من أن يكونوا فعلوه حقا ، فهم مشركون ضلال .

وقوع هذا من المسلمين

وقد وقع هذا من هؤلاء الضلال الحيرى ، العاكفين على القبور ، المسلمين فيما زعم المخالف وأنصاره ، فهـم يرتمون عـلى الأعتاب والأبواب بلا خلاف يقبلونها ،وهذا هو السجود عينه ، أو هذا مالا يكون الا بالسجود .فالسجود واقع من المسلمين أنفسهم . هذا من المسلمين غير الشيعة ، أما الشيعة فانهم يسجدون للقبور صراحة سجودا كاملا كسجود الصلاة . وكل الذين ذهبوا إلى بلادهم ، مثل النجف وكربلاء ، رأوا ذلك بأعينهم .

أما إهلال المشركين بذبائحهم للأصنام ، فالاهلال هو رفع الصوت فى أصل اللغة ، والمسلمون فعلوا ذلك كما سوف يجيء فانهم رفعوا عقائرهم وأصواتهم قائلين: هذا عجل البدوى ، هـذا عجل الدسوقى ، هـذا نذر فلان وفلانة ، وهذا مما لا ينكر ولايجحد

طلاء الأصنام بالدماء

وأما طلاء الأصنام بدماء الذبائح فالمسلمون قـد طلوا القبور وأفنية القبور بدماءقرابينهم للأموات ، وهداياهم للقبور ، وقد نذروها بالفول والخبز والمأكولات الأخرى التى يهدونها و ينذرونها لها .

ذكر اسم المخلوق على الذبائح

وأما ذكر اسم غير الله على الذبائح ، فهذا إن كان قد فعله المشركون دون المسلمين ، فقد فعل المسلمون ماهو شر منـه ، فان سؤال الموتى غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وكل مالا يقدر عليه إلا الله ـ وهذا كله يجيزه الشيعى ويفعله هو وطائفته ـ شر من ذكر اسم الميت عـلى النحيرة بلا ريب ، كما لا ريب فى أن نذر البهائم وتقـديمها إلى الأموات ، ونحرها لدى قبورهم وفوقها ، وما يلازم ذلك من ضراعات وتوسلات واستغاثات ، أقبح عند الله وعند المؤمنين من ذكر اسم الميت عـلى النحيرة . على أننا لا نستبعد أن يكون ذلك قـد فعله هؤلاء الضالون الجاهلون ، ولا سيما ضلال الشيعة وجهالهم . فان لهم الأعاجيب فى هذا الباب . وقد قدمنا أن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام قد أخبر فى غير ماحديث أن طوائف من أمته سوف تقع فى جميع ماوقعت فيه الأمم الذاهبة من الضلالات والجهالات . وقد صدق الله وصدق رسوله عليه الصلوات والتسليمات.

إبطال الفرق الثانى

وأما الفرق الثانى ـ وهو أن منهـم من عمل معبوداً بيده فعبده ـ فالجواب أن يقال إن عبادة غـير الله قبيحة باطلة ، سواء أكان ذلك المعبود معمولا بيـد عابده أم بيـد خالقـه . وليست عبادة المخلوق قبيحة مذمومة لأن ذلك المخلوق صنع ذلك العابد ، بل لأن المعبود مخلوق عاجز لا يليق أن يعبده مخلوق عاجز مثله . فـكلما لا يصح أن يعبد هـذا المخلوق ذاك المخلوق لا يصح العـكس ، أعنى أن يكون المعبود عابدا ، والعابد معبوداً . فالمخـلوق يجب أن يكون أبداً عابداً لا معبوداً ، ومن الظلم والجهـل الخروج به عن منطقة العبودية إلى منطقة الألوهية . ومن الظلم والجهل أيضاً أن تعبد عبدا مثلك يعبد هو خالقك وخالقه وخالق كل شىء . فالاشراك بالله إثم عظيم سواء أصنعت ذلك الشريك بيـدك أم صنعه الله . فانه إذا كان من القبيح الباطل أن تعبد صنما عملته بيدك وقدرتك كان من الأقبح والأبطل أن تعبد عبدا خلقه الله تعالى لعبادته،وخلقه ليدعوك

ويدعو غيرك إلى عبادته وحده ، وإذا كان من الاثم والغباء أن تعبد جماداً لم يكن أقل منــه غباء وإثماً أن تعبد نبياً بعثه الله للدعوة إلى التوحيد المطلق الخالص ولتحطيم الشرك وتحطيم أسبابه ووسائله وغاياته . فهذا الفرق لا حقيقة له البتة .

المسلمون يعبدون مايعملون بأيديهم

على أننا نقول أيضا إن هؤلاء المسلمين قـد صنعوا أشياء بأيديهم فعبدوها كفعل المشركون قبلهم . فإن هؤلاء كما ذكرنا يعبدون القبور والقباب والأعتاب والأبواب التى صنعوها بأيديهم ، والتى قد يكون صانعها غـير مسلم وغير مؤمن بالله . ولولا هذه البنايات والقباب والزخارف والمساجد والأشياء الأخرى القائمة على الموتى لما وجدت هؤلاء الطائفين المقبلين الباكين الخاشعين الشاكين . . .

فـكل ما تراه اليوم فوق الاضرحـة من الضلال والجهل هو فى الواقع موجـه إلى هذه الزخارف المحمولة عـلى القبور . فإنه لولا ذلك لمـا عرفوا ذلك الميت ولا حفلوا ولا تعلقوا به ، ولا بالوه أو عرفوه ، ولا طلبوا منه حاجة من الحاج . ولهذا فانه قد يكون ذلك الميت المقصود المعبود فاسقا أو غير مسلم ، من الكافرين بالله العظيم ، وقد يكون حيوانا قذرا ، وقد يكون قبرًا مجردًا ليس فيه شىء لا إنسان ولا حيوان ، ليس غير الوهم والزور والجهل الفاضح . وهذا كثير . وقد صح أن

عبادة الحيوان

جماعة رأوا ما يكسبه سدنة القبور من الصدقات والهدايا والنذور فاحتالوا لذلك، فجاؤا بحمار ميت فدفنوه وأقاموا عليه قبة ، وزعموا للناس أنه مقام يحوى شيخاً كبيرًا ، فأقبلوا عـلى زيارته والطواف به ، وجادوا عليــه بالصدقات والقرابين والهدايا . وراح المغفلون يتوسلون بذلك الشيـخ الحارى ويستغيثونه ويسألونه الشفاء وقضاء الحاجات ، وتفريج الـكربات ... ولعل أمثال هذا كثير ! ولعل الـكثير من هؤلاء المشايخ والأولياء ـ فى زعم الجهلاء ـ حمير أو كلاب أو أقل من ذلك . وقد كان فريق من الناس إذا أرادوا أن يبقى ما حول دارهم نظيفاً غير ملوث بالقاذورات والنجاسات المتراكمة فى الأحياء القذرة ـ يقيمون بناية

تشبه الضريح ، ويكتبون عليها اسم شيخ مكذوب مزور لم يخلقه الله ، ثم يزعمون للناس أن تحت ذاك البناء شيخاً كبيراً ووليا خطيراً . . . فيتحاشى الناس تقذير ما حوله . وأخيرا يصير ذلك البناء وليا عظيم القدر والجاه ، كثير الزوار والطائفين ، الراجين البركات والشفاعات .

فهؤلاء فى الحقيقة يعبدون مايعملون بأيديهم بل و يعبدون شراً مما عملوا .

إبطال الفرق الثالث

وأما الفرق الثالث ـ وهو أن المشركين كانوا يجعلون لأصنامهم نصيباً مما خلق الله ، ولله نصيباً ، ثم لا يعدلون بين الله و بين أصنامهم فى قسمة تلك الأنصباء ـ فالجواب أن المسلمين قد فعلوا ذلك كله بلا شك ولا ريب . بل لعلهم فعلوه بشكل هو أفظع وأقبح مما فعله المشركون قبلهم . فلقد جعل القوم أكثر نذورهم وقرابينهم للمشايخ وأصحاب القبور : فسيبوا السوائب المنذورة للمقامات والأموات وتركوها كحمام مكة صيدهن حرام ، لا يصاد ولا يطارد ولا يؤذى . فعجل البدوى يذهب ويأكل ويرعى حيث شاء : لا يستطيع مالك أن يطرده من ملكه ، ولا صاحب أرض أن يخرجه منها وإلا نزل به أشد العذاب والعقاب من هلاك أولاد وذهاب أموال إلى ألوان من المصائب والآفات عائذين بالله وحده من السوء والبلاء . بل إن هؤلاء الحيرى يتهيبون التعرض لسوائب المشايخ ، ويفرون من وجوهها اتقاء غضبهم وحذار عقوبتهم ، فينذر بعضهم بعضاً ذلك قائلين : إياك وعجل الشيخ ، إياك وجاموس البدوى . وهذا معروف للناس جميعاً لا يخفى على أحد منهم . ويقل أن يوجد أحد من أهل طنطا المدينة التى فيها البدوى ، أو أحد من أهل القرى والكفور حولها ، لم يجعل لهذا البدوى شيئاً من ماله وحيواناً من حيواناته ، فيسميه باسمه ، فيقول عجل البدوى أو مال البدوى . وقد ينذرون البهيمة هى وما تلد للشيخ ، فيقولون فى نذورهم هذه البهيمة هى وأولادها ، أو نصف أولادها ، وقف على الشيخ أو على صندوق

السوائب للبدوى ولغيره من الأموات

الشيخ ، ولو قـدر أن أحد هؤلاء لم يف بنذره أو تهاون فى الوفاء به ، فأصيب بمصيبة سماوية أو أرضية لمـا شـك فى أن تلك المصيبة عقوبة من الشيخ جزاء غدره بنذره ، وجزاء تفريطه بحقه . ولأجل هذا تجد القوم يتحاشون الإخلال بما نذروه للمشايخ والأموات ، ويهابون ذلك أشـد الهيبة . ولو أن أحدهم نذر لله نذرا خالصاً ونذر للشيخ نذراً آخر لاجترأ على الإخلال بنذر الله ، ولأحجم عن الإخلال بنذر الشيـخ . ولو كان لا مندوحة له من الإخلال بأحد النذرين لمـا تردد فى أن يخل بنـذر الله دون نذر الشيـخ . وهـذا ، وا أسفاه ، يعرفه الخاص والعام .

وقد من الله على أهل بيت من المؤمنين فعرفهم العقيدة الصحيحة السليمة من شوائب الاشراك والابتداع . وكان أهل هذا البيت قبل ذلك من المعتقدين فى البـدوى : يقـدمون إلى مقامه النذور والنحائر ، وإلى صندوقه الأموال والصدقات . . . فكفوا عن ذلك إيمانا بالله وتوحيـداً وعبادة له وحـده . وكان لأهل هذا البيت المؤمن الموحد قريب من العلماء الرسميين . فخال هـذا العالم أن دنيا هؤلاء الأقارب قد نقصت ، ثم خال ثانياً أن ذلك النقصان مصدره ما طرأ على أهـل البيت من العقيـدة الصحيحة والتوحيـد الخالص والانقطاع إلى الله والرغبة إليه وفيـه وحده لا شريك له . فلم يستطع هـذا العالم أن يكتم ذلك عن أقاربه ، فصرح لهم بأن ما طرأ عليهم من تحول الحال راجع إلى ما طرأ على عقيدتهم من الايمان بالله وإخـلاص العبادة والدين له ، فنصح لهم بالرجوع إلى سيرتهم الأولى وإلى تقديم النذور والهدايا إلى البدوى ليرجع إليهم ما ظن أنهم فقدوه من رغد العيش ، ووفرة المادة . وإذا كان هذا رأى العلماء وقولهم فماذا عسى أن يكون رأى العامة وقولها ؟

تعبيد الاسماء لغير الله

وعندى أنه لا يقل عما فعله المشركون من جعلهم بعض ماخلق الله من الحرث

والانعام للأصنام والاوثان تعبيد الأسماء لغير الله ، بل لعل هذا من هذا . وذلك كأسمائهم عبد الحسين ، وعبد على ، وعبد النبي وأمثالها من التعبيد للمخلوق. فإن هؤلاء قد جعلوا لغير الله نصيباً من أنفسهم ومن ذرياتهم وأهليهم . وهذا لايقل إثما وفظاعة عن جعل الحرث والأنعام التى خلقها الله للاصنام والاوثان .

ومن العجيب أن هذا الشيعى ذكر فى هذا الباب ماذكره بعض أهل العلم من أن بعض العوام يشترون أولادهم من المشايخ والأموات بأشياء من أموالهم يجرونها على الأضرحة والصناديق كل عام . فدافع الشيعى عن هذا الضلال وزعم أن له وجهاً صحيحاً إذا صح أن أحدا من المسلمين فعله . ولا ريب أن أحدا لايشترى من أحد شيئا إلا إذا اعتقد أنه مالكه وصاحبه . و إلا لو علم أن ذلك ملك لله وحده لاشريك له ماأمكن أن يشتريه من أحد غيره ... فهؤلاء الذين يشترون أولادهم أو أموالهم من المشايخ ومن الأموات يرون — ولا شك — أنهم مالكون لذلك متصرفون فيه وفى بيعه وشرائه . فقد جعلوا أولا ماخلق الله من الأنفس البشرية ، لامن الحرث والانعام فقط ، للاشياخ ثم اشتروا ذلك منهم ثانيا بنصيب آخر من أموالهم جعلوه لهم ثمن ماأخذوه منهم من الأولاد والذريات . فقد جعلوا ، كما ترى ، لغير الله من الموتى نصيباً من أولادهم وملكوهم إياهم بحيث يحق لهم أن يتصرفوا فيهم تصرف بيع وشراء ، ونصيباً آخر من الأموال ، ونصيباً ثالثا وهو حق التصرف بيعاً وشراءا ، ونصيباً رابعاً وهو القدرة على البيع والشراء ، ونصيباً خامساً وهو ملك الأحرار واسترقاقهم : هذا كله واقع من هؤلاء المسلمين الذين يزعم هذا الشيعى أنهم لم يجعلوا لغير الله نصيباً من الحرث والأنعام . وهب أن هذا لم يقع منه شئ فالمخالف يدافع عنه و يزعم أن له فى الاسلام وجهاً صحيحاً مقبولا سائغاً شرعاً وعقلا ، فلنا إذن أن نؤاخذه به ونحمله تبعته ومافيه من إثم وعناد لدين الله ومحادة له . ولن نجد من يقول لنا أخطأتم إذا

أنصبة المشايخ فى المعتقدين فيهم

ماقلنا إن هذا شر لم يصل إليه المشركون الذين جعلوا لشركائهم نصيباً من الحرث والانعام قائلين : هذا لشركائنا .

ولكن هؤلاء ينذرون للاموات دون الله

وأما زعمه أن المشركين ما كانوا يعدلون فى قسمتهم بين الله و بين الأصنام حتى صرفوا للأصنام ماجعلوه لله ، ولم يصرفوا شيئاً مما جعلوه للأصنام له تعالى ، فيقال : إن هـذا من القوم قائم على إرادتهم تعظيم الله وتنقص الأصنام . وذلك أنهم زعموا أن الله غنى عن كل شئ فلا يضيره أن يجعلوا بعض ماجعلوه له لأصنامهم لأنها فقيرة محتاجة ، وأما ماجعلوه لها فلم يجعلوا منه شيئاً لله للسبب نفسه ، وهو غناه تعالى وفقرها هى . فكأن مراد القوم الاعظام من شأنه تعالى والحط من شأن الأصنام .

وهؤلاء المسلمون قدفعلوا ماهو شر من هذا كله وأفظع ، وذلك أنهم، فى الغالب الكثير، يقدمون القرابين والهدايا والنذور للأموات دون الله، فينذرون للبدوى وللرفاعى والدسوقى مثلا ، ويقل جدا أن ينذروا لربهم من ذلك شيئاً ، و يجعلون للمشايخ ولمقاماتهم ومقاصيرهم ما يجعلون مما تزدحم به تلك الأضرحة ، وتضيق به أفنيتها كل عام ، ولـكنهم لايجعلون لله شيئاً ، ولاتجود أنفسهم بشئ مخلصة له تعالى وحده لاشريك له . ولهذا فانك مهما دعوت هؤلاء القوم إلى فعل الخيرات و بسط أيديهم إلى الانفاق على مافيه رضا الله وطاعته ، وما فيه نفع الأمة والدولة كالتصدق على الجمعيات الخيرية ، وعلى بناء المصحات ودور العلم ، وعلى المنكوبين من المسلمين ، وعلى المجاهدين فى سبيل الله ، الذائدين عن حقائق الاسلام ، وعن دياره ومقدساته ، فلن يولوك ، مهما دعوتهم إلى ذلك ، غير أقفائهم وهز أكتافهم، ولن يسمعوك سوى ألوان التعلات الشحيحة البخيلة . أما الاضرحة والمقامات فانهم ينثرون عليها الأموال من كل جانب بسخاء وجود واغتباط ورضا ، وهم لايحتاجون إلى من يذكرهم بذلك . ولا إلى من

يدعوهم إليه . وهم يعلمون أن ماينفق فى هذا السبيل إنما يذهب إلى جيوب الأغنياء وشواتهم ، و إلى جيوب الكسالى البطالين من السدنة الدجالين الكذابين ، والسائلين القذرين الذين يصدون الناس عن غشيان بيوت الله و إجابة داعى الفلاح والصلاة ، هروباً من وقوفهم لهم بالمرصاد و بسائر الأبواب يستجدون ويلحفون ، و يضرعون فيكادون يكفرون و يشركون ويبالغون فى استجدائهم وسؤالهم ، حتى ليكادون يضعون أيديهم فى جيوب الناس يستخرجون منها الصدقات والمكوس التى فرضوها على المصلين . و إن الجواد كل الجواد لهو الذى يستطيع أن يفلت من أيدى هؤلاء اللصوص الكرماء الشرفاء المجاهرين بصنعتهم هذه قبل أن يسلبوه بعض مايملك قسراً وغلاباً .

و بسط هؤلاء أيديهم إلى الانفاق على القبور وسدنتها ، وكفها عما أوجب الله الانفاق فيه يشهد شهادة لاترد على أن القوم قد بلغوا حالة من نسيان الله ونسيان أوامره ونواهيه قد قصر عن بلوغها أولئك الأبطال الذين قال الله فيهم : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » .

إبطال الفرق الرابع

وأما الفرق الرابع وهو أن المشركين قد اتخذوا الملائكة أرباباً وعبدوهم أنواع العبادات ، وزعموا أنهم بنات الله ، فيقال : نعم ، إن المشركين قد عبدوا الملائكة كما عبدوا الصالحين من البشر والأصنام والأوثان والجن . وليست عبادتهم الملائكة بشر فى الشرع والعقل من عبادتهم الأموات والتماثيل والصور والأصنام والأوثان والجان . بل كل ذلك قبيح، ولكن عبادة التماثيل والصور والأموات الغابرين أقبح . وليس الذين عبدوا الملائكة بأضل ولا أجهل من هؤلاء العاكفين على القبور الطائفين بها ، المنقطعين إليها ، الداعين لها ، الهاتفين بها . فإنه إذا كانت عبادة الملائكة باطلة كانت عبادة الموتى أبطل

و إذا كان الداعى للملائكة المستغيث بهم ضالاً كان داعى أهل القبور المستغيث بهم أضل وأجهل ، و إذا كان السجود للملائكة شركاً بالله — كما يبدو من كلامه هنا — فلا ريب أن سؤالهم غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وكل ما يسأل الله من عظيم المطالب والحاجات — وهذا كله جائز عند المخالف — أعظم إشراكاً بالله . و إذا لم يكن السجود للملائكة ، وسؤالهم كل ما يسأل الله ، من أعظم الأشياء إلى أحقرها، عبادة لهم وشركاً بالله العظيم ، فماذا يمكن أن تكون عبادتهم؟ وماذا يمكن أن يكون الشرك بالله ؟

دعاء الملائكة والسجود لهم

وقد زعم الرافضى فى غير موضع من كتابه أنه تجوز الاستغاثة بالملائكة ، وسؤالهم ضروب الحاجات ، صغيراتها وكبيراتها ، والاستشفاع بهم والدعاء والنداء لهم كما زعم أن الله قد استعملهم فى تصريف الكون وتدبيره والقيام عليه و به وعلى سائر شؤونه التكوينية ، فالملائكة عنده يستغاثون و يدعون و ينادون ، و يهتف بأسمائهم عند الشدائد واللزبات ، و يضرع إليهم حين الرهبة والرغبة ، و يقدرون بأمر الله على ذلك كله . . . فمن زعم أن الملائكة قادرون على إغاثته، وعلى إعانته ، وعلى نفعه وضره ، وعلى إحيائه و إماتته ، وعلى إغنائه و إفقاره .. ثم بعد ذلك عكف على دعائهم وندائهم وسؤالهم حاجاته ومطالبه الصغيرة والكبيرة صارخا ضارعاً — : فهو مؤمن حقا ، لم يزعم باطلا ، ولم يقل منكرا ، ولم يذهب إلى ما ينكره الدين أو يأباه التوحيد ، أو ينفيه النظر والعقل . و إذا كان هذا كله لدى المخالف من الاسلام الصحيح الذى جاء به محمد من لدن ربه ، فماذا يكون الاشراك بالله ، وماذا تكون عبادة الملائكة والمخلوقين ؟ ؟ أهو يحسب أن ذلك هو الاعتقاد بأنهم خالقو الوجود والعالم كله ؟ إن المشركين أنفسهم كانوا مقرين لله بأنه خالق كل شىء ، قائم على كل شىء فى الأرض أو فى السماء كما قدمنا الدلائل عليه من شهادات القرآن والسنة وكلام العلماء وأقوال المشركين أنفسهم.

على أن هذا أيضا ليس كفرا ولا شركا لدى الرافضة. فاننا قد قدمنا أنهم يعتقدون بأن النبى عليه الصلاة والسلام هو الخالق الموجد للعالم ، وهم مع ذلك يدعونه لكل شيء ويسألونه كل شيء ويطلبون منه كل ما يطلبون من الله ، وهم بعد ذلك لا يرون أنهم أشركوا ولا كفروا ولا ذهبوا إلى باطل . إذن هم لا يعتقدون أن دعاء المخلوق وسؤاله كل شيء مع اعتقاد أنه خالق كل شيء كفر ولا شرك ولاضلال . أم هو يحسب أن عبادة الملائكة وإشراكهم بالله هى السجود لهم فقط ؟ لاريب أن العبادة ليست هى السجود خاصة ، ولا ريب أن الاشراك بالله ليس هو السجود للمخلوق خاصة . ثم لاريب أن سؤال المخلوق كل ما يسأل الله من ضروب الحاج مع الخضوع والخشوع وألوان الضراعات أدخل فى فنون الشرك بالله من السجود المجرد لغير الله . ثم لاريب أن المخالف لايستطيع أن يورد دليلا واحدا يدل دلالة صادقة ظاهرة على أن المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة كانوا يسجدون لهم . ثم لا ريب أن من زعم أن من الاسلام ودين الله الحق الاستغاثة بالملائكة وسؤالهم الحاجات والدعاء والنداء لهم ، فقد زعم ماترده الضرورة وماينفيه الاجماع ، وما يكذبه الدين جملة وتفصيلا بروحه ونصوصه ، ثم لاريب أن من زعم هذا قاضاه هذا الزعم أن يزعم أيضا أن من الاسلام والدين الصحيح الاستغاثة والاستعانة بالجان وبما خلق الله فى الجنان ، من الحور والولدان ، وبكل ماخلقه تعالى ممن له بعض القدرة والقوة ، ومن بلغت به شبهاته وحججه أن يجوز الاستغاثة بالملائكة والجان وأهل السماء والأرض وأهل الجنة ، وسؤالهم كل مايسأل الله من غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، والتقريب إلى الجنة ، وإلى رضا الله ، والابعاد من النار ومن كل مايسخط الله ـ كما يزعم هذا الرافضى ـ فقد بلغ حالة يعسر معها العلاج ويذهب الدواء معها باطلا . فان من أعظم ضرورات الاسلام عند المسلمين بطلان القول بدعوة

دعاء الجن وأهل الجنة

الملائكة والجان والاستغاثة بهم ، ومن أعظم الضرورات عندهم أن الاستغاثة بهم هي عين الشرك بالله الذى أحل به على المشركين عذابه وعقابه . وقد حكى تعالى فى كتابه أن قوماً من العرب كانوا يعبدون الجن ، وأنه كان من عبادتهم إياهم ، أو أن عبادتهم إياهم كانت هى العوذ بهم . فقال تعالى : « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » وقد ذكروا فى تفسير الآية أن الرجل كان إذا هبط واديا مرهوبا قال عند ذلك . « أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه » يطلب إلى زعيم الجان أن يحجز شرار الجن عن أذاه ومسه بسوء ، فكان ذلك نفس الاشراك بالله . ولاشك أن الاستغاثة بالجن وسؤالهم ضروب المطالب والحاجات أبلغ فى الضلال من الاستعاذة بسيد الجن من شر سفهائهم . وقد قال تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذورا » قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كان نفر من الانس يعبدون نفرا من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك هؤلاء بعبادتهم ، فأنزل الله الآية . وظاهر من الآية الكريمة أن عبادتهم إياهم كانت بدعائهم وندائهم كما كانوا يقولون حين هبوط الأودية المخيفة : « أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه » . وهذا ظاهر من ظاهر الآية ، فان قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه » دليل ظاهر على أن الأمر الذى أنكره الله عليهم هو دعاؤهم إياهم حاسبين أنهم يجيبونهم ويهبونهم مايسألونهم إياه ، أو يدعون الله لهم فيجيب ، ولهذا عجزهم وأبطل دعوتهم ودعواهم بقوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه » فليجيبوكم إلى ماتدعونهم إليه من الخير إن كنتم صادقين ، ولكن هيهات لما ترجون وتطلبون ، فان من تدعون عاجزون « فلا يملكون كشف الضر عنكم » كما لا يملكون

تحويله إلى سواكم ، فما أضلكم إذن ، وما أضل من يدعو من دون الله من لا ينفعه ولا يضره ولا يستجيب له إلى يوم القيامة « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون » . ثم قوله : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » الآية ، دليل آخر على أنهم كانوا يدعونهم يبتغون منهم أن يقربوهم إلى الله وأن يكونوا لهم وسيلة لديه تعالى لنيل رحمته والنجاة من عذابه ، فرد الله عليهم ذلك بأن الذين يدعونهم هم يدعون الله ويطلبون الوسيلة التي هي القرب منه ، وهم يرجون رحمته ويخافون عذابه : فهم يطلبون ما تطلبون ، ويرجون من الله ما ترجون ، ويخافون ما تخافون . ومن ذا يطلب الري من صديان هو يطلب الري لنفسه ، أو من ذا يطلب الغنى من فقير هو يطلب ذاك الذي يطلب منه ؟ وهل تطلب من مقعد أن يعرج بك إلى علالي السموات وأعالي الملكوت ؟ فما أجهل الانسان ، وما أضعف الطالب والمطلوب ، والعابد والمعبود !

فلا ريب عندنا أن دعاء الملائكة والجان والاستغاثة بهم والانقطاع إليهم عبادة لهم صريحة ، وشرك بالله صريح ، كما لا ريب عندنا أن الاستغاثة والاستعانة بالأموات شر من ذلك وأدخل منه في معاني الأشراك وفنون الضلال فهذا الفرق فرق باطل .

زعم المشركين أن الملائكة بنات الله غير عبادتهم

أما زعم المشركين أن الملائكة بنات الله فهذه مسألة أخرى غير الاشراك بهم ، وغير عبادتهم . فان الاعتقاد بانهم بنات لله ليس عبادة لهم ، فان العبادة شيء آخر غير ذلك . ولهذا فان من اعتقد بان الله هو رب العالمين ورب السموات والأرضين ثم لم يزد على هذا الاعتقاد فليس عابداً لله بلا ريب . وهذا مثل الشيطان ، ومثل كثيرين من الكفار ، فانهم يؤمنون بالله وبأنه مصدر كل خير في هذا العالم ، وخالق جميع الموجودات ، ولكنهم لا يعبدونه تعالى ، وليسوا

بذلك الاعتقاد المجرد بعابدين لله بلا نزاع .

والشيء الذى نقوله هنا وتذهب إليه هو أنه لافرق بين المشركين العاكفين على الاصنام ، و بين المسلمين العاكفين على القبور ، الطائفين بالأعتاب والأبواب من ناحية الإشراك بالله وعبادة العبيد . فالجميع اشركوا بالله وعبدوا سواه ولسنا نزعم أو نقول : إن الفريقين سواء فى جميع الاعتقادات ، كما لايزعم أحد أن المشركين لم يكونوا مشركين إلا بأن جمعوا بين جميع اعتقاداتهم وأعمالهم الباطلة الضالة . ولايختلف الناس أن قوماً كانوا يعبدون الملائكة و يشركونهم فى عبادة الله ولو لم يزعموا أنهم بنات الله . فعابد الملائكة مشرك بالله سواء اعتقد أنهم بنات الله أم لم يعتقد ذلك بل اعتقد أنهم مخلوقون مربوبون لرب العالمين ورب كل شيء .

إبطال الفرق الخامس

وأما الفرق الخامس ، وهو أن المشركين كانوا مكذبين للرسول والمسلمون مصدقون له ، فالجواب أن نقول : نحن لا ندعى التسوية بين الفريقين من كل وجه ، ولكن ندعى أن هؤلاء وهؤلاء عبدوا غير الله ، فالفريقان مشركان بالله عابدان للمخلوق ، فلا فرق بينهما من هذا الوجه ، وجه الاشراك به تعالى وعبادة غيره . . . وتكذيب الرسول عليه السلام ، وكذلك تصديقه ، غير الأشراك ، فهو مستقل عنه فقد يكون المصدق للرسول مشركا ، كما قد يكون المكذب له كذلك ، وقد يكون المكذب للرسول غير مشرك بل كافرا فقط ، والكافر غير المشرك ، كما يكون المصدق أيضاً . فلو أن يهوديا أو نصرانيا أو غيرهما انكف عن الشرك فعبد الله وحده ولم يصدق خاتم الأنبياء لكان كافرا غير مشرك ، لأن الشرك هو عبادة غير الله مع الله . ولو أن المشركين صدقوا الرسول وآمنوا بنبوته و بكتاب الله غير أنهم ظلوا على أصنامهم عاكفين ، لما كانوا مسلمين ولا ناجين ، بل لكانوا مشركين بعد هذا الإيمان والتصديق كما كانوا كذلك قبله .

المشرمشرك و إن آمن بالله و بأنبيائه

إذن فتصديق الرسول ليس معناه الخلاص من الشرك يقينا . ولهذا فان اليهود والنصارى مصدقون بنبوة أنبيائهم ، مؤمنون بهم ، ولكنهم مع ذلك مشركون عابدون للصنم ، وكذلك كان العرب مصدقين بنبوة إبراهيم وغيره من النبيين ، وكانوا مع هذا التصديق وهذا الايمان مشركين عابدين للأوثان هالكين بلا ريب . وإذا لم يكن التصديق بالله وبأنه خالق السماء والأرض ، وخالق كل شئ ، أمانا ولا ضمانا من الشرك والكفر ، فكيف يكون التصديق بالنبي عليه السلام أمانا وضمانا من ذلك ؟ هذا مالا يكون ، وهذا مالا يصح . فالمؤمن بالله وبجميع أنبيائه وكتبه قد يكون مشركا كافرا ، والمسلم المؤمن بمحمد وبكتاب الله قد يقع فى الاشراك وفى عبادة المخلوق من حيث لا يدرى ولا يريد ، كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق ، إذ حدث فى غير ماحديث بأن طوائف من أمته صائرون إلى الشرك وعبادة الأوثان والأصنام . فهذا الوجه لاطائل تحته .

الفريقان مشتركان فى صفة التكذيب

على أننا نقول : إن الفريقين أيضا مشتركون فى صفة التكذيب : تكذيب الرسول وتكذيب الحق ، وإن لم يقصدا معاً التكذيب . فإن هؤلاء العاكفين على القبور ، المنقطعين إلى الموتى مكذبون للرسول عليه السلام . وذلك أن الدين الذى جاء به من عند ربه كله نهى عن هذا البلاء الذى صاروا إليه واتخذوه دينا يتقربون به إلى الله ، ولكنهم لم يعبأوا بهذا النهى ، ولم يبالوه . فوضعوا كل نص عن الله وعن رسوله فى ذلك دبر آذانهم ، ووراء أهوائهم ، ولم يزدادوا بايراد الدلائل والحجج إلا جماحا عنها ، وفراراً منها ، وإصراراً على ما وجدوا عليه الآباء والأشياخ . . . فكذبوا الرسول من حيث لا يشعرون ، كما كذبه المشركون ، إلا أن الفرق بينهما أن هؤلاء لم يريدوا التكذيب ولا رد ماجاءهم به قصداً وتعمدا ، وأن أولئك أرادوا ذلك وتعمدوه . فالفريقان شركاء فى رد الحق ورد ما جاء به النبى ، وإن اختلفا نية وقصداً . على أنهما قد يشتركان فى أنهما

معاً لم يريدا رد الحق صراحة وهما يعلمان أنه حق ، ولكنهما جهلا أن الحق حق فكذبوه وردوه حاسبيه باطلاً . هذا قد يقال ، ثم قد يكون صحيحاً .

إبطال الفرق السادس

وأما الفرق السادس ، وهو أن المشركين اعتقدوا فى أحجار وأشجار أنها تنفع وتضر ، فتشفعوا بها واستغاثوها وعظموها ، وأن المسلمين إنما اعتقدوا فى الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون بدعائهم وشفاعتهم ، ويضرون بترك ذلك ، وهذا فرق — فالجواب أن يقال : قد قدمنا أن المشركين فى الواقع إنما دعوا واستغاثوا المقربين من عباد الله ، من الأنبياء والصالحين ، وقد قدمنا أنهم وجهوا عبادتهم ودعاءهم واستشفاعهم إلى صور الصالحين وتماثيلهم وآثارهم ، وهم لا يريدون سوى الصالحين أنفسهم ، كما فعل عبدة القبور ، فإنهم توجهوا بعبادتهم واستشفاعهم ودعائهم وسائر ضروب عباداتهم إلى القبور وإلى الأجداث والبنايات والزخارف المشيدة على رمم الصالحين والفاسقين أيضا . ولهذا فإنهم قد توجهوا إلى الأبواب والأحجار والأشجار لملابسة زعموها بينها وبين بعض الصالحين ، ومن قد يكونون غير صالحين . وهذا مثل ما فعلوا لدى باب المتولى . فانه باب زعموا أن له اختصاصا وعلاقة بالمتولى كما سموا الباب به . والمتولى عندهم عبارة عن ولى عظيم وهبه الله التصرف فى جانب عظيم من الكون . وقد زعموا أن هذا المتولى يعطى من سأله واستغاثه ودعاه وضرع إليه لدى هذا الباب ، فتزاحموا على الباب يدعون ويستغيثون ويستشفعون ويشكون أصناف الشكايات ، ويطلبون أنواع الرغيبات ، ويربطون به الحبال والخرق والخيوط ، تعبيراً عن ارتباطهم وارتباط آمالهم وحاجاتهم بهذا المتولى . . . فأصبح هذا الباب معبدا من معابدهم ، وصنما من أصنامهم ، إن لم يكن شرا من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ومن هبل وأساف ونائلة ، فليس خيراً منها .

الفريقان قد عبدا الجماد

عبادة العمد

ومثل هذا مافعلوه لدى ماسموه عمود البدوى . وهو عمود منصوب فى الجامع

المنسوب للسيد الحسين فى القاهرة . زعموا أن البدوى قد جاء به من بلد سحيق مجهول فنصبه فى ذاك المكان ، أو نصبوه هم ، لسر عظيم خص به . فهم لذلك يطوفون به ويتمسحون ويقبلون ويرهبون ويرغبون ، ويسألون البدوى متوجهين إلى عموده جميع حاجاتهم ومآربهم . وهم يعلمون أن ضريح البدوى الكافت لرفاته فى بلد آخر قصى .

عبادة البهائم

وشر من هذا كله ما صنعوه من التوسلات والضراعات والطواف والدوران لدى بنايات زعموا أنها منصوبة على بعض بهائم بعض الأولياء والوليات ، كمقام حمار السيدة وغيره فى مصر . ومثل هذا مازعموه من مقامات « الأربعينات » ومثله الحجر المنصوب فى مصر القديمة الذى زعموا أن النبى عليه السلام قد وطئه بقدمه الشريفة فأثرت فيه . وهم يطوفون بهذا الحجر ويتبركون ويعتقدون عقائد المشركين الهالكين .

عبادة الشجيرات والمغارات

ولنظير هذا الذى ذكرناه شجيرات ومغارات يحج إليها المغفلون من المسلمين يقضون لديها أثفائهم ، ويعلقون بها حاجاتهم ، وينثرون حولها شكاياتهم ، لأنهم خالوا أنها مهبط لأسرار بعض الأولياء . وهذه الشجيرات والمغارات كثيرة معروفة فى مصر ، من بقايا مختلفات الشيعة الفاطميين ، لا طيب الله ذكراهم .

مارى جرجس

وأشنع وأفظع من هذا الذى قدمناه اعتقادات القوم فى هيا كل رفعت على بهائم زعمت أولياء متصرفين وعلى رمم قوم كافرين ، وفى مصر ضريح مشيد يسمى « مارى جرجس » وتسمى البلدة التى هو فيها هذا الاسم . يحج إليه المسلمون والمسيحيون معا ، ويعتقد فيه الفريقان عقائد الكافرين . واسم هذا الهالك يدل على أنه غير مسلم . وكذلك يوجد فى شبرا مصر كنيسة فيها امرأة نصرانية يعتقد فيها المسلمون كاعتقادهم فى الصالحين ، يحجون إليها ويتبركون بها . وهذا أفق لا حد لأبعاده .

إذن فهؤلاء المسلمون وأولئك المشركون كلاهما قد اعتقد فى أحجار وأشجار أنها تنفع وتضر ؛ وكلاهما قد عظمها ودعاها واستغاثها؛ وكلاهما لا يريد بما فعل أصالة وقصداً إلا التوجه إلى الصالحين والارتباط بهم والاستشفاع . فالمتوجه إليه فى الظاهر لدى الفريقين هو الجماد ، والمقصود فى الواقع لدى الفريقين هم عباد الله الممتازون الذين لهم لدى الله ماليس لغيرهم من الجاه والمكانة والمكان . وما توجه العربى المشرك إلى الصنم لأنه جماد فحسب . ولا توجه المسلم الجاهل إلى القبر المكذوب أو إلى الباب أو الشجر والحجر لأنه جماد فقط . بل هذا وذاك توجها إلى حى ناطق قادر ممتاز زعما أن له بالله صلة خاصة ، ومكانة ممتازة ، وجاها نافذا ، وقربا قريبا . فالغاية واحدة وإن اختلفت الوسائل ، والغرض متحد وإن تعددت المظاهر . فلا فرق بين الفريقين .

المعبود فى الظاهر الجماد والمقصود الاحياء

وأما الفرق السابع ، وهو أن المشركين قد عظموا ما لا يستحق التعظيم وإن كان صورة صالح ، وأنهم طافوا وتبركوا بما لم يجعل الله فيه بركة ، وأن المسلمين فعلوا ذلك بأمر الله بتعظيمه من الأنبياء والصالحين وقبورهم.

إبطال الفرق السابع

فالجواب أن نقول : إن الفريقين كليهما قد عظم مالا يستحق التعظيم ، وتبرك بمالا بركة فيه : فالمسلمون الجاهلون قد عظموا الأبواب والأعتاب والاشجار والغيران والعمد ، وتبركوا بها وطافوا ، والمشركون فعلوا ذلك بالتماثيل تماثيل الصالحين وصورهم وآثارهم . وهذا كله لايستحق التعظيم ، وهذا كله لا بركة فيه . وأى مسلم أو عاقل يستطيع أن يزعم أن الله أمر بتعظيم باب المتولى وعمود البدوى ، وتعظيم قبور الفسقة والكافرين ، وقبور البهائم ؛ أو يزعم أن الله جعل فى ذلك بركة ، وهذا كله قد عظمه المسلمون الجاهلون ، وتبركوا وطافوا به ؟؟ وأى فرق بين هذا وبين التماثيل والصور والأصنام والأوثان ، لو أن القوم كانوا يعقلون ؟

كلاهما قد عظم غير عظيم

وإذا زعم الشيعى أن صورة الصالح والنبى لاتستحق التعظيم ، وزعم أنه لا بركة فيها ، فكيف يزعم أن الأجداث والأبواب والأحجار والأشجار تستحق ذلك ، أو يزعم أن فيها بركة وسرا ، وأنها تستحق أن يطاف بها وأن تحج ؟ إن كان ذلك عنده لأجل نسبتها إلى الصالحين وإضافتها إليهم ، فصورة الصالح وتمثال النبى أو الملك منسوبان ومضافان إليهما . فالحقيقة واحدة ، كما أن العلاقة واحدة أيضا . ولن يخالف هذا الشيعى ، مهما أكثر الخلاف ، فى أن طوائف من المسلمين عظموا قبور قوم لايستحقون التعظيم أنفسهم ، وأنهم قد اعتقدوا فى هذه القبور البركة ، والله لم يجعل فى أصحابها أنفسهم بركة . ولن يخالف فى أنهم قد عظموا أحجارا وأبوابا وطافوا بها وتبركوا ، وهى لاعلاقة لها بعبد من عباد الله الصالحين ، وأنها لذلك لاتستحق التعظيم ، ولايصح الطواف بها ، ولااعتقاد البركة فيها . والشيعة يكفرون أهل السنة كافة ، والمتهاونون منهم المعتدلون يفسقونهم ويضللونهم . وهم لذلك لايعتقدون أن فيهم بركة ، ولا أنهم يستحقون التعظيم ، لأنهم عندهم كفار أو فساق ظلمة . ومن لايستحق التعظيم ومن لابركة فيه نفسه ، لن يستحق قبره ومالابسه ذلك . ولكن الجهال من أهل السنة يعظمون قبور هؤلاء الكفار والفاسقين من أهل السنة ، ويطوفون بها ، ويتبركون . فهم بلا شك ولا ريب قد عظموا مالا يستحق التعظيم ، واعتقدوا البركة فى مالا بركة فيه ، وطافوا بمالا يصح الطواف به . وهذا لاشك فيه لدى الشيعة وهو لازم لمذهبهم لزوما لاخلاص منه . فهؤلاء لديهم مثل المشركين قد عظموا مالايستحق التعظيم وطلبوا البركة ممن لا بركة فيهم

الاعتقاد فى المجاذيب

وكثيرون من هؤلاء المسلمين الجهلاء قد اعتقدوا فى هؤلاء الجهلاء المجاذيب العراة الأقذار الأرجاس الأنجاس ، الذين لايفعلون مأموراً به ، ولا ينتهون عن منهى عنه : فلا يأتون طاعة ولاينزعون عن معصية : اعتقدوا فيهم بأنهم من

كبار الأولياء المقربين المطلعين على الغيوب وعلى اللوح المحفوظ ، المتحكمين فى الله وفى أقداره وعباده ، القائلين للشئ كن فيكون . . . فعظموهم لذلك أجل التعظيم ، وحملوا عليهم حاجاتهم ورغباتهم ، وأفضوا إليهم بذوات صدورهم ، ودخائل أنفسهم ، وسألوهم التحكم فى مصايرهم ، والقضاء لهم بمايشاؤن ، وقاموا لهم بما يلزم ذلك من الطواف والتمسح واللثم لأيديهم وأثوابهم القـذرة والانقطاع إليهم ، والرغبة فيهم ، والرهبة منهم . . . فلما أن هلكوا وصاروا إلى عذاب الله ، وإلى حسابه العسير ، شادوا قبورهم ، فعكف عليها القريب ، وحج إليها البعيد ، وقدموا إليها ما قدموا من النـذور والقرابين ،وطافوا وتمسحوا وعظموا وفعلوا كل منكر . ولن يقول هذا الشيعى : إن هؤلاء المجاذيب المهابيل يستحقون شيئاً من ذلك ، ولا إن قبورهم تستحق شيئاً من التعظيم ، ولا إن فيهم أو فيها شيئاً من البركة والاسرار

ولا ريب أن صور الأنبياء والصالحين أولى بالتعظيم والاجلال والانقطاع من هؤلاء المجاذيب ومن قبورهم وآثارهم . وهذا لاينازع فيه مسلم ، ولاعاقل غير مسلم . والمخالف معترف بأنه قد كان من عبادة المشركين المخلوق ، ومن ضلالهم الباطل ، تعظيم صور الصالحين ، لأنه زعم أن الصورة لاتستحق التعظيم ولا الاحترام . وإذا كانت صور الأنبياء لاتستحق التعظيم ، وكان تعظيمها من شرك المشركين وجهل الجاهلين ، أفيمكن أن يكون تعظيم هؤلاء العاكفين على الآثام من الايمان والاسلام ، أو يمكن ألا يكون ذلك من الخزى البين ، والضلال الاهوج الأحمق ؟ لسنا نشك أن الاحجار والاشجار الصماء البكماء أولى بالتعظيم والاحترام من هؤلاء العصاة الأولياء ، ولسنا نشك أن معظّم الجماد المجرد أعقل وأرشد من معظّم هؤلاء الاشقياء

إبطال الفرق الثامن

وأما الفرق الثامن و... أن المشركين اعتقدوا أن لأصنامهم شرفاً ذاتيا

واستحقاقا للعبادة بالاستقلال ، وأن لهم اختياراً وتدبيرا ، وأنهم لم يقفوا عنده ذلك ، بل بدلوا دين الله وغيروا أحكامه ، وأما المسلمون فانهم لم يفعلوا من ذلك شيئاً - فالجواب أن يقال: إن جهلاء المسلمين اعتقدوا فى أوليائهم ومشايخهم جميع ما اعتقده المشركون فى أصنامهم وأوثانهم . أما أن المشركين قد اعتقدوا أن لأصنامهم شرفا ذاتيا ، فهذا يحتمل أمرين : أحدهما أن يريد أنهم اعتقدوا أن الله شرفهم وميزهم واختارهم على غيرهم ، وقسم لهم من الشرف والعظمة مالم يقسم للآخرين . وثانيهما أن يريد أنهم اعتقدوا بأن لهم شرفا قديما واجب الوجود ، لم يخلقه الله ولاينزعه عنهم إذا شاء ، بل هو شرف واجب للذات الواجبة الوجود ، التى وجودها من ذاتها لامن خالقها وخالق كل شئ . . . فان كان يريد المعنى الأول ، قيل له : إن المسلمين أيضا قد اعتقدوا ذلك فى أوليائهم ومشايخهم ، وهذا هو أصل الدعوى . وإن كان يريد الثانى قيل له : هذا كذب صريح ، فان المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق أصنامهم وخالق مالها من الشرف والاختصاص والجاه ، كما أنه خالقهم هم وخالق كل شئ . وقد تقدمت بعض الدلائل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال السلف . والقرآن الكريم ملآن باعترافات القوم لله بهذا . فهو لانزاع فيه بين أهل العلم والمعرفة . وأما أنهم اعتقدوا أن الاصنام تستحق العبادة بالاستقلال ، فهذا كذب أيضا ، فانهم ماعبدوها إلا على قصد أن تقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده ، كما حكى الله عنهم ذلك وكما حكاه أهل العلم ، وكما دلت عليه أقوالهم الصحيحة . قال الله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ . » وقال « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شئ

لافرق بين الفريقين

نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ » وقالوا فى عبادتهم الملائكة « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » ومن ذلك حديث تلبيتهم المشهور . فالمشركون لم يزعموا أن الأصنام تستحق العبادة بالاستقلال ، بل عبدوها لتشفع لهم عند الله ، ولتقربهم لديه ، لأنه هو وحده غايتهم ، أما الاصنام وكل موجود غير الله فوسائل . وهذا هو مازعمه هؤلاء الجاهلون فى أوليائهم حذو القذة بالقذة .

وأما إن كان يريد باستحقاق الأصنام للعبادة بالاستقلال أنها تعبد وحدها دون الله ، وأنه لا يصح أن يعبد تعالى معها ، وأنهم فعلوا ذلك حقا ، فهذا هو الباطل عينه والكذب نفسه . فإن المشركين كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة أخرى. وهذا هو معنى تسميتهم «مشركين». وقد قال تعالى : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . » وقال : « وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » وقال : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه» إلى آخر الآيات والدلائل فى هذا المعنى .

فماذا يريد ؟

وأما أنهم اعتقدوا أن لها اختيارا وتدبيراً ، فهذا الاختيار وهذا التدبير إما أن يريد أنهما غالبان لاختيار الله وتدبيره وإذنه ومشيئته ، كائنان قسرا عليه تعالى . وإما أن يريد أن الله هو الذى جعل لها هذا الاختيار وهذا التدبير . فإن كان يريد الأول فهو باطل بالدلائل السابقة الناصة على أنهم كانوا يعتقدون أن الله خالق الأصنام والأوثان وكل شئ ، وأنه هو المسيطر المهيمن على هذا الكون كله ، عابديه ومعبوديه ، وأنه مالك الأصنام وما تملك . متصرف فيها وفى عابديها تصرفا غير محدود . وأما إن كان يريد المعنى الثانى فهذا هو مايعتقده المسلمون الجاهلون فى الأموات ، فلا فرق بين أولئك وهؤلاء .

من إيمان المشركين بالله

وللعرب المشركين كلمات قالوها فى الله وفى أصنامهم ، لا تدع للشك مكانا فى أنهم كانوا يعتقدون فى الله أفضل مما يعتقده كثيرون من هؤلاء الجاهلين ،

و يعتقدون فى أصنامهم دون ما يعتقده هؤلاء فى أوليائهم وأشياخهم . فقد حفظ من قول أولئك المشركين « ألا كل شئ ما خلا الله باطل » وقولهم « وليس وراء الله للمرء مذهب » وقولهم « بيده الخيرات ما شاء فعل » وقولهم « أين المفر والإله الطالب » وقولهم

من يسأل الناس يحرموه * وسائل الله لا يخيب

إلى غير ذلك من الأقوال المأثورة الدالة على إيمانهم بالله و بأنه الآخذ بكل ناصية . وقال بعضهم فى أحد أصنامهم ، و يقال له ذو الخلصة:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا * مثلى وكان شيخك المقبورا

* لم تنه عن قتل العداة زورا *

وكان هذا القائل قد قتل أبوه فجاء الصنم فاستقسم عنده بالأزلام فجاءت النتيجة نهيا . وقال آخر فى صنم آخر يقال له : « سعد » :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا * فشتتنا سعد ، فما نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة فى تنوفة * من الأرض،لايدعولخير ولا يهدى

وكان هذا القائل قد جاء إلى هذا الصنم بإبل له فنفرت منه وذهبت فى كل وجه ، فغضب وتناول حجرا ورماه به وقال له : « لا بارك الله فيك إلها! نفرت على إبلى ! » . وقوله هذا يدل على أنه كان قاراً فى أذهان القوم على أن الذى يبارك فى الأصنام وفى غيرها هو ربها وربهم ورب كل شئ ، وأنه هو الذى يسلبها البركة والخير المزعوم متى شاء ـ إلى غير ذلك مما يدل على أن عقيدتهم فى الأصنام المعبودة لم تكن تزيد ، إن لم تكن تنقص ، عن عقيدة هؤلاء فى موتاهم ومشايخهم .

بل دين الله

وأما قوله : « إن المشركين بدلوا دين الله وغيروا أحكامه » فالجواب أن نقول : ونحن لا نشك أيضا فى أن عبدة القبور فعلوا ذلك بدين الله بأبشع

الصور وأنباها عن الذوق والعقل والدين . وهذا هو أصل الدعوى ومثارها،وهذا هو أصل الخلاف والنزاع ، وهذا هو ماوضعنا له كتابنا هذا ، وماوضع له أهل العلم كتبهم المؤلفة فى هذه الأصول ، وهـذا هو ما دلت عليه النصوص المتواترة القائلة : بأن طوائف من المسلمين ، ولا محالة ، سوف يصـيرون مصاير الذين كانوا قبلهـم من الأمم الهالـكة تحت هيا كل الشرك والوثنية الهوجاء .

هـذا هو الرد التفصيلى عـلى الفروق التى ذكرها وزعمها بين العاكفين عـلى الأصنام ،والعاكفين على القبور والأجـداث .

الجواب الاجمالى

وأما الرد الإجمالى فنقول له : هب هؤلاء المسلمين الجاهلين لم يفعلوا جميع ما فعله المشركون الأولون من عبدة الأصنام والأوثان ، فهل يدل هذا على أن المسلمين العاكفين على القبور لم يقعوا فى الاشراك ، أو لم يقع منهم نوع من أنواع الاشراك ؟ كلا ، فان هذا لا يمكن زعمه ولا قوله حتى يمكن الزعم والقول بأن أولئك المشركين لم يكونوا مشركين ولا ضالين إلا لأنهـم عملوا جميع ماعملوه من الأعمال التى أنكرها الاسلام،أما لو نقصوا شيئا من أعمالهم فانهم لا يكونون حينئذ مشركين ولا ضالين . ولـكن هذا لا يمكن أن يزعمه ولا أن يقوله مسلم ولا عاقل غير مسلم،وذلك أن المشركين كان لديهم أنواع كثيرة من أنواع الشرك،وكان كل نوع كافيا للقضاء عليهم بالشرك والهلاك والضلال ، وإذن لن ينفع المخالف أن يجد فرقاً بين أولئك وهؤلاء ، ولن يجديه فى قضيته أن يجد هؤلاء الطائفين بالقبور لم يعملوا كل ما عمله المشركون الأولون ، ولم يعتقدوا جميع ما اعتقدوه .

من أسباب الشرك

﴿ كيف ، ولمـاذا عبد المخلوق ؟ ﴾

يجمل بنا هنا أن نذكر السبب الذى حمل المخلوق على أن يعبد المخلوق العاجز مثله . وذلك أن عبادة المخلوق للمخلوق من الأمور الغريبـة المدهشة التى قد لا يستطيع الـكثيرون تأويلها وفهمها . وهـذا لأن من الأشياء الضرورية

البدهية أن إنسانا قسم له من العقل ما صح به تكليفه لا يمكن أن يعمد إلى مخلوق مثله مساوٍ له فى البداية والنهاية والصورة، وفى الولادة وقبول الفناء والهلاك والانصهار بالأعراض البشرية الخلقية، فيعبده ويدين له بالالوهية والعبودية .
ولهذا يقوم هذا السؤال : لماذا إذن عبد الانسان الإنسان، وما هو دون الانسان من الحيوان والجماد، ومن الأحجار والأشجار ؟ وكيف أمكن أن يصنع التماثيل والصور بيديه ثم يعبدها، وهو يعلم بالضرورة أنه يستطيع نقضها وتحطيمها متى شاء، ويعلم بالضرورة أيضاً أنها جماد جامد لا تدفع عن نفسها من أراد السوء بها، ولا تسوق الخير إلى من رغب فيها وأمله منها، بل وهو يعلم أنه أقدر وأشرف منها ؟ هذا هو السؤال الذى يعسر فهمه وجوابه على الكثيرين، وغاية ما يمكن أن يقوله من لم يفهم الحقيقة : إن عبدة المخلوق، وعبدة الأصنام والأوثان، قوم لا يعقلون، فلا يقال : كيف فعلوا، ولا كيف تركوا، ولا كيف عبدوا ما صنعوا بأيديهم من الأحجار والأشجار والصور والتماثيل والبنايات . . . ولكن هذا جواب، ولا شك، ساذج باطل، لا يصح الاطمئنان إليه ولا التشبث به. وهذا لأن عبدة الاصنام والمخلوقين لم يبلغوا من الجنون والعته وضعف العقل مبلغاً يسقط معه تعليل أفعالهم وأعمالهم بحيث لا يقال : كيف فعلوا ذلك، ولا كيف تركوه، لأنهم لو كانوا كذلك لسقطت عنهم أعباء التكاليف، ولما كانوا مخاطبين ولا محاسبين . ولكن كلا، فان للقوم أفهاماً وعقولا وكيدا ومكرا عظيما، ودهاء مرا، وذكاء صافياً، مغرورا جبارا . . . ومما يبين ضعف هذا الجواب، بل بطلانه فى تعليل عبادة الانسان الأصنام، أننا لم نجد أحداً من هؤلاء المعاصرين الجهلاء عمد إلى عبادة جماد مجرد لا صلة له بغير المخلوقين، وإنما عبدوا مخلوقا زعموا أن له بالخالق صلة خاصة قوية لولاها ما التفتوا إليه ولا بالوه .
فلم نجد أحداً من هؤلاء الجاهلين الأغبياء عمد إلى عبادة شجرة مجردة، ولا عبادة

حجر مجرد من المعانى والأسرار الالهية التى يزعمونها لبعض الجماد لصلة زعموها لذلك الجماد . ولو أنك طلبت إلى أغبى هؤلاء الأغبياء أن يعبد حجراً ، لا يزيد فى أمره الظاهر والباطن عن كونه حجراً ، وطلبت إليه أن يطوف وأن يتبرك به، لما أجابك إلى ذلك أبدا حتى تروح تزعم أن هـذا الحجر أو تلك الشجرة مثلا تنطوى عـلى مخلوق له بالله رب العالمين صلة كبيرة متينة ، وله لديه جاه عظيم كبير . هذا ونحن نعلم ، ولا نشك ، أن هؤلاء الدوام أجهل وأغبى من كثيرين عبدوا الأصنام والأوثان ، ورفعوا إليها أفضل أنواع العبادة الخالصة . وهـذا لأنه باطل بالضرورة ، كما قلنا ، أن يعبد إنسان له عقل يصح به تكليفه مخلوقا يعلم أنه مثله مخلوق لا أكثر ولا أقل .

هذا كله صحيح لدينا ولدى جميع الباحثين، فكيف إذن عبد الانسان الانسان وماهو دون الانسـان كالجماد والحيوان ؟ والجواب أن نقول : إن غاية كل مخلوق مثاله متدين، والانسان كما قيل فى إحدى تعاريفه « حيوان متدين بالطبع » أن يتصل بأكبر قوة ، وأن يرضى عنه أعظم ضرار ونفاع فى هـذا الوجود المتلاطم بالأضرار والمنافع ، المتهالك تحت نواميس القوة والضعف ، والقوى والضعيف . وقد علم هذا الحيوان المتدين ، بما ورثه من رسالات الأنبياء ، و بما استلهمه فطرته الصحيحة السليمة الأولى ، أن أكبر كبير ، وأن أعظم ضرار نفاع فى هذا العالم هو الله خالق كل شئ وخالق الاقوياء والضعفاء ، وصنوف الضر والنفع ... فأراد الاتصال به عز شأنه ، وأراد أن يقيم بينه و بينه أسباب الرضا والمودة ، وعلاقات القربى والزلفى ، وصـلات العبادة والرعاية والحياطة ، وأراد أن يعطيه إخـلاصه وخضوعه وذله وكل معانى عبادته وعبوديته، كما أعطاه تعالى وجوده وحياته وكل مايتمتع به من متع الحياة وأسباب البقاء، ولكى يزيده تعالى من ذلك و يديمه عليه و يمنحه منه مالم يمنحه . . . ولـكن كيف يعطيه ذلك ، وكيف يعبده ويتصل به،

غاية كل إنسان أن يتصل بأقوى هـذا الوجود

و بأى أسلوب يرفع اليه ذلك كله ؟ هذه هى المشكلة ، وهذه هى منطقة الخطر الخطير . . .
و إن مما ارتكز فى الفطر الانسانية كلها أن الرهب والرغب لا يكونان إلا فى القوى القادر ، وأن العبادة لا تكون إلا حيث تكون الرهبة والرغبة . فمن المسلم به إذن فى أوائل كل الفطر ألا يعبد فى هذا العالم إلا الموجد له القائم عليه و به ، المفنى له إذا شاء ، الواهب لكل شئ ماهو فيه ، القائل للشئ كن فيكون ، الآخذ بكل ناصية الأول الآخر ، الفعال لما يريد . . . هذا مما جبلت عليه جميع الفطر البشرية ، فكان المعقول المظنون إذن أن تكون النتيجة لهذه المعارف والعلوم المجمع عليها ألا يعبد إلا الله ، وأن يكون البشر جميعا موحدين ، وألا توجد فى قاموس البشرية كلمة « الاشراك » ولا كلمة « المشرك » ولكن شيئاً قابل هذه المعارف الفطرية فحول النتيجة الصحيحة المعقولة ، و وضع مكانها نتيجة أخرى فاسدة باطلة . وهذا الشئ الذى حول هذه المعارف البشرية عن أن تصل إلى نتيجتها الصحيحة هو أن الانسان قد خلق ماديا حسيا أكثر منه معنويا علميا ، فخلق نزاعاً إلى الرغبة فى المحسوس المشهود ، نزوعاً عن الرغبة فى المعلوم المفهوم . . . فأراد أن يرى الله ، وأراد أن يعبده عبادة مشاهدة وحضور ورؤية ، فأعجزه ذلك وحال بينه و بينه مابين الخالق والمخلوق من الفروق . فراح يحتال لعبادة الحضور والشهود ، وهب يقدح زناد عقله وفهمه فوقع فى الإشراك والضلال والجهل ، واهتدى إلى أن يقيم التماثيل والهياكل والأصنام والأوثان ، وأن يزعم أنها ترمز إلى الله وتشير إليه وتقوم مقامه وتنوب منابه فى الحضور والشهود ، واهتدى إلى أن يزعم أن لهذه التماثيل والهياكل والاصنام والأوثان صلات بالله مختلفة ، وأنها بهذه الصلات تمثله تعالى وتقوم مكانه ، كما تمثل حضوره وقربه وشهوده إذ لم يمكن قربه الحقيقى ولا حضوره الصحيح ، ولا شهوده المطلوب . و راح فى فهم هذه الصلات التى زعمها بين الأوثان و بين الله مذاهب أشتاتاً ، وذهب فى تأويلها وتفسيرها طرائق أفناناً ، إلا أن

الرغبة فى عبادة الحضور من أسباب الشرك

الجميع قد أجمعوا على عبادتها ، وأجمعوا على أن عبادتها عبادة لله . فبعضهم أقام هيا كل للنجوم وللشمس والقمر والأجرام العلوية ، فوجه اليها عبادته و زعم أن عبادتها عبادة للأجرام نفسها ، كما زعم أن عبادةالأجرام عبادة لله تعالى ، وقد زعم أن هذه الأجرام مخلوقات حيةعاقلة فاهمة . فكان بذلك عنـد نفسه عابداً لله عبادة حضور وشهود . و بعضهم قصد إلى حجر أو شجر فزعـم أن له ببعض عبادا لله المقر بين إليـه ، المختارين لديه ، علائق وملابسات مختلفة ، صار ذلك الحجر أو الشجر لأجلها محط أسرار أولئك العباد المقر بين الممتازين .فتوجه إلى الحجر والشجر بعبادته ، و زعم أن المتوجه إليه حقيقة بالعبادة هو ذلك العبـد المقرب الممتاز ، كما زعم أن التوجه إلى ذلك العبد بالعبادة هو فى الواقع توجه إلى الله . فالمعبود فى الظاهر الحجر والشجر ، والمعبود فى الحقيقة هو رب العالمين .

من فلسفة الشرك

و بعضهم شاد القبور والضرائح و بالغ فى زخرفتها وتجميلها وتعميرها وانتيابها من كل مكان لأنها مراقد أقوام صالحين لهم عند الله الجاه العظيم والسر الباتع ، الضار النافع ـ فى مازعمواـ فقصدوا هذه القبور والضرائح بالعبادة ، و ر بطوا بها حاجاتهم و رغائبهم ، و زعموا أنهم مافعلوا ذلك إلا لأجل من فيها من الصالحين ، و زعموا أنهم ماتوجهوا بذلك إلى الصالحين لا لقربهم من الله وحظوتهم لديه .فهم فى الحقيقـة مارغبوا إلا فى الله ، ولا انقطعوا إلا إليه تعـالى ، فهو الغاية ، وهو المعبود ، وهو المرجو المدعو . و إنما اتخـذوا إليه الوسائل ، و راموا القرب منـه بالوساطات. والوسائل والوساطات إن هى إلا أسباب ؛وقد ر بط الله كل الاشياء بأسبابها ، فلا يمكن أن يدرك الشئ طالبه إلا بسببه ، ولا يمكن أن ينال الحاجـة مريدها إلا بوسيلتها .والاسباب ، و إن كثرت وتعددت ، ليست مقصودة بالذات ليست إلا طريقاً وسـبيلا إلى الغاية ، والغاية هى المقصودة فى الحقيقـة ، وهى المطلوبة المرجوة . ولو أنها أدركت بدون أسـبابها و وسائلها لما عبئ إلا بهـا ،

ولأقصيت هذه الأسباب وتلك الوسائل إقصاء . فالراغب فى الوسيلة راغب فى الغاية حقا ، والعابد للوساطة عابد لما بعدها بلا شك ولا ريب . فالله وحده هو غاية هؤلاء المتوسلين المتخذين الوساطات والشفعاء لديه ، وهو معبودهم ، وكل مادونه آلات للحظوة به وعنده .

ومنهـم عمد إلى بيوت أضيفت إلى الله فبالغوا فى إعظامها و إعظام بنائها حتى عبدوهـا وأسرفوا فى عبادتها ، وحتى عبدوا لذلك الحجارة وما استحسنوا من الجماد . وقد ذكر أهـل العلم أنه كان مما سلخ بالمشركين إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معـه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم . فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالـكعبة صبابة و وجدا وحبا . ثم سلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، وما كانوا يرمون إليه، ولم يكن تعظيمهم للحرم إلا لصلته بالله، أو لصلته بمن له صلة بالله

و بعضهم توجه إلى عبادة الملائـكة لقربهم منه ومن الله ربهم . ومنهم غير هؤلاء وهؤلاء من أصناف المشركين الضالين . وكأن هؤلاء جميعاً ما صـاروا

ما أشرك بالله إلا رهبة فى قربه

إلى الشرك إلا لرغبتهم فى عبادة الحضور والشهود والقرب ، فلما أن عجزوا عن ذلك قصدوا إلى تحقيقها بعبادة أشياء حاضرة محسوسة لها اتصال بهم، ولها اتصال بالله فيما حسبوا و زعموا ، ولها حضور لديهم وحضور لدى الله . ولهذا كان طوائف من المتألهين المتدينين ذهبوا إلى القول بحلول الله فى مخلوقاته ، فعبدوا هـذه المخلوقات لأنها مظهر لله . ولهذا أيضاً كانت الأمم تطالب أنبياءها و رسلها برؤية الله وكانت تقول كل أمة لرسولها : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وعيانا . وهذا لأن الأنسان ، كما قلنا ، خلق ماديا حسيا أكثر منه عمليا معنويا. وقد سلخت هذه

تشبيه الله بالظالمين من خلقه

الجبلة الحسـية الانسانية بطوائف من البشر حتى قاسوا الله عز شأنه وسـلطانه بزعمائهم وكبرائهم الظالمين الباغين . فقـد وجدوا و رأوا أن هؤلاء الـكبراء

الظالمين لا يستطيع الضعيف الفقير أن ينال رضاهم ولا عدلهم ولا رعايتهم ولا شيئاً مما بأيديهم إلا باتخاذ الوسائل والشفعاء لديهم ، و إلا باتيانهم من طريق المقربين لديهم ، الذين لهم سلطان ودلال عليهم . ووجدوا أن من أراد إتيانهم وعدلهم ورضاهم من هؤلاء الضعفاء الفقراء بدون شفيع و وسيلة كبيرة،رهو بة فلن يصل إليهم ، ولن يلاقى إلا الحرمان والاقصاء والدفع والطرد . وقد ظنوا حينئذ لجبلتهم الحسية الناقصة أن الله أيضاً كذلك يؤتى و يطلب من طريق الوسائل والوساطات والشفعاء المقربين الممتازين ، وأنه بغير ذلك لا يمكن الوصول إليه ولا الظفر برضاه وقربه والحظوة عنده ،و بهذا صاروا إلى الشرك بالله وعبادة الاصنام والأوثان . والغريب فى هذا أنهم لم يقيسوا الله إلا بالظالم من خلقه ، فقد رأوا أن الظالمين من البشر لا تنال منهم الحقوق والحاجات والواجبات إلا بالوسائل والشفعاء .وقد رأوا أيضاً أن العادلين المنصفين من البشر يعطون الحقوق والواجبات من أنفسهم بلا وسيط ولا شفيع ، فشبهوا الله بالفريق الظالم الجاهل من عباده ، ولم يشبهوه ، إن كان لابد من التشبيه ، بالفريق العادل الذى يفعل الحق والواجب والجميل لأنه حق و واجب وجميل ، لا لأن فلانا أو فلانة طلب إليه فعل ذلك ، ولا لأنه خاف إن لم يفعله من هو فوقه أو من هو مثله أو من هو دونه. فالمشركون شبهوا الله بخلقه ، بل شبهوه بأضعف خلقه وأظلمهم وأرذلهم . ولولا هذه الجبلة الحسية الناقصة لما أشرك المشركون ولا شبه المشبهون .

فعبادة المخلوق للمخلوق وللأصنام والأوثان قائمة على الرغبة فى عبادة الحضور والشهود وعبادة الحاضر الشاهد لأن الإنسان خلق حسيا ماديا أكثر منه علميا برهانيا غيبيا . فعبدة الأصنام والمخلوقين إنما قصدوا الله وحده ولكنهم قصدوه من طريق ضال باطل جاهل. ولهذا فإنهم ما عبدوا ولا قصدوا إلا إلى المقربين لديه

وقد زعموهما ملكين عظيمين. وعبدوا الأنبياء والصالحين ، وعبدوا آثارهم ومخلفاتهم ، وعبدوا الحرم وحجارته ، وعبدوا الأحجار والأشجار والقبور والأجداث لما لها من الصلات الكبيرة المتينة، فما عبدوا إلا مقرباً إليه تعالى أو من ظنوه مقربا وإن لم يكن كذلك . فهم لم يعبدوا حجارة مجردة ولا جماداً مجرداً يقيناً . وإنما عبدوا أحياء عاقلين أو من زعموهم كذلك . وقد بين الله ذلك فى كتابه فى غير ما آية قال تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ولا شك أنه لا يمكن أن يتوهموا أن الجمادات المجردة يمكن أن تشفع لهم . وقال تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولن يظنوا أن الجمادات تقربهم إلى الله وتدنيهم منه ولا أنها تقدر على شىء من ذلك . وكلمة « نعبدهم » و « يقربونا » و « أولياء » صريحة فى أنهم قد عبدوا عقلاء . وإطلاق كلمة « أولياء » على معبودات المشركين جاء كثيرا فى كتاب الله كما فى هذه الآية وكما فى قوله من سورة « العنكبوت » : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » وقال تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون » ، وقال : « قل أغير الله أتخذ ولياً » إلى غير ذلك من الآيات المعلومة الواضحة الدلالة . فعبادة المخلوق قائمة على هذه الشبهة الفاسدة .

المشركون يعبدون من دون الله أولياء

﴿ الباب الثالث من كتاب الرافضى ﴾

ثم قال الشيعي : « الباب الثالث فى تفصيل الأمور التى كفر بها الوهابية المسلمين ورد كل واحد منها بخصوصه . . . »

وفى هذا الباب ذكر الفصول الآتية : الفصل الأول فى الشفاعة . الثانى فى دعاء غير الله وطلب الحوائج منه . الثالث فى التوسل إلى الله بالأنبياء

والصالحين . الرابع فى الإقسام على الله بالمخلوق أو بحقه . الخامس فى الحلف بغير الله . السادس فى إطلاق السيد والمولى على غير الله . السابع فى الذبح والنحر لغير الله . الثامن فى النذر لغير الله . التاسع فى بناء القبور والبناء عليها . العاشر فى الكتابة على القبور . الحادى عشر فى اتخاذ المساجد على القبور ، واتخاذ القبور مساجد . الثانى عشر فى إسراج القبور . الثالث عشر فى الصلاة والدعاء عند القبور . الرابع عشر فى تعظيم القبور وتعظيم أصحابها والتبرك بها ومسها والطواف بها . الخامس عشر فى اتخاذ السدنة والخدام والحجاب لمقامات الأنبياء والصالحين واتخاذها أعياداً . السادس عشر فى تزيين المشاهد بالذهب والفضة والمعلقات والكسوة . السابع عشر فى زيارة القبور وشد الرحال إليها . هذه هى فصول هذا الباب . وقد تكلم الشيعى على كل فصل منها ، وسوف نتكلم نحن عليها كلها ، وسوف يتكلم معنا، إن شاء الله ،الحق والصواب والهدى .

﴿ الاستشفاع بالأموات ﴾

حجة الرافضى على طلب الشفاعة من الأموات

ذكر الشيعى فى فصل الشفاعة ما خلاصته : إن الاستشفاع بالموتى جائز لا ريب فى جوازه ، قال : « ذلك أن الله قد أعطى عباده الصالحين ، كالأنبياء والأولياء والملائكة ، الشفاعة ، ولا مانع يمنع من أن نطلبهم ما أعطاهم الله » قال : « والشفاعة هى الدعاء ،فالذى يطلب ولياً أو نبياً أو ملكا أن يشفع له إنما يطلب منه أن يدعو له لأن الشفاعة هى الدعاء والدعاء يجوز طلبه ، بلا ريب ، من الصالحين : الأحياء منهم والأموات ولا فرق » قال « وقد ثبت أن الملائكة يدعون ويستغفرون للذين آمنوا كما قال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم

إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز المبين » . ودعاؤهم هذا للمؤمنين هو عين شفاعتهم . . . وقد جاء أن الحجر الأسود يشفع ويشفّع كما صح عن علي بن أبي طالب أنه قال : اشهدوا هذا الحجر خيرا فانه يوم القيامة شافع مشفّع ، له لسان وشفتان يشهد لمن استلمه . ولا يمكن القول بأن الله أعطى عباده الشفاعة ثم منع من سؤالهم إياها. فان الشفاعة إذا كانت حقا لم يكن طلبها باطلا ، لأن طلب الحق لا يكون باطلا ولا شركاً ، ولكن طلب الباطل هو الذى لا يكون إلا باطلا ... وقد تشفع آدم برسول الله قبل خلقه ، وتشفع وتوسل رسول الله بمن قبله من الأنبياء، وتشفع الصحابة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وتشفع عمر بالعباس ، وأقر النبي أيضاً عليه السلام ذلك الأعرابي الذى قال : إنا نستشفع بك على الله . وقد طلبوا من النبي أيضاً بعد موته أن يستسقى لهم فسقوا . وقد روى أن الذين يصلون على الجنائز يشفعون . وقد روى الترمذي عن أنس بن مالك قال : سألت رسول الله أن يشفع لى يوم القيامة فقال ، « أنا فاعل » .وقد طلب سواد بن قارب، وهو أحد الصحابة ، من الرسول الشفاعة وقال من قصيدة :

فكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

«وفى السيرة الحلبية أن تبعاً الحميرى آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل ولادته ، وكتب كتاباً فوصل للنبي بعد مبعثه ، وفى الكتاب « وإن لم أدركك فاشفع لى يوم القيامة ولاتنسنى » وأن النبي عليه السلام قال : : « مرحبا بتبع الأخ الصالح » ثلاث مرات . وقد علم ابن حنيف رجلا فى خلافة عثمان أن يقول فى دعائه : يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك أن تقضى حاجتى ،ويذكر حاجته . وأنه فعل ذلك فقضيت حاجته . وقد روى المفيد فى المجالس أن عليا لما فرغ من غسل النبي عليه السلام كشف الإزار عن وجهه وقال : بأبي أنت وأمى ، اذكرنا عند

ربك واجعلنا من همك . ثم أكب عليه وقبله . وفى خلاصة الكلام أن أبا بكر قال وفعل مثل ذلك فى النبى بعد وفاته . وفى شرح المواهب للزرقانى أن الداعى إذا قال: اللهم إنى أستشفع إليك بنبيك يانبى الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له . وقد ذكر العلماء فى باب آداب الزيارة أن من جملة مايخاطب به النبى ﷺ أن يقال : جئناك لقضاء حقك والاستشفاع بك ، فليس لنا يارسول الله شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا . . . » .

هذا جملة ماذكره فى هذا الفصل من التدليل على جواز الاستشفاع بالموتى و بالملائكة وسائر الصالحين. ونحن، إن شاء الله، نوردهنا مانرى إيراده من الدلائل على بطلان الاستشفاع بالاموات و بالملائكة ، ثم نثنى بالابطال والنقض لهذه الشبه التى أوردناها ـ ضارعين إلى الله وحده أن يفرغ علينا من عونه ومدده وتسديده ، وأن يقسم لنا ، فى مايقسم ، التوفيق والهداية والرشاد ، وأن يباعد بيننا و بين الهوى الظالم ، والعصبية لغير الحق كما باعد بين المشرق والمغرب ، وأن يغسل ألسنتنا من الهذر والزلل ، وقلو بنا من الغى والخطل ، وأن يجعلنا هادين مهديين ، لا ضالين ولا مضلين ، ولا فاتنين أو مفتونين ، فهو وحده مجيب السائلين، ومعطى الراغبين ، وهو رب العالمين ، فنقول :

إبطال شبهات المخالف

لاريب أن الشفاعة نوع من الدعاء ، وأن الاستشفاع نوع من طلبه ، وأن الشافع يكون داعياً . ولا ريب أن طلب الدعاء من الحى الحاضر جائز مشروع بالجملة ، وأن الاستشفاع بالقادر على الشفاعة جائز مشروع أيضاً بالجملة. ثم لاريب أن الله قد ادخر لنبيه عليه الصلاة والسلام ، وكذلك لسائر أنبيائه ، ولسائر الصالحين من عباده ، أنواعاً من الشفاعات سوف يكرمهم الله بها و يعلن شرفهم وما لهم عنده من الزلفى وقرب المكان وعلو المكانة وسمو المراتب فى أيام مشهودة مشهورة . كما لاريب أنه تعالى قد أذن لهم فى أنواع من الشفاعات فى الدنيا ،

وأعنى بها الأدعية ، وأنهم قد شفعوا أنواعاً أيضا من الشفاعات نفع الله بها الكثير من عباده ، وأنزل بها الكثير من فضله وأنعمه ، وأن له تعالى عباداً لم يخلقوا بعد سوف يشفعون ، وسوف ينفع الله بشفاعتهم طوائف من خلقه . ثم لا ريب أن المسلمين كانوا يطلبون إلى نبيهم أن يدعو الله لهم ، وأنه كان يدعو لهم ، وأن الله كان يجيب دعاءه ويقبل شفاعته ويرحم عباده ، وأنه كان لغيره من الانبياء والصالحين أشياء كثيرة من ذلك . ثم لا ريب أيضا فى أن المسلمين يرجون شفاعة نبيهم ، ويرجون أن يرحمهم الله بها فى أشد يوم سوف يمر بالخليقة ، ويسألون الله أن يعظم نصيبهم من هذه الشفاعة العظمى فى ذلك اليوم الأعظم . كما لا ريب أنهم سوف يستشفعون ذلك اليوم الموعود بالأنبياء واحدا واحدا فلا يكون الشافع الأول لهم وللناس جميعاً سوى محمد عليه الصلاة والسلام خاتمهم وآخرهم : هذا كله لا ريب فى شىء منه ولا خلاف ، ولكن الذى فيه الخلاف والنزاع هو طلب الشفاعة من الأموات والاستشفاع بهم . وكل ماذكر هنا لا يدل شىء منه على ذلك . والدلائل على بطلان الاستشفاع بالموتى كثيرة ظاهرة ميسورة نورد منها هنا ما يتيسر :

دلائل بطلان الاستشفاع بالأموات

أولا — : المستشفعون بالموتى لابد أن يعتقدوا أنهم قد أعطوا من كمال السماع والاحاطة بالغيب ما لم يكن لهم وما لم يكن إلا لله وحده . ولا بد أن يعتقدوا فيهم أيضاً أنهم يعلمون الغيوب ويحيطون علماً بالقريب والبعيد ، ويسمعون جلجلة الهتاف أين كان الهاتفون الداعون ، ويفرقون بين مختلف النغمات والدعوات فى وقت واحد كما يفرقون بين مطالبها ومعانيها ، مهما كثرت وتعددت واختلفت . ولهذا يدعو النبى والولى والشيخ فى الوقت الواحد منهم الداعون الكثيرون المختلفون لغات ولهجات وحاجات وأماكن ومواضع ، ثم لا يشكون أن ذلك النبى أو الولى أو الشيخ المدعو المسئول يسمع دعاءهم واستشفاعهم ،

و يفهم مايريدون ومايعنون . ولهذا أيضاً يدعونه و يسألونه الشفاعة من كل مكان وفى كل مكان بكل لسان فى كل زمان . ولهذا أيضايجتمعون على دعائه والاستشفاع به فى وقت واحد مهما كثروا واختلفوا أغراضاً وحاجات ولهجات ولغات .ولهذا أيضا يدعوه الفارسى والتركى والهندى والبربرى وغيرهم من أصناف العجم والعرب :كل بلسانه و بيانه ولهجته و أسلو به .ولا يرتاب أحد من هؤلاء الداعين الصارخين الطالبين فى أن ذلك كله مفهوم معلوم مسموع معقول فى وقت واحد وفى حالة واحدة . ولا يرتاب أحد منهم أيضا فى أن ذلك الشيخ المدعو المرجو لا يعجزه ولا يفوته شئ من تلك الدعوات والاستشفاعات والضراعات .ولاشك أن ذلك المدعو لو كان حيا حاضراً قائماً بين أيديهم وتحت أبصارهم لما نحاوه كل هذه الاحاطة باللغات والحاجات والغائبات ، وأنه لو كان حيا سويا بينهم و بينه من الحجب والموانع والحوائل مابينهم و بين ذلك المقبور لما شكوا فى أنه لن يسمع دعوة داع ولا ضراعة ضارع . ولكن هاهم يقفون فوق كل ضريح من أولئك الضرائح و بينهم و بين الراقد فيه ماهو معلوم من الأبعاد والحجب والمسافات والحوائل والموانع ،فيناجونه خفى النجوى ، ويشكون إليه بألسنتهم وقلوبهم ونفوسهم أيضا ، كما يفعلون ذلك وهم فى المكان القصى منه ، و يرون أنه سامع فاهم ... شئ ، ولهذا أيضاً يقدمون إليه العرائض والشكايات المكتوبة بمختلف العبارات واللغات والحاجات ،التى لو كان حيا سويا لما فهم الكثير منها ،ولما طاف بمعناها ومرماها :هذا كله يفعلونه ، وهذا كله يدل على أن القوم ينحلون الاموات من كمال السماع والاحاطة بالغيوب ، ومن كمال القدرة والسلطان ما لم يكن ومالم يجعله الله لأحد سواه وحده لاشريك له . بل هذا كله يدل على أنهم يرونهم عالمين بكل غائبة ، محيطين بكل سر ، عارفين بكل لسان ، سامعين كل صوت ، موجودين فى كل مكان . وقد جهر كثيرون من هؤلاء الضلال الحيرى بهذه

الاستشفاع بالأموات يلزمه علمهم بكل شئ

النتيجة بلا جمجمة ولا لجلجة ، فزعموا أن الولى والنبى موجودان فى كل مكان مع كل داع لهما ، هاتف بهما ، لا يغيبان ولا يبعدان ، وقد إستدلوا ، فى ضمن دلالتهم ، بقول الشاعر الكاذب الجاهل :

كالبدر من حيث التفت رأيته * يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا

كالشمس فى كبد السماء وضوءها * يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

واحتجوا أيضا ، وقد كذبوا ، بوجود ملك الموت فى كل مكان واتساعه واتساع سلطانه بقدر اتساع الأرواح المقبوضة وانتشارها . وقد كذبوا وأخطؤا لأن قابض الأرواح ملائكة لا ملك واحد كما صرح به القرآن فى غير آية كقوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ » وقال : « توفته رسلنا » وقال : « والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » والآيات كثيرة . أما قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم » فهو كقوله : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وأمثالها : كلاهما يراد به العدد لا الافراد ، كما هو معروف فى لغة الضاد .

ملائكة لا ملك واحد

وأعظم دليل على أن القوم يعتقدون فى الأموات هذه العقيدة أنهم يلهجون بأسمائهم أين كانوا ، فى عرض البحار ومتون القفار ، ويفزعون إلى شفاعتهم ودعوتهم كلما رغبوا أو رهبوا ، لا يفكرون فى بعد الديار ، وتقطع الأسباب ، وفقدان الآلات . وهذا لا شك فيه .

وإذا كان المستشفعون بالأموات ينحلونهم هذه الصفات التى لا يمكن أن تعدو رب العالمين ، أو إذا كان الاستشفاع بهم يلزمه نحلهم إياها أو نحلهم بعضها فلا ريب فى بطلان هذا الاستشفاع وفساد عقائد القائلين به . فانه لا شك فى مصادمة هذا لأصول الاسلام وأصول الأديان السماوية كلها . فان من زعم أن مخلوقاً يعلم الغيوب فقد اغترف من منهل الضلال شر اغتراف ، وقاسم الغى شر

مقاصمة . وأديان الله كلها قائمة على إفراد الله وحده بصفات الكمال ، فلا يقدر على كل شئ إلا هو ، ولا يدين كل شئ إلا له تعالى ، ولا يعلم الغيب سواه. وكل دين لله قائم على أمرين : على أن الله ليس كمثله شئ ، وعلى أن الكمال المحض له وحده لا يشاركه فيه مشارك . فمن نازع فى هذين الأمرين ،أو فى أحدهما ،فقد ضل ضلالا بعيدا وخالف كل دين لله برضاه . ولهذا يطنب القرآن ، وتطنب السنة ،فى نفى علم الغيب عن المخلوقين ، بل عن أفضل المخلوقين ، ويبالغ الرسول عليه الصلاة والسلام فى نفى ذلك عن نفسه مبالغة شديدة واضحة ، ويجهر بها فى كل موطن من مواطن البلاغ والدعوة والانذار والبيان ، ويقرر ذلك تقريراً لا يخفى أن الغرض منه المحافظة على سلامة الاعتقاد وحفظ الايمان . بل كان ينفى عن نفسه الشريفة كل مايحوم حول هذا ،وما يمكن أن يمت إليه بصلة من الصلات قريبة أو بعيدة . فكان دائماً يقرر أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله اختصه برسالته وموضع نذارته ودعوته ، فجعله مكاناً لهدايته ، فكان يقول دائما : « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون » ويقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله» .ولما وفد عليه بعض أحياء العرب وقالوا له : أنت سيدنا وابن سيدنا ، أنكر هذا القيل عليهم وقال « قولوا ببعض قولكم ، ولا يغوينكم الشيطان . فما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى وضعنى الله بها » وقد غنت إحدى الجوارى فى حضرته عليه الصلاة والسلام وقالت فى غنائها : « وفينا نبى يعلم مافى غد » فأنكر هذا الغناء . وقد أنكر أيضاً على من سألوه عن قيام الساعة وميقاتها كما ذكر القرآن . وأنكر قيل من قال : ماشاء الله وشئت . وأنكر ماهو دون ذلك مما يمت إلى الغلو والمبالغة فى التقديس . وقد علم بالضرورة من دين الاسلام أنه لا الرسول ولا غيره من الرسل والصالحين والملائكة المقربين ،ولا الجن كانوا يعلمون الغيب ،أو يعلمون

لا يعلم الغيب إلا الله

شيئاً منه إلا باعلام الله ووحيه، كما قال تعالى : « ولا يظهر على غيبه أحـداً إلا من ارتضى من رسول ، فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » . وما يعـلم الرسل والأنبياء من الغيب مايعلمون إلا باظهار الله ووحيه وبلاغه ، لاشيء غير ذلك . وقـد كان رسول الله يسأل المسائل فينتظر الجواب من جـبريل عليهما الصلاة والسـلام . وكان أحيانا يفعل الفعل الذى لم ينزل عليـه فيه وحى من الله اجتهاداً وطلباً لحكم الله ورضاه ،فينزل الله عتابه له وتنبيهه إلى ماخفى على طاقته البشرية من حكمه تعالى وشرعه أمثال قوله تعالى ، « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الـكاذبين » ، وقوله : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » وقوله : « وما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . بل لقد نفى الله عنه عليه السلام علمه بحقيقة من كانوا يساكنونه فى المدينة المنورة ويراهم صباح مساء فقال : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم ،نحن نعلمهم » وقال : « أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول ، والله يعلم أعمالـكم » وقال : « عفا الله عنك » الآية ـ إلى أشياء أخر معلومة . ومن تحصيل الحاصـل كما يقولون ، محاولة إقامة الدلائل على أن الرسول وغـيره من المخلوقين ما كانوا يعلمون الغيب ولا كان يمكن أن يعلموه .

﴿ أحد العلماء يؤلف كتاباً يدعو فيه إلى عبادة شخصه ﴾

عالم يدعو إلى عبادة ذاته

وبهذه المناسبة نذكر أمراً مؤسفاً مؤلماً ، ذلك أن أحد العلماء المشهورين لدى الجمهور بالصـلاح واستقامة المذهب ، وطيب السيرة والسريرة ، وبالدعوة إلى السنة والعمل بها ، قد وضع كتاباً أسماه « العهد الوثيق. فيما يجب على سالك أحسن طريق » ضمنه أشياء منكرة منابذة لحقائق الاسلام وأصول أديان الله كلها ، بل ضمنه دعوة صريحة جاهرة إلى عبادة شخصه وعبادة أشخاص المشايخ

مثله . وقد زعم فى هذا الكتاب أنه هو وغيره من أشياخ الطريق يعلمون الغيوب ويطوفون بما يطوف فى زوايا الرؤوس والنفوس من الخطرات والخلجات والغدرات . . . فقد جاء فى الكتاب مالفظه : « وكان يقول (يعنى الشبلى) من علامة صدق المريد اعتقاده أن شيخه جاسوس قلبه ، يدخل فى قلبه يعلم ماعنده ويخرج من حيث لايحتسب . . . » هذا نص لفظه. وقد قال فى خطبة الكتاب : « . . . أما بعد فيقول محمود بن محمد بن أحمد خطاب السبكى : هذه كلمات دالة على بعض سنن سيد الكائنات سميتها « العهد الوثيق » لمن أراد سلوك أحسن طريق » فمن عمل بها فهو من إخواننا ، ومن أعرض عنها فلا علاقة له بنا . . » فكل مافى هذا الكتاب عند مؤلفه التقى الورع الشيخ فلان هو من سنة النبى عليه الصلاة والسلام ومن دين الاسلام ، ولهذا فان من عمل به فقد سلك أحسن طريق ! ولا أحسن طريقا من دين الله الاسلام . فما فى الكتاب ليس سوى الاسلام الحق لدى مؤلفه عفا الله عنه . ولهذا فان من عمل بما فيه فهو من هؤلاء الجماعة الذين يزعمون لأنفسهم أنهم هم المسلمون وحدهم دون المسلمين ، ومن لم يعمل به فهو منهم برئ ، وهم كذلك منه براء . فكل مافى الكتاب صواب حق لايمسه الخطأ ، ولا يقر به الضلال ، ولايحوم حوله الفند — فى مازعم المؤلف — صفح الله عنه : كله من دين الاسلام ومن السنة المحمدية النقية

الشيخ جاسوس قلب مريده

والقول بأن الشيخ جاسوس قلب المريد ، أو جاسوس قلب غيره ، يدخل فيه ويعلم ماهنالك ، ثم يخرج منه من حيث لايدرى ولايحتسب ، قول لايمكن أن يوجد له وجه فى دين الله ، وقول لايستطاع أن يوفق بينه وبين أصل الاصول الاسلامية القائل : بان الذى يعلم مافى القلوب والنفوس والرؤوس ، ويعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، ويعلم غيب الضمائر ، هو الله وحده لا شريك له ولا مثيل . . . بل هذا القيل معدود عندنا من أقبح البدع الاعتقادية النكراء .

و إذا علم أن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه ماكان يعلم ما كانت تشتمل عليه قلوب أهل المدينة ونفوسهم من المؤمنين والمنافقين ، ولا كان يعلم ما كان يطوف برؤوسهم وقلوبهم من الخطرات والاعتقادات والخلجات ، علم حقا نكارة هذا القيل و بطلانه وعدوانه . وقد قدمنا الآيات الناصة على أن الرسول ما كان يعلم ما فى نفوس أهل بلده ولا ما كانوا يعتقدون فيه وفى الله وفى الاسلام ، مثل قوله تعالى « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم » وقوله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » وقوله : « أم حسب الذين فى قلوبهم مرض » الآية ، وقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا لله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم » ـ إلى غير ذلك الآى الواضحة . وهذا لاخلاف فيه بين أهل الاسلام ، ولا خلاف بينهم فى أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يعلم مافى صدور أصحابه ، ولا ما كانوا يكنونه من الهموم والهمم والخطرات والمسائل وغير ذلك ، وأنه لم يكن جاسوس قلوبهم ولا قلب أحد منهم . وهذا كله معلوم بالضرورة والاجماع ، والدلائل عليه من الكتاب والسنة لا تمكن الاحاطة بها فى هذا الفصل . وكذلك جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يعلمون ما كانت تنطوى عليه قلوب أقوامهم ونفوسهم ، بل ولا ما كانت تنطوى عليه قلوب أقرب الناس إليهم وألصقهم بهم من الأزواج والأبناء والآباء والأقارب . وقد أنبأنا القرآن الكريم بأن بعض الأنبياء كانت أزواجهم تخونهم وتسعى فى أذاهم وكيدهم وهم لا يعلمون ، لأنهم ما كانوا يعلمون ما فى القلوب والنفوس ، ولأنهم لم يكونوا جواسيس القلوب يدخلون فيها ويخرجون منها ، و يعلمون كل شىء فيها من الخداع والمكر والضلال والاختيان . قال تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم

مخالفة ذلك لقواطع الاسلام

يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين) .

وكذلك لم يكن أحد من صحابة رسول الله — وهم خير الأمة وأتقاها نفوساً وأنقيها قلوباً وعقولا — جاسوساً لقلوب المسلمين أو غير المسلمين من المشركين والكافرين . فما كان أحد منهم ، كأبي بكر الصديق أو عمر بن الخطاب ، يعلم ما كان يمر برؤوس خلاصة المؤمنين ونقاية المسلمين ، من المقربين إليه، المتصلين به ، ولا كان يعلم ما كان يجول فى أنفسهم من الآراء والمعانى والخطرات ، بل كانوا لجهلهم ذلك كله يتساءلون فيما بينهم ، فيسأل بعضهم بعضاً عما لا يفهمه ، وعما يريد أن يعلمه، وعن الروايات والأحاديث ،وعن غير ذلك من المسائل والشؤون.

وإذا كان أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى لا يعلمون مافى نفوس أصحابهم ولا ما فى صدور المسلمين .كان من أفظع المنكرات القول بأن الشيخ خطاباً وغيره من مشايخ الطريق يعلمون مافى صدور مريديهم وأتباعهم، والقول بأنهم يدخلون فى قلوبهم ويخرجون منها من حيث لا يشعرون . . . ولا ريب أنهم إذا استطاعوا أن يدخلوا قلوب أصحابهم وأن يعلموا ما فيها استطاعوا أن يدخلوا قلوب غير أصحابهم من المسلمين وغير المسلمين وأن يخرجوا منها من حيث لا يدرى ولا يشعر . وإذا استطاعوا أن يدخلوا قلوب جميع البشر ويعلموا كل شئ فيها، استطاعوا أن يدخلوا قلوب غير البشر من الملائكة والجان وأن يدخلوا فى نفوس البهائم وأحشائها وحواياها وزواياها . وإذا استطاعوا هذا كله استطاعوا أن يدخلوا كل شئ ، ومعنى هذا علمهم بكل شىء فى الأرض أو فى السماء لأنه لا فرق بين مافى قلب الانسان وما فى قلب الملك أو الشيطان أو مافى نفس البهيمة . . . كما لا فرق بين مافى القلوب والنفوس وبين ما فى أعلى السموات أو أقصى الأرضين أو مافى اللوح المحفوظ . . . فمن يستطيع أن يعلم ذلك يستطيع أن يعلم مافى السموات وما فى الأرض وما فى اللوح المحفوظ. إذ

ومعنى هذا علمهم كل شئ

لافرق بين غيب وغيب بالنسبة إلى المخلوق وعجزه عن الاطلاع عليه والعلم به ... فهذا القول الذى ذكروه يقضى بأن يكون الشيخ عالماً بكل شئ فى الأرض أو فى السماء . ونعوذ بالله من هذا القول ومن لوازمه .

على أن الذى لا يستطاع فهمه ولا الإيمان به القول بان الشيخ يدخل فى القلوب ويخرج منها ، وهذا غير القول بأنه يعلم ما فيها ، فانه يمكن أن يقال : إنه يعلم مافيها ، ولكنه مع ذلك لايدخلها ولايستطيع دخولها . وهذا أقرب إلى العقل والعلم من الزعم بأنه يدخلها ويخرج منها ، فان هذا لا يمكن أن يؤمن به إنسان يحترم عقله ويستعمله فيما خلق له . وأى إنسان يرضى لعقله ولدينه ولنفسه بأن يصدق بأن ذاك الشيخ يستطيع أن يدخل بأثوابه وجسمه وهيكله كله فى قلب مريده النحيل الضعيف الأقزم ؟ اللهم احفظ لنا قلوبنا ونفوسنا من دخول هذا الجاسوس الضار المؤذى .

شناعات الكتاب

وفى هذا الكتاب الذى هو « العهد الوثيق » شناعات أخرى لاتقل عما ذكرناه قبحا ومصادرة لدين الله وخروجاً عليه ، ففى صفحة ١٧ يقول : « وأما آدابك مع شيخك فكثيرة ، منها تعظيمه ظاهرا وباطنا ، وهذا من أهم الواجبات عليك . وتبلغ من الكمال بقدر تعظيمك له . ومن تعظيمه ألا تجلس على فراشه الخاص ونحو ذلك . . . » فعند هذا الشيخ التقى الورع أن من أهم الواجبات على أتباعه وأنصاره — وهم خلاصة المسلمين فيما يزعمون — تعظيم الشيخ فى الظاهر والباطن ، يعنى فى أنفسهم وفى أعمالهم ، وعنده أن من أوجب الواجبات عليهم هذا التعظيم ، وأن هذا التعظيم هو مقياس الكمال والايمان والفضل والتقى . وهذا كله باطل مخالف لأصول الدين وفروعه ، مصادر لاجماع المسلمين فى جميع العصور فان المسلم يبلغ من الكمال والايمان بقدر صلاحه وتقواه وطاعته لربه واتباعه لنبيه ، لابقدر تعظيمه لانسان معين . والاسلام لم يطالب أهله بأن يعظموا إنساناً

الآداب مع الشيخ

معيناً ، بل الاسلام بجملته نهى عن تعظيم المخلوق والالتفات إليه . ولا يوجد فى كتاب الله حرف واحد يقول: عظموا فلانا أو فلانا و بالغوا فى تعظيمه،لأن كمالكم لايكون إلا بقدر تعظيمكم له، بل قد يكون تعظيم المشايخ والرؤساء حراما ممنوعاً و إنما باطلا موقعاً فى الشرك والضلال وعبادة غير الله . ولم يقل مسلم واحد بصير بالاسلام قبل هذا القائل: إن المبالغة فى تعظيم المشايخ مشروعة مطلوبة إطلاقا. بل تعظيم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس جائزا مشروعاً إطلاقا ، بل من تعظيمهم ماهو شرك بالله ممنوع ، وذلك مثل السجود والركوع لهم ، بل لقد كان رسول الله ، كما قدمنا ، يكره القيام له و يقول لمن قاموا وراءه : « لاتفعلوا فعل فارس والروم » وقد قدمنا أنه عليه السلام أنكر قيل من قالوا له : أنت سيدنا وابن سيدنا. وحذر القائلين مغبات الغلو الحرام . وكان يقول: « لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله و رسوله » . وأنكر على من استغاثوا به ، وعلى من قال له : ماشاء الله وشئت ، وكان كثيرا ما يقول: « إنما أنا بشر مثلكم » وأنكر على من سجد له تعظيما ، وأنكر غير ذلك من أنواع التعظيم . فكيف يزعم بعد هذا أن تعظيم المشايخ فى الظاهر والباطن من أهم الواجبات على المسلم ، وأنه يبلغ من الكمال بقدر مبلغ تعظيمه شيخه ؟؟ ولو أن مسلماً اتقى الله فقام بواجباته وفروضه وترك منهياته ولم يعظم هذا الشيخ نوعاً من أنواع التعظيم ولاغيره من هؤلاء الأشياخ ، بل ولم يمر وأله ببال وفكرة لكان ذلك المسلم من الأتقياء الناجين ، ومن الكاملين ذلك الكمال النسبى البشرى ، ولما طعن جهله هذا الشيخ وجهله إخوانه أو إنكاره لهم فى دينه ولا فى إسلامه و إيمانه . ولو أن إنساناً منح هذا الشيخ أبلغ التعظيم وأنكره وأشده ولكنه ترك الواجبات ، وأقدم على المحرمات لكان من الهالكين الفاسقين ، ولما نفعه ذلك الشيخ ولا تعظيمه شيئاً ، ولما عبأ الله به ولا بشيخه ولا تعظيمه

بل لكان كجهلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . . .

فمقاس التقوى والكمال هو طاعة الله واتباع رسوله ، لا تعظيم فلان أو فلانة . ولهذا يقول الله فى كتابه : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ولم يقل فعظموا فلانا أو فلانا . وقد علق الله سعادة البشر كافة بالايمان والأعمال الصالحة فى جملة القرآن . ودين الله قائم على هذا المعنى ، أمثال قوله تعالى: «والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» وقوله : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » والقرآن كله قائم على هذا الأساس المتين . فمن أعظم البدع المنكرة فى دين الله الزعم أن تعظيم الشيخ هو مقاس الكمال والسعادة ، والزعم أن ذلك من أهم الواجبات على المسلم .

وأما تحريم الجلوس على فراش الشيخ ونحوه فتحريم لما لم يحرمه الله ، وشرع لم يأذن به الله وغلو موبق .

الاعتراف للشيخ

ثم قال هذا الشيخ فى هذا الكتاب « ...ومنها ألا تكتم عنه شيئاً مما خطر لك ، من محمود ومذموم . . . »

وهذا تقرير لعقيدة الاعتراف النصرانية التى توجب الاعتراف على المذنبين بين أيدى القسس ورجال الدين . ولكن الاسلام برىء من هذه العقيدة ، زاجر عنها كل الزجر ، محذر منها أبلغ التحذير . والاسلام لا يجوز لمن قارف معصية أو فكر فى ركوب فاحشة من الفواحش ، كالزنا أو ما هو أقبح منه ، أن يخبر بذلك أحداً ، لا الشيخ ولا من هو فوق الشيخ . وهل يرى هذا القائل المؤلف أنه واجب أو مطلوب دون الواجب من المريد أن يخبره لو فكر فى إساءة منكرة إليه أوهم بإثم عظيم يؤذيه ويؤلمه ؟ اللهم إن هذا القول من شر الأقاويل المنكرة

المخالفة لجميع الأديان السماوية

التسليم للشيخ ظاهرا أو باطنا

ثم يقول الشيخ: « ومنها أن تسلم لأوامره ظاهرا وباطناً . ولو اعترضت عليه ولو بقلبك لا تفلح!! قال الأشياخ: ما عدم المريد الفلاح إلا من عدم امتثال شيخه! »

وهذا أيضا باطل لأن التسليم ظاهرا وباطناً لا يكون إلا لله وللمبلغين عنه من الأنبياء والمرسلين المعصومين من الهوى والضلال والفند . ومن سلم لأوامر شيخ من المشايخ ظاهرا وباطناً فقد نأى عن دين الله ، وخرج عليه وعلى قواطعه نهارا .

وهذا القول أيضاً باطل لأن الذى لا يفلح هو الذى يعترض على الله وعلى رسله وأنبيائه . أما الأشياخ فلا بأس فى الاعتراض عليهم ، بل ذلك يجب أحياناً كثيرة . وقد كان المسلمون يعترضون على الصديق والفاروق وعثمان وعلى بن أبى طالب ، وكانوا جد مفلحين راشدين . بل كان هذا الاعتراض من معانى فلاحهم ورشادهم وهداهم . وقد قال حبر الأمة عبد الله بن عباس لقوم نازعوه ونازعهم : توشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ! أقول قال رسول الله وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ ؟ وهذا الشيخ نفسه يعترض ظاهرا وباطناً بقلبه ولسانه على كبار أئمة الاسلام وأركان الملة الاسلامية ، وقد يكفر طوائف منهم، كما فعل فى كتاب « إتحاف الكائنات » وهو يرى لنفسه أنه قطب الفلاح والصلاح وأتباعه يعترضون بأقوالهم وقلوبهم وحالهم على شيوخ الاسلام بل ويسبونهم وهم يزعمون أنهم هم المسلمون حسب . وماذا يقول هذا الشيخ وخليفته وأتباعه فى شيخ من شيوخ الحديث الأفذاذ ، ومن رجال السنة البارزين ، ألف كتاباً ضمنه اعتراضات وانتقادات لأحد أئمة الفقه ، مثل الإمام الأكبر أبى حنيفة رضى الله عنه وأرضاه ، لأنه صح لدى ذلك المحدث المعترض أن أبا حنيفة خالف السنة وخالف مذهبه الأحاديث الصحاح ؟ أيقول إن هذا المحدث المعترض لا

يفلح أبداً لاعتراضه على إمام من أئمة الاسلام ؟ بل ماذا يقول فى من اعترض على بعض أصحاب النبي عليه السلام فى بعض الآراء والاجتهادات : أيقول : إن هذا المعترض لايفلح أبداً ؟ أم يرى أن الذى لا يفلح هو المعترض عليه فقط ؟ بل ماذا يقول فى المسلمين جميعا فانهـم لا يرتضون منه هـذا الكتاب الذى هو كتاب « العهـد الوثيق » ويعدونه من سـقط التأليف ، ويوسعونه اعتراضا وتفنيدا لأجله ، أيرى أنهم لا يفلحون لأنهم اعترضوا عليه وعلى كتابه ؟ وهذا باطل أيضـا لأن المريد يعـدم الفلاح إذا لم يمتثل أوامر الله وأوامر رسوله ، لا أوامر شـيخه ، بل لابد أن يعـدم الفلاح إذا امتثل هـذه الأوامر الجائرة الصادرة إليه من الشيخ .

الجلوس بين يدى الشيخ كالجلوس للصلاة

ثم يقول : « ومنها ألا تجلس بحضرته إلا كجلوسك للصلاة إلا لضرورة » وهذا أمر صريح بعبادة الشيخ ، لأن الجلوس للصلاة جزء من الصلاة ، ولا يجوز صرف جزء الصلاة لغـير الله كما لا يجوز صرفها كلها لغيره ، ولا يجوز أن يتوجه إلى مخلوق بجزء من العبادة كما لايجوز التوجه بها كلها إليه . ومن التناقض الغريب أن هـذا الشيخ يقول هـذا القول فى حين أنه يحرم القيام للقادم سواء أكان القادم هو الشيخ أم كان غيره . وهذا لأن الشيخ يريد أن يشتهر بالخلاف وبالامتياز على الآخرين لسياسة متبعة . ومثل هـذا محافظتهم على العذبة دون غـيرها من ملبوس الرسول وعاداته المحفوظة المعروفة ، لأن فى العذبة امتيازا واشتهارا قد لا يتحقق فى غيرها . والعذبة ، بل والعمامة ، لا تخرج عن أن تـكون عادة من عادات العرب التى أقرها الرسـول وجعلها من عاديات المسلمين لا من دينياتهم . ومن الدليل عـلى أن محافظتهم على العذبة لم تكن إلا لحب تميزهم عن غيرهم ، لأغراض قد لاتكون صحيحة ، أن أصح حديث جاء فى العذبة هو الحديث الذى رواه مسلم فى الصحيح وهو أن النبي عليه السلام خطب يوم فتح مكة لابساً

عمامة سوداء قد سدل طرفها بين كتفيه . هذا هو أصح حديث فى لبس العمامة وسدل العذبة .والذى فيه، كما ترى ،أنه عليه السلام قد لبس عمامة سوداء لا بيضاء ، وسدل طرفيها لا طرفها . فكان الواجب على هؤلاء إذ كانوا من أهل السنة حقا أن يلبسوا عمائم سوداً ، ولو بعض الأحيان ، وأن يسدلوا طرفيها لا طرفها إذا كانوا يريدون الاقتداء بالرسول حقا ، و يريدون المحافظة على عاداته . ولكنهم قد حافظوا على العمائم البيض دون السود، وعلى إرخاء الطرف الواحد دون الطرفين. فكانوا بهذا الفعل الذى زعموه محافظة على زى الرسول مخالفين لزيه ولما حفظ عنه فيه . وقد حفظ عنه أيضا أنه لبس الإزار ولم يحفظ أنه لبس السراويل ، وهؤلاء يحافظون على لبس السراويل دون الإزار . . . والقول فى هذا الباب يطول ، ونحن نشير إشارات عجلى .

لايسمع فى الشيخ قول

ثم قال : « ومنها ألا تطيع فى شيخك قول قائل ،ولا تصاحب له عدوا، ولا تعادى له صديقا ، ولا تجالس من ليس محباله. ومن أدل دليل على عدم صدق المريد فى حبه شيخه أن يكره أحدا من أصحابه أو ينتقصه . وإن أمره شيخه أن يجانب أحدا من أصدقائه أو غيرهم وجب عليه اجتنابهم » .

وهذا أيضا قول لايعرفه الاسلام ولا الحق ،لأن الشيخ ليس معصوما ، ولأن أصحابه ليسوا معصومين حتى لا تصح كراهتهم ، بل قد يكون فى أصحاب الشيخ وفى بطانته الخاصة من يستحقون المقت والطرد ، كما قد يأمر الشيخ بمجانبة من يجب الاتصال به والاقتراب إليه ،لأن الشيخ ليس محرما على الهوى والغرض والضلالة . وقد يخاصم الشيخ أبا المريد أو ابنه أو أخاه أو غيرهم من ذوى قرباه لأجل غرض دنيوى ، أو حاجة نفسية باطلة ، فيأمر مريده باجتنابه وهجره بغيا وعدوانا ، لأنه ليس محرماً ، كما قلنا على الهوى . فهل يجب على المريد ، يا أيها الناس ، حينئذ أن يهجر أباه وأخاه احتراما لهوى الشيخ ، وطاعة لشهوته الظالمة، أو

خطئه الآثم ، وقد يأمر الشيخ أيضا باجتناب مسلم تقى فاضل ، لأحد الأسباب المذكورة أو غيرها من الأسباب الباطلة ، وقد يكرهه و يشنؤه ، فهل يجب حينئذ على جميع مريديه مصارمة ذلكم المسلم الصالح الفاضل والورع التقى ؟ وقد يكون هنالك عالم نبيل لايحب الشيخ لأنه رأى منه أشياء لاتجدر بمثله ، ولا بمنصب مثل منصبه . فهل تجب معاداة ذلكم العالم الصالح النبيل وهو قد يكون على حق واضح اذكره الشيخ ، وأقل أحواله أن يكون مخطئا خطأ يعذر فيه ؟ هذا كله لا يعرفه الاسلام ولا غيره من أديان الله لأن فيه تقديساً لشخص معين ، ولأن فيه رفعاً له عن أفق البشرية المعرض للخطأ والهوى والضلال وللقدح والمدح .
ثم كيف يجب على المريد ألا يقبل فى شيخه قول قائل ؟ أو لا يمكن أن يكون قول ذلكم القائل حقا وصدقا ؟ إن قالوا إنه لا يمكن أن يكون حقا ، فقد ذهبوا إلى أن شيخهم معصوم لا يمكن أن يمر بساحته الخطأ والزلل ، و إن قالوا إنه يمكن أن يكون قول ذلك القائل حقا وصوابا ، ومع هذا يجب رد حقه وصوابه احتراما للشيخ ، فقد زعموا أن الشيخ أكرم وأكبر من الحق ، وأنه يجب رد الحق والصدق والدين ، دين الله الذى لم يعرفه الشيخ أو لم يرضه و يقل به . ولا خلاص لهم من افتراض أحد الأمرين ، وهما أمران أحلاهما مر ، وكلاهما لا يعرفه الاسلام ولا المسلمون .

الشيخ ليس أكبر من الحق

إن هذه السرادقات من أفانين التبجيل التى يضربونها على الشيخ لم يضرب شىء منها على أفضل الخلق بعد الأنبياء : فما زعم هذا المسلمون لأصحاب نبيهم ولا لأتباعهم الذين نقلوا عنهم الدين ، ولا زعموه للأئمة الذين فصلوا فقه الاسلام وحفظوا نصوصه من الضياع والالتباس بالمكذوب وبالباطل : فما زعموا أن أبا بكر الصديق أو عمر أو عثمان أو عليا أو أبا حنيفة أو مالكاً أو الشافعى أو ابن حنبل : ما زعموا أنه لا يصح أن يقبل فى هؤلاء قول قائل ، ولو زعم هذا أحد

ماقيل هذا لأصحاب النبى

للاموه وآخذوه وخطأوه ،بل لقد كانت النساء ، وكان صغار المسلمين ، يجرؤن على تخطئة كبار الصحابة وكبار الخلفاء الراشدين ، وكان هؤلاء يقبلون ذلك و يطيبون به أنفسا و يقرون به أعيناً . وكان المسلمون أيضا يقبلونه و ينعمون به . والله يقول فى كتابه للناس جميعاً للأشياخ ومن دونهم من المريدين والمرادين : « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ، و يقول : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » و يقول فى أمثال هؤلاء الذين لا يقبلون فى أشياخهم قول قائل: « و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » .

الدهاء فى هذه الأقوال

إن هذه الأقاويل فى هذا الكتاب ،موضوعة بدهاء كريه مر ،وسياسة منظمة بارعة ،ولكنها ضالة ظالمة . فهذه الأقاويل تريد أن يحاط الشيخ بأسلاك التبجيل والتقديس ، وتريد ألا يكون فى أنفس أتباعه وأنصاره غير ذينك التقديس والتبجيل . ولأجل الحصول على ذلك حرمت على الأتباع والأنصار الاتصال والاقتراب إلى من لا يحبون الشيخ ، ومن لا ينعمون بتبجيله ، ومن قد يدلون على خطئه ومكان انحرافه ، وأوجبت عليهم معاداة الأهل والأصدقاء والناس جميعاً ، وهجرانهم واجتنابهم ، خشية أن يقولوا قولة حكمة وصواب فتلمع فى ضمائرهم وتتقد ، فتحرق شيئاً من جلال الشيخ فى نفوسهم ، ومن قدره فى صدورهم ، لأن الغاية كلها هى المحافظة على قداسة الشيخ ومكانته والرباط فى سبيل هذه المحافظة .

الغاية

ولضمان هذه الغاية حرم على الأتباع والمريدين الاعتراض عليه ظاهرا أو باطنا وحرم عليهم الاقتراب إلى من لا يقدسونه ، وحرم عليهم أن يسمعوا فيه قيل قائل ، وحرم عليهم سؤاله بالحاح ، إذ قد لا يكون عليما بما سئل عنه فيفتضح وينكشف الغطاء ، وحرم عليهم النظر إليه بعناية ، وحرم المبيت عنده

والاتصال به كثيراً ، لأن المبيت عنده والاتصال به يعينان على معرفة حقيقته المرة ونقصه المحتوم . وحقيقته هى بلا شك تدفع الغلو فيه وتأباه . وحرم عليهم الحرص على معرفة مقدار نومه وأكله وشربه ووضوئه وإتيانه النساء ، وحرم عليهم التزوج بامرأته التى طلقها أو مات عنها ،لأن ذلك كله يعين على كشف مخبآته ، وإذا انكشف الخبأ فعلى الشيخ العفاء . وحرم عليهم معارضته والاحتجاج عليه بأقوال العلماء ، وحرم عليهم أن يقولوا لشئ فعله أو لشئ قاله : « لم » وأوجب عليهم أن يعتقدوا أن العبث لا يمر بمطلقاً،فلا يقول قولا عبثا،ولا يفعل فعلا عبثا لأن مقامه يجل عن ذلك ، وأوجب عليهم أيضا أن يعتقدوا أن معصيته ورئاءه أفضل من طاعة المريد وإخلاصه ، وحرم عليهم وأوجب غير ذلك مما يرمى كله إلى أن يكون الشيخ فى منجى من النقد والذم والاعتراض ظاهرا ولا باطنا ، وأن يكون كالايمان : يبعد عن مواطن الشكوك والريب والكفران ، ويخشى عليه طيف الأذى . وهذا الذى ذكرناه مما حرم على المريدين وأوجب عليهم مذكور كله فى كتاب « العهد الوثيق » ومذكور فيه غيره .

حفظ الشيخ من أوصاف الربوبية

ثم قال: « ومنها ألا تعمل عملا إلا باذنه ، وأن تسلم له فى جميع الأمور بأن تكون بين يديه كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء ولا يتحرك منه شىء إلا إذا حركه » .

وهذا أيضا أمر بالاشراك بالربوبية ، وإعطاء للمخلوق الحقير الزرى صفة الخالق تعالى جده . فان الذى لا يتحرك شئ إلا إذا حركه هو الله وحده ، والذى لا يعمل عمل إلا باذنه هو الله وحده أيضا.فهذا ليس للرسول ولا لأحد من الرسل فانه ليس واجبا على المسلم ألا يعمل عملا من الأعمال الدنيوية والعادية إلا باذن رسوله عليه الصلاة والسلام ، فليس بواجب عليه ألا يشرب وألا يقوم وألا يقعد وألا يتحرك وألا يأكل وألا يسافر إلا إذا أذن له النبى . كلا ليس هذا واجبا على

مسلم . ومن زعم أن هذا واجب فى دين الاسلام فقد أعظم على الله الفرية ، بل لقد كان رسول الله يقول للمسلمين: «أنتم أعلم بأمور دنياكم »وكان يشاورهم فى الشؤون الدنيوية ويقول الله له « وشاورهم فى الأمر » فكيف بعد هذا يجب على المسلم ألا يعمل عملا إلا باذن شيخ من الأشياخ : فلا يصلى ولا يصوم ولا يطيع الله ولا يسافر ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا إذا أذن له ؟ اللهم إنا نعوذ بك من العمى ومن العماية ، ومن عقابيل الغواية .

هبوا هذا الشيخ جن، فحرم على أنصاره ومريديه ذلكم كله ، أفيحرمونه على أنفسهم ؟ اللهم إنا نعوذ بك مرة أخرى من العمى والعماية، ومن عقابيل الغواية .

ثم من يكون هذا الشيخ الذى يجب أن يقع المسلم بين يديه كوقوع الميت بين يدى غاسله ، وألا يتحرك شىء منه إلا إذا حركه ؟ أليس هو إنساناً ضعيفاً عاجزا يخضع للهوى ؛ وينقاد لشهوة النفس الأمارة بالسوء ، ويجهل كثيرا من الدين فضلا عن الدنيا ، ويجهل كثيرا من ضروراتهما ؟ ؟ ؟ أإنسان هذا الذى لا يتحرك من مريديه عضو إلا باذنه وأمره؟ إن هذا ، ولا ريب ، إله كبير . فالاله هو الذى لا يتحرك عباده ولا يقومون ولا يقعدون ولا يستطيعون أن يعملوا عملا إلا إذا شاء وأذن . هذا على مذهب أهل السنة ،وأما المعتزلة ومن شايعهم من أصناف القدرية فعندهم أن العبد يفعل ويقول ويعمل ويترك ويأتى ما يريد وإن لم يشأ الله ويرد . فهذا الشيخ أعظم إذن من الله عند المعتزلة . . اللهم إنا نعوذ بك مرة ثالثة من العمى والعماية ، ومن عقابيل الغواية . أما المخلوق فحقاراً وصغاراً له ولمن وهبه هذا الوصف

الشيخ أعظم من إله المعتزلة

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه ؟ * لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ياهؤلاء إن الله جلت قدرته يقول لنبيه فى غير ما خفاء ولا لبس « ليس لك من الأمر شىء »ويقول « إنك لا تهدى من أحببت » ويقول: «ليس عليك هداهم » ويقول « وما أنت عليهم بجبار » ويقول « قل إنما أنا بشر مثلكم »

ويقول « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ويقول « ألا له الخلق والأمر » . هذا بعض ما يقول الله لأكرم الخلق عليه ، وأنتم تزعمون أن الواجب على المسلم ألا يعمل عملا إلا بإذن الشيخ وبأمره .

أهذا جنون

وألا يتحرك منه عضو ولا شيء إلا إذا حركه . أهذا جنون أم ضلال هو شر من الجنون ؟؟ « ياقوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . . . ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » .

تناقل الشيخ ونومه أفضل من إخلاص غيره ومن عبادته

ثم قال « قالوا : وليعلم المريد أن كل ذرة من أعمال شيخه لا يقاوم بها عبادته هو طول السنة لسلامتها من الموانع ،فنومه أشرف من عبادة المريد ، وقد أرسل ذوالنون المصري يقول لأبي يزيد البسطامي : إلى متى الغفلة والراحة وقد أسارت القافلة ؟ فأرسل أبو يزيد يقول له : ليس الرجل الذي يسير مع القافلة،و إنما الرجل من ينام إلى الصباح و يصبح أمامها، فقال ذوالنون هذه درجة لم تبلغها أحوالنا» . وقال في موضع آخر : « قال أبو سعيد من علامات كذب المريد أن يرى قيامه أفضل من نوم شيخه ، ومن علامات صدقه أن يرى رئاء شيخه أفضل من إخلاص نفسه » انتهى .وهذه أقوال أيضاً باطلة مخالفة لأصول الدين ولفروعه ، فليست كل ذرة من أعمال الشيخ أفضل من عبادة المريد طول السنة . وليست عبادة الشيخ وأعماله سالمة من الموانع ، وليس نومه أفضل من عبادة المريد ، والنائم إلى الصباح لا يمكن أن يكون أمام القافلة السارية كل الليل ورئاء الشيخ لا يمكن أن يكون أفضل من إخلاص المريد . وأي شيخ هذا الذي يرائي ؟ لأن الرئاء

نفاق ، وأى شيخ هذا الذى ينافق ؟

الذرة من عمل الشيخ

أما الزعم بأن الذرة من عمل الشيخ تفضل عبادة غيره من المريدين كل السنة فمن أعظم الكذب على الدين وعلى الله وعلى عدله . فإن الله لا يظلم أحداً ، ولا يلت مخلوقا من عمله شيئا ، ولا ينقص عاملا مما عمل فتيلاً . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، سواء أكان شيخا أم مريداً . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره سواء أكان ذلك العامل الشيخ أم كان المريد . فإن كل نفس بما كسبت رهينة. وليس بين الله و بين أحد من خلقه نسب ولا قرابة . كما قال تعالى : «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا و إن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . فلا يمكن فى عدل الله أن تكون الذرة من أعمال الشيخ ، لأنه شيخ ، أفضل من عبادة المريد كل السنة ، لأنه مريد ، ولا شك أن المريد قد يكون أصلح وأورع وأنقى قلبا ونفسا وأقرب إلى الاخلاص من الشيخ ، وقد يتقن المريد عبادته وصلاته وسائر أعماله أكثر من الشيخ ، كما قد يكون لدى الشيخ من النفاق والهوى والحقد والحسد وحب الدنيا والحرص عليها ما ليس عند المريد . فالمريد بالجملة كثيرا ما يكون أقوم بالواجب وأنبا عن المحرم وعن أمراض النفس والقلب ، وأكثر صبابة بالاخلاص والطاعات من شيخه . وهذا كثير مشهود . وليس بممكن مع هذا الفرق العظيم أن تكون الذرة من أعمال الشيخ المسبوق إلى كل خير أفضل من عبادة المريد السابق إلى كل خير طول السنة فى عدل الله وحكمته وشرعته .

سلامة أعمال الشيخ من الموانع

أما الزعم بأن أعمال الشيخ سالمة من الموانع فزعم من أعظم الأخطاء أيضاً فقد . تجتمع جميع الموانع الظاهرة والباطنة لدى الشيخ ، وقد يعرف المريد اجتماعها لدى شيخه ، وقد لا يعرف لحرصه على إخفائها و إضمارها وكتمانها . فأعظم الموانع النفاق والرئاء ، وقد يكون نصيب الشيخ من هذا الداء أعظم نصيب . ومن

أعظم الموانع أن تكون العبادة على خلاف السنة ، وكثيرا ما تكون عبادة الشيخ لا نسب بينها و بين السنة . ومن أعظم هـذه الموانع الخنوع للهوى والانجذاب إلى الدنيا . ولهؤلاء فى هذين المرضين تاريخ مذكور مشهور ، ولهم مغدى ومراح إلى اقتناصهما من لهوات التقى والورع . فأية موانع للعبادة أعظم من هذه الموانع ؟ وأى قوم أفلتوا من وثاقها ؟ وأى أشياخ هؤلاء الذين سلموا منها ؟ وأى مسلم يستطيع أن يشهد لله بأن شيخه قد سلم ظاهره وباطنه من العصيان والاثم ، ويشهد أن أعماله مقبولة خالصة لوجه الله ؟ وقد نهى الاسلام عن هذه الشهادة فقال « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وقال « ولا تقف ما ليس لك به علم » وباطن المرء وما تنطوى عليه حشاشته لا يعلمه إلا الله . فمن زعم أن ضمير شيخ من الأشياخ قد خاص من الاثم والمعصية فقد قفا ما ليس له به علم .

لا يعلم باطن الانسان غير الله

وقد مدح رجل رجلا عند النبى ﷺ فقال النبى عليه السلام : ويحك قطعت عنق صاحبك مراراً . إن كان أحدكم مادحاً أخاه لا محالة ، فليقل أحسبه كذا وكذا ولا أزكى على الله أحداً . وروى البخارى أن أم العلاء ، إحدى الانصاريات ، قالت : لما توفى عثمان بن مظعون دخل عليه رسول الله فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فقال النبى : « وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ والله إنى لأرجو له الخير ، والله وأنا رسول الله لا أدرى ما يفعل بى » . قالت: فوالله لا أزكى أحدا بعده أبداً . وقال عليه السلام « إن ا كذب الحديث الظن » إلى غير ذلك من الدلائل الكثيرة الدالة على أن الله وحده هو العليم بحقائق عباده و بما طويت عليه نفوسهم وقلوبهم .

لا يستوى النائم والقائم

وأما الزعم أن نوم الشيخ أفضل من عبادة المريد ومن صلاته فى جوف الليل ، فمن أعظم الأكاذيب المناقضة لأصول الدين بل للأديان كلها . فإن أديان الله قائمة على أن الحسنة لا يساويها غير الحسنة ، وأن المحسن ليس كغير

[illegible] وأن [illegible] الطاعة ، وأن كل شئ عند الله بمقدار ونظام ، وأن السابق إلى الخيرات والطاعات ليس كالقاعد المعرض عن ذلك ، الراكن إلى الراحة والكسل ، وأن المنفق ليله نوما وراحة لا يمكن أن يكون كالمنفق ليله تسبيحا وقياما وقرآنا ، وأن المالئ عينيه رقاداً لا يكون ، فى عدل الله وشرعته ، مثل المالئ عينيه بكاء من خشية الله وخوفا من غضبه ومن مقامه بين يديه ، ولا كالمالئ عينيه افتكارا فى مخلوقات الله وجلائل مصنوعاته . وعلى هذا الأساس الصحيح وجب على العقلاء جميعا أن يبادروا إلى الطاعات والخيرات ، وأن يهبوا أعمارهم وحياتهم وصحتهم وراحتهم للعبادة والطاعة . وأن يجافوا جنوبهم عن المضاجع وعن الحشايا الناعمة إلى السهر والنصب ابتغاء مرضاة الله وابتغاء ثوابه . أما لو أمكن أن يكون النوم أفضل من القيام ومن الصلاة ، وأن تكون الراحة أفضل من النصب والتعب ، ازدلافاً ، إلى الله لكان جاهلا ذاك الذى يقوم يصلى فى جوف الليل والعيون نائمة ، ولكان عابثا ضالا ذاك الذى يدع راحته ولذته إلى تعب العبادة ونصب الطاعة والناس فى لذاتهم يتفكهون .

لا شك أن هذا الزعم من المزاعم التى ينكرها الاسلام والمسلمون بشدة ، بل نحن لا نشك أن قيام المريد أحيانا كثيرة يكون أفضل من قيام الشيخ ، وأن طاعته وعبادته تكون أحيانا أبر من طاعات الشيخ وعباداته لما يمتاز به المريد أحيانا عن شيخه من الإخلاص وصدق النية وسلامة القصد من الأدواء النفسية . ولا شك أن ما ذكره عن ذى النون المصرى وأبى يزيد البسطامى باطل .

وأما الزعم أن رثاء الشيخ يجب أن يعتقد أنه أفضل من إخلاص المريد فزعم هو إحدى الكبر وإحدى الآثام المنكرة .

تحريم أزواج الشيخ

ثم قال : « ومنها ألا تتزوج امرأة رأيته مائلا إلى التزوج بها ، ولا امرأة طلقها أو مات عنها » .

يحاول هذا الشيخ، عفا الله عنه، أن يتم الشبه بينه و بين النبي عليه الصلاة والسلام. ولهذا فالتزوج بمطلقته و بأرملته وبالتي مال إلى الزواج بها باطل ممنوع كما منع التزوج بزوجات النبي عليه السلام. وفى ص ١٢ من هذا الكتاب يقول: « قال ابن مسروق من علامة المريد الصادق ألا يرى على وجه الأرض أحداً أحب إليه من شيخه. فان قدم عليه زوجة أو ولداً لم يشم من طريق الحق رائحة وهو كاذب. وفى الحديث لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين. وهو للأشياخ بحكم الإرث ».

تشبيه الشيخ بالرسول

فعنده أنه إذا لم يؤمن من قدم أحداً فى حبه على رسول الله فكذلك ليس بمؤمن من قدم أحدا على شيخه فى حبه. وهذا بلا شك قول زور وخطأ باطل يستتاب قائله وناشره و بائعه ومقره و راضيه. ولا يرتاب مسلم يعرف ما الاسلام أنه يجب أحيانا كثيرة على المسلم أن يحب فقيرا زريا عاميا أكثر من حبه هذا الشيخ وغيره من أشياخ الطرق لما قد يمتاز به ذلك الفقير العامى على هؤلاء من التقوى والإخلاص والورع. ولايشك المسلمون أيضا فى أن من كره شيخا من هؤلاء لسبب من أسباب الكراهة الصحيحة فليس بناقص ذلك من دينه و إيمانه شيئاً وليس بضائره قليلا ولا كثيرا. ولو أن الناس جميعا لم يعرفوا هذا الشيخ الذى أوجب عليهم أن يحبوه أعظم من حبهم الناس جميعا لما ضارهم ذلك الجهل به شيئا عند الله. و إننا نقول لهذا الشيخ، ونحن على يقين مما نقول: إن جميع أنصاره ومريديه يحبون أموالهم وأزواجهم وأولادهم أعظم من حبهم له بلا شك، فهل يراهم جميعا بعيدين عن رائحة الحق غير صادقين فى دينهم وشأنهم.

المشايخ مشرعون

نعم يقول هذا ليقيم الشبه بينه و بين النبي عليه السلام. وفى ص ١٢ يقول ناقلا « فإنه ما دامت الأشياخ باقية فان الأمر والنهى باق، والتحليل والتحريم مخاطب به ». فالأشياخ بهذا يحللون ويحرمون، و يأمرون و ينهون، كما كان

الأنبياء والمرسلون . ويقول ص ١٤ : إن المعترض على الشيخ لا يفلح أبداً .
ونص الكلمة المذكورة « من قال لأستاذه «لم» لا يفلح أبداً » فالاعتراض
على الشيخ موجب الضلال والهلاك كالاعتراض على الأنبياء سواء . و يقول فى
هذه الصفحة أيضا: إن التسليم للشيخ واجب فى كل شئ حتى فى ترك الطاعات،
و يزعم أن الشيخ لو منع مريده من الصلاة والصيام والقرآن وطلبه العلم فأنكر
المريد هذا المنع ،ولوفى نفسه، فهو عاص لله ولرسوله. و يقول ص١٨ كما تقدم : إنه
لا يصح أن يطيع المريد فى شيخه قول قائل، وإنه يجب عليه أن يعادى جميع
الناس لأجله إذا أراد ذلك منه.وهذا هو ما يجب على المسلمين إزاء نبيهم. و يزعم
ص١٩ أن أفعال الاشياخ لا يدخلها العبث والباطل أبداً فهم فى هذا كالأنبياء .

طاعة الشيخ فى ترك الطاعة

وأما هنا فنقول : إن الزواج بمطلقة الشيخ وأرملته و بالتى مال إليها ممنوع
كالزواج بنساء النبى عليه السلام.وقد ذكر فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن
أحد المريدين فى مصر تزوج بامرأة شيخه بعد موته فجاءه الشيخ وهو نائم وطعنه
بحربة فأرداه قتيلا. وفى الطبعة الثانية حذف هذه الخرافة بعد أن أحس جسامتها
وفداحتها . وهذا الذى ذكر كله باطل فاسد لدى جميع المسلمين لا يختلفون فى
بطلانه و مناقضته لأصول الاسلام وفروعه،ولا يختلفون أن قائله يجب أن يستتاب
وأن يتوب . .

على أن الذى حرم على المسلمين من أزواج النبى عليه السلام هى أزواجه
اللاتى مات عنهن لا اللاتى طلقهن أو مال إلى الزواج بهن فلم يتزوجهن فانهن يحرمن
على المسلمين . فهو بهذا قد وضع لنفسه من الحقوق والواجبات مالم يكن لرسول الله
ﷺ . وأزواج النبى اللاتى مات عنهن حرمن على المسلمين بعده لأنهن أمهاتهم
كما ذكر القرآن،ولأنهن أزواجه عليه السلام فى الجنة لا يصلحن لغيره ،ولأغراض
أخرى عاليا ليس لأحد منها شئ.أما أزواج الشيخ فلماذا حرمت على المريدين ؟

تفضيل الشيخ على الرسول

و بعد تحريمهن عليهم يحتمل أنه يريد أن يبقين حياتهن بلا أزواج ، ويحتمل أنهن محرمات على المريدين فقط دون غيرهم . أما الاحتمال الأول فمن أعظم الضلال والسوء . وأما الاحتمال الثانى ففاسد باطل لأن الواجب على الشيخ أن يرجح زواجهن بمريديه وأنصاره على زواجهن بالآخرين، لأن مريديه وأنصاره يقومون بحقوقهن وواجباتهن ويكرمونهن أكثر من الآخرين رعاية لحق شيخهم عليهم ، ولأنهن قد تخرجن على الشيخ وتأدبن بآدابه فكن لائقات بمريديه لأنهن طيبات وهم طيبون والطيبون للطيبات . فالمعقول أن يقدم المريدون على غيرهم لأجل ما ذكرناه . ولكن كل شيء هنا يجرى على غير المعقول

دفاع أتباع الشيخ

وقد خاطبنا بعض أتباع هـذا الشيخ فى هذه المسألة فوجـدناهم مقرين لها راضين بها ، وقد دافعوا عنها بأن المراد الأدب مع الشيخ فقط ، ولـكن فاتهـم شئ بل أشياء ، إذ يقال لهـم : هل يضع الشيخ لنفسـه من الآداب مايحرم به الحلال ويحل به الحرام ؟ وهل من الأدب مع الشيخ أن يحرم ما أحـل الله فى كتابه ودينه ؟؟؟ إنه يجب أن يكون الأدب مع الشيخ ،والأدب بين الشيخ وأتباعه ، هو اتباع الشرع تحليلا وتحريما . والمسـلم الحق لا يمكن أن يزعم أن الأدب يكون فى تحريم الحلال أو فى إحلال الحرام إذا كانوا حقا مسلمين . وأى شيخ هذا الذى يرى لنفسه من الآداب مايرد به على الله وعلى كتابه، ومايحرم به طيبات ماأحل الله لعباده ، وأن يرى لنفسه من ذلك ماليس لرسول الله وماليس لأبى بكر وعمر ، وماليس للآخرين من سادة الأمة ؟ ولعمر الله إن هذا ليس من الأدب فى شئ . ولو كان الامتناع من أزواج الأموات فيه تأدب معهم مشروع مطلوب لـكان من الواجب عـلى المسلم ، أو من المستحب له ، ألا يتزوج أرملة مسـلم ولا مطلقته أبدا ، لأن التأدب مع المسلمين عامة مطلوب مشروع .

فساد الدفاع

على أن هذا الدفاع الذى دافعوا به عن شيخهم غير صادق ، وذلك أن هذا

الشيخ قد ذكر فى مقدمة الكتاب أن جميع مافيه مأخوذ من سنة النبى ومن دين الاسلام ، وعنوان الكتاب « العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق » يدل على ذلك ، فان أحسن طريق ، بلاشك ، هو الطريق المحمدى ، فكل مافى الكتاب هو من الاسلام ، فيما يزعم كاتبه : فتحريم مطلقة الشيخ وأرملته والتى مال إلى الزواج بها أمر يقره الاسلام ويرضاه ، ويدعو إليه عند هذا المؤلف عفا الله عنه . ثم لو كان من الأدب فقط فلماذا ساغ لذلك الشيخ أن يقتل ذلك المريد الذى تزوج بأرملته ،وهل يحل قتل المسلم بغير ارتكابه إحدى الموبقات . وقد قال عليه السلام فى الحديث الصحيح : لايحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه يعنى المرتد .

أنانية

فلا ريب أن تحريم زوجة الشيخ راجع إلى الأنانية الحادة والغلو الممقوت فى تقديس النفس ، وراجع أيضا إلى الرغبة العنيفة فى إبعادمن يعرفون دخائل الشيخ ومخبآته عن أنصاره وأتباعه لئلا يعلموا من أمره شيئاً يزلزل مكانته فى قلوبهم ونفوسهم .

آثار الشيخ

ثم قال « ومنها أن تعظم ماأعطاه لك من ثوب ونحوه ولا تبيعه لأحد ، ولو أعطاك ماأعطاك ، إذ ربما يكون قد طوى لك فيه سرا ، وربما جمع لك فيه جملة من أخلاق الرجال كما طوى رسول الله لأبى هريرة ثوبا فما نسى بعد ذلك شيئا قط . والأشياخ ليس لهم فعل عبثا « كذا » لأن مقامهم يجل عن ذلك »

وهذا أيضا راجع إلى محاولة إتمام الشبه بينه وبين الرسول عليه السلام وإن كان كثيرا مايزيد فى قدره عن قدره ، ويعطيه من الفضائل والأحكام مالم يكن لرسول الله . وهذا عين البلاء . فهو هنا يأبى على الأتباع والمريدين أن يفرطوا فيما وصل إليهم من الشيخ : فلا يهبوه ولا يبيعوه ، مهما ثمن لهم ومهما بولغ فى

هـذا لم يكن لرسول الله

التثمين والقيمة . وهذا لم يكن لما أعطاه النبى عليه السلام ، فقد كان يعطى أصحابه ما يعطيهم وكان لا يأبى عليهم أن يبيعوا أو أن يهبوا ذلك ، وكانوا هم لا يفهمون هـذا المنع والغلو الباطـل . فكانوا يبيعون ذلك أحيانا ، و يهبونه أحيانا أخرى وأحيانا يستمتعون به . وما كانوا يقدرون ما أعطاهم هذا التقدير ، ولا يغلون فيه هذا الغلو ، ولا يفهمون ذلك السر الذى ر بما كان أخلاق جملة من الرجال ، أو ر بما كان أعظم من ذلك .

أسرار الشيخ

ثم أى سر هذا الذى قـد يضعه الشيخ فى ثوب أعطاه ، بل وأى سر لدى الشيخ ؟ وهل يستطيع أن يضع فى شئ سرا لم يضعه الله فيه ، وهل يجعل مباركا ماليس مباركا ؟ هذا مأخوذ من قول العامة فى الله عز وجل « يضع سره فى أضعف خلقه » . ولـكن قول العامة أصدق من قول هذا الشيخ ، لأن العامة يدركون أن الذى يضع السر هو الله لا المخلوق . أما الشيخ فهو أعجز من ذلك وأقـل . وأى شيخ هذا الذى يقدر أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال الفضلاء ، وكيف يمكن ذلك ؟ أليس هذا جنونا ؟ أو ليس هذا لم يكن لمخلوق قط لا للأنبياء ولا لغيرهم ، بل الله وحده هو الذى يضع الأسرار والبركات فيما يضع وما يخلق . أما المخلوق ، فكما لا يستطيع أن يخلق شيئا من العدم ، فكذلك لا يستطيع أن يوجد فى شئ سرا من الأسرار ، ولا بركة من البركات ، ولا معنى من المعانى . فخالق الأشياء هو خالق معانيها وصفاتها ، وموجد المخلوقات هو موجد البركات .

صفات الله فى الشيخ .

إن كثيرا من الأوصاف التى يخلعونها على هـذا الشيخ فى هذا الـكتاب هى صفات لله خالصـة لا يمكن أن يتصف بها غيره سبحانه . أولا يعلم هؤلاء أن الشيخ لو كان مستطيعا أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال أو يضع غير ذلك لـكان مستطيعا أن يغير الأحوال العامة و ينقلها من سوء إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن ، ومن كفر إلى إيمان . ولـكان فى قدرته أن يغير القلوب والنفوس ،

وأن يضع فيها الهدى والايمان ،وأن يحشوها صلاحا واستقامة وفضائل. فالذى يستطيع أن يضع فى ثوب أخلاق جملة من الرجال الكاملين لن يعجزه أن يضع فى القلوب الكافرة والفاجرة الايمان والصلاح يقينا ،والذى يستطيع ذلك كيف لا يستطيع أن يضع فى قلب مشرك كافر أخلاق رجل مؤمن ، ومن أخلاقه الايمان والدين ؟ وعلى كل حال فالذى يقدر أن يضع المعانى الفاضلة فى الجمادات كالأثواب يقدر ولا شك أن يضع هذه المعانى فى العقلاء من البشر وفى الحيوانات : فيقدر أن يعيد الكافرين والبهائم مؤمنين ومؤمنات . ولكن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لاشريك له و إن زعموا خلاف ذلك وكتبوا مازعموه وقالوا : إنه هو الايمان والعقل والذوق ، فأين يذهبون ؟؟ إن هذا الذى ذكروه منطو على شر أنواع الوثنية وسيكون مادة لاتنفد لهذا المرض الانسانى العتيد .

النهى عن اتباع الآثار

لقد كان الإسلام مبنيا على النهى عن اتباع آثار الأنبياء والصالحين ، وكان المسلمون ، أهل البصر بالاسلام ، ينهون عن اتباع هذه الآثار وعن الغلو فى تلك المخلفات كما قدمنا فى الجزء الأول . ومن أبلغ ذلك وأوضحه أن الخليفة عمر أمر بقطع شجرة الرضوان لما رأى أناساً يقصدونها . وقد نهى الناس أيضا عن قصد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه النبى عليه السلام ، وقال : إنما هلك من كان قبلكم باتباع آثار أنبيائهم .وقد جاء أن المسلمين لما فتحوا (تستر) من بلاد الفرس فى خلافة عمر بن الخطاب وجدوا ميتا على سرير وعند رأسه مصحف وهو النبى « دانيال » ، على ماذكروا ، فأمر عمر بحفر جملة قبور متفرقة وأمر بدفنه فى أحدها ليلا ،فدفن وسويت القبور لتعمية مكانه لئلا يعرف فيعظمه الجاهلون و يئول بهم إلى عبادته ،لأن الناس مجبولون على الغلو فى من كان فوقهم أو من ظنوه كذلك . وقد نهى الاسلام بشدة عن الصلاة إلى القبور ، وعن البناء عليها لئلا

قطع الرجاء فى غير الله

يوردهم ذلك موارد الهالكين . وكان الاسلام بالجملة يريد من أهله أن يقطعوا

كل رجاء فى غير الله،وأن يحصروا رجاءهم فى الله وحده ، وأن يجمعوا رغبتهم عليه وأن يكون وحده المرجو المدعو كما كان هو وحده الخالق الموجد . فالزعم أن فيما وهب الشيخ أسراراً و بركات زعم يرده معنى الاسلام وتأباه نصوصه ، والزعم أنه يجب الاحتفاظ بما وهب والاستمساك به زعم مخالف لأساس الشريعة القائمة على الدعوة إلى الله والرغبة فيه وحده والرغبة عن كل ماسواه .

ثوب أبى هريرة

وأما ماذكر أن النبى طوى لأبى هريرة ثوبا فما نسى بعده شيئا فتحريف ، والصحيح أن الرسول قال يوماً ، وأبو هريرة حاضر ، : « من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئا سمعه منى » فبسط أبو هريرة ثوبه حتى قضى النبى حديثه قال أبو هريرة فما نسيت شيئا سمعته منه . فالثوب المبسوط هو ثوب أبى هريرة ، والباسط له هو أبو هريرة . والرسول عليه السلام لم يضع فى الثوب سراً ما . ولكن الله خص أبا هريرة بالحفظ الجيد إذ أطاع رسوله ولازمه لأجل حفظ السنة على الأمة والسنة نصف الدين . و بسط الثوب كناية عن الالتفات إلى رسول الله والانتباه لحديثه والرغبة فيه .

أما زعمه أن الأشياخ ليس لهم فعل عبث ، لأن مقامهم يجل عن العبث ، فهى شهادة يسأل عنها بين يدى الله و يتحمل هناك تبعتها و إثمها.

للشيخ أن يفعل بالمريد كل ما يريد

ثم قال : « ومنها ألا تتغير عليه إذا نقصك بين إخوانك أو فعل بك أى فعل ، لأنه لا يفعل معك ذلك إلا لمصلحة يقصر عن إدراكها عقلك ، بل يجب عليك أن تشكره زيادة على ما كنت عليه من قبل ،لأنه ما فعل معك ذلك إلا اعتناء بك ، بل لا يخاف على المريد إلا من مباسطة شيخه له . فمن تغير من زجر شيخه لا يفلح أبداً » .

كما يحاول مؤلف هذا الكتاب أن يقيم الشبه التام بينه و بين النبى يحاول كذلك أن يقطع على أصحابه ومريديه سبيل التفكير فيه وفيما يعمل ، وسبيل

الاعتراض على ما يأتى وما يذر ، فعنده أنه يجب أن يكون فى منجى من الاعتراض والقدح ، وأن يكون أتباعه فاقدى الارادة والاختيار والعقل ، أو كما يعبر هو ، يجب أن يكونوا كالاموات بين أيدى الغاسلين : لا يتحرك منهم شئ إلا إذا حركه هو : فله أن يسئ إليهم وأن يسبهم ، وأن يطردهم وأن يضربهم ، كما يفعل فى دروسه ومجالسه التى شهدها الناس جميعا ، وعليهم هم أن يسلموا وأن ينقادوا ظاهرا وباطنا لكل ما يريده منهم : فيسلّموا ظهورهم لعصاه ، وقلوبهم لهواه ، وله هو أن يكون كامل التصرف والاختيار فيهم ، وعليهم هم أن يفقدوا كل اختيارهم وتصرفهم فمن قال منهم لأمر فعله ، ولو فى نفسه : لم فعل أو لماذا ترك لم يفلح . ومن تغير عليه بقلبه لأنه نقصه بين إخوانه ، ولأنه آذاه ، فلن يفلح أيضا ، ومن ألح عليه فى السؤال فلن يفلح أيضا . ومن عارض قوله بأقوال العلماء وحجج الاسلام فلن يفلح أيضا ، وإذا منع أحدا منهم فعل الطاعات : فنهى عن الصلاة وعن الصيام ونحو ذلك فلم يطعه أو اعترض عليه ، ولو بقلبه ، فلن يفلح أيضا ، وعليهم جميعا أن يعتقدوا أن نوم الشيخ وعصيانه ، كالرثاء والنفاق ، أفضل من طاعتهم ومن قيامهم . وإخلاصهم ، وعليهم أن يعتقدوا أيضا أن جميع أفعاله مبرأة من العبث ، فضلا عن العصيان والفسوق ، لأن الذى لا يمكن أن يعبث لا يمكن أن يعصى . وبالاجمال يجب أن يكونوا له أقل وأذل من العبيد ، بل كلا فان العبد يستعبد الظاهر فقط ، وتستعبد أفعاله دون قلبه وضميره وخطراته .

أما المريدون ، عند هذا الشيخ التقى الصالح ، فيجب أن يستعبد قلوبهم ونفوسهم وضمائرهم قبل أفعالهم وأعمالهم . بل كلا ، فانه يجب عنده ألا تكون لهم قلوب ولا عقول ولا حياة بل كالأموات بين أيدى الغاسلين ! ! وليس فى الدنيا كلها استعباد أفظع من هذا الاستعباد ، وليس فيها كلها رق يماثل هذا الرق وذل كهذا الذل . ولو أن العباد أعطوا ربهم من قلوبهم وأبدانهم ما يريده هذا الشيخ

أفظع الرق

لنفسه من مريديه لكانوا من أعظم الأتقياء والأولياء ، ولكانوا عباده المخلصين الأبرار .

النتيجة

وقد أدت هذه الأقوال إلى النتيجة التى كان يرمى إليها واضع هذا الكتاب وهى أن تكون سيئاته لدى مريديه حسنات ، وأن يكون خطؤه صوابا وحكمة ، وأن يكون نقصه كمالا ، لأنهم ممنوعون من أن يفكروا فى غير الحسنات والصواب والكمال والحكمة ، وممنوعون من أن يبصروا حوله غير الدين والتقى والسنة والجلال والجمال : فهم لا يمكن أن يسلموا لك أن الشيخ غلط فى مسألة واحدة ، ولا أنه فاته علم من علوم الدنيا أو علوم الدين ، وقد يسلم لك بعضهم ، بالاجمال ، أن الشيخ ليس معصوما ولكن عند التفصيل يأبى إلا أن يكون معصوماً : فأنت تقول له : هل يمكن أن يخطئ الشيخ ؟ فيقول نعم قد يكون ذلك ، لأن المعصوم هو النبي فقط ، فترجع وتنازعه فى كل مسألة للشيخ فيها قول فلا يمكن أن يسلم لك أنه حاد عن الصواب والحق فى واحدة منها : فهو يقبل القول بأنه غير معصوم بالجملة ويرفضه بالتفصيل ، وهذا بلاء . أما الشيخ فهو يزعم فى هذا الكتاب لنفسه العصمة بالجملة والتفصيل ، لأنه يزعم أنه يجب التسليم له فى كل أمر ظاهرا وباطنا ، ولأنه يزعم أن الأشياخ ، وهو عند نفسه سيدهم ، مبرأون من العبث والباطل ، ولأنه يزعم أنه لا يفعل شيئا إلا لمصلحة يقصر عن إدراكها عقلى وعقلك وعقول العالمين جميعا . . . من السهل الذى لا يبالى به أن يدعى امرؤ لنفسه ما يشاء ، وأن يخلع عليها من أوصاف النبوة والألوهية والربوبية ما يريد . ومن السهل الذى لا يعبأ به أيضا ، والذى يسهل على الحق أن يقول له : ما أرخصه ، أن يختار قوم لأنفسهم من الهوان والعبودية أفظع ذلك وأذله . ومن السهل عليهم أن يبيعوا عقولهم ونفوسهم وضمائرهم فى سوق الجهل والخداع والتغرير : هذا كله من السهل الميسور ، ولكن من الصعب العسير أن يدعى مدع أن ذلك من الاسلام

عصمة الشيخ

من السهل الادعاء

أو أنه يقره الاسلام ، أو أحد من المسلمين ،فيقيم لدعواه ما يجعلها محترمة مقبولة.

والأدهى والأمر قوله « أو فعل بك أى فعل » فان إنسانا فى الدنيا لا يمكن أن يقر فى نفسه أى فعل يفعل به ، و إن إنسانا فى الدنيا لا يمكن أن يقر على كل فعل أراده . ومن هذا الذى يجب أن يسلم له المسلم جميع أفعاله فيه ؟ إنه لا يوجد فاعل واحد يجب على المسلم أن يسلم له نفسه يفعل فيها مايشاء و يختار حاشا الله ، فهو وحده الذى يجب على العباد أن يرضوا قضاءه وقدره وفعله ، وأن يسلموا نفوسهم له كذلك طوعا أو كرها . أما الخلق فلا . و إنسان يرضى بأن يقدم نفسه لانسان آخر يتحكم فيها و يفعل فيه مايشاء ليس إنسانا، بل وليس حيوانا ، بل لا يكون ذلك إلا جماداً أصم . كما أن من الأدهى والأمر قوله : إنه يجب عليك أن تشكره أكثر مما كنت تشكره على إساءته ، لأنه مافعل بك ذلك إلا اعتناء بك ! ! وهل يمكن أن تكون الاساءة والاهانة اعتناء ؟ أو هل من العقل والذوق والدين أن يسىء المرء إلى محبيه وأنصاره ؟ وهل يجازى العاقل الدين الحسنة بالسيئة ؟ كلا إنما يفعل ذلك اللئيم الغادر ، أما العاقل والتقى فلا يفعلان ذلك أبداً ، بل يجازيان المحسن بالاحسان والكريم بالاكرام . وقد كان رسول الله يكرم أصحابه على حسب درجاتهم فى الفضل والتقى والعلم ، وعلى حسب حبه لهم : فكان لا يقدم على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى غيرهم فى الاكرام والاحسان والبر. ونحن نذكر هنا الرسول عليه السلام لأن القوم يزعمون أنهم بسنته مستمسكون . وقد تمكنت أقوال هذا الشيخ فى قلوب أتباعه وأنصاره فتراهم يتمنون أن يبسط لسانه إليهم بالاساءة والأذى، وعصاه إلى ظهورهم بالضرب والوكز : فتراهم يقدمون له ظهورهم وجنوبهم فيتلقون ضربات عصاه برضا وتسليم ، وشتائمه بسرور وابتهاج . وقد وجد هو فى هذا ملهاة وسلطة باردة سائغة تعز على الملوك والامراء ، سلطة لا تكلفه جندا ولا مخاطرة ولا شيئا من آلات السلطة والسلطان .فتراه يبسط عصاه و يده

لا تسلم النفس لغير الله

سلطة الشيخ

يد الشيخ ولسانه

ولسانه إلى القوم المساكين بالضرب والسباب المنكر فى مجالسه العامة ، وحلقات دروسه ، وفى كل مكان . ولعل بعضهم كان يهنئ بعضا بضربه وسبه ! ! ولعل الكثيرين يقربون مجالسهم منه رجاء أن يفوزوا بضرباته وشتماته التى هى عناية خاصة بهم كما زعم لهم فى هذا الكتاب العجيب . وتجده لهذا يخص كبار أصحابه بمزيد الضرب والسب والأذى ، وهم لايحسبون ذلك ، فيما زعموا وزعم ، الا عناية بهم وإكباراً لشأنهم .

وقد لا يكون هؤلاء القوم يعلمون أن الرسول عليه السلام لم يضرب أحداً بيده الشريفة فى حياته كلها : لا خادما ولا زوجاً ولا غيرهما ، فضلا عن خاصته وخلاصة أصحابه . والعجيب أن شأن هؤلاء الجماعة مخالف لما تواطأ عليه الناس جميعاً فى كل عصر ومصر . فان الناس عادة يبالغون فى إكرام خاصتهم وفى التودد إليهم وفى تبجيلهم وإظهارهم أمام الجماهير مظاهر التكريم والتعظيم ، وهذا شأن جميع العقلاء من بنى آدم ، أما هؤلاء فأمرهم عجب .

العجب

أما قوله : « بل لايخاف المريد إلا من مباسطة شيخه» فيقال كلا بل لايخاف المسلم الصحيح الاسلام إلا من غضب ربه ومن ذنبه . والمريد الذى لا يخاف إلا من مباسطة شيخه ليس مسلما ولا كرامة . وكأن الشيخ يريد بهذا التشبه بالله فيريد أن يقول إن الله أحيانا يملى لعباده ، ويغدق عليهم نعماءه وآلاءه وهو عليهم غاضب ،وهم بها وبه كافرون ،ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر ، فكأنه باسطهم أولا ثم أخذهم ثانيا . وكذا الشيخ يباسط المريدين ويبدى رضاه عنهم وسروره بهم وارتياحه إليهم وهو عليهم غاضب ناقم ، وهو يريد بهم الشر والمكر والكيد فهو فى هذا كالله عند نفسه . ونعوذ بوجه الله من هذا .

التشبه بالله

وقوله « ومن تغير من زجر شيخه لا يفلح أبداً » يقال فى جوابه: من لا يتغير ،ومن لا يغضب من سوء أدب شيخه وبذائه وإيذائه باليد واللسان فهو الحمار ، وحاشا

المسلم الصحيح الاسلام أن يكون كذلك ، وحاشا الاسلام أن يرضى للمسلم هذا الهوان . ومن يكون هذا الشيخ الذى لا يفلح أبدا من تغير عليه إذا أساء إليه ؟ إن الفلاح حقا لا يكون إلا فى رضا الله وفى طاعتـه وفى اتباع شريعته وقانونه السماوى ، وإن المفلح حقا هو من رضى الله عنـه ، ومن استمسك بهداه وبحبله المتين . أما هذا الشيخ وغيره من الأشياخ فلا وزن لهم فى هذا الميزان . ولو تقطع الشيخ وجميع الأشياخ غضبا على إنسان ، قد رضى الله عنه، لما ضاره ذلك شيئاً ، ولما استطاعوا ، متعاونين مجتمعين، أن يحولوا بينه وبين الفلاح . ولو أنهم رضوا جميعاً عن إنسان ، قد غضب الله عليه رضاهم عن أنفسهم، ثم أرادوا، جاهدين مجتمعين، أن يوصلوا إليه الخير والفلاح لما استطاعوا من ذلك شيئاً إلا أن يشاء الله

الفلاح بيد الله لا بيد الشيخ

ومن يكون هذا الشيخ الذى لا يفلح من تغير عليه إذا أساء إليـه ؟ إن الفلاح فى هـذا العالم ليسع كل من لم يغضب عليه ربه ، فمن غضب عليـه رب هذا العالم وأراد أن يخرجه منه وأن يحول بينه وبين الفلاح والسعادة فذاك هو الذى لابد أن يشقى وأن يهلك. فعلى هؤلاء الناس أولا أن يقيموا للناس البراهين على أن شيخهم هو صاحب هذا العالم وربه وخالقه كى يستطيعوا أن يقنعوهم بأن من غضب عليـه لا يفلح أبداً . أما ماداموا يعلمون بأن شيخهم إنسان مخلوق فلن يصـدقوا ما يزعمونه له من تقسيمه الفلاح ، وتصريفه الخـير والشر والرشاد والضـلال ، ولن يصدقوا أنه يستطيع الحيلولة بين الناس وبين فلاحهم وهداهم فليثبتوا أولا هذه المخزية ، ثم ليدّعوا بعدها ما يشاءون وما يذكرون من تقسيم الشيخ للفـلاح وللرضا والغضب وللسعادة والشقاوة ، وللجنات والنيران أيضاً وليبعدوا بعـدها من شاءوا عن رحمة الله ، وليهبوا من شاءوا ما شاءوا من الرحمـة والفلاح والسعادة

يجب أولاً

ثم قال : « ومنها ألا تسافر ولا تتزوج ولا تفعل نحو ذلك إلا باذنه »

لا يفعل شئ الا باذن الشيخ

كنا قد سمعنا منذ بضع سنوات أن جماعة من أتباع هذا الشيخ ومريديه أرادوا أن يسافروا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فذهبوا إلى الشيخ أولا يستأذنونه ويستأمرونه ، كما أوجب وفرض عليهم فى هذا «العهد» فكان جواب الشيخ ألا يسافروا ولا يحجوا فى ذلك العام لحكمة له تدق على عقول المريدين وعقول جميع العالمين . والمريد ، كما تقدم ، لا يجوز له أن يواجه الشيخ بلفظة « لماذا » ولا كلمة « كيف » وإلا هلك وشقى ولو لم يتفوه بالاعتراض والسؤال : فكان من الشيخ الرفض ، وكان من أولئك المريدين المسكو بين التسليم .

وكنا سمعنا أيضا من بضع سنوات أن خطيب هذه الجماعة قال يوم الجمعة فوق المنبر ، وكان تحته الشيخ والمريدون ، ما معناه : إنه يجب على المريدين الصادقين أن يطيعوا شيخهم ولو أمرهم بعصيان الله وانتهاك حرماته . . . ثم أتم الخطبة والصلاة ولم ينبعث من جوانب تلك الجماعات صوت إنكار واعتراض لا من الشيخ ولا من غيره ، ولم ترتسم علامة سخط وغضب واشمئزاز على وجه من تلك الوجوه ، غير أن رجلا واحدا ، يدل مظهره ويشهد موقفه ، على أنه غريب فى الجماعة ، قام غاضبا وسأل عما سمع من الخطيب . . . فما أسمعوه جوابا .

روايتان

كنا سمعنا هاتين الروايتين من ثقات كنا لا نجرؤ على تكذيبهم ولا نجرؤ على تصديق ما أسمعونا لغرابته وقبحه وفظاعته ، ولكن جاء هذا الكتاب الذى كتبه الشيخ بيده فقطع الشك باليقين . فنحن اليوم نصدق ذلك ونعلم أنه يقع أمثاله كثير ، لأن إمام الجماعة قد صدقه فى كتابه الذى جعله عهدا بينه وبين مريديه . . . فهو يقول تصريحاً : لا يصح للمريد الصادق أن يسافر إلا بإذنه وأمره ، وقد يمنع من السفر ، ومن الاسفار السفر إلى الحج وإلى الطاعات المختلفة كالجهاد فى سبيل الله وكطلب العلم وغيرهما . وللشيخ بعد الاستئذان أن يمنع وأن يكون جوابه الرفض والإباء ، وإلا كان لامعنى للاستئذان ... ويقول أيضاً :

إنه لايصح للمريد الصادق أن يتزوج إلا بعد استئذانه و بعد إذنه ... والزواج أحياناً يكون واجباً فرضاً .والشيخ بعد ذلك أن يمنع ويحرم ، وله أن يجيز و يبيح و إلا لما كان للاستئذان والاستئمار فائدة ولا معنى . .. ويقول أيضا : إنه لايصح للمريد أن يفعل نحو ذلك ، اى نحو الزواج والأسفار للحج وطلب العلم والجهاد فى سبيل الله، إلا باذنه ومشيئته أيضا، كما تقدم أنه ذكر، على وجه العموم، انه لايجوز للمريد ان يفعل فعلا ولا أن يعمل عملا إلا بعد استئذانه الشيخ و إذنه له ، وأنه يجب عليه أن يكون امامه مثل الميت البالى يقلبه كيف شاء لايتحرك منه عضو ولا شئ إلا إذا شاء وحركه .

لايتزوج إلا باذنه

فالذى على المريد بهذه الآداب والتعاليم ألا يطيع الله وألا يعبده ، وألا يقوم بالفروض والواجبات ، كالحج والجهاد فى سبيل الله وطلب العلم والواجبات الأخرى ، إلا إذا أراد ذلك شيخه فأذن له ،وله أن يمنعه من ذلك وأن ينهاه عنه وأن يأمره بضده . وعلى المريد حينئذ التسليم والانقياد والرضا ظاهراً وباطناً بحيث لايقول « لم » ولا كيف » لابلسانه ولابحاله ووجدانه ، و بحيث لايتحرك منه عضو ولا شئ إلا بتحريك الشيخ و إرادته وقدرته وقوته و إلا فالهلاك والشقاء مصيره فى دنياه وأخراه .

لايعبد الله الا باذنه

وقال فى صفحة ١٤ من الطبعة الثانية وصفحة ١٧ من الطبعة الأولى حاكيا : «كل مريد أمره شيخه بعبادةمن صوم أوصلاة أو قراءةأواشتغال بعلم أو حرفةأو نحو ذلك أومنعه منها (أى من العبادة) فتكدر من ذلك فهوعاص للهولرسوله»

اذا نهى عن العبادة

فللشيخ أن يمنع من الطاعات : من الصوم والصلاة والقيام وقراءة القرآن وعلى المريد أن يذعن للمنع و إلا كان عاصياً لله ولرسوله ، ولو أن المريدامتثل هذا المنع فى الظاهر الا أنه عارض فى قلبه فتكدر لكان أيضاًعاصياً آثما عند صاحب

الكتاب، وعند أتباعه ومريديه من أهل السنة المدعين أنهم أهل الحق دون العالمين جميعاً.

وقال فى صفحة ١٤ : « فمتى اختار شيخه شيئاً واختار هو خلافه فقد خرج عن صحبته ، والواجب عليه التوبة ثم إن شاء شيخه قبله وإن شاء رده . . . »

الله أكبر على هؤلاء القوم ! ! إن الله تعالت قدرته وعظمته ، ليقبل توبة التائبين جميعاً ، بل ويبدل سيئاتهم حسنات ويقبلهم إذا أقبلوا عليه وإن أدبروا عنه طويلا ، بل ويأتيهم هرولة إذا أتوه مشيا ، ويتقرب إليهم باعاً إذا تقربوا إليه ذراعاً : هذا الله جلت قدرته وعظمته ، وهذا عفوه وسعة مغفرته ، وهؤلاء يزعمون أن الشيخ قد لا يقبل توبة التائب لديه ، وقد يرده ويقفل فى وجهه وسبيله باب المتاب وإن كان لم يعص الله قط

من تشريع المشايخ

وفى هذه الصفحة أيضا يقول : « قال شقيق لمريده : أفطر معنا اليوم ولك أجر يوم . فقال : لا ، فقال أجر جمعة . فقال : لا ، فقال أجر شهر ، فقال : لا ، فقال : أجر سنة فقال : لا . قال أبو يزيد دعوه فقد سقط من رعاية الله ، فخرج من عندهم فسرق وقطعت يده ! ! » . والعجيب الفظيع فى هذه الرواية أن الشيخ يقدر الثواب على حسب ما يريد ويحب ويرضى: فقد قدر أولا ثواب المريد بافطاره معهم بصيام يوم ، ثم بجمعة ثم بشهر ثم بسنة . فكان تقدير الثواب والأجر راجعاً إلى الشيخ وإلى إرادته واختياره . وهذا مثل قوله السابق : إن شرع التحليل والتحريم والنهى والأمر باق ومخاطب به مادامت الأشياخ باقية . ويعنى بهذا أنهم يحللون ويحرمون ويشرعون كما يشاؤن ويرون . ونعوذ بالله من الضلال . ومن العجيب المنكر أيضاً أن يكون الافطار مع شيخ من الأشياخ ، مهما كان أمر ذلك الشيخ وشأنه ، يعدل صيام سنة ! ! وما كان هذا الثواب للافطار مع رسول الله ولا مع غيره من خيرة خلقه . ثم الأعجب الأغرب أن يسقط من رعاية

الله من أبى أن يأكل مع الشيخ مؤثراً اجر الصيام واجر الطاعة ! ! هذه عبودية ولكنها عبودية باطلة ظالمة، وهذا رق ولكنه من شر الرق الذى لا يقره دين من الأديان ولا قانون من القوانين ، وهذا عدوان ولكنه عدوان على حق الله ممن قالوا : إنهم هم وحدهم الدعاة إلى الله وإلى شريعته وعبادته . فياويل هؤلاء ، ويا ويل من كبلوه بهذه الأصفاد ! !

يتزوجون ولا يخبرون النبى

لقد كان أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام يسافرون ولا يستأذنونه ، وكانوا يتزوجون ولا يستأذنونه أيضاً ، وماجاء أنه عليه السلام أنكر ذلك على أحدمنهم أوأن أحداً منهم أنكره على فاعله . وقدجاء فى الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام رأى على عبد الرحمن بن عوف صفرة من آثار الزواج فقال له : ما هذا ؟ فقال : يارسول الله إنى تزوجت امرأة ، فقال عليه السلام : بارك الله لك ، أولم ولو بشاة . فقد تزوج ولم يعلم رسول الله حتى رأى آثار الزواج . وما قال له : كيف تزوجت ولم تستأذنى . وجاء أيضاً فى الحديث الصحيح أن على بن أبى طالب خطب بنت أبى جهل وعنده زوجه فاطمة بنت رسول الله، فلما سمعت ذلك أتت النبى عليه الصلاة والسلام وقالت له : إن قومك يتحدثون بأنك لا تغضب لبناتك ، وهذا على ناكح ابنة أبى جهل، فقام النبى وخطب وقال : إن فاطمة بضعة منى وإنما أكره أن يفتنوها ، وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً . فترك على الخطبة .

فقد خطب عبد الرحمن بن عوف وتزوج ولم يعلم النبى عليه السلام ، فلما علم لم ينكر، وخطب على بن أبى طالب، وهو ابن عمه وزوج ابنته والناشئ فى كنفه وعلى عينه ، ولم يعلم النبى عليه السلام فلما علم لم ينكر عليه إذ لم يستأذنه وإنما أنكر أن يجمع بين ابنته وابنة أبى جهل عدو الله وعدو رسوله ، لأن فى هذا الجمع خوفاً على فاطمة وعلى دينها كما ذكر نبى الله، ولهذا قال : إن كان ابن أبى طالب

مصرا على الزواج بابنة أبى جهل فليطلق ابنتى وليتزوج ابنتهم . ونظائر هـذا كثيرة معلومة بالنقول المتواترة وبالضرورة وبالاجماع .

فالمسلمون كانوا يسافرون ، وكانوا يتزوجون ولا يستأذنون النبى عليه الصلاة والسلام ، وما كان يخطر على بال أحد منهم أن هـذا الاستئذان واجب مطلوب ، وأنه من حقوق النبى على المؤمنين .

فرق عظيم بينهما

والعجيب أن هـذا الشيخ يوجب على مريديه أن يستأذنوه فى شؤونهم الدنيوية الخاصة كلها والنبى عليه الصلاة والسلام كان يقول للمسلمين كما فى الحديث الصحيح المشهور الذى رواه مسلم فى الصحيح وغيره : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . وقـد كان ﷺ يستشير أصحابه فى شؤونه الدنيوية الخاصة ، كما استشارهم فى طلاق أم المؤمنين عائشة عنـد حديث الافك قبل نزول براءتها فى كتاب الله ، وكما استشارهم فى غـير ذلك ، كما كان يستشيرهم فى شؤون الدولة وشؤون المسلمين العامة وشؤون الحرب ولقاء الأعداء . وقد أمره الله بمشاورتهم فقال : « وشاورهم فى الأمر » . وفرق عظيم بين من يقول : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ومن يقال له : « وشاورهم فى الأمر » ومن يستشير فى شؤونه الخاصة وشؤون الدولة العامة : فرق عظيم بين هذا النبى الكريم ، وبين من يجعل الأمر أمره وحده ، والقول قوله وحده ، والرأى رأيه وحده ، حتى تبلغ به المغالاة فى نفسه وفى تقديرها أن يحرم على الناس أن يسافروا وأن يتزوجوا أو يعملوا عملا ما إلا بعد استئذانه و إذنه . نحن لا نعجب من هـذا الكاتب كيف كتب ما كتب لأننا نعلم لماذا كتبه ، ولكننا نعجب ممن يقبله ، وممن يقيم له وزنا ، وممن يحترمه وهو يؤمن بالله و بعقله

ثم قال : « ومنها أن تمتثل لأمره إذا منعك من فعل مباح لأن قصد الشيخ للمريد دائما الترقى ، وفعل المباح لا ترقى فيه لأنه لا ثواب فيه . قالوا إذا احتج

المريد على شيخه بأقاويل العلماء فى جواز فعل المباح لم يفلح أبداً ، وإذ اتركه شيخه يحتج عليه ولم يزجره عن ذلك فقد مكر به وأخرجه عن صحبته . . . » .

وهذه أيضاً حلقة من هذه السلسلة الخاطئة التى أفرغ فيها هذا الكتاب ، وأسلوب منكر من هذه الأساليب المنكرة التى جرى عليها مؤلف هذه الرسالة الظالمة. فان الشيخ إذا منع مسلماً من تناول شىء أباحه الله له فى شرعه، وأباحه له رسوله فى وحيه ، فقد عارض الله ورسوله وخالفهما ، ومنع من تناول شىء أمرا بتناوله ، وحرم شيئاً أحلاه لعباده ، ومن أظلم ممن فعل ذلك ؟ وقد قال الله فى كتابه : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وقال النبى عليه السلام فى تأويل هذه الآية « إنهم أحلوا لهم الحرام فأحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه » وقال هذه هى عبادتهم وهذا هو معنى اتخاذهم إياهم أرباباً . وقال تعالى « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله» فجعل الشارعين ما لم يشرعه الله شركاء له . وقال فى تحليل المخلوق وتحريمه « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

تحريم المباح

فمن منع ما أباحه الله وما أحل فقد عانده تعالى فى شرعه ودينه وحكمته، ومن أطاع ذلك المانع فقد غوى وضل ، ومن منع فعل مباح ، زاعماً أن فى فعله نقصانا ، فقد طعن فى شرع الله وادعى أنه تعالى يشرع لعباده النقصان . والله لم يبح المباح لعباده إلا لأنه يعلم أن الحكمة والرحمة فى الاباحة ، ومن حال بين عباد الله وبين حكمة الله ورحمته فقد افترى ، وقد خاب من افترى ، وأعظم الذنب والخطيئة على الله . ولو علم الله بأن الصواب والكمال والحكمة فى تحريم المباح لحرمه ، لأنه تعالى لا يريد بخلقه إلا الخير والصلاح والكمال . فالمانع من المباح متعقب على الله زاعم أنه قد علم ما لم يعلم ، وأنه أحاط بما لم يحط به من الأسرار والحكم البالغة

ثم كيف يزعم بأن فعل المباح لا ترقى فيه وقد قال النبى الكريم « إن الله

يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى محارمه » وفى رواية « كما يحب أن تؤتى عزائمه » وقد ذكر النبى الكريم فى الحديث الصحيح أن فى إتيان الأهل ثوابا ، مع أن إتيانهن بالجملة مباح . وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن أنس بن مالك أنه جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبى يسألون عن عبادته عليه السلام، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : أين نحن من النبى قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، فقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء الرسول فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقع فى بعض روايات هذا الحديث أن بعضهم كان قد اعتزم الامتناع من أكل اللحوم ، وفى رواية أخرى اعتزم اجتناب الشهوات . وفى الصحيح أيضا أن بعض المسلمين استأذنوا النبى فى الاختصاء ، لأنهم كانوا يغزون فى سبيل الله فلا يجدون النساء فيلاقون المشقة ، فنهاهم النبى عن ذلك وقرأ عليهم قول الله « ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » . فقطع آلة الشهوة ممنوع لأنه يؤدى إلى الامتناع من إتيان النساء ، والامتناع من إتيان النساء تحريم لما أحل الله ، كما ذكر النبى الكريم الآية عند سؤاله عن حكم الاختصاء . وقد قال عليه السلام لقوم رغبوا عن المباح فصاموا فى السفر فشق عليهم الصيام : « أولئك العصاة » .

فكيف يزعم هذا الشيخ أن المباح لا ترقى فيه ، أم كيف يزعم أنه يصح للشيخ أن يمنع المريدين فعل المباح ، ثم يزعم أنه تجب عليهم طاعته فى هذا المنع وإلا هلكوا وضلوا . ؟؟

الاحتجاج على الشيخ هلاك

أما زعمه أن من احتج على الشيخ بأقاويل العلماء فى جواز فعل المباح لا يفلح

أبدا فمن أبشع ما كتب ، و إذا كان المسلمون يجادلون النبى فكيف يكون جدال هذا الشيخ حائلا بين مجادله و بين الفلاح ؟ وقد قال الله تعالى « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها » وقال « و إن فريقا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك فى الحق بعد ماتبين » بل لقد سمح الله لعباده بأن يجادلوه فقال تعالى « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » وقال عن خليله إبراهيم « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط » .

فاذا كان الله و رسوله يجادلان فكيف لايجوز جدال هذا الشيخ ؟ و إذا أجاز الله جداله وجدال رسوله فكيف يزعم من يؤمن بالله أن من احتج عليه لا يفلح أبدا، مع أن الاحتجاج دون الجدال وأخف منه ؟ . .

مكر الشيخ

وأما قوله « و إذا تركه الشيخ يحتج عليه ولم يزجره عن ذلك فقد مكر به وأخرجه عن صحبته » فنحن قدمنا أن الشيخ ، كما يحاول التشبه بالرسول ، كذلك يحاول التشبه بالله ، فانه يزعم هنا أن الشيخ يملى لمريديه كما يملى الله لعباده الظالمين المجرمين ، و يمكر بهم كما يمكر الله بالماكرين ، و يباسطهم ثم يأخذهم أخذ عزيز . وقد قال فيما سبق « بل لايخاف المريد إلا من مباسطة شيخه له » كما قال هنا: « و إذا تركه الشيخ يحتج عليه ولم يزجره فقد مكر به » ونعوذ بالله من هذا كله .

عبوديات

ثم قال : « ومنها ألا تجلس فى المكان المعد لجلوسه . ومنها ألا تصافحه و يده مشغولة بقلم ونحوه . ومنها ألا تكثر الكلام بحضرته ، ولا تقرع باب المكان الذى هو فيه بشدة ، ولاتلح عليه فى أمر . ومنها أن تصبر على جفوته و إعراضه عنك ، ولا تقول لم فعل بفلان كذا ولم يفعل بى كذا و إلا خبت . ومنها ألا تديم النظر إلى وجهه ، فمن أدمن النظر إلى وجه شيخه فقد خلع ربقة الحياء من عنقه و ربما حرم بركته . ومنها ألا تبيت عنده إلا إذا دعاك ، ولاتبت معه قط حيث يبيت سفرا ولا حضرا إلا لعذر . قالوا : ومتى غاب المريد عن شيخه ساعة واحدة

ولم يشتق إلى رؤيتــه فهو كاذب فى إرادته لا يصلح للطريق أبدا . ومنها ألا تطأ سجادته بل اطوها أو امش على ركبتيك ، ولا تدخل له خلوة . ومنها ألا تغفل عن ملاحظته وملاحظة المكان الذى هو فيــه ، فإن حاجتك كلها عنــده من حيث كونه دليلك فى الوصول إلى مولاك ، فالمقصود هو مولاك على كل حال » .

وهذه أيضا سلسلة من هذه السلاسل المجرمة ، وأصر من آصار العبودية التى يحاول هذا الشيخ أن يكبل بها أنصاره ومريديه ويعبــدهم بها تعبيداً لا يقره فى نفسه من يعلم أن الله ربه وأنه هو عبده ، ولا من خلقت الكرامة والنخوة والعزة فى قلبه وعقله : فعلى المريد ألا يجلس فى المكان المعد للشيخ المحترم ، فللشيخ مكان معد ، وعلى الناس ألا يجلسوا فى ذاك المكان وإلا ضلوا وشقوا ، وهــذا باطل وغلو منكر ، فليس بجائز أن يكون للشيخ مكان خاص به إلا فى ملــكه الخاص ، وهــذا لا فرق فيه بين الشيخ وبين غيره من المريدين ، من المؤمنين والكافرين . أما فى الأماكن العامة المشتركة كالمساجد وغيرها ، فلا يجوز أن يكون له فيها مكان خاص أبداً ، لأنها مشاعة بين الجميع والاختصاص بشىء منها ظلم وعــدوان . وما كان لرسول الله ولا لغيره من خلفائه الراشدين أماكن معدة خاصة بهم ، وإذا فرض أن للشيخ مكانا خاصاً معداً لم يمتنع الجلوس فيه على العامة والمريدين إلا إذا كان فى ملكه ، وامتنع الجلوس فيه من ناحية الملكية لا من ناحية الخصوصية . وإذا كان الامتناع لأجل هذا لم يكن هناك فرق بين الشيخ والمريد ، فكما يمتنع علـى المريد أن يجلس فى ملك الشيخ إلا باذنه ، كذلك يمتنع على الشيخ أن يجلس فى ملك المريد إلا باذنه ، فلا معنى للتفريق بين الشيخ والمريد فى هــذا . ولــكن القوم يريدون تخصيص الشيخ وتعظيمــه لمعنى يخصــه دون المريدين ودون العالمين جميعا : يريدون أن يكون الناس له عبيداً .

لا يجلس فى مكان الشيخ

لا يصافح الشيخ

وعلى المريد أيضــا ألا يصافح الشيخ وفى يده قلم أو نحوه من كتاب أو

غيره . وهذا خيفة على شعوره وخيفة من غضبه وانزعاجه و إقلاق راحته . وهذا الأدب من الآداب المضحكة ، فان الشيخ إذا كان فى يده قلم أو كتاب أو نحوه يستطيع عند مصافحته أن يضع ذلك فى اليد الأخرى أو فى الأرض أو فى مكان آخر ، و يصح أيضاً أن يصافح ، والقلم ونحوه بيده ، وهذا ممكن . وعند هؤلاء أن المصافحة عند اللقاء سنة ، وهم يزعمون أنهم حراص على السنة جداً ، فكيف يصح لهم أن يتركوا السنة لأجل المحافظة على شعور الشيخ وآدابه الباطلة . وكيف ساغ لهم ، وهم أهل السنة ، أن يرغبوا عنها لأن فى يد الشيخ قلما أو كتابا تمكن المصافحة معه و يمكن وضعه بعيدا أو قريبا ؟ وماذا يرون ويقولون فى إلقاء السلام على الشيخ إذا كان مشغولا بحديث أوكلام أوأكل أو راحة من راحاته ولذة من لذاته ،أو كان مفكرا فى شأن من شؤونه ؟ أيقولون إن إلقاء السلام عليه حينئذ ممنوع ، و إن على المريد ألا يسلم عليه و إلا خاب وأثم ؟ ؟ وسواء أجابوا بالسلب أم بالايجاب فالجواب الصحيح اللازم لمقالاتهم هذه أن يقولوا بامتناع السلام فى تلك الحالة . و إذا قالوا ذلك فقد خالفوا السنة الصحيحة بلا حجة ولا برهان . وهذا لا يفعله المحبون للسنة وللنبى والإسلام .

الكلام فى حضرة الشيخ

وعلى المريد أيضا ألا يكثر الكلام فى حضرته وألا يقرع باب المكان الذى هو فيه بشدة ، وألا يلح عليه فى سؤال ولا غيره . وهذا أيضا من الآداب المرغوب عنها ، لأن إكثار الكلام فى حضرة الشيخ أحيانا يكون مطلوباً مرغوباً فيه ، لأنه مفيد ، ولأنه كلام فى الخير وفى الدعوة إليه وفى تعليم الناس. أما إكثار الكلام فى الشر والباطل فممنوع فى حضرة الشيخ وفى غيبته وغيبوبته : فاكثار الكلام فى الخير مرغوب فيه فى حضرة الشيخ وفى غيبته وإكثاره فى الباطل والاثم مرغوب عنه فى حضرته وغيبته وغيبوبته ، فلا معنى لما ذكروه .

قرع باب الشيخ

وأما قرع باب المكان الذى هو فيه بشدة فهذا أيضا لا معنى له ،

وذلك أن قرعه بشـدة إما أن يكون مفيـدا منتجا خيرا ، أو يكون ضاراً لا خير فيـه . فان كان الأول فـلا مانع من قرعه بشـدة ، و إن كان الثانى فلا خـير فيـه سواء أكان الشيخ موجودا فيـه أم كان غائبا ، ولا تأثير لوجوده وغيبته فى هذه المعانى لأنها من الآداب العامة ، وليس فيها معنى خلص به ، ولم توضع هذه التأديبات لرسول الله ولا لخلفائه . وأما الالحاح عليـه بالسؤال فواجب أحياناً باعتباره معلماً مرشدا . فاذا كان المريد يجهل مسألة من دينه وكان فى حاجة إلى معرفتها وجب عليه أن يسأل الشيخ ، فان لم يجب ، وكان يعـلم أنه عالم بالمسألة التى هو فى حاجة إليها ، وجب عليه أن يسأل ثانياً وأن يلح فى سؤاله حتى يجيب أو يعلم أنه جاهل المسألة لا عـلم له بها ، وحينئذ يجب عليـه أن يقول : إنى لا أعرف جواب المسألة التى تسألنى عنها . وقول لا أعرف ، أو لا أعـلم ، قد يكون من العلم ومن الأدب الاسلامى الرفيع . ولم يذم أحد من المسلمين الالحاح فى طلب العلم والالحاح فى سؤال أعلامه ، بل لقد أمر الله المسلمين كافة بالسؤال عما لا يعلمون فقال: « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . وقال عليـه السـلام فى حـديث « ألا سألوا إذ لم يعلموا فانمـا شـفاء العى السؤال » وماذا يقول الشيخ وأنصاره ، فى مريد من المريدين احتاج إلى علم مسألة من مسائل الدين احتياجاً ضروريا فجاء وسأل شيخه عنها فأعرض عنه ولم يجبه ، أيسكت على الجهل و يعمل على غـير علم ، والعمل بدون علم إثم ، أم يعيـد السؤال على الشيخ مرة ومرة حتى يجيب ، أم يرون أن الواجب عـلى هذا المريد أن يذهب إلى آخرين يعرفهم الشيخ أولا يعرفهم فيسألهم و يعمل بما قالوا وما أفتوا به ؟ ؟ ولـكن هذا عند هؤلاء لا يجوز ولا يحل لأنهم يزعمون ، كما تقدم ، أنه لا يصح للمريد أن يعمل عملا ما إلا باذن الشيخ وأمره ، و يزعمون أنه يجب أن يكون أمامه مثل الميت أمام الغاسل لا يتحرك منه إلا ما حركه . على أنهم هم لا يجيزون

سؤال الشيخ

سؤال غير الشيخ وغير أتباعه الخاضعين له ، ولو سألوا عالما غيرهم فأفتاهم لم يركنوا إلى فتواه مهما كانت معززة بالحجج والبراهين .

لماذا حرم سؤال الشيخ

والذى نراه ، ولا نشك فيه ، أن الشيخ يحرم الالحاح فى سؤاله وسؤال غيره من الأشياخ ابعاداً لنفسه عن أن يقع يوما تحت طائلة أسئلة لا يدان له بها وبجوابها فينكشف ساعتئذ المغطى وتسفر الحقيقة المرة متبدية كما هى مكتمة فيهون حينئذ عند الاتباع والأنصار والمريدين ، ويخف احترامهم وإعظامهم له فيقع المحذور ، ويتداعى الأساس الذى شيدت عليه هذه الرسالة وألفت من أجله وهو أن يكون الشيخ التعظيم والاجلال والحب والاحترام ، بل والعبودية الملتهبة . وقد صرح بهذا فى مواضع من رسالته فقال ص ١٨ : « ومنها ألا تطلب منه جوابا عن رؤيا رأيتها ، أو حادثة حدثت لك بل تذكر حاجتك وتسكت ، فان أجابك كان وإلا أعرضت بقلبك عن طلب الجواب ، لئلا يصير شيخك محكوما عليه بلزوم رد الجواب » وفى هذه الصفحة أيضا يقول « ومنها ألا تتشوق إلى معرفة مقدار نومه وأكله أو كم يتوضأ فى اليوم والليلة ، وهل يأتى النساء كثيرا أو قليلا ، فهذا ونحوه معدود من عقوق المريدين ، والعاق لا يرفع له عمل إلى السماء إذ ربما كان اطلاع المريد على تلك الأحوال منتقصا لحال شيخه فى قلبه لجهله بأحوال الكمل ، فيهلك ويقع فى الخيانة لشيخه ويحل عقده الذى عقده معه » ، وقد حرم كما تقدم الاتصال بالذين ينتقدونه والذين لا يذوبون فى حبه وهواه ، وحرم على المريد أن يسمع فى شيخه قولا ما ، وذلك كله خيفة أن تتزعزع مكانة الشيخ فى الصدور والنفوس : هذا هو ما يرمون اليه من وراء هذه القيود التى ضربوها على قوم من المسلمين ، والله من وراء كل قصد .

صبر المريد على جفاء الشيخ

وعلى المريد أيضا أن يصبر على جفاء شيخه له وإعراضه عنه ، وعليه أن يقبل ذلك ظاهرا وباطنا بحيث لا يقول ، لا بقلبه ولا بلسانه ، لم فعل بى

كذا وفعل بغيرى كيت وإلا خسر .

وهذا أيضا من الآداب الباطلة الممجوجة ، فانه ليس بواجب على مسلم أن يقبل من امرئ معين ـ ليس رسول الله والأنبياء ـ فى الظاهر والباطن كل شئ يتناوله به من اعراض والجفاء واهانات ، ولا يوجد إنسان اليوم على وجه الأرض مفروض على الناس أن يقبلوا منه كل شئ يريد أن يفعله بهم أو بغيرهم فى سرهم وعلانيتهم ، ومحرم عليهم أن يوجهوا إلى أفعاله وأقواله اعتراضا بحيث لا يقولون لم ترك ولا لم فعل . ومن زعم أن إنسانا واحدا ، غير الأنبياء ، مفروض على الناس تقديسه هذا التقديس فقد خاب حقا .

النظر إلى وجه الشيخ

وعلى المريد أيضا ألا يديم النظر إلى وجه شيخه ، ومن فعل ذلك فلا حياء له وهو معرض للحرمان من بركات الشيخ ، وهـذا أيضا من الآداب الباطلة . وقـد كان المظنون المعقول أن يرغبوا فى النظر إلى وجه الشيخ ، وأن يزعموا أن النظر اليه عبادة وزلفى إلى الله ، لأنهم يبالغون فى إثبات بركات المشايخ وأسرارهم والمعروف أن النظر إلى وجه الحبيب المبارك لذة وسعادة وخير كما قيل (نظرى إلى وجه الحبيب نعيم). والذى يكره إدمان النظر إلى وجهه هو العدو الشانئ أو الخبيث الفاسق الظالم ، لا الحبيب الذى زعم أنه مادة الصلاح والدين والعلم .ولهذا كان المسلمون كلهم رغبة فى ملء أبصارهم من محيا النبى عليه السلام ، وما نهى أحدا عن ذلك ولا رغّب عنـه . ولهذا كان النظر إلى وجه المولى لذة لا تساويها لذة ، لان حب عبده المؤمن له لا يساويه حب . ولـكن هؤلاء يريدون أن يكون الشيخ طلسما من الطلاسم ، وسرا مغلقا ، ولغزا من الألغاز المعقـدة ، لتجـل هيبته فى الصدور وفى النفوس التى لو عرفته لأنكرت منه ما كانت تعرف . أما البركة التى زعم أنها تفوت ذلك المدمن النظر إلى وجـه شيخه فشئ لا حقيقـة له ، وشئ

لايعرفه الاسلام . وأية بركة يشتمل عليها الشيخ ؟ فتشوه وفتشوا كل شئ يحيط به ، فانكم لن تجدوا شيئا يسركم . اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون .

المبيت مع الشيخ

وكذلك على المريد ألا يبيت عند شيخه فى حضر ولا سفر إلا لعذر ملح . وهذا تحريم لما أحل الله ، وتضييق لما وسع الله ، وشىء لم يأذن به الله . ولو أن الشيخ ومريديه ناموا فى مكان واحد لما زعم مسلم يعرف الاسلام أنهم ارتكبوا بذلك إثما . وقد قالوا هذا القول ليبقى الشيخ ، كما ذكرنا مرارا ، طلسما مجهولا محاطا بالأسرار و بالمعميات . لايعرف ماحوله ولا ماطوى عليه .

لاتوطأ سجادة الشيخ

وكذلك على المريد ألا يطأ سجادة الشيخ بل عليه أن يطويها أو يمشى على ركبتيه لئلا يطأها ، وكذلك عليه ألا يغفل عن ملاحظته وذكره وملاحظة المكان الذى هو فيه وقتا واحداً ، لأن حاجات المريد كلها ، من دنيوية ودينية ، عند الشيخ . ونحن لا نستطيع أن نعلق على هذا الكلام شيئا سوى أن نقدمه إلى من يعرفون الاسلام و يعرفون ما جاء به النبى عليه السلام من التوحيد ومن التجرد عن كل ما سواه « وما بكم من نعمة فمن الله » .

الاشتياق إليه

وأما زعمه أن من غاب عن شيخه ساعة واحدة فلم يشتق إلى رؤيته فهو كاذب فى إرادته لا يصلح للطريق أبداً فزعم غير صحيح ، بل زعم منكر فى دين الاسلام ، لأن الذى يجب أن يذكره المسلم فى كل لحظة هو الله ، فالله هو الذى يجب أن تعمر به القلوب ، فان قلبا يخلو من ربه ساعة واحدة قلب خرب مظلم مخيف لا خير فيه . أما الشيخ وغيره من الأشياخ فلو نسيهم المسلم فى حياته كلها لما ضاره ذلك شيئا ولما نقص ملك الله ذرة ، ولما نقص إيمانه ودينه قليلا ولا كثيرا . ومما لا يرضاه الأسلام ولا يقبله توحيد الله أن يطوى قلب مسلم على شيخ أو على غيره من المخلوقين ، فان هذا وأمثاله من بذرات الوثنية وجرائم الشرك . وقانا الله واخواننا هؤلاء القوم السوء والضلال .

قليل من كثير

ثم قال فى خاتمة هـذه الآداب : « ومنها غير ذلك . وبذكر القليل يتنبه العاقل للكثير . وهذه الآداب إنما يخاطب بها الصادق المجد الحاذق ، لا كل من تلقن الذكر » .

فعند الشيخ ، عفا الله عنـه ، أن هذه الآداب التى ضربها عـلى عقول مريديه وأنصاره ، فأذل بها نفوسهم وأخلاقهم وعقائدهم ، ليست إلا قليلا من كثير ، وليست إلا غيضا من فيض مما يجب له على الاتباع والعباد من التعظيم والتقديس ، وإنما ذكر هذا الذى ذكر تلويحا لا تصريحا ، وإشارة عاجلة لاحقيقة جامعـة . وإنما ذكر ما به يتنبه العاقل الحاذق ويعرف به ما وراءه من الأشياء الأخرى والآداب الـكاملة الكثيرة التى تجب للشيخ فى أعناق المريدين .

ونحن لانعرف ماوراء هذا الذى ذكره فى هذه الرسالة من الخضوع له والهوان والهون لأوامره وإراداته ، وما الذى يمكن أن يقدمه المريد له غير ما أورد هنا ، وهـل ترك نوعا واحـدا من أنواع التعظيم والتقـديس لم يزعم أنه واجب تقديمه إليه ؟؟ وهـل يمكن أن يكون لدى المرء من الأدب والخشوع والذلة والمسكنة أعظم من أن يكون كالميت بين يدى الغاسل لايتحرك منه شىء إلا إذا حركه ؟ وهل هناك خضوع أعظم من أن يجلس بين يدى الشيخ كجلوسه للصـلاة وأن يقبل منه كل شىء ظاهراً وباطنا ، وألا يقول له « لم » ولا « كيف » فى حالة من الحالات ، وأن يزداد له إخلاصا وعبودية وحبا وطاعة كلما زاده إهانة وإذلالا وتنقصاً وطرداً ، وألا يعمل عملا إلا من بعد إذنه وأمره ، وألا يتزوج ولا يسافر ولا يقطع أمراً إلا بأمره ورضاه : هـل هناك تأدب مع الشيخ ، بل عبودية له أكثر من هـذا حتى يقال ، أو حتى يمكن أن يقال ، إن هذا الذى ذكر ليس إلا تنبيها لما بعده ومقدمة لـكتاب ؟ وهل يمكن أن يوجد تعظيم للشيخ أعظم من الاعتقاد بأن نفاقه ونومه أفضل من اخلاص المريد وصلاته ، وأن الذرة من

أعماله أفضل من عبادة المريد طول السنة ؟ أم هل هناك تعظيم أعظم من قوله : إنه يجب على المريد أن يحب الشيخ حبا لا يحبه أحداً فى هذه الدنيا ، لا زوجا ولا ولدا ولا نفسا ولا أهلا ولا مالا ، وأن من قدم على الشيخ أحـدا فى حبه لم يشم رائحة الحق؟ بل هل هنالك تقديس أكثر من الاعتقاد بأن الأشياخ ليس لهم فعل عبث أبداً ، بل كل أفعالهم وأقوالهم حكم بوالغ وعلم وصواب ؟؟

عقوق الاستاذ لا توبة له

وليس هنالك تقـديس للشيخ أكثر من قول ص ١٣ « وأجمع الاشـياخ كلهم على أن عقوق الاستاذية لا توبة عنه » فان المسلمين لا يختلفون فى أن من كفر بالله و بجميع الأنبياء والمرسـلين وجميع الـكتب ، بل و بكل حق ثم تاب تقبل الله توبتـه وغفر له ذنبه وأبدل سيئاته حسنات ، ثم أدخله بعد ذلك جنته وألبسه رضوانه و رحمته ، هذا مصير من يكفر بالله ثم يتوب ، أما من عق الشيخ فيقول هذا الشيخ : إنهـم أجمعوا على أنه لا توبة له ، فعقوق الأشياخ لدى هذا التقى الورع أعظم من الـكفر بالله و بأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله!

عاق الشيخ لا يرفع عمله

وقد قال فى هذا المعنى : « والعاق (أى عاق الشيخ) لا يرفع له عمل إلى السماء » وقد تقدم هذا ، وقال أيضا فيما تقدم : « فمتى اختار شيخه شيئا واختار هو خلافه فقـد خرج عن محبته ، والواجب عليـه التوبة ثم إن شاء شيخه قبله و إن شاء رده » فبالله هل يوجد تعظيم للشيخ أعظم وأجـل من هذا حتى يدعى أن كل ما ذكرلم يكن سوى قليل من كثير ؟

لا يجوز ذكر الله إلا بتلقين الشيخ

ومن التعظيم الفظيع قوله ص ٥ : « واحذر أن تستعمل أى اسم إلا بإذن من الشيخ وإلا فربما هلكت » يعنى أنه لا يصح للمريد أن يذكر الله باسم من أسمائه تعالى لم يلقنه إياه الشيخ و إلا كان هدفاً للهلاك والخسران . وهذا القول لا يعرفه مسلم [illegible] .

و يقول ص ١١ « قال حمدون القصار: من علامة صدق المريد إذا دخل على

شيخه كأنه داخل على سلطان جائر يخاف سطوته »، وهذه الأقوال كلها مما جاءت الأديان السماوية كلها لمحاربتها وانتزاعها من النفوس والرؤوس ، ولا يوجد دين سماوى يقر شيئا منها أو يتهاون فى دفعه .

ومن أقبح ما جاء فى هذا « العهد الوثيق » قوله بعد أن قسم النفوس على حسب درجاتها وصفاتها سبعة أقسام بادئا بذكر الأدنى مترقيا إلى الأعلى قال :

للنفس المرضية

« السادس المرضية . ذات مقام تجليات الأفعال ، فلا يرى صاحبها صدور الأفعال إلا من الله ، فلا يعترض على أحد بعين الحقيقة لمشاهدته أن الأمر كله منه وإليه سبحانه » . هذا ما ذكره عن صاحب النفس المرضية وليس فوق هذه النفس لديه إلا النفس الكاملة « ومقامها مقام تجليات الأسماء والصفات فهى بمعالى الفضائل والفواضل حافلة ، وذلك أنها فوق الفوق ومعارفها فى نهاية الشروق » .

وهذا الذى ذكره عن النفس المرضية مذهب مرغوب عنه مجمع على بطلانه وخلافه للدين بل وللأديان جميعا . ذلك بأنه يقضى بأن يكون كل مجرم معذوراً لا يصح الاعتراض عليه ، والاعتراض أقل المؤاخذة : فالقاتل والسارق والمشرك والكافر والفاعل لكل موبقة : كل هؤلاء معذور عند صاحب النفس المرضية لأنه يرى الافعال كلها صادرة من الله وحده لا من غيره . فالزنا والسرقة والقتل والكفر والإثم كله : جميع ذلك لا يصدر إلا من الله . وصاحب النفس المرضية لا يصح أن يلوم المخلوقين العاجزين على أفعال الله ، لأن هذا نهاية الظلم والجهل

عذر العصاة

وعلى هذا المذهب لا يصح أن يعترض على أحد من العصاة والمجرمين لأن الأمر كله من الله وإليه ، وهذا ماتقره وماتراه عين الحقيقة التى ينظر بها صاحب النفس المرضية . هذا معنى هذا الكلام ، وهو مذهب باطل قبيح قد قال به قائلون من الضالين فرد عليهم السلف الصالح وأدبوهم . وقد كانت نفس رسول الله ونفوس

سائر الرسل ونفوس أصحابهم من أرضى النفوس وأنظرها بعين الحقيقة الصادقة ، وكانوا مع هذا يعترضون على أصناف المذنبين ويؤاخذونهم ، فكان رسول الله وأصحابه يقتلون القاتل ويرجمون، أو يجلدون، الزانى ، ويقتلون المرتد، ويقيمون الحدود . وكانوا يحملون الحسام والحديد فى يد ، والمصحف والحكمة فى أخرى ، فكانوا أرضى الناس نفوسا وأشدهم على المجرمين والمفسدين بأسا ، وأعظمهم قياما بالحدود والعقوبات الزاجرة الرادعة . فصاحب النفس المرضية هو الذى يفعل هذا ومن لا فليس سوى صاحب نفس خبيثة . فلا ريب أن هذه المقالة معناها رد الأديان وتكذيبها ، ورد أوامر الله وشرائعه

تكذيب الاديان

ثم إذا كان هذا صحيحا فلماذا كانت جماعة هذا الشيخ من أشد الناس اعتراضاً على الناس وإيذاء وسبا لهم وقدحا فيهم وفى عقائدهم لأسباب باطلة ؟ ولماذا لايحاولون أن يكونوا من ذوى النفوس المرضية الذين ينظرون بعين الحقيقة فيرون الأمر كله من الله وإليه ، ويرون الأفعال كلها أفعال الله فلا يعترضوا على أحد ولا يسبوا أحداً ؟ فمن أى جانب يمكن أن يصح هذا القول ، ومن أى وجه يؤخذ ؟؟

بلاء عظيم

وقال فى أول الرسالة فى صفة هيئة الذكر : « ثم تجرد من الشواغل الدنيوية وأنت جالس فى مكان مظلم طاهر معظم مطيب بالروائح الذكية . . . واضعاً يديك على فخذيك ـ مبعداً الروائح الكريهة ، لأن الروحانيين لايقبلون الروائح الكريهة . وبانقطاعهم عن مجالس الذكر ينقطع المدد ، مستأذنا أهلَ الطريق ورسولَ الله والحضرة الالهية فى دخول حضرة الذكر التى هى حضرة الله ، جاعلا خيال شيخك بين عينيك ليكون رفيقك فى السير إلى الله ، لا لكونه مقصودا لذاته حتى يكون منافيا للتجرد عما سوى الله ، أو يكون إشراكا فى العبادة ، خلافا لما يتوهمه بعض القاصرين ، فالمقصود هو الله وحده . واستحضار الشيخ إنما

هو لتحصل على مقصودك ، لأن الوصول عادة لا يكون إلا بدليل ، وإذا وجد الدليل لا يجد الشيطان له مدخلا معك حتى يحولك عن الطريق ، ولذا كان استحضار الشيخ من أهم الآداب . . . »

وثنية ظاهرة

وهذا كله وثنية ظاهرة لا ريب فيها ، فان المسلم الموحد لا يستأذن أحدا فى دخول حضرة الله ولا فى الاقبال على ذكره ونجواه ، كما لا يستأذن أحدا فى الصلاة والصيام وأنواع العبادات . . ومن استأذن أهل الطريق من الموتى ، أو استأذن رسول الله أو غيره من الرسل والصالحين عند صلاته أو صيامه أو ذكر ربه ومناجاته إياه ، فقد أساء وخرم توحيده وأصاب التجرد لله وأتى أمراً إمراً . ومن هم أهل الطريق الذين يستأذنهم من أراد ذكر الله ودخول حضرته ؟ إنهم أقوام موتى لا يسمعون ولا يعلمون من حال مستأذنهم شيئا : فالمستأذن لهم مستأذن مالا يسمع ولا يعلم . ولكن هذا الاستئذان مبنى على مذهب فاسد قائل وهو الاعتقاد بأن الأشياخ ، من أهل الطريق ، حاضرون ذاكرهم ومستأذنهم موجودون معه حيث كان ، بل وموجودون فى كل مكان وزمان ، ونعوذ بالله من هذا المذهب . ويدل على أن هذا هو المعنى قوله « لأن الروحانيين لا يقبلون

مدد أهل الطريق

الروائح الكريهة ، وبانقطاعهم عن مجالس الذكر ينقطع المدد » وهذا نص من هذا القائل بأن مجالس الذكر محضورة بالروحانيين ، والذى يبدو ، بدليل سابق الكلام ولاحقه ، أنه لا يعنى بالروحانيين الملائكة ، وإنما يعنى أهل الطريق الذين يستأذنهم فى دخول حضرة الله . وزعمه أنه بانقطاعهم عن مجالس الذكر ينقطع المدد زعم لا يلاقى الايمان والتوحيد أبداً ، لأن المدد من الله وحده لا من الروحانيين ، ومدد الله لا ينقطع عن عبده بانقطاع غيره عنه ، لأن المدد هنا يراد به المدد الروحى القلبى من التوفيق والتسديد والعناية الخفية ، والالهام الربانى المتدفق على الأرواح الصالحة المشرقة بشمس الايمان واليقين ، وهذا

كله من الله ، وهذا لا يقطعه انقطاع الروحانيين ولا انقطاع غيرهم عن مجالس الذكر. وهذا المدعو الهدى والتوفيق والله هو الهادى الموفق وغيره لا يهدى أبداً بهذا المعنى « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً » .

خيال الشيخ

ومن البلاء قوله « جاعلا خيال شيخك بين عينيك » إلى آخره ، فان هذا شىء لا يقبله التوحيد مطلقا ، بل شىء يشرق به الايمان بالله و يمثر به التجرد له . وما طلب رسول الله من المسلمين أن يجعلوا خياله بين أعينهم حين ذكر الله ، بل طلب إليهم أن ينسوا كل ما سواه حين ذاك ، وطلب إليهم أن تكون قلوبهم ملأى به و بذكره ، وأن يقولوا فى أذكارهم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والدلائل على هذا مفهومة للجميع .

نسيان المخلوق

وقد كان المشركون يترفعون عن هذا الانحطاط فى حضيض المخلوق حين شدتهم و بلواهم كما قال تعالى « و إذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » وما أبلغ وأروع وأصدق قوله « ضل » فان المراد به أن كل شىء سوى الله، من الاصنام والأوثان والمخلوقات كلها ، يذهب و يتلاشى عن قلوب المشركين وخواطرهم وأوهامهم وأخيلتهم وعن ألسنتهم فى تلك الساعة : فلا يذكرون غيره تعالى بقلوبهم ونفوسهم ، ولا يدعون سواه بألسنتهم وأقوالهم ، فلا يبقى فى قلوبهم ولا فى ألسنتهم غير الله : فلا خيال مخلوق ولا خيال شيخ ولا خيال صنم ولا خيال شىء من الأشياء غير الله . وهذا غاية التجرد والتوحيد . وأين هذا من هذا ؟ أين وضع خيال الشيخ فى القلب و فى العين حين مناجاة الله من الانقطاع إلى الله وحده ونسيان ما سواه ؟

محال باطل

وقوله « ليكون رفيقك فى السير » شىء لا معنى له، فان الشيخ إن كان قد مات فهو إما فى الجنة أو فى غيرها ، أو فى القبر ، فكيف يكون رفيق ذاكر الله الذاهب إليه ! و إن كان حيا لما يمت فهو ، حين ذكر المريد ، قد يكون مشغولا

بأحواله أو راحاته أو لذاته أو دنياه أو عبادته ، على أحسن تقدير ، فكيف يمكنه أن يكون رفيق الذاكر لله السائر إليه وهو لا يعلم من حاله شيئا ؟ هذا محال باطل . ثم كيف يحتاج الذاهب إلى الله المناجى له إلى من يسير معه و إلى دليل يدله ساعتئذ ؟ ؟ جل الله عن ذلك « ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع » « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم ترعمون » « ليس لهم من دونه ولى ولاشفيع » « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

الدلالة على الله

وقوله « لان الوصول عادة لا يكون إلا بدليل » يقال نعم ، ولكن الدالون على الله هم رسل الله وأنبياؤه ببيناتهم ورسالاتهم ووحيهم وكتبهم ، لا خيال الشيخ ولا استحضاره ولا نصبه بين العينين ، فان هذا لا يهدى إلى الله بل يضل عنه و يشغل عن ذكره وعن مناجاته وعن جلاله . فهذه كلها آداب تنافى الاخلاص لله والتجرد لعبادته .

قوة المشايخ

ومن أفظع ماجاء فى هذا الكتاب قوله « وقال أبو على الدقاق : الفقراء ملوك وكل مريد صحبهم بغير صدق قتلوه » فانه قد أعطى المخلوقين بهذا القول القدرة على الاماتة والقتل ، فهو لا يريد أنهم يقتلون بالسيوف ولا بالرماح ولا بالسم ولا بالآلات العادية التى يقتل بها كل الناس ، و إنما يريد أنهم يقتلون بأسرارهم وقدرهم المعنوية الروحية الفاعلة ، و بما وهبوا من قوة التصريف والسلطان الروحانى . ونحن نقول كما قال خليل الله إبراهيم لذاك الذى حاجه فى ربه « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي و يميت ، قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » .

هذا بعض مافى هذه الرسالة رسالة « العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن

طريق » من الاقوال المتجافية عن سبيل الله وعن العقل الصحيح . ولا شك أن القارئ سوف يأسف ويغضب معا ، وسوف يشتد غضبه وأسفه حينما يعلم أن هذا الشيخ الذى عرف بالسنة وبالدعوة إليها ، وبمجافاة البدع والحملة عليها كل حياته يدركه الحظ العاثر ، ويدركه عجز الانسان المطبوع ، ويدركه انحطاط المدارك الاسلامية فى العصور المتأخرة ، حتى يسجل على نفسه ما فى هذا الكتاب من آراء وعقائد لا يمكن أن تجتمع هى ودين الله وكتابه فى قلب ، ولا يمكن أن يرضاها امرؤ عرف الاسلام .

عجز الانسان

نحن نعلم أن كثيرا من هذه الأقوال والأخطاء قد سبق الشيخ محمود خطاب إليها غيره ممن لم يقدر لهم أن يهدوا إلى حقيقة الايمان وحقيقة دين الله ، ولكننا نعلم أن سبق المخطئ الأول إلى الخطأ لا يجعل ضرب الآخر على عقبه وانتهاجه منهاجه محمودا مشكورا ولا معفوا عنه مغفوراً ، بل إن الخطأ قبيح ولكن أقبحه التقليد فيه ، كما نعلم أن أكثر هذه الأقاويل والأخطاء إنما هى بضاعات نصرانية وثنية وغلت فى دين الاسلام وتسللت بين المسلمين ، ورزىء بها الاسلام وأهله بطريق الدس والخداع تارة ، وبطريق الجهل والبلادة تارة أخرى.

بضاعات أجنبية

فإن هذه الأديان قائمة على المغالاة فى المخلوق إلى حد عبادته ، فهى التى تتقبل هذه العبودية الموصوفة فى رسالة العهد الوثيق ، وهى التى تسعها مبادئها الوثنية وأصولها الباطلة المعبدة غير المعبود بحق ... أما الاسلام فإنه ينكر ذلك كله أشد الانكار ، ويلفظه لفظ المقلى المزدرى بلا هوادة ولا رفق . وما يوجد دين من الأديان يأبى عبادة المخلوق ، صورها وحقيقتها ، وينكر الاسراف فى تقديس الانسان ، مهما يكن ، ويحض على الانقطاع إلى الله مثل دين الاسلام . ولقد بالغ الاسلام وكتابه فى التزهيد فى المخلوق والصرف عن غير الله حتى حكم على كل شىء ، ماخلا الله ، بالفناء المطلق وبالهلاك العام. فقال « كل من عليها فان » ،

« كل شئ هالك إلا وجهه » وقد جعل كل ماسوى الله باطلا وجعلت هذه الكلمة

ماخلا الله باطل

أصدق كلمة قالها شاعر . فصح عن النبى الكريم أنه قال أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وكل نعيم ، لا محالة ، زائل

وقد أنشد لبيد قوله هذا كفارَ مكة فى المسجد الحرام وكان فيهم أحد أصحاب النبى فقال له فى الشطرة الأولى : صدقت وفى الثانية كذبت ، فان نعيم الجنة لا يزول . هذا قول لبيد المشرك ، وهذا ماينشده العربَ المشركين فيتقبـ... . وكم لهم من أمثال ذلك . فانظر كيف تشرق أنوار الحقيقة بين حنادس الباطل والشرك الحالكة المدلهمة . ومن أبلغ ذلك قول النابغة الذبيانى .

ماوراء الله مذهب

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

وهذه الكلمات الصادقة وأمثالها إنما تصدر من معدن الفطرة الأولى. الصحيحة الربانية المتيدة التى يعجز الباطل الطريف أحيانا عن النفوذ إليها والاختلاط بها ، والتى لا يكون الباطل ، إن وصل إليها ، إلا فقاقيع طافحة كالفقاقيع التى تطفو على سطح المحيط ، ثم لا تلبث أن تتمزق وتتلاشى وتفنى .

فرق عظيم

وكم بين أقوال هؤلاء الشعراء الجاهليين و بين أقوال هذا الشيخ التقى الورع من الفرق والبون الشاسع ! وكم بين أشعارهم هذه و بين مقالاته فى كتابه هذا من البعد فى وصف الحقيقة وعرفان الحق : فهم يقولون : إن كل شئ ماخلا الله باطل لا يعبأ به ، و يقولون إنه ليس وراء الله للانسان مذهب . وكم فى هذه الأقاويل من معانى التوحيد ومن عرفان الله . أما الشيخ فيقول : يجب على المسلم ليكون مسلما حقا أن يكون بين يدى الانسان الباطل الفانى مثل الميت بين يدى الغاسل يصرفه و يقلبه كما يشاء ، لا يرتفع منه عضو ولا يقع إلا بإذنه وأمره . و يقول : على المسلم ليكون مسلما حقا أن يدخل على شيخه وكأنه داخل على سلطان.

جائر يخشى سطوته و بأسه . و يقول : من قال للشيخ ، وهو الباطل الفانى « لم »
لم يفلح أبدا . ويقول : على المسلم ليكون حقا مسلما أن يسلم للشيخ ، والشيخ
إنسان باطل فان ، ظاهرا وباطنا بحيث لا يعترض عليه لا بقلبه ولا بلسانه
إلا فلن يفلح . ويقول : على المسلم ليكون مسلماً حقا ألا يجلس بحضرة شيخه ،
وهو الانسان الفانى ، إلا كجلوسه للصلاة . و يقول : على المسلم ليكون مسلما حقا
ألا يعمل عملا : فلا يتزوج ولا يسافر ولا يصلى ولا يصوم ولا يعبد الله إلا باذن
الشيخ ، ويقول عليه أيضا أن يقبل من الشيخ كل شئ يفعله به لا اعتراض
ولا ممانعة لا ظاهراً ولا باطنا ، وعليه أن يتقبل كل إهاناته والتحكم فيه وطغيانه
بالشكر والرضا والحمد الجزيل . ويقول كل ما نقلناه عن هذا الكتاب من
العبادة الوضيعة لأنها عبادة لغير الله وكل عبادة لم تكن لله وحده هى عبادة
وضيعة بلا ريب : فكم بين أقوال هذا الشيخ التقى الورع و بين أقوال أولئك
الشعراء الجاهليين من بون وفرق .

مات الشيخ

لقد مات الشيخ مؤلف هذا الكتاب والتى ربه بخيره وشره بما العوما
عليه ، وخلى الدنيا بحسناتها وسيئاتها ومفاتنها ومناعها ، وأصبح لا يد له برفع
هذا الكتاب من قائمة أعماله ولا رفع شئ مما فيه ، كما أصبح غير مستطيع أن
ينكر منه شيئا و إن أحب أن ينكر ولا أن يمحو من صفحاته قولا قد كتبه و إن
أحب أن يمحو : أجل لقد أصبح الشيخ فى قبضة العدم وفى ذمة التاريخ الحفيظ.
لهذا لم يكن الرد عليه ذاته ممكنا ولا مطلوبا لولا أننا وجدنا أنصاره ومريديه

بيع الكتاب

يبيعون هذا الكتاب إلى اليوم على علم ومرأى ومسمع من خليفته الشيخ أمين
خطاب ، وعلى علم ومرأى ومسمع من علماء مريديه بلا نكير ولا اعتراض .
وقد وقعت بأيدينا من الكتاب جملة نسخ بطريق الشراء من مكتبتهم ، وهم
الآن يبذلونه بيعا لمن يريدونه من جماعتهم ومن غيرهم . وقد طبعوا الكتاب

طبعتين ، فطبعوه الطبعة الثانية قبل أن تنفد الطبعة الأولى ، والنسخ موجودة في المكتبة من الطبعتين . وقد اشترى بعض أصحابنا نسخا من الطبعتين وأحضرها لدى بقصد الاشارة إلى ما فيها من الأخطاء . بل لقد كلمنا بعض الجماعة في ذلك فوجدناهم راضين عن هذه الرسالة وعن جميع سيئاتها ، وما عددنا عليها ، وألفيناهم يدافعون عن كل ذلك بحماسة وصلابة بلا استثناء . وما وجدنا من أحد منهم انكاراً لشيء مما ذكرناه وأنكرناه ، بل لقد نوهوا بهذا « العهد الوثيق » وأعلنوا عنه في آخر كتاب ألفوه وطبعوه ، وهو الكتاب الذى عرف وطبع الجزء الأول منه بعد وفاة الشيخ ، صفح الله عنه . وهذا الكتاب هو كتاب « الدين الخالص » ، وقد طالعت بعض أجزائه فوجدت الحق فيه منقولا نقلا من كتب الشوكاني . . . وهذا دليل على أن القوم راضون بالكتاب وبما فيه . على أنهم لو كانوا ينكرونه أو ينكرون شيئاً منه لوجب عليهم أن يطبعوا إنكارهم وينشروه كما طبعوا هذا المنكر ونشروه . والسكوت على الخطأ ليس مما يعذر عليه ، وليس مما يهون أمره عند الله وعند المتقين . فاذا زعم لنا زاعم أن القوم ينكرون هذه الأمور التى عددناها قلنا هذا غير صحيح والا لما باعوا الكتاب ونشروه ولما قرظوه وأعلنوا عنه في أحدث كتبهم ولما وسعهم السكوت عليه . فهم يبيعونه ويقرظونه ولا ينكرونه . وهذه أمور ثلاثة يدل كل واحد منها على رضاهم بهذه الأغلوطات . فالواجب على الجماعة ، إذا كانوا من أهل السنة حقا ، ألا يبيعوا من الكتاب بعد اليوم نسخة واحدة ، بل عليهم أن يهبوه لألسنة النيران ؛ والواجب عليهم أيضا أن ينكروا ماعلق في الأذهان منه وأن يتبرؤا من هذه الباطلات ، وأن يعلنوا براءتهم ليعلم ذلك من بقى في فى رأسه أو داره منها شيء ، أما إذا لم يفعلوا فلا شك أنهم مصرون على الكتاب ، راضون عنه ، قائلون بما فيه ، عاملون به . ولو قدر أنهم ينكرون الكتاب ثم

رضاهم بالكتاب

يبيعونه لكان هذا من أ كبر الآثام والخطايا .

من اليسير

ومن السهل عليهم أن يعترفوا بأن شيخهم لم يعرف الحق جملة واحدة ، ولم يجد الحقيقة منذ خلق . ومن غير العسير عليهم أن يحدثونا بأن الشيخ راجع عن هذا الكتاب ، راجع عما فيه ، لأ نه قد ألفه فى أول حياته العلمية ، قبل أن تهبط عليه الحقيقة ، وقبل أن يخصه الله بمعرفة السنة ، و إحيائها وتجديدها . وليس من العار فى شيء أن يكون المرء تائها عن الحق فى أول حياته ، ولكن العار والسبة والبلاء فى أن يصر المرء على الباطل فى كل حياته ، ثم يلقى ربه مصرا على باطله ، ثم يورث هذا الباطل قوما يمسكون به و يعضون عليه بالنواجذ ، و يورثونه هم أولادهم وأحفادهم والآتين بعدهم ، وهكذا دواليك : هذا هو العار والسبة والبلاء ، وهذا مالا يرضاه المسلم الناصح لنفسه .

الأمل فى الشيخ أمين

وقد ترامت إلينا الأنباء بأن خليفة المؤلف وابنه الشيخ أميناً منير الذهن مستقيم التفكير ، هيوم بالحق ، محب للسنة ، لا يرضى الاصرار على الباطل ، و إن خلفه الأ كابر الأوائل ، ولا رد الحق و إن كان قبوله مرا شاقا ، كما ترامى إلينا من أنبائه أنه بصير بالسنة و بالاسلام : هذا ماترامى إلينا من أخبار الشيخ أمين خليفة مؤلف هذه الرسالة و رئيس الجماعة اليوم . ونحن نرجو أن يكون هذا كله صحيحا ، ونرجو أن يكون لدى الشيخ من الخير والفضل أ كثر من ذلك ولكننا نرجو أن يكون صارما قويا فى توجيه الجماعة وتهذيبها وتطهيرها من أشياء يعلمها الخليفة عنهم حق العلم وتؤلمه كثيرا ، و يود ألا يراها لا فى جماعته ولا فى غيرهم . ومن أول ما يجب عليه مصادرة هذه الرسالة وجمع نسخها لإبادتها وتحريقها فإن الله و رسوله أحب إلى المؤمن من والده وشيخه ومن الناس أجمعين. ونحن نعلم كما يعلم غيرنا وكما يعلم الشيخ نفسه أن لهؤلاء الجماعة، على دعواهم الاستمساك بالسنة ، وعلى تمسكهم الشديد ببعض مظاهرها ، هنات كثيرة يتمسكون

عنات الجماعة

بها أشد الاستمساك ، و يبالغون فيها مبالغة لا يرضاها الدين ولا العقل ولا الذوق ، وقد وجدناهم يتحامون الصلاة فى المساجد العامة حتى صلاة الجمعة ولو اقتضى ذلك الفرد منهم أن يدع صلاة الجمعة ، ووجدنا الكثيرين منهم لا يلقون السلام على المسلم ، من يعرفون ومن لا يعرفون : حتى على أقاربهم ، ممن لا يوافقونهم على زيهم ، بل وجدنا أناسا منهم لا يردون السلام على من سلم عليهم ممن لم يتزيوا بزيهم . وقد بلغنا أن جماعات منهم ذهبوا إلى الحجاز ، شرفه الله ، فكانوا لا يصلون فى المسجد الحرام مع جماعات المسلمين ، وكانوا يصلون وحدهم لأسباب سخيفة كالاختلاف فى الزى . وقد خاطبت أحدهم ، ولكنه من العامة ، وأكثر القوم عوام ، فى هذه المسألة فأسمعنى مايصدق هذا عنهم . و إذا صح عنهم هذا ، والغالب أنه صحيح ، فالويل لهم . والقوم يبالغون فى شأن العذبة مبالغة شديدة وقد أخرجتها هذه المبالغة عن أن تكون سنة لو كانت سنة ، و يوجد بين أيديهم كتاب مطبوع من كتب شيخهم فيه عبارة عن هذه العذبة فظيعة . وقد كلمنا فريقا منهم فى هذه العبارة فوجدناهم يدافعون عنها إلا أن بعضهم يلجأ إلى تأويلها تأويلا بعيداً يأباه الظاهر ، ولا ندرى ما الذى اضطرهم إلى القول بهذه الأقوال التى يعترفون بأنها مؤولة ، و بأن ظاهرها باطل ، والمسلم والعاقل لا يقولان أقوالا تضطرهما إلى التأويل والتمحل المحال .

عداوتهم للناس

ومن البلاء المعروف عنهم أنهم يبالغون فى حمل العداوة والشنآن لمن خالفهم فى مسائلهم الصورية ، و يرون أن المؤمن القوى الايمان ، الصادق العقيدة ، الناصر للسنة ، هو الشديد فى عداء الناس المتلقى لهم بالجفاء والغلظة والفظاظة والمعاملة العنيفة القاسية . ولذلك فان الرجل منهم يكون وديعا سليم القلب واللسان عف المحضر والمغيب ، موطأ الاكناف ، سهل الخلائق ، فيقدر له أن ينضم إليهم ، وأن يصبح فرداً منهم فيصير حينئذ شيئا آخر ، وتتبدل خلائقه ، وتصير

إلى الفظاظة والشراسة والجفاء . فكأنهم يرون الدين ، وقد سبوه بذلك ، يقتضيهم أن ينثروا العداوة فى الأرض بين الناس ، وأن يصير الأخ حربا لأخيه وأبيه وذويه وأهليه وإلا لم يكن مسلما ولاسنيا . وهذا جهل بالدين وبالسنة ، فان أديان الله جميعا إنما جاءت لإلقاء السلام العام بين جميع الناس وكل الشعوب ، ومن أبلغ وأعظم دعوة دين الله للسلام العام قول الله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » وقوله « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » وقوله « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » وقوله « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » وقال فى الأبوين الكافرين الداعيين إلى الكفر بالله يوصى بهما ابنهما « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى السلام العام ، وإلى الآداب العامة الفاضلة ، وإلى البر بجميع الخلق . ولهذا الغرض سمى الدين المحمدى « بالاسلام » . وقد كان النبى عليه السلام أودع الناس وأسلمهم وأطيبهم خلقا ومعاملة للصديق والعدو والمسلم وغير المسلم ، حتى لقد كان يعود غلمان اليهود الكافرين به وبربه ودينه وكتابه إذا مامرضوا ، وكان يتلقى شر الناس خلقا وطبعا ودينا بالبشاشة واللين والرفق ، ويقول : « إن الرفق لا يدخل شيئا إلا زانه ، وإن العنف لا يدخل شيئا إلا شانه » ويقول « شر الناس من تركه الناس اتقاء شره » وقد حدث الله عن هذه الضرائب المحمدية الفذة فى كتابه فقال « وإنك لعلى خلق عظيم » وقال « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » وقد كان اليهود ، وهم شر الناس فى كل عصر ، يأتونه عليه السلام ويقولون : السام عليك يا محمد — والسام هو الموت — فلا يزيد على أن يقول « وعليكم » وقد أنكر عليه السلام على عائشة

السلام فى الاسلام

من الأدب المحمدى

إذ سبت اليهودى الذى قال للنبى عليه السلام ذلك . وبماذا تظن أن يلاقى جماعة هذا الشيخ إنسانا تلقى شيخهم بالاعتراض والنقد الهيّن فضلا عن سبه والدعاء عليه بالموت ؟ وقد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء فى خدرها كما جاء فى وصفه الصحيح . ومن كان أشد حياء من العذراء العربية لا يمكن أن يقابل أحدا من الموافقين والمخالفين إلا بأفضل الأخلاق وأسهل الطباع .

فرسول الله ، وكذا سائر رسله ، لم يكن فظا ولا فاحشا ولا بذيئا ، بل كانت معاملته كلها للناس كلهم ، حتى المشركين منهم ، وحتى اليهود ، أخبث الأمم ، المثل الأعلى الكامل فى الرفق واللين والحياء والأدب والتسامح . فعلى هؤلاء إذا كانوا من أهل السنة ، أن يقتبسوا من هذه الاخلاق المحمدية المرضية، وعليهم أن يدعوا الفظاظة والشراسة والجفوة التى نراها متحكمة طاغية على أخلاق الكثير من منهم، حتى لقد فرقوا بين الاخوة و بين الأبناء والآباء ، لا لشىء إلا شئ لا وزن له فى معيار الدين والصلاح ، حتى لقد بعثوها على الجيران عداوة نكراء لا يرضاها امرؤ عرف الله وأنبياءه وماجاءوا به من الآداب والسلام والرفق حتى لقد عرف « السنّى » : وهذا لقبهم بين الجمهور ، قرين الشدة والعنف وحدة الطبع ، وهذا من أعظم ما ينكر عليهم بل هذا من أعظم ما يرغب الناس ويصرفهم عما معهم من السنة والدين . ونعوذ بالله من أن نكون فتنة لأحد .

هذه كلمات وضعناها عرَضاً فى هذا الكتاب، حملنا عليها الرغبة فى إصلاح هؤلاء الناس ، وإصلاح خلائقهم وطباعهم وعقائدهم مما لا يرضاه الله ولا دينه ، وأملنا فى رئيس الجماعة الشيخ أمين خطاب عظيم . والهالك من هلك بالحق . ومع هذا الذى ذكرناه لا ننكر أن فى كثير من هؤلاء الجماعة خيرا ودينا . .

الرجوع إلى بحث الشفاعة

وبعد هذا نرجع إلى أصل بحثنا وهو بحث الشفاعة وطلبها من الأموات وإيراد الدلائل على امتناع ذلك . فنقول : إن اعتقاد المستشفعين بالموتى أنهم يعلمون

الغيب ، ولزوم هذا الاعتقاد لطلب الشفاعة منهم هو البرهان الأول على أن الاستشفاع بهم لايجوز ولايقره الاسلام ولا أهله .

البرهان الثانى

ثانيا : ، أى ثانى الدلائل على بطلان الاستشفاع بالموتى ، أنهم قد أفضوا إلى عالم آخر مجهول الكنه والحقيقة ، متقطع الأسباب والصلات ، بعيد المكان والمكانة عن عالمنا هذا : فهم غرباء بعداء عنا ، مجهولو المكانة والمكان ، ليس بيننا و بينهم من الصلات والاسباب إلا الايمان بالغيب و بما ذكره الله فى وحيه ورسالاته على ألسنة رسله وأنبيائه . فهم لن يسمعوا دعاء من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم ، بل لن يعلموا من حاله شيئاً : لا رغبته فيهم ولا انقطاعه إليهم ، ولا استشفاعه بهم ، لبعد مابينه وما بينهم ، ثم لو علموا من ذلك شيئاً لما فعلوا شيئاً .

استحالة سماع الأموات

و بيان ذلك أنه لاخلاف بين المؤمنين بالجزاء والثواب والعقاب والحساب ، المؤمنين باستقلال الأرواح وانفصالها عن الأشباح ، المؤمنين بعذاب القبر ونعيمه : لاخلاف بين هؤلاء جميعاً فى أن أرواح الموتى إما فى عالم النعيم والراحة والسعادة ، كالجنة وماحولها ، إن كانت أرواحاً صالحة مؤمنة طيبة ، و إما فى عالم الشقاء والعذاب والهوان ، كالجحيم وماحوله ، إن كانت أرواحاً كافرة فاسقة خبيثة : فأرواح الموتى إما فى أعلى عليين وهى أرواح المؤمنين الطيبين ، و إما فى أسفل سافلين ، وهذه هى أرواح الكافرين والأشقياء الظالمين : فلاشك أن عالمى النعيم والجحيم منفصلان عن عالمنا هذا مباينان له . و إذا كان هذا كله صحيحاً ، وهو صحيح بلا ريب ، فكيف يمكن لهؤلاء أن يسمعوا دعوة من دعاهم واستشفاع من استشفع بهم من أهل هذه الدنيا وسكانها وسكان عالم الأرض ؟ بل كيف يمكن أن يعلموا من أحواله وشؤونه شيئاً إلا شيئاً نص عليه الشرع لحكمة أرادها الله ؟ فكيف لايكون من أجهل الخلق وأغباهم وأضلهم من أمّل هؤلاء فانقطع إليهم

ورجا أن يسمعوه وأن ينفعوه ؟ وهم لو كانوا أحياء كاملى الحواس فى هـذه الدنيا فدعاهم داع من مكان قصى بعيد ، كأن يكون هو فى قطر وهم فى آخر ، من غير أن تـكون هنالك آلات تنقل الأصوات وتلاشى الأبعاد والمسافات ، لـكان ذلك الداعى إما جاهلا ضالا معتقدا فيهم علم الغيب والاحاطة التامة بالغائبات ، وإما مجنوناً يهذى . ولن يدعو عاقل بدعوة حقيقية ، إنساناً بعيداً عنه غائباً : هذا وهم أحياء بعيدون غائبون فـكيف بهم وهم أموات قصيون غائبون نازلون فى أقصى منزل وأمنع دار ؟ لاشك أنهم إذن لن يسمعوا أصوات هؤلاء المستشفعين بهـم المخدوعين الضالين ، وان يعلموا من أحوالهم شـيئاً ، بل لاشك أنهم عنهـم فى عزلة تامة وغفلة تامة . ولو أن قوماً توجهوا إلى سكان السموات وإلى سكان القمر والمريخ والافلاك العلوية ، إن كان فيها سكان ، يدعونهم ويستشفعون بهـم ، ظانين أنهم يسمعون ويشفعون ، لـكانوا مثل هؤلاء المستشفعين بالأموات ، إن لم يكن هؤلاء شراً منهـم مكانا وأبلد أذهانا . ولا ريب أن من طلب الشفاعـة والدعاء من حى سوى يسكن المريخ أو القمر أو السموات العلى ضال جاهل بعيد عن حدود الدين وحدود المعقولات ، ولا ريب أن من طلب ذلك من الاموات سكان الجنة أو النار ، ليس أقل غباء وجهلا وضلالا من ذلك الذى يستشفع بأهل السماء وأهل الأجرام العلوية . وقد جبلت النفوس كلها على معرفة هـذه الحقيقة الواضحة ، وهى أن دعاء البعيد القصى الغائب جهالة وغباوة وضلالة . ولهـذا فاننا لانجد الناس ، مهما كرعوا فى مناهل الجهل وارتووا منها ، يحاولون سؤال الأبعدين الغائبين عنهم شفاعة ولا غيرها ، ولا يحاولون خطابهم والاتصال بهم ، وإن أسرفوا فى إعظامهم وإعظام شأنهم ، وإن زعموا لهم من الـكرامات المفتريات والسلطان الالهى الذى لا يبارى ولا يجارى . وإنما يقعون فى دعاء الاموات والاستشفاع بهم ، مهما بعـدوا وغابوا ، ومهما بعدت عنهم أضرحتهـم وقبورهم . وهـذا

دعاء أهل السماء

الغائب لا يدعى

راجع ، والله أعلم ، إلى أنهم يرون الموتى موجودين فى كل مكان ، حاضرين مع كل شخص ، داع لهم ، أو أنهم يعلمون جميع المغيبات ، ولهذا يدعونهم من كل مكان بكل لسان ولا يدعونهم أحياء إلا حاضرين قريبين إلا فى النادر الشاذ .

الآيات فى أن الأموات لايسمعون

وقد أنبأ كتاب الله فى غيرما آية بانقطاع صلات الأموات بالأحياء وبأن الأموات لايعلمون ولايسمعون دعوة من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم ولا انقطاع من انقطع إليهم . وقد نعى الله على المشركين والجاهلين تعلقهم بالموتى ورجاءهم نفعهم وضرهم ، واستشفاعهم بهم ، وقد نوّع هذا النعى وهذا التجهيل وتلك الزراية بهم . وهذا كله واضح فى آى الكتاب ، قال تعالى : « والله يعلم ماتسرون وماتعلنون ، والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ، ومايشعرون أيان يبعثون » وقال : « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ، إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا مااستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ». والآية نص ظاهر فى أن من كان المشركون يدعونهم لايسمعون دعوتهم، والمشركون كانوا يدعون الانبياء والصالحين من الأموات ، ويدعون الملائكة والجان ، والآية نص جلى فى أن هؤلاء المدعويين جميعا لايسمعون دعاء من دعاهم ولا استشفاع من استشفع بهم. وقال من سورة الأحقاف : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » . وهذه الآية ، ولا شك ، نعى على قوم كانوا يدعون عباداً لله مقربين لديه قد رحلوا عن هذا العالم رحلتهم الطويلة ، واجتازوا حدوده كلها : فهم غافلون عن الدنيا وأهل الدنيا ، غافلون عن دعوهم وتعلقوا بهم ورجوا شفاعتهم أو وساطتهم : غافلون عن كل ذلك مشغولون عنه بعالمهم الذى هم فيه . ولهذا فانهم يوم القيامة ، يوم الثواب والعقاب والحساب ، يوم التغابن ، يكفرون

بعبادة ، عابديهم ويتنكرون لهم وينكرونهم وينكرون عبادتهم إياهم ويتبرؤن أيضاً منهم ، لأنهم عباد الله المخلصون ، لايرضون إلا ما يرضى ولا يريدون إلا مايريد ولايحبون إلا مايحب . . . فالآية برهان على أن الأموات لايسمعون دعاء الداعين لهم ، وعلى أنهم غافلون عن كل ما هنالك

وقال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين : ألهم أرجل يمشون بها ،أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ؟؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون،فلا تنظرون» . فالذين كان المشركون يدعونهم من دون الله عباد بشر مثل دعاتهم المشركين ، لا يستجيبون لمن طلب منهم الشفاعة ولا غير الشفاعة، لأنهم غير قادرين ، لأنهم فقدوا آلات القدرة والعمل : فلا أيد يبطشون بها ، ولاأرجل يمشون بها ، ولا أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها من دعاهم وعاذ بهم وسألهم الشفاعة من أهل الدنيا وسكان عالم الأرض . وإذا كانوا لا يسمعون دعاتهم ولايرونهم ، كما لا يعملون بأيديهم ولا يمشون بأرجلهم،فكيف يمكن أن تطلب منهم الشفاعة ؟ وكيف يستشفع بهم العاقل البصير ؟ ؟ فالآية برهان قاطع على أن الأموات لا يسمعون الاستشفاع بهم ولا الدعاء لهم ، وعلى أنهم لايصنعون لأهل الدنيا شيئاً

وقال تعالى :« إنك لا تسمع الموتى » وقال : « وما أنت بمسمع من فى القبور » . وهاتان الآيتان ، على مايقال فيهما من التأويل والتفسير، برهانان بينان على أن الأموات وأصحاب القبور لايستطيعون أن يسمعوا دعاء من دعاهم ولااستشفاع المستشفع بهم من أهل الدنيا : فمهما يدعهم الداعى ، ويستشفع بهم المستشفع فهم عن دعائه واستشفاعه وحاله فى صمم وغفلة وعزلة « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟»

والآيات الدالات على أن الموتى لا يسمعون ولا يعلمون دعاء أهل الدنيا وانقطاعهم إليهم كثيرة معلومة ، وسوف يأتى ، إن شاء الله ، لهذا الذى ذكرناه مزيد . وإذا كانوا لا يسمعون هتاف المستشفعين ولا ضراعاتهم فكيف يجوز الاستشفاع بهم، وكيف لا يكون طالب الشفاعة منهم أغبى الأغبياء وأجهل الجهلاء .

البرهان الثالث

ثالثا : قد ذكر الله فى جملة القرآن إنكار شفاعات المشركين ، ونعى عليهم أنواع استشفاعاتهم : فنفى شفاعاتهم جملة ، ونعى عليهم استشفاعهم أيضاً جملة ، وأخبر أن من جملة ضلال القوم وفساد عقولهم وعقائدهم ، ومن جملة شركهم بالله واستحقاقهم النقمة والمقت ، اتخاذهم الشفعاء إليه وطلبهم الشفاعة من معبوديهم وتأميلهم أن يشفعوا لهم وأن ينفعوهم ، وأن يقربوهم إلى مولاهم الحق بشفاعتهم ووساطتهم ، ثم دعاهم جميعاً إلى أن يدعوا ذلك كله وإلا فالويل لهم . هذا كله جاء به القرآن وبينه فى الآيات الكثيرة الظاهرة ، قال تعالى : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً، له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون . وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون»

الآيات فى إنكار الشفاعة

ففى هذه الآية البليغة أنكر الله على الذين اتخذوا إليه تعالى شفعاء ، وردعليهم هذه الشفاعة وهؤلاء الشفعاء ردوداً مختلفة بالغة : فهم أولا لا يملكون شيئاً لا الشفاعة ولاغيرها من ملك الله أو فى ملكه ، وهم ثانيا لا يعقلون ولا يعلمون لأنهم قد ماتوا وأفضوا إلى عالم الخلود والنعيم المنفصل عن عالم الدنيا وعالم المستشفعين ، وهم ثالثا لا يملكون من أمر الشفاعة شيئاً لأنها لله جميعاً، يقسمها على وفق حكمته وإرادته وعلمه ورحمته . وهم رابعاً لا يمتلكون فى هذا العالم شيئاً لا نقيراً ولا قطميراً ولا مادون ذلك ، لأن لله وحده ملك السموات والأرضين ومالك كل شىء ، وهم خامساً لا ينفعون ولا يضرون ، ولا يقدمون ولا يؤخرون ،

لأن مرجع ذلك ومصيره إليه تعالى وحده . وقد ختم هذه الردود القوية البالغة المتنوعة بالإنباء عما جبلت عليه النفوس المشركة المعددة من انكار التوحيد والافراد والاشمئزاز من ذلك والنفور عنه ، ومن الرضا والولوع بالشرك والتعديد في الأرباب والمعبودات ، فقال في الآية : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » : فإذا قيل لهم : الله وحده كافٍ عبده وكافٍ جميع عباده ، فلا يرجع إلا إليه ، ولا يرغب إلا فيه ، ولا يؤمل سواه ، ولا يدعى إلا هو : الله وحده وكفى « أليس الله بكافٍ عبده » : إذا قيل لهم هذا أنكروا وأجفلوا وورمت أنوفهم ، واشمأزت نفوسهم ، لأنهم قد طبعوا على حب غيره تعالى ، وعلى العبودية للمخلوق العاجز وعلى الرغبة فيه . أما إذا ذكر لهم أولئك الذين أشربت قلوبهم ونفوسهم حبهم ورجاءهم وخوفهم وتأميلهم من المخلوقين العاجزين الضعفاء ، فقيل في تقريظهم وامتداحهم : « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » ، تلك الأنبياء والأولياء ، إن لهم الشفاعات والمعجزات والكرامات والوسائل الضارة النافعة المقدمة المؤخرة ، وإن لهم ما يشاؤن من الشفاعات والكرامات والمعجزات التي ادخروها لمن دعوهم ولاذوا بهم ووقفوا بأبوابهم وأعتابهم ورجعوا إليهم : أما إذا قيل لهم ذلك فإنهم يفرحون ويطربون ويستخفهم الفرح والطرب حتى يطيروا بأجنحة السرور والحبور في جواء الخيال وسموات الغبطة والرضا . . . وهذا إنباء عظيم عن جميع النفوس الدائنة لغير الله ربها ، الخاضعة للمخلوق والعبيد الأرقاء الأذلاء ، فإن هذا هو ديدنها ودأبها في كل عصر ومصر : لا تختلف ولا تتغير . والله المستعان . والآية من أبلغ الردود على متخذي الشفعاء كما هو ظاهر من ألفاظها ومراميها

وقال تعالى : « الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة

أيام ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولا شفيع ، أفلا تتذكرون »
وقال : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولاشفيع ، لعلهم يتقون » وفى هاتين الآيتين الكريمتين نفى الله الاولياء والشفعاء نفيا عاماً باتا لا استثناء فيه ولا تخصيص ، وحدث فيهما تحديثا واضحاً لاخفاء فيه ولا لبس بأنه ليس لهم من دون الله ربهم ولى ينفعهم أو يضرهم أو يقدم لهم خيرا ، ولاشفيع يشفع لهم فيدفع عنهم بشفاعته ضرا أو مكروها أو بلاء . فليس بينهم و بينه تعالى سوى عدله و رحمته وقضائه المحتوم . . . فأعمالهم هى شفعاؤهم ، ثم على عدله و رحمته يكون الجزاء والثواب ، ولا يحسب حاسب أن قوله : « مالكم من دونه من ولى ولا شفيع » وقوله « ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع » يدل على انكار ذلك إذا كان من دون الله ، أما إذا كان إليه ولديه فلا انكار ولا نكران:

سؤال وجوابه

لا يحسب هذا الخاطر حاسب ، وذلك أن كلمة « من دونه » أو « من دون الله » يراد بها غيره تعالى . وهذا أسلوب للقرآن معروف كقوله « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك » وقوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » ، وقوله : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا » وقوله : « ذلك بأن الله هو الحق و أن ما يدعون من دونه الباطل » وقوله : « و إذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون » وقوله : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » ، وقوله تعالى : « و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » إلى غير ذلك من الآيات المعلومة الكثيرة . فان المراد هنا ب « دونه » و « دون الله » غيره وغير الله بلا ريب ، فقوله : « مالكم من دونه من ولى ولا شفيع » معناه مالكم غيره تعالى ولى وشفيع . وقد علم عن

المشركين أنهم كانوا يتخذون الشفعاء ليشفعوا لهم عنـد الله كما قال تعـالى : «ويعبدون من دون الله» الآية المتقدمة وكما ذكر فى آية التقريب إليه تعالى زلفى

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والـكافرون هم الظالمون » وقال : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عـدل ولا تنفعها شـفاعة ولا هم ينصرون » . وفى هاتين الآيتين أيضاً نفى الله تعالى الشفاعة نفيا عاماً تاما . ونفى أن تنفع نفسا من النفوس شفاعة من الشفاعات فى ذلك اليوم الذى هو يوم القيامة ويوم الفصل ، يوم الدين ، يوم الثواب والعقاب بعد الحساب والبلاء ، كما نفى الخلة أيضا ، وهى الصداقة والمحبة ، وفى سورة إبراهيم « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » و « خلال » جمع خلة وهى الصداقة والولاية كما ذكرنا .

لا يجدى عند الله سوى الأعمال

والمراد أنه لا تنفع فى ذلك اليوم شفاعات ولا صداقات ولا مخالات ولا شئ من هـذا النوع المعهود نفعه عنـد أهل الدنيا الظالمين وعند حكامهم وقضاتهـم وحكوماتهـم . بل يذهب كل شئ من هـذا ويتلاشى ويتطاير أمام حكم أحكم الحاكمين ، وعدل أعـدل العادلين ، وعلم أعلم العالمين . . . فلا ينفع أو يبقى ثم إلا الأعمـال الصالحة والطاعات البارة . أما ماسوى ذلك من أنواع الرجاءات والوساطات فلا يجدى لدى القاضى العادل والحـكم المنصف ، بل لا يمكن التقدم إليه بشئ منـه وإلا كان قدحاً وطعناً فى حكمه وعدله وقضائه . أما الشفاعـة الصحيحة الثابتة فلا يعترض بها على هـذا الذى ذكرناه لما سوف نذكره من الجواب والبيان من بعد .

وهذه الآيات تشبه قوله تعالى فى سـورة « المؤمنون » « فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون »

وقال تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » فأبطل تعالى فى هاتين الآيتين زعم المشركين أن لهم شفعاء يشفعون لهم ، وأنهم إذ يستشفعون بهم ينفعونهم بشفاعاتهم ووساطاتهم وقربهم من الله أبلغ إبطال ، ففى الآية الأولى صور حالهم وماسيكونون عليه إذ قدموا على الله مولاهم الحق بأمثال الجبال من الذنوب والآثام والخطايا ومعهم أعظم منها من الآمال بالشفعاء والوسطاء الذين حسبوا أنهم سيدفعون عنهم كل مايخافون ، وسيشفعون لهم فى غفران جميع ذنوبهم وآثامهم وماركبوه فى حياتهم من المخالفات والمعاصى : قدموا على الله مولاهم الحق بهذه الأعمال والآمال ، وكانوا أحوج مايكونون إلى الشفاعة والوساطة ، ففوجئوا بأن نظروا حولهم فما وجدوا غير أنفسهم وغير آثامهم ، وقد أتوا ربهم ، كما خلقهم فرادى مجردين من كل سلطان وسلطة ، ومن كل شفيع ووسيط ، وتلفتوا فلم يبصروا حميما أو نصيرا ، وتسمعوا فلم يسمعوا غير الحق يناديهم « ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » ولكم شفعاء ووسطاء ، لقد كذب ما كنتم ترجون وتظنون ، فضلت عنكم الشفعاء المأمولون ، بل لقد أنكروكم وطردوكم وتبرءوا منكم فتقطعت بكم الأسباب ، وخانتكم الآمال ، وتلاشى ما كنتم تزعمون بينكم وبينهم من المناصرة والمعاونة فى تلك الساعات الرهيبة العصيبة ، وأخطأ ما كنتم تتخيلون . فكانت مفاجأة هى أروع المفاجآت ، ومقاماً هو أخذل المقامات .

آمال المشرك الخائبة

فأين الشفعاء منكم فى هذه الآونة ؟ وما الشفعاء إذا لم يمدوا أيدى النصرة والمعونة والانقاذ فى آونة الحرج والضيق ، وأى شفعاء هؤلاء الذين لا يراهم الله ؟؟

كلا ، لاشفعاء ولا نصراء ولا شئ غير الله وغير عدله وقضائه وحكمته ، وغير عمل المرء وماقدمت يداه من صالح وطالح . ذلك هو مايبقى ومايرى فى ساعات القضاء. وفى يوم الفصل وكل ماسواه زور وغرور ، والله العليم بمصاير الأمور .

وفى الآية الثانية أبطل أيضا شفعاءهم أبلغ إبطال فقال : إن هؤلاء الضلال المشركين قد عمدوا إلى عبادة من لايضرونهم ولا ينفعونهم ، فرجوهم وخافوهم، وضرعوا وانقطعوا إليهم ، و بسطوا لهم أكف الرجاء والدعاء والأمل الخائب الكاذب قائلين « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » لمكانتهم منه ومكانتنا منهم برجائنا إياهم وانقطاعنا إليهم واتساع آمالنا فيهم . فهم النصراء لنا يوم يعز النصير ، وهم الشفعاء المشفعون فينا يوم يطلب الشفيع ، وإنهم الآخذون بأيدينا ، المقتحمون بنا العقبات الكأداء ، المجيزونا كل سبيل عسراء ... وذلك لقوة أسبابنا بهم ، وقوة أسبابهم هم بالله الذى إليه يرجع كل شئ . . . هذا هو ظنهم وزعمهم ،

ظن المشرك الكاذب

فأكذب الله هذا الظن وذاك الزعم أعظم إكذاب وأوضحه بأن قال لهم أين هؤلاء الشفعاء الذين تزعمون وتؤملون ؟ أرونى إياهم فانى لاأرى منهم أحدا ولا أسمع لهم ركزا ، أين يقعون أفى السماء أم فى الأرض ؟ كلا لاأراهم ولا أعلمهم لافى السموات ولافى الأرضين ، أتنبئون الله بمالا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون و يزعمون و يدعون ! كلا إنه لاشفيع لكم ولا شئ ينقذكم غير أعمالكم، إذ لو كان لكم شفعاء حقا ، كما تزعمون ، لعلمهم الله فى الأرض أو فى السماء لأن الله لا يخفى عليه شئ فى ملكه .

هذه ضروب بالغة قوية من إنكار القرآن التام لشفاعه المشركين وشفعائهم وضروب بالغة قوية من تنديد القرآن بمن اتخذوا إلى الله شفعاء ، ومن نعيه على من أملوا الشفاعات ورجوا خلاصهم بها و بالشافعين . وقد أجمل القرآن ، كما ترى إنكار ذلك ونهيه عنه ونعيه على من عملوا له ورغبوا فيه ، فما استثنى نوعا من

أنواع ، ولا أخرج قسما من أقسام ، ولا شفاعة من شفاعات ، بل عمد إلى النهى العام التام ، و إلى الابطال الشامل الكامل . .

هذا مادل عليه القرآن وماذهب اليه مع أننا لانشك ولا يشك العارفون البصراء بأن طوائف من المشركين كانوا يستشفعون بالأنبياء والصالحين،وكانوا يرغبون فى شفاعتهم ،وكانوا يطلبونهم ذلك كما يفعل هذا طوائف من المنقطعين إلى الأموات و إلى قبورهم اللاهجين بشفاعاتهم . . . فلا يرتاب عليم فى أن أقواما من المشركين الذين أنكر الله استشفاعهم وشفاعتهم كانوا يطلبون الشفاعة من عباد الله الصالحين كالانبياء والمرسلين، كما يطلبها اليوم جماعات الضارعين إلى القبور : هذا مالا يسمو إليه الريب ،ومعه أنكر الله فى آيات واضحة بينة على المشركين ، وعلى العرب ، أنواع شفاعاتهم وضروب استشفاعاتهم وأقام عليهم الحرب الشعواء إذ استمسكوا بذلك وأبوا أن يدعوه ، وكان هذا دالا بجملته وتفصيله على بطلان الاستشفاع بالموتى والرغبة فيهم رجاء شفاعتهم و وساطتهم .

دلالة الآيات على ماذكرنا

و يمكن سياق هذه الحجة بعبارة أخرى كان يقال مثلا : لاريب أن هذه الآيات تحرم نوعاً من أنواع الاستشفاعات ، وتنكر نوعا من أنواع الشفعاء تحريما و إنكاراً صارمين صريحين، ولا ريب أن هذين النوعين : المحرم والمنكر لابد أن يتحققا فى الخارج ،ولا بد أن يكونا موجودين فى طوائف المشركين والضلال حين نزول القرآن وشرائع الاسلام. وحينئذ نقول لايمكن أن يكون هذا الاستشفاع المحرم ، وهؤلاء الشفعاء المنكرون هو الاستشفاع بالأحياء القادرين على الشفاعة ، وهم الشفعاء القادرين على أن يشفعوا ، لأن ذلك ليس محرما فى الاسلام ولا فى غيره من الأديان ، فلا خلاف بين أهل الأديان كلها فى جواز هذا النوع من العبادة والوساطة . ولا يمكن أيضا أن يقال : إن هذا الاستشفاع المحرم هو الاستشفاع بالجماد المجرد من الأحجار والأشجار ، وذلك لما قدمنا من أنه من

الباطل المحال أن يفزع المشركون إلى جمادات وأحجار وأشجار مجردة من المعانى الروحية ، والانتسابات الخاصة إلى العباد الروحانيين من الأنبياء والأولياء ، لتشفع لهم ولتقربهم إلى الله زلفى وقربى . ولا يمكن أن يؤمل المشركون فى الجماد شفاعة ولا خيرا ولا قربا ولا تقريبا إلى الله . فان بطلان هذا لا يخفى على أحد ولا يختلف الناس فى امتناعه ، لا المشركون ولا غيرهم . وإنما كان فزع المشركين واستشفاعهم بالعباد الصالحين الممتازين طمعا ورغبا فى تقريبهم وهم إذا رجعوا إلى جماد من شجر وحجر ووقفوا حوله مستشفعين وداعين كانوا ، بلا ريب ، يقصدون من وراء ذلك أولئك الأنبياء والأولياء الذين زعم لهم الانتساب إلى ذلك الجماد المقصود ، كما يفعل أرباب القبور الضلال من المسلمين لدى عمود البدوى فى جامع الحسين ، وباب المتولى فى القاهرة ، وغيرهما ، وكمقامات الأربعينات الذين زعم لكل واحد منهم أربعون جسما ، وزعم لكل جسم من هذه الأجسام الأربعين ضريح خاص به ، تطلب الشفاعات ، وتنثر الشكايات والدعوات لديه ، وكما يفعل هؤلاء الضلال لدى سائر المقامات والبنايات المشيدة التى قد تكون مزورة مكذوبة . فان هؤلاء لم يروا ذلك الولى ولا ذاك الشيخ المزعومين ولم يجدوا أثرا من آثارهما ولا علما من أعلام وجودهما وولايتهما وكرامتهما وشفاعتهما ، وإنما رأوا الزخارف القائمة من القباب والسرج والنمارق والشبابيك المذهبة المزخرفة المفضضة ، فخالوا وتخيلوا ، وظنوا فضلوا ، وحسبوا تحت القبة شيخا ولدى الشيخ ضرا ونفعا وتقديما وتأخيرا وشفاعة ووساطة . وقد تكون الحقيقة الصحيحة الصادعة ألا شيخ ولا إنسان ولا شىء هنالك كما ذكرنا سابقا . فهذا التأويل لا يصح أن يكون تأويلا للاستشفاع المنكر المبطل فى الكتاب العزيز .

ولا يمكن أيضا أن يقال إن هذا الاستشفاع المنكر على المشركين هو الاستشفاع المقرون باعتقاد صاحبه بأن ذلك المستشفع به المرجو للشفاعة قديم

تقرير ذلك

مع الله مساوله فى القدرة والسلطان ، وذلك لأن المشركين كانوا مقرين بأن الله وحده هو خالق الخلق وخالق العالم وخالق أصنامهم وشفعائهم وما يعبدون ويدعون من دون الله . وقد قدمنا الدلائل على هذا من الكتاب ومن السنة ومن الضرورة ، ومن كلام المشركين أنفسهم .

ولا يمكن أيضا أن يحمل هذا الاستشفاع المنكر على الاستشفاع الذى يعتقد صاحبه أن من استشفع به يشفع بدون إذن الله وبدون رضاه ، بل يشفع قهرا وقسرا . لأن المشركين كما تقدم، كانوا مقرين بخضوع أصنامهم وخضوع كل شئ لله ، لا ينازعون فى هذا ولا يماحلون . ولهذا يتخذون أصنامهم شفعاء لديه تعالى، ويقولون إنها تقربنا إلى الله زلفى ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ولا ريب أنه لابد أن يكون الشافع والمشفوع له خاضعين دائنين لسلطانه وقهره ، لأنهم لو كانوا يعتقدون أن الأصنام مستقلة عن الله قادرة على منح الخير والفلاح والسعادة من دون الله ، وبدون إذنه ورضاه ، لما احتاجوا إلى جعلهم شفعاء لديه سبحانه بل كان يقتضيهم هذا الاعتقاد — لو كان — أن يرغبوا عن الله وأن يستغنوا بهم عنه ، فلا يقولوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ولا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . لأنهم مستقلون فى قدرتهم وإرادتهم وأعمالهم . فيجب على هذا أن تكون الرغبة فيهم خالصة من أن تمزج بالرغبة فى غيرهم ، لا فى الله ولا فى غير الله . ولكن كلا ، فان المشركين ما اتخذوا الأصنام والأوثان والمعبودات الأخرى من دون الله إلا رجاء أن تدنيهم منه تعالى وتقربهم إليه . فهذه الاحتمالات فى تأويل الاستشفاع المبطل المنكر كلها احتمالات باطلة ، فلم يبق إلا أن يقال إنه هو الاستشفاع بالصالحين الذاهبين وبصورهم وتماثيلهم وأجداثهم ومخلفاتهم وآثارهم كما فعل هؤلاء الحيرى من المسلمين حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل ، لا فرق ولا شك .

البرهان الرابع

رابعا : ـ أى رابع البراهين عـلى بطلان الاستشفاع بالموتى ـ أن تجويز ذلك وفعله يلزمه أنواع كثيرة من أنواع المحرمات المحظورة فى الدين وفى المعقول فان الميت إذا استشفع به وقصد للشفاعة فلابد أن يعكف على قبره وأن يطاف به ، وأن يستلم ويقصد ، ويحج من كل مكان ، ومن كل فج وأفق بعيد ، وأن يزان قبره ويسرف فى زينته وبنائه ، فيسرج ويعطر ويكسى وتعلق به أنواع المعلقات النفيسة ، وتقام عليه القباب الشامخة ، وتقدم إليه النذور والقرابين مع الضحايا والهدايا ، وتراق حوله الدماء مع الدموع ، وتشتمل على تقديسه والرهبة منه والرغبة فيه حنايا الضلوع : هذا كله يلزم جواز الاستشفاع بالميت وإتيانه لذلك ، كما يلزمه بلا شك ـ كما حصل ووقع وشهد ـ أن يدعى استقلالا ، وأن يطلب منه ما لا يستطيعه إلا الله كهداية القلوب ، وغفران الذنوب ، وشفاء المرضى وغير ذلك من المطالب العالية التى توجه بها عباد القبور إلى الموتى فى كل بلد إلا ما شاء الله .

مفاسد الاستشفاع بالموتى

هذا كله بلا ريب يلزم جواز الاستشفاع بالميت ، والدليل على هذا التلازم الواقع والعادة والتحريات النفسية الصائبة . وهذه الأمور اللازمة كلها أمور محرمة باطلة قد نهى عنها الاسلام نهيا صريحا صارماً كما سبقت الدلائل وكما سوف يجئ المزيد لها . ولا شك أن الأمر الذى يقارن هذه المنكرات ويلازمها أمر منكر باطل يجب هجرانه والازورار عنه وعن أسبابه ووسائله ، لأن وسائل المنكر منكرة كالمنكر نفسه ، ولأن ما يوقع فى عصيان الله وفى الجهالة والضلالة هو عصيان وجهالة وضلال يجب اطراحه والفرار منه . وقد بالغ الدين فى تحريم وسائل الشرك وبالغ فى النهى والتبعيد عنها . وهذا معلوم لأهل العلم لا يختلفون فيه . ومن أبلغ ما فى الباب وأدخله فى بحثنا هذا أن الاسلام قد نهى عن زيارة القبور فى أول عهده حينما كانت النفوس حديثة العهد بالشرك وعبادة المخلوق خيفة أن ينبعث فيها

شيء من مخلفات الشرك و بقاياه الكامنة فى أركانها ، وحرم الصلاة وقت شروق الشمس ووقت غروبها ووقت استوائها ، خيفة أن يخال أن تلك الصلاة للشمس أو أن للشمس فيها نصيبا ، كما حرم البناء على القبور و إسراجها ، وجعلها أعياداً خيفة أن يجر هذا كله إلى الغلو والباطل والضلال . ومن أبلغ ذلك قطع عمر بن الخطاب شجرة الرضوان لما رأى أناسا يقصدونها ، ونهيه رضى الله عنه عن قصد الصلاة والعبادة فى المواضع التى تعبد فيها النبى عليه السلام ، وقوله رضى الله عنه عند النهى عن ذلك « إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم آثار أنبيائهم » . وهذا شيء يطول شرحه .

وسائل الباطل باطلة

فالاستشفاع بالموتى يجر بلا ريب إلى الانحدار فى هذه الباطلات ، والباطل يجب قطعه واستئصاله من أصوله وجذوره العريقة لئلا ينمو و يزكو ويماما، بل ليهلك و يتلاشى . ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أن أول هذه البلايا التى أصيب بها الاسلام والمسلمون من الخرافات العجيبة ، كالاستنجاد بالموتى ، وسؤالهم مالا يقدر على مثله إلا الله ، هو الاستشفاع بالميت واقتناع الأنفس الجاهلة بأن ذلك ممكن وحسن ومفيد ومطلوب ، فان إنسانا يقف بين يدى ضريح مغلق غاية فضله ومجده أن يحوى جثة صالح من عباد الله الصالحين الميتين، فيمد يديه إلى ذلك الضريح مستشفعا ، راغبا راهبا ، مؤملا الشفاعة والخير ، زاعما أن ذلك الساكن الراقد فى ذاك الضريح قادر على نفعه بالشفاعة ، وعلى ضره بتركها ، وزاعما أنه يسمع استشفاعه ودعاءه ، و يرى حاله وذله ورجاءه : إن إنسانا يفعل ذلك و يعتقده لجدير بأن يضل و يهلك ، وجدير بأن تمتلئ نفسه بالجهالات والباطلات ، وأن تتفرع جراثيم الشرك فى جنبات نفسه وقلبه وعقله ، وأن تنمو وتزكو فيصبح من الهالكين. ولا ريب أن إنساناً يعتقد أن ميتاً من الأموات يستطيع أن يسمع شفاعته إذا استشفع به ، وأن يعلم حاله وذله إذا انقطع اليه وذل بين يديه ، وأنه يستطيع أن

يتصل بالله إذا اتصل هو به ، ليقوم له مقام الشفيع الوسيط : أقول إن إنساناً تسول له نفسه وعقله أن يعتقد هذه العقيدة فى إنسان هالك لا بد أن يعتقد فيه أكثر من ذلك وأعظم ، ولا بد أن ينساق إلى الهاوية ، وأن يتدحرج فى الضلال الاعتقادى شيئا فشيئا ، ويتدلى ، أو يترقى ، حتى يقع فى تأليه ذلك الهالك وعبادته الصريحة ، وحتى يهبه سلطان الله وحقه وأوصافه الجيدة الحسنى . .. فان الانسان خلق رخواً ضعيفاً ، بل ذائباً ، إزاء المؤثرات الاعتقادية ، لا يستطيع أن يقف فى سبيل تيارها العنيف سليما صحيحا معافى ، بل لا بد أن يضعف وأن يذوب فيتلاشى . ومن هذا الوجه نرى بطلان أن يسأل الله بجاه أحد من خلقه ، كأن يقال أسألك يا ألله بجاه فلان أو بجاه فلانة . وذلك أن إدخال اسم فلان أو فلانة فى دعاء الله وسؤاله مقدمة لأمور أخرى من أمور الضلال وسوء العقبى ، فان الداعى ربما أدخل فى دعائه أولاً جاه فلان ولم يزد ولم يجوز أن يزيد ، ولكن ربما انتقل خطوة أخرى أوسع وأجرأ ، فسأل الله بفلان وألغى جاهه ثم لم يزد ولم يجوز أن يزيد ، ولكن ربما انتقل خطوة ثالثة ، فراح يطلب من ذلك « الفلان » أن يشفع له وأن يدعو ثم لم يزد ولم يجوز أن يزيد ، ولكن ربما انتقل إلى الخطوة الأخيرة فارتطم فى الهاوية فراح يدعو ذلك « الفلان » و يرفع اليه حاجاته ومطالبه ومآربه ملغيا اسم الله من البين ، ملغيا تلك الوساطات . فصار من المشركين العادلين عن الخالق إلى المخلوق . ومن أضل ممن فعل ذلك .

وهذه سلسلة مرتبط آخرها بأولها ، يقل أن يأخذ آخذ بالأول منها إلا وأخذ بالآخر مرغماً أو مختاراً ، والله العليم بذات الصدور و بما جبل عليه الانسان من الضعف والجهل . فالاستشفاع بالأموات يجر إلى هذه الباطلات ، والباطل يجب أن يؤخذ من أصوله وفروعه فيرمى ، والباطل محرم بوسائله وغاياته .

وهـذا يكفى الحازم البصير برهانا عـلى بطلان هـذا الاستشفاع الذى يدعو إليه الجاهلون . . .

البرهان الخامس

خامساً : قد نص كتاب الله فى غير ما آية على أنه لا يشفع شافع بين يدى الله لأحد ما إلا باذنه و رضاه ، فلا يتقدم إليه تعالى نبى ولا ولى بشفاعة لانسان حتى يأذن له بالشفاعـة بأن يقول له اشفع لعبدى فلان فقد رضيته و رضيت بأن تشفع له ، فيتقدم الشفيع ساعتئذ و يشفع . وشواهد هذا من القرآن ومن السنة غنية عن إيرادها لشهرتها وكثرتها . ولهذا فان الشفاعـة فى الواقع لله ، لأنه هو الذى رضى المشفوع لهوأراد رحمته بشفاعة الشافع لصلاحه وطاعته ، وهو الذى أمر الشفيع بأن يشفع ، وهو الذى بعد ذلك قبل شفاعته وشفّعه . . . فالشفاعة كلها لله ومن الله و إليه ترجع ، كما قال تعـالى « قل لله الشفاعـة جميعاً » . فمقام الشافع لم يزد عن أن يكون مقام تـكريم وعناية ، و إلا فانه لم يقـدم ولم يؤخر ولم يصنع شيئا . فالشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند الخلق ، فان الشافع عنـد المخلوقين يشفع بغـير إذن المشفوع لديه و بدون رضاه ، بل قد برغمه على ذلك و يرغمه على قبول الشفاعة وعلى التشفيع فيمن يكره و يمقت ، والمشفوع عنده من المخلوقين يفعل ويترك لأجـل الشفاعة والشافع ، فيترك ما يريد ويجانب ما يهوى و يرضى إجابة للشفاعة وللشافع . ولهذا كثيرا ما يجور و يظلم من كثرت لديهـم الشفعاء والشفاعات ، ولهذا أيضا حرمت الشفاعـة فى القضاء والحكومة والفصـل بين النـاس ، لأنهـا توقع فى الجور و الظلم ، بل الشـافع يطلب مايطلب على أنه ظلم وانتقاص لحقوق الآخرين . ولهذا فان البيئة التى تفشو فيها الشفاعات والرجاءات والوساطات بيئة مو بوءة آثمة مجرمة غير محترمة وغير مرضى عنها ، بل هى بيئة ملعونة ممقوتة فى الأرض وفى السماء ، لا يرضاها إلا من أعطوا ما ليس لهم بشفاعات الشافعين الظالمين ، على أن هؤلاء أنفسهم لا يرضون هذه

لاتفشو الوساطة فى بيئةصالحة

البيئة فى دخائل أنفسهم . أما الشفاعة عنـد الحق سبحانه فليس فيها شىء من ذلك ألبتة ، و إنما هى تكريم و إظهار لشرف بعض خلقه ، فهى على هذا صورية لاحقيقية ، فان حقيقتها أن الله أراد بأحد عباده خيرا فأجراه فى الظاهر فقط بعد الشفاعة ومن طريقها والله هو موصل ذلك الخير لا ذلك العبد بشفاعـة ولا بغير شفاعة . وقريب من هذا ، ولله المثل الأعلى ، أن تريد أن تهب إنسانا شيئا ، لأنك تريد إيصال ذلك الموهوب إلى ذاك الانسان الموهوب له على كل حال ، وتريد مع هذا أن تظهر كرامة بعض أصدقائك أو أقاربك عليك ، فتشير عليه ، أو تأمره ، بأن يشفع لديك بايصال تلك الهبة المفروضـة إلى ذاك الموهوب له المفروض أيضا ، فيشفع ذاك الصديق لديك فتجرى ما أردت إجراءه على يديه و بشفاعته فى الظاهر ، فتكون حينئذ قد عملت الخير الذى أردت عمله وأظهرت فى عملك هذا كرامة الشفيع عليك، وهو فى الواقع لا دخل له البتة ولا فضل فيما عملت وأجريت ، والفضل لك وحدك أولا وآخرا ، فكذلك ، ولله المثل الأعلى، يقال فى شفاعة الشافعين عند الله .

إذا علم هذا قيل لهؤلاء المخالفين : إذا كان الشافع لايشفع عند الله حتى يأمره تعالى و يأذن له و يقول له اشفع تشفع وسل تعط ، وكان الشافع لا يمكن أن يتأخر عن الشفاعة فيمن قيل له اشفع فيه ، وكان الله مالك الشفاعة ، ومالك كل شىء، لا يرضى عن الشفاعة فى أحـد من عباده إلا فى الصالحين الأتقياء ، الراضين المرضيين،وكان تعالى سوف يأمر ، ولا بد، تفضلا منه وجودا بأن يشفع فى عباده الصالحين المخلصين الابرار ، و بأن تنالهم ، ولا شك ، شفاعة الشافعين كما جاء فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « من قال لاإله إلا الله خالصا من قلبه » . وفى الصحيح عن أبى هريرة أيضاً قال قال رسول الله : « لـكل

نبي دعوة مستجابة ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة . فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً » ، والأخبار الصحاح فى هذا المعنى كثيرة معلومة .

إذا كان ماذكر كله صحيحاً ، وهو صحيح بلا ريب ، فلامعنى لطلب الشفاعة من المخلوقين ، ولا معنى للاستشفاع بالأنبياء والأولياء من الأموات ليشفعوا عند الله ، وذلك أن طلبك الشفاعة لا يجعلك أهلا لها ولا مأذوناً لك بها إن لم تكن بأعمالك الصالحة من أهلها ، وتركك طلبها لا يجعلك محروماً منها إن كنت من أهلها . فالاستشفاع ، إذن ، بالأموات رجاء شفاعتهم جهل وعبث وسفه . وهذا لا يجدر بالعاقل أن يقدم عليه ، وهذا كله لا يمكن أن يشرعه الله لعباده فى دينه .

من أحاديث الشفاعة

ومن أعجب ذلك وأقطعه ما ذكره الامام مسلم فى الصحيح فى باب الايمان من أحاديث الشفاعة ، فقد روى فى حديث الشفاعة الطويل الذى حدث به أنس بن مالك عن رسول الله أنه قال فى آخر الحديث : «فأخر ساجداً فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول يا رب ائذن لى فيمن قال : لا إله إلا الله ، قال ليس ذلك إليك ، أو ليس ذلك لك ، ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى وجبريائى لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله » . فأنت لو استشفعت الليل والنهار بأقرب عباد الله إلى الله لما شفع لك ، ولما نفعتك شفاعته لو شفع إلا أن يشاء الله و يأذن و يرضى . ولو أنه تعالى أراد لك شفاعة ورآك أهلا لها ورضى أن يشفع لك أكرم خلقه عليه لشفع لك ولنالتك شفاعته ونفعتك وإن أنت لم تستشفع بأحد من الخلق، بل وإن لم يخطر ذلك على بالك . . فاستشفاعك لا ينفعك وتركك ذلك لا يضرك ولا يمنع ماشاءه الله لك . وقد أعظم الله اللائمة على من يتعلقون بمن لا ينفعونهم ولا يضرونهم ولا يستجيبون لهم فقال : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فان

فعلت فانك إذن من الظالمين » وقال . « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامـة وهم عن دعائهم غافلون . . » فالذين يستشفعون بالأموات هم من الضالين الظالمين ، وهم من الصابئين الجاهلين المتعلقين بما لا ينفعهم ولا يضرهم .

البرهان السادس

سادساً : لاريب أن الاستشفاع بالأموات من الأمور المحدثة فى الاسلام الغريبة فيه ، المحمولة عليـه حملا لا شبهة فيه ، ومن الأشـياء المخالفة للاجماع الصامت التركى ، المخالفـة لما لقنه الرسول عليه الصلاة والسـلام أصحابه ولما لقنه أصحابه من بعدهم من المسلمين . . .

السنة فى زيارة المقابر

ولقد علم المسلمون من دينهم ومن سنة نبيهم أنه لم يشرع لأحد منهـم أن يذهب إلى ميت من الأموات ، لامن الأنبيـاء ولا ممن دون الأنبياء ، ليسأله الشفاعة والوساطة ، وليدعو الله له فى جلب الخير ودفع الضر . وقد علم المسلمون سنة الاسلام التى جاء بها محمد عليـه السلام فى زيارة القبور ، وفى ما يقال عنـد زيارتها من الأدعية والأقوال ، وعلموا ما كان رسول الله وأصحابه يقولونه و يفعلونه حين الزيارة ، زيارة الصالحين والخيار من عباد الله ، وقد نقلت هذه السنة بالتواتر والاجماع الذى لاينازع ولايخالف ، وحفظت الالفاظ التى كان رسـول الله يقولها عند الزيارة والتى علم أصحابه أن يقولوها عند زيارتهم . وقد غربلت أسانيد ذلك كله ومحصت وامتحنت أعظم امتحان وخبرت أفضل اختبار حتى علم الصحيح الثابت من المكذوب المختلق ، وحتى عرف ذلك كله كل من أراد معرفتـه من الخاصة والعامة . وقد علم أهل البصر بالاسلام والفحول من صيارفة الرواية والدراية وعلم المخالف والموافق أنه لم يكن مما علمه المسلمون من سنة نبيهم ومن كتاب ربهم وشريعتهم أن يستشفع بالأموات عند زيارتهم أو أن يزاروا لأجل ذلك ، لاجل طلب الشفاعة والوساطة وطلب الدعاء منهم . وقد علم هؤلاء جميعاً أنه لم يفعل ذلك

أحد من المسلمين فى صدر الاسلام، لارسول الله ولا أبو بكر ولا عمر ولا أحد من الصحابة ولا من التابعين ولا ممن تبعوهم باحسان وإيمان. وعلم هؤلاء كافة ما كان يقوله رسول الله وصحابته حين يزورون وأنه لم يكن سوى الدعاء للأموات والسلام عليهم، وسوى دعاء الزائر لنفسه أيضاً. وماجاء فى حديث لاصحيح ولا ضعيف أن رسول الله استشفع بميت من الأموات، لامن أصحابه ولامن غيرهم من الأنبياء والصالحين الأولين، ولا أنه علم أحداً من أصحابه أن يفعل ذلك، ولا جاء أن أحداً منهم صنع شيئاً منه أو أرشد إليه أو دل عليه أو ذكر له فضلا ومثوبة وجزاءاً . . . ولو أنك رجعت إلى كل كتاب على وجه الأرض اليوم مما خلفه السلف الصالح وجهابذة الرواة ونقدة الأخبار، ثم بذلت غاية جهدك وأقصى طاقتك كى تظفر بحديث واحد يعبأ به يذكر أن رسول الله، أو أن أحدا من صحابته أو أحدا من شيوخ الشريعة وأعضاد الملة أمر بالاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء والوساطة منهم — : لأعياك الطلب ولما حصلت على غير الخيبة والاعياء.

الحديث والمحدثون

وقد حفظ المسلمون سنة نبيهم الدقيق منها والجليل، وحافظوا على حفظها والعلم والعمل بها وعلى نقلها والتحديث بها بامانة نادرة واتقان منقطع النظير، وحملوها الأبناء والأحفاد كما حملوها هم بأمانة واتقان أيضا: وهكذا كان المسلمون معنيين بدينهم وبسنة رسولهم، نضر الله وجوههم، حتى شادوا منها هذه الاسفار العظيمة التى تتألف منها جبال ضخمة لو جمع بعضها إلى بعض. وقد عنوا بنقل الصحيح والضعيف من ذلك، بل وبنقل الموضوع المكذوب، الأول نقلوه للعمل به والاحتجاج، والثانى للتحذير منه والحذار من الوقوع فيه. وقد قسموا هذا كله أقساماً مرتبة، ونظموه تنظيما تعجز جودته الوصف والاطراء والمديح حتى أصبح من السهل اليسير على الأغبياء والجهلاء أن يعلموا صحيح السنة من ضعيفها من مكذوبها بأيسر حيلة وأقرب وسيلة. وقد بالغ علماء الحديث وفرسان

الرواية فى تفصيل ذلك وتمييز أنواعه وأقسامه حتى وضعوا أسفارا خاصة بالصحيح المجمع على قبوله والاحتجاج به على شرائع الدين ، غنية عن وضعها على خشبة النقد والامتحان والتجريح والتعديل ، كما وضع آخرون من هؤلاء الجهابذة أسفاراً أخرى خاصة بالموضوع المكذوب المجمع على رده و إنكاره و بطلانه بين صاغة الرواية وأعلام الحديث ، كما وضعوا كتبا خاصة بالثقات من الرواة ،وكتبا أخرى خاصة بالضعفاء المجروحين ، وكتبا جامعة النوعين . وقد صيغت هذه الكتب كلها بأيد ماهرة وعقول صحيحة بارعة منظمة ، حافظ عليها الدين من أن تميل مع الهوى ، وحجزها التقى وخوف الله من أن تدين للغش والتضليل والكذب . هذا كله بعض ما قام به المحدثون لحفظ الحديث وإبلاغه القرون الآتية . ولكننا مع ماذكرناه كله لانجد لما يذكره المخالف من الاستشفاع بالموتى دليلا واحدا .

لو فلينا لكتب كلها

ولو أننا فلينا هذه المدوّنات الاسلامية كلها ورقة ورقة وسطراً سطراً ثم حرفا حرفا على أن نجد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يأمر أصحابه بأن يزوروا القبور ويطلبوا من أصحابها الدعاء والشفاعة لما وجدنا شيئاً من ذلك ، ثم لو فلينا هذه المدونات كلها هكذا مرات ومرات على أن نجد أن أصحاب النبي عليه السلام كانوا يفعلون ذلك حين الزيارة ، زيارة قبر النبي وقبور غيره من الأنبياء والصالحين لما وجدنا أيضاً رسيساً من هذا النوع . بل لقد علم من سيرة الصحابة والمسلمين والبصراء بالاسلام أنهم كانوا ينكرون ذلك و يأبونه أشد الاباء والانكار وقد كانوا بعد وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام يلجأون أحياناً إلى أن يطلبوا الدعاء من أفراد المسلمين من الصحابة والتابعين . ولم يفكروا فى الرجوع إلى قبر الرسول لدعائه والاستشفاع به . وقد استسقى المسلمون فى عهد الخليفة عمر بالعباس بن عبد المطلب وقال عمر حين الاستسقاء به « اللهم إنا كنا نتوسل اليك

بنبينا فتسقينا،و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » . وهذا الاستسقاء بالعباس مع هذه العبارة التى قالها الفاروق يدل على أن الاستسقاء بالأموات لا يمكن ولا يجوز ، وعلى أنهم يعرفون أنه لا يجوز بالاجماع ، و إلا لو كان جائزاً مشروعاً لما عدلوا عن رسول الله إلى غيره يقيناً لاشك فيه وقد استسقى معاوية ومن معه من المسلمين بأحد التابعين الصالحين ،ولم يرجعوا إلى النبي ولا إلى قبره. وقد علم بالتواتر والضرورة أن بعضهم كان يطلب من بعض الشفاعة والدعاء الذى هو الشفاعة التى هى ذير شفاعة الآخرة ، وكانو يحرصون على ذلك و يفعلونه و يقرونه . ولكنهم ما كانوا يذهبون إلى النبي عليه السلام إلا للسلام عليه وللزيارة المجردة من دعائه وطلب الشفاعة منه . ومن طاب له أن ينازع فى شئ من هذه الحقائق الظاهرة السافرة فنحن نتحداه ونطالب إليه أن يرد شيئاً من الذى ذكرناه بالعلم والحجاج الصحيح . و إذا علم هذا كله قيل للمخالفين : إن شيئا رغب عنه رسول الله و رغب عن الحث عليه ، و رغب عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والصحابة وخيار المسلمين لجدير بنا نحن ان نرغب عنه بأنفسنا وديننا ، وأن يرغب عنه كل مسلم يحب الله ورسوله ودينه و يجل صحابة النبوة ، وإن شيئاً لم يفعله رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا على ولا غيرهم من الأصحاب لا يمكن أن نفعله نحن مااهتدينا ، ولا يمكن أن يفعله المسلم الصحيح الاسلام رجاء الثواب والأجر من الله . فان ثواباً لا يسبق إليه هؤلاء السابقون ولا يفطنون له لانحب أن نسبق إليه نحن ولا أن نفطن له . فان أقصى ما يمكن أن نرجوه وأن نطلبه لأنفسنا هو أن نكون لهؤلاء الخيار تبعاً وأن نحسن الاتباع والاقتداء بهم ، لا أن نسبقهم ، ولا أن نجمع ونعلم من الخير والفضل ما لم يجمعوا وما لم يعلموا . والدين عندنا اتباع لا ابتداع ، واستنان لا اختراع . ولا نتقدم نحن بين يدى الله ورسوله، لأنا نعلم أنه لاخير فى عمل لم يعمله الرسول وأصحابه

لا نسبق الرسول وأصحابه

ولا نضل ، إن شاء الله ، فنزعم أنهم يتركون الخير والسبق إلى الصالحات ليسبقهم إليها هؤلاء الخلوف المخالفون . ولكننا نسأل الله الهداية والتوفيق ، ونسأله أن يجنبنا الغواية والضلالة وصنوف الجهالة .

هذه ستة براهين ناصعة قاهرة على بطلان الاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء والوساطة منهم . والبحث يتحمل أكثر من هذا ولكنا نوجز إيجازا . وطالب الهدى يكفيه القليل ، والراغب فى الضلال والعناد لايكفيه قليل ولا كثير ولو جئ بكل آية وحجة لله . والله لا يهدى القوم الظالمين .

﴿ الكلام على حجج المخالف ﴾

﴿ فى الاستشفاع بالاموات ﴾

إجمال شبه المخالف

بقى هنا الكلام على الشبه أو الحجج التى أوردها هذا المؤلف الشيعى فى كتابه على جواز دعاء الموتى وطلب الشفاعة منهم . وهذه الشبه تتلخص فيما يأتى :

أولا — : إن الله قد أعطى عباده الصالحين الشفاعة ولا مانع من سؤالهم ما أعطوا .

ثانيا : — الشفاعة هى الدعاء ، والدعاء يجوز طلبه من الصالحين : الأحياء منهم والأموات ، ولا فرق .

ثالثا — : قد ثبت فى القرآن أن الملائكة يدعون و يستغفرون للمؤمنين والدعاء والاستغفار لا يخرجان عن معنى الشفاعة ، فهم يشفعون .

رابعا — : قد صح أن الجماد يشفع كما صح عن على أنه قال : اشهدوا هذا الحجر (يعنى الحجر الأسود) خيراً فانه يوم القيامة شافع مشفع ، له لسان وشفتان يشهد لمن استلمه .

خامسا — : لا يمكن القول بان الله أعطى عباده الشفاعة ومنع طلبهم إياها .

فان الحق لا يكون طلبه باطلا ، ولكن طلب الباطل هو الذى لا يكون إلا باطلا .

سادسا — : قد تشفع آدم برسول الله قبل خلقه ، وتشفع وتوسل رسول الله بمن قبله من الأنبياء ، وتشفع الصحابة بالنبى عليه السلام ، وتشفع عمر بالعباس وأقر النبى ذلك الأعرابى الذى قال : إنا نستشفع بك على الله ، وطلبوا من النبى بعد وفاته أن يستسقى لهم فسقوا . وصح أن الذين يصلون على الجنازة شافعون :

وروى الترمذى عن أنس بن مالك قال: سألت رسول الله أن يشفع لى يوم القيامة فقال : « أنا فاعل » . وطلب سواد بن قارب ، وهو صحابى ، من النبى أن يشفع له يوم القيامة بقوله :

فكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

وقد طلب تبع الحميرى من النبى أن يشفع له أيضاً يوم القيامة وقد أقر رسول الله طلبه وشهد أنه صالح . وقد علم عثمان بن حنيف فى خلافة عثمان رجلا أن يقول : يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك فى حاجتى هذه . وقد فعل الرجل ذلك فقضيت حاجته . وقد جاء أن عليا وأبا بكر أكبا على النبى عليه الصلاة والسلام وهو ميت وقبلاه وقال كلاهما : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك . وفى شرح المواهب للزرقانى أن الداعى إذا قال : اللهم إنى أستشفع اليك بنبيك ، يا نبى الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له . وقد ذكر العلماء فى آداب الزيارة أن الزائر يقول خطاباً للنبى عليه السلام : جئناك لقضاء حقك والاستشفاع بك ، فليس لنا ، يا رسول الله ، شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا .

هذه جميع دلائل المخالف على جواز الاستشفاع بالميت ، وجميعها دلائل باطلة مبهرجة .

جواب دليله الأول

﴿ بطلان هذه الشبه ﴾

أما الدليل الأول ، وهو أن الله أعطى عباده الشفاعة ولا مانع من طلبها منهم ،

فالجواب أن يقال : إما أن يريد أن الله أعطاهم الشفاعة فى كل وقت ، وأنهم لذلك يشفعون كلما شاؤا ومتى أرادوا فيمن أرادوا ، وإما أن يريد أنهم يشفعون حقا ولكنهم لايشفعون إلا إذا أذن لهم بالشفاعة ورضى عن المشفوع له . . . فإن كان يريد الأول قيل له : هذا باطل ، فانه لا يمكن أن يشفع أحد عند الله لأحد إلا من بعد إذنه للشافع بالشفاعة ،ورضاه عن المشفوع له لصلاحه وتقاه واستقامته واستحقاقه لذلك كما صرح بهذا القرآن الكريم فى غير ما آية . وإن كان يريد الثانى قيل له : إذا كانوا لايشفعون إلا إذا أذن لهم ، وكانوا يشفعون ، ولابد ، فى من أذن لهم بالشفاعة له ، فلا وجه لطلب الشفاعة منهم ولا معنى له كما تقدم . فانهم إذا شاء الله أن يشفعوا لأحد شفعوا ولا محالة ، سواء أطلب منهم ذلك أم لم يطلب ، وإذا لم يرد الله أن يشفعوا لأحد فلن يشفعوا ، سواء استشفع بهم أم لم يفعل . فالاستشفاع إذن بهم عبث وجهالة وسفاهة ، وذلك باطل لا يأمر الله به فى دينه وشريعته

جواب آخر

ويقال بعبارة أخرى : إن إعطاءهم الشفاعة لايقضى بجواز طلبها منهم يقيناً وذلك لجواز أن يكون فى طلبها منهم إثم وباطل وفساد ، ولجواز أن يكون طلبها عدوانا وبغيا ، ولجواز أن يكونوا مع إعطائهم إياها لا يسمعون إذا طلبوا ولا يبلغهم ذلك الطلب ، فيكون حراماً لهذا ، ولجواز أن تكون هنالك موانع أخرى. غير ما ذكرنا حرم طلبها منهم لأجلها .

وقد أعطى الله الملائكة الشفاعة ، على ماذكر فى الآية ، ولايجوز طلبها منهم ولا الاستشفاع بهم بالضرورة ، بل لقد أعطى الجماد الشفاعة كما قال : إنه أعطاها الحجر الأسود وأخبر أنه يشفع ويشفّع يوم القيامة . وهل يجرأ المخالف الرافضى أن يدعى أنه يجوز طلب الشفاعة من الجماد ومن الحجر الأسود ، وأنه

يجوز الاستشفاع به ؟ بل لقد جاء وصح أن القرآن يشفع، وأن الأطفال يشفعون لآبائهم وأقاربهم . فهل يزعم الرافضى أن الاستشفاع بالقرآن ، والقرآن عندهم مخلوق ، و بالأطفال جائز مطلوب ودين يتقرب إلى الله به ؟

جواب آخر

ثم من ذا الذى قال بأن كل من أعطى شيئاً جاز طلبه منه ؟ وأى دليل على هذا القول إذا قيل ؟ وهل يجوز للناس جميعا أن يسألوا الأغنياء الأموال والأشياء التى أعطاهم الله إياها ؟ وهل يجوز لكل مسلم أن يسأل كل مخلوق ماأعطاه الله وماملكه إياه من أنواع الأموال وأنواع الأعطيات الأخرى من القصور والضياع والأولاد والنساء وغير ذلك بحجة أن الله أعطاه ذلك، و بحجة أنه لامانع من سؤال الخلق ماأعطوا ،لأن طلب الحق لايكون باطلا، ولأن سؤال الموجود لايكون ممنوعاً ؟ إن كان جواب الشيعى الايجاب فجواب الناس جميعاً السلب ، و إن كان يجيز هذا كله فالناس العقلاء يمنعونه كله .

جواب آ.

ثم يقال له أيضاً : من الذى سلم له بأن الله قد أعطى عباده الصالحين الشفاعة؟ إننا نحن ننكر هذا القول وذاك الزعم ، ونقول ، بحق لاشك فيه : إن الله لم يعطهم الشفاعة اليوم ولما يأذن لهم بها حتى الساعة ، ولكنه تعالى سوف يعطيهم ذلك يوم القيامة ، فانه سوف يشفّع عباده هناك فى قوم آخرين من عباده ، ولكنه لم يشفعهم الآن فيهم بالضرورة . و إذا علم المخالف هذا قلناله أى عاقل يزعم أنه يصح أن يسأل الانسان مالم يعط ومالم يملك ؟ هذا عن الدليل الأول .

جواب دليله الثانى

وأما الدليل الثانى ، وهو أن الشفاعة هى الدعاء وأن الدعاء يجوز طلبه من الأحياء والأموات ،فالجواب أن نقول :سلمنا أن الشفاعة هى الدعاء وأن الدعاء هو الشفاعة طباقا سواءاً ، ولكننا لانسلم له جواز طلب الدعاء من الموتى ألبتة، ونقول إن هذا هو أصل المسألة ومبدؤها . ولن يجد دليلا واحداً يدل دلالة صحيحة

صريحة محترمة على جواز طلب الدعاء من الأموات . والدلائل التي ذكرناها على بطلان الاستشفاع بهم هي دلائل على بطلان طلب الدعاء منهم ، فلتراجع

جواب الثالث

وأما دليله الثالث ، وهو أن الملائكة يدعون للمؤمنين ، وأن دعاءهم شفاعة فالجواب أن نقول له : سلمنا أن الملائكة يشفعون للمؤمنين ولكننا لانسلم جواز طلب الشفاعة منهم لدلائل كثيرة تقدمت في أول البحث . فلا يصح سؤالهم الشفاعة لأنهم لا يسمعون سؤال من سألهم لبعد مكانهم، ولان في سؤالهم مايدعو إلى الغلو فيهم وفساد الاعتقاد والايمان ، ولأنهم يقومون بوظيفتهم التي أعدهم الله لها وأمرهم بها ، سواء أطلبوا أم لم يطلبوا ، وسواء أقيل لهم اعملوا ماأمركم الله بعمله أم لم يقل لهم . فطلب ذلك إليهم عبث وسفه وجهل ، ودين الله لا يأمر بذلك ، ولأنهم من عالم الغيب، ولا يجوز للمؤمن أن يتصل بعالم الغيب إلا من طريق الدين والرسالة الالهية . وأديان الله لم تأمر بدعاء الملائكة والاستشفاع بهم ، بل نهت عن ذلك وحاربته. ولأن الرسول وأصحابه لم يحاولوا الاتصال بهم ، ولادعاءهم والاستشفاع بهم قط . ولو كان ذلك مشروعاً مثاباً فاعله لما جاز أن يتركوه ألبتة .

وإننا نطلب إلى المخالفين جميعاً أن يرونا دليلا واحدا يذكر أن الرسول أو أحد الأئمة الراشدين طلب من ملك شفاعة أو دعاء أو نحو ذلك ، ولأن الاتصال بالملائكة وسؤالهم هو كالاتصال بالجان وسؤالهم ، كلاهما فيه خطر على العقيدة وطغيان على مكان الايمان . فان من أجاز لنفسه سؤال الملائكة أو الجان الشفاعة وهم من عالم الغيب ، وقد وصفوا بالقدرة الخارقة ، فقد تجيز له نفسه يوماً ماهو فوق ذلك من عبادتهم ووصفهم بما ليس لهم من أوصاف الربوبية وصفات الرب ، ولأنه يجوز أيضاً أن يقال إن الدين تشريع وتوقيف ، لا يجوز الابتداع فيه ولا الاختراع والاستحسان ، ودعاء الملائكة وغيرهم من عالم الغيب لا يجوز ولا

يمكن إلا بوحي ، وليس لدينا وحي يجوز دعوة عالم الغيب والاتصال به بنوع من أنواع الاتصالات .

هذا كله من دلائل بطلان دعوة الملائكة وغيرهم من عوالم الغيب كالجان ، وكالحور المخلوقة فى الجنة ، وكالعوالم الأخرى، ومخلوقات الله لا يعلمها إلا الله .

جواب دليله الرابع

وأما دليله الرابع ، وهو أنه صح أن الجماد يشفع وأن الحجر الأسود يشفع ويشفع يوم القيامة فى من استلمه ، فالجواب أن يقال : إن هذا من أعظم الدلائل وأظهرها على بطلان ماأتى به هذا المخالف و بطلان مااختلق وزوّر ، وذلك أننا نقول له : إذا كان الله قد أعطى الجماد الشفاعة ومع هذا لم يجوز أحد طلبها منه تبين أنه لا يدل اعطاء الشىء الشفاعة على جواز طلبها منه والاستشفاع به،وعليه لا يلزم إعطاء الصالحين الشفاعة جواز أن تطلب منهم وأن يستشفع بهم كما أعطى الحجر الأسود ذلك ولم يقل أحد إن الاستشفاع به مشروع جائز . وليس أمام الرافضى إلا أن يزعم أن الاستشفاع بالجماد يجوز، فيزعم أنه يجوز للمسلم أن يقول للحجر الأسود اشفع لى ، وادع الله لى !! فاذا زعم هذا و بلغته حاله قلنا : عليه وعلى دينه العفاء .

جواب الخامس

وأما دليله الخامس ، وهو أنه لا يمكن أن يقال إن الله أعطى عباده الشفاعة ومنع طلبها منهم ، لأن الحق لا يمكن أن يكون طلبه وسؤاله باطلا ، فنقول : إن الجواب عن هذا هو الجواب عن دليله الأول ودليله الثالث ، فليرجع إليهما .

جواب السادس

وأما دليله السادس ، وهو الأخبار المذكورة ، فالجواب أن نقول :

أما الحديث الأول ، وهو قوله إن آدم تشفع برسول الله قبل خلقه ، فهو يعنى به الحديث المشهور على ألسنة جهلاء العلماء والفقهاء والعامة ، وهو ما رواه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك

بحق محمد لما غفرت لى ، فقال الله يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ما خلقتك » .

ولكن هذا الحديث مكذوب موضوع كما ذكر الحافظ الذهبى فى تلخيص المستدرك فلا حجة فيه . وسوف يجىء الكلام عليه فى باب التوسل من هذا الجزء . والذى نقوله هنا هو أن الرافضى قد غلط غلطاً فاحشا فظيعاً ، وذلك أنه زعم بهذا الحديث أن آدم قد استشفع بمحمد ﷺ قبل خلقه ! وهذا خطأ لا يقدم عليه إلا مثله . وذلك أن الاستشفاع هو طلب الشفاعة وطلب الدعاء كما ذكر هو فى كلامه السابق . فالاستشفاع فيه خطاب المستشفع به ورجاء وسؤال الشفاعة منه . والذى لم يخلق كيف يمكن خطابه وسؤاله وطلب الدعاء منه إلا أن يكون ذلك على وجه التوصية التى لا يتوجه فيها الخطاب للموصى له إلا بعد خلقه ورشده ووجود عقله ؟ ولكن هذا ليس من هذا النوع يقيناً . فأغبى الأغبياء ، وأجهل الجهلاء وأضل الناس عقلا وفهماً لا يمكن أن يطلب ممن لم يخلق الشفاعة والدعاء طلبا صحيحاً حقيقياً ، ولا يمكن أن يتوجه إليه بالخطاب والاستشفاع .

من تخليط المخالف

وهذا الرجل يزعم على آدم أبى البشر أنه دعا النبى عليه السلام واستشفع به وطلب منه الشفاعة وخاطبه وسأله قبل أن يخلق وقبل أن يكون قادراً على السماع وعلى الشفاعة والدعاء والخطاب ، لأنه لم يخلق . وهذا غاية القدح فى آدم وفى عقله ودينه ، وغاية القدح فى رسول الله إذ نسب إليه أنه قاله ، وغاية القدح فى عمر ابن الخطاب إذ زعم أنه حدث به عن رسول الله ، وغاية القدح فيمن رواه من المحدثين إذ ذكر أنهم رووه وذكروه فى كتبهم !! وآدم ورسول الله وعمر

ابن الخطاب والمحدثون والمسلمون بريئون ، والحمد لله ، من هذا التخليط ، ومن هذه التهمة المنكرة الباطلة . والحديث ، لو كان صحيحا ثابتا ، ليس فيه شئ من الاستشفاع والخطاب وطلب الدعاء ، وإنما الذى فيه سؤال الله بحق النبى عليه السلام . فالخطاب والطلب لله وحده لاشريك له ، وإنما طلب ودعا وخاطب سائلا بحق محمد . وفرق عظيم بين الطلب من الله بحق أحد خلقه ، وبين طلب ذلك « الأحد » وسؤاله مباشرة . فان الأول خطاب لله والثانى خطاب لغير الله ، والفرق بين الأمرين ظاهر معروف لا يخفى . هذا على افتراض صحة الخبر ، ولكنه غير صحيح كما سوف يجئ القول فيه .

كشف القبر النبوى إلى السماء

وأما قوله : « وتشفع الصحابة بالنبى عليه السلام » فهو يشير به إلى ماروى أن أهل المدينة قحطوا فشكوا إلى عائشة رضى الله عنها فقالت : انظروا إلى قبر رسول الله فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لايكون بينه وبين السماء سقف ، ففعلوا فمطروا مطرا غزيراً .

سند الخبر

والكلام على هذا الخبر من ناحيتين : ناحية إسناده وناحية معناه ، أما إسناده فليس صحيحا لأمرين اثنين ، أولهما أنه من حديث محمد بن الفضل السدوسى المعروف بعارم عن سعيد بن زيد أخى حماد بن زيد الإمام المشهور عن عمرو بن مالك النكرى عن أبى الجوزاء أوس بن عبدالله الربعى عن عائشة رضى الله عنها . هكذا رواه الدارمى فى سننه . وهذا الاسناد فيه مقادح أربعة : أولها أن عارماً هذا ، وإن كان ثقة إماماً من رجال الصحيح الأثبات ، إلا أنهم ذكروا أنه فى آخر عمره تغير واختلط ، وأن حديثه لذلك قسمان : قسم صحيح وهو ما كان حدث به قبل التغير والاختلاط ، وقسم ضعيف وهو ما كان بعد ذلك ، وهذا الحديث لا يدرى من أى القسمين هو . وثانيها أن سعيد بن زيد قد تكلم فيه وضعف حديثه ، وقد وثقه آخرون . وثالثها أن عمرو بن مالك

النكرى هنا ضعف أيضاً وخاصة إذا حدث عن أبي الجوزاء وهو هنا عنه ، وممن ضعفوه إمام الحديث البخارى . وقد ذكروا أنه حدث عن أبي الجوزاء عدة أحاديث غير صحيحة ولا محفوظة ، كذا ذكر ابن عدى الحافظ . ورابع المقادح أن أبا الجوزاء ، وإن كان ثقة إماماً ، إلا أنهم ذكروا أن حديثه عن عائشة مرسل لأنه لم يلقها ، كذا ذكر البخارى وابن عدى وغيرهما ، فهذه الرواية مرسلة . واجتماع هذه المقادح الأربعة فى مثل هذا الخبر يمنع صحته ويرد على من زعموا أنه خبر صحيح . وحديث تجتمع فيه هذه العلل لا يصح الاحتجاج به فى مثل هذه المباحث التى يطلب فيها اليقين والصحة الظاهرة .

علة أخرى

ثانى الأمرين الدالين على أن الخبر غير صحيح مخالفته لسنة المسلمين وسنة الاسلام ، ولعمل الرسول وأصحابه والمسلمين من بعده عند القحط وانحباس السماء والماء . فإن الرسول عليه السلام وأصحابه والمسلمين كانوا إذا اشتد عليهم القحط وامتنع الغيث والمطر فزعوا إلى صلاة الاستسقاء ، وصلاة الاستسقاء معلومة فى الاسلام والدين ، لها أبواب ومباحث مطولة معروفة فى كتب الحديث وكتب الفقه . وقد صلى رسول الله صلاة الاستسقاء ، وصلاها أصحابه وخلفاؤه من بعده ، وصلاها المسلمون من بعدهم ، وأقرتها وقالت بها جميع المذاهب الاسلامية . وقد قحطوا فى عهد الرسول عليه السلام وطلبوا منه أن يستسقى لهم مرات عدة ، فكان يستسقى تارة بالصلاة والدعاء فى الخلاء ، وتارة بالدعاء وهو فوق المنبر يخطب ، وتارة وهو جالس يدعو ويستسقى . . . ولكنه لم يقل مرة واحدة حينما طلبوا منه السقيا ، وحين عضهم الجدب : إنه يكفيكم أن أبرز بيدنى إلى السماء أو يبرز قبرى ، كما زعم فى هذا الخبر الضعيف ، بل ولم يفهم أحد من أصحابه هذا المعنى ، ولهذا علموا أنه لابد من الاستسقاء . وقد أجدبوا فى زمن عمر بن الخطاب فاستسقوا بالعباس بن عبد المطلب ، كما تقدم مرات وكما سوف يجىء بيانه

وما قال عمر ولا العباس ولا غيرهما من الصحابة والمسلمين : اكشفوا قبر النبي وافتحوا كوة بينه وبين السماء ، كما قيل في هذا الحديث الباطل . وأجدب كذلك المسلمون من بعد ، فكانوا جميعاً يفزعون إلى صلاة الاستسقاء وإلى الدعاء ، دعاء الاستسقاء . وما ذكر أحد من أهل العلم أولى الابصار والبصائر في الاسلام وحملته : أن فتح هذه الكوة المزعومة من سنة الاستسقاء ومن الأمور المرغوب فيها عند الجدب ، بل هم يذكرون كل ما يفعل وما يطلب فعله عند طلب السقيا ولكنهم لا يذكرون هذا لأنه ليس معروفاً لهم ولا معلوماً في الاسلام . فهذا الخبر غير صحيح لأنه مخالف السنة المعلومة التي لا يختلف فيها المسلمون .

علة ثالثة

على أنه لا يجرى للخبر معنى ولا يمكن أن يصح له وجه من الوجوه ، فأى معنى في إبراز القبر إلى السماء ؟ وأية عبادة فيه يستنزل بها المطر ويستدفع بها القحط والقصر ؟ وأية حكمة في هذا ، وأى أصل من أصول الشريعة يوافقه أو يجعل حكمه أو يقبله ؟ إنه لو كان لهذا معنى ووجه لكان ابراز المصحف أولى من إبراز القبر للتقرب إلى من يتنزل الله به الغيث والمطر على عباده ، ولكن كلا ، لا شيء من ذلك يتقرب به إلى الله وتستنزل به رحمته ، وإنما تستنزل رحمة الله وغيثه بالدعاء والصلاة والتوبة والعبادة والاستقامة على الطريقة والفزع إلى الله بالآمال والأعمال كما قال تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » وقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » وقال : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » وقال : « وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » - إلى غير ذلك من آى الكتاب الدالة على أن الغيث والخير

يستنزلان بالطاعات والأعمال الصالحة وبالدعاء والاستغفار ، لا باظهار القبور إلى السماء أو غيرها : هذا كله مما يدل على ضعف الحديث وعلى بطلانه وكذبه .

معنى الخبر إذا صح

أما الكلام عليه من الناحية الأخرى ، أعنى ناحيـة معناه ، فنقول : إن هذا الخبر ، على فرض ثبوته ، لايدل على ماذهب إليه الشيعى المخالف ولا على ما أراد منه ، فانه هو زعم أن الصحابة قد تشفعوا برسول الله ؛ والاستشفاع ، كما تقـدم فى ماذكر هو ، معناه طلب الدعاء من المستشفع به . فقوله : إن الصحابة استشفعوا بالنبى معناه أنهم طلبوا منه الدعاء والشفاعة ، ولـكن الخبر ليس فيه طلب ولا استشفاع ما . لامن النبى ولا من الله ولا من أحد ما ، وإنما فيه إبراز القبر وفتح كوة منه إلى السماء ؛ وفيه أنهم صنعوا هذا وأنهم أغيثوا . فهو ، لوكان صحيحاً ، وان يكونه ، لايشهد لما ذهب إليه المخالفون من الشفاعة والاستشفاع والدعاء وطلب الدعاء أبداً .

الاستشفاع بالأحياء

وأما قوله : « وتشفع عمر بالعباس » فالجواب أن يقال : إن المخالفين لهذا المصنف ولإخوانه من أنصار الابتداع والزور ، لايخالفون فى جواز طلب الشفاعة والدعاء من الأحياء الصالحين ، بل هم أنفسهم يفعلون ذلك . فكأن هذا الرافضى لايدرى ماالنزاع والخلاف بينه و بين مخالفيه ! ولا خلاف بين الناس أن العباس كان حيا سويا حينما استسقى به عمر والمسلمون معه وتوسلوا . وللكلام فى الحديث مزيد و إيضاح سوف يذكران فى هذا الجزء .

وأما قوله : « وأقر النبى ذلك الأعرابى الذى قال : إنا نستشفع بك على الله» . فالجواب أن يقال : الـكلام فى هذا الحديث كالـكلام فى الذى قبله وهو أنه فى غير محل النزاع والخلاف ، لان الاستشفاع بالحى القادر على الشفاعة لا خـلاف فى جوازه بين المسلمين ، وهذا الأعرابى قد استشفع بالنبى وهو حى بلا خلاف . فلا معنى لما ذكر الشيعى

وأما قوله : « وصح أن الذين يصلون على الميت شافعون » فيقال : هـذا كالذى قبله ليس فى مكان النزاع ، لأن الذين يصلون على الميت هم الأحياء دون الأموات ، والاحياء ، كما قلنا مرات ، يستشفعون و يشفعون بلا خلاف .

استشفاع أنس بالنبى عليـه السلام

وأما قوله : « و روى الترمذى عن أنس بن مالك أنه قال: سألت رسول الله أن يشفع لى يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل » فالجواب أن الترمذى قال بعد إخراج الحديث : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وفى سنده أبو الخطاب حرب بن ميمون ، ضعف و وثق ، وممن ضعفوه شيخ المحدثين البخارى... فحديث يقول فيه الترمذى : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الطريق الحسن الغريب والترمذى معروف لينـه وتساهله فى نقد الرواة والروايات ، وفيه أيضاً من ضعفه البخارى ، وحسبك به ناقدا حجة فى هذا الشأن ، كيف يحتج به فى مثل هـذه المطالب العليا والمباحث الاعتقادية العظيمة ؟ وكيف يقبل المصنف الشيعى هذا الخبر الغريب فى مثل هذه المسائل وهو يكذب عشرات الأحاديث الصحاح فى تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة فيها و إليها ، كما سوف يأتى أنه يقدح فى تلك الاحاديث كلها و يضعفها ، وهى مخرجة فى الصحاح والسنن والمستدركات والمسانيد والمعاجم وفى كتب الفقه بل وفى جميع كتب الاسلام بل وقد أجمع على صحتها وثبوتها عن رسول الله ؟ ؟

معنى هذا إذا كان صحيحاً

ثم يقال إن هذا الحديث ، على تقدير صحته ، خارج عن محل النزاع أيضاً لأن أنساً طلب الشفاعة من النبى عليه الصلاة والسلام وهو حى ، وطلب الشفاعة من الأحياء لم تنازع نحن ولا غيرنا فى جوازه كما قلنا مرات .

فان قيل هذا لا يوافق ما ذكرتموه من أنه لا يشفع أحد لأحد عند الله إلا بعد إذنه بالشفاعة و بعد رضاه عن المشفوع له ، وما ذكرتم من أن من استحق الشفاعة نالها سواء أطلبها أم لم يطلبها ، ومن لم يستحقها فلن تناله و إن طلبها وأوغل فى

الطلب ، وما ذكرتم من أنه على هذا لا معنى للاستثناء لأنه لا يقدم ولا يؤخر ولا يفيد : إن قيل هذا قلنا هذا الذى ذكرناه صحيح لا ريب فيه ولا غبار عليه وقد شهد له الدين جملة وتفصيلا . أما الحديث ، على تقدير ثبوته ، فيقال فيه : لعل أنسا لم يعلم ذلك حين طلب من النبى ، وهذا لا مانع منه ولا نقص فيه . وأما إقرار النبى عليه السلام له وقوله : « أنا فاعل » فلعله يريد بذلك الشفاعة العامة التى ستنال كل من مات لا يشرك بالله شيئاً . وقد علم رسول الله أن أنساً لن يشرك بالله شيئاً ، وعلم أنه سوف تناله شفاعته ودعوته لذلك . فالرسول عليه الصلاة والسلام أجاب أنساً إلى ما علم أنه سيكون له ولا بد سواء أطلبه منه أم لم يطلبه . فكان قوله عليه السلام فى هذا الحديث : « أنا فاعل » فى معنى قوله إن شفاعتى ستنال كل من مات لا يشرك بالله شيئاً . أو لعل هذه الشفاعة التى طلبها أنس شفاعة خاصة به دون الجميع جزاء خدمته رسول الله وملازمته إياه الاعوام الطوال ملازمة الخادم الخاص الامين . وقد خص رسول الله كثيراً من أصحابه بخصائص معلومة جزاء أعمال عملوها ، وخلائق فاضلة اتصفوا بها ، فكأن أنسا رضى الله عنه طلب أن تكون له شفاعة خاصة به غير الشفاعات المعلومة التى سيكون له منها قسم ونصيب وإن لم يطلبها : هذا كله لا مانع منه دينا ونظراً .

قصة سواد بن قارب ضعيفة

وأما قوله : « وطلب سواد بن قارب من رسول الله أن يشفع له يوم القيامة بقوله : فكن لى شفيعاً . البيت . » فالجواب أن هذه القصة ، قصة سواد بن قارب ، ضعيفة الاسناد كما ذكر ذلك الحافظ الهيثمى صاحب مجمع الزوائد . ولهذا لم يرو القصة أحد من أصحاب الصحاح ولا أحد من أصحاب السنن ولا أحد من المؤلفين فى الصحيح ، المتحرين الثابت دون الضعيف والباطل والمكذوب ، وإنما رواها الطبرانى فى المعجم ، والطبرانى يروى الضعيفات والموضوعات المكذوبات ويروى المتردية والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع ، كما يعرف أهل هذا الشأن .

وروى القصة أيضا أبو نعيم فى دلائل النبوة باسناده. وعادة أهل الرواية أنهم يتساهلون فى مثل هذه المسائل التى فيها إعظام من شأن النبى ومن شأن الاسلام، ويلينون فى نقد رواياتها وتخريجها . . فلا يصح الاحتجاج بهذه القصة الضعيفة الباطلة فى هذا الموضوع الجلل .

على أن هـذا الخبر لو كان صحيحاً لـكان خارجاً عن محل النزاع لأنه من الاستشفاع بالحى وهو لا خلاف فى جوازه .

وأما ما ذكره عن تبع الحيرى فيقال فى الجواب : وأين الاسـناد لذلك ؟ ومن الذى رواه من أهل العلم والدراية والرواية والمعرفة ؟ فان استطاع هذا المخالف أن يصحح هذا الخبر وأن يقيم له اسناداً مقبولا ورواية قائمة ساغ له أن يحتج به وأن يرد به على المخالفين، وأن يؤول لأجله آيات الـكتاب ومتواتر السنة . أما بغير ذلك فلن يعبأ به .

علم الرواية

ونحن لا ننازع ولا نشك فى أن هنالك أخباراً كثيرة مكذوبة عـلى الله وعلى دينه ونبيه لو صحت كانت دليلا على بعض الباطل الذى يدعو إليه هؤلاء القوم، ولـكن رحم الله أهل الاسناد والرواية، وجزاهم عن الاسلام والعلم والنبوة أفضل الجزاء . فلقد دفعوا عن الاسلام والعلم بعلم الاسناد وقوانين الرواية شراً كثيراً كان أراده أهـل الـكيد والغدر والدهاء المر الخبيث بهما، فدفعه الله بعلم الاسناد وعلوم الرواية . ولولا الاسناد لقال من شاء ماشاء، ولما عرف حق من باطل ولا صادق من كاذب، ولاختلط الخبيث بالطيب والـكذب بالصدق، وكلام الأنبياء بكلام الـكاذبين الجاهلين وصنوف النادرين . . . ولـكن الله جلت قـدرته وحكمته شاء لهـذا الدين أن يحفظ لأنه شاء له أن يكون خاتم الأديان، وآخر رسالات السماء إلى نوع الانسان .

وأما حديث عثمان بن حنيف وقوله : إنه علم رجلاً فى خلافة عثمان أن يقول فى دعائه : يا محمـد إنى أتوجه بك إلى ربك فى حاجتى هـذه لتقضى، وإن ذلك

الرجل فعل ماأمره به ابن حنيف فنال حاجته ، فنقول إن فى هذا الحديث كلاماً طويلا وتحقيقاً وا.. .أ ..وف نذكره فيما بعــد من هذا الجزء إن شاء الله . وسوف نتكلم عليه إن شاء الله بما يستحق من العناية والتحقيق ، لأنه هو أعظم ما مع دعاة الأموات من الشبهات .

رواية اذكرنا عند ربك

وأما ما ذكر أيضاً عن أبى بكر وعلى من أنهما أكبا على النبى عليه السلام وهو ميت وقبلاه وقال كل منهما : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك . فنقول : يعوز هذا النقل الاسناد والصحة ، فان الرواية بغير إسناد لا تقبل عنــدنا فى دين الله . والإسناد هو الفاصل بين الحق والباطل وهو الفيصل بين الصدق والــكذب . وليس من الاسلام ولا من العــلم فى قليل ولا كثير أن يقول القائل : جاء عن فلان كذا وعن فلان كيت من غير أن يسند ما قال ويصححه ، ومن غــير أن يورد لمــا يذكر رواية لا صحيحة ولا ضعيفة . وليس بنافع هذا المخالف أن يجد ما يذكره مذكوراً فى بعض الــكتب المطبوعة المشهورة . فاننا نعرف ونعــترف أيضا أن الباطل موضوع فى الــكتب مطبوع مقروء ، يحفل به ما شاء الله من الجماهير والدهماء ، ولـكن ليس بنافع الباطل عند الحق أن يدون فى الأسفار الضخمة وعــلى القراطيس الصفراء والبيضاء . وإنما الذى ينفع عند الحق هو الاثبات وإقامة الحجة الظاهرة المقبولة . فأين الاثبات هنا لما نقله عن أبى بكر وعلى ؟ بل وأين الاسناد لذلك ــولو ضعيفاً هالــكاــ ؟! أبالأباطيل التى لا أسانيد لها يسوغ لمن يخشى الله ولمن يحترم العــلم والقرآن أن ينازع ويجادل وينازل ويصاول ، بل ويهجو ويسب ، ويقول ما يقول هــذا من الأراجيف والأباطيل ؟

نعم جاء فى صحيــح البخارى أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنــه ، دخل عــلى رسول الله حين توفى وقال : بأبى أنت وأمى ، طبت حيــا وميتا ، والله

لا يذيقك الله الموتتين أبداً ، وأكب عليه وقبله . وأما أنه قال اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك أو من بالك ، أو أن عليا قال ذلك ، فشئ لم نره ولم نعرفه ، ولم يذكره البخارى فى هذا الحديث ولا فى غيره ، ولم يروه أحد من فرسان الحديث فيما نعلم . فعلى المخالف أن يقيم الاسناد لما ذكر واحتج به وأن يصحح ذلك الاسناد ، و إن لم يفعل ـ ولن يفعل ـ فليدع المراء والجدال بغير الحق ، فان للحق أنصاراً وحماة يغارون عليه ويحامون دونه ويدفعون عنه العدوان والتضليل ، فليدع المراء والجدال بغير الحق .

لو صحت الرواية لما دلت

على أن هذا النقل لو صح لما دل على جواز الاستشفاع بالموتى وطلب الدعاء منهم . وذلك أن الذين ذكروا هذا النقل كصاحب « المواهب اللدنية » ذكروا معه أن الناس حين بغتوا بخبر وفاة النبى عليه الصلاة والسلام طاشت عقولهم ، فنهم من خبل ، ومنهم من أقعد فلم يستطع القيام ، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام ، ومنهم من أضنى . وكان عمر بن الخطاب ممن خبلوا ، وكان عثمان ممن أقعدوا فلم يستطع حراكا ، وأضنى بعضهم فمات كمداً ، وكان أثبتهم أبو بكر الصديق جاء وعيناه تهملان ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد وترتفع ، فدخل على النبى وقبله وقال ماذكروا أنه قاله . فان كان هذا صحيحاً ، كما زعموا ، لم يكن دالا على ما ذهبوا إليه يقيناً ، وذلك لأنهم ذكروا أن العقول قد طاشت فى تلك الساعة الأليمة ، ومعنى هذا أنها خرجت عن صوابها حتى خبل فريق ، أى فقد رشده وصوابه وعقله ، وأخرس فريق وأقعد فريق آخر ، إلى آخر ماذكروا . وساعة تصل فيها العقول والقلوب والنفوس إلى هذا المكان من القلق والاضطراب والفزع والانفجاع ـ إلى حد الخبل والخرس والموت جزعاً وهولاً ـ لا يصح أن يحتج بالكلام الذى يقع فيها والالفاظ التى تتساقط من هولها وبلواها بلا ريب . فان هذه الحالة مظنة لأن تقول الألسنة فيها مالا تعتقده العقول ، وأن تعتقد

العقول والقلوب مالا يصح ومالا يمكن أن تعتقده لو كانت مالكة صوابها ورشدها وهداها .

كلام المصاب لا يحتج به

وقد عرف أن الناس فى وقت الهلع والمصائب كثيراً مايقولون أقوالا لا يرضونها ولا يقولونها أو يقرونها فى أوقاتهم وحالاتهم العادية الساكنة ، وعرف أن الألسنة قد تتفوه بمالا تدرى وبما لا تعى عقولها وقلوبها . وقد قال عمر بن الخطاب ، وهو الرجل الحازم الصلب ، يوم أن مات رسول الله : من زعم أن محمداً قد مات أشطت دمه بسيفى هذا . ولولا الهلع والفزع الآخذان بناصية رشده وقلبه فى تلك الساعة النكراء لما قال ذلك الذى قال ، لأنه لا يخفى على مثله أن رسول الله سوف يموت كما مات الأنبياء والرسل قبله ، وكما يموت سائر الخلق . وقد ذكر القرآن نبأ موته عليه الصلاة والسلام فى آيات قرأها عمر وقرأها غيره من المسلمين وعرفها الخاصة والعامة . وعلى كل حال كلام المصاب إذا اشتدت مصيبته وعظمت لا يصح أن يحتج به ولا يصح أن يكون مذهباً ورأيا لقائله يؤاخذ به ويعد عليه . وقد علم أن المحب إذا أصيب بفراق حبيبه أو فقده يقول ويفعل مالا يصح من سواه ومالا يصح منه نفسه قبل مصيبته . . . فيخاطب آثار المحبوب الراحل ويناديها ويحج إليها ويستلمها ويقبلها ويطوف بها ، وقد يخاطب أثوابه وصوره ويدعوها ويكلمها كأنه يخاطب حبيبه حقيقة ، وكأنه حاضر عنده يراه ويسمعه ، وكأنه واقف بين يديه ، وكأنه يخاطب حيا سميعا بصيراً .

وإذا بلغت الحالة بالمصاب المفجوع إلى هذا الحد فالله أكرم وأرحم من أن يؤاخذه بما يقول وما يفعل فى تلك الساعة وتلك الحالة التى فقد فيها صوابه وهداه . ولن نظن أن الله مؤاخذ عمر رضى الله عنه إذ أنكر موت النبى وقد مات وإذ زعم أنه قاتل من قال بموته من المسلمين ، كما لا نظن أنه تعالى مؤاخذ أولئك الذين زعم هؤلاء أنهم خبلوا وأقعدوا وأخرسوا وماتوا كمدا حينما بلغهم موت

النبي عليه الصلاة والسلام . فالاحتجاج بهذا النقل، لو كان صحيحاً ، لا يصح عندنا ولا عند غيرنا إذا صح ما ذكروه من طيش العقول واضطرابها وبلوغها تلك الحالة التي وصفوها و وصفوا ما فيها من الخبل والخرس والاقعاد والموت من الكمد والجزع . والله أعلم .

الخطاب نوعان

فان قيل إن فى الرواية التى رواها البخارى والتى أقررتموها ، وهى قول الصديق : « بأبى أنت وأمى ، طبت حيا وميتا ، والله لا يذيقك الله الموتتين أبداً » ـ دليل على جواز خطاب الموتى ، وخطابهم دليل على سماعهم وإلا لما خوطبوا ، لأن الخطاب يراد به الاسماع والابلاغ ، ولا يحاول اسماع وإبلاغ من لا يمكن إسماعه ولا إبلاغه ، وأنتم تدعون أن الأموات لا يخاطبون ولا يسمعون من خاطبهم من أهل الدنيا ، وهم إذا كانوا يسمعون الخطاب فما المانع من دعائهم وندائهم وطلب الشفاعات منهم ؟ وقد جعلتم برهانكم على بطلان دعاء الموتى ادعاءكم أنهم لا يسمعون الدعاء والنداء ، ولا يعلمون عمن اتصل بهم شيئاً ، استدلالا بالآيات التى ذكرتموها و زعمتموها براهين على أنهم انقطعوا عن الدنيا وأهلها فليس بينهم و بينهم سبب من الأسباب ولا علاقة من العلاقات يتمسك بها أحد الفريقين : لئن قيل هذا ، قلنا فى الجواب عنه : إن الخطاب لم يوضع أصلا فى ما للسان ليوجه إلى من يسمع دون من لا يسمع ، أو إلى الحاضر دون الغائب ، أو إلى الحى دون من مات ، أو إلى العاقل دون من لا يعقل من الجماد والأحجار والأشجار . بل قد وجه الخطاب إلى السامع وغير السامع ، وإلى القريب والبعيد ، وإلى الحى والميت ، وإلى العاقل العالم وإلى الجماد الذى لا يعقل ولا يشعر ولا يعلم شيئاً . والدلائل على ذلك من كلام العقلاء شعراً ونثراً ومن نصوص الدين ، لا يجمعها جامع ، ولا يحيط بأفرادها محيط ، ومن الدلائل الدينية على ما ذكرناه السلام على الأموات بلفظ الخطاب ، فان الزائر للمقابر

قد يجوز خطاب الأموات

يشرع له أن يسلم وأن يقول فى سلامه : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » . وليس معنى هذا السلام وهذا الخطاب أن الأموات يسمعون ذلك وأنه يراد إسماعهم يقيناً ، لأنهم قد يكونون فى حفر لو كانوا فيها أحياء لما سمعوا دعاء من دعاهم ولا سلام من سلم عليهم لكثرة الحوائل وفقدان المسالك . ومن الدلائل على ذلك أيضاً السلام على النبى فى تشهد الصلاة ، فان المصلى يقول فى تشهده : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . يقال ذلك فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته فى كل مكان وزمان . ولا يستطيع مسلم ولا عاقل غير مسلم أن يزعم أن النبى عليه السلام حاضر مع كل مصل مسلم عليه ، سامع سلامه وخطابه فى كل مكان ومن كل مكان لأن معنى هذا القول وجوده فى كل مكان وسماعه كل صوت وخطاب فى وقت واحد ، وهذا لا يقول به المؤمنون بالله وبعقولهم . وقال ﷺ لما مات ابنه إبراهيم : « العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا مايرضى الرب ، وإنا بك ياإبراهيم لمحزونون» . ولاشك لدينا أنه لاسماع فى هذا الخطاب. ومن ذلك قول نبى الله صالح لقومه بعد أن أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين من سورة الاعراف : « فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين » وقول نبى الله شعيب لقومه بعد أن هلكوا من سورة الاعراف أيضاً : «فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » . ولا شك ولا تردد أن هذا الخطاب وهذا النداء خطاب ونداء غير حقيقيين، وأنه لاسماع هنا ولا حضور ولافهم ولامعنى من المعانى القائمة بالمخاطب السامع الفاهم . ونظائر هذا فى الشريعة كثيرة مفهومة .

خطاب الجماد

أما هذا النوع فى كلام البلغاء من الشعراء والناطقين وسائر أصناف بنى آدم

فشىء لا تمكن الاحاطة به ولا جمعه ، وشىء يعرفه الخاصة والعامة والجهلاء والعلماء فقد خاطبوا الديار والآثار والرياح والنسائم ، وحملوها تحيات الحبائب ، وحملوها النجائب ، وخاطبوا الشمس والقمر والنجوم والسماء ، وسألوها عن الاحباب والأصحاب ، وخاطبوا السحاب ، وخاطبوا الليل والنهار ، وخاطبوا الخيال والطيف والنوم ، وخاطبوا النجائب والركائب ، وخاطبوا غير ذلك مما لا يعقل ولا يفهم ولا يسمع ، وشواهد هذا غنية عن إيراد شىء منها . وقد رثوا الأموات الذين تقاسمتهم السباع والضباع وصنوف الوحوش والطيور ، والذين ابتلعتهم البحار حتى لا يعلم لهم عين ولا أثر ، والذين أكلتهم النيران فطيروا مع ذرات الرياح وذواريها رثوا هؤلاء الموتى فخاطبوهم خطاب الحاضرين السامعين الفاهمين ، وهم يعلمون أنهم لا يسمعون ولا يعلمون من خطابهم وأمرهم وحالهم شيئاً .

المنكر من خطاب الأموات

كل هذا فعله الناس العقلاء ، وكل هذا لا يدل على سماع المخاطب وفهمه وإجابته وضره ونفعه بلا ريب ، فكذلك ما كان مثله مما جاء فى الشرع ونصوصه الصحيحة . والذى ننكره نحن من الخطاب هو الخطاب الذى فيه طلب وسؤال ورجاء وخوف وخشوع وخضوع ، لا مطلق الخطاب ، فاننا نقول فى اليوم والليلة مرات : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ونقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ونقول : رحمة الله عليك ياأبا بكر ، لقد كنت برا بنبيك ، مخلصاً لربك ، ناصراً لدينك . . . رحمة الله عليك أيها الفاروق ، لقد كنت شديداً فى الحق ، شديداً على الباطل ، قامعاً لأهل النفاق ، مذلا للكفر وأشياعه ، ناصراً للاسلام ، ناشراً لراياته على هام الأنام . . . رحمة الله عليك ياعثمان بن عفان ، لقد كنت هيناً لينا حييا ، تكره الشر وأهله ، وتحب الخير والسلامة والرفق حتى ذهبت ضحية الرفق واللين شهيدا مظلوماً . . . رحمة الله عليك ياابن أبى طالب

لقد كنت سيفاً و بحرا وحكمة . .

و بهذا التخريج الصحيح يخرج ماجاء من الخطاب للأموات فى النصوص الصحيحة كقول فاطمة رضى الله عنها ترثى أباها : ياأبتاه ، أجاب رباً دعاه ، ياأبتاه ، فى جنة الفردوس مأواه ، ياأبتاه ، إلى جبريل ننعاه . و إن كان هذا ندبة لا نداء .

وأما ماذكر عن شرح المواهب للزرقانى من أن الداعى إذا قال فى دعائه : اللهم إنى أستشفع إليك بنبيك ، يانبى الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له ، فقول على الله وفى دين الله بلا سلطان من الله ، فلا يعبأ به .

ليس كل ما كتب دينا

إنما قد قلنا مرات إنه ليس كل ما كتب حجة على الاسلام ، وقلنا أيضا مرات إن الضلال والخطأ يطبع و ينشر و يقرأ ، و يعمل به الجماهير والخلق الكثير ، و إن الشيخ الكبير والعلم من العلماء قد يقول مالا علم له به ، ومايعجزه أن يقيم عليه الحجة والبرهان . وماذا ينفع الباطل وأهله عند الحق وأهله أن يجد الباطل من يقوله ، وأن يجد من يكتبه و ينشره ، وأن يجد من يطبعه ؟ وماذا يجدى المخطىء أن يجد له سلفا فى الخطأ وشيعة فى الباطل ، وماذا يجديه أن يقلد فيه ؟ هذا كله لايجدى شيئاً ، ولكن الذى يجدى هو البرهان و إن كان لاقائل به ، والحجة الظاهرة و إن كانت قليلة الأنصار والأعوان . فليأتنا هذا المصنف ببصيص من برهان ندن له ، أو رسيس من حق نقل : لبيك وسعديك ، و إلا فلا. وليس يخفى على من تعاطى العلم وتعاطى التأليف فيه حتى دخل فى المضايق والمآزق أن أشياخاً هم أكبر من صاحب شرح المواهب ، وأكبر من هؤلاء الذين ينقل عنهم هذا الشيعى قد أخطؤا وغلطوا وقالوا أقوالا لايقبلها الدين والايمان ، ولا يرضاها المسلمون والمؤمنون ، ولا نعبأ نحن بها لانها لابرهان لها . ولا ريب أنه لو كان الحق بالرجال يعرف لكان شيخ الاسلام ابن تيمية أحق

بالحق من الزرقانى وأضراب الزرقانى ،ولو كان الدين تقليداً مجردا لكان ابن تيمية وتلاميذه أولى بأن يقلدوا من صاحب « المواهب اللدنية » وصاحب شرح المواهب ومن كان مثلهما . فما نقله عن الزرقانى لا ينفعه عند الحق وأهله شيئاً .

وأما ماذكر من أن العلماء ذكروا أن من آداب الزيارة أن يقول زائر النبى عليه الصلاة والسلام : « جئناك لقضاء حقك والاستشفاع بك ، فليس لنا يارسول الله شفيع غيرك ، فاستغفر لنا واشفع لنا . . . »

فجوابه أن نعيد له ماذكرناه مراراً من أننا لا ننازع أن جماعات من الفقهاء والمفسرين والمتكلمين وغيرهم قد قالوا ماليس لهم به من علم ، وأنهم قد غلطوا وأخطأوا وكتبوا مالا يصح أن يكتبوه ومايعجزهم أن يقيموا عليه الحجة والبرهان ونعيد أيضاً ماذكرناه مرات من أنه ليس كل من كتب فى الدين يلزم المسلمين الأخذ عنه والقول بقوله والذهاب إلى ما كتب ودوّن من الأخطاء والآراء . بل لقد أوجب الدين على المسلمين كافة أن يعرضوا جميع الأقوال والآراء على الكتاب والسنة ، فما وافقهما قبل ، وما خالفهما رد ولا كرامة . وألزم الناس جميعاً أن يرجعوا إلى الله و إلى رسوله عند اختلافهم وتنازعهم ، ولم يحل من ذلك أحداً من الناس قال تعالى : «فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » وقال : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ،وأولئك هم أولو الألباب » . وذم فى غير ما آية الذين يقولون : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا إذ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول ، وجعل الذين يأبون الرجوع إلى الكتاب والسنة ، و يأبون التحاكم إليهما عند الاختلاف والنزاع منافقين مرتدين ، فقال : « و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول

الحكم هو الكتاب والسنة

رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » وجعل المؤمنين الصادقين هم الذين يقولون ، إذا دعوا إلى الله ورسوله ، سمعنا وأطعنا فقال : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » ، ونعى على الذين يعرضون إذا دعوا إلى الله ورسوله أشد النعى فقال : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون » .

تتبع أغلاط العلماء

فالمسلم الصحيح الاسلام ليس هو من يتتبع أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ورسالة نبيه ونصوص كتابه المبين ، وليعبد الله بتلك الاغلاط والاخطاء ، وليطاول ويصاول بها الدعاة إلى الدين الصحيح وإلى الكروع فى مناهله الصافية النقية ، والاخذ من معادنه الأولى الجارية : ليس هذا هو المسلم الصحيح الاسلام ، ولكن المسلم حقا هو الذى يستمع القول فيأخذ بأحسنه ، ولا أحسن من قول الله وقول نبيه عليه الصلاة والسلام ، ثم هو الذى يعلم أن الله لم يفترض على عبده أن يدين إلا له تعالى ولما أنزله على رسله وأنبيائه ، والذى يعلم أن من ذهب يؤلف لنفسه عقيدة ولعقيدته مذهبا من أغلاط الغالطين وأخطاء المخطئين فقد اختار لنفسه شر العقائد ، ولعقيدته شر المذاهب ، لأنه يقل أن يسلم عالم من أن يغلط ويخطئ ويذهب مذهبا لم يشرعه الله ولا رسوله ، كما أنه يقل أن يسلم إنسان من أن يقارف إحدى المخالفات ويلامس واحدة من المحرمات لضعفه الجبلى ونقصه المحتوم . فمن بنى مذهبه على أغلاط العلماء فقد جمع لنفسه الشر والنقصان والجهل المفرق فى الأمم والشعوب . ومن أجهل وأنقص حظاً ممن فعل ذلك ؟

وما مثل هذا إلا من ذهب يتتبع سيئات الناس وآثامهم وعثراتهم وملاومهم ليعمل بكل ما وجده من ذلك ، تاركا حسناتهم وفضائلهم وما أتوه من صالحات .

شر المذاهب

ولا يفعل هذا إلا مغمور فى الزندقة والضلال . وذلك لأن لكل إنسان - إلا من شاء الله - هنات ، تقل فى إنسان وتكثر فى آخر ، فأحياناً تغلب الحسنات ، وأحياناً تغلب الهنات والسيئات . فاذا غلبت الحسنات غمرت السيئات وحملت الناس على الإغضاء عنها ، أو على غفرانها وتناسيها ، وإن كانت الأخرى كانت الأخرى . فاذا جاء إنسان وأراد أن ينتزع من كل إنسان سيئاته وهناته دون الحسنات فقد جاء بشر المذاهب والعقائد . وهذا هو ما انتحى إليه هذا الشيعى وأشياعه وأسلافه : فقد قصدوا إلى كل غلطة وقع فيها أحد الفقهاء والمشايخ فى أبواب البدع والقبور وعبادة الموتى ، وركبوا منها هذه الوثنية الكثيفة الشنعاء ، وتركوا مامع هؤلاء الخاطئين الغالطين من الحق والصواب والاسلام . ففلان « مثلا » يقول بجواز شد الرحال إلى القبور ، ولكنه مع ذلك يمنع « مثلا » تقبيل القبر ودعاء المقبور . . . فيعمد هؤلاء إلى قول هذا القائل فى السفر إلى القبور ، ويتركون قوله فى تحريم تقبيل القبور وتحريم دعوة الأموات ، ثم يذهبون يلتمسون غالطين آخرين قالوا بجواز تقبيل القبر وجواز دعوة المقبور ، فيجدون ، ولابد ، من قال ذلك فيأخذون به ويتركون مامعه من الحق والصواب والاسلام . وهكذا يظلون يطوفون على أصناف العلماء وأصناف الكاتبين والمؤلفين ، وجميع أصناف الناطقين يستجدونهم أغلاطهم وأخطاءهم وخطاياهم ، فيركبون منها لهم عقيدة يقاتلون عليها ، ويدعون الناس إليها . وهذا لا يصنعه الازنديق - عياذاً بالله . وقد قال بعض أهل العلم : من تتبع رخص العلماء فقد تزندق . فكيف بمن تتبع اخطاءهم وزلاتهم ! بل كيف بمن تتبع أخطاء الجهلاء وغفلاتهم من المؤلفين الذين لا سابقة لهم فى الاسلام ولا فى

العلم والصلاح والتقى غير أن جاءوا إلى كتب قيمة من تراث السلف الصالح النفيس ، فكتبوا أسماءهم على طررها بعد أن مسخوها وأفسدوها وأدخلوا عليها كل غريب باطل ، وكل دخيل مزدرى ، و بعد أن ملؤها بالشوك والسعدان وقد كانت ، قبلا ، أزاهير و رياحين حبذا الجانى والمجتنى . . .

فالمسلم مطالب أبداً بأن يكون مع الحق أين كان و وقع، ومطالب بأن يجانب الباطل و يهجره أين كان ومع من كان . فليس من الحجة على الحق وأهله أن يقول فلان أو فلان ، وليس المسلم مكلفاً بأن يعبد ر به و يدينه بكل مايقال وكل ما يكتب . وهذا ظاهر .

من ذكر هذا

على أننا نقول لهذا المصنف : إن العلماء كلهم لم يذكروا هذا الذى ذكرت عند الزيارة ، بل ولم يذكره جلهم ، بل ولم يذكره أحد من الأئمة الذين تتبع مذاهبهم ويقتدى بآرائهم وعلمهم . ومن العسير على هذا المصنف وعلى غيره من أشياع الابتداع أن يذكروا لنا نقلا صحيحاً و رواية قائمة مقبولة تثبت أن الامام أبا حنيفة أومالكا أوالشافعى أو ابن حنبل قال ذلك أوأجازه أو أباحه أو ذكر أن له فضيلة ومثو بة ، أو فعله أو رأى من فعله فلم ينكره . وقد وضع الامام الشافعى رضى الله عنه كتاب « الأم » بيده فلم يذكر فيه ذلك ، و وضع الامام مالك « الموطأ » فلم يذكر ذلك ، و وضع الامام أحمد مسنده الجامع الكبير ، وهو الأصل والمرجع الأول لعلوم السنة ولمذهبه ومذاهب أصحابه ـ وضعه رضى الله عنه بيده فلم يذكر فيه رواية واحدة من هذا القبيل . ولم ينقل أصحاب الأئمة الثقات الملازمون لهم العارفون بمذاهبهم وبالمذاهب الاسلامية شيئاً من هذا : لافعله ولا استحبابه ، ولا ذكروا رواية فى فضله وثوابه

هذا كله حق لاريب فيه ، ولكن الذين ذكروا هذا هم الذين ذكروا غيره من الآراء الرخيصة والمعتقدات الضعيفة التى صارت ، فيما بعد ، مادة ومرجعاً

لهؤلاء الجانحين إلى بعض الباطل الذى حار به الاسلام ونبى الاسلام حرباً شعواء طاحنــة . . . وهؤلاء الذين يذكرون هذه الآراء والأقوال المتجافية عن أصول الاسـلام ليسوا حجة بالاجماع : ليسوا حجة عنــد المجتهدين ولا عند المقلدين لأنهم هم مقلدون ، غاية أمرهم وفضلهم وعلمهم أن ينقلوا ويدونوا أقوال الأئمــة السابقين المجتهدين . فاذا جاءوا بشئ غــير صحيح ولا ثابت عن الأئمة لم يصح الأخذ به لا عند المجتهد ولا عند المقلد ، لأنهــم ليسوا مجتهدين بالاجماع ، وهم أنفسهم ينكرون الاجتهاد ويسلبون المجتهدين ويقعون فيهم لاجتهادهم . وهــذا لا ريب فيــه . ثم لا ريب أن هــذه الآراء المبتذلة التى ينقلها هؤلاء المتأخرون المقلدون آراء لا يستطيعون أن يجدوا لها رواية صحيحة قائمة تثبت نسبها بالامام المجتهد الذى ينقل مذهبه وينادى بتقليده .

ماذكره ابن قدامة من الاستشفاع بالنبى

وهــذا الشيخ صاحب « المغنى » فى مذهب الحنابلة ، أقرب مثل إلينا ، قد ذكر فى فصل زيارة القبر النبوى أن الزائر يقول فى دعائه : « اللهم إنك قلت وقولك الحق « ولو أنهــم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاسـتغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » ، وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبى ، مستشفعاً بك إلى ربى . . . »

وهذا الذى زعم أن الزائر يقوله من تلاوة الآية ومن قوله : أتيتك مستغفراً ومستشفعاً ، من العسير أن يجد له حجة وسنداً من أقوال الامام أحمد الذى ألفه كتابه فى نقل مذهبــه وتدوين أقواله ، ومن الأعسر أن يجد له حجة من الرواية الصحيحة عن النبى عليــه الصلاة والسلام أو عن أحــد من أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . واذا قال صاحب « المغنى » أو غيره قولا لا حجة له عليهم لا من الكتاب ولا من السنة ولا من أقوال الامام الذى يقلده وينقل عنــه لم يصح القبول له عند أحــد من أهل العلم لا عند المقلدين ولا عنــد المجتهدين . فالمقلدون

لايقبلون قوله ، لأنه عنـدهم ليس مجتهدا ، ولايصح أن يجتهـد ، والمجتهـدون لايقبلونه أيضا لأن المجتهد لايقلد و إنما يأخذ بالدليل والحجة . فقوله غير مقبول عند الفريقين . وهكذا القول فى كل مايكتبه المؤلفون فى مـذاهب الأئمة مما لا دليل عليه .

والأئمة المقلدون قد تُكذب عليهم ودفعت إليهم أقوال لم يقولوها ولم يعرفوها ، بل لو ذكرت لهم لأنكروها و ردوها ، كما تـكذب على رسول الله وعلى أصحابه ، بل كما تـكذب على الله وعلى دينه . وهذا الـكذب المعز و إلى رسول الله و إلى أهل العلم على نوعين : نوع منـه كان مقصودا متعمداً لأغراض مجرمة. فاسقة ، وهذا هو الـكذب الصحيح الصريح . ونوع آخر من هذا الـكذب لم يكن مقصودا ولامتعمدا ، و إنما جاء بضروب شتى من السهو والخطأ والتساهـل والاجتهاد والتعليق . وهذا كذب فى الواقع و إن لم يكن كذلك فى أنفس الذين كسبوه و وقعوا فيه لأنهم لم يقصدوه ، بل ولم يعلموه . وهذا النوع إنما يقع فيه أهل الدين من المنخدعين بالباطل لسلامة نياتهم وصدورهم ، و رخاوة أذهانهم . ولهذا

ليس من الاسلام ضلالات الاوهام

فانه يجب على أهل العلم التنقير والتنقيب عن أصول كل مايذكر فى هذه الـكتب فلا يصح أخذ ذلك بالتسليم العام ولا بالثقة المطلقة ولا بالاطمئنان الوثيق ، لان الدخيل ، كما ذكرنا ، قد كثر فى كتب الحديث ، وهو فى كتب الفقه وغـيرها أكثر . وهذا أمر لايشك أهل العلم فى وجاهته و إصابته الحقيقـة والمرمى . و إذا كانوا لايقبلون ما يذكره إمام الحديث البخارى فى صحيحه سيد الـكتب الصحاح حتى يسـنده وحتى تعرف روايته : فلا يقبلون معلقاته و رواياته التى يذكرها محذوفة الإسناد ، لاحتمال أن يكون الاسناد المحذوف غـير نظيف ـ وكذلك لا يقبلون ما يذكره الشـيوخ الـكبار والأئمة البارعون ، أمثال مالك وغـيره إلا بالسند والحجة ـ فكيف يمكن أن يقبل أهل العلم كل مايذكر فى كتب الفقه من

الآراء الرخيصة المبتذلة بلا رواية ولا دراية ولا حجة لامن كتاب ولا من سنة ولا قول أمام من الأئمة ؟ بل إذا كانت أقوال صحابة النبى عليه الصلاة والسلام ، وأقوال الكبار والخلفاء منهم لايجب قبولها مطلقاً بلا حجة من الكتاب والسنة فكيف يقبل كل مايذكر فى كتب الفقه من الأقاويل والعقائد المدخولة . فمن الاثم الكبير إذن أن يروح رائح يتلمس ، فى غمرات من الجهل والبلادة ، غلطات الكتب و يتسقط على سقطات الكاتبين ، ليؤلف له وللمسلمين عقيدة يحملهم عليها ، و يثالب من لم يجب إليها . ومن اثم الكبير أيضاً أن يقوم قائم فيحشد فى كتاب واحد من الكتب جميع مازلت به الاقلام ، وما ضلت به الافهام والاوهام، ثم يقوم يقول : إن هذا هودين الله خاتم الأديان ، و رسالة محمد ﷺ خاتمة رسالات الله إلى بنى الانسان !

ياهذا ! إننا إننا نعلم أن فى الكتب أغلاطاً وأخطاء ، ولكننا نعلم مع هذا أن الله لم يكلف أحداً من عباده أن يدينه بتلك الاغلاط والأخطاء وأن يذل لها عقله وقلبه ودينه وعقيدته ، بل نعلم أن الله لا يرضى هذا لأحد من خلقه . فليس بنافعك إذن ، ياهذا ، أن تسقط على سقطة فى كتاب مطبوع أو غير مطبوع ، ولا بمقيم لك العذر عند الله أن تكون مقلداً فى خطئك وغلطك ، ولا الله بعاذرك إذا ما قلدت فى الخطأ والغلط . وأنتم ياهؤلاء لا تقبلون ما ذهب إليه أبو بكر وعمر وعثمان ، بل ولا ما اتفق عليه جميع الأصحاب ، خلا المعصومين عندكم ، فانى يسوغ لكم ، بعد هذا ، أن تقبلوا كل مايكتب فى هذه الكتب ، بل كيف يسوغ لكم أن تجعلوا هذا كله من الحجج التى لا يصلح خلافها وأنتم أنفسكم تكفرون من قالوها وكتبوها وألفوها من أهل السنة أو تفسقونهم ، بل وأنتم تكفرون أبا بكر وعمر وعثمان وخيار الصحابة ، أو تضللونهم إذا ماتساهلتم

وتزمتم ؟ فلعمر الله ماهذا بانصاف ولا دين ولا عدل .

هذا آخر الرد على شبهاتهم فى جواز الاستشفاع بالأموات . وهنا انتهت دلائلنا على بطلان ذلك ، ونقضنا لدلائلهم على جوازه . فلينظر هذا بانصاف وتجرد من الهوى والتعصب لغير الحق ، والله المرشد والمستعان .

الاستشفاع بالجماد عند الرافضى

ومن الفظائع التى كتبها الشيعى فى هذا الفصل أنه زعم أن الاعتقاد فى الأحجار والاشجار والجماد بأنها تشفع ثم الاستشفاع بها : زعم صفحة ٢٥١ أن ذلك لم يعلم كونه عبادة للأحجار والأشجار والجماد ، و زعم أنه لم يعلم كون هذا من أسباب شرك المشركين . . . فعنده أنه ليس من الشرك اعتقادك أن حجراً أو شجراً يشفع و يستشفع مع استشفاعك به ودعوتك إياه الليل والنهار رجاء شفاعته ودعوته . وعكوفك عليه حياتك ووقتك كله راجياً أن يقربك إلى ربك زلفى بشفاعته ودعوته ! ! فمن عكف على شجرة ليله ونهاره يدعوها لتدعو الله له ، و يستشفع بها لتشفع له ولتبذل وساطتها وجاهها عند الله لإنقاذه من ضرائه و بلائه ولإسعاده و إعلائه ، فليس بمشرك ولا كافر ولاعابد غير الله . و نعوذ بالله من هذا الخذلان المتتابع والهوان المتلاطم .

﴿ الاستغاثة بالأموات ﴾

الحجج على دعاء الاموات

ثم قال الشيعى : « الفصل الثانى فى دعاء غير الله ، والاستغاثة والاستعانة به ، وطلب الحوائج منه . . . » .

وقد أورد فى هذا الفصل ماخلاصته : أن الوهابيين ، وقدوتهم ابن تيمية ، قد منعوا دعاء الأموات والاستغاثة والاستعانة بهم ، وأكفروا من فعلوا ذلك . قال : وقد غلطوا وضلوا . فانه لا مانع من دعاء الأموات والاستغاثة والاستعانة بهم وسؤالهم ضروب الحاجات والمطالب الصغيرة والكبيرة . وذلك أن الدعاء

والاستغاثة بغير الله يكون على وجوه ثلاثة : الأول أن يهتف باسم المخلوق مجرداً مثل أن يقول : ياعلى ، يامحمد ، ياعبد القادر ، ياأولياء الله ، يا أهل البيت ، ونحو ذلك . الثانى أن يقول: يافلان كن شفيعى إلى الله فى قضاء حاجتى ، أو ادع الله أن يقضيها ، وما شابه ذلك . الثالث أن يقول مباشرة : يا فلان اقض دينى واشف مريضى وانصرنى على عدوى وغير ذلك . قال : والوجوه الثلاثة جائزة صحيحة لامانع منها ، وكل ما كان ظاهره من ذلك ممنوعاً باطلا وجب حمله على الصحيح وعلى مجاز الكلام ، لأننا مطالبون أبداً بأن نحمل أفعال المسلمين وأقوالهم على الصحيح والخير والطاعة . فاذا قال مسلم ، مثلا ، ياولى الله فلان اشف مريضى أو اهد قلبى أو أغفر ذنبى أو رد غائبى أو اشرح قلبى للاسلام أو أمثال ذلك من الكلام وجب أن نقول إن هذا كله صحيح جائز وإنه من مجاز الكلام كما فى قول الناس : بنى الأمير المدينة ، وشفى الطبيب المريض ، وكما فى قول علماء البيان : أنبت الربيع البقل . . . قال : وقد جاء المجاز العقلى فى لسان العرب وفى القرآن كثيراً كما فى قوله تعالى : « فارزقوهم منه » وقوله : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله » وقوله : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » . بل لقد أضاف الله إلى عبده عيسى ماهو أبلغ وأعظم من هذا فقال حكاية عنه عليه الصلاة والسلام : « إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا باذن الله ، وأبرئ الاكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله » .

قال : فالمسلم إذا دعا الميت وقال ، مثلا ، يا محمد ، أو ياعلى ، أو ياعبد القادر ، اشفنى أو اهد قلبى أو اغفر ذنبى ، كان معنى ذلك أنه يطلب منه الشفاعة والوساطة ، أى يطلب منه أن يكون سبباً فى نيل مايطلب بدعائه وشفاعته . وقد قال قائل

لرسول الله : أسألك مرافقتك فى الجنـة . وسؤال المرافقة فى الجنة مثـل سؤال غفران الذنوب وهداية القلوب وأمثال هذا .

قال : نعم ، لو قصد المستغيث بغير الله أن المستغاث به فاعـل اختياراً واستقلالاً بدون واسطة الله تعالى فالمسلمون براء منه ، ولكن لا يوجد مسلم يقصد ذلك . وقـد روى البيهقى وابن أبى شيبة عن مالك الدار ، خازن عمر رضى الله عنه ، قال أصاب الناس قحط فى زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبى عليه الصلاة فقال يارسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلـكوا ، فأتاه رسول الله فى المنام فقال ائت عمر وأخبره أنهم مسقون . وقد نص القرآن عـلى أن الشهداء أحياء عند ربهـم ، والأنبياء أولى بالحياة من الشهداء بلا ريب . والأحياء يصح دعاؤهم والاستغاثة بهم بالاجماع .

قال : والمسلمون ، سلفاً وخلفاً ، مازالوا يستغيثون بالأنبياء والصالحين ويسألونهم الشفاعة . قال السمهودى : إن الاستغاثة بالنبى عليه السلام من فعـل الأنبياء والمرسلين ، ومن سير السلف الصالحين . وقد ذكر فى كتابه « وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى » أقاصيص وحكايات ذات عدد من استغاثات العلماء بالأموات ، وذكر أنهـم قد نالوا ماطلبوا وأملوا بسؤالهم إياهم . فمما ذكر أن رجلا أودعت عنده أمانة فأنفقها فطلبت منه فقال لطالبها اذهب وعد إلىّ غداً . وراح هو إلى المسجد يلوذ بقبر النبى عليه السـلام مرة ، ومرة أخرى يلوذ بمنبره . وقضى ليله ساهرا ضارعاً كذلك حتى كاد الصباح يطلع ، وبينما هو يسـتغيث ويلح فى اسـتغاثته إذا بشخص يناديه ويعطيـه ماسأل . وقال قال أبو بكر بن المقرى : كنت أنا والطبرانى وأبو الشيخ فى حرم رسول الله فعضنا الجوع ، فلما كان وقت العشاء أتيت قبر النبى عليـه السـلام وقلت يارسول الله الجوع ـ إلى أن قال : فدق الباب غلام علوى معه غلامان ، مع كل غلام زنبيل فيه شئ كثير ، وقال :

حكايات غريبة فى الاستغاثة بالأموات

أشكوتم إلى رسول الله ، فانى رأيته فى المنام فأمرنى أن أحمل شيئاً اليكم. قال وقال ابن الجلاد دخلت المدينة المنورة و بى فاقة فتقدمت إلى القبر وقلت : ضيفك ، فغفوت فرأيت النبى عليه السلام فأعطانى رغيفا فأكلت نصفه وانتبهت و بيدى النصف الآخر . قال وقال أبو عبد الله محمد بن زرعة الصوفى سافرت مع أبى ومع أبى عبد الله بن خفيف إلى مكة فأصابتنا فاقة شديدة ، فدخلنا المدينة فأتى أبى الحظيرة وقال : يارسول الله : أنا ضيفك الليلة ، فرأيت رسول الله فوضع فى يدى دراهم و بارك الله فيها إلى أن رجعنا إلى شيراز ، وكنا ننفق منها . قال وقال أحمد ابن محمد الصوفى تهت فى البادية ثلاثة أشهر فانسلخ جلدى ، فدخلت المدينة فأتيت النبى عليه الصلاة والسلام وسلمت ثم نمت فرأيته فى النوم فقال لى : جئت ؟ قلت نعم وأنا جائع وأنا فى ضيافتك ، قال افتح كفيك فملأهما دراهم ، فانتبهت وهما مملوءان . قال وذكر السمهودى أشياء أخرى من هذا النوع منها ماوقع له هو . قال فيستفاد من هذا أن الاستغاثة بالنبى سيرة المسلمين خلفاً عن سلف بلا نكير ولا خلاف ، وهذا مأخوذ من صاحب الشريعة .

قال : و يدل على جواز الاستغاثة بغير الله مارواه ابن السنى عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله : «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : عباد الله احبسوا ، فان لله عباداً يجيبونه » وفى حديث آخر رواه الطبرانى أنه ﷺ قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس ، فليقل ياعباد الله أعينونى » وفى رواية « أغيثونى فان لله عباداً لاترونهم » .

قال فى خلاصة الكلام : صح عن بلال بن الحارث أنه ذبح شاة عام القحط المسمى عام الرمادة فوجدها هزيلة ، فصار يقول : وامحمداه ، وامحمداه . وصح أن أصحاب النبى عليه السلام لما قاتلوا مسيلمة الكذاب كان شعارهم : وا محمداه

وإمحمداه . وفى الشفاء للقاضى عياض أن عبد الله بن عمر خدرت رجله مرة فقيل له اذكر أحب الناس إليك فقال : وامحمداه ، فانطلقت رجله .

قال والحاصل أن الاستغاثة بالأموات من الصالحين والأنبياء لامانع منها ، فيجوز سؤالهم شفاء المرضى ، وهداية القلوب ، وغفر الذنوب ، و إدخال الجنة ، والابعاد من النار وغير ذلك ، بل هذا كله من الدين : قد دلت عليه نصوصه : آياته وأحاديثه ، وتوارثه المسلمون السلف عن الخلف بلا نكير ولا اعتراض . وجميع ماظاهره الكفر والباطل والضلال يجب تأويله وحمله المحامل الصحيحة إذا كان قائله أو فاعله مسلماً . . . هذا خلاصة ماأورده فى هذا الفصل .

ونحن بحول الله وقوته نذكر هنا مايكفى من الحجج على بطلان ماذكر ، ثم نكشف عن شبهاته ونبين مافيها من زغل ودخل ـ سائلين الله وحده العون والمدد

الدلائل على بطلان دعوة الاموات

﴿ بطلان الاستغاثة بالموتى ﴾

والبراهين على ذلك كثيرة نورد منها مايأتى

أولا : إن القرآن بجملته نهى عام عن دعاء غير الله من الجن والانس وسائر الخلائق ، وتنديد شديد صادع بمن فعلوا ذلك ، ودعاء عام شامل إلى دعاء الله والرغبة فيه والانقطاع اليه وحده لاشريك له ، و إنباء عن المؤمنين جميعاً بأنهم لايدعون إلا الله ولا يسألون سواه لافى السراء ولا فى الضراء ، و إخبار قاطع بأن الذى يجيب دعاء الداعين ، ومسألة السائلين هو الله وحده ، وأن كل ما عداه باطل زائل لا يجيب ولا يسمع ولا يضر كما لا ينفع ، وتحديث عن المشركين بأنهم يدعون لحاجاتهم سوى ربهم ، و يسألون غيره مايأملون فى سرائهم وضرائهم وجميع أحوالهم ، وأنهم لهذا ضالون جاهلون . . . هذا كله بعض مادل عليه القرآن فى آى كثيرة صريحة ، وسور مختلفة من طويلة وقصيرة . وما تصدى القرآن ، فيما أعلم ، لشئ تصديه لإبطال دعوة غير الله والنهى والزجر عنها ، وما أطنب

وأوضح في شيء إطنابه وإيضاحه في أن المدعو بحق هو رب العالمين ، وأن مايدعى من دونه فدعاؤه الباطل والضلال والجهل المبين . ولا عاب القرآن الكريم ، فيما أحسب ، شيئاً عيبه لسؤال غير الله ولدعوة المخلوقين ، ولاذم فريقاً من فرق الضلال مذمته لمن يدعون غير ربهم ، ويسألون غير خالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم حين الرهبة وحين الرغبة وجميع الاحيان. ولقد نوع الله في هذا الإمثال، وأكثر وأوضح فيه العبارات ، وبين وأبدع في البيان والايضاح فأبلغ وبلغ ، وأرسلها في أساليب لو أرسلت على صخر أصم لتصدع ، وأنزلها في آيات من آياته أبلغ ماتقوله بلاغة البلغاء في صفتها : الله أكبر ! ما أبلغ وأروع ! وأمدح مايقول المادحون في امتداحها : هذا كلام الله ، والله أجل وأعظم ! وصاغها في قوالب من المثل العليا لو أن الناس عقلوا منها مثلا واحداً لما أشرك بالله إنسان واحد ، ولما وجدت كلمة « الاشراك » ولا كلمة « المشرك » في قاموس البشرية .

لقد عنى القرآن باثبات المعاد والحساب والعقاب ، وباثبات النبوات والوحي واتصال الملأ الأعلى بالبشر ، وعنى بغير ذلك من أصول الأديان والايمان ، ولكنه قد عنى بالنهي عن دعاء غير الله وبالأمر بدعائه وحده أكثر كما سوف نعرض على القارئ لكتابنا : ففي كل سورة تجد الله تعالى ينهى عن دعاء غيره ويأمر بدعائه وحده ، ويندد بمن دعا سواه من خلقه ، وفي كل آية تنهى عن ذلك تجد النهي فيها شديداً والتأثيم عظيما . والأمر أوضح وأظهر :

دلالة القرآن على ذلك

قال الله تعالى من سورة الحج « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب : ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » . وهذه الآية لو لم ينزل الله خلافها على البشر كافة لكانت حجة قائمة عليهم جميعاً في بطلان الشرك وبطلان دعاء غير الله وهدم أركانه ،

وهى تنديد بمن دعوا مخلوقا يقصر القول عن نعته وصفته . وقد وجه الله هذا المثل إلى الناس أجمعين فى كل زمان ومكان ، وآذنهم بأن الذين يدعون من دونه من العقلاء وغير العقلاء ، من الجن والانس ، من الصالحين والطالحين ، عاجزون عن نفعهم وعن ضرهم وعن كل مايرجى منهم من خير وشر : فهم لا يستطيعون أن يخلقوا أحقر مخلوق فى هذا الوجود ، ولا أن يستردوا ما أخذه منهم هذا الأحقر . وهذا أبلغ وصف للضعفاء العاجزين . فهم لا يستطيعون ، ولو اجتمعوا ، أن يخلقوا ذباباً واحداً ، ولا يستطيعون أيضا أن يستنقذوا من الذباب ما سلبهم من الأمور الروحية والمادية . وهذا أقصى غايات الضعف والعجز .
فما أضعف الطالب الذى يرجو هؤلاء العاجزين عن خلق الذباب وعن استنقاذ ما سلبهم إياه ، والذى يدعوهم لإحدى حاجاته ؟ وما أضعف المطلوب الذى عجز عن خلق الذباب وعن التغلب عليه ! فما أضعف إذن الطالب والمطلوب ! وإن قوما يدعون هؤلاء العاجزين الضعفاء لحاجاتهم ومآربهم ، وينسون الله ربهم وخالقهم وخالق كل شئ لجاهلون به وبقدره وحقه وجبروته وسلطانه ، وجاهلون بأنفسهم أيضاً . فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق تعظيمه ، وهو القوى العزيز الذى لا يغالب ولا يغلب ، ولا يمانع ولا يمتنع على أمره ومشيئته شئ .

سد كل باب غير باب الله

فهذه الآية لم تدع مخلوقا يدعى من دون الله إلا عجزته ونهت عن دعائه أبلغ النهى ، وإلا ضعفته وبالغت فى تضعيفه وتضعيف داعيه وسائليه : فلم تدع للمنقطعين إلى غير الله ، الراغبين فى المخلوقين نبياً ، ولا ولياً ولا شجراً ولا حجراً ولا ملكا ولا جانا ولا شيئا من الأشياء . فقد سدت على البشر جميعا كل باب غير باب الله ، وأوصدت فى وجوههم وسبلهم كل أمل غير أمل الله ، وقطعت الرجاء من كل أحد إلا من الواحد الصمد ، وردت على كل داع غير ربه دعوته ، وعلى كل من سأل مخلوقا مسألته ، ووترت جميع الصلات بالخلق والأسباب بالعباد ، وربطتهم

جميعا بأقوى سبب وأعظم مطلوب، بالله ربهم ورب آبائهم الأولين، رب العالمين، ورب الأولين والآخرين . فأين ، أين من يعقلون ؟ بل أين من يسمعون ؟

جواب اعتراض

وليس لدعاة الصالحين من الأنبياء والأولياء أن يزعموا أن الآية فى نهيها لم تشملهم ، وأنها خاصة بالجمادات وبالأحجار والأشجار : ليس لهم أن يزعموا هذا لأن الآية شاملة كل مدعو سوى الله . وكل من لا يستطيع أن يخلق ذبابا ولا أن يستنقذ من الذباب ماسلبه . والأنبياء وغيرهم من الخلق عاجزون عن خلق الذباب وعن استرداد ماأخذه منهم . ولأن ألفاظ الآية بينة فى نهيها عن دعوة العقلاء : الأنبياء ومن دونهم ، وذلك فى قوله « إن الذين » و « يخلقوا » و « اجتمعوا » و « يسلبهم » وفى « يستنقذوه » . فهذه الالفاظ كلها موضوعة فى اللغة أصالة لتدل على العقلاء لا على الجمادات من الأحجار والأشجار . فهذا الزعم ـ إن زعمه زاعم ـ كاذب باطل . ولا يزعم زاعم آخر أن الآية نازلة فى النهى عن عبادة غير الله لا فى النهى عن دعاء غيره تعالى ، لأننا نقول : الآية صريحة فى أنها نازلة فى الدعاء . فهى تقول « إن الذين تدعون من دون الله » وتقول بعد : « ضعف الطالب والمطلوب » . فالمسألة مسألة دعاء وطلب وداع ومدعو وطالب ومطلوب . ولأننا أيضا نقول إن الدعاء أفضل أنواع العبادة ، ولأننا أيضاً نقول : إن تعجيز الخلق جميعا هذا التعجيز وتهوين أمرهم هذا التهوين ، ونعتهم هذا النعت البالغ أقصى غايات الضعف والعجز عن الخير وعن الشر وعن النفع والضر ، يناسب النهى عن الدعاء والطلب مناسبة واضحة بينة ، ولأن الترغيب عن الخلق والصرف عنهم جميعا بهذا الأسلوب القوى الباهر يشمل ، بلا ريب ، الترغيب عن دعائهم وسؤالهم والانصراف عنهم بالقلب والقالب بالدعاء وسائر أنواع العبادات . فلا يمكن أن يقول الله فيهم هذا المقال ، ولاأن يضعهم هذا الموضع ، ولا أن يضعف شأنهم هذا الاضعاف ، ثم لا يكون هذا كله

نهيا حاسما عن دعائهم ومسألتهم ، وعن الرجوع إليهم فى حاجة من الحاج ، ومأرب من المآرب . فان هـذا المثل ، وهذا الأسلوب الذى صيغ فيـه المثل ، يملأ آن قلب سامعهما بكل أنواع الزهد فى الخلق ، و بكل أنواع الرغبة عنهم . فلا يمكن أن يدعَ فى نفس سامعهما ولا قلبه أملا فى مخلوق ، ولا رغبة فى عبد من العباد العاجزين عن خلق الذباب ، لا فى دعائه ولا فى إجابته ولا فى أمر من أموره . فالآية سلطان من سلاطين الله الخالدة ، وحجة من حججه القائمة على المشركين وعلى الخلق أجمعين .

لو عقل عاقل هذه الآية

ولو أن إنسانا صبغ بالشرك والوثنية ، وكان له عقل ونظر ، فسمع هـذه الآية وعقلها وفهم أسرارها ومراميها لتصدع قلبه فزعا وخشية وانبهاراً ،ولقذف شركه ووثنيته من بشرته ومن أطراف جسمه ، ثم لا نصبغ بالتوحيـد و بصبغة التوحيد الثابتة المعقمة . ولهذا كان الواحد من سلفنا الأولين الذين تلقفوا هذه الآية وغيرها من فم النبوة ، والذين فهموها وعقلوها عن الله وعقلوا مرادهمنها، يتلقى الزمان بمصائبه وسائر آفاته وامتحاناته ، فلايعلم غير الله مابه ، ولايكشف لغيره عن علة من علله ولا آفة من آفاته ، حتى لقد كان السوط يسقط من يده فلا يقول لأحد : ناولنيه ، كما جاء فى صفتهم . وكان المرء منهم يتلقى الزمان بسيفه واحدا فلايلتفت حتى يلتفت هو عنه . ولهذا استطاعوا أن يخضعوا الزمان والمكان وأهلهما ، واستطاعوا أن يصيحوا فى جوانب الكون الفاسد يحطمونه وهم ينادون (ألا كل شئ ما خلا الله باطل) .

آية ثانية

وقال تعـالى من سورة لقمان « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هوالعلى الـكبير » .

فالله هو الحق وحده وسواه الباطل ،فدعاؤه هوالدعاء الحق ،ودعاء غيره هو الدعاء الباطل ، وسؤاله هو السؤال الحق ، وسـؤال غيره هو السؤال الباطل ،

والرغبة فيه هي الرغبة الحق ، والرغبة في غيره هي الرغبة الباطلة ، والانقطاع اليه حق ، والانقطاع إلى سواه باطل « ذلك بأن الله هو الحق ، وأن مايدعون من دونه الباطل » ، فالله هوالحق أى الثابت، وكل شئ سواه باطل أى فان زائل . فمن ذا يرغب عن الحق الثابت إلى الميت الزائل ؟ ومن يعدل عن دعاء الحق إلى دعاء الباطل ! وهذه الآية في معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد (ألا كل شئ ماخلا الله باطل) . وهي صريحة في إبطال دعاء غير الله من الأموات صراحة عجيبة ، لايتجه إليها النزاع . وذلك أنها جعلت كل مايدعى غير الله باطلا ، والتعبير عن كل مدعو خلاه تعالى بالباطل غاية في النهي عن دعائه وسؤاله ، غاية في التزهيد فيه والصرف عنه ، غاية في الزراية عن دعاه ورجاه ، غاية في كل ضروب التنفير عنه وعن الحوم حوله رغباً أو رهباً ، لأن الله لايمكن أن يجيز لعباده أن يفزعوا إلى الباطل ، وأن يدعوه ، ويأملوه ، وأن يسألوه حاجاتهم ، ولأن العاقل نفســه لايرضى لنفسه بأن يرجع إلى الباطل وأن يمد يديه إليه ، وأن يملأ قلبه برجائه وخوفه . فلا أبلغ من التنفـير عن كل مدعو سوى الله ومن التنفير عن دعوته من وصفه بالباطل ، ولا أبلغ من الحض على الانقطاع إلى الله وحده من وصفه بأنه هو الحق وما سواه الباطل . فان من أبلغ الصرف عن الأمر عند الناس وصفه بالباطل والبطلان .

فجميع مايدعوه الناس ، غير الله ، من الأموات باطل لا خـير في دعائه ولا في تأميله . ولا أضـل ممن أمل ودعا مالا خـير فيه ومالا نفع يرتجى لديه . وقد عمت الآية الكريمة كل مدعو من الخلق بهذا الوصف ، وصف البطلان ، فلم تستثن مدعوا لا نبياً ولا ولياً ولا ملكا ولا جنيا ولا عاقلا ولا غـير عاقل ، ولم تخرج من هـذا دعاء دون دعاء : فلم تخرج دعاء الأنبياء ، ولا دعاء الأولياء ، ولا دعاء الملائـكة ، ولا دعاء العاقلين دون دعاء الجمـادات . فـكان النهي إذن عاماً شاملاً . . .

آية ثالثة

وقال تعالى من سورة الرعد : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال ، ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال . قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شئ وهوالواحدالقهار » .

ضروب دلالة الآية

وهذه الآية من آيات التوحيد العجيبة التى جمعت فنون الاعجاز مع فنون الايجاز ، مع بلاغة الرد وقوة الاحتجاج ، ووضوح المرمى مع فخامة العبارة ، وسهولة الحجة مع قوة الاساوب ، حتى لتأخذ على القارئ جميع آلات إحساسه وآلات شعوره ، فتهزه هزاً عنيفاً وإن كان من الأغبياء المبلدين . ودلالتها على بطلان دعوة غير الله من وجوه كثيرة : أولا أنه جعل دعوة الحق التى لا باطل فيها هى دعوته وحده . ثانيا : انباؤه بأن جميع الذين يُدْعَوْنَ من دونه لا يستجيبون لمن دعاهم أبداً . ثالثا : تشبيه من دعا سواه بمن أرسل يديه إلى الماء باسطا لهما رجاء أن يرفعاه إلى فيه وهما مبسوطتان منشورتان ، لكنهما لن يرفعاه إلى فمه مادامتا مبسوطتين منشورتين ممدودتين إلى جهة غيرجهة الفم وهى جهة الماء أبدا ، وهما لن يوصلا الماء فيه حتى يرفعهما إليه ، وحتى يقبضه براحته أو بشئ آخر كاناء ونحوه . فالذين يدعون غير الله من الأنبياء والأولياء ، رجاء أن ينفعوهم وأن يدفعوا عنهم ، هم كمثل من بسط كفه ومده إلى ماء جارٍ فى الأرض ليرتفع إلى فمه بمجرد بسط كفه ومده إليه ، وهذا لن يبلغ فمه الماء أبدا . وكذلك الذين يدعون المخلوقين ، رجاء شئ ، لن ينيلوهم ذلك الشئ . فالذى يبسط يده إلى الماء ليبلغ فاه بذلك طالب للشئ من غير سببه وبدون آلته ، فهو لن يدرك ماطلب.

وكذلك الذين يدعون غير الله ليهبوهم بعض ما خلق الله و بعض ما فى ملك الله طالبون الشئ بغير سببه ومن غير أهله ، فهم لن يدركوا ماطلبوا سجيس الليالى . رابعا، جعله دعاء غيره من دعاء الكافرين «وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال» ، خامسا : رده على من تعلقوا بشئ دون الله فى الأرض أو فى السماء منبئا بأن جميع من فى السماوات وجميع من فى الأرض خاضعون لله ساجدون له طوعا أو كرها . فانه إذا كان كل شئ ساجدا لله خاضعا له بالقسر و بالطاعة وجب على العاقل أن يخضع له مع هؤلاء الخاضعين ، وأن يدين له وحده مع الدائنين . ولن يضيره شيئاً أن يرغب عن عباد خاضعين لربهم طوعاً وكرها ، وأن يرغب فى ذلك الذى رغب فيه وخضع له كل من فى السماوات ومن فى الأرض . سادسا: نعيه على من اتخذوا من دونه أولياء عاجزين عن النفع والضر لأنفسهم فضلا عن أن يملكوا شيئاً من ذلك لغيرهم . سابعا : قضاؤه بأن من دعا غيره أعمى ، وأن من دعاه وحده بصير ، وأن دعوة العباد ظلام، ودعوة المعبود نور . وهل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ ثامنا : رده على دعاة المخلوقين وعبدة العباد بأنهم لم يخلقوا شيئا فى هذا العالم فيستحقوا به العبادة والخضوع والدعاء والنداء، رجاء أن يُعطوا مما خلقوا وأوجدوا . و إذا كانوا لم يخلقوا شيئا ، فيتشابه الخلق عليهم : خلق المخلوقين المعبودين ، وخلق الله رب العالمين ، فلماذا عبدوهم ودعوهم وسألوهم ؟ أمن العقل والصواب أن تسأل غيرك ما لا يملك ومالا يمكن أن يملك ، بل من لا يملك نفسه ، وتدع المالك كل شئ جانبا وهو أرحم الراحمين وأعدل العادلين ، وأقرب إليك من كل قريب ، وأسمع لك من أذنيك وأدنى إليك من نفسك ؟ فاذا كان الله خالقاً كل شئ ، باعتراف عابدى غيره، فكيف عبدوا غيره تعالى لو كانوا يعقلون ويتدبرون . وقد جبل الناس جميعا على أن يرغبوا فى المالك دون من لا يملك ، وأن يلجؤا إلى القوى القادر دون الضعيف

العاجز ، وأن يسألوا من يقـدر أن يعطى دون من لا يقـدر ، فما بال المشركين يضلون عن جبلتهم وفطرتهم عند عبادة الله وتوحيده ، مابالهم ؟ فالآية حجة من الحجج الناطقة على بطلان دعاء الخلق وسؤال العبيد .

مماراة الشيعى فى الآية

أما الشيعى المصنف فقـد حاول المماراة فى الآية وحاول التنصـل منها بالتأويل ، فزعم أن المراد بذلك ما يدعى من الجمادات كالأحجار والأشـجار دون العقلاء من الأنبياء والأولياء والملائكة والجان ، أو ما يدعى من الأنبياء والملائكة الذين يعتقدفيهمأنهم مساو ون لله وأن لهم تأثيرامعه أو أن لهم شفاعة اضطرارية قهرية . قال : ولا يبعد أن يكون المراد بهؤلاء الذين أبطلت الآية دعوتهـم الأصنامخاصة . وهذهتأويلات فاسدة ، ومحاولات للخلاص من الآية فاشلة : أما تأويلهابالجماد فواضح البطلان لأنالاسم الموصول (الذين) والضمير المذكور (لايستجيبون) برهانان على إرادة العقلاء ، ولأن المشركين لم يكونوا ، كما سلف ، يعبدون جماداً أصم مجرداً ، وإنما كانوا يعبدون عباد الله المقربين ويعبدون ما يتصل بهم من الآثار والأحجار والأشجار والتماثيل والصور ، وغاية القوم الحقيقية العباد المقربون وعبادتهم كمثل عبدة القبور والأموات اليوم سـواء ، ولأن المشركين كانوا بلا خلاف يعبدون المـلائكة والجان والصالحين وغيرهم،وحين أخبرت الآية بأن الذين يدعوهم المشركون من دون اللهلا ينفعون ولا يضرون ، وأخبرت أن دعوتهم باطلة لزمدخول كل معبوداتهم فيها ، فلزمدخول الملائكة والجان والصالحين كاللات وغيره ، ولأن لفظ الآية عام ، ولأن قوله :

فساد تأويلات المخالف

« له دعوة الحق » دليـل واضح عـلى إنكار الدعوات الأخرى والمدعوين الآخرين . : هذه الأموركلهاتبطل على الرافضى تأويلهالآية بالجمادات خاصة. وأما تأويله لها بالأنبياء والأولياء والملائكة والجـان الذين سووا بالله أو اعتقد فيهم معه تعالى التأثير والشفاعة الاضطرارية القهرية ، فتأويل فاسد باطل أيضا

لأمور : أولها: أن المشركين الذين نزل فيهم القرآن أصالة ، وهم مشركو العرب ، كانوا معتقدين بأن جميع الأمور تصير إلى الله وحده دون سواه ، وأن كل ذلك بيديه وإليه ، ومؤمنين بأنه تعالى خالق كل شيء ، وأنه مالك ما فى السموات وما فى الأرض وما فى العالم كله ، وأنهم ما عبدوا من عبدوا من الأصنام والأوثان إلا رجاء أن يقربوهم إلى الله وأن يشفعوا لهم : هذا كله مما أقر به المشركون لله . فهم لم يسووا معبوداتهم وأصنامهم بالله التسوية التامة المطلقة التى يعنيها هذا الرجل وإخوانه من المحرفين . ثانى الأمور : أن عباد القبور أنفسهم يعتقدون بأن للأولياء والأنبياء الذين يدعونهم من دون الله تأثيراً وأفعالا غريبة وخوارق مدهشة عظيمة ، وهم يصرحون بذلك ويتناقلونه . ولولا هذا الاعتقاد لما دعوهم ولا فزعوا إليهم عند الاحتياج والضرورة ، ويعتقدون أن لهم شفاعات لا تخطىء ولا ترد ولا يطيش لها سهم. ولهذا يسمونهم متصرفين ويستدلون بأمثال قوله تعالى : « لهم ما يشاءون عند ربهم » ، ويعنون بهذا الاحتجاج أنهم مطلقو الأفعال والتصرف والقدرة . وهذا معلوم عن القوم لا يشك فيه أحد . ثالث الأمور : أن الانكار فى الآية موجه إلى دعاء غير الله لا إلى اعتقاد أن له شفاعة أو تأثيرا وتصرفا . رابع الأمور : أن الآية قد حصرت دعوة الحق فى دعوته تعالى وحده . فلا تكون إذن دعوة غيره إلا باطلة . خامس الأمور: أن المصنف الرافضى ذكر فى غير مكان من كتابه أن الأموات مثل الأحياء سواء مثلا ، بل صرح بأن الأموات أوسع قدرة وعملا وفعلا من الأحياء . فاذا كان هذا حقا ، وهو عنده كذلك ، والشيعة يعتقدون أن العباد خالقون لأفعالهم ، موجدون لأعمالهم ، خرج من مجموع الأمرين أن للأنبياء وللأولياء تأثيراً أحياء وأمواتا ، وتصرفا فى الحياة وفى الممات ، وإيجاداً وخلقاً فى الحالتين . والشيعة بعد هذا يدعون الأموات من الأنبياء والأولياء ، ويستغيثون بهم ويسألونهم

ضروب المسائل . فالشيعة إذن يدعون الأموات مع اعتقادهم أن لهم تأثيراً وتصرفا وخلقا و إيجاداً . فهم قد جمعوا بهذا ما زعم المخالف أن المشركين جمعوه إذ نزلت فيهم هذه الآية . فماذا يصنع ؟ سادس الأمور : أن الآية قد ذكرت أن هؤلاء المدعوين لا يستجيبون لمن دعاهم شيئا . فاذا صح تأويل الشيعى الآية بالانبياء والأولياء والأموات فقد خرج من هذا أن الموتى من الصالحين ، أنبياء وأولياء ، لا يستجيبون لمن دعاهم وسألهم واستغاثهم أبداً . و إذا كان دعاؤهم يذهب عبثا باطلا قام الدليل المطلوب على بطلان دعائهم والاستغاثة بهم . وهذا هو المطلوب من الآية . فالآية ، كيفما صرفت و وجهت وأولت ، برهان باهر على بطلان دعاء الأموات وعلى ضلال الداعين لهم العاكفين على أجداثهم .

تأويل آخر وفساده

وأما تأويله إياها بالأصنام خاصة فيقال فى الجواب : إن أصنام المشركين الذين نزلت فيهم الآية كانت خليطا من الأنبياء والصالحين والملائكة والجان ، ومن صور هؤلاء وتماثيلهم وآثارهم ومخلفاتهم التى خلفوها كالقبور والمشاهد والأماكن التى عرفت بالنسبة إليهم ... فاذا نهى القرآن الكريم عن دعاء الأصنام أصنام العرب والمشركين ، وأنبأ بأن دعاءها ضلال و باطل و إثم وجريمة دخل فى هذا كل هذه المعبودات من دون الله ودخلت كلها فيه ، فصار دعاء الأنبياء والصالحين والملائكة والجان ضلالا و باطلا ممنوعاً وجريمة يعاقب عليها قانون السماء . فانه لاخلاف فى أن المشركين كانوا يدعون الملائكة والصالحين والجان وكانوا يسألونهم ضروب حاجاتهم ومآربهم . فاذا حدث القرآن أن كل مايدعو المشركون من دون الله باطل ، وحدث أنه لا يستجيب لداعيه أبدا كان هذا التحديث تحديثا صريحا بأن دعاء الجان والملائكة والأموات ، على اختلافهم ، باطل وضلال ، وتحديثا بأنهم لا يستجيبون لطالبيهم وداعيهم شيئاً ، وكان هذا صريحاً بينا فى بطلان دعاء الأموات وسؤالهم ، و بطلان أمر وعمل كل من يدعونهم

ويسألونهم . فالآية دالة على ماذكرنا على كل حال .

ثم يقال ثانياً : إن قوله تعالى : « له دعوة الحق » صريح ظاهر بأن دعوته وحده هى دعوة الحق ، وأن كل الدعوات لسواه هى دعوات الباطل والضلال ، إذ ما بعد الحق إلا الضلال . والآية قد قسمت الدعاء إلى نوعين : إلى دعائه تعالى وحده ، وجعلت هذا النوع من الدعاء هو الدعاء الحق ، وإلى ما يدعوه الناس من دونه تعالى ، وجعلت هذا هو الدعاء الباطل الذى لاخير فيه ولانفع . فمن دعا الله فقد دعا دعاء الحق ، ومن دعا سواه فقد دعا دعاء الباطل والضلال والجهل . ونعوذ بالله من الباطل بجميع ضروبه وأشكاله وهيئاته ومعانيه ومبانيه .

آية رابعة .

وقال تعالى من سورة النساء : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً . إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريداً لعنه الله ، وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

وهذه الآية الكريمة خليق بالعاقل المسلم أن يتدبرها وأن يقف عندها طويلا مستلهماً ربه مافيها من أسرار ومعان وتوحيد ، ومافيها من ذود وطرد عن الخلق وعن الرغبة فيهم ، وما فيها من رد على هؤلاء المنقطعين إلى النساء وأضرحة النساء يدعون ويسألون أفنان الحاجات وأشتات المطالب ، ثم يزعمون أنهم لم يأتوا منكراً ولم يفعلوا ماينهى عنه القرآن وما ينادى ببطلانه وفساده جهاراً نهاراً .

ذكرت الآية أولا الشرك وفظاعته وسوء عقباه وأخراه ، وعقبى من جاؤا ربهم به ، وأنبأت أن الله لا يغفر شيئاً من هذا الذنب العظيم والجرم الجسيم وإن كان يغفر جميع الذنوب والآثام لمن يشاء من خلقه وهو أعلم بهم وبمن هم أهل للغفران والانتقام . ثم أخذت الآية فى تبيان هذا الذنب الذى جل عن الغفران وعن أن يتناوله عفو الله وسعة رحمته وقد وسعت كل شئ : فذكرت فى

بيانها أن المشركين الذين لا يغفر لهم هم الذين يرغبون عن الله وعن دعائه إلى دعاء الاناث ، أحط النوعين وأضعفهما وأقلهما خيراً وجدوى ومعنىً ومبنىً ، ثم أبلغت فى البيان فذكرت أن الذين يدعون الاناث من دون الله هم فى الواقع لايدعون إلا الشيطان المريد ، لأنه هو الذى أضلهم وأوقعهم فى دعاء الاناث ورغبهم فيه وزينه لهم ، فهو السبب الأول ، وهو المحرض والباعث على ذاك الغرام الفظيع والهوى المنكر المزدوى . فكأن الدعاء موجه اليه هو ، وكأن عبادة الإناث عبادة له مباشرة ، اذ لولاه ولولا خطواته وخطيئاته لما أشركوا ولما عبدوا غير المعبود بحق : الله رب العالمين .

دعاء النساء فى القرآن

فدعاء الإناث بنص هذه الآية الكريمة من الاشراك بالله ومن شر الضلالات والجهالات ، ومن أعمال المشركين الضالين الذين بعث الله فيهم رسوله لإنقاذهم من هذه المهالك وانتشالهم من تلك الأوهاد والحفر . وهذا الدعاء ، أى دعاء الاناث ، أى دعاء النساء مما أخبر الله عنه بأنه لا يغفره لصاحبه ولا يرحمه إذا قدم عليه به . فدعاء الاناث والنساء من الأمور التى نص القرآن على بطلانها وفسادها وضلال الآتين بها . فماذا يقول دعاة الاناث والنساء ، ودعاة الست فلانة والسيدة فلانة ؟ وماذا يقول هؤلاء الهاتفون بأسماء « زينب » و « نفيسة » و « سكينة » وغيرهن من المدعوات المشهورات المعبودات فى الأرض دون اله السموات ؟ وماذا يقول هؤلاء السائلون لهن ، المنقطعون إلى قبورهن ومقاماتهن يدعون ويهتفون ويسألون ويضرعون وينادون ويخشون ويرجون ويطلبون جميع ما يشاؤن ويأملون منهن مطالب الدنيا والأخرى وحاجاتهما ؟ ؟ أيستطيع أحد منهم أن يزعم أن الاسلام لم ينه عن دعاء النساء وعن سؤالهن ، وقد جهر القرآن بأن المشركين هم الذين يدعون الأناث من دون الله ، وجهر بأن دعاءهن من الشرك الذى يجل عن الغفران والصفح والعفو ؟

من سوءات الانسان

ودهاء النساء والرغبة فيهن وفى قبورهن «ميتات» من سوءات الإنسان الفاضحة ومخازيه التى تجل عن الوصف والنعت . وقد جبل الناس كافة ، حتى الأطفال منهم ، على استضعاف المرءة وانتقاصها والتهوين لها ولشأنها وأمرها وقدرتها ، وقد عرفوها أبداً ضعيفة عاجزة ، فى حاجة أبداً إلى الحماية والرعاية والكفاية لضعفها وقلة حولها وطولها . ولكن هذا كله ، لجهل الانسان وغباوته وجمعه بين المتناقضات ، لم يمنعهم من عبادتها ، ولم يحجزهم عن الاستنصار بها والانقطاع إليها و إنزال الحاجات المختلفة بها بعد موتها وفنائها وانحدارها وانهزام سلطانها الوهمى الموجود فى شهوات الرجال دون عقولهم و رجولتهم . وهذا من غرائب الانسان وغرائب نقصه الفظيع .

آية خامسة

وقال تعالى من سورة الزمر : « أليس الله بكاف عبده ؟ و يخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فماله من هاد ومن يهد الله فماله من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام ! ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون (إلى قوله) أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون . و إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة و إذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون ، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون » .

من عجائب القرآن

وهذه الآيات من عجائب آيات الله فى الدعوة إلى التوحيد المطلق والتجرد عن كل مخلوق وكائن سمواً إلى الله وحده وانقطاعاً إليه ، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون . وقد أبدعت فى هذه الدعوة إبداعاً يقطع كل أمل على

الآمل فى غير الله ، و يوصد كل باب بين العبد والعبد والمخلوق والمخلوق ، وبالغت فى هذا بحق حتى وترت جميع الصلات والأسباب فى هذا الوجود غير صلات الوجود كله بربه وخالقه ومابينه و بينه من الأسباب : فلم تدع لعبد مفراً إلا إلى الله ، وأين فرار الخلق إلا إلى الخالق ! ولم تبق لمخلوق حاجة عند مخلوق أو مأرباً يطلب إلا من الله ، وأين يطلب المؤمن حاجاته ومآربه إلا عند ربه ورب العالمين ! لقد جاءت وفى كل حرف منها شهاب لتحريق كل شيطان يدعو إلى الشرك وإلى الأنداد .

ذكر الله أولا ، بأسلوب تنخلع له أفئدة الشرك والمشركين ، أنه تعالى كاف عبده فلا يحتاج إلى سواه فى أمر من أموره الوجودية أو العدمية فقال : « أليس الله بكاف عبده ؟ » وأى مؤمن يمكن أن يجيب على هذا السؤال إلا ويكون جوابه : بلى . وإذا كان الله كافيا عبده فكيف لاينقطع إليه وحده : فيدعوه ويرجوه ويسأله ويخافه ويقف فى بابه وحده ! وإذا كان الله كافياً عباده فكيف يفزعون إلى غيره وكيف يدعونه وينقطعون إليه ! وإذا كان كل عبد محتاجاً إلى الله وإلى كفايته ورعايته فكيف يفزع العبد إلى المحتاج المكفى ويدع الرب الكافى ؟

من خلائق المشركين

ثم ذكر ثانيا خلقا من أخلاق الإنسان العريقة فى القدم ، هذا الخلق هو خوفه وتخويفه غيره مما يعبد من دون الله من العباد العاجزين الضعفاء ، فقال « ويخوفونك بالذين من دونه » فاذا قلت لهم : ادعوا الله وحده ودعوا فلاناً وفلانة فانهم لايجدون ولا ينفعون ولا يضرون ، قالوا لك : كلا ، إن لهؤلاء من الأمر والحظوة عند الله والشفاعات والوساطات ما يستطيعون به أن ينالوك بأنواع الأذى والبلاء ، فحذار من إغضابهم وغضبهم ، وحذار من أذاهم وبلائهم وسلطانهم الضار النافع . وهذا عينه هو مايقوله اليوم عبدة القبور والأموات

والسيدات لدعاة التوحيد والهداة إلى دعوة الله الخالدة . وقد رد على هذا الخوف والتخويف ، خليل الله إبراهيم إمام الموحدين فقال لقومه : « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » .

ثم ذكر خلقاً آخر من خلائق المشركين الجاهلة فقال : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . ومع هذا الاعتراف الصريح والايمان الخليق بأن يذودهم عن الشرك والحوم حوله يظلون يعبدون و يدعون و يسألون غيره ممن لم يخلقوا شيئاً فيملكوه فيصح أن يسألوه و يطلبوه لا فى السموات ولا فى الأرض . وهذا هو الضلال البعيد حقا .

ثم أمر نبيه أن يسأل هؤلاء المشركين سؤالا لا يجدون له جواباً فقال : « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هنّ ممسكات رحمته » . وهم ، لابد ، معترفون بأن مايدعون وما يعبدون من الأصنام والأوثان لا يمكن أن يدفع ماأراد الله بخلقه من الضر والنفع والنعمة والنقمة . . . وهذا ضرورة عند جميع المؤمنين بالله . و إذا كان ذلك كذلك فكيف يتعمدون الله الذى بيده الضر والنفع والخير وكل شئ إلى ما لا يقدم ولا يؤخر وما لا يملك شيئاً ؟ هذا سؤال باهر معجز ، وهم لن يعرفوا جوابه إلا بالانكفاف عن الشرك والانحراف عن وسائله وأسبابه والاستمساك بعرى التوحيد الخالص المجرد .

حسبى الله

ثم أمر نبيه ثانياً بأن يقول لهؤلاء المشركين وللناس أجمعين « حسبى الله » حسبى الرغبة فيه عن الرغبة فى سواه ، وحسبى دعاؤه وسؤاله عن دعاء الخلق وسؤالهم جميعاً ، وحسبى خوفه و رجاؤه عن خوف العباد و رجائهم ، وحسبى الانقطاع إليه عن الانقطاع إلى ماعداه : « حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون »

لأن كل شئ منه و إليه ، ولأن له ملك السموات والأرض وله كل شئ .
والاتكال لايكون إلا على القادر الذى يستطيع أن يضر وأن ينفع ، وأن يدفع ويمنع كى يستطيع حماية من اتكل عليه و رعايته وتأمينه مما يخاف و يحذر ، وكل من ليس كذلك باطل لا يصح الاتكال عليه ولا الرجوع إليه .

التعلق بالشفاعات هو الداء

ثم ذكر أن داء هؤلاء الضلال المشركين هو زعم الشفاعة والتعلق بها وحسبانهم ، جهلا وضلالا ، أنهم إذا تعلقوا بقوم مقربين إلى الله مختارين عنده فدعوهم ورغبوا فيهم شفعوا لهم عند ربهم فشفعهم فيهم لحظوتهم لديه ، فنالوا ما أملوا وطلبوا ، وأمنوا مما رهبوا ، لأن لهم الجاه العريض والشفاعة العظمى ، ولأن لهم ما يشاءون عند ربهم . وما علموا أن الشفاعة كلها لله فهو الذى يأمر بها لمن يستحقونها من عباده الخالصين المخلصين ، وهو الذى يعلم الخليق بها . وما علموا أنه لا يشفع أحد من عباده الممتازين المقربين إلا إذا أذن له وأمره بأن يشفع لمن يرضى عنه من عباده الصالحين . فالشفاعة والشفيع لايخرجان عن ملك الله وعن ارادته ومشيئته وقبضته . فلن ينال إذن شئ من ذلك الابالرجوع إلى مالك ما هنالك ، فقال : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون » أى لا يملكون شيئاً من الشفاعة ، ولا يعقلون عمن سألوهم الشفاعة ودعوهم لها شيئاً لانقطاع الأسباب . « قل لله الشفاعة جميعاً » وقل « له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون » مجردين من كل شئ : من الشفاعات ومن الشفعاء . فليس أمام العبد إلا الله ، وليس له مفر إلا إليه ، ولن ينال شيئاً من حاجاته وآماله إلا عنده و باذنه و رضاه . فلا مندوحة من الانقطاع اليه وحده .

إذا ذكر الله وحده

ثم ذكر طبعاً آخر من طباع المشركين الفاسدة البليدة فقال : « و إذا ذكر وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، و إذا ذكر الذين من دونه إذا هم

يستبشرون » . أى إذا دعى الله وحده ، وسئل وحده ، وعبد وحده ، ورجى وحده ، وخيف وحده ، نفروا وأجفلوا وكرهوا ذلك التوحيد وزجروا من دعائه وطلبوا أن يضاف إليه تعالى فلان وفلانة : فيدعوا ويخافا ويرجوا ويعبدا معه . أما إذا ذكر ما يعبدون غيره تعالى من المخلوقين فذكرت الشفاعات «والجاهات» والولايات والكرامات ، وما فى دعوتهم وسؤالهم من قضاء الحاجات، وتفريج الكربات . وإدراك المطالب والمآرب : أما إذا ذكر ذلك فانهم يطيرون سروراً واستبشاراً وفرحاً : فتنطلق ألسنتهم بذكر الأسانيد والأقاصيص ، وتنبسط بالتحديث عن الكرامات والخوارق ، وتتبلج أسارير وجوههم بضياء الآمال العريضة الغضة التى يرجونها عند هؤلاء الذين يدعون من دون الله « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون » .

ويشبه هذه الآية قوله تعالى من سورة الاسراء : « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً » وقوله تعالى من سورة « المؤمن » : « ذلكم بانه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير » .

وهذه السورة «سورة الزمر» من سور التوحيد المكثرة من الدعوة إليه ومن إقامة البراهين عليه بألوان من البيان والأساليب ، وأفانين من الايضاح والقوة، وهكذا الكثير من السور المكية . وقال تعالى فى أول السورة : « فاعبد الله مخلصاً له الدين ، إلا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار » . ومن الواضح البين عند الجميع أن الدعاء ، برغب ورهب وأن المسألة بخضوع وخشوع ، من صلب الدين ومن خالصه ونقاوته . وقد وكد الله

آية سادسة

الأمر باخلاص الدين له تعالى ، ومعنى إخلاصه أن يكون كله له . وذكر بعد هذا الأمر الصادع باخلاص الدين له أن الذين لم يخلصوه له هم الذين اتخذوا من دونه أولياء قائلين : مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله ويدنونا منه . وفى هذا بيان واضح أن اتخاذ الأولياء من دون الله وعبادتهم — والعبادة معروفة ومعروف أن الدعاء من أفضل أنواعها — ينافى إخلاص الدين وتوحيد الله ، وإن كان كل الغرض من ذلك الشفاعة والوساطة . وهذا ظاهر .

آية سابعة

وقال تعالى من سورة « الأنعام » « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون » .

وهذه الآية مصرحة بأن إشراكهم لم يكن إلا فى دعاء غير الله ، وذلك أنها ذكرت أنهم إذا فزعوا وخافوا من عذاب الله أو من الساعة لم يدعوا غيره تعالى : لانبيا ولا وليا ولا ملكا ولا جاناً ولا حجراً ولا شجراً ، بل أخلصوا الدعاء كله له ، ثم أوضحت أنهم إذا أخلصوا الدعاء له وحده وإياه دعوا ، فقد نسوا بذلك إشراكهم . فكان فى هذا بيان واضح ظاهر أن الاشراك بالدعاء وأن الاخلاص كذلك فيه ، فاذا دعوا الله وحده فقد عبدوه وحده ، وإذا دعوا غيره فقد عبدوا غيره . وهذا يوافق ماذكر فى غير آية عن المشركين بأنهم كانوا إذا ركبوا فى الفلك وخشوا الغرق والهلاك دعوا الله مخلصين له الدين ، فاذا نجاهم وأخرجهم إلى البر وأمنوا الغرق والهلاك إذاهم يشركون . ويعنى باشراكهم فى هذه الآيات دعاءه غيره تعالى من الأصنام والأوثان والمخلوقات الأخرى كما هو ظاهر من السياق .

آية ثامنة

ثم قال من سورة الأنعام أيضاً : « قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » وظاهر من هذه الآية أيضاً أن العبادة التى نهى عنها هى الدعاء ، وظاهر

منها أيضاً أن دعاءهم غير الله هو معنى إشراكهم به تعالى ، أو هو من إشراكهم.

تاسعة

ثم قال من السورة نفسها : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » . فذكر أنهم يدعونه تعالى فى ظلمات البر وظلمات البحر تضرعاً وخفية ناسين كل ماسواه ، وأنهم إذا نجوا وفارقوا مناطق الخطر والخوف البرى والبحرى أشركوا ، أى أشركوا ، ولا ريب ، فى ما أخلصوا فيه وهو الدعاء والتضرع والخوف والرجاء ، لأن هذا هو المذكور فى الآية ، وهو المحكى المعروف عن القوم فى وقت إخلاصهم وتوحيدهم

الآية العاشر

ثم قال فى السورة أيضاً : « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ، قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » .

فأوضحت هذه الآية بأنه لا يصح للمسلم أن يدعو من دون الله مالا ينفعه ومالا يضره ، وأوضحت أن من دعا هذا الذى لا يضر ولا ينفع فقد ارتد على عقبه بعد أن هداه الله وهدته فطرته الصحيحة ، وأن الشيطان قد أغواه واستهواه وأضله فأصبح حيران ، حيران لا يدرى ماالهدى ولا ما الضلال ، ولا يعرف ما الحق ولا ما الباطل ، وأصبح ينادى من مكان بعيد فلا يجيب من دعاه إلى الهدى ، ولا يطيع من أمره بالرشد ودله على الخير ، وذلك لأن الهدى بيد الله يمنحه من يتعرض له من عباده أهل الإخلاص للحق والطلب الملح له : هذا شأن من دعا مالا ينفعه ومالا يضره من دون الله . ولا شك أن الأموات لا ينفعون ولا يضرون باعتراف هؤلاء الداعين إلى عبادتهم . والحجة التى يدفعون بها عن عبادة الأموات هى زعمهم أنهم يعتقدون ويقولون أن من يدعون من

المشايخ والأموات لا ينفعون ولا يضرون ، ولا يملكون لأنفسهم ، فضلا عن غيرهم ، خيراً ولا شراً ولا موتا ولا حياة . فاذا كان حقاً مازعموه فى معرض الدفاع عن عبدة الأموات العاكفين على الأحداث فقد قطعت عليهم هذه الآية وغيرها من الآيات كل مانسجوه وحاكوه من الشبهات والحجج والترهات احتجاجا على دعاء الموتى وسؤالهم ضروب الحاج والمآرب . وقد بين الكتاب والسنة أن أفضل الخلق لا يملك الضر والنفع لا لنفسه ولا لغيره فقال تعالى : « ليس لك من الأمر شئ » وقال : « إنك لا تهدى من أحببت » وقال : « ألا له الخلق والأمر » وقال : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله » « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » ، إلى غير ذلك من الآى .

فنصوص الدين واضحة ظاهرة ناصة على أن أفضل الخلق وأقربهم إلى الله ، وأعظمهم عنده جاهاً وكرامة ومنزلة لا يملك خيراً ولا شراً ولا نفعاً ولا ضراً ، والمخالفون يزعمون أنهم معترفون بهذا . فاذا كان ذلك كذلك علم منه ومن الآية المذكورة ومن الآيات الكثيرة أمثالها أن هؤلاء الذين يدعون الأموات وأصحاب القبور قد ارتدوا على أعقابهم وأضلهم الشيطان وأصبحوا حيارى فى دينهم وعقائدهم ، لأن الله يقول فى الآية المذكورة : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى» . الآية

وفى معنى هذه الآية آيات كثيرة كقوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وكقوله : « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك إذن من الظالمين » .

وقال فى ختام سورة الأنعام : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ ؟ »

الآية الحادية عشر

والصلاة معروفة بأنها قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء ومناجاة وخشوع وخضوع وذلة وتمسكن وقراءة وخوف ورجاء وأمل ونحو ذلك . وهذا كله يجب أن يكون لله وحده بنص هذه الآية الكريمة . والنسك هنا لعله الذبح وهو القربان إلى الله . فالذبح يجب أن يكون لله بنص الآية الكريمة ، فلا يذبح لغيره أبداً . والمحيا هو الحياة . فالحياة يجب أن تكون كلها لله بما يقع فيها من عبادات وصلوات وصيام وخوف ورجاء وخشوع وخضوع ودعاء ونداء وغير ذلك من هذه المعانى ، فلا يكون نوع من ذلك لغير الله . والممات أيضاً كله لله بما فيه من رجوع وحساب وثواب وإعطاء وإرضاء ورضا وإدخال فى الجنات وإبعاد من النيران وزيادة فى الحسنات وكل ما هنالك .

والانسان عبارة عن حياة وعن موت ، وهو إما حى وإما ميت ، وهو فى الحالين والحياتين خالص لله وحده لا شركة لأحد فيه . هذا هو المسلم الصحيح الاسلام ، وهذا هو حقيقة الاسلام والايمان والتوحيد ، وهذا هو ما دلت عليه هذه الآية الكريمة . والمسلم حقا لا يصح له أن يتخذ رباً غير الله ، فلا يهب مخلوقا معنى واحداً من معانى الربوبية ، لأن معانى الربوبية كلها لمن خلق كل شئ وهو الله رب العالمين .

وقال تعالى من سورة « المؤمن » : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير » .

آية أخرى :

ولا أصرح من هذه الآية رداً على هؤلاء الذين يأبون دعوة الله وحده ويدعون سواه من الأموات والأشياخ الذاهبين . فإن هؤلاء إذا دُعى الله وحده

وقيل لهم : لا يدعى إلا الله ، ولا تجوز دعوة سواه ، صاحوا ونهضوا لمناهضة هـذا التوحيد وإنكاره والكفر به ، وزعموا أن ذلك عـدوان على عباد الله الصالحين وإساءة بالغة إليهم . وإذا وجدوا من يدعو إلى توحيد الله والاستغناء به عن سواه وإفراده بالدعاء وما يلزم الدعاء من معانى العبودية والعبادة عابوه وهجوه وقالوا فيه وفى اعتقاده الأباطيل وكفروا به وبدعوته وتوحيده وبمن يدعو إليه . أما إذا قيل لهم : بل يدعى فلان وفلانة ويستغاث بالأموات والصالحين والمشايخ،ويعكف على أجداثهم وآثارهم للاستشفاع وطلب البركات والامدادات رضوا وفرحوا واغتبطوا وقابلوا ذلك بالرضا والايمـان والاطمئنان وعـدوه من مقالات المؤمنين المسلمين . وإذا وجدوا من يقولون هـذا القول ويدعون إليـه ويذهبون هذا المذهب المشرك أحبوهم ورضوهم واطمأنوا إليهم وقابلوهم بالاحترام والتبجيل والتصديق والعناية والامتداح والثناء الـكاذب المزوّر كما صنع هـذا الشيعى المصنف . فانه قابل أفذاذ العلماء وأعضاد الشريعة الاسلامية بالتجريح والإفساق والاكفار والهجاء والبذاء والـكفر بهم وبما لهم من الأيادى على الاسلام والعلم والأخـلاق والفضائل . . . لأنهم قالوا لا يدعى إلا الله ، ولأنهـم كانوا لايدعون غيره تعالى من الأموات ، وقابل جهلاء المؤلفين وجهلاء العلماء بالتكريم والاجلال والامتدح والثناء . . . لأنهـم كانوا يدعون الاموات ، ولأنهم كانوا يشيدون الشبهات على جواز دعوتهم والعكوف على قبورهم،ولأنهم كانوا يقدحون فى فريق التوحيد ، وفيمن قالوا لايدعى ولا يعبد إلا الله . وهذا الدأب هو ما حكاه الله عن المشركين بقوله : « ذلكم بأنه إذا دعى الله وحـده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا » . أى إذا دعا محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين الله وحده ونسوا ما خلاه من الأصنام والأوثان والأغيار الأخرى كفروا بهذا الدين الذى جاء به هؤلاء الذين لايدعون إلا الله بشرا كهم ، بأن ذهبوا يدعون ما يدعون من

دونه تعالى إثباتاً لوجودهم فى جانب وجود أهل الله وحزبه وحده ، وإثباتاً لوجود شركهم وضلالهم ازاء توحيد محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين . . .
« وإن يشرك به تؤمنوا » أى وإن يدع الله ويدع معه غيره من المعبودات الأخرى بأن يقال حيناً : يا الله ، وحيناً آخر : يا فلان أو يا فلانة ، يؤمنوا بهذا الاشراك ويصدقوه ويقروه . وهذا هو عين ما عليه عبدة القبور اليوم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل . فما أشبه الليلة بالبارحة أو ما أشبه الليل بالليل !

آية أخرى

ثم قال فى هذه السورة عينها : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » أى ادعوا الله مخلصين له الدعاء والنداء وغير ذلك من معانى الدين وأنواعه ، ولا تشركوا به شيئاً فى دعائكم ودينكم ، ولو كره ذلكم التوحيد منكم المشركون الكافرون ، ولو كرهه أهل الأرض جميعاً .

آية أخرى

ثم قال من السورة نفسها أيضاً : « والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ ، إن الله هو السميع البصير » أى إن الله وحده هو القادر على أن يقضى بين الخلائق بالحق والعدل والحكمة لأنه هو الخالق لكل شئ . . .
وأما الذين يدعونهم من دونه تعالى فعاجزون جميعاً عن أن يقضوا بشئ وأن يحكموا على شئ وأن ينفعوا أو يضروا ، لأنهم عباد أذلة ، ممدود عليهم رواق العبودية . فما أضل إذن هؤلاء الذين يدعون من لا يستطيعون أن يقضوا لهم ولا لغيرهم بشئ لا بخير ولا بشر ! وما أعمى وأبلد من يعدلون عن دعوة الله القاضى بين جميع الخلق بالحق والعدل والحكمة إلى دعوة من لا يقضون بشئ لا لداعيهم ولا لغيره ! فأى الفريقين — الفريق الذى لا يدعو إلا الله ، والفريق الذى يدعوه ويدعو سواه — أحق بالهدى والرشاد والسداد ؟

آية أخرى

ثم قال من هذه السورة أيضاً : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » . فأمر أولا بالدعاء ثم ذكر

بعده أن الذين لا يعبدون الله ، استكباراً ، مأواهم النار . فدل ذلك على أن الدعاء هو العبادة ، أو أن الدعاء عبادة ، ودل على أن العبادة التى أوعد الله المستكبرين عنها فى الآية بالنار والنكال هى الدعاء . و يصحح هذا الذى يبدو من الآية الكريمة مارواه النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » رواه الأربعة وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وروى من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله: «الدعاء مخ العبادة » و روى من حديث أبى هريرة عن رسول الله قال : « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » . قال ابن حجر : صححه ابن حبان والحاكم . والعبادة باتفاق أهل الاسلام لا تكون إلا لله .

آية أخرى

ثم قال من السورة المذكورة أيضاً : « فادعوا الله مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين . قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين » إلى أن قال : « والذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ، كذلك يضل الله الكافرين » . فأوضحت هذه الآية أن المشركين إذا سئلوا يوم القيامة بين يدى الله وقيل لهم : أين آلهتكم الذين كنتم تشركونهم فى عبادتكم ، فأرادوا البراءة منهم قالوا : إنهم قد غابوا عنا وضلوا ، ثم عدلوا عن هذا الجواب إلى التبرى من أن يكونوا أشركوا بالله شيئا فقالوا « بل لم نكن ندعو من قبل شيئا » غير الله . وفى هذا بيان ظاهر بأن الاشراك الذى ليموا عليه وأوخذوا فأرادوا أن ينكروه وأن ينزهوا أنفسهم عنه هو دعاء غير الله . ولهذا هربوا إلى

إنكار أن قد يكونوا قد دعوا أحداً غير الله حينما أرادوا البراءة من الشرك والكفر، قال الله: «كذلك يضل الله الكافرين».

آية أخرى

وقال تعالى من سورة الأحقاف: «قل أرأيتم ما تدعون من دون الله، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين. ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين».

يقول تعالى لعبده ونبيه محمد ﷺ: قل لمن راحوا يدعون عباداً مخلوقين مثلهم، ويسألونهم حاجاتهم ومآربهم المختلفة، وهم عاجزون عن أن ينفعوا أنفسهم وأن يجلبوا لها خيراً أو يدفعوا عنها شراً: قل لهم: أخبرونى عن هؤلاء الذين تدعونهم وتسألونهم، هل خلقوا شيئاً من الأرض فملكوه فاستطاعوا أن يهبوه من شاءوا وأن يمنعوه من شاءوه فذهبتم تسألونهم إياه وتطلبونه منهم لأنه ملك لهم! فان كنتم تزعمون لهم هذا فأرونى هذا الذى خلقوه من الأرض، وأخبرونى كيف خلقوه، وكيف كان ذلك؟ وما البرهان عليه لديكم؟ وهذا ما يعجزكم إثباته وبرهانه... وإذا كنتم لا تزعمون لمن تدعون هذا الأمر، وكنتم لا تدّعون أنهم خلقوا شيئاً من الأرض، فأخبرونى عن أمر آخر لعلكم تزعمونه لهم، ولعلكم تدعونهم وتسألونهم من أجله، أخبرونى هل تزعمون أن لهم شركة فى السموات وملكاً فيها تسألونهم أن يعطوكم منه شيئاً وأن يمنحوكم كله أو بعضه؟ فان كنتم تزعمون لهم هذا أو هذا فأقيموا على ما تزعمون البرهان، والبرهان إما منقول مقبول وهو الرواية المتصلة بمن قوله حجة وهو الكتاب والوحى، وإما معقول وهو الأثارة من العلم. فأتونى إذن بكتاب أو أثارة من علم إن كنتم صادقين. أما إذا عجزتم عن هذا كله فعجزتم عن أن تثبتوا لهم شركا لا فى السموات ولا فى الأرض

ومن السموات والأرض يتألف العالم المعروف لكم ، فقد وجب عليكم أن تعلموا أنهم لا يستجيبون لمن دعاهم وسألهم ، لأنهم يسألون ما لا يملكون وما ليس لهم ، لأنهم لم يخلقوه ولم يكن لهم سبب ولا أثر فى خلقه و إيجاده . و إذا علمتم هذا حقا فاسمعوا آية الله الخالدة : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين » .

أضل الناس

وفى الحق أنه لا أضل ممن يدعون دون ربهم من لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وذلك أن الضلال ضلالان : ضلال فى ما بين العبد والعبد ونفسه ، وضلال فى ما بين العبد و ربه ، أوضلال فى أمور الدنيا وضلال فى شؤون الأخرى الذى هو الدين . وهذا الذى يدعو من لا يستجيب له إلى يوم القيامة قد جمع الضلالين : الضلال فى ما بينه و بين العباد ونفسه ، والضلال فى ما بينه و بين ربه ، أوالضلال فى شؤون دنياه والضلال فى أمور دينه . أما الضلال الأول فهو أنه يدعو من لا يستجيب له ومن لا يسمعه ومن لا ينفعه لو سمعه ، فهو خاسر فى هذا الدعاء ، ناصب دون أن يلاقى ثمرة أو فائدة لتعبه ونصبه ، وهذا عين الضلال . ولأن الضلال هو الخروج عن الطريق القاصد والمنهاج الراشد . وأما الضلال الثانى فهو أنه فى هذا الدعاء الذى يظن أنه يقربه إلى ربه و يرضيه عنه و ينيله به الثواب والجزاء الحسن يغضبه عليه و يستحق به عقابه ومقته وطرده و سخطه . وذلك لأنه قد أشرك به عبداً من عباده الخاضعين له ، عبداً قد خلقه لعبادته . وهذا أقبح الضلال . فقد جمع الداعى من لا يستجيب له الضلالين ، فكان بذلك أضل الناس وأجهلهم — عائذين بالله من الضلال بسائر أنواعه وأقسامه .

أقبح القبيح

وفى الحق أيضاً أنه لا أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وذلك أنه من الضلال أن تريد من عبد أن

يهبك ما يملكه عبد آخر غيره من العباد ، ولكن الأقبح من هذا والأوضح ضلالا وغياً أن تريد من عبد أن يهبك ما يملكه ربك وربه ورب العالمين أجمعين ! وأقبح هذا القبيح أن يكون هذا العبد الذى تطلبه أن يعطيك ما يملكه رب العالمين عبداً ميتاً مرتهناً تحت التراب والرغام على رغم أنفه.

وفي الحق أنه لا أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين .وذلك أن الذى يدعو هذا الذى لا يستجيب له ولا يسمع منه ولا يعلم عنه شيئاً، إنما يريد بدعائه إياه أن يسمع له وأن ينفعه أحد أنواع النفع ، أو كل أنواعه : فاذا كان ذاك المدعو لا يستجيب له أبداً كان هذا من الضلال الظاهر فاذا كان ذاك المدعو أيضاً الذى لا يستجيب إلى يوم القيامة سيصير عدواً لداعيه. فى الساعة التى كان يرجو نصرته ومغوثته ومعونته فيها كان من الضلال الظاهر ثم إذا كان ذاك الداعى الذى سوف يلاقى جميع أنواع ماذكر من نسيانه ومن معاداته ومن الكفر به وبعبادته سوف يجزيه ربه ،على نصبه وعبادته وأعماله الناصبة ،النار والعذاب الأليم الدائم ، كان هذا أيضاً من الضلال الظاهر . . . فقد جمع ذاك المسكين أنواع الضلال وشر الضلال ، فمن أضل إذن منه !

ما فى الآية من ضروب الدلائل

وهذه الآيات دالة بوجوه كثيرة وأساليب مختلفة واضحة جلية على بطلان دعوة الأموات وعلى أن دعاتهم قد وقعوا فى الإشراك والكفر برب العالمين وذلك أنها قد عنفت المشركين ضروب التعنيف على دعائهم غير الله،ولم تذكر عنهم غير الدعاء ، ثم ردت عليهم دعاءهم بحجة باهرة قاهرة يعقلها جميع الناس ، وهى أن من يدعون من دون الله لم يخلقوا شيئاً فى هذا العالم . وليس لهم شرك ولا ملك لا فى سماواته ولا فى أرضياته ، بل الملك كله لله وحده . وهذا يعترف به ويقره المشركون ، كما ذكر القرآن عنهم . ومن لا يملك شيئاً كيف يسأل التمليك ؟

وكيف يطلب أن يهب شيئاً لم يخلقه ولم يملكه لو كان المشرك بربه يعقل شيئاً ؟
وهذه الحجة،في إبطال دعاء المشركين غير ربهم ، هي حجة باهرة قائمة على بطلان دعوة الموتى و بطلان الانقطاع إليهم . ثم ذكرت بعد هذا الاحتجاج العجيب على دعاة المخلوقين أنه لا أضل من الذين يدعون من لا يجيبونهم ومن لا يسمعون دعاءهم ولا يعلمون حالهم . وهذا نقض صريح على دعاة المقبورين لأنهم يدعون من لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة . وهل يستجيب الميت لداعيه ؟ فلا أضل وأجهل من دعاة الميتين بنص الآية الكريمة !

ثم ذكرت أن دعاء غير الله عبادة لمن دُعي بقوله «وكانوا بعبادتهم كافرين» وهي لم تذكر عنهم في مقام الرد عليهم والزراية بهم غير الدعاء ، فذكرها العبادة بعد ذكر الدعاء دليل على أن الدعاء عبادة ، وعلى أن عبادة المشركين لغير الله كانت بالدعاء ، أو أن الدعاء كان منها . وفي هذا كله الرد الواضح على هؤلاء الذين يدعون الموتى و يزعمون أنهم لم يعبدوهم ولم يشركوا بهم بدعائهم وسؤالهم إياهم . والآية واضحة أيضاً في أن أولئك المدعوين المعبودين قوم عقلاء من البشر والملائكة والجان ، ولم يكونوا جماداً مجرداً كما زعم ، والصفات التي ذكرت لهم في الآيات دالة على ذلك دلالات بينة ظاهرة. وهذه كلها مناقضات لعبدة القبور العاكفين عليها يستجدون و يدعون

آية أخرى

وقال تعالى في آخر السورة : « ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ، بل ضلوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » .

فالمشركون على اختلاف صور شركهم وتباين مظاهرهم ومظاهر ضلالهم

الأصنام قرابين

ما اتخذوا الأصنام والمعبودات الأخرى من دون الله إلا قرابين إليه تعالى ليقربوهم عنده بشفاعاتهم و وساطاتهم ، وما لهم من الجاه والمنزلة العظيمة القريبة

أما غايتهم فهى هو وحده لاشريك له .

والقربان هو ما يتقرب به إلى الشيء ، فالقربان إلى الله هو ما يتقرب به إليه وإلى رضاه ونيل ثوابه وجزائه ، والقربان إلى الصنم ، مثلا ، هو مايتقرب به إلى الصنم ، والقربان إلى النبي والولى هو مايتقرب به إليهما وإلى شفاعتهما وإلى رضاهما ووساطتهما . فقرابين المشركين التى هى آلهتهم ومعبوداتهم التى اتخذوها من دون الله ، لا يعدو معناها معنى الأولياء والوسطاء والشفعاء والوسائل عند هؤلاء العاكفين على الأجداث . فالجميع يراد منهم التقريب إلى الله زلفى ، والجميع غايتهم الوصول إلى الله والحظوة برضاه . فعابد الصنم مثلا لم يعبده لأنه فى عقيدته رب خالق قديم مع الله باق بقاءه ، بل عبده متقربا به إلى الخالق القديم الباقى وكل شيء يفنى ، فهو قربان إلى الله لا غير . وعابد النبي والولى لم يعبده لأنه فى اعتقاده رب خالق قديم مع الله مساو له فى جميع الصفات والأسماء ، ولكن عبده ليكون له شفيعاً ووسيطاً ، وليكون له وسيلة لدى ربه القديم الباقى الدائم . فالغرض متحد ، والعقد متحد ، والمظهر متحد ، فأين الفرق ، وأين الاختلاف ؟ والأمر كما قال الشاعر الجاهلى (بلى كل ذى رأى إلى الله واسل) وكما قال الجاهلى الآخر : (وليس وراء الله للمرء مذهب) .

آية أخرى

وقال تعالى من سورة سبأ : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » الآيات .

وقد كرر الكتاب الكريم هذا الاحتجاج الباهر على المشركين العادلين بالله غيره من خلقه الضعفاء العاجزين ، وذكره فى سور مختلفة بأساليب واضحة عجيبة . وهذا الاحتجاج الباهر هو أن هؤلاء الذين يدعون من دون الله فقراء عاجزون ، لم يخلقوا ولم يملكوا شيئاً فى هذا العالم العظيم الواسع ، لا فى العلويات

وهى السموات ، ولافى السفليات وهى الأرضون . والمشركون لاينازعون فى هذا؟ أى لا ينازعون فى أن من يعبدون من دون الله لم يخلقوا شيئاً ، ولا ينازعون فى أنهم مملوكون هم وما يملكون فى الظاهر لله ، مخلوقون له ، واقعون تحت سلطانه وقهره وقسره . فاذا كانوا بهذا المكان من الضعف والعجز والافتقار المطلق الكامل الشامل فلماذا يُدْعون و يسألون ، وتقتضى منهم الحاجات والمآرب ، وهم عاجزون عن نفع أنفسهم وعن إيصال الخير إليها ؟ وقد جبل الناس جميعاً على الاعراض عن الفقير العاجز الذى لايستطيع أن ينفع سائله إذا أراد ، ولا يضر غيره إذا شاء ، وجبلوا كافة على الرغبة فى القادر المالك الذى يستطيع أن يعطى وأن يمنع وأن يضر و ينفع .

الحجة الخالدة

وقد ذكر الله هذه الحجة فى مواضع من الكتاب العزيز وهى اليوم الحجة على هؤلاء الداعين للأموات ، السائلين إياهم جميع حاجاتهم وما يرجون و يطلبون ، وهى الحجة القائمة أبداً على كل مشرك فى كل عصر ومكان : فهى الحجة الخالدة الباقية لأنها منتزعة من أعماق النفوس والفطر الصحيحة ، فهى باقية ما بقيت الفطر والنفوس ، وهى قائمة ما قام الشرك والايمان خصمين متواقفين يتنازعان الغلب والسلطان والعقائد والأعمال .

وقد قفل الله فى هذه الآيات على المشركين جميع آمالهم فى غير الله ، وسد عليهم كل منفذ يحاولون أن ينفذوا به إلى الخير من طريق الخلق : فأخبر أولاً أنهم لايملكون مثقال ذرة واحدة فى هذا العالم وهذا الملك الواسع ، ثم أخبر ثانياً أنه ليس لهم فى هذا الملك شركة ما ، إذ قد يكونون غير مالكين لكنهم شركاء ، فجردهم من الملك ومن الشركة فيه ، ثم أخبر ثالثاً أنه ليس لصاحب هذا الملك وربه ومالكه منهم ظهير ولا نصير ولا معين ، إذ قد يقال إنهم غير مالكين وغير شركاء فى الملك ولكنهم أعوان ونصراء وظهراء لمالك الجميع ، فيدعون

من هذه الناحية ، وهى ناحية عونهم وظهارتهم لصاحب الشأن والملك الأعظم فجردهم الله من الأمور الثلاثة : من أن يكونوا مالكين ، أو شركاء ، أو أعوانا نصراء. فما بقى لهم بعد ذلك ، ومابقى للأمل فيهم ؟ بقى أن يقال: لعل لهم شفاعة وجاهاً لديه تعالى فيدعون و يسألون ذاك الجاه وتلك الشفاعة . فقفل الله عليهم هذا الأمل ، وسد فى وجوههم ذاك المنفذ : فأخبر أن الشفاعة ليست سوى أمر صورى ظاهرى لا يقدم ولا يؤخر ولا يترتب عليه شئ مما يرومون و يظنون ولكن الله جلت قدرته وعظمته عندما يريد أن يكرم عبداً من عباده الأتقياء ويقيمه مقام التبجيل والتعظيم، يأمره بأن يشفع لأحدالناس الذين أراد بهم خيراً ورحمة وغفرانا وعناية لأعمال صالحة عملها ؛ فيشفع فيشفعه تعالى ويجرى على شفاعته ، ظاهرا فقط ، ذلك الاحسان الذى أراده الله لذلك العبد المشفوع فيه .

لا أمل فى من يدعون من دون الله

ولكن الأمر فى كل ماهنالك لله وحده ، فهو الذى رضى عن المشفوع له ، وهو الذى أمر الشافع بالشفاعة ، وهو الذى شفعه فيه وأجاب طلبه ومسألته . فالأمر كله لله ، والشفاعة كلها ، بأسبابها و وسائلها وغاياتها ومظاهرها وحقائقها ، له وحده، كما قال تعالى : « قل لله الشفاعة جميعاً » . فسؤالها إذن من غير الله ومن الشافع نفسه عبث باطل لا يفيد ، والتعلق بها والاعتماد عليها أيضاً جهل وضلال. فان طلبها من غير الله والتعلق بها ليسا من أسباب حصولها ونيلها ، و إنما سبيلها الصحيح هو عبادة مالكها وطاعته والقيام له على قدم العبودية الصحيحة الصادقة كما تقدم فى فصل بحث الشفاعة الفائت . . . فلا شىء إذن لغير الله ، ولا شىء لمن يدعون من دونه. فلماذا إذن يدعونهم وهم ليس لهم مثقال ذرة فى هذا الملك، وليس لهم فيه شركة ما ، وليس منهم معين ولا ظهير لصاحب هذا الملك ، وهم بعد ذلك كله لا يملكون الشفاعة وهى الدعاء ، كما زعم المخالف ، ولا يستطيعون أن يتقدموا بين يديه بهذه الشفاعة حتى يأذن لهم و يأمرهم . فهم عاجزون عن كل

شئ ، فقراء من كل وجه، فلاأضل ممن راح يدعوهم و يسألهم تاركا ربه وراءظهره .

يةأخرى

وقال تعالى من سورة فاطر : « ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولاينبئك مثل خبير . . . ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » .

يقول تعالى ، مخاطباً من يدعون غيره من عبيده الضعفاء العجزة : ذلكم الذى له تلك الصفات ، وتلك الشئون التى تليت عليكم ، هو الله ربكم ورب العالمين ، له هذا الملك وحده ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا يعينه على القيام عليه وبه معين . فكل الخيرات التى تطلبون لديه ، وكل الشرور التى تحذرون تستدفع به وحده ، فهو المخنوز المأمول ، وهو المدعو المسئول : وأما الألى تدعون من دونه ففقراء ضعفاء ، ما يملكون فى هذا العالم الطويل العريض من قطمير ، وهو اللفافة التى تجدونها فوق النواة ، فماذا تطلبون عندهم إذن ، وماذا ترجون لديهم ؟ وهم بعد هذا الفقر المدقع والعجز البالغ قد فقدوا حواسهم بالموت والفناء : ففقدوا آلات سمعهم ونطقهم وعملهم فلو أنكم ظللتم ..نهم الليل والنهار بكل لسان ولغة ولهجة لما نفذ إليهم دعاؤكم ولا نداؤكم ولا شئ . ن أمركم، ولو أن شيئا من هذا نفذ إليهم فسمعوه ووعوه لما نفعكم ذلكم ولما استجابوا لكم شيئاً ، لأنهم عاجزون عجزاً لازماً ، ولأنهم فقراء فقرا ذاتياً . على أنهم لو سمعوا وقدروا على إجابتكم ونفعكم ما أجابوكم ولا نفعوكم ، بل لتبرؤا منكم وعنفوكم . ولهذا فانهم يوم القيامة ، يوم يستطيعون القول والكلام والسماع ، يبرؤن منكم ، ويكفرون بكم وبشرككم ويصبحون لكم خصوماً لداً .

مبالغة الكتاب فى القعود عن غير الله

وقد بالغ الكتاب العزيز فى تقنيط القوم وإحاطتهم باليأس الغالب ماشاءت

المبالغة الصادقة : فجرد من يدعونهم من دون الله أولا من الملك حتى من أقله ، ثم جردهم ثانياً من آلات السماع والقدرة والعمل التى قد يعمل بها من لا يملك شيئاً ، ثم جردهم ثالثا من العون والمغوثة التى كانوا يظنونها لديهم إذا قدموا عليهم ، فاستغاثوهم ، فأنبأ أنهم سوف يكفرون بعبادتهم إياهم ، وبما تقربوا به إليهم من تعظيم وخضوع وخشوع ، فهم إذن لا يملكون شيئا ولا يستطيعون أن يملكوا . ولو قدر أنهم ملكوا لما نفعوا أبداً . فأيديهم فقيرة خالية ، وأبدانهم عاجزة واهية ، ثم لو ملكوا أو قدروا ما نفعوا. فما أفقرهم وأعجزهم ! وما أضل وأغبى من دعاهم واستنجدهم .

المناقضة على عبدة القبور

وفى هذا من المناقضات على عبدة الأموات ما فيه . وذلك أن الله أنكر على المشركين دعاء غيره، وليكن ذلك الغير ما يكون ، وذكر أن ما يدعون من دونه لا يصح دعاؤه لأنه فقير عاجز عن الاجابة وعن الملك ، وذكر أنهم لا يسمعون دعاء الداعين أبداً ، وأنهم لو سمعوا ما أجابوا من دعاهم ، وذكر أنهم يوم القيامة ينكرون على من عبدهم ودعاهم ، وذكر أنهم أشركوا بعد أن ذكر أنهم دعوا غيره ، فكان هذا تفسيراً لهذا ، وكان شركهم هو دعاءهم غير الله . وواضح من ظاهر هذا كله أن المدعوين عقلاء من البشر والجان ، وليسوا جمادا مجردا كما ذكرنا مرات ، وواضح أن عبدة القبور ضالون جاهلون لأن من يدعونهم من الأنبياء والأولياء ما يملكون من قطمير، ولأنهم لا يسمعون دعاءهم ، ولأنهم لو سمعوا ما أجابوهم ولا نفعوهم ، ولأنهم يوم القيامة سوف ينكرون عليهم دعاءهم وانقطاعهم إليهم ، وسوف يكفرون بشركهم بهم .

آية أخرى

ثم قال من هذه السورة : « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات ، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غروراً » .

فكأن آيات التوحيد قد أنزلت لغاية واحدة وغرض واحد وهو النهى عن دعاء غير الله والأمر بدعائه وحده، والزراية بمن دعوا غيره، والإيعاد للمشركين لدعائهم سواه. ومن ثم فانك تقرأ عشرات الآيات النازلة فى المشركين وفى عبادتهم الأصنام و «الأوثان» وعبادتهم غير الله فتجدها كلها عامدة إلى غاية واحدة هى الانكار عليهم أن دعوا مخلوقا، وأن سألوا عبداً حاجة من الحاج. وتقرأ عشرات الآيات الآمرة بالانقطاع إليه تعالى فتجدها أيضا كلها رامية إلى هدف واحد، هو الأمر بدعائه وحده لاشريك له. فجميع آيات التوحيد كأنما نزلت لغاية واحدة، وهى أن يفرد الله بالدعاء. هكذا جاءت هذه الآية، وهكذا جاءت جميع الآيات التى تلوناها والتى سوف نتلوها. والعجيب أنه ماجاء فى آية واحدة، على ماأذكر، أن الله أنكر على المشركين السجود والركوع لغيره صراحة ونصا وكل ماجاء فى هذا هو قوله «لاتسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون» وقصة الهدهد مع سليمان وقول الهدهد: «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله». أما الدعاء فكما سمعت ورأيت.

انكار الدعاء دون السجود

والأمر حينئذ دائر بين احتمالين: بين أن يقال: إن المشركين لم يكونوا يسجدون للأصنام والأوثان ولا يركعون لها، وإنما كانوا يدعونها دعاء ويسألونها سؤالا، ولهذا وحده كانوا مشركين عابدين غير الحق. والاحتمال الثانى أن يقال: بل كانوا يسجدون ويركعون لها كما كانوا يدعونها ويسألونها، ولكن الله أكثر من انكار الدعاء دون إنكار السجود والركوع لأن أمر الدعاء أعظم وأجل، ولأنه أفضل وأدل على العبودية . . . والاحتمالان كلاهما يردان على هؤلاء الذين يدعون القبور الليل مع النهار، ثم يزعمون أنهم لم يعبدوهم ولم يهبوهم شيئاً من أنواع العبادة، لأن العبادة فيما زعموا شىء آخر غير الدعاء والاستجداء. فاذا قيل بالاحتمال الأول ثبت أن عبادة المشركين للأصنام، وأن شركهم بالله

كان بالدعاء دون غيره ، وهذا يرد على أصحاب القبور قولهم : إن الدعاء ليس عبادة للمدعو ولا شركا بالله . وإن قيل بالاحتمال الثانى كان أيضا أوضح فى الرد عليهم ، لأنه إذا كان الدعاء أفضل أنواع العبادة وكان أعظم من السجود والركوع فلا خلاف فى أن هؤلاء قد قدموا للأموات أفضل العبادة وأعظمها بضروب وصور لاشك فى فظاعتها وهولها . فانه لاخلاف فى أنهم يدعون أصحاب القبور ليلهم ونهارهم ، فى محضرهم ومغيبهم ، فى سرائهم مع ضرائهم ، دعاء حارا متواصلاً ، ويسألونهم عظائم الحاجات وكبريات المآرب . فعلى الاحتمالين دعاة الأموات عابدون لغير الله مشركون به شركا منكرا .

آية أخرى

وقال تعالى من سورة يونس : « ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون » .

يعنى تعالى أن المشركين الذين يدعون مع الله شركاء ، يشركونهم فى دعائهم وندائهم ، ويطلبون منهم مايطلب من الله ليس لهم من برهان ولا من حجة على هذا الإشراك ، وكيف يكون للباطل برهان ، أم كيف يجد داعى الاموات حجة ؟ ولكنهم يتبعون الظن ، والظن لايغنى عند الحق شيئاً ، ولكنهم أيضاً يخرصون ، وقد قتل الخراصون . ولو أنك نفضت هؤلاء الذين يدعون الأموات ويستجدونهم ، لتجد لديهم صورة من برهان ، أو شية من علم ، أو بصيصا من حجة لما وقعت منهم إلا على الظنون والتخرصات والشبهات الزمنة ، وعلى القياس الفاسد قياس البارى القادر على عباده العاجزين الجهلاء الظالمين . كقولهم أنت لا تستطيع الوصول إلى الأمير والوزير إلا بالوسيط والشفيع ، فكذلك لايستطاع الوصول إلى الله إلا بالنبى والولى وبالمقربين إليه تعالى . أو كما كان الأمر كذلك فيما بين العباد ، فلا مانع من أن يكون كذلك فيما بين العباد وربهم . ولما وقعت أيضا منهم إلا على تحميل النصوص ما لاتحمل ، وتكليفها ما لاتطيق ،

تارة بصرفها عن ظاهرها وسبيلها ، وتارة بتفسيرها التفاسير الباطلة المزوّرة ليكون منها دلائل على عبادة القبور والانقطاع إلى الاجداث : فلك أن تقرأ ماتشاء مما كتبه نصراء الأموات من كتب حاولوا بها أن يجدوا لما قالوه واعتقدوه وزوروه شيئاً ، وأن يشيدوا لما انتحلوه بناء يأوون إليه هم وأشياعهم ، فرارا من صواعق المعقول وصواقع المنقول ، فلن تجد فى كل ما يمكن أن تقرأ غير خبر مكذوب أو خبر صحيح ، ولكنه عليهم لا لهم ، أو قول مفتون ضال ، ضل عن السبيل كما ضل من جعله حكما ، وجعل قوله حجة ، وغير هذا لن تجد فيما كتبوا وألفوا وغير هذا لن يكون الظن والتخرص ، وغير الظن والتخرص لن يكون الباطل والنموذج الأعلى لما كتبه أشياع القبور هو كتاب هذا الشيعى . وقد علم القارىء مكانه من العلم والبرهان ، ومكانته من المعقول والمنقول ، وقدر أى أن أفضل وأعظم ماجاء به من المناقضة لدعوة الإصلاح السلفية الموحدة هو إيراد الشبهات والاحتمالات على الكتاب والسنة الصحيحة ، و إحاطتهما بالتأويلات البشعة والشكوك فى معانى آى الكتاب التى لاحيلة فى رد ألفاظها ونصوصها ، ثم التشكيك فى معانى السنة الصحيحة المتواترة و رد نصوصها أيضا . ولهذا فقد أجرى فرس التأويل والتشكيك فى آى الكتاب العزيز الناهية عن دعاء غير الله الزاجرة عنه بأفانين من النهى والزجر تدهش العقول الصحيحة السليمة ، وقد سمع القارىء بعض هذه الأفانين . . وقد خرج الشيعى من الميدان منهوكا مضنى بشر الأسلاب وشر المغانم . ويكفى أن تعلم أنه قد أول قوله تعالى . « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » بقوله : « إن الدعاء المنهى عنه هنا هو الدعاء المساوى لدعاء الله باعتقاد أن المدعو قادر مختار مساو لله فى ذلك » أى فى القدرة والاختيار ، قال : « أو هو دعاء من نهى الله عن دعائه من الأصنام والأوثان التى هى أحجار وأشجار لاتعقل ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع ، كما كان يفعله المشركون فى الكعبة ، أو دعاء الملائكة

ما لدى عبدة القبور غير الظن والخرص

أو الجن الذين كانوا يعبدونهم و يعتقدون أن لهم تأثيراً فى الكون مع الله بأنفسهم أو يشفعون عنده اضطراراً بحيث لا يرد شفاعتهم »

هذا مااختار فى تفسير هذه الآية ، وهذا مافعل للخلاص من دلالتها القاطعة ومن معناها المفهوم الذى لم يرضه ولم يقبله ، وهذا نموذج من أفعاله وأقواله وعدوانه على آى ربه وكتابه . وهل هـذا إلا شر الظن الذى أخبر الله أن دعاة غـيره يتبعونه ، وشر التخرص الذى أنبأ الله عن المشركين بأنهم يخرصونه ؟ بل ماهذا إلا دون الظن ودون التخرص اللذين كان المشركون يقيمون عليهما هيا كل دينهم وعقائدهم .

فساد هذا التأويل

أما زعمه أن الدعاء المنهى عنه فى الآية هو الدعاء المساوى لدعاء الله ، بمعنى أن المدعو مساوٍ لله فى القدرة والاختيار، فزعمه مرغوب عنه ، وذلك أنه لا يوجد مؤمن بالله على وجـه الأرض يزعم أن شيئا مساوله فى القدرة والاختيار، أو مساو له فى شئ من الأشياء . والمشركون كلهم لم يشركوا ولم يعبدوا غير الله إلا ليتقربوا إليـه تعالى بذلك . ولهـذا سمى ما يعبـدون من دونه قرباناً كما فى قوله تعالى : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة » وسموا شفعاء فى قوله : « ويعبـدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهـم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عنـد الله » وقال « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . فسموا أولياء وأريد بعبادتهم التقريب إلى ربهم . ولهذا كانوا ينسون كل آلهتهم ، ما خلا الله ، فى حالة الفزع والخوف الشـديد كما فى قوله : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضـل من تدعون إلا إياه » وكما فى قوله « ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » والآيات فى هـذا المعنى كثيرة معلومة . وكانوا إذا سئلوا من خلق السموات والأرض ومن خلق كل شئ يجيبون بأن الخالق لكل ذلك هو الله واحداً . والآيات فى المعنى كثيرة معروفة . وكانوا يقولون فى تلبيتهم

لم يزعموا أن الأصنام مثل الله

« لبيك اللهم لبيك الخ . » . هذه أشياء لا يشكون فى شئ منها ولا يتنازعون . ولكنهم كانوا مع هذا الايمان يعبدون غير الله بالدعاء والرجاء والخوف وما يدخل فى هذا المعنى. وقد كان هذا هو بلاءهم وذنبهم العظيم. أما أنهم كانوا يعتقدون بأن أصنامهم مساوية لله فى القدرة والاختيار أو فى شئ من الأشياء فكلا ، ما قالوا ذلك ولا اعتقدوه ، ولا زعمه أحد من المؤمنين بالله . أما ما ذكره عن النصارى وزعمه أنهم يعتقدون أن عيسى مساو لله فهذا الزعم فيه خطأ وسذاجة ظاهرة : ذلك أن النصارى لم يزعموا أن عيسى البشرى مساو لله ، وإنما زعموا أنه تعالى حال فيه . فلعيسى عندهم جانبان : جانب مادى بشرى ، وهو عيسى المولود المصلوب المركب كسائر الأجساد ، وجانب روحى لاهوتى قديم أزلى وهو الله الذى له القدرة والسلطان المطلق : المتجليان على بدن عيسى البشرى الناسوتى . . . فعيسى غير الله عندهم بهذا الاعتبار ، وعيسى الناسوتى ليس مساوياً لعيسى اللاهوتى الذى هو الله . هذا هو اعتقاد القوم ، وهذه هى الأغلوطة الكبرى . فالله حال فى عيسى ولكنه ليس مثله ولا قريبا منه . وعندهم أن من الدلائل على هذا الحلول أن عيسى كان يفعل أفعال الاله من الاحياء والإماتة والخلق والرزق وعلم الغيوب ، والبشر لا يقدرون على شئ من هذا فى المألوف المعتاد . فالذى فعل هذه الأفعال من عيسى المادى الناسوتى هو الله الحال فيه تشريفاً له وتكريماً وإقامة للبراهين على صدقه وجدارته بالامامة والالوهية ولهذا إذا سئلوا « أعنى النصارى » كيف أمكن أن يكون الثلاثة واحداً قالوا مثل ذلك الشمس ، هى واحدة ولكنها ثلاثة : جرمها وشعاعها وحرارتها أو ضياؤها فثلاثة واحد ، وواحد ثلاثة . وهذا القول والتمثيل ، وإن كانا ظلمات بعضها فوق يدلاننا على أن القوم ينهبون مذهب الحلول فى التثليث وفى تأليه عيسى وتأليه أمه ، والحال بلا شك ليس مساويا للمحلول فيه فلا يوجد مؤمن واحد

قول النصارى فى عيسى عليه السلام

على وجه الأرض يؤمن بالله ثم يزعم أن شيئا مساو لله مساواة تامة مطلقة من كل الوجوه .فهذا التأويل والذى ذكره فى الدعاء المنهى عنه فى الآية تأويل مزهود فيه.

إبطال آخر لما ذكر

ثم يقال فى دفع ماذكر : لو كان قوله تعالى « فلا تدعوا مع الله أحداً » نهيا عن الاعتقاد بأن شيئاً من الأشياء مساو لله فى القدرة والاختيار لما قيل « فلا تدعوا مع الله أحداً » ولكان الواجب أن يقال لاتعتقدوا ، أولا تظنوا ، أولا تزعموا أن شيئاً يساوى الله فى قدرته واختياره ، أو فى صفة من صفاته ، أو نحو ذلك. وهذا لأن المنهى عنه حينئذ هو الاعتقاد بأن شيئاً مساو له تعالى ، وليس المنهى عنه هو الدعاء . وهذا الاعتقاد ، اعتقاد المساواة ، أمر باطل موجب للكفر سواء أدعا غير الله معتقده أم لم يدع إلا إياه . ودعاء غير الله غير اعتقاد هذه العقيدة فيه. فلا يصح النهى عن الدعاء وهو غير منهى عنه ، كما لا يصح السكوت عن عقيدة المساواة وهى منهى عنها . والنهى عن الدعاء لا يمكن أن يفهم منه أنه نهى عن أن يسوى ذلك المنهى عن دعائه بالله فى القدرة والاختيار والصفات يقينا.

خلاصة الرد

وخلاصة الرد أن نقول للشيعى : إن الدعاء عندك ، أى دعاء غير الله من هذا الوجه ، ليس منهيا عنه ولا ممنوعا ، وإنما الممنوع المنهى عنه هو الاعتقاد بأن شيئاً مساو لله فى القدرة والاختيار والصفات ، ولكن هذا باطل، لأن المنهى عنه فى الآية هو الدعاء ، والدعاء غير منهى عنه عندك ، والمساواة لم تذكر فى الآية وهى المنهى عنها ، فيما تزعم . ولا يمكن أن ينهى عن شئ ويكون المنهى عنه شيئا آخر ، ويكون هو أى المنهى عنه غير منهى عنه . لأن هذين الأمرين أعنى دعاء الشئ واعتقاد مساواته لله غير متلازمين، لأن الدعاء قد يكون منهياً عنه وإن لم يعتقد فى المنهى عن دعائه أنه مثل الله من كل وجه ، ولأنه يمكن عقلا أن تعتقد فى شئ أنه مثل الله ومع هذا لا تدعوه .فهذا التفسير باطل سخيف

إبطال آخر

ثم يقال أيضاً : أى مؤمن بالله يستطيع أن يزعم أنه لا ينهى عن دعاء غير

الله إلا إذا اقترن دعاؤه باعتقاد أنه مثل الله سواء فى كل شئ ؟ وأى عاقل يقول هذا القول أو يرضاه أو يشك فى بطلانه وفساده ؟

إبطال آخر

ثم يقال أيضا : وأى عربى يفهم أن قول الله « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » نهى عن تسوية ذلك « الأحد » بالله من كل وجه ، وأنه ليس نهياً عن دعائه الذى يعرفه عامة الناس وخاصتهم ؟ ؟ إن كتاب الله نزل لعامة الناس وخاصتهم ، ونزل للإفهام والتعليم لا للألغاز والأحاجى والتضليل ، وما زعمه الشيعى فى الآية ألغاز وأحاج وتضليل . ولو أن قائلا قال : أدع فلانا ولاتدع فلانا ، لما أمكن أن يفهم أحد أن المعنى ادع فلانا الأول وادع الثانى أيضاً ولكن لا تسويه بالأول فى التكريم والتعظيم ، بل ادعهما معاً وفرق بينهما فى الاعزاز والاحترام . ولو قال هذا قائل وأراد هذا المعنى لكان ملوماً مخطئاً ملغزا مضلا عند جميع السامعين العارفين بمواقع الكلام ومناحى القول .

على أنه لو صح هذا الفهم فى الآية لصح لقائل آخر أن يقول ، إن النهى عن عبادة غير الله ، كالنهى مثلا عن السجود والركوع ، معناه النهى عن تسوية غير الله بالله ، أو النهى عن عبادته المقترنة باعتقاد مساواته لله . وهذا كزعم المخالف ، وهما زعمان من سقط المزاعم ورثيث الآراء .

تأويله الآخر للآية

وأما تفسيره الثانى للآية ، وهو أن يكون النهى خاصاً بالنهى عن دعاء الأحجار والأشجار التى لاتسمع ولاتعقل ولا تضر كما لاتنفع ، فتفسير أيضا منبوذ . وذلك لما أسلفناه من أن المشركين لم يكونوا يدعون الأحجار والأشجار المجردة يقيناً ، وإنما كانوا يدعون صور الصالحين وصور الأنبياء والملائكة والجان ، ويتعلقون بآثارهم ومخلفاتهم على قصد دعاء الصالحين أنفسهم ، كما يفعل عبدة القبور وعبدة الأبواب والأعتاب والشبابيك والعمد والأحجار والأشجار التى يزعمون أن لبعض الأنبياء والأولياء والاشياخ والاقطاب بها صلات وملابسات ومناسبات

والمدعو المقصود فى أنفس الفريقين ـ أعنى فريق القبور وفريق الأصنام والأوثان ـ هم الصالحون والملائكة والجان بلا شك ولا ريب . ولهذا فانهم لايتوجهون إلى كل جماد ولا إلى كل حجر وشجر بالدعاء والقصد والعبادة ، وإنما يخصون من ذلك ما زعموا أن له صلات خاصة بذلك الصالح أو الشيخ أو الملك أو الجان . . . فالمشركون لم يعبدوا الأحجار والأشجار المجردة لأنها أحجار وأشجار يقيناً . فلا يمكن أن يكون النهى عن الدعاء فى الآية خاصا بدعاء هذا النوع من الخلق .

إبطال آخر

على أنه لاخلاف فى أن المشركين كانوا يدعون الجان والملائكة والصالحين ، وكانوا يعبدونهم . وعليه يقال : إنه من غير الممكن أن ينهوا هذا النهى العام المطلق عن دعاء غير الله ، ثم يكون النهى عن دعاء الأحجار والأشجار خاصة دون من يدعون من الآلهة الأخرى ، ودون الملائكة والجان واللات وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، بل يجب أن يكون النهى عن دعاء هؤلاء مقدماً على النهى عن دعاء الأحجار والأشجار وصنوف الجمادات ، لأن الفتنة فيهم أعظم وأوسع وأقرب .

إبطال آخر

ويقال أيضاً من البعيد الباطل أن يقول الله : « وأن المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحداً » فيكون هذا النهى العام الشامل المطلق الصريح نهياً عن دعاء الجماد خاصة ، ولو كان هذا هو المراد لأتى مصرحاً به ولقيل : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله جماداً ولاحجراً ولاشجراً » ، فكان هذا نصاً لايحتمل النزاع فى المعنى بالآية الشريفة يقى اللبس والإبهام والتضليل . وقوله فى الآية «أحداً» يرد تفسير الشيعى رداً لاهوادة فيه ولا رفق ، وذلك أن «الأحد» عند الاطلاق ينصرف إلى العاقل لا إلى الجماد من الأحجار والأشجار . فاذا قال قائل : مارأيت اليوم أحداً ، أو ماجاء اليوم أحد ، أو ماذهب إلى هذا أحد ، كان المراد

بالأحد بهذا كله «الأحد» من العقلاء لامن الجماد الصامت ، وهذا بين ظاهر.
فاذا قال الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » لم يصح أن يقال إن الأحد فى الآية هو الحجر أو الشجر دون المعبودات الأخرى من الأنبياء والصالحين والملائكة والجان بلا ريب .

تأويله الثالث للآية

وأما تفسيره الثالث للآية ، وهو أن يكون النهى خاصاً بالنهى عن دعاء الملائكة والجان الذين كانوا يعبدونهم ويعتقدون أن لهم تأثيراً بأنفسهم وأنهم يشفعون عنده اضطراراً بحيث لا يرد شفاعتهم ، فالجواب أن يقال : إذا سلم أن هذا النهى نهى عن دعاء الملائكة والجان فقد سلم النزاع والخلاف وألقى باليد ؛ لأنه هو يزعم أن دعاء الملائكة جائز مطلوب مشروع ، ومثله دعاء الجان والصالحين فاذا سلم أن الآية تنهى عن دعاء الملائكة فلا شك أن دعاء الأموات يكون كذلك منهياً عنه ، لأن الأموات ليسوا أقدر على الاجابة والاعطاء لما يُسألون من الملائكة الموهوبين من القدرة والسلطان والقوة ما لم يوهب البشر . وكذا إذا سلم بأن الآية تنهى عن دعاء الجان ، صالحهم وطالحهم ، فقد وجب عليه أن يسلم بأنها تنهى كذلك عن دعاء الموتى صالحهم وطالحهم . وذلك لأن الأموات ليسوا أخلق بالدعاء والسؤال ، وليسوا أقرب ، من الجان الأحياء . فاذا سلم أن الآية نهى عن دعاء الملائكة والجان والأموات من البشر ،فقد سلم النزاع والخلاف وأعطى بيده ، وانتهى كل شئ وخرجت كلمة التوحيد عزيزة مظفرة منصورة ، والحمد لله .

كذبه على القوم

وأما قوله : إنهم كانوا يعتقدون بأن لهم (أى للجان والملائكة) تأثيراً بأنفسهم وشفاعة لاترد فهذا ، لوصح ،لايكون مقيداً للنهى عن دعائهم لأن النهى فى الآية مسلط على الدعاء لا على هذا الاعتقاد المزعوم . وهذا الاعتقاد إن كان باطلا كان بطلانه مستقلا عن بطلان الدعاء ، وإن لم يكن باطلا لم يصح النهى عنه

لا مع الدعاء ولا وحـده . و إذا فرض أن هذا الاعتقاد فيهم ، أى فى الملائكة أو الجان باطـل ، وفرض أن دعاءهم ليس باطـلا كما هو قول الشيعى المنـازع وجب أن ينهى عن الباطل وحده ، وهو هذا الاعتقاد دون الحق وهو الدعاء ، ولم يصح جمع الأمرين : المنهى عنـه الباطل ، وغير المنهى عنه الحق . ولم يصح يقيناً النهى عن الحق وهو الدعاء ويكون المراد بالنهى مالم يذكر وهو اعتقاد التأثير والشفاعة القهرية فيهم يقيناً . فهذا الذى ذكره لا ينفعه ذكره إن كان صحيحاً ، كيف وهو غير صحيح . وذلك لما قدمناه من الدلائل عـلى أن المشركين كانوا مؤمنين بالله و بأنه خالق كل شىء ، آخذ بناصية كل شىء ، خاضع له كل شىء حتى أصنامهم وما يعبدون من دونه تعالى . و براهين هذا تقدمت مرات فلا يمكن مع هذا أن يعتقدوا بأن شيئاً من الأشياء يشفع عنـد الله قهرا وقسرا واضطراراً له ، لأن القاهر القاسر المضطر هو الأقوى ، وهو الرب الأعلى ، وهل يعتقدون بأن هنالك من هو أقوى وأعلى من الله ؟ على أن اعترافهم بأنهم شفعاء لهم عند الله كاف فى إبطال هذا المزعم . وذلك ان الشافع داع سائل من المشفوع لديه باعتراف الشيعى وهذا معنى الشفاعة . والداعى السائل خاضع للمدعو المسئول ، عاجز عن أن يكون مثله فى ما شـفع فيـه . و إلا لو كان قادراً عـلى قهر المشفوع عنده لما كان شافعاً ولما شفع عنـده ، بل لأخذ ما أرادوما طلب اغتصابا وغلاباً واقتداراً . وهذا واضح . أما أن يكون شافعاً سائلا داعياً وهو قاهر لمن يشفع عنده غالب مضطر له ، فهذا لا يمكن أن يكون ولا يمكن أن يعتقـد . والذى يكون بهذه الحال لا يكون شافعاً و إنما يكون مملياً آمرا متحكما . أما الشفاعة الحقيقية فهى سؤال ودعاء ، فيها ذل و رجاء كما قيل :

ما يلزم الشفاعة

فلو كان صلحاً لم يكن بشفاعة * ولـكنه ذل لهم وغرام

لأن الصلح الحقيقى المنصف الـكائن بين قوتين متساويتين لا ذل فيه ولا

طاب ، وإنما يكون هذا فى الشفاعة . وهذا يعرفه كل الناس . ولهـذا لايجوز أن يتخذ الله شفيعاً إلى أحد من خلقه لأن الله أعظم من كل شئ . وقد أنكر رسول الله ﷺ على ذاك الذى قال له : إنا نستشفع بالله عليك ، قائلا عليـه الصلاة والسلام: « إنه لايستشفع بالله إلى أحد من خلقه » وأقر قوله : ونستشفع بك على الله . وقد تقدم هذا .

فتصريح المشركين بأن الذين يدعونهم و يعبدونهم من دون الله شفعاء لهم عنده تعالى إيمان منهم صريح بأنهم يرونهم خاضعين له تعالى ، واقعين تحت قهره وسلطانه ، وأنه إن شاء قبل شفاعتهم و إن شاء ردها ولا يبالى . فهذا الذى زعم المخالف لايمكن أن يكون صحيحاً .

وأما زعمه أنهم يعتقدون بأن لهم تأثيراً فى الـكون فهذا يعتقده عبدة القبور فى قبورهم ومشايخهم . ولولا ذلك الاعتقاد لما دعوهم و بالوهم ولا افكروا فى دعائهم وسؤالهـم . إلا أنهم يعتقدون بأن تأثيرهم خاضع لتأثير الله ، كائن باذنه وقـدرته و إرادته و رضاه ، وهكذا عقيدة المشركين سواء، للدلائل التى قدمناها فى خضوع كل شئ له تعالى ، وكون كل شئ حسب إذنه ومشيئته و رضاه .

آية أخرى

ثم قال فى ختام هذه السورة : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذن من الظالمين ، و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، و إن يردك بخـير فلا راد لفضله ، يصيب برحمته من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » .

والأولياء والأنبياء والمشايخ وغـيرهم يعترف هؤلاء الذين يدعونهـم الليل والنهار بأنهم لا ينفعون ولا يضرون ، و يعترفون بأن من زعم فيهم النفع والضر فقد فارق دينه وافترى على الله . وحينئذ يقال لهـم على هـذا الاعتراف : إن هـذه الآية كسواها من الآيات ، تنهى بشـدة وصرامة وصراحـة عن دعاء من

تحريم دعاء من لا ينفع ولا يضر

لا ينفعون ولا يضرون ، وتنبئ بأن من فعل ذلك فهو عين الضال الظالم المعتـدى وعليه فدعاء الموتى من الأنبياء والأولياء والمشايخ والصالحين محرم ممنوع بنص هذه الآية ونظائرها من الآيات . وعليه فدعاتهم من الضالين الظالمين المعتدين . بلا ريب . فليس لهم مخرج ولا منفذ من هـذا إلا أن يزعموا أن الأموات الذين يدعونهم من دون ربهم ينفعون و يضرون ، و يزعموا أنهم ما دعوهم ولا سألوهم إلا رجاء هـذا النفع وذاك الضر . و إذا زعموا هـذا الزعم فقـد رجعوا إلى إثبات ما أنكروا ، وصار مذهبهم فى الأموات قائماً على الاعتقاد بأنهم ينفعون و يضرون ولكنهم يزعمون دائما لمخالفيهم ، جاهدين مقسمين ، أن هذا المذهب وهذا الاعتقاد كفر وضلال جسيم ، و يزعمون لهم دائماً ، دفعاً عن دعاء الأموات وعن دعاتهـم أن هؤلاء الذين يدعونهم و يسألونهم ضروب الحاج الخاصة والعامة ، لو سئلوا : هل تقولون إن الذين تدعونهم يضرون و ينفعون لقالوا جميعاً : كلا ، إنهم لا يضرون ولا ينفعون ، و إن الذى يضر وينفع هو الله وحده لا شريك له . وهم يذكرون أن هذا الجواب لا يمكن أن يختلف ولا أن يختلف فيه دعاة الموتى من الصالحين . وعندهم أن هـذا الاعتقاد ، أى اعتقاد انفراد الله بالنفع والضر هو الذى يدفع عن دعاة الأموات التضليل والتكفير ، لأن الـكفر والضلال عنـدهم هو فى اعتقاد أن شيئاً غـير الله ينفع و يضر ، أما الدعاء والاستجداء فلا شئ فيه من ذلك . هذا مايقوله وما يكتبه الذائدون المدافعون عن خرافات القبور ، وخرافات العاكفين على القبور . ولـكنهم محجوجون على جميع الحالات والافتراضات . وذلك أننا نقول لهـم : أما أن تزعموا أن هؤلاء المشايخ الذين تدعونهم من دون الله ينفعون و يضرون ، وأن دعاءكم إياهم لم يكن إلا رغبة فى نفعهم وضرهم . وإما أن تقولوا إنهم لا ينفعون ولا يضرون . ولا مفر من الافتراضين . فان ذهبتم إلى الافتراض الأول فقد ذهبتم إلى ما زعمتم أنه كفر بالله وضلال كبير . و إن ذهبتم

إلى الافتراض الثانى وجب أن تعترفوا بأن دعاء الأموات ممنوع باطل .وذلكم لأن هذه الآية وغيرها من الآيات قد نهت بشدة وصراحة عن دعاء من لاينفع ولايضر ، وأنبأت بأن من دعا من لاينفعه ولايضره فهو من الظالمين . وأيا اخترتم فقد حججتم . والافتراض الأول ، اى افتراض أن المشايخ ينفعون و يضرون لا يمكن لمسلم الذهاب إليه وقد أبطله الله بقوله « و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . و إن يردك بخير فلا راد لفضله » وقد أبطله أيضاً فى آيات اخرى صريحة معلومة مثل قوله : « إنك لاتهدى من أحببت » وقوله : « ليس لك من الأمر شىء » وقوله « ألا له الخلق والأمر » وقوله : « قل إنى لاأملك لكم ضراً ولا رشداً » وقوله : « قل إنى لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله » ــ إلى غير ذلك من الآيات الصريحة الظاهرة . فهذا الافتراض لايتحمل مسلم الذهاب إليه ولا القول به . واما الافتراض الثانى فهو ما يذهب إليه هؤلاء فى ما يزعمون . وهذه الآية وغيرها من الآيات رادة عليهم حينئذ رداً لاحيلة لهم فى دفعه ولا رفعه.

وما أجمل قوله : « و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو و إن يردك بخير فلا راد لفضله » بعد قوله : « ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فإنك إذن من الظالمين » . وذلك أن قوله : « ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك » ينصرف إليه هذا السؤال : ما الذى لا ينفع ولا يضر فلا يدعى ، وما الذى ينفع و يضر و يدعى وحده ؟ فأجاب الله عن هذا السؤال الذى لم يذكر بأن الذى ينفع و يضر هو الله وحده لا شريك له فقال : « و إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو و إن يردك بخير فلا راد لفضله » فالله وحده المدعو المسؤول المرجو ، لأنه وحده النافع الضار . فالدعاء له وحده ، لأن كل ما يطلبه الداعى و يرجوه ، وكل ما يحذره و يخشاه عنده وحده . فكما كان هو المعطى المانع الضار النافع يجب أن يكون وحده المدعو المعبود المسؤول .

آية أخرى

وقال تعالى من سورة الجن : « وأن المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحداً، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ، قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً ، قل إنى لاأملك لكم ضرا ولارشداً ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته . ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً » .

يقول تعالى مخاطبا عباده جميعاً : مؤمنيهم وكافريهم : إن مواضع السجود والعبادة وأعضاء السجود نفسها لله رب العالمين لا شريك له فيها ولا فى غيرها مما فى السموات والأرض . وإذا علمتم أن ذلك كله لله وحده فادعوه وحده لأنه هو المالك وحده ، ولاتدعوا معه أحداً ممن لم يملكوا ولم يخلقوا شيئاً من المساجد ولا من غيرها ، لأن من لم يخلق ولم يملك لايصح أن يدعى ، لأنه لا يمكن أن يجيب دعوة من دعاه ، ولا أن يعطيه شيئاً مما يسأل ويرجو ، لأنه لا يملك ، ومن لا يملك لا يمكن أن يملكّ غيره بالضرورة . . . ولكن المشركين لا يعقلون ذلك ولا يعلمون ما يحسن مما يقبح . ولهذا فانه لما قام عبد الله ورسوله يدعو ربه وحده بينهم لم يرضوا ذلك منه ولم يرقهم أن يوحد وهم مشركون ، وأن يدعو رباً واحدا وهم يدعون مئات الأرباب . فاحتزبوا عليه وتألبوا على عداوته وعلى مناوأته ومطاردته ، وتكاثروا عليه حتى كادوا يضيقون عليه كل سبيل ووجه ، وقاربوا أن يكونوا عليه لبداً من ازدحامهم واحتشادهم فى آفاقه وسبله الطويلة العريضة . . . ولكن الله ورسوله لا يباليان بالمشركين الجاهلين الداعين من لاينفعونهم ولايضرونهم ولاباز دحامهم واحتشادهم فى طريق الحق وطريق العبد الصالح الذى لايدعو غير ربه وخالقه . فظل عبد الله ورسوله فى مقامه يدعو ربه وحده ولا يبالى بالمعارضين ، وأنزل الله عليه الوصية الخالدة : « قل إنما أدعو ربى ولاأشرك به أحداً » . يقول له : قل ياعبدى لهؤلاء المشركين الداعين غيرى :

احتشاد الشرك على التوحيد

ياهؤلاء لا أدعو إلا ربى وحـده ، وإن جاهدتم وجهدتم على أن أضل وأغوى ، ولا أشرك بربى أحداً فى دعائى وندائى وسؤالى ، فلا أدعو مخلوقا ، لا ملكا ولا إنساناً ولا جانا ولا غيرهم من المخلوقين المربوبين . ولا شك أن قوله هنا : « ولا أشرك به أحـداً » يعنى فى الدعاء ، يعنى أنه لا يدعو أحداً غير الله ، وفى غير الدعاء أيضاً من أنواع العبادات . ولكن الدعاء هو أول ما يدخل فى هـذا النفى العام الشامل ، وذلك لأنه هو المتقدم ذكره فى قوله : « فلا تدعوا مع الله أحداً » وفى قوله « يدعوه » وقوله « أدعو » . فلما أن تقدم ذكر الدعاء فى ثلاثة ألفاظ وجاء نفى الاشراك بعـدُ وجب أن يكون الاشراك المنفى فى الدعاء أوفى الدعاء وفى سواه من ضروب العبادة .

أسباب منع دعوة غير الله

ثم أخذ فى شرح الأسباب التى من أجلها وجب أن يدعى الله وحده وأن لايدعى سواه : أحـد هذه الأسباب أن عبده محمداً ، وهو أفضل الخلق عنده تعالى ، لا يملك الضر ولا الرشد فقال له : « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً » . وإذا كان أفضل الخلق عند الله بهذا المكان من العجز إزاء القدرة الالهية والسلطان الربانى فكيف يطمع فى سواه وكيف يدعو مخلوقا غـيره لدفع مكروه وإعطاء محبوب ؟ وثانى هذه الأسباب أنه ﷺ ، وهو رسول الله وأقرب عباده وخلقه إليه ، لا يستطيع أحد من أهل السموات أو من أهل الأرض أن يجيره من الله وأن يحول بينه وبين ما يريده ويشاؤه له ربه ، وأنه لن يجد عند غيره تعالى ملتحدا ولا معاذا ومهربا يفر إليه ، ويتقى به ما يخاف ويحاذر مهما نقب وتطلب ، ومهما راح وجاء . وإذا كان لا مفر من الله إلا إليه ، ولا معاذ من غضبه إلا برضاه ، ولا خير يرتجى إلا لديه ، ولا شر يرهب ويخـاف إلا ما أراده وشـاءه ، فكيف يدعى سواه ، وكيف يسأل العاقل مخلوقا ويدع الله وهو يعلم أن أهل السماء وأهل الأرض جميعا لو أرادوا أن يحولوا بينـه وبين شر قضاه عليـه لما استطاعوا ، ولو

حذف الخلق جميعاً من الحساب

اجتمعوا على أن يعطوه مالم يرده الله وما لم يقسمه له لما فعلوا شيئاً ؟ ؟ فإذا كان الخلق لا يملكون الضر ولا الرشد ، ولا الخير ولا الشر ، ولا يملكون شيئا فى هذا الملك العظيم، وكانوا جميعاً لايستطيعون أن يجيروا مستجيراً ، ولا أن يعيذوا مستعيذا بهم ، ولا أن يجدوا لمن هرب إليهم مهربا ولا محيصا ، فكيف لا يحنفون من الحساب والذاكرة ؟ وكيف لا تحتشد الآمال والحاجات كلها على من ناصية كل شيء بيده ، وعلى من لا يهرب منه إلا إليه ، ولا يعاذ من سخطه إلا برضاه ؟ وهذا غاية فى الرد على دعاة الأموات العاكفين على الأجداث . فإن قوله «وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » نهى قاطع صارم عن دعاء المخلوقين كيف كانوا وأين كانوا ، لا يستثنى صالحا ولا طالحاً ولا ملكا ولا نبيا ولا وليا ولا إنسيا أو جنيا : لا يستثنى شيئا . فكل ما يدعى سواه فدعاؤه باطل ضلال ، وداعيه مبطل ضال . وقوله : « قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً » نص صريح فى أنه لا يدعى سوى الله ، وذلك أن هذا بمنزلة أن« يقال لا أدعو إلا ربى »فى النفى والايجاب ، وفى قصر الدعوة على الحق . وقوله « ولا أشرك به أحداً» صريح فى أن دعوة غير الله شرك بالله .وقوله «وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » دليل على أن المشركين كانوا ينكرون على الرسول عليه السلام دعاء ربه وحده كما ينكر اليوم دعاة الأموات على أهل التوحيد دعاء ربهم وحده ، ودليل على أن أولئك المشركين كانوا ينقمون من الرسول ، ويحتشدون على عداوته إذ لم يوافقهم على دعاء غير الله ، كما ينقم هؤلاء العاكفون على القبور من أهل التوحيد إخلاصهم وتوحيدهم ، ويحتشدون على عداوتهم وعداوتهم، إذ لم يوافقوهم على دعاء غير الله :من المشايخ والأولياء والأنبياء والصالحين. فدعاة الله وحده هم إذن خلف الرسول وخلف صحبه الأبرار ، والمنكرون عليهم دعوتهم ودعاءهم إذن خلف أولئك الخصوم للنبوة ولتوحيد الله ، ونعوذ بالله من الضلال ومن أسلافه وأخلافه .

خلف الرسول وخلف خصومه

آية أخرى

وقال تعالى فى سورة المؤمنون « ومن يدع مع الله إلٓهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون »

ولا خلاف فى أن كل من عُبِدَ من دون الله فهو إله لغة وشرعا ، لأن الاله منه الحق ومنه الباطل ، اى منه الاله الذى يستحق العبادة ، والاله الذى لا يستحقها فالمسيح إلٓه عند عابديه لأنهم عبدوه ، وأمه إله عند عابديها ، والأحبار والرهبان آلهة لأنهم معبودون ، وود وسواع و يغوث و يعوق ونسر وغيرهم آلهة ، وهم قوم صالحون ، والملائكة آلهة عند العرب لأنهم كانوا يعبدونهم فالإله هو المعبود كيف كان وأين كان . ولهذا فالهوى ، أى هوى النفس ، أحياناً يكون إلها كما قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » . والآية التى ذكرناها تقول : « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون » . أى إن الذى يدعو مع الله إلها آخر هو كافر ولا يفلح الكافرون . ولا يمكن أن يكون لمن دعا مع الله إلهاً آخر برهان ، و إذن فكل من دعا أحد هؤلاء الالهة : المسيح ، او مريم ، او الملائكة أو وداً ، أو سواعا، أو يغوث ، أو يعوق أو نسراً ، أو أحد أولئك الأحبار والرهبان ، فقد دعا مع الله إلها آخر لا برهان له به ، فهو واقع تحت هذا الوعيد الصارم الشديد ولا ريب فى هذا ، فانه لاشك فى أن المسيح وأمه الهان ، وان الملائكة عند العرب آلهة ، وأن هذه الأسماء المذكورة : وداً وسواعاً إلى آخرها أسماء آلهة. ولا شك أن من دعا أحد هؤلاء فقد دعا مع الله إلها آخر لا برهان له به . فمن قال: يا مسيح أعطنى كذا فقد دعا مع الله إلها آخر ، ومن قال يامريم افعلى من اجلى كذا فقد دعا مع الله إلها آخر ، ومن قا ياجبريل او يا ميكائيل أريد منك كيت فقد دعا مع الله إلها آخر لا برهان له به ، ومن دعا مع الله إلها فقد ذكر الله فى الآية المذكورة وعيده وجزاءه . فدعاء هؤلاء الآلهة ممنوع بهذه الآية منعاً

من دعاء مع الله إلها

صريحا شديداً ، والداعى لهم أو لأحدهم واقع تحت طائلة هذا الوعيد الذى هو الكفر ، والكافر لايفلح و «لايفلح الكافرون» كما فى الآية . و إذا كان دعاء المسيح ومريم والملائكة وجميع الأحبار والرهبان الذين اتخذوا آلهة مع الله ممنوعا فلا شك أن دعاء الأموات يكون مثله ممنوعاً أو ممنوعاً أكثر ، لأنه لا يمكن أن يكون دعاء المسيح وأمه والملائكة كفراً وردة ثم يكون دعاء الرفاعى والبدوى والجيلانى والزيلعى ، وغيرهم من المشايخ ، إيمانا ودينا بل إذا كان دعاء أولئك ممنوعاً وردة كان دعاء هؤلاء أحق بالمنع وبالايراد موارد الكفر والكافرين ، و إذا كان دعاء هؤلاء الأشياخ الموتى من الدين والاسلام كان دعاء أولئك أحق بأن يكون من ذلك .

اذا امتنع دعاء المسيح امتنع دعاء غيره من الأموات

فنحن لا نشك أن مسلما لا يمكن أن يزعم أن دعاء المسيح ودعاء مريم أو دعاء ود أو سواع ، أو دعاء اللات — وهو رجل صالح كما ذكر فى التفسير — لا يمكن أن يزعم مسلم أن دعاء هؤلاء كلهم ، أو دعاء فريق منهم ، من الاسلام والدين ولا من الجائز المباح . ولا نعرف مايزعم هذا الشيعى ، هل يرى أن دعاء هؤلاء جائز ودين كدعاء الملائكة والمشايخ ، أم يرى فى هذا مايراه جميع المسلمين من البطلان والتحريم . و إذا كنا لا نشك أن مسلما واحداً لا يمكن أن يجوز دعاء المسيح ومريم ولا دعاء أحد هؤلاء المعبودين الصالحين ، فلا شك أنه لافرق بين دعائهم ودعاء المشايخ الأموات من جهة التحريم والبطلان . بل لاشك أن دعاء هؤلاء المشايخ احق بالتحريم والحظر . فان مسلماً عاقلا لا يجوز ان يقول : إن دعاء المسيح من الضلال والكفر ، او من الأمور الممنوعة المحرمة ، ثم يقول : إن دعاء الجيلانى أو الرفاعى او دعاء الحسن او الحسين او غيرهم من الأمور الجائزة التى امتدحها الاسلام وندب إليها المسلمين . وكذلك ايضاً لا نشك ان مسلماً عاقلا لا يمكن ان يزعم ان دعوة اللات اليوم جائزة ، لأنه قد صح

ما الفرق بين دعاء المسيح وأمه ودعاء المشايخ الاموات

عن اهل التفسير واهل السير انه كان رجلا صالحا يلت السويق للحجيج ، فلما ان مات عبدوه . وإذا كان مسلم واحد لا يمكن ان يرغم جواز دعوة اللات — وهو احد الصالحين الأموات — فما الفرق بينه وبين البدوى والدسوقى مثلا ؟ وما الفرق بين دعاء هذا العبد الصالح ودعاء هؤلاء الأشياخ الذين لا تعرف حقيقتهم ولا كنههم ولا كنه منعهم وإيمانهم على وجه اليقين ؟ نحن نحسب أنه لا فرق بين هذا وهذا ، ونحسب ان كل منصف يعلم ، ويقول : إنه لا فرق . فال هؤلاء إذن لا يسيرون على طرية واحدة وسيرة متفقة متحدة ، فلا يتناقضوا ، ويقولوا القول ويردوا نظيره وأخاه ؟ إن زعموا ان الفرق بين أولئك الأولين كالمسيح ومريم واللات وود وسواع ، وبين هؤلاء المتأخرين كالرفاعى والدسوقى والبدوى والسيدات : زينب وسكينة ونفيسة أن أولئك الأولين اتخذوا آلهة ، وأما هؤلاء فلم يتخذوا آلهة ، ودعوة الذين اتخذوا آلهة فيها إيهام ومضاهاة للمشركين الضالين بخلاف هؤلاء المشايخ الأموات ، فانه لا إيهام فى دعوتهم ولا مضاهاة فيها لأحد من المشركين ، فكان من العدل والعقل التفريق بين الفريقين ، وكان من العدل والعقل أن يقال بجواز دعاء هؤلاء المشايخ الصالحين ويمنع دعاء أولئك الاولين الذاهبين : إن زعموا هذا الزعم قلنا : هذا ، وإن كان باطلا لا يصح ، مردود بدعائهم لعلى بن أبى طالب ودعاء غيره من آله ، وقد عبد على وعبدت طوائف من ذريته وزعموا آلهة ، وقد حرق على قوما زعموا فيه هذا الزعم وقالوا له أنت الله وهذا الشيعى صاحب هذا الكتاب معترف بأنه عبد وادعيت فيه الألوهية . وكذا الشيعة أجمع تعترف بهذا . ومردود أيضا بتجويزهم دعاء الملائكة وقد عبدوا وزعم فيهم أنهم بنات الله كما ذكر الله وكما اعترف هذا المخاصم فى كتابه بل هذا الزعم مردود بدعائهم للرسول علية السلام ولأهل بيتة عليهم الرضوان فانهم قد عبدوا وزعموا آلهة من دون الله ، وزعم ان الله قد حل فيهم كما ذكر

بطلان التفريق بين الأمرين

علماء الشيعه أنفسهم كابن النوبختى فى كتابه فرق الشيعة المطبوع فى النجف ، وكما ذكر مجتهدهم الكبير فى هذا الوقت الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء فى كتابه «الآيات البينات» المطبوع فى النجف بالمطبعة العلوية، فقد ذكر هؤلاء وغيرهم أن فرقاً من المتشيعين ادعوا الالوهية والربوبية فى النبى عليه السلام ،وفى الحسن والحسين وأولادهم ، وفى فاطمة وفى جعفر وفى غير هؤلاء من قرابة النبوة

من قول مشايخ الشيعة فى الشيعة

وقد قال آل كاشف الغطاء فى كتابه المذكور « الآيات البينات »: « من أشكال الالحاد والزندقة التى نشأت فى الاسلام الغلو والارتفاع وتجاوز الحد فى الأئمة من آل البيت النبوى ، وأول من اشتهر بذلك عبد الله بن سبأ . غلا فى أمير المؤمنين على وزعم أنه هو الله ،وتبعه جماعة حضر بعضهم عند على وخاطبوه بالربوبية فحرقهم . ثم هدأ غليان الغلو إلى زمن جعفر الصادق فثار ثورة ،وكان أكبر القائمين بذلك محمد بن مقلاص المعروف بأبى الخطاب وتبعه جماعة كبيرة تعرف بالخطابية ذهب إلى ألوهية الصادق ، ثم ترقى فزعم أن الاله — يعنى الصادق — قد حل فيه : ثم تشعبت الغلاة إلى شعب كثيرة، منها العلياوية ، القائلون بأن عليا رب ، وإن فاطمة والحسين والحسن تلبيس، والحقيقة هو شخص على . ومنها المخمسة ، القائلون إن الخمسة : سلمان وأبا ذر والمقداد وعماراً وعمرو بن أمية الضمرى ، هم الموكلون بمصالح العالم من قبل الرب ، وهو على . ومنها المفوضة ، الزاعمون أن الله خلق محمداً وعليا وفوض إليهما الخلق والايجاد ، فخلقا الدنيا وما فيها. ومنها المغيرية ، أصحاب المغيرة ابن سعيد . قالوا : إن الله قد حل فى كل واحد من الأئمة وظهر بصورة على . . . ولم يزل الغلو مطرداً فى عامة الأئمة الاثنى عشر وفى خاصة كل واحد منهم . وكان آخرهم الفرقة المعروفة بالنصيرية ، أصحاب محمد بن نصير . كان يقول : الرب هو على بن محمد العسكرى وهو نبى مرسل منه . . . »

من فرق الشيعة على قولهم هم

هذا بعض ما ذكره مجتهد الشيعة محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى كتابه المذكور. وقد ذكر أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى فى كتاب « فرق الشيعة » أموراً كثيرة تقدمت فى مطالع هذا الجزء.

فاذا كان يصح التفريق بين الفريقين بما ذكروه من الفرق وجب أن يقولوا ببطلان دعوة على بن أبى طالب، ودعوة الرسول عليه السلام، ودعوة آله وقرابته الذين عبدوا وزعموا آلهة من دون الله، وزعم أن الله قد حل فيهم، وأن يقولوا أيضاً ببطلان دعوة الملائكة لأنهم عبدوا وزعموا بنات الله، كما ذكر الشيعى نفسه. ولكن كلا، هم لم يقولوا ببطلان دعوة أحد من هؤلاء. بل هم يدعونهم الليل والنهار، و ينالون ممن قالوا بامتناع دعائهم، و يضعون الكتب للتدليل واصطياد الشبهات على دعائهم والاستغاثة بهم. وقد زعموا كهذا المصنف فى كتابه وغيره أنه يجوز دعاء الملائكة والاستغاثة بهم وسؤالهم الحاجات دنيوية ودينية. فهم إذن لم يبالوا بهذا التفريق ولم يعملوا به، ولم يبالوا بأن يدعوا من عبدوا وألهوا وادعيت لهم الربوبية، فهم إذن غير صادقين فى هذا التفريق ولا جادين ولا قابلين له ولا معترفين به. فعليهم إذن أن يقولوا بجواز دعاء اللات لأنه رجل صالح، و بدعاء المسيح وأمه، و بدعاء عزير والأنبياء الأولين، و بدعاء ود وسواع و يغوث و يعوق ونسر، لأنهم رجال صالحون، كانوا يدعون إلى عبادة الله فلما ماتوا عبدهم الجهلاء، و بجواز دعاء الصالحين الأولين من الأمم الأولى — و إن لم يقولوا بهذا و يرضوه — فعليهم إذن أن يقولوا ببطلان دعاء هؤلاء المشايخ الموتى و بطلان دعوة الرسول ودعوة غيره من الأموات، فلا يدعوا ميتاً لا قديماً ولا حديثاً، ولا قريباً ولا بعيداً. هذا ما عليهم أن يقولوه وأن يزعموه و يلتزموه أما أن يقولوا ببطلان دعوة المسيح ومريم والعزير مثلا واللات و ود وسواع و يغوث و يعوق ونسر والصالحين الآخرين وهم يقولون بجواز دعوة الدسوقى

إما أن يقولوا بجواز دعاء اللات أو بامتناع دعاء الأموات

والرفاعى والبدوى والجيلانى وكل من هب ودب ، فجهل وضلال . فاذا سلكوا طريقة واحدة فقالوا بجواز دعاء هؤلاء جميعاً، فجوزوا أن يقول المسلم : ياعيسى أعطنى ويامريم هبى لى كيت : ويا فلان أسألك العفو والعافية والشفاعة والوساطة ، وأمثال ذلك : أما إذا ذهبوا إلى هذه المقالة فقد ساعدوا على أنفسهم وصاروا بلا شك غير مسلمين بإجماع المسلمين . . . وإذن لا مفر لهم من الاعتراف بأن دعاء الأموات ، كيف كانوا وأين كانوا ، من الشرك بالله ومن الجهل الفظيع .

وهـذا الذى ذكرناه برهان مستقل بارع على بطلان دعوة المشايخ وسؤال الميتين إذا ماتدبره العاقل الفطن وحذقه جيداً لم يحتج إلى غيره لعرفان بطلان الرجوع إلى الموتى والاستغاثة بهم ودعائهم لنيل أمر من الأمور . . . والله الذى افترض على عباده جميعاً التوحيد قـد أقام عليه من البراهين الواضحة والدلائل المتنوعة مايلائم كل عقل، ومايفهمه كل إنسان،مهما كان ضعيف الذكاء قليل الحظ من رسوخ القدم فى صناعة البرهان ومعرفة الحجة . . .

آية أخرى

وقال تعـالى من سورة الأعراف : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالـكم ، فادعوهم فليستجيبوا لـكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ! قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يسـتطيعون نصركم ولا أنفسهـم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » .

من أبلغ الرد على الداعين للأموات

وهذه الآية من أبلغ الرد على المشركين الذين يدعون من لا ينفعونهم ولا يضرونهم ويلسون دبهم رب العالمين الذى يرجع إليـه الأمر كله . وهى أيضاً من أبلغ الرد على هؤلاء الطائفين بالقبور السائلين للأموات . وقد نوع الرد فيها

و بولغ فيه ، فقوله : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » صريح فى أنهم كانوا يدعون أناساً مثلهم بشرا ، ليسوا جماداً ولا أحجاراً أو أشجاراً ، كما يزعم من لا يعرف . وفى هذا أبلغ التهكم والرد على القوم والزراية بهم و بعقولهم . فإن العاقل لا يمكن أن يدعو من هو مثله فى القدرة وفى الحول والطول ليهبه ما يرجو وليليه مايعجز عنه هو ، و إنما يدعو العاقل من هو أقدر منه ومن هو أعظم حولاً وطولا وسلطة وسلطانا . وذلك لأن الداعى والمدعو لا يصح أن يستويا وأن يكونا مثلين ، لأنهما إذا كانا كذلك فليس دعاء أحدهما للثانى أولى من العكس. وليس عجز الداعى عن نيل ماطلبه من المدعو بأحق من عجز المدعو ، وليس هذا أولى من هذا بأن يكون مدعواً ، ولا هذا أحق من هذا بأن يكون داعياً و إذا عجز الداعى عن أن ينال ماطلب من المدعو فالمدعو كذلك عاجز أيضاً ، لأنهما مثلان ، و إذا كان المدعو قادراً على ماطلب منه الداعى فالداعى ، كذلك ، قادر لأنهما سيان ، فلا وجه لأن يكون أحدهما داعياً محتاجا والآخر مدعواً محتاجاً إليه ، بل يجب أن يكونا إما داعيين ، و إما مدعوين فمن دعا من هو مثله فقد بالغ فى هجاء نفسه وعقله وحاله . ومن النقص العظيم ، مع الجهل الفاضح ، أن يدعو المرء مثله و يدع الله و راء ظهره . فقوله تعالى « عباد أمثالكم » من أعظم الهجاء لدعاة البشر ومن أظهر الرد على دعاة المخلوقين .

العاقل لا يدعو مثله

آية التحدى

وقوله : « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » غاية فى التحدى. والتعجيز لدعاة غير الله من البشر وغير البشر ، غاية الانصاف فى الجدل والخصام. و بيان هذا أن الله أولاً قال لدعاة غيره : إنكم غالطون ضالون أن دعوتم سواى. عباداً مثلكم من كل وجه ، عاجزين عن نفعكم كما عجزتم أنتم عن نفعهم ، محتاجين. إلى غيرهم كما احتجتم أنتم إلى غيركم ، لأنكم أنتم وهم سواء ، وانظروا إلى حقيقتكم وحقيقتهم تجدوا الأمر واضحاً . فان لم يقنعكم هذا البرهان الملموس المحسوس ،

وأصررتم على أنهم قادرون على إجابة دعائكم فدعوتموهم ، فتعالوا إلى أمر أحزم وأقطع وأبين : تعالوا إلى تجربة مشاهدة صادقة لا تخون ولا تمين ، هذه التجربة هى أن تدعوا هؤلاء الذين زعمتم أنهم يسمعون دعاءكم ويجيبونكم ، وأن تنظروا بعد هذا هل يستجيبون لكم أم لا يستجيبون . فان كانت الأولى فقد صدقتم وهديتم ، وإن كانت الأخرى فقد كذبتم وضللتم ، وعليكم أن تتوبوا بعد ، وأن ترجعوا إلى عقولكم وفطركم التى عزبتم عنها وعزبت عنكم منذ أحقاب وأزمان « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . ولكن أين ! لقد عالجوا هذه التجربة منذ عصور وحقب فلا حاجة بهم إلى تجديدها والتحاكم إليها ، فهل استجابوا لأحد منهم ، أو هل أعطوا أحداً ما سأل ؟ هم يعرفون فى دخائل أنفسهم أنهم لم يستجيبوا لأحد ولم يعطوا سائلاً قط ما سأل ، ولكنهم يتعللون بالأكاذيب والأمانى الفوارغ . ولهذا كان هذا التحدى والتعجيز من أبين الرد على دعاة المخلوقين المعرضين عن خالقهم وربهم . وهذا هو ما يقال اليوم لدعاة المقبورين ، يقال لهم « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » .

لماذا نهى عن دعوة الأموات

وقوله « ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون أم لهم آذان يسمعون بها » تعليل للنهى عن دعائهم وسؤالهم ، وقطع الرجاء فيهم ومنهم . وذلك لأنهم قد فقدوا آلات العمل والحياة ، فهم لا يستطيعون أن ينيلوا سائليهم شيئاً لعجزهم وقصورهم ، فهم لا يستطيعون أن يمشوا ولا أن يعملوا بأيديهم ولا أن يبصروا ولا أن يسمعوا ، لأنهم أموات ، والأموات أشباح لا أرواح فيها ؛ فهى جماد من حيث الظاهر ، ومن حيث الدنيا ، والحياة التى فيهم ولهم هى حياة روحية غيبية أخروية راجعة إلى أرواحهم التى مستقرها عالم الآخرة عند الله ، فلا صلات بينها وبين الدنيا وأهل الدنيا . أما أجسامهم — وهى ما بقى

عند أهل الدنيا منهم ـ فلا فرق بينها و بين الجماد الصامت من حيث العجز عن النفع والضر والعمل والحركة . فلا فرق بين من دعاها و بين من دعا الجمادات الصامتة . أما الأرواح فما أبعد منالها ومكانها عن داعي أشباحها . وما مثل من دعا هذه الجثث الميتة الموضوعة تحت التراب والرغام إلا كمثل من دعا ثوباً أو بيتاً ، لأن نبياً من الأنبياء ، أو ولياً من الأولياء . كان قد لبسه أو سكنه يوماً من الزمان .

وهؤلاء الذين يدعون الموتى و يسألونهم حاجاتهم ومآربهم لا ينازعون في أنهم ليست لهم أرجل يمشون بها ، ولا أيد يبطشون بها ، ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، فهم بلا شك محجوجون بهذه الآية ، داخلون تحت تقريعها وذمها لمن دعوا من لا يمشون ولا يبطشون ولا يبصرون ولا يسمعون ولا يعملون ،لأن تقريعها متناول كل من دعا شيئا هو بهذا المكان من العجز والنقص ، والأموات هم ، بلا ريب ، في صدر هذا المكان .

ترتيب نظم الآية و براعته

وقد رتبت الآية وصف هؤلاء المدعوين بالعجز والضعف ترتيباً هو في غاية الدقة والنظام والبراعة . فقد سلبتهم أولا المشي والنقلة ، وقد بقي لهم أن يعملوا بأيديهم فسلبتهم ثانيا ذلك.فبقي لهم من آلات الحس أن يبصروا بأعينهم فينفعوا دعاتهم بالنظرات بعد أن عجزوا عن نفعهم بعملهم بأرجلهم و بطشهم بأيديهم فسلبتهم ثالثاً آلة النظر ، فهم لا يستطيعون أن يمنحوا من دعاهم ورجاهم نظرة من نظرات العطف والحنو والحنان ، فبقي لهم بعد سلب ذلك كله أن يسمعوا دعاءهم وهتافهم ، ولعلهم إذا سمعوا هذا شفعوا لهم أو توجهوا بنفوسهم و إراداتهم إلى نفعهم ومجازاتهم على تعلقهم بهم وانقطاعهم إليهم ،فسلبتهم رابعاً آلة السماع ، فأصبحوا لا يمشون ولا يعملون ولا يبصرون ولا يسمعون ، فكيف ينفعون أو يضرون ؟ وكيف يرجون و يؤملون ؟ . . . فانقطع منهم كل أمل ورجاء . وهذا

الترتيب فى تعجيزهم وتسجيل ضعفهم فى مكان من الدقة والبراعة لا يسع أجحد العقول وأكفرها وأعنفها كبرياء وجبروتا إلا التواضع إزاءها والتسليم لها بالاعجاز وبصحة الانتساب إلى الحق جلت قدرته وعظمته ، وإلا الاعطاء لها باليد ، يد الصغار والتضاؤل والتخاذل .

نتيجة ماتقدم

وقوله : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » نتيجة لما تقدم هى فى نهاية الدقة والبراعة والانسجام . ذلك أن الله قد أبان الدلائل أولا على أن أولئك المدعوين عاجزون عجزاً تاماً ، ليسوا أهلا لأن يدعوا ويستغاثوا لأنهم ليسوا قادرين على أن ينفعوا أو يضروا . وقد ذكر من الدلائل على هذا المشاهدة ، والمشاهدة هى من أصدق الأدلة الصادقة . وهذا الدليل المشاهد الملموس هو أن هؤلاء المدعوين قد فقدوا آلات العمل كلها ، ففقدوا الأيدى التى يبطشون بها والأرجل التى يمشون بها ، وفقدوا آلات البصر والسماع التى يمكن أن يروا بها حال دعاتهم ، أو يسمعوا بها هتافهم ودعاءهم . وعزز هذا البرهان القاطع بأن تحداهم قائلا : « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » . وهذا برهان حسى آخر على ضلال دعاة الأموات ، وعلى أنهم فى غفلة عمن دعاهم لا يحسون معها دعاءه ولا يعلمون حاله . وبعد أن سجل على الدعاة هذا البرهان الباهر ، وعلى المدعوين هذا العجز الظاهر ، عاد عودة المنتصر الواثق من خذلان خصمه المطمئن إلى أمره ، فقال : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » أى إذا أصررتم على دعاء شركائكم وأصررتم على أنهم ينفعون ويضرون ويستجيبون فاننا لا نقر ذلك ولا نقبله بل ننكره ونرفضه ، فلا نخاف أو نرجو أحداً ممن تدعون وتخافون وتؤملون ، فان كان هذا الذى نقوله وننتحله لا يعجبكم ولا يعجب شركاءكم ، لأن فيه إعراضاً عنهم ونكراناً لسلطانهم وأمرهم ، فأجمعوا أنتم وهم على إيذائى والانتقام منى ، ولا تدخروا وسعاً ، ولا ترحمونى ، أو تنظرونى ، أو ترفقوا

قل ادعوا أشركاءكم ثم كيدون

بى ، لأنى أنا لم أدخر وسعاً فى نكرانكم ونكران شركائكم ، ولم أبال بكم ولا بهم فجازونى حرباً بحرب ، وجفاء بجفاء، وإيذاء بإيذاء « فادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » . فان لم تستطيعوا لا أنتم ولا شركاؤكم شيئاً من هذا فلا شك فى فساد أمركم وضلالكم ، ولا شك فى عجز شركائكم عن أن يفعلوا شيئاً لا ضراً ولا نفعاً ، لأنهم إذا كانوا عاجزين عن ضر أعدائهم وأعدائكم فلاشك فى عجزهم عن نفع أصدقائهم ، فاذا عجزوا عن ضرى أنا ، وأنا الحرب الزبون عليكم وعليهم فى زعمكم ، فهم بلا ريب عاجزون عن نفعكم أنتم وأنتم الأولياء الأصدقاء لهم فى ما زعمتم . فالذى لا يقدر على الضر لا يقدر على النفع ، والذى يقدر على النفع يقدر على الضر . فعجز هؤلاء الذين تدعون من دون الله عن أن ينالونى بسوء وقد نلتهم أنا بكل سوء — لأنى أدعو الناس إلى تركهم وترك عبادتهم ودعائهم دليل صحيح قائم على أنهم عاجزون عن كل شئ ، غافلون عمن تقربوا إليهم ودعوهم وعبدوهم ، غافلون ، كذلك ، عمن يعادونهم وينكرونهم . . . وهذا من أعظم التحدى والتعجيز لأولئك المشركين الغابرين ولهؤلاء المشركين الحاضرين .

وقوله : « إن وليىَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » تحد وتعجيز آخر لمن أشركوا بربهم وبدعائه ، وهو كالسبب لما تقدم من الاعراض عن كل شريك وعن كل مخلوق وعن كل ما سوى الله . لأن من كان السيد الأعظم والمالك لكل شئ ولياً ونصيراً له فان يبالى بغيره ، ولن يعبأ بأحد من خلقه وعبيده ، ولن يرهب أو يبالى من خدم مولاه ونصيره قريباً ولا بعيداً ، لا من أهل السموات ولا من أهل الأرض . لأن السيد الأعظم الأعلى ، المالك لكل شئ إذا كان ولياً ونصيراً له وقريباً منه — لأنه أطاعه وخدمه خدمة صادقة صحيحة — لم يبق هنالك فرق بينه وبين المقربين إليه تعالى ، الذين يُدْعَوْن ويُرجَوْن ويسألون الشفاعة والوساطة لقربهم منه وحظوتهم لديه . لأن المقربين

إليه من عباده وصفوة خلقه ما قربوا منه وحظوا لديه تعالى إلا لأنهم خدموه تعالى خدمة عبودية صادقة صالحة صحيحة . وهذا هو الذى يقرب العباد إلى ربهم ومولاهم الحق لا غيره ، لأنه ليس بينه تعالى و بين أحد من خلقه نسب ولا قرابة سوى الطاعة والعبودية . فمن أطاعه تعالى وعبده فقد أخذ حظه من القربى والزلفى لديه بقدر طاعته وعبادته . ومن لا فلا .

مثل المشرك والموحد

وفى الآية احتجاج على المشركين لطيف خفى لايفطن له إلا من أعطى فهماً لكتاب الله . هذا الاحتجاج اللطيف مأخوذ من قوله تعالى : «إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وخلاصة الاحتجاج أن الله قد علّم رسوله أن يقول للمشركين العابدين غيره معه : شتان ما بينى و بينكم فى القصد والغاية والمطلب وأخذ الطريق إلى الله ، فأنا قد توليت الله وحده ، فدعوته وسألته و رجوته وخفته وأملته ، وعذت به وأفكرت فيه ، وانقطعت إليه وحده : فلم أدع غيره ، ولم أعبد سواه ، ولم أرج عبداً من عبيده ، ولم أذل لمخلوق من خلقه ، ولم أبسط يدى بسط ذلة واستكانة إلا له تعالى : فكنت كلى لله، فكان لله محياى بما فيه من أنواع العبادات والصلوات والضراعات ، وكان له مماتى بما فيه أيضاً من ضروب الآمال والرجعى والحساب والعقاب والثواب . فكنت له وحده مسلماً خالصاً ، والى وجهه بوجهى متوجهاً منصرفاً ، لم أعج يميناً ولا شمالا : لم أعج على غيره لا بقلبى ولا بشىء من قالبى ، فهو وليى وحده لا ولى لى سواه « إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وأما أنتم ، أيها المشركون ، فما كنتم له تعالى وحده ، ولا كنتم لأصنامكم أيضاً ، بل أنتم شركة بين الحق والباطل ، فكان منكم ما هو لله الحق ، وكان منكم ما هو لغيره الباطل ، فكنتم مشركين : إذا دعوتم الله مرة واحدة دعوتم سواه مرات ، و إذا رجوتم الخالق تارة واحدة رجوتم ... فى تارات ، و إذا بسطتم أيديكم إلى السماء تدعون إله

السماء بسطتموها إلى الأرض تدعون سكان الأرض من الأموات الراقدين تحت الأحجار والتراب ، و إذا ارتفعتم بآمالكم وحاجاتكم إلى الله لم يغنكم هذا عن أن تهبطوا بها إلى الحضيض الأسفل تتلمسونها تحت اقدام الموتى و بين أشلاء الرمم البوالى ، و إذا سفكتم شرطة محجم دماً ، ذلا وعبودية ونسكا لله ، سفكتم بحاراً وانهاراً من ذلك ، ذلاوتقر با وتنسكا وعبودية لخلقه العاجزين الضعفاء ... فكنتم هكذا متسمين بين الحق والباطل ولكن قسمة غير عادلة ولا منصفة ، إذ كان نصيب الباطل منكم وفيكم أعظم وأسمن من نصيب الحق ، فكنتم شر العبيد وأضل الخدم ، وكنتم مثل السوء والغباوة والبلادة للأرقاء الخائنين الغادرين الجاهلين . هذا ما كان من مثلى ومثلكم ، فشتان ما بينى و بينكم !

ليس العابد لله كالموزع بين الشركاء

وقد ضرب الله المثل لعبده المخلص الموحد ، ولعبده المشرك المعدد بقوله من سورة الزمر : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشا كسون ، و رجلا سلماً لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . فالرجل المملوك لعدة شركاء متشا كسين متخالفين ــ والشركاء لا بد لهم من التشا كس والتخالف ــ وهذا مثل المشرك ــ ليس هو كالرجل المملوك لمالك واحد ، السالم الخالص له من الشركة والمشاركة ، ومن الخلاف عليه والمشاكسة . وهذا هو مثل العبد الموحد العابد لله وحده الخالص له « من الشركات الأجنبية » الجائرة الملعونة ... فمن كان دعاؤه و رجاؤه وخوفه ومحياه ومماته موزعا بين فلان وفلان من الاحياء والأموات ، و بين الحق والباطل ، فليس هو مثل من كان محياه ومماته ودعاؤه و رجاؤه وخوفه وعبادته وكل شئ فيه وله خالصاً لله وحده ، خالصاً للحق لا شريك فيه للباطل ولا حظ . وذلك أن الذى يكون موزعاً بين الشركاء لا بد أن يختصموا فيه و يتشا كسوا وأن يرغب كل واحد منهم فى حظ الآخر فيه ، وأن يطمع الشريك فلان فى ماصرف للشريك فلان الآخر . فمن اعتاد أن يتقدم إلى الشيخ البدوى بعدد

كذا من القرابين والضحايا والهدايا ، أو إلى غيره من المشايخ ، فبدا لذلك المشرك الصارف ماله للبدوى أن يصرف بعض ذلك أو كله إلى شيخ آخر كالشيخ الرفاعى أو الدسوقى أو الجيلانى مثلا ، فصرفه ، فلا محالة من أن يغضب ذاك الشيخ المعبود أولا لما ناله من الجفاء له والإعراض عنه إلى سواه من الشركاء ، ثم لا محالة من أن ينتقم من عبده أو شريكه إن استطاع ، ولا بد ، إذا كان قادراً ، وكان راضياً بهذا الذى يقدم إليه وإلى قبره من الهدايا والضحايا والقرابين والنذور . ومثل هذا يفعل غيره من الأشياخ ولا مفر . ولهذا فان هؤلاء المساكين المفتونين بأهل القبور ، الذين يتقدمون إليهم بالنذور والهدايا إذا حدث لأحدهم حادث فلم يتقدم إليهم بما كان قد اعتاد أن يتقدم به إليهم كل عام ، فأصيب بمصيبة ، زعم أن تلك المصيبة من الشيخ فلان لأنه قد أعرض عنه وأساء معاملته إذ لم يذهب إليه ولم يهد له ما اعتاد أن يهدى ، فراح يتقى ذلك ويدفعه بالضراعات والتوسلات وصنوف الهدايا والصدقات . وهذا لأنهم يعلمون أن المشايخ لا بد أن يغضبوا إذا لم يعطوا إن كانوا حقاً يرضون بأن يعطوا ، وهم يزعمون أنهم يرضون ذلك ويجازون عليه ، ولا بد أيضا أن ينتقموا إذا أغضبوا متى كانوا قادرين على الانتقام وهم يزعمون أنهم قادرون . . . فالذى يتقدم إلى فلان وفلان وإلى الحق والباطل بالدعاء والسؤال والنذور والهدايا والصدقات والقرابين لا محالة من أن تقوم حوله معارك انتقامية وخلافية ، ولا محالة من أن يعظم فيه الخلاف ويشتد ، وأن يتسع نطاق التشاكس والصراع حوله وحول عبادته وعبوديته ، ولا محالة من أن يقترن ذلك بالظلم والعدوان إذا كان شئ مما زعموه حقا وصدقا . وامرؤ واحد لا يمكن أن يرضى عنه جميع المشايخ بنذوره وهداياه وصدقاته وضحاياه ودعواته ، وإن انقطع إلى ذلك كله وأعطاه كل جسمه وعقله وقلبه وجهله وغباوته وبلادته ، بل وإن تحمل من ذلك ما لا يطيق . فلا بد إذن من أن يقع فريسة الأوهام والمخاوف من هؤلاء الذين

تعب المشرك وأوهامه

لا يقدر على إرضائهم كلهم ، والذين لا محالة من أن يسعى لإرضائهم ما واتاه السعى والجد والعمل . فلا بد إذن من أن يعيش منغصاً مذهولا مكدود العقل والجسم والقلب والنفس ما دام يرجو فلاناً ويخاف فلانا ، ويحاول أن يرضى فلاناً بماله أو دعائه ، وأن يدفع عن ماله وولده ونفسه بطش فلان الغاضب الناقم الثائر لما لحقه من الجفاء والهجران والنسيان لروحه وضريحه ولمقامه الذى يتطلب الكسوة والمصابيح والسرج والبخور والأطياب . . . فهو أبداً شقى وجل ، وهو أبداً مذعور مرزأ متعب . فما أتعسه وأشقاه وأنصبه !

راحة الموحد واطمئنانه

وهذا من المحال أن الباطل أن يكون كعبد خلص لله وحده لاشريك لأحد فيه : لا فى دعائه ولا فى رجائه ولا فى خوفه ، ولا فى محياه ومماته ولا فى شئ منه لا سلبى ولا إيجابى . ذلك أن هذا الذى خلص لربه وحده لابد أن يرضى وأن يهدأ باله وتطيب حاله ويسكن إلى عقباه حينما يعلم أنه قد أطاع ربه وأرضاه وتقدم إليه بما أمره به من العبادات والفروض والفرائض والضراعات والضحايا المنسوكة لوجهه وحده لا ند له ولا شريك . فلا بد أن يعيش سعيداً عزيزاً قويا بربه وبإيمانه وتوحيده وإخلاصه ، لا يخاف غيره ولا يبالى سواه ، ولا يرجو كائناً فى السموات ولا فى الأرضين خلاه . فيحق له حينئذ أن يقف فى وجه الزمان والوجود كله لا خائفاً ولا مذعوراً ، ويحق له حينئذ أن يسمو على كل شئ دون الله ، وأن يتناول مجد الحياة وشرف الزمان اغتصابا وكرها أو رضاً وتسليما لا سؤالا ولا التماساً ولا رجاء ، وأن يقول بحاله ومقاله أيضاً :

إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر * وبينى وبين العالمين خراب

هذان مثلا عبد الله وحده ، وعبد الشركاء المتشاكسين المتخاصمين . فهل

يستويان مثلا ، وهذا مايدل عليه قوله تعالى : « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

لا ينصرون أنفسهم ولا غيرهم

وقوله : « والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » أسلوب آخر من أساليب النقض على دعاة غير الله ، و برهان قاطع قاهر على بطلان أمر من راحوا يدعون و يسألون من لا يقدرون على نصر أنفسهم فضلا عن أن يقدروا على نصر غيرهم . وأى مخلوق يستطيع أن ينتصر على ربه وخالقه لنفسه أو لوليه ؟ وأى مدعو يقدر أن يدفع عن نفسه أو عن غيره ما أراده الله به وله ، أو أن يكون بمنجى من عذابه وعقابه وقضائه وقدره ؟ فالخلق جميعاً لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا نصر غيرهم ، ولا يقدرون على أن يدفعوا عن ساحتهم وجانبهم ما يشاؤه الله لهم . فما أجهل وأغبى من أمل نصراً ممن لا يستطيع أن ينتصر لنفسه ، ومن رجا دفاعاً ممن لا يقدر على الدفع عن حاله . وهذا ظاهر فى أن الانكار متجه إلى دعاء العاجزين الضعفاء الذين هم فى حاجة أبداً إلى نصرة ناصر قادر ، وهو أيضا واضح فى الرد على دعاة الأموات . وذلك أنه مما لاخلاف فيه أنهم لايستطيعون نصر دعاتهم ولا نصر أنفسهم ، ولاخلاف أنهم عاجزون عن هذا النصر عجزاً تاماً ظاهراً . والآية واضحة فى مذمة من دعوا من هم بهذا المكان من العجز والضعف ، ولهذا فان الآية تتجه إلى دعاة الموتى بأن يقال لهم: «والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون» و إذا قيل لهم هذا لم يقدروا على أن ينازعوا فى شىء منه ، فهم لايقدرون أن يقولوا إنهم يستطيعون نصرنا ولا أنهم يستطيعون نصر أنفسهم كما لا يقدرون أن يقولوا : إننا لاندعوهم . فهم يدعونهم وهم لايقدرون أن يقولوا إنهم ينصرونهم أو ينصرون أنفسهم . فاذا وجه إليهم إذن قوله : « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون » الآية كان ذلك حقا وصدقا ، وكانوا عاجزين عن الخلاص منه .

فالآية رادة عليهم رداً صريحاً واضحاً . والاسم الموصول والضمائر بينة فى أن هؤلاء المدعوين الذين أنكر الله دعاءهم كانوا عقلاء لا جماداً كما زعم .

وقوله : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا » تيئيس بالغ منهم وقطع لكل أمل فى الاتصال بهم كيف كانوا وأين كانوا .

آية أخرى

وقال من سورة العنكبوت : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

الآيات فى النهى عن اتخاذ الأولياء

وقد ورد إنكار اتخاذ « الأولياء » من دون الله فى مواضع كثيرة مثل قوله « ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون » ومثل قوله : « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض » ومثل قوله : « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . وقوله : « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون » . وقوله : « مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون » إلى آيات أخرى . ولكن هذه الآية آية « العنكبوت » لا نظير لها فى تقريع من اتخذوا أولياء من دون الله ، فقد بالغت بحق فى توهين أمرهم وتوهين عقائدهم وإيهاء الأسباب التى يتعلقون بها ويعلقون بها نجاتهم وآمالهم وحاجاتهم ، وليس أذل ولا أوهن ولا أهون ممن جعل الله مثلهم كمثل العنكبوت فى الضعف والذلة والوهن والمهانة ، وجعل عقائدهم وأعمالهم التى يشيدون عليها نجاتهم ويلتمسون بها رضا الله ، ويرجون بها أن ينالوا جنته ودار كرامته كمثل بيت العنكبوت ، وهو أوهن البيوت فى الضعف والوهن والحقارة والهون والهوان . وهذا المثل الذى ضرب به الله لحال من اتخذوا الأولياء

أمثال القرآن فى توحيد الله

من دون الله من أبلغ الأمثال القرآنية ، وأمثال القرآن التى ضربت للدعوة إلى التوحيد والزراية بالشرك والمشركين كلها بهذا المكان من القوة والبراعة والشدة كهذا المثـل وكمثل سورة الحج فى قوله تعـالى : « يا أيها الناس ضرب مثل » الآية ، وكمثل سورة الرعد فى قوله : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء » الآية ، وكمثل سورة الزمر فى قوله: « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » ، وكالمثل فى سورة النور فى قوله : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة » الآيات . وضرب مثل العنكبوت مثلا لمن اتخذوا الاولياء من دون الله يراد به أن كلا من هؤلاء يأوى إلى ركن غير وثيق ، ويشيد أمره على أوهن القواعد ، ويريد نجاته بما فيه حتفه وهلاكه ، ويتعب فيما لا يربح ولا يفيد فالعنكبوت تجدّ فى بناء بيتها وتكوينه ونسجه وهندسته لتجد فيه المأوى والمستقر والقرار ، ولكن أقل شئ وأهدأ حركة وأضعف ريح تنسف هذا البيت بما فيه من بناء وبنائين ، فتخسر بيتها وعملها ، وتخسر نفسها أيضاً ، وذلك هو الخسران المبين . وكذلك المشركون بالله . المتخذون من دونه الأولياء والأنداد ينصبون أنفسهم ويشقون أبدانهم ويرهقونها بالأعمال الجسيمة المرهقة الشاقة على النفوس والأبدان ــ وهم مشركون بربهم ــ طلباً للنجاة والسعادة ، وتقربا إلى مولاهم الحق بهذه الأعمال المشركة ، ويحسبون أنهـم بذلك قد اتخـذوا للنجاة أسـبابها ووسائلها ، وأعدوا للقاء الله ونيل رضاه عدته . ولكن ماعلموا أن الشرك يحبط العمل ، وأن العبادات الممزوجة بعبادة غير الله تذهب هباء باطلاً . . . فيهلكون بما ظنوا فيه النجاة ، ويشقون الأبد بما أرادوا به سعادة الأبد . . . فيخسرون أعمالهم ويخسرون أنفسهم ويخسرون سعادتهم ، وذلك هو الخسران المبين .

مثل العنكبوت

وكذلك أيضاً هؤلاء المشركون يلتجمون الخـيرات فى دعاء الأولياء العاجزين

ويؤملون البركات حول قبور الصالحين الهالكين ، ويقربون إلى الضريح كبشا لينالوا بمله عجلا أو جملا أو كبوشاً ، ويضعون فى صندوق الشيخ قرشاً ليأخذوا جنيهاً أو جنيهات ، ويدعونه مرة ليأخذ بأيديهم مرات . هكذا يصنعون وهم يحسبون أنهم بذلك يكسبون رضا الشيخ وخيراته وبركاته وثواب الله ومرضاته . ولا يدرون أنهم بذلك يتعلقون بأوهى الأسباب ، ويشربون من السراب ، وأن مثلهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . ونعوذ بالله من أمثال السوء .

الشراب من السراب

معنى اتخاذ الأولياء

بقى أن يقال : ما معنى اتخاذ الأولياء من دون الله ، وما معنى هذا الحنث العظيم ؟ والجواب أن يقال : يفسر هذا الاتخاذ وهذا الذنب قوله فى الآية : « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم » . فبعد أن ذكر ذنب من اتخذوا أولياء من دونه وزجر المتخذين لهم فسر هذا بالدعاء فقال « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء » ولو كان اتخاذ الأولياء ليس هو الدعاء لهم ، أو ليس الدعاء من معانيه لكان قوله فى الآية « إن الله يعلم ما يدعون من دنه من شئ » لا مكان له هنا ، ولكان النظم مشوشا . ونزه الله كلامه عن الاختلال والاختلاف والتشويش . فاتخاذ الأولياء من دونه تعالى معناه دعاؤهم وسؤالهم والانقطاع إليهم وإلى قبورهم انتجاعاً للرحمات والبركات كما يفعل هؤلاء العاكفون اليوم على أجداث المشايخ : يدعون ويستغيثون ويتعرضون للشفاعات والبركات المزعومة المكذوبة .

ويفسر هذا

ويفسر أيضاً هذا الاتخاذ ما ذكره القرآن عن المشركين وما ذكرته السير عنهم . وذلك أن الذى ذكره القرآن عن القوم وأشاد به وأعلن ملامتهم من جرائه كثيراً هو دعاؤهم غير الله وسؤالهم المخلوقين الحاجات والآمال . وقد قدمنا الدلائل على أن الكتاب لم يلم القوم على أن زعموا أن غيره تعالى يخلق أو يرزق

أو يحيي أو يميت أو يساوى الله فى القدرة والقوة والقدم ، لأن القوم لم يزعموا شيئا من ذلك ، ولم يلمهم أيضاً أن زعموا أن مخلوقاً هو الله ، أوأن أنكروا الله أو أنكروا قدمه أو قوته أو سلطانه أو جلاله أو شيئا من كمالاته ليهبوها عبداً من عبيده ، ولم يلمهم أيضاً أن زعموا أن شيئاً فى العالم لم يخلقه الله وأنه لايميته ويفنيه متى شاء ، لأنهم لم يزعموا ذلك ، بل ولم يلمهم أن سجدوا لغير الله أو ركعوا ، لأنهم ــ فيما يظهر ــ لم يفعلوا ذلك . وإنما لامهم على دعاء العباد وسؤال المخلوقين وأمرهم بأن يدعوه وحده ويخلصوا له الدين والعبادة. وهذا ماامتلأ به الكتاب ومادلت عليه آياته وتفاسيره . وإذا كان الكتاب إنما لام المشركين على أن دعوا غيره ، وكان إنما نهاهم عن ذلك وأخبر فى معرض الرد عليهم أنهم قدعوا المخلوقين ، ودعوة الحق لاتكون إلا لله ، وأما دعوة غيره فهى الباطل والضلال والجهل : إذا كان هذا كله قد دل عليه الكتاب وجب أن نفسر اتخاذ الأولياء هنا بهذا المعنى : بدعائهم ورجائهم والانقطاع إليهم ، ولم يصح أن نفسر الآيات بما لايصح وبما لم يدل عليه الكتاب ولا بما أنكره . فان القرآن يجب أن يرجع بعضه إلى بعض ، وأن يفسر مجمله بمفصله ومحتمله بيقينه وخافيه بظاهره . ومن غير الممكن أن تفسر الآية وغيرها من الآيات بما يذكره المخالفون المحرفون.

تفسيرهم للآية

فان غاية مايمكن أن يفسروا الآية به أن يقولوا إن معنى اتخاذ الأولياء من دون الله الذى نهى عنه الكتاب هو عبادتهم . فاذا قيل لهم : سلمنا هذا ، ولكن ماهى عبادتهم ، زعموا أن عبادتهم هى تسويتهم بالله والاعتقاد بأنهم مثله فى القدرة والاختيار والسلطان مع دعائهم وسؤالهم . ويخفى عليهم أن الكتاب قد أنبأ عن المشركين فى آيات كثيرة معلومة أنهم لم يكونوا يعتقدون بأن شيئاً مساو لله فى أمر من الأمور ، ولم يكونوا يعتقدون أن شيئاً من الأشياء خارج عن سلطانه ومشيئته وأمره وقهره ، بل كانوا يقولون ويعتقدون أن الله خالق كل شئ آخذ بكل ناصية

حتى أصنامهم وآلهتهم . فهذا لا يمكن أن يكون صحيحا فى تفسير الآية ولا فى الواقع لأنه باطل فى نفسه .

أو يقولوا

أو يقولوا : إن معنى اتخاذ الأولياء هو الزعم والاعتقاد أنهم يضرون وينفعون ويتصرفون ويعطون ويمنعون مع دعائهم وسؤالهم . فاذا قالوا ذلك قيل لهم : إن هذا هو مايعتقده ويزعمه هؤلاء العاكفون على القبور فى قبورهم : فانهم يعتقدون أنهم يضرون وينفعون ويعطون ، وإذا شاءوا يمنعون . ولولا هذا الاعتقاد لما سألوهم ولما رجعوا إليهم ولما عبثوا بهم فى حالة من حالاتهم ، غير أننا لا ننكر أنهم يعتقدون أن كل ما يفعلون لا يفعلونه إلا باذن الله ورضاه ، ولكن هذا هو اعتقاد المشركين أيضاً فى آلهتهم . فلا فرق بين الفريقين .

أو يقولوا

أو يقولوا إن معنى اتخاذ الاولياء هو السجود والركوع لهم . فاذا قالوا ذلك قيل لهم : إن القرآن قد أخبر كما قدمنا بأن المشركين كانوا يدعون غيره ، وقد لامهم وأكفرهم على هذا الدعاء ، ولم ينبىء بأنهم كانوا يسجدون لغيره ، وما ورد هذا — فيما أعلم — إلا فى قوله « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » وفى قوله حكاية عن الهدهد « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . وأما الدعاء فجاء النهى عنه فى عشرات الآيات . وهذا يحتمل أمرين — كما تقدم ، أحدهما أن المشركين لم يكونوا يسجدون للأصنام وإنما كانوا يدعونها ويسألونها فقط ، وعلى هذا تكون عبادتهم لغير الله هى دعاؤهم غيره ، وثانى الاحتمالين أن يكونوا يسجدون للأصنام ويركعون كما كانوا يدعونها ويرجونها ، ولكن يقال على هذا كيف حدث القرآن عن الدعاء ونهى عنه وزجر ولم ينه كذلك عن السجود والركوع ؟ ولا يبقى لهذا جواب صحيح حينئذ غير أن يقال : إن القرآن قد أعظم من شأن الدعاء ونهى عنه ولام عليه كثيراً لأنه أعظم من السجود والركوع ، ولأن دعاء غير الله أقبح أنواع الاشراك ، هذا هو

الجواب الصحيح عن هذا السؤال الصحيح ، وهذا يدل على أن دعاء غير الله شرك عظيم لأنه أعظم من السجود والركوع لغيره ، ولا خلاف فى أن السجود للمخلوق شرك بالله وعبادة لذلك المخلوق . . . وأيا اخترنا من الاحتمالين فهو رد على أصحاب القبور . ولا يشك بصير بدين الله أنه إذا كان السجود والركوع لغير الله كفراً كان سؤال المخلوق الميت هداية القلب ، وغفران الذنب ، وشفاء المريض ، ورجع الغائب أدخل فى الكفر والضلال العظيم .

فلا مفر من تفسير اتخاذ الأولياء فى الآية باعتقادات هؤلاء الجهلاء فى هؤلاء الأولياء من دعائهم وسؤالهم والانقطاع إليهم رجاء شفاعتهم ووساطتهم ونفعهم وضرهم . فالآية من أعظم البراهين على بطلان الرجوع إلى الموتى وأصح الحجج على فساد أمر هؤلاء العاكفين على القبور . ومن العجيب أن تكون هذه الآية بعض ما فى الكتاب من الحض على إفراده تعالى بالدعاء وبالعبادة وبكل معنى من معانيها ثم يظل المسلمون يدعون أصحاب القبور وينازعون فى دعائهم ويحاولون اختلاق الشبهات على ذلك ، ثم لا يقنعهم هذا حتى يذهبوا إلى اتهام الكتاب بهذه الفضائح الوثنية ، ويزعموا أن فيه آيات نزلت فى دعاء الموتى وفى الأمر بدعائهم . ونعوذ بالله من هذه الغوايات . . .

آية أخرى

وقال تعالى حكاية عن رسوله إبراهيم من هذه السورة : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » .

وهذا يدل على أن المشركين ما اتخذوا الأوثان ولا عبدوها من دون الحق إلا مودة وهوى لها وغراما بها ، فكأنهم قد عشقوها كما تعشق الصور والجمال

عشق الاصنام

الحسى الصادق أو الكاذب ، وكأنهم إنما أتوا وضلوا من طريق الحس لا من طريق العقل والقلب ، أى كأنهم رأوا الأوثان والآلهة التى عبدوها صوراً فاتنة

مشتهاة مغرية فوقعوا فى هواها وعبادتها وتأليهها، ولم يقعوا فيها لأنهم علموا أنها تستحق ذلك لما لها من الأمر والسلطان والضر والنفع والجاه والمنزلة عنـد الله ».

فهم لم يعلموا شيئاً من هذا ولم يقم لديهم برهان واحد ، ولا شبه برهان عليه ، بل لاشك أنهم ما ألهوها إلا كما يؤله العاشق من يعشقه : كلاهما سحر بما رأى وشهد لا بما علم ووجد . وهذا أمر لا ريب فيه ، فان المشركين إنما ضلوا وأخذوا من طريق العين والبصر . وذلك أنهم رأوا التماثيل الماثلة والصور الرائعة والزينات والزخارف المنصوبة عن اليمين وعن الشمال ، ووجـدوا الروائح الزكية والأطياب الفواحـة ، والبنايات الفخمة المشـيدة والهياكل العظيمة المجودة : رأوا ذلك كله حول الأضرحة والقبور وفوق الأموات فهالتهم فأكبروها وهاموا بها غراماً ، أو فى الصحيح هاموا بالزينات التى قيل لهم إنهـا فوق الشيخ فلان والولى فلان ، فتصاعد هذا الغرام بهذه الزخارف إلى عيون المشركين المساكين، ثم انتثر على قلوبهم وعقولهم وأعضائهـم ، فصار شركا وعبادة وافتتانا وضلالا كبيراً . ولولا هذه الزخارف والزينات المنثورة هنا وهناك عن يمين القبور وشمالها وفوقها وحولها لما كان ما كان من غرام الضلال وضلال الغرام . وقد فطن سدنة هذه القبور أو الأصنام لهذا السر العظيم والفتنة الـكبرى فجدوا فى تجميلها وزخرفتها وإحاطتها بما يغرى ويفتن حتى جعلوها شركا لأبصار الجهلاء المغفلين ، ومصايد لجيوبهم ونقودهم ، ليروهم مايبهرهم وما يرخصون عنده غالى أموالهم وقلوبهم وعقولهم ، وما يصطادونهم به كما تصطاد المرأة الشوهاء القبيحة شهوات الرجال المغفلين بالأصباغ والحلل الزاهية الخادعة ، وإن كان تحت ذاك الشين كله والقبح مجسما قائماً . ولهذا فانك لاتجد الزحام ، حيث تتصادم المناكب والأقدام ، إلا لدى القبور المزخرفة المحاطة بالقباب والأثواب وسائر ما هناك من البـدع التى حظرها الاسلام جـداً ونادى عـلى قبحها وفسادها ، وإن كان المقبور المدفون المقصود صـغيراً ، بل

ضلال المشركين من أبصارهم لا من عقولهم

غرام الضلال

إغراء زخرفة القبور

و إن كان فاسقا أو ضالا أو كافراً بالله العظيم . وأما المعدم من الزخارف والزينات ، فلن تجد لديه من هؤلاء الضلال أحداً و إن كان من كان فضلا وعلما ونباهة شأن وشهرة ، و إن كان من أولاد النبوة وسلالات الرسل . ومن ثم فانك واجد حول ضريح البدوى ما لن تجده حول ضريح آخر من أضرحة الصالحين والعلماء الربانيين الذين يزن الواحد منهم من أمثاله الألوف لو كان هذا البدوى ممن توزن بهم الرجال . هذا مالا شك ومالا خلاف بين البصراء فيه . ولولا هذا لما عَبَدَ مخلوق مخلوقا إلا من شاء الله . وذلك أن عبادة المخلوق ليس لها ريح من برهان ولا طيف من حجة يمكن أن يقع فيه أو يخدع به إنسان. فالمخلوق ولا ـ سيما الانسان ـ أذل وأعجز وأحقر من أن يلتبس أمره وحقيقته على أحد ، فيغريه هذا الالتباس بعبادته وتأليهه ، وبابتغاء الحاجات والأرزاق بين يديه وقدميه ميتاً. ولكن هذا الخداع الذى نصبوه فوق قبره هو الذى له الفضل فى الإضلال وفى تأليه ماتحته من العظام البالية . ولأجل هذا كان نهى الإسلام شديداً عن زخرفة القبور وخلع الزينات عليها ، وكان نهيه شديداً كل الشدة عن العناية بالمقبورين والرفع من شأنهم ، وكان هذا النهى حذار هذا الضلال وحذار هذا الفساد المشهود حول الأضرحة المزخرفة والأموات المعظمين . ولكن هؤلاء الجهلاء خالفوا هذه المناهى ، وجهلوا هذه الحكم العوالى ، فزخرفوا القبور أولا ، ووقعوا فى عبادة مازخرفوه ثانيا . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ومن الدلائل على أن القوم ماعبدوا المخلوقين إلا تعشقا وغراما أنه لا يمكن أن ينتفعوا ببرهان يقام لهم على بطلان تلك العبادة ، ولا يمكن أن يقلعوا عن ضلالهم لحجة قاهرة يرونها بأعينهم إلا القليل النزر . وذلك لأن المسألة ليست مسألة علم و برهان ، ولا حجة ودليل ، ولا مسألة عقل و بصيرة ، و إنما هى مسألة غرام وحب ومودة . والحب والغرام والمودة لا تجدى فيها البراهين والحجج

والدلائل والعلم ، لأن ذلك مستقره العين ، والعين لا تذوق البرهانَ ولا تبصره ولا تثبت فيها الحجة ولا يقوم فيها الدليل . فما أضيع البرهانَ والحجة والعلم والدليل عند من بلاؤهم من أعينهم ! وما أقل انتفاع المحب بعقله وعلمه و برهانه . فالحب فى فلسفة الواقع مرض فى العين لا فى العقل ولا فى القلب ، و إن كان شئ من ذلك فعدوى فقط من العين أو من حاسة أخرى . ولهذا فالواجب علينا إذا أردنا أن نعالج مريضا من هؤلاء المرضى أن نعمد إلى علاج عينه لا عقله ولا قلبه ولا علمه ، لأنها هى المريضة يقينا . فاذا أردنا أن نعالج مصابا بحب القبور وهوى الأموات وجب أن نجرد هذا المحبوب من زيناته وزخارفه وأن نعريه مما خدعت به العيون من القباب والأشياء الأخرى ، فنزيل كل ما هنالك من هذا البلاء وندعه هو وترابه وعظامه البالية وصمته المخيف المفزع . وهذا يكفينا و يغنينا عن كل برهان وحجة وعلم ، وهذا كاف فى تغيير القلوب ، قلوب هؤلاء المحبين على هذا الحبيب . هذا هو العلاج الصحيح الطبعى كما أرشد إليه الاسلام والنبى الأكبر عليه الصلاة والسلام . و إذا أردنا أن نداوى مريضاً بحب صورة من الصور وجسم من الأجسام وجب أن نضع يده على مقابح تلك الصورة وذاك الجسم ، وأن نجردهما مما يخدع و يغوى و يغرى ، أو نبعدهما عن بصره و بريد شهوته العين . وهذا أجدى وأقرب إلى الشفاء والعلاج من محاولة إقامة البرهان أو البراهين على أن حبهما جهل وضلال ونقصان وجنون . فان النهى عادة عن مثل هذا يقوم مقام الإغراء به والحض على التزيد منه والهيام به . . . هذا هو العلاج الحاسم الصحيح فى فلسفة الأدوية العلمية النافعة ، وهذا هو العلاج الالهى الذى أرشد إليه من ختمت به النبوات ، ورسالات السموات ، عليه أزكى السلام ونوامى الصلوات .

[هامش: ...ب مرض فى العين — ...ج عشق القبور — أخرى]

وقال من هذه السورة أيضاً : « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له

الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » .

وقد جاء هـذا المعنى فى آيات وسور ذات عـدد . ومن الواضح أن المراد بالشرك فى قوله : « إذا هم يشركون » هو الشرك فى الدعاء أو فى العبـادات التى أحدها الدعاء . وذلك لأن الذى تقدم فى الآية هو قوله : «دعوا الله مخلصين له الدين » ، أى إذا ركبوا فى البحر وخشوا الغرق والهـلاك أخلصوا لله الدعاء والدين بلا ريب . فالشرك فى آخر الآية هو دعاء غير الله ، والاخلاص فى أولها هو دعاء الله وحده . وهذا لا أحسب ذكيا منصفاً يخالف فيه .

وإذا علم هذا علم أن دعاء غير الله شرك بالله وعبادة لذلك المدعو ، وعلم أن الشرك يكون فى الدعاء كما يكون الاخلاص فيه . فهذا الشرك الذى نعاه الله فى آيات على المشركين حينما ينجون من أهوال البحار وأخطارها هو دعاؤهم غيره تعالى . وظاهر من جميع الآيات التى ذكرت فى هذا المعنى أن القوم لو ظلوا على ما كانوا عليه فى لجج البحار حين اشتدبهم الخوف والفزع من الاخلاص والانقطاع إليه وحده لـكانوا مخلصين غير مشركين ولا كافرين ، ولكانوا ممتدحين غير ملومين . وذلك أن القرآن قد أنبأ فى جميع الآيات التى جاء فيها هذا المعنى أنهم فى تلك الساعات يخلصون لله ، والاخلاص هو أساس النجاة كما أن الاشراك هو أساس الهلاك والضياع الأبدى . وهذا الاخلاص هو دعاء الله وحده كما هو ظاهر من القرآن ، كما أن الاشراك هو دعاء غيره فى البحار وفى حالات الخوف والذعر وعلى هذا فالذين يدعون الله وحده ولا يأتون بعمل من أعمال الشرك هم مخلصون لله الدين كله ، والذين يدعون غيره تعالى هم مشركون وإن أخلصوا له جميع أعمالهم وعباداتهم وأحوالهم حاشا الدعاء . وهذا ظاهر لا ينازع .

هذه بعض دلائل الكتاب على منع دعاء المخلوقين . وليس هذا الذى ذكرناه وأوردناه الا غيضاً من فيض وقطرات من محيطات . وهذا الذى ذكرناه هو ما دل

دلالة القرآن السلبية على منع دعاء المخلوق

عليه الكتاب من الناحية الايجابية ، وله دلالة على ذلك أخرى سلبية ، وهى أن الله فى قرآنه قد دل على جميع أصول الخيرات وأساس الأعمال الصالحة دلالات ظاهرة جلية ، تفهمها العامة كما لا تخفى على الخاصة ، ونهى عن الشرور والأعمال الباطلة المنكرة نهياً صريحاً واضحاً مفصلا يفهمه الرجل الساذج كما لا يعزب عن الرجل الممتاز العليم الحاذق . . . وما ترك اصلا من أصول الخيرات والطاعات العامة إلا وأمر به وندب إليه وأشاد بامتداحه وامتداح فاعليه . ولا ترك أصلا من أصول الشرور والمنكرات إلا ونهى عنه وحذر منه وأشاد بمذمة فاعليه وآتيه وقد ذكر فى ما لا نحصيه دعاء الله والامر بدعائه ، والإخبار بان عباده هم الذين يدعونه تعالى رغبا ورهباً فى السراء والضراء وفى جميع الحالات . وذكر أدعية الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباده ، وضراعاتهم وتوسلاتهم بأسمائه وصفاته الحسنى ، وأورد من ذلك ما أورد بأساليب مختلفة وعبارات مختلفة فى سور عديدة كثيرة ، فأورد أدعية أبوى البشر آدم وحواء ، وأدعية نوح أول رسول إلى أهل الأرض بعثه الله ليدعو إلى التوحيد وليذود القوم عن الشرك والضلال والفند ، وأورد أدعية موسى كليم الله ومصطفاه ، وأدعية خليله إبراهيم ، وأدعية غير هؤلاء من الأنبياء والمرسلين ، وأورد نماذج كثيرة من أدعية أتباعهم المؤمنين ، وما كانوا يقولونه فى حالات سرائهم وضرائهم ، كما ورد أدعية خاتم الانبياء وأدعية أتباعه المسلمين : أورد أفانين ونماذج كثيرة من أدعية هؤلاء العباد الخيار المصطفين الأبرار الذين هم صفوة الصفوة من بنى الانسان ، بل صفوة هذه الخليقة وسرها العظيم وشرفها المرموق . . .

أدعية الانبياء واتباعهم

ولكن مع هذه الدلالات على جميع الخيرات ، ومع إيراد كلمات الخيار من الخليقة وإيراد ألفاظ دعواتهم لله وآدابهم فيها ، لا نجد فى كتاب الله لفظا واحداً يأمر بدعاء غير الله ويأمر بسؤاله وبالرغبة فيه والرهبة منه ، ولا شيئاً

مما نراه اليوم قائما فوق الاضرحة والأصنام مما يدعى هؤلاء المخالفون أنه من الاسلام ومن دين الله ، كالا نجد أن أحد هؤلاء الخيار المصطفين الذين ذكرت دعواتهم للاقتداء بهم والنهج منهاجهم فيها دعا غير الله من الأموات وسأله حاجة من الحاجات أو عاذ بقبره وضريحه عند رغبة أورهبة ، أوسافر إليه ، أو دعا الله بجاهه ووسيلته ، أو استشفع به ، أوطلب منه الدعاء والشفاعة . وهذا ما لا شك فيه ولا نزاع . فانه من المحال والعبث الباطل أن تتلمس فى كتاب الله آية واحدة تأمر بدعاء الأموات ، لا على طريق التصريح والجلاء ولا على طريق التلميح والإيماء ، لا باسلوب الاشارة ولابالنص ، أوتدل على أن أحد هؤلاء الأنبياء أو أحد الصالحين ، فعل شيئاً من هذا فى حالة من حالاته أورغبة من رغباته . فليس فى كتاب الله ما يأمر به أومايجيزه ، وليس فى دعوات الأنبياء والصالحين ما يدل على جوازه أو الأمر به أو استحبابه . فان كان ذلك خيراً وديناً ، كما زعموا ، فلماذا خلا منه كتاب الله ، وقد جمع أصول الخيرات وقواعد الأعمال الصالحة ؟ وكيف خلت منه أقوال الأنبياء والصالحين وأفعالهم وأدعيتهم ، وما من خير إلا وقد فعلوه إن كان فعليا وقالوه إن كان قوليا ؟ وليس لهذ السؤال إلا أحد جوابين : أحدهما أن يقال إن هؤلاء قد دعوا غير الله من الأموات والصالحين وتوسلوا بهم واستغاثوهم وسألوهم كل ما يدعيه هؤلاء المخالفون ، ولكن الله مع هذا لم يشأ أن يذكر منه شيئاً فى كتابه مع ذكره جملا كثيرة من دعواتهم وضراعاتهم وتوسلاتهم الصحيحة المقبولة . وثانى الجوابين أن يقال : إن أحداً من هؤلاء لم يفعل شيئاً من هذا ، ولكنه على رغم ذلك طاعة وقرب إلى الله . . .

لماذا لم يفعله الانبياء والصالحون

والجوابان باطلان لا خير فيهما : أما الأول ـ وهو القول بأن الأنبياء والصالحين فعلوا هذه الأمور كلها ودعوا الأموات واستغاثوهم وصنعوا جميع ما يصنعه الماكثون اليوم على القبور ، ولكن الله لم يذكر عنهم هذا ولم يذكر منه شيئاً ـ

الجوابان باطلان

فهو جواب باطل فاسد لاخير فيه. وذلك أن الله قدأنزل كتابه للهداية، وقدحدث بأحوال الماضين وأقوالهم وأفعالهم للعبرة والأسوة والقدوة . فلا يمكن ـ وهذا من حكمة ذكر قصص الأولين فى القرآن ، ومن حكمة إنزال الكتاب ـ ألا يذكر هذا وهو من الدين ، والناس فى حاجة شديدة إليه ، وفى ظمأ عنيف ملح إلى النهل والارتواء منه . وهل يمكن فى الحكمة أن يذكر عنهم ماالحاجة إليه غير ماسة ولا شديدة ، ومالا خلاف فى جوازه وحسنه ، ثم يهمل أن يذكر عنهم شيئا كثيراً ولا قليلا من هذا النوع الذى لو ذكر منه شيئاً صريحا عن أحد هؤلاء الماضين لكان قاطعاً كل نزاع ، حاسما كل شك وريب ؟ أو هل يمكن فى سنة الله وحكمته أن يورد دعوات هؤلاء الأنبياء والصالحين فى مواضع كثيرة من كتابه بأساليب واضحة ظاهرة ثم يحذف منها دعاءهم الأموات واستغاثتهم إياهم وتوسلهم بهم ؟ وهل يكون التلبيس والتضليل غير هذا ؟ تعالى الله وتعالى كتابه عن التضليل وإرادة التلبيس . ولا ريب أن حذف هذا من دعواتهم المذكورة فى القرآن ـ لو كان حقا هذا القول ـ متعمد مقصور . وهل يمكن أن يحذف هذا النوع من الدين تعمدا وقصداً والحاجة إلى الإبقاء عليه ، كما يرى ماسة شديدة؟ فلا جرم أن هذا الجواب باطل منكر مكذوب .

الجواب الثانى

وأما الجواب الثانى ـ وهو القول بأنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك وهو مع هذا جائز ودين يثاب عليه فهو جواب باطل أيضاً ، لأن الأمر الذى يرغب عنه جميع الأنبياء والصالحين فى جميع العصور والأزمان والحالات لا يمكن أن يكون مرغوبا فيه عند الله ، ولا يمكن أن يكون ديناً لله ، بل الأمر الذى يدعه ويرغب عنه جميع الانبياء والصالحين المقتدين بهم التابعين لهم لامحالة من أن يكون أمراً باطلا وضلالا وشراً ، ليس من الدين ولا من العقل ولا من الذوق ، ولا مما يتقرب به إلى الله . والمرء الذى يحاول أن يسبق هؤلاء جميعاً إلى الخيرات والصالحات والطاعات

وأن يعمل مالم يعملوه من ذلك مصاب فى عقله أو فى دينه أو فيهما معاً : إذلاخير يقرب إلى الله و يدنى إلى رضاه ، و يباعد من غضبه ومقته وطرده إلا وقد أخذ هؤلاء الأخيار منه بالنصيب الوافر والسهم الراجح الرابح . ولن تجد سابقا إلى الخيرات إلا أن يكون على آثارهم وعلى هديهم ومنهاجهم يسير و يسعى . ونحن لانرتاب فى أن كل عمل يتركه هؤلاء الصفوة هو عمل باطل منكر مقص عن الله وعن رضاه . ولانشك أنه لايمكن أن يكون خيراً فيفوتهم ولا صالحاً فيهجروه ، وغاية الصلاح عندنا والتقوى الاقتداء بهم فعلا و تركا ،قولا وعملا ،وغاية الظلم والجهل والخروج على دين الله الجرأة على مخالفة إجماعهم والتقدم بين أيديهم إلى الامام أو التخلف عنهم إلى الوراء . هذه حقائق لاينازعها المسلمون . فالجواب الثانى أيضا باطل منكر . فالجوابان : الأول والثانى باطلان . فعدم ذكر القرآن لشئ من ذلك عنهم دليل ، إذن ، ظاهر على أنهم لم يفعلوه قط ، وعدم فعلهم له ، إذن ، دليل ظاهر على أنه ليس من دين الله ولا من الذوق ولا من العقل والعلم . فهذادليل سلبى ظاهر قاهر بعد الدليل الايجابى من الكتاب على بطلان دعاء الأموات ، والاستغاثة بهم وسؤالهم والاستشفاع بهم . فللقرآن دلالتان على بطلان ذلك دلالة إيجابية ، ودلالة سابية ، فالدلالة الايجابية هى الآيات الآنفة فى النهى والزجر البالغ عن دعاء المخلوقين وسؤال غير الله حاجة من الحاجات ، والدلالة السلبية هى أن القرآن لم يرشد إلى ذلك ألبتة ، وهى أيضاً أن الأنبياء والصالحين الذين أنبأ الله أنباءهم ، وحدث أحاديثهم ، وحكى دعواتهم ، لم يفعلوه فى حالة من الحالات ،ولا فى رغبة من الرغبات ،لأ ننا لانشك أن هذا لوكان ديناً لأمر به القرآن ولفعله الأنبياء والصالحون الاولون .فعدم أمر الكتاب به،وهو الآمر بكل خير ، وعدم فعل الخيار الماضين له ،وهم قد فعلوا أطراف الخيرات وأشتات الصالحات ، برهانان على أنه ليس من الدين ولا من الطاعة والاسلام ، ولاىما

دلالتا القرآن على بطلان دعوة الموتى

يقرب إلى الله . فالقرآن دال على بطلان هذه المخازى ، دال على تجافيها عن الحق والدين من ناحيتين . كلتاهما ظاهرة باهرة ، وكلتاهما قوية جليـة . والله العليم بكل شئ .

اعتراض على ذلك

﴿ اعتراض على نهى القرآن عن دعاء غير الله ﴾

فان قيل إن آيات الكتاب التى ذكرتموها تدل حقا دلالة ظاهرة على النهى عن دعاء المخلوقين ، وعلى الزجر الشديد عن سؤال غير الله ، وهذا مالا يستطيع أن ينازع فيه إنسان منصف ، غير أن الأخـذ بهذه الظواهر باطل فاسـد عندنا عندكم وعند جميع الناس ، فالذين يدعون الأموات ويجيزون دعاءهم لا يأخذون بهـذه الظواهر والذين يقولون ببطلان ذلك وحرمته وجرم فاعليـه لا يأخذون بها أيضا ، فالفريقان ، المجيز والمـانع ، لا يلتزمان هـذه الآيات ، ولا يحافظان على العمل بها ، بل كلاهما مخالف لهـا ، خارج عليها ، عامل بخلافها ، داع إلى مخالفتها ، قائل بهذه المخالفة ، ملتزم لها . ذلك أن الناس جميعا يدعون غير الله من الأحياء القادرين على الاجابة ، ويجيزون هذا الدعاء ، لا يختلفون فيه ، ولا يتنازعون فى أن الأديان كلها تجيزه وتتسع له نصوصها ومعانيها ، فالذين يقولون : لا تدعى الأموات ولا يصح دعاؤهم يقولون بجـواز دعاء الأحياء بل ويدعونهم والذين يقولون بجواز دعوة الأموات يقولون بجواز دعوة الاحياء أيضا . وهؤلاء وهؤلاء لا يرون أنهم بهذا الدعاء ، أعنى دعاء الأحياء ، خالفوا هذه الآيات التى ذكرتموها والتى جهرت بتحريم دعوة المخلوقين والزجر عن دعاء غير الله ، بل لا يفكرون أنهم ، إذ يدعون الأحياء ، يفعلون ما يمكن أن تكون تلك الآيات شبه دلائل على منعه و بطلانه . والفرق بين الفريقين : الفريق المجيز دعوة الموتى ، والفريق المـانع ، أن هؤلاء أجازوا دعوة المخـلوقين جميعا : الأحياء منهـم والأموات ، أما أولئك فأجازوا دعوة الاحياء دون الأموات ، ولكنهما متفقان

على دعوة المخلوق ودعوة غير الله ، متفقان على مخالفة ظواهر هذه الآيات الزواجر عن الالتفات إلى مخلوق ما لدعوته ولندائه .

نتيجة الاعتراض .

وحينئذ يقال : إن كانت الآيات المذكورة رداً على دعاة المخلوقين الموتى ومنعاً صريحاً من دعائهم ، فهى أيضاً رد على دعاة المخلوقين الأحياء ومنع صريح لدعائهم ، وإن لم تكن رداً على هؤلاء لم تكن ردا على أولئك ، وإن لم تكن إبطالا لهذا النوع من الدعاء فليست إبطالا لذاك النوع منه ، لأن هذا كله سواء بالنظر إلى ظاهر الآيات ودلالتها ، فانها لم تقل ادعوا الأحياء دون الأموات ، ولم تقل إن دعاء الموتى محرم عليكم دون دعاء الأحياء ، ولم تقل : لاتدعوا الاموات بل قالت : « فلاتدعوا مع الله أحداً » «والأحد» يشمل الحى والميت ، وكذلكم جميع الآيات التى أوردتموها لم تفرق بين الفريقين ، ولم تأب الالتفات إلى فريق دون فريق ، ولا إلى طائفة دون طائفة ، بل نهت عن الجميع وأمرت بالكف عن كل ماخلا الله ، وزجرت عن الافكار فى عبد من العباد ، آمرة بالانقطاع إلى الخلاق وحده وإخلاص الحياة والممات والصلاة والنسك وكل عبادة له لا شريك له ولا ند .

فالجميع إذن قد تركوا الآيات فى توحيد الله بالدعاء وخالفوا نصوصها ، والجميع قد ردوا العمل والأخذ بها ، فالعمل بظاهرها متروك عند جميع الناس لا تختص بذلك طائفة دون طائفة . وإذا كان ذلك كذلك لم يصح لكم أن تحتجوا علينا بما هو حجة عليكم وبما هو متروك الظاهر وبما لا يصح العمل به عند أحد من المسلمين .

إن قيل هذا قلنا هذا اعتراض مشهور قديم توارثه أنصار البدعة وتناقلوه بعبارات مختلفة ، ودوّنوه فى كتب مختلفة انتصروا فيها لدعوة الأموات والعكوف على القبور وقد يعرضونه بأساليب أخرى غير هذا الأسلوب كأن يقولوا

الاعتراض مثلا : لو كانت دعوة الموتى شركا وضلالا لكانت كذلك دعوة الأحياء ، لأن
أسلوب آخر الدعاء بالنظر إلى حقيقته إما أن يكون عبادة للمدعو ، وإما ألا يكون كذلك .

فان كان عبادة فالمدعو معبود سواء أكان حياً أم كان ميتاً ، وإن لم يكن عبادة فالمدعو غير معبود سواء أكان حياً أم ميتا ، واختلاف المدعو لا يغير حقيقة الدعاء ، لأن حقائق الأشياء ثابتة لاتحتاج فى ثبوتها إلى شئ غير كونها حقائق ولكن لا شك أن دعاء الحى ليس عبادة له وليس ممنوعا ، فدعاء الميت كذلك ليس عبادة كما ذكرنا .

جواب الاعتراض

ويجاب عن هذا الاعتراض بأمور كثيرة منها أن يقال : إن الآيات نفسها قدفرقت بين الفريقين : فريق الأحياء وفريق الأموات ، وفرقت بين دعائهما ، ولوحت إلى جواز هذا وامتناع ذاك ، وبطلان دعاء دون دعاء . وهذا مذكور مفهوم من كثير من الآيات التى نهت عن دعوة المخلوق ونعت على الداعين وأطنبت فى هجائهم وفى نعت غبائهم . وقد قال الله : « إنك لا تسمع الموتى » وقال : « وما أنت بمسمع من فى القبور » . وهذا تصريح بأن الذين لا يسمعون دعاء من دعاهم هم الموتى الذين هم فى القبور . وقد أفهم هذا أن غيرهم من الأحياء ليسوا كذلك . وقال تعالى : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا » وقال : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم » وقال : « ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك » الآية . . وواضح من هذه الآيات أنها لا تشمل الأحياء الذين يقدرون على ما يسألون ، والذين ينفعون ويضرون بمقدار طاقاتهم وقواهم التى أعطاهم الله إياها ، ليعملوا ولينفعوا من يستحق النفع ، وليضروا من يليق به الضر ، وليتعاونوا على الخير والبر والتقى . فان الاحياء ، بالاتفاق بيننا وبين هؤلاء المخالفين ، يضرون وينفعون باذن الله ، فلا يمكن أن يكون دعاؤهم من هذا الدعاء المنهى عنه المنبأ بأنه لا يجدى شيئاً . وقال : « ومن أضل

تفريق بين الاحياء والأموات

ممن يدعو من دون من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون « و إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وقال « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا مااستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم »

النهي عن دعاء الأموات دون الأحياء

هذه نصوص صريحة فى أن النهى عن دعاء الأموات الذين لا يسمعون الدعاء ، والذين لا يستجيبون لمن دعاهم وهتف بنجواهم ، والذين هم غافلون عن استجداهم والذين هم فى موت عميق وعجز تام . وليس بممكن أن يعنى بها الاحياء القادرون عادة ، ولا أن يعنى بها إبطال دعائهم . وذلك لأن هذه الأوصاف فى الآيات لا تتناولهم لأنهم يسمعون و يجيبون من دعاهم ، ولأنهم قد يعينون من استعانهم و يهبون مستوهبهم . فالنهى فى القرآن منطلق إلى دعاء الأموات دون الأحياء ، و إلى سؤال العاجزين دون سؤال القادرين . وقال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » الآيات . ومعلوم أن الذين لا يستجيبون لمن دعاهم والذين يصح أن يتحدى بعجزهم عن الاجابة هم الأموات دون الأحياء إذ الأحياء يستطيعون أن يجيبوا دعاتهم بالمشاهدة والبداهة ، فلا يصح أن يقال فى النهى عن دعوة الأحياء و فى تعجيز من دعاهم وتضليله : « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » ولو قيل لهم ذلك لدعوهم ، لابطال هذه الدعوى ، ولأجابوهم ، بلا ريب ، بما أعطاهم الله من القدرة والقوة . . . فالأوصاف التى ذكرها القرآن لمن نهى عن دعائهم لا تصدق على الأحياء البتة . و إنما تصدق على الأموات . فان الذى ذكر من أوصاف هؤلاء المدعوين الذين نهى عن دعوتهم هو أنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يسمعون ولو سمعوا لا يستجيبون ، لأنهم فى غفلة تامة وانقطاع تام . وهذه الصفات هى صفات الموتى . وقد جعل الله فى كتابه هذه الأمور هى الحجة والبرهان على بطلان دعاء أصحابها و بطلان الانقطاع إليهم والرغبة فيهم . وقد دل على

هـذا كثير من الآيات المتقدمة . ومعنى ذلك أن هؤلاء المدعوين لو لم يتصفوا بهذه الصفات العاجزة لصح دعاؤهم ، ولما كان منكراً ممنوعاً ، ولما كان دعاتهم جاهلين ضالين .

فالقرآن نفسه صريح فى التفريق بين الفريقين : الأحياء والأموات ، والقرآن نفسه لم يدل على النهى عن دعاء من يقدرون على الاجابة والعمل والنفع والافادة من أهل الحياة والقدرة والاستطاعة المعتادة ، ولم يدل إلا على النهى عن الانقطاع إلى من فى القبور والنهى عن دعوتهم ورجائهم وتأميلهم ، لأنهم مرتهنون بأحكام الموت ، مقطوعة الصلات والأسباب بينهم وبين أهل الحياة من أهل الدنيا . فالقول بأن القرآن قد دل على النهى عن دعاء الأحياء والأموات معاً قول باطل، والزعم أن القرآن لم يفرق بين دعاء الفريقين فى نهيه زعم كاذب باطل أيضاً .

جواب آخر عن الاعتراض

ومن الأجوبة عن هذا الاعتراض أيضاً أن يقال : لايصح أن تكون هذه الآيات الناهية عن دعاء المخلوقين شاملة الأحياء يقيناً .وذلك أن هذه الآيات حينما كانت تتنزل على عبد الله ورسوله محمد ﷺ كان يتنزل عليه أمثال قوله تعالى فى دعاء الحى والاستغاثة به واستنصاره : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » « فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه » « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا » « قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم » « وإذ استسقى موسى لقومه — إلى قوله — وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض — إلى قوله — اهبطوا مصراً فان لكم ما سألتم» ومن هذا الباب تلك الآية التى استدل بها من لم يوهب الفرقان بين الحق والباطل على جواز دعوة الموتى والاستغاثة بهم ، والآية هى ماقصه الله عن تلك

المرءة الصالحة من قولها لنبي الله موسى عليه الصلاة والسلام: « إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » . وقد استدل هذا المستدل أيضاً بقول الرسول عليه الصلاة والسلام في كتابه إلى هرقل عظيم الروم : « أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام » قائلا : هذا الرسول يدعو ملك الروم وهو رجل كافر بالله فكيف لا يجوز دعاء الانبياء والصالحين . . وهذا الاستدلال من هذا المستدل قائم على أنه لا فرق بين الاحياء والاموات . فكان هذا الاحتجاج من فضائح الغلاة في القبور، ونعوذ بالله . وأمثال قوله تعالى : « وأما السائل فلا تنهر » وقوله « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وقوله : « وإذا سألك عبادي عني فاني قريب » — إلى غير ذلك مما لا يحاط بعدده. فقد كان هذا يتنزل على رسول الله وعلى المسلمين حينما كان يتنزل عليهم ذاك ، أي كان القرآن ينهى عن دعاء الخلق بتلك الآيات التي أوردنا بعضها ، ويجيز دعوة الاحياء بتلك الآيات التي ذكرنا قسما منها ، فكان، ولا بد ، لكل من النوعين مورد خاص به ، وكان لكل من الآيات : الناهية عن دعاء الخلق ، والمجيزة دعوة الاحياء منهم القادرين على الاجابة مذهب . ولا يصح أن تكون الآيات الناهية تعني ماتعنيه الآيات المجيزة المبيحة ، ولا أن تريد الآيات المجيزة المبيحة ما تريده الآيات الناهية الحاظرة ، ولا يصح أن يدعى أن بينهما تعارضاً واختلافاً ، لا في الظاهر ولا في الباطن ، بل يجب أن يقال إن لكل منهما تأويلا خاصاً به صحيحاً لا ريب فيه . وقد نظرنا فوجدنا الآيات المجيزة دعوة الاحياء القادرين آيات صريحة ظاهرة بينة المقصد والدلالة ، لا يصح أن يختلف ولا أن يشك فيها ولا في تأويلها ، فكانت دعوة الأحياء القادرين جائزة بنصوص القرآن وآياته الصريحة وباجماع الناس ، خلا مايستثنى من ذلك ، فكان هذا مفروغاً منه ومن الاحتجاج فيه وله وعليه . ثم نظرنا ثانياً في الآيات الناهية عن دعاء الخلق

نهي القرآن عن هذا حينما كان يجيز ذلك

إطلاقا و إجمالا ـ وقد علمنا أن الخلق إما أحياء وإما أموات ، لا ثالث لهما ـ فقلنا : إن هـذه الآيات الناهية لا يمكن أن تعنى النهى عن دعوة الاحياء لأن القرآن قـد أجاز دعوتهـم وأمر بها أحياناً . فعلمنا أنه لا يمكن أن يكون فى هذه الآيات نهى عن دعـوة أحـد فريقى الخلق ، وهو الفريق الحى الموجود بيننا وتحت أعيننا ، فـلم يبق إلا الفريق الآخر ، وهو فريق الاموات . فعلمنا علما لا شك فيه أن تلك الآيات نهى صريح واضح عن دعاء الأموات وعن سؤالهم والاتصال بهم هـذا النحو من الاتصال . فكانت هذه الآيات نصوصاً صريحة فى تحريم دعوة الموتى دون الاحياء . فعلمنا من هذا كله أن الاعتراض المذكور لا محـل ولا قيمة له ، والحمد لله على ذلك .

ولا ريب أن المسلمين لم يكونوا يظنون أن الآيات الناهية عن دعاء الخلق إطلاقا و إجمالا ، يعنى بها النهى عن الاستعانة بالحى القادر على العون على البر والتقوى ، أو النهى عن سـؤاله ما أجاز الشرع سؤاله إياه من العلم والهـدى والشؤون الاخرى ، وهم يتلون ما أنزل الله فى هـذا من الإباحة والندب والأمر أحياناً كثيرة ، فلم يكونوا يشكون فى أن النهى عن دعوة الخلق ليس متناولا من أمر بدعائهم وسؤالهم والاستعانة بهم ، ولا متناولا من كانوا قادرين على نفع داعيهم وسائلهم إذا ما أخرج من ذلك ما حرم لأسـباب أخرى صحيحة ، ولم يكونوا يشكون فى أن النهى خاص بمن لم يبح دعاؤهم و بمن حرم الرجوع إليهم من الأموات العاجزين . فلا ريب أن من ادعى أن ظاهر القرآن النهى عن دعاء الأحياء إلى الخيرات والطاعات ، أو النهى عن الاستعانة بهم على البر والتقوى وسؤالهم ما فيه نفع بلا ضرر فقد غلط غلطاً فاحشاً ظاهراً .

جواب ثالث عن الاعتراض

ومن الأجوبة أيضاً عن الاعتراض المذكور أن يقال لا مانع من أن يقال إن الله سبحانه وتعالى قد أراد من عباده أن يكونوا خالصين له وحده لا شريك

نه فى شئ منهم ، لا فى دعائهم ولا فى أعمالهم ولا فى معانى قلوبهم وعقولهم وعقائدهم ، لا فى ظواهر ذلك ولا فى بواطنه ... فأراد منهم أن يدعوه وأن يسألوه وأن يخافوه ويرجوه وحده وأن يخصوه بكل معنى من معانيهم ومظهر من مظاهرهم وعمل من أعمالهم الظاهرة والباطنة . وذلك لأنه وحده هو الذى خلقهم : خلق أجسامهم وأرواحهم وقلوبهم وعقولهم وكل مايحتاجون إليه من شئ : خلق كل ذلك وحده ، فكان كل شئ منه تعالى ابتداء وبقاء ، وكان كل شئ راجعا آيبا إليه . وقد كان من العدل والعقل أن يكون الخالق وحده هو المعبود وحده ، وكان من العقل والعدل أن يكون هو المعبود وحده كما كان هو الخالق وحده ، لأنه إذا لم يكن له شريك فى الخلق والإيجاد لم يصح أن يكون له شريك فى العبادة والطاعة ، فهو كما خلق الخلق وحده يجب أن يعبده الخلق وحده . والنفوس كلها مفطورة على معرفة هذه الحقيقة ، والناس كلهم مجبولون عليها ، وماذادهم عنها إلا الغادرون ، وما خرج عنها وعليها إلا من خرج على فطرته وعن هداه الجبلى.

لا يعبد إلا الخالق

وقد أكثر القرآن الكريم من الإشارة إلى هذه الحقيقة الواضحة ومن التنبيه عليها ، وقد افتن فى ايقاظها وإيقاظ النفوس الغافلة عنها ، وجعلها من براهين التوحيد ودلائل الإخلاص الناطقة . . . وقد ذكر هذا فى مواضع من كتاب الله بأساليب مختلفة ظاهرة قال تعالى من سورة البقرة : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » وقال من سورة الأنعام : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » وقال من سورة الرعد : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل

تستوى الظلمات والنور ! أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار . . . » الآيات ، وقال من سورة المائدة: «قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم» وقد جاء معنى هذه الآيات فى آيات أخرى كثيرة . وقال من سورة يس: «ومالى لاأعبد الذى فطرنى و إليه ترجعون ! أأتخذ من دونه آلهة إن يردنى الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ! إنى إذن لفى ضلال مبين » وقال من سورة العنكبوت : « إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا . فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون » وقال من سورة الصافات فى محاجة نبى الله إبراهيم لقومه المشركين« قال أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وماتعملون » وقال من سورة النمل : « أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون (إلى قوله) قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ـ إلى غير ذلك من الآيات فى حجاج المشركين والاحتجاج عليهم بعجز من يعبدون دون الله عن النفع والضر والخلق والايجاد ، والاحتجاج لعبادة الله وحده بأنه هو الخالق الرازق الضار النافع المعطى المانع . . . وهذا الاحتجاج من أصح الاحتجاجات وأوضحها وأقطعها للنزاع والخلاف ، وأسرعها ولوجاً فى النفوس والعقول والقلوب . والنفوس كلها ، كما ذكرنا ، مفطورة على معرفة هذه الحقيقة وقبولها ، ولو لم ينزل الله فيها كتاباً ووحياً يتلى . وقد أمر الله عباده جميعاً بأن يسلموا و يستسلموا لله وحده ، وقدسمى دينه الحق «الاسلام» لذلك ، وهكذا سمى جميع الأديان السماوية السابقة كما قال : «إن الدين عند الله الاسلام» وأنبأ عن جميع عباده الصالحين بأنهم قد أسلموا واستسلموا له وقالوا : أسلمنا . والاسلام

الاسلام لله وحده ومعنى الاسلام والمسلم

يعطى ، باشتقاقه ومعناه ومادته وتصريفه ، معنى الخلوص والسلامة من شوائب الإشراك وأدرانه وأوضاره . فمعنى الاسلام لله الخلوص له وحده ، ومعنى المسلم الخالص له تعالى ، المنقطع إليه . وقد قال فى هذا المعنى : «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» فالحياة بما فيها من أعمال ومعان وأقوال ، وما فيها من عبادات وضراعات وهتافات وغير ذلك يجب أن تكون لله رب العالمين لا شريك له. فالدعاء يجب أن يكون له ، والرغبة يجب أن تكون فيه ، والخوف يجب أن يكون منه ، والعمل يجب أن يكون كله له ، والظاهر والباطن يجب أن يكونا له وحده لا شريك له وغير ذلك مما يقع فى حياة العبد ومماته : كل هذا يجب أن يكون لله بنص هذه الآية الكريمة ، لأن المراد هنا « بالمحيا » الحياة وكل ما يقع فيها من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، ولأن المراد من « الممات » الموت وكل ما يقع فيه من الحساب والثواب والعقاب والخشية والرغبة والرهبة وما مع ذلك من صروف وحتوف . والمخلوق له حالتان حياة وموت ، وحياته وموته لله وحده . فكله إذن لله لاشركة فيه لأحد معه لافى حياته ولا فى مماته. فكل مايقع فى حالتى المخلوق الحياة والموت لله لا شريك له . فدعاؤه ورجاؤه وعمله وقوله وسائر ما هنالك ، وجميع معانيه وعباداته لربه الذى خلقه كله لا شريك له ولا معين . وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يفتتح صلاته بقوله : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين .إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين . . . »

وهذا الدعاء الذى كان يقوله رسول الله عند قيامه للصلاة مركب من قول خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى حجاجه لقومه المشركين من سورة الأنعام: «إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وماأنا من المشركين»

ومن قول الله له فى هذه الآية التى ذكرناها من آخر سورة الأنعام . وقد جاء معنى هذه الآية فى آيات أخرى معلومة مثل قوله : « ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » ، وقوله : « ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل » وقوله «له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشئ » ، وقوله : « ففروا إلى الله » وأمثال قوله : « فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص » . وقوله : « قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين» وقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » . والدين معروف الاشتقاق والمادة والمعنى ، ومن معانيه الاسلام والاستسلام والخضوع . فهذه الآيات وأمثالها تطلب إلى الخلق كافة أن يكونوا خالصين لله رب العالمين ، لا يشركون معه غيره فى معنىً من معانيهم ، ولا فى عمل من أعمالهم ، ولا فى عبادة من عباداتهم ، الصورية والحقيقية ، كما لم يشرك معه غيره فى خلقهم وإيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه فى حياتهم ووجودهم وبقائهم مما فى السموات والأرضين ومما بينهما .

صرف القرآن عن جميع الخلق

وقد نوع الله فى قرآنه التزهيد فى الخلق جميعاً والترغيب والصرف عنهم بضروب الأساليب ومختلف العبارات ، فتارة يخبر بأن كل شئ فقير إليه وأنه هو الغنى الحميد . وأى محتاج عاقل يرغب بحاجاته وآماله عن الغنى الحميد إلى الفقير المحتاج ! وتارة يخبر بأن الخلق جميعاً أموات فانون هلكى فيقول : « كل من عليها فان » « كل شئ هالك إلا وجهه ».وأى عاقل يدع ربه الحى الذى لايموت مائلا إلى الهلكى وأبناء الهلكى ، طامعاً فى الموتى وأبناء الموتى والموت ! وتارة يخبر بأن كل مايدعى من دونه تعالى باطل فيقول : « ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل » .ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فى قول الشاعر :(ألا كل شئ ماخلا الله باطل) إنها أصدق كلمة قالها شاعر. ومن الذى يرغب عن الحق فى

الباطل إلا أن يكون مصاباً فى عقله وفطرته ! وتارة يخبر بأن أقرب الخلق إليه وأفضلهم وأكرمهم عليه لا يملكون لأنفسهم خيراً ولا شراً ولا نفعاً أو ضراً ولا يملكون شيئاً من ذلك لغيرهم فيقول لخاتم أنبيائه عليه الصلاة والسلام: « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله » « قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » وتارة يخبر بأن الخلق والامر له تعالى وحده فيقول : « ألا له الخلق والأمر » ويخبر بأن غيره ليس له شئ من ذلك فيقول « ليس لك من الأمر شئ » . وتارات يخبر بغير ذلك مما يراد به كله الحيلولة بين الخلق والخالق وتزهيد العبد فى العبد . وقد كان من أصدق الأسماء وأفضلها « عبد الله » ونحوه . وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » . وقد أجمع أهل الفقه والبصر بالدين على أنه لا يجوز التعبيد لغير الله تسميةً مثل عبد النبى وعبد الحسين وعبد على وعبد الجيلانى وعبد البدوى وأمثال ذلك . وهذا لأن المفروض على الخلق المطلوب منهم جميعا أن يكونوا عبيد الله وحده ، فلا يصرفوا لغيره تعالى معنى واحداً من معانى العبودية ، والعبودية ، مادة واشتقاقاً ، ترجع أصالة إلى الخضوع التام والانقياد الصادق وكل ما يمت إلى ذلك من قريب أو من بعيد . ومن أظهر معانى العبودية الخوف والرجاء والسؤال والدعاء والرغبة والرهبة وامتناع التعبيد لغير الله تسميةً ، لامتناع أن يكون شئ من هذه المعانى لمخلوق ما . فاذا قيل : عبد الله وقيل : إن الخلق جميعاً عبيد الله كان معنى ذلك أن كل شئ فيهم هو من حق الله وخالص ما يجب له عليهم . وليس معنى كونهم عبيد الله أن أجسامهم وخلقهم له تعالى دون معانيهم ودون عباداتهم وضراعاتهم وأدعيتهم ، بل هذا كله يجب له عليهم وحده لأنه قد خلقهم ورزقهم وحده . وما أوجد أجسامهم ولا أعطاهم العقول

كل مالى المخلوق يجب أن يكون للخالق

والقلوب والأسماع والابصار والآلات الجسمية الأخرى إلا لتقوم كلها وتبذل في خدمته وطاعته وعبادته ، ولتصرف لوجهه تعالى معانيها وما تقدر عليه من خدمة وعبودية واستسلام. ولهذا كان أعبد الناس لله وأقومهم بحقه وأصدقهم عبودية هم أقل الناس رجوعاً إلى الخلق ورغبة فيهم وأعظمهم انقطاعاً إليه تعالى وأكثرهم سؤالا ودعاءً له ورغبة فيه. وكان أقل الناس عبادة لله وأكذبهم وأبعدهم عنه تعالى هم أشد الناس رغبة في الخلق وسؤالا لهم وانقطاعاً إليهم ورجاءً لهم وخوفا منهم وتأميلا فيهم . وكان من نقص حظه من أحد الجانبين زاد حظه من الجانب الآخر . فمن زاد تعلقه بالخلق نقص تعلقه بالخالق ، ومن زاد حظه من التعلق بالله والرجوع إليه نقص حظه من الالتفات إلى الخلق والعبيد ، فزيادة الانسان في عبادة العبيد نقص في عبادته الله ولا بد، ونقصه من عبادة العبيد زيادة في عبادته الله ولا ريب . فزيادة الشرك نقص في الايمان ، ونقصان الشرك زيادة فيه . ولهذا السبب نفسه كان الأنبياء والمرسلون وأصحاب التقدم والسبق في الدين والتقوى هم أقل الناس سؤالا للناس ورغبة فيهم وانقطاعاً إليهم فكان محمد رسول الله وكبار صحابته أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وغيرهم أقل من سواهم سؤالا للناس والتفاتاً إليهم ، لأنهم كانوا أصدق الناس عبودية لله وأكثرهم معرفة لحقه وأقومهم به وأعظمهم التفاتاً إليه تعالى . وقد جاء في نعت الصحابة أن السوط كان يسقط من أيد أحدهم فلا يقول لأحد : ناولنيه ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أخذ عليهم العهد ألا يسألوا أحداً غير الله. وكان يقول للواحد منهم في وصاياه : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . وكان يحذر مسئلة الخلق ويذكر لمن سألهم أليم العذاب وشديد العقاب بعبارات أوصدت في وجوههم جميع الأبواب سوى باب الله ، وقطعت بهم كل

من كثر سؤاله الخلق قل دينه

سؤال الخلق حرام شرعاً

حسبب غير سبب الله . فكانت مسئلة الخلق لذلك حراماً ومنكرا لايجوز منها إلا مادفعت إليه الضرورة التي لاترحم ، والضرورات ، كما قالوا ، تبيح المحظورات .
وهذا لأن مسئلة الناس فيها عبودية لغير الله ، وفيها امتهان وهوان للسائل ، وفيها ، بعدُ ، عدوان على المسئول وعلى حقه ، وفيها رغبة عن الله ، وفيها رجوع إلى غير الأسباب المشروعة الفاضلة . هذا كله في مسئلة المخلوق الحي ، وأما مسئلة الميت فهي شر من ذلك ، لأنها أكثر جهلا وظلماً وعبودية لغير المعبود ولأنها أظهر امتهاناً وهواناً و إذلالا لنفس السائل ، وأعظم رجوعاً إلى غير الأسباب المشروعة الفاضلة . وهذه الأدواء والنقائص محرمة كلها في كل الاديان الصحيحة الالهية ، وقد جاءت الأديان كلها بثلاثة أمور لاتختلف فيها : بالدعوة إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، و بالتزحزح والنأى عن مواطن الامتهان والذلة لغير الله ، و بالدعوة إلى الأخذ بالأسباب المشروعة الفاضلة . . . فسؤال المخلوق الحي والميت هو في الأصل حرام وجريمة يأباها الله ويأباها شرعه كل الاباء ، لأنها تخالف حكمة الله و إرادته لأن يكون العبد عبد ربه وحده ولأن يكون عزيزاً بهذه العبودية ، ولأن يكون زاهداً في غير الأسباب الصحيحة التي جعلها الله وسائل إلى غايات عباده ، ولئلا يظلم أحد أحداً في مسألة ولا في غيرها من أنواع الظلم ، لأن المخلوق قائم أمره كله على الضعف والفقر والعوز ، فكانت إرادة النفع منه ، أصالة ، حراماً و إثماً لضعفه وفقره وعوزه ، ولأن المخلوق مطالب أبداً بأن يطلب ذلك عند ربه وحده ، ومطالب بأن يطلبه بالأسباب التي جعلها الله أسباباً إلى مآرب الخلق وحاجاتهم ، لأن الرجوع إلى الأسباب التي جعلها الله أسباباً ، امتثالاً لإرادته تعالى وشرعه وأمره ، هو رجوع في الحقيقة إلى الله عز شأنه ، طلب له . . أما من رجع إلى المخلوق الضعيف الفقير الحقير ، محاولا لديه قضاء حاجاته ومآربه ، فقد ظلم أولا نفسه بأن أذلها لغير

المظالم الاربعة

ربه وعبدها لمخلوق مثله ، وظلم ثانياً مخلوقا فقيراً محتاجاً مثل احتياجه ، لأنه استجداه وهو الفقير وطلب منه القوة وهو الضعيف العاجز ، وظلم ثالثاً حاجته لأنه طلبها بغير عدتها و بغير أسبابها التي اعتيد أن تدرك وتنال بها ، وظلم رابعاً الجيل الذي يعيش فيه لأنه قد ابتدع فيه بدعة نكراء لا تلبث أن تكون عادة له وحقيقة من حقائقه . فأفسد ببدعته عقول الجيل الذي يعيش فيه وعقائدهم وأنفسهم ، فكان بذلك من شر الظالمين الباغين . فكانت مسألة المخلوق هذه المفاسد وغيرها حراماً وجريمة ، وكان المفروض على الخلق جميعاً أن يرجعوا بآمالهم وحاجاتهم وشؤونهم كلها إلى الخالق وحده لا شريك له ، وكان المفروض الواجب عليهم جميعاً ألا يلتفتوا إلى مخلوق وألا يفكروا فيه وألا يعدوه في الحساب ،وكان المفروض عليهم كافة أن يكونوا عبيدالله وحده أجساماً وأرواحاً ومباني ومعاني . هذا هو ما يقضي به العقل والقلب والفطرة والشرائع كلها

الرجوع الى الاعتراض

أجل أقول لا مانع من أن يقال ذلك كله ويقال بعده إن الآيات المذكورة في النهي عن دعوة المخلوق وعن دعوة غير الله ، الآمرة بدعائه تعالى وحده آيات يراد بها الحيلولة بين العباد ودعوة العباد ، ويراد بها تحريم دعوة غير الله ونسيان ما سواه . فالآيات على ظاهرها تأبى على المؤمن أن يدعو غير ربه في حالة من الحالات ووقت من الأوقات . أما الانفكاك من الاعتراض المذكور وهو دعوة الحي وقول المعارضين : إن الآيات لو أخذت على ظاهرها لدلت على منع دعوة الأحياء ، ودعوتهم جائزة بالاتفاق والضرورة ، فيقال : إن دعوة الأحياء أخرجت من هذا المنع العام الشامل للضرورة والحاجة والبداهة . فانه لو لم تكن دعوتهم مباحة جائزة لما استطاع الناس عمارة هذا الكون ، ولما استطاعوا التعاون على تنظيم شؤون الحياة ولا أن يعيش بعضهم إلى جانب بعض ولما استطاعوا التعاون على الخير والبر والتقوى . وهذه أمور مطلوب التعاون

دعوة الاحياء ضرورة

عليها . فإباحة دعاء الأحياء ضرورة من الضرورات ، والضرورات ، كما قيل ، تحل المحظورات . ولولا هذه الضرورة لكانت دعوتهم حراماً باطلة على الأصل العام فى تحريم دعاء غير الله وإيجاب دعائه سبحانه وتعالى وحده. فدعاء الخلق ، كما ذكرنا ، حرام وجريمة ولكن دعوة الأحياء منهم لا يمكن الغناء والاستغناء عنها ولا الانفكاك منها . ولا يستطيع إنسان فى هذا العالم أن يعيش عيشة صحيحة معقولة لولم يبح له أن يدعو الأحياء وأن يناديهم وأن يطلب منهم وأن يخاطبهم وأن يفهم منهم وأن يفهموا هم منه وينادوه ويدعوه ويخاطبوه . فإن هذا العالم وهذه الحياة قائمان على التفاهم والتعاون والتخاطب . وبغير ذلك لاتقوم حياة ولايعمر عالم . فدعوة الأحياء من الخلق مباحة للضرورة إليها . أما الأموات فبالضرورة لاضرورة تلجئ إلى دعائهم وسؤالهم والالتفات إليهم . فبقيت دعوتهم فى المحرمات المحظورات . وبهذا يخلص من الاعتراض المذكور

أمثال ذلك

وليس فى هذا القول والتخريج شئ من الغرابة والخروج على الأصول أو الفروع ، فإن الناس مجمعون على أن حالة الضرورة تخالف غيرها من الحالات التى لا ضرورة فيها ولا إليها ، ومجمعون على أن الضرورات تحل لديها المحرمات ،أو نوع المحرمات ،كإحلال أكل الميتة ولحم الخنزير والدم المسفوح عند خوف الهلكة والموت إبقاء على الرمق والحياة، وكإحلال النطق بكلمة الكفر والشرك والضلال لمن أكره على ذلك والسيف فوق رأسه مشهور مصلت — إلى غير ذلك من الحالات . وقريب من هذا مسألة الناس ، فإنها محرمة البتة ولكنها تباح فى حالة الضرورة . وشبه هذا أنه مفروض على المؤمن ألا يخاف إلا ربه وألا يهاب إلا إياه ، ولكنه إذا وقع بين براثن السبع فخافه وهابه كان معذوراً . لأن الصبر على هذا وعنه فوق طاقته وقدرته . ونظيره أن المطلوب من المؤمنين ألا يهنوا وألا يحزنوا ، وقد جاءت نواهى القرآن عن ذلك كثيرة صريحة ولكن

من أصيب بمصيبة الصبر عليها والتماسك إزاءها فوق طاقته وفوق إنسانيته فاستكان لها وضعف وتضعضع لها بناء صبره وجلده ، فحزن وأسف فانهدم كان غير ملوم ولا معاقب ، رعيا للحالة التي هو فيها . وهذا كله واضح

جواب آخر من الاعتراض

ومن الأجوبة عن هذا الاعتراض أيضاً أن يقال إن جميع المكلفين عند ما تأتي عليهم تلك النواهي عن دعوة غير الله ، وتلك الأوامر بدعوته تعالى وحده لا شريك له لا يمكن أن يفهموا منها أنها تنصرف إلى تحريم دعوة الأحياء واستعانة الملك بجيشه وجنده و رعيته لدفع عدوان المعتدين وظلم الظالمين ، ولا إلى تحريم التعاون على الخير والبر والتقوى وعلى تمتد عوز المعوزين المحتاجين المنكوبين ، ولا إلى تحريم أمثال ذلك : هذا كله لا يمكن أن يمر لأحد منهم على بال ولا أن يهبط له على فهم . فاذا ما خاطبهم الله في قرآنه بهذه النواهي الصادعة لم يمكن أن يدخل فيها النهي عن هذا الذي لا يمكن أن يفهموه ولا أن يمر على أذهانهم ، ولم يمكن أن يكون النهي عنه مراداً بها ولا داخلا تحت معناها ، لا منطوقا ولا مفهوماً . وذلك أن القرآن — وكذلك كل كلام — إنما يراد به إفهام المخاطبين به وتعليم المكلفين . وقد رعي به لذلك أن تدرك المعاني التي سبقت إليهم تحت ألفاظه ، وهذا لا ريب فيه . وإذا كان ذلك كذلك كان أمثال قوله تعالى : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ونظائره في معنى أن يقال : وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً من الأموات ، لا من الأموات والأحياء لأنه قد عرف للمخاطبين أنه لا يمكن أن ينهوا عن دعوة الأحياء نهياً عاماً مطلقاً وعرفوا لذلك أن الخطاب بعيد عن الأحياء وأنه خاص بغيرهم ، فكان هذا التقييد المعلوم في النفس كأنه مذكور في اللفظ لأنه معلوم في النفس مفهوم من

كيف تفهم المسئلة

المعنى فهو في حكم المذكور ، وقد قيل : (وحذف ما يعلم جائز) . وهذا كما جاء تحريم المسئلة في أحاديث كثيرة مطلقاً لم يذكر فيها أن المحرم هي مسئلة الناس

دون مسئلة الله . وذلك مثل قوله ﷺ : « من يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله » وكقوله عليه السلام : « لا تزال المسئلة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم » وكقوله عليه السلام : « إن المسئلة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسئلة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة فحلت له المسئلة حتى يصيب قواماً من عيش ، ورجل أصابته فاقة فحلت له المسئلة حتى يصيب قواماً من عيش . فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها » والأحاديث الثلاثة في الصحيح . ولا شك أن المراد بذلك تحريم مسئلة الناس لا مسئلة الله فان مسألة الله مطلوبة كل وقت ، ومن لا يسأل الله يغضب عليه كما في الحديث . وكذلك النواهي القرآنية عن دعوة غير الله وعن دعوة المخلوق لا يمكن أن يراد بها النهي عن دعوة الحي القادر على العون والمغوثة ، وإنما يراد بها النهي عن دعاء الأموات خاصة . وهذا مفهوم لجميع المخاطبين ، لا يحتاجون في فهمه ومعرفته إلى أن يذكر في اللفظ بلا ريب ولا جدال .

جواب آخر عن الاعتراض

ومن الأجوبة أيضاً عن الاعتراض المذكور أن يقال : إن المشركين والعرب الذين أنزل الله عليهم وفيهم القرآن ابتداء وخوطبوا بهذه النواهي كانوا يدعون الملائكة والجان والأموات من الأنبياء والصالحين ويدعون صورهم وتماثيلهم ومخلفاتهم ، فجاءهم القرآن الكريم ناهياً عن دعوة غير الله آمراً بدعوته وحده ناعياً عليهم دعاء المخلوقين والانقطاع إلى العاجزين . فوجب أن يكون هذا متوجهاً إلى دعوة هؤلاء المدعوين المعبودين من الأنبياء والصالحين والملائكة والجان الذين كانت العرب تدعوهم وتناديهم في جاهليتها حين سرائها وحين ضرائها ، ولم يجز أن يفهم منها أنها نهي عن أن يدعو بعضهم بعضاً لما يجمل ويحسن . وذلك أنهم كانوا يرون النبي الكريم ومن معه من المسلمين — وهم يدعون إلى هذا التوحيد ، وهذا الانكفاف عن عبادة الخلق وعن دعائهم

وسؤالهم ـ يدعو بعضهم بعضاً ، وينصر بعضهم بعضاً ويسأل بعضهم بعضاً ، ولا يرون فى دعاء الحى القادر منعاً ولا شركا ولا ضلالا ولا شيئاً من الأشياء الباطلة المحرمة . فكان هذا دالا على أنه لا يراد النهى عن دعاء الأحياء ، وأنه لا يراد الا النهى عن دعاء من يدعون من الأنبياء والصالحين الأموات ومن الملائكة والجان خاصة .

ونظير هذا

ونظاير هذا أننا اليوم وقبل اليوم ننهى الناس عن دعاء غير الله وعن دعوة المخلوق وعن سؤاله واستجدائه ، ونقول : إنه يجب ألا يدعى أحد من الخلق معه . ومع هذا لا يمكن أن يفهم أحد ولا أن يقول : إننا ننهى عن دعاء الأحياء القادرين ، وننهى أن يدعو بعضهم بعضاً وعن أن يدعوا أبناءهم وإخوانهم وأهليهم إلى الخير والعون على البر والتقوى . . . بل كل المخاطبين يفهمون أن المراد بذلك النهى عن دعاء من يدعون من الأموات وسكان الاجداث والمقابر من المشايخ والصالحين . ولهذا فإنهم لا يوردون هذا الاعتراض لأنه لا يخطر على بال أحد منهم . ولهذا فان أقواماً يقبلون هذه الدعوة الصحيحة ويقبلون عليها ويقرون بها أعيناً ، فينكفون عن دعاء الاموات والمشايخ والصالحين وأصحاب القبور ويظلون على ما كانوا عليه من دعاء الاحياء والاستعانة والاستغاثة بهم . . . فيفرقون بين الحى والميت لأنهم يعلمون أنهم لا ينهون عن دعاء الأحياء نهياً عاما باتا . فهم حينما قيل لهم : لا تدعوا إلا الله ، ولا تدعوا مع الله أحداً فهموا أن النهى متوجه إلى الموتى وإلى دعوتهم خاصة دون دعوة الأحياء . فكذلك حينما قيل للعرب والمشركين فى كتاب الله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » وغير ذلك فهموا أنه لا يراد النهى عن دعاء الأحياء يقيناً لقرائن كثيرة عقلية ودينية وضرورية وحالية . فكان هذا كهذا ، وكان هذا الاعتراض ساقطاً لا اعتبار له ولا التفات إليه .

عود الى بقية براهين المسئلة

﴿بقية الحجج على منع دعاء الاموات﴾

هذا الذى ذكرناه كله هو البرهان الاول على بطلان دعاء الأموات وسؤالهم الحاجات ، وهنالك براهين أخرى كثيرة قوية ، عقلية ونقلية على بطلان ذلك.

منها أن هـذا المخالف وإخوانه الذين يزعمون أنه جائز سـؤال الموتى جميع الحاجات ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وشفاء المرضى ، ورجع الغائبين وإحياء الأموات ، معترفون لنا بأن الأموات الذين يدعونهـم هـذه الدعوات ويسألونهم تلك الحاجات ، لا يقدرون عـلى أن يفعلوا ذلك ولا أن يفعلوا شيئاً حقيقة ، وإنما يريدون منهم الشفاعة والوسيلة فقط ، ذاهبين إلى التأويل والمجاز فى القول والتعبير ، لأنهم معترفون — فى مايقولون — بأن ظواهر هذه الأسئلة والدعوات من الاموات كفر ظاهر وشرك جلى وباطل منكر ، لأن هذه المطالب لا يقدر عليها سوى الله وحده . وإنما المسيغ لذلك كله عندهم هو المجاز والتوسع فى القول . . . فهم إذا قيل لهم : هذا كفر وضلال وجهل ، لأن فيه سؤال المخلوق مالا يقدر عليه إلا الخالق قالوا : كلا ، لا كفر ولا ضلال ولا جهل ولا منكر ، ولا شئ من هذا القبيل ، لأن الـكلام ذو فنون واسعة كثيرة ومذاهب طويلة عريضة . ومن فنون الـكلام المجاز ، وفى المجاز بلاغة وقوة وجمال وحسن وذوق ، ومن مذاهبه الحذف والمبالغة والتوسع ووضع كلمة مكان كلمة وعبارة مكان أخرى ، وفى الحذف والمبالغة والتوسع روعة وبراعة وإيجاز وشحذ للأذهان ورياضة للأفهام والألباب . وقد جاء ذلك كله فى كلام الله وفى كلام رسله وأنبيائه ، وجاء فى كلام الأئمـة وكلام سائر القائلين والناطقين . فلا حجر على من ذهب هذا المذهب أو على من أخـذ ذلك المأخذ ، فلا حجر عـلى من قال فى دعائه وندائه : يارسـول الله اغفر لى ذنبى أو ياعلى اهد قلبى ، أو يافلان اشفنى من دائى وأسقامى ، ولا شئ على من استعان بالأموات وبالملائكة والصالحين ، لأن هذا كله ، إذا وجد ، مجاز فى القول وسعة

فى التعبير وذهاب مع فنون الـكلام وضروبه . وحقيقته هى طلب الوسيلة والوساطة والشفاعة . وهـذه أمور كلها صحيحة ، صحيح طلبها من الأموات ومن الأنبياء والصالحين الأحياء منهم والأموات ، وصحيح أيضاً طلبها من الملائكة ، والجان الصالحين . هذا مايقوله هؤلاء المعارضون ومايدفعون به عن دعوة الأموات وعن دعائهم وحينئذ.يقال لهؤلاء جميعاً : إذا كان إدخال المجاز جائزاً لديكم فى الأدعية وفى النداء وفى كل الأقوال المعبرة عن الاعتقاديات وعن الديانات ، فهل ترون أن هذا جائز بلا قيد ولا شرط فى هذه المسائل والمطالب والمباحث بحيث يجوز إدخال المجاز فى كل قول وفى كل دعاء ودعوى مادام صحيحاً جائزاً مقبولا فى قانون البلاغة وعلوم المجازات ؟ أم أنتم لاتدعون هذه الدعوى ولاتذهبون هذا المذهب فلا تطلقون جواز المجاز فى جميع أقوال العبادات ، ولاتطلقون جواز التأويل لـكل قائل ، ولـكل داع ومدع ، بل تذهبون إلى أن من ذلك ماهو ممنوع باطل ، وماهو ضلال وجهل ، وما هو كفر وشرك . . . إنه لافرار لـكم من اختيار أحد المذهبين وأيا اخترتم فقد خصمتم ، ولا ريب. فانـكم إذا اخترتم الرأى الأول وزعمتم أن المجاز جائز مطلقا بلا قيد ولا شرط فى كل كلام ومقال قيل لكم هذا باطل بالاجماع والضرورة . فانه لوكان صحيحاً حقا لما استطعنا أن نخطىء ولا أن نعارض من قال مثلا : عيسى هو ابن الله، أو قال محمد ﷺ هو خالق العالم ، أو قال على بن أبى طالب هو خالق محمد عليـه السـلام ونحو ذلك من الأقوال . وذلك أن هنالك مجازاً اسمه مجاز الحذف وقد مثل له بقول الله : « واسأل القرية » أى اسأل أهل القرية ـ فيراد بقول : عيسى هو ابن الله أنه ابن أمة الله ، و بقول : محمـد خالق العالم أنه حبيب خالق العالم أو رسوله أو صفيه ، و بقول : عـلى خالق محمـد أنه مختار خالق محمد . . . و بهذا التخريج والتأويل تصبح هذه الأقاويل من أقاويل المؤمنين الصحيحة المقبولة التى لا اعتراض عليها ولا نقـد فيها ، ولا لوم عـلى

بطلان التأويل لدعاة الأموات

قائليها كما زعم المخالف فى من قالوا : يارسول الله اغفر لنا ذنوبنا ، ويا على اهد قلوبنا وامثال ذلك . وأيضاً لو صح هـذا المـذهب لجاز أن يقول المسلم : إن الله ظالم ، وأنه يأكل و يشرب ، و إنه يموت وأمثاله ، على أن يكون المعنى : إن خلق الله ظالم ، وأن خلقه تعالى يأكل و يشرب . ولكان أيضاً من المقال الصحيح مقال الذى قال : ما فى الجبـة إلا الله ، ومقال القائل الآخر : سبحانى عز شأنى . و بالاجمال لو صح لجاز لكل قائل أن يقول مايشاء و يريد ؛ فان كل كلام فى الدنيا يستطاع أن يوجد له وجـه من وجوه التأويل ، وفن من فنون المجاز ، ونوع من أنواع التوسع فى ضروب ما يسمونه بلاغة . وهذا يقضى بألا يؤخـذ قائل بمقال ولا متكلم بكلام حتى ولو قال : إنى أريد بقولى ظاهره وما يبدو منه بلا تأويل ولا مجاز ولا شئ من هذا ، لأن قوله هذا نفسه يحتمل التأويل والمجاز والمبالغة الموجودة فى الكلام . وهذا غاية الضلال والخذلان .

وأما إن قلتم بالرأى الثانى ، أى قلتم : إنه ليس كل ما صح مجـازاً صح دينا بل من المجازات ما هو ضلالات ، ومنه ما الذهاب إليـه إثم كبير ، وذنب لا يجوز للمسلم اقتحامه قيل لكم إذن لعل هـذا المجاز الذى زعمتموه وأجريتموه فى كلام الداعين للأموات السائلين لهم صنوف الحاجات من هـذا المجاز الذى هو إثم وكفر بالله العظيم . و إذن لا يصح لكم أن تقولوا بجواز الاستغاثة بالأموات وجواز دعائهم حتى تقيموا الدليل الواضح المقبول عـلى أن ذلك ليس من المجاز الممنوع المحرم ولا من الباطل المنكر . وأنتم لا تستطيعون شـيئاً من ذلك فلا يقبل إذن ما زعمتم من المجاز ، و إذن فدعاء الأموات على كل حال باطل .

ومن الدلائل أيضاً

ومن الدلائل أيضاً عـلى بطلان دعوة الأموات ودعوة الملائكة والجان أن يقال : إن غاية ما يمكن أن يزعم فيهم أنهم أحياء عند ربهم فى الملأ الأعلى أو فى قبورهم مثلا أو فى مكان نجهله ولا نعلمه ولا يعلمه إلا الله . وعلى هذه الافتراضات

الثلاثة لا يمكن ولا يصح دعاؤهم لا عقلا ولا ديناً ، لأن حالتهـم حينئذن كحالة الأحياء الغائبين ، ودعوة الأحياء الغائبين لا تجوز بحـال . ومن دعا حيا غائباً عنه كان مصاباً فى عقله أو عقيدته أو فى عقله وعقيدته. ولو جاز دعاء الميت بحجة أنه حى عنـد الله أو حى فى قبره أو فى مكان آخر قصى مجهول لجاز لمن ضل فى الصحراء فعطش وجاع وخاف أن يطلب من شـيخه أو من أبيه أو من أخيه أو من صديقه وهو مقيم فى المصر أن يهديه وأن يسقيه وأن يطعمه و يشبعه وأن يعينه على أموره بحجة أنه موجود فى جوف المدينة ، والحى الموجود يدعى و يستغاث. ولا يختلف الناس فى أن من فعل ذلك كان ضالا جاهلا مذمما ، ولا يختلف أهل البصر بالاسلام والفقه فى الدين أن من استغاث بشيخه وهو عنه غائب غير حاضر ولا مشهود فقـد ضل ضلالا بعيـداً ، ولا يختلفون فى أن من الغواية والجهالة أن يدعو من فى المشرق من كان فى أقصى المغرب ـ دون أن يكون بينهما وسائل عادية تنقل الأصوات ، وتبلغ الاستغاثات . ولا ريب أن الاسـتغاثة بالأموات ليست أقل ضلالا وجهلا وفنداً من الاستغاثة بالحى الغائب ، إذ لا شك أن الحى الغائب الذى هو عـلى ظهر الأرض أقرب إلينا من الميت الذى هو فى بطنها . و إذا كان هؤلاء لا يجيز ون الاستغاثة بالحى الغائب فـكيف إذن يجيزونها بالميت وهو لا يقل عنـه بعداً وغيبة ؟ وقد نص القرآن الـكريم على أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، والاخبار عنهم بأنهم عند ربهم دليل على أنهم ليسوا عندنا ولا معنا ولا مع من يدعونهم و يستغيثونهم ، وكذلك جاء فى السنة الصحيحة أن أرواح الشهداء الصالحين تغدو وتروح هنالك. وهذا بالاجمال من الأمور المتواترة فى الاسلام والعلماء، و إن اختلفوا فى مستقر الأرواح بعد المماث ، فانهم لم يختلفوا فى أنها ليست فى الأبدان ولا القبور . على أنها لو كانت فى القبور لـكانت أيضاً عنا غائبة قصية غير حاضرة ولا قريبة . وقد دلت النصوص على أن الجنة مخلوقة

ودلت على أن فيها اليوم سكاناً . وما استجاز أحد من المسلمين ، ولا أحد من العقلاء غير المسلمين ، دعوة سكانها والاستغاثة بهم . وكذلك من عقائد المسلمين التي دل عليها الكتاب والسنة أن هنالك عالماً مستقلا قائماً بنفسه اسمه عالم الجان وأن من هـذا العالم المؤمنين والكافرين ، والصالحين والطالحين . ودل الدين على أنهم أقرب إلينا وأكثر اتصالا بنا وعلقة من الأموات ، وأنهـم أعظم سلطانا وشـأنا من الانسان حيا وميتا . وما أجاز أحـد من أهل العـلم دعوتهم ولا الاستغاثة بهم ، لا بمؤمنيهم ولا بكافريهم ، فكيف يجوز ذلك ، إذن ، بالموتى وهم أبعد عنا وأضعف منهم حينما كانوا أحياء . وكذلك ما أجاز أحد من المسلمين الاستغاثة بالملائكة ولا أجاز دعاءهم ، والملائكة ، بلا خلاف ، أقدر من الانسان وأقرب إلى الله وإلينا . . . إن بعض هذا الذى ذكرناه يدل عـلى بطلان دعوة الأموات والاستغاثة بهم ومحاولة خطابهم بالنحو المشهود المفعول اليوم .

ومن الدلائل أيضاً

ومن الدلائل أيضاً على بطلان دعاء الموتى أن هذا لم ينقل عن رسول الله لا برواية صحيحة ولا ضعيفة ، لا مجملة ولا صريحة مفصلة ، ولم يؤثر عن أحـد من السلف وخيار الأمة وساداتها . وقد حفظت السنة النبوية ودونت بمهارة وإتقان عظيمين ، وميز صحيحها من ضعيفها وثابتها من مكذوبها . وقد فعل فرسان الرواية وصيارفة الحديث كل ذلك ووضعوا كل شئ موضعه : الصحيح فى مكان الصحة والضعيف فى مكان الضعف والموضوع فى مكان الوضع . ووضعوا لكل نوع من ذلك كتبا خاصة جيدة بارعة أتقنها الاخلاص والعلم والدأب العجيب ، حتى لقد رووا الموضوعات المكذوبات ذاكرين حالهـا وقيمتها نصحاً للمسلمين وخـدمة للاسلام والعلم خيفة أن يُضل بشئ من ذلك ، وخيفة أن يقع فى أيدى الجاهلين به فيضلوا ويضلوا غيرهم . وقد حفظوا ــ نضر الله وجوههم ــ كلام النبوة فى كل فن من فنون العلوم ، وحدثوا فى كل ضرب من ضروب المعارف ، ورووا فى كل

باب من أبواب العلم مختلف الروايات وعجيب النقول . وقد قسموا ذلك أحسن التقسيم وفصلوه أجمل التفصيل . كل ذلك قد فعلوا ولكنك لو قرأت جميع مادونوا وألفوا وكتبوا فى القديم والحديث رجاء أن تظفر برواية واحدة - ولو ضعيفة مجملة - فيها أن الرسول عليه الصلاة والسلام علم أصحابه أن يدعوا الأموات وأن يسألوهم الحاجات وأن يهتفوا بهم - زاغبين راهبين - لأعياك الطلب . ولا تظن أن هذا راجع إلى تقصير الرسول عليه السلام فى البيان والبلاغ ، أو راجع إلى تقصير رجال الحديث فى التدوين : لاتظن شيئا من ذلك فان الرسول عليه الصلاة والسلام قد بلغ كل البلاغ وبين كل البيان ، ودل أمته على كل ما يقربها من الله ومن جنته ورضاه ، وحذرها كل ما يبعدها من ذلك . وهذا شئ مفروغ منه عند المسلمين لا يختلفون فى أن نبيهم قد بلغ البلاغ وبين البيان كله . وأما المحدثون فانهم أيضا لم يقصروا - نضر الله وجوههم - فى شئ من حفظ السنة وتدوينها ، بل لقد جدوا وبالغوا فى جدهم حتى نقلوا كل ما بلغ علمهم ، فنقلوا أزيز صدر الرسول عليه الصلاة والسلام خوفاً من ربه ، ونقلوا اهتزاز شعرات لحيته الشريفة حين القراءة ، ونقلوا ما عده الخصوم والجهلاء مقادح فيهم وفى الاسلام وفى النبى عليه الصلاة والسلام . فليس الأمر إذن أمر تقصير .

وقد رووا عنه عليه السلام ما كان يقوله عند زيارته المقابر وما كان يوصى به المسلمين ويعلمهم أن يقولوه حين زيارتهم . وقد رووا فى هذا الباب - كعادتهم - الصحيح والضعيف والمكذوب الموضوع . ولكنهم لم يرووا رواية واحدة فى دعوة الأموات والاستغاثة بهم لاصحيحة ولاضعيفة ، لاخفية الدلالة ولا واضحتها لأن الرسول الكريم لم يفعل ولم يقل شيئاً من ذلك ، بل هو ما بعث وأرسل إلا وكان من الحكمة فى بعثته وإرساله محاربة هذا ومناوأته بشدة وعنف حتى تطهر منه الأرض والقلوب والنفوس . وهاهى كتب الحديث قديمها وحديثها ،

صحاحها وضعافها ، لينظر فيها كلها جميع من شكوا فى صدق ما نقول . وإننا نتحدى المخالفين جميعاً .

لم يفعل ذلك الرسول ولا المسلمون

وكذلك لم يؤثر عن سلف الأمة الذين تلقوا الإسلام من فم النبوة وعملها مباشرة ومشافهة أنهم دعوا ميتا من الأموات فسألوه غفران الذنوب وهداية القلوب ، أو سألوه النصرة على الأعداء أو نحو ذلك من أنواع المطالب ومختلف المسائل التى يسألها هؤلاء الجاهلون اليوم المشايخ والصالحين من الميتين . وقد اختلف الصحابة — رضوان الله عليهم جميعاً — واشتد بهم الخلاف حتى اندفعوا إلى السيوف وطال بينهم الخلاف والقتال ، وكانوا فى أشد الحاجات إلى حسم ذلك الخلاف و وقف رحا تلك الحروب ، وقد احتاج الكثيرون منهم إلى العون والمعونة و إلى يد الله الناصرة المؤيدة . وكذلك وقع كثير من ذلك بين التابعين ومن بعدهم من المسلمين . ولكن أحداً من هؤلاء جميعاً مع ذلك كله لم يلجأ إلى قبر الرسول ولا قبر غيره من الصالحين والشهداء الأبرار يستجديه و يسأله المعونة والنصرة والغوث أو رفع الخلاف بين المسلمين أو وقف الحرب والقتال . وقد كان رسول الله منهم قريباً وكانوا هم أفطن إلى هذه المعانى من هؤلاء الجاهلين المتأخرين ، وكانوا أحرص منهم على الخير والثواب والدين وطاعة الله . وقد

لم يفعله على ولا آله

خولف على بن أبى طالب وقوتل وقهر وغلب على أمره : قاتله معاوية وعمرو بن العاص وخالفاه حتى أعياه أمرهما . وقد خالفه رضى الله عنه شيعته حتى أحرجوه وأكدوه واضطروه إلى أن يبعثها عليهم لعنات ملتهبة ، وشتائم صارت مضرب الأمثال فى الذيوع والانتشار والبلاغة والقوة وفى غليان الحقد وشدته — إذا صدقوا فى عزوهم نهج البلاغة إليه . وكذلك لاقى ولداه الحسن والحسين رضي الله عنهما حتى قتل أولهما مسموماً على زعم الشيعة ، وقتل ثانيهما بأسياف أعدائه مخذولا من شيعته . وقد كانوا رضوان الله عليهم فى غاية الحاجة إلى عون رسول الله و إلى

عون من مضى من أسلافهم . ولـكنهم لم يحاولوا الذهاب إلى قبر الرسول أو قبر غيره يطلبون العون و يرجون النصر ، بل أخذوا بالأسباب المشروعة التى يأخذ بها غيرهم و يأخذ بها جميع الناس ، ولجأوا إلى العدة التى يلجأ إليها كل مهاجم أو مدافع من حشد الرجال وحمل السلاح . . . أما الذهاب إلى الأجداث والقبور فما كان لهم على بال ولا حسبان . وكذلك قتل عثمان رضى الله عنه : قتله الأشرار محصوراً مظلوما فى داره وفى حرم الرسول وجوار قبره الشريف وقبور صحابتـه الأكرمين . فما ذهب إلى شئ من ذلك ولااستغاث بغير الله من الأموات ولا حيا ميتا : لارسول الله ولا أبا بكر ولا عمر ولا من دونهم . بل ذكروا أنه كان يطلب النصر والغوث من الأحياء فيبعث إلى على بن أبى طالب قائلا : (و إلا فأدركنى ولما أمزق) . أما من الأموات فلا . وكذلك لقى غير هؤلاء من الصحابة وغيرهم من سلف الأمة . وقد اتفقوا جميعا على الرغبة عن طلب العون والنصرة من الموتى وأجمعوا على الرغبة عنهم بلا شذوذ ولاخلاف أو اختلاف . ولاريب عندنا وعند جميع المنصفين أنه ما كان لديهم مانع يمنعهم من الرجوع إلى القبور وأصحاب القبور إلا علمهم بأن الرجوع إلى القبور باطل لا أصـل له فى دين الله ، و إلا علمهم بأن ذلك من أدران الوثنية وأوضار الشرك التى أنقذهم الله منها والتى حطموها بأسيافهم وإيمانهم. ومن المحاولات الفاشلة أن نطلب لهذا تعليلا ووجها غير علم القوم بأن هذه الأمور لاتجوز دينا ولا تجدى فاعلها شيئاً ، ولا ينال بها سوى غضب ربه ومقته ونقمته .

ومن الدلائل أيضا

ومن الدلائل أيضا عـلى بطلان دعاء الأموات أن يقال : لاخـلاف بين المسلمين ، الموافقين والمخالفين ، القائلين بجواز ذلك والقائلين بمنعه : لاخلاف بين هؤلاء جميعاً فى أن دعاء الأموات ليس واجباً من واجبات الدين ولا فرضاً من فروض الإسلام ، ولا خلاف بينهم فى أن من ترك ذلك فليس معرضا نفسه

للائمة ولا عقاب ولا مؤاخذة من المؤاخذات . ذلك أن غاية ما يقوله المجيزون لدعوة الاموات والاستغاثة بهم أن يزعموا أن ذلك أمر جائز مباح قد يستفيدون من فعله ولا يعاقبون على تركه . ولا يجرأ أحد منهم أن يدعى أنه واجب ولا أن تاركه معاقب آثم . وأما المانعون لهذا فالأمر عندهم واضح مفهوم لأنهم يقولون : إنه كفر والعياذ بالله ، أو ضلال كبير ومنكر عظيم : معرض فاعله نفسه لأعظم المؤاخذات وأشد العقوبات .

إذن فقد اتفق المسلمون على أن من لم يدع الأموات ناج راشد إذا ما قام بما فرض عليه من الواجبات والفرائض ، وجانب مانهى عنه من الآثام والمحرمات . وأما دعاة الاموات فقد اختلف فى نجاتهم ورشادهم وهداهم : فقوم يقولون : إنهم ناجون ـ كما يزعم المخالفون ـ وجماهير المسلمين وأهل البصر والمعرفة منهم يقولون : إنهم هالكون صائرون إلى غضب الله وعقابه . فمن لم يدع الأموات ناج بالإجماع ومن دعاهم ففى نجاته قولان : قيل إنه ناج وقيل إنه هالك معذب ، فطائفة تقول إنه ناج ، وطائفة تقول إنه غير ناج .

ترك ذلك من الاحتياط الواجب

وإذا كان ذلك كذلك فلا خلاف بين العقلاء أن المرء مأمور بالاحتياط لنفسه وبالأخذ بالأحزم الأحجى فى كل حالاته وشؤونه ، فى دينه ودنياه ، ولا خلاف أن من الاحتياط أن يدع مايشك فيه إلى مالاشك فيه ، وأن يترك مايريبه إلى مالا يريبه ، وأنه إذا كان أمامه طريقان أحدهما يقال إن فى سلوكه الهلكة والضلال ، وفى سلوك الآخر النجاة والرشاد يقيناً وجب عليه سلوك الطريق المأمون الذى لاشك فى أنه صائر بسالكه إلى الغاية المطلوبة المحمودة ، ووجب عليه اجتناب الطريق الأخرى التى ربما يكون فى سلوكها المكروه والعطب . ولو قدم لظمآن قدحان مملوءان ماءاً ، فحضر لديه قوم فأجمعوا على أن أحد القدحين لاشئ فيه سوى الماء وأيقن هو ذلك فى نفسه ، ثم اختلفوا فى القدح الآخر ، فزعم بعضهم أن

فيهِ سما ، وزعم الباقون أنه لاسم فيه . وكان لاماء لدى ذاك الظمآن غير ذينك القدحين — لوجب عليه شرعاً وعقلا أن يشرب من القدح الذى أجمع على أنه لاسم فيه والذى استيقن فى نفسه أنه كذلك لاشئ غير الماء فيه . ولو أنه قدم القدح الذى ذكر له فيه السم على الذى لاسم فيه يقيناً لكان مصاباً فى عقله . ولو أن ضالا تاه فى الصحراء فجاءه جماعة فزعموا له كلهم أن الاتجاه جهة معينة موصل إلى الوجه الذى يطلبه فاستيقن هو فى نفسه صحة ذلك ، ثم اختلفوا فى الاتجاه جهة أخرى ، فقال فريق منهم : إن هذه الجهة لا توصل إلا إلى الموت ، وقال فريق آخر : بل هى توصل أيضا إلى المكان الذى يقصده — لوجب عليه عقلا وشرعا أن يتجه الاتجاه الذى لا شك فى إيراده الغاية المقصودة المحمودة ، ووجب عليه هجران سائر الجهات والمذاهب إذا كان حقا يطلب نجاة نفسه ، وهكذا الأمر فى جميع أمثال ذلك . والسر فى هذا أن المطلوب من العاقل أن يتلمس النجاة لنفسه أين كانت وأين كان هو ، وأن يجانب الهلاك ومواقع الخطر ما استطاع ولا سيما فى ما يتعلق بالأمور الدينية التى فى الضلال فيها هلاك الأبد والتى فى الهداية فيها سعادة الأبد .

ولا شك حينئذن أن المفروض على العاقل الناصح لنفسه أن يدع هذا الأمر الذى قال جماهير المسلمين : إن فى فعله والذهاب إليه هلاك الأبد والشقاء المطلق وأن يأخذ بما أجمع المسلمون على أن الآخذ به لا لوم عليه ولا عتاب ولا عقاب . ولا شك أن من تدبر هذا يقظاً مخلصاً وجد أنه الحق ، ووجد أنه حتم على كل مسلم أن يجتنب دعوة غير الله من الأموات ، وأن يستغنى بدعوة الحى الذى لا يموت . ومن أهدى ممن استغنى بالخالق عن المخلوق ، وبالحق عن الباطل وبالذى لا يموت عن الميت ، وبالله عما سواه !

ومن الدلائل أيضا

ومن الدلائل أيضا على بطلان دعوة الأموات أن يقال : إن المخالفين

موافقون لنا على أن هؤلاء الذين يدعون الموتى من دون الله ويفزعون إليهم كلما حزبهم حازب، وطرق ناديهم طارق من الحدثان ـ لو اعتقدوا ظاهر كلامهم وظاهر ما يقولون، فاعتقدوا بأن للأموات تأثيراً ما في الكون وتصرفاً وفعلا وأثراً لكانوا كافرين بالله مشركين به، لأن دعوة الموتى مع اعتقاد التصريف لهم وفيهم كفر بالله وشرك. والمخالفون لنا ـ فيما زعموا ـ لم يخطئوا هؤلاء العاكفين على القبور ولم يضللوهم أو يكفروهم أو يزعموا أنهم عملوا عملا منكرا لأنهم يقولون: إنهم لو سئلوا لقالوا جميعاً: إننا لا نريد غير الوسيلة والشفاعة والوساطة، وأنهم لا يشكون أن الفاعل هو الله وحده لا شريك له. أما لو زعموا أن من يدعونهم من دون الله يتصرفون أو يفعلون أو يضرون وينفعون، لكانوا عندنا كفارا مشركين بالله. وقد قال أحد شيوخ الشيعة الامامية المعاصرين وهو الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه: «أصل الشيعة وأصولها»: «بل لا مؤثر في الوجود عندهم (يعني عند الامامية) إلا الله، فمن اعتقد أن شيئاً من الرزق أو الخلق أو الموت أو الحياة لغير الله فهو كافر مشرك خارج عن ربقة الاسلام».

تكفير الشيعة اعتقد التأ؛ لغير الله

فدفاع هؤلاء عن دعاة الأموات وعن دعوتهم قائم على الاستيقان بأن لا أحد من هؤلاء العاكفين على القبور يعتقد في من يدعوه بأنه يفعل أو يضر وينفع أو يؤثر. فاذا بطل هذا الزعم وذاك الاستيقان، وقام الدليل على خلافه وبطلانه وخطئه انهار هذا الدفاع. ونحن إذا سألنا هؤلاء المدافعين عن هؤلاء الداعين للأموات وقلنا لهم: من أين علمتم بأنهم لا يعتقدون في من يدعونهم التأثير والتصريف والضر والنفع، بل والخلق والرزق والإحياء والإماتة؟ ماكان جوابهم إلا أن قالوا: إنهم مسلمون، والمسلمون لا يمكن أن يعتقدوا هذه العقيدة ولا أن يروا هذا الرأي، والمسلمون يجب أن تؤول لهم جميع أقوالهم وأفعالهم التي ظاهرها الخطأ والضلال والزيغ بل والكفر والشرك، لأن احسان الظن بالمسلم مطلوب

من المسلم أبداً فى كل الأوقات وجميع الحالات ، ولا يجوز بحال إساءة الظن بالمسلمين .ومن اعتقد بأن هؤلاء الداعين للأموات من جهال المسلمين وعلمائهم يظنون بان الذين يدعونهم من دون الله يضرون و ينفعون ، أو يفعلون و يتصرفون ، فقد أساء الظن بالمسلمين أهل الشهادتين : شهادة التوحيد وشهادة النبوة الخاتمة ، ومن فعل ذلك فقد أساء وظلم نفسه وظلم أهل دينه وملته ، وخالف ما تقضى به أصول الاسلام وفروعه القاضية بإيجاب إحسان الظن بالمسلم فى جميع الحالات والأوقات .

هذا هو الدليل عندهم على أن دعاة الموتى سليمو الاعتقاد ، وعلى أنهم لا يرون لمن يدعونهم من أهل القبور تأثيراً ولا فعلا ولا تصريفاً ، ولا يرون لهم غير الشفاعة والوساطة والوسيلة والجاه . ولكن هذا الدليل ، كما يرى القارئ ، دليل سخيف باطل، وذلك أنه قائم على أن كل من تظاهر بالاسلام فقال الشهادتين وتسمى بأسماء المسلمين وتزيى بزيهم وولد بين آباء مسلمين ، فلن يكفر ولن يرتد أو يضل ، ولن يذهب إلى نوع من أنواع الشرك بالله ، ولن يعبد غير الله من الأحياء والأموات ، ولن يعبد الأحجار والأشجار والأصنام والاوثان . . .

وهذا كله باطل مكذوب كما تقدم فى أول هذا الجزء ، وكما تقدمت الدلائل الكثيرة الصحيحة المختلفة الدالة على أن طوائف من المسلمين سوف يعبدون الأصنام والأوثان ، وسوف يصيرون إلى ما صارت إليه الأمم الأولى المشركة بخالقها وربها من لا يضرها ولا ينفعها . وقد تقدم قوله ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » وغيره من الأخبار الصحيحة الثابتة . وشيوخ الشيعة وأئمتهم يصححون هذا الحديث و يروونه فى كتبهم و ينقلونه عن الأئمة المعصومين و يحتجون به على بعض ما ذهبوا إليه من الباطل والاثم والجهل : فيحتجون به على الرجعة وقد تقدم معناها عندهم وما يريدونه منها ، و يحتجون به على أن المسلمين قد

حرفوا القرآن بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وبالتغيير والتبديل كما فعل ذلك قبلهم اليهود والنصارى وغيرهم من الأمم بكتب الله المنزلة عليهم . وهم يعترفون فى ما كتبوا ويكتبون أن طوائف من الشيعة غير الامامية الاثنا عشرية قد غلوا فى على بن أبى طالب وفى الأئمة الآخرين حتى كفروا وصاروا من المشركين الهالكين . وقد ذكر كثيراً من هذا أبو الحسن بن النوبختى الشيعى الامامى فى كتاب « فرق الشيعة » . وذكر فرقا كثيرة من الفرق الشيعية القائلة بالأباطيل المكفرة ، وذكر أن فيهم من اعتقدوا أن الأئمة آلهة ، ومن اعتقدوا أن بعضهم إله دون بعض ، وأن فيهم من قالوا بالتناسخ والحلول ، وفيهم من أحلوا المحرمات وأنكروا البعث والجنة والنار ، وفيهم من كفروا غير هذه الكفرات . وهذا المصنف نفسه ، أعنى صاحب كتاب « كشف الارتياب » يسلم أن السبئية كفار ويسلم أن غيرهم من الفرق الغالية فى الأئمة كفار . وهؤلاء كلهم كانوا يتظاهرون بالاسلام ويدعونه ويتسمون بأسماء المسلمين . وما منعهم هذا كله من أن يكفروا ولا من أن يُكفَّروا لما أن كفروا .

اعترافهم بكفر طوائف من المدعين للاسلام.

وأقرب من هذا كله فى النقض على القوم وفى إفساد هذه الدعوى وهذه الحجة أنهم هم يذهبون إلى كفر جمهور أصحاب النبى وإلى كفر كبارهم ، مثل الخلفاء الراشدين الثلاثة ومثل عائشة وحفصة وأم حبيبة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير وابنه عبد الله ابن الزبير ومعاوية وغيرهم ، ويذهبون إلى إكفار جميع الخلفاء العباسيين والأمويين وغيرهم من ملوك أهل السنة وخلفائهم : فعندهم أن هؤلاء جميعاً كفار مرتدون مشركون . فكيف تكون إذن مقالة الشهادتين ودعوى الاسلام عندهم مانعة من الكفر والشرك وضمانا من الردة والضلال ؟ وهل يوجد فرق

ما الفرق بين هذا وهذا

بين هذه الحجة فى الدفاع عن عباد القبور ، و بين قول اليهود والنصارى : إنه لا يوجد يهودى واحد ولا نصرانى واحد كافر ولا مشرك ، لأن اليهود كانوا بلا خلاف ، مؤمنين بموسى إيمانا صحيحاً ومؤمنين بشريعته ، وكذلك كان النصارى مؤمنين بعيسى و بشريعته و بماجاء به من الأقوال والشرائع والنبوات فهم جميعاً كانوا مؤمنين ناجين فيجب أن يظلوا كذلك وأن يدعى أنهم كذلك أبداً و يجب أن تؤول لهم جميع أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم التى ظاهرها الخطأ والضلال والكفر والردة ، لأنهم كانوا فى الزمان الأول ، بلا خلاف مؤمنين ناجين ، والمؤمن يجب أن يحسن الظن به وألا يكفر ، ويجب أن يحمل جميع ما يصدر منه على الخير والبر والطاعة والايمان . وحينئذ فلا اليهود ولا النصار ولا غيرهم من أهل الملل السماوية كفار ولا ضالون ما داموا ينتسبون إلى شرائعهم و إلى أنبيائهم ، و يدعون لأنفسهم الايمان والاتباع والاهتداء بهدى الأنبياء . وهذه الحجة مثل حجة هؤلاء المنازعين المتكلفين سواء ، وهما حجتان باطلتان بلا ريب ولا شك .

اعتقاد دعاة الاموات فيهم التأثير ودلائل ذلك

ولا ريب عندنا وعند جميع المنصفين أن هؤلاء الدعاة للأموات العاكفين على الأجداث يعتقدون فى من يدعونهم التصريف والتأثير والاعطاء والمنع ، بل والخلق والرزق والإحياء والإماتة ، وسائر أفعال القادرين المتصرفين . ولولا اعتقادهم هذا فيهم وتمكنه من نفوسهم وعقائدهم وضمائرهم لما جاؤا إليهم راغبين راهبين ، ولماهتفوا بهم و بأسمائهم يتلمسون الغنى والشفاء وتفريج الكروب و إنالة المطلوب ودفع المرهوب . . . ولولا هذا الاعتقاد وتسلطه على نفوس القوم و رسوخه فى ضمائرهم و فى زواياها لوجدوا مندوحة عن هذه اللهفات والرغبات والرهبات والدعوات ، وعن هذا الانقطاع إلى القبور وأصحاب القبور . وقد جبلت النفوس كلها على الرغبة عن العاجز الضعيف الذى لا يستطيع أن يضر ولا ينفع ، والذى

لا يريش ولا يبرى ، كما جبلت على الرغبة فى القادر ، الضار النافع، أو من يعتقد فيه ذلك ، ولو كذبا وجهلا وضلالا وخداعاً. أما من تعلمه عاجزاً فقيراً فلن تباليه ولن تفكر فيه ، لا عند بأسائها وضرائها ولا عند سرائها . وهذه أمور لاخلاف فيها عند المنصفين العقلاء ، ولاينازع فيها إلا جاهل أو متعصب ، يدفع عن الباطل ويدفع الحق جهاراً .

وقد دلت أقوال القوم وأفعالهم عـلى اعتقادهم هذه العقيدة فى من يدعون ويسألون : فقد سموهم أهل التصريف ، وأهل المدد ، والأقطاب ، وسموا الواحد منهم بالمتولى ، والمتصرف ، وقطب الوجود ، وسموهم بأهل الشورى . وقد كتبوا كتباً سموها « تصرف الأولياء » وذكروا فيها نماذج كثيرة من هذه التصرفات ، وأثبتوا أقبح الروايات والحكايات . فيذكرون مثلا أن فلانا من الموتى أحيى دجاجة ، وأن فلانا الآخر سما إلى ملك الموت ، وهو بين السماء والأرض هارب صاعد بالأرواح التى قبضها ، فاختطفها منه قسرا وغلابا ، فرجعت إلى أبدانها لحيوا بعد الموت ، ورجع ملك الموت إلى ربه شاكيا كاسفا ويذكرون أن فلانا الثالث أوجد ما ليس موجوداً وأحضر ممنوعاً ، وأن فلانا الرابع كان من كراماته الاحياء والاماتة ، ومن كرامات فلان الخامس أن قاصد قبره لايخيب ، وأن قبر فلان السادس الترياق المجرب. ويذكرون أن بعض المشايخ المعظمين المشهورين قد خرج من قبره فرد عن البلد أعداء كانوا مغيرين غازين . وقد ذكروا أن المشايخ يخرجون من قبورهم ويلاقون المعتقدين فيهم ويرونهم ويرونهم ويقضون لهم الحاجات والطلبات ، وقد يشفونهم من الأمراض والعلل ويفرجون كروبهم ، وأنهم قد يقدمون لهم أشياء مفقودة ليست موجودة ولا معروفة عند الناس ــ إلى غير ذلك من هذه المزاعم المنكرة الباطلة . وهذا بحر لاساحل له . والشيعى المصنف قد ذكر فى غضون كتابه أشياء كثيرة من

تصرف الأولياء وإعطائهم من دعاهم وهرع إلى أجداثهم راغباً راهباً طامعاً

انواع الدلالات على ذلك

ثم ما لنا نتطلب الدلائل على هذه العقيدة الظاهرة الجاهرة وأنت لو أسمعت أحد هؤلاء العاكفين على القبور قولا يحسبه يغضب شيخه الذى يدعوه ويعبده من دون الله لأنذرك بأفعال الشيخ ولخوفك ما سوف يرميك به من الأرزاء والمصائب والصيالم والانتقام الهائل الفظيع ، ولأصبح هو يترقب لك الدمار والفناء وألوان الآفات والمصيبات المنزلة عليك من سماء شيخه الذى أغضبت وآذيت . ولو أن أحداً منهم أعرض عن عادة من عاداته التى قد عودها الشيخ الميت من صدقات ونذور وهدايا فأصابه الله بمصيبة جزاء عمله لأيقن أن تلك المصيبة من الشيخ ومن جزائه وانتقامه الهائل لإعراضه عنه ونسيانه إياه . ولهذا فانهم يزعمون ويتحدثون أن الشيخ فلانا وغير فلان قد جاء فى صورة سبع أو جمل صائل أو غير ذلك من صنوف الحيوان ، فبطش وجرح وقتل وأخاف وضر ونفع وفعل ما فعل . وهم يروون عن البدوى والرفاعى والدسوقى وغيرهم أشياء كثيرة من هذا النوع . هذا كله معروف عند القوم ، مدون فى كتب مطبوعة مقروءة ، لاينكرها عند عشاقها إلا من كفر أوضل . وهذه أمور يطول القول فى تعدادها وإيرادها .

فهم ، لاشك ، يعتقدون أن الأموات يتصرفون ، ويضرون وينفعون ، بل ويحيون ويميتون ، ويفعلون جميع أفعال القادر الحكيم . ولهذا فان علماءهم الذين يؤلفون لهم الكتب ، يلمون فيها شعث الشبهات والترهات على جواز هذه المنكرات ، يذكرون أن قدرة الأموات وتصرفهم أعظم وأوسع من قدرة الأحياء ومن تصرفهم . ووجه هذه الدعوى لديهم أن روح الحى حبيسة سجينة فى قفص الجسم وقت الحياة . فهى ، لذلك ، ضعيفة مهينة عاجزة ، شأن السجين الحبيس . فلما أن انفلتت الروح من البدن ومن عوائقه وسجنه وحبسه صارت حرة طليقة قوية

في تصرفها وعملها وتنقلها ، فصارت قادرة غالبة ، لا يعوقها عائق ، ولا يمانعها ممانع . . . وقد ذكروا هذا غير ما مرة في ماألفوه وزوروه ، دفاعاً ونضالاً عن هذه الآفات الاعتقادية النكراء وعن هذا الموت الاعتقادي الفظيع .

لزوم هذا على مذهب الشيعة

فالأموات عندهم أقدر وأكثر تصرفاً وأعمالا من الأحياء بلا ريب. وهذا لازم واجب على مذهب طائفة هذا الرجل. وذلك أنهم يعتقدون ، مثل المعتزلة ، أن العبد خالق أفعاله موجد لها ، خالق لتصرفه موجد له . فالأحياء لديهم ، بلا شك ، خالقون متصرفون موجدون مؤثرون ، والأموات ، عندهم ، أقدر وأقوى من الأحياء أو مثلهم . فالأحياء والأموات خالقون متصرفون موجدون مؤثرون ضارون نافعون .وهم يردون على أهل السنة قولهم: إن اللهخالق كل شئ حتى أفعال العباد وأعمالهم . فلا شك إذن أنهم يرون من يدعونهم من المشايخ والأموات متصرفين قادرين على أن يعطوهم مايطلبونهم ومايسألونهم إياه ، وأن يدفعوا عنهم مايستدفعونهم إياه ، وأن ينفعوهم و يضروهم . فالشيعي الجاهل ـ بل والعالم ـ حينما يرفع يديه إلى ميت من الأموات قائلا : اشفني ، أوارزقني أو اهدني ، أو اغفر ذنبي ، يريد الاعطاء حقيقة لامجازا لأن العبد عندهم ، كما ذكرنا ، خالق أفعاله وأعماله حقيقة لامجازا والله لم يخلق من ذلك شيئاً . فالموتى لديهم مدعوون مستغاثون خالقون رازقون ضارون نافعون . فهم مدعو ون حقيقة ، كما أنهم ضارون نافعون معطون حقيقة أيضا . وليس الأمر كما يزعم هذا المصنف المخادع : أن من قال للميت : أعطني ،أو اشفني أو اهد قلبي ، أو نحو ذلك ، لايعني إلا أن يكون له شفيعاً و وسيلة وداعيا ، فان هذا المزعم لا يماشي مذهب القوم ولاحالتهم وأصول اعتقاداتهم .

إذا صح هذا

فاذا كان هذا كله صحيحاً ـ وهو صحيح بلا شك ـ فلا ريب أن دعاة الموتى ضلال هلكى على مازعمه المدافعون عنهم . وذلك أنهم ، كما تقدم ، زعموا أن

دعاة الأموات والصالحين لو اعتقدوا أن من يدعونهم يضرون وينفعون ، ويعطون حقيقة ما يسألون ، لكانوا كفاراً مشركين . وهذا الذى ذكرناه يكفى تدليلا على أنهم يعتقدون فيهم ولهم هذه العقيدة ، ويرون هذا الرأى وهذا لا مخرج لهم منه ولا مفر . على أننا نحن الذين يحق لنا ويجدر بنا أن نطالب المخالفين بالتدليل على أن العاكفين على القبور الداعين لأصحابها ، لا يعتقدون فيهم وفيها هذا الاعتقاد . وهم الملزمون بنصب البراهين على أنهم ليسوا كذلك . وهذا لأنه لا خلاف بين الناس أن الأقوال والالفاظ وضعت أصالة وأنفا لتدل على معانيها الحقيقية القريبة لفهم السامعين المخاطبين . ولا خلاف أن قول القائل : يافلان اشفنى ، أو أعطنى ، لايدل حقيقة وأصالة إلا على طلب الشفاء والاعطاء من ذلك المدعو المسؤول . فمن زعم أن مثل هذا مصروف معدول عن ظاهره وعما يفهم منه ابتداء وأصالة هو المطالب بالحجة والبرهان على صحة قوله وصدق دعواه ، لأنه قد ادعى دعوى لابرهان له بها ولا حجة عنده عليها ، فكان مرفوض الدعوى والقول ما لم يعززهما ويقدمهما بالبينات الواضحة . والدعاوى المجردة لا تقدم ولا تؤخر ولاتجدى شيئاً . أما زعمهم أن القائل لذلك مسلم والمسلم لايقول باطلا ولا يعتقد كفراً فما أبردها من دعوى ، وما أرخصه من زعم ، وما أهونه من برهان ! ! وقد تقدم بطلان هذه الحجة فى غضون هذا الكتاب مرات .

لماذا يقولون مالا يريدون ! !

ونحن لا ندرى لماذا يتفوه هؤلاء العاكفون على القبور بهذه الألفاظ والأقوال ، ويضرعون إلى الأموات هذه الضراعات ، ويطلبون منهم هذه الطلبات ، إذا كانوا حقيقة وصدقا لايرونهم قادرين على شىء مما يسألون ويطلبون ، وإذا كانوا يعلمون بأن الله وحده هو القادر على كل ذلك لا شريك له ولا نديد ؟ ؟ وهم إذا كانوا حقا ، لايطلبون غير الوسيلة والشفاعة والدعاء ، كما يدعى المحللون لهم

هذه المنكرات ، فإن في استطاعتهم أن يعدلوا عن هذا الذي لا يريدونه ولا يقصدونه إلى ما يعنون ويقصدون ، فبدل أن يقول القائل منهم : يا فلان اغفر لي ذنبي أو اهد قلبي ، أو اشفني من مرضي ، يقول : يا فلان ادع الله في ليشفيني وليهديني وليغفر لي ذنوبي ، أو يقول : يا الله أسألك الشفاء والهدى بجاه فلان ووسيلة فلان وبدعائه — على أن هذا أيضاً لا يجوز لدينا لما تقدم من الدلائل في فصل الشفاعة وما الذي يضطرهم عن الألفاظ التي تؤدي مرادهم وتفهم غايتهم بلا احتمال ولا إيهام ولا تضليل إلى الألفاظ التي لا تؤدي غرضهم ومرادهم وغايتهم — أو لا يفهم منها ذلك — إلا بتأويل وتكلف وتفسير بعيد إن قبله قوم رده أقوام ، وفيه بعد ذلك إيهام واشتباه واحتمال؟! إن من العبث والجهل والغباوة ، بل والمحال ، أن تذهب إلى البواب وتطلب إليه أن يعطيك ما تريد قائلا : يا فلان أعطني كذا أو كذا ، وأنت لا تريد من قولك هذا إلا أن يوصلك ويقربك إلى صاحب الدار الذي بيده العطاء والملك والتمليك وبيده ما تريد . ومن الجهل والمحال الباطل أن تقصد مخلوقاً بالغاً ما بلغ من التقوى والصلاح والاستقامة والقرب والزلفى من الله فتقول : يا فلان أعطني هذا القصر أو هذه الدار ، وهو لا يملك شروى نقير ، قاصدا بقولك هذا أن يدعو الله لك وأن يشفع لديه كي يعطيك مالا يملك بل ما يملك فلان وفلان . ومن المحال والجهل أن تقول لمريض لا يملك من أسباب الشفاء قليلا ولا كثيراً ولا من اسباب العلاج المعتاد شيئاً : يا فلان اشفني ، قاصدا بقولك هذا أن يدعو الله في شفائك ودوائك ، كما أنه من المحال والضلال أن تقول لأعمى : اقرأ لي هذا الكتاب أو الخطاب وأنت تعلم أنه أعمى ، مريداً بقولك هذا أن يرجو فلاناً أو فلاناً ليقرأ لك . فلا شك أن أحدا من العقلاء لا يفعل شيئاً من هذا أبداً ، ولو وجد من يفعله لعابه الناس ولا تهموه في عقله وتفكيره .

لا يسأل العاقل من لا يملك

فلا ريب أن هؤلاء الذين ينادون الأموات ويهتفون بهم وبأسمائهم طالبين

الشفاء والغنى والهدى والسلامةوالنجاة وغفر الذنوب ، وهداية القلوب ، يعتقدون اعتقاداً لا شك فيه بأن من يدعونهم قادرون على مايطلبون منهم ، مستطيعون له ، إما بتفويض الله إليهم ذلك ، على مذهب المفوضة من الشيعة ، و إمابطريق الغفلة عن التفكير فى هذا المعنى وحقيقته بأن يقف بهم التفكير فى هذه المسألة على أن الصالحين والمشايخ من الأموات قادرون على أن يعطوهم وأن يمنعوهم ، وأن يضروهم وينفعوهم ، ثم لا يفكرون بعد هذافى شئ من الأشياء ـ أعنى فى معنى هذه القدرة وفى سبيل حصولها لهم .

البرهان القاطع على ذلك

والبرهان القاطع على وجود هذا الاعتقاد فى نفوس القوم وعقائدهم أننا لا نجدهم يدعون الأحياء الصالحين هذه الدعوات ، ولا يضرعون لهم كل هذه الضراعات ، ولا يطلبونهم هذه الطلبات : فلم نجد منهم من يخاطب حيا كائناً ما كان قائلا : اغفر لى ذنبى أو اهد قلبى أو اشف مريضى أو رد غائبى أو اقهر خصمى أو انصرنى على أعدائى وأمثال هذه المطالب العالية التى لا يتوجه بها المؤمنون إلا إلى الله وحده وإلى إله السماء دون أهل الأرض جميعاً . فلماذا إذن فرقوا بين الأحياء والأموات فى هذه الدعوات والمطالب ؟ ولماذا فرقوا بينهم فى طلب الشفاعة والوسيلة والدعاء إذا كانوا لايعنون إلا هذا ؟ فان الأحياء يدعون ويشفعون بلاشك ، ولهم جاه عند الله وقرب لديه إذا كانوا صالحين أبراراً ولكننا وجدناهم يخصون الأموات دون الأحياء بهذه المطالب والدعوات والضراعات ، ووجدناهم يدعونهم كما يدعون الله ، ويسألونهم مايسألونه تعالى من جليل المطالب وعظيم الحاجات ، ثم لايلتفتون إلى الأحياء بشئ من ذلك بل ولا يعرفونهم حين رغباتهم فى هذه الآمال الكبرى ، وحين رهباتهم أمثالها من البأس والضراء . فلماذا هذا ؟ وما تأويله وسره ؟ .

المخالفون يزعمون أن المراد بذلك كله هو طلب الشفاعة والجاه والدعاء

لماذا لا يدعون الأحياء كالأموات

والوسيلة ، ولكن يقال لهم ، بحق : إذا كان هذا هو كل المراد والغاية فلماذا لا يقصدون الاحياء به ؟ أليس للأحياء جاه وشفاعة ووسيلة ودعاء ؟ أوليس الله يشفّع الحى الصالح ويقبل جاهه ودعاءه ، كما يشفع الميت ويقبل جاهه ودعاءه ؟ أوليس الحى الصالح التقى قريباً من ربه عزيزاً عليه محباً له كالميت الصالح ؟ إنهم إذا وجهت إليهم هذه الاسئلة والاشكالات لم يجدوا لها حلا ولا جواباً صحيحاً مقبولا ولا مخرجاً أو مهربا منها ما داموا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون . وليس لها فى الحق والواقع من جواب وحل سوى أن يقال : إنهم فرقوا بين الأحياء والأموات فى المطالب والمدعوات لأنهم قد فرقوا بينهم فى الاعتقاد والتعظيم وتوهم السلطة والسلطان : فالأموات عندهم قادرون متصرفون ضارون نافعون بشكل ومقدار لم يكونا للأحياء قط ولن يكونا لهم أبداً ، والأموات عندهم يقدرون على الخوارق وعلى المعجزات وعلى الهداية وغفران الذنوب وإرشادالقلوب ، وعلى إعطاءمن يرون إعطاءه وحرمانمن يريدون حرمانه وهم متصرفون كثير والتصرف عاملون كثير والعمل ، لا يمنعهم من العمل مانع ، ولا يعجزهم عن التصرف معجز ، ولا يحول بينهم وبين مايريدون حائل ، لأنهم أموات ، والأموات أحرار طلقاء : طلقاء من كل قيد ، لأن الأرواح قويةجداً متصرفة جداً إذا كانت مطلقة من البدن ومن حبسه وسجنه . وأرواح الأموات مطلقة من كل ذلك: من أبدانها وأحباسها وسجونها : فهى متصرفة جداً قوية جداً فهى تُسأل كل مايخطر فى بال السائل ، وهى تعطى كل ما تسأل إذاشاءت وأرادت .

الدليل على أن الأموات أقدر من الأحياء عند الخصم

ولأنها أيضاً من عالم الغيب ، وعالم الغيب لاحد لسلطانه وقدرته وتصرفه وعمله . ولهذا كانت الملائكة والجان أقدر من الانس وأوسع سلطانا وسلطة . ولأن الأموات أصبحوا مجهولين،والمجهول عند الانسان أبداً محاط بالتعظيم وبأوصاف الجلال والاجلال ، وبالقدر الخارقة النادرة : فالأموات أصحاب قدر خارقة نادرة

وأصحاب تصرف مطلق ، وأصحاب أعمال وشؤون لاحد لها . . أما الأحياء فانهم ليسوا كذلك ، بل هم محدودو القدرة والتصرف والعمل ، ومحدودو المعنى والمبنى بالمشاهدة والحس والضرورة . فأين يذهب الغلو فيهم ، وماذا يزعمه فيهم ولهم الغالون الضالون الجاهلون ؟ ولهذا فانه لم يغل فى الأحياء إلا فى حالات شاذة نادرة قليلة . وكثيراً ما يكون الغالون المتغالون فى الأحياء كاذبين مرائين فى غلوهم وتغاليهم ، منافقين طالبين دنيا وجاهاً وخداعاً . . . وهذا يغلب على طلاب الدنيا والرئاسات والعلو فى الأرض واستعباد خلق الله المساكين ، إذ قد يرى الرئيس المغلو فيه والمرؤوس الغالى الداعى إلى الغلو أن مما يجذبان به الرئاسة والدنيا إليهما أن يدعى الرئيس لنفسه الأكاذيب والأباطيل : الألوهية تارة والنبوة تارة أخرى ، أو صفاتهما ، والزعامة الروحية الكاذبة الباطلة المنافقة ، ثم يحاول المرؤوس تصحيح تكذب الرئيس وتصحيح دعاواه المجرمة : فيحاول إقامة الشبهات والترهات عليها وخداع الجماهير البلهاء بها . . . وبهذا التعاون الأثيم بين الرئيس والمرؤوس يتم لهما ما يريدان و يطلبان من تصاوير الدنيا وصور الزعامات الفاسقة . ويكون كل منهما ، ولابد ، فى الواقع وفى نفسه محتقراً صاحبه ، ماقتاً له مزدريا به ، لأنه يعرفه ويعرف سريرته وماطويت عليه من نفاق وباطل وخداع وتضليل وسخف فاحش. وهذا يكون كثيراً بين رجال الطرق والتصوف والزعامات الروحية الدينية المدخولة ، وبين أصحاب الدعايات الشيطانية المضلة . ونعوذ بالله من هؤلاء جميعاً .

الحى لا يعبد إلا نادرا

وأيضا فالأحياء مشهود نقصهم وضعفهم واحتياجهم ، ومشهود مايعروهم من الآفات والمصائب ومن الأعراض والأمراض ، ومن الفقر والجوع وسائر أعراض العاجز المهين . وهذا كله يدافع الغلو ويأباه ، وهذا كله يرى الحقيقة المرة كما هى فى نفسها لا كما هى فى وهم الواهمين الضالين. وهذا هو الفرق بين الأحياء والأموات ،

الأحياء مشهود نقصهم

وهذا هو السبب فى عبادة أموات كانوا فى حياتهم ودنياهم لايجدون من يحنو عليهم ولايجدون من يجود لهم بما يحفظ عليهم أرماقهم من غوائل الجوع وعوادى الحمام.

ولو أنك نقبت عن تاريخ هؤلاء المشايخ المعبودين دون الله اليوم فى الأرض، هؤلاء الأموات الذين تمطر قبورهم اليوم على سادنيها الذهب والفضة وصنوف الهدايا والعطايا، وتمنحهم الإعزاز والإعظام وشديد التبجيل — لوجدت الكثيرين منهم كانوا فى حياتهم لايصيبون الكفاف من القوت، ولايجدون من يتحدث عنهم حديث خير، ولا من يتبرع عليهم بنظرة احترام وتوقير ولا بوجه باش ولقاء طيب. فأكثر هؤلاء المحظوظين فى موتهم — إن كان مثل هذا يسمى حظا — كانوا محدودين تعساء فى حياتهم، لايجدون من يعنى بهم ولا من يحترمهم ويعظمهم ويجلهم بعض الاجلال . . . انظر، انظر مثلا، هؤلاء الشيعة يطلبون اليوم جميع حاجاتهم وجميع مايرغبون فيه وما يحبون ويشتهون من آل البيت النبوى أمثال على بن أبى طالب والحسن والحسين وفاطمة وذرية هؤلاء الأئمة، ويخصونهم بكل أنواع التعظيم والاجلال والاكبار، ويصفونهم بأجل أوصاف القدرة والكمال حتى إنهم يزعمون لهم بأنهم كانوا يعلمون كل شئ ويحيطون بجميع الأسرار والحكم والعلوم، ويصفونهم أوصافا أحلت لهم أن يدعوا بأنهم أهل لأن يسألوا غفران الذنوب وهداية القلوب، وشفاء المرضى، ورجع الغائبين، ويسألوا أيضاً كل ما يجوز أن يسأل الله من عظيم الرغبات وأشتات الحاجات، وأن يدعوا أيضا بأنهم معصومون من كل خطأ: صغيره وكبيره، ومن كل ذنب: جليله ودقيقه، ومن كل نسيان: عظيمه وحقيره، ومن كل نقص وضعف، حتى ادعوا بأن من خالف أحداً منهم، أو من تقدم عليه، فهو هالك ذاهب إلى النار والعقاب. وحتى أصاروا قبورهم مثابة للرائحين والغادين وكعبة لجميع ذوى الحاجات والآمال: يقصدونها من أطراف البلاد، يحملون مالا

الذين يعبدون فى قبورهم كانوا لايعرفون فى حياتهم

يحاط بصفته من الأمل والرغبة والشوق والاحتياج ، حتى جعلوها مسفكاً للعبرات ومعتركاً للشكايات ، وملتقى للحاجات والطلبات . وحتى لقد نسى الله عندها فلم يسم إلى السماء طرف ، ولم يبسط إليها كف ، ولم يتعلق بها قلب — : هؤلاء الشيعة الذين ذهب بهم الغلو الباطل كل مذهب ورماهم التغالى فى هذا المكان السحيق، قد كانوا من أزهد الناس فى هؤلاء الأئمة يوم أن كانوا أحياء ، ومن أكثر الناس إعراضاً عنهم وجفاء لهم وخذلاناً ورداً لأوامرهم وإرادتهم حتى لقد عاهدوهم على الموت فقدموهم طعاماً للموت ، ودعوهم ووعدوهم النصرة والتأييد فقدموهم للخذلان وقذفوا بهم إلى الحتوف وفروا عنهم هاربين ، بل وانضموا لأعدائهم وخصومهم حينما قعقع السلاح وجد الجد . . . حتى تمكن منهم أعداؤهم فأذلوهم وشردوهم وقتلوهم فلم يبالوهم ، حتى لقد بعثها الامام على وغيره من ولده عليهم لعنات ضمنوها كتابهم « نهج البلاغة » وغيره من كتبهم — : هؤلاء الشيعة — وهذا ولاؤهم ووفاؤهم ونصرهم لآل البيت ومقدار غيرتهم وحبهم لهم — يطلبون اليوم النصرة من على ومن الحسن والحسين وغيرهم ، وقد كان هؤلاء يوم أن كانوا أحياء بين أظهرهم محتاجين إلى نصرتهم ومعونتهم ، فبخلوا عليهم بها فلم يعينوهم ولم ينصروهم ! ! هؤلاء الشيعة يطلبون اليوم من الحسن والحسين ومن على ما كان على والحسن والحسين يطلبون من أسلافهم وقدمائهم ! أفليس من العجيب أن يكون آل البيت محتاجين لنصرة هؤلاء الشيعة طالبين منهم المعونة والتأييد حينما كانوا أحياء ثم لما ماتوا صاروا مطلوبين مدعوين للنصرة والتأييد ! فاعجب بهم مسؤولين أمواتا سائلين أحياء ! واعجب من قوم يسألون النصرة أمواتا كانوا يسألونها إياهم أحياء ! !

إننا لا نرتاب أن عليا والحسن وفاطمة وغيرهم لو كانوا اليوم أحياء بين أظهر هؤلاء الشيعة لما سألوهم ما يسألونهم إياه اليوم ، ولما حفلوا بهم احتفالهم !

بقبورهم ، ولما قصدوهم قصدهم لأجدائهم ، ولما عظموهم تعظيمهم لقبابهم ، ولما شكوا إليهم شكواهم إلى رفاتهم ، ولما عبثوا بهم ولا بعلومهم ولا بغير ذلك من أحوالهم وشؤونهم وفضائلهم ، ولضنوا عليهم بهذه الأموال الطائلة التى يجودون بها على قبورهم وعلى الزينات والمعلقات وسائر ما على مقاماتهم من مبتدعات وسخافات أباها الدين وأوعد فاعليها أليم العذاب والعقاب . ولو أن عليا نفسه كان حيا يجاهد فى سبيل الله الكفار والمشركين فطلب منهم هذه الأموال التى ينفقونها على قبره وقبور أولاده لينفقها فى سبيل الله وليعين بها المجاهدين فى سبيل الله ، المنتصرين لدينه وشريعته لبخلوا بالكثير منها ، أو بها كلها ، ولأحجم طوائف منهم عن بذلها . ولا شك أيضاً أن هذه حال أغلب هؤلاء العاكفين على القبور من الشيعة وغير الشيعة ، أعنى أنهم يجودون بأموالهم وعقولهم وقلوبهم وكراماتهم ودياناتهم على القبور وزيناتها ويبخلون بها على أصحاب هذه القبور نفسها لو كانوا أحياء يرونهم ويخاطبونهم ولو طلبوها منهم لبذلها فى سبيل الله وتعزيز دينه .

من الفروق الاحياء والاموات وهم الجاه

والفرق عندهم بين الأشياخ والأولياء أحياء وأمواتا أنهم فى الحياة يعلمون أنهم عاجزون فقراء محتاجون إليهم وإلى عونهم ونصرهم وتأييدهم . . . فيبخلون عليهم بأموالهم وأنفسهم لأنه لا طائل تحتهم ولا سر ولا غيب فيهم ، ولا قدرة نافذة غالبة ولا شئ من ذلك فى الحياة ، بل هم مثلهم محدود والقدرة والتصرف والعمل والفعل . فلا خير فى رجائهم والانقطاع إليهم . . . وأما بعد مماتهم فإنهم قد أصبحوا أغنياء عنهم وعن مالهم وعن صدقاتهم ونذورهم وهداياهم وأنفسهم وعن كل دنياهم ، لأنهم قد أعطوا الشئ الكثير من القوة والتصرف والسلطة والسلطان والغنى الواسع الدائم . . . فصاروا هم محتاجين إليهم وإلى عطاياهم وارفادهم ، فراحوا يسألونهم ذلك ، وراحوا يدعونهم فى السراء والضراء ، فى

المحضر والمغيب ، الليل والنهار ، وراحوا يجودون على قبورهم وأجداثهم بما بخلو به عليهم وعلى حياتهم ، وبما بخلوا به على الله وعلى دينه وسبيله . وذلك أنهم يعطونهم فى الممات ليأخذوا منهم أضعاف ما أعطوهم . ومن السهل اليسير على طبع الانسان الشحيح أن يعطى المخلوق شيئاً ليأخذ منه أضعاف ما أعطاه وأما من أعطى الأحياء الذين أمر الله باعطائهم فهو لا يرجو أن يأخذ إلا من الله وحده يوم الدين وأحيانا فى الدنيا . ولهذا يكع عن الانفاق فى هذه السبيل ويضن بماله عليها ، لأن الانسان الشحيح اللئيم قد طبع على استبعاد جزاء الله وثوابه وإن كان به مؤمناً مصدقا . فهم ما أعطوا الأموات أموالهم وأوقاتهم ولا جادوا عليهم بكراماتهم وأنفسهم إلا رجاء أن يأخذوا منهم هم جزاء ذلك لامن الله ، وليعطوهم هم لاليعطيهم الله ، وإلالو كانوا يريدون الله وجزاءه ورضاه وثوابه بهذا الذى يصنعونه لجادوا على الأحياء الصالحين وعلى المجاهدين فى سبيل الله ، ولجادوا على إسعاد الانسانية المعذبة الشقية ، وعلى إسعاد المسلمين الأشقياء التعساء ، فأنفقوا على بناية المدارس والمصحات وملاجئ الفقراء المعوزين وسائر هذه الوجوه الخيرية الطيبة .

ينفقون على القبور ويأبون الانفاق فى سبيل الله

لتقم ولتصح بملء شدقيك حيث يسمك الصياح والنداء فى أفواج هؤلاء العاكفين على القبور ، الباذلين لتشييدها وعمارتها حر أموالهم وغاليها بسخاء ورضا واندفاع : صح فيهم ما وسعك الصياح ، وقل لهم هذه فلسطين المنكوبة المجاهدة فى سبيل الله وسبيل الانسانية أعداء الله وأعداء الإنسانية والمدنية ـ أعنى الانجليز وحلفاءهم البغاة الطغاة الكذبة الغادرين ـ أوهذه سوريا المنكوبة أو هذا المغرب المنكوب ، أو هذا ماشئت من أوطان الاسلام المنكوبة المعذبة ـ أو قل لهم :هذه طوائف فقراء المسلمين من الأيتام والأرامل والعاجزين ضائعين فى الطرقات العامة ، منبوذين على الأرصفة وأفواه الشوارع عراة جياعاً ،تتخطفهم

عصى" الشرطة ولعنات حفظة الأمن والنظام : ــ هام لايجدون مأوى تؤويهم إليه
فحمة الليل و يسوقهم إليــه حر الصيف وقر الشتاء ، ولايصيبون خبزاً جافاً حافاً
ولايجدون غير اللعنات المرسلة على أعراضهم ، وغير السياط المنطلقة إلى أكتافهم
وظهورهم ــ أو قل لهم هــذا بلد كبير بلا مسجد و بلا مدرســة و بلا عالم يعــلمهم
الضرورى من الاسلام والدين ، أو هذا مسجد لاماء فيه ولا نظافة ولا جمال ــ
أو قل لهم غــير ذلك واذكر سوى ما ذكرت من وجوه النقص والضعف فى
المسلمين ، وانظر بعد ذلك هل يندى منهم كف ، أو يتألم لأحد منهم ضمير ، أو
تحصل منهم على طائل ؟ لا ريب أنك لن تجد لدى أكثر هؤلاء سوى تحريك
الشفاه عــلامة الامتعاض الرسمي الظاهر ، وهز الاكتاف هزاً آليا موروثا ، ثم
منح الأقفاء فى النهاية .

أما الأموات وقبورهم ومشاهــدهم فانهم ينفقون عليها و يبــذلون لعمارتها
أفضــل أموالهم وأطيبها لا يحتاجون إلى نصيحة ، ولا ناصح ، ولا إلى عظة أو
واعظ : لا يحتــاجون إلى شىء ، بل تراهم يتراكضون إلى ذلك مجرين جيــاد
الجود والكرم ، ولو وقف أهل العلم كافة فى وجوههم وسبلهم ينهونهــم عن هذا
ويذكرون لهم أن دين الله برئ ممــا يفعلون ، وأن الاسلام غنى عنهــم وعن
بدعهم . فما هذا ياصاح ؟ ما هو والله إلا الدليل القاطع عــلى أن قلوب القوم قد
طويت على تأليه الصالحين الأموات ، وعلى عبادة قبورهم وأجداثهم وعلى الغلو
المنكر الآثم . والله العليم بذوات صــدورهم و بمــا احتملت من ضلال وشرك
وخروج على الصراط المستقيم .

وليكن هذا آخر التدليل على بطلان دعوة الأموات . والمقام يتسع لأكثر
مما ذكرنا . ولــكننا أحياناً نوجز ونختار الاقلال على الاكثار .

﴿ تلخيص شبهات الرافضي على دعوة الأموات ﴾

إجمال شبهاتهم على جواز دعاء الأموات

أما شبهات الرافضي على جواز الاستغاثة بالموتى وجواز دعائهم فهي تتلخص في ما يأتي :

أولاً — : أن المسلم إذا استغاث الميت كأن قال مثلا : يا فلان اغفر ذنبي أو اهد قلبي وجب أن يقال إنه كلام صحيح حق ، وإنه مجاز عقلي ، لأننا مطالبون أبداً بأن نحمل أفعال المسلمين وأقوالهم على الصحة والصواب ما وجدنا إلى ذلك سبيلا . والمجاز العقلي جائز وارد في كلام العرب وفي كتاب الله وفي السنة النبوية كما في قولهم : بنى الأمير المدينة ، وأنبت الربيع البقل، وكما في قول الله « فارزقوهم منه » وقوله : «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله » ، وكقوله : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » ، وكما في قوله عن عبده ونبيه عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : « إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله » . . . على أن يكون حقيقة دعاء غير الله من الأموات وغيرهم طلبَ الشفاعة والدعاء . فيكون قول القائل : يارسول الله اغفر ذنبي ، وياجيلاني أو ياعلي بن طالب اهد قلبي مراداً به : كن شفيعاً لي عند الله في غفران ذنبي وهداية قلبي . وقد جاء مثل هذا المجاز وهذا الطلب عن أصحاب النبي عليه السلام . فجاء أن أحدهم قال يارسول الله أسألك مرافقتك في الجنة . وسؤاله المرافقة في الجنة مثل سؤاله غفران الذنب وهداية القلب .

ثانياً — : قد روى البيهقي وابن أبي شيبة عن مالك الدار خازن عمر بن الخطاب قال : أصاب الناس قحط في عهد عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبي فقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله في المنام

وقال ائت عمر واخبره أنهم مسقون .

ثالثاً ـ : قد نص القرآن الكريم على أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والأنبياء أولى بالحياة من الشهداء بالاجماع . والأحياء يصح دعاؤهم بلا خلاف.

رابعاً ـ : قال : إن المسلمين ما زالوا ، سلفا وخلفاً ، يستغيثون بالأنبياء والصالحين . قال السمهودى : إن الاستغاثة بالنبى عليه الصلاة والسلام من فعل الأنبياء والمرسلين والصالحين .

خامساً ـ : إن جماعات من العلماء ، كما ذكر السمهودى ، قد استغاثوا بالنبى عليه السلام و بقبره فنالوا ماطلبوا وسألوا كما فى الحكايات السابقة .

سادساً ـ : روى ابن السنى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد : عباد الله احبسوا، فان لله عباداً يجيبونه» وفى حديث آخر رواه الطبرانى أنه عليه السلام قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينونى ـ وفى رواية ـ أغيثونى فان لله عباداً لا ترونهم » .

سابعاً ـ : قال فى خلاصة الكلام : صح عن بلال بن الحارث أنه ذبح شاة فوجدها هزيلة فصار يقول : وامحمداه ، وامحمداه . وصح أن أصحاب النبى عليه السلام لما قاتلوا مسيلمة كان شعارهم : وامحمداه . وفى الشفا أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقيل له اذكر أحب الناس إليك فقال : وامحمداه ، فانطلقت رجله.

هذه هى حجج الشيعى على جواز دعاء الأموات والاستغاثة بهم .

﴿ نقض هذه الشبهات ﴾

ابطال شبهات المخالف ابطال الاولى

أما الشبهة الأولى وهى زعمه أن كل أقوال المسلم وكل أفعاله يجب أن تحمل الحمل الصحيح ، وأن تفسر التفسير الصحيح الذى لا يضر إيمانه و إسلامه ، فالجواب أن يقال : إننا قد قدمنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن هذا الزعم

زعم غير صحيح لا عقلا ولا شرعاً ، وقدمنا أنه من غير الدين والعلم والعقل القول بأن كل ما يصدر من مدعى الاسلام صواب لا خطأ فيه ولا إثم ولا ضلال ، وانه من غير الدين والعقل والعلم القول بأنه جائز للمسلم أن يتلاعب بألفاظ الكفر والردة والضلال وفساد الاعتقاد ، على حساب المجاز والتأويل وادعاء الاسلام ، وإنه من غير الدين والعقل والعلم القول بأنه واجب علينا أن نؤول جميع أقوال من ادعى الاسلام وإن كانت ظاهرة فى الكفر وخراب الدين ، فنقول ، على رغم ذلك كله : إن جميع ما قال وجميع ما يقول حق وإيمان وإسلام وهدى ، وإن كل ما خالف هذا فى الظاهر محمول على المجاز والتأويل والتفسير . وقد قدمنا أنه لو كان هذا المذهب صحيحاً لما صحت مناقشة مسلم ولا تخطئته ولا لومه ولا جداله ولا نصحه لقول يقوله ، ورأى يبديه وعقيدة ينتحلها ويبتدعها ، وأخطاء يدونها ويظهرها . . . وذلك أن كل ما يصدر من المسلم يجب أن يؤول له على هذا المذهب الباطل والزعم المدخول . فكل ما يقوله مما يوهم الشرك والكفر يجب أن يقال: إنه اسلام وإيمان وتوحيد ، وكل مايقوله مما يدل على الخطأ والضلال يجب أن يقال إنه صواب وهدى، وكل ما يقوله مما يشعر بالخبث والفجور يجب أن يقال : إنه طيب وصلاح وتقوى !! فمتى إذاً تصلح مناقشة المسلم ولومه وتخطئته وعذله ونصحه ؟؟ وأى مسلم ، حينئذ ، يصح لمسلم آخر أن ينازعه أو يناقشه أو يجادله ؟

بطلان وجوب التأويل لكل من ادعى الاسلام ودلائل ذلك

لا شك أنه لو صح هذا الذى ذكروه وزعموه لكان كل ما يقوم بين طوائف المسلمين من المناقشات والمساجلات والمجادلات والمنازعات فى الآراء والعقائد باطلا وخطأ وضلالا ، وإذا كانت هذه المناقشات والمنازعات كلها باطلة وضلالا كان أصحابها ضالين مبطلين ، وفى هذا طعن على المسلمين . فالطعن عليهم واقع ولا محالة ، وهو خلاف ما زعموا من إبعاد من ادعوا الاسلام عن

المطاعن والمقادح والأخطاء . ثم إذا كان هذا صحيحاً عندهم فما يقولون فى أقوال مخالفيهم ؟ أيثبتون علـى زعمهم هذا ، فيقولوا : إن جميع ما يقولونه ، مما ظاهره الباطل والضلال ، صحيح مؤول لهم لأنهـم مسلمون ؟ أم يتناقضون فيخطئوهم ويذموهم ويجرحوهم ويزعموا فيهم المزاعم ؟

إنه لو كان صحيحاً هذا الذى ذكروه من وجوب التأويل لـكل مسلم لوجب عليهم التأويل لمخالفيهم ، ولكنهم لم يؤولوا لهم . ولو صح أيضاً لقفل باب الردة ولما أمكن الحكم على مسلم بالـكفر والارتداد . وهذا خلاف الإجماع والضرورة . ولو صح هذا أيضاً لوجب عليهم أن يؤولوا لنا جميع ما كتبناه فى كتابنا هـذا من الرد عليهم والنقض لمذاهبهم ، ولكان واجباً على هذا المصنف الشيعى وعلى إخوانه أن يشتغلوا بتأويل كتابنا هذا و بتطلب المخارج الصحيحة له وبحمله كله عـلى أنه ثناء عليهـم وتسبيح بحمدهم واعتراف بجلائل أعمالهـم وآثارهم فى الاسلام . وهذه أضحوكة الأضاحيك . ولو صح هذا أيضاً لوجب إحسان الظن بأفعـال المسـلمين ووجب تطلب التآويل الحسنة الفاضـلة لها ، فمن رؤى منهم فى حانات الخمور ، و بيوت الفجور ،وجب أن يحسن به الظن وأن يقال إنه لا يريد إلا الدين وطاعـة الله و إلا نصرة الاسلام والدعوة إليـه و إلى آدابه وعلومه ! ومن قتل منهـم المسلمين وضربهم وأخـذ أموالهم وتناول أعراضهـم وأحسابهم بالأذى والزور وجب أيضا أن يحسن به الظن وأن يقال إنه لا يريد غير تأديبهم وحملهم عـلى الجادة الواضحة والسبيل المسلوكة المستقيمة : وهكذا يجب أن تلتمس أمثال هذه التآويل والتفاسير لـكل ما يفعله من يدعى الاسلام ومن يقول إنه مسلم ومن وضع اسمه فى عداد المسلمين وعـداد أسماء مواليدهم .

التاويل لغير المسلم احسانا للظن

ولو صح هذا أيضاً لوجب التأويل لغير المسلمين و إحسان الظن بهم . ذلك أنه قد صح فى الاسلام وصح عند المسلمين أن كل مولود يولد على الفطرة . والفطرة

هى الايمان الصحيح بالله و إنكار الشرك والشركاء كما قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه » الحديث وفى حديث آخر قدسى : « خلقت عبادى حنفاء - وفى رواية مسلمين - فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم » وكما قال الله فى كتابه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » فالأصل فى جميع الناس أنهم ولدوا مؤمنين بالله برءاء من الشرك والوثنية وعبادة غير الله كما فى هذه النصوص ، حتى يأتيهم مايغير إيمانهم ودينهم و إسلامهم ، ولكن يجب على هذا الاصل الذى ذكره هؤلاء الناس أن يبقى على الأصل أيضا فيهم أى فى المشركين إحساناً للظن بهم و بقاء على الأمر الأول والفطرة الأولى التى فطرهم الله عليها . و إحسان الظن بهم يوجب التأويل لهم ، والتأويل لهم معناه أن يحمل كل مايصدر منهم من الاقوال والافعال الموهمة للكفر والإشراك وعبادة غير الله على الايمان والاسلام والهدى وعبادة الله وحده ! فاذا وجد منهم من يستغيث بالسيد المسيح و بأمه ، و يدعوهما قائلا : اغفرا لى ذنوبى وأهديا قلبى ، قيل إن ذلك القائل مؤمن بالله إيماناً صحيحاً حقا لم يقل قولا باطلا ، ولم يشرك بربه شيئاً ، ولم يعبد سواه - إحساناً للظن به و بقاء على الامر الأول وعلى الفطرة الأولى المؤمنة الموحدة ! ومن رؤى منهم يقبل الصليب و يركع أمامه و يسجد فوقه ، و يغدو و يروح إلى الكنائس والبيع أول له أيضاً وأحسن الظن به ، وزعم أنه مسلم حقا ، مؤمن حقا ، وأنه باق على فطرته الصحيحة الأولى ، لم يغيرها ولم ينلها بأذى من الشرك والضلال والفند ! وهكذا يذهب و يقال فى كل باطلة من باطلات الشرك والضلال والغوايات .

لماذا لم يؤول الانبياء لاقوامهم

ولو صح هذا أيضاً لكان واجباً على الأنبياء الذين بعثوا للدعوة إلى الله و إلى عبادته وحده ونسيان ماسواه أن يؤولوا لأقوامهم وأن يحسنوا الظن بهم

وأن يحملوا جميع ما كان يصدر منهم من الشرك وأفعاله وأقواله على المجاز والتأويل فراراً من إكفارهم والحكم عليهم بالردة والضلال : فكان واجبا عليهم ، لهذا ، ألا يسموهم بسمات المشركين الكافرين ، وألا يقولوا لهم : إنكم تعبدون غير الله ، وإنكم كافرون مشركون تعبدون الأصنام والأوثان ، وألا يستحلوا ، إذن ، قتالهم ودماءهم ولا الدعاء عليهم بالهلاك العاجل العام والموت الناجز الشامل. بل كان واجبا عليهم أن يقولوا لاقوامهم : إنكم مؤمنون صالحون موحدون ، لا تريدون الشرك بالله ولا عبادة غيره كما قال هؤلاء في عبدة الأموات العاكفين على الاجداث أو على الاقل كان واجبا عليهم — أى على الأنبياء — أن يسألوهم عن قصدهم ومرادهم بأقوالهم وأفعالهم التي ظاهرها الشرك والكفر ، فلا يهجموا عليهم بالإكفار واستحلال القتال والدماء ، ولعلهم إذا سألوهم عن قصدهم تبين أنهم مسلمون وأنهم غير مشركين ولا كافرين ، ولعلهم يقولون مثل ما يقول عبدة القبور الصالحين اليوم : إننا نعلم أن الله وحده هو الخالق الرازق ، وأنه هو الموجد لكل شيء في الأرض أو في السماء حتى هذه الانصاب التي نقصدها وندعوها ونتوسل بها ونرجوها للشفاء والعافية والتقريب إلى الله زلفى . بل لعلهم كانوا يعرفون المجاز العقلي وغيره من ضروب المجازات ، ولعلهم كانوا يذهبون إليه في عباداتهم وأقوالهم وأدعيتهم ونداءاتهم واتصالهم بالله ربهم ، ولعلهم أيضا يقولون : إننا جاهلون بالالفاظ وبما يراد بها وبما وضعت له ، وإننا نفهم منها خلاف ما يفهم غيرنا وخلاف ما تفهمون منها أنتم أيها الانبياء والمرسلون : فنحن لا نريد بدعائنا هذه الأنصاب والأصنام وبالعكوف عليها والضراعات لها والانقطاع اليها إلا أن تصلنا بالله وتقربنا إليه وتشفع لنا لديه ، ونحن لا نريد أيضاً بهذه الأنصاب والأصنام إلا أن تربطنا بأنبياء لنا وصالحين كانوا فينا يدعوننا إلى عبادة الله وإلى الخير والبر ، ويذودوننا عن الشرك والكفر والشرور وسائر الآفات الخلقة

والاعتقادية . و إلا فنحن نعلم أنهم مخلوقون لله خاضعون له ،واقعون تحت سلطانه وقهره العام الشامل . فنحن موحدون لله غير مشركين به شيئاً ونعوذ بالله من الشرك وأسبابه ، ونعوذ بالله من أن نعبد معه أحداً وهو رب كل شئ خالق مافى السموات ومافى الارض ، وخالق كل شئ : لعلهم إذا سئلوا عن قصدهم بما ظاهره الكفر والشرك يقولون هذا ويفسرون هذا التفسير ، كما يقول عبدة المشايخ والأولياء اليوم إذا سئلوا عما يعنون بهذه المنكرات ، على مايزعم لهم هؤلاء المخالفون المدافعون عنهم وعن ضلالهم وغيهم . وهم إذا قالوا هذه الأقاويل ، وأولوا هذا التأويل كانوا غير مشركين ولا كافرين ، بل كانوا من خيار المسلمين الموحدين على زعم هؤلاء المخالفين المؤولين المحرفين .

ولكن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يفكروا فى هذا المعنى ولم يذهبوا إلى ما ذهب إليه هؤلاء الناس من إحسان الظن ومن مذاهب التأويل والمجازات . فهل هؤلاء خير من أنبياء الله وأفطن منهم إلى هذا المعنى الجليل وأحرص على دماء المسلمين ؟

لو صح هذا التأويل لأمكن فى كل كلام

و بالجملة لو صح هذا الذى ذكروه من أنه واجب أن يؤول لكل من ادعى الاسلام أقواله وأفعاله لأمكن التأويل لكل أحد ولوسعه كل كلام فى الدنيا ، ولما أمكن أن يحكم على مسلم ما ، بل على أحد ما ، بخطأ أو ضلال أو كفر و إشراك ! وهذا لايقره إنسان ولا يقبله مسلم . وكيف يصح هذا التأويل والمنهب الذى ذكروه فيه وقد قال رجل لرسول الله عليه الصلاة والسلام : ما شاء الله وشئت ، فقال رسول الله : « أجعلتنى لله ندا ! بل ما شاء الله وحده » . وقد كان التأويل ممكناً لهذا القائل . وقال جماعة من المسلمين لرسول الله وقد مروا بقوم من المشركين يعكفون على شجرة يتبركون وينوطون بها أسلحتهم : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ! فغضب رسول الله لهذه

أخبار لم ينظر فيها إلى التأويل

المقالة وقال : «الله أكبر إنها السنن ! قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . وقد كان التأويل ممكناً مستطاعاً لهؤلاء المسلمين القائلين . وقام خطيب يوماً بين يدى رسول الله وقال : من يطع الله و رسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال له رسول الله :« بئس الخطيب أنت ! قل ومن يعص الله و رسوله فقد غوى » . وقد كان التأويل لهذا الخطيب أيضاً ممكناً مستطاعاً . وقد قال قائلون يوماً أمام رسول الله : وفينا نبى يعلم ما فى غد ! فأنكر ﷺ هذه المقالة على قائلها وردها عليهم . وقد كان التأويل ممكناً مستطاعاً . وقد حلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ورسول الله يسمع بأبيه ، فأنكر عليه ﷺ حلفه وقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . وقد كان التأويل ممكناً مستطاعاً أيضاً. وقال ﷺ : « من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » . وقد كان التأويل لمن قال ذلك من المسلمين ممكناً مستطاعاً . وقال قائل من المسلمين له عليه الصلاة والسلام : إنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ! فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال: « شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » . وقد كان التأويل ممكناً مستطاعاً ؟ كلا إن التأويل المطلق لا يمكن أن يجوز الذهاب إليه . فهذا الذى ذكروه وزعموه كاذب باطل .

كيف يؤولون لكل احد وقد ضاق التأويل من أصحاب النبى عليه السلام

ولا ندرى كيف يدعون هذه الدعوى وكيف يزعمون أن التأويل لكل من ادعوا الاسلام واجب مطلوب وقد ضاق نطاق هذه التأويل والمجازات — وقد وسع الجهلاء كلهم عندهم — عن خيار الأمة وعن صحابة النبوة وعن كل مسلم لم يكن شيعياً إمامياً اثنا عشريا : فقد ضاق هذا النطاق عن صحابة رسول الله وعن الخلفاء الراشدين وعن جميع بنى العباس و بنى أمية وعن غيرهم من ملوك أهل السنة وسوقتهم . فنالوهم جميعاً بالإكفار والاضلال والتجريح والاتهام المر

المقذع . وقد كان من الميسور الممكن لو كانوا صادقين فى ما يدعونه يقولون فى هذا التأويل والمجاز أن يؤولوا للمسلمين تلك الأمور التى آخذوهم بها ، ويؤولوا لأبى بكر وعمر وعثمان وعمرو بن العاص وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعائشة وحفصة وأم حبيبة والآخرين ما حسبوه عليهم من المآخذ والملاوم المفتجرة المزورة . . . ولكن القوم لم يصدقوا لا فى هذا ولا فى ذاك . وإلا لو صدقوا لعلموا أن التأويل الذى يسع هؤلاء الجهلاء المنغلين الطائفين بالقبور والأجداث يدعون وينادون ويصرخون ويشكون ويشتكون لا يمكن أن يضيق عن صحابة رسول الله من الأنصار والمهاجرين وعن غيرهم من أركان الملة وبناة الشريعة .

فساد المجاز فى دعوة الأموات

أما قول الشيعى إن المجاز العقلى جائز وارد فى كلام العرب وفى كتاب الله فنقول فى الجواب : نعم وإن كان وارداً جائزاً فى الكلام العام وفى الكلام الخاص فإنه لا يجوز فى ما يتناول الاعتقاد وما يشعر بفساد الدين .

ثم لو كان هذا المجاز جائزاً ، إطلاقاً وإجمالا ، فيما يتناول الاعتقاد وفى ما لا يتناوله ، لكانت دعوة الأموات من المجاز الممنوع الذى لا يجوز ، إذ لا خلاف فى أن من المجاز ما لا يصح استعماله وما لا يجوز الذهاب إليه ولا القول به .

ثم لو كان كل مجاز يصح استعماله والذهاب إليه والقول به ، فى الاعتقاديات وفى غيرها ، لكانت دعوة الأموات من غير المجاز للدلائل السابقة ، ولكانت من الحقائق الواضحة فى فساد دين صاحبها واختلال اعتقاده . ثم لو لم تكن دالة على ذلك ، بل لو لم تكن دالة على شئ من الأشياء ، لكانت هى بلفظها وظاهرها من ألفاظ الضلال والشرك والارتداد . ولا خلاف بين الناس أن من الكلام ما هو كفر وما قائله كافر مرتد وإن لم يقصد به عقيدة من العقائد

ولانوعاً من أنواع الضلال. ولو أن مسلماً طعن فى الله أو فى عدله وأحكامه وقضائه أو فى كتبه وأنبيائه ودينه لكان مرتداً عند جميع المسلمين وإن كان لا يقصد بما قال إلا إضحاك الحاضرين والمزاح والتفريح ، أو نحو ذلك مما قد يكفر به كثيرون من المجان وسوقة الناس . وإننا نأبى كل الإباء أن تكون دعوة الأموات مجازاً مراداً بها غير ظاهرها ، ونأبى كل الإباء أن يكون دعاة الأموات يريدون هذا المجاز العقلى الذى لجأ إليه هؤلاء المخدوعون الخادعون لعباد الله المضالون لهم ، ونأبى كل الإباء أن يكون قول القائل : يا على أو يا حسين ، أو ياعبد القادر الجيلانى ، أو يا بدوى ، أو يارسول الله ، أو يافلان أو فلان : أعطنى أو اشفنى أو اغفر ذنبى أو اهد قلبى ، يمكن أن يراد به غير الطلب الحقيقى حقيقة ولغة .

المجاز فى قولهم أنبت الربيع البقل وجوابه

أما قول الناس : أنبت الربيعُ البقل أو أنبت الماء العشبَ ، فهو ، إن كان مجازاً كما زعموا ، فليس كدعوة الأموات يقيناً . وذلك أن الماء والربيع — مثلا — لا يمكن أن يعتقد أحد أنهما هما اللذان ينبتان العشب والبقل الإنبات الحقيقى المراد هنا . أما الأموات ، أما الأنبياء والصالحون والبشر فيمكن أن تعتقد فيهم الشركة لله ، ويمكن أن يعبدوا ويؤلهوا ، بل هذا هو الواقع المشهود المنظور . فإذا وجدنا من يدعو الأموات من الأنبياء والصالحين ، ويدعو الملائكة والجان ، لم نجد مانعاً من أن نعتقد أن ذلك الداعى مشرك بالله وأنه يعبد هؤلاء الذين يدعوهم من دون الله ، وأنه يرى أنهم يعطون حقيقة ما يسألهم وما يسألهم سواه من المشركين بربهم . أما إذا سمعنا من يقول : أنبت الربيع البقل والماء العشب فلا يمكن أن نعتقد أن قائل هذا يشرك بالله ويعبد الربيع والماء ويرى أنهما إلهان ينبتان حقيقة ... فكان المجاز فى مثل هذا ظاهراً لا شك فيه ولا خلاف .

والدليل على صحة ما ذكرناه أننا نجد فرقاً بين قولنا : أنبت الربيع البقل والماء العشب ، وبين أن يقال إن الطبيعة خلقتنا ، أو الشمس هي التي تخلق الخلق وهي الرازقة ، والمحيية المميتة لهم . فان من قال هذا عد ضالا مفتريا بالاجماع والضرورة . وكذلك من قال : إن الملائكة هم الذين يخلقون الناس ويرزقونهم ويشفونهم ويغنونهم ، وهم الذين يغنونهم ويوجدون لهم جميع ما يحتاجون إليه في الأرض أو في السموات ، عد ضالا مفتريا . وكذلك من قال : إن محمداً أو عيسى أو موسى أو غيرهم من الأنبياء هم الذين خلقوا السماء أو خلقوا الأرض أوخلقوا البشر أو خلقوا الجنة والنار والقيامة أو نحو ذلك عد ضالا مفتريا جاهلا بلا نزاع. ولكن من قال : أنبت الربيع البقل والماء العشب لم يعد ضالاً ولا قائلاً منكراً. لأن قوله هذا لا يدل على عقيدة فاسدة ولا رأى ضال لظهور المراد منه .

يوضح فساد مازعموا

ويوضح فساد ما زعموا أنه لا يصح أن يقول مسلم : إن محمداً رسول الله أو إن أبا بكر أوعمر أو عليا أو غيرهم من الأموات ينبتون البقل والعشب. وينزلون المطر والغيث ، أو يسوقون السحاب ويغيثون البلاد والعباد . مع أنه يصح أن يقال : إن الربيع ينبت البقل والعشب ، وإن الرياح تسوق السحاب وتحمل الغيث والماء ، وإن السحاب يغيث العباد والبلاد . . . فلماذا صح هذا ولم يصح هذا وكلاهما مجاز في ما زعموا ؟ إن المخالفين إذا عرفوا هذا جيداً عرفوا الفرق البين بين قول الناس : أنبت الربيع البقل وبين دعوة الأموات وسؤالهم أفعال الله ، وعرفوا أن هذا يجوز وذاك لا يجوز بلا غرابة ولا إشكال .

فرق بين الاخبار والطلب

وأيضا هنالك فرق بين دعوة الميتين وبين قول الناس أنبت الربيع البقل والماء العشب . ذلك أن الأول طلب والثاني خبر ، وبين الأمرين فرق حقيقي عظيم معروف ، وليس كل ماجاز إخباراً جاز طلباً . والدليل على هذا الفرق الواضح أنه صح أن يقال أنبت الربيع البقل والماء العشب ولم يصح أن

يقال : يار بيع أنبت البقل، ويا ماء أنبت العشب ـ على أن يكون طلبا كالطلب في دعاء المشايخ والصالحين من الأموات . و إذا كان هـذا المثل الواحـد يجوز اخباراً و يمنع طلباً و إنشاء فكيف يستدلون بالمثل الإخبارى عـلى مثل آخر طلبى إنشائى ؟ ومثل هـذا أن الناس يقولون : أروانا المـاء وأشـبعنا الطعام ، ولـكنهم لا يقولون : يا ماء أرونا ، و يا طعام أشبعنا . ومن قال هذا عد سخيفاً أو ذاهباً مذهب المتجوزين المازحين المتلاعبين بالـكلام والألفاظ . والفرق بين النوعين : الـكلام الاخبارى والطلبى الانشائى ظاهر واضح . ذلك أن المخبر ليس طالباً ولا راجياً ولا ضارعاً ولا مؤملا ذالاً ، بل هو ملق للخبر كما هو أو كما يبدو له . أما الطالب كطالب المشايخ والصالحين الميتين فانه راج ضارع خائف ذليل فى طلبه ، خاشع فيـه مؤمل أن ينال به شيئاً وأن يدرك به مطلوباً وحاجة من الحاج ، معتقد بأن طلبه ينفعه وأن تركه يضره ، أى يفيته شيئاً وهو ما يرجو نيله بطلبه ، ولهذا فانه يطلب و يدعو لينال ويدرك ، ثم يخضع فى طلبه ودعائه و يذل و يخلص و يخشع ليكون أقرب إلى نيل مارغب فيه وما احتاج إليه . . . وهذه المعانى هى خلاصة معانى العبادة . أما المخبر القائل : أنبت الربيع البقل والمـاء العشب فليس فى إخباره شئ من هـذه المعانى . فالمسوى بين الأمرين مصاب فى أعز شئ لديه . وأيضا القائل للميت مثـلا : اغفر ذنبى أو اهد قلبى يسـتطيع أن ينطق بحقيقـة ما يطلب وحقيقة ما يريد . فيستطيع أن يقول : يا فلان اشفع لى عند ربك أو ادعه لى ليغفر ذنبى و يهدى قلبى . وهذا هو حقيقة ما يطلبه و يقصده دعاة الموتى على ما يقول المدافعون عنهم . فـا الذى جعل هؤلاء الضلال يعدلون عن حقيقة الـكلام إلى مجازه ؟ ولماذا لا ينطقون و يصرحون بما يعنون ؟ إن كانوا يريدون البلاغة فلا ريبَ أن هذا الذى ذهبوا إليه لا بلاغة فيه ، و إن كانوا يعتقدون أن هـذا أقرب إلى الاجابة و إدراك المسئول فهذا هو

الضلال والخبال وسوء الاعتقاد . فلا شك أنهم ماقالوا إلا ما اعتقدوا وما أجنّوا في ضمائرهم ، ولاشك أن الذى اعتقدوه وأجنوه هو أن المشايخ يعطون ويقدرون على الاعطاء والمنع والضر والنفع حقيقة .

ماذا يقال لولم يقل هذا

أما القائل : أنبت الربيع البقل وأمثاله فماذا يقول لو عدل عن هذا التعبير وما القول الذى يؤدى الغرض سواه ؟ أيقول : أنبت الله البقل بالربيع ؟ إن هذا القول ركيك مع مافيه من إيهام فى الظاهر لايقل عن الايهام فى أنبت الربيع البقل ذلك أن الباء فى مثل « بالربيع » تشعر بالسببية والاستعانة ، فيشعر قول القائل : أنبت الله البقل بالربيع ان الله قد خلق البقل وأوجده بسبب الربيع مستعيناً به ، كما يقال قطعت بالسكين أو بالسيف ونحوه . والله منزه عن أن يستعين بشئ وأن يحتاج فى فعله وخلقه وشأنه إلى سبب من الأسباب . ولأجل هذا كان اختيار هذا التعبير على قول الناس : أنبت الربيع البقل اختياراً مرغوباً عنه لأنه إذا كان فى هذا التعبير محذور وإيهام كان فى ذلك التعبير من المحذور والإيهام ماهو أشد وأوضح . ولسنا نزعم أن فى مثل هذه العبارة : « أنبت الله البقل بالربيع » الآن إيهاماً ومحذوراً ، وأنه لايجوز استعمالها لذلك ، كلا ، وإنما نقول : إنه إذا كان فى العبارة الأخرى إيهام ومحذور كانت هذه العبارة أكثر إيهاماً ومحذوراً ، فلا معنى إذن لترجيح هذا التعبير على التعبير الذى ذكروه وزعموه مجازاً . وإذن فإيثار هذا على هذا باطل مرغوب عنه .

أم يقول مثلا : نبت البقل ؟ إنه إذا قال هكذا لم يخرج قوله عن حدود المجاز وعن منطقة الإيهام . ذلك أنه من غير الحقيقة أن يعزى مثل هذا الفعل الذى هو « نبت » إلى البقل إذا لم يكن من الحقيقة عزو الإنبات إلى الربيع فالمجاز باق موجود فى عزو الفعل إلى البقل نفسه ، فالعدول عن التعبير به لايصنع شيئاً . فماذا يقول من يريد الاخبار عن معنى الجملة المذكورة إذا رغب عنها هى ؟

حقيقة هذا المجاز نفسها لا تجوز

ويقال أيضا إن الحقيقة التى زعموها فى دعوات دعاة الأموات حقيقة لا يصح سؤالها من الموتى حتى ولو صرح بها وعدل عن مجازها. فان الحقيقة التى ادعوا أن الهاتفين بالصالحين والأموات يريدونها هى طلب الشفاعة والوساطة والدعاء منهم . ولكننا قد قدمنا الدلائل فى بحث الشفاعة على أنه لا يصح طلبها ولا سؤالها من الموتى ، وقدمنا أنه من غير الدين والاسلام أن يقول قائل لهالك من الهلكى : يافلان اشفع لى أو ادع الله لى أو أسألك الشفاعة والوساطة عند ربك أو نحو ذلك . وقد أوردنا البراهين المختلفة على بطلان هذا وخروجه على الدين والعقل ومحادته المعقولات والمنقولات . وإذا كان الكلام لا يصح لا حقيقة ولا مجازا كان قائله خاطئا غالطا ، وإذا لم نجز إرادة حقيقة قول ولا إرادة مجازه كان هو غير جائز وغير مقبول . فدعاء المشايخ الميتين ممنوع شرعاً سواء أأريد به الحقيقة أم أريد به المجاز ، وسواء أادعى أنه على ظاهره أم ادعى أنه مؤول مصروف عن ظاهره . فاننا لا نرتاب فى أن قول القائل لأحد الأموات : يافلان اشفع لى أو ادع الله لى قول قد جاء الدين بجملته وبتفصيله مبطلا له رادا على قائليه . ويرجع فى هذا إلى بحث الشفاعة من هذا الجزء

ونحن نشك فى كون هذا مجازا!

ويقال أيضاً : إننا نشك فى كون قول الناس : أنبت الربيع البقل مجازا ، ونرى أنه لا مانع من أن يكون حقيقة . والاختلاف فيه راجع إلى الاختلاف فى معنى « الإنبات » ولعل الانبات فى اللغة لا يمانع أن يكون عزوه إلى الربيع حقيقة ولا يحتم أن يكون مجازا ، ولعل بعض الناس يفسره تفسيراً لا يرى معه أن نسبته إلى غير الله على سبيل الحقيقة ممنوعة . ونحن نشك كل الشك فى أن قولهم : قطعت السكين أو قطع السيف مجاز ، ولا نجد مانعا من أن يعد حقيقة ، ونرى أن من حكم على مثل هذا بأنه مجاز ، قولا واحدا ، فقد جازف وتسرع واقتحم أمراً ما أقرب به إلى أن يكون خطأ باطلا . ونسبة القطع إلى السكين وإلى السيف كنسبة

الانبات إلى الربيع و إلى الماء ، فهما سواء . هـذا هو الجواب عن قولهم أنبت الربيع البقل. ومما ذكرناه يعرف الجواب عن قولهم: بنى الأمير المدينة وعن أمثاله.

الجواب عن قول الله « فارزقوهم منه »

أما قوله تعالى « و إذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » من سورة النساء ، ومثله قوله تعالى من السورة نفسها « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

معنى رزق

فالجواب أن يقال إن « رزقه » معناه أعطاه رزقا أو هذا من معانيه . وليس بلازم أن يكون « رزق » معناه خلق الرزق وأوجده من العدم . وقد قال الاصفهانى فى غريب القرآن : « الرزق يقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أم أخرويا ، وللنصيب تارة : ولما يصل إلى الجوف و يتغذى به تارة . يقال أعطى السلطان رزق الجند ، و رزقت علما (إلى أن قال) والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له وهو الله ، و يقال ذلك للانسان الذى يصير سببا فى وصول الرزق . و يقال ارتزق الجند أخذوا أرزاقهم . والرزقة مايعطونه دفعة واحدة » .

فاذا كان رزق معناه أعطى الرزق فقول الله : « فارزقوهم منه » معناه أعطوهم من المال الذى حضروا قسمته نصيبا هو منحة منه تعالى و رزق أوجبه لهم . وكذلك قوله تعالى فى الآية الأخرى « وارزقوهم فيها » معناه وأعطوهم فيها نصيبا يكفيهم و يعولهم . و إذا لم يكن فى قولهم : أعطى فلان فلانا مالا ونحوه مجاز لم يكن فى قولهم : رزق الملك جنده . أو رزق السيد رقيقه أو « فارزقوهم منه » مجاز ، لأن رزق من معانيها أعطى كما ذكر الراغب الاصفهانى وكما ذكر أهل اللغة . والمسألة مسألة لسانية ، الحكم فيها يرجع إلى أهل اللسان . فاذا نص أهل اللسان وعلماء اللغة ونقلتها على أن « رزق » يكون بمعنى أعطى كان قولهم حقا وحكمهم مقبولا . ولا خلاف بين أهل اللسان أن قول الناس : أعطى فلان فلانا شيئاً حقيقة

إذا كان مرادا به المعنى المفهوم القريب الشائع ، فيجب أن يكون مثله كلمة «رزق» التى هى بمعنى أعطى . وهذا واضح .

ويدل على هذا أنه لا يجوز إضافة الرزق إلى الأموات

ويوضح ما ذكرناه ويفسد ما ذكروه أنه لا يجوز أن يقال : إن الأموات يرزقون الأحياء ، وإن الشيخ فلانا الهالك منذ الأزمان والأحقاب يرزق أهل بلدته أو يرزق أهله وأقربيه ، أو يرزق من يلوذون به ويطوفون بقبره وأمثال هذا ، مع جواز أن يقال : رزق الملك جنده والسيد عبيده . وما نظن هؤلاء يجرءون على أن يزعموا أنه يجوز هذا الذى ذكرنا أنه لا يجوز . وهذا لأن رزق معناه أعطى ومن ماتوا لا يقدرن على أن يعطوا شيئاً . ولو كان رزق هنا مجازاً وكان يجوز نسبة أمثاله إلى الموتى على سبيل المجاز لكان من المجاز الجائز أن يقال إن الشيخ فلاناً من الأموات يرزق زائره ويرزق أهل بلدته وأولى قرابته. ولكن لا شك فى امتناع هذه المقالة ، وبالتالى لا شك فى بطلان دعوى هذا المؤلف .

فالآية على كل حال لا يمكن أن تكون حجة له . وذلك أنه لا يستطيع أن يزعم بأن الرزق يصح أن يضاف إلى كل إنسان إذا صح أن يكون مجازا واستوفى شروطه أى شروط المجاز ، فلا يمكن أن يدعى أن من الجائز ومن الاسلام والعلم والبلاغة أن يقال : إن على بن أبى طالب يرزق أهل النجف ، أو أن الحسين يرزق أهل كربلاء ، أو أن عبد القادر الجيلانى يرزق أهل بغداد ، أو أن الإمام الشافعى يرزق أهل القاهرة ، أو أن الرسول أو أبا بكر أو عمر يرزق أهل الحجاز . فهذا وأمثاله لا نحسب المخالف يجيزه وإن قصد به قائله المجاز والتأويل ، وإذا كان هذا ممتنعاً بالاجماع ، أى باجماعنا وإجماع المخالفين لنا ، كان استدلالهم

برهان باهر

بالآية المذكورة استدلالاً مرغوبا عنه مهجوراً . فانهم إذا قالوا بجواز أن يطلب من الموتى مالا يستطيعه إلا الله على سبيل المجاز بدليل قوله : « فارزقوهم منه » قلنا لهم: إذا لم تجوزوا أنتم نسبة الرزق إلى كل ولى ونبى وصالح - وهو صحيح مجازاً

و بلاغة ـ فكيف تجوزون غيره استدلالا به ؟ أى كيف تستدلون على جواز الشىء بشىء آخر وافقتم على امتناعه هو فى نفسه ،ومتى كان الدليل باطلا كان المدلول عليه أبطل ، و إذا كانت الحجة غير صحيحة كان المحتج له أيضاً غير صحيح .

ولا شك أن كلمة : « فارزقوهم منه » النازلة فى الأحياء إذا لم تدل على صحة نسبة الرزق إلى الأموات لم يصح أن يستدل بها على صحة نسبة غفران الذنوب وهداية القلوب وشفاء المرضى إليهم أو طلب ذلك منهم . .

الجواب عن قول الله ولوانهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله

أما قوله تعالى : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله و رسوله ، وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله و رسوله ، إنا إلى الله راغبون »

فالجواب أن يقال : إن الإيتاء يضاف إلى المخلوق حقيقة بالاجماع وضرورة اللسان . وقد جاء فى كتاب الله نسبة الإيتاء إلى المخلوق : إلى الرسول و إلى المسلمين و إلى المشركين فيما لا نحصيه من الآيات،وورد الأمر به فى غير ما آية من كتاب الله . ولا يتنازع الناس فى أنه حقيقة ، و فى أنه ليس مجازاً ، وفى أنه باق على ظاهره غير مؤول ولا مصروف عما يتبادر إلى الفهم منه وماادعى أحد من الناس أن نسبة الايتاء إلى رسول الله من نسبة فعل الله وما يختص به إلى عباده.

معنى ايتاء الرسول عليه السلام

فأى إشكال ، أو أى مجاز فى قوله : « ما آتاهم الله ورسوله » وقوله : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » فان المراد بما آتاهم الله الصدقات والأموال التى يفرقها عليهم ، المجموعة إليه من الزكوات والمغانم التى غنمها أنصار الله من أعداء الله وأعدائهم . والمراد به أيضاً الهدى الذى جاءهم به والدين الذى اختار الله لهم والخير العظيم العميم الذى سينالونه إذا ما اتبعوه وآمنوا به . ولا ريب أن الرسول يؤتيهم الأموال حقيقة ، و يفرق المغانم عليهم حقيقة ، و يعطيهم أيضا حقيقة ، ولا ريب أنه آتاهم بالاسلام و بالقرآن و بالخير حقيقة . فما المجاز وما الإشكال فى قوله : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » ؟ ومن يستطيع أن يقيس إضافة

غفر الذنوب و إرشاد القلوب وشفاء ذوى العلل و إيجاد ماليس موجوداً إلى المخلوق باضافة الايتاء إلى الرسول عليه السلام ؟؟ وشتان ما بين الأمرين !!! فان الذنوب لا يغفرها إلا الله ، والقلوب لا يضع فيها الهدى سوى الله ، والعلل لا يكشفها سوى الله أيضاً . أما الايتاء فالرسول يؤتى ، والمسلم يؤتى ، والمشرك يؤتى ، و رب العالمين يؤتى ، لأن الايتاء مثل الاعطاء ، والاعطاء ليس من الأفعال الخاصة بالله . ولهذا فرقت الآية بين الايتاء و بين الحسب والرغبة ، فجعلت الايتاء مضافا إلى الله و إلى الرسول ، وجعلت الحسب خاصاً بالله ، وكذلك الرغبة ، قال في الآية : « وقالوا حسبنا الله » وقال في آخرها : « إنا إلى الله راغبون » ولم يقل فيها : حسبنا الله و رسوله ، ولا : إنا إلى الله و رسوله راغبون . وذلك أن هنالك فرقا بين الحسب والرغبة و بين الايتاء . فالله وحده حسب الخلق جميعاً ، والخلق لا يرغبون إلا إلى الله ربهم . فان الحسب هو الكافي . ومن يكون كافيا سوى الله ؟ قال تعالى : « أليس الله بكاف عبده » والناس لا يرغبون الرغبة المطلقة إلا إلى ربهم وخالقهم كما قال تعالى : « فاذا فرغت فانصب ، و إلى ربك فارغب » و كما قال : « ففروا إلى الله » ، وقال : « وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه » .

التفريق بين الايتاء و بين الحسب والرغبة

فاضافة الايتاء هنا إلى رسول الله لا دليل فيه ألبتة على ما زعم المخالف فانه لم يدع أحد من مخالفيه أن الايتاء لا يعزى إلا إلى الله ، ولا أنه من الصفات الخاصة به تعالى حتى يتاح له أن يتخذ منه حجة على جواز إضافة غفران الذنوب وهداية القلوب إلى الموتى . على أن هاهنا أمراً غفل عنه المخالف في استدلاله بهذه الآية والآية التي قبلها : هذا الأمر الذى غفل عنه هو أن هذا الايتاء المضاف إلى رسول الله وهذا الرزق المضاف إلى المسلمين في قوله « فارزقوهم منه » أضيفا إلى الأحياء لا إلى الموتى ، ومخالفوه لا يمانعون في إضافة أمثال ذلك إلى

الأحياء ، و إنما الخلاف والنزاع فى إضافتـه إلى الموتى . فلا ينيدَنّ هذا عن بال المخالف . . .

وأما قوله تعالى : « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » .

الجواب عن قول الله الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله

فالجواب عنها كالجواب عن الآية قبلها . فان الإغناء معناه إيصال الثروة والغنى . وهذا فى استطاعة المخلوق أن يفعله كالايتاء والاعطاء سواء ، فمن أوصل إليك ثروة فقـد أغناك ، ومن أعطاك مالا جزيلا فقـد أغناك . وليس معنى الاغناء خاصاً بايجاد الغنى وخلقه ، كما أن معنى الإيتاء والرزق ليس خاصاً بخلقه وإيجاده من أسر العدم . و بقية الجواب عن هذه الآية يرجع إليه فى الـكلام على الآية التى قبلها وهى قوله : « فارزقوهم منه » .

وأما قوله تعالى عن عيسى عليـه السلام : « إنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لـكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئـكم بمـا تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لآية لـكم إن كنتم مؤمنين) . .

الجواب مما اضاف الله الى عيسى بن مريم من الخوارق والمعجزات

فالجواب أن يقال إن استدلال الرافضى بهذه الآية من غريب الاستدلالات وباطلاتها . ذلك أن هـذه الأمور التى أضافها إلى عبـده ورسوله عيسى عليه الصلاة والسـلام من الخوارق والمعجزات جعلها الله البرهان القاهر الظاهر عـلى نبوته وصدق رسالته واتصاله بالله اتصال النبى بالاله والرسول بالمرسـل . ومازعم أحـد من علماء الملة المهتدين أن إضافة هـذه الأمور إلى عيسى بن مريم إضافة مجازية غير حقيقة على المعنى الذى يذهب إليه هذا المخالف ، بل أجمعوا على أنها حقيقة لامجاز ، وأجمعوا على أن عيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى باذن الله ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيـه فيكون طيراً باذن الله حقيقة لا مجازا ، وأجمعوا على أن إضافتها خاصـة به دون سـواه ممن لم

يعطوا هذه الخوارق والمعجزات الالهية العظيمة ، وأجمعوا على أنه من الضلال وشر الخبال والكذب على الله أن يقال : إن على بن طالب أو الحسن أو الحسين أو عبد القادر الجيلانى أو الامام الشافعى أو البدوى أو الدسوقى أو الرفاعى أو غيرهم من العلماء والصالحين والمشايخ المشهورين كانوا يحيون الأموات وكانوا يبرئون الأكمه والأبرص ويخلقون من الطين كهيئة الطير فينفخون فيه فيكون طيراً باذن الله . ولا يشكون أن من قال ذلك فقد ضل وغوى مع أنهم قد أجمعوا على وجوب إضافة ذلك كله إلى عيسى عليه السلام وعلى صدق إضافته، وأجمعوا على وجوب قبوله والايمان به ظاهرا و باطناً على ظاهره لا تأويل ولا جدال ، وأجمعوا على أن من رام شيئاً من هذا فقد خرج عن منهاج المسلمين ومنهاج سلف الأمة وحفظة الشريعة . . . فما مراد الرافضى بايراد ماخص الله به عبده ورسوله عيسى عليه السلام هنا ؟ هل يريد أن يدعى أنه عليه السلام ما كان يحيى الموتى ولا كان يبرىء الأكمه والأبرص ولا كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله حقيقة ؟ وهل يريد أن يزعم أن عيسى ما كان يفعل شيئاً من ذلك و إنما أضيف إليه على مذهب المجاز والتوسع فى الكلام كما زعم فى إضافة غفران الذنوب و إرشاد القلوب إلى المشايخ والصالحين من الاموات العاجزين .

اما ان يقول ان عيسى كان يفعل هذه الامور اولم يكن يفعل منها شيئا

ولا مفر له من أن يقول إن عيسى كان يفعل هذه الأمور المذكورة باذن الله حقيقة لا مجازا ، أو يقول إن عيسى ما كان يفعل منها شيئاً حقيقة زاعما أن نسبتها إليه لم تعد أن تكون مجازاً وأن تكون من نسبة الفعل إلى غير فاعله على سبيل المجاز العقلى كما فى قولهم : بنى الأمير المدينة ، وأنبت الربيع البقل فان ذهب إلى الأمر الأول وذهب إلى اختياره قيل : إذن فلماذا ذكر هذا هنا وهو ليس منه ولا قريباً إليه ؟ فانه إذا كان عبد من عباد الله ، كعيسى أو غيره ،

يحيي الميت و يبرئ الأكمه والأبرص ، و يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، فأضاف الله إليه ذلك حقيقة لم يدل على جواز إضافة غفران الذنوب و إرشاد القلوب وشفاء المرضى و رجع الغائبين إلى المشايخ الميتين الذاهبين ، وهم فى الحقيقة لا يفعلون شيئاً من ذلك ولا يقدرون على شئ منه و إنما هم أسباب فقط ... وأما إن اختار الثانى ، أى اختار أن إضافة هذه الأشياء إلى عيسى إضافة مجازية لا حقيقية ، واختار أن عيسى لم يكن يفعل منها شيئاً ، فزعم أن نسبتها إليه كنسبة غفران الذنوب وهداية القلوب وشفاء المرضى ودفع الأحداث الكبرى إلى الأشياخ الميتين فقد اختار ساعتئذ ما أجمع المسلمون على بطلانه وفساده . ولا يذهب إلى هذا إلا من ذهب إلى إنكار الخوارق والمعجزات ، وذهب إلى إنكار معجزات جميع الأنبياء وكرامات جميع الأولياء ، وذهب إلى تأويل ما ذكره الله فى كتابه من معجزات أنبيائه وكرامات أوليائه ، وما اتفق المسلمون فى جميع العصور على إثباته و إقراره . ولكن كيف يذهب إلى هذا والشيعة من أخضع الخلق للخوارق حتى إنهم ينسبون إلى أئمة آل البيت منها ما يعسر على غير العقل الشيعى والمنطق الامامى الاثنا عشرى أن يؤمن به وأن يقبله . فهذا الشيعى إذن غير موفق ولا راشد لا عند طائفته ولا عند مخالفيه من أهل السنة حينما ذكر معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام فى مقام التدليل على جواز دعوة الأموات وجواز إضافة أفعال الله الخاصة به إليهم . ولو صح له أن يخرج على إجماع المسلمين وعلى إجماع طائفته واستطاع أن يؤول ما ذكره الله لعبده عيسى عليه السلام لكان من الجائز عنده أن يقال إن غير عيسى كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وكان يبرئ الأكمه والأبرص و يحيي الموتى ، وكان ينبئ الناس بما يأكلون و يشربون و بما يدخرون فى بيوتهم . ولكانت نسبة هذه الأمور إلى عيسى كنسبتها إلى غيره

من المشايخ والصالحين و إلى سائر عباد الله الذين ترجى دعواتهم وشفاعاتهم .
يا هذا ، لقد طاشت سهام الاحتجاج هذه المرة كثيراً ! فان عيسى كان حقا يحيي الموتى و يبرئ الأكمه والأبرص و يخلق من الطين مثل هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا صحيحا باذن الله ، وكان ينبئ أتباعه وحوارييه بما كانوا يأكلون و بما كانوا يدخرون في بيوتهم . و يعني بهذا أنه كان يعلم هذا القسم من الغيب باعلام الله إياه و إطلاعه عليه . وقد كانت هذه الافعال من معجزاته ودلائل نبوته و براهين صدقه وتصديق الله له . ولهذا يقول الله في الآية المذكورة : « إني قد جئتكم بآية من ربكم : اني أخلق لكم من الطين » الآية . فالآية التي جاءهم بها من ربهم هي مافصله في الآية من هذه المعجزات والخوارق المدهشة ، وقد قال في آخر الآية : « إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » يعني أن في هذه المعجزات دلالة على نبوته وصدق رسالته وتصديق الله لها .

فهذا الذي ذكره القرآن عن عيسى عليه السلام لم يكن إلا آيات شاهدة ناطقة على أنه رسول الله . وماخص الله به الرسل والأنبياء من المعجزات والآيات لايصح أن يضاف إلى غيرهم ، ولا أن يسوى فيه بينهم و بينهم . وقد وهب الله عيسى آيات ووهب موسى آيات ، ووهب إبراهيم آيات ، و وهب نوحاً آيات ، و وهب صالحاً آيات ، و وهب خاتم الأنبياء محمداً آيات ، ووهب كل نبي آيات خاصة به أو مشتركة بينه و بين غيره من الأنبياء والمرسلين . ولكن آياتهم لا يجوز أن تضاف هي ولا أمثالها إلى عامة المسلمين ولاعامة الصالحين ولا عامة الأولياء ممن ليسوا بأنبياء . وآياتهم أيضاً لايجوز أن يقال إن إضافتها إليهم غير حقيقية ولا أنها مؤولة مصروفة عن ظاهرها إلى المجاز والاستعارات . فان موسى عليه الصلاة والسلام ضرب مثلا بعصاه البحر فانفلق وانشق بضربته له ولأنصاره المؤمنين طريق يبس ، وقد ضرب بعصاه أيضا الحجر فانفجرت منه

معجزات الانبياء حقيقة لا يقال انها مجاز غير حقيقة

اثنتا عشرة عيناً . ولا يصح إن يقال إن هـذا مجاز و إنه غير حقيقة . وكذلك كان نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام يخلق من الطين كهيئة الطير — والخلق هنا هو التقدير — فينفخ فيه فيكون طـيرا باذن الله ، وكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى باذن الله ويخبر أصحابه وأتباعه بما كانوا يأكلون وبما كانوا يدخرون في منازلهم . ولا يصح أن يقال إن هذا مجاز و إنه غير حقيقة ، وهكذا الأمر والقول في معجزات جميع النبيين .

ليس كل ما جاز للانبياء يجوز لسواهم من اتباعهم.

وليس كل ماجـاز للانبياء يكون جائزاً لغـيرهم ، وقد جاز لنبي الله يعقوب ولزوجه وبنيه أن يسجدوا ليوسف عليهم الصلاة والسـلام ، وجاز للملائكة أن يسجـدوا لآدم . والرافضي المخالف يزعم أن هـذا السجود كان سجوداً حقيقياً . وليس بجائز لمسلم اليوم أن يسجـد لمخلوق ما وإن كان من كان . ولو أن مسلماً سجد لولي أو لنبي محتجاً بهذا السجود لـكان من الضالين الجاهلين باتفاق المسلمين . ومثـله من أجاز إضافة أفعال الله — كغفران الذنوب وإرشـاد القلوب إلى الأموات والمشايخ — محتجا باضافة أحياء الموتى و إبراء الأكمه والأبرص إلى عبد الله ورسوله عيسى بن مريم . فان هذين الاحتجاجين — بالنسبة إلى الخطأ والجهل — في قرن واحد . وكذلك قد كان من آيات الله وآلائه على عبده وخاتم أنبيائه ورسله أن عرج به إلى السموات العلى وأن قربه منه نجيا حتى كان منـه قاب قوسين أو أدنى ، وأن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن أراه في إسرائه ومعراجه من آياته الـكبرى ما أرى ، وأن أنزل عليـه هـذا الـكتاب المخصوص بالاعجاز الخالد وبالخلود المعجز، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . وليس بجائز أن يقال إن غيره عليه الصلاة والسلام من الصالحين ومن العلمـاء الربانيين والأولياء المشهورين يمكن أن ينالوا مانال وأن يعطوا ما أعطى ﷺ من هذه الآيات والآلاء، وليس بجائز أن يضاف مثلها إلى أفراد المسلمين . .

فالمسلمون كافة يقولون إن محمداً عليه السلام عرج وأسرى به وأنزل عليه الكتاب الخالد المعجز، وأعطى غير هذا من المعجزات مثل تكثير الطعام والشراب و نبوع الماء من بين أصابعه الشريفة ، إلى آخره . . . ولكنهم لا يقولون إن غيره من أنصاره المؤمنين به أعطى ذلك ، ولا يستجيزون هذا القول ، بل هم يرون أن من قاله فهو كاذب جاهل ضال . ومثله من أجاز إضافة غفران الذنوب وهداية القلوب وغيرها من أفعال الله إلى عبد من عبيده الموتى احتجاجاً بأن الله أضاف إلى عيسى بن مريم إحياء الأموات و إبراء الأكمه والأبرص...فهذان الاحتجاجان فى صف واحد من أصفاد الباطل والخطأ والضلال . فالرافضى إذن قد بعد فى هذا الاستدلال عن التوفيق كل البعد .

ثم ماذا يرى فى هذا الاحتجاج وهذا الاستدلال ؟ أيرى أنه يجوز أن يقول المسلم : إن الشيخ فلاناً والشيخ فلاناً من الأموات أو من الأحياء يحييان الموتى و يبرئان الأكمه والأبرص و يخلقان من الطين مثل هيئة الطير ثم ينفخان فيها فتكون طيراً باذن الله ، و إنهما أيضاً ينبئان الناس بما يأكلون و بما يدخرون فى منازلهم ، و إنهما يعلمان الغيب ؟ أيرى أنه جائز للمسلم أن يقول هذا فى شيخ من الأشياخ أو مسلم من المسلمين الأحياء أو الميتين ؟ إن كان يرى جواز هذه المقالة فقد خرج عن إجماع الأولين والآخرين من المسلمين وعاند الضرورة واستباح الحمى ، حمى الدين واللغة والعقل ، وما نحسبه يجيزه . . . و إن كان يرى أنه لا يجوز أن تقال هذه الأقوال مع أنها قد قيلت فى حق عيسى بن مريم وصدق قائلوها فقد بطل الاحتجاج والقياس ، وخرج من المعركة بالهزيمة الفادحة و بالفشل الفظيع . فهذه الحجة باطلة على جميع الفروض ، فاسدة لديه ولدى مخالفيه .

قول احد الصحابة للنبي عليه السلام اسألك مرافقتك فى الجنة

وأما قول الصحابى للرسول عليه الصلاة والسلام : أسألك مرافقتك فى الجنة . فالجواب أن يقال: إن الصحابى سأله المرافقة فى الجنة ولم يسأله إدخال الجنة . وذلك

أن مرافقتــه فى الجنة يملكها الرسول عليــه السلام لمن دخلها ولـكنه لا يملك إدخالها . والمرافقة فى الجنة معناها أن يكونا رفيقين فيها حينما يدخلانها و إن كان كل منهما لا يستطيع أن يدخل الآخر . ومثل هذا أن تريد الحج هــذا العام ويريده أيضاً صديقك فيسافر أحدكما قبل الآخر فتقول ، أو يقول لك : أريد منك أن تنزل معى فى مكان كذا ، وأرجوك أن تقابلنى وأن تسدى إلىّ هناك المعونة وأمثال ذلك . . . فهذا ونظائره من الـكلام يجوز و إن كان كل واحــد منكما لا يستطيع أن يحمل صاحبه إلى الحجاز ، ولا أن يجيز له السفر ، ودخول البلاد ، بل و إن كان أحدكما محكوماً عليه بألا يدخل البلاد وألا يطأ بقدميه أرضها. ومثله أن تقول لأحــد أصدقائك أو أقربائك من المسلمين الصالحــين : أسألك يافلان أن تلقانى فى الجنــة وأن ترافقنى وأن تريني وجهك فيها . فهذا يجوز قوله بلا ريب ، و إن كان لا يجوز أن تقول له : يا فلان أسألك أن تدخلنى الجنة وأن تزحزحنى عن النار ، ولا أن تغفرلى ذنبى وأن تهدى قلبى . وذلك أن المرافقة فى الجنة أو فى مكان آخر تملك و إن كان لا يملك الايصال إليها ولا إليه . فيجوز أن تسأل ما يستطاع دون ما لا يستطاع .

فتأويل قول الصحابى للرسول : أسألك مرافقتك فى الجنة أن يكون قد علم ، أو ظن ظنا قوياً أنه سوف يثبت عــلى إيمانه و إسلامه ، وسوف يلقى الله مسلماً مؤمناً غــير مشرك ولا كافر به : وقد علم أن من لقى ربه بالايمان والاسلام فــلا بد له من دخوله الجنــة . ولابد من زحزحته عن النيران ، لأن الله أعدل من يجازى على الحسنات ، وأعدل من لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولأنه تعالى لا يمكن أن يجازى على الحسنات والخير والبر والايمان والاسلام العذاب والنار والشقاء. وقد سمع ضمانة الله الجنة فى كتابه للمؤمنين والمسلمين الصادقين فى إيمانهم و إسلامهم . ومن أصدق من الله قولا ووعداً ! ومن أحق منه تعالى بإيفاء ضمانته

وكفالته ! وقد علم أيضاً كفالة النبي عليه الصلاة والسلام الجنة لمن آمن به وصدق وأحسن فى إيمانه . وقد علم أن من اختارهم الله لرسالته و بشارته لا يمكن أن يكذبوا فى وعدهم ، ولا أن يغروا أنصارهم المؤمنين بهم المتبعين لهم ، الواهبين لما جاءوهم به نفوسهم وأرواحهم وأبدانهم وأولادهم وكل ما يملكون : علم الصحابى هذا كله ، فعلم أنه صائر بتوفيق الله إلى الجنة باسلامه و إيمانه و إحسان الله الشامل ، ولكن خاف أن يفوته هنالك أحب شئ إليه . خاف ألا يرى ثَمَّ النبى ، و رؤياه هى أعظم منى المسلم بعد رضا الله و رؤية وجهه الكريم ودخول جنته ، فقال : يارسول الله أسألك مرافقتك فى الجنة لأنى لن أطيق فراقك ولا البعد عنك و إن كنت فى دار الخلود ، فقال له النبى عليه السلام كما فى تمام الحديث : « أو غير ذلك ؟ » قال : هو ذاك . فقال النبى له : « إذن فأعنى على نفسك بكثرة السجود » وقد علم عليه الصلاة والسلام أنه لا مانع من هذا الطلب ولا من إدراك هذه الطلبة وقد أنزل الله عليه فى كتابه : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما ». وقد علم عليه السلام أن هذا الذى سأله مرافقته فى الجنة من الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ، فهو مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إذا صدق فى إيمانه ودينه . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « أعنى على نفسك بكثرة السجود » لأن السجود والإيمان والعبادة وصدق الله فى المعاملة هو الذى يدخل الجنة و ينيل مرافقة الرسول والصديقين والشهداء والصالحين فى دار السلام ، لا إرادة الرسول ولا إرادة غيره من الخلق . ولو كان دخول الجنة ونيل رضا الله يدرك بشئ من ذلك لكان أولى الناس به أبو طالب عم النبى وغيره من أولى قرباه ، ولكان من أولى الناس به آباء الأنبياء وأولادهم وأزواجهم وأقربوهم . وقد أعلمنا الله فى كتابه

أن من هؤلاء منهم من أهـل النار خالدين فيها أبد الآباد . ونعوذ بالله . فالرسول عليه الصلاة والسلام يطلب العون ممن سأله المرافقة فى الجنة لأنه يعلم أنها لاتنال إلا بالعمل الصالح وبالايمان الصحيح القوى . فالصحابى يسأل النبى مرافقته فى الجنة حقيقة لا مجازا . .

ومما يكذب زعم هؤلاء الزاعمين أنه عليه السلام لم يدع ولم يشفع له حينما سأله المرافقة بل قال له « أعنى على نفسك بكثرة السجود » . ولو كان المراد ، كما زعموا ، أن يشفع له وأن يدعو ، وكان قوله : أسألك المرافقـة فى الجنـة يعنى به سؤاله أن يدعو الله فيـه ليجعله رفيقه هناك لدعا له النبى إذا كان مقرا طلبه قابلا له ، وهولاء يزعمون أن النبى كان مقرا له ومجيزا . وهذا ما لاشك فيه . وحينئذ يقال : لـكن النبى لم يدع ولم يشفع فيما يبدو من الحديث ، وإذن : ليس مراد الصحابى ما زعموا ، وإذن ليس الأمر ما ادعوا .

فان قيل وكيف يمكن أن يرافق مسلم النبى فى الجنة والجنة درجات ومنازل ولا شك أن النبى فى أعلاها وفى أفضل منازلها ودرجاتها ، فـلا يمكن أن يسمو سام إلى منـازله ودرجاته مهما سمت درجاته ومنازله، فالجواب أن يقال : إن هذا الاعتراض ليس منطلقا إلى قولنا نحن دون قول المخالفين ، بل هو اعتراض ـ إن كان صحيحاً ـ وارد عـلى قولنا وعلى قول الرافضى وقول إخوانه . وذلك أنه يقال : وكيف يجوز لمسلم أن يطلب من النبى أن يسأل الله فيه ليكون رفيقه فى الجنة والنبى عليه السلام لا تلحق درجاته ومراتبه ، ولا يسمو إلى مكانه ومكانته سام . وحينئذ فالجواب مشترك بيننا وبين المخالفين ، والاعتراض لا يدل على بطلان قولنا إلا دل على بطلان قولهم ، فهو إذن ليس خاصا بنا ولا بقولنا . ومع هذا نقول فى الجواب : إن هذا الاشكال ـ إن كان صحيحاً ـ وراد عـلى الآية المذكورة وهى قول الله «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم

فان قيل وكيف يمكن ان يرافق مسلم النبى فى الجنة وجوابه

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » . والاعتراض الذى ينطلق إلى نص القرآن الكريم لا يشك المسلمون فى بطلانه وفساده وإن لم يعرفوا وجه البطلان والفساد سوى انطلاقه إلى كتاب الله ، وكتاب الله أسمى من أن يلحقه اعتراض أو يتناوله شك أو إشكال . ومع هذا نقول فى الجواب عن الآية والحديث : إن عالم الجنة ونعيمها لايقاس بهذا العالم ونعيمه : فلا ترد عليه إشكالاته واعتراضاته .

لا يلزم التساوى فى المكان التساوى فى المكانة

ثم يقال أيضاً إن مرافقة المرء للمرء فى المكان لا يلزمها تساويهما فى المكانة والمنزلة والنعيم والدرجة . وهذا ما لا شك فيه . وقد يرافق ملك الدنيا وسلطانها أحد رعيته ، ويرافق أهله وزوجه وخدمه وأقربيه وغيرهم . ولا شك أنهم ليسوا سواء . وقد يرافق أغنى الناس أفقر الناس . وليس فى شئ من هذه المرافقات شئ من التساوى فى المقام أو فى الدرجة أو فى النعيم ، فلا إشكال إذن ولا اعتراض . ونظير هذا أن النبى عليه الصلاة والسلام — وكذا كل نبى — كان يرافق أنصاره وأتباعه فى الحياة الدنيا مع أن الفرق ثابت لا ريب فيه .

فهذا الحديث ليس للرافضى فيه مستمسك ، وليس له فيه أذن ولا بصر . فالصحابى لم يسأل النبى شيئاً لايقدر عليه ، أو شيئا لا يستطيعه المخلوق حتى يتوجه له أن يحتج به على جواز أن يطلب من المشايخ والصالحين الميتين مالايقدرون عليه وما لا يقدر عليه سوى الله ، أمثال غفران الذنوب و إرشاد القلوب وشفاء ذوى العلل . ولهذا سألوا النبى المرافقة فى الجنة ولم يسألوه دخولها ولا الإبعاد من النار والعذاب . والناس جميعاً يجدون فرقا عظيما بين سؤاله المرافقة والمصاحبة فى الجنة و بين سؤاله دخولها واستحقاقها . ولا يشكون أن أحداً لو قال : يا رسول الله أسألك أن تدخلنى الجنة وأن تبعدنى من النار وأن تغفر ذنبى وتهدى قلبى وأمثال هذه المسائل العليا ، لما كان منه عليه السلام الإنكار . وقد أنكر

وقد سألوه المرافقة فى الجنة ولم يسألوه إدخال الجنة

إنكار ماهو أقل من ذلك

ماهو أقل من هذا ومافى استطاعة البشر أن يفعلوه أحيانا .. فأنكر على من قالوا: قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق قائلا : « إنه لا يستغاث بى و إنما يستغاث بالله » وقال له وفد من الوفود يوما من الايام : أنت سيدنا وابن سيدنا . فأنكر عليهم هذا القيل قائلا : « أيها الناس! قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يغوينكم الشيطان » . وقال لهرجل : ماشاء الله وشئت . فقال « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ماشاء الله وحده » . وقيل فى حضرته : وفينا نبى يعلم مافى غد . فأنكره . وقد أنكر غير ذلك مما الفرق عظيم بينه و بين طلب إدخال الجنة والابعاد من النار . ولا يتنازع المسلمون أن طلب دخول الجنة والابعاد من النار ، وطلب غفر الذنوب و إحلال الهداية فى القلوب لا يصح إلا من الله ، وأن من طلب ذلك من غيره فقد تقحم الضلال وعدا إلى غضب الله ومقته عدوا ، و إلا لو جاز طلب مثل هذا من المخلوق لجاز أن يطلب من غير الله كل مايطلب من الله . ولكن المسلمين لا يختلفون فى أن من أجاز أن يسأل المخلوق كل مايسأل الله فهو مرتد مشرك بالله و إن كان مريداً فى نفسه كل التآويل والتفاسير والمجازات . ومما لاشك فيه أن المسلمين كانوا لا يحرصون على شئ ماحرصهم على دخول الجنة والنجاة من النار ، وقد كانوا يبيعون فى سبيل ذلك نفوسهم سائلة على ظبات الأسياف وجمرات الرماح ، وكانوا يرخصون أولادهم وأموالهم وكل مايدخل فى ملك أيديهم ابتغاء نيل الجنة وابتغاء النجاة من النار . ومع هذا الرجاء وهذا الخوف لم يجئ أن أحدا منهم سأل الرسول الجنة أو عاذ به من النار . فهل يمكن أن يكون هذا راجعاً إلى زهدهم فى هذا الذى ما كانوا يوما من الزاهدين فيه ولا من الوانين فى طلبه ؟ كلا إن هذا لا يمكن . ولكنه راجع إلى علمهم بأن طلب دخول الجنة لا يبتغى إلا من خالقها ومبدعها ، وأن الابتعاد من النار لا يطلب إلا من الله .

لماذا لم يسألوا النبي ادخال الجنة

﴿ جواب الشبهة الثانية ﴾

الكلام على الشبهة الثانية وهي حديث خازن عمر

أما الشبهة الثانية وهي أن البيهقي وابن أبي شـيبة رويا عن مالك الدار أن الناس في عهـد عمر أصابهم قحط فجاء رجـل إلى قبر النبي فقال يا رسـول الله استسق لأمتك ، فأتاه رسـول الله في المنام وقال له : « إئت عمر وأخبره أن الناس مسقون » .

فالجواب أن يقال : إن من الظلم وقلة الإنصاف والعدل أن يجعل الرافضي مثل هذه الرواية حجة في هذا الموضوع الجلل الخطير وهي ليست عن رسول الله، والفاعل ليس من أصحاب رسول الله ولا من غيرهم من المعروفين بالدين والعـلم . بل هو مجهول الحال ، مجهول الاسم ، لأن الرواية التي ذكرها لم تسمه ولم تذكر من أي قبيـل وفريق هو ، وإسنادها غـير معلوم الصحة والثبوت ، فلم تروفي كتاب من كتب الصحاح ، ولم يمحصها أو يصححها أحد من رجال الفن المحكمين في هذا الشأن الصادقين في حكمهم :

أقول . إن من الظلم وقلة الإنصاف أن يجعل الرافضي مثل هذه الرواية التي هذه حالها حجة في هذا الموضوع وهو وطائفته يردون أصح الروايات إسنادا ، ويكذبون ما اتفق عـلى روايته وتصحيحه أعلم رجال الفن بالفن ، وأعرف فرسان الحديث بالحديث ، أمثال البخاري ومسلم وغيرهما من جهابذة الرواة . فاذا لم يكن مارواه البخاري ومسلم وجميع علماء السنة والحديث حجة عندهم ولا صدقا ، فكيف تكون هذه الرواية حجة في عبادة الموتى ودعاء المشايخ الذاهبين ؟ وإذا لم يصدقوا مارواه أهل السنة قاطبة ، ولم يرتضوا أن يعدوه دليـلا في أبواب الفقه والفروع فـكيف ارتضوا أن يعدوا هذه الرواية دليلا لا يشكون فيه في موضوع التوحيد ودعاء غير الله ؟ ثم إذا كانوا لا يقبـلون ما يقوله وما يفعله أبو بكر وعمر وعثمان وجمهور الصحابة ، بل إذا كانوا يكفرو . هؤلاء ويعدونهم مرتدين خارجين من رواق الاسـلام

المدود ، مؤثرين الدنيا على الدين ، كاتمين مايعرفونه من الحق وأحكام النبوة ؟
فكيف يرتاحون لرواية قيل فيها : إن بعض الناس في عهد عمر بن الخطاب ذهب إلى قبر النبي عليه السلام وقال له استسق لأمتك . وهم لا يستطيعون أن يذكروا دليلا صحيحاً على أن الذاهب إلى القبر ، الطالب للسقيا من النبي كان من الصحابة ولا من غيرهم ، ممن عرفوا بالصدق والايمان وصحة الاعتقاد ؟؟ إن الروافض يقولون إن جميع مايرويه أهل السنة في أصح كتبهم وأنظف أسانيدهم وأوضحها لا يقبل ولا يرضى ولا يعد حجة ولاشبه حجة في أحكام المياه والوضوء وأشباه هذه الفروع . ولهذا فان هذا الرافضي يعدو على كثير من أحاديث البخاري ومسلم وغيرهما في كتابه هذا ، فيكذبها ويهجو رواتها ولا يترك من ذلك إلا ما وافق مذهبه . وقد قالوا في كتاب « أصل الشيعة وأصولها » الذي ألف للدعاية : « إنهم — يعني الامامية الاثنا عشرية — لا يعتبرون من السنة إلا ماصح لهم من طرق أهل البيت عن جدهم . يعني مارواه الصادق عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين السبط عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول الله سلام الله عليهم جميعاً .

الاسانيد المقبولة عند الشيعة

أما مايرويه مثل أبي هريرة وسمرة بن جندب ومروان بن الحكم وعمران بن حطان الخارجي وعمرو بن العاص ونظائرهم فليس له عند الامامية من الاعتبار مقدار بعوضة ، وأمرهم أشهر من أن يذكر . كيف وقد صرح كثير من علماء السنة بمطاعنهم ودل على جائفة جروحهم . » انتهى .

فاذا كان هذا رأي القوم فيما رواه الصحابة وفيما رواه أهل السنة في أصح كتبهم وأنظف أسانيدهم ، وكانت هذه مكانة أصحاب النبي عندهم ، وكان هذا مقدار اعتبارهم بماروره عن نبيهم ، وإذا كانوا لا يقبلون من السنة إلا ماجاء عندهم من طريق الصادق عن الباقر عن زين العابدين عن الحسين عن علي بن أبي طالب عن النبي عليه الصلاة والسلام ، تاركين كل سند وكل علم وكل شيء لم

يكن بالاسناد المذكور : إذا كان هذا كله رأى القوم ومذهبهم وقولهم فلماذا يحتجون بمثل هذه الرواية التى يرويها أهل السنة عن أهل السنة عن خازن عمر ، وعمر من شر الخلق عندهم ، والتى لم يصح إسنادها عند أهل السنة ، ولم يعلم الفاعل الذى جعل فعله الحجة فى الرواية ، وهو من الجائز أن يكون من شر الكفار وأضل الخليقة عند الإمامية ؟ ؟ فاذا قالوا إننا نذكر هذه الرواية وأمثالها للرد عليكم ولإلزامكم لأنكم أنتم تقبلون أمثالها وتزكون مخرجيها ورواتها — قيل أولا أنتم تجعلون كتابكم هذا حججا وبراهين على هذه المباحث وتستدلون بما فيه على جواز ما تأتونه لدى القبور والمشاهد من الفظائع والباطلات . فأنتم تحتجون بذلك كما تحاولون الرد به على مخالفيكم . وقيل ثانياً : إن هذه الرواية لم تصح إسناداً عندنا معشر أهل السنة ، ولو صحت لما كانت لدينا حجة . ذلك أن الذاهب إلى القبر المستسقى بصاحبه عليه السلام غير مسمى وغير معروف . فنحن لا نحتج بفعله ولا نقبله . لأننا لا ندعى أن كل من كانوا فى عصر عمر بن الخطاب كانوا صالحين وكانوا عالمين بالاسلام حق العلم ، علما يمنعهم من الابتداع والإحداث فيه ، وعلما يحجزهم عن أن يخطئوا السنة أو يميلوا عنها ذات الشمال أو ذات اليمين.

الرواية غير صحيحة ولو صحت لما كانت حجة لجهلنا بالفاعل

والشيعى المخالف لم يذكر لنا شيئاً من هذا ، فلم يذكر صحة الرواية عند أهل السنة على حسب شروطهم وقواعد فنهم المرسوم ، ولم يذكر لنا ذلك الذاهب إلى القبر المستسقى به حتى يعلم أن فعله حجة وأن عمله برهان لدينا . فنحن إزاء هذا نطالبه بأمرين اثنين : أولهما أن يقيم الحجة على صحة الرواية ووضوح سندها ، وثانى الأمرين أن يعرفنا بهذا الفاعل المستسقى بالنبى عليه السلام ، وأن يذكر لنا بسند واضح مشرق اسمه حتى نعرف حاله لنعلم هل قوله وفعله حجة أم ليس كذلك . وبغير هذين الأمرين لا يكون فيما ذكر شئ من معانى الحجج وصور المعارف

إننا نعلم ونقول إنه قد كان فى عصر التابعين ضالون وجاهلون ومنافقون ـ و إننا لذلك لا ندعى أن جميع من كانوا فى عصر عمر بن الخطاب معصومون من الابتداع والإحداث والضلال والنفاق . فليست أقوال جميع الناس وأفعالهم فى ذاك العهد لدينا حججاً و براهين يعارض بها الكتاب والسنة والدين والضرورة جملة وتفصيلا . .

فان قيل قد روى أن المستسقى بالنبى ، الذاهب إلى قبره هو بلال بن الحارث المزنى الصحابى وأنتم تقولون إن الصحابة عدول كلهم مبرءون كلهم من الابتداع والإحداث فى الدين ، فالجواب أن الرواية التى فيها بلال بن الحارث رواية باطلة ضعيفة ، قد رواها سيف بن عمر الضبى فى الفتوح وهو ضعيف جداً حتى لقد اتهم بالزندقة . وقد أجمعوا على ضعفه و وهاء أمره . فمثله لا يدان الله بروايته .

الوجوه الدالة على كذب الرواية وبطلان معناها

وبالاجمال فهذه القصة غير صحيحة والدلائل على كذبها كثيرة : منها أنها شاذة مخالفة لما اشتهر وتواتر عن الصحابة والسلف الصالحين . إذ ما جاء عنهم أنهم كانوا يرجعون إلى قبر النبى أو قبر غيره من الأموات عند نزول النوازل واشتداد القحط يستدفعونها بهم و بدعائهم وشفاعاتهم . بل كانوا يرجعون إلى الله و إلى استغفاره وعبادته و إلى التوبة النصوح كما قال تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ؛ يرسل السماء عليكم مدراراً » الآية . . . وقال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » وقال : « و ياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً و يزدكم قوة إلى قوتكم » الآية ، وقال « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الآية وقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » الآية .

ثانيها من ذلك

ومنها أنه قد ثبت فى البخارى و فى غيره أن الناس فى زمان عمر بن الخطاب

كانوا إذا قحطوا استسقوا بالعباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاةوالسلام وقال عمر رضى الله عنه : اللهم إنا كنا . الحديث . وهـذا يدل على أن الصحابة ما كانوا يعرفون ولا يجيزون الاستسقاء بالنبي وهو ميت . ولهذا عدلوا عنـه إلى عمـه العباس الحى . ولوكان الاستسقاء وطلب الدعاء من الميت جائزاً مشروعاً معهوداً عنـدهم لرجعوا إلى النبي واستسقوا به وتوسلوا . . وقول عمر رضى الله عنه فى « حيثيات » الانصراف عنـه إلى العباس : إنا كنا نتوسـل إليك بنبينا فتسقينا ، يدل على أن التوسل به بعد الممات غير مشروع ولا ممكن شرعاً . وقد جاء أن معاوية ومن معه من الصحابةوالمسلمين استسقوا بأحد التابعين الصالحين ، ولم يستسقوا بالنبي ولا بغيره من الأموات . ولا ريب أن التوسل لو كان جائزاً ممكناً بالأموات لكان النبي أولى بذلك من العباس ، ومن يزيد بن الأسـود التابعى الجرشى الذى استسقى به معاوية بن أبى سفيان ومن معه من المسلمين

ومنها أن أهل العلم البصراء بالاسلام وحقائقه قد ذكروا كل مايشرع عند وجود القحط . وماذكروا فى ذلك الرجوع إلى الأموات والاستسقاء بهم .

ومنها الدلائل المتكاثرة على أن الأموات لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولا نداء من ناداهم . وهذامذكور فى آيات صريحة كثيرة مثل قوله تعالى : « إنك لا تسمع الموتى » وقوله : « وما أنت بمسمع من فى القبور » .

ومنها أن الميت قد انقطع عمله كما فى الحديث الذى رواه مسلم وهو قوله عليه الصـلاة والسلام : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به » . ولا ريب أن هذا الحديث أصح وأولى بالتقديم من الرواية المذكورة .

ومنها أن النبي عليه السلام قد علّم أصحابه ما يقولون عند زيارتهم القبور بقوله و بفعـله ، وما جاء فى تعليمه الأمر بطلب الدعاء منهم والاستسقاء بهـم .

ولا شك أنه لم يكن مقصرا ولا مدخراً بياناً ولا كاتما عملا يدنيهـم من رضا الله وجنتـه . ومنها غير ذلك مما هو منثور فى أحشاء هـذا الكتاب وفى غيره . .

واذا بطل كل ماتقدم لم تدل الرواية على كل مايفعله العاكفون على القبور

ثم يقال : إذ تركنا كل ما قدمنا وسلمنا أن هذه الرواية صحيحة الاسناد ، وأن عمل ذلك الذاهب إلى القبر ، المستسقى به حجة لم يدل شئ منه على جواز ما يذهب إليـه هؤلاء القوم من طلب المشـايخ والموتى كل ما يطلب من الله كالنصرة على الأعداء وكشفاء المرضى وهداية القلوب وغفران الذنوب . و إنما تدل الرواية بعد هـذا كله على جواز الاسـتسقاء وطلب الدعاء من الأموات ، أما سؤالهم الحاجات مباشرة ـ وهذا هو أصـل قول المنازعين فى هذا الباب ـ فلا تتناوله الرواية بوجـه من وجوه الجواز والإباحة . وقد يذهب قوم ـ بل قد ذهبوا ـ إلى أن طلب الدعاء من الميتين جائز، وأما طلب الحاجات فإنهم لايجيزونه ولا يقبلونه . وليس بين الأمرين تلازم شرعى ولا عقـلى ، بل إن بينهما فرقا عظيما ، و إن كان أخفهما ذريعة إلى أشدهما . فان طلب الدعاء من الميت سبيل لاحبة ، كما حدث ، إلى دعائه مباشرة . والباطل عند أهل العلم والبصر مرفوض بوسائله وغاياته .

﴿ الشبهة الثالثة ﴾

حياة الشهداء لكلام عليها وهي الشبهة الثالثة

أما الشبهة الثالثة ، وهى قوله إن الشهداء أحياء عنـد ربهم يرزقون ، و إن الأنبياء أولى بالحياة من الشهداء ، و إن الأحياء يجوز دعاؤهم والاستغاثة بهم . فالجواب أن نقول : إن ما ذكره الله من حياة الشهداء نقض صريح على هؤلاء المخالفين لو كانوا يعلمون . ذلك أن القرآن قد نص جهرة عـلى أنهم أحياء عند ربهم . وهذه العندية ، إما أن تكون عندية حقيقية حسية ، أو معنوية مجازية . فأن كان الأول هو الحق والمعنى ـ عـلى أن يعنى به أنهـم موجودون بحياتهـم عنـد الله فوق الخـلائق ـ فهو رد على المخـالفين واضح . وذلك أن مسلما من

المسلمين لن يبيح لنفسه ولدينه أن يدعو مخلوقا نائياً غائباً عنـه واقعاً فى أقصى مكان : فى السماوات أو فى الأرض أو غيرهما . والمسلمون يعتقدون بأن عيسى ابن مريم مرفوع الى الله ، ولا يرى أحد منهم أن دعوته جائزة أو ممكنة . ولو أن نبياً من الأنبياء : محمداً أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو غير هؤلاء كان اليوم موجوداً حيا سويا ، فراح الناس يدعونه ويهتفون به فى كل مكان ومن كل مكان بكل حاجة فى الحضرة والمغيب مع البعد والقرب — كما يفعل هؤلاء فى المشايخ الميتين — لكانوا ضالين جاهلين فاعلين مالا تجيزه العقول ولا الشرع الصحيحة . وقد كان الأنبياء أحياء موجودين بين أظهر أقوامهم ، وما كانوا يدعونهم من كل مكان أو فى كل مكان ، بل كانوا لا يدعونهم إلا حاضرين شاهدين . وما حاول أحد منهم من أهل الفضل والعلم والبصر بالدين شيئاً من هذا . . . ولا يدعو مخلوق مخلوقا من كل مكان وفى كل مكان إلا إذا زعم وآمن بما زعم أن ذلك المخلوق المدعو عالم بكل شئ محيط بالعيوب ، عارف ماقرب منها وما بعد . ومن زعم هذا واعتقده فى إنسان أو فى مخلوق ما فقد شبهه بالخالق وسواه به فى صفة علم الغائبات والاحاطة بالكائنات . ومن اعتقد هذه العقيدة فى مخلوق : فى نبى أو ولى أو صالح فقد ضل الضلال البعيد وكفر بإجماع المسلمين.

تسوية الاموات بالله فى صفة عالم الغيوب

فهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والصالحين من كل مكان وفى كل مكان فى المحضر وفى المغيب على القرب والبعد لا ريب أنهم ما دعوهم كذلك إلا لزعمهم أنهم يعلمون كل شئ ويسمعون كل مسموع من قرب ومن بعد ، لا يشغلهم سماع عن سماع ، ولاصوت عن صوت ، ولايحول بينهم وبين سماع الهتاف بأسمائهم بعد ولا غيره من الشواغل . فهؤلاء الداعون للأموات يسوونهم بالله فى علم الغيوب والاحاطة بأسرار اللهجات واللغات . فهم ضالون مخطئون بلا ريب . وهؤلاء العاكفون على القبور الداعون لسكانها — وهم يعلمون أنهم أحياء عند ربهم

فوق السماوات وفوق جميع المخلوقات ـ يعتقدون فيهم هذه العقيدة النكراء من علم الغيب وعلم القريب والبعيد ، وعلم جميع اللغات واللهجات والحاجات . ولهذا يدعونهم : كل بلغته ولهجته موقنين بسماعهم دعاءهم ومعرفتهم بلغاتهم وعلمهم بحاجاتهم . فهم ضلال خاطئون .

هـذا إذا اخترنا أن هذه « العندية » فى قوله « عند ربهم » عندية حسية حقيقية . أما إذا اخترنا أنها عندية مجازية معنوية ـ على معنى أنهم أحياء فى حكم ربهم وشهادته وجزائه ومثوبته ، وإن لم يكونوا أحياء فى الواقع ولا عنـد الخلق ولا فى المشاهدة كقوله عليه الصلاة والسلام « لخلوف فم الصائم أطيب عنـد الله من ريح المسك » يعنى أن هذه الرائحة المرغوب عنها المنبعثـة من فم الصائم عنـد اشتداد جوعه حكمها عند الله أنها طيبة وأنها أطيب من ريح المسك ، وإن كانت فى الواقع والمشاهدة كريهة مرغوبا عنها ، مثل أن يقال فى الـكلام المعروف : إن سواد التقى الصالح لأشـد بياضا عنـد الله من بياض الفاجر الفاسق ، وإن درهم المخلص ينفقه فى سبيل الله لأكثر عند الله من دنانير المنافق ينفقها رئاء وسمعة وأمثال هذا من الـكلام المطروق المعروف ـ : أما إذا اخترنا هذا المذهب فى معنى عند ربهم فى الآية الـكريمة فلاشك أن الآية خارجة عما نحن فيه ، بعيدة البعد كله عن استدلال القوم ، بل كانت ردا عليهم نقضا لمذهبهم وزعمهم . وذلك أن المعنى حينئذ أن الشهداء فى الواقع أموات حقيقة ، أموات كما تدل هذه الـكلمة ولـكن حكمهم عند الله حكم الأحياء بل هم أفضل منهم لأنهم باعوه تعالى أنفسهم وباعوا كل شىء لدينه ونصرة شريعته ، فنالوا من الثواب مالا ينقطع ومالا يموت فكأنهم ماماتوا ، وكأنهم مازالوا يعملون فى رضا الله وفى تأييد الفضيلة وتأييـد الأخلاق . وذلك أيضا لأن أثر جهادهم لايزال باقيا ، ولا يزال حيا مشهوداً ، فكان الجهاد كذلك باق مشهود ، وكأنهم هم كذلك لايزالون باقين أحيـاء مشهودين .

ولكنهم أموات فى الحقيقة ، والأموات لايسمعون فلا يدعون ولا يرجون لشئ يرجى له الأحياء ، إذ قد انقطعت أعمالهم وتناثرت أعضاؤهم وأفضوا إلى دار الجزاء والثواب . فالآية ، على الاحتمالين ، نقض صريح على دعاة الأموات والمؤيدين لدعاتهم احتجاجا بالآية الكريمة .

اختيار الاحتمال الأول فى حياة الشهداء

إننا نحن نختار الاحتمال الأول ، وهو أن يكون معنى الآية الكريمة أن الشهداء أحياء بأرواحهم حياة حقيقية غيبية روحية ، ولكنهم فى حياتهم عند ربهم فى دار الخلد والجزاء والسلام . . . فهم غائبون قصيون عنا وعن أهل الدنيا لانستطيع الاتصال بهم ، ولاهم يستطيعون الاتصال بنا ، فنحن فى عالم وهم فى عالم آخر ، والعالمان مختلفان متباينان حقيقة ومعنى . فمن حاول الاتصال بأهل الآخرة من الأموات وغيرهم فقد ضل وجهل وحاول مالا يستطاع نيله ولالحاقه. ومن حاول أن يدعوهم وأن يسمعهم دعاءه ونداءه وصوته واستغاثته فقد جهل وضل . فلو أن مسلماً راح يدعو المسيح بن مريم ويستغيثه ويناديه لحاجاته ومآربه ، بحجة أن الله رفعه إليه وأنه حى عنده ، لكان عندنا وعند جميع المسلمين من الضالين الجاهلين . ولو أن مسلماً راح يدعو من خلقهم الله فى جنته من الحور العين والولدان المخلدين، بحجة أنهم أحياء ، وأن الأحياء يدعون ويستغاثون ، لكان عندنا وعند جميع المسلمين عين الضال الجاهل . ولو أن مسلماً راح يدعو شيخاً حيا ويستغيثه ويطلبه النصرة والمغوثة والعون ، وكان كل منهما : من الداعى والمدعو فى أرض ومكان لكان عند جميع العقلاء وعند جميع المسلمين من الضالين الجاهلين : هذا كله لاشك فيه . ولا ريب أن شرا من هؤلاء وأجهل وأضل ذلك الذى يستغيث الأموات ويدعوهم ويهتف بهم وبأسمائهم من كل مكان وفى كل مكان بعد ما سمع قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » . فانه إذا كان ضالا جاهلا من دعا حيا غائباً بعيداً عنه إلا أنه معه فى عالم الدنيا كان أجهل وأضل

من راح يدعو المسيح وأهل الجنة بحجة أنهم أحياء

منه ذلك الذى يدعو من هو أغيب وأبعـد عنه : من هو فى عالم الآخرة وعالم الموت والفناء . إذ لاشـك أن من هو معك فى الدنيا ـ وإن كان عنك غائبا ـ أقرب إليـك ممن هو فى عالم الأخرى . ذلك أن الأول تمـكن رؤيتـه ويمكن الاتصال والاجتماع به والاستماع إليـه بنوع من أنواع الآلات . أما الثانى فلا يمكن الاتصال ولا الاجتماع به ، ولا تمكن رؤيته ولا السماع منه إلا أن يشاء الله فتتجاوز إليه هـذه القنطرة ويطويك بساط العدم والفناء ، ويلفك أفق الموت فتغوص فى أحشائه . وشتان مابين المدعوين .

نقول ان الشهداء احياء ولكن

إذن نقول لهـذا الرافضى المخاصم : نعم إن الشهداء أحياء ، وإن الأنبياء أولى بالحياة منهم، ولـكن هذه الحياة لا تدل على جواز دعوتهم والاستغاثة بهم. وذلك لأنهم أحياء عند ربهم لا عندك ولا عنـدى ولا عند دعاتهـم الهاتفين بأسمائهم . فمن لك بأن تتصل بهم ! ومن لك بأن تسمعهم دعاءك ونداءك ونجواك وسرك وعلنك ! ثم من لك بأن يجيبوك وينفعوك لو اتصلت بهم ونفثت إليهم وأسمعتهم خطابك وهتافك ! من لك بذلك كله حتى تدعى بأنهم يعلمون الغيوب كلها ، ويسمعون الأصوات والنداءات كلها ، ويعرفون اللغات واللهجات كلها ، وتتسع آذانهم وقلوبهم وعقولهم وطبائعهم للمطالب والحاجات كلها ! وأنت إذا ماادعيت هذا كله للمشايخ أو للأنبياء والشهداء كنت عين الضال المفترى ، وكنت آخذاً من كل بدعة بنصيب ، ومن كل ضلالة بحظ وافر كثير . ولـكنك ولابد ، غير قائل بهذا وغـير قابل له . فالآية ، إذن ، رد ونقض عليك وعلى جميع الاخوان والأنصار . ولنكتف بهذا القدر جوابا عن الآية الـكريمة . ولنا فيها كلام ذكرناه فى مواضع أخرى يرجع إليه من أراد المزيد من الإبطال لهذه الحجة الباطلة .

﴿ الشبهة الرابعة ﴾

زعمه ان المسلمين قد فعلوا ذلك سلفا وخلفا

أما الشبهة الرابعة ـ وهي قوله : « إن المسلمين سلفا وخلفا ما زالوا يدعون الأنبياء والصالحين و يستغيثونهم » ـ فجوابها أن نقول : سبحانك هـذا بهتان عظيم وكذب أثيم ! هذا هو الجواب الاجمالي عن الشبهة . وأما الجواب التفصيلي فيعرف من جملة هذا الكتاب . وهل يستطيع هذا المدعي الجرئ أن يورد حجة واحدة على أن أبا بكر أو عمر أو عثمان أو علياً أو الحسن أو الحسين أو فاطمة أو غيرهم من الصحابة وقرابة النبوة ، أو أن الامام أبا حنيفة أو مالكا أو الشافعي أو أحمد بن حنبل أو غيرهم من الأئمة الصادقين المعروفين ، أولى الذكرى الطيبة والامامة الشائعة المتبعة في المسلمين ـ : استغاث بميت من الأموات ، أو دعاه لكشف ملمة من الملمات ، أو هتف به لحاجة من الحاجات وأمل من الآمال ؟ فإن لم يستطع أن يورد لنا نقلا صحيحاً عن أحد هؤلاء فليكفه هذا العجز إبطالا و إدحاضاً لمزعمه هذا .

﴿ الشبهة الخامسة ﴾

ماذكره من ذلك عن اهل العلم وكذبه وابطاله لمزاعمه الاخرى

وأما الشبهة الخامسة ـ وهي زعمه أن جماعات من العلماء استغاثوا النبي عليه الصلاة والسلام واستغاثوا قبره فأغيثوا ، مثل ما ذكر عن محمد بن المنكدر وعن أبيه ، وما ذكر عن الطبراني وأبي الشيخ وابن المقرى ، وما ذكر عن ابن الجلاد ، وما ذكر عن محمد بن أبي زرعة الصوفي وعن أبيه ، وماذكر عن أحمد بن محمد الصوفي ـ من أنهم استغاثوا بقبر النبي فأغيثوا وأعطوا ما طلبوا ـ فالجواب أن نقول ، هذا كله من أقبح الأكاذيب وأرخصها ومن أقبح الاتهام لأهل العلم ونحن لا نشك أنه لايذهب إلى هذا الذي في الحكايات ولا يفعله إلا مشرك بالله مغرق في شركه . وهـذا الذي نقله وزعم أن أهل العلم فعلوه تكذيب

منه لما زعمه وذكره فى غير موضع من كتابه من أن الداعين للأموات المستغيثين بهم لا يريدون منهم إلا الشفاعة والجاه والوساطة والوسيلة . وذلك أن هذه الحكايات التى ذكرها وكاثر بها صريحة فى أن القوم الذين احتج بفعلهم قد سألوا النبى حقيقة فأعطاهم حقيقة . ففى الحكاية التى ذكرها عن ابن الجلاد قال : « فغفوت فرأيت النبى عليه السلام فأعطانى رغيفاً فأكلت نصفه وانتبهت وبيدى النصف الآخر . . . » وفى الحكاية التى ذكرها عن محمد بن أبى زرعة الصوفى وعن أبيه وعن ثالثهما قال : « فدخلنا المدينة فأتى أبى الحظيرة وقال : يا رسول الله أنا ضيفك الليلة — إلى أن قال — فرأيت رسول الله فوضع فى يدى دارهم فبارك الله فيها إلى أن رجعنا إلى شيراز ، وكنا ننفق منها » وفى الحكاية التى ذكرها عن أحمد بن محمد الصوفى قال : « فدخلت المدينة فجئت إلى النبى عليه الصلاة والسلام فسلمت ثم نمت ، فرأيته عليه السلام فى النوم فقال لى : جئت ؟ قلت : نعم وأنا جائع وأنا فى ضيافتك ، فقال : افتح كفيك فملأهما دراهم فانتبهت وهما مملوءان » .

هذه الروايات صريحة فى ان المعطى حقيقة هو الرسول

فهذه الروايات صريحة فى أن المدعو حقيقة والمعطى حقيقة كذلك هو رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والروايات لا تحتمل غير هذا . وفيها رد واضح على هذا الرافضى وإخوانه زعمهم أنهم لا يطلبون من الأموات ، كالأنبياء والصالحين والمشايخ ، سوى الشفاعة والوساطة والوسيلة والجاه ، وقولهم إن المعطى حقيقة هو الله وحده ، وإنه هو وحده تعالى الضار النافع ، المعطى المانع . . وقد زعموا أنهم بهذا التأويل والتخريج قد حلوا هذه المشكلة ، مشكلة دعاء الموتى والاستغاثة بهم كما زعموا أنه لولا هذا التأويل وذاك التخريج لما وسعهم إلا إكفار دعاة الأموات ، وإلا إلحاقهم بالمشركين الضالين . . . ولكنهم بهذه الروايات والحكايات قد أفسدوا هذا التأويل وقوضوا ذلكم التخريج ، وأبانوا أنهم كانوا

كاذبين غاشين لأنفسهم ولمن يخادعونهم و يضللونهم بهذه التأويل من دعاة الميتين العاجزين .

يامن زعموا انهم مسلمون

فيامن زعموا أنهم مسلمون موحدون : إذا كان الرسول وغيره من الميتين يدعون حقيقة و يعطون حقيقة ، و يرجع إلى قبورهم كل مكروب محروب ، و يبسط يديه إلى أضرحتهم وأجداثهم كل راغب طالب ، و إذا كان لديها يجاب المضطر ، و يكشف الضر ، ومنها تنال الحاجات ، وعليها تلتقى الرغبات : إذا كان هذا كله للقبور والمقبور فماذا بقى ، ويحكم ، لله رب العالمين ؟ ويا من قالوا إنهم يبرءون من الشرك والمشركين قولوا لنا وافصحوا ، ويحكم ، إذا لم يكن هذا أضخم أنواع الشرك وأثقل عبودية لغير الله فماذا يكون الشرك ، وماذا يكون المشركون ؟ !

و يامن زعموا أنهم مؤمنون بالقرآن و بآيات التوحيد قولوا لنا ، و يلكم ، كيف تلاقى هذه الروايات التى ذكرتموها قول الله : « أليس الله بكاف عبده » ، وقوله : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . وكيف تقابل حكاياتكم هذه قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » وقوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » وقوله : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا . قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا » ؟

كيف تقابل هذه الروايات جملة الاسلام

أم كيف تقابل امثال قوله : « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » وقوله : « ليس لك من الأمر شئ » وقوله : « ألا له الخلق والأمر » وقوله : « فاذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » وقوله : « وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه » ؟؟ بل كيف تقابل رواياتكم هذه جملة القرآن وجملة السنة وجملة الاسلام ، وكيف تقابل صريح العقل وصحيح الفطرة ؟ لا إله إلا الله . صدق الله العظيم « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

نعم فجواب هذه الحجة الداحضة الكاذبة أن نقول للرافضى : إننا نرفض هذا النقل ونأباه ، ولا نصدقه ولا نؤمن به ، ولا نقيم له وزناً ، ولا ننعم به عيناً ، ولا نطعن به كتاب الله وسنة نبيه ، ولا نرد به جملة الاسلام وجملة الدين . ونحن نتحدى المخالفين ونطلب إليهم جميعاً تصحيح الأسانيد إن كانوا صادقين . ولكن هيهات ثم هيهات لما يذكرون .

ولا ندرى والله كيف يعقل هؤلاء ، ولا كيف يفكرون ، ولا كيف يرعون جنب الله ! إنهم يرفضون أصح الروايات وأصح الأحاديث النبوية التى اتفق على روايتها وتصديقها وتصحيحها جميع أهل السنة من أعلام الرواة أمثال البخارى ومسلم والآخرين أمثالهم . فكيف مع هذا يسوغ لهم أن يحتجوا بأمثال هذه الروايات والحكايات التى لم يروها إلا هيان عن بيان ، ولم ينقلها إلا الجهل عن أخيه الغباء عن جده الشرك بالله عن جد أبيه الوثنية الأولى الراسبة فى أعماق النفوس من بقايا الشرك العريقة فى نسب القدم ؟! اللهم إنا نؤمن بكتابك ونكفر بما يذكرون وما ينقلون خلافاً لدينك ولكتابك .

حديث اذا انفلتت دابة أحدكم فى ارض فلاة والكلام عليه

﴿ الشبهة السادسة ﴾

وأما الشبهة السادسة وهى قوله : روى ابن السنى عن عبد الله بن مسعود

قال قال رسول الله ﷺ : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد : عباد الله احبسوا ، فان لله عباداً يجيبونه » ، قال وفى حديث آخر رواه الطبرانى أنه ﷺ قال : « إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل : ياعباد الله أعينونى — وفى رواية — أغيثونى ، فان لله عباداً لا ترونهم » .

والجواب أن يقال : الكلام على هذا الحديث من وجهين : الأول الكلام فى إسناده ، والثانى الكلام فى معناه . أما الكلام على الاسناد فيقال : لا ريب بل لاخلاف فى أن مجرد رواية ابن السنى أو الطبرانى أو غيرهما — ممن لم يشترطوا الصحة والثبوت فى ما يروون — ليس حجة فى صحة الحديث وثبوته ووجوب التسليم والرضا به . فان أمثال هؤلاء من المحدثين يروون الصحيح والضعيف والمكذوب الموضوع . ولهذا فان صيارفة الحديث ونقاد الرواة يتعرضون لما يروى هؤلاء بالنقد والتخريج : بالتصحيح تارة والتضعيف أخرى والتكذيب تارة ثالثة . ولهذا أيضا يذكر الذين ألفوا فى الموضوعات أحاديث كثيرة رويت فى هذه الكتب ويعدونها فى عداد الموضوعات . وما أنكر عليهم عالم بالفن والحديث عملهم هذا ، ولا قال لهم قائل : كيف تعدون حديثا رواه ابن السنى والطبرانى موضوعاً وهما من علماء الحديث وفحول الرواة؟ والسبب فى هذا أن أكثر المحدثين كانوا يروون كل ما يصل إلى علمهم من الحديث والأخبار بالأسانيد ويتركونها كما هى ثقة بعلم القارئ ونقده وبحثه . فهم يؤدون الأمانة النقلية ، كما وصلت إليهم ويدعون تمحيصها ونقدها إلى غيرهم علماً منهم بأن مجرد روايتهم الحديث ليس تصحيحاً له ولا توثيقاً وتزكية لرواته . ولهذا فانهم أحياناً يضعفون ما يروون ، وأحياناً يصححونه ، وأحياناً أخرى يحسنونه ، وأحياناً يعللونه ، وأحياناً يسكتون عنه . ولكل فى عمله وجهة ووجه . ومثلهم فى هذه الناحية فقط رجال الادب الجامعون الراوون لكل ماوصل إليهم من الأشعار والآداب الكلامية : جيدها

و رديئها ، حسنها وقبيحها ، مقبولها ومردودها . وليست روايتهم للبيت من الشعر أو للقصيدة أو للقطعة من الكلام أو للخطبة من الخطب استحساناً مطلقا أو اختياراً لها أو رضا عنها أو تجويداً لأمرها ، كلا . بل قد يروون من الشعر ومن الكلام والخطب مايستقبحون وما يضعفون و ينقدون . نعم هنالك طائفة شرطوا على أنفسهم أن يضعوا كتبا لايذكرون فيها إلا مايختارون و يستحسنون مثل أبي تمام في ديوان حماسته ومثل غيره . وهنالك أيضاً طائفة كبيرة من علماء الحديث أخذوا على أنفسهم أن يؤلفوا كتبا خاصة بالصحاح الثوابت كما فعل البخارى ومسلم فى تأليف الصحيحين ، وكما فعل غيرهما . ولكن هؤلاء ليسوا الأكثر فى رجال الحديث . ولهذا احتاج المتأخرون من المحدثين إلى وضع الكتب المختلفة فى خدمة مادونه وخانه الأوائل منهم : فوضع بعضهم كتبا فى الأحاديث الموضوعة و وضع بعضهم تخريجاً لأحاديث طائفة من الكتب ، وبعضهم فعل غير ذلك مما هو معروف معلوم .

و بالاجمال لاشك أن مجرد رواية الحديث فى أحد هذه الكتب لا يكفى لوجوب العمل به والقبول له ، ولايكفى لتصحيحه وثبوته . فهذا الحديث الذى رواه ابن السنى والطبرانى لابد للمحتج به من التدليل على صحته وثبوته ، و بغير هذا لايقبل ولا يلتفت إليه . لأن الناس جميعاً يعلمون أن هنالك أحاديث كثيرة مدونة فى كتب مشهورة ، ولكنهم يعلمون بعد أن فى هذه الكتب أخباراً باطلة وأحاديث موضوعة مكذوبة لايصح الاعتقاد بأن رسول الله قالها . فهذا الشيعى مطالب أولاً بتصحيح الحديث الذى استدل به على عبادة الصالحين ودعاء الأموات والاستغاثة بهم . و إلا فإن مسلما عاقلا يحب دينه واعتقاده ، و يحب ربه ونبيه لايرضى بأن يقيم قواعد دينه وعقائده على مجرد روايات رويت فى الكتب لم يقم دليل على ثبوتها وصحتها ولم يعلم هو شيئاً من ذلك .

ونحن لانشك أن الحديث غير ثابت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ وقد ذكره السيوطى فى الجامع الصغير وسكت عنه ولفظه عنده : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : ياعباد الله احبسوا على دابتى، فان لله فى الأرض حاضراً سيحبسه عليكم » . وعزاه إلى أبى يعلى والطبرانى وابن السنى من حديث عبد الله بن مسعود . وقال الحافظ الهيثمى فى « مجمع الزوائد » : رواه أبو يعلى والطبرانى ، وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف . ورواه ابن السنى أيضا فى «عمل اليوم والليلة» وسنده عنده هكذا : حدثنا أبو يعلى حدثنا الحسن بن عمر بن شقيق حدثنا معروف بن حسان أبو معاذ السمرقندى عن سعيد عن قتادة عن أبى بردة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود الحديث . ومعروف بن حسان هذا ضعيف للغاية . قال الذهبى فى ترجمته من الميزان : «قال ابن عدى منكر الحديث ، قد روى عن عمر بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة » . وذكر هذا العسقلانى فى لسان الميزان وزاد : قال ابن أبى حاتم عن أبيه : مجهول . ولم يذكر الذهبى ولا العسقلانى فيه ثناء أحد . فكان حديثه باطلا لا يحل الاحتجاج به . وقال فى مجمع الزوائد أيضا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد أحدكم عونا وهو بأرض ليس بها أنيس ، فليقل : ياعباد الله أعينونى ، ياعباد الله أعينونى ، ياعباد الله أعينونى . فان لله عباداً لاتراهم » رواه الطبرانى ورجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم إلا أن زيد بن على لم يدرك عتبة . هذا لفظ الهيثمى . وهذه الرواية هى الحديث الثانى من أحاديث الرافضى . وفى سندها انقطاع وفى رواتها ضعفاء كما ذكر الهيثمى . فهذان هما الحديثان اللذان يعارض بهما القوم كتاب الله وضرورة الدين بل الأديان كلها . فهما حديثان ضعيفان لا يعتد بهما أهل العلم ولا يقيمون لهما وزنا . وقد حاول المصنف الشيعى الدفاع عن سند الحديث فقال فى كتابه ما نصه : « إن أخذ الفقهاء له بالقبول ، وذكرهم مضمونه فى آداب السفر

سند الحديث وبيان ضعفه

دفاع الشيعى عن الحديث وبطلانه

و إيراد أئمة الحديث له فى كتبهم كالطبرانى والنووى ممن عن تصحيح سنده لو سلم ماقالوه . وكيف خفى على الفقهاء والمحدثين أن مضمونه شرك أوحرام وظهر ذلك لأعراب نجد ؟ »

هذا هو دفاع الشيعى عن الحديث ومن ضعف الحديث ، وهذا لون من ألوان علمه وأدبه ومنطقه ودينه . وقد خفى على الرجل أنه لم يقل أحد من خلق الله إن رواية حديث من الأحاديث وخبر من الأخبار فى كتاب من الكتب ، مالم يشترط الصحة ، ليست دليلا على ثبوته عن النبى عليه الصلاة والسلام ،وليست دليلا على صحة معناه وصدقه؛ ولا دليلا على موافقته لقواعد الاسلام ولأصوله وفروعه وكل الناس الذين تعاطوا شيئا من علوم الرواية والحديث يعلمون أن كبار الأئمة قد يروون الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة المكذوبة . وقد عد المحدثون على مسند الامام أحمد بن حنبل — وحسبك به علما وفضلا و إمامة فى هذا الشأن — أحاديث كثيرة باطلة ، دع عنك الضعيفة ، والمعلة والشاذة . بل زعم فريق من نقدة الحديث البارعين أن فى المسند أحاديث موضوعة . هذا فى مسند إمام الحديث والفقه والعلم والتقوى أحمد بن حنبل . أما الكتب الأخرى كمؤلفات الطبرانى وابن السنى وأبى يعلى وأضرابهم فالأمر فيها أوضح وأشهر وأظهر . وأنت إذا رجعت إلى الكتب المؤلفة فى الموضوعات وجدت شيئا كثيرا من هذا ، بل إذا رجعت إلى جميع كتب أعلام النقد وكتب الجرح والتعديل وجدت الأمثولات الكثيرة لهذا النوع . وهل الأحاديث الموضوعة التى اتفق أهل الحديث على أنها كذب إلا أحاديث مروية فى كتب الأعلام من العلماء مثل الطبرانى وأبى يعلى وابن السنى والحاكم والدار قطنى والخطيب البغدادى وغيرهم من شيوخ الحديث ؟وهذا لايخالف فيه أحد من أهل العلم والرواية والدراية. ولو كانت رواية الحديث فى كتاب من الكتب كافية فى تصحيح الحديث وثبوته عن النبى

ليس كل ماروى فى كتب الحديث صحيحا

في صحة معناه لما احتاج أهل العلم إلى علم الرواية وعلم الجرح والتعديل ، ولما احتاجوا إلى علم الأسانيد وإلى علم الرجال وإلى نقدهم ونقدها وإلى الكلام عليها وعليهم تصحيحاً وتضعيفا ، قدحا ومدحاً ، قبولا ورداً ، ولكان يغني عن ذلك كله أن يذكر الحديث في كتاب من الكتب المنسوبة إلى أحد العلماء الأعلام ، ولكان أيضاً من حاول تضعيف حديث من الأحاديث المخرجة في هذه الكتب غالطا معتديا جاهلا ، ولكان أيضاً تضعيف المحدث لحديث يرويه هو جهلا وحماقة ، ولكان هذا الرافضي أعلم بالسنة وبالحديث وعلم الرواية من أمثال البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل والذهبي والحافظ بن حجر وابن تيمية وأضرابهم من أساطين العلم وأعلام النقد .

كيف يصح هذا الحديث عندهم وهم يردون جميع أحاديث أهل السنة

ثم كيف يكون إيراد المحدثين للحديث في كتبهم وذكر الفقهاء له في آداب السفر كافيا عند الشيعي في تصحيحه وثبوته وتصحيح معناه والشيعي نفسه يكذب الأحاديث التي اتفق على روايتها البخاري ومسلم وجميع المحدثين من أهل السنة، بل وهو وإخوانه الامامية الاثنا عشرية يعتقدون أن جميع الأحاديث المواترة المروية في جميع كتب أهل السنة وفي أصحها وأجودها ، الواردة في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعائشة وحفصة وغير هؤلاء من كبار الصحابة وأئمة المسلمين : يعتقدون أن جميع هذه الأحاديث مكذوبة موضوعة على النبي عليه الصلاة والسلام ، بل يعتقدون أن جميع الأخبار الدالة على إيمان هؤلاء وإسلامهم أخبار مكذوبة باطلة ، ويعتقدون أيضاً أن جميع الروايات المروية عن هؤلاء الدالة على صدق إيمانهم وإسلامهم ودينهم موضوعة أو صحيحة ولكنها نفاق منهم . . . وقوم يزعمون أن كل حديث يدل على إيمان أبي بكر وعمر وكبار أصحاب النبي حديث مكذوب موضوع – وإن روى في جميع الكتب – كيف لا يستحيون من أن يزعموا أن إيراد الطبراني والنووي لهذا

الحديث برهان على صحة سنده وصحة معناه ووجوب العمل به ؟

ولا تتنازع الشيعة الاثنا عشرية ، طائفة هذا الرجل، أن كل حديث لم يرد في كتبهم من طرقهم حديث لا يجب قبوله ولا تصديقه ولا الإيمان به ولا الاعتراف بصحة معناه ، وإن رواه أهل السنة قاطبة ، بل وإن رووه في كل كتاب من كتبهم ، وقال به كل قائل ، وعمل به كل عامل منهم . بل ولو رواه جميع الصحابة البكريين العمريين ، ثم رواه عنهم جميع التابعين البكريين العمريين ، ثم رواه عن التابعين جميع من بعدهم من البكريين العمريين ، وهكذا إلى أن يتصل بنا : إن كل حديث يروى كذلك هو حديث مكذوب مزور عند الامامية الاثنا عشرية ما لم يرووه هم بطرقهم عن أئمتهم الذين زعموهم معصومين ، بل لقد غالى القوم في باطلهم هذا حتى زعموا أن رواية الحديث في كتب أهل السنة من الدلالات على كذبه ووضعه وبطلانه وفساد معناه ، ومنافاته لدين الله . وقد شادوا على هذا الباطل الذي لا باطل مثله ما زعمه طوائف منهم من الكفر الذي لا يماثله كفر في الاسلام وهو ما زعموه من تحريف القرآن ونقصه وحذف أشياء كثيرة منه وزيادة أشياء فيه . وعندهم أن نقل المسلمين له وحفظهم إياه ومحافظتهم عليه في جميع العصور هكذا لا يدل على صحته ولا على أنه لم يحرف ولم يزد فيه أو ينقص منه . وقد زوّر أحد مشايخهم كتابا يشيد به هذا الكفر سماه (فصل الخطاب في تحريف كلام رب الأرباب) وقد طبعوه ونشروه في إحدى بلادهم . وسوف نتحدث عن هذا الكتاب في فصل سوف يجيء من هذا الجزء .

نحن لا ندعي السبق ولكن ندعي الاقتداء والتأسي

ثم ما هذا التعبير بأعراب نجد ؟ إن هؤلاء الذين يسميهم أعراب نجد لا يدعون لأنفسهم السبق فيما هم فيه ، ولا يدعون أنهم أحدثوه أو ابتدعوه أو هدوا إليه وحدهم ، بل كل ما يدعون ويروون أن يكونوا على نهج السلف الصالح والرعيل

الأول الذين أخبر الله عن رضاه عنهم وسبقهم إلى الخيرات والطاعات كالصحابة الذين لا يرضاهم الشيعة ، وكالأئمة من التابعين ، وكالأئمة الأربعة ، وكأهل الحديث . وكفى بهؤلاء القوم مفخراً لمفتخر ، ومقتدًى لمن رام الاقتداء والاهتداء . وهؤلاء الذين يسميهم أعراب نجد ماضعفوا هذا الحديث إلا لأن أهل الحديث وأهل الأسانيد والروايات قد ضعفوه قبلهم ، والذين ضعفوه مثل الحافظ الهيثمى وغيرهم لم يكونوا من أعراب نجد .

الهجاء الصحيح والسبة اللازمة الفاضحة

ألا يرى هذا الرافضى أن الهجاء الصّحيح والسبة اللازمة الفاضحة أن يقول قائلون إنه يمكن أن يكفر بالله و بالرسول وبالاسلام أبو بكر وعمر وعائشة وحفصة وخالد بن الوليد وغيرهم من كبار الصّحابة ، و يؤمن بالله و برسول الله جهال الشيعة وأغبياء الإماميــة ، بل أن يجهل هؤلاء الاسلام والحق وكل ما تدعيــه الشيعة الاماميــة من الوصية والعصمة والرجعــة إلى آخر ما يذكرون ثم يعلم ذلك كله جهال المتشيعين و بلداء الطائفــة ، وأن يظلم أبو بكر وعمر وعثمان عليا وفاطمــة بضعة النبى و بنيها و يساعدهم عــلى ظلمهم سائر الصّحابة أو جماهيرهم ، ثم يجئ هؤلاء المغبونون يحـاولون الانتصاف لهـؤلاء المظلومين من هؤلاء الظالمــين ، وأن يجهل جميع المسلمين الأولين ما فى عبادة القبور والعكوف عليها وعلى بنائها وتشييــدها وتعليق المعلقات عليها وقصــدها من كل مكان ودعائها وندائها من خير وفضــل ومثوبة ثم يظفر بذلك كله هؤلاء الشيعــة ، وأن يفوت أهل السنة جميع ما عنــد الشيعة الامامية من الحــق والدين والروايات وجميع ما لذلك من ثواب وجزاء ، وأن يفوت كل من ليس إماميا شيعيا الحق والهــدى والصّحيح من الاسلام ثم يختص به هؤلاء الظالمون لأنفسهم : هذا كله هو الهجاء الصحيح والسبة الفاضحة اللازمة .

فالحديث إذن غير صحيــح الاسناد ، فلا يعارض به كتاب الله وسنة نبيه .

وجملة دينه وضرورة العقل وصحيح الفطرة

الكلام على معنى الحديث

هذا هو الكلام على السند . وأما الكلام على المعنى فالجواب أن يقال : إن الحديث، إن كان صحيحا ، لا يمكن أن يكون دليلا على صحة دعوة الأموات وذلك ظاهر بأمور : أولها قوله فيه : « وهو بأرض ليس بها أنيس » فان هذا صريح فى أنه يدعو حيث لا إنسان لا من الأحياء ولا من الأموات . وإذن فالدعوة ليست للأموات . وثانيها قوله « بأرض فلاة » . فان هذا يدل على أن من أراد عونا أو أضل شيئا وهو فى الصحراء حيث لا شيخ ولا صالح ولا ولى ولا نبى ولا إنسان لا من الأحياء ولا من الأموات ينادى النداء المذكور . ومن المعلوم بالضرورة والبداهة أن من كان فى الصحراء لا يجوز له أن ينادى البدوى أو الرفاعى او الجيلانى أو الحسن أو الحسين فى المصر . ومن نادى الموتى فى الأمصار وهو فى الصحراء وفى الفلوات فقد زعم أنهم يجيبون من كل مكان وفى كل مكان ويسمعون كل داع ومناد قريب وبعيد . وهذا هو الضلال ، لأن فيه الاعتقاد بأنهم يعلمون الغيوب ، والاعتقاد أيضاً بأن صفة السماع فيهم غير محدودة ، وهذه هى جرثومة الضلال الكثيف . فلاشك إذن أن من قيل له ادع وأنت فى الصحراء لم يرد أن يدعو الأموات والصالحين والمشايخ المدفونين فى المدن والأمصار بالضرورة . وثالث الأمور أنه لو كان المنادَى هنا من الأموات لقيل : من أضل شيئاً وأراد عونا فليذهب إلى الشيخ فلان أو إلى ضريح النبى عليه السلام أو إلى ضريح غيره من الأنبياء والصالحين وليدعه وليسأله العون ورجع الضالة الغائبة ، لا أن يقال له : فليناد فى الصحراء ياعباد الله أعينوا أو أغيثوا . فإن هذا صريح فى أنه لا يعنى به مشايخ الموتى . ورابعها أنه لو كان المراد ما زعم المخالفون لقيل : من أضل شيئا وأراد عونا فليناد يارسول الله أو ياأبا بكر أو ياعمر أو ياعثمان أو ياعلى أو ياحسن أو ياحسين ، أعينونى أو أغيثونى ونحو ذلك . ولم يصح

امور دالة على ان التحديث فى الحديث من غير الاموات

أن يقال : فليناد ياعباد الله أعينونى . فان من عباد الله من لا يصح عونهم ومن لا تجوز الاستغاثة بهم . وخامسها لو كان المنادى فى هذا الحديث من الموتى لما قيل من أضل شيئا وهو بأرض فلاة فليناد بل لقيل من أراد شيئا ، أو من رهب ورغب ، أو من خاف ورجا ، أو من كانت له حاجة ومسألة فليدع عباد الله الصالحين ولينادهم وأمثال هذا . وذلك أن إضلال الدابة فى الصحراء حاجة صغيرة نادرة من حاجات الانسان الكثيرة المتوافدة عليه ما دام حياً . ولا يصح إذا ما أريد التعريف بما يفعل إزاء جميع الحاجات أن يؤتى بالأندر الأقل والأخف الأصغر . ولا يفعل مثل هذا إلا من كان لا يريد التفهيم والتعليم . ونزه الله نبيه عن هذا التضليل والالغاز . وسادسها أن قوله : « فان لله حاضرا سيحبسه » يدل على أن المنادى من الحاضرين الشاهدين . والأموات الذين فى المدن ليسوا من الحاضرين ولا من الشاهدين لمن دعاهم وناداهم وهو فى الصحارى والفلوات . فالمنادون فى الحديث من غير الأموات يقيناً ، بل قوله فيه : « فان لله حاضراً سيحبسه » يدل دلالة جلية على أن من ليس حاضرا لا ينادى ولا يدعى . والذين يدعون الأموات و ينادونهم يدعون و ينادون غير حاضرين وغير شاهدين بلا ريب . فهم غالطون بظاهر الحديث الذى جعلوه من براهينهم على خطئهم . وسابعها أن قوله : « فان لله عباداً يجيبونه » دليل جلى على خطأ المخالفين و بطلان قولهم و زعمهم . وذلك أنهم يزعمون أن الأموات المدعوين لا يجيبون ، وأن دعاتهم لا يريدون منهم أن يجيبوا ، ولكنهم يزعمون أنهم يشفعون فقط عند الله لمن دعاهم ليجيبهم و يعطيهم . فالذى يجيب عند القوم هو الله وحده لا شريك له . ولكن هذه اللفظة فى هذا الحديث تصرح بأن المنادين المدعوين هم الذين يجيبون ، وهم الذين يغيثون . وثامنها قوله : « فان لله عباداً لا ترونهم » نص أو كالنص فى أن هؤلاء المنادين من غير الأموات ، إذلو كانوا منهم أو كانوا إياهم

لقيل : فان المشايخ والصالحين ، أو الأنبياء والمرسلين ، أو إخوانكم من المؤمنين الذاهبين ، يجيبونكم أو يسمعونكم أو نحو ذلك . أما إذا قيل : فان لله عباداً لا ترونهم ، أو لا تراهم فلا ريب عندنا فى أن التحديث عن غير الأموات ، وهذا يعرفه كل من يعرف .

سؤال وجوابه

هذه أمور ثمانية تدل مجتمعة دلالة قاطعة على أن الحديث المذكور ليس تحديثا عن الأموات ولا عن دعوتهم والاستغاثة بهم . فاذا ماقيل : من المنادون المرادون إذن فى هذا الخبر ؟ فالجواب أن نقول : ليس بلازم أن نعرفهم ولا أن يعرفهم غيرنا ، لأن الحديث ، إن صح ، لم يعرفهم ولم يذكر مايدل عليهم ولا على صفتهم . فالجائز إذن أو المطلوب من المسلم إن كان الخبر صحيح السند — وهو غير صحيحه — إذا أضل دابة فى الصحراء وأراد أن يعمل به أن يقول كما فى نصه : ياعباد الله احبسوا على دابتى ، أو ياعباد الله أعينونى . ولا ينطق بغير ذلك من الدعوات والكلمات كأن يسمى أحدا : شيخا أو صالحا أو نبيا فى دعوته وندائه . ومن فعل ذلك فقد خالف الحديث وصنع مالا علم له به وما يجوز أن يكون عين الخطأ والضلال والجهل ، وماقد يؤاخذ عليه بلا ريب . فان قيل أيجوز أن يكون هؤلاء الذين أمر بدعائهم وندائهم من الملائكة ؟؟ قلنا فى الجواب : نحن لا نقطع بشئ من هذا فى هذا المقام إلا أن الذى نقطع به ونقوله هو أنه لا يجوز لمن أحب أن يعمل بالخبر أن يدعو الملائكة أو أن يدعو الدعاء المذكور مضمراً فى نفسه الملائكة أو غيرهم معينين ، لأن الحديث لم يذكر شيئا من هذا . ولكن لا ريب لدينا أن دعوة الملائكة غير جائزة للأدلة والحجج الناطقة التى ذكرناها فى الفصل الآنف من هذا الجزء .

سؤال آخر وجوابه

فان قيل أيضا : ألا يمكن أن يكون المنادون هم الجن أو هم من الجن ؟ قلنا فى الجواب : نحن لا نقطع بشئ من هذا النوع أيضا لأن الحديث لم يذكره ولم

سؤال آخر وجوابه

يشر إليه ، فيجب على العامل به أن يلتزم نصه ولفظه وأن يدع ماعداه وقوفا مع النص وعملا به وحـذاراً من الزلل والخطأ ،غـير أننا لانشك فى بطلان دعوة الجن والاستغاثة بهـم لأجل الحجج والبراهين الصحيحة الباهرة التى قدمناها فى البحث السابق .

فاذا ماقيل حينئذ : ماذا يراد بالحديث ومن المعنيون به ؟ قلنا لامانع أن يكون مرادا به بعض الأحياء البشر ممن يوجدون عادة فى الصحارى والقفار ، فيكون فى نداء المنادى الذى أضـل دابته تنبيه لمن لعـله يكون موجوداً فى ذاك المـكان وتلك الناحية . فلا يكون فى هـذا النداء شئ من دعاء الموتى أو دعاء الملائـكة والجان ، بل لايخرج حينئـذ عن أن يكون من دعاء الحى وسؤاله مايقدر عليـه عادة . وقوله فى الحديث « فان لله عباداً لاترونهم أولا نراهم » لايأبى هذا الاحتمال ولايأبى هذا الرأى ، وذلك أنه يجوز أن تكون فى أرض فلاة لاترى فيها أحـداً ولاتسمع لشئ صوتا ولاتحس له أثرا ، فتنادى النداء المذكور فى الرواية فيتاح صـدفة وقدراً أن تجد من يجيبك ومن يسمع صوتك ونداءك فيعينك عـلى ما أردت ودعوت .

الفرق بين الدعاء المطلق وبين دعاء المخلوق المعين

والذى لاشك فيه أن هنالك فرقا شاسعا بين أن تدعو مخلوقا من الأموات معينا باسمه مثل أن تقول يابدوى أو ياأبا بكر أو ياعمر أو ياحسن أو ياحسين احبس على ضالتى أو أعنى عـلى أمرى ، و بين أن تقول ، مطلقا قولك مرسـلا لخطابك ونداءك : ياعباد الله احبسوا على ضالتى ، أو أعينونى ، أو أغيثونى . لأنك إذا دعوت صالحا أو نبيا معينا باسمه ووصفه ونعته وطلبت إليه أن يعينك وأن يغيثك وأن يحبس عليك دابتك وضالتك فقـد اعتقـدت بلا ريب أن ذلك النبى أو الصالح المدعو المهتوف به قادر على إجابتك وسماع صوتك من كل مكان وفى كل مكان ، وأنه يعلم ماقرب ومابعـد وماخفى وعلن ، وأنه بعـد ذلك ذو سر عظيم

وسلطان قاهر واسع ، حتى إنه ليقدر على إجابة الطلبات المختلفة ، وسمع الاصوات كلها على بعدها واختلافها أيضا ، و يعلم بالمنادين له على كثرتهم وتفرقهم واختلافهم أيضاً . وهذا كله يستلزم التأليه والعبادة ، وهذا كله ضلال مستقل قائم بنفسه .

أما إذا دعوت دعاء مطلقا مرسلا قائلا : يا عباد الله احبسوا أو أعينوا أو نحو ذلك ، فليس فيه شئ من تلك الأمور الخاصة بالله الموجبة للشرك والضلال . وهذا لأنك قد تكون سليم الاعتقاد والدين من الشرك والغى والابتداع ، فلا ترى أن أحداً مع الله يعلم الغيب أو يعلم البعيد والقريب ، أو يقضى الحاجات على اختلافها وتباينها ، أو يصح أن يدعى و ينادى من كل مكان ، بحيث تعتقد أن الأموات والأشياخ لا يصح أن يدعوا وأن يستغاثوا وأن ينادوا لكشف الضراء وجلب النعماء : يجوز أن تكون بهذا المكان من طهارة الاعتقاد ونقائه وصحته من العلل والأمراض ، ومع هذا كله تقوم فى الصحراء وفى جوف القفر البلقع — وقد ضل لك ضال — فتقول : يا عباد الله احبسوا أو أعينوا أو أغيثوا معتقدا أو مجوزا ان هنالك — حيث يذهب صوتك وحيث يتسع نداؤك — من يجيبك ، ومن يرد عليك ضالتك وحاجتك ، ثم قد تكون فى هذا الظن والأعتقاد مصيبا ، وقد تكون مخطئا ، أعنى أنه قد يكون ثمة من يجيبك و يسمع صوتك ، وقد يذهب نداؤك و رجاؤك على أجنحة الريح ، فلا تجد من يُجيب ولا من يسمع . وليس فى الحالتين ضلال ولا سوء اعتقاد ، ولست فى هذا النداء والرجاء عابداً ولا مؤلهاً لأحد سوى الله ، و إنما أنت حينئذ بشر ظن ظنا فعمل بظنه ، والظن قد يخطىء وقد يصيب . ولكن لا ريب أنك فى ندائك و رجائك هذا مخالف كل المخالفة لدعاة الأموات العاكفين على الأجداث كما تقدم . وما مثل هذا إلا إنسان أعمى يقف فى الطريق العام ، و يصادف أن يكون الطريق خاليا ، فيقول : يا رجلا أو يا فلان خذ بيدى أو أرشدنى إلى الطريق . فاذا نادى أعمى هذا النداء ،

هذا كقول الاعمى يا رجلا خذ بيدى

وطلب هذا الطلب ، و رجا هذا الرجاء ، وقدر أن لا يجد أحداً وألا يكون هناك من يسمعه ومن يجيبه ، لم يكن قائلا إثماً ولا طالباً حراماً ، ولا معتقداً شركا أوضلالا لأنه لم يعتقد فى أحد سرا من الأسرار ، ولا سلطانا على علم الغيوب وقضاء الحاجات كلها وعلم القريب والبعيد كدأب الداعين للأشياخ من الأموات .
وفرق عظيم بين نداء هذا الضرير و بين أن يقف ضرير آخر فى الصحراء قائلا : يا بدوى أو يا رفاعى أو يا حسن أو حسين أو عبد القادر الجيلانى ، خذ بيدى أو اهدنى الطريق أو أنقذنى مما أنا فيه أو رد على بصرى أو اسقنى أو اطعمنى أو نحو هذه المطالب الكبيرة . . . ولا يشك إنسان فى الفرق بين الموقفين والاعتقادين والنداءين والضريرين . ولا يشك مسلم فى ضلال هذا الأخير وخروجه على الاسلام وعلى التوحيد وشركه بالله رب العالمين . وليس كذلك الضرير الأول المنادى من عساه يكون موجودا من الأحياء ليأخذ بيده ويهديه السبيل .

مثل المنادي للاموات من كل مكان والقائل احبسوا على دابتي

فالذى يقف فى الصحراء وينادى ياعباد الله احبسوا على دابتى أو أعينونى مريداً بذلك الأموات والأشياخ من سكان القبور ، مامثله إلامثل هذا الضرير المنادى فى صحرائه للأموات . والذى ينادى هذا النداء من قلب الصحراء مريداً بندائه من عساه يكون موجوداً حاضراًمن الأحياء مامثله إلا مثل الضرير الواقف فى عرض السبيل قائلا : يارجلا خذ بيدى ، قاصداً من قد يسمعه من الأحياء . ولا ينازع عاقل فى الفرق بين الأمرين والرجلين.وهذا المثل الصحيح الذى ضربناه يفسد على المخالفين مثلهم المشهور وقولهم المعروف الذى يدافعون بهعن شرك المشركين وضلال الضالين ... أعنى قولهم :إنه لو فرض أن الاموات لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولايقدرون على إعطاء من سألهم ورجاهم لما كان فى هذا شىءمن الشرك والضلال ألبتة ، و إنما يكون ذلك حينئذ خطأ مجرداً لا أكثر.

ولا أقل . . . قالوا : ومثل هذا أن تطلب إلى مقعد أن يقوم وأن يمشى حاسبا أنه قادر على ذلك ،وأن تطلب إلى أعمى أن يقرأ وأن ينظر حاسباً أنه غير أعمى وأمثال هذا. قالوا : و بهذا يخاص دعاة الموتى من الشرك والضلال وفساد الاعتقاد

ولكن فات هؤلاء المنتصرين للعاكفين على الاجداث الفرق العظيم بين من دعا حيا وطلب منـه أمراً ظاناً أنه عليه قادر ، و بين من دعا الموتى وسألهم حاجاته وآماله وأغراضه ومآربه واستدفع بهم مخاوفه وأسباب خشيته . والفرق بين الأمرين واضح جلى لا يجوز أن يدق على أفهام من يتصدرون للتأليف فى أمهات الدين ولإرشاد الناس ، ومن يحاولون ان يحتازوا الزعامتين : الدينيـة والعلمية . وذلك أن الداعى للحى العاجز ــ ظاناً أنه غـير عاجز ــ لم يعتقد فيـه شيئاً من الاعتقادات الغالية الفاسـدة ، ولم يهبه صفة من صفات الله مثل علـم الغيب وعلم القريب والبعيد والحاضر والغائب ، ومثل القدرة المطلقة على قضاء الحاجات والرغبات ، ولم يعتقد فيه سراً من الأسرار ولا سلطانا من السلاطين الغيبية ، ولم يعتقد فيه شيئاً فوق الأسباب العادية ، ولم يهبه تلك الرهبة النفسية ، أو يرغب فيه ذلك الرغب المخالف للرغبات المعهودة بين الحى والحى والحاضر والحاضر ، ولم يخشه ويحذره على القرب والبعد و فى الحضرة والمغيب ، ولم يقرر فى نفسه قرار الأموات والأشياخ الصالحين أو من زعموا صالحين من الطالحين فى نفوس دعاتهم الهاتفين بأسمائهم . هذا كله لم يعتقد منه شيئاً ذلك الذى يدعو الحى العاجز حاسباً أنه غير عاجز ... أما الذين يدعون الأموات والأشياخ الصالحين فانهم قد اعتقدوا فيهم جميع هذه الأمور حتى قاموا منهم مقامات العبيد الأرقاء الأذلة الصاغرين من الاله ، وحتى هبطوا إليهم فى قبورهم بكل ما يرتفع به العابد الراشـد إلى مقام المعبود الحق من الأشياء الظاهرة الصورية ، والمعانى الباطنية الروحية الحقيقية ، حتى أرونا هذه الوثنية النكراء المنتشرة اليوم وقدما !!

فليس هذا كهذا

أضرحة الميتين فى أكثر البقاع الاسلامية . . . إذن فقياس هذا على هذا من القياس المرغوب عنه ، و إذن فالدفاع عن عبدة المشايخ والأموات بهذا الأسلوب من الدفاع الخاسر الباطل ، و إذن فالحجاج عن المشركين بهذا المثل من الحجاج الداحض .

والحاصل أن هذا الحديث ، إن كان صحيحاً ، فالواجب على العامل به أن يأخذ بلفظه ونصه دون أن يزيد أو يقيس عليه أو يستدل به على غير ماورد فيه بعد أن يعلم أن دعوة الأموات والجان والملائكة باطلة ممنوعة بالدلائل والبراهين التى قدمنا فى البحث السابق . ومن جعل هذه الرواية دليلا على جواز دعاء الميت أو دعاء عالم الجان أو عالم الملائكة فقد زعم مالا قبل له باقامة الحجة عليه ، وما يعوزه أن يجد له فى ألفاظ الرواية أو فى فحواها ما يصححه أو ما يجعله جديرا بالاحترام والالتفات إليه . فهؤلاء المحتجون بالرواية على ماهم فيه من الفوضى الاعتقادية والمظاهر الوثنية الإشراكية كاذبون على الرواية وعلى نصها وعلى روحها ومعناها . هذا لو كانت صحيحة ولكننا لا نشك فى ضعفها و بطلانها ونكارتها . والله أعلم .

﴿ الشبهة السابعة ﴾

أما الشبهة السابعة — وهى ما جاء أن بلال بن الحارث ذبح شاة فوجدها هزيلة فصار يقول : وامحمداه ! وما جاء أن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام كان شعارهم فى قتال مسيلمة الكذاب : وامحمداه ! وما جاء أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقيل له اذكر أحب الناس إليك فقال : وامحمداه . فانطلقت رجله — فالجواب عن هذه الشبهة أن نطالب أولا المخالفين بتصحيح الأسانيد و إثبات هذه الروايات . وقبل أن يقيموا الحجة على صحتها وثبوتها بالطرق العلمية الفنية الصحيحة لا يلتفت إلى شبهتهم هذه ولا يعبأ بها ، ولا يعبد الله بها إلا كل من هان عليه

جواب الشبهة السابعة وعدم الروايات المزعومة

دينه وهانت عليه نفسه وعقله ومنطقه، ولا ريب في أن كل من أورد حجة كان الواجب عليه تصحيحها وإثباتها لكي تقبل وتحترم، وإلا فالدعاوى كثيرة والكذب أكثر. فهذه الحجة مردودة على المخالف وعلى من نقلها عنه ومن قلده فيها حتى يصححها إما بتصحيح أئمة هذا الشأن وهم المحدثون، وإما بالتدليل على صحتها بالأساليب الفنية الصحيحة المقبولة التي شادها وخلفها رجال الحديث الأبرار. فإن من المعلوم الجلي أن قول الشيخ دحلان — الذي ينقل عنه هذا الرافضي —: صح عن الرسول أو عن صحابته كذا وكذا، ليس من العلم في قليل ولا كثير، وليس من البراهين في قبيل ولا دبير. فالشيخ دحلان ونظراؤه، كهذا الشيعي، بعداء عن معرفة صحيح السنة من ضعيفها، قاصرة خطاهم عن إدراك هذه الغاية ومن هذه الصناعة العلمية الجليلة بلا شك؛ وهم إذا نقلوا نقلا مجرداً كانوا متهمين، وكان الاعتماد عليهم وعلى نقلهم باطلا وخطأ لتغلب أهوائهم على دينهم وتقواهم، وجهلهم على علمهم ومعرفتهم، فهم مصابون بمرض الهوى، وعليهم مصاب بداء الجهل، ومن وقع بين الجهل والهوى لم يصح الركون إليه، ولا الاعتماد عليه. فنحن لا نقبل هذه الروايات بمجرد أن قال الشيخ دحلان أو قال الشيخ محسن الأمين العاملي: إنها صحيحة ثابتة. والكتاب والسنة مناه صريحة عن الأخذ بما لم تعلم صحته وبما لم يقم الدليل عليه. وقد أمر القرآن الكريم والسنة بالأخذ بالعلم والحجة والبرهان، وأمرا بالسير تحت الضوء وفي وضح النهار الواضح، ونهيا عن الأخذ بالظن والخرص والزعم والجهالة، وعن السير في الظلام وتحت أجنحة الليل الداكن، وأمرا بالتبين وبالتثبت، ونهيا أن يقفو المرء ما ليس له به من علم ولا حجة. وقد كان من كلام النبوة الصحيح: « الظن أكذب الحديث » « كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع ». وقد قيل: لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، وقيل أيضاً: إن السند دين، فانظروا عمن

تأخذونه من دينكم ، وقد بين ذلك المسلم الذي يشهد بعقيدته وديانته على مجرد روايات قال فيها الشيخ دحلان ومحسن الأمين العاملي ، إنها قد صحت ، دون أن تقوم الحجة على صحتها . فنحن نرفض هذه الروايات كلها ، وكذا يرفضها كل مسلم صحيح الاسلام والعقل والعلم ، ما لم يقم على صحتها وثبوتها ؛ لأنها لم ترد في كتب الصحاح المجودة التي تعنى بروايتها فيها عن رواتها . وعلى المخالف المستدل الاثبات والبيان .

(١) أما حديث خدر الرجل فقال ابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة :

الروايات في خدر الرجل وتخريجها وبيان طرقها

حدثني محمد بن إبراهيم الانماطي وعمرو بن الجنيد بن عيسى قالا : حدثنا محمود بن خداش حدثنا أبو بكر بن عياش حدثنا أبو إسحاق السبيعي عن أبي شعبة ، أو في الحجة ، عن أبي سعيد قال : كنت أمشي مع عبد الله بن عمر فخدرت رجله فقال له رجل : اذكر أحب الناس إليك . فقال (يا محمد) فقام فمشى .

. . . حدثنا جعفر بن عيسى أبو أحمد حدثنا أحمد بن عبد الله بن روح حدثنا سلام بن سليمان ، وفي نسخة ابن سلم ، حدثنا غياث بن إبراهيم عن عبد الله ابن عثمان بن خثيم عن مجاهد عن ابن عباس قال : خدرت رجل رجل عند ابن عباس فقال ابن عباس اذكر أحب الناس إليك . فقال : محمد ﷺ ، فذهب خدره .

(٢) حدثنا محمد بن خالد بن محمد البرذعي حدثنا حاجب بن سليمان حدثنا محمد بن مصعب حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الهيثم بن حنش قال : كنا عند عبد الله بن عمر فخدرت رجله فقال له رجل اذكر أحب الناس إليك فقال : يا محمد ﷺ .

(٣) وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك في جارية : إذا خدرت له رجل دعاك

وقال إبراهيم بن المنذر : أهل المدينة يعجبون من حسن بيت أبي العتاهية :

. . . وتخدر في بعض الأحايين رجله . . . فإن لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر . . .

و روى محمد بن زياد عن صـدقة بن يزيد الجهنى عن أبى بكر الهـذلى قال:
دخلت على محمد بن سيرين وقد خدرت رجلاه فنقعهما فى الماء وهو يقول :

إذا خدرت رجلى تذكرت قولها * فناديت ابنى باسمها ودعوت
دعوت التى لو أن نفسى تطيعنى * لألقيت نفسى نحوها فقضيت

فقال ياأبا بكر تنشد مثل هذا الشعر ؟ فقال يالكع وهل هو إلا كلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيحه .

أخبرنى أحمد بن الحسن الصوفى حدثنى على بن الجعد حدثنا زهير عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن بن سعد قال كنت عند ابن عمر فخدرت رجله . وذكر الحديث مثل ما تقدم . هذا كله ذكره ابن السنى فى كتابه عمل اليوم والليلة .

السند الاول وبيان علله وضعفه

وأسانيد هـذه الروايات : أما السند الأول فهو محمـد بن إبراهيم الأنماطى وعمرو بن الجنيد بن عيسى ـ معا ـ عن محمود بن خـداش عن أبى بكر بن عياش عن أبى إسحاق السبيعى عن أبى شعبة أو أبى سـعيد عن ابن عمر . . .
أما الأنماطى فذكره الخطيب فى التاريخ ولم يذكر فيه مدحا ولا قدحا غير أنه قال حدثنى الحسن بن محمد الخلال أن يوسف القواس ذكره فى جملة شيوخه الثقات . ولم نجد له ترجمة غير ما ذكر الخطيب . وأما عمرو بن الجنيد بن عيسى فلم نجد له ترجمـة مطلقا . وأما محمود بن خداش فثقة مشهور . وأما أبو بكر بن عياش فامام معروف مخرج حديثه فى الصحاح إلا أن النقاد من علماء هـذا الشأن ذكروا أنه كان يهم و يغلط كثيرا ، وأنه قد تغير بعض الشئ . وقد قال الذهبى فى ميزانه عنه: « صدوق ثبت فى القراءة ولـكنه فى الحديث يهم و يغلط ، وهو صالح الحديث ولـكن ضعفه محمد بن عبد الله بن نمير . وقال أبو نعيم لم يكن فى شـيوخنا أكثر غلطا منه . وقال أحمد ثقة ربما غلط ، وهو صاحب سنة وقرآن . وكان يحيى بن سعيد لا يعبأ به ، إذا ذكر عنده كلح وجهـه . وقال ابن معين ثقة كثير الغلط

جدا ، وكتبه ليس فيها خطأ » . وذكر مثل هذا العسقلانى فى تهذيب التهذيب ، و روى تضعيفه عن جماعة وتوثيقه عن جماعة أخرى . قال وكان يحيى القطان وعلى ابن المدينى يسيئان الرأى فيه ، وذلك أنه لما كبر ساء حفظه فكان يهم إذا روى . وقال العجلى : كان ثقة قديما صاحب سنة وعبادة ، وكان يخطئ بعض الخطأ . وقال ابن سعد : عمر حتى كتب عنه الأحداث وكان صدوقا ثقة عارفا بالحديث والعلم إلا أنه كثير الغلط . قال وقال أبو عمر بن عبد البر : كان الثورى وابن المبارك وابن مهدى يثنون عليه ، وهو عندهم فى أبى إسحاق مثل شريك وأبى الاحوص إلا أنه يهم فى حديثه وفى حفظه . وقال الحاكم أبو أحمد : ليس بالحافظ عندهم . وقال الساجى : صدوق يهم . وقال البزار لم يكن بالحافظ وقد حدث عنه أهل العلم واحتملوا حديثه . . . وقد ذكروا فيه غير ذلك . وكلمتهم متفقة على أنه صدوق فى نفسه وفى كتبه ، صاحب سنة ودين وخير ، ولكنهم متفقون على أن فى حفظه شيئا من الغلط والوهم . فحديثه ، كما ذكروا ، محتمل إذا لم يخالف الثقات ، ولكن لا يصح أن يكون ما انفرد به حجة فى مثل هذه المسائل الكبرى إن لم تشهد له الشواهد وتسنده المتابعات .

وأما أبو إسحاق السبيعى فامام لا يسأل عن مثله

وأما أبو شعبة المحدث عن ابن عمر فلا أعرف من يكون . وقد ذكر فى تهذيب التهذيب شخصا واحداً يكنى أبا شعبة ولم يذكر سواه . قال : أبو شعبة المدنى مولى سويد بن مقرن المزنى كوفى ، روى عن مولاه فى تحريم لطم الصورة ، وعنه ابن المنكدر . ذكره ابن حبان فى الثقات . . . ولكن لا ندرى هل يمكن أن يكون هذا هو الراوى عن ابن عمر الحديث المذكور ؟ فى هذا شك بل بعد . وقال فى الميزان : أبو شعبة الطحان كان جارا للأعمش . قال الدارقطنى : متروك . ولم يذكر الذهبى غيره . وقال ابن حجر فى تعجيل المنفعة : أبو شعبة الطحان الكوفى جار

الأعمش عن أبي البختري عن ابن عمر، وعنه أبو أحمد الزبيري، قال الدارقطني
متروك، ولم يذكر سنة وفاته، وكذا قال في لسان الميزان، ولم يذكر مولده أيضا. فهل
يمكن أن يكون هذا هو أبا شيبة الذي ذكر في الحديث الذي يبدو ألا يكونا به
ويظهر أنه لم يدرك ابن عمر، ومجهول جميعا لم يذكروا تاريخ ولادته ولا تاريخ
وفاته حتى نهتدي بشيء من هذا إلى معرفة الحقيقة المنشودة، ولم يذكر الخطيب
في التاريخ أحدا يكنى هذه الكنية، وكذا لم يذكر الدولابي في الكنى والأسماء
ما يبين هذا الراوي، فبقي علينا وعلى من يريد الاحتجاج بهذا الحديث
البحث عن هذا الراوي، ومعرفة أمره أثقة هو أم ضعيف ثقة هو وقبل معرفته لا يجوز
لنا أخذ من الناس الاحتجاج بحديثه [...]

هذا على تقدير أن هذا الراوي يكنى أبا شيبة كما ذكر في النسخة المطبوعة
في الهند، وأما على أنه أبو سعيد كما أشير إلى أنه كذلك في نسخة، والضبط
والتحري مفقودان فيما يطبع من الكتب الحديثية في الهند، فالبحث عنه فيمن
يكنون بهذه الكنية، وقد راجعت صفحات الكنى في تهذيب التهذيب ولسان الميزان
والميزان وتعجيل المنفعة وتاريخ الخطيب فلم أجد من أسميهم بأبي سعيد. ففي الميزان
مثلا: أبو سعيد الأزدي عن أبي هريرة لا يعرف إلا برواية قتادة عنه، أبو سعيد
الحبراني حمصي عن أبي مرة وعنه حصين الحبراني وأبو زرعة. لا أعرفه.
أبو سعيد عن ابن عمر لا يعرف، وعنه عمرو بن دينار، أبو سعيد عن واثلة
شامي فيه جهالة، تفرد عنه ابن عوف. أبو سعيد الحميري عن معاذ، لا يدرى
من هو، روى عنه حيوة بن شريح المصري، أبو سعيد عن عقبة. قال الجوزجاني
غير ثقة. أبو سعيد الخزاعي عن أبي هريرة وعنه حصين الحميري وعبد الله بن
ماجة. أبو سعيد الرقاشي عن ابن عباس وعنه سليمان التيمي، قال ابن
معين لا أعرفه.

وذكر فى تهذيب التهذيب بعض هؤلاء الذين ذكرهم الذهبى . وقد ذكر غيرهم . ولكن لم يذكر ما يدل على أن نبحث عنه فيما . ذكر فى لسان الميزان أربعة وعشرين يكنون هذه الكنية منهم الكذابون ومنهم الثقات ، ومنهم المجهولون . ولكنه لم يذكر ما يدل على أن واحداً منهم هو من نبحث عنه هنا . وليس فى تعجيل المنفعة ما يعين هذا الراوى ولا ما يعين على معرفته وحقيقته . فهذا الاسناد مظلم لا يحل الاحتجاج به عند أحد من المسلمين : أهل البصر والمعرفة .

السند الثانى وبيان علله وضعفه

وأما الاسناد الثانى ، وهو : أبو أحمد جعفر بن عيسى عن أحمد بن عبد الله بن أبى روح عن سلام بن سليمان أو ابن سليم عن غياث بن إبراهيم عن عبد الله ابن عثمان بن خثيم عن مجاهد عن ابن عباس - فنقول : أما جعفر بن عيسى وأحمد بن عبد الله بن أبى روح فلم نجد لهما ترجمة لا فى تهذيب التهذيب ولا فى الميزان ولا فى لسان الميزان ولا فى تعجيل المنفعة ولا فى تاريخ بغداد . فليبحث عنهما من يدين الله بروايتهما هذه .

وأما سلام بن سليمان أو سليم فقال الحافظ ابن حجر فى تهذيب التهذيب : سلام بن سلم ويقال ابن سليم أو ابن سليمان ، والصواب الأول . أبو سليمان ، ويقال أبو أيوب ، ويقال : أبو عبد الله . وهو سلام الطويل المدائنى خراسانى الأصل . روى عن حميد الطويل (إلى أن قال) قال أحمد : روى أحاديث منكرة . وقال ابن أبى مريم عن ابن معين : له أحاديث منكرة . وقال الدورى وغيره عن ابن معين : ليس بشىء . وقال ابن المدينى : ضعيف . وقال ابن عمار : ليس بحجة . وقال الجوزجانى : ليس بثقة . وقال البخارى : تركوه . وقال مرة يتكلمون فيه . وقال أبو حاتم : ضعيف الحديث ، تركوه . وقال أبو زرعة : ضعيف . وقال النسائى : متروك ، وقال مرة : ليس بثقة ولا يكتب حديثه . وقال

ابن خراش : كذاب ، وقال مرة : متروك . وقال أبو القاسم البغوى : ضعيف الحديث جدا . وروى له ابن عدى أحاديث وقال لا يتابع على شئ منها ، وأخرج له الحديث الذى أخرجه ابن ماجه . وليس عنده غيره . وقال ابن حبان روى عن الثقات الموضوعات كأنه كان متعمداً لها . وقال اسحاق بن عيسى : ثقة . وقال العجلى : ضعيف. وقال الساجى : عنده منا كير . وقال الحاكم : روى أحاديث موضوعة . وقال أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة الشعبى : سلام بن سليم الخراسانى متروك بالاتفاق .

وقال الخطيب البغدادى فى التاريخ : سلام بن سلم ويقال ابن سليم، ويقال ابن سليمان ـ والصواب ابن سلم، أبو عبد الله التميمى المعروف بالطويل من أهل خراسان . سكن المدائن . ثم ساق الخطيب مقادح الناس فيه وزاد على ما نقله صاحب تهذيب التهذيب فيه قوله : قال الغلابى : سلام الطويل مدائنى ضعيف . وقال فى موضع آخر : سلام بن سلم مذموم .

وأما غياث بن إبراهيم فقال فى الميزان: غياث بن إبراهيم النخعى عن الأعمش وغيره . قال أحمد : ترك الناس حديثه، وعن يحيى ليس بثقة . وقال الجوزجانى : كان فيما سمعت غير واحد يقول يضع الحديث . وقال البخارى : تركوه ، يكنى أبا عبد الرحمن ، يعد فى الكوفيين . قال الذهبى : روى عنه بقية ومحمد بن حمران ومحمد بن خالد الحنظلى وبهلول بن حسان وعلى بن الجعد . وهو الذى ذكر أبو خيثمة أنه حدث المهدى بخبر (لاسبق إلا فى خف) فدس فيه (أو جناح) فوصله. ولما قام قال المهدى :أشهد أن قفاك قفا كذاب . وذكر العسقلانى فى لسان الميزان ما ذكره الذهبى فى الميزان وزاد عليه : قال الآجرى سألت أبا داود عنه فقال كذاب ، وقال مرة: ليس بثقة ولا مأمون . وقال ابن معين كذاب خبيث . وقال الساجى : تركوه وقال صالح جزرة : كان يضع الحديث . وقال أبو

أحمد الحاكم : متروك الحـديث .وقال النسائى فى الجرح والتعـديل : ليس بثقة ولايكتب حديثه . وقال ابن عدى : بين الأمر فى الضعف ، وأحاديثه كلها شبه الموضوع . وذكره العقيلى وابن الجارود وابن شاهين فى الضعفاء . وذكر هذا كله ابن حجر . فالرجل متفق على ضعفه .

وأما عبد الله بن عثمان بن خثيم فقال فى الميزان : عبـد الله بن عثمان بن خثيم المكى روى عن ابن معين : أحاديثه ليست بالقوية ، وروى أحمد بن أبى مريم عن ابن معين : ثقة حجة . وحكى عن ابن مهدى توهينه . وقال أبو حاتم : مابه بأس صالح الحديث ، وقال مرة لا يحتج به . وقال النسائى عقب حـديثه : « عليكم بالاثمد » : لين الحديث . وقال فى التهذيب : عبـد الله بن عثمان بن خثيم القارئ المكى . روى عن أبى الطفيل وصفية بنت شيبة وقيلة وعطاء وسعيد ابن جبير وأبى الزبير وشهر بن حوشب ومجاهد ونافع مولى ابن عمر . . . وعنه السفيانان وابن جريج وحماد بن سلمة وحفص بن غياث وغيرهم . . . قال بن أبى مريم عن ابن معين ثقة حجة . وقال العجلى : ثقة . وقال أبو حاتم : مابه بأس ، صالح الحديث . وقال النسائى : ثقة ، وقال مرة : ليس بالقوى . وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان يخطئ . وقال الدورقى عن ابن معين : أحاديثه ليست بالقوية ، لقله ابن عدى وقال : وهو عزيز الحديث وأحاديثه أحاديث حسان . وقال ابن سعد كان ثقة وله أحاديث حسنة . وقال النسائى : ليس بالقوى . قال : ولم يترك يحيى ولا عبد الرحمن حديث بن خثيم إلا أن عـلى بن المدينى قال : ابن خثيم منكر الحديث ، وكان على بن المدينى خاق للحديث . هذا حاصل كلامهم فى ابن خثيم هذا . وقد أخرج مسلم حديثه فى الصحيح . وأما مجاهد فلا يسأل عن مثله . فهذا الاسناد الذى أسـند الحكاية إلى عبد الله بن عباس اسناد ذاهب هالك لايجوز الالتفات إليه .

السند الثالث وبيان ضعفه وعلله

وأما الإسناد الثالث : وهو محمد بن خالد بن محمد البردعي عن حاجب ابن سليمان عن محمد بن مصعب عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الهيثم ابن حنش عن ابن عمر . فيقال : أما محمد بن خالد بن محمد البردعي ففي لسان الميزان : محمد بن خالد بن يزيد البردعي أبو جعفر نزيل مكة . روى عن عبيد الله بن خلف وعصام بن رواد بن الجراح وغيرهما . وروى عنه الطبراني وأبو بكر بن المقرئ ومحمد بن سعيد بن عبدان المقرئ . وقال مسلمة بن قاسم : كان شيخا ثقة كثير الرواية ، وكان ينكر عليه حديث تفرد به . وسألت العقيلي عنه فقال : شيخ صدوق لا بأس به إن شاء الله . ا هـ فلعله يكون هذا ، وإن كان بين الاثنين اختلاف ، وذلك أنه في الرواية التي معنا محمد بن خالد بن محمد وهذا ابن خالد بن يزيد ، فإن لم يكنه فلا ندري من يكون . [illegible]

وأما حاجب بن سليمان فقال في الميزان : حاجب بن سليمان المنبجي شيخ النسائي وثقه النسائي . وقال الدارقطني : كان يحدث من حفظه ولم يكن له كتاب ، وهم في حديث . وكذا في تهذيب التهذيب وزاد : ذكره ابن حبان في الثقات . وقال مسلمة بن قاسم : روى عن عبد المجيد بن أبي رواد وغيره أحاديث منكرة ، وهو صالح يكتب حديثه . [illegible]

وأما محمد بن مصعب فقال في الميزان : قال صالح جزرة : عامة أحاديثه عن الأوزاعي مقلوبة . وقال الخطيب : كثير الغلط لتحديثه من حفظه ، ويذكر عنه الخير والصلاح . وقال ابن عدي الحافظ : ليس عندي برواياته بأس . وقال في تهذيب التهذيب : توهينه عن ابن معين والنسائي وأبي زرعة وأبي حاتم . وقال ابن حبان : ساء حفظه ، يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل ، لا يجوز الاحتجاج به . وقال الحاكم أبو أحمد : روى عن الأوزاعي أحاديث منكرة ، وليس بالقوي عندهم . وقال عبد الله بن محمد بن سيار : محمد بن مصعب من الضعفاء ...

وقال ابن قانع : ثقة . هذا ما قالوه في الرجل . فالأكثرون يضعفونه .
وأما إسرائيل فهو إسرائيل بن يونس بن إسحاق السبيعي حفيد السبيعي الإمام الثقة المشهور — فثقة من رجال الصحيحين ، ولا يبالي بتضعيف من ضعفه من المتشددين في النقد . وأما أبو إسحاق فلا يسأل عن مثله [illegible]

وأما الهيثم بن حنش بهذا الضبط فلم أجد له ذكراً في الكتب الخمسة في تاريخ بغداد وميزان الاعتدال ولسان الميزان وتهذيب التهذيب وتعجيل المنفعة . والذي يبدو لي أنه مصحف وأن الصحيح أن يقال : الهيثم بن حنش لا ابن حنش فيكون هو الذي قال عنه لسان الميزان : الهيثم بن حنش : قال الخطيب في الكفاية لم يرو عنه غير أبي إسحاق السبيعي . وهذا لا يبعد لتقارب الحروف وكثرة الشبه بينها . والكتب المطبوعة في الهند كثيرة التحريف والتصحيف وحينئذ يكون الهيثم هذا مجهولاً لا يحتج به . فهذا الإسناد الذي هو الثالث إسناد واهٍ جداً [illegible]

الاسناد الرابع وما فيه

[illegible] وأما الإسناد الرابع — وهو أحمد بن الحسن الصوفي عن علي بن الجعد عن زهير عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن سعد عن ابن عمر — فنقول : أما أحمد ابن الحسن الصوفي فقد ذكره الخطيب في التاريخ وقال وهو ثقة ، ثم ذكر له ترجمة طويلة وقد ذكر له حديثاً منكراً ، وهو ما ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام أهدى لأبي جهل جملاً أو نحر له جملاً . قال وقد سئل الدارقطني عن هذا الحديث فقال : وهم الصوفي فيه وهماً قبيحاً . قال الخطيب : والوهم فيه ليس من الصوفي لأنه قد توبع عليه ، وإنما الوهم من سويد بن سعيد الذي رواه عنه الصوفي ، وقد حمل على سويد بن سعيد لذلك . وحكى عن الدارقطني توثيقه ، وحكى عن ابن المنادي قال كتبت عن أحمد بن الحسن الصوفي بأخَرة . وقال الذهبي في الميزان : أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي مشهور ، وثقه الدارقطني وذكر

قول ابن المنادى فيه . وذكر العسقلانى فى لسان الميزان ما قاله الخطيب . . .
والحصل من هذا كله أن الصوفى المذكور ثقة لا يسمو إلى مراتب الثقات الأثبات.
ولا ينزل إلى مواضع الضعفاء المتروكين .

وأما على بن الجعد فوثقه الأكثرون وروى البخارى حديثه فى الصحيح
ولم يبال تضعيف من ضعفوه .

وأما زهير فهو زهير بن معاوية الجعفى الكوفى الامام . ثبت ثقة من رجال
الجماعة ، ولكن مهرة هذا الفن ذكروا أن روايته عن أبى إسحاق خاصة فيها شئ
لأنه سمع منه آخرة بعد الاختلاط . قال الذهبى : ولين روايته من قبل أبى
إسحاق لا من قبله هو .

المخلف سند لحديث خدر الرجل

وأما عبد الرحمن بن سعد فسيأتى الكلام فيه . فهذا السند خير سند عند ابن
السنى لهذه الحكاية . ولكن خير ماروى به هذا المعنى عن عبد الله بن عمر هو
ما رواه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » قال : حدثنا أبو نعيم قال حدثنا
سفيان عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن بن سعد قال : خدرت رجل ابن عمر فقال له
رجل اذكر أحب الناس ، فقال . يامحمد . وهذا الاسناد رواته كلهم أئمة مشاهير
خلا عبد الرحمن بن سعد الراوى عن ابن عمر . وقال فى تهذيب التهذيب : عبد
الرحمن بن سعد القرشى كوفى روى عن مولاه عبد الله بن عمر ، وعنه أبو إسحاق
السبيعى ومنصور بن المعتمر . . . ذكره ابن حبان فى الثقات . وقال النسائى
ثقة . وقد رمز إلى أنه من من رجال البخارى فى الأدب المفرد . فلذا ثبت أن
عبد الرحمن هذا ثقة صحيح الحديث وأمن جانبه على الحديث كانت الرواية
المذكورة فى غاية الصحة والقوة ، وكان إسنادها فى غاية الإشراق والنظافة. والذى

معانى هذه الروايات ان صحت وبراءتها مما زعموا

نختاره نحن ونميل إليه أن لهذا المعنى عن عبد الله بن عمر أصلا لتعدد الطرق .
هذا مانقول أولا ثم نقول ثانيا : هذه الروايات ـ إذا صحت ـ لا تدل على

مازعموا من دعاء الأموات وسؤالهم ضروب الحاجات . وذلك أنه ليس فيهاطلب شيء من الأشياء ولاحاجة من الحاج الكبيرة أو الصغيرة ـ كالذى يطلب هؤلاء الضلال من الموتى ، مثل هداية القلوب وغفران الذنوب ومطالب الدنياوالأخرى وكل الذى فيها أنه يجوز أن يقال فى بعض الأحيان والحالات : وامحمداه ، بالتجريد من كل طلب وسؤال . وهذا القول ليس استغاثة وليس طلبا ولاسؤالا وإنما هو قول يقال عند التوجع وإبداء الأسف ويسمى اصطلاحاً ندبة . يقال ندب الميت إذا بكاه وعدد أو صافه وفضائله المحمودة . . والمندوب ليس مسئولا ولا مطلوبا ولا مرادا منه أن يسمع أو يعطى أو يشفع أو يدعو . وليست الندبة فى التحقيق خطاباً حقيقياً وإن كانت فى الظاهر كذلك . فاذا قال الحى ـ يرثى ميتاً عزيزاً وفقيداً آد فقده ـ : واخليلاه ، أو وا صديقاه ، أو وا أميراه ، أو وا أبتاه ، ونحو ذلك لم يكن فى شيء منه دعاء ولا طلب ولا خطاب حقيقى ، وإنما هو توجع وأسف بالغ وبكاء . وقد صح أن السيدة فاطمة بنت سيد الخلق رضى الله عنها ندبت أباها بعد وفاته وقالت فى ندبتها ورثائها إياه: ياأبتاه،أجاب ربا دعاه ، ياأبتاه من جنة الفردوس مأواه ، ياأبتاه إلى جبريل ننعاه . رواه البخارى فى الصحيح عنها . وكذلك جاء أن غيرها ندبه عليه الصلاة والسلام . فقول القائل : وامحمداه فى الرواية المذكورة مثل قول السيدة فاطمة : ياأبتاه . . . كلاهما توجع وتفجع، وكلاهما خال من الدعاء والطلب . وهذا مثل قول الرائى لصديق له ذهب إلى سبيله : واصديقاه ،واخليلاه . ومن زعم أن هذا استغاثة أو أن فيه استغاثة وطلباً وسؤالا فهو فى حاجة إلى التعليم لا إلى المجادلة والمساجلة فى هذه المباحث العليا القيمة . ولوكان هذا الذى ذكروه استغاثة لكان فيه طلب ماوهو طلب المستغاث من أجله وهو أن يقول القائل : وامحمداه أغثنا أو أعنا أو انصرنا أو أعطنا . ولكن الروايات الثلاث المذكورة خالية من ذلك .ولا ريب أن من وقع فى بلاء وشدة

فأراد أن يستغيث فقال مثلا: وافلاناه! لم يكن مستغيثاً استغاثة صحيحة، ومن أشرف على الغرق فقال: يارجل أو يافلان — ولم يقل خذ بيدي أو أنقذني أو أدركني أو أغثني — لم يكن مستغيثاً استغاثة صحيحة ولا داعياً دعاء صحيحاً تاماً. فالذين ذكرت عنهم هذه الروايات لم يقولوا: وامحمداه أعطنا، أو أغثنا، أو نحو ذلك، وإذن فليسوا طالبين ولا سائلين ولا مستغيثين، وإنما هم نادبون باكون.

ويوضح غلط القوم

ومما يوضح غلط هؤلاء القوم وخلطهم أن الذين كانوا يقاتلون مسيلمة الكذاب وقومه المرتدين في أرض اليمامة لايصح البتة أن يستغيثوا برسول الله ولو كان حياً سوياً في المدينة المنورة لبعد ما بينهم وبينه. ولا يمكن أن يدعوه وأن يخاطبوه من هذه المسافات ليجيبهم ويسمعهم ويعطيهم ماسألوه وطلبوه إلا إذا زعموا أنه ﷺ مثل الله تعالى جده وعظم شأنه في صفة الإحاطة بالغيوب وعلم القريب والبعيد وفي القدرة على إغاثة المستغيثين مهما كثروا وتعددوا واختلفوا، وفي الاستطاعة على قضاء الحاجات مهما تعددت وكثرت واختلفت. ولكن برأ الله صحابة نبيه من هذه العقيدة النكراء والهوجاء الباطلة.

زعمهم أن قتال المرتدين كان في حياة النبي

ومن الخلط الفاضح أن الرافضي بعد ذكره هذه الرواية زعم أن المسلمين ماقاتلوا مسيلمة الكذاب إلا في حياة النبي عليه السلام. وهذا زعم يخزي والله شعباً بأسره. فإن المسلمين ما قاتلوا مسيلمة وقومه المرتدين إلا بعد وفاة النبي عليه السلام: قاتلهم الصديق الأكبر أبو بكر العظيم حتى نحت أثلتهم وأطاح نخوتهم واستأصل شأفتهم ... ويظهر أن الشيعة يريدون من وراء هذا الخطأ والضلال تجريد أبي بكر الصديق من هذه المكرمة وخلعه من هذه الحلة، وهي قتاله المرتدين وقضاؤه عليهم القضاء الأخير، ولكن

ومن كان فوق محل الشمس موضعه . . . فليس يرفعه شيء ولا يضع

وللقوم آفات لا تقف عند حد

هذا ندبة لا استغاثة

ويوضح أن الذي في هذه الروايات ندبة لا استغاثة أن عبد الله بن عمر على ما ذكروا لم يقل: وامحمداه إلا بعد أن قيل له اذكر أحب الناس إليك. فإن هذا يدل دلالة صريحة واضحة على أنه لا استغاثة هنا ألبتة، إذ لو كانت المسألة مسألة استغاثة وطلب وسؤال لقيل له: استغث أو اطلب أو ادع أحب الناس إليك. أما كلمة اذكر فإنها بينة في أن المراد ذكر الاسم، اسم الحبيب مرسلا مطلقاً.

محال باطل

على أن الذي لا يشك فيه المؤمنون أنه من المحال والباطل أن يروح أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يستغيثون بغير الله ربهم وخالقهم في أحرج الساعات وأخلد الأوقات وأحوج ما يكونون إلى المعونة والمغوثة والمنصرة الحاسمة المؤيدة حتى يكون شعارهم وهم يناجزون أعداء الله وأعداءهم وأعداء الإسلام، بل والحق ينازل الباطل بكل قواه وعدده وعدده فإما انتصر وإما انكسر وفي انكساره ذهاب كل شيء من تراث الرسول وتراث صحابته الأبرار وتراث الحق والهدى الأزلي. أقول من المحال والباطل أن يكون شعار صحابة رسول الله بينا هم كذلك: وامحمداه طالبين العون والنصر والتأييد، تاركين الله جل جلاله وراء ظهورهم ووراء أذكارهم وأمانيهم ومسائلهم، ووراء حاجاتهم وآمالهم.. ولو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان معهم في تلك الساعات والأوقات يخوض الحتوف ويطأ الصروف لاحتاج هو إلى عونهم ونصرهم له ولدينه بأسيافهم وبطولة أبطالهم. وهو ﷺ لو كان معهم في تلك المواقف الحاسمة لكان هو وهم لا يجأرون إلا إلى الله ولا يدعون سواه، «أمن يجيب المضطر إذا دعاه؟» «أإله مع الله؟»

الآيات في رجوع المؤمنين إلى الله وحده في حالات الشدة

وقد أنبأنا الله في غير ما آية من كتابه أن المؤمنين في ساعات الحروب ومناجزة الأعداء لا يستغيثون إلا بالله كما قال تعالى من سورة الأنفال: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة» وقال من هذه السورة في

تعليم المؤمنين و إرشادهم إلى الأخـذ بالسببين : بالقوة المـادية والقوة المعنوية الروحية ، وهى الرجوع فى وقت الحاجة والشدة إلى الله وحده : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئـة فاثبتوا واذ كروا الله كثيراً لعلـكم تفلحون ، وأطيعوا الله و رسوله ولا تنازعوا فتفشلوا . . . » ولم يقـل : فاذ كروا الرسول أو اذ كروا الله والرسول ، بل قال : اذ كروا الله وأطيعوا الله والرسول . فالرسول له حق الطاعة فى هذا المقام لا الاستغاثة ولا طلب العون والمدد ، فان ذلك من الله و إليه وحده لاشريك له . وقال فى هذه السورة أيضاً « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ، أى الله حسبك وحسب المؤمنين معك ، وقال تعـالى حكاية عن طالوت ومن معـه من المؤمنين حينما زحفوا إلى جالوت ومن معـه من الـكافرين : « ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الـكافرين . فهزموهم باذن الله » . ولم يكن من شعار هؤلاء المؤمنين المختارين حين القتال والنضال ومنازلة أخصام الحق أن يستغيثوا بمخلوق : لا بنبى ولا بغـيره من الخلق ، بل رجعوا جميعاً إلى الله و إلى طلب النصر والعون و إفراغ الصـبر لديه . وقال من سـورة آل عمران : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنـا فى أمرنا وثبت أقـدامنا وانصرنا عـلى القوم الـكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسـنين » وقال : « الذين قال لهـم الناس : إن الناس قد جمعوا لـكم فاخشوهم ، فزادهم إيمـانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن المؤمنين ، أتباع النبيين فى حالات

الحروب والشدائد والمخاوف لايذكرون سوى ربهم ، ولا يدعون أو يسألون إلا إياه معرضين عن جميع المخلوقين : الصالحين والنبيين وغيرهم من صنوف المخلوقين المربوبين . وما ذكر الله فى كتابه عن أحد منهم أنه دعا مخلوقاً أو استغاث نبياً أو ولياً أو صالحاً حين الزحف إلى قتال أعداء الله وأعداء دينه . وماذكر عنهم سوى الانقطاع إلى الله والرغبة فيه وفى نصره وفى تأييده وحده . ولا ريب أن الله لم يقص علينا فى كتابه أحوال عباده الصالحين وأقوالهم إلا للقدوة والأسوة والائتمام بهم والنهج منهجهم . فيقص علينا أن الأنبياء والربيين معهم والصالحين كانوا حين الحرب والبلاء والبأساء يدعون الله ويرغبون إليه لا إله إلا هو كى نفعل فعلهم ، ونأخذ سبلهم ، ونرجع إلى الله وحده مثلما رجعوا . وقد أنبأنا الله فى كتابه ، كما تقدم ، أن الكافرين والمشركين أنفسهم كانوا فى شدتهم وحين عصف الأقدار بهم يتركون كل ما سوى الله ويخلصون إليه تعالى وحده لا شريك له مخلصين له الدين ، لا يبالون مخلوقا ، ولا يذكرون أحداً إلا الله . فكيف يمكن بعد هذا أن يكون أصحاب النبى عليه السلام فى حين شدتهم وبأسائهم يعرضون عن الله ، ويأخذون يستغيثون المخلوقين ويضعون عليهم آمالهم وحاجاتهم ؟ اللهم إن هذا باطل كاذب .

فالذين يدعون العبيد ويستغيثونهم فى أوقات الحروب والشدائد والمكاره والاقدام على الحتوف والصروف خارجون عن سنن الأنبياء والصالحين ، مخالفون لما قصه الله فى كتابه عن عباده المختارين . فمن المحال الباطل أن يكون شعار صحابة النبى عليه الصلاة والسلام فى قتالهم وحروبهم الاستغاثة بالنبى ، ومن المحال أن تكون الرواية صحيحة إن كان معناها ماذكروا وزعموا ، ومن المحال أن يكون الذى فيها استغاثة ودعاء إن كانت صحيحة ، بل لابد أن يكون ندبة ، أى توجعاً وأسفا على فراق رسول الله .

ويرد على المخالفين أن حرف « وا » ليس من حروف النداء

ومما يرد على المخالفين زعمهم أعظم الرد أن حرف « وَا » ليس حرف نداء فهو لا يدخل على المنادى الحقيقى أبداً ، فلا يقال : وارجل أقبل ، أو وافلان افعل كيت ، ولا يقال : وا الله اغفر ذنبى ولا أمثال ذلك . وإنما يجيء عند إرادة النداء الحقيقى أحد الحروف الموضوعة للنداء مثل « يا » و « أى » و « أيا » و « هيا » والهمزة ، فيقال : يا فلان أو أى فلان أو أيا فلان أو هيا فلان أو أفلان افعل . ولا يقال : وافلان افعل مثلا . ويوضح هذا جيدا دخول ألف الندبة وهاء السكت بعدها على «وامحمداه» فى الروايات الثلاث على ماذكر الشيعى . وهذان الحرفان : الألف والهاء ، لايقعان فى المنادى الحقيقى ، فلايقال : يا محمداه أقبل أو أيا زيداه اذهب . وأيضاً فان المنادى المفرد المعرف يبنى على ما يرفع به ، ومحمد مثلا يرفع بالضمة . فاذا كان منادى وجب أن يبنى على الضمة فقيل يا محمدُ . . . إذن فالذى فى الروايات ليس نداء وإنما هو ندبة بلا شك

ذكر اسم الحبيب عند خدر الرجل عادة من عادات العرب

هذا ، ومن الجواب عن حديث خدر الرجل أن يقال : عرفنا من الروايات التى نقلناها من كتاب « عمل اليوم والليلة » لابن السنى أنه كان من عادة العرب أن يذكروا اسم أحب الناس إليهم عند خدر الرجل لاعلى سبيل النداء والسؤال والاستغاثة والطلب بالضرورة ، وإنما هى مجرد عادة قد يكون فيها بعض التأثير على نفس المحب الواله عند ذكر من يحب . وهذا التأثير — إن وجد — راجع إلى ماينال نفس المحب وما يتغشاها من التأثر والانفعال — الذى يسمو عن التعبير وعبارة الكلام عند مايلاقى سمعه اسم حبيبه ، فتمتلئ نفسه بالصور المختلفة المتنوعة لذاك الحبيب الغائب . . . فتهتز النفس لتلك الذكريات اهتزازات لا محالة من أن يهتز لها كيان الجسم وكيان الصورة الخارجة . . . فيصاب الداخل والخارج أو الجسم والروح بالارتجاج العنيف ، وبالارتجاج يكون التبدل والتغير ، وبالتغير والتبدل قد يزول خدر الرجل ، وقد يزول غيره من آلام النفس والجسم ، من

الآلام الظاهرة والباطنة . وليس فى هذا الزعم ما يخالف ماطبعت عليه النفس وما شيد عليه الجسم من عادات وسنن وطبائع لا يحيط بكنهها وحقيقتها سوى من خلقها وهو اللطيف الخبير .

ومن الدليل على ذلك أقوالهم التى ذكرناها : « إذا خدرت له رجل دعاك »

« وتخدر فى بعض الأحايين رجله * فان لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر

إذا خدرت رجلى تذكرت قولها * وناديت ابنى باسمها ودعوت

فهذه الأشعار دلائل ناطقة على أنهم قد اعتادوا أن يذكروا أسماء أحبابهم عند ما تخدر أرجلهم ، ولكن لا شك أنه ليس فى ذكرهم من يحبون حينذاك شئ من الاستغاثة والسؤال والنداء والطلب . فالقائل : « إذا خدرت له رجل دعاك » لا يريد أنه يستغيث بتلك المرأة حينما تخدر رجله ، والقائل أيضا : « فان لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر » لا يعنى الاستغاثة والدعاء الحقيقى لتلك المرأة المحبوبة يوم أن تخدر رجله ، والقائل أيضاً : « إذا خدرت رجلى تذكرت قولها » البيت لا يذهب بقيله هذا إلى الاستغاثة والسؤال والطلب بالضرورة الجلية . وإنما هى ذكرى قد يكون للنفس فيها بعض الشفاء . ولاريب أن ذكر الحبيب وتمثل صوره قد يشرحان النفس ، وقد يطلقانها من آلامها أو ينسيانها إياها . وإذا انشرحت النفس كان فى انشراحها العلاج الذى لا يماثله علاج لآلام الجسم وأمراضه ، لأن المرض نوع من أنواع الفتور والضعف والهبوط . وفى انشراح النفس لذكرى الحبيب من القوة والنشاط والحركة ما يبعد ذلك . ولأن المرض عبارة عن نقص وقود الجسم ، والذكرى ، ذكرى الاحباب ، وقود ما مثله وقود واشتعال واتقاد ما مثلهما اشتعال واتقاد . فما كالذكرى إذن علاج ، ولا كالذكرى دواء .

مافى ذكرى الحبيب من علاج

والذى فى أحاديث خدر الرجل من هذا القبيل أى من قبيل تذكر الحبيب

الأعظم عليه الصلاة والسلام . وليس هو من نوع الاستغاثة والدعاء والطلب الذى نأباه لأن الاسلام يأباه .

وليعلم هذا الرافضى وغيره من أنصار البدعة أن الممنوع لدينا ليس هو حروف النداء والتلفظ بها ، ولا حرف الندبة ولا غير ذلك من الحروف . وإنما الممنوع عندنا هو طلب مالا يستطيعه إلا الخالق من المخلوق . وإذا علم هذا سقط كل ما يصاولون به ويطاولون من الحساب والاعتبار ، وسقط كل ما يتشبثون به من إدخال حروف الخطاب والنداء والندبة على الأموات . وفى هذا فصل الخطاب وفيصل التفرقة .

هذا آخر النقض على شبهات الرافضى . ولعل القارىء اللبيب رأى كيف يشيدون عقائدهم ودينهم على الأخبار التائهة والروايات التى فاتها الحسب والنسب ، قاذفين بكتاب الله وبقواطع الاسلام وضرورات العقول وراء ظهورهم ودبر آذانهم حيناً بحجة التأويل الذى هو تحريف قبيح ، وحيناً بالانكار والجحود الصريح . والله الهادى لمن يشاء إلى سبيله وصراطه المستقيم .

أنواع التوسل عند المخالف وجوازها وأدلة ذلك كله

﴿ التوسل ﴾

ثم قال الرافضى : « الفصل الثالث فى التوسل إلى الله بالأنبياء والصلحاء . وهذا يكون على وجوه : أحدها أن يقول : أتوسل إلى الله به أو أتوجه به إليه ، أو أتشفع أو أقدمه بين يدى حاجتى أو نحو ذلك . ثانيها — : أن يقول : أسألك بفلان أو بحق فلان أو بحقه عليك أو بجاهه وبركته أو بحرمته أو نحو ذلك . ثالثها — : ان يقول : أقسمت عليك أو أقسم عليك بفلان أو نحو ذلك وكلها تؤول إلى شىء واحد وهو جعله وسيلة وواسطة بينك وبين الله لماله من المنزلة عنده والكرامة لديه .

« والتوسل بأنواعه مما منعه الوهابيون وجعلوه شركا لأنه نوع من التشفع

الممنوع عندهم الموجب للشرك وجريان أدلتهم فيه .

« ونقول : التوسل ثابت بنص الكتاب قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » . وهي بعمومها شاملة لكل توسل إلى الله بما يكرم عليه . وقد دلت الأخبار الكثيرة على ثبوت الوسيلة للأنبياء والأوصياء والصالحاء . وقد مر قول النبي عليه الصلاة والسلام : « اسألوا الله لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لاينبغى أن تكون إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد » . ويأتى قوله عليه السلام عن الخوارج : « يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة » . والمراد بالوسيلة الدرجة والمكانة عنده تعالى ، ولذلك يتوسل ويتشفع به إليه .

« والتوسل بذوى المكانة عند الله ، أحياء وأمواتا ، من سنن المرسلين ، وسيرة الصالحين بأى وجه من الوجوه الثلاثة . بل هو ثابت فى الشرائع السابقة فعن القسطلانى فى شرح صحيح البخارى عن كعب الأحبار أن بنى إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم . انتهى .

« وقد ثبت جواز التوسل بالحى كما اعترفوا وكما صرحت الأحاديث ، وفيها أمره عليه الصلاة والسلام بالتوسل به إلى الله و بسؤاله بحق السائلين وبحق مشى المصلى إلى الصلاة . وصرحت بالحق على الله وبالتوسل بالنبى و بالعباس . وجاء ذلك فى الأخبار الآتية وفيها قول عمر فى العباس : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه . . . و إذا ثبت أن التوسل بالحى ليس عبادة ولا شركاً فالتوسل بالميت كذلك لعدم تعقل الفرق . فان جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهى لم تذهب بالموت ، و إن كان لأجل أن يدعو الله فهو ممكن فى حق الميت . ولو فرض عدم إمكانه لم يوجب الشرك بل يكون مثل طلب المشى من المقعد بزعم أنه صحيح . فالتفرقة بين التوسل بالأحياء والأموات تحكم محض .

وقد فهم الصحابة عدم الفرق وهم أعلم بالسنة من ابن تيمية وأتباعه كما يأتى فى حديث ابن حنيف . وصرحت الأخبار الآتية أيضا بعدم الفرق بين الحى والميت بل والموجود والمعدوم . وأمر مالك إمام المذهب المنصور أن يتوسل بالنبى و يستشفع به بعد موته وقال : هو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم ، كما يأتى كل هذا . مع هذا إن الأخبار قد صرحت بعدم الفرق بين الحى والميت ، بل الموجود والمعدوم ، بل العاقل وغير العاقل كالأعمال ، فصرحت بوقوع التوسل من آدم بالنبى عليه الصلاة والسلام قبل وجوده ، و بالتوسل بالأعمال و بتوسل النبى بالأنبياء قبله وهم أموات ، و بتوسل الصحابة بقبر النبى بفتح كوة بينه و بين السماء . و إليك بيانها : قال السمهودى عالم المدينة فى كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » : الفصل الثالث: فى توسل الزائر وتشفعه به ﷺ إلى ربه واستقباله فى سلامه وتوسله ودعائه :

« اعلم أن الاستغاثة والتشفع بالنبى و بجاهه و ببركته إلى ربه تعالى من فعل الأنبياء والمرسلين ، وسير السلف الصالحين، واقع فى كل حال ، قبل خلقه و بعد خلقه فى حياته الدنيوية ومدة البرزخ وعرصات القيامة .

« الحال الأول أى قبل خلقه ورد فيه آثار عن الأنبياء ، وانقتصر على ما رواه جماعة منهم الحاكم وصحح إسناده عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله عليه السلام : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لى . فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال :يارب لأنك لما خلقتنى بيديك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله تعالى : صدقت يا آدم . إنه لأحب الخلق . و إذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ماخلقتك » . قال : و رواه الطبرانى و زاد : « وهو آخر الأنبياء

من ذريتك » انتهى . وفى خلاصة الكلام : ورواه البيهقى باسناد صحيح فى دلائل النبوة . وفيها أيضا : قال فى « المواهب اللدنية » ويرحم الله ابن جابر حيث قال :

به قد أجاب الله آدم إذ دعا * ونجى فى بطن السفينة نوح

وماضرت النار الخليل لنوره * ومن أجله نال الفداء ذبيح

« وفيها أيضا قال بعض المفسرين فى قول الله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » : إن الكلمات هى توسله بالنبى : انتهى . وفى مجمع البيان فى تفسير الآية بعد نقله جملة من الأقوال مالفظه : « وقيل — وهى رواية تختص بأهل البيت — : إن آدم رأى مكتوبا بأعلى العرش أسماء مكرمة فسأل عنها فقيل له : هذه أجل الخلق عند الله منزلة — والأسماء : محمد ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين . فتوسل آدم إلى ربه بهم فى قبول توبته ورفع منزلته » انتهى . وفى ذلك يقول الواسطى :

قوم بهم غفرت خطيئة آدم * وهم الوسيلة والنجوم الطلع

« وإلى هذا التوسل أشار مالك بقوله للمنصور : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم فى الحديث الآتى

« ثم قال السمهودى : قال السبكى : وإذا جاز السؤال بالأعمال كما فى حديث الغار الصحيح — وهى مخلوقة — فالسؤال بالنبى أولى . وفى العادة أن من له عند شخص قدر فتوسل به إليه فى غيبته فانه يجيب إكراماً للمتوسل به . وقد يكون ذكر المحبوب أو المعظم سبباً للاجابة . ولا فرق فى هذا بين التعبير بالتوسل أو الاستغاثة أو التشفع أو التوجه . ومعناه التوجه به فى الحاجة . وقد يتوسل بمن له جاه إلى من هو أعلى منه .

« الحال الثانى التوسل به بعد خلقه فى مدة حياته فى الدنيا . منه مارواه

جماعة منهم النسائى والترمذى فى الدعوات من جامعه عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى عليه السلام فقال : ادع الله لى أن يعافينى . فقال ﷺ : « إن شئت دعوت ، و إن شئت صبرت وهو خير لك » فقال : ادعه فأمره عليه السلام أن يتوضأ وأن يحسن وضوءه و يدعو بهذا الدعاء : «اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة . يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى ، اللهم شفعه فى » .قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وصححه البيهقى و زاد : فقام وقد أبصر . وفى رواية ففعل الرجل فبرأ .

« ومن التوسل به فى حياته ماورد فى قصة سواد بن قارب التى رواها الطبرانى وفيها أنه أنشد النبى قصيدته التى يقول فيها :

و إنك أدنى المرسلين وسيلة * إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

« فلم ينكر عليه قوله : أدنى المرسلين وسيلة ، ولا قوله : وكن لى شفيعاً.

« ومن التوسل به فى حياته مارواه البيهقى أن أعرابياً جاء النبى عليه السلام، يستسقى به وأنشده :

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل

« وهذا صريح فى التوسل ولم ينكر عليه بل قال أنس لما أنشده الأبيات قام يجر رداءه حتى رقى المنبر وخطب ودعا لهم فلم يزل يدعو حتى أمطرت السماء وهو على المنبر . و روى البخارى فى الصحيح أنه عليه السلام لما أمطرت السماء قال: « لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه . من ينشدنا قوله ؟ » فقال يارسول الله كأنك أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فتهلل وجه النبى .

«وقال السمهودى : الحال الثالث التوسل به بعد وفاته : روى الطبرانى فى الكبير عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجة له ، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته . فلقى ابن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له ابن حنيف :ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد وصل ركعتين ثم قل : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة . يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك أن تقضى حاجتى » وتذكر حاجتك . فانطلق الرجل فصنع ماقال، ثم أتى باب عثمان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه على الطنفسة فقال حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ، ثم قال: ما ذكرت حاجتك إلا الساعة . وقال : ما كانت لك من حاجة فاذكرها . ثم خرج الرجل من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر فى حاجتى ولا ينظر إلى حتى كلمته فىّ . فقال ابن حنيف . والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره . الحديث .

« وفى كتاب« وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » أيضاً ما لفظه : وفى الكبير والأوسط بسند فيه روح بن صلاح ، وثقه ابن حبان وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح ، عن أنس بن مالك قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام فجلس عند رأسها فقال :« رحمك الله يا أمى بعد أمى » .وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده . قال : ثم دعا رسول الله أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل فاضطجع فيه ، ثم قال : « الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » . وفى خلاصة

الـكلام : رواه الطبرنى فى الـكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه انتهى.

« ومن التوسل به بعد موته قول صفية بنت عبد المطلب فى مرثيتها للنبى عليه السلام التى رواها أهل السير وعلماء الأثر :

ألا يارسول الله أنت رجاؤنا * وكنت بنا براً ولم تك جافياً

« وفى وفاء الوفا » ما لفظه : وفى الوفاء لابن الجوزى من طريق أبى محمد الدارمى بسنده عن أبى الجوزاء قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة رضى الله عنها فقالت : انظروا قبر النبى عليه السلام واجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه و بين السماء سقف ، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق . قال الزين المراغى : إن فتح الكوة سنة أهل المدينة عند الجدب .

«ثم قال السمهودى : الحال الرابع التوسل به عليه السلام فى عرصات القيامة فيشفع إلى ربه . وهـذا مما قام عليـه الاجماع وتواترت به الأخبـار . وروى الحاكم وصححـه عن ابن عباس قال أوحى الله إلى عيسى : يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركت من أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولا أنى خلقت محمـداً ماخلقت الجنة والنار . ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب ، فكتبت عليه : لاإله إلا الله محمد رسول الله فسكن .

« ومن أخبار التوسل بالملائكة والأنبياء مافى خلاصة الـكلام عن الاذكار للنووى أن النبى عليه السلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر ثلاثا : «اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل ومحمد أجرنى من النار » . قال فى الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم فى قبول الدعاء .

« وأما التوسل بقبره عليه السلام فقد جاء فى حديث توسل عمر بالعباس . وفى خلاصة الـكلام : واستسقى عمر بالعباس لما اشتد القحط عام الرمادة فسقوا .

وذلك مذكور فى صحيح البخارى .

« وفى وفاء الوفا » وغيره قال القاضى عياض فى الشفاء بسند جيد عن ابن حميد أحد الرواة عن مالك ـ فيما يظهر ـ قال : ناظر أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله فقال مالك : ياأمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فان الله أدب قوماً فقال : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » ومدح قوماً فقال : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله » الآية . وذم قوما وقال : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ». و إن حرمته ميتا كحرمته حياً فاستكان لها المنصور . فقال : ياأبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله . قال الله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » انتهى . وفى الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى أن الشافعى توسل بآل البيت النبوى وقال :

آل النبى وسيلتى * وهم إليه ذريعتى

أرجو بهم أعطى غداً * بيدى اليمين صحيفتى . . . »

وهنا نقل الرافضى جملة حكايات فى التوسل نسب بعضها لبعض الأعراب، و بعضها لآل البيت من طرق الشيعة ، و بعضها نسب لبعض الفقهاء . . . وكلها لا قيمة لها لا رواية ولا دراية . وسوف تمر بالقارئ فى غضون الكتاب إن شاء الله.

وهذا الذى نقلناه حاصل ماذكره الرافضى فى هذا البحث من الشبهات . و إننا بعون الله وتأييده نورد ما يتيسر من القول فى الوسيلة و فى معناها و فى ما يراد منها و بها شرعاً ولغة ، وما يراد بها ومنها عند جمهور الناس اليوم وقبل اليوم من العامة وأشباه العامة وما يقع فى ذلك من اللبس والإبهام والإيهام . وسنورد إن

شاء الله الدليل القاطع على كل ما نكتب ونذكر ، ثم بعد هذا نتعقب ماذكره الرافضى فى هذا الفصل من الشبهات أو البراهين فنرد المردود الفاسد ونكشف ما فى الصحيح من الوهم والوهن والتحريف والتجديف — سائلين الله وحده العون والغوث والسلطان والبيان .

الكلام على التوسل والوسيلة لغة وشرعا

﴿ حقيقة التوسل والوسيلة ﴾

إذا رجعنا إلى الكلمات الواردة فى الشرع وفى اللغة التى جاء فيها لفظ التوسل وما اشتق منه وجدناها كلها بمعنى القرب وما يشتق منه أو ما يؤول إليه من قريب أو من بعيد . ففى كتاب الله يقول الله من سورة المائدة : «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون» والوسيلة فى هذه الآية هى ما يقرب إلى الله وما يتقرب به إليه من الأعمال الصالحة المبرورة المشروعة على اختلاف ضروبها واختلاف مظاهرها وحقائقها وصورها ، يدخل فى ذلك أعلى الأعمال وأشرفها كالصلوات والفروض الخمسة ، وأقلها مثل إماطة الأذى عن الطريق مثلا : كذا جاء تفسيرها عن السلف الصالح فجاء عن عبد الله بن عباس أن الوسيلة هى القربة . وكذا جاء عن الحسن وابن زيد ومجاهد وغيرهم . وقال قتادة فى تفسيرها : أى تقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه .

وقال تعالى من سورة بنى إسرائيل : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذورا ». وقد فسرت الآية بما فسرت به الآية قبلها ، أى بالقرب والتقرب . فآية المائدة تطلب إلى المؤمنين أن يبتغوا عند الله وحده الوسيلة أى القرب والتقرب إليه . والقرب إلى الله لايدرك إلا بطاعته وعبادته واتباع أنبيائه والمرسلين من

عباده ، وآية بنى إسرائيل تحدث المؤمنين بأن عباد الله المؤمنين يدعون الله ربهم ، يطلبون لديه تعالى القربى والزلفى ، ويتنافسون فى هذا القرب وذلك التقرب ، ويرجو كل منهم أن يكون الأقرب الأدنى الأسبق . وهم أيضا يرجون رحمته ويخافون عذابه لأن عذاب الله محذور مرهوب لأنه شديد أليم

الاحاديث فى التوسل والوسيلة

وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة » . وهذه الوسيلة المذكورة فى هذا الحديث الصحيح هى منزلة من منازل القرب والزلفى عند الله مدخرة لنبيه ﷺ . فهى راجعة إلى معنى القرب وماتفرع عنه ، كذا جاء بيانها فى حديث آخر صحيح وهو مارواه الامام مسلم فى الصحيح قال قال رسول الله عليه السلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، فان من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا . ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن كون ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . فالوسيلة فى هذا الحديث منزلة من منازل الجنة العليا . ولا ريب أن الجنة درجات ، وأن أقربها إلى الله هو أعلاها وأرفعها ، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله أنه قال : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فانه أعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن » . فهذه الوسيلة التى هى منزلة من منازل الجنة لا تعدو فى معناها مادة القرب والزلفى . وذلك أن من ينال مثل هذه الدرجة من درجات الجنة لاريب فى قربه من ربه . وقد قال تعالى فى أهل جنته وقربهم لديه : « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » فأنبأ الله أن المتقين الذين هم فى الجنة التى هى جزاء المتقين عند مليك مقتدر وهو الله جلت قدرته

والذى ينال أسمى منازل الجنات ــ وهى المنزلة الموصوفة فى الحديث ــ قريب من الله أعظم القرب وأدناه .

وفى حديث أنس بن مالك المشهور أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال أنس : فيسقون . وقوله هنا : نتوسل إليك ــ فى اللفظين ــ معناه نتقرب إليك ونزدلف إلى رضاك وإلى خيراتك وأنعمك، وغياثك ورحمتك وكل فضلك وأياديك . وجاء فى شعر المتنبى قوله :

الاشعار فى التوسل والوسيلة

ألا ليست الحاجات الا نفوسكم * وليس لنا إلا السيوف وسائل

يريد أن يقول إنه ليس لهم ما يصلهم بآمالهم الفضية المقطوفة من أشعة الشمس وخيوط القمر ، وليس لهم ما يقربهم إلى ما يتطلبه المجد والشرف والحياة العزيزة الفاضلة إلا السيوف المغمدة المنتضاة على البأس وبالبأس ، فهى هى التى تدرك بها الحاجات ، وينال البعيد الأقصى، وتتطلب الحقوق وافية كاملة . وكل حق أو باطل ريم اقترابه بغير السيوف ــ والسيوف أبداً عنوان القوة والبأس ــ فلن يقترب منه خطوة واحدة ، ولن يزداد على الرجاء والتأميل إلا بعداً ونأيا . ولقد صدق هذا الشاعر الحكيم إذ قال :

من اقتضى بسوى الهندى حاجته * أجاب كل سؤال عن هَلٍ بِلَمِ

وجاء فى شعر لبيد :

أرى الناس لايدرون ماقدر أمرهم * بلى كل ذى رأى إلى الله واسل

و « واسل » هنا إما بمعنى راغب وإما بمعنى متقرب بالأعمال ، والمعنيان يصيران ــ نتيجة ــ إلى معنى واحد . وذلك أن الراغب فى الشئ متقرب إليه ضرورة ولابد ، فكلمة « واسل » فى قول لبيد لا تخرج عن القرب والتقرب .

وجاء فى شعر أبى طالب فى نعيه على قريش مقاطعتهم بنى هاشم وظلمهم

إيامهم واحتشادهم على عدائهم ونبذهم قوله من قصيدته الطويلة المشهورة : « وقد قطعوا كل العرى والوسائل » . ويعنى هنا بالوسائل القرابات التى كانت بين بنى هاشم المنبوذين المظلومين وبين قريش النابذين الظالمين ، القرابات التى ما كان أجدرها بالرعاية والصيانة والوصل .

وجاء فى شعر عنترة العبسى قوله :

إن الرجال لهم إليك وسيلة * أن يأخذوك ، تكحلى وتخضبى

يعنى أن للرجال تقرباً لقضاء مآرب الشهوات والحاجات الجنسية وفروض اللذاذات المتأججة . فعليها إذن – لإلهاب هذا التقرب ولتحريك تلك الشهوات الدافعة إليه – أن تتسلح بأعظم سلاح وضعه الله فى يد المرأة الموصوفة جهلا وغلطاً ومغالطة بالضعف واللطف . . . وهذا السلاح هو أن تحتال لتقوية سلطانها وجبروتها بأن تستعمل أنواع الزينات والمساحيق والأصباغ التى اعتادت المرأة أن تذل بها صاحب السيف والمزراق ، وتأسر بها آسر الملوك والأبطال .
ويمكن تفسير «وسيلة» فى البيت بالحاجة . ويراد أن للرجال لديها حاجة . وحاجات الرجال عند النساء معروفة . والحاجة اللازمة الصحيحة يطلب أبداً التقرب إليها ويطلب قربها . فاطلاق الوسيلة التى هى التقرب أو القرب أو القربى أو التقريب على الحاجة إذن معهود مثاله فى اللغة ، جائز قياسا ورواية ونقلا . والأمر كله يرجع إلى مادة القرب .

وجاء أيضاً فى شعر العرب وأنشده ابن جرير فى التفسير قولهم :

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا * وعاد التصافى بيننا والوسائل

والوسائل هنا هى معانى القرابات التى تجمع الحبيب بالحبيب ، وتقرب مابين العاشق والمعشوق ومابين الرجل والمرأة . وما أكثر معانى هذه القرابات وما أقرب معانى الرجال من معانى النساء ! وما أكثر مايحاول معنى أن يقرب من معنى .

وجاء أيضاً فى شعر العرب قول قتيلة بنت النضر وقد قتل أبوها النضر

والنضر أقربهم إليه وسيلة * وأحقهم إن كان عتق يعتق

تعنى أن النضر المقتول ألصق القوم قرابة بمن إليه مصير قتل أولئك المقتولين وإحياؤهم بالمن عليهم .

وجاء فى شعر العرب الأقدمين :

ولما عصينا بالسيوف تقطعت * وسائل كانت قبل سلما حبالها

أقوال أهل اللغة فى معنى الوسيلة والتوسل

هذه بعض أقوال الشرع وأقاويل اللغة فى معنى الوسيلة والتوسل. أما أقوال علماء اللغة فلا تخرج عما ذكرنا . قال فى النهاية : « وفى حديث الأذان : آت محمداً الوسيلة هى فى الأصل ما يتوسل به إلى الشىء ويتقرب به إليه . وجمعها وسائل . يقال وسل إليه وسيلة وتوسل . والمراد به فى الحديث القرب من الله تعالى . وقيل هى الشفاعة يوم القيامة . وقيل هى منزلة من منازل الجنة ، كذا جاء فى الحديث . ». وقال الجوهرى فى صحاحه : « الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير. والجمع الوسيل والوسائل . والتوسيل والتوسل واحد . وسل فلان إلى ربه وسيلة ، وتوسل إليه بوسيلة أى تقرب إليه بعمل وقال فى القاموس : « الوسيلة والواسلة المنزلة عند الملك والدرجة والقربة . ووسل إلى الله توسيلا عمل عملا تقرب به إلى الله كتوسل . والواسل الواجب والراغب إلى الله . . » . ومثل هذا قال فى معنى التوسل والوسيلة سائر علماء اللغة كصاحب « لسان العرب » وغيره .

ليس كل ما يسميه الناس وسيلة يكون عند الله ولى شرعه كذلك

فالتوسل إذن إلى الله وإلى الشىء معناه التقرب إليه بما يقرب منه وبما يوصل إليه ، فهو بمعنى الطريق والسبيل . ولكن لا ريب أنك قد تظن ما يبعد عن الله مقربا إليه ، وما يدنى من غضبه ومقته مدنيا من رضاه ورحمته ، وتظن ما ليس طاعة طاعة ، بل قد تظن المعصية طاعة ، والطاعة معصية . فأنت قد تضل السبيل إلى الله ، وقد تضل فى سبيل عبادته والتماس رضاه وقربه وثوابه ،

كما قد تضل السبيل إلى الدنيا فلا ترشد فى مآربها ومآربك . فقد تحسب أنك إذا عملت ذلك العمل المعين نجحت و ربحت وأدركت غايتك ، فاذا عملته أو بدأت العمل بدا لك أنك قد كنت غالطا ضالا ، وأنك فى رأيك وتفكيرك جاهل شارد . وقد تحسب أن ذلك الطريق ينتهى بك إذا سلكته حيث تريد وحيث تذهب ، وهو فى الواقع لايذهب بك إلا إلى عكس ما تريد وتقصد وتذهب وتطلب . وقد تظن أن عملا من الأعمال ينال به رضا الله وهو فى الواقع لا ينال به سوى غضبه وعذابه . وقد يظن الكثيرون من الخلق أن أشياء كثيرة يعملونها من الدين ومن الاسلام وهى فى التحقيق مما جاء الدين والاسلام بحربها والذياد عنها : هذا كله لا شك فيه ولا خلاف فى شئ منه . وذلك أن الوسائل إلى الله — وأعنى بها كل مايقرب إليه تعالى — هى فى نفس الأمر لاتعدو رسالات الأنبياء وشرائع السماء . فانه لايقرب إلا الله إلا ماقال الانبياء وكتب الله : إنه يقرب إليه تعالى ، ولا يكون وسيلة إلى رضاه وثوابه إلا ما علم من طريق السماء أنه كذلك . فمعرفة الوسيلة لا تكون إلا بمعرفة الشريعة ، وجهل الشريعة هو فى الواقع جهل بالوسيلة . فمن لم يعرف دين الله فلن يكون عارفاً الوسيلة فيه ، ومن عرف الوسيلة فلابد أن يكون عارفا بالدين لأن الدين كله تقريب إلى الله وكله يقرب إليه تعالى . والوسيلة — كما تقدم — هى ما يقرب إليه أيضاً . فالوسيلة إذن هى الدين وهى الطاعات والعبادات ، وهى ماله عند الله الثواب والجزاء والشكر والحمد ثم الجنة والرضا . ومعرفة الدين تحتاج بلا ريب إلى علم ودراسة واتصال مكين قريب بالرسالات السماوية . إذ ليس كل ما يسمى عند الناس ديناً يكون كذلك ديناً عند الله وفى شرائع أنبيائه ، وليس كل ما يعدونه طاعات وعبادات يكون عند الله وفى شرعه كذلك . . . ومرجع هذا الاختلاف على الدين والعبادات والطاعات إلى الجهل والغباء وفساد الذوق والقصور الذاتى البشرى ، والعجز

الانسانى الظاهر المطبوع. ولا شك أنه لولا رسالات الله و بلاغات أنبيائه لمـا
عرفنا ، مثلا ، أن الحج إلى مكة المكرمة ـ بطوافه وسعيه وسائر أعماله وشعائره ـ
مما يقرب إلى الله ومما يرضيه ويجزى عليه . ولولا رسالات الأنبياء ووحى السماء
لما عرفنا أن صيام شهر رمضان مما يقرب إلى الله ومما يجزى عليه الجنة والتقريب ،
ولما عرفنا أيضاً كثيراً من الشرائع الالٓهية المجمع عليها . وهذا كله معلوم ظاهر
لا يتقبل الخلاف والنزاع .

إذن لا ريب أن من قال : هذا العمل وسيلة إلى الله ـ أى مقرب إليه ـ
كان مطالباً بالحجة والبرهان من الشريعة نفسها . وذلك أن قوله : هـذا وسيلة
معناه هذا دين وشرع لله ، ودين الله لا يعلم إلا بالنقل والبرهان والوحى . وكتب
الله كلها إنمـا أنزلت لتعريف العباد الدين وتعليمهم إياه . ولا شـك أن من
قال : إن المشايخ والصالحين والأموات ، و إن العكوف على القبور والحج إليها
و إسراجها وتعظيمها ودعاء أصحابها وسكانها : ـ لاشك أن من زعم هذه الأمور
أو بعضها وسائل إلى الله كان مطالباً بالدليل من الشرع والدين، وأن من زعم هذا
بلا نقل ولا عقل كان زاعماً ما لا يقبله العقلاء ولا المسلمون .

الشأن كله فى معرفة الوسيلة المأمور بها

فاذا قيـل إن الله قد أمر بابتغاء الوسيلة إليه والوسيلة عامة شاملة ، قيل فى
الجواب : هذا حق لا نتنازع فيه ولا فى شئ منه ، أى لا نتنازع فى وجوب ابتغاء
الوسيلة الشرعية بكل أنواعها إلى الله ولكننا نتنازع فى معنى الوسيلة وفى ما يراد بها
ومنها فى نصوص الدين ، لأنها ـ كما قدمنا ـ هى كل ما يقرب . فعلى المخالفين
إذن أن يقيموا الحجة المقبولة على أن هاتيك الباطلات والوثنيات مما يقرب إلى الله
و إلى جزائه وثوابه . فالنزاع والخلاف فى هذا لا فى وجوب ابتغاء الوسائل واتخاذها
كلها لديه تعالى . والأمر بابتغاء الوسيلة مثـل الأمر بسائر العبادات والطاعات
و بالدين و بارضاء الله : كل ذلك يحتاج إلى معرفة المأمور به و إلى تعيينه والنص

عليه . فاذا قيل لنا : اعبدوا الله ، احتجنا إلى معرفة العبادة لنقوم بالأمر ونؤدى المأمور به . وإذا قيل لنا : الدين كله لله احتجنا أيضاً إلى عرفانه لنقوم به ولنؤديه إلى الله ونخصه به . وإذا قيل لنا : توسلوا إلى الله وابتغوا إليه الوسيلة كنا فى حاجة شديدة واضحة إلى عرفان هذه الوسيلة وهذا التوسل ، اللذين أمرنا بهما لنقوم بفروضهما وافية كاملة . كما أنه إذا قيل لنا : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة كنا محتاجين إلى أن نعلم ما هى الصلاة وما هى الزكاة حتى نقيم هذه ونؤتى تلك . بل كما أنه إذا قيل لنا : ولله على الناس حج البيت ، كنا محتاجين إلى معرفة معنى هذا البيت الذى أوجب الله علينا حجه ، ومحتاجين إلى معرفة معنى الحج والمراد به وحقيقته وما يدخل فيه وما لا يدخل . وهكذا الشأن فى جميع الأوامر والنواهى . فالوسيلة هى التقرب إلى الله ، وهذا لا ننازعه ولا ينازعه أحد من المسلمين . والتوسل إلى الله — أى التقرب — لا ينازع فى وجوبه بالجملة مسلم واحد . ولكن النزاع منطلق إلى معرفة ما يقرب منه تعالى . هذا معترك الآراء ، وهنا تتصادم الأفكار .

إذن لا ريب فى أن من احتجوا بقوله تعالى: « اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » وقوله : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » على صحة هذه المخزيات الباطلات الشركيات التى يأتيها الجهال وأشباههم فوق القبور ولدى أضرحة الصالحين غالطون غلطاً فظيعاً منكراً . وما مثلهم فى هذا الاحتجاج إلا كمثل من احتجوا بقوله تعالى : « فاذا فرغت فانصب » على صحة « النصب » على أموال الناس أى الاحتيال عليها واغتصابها بطرق التدجيل والخداع والكذب . وقد وقع هذا الاحتجاج حقيقة لا خيالا ، وقد سمعنا من احتج بالآية هذا الاحتجاج الظريف . وهذا الاحتجاج كذلك الاحتجاج من كل وجه . وذلك أن الذين أجازوا « النصب » استدلالا بالآية ، حجتهم أنهم وجدوا العامة

مثل من استدلوا بالآية على جواز كل ما يسمونه توسلا ووسيلة

يسمون الاحتيال على الناس وعلى أخذ أموالهم « نصباً »، ووجدوا الآية الكريمة تأمر « بالنصب »، فظنوا أن هذا هو هذا . وقد قرب هذا التفسير العجيب إلى أفهام هؤلاء المفسرين النبلاء ظنهم أن قوله « فرغت » يعنى به الفراغ من المال والمادة ومن العمل ، أى إذا فرغت يدك من المال ومن العمل الكاسب للمال واحتجت جاز لك النصب على الناس لكسب قوتك وضرورة حياتك . وكذلك الذين احتجوا بالآيات والنصوص الآمرة بابتغاء الوسيلة إلى الله وجدوا أن عبادة المشايخ والأموات والطواف بقبورهم وأجداثهم ودعاءهم وسؤالهم ضروب الحاجات الدنيوية والأخروية ، وكل هاتيك المنكرات تسمى فى لغة عبدة القبور « وسائل » ، ووجدوا أن القرآن يأمر بابتغاء الوسائل إليه تعالى ، فظنوا أن تلك هى تلك : فضلوا وأضلوا اعتقاداً وعملا .

ومثل هذا الاحتجاج أيضاً ما سمعناه من شيخ كبير من كبار المشايخ الرسميين وهو فى معرض إقامة البراهين من الكتاب والسنة على جواز التوسل أو وجوبه سمعنا هذا الشيخ الكبير الرسمى الجليل يقول بملء فيه على مسامع الجماهير من المستمعين إليه : إن قوله تعالى : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » وقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى كتابه إلى هرقل عظيم الروم : « أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام . أسلم تسلم . . . » يدلان على جواز دعاء الأموات والتوسل بالمشايخ والصالحين ، ويدلان على بطلان ما ذهب إليه الوهابية من منع الاستغاثة بالموتى . . . وقد ذهب هذا الشيخ المفسر لكلام الله وكلام رسوله بهذا الهذيان إلى سبيله ولقى حتفه وربه .

ولا يبعد من هذا الاحتجاج احتجاج بعض هؤلاء التائهين بقوله تعالى فى صفة بقرة بنى إسرائيل : « قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » على أن السنة اختيار الأصفر من النعال والخفاف . والاستدلال كله فى هذا راجع

إلى أن المستدل له والمستدل به يقعان تحت لفظ واحد وكلمة واحدة فى حالة من الحالات وصيغة من الصيغ . فالاعمال الصالحة التى سماها الله فى كتابه وسيلة وأمر بابتغائها ، وهذه المخازى المبثوثة فوق القبور والأبواب وحول الأشجار والأحجار كل من النوعين أطلق عليه اسم الوسيلة وسمى توسلا فى عبارة من العبارات وحالة من الحالات . ومن ثم جاء احتجاج هؤلاء المحتجين وضلال هؤلاء الضالين. وكذلك « فانصب » فى الآية « والنصب » فى كلام الناس الجهلاء شملهما لفظ واحد وعبارة واحدة ، فنشأ هذا الضلال . وكذلك دعاء الأموات والدعاء فى قوله : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » وقعا كلاهما تحت كلمة الدعاء. فثار ذاك الاستدلال الشنيع . وكذلك صفراء فى الآية الكريمة التى يعنى بها البقرة واشاف الأصفر كلاهما ينتسب إلى الصفرة والاصفرار . وعلى ذلك قام هذا الاحتجاج الأبله. ونظائر هذه الاحتجاجات البلهاء كم أصيب بها كتاب الله ودين الله ، وكم أصيبت بها عقول وقلوب وعقائد .

هذا هو تحقيق معنى الوسيلة والتوسل شرعاً ولغة .

معنى الوسيلة والتوسل فى لغة العاكفين على القبور

أما معناهما فى لغة عبدة القبور العاكفين على الأجداث فهما عندهم كل ما يأتون عند القبور والآثار المعزوة للمشايخ والصالحين من أشتات المنكرات وفرائد الضلالات الأثيمة ، كالعكوف على الأضرحة والبناء عليها وإسراجها وتزيينها بسائر الزينات واستقبالها وتقبيلها ودعاء أصحابها وسؤالهم كل الحاجات والمطالب الصغيرة والكبيرة ، والاستغاثة بهم فى المحضر والمغيب على القرب والبعد ثم خوفهم ورجاؤهم وإطلاق العبرات الحرى ، وإرسال الشكايات والآهات من [illegible] والصدور الملتهبة ، فوق ترابهم وأعتابهم وعلى أطلالهم ومعالمهم الدائرة أو العامرة — وبالاجمال لا يخرج معنى التوسل والوسيلة عند هؤلاء المساكين المرضى عن هاتيك الأعمال والاقوال الوثنية الجاهلة المتناثرة على أركان أضرحة

المشايخ المزورين المعظمين المحجوجين من كل مكان لكل غاية وحاجة . وهم يحاولون أن يعدوا هذا البلاء كله من الوسيلة التى أمر الله بها عباده وأمرهم بأن يتقربوا إليه تعالى بابتغائها وطلبها . . . وليس لهم من دليل على هذا الخلط الفظيع المنكر سوى أنهم وجدوا هذه المنكرات تسمى فى لغتهم وسيلة ، ووجدوا الله يأمر بابتغاء الوسيلة إليه . وما علموا أن تسمية هذا أو غيره من الأمور فى لغتهم وسيلة وتوسلا لايقضى بأن يكون فى لغة القرآن والشرع كذلك ، وماعلموا أنهم كما يغلطون فى معنويات الشرع ومعنويات الأشياء كلها يغلطون أيضا فى لغويات الشرع ولغويات الأشياء . ولا علموا أن لهم لغة ولسانا وأن للشرع لغة ولسانا ، وأن لغتهم هم ولسانهم هم يخالفان لغة الشرع ولسانه . ولا علموا أن اعتقادهم هم بأن هذا من هذا، لأنه سمى باسمه ، يساوى الاعتقاد بأن شخص محمد هذا هو شخص محمد ذاك لأن الشخصين كليهما يسميان محمداً ، ولأنهما كليهما يدعوان بهذا الاسم .

التوسل نوعان جائز وممنوع

﴿مايجوز من التوسل ومالا يجوز﴾

نحتاج فى هذا البحث إلى الكشف عما يجوز من التوسل والوسيلة وعما لايجوز لأن هذا الذى ذكرناه فى الفصل الآنف دلنا على أن التوسل نوعان: جائز وممنوع ودين وخلاف للدين ، ومأمور به ومنهى عنه .والحاجة ملجئة إلى معرفة هذا وذاك ، لاجتناب هذا واجتناء ذاك .

فنقول على وجه الاجمال والايجاز : الجائز من التوسل والوسيلة هو كل ماجاء دليل من الشرع على أنه مطلوب لله من عباده محبوب لديه ، مأمور به مثاب عليه لأن الوسيلة ، كما تقدم ، وهى الدين والعبادات والطاعات وكل ماأمر به ، لا تعرف إلا بالنصوص والبلاغات الإلهية . فكل مادل الشرع على أن الله يطلبه من عباده ويريده منهم ويجازيهم عليه إذا عملوه جزاء البر والطاعات هو وسيلة

شرعية مجزئ عليها من الله . وجميع مالم يدل الشرع على أنه كذلك فليس من الوسيلة الشرعية ولايصح القول بأنه منها . هذا هو بيان الوسيلة على وجه الإيجاز والإجمال . ولكن لاريب أن هذا عند بعض الناس لا ينقع الغلة ولايشفى العلة فلابد من بيان أشفى وأكفى ، ومن قول معدودمن التفصيل القائم على التدليل.

وجوه التوسل الثلاثة عند المخالف وبطلانها كلها

فيقال : ذكر هذا الرافضى للتوسل ثلاثة وجوه أو ثلاث صيغ : أحدها أن يقول القائل : أتوسل بفلان إلى الله ، أو أتوجه أو أستشفع أو أقدمه بين يدى حاجتى . وثانيها أن يقول : أسألك بفلان أو بحق فلان أو بجاهه أو ببركته أو بحرمته . وثالثها أن يقول أقسمت ، أو أقسم على الله بفلان ونحوه . هذه هى وجوه التوسل أو صيغه التى ذكرها الرافضى فى مطلع بحثه هذا ، وأجاز الوجوه الثلاثة كلها . وقد أورد من الشواهد عنده على جوازها ما ذكرناه نحن وما سوف نلخصه ونرد باطله بعد .

والوجوه الثلاثة عندنا باطلة فاسدة مخالفة لنصوص الدين ، ولروحه ومغزاه العام .

ولائل بطلان سؤال الله بجاه المخلوق

وبيان ذلك : أما الضرب الأول وهو قول القائل : أتوسل إليك ياألله بفلان أو أتوجه أو أستشفع به أو أقدمه بين يدى حاجتى لديك فهو باطل فاسد غير مشروع وذلك أن كلمة « أتوسل » معناها أتقرب كما تقدم ، والتقرب إلى الله بالاشخاص والذوات غير معقول ولا مقبول لا عقلاً ولا شرعاً ، لا عند الله ولا عند عباده الصالحين . وإنما يقرب العباد إلى ربهم الأعمال الصالحة والطاعات وأفعال البر والايمان وشعائر الاسلام وجماهير الفضائل الظاهرة والباطنة ، الفعلية والقولية ، الاعتقادية وغير الاعتقادية . ولا شئ غير ذلك يقرب العباد إلى ربهم . لأن التقريب هنا يراد به الرضا والحظوة والتكريم والجزاء والثواب الحسن من الله ، أو التقريب الحقيقى الملزوم لهذه الأمور . والله لايقرب عباده وخلقه بهذا التفسير

منه إلا بقـدر صلاحهم وطاعتهم وأعمالهم وبرهم وخوفهم مولاهم ووقوفهم عنـد الأوامر والنواهى جزراً ومداً . والعقلاء من الخلق جميعاً لا يقربون المرء إليهم هذا التقريب إلا بمقدار ما يتحلى به من هذه الفضائل والحسنات الشخصية المبرورة. ومن قرب بغـير ذلك كان عند الناس العقلاء عين الظالم المعتدى الملوم ، وكان فعله هذا من المحاباة الممقوتة الملعونة . ولهذا فان الحكومات والهيئات كلها التى تعامل الخلق بالمحاباة و« المحسوبية » المعروفة : فتقرب مثلا فلاناً المتأخر لأجل فلان لا لأجل عمله واستعداده واستحقاقه ، ولا لأجل كفاءته ومقدرته الذاتية ـ من شر الحكومات والهيئات التى تجب الثورة بهـا و بحكمها ونظامها والقائمين عليها و بها . ولهذا أيضاً كانت حكومات « المحسوبية » والمحاباة التى تقرب فلانا وتوليه الدرجات والوظائف العالية لا لشىء إلا لأجـل قرابته الماتة إلى فلان العظيم أو الكبير أو لأجل شفاعة فلان ورجاء فلان : نعم كانت حكومات « المحسوبية » والمحاباة ــ ولا تزال ، ولن تزال ــ من الحكومات الملعونة عـلى جميع الأفواه والألسنة ، المكروهة الممقوتة فى كل قلب وعقل وضمير حتى لدى من خصتهـم « بمحسوبيتها » ومحاباتها ، وذلك لأن الباطل والظلم مكروهان ملعونان وإن طلبا وسعى إليهما . ولو أن قاضياً من القضاة لم يوزع عـدله وعطفه وميله وحبه وكل هاتيك المعانى والمظاهر والمناورات المعلومـة بين الخصوم المتقاضين بالسوية والنصفة ــ ذهاباً مع شفاعة فلان ووسيلة فلان ــ لكان قاضياً يجب أن يزول من مكانه ، وأن يهبط من فوق كرسى القضاء والفصل بين الناس . ولو أن صدقات المسلمين وأوقافهـم وزكواتهـم قسمت بين النـاس المحتاجين بغـير السوية والاستحقاق والجدارة ، بل بالشفاعات والوسائل والجاهات والوساطات لكانت تلك القسمة قسمة ضيزى ، يكرهها الله ويكرهها خلقه . ولهـذا كانت الشفاعات والجاهات والرجاءات والوساطات غير موجودة ولا نافذة عند العادلين المقسطين

لا تصح الشفاعات والوساطات فى الشعوب المتحضرة والحكومات العادلة

من الحكام كالقضاة والولاة والملوك والخلفاء . وإنما توجد وتشيع وتعم وتطم ويتسلح بها كل غاد لحاجة باطلة أو صحيحة فى البيئات والحكومات والشعوب التى يسيطر عليها ويمسك أزمتها الظالمون المجرمون، عباد الأهواء والأغراض الخسيسة الدنيئة ، وعباد الشهوات والنساء واللذاذات والفواكه المحرمة — قاتل الله أمثال هؤلاء ، واجتث أصولهم وفروعهم ، وطهر بلاد الاسلام والحكومات الاسلامية والعربية منهم ومن سلطانهم وتسلطهم . اللهم عاجلهم بعقابك وعذابك وقدرتك العادلة . ولو أنك تقدمت إلى قاض أو حاكم عادل بشفاعة أو جاه أو وساطة أو وسيلة لكنت عنده ممقوتا مهيناً مجرماً ساعياً بالظلم والخيانة الوطنية الدينية الكبرى . ولهذا لم يكن النّاس يتقدمون إلى الخلفاء وإلى غيرهم من الحكام العادلين بشىء من ذلك ألبتة رجاء أن ينالوا حقاً أو باطلاً ، بل كان النّاس يتقدمون إلى هؤلاء الخلفاء العادلين الراشدين بحاجاتهم فرادى ، لا شفعاء ولا وجهاء وأولياء ، ولا غير ذلك سوى ما يحملون معهم من استحقاق وجدارة وكفاءة وسلطان ظاهر . وما كان المسلمون يتخذون عند رسول الله شفيعاً ولا وسيطاً ولا من يقومون هذا المقام لينالوا حاجاتهم وحقوقهم أو ليظفروا بعدله وحبه . . . وإنما كانوا يتقدمون إليه بأعمالهم وطاعاتهم وإيمانهم وإسلامهم. وكان ﷺ يهبهم، من حبه وتعظيمه وولائه ورضاه بقدر ماوهبوا ربهم من قلوبهم وعقولهم وعقائدهم وإخلاصهم وتقواهم . وكان الأتقى الأبعد عنه نسباً ورحماً أقرب إليه وإلى قلبه وحبه ورضاه من غيره ، من الذين لم يبلغوا مابلغه من التقوى والدين والاستقامة ونصرة الله . وكانت منازل المسلمين ودرجاتهم لديه عليه السلام مرتبة على حسب الصلاح والدين والقرب من رضا الله وطاعته . ولو أن معاوية بن أبى سفيان أو أبا سفيان نفسه جاءه ﷺ بأهل الأرض جميعاً شافعين متوسطين ليجعلوه كان أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على بن أبى طالب لما كان ذلك أبداً

و إذا كان هذا النوع من الجاه والوساطة والشفاعة مقبوحاً مذموماً بين النّاس والناس ، والمخلوق والمخلوق ، وعنـد العبد فى حق العبد فـكيف يكون مقبولا مرضياً بين الله وخلقه ؟

دلالة الشرع على أن الجزاء بالعمل

وقد دل الشرع بجملته وتفصيله على هذا الذى نقول ، ودلت جميع نصوصه قرآنه وحديثه على أن العباد مجزيون : مثابون ومعاقبون ، مقربون ومبعـدون بأعمالهم : خيرها وشرها ، صالحها وطالحها . ودلت على أنهم لن ينالوا شيئاً من هذا ولن ينالهم شئ من ذلك إلا بالعدل والحـكمة والمساواة . وقد دل القرآن ، وكذلك السنة ، على أن الانسان لن يجزى إلا بعمله من خير وشر ، وأن ماسوى العمل من الجـاه والشفاعة والوساطة والوسيلة لن يقـدم ولن يؤخر ، ولن يثيب أو يعاقب ، ولن يفعل شيئاً . ودل الـكتاب والسنة فى جملة نصوصهما على أن كل امرئ بما كسب رهين ،وأن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأنه ليس للانسان إلا ما سـعى وأن سـعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى . ودل كل شئ فى الاسلام ، بل فى جميع الأديان السماوية ، على أنه لا شئ يقرب إلى الله سوى الأعمال والطاعات والعبادات ، وسوى الايمان والصـلاح والبر . والنصوص : الآيات والأحاديث فى هـذا الأصل معروفة للخاصة والعامة ، غنيـة بشهرتها وكثرتها ووضوحها عن إيرادها أو إيراد شئ منها .وقد قال تعالى إبطالا لنوع من الدعاوى يضارع هذا النوع : « وما أموالـكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا .فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون » والاستثناء فى الآية عنـد أهل العلم منقطع . والمعنى أن الذين يقربون عنـد الله درجات ومنازل عظيمة ، والذين تضاعف لهم حسناتهم بأعمالهم ، لا بالشفاعات ولا الجاهات ولا غيرها ، هم الذين آمنوا ،وهم الذين عملوا أعمالا صالحة . فأولئك هم الذين لهم جزاء المضاعفة بأعمالهـم لا بالشفاعات ولا بالجاهات والوساطات، ولا

بغير ذلك من هذا القبيل ، ولا بالأموال ولا بالأولاد ولا غيرها من أسباب الدنيا وأعراض الحياة . وقد قال تعالى إنباء عن خليله إبراهيم وتحديثا عن هذا الأصل العظيم والجزاء العادل والحكم النزيه : « ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . يعني أنه لا ينفع شيء من الأشياء ولا أمر من الأمور في ذلك اليوم العظيم غير سلامة القلب . ويراد بسلامته طهارة الداخل من الأدواء النفسية والاعتقادية ، ثم امتثال الظاهر بالطاعات والأعمال والأقوال . أي إنه لا ينفع في ذلك اليوم غير الايمان والاسلام ، أي الاعتقاد السليم النظيف والأعمال المبرورة الصالحة . وما سوى ذلك فباطل وضلال وزور وغرور ، وغباء اتباعه ورجاؤه . ولأجل هذا تجد الكتاب العزيز يخبر في غير ما آية بأن الأنبياء والمرسلين — بله من دونهم — لا ينفعون ولا يضرون ولا يقدمون أو يؤخرون ، فلا يهدون ضالا ولا ينفعون مجرماً ولا ينجون كافراً ولا يأخذون بيد هالك غريق في أعماله وسيئاته وأوحاله وأحواله ، ويخبر أن الكثيرين أرادوا الشفاعة — أو شفعوا فعلا — لآبائهم وأولادهم وأقربيهم فنهوا عن ذلك وعوتبوا ووعظوا وقيل لهم ما قيل ؛ ثم لم تجد شفاعتهم تلك شيئاً ولم تخلص من شفعوا فيهم من عذابهم وإجرامهم . وحدث تعالى أن فريقا منهم لم يغنوا بعض الغناء عن زوجاتهم وحليلاتهم حينما شركن في العذاب ، فأدخلن النار مع الداخلين والداخلات لعصيانهن وشرودهن عن الله وعن أنبيائه .

عجز الانبياء عن نفع آبائهم وأولادهم

وقد وجدنا الكتاب عند ما ينبئ عن وظائف الأنبياء والمرسلين يجملها فقط البلاغ والرسالة والنذارة وهذه المعاني ، فيقول مثلا : « إنما أنت منذر » ويقول : « إن عليك إلا البلاغ » ويقول : « قل إنما أنا بشر مثلكم » ويقول : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن » ويقول : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست

وظائف النبوة

عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر، فيعذبه الله العذاب الاكبر. إنا إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » . والآيات فى هـذه المعانى كثيرة معروفة . والمراد بها إعـلام الخلق كافة أن الأنبياء والمرسلين ليسوا سوى مبشرين ومنذرين، لا جبارين ولا مسيطرين كما قال تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين» .ولا شأن لهم فى مسألة الجزاء والثواب والعقاب والحساب، ولا فى مسألة التقريب ولاالابعاد إلى الله ومنه ، ولافى كسب رضاه ورحمته ونقمته. بل هذا كله من فعله واختصاصه عـلى حسب الأعمال والقيام بحقوق العبودية ، إذ ليس بين الله وبين أحد من خلقه حسب ولا نسب ولا قرابة .

وقد أنبأ القرآن بأن محاولة التقريب والتقرب إلى الله بالاشخاص والخلق من فعل المشركين الجاهلين ، فنعى هـذا الباطل وهـذا الجهل عـلى القوم قائلا : « والذين اتخـذوا من دونه أولياء مانعبـدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون ، إن الله لايهدى من هو كاذب كفار ». فالله قد عاب على القوم فى هذه الآية أمرين اثنين ، عاب عليهم عبادة الأولياء من دونه ، وعاب محاولتهم القرب والزلفى إليه تعالى بالاشـخاص والعباد المخلوقين . فكلا الأمرين فى الآية عيب وذنب ، وكلاهما باطـل وكذب وضـلال . وقال أيضا : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولاينفعهـم ويقولون هؤلاء شـفعاؤنا عند الله » . وفى هذه الآية أيضا نعى على القوم أمرين اثنين: نعى عليهم عبادة من لايضر ولاينفع ، ونعى عليهم ، بعدُ، ظنهم أن الشفاعات تقرب إلى الله وتجدى لديه شيئاً . فالأمران فى الآية كلاهما باطل فاسد مردود على فاعليه .

حديث القرآن عن مجازاة الخلق وعن موجبات الجنة وموجبات النار

وقد تحدث القرآن كثيراً عن مجازاة الخلق المؤمنين والـكافرين المحسنين والمسيئين ، وأطال التحدث ، وأنبـأ ونوع الانبـاءات والعبارات والآيات فى التحديث والانباء عن هـذه المعانى التى هى غاية العاملين والتى هى كل مايخافه

الخائفون و يرجوه الراجون. وأخبر عن دخول أهل الجنة الجنة ،ودخول أهل النار النار ، وأخبر عن المنازل والدرجات، وأخبر عما يقال لأهل الجنة عند دخولهم إياها وعما يقال لأهل النار عند قذفهم أيضا فيها ، وأخبر عن الاسباب الموجبة لدخول الجنة ونيل رضا الله ، وعن الأسباب الموجبة غضب الله ودخول ناره ، وأخبر عن مقامات التهنئة والبشارات ، وعن مقامات التقريع والتوبيخ : أخبر القرآن عن ذلك كله وعن غيره وعما شاء الله من هذه الأنباء والأخبار. ولكننا لم نجد لفظا واحداً قيل فيه لأهل الجنة : ادخلوا الجنة أو اسموا إلى هذه المنازل الرفيعة السامية بشفاعة فلان أو بوسيلة فلان ، أو لأنكم توسلتم بفلان واستشفعتم بفلان ، أو ادخلوا الجنة بأعمالكم و بشفاعات شفعائكم و وسائل أنبيائكم وأوليائكم : كلا ، لم يقل شئ من هذا . و إنما قيل فى الآيات كلها ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون و بما كنتم تكسبون . وكذلك لم يقل لأحد من أهل النار : ادخل النار أو ذق العذاب لأنك لم تتوسل بفلان ولم تستشفع بفلان أو نحو ذلك . ولكن قيل لأهل النار جميعا : ادخلوا النار وذوقوا العذاب بكفركم وشرككم وتكذيبكم الأنبياء والمرسلين وانقطاعكم إلى الشفعاء والوسطاء والمخلوقين .

إذن فلا التوسل بالمخلوقين ينفع ولا تركه يضر ، فلا التعلق بجاه ذوى الجاه يقرب من الله ولا الاعراض عنه يبعد منه . فالذين يزعمون أن التوسل بالذوات والاشخاص يدنى من الله و يقرب من رضاه كاذبون على الله وعلى الاسلام وعلى عدله تعالى وعلى دينه . والذين يرجون بذلك أن ينالوا خيراً وأجراً ، فينهبون يلهجون به و ينضحون عنه ، جانون على الدين وعلى أنفسهم وعلى عقولهم . ولو كان فى مثل هذا التوسل خير وثواب وصواب ودنو إلى الله لوجدنا كبار المسلمين وخيارهم وأصحاب النبى عليه السلام يتسابقون إليه ، و يتنافسون فيه ، ولوجدنا

دعاءهم جميعه مشفوعاً به قائماً عليه ، ولوجدنا النبي عليه الصلاة والسلام يوصى صحابته وكبار المسلمين به أشد الايصاء ، ويحثهم عليه الحث المتتابع المتلاحق . ولكن ماذا يقول المخالفون وماذا يزعمون إذا وجدنا دعوات كبار المسلمين وفضلائهم ودعوات عظماء الأصحاب وكبرائهم خالية من هذا التوسل المزعوم وهذه الوسيلة الباطلة ، و إذا وجدنا الرسول عليه الصلاة والسلام يعلمهم أنواع الأدعية ، و يسأل عن أفضل ذلك وأقرب به إلى الاجابة والرضا والقبول وأصعده إلى السماء فيجيب و يصف أفضل مايلزم أن يدعو المسلم به ربه وأفضل مايحسن أن يواظب على الدعاء به ، ثم لانجد في شيء من ذلك وسيلة ولاتوسلا : نعم ماذا يقولون و يزعمون إذا ماقلنا لهم هذاكله و وجدوه صحيحاً كله؟

مما يبطل السؤال بالذوات والاشخاص

فهذا الضرب من ضروب التوسل الثلاثة التي ذكرها الشيعي باطل كاذب فالتوسل بذوات الخلق وأشخاصهم غير مرغوب فيه وغير مقبول لاعقلا ولانقلا. ولو أن ذاهباً ذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال له ، وهو حي سوى، يارسول الله إني أتوسل إليك و إلى رضاك وعدلك و إحسانك وحبك بذات أبي بكر أو بشخص عمر أو عثمان أو علي أو بالكعبة أو بالمقام و زمزم أو بالحطيم والمشعر الحرام أو بالمدينة المنورة أو بمكة كلها أو بغير ذلك لكان هذا القائل المتوسل جاهلا ، ولما كان في شيء من قوله وتوسله هذا مايوجب البر به والعطف عليه والتقريب له والاحسان إليه . ولو أن ذاهباً ذهب إلى قاض أو حاكم عادل قائلا له : إني أتوسل إليك بذات ابنك أو ذات والدك أو بشخص أحب الخلق وأحظاهم لديك أن تقضي لي وأن تعطف علي وأن . . . وأن . . . لما كان في شيء من هذا القول ما يوجب أن يغير الحكم والقضاء وسير الدعوى ، ولا مايوجب العطف عليه والاحسان إليه بوجه من الوجوه ، بل لكان هذا القول برمته وجملته جهلا وحمقاً وسماجة ظاهرة، ولكان إيراد خيال من حجة وطيف من برهان أنفع وأنجع في الأمر والدعوى

من هـذا الكلام الهراء والرجاء الباطل المقبوح . ولهذا كان من أجهل الناس وأضلهم أولئك الذين يقولون فى كلامهم وسؤالاتهم لمن يسألونه و يرجونه مثلا : أتوسل إليك بقبر أبيك أو برأسه أو بروحه أو بجسده و رمته . وكان لا يقول هذه الأقاويل إلا الجهلاء والضلال ومن لا يعقلون ولا يعرفون مايحسن مما يقبح . ومثل هذا الكلام والهراء من التوسل والاستشفاع لا ينفق ولا يروج ولا يعرف إلا بين أراذل الناس وسوقتهم وسخفائهم وسقطهم . . . أما عليتهم وخاصتهم فيسمون على هذا الاسفاف و يرغبون عن ذاك الهراء . والله أجل وأحكم وأعلى من أن يروج عنده هذا السخف أو يجوز لديه هذا الباطل .

فالذى يقول مثلا : أتوسل إليك يا ألله بذات محمد ﷺ أو بذات أبى بكر أو بذات الكعبة أو بالحجاز كله لا يكون إلا جاهلا مغرقا فى جهالته . ذلك لأنه ليس فى سؤال الله بذوات هؤلاء ما يوجب أن يجيب الدعاء وأن يقبل صاحبه و يقربه منه . فان مثل هذا ليس سبباً عاديا ولا شرعياً لشئ من الأشياء . ولا يزيد قولك : أتوسل إليك يا ألله بذات محمد عليه الصلاة والسلام و بجاهه عن قولك : أتوسل إليك باسم نبيك محمد و بأسماء أنبيائك ورسلك و باسم بيتك الحرام ، أو أسألك يا ألله وأرجوك لأن اسم نبيك محمد ، ولأن اسم حرمك مكة واسم حرم رسولك المدينة ، كما أنه لافرق بين قولك : أتوسل إليك يافلان بأبيك وأخيك وأهلك ، و بين قولك : أسألك لأن اسم أبيك زيد ولأن اسمك عمرو. فان كان فى هذا النوع من الكلام ما يعد سبباً لنيل مطلوب كان ذلك فى ذاك و إلا فلا . ولكن الناس جميعاً لا يرتابون فى أن هـذا التوسل الأخير جهل و باطل وضلال ، فالأول مثله .

اعتراض وجوابه

فان قيل هذا حق وكلام جيد لولا أنه قد جاء فى السنة الصحيحة ما يبطله و يرده ، وذلك حديث أنس المشهور الذى فيه أن عمر استسقى بالعباس بن

عبد المطلب وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . ومثله حديث الأعمى الآتى وقد جاء فيه : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة . يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى . . . »

ففى هذين الحديثين ما يفسد ما ذهبتم إليه وما زعمتموه ، فالجواب أن نقول : إن حديث الاستسقاء بالعباس وحديث الأعمى ليسا من التوسل بالذوات والأشخاص الذى منعناه وذكرنا أنه باطل فى الشرع والعقل . و إنما هما من التوسل بالدعاء بلا ريب . فقول عمر : اللهم إنا كنا نتوسل بنبينا . . . و إنا نتوسل إليك بعم نبينا معناه أنهم كانوا إذا أجدبوا فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام طلبوا إليه أن يدعو الله لهم وأن يضرع و يرغب إليه لينزل الغيث والسحاب و يمن على عباده بالرحمة والمطر . هذا هو التوسل الذى كان يطلبه المسلمون من النبى فى حياته والذى كان يفعله إذا شحت السماء بمائها كما جاء مفصلا فى أحاديث الاستسقاء . وقد جاء فى كل الأخبار أنهم كانوا يطلبون من النبى الدعاء و يقولون : هلكنا وهلكت دوابنا وعيالنا من الجدب فادع الله ليغيثنا ولينزل على عباده ، و بلاده الخير والغياث ، فيدعو لهم حيناً دعاء مجرداً كما فعل فوق المنبر عند ماسألوه ذلك وهو قائم يخطب ، وأحياناً يعمد إلى صلاة الاستسقاء فيصلى و يدعو ، و يصلى و يدعو معه المسلمون . وهذا هو الأكثر الأشهر من فعل النبى عليه السلام ، وهذا هو التوسل المذكور فى قول عمر . وقوله رضى الله عنه : و إنا نتوسل إليك بعم نبينا معناه أننا نتقرب إلى رحمتك وغياثك و رضاك بدعاء عم نبيك العباس : لأن العباس صالح وقريب منك ومن نبيك ، وقد احتاج إلى رحمتك واحتجنا نحن كذلك ، وأراد الغيث منك وأردناه نحن ، وقد دعا ودعونا وضرع وضرعنا وسألك وسألنا . فما أخلقنا بأن نجاب ونغاث ، وما أخلقك بأن تجيب وتغيث . . فالتوسل بالدعاء لا بالذوات ولا بالأشخاص ، ولا ريب . وحديث الأعمى كذلك

أيضاً ، فقوله : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة . يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى » معناه أنه أراد من الله بدعاء محمد ﷺ . وهذا لا يزيد عن أن يقول : إن محمداً قد دعاك فىّ وسألك كشف ضرى و بلائى و إنى ، أسألك أن تجيب دعوته ، وأن تقبل شفاعته وأن تشفعه فى ، وتشفعنى فيه . فانا كلانا ـ أنا ونبيك محمد ـ داع ، وكلانا شافع سائل ، وأنت ياألله خير من أعطى السائلين وأجاب الداعين . فالتوجه فى الحديث لم يكن بالذات والشخص و إنما هو بالدعاء والشفاعة . والدليل أول الحديث وآخره : ففى أوله أنه طلب من النبى أن يدعو له وأن النبى أشار عليه بأن يصبر لأن الصبر خير له ، فقال له : لا ، بل ادعه . و فى آخره قال : اللهم شفعه فىّ وشفعنى فى نفسى ـ أو شفعنى فيه ـ أى اللهم اقبل دعاءه فى ، لأن الشفاعة دعاء . . فأول الحديث وآخره واضحان فى أن المسألة مسألة دعاء . و فى الحديثين : حديث الاستسقاء بالعباس وحديث الأعمى كلام طويل سوف يمر بالقارىء فيما بعد .

الله يجيب المضطر للنفس والغير

و إذا علم أن مافى الحديثين ليس من التوسل والتوجه بالذوات والأشخاص زال هذا الإشكال والسؤال وسلم مما ذكرناه من الاعتراض والقدح . وذلك أنه لاريب فى أن ثمت فرقاً عظيما بين التوسل بالدعاء والشفاعة و بين التوسل بالذات والمادة . فان التوسل ، كما تقدم ، معناه التقرب والتزلف ، والذوات المجردة لا تقرب ولا تنفع فى هذا المعنى شيئاً ولا قيمة لها فى هذا الضرب . وأما الدعاء فانه يصح أن ينفع وأن ينال به المرء خيراً وأن يدرك به مطلوباً وحاجة من الحاج . وذلك أن الدعاء عبادة من العبادات وطاعة من الطاعات . بل قد جاء فى الحديث « الدعاء مخ العبادة » . وفى رواية : « الدعاء هو العبادة » . والعبادات يجازى الله عليها ، ومن جزائه عليها أن يجيب وأن يعطى صاحبها ما سأل . والله أيضاً أعظم من يعطى على السؤال ومن ينفع عنده الدعاء . وقد قال تعالى : « وقال ربكم

ادعونى أستجب لكم » ، وقال : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » ، وقال : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » الآية . ولا فرق فى ذلك بين أن تكون الدعوة من المرء لنفسه أو من المرء لغيره بشروطها وفروضها . وقد جاء الترغيب الكثير فى الدعوة للغير ، وللاخوان المؤمنين فى أحاديث صحاح معروفة .

فالذى يطلب من صالح أن يدعو له ويشفع هو إنسان قد أخذ بسبب من أسباب النجاح والقبول ، ثم قد يستجاب له وقد لا يستجاب . ومن أخذ بسبب من هذه الأسباب فقد توسل إلى الله وتوسل إلى حاجته . فيصح أن يقال إنه قد توسل إلى الله . ولا ريب أن النبى عليه الصلاة والسلام إذا دعا الله أن يغيثه وأن يغيث المسلمين معه ، فقد توسل إلى ربه وإلى نزول الغيث بسبب من أعظم الأسباب . ولا ريب أن المسلمين إذا طلبوا من النبى عليه السلام أن يصلى بهم وأن يصلوا معه ، وأن يدعو الله وأن يدعواهم معه ضارعين خاشعين راغبين إلى الله جلت قدرته رجاء أن يرحمهم وأن ينزل عليهم غيثه وحنانه فقد توسلوا إلى الله ربهم وإلى حاجاتهم بسبب هو من أعظم الأسباب وأقواها ، ومثله إذا فعلوا ذلك مع العباس بن عبد المطلب أو مع غيره من الأحياء الصالحين . ثم لا ريب أن ذلك الضرير إذا طلب من النبى أن يدعو له ليرد بصره فدعا وأمره أيضاً أن يصلى ركعتين خاشعتين بارتين تقيتين ، وأن يدعو كذلك ، فصلاهما ودعا بعد أن دعا له النبى عليه السلام : نعم لا ريب أنه قد توسل إلى الله وإلى إدراك حاجته ورد بصره ، وأنه يصح حينئذ أن يقول : « اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة . . . » . ولهذا لما أن كانت المسألة مسألة دعاء وعبادة ، لا مسألة أشخاص وذوات ، أمره النبى عليه الصلاة والسلام أن يتوضأ ويصلى وأن يدعو أيضا ويضرع ، بل وأن يطلب من الله أن يقبل شفاعة النبى عليه السلام

فكان هو شافعاً للنبي كما كان النبي شافعاً فيه ، فكلاهما شافع مشفوع له لكن على وجهين مختلفين . وذلك أنه قد جاء في آخر الحديث من الدعاء الذي علمه النبي للأعمى « اللهم شفعه في وشفعني فيه » . وهذا كله صحيح عقلا ونقلا

المتوسل الى الله بذوات الصالحين مثل المتوسل بذاته وبجسمه وقبره

أما التوسل بالذوات والأشخاص فشيء باطل فاسد لا معنى له ولا حقيقة . وما مثل من توسل إلى الله وإلى حاجته عند الله بالأشخاص والذوات إلا كمثل من توسل بذاته وشخصه . ولو أن أتقى خلق الله قال : أسألك ياألله وأتوسل إليك بذاتي أو بثوابي أو بكرامتي أو بقبري أو بوجهي أو جاهي لكان من الجاهلين ولكان دعاؤه هذا وتوسله دعاء وتوسلا باطلين سخيفين ، لا يقدمان ولا يؤخران ولا يجديان شيئاً . وشر منه ، ولاشك ، ذاك الذي يقول مثلا : أتوسل إليك بجسم فلان من الأنبياء أو بكرامة ذلك الشيخ أو بمقامه أو ببركته أو بجاهه . وذلك أنه إذا كان من غير الجائز المقبول أن يتوسل المرء ، مهما كان صالحاً برا ، إلى ربه بذاته وشخصه كان من غير الجائز يقيناً أن يتوسل بذات غيره وشخصه ، كما أنه إذا كان من الحسن المقبول أن يتوسل إلى ربه وإلى حاجته عنده بدعائه وسؤاله كان من الجائز الحسن أيضاً أن يتوسل إلى ذلك بدعاء الصالحين الأحياء . وكل الناس يعلم أنه لا يمكن مثلا أن يقول الرسول ﷺ : « اللهم إني أتوسل إليك بذاتي وبوجودي » ، ولكنه من الحسن المقبول أن يقول : « اللهم إني أتوسل إليك بطاعتي وبدعائي وسؤالي » . وعليه يجب أن يكون من غير الجائز أن يقول المسلم مثلا : « اللهم إني أتوسل إليك بذات نبيك محمد ولا بجاهه أو ببركته أو بقبره أو بحرمته وشرفه أو بتقواه وورعه . . . » ، وفساد مثل هذا واضح حتى في كلام الناس وعندهم . فلو قال قائل : أسألك يافلان بتقوى فلان وصلاحه وبره ويقينه وعلمه وفضله ، أو بشجاعته أو فضيلته أو بوجوده لكان قولا لامعنى له . وهذا لأنه لا ربط بين صلاح فلان ودينه وأخلاقه الكريمة وبين إعطائك حاجتك وأملك .

فكان سؤال هذا بهذا من العبث والجهل والسخف والبرود . ونحن لا نجد فرقا بين أن يقول القائل : أسألك وأتوجه إليك بجاه النبي و ببركته وحرمته و بين أن يقول أسألك وأتوسل إليك بصلاح نبيك أو بتقواه أو بحسن أخلاقه وطيبها أو بسمو شمائله أو بشجاعته أو بصبره على المكاره والآلام أو بطيب عنصره أو بطهارة نفسه ونحو ذلك . ولا نجد فرقا أيضاً بين التوسل بالجاه و بين أن يقال : أتوسل إليك بكون نبيك وجد فى عصر كذا و بلد كذا ، و بكون والده فلاناً و والدته فلانة . فاذا لم يكن وجود النبي عليه السلام فى عصر كذا ومكان كذا ، ولم يكن صلاحه وصبره وفضائله وأخلاقه سبباً من أسباب نيلك ماتطلب وترجو ، ولاوسيلة لأن تجاب وتعطى وتقرب من الله ، لم يصح كذلك أن يكون جاهه ولا بركته ولا حرمته ولا ذاته ولا قبره سبباً من أسباب أن تعطى وأن تنال ماترجو وتؤمل . و إذا لم يكن شيء من هذا سبباً لما ترجو لم يصح أن تطلب ماترجو بما لا يمكن أن يكون سبباً له ألبتة . وهذا كله واضح جلى لايدركه الخلاف والشك إن شاء الله .

هذا التوسل مثل أن يقال أسألك بكون نبيك وجد فى عصر كذا

فان قيل إن ما ذكرته هنا كله صحيح واضح الصحة والجودة ولكن الشفاعة و إثباتها يردان عليه إشكالا ، قيل : جواب هذا الإشكال يرجع إليه فى بحث الشفاعة الآنف من هذا الجزء . هذا جواب الضرب الأول من ضروب التوسل الثلاثة التى ذكرها الشيعى وهو التوسل إلى الله بالاشخاص والذوات والخلق

وأما الضرب الثانى وهو سؤال الله بالجاهات والبركات والحرمات و بالحقوق مثل أن يقال : أسألك بحق فلان أو بجاهه أو بحرمته أو بركته —

فالجواب أن هذا الضرب حكمه حكم الضرب الأول بل هو هو فجوابه جوابه وكل ما قيل هناك يقال هنا .

وأما الضرب الثالث — وهو الاقسام على الله بخلقه ، مثل أن يقال : أقسم عليك يا الله بفلان لما غفرت أو لما وهبت لى كيت وكيت — فيقال فى الجواب :

إن الإقسام بالمخلوق لايجوز ألبتة . وقد جاء النهى عنه متواتراً ، وورد الوعيد الشديد عليه . وهذا له باب خاص به سوف يجئ الكلام فيه وافياً . فلنتركه له

فهذه ضروب التوسل الثلاثة التى ذكرها الرافضى المؤلف كلها باطلة فاسدة لايجوز منها شئ لاشرعاً ولا عقلا وسيأتى الجواب مفصلا عن دلائله المذكورة .

وبالاجمال فالتوسل عبارة عن جملة الأعمال المشروعة

فالتحقيق إذن أن التوسل المطلوب شرعاً الوارد فى نصوص الكتاب والسنة يراد به جملة الأعمال الصالحة المبرورة قولية وفعلية ، وهو عبارة عن الواجبات والمستحبات . و بعبارة أخرى هو الأوامر ، والأوامر إما على سبيل الوجوب والإلزام ، أو على سبيل الاستحباب والندب . فكل واجب عمله توسل ووسيلة إلى الله ، وكل مستحب مشروع القيام به هو من التوسل والوسيلة الشرعية أيضا. وما ليس واجباً ولامستحبا فليس وسيلة ولاتوسلا، أى ليس مقرباً إلى الله و إلى رضاه . فعلينا إذن وعلى المخالفين وعلى المسلمين كافة أن يعرفوا الواجبات والمستحبات وأن يعرفوا الشرع والدين وأن يدرسوه ليعرفوا ماهو التوسل وما هى الوسيلة . فالصلاة مثلا من أعظم الوسائل ، والحج والزكاة والصيام والشهادتان من أعظم وأفضل مايتوسل به المرء إلى ربه ، بل لا يمكن التوسل إليه تعالى بدون ذلك ، ودعاء الصالحين الأحياء نوع من التوسل أيضاً . وهذا كله قد دل عليه الشرع ولا يختلف الناس فيه .

أما مايذكره الجهال وما يعدونه من التوسل والوسيلة مما لا دليل عليه سوى أنهم يسمونه توسلا ووسيلة فليس من ذاك بل هو توسل إلى الشيطان و إلى رضاه و إلى غضب الله ومقته . فدعاء الأموات والعكوف على الأجداث وسائر هاتيك المنكرات الخزيات هى وسائل ولا شك ولكنها وسائل إلى البعد عن الله وعن رحمته وشريعته ودينه ـ عياذاً بالله .

من كذب الرافضى

بعد هذا نقول : ومن الكذب الواضح الصريح وقلة الإنصاف ومراقبة الله

قول الرافضى : « والتوسل بأنواعه مما منعه الوهابية وجعلوه شركا لأنه نوع من التشفع الممنوع عندهم ، الموجب للشرك وجريان أدلتهم فيه . . » وهذا كذب من وجهين : أحدهما أن الوهابيين لا يمنعون التّوسل كله بكل أنواعه وأقسامه الصحيحة والباطلة ، وهذا ضرورى . بل هم يرون من التّوسل مالا يكون الاسلام والايمان إلا به ، بل عندهم أن الاسلام والايمان هما التّوسل والوسيلة ، وعندهم أن كل ما أمر به الشرع من الواجبات والمستحبات فهو توسل شرعى ووسيلة شرعية . . . فكيف يزعم من يخاف الله ومن يعلم أن الكذب جريمة وكبيرة أن الوهابيين يمنعون التّوسل بكل أنواعه وأقسامه ؟ ! ولكن الرافضى لايعرف من التوسل إلا أنه عبادة الأموات والأجداث وسائر هذه الفضائح القائمة على القبور اليوم وقبل اليوم ، ولايعلم أن منه ـ أى من التّوسل والوسيلة ـ العبادات والطاعات والايمان بالله و بكتبه ورسله وكل ما وجب الايمان به ، وأن منه الصلاة والزكاة والحج والصيام وجميع أعمال البر والاسلام . . . وعن هذا قال : إن الوهابيين يمنعون التّوسل كله ولا يجوزون منه شيئاً ، لأنهم حقيقة يمنعون الاستغاثة بالموتى والضراعة إليهم والعكوف على قبورهم وجميع هاتيك الباطلات المبثوثة على ضرائح الصالحين والأشياخ .

وثانى الوجهين المكذو بين الكاذبين زعمه أن الوهابيين يقولون : إن ضروب التوسل الثلاثة التى ذكرها شرك بالله . وهذا بهتان قبيح من الرجل . فان الوهابيين لا يقولون : إن سؤال الله بجاه المخلوقين أو بحقهم أو بحرماتهم ، أو التوسل بالانبياء والصالحين ، أوالاقسام على الله بهم ـ : لايقولون إن شيئاً من هذا من الشرك المخرج من الملة والايمان ، المنافى للتوحيد . و إنما يقولون : إن ذلك ممنوع مبتدع كله . وهنالك واسطة ، ينبغى ألا تخفى على هؤلاء الناس ، بين كون الأمر كفرا وشركا و بين كونه جائزاً مأموراً به . وهذه الواسطة هى ألا يكون

الأمر شركا وكفراً ولا جائزاً مأموراً به ، بل يكون محرما ممنوعاً ، والأمر المحرم قد يكون شركا وقد لايكون ذلك . والأضرب الثلاثة التى ذكرها الشيعى ليست كفرا ولا شركا مخرجاً من الملة عند أحد من الوهابيين ، وليست أيضاً جائزة ولا ديناً ، وإنما هى أشياء باطلة مبتدعة يلزم الانكفاف عنها وطرحها من حساب الدين والاعتقاد الصحيح .

﴿ تلخيص أدلة التوسل عند الرافضى ﴾

إجمال أدلة الشيعى على جواز التوسل الذى زعموه

والأدلة التى أوردها الشيعى فى هذا البحث والتى سقناها إجمالا كما ساقها تتلخص فى ما يأتى :

أولا — : قول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » قال : وهذه الآية متناولة بعمومها كل وسيلة . وقد دلت الأخبار على ثبوت الوسيلة للأنبياء والصلحاء والأوصياء مثل قول النبى عليه الصلاة والسلام : « اسألوا الله لى الوسيلة » وقوله عن الخوارج : « يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة » .

ثانيا — : أن التوسل ثابت فى الشرائع السابقة كما عن القسطلانى فى شرح صحيح البخارى عن كعب الاحبار أن بنى إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم .

ثالثا — : أن التوسل قد ثبت بالحى كما اعترف الوهابيون وكما جاء فى الأحاديث كحديث الاستسقاء بالعباس ، وكما أمر ﷺ أن يسأل بحق السائلين وبحق مشى المصلى إلى الصلاة . وقد نطقت الأحاديث بالحق على الله لعباده . وإذا ثبت التوسل بالحى وثبت أنه ليس شركا ولا كفرا فالتوسل بالميت كذلك إذ لايعقل الفرق بين الفريقين . فان جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهى لم تذهب بالموت ، وإن كان لأجل أن يدعو الله فهو ممكن فى حق

الميت . ولو فرض عدم إمكانه لم يوجب فعله الشرك بل يكون كطلب المشى من المقعد بزعم أنه صحيح غير مقعد . قال : وقد فهم الصحابة عدم الفرق بين الحى والميت كما فى حديث ابن حنيف ، وصرحت الأخبار الآتية بعدم الفرق ، بل بين الموجود والمعدوم . وأمر مالك المنصور أن يتوسل بالنبى بعد موته وقال : هو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم .

رابعاً — : روى عمر بن الخطاب عن النبى عليه السلام قال : «لما اقترف آدم الخطيئة قال : أسألك يارب . . . » الحديث .

خامساً — : قال بعض المفسرين فى قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات » : إن الكلمات هى توسله بالنبى عليه الصلاة والسلام . وفى «مجمع البيان» أن الكلمات هى توسله بمحمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين .

سادساً — : روى جماعة منهم النسائى والترمذى عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى . . . إلى آخر حديث الأعمى الآتى .

سابعاً — : روى الطبرانى أن سواد بن قارب أنشد رسول الله قصيدة فى مدحه جاء فيها : « و إنك أدنى المرسلين وسيلة » « وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة » . و روى البيهقى أن أعرابيا استسقى بالنبى عليه السلام وقال :

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل؟

قال : روى البخارى أن النبى عليه السلام قال لما أغاث الله العباد باستسقائه : « لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناك . من ينشدنا قوله ؟ » فقيل كأنك أردت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فتهلل وجه النبى عليه السلام .

ثامناً — : روى الطبرانى عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان فى حاجة له ، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته . إلى آخر القصة السابقة .

تاسعاً — : روى الطبرانى أيضا فى الكبير والاوسط بسند فيه روح بن صلاح، وثقه ابن حبان وفيه ضعف و بقية رجاله رجال الصحيح، عن أنس بن مالك قال لما ماتت فاطمة بنت أسد دخل عليها رسول الله . . . إلى آخر الحديث

عاشراً — : قالت صفية بنت عبد المطلب فى رثاء رسول الله :

ألا يارسول الله أنت رجاؤنا * وكنت بنا برا ولم تك جافيا

الحادى عشر —: روى الدارمى بسنده من طريق أبى الجوزاء قال قحط أهل المدينة فشكوا إلى عائشة . . . إلى تمام الرواية .

الثانى عشر — : قال قام الاجماع وتواترت الأخبار أن الناس يوم القيامة يتوسلون بالنبى عليه السلام فيشفع إلى ربه .

الثالث عشر : روى الحاكم وصححه عن عبد الله بن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى بن مريم : ياعيسى آمن بمحمد وأمر من أدركت من أمتك أن يؤمنوا به . فلولا محمد ماخلقت آدم ، ولولا أنى خلقت محمداً ماخلقت الجنة ولا النار . . . الحديث .

الرابع عشر — : قال قال فى خلاصة الكلام: إن النبى عليه الصلاة والسلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر ثلاثا : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل ومحمد أجرنى من النار » .

الخامس عشر — : روى القاضى عياض فى كتاب « الشفا » بسند جيد عن ابن حميد أحد الرواة عن مالك فى مايظهر قال ناظر أبو جعفر المنصور مالكا فى مسجد رسول الله فقال مالك : ياأمير المؤمنين لاترفع صوتك فى هذا المسجد . الحديث وقد سبق لفظه وسوف يجىء أيضاً .

السادس عشر — : إن الشافعى توسل بأهل البيت النبوى كما تقدم فى الأبيات السابقة .

هـذا هو تلخيص ماذكر الشيعى من الشبه أو البراهين عـلى جواز أنواع التوسل وسـائر ضروبه التى ذكرها . وإننا هنا نذكر أجوبة كل شئ سـائلين الله وحده العون والتأييد والتوفيق .

جواب قول الله : وابتغوا إليه الوسيلة »

﴿ جواب الشبهة الأولى ﴾

أما الشبهة الأولى وهى قول الله : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » فالجواب أن يقال : حقا إن الآية الكريمة تطلب إلى المؤمنين جميعاً أن يبتغوا إلى ربهم الوسيلة الشرعية بكل ضروبها وأنواعها وأقسامها وسائر مظاهرها قولها وفعلها واعتقادها ، حقيقها وصورها . . . ولـكن ما هى الوسـيلة التى افترض الله على خلقه كافة ابتغاءها إليه وطلبها عنده ؟ هذه هى المسألة ، وهذا هو المشكل

مما لايشك فيه مسلم ولاعاقل غير مسلم أن هذه الوسيلة المطلوبة هى الوسيلة الشرعية الصحيحـة . إذن علينا أن نعرف ما هى الوسيلة الشرعية الصحيحة ، وعلى المخالفين أن يقيموا الدلائل المحترمة المقبولة عـلى أن من الوسيلة الشرعية مازعموه هنا من خرافات القبور ومبتدعات العاكفين على الأموات . . . ابتغاء الوسيلة إلى الله حق لاريب فيه ولانزاع ، ولـكن نريد أن نعرف الوسيلة . هؤلاء يقولون إنها عبـادة المشايخ والأموات ودعاؤهم والاستغاثة بهم والعكوف عليهم وإنزال الحاجات بأبوابهم وسؤالهم حاجات الدين والدنيا وجميع هـذه المصائب المنثورة اليوم وقبـل اليوم فوق القبور . ونحن نقول لهـم : كلا ، ليس شئ من هذا بوسيلة شرعية إلى الله ، وإنما هو وسيلة إلى الشيطان والضلال والباطل . إذن نحن لانخالفهم فى وجوب ابتغاء الوسيلة إلى الخـلاق ، ولـكن نخالفهم ويخالفهم جميع أهل اللسان والايمان والقرآن فى حقيقة الوسـيلة ومعناها . فنحن نقول : إن الوسيلة إلى الله هى الأعمـال الصالحة المبرورة ، فالأعمال هى التى تقرب إلى

الله ، والوسيلة هى الزلفى والقربى لديه تعالى . . وهم يقولون : إن الوسيلة هى دعاء الأموات والاستغاثة بالقبور والمقبور . فاذا قلنا لهم : مادليلكم على أن الرجوع إلى الأشياخ والموتى من الوسيلة والزلفى عند الله لم يكن لديهم من جواب سوى أن يقولوا إن المتوسلين يسمون ذلك كله وسيلة وتوسلا . فاذا قلنا لهم : إن المسألة ليست مسألة ألفاظ ولا مسألة عوام وجهال ، وإنما المسألة مسألة علم وحق وحقيقة وعلماء ، فالعوام والمتوسلون يخطئون فى ألفاظهم وكلامهم كما يخطئون فى عقائدهم ومعارفهم وآرائهم ، وكما يخطئون فى أشياء كثيرة . فما دليلكم على أن هؤلاء الجهال والعوام لم يغلطوا ويخطئوا فى تسمية هذا الباطل والإثم وسيلة وتوسلا لم يكن لديهم من جواب البتة .

إن المسألة مسألة علم وحقيقة . فالوسيلة هى القرب من الله أو ما يؤول إلى هذا المعنى بلا خلاف بين أهل العلم . فقول الله : « . . . وابتغوا إليه الوسيلة » معناه اطلبوا إلى الله القرب والزلفى . وإذن عليكم أن تقيموا الدليل على أن هذا الباطل المعروض على القبور ، وتلك السخافات القائمة فى كل مكان مما يقرب إلى الله ويزلف لديه تعالى ، وأن تقيموا الدليل على أنه لا يبعد عن الله ولا يوجب غضبه ومقته وطرده . إذ لاشك حينئذ أن من الممكن الجائز أن يستدل بالآية المذكورة على بطلان توسلكم ومايدخل فى معناه من باطلات وسخافات بأن يقال مثلا : الآية تطلب إلى الخلق أن يتقربوا إلى ربهم وخالقهم ، ولعل من التقرب إليه تعالى وإلى رضاه وثوابه هجران هذا التوسل وهذه الوسيلة ، أعنى توسل العوام ووسيلتهم . فاذا قيل هذا القيل لم يجد المخالفون لنا من رد له ولا اعتراض عليه .

لاشك ان من التوسل الحق ومنه الباطل

لا شك أن التوسل منه الحق ومنه الباطل ، ومنه ما يخالف الشريعة ومنه ما يوافقها ومنه ما يقرب إلى الله ومنه ما يبعد عنه . ثم لا شك أن معرفة الفرقان بين الأمرين مردها إلى الشريعة نفسها ، وأن التحاكم فيهما لا يكون إلا إلى الكتاب

والسنة لا إلى العوام والجهال والمتوسلين . فلابد لنا ، ولا بد للمتوسلين المخالفين ، ولابد لجميع المسلمين من معرفة الفرقان بين النوعين : الجائز والممنوع ، الحق والباطل ، ولابد من الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ونصوص الدين لمن يحاول هذه المعرفة ولمن ينشد الحق والهداية . إذن لنرجع وليرجع معنا المخالفون والموافقون إلى الكتاب والسنة ، ولنتعرف الوسيلة الصحيحة المأمور بها فى الكتاب والوسيلة الباطلة المنهى عنها فى الكتاب ، والتى لا يصح أن يأمر بها الكتاب ولا السنة . فان الآية الكريمة ــ مفردة ــ لا يمكن أن تدل على شىء مما زعموا وادعوا بالاجماع والضرورة والبداهة . فلابد من بيان . فأين البيان ؟ هذا هو المطلوب المنشود ، فأين يوجد هو ؟ ونستطيع أن نعبر عن هذه المعانى التى ذكرناها بعبارة أخرى قصيرة كأن نقول مثلا : الآية تطلب إلى المسلمين كافة وجميعاً أن يبتغوا إلى ربهم الوسيلة ، وهذه الوسيلة المطلوبة المأمور بها إما أن يراد بها الوسيلة الشرعية فقط ، وإما أن يراد بها كل ما يسمى وسيلة وإن كانت غير شرعية . وهذا مالا فرار ولا معدى عنه . ولابد حينئذ أن يكون الجواب على هذا السؤال : إن الوسيلة المطلوبة المأمور بها هى الوسيلة الشرعية لاغير . وإذن ما الدليل على أن دعاء الأموات ، أو دعاء الله بجاهاتهم وكراماتهم وحقوقهم والاقسام على الله بهم من الوسيلة الشرعية المطلوبة المأمور بها ؟ هذا هو السؤال ولابد من البيان والجواب . فالآية إذن تحتاج ، ولاشك ، إلى تفسير لفظى لغوى ولا بد للتفسير الذى يقال فيها من دليل . وأما إن قيل إن الوسيلة المطلوبة فى الآية هى الوسيلة المطلقة العامة ، أى الوسيلة الشرعية ، وغير الشرعية ، فالجواب أن هذا القول من الباطل والضلال والخطأ بحيث لا يخفى مكانه على أحد . فان الناس قد يسمون الشرك وسيلة إلى الله ــ بل قد فعلوا ــ وقد يسمون ما أجمع المسلمون على بطلانه وفساده وضلاله وسيلة . وقد يشركون ويضلون ويعبدون

الأوثان والأصنام، ثم يزعمون بملء أفواههم وحناجرهم أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك وأنهم إنما يتوسلون ويتقربون إليه تعالى فقط كما قد يسمون الباطل والزور والجهل حقا وهدى وعلماً إلهيا، وكما قد يخطئون ويضلون السبيل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وأنهم يرضون الله ويرضون الحق والإيمان والمعرفة. وقد كان المشركون يعبدون الأصنام والأوثان ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. ولم يكن قولهم للأصنام والأوثان إنها شفعاؤهم عند الله، مصدقا وموجباً أن تكون كذلك شفعاءهم، ولم يكن زعمهم أنها تقربهم إلى الله زلفى محققا تقريبها إياهم حقيقة لا غلطاً ولا كذباً... هذا حق لا باطل فيه، فكذلك زعم هؤلاء الضلال أن عبادة الأموات ودعاءهم والاستغاثة بهم وسيلة وتوسل إلى الله لا يوجب أن تكون أفعالهم هذه حقيقة وسيلة وتوسلا نافعاً عند الحق

قد يقال ان الامر بابتغاء الوسيلة دليل على بطلان هذه الوسيلة

ولو كان كل ما يسمى وسيلة مطلوبا ابتغاؤه إلى الله بدليل هذه الآية لكان من الجائز الممكن أن نسمى ترك هذه الوسيلة — التى هى وسيلتهم — وسيلة، وأن نقول: إن من التوسل إلى الله ومن ابتغاء الوسيلة عنده ألا يدعى إلا الله وألا يضرع إلا له وألا يرجع إلا إليه وألا يسأل إلا بأسمائه وصفاته لا بفلان ولا فلانة ولا بجاه فلان ولا جاه فلانة، وألا يدعى أحد من الأشياخ والميتين . . . وإذا قلنا هذا أو قاله غيرنا كانت الآية — على الافتراضين — دالة على بطلان التوسل الذى يدعو إليه هؤلاء المخالفون. وهذا هو المطلوب.

ويقال بعبارة أخرى: إن الآية تقول: «وابتغوا إليه الوسيلة» وهؤلاء المخالفون المشاكسون إما أن يزعموا أن الصالحين من الأموات هم الوسيلة نفسها أو يزعموا أن الوسيلة تبتغى بهم وأنهم هم أنفسهم ليسوا وسيلة ...فان زعموا الزعم الأول قيل لهم: إذا كان المشايخ والأولياء هم الوسيلة نفسها فالآية تأمر

بابتغائهم لا بالابتغاء منهم ولا بالابتغاء بهم ، لأنها تقول : « وابتغوا إليه الوسيلة » فالآية على هذا تأمر بابتغائهم هم لا بالابتغاء بهم ولا بالابتغاء منهم . فدلالة الآية حينئذ خلاف ما زعموا وذكروا . وأما إن قالوا بالشطر الثانى – أى قالوا إن المشايخ والأولياء أنفسهم ليسوا وسيلة – قيل إذن فالآية لم تأمر بما ادعيتم ، فلا شئ لكم فيها .

وتحرير هذا الكلام وتجويده أننا نقول : الآية تأمر بابتغاء الوسيلة فقط فان كان المشايخ والأموات هم الوسيلة وهم تفسيرها فالآية لم تقل : ابتغوا بهم ولا منهم الوسيلة ولا غيرها ، وإنما قالت : ابتغوهم . وفرق عظيم بين الابتغاء من الشخص والابتغاء به وبين ابتغائه هو ذاته ونفسه . فان لم يكن المشايخ والأولياء هم الوسيلة ، وإنما الوسيلة تبتغى بهم وتطلب ، قيل إن الآية لم تذكر هذا ، ولم تذكر أن الوسيلة تبتغى بهم ولا منهم ولم تأمر بذلك ، بل وليس فيها حرف واحد يشير إليهم . فما الدليل حينئذ على أن هذه الوسيلة التى أمرنا بابتغائها يراد منا أن نبتغيها من الخلق بالطريق الذى يزعمه هؤلاء المخالفون ويعملونه . . .

ويقال أيضاً بعبارة أخرى : قد قدمنا أنه لا خلاف بين أهل اللسان أن الوسيلة معناها فى أصل اللغة الزلفى ، وأن التوسل معناه فى صريح اللسان التقرب . فالآية بلا ريب تطلب من الخلق أن يتقربوا إلى الله وأن يأخذوا بما يقربهم منه تعالى وبما يدنيهم من ثوابه وجزائه الأوفى . وهذا بالاجمال لا نزاع فيه . وحينئذ يقال ما دليلكم على أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم وأن سؤال الله بجاههم وحقهم مما يقرب إلى الله ؟ فان أقمتم الدليل على هذا – أى على أن دعاء الأموات أو الدعاء بجاههم وبركاتهم وحرماتهم – مما يقرب إلى الله ، فالحجة فى الدليل الذى ذكرتموه لا فى الآية ، لأن الآية لم تدل على أن هذا مما يقرب إلى الله ، وإن أنتم لم تقيموا دليلا على أن دعاءهم ودعاء الله بهم وبجاهاتهم يقرب إلى الله

لم يمكن أن تأخذوا من الآية شيئا.. . فهى على الافتراضين خارجة عن منطقة النزاع والخلاف، وأنتم على الافتراضين لا تستطيعون أن تستفيدوا منها شيئاً.

دلالة أحاديث الوسيلة على خلاف قول المخالف

ثم يقال أيضاً: إن الأحاديث التي أوردها الشيعى رد عليه. وذلك مثل قوله عليه الصلاة والسلام: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله الصالحين» وكقوله. « آت محمداً الوسيلة والفضيلة » . فان هذه الأخبار نصوص صريحة فى أن الوسيلة ليست هى الصالحين والميتين، وليست هى أيضاً دعاءهم والاستغاثة بهم، وليست هى أيضاً سؤال الله بجاههم وكراماتهم وحرماتهم وحقوقهم كما زعموا بل الأحاديث صريحة فى أن الوسيلة تطلب لعباد الله الصالحين كالأنبياء والمرسلين، لا تطلب منهم ولا بهم، بل تطلب من الله وحده. فهؤلاء القوم المنازعون مخالفون لهذه النصوص الصحيحة . فان النصوص تُعَلِّمُ المسلمين وتأمرهم وتطلب إليهم أن يطلبوا الوسيلة لأشرف الخلق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وهؤلاء المخالفون يطلبونها ممن أمروا بأن يطلبوها لهم. فكانوا بهذا مبدلين مبتغين غير الذى قيل لهم. فالرسول الأكرم يقول لهم وللمؤمنين به جميعاً « اسألوا الله لى الوسيلة » وهم يقولون: لا، بل نسألك أنت الوسيلة ونتوسل بك. وهذا عين الخلاف على النبى عليه الصلاة والسلام.

﴿ الشبهة الثانية توسل بنى إسرائيل بأهل بيت نبيهم ﴾

استشفاع بنى إسرائيل بآل نبيهم

وأما ماذكر عن القسطلانى من أن بنى إسرائيل كانوا إذا أجدبوا استسقوا بأهل بيت نبيهم، فالجواب ثلاثة أمور: أولها المطالبة بتصحيح هذا النقل من طريق صحيح مقبول لدى أهل المعرفة. و بغير ذلك لا يبالى بالرواية ولا بالنقل. وليس كافياً فى تصحيح الرواية ذكر القسطلانى لها بلا خلاف بين الناس. ثانى الأمور أننا نطلب إلى المخالفين أن يقيموا الدليل على أن جميع ما يفعله بنو إسرائيل حق

وصواب وهدى ، وأنه ليس فى ما يفعلونه ضلال ولا جهل ولا خلاف على أنبيائهم ودينهم وكتابهم . ولكن كيف ذلك و بنو إسرائيل قد فعلوا بدينهم و بكتابهم الأفاعيل، وقد حرفوا الكتاب وكتبوا بأيديهم كتباً وقالوا : إنها من عند الله ليشتروا بها ثمناً قليلا؟ كيف وقد جاء الكتاب والاسلام ناعياً عليهم أفانين الضلالات والجهالات والحماقات فى الأصول والفروع . فلا يحتج بما فعلوا واعتقدوا وقالوا إلا من خبط فى مثل ما خبطوا فيه من شراذم الغواية وضروب الباطل . بل لو قيل إن فعل بنى إسرائيل للأمر الذى لم يؤثر عن سواهم من الدلائل على بطلانه وفساده وخلافه على الإسلام والحق والصواب لكان قولا مقارباً إن لم يكن الحق عينه فليس عنه بعيداً . وذلك لوفرة نصيبهم من الباطل والإثم والبغى ، وقلة حظهم من الهدى والخير والصواب حتى عد ركونهم إلى الشئ من أمارات بطلانه وفساده وكذبه . ثالث الأمور لو صح هذا النقل وقام الدليل على أنه من الحق الباقى عند بنى إسرائيل لما كان فيه حجة على ما ذهب إليه المخالفون لجواز أن يكون المراد الاستسقاء بدعاء صالحى ذرية نبيهم وشفاعتهم، مثل استسقاء عمر ومن معه من المسلمين بالعباس بن عبد المطلب ، ومثل استسقاء معاوية ومن معه بيزيد بن الأسود الجرشى التابعى الصالح . وهذا النوع من الاستسقاء والتوسل لا ينازع فيه أحد من المسلمين ، بل لا ريب أن الاستسقاء بدعوات الصالحين الأحياء من السنن المشهورة المرغوب فيها . ولكن الخلاف ليس فى هذا .

تسوية المخالفين بين الأحياء والأموات

﴿ الشبهة الثالثة التسوية بين الأحياء والأموات ﴾

وأما الشبهة الثالثة وهى زعمه أن التوسل قد ثبت بالحى فليثبت كذلك بالميت لأنه لافرق بين الأحياء والأموات — فالجواب أن يقال إن الذى ثبت من التوسل بالحى هو التوسل بدعائه وشفاعته . والميت لا يمكن الاتصال به

بوجه من الوجوه التى يزعمونها ، فلا يمكن أن يدعو لمن طلب منه الدعاء ولا أن يشفع لمن أراد منه الشفاعة ، ولا أن يسمع لمن دعاه وناداه، للدلائل الكثيرة العقلية والنقلية التى قدمناها فى فصل الشفاعة السابق . وقد تكلمنا هناك وأبنا أنه غير جائز بحال من الأحوال أن يطلب الدعاء والشفاعة من ميت . . . أما الحى فيمكن دعاؤه والاستشفاع به بالمشاهدة والضرورة والاجماع . فأنى تمكن التسوية بين الفريقين ! وأنى يقياس الميت على الحى لو كانوا يشعرون !

ومن يسمح لنفسه بهذا

وأى عاقل يسمح لنفسه بأن يدعى أنه لافرق بين الأحياء والأموات ، وأنه يصح أن يقاس أحد الفريقين على الآخر ؟ وأى قياس هذا الذى يقضى بأن يكون الميت مثل الحى سواء ، فيطلب منه كل ما يطلب منه ، ويرتجى لكل ما يرتجى ، ويدعى كما يدعى ، ويسأل كل ما يسأل ، فاذا جاز أن يقال للحى أعطنى كذا ، أو اذهب إلى كذا ، أو اترك أمر كذا ، أوقم بأمر كذا ، جاز أن يقال للميت مثل ذلك سواء. إن هذا بلا شك ضرب من ضروب الجنون والعته . ولو أن إنساناً قال لإنسان آخر حى : ناولنى كيت وكيت ـ مما يقدر عليه الحى عادة ـ لكان هذا القول قولا عادياً لا شئ فيه . ومن قال ذلك لأحد الأموات كان مجنوناً بلاشك ، أو مشركا مغرقا فى الشرك والغى ، معتقدا بأن ذلك الميت الذى يخاطب ويدعو قادر على كل شئ ، فاعل كل شئ. ولو تخاصم متخاصمون ، فذهبوا لى قاض حى ليقضى ويحكم بينهم فى خصومتهم ونزاعهم لكانوا فاعلين ما يقضى به العقل والشرع والضرورة والوجدان ..ولو أنهم ذهبوا إلى أحد الأئمة الأربعة أو غيرهم مثلا ليقضى بينهم ويفض نزاعهم لما كانوا إلا مجانين ...فكيف يزعم عاقل مسلم أنه لا فرق بين الأحياء والأموات ، ويزعم أن قياس أحد الفريقين على الفريق الآخر قياس صحيح سليم يكتب وينشر ويحاول إقناع المسلمين والعقلاء

به ؟ ولا ريب أن شرما فى الدنيا من قياس ، وأن أكذبه وأبطله وأجهله هو قياس الموتى على الأحياء

الشيعة ينكرون القياس فكيف يقيسون الميت على الحى

على أن الشيعة الامامية الاثنا عشرية ينكرون القياس بكل ضروبه وأنواعه ، ويلجُّون فى إنكاره وجحوده ، ويعيبون الذين يقيسون والذين يقولون بجواز القياس مهما وضح صدقه ووجهه ، ومهما استوفى شروطه : واجباته ومستحباته ومقوياته . فما بالهم إذن هنا يستحسنون ما قبحوا ؟ وما بال القياس كله يكذب ويقبح إلا قياس الميت على الحى ، قياس الضد على ضده ؟ ونحن لا نستطيع أن نعرف كيف يستطيعون أن يزعموا أن الأموات مثل الأحياء ، وأنه لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟ وقد لهجوا بهذه المقالة وتغنوا ، ورتلوها فى كثير من كتبهم ، وشادوا عليها كثيراً من ضلالهم وباطلهم وبدعهم ، وانتزعوا منها الحجج والبراهين على ماهم فيه من عكوف على القبور وعبادة لأصحابها . ولا نعلم شيئاً يشهد لهذه المقالة لا من الشرع ولا من العقل ولا من العادة والذوق والوجدان ، والناس كلهم مفطورون على التفريق بين الحى والميت ، وعلى التفريق بين أحكام هذا وأحكام ذاك ، ولا يوجد إنسان واحد يسوى بينهما تسوية تامة مطلقة عامة شاملة ، والشرع قد فرق بينهما بنصوص لا تقبل الخلاف والجدال ، مثل قوله تعالى : «وما يستوى الأحياء ولا الأموات» ومثل قوله : «إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم» الآية . والأحياء يسمعون بلا خلاف فهم ليسوا مثل الأموات ، ومثل قوله : « وما أنت بمسمع من فى القبور » وقوله : «إنك لا تسمع الموتى» . وكل أحكام الأموات الشرعية تدل على الفرق بين الفريقين . وما فى الشرع ما يدل على التسوية بل كل ما فيه يدل على خلافها . وأما العقل فإنه لا يستطيع تسليم هذه التسوية . فهو إذا كان لا يرى للميت أثراً ولا فعلا من آثار الحى وأفعاله ، وكان يرى بالمشاهدة أن الميت فاقد كل ما فى الحى من حياة وعمل وعلم فلا يمكن

الفرق بين الأحياء والأموات فى الشرع والعقل والوجدان والاجماع

أن يحكم بأنه مثله . وإلا لو لم يستطع التفريق بين شيئين فرق بينهما الحس والضرورة والمشاهدة لما كان مرضى الحكومة ولا مقبول الدعوى . وأما حكم الوجدان فهو أظهر وأبين . فالشرع والعقل والوجدان والاجماع : كل ذلك قاض بالفرق بين الأحياء والأموات ، وكل ذلك لا يسلم التسوية بين الطائفتين . فماذا إذن يسوون بينهما ؟ وبماذا احتجوا حين قالوا : إنه لافرق بين الحي والميت والفرق موجود في الشرع والعقل والاجماع والوجدان ؟ وإذا أباح هؤلاء لأنفسهم وصدقتهم عقولهم وعقائدهم ، أن يدعوا مثل هذه الدعوى فماذا يقولون لو قال قائل: أنه لا فرق بين الجماد والحيوان ، فلافرق بين الحجر والشجر والانسان في هذه الأحكام كما قالوا هم سواء ، ثم قال مثل ما قالوا : « إذا ثبت التوسل بالانسان وثبت أن التوسل به ليس شركا ولا كفراً فالتوسل بالحجر والشجر والجماد كذلك » إذلا يعقل الفرق بين الأمرين . فان جواز التوسل بالانسان إن كان لمكانته عند الله فالمكانة ثابتة للجماد والأحجار كأحجار البيت العتيق وأحجار قبور الصالحين وآثارهم عند المخالف . وإن كان لأجل أن يدعو الله فالجماد يدعو أيضاً كما قال تعالى « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » وكما قال : « ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال » وكما قال : « ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » . وكما قال : « والنجم والشجر يسجدان » وكما قال في وصف الحجارة : « وإن منها لما يهبط من خشية الله » وقد عزا الكتاب أشياء كثيرة من هذا النوع إلى الجماد . وقد جاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « إني لأعرف حجراً في مكة كان يسلم على » وقد حن الجذع الذى كان يخطب عليه عليه الصلاة والسلام لما اتخذ منبره وخطب عليه . وقد صح في الأحاديث الصحاح المجمع على صحتها وثبوتها عند أهل

ماذا يقولون في دعاء الجماد المجرد من كل حياة

الحديث أن الطعام كان يسبح على عهد النبي وكذا الحصا . . » . هذا ما يمكن أن يقال وما يمكن أن يكون مثل قول الشيعي : « إذا ثبت التوسل بالحي وثبت أنه ليس شركا ولا كفراً فالتوسل بالميت كذلك ، إذ لا يعقل الفرق بين الفريقين فإن جواز التوسل به إلى الله إن كان لمكانته عند الله فهي لم تذهب بالموت ، و إن كان لأجل أن يدعو فهو ممكن فى حق الميت . . . »

ولا ندرى كيف يجوز لمن هو فى أقصى المغرب أن يتوسل أو يستغيث بميت فى مكة أو فى المدينة أو فى كربلاء أو فى النجف مثلا، ولا يجوز له أن يتوسل وأن يستغيث ، أين كان ووجد ، ببيت الله الحرام و بمسجده و بأستار حرمه . فإننا لا نجد فرقا فى هذه الحالة بين الأمرين . فإن التوسل بذلك المدفون فى الحجاز أو فى العراق مثلا إن كان جواز التوسل به لأجل كرامته على الله وحرمته وقربه إليه فالكعبة كذلك لها كرامة وحرمة ومكانة عند الله وعند المسلمين ، و إن كان ذلك رجاء أن يدعو و يشفع فالكعبة من الممكن أن تدعو وأن تشفع . وقد تقدم فى كلام الشيعي أن الحجر الأسود يشفع لمقبله ومحترمه . و إذا قالوا : إن الكعبة وغيرها من الجماد لا يمكن أن تسمع من دعاها وطلب منها وتوسل بها قيل وكذلك الميت المدفون فى الحجاز أو العراق كيف يمكن أن يسمع من دعاه واستغاثه وهو فى أقصى المشرق أو أقصى المغرب ؟ فهذا لا يمكن إلا بخارقة والخارقة إذا جاز أن تكون فى دعوة الميت جاز أن تكون فى دعوة بيت الله وحرمه ومساجده المفضلة وغيرها من المنازل المقدسة المعظمة .

فإذا بلغت المسألة هذا الطور من الجدال والنضال والضلال وجد كل مؤمن فى إيمانه — و إن قل — ما يحجزه عن التزحلق فى هذه الغاية من الغواية ، وهذا المكان السحيق من أعماق الضلال .

أما ما ذكر الرافضي فى هذه الشبهة من أحاديث الاستسقاء بالعباس

و سؤاله تعالى بحق السائلين وحق الممشى إلى الصلاة ، وحديث ابن حنيف و الأحاديث التى نطقت بثبوت الحق على الله لعباده وخلقه ، وما كان بين الامام مالك وأبى جعفر المنصور — : فسوف يجئ جوابه كله فى مابعد

قياس غير صحيح

وأما ما ذكر من أن من طلب ميتا ظانا أنه يسمع ويدعى — وهو فى الواقع ليس كذلك — كان غير ضال وغير آثم ، وكان كمن طلب من مقعد القيام ظانا أنه غير مقعد وأنه قادر على القيام — فرأى باطل وقياس سخيف . وذلك أن من طلب من مقعد القيام أو من أعمى القراءة مثلا لم يعتقد فى أحدهما سراً من الأسرار، ولا سلطانا قاهراً غيبياً، ولا قدرة على الخوارق والمعجزات ، لأنهما يعلمان الغيوب ، أو يعطيان كل ما يسألان ، أو يتصلان بالله ، أو أن لهما دلالاً على الله أو جاهاً ضاراً نافعاً عنده ، أو شفاعة لا ترد ولا تخطئ — لا يعتقد من طلب من المقعد القيام ومن الأعمى القراءة شيئا من هذا فيهما . ثم هو لن يخضع أو يخشع لهما فى سره و باطنه ودخيلة نفسه ، ولن يوليهما من التقديس والاجلال والمهابة والتعظيم فوق القدر المعتاد المألوف . . . أما من دعا الأموات فانه ، ولا محالة ، يعتقد فيهم ذلك كله بأبلغ معانيه وأجلى مظاهره وصوره . وهذا عين التأليه والعبادة فالفرق بين من طلب من مقعد القيام و بين دعاة الأموات والصالحين فرق ظاهر واضح كبير لا يصح أن يخفى على من قام يذم أهل السنة والجماعة، ومن قام يثلب أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وأم حبيبة وعمر و بن العاص وسعد بن أبى وقاص ومعاوية وغيرهم من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام .

﴿ الشبهة الرابعة سؤال آدم بحق رسول الله ﴾

خبر سؤال آدم بحق محمد صلى الله عليه وسلم

أما الشبهة الرابعة وهى الحديث الذى ذكر فيه أن آدم لما اقترف الخطيئة سأل الله بحق محمد عليه السلام فغفر الله له خطيئته — فالجواب أن يقال : هذا الحديث رواه أبو عبد الله الحاكم فى مستدركه على الصحيحين. و رواه غير الحاكم

فى فضائل النبى عليه الصلاة والسلام . ولفظ الخبر : عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لى ، فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت مكتوباً على قوائم العرش :لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى . ادعنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ماخلقتك ».والحديث معدود فى فضائل النبى عليه السلام لهذا سارع بعض الذين يحرصون على تكثير الفضائل ــ ولو بما لم يصح إسناده ــ إلى تصحيحه وروايته كما فعل الحاكم . وقد آخذ أعلام النقد وصيارفة الحديث وفرسان الرواية أبا عبد الله الحاكم على تساهله ولينه وإغماضه فى هذا الشأن، وعلى ميله الكثير الواضح إلى تصحيح الأخبار التى لم تصح عند أهل الحديث والتى بان ضعفها و بطلانها لدى صغار علماء هذا الفن وكبارهم ؛ ولا سيما ما كان متعلقاً من ذلك فى أبواب الفضائل . ولهذا فانه يصحح فى أبواب فضائل الصحابة ــ ولا سيما على وأهل البيت النبوى ــ مالم يجاره عليه أحد من من المحدثين وما أنكروه عليه وماعدوه من ضعفه فى هذه الصناعة وقلة تماسكه فيها ... وقالوا : إنه لا يجوز الاعتداد بتصحيحه و بدرايته وعلمه ولا بشىء مما يقول فى هذا الباب إن لم يتابعه أو يسبقه العدول الجهابذة من رجال هذا العلم الجليل . وقد قال أبو بكر الخطيب البغدادى فى تاريخه من ترجمة الحاكم نقلا عن أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الارموى النيسابورى : « ... جمع أبو عبد الله الحاكم أحاديث زعم أنها صحاح على شرط البخارى ومسلم ، يلزمهما إخراجها فى صحيحيهما. فأنكر عليه أصحاب الحديث ذلك ولم يلتفتوا فيه إلى قوله ولا صوبوه فى فعله ... » .

الحديث مكذوب

فهذا الحديث حقا رواه الحاكم وصححه ورواه سواه من المكاثرين بما لم

يصح سنده ولكن الحديث غير صحيح الاسناد بل هو حديث باطل موضوع ضعفه أهل الحديث وكذبوه وردوه وخالفوا الحاكم فيه. وقد قال الذهبى فى تعليقه على المستدرك : إنه حديث موضوع مكذوب وفى سنده ضعفاء .وقد ضعفه الحافظ الهيثمى فى «مجمع الزوائد» والسيوطى فى « مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا » على ماذكر صاحب « صيانة الانسان » .وفى سنده عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم العمرى، وقد أجمع الناس على تضعيفه والقدح فيه كما ذكر الحافظ ابن حجر فى « تهذيب التهذيب » والحافظ الذهبى فى «ميزان الاعتدال » . وماأثنى عليه أحد فى ماذكروا . والعجيب حقا أن الحاكم نفسه قد ضعف عبد الرحمن بن زيد هذا فى كتاب « الضعفاء » له . ذكر ذلك عنه العسقلانى فى تهذيب التهذيب وذكره غيره . فمن العجيب حقا أن يصحح حديث راو ضعفه هو بنفسه تضعيفاً شديداً وحذر الرواية عنه ، وقد انفرد هذا الراوى بالحديث . فالحديث ساقط الاسناد لاتقوم له قائمة عند أهل العلم .

اصناف الدلائل على كذب هذا الحديث

ودلائل الوضع بادية عليه من جهات كثيرة : منها أن من المستحيل شرعا أن يصدق قوله فيه : « ولولا محمد ماخلقتك » . فمثل هذه اللفظة ينكرها الشرع بل تنكرها الشرائع كلها بقوة وشدة . وقد اتفق المسلمون والمؤمنون جميعاً على أن الله قد خلق الخلق والعباد وخلق الأنبياء كلهم : آدم فمن بعده ، محمداً فمن قبله من الأنبياء والمرسلين لغرض واحد سام كل السمو ، عظيم كل العظم . هذا الغرض هو عبادة الله وعمارة أرضه بالعبادات والطاعات والاصلاح والمثل الانسانية العليا كما قال تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وكما قال : «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم مالاتعلمون (إلى قوله) قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إنى

أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » . وقال : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله » وقال بعد أن ذكر إيحاءه إلى الانبياء والمرسلين : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما » . فالله جلت قدرته وتسامت حكمته قد خلق خلقه وبعث رسله لحكم هى أجل مما ذكروا فى هذه الرواية الباطلة : خلق الخلق لعبادته وحده . وما من مخلوق إلا وقد خلقه لذلك . فآدم مخلوق لعبادة الله لا لأجل محمد ولا لأجل غيره من العباد . ومحمد نفسه مخلوق لعبادته تعالى لا لأجل آدم ولا لأجل غيره من الخلق . والعباد كلهم مخلوقون لعبادة الله بنص القرآن . وهو تعالى قد جعل آدم فى أرضه وملكه لحكمة أجل وأشرف مما زعموا فى هذا الحديث الباطل : جعله ليكون خليفته فى هذا العالم الأرضى ، ليعبد الله فيه وليدعو إلى عبادته وليلد من يعبدونه تعالى، ولينجل الانبياء والمرسلين والصالحين وليكون فى نسله ومن نجله محمد وإبراهيم وعيسى وموسى ونوح وغيرهم من رسل الله وأنبيائه المصطفين الأخيار ، وليكون بعد هذا مايكون من الحكم والاغراض والأسرار الالهية الظاهرة والباطنة . وهو أيضا قد خلق الأنبياء وجعلهم أنبياء ليكونوا مبشرين ومنذرين للخلق ، وليكونوا حججه تعالى على عباده ، فلا تبقى لهم حجة على الله بعدهم ، وليكونوا أدلاءه إلى الخير والهدى والسعادة والايمان وإلى الجنة فى النهاية . وماخلق أحداً منهم لأجل أحد ، ولا خلق أمة لأجل أمة، ولارسولا لأجل رسول . وإذا كان محمد نفسه ماخلق إلا لعبادة الله ولأجل الدعوة إلى عبادته فكيف يمكن أن يكون آدم أو غيره مخلوقا لأجله ﷺ أو لأجل أحد سواه ، أو يكون ماخلق إلا لأجله ؟ والحكمة فى خلق محمد هى الحكمة فى خلق آدم : هى الدلالة على الخير وإقامة العدل والشرع فى هذه الأرض والمحافظة على فطرة الله وذود النفوس عما خلقت بطبعها جانحة مائلة إليه من

الناس مخلوقون لعبادة الله لا لمحمد ولا لغيره

صنوف الغوايات وجرائم الشرور، ودفعها إلى أصل هداها. والآية المذكورة، أعنى قوله تعالى: «وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون» صريحة فى إكذاب هذا الخبر وبطلانه. وذلك أنها تنص بكل وضوح وصراحة على أن الناس جميعاً ماخلقوا إلا لأجل عبادة الله لا لشئ آخر غير العبادة. وإذا كان الناس جميعاً وكان الأنس والجن إنما خلقوا لعبادة الله لا لأجل محمد عليه السلام ولا لأجل غيره من العباد فكيف يمكن أن يكون آدم الذى اصطفاه الله واجتباه، وتاب عليه وهداه، قد خلق لغرض غير عبادة الله؟ وليس هنالك ماهو أشرف وأعظم من عبادته تعالى. وآدم أيضاً لم يخرج عن أن يكون أحد الإنس فهو مخلوق بصريح الآية لعبادة ربه كغيره من الخلق، لم يخلق لغرض آخر غير ذلك.

ولا ريب أنه إذا كان آدم أبو البشر وأول الانبياء وأبوهم ماخلق إلا لأجل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأنه لولاه لما خلق كان غيره من الانبياء والمرسلين كذلك ماخلقوا إلا لأجله عليه الصلاة والسلام، وكان عيسى وموسى وإبراهيم ونوح وغيرهم لم يخلقوا إلا لأجل رسول الله لا لأجل عبادة الله ولا لأجل الدعوة إلى عبادة الله وإلى إصلاح البشر والأرض بالتوحيد والدين والايمان، وأنه لولاه لما خلق منهم أحد. لأنه لافرق بين آدم وغيره من الانبياء والمرسلين فى هذا المعنى. ولكن كيف يجوز أن يقول مسلم: إن الأنبياء كلهم لم يخلقوا إلا من أجل محمد عليه الصلاة والسلام، وإنه لولاه لما خلق منهم أحد والله يقول بعد أن ذكرهم وذكر ثناءه عليهم وما خص كل نبى به من المنقبة والكرامة: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» ويقول ﷺ فى الحديث الصحيح: «لاينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». وجاءه رجل وقال له: ياخير البرية! فقال عليه الصلاة والسلام: «ذاك إبراهيم». وقال: «لاتفضلوا بين أنبياء الله» وقال: «لا تخيرونى على موسى». وهذه أحاديث

لو صح هذا لكان الانبياء جميعا لم يخلقوا الا لاجل الرسول وهذا باطل

كلها فى الصحيح . وهؤلاء العباد المختارون الذين هذا مكانهم وهذه مكانتهم من الله كيف يمكن أن يقال إنهم ماخلقوا إلا لأجل نبى الله ، و إنه لولاه لماخلقهم الله وقد قال تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » وقال : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » وقال : « وعلم آدم الأسماء كلها » وقال غير ذلك من الثناء والمحمدة على عبده ورسوله آدم . فكيف يجوز لمسلم أن يقول بعد هذا : إنه ماخلق إلا لأجل ولده محمد ﷺ وإنه لولاه لما خلق ، وقد خصه الله بميزة ومنقبة لم يجعلها لأحد سواه . ذلك أنه أمر ملائكته أن يسجدوا فسجدوا . والملائكة لايخفى مكانهم ولاتجهل مكانتهم من الله . وهذه فضيلة لاتقدر إلا لمن عظم قدره وقرب مكانه من ربه وتسامت مكانته لديه تعالى . ومن كان له هذا الفضل العظيم والشرف الرفيع كان من الإهانة له والزراية به القول بأنه ماخلق إلا لأجل محمد و إنه لولاه لما خلق

(٦) أي معنى فى قوله « ولولا محمد ما خلقتك »

هذا ثم أي معنى فى قوله : (٦) « ولولا محمد ماخلقتك » ؟ فان آدم لم يلق محمداً عليهما الصلاة والسلام ، ولم يجتمع به ولم يقاتل معه ، ولم يدفع عنه ، ولم يشهد له ولم يؤيده بشىء من وجوه التأييد . فكيف إذن خلق لأجله ، ومامعنى هذا ؟ إن الأمر يوجد لأجل الأمر إذا كان بينهما ارتباط ، وعلاقة من العلاقات . فلو أن آدم خلق فى عصر النبى عليه السلام فقاتل معه ودفع عنه وذاد عن دعوته ودينه الخصوم والأعداء لأمكن أن يقال : إنه لولا محمد لما خلق آدم . أما وآدم قد خلق فى عصر فى قوم لغرض ، ومحمد قد خلق فى عصر آخر فى قوم آخرين لغرض أيضاً فلن يصح أن يقال إن هذا ماخلق لولا هذا ، لأن هذا القول من الكذب الواضح والباطل الصريح

(١٠) احتمال أول وبطلانه

وماذا يمكن أن يفهم المخالفون المصححون لهذه اللفظة منها ؟ هل يعنى بها أن آدم ماخلق إلا لأجل أن يلد محمداً ﷺ وأنه لولا هذا الغرض لما خلق ؟ إنه

لو صح هذا الاحتمال لكان الحديث من أعظم المقادح فى آدم . ولو صح أيضا أن آدم ماخلق إلا لأجل أن يلد محمداً فقط لكان غير آدم ممن هم دونه ـ أعنى الذين لم يلدوه ـ اولى بألا يخلقوا وألا يوجدوا ، لان الغرض من الخلق و الايجاد هو ولادة محمد ، وهم لم يلدوه . وأيضا لو كان الغرض من خلق آدم محصوراً فى أن يلد محمداً لاغير لكان المعقول القريب أن يخلق محمد مباشرة كما خلق آدم مباشرة بلا آدم ، أو يخلق أحد آباء محمد دون آدم ودون غيره من الآباء الذين لم يلدوه ومن غيرهم . وأيضا إذا كانت الحكمة فى خلق آدم محصورة فى أن يلد محمداً فما الحكمة فى خلق غير آدم من الكفار ومن المؤمنين أيضاً ؟ إذن لا يمكن أن يصح هذا الاحتمال فى هذه اللفظة ، ولا يمكن أن يلاقى الحق . فماذا إذن يعنى بها عنه المؤمنين بها ؟ أيعنى أن آدم ماخلق إلا لكرامة لمحمد عليه السلام وتشريفاً له و رفعاً لقدره ، وأنه لولا هذا الغرض لما خلق ؟ وهذا الاحتمال لا يصح أيضاً . وذلك أنه لافضل ولا أثر لمحمد ألبتة فى خلق آدم و إيجاده . . . فآدم مخلوق قبل محمد ، والله وحده الذى خلقه كله لاشريك لأحد فيه . فما أثر محمد فى هذا وكيف يكون له فى شئ منه كرامة أو شرف أو تشريف . ولو عكس الأمر والقول لكان العكس أقرب إلى المعقول ، أعنى لو قيل : لولا آدم لما خلق محمد . ذلك لأن محمداً هو الابن وآدم هو الأب . ومن المعقول المعهود أن يكون للأب الشرف والكرامة والحمد فى ابنه لأنه سبب فى خلقه و ولادته مثلا . ولكن لافضل ألبتة للابن فى أبيه وفى وجوده وخلقه إذا كان لم يلقه ولم يره . وأيضاً إذا كان الله لم يخلق نبيه آدم إلا لأجل تكريم أحد أنبيائه ورسله به ، فلماذا إذن خلق غيره من الأنبياء والمؤمنين ومن الكافرين أيضاً ؟ فهذا كله لايراد شئ منه بهذه اللفظة فماذا يراد بها ؟ أيراد أن محمداً ﷺ قد أعان على خلق آدم ، وكان هو الحامل على خلقه و إيجاده أو السبب الأقوى فيه ؟ كلا ، إن هذا لايقوله مسلم واحد لأنه

احتمال ثان وبطلانه

احتمال ثالث وبطلانه

شرك قبيح . . . فبعض هذا الذى ذكرناه يكفى تدليلا على بطلان هذه اللفظة المذكورة فى الحديث وعلى بطلان الحديث جملة .

وجوه واضحة فى بطلان هذا الحديث

ومما يدل على كذب الرواية دلالتها على أن هـذا التوسل بحق محمـد هو السبب فى غفر خطيئة آدم وترك ذنبه له والتجاوز عن مواخذته ، إذ قد جاء فى رواية الحديث : « و إذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك » . والمفهوم من هذا أن الله قد غفر لآدم لأجل سؤاله ربه بحق محمد . وهـذا باطل نصاً ونظراً وقياساً وفقهاً أما النص فان الله سبحانه قد ذكر ماقاله آدم بعد ارتكابه الخطيئة أو بعض ما قال ، وذكر ما نادى به ربه متنصلا من ذنبه وجرمه بالتوبة والاعتذار ، فقال من سورة البقرة : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم » . وظاهر من الآية الكريمة أن هذه الكلمات المتلقاة هى السبب فى الغفران له والرضا عنه ، وأنها هى الأمر المباشر للعفو عنه . وهذا جلى من ألفاظ الآية . وهذه الكلمات التى غفر الله لآدم من أجلها لا يصح أن تكون هى التوسل بمحمد والسؤال بحقه . وذلك لأن الله قد ذكر هذه الكلمات فى كتابه فى قوله من سورة الأعراف : « وناداهمـا ربهمـا : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عـدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حـين » . فتلك الكلمات المجملة التى أخبر الله أن آدم تلقاها من ربه يوم أن وقع على الذنب وأكل من شجرة الخطيئة هى هذه الكلمات المذكورة المفسرة فى هذه السورة وهى قولهما : « ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . فتلك مجملة وهـذه مفسرة مفصلة : ولم يذكر الكتاب عن آدم وزوجه شيئاً غير هذه الكلمات بعد غشيانهما الخطيئة .

وأيضاً مما يدل على أن الكلمات المتلقاة هي هذه الكلمات من الاعتذار والاستغفار قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات» فقد جعل ذلك كلمات ، والمذكور في الرواية — أعني قوله « أسألك بحق محمد لما غفرت لي » — لا يسمى في لغة القرآن كلمات إلا أن يكون القول على سبيل المجاز والاتساع في الكلام . أما ماذكر من الاستغفار والاعتذار والاعتراف في سورة الأعراف فكلمات حقيقة لا مجازاً . فيصح أن تكون الآية تأويل الآية ، ولا يصح أن يكون الحديث تأويل الآية.

وأيضاً قوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات » يدل على أن هذه الكلمات التي غفر له إذ قالها هي كلمات تلقاها من ربه بمعنى أن الله أوحاها إليه وأمره بها ، لأن هذا هو حقيقة التلقي . ويجب الوقوف عند حقيقة الكلام حتى يذود عنها ذائد . وقوله في الرواية : «أسألك بحق محمد لما غفرت لي» ليس متلقًى من الله لأنه تعالى — على ما في الرواية — قال له إذ قال ذلك : « وكيف عرفت محمداً ؟ » وقد قال في الجواب : «رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على قوائم العرش : لا إله إلا الله محمد رسول الله » الحديث . وكل هذا يدل على أن آدم دعا بالدعاء المذكور من تلقاء نفسه ومن اجتهاده . فليس إذن متلقًى من الله . ولكن الكلمات التي قالها آدم فتاب ربه عليه إذ قالها هي كلمات قد صرح القرآن بأنه قد تلقاها من ربه تلقياً .

ومعقول مفهوم أن نفسر هذه الكلمات بقوله : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » لأن الله بلا ريب قد ألقى ولقَّى عبده آدم وغيره من خلقه طريق التنصل من الذنوب بالمتاب والاعتذار ، وأمرهم أن يعالجوا مرض العصيان والخطايا بالتوبة والاعتذار والاستغفار والاعتراف والرجوع إلى الله وإلى منطقة عفوه وصفحه هروباً من منطقة الذنب المحرقة الضيقة ، ومن منطقة غضبه ومقته وطرده . فمن المعقول والمفهوم معاً أن يكون آدم قد تلقى مثل هذا من ربه وأن يكون ربه أمره به وندبه إليه كما ندب جميع خلقه

من الأولين والآخرين . فالكلمات المغفور لآدم من أجلها هي كلمات متلقاة فيجب أن تكون غير ما في الرواية المذكورة المكذوبة .

روايات في تفسير الكلمات التي تلقاها آدم فتيب عليه من أجلها

وأيضاً قد أجمع المفسرون من السلف والخلف البصراء بوجوه التفسير والتأويل وبعلوم القرآن والاسلام على أن هذه الكلمات المتلقاة هي غير ما في الحديث المذكور وغير سؤال آدم بحق محمد عليهما الصلاة والسلام . وما فسر الكلمات بأنها هي هذا أحد ممن يعتد بقوله ورأيه وعلمه . بل قد جاءت أخبار نبوية تفسر هذه الكلمات بخلاف ما في الحديث ، وهذه الأخبار ـ وإن كانت ضعيفة الأسانيد ـ هي ولا ريب أصح من هذه الرواية متناً وسنداً « ففي مجمع الزوائد » (الجزء الثاني صفحة ١٩٨) من جملة حديث طويل عن أبي برزة قال : ـ يعني الله ـ يا آدم ما يحزنك؟ قال : كيف لا أحزن وقد أهبطتني من الجنة ولا أدري أعود إليها أم لا ؛ فقال الله : يا آدم قل اللهم لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، سبحانك وبحمدك ، رب إني عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت أرحم الراحمين ـ إلى أن قال ـ هذه الكلمات التي أنزلها الله على محمد ﷺ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قال وهي لولده من بعده. إلى آخر الرواية. قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه سوار بن مصعب وهو متروك. وهذا وإن كان من قول أبي برزة الصحابي الجليل فلاشك في أنه لا يقال بالاجتهاد والرأي بل لا بد أن يكون له حكم الرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام كما هو مقتضى ما رسمه المحدثون في مصطلح الحديث ، لأن هذا غيب وصحابة النبي لا يقتحمون الافتراء على الغيوب إلا بوحي وسلطان من الله ورسوله . أما من جهة السند فحديث توسل آدم بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يقل عنه ضعفاً وسقوطاً إلا أن هذا أصح من جهة المعنى ومن جهة موافقته لظاهر القرآن؛ فهو أولى بالتصديق والقبول وفي الجزء العاشر من مجمع الزوائد أيضاً صفحة ١٨٣ بعنوان : « باب دعاء آدم

عليه الصلاة والسلام» عن عائشة عن النبى عليه الصلاة والسلام قال : «لما أهبط الله آدم إلى الأرض قام وجاه الكعبة فصلى ركعتين فألهمه الله هذا الدعاء : اللهم إنك تعلم سريرتى وعلانيتى ، فاقبل معذرتى ، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى ، وتعلم مافى نفسى فاغفرلى ذنبى . اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ، ويقيناً صادقاحتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبت لى ، ورضا بما قسمت لى . قال فأوحى الله إليه : يا آدم قد قبلت توبتك وغفرت ذنبك . ولن يدعونى أحد بهذا الدعاء إلا غفرت له ذنبه ، وكفيته المهم من أمره ، وزجرت عنه الشيطان ، واتجرت له من وراء كل تاجر ، وأقبلت إليه الدنيا وهى راغمة وإن لم يردها » . قال الهيثمى رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه النضر بن طاهر وهو ضعيف . فهاتان روايتان ضعيفتان ولكنهما لا يضعفان عن معارضة روايتهم سؤال آدم بحق محمد عليهما السلام

أن القرآن لم يذكر هذا التوسل عن آدم مع أنه قد ذكر قصته فلماذا هذا

وأيضاً فإن كتاب الله قد ذكر فى مواضع ماامتحن الله به آدم من الذنب والخطيئة ، وذكر استغفاره إياه وتوبته وندمه وتوبة الله عليه واصطفاءه إياه واختياره وتكفير ذنبه . . . ولكن لم يذكر هذا التوسل ولا هذا الدعاء الذى زعم فيه أن عفو الله ناله وأدركه من أجله . وما كان أجدره بأن يذكره فى كتاب الله! وما كان أجدره بأن يشيد به ويذكراه ، ليتأساه المؤمنون المقتدون بكتاب الله وبأنبيائه . فإن الأمر الذى يغفر به مثل هذا الذنب وهذه الخطيئة خليق بأن يعرفه المسلمون التالون لكتاب الله ليكون لهم فيه القدوة والثواب . ومن البعيد جداً أن يكون الأمر كما زعم فى هذه الرواية ثم لا يكون له من العناية والحظ فى القرآن إلا الاعراض والطى والكتمان مع ذكره القصة من أولها لآخرها فإن القرآن قد ذكر إسكان آدم وحواء الجنة ، وذكر تحذيرهما أن يقربا الشجرة وأن يأكلا منها ، وذكر محاورة الشيطان إياهما فازلالهما فإقدامهما على المخالفة والأكل من شجرة الخطيئة ، وذكر ندمهما وأسفهما على ذلك ، وذكر

استغفارهما الله وطرحهما نفسيهما ببابه تعالى وبباب متابه، ثم ذكر توبة الله عليهما وقبولهما واصطفاءهما: ذكر ذلك كله وذكر معه عتاب الله إياهما. ولكنه لم يذكر هذا التوسل الذى غفر به هذا الذنب العظيم وهذه الخطيئة التى كررها الله لمالها من الغاية الحميدة والحكمة البالغة. إن من أراد أن يعرف حقائق الاشياء وأن يعترف بحقائق الأمور لايجد بداً من الاعتراف بأن هذه الرواية مختلقة اختلاقاً قبيحاً شنيعاً.

من المحال أن يغفر الذنب بالسؤال بحق الخلق

هذا من جهة النص. وأما من جهة النظر والفقه والقياس فيقال: إن من البعيد جداً فى حكمة الله وفى دينه أن يغفر لآدم هذا الذنب لا لشئ إلا لأنه عرف محمداً ﷺ، ولأنه سأل بحقه فيقال له: «وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك». ولا يغفر له هذا الذنب بتوبته وإقباله على ربه واستغفاره وندمه وذله وانكساره ورجوعه إلى ربه ومولاه رجوع الخاضع الخاشع الذليل. وقد حدث القرآن الحكيم عنه بأنه بعد الذنب جد فى الاستغفار والاعتذار والاعتراف والرجوع إلى غافر الذنب وقابل التوب. ولابد عقلا من الاعتراف بأن آدم قد استغفر ربه ودعاه لغفر ذنبه ولقبوله مرة أخرى. ومما لاريب فيه أن ندم المذنب وأسفه على ذنبه وعلى ما فرط منه واعتذاره إلى ربه واستغفاره إياه ومضاعفة العبادات والطاعات وإخلاصه وصدقه فى هذا كله أعظم من عند الله وأقرب إليه وإلى ثوابه ورضاه ومتابه من سؤاله تعالى بحق واحد من الناس مهما كان ذلك الواحد. ولا يختلف المسلمون فى أن المذنب لا يغفر له ذنبه وجريمته إلا بما وقر فى قلبه من خوف الله ومن الندم على عصيانه والعزم على ألا يعود، ثم بالأعمال الصالحة المبرورة المكفرة وبالاستغفار والاعتذار واللهج بمناداته تعالى مناداة انكسار وإخلاص وخضوع وخشوع. وقد بين كتاب الله فى غير ما آية ما به تغفر الخطايا والآثام فقال: «وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى»

ما به تغفر الخطايا فى حكم القرآن

وقال : « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا » وقال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما » وقال : « والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » . إلى غير ذلك من آى الكتاب الناطقة بأن الله يغفر الخطايا والآثام بالتوبة وبالأعمال الصالحة ، وبالندم على العصيان وبالاستغفار والاعتذار لا بسؤال الله بحق فلان أو فلانة . وقد أنبأ الله عن جميع أنبيائه الذين ألموا ببعض ما عاتبهم الله عليه بأنه تعالى غفر لهم بما قدموه من استغفار ومتاب وأعمال صالحة مبرورة . وهذا كله من قصص القرآن . فالرواية التى يقال فيها : إنه قد غفر لآدم ذنبه لأنه سأل الله بحق محمد رواية مخالفة لروح الاسلام ولنصوصه ، مخالفة لروح جميع الأديان ونصوصها .

السؤال بحق النبي ليس له من القيمة العملية ما يوجب كل هذا

والسؤال بحق النبى أو بحق غيره من الأنبياء والصالحين ليس له من القيمة العملية الدينية ما يوجب أن يكون عملا صالحاً مبروراً فضلا عن يكون أداة غفران وعفو تام . وماذا فى قول القائل : أسألك يا الله بحق فلان أو فلانة من عمل صالح يؤهل قائله لأن يكون من المغفور لهم ؟ وإنما يغفر للمستغفر ويؤجر على قدر ما وقر فى قلبه ونفسه من خشية الله وخوفه وتعظيمه وإجلاله وحبه ، وعلى قدر تصميمه على ألا يعود إلى مخالفة الله وعصيانه ، وعلى قدر ندمه وأسفه المر . وأما الألفاظ المجردة فلا وزن لها عند الله ، ولا ينظر إليها فضلا عن أن تكون عملا تحط به الذنوب والخطايا الثقيلة . فما فى قول القائل : « أسألك بحق محمد لما غفرت لى » من الشأن والقيمة حتى يقال له : « وإذ سألتنى بحقه فقد

غفرت لك » ؟ وأجهل الناس وأرقهم ديناً وتقوى وفضيلة ،وأشدهم بعداً عن الله وعن رضاه يقولون ذلك ويلهجون به . وهم على رغمه لا يجدر بهم الغفران ولا التجاوز والعفو والرضا ، بل وهم خليقون بالانتقام والطرد والعذاب الأليم الموجع. ولن تجديهم هذه المقالة ولا هذا التوسل قليلا ولا كثيرا . فنحن لا نشك فى أن آدم ما غفر له ذنبه إلا لتوبته ولرجوعه إلى ربه ولإقلاعه عن ذنبه ، ولاعتذاره واستغفاره الصادرين عن جميع نفسه وقلبه وعقله . أما السؤال بالحق فلا قيمة ولا وزن له عند الله ألبتة

ما معنى السؤال بحق المخلوق

على أنه لا يدرى ما معنى أمثال قوله : « أسألك بحق محمد » . وذلك أن حق محمد وحقوق سواه من عباد الله الصالحين ضربان : حق يتعلق بذات الله وصفاته ، وحق يتعلق بمخلوقاته . أما الحق الأول فهو نصرة الله وتأييده لهم ورضاه عنهم وغير هذا من المعانى القائمة بذاته تعالى . وأما الحق الثانى فهو ما ادخر وأعد لهم من الجزاء والثواب ، من الجنات والنعيم المختلف الألوان والأفنان . هذا هو ما يحتمل أن يفسر به حق النبى وحق غيره من خلق الله المختارين . فان كان الحق فى هذه الرواية هو الحق الأول القائم بذات الله وبصفاته فالرواية خارجة عن محل النزاع والخلاف . فانه لا خلاف فى أنه يجوز سؤال الله بصفاته وأفعاله ونصره وتأييده . وليس هذا هو ما يريد المخالفون أن يحتجوا له وأن ينصروه ويؤيدوه . وأما إن كان المراد فى الرواية الحق الثانى فيقال عليه:

الحق فى الرواية قد يكون مخلوقا وقد يكون غير مخلوق ودلائل بطلان الأول

إن حق محمد عليه الصلاة والسلام من النعيم والجزاء والثواب هو أشياء مختلفة كثيرة ، ذات أنواع وأضرب وألوان وأفنان وعدد . وهذا تشتمل عليه الجنة كله . فمنه الحور العين والولدان المخلدون ، ومنه أنواع المأكولات والمشروبات المدخرة من أصناف العيش وغيرها وكل ما هنالك مما ذكر فى القرآن ومما لم يذكر ، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر . و إذا كان هذا

هو الحق الذى سأل به آدم ربه غفر ذنبه فغفر له قيل : وهل يليق أو يمكن أن يسأل نبى الله آدم ربه أن يغفر له ذنبه بما فى الجنة من المأكولات والمشروبات واللذات والشهوات المادية التى أعدت للنبى عليه السلام ؟ أظن أن هذا لن يكون لأنه لا يليق ولا يجدر فعله بمثله . وأحسب أن هذا الرافضى لا ينازع فى أن من القبيح والبرود أن يتوسل آدم إلى ربه بمأكولات الجنة ومشروباتها وبنسائها وغلمانها وولدانها وغير ذلك مما ادخر فيها لعباد الله الصالحين . إذ لا ينازع أحد حسب ما أظن ـ فى قبح هذا النوع من التوسل والسؤال . . . وإذا سلم أن هذا هو المراد فلماذا خص ما ادخر لرسول الله ﷺ فى الجنة دون ما ادخر لغيره فيها ؟ وما الفرق بين سؤال الله بما أعده حقا لمحمد ﷺ ثم وبين سؤاله بما أعده لغيره ؟ إنه لا فرق . . . ثم إذا كان هذا هو المراد فأية فضيلة لرسول الله فى أن سأل آدم ربه بما أعد له فى دار الجزاء ؟ إنه لا فضل ولا فضيلة . . . وإذا كان هذا هو المراد فما الذى فيه مما يستدعى الإجابة والغفران ؟ إنه لا شئ . ولا شك أن سؤال الله حينئذ بالجنة جملة وبما فيها جميعاً أهدى وأقرب إلى الاجابة والغفر المرجو .

ثم ما معنى سؤال الله بما فى الجنة من المأكولات والمشروبات والجزاء المادى أو الروحى ؟ وما معنى أن يقول القائل : أسألك يا رب بما فى جنتك من مأكولات ومشروبات أن تغفر لى وأن ترحمنى ؟ إن كانت « الباء » فى « بحق » بمعنى « منْ » على معنى : أسألك مما فى الجنة خرج الحديث جملة عن محل النزاع والخلاف وصار ظاهره باطلا لأن معناه حينئذ يرجع إلى أنه يسأل ربه أن يعطيه من حق محمد الذى أعد له جزاء عمله وثواب رسالته ودعايته إلى الخير والهدى : وهذا السؤال باطل بالإجماع والضرورة . وإن كانت هذه الباء باء السببية ، وكان المعنى أسألك بسبب ما فى الجنة مما أعد لمحمد كان هذا أيضاً باطلا كل البطلان

قبيحاً كل القبيح . . . فما معنى سؤال الله إذن بحق محمد : بحقه المخلوق الذى هو جزاؤه الأخروى المدخر فى الجنات ؟ أليس هذا ما لا يعقل وما لا يستطاع له تأويل وما لا يعرف له وجه فى وجوه العلم والدين والبيان ؟

دلالة الرواية نفسها على كذبها

فالرواية — ولا ريب — ملفقة مكذوبة تلفيق جاهل وكذب غبى . وفيها شئ يكاد يكون نصا فى اختلاقها وتلفيقها . ذلك الشئ هو قول آدم عليه السلام المذكور فيها : « يا رب إنك لما خلقتنى ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا : لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فهذه اللفظة تدل على أن العرش كان فى متناول بصر آدم وأنه كان بحيث يراه ويشهده . وهذا — وإن كان واقعاً فى منطقة الإمكان والاحتمال — إلا أنه غير المعهود المعروف فى الشريعة وفى نصوصها ومعانيها . فما كان من المعهود فى الدين أن الأنبياء كانوا يشاهدون عرش الله ويرونه . ومحمد ﷺ قد بلغ ليلة الإسراء والمعراج ما لم يبلغ نبى قبله من السمو وقرب المكان والمكانة ، ولكنه لم يبلغ عرش الرحمن ولم يره بباصرته على ما نعلم فى روايات السنة الصحيحة . فما هذه اللفظة أعنى قوله : « فرأيت على قوائم العرش مكتوبا » ؟ أليست هى ميسم الكذب قد وسمت به هذه الرواية ليكون كذبها فيها ، وليكون منها عليها شواهد ؟ ثم أليست من الخطأ الذى فات واضع الرواية وكاذبها أن يخفيه وألا يبديه ؟ بلى لأن الله قد كفل التمييز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والدين وخلاف الدين ، وكفل التفريق بين ما جاءت به الأنبياء وبين ما كذبه الكاذبون الدجالون . والحمد لله رب العالمين .

﴿الشبهة الرابعة توسل آدم بعلى وفاطمة والحسن والحسين﴾

رواية توسل آدم بعلى وفاطمة والحسن والحسين

وأما الشبهة الرابعة — وهى قوله : « وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات » : إن الكلمات هى توسله بالنبى . وفى مجمع البيان : إن الكلمات هى توسله بمحمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين » — فالجواب أن

يقال : أما ما ذكر أن بعض المفسرين قاله فى تفسير الآية فنحن نحاجه إلى جميع كتب التفسير الصحيحة المملوءة بالآثار و بتفاسير السلف و بالروايات المسندة الصحيحة القوية : نحاجه فى ذلك بتفاسير الطبرى والبغوى وابن كثير والرازى وغيرها من التفاسير السلفية الأثرية التى تفسر القرآن بأقوال السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المتبعين ، والتى تذكر ماتذكر بالأسانيد والروايات المتصلة المعروفة المشرقة : نحاجه بكل ذلك ونقول : إنه لن يجد رواية واحدة تصح إسناداً عن أحد من أصحاب النبى ، أو عن أحد من التابعين المهتدين ، أو عن أحد من أئمة الحديث والفقه أنه فسر هذه الآية وهذه الكلمات التى تلقاها آدم من ربه بما ذكره وزعمه من التوسل بالنبى عليه الصلاة والسلام . وها نحن نقول هذا ونتحداه معاجزين له ولسواه من المخالفين ، ونطلب إليهم جميعاً أن يصححوا لنا رواية واحدة عن واحد من هؤلاء السلف . فان فعلوا تبعناهم وصدقناهم ، وإن لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فليكفوا عن هذا الضعف والوهن المخجل . بل نحن نقول : إن إجماع السلف على تفسير الآية والكلمات المذكورة بخلاف ماذكروا من الدلائل على بطلان الرواية السابقة فى توسل آدم بحق رسول الله . فان جميع أقوال السلف المروية فى تفاسير السلف والأثر تذكر فى الآية غير ما ذكروا . وليرجع من شاء إلى ما شاء من هذه التفاسير ، لا نخص طائفة دون طائفة ، ولا فريقاً دون فريق آخر .

نحاجه الى جميع المفسرين

نعم نحن لا ننازع فى أن بعض الناس المنحرفين المفكرين بعقول الشيعة والصوفية الغالين قد فسروا الآية بما زعم الرافضى ، وزعموا فيها مثل مازعم . ولكن أهل العلم لا يعبأون بهؤلاء المفسرين ولا بهاتيك التفاسير . فان الأقوال تعطى من الاحترام والتقدير مثل ما لقائليها من ذلك . «وقدر الشهادة قدر الشهود» أما أهل العلم فانهم لا يختلفون فى بطلان أمثال هذه التفاسير والأقوال المريضة

فى كتاب الله . ولا يختلفون فى أن هذه الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ليست هى التوسل بمحمد ﷺ ولا بعلى وفاطمة والحسن والحسين ، وليست السؤال بحق رسول الله ولا بحق غيره من الخلق . بل هذه الكلمات هى قولهما : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ، أو هى كلمات من ضمنها هذه الكلمات : إعتذار واستغفار ورجاء وخوف مرير ، وانقطاع لدى بابه تعالى وباب متابه وإحسانه العظيم الشامل طوائف المذنبين إذا تابوا واعتذروا واستغفروا وأعطوا بأيدى العبودية والصغار . ولم يفسر أحد من أهل العلم هذه الكلمات بما زعمه الرافضى ومن نقل عنه . والتفاسير المحترمة الصحيحة ميسورة لمن أحب أن يعرف خطأ هؤلاء القوم . وهذا — أى إجماع أهل العلم والايمان على تفسير الآية بخلاف ماذكروا هنا — من البراهين لدينا على بطلان الحديث الآنف الذى زعم فيه أن آدم سأل ربه بحق محمد وأن الله غفر له ذنبه لهذا السؤال والتوسل .

وأما ماذكر عن صاحب « مجمع البيان » أن هذه الكلمات التى تلقاها آدم من ربه هى توسله بمحمد وبعلى وفاطمة والحسن والحسين بعد أن رأى أسماءهم مكتوبة على العرش فسأل عنها فقيل له : هذه أسماء أجل الخلق عند الله منزلة — فالجواب أن يقال : تفسير « مجمع البيان » تفسير شيعى إمامى رافضى لا يعتمد بنقله ولا بعلمه ولا بما يقول . والرواية التى قيل فيها : إن آدم توسل بمحمد وبعلى وفاطمة والحسن والحسين رواية مكذوبة موضوعة ، رواها الدارقطنى وقال تفرد بها عمرو بن ثابت بن هرمز . وعمرو هذا من الشيعة الغلاة الكذابين الوضاعين . وقد حدثوا عنه أنه كان يقول : كفر الناس بعد رسول الله إلا أربعة . وكان من السبابة للسلف . وقد أجمع علماء الجرح والتعديل من أهل الحديث على ضعفه وتضعيفه والقدح فيه . فروايته هذه رواية مكذوبة باطلة بلا ريب . وقد

رواية توسل آدم بعلى وفاطمة والحسن والحسين مكذوبة

ذكرها ابن الجوزى والسيوطى فى الموضوعات . ومما يوهن أمرها مجيئها فى أمر يتعلق بمذهب الشيعة . فعمرو الراوى لها متهم فيها . ويقضى بردها مرة واحدة ما ذكروا فيها أن آدم رأى هذه الأسماء مكتوبة على العرش وسأل عنها فقيل له « هؤلاء أجل الخلق منزلة عند الله » . فان هذا القول يقضى بأن يكون على وفاطمة والحسن والحسين أفضل وأجل عند الله من آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وهذا لا يذهب إلى القول به إلا من هم أضل الخلق والخليقة .

فهذا الخبر خبر موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث . وعمرو هذا الذى تفرد به كذاب وضاع ضعيف باتفاق أهل الحديث والمعرفة . فلا يصح أن يشاد على مثل هذه الرواية دين ولا اعتقاد ، ولا أن يحتج بمثله فى أبواب الوضوء والحيض وأحكام المياه فضلا عن أن يحتج به على دعاء الأموات والعكوف على القبور وعمل كل هاتيك الآفات الاعتقادية النكراء . والسؤال بحق المخلوقين — على ما ذهب إليه المخالفون — باطل عقلا وشرعاً ووجداناً وعرفاً كما ذكرنا فى الكلام على الحديث الذى قبل هذا . فانه لا معنى لأن يسأل الله بحق محمد أو حق آدم أو حق عيسى أو حق موسى أو حق غيرهم من الأنبياء والمرسلين . وليس مثل هذا السؤال مما يوجب أن يجاب الدعاء وأن يقرب الله الداعى وأن يقبل دعاءه وليس له معنى ولا وجه وجيه لا فى الشرع ولا فى العقل . وأنت لو كنت من أعظم الناس وأشدهم تقوى وصلاحاً وديناً ، ومن أقربهم إلى الله منزلة وأحظاهم لديه تعالى وأوسعهم جاهاً . . . فقلت أسألك يارب بحقى عليك كنت قائلا باطلا ولغوا من القيل لا يمت إلى العقل والعلم والذوق والدين بسبب من الأسباب ، ولما كنت سائلا الله بما يوجب أن يستجيب لك وأن يقبل دعاءك وأن يعطيك مسئولك وطلباتك . ولو قلت لأصلح الناس وأتقاهم وأعلمهم بالدين وبمواقع الكلام

السؤال بحق المخلوق باطل شرعا وعقلا ووجدانا وعرفا

أسألك بحق الأنبياء أو بحق الملائكة أو بحق الصالحين لما كنت ماتا إلى غرضك وحاجتك بسبب صحيح يعطى على مثله ، ولما كان فى هذا المقال والسؤال ما يوجب أن يعطف عليك وعلى حاجتك بالقضاء والانجاز . ولهذا لانجد العاقلين العارفين بواقع القول ووجوهه وأغراض الناس ونفوسهم يحاولون أن يصلوا إلى حاجاتهم وقضاء مآربهم بهذا التوسل وهذا السؤال . فلا نجد أفصح القائلين وأعقل المفكرين يقول لمن يسأله ويستجديه حاجة من الحاجات : أسألك بحق الملائكة أو حق الأنبياء أوحق الصالحين والأبرار أوحق غيرهم من عباد الله . وهذا لأن السؤال بهذا الحق وهذا التوسل ليس من الأسباب التى يجاب بها السؤال والطلب وتنال بها الحاجات . فمن سأل الله أو سأل غيره بحق مخلوق فقد سأل بأمر أجنبى بعيد عنه وعن حاجته . فمن قال أسألك يارب بذات محمد ﷺ أو بجاهه أو بكرامته أو بعلمه وتقواه وحسن خلقه كان كمن يقول : أسألك بالكعبة أو بمكة أو بالمدينة ، أو ببيت المقدس أو أتوسل إليك بأحجار تلك الأبنية وبنيانها وترابها . ومن سأل الله بهذه المواضع المعظمة المشرفة كان كمن سأله تعالى بالأيام والأوقات والليالى المعظمة المفضلة مثل أن يقول : أسألك يا رب بيوم الجمعة وبأيام عشر ذى الحجة ، وبأيام رمضان ولياليه وأيام الحج وبالأشهر الحرم وبالأيام المفضلة كلها . ومن سأل الله بهذا كله وتوسل إلى حاجته بهذه الأيام والأوقات والأماكن كان كمن سأله تعالى بتراب الجنة وبنيانها وأحجارها وأشجارها ومائها ومافيها من مأكولات ومشروبات وقصور وديار ولذاذات . . . ومن ذهب يسأل الله بهذا كله ، أو قال إن من الدين سؤال الله به كان من أنقص الناس ذوقا وعقلا ورأيا ، وأركهم اختياراً وفهما . ولا يختلف أهل البصر بالاسلام فى أن هذا كله خلاف الدين وخلاف الضروريات الدينية ، ولا ريب أن التوسل والسؤال بعلم الأنبياء وتقاهم وأخلاقهم مثل السؤال بجاههم

وهذا مثل السؤال بالأيام المفضلة

وبحقوقهم وبركاتهم وذواتهم . ولكن لاريب أن سؤال الله والتوسل إليه بذلك — مثل أن يقال أسألك يارب بعلم الأنبياء وبأخلاقهم وتقاهم وشرفهم ونجابة أصولهم وطهارة نفوسهم وأعراقهم — سؤال باطل بارد ، وتوسل مردود شرعاً وعقلا وذوقا .
وفساد أمثال هذا معلوم من الأديان السماوية بالضرورة والبداهة . وذلك أنه يقال لهؤلاء المخالفين المنحرفين : ماذا ترون ؟ أترون أنه يجوز سؤال الله بكل عظيم محبوب لديه تعالى من المخلوقات كلها ، أم تقولون : لا ، بل لا يجوز سؤاله تعالى ولا التوسل إليه الا ببعض ذلك ؟ فان قلتم بالأول قلنا : هذا يقضى بأن تجوزوا سؤال الله بالأيام والشهور وبالليل وبالأحجار والأشجار والتراب والمأكولات والمشروبات وبغير ذلك مما عظمه الله وشرفه بوجه من وجوه التعظيم والتشريف ، مثل أيام الجمعات وأيام الحج وأيام رمضان ولياليه وليالى الاشهر الحرم وأيامها وتراب الجنة وأحجارها وأشجارها وقصورها وأنهارها ومابنها وكل ما فيها ، ومثل أحجار المدينة المنورة وترابها وأشجارها وبيوتها ، ومثل أحجار مكة وترابها وغبارها وبيوتها وصيدها وكلئها ونباتها وكل مافيها ، ومثل بيت المقدس كله وكل ما فيه بل وكل ما أقسم الله به فى كتابه مثل الليل والنهار والشمس والقمر والضحى والد وما ولد ، ومثل العصر ، ومثل العاديات والمغيرات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات والذاريات والحاملات والجاريات والصافات والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين والسماء والطارق والنجم إذا هوى والفجر وليال عشر والشفع والوتر، والقلم وما يسطرون وما تبصرون ومالا تبصرون وغير ذلك مما أقسم الله به فى كتابه . فان إقسام الله بالشىء تعظيم له ، فيقضى هذا بأن يكون من الاسلام ان يسأل الله بذلك كله وأن يتوسل إليه بجميع ماذكر .
وهذا لايقول به مسلم ولا عاقل غير مسلم . اما إن قالوا : إنه لا يصح سؤال الله

ومع هذا جوا التوسل الى ا بكل شئ فى الارض أو فى السماء

بكل عظيم محبوب لديه ، بل لا يسأل الا بما ورد النص به بلا قياس ولا زيادة .

اعتراض في الخبر وجوابه

قيل إنكم أنتم تزعمون أنه يجوز التوسل بالأولياء والأشياخ الموتى ، وأنه يجوز سؤال الله بجاه الصالحين وبكراماتهم وحقوقهم وحرماتهم وبذواتهم . وهذا كله لم يرد فيه نص لا صحيح ولا ضعيف ، وأنتم تسألون بجاه النبي وحقه وكرامته وحرمته وذاته . وهذا لم يأت فيه خبر ألبتة لا صحيح ولا ضعيف . وإنما جاء التوجه به على وجه العموم والاجمال والاطلاق كما في حديث الأعمى الآتي ، وجاء التوسل به وبالعباس على وجه الاطلاق والإجمال أيضاً كما في حديث الاستسقاء بالعباس الآتي القول فيه أيضا ، وجاء سؤال آدم بحق رسول الله كما في الحديث الموضوع الآنف . وغير هذا لم يجيء فيه خبر ألبتة . فكان اللازم الواجب على القوم ان يقفوا حينئذ عند ماجاء له نص : لا يزيدون ولا ينقصون ، ولا يتقدمون أو يتأخرون أو يقيسون .

والتحقيق ان السؤال بالجاه ونحوه من الامور التي ابتدعها الجهال

فالتوسل والسؤال بالحق والكرامة أو بالحرمة أو بالذات أو بالجاه أو نحو ذلك من الأمور المبتدعة المحدثة في الاسلام التي أحدثها وابتدعها الجهال الأغبياء والعوام الذين يجهلون مواقع الكلام وأساليبه ، والذين يجهلون حقائق ما جاء به النبيون والمرسلون . . . أما دين الله الحق فبعيد عن هذا المراء كل البعد ، منزه عنه وعن قائليه ومنتحليه كل التنزيه . ولهذا لم يجئ شئ منه في كتاب الله ولا في سنة رسوله الصحيحة الثابتة . ولا جاء عن أحد الأصحاب بسند ثابت صحيح ، ولا عن أحد الأئمة العارفين بدين الله حق المعرفة . . ولو أنك فليت كتاب الله حرفاً حرفا ، وسطرا سطرا ، وآية آية ، وفليت السنة الصحيحة حديثاً حديثاً ورواية رواية لما وجدت أن أحداً من أنبياء الله أو من عباده الصالحين الأبرار أو من غيرهم سأل الله بحق مخلوق أو بجاهه أو بحرمته أو بكرامته أو ببركته . . . وإنما نجد عباد الله الصالحين من الأنبياء فمن دونهم يدعون ربهم ويسألونه وحده

بلا وسيط ولا وسيلة سوى إيمانهم وتقاهم وأعمالهم الصالحة المبرورة . وهذا بين واضح، وهذا ما نص عليه الله فى كتابه بقوله : «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» ولم يقل : ادعوه بجاه فلان أو كرامة فلانة أو بحق محمد أو حرمة إبراهيم مثلا . بل قال : ادعوه بأسمائه الحسنى و بصفاته . وعباد الله يدعون الله دون سواه : لا يدعونه بسوى ذاته وصفاته وأفعاله . والله وحده الهادى إلى سواء السبيل وصراطه المستقيم .

الكلام على حديث الأعمى سنداً ومتناً

﴿ الشبهة السادسة حديث الأعمى المشهور ﴾

أما هذه الشبهة فنقول : قال أبو عيسى الترمذى فى جامعه من أبواب الدعوات: حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال : ادع الله أن يعافينى ، قال : « إن شئت دعوت و إن شئت صبرت فهو خير لك » قال فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ وأن يحسن وضوءه و يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة . يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى . اللهم شفّعه فىّ » . هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وهو غير الخطمى . هذا لفظ الترمذى .

وقال ابن ماجه من سننه فى باب ما جاء فى صلاة الحاجة : حدثنا أحمد بن منصور بن سيار حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدنى عن عمارة ابن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى عليه الصلاة والسلام . وذكر الحديث كما ذكره الترمذى إلا أنه قال فيه : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويصلى ركعتين . ورواية الترمذى ليس فيها ذكر صلاة الركعتين .

وقال ابن السنى فى كتاب عمل اليوم والليلة : أخبرنى أبو عروبة حدثنا العباس بن فرج الرياشى والحسين بن يحيى الثورى قالا : حدثنا أحمد بن شبيب ابن سعيد قال : حدثنى أبى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر المدنى — وهو الخطمى — عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف قال سمعت رسول الله وجاء رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال رسول الله : « ألا تصبر ؟ » قال : يارسول الله ليس لى قائد وقد شق على . فقال النبى عليه السلام : « ائت الميضأة فتوضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم إنى أسالك وأتوجه إليك بنبيى محمد ﷺ . يانبى الرحمة يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى عز وجل فتجلى عن بصرى . اللهم شفعه فىّ وشفعنى فى نفسى » . قال عثمان . وماتفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل كأنه لم يكن ضريراً قط . ورواه الامام أحمد فى المسند من حديث روح بن عبادة عن شعبة عن أبى جعفر المدينى عن عمارة بن خزيمة ابن ثابت عن عثمان بن حنيف . الحديث ، وفيه ذكر الصلاة والدعاء ، وقال فى آخره « وتشفعنى فيه وتشفعه فىّ » وفى آخره : « ففعل الرجل فبرئ » . وروى الحديث أيضاً البيهقى فى دلائل النبوة والحاكم فى المستدرك والطبرانى فى المعجم ورواه آخرون من أهل السنن والمسانيد والمعجزات غير أن صاحبى الصحيحين البخارى ومسلماً أعرضا عنه ولم يروياه .

سياق استدلال الضالين بهذا الحديث على اكل الوجوه

والحديث هذا من شبهات القوم وحججهم على باطلهم وعلى جواز دعوة الأموات والاستغاثة بهم وعلى جواز التوسل والسؤال بذوات الأنبياء وذوات الصالحين وعلى جواز كل مايأتون به حول القبور من الضلالات والجهالات . أما استدلالهم به على جواز دعاء غير الله من الأموات والغائبين فمن أمر النبى عليه السلام ذلك الضرير بعد الوضوء والصلاة أن يدعو وأن يقول فى دعائه : « يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى » . وأما استدلالهم به على جواز

التوسل والسؤال بالذوات وبالأنبياء والصالحين وبالميتين فمن أمره عليه السلام الضرير أن يقول فى دعائه : « وأتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة . يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى » . ففى قوله : « يامحمد » جواز دعوة الغائبين ، لأن الرسول أمره أن يدعو بهذا الدعاء وهو عنه غائب . وإذا جاز دعاء الغائبين جاز دعاء الميتين ولافرق . وفى قوله : «أتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة .. إنى توجهت بك إلى ربى» جواز السؤال بمحمد ﷺ . وإذا جاز السؤال به جاز السؤال بذاته وبحقه وجاهه وحرمته وكرامته . وإذا جاز السؤال والتوسل بهذا كله من النبى عليه الصلاة والسلام جاز ذلك بغيره من الأنبياء والصالحين ولا فرق . فالحديث دليل واضح ناطق ، وبرهان قائم جلى على جواز دعاء الأموات من الأنبياء والصالحين وعلى جواز التوسل والسؤال بهم وبذواتهم وحقوقهم وحرماتهم وكراماتهم . فالذين يمنعون شيئاً من هذا مخالفون لهذا الحديث الصحيح محجوجون به بلاريب ولا مرية .

هذا والحديث قد رواه جماعات من أئمة الحديث والفقه والدين ، وعدوه من معجزات النبى عليه السلام وكراماته على ربه . وقد صححوه ووضعوه فى كتب جيدة محترمة سامية المكانة والشأن بين كتب الحديث والدين والسنة ودواوين الاسلام . وقد تلقاه المسلمون عنهم فى كل العصور بالقبول والرضا والاطمئنان والثقة البالغة . وقد عمل به وبمافيه طوائف منهم من السلف والخلف . كل هذا قد كان ووقع . وماقام هنا اعتراض ولا ارتفع صوت بالانكار والنقد ، ولا قال لهم قائل : إنكم خالفتم الاسلام أو أشركتم أو ابتدعتم أو فعلتم ما تأباه روح الدين أو نصوصه . ولا حاول صيرف من صيارفة الحديث ولا فارس من فرسانه أن يطعن فيه سنداً أو متناً ومعنى . وقد مضى عليه من الزمان ما يقارب ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن والألسنة تدرسه ، والقلوب تعيه وتعقله ، والدواوين تحفظه

والقرون تصقله ، والمسلمون مجمعون متفقون عليه وعلى صحته مطمئنون به واثقون راضون كل الرضا . . . فكيف يسوغ أن يشك فى مثل هذا ؟ أو كيف يجرح أو يرد أو يكذب ؟ إذن هو حديث صحيح الاسناد صحيح المعنى ، مشرقهما و بادبهما . . . هذا كله ما يمكن وما يصح أن يقوله المستدلون بالحديث على ما هم فيه من باطل وجهل وَضلال و بدع سود قاتمة اللون والوجه .

والجواب أن يقال : إن الكلام على الحديث من ناحيتين : ناحية الاسناد وناحية المعنى . فاذا صح الاسناد ، وكان المعنى فى متنه ولفظه ما ذكروه قامت حجتهم ونهضت دعواهم و إلا فلا . ونحن نورد ما نستطيع من الكلام فى الناحيتين .

﴿ إسناد الحديث ﴾

الكلام على سند الحديث

أما الاسناد فهو أول ما يجب أن يكون الكلام فيه . فان الاعتقاد وأمره أغلى ما عند المؤمن ، فلا يجوز ـ والحالة هذه ـ أن يتركه عرضة للأخطاء والباطلات ولا أن يدعه فى مهب الضلالات والجهالات ، ينلن منه و يتصرفن فيه . فلاجرم أن وجب على العاقل ألا يعتقد إلا ما كان صحيحاً ثابتاً . أما الضعيف والباطل والمرغوب عنه فلا يحسن بمن لا يرضى لنفسه ولدينه وعقيدته إلا الصحيح القوى أن يعبأ به وأن يباليه وأن يقيم له وزناً .

و إسناد هذا الحديث فى جميع طرقه عند جميع رواته قد انفرد به راو واحد ، هذا الراوى هو أبو جعفر الذى روى الحديث عنه شعبة عند ابن ماجه والترمذى والامام أحمد ، والذى روى الحديث عند هؤلاء الثلاثة عن عمارة بن خزيمة بن ثابت . وقد قال أبو عيسى الترمذى كما تقدم بعد روايته الحديث : غريب لا نعرفه إلا من حديث أبى جعفر . أما الذين رووه عن أبى جعفر هذا فشعبة عند الترمذى وابن ماجه وأحمد ، وروح بن القاسم عند ابن السنى وعند البيهقى والحاكم ، ورواه عن شعبة عثمان بن عمر عند الترمذى وابن ماجه

وروح بن عبادة عند أحمد والبيهقى ، ورواه عن روح بن القاسم شبيب بن سعيد عند ابن السنى والبيهقى ، ورواه عن شبيب ابنه أحمد عند ابن السنى . ورواه عن عثمان بن عمر محمود بن غيلان عند الترمذى وأحمد بن منصور بن سيار عند ابن ماجه وغيرهما عند غيرهما . ورواه عن محمود بن غيلان الترمذى مباشرة ، وعن أحمد بن منصور بن سيار ابن ماجه مباشرة ، ورواه عن روح بن عبادة الامام أحمد مباشرة . ورواه عن أحمد بن شبيب العباس بن فرج الرياشى والحسين بن يحيى الثورى عند ابن السنى ، ورواه عنهما أبو عروبة الحرانى شيخ ابن السنى . وقد روى من طرق أخرى . فالحديث إلى أبى جعفر هذا صحيح السند لا غبار عليه . فلا كلام للناقد فى هذا الاسناد حتى يصل أبا جعفر الذى قيل : إنه الخطمى وقيل إنه غير الخطمى . وقد رأى القارئ أن أبا جعفر هذا رواه عند الثلاثة الترمذى : وأحمد وابن ماجه عن عمارة بن خزيمة ابن ثابت عن عثمان بن حنيف الصحابى شاهد القصة . وعمارة هذا ثقة لا كلام فيه . وقد زعم ابن حزم فى « المحلى » أنه مجهول لا يعرف كما فى تهذيب التهذيب ، ولكن هذا لا يضيره لأن غير ابن حزم عرفه ووثقه . وعثمان بن حنيف صحابى جليل لا كلام فيه أيضاً للناقد . وقد تابع عمارة بن خزيمة فى روايته عن ابن حنيف أبو أمامة ـ واسمه أسعد ـ ابن سهل بن حنيف ابن أخى عثمان بن حنيف ، رواه عن عمه عثمان عند البيهقى وابن السنى والحاكم والطبرانى . فيكون أبو جعفر هذا رواه عن عمارة بن خزيمة وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف . فالحديث إذن لا يكون غريباً إلا عند أبى جعفر المذكور ، ولا ينفرد به سواه ، وسوى الصحابى عثمان بن حنيف . أما ما بين ذلك فالرواة متعددون . وانفراد عثمان بن حنيف لا يضير الخبر لأنه صحابى جليل . فالكلام هنا يجب أن يقصر على أبى جعفر هذا ، الترمذى ، كما تقدم نقول إنه غير الخطمى ، والأكثرون يذكرون أنه الخطمى .

الحديث فى ٢ طرقه غريب انفرد به أبو جعفر هذا

والغريب أن اسمه لم يقع مصرحاً به ـ فى ما نعلم ـ فى واحدة من الروايات .
فمن الخطمى إذا كان هو إياه ؟ ومن هو إذا كان سواه ؟

من أبو جعفر إذا كان هو الخطمى

أما أبو جعفر الخطمى فهو عمير بن يزيد بن عمير بن حبيب الأنصارى المدنى ثم البصرى . وهو ثقة من رجال الأربعة . قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب : وثقه النسائى وابن معين، وذكره ابن حبان فى « الثقات »، وأثنى عليه ابن مهدى ، ووثقه أيضاً العجلى وابن نمير والطبرانى . قال ابن حجر : وقال أبو الحسن بن المدينى هو مدنى قدم البصرة وليس لأهل المدينة عنه أثر ، ولا يعرفونه . والخطمى مع هذا نزر الرواية قليل التحديث والحديث ، ومن ثم وقع الاختلاف فيه فى هذا الخبر .

فأبو جعفر هذا إن كان هو الخطمى كما ظنه غير الترمذى ـ فالحديث فى درجة متوسطة من الصحة والجودة ، لا يبلغ مكانة أحاديث البخارى ومسلم ولا ينزل الى أن يكون ضعيفاً باطلاً مردوداً ، وإنما هو كالأحاديث التى يصححها أمثال الترمذى وابن خزيمة والحاكم وابن حبان وغيرهم ممن عندهم نوع تساهل وإغماض فى التصحيح ونقد الأخبار . ولأجل هذا صح للشيخين البخارى ومسلم أن يعرضا عن روايته فى كتابيهما وأن يرغبا عنه لقصوره عن أن يبلغ درجة ما يضمان فى صحيحيهما اللذين لا مثيل لهما فى كتب السنة بل فى كتب الرواية مطلقاً .

اختلاف اهل الحديث فى كونه الخطمى او غيره

هذا إن كان أبو جعفر هذا هو الخطمى ولكن وقع اختلاف كما تقدم : فالترمذى يقول فى جامعه بعد تخريجه الحديث : إنه غير الخطمى. وابن حجر العسقلانى يميل فى التقريب » ـ على قول صاحب صيانة الانسان ـ إلى أنه غير الخطمى كالترمذى ، ويرجح أنه أبو جعفر عيسى بن ماهان الرازى التميمى الذى ضعفه قوم ووثقه قوم آخرون . وقد ذكر فى كتابه تهذيب التهذيب ما يدل على أنه

مرجح كونه غير الخطمى . وذلك أنه قال من التهذيب فى من يكنون أبا جعفر :
« أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة، وعنه شعبة . قال الترمذى ليس هو الخطمى »
ولم يزد على هـذا ولم ينكر على الترمذى ما حكاه عنه . فكأنه يميـل إلى
الأخذ بقوله . وعند ما ذكر ترجمة الخطمى من التهذيب لم يتعرض لهذا الخلاف
ولم يذكر أنه هو الذى روى هـذا الخبر عن عمارة بن خزيمة مع أنه معروف
التعقيب على مايراه يستحق ذلك . فالظاهر من مجموع هذا أنه يميـل إلى موافقة
الترمذى فى القول بأنه غـير الخطمى . . . هذا قول الترمذى ومن فى جانبـه .
أما الأكثرون فقد ذكروا أنه هو الخطمى عينـه . هكذا وقع فى كثير من
الكتب التى روى الحديث فيها . وقد رجح شيخ الإسـلام ابن تيمية هذا
الرأى الأخير .

لا بد من لنشدان العرفان

إذن فالخلاف قائم بين أهل الحديث فى أبى جعفر راوى الحديث . فمن لنا
بالاهتداء إلى الحـق المنشود ! وبأى أسلوب نستطيع أن نعثر عـلى الصواب
والرشد فى هذا الخلاف ! هذا مالا بد منه، ومالا غنى عنه، ومالافرار من محاولة
نشدان العرفان فيه . وإلا فإن الذين يكنون أبا جعفر كثيرون، منهم الثقات،
ومنهم غير الثقات . فلا محيص من التمييز حذار الوقوع فى رواية غير الثقات .
والدين أغلى وأعلى من أن يكتفى فيه بالروايات المبهمة بحيث لا يعرف الثبت من
غير الثبت .

هل يمكن ترجيح أحد الرأيين على الآخر وكيف ذلك

قـد يقول قائلون : إنه يجب إسـقاط خلاف الترمذى ومن معـه فى هذا
الخلاف لأنهم لم يعلموا أن أبا جعفر هذا هو الخطمى أو غيره . وغاية الأمر أنهم
وجدوا الراوى عن أبى جعفر يقول حدثنا أبو جعفر فظنوه غـير الخطمى فقالوا
إنه غيره . ولـكن قولهم هذا غير حجة لأنه قائم على الظن والتوهم والحسبان .
والحجة فى قول غيرهم من الذين رووا الحديث وصرحوا بأنه هو الخطمى كما وقع

مصرحاً به عند ابن أبي خيثمة في التاريخ، وعند الطبراني في المعجم، وعند الحاكم في المستدرك ، وعند ابن السني في عمل اليوم والليلة . فإن هؤلاء قد صرحوا بأن راوي الحديث هو الخطمي عينه . وهم ما قالوا ذلك إلا لأنهم علموا أو حدثوا أنه هو نصاً لا توهماً وحسباناً .

إن قال قائلون هذه المقالة و رجحوا هذا الرأي على رأي الترمذي ومن معه وعدوه المصير الصحيح اللازم المصير إليه علماً و بحثاً وتحقيقاً، قيل في الجواب : كلا ، إنه لا يجب اطراح قول أبي عيسى الترمذي هكذا ، ولا الذهاب إلى تخطئته جزافاً وقولا واحدا ، إذ لو صح لنا أن نقول : إنه ظنه غير الخطمي فقال : إنه غيره بلا دليل سوى الظن والتوهم والحسبان المحض لصح لنا أن نقول : إن هؤلاء الذين صرحوا في كتبهم بأنه هو الخطمي نفسه ليس لهم من دليل أيضاً سوى التوهم والظن والحسبان . وهذا قريب جداً . وذلك أنهم وجدوا أبا جعفر في الإسناد مجرداً مطلقاً مما يمكن أن يعينه ، فوثب إلى توهمهم وأوهامهم أنه الخطمي فصرحوا بما توهموه وحسبوه ، لا بما علموه وسمعوه ، وهذا يحتمل في الترمذي كما يحتمل في الآخرين المخالفين له ، وإن كان يبدو للمتأمل جيداً تقديم ما ذهب إليه الترمذي وترجيحه . وذلك أنه من البعيد للغاية أن يصرح عالم بالحديث ، كالترمذي مثلا ، بأن هذا ليس هو هذا انسياقا وراء الظن المجرد والحسبان الباطل . لأنه إذا لم يكن لديه سوى الظن والتوهم كانت منطقة السكوت أرحب وأوسع ! وما أبعد أن يقع اسم أو كنية بين يدي ناقد بصير مثل الترمذي فيقول مبادراً : إن صاحب هذا الاسم أو هذه الكنية ليس هو فلانا ممن يسمون ذلك الاسم بلا حجة و برهان غير الظن البحت . . . أما من قالوا إنه هو الخطمي فمن القريب للغاية أن يسمعوا الراوي يقول : حدثني أبو جعفر ، فينساق بسرعة إلى أذهانهم وأوهامهم أنه هو الخطمي أو غيره ممن يكنون هذه الكنية ،

ولأن اللسان والجنان كثيراً ما يندفعان إلى مثل هذا اندفاعاً، وينطلقان إليه انطلاقاً آلياً أو شبه آلى. والأمر بين لمن تدبره جيداً، ولمن رزق فهماً وإنصافاً وإنفلاتاً من ربقة التقليد والاحتذاء المكروه الجاهل.

وإذن لا يسوغ لناشد المعرفة والحقيقة أن يبادر إلى الحكم بتخطئة الترمذى زاعماً أنه الخطمى قولا واحداً، بل يجب عليه على الأقل التريث والتوقف ما لم ينبثق له فى هذه الظلمة شعاع من نور. ولا سيما أن هذا الراوى المختلف فيه لم يتابعه أحد على روايته الحديث عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف، بل انفرد به فى جميع الأسانيد والروايات. وهذا مايزيد الباحث الحريص على الحقيقة والمعرفة توقفاً وتريثاً. ولاسيما أن الحديث وارد فى مسألة كهذه المسألة لها من الخطورة والخطر مالها.

هنا أمران القول بأنه غير الخطمى وتجويز أن يكون اياه وأن يكون غيره وعلى الامرين

وإذا وصلنا إلى هذا الدور من البحث وجدنا أمامنا أمرين لا مندوحة لنا من اختيار أحدهما: أحد الأمرين أن نذهب، قولا واحداً، إلى أن هذا الراوى ليس هو الخطمى كما قال الترمذى وكما رجح الحافظ ابن حجر على ما سبق. وثانيهما أن نلتزم التوقف ونجوز كلا الاحتمالين والقولين ريثما يقد لنا قبس من نور فى هذه الدجنة نتلمس به حقيقة ما غُمّ علينا وعلى الباحثين.

وعلى الاحتمالين والقولين لا يصح لنا أن نبادر إلى القول بصحة الحديث وإلى الأخذ به حتى نأمن من أن يكون هذا الراوى راويا ضعيفاً متروكا منهوكا مردود الرواية، معروف الضعف والوهن. وما دمنا مجوزين أن يكون الخطمى وأن يكون غيره فلا سبيل إلى الضمان من أن يكون ضعيفاً ذاهب الحديث حتى نعلم أن جميع من يكنون هذه الكنية ممن هم فى هذه الطبقة ثقات أثبات كلهم.

أما إذا ذهبنا إلى القطع بأنه غير الخطمى فقد يحتمل أن يكون راويا ضعيفاً، وكذلك إذا جوزنا أن يكون إياه وأن يكون غيره — لأنه لا سبيل إلى القطع

بأنه هو قولا واحداً إلا لمن كان متسرعاً إلى ما يجب التأنى والبطء فيه . وما دام هذا الاحتمال موجوداً فلا شك أن العمل بالحديث باطل مردود . ومن ثم ذهب المحدثون إلى أن رواية المجهول غير مقبولة ولا صحيحة لاحتمال أن يكون ضعيفا ، وذهبوا إلى أن الحديث المنقطع ضعيف أيضاً لجواز أن يكون الراوى الساقط من الاسناد ضعيفا ، وأجمعوا على أن الخبر المنقول بلا إسناد لا يجب العمل به ولا يكون حجة فى الدين حتى يعلم إسناده . لجواز أن يكون رواته ضعفاء . وهذا بين . وقد ذهبوا إلى أكثر من هذا كله ، محافظة على السنة والدين واحتياطاً من الضعف والكذب ومن التدين بالضعيف والمكذوب وبما لم يصح عن النبوة الخاتمة الصادقة .

من شروط المحدثين لصحة الحديث ومن احتياطهم الغريب

وقد أجمعوا أيضا على أنه إذا جاءت رواية باسم مشترك بين ثقات وضعفاء فاحتمل أن تكون الرواية رواية ضعيف ، واحتمل أن تكون رواية ثقة ، وجب طرح تلك الرواية ولم يحلل العمل بها قولا واحداً . مثل ذلك أن يقول الراوى الثقة المعروف : حدثنا أحمد ، وكان اسم أحمد هذا مشتركا بين راو ثقة ثبت وبين آخر ضعيف ، ولم يقم دليل على أنه أحدهما . فمثل هذه الرواية لايجوز عند حملة الحديث والسنة العمل بها ولا القول بصحتها . ومثله قول شعبة بن الحجاج — وهو الامام الحجة — فى هذا الحديث : حدثنا أبو جعفر ، أو عن أبى جعفر . فان شعبة إمام حجة ولا شك . ولكن الذين يكنون بأبى جعفر ممن يحتمل ويمكن أن يروى عنهم شعبة غير واحد ، منهم الضعفاء ، ومنهم الثقات الأثبات ، ومنهم مقبولو الحديث ، ومنهم مردودوه ، فى حين أنه لم يظهر لنا هذا الذى روى عنه شعبة الحديث . هذا كله صحيح عند أعلام النقد وعلماء الرواية وفرسان الفن . وأكثر منه وأدل على الدقة والتمحيص البالغ أن شيوخ هذا الشأن وأساطينه ذهبوا إلى أن الثقة إذا قال : حدثنى الثقة ، ولم يذكر اسمه ولا من يكون ، لم يقبل

حديثه ولم يكن صحيحاً لديهم فى علمهم . وذلك لاحتمال أن يكون ثقة عند الراوى عنه لأنه لم يعلم ضعفه ، غير ثقة عند سواه من المحدثين لأنهم علموا ضعفه وعلموا مالم يعلم موثقه من أمره وحاله . ومن ثم ذهبوا إلى أن قول الامام مالك رضى الله عنه فى الموطأ : حدثنى الثقة ، لايقضى بأن يكون ثقة عندهم حقيقة ؛ ولا يقضى بأن يكون حديثه الذى روى بالإبهام والابهام صحيحاً حتى يعلموا من هو ذلك الراوى المبهم الثقة عند الراوى عنه ، أو يعلموا للحديث سنداً آخر معروف الرواة مسماهم . وذهبوا إلى أن الأحاديث التى يذكرها هو وغيره عن النبى عليه الصلاة والسلام بلا أسانيد بمثل أن يقول : صح عن النبى كيت ، وقال النبى كذا . ليست صحيحة مطلقاً ولا يجب العمل بها لمجرد هذا النقل . ومثل هذا وأبلغ منه فى الحيطة للسنة أنهم لم يقبلوا الأخبار التى يعلقها البخارى فى الصحيح بلا إسناد ، مع علمهم شروط البخارى وشدتها وقوتها ، بل عندهم أنه لا يجب العمل بها حتى يعلم إسنادها وحاله . ومن ثم نجد شراح البخارى ، كالعسقلانى وسواه ، يتصدون لتخريج هذه الأحاديث المعلقة وتبيان حالها ، وقد يميلون حيناً إلى تصحيحها ، وهو الأكثر وأحياناً إلى القدح فيها وتضعيفها وهو الأقل . ولهذا كله احتاج المسلمون إلى الأسانيد والعناية بها وإثباتها ؛ وقد جعلوها من الدين . ولم يكتفوا بأن يقول العالم المحدث الثقة : صح عن النبى كذا وصح عن أصحابه كيت ، بل وجدوا أن هذا لا يجدى ولا يصيب الحيطة المطلوبة والعلم المطلوب . فما ألف البخارى صحيحه بلا أسانيد ، ولا ألف مسلم صحيحه كذلك بلا أسانيد ، ولا أحمد مسنده محذوف الأسانيد ، ولا غيرهم من أعلام الرواة وعلماء الحديث . بل ذكروا جميعاً الاخبار والأحاديث بالأسانيد ليكون لمن جاءوا بعدهم من المسلمين الاختيار الصحيح النزيه ، والاجتهاد الفاحص ، والنظر المدقق ، والعلم الذى لا يحد إلا بحدود البشرية وحدود العقل : فيكون لكل من جاءوا بعدهم ـ إذ استطاعوا واستوفوا

لماذا الف كتب الحديث بالاسانيد

الآلة ـ أن يصححوا وأن يضعفوا وأن ينقدوا وأن يقولوا : هذا صحيح وهذا ضعيف . وقد كشفوا ـ نضر الله وجوههم ـ أحوال الرواة و بينوا قواعد الرواية ودونوا ما يشتملون عليه من صحة وضعف ، ومن دين ومروق ، ومن قوة و وهن ليكون فى كل ذلك النبراس اللماع الوهاج لمن راحوا يسرون و يدلجون فى ليل الجهالات والضلالات والشكوك والأكاذيب المبثوثة فى كل سبيل وعلى كل مرصد ـ متخطين ذلك كله إلى مناهل الحقيقة الواحدة ، وموارد الايمان والعرفان والصدق .. حتى خلفوها بيضاء واضحة الأعلام والمعالم ،لايتيه فيها إلا تائه هالك ولا يعمى عنها أو فيها إلا من استحب العمى على الهدى، وآثر الظلام على النور بعد أن باع هداه لهواه وعقله لجهله : هذا كله صحيح عند أهل الحديث الذين حفظ الله بهم العلم والسنة ، وأبان بهم كلام النبوة الصادقة من كلام الدجالين والوضاعين .

ماذكره مسلم فى مقدمة صحيحه من نقد الرواية والرواة

ومن طالع مقدمة الامام مسلم فى صحيحه رأى العجب العجيب من أقوال أئمة الحديث وشيوخ السنة فى التعظيم لأمر الروايةوالرواةوفى الحذر من الكذب والكذابين ، وفى الحملة الشديدة الصلبة القاسية على من طاروا فرحاً وسروراً بكل ماسمعوه من الأخبار زاعمين أنه من كلام النبوة ومن دين الله . وقد ذكر هذا الامام فى مقدمة الصحيح بعنوان : « باب النهى عن الرواية عن الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم » بسنده عن عامر بن عبدة قال قال عبد الله : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب ، فيتفرقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما اسمه . و روى أيضا بالسند الصحيح عن طاوس قال : جاء بشير بن كعب إلى ابن عباس فجعل يحدثه،فقال له ابن عباس :عد لحديث كذا وكذا . فعاد له ، ثم حدثه فقال له : عد لحديث كذا وكذا فعاد له ، فقال له : ماأدرى أعرفت حديثى

كله وأنكرت هذا ؟ أم أنكرت حديثى كله وعرفت هذا ؟ فقال له ابن عباس : إنا كنا نحدث عن رسول الله إذ لم يكن يكذب عليه ، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه . وروى أيضا بالاسناد عن ابن عباس قال : إنما كنا نحفظ الحديث والحديث يحفظ عن رسول الله ، فلما إذ ركبتم كل صعب وذلول فهيهات . ثم روى عنه رواية أخرى جاء فيها : قال فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال : ياابن عباس مالى أراك لا تسمع لحديثى ؟ أحدثك عن رسول الله فلا تسمع . فقال ابن عباس: إنا كنا إذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا مانعرف . وقد روى مسلم فى فاتحة هذا الباب بالاسناد الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم. فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم » . وقد ذكر فى المقدمة قبل هذا الباب باباً آخر عنوانه : « باب النهى عن الحديث بكل ماسمع » فروى فيه قوله ﷺ « كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ماسمع » . وروى فيه أيضا أن عمر بن الخطاب قال : بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ماسمع . ورواه عن عبد الله . وروى فيه عن الامام مالك أنه قال : اعلم أنه لا يسلم رجل حدث بكل ماسمع ، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ماسمع . وروى عن عبد الرحمن بن مهدى مثله .

التحديث بكل ماسمع

ثم عقد مسلم فى مقدمة الصحيح باباً آخر عنوانه : « باب فى أن الاسناد من الدين » فروى فيه بالسند عن محمد بن سيرين قال : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم. ثم روى عنه أيضاً أنه قال : لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم . ثم روى عن ابن أبى الزناد

الاسناد من الدين

عن أبيه قال : أدركت بالمدينة مائة ، كلهم مأمون مايؤخذ عنهم الحديث ، يقال ليس من أهله . ثم روى عن مسعر قال سمعت سعد بن إبراهيم يقول لايحدث عن رسول الله إلا الثقات . ثم روى عن عبد الله بن المبارك أنه قال : الاسناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال من شاء ماشاء. ثم روى عن العباس بن رزمة قال سمعت عبد الله يقول : بيننا و بين القوم القوائم ، يعنى الاسناد . ثم روى عن أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقانى قال : قلت لعبد الله بن المبارك ياأبا عبد الرحمن : الحديث الذى جاء « إن من البر بعد البر أن تصلى لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك » ؟ قال فقال : ياأبا إسحاق عمن هذا ؟ قلت له : عن شهاب بن خراش ، فقال ثقة ، عمن ؟ قلت عن الحجاج بن دينار ، قال ثقة ، عمن ؟ قلت قال رسول عليه السلام ، قال ياأبا إسحاق إن بين الحجاج بن دينار و بين رسول الله مفاوز تنقطع فيها أعناق المطى ، ولكن ليس فى الصدقة اختلاف .

الكشف عن معايب الرواة

ثم عقد باباً رابعاً عنوانه : « باب الكشف عن معايب رواة الحديث ونقلة الاخبار وقول الأئمة فى ذلك » ، وقد ذكر فيه من قواعد هذا الفن أشياء عجيبة ترى قارئها كيف كان أعلام الحديث ورجاله يحذرون من الروايات كل مايمت إلى الضعف والوهن بسبب من أسبابه ولون من ألوانه وظل من خياله ، وكيف كانوا لايقبلون منه إلا الصحة والقوة بالأسانيد المشرقة فى جو الحقائق والعقول إشراق الشمس فى جو الأجسام والمادة ، وكيف كانوا يهجرون كل إسناد يكون عليه لون من ألوان الضباب أوسمة من سمات الكدورة والخفاء والظلام .. ولهذا كان علم الحديث من أشرف العلوم وأفضلها وأدقها وأقواها، وكان رجاله هم الفواريق الفارقة بين الإسلام وماليس إسلاماً . وكانوا هم حفظة الشريعة المحمدية بلا نزاع ولا مكابرة . . . ولولا هذه الأسانيد وعلومها وفنونها لما بقى لنا من الاسلام سوى القرآن . وذلك لاختلاط أحاديث النبوة بأحاديث الكذبة . فلله أهل الحديث !

ولله ما قدموه للاسلام والمسلمين من خدم ومنن !

بعد هذا كله نقول : إننا لا ندرى من يكون أبو جعفر هذا ، فجائز أن يكون الخطمى ، وجائز أن يكون غيره ، وإذا كان غيره فجائز أن يكون ثقة وجائز أن يكون ضعيفاً بل وتحت الضعيف .

من يكون هذا الراوى إذا كان غير الخطمى فثم أبو جعفر الرازى

﴿ من يحتمل أن يكون أبو جعفر هذا إذا لم يكن الخطمى ﴾

الذين يكنون بأبى جعفر ممن يمكن أن يراد أحدهم فى هذا الحديث كثيرون فمنهم أبو جعفر : عيسى بن ماهان الرازى التميمى بالولاء . وهذا وثقه قوم وضعفه آخرون. وقد قدحوا فى حفظه وضبطه . وقال ابن حبان : إنه ينفرد عن المشاهير بالمناكير، فلا يعجبنى الاحتجاج بحديثه إلا فيما وافق الثقات. وقال ابن معين: يكتب حديثه ولكنه يهم . وقال أبو زرعة : شيخ يهم كثيراً . وقال أحمد بن حنبل : ليس بالقوى فى الحديث . ووَهَّنَ أمره النسائى . وقد وثقه أبو حاتم وابن المدينى والحاكم وآخرون . فهو إذن قائم بين التضعيف والتوثيق، وبين القوة والضعف . فقوم يقبلونه ، وقوم يردونه . وكأن الذين قالوا إنه ثقة أرادوا أنه ثقة لولا الوهم والغلط لأن الذين قدحوا فيه قدحوا من هذه الناحية نفسها. فكأنه صالح فى نفسه ودينه وحاله ولا عيب فيه سوى سوء حفظه وضعف ضبطه. وبهذا تتفق أقاويل القادحين والمادحين . ويشهد لصدق هذا الجمع بين القدح والمدح أن ابن معين وثقه مرة ، ومرة قال : يكتب حديثه ولكنه يخطئ . . . ومن كانت هذه حاله كان حديثه من قسم الحسن ، لا يبلغ درجة الصحيح إلا عند المتساهلين جداً ، أو عند وفرة الشواهد والمتابعات. ولكن لا شواهد هنا ولا متابعات . فحديثه هذا ـ إذا كان هو إياه ـ لا يكون صحيحاً وإنما يكون حسناً بإغماض أو ضعيفاً ضعفاً هيناً . ولكن هل يمكن أن يكون أبو جعفر المذكور فى الحديث هو هذا ؟ والجواب أنه يمكن أن يكونه . ويقوى هذا الاحتمال والامكان أن شعبة بن الحجاج قد روى عن

أبى جعفر هذا كما فى تهذيب التهذيب . وشعبة هو راوى هذا الحديث عن أبى جعفر الذى ننشد المعرفة فى أمره وفى اسمه وحقيقته . ولكن قد يُوَهِّنُ هـذا أنه وقع فى بعض روايات الحديث نسبة أبى جعفر هـذا إلى المدينـة ، فجاء فى سنن ابن ماجه : عن شعبة عن أبى جعفر المدنى عن عمارة بن خزيمة بن ثابت . وكذا جاء فى مسند الامام أحمد ، وكذا عند البيهقى وعند الحاكم فى المستدرك ، وعند الطبرانى فى المعجم . وهـذا فى الظاهر يأبى احتمال أن يكون أبو جعفر هـذا هو عيسى بن ماهان الرازى ، لأنه ليس مدنياً ، لأنه « مروزى الأصل ، سكن الرىّ . وقيل كان أصله من البصرة وكان متجره إلى الرىّ فلسب إليها » كذا فى تهـذيب التهذيب . ولـكن قـد يدفع هذا الاعـتراض بأن يقال : نحن إذا جوزنا الوهم على من زعموه الخطمى فلا مانع من أن نجوزه على من نسبوه إلى المدينة . والمسألة لا تعدو منطقة التجويز والاحتمال . والتوهيم هنا لابد لمنه : إما للذين زعموه الخطمى المدنى ، و إما للذين زعموه غيره . فهذه لا معـدى عنها كما ترى . فليس فى التزامها إذن شئ .

وهناك راوٍ آخر يكنى أباجعفر ، يحتمـل أن يكون إياه . هـذا الراوى هو عبد الله بن المسور بن عون بن جعفر ابن أبى طالب . أبو جعفر الهاشمى المدائنى كما فى الميزان للذهبى . وروى فيه عن معاوية بن صالح عن يحيى قال : أبو جعفر المدائنى هو عبد الله بن محمد بن مسور بن محمد بن جعفر . وأبو جعفر هذا ضعيف قال أحمد وغيره : أحاديثه موضوعة ، كذا فى الميزان . وقال النسائى والدارقطنى: متروك . وقال الإمام مسلم فى مقدمة الصحيح فى فصل « الكشف عن معايب رواة الحديث » : حدثنا عثمان ابن أبى شيبة حدثنا جرير عن رقبة أن أبا جعفر الهاشمى المدنى كان يضع أحاديث وليست من أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام وكان يرويها عن النبى .

وهم ابو جعفر المدائنى الهاشمى الوضاع

وإذا كان أبو جعفر هـذا هو أبا جعفر الذى روى عنـه شـعبة الحديث كان الحـديث ، ولا ريب ، حديثا ضعيفاً بالمرة ، لا يحـل الاحتجاج به ولا الاشـتغال بمعناه . وقد يقوى هـذا الاحتمال ـ احتمال أن يكون أبو جعفر الوارد فى الحديث هو هـذا ـ أن كليهما يقال له : أبو جعفر المدنى . فهذا مدنى كما جاء فى صحيـح مسـلم ، والذى فى الحـديث أيضاً مدنى كما جاء فى ابن ماجـه وفى مسند أحـمـد وفى المستدرك وفى معجم الطبرانى . فالاتفاق فى الكنية والنسبة قد يقوى أن يكون هذا هذا . أما شهرة أبى جعفر هذا بالمدائنى فراجعه إلى أنه كان نزيل المدائن . فلا خـلاف بين المـدائنى والمدنى ، لأنه مدنى بالأصل ، مدائنى بالاقامة والثواء .

وهناك أبو جعفر آخر

وهنالك راو آخر يقال له أبو جعفر الأنصارى المدنى المؤذن . قال فى تهذيب التهذيب : «روى عن أبى هريرة ، وعنه يحيى ابن أبى كثير . قال الترمذى : لا يعرف اسمه . وقال غيره : هو محمد بن على بن الحسين ، قاله أبو بكر الباغندى عن أبى عاصم عن حجاج ابن أبى عثمان عن يحيى . قال أبو مسلم الكجى عن أبى عاصم عن حجاج عن يحيى عن محمد بن على . وقال عبـد الله بن عبـد الرحمن الدارمى : أبو جعفر هذا رجـل من الأنصار . وبهذا جزم ابن القطان ، وقال : إنه مجهول. وقال ابن حبان فى صحيحه : هو محمد بن على بن الحسين ، وهذا ليس بمستقيم ، لأن محمد بن على لم يكن مؤذناً ، ولأن أبا جعفر هذا قد صرح بسماعه من أبى هريرة فى عدة أحاديث . وأما محمد بن على بن الحسين فلم يدرك أبا هريرة . فتعين أنه غيره ». هذا كله كلام الحافظ العسقلانى فى تهذيب التهذيب . قال فى آخر الترجمة : «وقد فرق أبو أحمد الحاكم بين هذا و بين الراوى عن أبى هريرة، وأظن أنه هو . وعنه أبو داود فى الصلاة عن يحيى ابن أبى كثير عن أبى جعفر ـ غير منسوب ـ عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة . وأظنه هذا » . وقال الحافظ

الذهبي في الميزان : « أبو جعفر الحنفي اليمامي . عن أبي هريرة . وعنه عثمان ابن أبي عاتكة ــ مجهول » . وقال بعده : « أبو جعفر . عن أبي هريرة . أراه الذي قبله . روى عنه يحيى ابن أبي كثير وحده ، فقيل الأنصاري المؤذن . له حديث النزول وحديث ثلاث دعوات . ويقال : مدني فلعله محمد بن علي بن الحسين وروايته عن أبي هريرة وعن أم سلمة فيها إرسال لم يلحقهما أصلا» .

فان كان أبو جعفر هذا هو الذي روى عنه شعبة الحديث كان الحديث ، بلا ريب ، ضعيفاً . لكن قد يشك في إدراك شعبة لأبي جعفر هذا وفي روايته عنه . وهذه الأقاويل والاحتمالات متروكة كلها رهن البحث والتمحيص ، لا يصل شيء منها إلى العلم والايقان .

هناك آخرون يكنون هذه الكنية

وبقي ثم رواة آخرون يكنون هذه الكنية ، منهم الثقات ، ومنهم الضعفاء ، ومن الجائز أن يكون أبو جعفر الذي في الخبر أحدهم ، ومن الجائز أن يكون غير هؤلاء جميعاً ، وأن يكون رجلا مجهولا لا يعرف إلا بهذا الحديث ولم يرو عنه شعبة سواه ، ولم يرو هو عن عمارة بن خزيمة بن ثابت غيره . وقد يفهم هذا من صنع الحافظ ابن حجر في كتاب تهذيب التهذيب . وذلك أنه قال في من يكنون بأبي جعفر : « أبو جعفر . عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعنه شعبة . قال الترمذي : ليس هو الخطمي» انتهى . وقد يشهد لهذا أيضاً قول الترمذي ، ذلك أنه قال : إنه غير الخطمي ولم يزد على هذا القول شيئاً ، فلم يسمه ولم يصفه ولم ينسبه : فكأنه ما كان يعرف من أمره شيئاً ، ولا كان يعرف اسمه ولا نسبته . وإنما صحح حديثه اعتماداً على رواية شعبة عنه ، لأن شعبة عرف بالرواية عن الثقات دون الضعفاء ، وإن كان هذا ليس لازماً من أمر شعبة ، فقد روى عن غير الثقات . والترمذي معروف بالتساهل واللين في التصحيح . فهذا منه معروف لا ينكر . وقد صحح حديث من أجمع على ضعفه ككثير بن عبد الله بن

عمرو بن عوف المزنى المدنى : وقد صحح حديثه فى الصلح بين المسلمين المشهور . وقد نعى ذلك عليه جهابذة الفن وقالوا : إنه لا يقلد فى التصحيح كغيره من المتساهلين .

وبعد هذا فالحديث غير صحيح

بعد هذا البيان كله يظهر لنا أن هذا الحديث ــ أعنى حديث الأعمى ــ ليس من الأحاديث الصحاح ولا الحسان ، وأنه لايجوز لمن لا يرضى لنفسه ودينه وعقيدته إلا الصحة والقوة واليقين أن يقدم على تصحيحه وعلى العمل به أو إلزام الناس ذلك أو اتخاذه قاعدة من قواعد الاسلام وعقيدة من عقائده وشريعة من وشرائعه . فان أباجعفر المنفرد بهذا الحديث رجل مجهول ، لا يعرف اسمه ولا تعرف حاله ، ولا يدرى مكانه من الصحة والضعف على وجه الإيقان ــ فلا يجوز أن يكون ما انفرد به صحيحاً ، بل ولا يكون حسناً ، بل يجب أن يقال : إنه ضعيف مردود . والدين قوى متين ، لا يثبته إلا قوى متين مثله ، أما الضعيف أو المجهول فلا يشيد عليه المسلم عقيدة من عقائده ولا رأيا من آرائه ولا أمراً من أموره . وقد نهى الاسلام : كتابه وسنته عن العمل بما لم يصح ومالم يثبت ، وعن الايمان بما لا يعرف دليله ولا يدرى ما هو . والشواهد على هذا معلومة كثيرة .

ويزيد الريب فى الحديث انفراد هذا الراوى المجهول به فى كل الطرق وانفراد ابن حنيف ايضا به

ومما يزيد الريب فى صحة هذا الحديث ويحمل على الرد له انفراد أبى جعفر به فى جميع طرقه وجميع أسانيده ، ثم انفراد عثمان بن حنيف بروايته عن النبى عليه الصلاة والسلام . وقد وقع كما ذكر فيه بحضرة جمع من المسلمين وعرفوه وعرفوا القصة كما هى . . . فانفراد أبى جعفر هذا المجهول بروايته عن عمارة بن خزيمة وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف فى جميع طرق الحديث ليس مما لا يضيره ، وليس مما يكثر مثله فى حديث كهذا الحديث فيه معجزة للاسلام ، وفيه كرامة للنبى عليه السلام ، وفيه فرح وسرور للمؤمنين ، وفيه آية من آيات الله ،

وفيه ، بعد ، خروج على المعتاد المألوف ..: وهذا كله مما يغرى المؤمنين والمسلمين بروايته ونقله ، و يلهب الاحتشاد عليه والعناية به والالتفات إليه . أما انفراد عثمان بن حنيف بروايته عن النبى عليه السلام فالغرابة فيه أ كثر وأظهر . وذلك أن هذه المعجزة فى الحديث قد وقعت ، على افتراض صحة الحديث أمام ، جمع كثير من المسلمين الذين يشوقهم أمثالها ، و يطيب لهم التحديث والتحدث بها وعنها ، و يطيب لهـم نشرها و إذاعتها على جميع الأملاء . فلماذا إذن لم ترو إلا عن عثمان بن حنيف ؟ ولماذا إذن لم يحدث بها سواه وهى مما يطيب التحديث بها ومما تلذ روايتـه وتطرب الأسماع لسماعـه ، وهى مما يعظم به شأن النبوة وشأن الاسلام ، وتتكاثر به دلائل صدقه وآيات انتسابه إلى السماء ؟ من الجائز أن تكون هذه المعجزة وقعت أمام عثمان بن حنيف وحـده ـ و إن كان يرد هـذا الاحتمال قول عثمان فى الرواية الأخرى الآتية : « فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكُن به ضر قط » ـ فان صح هذا الاحتمال ـ وهو غير صحيح ـ قيل ولـكن لاريب أن مثل هذه الحادثة المعجزة ، والكرامة الظاهرة مما يجعـل لسان ذلك الأعمى الذى شـفى بدعوة نبى الله يلهـج بذكرها والتحديث بها و روايتها على رؤوس الخاصة والعامـة ، ونشرها فى العالمين حتى يتكاثر الراوون لهـا ، المتحدثون بها ، ومما يجعـل ألسنة عارفى ذلك الضرير وألسـنة أقربيـه ولسـان عثمان بن حنيف تلهج بها أيضاً وتكثر من روايتها وتطنب فى التحـديث بها ، حتى تصبح ذات ذيوع وشـهرة بين الأقربين والأبعدين . وقد وجدنا أخبار المعجزات الصحيحة تتكاثر رواتها من الصحابة ومن بعدهم : فوجدنا أخبار انشقاق القمر و زيادة الطعام والشراب بدعاء النبى عليه الصلاة والسلام ، ونبع المـاء من بين أصابعه ، وحنين الجـذع الذى كان يخطب فوقه لما أن اتخـذ منبره وتركه ، وأخبار الإسراء والمعراج ، وأخبـار

أخبار المعجزات المادية تعدد رواتها ورواياتها

تسبيح الحصا والطعام على مسامع المسلمين ، وأخبار غير ذلك من المعجزات المحمدية المادية : وجدنا أخبار هذه المعجزات كلها قد تعدد رواتها عن النبي عليه الصلاة والسلام وكثرت طرقها ، وعلت أسانيدها ونزلت ، ورواها الجم الغفير عن مثله ــ هكذا ــ إلى النهاية وإلى البداية وهذا لا بد منه فى الأحداث الكبرى وفى الآيات الجليلة المشهودة بالأبصار . وهذا مثل واحد وهو نبع الماء من بين أصابعه الشريفة قد رواه الحافظ أبو نعيم فى « دلائل النبوة » عن ثمانية من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام . وهذه رواية أبى نعيم وحده فى كتاب دلائل النبوة وحده ، وقد روى هذه المعجزة غيره عن غير هؤلاء الثمانية . وروى معجزة ربو الطعام بين يدى النبى عليه الصلاة والسلام عن اثنى عشر رجلا من الصحابة فى الدلائل أيضاً ، وهذه المعجزات تروى فى غير دلائل أبى نعيم عن غير هؤلاء . مع أن هنالك فرقا بين هذه المعجزات وبين معجزة إبصار الأعمى ، والفرق أن هذه المعجزات تنتهى وتنقضى فى وقتها ، وليست كذلك معجزة الابصار ورد البصر . وهذا واضح جداً .

فانفراد عثمان بن حنيف برواية هذا الحديث عن النبى دون غيره من الصحابة ودون صاحب القصة نفسه الذى شفى بدعوة النبى عليه السلام ، ودون شاهديه وعارفيه ودون غيرهم مما يفت ــ ولاشك ــ فى عضد الحديث ويوهى سنده . وكذلك انفراد أبى جعفر المشكل المبهم بروايته عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف دون غيره من أقرانه ومعاصريه ، ودون الراوين عن عمارة وعن أبى أمامة . هذا كله مما يوهن سند الحديث أيضا .

وهذا القسم من الحديث ــ أعنى الحديث الذى يكون فى أمر تتحفز الدواعى

وتهفو إلى نقله وروايتـه ثم يجئ غريباً لا يرويه إلا الواحـد ـ قد أبى قبوله جماهير من أهل الفقه والحديث والمعقول والفلسفة والنظر . وقد عـدوا انفراد الراوى به من الحجج على ضعفه وبطلانه ، إذ لو كان حديثاً حقا لما انفرد بروايته الواحد عن مثله وهو أمر تطرب لسماعه الأسماع وتشرئب إليه الأعناق، ويطيب التحديث به والانباء عنه .. . وهذا وجه وجيه فى علم البحث والمعقول عندهم . ونحن لا نقدم على موافقة هؤلاء القائلين ، الذاهبين هذا المذهب ، ولكننا نحكيه حكاية ، ونعتمد نحن فى تضعيف الحـديث على جهالة أبى جعفر المنفرد به عن التابعى الراوى له عن الصحابى المشاهد للقصة بعينه .

﴿ إجمال علل الحديث ﴾

ماق الحديث من العلل والقادح

وعلل حديث الأعمى تتلخص فى ما يأتى :

أولا — : جهالة أبى جعفر هـذا المنفرد به عن عن عمارة بن خزيمـة وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف واختلاف الناس فيه ، إذ زعم فريق أنه الخطمى وادعى فريق آخر أنه سـواه بحيث لم يظهر لنـا نحن القول الصحيح من القولين والحق من الباطل ، حتى وجدنا التوقف والوقوف بين القولين هو المذهب والمصير الصحيح .

ثانيا ـ : تفرد هذا الراوى المجهول المختلف فيـه به دون غـيره من أقرانه وممن هم أكثر منه حديثا وتحديثا ، وأكثر اجتماعاً ولصوقا بعمارة بن خزيمة وبأبى أمامة بن سهل بن حنيف . وقـد كان المظنون أن يرويه غـيره وأن يكثر رواته إذا كان صحيحاً .

ثالثا ـ انفراد عثمان بن حنيف به بحيث لم نحفظ أنه روى عن غـيره من الصحابة، لاعمن هم أكثر منه رواية ولا عن ذلك الأعمى الذى رد الله له بصره بدعوة نبيـه وشـفاعته ، ولا عن أقارب الأعمى وعارفيـه ، ممن عرفوا القصـة

والمعجزة حقيقة . . . فهذا الانفراد بالحديث ـ مع أنه من أحاديث المعجزات المادية المخبرة عن حدث من الأحداث التى تتكثر رواتها ورواياتها والتحديث بها عادة ـ مما يزيد الشك ويهيج الريب فى صحة الرواية ووقوعها . والتفرد وحده لا يقضى برد الحديث الصحيح عندنا، ولكن التفرد مع جهالة الراوى المتفرد به ومع ما تقدم من الكلام فى الحديث يتألف منه شك يقف الطالب للحقيقة وللمعرفة ، المتجرد من كل هوى وغرض غير تقى عنده حيران بين الرد والقبول. ولا مناص حينئذ من الرد والطرح ، لأن الدين لا يكفى فى إثباته أمثال هذه الروايات المجهولة الغريبة .

شذوذ معنى الحديث

رابعاً ـ : غرابة معنى هذا الحديث وشذوذه عن مألوف الاسلام وعما عرفه الخاص والعام من أصوله وفروعه ، وعما علم بالضرورة منه . فان سؤال الله بخلقه — كأن يقال : أسألك يا ألله بفلان أو بفلانة ، أو أتوجه إليك بعبدك فلان أو بنبيك فلان ونحو هذا — لم يعهد مثله فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا عن أحد من الأصحاب ولا عن غيرهم من البصراء بالشريعة وبدين الله الاسلام . . . وما نقل شىء من هذا النوع إلا ما جاء فى الأخبار الباطلة الموضوعة كحديث سؤال آدم ربه بحق محمد ، وقد غير الكلام عليه ، وكحديث السؤال بحق السائلين وحق الممشى إلى الصلاة ، وهو حديث غير صحيح ومعناه إذا صح خلاف ما نحن بصدده . . . وسوف يمر بالقارىء الكلام عليه إن شاء الله . وكروايتهم : « إذا سألتم الله فاسألوه بجاهى ، فان جاهى عند الله عظيم » . وهذا لا أصل له . وكالرواية التى رواها عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان ، وكانت يهود تهزم ، فعاذت بهذا الدعاء : « اللهم إنا نسألك بحق محمد النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه فى آخر الزمان إلا نصرتنا

الاخبار التى فيها السؤال بحق المخلوق ضعيفة او مكذوبة

عليهم » ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان . وهذه رواية باطلة لا تصح . وعبد الملك هذا ضعيف جدا . قال أحمد والدارقطنى : ضعيف . وقال يحيى . كذاب . وقال أبو حاتم : متروك ، ذاهب الحديث . وقال ابن حبان : يضع الحديث . وقال السعدى : دجال كذاب . وقال صالح بن محمد : عامة حديثه كذب . وقال الحاكم : ذاهب الحديث جدا ، وقال فى المدخل إلى علوم الحديث روى عن أبيه أحاديث موضوعة . وذكره الساجى والعقيلى وابن الجارود وابن شاهين فى الضعفاء . وقال أبو نعيم الحافظ : يروى عن أبيه مناكير . . . ودين الله أجل من أن يحتج له برواية مثل هذا . وأما أبوه هارون فضعفه قوم ووثقه قوم . فالروايات التى فيها السؤال بحق المخلوق كلها إما ضعيفة جدا أو موضوعة . ومثل هذه الروايات لا يحل أن يثبت بها حكم من أحكام المياه والوضوء والحيض والطهارة وأحكام المياه وتقسيمها إلى أقسام ، فضلا عن أن يثبت بها قاعدة من قواعد الاسلام وقواعد مناجاة الله وسؤاله والاتصال به . . . . أما الروايات المحترمة الصحيحة فلم يجىء فى شىء منها شىء من هذا السؤال وهذا التوسل المبتدع .

فسؤال الله بالخلق والعباد وبحقهم وجاههم ونحوه لم يرد مثله ولا دليله فى آية ولا فى حديث صحيح ولا فى كلام صاحب من أصحاب النبى ، ولا عن إمام من أئمة الدين المقتدى بهم . فما جاء فى البخارى ولا فى مسلم ـ أصح كتب الاسلام بعد الكتاب ـ شىء من هذا النوع خلا حديث أنس بن مالك فى الاستسقاء بالعباس . وهو ليس من هذا كما سوف يجىء القول فيه بإذن الله . ولا جاء فى خبر صحيح سليم من القدح والطعن والضعف والاختلاف .

أبواب الدين كلها متفق على أصلها بالجملة

وأبواب الدين : أصوله وفروعه كلها جاءت فيها الآيات والأخبار الصحيحة المتواترة التى لا يختلف المسلمون فى صحتها وصحة نسبها إلى النبى عليه السلام ،

إلا هذا الباب، باب سؤال الله بالمخلوق و بجاهه وذاته وحرمته . فما جاء فيه حديث أجمع على صحته وثبوته عن النبى عليه الصلاة والسلام، أو سلم من النقد والضعف. ودين الله لا يثبت إلا بالنقل الصحيح، والنقل الصحيح لا يكون سوى الكتاب وسوى السنة القوية السليمة من الضعف وأعراضه . وخلاف هذا لا تثبت به قاعدة من قواعد اللغة ولا قواعد النحو، ولا مسألة من مسائل الحيض والطهارات فضلا عن أن يثبت به حكم من هذه الأحكام وشريعة من هذه الشرائع .

هذا الكتاب وهذه السنة

هذا كتاب الله يتلى، وهذه أدعية عباده الصالحين : الأنبياء والمرسلين فمن دونهم من الأولياء والصلحاء والأتقياء وسائر صنوف المؤمنين، وهذه أوامر الكتاب، وهذا حضه الناس على الدعاء والسؤال — سؤال الله جميع الحاجات والآمال : هذا ذلك كله يقرأ فى الكتاب، فهل يوجد فيه حرف واحد يدل على جواز أن يسأل الله بالخلق أو أن تطلب الحاجات بحق مخلوق أو بجاه عبد من العباد ؟ لقد ذكر الكتاب من أساليب الأدعية وضروب المسائل ـ مسائل العباد المتقين ربهم ـ أفانين وأموراً لا يقف عليها ولا يحيط بها إلا من عنى بالكتاب ودراسته و بطلب الهدى والعلم فيه . فهل يوجد فى الكتاب أن أحداً من عباد الله سأل الله بنبى أو بولى أو بجاه مخلوق له الزلفى والقربى لدى ربه ؟ أو يوجد أمر من أوامر الكتاب بأن يفعل المؤمنون نوعاً من هذا ؟ يسير على كل مسلم أن يجيب على كل هذه الأسئلة سريعاً و بلا توقف ولا إمهال بالنفى والسلب . . . وكذلك السنة الثابتة الصحيحة، قد حفظت ما حفظت من أدعية الأنبياء والأولياء والمؤمنين كلهم : الأولين والآخرين . ولكن لا توجد فيها رواية واحدة صحيحة سليمة من الضعف والقدح تدل على أن أحداً من هؤلاء العباد توسل إلى ربه بمخلوق أو بجاه مخلوق . ولا جاء عن أحد من صحابة

النبي وخيار المؤمنين بإسناد صحيح قويم أنه سأل ربه بجاه نبي أو بجاه ولي ، أو دعاه تعالى بمخلوق أو توسل بأحد من الخلق سوى ما فى حديث الاستسقاء بالعباس الآتى ، وهو ليس من هذا الباب كما سوف يعلم حين الكلام عليه . فلماذا هذا وقد حوت السنة جوامع الدين أصوله وفروعه؟ ترجع إلى صحيح البخارى و إلى صحيح مسلم — أصح كتب الدين بعد القرآن بلا خلاف — فتجد فيهما كل علم وكل فن من علوم الاسلام وفنونه : تجد فيهما أحكام المياه وأحكام الوضوء وسائر أحكام الطهارات ، كما تجد أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج وأحكام البيع والشراء وسائر المعاملات — معاملات العبد لربه ، ومعاملات العبد للعبد ، وتجد فيهما أحكام الموت والدفن والتكفين وما بعد الموت من القبر وعذابه وحسابه وسؤاله وشؤون الأرواح ، ثم تجد مابعد القبر من نعيم الآخرة وعذابها وحسابها وعقابها أو جزائها وموازينها وكل ما هنالك من نعيم وعذاب أليم ، بل وتجد فيهما أبواب الأخلاق وجوامع الآداب الاجتماعية الفاضلة المطلوبة من المسلم ، المفروضة عليه لإخوانه ولأقربيه وأبعديه من المسلمين وغير المسلمين : تجد فيهما آداب اللقاء ، وآداب الفراق ، وآداب الجلوس ، وآداب القيام ، وآداب المرء مع أهله وفى بيته ، وآدابه مع أصدقائه و إخوانه ، ومايصح من ذلك ، ومالا يصح تجد كل ذلك فى أخبار الصحيحين كما تجد الشيء الكثير منه فى كتاب الله .

تجد فى الكتاب والسنة كل علوم الاسلام فلماذا لا توجد فيها السؤال بالخلق

ولكنك لا تجد فيهما ولا فى الكتاب ولا فى السنة الصحيحة البريئة من النقد والضعف والتجريح والاختلاف مايدل على جواز سؤال الله بجاه المخلوق ولا التوسل إليه تعالى بالكرامات والحرمات والمقامات . فلماذا هـذا يا صاح ؟ أترى النبي عليه الصلاة والسلام لم يبينه و يبلغه مع أنه من الدين والرسالة المنزلة عليه ؟ أم ترى حفاظ السنة وأعضاد الملة شاءوا كتمان ذلك ونسيانه ، ورغبوا عن نقله وتدوينه ليختلف الناس وليضلوا وليطول اختلافهم ونزاعهم وجدالهم ؟ كل

ذلك يا صاح لا يجوز عندنا ولا عند أحد من المؤمنين . فالرسول قد بين البيان كله ، وحفاظ السنة لم يألوا وسعا فى التدوين والمحافظة على الدين ، والتمييز بين الصحيح والضعيف . إذن لماذا هذا أيها القارئ اللبيب ؟ الجواب عندنا أن هذا النوع من الدعاء والسؤال لا حقيقة ولا وجود ولا معنى له فى الاسلام . ومن هنا خلا الكتاب وخلت السنة الصحيحة منه ، وخلا البخارى وخلا مسلم من ذكره ومن أخباره ورواياته ، وخلا كلام السلف وأدعيتهم منه خلواً كاملا تاماً خلا ما جاء فى الأخبار المضعفة الملفقة .

فسؤال الله بالخلق وبالاشخاص والذوات لم يثبت بدليل متفق عليه ولا بدليل سالم من الضعف والقدح : لم يثبت لافى الكتاب ولافى السنة الصحيحة . وأصول الاعتقادات وأصول اتصال الخلق بربهم لابد أن تكون دلائلها ونصوصها قوية صحيحة ، والضعيف أو المقدوح فيه لا يقبل إلا فى بعض المسائل الفرعية وفى تفصيل بعض ما كانت نصوص أصله ودلائله بالجملة ثابتة صحيحة سليمة من الاختلاف الصحيح . وما من مسألة من مسائل الدين إلا ولابد أن يكون أصلها بالجملة ثابتا فى الكتاب والسنة ، أو فى الكتاب أو فى السنة الصحيحة التى لا خلاف فيها ، أو فى الاجماع الظاهر المعلوم . وكل مسألة لا تكون دلائل أصلها وأصل ثبوتها كذلك هى مسألة ليست من الدين ولا من الاسلام . وأنت إذا فليت أصول الاعتقادات ، بل وأصول الفروع وجدت نصوصها ثابتة بالجملة بين المسلمين ثبوتا لاريب فيه : فأصول الوضوء للصلاة والطهارة بالماء والتيمم عند فقدانه ثابتة نصوصها فى الكتاب وفى السنة بلا خلاف بين المسلمين . ونصوص أصل الصلوات وأصل الزكوات وأصل الحج والصيام وأصل الدعاء والاتصال بالله ، وأصل الركوع والسجود ، وأصل صلاة الاستسقاء وصلاة الجنائز وصلاة العيدين ـ: نصوص أصول هذه العبادات كلها ثابتة إما فى الكتاب

وما من مسألة الا ولا بد ان يكون أصلها ثابتا بالجملة

والسنة والاجماع والضرورة والتواتر ، و إما فى بعض ذلك . وكذلك نصوص أصول جميع العبادات وجميع شرائع الاسلام لاخلاف فيها ولافى صحتها ، و إنما الخلاف فى بعض تفاصيلها وفروعها .

أما هـذه المسألة ـ مسألة سؤال الله بالخلق و بجاهاتهم وحرماتهم وذواتهـم وكراماتهم فهى مسألة لا أصل لها فى الاسلام ، وما ورد أقوى من هذا الحديث فيها ، وهو كما تقدم ـ معل مضعف ، ومختلف فيه إختلافاً مشـهوراً قديماً . فأصل المسألة ، إذن شاذ فى الاسلام غير مألوف ولا معروف ، لم يأت فيه دليل صحيـح سليم من العيب والنقد . . . فالحديث إذن يثبت قاعدة فى الاسلام شاذة شذوذاً ظاهراً ، و يأتى بأمر جديد فيه لم يثبت بغيره ولم يعلم من سـواه مما يقام له وزن ويحسب له حساب . والخبر الذى يكون معناه شاذاً غريباً ـ لأنه يثبت عقيدة من العقائد وقاعدة من القواعد لا أصل لها فى غـيره ولا برهان لها إلا به ـ يكون خبراً مشكوكا فيه وفى قبوله وفى الاطمئنان إليه . هذا إذا كان خبراً صحيحاً خالصاً من المقادح العلميـة الفنية ، فـكيف إذا كان جم المقادح ، ظاهر العيوب العلميـة كهذا الحديث ؟

فالحديث إذن شاذ المعنى غريبه فى الدين . ولـكن ليعلم أنه لا يكون شاذاً غريباً إلا إذا فهم فهم المخالفين له و زعم فيه زعمهـم ، وقيل ، كما قالوا : إنه من سؤال الله بالأشخاص والذوات والجاهات والحرمات والحقوق . فسؤال الله بهذه الأشياء هو الشاذ الغريب فى الاسـلام وفى دين الله . وهـذا هو مايفهمونه من الحديث ، فهو شاذ غريب إذا فهم فهمهم . أما عندنا نحن فليس بشاذ ولاغريب إذا كان صحيحاً ، لأننا لانفهم منه إلا أنه استشفاع بالنبى عليه الصلاة والسلام وسؤال بدعائه وشفاعته ، وهذا ثابت عندنا لاريب فيه ولانزاع . وسوف نبينه فى مابعد . . . فالحديث إذا فهم فهم المخالفين وأول تأويلهم كان شاذاً ، وكان غريباً

وكان مثبتاً لأصل من أصول الأعمال والاعتقادات لم يعلم من غيره ولم ينبت فى سواه . وهـذا يوجب الشك فيـه والوحشة منه . لأن أصول الأعمال والعبادات والعقائد لاتثبت ، كما تقدم ، بأمثال ذلك من الأخبار ، ولاتعلم بالاحاديث الغريبة الشاذة . فالشذوذ قدح فيه لاريب، والغرابة إيهاء فى بنيانه بلا شك ، فهوضعيف مردود لما ذكرناه .

والسلف والروايات الغريبة الشاذة وان كان راويها ثقة

وقد عهدنا من السلف الصالح الشك فى الروايات المفردة الغريبة الصحيحة — بله الضعيفة الواهية مثل هذا الخبر — إذا ماجاءت فى إثبات أمر يحسبونه غير ثابت فى الاسلام وغير معلوم بدلائل أخرى قوية . فقد جاء أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يقبل رواية عمار فى التيمم لمن لم يجد الماء . وصح أن عائشـة لم تقبل رواية عمر وعبد الله بن عمر فى أن الميت يعذب ببكاء أهله و ببكاء الحى عليه. وقد قالت لما أن قيل لها إن عمر وابن عمر رويا ذلك عن النبى عليه السلام: إنـكم لتحدثون عن غـير كذا بين ولا مكذبين ، ولـكن السمع يخطئ . وصح أيضاً أن ابن عباس لم يقبل هـذه الرواية حينما أبلغ إنـكار عائشة لها حتى قال عبد الله ابن أبى مليـكة — راوى هذا الحديث : والله ماقال ابن عمر من شئ . أى ماقال شيئا حين أنـكر ابن عباس الرواية قائلا : إن عائشة قد أنـكرتها على عمر قائلة : يرحم الله عمر ! والله ماقال رسول الله : « إن المؤمن يعذب ببكاء أحد عليه» . ولـكن قال: « إن الله يزيد الـكافر عذاباً ببكاء أهله عليه». وقالت فى رواية أخرى منـكرةً رواية ابن عمر : يرحم الله أبا عبد الرحمن — تعنى ابن عمر — سمع شيئا فلم يحفظه . إنما مرت على رسول الله جنازة يهودى وهم يبكون عليه فقال : « أنتم تبكون وإنه ليعذب » . وصح عنها أيضاً . أنها أنـكرت رواية عمر وابنه عبد الله فى أن النبى عليه الصلاة والسلام وقف على قتلى بدر من المشركين — وقد دموا فى بئر هنالك — وأخذ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم. فلما قيل له فى ذلك قال

« إنهم يسمعون ولكن لايجيبون » ، وقالت : إن ابن عمر وهم ، و إنما قال النبي عليه السلام : « إنهم ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » وقرأت « إنك لا تسمع الموتى » وقوله : « وماأنت بمسمع من فى القبور » . وصح أن عمر رضى الله عنه لم يقبل رواية فاطمة بنت قيس فى أن المطلقة ثلاثا لانفقة لها ولا سكنى ، وقال لما حدث حديث فاطمة : لانترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى حفظت أم نسيت . لها السكنى والنفقة . قال الله تعالى : « لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » . وصح أيضا أن عائشة أنكرت هذه الرواية على فاطمة بنت قيس وقالت : لاخير لها فى ذكر ذلك . وجاء فى الصحيح أن مروان لما حدث بقول فاطمة هذا قال : لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة . وسنأخذ بالعصمة التى وجدنا الناس عليها ، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان : بينى و بينكم القرآن وتلت قول الله : « لاتخرجوهن من بيوتهن » الآية ، وقالت . هذا لمن كانت له مراجعة ، وأى أمر يحدث بعد الثلاثة ؟ وفى الصحيح أن الأسود بن يزيد حصب الشعبى لما أن حدث بحديث فاطمة هذا وقال : ويلك ! تحدث بمثل هذا ؟ وذكر قول عمر : لانترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة . وصح أيضاً أن عمر لم يقبل رواية أبى موسى الأشعرى عن النبى عليه السلام فى أن المستأذن يستأذن ثلاثاً فان أذن له وإلا رجع . وقد قال لأبى موسى لما أن حدثه الحديث : لأوجعن ظهرك و بطنك أو تأتى بمن يشهد لك على هذا . فشهد له أبو سعيد الخدرى وأبى بن كعب ، وقال أبى : سمعت رسول الله يقول ذلك يا ابن الخطاب ، فلا تكونن عذاباً على أصحاب رسول الله . قال عمر : سبحان الله ! إنما سمعت شيئاً فأحببت أن أتثبت . . . وهذه الأخبار كلها فى الصحيح . ولها أشباه ونظائر عن السلف كثيرة معلومة مشهورة . وقد جاء عن النبى عليه الصلاة والسلام مثل ذلك فى حديث سهوه فى الصلاة ، فانه عليه

أنواع من ذلك وورود مثله من رسول الله ومن خلفائه

السلام لما أن سها وسلم عن ركعتين من أربع قال له ذو اليدين ـ من الصحابة ـ أنسيت يارسول الله أم قصرت الصلاة ؟ فقال : « كل ذلك لم يكن » . فقال الرجل : قد كان بعض ذلك يارسول الله ، فأقبل رسول الله على الناس فقال : « أصدق ذو اليدين ؟ » فقالوا : نعم يارسول ، فأتم مانقص من الصلاة .

وقال الحافظ الذهبي فى أول كتابه « تذكرة الحفاظ » من ترجمة أبى بكر الصديق : « وكان أول من احتاط فى قبول الأخبار ، فروى ابن شهاب عن قبيصة ابن ذويب أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث . فقال : ماأجد لك فى كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله ذكر لك شيئاً . ثم سأل الناس فقام المغيرة بن شعبة فقال سمعت رسول الله يعطيها السدس ، فقال له : هل معك أحد ؟ فشهد له محمد بن مسلمة بمثل ذلك ، فأنفذه لها أبو بكر » . قلت : وهذا الخبر رواه الخمسة إلا النسائى وصححه الترمذى . ثم قال الحافظ الذهبى فى التذكرة من ترجمة الفاروق : وهو الذى سن للمحدثين التثبت فى النقل ، وربما كان يتوقف فى خبر الواحد إذا ارتاب . وهنا ذكر عنه حديث الاستئذان المتقدم ، وقال بعده : ففى هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد . وفى ذلك حض على تكثير طرق الحديث لكى يرتقى عن درجة الظن إلى درجة العلم إذ الواحد يجوز عليه النسيان والوهم ، ولا يكاد ذلك يجوز على ثقتين لم يخالفهما أحد . وقد كان عمر من وجله أن يخطئ الصاحب على رسول الله يأمرهم أن يقلوا الرواية عن نبيهم ، ولئلا يتشاغل الناس بالاحاديث عن حفظ القرآن قال : وقد استشارهم عمر فى إملاص المرءة ـ يعنى السقط ـ فقال المغيرة بن شعبة قضى فيه رسول الله بغرة . فقال عمر : إن كنت صادقاً فجئ بأحد يعلم ذلك فشهد له محمد بن مسلمة . قلت هذا الخبر متفق عليه .

انواع من ذلك مانقله الذهبى

ثم قال الحافظ الذهبى فى ترجمة على ابن أبى طالب : وكان إماماً متحريا فى

الاخذ بحيث إنه يستحلف من يحدثه بالحديث . قال عثمان بن المغيرة . . . إنه سمع عليا يقول : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثا نفعنى الله به ماشاء الله أن ينفعنى ، وكان إذا حدثنى غيره استحلفته فاذا حلف صدقته . وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر قال سمعت رسول الله يقول : « مامن عبد مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ و يصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » . واسناده حسن .

والروايات فى هذا المعنى عن السلف : الصحابة فمن بعدهم كثيرة مشهورة معلومة . فقد كان معهوداً عندهم ومنهم أن يردوا خبر الواحد الشاذ المعنى المخالف لما علموه أو ظنوه من الاسلام ، ولما ظنوه مبايناً للسبيل الواضحة وللمهيع البين والجادة المسلوكة .. و إن كان الراوى ثقة ثبتاً ، بل و إن كانوا هم لا يشكون فى صدقه وأمانته ودينه . ولكنهم أحياناً يردون قول الثقة المتفرد بالرواية الشاذة المعنى فى مايحسبون لخوفهم من الغلط والنسيان ، لأن الفرد الواحد يسهل نسيانه ويخشى غلطه و إن كان كل الثقة . ولهذا يقول عمر فى إبائه قول فاطمة بنت قيس فى حكم المطلقة المبتوتة : لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت . ويقول فى رده على أبى موسى الأشعرى روايته فى أن الاستئذان ثلاث مرات : إنى سمعت شيئاً فأحببت أن أتثبت . وتقول أم المؤمنين عائشة فى ردها رواية عمر و ابنه عبد الله فى تعذيب الميت ببكاء الحى عليه : إنكم لتحدثون عن غير كذابين ولا مكذبين ، ولكن السمع يخطئ . فانفراد الراوى الواحد بالرواية الواحدة المفيدة فى الدين أمراً جديداً وحكما خاصا لا يوجد فى غيرها يريب ذلك الانفراد فى صحتها وصدقها و يحمل على التوقف فى قبولها وتصديقها والايمان بها . لأن الانفراد دائما قريب من النسيان والغلط . ومن ثمت كانت أحكام الاسلام كلها معروفة إما بالقرآن والاجماع والسنة ، و إما بالسنة المتواترة والاجماع أيضاً ، و إما بالروايات العديدة المتكاثرة . وعبادة من العبادات لا يصح

الواحد يقرب نسيانه

قبولها أبداً إذا ماجاءت من طريق واحدة غريبة ، بل لا بد لها من النص الذى لاشك فيه . وأمثال هذه الروايات الغريبة لاتقبل إلا فى التفصيلات وأشباهها . أما فى أصل العبادة التى لم يعلم أصلها فلا تقبل ولا تثبت الأحكام الاسلامية بها.

اشتراط التعدد فى الشهادة وفى الشهود

و إذا كانت الشهادات لا يجزى فيها الواحد المنفرد المتفرد بها فيقول الله فى الشهادة على الأموال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » ، و يقول فى الاشهاد على الطلاق والمراجعة ، أو على أحدهما : «وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله » ، و يقول غير ذلك فى أمر الشهادة وأمر الشهود ــ إذا كان الله يشرط فى الشهادة أن تكون شهادة أكثر من واحد لئلا يقع غلط أوخطأ أو نسيان فكيف يقبل مثل هذا الخبر الضعيف المختلف فيه المنفرد بروايته راو لا يعرف من هو ولا من يكون ، ولا يدرى مكانه من الصحة والضعف والضبط والغلط فى إثبات عبادة من العبادات وأصل شريعة من الشرائع التى لا يعلم أصلها ولا أنها شرعت إلا منه و به ؟ و إذا كان الله يشترط فى شهود المال والطلاق والمراجعة العدالة والرضا بهم ، والعدالة لا تعرف فى المجهول : المختلف فيه وفى اسمه ، فكيف تقبل رواية هذا الراوى المجهول المنفرد بروايته فى إثبات حكم من أحكام الاسلام وشريعة من شرائع الله لاتعلم إلا به ومن طريقه .

ولا يحسبن حاسب أننا لانقبل خبر الواحد الثقة ، و أننا ننكره ونرده مطلقا كلا ، و إنما نقول : إن شرائع الاسلام وأحكام الدين لم تبن على الروايات المفردة الغريبة كهذه الرواية ، ولم تعلم من طريق الواحد المضعف أو المختلف فيه . فان أحكام الدين كلها معلومة بالنصوص المتواترة التى لا يختلف فيها بالجملة ، ولا يتنازع المسلمون فى أصلها . ومامن حكم من أحكام الله إلا وقد علمت نصوصه الأولية

نصوص الدين كله متواترة

الأصلية باليقين . فنصوص تحريم الربا معلومة بالتواتر فى القرآن و فى السنة ،

ونصوص تحريم الزنا والفواحش كلها معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة . ونصوص تحريم العدوان وتحريم الدماء والأموال والأعراض معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة . ونصوص تحريم دعاء الأموات والاستغاثة بهم معلومة بالتواتر فى الكتاب والسنة . ونصوص تحريم البناء على القبور والعكوف عليها وجميع هاتيك الباطلات المخزيات معلومة بالتواتر فى السنة . ونصوص تحريم الذبح والنذر وتقريب القرابين للأشياخ والصالحين والحج إلى قبورهم معلومة التواتر فى الكتاب وفى السنة . ونصوص تحريم متعة النساء التى تقول بها الشيعة والتى تجعلها من الفروق الظاهرة بينهم وبين أهل الباطل والضلال معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة . ونصوص تحريم الحلف بغير الله والإقسام بالمخلوق معلومة بالتواتر ، ونصوص العقوبات ، عقوبات الفواحش كالزنا والسرقة والقتل وغيرها معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة . ونصوص فرائض الاسلام كلها معلومة بالتواتر فى الكتاب وفى السنة . أما خبر الواحد الثقة فجاء فى فروع ذلك وتفصيلاته .

فمن زعم أن مثل هذا الخبر الغريب المجهول تثبت به شريعة من شرائع الاسلام وعقيدة من عقائده ، فقد جهل وجنى على الاسلام والدين ، وذهب إلى الباطل والاثم .

ألا يستحى هذا الرافضى

ثم بعد هذا يقال : ألا يستحى هذا الرافضى من الله ومن خلقه أن يصحح هذا الحديث وأن يزكى رواته وهو يضعف أحاديث البخارى ومسلم والأحاديث المتواترة فى تحريم البناء على القبور والصلاة إليها وفيها ، وتحريم عقد القباب عليها كما فعل صفحة ٣٦٦ وما بعدها من هذا الكتاب ؟ بل ألا يستحى من الله ومن خلقه أن يزكى هذا الراوى المجهول ويصحح حديثه وهو فى الصفحة المذكورة وما بعدها يضعف حفاظ الدنيا وسلاطين المحدثين : فيقدح فى وكيع بن الجراح وفى سفيان الثورى وفى أبى وائل الأسدى : شقيق بن سلمة الكوفى . وقد قال

ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ثقة . ومن البلاء أنه ضعف شقيقا هـذا وقدح في علمه ودينه لأنه كان فيما زعم عثمانياً ، و يعني بهذا أنه كان يقدم عثمان و يفضله على عليّ ابن أبي طالب . و يحتج على أنه كانَ عثمانياً بما روى أنه قيل له : أيهما أحب إليك : على أم عثمان ؟ فقال : كان على أحبّ إلىّ ثم صار عثمان . قال الرافضي : وهذا يؤيد انحرافه عن على . ومن المضحك المبكي قوله فيـه : « ولم يختلف فى أنه (يعني شقيقا هـذا) خرج مع الخوارج ، وأنه عاد إلى على منيباً مقلماً » . فاذا كان يزعم أنه خرج على على وعلى قتاله بالإجماع ـ والخروج عليه كفر عندهم لاخلاف فيه — ثم تاب و رجع إلى مولاه على بالاجماع أيضاً ، فلماذا لا يقبل حديثه ؟ ولماذا لا يتاب عليه ؟ إن الله ليقبل توبة المشرك والملحد إذا تابا حقا ، فكيف لايقبل توبة من خرج على الامام على ثم تاب وأناب لو صدق مازعم ؟ ولكن الجواب أن القوم لا عقول لهم فى عداء سلف هـذه الأمة وفى بغضاء أهل السنة والجماعة . ثم إذا كانت رواية العثماني عند الشيعة مردودة باطلة وضعيفة واهية فليعلموا أن عامة هذه الأحاديث والأخبار التى ينقلونها فى كتابهم هذا عن كتب أهل السنة والجماعة والحديث ليست إلا روايات عثمانيين بكريين عمريين ، بل عامة هذه الكتب التى ينقلون عنها و يحتجون بهـا فى زعمهم لم تكتبها إلا أيدى من يمنحون عثمان وأبا بكر وعمر أشد ولائهم وحبهم و إخلاصهم ومن يعطون هؤلاء وغيرهم من أصحاب النبى عليه السلام أفضل ما فى قلوبهم من معانى الموالاة والود الصادق . بل مؤلفو هذه الكتب و رجال أسانيدها يكرهون من لايوالون الخلفاء الثلاثة الراشدين أشد الكراهة وأصدقها وأعمقها . وكثيرون منهم لا يجيزون لأنفسهم التحديث والرواية عمن يكرهونهم ولا يوالونهم ، و إن حدثوا عنهم ضعفوا أحاديثهم وقابلوها بالتحفظ والحذر والامتحان .

قدح الرافضي فى سلاطين المحدثين

فاذا كان أبو وائل هذا ضعيف الحديث مردوده ، لأنه كان عثمانياً ، فلماذا

يقبل الرافضى أحيانا أحاديث البخارى ومسلم وأحاديث أهل السنة جميعاً؟ ولماذا يحاول الاحتجاج بهـا وانتزاع البراهين منها وهم كلهم عثمانيون : يوالون عثمان رضى الله عنه ، و يوالون سابقيه : الصديق والفاروق ، و يوالون جميع الاصحاب ؟
الحق إذن أن الشيعة هم مأساة الاسلام الاعتقادية الـكبرى ، وهم بلاؤه العظيم الذى لم يفتأ منذ تلك العصور ينهك قواه و يهد فى بنيانه المشمخر الرفيع ... والله حسيبهم ، المجازى لهم ما يستحقون وما يضمرون و يكيدون .

تضعيف الرافضى لحديث الامر بتسوية القبور والواق من تناقضه وعدوانه على المحدثين

وقد قدح أيضاً الرافضى (صفحة ٣٦٨) فى حـديث أبى الهياج الأسدى الآمر بتسوية القبور المشرفة و بطمس التمـاثيل . قال فى قدحه بعـد طعنه فى الرواة : « أولا إنه شاذ تفرد به أبو الهياج الأسدى » . هذا لفظه . فيقال أولا : هذا كذب ، لم ينفرد أبو الهياج الأسـدى بهذا الحديث ، بل معناه متواتر فى الصحاح ، متفق عليـه بين المسلمين . وفى صحيـح مسـلم قال الراوى : كنا مع فضالة بن عبيد فى أرض الروم فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله يأمر بتسويتها . ونصوص هدم القبور المرتفعة المشرفة ، وتحريم بنائها ، ونصوص تحريم التماثيل والصور متواترة . فما قوله : إن أباالهياج انفرد بهذا الحديث ! ثم يقال ثانياً : إذا كان انفراد أبى الهياج الأسـدى قاضياً برد الحديث فليعلم أن حديث الأعمى قد انفرد به عثمان بن حنيف من الصحابة ثم انفرد به أبو جعفر الراوى له عن خزيمة بن ثابت وعن أبى أمامة بن سهل بن حنيف وهو مجهول كما تقدم . . . فهذا الحديث إذن أولى بالتكذيب والتضعيف والرد من حديث أبى الهياج الأسـدى من جهات كثيرة . و يكفى تفريقا بينهما أن حديث أبى الهياج فى الصحيح ، وأما حديث الأعمى فليس فى الصحيـح ، وأن حديث أبى الهياج معروف الرواة ثقاتهم واضحهم ، وأن حديث الأعمى فيه أبو جعفر وهو لا يعرف ، وأن حـديث أبى الهياج جاء معناه فى أحاديث أخرى

متواترة وجاء لفظه نصاً فى حديث فضالة بن عبيد المتقدم فى الصحيح . وأما حديث الأعمى فما جاء معناه ولا لفظه إلا فى أحاديث باطلة موضوعة ... فما أجل الفرق بين الحديثين ! وما أخلق حديث الأعمى بالرد والتكذيب إذا صح له أن يرد حديث أبى الهياج وأن يضعفه لانفراده به ؟ هذا كله حق يضيق عن النزاع والخلاف . ولكن لاتقر به إلا أعين المؤمنين .

وأيضاً قد قدح الرافضى صفحة ٣٧٤ فى حفص بن غياث وفى ابن جريج وفى أبى الزبير وفى عبد الرزاق الصنعانى، وهم كلهم من رجال الصحيح. وقدح أيضاً فى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ونقل مقادح الناس فيه . وهذا من المضحك ! لأن عبد الرحمن هذا الذى ضعفه ورد حديثه لضعفه فى تحريم البناء على القبور ، هو عبد الرحمن الذى روى حديث سؤال آدم ربه بحق محمد ﷺ وقد انفرد به . فكيف كان هناك ثقة وهنا ضعيفا ؟ وكيف كان حديثه فى التوسل والسؤال بمحمد صحيحاً وحديثه فى تحريم البناء على القبور باطلا ضعيفاً لولا الهوى وقلة الانصاف ؟ ونعوذ بالله من الهوى . والعجيب أن أغلب ما يكتبه الشيعى لايعدو هذا النوع المضحك المبكى .

أجل نقول : ألا يستحى من يؤمن بالله وباليوم الآخر من أن يضعف هؤلاء الحفاظ ويلج فى إكذاب أحاديثهم ورواياتهم ، ثم يروح يوثق أباجعفر هذا ويلج فى تصحيح حديثه الشاذ الغريب ؟

على أن الشيعة الامامية لا يقبلون أحاديث أهل السنة ولو رووها كلهم من عهد أبى بكر الصديق إلى قيام الساعة . ولهذا لايقبلون أخبارهم المتواترة فى إيمان أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وحفصة وأم حبيبة وعمرو بن العاص ومعاوية وغيرهم من الأصحاب الذين بينهم وبين الشيعة مابينهم وبين أعداء الإسلام وخصوم المسلمين الله . وإذا كانت أخبار أهل السنة المتواترة كذباً وباطلا عند

الرافضى وقومه فلماذا كان حديث أبى جعفر هذا حديثا صحيحاً مقبولا لديهم ؟

الكلمة الاخيرة فى الحديث أنه ضعيف

فالكلمة الأخيرة الفاصلة فى حديث الأعمى هذا أنه حديث ضعيف باطل ، لا يحل الاحتجاج به . أما تصحيح من صححوه فليس بحجة و فى سنده ومعناه ما ذكرناه من النقد والقدح . والذين صححوه كلهم من المتساهلين فى التصحيح والنقد أمثال الترمذى والحاكم ولاسيما فيما يتعلق بأبواب المعجزات والفضائل . أما الحاكم فلا يعتد بتصحيحه فى المستدرك لأنه قد صحح الأحاديث التى أجمع أهل الحديث على أنها موضوعة مكذوبة ، ووثق من الرواة من اتفق على كذبه أو جهالته أو ضعفه حتى صار معلوما لأهل هذا الفن بأنه من الذين لا يحسب لقولهم فى هذا الباب حساب . وأما الترمذى فتساهل أيضاً جداً حتى إنه صحح أحاديث من أجمع على ضعفهم وضعف حديثهم . وجامعه ملآن بالأحاديث الضعيفة التى زعمها حسنة أو صحيحة . وقريب منهما البيهقى وابن حبان وابن خزيمة وجماعات أخرى معروفة فى طوائف أهل الحديث . وما صحّح حديث الأعمى من عرف بالصلابة والشدة إزاء الضعيف والرخيص من الحديث . ولأمر ما أعرض صاحبا الصحيحين البخارى ومسلم عنه وعن روايته فى كتابيهما . ولا ندعى أن كل ما لم يخرجاه ضعيف باطل . وإنما ندعى أن إعراضهما عنه — وهو فى هذا المعنى الشائق للمسلم — لابد أن يكون لأمر ما ، وعلة وجداها فيه . ولولا ذلك لبادرا إلى إخراجه ، ولوجدا فيه ما يشوقهما إليه وإلى روايته ، ولا سيما أنه لا يوجد فى كتابيهما حديث واحد فى معناه .

ولعل الذين صححوه اعتمدوا فى تصحيحهم له على رواية شعبة بن الحجاج له عن أبى جعفر المختلف فيه . وذلك أن شعبة قد عهد منه كثيراً اجتناب الضعفاء واجتناب حديثهم والرواية عنهم . ولكن هذا ليس بلازم ، فقد روى شعبة عن قوم ضعفاء . ولعلهم أيضاً صححوه حاسبين أن أبا جعفر الرواى هو الخطمى لأن

الخطمى عنــدهم ثقة ، ولم يعلموا أنه ســواه كما علم الترمذى وكما ذكر . فكأن التصحيح قائم على هذا الوهم الذى خطأه الترمذى وفطن إليه فرده . ومنشأ هذا الظن الواهم اتفاق الكنى .

﴿ تحقيق معنى الحديث إن كان صحيحا ﴾

أما الكلام على الحديث من جهة المعنى — على افتراض كونه صحيحاً — فيقال :

الكلام على معنى الحديث

استدلال المخالفين به من ناحيتين : ناحية سؤال الله بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وناحية سؤال النبى نفسه وهو غائب عن السائل . الناحية الأولى دليلها قوله فيه « اللهــم إنى أسألك وأتوجــه إليك بمحمد نبى الرحمة . . . إنى توجهت بك إلى ربى . . » . ودليل الناحية الثانية قوله فيه : « يا محمد » الحــديث . ففيه جواز سؤال الله والتوجه إليه بفضلاء خلقه من أنبيائه وأوليائه ، وجواز دعاء الصالحين وندائهم فى غيبتهم . . . هذا بيان شبهة القوم فى الحديث ووجه احتجاجهم به .

والجواب أن نقول : إن الحديث — على افتراض صحته — دليل واضح جــلى على بطلان ما ذهب إليــه المخالفون ، ورد عليهــم بين ، وهو من البراهين الظاهرة الواضحة على بطلان هذين الزعمين وفساد السؤالين .

بيان ان الحديث ان صح رد على المخالفين

وبيان ذلك أن هذا الرجل الأعمى عنــد ما فــكر فى الرغبة إلى الله ليرد له بصره ، وفى النبى ليدعو له الله ويشفع عنده من أجله لم يفعل مثل ما يفعلون ومثل ما يزعمون أنه يجوز فعله والركون إليه من دعوة الرسول عليه السلام أين كانوا ، ومن سـؤاله الشـفاء وضروب الحاجات والمطالب التى يطلبونها اليوم منــه ومن الأموات فى كل مكان ومن كل مكان ، ولم يسأل الله قبــل أن يأتى النبى عليه السلام ويطلب منه الشفاعة فيجيبه بحقه ولا بحق أحد غيره من خلقه : لم يفعل الأعمى شيئاً من هذا فى غيبة الرسول ولا فى حضرته حتى أتاه وطلب منه الدعاء

فأجابه إلى ما طلب وأمره أن يدعو الدعاء المذكور . ولو كان الأمر كما يزعمون ويذكرون لما احتاج إلى أن يذهب إليه عليه السلام ، ولما احتاج إلى استئذانه ورجائه ، بل كان يقول بملء فيه ، أين كان وأين وجد ، كما يقولون وكما يفعلون : يا رسول الله اشفني ورد لى بصرى وعافنى ، كما يفعل دعاة الأموات والقبور من كل مكان اليوم ، وقبل اليوم . وكان يقول ، أين وجد وأين كان : يا الله أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم وبجاهه وحرمته وكرامته ومكانته لديك كما يفعل المتوسلون المبتدعون . ولكان فى غنية عن أن يذهب إلى الرسول وأن يطلب منه الدعاء والشفاعة . فإتيان هذا الأعمى النبى عليه السلام قبل أن يطلب منه الدعاء دليل على أنه لا يصح طلب الدعاء منه فى غيبته . . . وهؤلاء المخالفون يدعون الموتى من كل مكان وهم غائبون عنهم ، غائبون عند الله كما تقدم . والأموات كلهم غائبون . وطلبه الدعاء منه وقوله : ادع الله أن يرد لى بصرى دليل على أنه لا يصح سؤال النبى ذلك ولا سؤال غيره مثله ، فلا يصح أن يقول قائل : يا رسول الله رد بصرى ، أو عافنى ، أو اهد قلبى ، أو اغفر ذنبى على وجه ما من الوجوه المجازية أو الحقيقية . والمخالفون يزعمون أن هذا كله يجوز ، فيجوز عندهم أن ينادى المسلم وأن يقول : يارسول الله اهد قلبى واغفر ذنبى ورد بصرى واشف مريضى ونحوه من المطالب العالية . . . وإقصاره عن أن يقول قبل أن يستأذن النبى عليه الصلاة والسلام : أسألك يارب بمحمد أو بحقه أو بجاهه أو بكرامته ، أو اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبى الرحمة — دليل على أن هذا النوع من الدعاء لا يصح وإلا لو كان صحيحاً جائزاً لقاله قبل اتيانه إياه عليه الصلاة والسلام . . وقوله عليه السلام : « وإن شئت صبرت وهو خير لك . . . » دليل أيضاً على أن السؤال بالجاه والذات ليس من الدين ، لأنه لو كان من الدين ، وكان الأعمى يريد من النبى أن يأذن له فيه لما قال له : « وإن

شئت صبرت وهو خير لك » لأن ترك دعاء الله ليس من الخير، ولأن الدعاء دين ، والدين لا يمكن أن يكون الخير فى تركه . فلا يمكن أن يرغب فى ترك دعاء الله بأن يقال للداعى : اصبر وهو خير لك ، أى اصبر عن دعاء الله وعن التقرب إليه بما يقرب لديه . . فان هذا ليس خيراً ، بل هو شر كله . والخير فى دعاء الله وفى التقرب إليه وفى ابتغاء الوسيلة الصحيحة لديه .

هؤلاء الأمور كلها ترد على المخالفين ما يذهبون إليه . والحديث إن كان صحيحاً هو فى جانب المنكرين لهذه الخرافات والترهات . . وليس فى جانب أصحابها ، الذائدين عنها منه شىء كما سوف يظهر جليا واضحاً إن شاء الله وحده .

أربعة أمور تدل كلها على أن الحديث رد على المخالفين

فنحن إذا قلنا لهؤلاء القوم المخالفين المخاصمين فى هذه الأمور الاسلامية الأولية : إذا كان دعاء الرسول ، وكان دعاء الأنبياء والصالحين ، وكان دعاء الخلق جائزاً فى الاسلام إما على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجاز فى ما لا تمكن حقيقته ،وكان جائزاً أن يقول المسلم : يا رسول الله اشفنى ورد لى بصرى وعافنى واهد قلبى فلماذا لم يقل الأعمى ذلك قبل أن يذهب إلى النبى عليه الصلاة والسلام ولماذا احتاج إلى أن يأتيه وأن يطلب منه أن يدعو الله له ـ : إذا نحن قلنا لهم هذا لم يستطيعوا أن يحيروا جواباً صحيحاً . . . ثم لو قلنا لهم ثانياً : إذا كان دعاء الرسول ودعاء الأنبياء والصالحين كلهم جائزاً فى حضرتهم ، ومغيبهم ، وفى حياتهم و بعد مماتهم ـ كما تفعلون وتذكرون وتزعمون ـ فلماذا لم يدع ذلك الأعمى النبى عليه السلام فى مغيبه و بعده ، بل رأى أنه لا بد من إتيانه وطلب ذلك منه حضوراً : لو قلنا لهم هذا لم يجدوا ما يجيبون به . . . ثم لو قلنا لهم ثالثا : إذا كان سؤال الله بحق النبى و بجاهه وكرامته وحرمته وقدره ونحوه من الاسلام والدين فلماذا لم يسأل الأعمى ربه بشىء من ذلك قبل أن يأتى النبى وقبل أن يطلب منه الدعاء ؟ لو قلنا لهم هذا القول لما ظفرنا منهم بجواب صحيح .

ثم لوقلنا لهم رابعاً : إذا كان التوسل بجاه المخلوق والتوجه به و بكرامته و بركته وفضله من الدين والخير ومما يقرب إلى الله ومما يأمر به القرآن فى قوله : « . . . وابتغوا إليه الوسيلة » فلماذا قال النبى عليه السلام للأعمى : « و إن شئت صبرت وهو خير لك » ؟ وهل يأمر النبى بالصبر عن الدين وعن الرغبة إلى الله وعن التقرب إلى رضاه بصالح الأعمال ؟ لو قلنا لهم هذا المقال ما استطاع أحد منهم أن يجد له جوابا مقنعاً صحيحاً . . . فالحديث إذن نقض لمذهبهم، والحديث إذن عليهم لا لهم .

الجواب عن قوله « وأتوجه إليك بنبيك »

أما الألفاظ التى استدلوا بها منه على أمرهم وعلى ما يأتون فالجواب عنها : أما قوله : « وأتوجه إليك بنبيك » « وتوجهت بك إلى ربى » فالتوجه هنا يراد به التوجه بدعاء الرسول عليه الصلاة والسلام لا بذاته ولا بشخصه ولا بشبه ذلك . والدليل عليه ما قدمناه . ومن الدليل عليه أيضاً أن أصل المسألة كان فى الدعاء وفى طلبه من النبى ، ولم يكن أصلها فى سؤال الله بجاهه أو بذاته أو بحرمته أو ببركته حتى يصح ما زعم المخالف . ومن الدليل أيضاً عليه قوله فى خاتمة الحديث : « اللهم شفعه فى » . فالأمر إذن أمر شفاعة . ومن الدليل عليه أيضاً أنه لو كان سؤالا بالذات والجاه والحرمة والبركة وهذه الشئون لما احتاج إلى أن يستأمر النبى عليه السلام كما أن هؤلاء يدعون و يسألون بجاه النبى و بجاه غيره من الأنبياء والأولياء من غير استئمار واستئذان ، لأن الجاهات والبركات والحرمات وهذه المعانى ثابتة سواء أاستؤمر صاحبها أم لم يستأمر . ومن الدليل أيضاً عليه قوله : « و إن شئت دعوت » . وقد شاء بلا خلاف ولا شك ، فقد دعا إذن بلا خلاف ولاشك ، لأنه قد علق الدعاء بالمشيئة ، والمشيئة قد وقعت فالدعاء كذلك قد وقع . ومن الدليل أيضاً قوله : « و إن شئت صبرت وهو خير لك » . ولو كانت المسألة مسألة دعاء بالذات وتوسل بالأشخاص والحرمات والجاهات

ـ وهذا كله عند المخالفين من القربات والطاعات ـ لما اختار له النبي عليه الصلاة والسلام الصبر والترك ، لأن هذا عند القوم من أفضل الوسائل المأمور بابتغائها إلى الله . وهذا لا يمكن أن يشار على المسلم بتركه والصبر عنه يقيناً . فالسؤال والتوجه هنا بالدعاء والشفاعة بلا شك ، وهو مثل حديث الاستسقاء بالعباس ومثل قول الفاروق : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . وهم كانوا يتوسلون بدعاء النبي وشفاعته لا بذاته وشخصه ، وهذا ظاهر في الشرع وفي اللسان . فاذا قال المخالف : إن الذي زعمتموه عدول عن ظاهر الخبر وعن ظاهر نصه ، وهو لا يجوز الذهاب إليه إلا بدليل ملجئ ، ولا دليل معكم على هذا العدول ، قلنا : إن من الكذب القول بأن ما ذهب إليه المخالفون هو ظاهر الخبر وما يفهمه منه السامع عند فقدان القرائن . ومن ذا يفهم من قول القائل: وصلت إلى الرئيس أو إلى الملك أو السلطان بوزيره أو بقريبه فلان أو فلان أن المعنى فيه الوصول إليه بشخص ذلك الوزير أو ذات ذلك القريب لا بدعائه وشفاعته ! ومن ذا يفهم من قول القائل : إنما نبلغ حاجاتنا وننال حقوقنا وما نصبو إليه بأيدينا وسواعدنا وأنفسنا أن المعنى بلوغ ذلك بالذوات المجردة وبالأشخاص وباللحم والدم والعظام ؟ ومن ذا يفهم من قول القائل : بالحديد والنار ينال المسلمون حقوقهم واستقلالهم ، ويردون عليهم كراماتهم المفقودة لا بالأنين والبكاء ، ولا بالتضرع والتوسل المهين الذليل على مقاعد جنيف تحت أقدام تلك الآلهة الخرساء الصماء عن دعاء الخير وصوت الحق الرنان إلا أن المراد استخدام الحديد والنار في تحطيم أولئك الظالمين وتحريقهم حتى يرق إحساسهم وتلين عواطفهم الصوانية ؟ ومن ذا يفهم من قول القائل : سعد المسلمون بالقرآن وعزوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونصروا بعمر وخالد وحمزة وعمرو بن العاص إلا أن المعنى أنهم نالوا ذلك بأعمال هؤلاء وإيمانهم وشجاعتهم وتدبيرهم

الدلائل من كلام العرب على أن الحديث ليس كما يزعم القوم

لا بأشخاصهم ولا بجاهاتهم وذواتهـم ؟ كل هـذا الذى ذكرناه وقدمناه المعنى فيه ظاهر جـلى لا نزاع فيه ولا خـلاف . وكلام النبى يذهب به حيث تذهب اللغة العربية .

فقوله عليه السلام فى تعليمه الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك وقوله : « توجهت بك » معناه التوجـه والسؤال بالعمل لا بالذات . والعمل هنا هو الدعاء والشفاعة بلا ريب . . . وقريب من هذا قول النبى عليه السـلام فى الحديث الصحيـح : « دخلت النار امرأة فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » . ولا يمكن أن يراد أنها دخلت النار بجسم الهرة وذاتها ، بل المعنى أنها دخلتها بعملها الذى قتلتها به . والأمر واضح جلى

اعتراض وجوابه

فان قال المخالف : إن قولـكم هذا يقضى بأن يكون فى الحديث كلمة محذوفة وهى كلمة الدعاء والشفاعة التى تزعمون أن التوجه والسؤال بها لا بالذات ، فيقدر فى قوله : « وأتوجه إليك بنبيك » « بدعاء نبيـك » وفى قوله : « توجهت بك » « توجهت بدعائك » ، وهذان تقدير وادعاء فى الحديث لا دليل عليهما ، ولا ملجئ إليهما : إذا قال المخالف هـذا القيل قلنا له : إن التقدير فى الحديث واجب على قولنا وقولـكم وعلى كل قول . فأنت تقول : إن التقـدير : « اللهـم إنى أسألك وأتوجه إليـك بذات نبيك وبحرمته وبكرامتـه عليك ومـكانته لديك » ونحو ذلك من المحذوفات . ولا دليل فى الحديث على واحد منها . أما نحن فنقدر الدعاء فقط ، والدعاء مذكور فيه ، مدلول عليه بأول الخبر وآخره ، فـكان تقديره سائغاً بل واجباً ، بل هو فى حكم المذكور المنصوص عليه . فالعلم به لا يحتاج إلى تفـكير ولا إلى دلالة ولا إلى شئ غير الفهم والانصاف . بل هـذا هو ما يفهمه ويعرفه جميع سامعى الحديث وقارئيه من غير الخاضعين للأهواء الجائرة والجدال والعناد . وهذا التقدير على كل حال وافتراض أقل مما يقدره المخالف الزاعم أن

التوجه والسؤال بالذات والجاه والحرمة والكرامة والعظمة والحب والرضا والبركة إلى آخر هذه المقدرات الكثيرة التى لادليل على شئ منها . . . فلا مفر إذن مما ذكرناه ... وإننا نتحدى المخالفين ونطلب إليهم جميعاً أن يرونا وأن يذكروا لنا كلمة واحدة فى الشرع أو فى اللسان جاء استعمالها كاستعمال الحديث وكان التفسير لها هو ماذكروا . فان جاءوا بشئ من ذلك قلنا : صدقوا وإلا فلا هروب لهم من اقتحام الحقيقة والرضا بالأمر الواقع والحق الذى لاغضاضة على قابله .

على أن فى الحديث شيئاً يدل دلالة قاطعة على مانذهب إليه وعلى فساد مايذهبون إليه : هذا الشئ هو قوله عليه الصلاة والسلام : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » . فانه لو كان مافى الحديث سؤالا بالذات والكرامة والحرمة والجاه ، وكان السؤال بهذه الأمور من التوسل إليه تعالى ومن ابتغاء الوسيلة المذكورة فى الكتاب العزيز — والمخالفون يزعمون هذا كله — لما أمكن أن يشير النبى على الأعمى بالصبر والترك . فان الصبر عن التوسل والتقرب إلى الله بما يقرب منه حقيقة لا يمكن أن يختاره النبى عليه السلام لأحد من عباد الله ، ولا يمكن أن يرغب فيه مسلماً ولا كافراً ، لأن الخلق جميعاً مطالبون أبداً بالتقرب إلى الله وبابتغاء الوسائل المقربة لديه كلها . وترك هذا التوسل لا يمكن أن يكون خيراً ولا أن يكون فيه خير ، بل هو شر كله . والمخالفون اليوم وقبل اليوم يزعمون أن التوسل إلى الله وسؤاله بالنبى وبالأولياء والصالحين : الأحياء منهم والأموات ، من أفضل الطاعات وأشرف العبادات . وعندهم أن العبد يزداد أجره وثوابه ويعظم فضله بحسب مايفعل من ذلك وعلى قدر مايدعو الله به ويرغب فيه . بل لعل طوائف من هؤلاء الضلال الحيرى يحسبون أن دعاء الله بغير هذه الوسيلة لايقبل وأن دعاءه بها مقبول على كل حال كما ذكر هذا الرافضى فى القصيدة التى وضعها فى آخر كتابه هذا أن دعاء الله عند القبور مقبول وأن دعاءه تعالى بعيداً

على أن فى الحديث شيئاً يدل على مانذهب إليه دلالة قاطعة

من غلو الشيعة في القبور

عنها غير مقبول ! فمن قوله في تلك القصيدة النكراء المشئومة :

لا بدع أن كان الدعاء إليه فيـ * ـها صاعداً و بغيرها لم يصعد

وهذا القول عند جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم من أقوال الردة والكفر الواضح . ونعوذ بالله من الخذلان . وقبل هذا البيت :

وكذا الصلاة لدى القبور تبركا * بذوى القبور فليس بالصنع الردى

إن الأئمة من سلالة هاشم * ثقل النبي وقدوة للمقتدى

قالوا : الصلاة لدى محل قبورنا * في الفضل تعدل مثلها في المسجد

عنهم روته لنا الثقات فبالهدى * عنهم إذا شئت الهداية فاقتد

شرف المكان بذى المكان محقق * وأخو الحجا في ذاك لم يتردد

خير عبادة ربنا في مثله * من غيره ، فإليه فاعمد واقصد

وكذلكم طلب الحوائج عندها * من ربنا أرجى لنيل المقصد

بركاتها ترجى لداع ، إنها * بركات شخص في الضريح موسد

لا بدع إن كان الدعاء إليه « البيت »

والقصيدة أغلبها من هذا النوع الفاحش المناقض لدين الإسلام ولغيره من أديان الله . ومن خذلان الله المشايع لهذا الشيعي الذائد عن عبدة الأجداث

تناقض لامثال له

والأحجار والأشجار والتماثيل أنه قال بعد هذا الاطراء والترغيب في العبادة لدى القبور و إليها وفيها :

والنهى جاء عن الصلاة إلى القبو * ر كما رواه أحمد في المسند

لكنه إن صح غير المدعى * وكذاك منه حرمة لم تقصد

لكنما منه الكراهة قد بدت * للفهم في النظر الصحيح الجيد

فهو بعد أن امتدح العبادات في القبور وعندها و إليها ، وبعد أن ذكر أن الأئمة من سلالة هاشم قد قالوا : إن الصلاة عند قبورنا أفضل من الصلاة في

المساجد كلها ، وإن الدعاء عندها أقرب إلى الاجابة والقبول، وإن الدعاء فيها لابد أن يصعد إلى الله ، وإن الدعاء فى غيرها من المساجد وغيرها لا يصعد : بعد أن ذكر هذا كله يقول : إن الصلاة إلى القبور مكروهة ! وأى خذلان من الله العظيم يعدل هذا الخذلان ؟

فقول النبى عليه الصلاة والسلام للاعمى : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » يدل دلالة لاريب فيها على أن المعنى فيه خلاف مايذهبون . فان هذا القيل من النبى ترغيب ، ولا شك ، لذلك الطالب الدعاء منه فى أن يترك هذا النوع من التوسل والتوجه . فان كان مافى الحديث سؤالا بالذات الذى نأباه نحن ويرضاه المخالفون كان الحديث دليلا ظاهراً على أن الأحسن الأفضل للمسلم ألا يتوسل هذا التوسل ، وألا يتوجه إلى ربه وحاجته هذا التوجه . ولكن المخالفين لنا لايسلمون هذا ، بل هم يزعمون أن التوسل بذوات الأنبياء والصالحين والأولياء المقربين وبحرماتهم وكراماتهم وجاهاتهم من الخير المرغب فيه ومن الدين ومن الوسيلة التى أمر القرآن بابتغائها إلى الله . والله لايأمر بما الأحسن تركه ، ولا بما الأفضل الرغبة عنه بلا خلاف . فالحديث إذن عليهم لا لهم . وقد قدمنا فى الفصول السابقة أن سؤال الله بالذوات والأشخاص ، وأن التوسل إليه بالحرمات والجاهات والكرامات من الأمور الفاسدة الباطلة عقلا وشرعاً ونظراً وقياساً وعرفاً ووجداناً ، وأنه من الهذيان الذى أحدثه من لايعرفون اللسان ولا فنون القول ولا مذاهب العقليات والشرعيات . هذا جواب قوله : « وأتوجه إليك بنبيك » وقوله : « إنى توجهت بك إلى ربى » .

الجواب عن قوله « يا محمد »

وأما الجواب عن قوله : « يامحمد » وقول المخالف : إن هذا دعاء له وهو غائب ، وإنه يدل على جواز دعاء الغائبين ، وإنه إذا جاز دعاء الغائبين جاز دعاء الأموات فيقال فى الجواب : لايوجد فى الروايات التى ذكرها المخالف لفظ واحد

يدل على أن الأعمى دعا هذا الدعاء وهو عنه عليه الصلاة والسلام غائب . فان الذى فى الخبر أن النبى أمره أن يتوضأ و يحسن وضوءه و يصلى ركعتين و يدعو بالدعاء المذكور . وفى إحدى الروايات أنه أمره أن يأتى الميضأة فيتوضأ فيصلى فيدعو . وفيه فى غير رواية الترمذى وابن ماجه والنسائى قول عثمان بن حنيف « فوالله ماتفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط » . وهذا كله لايدل منه شئ دلالة قاطعة على أنه دعاه غائباً . وبهذا يسقط الاحتجاج مرة واحدة . ويدل على أنه لم يدعه غائباً ، وعلى أنه لايصح أن يدعوه كذلك أن الأعمى حينما أراد منه أن يدعو له جاءه. ولم يطلب منه أن يدعو له وهو عنه غائب، بل احتاج إلى أن يذهب إليه و إلى مكانه وأن يقول له : يارسول الله ادع الله أن يعافينى . وهذا لأن المسلمين جميعاً ، بل الخلق كافة ، مفطورون على أن دعوة الغائب غير ممكنة وغير جائزة . ومن ثم لم يكن المسلمون يخاطبون النبى ولا يطلبون منه دعاء ولا شيئاً من الأشياء وهم عنه غائبون ، لأنهم كانوا يعلمون أنه بشر مثلهم لايسمع إلا القريب كما لايرى إلا القريب ـ خلا المعجزات التى أيد الله بها دعوته و رسالته . و إلا فهو بشر مثلهم كما نطق الكتاب . ولا يختلف المسلمون أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ بله من دونه ـ لم يكن يدعى و يخاطب إلا حاضراً مشهوداً مرئيا ، ولا يختلفون فى أن من دعاه من كل مكان ـ زاعماً أنه يسمعه و يعلمه ـ فقد ضل وجهل وأبعد فى ضلاله وجهله . وكل هذا من ضرورات الإسلام وقواطع الملة . فالحديث نفسه لايدل على أنه دعا الدعاء المذكور فى مغيب النبى .

هل دعا الاعمى الدعاء المذكور غائبا عن النبي واذا كان ذلك فما جوابه

ثم إذا فرض أنه دعا الدعاء المذكور غائبا عن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن دالا على شئ مما يذهب إليه المخالف . وذلك أنه فى هذا الدعاء لم يطلب منه عليه السلام أمراً ولم يسأله شيئاً لادعاء ولاحاجة . فانه قد طلب منه أن

يدعو له بالشفاء والعافية ورد البصر وهو منه قريب حاضر، فقبل النبى عليه السلام أن يدعو وأمره أن يدعو بالدعاء المذكور المتفق عليه. وقوله فيه: « يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى » لا يريد به أن يسمع منه، ولا يطلب منه شيئاً غير ماطلبه منه وهو عنده حاضر. والدليل عليه أن النبى هو الذى لقنه وعلمه ذلك الدعاء، ولا يمكن أن يقول له اطلب منى أن أدعو لك لأدعو. فان هذا لامعنى له. فلا يراد إذن بقوله: « يامحمد » إسماعه عليه الصلاة والسلام ولا سؤاله أمراً جديدا، لأن المطلوب منه هو الدعاء لرد البصر وقد قبل منه أن يدعو له بذلك ووعده به. والخطاب هنا فى قوله: « يامحمد » مثل الخطاب فى قول المتشهد فى الصلاة: « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ومثل الخطاب فى قول زائر القبور: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » الحديث، ومثل الخطاب فى أمثال ذلك. فانه لا يراد بشىء من هذا الخطاب إسماع المخاطب ولا دعاؤه حقيقة. فان المسلمين يقولون فى تشهدهم ذلك القيل أين كانوا وأين وجدوا. ومن المستحيل أن يريدوا بخطابهم النبى إسماعه وإعلامه، ومن المحال أن يظنوا أنه يسمع ذلك منهم. وكذلك من المحال أن تقف فى طرف المقبرة الطويلة العريضة فتقول، جهراً أو همساً: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » فيسمعوك أو يعلموك.

ومن الدليل على أنه لا يراد بهذا الخطاب والنداء الاسماع والطلب الحقيقى أنه فى خطاب الله قال: « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك » بأسلوب المضارع المستقبل وأسلوب الحال. وفى خطاب النبى قال: « يامحمد إنى توجهت بك إلى ربى » بأسلوب الغابر الماضى. وهذا لأنه قد توجه به حقاً وطلب منه الدعاء ليشفيه الله وليرد له بصره. أما فى خطاب الله فكان الخطاب خطابا حقيقياً فأورده بصيغة المستقبل الذى أريد به نيل رجاء مستقبل، وهو الشفاء والاجابة

وأما فى خطاب النبى عليه الصلاة والسلام فكان الخطاب ماضيا لأنه أريد به شئ قد فرغ منه وقضى وهو الدعاء وقد دعا له .

ومن الدليل على هذا أنه فى خطاب النبى لم يطلب منه شيئا ، لا دعاء ولا شفاعة ولا غير ذلك . فما قال : ادع الله لى ، أو إنى أسألك أن تدعو الله ليرد بصرى ولا شيئاً من هذا النوع ، وإنما قال : « إنى توجهت بك إلى ربى » . ويراد بهذا التوجه طلب الدعاء منه ، وقد طلبه ذلك قبل أن يأمره بهذا الدعاء فأجابه إلى طلبه . فقوله هنا : « يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى » معناه إنى توجهت بدعائك وشفاعتك إلى الله ليشفينى وإنما قال : « يامحمد إنى توجهت بك » إحضاراً للبعيد ، وإقامة للغائب مقام الحاضر ليدل على مكانة الصلة بين الداعى والمدعو ، وعلى قوتها وشدتها ، وليدل على استحضاره فى الذهن والقلب والنفس والقصد ، حتى كأنه حاضر فى الشاهد وللعين الباصرة . وكثيرا مايقام الغائب مقام الحاضر لأجل هذا المعنى . والضمائر ينوب بعضها عن بعض كثيراً . وقد يدعو المحب حبيبه دعوة الحاضر السامع الشاهد وهو غائب أو ميت ، ويخاطبه خطاب القريب الرائى المرئى وهو فى غيابات الخفاء والاضمار والبعد والعدم . وقد يرثى الميت ويدعى بضمير الحضور ، مع أنه لا حضور ولا شئ من ذلك ، وإنما هو الحضور الذهنى التصورى ، وإنما هو أيضاً تقريب البعيد لكثرة الرغبة فى قربه ولشدتها ، وللدلالة أيضاً على هذه الرغبة القوية . وقد يشتد التصور الذهنى ويقوى حتى يغلب سلطانه سلطان الحس وسلطان العين ، فيريها مالم تره ، ويسمع الأذن أيضاً ما لم تسمعه . والخيال قد يؤلف وجوداً لا وجود له ، ويهب هذا الوجود « الخيالى » أحكام الموجود الحقيقى . هذه فنون من الخيال والكلام معروفة مطروقة . وهذه اللفظة فى الحديث ، لفظة « يا محمد » و « توجهت بك » لاتعدو أمر هذا المذهب المعروف المطروق .

﴿ الشبهة السابعة شعر سواد وأشعار أخرى ﴾

جواب الشبهة السابعة وبيان ضعف قصة سواد ابن قارب التي فيها الاستشفاع بالرسول

أما ما ذكره من الأشعار في هذا الباب فالجواب : أما ما ذكر عن سواد ابن قارب من قوله :

وإنك أدنى المرسلين وسيلة * إلى الله ياابن الأكرمين الأطايب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

فعن هذا جوابان : أحدهما أن قصة سواد بن قارب التي فيها هذا الشعر غير صحيحة الإسناد ؛ وقد ضعفها الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (الجزء الثامن صفحة ٢٥٠) وقال : رواها الطبراني باسنادين كلاهما ضعيف .

وقال الحافظ ابن كثير في التاريخ في آخر الجزء الثاني : قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا يحيى بن حجر بن النعمان الشامي حدثنا علي بن منصور الأنباري عن عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي قال : بينما عمر بن الخطاب جالس ذات يوم إذ مر به رجل فقيل له : يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار ؟ قال : ومن هذا ؟ قالوا : هذا سواد بن قارب . . . وذكر القصة وفيها هذا الشعر . قال ابن كثير بعد ذكر القصة بتمامها : وهذا منقطع من هذا الوجه . ويشير ابن كثير إلى أن محمد بن كعب القرظي لم يدرك ولم يسمع عمر بن الخطاب فتكون روايته عنه منقطعة . ورواه الحافظ أبو نعيم أيضاً في « دلائل النبوة » من هذا الوجه من حديث عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي . وهذا ضعيف جداً واه للغاية . وعثمان بن عبدالرحمن الوقاصي هذا متفق على ضعفه ووهاء أمره . قال ابن معين : لايكتب حديثه ، كان يكذب . وقال ابن المديني : ضعيف جداً . وقال الجوزجاني : ساقط . وقال يعقوب بن سفيان : لا يكتب حديثه أهل العلم . وقال البخاري : تركوه . وقال أبو حاتم : متروك الحديث ، ذاهب . وقال أبو داود : ليس بشيء . وقال الترمذي : ليس بالقوي .

وقال النسائى : متروك . وقال الساجى : يحدث بأحاديث بواطيل . وقال ابن البرقى : غير ثقة . وقال البزار : لين الحديث . وقال أبو أحمد الحاكم : متروك الحديث. وقال ابن حبان : كان يروى عن الثقات الموضوعات، لايجوز الاحتجاج به . وقال ابن عدى : عامة أحاديثه منا كير إما إسناداً و إما متناً .

فهذه القصة التى فيها هذا الشعر واهية الاسناد جداً لا يجوز الاحتجاج بها ولاالالتفات إليها . ولا يحل لهؤلاء المخالفين أن يحتجوا بأحاديث بمجرد روايتها فى بعض كتب الحديث التى تروى الصحيح والضعيف والموضوع المكذوب الباطل حتى يعلموا أنها صحيحة ثابتة عن النبى عليه السلام . وقوم يستحلون القدح فيما رواه البخارى ومسلم وما رواه غيرهما من نقدة الأخبار وجهابذة المحدثين كيف يستجيزون لأنفسهم ودينهم أن يحتجوا بمثل هذه الرواية.و إذا كان هذا الرافضى المصنف يقدح فى سفيان الثورى و فى وكيع بن الجراح و فى غيرهما من ملوك المحدثين وأمرائهم فكيف يستحل لنفسه ولدينه الاحتجاج بمثل هذا الخبر ؟ بل هذا الرافضى لايقبل ما يرويه أمثال أحمد بن حنبل ومالك بن أنس والشافعى، بل ولا ما يرويه أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان بن عفان. فأنى يطيب له أن يتخذ من أمثال هذه القصة حكماً شرعياً يصول به و يجول ؟ بل هذا الرجل وطائفته الرافضة الامامية الاثناعشرية لا يبالون بالقرآن ولا بنصوصه ، وهم يخطئون من يتمسكون به من المسلمين و يضللونهم ، و يحملون عليهم حملات ظالمة آثمة.وقد قال أحد شيوخهم ، وهو الشيخ مرتضى الأنصارى التسترى فى كتابه المطبوع المسمى « فرائد الأصول» قولاً نصه : « إن المنهى فى تلك الأخبار (يشير إلى أخبار ذكرها توعد من حاول فهم كتاب الله من غير طريقهم) المخالفون الذين يستغنون بكتاب الله عن أهل البيت النبوى . بل و يخطئونهم به (يعنى بالقرآن) . ومن المعلوم ضرورة من مذهبنا تقديم نص

هجاء الشيعة لمن يعملون بكتاب الله وزعمهم أن قول الامام مقدم على الكتاب والسنة بالضرورة

الامام على ظاهر القرآن ، كما أن المعلوم ضرورة من مذهبهم (يعنى أهل السنة والحديث) العكس . ويرشد إلى هذا ماتقدم من رد الامام على أبى حنيفة حيث يعمل بكتاب الله . ومن المعلوم أنه إنما كان يعمل بظاهره لأنه كان يؤوله بالرأى إذ لاعبرة بالرأى عندهم مع الكتاب والسنة . . . » انتهى بحروفة من صفحة ٣٢

فاذا كان هؤلاء الشيعة الحيرى يهجون أهل السنة والحديث ويقعون فيهم ويستحلون ثلبهم وثلب أعراضهم ، ويستحلون إفساقهم وإكفارهم ، ويكفرون أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد لأنهم يستغنون بكتاب الله وسنة نبيه الصحيحة الثابتة عن غيرهما ، ولأنهم قد يرغبون عما تنقله الشيعة الكاذبة عن أهل البيت النبوى لأنه مخالف لكتاب الله ولسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان أحد أئمتهم على ماذكروا ينكر على الامام أبى حنيفة ويرد عليه ويسبه لأنه كان يعمل بكتاب الله ، وإذا كانوا يهجون أهل السنة جميعاً لأنه لاعبرة بالرأى عندهم مع وجود الكتاب والسنة ، ولأنهم يقدمون ظاهر القرآن على آراء الرجال : إذا كان هذا كله من مذهب الشيعة الظالمة لنفسها ولقومها فما قيمة هذا الخبر الباطل السقيم الاسناد لو كانوا يعدلون وينصفون الحق ومخالفيهم من أنفسهم ؟ وإذا كان معلوماً من مذهبهم بالضرورة تقديم رأى الامام على ظاهر كتاب الله — بله ظاهر الخبر النبوى — فما قيمة ظاهر هذه الرواية وظاهر هذا الشعر المنسوب إلى سواد بن قارب ، المذكور فيه أنه أنشده النبى فما أنكره عليه ؟ كل هذا لاقيمة له عندهم ، ولكنهم لاينصفون ولايعدلون ولا يصدقون .

وهم يقدمون آراء أئمتهم التى ينقلها كذبتهم على كتاب الله لأن كتاب الله لاقيمة ولامكانة له لديهم ، لأنه عندهم محرف : منقوص منه ومزيد فيه ، ومغير الترتيب والنظام ، قد تناوله كل مايزعمونه من عبث الصحابة المنافقين ، ومن تحريفهم وأهوائهم وإلحادهم وكفرهم . ولأن الذين جمعوه كفار لديهم . والكفار

لا يؤتمنون على كلام الله ، ولأنهم يزعمون أيضاً أن الصحيح الثابت من كلام الله لا يمكن فهمه إلا من طريق الأئمة من آل البيت المعدودين المحصورين . ومن حاول فهمه من غير طريقهم وسبيلهم فهو عين الضال الجاهل الآثم المارق .

وقد قال فى الكتاب المذكور أعنى « فرائد الأصول » صفحة ٣٢ أيضاً نقلا عن « مجمع البيان »: « قد صح عن النبى وعن الأئمة القائمين مقامه أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح والنص الصريح . وعن أبى عبد الله أنه قال لأبى حنيفة : أنت فقيه العراق ؟ قال : نعم . قال: فبأى شئ تفتيهم ؟ قال : بكتاب الله وسنة رسوله . قال : يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال : نعم . قال ياأبا حنيفة لقد ادعيت علماً ـ ويلك ـ ما جعله الله إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم ! ويلك وما هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا ! وما أورثك الله من كتابه حرفاً . وفى رواية زيد الشحام قال : دخل قتادة على أبى جعفر فقال له : أنت فقيه أهل البصرة ؟ فقال : هكذا يزعمون . فقال : بلغنى أنك تفسر القرآن ! قال : نعم ـ إلى أن قال : ياقتادة إن كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت ، وإن كنت قد فسرته من الرجال فقد هلكت وأهلكت . يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به » انتهى بحروفه .

إنكارهم على من يشتغلون بفهم القرآن

فالكتاب والسنة لا وزن لهما عند القوم . وعندهم أن جميع نصوص القرآن ونصوص السنة وجميع الأخبار النبوية المتواترة وجميع الآراء والمذاهب والعلوم باطلة وزور وجهل وضلال . والعلم والدين والايمان ـ كل ذلك لا يعدو ما تنقله الشيعة الكذابة فى كتب الشيعة الكذوب عمن زعموهم أئمة من آل البيت النبوى . وكل ماينقل فى كتبهم من إيمان وكفر وجهل وعلم و بلادة وذكاء كل هذا يجب الأخذ والعمل به عندهم بلا بحث ولا أسانيد ولا امتحان

ولا تنقيب عن الرواية والرواة ماداموا شيعة ، إمامية ، اثنا عشرية . ولهذا لا يعرفون معنى الاسناد ولا علم الجرح والتعديل ولا الصحيح والضعيف . وهذا من علوم أهل السنة والحديث وحدهم . وقد قال فى الكتاب المتقدم صفحة ٦١ :

زعمهم وجوب العمل بكل ما كتب فى كتبهم

« ثم اعلم أن أصل وجوب العمل بالأخبار المدونة فى الكتب المعروفة مما أجمع عليه فى هذه الأعصار ، بل لا يبعد كونه ضرورى المذهب » انتهى بالنص. وهذا صحيح لا شك فيه لديهم . فكل ما يروى فى كتبهم لاينازعون فى صحته وثبوته ووجوب العمل به ، وليكن ما يكون . أما أهل السنة والحديث فعندهم أن الاسناد من الدين ، وأنه لولا الاسناد لضاعت السنة وكلام النبوة ، ولقال من شاء ما شاء .

أهل السنة والحديث من عجيب أمرهم وطيبه

وعندهم أنه لا تقبل إلا رواية الثقة الثبت ، وأن غير الثقة مردود الرواية و إن كان عندهم إماماً من الأئمة المتبوعين ، و إن كان أصلح الناس وأتقاهم قلبا ونفسا وأزكاهم ورعاً وديناً . والدين عندهم والصلاح غير الضبط والحفظ والوثاقة فى الحديث . فقد يكون الرجل عندهم ديناً صالحاً فاضلا سليم الاعتقاد والمذهب ، ثم لايكون ثقة فى الحديث . ومن أعجب ذلك وأطيبه من أمر أهل السنة والحديث أن جماعات منهم ضعفوا الامام الأعظم أبا حنيفة النعمان فى الحديث من جهة حفظه . وهو لديهم الامام الحجة ، والفقيه الذى لايلحق له غبار فى هذا المضمار . بل هو عندهم أبو الفقه الغنى حتى قالوا فيه : «الناس عيال على فقه أبى حنيفة ». وقالوا فيه : « لو شاء أن يقيم الدليل على أن الصخر الأصم ذهب لا ستطاع » لقوة عارضته ، وسرعة بديهته ، ووفرة ذكائه ، ورجاحة ذهنه وعقله وقلبه . وقد قلده الجمهور الاكبر الاكثر من المسلمين لعظم شأنه وأمره فى الفقه والدين . . . وهذا كله لم يمنع طوائف من المحدثين أن يضعفوا حديثه وأن يعيبوه ويقدحوا فيه من جهة الحفظ والضبط . وقد ضعفه لذلك النسائى والدارقطنى والحافظ ابن عدى وآخرون غيرهم ، واجتنب التحديث عنه رضى الله عنه صاحبا الصحيحين :

البخاري ومسلم ، لأنهما لا يرويان إلا الصحاح الثوابت من الأخبار . وهذا كله لم يمنعه أن يكون عندهم الامام الاعظم ، والحجة الكبرى فى الفقه وفى الدين . ولكن الحديث ــ حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، عند المؤمنين أعلى وأغلى من الأئمة ومن الرجال ، و إن كانوا من كانوا ، عظم شأن ، وجلالة قدر ، ونباهة ذكر . و إذا كان المحدث نفسه قد لا يرضى حفظه ولا يأتمنه على أحاديث النبوة ، فيفزع لذلك إلى الكتاب والكتابة لئلا يضل و ينسى ، فيزيد أو ينقص أو يحرف ــ كان ألا يأتمن من عرف بضعف الحفظ وقلة الضبط أولى وأحرى . و إذا لم يضر الرجل من المحدثين أن يرد الحديث الذى اتهم نفسه على حفظه وضبطه ــ لأنه عهد من نفسه ضعف الحافظة لأمر من الأمور ــ لم يضر الامام أبا حنيفة رضى الله عنه أن يجتنب حديثه من عرفه بقلة الحفظ ونسيان المروى . و يشبه هذا العجيب الطيب من أمر المحدثين ما ذكر الامام مسلم فى مقدمة الصحيح قال : حدثنى محمد ابن أبى عتاب قال حدثنى عفان عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان عن أبيه قال : لم نر الصالحين فى شىء أكذب منهم فى الحديث . قال ابن أبى عتاب : فلقيت محمد بن يحيى بن سعيد القطان: فسألته عنه فقال عن أبيه : لم نر أهل الخير فى شىء أكذب منهم فى الحديث . قال مسلم : يقول يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدونه . قال مسلم : حدثنا حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب أخبرنا حماد بن زيد قال قال أيوب : إن لى جاراً ــ ثم ذكر من فضله ــ ولو شهد عندى على تمرتين ما رأيت شهادته جائزة . قال مسلم أيضا : حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا الأصمعى عن ابن أبى الزناد عن أبيه قال : أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ، ما يؤخذ عنهم الحديث ــ يقال : ليس من أهله .

انهم حواريو رسول الله

وهذا الصنع من أهل السنة والحديث يشهد بحق واضح الدلائل على أنهم هم حواريو رسول الله ، وأنهم هم الذين اختارهم الله وهيأهم لحفظ دينه ، ليكونوا

لولا الاسانيد

شهداء على الناس و يكون الرسول عليهم شهيدا . فرضى الله عنهم ونضر وجوههم. فلولا أسانيدهم وعلمهم وتصحيحهم وتضعيفهم وقولهم : هذا ثقة ، وهذا كذاب وذاك صدوق صادق ، وهذا ضابط حافظ ، وهذا سيء الحفظ والضبط ، وهذا مجهول وهذا معروف ، وهـذا حق وهذا باطل : لولا هذا كله لعز علينا وعلى المسلمين اليوم وقبـل اليوم تمييز كلام النبوة من كلام الكذابين ، والتفريق بين صحيح النسب برسول الله و بين الضعيف الباطل النسب ، ولكانت أنساب الأحاديث اليوم إلى رسـول الله كأنساب من يزعمون اليوم من ذرية رسول الله ومن ذرية فاطمـة والحسن والحسين : كلاهما يعوزه الدليـل ، وكلاهما أفسده الكذب والتدجيل، وكلاهما قطع ظهره وصلبه الظلام والضلال وانقطاع الاسناد . ولـكن ديناً شاء الله أن يكون خاتم الأديان شاء له أن يحفظه بأهل الحديث، لتبقى الحجة ، ولتزول العلة ، ولتبطل المعذرة ، ولتظل صلة الأرض بالسماء محفوظة قائمة ، وليبقى هـذا البصيص السماوى الالهى متـألقاً لا معاً بين حنادس هؤلاء النـاس وحنادس ظلماتهم وضلالاتهم، و بين حنادس هذه الأرض المظلمة ، ليهتدى به من شاء لنفسه الهدى ، و يسرى عليه من طلب السرى ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وأنا أشهد لله أن علم الاسناد ـ كما خلفه أهله ـ ليس مما تهتدى إليه العقول والبداهات بسرعة و يسر وقرب ، فلابد أن يكون اهتداء أهل الحديث إليه وتوفيقهم له حتى أقاموه كما هو اليوم معجزة من معجزات الاسلام ، ولطيفة من لطائف الله خص بها هذه الأمة ، وخص بها من هـذه الأمة أهل السنة ، وخص من أهل السنة بها أهل الحديث . فهم خاصة من خاصة من خاصة ، وخيار من خيار من خيار . إذن فقصة سـواد هذه التى فيها هذا الشعر غـير صحيحة وغير قائمة الاسناد ، فلا يحل الاحتجاج بها فى أبواب الدين والايمان .

الجواب الثانى عن شعر سواد بن قارب ان كان صحيحا وبيان دلالته على خلاف ما زعموا

والجواب الثانى عن هذا الشعر إن كان صحيحاً أن يقال : إنه لا شىء بما فيه

يدل على شيء مما اختلف فيه . أما قوله : «و إنك ادنى المرسلين وسيلة إلى الله» فمعناه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أعظم الأنبياء ، وأعظم عباد الله جميعاً قربة إلى الله ، وأقربهم قربا ، وأعظمهم منزلا ومنزلة لديه تعالى . لان الوسيلة ، كما تقدم ، هى القرب والقربة والدرجة الرفيعة ، وهى المنزل العلى من منازل الجنات العليا . وهذا لا شك فيه . ولا شك فى أن رسول الله أعظم الخلق جاهاً وأسماهم مكانة ، وأدناهم مكانا إلى الله ، وأن له لديه تعالى أعظم الوسائل وأشرفها وأرفعها وأعزها . ولكن ليس الخلاف فى هذا . فان كان الرافضى يريد بصوله وجوله وشوله أن يثبت بهذا الشعر أن رسول الله أقرب الخلق إلى ربه وأعظمهم منزلة ومنزلا ووسيلة لديه وأكرمهم عليه فليرح نفسه من عناء البحث ، ومن التزيد بالروايات الباطلة . فان مخالفيه أسبق منه ـ إن شاء الله ـ إلى إثبات هذه الحقيقة والاقرار بها والدعوة إليها . ولو تدبر الشيعى هذه اللفظة لوجدها إلى الرد عليه أقرب من أن تكون رداً على مخالفيه . وذلك أنه جعل لرسول الله عليه الصلاة والسلام وسيلة إلى الله بقوله : « و إنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله » . ولم يجعله نفسه وسيلة ، أى لم يقل : و إنك وسيلة إلى الله ، أو الوسيلة ، أو إحدى الوسائل إليه تعالى . و إذا كان قد جعل للرسول نفسه وسيلة إلى ربه ، فالوسيلة إما أن يكون معناها هو معناها اليوم عند العوام ونظرائهم من سؤال الأموات وسؤال الله بهم ، ومن العكوف على القبور وجميع هاتيك المصائب العملية الاعتقادية التى وقع فيها جماهير المسلمين ، أو يكون معناها المنزلة الرفيعة عندالله والقرب منه والتقرب إليه تعالى بأصناف العبادات والطاعات وفنون الخيرات. فان قالوا: إن المراد بالوسيلة فى الشعر هو المعنى الأول قيل لهم : إذن يكون معنى قوله : « و إنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله » « و إنك أكثر الناس عكوفا على القبور وانقطاعاً إليها ، ودعاء لأصحابها ، واستغاثة بهم ، و رجوعاً إليهم ، و بكاء وخضوعاً

وخشوعاً بين أيديهم ». وهذا لايقول به مسلم ولا عاقل غير مسلم . ولو كان المعنى هو هـذا لـكان الشعر المذكور هجاء لرسول الله لا مديحاً . وإن قالوا: إن المراد بالوسيلة هو المعنى الثانى كان معنى قوله : « وإنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله » « وإنك أعظم الخلق قربة وقربا إلى الله، وأقواهم صلة به ، وأسماهم مكانة ومكانا لديه ، وأكثرهم أعمالا صالحة لوجهه وإرضاء له ورضا عنه وبه . . . » . وإذا كان هذا هو المعنى ـ وهو هو بلا شك ـ كان رداً على القوم لو يشعرون وينصفون .

جواب قوله «وكن لى شفيعا يوم لاذو شفاعة»

وأما قوله . « وكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعة » فالجواب أن هذا القيل مما يرجع إلى بحثه فى فصل الشفاعـة الماضى . ومن الجواب عنه أن يقال : إنه من الاستشفاع بالحى ، والاستشفاع بالحى لاخلاف فى جوازه . فاذا قيل : كيف يطلب من الرسول عليه السلام فى الحياة الدنيا أن يشفع له يوم القيامة ، والشفاعة يومذاك لا تكون إلا بعد إذن الله ، فكأنه بهذا قد طلب من الرسول ما لا يملـكه ، وما لا يقدر عليه ـ فالجواب ـ إذا سلم أنه يعنى بيوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلا عنـه يوم القيامـة ، مع أنه يمكن الشك والخلاف فيه ـ أن يقال إذا سلم ما زعموه أن هـذا السؤال ليس خاصـاً بنا دون مخالفينا ، وليس منطلقا إلى من يمنعون التوسـل المرذول دون من يجيزونه ، ويدعون إليـه ويفعلونه ، بل هو سؤال مندفع إلى الجميع إن كان سؤال حق .

والذى نقوله نحن أنه لا يجوز سؤال الأموات الشفاعـة ، وهذا الشعر ليس فيـه سؤال للأموات ، فلا دليل للمخالف ألبتة . ومن الجواب عن هـذا السؤال المـ ـرك أن يقال : إنه طلب منه شيئاً يقدر عليه ، لأن الله قد أخبر بأنه سوف يشفع لجميع الخلائق . ولا شك فى صـدق خبر الله ووقوعه . فالنبى عليه الصلاة والسلام يشفع الشفاعـة الـكبرى العامة بلا ريب . وسوف تنال شفاعتـه هذه الجميع . فقوله : « وكن لى شفيعاً » هو طلب لشفاعة مطلقة ، لم توصف ولم تعين ـ

إلا بيومها ، والرسول بلا شك سوف يشفع له فى من يشفع لهم . فكأنه قدطلب شيئاً لا بد من وقوعه وحصوله ، ولا شك فيه . وقد أقره الرسول على طلبه لصدقه فيه ، ولعلمه أنه سوف يشفع له ولغيره يوم القيامة بما وعده ربه . ولا مخلف لوعد الله سبحانه .

وأما ما ذكره من استسقاء الأعرابى بالنبى عليه الصلاة والسلام بقوله :

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق الا إلى الرسل؟

جواب قوله « وليس لنا الا اليك فرارنا»

فالجواب أولا المطالبة بالصحة . وهيهات ذلك . وقد قال الحافظ فى فتح البارى : رواه البيهقى من حديث مسلم بن كيسان الكوفى الضبى الملائى الأعور وضعف سنده لذلك . ومسلم هذا مجمع على ضعفه، وقد ذكره ابن حجر فى تهذيب التهذيب والحافظ الذهبى فى الميزان ، وذكرا إجماع الناس على ضعفه والقدح فيه وفى حديثه . فلا يحل الاحتجاج به . وقد صح عند شيوخ الحديث أنه كان وضاعاً كذاباً .

جواب ثان عن الشعر

ويقال ثانياً : إن هذا الشعر إن ثبت لا يدل على مازعموا . فما فيه سؤال المخلوق مالا يقدر عليه إلا الله ، ولا سؤال الله بجاه المخلوق ، أو بكرامته أو حرمته أو بقبره أو بذاته أو بشخصه ، ولا فيه الإقسام بغير الله ولا العكوف على القبور ولا الانقطاع إليها . . . وإنما فيه الفزع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام عند اشتداد القحط ، ليدعو الله وليسأله إنزال غياثه ورحمته على عباده وبلاده . . . وهذا متفق على جوازه وإباحته . وقوله : « وليس لنا إلا إليك فرارنا » معناه أننا لا نفر ولا نفزع عند إلحاح القحط علينا وإمساك السماء ماءها إلا إليك يانبى الله لتدعو الله وتشفع لنا لديه . لأنك مقبول الشفاعة مسموع الدعاء عنده . وقوله : « وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل » معناه : وأين يذهب العباد إذا ما التمسوا شفيعاً لهم عند ربهم مستجاب الدعوة قريب المكان والمكانة — إلا إلى أنبيائهم ورسلهم ، لأنهم هم أقرب الخلق إلى الخالق ، وأدناهم إلى رحمته

و إلى إجابته و رضاه... ولكن هذا الأعرابي لم يقل هذا القول للرسول عليه السلام بعد وفاته وصعوده إلى الأملاء العليا . و إنما قاله وهو حي حاضر بين أظهرهم ، على مسمع منهم ومرأى . فأين هذا من ذاك ؟

من كذب الرافضي

وأما قوله : روى البخاري أن النبي عليه السلام لما استسقى فسقى الله عباده قال : « لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه : من ينشدنا قوله ؟ » فقيل : كانك أردت قوله : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه البيت . . . : فالجواب أن يقال : هذا كذب فليس هو في البخاري كما ذكر . و إنما في البخاري أن عبد الله بن عمر كان يتمثل بقول أبي طالب : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه . « البيت » . وروى عنه أنه قال : ربما ذكرت ، وأنا أنظر إلى وجه النبي يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب قول الشاعر : وأبيض يستسقى الغمام . البيت . وهذا الذي ذكر أن البخاري رواه ذكر الحافظ العسقلاني في فتح الباري أن البيهقي رواه في دلائل النبوة باسناد فيه مسلم بن كيسان الكوفي الملائي المتقدم . وهو كذاب وضاع للحديث كما مر . وقد ضعف الحافظ السند لذلك

وسواء أكانت الرواية التي عزاها إلى البخاري صحيحة أم كانت ضعيفة باطلة فإنها لاتدل على ماذهب إليه . وذلك أن قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

الجواب عن شعر ابي طالب وقوله « وأبيض يستسقى الغمام بوجهه »

يراد به أن الغمام يستسقى بشفاعته ودعائه ، وأنه يدعو الله ويسأله الغيث لعباده و بلاده فيجيبه و يسقى البلاد والعباد ، وأنه لذلك كهف للأيتام والأرامل لأن الأيتام والأرامل من الضعفاء ، والضعفاء لايضيعون ولا يجوعون و يحتاجون إلا أيام الجدب والجهد والقحط والبلاء . ومن كان يدعو ربه عند الجدب والضر والجهد والقحط و يستسقيه فيجيب دعاءه واستسقاءه فلاريب في أنه أمان للضعفاء وثمال لليتامى ، وعصمة للأرامل . و « الثمال » هو مزيل الحاجة والضرورة

والبؤس . والعصمة هو ما يعتصم ـ أى يحتمى به . يعنى ﷺ ـ إذا كان يغاث إذا استغاث للخلق ـ كهف وثمال وعصمة للضعفاء والمحتاجين على المعنى والمذهب الذى ذكرناه . فمعنى «يستسقى الغمام بوجهه» يطلب الغيث والمطر بدعائه وشفاعته وهذا استعمال عربى واضح ظاهر لا ريب فيه . ومن الدليل عليه تمثل ابن عمر بهذا الشعر حين يستسقى النبى عليه السلام فيسقون . وتمثله به تلك الساعة نص فى أن معنى الاستسقاء بوجهه الاستسقاء بدعائه وشفاعته . ولا ينازع فى ماذكرناه أحد من أهل العلم .

﴿ الشبهة الثامنة أمر عثمان بن حنيف الرجل الذاهب إلى عثمان بن عفان ان يتوسل بالنبى عليه السلام ﴾

أمر عثمان بن حنيف لرجل ان يتوسل بالرسول بعد وفاته وفعل الرجل وجواب ذلك كله

وذلك مارواه الطبرانى فى المعجم من حديث أصبغ بن الفرج عن عبدالله ابن وهب المصرى عن شبيب بن سعيد البصرى الحبطى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر المختلف فيه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة له ، فلقى عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة . يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك عز وجل فيقضى لى حاجتى » وتذكر حاجتك . فانطلق الرجل فصنع ما قاله له ثم أتى باب عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : حاجتك ؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له: ماذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة . وقال : ما كانت لك من حاجة فائتنا . ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيراً ، ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فى ، فقال ابن حنيف والله ما كلمته ، ولكن شهدت رسول الله وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب

بصره فقال له النبى عليـه الصلاة والسلام : « أوتصبر ؟ » فقال يارسول الله إنه ليس لى قائد وقـد شق على . فقال له رسول الله : « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات » . قال ابن حنيف : فو الله ماتفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

قال المخالفون : وهذه الرواية تدل على جواز الاستشفاع بالنبى وعـلى جواز ندائه والسؤال والتوسـل به بعد مماته ، فانه لو لم يكن ذلك جائزاً كله لما أمره به ولما أجازه عثمان بن حنيف وهو من صحابة النبى الأبرار الذين شهـد الله لهـم فى كتابه بالعدالة والايمان والهدى وسلوك الصراط المستقيم ، وأخبر أنه قـد رضى عنهم وتاب عليهم ووعد كلا منهم الحسنى ، وجعلهم الشهداء على عباده المؤمنين ، وأمر باتباعهم وبالنهج منهاجهم والسير على آثارهم ، رضى الله عنهم أجمعين . قالوا : وماجاء أن أحدا منهم أنـكر على عثمان بن حنيف فعله هذا ولا عارضه أو نازعه ، ولا جاء أن عثمان نفسه رجع عنه أو ساءل عن حكمه وفهمه . قالوا : ومن البعيد الذى لاترضونه أنتم لأنفسكم أن تزعموا أن أصحاب النبى عليـه السلام يقعون فى مثل هذا الضلال وهذا الباطل وأن توقوه أنتم وتسلموا منه ، فتكونوا أهدى وأرشد وأعلم بالاسلام والايمان والتوحيد منهم ! وهذا بعيد جدا كما أنه باطل وقبيح جداً كما أنكم أنتم تستقبحونه لأنفسكم جداً .

والجواب أن نقول : إننا قد قدمنا فى جواب الشبهة السادسـة الـكلام على سند هذا الحديث ، وذكرنا ماله ومافيه من العلل ومافيـه من أسـباب الضعف والوهن ، وذكرنا أن جميع طرقه تدور على أبى جعفر هذا الذى ذكرنا الاختلاف فيـه ، وذكرنا أنه قد انفرد به عثمان بن حنيف دون غيره من الأصحاب ، وأنه انفرد به عنه أسعد بن سهل بن حنيف وعمارة بن خزيمة بن ثابت دون غيرهما من التابعين ، وأنه انفرد به عنهما أبو جعفر هذا ، وأنه اختلف فيه : فقيل : انه

الخطمى ـ والخطمى وسط فى الثقات ، دون العدول الأثبات الممتازين ، وفوق الضعفاء المتروكين ـ وقيل إنه غير الخطمى . وإذا كان غيره احتمل أن يكون ضعيفاً جداً ، وأن يكون ضعيفاً ضعفاً هيناً مقاربا ، وأن يكون ثقة ثبتاً ، وأن يكون مجهولا لا يعرف عنه شئ . وذكرنا أنه لم يسفر لنا ولا للباحثين الفاحصين وجه الصواب وحقيقة الرجل الراوى ، وحكمنا لذلك كله بضعف الحديث وبطلانه .
وهذه الرواية هى إحدى رواياته ، فهى ضعيفة بضعفه ، مردوده برده ، فيها مافيه من أسباب الوهن والضعف ، وفيها من ذلك ماليس فيه كما سوف يرى القارئ .
وقبل أن ينتقل القارئ من هذا إلى بقية البحث يحسن أن يرجع إلى ما كتبناه على الحديث فى الشبهة السادسة السابقة .

بيان علل هذه الرواية

وهذه الرواية قد أتت من حديث أصبغ بن الفرج المصرى وهو ثقة لا كلام فيه ، عن عبد الله بن وهب المصرى وهو إمام ثقة أيضاً ، عن شبيب بن سعيد الحبطى البصرى التميمى . وهذا فيه كلام سنذكره . عن روح بن القاسم ـ وهو ثقة ثبت ، عن أبى جعفر المختلف فيه عن أبى أمامة وهو أسعد بن سهل بن حنيف . وهو أيضاً ثقة لا كلام فيه من رجال الستة ، عن عثمان بن حنيف . فلا كلام على هذا الاسناد الا فى أبى جعفر وقد تقدم الكلام عليه ، وتقدم أنه غير معروف ولا معلوم الاسم والحال . فحديثه حديث ضعيف لذلك . وبقى أيضاً الكلام فى شبيب هذا ، الراوى لهذه الرواية عن روح بن القاسم .
وشبيب ثقة من رجال البخارى لا عيب فيه إلا أن الحذاق من المحدثين ذكروا لقسم من أحاديثه علة خفية . ذلك أنهم حدثوا عنه أنه كان سئ الحفظ وأنه كان يهم ويغلط إذا حدث من حفظه ، وأنه ثقة ثبت إذا حدث من كتابه .
قالوا ولذلك حدث عنه عبدالله بن وهب المصرى بأحاديث منكرة ، لا تشبه أحاديثه وهذا لأنه كان يختلف إلى مصر متجراً ، فكان يأخذ عنه ابن وهب من حفظه

لامن كتابه ، فكان يغلط ، وكان يقع فى حديثه الوهم والضعف . . . وهذه الرواية التى رواها الطبرانى هى من حديث عبد الله بن وهب عنه، فهى من قسم أحاديثه التى يهم فيها والتى فيها هذه العلة الخفية ، والتى هى من قسم الضعيف . وقد قال الحافظ الذهبى فى « الميزان » : « شبيب بن سعيد الحبطى البصرى . صدوق يغرب . ذكره ابن عدى فى كامله فقال له نسخة عن يونس بن يزيد مستقيمة . حدث عنه ابن وهب بمنا كير . قال ابن المدينى :شبيب بن سعيد ثقة كان يختلف فى تجارة إلى مصر ، وكتابه صحيح ، وقد كتبته عن ابنه أحمد ، وقد روى ابن وهب عنه . . . قال ابن عدى : شبيب لعله يغلط ويهم إذا حدث من حفظه . وأرجو أنه لايتعمد . فاذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر، يعنى يجود » انتهى كلام الذهبى فى الميزان. وقال الحافظ العسقلانى « فى تهذيب التهذيب » فى ترجمة شبيب : « قال ابن المدينى : ثقة ، كان يختلف فى تجارة إلى مصر ، وكتابه كتاب صحيح . وقال أبو زرعة : لا بأس به . وقال أبو حاتم : كان عنده كتب يونس بن يزيد ، وهو صالح الحديث لا بأس به. وقال النسائى : لا بأس به . وقال ابن عدى : لشبيب نسخة الزهرى عنده عن يونس عن الزهرى .أحاديثه مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث منكرة . وذكره ابن حبان فى الثقات . وقال الدار قطنى : ثقة . ونقل ابن خلفون توثيقه عن الذهلى . ولما ذكره ابن عدى وقال الكلام المتقدم فيه قال بعده : ولعل شبيباً لما قدم مصر فى تجارته كتب عنه ابن وهب من حفظه فغلط ووهم ؛ وأرجو ألا يتعمد الكذب . وإذا حدث عنه ابنه أحمد فكأنه شبيب آخر . وقال الطبرانى فى الأوسط . ثقة . . . » انتهى كلام تهذيب التهذيب

من علل هذه الرواية

فشبيب هذا فيه كلام إذا حدث من حفظه ــ ولاسيما إذا كان الراوى عنه عبد الله بن وهب ــ فانه حينئذ يكون مشكوكا فى حديثه .وهذه الرواية التى معنا من

حديث عبد الله بن وهب عنه ، فهي رواية يخشى أن تكون منكرة باطلة ، وأن تكون مما غلط و وهم فيه. لكن قد يدفع هذا التوهين بأن يقال : إن البيهقي روى هذه الرواية من غير طريق ابن وهب ، رواها من حديث إسماعيل بن شبيب عن أبيه شبيب هذا عن روح بن القاسم عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف عن عثمان بن حنيف . قال البيهقي : و رواها أحمد بن شبيب عن أبيه شبيب أيضاً . . . ولكن يقال : إن الذين أثنوا على شبيب وعلى حديثه إنما أثنوا عليه إذا حدث من كتابه فقط . أما إذا حدث من حفظه فقد يهم و يغلط سواء أكان الراوى عنه ابن وهب أم كان غيره . ولهذا قالوا : إذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه شبيب آخر . وقال أبو حاتم : كان عنده كتب يونس ، فهو ثقة ضابط عن يونس لأنه إذا حدث عنه حدث من كتابه . وقال ابن المديني : إن كتابه صحيح . وقال ابن عدى : له يونس نسخة مستقيمة . فشبيب عندهم ثقة إذا حدث عنه ابنه أحمد عن يونس. أما إذا لم يحدث عن يونس وحدث عنه ابن وهب فهو يهم ويخطىء . وهو في هذه الرواية لم يحدث عن يونس وقد رواها عنه الطبراني من طريق ابن وهب فهي معلولة . و رواها البيهقي من حديث ابنه أحمد عنه عن غير يونس فهي عرضة لما ذكروه من الوهم والغلط . وقد قال الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري في جملة الرجال الذين قدح فيهم من رواة البخاري : « شبيب بن سعيد الحبطي أبوسعيد البصري ، وثقه ابن المديني وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدار قطني والذهلي . وقال ابن عدي : عنده نسخة عن يونس عن الزهري مستقيمة. و روى عنه ابن وهب أحاديث مناكير . فكأنه لما قدم مصر حدث من حفظه فغلط ، و إذا حدث عنه ابنه أحمد فكأنه شبيب آخر لأنه يجود عنه . قلت : أخرج البخاري من رواية ابنه عنه عن يونس أحاديث ولم يخرج من روايته عن غير يونس ولا من

واية ابن وهب عنه شيئاً . وروى له النسائى وأبوداود فى كتاب الناسخ والمنسوخ » انتهى كلام ابن حجر من مقدمة فتح البارى . فالبخارى إذن لم يرو له عن غير يونس شيئاً ، ولم يرو له عن ابن وهب شيئا أيضاً . على أن بعض الناس كأبى الفتح الأزدى ، قد ضعفوا أحمد بن شبيب عن أبيه . فالرواية عند هؤلاء بهذا الإسناد ضعيفة . ولكننا نحن لانرضى إلا العدل والانصاف ، وننكره الجور والاعتساف ، فأحمد بن شبيب هذا ثقة ثبت ولا شك . ولم يوافق القادحين فيه السواد الاعظم من نقاد الحديث ، فوثقوه وقبلوه ، وصححوا حديثه . ونحن لا نقبل الشذوذ والتطرف غير المنصف ، فأحمد عندنا ثقة ثبت ، وان كان من مصلحة بحثنا ان يكون ضعيفاً ، ولكن كلا ، فانه لا مصلحة لنا غير الحق وغير التماسه أين كان . و إن كان المتشددون المتطرفون الذين يقدمون الجرح على التعديل مطلقا لايقبلون مثل هذه الرواية . ولكن هذا المذهب فى رأينا مذهب مسرف شديد ، يقضى برد أحاديث كثيرة صحيحة قبلها المسلمون وقبلها نقاد الحديث ونقاد الرواة .

فهذا الحديث ضعيف

فحديث شبيب هذا ــ إذا علم هذا الكلام فيه وضم إليه الكلام فى أبى جعفر المتقدم المتفرد به فى جميع الطرق للحديث ــ حديث ضعيف ذاهب، وعند المتساهلين حديث لا يرتفع إلى درجة الصحيح الذى تبنى عليه الأحكام أو تعرف به عقائد الاسلام . وأعلى ما يمكن أن يعطى من التقريظ والتجويد ومن إحسان الظن والتساهل أن يقال : إنه حديث حسن ، والحديث الحسن لا يجوز أن تبنى عليه أحكام الدين ، ولاسيا إذا كان معناه شاذاً غريباً كهذا الحديث ، ولاسيا إذا لم يكن له نظير فى الاسلام ، بل ولاسيا إذا علم أنه لم يروه من الصحابة غير عثمان بن حنيف وهو فى هذا المعنى الذى تشتاقه النفوس المسلمة ، ويطيب لها التحديث عنه و بهلأن فيه معجزة من معجزات الاسلام ، كرامة من كرامات

النبى عليه الصلاة والسلام . كل هذا يوهن الرواية ويوهيها ، ويزيد فى إبهامها وتوهينها انفراد أبى جعفر هذا بها عن عمارة بن خزيمة بن ثابت وعن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف دون غيره من الرواة المكثرين من الحديث والتحديث ، الحفاظ لأشتات الأحاديث فى أشتات العلوم النبوية الاسلامية .

ويزيد فى ضعفها

وقد يزيد فى إبهام الرواية ووهنها إعراض أهل السنن عنها مع روايتهم لأصلها . فان الترمذى وابن ماجه والنسائى والامام أحمد رووا حديث الأعمى كما تقدم دون هذه الزيادة ودون هذه القصة ،قصة ذلك الرجل مع عثمان بن عفان وإعراض عثمان عنه وشكايته إلى عثمان بن حنيف . . . واقصار هؤلاء المحدثين عن تخريج هذه القصة مع أنهم قد خرجوا أصلها وخرجوا الحديث دونها إما أن يكون راجعاً إلى أنهم لم يطلعوا عليها ولم يعرفوها ، أو يكون راجعاً إلى أنها باطلة واهية عندهم ، أو يكون راجعاً إلى رغبتهم عنها مع علمهم بها وعلمهم بصحتها وثبوتها . أما القول بأنهم لم يطلعوا عليها ولم يعلموها فبعيد كل البعد ، لأن الرواية من أصل الحديث الذى علموه وخرجوه ، ولأن مثل هذه القصة جديرة بالاظهار والاشتهار . مع أننا لا ندرى لماذا يحدث من روى الحديث عنهم أصحابُ السنن بأصل الحديث دون هذه القصة فيه . ونحن لا نستطيع أن نعزو هذا إلى النسيان ، لأن مثل هذه القصة لا يمكن أن ينساها من حفظ أصل الحديث إذ هى جديرة بالحفظ ووعى الذاكرة البليدة فضلا عن الذكية الألمعية .

وأما القول بأنهم لم يخرجوها لأنها عندهم غير صحيحة فقول قد يكون قريباً مقبولا . أما معارضة هذا القول بأن أصحاب السنن ، مثل الترمذى وابن ماجه والنسائى ، يروون الأحاديث الضعيفة الباطلة الهالكة ، فمعارضة لا يجب أن تكون صحيحة . وذلك أننا لا نشك فى أنهم - وإن كانوا يخرجون الضعيف والباطل التالف - قد يدعون الحديث لأنه ضعيف ، ويرغبون عن تخريجه لأنه غير صحيح . فهذا لا يمنع هذا . وأما القول بأنهم رغبوا عنها زهداً

فيها مع علمهم بها وعلمهم بصحتها فقول لا نعرف له وجهاً ولا حكمة ما دمنا نقول : إن هؤلاء المحدثين يدينون بالحكمة ، ويخضعون للصواب ، ويسلكون فى علمهم الجادة المسلوكة . ولا مندوحة عن هذا القول .

ويزيد ذلك

وقد يزيد أيضا فى اتهام هذه القصة واساءة الظن بها اشتمالها على ما يمس دين الخليفة الرضى المرضى عثمان بن عفان ، وما يمس ما عرف عنه من لين ورفق وحياء ودين وصلاح وورع — هذه الخلائق العثمانية التى لا تترك لصاحبها أن يعرض عن صاحب حاجة حقة وعن طالب عرف . . . وعثمان بن عفان رضى الله عنه كان من أرفق الناس وأبرهم بالناس ، ومن أقربهم إلى حاجات المحتاجين ورغبات الراغبين . . وكان هيناً لينا حييا ، تطرف عيناه من رؤية العنف والقسوة والظلم ، ويندى جبينه من مثل هذا الموقف . . . لهذا كله يبعد جدا أن يعرض عن ذلك الطالب ذلك الإعراض الذى حمل على الشكوى إلى آحاد الصحابة كعثمان بن حنيف — رضى الله عن الجميع . هذا قد يقال : وإن كان ليس عمدة عندنا ولا ظاهراً فى إضعاف الرواية وردها ، وإنما هو قول من الأقوال .

ويزيد الشك فى الرواية أيضا

ومما يهيج الريب فى القصة أنه لم يرو باسناد صحيح مقبول أن أحد أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام فعل مثل ذلك . فما جاء أن واحداً منهم توجه بالنبى إلى ربه وسأل أو توجه به بعد موته . وقد كانوا رضى الله عنهم يمرون بأزمان وأزمات كانت تغريهم باللجوء إلى هذا السبب ، وإلى هذه الحيلة وهذه الوسيلة ، بل كانوا لا ينفكون بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى يتقلبون فى أمور وشئون تحمل على التمسك بأسباب النجاة كلها بكلتا اليدين . وقد مروا جميعاً بتلك الأرزاء والآفات ، وسبحوا فى اثباجها الرجراجة المخيفة رضى الله عنهم ، وعبروها على قوارب من الايمان بالله والانقطاع إليه وحده . . . فما

سألوه بجاه مخلوق ولا توسلوا إليه بأحد ، ولا توجهوا بغير إيمانهم وقلوبهم إلى خالقهم وصانعهم، ولا تعلقوا بسبب غير سبب العبودية الصادقة، ولا طلبوا نجاتهم وسعادتهم في غير الانقطاع إلى الله وحده لا شريك له . ولا شك أنهم لو فعلوا شيئاً من هذا لنقل إلينا عنهم كما نقل ما أصابهم من خلاف وفرقة ، وما لاقوه من كروب وبلاء، وماذاقوه من شدائد ومكايد ، وكما نقل عنهم غيره من أعمالهم وأفعالهم وما يتصل بهم . بل لقد جاء عنهم ما يدل على بطلان ذلك وكذبه ، وخلافه لما علموه وعملوه وأجمعوا عليه من الاسلام والدين . فقد جاء عنهم أنهم كانوا يزورون قبر النبي وقبري الشيخين ، فيسلمون وينصرفون ولا يزيدون شيئاً. وجاء عنهم ماهو أصرح وأوضح من ذلك فجاء أنهم كانوا إذا أصيبوا بالجدب والقحط طلبوا الغيث بدعاء الأحياء الصالحين . وما كانوا يرجعون إلى النبي ولا إلى سواه من الأموات . .. فكانوا يستسقون بالعباس بن عبد المطلب وبيزيد ابن الأسود الجرشي التابعي. وماقال أحد من هؤلاء ولا هؤلاء : كيف تستسقون بالعباس وبيزيد وعندكم رسول الله ؟ ولا ذهب أحد منهم إلى قبره ﷺ فاستسقى وطلب الشفاعة والدعاء سوى ماجاء في حديث مالك الدار، خازن عمر بن الخطاب . ولكن لم يصح في هذا أن الذاهب إلى القبر من الصحابة . والرواية التي فيها أن الذاهب هو بلال بن الحارث الصحابي رواية باطلة ضعيفة . فأصحاب النبي - وهم لا يعلم عددهم حقيقة لا الله - قد أعرضوا جميعاً عن الرجوع إلى القبر النبوي وإلى غيره من القبور .

المسألة ليست مسألة روايات شاذة غريبة

والمسألة ليست مسألة روايات غريبة شاذة مجهولة ، وإنما هي مسألة الاسلام جملة ، ومسألة الدين والعقيدة والاجماع . وعقائد الاسلام ليست أدبيات ولا نحويات ولا لغويات تؤخذ بأمثال هذه الروايات الشاذة الباطلة . ولكن الاسلام دين المسلمين الأولين قد تلقي بالتواتر والاجماعات. وهؤلاء المسلمون لم يجئ عن أحد

منهم بسند مقبول محترم أنه فعل شيئاً من ذلك سوى ما فى هذه الرواية . فما أشذها وأبطلها وأكثرها خلافاً على الاسلام والمسلمين !

إننا لو اختلفنا فى مسألة لغوية أو نحوية أو صرفية فأدلى أحدنا برواية مثل هذه الرواية الشاذة المفردة معززاً بها أحد الأقوال ، ولم يأت بسواها من الدلائل عن أهل اللسان ولا عن قولهم الحجة الفاصلة فى هذا الشأن والموضوع ، بل جاء عنهم كلهم هجران مافى هذه الرواية وهجران ماتدل عليه من الرأى — : نعم لو جاء أحد برواية مثل هذه الرواية كى يثبت بها قاعدة من قواعد اللسان مفردة شاذة كهذا لما قبلت ولما صح الاحتجاج بها والبناء عليها ألبتة . فكيف مسائل الدين ومسائل الاعتقاديات ؟؟ إن الاسلام ، عقائده وأعماله وأحكامه ، منقول بالتواتر والاجماعات المتصلة ، لا بأمثال هذه الأباطيل والأكاذيب ، لأن الدين أعز وأغلى من أن يؤخذ بالروايات الشاذة أو الغريبة أو المنكرة أو الباطلة . و إنما هو حق لا يؤخذ إلا بالحق ، و إنما هو دين الله ، ودين الله لا يؤخذ من الواهى الواهن ، و إنما هو قوى ، والقوى لا يشاد إلا على قوى مثله . هذا ما يقال فى هذه الرواية من جهة الاسناد .

ما يقال فى معنى الرواية اذا صحت

أما مايقال فيها من جهة المعنى فنقول : إنها لاتعدو أن تكون اجتهاد صحابى ونحن لا نقول بعصمة كل اجتهاد يصدر من الصحابة كما تقول الشيعة فى من يغلون فيهم من آل البيت . والمعصوم عندنا هو رسول الله ، وكذا ما جاء عن الله ، وكذا إجماع الصحابة ، وكذا إجماع المسلمين . وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين معصومون عندنا . أما أفراد الصحابة وأفراد المسلمين من بعدهم فليس أحد منهم بعينه معصوماً ، ولا مفروضاً على المسلمين اتباعه دون غيره ، ولا تقليده فى كل ما يقول وما يجتهد فيه . ولهذا اختلف الصحابة واختلف من بعدهم من المسلمين فى بعض فروع الدين و بعض أحكامه ومسائله . ولو كان كل

أحد منهم معصوماً لما اختلفوا ، ولما جاز أن يختلفوا . ولو كان كل فرد منهم مفروضاً على المسلمين اتباعه وتقليده لوجب أن يتبع الأمر وضده ، وأن يقلد فلان فى قوله : هذا حلال ، وأن يقلد فلان الآخر فى قوله : هذا حرام . إذن فليس أحد من المسلمين معصوماً خلا رسول الله . أما من بعده فان أبا بكر الصديق أفضل الأمة المحمدية — بله من دونه من المسلمين — ليس معصوماً . ولهذا يقول الله فى كتابه خطاباً للصحابة ولمن بعدهم وللناس جميعاً : « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » . والآيات فى هذا المعنى — فى الأمر بالرد إلى الكتاب والسنة عند النزاع والخلاف — كثيرة معلومة ، غنى المقام عن إيرادها . ولهذا تنازع الصحابة وخالف بعضهم بعضاً ورد فريق منهم على فريق . وقد خالف الأئمة الأربعة ومن بعدهم ومن قبلهم من مشايخ الاسلام بعض الصحابة فى مسائل من أقوالهم وآرائهم ، بل خالفوا الخلفاء الراشدين فى بعض ذلك ، وهم سادة الأمة وصفوتها . لأنه قد تبين لهم من السنة والدين ما لا يصح خلافه ولا تركه . فما وجدوا عن اتباع السنة محيصا ولا مفراً ، ولا عن حكم الله مذهبا .

اختلاف الصحابة وخلافهم فى اجتهادهم

فهذا الذى ذهب إليه عثمان بن حنيف من تعليمه الرجل المحتاج إلى عثمان ابن عفان أن يدعو ذلك الدعاء ويسأل بالنبى عليه السلام اجتهاد اجتهده ، لم يدل عليه الحديث الذى رواه . فهو اجتهاد تسوغ مخالفته ومنازعته ، وليس علينا قبوله ولا العمل به ، لأن الحجة فى رواية الصحابى لا فى رأيه واجتهاده .

أمثلة من اجتهاد الصحابة

ولهذا نظائر كثيرة من اجتهادات الصحابة — رضوان الله عليهم . وقد قدمنا أن عمر بن الخطاب قد أبى تيمم الجنب إذا لم يجد الماء ، فلما حدثه عمار بحديث التيمم ارتاب فيه . وتقدم أنه كان يذهب إلى أن المطلقة بالثلاث لها السكنى والنفقة ، وقد رد رواية فاطمة بنت قيس وقولها : إن النبى عليه السلام لم يجعل

لها سكنى ولا نفقة وقد طلقت ألبتة . وقد قال فى رده ذلك : لها السكنَى والنفقة. لا نترك كتاب الله وسنة نبيه لقول امرأة لا ندرى حفظت أم نسيت . وقد احتج بقوله تعالى . « لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » . مع أن الآية فى الحقيقة تعنى باللاتى لا يَخرجن ولا يُخرجن غير المبتوتات ، أى تعنى المطلقات طلاقا رجعيا . لأن الآية تقول فى تعليل النهى عن إخراجهن وخروجهن : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » . ويعنى بالأمر الذى يرجى حدوثه هو رغبة الرجل فى المراجعة . والمطلقة ثلاثا لا ترجى مراجعتها كما قالت فاطمة بنت قيس : « وأى أمر يحدث بعد الثلاث ؟ » . وقالت « بينى وبينكم كتاب الله ». وقد تقدم أيضاً أن أم المؤمنين عائشة كانت تذهب هذا المذهب — أى مذهب عمر — فى المطلقة ثلاثا . وقد قالت لما حدثت حديث فاطمة بنت قيس : « لا خير لها فى ذكر ذلك ». وتقدم أنها كانت تنكر روايتهم أنه ﷺ وقف على قتلى بدر من المشركين وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم قائلا لهم : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ لقد وجدت ما وعدنى ربى حقا » الحديث . وتقدم أنها كانت تنكر روايتهم عن النبى عليه السلام « أن الميت يعذب ببكاء الحى عليه ». ومثل هذا أن أبا هريرة كان يغسل يديه ويبالغ حتى يغسل عضديه مستدلا بما رواه عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إنكم تأتون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء »، قال أبو هريرة : فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل . وقد صح أن عثمان بن عفان كان يتم الصلاة فى السفر ، وقد خالفه الصحابة وخالفه الخليفتان قبله . وصح عن على بن أبى طالب أنه ذهب إلى أن المتوفى عنها زوجها تعتد بأبعد الأجلين إذا كانت حبلى مع أن السنة أن الحبلى تنقضى عدتها بوضعها ، والله يقول فى الكتاب :

« وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » . وقد قام خلاف بعد موت النبى عليه السلام وارتداد بعض العرب ومنع بعضهم الزكاة . فكان من اجتهاد عمر ابن الخطاب وآخرين معه من الصحابة ألا يقاتلوا ماداموا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وكان رأى الصديق المعظم أن يقاتلوا على ذلك حتى يؤدوها . وقد قال فى هذا الخلاف كلمته القوية الرائعة المشهورة : والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه . فرجع عمر والجميع إلى رأى الصديق الأكبر . وقال الفاروق : فما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق . وقد كان جماعة من الصحابة يرون حل متعة النساء ، ولم يبلغهم التحريم حتى نهاهم عمر بن الخطاب فى خلافته عنها . وكذا اختلفوا فى مسائل أخرى من مسائل الدين . وقد كان الصواب والحق فى جانب أحد الفريقين المختلفين . وكانوا رضوان الله عنهم لا يتمهلون عن الرجوع إلى الحق والأخذ به إذا انكشف لهم .

وما قال أحد من أهل العلم : إن كل رأى يراه أحد الصحابة يكون حجة شرعية وبرهانا من الله على خلقه . وإنما أجمع أهل الاسلام على أن الحجة فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ، وفى إجماع المسلمين . لأن الاجماع يدل على أن لله نصاً وأمراً فى الكتاب أو السنة ، لأن الله لم يكن ليجمع المسلمين كلهم على الضلالة والجهالة .

من اجتهادات الصحابة فى حياة رسول الله

وقد كان بعض الصحابة يجتهد فى حياة النبى اجتهاداً يرده النبى عليه عليه الصلاة والسلام مثل ماجاء أن معاذ بن جبل سجد للنبى ، فأنكر عليه ذلك . وقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » . رواه الامام أحمد وابن ماجه . وجاء أن الصحابة كانوا فى غزوة مع رسول الله فروا على قوم من المشركين يعكفون على شجرة ينوطون

بها أسلحتهم يقال لها : ذات أنواط . فقالوا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال ﷺ : « الله أكبر ! إنها السنن ! قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » . رواه أحمد والترمذى وصححه . وجاء أنهم حاولوا القيام له عليه السلام فأنكر عليهم ذلك وقال : « لا تفعلوا فعل فارس والروم » . وقال له رجل مرة : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ماشاء الله وحده ». رواه النسائى. وصح أنه عليه السلام سمع عمر بن الخطاب يحلف بأبيه فأنكر ذلك عليه وقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . ومن كان منكم حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . رواه البخارى ومسلم . وصح أنهم كانوا يسألونه : متى الساعة ! — يحسبونه يعلم أوان قيامها — فيرد عليهم بأن علمها إلى الله وحده . وقد جاء فى حديث رواه الطبرانى باسناد فيه ضعف أن منافقاً كان يؤذى المؤمنين فقال بعضهم لبعض : قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » . وجاء غير ذلك من اجتهادات الصحابة ورد النبى عليهم ما اجتهدوا .

تخريج لما ذهب إليه عثمان بن حنيف فى هذه الرواية

ومن هذا النوع اجتهاد عثمان بن حنيف فى تعليمه الرجل أن يدعو الدعاء المذكور إن صح سند الرواية . وهذا الذى ذهب إليه ابن حنيف ليس هو مثل ما ذهب إليه هؤلاء المخالفون الداعون للأموات ، العاكفون على قبورهم يدعونهم الليل والنهار فى السراء والضراء . وإنما ذهب عثمان بن حنيف — على تقدير صحة الرواية — إلى معنى آخر غير ما ذهبوا إليه . ذلك أنه ظن هذا الدعاء الذى علمه الرجل دعاء يقال عند طلب الحاجات من الله ، لا لإسماع الرسول عليه السلام ، ولا لدعائه وطلب الشفاعة منه . بل ظن أنه سؤال وتوجه إلى الله ، لا على معنى أنه يسمع ويدعو ، بل على معنى أن سؤاله به من أسباب الاجابة والقبول والرضا . ولهذا

علمه أن يقول : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة » . مع أنه يعلم أن النبى لم يدع له ولم يعلم من أمره شيئا . وإذا كان النبى لم يدع لذلك الداعى الطالب ، ولم يعلم من أمره شيئا لم يكن لقوله : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد » معنى إلا أن يكون المقصد دعاء الله به لا دعاءه هو ولا طلبه .

ومن البرهان على صدق هذا أنه لم يأمره أن يأتى القبر النبوى ولا أن يقف حوله ، بل أمره أن يتوضأ وأن يصلى فى المسجد ، لا عند القبر النبوى ولا قريبا منه ، لأنه لم يكن الغرض إسماعه ولا خطابه ودعاءه ، وإنما كان الغرض دعاء الله به . ولو كان عثمان بن حنيف يريد من الرجل أن يخاطب النبى وأن يسمعه خطابه ، وأن يسأله الشفاعة لأمره أن يأتى القبر وأن يدنو منه ليسمعه ، كما أن الأعمى لما أراد من النبى أن يدعو له الله وأن يطلب منه الشفاعة ذهب إليه وأتاه ، ولم يخاطبه أو يطلب ذلك منه بعيداً . وهذا لا يخطر على بال أحد من الصحابة ولا بال أحد ممن فقهوا الاسلام .

ومن المحال ان يظن عثمان بن حنيف ان الرسول يسمع مخاطبه اين كان

ومن المحال أن يقال : إن عثمان بن حنيف كان يحسب وكان يرى أن النبى عليه السلام يسمع المخاطب له ، الطالب منه الشفاعة من كل مكان وفى كل مكان . ولا شك أنه قد ظن أن الخطاب فى قوله : « يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى » مثل الخطاب فى قول المتشهد : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . ومثل الخطاب فى قول زائر المقابر : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » ، ومثل الخطاب فى قول نبى الله صالح لقومه بعد أن أهلكهم الله : « وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين » ، وفى قول نبى الله شعيب لقومه الهالكين : « وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » ومثل أمثال ذلك . وعثمان بن حنيف من العرب الذين يعرفون فنون الكلام

ومذاهب القول ، ويعرفون أن من الخطاب مالا يراد به إسماع المخاطب ولا دعاؤه حقيقة. ويعرفون أن من لا يسمع لبعده ، أو لأنه لا يصلح للسماع أبداً ،قد ينادى ويوجه إليه الخطاب كأنه سامع حاضر لأمر من الأمور وغرض من أغراض البيان التى لا تخفى على أهل اللسان. فهذا الذى ذهب إليه عثمان بن حنيف بعيد جداً عما ذهب إليه المخالفون من سؤالهم للأموات ودعائهم إياهم ليشفعوا لهم ويدعوا الله من أجلهم .

ومن البرهان القاطع على ماذهب إليه

ومن البرهان القاطع على أن ماذهب إليه ابن حنيف ليس هو هذا أمره الرجل أن يدعو بالدعاء الذى علمه الرسول الرجل الأعمى بالنص والصيغة ، ولم يأمره أن يدعو الله ويتوجه إليه بالنبى بصيغة أخرى ، ودعاء آخر . فكأنه ظن أن الدعاء المذكور مما يجيب الله عليه ومما يقبله من عبده بنصه ولفظه ،لا لأن فيه خطاباً للنبى عليه السلام بل لأنه خطاب لله . ولو كان عثمان قد فهم من الحديث جواز السؤال بالنبى وجواز خطابه وطلب الشفاعة منه حيا وميتاً لما كان هنالك ضرورة إلى المحافظة على صيغة دعاء الأعمى، لأن الأعمى قد أمر بالدعاء بعد أن طلبه من النبى وبعد أن أجابه إلى طلبه فدعا له فعلا . فمحافظة عثمان على صيغة الدعاء الذى علمه الأعمى يدل دلالة ظاهرة جلية على أنه قد ظنه بنصه ولفظه دعاء يجيب الله عليه ويعطى سائله به ما سأل ، ولولا ذلك الظن لأمره أن يسأل الله وأن يتوجه بنبيه إليه بصيغة أخرى تناسب حال من لم يدع له النبى عليه الصلاة والسلام . فان قوله هنا : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة » إما أن يريد به التوجه إلى الله بدعاء النبى وشفاعته ، أو يريد به شيئاً غير هذا . فان كان يريد به السؤال والتوسل بدعائه وشفاعته عليه الصلاة والسلام قيل : ولكن النبى لم يدع له ولم يشفع ، بل ولم يعلم من أمره شيئاً ، فكيف يتوجه إلى ربه بدعاء من لم يدع له ؟ فان ظن أنه بطلبه الدعاء والشفاعة منه يدعو ويشفع

له يقيناً ، قيل إن هذا ليس بلازم ، فليس كل من طلب الدعاء من النبي عليه السلام ينال دعاءه لو كان حيا فكيف وهو ميت ؟ وفى الحديث الصحيح المشهور : « سبقك بها عكاشة » . وهذا لانزاع فيه . وقيل أيضا : إن عثمان بن حنيف أمر الرجل أن يقول : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد » قبل أن يأمره بطلب الدعاء والشفاعة منه ، ففعل ذلك الرجل ماأمره به قبل أن يطلب من النبي الشفاعة والدعاء .

فان قيل إن التوجه لم يكن بالدعاء والشفاعة قيل هذا حق ، وهذا يدل على أن عثمان لا يريد بما علمه الرجل أن يستشفع بالنبي وأن يخاطبه وأن يطلب منه دعاءه وشفاعته . فلا شك أن الأمر لو كان أمر استشفاع لأمر الرجل أن يطلب من النبي الشفاعة وأن يطلبه أن يدعو الله من أجله ، ثم لأمره أن يطلب من الله أن يقضى له شفاعة نبيه وأن يشفعه فيه ، لاأن يذهب ابتداء فيأمره أن يقول : ياألله « إنى أتوجه إليك بدعاء نبيك » . ولو أن أحد المسلمين فى حياة رسول الله قال قبل أن يطلب منه أن يشفع ويدعو له : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بدعاء نبيك وشفاعته » لكان غالطاً مخطئا . ولاريب أن أغلط منه من قال بعد موته عليه السلام : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بدعاء نبيك » قبل أن يدعو له وقبل أن يطلب منه الدعاء ــ لو كان جائزا طلبه . فالذى ذهب اليه ابن حنيف غير ما ذهب اليه دعاة الأموات ودعاة النبي عليه الصلاة والسلام ، هؤلاء العاكفون على الأجداث ، بلا شك ولاريب .

ومن العجب أن يحتج الرافضى باجتهاد واحد من الصحابة وهم يكفرونهم

على أن من العجيب أن يحتج الرافضى باجتهاد أحد الصحابة ، ويجعله برهاناً من البراهين وحجة من الحجج الشرعية ، وهو وطائفته الامامية ، الاثنا عشرية يكفرون جماهير الصحابة ، ويكفرون الخلفاء الراشدين الثلاثة منهم ، ويدعونهم المنافقين والمرتدين والمارقين ! بل عندهم أن موافقة القول والمذهب لما ذهب إليه

الصحابة والمسلمون الذين ليسوا شيعة من الدلائل على بطلانه وفساده وازورارد عن الحق والهدى ! فاذا كان هنالك منهبان وقولان ورأيان فى مسألة من المسائل نظروا إلى القول والرأى والمذهب الذى ذهب اليه المسلمون فتركوه ، ثم اعتقدوا لزوماً ووجوباً أنهم ماتركوا إلا الباطل والضلال والجهل والغباوة ، وأنهم ماأخذوا إلا بالحق الناصع المكشوف والبرهان الظاهر . لأنهم يعتقدون أن الحق أبداً ودائماً يكون فى خلاف ماذهب إليه المسلمون وفى خلاف ماهدوا إليه ، إذ هم لايهتدون أبداً إلا إلى الباطل والضلال والزيغ والفساد . . . فمخالفة المسلمين من مقاصد الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية . . . ومؤلفو الطائفة لايتهيبون أن يكتبوا هذا البلاء ، وأن ينشروه على الناس بلا أدب ولا حياء . وقد قال أحد شيوخهم وهو الشيخ مرتضى الأنصارى التسترى فى كتاب « فرائد الأصول » صفحة ٣٢٥ ومابعدها : « . . روى المشايخ الثلاثة باسنادهم عن عمر بن حنظلة قال سألت أبا عبد الله عن رجلين من أصحابنا يكون بينهما منازعة فى دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة ، أيحل ذلك ؟ قال : من تحاكم إليهم فى حق أو باطل فانما يتحاكم إلى الطاغوت . ومايحكم به له فانما يأخذه سحتاً وإن كان حقه ثابتاً ، لأنه أخذه بحكم الطاغوت ، وإنما أمر الله أن يكفر به قال الله : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » ـ إلى أن قال ـ قلت : فان كان الخبران عنكم مشهورين قد رواهما الثقات عنكم ؟ قال ينظر ماوافق حكمه حكم الكتاب والسنة وخالف العامة ـ والعامة فى كلام الشيعة هم أهل السنة ـ فيؤخذ به ويترك ماخالف الكتاب والسنة ووافق العامة . قلت : أرأيت إن كان الفقيهان عرفا حكماً من الكتاب والسنة فوجدنا أحد الخبرين موافقاً للعامة والآخر مخالفاً فبأى الخبرين يؤخذ ؟ قال : ماخالف العامة ، ففيه الرشاد . قلت: فان وافقهم الخبران جميعاً ؟ قال : ينظر إلى ماهم إليه أميل : حكامهم وقضاتهم ـ

فيترك ويؤخذ بالآخر . قلت : فان وافق حكامهم الخبرين جميعاً ؟ قال : إذا كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك . فان الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام فى الهلكات . . . » .

اخبار الشيعة فى وجوب مخالفة المسلمين واسباب وجوب هذه المخالفة عندهم

ثم قال : « روى ابن أبى جمهور الاحسائى فى « عوالى اللآلى » مرفوعا إلى زرارة قال سألت أبا جعفر فقلت له : يأتى عنكم الخبران والحديثان المتعارضان ، فبأيهما آخذ ؟ قال : يازرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذ النادر — إلى أن قال — فقال : انظر ماوافق منهما العامة فاتركه وخذ بما خالف ، فان الحق فى ما خالفهم » .

ثم قال : « وعن رسالة القطب الراوندى باسناد صحيح عن الصادق : إذا أورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله . فما وافق فخذوه ، وما خالف فذروه . فان لم تجدوه فى كتاب الله فاعرضوهما على أخبار العامة . فما وافق أخبارهم فذروه ، وما خالف أخبارهم فخذوه » .

جواب

ثم قال : « وروى أيضاً بسنده قال قال أبوعبد الله : إذا ورد عليكم خبران مختلفان فخذوا ماخالف القوم » .

ثم روى بعد هذا أخباراً كثيرة كلها توجب الأخذ بما خالف أهل السنة والجماعة ، وكلها تحدث أن الحق لايكون معهم أبداً ، وأن الباطل لايفارقهم أبداً .

ثم قال الشيخ مرتضى الأنصارى فى الكتاب الآنف الذكر صفحة ٣٤٤ « قال فى العدة : إذا كان رواة الخبرين متساوين فى العدد عمل بابعدهما من قول العامة ، وترك العمل بما يوافقهم » . قال : « أقول : وتوضيح المرام فى هذا المقام أن ترجيح أحد الخبرين بمخالفة العامة يمكن أن يكون بوجوه : أحدها مجرد التعبد كما هو ظاهر كثير من الأخبار . الثانى كون الرشاد فى خلافهم كما صرح به فى غير واحد من الأخبار المتقدمة ، ورواية على بن أسباط قال قلت للرضا :

يحدث الأمر لا أجد بداً من معرفته ، وليس فى البلد الذى أنا فيه أحد أستفتيه من مواليك ! فقال أءط فقيه البلد واستفته فى أمرك ، فاذا أفتاك بشئ فخذ بخلافه فان الحق فيه . وأصرح من ذلك كله خبر أبى إسحاق الأرجانى قال قال أبو عبد الله : أتدرى لماذا أمرتم بالأخذ بخلاف مايقول العامة ؟ فقلت : لاأدرى ، فقال إن عليا عليه السلام لم يكن يدين الله بشئ إلا خالف عليه العامة إرادة لإبطال أمره (؟) وكانوا يسألونه عن الشئ الذى لايعلمونه فاذا أفتاهم بشئ جعلوا له ضداً من عندهم ليلبسوا على الناس . الثالث حسن مجرد المخالفة لهم . ومرجع هذا المرجح ليس الاقربية إلى الواقع . بل هو نظير ترجيح دليل الحرمة على الوجوب ودليل الحكم الأسهل على غيره . ويشهد لهذا الاحتمال بعض الروايات مثل قوله عليه السلام : إن من وافقنا خالف عدونا فى قول أو عمل فليس منا ولانحن منه. » وهذه العبارة ظاهرة التحريف ولعل صوابها : ولم يخالف عدونا » . ورواية الحسن بن خالد :شيعتنا المسلمون لأمرنا ،الآخذون بقولنا ، المخالفون لأعدائنا. ومن لم يكن كذلك فليس منا . فيكون حالهم حال اليهود الوارد فيهم قوله عليه الصلاة والسلام « خالفوهم ما استطعتم » . الرابع الحكم بصدوره تقية . ويدل عليه قوله عليه السلام« ما سمعته منى يشبه قول الناس ففيه التقية ، وماسمعته منى لايشبه قول الناس فلا تقية فيه » . ثم روى عن أبى عبد الله أنه قال :« ما أنتم والله على شئ مماهم فيه ، ولا هم على شئ مما أنتم فيه ، فخالفوهم فانهم ليسوا من الحنيفية على شيء » . ثم ساق أخباراً فى هذا المعنى .

كل مايقول أئمة الشيعة موافقا لما عليه المسلمون فلابد ان تكون التقية دخلته

فعند طائفة هذا الرجل أنه مطلوب منهم أبداً أن يذهبوا إلى خلاف ماذهب إليه المسلمون ، وأن يعتقدوا و يقولوا خلاف ما اعتقدوا وقالوا ، لأن الرشاد لايوجد إلا فى مالم يذهبوا إليه ، ولأن الضلال لابد أن يوجد فى ماذهبوا إليه ، ولأن أمرهم واعتقادهم أبداً على الباطل والضلال والغى ، ولأنهم أبداً ليسوا

على شئ من الحنيفية التى هى ملة إبراهيم وملة محمد وملة جميع الأنبياء والمرسلين والمؤمنين ، ولأنهم لايمكن أن يكونوا على شئ مما عليه الشيعة الراشدة المهتدية ولأن الشيعة المهدية الراشدة لايمكن أن تكون على شئ مما عليه أهل السنة الضالون المارقون ! فالشيعى أبداً مطالب بأن يخالف أهل السنة وأن يخالف ما قالوا واعتقدوا ، ومطالب أبداً بأن يتعبد بمخالفتهم و بالذهاب خلاف مايذهبون وخلاف الجهة التى يقصدون . والشيعى ، الامامى ، الاثنا عشرى ، مطالب أبداً بأن يخالف أهل السنة وجمهور المسلمين وعامة الصحابة وكبارهم وساداتهم كما يخالف اليهود ـ شر الأمم وأبعد الشعوب عن قلوب الشعوب ، وعن احترامهم وموالاتهم . والشيعى مأمور أبداً بأن يعتقد و يؤمن بأن الأحسن له ديناً وعقيدة أن يباين المسلمين ، وألا يذهب إلى شئ ذهبوا إليه : فلا يذهب إلى شئ ذهب إليه أبو بكر وعمر وعثمان أو غيرهم من الصحابة والمسلمين ، ومأمور بأن يؤمن أبداً بأن الرشاد والهدى والحق فى خلاف ماذهبوا إليه وما اعتقدوه وقالوه . ومطلوب منه فى جميع حالاته بأن يؤمن بأن كل مايأتى عن الأئمة المعصومين موافقا لما عليه المسلمون فهم إنما قالوه وذهبوا إليه تقية لاعقيدة ، لا لأن الحق فيه ، ولالأن حكم الله يوافقه : فكل ما عمله على بن أبى طالب أو الحسن أو الحسين أو زين العابدين أو الصادق أو الباقر أو غيرهم من الأئمة المعصومين فى زعمهم ـ : نعم كل ماعمله هؤلاء أو قالوه أو ذهبوا إليه فجاء موافقاً لما كان عليه أبو بكر أو عمر أو عثمان ، أو موافقا لما كان عليه الموالون لهم ، فلابد أن يكون صدوره عن الأئمة المعصومين تقية وخداعاً ونفاقا ، ولابد أن يكون حكم الله فى خلافه . . . فاذا قال أبو بكر وعمر وعثمان أو غيرهم من الموالين لهم ، الآخذين بسيرتهم : إن الله واحد و إن محمداً رسول الله ، و إن الاسلام حق ، و إن مكة فى الحجاز ، و إن الحجاز من بلاد العرب ، و إن المدينة هى البلدة التى هاجر إليها رسول الله وصحابته ، و إن

جسد رسول الله هنالك ـ : إذا قالوا ذلك فلابد أن يعتقد الشيعى أنهم كاذبون ضالون جاهلون ، وأن يعتقد ويقول : إن الحق والرشاد فى مخالفتهم فى مقالاتهم هـذه والذهاب خلاف ماذهبوا فيها ، وإذا جاء عن على ابن أبى طالب أو عن واحـد من ذريته المعصومين شئ من هـذا الذى قاله العامة واعتقدوه فلابد أن يكون تقيـة وأن يكون نفاقا : كل هـذه مطلوب من الشيعى ، الامامى .
ومطلوب منه أيضا أن يسأل علماء السنة وفقهاء الجمهور من المسلمين ، فاذا أفتوه فتوى وقالوا له قولا وجب عليه أن يذهب إلى خلاف فتواهم وقولهم . فاذا أفتوا بأن هذا حلال وجب أن يعتقد هو أنه حرام ، وإذا أفتوا بأنه حرام وجب عليه أن يعتقـد أنه حـلال ، وإذا أجابوا بأن الزنا جريمة وجب عليـه أن يعتقد أنه فضـيلة ، وإذا قالوا إن الشرك والاثم والظلم والعـدوان جرائم وآثام وجب أن يعتقد أنها دين وقرب إلى الله ، وإذا قالوا إن الرسول صادق ، وإن الله صادق ، وإن القرآن كلام الله ، وإنه لم يزد فيه ولم ينقص منه ، ولم يحرف ، وجب عليه أن يعتقد خلاف ذلك كله ، وأن يقول هو : إن الرسول كاذب وإن الله كاذب ، وإن القرآن ليس كلام الله وإنه محرف مغير بالزيادة والنقصان والترتيب والنظام: يقول الشيعى ، الامامى ذلك كله ليتحقق له مخالفة العامة وليصدق ما نقلوه عن الامام المعصوم : « ما أنتم والله على شئ مما هم فيه ، ولا هم على شئ مما أنتم فيه » وقوله : « وإن عليا لم يكن يدين الله بشئ إلا خالف عليه العامة » وقوله : « ما سمعته منى يشبه كلام الناس ففيـه التقية ، وما سمعته منى لا يشبه كلام الناس فلا تقية فيه » وقوله أيضاً : « استفت فقيه البلد فاذا أفتاك بشئ فخذ بخلافه ، فان الحق فيه » . هذا كله مطلوب من الشيعى الامامى . ومطلوب منـه أيضاً أن يعتقد أن قضاة المسلمين وحكامهم طواغيت كلهم ، لافرق بين فلان وفلان ، وأن التحاكم إليهم وإلى محاكمهم من التحاكم إلى الطواغيت التى أمر المسلمون بالكفران بها

كل ذلك مطلوب من الشيعى الامامى

وأن من أخـذ حقه الثابت المعلوم من طريقهم وطريق حكوماتهم وأحكامهم، وحكامهـم فانما يأخـذه سحتاً وحراماً ، فلا يحـل له أخـذه ولا الانتفاع به .
ولا ندرى ماذا يقولون في من يأخـذون حقوقهم ، أو يحاولون أخذها من طريق المحاكم الالحادية أو المحاكم الانجليزية والفرنسية من طائفتهم الشيعة ! أيقولون إنهم يأخذونها سحتا وحراماً باطلا ، وإن الرجوع إلى تلك المحاكم للحصول على الحق المعلوم المغتصب من التحاكم إلى الطواغيت ، وإن كل ما يؤخذ من تلك المحاكم — وإن كان الحق الثابت الذى لاريب فيه — يكون حراماً على آخذه وصاحبه ؟

فعند هؤلاء المخذولين الأبعـدين أن رجلين من المسلمين لو ظلم أحـدهما الآخر فذهب المظلوم إلى أبى بكر الصديق أو إلى عمر بن الخطاب أو إلى عثمان ـ فضلا عمن دونهم ـ فقضى له بحقه المغلوب عليه ، وأخذ على يدى الظالم ـ عند هؤلاء المخذولين الأبعـدين أن هذا القضاء باطل ، وأن أخذ الحق المأخوذ من طريقه لا يحل ، وأن ذلك المتقاضى آثم ظالم متحاكم إلى طاغوت أمر أن يكفر ، وأن ذلك القاضى ـ أبا بكر أو عمر أو عثمان ـ طاغوت من الطواغيت التى نهى الله عن التقاضى إليها والرضا بها وبحكمها .

هذا كله من دين الشيعة الامامية الاثنا عشرية ،الذين يحتجون فى موضوع عبادة القبور والعكوف على الأحجار والأشجار باجتهاد صحابى واحـد . إننا لا نقول : كيف لايتقى الله هؤلاء القوم ، ولا كيف لا يخجلون ولا كيف يكتبون هذه الفضائح الاعتقادية : لا نقول شيئا من هـذا ، لأن الغاية التى يسعون إليهـا ، والأغراض التى يخدمونها تجيز لهم هذه الواسطة وهـذه الوسيلة ! وإنما نقول : من العجيب أن تقول الشيعة هذه الأقاويل ، وتعتقد هذه العقائد ، وتدونها فى كتبها ثم يوجد فى المسلمين المخلصين للاسلام من يغارون لهم ، ومن يتقربون

إليهم ، ومن يكرهون خلافهم وشقاقهم ، و يسعون للاتحاد بهم والتأليف بينهم و بين المسلمين . . . ومن المحال أن يتحسوا بالمسلمين أو يصادقوهم أو تهوى أفئدتهم نحوهم ، أو تعطفهم عليهم العواطف ، أو تصرفهم إلى ودهم وموالاتهم الصوارف ، مادامت هذه الكتب كتبهم ، وهذه الأقوال أقوالهم ، وهذه المناهل مناهلهم . فانهم بهذا ، ولاريب ، أبعد عن المسلمين وعن ولائهم وعن صداقتهم وودهم من أهل الملل الأخرى ، وأهل الأديان المحاربة أصولها لأصول الاسلام . فانه لا يوجد أهل دين ـ مهما باعد الاسلام و باينت أصوله أصوله ـ يعتقدون أن المفروض عليهم أولا أن يخالفوا المسلمين وأن يعتقدوا أن مخالفتهم من أغراضهم وأغراض دينهم ، وأن يعتقدوا بطلان كل مايذهبون إليه ، وكل مايعتقدونه ، وأن يعرفوا الحق و يُعَرِّفُوه أنه ما جانبه المسلمون ، والباطل بأنه ما ذهب إليه المسلمون ، وأن يقول رؤساؤهم لدهمائهم : إن كل مانفعله ونقوله مما يعتقده المسلمون و يفعلونه و يقولونه لابد أن نكون إنما فعلناه وقلناه تقية ، لأننا لا يمكن أن نوافق المسلمين فى أمر من الأمور ، ولافى عقيدة من العقائد ، ولا فى قول من الأقوال . إن اليهود ـ وهم أعنف الناس خصومة وعداء للاسلام والمسلمين ـ لا يذهبون إلى ما ذهبت إليه الشيعة المسلمة من المخاصمة لأهل الاسلام ولأهل السنة خاصة . فأى رجاء رجاء التأليف بين الفريقين ؟

إذا كانت مخالفة أهل السنة واجبة فلماذا لا يخالفونهم فى دعوة الأموات والعكوف على القبور

وعلى هذه المزاعم التى نقلناها وذكرناها و رويناها من كتب القوم مروية عن الأئمة المعصومين لديهم نسأل الرافضى المصنف سؤالا محرجاً معجزاً لا يرجى أن يجد له جواباً ولاحلا . هذا السؤال هو أن نقول : هذا الحديث ـ أعنى حديث الأعمى برواياته و زياداته ـ وغيره من الأحاديث المنقولة من كتب أهل السنة المروية بأسانيدهم ، المكتوبة بأقلامهم ، المشروحة بكلامهم ، تدل عندك على أن أهل السنة وهم العامة يجيزون التوسل الذى تدعو إليه ، و يجيزون دعوة

الأموات ، وسؤالهم والاستغاثة بهم وسائر هاتيك الباطلات المخزية ، القائمة على الأضرحة . بل زعمت أنت فى مواضع من كتابك هذا وفى غيره أن العامة — أى أهل السنّة — قد أجمعوا على ذلك ماخلا الوهابيين : أجمعوا على جواز التّوسل بالأموات ودعائهم والاستغاثة بهم ، والبناء على القبور وإسراجها وطرح الزينات والمعلقات عليها ، وشد الرحال إليها ، وعلى جواز الذبح والنذر لها ، وإهداء الهدايا وتقديم القرابين إليها : كل هذا تزعم أن أهل السنّة ذهبوا إليه وأجازوه وفعلوه ودعوا إليه . ونحن هنا نقول : إذا كان هذا كله صحيحاً عن العامّة أى عن أهل السنة ، أفما كان الواجب على الشيعة المأمورة بمخالفة العامة بدلالة الأخبار السابقة أن يذهبوا إلى خلاف ماذهب إليه أهل السنة ، فيذهبوا إلى تحريم هذه المعتقدات كلها والحكم بخروجها على الحق والدين ، ومجانبتها لمذاهب الأئمة المعصومين الذين كانوا لايدينون بشىء كانت العامة تدين به ، والذين كانوا يقولون : « ما أنتم على شىء مما هم فيه ، ولا هم على شىء مما أنتم فيه » ؟ أفما كان المفروض حينئذ على الشيعة الامامية الاثنا عشرية أن يحققوا هذه المخالفة للعامة المطلوبة منهم ، الموجبة عليهم ، فيذهبوا إلى منع كل ما أجازه العامة من التوسل ودعاء الأموات والاستغاثة بهم والبناء على القبور وشد الرحال إليها وإلقاء الزينات والمعلقات فوقها ؟ نعم كان الواجب عليهم أن يصيروا هذا المصير ، وأن يذهبوا هذا المذهب إذا كانوا صادقين فى نقلهم عن أئمتهم ، وكان أئمتهم صادقين فى أنفسهم ، وكان ما ينقلون ويذكرون حقا وصحيحاً . وهذا لازم لهم لزوماً لا مهرب لهم منه حتى يتاح لهم الهروب من أنفسهم ، وحتى يتواروا فى أفواه العدم وفوهات الفناء الأبدى .

إلزام معجز

ويمكن أن نسألهم هذا السؤال ، ونسوق إليهم هذا الالزام بأسلوب آخر بأن نقول : هل عندكم دلائل عن أئمتكم وعمن اعترفتم بأنكم لا تفهمون الدين

ولا الإسلام ولا القرآن ولا السنة إلا بإرشادهم وكلامهم وبيانهم: هل لديكم دلائل عن هؤلاء تدل على جواز التوسل، وجواز دعوة الأموات والاستغاثة بهم، وجواز جميع ما تأتونه عند القبور؟ فان قلتم: نعم، عندنا دلائل عنهم تدل على جواز ذلك كله، قلنا لكم: إنهم قد أنبأونا وأنبأوكم بالأخبار السابقة بأن كل ما يقولونه وما يذكرونه وما يفعلونه موافقاً لما عليه أهل السنة من المسلمين فلابد من أن يكون ذلك منهم تقية، ولا بد أن يكون الحق والهدى فى خلافه. فكل ما فى أيديكم مما يدل على الجواز عن الأئمة المعصومين لا يعدو أن يكون تقية وأن يكون الرشد فى خلافه وفى تركه. أما إن قلتم إنه لا دلائل عندنا عن أئمتنا على جواز هذه الشركيات والضلالات، قلنا لكم: شئ لا دليل لكم عليه كيف يجوز لكم أن تدينوا الله به وأن تدعوا إليه المسلمين، إن كنتم الحق والدين والخير تريدون؟ أما إن قلتم إن الدلائل عندنا هى إرشاد أئمتنا لنا بأن نخالف الجمهور وما عليه المسلمون قلنا لكم إذن واجب عليكم أن تذهبوا إلى خلاف ما ذهبوا إليه، وقد زعمتم بأنهم قد ذهبوا إلى جواز كل ما يُنحله الموتى والأشياخ عند قبورهم من التعظيم والتقديس وصنوف التأليه والعبادة، وقد زعمتم أن الصحابة كانوا من المتوسلين، وأن عدوكم الأكبر عمر بن الخطاب كان من المتوسلين كما فى حديث الاستسقاء بالعباس، وأن المسلمين كلهم كانوا من المتوسلين ما خلا الوهابيين. فواجب عليكم تحريم هذا التوسل وتحريم كل هذا البلاء. ولا مفر لهذا الشيعى ولاخوانه من هذا السؤال وهذا الالزام ولو طاروا على أجنحة عنقاء مغرب، أو هربوا مع الامام المعصوم الهارب على قوادم الريح، يندرعون المغارات والفيافى: مغارة مغارة، وفيفاء فيفاء.

﴿ الشبهة التاسعة سؤال النبي بحق الأنبياء قبله ﴾

حديث سؤال النبي بحق الأنبياء قبله

الشبهة التاسعة ما رواه الطبرانى عن أنس بن مالك قال: لما ماتت فاطمة

بنت أسد بن هاشم ، أم على بن أبى طالب ، وكانت قد ربت النبى عليه السلام ، دخل عليها رسول الله فجلس عند رأسها ثم قال : « رحمك الله يا أمى بعد أمى » . وذكر ثناءه عليها ، ثم كفنها ببردته وأمر بحفر قبرها . قال : فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه ثم قال : « الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ، ووسع لها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل ، فانك أرحم الراحمين » وكبر عليها أربعا ، وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط . وفيه روح بن صلاح ، وثقه ابن حبان والحاكم ، وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح . كذا فى « مجمع الزوائد » . وذكر من حديث ابن عباس نحوه إلا أنه ليس فيه هذه الزيادة ، أعنى قوله . « بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه راو مجهول . وبقية رجاله ثقات .

والجواب أن يقال : أما رواية ابن عباس فلا شئ فيها لأنها خالية من هذه الزيادة ، زيادة السؤال بحق النبى وحق الأنبياء على ما فى سندها من الجهالة التى ذكرها الحافظ الهيثمى . وأما رواية أنس فهى التى فيها استدلال المخالف لو كانت صحيحة ثابتة . ولكن يقال : نحن ليس لدينا معجما الطبرانى : لا الكبير ولا الأوسط ، حتى نستطيع أن ننظر فى الاسناد وفى مكانته من الصحة والضعف ، والصعود والهبوط . وليس لمسلم أن يحتج بحديث لا يدرى أثابت هو أم غير ثابت ، ولا سيما إذا كان مرويا فى أمثال معاجم الطبرانى الثلاثة ، فانها ملأى بالأخبار الضعيفة والمنكرة ، وبالأخبار الموضوعة التى لا يحل لمسلم أن يقيم عليها عقيدة من عقائده ولا أمراً من أموره .

الحديث ضعيف فيه روح بن صلاح

ثم فى سنده على قول صاحب « مجمع الزوائد » وقول المخالفين ، روح

ابن صلاح المصرى ، المكنى بأبى الحارث ، المشهور بابن سيابة . ضعفه ابن عدى الحافظ ، ووضعه ابن حبان فى ثقاته ، وقال الحاكم : ثقة مأمون . ذكر هذا الذهبى فى الميزان . وذكره الحافظ ابن حجر فى « لسان الميزان » : وقال بعده : « ذكره ابن يونس فى تاريخ الغرباء ، فقال من أهل الموصل ، قدم مصر وحدث بها . رويت عنه مناكير . وقال الدارقطنى : ضعيف فى الحديث . وقال ابن ماكولاء: ضعفوه . وقال ابن عدى بعد أن أخرج له حديثين : له أحاديث كثيرة فى بعضها نكرة ». ذكر هذا كله فى « لسان الميزان » . فالأكثرون إذاً من علماء النقد وعلماء الجرح والتعديل يضعفونه . وتوثيق ابن حبان والحاكم له لا يمكن أن يعارض به جرح هؤلاء الذين جرحوه أمثال ابن عدى والدارقطنى وغيرهما . لأن ابن حبان والحاكم ، كما تقدم ، متساهلان لينان فى نقدهما وحكمهما فى هذا الشأن. أما ابن حبان فانه ذكر فى كتابه الذى وضعه لثقاة الرواة من هم بعيدون عن الثقات ، فذكر فيه المجهول والضعيف ، بل والكذاب . ومن العجيب أنه وضع فى كتابه هذا من ضعفهم هو نفسه . ومثله فى هذا الحاكم فانه يضعف الرجل ثم يصحح حديثه . وقد ضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ثم صحح حديثه الذى رواه فى سؤال آدم ربه بحق محمد ﷺ . والحاكم أوهى فى هذا الشأن من ابن حبان وأوهن . وهو فى توثيق الرواة مثل نفسه فى تصحيح الأحاديث . فانه كما يصحح الأحاديث الباطلة والموضوعة المكذوبة كذلك يوثق الراوى الضعيف والوضاع الكذاب . وقد أكثر من هذا فى مستدركه على الصحيحين حتى أضاع قيمته العلمية وحتى ساغ لهم أن يتهموه فى اعتقاده ومذهبه . وقد قال الحافظ الذهبى فى « الميزان » : « الحاكم أبو عبد الله الحافظ صاحب التصانيف — إمام صدوق ولكنه يصحح فى مستدركه أحاديث ساقطة ويكثر من ذلك . فما أدرى هل خفيت عليه ! فما هو ممن يجهل ذلك . وإن علم فهذه خيانة عظيمة . ثم هو

كلام الناس فى الحاكم وفى تصحيحه الاحاديث

شيعي مشهور بذلك من دون تعرض للشيخين . وقال ابن طاهر : سألت أبا إسماعيل الأنصاري عنه فقال : إمام في الحديث ، رافضي خبيث . قلت : الله يحب الانصاف ، ما الرجل برافضي ، ولكن شيعي فقط . . . » انتهى كلام الذهبي من الميزان . ونقل الحافظ ابن حجر العسقلاني في « لسان الميزان » هذا الذي نقله الذهبي و زاد عليه قوله : « والحاكم أجل قدراً من أن يذكر في الضعفاء ، ولكن قيل في الاعتذار عنه : إنه عند تصنيفه المستدرك كان في أواخر عمره . وذكر بعضهم أنه حصل له تغير وغفلة في آخر عمره . ويدل على ذلك أنه ذكر جماعة في كتاب الضعفاء له وقطع بترك الرواية عنهم ، ومنع من الاحتجاج بهم ، ثم أخرج أحاديث بعضهم في مستدركه وصححها . من ذلك أنه أخرج حديثا لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وكان قد ذكره في الضعفاء ، فقال : إنه روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه . وقال في آخر الكتاب : فهؤلاء الذين ذكرتهم في هذا الكتاب ثبت عندي صدقهم (كذا في طبعة الهند، وهو غلط ظاهر . والصحيح عدم صدقهم أو نحوه) لأني لا أستحل الجرح إلا مبيناً ، ولا أجيزه تقليداً . والذي أختار لطالب العلم أن يكتب (والصحيح الا يكتب) حديث هؤلاء أصلا » انتهى كلام ابن حجر في لسان الميزان . وقد تقدم ما نقله الخطيب البغدادي في التاريخ وأنه قال في ترجمة الحاكم نقلا عن أبي إسحاق : إبراهيم بن محمد الأرموي النيسابوري قال : « جمع الحاكم أبو عبد الله أحاديث زعم أنها صحاح على شرط البخاري ومسلم ، يلزمهما إخراجها في صحيحيهما . فأنكر عليه أصحاب الحديث ذلك ، ولم يلتفتوا فيه إلى قوله ولا صوبوه في فعله » . انتهى كلام الخطيب . وذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ من ترجمة الحاكم مثل ما ذكره في « الميزان » . فرجال الحديث النقاد مجمعون على ضعف الحاكم في تصحيحه وفي رأيه في هذا الشأن

و بعضهم يتهمه فى ذلك ، و بعضهم يرجع هـذا الضعف إلى الاختلاط والتغير الذى انتابه فى آخر عمره . والذى لا شك فيـه عندنا أن الرجل أجل من الاتهام وأرفع قدراً من أن يرجع شئ من هـذا إلى اعتقاده ومذهبـه ، و إنما الأمر هو ما ذكره الحافظ العسقلانى فى « لسان الميزان » وغيره من اختلاط الرجل وتغيره .

فتوثيق ابن حبان والحاكم ومن فى طبقتهما لروح بن صلاح هذا لايعتد به فى معارضة تضعيف الناقدين البصيرين البارعين له : ابن عدى والدارقطنى . فان هذين الحافظين من أبرع الناس وأحذقهم وأبصرهم بالرجال و بعلم الجرح والتعديل و بمعرفة هذا الشأن كله . فاذا ضعف الدارقطنى وابن عدى راوياً ووثقه مثل الحاكم وابن حبان فلا ريب أن الانصاف يقضى بتقديم تضعيفهما على توثيقهما وتوثيق أمثالهما . وهذا لا يدق على فهم الذكى من المشتغلين بهذا الفن. وليس هذا راجعاً عندنا إلى أن الجرح مقدم على التعديل كما يقولون . ولـكنه راجع إلى ما بين أمثال الدارقطنى وابن عـدى وأمثال ابن حبان والحاكم من فرق وتفاوت فى معرفة هذا العلم .

الكلام على الجرح والتعديل وتقديم أحدهما على الآخر

وهذه الطريقة التى ذكرها علماء الحديث من تقديم الجرح عـلى التعـديل تقضى أيضاً بتضعيف روح هذا و بتقديم تضعيف ابن عدى والدارقطنى وابن ماكولاء وابن يونس له على توثيق ابن حبان والحاكم ـ كيف والمضعفون أكثر عدداً من الموثقين ، وهـذا ترجيح آخر مستقل . ولـكننا نحن لانرجح ضعفـه عملا بهذه القاعدة والطريقة ، لأنها فى رأينا طريقة ليست مقبولة ولا مأخوذة ولا صحيحة على إطلاقها و إجمالها وعمومها . إذ لو صحت وصدقت شـاملة عامة لقضت بتضعيف رواة هم من أوثق الرواة وأجلهم وأصحهم حديثا ورواية . ولأننا نجـد من الظلم البازر القبيح أن نرد حديث من وثقه السواد الأعظم والجمهور الأكثر

من علماء الجرح والتعديل ونقدة الرجال لأن رجلا أو رجلين نزت بهما نوازى التشدد والتطرف فقال أو قالا : إنه سئ الحفظ ، أو يهم ، أو ضعيف ، أو فاسد المذهب والاعتقاد . . . وهو قد يكون من أئمة الحديث وحفاظ الدنيا وسلاطين المحدثين . . . وقول القائلين ـ فى توجيه تقديم الجرح على التعديل إطلاقا ـ : إن الجارح قد يكون علم مالم يعلم الموثق المزكى ، واطلع على مالم يطلع عليه ـ : قول فيه شئ من الصواب والصدق ، ولكن لا كل الصواب ولا كل الصدق . وذلك أن من ضعف راويا قائلا : إنه سئ الحفظ ، أو يغلط ، أو يهم ، أو يكذب ، أو يقلب الأخبار والأسانيد ، أو نحو ذلك ـ مما مرجع القدح فيه إلى اتهام الحفظ ـ قد يكون هو المقدوح فيه ، وقد يكون هو الغالط الواهم . فان من قال : فلان غير متقن ، أو غير حافظ ، أو غير ضابط ، لا يقول ذلك إلا بحسب علمه وحفظه وإتقانه ، وهذا لا شك فيه . ولكن ألا يمكن أن يكون حينئذ هو نفسه الذى لم يحفظ ولم يتقن ولم يضبط ، فيكون قدحه قائما على غلطه ووهمه ، فلا يكون حجة ؟ إذن فنحن لا نقبل هذه الطريقة على إجمالها وإطلاقها ، ولسنا نضعف روح بن صلاح هذا بهذه الطريقة نفسها . وإنما نضعفه لأنه ضعيف على ماذكر ابن عدى والدارقطنى وابن ماكولا وابن يونس والحافظ الهيثمى . وتوثيق ابن حبان والحاكم له لا يعارض تضعيف هؤلاء لما ذكرناه .

وكلام الرافضى فى ابن حبان

على أن هذا الشيعى المصنف قد ذكر ابن حبان صفحة ٣٣٣ وما بعدها من كتابه هذا فكذبه فى تضعيفه عطية العوفى وفى تضعيفه على بن موسى الرضا وكفره لقوله فى الأخير : « إنه يروى عن أبيه العجائب وإنه كان يهم ويخطئ » وقد سبه لقوله هذا سبا قبيحاً وهجاه هجاء مراً ، وزعم أن الذى حمله على تضعيف على بن موسى الرضا بغضه لآل النبى الذين أمر الله بحبهم وولائهم . وبغض على وحده ـ فضلا عن بغض جميع آل البيت ـ كفر وردة عند طائفة هذا

الشيعي . فكيف إذن يقبل قول ابن حبان في روح بن صلاح و يرد قوله في عطية العوفي وفي علي بن موسى الرضا ؟ وكيف يصح له أن يعتمد في تزكية روح هذا على قول ابن حبان وهو كافر عندهم لأنه كان كارهاً لقرابة النبي عليه السلام ؟

من غريب تحكم الشيعة وتعصبهم من آل النبي

ومن أعجب ما كتبه الشيعة ـ وكل مايكتبونه مخالفاً لأهل السنة عجيب ـ قول هذا الشيعي صفحة ٣٣٤ من كتابه هذا دفعاً لما قاله ابن حبان في علي بن موسى الرضا نقلا عمن سماه بعض العلماء : « انظر إلى هذه الجرأة العظيمة من هذا المغرور (يعني ابن حبان) كيف يوهم و يخطئ ابن بنت رسول الله و وارث علمه ، أحد علماء العترة النبوية ، و إمامهم المجمع على غزارة علمه وشرفه . وليت شعري كيف ظهر لهذا الناصبي الذي أفنى عمره في علم الرسوم لأجل الدنيا حتى نال بها قضاء بلخ وغيرها ـ وهم علي بن موسى الرضا وخطؤه ، و بينهما نحو مائة وخمسين عاماً لولا بغض القربى النبوية التي أمر الله بحبها ومودتها ، وأمر رسول الله بالتمسك بها ؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون ! » . هذا مانقله تجريحاً لابن حبان ورداً لقوله، واتهاماً لدينه، وتضليلا لعلمه . فأنى يسوغ له بعد هذا أن يحتج بقوله : إن روح بن صلاح ثقة لولا الهوى والعصبية التي نسأل الله الوقاية من شرها وضرها ، والانفلات من ربقتها .

ومن العجيب قوله : « وكيف يوهم ابن بنت رسول الله و يخطؤه » ! أفلا يعلم هؤلاء القوم أن من أبناء بنت رسول الله من يكفرون ! ومن يحاربون الله و رسوله ! ومن يختانون الإسلام وأوطانه ! ومن يختانون أنفسهم ! و يختانون رسالة جدهم عليه الصلاة والسلام ! ومن يمالئون خصوم الاسلام وخصوم العرب عليه وعليهم ! ومن يجعلون من أنفسهم جواسيس مخلصة تجس على الاسلام وعلى المسلمين ، لخدمة الأعداء وخدمة الكافرين ؟ وكيف لاتخجل الشيعة من هذه المقالة وهم يكفرون جميع أبناء بنت رسول الله من أهل السنة وكل من ليس شيعيا

تكفير الشيعة القرابة النبي

إماميا ، اثنا عشريا . فكل أبناء بنت رسول الله كفار وضلال عند هؤلاء القوم إن لم يدينوا دينهم ، و يذهبوا مذهبهم فى القول بعصمة الأئمة ، و كفر الصحابة ، و بالرجعة التى بينا معناها عندهم فى أول الكتاب ، و بالقول بسائر هاتيك الآفات الاعتقادية النكراء التى أصيبت بها هذه الطائفة المغبونة . وقد نزت بالطائفة عداوة أصحاب النبى ، وعداوة الثلاثة منهم خاصة حتى أنكروا أن تكون رقية وأم كلثوم ابنتا رسول الله اللتان تزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ابنتين حقيقة لرسول الله كما تقدم فى أول هذا الجزء . وهم يريدون بهذه المقالة أن يجحدوا ماخص الله به عثمان بن عفان من شرف مصاهرة النبى عليه السلام و زواجه بابنتيه : أم كلثوم ورقية معاً ـ مقتا من عند أنفسهم لهذا الخليفة ، و إنزالا له عن مقعد رفيع سام أقعده عليه سبقه إلى الاسلام ، و إنفاقه على المسلمين ، وقر به من الله ومن رسوله . ثم هم يكفرون أو يفسقون و يضللون جماعات بأعيانهم من أولاد فاطمة ، و يحكمون عليهم بالردة أو بالفسق والضلال العظيم . ولا يشكون فى كفر كل حسينى وكل حسنى بأعيانهما إذا كانا من أهل السنة . أوَ ليسوا يمقتون بنى العباس عم النبى عليه السلام كلهم ، بل و يكفرونهم و يلعنونهم ؟ أو ليسوا يكفرون الزبير بن صفية عمة رسول الله ، وقد كان رسول الله يحبها و يحبه أعمق الحب وأخلصه ؟؟ أو ليسوا يسبون و يمقتون زيد بن على بن الحسين من أولاد بنت رسول الله ، وكذا يسبون و يمقتون جعفر بن على أخا الإمام الحسن العسكرى ، وعم الامام الثانى عشر المنتظر عند الشيعة ؟ ولقد لقبوا هذا بالكذاب كما ذكر محسن الأمين العاملى فى كتاب « أعيان الشيعة » . وجعفر هـذا من أولاد الأئمة المعصومين ومن أولاد فاطمة بنت رسول الله . وهذا شئ لاحصر له . و بالإجمال هم يكرهون و يمقتون أو يكفرون جميع أبناء بنت رسول الله من غير الشيعة الامامية ، الاثنا عشرية . و إذا كانوا بهذا المكان من مخاصمة أبناء بنت رسول الله ، وأبناء على والحسن

والحسين ، وعداوتهم، فكيف لا يقصرون عن التغنى بهذه الأنشودة ، أنشودة كراهة قرابة النبى و بغض آله ؟؟

حديث مسلسل بأهل البيت فى مذمة الرافضة

ثم إذا كان أبناء بنت رسول الله لا يخطئون ولا يهمون ولا يكذبون فماذا يقولون فى هذا الخبر المسلسل بأهـل البيت ؟ قال فى كتاب « ايثار الحق على الخلق » : « قال الامام الهادى عليه السلام فى كتاب « الأحكام » وقد ذكر الامامية : وفيهم ما حدثنى أبى وعماى محمد والحسن عن أبيهم القاسم عن أبيه عن جده عن إبراهيم بن الحسن عن أبيه عن جده الحسن بن على بن أبى طالب عليه وعليهم السلام عن النبى عليه السلام أنه قال : يا على يكون فى آخر الزمان قوم لهم نبز، يعرفون به ، يقال لهم الرافضة ، فان أدركتهم فاقتلهم ، قتلهم الله ، فانهم مشركون . انتهى بحروفه . ولا أعلم فى الاحكام إسناداً متصلا مسلسلا بأهل البيت عليهم السلام سواه إلا أن يكون مرسلا أو مقطوعاً أو مدخلا فيه غيرهم من الرواة . . . » انتهى كلام « إيثار الحق عـلى الخلق » . فهذا من رواية أهـل البيت وهم لا يخطئون ولا يهمون ولا يكذبون . فـما يقول هؤلاء الشيعة؟ وهذا الحديث قد جاء من طرق أخرى معلومة ولـكنها لا تخلو من الضعف. ومن المضحك قوله : « وكيف ظهر لهذا الناصبى وهم على بن موسى الرضا و بينهما نحو مائة وخمسين عاما » .

من علم الشيعة فى علم الرجال وعلم الاسناد

فياهؤلاء متى كانت المفارقات الزمانية مانعة من معرفة التاريخ القديم ؟ ومتى امتنع أن يعرف فلان أن فلانا كان ثقة ثبتاً ، أو كان ضعيفاً هالـكا ، لأن بينهما زماناً طويلا ، ولأن فلانا تأخر ميلاد زمانه عن زمان فلان مائة وخمسين عاماً ، بل ألفا ، بل ألوف الأعوام ؟ و إذا كان هذا المنطق عندهم صحيحاً محترماً فمالهم اليوم ومال أجهـل الجهلاء منهم يزعمون أن أبا بكر الصـديق كان كافراً ، وأن عمر كان كافراً ، وأن عثمان كان كافراً ، وأن عامة الصحابة كانوا كفاراً ، وأنهم كانوا يحاربون

الإسلام ، و يكيدون لله ولرسوله ، و يسعون فى الأرض فساداً ، وأنهم كانوا يحملون فى صدورهم العداوة المتأججة الفائرة الملتهبة للاسلام ولآل النبى عليه السلام ، و بينهم و بينهم مايناهز أر بعة عشر قرنا ؟ ؟ و إذا كان هذا المنطق لديهم صحيحاً صائباً فكيف ظهر لهم أن عليا كان مسلماً حقا ، وكان ناصراً للاسلام ولنبيه ، ذابا عنه ، مخلصاً له فى الظاهر والباطن ـ وكذلك يقال فى أولاده المعصومين لديهم وفى الموالين له ولهم ـ : كيف ظهر لهؤلاء الشيعة هذا النبأ العظيم و بينهم و بينهم ما يطاول أر بعة عشر قرناً أو ماينقص عن ذلك قليلا ؟ بل إذا كان ما ذكروه منطقاً صحيحاً محترماً فكيف علموا ماحكوه عن ابن حبان من الضلال والزيغ وكراهة آل النبى و بينهم و بينه كل هذا الزمان وهذه الفجوة الزمانية ؟نعم لو صدقوا فى منطقهم هذا لبطل التاريخ و بطلت كتبه وأغلق باب المعرفة لكل ماتقادم ميلاده الزمانى أو المكانى ! فهل يفطنون لهذا ؟ وهل يشعرون بهذه الأخطاء التى يهدونها الينا و إلى قرائهم وهم يحسبون أنهم لايهدون سوى الهدى والعرفان والعلوم الالهية النبوية ؟

فروح بن صلاح غير صحيح الحديث ولا مقبوله إذا انفرد به . ثم لا شك أننا فى حاجة إلى البحث عن باقى رجال الاسناد الذين قال فيهم صاحب « مجمع الزوائد »: إنهم من رجال الصحيح ماخلا روحاً .وذلك أن بعض رجال الصحيح إنما خرج لهما صاحبا الصحيحين فى المتابعات والشواهد والمعلقات . وهؤلاء لا يلزم أن يكونوا ثقات أثباتاً ، ولا يلزم أن يكونوا فوق النقد والتضعيف والبحث ولا يلزم أن يكون حديثهم صحيحاً لا يخضع للنقد والاعتراض والامتحان . . . وهذه المنزلة الرفيعة السامية إنما هى لرجال الصحيحين الذين روى لهما فيهما استقلالا وانفراداً فى الأصول لا فى المتابعات ولا فى الشواهد و فى المعلقات . أما رجال هذا القسم فلا خلاف فى أنهم ليسوا فى منجى من النقد والتمحيص .

رجال الصحيح قسمان مختلفان

فعلى المحتجين بهذا الحديث أن يذكروا لنا رجاله من أى القسمين هم ! وإلا فلا.
نعم ولا كرامة .

كلام النووى فى تقسيم رجال الصحيح

وقد قال الشيخ أبو زكريا النووى فى مقدمة شرحه على صحيح مسلم : « فصل.
عاب عائبون مسلماً بروايته فى صحيحه عن جماعة من الضعفاء والمتوسطين الواقعين
فى الطبقة الثانية الذين ليسوا من شرط الصحيح . ولا عيب عليه فى ذلك ، بل
جوابه من أوجه ذكرها الشيخ ابن الصلاح : أحدها أن يكون ذلك فى من هو
ضعيف عند غيره ، ثقة عنده . ولا يقال : الجرح مقدم على التعديل، لأن ذلك
فيما إذا كان الجرح ثابتاً مفسر السبب ، وإلا فلا يقبل الجرح إذا لم يكن كذا .
وقد قال الخطيب البغدادى وغيره : ما احتج البخارى ومسلم وأبو داود به من
جماعة علم الطعن فيهم من غيرهم محمول على أنه لم يثبت الطعن المؤثر مفسر
السبب . الثانى أن يكون ذلك واقعاً فى المتابعات والشواهد ، لا فى الأصول .
وذلك بأن يذكر الحديث أولا باسناد نظيف رجاله ثقات ويجعله أصلاً ، ثم يتبعه
باسناد آخر أو أسانيد فيها بعض الضعفاء على وجه التأكيد بالمتابعة ، أو لزيادة
فيه تنبه على فائدة فى ما قدمه. وقد اعتذر أبو عبد الله الحاكم بالمتابعة والاستشهاد
فى إخراجه عن جماعة ليسوا من شرط الصحيح ، منهم مطر الوراق ، وبقية بن
الوليد ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وعبدالله بن عمر العمرى ، والنعمان بن راشد.
وأخرج لهم مسلم فى الشواهد فى أشباه لهم كثيرين . الثالث أن يكون ضعف
الضعيف الذى احتج به طرأ بعد أخذه عنه باختلاط حدث عليه ، فهو غير قادح
فيما رواه من قبل فى زمن استقامته كما فى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ابن أخى
عبد الله بن وهب . فذكر الحاكم أبو عبد الله أنه اختلط بعد الخمسين ومائتين
بعد خروج مسلم من مصر . فهو فى ذلك كسعيد بن أبى عروبة وعبد الرزاق
الصنعانى وغيرهما ممن اختلط آخراً ، ولم يمنع ذلك من صحة الاحتجاج فى

الصحيحين بما أخذ عنهم قبل ذلك . الرابع أن يعلو بالشخص الضعيف إسناده وهو عنده من رواية الثقات نازل ، فيقتصر على العالى ، ولا يطول باضافة النازل إليه مكتفيا بمعرفة أهل الشأن فى ذلك . وهـذا العذر قد رويناه عنه تنصيصاً وهو خـلاف حاله فيما رواه عن الثقات أولا ثم أتبعه بمن دونهـم متابعة . وكأن ذلك وقع منه على حسب حضور باعث النشاط وغيبته . روينا عن سعيد بن عمرو البرذعى أنه حضر أبا زرعة الرازى وذكر صحيح مسلم وإنكار أبى زرعة عليه روايته فيه عن أسباط بن نصر وقطن بن نسير وأحمد بن عيسى المصرى ، وأنه قال أيضاً يطرق لأهل البدع علينا فيجدون السبيل بأن يقولوا إذا احتج عليهم بحديث : ليس هذا فى الصحيح . قال سعيد بن عمرو : فلما رجعت إلى نيسابور ذكرت لمسلم إنكار أبى زرعة ، فقال لى مسلم : إنما قلت صحيح ، وإنما أدخلت من حديث أسباط وقطن وأحمد ما قد رواه الثقات عن شيوخهم إلا أنه ربما وقع إلى عنهم بارتفاع ويكون عندى من رواية أوثق منهم بنزول ، فاقتصر على ذلك وأصل الحديث معروف من رواية الثقات . قال سعيد : وقدم مسلم بعد ذلك الرّىّ فبلغنى أنه خرج إلى أبى عبدالله محمد بن مسلم بن وارة فجفاه وعاتبه على هذا الكتاب ، وقال له نحواً مما قاله لى أبو زرعـة : إن هذا يطرق لأهـل البدع ، فاعتذر مسلم ، وقال : إنما أخرجت هذا الكتاب وقلت : هو صحاح ولم أقل : إن مالم أخرجه من الحديث فى هذا الكتاب فهو ضعيف . وإنما أخرجت هذا الحديث من الصحيح ليكون مجموعاً عندى وعند من يكتبه عنى ولا يرتاب فى صحته . فقبل عذره وحدثه . قال الشيخ : وقد قدمنا عن مسـلم أنه قال : عرضت كتابى هذا على أبى زرعة الرازى فكل ما أشار أن له علة تركته ، وكل ما قال إنه صحيح ولا علة له فهو هذا الذى أخرجته . قال الشيخ : فهذا مقام وعر . وقد مهدته بواضح من القول لم أره مجتمعاً فى مؤلف . ولله الحمد . قال : وفيما ذكرته

دليل على أن من حكم لشخص بمجرد رواية مسلم فى صحيحه عنه بأنه من شرط الصحيح عند مسلم فقد غفل وأخطأ . بل يتوقف ذلك على النظر فى أنه كيف روى عنه على ما بيناه من انقسام ذلك . والله أعلم ... » انتهى كلام النووى . وفيه بيان لما ذكرناه .

قد يكون الرواة ثقات ويكون الحديث غير صحيح

على أن رجال هذا الحديث إذا كانوا حقا من رجال الصحيح الذين هم ثقات أثبات بلا شك لم يلزم أن يكون الحديث صحيحاً . إذ قد يكون الرواة عدولا أئمة ، ويكون الحديث الذى رووه ضعيفاً باطلا . وذلك بأن يكون الاسناد منقطعاً أو تكون فيه علة من علل الاسناد المعروفة الكثيرة . والمستدلون بالحديث لم يذكروا براءته من هذه العلل التى قد تكون فى الاسناد المسلسل بالثقات ظاهراً ، ولم يذكروا لنا سياق السند حتى نبحثه ونعرف أسليم هو من تلك العلل الفنية أم هو كثير العلل والأمراض . والحافظ الهيثمى لم يذكر أن الحديث صحيح لولا روح ابن صلاح ، بل ذكر أن رجاله من رجال الصحيح ما خلا روحاً . قال : وروح على توثيق ابن حبان والحاكم له فيه ضعف . مع أن الحافظ الهيثمى يدل كتابه «مجمع الزوائد» على أنه يذهب مذهب المتساهلين فى نقد الروايات والرواة . وكأنه لم يقنع بتوثيق الحاكم وابن حبان لروح بن صلاح فأطلق أن فيه ضعفاً ، لأنه يعلم لين هذين الشيخين : ابن حبان والحاكم فى نقد الأخبار ونقد رواتها ، ويعلم مقدار تساهلهما فى ذلك . ثم لم يقل : إن الحديث ثابت صحيح لولا روح . فكأنه قد قدر أن يكون فى السند علة أو علل ، أو كأنه علم بوجود تلك العلة أو تلك العلل . وهذه طريقة للهيثمى فى كتابه « مجمع الزوائد » معروفة ، وهى طيبة محمودة . يقول مثلا فى آخر الحديث : « والحديث رجاله ثقات ، أو رجال الصحيح» . ويتورع كثيراً عن التصحيح الجازم البات . فلا يقول : «والحديث صحيح الاسناد » . وهذا راجع عنده ـ والله أعلم ـ إلى أمرين : أحدهما أن

يكون قد علم أن فى الحديث علة تمنع الحكم عليه بالصحة مع أن رواته ثقات أثبات . وثانيهما احتمال أن تكون فيه علة و إن لم يعلم هو حقيقة ذلك . فكان الصواب والرأى عنده فى الحالتين أن يتورع عن التصحيح وعن الحكم عليه بالثبوت ، وهو قد لا يكون صحيحاً فى الواقع . وأحياناً يعلم عدالة الرواة وسلامة سياق الاسناد من سائر علل الاسناد وسائر أسباب الضعف ، فلا يقصر عن أن ينطق بنتيجة ما علم ، فيقول : « إن الحديث صحيح الاسناد » أو « حسن الاسناد ». على أنه فى كل هذا متساهل ينحو منحى من لا يقسون فى النقد ، ومنحى من يشوقهم جمع الأحاديث الكثيرة المذيلة بكلمة « صحيح » . وهذه طريقة معروفة لطائفة كبيرة من علماء الاسناد . ولكن هؤلاء بلا شك ليسوا حجة فى هذا الباب ، بل لابد من الرجوع إلى حذاق هذا الشأن وأفذاذه المهرة .

فلا يصح لمسلم أن يحتج بهذا الحديث حتى يعلم صحته وثبوته عن رسول الله وحتى يختبر الاسناد فيعرف ماذكرناه . أما نقل هذا الرافضى أن الحاكم وابن حبان صححاه فنحن أولاً لا نثق بنقله ولا بنقل من نقل عنه ذلك . وثانياً إذا صح هذا فقد علمت مكانة الحاكم وابن حبان فى تصحيح الأخبار الضعاف وتوثيق الرواة الضعفاء . وابن حبان مردود الحكم عند الرافضى مطلقاً لأنه كافر لتضعيفه على بن موسى الرضا . وقد تقدم ماذكره فيه . وأما الحاكم فانه يصحح الأخبار الموضوعة . وقد طرح الناس تصحيحه لذلك . فلا حجة فى تصحيحهما الحديث إذا ثبت أنهما صححاه . هذا ما يقال فى سند الحديث .

معنى الحديث إذا صح

أما معناه ــ على تقدير صحته وثبوته ــ فالجواب أن قوله : « وسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » لا يدل إلا على شئ واحد ، وهو جواز أن يسأل الله بحق المخلوق الصالح . وهذا أمر بسيط يسير بازاء ما يأتيه عباد القبور عند قبورهم من الدعوات والاستغاثات وسؤال جميع الحاجات . . . وفرق

عظيم بين سؤال الله بحق الأنبياء والصالحين ، و بين سؤال الأنبياء والصالحين أنفسهم . فإن الأول توحيد لله وعبادة له وتضرع واستجداء إليه . وغاية ما فيه أنه ابتدع فيه بدعة ، والبدعة ليست دائماً شركا . وأما الأمر الثانى وهو سؤال الأنبياء والصالحين أنفسهم فعبادة لغير الله وشرك به تعالى . وشتان ما بين الأمرين : الشرك والتوحيد ، الشرك والبدعة ، عبادة الخالق وعبادة المخلوق ، سؤال الله وسؤال عباده الموتى . وليس هذا هو ما أقام النزاع والخلاف بين فريق التوحيد وحزب التنديد، وليس هذا هو ما نعلن النكير العام الحاد على المخالفين من أجله ، وإنما ذاك هو دعاء الأموات وسؤالهم الحاجات ، كما يدعى الشيعى وكما تدعى شيعته ، وكما يفعلون .

سؤال المخلوق ليس كسؤال الله بالمخلوق

ويقال ثالثا — : ما هو حق الأنبياء الذى سئل الله به فى هذا الحديث ؟؟ ولعل معرفتنا هذا الحق تخلى يدى الرافضى من الحجة فى الخبر .

ما هو حق الأنبياء فى الحديث

فنقول :حق الأنبياء وحق الصالحين جميعاً على ربهم أمران :أمر هو صفة من صفات الله وشأن من شئونه ، وأمر هو أثر لهذا الأمر الذى هو صفة الله وشأنه. أما الأمر الأول فهو ما أخبر الله عنه فى مثل قوله تعالى : «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وقوله : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » وقوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » وقوله : « وعد الله حقا » وقوله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » وقوله : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » وقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » الآية إلى غير ذلك من الآيات التى فيها وعد الله رسله وأنبياءه بالنصر والغلب والتأييد وحسن العقبى وإتمام الدين وإظهاره والتمكين للأنصار والأتباع والحق الذى جاءوا به فى الأرض وفوق هام العباد والبلاد ، ثم وعده تعالى إياهم الجنة والخلود والرضا

والتقريب والحظوة القريبة المكينة لديه تعالى — إلى غير ذلك من هذه الأمور والمعانى الجليلة التى وعد الله بها رسله وأنبياءه من عباده . . . ووعد الله حق لا ريب فيه ولا فى صدقه ووقوعه . . . فهذا هو حق الأنبياء الأول على الله . وهذا الحق ليس مخلوقا ولا مربوباً ، لأنه عبارة عن نصر الله وتأييده وإعلائه لهم . فهو فعل من أفعاله تعالى وشأن من شئونه . والسؤال بصفات الله وأفعاله وشئونه لا خلاف فى جوازه وحسنه وصحته .

أما الأمر الثانى الذى هو حق لعباد الله الصالحين عليه تعالى بمقتضى وعده ورحمته — وهو تعالى لا يخلف الميعاد ولا يخلف ما تقضى به الرحمة الحكيمة — فهو ما ادخر لهم من النعيم والمشتهيات فى دار خلده ! ونعيم داره ذو ألوان وأفنان وأنواع كثيرة لا يعلمها إلا الله . ولكن يجمعها كل ما هو متعة للنفس وللروح والبدن والجسم . أى هو عبارة عن متع البدن والروح مما خلقه هناك جزاء لهم على قيامهم بخدمته تعالى وبطاعته وعبادته . ويدخل فى هذا الحق الحور العين ، والولدان المخلدون ، وصنوف اللذاذات الأخرى من مأكول ومشروب ومنظور ومسموع ومدرك بإحدى الحواس الانسانية المعروفة وغير المعروفة . . وهذا الحق هو أثر من آثار الحق الأول الذى هو صفة الله وفعله وشأنه .

الحق حقان ، أيهما المراد فى الحديث ؟

وإذا علم هذان الحقان لم يبق لدينا شك ما فى أن حمل الحق فى الحديث المذكور على الحق الأول واجب لازم وفرض حتم ، لا مناص عنه ولا فرار منه . وذلك ان الحق الثانى لا يمكن أن يسأل رسول الله ربه به يقيناً ، فلا يمكن أن يسأل ربه بما خلقه تعالى فى الجنة من المأكولات والمشروبات المدخرة لنبى الله آدم ولمن بعده من الأنبياء والمرسلين . فكما لا يمكن أن يقول رسول الله : أسألك يا الله بالحور العين التى خلقتها فى جنتك وأنشأتهن لآدم أو لابراهيم أو لموسى أو لعيسى أو لغيرهم ، كذلك لا يمكن أن يقول : أسألك يا رب بما خلقت

لهم من الجزاء والثواب . وكما نجد من غير الحسن أن يقول : أسألك يا رب بما خلقت لى فى الجنة من النعيم والثواب والجزاء فكذلك نجد من غير الحسن أيضاً أن يقول : أسألك يا الله بحق نبيك إذا كان حق نبيه هو الحق المخلوق المصنوع المربوب . ولا نشك أن قول المسلم التقى الصالح : أسألك يا رب بذاتى وشخصى و بدنى أو بيدى أو برجلى أو بنحو ذلك مساو لأن يقول : أسألك بما خلقت لى فى الجنة من نعيم وجزاء وثواب . ولا يشك العليم فى فساد السؤالين ونبوهما عن أصول الدين وفروعه وعن الذوق والأدب السليم الصحيح .

إذن لا مندوحة من حمل الحق فى الحديث إذا صح على الحق الأول الذى هو صفة من صفات الله وشأن من شئونه وفعل من أفعاله — على أن يكون قوله : « ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبل » بمعنى : أسألك يارب أن توسع مدخلها وأن تقبل شفاعتى فيها ورجائى ودعائى لها بما وعدتنى ووعدت الأنبياء قبلى جميعاً من النصر والتأييد والعطف والرضا والإرضاء وإجابة السؤال والدعاء . . . » . فهو من سؤال الله بذاته وصفاته وأفعاله وشئونه . وعلى هذا لا يبقى فى الخبر مكان شبهة لأنصار البدعة . لأن السؤال بذات الله وصفاته وأفعاله وشئونه متفق على جوازه .

الجواب عن رواية « يارسول الله كنت رجاءنا »

﴿ الشبهة العاشرة قول صفية : ألا يارسول الله كنت رجاءنا ﴾

الشبهة العاشرة ما ذكره الحافظ الهيثمى فى كتابه « مجمع الزوائد » (الجزء التاسع صفحة ٣٩) بعنوان : « باب فى وداعه ﷺ » . قال : روى الطبرانى بإسناد حسن عن عروة بن الزبير قال : قالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا * وكنت بنا براً ، ولم تك جافيا

فقال الرافضى : « ومن التوسل به بعد موته قول صفية بنت عبد المطلب

فى مرثيتها للنبى عليه الصلاة والسلام التى رواها أهل السير وعلماء الأثر:

ألا يارسول الله أنت رجاؤنا وكنت بنا براً ولم تك جافيا

« وقولها : يا رسول الله أنت رجاؤنا صريح فى التوسل والاستغاثة به ﷺ أى أنت رجاؤنا فى الشفاعة إلى الله ، وأنت وسيلتنا إليـه . قالت ذلك بمسمع من الصحابة ولم ينكر عليها أحـد . ولا يصح هـذا على رأى الوهابيـة لأنه دعاء ونداء لغير الله ، واسـتغاثة وتوسل بالأموات جهلته صفية عمة النبى وصحابته وسائر الصحابة الذين سمعوه وعلمته الوهابية ! ومع ذلك يسمون أنفسهم السلفية ويقولون : إن قدوتهم السلف . . . » هذا كلام الرافضى .

الاسناد ضعيف

والجواب من وجهـين : أحدهما الـكلام على الإسـناد . فان ذلك أول ما يجب أن يسأل وأن يبحث عنه الباحثون . وثانيهما الكلام على معنى الرواية إذا كانت صحيحة . أما السند فليس صحيحاً يقيناً . وذلك أن الرواية من حديث عروة بن الزبير ، وعروة تابعى ، ولد بعـد وفاة رسول الله ببضعة عشر عاماً ، فحديثه هذا مرسل ، والمراسيل ليست حججاً لأنها منقطعة أو فى حكم المنقطعة . والأحاديث المنقطعـة ليست بصحيحة عند علماء هـذا الشأن . ثم إن عروة ابن الزبير ما ولد إلا بعد وفاة صفية بنت عبد المطلب . فان صفية توفيت سنة ٢٠ وعروة ما ولد إلا بعـد ذلك . فروايته عنها منقطعة . فالرواية ضعيفة على كل حال .

على أنه يجب على المستدل بهذا الشعر أن ينظر فى بقية سنده ، وفى الرواة قبل عروة ، فلعل فيه انقطاعاً ، ولعل فيه ضعفاء . ونحن ليس بين يدينا الطبرانى حتى ننظر فى الاسـناد . وقبـل عرفان ذلك لا يحـل الاحتجاج بالرواية . فان الطبرانى يروى كل شىء حتى الموضوعات المـكذوبة . وقول الحافظ الهيثمى : إن الاسناد حسن يدل على ضعفه ، لأن الحافظ الهيثمى متساهل فى التصحيح

والنقد كما تقدم . وتحسينه له مع إرساله يدل على تساهله الشديد .

وهذه القصيدة التى منها هـذا البيت معدودة فى مراثى النبى عليه الصلاة والسلام . وقد ذكر ابن هشام فى سيرته المراثى التى قيلت فى رسول الله ولم يذكر مرثية صفية هذه .

وصحة رواية «كنت» لا أنت وتحريف الشيعى لها

أما معنى هذا الشعر إذا صح أن صفية قد قالته حقيقة فلا يدل على ماذهبوا إليه ألبتة، وذلك أن لفظ الشعر الذى استدلوا به على ما فى « مجمع الزوائد » : « كنت رجاءنا » لا « أنت رجاؤنا » . وكذا ذكره الشيخ محب الدين الطبرى فى كتابه « ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى » كما ذكر الحافظ الهيثمى بلفظ « كنت رجاءنا » . وقال : رواه الحافظ السلفى باسناده عن هشام بن عروة . . . والرافضى ذكر الشعر بلفظ « أنت رجاؤنا » تحريفاً من عند نفسه ومن عند الذين يقلدهم فى هذه الآفات العلمية . واللفظة الصحيحة هى ما ذكره الحافظ الهيثمى والمحب الطبرى « كنت رجاءنا » لا « أنت رجاؤنا » . فلا دليـل فيها لشىء مما يذهبون إليه إذن ، بل هى رد عليهم صريح ظاهر . وذلك أنها قد فرقت بين الحياة والموت ، فقالت : « كنت رجاءنا » . تعنى أنه ﷺ قد كان رجاءهم يوم أن كان حيا بين أظهرهم ، ومعنى هـذا أنهم كانوا فى حياته عليه السلام يرجعون إليه إذا عميت عليهـم الأنباء ، وأشكلت الأمور وتعقدت ، ليدعو الله لهم وليسأله من أجلهم ، وليبين لهم ما يحتاجون إليه من الهدى والدين وشئون الدنيا وليعالج نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وعقائدهم من آلامها وفسادها وعذابها واضطرابها، بإيمانه وقرآنه وإحسانه . . . فقد كان ﷺ يوم أن كان حيا نجم المؤمنين الثاقب يهتدون به ويسرون ، ويستجلون عـلى ضوئه وهداه فى ظلمات العقائد ودياجى الأديان المبدلة المحرفة الزائغة عن السبيل . وكان ﷺ رجاءهم ، يرجعون إلى وحيه عنـد الضلال والإشكال ، وإلى دعواته وشفاعاته عنـد الضيق

والإمحال ، و إلى ثباته و إيمانه و إيقانه حين اشتداد الأهوال ، فيرجعون إلى نعم الرجاء ، و يصلون آمالهم وحاجاتهم بعليا السماء فلما أن سما هذا الرجاء إلى ربه خلا مكانه ، و بقي كتابه و إيمانه ، سببين بين المؤمن به و بينه ، يسمو بهما إلى حيث سما ، يصلان أهـل الأرض بأهل السماء ، حتى يلتقي الجميع في مكان القدس الأعلى .

فالرواية : « كنت » لا « أنت » بالفعل الماضي . ولا ريب أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان رجاء المسلمين في حياته . ولكن ليس معنى هذا أنه كان رجاءهم في الخلق والرزق وتيسير الأمور العسيرة وتفريج الكربات ، ولا في الاحياء والاماتة ، ولا في هداية القلوب وغفران الذنوب ، ولا في ما هو خاص بالله رب العالمين من هذه الأمور . و إنما كان رجاءهم في ما كان يستطيعه مخلوق ممتاز مثله ، ورسول مقرب إلى ربه ، حظي بمكانة الرسالة وشرفها ، و بسفارة جبريل سيد الملائكة ونحوها ... فهو ﷺ رجاؤهم في بيان الحق من الباطل ، والظلام من النور ، و بيان ما يرضي الله مما يغضبه و يسخطه ، وفي الدلالة على الله وعلى دينه وسبيله الواضحة المستقيمة . وهو رجاؤهم لأنه كان يدعو لهم فيجاب ، و يشفع من أجلهم فيشفَّع ، و يستنصر بالله لنصرهم فينصر ، و يحارب بهم أعداء الله وأعداءهم فيَغْلبُ . وهو رجاؤهم لأنهم كانوا يطيعونه فيرشدون ، ويتبعونه فيهتدون ، و يسألونه ما يقدر عليه فيجابون . وهو رجاؤهم لأنه هو صلتهم بالسماء و بالله ، ولأن وحي الله يتنزل إليهم عليه ، ولأنه هو وما أنزل عليه مجمع سعادتهم في الدارين والحياتين . وأي رجاء هو أعظم وأفضل وأجل من هذا الرجاء ؟

الرواية رد عليهم وبيان ذلك

فهذا هو معنى قول صفية : « ألا يا رسول الله كنت رجاءنا » . والرواية ، كما تقدم « كنت رجاءنا » . وقد ذكرها الشيعي بلفظ «أنت رجاؤنا » تحريفاً

منه ومن الذين يقلدهم وينقل عنهم هذه الشناعات الصلعاء : حرفها وحرفوها ليصلح له ولهم مازعمه وما زعموه فى تأويل هذه اللفظة من أنها تدل على جواز كل ما يأتونه من البدع والترهات والضلالات . . . ولكن الرواية « كنت » لا « أنت » فهى رد عليهم لو يشعرون . لأن صفية بقولها هذا قد فرقت بين الحياة والموت ، فقالت بعد الموت : « كنت رجاءنا » . فكأنها كانت تعتقد بأن الرسول عليه الصلاة والسلام فى وقت موته ليس مثله فى وقت حياته . فليس كل ما كان يفعله فى وقت حياته يستطيع أن يفعله فى وقت موته من أجل المسلمين والاسلام ، ومن أجل نصرتهم ونصرته . فقد كان هنالك رجاء للمسلمين فيه فُقِد بموته وزال بزواله وانقطع عنهم بانقطاعه عنهم . وقد كانت هنالك أمور فقدها المسلمون بعد أن غيبوا نبيهم فى لحده وجدثه الشريف ، وآمال ذهبت بذهابه إلى ربه . فقالت صفية فى الرجاء المفقود ، وفى تلك الأمور والآمال الذاهبة : « ألا يا رسول الله كنت رجاءنا » . فلا ريب إذن فى أن قول صفية هذا حجة على الرافضى وعلى إخوانه نصراء البدعة جميعاً .

ولو صح ما ذكروه

على أن الرواية لو كانت صحيحة باللفظ الذى ذكروه : « أنت رجاؤنا » لكانت بعيدة أيضاً كل البعد عما يزعمون ويدعون. وذلك أنها باللفظين والروايتين ليس فيها دعاء الرسول ولا الاستغاثة به ، ولا سؤاله حاجة من الحاج ، ولا طلبه أمراً من الأمور كما يفعل العوام اليوم وقبل اليوم ، وكما يدعون ويدعون . ومعنى « أنت رجاؤنا » — لو كان صحيحاً سنداً ولفظا — أنه رجاؤهم فى أن يشفع لهم يوم القيامة ، وفى أن يلقوه ويلقاهم ، وفى أن يحظوا به ويحظى بهم . . . لأن الرجاء هو الأمل اللذيذ الحلو . ولا أحلى ولا ألذ عند المسلم المؤمن من شفاعة رسول الله يوم القيامة ، ومن لقياه ، ومن ملء العين والأذن وجميع الحواس والجوارح المختلفة برؤياه ، وبحديثه وبالقرب منه . ولا أحلى ولا ألذ عند المسلم

المؤمن به ﷺ من الكون فى ركابه و بين أصحابه ، زمراً زمراً فى جنات الخلود وفى مكان القرب من الله ... فهذا هو رجاء صفية بنت عبدالمطلب فى رسول الله ، وهذا هو رجاء كل مسلم مؤمن بالله وبرسوله ، وهذا الرجاء قصى ناء عن التوسل والاستغاثة ، وعن الدعاء والعكوف على الأجداث . و برأ الله صفية عمة رسول الله و برأ سائر صحابة رسول الله وسائر قرابته من هذا الباطل وهذا الاثم العظيم ، والحنث الجسيم .

وجاء فى رواية «أنت رخاؤنا»

وقد جاء فى « مجمع الزوائد » المطبوع بلفظ : « ألا يارسول الله كنت رخاءنا » من الرخاء لامن الرجاء . ولكن لايبعد أن يكون هذا تحريفاً . . و يراد بهذه الرواية لو صحت أنه عليه السلام كان رخاء المسلمين والمؤمنين فى حياته . لأنهم كانوا إذا قحطوا وأجدبوا ذهبوا إليه وطلبوا منه أن يدعو الله لهم فيدعو فيغاثون ، فيكثر الرخاء و يعم الأرجاء . فقد كان ﷺ رخاء المسلمين بهذا المعنى كما تكاثرت الأخبار فى الصحاح وغيرها أنه كان يسأل الله الغيث للعباد والبلاد فيتنزل حتى يشكو الناس كثرته فيرغبون إليه عليه الصلاة والسلام ليدعو لهم ربه كى يقفه ، وكى يصرفه إلى الضراب و بطون الأودية ورؤوس الآكام ومنابت العشب ، و يجنبه الأمصار والديار . . . وهذه المعانى لانزاع ولا خلاف فيها بين المسلمين .

الجواب عن «يارسول الله»

أما كلمة : « يارسول الله » وقول الرافضى : إن هذا دعاء وخطاب ونداء للأموات فشئ لامعنى له ، ولا خلاف فيه . فان الخطاب المجرد من الطلب الحقيقى ومن إرادة الإسماع والاعلام ونيل الحاجات لاخلاف فى جوازه بين المسلمين ولابين غيرهم من الناس . والخطاب « بيا » و بغيرها من حروف النداء شائع معروف للأحياء وللأموات ، وللحيوان وغير الحيوان ، وللجماد والحى وغير الحى ، ولكل شئ . وهذا ينطق به العالم والجاهل ، والمؤمن والكافر ،

والمشرك والموحد ، ومن يؤمن بحياة الأرواح ، ومن لا يؤمن إلا بالأشباح . فهم يقولون مثلا :

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف

ويقولون أيضا :

ويا قبر معن كيف واريت جوده * وقد كان منه البر والبحر مترعا

ويقولون أيضا :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل * بصبح، وما الإصباح منك بأمثل

ويقولون :

بالله ياظبيات القاع قلن لنا * ليلاى منكن أم ليلى من البشر

ويقولون :

زمان الفرد يافرعون ولى * ودالت دولة المتجبرينا

ويقولون . « ربك أيها البرق اليمانى »

النوع من الخطاب الذى لا استغاثة فيه

وهذا فى الشعر لا يخفى على أحد كثرته . ونظيره من نصوص الشرع قول المتشهد : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » وقول زوار المقابر : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » الحديث وقوله ﷺ فى رثاء ابنه إبراهيم : « وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » . وقد تقدم قول تلك المرأة الأنصارية ترثى عثمان بن مظعون : « رحمة الله عليك أبا السائب . أشهد لقد أكرمك الله » الحديث . وقد صح عن عمر بن الخطاب فى الحديث المتفق على صحته أنه قال وهو يقبل الحجر الأسود : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . وجاء أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان إذا سافر فأقبل الليل قال : « ياأرض ربى وربك الله . أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، وشر ما خلق فيك ، وشر ما يدب عليك » . وهذا فى نصوص الشريعة

كثير معلوم لاخلاف فيه ولانزاع . ولايستطيع أحد أن يدعى أن هـذا النداء نداء حقيق وأنه يراد به كله إسماع المنادى و إعلامه .

النداء الصورى

إذن لاشك أن من النداء ماهو نداء صورى فقط ، وأن من الخطاب ما هو خطاب فى اللفظ دون المعنى . ولاريب أن الممنوع الباطل من نداء الأموات هو النداء الحقيقى المنطوى على الطلب والأمل والحاجة.وأن النداء الصورى الظاهرى الذى لاطلب ولا أمل ولا حاجة ولارغبة ولا سؤال فيه ليس ممنوعاً ولا محرما . فجائز أن تقول : « رحمك الله أيها الدفين الشهيد ، والفقيـد المفقود مثيله » وأن تقول أيضاً : « رحمة الله عليك أبا العباس ، يا أحمد بن تيمية ! أشهدلقد أيدبك الله السنة ، و رفع منار التوحيـد والدين الخالص بما خلفت وكتبت وتركت من مؤلفات باقية على الزمن بقاء الزمن على الزمن .. » . فهذا النوع من الخطاب والنداء جائز كله مستعمل شائع بين الجميع ،لاينكره منكر ، ولايجحده جاحد.ولكن من غير الجائز ومن غير الحسن أن تقول خطاباً لدفين تحت أطباق التراب ومجلات العدم : « يا فلان اشفنى واهد قلبى واغفر ذنبى » ، أو أن تقول : « ياأبا العباس انصرنى أو اهـد قلبى أو اغـفر ذنبى ، أو اكشف لى ماخفى عـلى من كلامك وكتبك وعلمك . . . » .هذا كله وأمثاله غير جائز وغير حسن وغير خاف عـلى أحد أنه ليس مثل النوع الأول .

فصل الخطاب

وفصل الخطاب فى هذا المقام أننا نحن لانمنع كل خطاب وكل نداء للاموات بأحـد حروف النداء ، ونحن نقول فى كل صـلاة : « السلام عليك أيها النبى و رحمة الله و بركاته » ونقول فى كل زيارة للمقابر : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين » . و إنما نمنع من النداء والخطاب ما كان فيه رغبة و رهبة وطلب وأمل وحاجة ، وما كان مشتملا على الخوف والرجاء ، ومنطويا على الخشوع والخضوع كهذا الذى يفعـله القوم اليوم و يدعون إليـه فى كتب زوروها ، وشبه كذبوها

واختلقوها ، وأشياء ماأنزل الله بها من سلطان ابتدعوها ... فما فى قول صفية هذا لو صح شئ مما يذهبون إليه ، بل فيه الرد عليهم لو يشعرون و يتدبرون و ينصفون .

﴿ الشبهة الحادية عشرة فتح الفرجة من القبر النبوى إلى السماء ﴾

رواية الافضاء بقبر النبى إلى السماء

الشبهة الحادية عشرة مارواه الدارمى فى أول سننه بعنوان « باب ما أكرم الله به نبيه بعد موته » قال : حدثنا أبو النعمان حدثنا سعيد بن زيد حدثنا عمرو ابن مالك النكرى حدثنا أبو الجوزاء : أوس بن عبدالله قال : قحط أهل المدينة قحطا شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت : انظروا قبر النبى فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لايكون بينه و بين السماء سقف . قال : ففعلوا فمطرنا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق . قال الرافضى بعد إيراده هذه الرواية : « فهذا توسل به عليه السلام بعد موته و بقبره الشريف بالفعل كما يتوسل به بالقول ، وهو مستمر من عصر الصحابة الذين هم أعلم بالله و برسوله و بأحكامه و بحرمته وحرمة قبره من الوهابية . وقد وافقهم وتبعهم عليه المسلمون فى كل عصر كما صرح به الزين المراغى من غير نكير . » هذا كلام الرافضى .

سند الرواية

وعن هذا جوابان : أحدهما أن نقول : هـذا الخبر رواه أبو محمد الدارمى فى سننه عن أبى النعمان : محمد بن الفضل البصرى المعروف بعارم . وهو ثقة حجة مخرج حديثه فى الستة . وقد وثقه أهل الحديث ونقدة الرواة ، ولكن تكلموا فيه من جهة أخرى إذ ذكروا أنه قد تغير واختلط فى آخر حياته . فجاء عن البخارى وأبى حاتم الرازى والدار قطنى وابن حبان والنسائى وأبى داود أن عارماً هذا قد اختلط فى آخر عمره . وقد قسموا حديثه لذلك قسمين : قسما صحيحاً جيداً ، وهو ماحدث به قبل الاختلاط والتغير ، وقسما ضعيفاً واهياً ، وهو ماحدث به بعد ذلك . ومارواه عنه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب الصحاح هو مما حدث به قبل الاختلاط . وماروواه من حديثه من لايشترطون الصحة والثبوت لما يروون .

يحتمل أن يكون من هذا ، وأن يكون من هذا . فتارة يكون صحيحاً ، وتارة يكون ضعيفاً . فالصحيح هو ماحدث به قديماً ، والضعيف هو ماحدث به أخيراً . فما رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديثه لا بد أن يكون من حديثه الصحيح الذى حدث به أولا حينما كان حافظاً جيد الحفظ ، متقناً تام الاتقان . ومارواه غيرهما من حديثه يحتمل أن يكون من القسم الأول ، وأن يكون من القسم الثانى مالم يعلم من أى القسمين هو بنص صحيح صريح ! وهذا الحديث الذى رواه عنه أبو محمد الدارمى لا ندرى من أى القسمين هو ، ولا نعلم متى رواه عنه ، ولا كيف رواه . وهو محتمل أن يكون رواه عنه قبل الاختلاط والتغير ، وأن يكون إنما رواه بعد ذلك . ولا نستطيع الذهاب إلى أحد القولين ألا تظنيا واجتهاداً مجرداً من البراهين المقنعة الكافية الشافية لصدر الصديان إلى نمير المعرفة . ولكن هذا لا يعطى اليقين المنشود .

وعارم هذا روى الحديث عن سعيد بن زيد الأزدى الجهضمى ، وهو أخو حماد بن زيد الامام الكبير . وسعيد بن زيد روى له البخارى تعليقاً ، وروى له مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه على مافى تهذيب التهذيب للحافظ العسقلانى . . . وهو أيضاً مختلف فيه : ضعفه الأقلون ، ووثقه الأكثرون . فحديثه — منفرداً — حسن محتمل ، لا يبلغ درجة الصحيح القوى ، ولا يهبط إلى مكان الضعيف المطارح .

وسعيد هذا رواه عن عمرو بن مالك النكرى البصرى . قال فى تهذيب التهذيب : وكنيته أبو يحيى ، ويقال : أبو مالك . قال : وهو من رجال الأربعة والبخارى فى الأدب المفرد . وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : يعتبر حديثه غير رواية ابنه عنه . يخطئ ويغرب . . . وقال فى التقريب : صدوق له أوهام . ووثقه الذهبى فى الميزان . وهو مع هذا قليل الحديث .

وعمرو هـذا رواه عن أوس بن عبـد الله الربعى البصرى المعروف بأبى الجوزاء . . . وهو ثقة مشهور أخرج حديثه الستة ووثقوه . وقـد رواه هو عن عائشة رضى الله عنها وروايته عنها فيها كلام ، وسماعه منها مختلف فيه . قال فى تهذيب التهذيب : « قال ابن عدى : أبو الجوزاء روى عن الصحابة ، وأرجو أنه لابأس به ، ولا يصح أنه سمع منهم . وقول البخارى : فى إسناده نظر يريد أنه لم يسمع من مثل ابن مسعود وعائشة وغيرهما ، لاأنه ضعيف عنده . وأحاديثه مستقيمة . . . » وقال فى تهذيب التهذيب أيضاً : « قال ابن عبد البر فى التمهيد إنه لم يسمع منها ، أى من عائشـة . وقال ابن أبى حاتم فى المراسـيل أبو الجوزاء عن عمر وعلى مرسل . . » .

وبالاجمال فأبو الجوزاء معروف مشهور عنـد أهل الحديث بالإرسال . وقد أخرج حديثه عن عائشة مسلم فى الصحيح فى أبواب الصلاة فعابوا ذلك عليـه . قال الحافظ بن حجر العسقلانى فى « بلوغ المرام » عقب روايته الحديث الذى رواه أبو الجوزاء عن عائشـة فى افتتاح الصـلاة بالتكبير واختتامها بالتسـليم : « رواه مسلم وله علة » . وهو يريد بهذا أنه من رواية أبى الجوزاء عن عائشة وهو لم يسمع منها . . . فهذا الحديث من أحاديث مسلم المأخوذة المعيبة عليه . ولكن عذر مسلم فى تخريجه إياه — إذا صح عنده أن أبا الجوزاء لم يسمع من عائشة — تواتر معناه فى أحاديث أخرى صحيحة كثيرة .

جملة علل الحديث المختلفة

هذا هو سند الحديث ، وهـذه هى حال رواته . فهو مع هذه العلل المختلفة والمقادح التى تناولت جميع رجاله من جهات مختلفة : جهـة الاختلاط ، وجهة الارسال ، وجهة الضعف ، لايبلغ أن يكون صحيحاً ، ولا أن يكون حسناً يسوغ العمل والاحتجاج به فى هـذا الباب ، وفى هذه المسألة ، وفى هذا المعنى الشاذ الغريب . فالحديث غريب الاسناد،غريب المعنى . فانه لم يمهد مثله فى الأخبار

ولم يجىء معناه فى سواه.. فهو شاذ، وهو آتٍ بحكم لم يعلم إلا منه و به، والأحكام الشرعية، وعقائد الاسلام لاتثبت بمثل هذا الخبر الذى يحملى كل هذه العيوب والمقادح وهذا الشذوذ والغرابة . . . بل معنى الخبر مشكل مخالف لأصول كثيرة من أصول الاسلام الأولى الظاهرة المتواترة . فأى معنى فى فتح الفرجة من القبر إلى السماء ؟ وأى أصل من أصول الشريعة يؤيده أو يقبله ؟

ولو كان فى فتح الفرجة ما يوجب الغيث وما يوجب نزول المطر وما يقربه من الله ومن رحمته وسمائه لترك المسلمون القبر النبوي الشريف مكشوفاً ، ولأزالوا سقف الحجرة التى دفن فيها هو وصاحباه لتكون القبور الثلاثة مفضية إلى السماء، ليكون فى ذلك ماينزل الغيث وما يدنى من رحمة الله ومن إحسانه وسمائه .

ولو كان هذا أيضاً صحيحاً لكان من سنة رسول الله ومن سنة خلفائه الراشدين ومن عمل غيرهم من أهل العلم والدين أن يبرزوا بأجسامهم وأشخاصهم إلى السماء والفضاء عند امتناع الغيث والمطر ليكون فى بروزهم سقيا للعباد والبلاد . ولا ريب فى أن إبراز الذات النبوية أعظم فى هذا المعنى من إبراز القبر إلى السماء . ولكن لم يأت أن أحداً من أهل العلم والدين ، ولا أتى أن رسول الله ، ولا أن أصحابه فعلوا شيئاً من ذلك أو فكروا فيه . بل جاء عنهم فى حياة الرسول و بعد وفاته أنهم كانوا يفزعون إلى الصلاة — صلاة الاستسقاء — و إلى الدعاء عند اشتداد الجدب وحين إلحاحه عليهم فيستمطرون بالصلاة والدعاء . وما جاء عنهم غيرهذا . وكل ذلك يدل على غرابة معنى هذه الرواية فضلا عن غرابة إسنادها . ومثل هذا الغريب ـ إسناداً ومعنى ـ لا يصح أن يبنى عليه حكم من أحكام الطهارات والوضوء والمياه فضلا عن أن يبنى عليه حكم من هذه الأحكام التى لها اتصال مكين بالاعتقاد .

على أن هذا الذى ذكروه فى فتح الفرجة يناقض ما ذهبوا إليه من تشبيه

لقباب والبنايات عـلى القبور ثم إتقانها بالطوب والتراب والحجارة والأخشاب بالاصباغ والنقوش والزخارف ذات الألوان والأنواع . فانه لو صح ما ذكر من الفرجة وفتحها لـكان من الحسن المستحسن المرغوب فيه ألاّ يجعل على القبور شئ من هـذه البنايات وهذه الآكام من القباب والأشياء الأخرى . ولـكان من الحسن المرغوب فيه أن تترك القبور هي والسماء مفضية إليها ، مكشوفة لها ، لايقوم بينهما حائل ، لتنال البركات والرحمات ، وليكثر الغيث والمطر . . ولـكن القوم لا يهتدون فى جدالهم ونضالهم بمنطق مستقيم واضح مستنير . هذا ما يقال من جهة الاسناد .

الجواب الثانى ان الراوية ليس فيها شئ مما يذهبون إليه من التوسل ودعاء الموتى

والجواب الثانى أن يقال : هبوا الرواية صحيحـة ثابتة فهل تدل على شئ مما ذهبتم إليه ؟ نقول فى الجواب : كلا ، إنها لاتدل على شئ من أمركم يقيناً . ذلك أنه ليس فيها دعاء ميت ، ولا استغاثة ميت ، ولا توسل بميت ، ولا عكوف على قبر ميت ، ولا تشييد لقبر ميت ، وليس فيهـا شئ من الزخرفة للقبور أو البناء عليها ، أو شئ ممـا نراه اليوم ماثلا فوق القبور ، فتراه جرحاً دامياً فى صميم الاسلام ، وسبة واضحة سوداء فى جبين التوحيد المشرق الوضاء : نعم ليس فى الرواية شئ من هذا ، وإنما فيها الافضاء بالقبر إلى السماء . وهذا لا يقول أحد من الناس العقلاء إنه يدل على أن من الدين والاسلام أن يقول المسلم: يارسول الله اهد قلبى ، أو اغفر ذنبى واشفنى ، أو اغننى ، أو ارزقنى ، أو أدخلنى الجنـة ، أو أعطنى كيت أو كيت . كما لا يمكن أن يقول أحد : إن هذا مساوٍ لهذا ، ومن قال ذلك فلا ريب فى أنه من أبخس الخلق عقـلا وفهماً وديناً . فان القائل : يا رسول الله أعطنى ، أو اهد قلبى ، أو اغفر ذنبى ، راغب راهب ، طالب سائل من غـير الله مالا يستطيعه إلا الله . وهذا هوالبلاء الأكبر ، والداهية العظمى . أما كشف القبر والافضاء به إلى السماء فليس فيه طلب ولا سؤال من غير الله ،

ولا رغبة فى سواه أو رهبة من مخلوق . وشتان مابين الأمرين والمقامين .

وكشف القبر النبوى الشريف رجاء استدرار الغيث والمطر هو مثل أن تذهب إلى من تحتاج إليه فتكشف له عن مكان حاجتك وشكاتك ، وعن موضع ألمك وضرك . ومثل أن تريه منك ما يعظمه وما يحبه وما يعز عليه وما يعزه ، وما يكرم عليه من أثر أو غيره ليكون فى ذلك حض له على إعطائك حاجتك وما تريده منه . . . ولكن لا يقول أحد : إن فى شىء من هذا دعاء لغير الله أو استغاثة بمخلوق .

اجوبة اخرى

وقريب من كشف القبر ــ لو صحت الرواية ــ إخراج المستسقين أطفالهم وبهائمهم معهم إلى مكان الصلاة والاستسقاء ، ومثل البروز بهم وبها إلى الخلاء والسماء ليكون هذا أبلغ فى الاستسقاء والاستغاثة بالله ، وليكون فيه ما يقرب من نزول الغيث ونزول رحمة الله على عباده وبلاده . وقد ذكر بعض الفقهاء أنه يستحب الخروج بهؤلاء إلى الصحراء فى صلاة الاستسقاء ، وهم يذهبون إلى هذا المعنى . ولكن ما قال أحد : إن ذلك يدل على جواز دعاء الأموات وسؤالهم مالا يقدر عليه إلا الله من عظيم الحاجات وجليل المطالب . فنحن إذن قد نجيز كشف القبر ــ لو صح الحديث ــ طلباً للغيث . ولا يلزم هذا أن نجيز دعوة الموتى والانقطاع إلى قبورهم . فان هذا لايلزم هذا ، كما أجاز طوائف من الفقهاء الخروج بالبهائم والأطفال إلى الخلاء وإلى مكان صلاة الاستسقاء مبالغة فى طلب الغيث وإظهار الفقر والفاقة لله ، بل قد استحب هذا فريق من أهل الفقه ولكنهم لم يجيزوا الاستغاثة بالأموات ولا دعاءهم ولا شيئاً من هذه الآثام المنثورة فوق القبور ، ولا زعموا أن هذا لازم لذاك ، ولا أنه مثله وفى حكمه .

ومن الأمور المرغوب فيها المسنونة فى صلاة الاستسقاء الخروج إلى الصحراء والافضاء إلى السماء ، أعنى إفضاء المصلين المستسقين وخروجهم ، كما

خرج رسول الله ومن معه من المسلمين لصلاة الاستسقاء متبذلين متخشعين متكسرين . . . فصلوا فى الصحراء صلاة الاستسقاء مفضين إلى السماء مفارقين للديار وللأبنية والبيوت مبالغة فى التقرب إلى الله و إلى رحمته وغياثه وغيثه . ولم يكن فى هذا عند أحد من العقلاء شئ من الدلائل على جواز دعاء الأموات والاستغاثة بهم كما زعم . فهذا غير هذا ، فهما أمران متباينان غير متلازمين .

أما زعم الرافضى أن فتح الفرجة سنة أهل المدينة عند القحط فزعم كاذب لايكاد يصح ، و إن صح شئ فمن الجهلاء لا عن أهل العلم والمعرفة . والسقف حائل بين القبر والسماء ، لا يفضى إليها ولا تفضى إليه . ولا أحسب التاريخ والمشاهدة يقران شيئاً من هذا الذى زعموه وذكروه .

استشفاع الناس يوم القيامة بالأنبياء وجوابه ذلك

﴿ الشبهة الثانية عشرة توسل الناس بالأنبياء ﴾

﴿ وبخاتمهم فى عرصات القيامة ﴾

الشبهة الثانية عشرة قال الرافضى : « قام الاجماع وتواترت الأخبار على أن الناس يتوسلون بالنبى فى عرصات القيامة فيشفع لهم إلى ربه ... » .

والجواب أن نقول : هذا لا خلاف فيه ولكنه على الرافضى لا له . ذلك أن الثابت فى هذه الأخبار التى يشير إليها ، وفى الاجماع الذى يذكره أن الناس يوم القيامة عند ما يشتد بهم الهول ، وعند ما يلح عليهم الكرب والبلاء ، وعند مايتوجهون إلى التماس الشفعاء وتطلب الشفاعات لا يطلبون من نبى الله نوح ولاممن بعده من الأنبياء الشفاعة إلا بعدأن يأتوهم و يروهم . ولا يطلبون ذلك من أحد منهم وهو عنهم غائب ناء ، ولاهو عنهم محتجب قصى . فلايقولون أين كانوا : يانوح اشفع لنا ، ولا ياإبراهيم أو يامحمد اشفع من أجلنا لنراح من هذا البلاء والكرب العظيم : لايفعلون شيئاً من ذلك ألبتة ... ولكنهم يذهبون إلى

دلالة هذه الحجة على خلاف قول الخالفين

نوح وإلى إبراهيم وإلى موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فيطلبون منهم جميعاً الشفاعة إلى ربهم وخالقهم ليريحهم مما هم فيه من الشقاء والبلاء ، فيحيلهم كل نبي على النبي الآخر حتى يصلوا إلى محمد خاتمهم عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، فيذهب إلى ربه ، فيضرع إليه ويتوسل إلى ذاته تعالى بأنواع الوسائل من دعاء وحمد وسجود ورغب ورهب حتى يأذن له ربه بالشفاعة الكبرى للناس كافة فيشفع ويشفع ، وتحد له الحدود فيمن يشفع فيهم وفيمن تنفعهم شفاعته ، فإذا شفع فيمن لا يستحقون الشفاعة قال الله له : « ذلك ليس إليك » كما جاء في الصحيح في آخر حديث الشفاعة الذي رواه الحسن عن أنس بن مالك قال محمد ﷺ : « فأقول : يارب ائذن لي في من قال : لا إله إلا الله ، قال: ليس ذاك لك — أو ليس ذاك إليك — ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله ... » . وما جاء في رواية واحدة من روايات أحاديث الشفاعة أن الناس يطلبون من الأنبياء ومن الشفعاء الشفاعة قبل أن يذهبوا إليهم وقبل أن يأتوهم فيسمعوهم ويروهم . . . بل اتفقت تلك الأخبار جميعاً على أنهم أولا يذهبون إليهم ويأتونهم ثم يطلبون منهم أن يشفعوا لهم وأن يدعوا ربهم من أجلهم . وهذا يدل على أن الفطر كلها مفطورة على أنه لا يصح الاستشفاع بالغائب ، ولا يصح دعاؤه ولا الاستغاثة به ولا التوجه إليه ، ولا سؤاله ولا طلبه شيئاً من الأشياء . . . وهذا لاشك فيه بين ذوي الألباب الصحيحة السليمة . وهذا رد على المخالفين رداً صريحاً ، وينقض ماذهبوا إليه من الاستشفاع بالأموات ودعاء الغائبين الغابرين نقضاً قوياً جلياً . فإن المخالفين يدعون الأموات من كل مكان ، ويستشفعون بهم من كل مكان ، ويسألونهم ضروب الحاج من كل مكان ، ويرغبون إليهم من كل مكان ، ويلهجون بأسمائهم ودعائهم من كل مكان ... والأموات الذين يدعونهم ويستغيثونهم غائبون عنهم

إذ يدعونهم وإذ يهتفون بأسمائهم : غائبون عنهم ، لأنهم إن كانوا صالحين فهم عند ربهم يرزقون ويحبرون ويفرحون كما قال تعالى فى كتابه العزيز : «.. أحياء عند ربهم يرزقون . . . » الآية . وإن كانوا من الأشقياء وأصحاب الجحيم فهم غائبون أيضاً فى أطباق النيران يعذبون ويشقون ويتجرعون ألوان العذاب وألوان النكال . . . فالأموات - مؤمنين وكافرين ، صالحين وطالحين - غائبون عن أهل الدنيا وعمن دعوهم وخاطبوهم وراموا الاتصال بهم من أهلها ، قصيون عنهم لا يسمعونهم إن دعوهم سراً أو جهراً ، ولا يعلمونهم إن رغبوا فيهم وفى سلطانهم . ولكن هؤلاء المخالفين يدعونهم ويستغيثونهم مع بعدهم وغيبتهم ، ومع انقطاع الصلات والأسباب بينهم وبينهم . وأهل الموقف الذين يستشفعون بالأنبياء : بآدم فمن بعده ، لا يستشفعون بهم إلا فى حضرتهم وبين أيديهم فى حياتهم الأخرى .. وما طلبوا من أحد منهم أن يشفع لهم ، ولا أن يدعو الله ليريحهم من موقفهم ذلك فى مغيبه وبعده . فهذا الذى سوف يفعله أهل الموقف فى عرصات القيامة رد على هؤلاء الداعين للأموات الهاتفين بأسمائهم وألقابهم عند الشدائد ، وفى الرخاء أيضاً من كل مكان لو يشعرون ، ولكنهم لا يشعرون ولا يريدون أن يشعروا !

شىء آخر فى هذه الأحاديث يرد على المخالفين

ثم إن أحاديث الشفاعة تلك رد عليهم من ناحية أخرى . . . ذلك أن الذى فى جميع روايات أخبار الشفاعة وأخبار الموقف وعرصات القيامة أن الناس لا يطلبون من الأنبياء سوى الشفاعة وسوى الدعاء لهم عند الله ربهم . وما جاء فى رواية واحدة من الروايات الكثيرة أنهم يطلبون منهم ، لا من آدم ولا من محمد ولا ممن بينهما ، أن يدخلوهم الجنة وأن يريحوهم من موقفهم الهائل ، وأن يكشفوا ما هم فيه من الكرب والعذاب والبلاء العظيم . . . فما قالوا : يا آدم أدخلنا الجنة ، ولا ارحمنا من عذابنا هذا ، كما قالوا له : اشفع لنا عند ربك . . .

من العذاب . ولا قالوا : يا محمد أرحنا أو أزل عنا ما نحن فيه من الشقاء والآلام كما قالوا اشفع لنا وادع من اجلنا . ولا قالوا مثل ذلك لأحد من الأنبياء الذين طلبوا منهم الشفاعة والدعاء ... فالأخبار كلها مطبقة مجمعة على أن الناس يوم القيامة لا يسألون الأنبياء إلا الشفاعة والدعاء : لا يسألونهم إدخال الجنة ولا الإراحة من العذاب ، لا بأسلوب الحقيقة ، ولا بأسلوب المجاز . وهذا رد على الرافضي وعلى إخوانه المخاصمين ، ويرد على سائر طوائف المبتدعين الضالين في هذه المسائل الكبرى . لأنهم يزعمون أنه يصح أن يسأل المخلوق الميت كل شيء يصح سؤاله الله ، فيصح عندهم أن يقول المسلم المؤمن : يا رسول الله أو يا على ، أو يا حسن ، أو يا حسين : اغفر ذنبي واهد قلبي وأدخلني الجنة ، ونجني من النار : هذا كله عندهم يجوز . ويجوز أيضاً غيره من كل ما يصح أن يسأل الخالق إياه مما لا يستطيعه سواه ، إلا أنهم يزعمون أن هنالك حقيقة ، وأن هنالك مجازاً ، ويزعمون أن سؤال المخلوق ذلك مجاز ، وأن سؤال الله إياه حقيقة . وقدتقدم الكلام على هذا. ولكن أخبار الشفاعة وأخبار عرصات القيامة ترد عليهم هذه الدعوى وهذا الزعم . فان تلك الأخبار قد أطبقت وأجمعت على أن الناس لا يسألون الأنبياء في ذلك اليوم الأحمر العصيب الشديد إلا الشفاعة والدعاء . لا يسألونهم شيئا من هذا الذي زعموه مجازاً ، والذي ادعوا أنه مؤول مصروف عن ظاهره وعما يبدو منه . فانه لو كان هذا الذي زعموه صحيحاً جائزاً لجاء أن الناس يوم القيامة ، أو أن فريقاً منهم ، سوف يسألون الأنبياء بذلك اللسان المجازي ، وبذلك القول المؤول المصروف عن ظاهره . فيقولون مثلا : يا نوح أو يا آدم أو يا إبراهيم أو يا محمد أدخلنا الجنة وأرحنا من العذاب الذي نحن فيه . ولا ينس أن من جملة الناس المستشفعين بالأنبياء يوم القيامة هؤلاء الداعين إلى هذه الباطلات،المستشفعين المستغيثين بالأموات ، القائلين هذه

لماذا لا يسأل الخالقون الأنبياء يوم القيامة سوى الشفاعة

المقالات . فلماذا ينسون فى ذلك اليوم هـذا المجاز الذى زعموه ، وهـذا القول المؤول الذى ادعوه ؟ ولماذا لم يخاطبوا الأنبياء ويدعوهم هناك بهذا المجاز وبهذا اللسان ؟ إن الجواب على هـذا السؤال سهل قريب ، لا يعجز طالبـه . فأين يذهبون ؟ ونحن لا نجد مانعاً يمنعهم كلهم من أن يقولوا مثل هذا القول إذا كان جائزاً ، وإن يستعملوا هذا المجاز إذا كان صحيحاً مقبولا ، وهم أحوج ما يكونون إلى السؤال والطلب ، وإلى العافية والنجاة ، بحيث لا يصح أن يتركوا وسيلة ممكنة مرجوة إلا طرقوها ، ولا سبباً من أسباب النجاة والعافيـة — ولو توهماً وتظنياً — إلا أخـذوا به من طرفيه وأمسك به كل امرىء منهم بكلتا يديه ، طلبا للنجاة ورغبة فى العافية . فما لهم لم يفعلوا ذلك ؟ بل مالهم لم يفعلوا منه شيئاً ، ولم يفعله منهم أحد ؟ أفلا يدلنا هذا الإقصار وهذاك الاعراض على أن الذى زعمه المخالفون أمر باطل وزعم غـير صحيح ولا كرامة ؟ بلى ، إنه لـكذلك ، وبلى ، إن أخبـار الشفاعة مما يرد على المخالفين ومما يفسد ما ذهبوا إليه لو يفطنون ولا يتعصبون .

دلالة الاخبار على قولنا من ناحية ثالثة

والأخبار — أخبار الشفاعة — رد على القوم من جهـة ثالثة . ذلك أن الناس حينما يشتد عليهم الـكرب والبلاء يذهبون إلى آدم أبى البشر ، فيطلبون منه أن يشفع لهم ، فيقول لهم : لست لها . إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فأكلت منها . نفسى ، نفسى . اذهبوا إلى غيرى . فيأتون نوحاً عليه السلام فيطلبون منه الشفاعة فيعتذر كما اعتذر قبله آدم ، ويذكر ما له من خطيئة فيستحى ربه منها ، فيقول لهـم : اذهبوا إلى غـيرى . فيأتون إبراهيم فيقول لهم : لست هناكم . ويذكر خطيئته فيستحى ربه منها ، ويقول لهم : اذهبوا إلى غيرى . فيأتون موسى فيقول : لست هناكم . ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها ، ويقول : اذهبوا إلى غـيرى . فيأتون عيسى فيقول لهم : لست هناكم . اذهبوا إلى غـيرى . فيأتون محمداً فيذهبَ إلى ربه

ويخر ساجداً حتى يقال له : ارفع رأسك وسل تعطه ، واشفع تشفع . . إلى آخر الحديث . . . وقد جاء هذا التفصيل فى الشفاعة وتنحى الأنبياء عنها واحداً بعد واحد عن جماعة من الصحابة بطرق متعددة صحيحة . وجاء فى جميع طرق هذا الحديث أن الأنبياء : آدم ونوحاً و إبراهيم وموسى وعيسى يعتذرون عن الشفاعة وعن التقدم بين يدى الله كى يشفعوا للخلائق ، وأنهم يتهيبون ذلك المقام و يذكرون غضب الله وجلالة الوقوف بين يديه ، ويذكرون الأمور التى أتوها والتى سموها خطايا ، أو ذنوبا ، فيستحيون منها ومن ربهم من أجلها ، فيكعون عن مقام الشفاعة وعن مقام الشافعين ، و يقصرون عنها و يعدون أنفسهم دونها ، فلايجرءون على التقدم ، ولا يقدمون على الشفاعة ـ إجلالا لله و إجلالا لمقامه ، و إجلالا لذلك اليوم ، واستحياء من الله ، واتهاماً لأنفسهم ... وأخيراً لا يشفعون ، وأخيراً يقول كل منهم : لست هناكم ، وأخيراً يقول كل نبى منهم : نفسى ، نفسى . اذهبوا إلى غيرى . . . إذن فمقام الشفاعة بين يدى الله للخلق مقام عظيم مهيب ، و إذن ليس كل أحد يستطيع أن يقوم ذلك المقام وأن يقف ذلك الموقف ، و إذن ليس كل امرئ يجرأ على التقدم بين يدى الله شافعاً للخلق . . ، هذا ما تدل عليه كله أحاديث الشفاعة التى احتجوا بها على باطلهم ، وهذا مارواه أصحاب الصحاح من كلام النبوة فى صحاحهم .

اذا كان الانبياء يأبون الشفاعة للخلق إجلالا لله فكيف يرجو هؤلاء الشفاعة من المشايخ

فاذا كان ذلك كله حقا ـ وهو حق بلا ريب ـ فمال هؤلاء القوم يطرحون أنفسهم على كل جدث من هذه الأجداث ، ويلقون آمالهم وحاجاتهم ومآربهم على كل دفين من الأموات ، زاعمين أن كل شيخ سألوه الشفاعة لا بد أن يشفع لهم ، وأن كل ولى أوكل حظِىّ عند الله قالوا : له اشفع لنا عند ربك لابد أن يشفع لهم ،ولا بد أن يقوم مقام الشفيع ، وقد تنحى عنه ـ إجلالا له و إجلالا لله ـ آدم ونوح و إبراهيم وموسى وعيسى ؟ إذا كان هؤلاء الأنبياء ـ وهم

أولو العزم منهم — يأبون أن يشفعوا للنــاس تهيباً لمقام الشفيع ولأمر الشفاعة ، وتعظيما لله ولمقامه ، وتصغيراً لأنفسهم الكبيرة إزاء عظمة الله وكبر كبريائه — وإذا كانوا يأبون أن يشفعوا للخلق لأنهم قد أذنبوا ذنبــاً واخطأوا خطأً ، لعله لا يكون خطأً ولا ذنباً إلا فى أعينهم وعندهم هم لخشيتهم ربهم وإعظامهم له — وإذا كانوا يأبون أن يشفعوا لأن الله قد غضب غضباً شديداً ، وهم لا يليق بهم أن يتقدموا إليه بهذا الأمر وهو غضبان ، والله إذا غضب ذاب كل شئ ازاء غضبه ، وصغر كل كبير عنده ،والله إذا غضب تلاشت المقامات وطارت النفوس المؤمنة ذعراً وهيبة : إذا كان هؤلاء الأنبياء — وهم سادة الخلق وزعماء الأنبياء — يأبون أن يشفعوا لما ذكروا فما ل هؤلاء الحيرى يتطرحون على كل قبر ،وفوق كل جدث : يريدون الشفاعة ، ويريدون الغفران ، ويريدون تكفير الخطايا والآثام التى قد أحاطت بحياتهم وبأعمالهم وبما عملوه من حسنات ، إن كان ذلك ؟؟

أفلا يعلمون أن الأنبياء إذا كانوا يتأخرون عن الشفاعــة إعظاماً لأمرها واستحياء من ذنوبهم ومن ربهم أن غير الأنبياء ممن يسألونهم الدعاء والشفاعات أكثر منهم تأخراً وتهيباً وإباء وإحجاماً ؟ إذا كان نبى الله إبراهيم الخليل يقول لمن يطلبون منه الشفاعة : لست هناكم ، لأن الله قد غضب ، ولأنى قد أخطأت أو أذنبت ذنباً ، فما يمكن أن يقول غيره كالحسين أو الحسن أو فاطمة أو عبد القادر الجيلانى أو الرفاعى أو البدوى أو غيرهم من الأولياء الصالحين والمشايخ الآخرين ؟ ماذا يمكن أن يقول هؤلاء إذا طلبت منهم الشفاعة إذا كان مثل إبراهيم الخليــل يتأخر عنها ويأباها ، لأنه قد أذنب أو أخطأ ، ولأن الله قد غضب ؟ وماذا يمكن أن يقول مثل الامام الشافعى إذا طلبت منه الشفاعة وقد تأخر عنها موسى وعيسى ونوح وإبراهيم خليل الرحمن ، وآدم أبو الخلائق وأبو الأنبياء جميعاً ، لأنهم أصغروا أنفسهم عن ذلك المقام ،ولأن ربهم قد غضب

على خلقه لآثامهم وذنوبهم ؟ لاريب أن فى أحاديث الشفاعة هذه زجراً زاجراً عن التعلق بالشفاعات والشفعاء ، وترغيباً ظاهراً عنها ، وحيلولة صارمة صادقة بين الناس و بينها . ولاريب أن المسلم البصير يأخذ من هذا العظة البالغة، و يأخذ أن شيئاً يحجم عنه مثل إبراهيم ونوح وموسى وعيسى وآدم لا يمكن أن يقدم عليه مثل البدوى والجيلانى والرفاعى والدسوق وأمثالهم . ثم يأخذ من ذلك أن من أقدم على ما أحجم عنه الأنبياء فليس من الله فى شئ ،وليس من الحياء والإجلال لله ولأنبيائه فى قليل ولا كثير .

فهذه الأحاديث زجر للناس عن التعلق بالشفاعة والشفعاء أى زجر ،وترغيب عنها أى ترغيب ، فان العاقل يعلم بداهة أن ما عجز عنه مثل هؤلاء الأنبياء وأحجموا عن حماه لا يمكن أن يقدر و يقدم عليه غيرهم ممن ليسوا رسلا ولا أنبياء وهذا كله واضح . ولكن أين من يفهمون و ينصفون !

بعد هذا نقول لهذا الرافضى الظالم : إن استشفاع الخلائق يوم القيامة بالأنبياء من الاستشفاع بالأحياء ، ونحن لم نقل: إن الاستشفاع بالحى ممنوع باطل ولم نقل : إن طلب الشفاعة من كل أحد محرم محظور . ولكن قلنا إن الاستشفاع بالموتى ودعاءهم من البدع المنكرة الباطلة ، ومما نهى عنه الدين : كتابه وسنته . والخلائق حينما يطلبون الشفاعة من الأنبياء لا يطلبونها منهم إلا وهم أحياء بين أيديهم . فأين هذا من ذاك ! وأين الأموات من الأحياء .

﴿ الشبهة الثالثة عشرة — خلق آدم والجنة والنار ﴾
﴿ من أجل محمد عليه الصلاة والسلام ﴾

حديث خلق الجنة والنار لأجل محمد عليه السلام

الشبهة الثالثة عشرة قال الرافضى : روى الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى : يا عيسى آمن بمحمد وامر من أدركت من أمتك أن

يؤمنوا بمحمد . فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولا إنى خلقت محمداً ما خلقت الجنة ولا النار . ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن اه

والجواب أن نقول : قال الحاكم فى المستدرك (الجزء الثانى صفحة ٦١٥ كتاب التاريخ . طبعة حيدر آباد الهند) : حدثنا على بن حمشاذ العدل إملاء حدثنا هارون بن العباس الهاشمى ، حدثنا جندل بن والق ، حدثنا عمرو بن أوس الانصارى ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : أوحى الله إلى عيسى . . . « الحديث » . قال الحاكم بعد روايته : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبى فى التعليق : « قلت أظنه موضوعا على سعيد » . قلت أنا : وهذا ورع من الحافظ الذهبى رحمة الله عليه . وإلا فالمقام غنى عن « أظن » . بل الحديث موضوع يقيناً .

سند الحديث

والسند : أما على بن حمشاذ فهو أحد شيوخ الحاكم الحفاظ . وقد أثنى عليه الحاكم كثيراً وأكثر من الرواية عنه فى المستدرك . وذكره الحافظ الذهبى فى « تذكرة الحفاظ » بالخير . وأما هارون بن العباس الهاشمى فذكره الخطيب فى التاريخ ووثقه . وأما جندل بن والق فقال فيه مسلم : متروك . وقال البزار : ليس بالقوى . وذكره ابن حبان فى الثقات . كذا فى « تهذيب التهذيب » . ونقل عن أبى زرعة توهينه . قال : وروى عنه البخارى فى « الأدب المفرد » . قلت: ماروى عنه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » إلا حديثاً واحداً فى الاستغفار رواه عن يحيى بن يعلى . وأما عمرو بن أوس الأنصارى فقال الذهبى فى الميزان: « عمرو بن أوس . تجهل حاله . وأتى بخبر منكر ، أخرجه الحاكم فى مستدركه . وأظنه موضوعاً ، من طريق جندل بن والق » . وذكر هذا الخبر . وكذا قال الحافظ العسقلانى فى « لسان الميزان » مثل ما قال الذهبى . وأما سعيد بن أبى

عروبة ومن بعده فأئمة لايسأل عنهم .

الحديث موضوع

فالحديث موضوع ، والحمل فيه على عمرو بن أوس هذا . أما تصحيح الحاكم له فمن شقاشقه المعروفة .

وكيف يصح خبر يقال فيه: إن الله لم يخلق آدم ولا الجنة ولا النار إلا لأجل محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقول : « ولولا أنى خلقت محمداً ماخلقت الجنة والنار »؟

إن الجنة والنار قد خلقتا عدلا من الله ورحمة وحكمة ، والله حكيم عادل رحيم قبل أن يخلق محمداً ، وقبل أن يخلق أحداً . والله كذلك حكيم عادل رحيم وإن لم يخلق أحداً . خلق الله الجنة جزاء لمن أطاعوه واتقوه من عباده الصالحين الأبرار ، وخلق النار عقاباً للعصاة وللكفار والظالمين والأشرار . . . فهل معنى هذا الخبر أن الله لولم يخلق محمداً لما جازى عباده الصالحين الأبرار على طاعاتهم وعباداتهم ، ولما عاقب الكفار والظلمة والأشرار على كفرهم وظلمهم وشرهم ، بل لتركهم جميعاً سدى ، ولسوى بينهم ، ولجعل الكفار كالمؤمنين ، والفجار كالأبرار؟ نعوذ بالله من هذا ومن حديث يدل عليه ويؤيده ! هذا الحديث الموضوع يقول: إن الله لو لم يخلق عبده ورسوله محمداً لما استحق عبد الله ورسوله آدم الحياة ، ولما استحق هو ولا إبراهيم خليل الرحمن ولانوح أول رسول بعثه الله بالتوحيد وبالدعوة إلى عبادة الله وحده ، ولا موسى ولا عيسى ولا غيرهم من الأنبياء والمرسلين ولا غيرهم من المؤمنين والصالحين والشهداء والحكماء : يقول هذا الحديث الموضوع إن الله لولم يخلق محمداً عليه السلام لما استحق أحد من هؤلاء الجنة ، لأن الجنة ماخلقت إلا لأن محمداً عليه الصلاة والسلام خلق ، ولو لم يخلق لما خلقت . فلولم يخلق ما استحق أحد من هؤلاء الأنبياء والمؤمنين أن يدخل الجنة .

ويقول هذا الحديث الموضوع أيضاً : إن محمداً لولم يخلق لما خلقت النار ولما عذب فرعون وجنوده ولا أبو جهل وجنوده ولا غيرهم من أجناد الباطل والكفر والضلال

وحماة الشر وأعوان الإثم . . . لأن النار لم تخلق إلا لأجل محمد ! نعوذ بالله من هذا الحديث ومن هذا القول .

ما معنى خلق النار لأجل محمد عليه السلام

قد يعقل بعض ناقصى المعقول القول بأن الجنة لم تخلق إلا لأجل محمد وأنها لولاه لما خلقت . ولكن الذى لا يعقله أحد القول بأن النار لم تخلق إلا لأن محمداً خلق ، وأنها لم تخلق إلا من أجله . . . وما معنى خلق النار المخلوقة لعذاب الكفار والأشرار لأجل محمد عليه الصلاة والسلام ؟ وما معنى قول هذا الحديث المكذوب : إن الله لولم يخلق محمداً لما خلق النار ؟ إن كان معناه أن محمدا هو الذى يعذب بالنار ، أو أن الكفر به وحده دون الكفر بسائر الأنبياء والحقائق هو الذى يوجب دوخول النار : إن كان معنى الحديث هو هذا فهذا باطل وجهل وكفر . وإن كان معناه أن الله لم يخلق النار إلا إرضاء وتكريما لمحمد عليه الصلاة والسلام ورفعاً لشأنه وقدره . . . فهذا أيضاً من شر الضلال والجهل الزور . . . وإن كان معناه أن محمداً هو الذى خلقها فهذا أدهى وأمر وأقبح . . . وإن كان معناه أن الله لو لم يخلق محمداً لما خلق أحدا ، ولو لم يخلق أحدا لما خلق النار ولا الجنة : إن كان هذا هو معنى الحديث — وهذا أقرب ما يقال فيه — قيل إن هذا القول من شر الأقاويل . وذلك أن الله قد خلق خلقه لحكمة كبرى جليلة ، بل لحكم كثيرة جليلة . ومن هذه الحكم إرادته أن يعبد وأن يعمر هذا الكون . وعبادة الله وعمارة كونه غايتان من الغايات المطلوبة المحمودة سواء أخلق محمد أم لم يخلق ، بل محمد نفسه ما خلق إلا لأجل هذه الغاية . . . ومن الحكم فى خلق الخلق إرادته تعالى الإحسان والجود وإظهار معانى صفاته ومعانى صفات الربوبية والألوهية وصفات الكمال . وهذا لا يكون إلا بخلق الخلق وخلق من يستحقونه وخلق المحل القابل له . . . وفى هذا القول أمور فاسدة كثيرة ذكرناها فى كلام سابق عند الكلام على خبر سؤال آدم ربه بمحمد عند اقترافه الخطيئة فليراجع .

ومن الإساءة للأنبياء

ومن الإساءة لأنبياء الله ولعباده الصالحين جميعاً القول بأن الله لم يخلقهم لأجل عبادته تعالى، ولا لأجل الدعوة إليه و إلى عبادته أصالة، و إنما خلقهم أصالة لأجل محمد عليه الصلاة والسلام . بل ليس هذا القول إساءة إلى الأنبياء و إلى عباد الله الصالحين فقط، بل هو عين التحقير والتصغير لشأن عبادة الله وشأن المهمة وأمر الخدمة التي قام بها المصلحون ـ الأنبياء فمن دونهم ـ في الأرض قبل محمد و بعده . وذلك أن معنى هذا الحديث المكذوب أن الإصلاح في الأرض وتقويم المعوج من الأخلاق، و إصلاح الفاسد من الآداب والمعتقدات، وكل ماقام به الأنبياء والمصلحون كلهم لم يكن هو الغرض من خلقهم و إيجادهم ولا الحكمة في اصطفاء الله إياهم وتفضيلهم على العالمين . . . و إنما الغرض من خلقهم والحكمة في اصطفائهم واختيارهم هو تشريف محمد وتكريمه و إرضاؤه ! ونعوذ بالله من هذا المذهب ومن هذا الحديث الدال عليه، ومن الذاهبين إليه والمصححين له . و برأ الله ابن عباس ـ حبر الأمة ـ من أن يجرى هذا الهذيان والضلال على لسانه، أو على لسان أحد من الصحابة والعلماء الربانيين الفاقهين للإسلام ولحقائقه الظاهرة الأولى .

وإن صح الحديث كان خارجا عن محل النزاع

والجواب الثاني أن يقال : هبوا الخبر صحيحاً فهل يدل على ماذهبتم إليه من الترهات والخرافات ودعاء الأموات ؟ والجواب أن نقول : كلا، لايدل على شيء من ذلكم . فانه لايدل إلا على أن لمحمد ﷺ عند ربه غاية غايات الشرف وأقصى نهاية التكريم والتبجيل، حتى إنه تعالى من تكريمه له و إعظامه إياه لم يخلق آدم ولا الجنة والنار إلا لأجله ولأجل إرضائه و إكرامه، و إنه لولاه لما استحق آدم ولا الجنة والنار الوجود والحياة . . . ولكن هذا لايدل على جواز دعائه والاستغاثة به والعكوف على قبره ميتاً كما أننا نقول نحن : إن الله خلق الخلق لأجل العبادة، ومع هذا لا نقول بجواز دعاء العبادة والاستغاثة بها ولا الغلو

فيها . . والتفضيل والتكريم ليس معناهما قوة المفضل والمكرم ، ولا قدرته ولا إعطاءه القدرة المطلقة والسلطان الواسع ، وليس معناهما أيضاً أن يعطيه الله وصفه أو أن يبيح لخلقه أن يعبدوه وأن يتوجهوا إليه بما يتوجهون به إلى ربهم من أنواع العبادات والاستغاثات والضراعات . . . بل معنى التفضيل والتكريم للعبد الدلالة على أنه كان أخضع خلق الله لله وأقومهم بفروض العبادة وأكثرهم انقياداً لها . فالعبد المفضل المكرم هو العبد الخاضع لله ، العابد له عبودية وقف دونها وعجز عنها من لم ينالوا ما نال من التفضيل والتكريم . فمحمد عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق لأنه كان أعبدهم لربه وأخضعهم لعبادته . والأنبياء والمرسلون أفضل عند الله من سواهم لأنهم قد كانوا أعبد لربهم وأخضع وأدنى إلى معاني العبودية وأكثر استعداداً لذلك والمسلمون المؤمنون أفضل عند الله من الكافرين والملحدين والجاحدين لأنهم أعبد لله وأخلص له وأعظم عبودية وذلة وأصدق توحيداً لله رب العالمين . . وليس محمد رسول الله، ولا الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، ولا المؤمنون أفضل من الآخرين لأنهم كانوا أقدر وأقوى منهم ، ولا لأن الله قد أعطاهم من السلطان والقدرة والقوة ما ميزهم به . بل قد يكون الكافرون والملحدون المطاردون أقدر من الأنبياء وأوسع سلطاناً وسلطة — أعنى السلطة والسلطان الماديين الدنيويين . وقد كان الشياطين والمتمردون والظالمون أقوى من المؤمنين والصالحين والعادلين إلا في الفرط النادر من الزمان . وقد كان بعض الأنبياء السابقين أعظم سلطاناً وملكا من محمد عليه الصلاة والسلام . ولم يمنع هذا أن يكون محمد أفضل النبيين وأكرمهم على ربه وعلى المؤمنين . وهذه أمور لا تتسع للخلاف والنزاع .

كرامة العبد لا يلزمها قدرته المادية

فإذا صح أن الجنة والنار ما خلقتا إلا لأجل محمد ، وأن آدم لم يكن ليخلق لو لم يخلق محمد ، وأن الوجود كله لم يكن ليستحق الوجود والتخليق لولاه عليه

الصلاة والسلام : إذا صح هذا كله لم يكن فيه شئ سوى الدلالة على عظمته ﷺ وعظم فضله وشرفه وكرامته على ربه وقدره لديه . وهذا كله لا يدل إلا على أنه كان أعبد العباد وأزهد الزهاد وأكثرهم صلاحاً وتوحيداً وأكثرهم دعوة إلى ذلك . فأعطاه ربه من التكريم والتفضيل بمقدار ما أعطى عبوديته من الخدمة والرعاية والقوة . وكثرة عبودية العبد لا تحض على عبادته نفسه ، ولكنها تنهى عنها وتذود عن الوقوع فيها ، وتغرى بالسمو إلى الواحد الصمد ، وبالانقطاع عن كل أحد .. فما فى هذا الخبر ، إذا صح ـ شئ مما يذهبون إليه ، ومافيه إلا فضيلة من فضائل محمد عليه الصلاة والسلام و إلا الأمر بالايمان به . فقد قيل لعيسى عليه السلام : آمن بمحمد وأمر من أدركت من أمتك أن يؤمنوا به . وذكر فيه بعد الأمر بالايمان به هذه الفضيلة العظيمة ، ولم يذكر غير الايمان والتصديق . فكأن الفضيلة المذكورة إذا صحت لم تدل إلا على وجوب الايمان بصاحبها وهو خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ولهذا لم يقل فى الخبر المذكور : يا عيسى توسل بمحمد ولااستغث به ولا ادعه ولا اعكف على قبره ، ولا اؤمر من أدركه من أمتك أن يتوسلوا به و يستغيثوا وأن يدعوه و يعكفوا على قبره وأن يسألوه حاجاتهم وأن يسألوه الجنة والنجاة من النار ، أو يسألوه شيئا من هذه الأشياء التى يسألها الناس اليوم المشايخ والأموات والصالحين والطالحين . ففضيلة محمد عليه الصلاة والسلام تقتضى الايمان به واتباعه و إجلاله و إجلال أحكامه وشريعته ، والرغبة عما خالفها وخالفه . والاعتراف بهذه الفضيلة لا يكون إلا بذلك ... أماالانقطاع إلى قبره والعكوف عليه رجاء مدده ونصره ، ورجاء نفعه وضره ـ وأما سؤاله ودعاؤه والاستغاثة به : أما ذلك كله فليس فيه فضيلة له ، وليس الفاعل له من المعترفين بفضله وفضيلته و بقدره و بما أوجبه الله له وخصه به من الفضائل والعطايا الربانية الكريمة . ولهذا نجد العاكفين على قبره.

فضيلة محمد تقتضى الايمان واتباعه دعاءه وطلب الحاجات منه

وعلى قبور سواه من الأنبياء والصالحين والأولياء والأشياخ من أنقص الناس دينًا وتقًى واتباعاً لأوامر الإسلام وأوامر نبي الاسلام . وقد كان أبو بكر الصديق أفضل الأمة وأقربها إلى نبيها وربها وأعظمها اعترافا بقدر النبي عليه السلام ومعرفة له واعترافا بشرفه وفضله وفضائله ، وكان أعملها بذلك : كان أبو بكر الصديق مع ذلك كله أقل المسلمين سؤالا للنبي وشكاية إليه ورغبة في ما عنده من أعراض الحياة الدنيا . بل قيل إنه رضى الله عنه لم يسأل النبي عليه السلام شيئاً قط في حياته لنفسه ولا بعد مماته . وكذلك كان المسلمون جميعاً : أكثرهم إيماناً وتصديقاً وتقوى أقلهم سؤالا للمخلوق وشكاية إليه ورغبة فيه وفي الحاجات لديه . وقد كان الأعراب وحدثاء العهد بالايمان والاسلام هم الذين يكثرون من سؤال النبي. وكانوا يلحفون ويلحون بمسائلهم ومطالبهم حتى كان يغضب وينكر ، وكان يغضب لغضبه كبار أصحابه وسادتهم أمثال الصديق والفاروق . وقد جاء في الحديث الصحيح أن الصحابة كانوا يتهيبون سؤاله عليه السلام ، وكانوا يَدَعُونه مع رغبتهم فيه وحاجتهم إليه، وقالوا : إنهم نهوا عن سؤاله. وكانوا يفرحون ويتمنون أن يأتي الأعرابي من البادية فيسأل النبي فيتلقوا جوابه ويعلموا ما يحتاجون إلى علمه . . . هذا في العلم والدين . أما الدنيا ، فانه عليه الصلاة والسلام كان يغضب ، وكان يشتد في غضبه على من يسألونه الدنيا ، وكان ينكر المسألة ويحذرها ، وكان يذكر وعيد السائلين والمستجدين ، وكان يرغب في التعفف وفي الإقصار عن مسألة الناس ألوان الترغيب . وكان كبار صحابته وكبار المسلمين لذلك أبعد الناس عن أن يسألوه شيئاً من حاجات الدنيا ومآربها وأعراضها . وكانوا — رضى الله عنهم — مع ذلك أعظم الناس إيماناً بالله وبرسوله وأكثرهم اعترافاً بحقوقه وعرفاناً لها .

مسألة الرسول

أما هؤلاء العاكفون على الأجداث فلا يجدون الفضيلة والكرامة للنبي

عليـه السلام أو لغيره إلا فى دعائه وسؤاله واستجدائه وفى العكوف عـلى قبره وجدثه ، وإلا فى الرغبة فيه وتأميل الحاجات والشهوات لديه ، والا فى بناء قبره وزخرفته وإلقـاء المطارف والحرير وأنواع المعلقات الفاخرة الجيدة على قبتـه ومقامه . وقدكان ﷺ أشد الناس زهداً وتزهيداً فى هذا كله يوم أن كان حياً ..

ما يريده عباد الدنيا

فهؤلاء الناس المخالفون لا يعدون فضائل النبى والاقرار بها إلا هذه الألاعيب والمظاهر والزخارف التى لا يرغب فيها إلا أهل الدنيا وأهل الجاه الكاذب المغرور والاطلاب الشهرة والعظمة والعلو فى الأرض من أهل الرثاء والنفاق الحاد ، ومن لا يعملون شيئاً من الاصلاح — أو مما يسمى إصلاحاً — إلا لأجـل أن ينالوا التعظيم وعبادة الجماهير الجاهلة بعد موتهم وذهابهم إلى ماقدموا من صالح أوسيئ. فتنصب لهم التماثيل فى أعظم الميادين ،وتصنع لرفاتهم التوابيت ،وتشاد على رممهم أفخر القباب والبنايات الشامخة الرفيعة . . . وغير ذلك من صنوف الأحابيل التى يوقع فيها الجماهير الغبية الجاهلةَ من يدعون بالعظماء والقواد .

ما يريده عباد الله

ولكن عباد الله حقاً كالأنبياء والمرسلين ، وسائر الصالحين المهتدين بهديهم الآخذين بأخذهم ، لا يرغبون فى شئ من هذا ولا يقرونه ولا يرضونه ولا يكلينون فى إنـكاره ورده على فاعليه وصانعيه . ..ونحن إذا رأينا زعيم شعب يريد من قومه وشعبه العناية به بعـد موته والتقديس لجثمانه وروحـه ، فيرغبهم فى إقامة التماثيل له وفى تسمية الأماكن والطرقات باسمه الشريف الخالد ، وإقامة الحفلات « الدورية » والإنفاق عليها من الأموال والأعمال مالا يطيق الشعب : إذا رأينا زعيم شعب ينحى هذا المنحى ـ بالتصريح أو بالايماء ـ شككنا فى إخلاصه وفى صدق زعامته ، وساغ لنا أن نقول : إنه رجل يعمل لنفسه ولجثمانه وشهوته وشهرته ... ونبذناه إذا كنا عقلاء فطناء .. وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفاعيل حـول قبر النبى وحـول قبور الأنبياء وقبور الصالحين من عباد الله : يزخرفون

و يشيدون و يعلقون و ينذرون و يهدون و يعكفون و يزعمون أن النبي وأن الأنبياء وأن المسلمين الأولين يرضون ذلك و يريدونه منهم و يأمرون به و يدعون إليه و يقبلونه من فاعليه : هؤلاء الذين يفعلون هذا و يزعمون هذا هم يسيئون إلى النبي و إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، و إلى الصالحين من حيث لا يشعرون ولا يريدون ، و يلقون ضباباً من اتهام الجهلاء وظنون الظانين الذين لا يعرفون حقيقة الاسلام وخلوصه و براءته من هذا الجهل والنفاق والرئاء والكذب كله .
أفلايعتبر المخالفون بهذا إن كانوا حقاً الاسلام وحب النبي يريدون و يقصدون ؟ .

﴿ الشبهة الرابعة عشرة السؤال برب جبرائيل ﴾

﴿ وميكائيل وإسرافيل ﴾

خبر السؤال برب جبرائيل وميكائيل ومحمد

الشبهة الرابعة عشرة ، قال الرافضي : ومن أخبار التوسل بالملائكة والأنبياء ما في « خلاصة الكلام » أن النبي عليه السلام أمر أن يقول العبد بعد ركعتي الفجر ثلاثاً : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل ومحمد أجرني من النار ». قال في شرح الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم في قبول الدعاء ، و إلا فهو سبحانه رب جميع المخلوقات . فافهم ذلك أنه من التوسل المشروع » انتهى .

والجواب أن يقال أولا : إن هذا النوع من التوسل لاخلاف في جوازه . فلا خلاف في جواز أن يقول القائل : « اللهم رب الأنبياء ، و رب الملائكة ، ورب السماوات والأرضين ، و رب العالمين : أسألك أن تغفر ذنبي ، وأن تزحزحني عن النار ،وأن تدنيني من الجنة ومن أعمالها وموجباتها .. . » ، ولا في أن يقول قائل : « اللهم رب محمد و رب أبي بكر و رب عمر و رب عثمان و رب علي ، و رب المؤمنين جميعاً : أسألك موجبات رحمتك ومزيلات سخطك . . . » . كل هذا لا خلاف

فى جوازه وجواز أمثاله فيما نعلم . وقد جاء فى صحيح مسلم من حديث عائشة قالت كان رسول الله إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا من التوسل بصفات الله.

فهذا النوع من الدعاء والتوسل لا ينازع فيه أحد من المسلمين فيما نعلم ، لأنه فى الواقع توسل ودعاء باسم من أسماء الله وصفة من صفاته ، وهما اسم « الرب » وصفة « الربوبية » مضافين إلى مخلوقات هى من أعظم وأجل مخلوقات الرب وأشرفها فالذى يقول : أسألك يا رب السماوات ويارب العالمين ، لا يسأل بشىء من الخلق لا بالسماء ولا بالعالم . و إنما يسأل ربه متوسلا إليه باحدى صفاته وهى صفة الخالقية . والذى يقول : يارب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل اغفرلى ذنبى واهدنى لما اختلف الناس فيه لا يسأل بجبرائيل ولا بميكائيل ولا باسرافيل ، و إنما يسأل ربه بصفة الخلق التى من أشرف متعلقاتها والكائنات بها هؤلاء الملائكة الكرام . والرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك. إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » لم يسأل ربه بهؤلاء الملائكة ولا بالسموات والأرض ولا بالغيب والشهادة ، ولا بمن يهديه إلى الصراط المستقيم . و إنما سأله تعالى بصفاته : صفة الربوبية ، وصفة الخلق ، وصفة علم الغيوب ، وصفة الهداية ، وصفة الحكم بين المختلفين . . . ويراد باضافة أحد أسماء الله أو إحدى صفاته إلى بعض المخلوقات العظيمة المبالغة فى الثناء على الله وعلى صفاته وأسمائه . وذلك أن الأمر يعظم بقدر ما يعظم أثره وسببه ، فما كان أثره عظيما وجليلا كان هو عظيما جليلا . ومن أثنى على أثر أمر من الأمور

وعلى أفعاله ومصنوعاته فقد أثنى ولا شك على صاحبها وفاعلها . بل الثناء على المصنوعات المفعولة هو ثناء على الفاعل الصانع . فالذى يقول : اللهم رب محمد والأنبياء ، ورب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ورب الملائكة اهدنى . . . لا يريد بقيله هذا إلا الثناء على الله والتوسل إليه بامتداح صفته التى من آثارها هؤلاء الأنبياء وهؤلاء الملائكة . فهو قد أثنى على صفة الله باضافتها إلى هؤلاء العباد الكرام على الله وعلى خلقه ، وأثنى على الله بثنائه على صفته . فهو قد توسل إلى ربه بالثناء عليه والتمجيد لأسمائه وصفاته . ولم يتوسل بمخلوق ولا بعبد من العبيد . ولهذا قال فى حديث عائشة . « . . . فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك . إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » . ولا يمكن أن يكون هذا من التوسل بالسماوات والأرض وبالغيب والشهادة — أى بالغائب والشاهد — وبالعباد وبمن يهدى إلى الصراط المستقيم من خلق الله . فانه لا يقول أحد : إن التوسل بهذه المخلوقات كلها من التوسل الجائز المشروع . فلا يجيز أحد التوسل بالأرض وبالسماء وبالغائب والشاهد ، وبكل العباد ، وبكل من هدى إلى الصراط المستقيم . ولو كان ذكر جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد فى الحديث الذى ذكروه توسلا وسؤالا بهم لكان ذكر السماوات والأرض والغائب والشاهد والعباد والمهديين فى حديث عائشة وفى غيره من النصوص توسلا وسؤالا أيضاً بها ، لأنه لافرق بين ذكر هؤلاء وذكر هؤلاء . وقد جاء فى الكتاب وفى السنة إضافة لفظة « الرب » إلى كل شئ : إلى العالمين ، وإلى المشارق والمغارب ، وإلى السموات والأرض ومابينهما ، وإلى العرش ، وإلى الشعرى ، وإلى الناس ، وإلى الفلق ، وإلى الغيب والشهادة ، وإلى كل شئ ، وإلى الرياح وإلى الشياطين . . . وهذا كله مذكور فى الكتاب وفى الأخبار . .

إضافة اسم الرب إلى كل شئ فى نصوص الكتاب والسنة

ولـكن لا يذهب عاقل إلى جواز التوسل إلى الله بكل ذلك . لأن القول بجواز التوسـل بالأرضيات والسماويات والعلويات والسفليات وسـائر صنوف المخلوقات حتى الرياح والشياطين والشـعرى والفلق ، وحتى الناس بمنافقيهـم وملحديهم وضلالهم وجهالهم وكفارهم . . . قول لا يرضاه أحد فى ما نظن . والمخالفون يدعون أن قوله فى الخبر المذكور : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل ومحمد . . . » توسل وسؤال بهؤلاء الملائكة و برسول الله عليهم الصلاة والسلام . و إذن ليقولوا : إن قوله فى حديث عائشة وفى غيره : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل و إسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة » الحديث توسل وسؤال بكل شيء . وهذا يلزمهم لزوماً لا فرار لهم منه .

ثم يقال ثانياً ـ . هذا الحديث غير صحيح ، فيه رواة ضعفاء ، تكلم فيهم . وقد رواه ابن السنى والطبرانى فى الكبير . قال فى « مجمع الزوائد » (الجزء الثانى صفحة ٢١٩) : رواه الطبرانى فى الـكبير ، وفيه عباد بن سـعيد . قال الذهبى : لا شيء . وقد زكاه ابن حبان فى الثقات . وقد روى من طرق أخرى كلها ضعيفة لا يصح الاعتماد على شيء منها فى التحليل والتحريم والتشريع . و إنما يقبلها من يقبلها فى فضائل الأعمال ، وفيما ثبت أصله وحكمه بأدلة أخرى صحيحة ثابتة .

هـذا والحديث لم يرد بلفظ الأمر ، و إنما ورد أن النبى عليـه الصلاة والسـلام كان يقول ذلك . والشيعى المؤلف ذكر أن النبى أمر به أمراً . وهو غلط أو كذب .

وأما قوله : « قال فى شرح الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم و إلا فهو سبحانه رب جميع المخلوقات . فأفهم أنه من التوسـل المشروع . . . » فهو كذب ، لم يذكر هذا الكلام فى شرح الأذكار ، لا بلفظه ولا بمعناه . بل ذكر فيه ما يبطل زعم الرافضى . فذكر أن هذا من التوسـل بصفة « الربوبية » لا

هؤلاء المربوبين . ولو كان صادقا فى فيما نقله لما كان فى ما نقل حجة شرعية. لأن كلام الشراح وغيرهم من الناس لا يحكم على الشرع ، بل الشرع هو الحاكم على الشراح وعلى سائر الناس . والكتاب والسنة لا يردان إلى آراء الرجال ، ولكن الآراء ترد إليهما عند المسلمين .

﴿ الشبهة الخامسة عشرة أمر مالك للمنصور ﴾

﴿ ان يستشفع بالنبى عليه السلام ﴾

رواية امر مالك المنصور ان يستشفع بالنبي وتحقيق ذلك

قال القاضى عياض فى كتاب « الشفا » : حدثنا القاضى أبو عبد الله : محمد بن عبد الرحمن الأشعرى ، وأبو القاسم : أحمد بن بقى الحاكم ، وغير واحد فيما أجازونيه قالوا أخبرنا أبو العباس : أحمد بن عمر بن دلهاث . قال حدثنا أبو الحسن : على ابن فهر . حدثنا أبو بكر : محمد بن أحمد بن الفرج . حدثنا أبو الحسن عبدالله ابن المنتاب . حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل . حدثنا ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله . فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فان الله تعالى أدب قوماً فقال : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » الآية ومدح قوماً فقال : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله » الآية . وذم قوما فقال : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » الآية . وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً . . . فاستكان لها أبو جعفر . وقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله . قال الله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك . . . » الآية . انتهى سياق القصة عند القاضى عياض فى كتابه « الشفا » .

قال الرافضى بعد ذكر هذه الرواية : « قال السمهودى : فانظر إلى هذا الكلام من مالك وما اشتمل عليه من أمر الزيارة والتوسل بالنبى واستقباله عند الدعاء وحسن الأدب التام معه » .

الكلام على إسناد القصة

والجواب أن يقال : أما هذه الرواية عن الامام مالك فهى رواية ليست مشرقة الاسناد ولا واضحته ولا معروفة الرجال والرواة ، بل هى رواية منكرة باطلة ، وإسنادها مظلم منكر مجهول . والرواة كلهم من القاضى عياض إلى الامام مالك يحتاجون إلى البحث والتنقير الدقيق. وقد بحثنا عنهم جميعاً فيما بين أيدينا من كتب الحديث وكتب الرجال فما وجدنا منهم غير يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل . وسيأتى الكلام عليه . أما ابن حميد فهو دائر بين رجلين كما سوف يأتى . ثم على جهالة رواة هذا الاسناد لا يدرى هل التقى بعضهم ببعض، وهل تعاصروا ، وهل يمكن أن تكون رواية بعضهم عن بعض متصلة سليمة من الانقطاع ؟ .

فالرواة ـ ما خلا يعقوب ابن حميد ـ مجهولون من كل وجه ، والاسناد مظلم ، يعوزه الإشراق والوضوح . فلا يصح الاحتجاج بالرواية ، ولا يجوز التدين بالاسناد . وعلى من يخالفنا فى هذا ويزعم أن الرواة ثقات أثبات معروفون معلومون ، ويزعم أن الاسناد ثابت صحيح متصل، أن يكشف لنا هذا كله ويبينه بالأساليب العلمية الفنية الصادقة . وإلا فلا التفات إليه ولا مبالاة به . ورواية القاضى عياض للقصة لا يدل على صحتها ، لا عنده ولا عند غيره ، ، وتخريجها فى كتاب : « الشفا » لايدل على أن الرواة معروفون ، وأنهم ثقات أثبات يجب ـ أو يسوغ ـ الاحتجاج بهم .. . لأن القاضى عياضاً يروى فى «الشفا» أحاديث منكرة باطلة بالاجماع ، بل أحاديث موضوعة مكذوبة . وعادته هذه معروفة لا خلاف فيها . وهو مثل غيره من الجامعين فى كتبهم ومؤلفاتهم صنوف الأخبار

الصحيحة ، والضعيفة ، والموضوعة المكذوبة . وليس هو من المشترطين فيما يروون ويذكرون الصحة والثبوت كما اشترط فريق ليس الأكثر من المحدثين ذلك فصارت لكتبهم منزلة خاصة بها بين المسلمين والباحثين جميعاً ، ولكل طائفة من الطائفتين ــ المشترطة الصحة ، والجامعة كل مايصل إليها من الأخبار ــ غرض واضح مشكور . فاسناد الرواية فيما بين القاضي عياض وبين يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل إسناد منكر مظلم مجهول ، لايدان الله بمثله ، ولا يخضع له العلم ولا الايمان . أما القاضي عياض فلا شك في إمامته وصدقه وجلالة قدره وعظم شأنه وصحة ما يرويه بنفسه . وأما يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل فقد ذكره الحافظ الخطيب في التاريخ ولم يذكر فيه قدحاً ولا مدحاً غير قول الدارقطني : إنه لا بأس به . وذكر أنه مروزي الأصل ، وأنه حدث عن أبيه وعن داود بن رشيد ، وأحمد بن عبد الصمد الأنصاري ، والحسن بن شبيب المؤدب ، وعمر بن شبة النميري . وأنه حدث عنه المفضل بن سلمة بن عاصم ، وعبد الصمد بن علي الطستي ، وأبو القاسم الطبراني . ولم يذكر أنه من الرواة عن ابن حميد ، ولم يذكر تاريخ وفاته ولا ميلاده . هذا خلاصة ما ذكره الخطيب في ترجمة يعقوب .

بيان الاختلاف في السند

وأما ابن حميد هذا الذي حدث عنه يعقوب ، والذي روى القصة مباشرة عن مالك ، فاختلف فيه : فقيل : إنه محمد بن حميد الحافظ الرازي ، وقيل : إنه محمد ابن حميد اليشكري البصري . وبكل من القولين قال قائلون . فبالأول قال شيخ الاسلام ابن تيمية ومن تبعه كابن عبد الهادي وغيره . وبالثاني قال السبكي في كتاب « شفاء السقام » ومن قلده من المتأخرين الجهلاء بهذا العلم . والأمر في الظاهر محتمل أن يكون هذا وأن يكون هذا ، لأنه لم يعين في الرواية ، ولم يأت في الظاهر مايعين ويدل على تعيينه . فجاز أن يكون الرازي الحافظ ، وأن يكون البصري

اليشكرى ، وجاز أن يذهب إلى هذا ذاهبون ، وأن يذهب إلى ذاك ذاهبون . ولابد من معرفة الحقيقة ومن تطلبها لمن يريد أن يحتج بالرواية وأن يدين الله بالقصة ، ولابد من معرفة ابن حميد هذا قبل الإقدام على تصحيح حديثه ، لأن أحد هذين الراويين ــ الدائر ابن حميد بينهما ــ ثقة ، وأحدهما ضعيف ذاهب. ولأن أحدهما متأخر عن عصر الإمام مالك ، فروايته عنه لاتكون إلا منقطعة غير متصلة ، وأحدهما متقدم تمكن أن يروى عن الامام مالك وأن تكون روايته عنه متصلة . . . فمن يكون إذن ابن حميد هذا ؟ أهو الرازى الحافظ ، أم البصرى اليشكرى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية ومن تبعه : إنه هو الرازى .

قال ابن تيمية

وعلى هذا فالرواية ضعيفة لأمرين اثنين : أحدهما أن محمد بن حميد الرازى ضعيف . وهاه الأكثرون واتهموه بالوضع والكذب المتعمد . وقد كذبه أبو زرعة الرازى وإسحاق الكوسج وصالح جزرة وابن خراش وابن وارة وآخرون ، وترك التحديث عنه آخرون . ووثقه طائفة مع اعترافهم بوجود المناكير فى حديثه. وثانى الأمرين القاضيين بضعف القصة على هذا الرأى أن رواية ابن حميد الرازى عن الإمام مالك منقطعة ، لأنه لم يرو عنه ولم يدركه . فان ابن حميد توفى سنة ٢٤٨ وتوفى الامام مالك سنة ١٧٩ . فوفاة مالك سابقة وفاة ابن حميد ب ٦٩ سنة . فاذا فرض أن ابن حميد عاش ٦٩ كان مولده فى العام الذى مات فيه مالك . وإذا فرض أنه عاش ٨٩ كانت سنه فى العام الذى مات فيه مالك عشرين عاماً . ولا يمكن فى الغالب المعتاد أن يرتحل من بلاده الرى إلى المدينة المنورة بلدة الامام مالك بن أنس فيلتقى به ويروى عنه قبل هذه السن فى الكثير المعهود إذا فرض أنه روى عنه فى آخر حياته . على أن أبا جعفر المنصور الذى ناظر مالكا كما فى الرواية قد تقدمت وفاته على وفاة مالك ، فانه قد توفى عام ١٥٨ فتكون وفاة المنصور قبل وفاة محمد بن حميد ب ٩٠ عاماً . فاذا قدر أن

عمره ٩٠ سنة كان ميلاده فى العام الذى مات فيه المنصور. فلا يظن أن ابن حميد قد ولد فى حياة المنصور فضلا عن أن يظن أنه ولد وصلح للرواية والتحديث وحمل العلم حينما وقعت هذه المناظرة بين الخليفة والامام فى الحكاية المزعومة . فابن حميد هذا ـ إذا كان هو الرازى ـ ضعيف . ضعفه الأكثرون ، وكذبه طوائف منهم . وروايته عن مالك منقطعة يقيناً . فالحكاية المذكورة ضعيفة بالنظر إلى ابن حميد ـ فقط ـ من ناحيتين : الانقطاع والضعف . والانقطاع والضعف كافيان فى بطلان الرواية وردها ولو لم يكن فى سندها سواهما .

وعليه فالاسناد ضعيف

هذا إذا كان ابن حميد هو الرازى الحافظ . أما إذا كان هو أبا سفيان اليشكرى المعمرى البصرى فهو ثقة ثبت من رجال مسلم فى الصحيح . وهذا هو ماجنح إليه السبكى فى « شفاء السقام » . قال : « أظن ابن حميد هو أبو سفيان البصرى اليشكرى ، لأن الخطيب ذكره فى الرواة عن مالك . . . » . ولكن هذا التعيين لادليل عليه سوى ماذكر عن الخطيب أنه عده من الرواة عن مالك . وهذا لايدل على أنه هو يقيناً إذا صح ماذكره عن الخطيب البغدادى . وإنما هو احتمال عند قوم قوى وعند آخرين ضعيف . وقد ذكر الخطيب ترجمة ابن حميد الرازى وابن حميد اليشكرى البصرى فى التاريخ ولم يذكر أن واحداً منهما روى عن مالك . وكذلك ذكر الحافظان الذهبى فى الميزان وابن حجر فى التهذيب ترجمتهما ولم يذكرا أنهما من الرواة عن مالك . وعلى كل حال فالاحتمال الذى ذكره السبكى احتمال ضعيف لادليل عليه ، ولهذا قال فى كتابه « شفاء السقام » : « أظنه إياه » ولم يقطع مع أنه يود أن يكونه ، ويكره أن يكون الرازى ، لأنه ضعيف ولأنه لم يدرك مالكا . ومع حرصه الشديد على أن يكون ابن حميد هذا هو البصرى اليشكرى الثقة ـ ومع إسرافه فى اتباع هواه يقول : « أظن » ولم يستطع القطع واليقين .

وقال السبكى

وعلى كل حال فالانصاف يقتضينا بألا نجزم بانه الرازى الضعيف كما يقتضينا بأن لا نسلم ظنهم أنه البصرى اليشكرى المعمرى الثقة . فكلا الرأيين لادليل عليه من نفس الاسناد وسياق القصة . و إنما هو الترجيح والتظنى . وهما لايفيدان العلم والمعرفة . وهذا الاحتمال وحده قاض برد الرواية وتضعيفها لجواز أن يكون ابن حميد المبهم هو الرازى الضعيف لا اليشكرى المعمرى الثقة

ومما لاشك فيه أن كلا الرجلين ـ الرازى الحافظ ، والمعمرى البصرى اليشكرى ـ قليل التحديث والحديث عن مالك إذا صح أن أحدهما روى عنه . ولا يعلم أن واحدا منهما التقى به وجلس إليه وسمع منه ، وهما رازى و بصرى ومالك مدنى . وأنت إذا راجعت كتب التراجم وكتب رجال الحديث لاتجدها تذكرهما ولا تذكر واحدا منهما فى الرواة عن الامام مالك سوى ماذكره السبكى عن الخطيب . وهذا يهيج الشك فى صحة الحكاية وصحة سندها .

ومع هذا فالاسناد ضعيف

ولا ريب أن تأخر عصر محمد بن حميد الرازى الحافظ عن عصر مالك وعن العصر الذى وقعت فيه المناظرة بينه و بين الخليفة لايدل على أنه غيره . لانه جائز و واقع معهود أن يحدث الراوى عمن لم يدركه ، وعمن بينه و بينه العصور والسنون بأن يقول مثلا : قال فلان كذا . والناس كلهم يفعلون هذا حتى البخارى نفسه يفعله فى الصحيح ، أعنى الأحاديث المعلقة التى يقول فيها مثلا بلا إسناد قال رسول الله ، أو فعل ، كذا ، وقال أحد الصحابة أوفعل كذا بلا إسناد . وابن حميد الرازى قريب منه أن يقدم على هذا النوع . فانه مدلس كما أنه ضعيف ذاهب الحديث . فتأخره عن الامام مالك وعن عصره لايمنع أن يكون هو المذكور فى هذه القصة ، لا أبا سفيان المعمرى الثقة . و إذا لم يثبت أو يترجح أنه هو كان محتملا وممكناً . والاحتمال والإمكان يمنعان و يأبيان صحة الرواية و يردان على هذا الرافضى ومن يقلدهم فى هذه المسائل قولهم : إن الاسناد صحيح

أو جيد . وكيف يكون صحيحاً وقد احتمل أن يكون أحد الرواة هو هذا الضعيف المتهم بالكذب واختلاق الأخبار ؟ والرواية لاتكون صحيحة إلا إذا كان رواتها كلهم من أول الإسناد إلى آخره عدولا أثباتا معروفين بالنص والعلم والتعيين ، لا بالاحتمال والتجويز والتظنى . . . والحديث الذى يكون أحد رواته ضعيفاً لايصح أن يقال : إنه حديث صحيح أو حديث جيد بلا خلاف بين علماء هذا الشأن ورجاله .

ولو صح ماقالوا كان الاسنا د منقطعا ايضا

على أنه إذا قطع هذا الاحتمال ونهض الدليل أو الدلائل على أن ابن حميد هذا هو أبو سفيان البصرى المعمرى اليشكرى الثقة العدل الذى أخرج حديثه مسلم فى الصحيح كان السند أيضاً معلولا وكان غير صحيح يقيناً ، بل كان منقطعاً غير متصل . فقد ذكر الحافظ ابن عبد الهادى فى كتاب «الصارم المنكى» أن محمد بن حميد المعمرى اليشكرى البصرى قد مات قبل أن يولد يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل الراوى لهذه الحكاية عنه، وقد تقدم أن الخطيب ذكر فى التاريخ يعقوب بن إسحاق هذا وتقدم أنه لم يذكر تاريخ وفاته ولا تاريخ ميلاده ولا ذكر أنه روى عن ابن حميد لا الرازى ولا المعمرى اليشكرى البصرى ،وأنه ذكر أنه كان يروى عن عمر بن شبة النميرى ، والحسن بن شبيب المؤدب ، وداود ابن رشيد ، وأحمد بن عبد الصمد الأنصارى ، وأمثالهم ، وأنه كان يروى عنه أبو القاسم الطبرانى ، والمفضل بن سلمة بن عاصم ، وعبد الصمد بن على الطستى ومن فى طبقتهم . والذى يروى عن هؤلاء ويروى عنه أولئك متأخر عن محمد بن حميد المعمرى البصرى . فان المعمرى قد توفى سنة ١٨٢ ، والطبرانى ــ وكان من الرواة عنه ــ ولد سنة ٢٦٠ ومات سنة ٣٤٠ . فيكون بين ميلاد الطبرانى ووفاة ابن حميد هذا ثمان وسبعون سنة . فاذا قدر أن يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل كانت سنه ٢٠ يوم مات ابن حميد ــ وهذا التقدير لابد منه لتصح روايته عنه ــ

كان بين ميلاد الطبرانى و بين ميلاد يعقوب ثمان وتسعون سنة . ولو صح هذا لم أمكن أن يروى عنه الطبرانى ، وهو من الرواة عنه . إذن فلابد أن يكون عصر يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل متأخراً عن عصر ابن حميد اليشكرى المعمرى، و إذن لابد أن تكون روايته عنه منقطعة بلا ريب . إذ من غير الممكن أن يكون تلميذاً لأحدهما شيخاً للآخر و بينهما هذه الفجوة الزمنية الهائلة .

فالاسناد منقطع على كل حال

فاسناد هذه القصة منقطع على كلا الرأيين والاحتمالين . فان كان ابن حميد هو الرازى الحافظ فالانقطاع بينه و بين مالك . و إن كان هو البصرى اليشكرى المعمرى فالانقطاع بينه و بين يعقوب بن إسحاق بن أبى إسرائيل . فالرواية منقطعة الاسناد لامحالة، فالحكاية ضعيفة لابد ، فالاحتجاج بها باطل مردود لاشك

أمور اخرى دالة على كذب الحكاية

وهنالك أمور أخرى كثيرة تدل على ضعف هذه القصة المروية عن الامام مالك رضى الله عنه . من ذلك أن أصحاب مالك نفسه ، الذين دونوا فقهه وعلمه وكل ما يتصل به لم يذكروها عنه فى ماذكروا وكتبوا . و إنما انفرد بها عنه ابن حميد هذا ، الذى هو الرازى على قول ، والبصرى المعمرى على قول آخر . وهما كلاهما ليسا من أصحابه ولا من حملة العلم عنه لا الحديث ولا الفقه ولا غيرهما من صنوف العلم . ولا شك أن رواية ينفرد بها هذا المختلف فيه عن مالك دون أصحابه الثقات الاثبات الملازمين له رواية جديرة بالاطراح والرد ، أو جديرة على الأقل بالشك فى صحتها وثبوتها .

ومن ذلك أنها مخالفة لما صح عن مالك ولما رواه عنه أصحابه الثقات من أن الداعى يستقبل القبلة لا القبر كما سوف يجئ . وقد زعم فى هذه الرواية أن مالكاً أمر المنصور بأن يستقبل القبر حين الدعاء لا القبلة . وهذا خلاف ما صح عن مالك وخلاف ما رواه الثقات عنه من أصحابه الآخذين عنه . ولا شك أن رواية أصحابه مقدمة على روايات سواهم ، فان أصحاب الرجل أعلم به من غيرهم

ما نقله عياض عن مالك ومخالفته لما فى هذه القصة من وجوه

ولا ريب . قال القاضى عياض فى كتاب « الشفا » : « قال مالك فى المبسوط : لا أرى أن يقف عنـد قبر النبى و يدعو ، ولكن يسلم و يمضى . وقال نافع : كان ابن عمر يسلم على القبر ، رأيته مائة مرة وأكثر يجىء إلى القبر فيقول : السلام على النبى ، السلام على أبى بكر ، السلام على أبى . ثم ينصرف . وعن ابن قسيط العتبى : كان أصحاب رسول الله إذا خلا المسجد جسوا رمانة المنبر التى تلى بيامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون . وفى الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثى أنه كان يقف على قبر النبى فيصلى على النبى وعلى أبى بكر وعمر . وعند ابن القاسم والقعنبى : و يدعو لأبى بكر وعمر . وقال مالك فى المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر و إنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضاً : لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبى فيصلى عليه و يدعو له ، ولأبى بكر ، وعمر . فقيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك فى اليوم مرة وأكثر ، وربما وقفوا فى الجمعة أو فى الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون و يدعون ساعة . فقال : لم يبلغنى هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع . ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغنى عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . و يكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده . قال ابن القاسم : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتوا القبر فسلموا . قال : وذلك رأى . قال الباجى : ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم . وقد قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وقال : « لا تجعلوا قبرى عيداً » . ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندى فى من وقف بالقبر لا يلصق به ، ولا يمسه ، ولا يقف عنده طويلا .

هذا كله كلام القاضي عياض المالكي في كتابه : « الشفا في حقوق المصطفى » من باب : « فصل في حكم زيارة قبره عليه السلام » .

استقبال القبلة بين الدعاء في مذهب مالك

فمذهب الامام مالك الثابت عنه ، الذي رواه ثقات أصحابه في أفضل كتبهم أن الداعي في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام يستقبل القبلة ولا يستقبل القبر كما ذكر في هذه الحكاية ، فالحكاية مخالفة لمذهب مالك المعروف بين أصحابه الثقات البصراء . وهذا مما يفت في عضدها ويوهيها ويقضي بردها واطراحها . ولهذا لم يذكر القاضي عياض هذه المناظرة في « فصل زيارة قبر النبي وآداب الزيارة » وإنما ذكرها في « فصل في أن حرمة النبي بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته » . وكان هذا الذي ذكر في المناظرة من الأمر باستقبال القبر الشريف عند الدعاء لم يكن عند القاضي عياض من آداب زيارة القبر الشريف ومستحباتها . بل عنده أن آداب الزيارة هي ما ذكره في فصل الزيارة من النهي عن استقبال القبر حين الدعاء ، والنهي عن إطالة الوقوف عليه والدعاء عنده ، والاكثار من إتيانه واتيانه . ولو كان استقبال القبر حين الدعاء عند القاضي عياض من آداب الزيارة وسننها ومشروعاتها لأورد هذه الحكاية في باب الزيارة ، أو لأورد معناها . ولا يمكن أن يورد مايخالفها في فصل الزيارة ويقتصر عليه إلا إذا كان يرى أن السنة لا تعدو ماذكره مخالفا لها . وهذا واضح بين .

وأما الرواية الاخرى فالمراد بها الدعاء للرسول

أما ما ذكره عنه رضي الله عنه من رواية ابن وهب أنه قال : إذا سلم على النبي ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ، ويدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده فالجواب أن المراد بالدعاء الذي يستقبل القبر في حينه هو الدعاء للرسول ولصاحبيه أبي بكر وعمر . فان السلام دعاء لغة وشرعاً ؛ ومن الدليل على أنه يسمى دعاء الرواية المتقدمة التي قيل فيها : « ويدعو لأبي بكر وعمر » . وقد نقل

القاضى عياض فى الفصل المذكور : « قال أبو الوليد الباجى : وعندى أنه يدعو للنبى بلفظ الصلاة ولأبى بكر وعمر » . وقال فى الرواية المتقدمة عن مالك : « لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبى فيصلى عليه ويدعو له ولأبى بكر وعمر » . فهذا كله يدل على أنهم يسمون الصلاة والسلام على النبى وعلى صاحبيه دعاء . وهذا لاشك فيه لغة ولا شرعا . فقول مالك رضى الله عنه فى رواية ابن وهب أنه إذا سلم على النبى ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة يراد به الدعاء للنبى ولأبى بكر وعمر ، ولا يراد به دعاء المرء لنفسه . فرواية ابن وهب هذه ليست مخالفة لروايات غيره الصحيحة القائلة : إنه يستقبل القبلة لا القبر وقت الدعاء ، وليست مخالفة لما صح عنه رضى الله عنه من إنكاره الوقوف بالقبر طويلا ، و إنكاره الدعاء عنده . فهذا له موضع وذاك له موضع . فلا اختلاف ولا اضطراب . وهذا معقول مفهوم شرعاً ونظراً . فان الداعى لرسول الله ولصاحبيه بالصلاة و بالسلام أو بغيرهما معقول منه وله أن يستقبل القبور الشريفة وأن يتجه إليها ، لأن فى ذلك نوعاً من الخطاب و إن كان غير حقيقى .

براهين واضحة على بطلان استقبال القبر حين الدعاء والعبادات

أما الذى يدعو لنفسه فى مسجد النبى عليه الصلاة والسلام فمكروه له ومنه أن يستقبل القبر ، لأن استقباله إذ ذاك لا معنى له ، بل فيه نوع وثنية إن لم تكن فى حقيقتها ومعناها ففى صورتها ومظهرها . وفيه غلو منكر قبيح ، وخروج على أصول الشرع وقواعده المعروفة المؤسسة على الاخلاص المحض وعلى التجرد لرب العالمين والخلوص إليه من جميع العوائق والموانع . والنبى عليه السلام حينما كان حيا لم يكن المسلمون يستقبلونه إذا دعوا ربهم لأنفسهم . ولو أنهم استقبلوه لأنكر ذلك عليهم ولما رضيه منهم البتة . ولكن هذا كان بعيداً عن أذهانهم وأفهامهم رضى الله عنهم . وكانت أذهانهم وأفهامهم وخطراتهم وعقائدهم أخلص لله وأعرف بمعانى التوحيد والاخلاص للعبودية من أن تقع فى شىء من هذا ، أو

أن تحوم حول حماه . ولو أن مسلماً أراد أن يدعو ربه فتوجه إلى شيخ حى وتعمد استقباله وقت دعائه لكان ضالا ، وكان فاعلا ما ينكره جميع من عرفوا الاسلام وفقهوا أصوله وفروعه . ولهذا لم يجز لمسلم أن يستقبل فى صلاته شيئاً غير بيت الله ، فلم يجز أن يستقبل النبى ، أو يستقبل قبره فى صلاته وعبادته ، فضلا عن أن يجيز شيئا من هذا لغير النبى ولغير قبره . وقد نهى الاسلام نهياً شديداً صريحاً صحيحاً عن الصلاة إلى المقبور . والنهى عن الصلاة إلى القبور يراد به النهى عن الصلاة إلى المقبور فى الحقيقة والمعنى . إذ البقعة من الأرض المجردة لا ينهى عن الصلاة إليها لذاتها ولا تسمى قبراً بدون مقبور ولو مآلا .

وقد أمر الإسلام المسلمين أمراً عاماً مطلقاً بأن يوجهوا وجوههم إلى خالقهم ومالكهم ، ونهاهم عن أن يلتفتوا إلى سواه فى وقت من الأوقات ، وحالة من الحالات ، لا فى صلواتهم ولا فى دعواتهم ولا فى ضراعاتهم ولا فى سائر عباداتهم ، ولا فى شئ مما يسمى عبادة ودينا . وهذا قد تقدم . وماجاء عن أحد من المسلمين الأولين أنه استقبل رسول الله حينما كان حياً سويا وقت الدعاء ، أو الصلاة أو العبادة المطلقة العامة ، بل ولا فكر أحد منهم فى شئ من هذا . بل وأى معنى ودين فى أن تريد أن تدعو لنفسك ربك وتسأله أمورك وحاجك فتنصرف بجسمك وتتوجه بوجهك إلى عبد من عباده ؟ ولو أنك سألت مخلوقا شيئاً توجهت حين سؤاله إلى سواه لكنت جاهلا فاعلا ما ينكر عليك وما تلام عليه . فما أجدر بالملامة والانكار من راح يدعو ربه وخالقه فتوجه إلى عبيده وخلقه !

فالذين يتوجهون إلى القبور حينما يدعون الله غالطون غلطاً بيناً فاحشاً ، آتون ما ينكره الدين والعقل . وهم ما توجهوا إلى القبور إلا لاعتقادهم أن من

توجهوا إليهم وإلى قبورهم لهم دخل وسلطان وأثر ظاهر فى إجابة دعائهم وإعطائهم ما يسألون ربهم . فكأنهم قد اعتقدوا أن من توجهوا إليه وإلى قبره من وظيفته أن يرفع دعواتهم وحاجاتهم إلى الله وأن يبلغه إياها ويطلب إليه أن يقبلها وأن يجيبها ، وأن يفعل غير ذلك مما يظنون ويتوهمون من غريب الظنون والخطرات والأوهام البعيدة عن الاسلام وعن الاعتقاد الصحيح السليم ، المناهض لكل ما يمت إلى الوثنية والشرك بسبب من الأسباب . فهذه المناظرة المحكية عن الامام مالك ليست صحيحة لأنها مخالفة لمذهبه المعروف المدون عنه فى أصح الكتب ، والذى رواه عنه أجل أصحابه وألصقهم به وأعرفهم بمقالاته ودقائق مذهبه وفنون فقهه . فهى رواية شاذة منكرة .

ومن دلائل بطلانها ركاكة أسلوبها

ومن الدلائل على بطلانها ركاكة لفظها وخروج أسلوبها على الأساليب العربية الصحيحة . وذلك أنه قد قيل فيها : « استشفع به فيشفعك الله » . وهذا لحن صريح . فان الاستشفاع معناه طلب الشفاعة من المستشفع به . فمعنى « استشفع به » اطلب منه الشفاعة ليشفع لك : فالرسول عليه السلام هنا شافع . وإذا كان ذلك كذلك كان الصحيح أن يقال : « استشفع به فيشفعه الله فيك » لا أن يقال : « استشفع به فيشفعك الله » . فان المستشفع بالرسول ليس شافعاً ، والذى يُشَفَّع هو الشافع لا المشفوع له يقينا . ومثل الامام مالك العربى بمولده ونشأته وعلمه يجل عن أن يقع فى هذا الخطأ الذى لا يقع فيه إلا من جهل أساليب العرب ومواقع كلامها . ولهذا لجأ بعض المعارضين المصححين لهذه القصة إلى تحريف هذه اللفظة وتغييرها فرووها هكذا : « استشفع به فيشفعه الله فيك » تحريفاً من عند أنفسهم لتسلم الرواية من هذا العيب الدال على أنها ليست من كلام الامام مالك ولا من كلام عليم بكلام العرب .

وعدم تلاؤم أجزائها

ويدل على بطلانها أيضاً قوله فيها بعد أن سأله المنصور على ما زعموا عن

استقبال القبلة : « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به » . وهذا القول غير متلائم الأجزاء ولا مرتبط الدعوى بالدليل . وذلك أن كون محمد ﷺ وسيلة لنا ، ولأبينا آدم يوم القيامة لا يدل على جواز أن نستشفع به وأن نسأله الدعاء والشفاعة بعد مماته . وذلك أن قوله : « وهو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » يعني به الشفاعة الكبرى التي خص الله بها خاتم أنبيائه وهي شفاعته يوم الحشر لجميع الخلائق ليقضي بينهم وليراحوا من تلك الأهوال كما توارد في الأخبار الصحيحة الكثيرة . فالوسيلة التي أشير إليها بهذه الحكاية هي شفاعة محمد ﷺ يوم يحجم جميع الأنبياء عنها هيبة لله و رهبة من ذاك المقام الرائع المعظم . وهذا لا ريب فيه . ولكن هل تدل شفاعة النبي يوم القيامة على استحباب استقبال قبره حين الدعاء وعلى جواز الاستشفاع به في الحياة الدنيا ؟ وهل يدل هذا على هذا ؟ كلا فإن شفاعة النبي يوم القيامة لا تدل على أن السنّة استقبال قبره حين الدعاء ، ولا على أن من السنة الاستشفاع به في قبره . وهذا لأن شفاعته يوم القيامة لا تدل على أنه يشفع قبلها في حال الموت و في قبره . ولو كان يشفع في حال الموت يقينًا لما دلت شفاعته على أنه لا يشفع إلا إذا طلبت منه ، بل من الجائز أن يشفع لأمته و إن كانوا لا يسألون الشفاعة . وهذا كما أمر صلّى الله عليه وسلم بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات . والاستغفار شفاعة ، وكما تستغفر الملائكة للمؤمنين وهم لا يسألونهم ذلك . ثم لو فرض أن شفاعته يوم القيامة تدل على أنه يشفع في حال الموت ، وفرض أنه لا يشفع إلا إذا طلبت منه الشفاعة ما دل شيء من ذلك على استحباب استقبال القبر عند الدعاء . وهذا لأن الدلائل قد قامت على أن الأنبياء ومن دونهم من الصالحين والمؤمنين يعرجون بعد موتهم — أعني أرواحهم — إلى أعلى عليين كما قال تعالى : « أحياء عند ربهم يرزقون » . و إذا

كان النبي وكان غيره من الأنبياء والصالحين والمؤمنين عند ربهم لم يكن للاتجاه إلى القبر بقصد خطابه وسؤاله معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه ، وإنما الصحيح لو صح هـذا الذى تقدم أن يتوجه الداعى السائل إلى كل الجهات والوجوه على سبيل التوزيع والتقسيم ، يدعو ويستشفع ويطلب ، كما أن من أراد الصلاة والسلام على النبي صلى وسلم حيث كان وحيث اتجه . وقد قال ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتى السلام » . رواه النسائي من حديث عبد الله ابن مسعود . وروى أبو داود أنه عليه السلام قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً وصلوا على حيثما كنتم ، فان صلاتكم تبلغنى » . وروى عبد الرزاق فى مصنفه عن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم وقال قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لاتتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » . وروى سعيد بن منصور فى سننه عن عبد العزيز بن محمد عن سهيل بن أبى سهيل قال : رآنى الحسن بن الحسن بن عـلى بن أبى طالب فنادانى وهو فى بيت فاطمة فقال : مالى رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي . فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال إن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « لاتتخذوا بيتى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر . لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وصلوا على حيث كنتم . فان صلاتكم تبلغنى » . ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء . وروى أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن أبى بكر بن أبى شيبة عن زيد بن الحباب عن جعفر بن إبراهيم — من ولد ذى الجناحين — عن على بن عمر عن أبيه عن على بن الحسين — زين العابدين — أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة عند قبر النبي فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه عن ذلك ، وقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله قال : « لاتتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً . فان تسليمكم يبلغنى أينما

الاحاديث فى النهى عن اتيان القبر النبوى من طرق أهل البيت وغيرهم

كنتم » . قال الحافظ الهيثمى :« رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفرى . ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحاً . ورجاله ثقات » . كذا جاء فى نسخة « مجمع الزوائد » المطبوعة . وهـذا تحريف واضح . والصواب جعفر بن إبراهيم لا « حفص » . وجعفر بن إبراهيم هـذا الذى قال الحافظ الهيثمى : إن ابن أبى حاتم ذكره ولم يجرحه قدذكره الحافظ العسقلانى فى كتابه« لسان الميزان » قال: « جعفر بن إبراهيم الجعفرى . عن على بن عمر عن أبيـه عن على بن الحسين نسخة . وعنه زيد بن الحباب . قال ابن حبان : يعتبر بحديثه من غير روايته عن أبيه . وأخرج أبو يعـلى عن أبى بكر بن أبى شيبة عن زيد بن الحباب بهـذا السند عن على بن الحسين حـدثنى أبى عن جـدى رفعه : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً . فان تسليمكم يبلغنى أينما كنتم » . وفى الحديث قصة (يشير إلى القصة المتقدمة من دخول الرجل الفرجة إلى آخره) . وأخرج إسماعيل ابن إسحاق القاضى فى فضل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام عن إسماعيل ابن أبى أويس عن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبـد الله بن جعفر عمن أخبره من أهل بيته عن على بن الحسين . . . فذكر القصـة مطولة . وفيها قال على بن الحسين : هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبى ؟ قال : نعم . قال : أخبرنى عن جدى . . . فذكره وزاد بعد قوله : « قبوراً » « وصلوا على وسلموا حيث كنتم . فتبلغنى صلاتكم وتسليمكم » . وقد أخرج المتن ابن أبى عاصم فى كتاب « فضل الصلاة على النبى » من طريق سعيد بن أبى مريم عن محمد بن جعفر حدثنى حميد بن أبى زينب عن جسر بن الحسن اليمامى أبى عثمان عن أبيه رفعه قال : « حيثما كنتم فصلوا على فان صلاتـكم تبلغنى » . ومحمد بن جعفر هذا هو ابن أبى كثير لا قرابة بينه وبين جعفر المذكور فى سند إسماعيل ولا إبراهيم ابن جعفر فى سند أبى يعلى . . . وذكره ابن أبى طى فى رجال الشيعة . وقال : كان

أحاديث أخرى فى هذا المعنى

ثقة من رجال علي بن الحسين رضى الله عنهما . روى عنه عبد الله بن الحجاج. »
انتهى كلام « لسان الميزان » . وحديث علي بن الحسين هذا قد رواه أيضاً
أبو عبد الله المقدسي في الأحاديث المختارة . قال ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية
والحافظ ابن عبد الهادي في « الصارم المنكي » . وقال الحافظ ابن كثير في
التاريخ : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبد المجيد
ابن عبد العزيز بن أبي رواد عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن
عبد الله بن مسعود عن النبي عليه السلام قال : « إن لله ملائكة سياحين يبلغونني
عن أمتي السلام » . وقال قال رسول الله : « حياتي خير لكم ، تحدثون ويحدث
لكم ، ووفاتي خير لكم ، تعرض على أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله
عليه ، ومارأيت من شر استغفرت لكم » . قال البزار : لم نعرف آخره يروى
عن عبد الله إلا من هذا الوجه . قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » : إن
رجاله رجال الصحيح . ونعم ، رجاله رجال الصحيح كما قال . ولكن في بعضهم
كلام مشهور . وسوف نبين في ما بعد أن قوله : « حياتي خير لكم » الحديث إن
صح لايدل على ما يذهب إليه المخالفون ألبتة وإنما يدل على ما نذهب إليه .

لا يستقبل القبر عند الدعاء كما لا يستقبل عند الصلاة والسلام عليه

وعلى هذا لاداعي لاستقبال القبر ولا معنى له حين الدعاء ، كما أن من يصلي
ويسلم على النبي عليه الصلاة والسلام يصلي ويسلم حيث كان ووجد ، وحيث توجه
وقصد ، لا يتيمم جهة مخصوصة . والمسلمون ، في جميع أوقاتهم وحالاتهم : يصلون
ويسلمون عليه في صلواتهم المفروضة وفي الصلوات النوافل ، ويصلون ويسلمون
عليه عند دخولهم المساجد ، وعند ذكره ، ويدعون له بالوسيلة والفضيلة
وبالمقام المحمود عند الأذان . ويصلون ويسلمون عليه في كثير من أوقاتهم
وحالاتهم . ولا يقصدون بذلك جهة معينة ولامكانا مخصوصاً ، ولايتوجهون شطر
المدينة المنورة حيث يقيم جسده الشريف حين صلاتهم وسلامهم عليه ،

بيتلا يفكرون فى هذا . بل عندهم أن من قصد هذا وتعمده فقد خرج على دين المسلمين ، وخالف إجماعهم ، وجاء بأمر عظيم و ببدعة نكراء هوجاء .

فمقالة هـذا القائل فى الرواية المنسـوبة إلى الامام مالك : « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك و وسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ... » غير متلائمة الأجزاء ، ولا صحيحة النظام والاستدلال . بل هى مقالة متنافرة الأجزاء ، ركيكة الأسلوب والسياق ، يجل عن مثلها مثل الامام مالك رضى الله عنه . و إنما يصح فى الكلام أن يقال : « ولم تصرف عنـه وجهك وأنت تخاطبه ، وهو يسمعك إذا خاطبته ، و يشفع لك إذا استشفعت به؟ فاستقبله ، واستشفع به ، فيشفعه الله فيك ... » . هذا مايصح قولا و إن كان لا يصح دينًا ولا نقلا .

ويدل على كذب القصة الأمر بالاستشفاع بالنبى

ومما ينادى على بطلان هذه الرواية وكذبها قولهم فيها : « ... واستشفع به ... » فان الاستشفاع بالنبى بعد موته أو بغيره من الأموات لم يؤثر عن أحد من سلف الأمة الصالح ، لا عن أحـد من الصحابة ولا عن أحد ممن بعدهم باسناد يقام له وزن . فما نقل عنهم أنهم استشفعوا بالنبى ولا بغيره من الأنبياء والصالحين فى قبورهم . وهذا قد تقدم الـكلام عليه مرارًا . ومالك رضى الله عنـه ينكر أقل من ذلك ، وقد أنـكر ، كما تقدم ، الدعاء عند القبر و إطالة الوقوف به ، وتعمد الذهاب إليه . وقال : إن الزائر يسلم ثم ينصرف ، لايقف ولا يدعو ولا ينتظر . وقد سلف قوله المروى عنه فى المبسوط وفى « الشفا » للقاضى عياض : « لا أرى أن يقف عند قبر النبى ، ولـكن يسلم و ينصرف » ، وقوله : « لا بأس لمن قدم من سـفر أو أراده أن يقف على قـبر النبى فيصلى عليـه ، و يدعو له ، و يدعو لأبى بكر وعمر » . وقد قيل له : إن ناسًا من أهل المدينة لايقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك فى اليوم مرة وأكثر ، وربما وقفوا فى الجمعـة أو فى الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عنـد القبر فيسلمون و يدعون ساعة . فقال رضى الله عنه

«لم يبلغنى هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا . وتركه واسع . ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغنى عن أول هـذه الأمة وصـدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . ويكره إلا لمن جاء من سـفر أو أراده . . . » . فاذا كان مالك رضى الله عنـه يكره ـ والكراهة فى كلام السلف تنطلق إلى التحريم ـ الدعاء عند القبر الشريف ، ويكره الوقوف به ، والذهاب إليه إلا حين إرادة السفر أو الرجوع منه : إذا كان يكره ذلك كله ويقول : إننا لم نجد أهل العلم من أهل بلدنا يفعلونه ، ويقول : إن آخر الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها وصـدرها : إذا كان هذا كله من قول الامام مالك ، ينقله عنـه أفضل أصحابه فى أفضل كتبهم فكيف يمكن أن يقول لمن سأله عن استقبال القبر : « استقبله واستشفع به . . » ولا ريب فى أنه إذا كره دعاء الله عند القبر كان لدعاء صاحب القبر نفسه أكره بلا خـلاف ، وأنه إذا كره الوقوف بالقبر وإطالته لم يمكن أن يجوز الاستشفاع بساكنه عليه الصلاة والسلام . وهذا كله بين جلى .

رأى السلف الصالح فى اتيان قبر النبى للزيارة والسلام

والاستشفاع به عليه السلام بعد موته لم ينقل عن أحد من الصحابة بسند صحيح محترم ، ولا عن أحد من غيرهم من أئمة الدين الذين لهم لسان صـدق فى الأولين والآخرين . وقد مرت بالصحابة وبالتابعين وبمن بعدهم من أئمة هـذا الدين أوقات عصيبة ، وحالات عسيرة ، فاحتاجوا إلى المعين وإلى المنقذ المُخَلِّص ، واحتاجوا إلى رحمة الله ونصرته ، وتطلبوا كل سبب من أسباب النجاة الشريفة الصحيحة . . . ولـكن أحداً من هؤلاء لم يحاول الذهاب إلى القبر للاسـتشفاع وطلب الدعاء والمغوثة والمعونة . . . بل المعروف عن الصحابة رضى الله عنهـم أنهم ما كانوا يقصدون القبر الشريف للزيارة والسلام خلا ما جاء عن عبد الله بن عمر إذا قدم من سفر ، فقد نقل عنه أنه كان إذا حضر من سفر ذهب وسـلم على النبى عليه السلام وعلى صاحبيه ، لا يزيد عـلى السلام شيئاً . وبفعـل ابن عمر

احتج من احتج من السلف كالامام مالك على استحباب الزيارة والسلام للغرباء ولأهل المدينة إذا أرادوا السفر أو قدموا منه. ولكن هذا لم يكن من فعل جمهور الصحابة، ولامن فعل الخلفاء الراشدين منهم. بل لقد جاء فى الروايات مايدل على كراهتهم هذا الذى استحبه ابن عمر وفعله، ورضى الله عن الجميع وقد تقدم أن على بن الحسين المعروف بزين العابدين، وأن ابن عمه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أنكرا على من رأياه يقصد القبر الشريف للزيارة والسلام والدعاء، وقالا: إن النبى عليه السلام قال: «لاتتخذوا بيتى عيدا، ولا بيوتكم قبوراً» وإنه قال: «لعن الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وإنه قال «وصلوا على حيث كنتم فان صلاتكم تبلغنى أينما كنتم». وقد قال الحسن بن الحسن فى روايته لمن نهاه عن ذلك: «ماأنتم ومن بالأندلس إلا سواء». وقال شيخ الاسلام ابن تيمية: روى الشيخ الصالح أبو الحسن: على بن عمر القزوينى فى أماليه عن عبد الله الزهرى عن أبيه عن عبد الله بن أحمد عن أبيه عن نوح ابن يزيد قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعد قال: مارأيت أبى قط يأتى قبر النبى، وكان يكره إتيانه. وقد روى عبد الرزاق فى مصنفه عن معمر عن أيوب عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبى فقال: السلام عليك يارسول الله، السلام عليك ياأبا بكر، السلام عليك ياأبتاه. قال معمر: فذكرت ذلك لعبيد الله بن عمر العمرى فقال: مانعلم أحداً من أصحاب النبى فعل ذلك إلا ابن عمر. وهذا صحيح فانه ماجاء باسناد يعبأ به شىء من ذلك عن أحد من أصحاب النبى غير عبد الله بن عمر، بل وما كان الصحابة ينطقون بلفظ زيارة قبر النبى. وقد صح عن مالك أنه كره أن يقال: زرنا قبر النبى. وقد روى أبو داود فى فى سننه من حديث أحمد بن صالح عن عبد الله بن نافع الصائغ عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال قال رسول الله: «لاتجعلوا بيوتكم

إنكار ذلك

قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » .

روايات أخرى عن كراهة ذلك

ورواه أحمد من هذه الطريق . وهذا الحديث مافيه إلا ابن نافع الصائغ وثقه قوم وطرحه آخرون ، وهو من رجال مسلم فى الصحيح . وعلى كل فاسناده أفضل وأصح من أسانيد الأحاديث والروايات التى يحتج بها المخالفون على زيارة القبر والعكوف عليه وشد الرحال إليه . والحديث له شواهد كثيرة تقدم بعضها . وقد تقدم حديث على بن الحسين وحديث الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . فهو ليس مفرداً غريباً لافى معناه ولافى نصه . وعبد الله بن نافع الصائغ لم يتفرد به حتى يخشى من غلطه فيه وضعفه . ومن شواهده قوله ﷺ : « اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . قال القاضى عياض فى « الشفا » : وقد كره مالك أن يقال : زرنا قبر النبى . ثم أخذ عياض فى تأويل قول مالك هذا وفى تعليل كراهته قال : « والأولى عندى أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبى وأنه لو قال : زرنا النبى ، لم يكرهه لقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد بعدى . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبه بفعل أولئك ، قطعا للذريعة وحسما للباب . . » . هذا كلام عياض فى الشفا من باب الزيارة . وقد ذكر فى هذا الفصل من الشفا أن الباجى تأول هذا الحديث والحديث الآخر وهو قوله عليه السلام : « لاتجعلوا قبرى عيدا » على من يقصدون القبر الشريف من أهل المدينة للزيارة والسلام والدعاء كما فعل الحسن ابن الحسن وعلى بن الحسين - زين العابدين - حفيدا فاطمة الزهراء ابنة رسول الله وبضعته الطاهرة ، وولدا ولدى على بن أبى طالب . ومن شواهد ذلك مارواه سعيد بن منصور فى سننه قال : حدثنا حبان بن على حدثنا محمد بن عجلان عن أبى سعيد مولى المهرى قال قال رسول الله عليه السلام : « لاتتخذوا بيتى عيداً

ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيث كنتم . فان صلاتكم تبلغنى » . وهذا مرسل لأن أبا سعيد هذا تابعى وهو ومحمد بن عجلان ثقتان من رجال مسلم فى الصحيح . وأما حبان بن على فهو من رجال ابن ماجه فى سننه ، وفيه كلام . وثقه قوم وضعفه الأكثرون . فهذا الإسناد لا يصلح الالتفات إليه إلا فى الشواهد والمتابعات ، وهو هنا كذلك . ومن الشواهد ما رواه الحافظ النسائى فى سننه من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله عليه السلام : « إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » . وقد تقدم الكلام عليه . ومن الشواهد الحديث المشهور الصحيح المروى فى الصحاح من طرق وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . . . » الحديث ، وقد جاء بلفظ النهى و بلفظ النفى والإخبار . وسوف يجئ القول فيه . ومن الشواهد الأحاديث المتواترة فى النهى عن اتخاذ القبور مساجد ، الزاجرة الناهية عن فعل اليهود والنصارى ، المتخذين قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد . ومعنى هذه الأحاديث متواتر مروى بطرق وأسانيد لا شك فى ثبوتها وصدورها بالجملة عن النبى . وما جاء ما يخالفها لا عن النبى ولا عن أصحابه ولا عن الأئمة المقلدين ، الذين لهم لسان صدق فى الأمة . وقد كان أصحاب النبى عليه السلام ، وكان الخلفاء منهم يدخلون المسجد النبوى فى اليوم والليلة المرات العديدة للصلوات ولغيرها من شئون الدين وشئون الدنيا . وكانوا يزورون أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى فى حجرتها التى قبر فيها النبى وصاحباه . وما جاء عنهم أنهم كانوا حين دخولهم المسجد وحين خروجهم منه ، وحين زيارتهم لعائشة يذهبون إلى القبر ويقفون به وعليه ، يدعون و يسلمون سوى ما جاء عن عبد الله بن عمر إذا قدم من السفر كما تقدم . ولا شك أنهم لو كانوا يفعلون ذلك لنقل إلينا كما نقل إلينا فعل ابن عمر ، وكما نقلت إلينا أقوالهم وأعمالهم

من شواهد ذلك

وهاهنا أمر قاطع فى المسألة ، يدل دلالة واضحة جلية لا ريب فيها عـلى أن أصحاب النبى ، وناشرى دينه ، وحاملى رسالته ما كانوا يفكرون فى هذا المعنى ، ولا كان يجول فى أنفسهم أو يمازج عقائدهم أنه من الاسلام ومن التعظيم للنبى عليـه السلام . هذا الأمر هو إجماعهم على أن يدفنوه ﷺ فى حجرة زوجه عائشة ومعه صاحباه وخليفتاه الراشدان : أبو بكر وعمر . ولو أنهم كانوا يريدون الإكثار من زيارة القبر ومن الوقوف عليه ، ومن الطواف به والاختـلاف إليه ، أو لو كانوا يظنون أن شيئاً من هذا من مقاصد الاسلام وغاياته ، لما وضعوه هو وصاحباه فى حجرة عائشة . . . بل لوضعوهم فى مكان بارز مباح ، يستطيع الخاصة والعامة أن يصلوا إليه ، وأن يزوروه ، وأن يقفوا عليه طويلا ، وأن يختلفوا إليه متى شاءوا الاختلاف وأرادوا ، يدعون و يسألون و يسلمون ، و يتلون مايتلون من الأناشيـد والأوراد والدعوات . . . كأن يضعوهم مثلا فى الصحراء أو فى أحد الميادين العـامة أو فى وسط المسجد أو فى قبلته أو نحو ذلك . . . ولهذا نجـد الناس ينصبون تماثيـل زعمائهم وقادتهم المهرجين — وكذا يفعلون فى قبورهم وأضرحتهـم — فى الميادين العامة والأماكن الواسعة المباحة للجميع . . . لأنهم يريدون أن يكثر الشعب من مشاهدتهم ومشاهدة أجداثهم وما يذكرهم بهم ، وأن يكثر من العكوف عليهم وعـلى أنصابهم وتماثيلهم والاحتشاد على قبورهم ، وليصل إليها الصغير والـكبير والخاص والعام فى كل وقت ومن كل مكان وجنس . تثبيتا للمعنى الذى يريدون و يسعون نحوه . وهو إحدى غاياتهم الملومة التى يقال : إنها شريفة . . . ولا يمكن أن يوضع تمثال زعيم أو قبره فى بيته وفى مسكن زوجـه الخاص إلا إذا أريد أن يحال بينه و بين الناس ، وأن يحجب ويقصى عن زيارات الشعب وعن طوافه ووقوفه به . وهذا واضح لا ينازع فيه عاقل ما .

والبرهان الواضح على ما نقول دفن النبى فى حجرة زوجه

فالمسلمون مادفنوا جثمان نبيهم الـكريم فى حجرة زوجـه عائشـة رضى الله

لماذا أخفى قبر النبى

عنه إلا بعد علمهم أن العكوف على قبره ، وأن الطواف به ، وأن الاحتشاد عليه وأن الاختلاف إليه ليس من الدين ولا من فعل المسلمين، ولا مما يريده رسول الله منهم . ولولا ذلك لدفنوه فى مكان مكشوف مباح الوصول إليه كل وقت لكل أحد ولأبرزوه . . . كما قالت عائشة : « ولولا ذلك لأبرز قبره » . أى لولا خشية أن يتخذ قبره مسجداً وأن يعكف عليه — ولولا نهيه ﷺ أيضا لأبرزه المسلمون ؛ أى لوضعوه فى البراز وهو الخلاء . ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله فى مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . قالت عائشة بعد رواية الحديث : « يحذر مافعلوا . ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا » .

الفرق بين من يعمل للدنيا ومن يعمل لله ومظاهر ذلك

والفرق بين ما يفعله الناس لزعماء الدنيا وعظمائها ، وبين ما فعله المسلمون لنبيهم أن عظماء الدنيا وزعماءها ما كانوا ولا عملوا ما عملوا مما يسمى إصلاحاً ومما استحقوا من أجله أن يكونوا عظماء ، وزعماء ، إلا لأجل نيل الدنيا ونيل جاهها وفخرها وشهواتها ، ولنيل السمعة الذائعة، والأحدوثة الشائعة ، ثم السلطان المادى القاهر . فكان من المعقول أن تنصب تماثيلهم وأجداثهم وصورهم فى الميادين وفى الأماكن العامة الواسعة ليدركوا ما عملوا من أجله ولأجله من عبادة الجماهير وتعظيمهم والافتتان بهم وانفاق الأموال فى سبيل ذلك . أما رسول الله — وكذلك كل رسول — فما كان ولا عمل ولا أصلح إلا لله وحده لا شريك له : لم يعمل لأجل أن ينال تعظيم الناس أو عبادتهم أو جزاءهم وشكرهم وأجرهم أو لينال شيئا من شهوات الحياة ومفاتنها ومغرياتها ، بل كان كل شىء فيه لله وحده . . . . فكان من المعقول أن يبتعد عن هذا الذى لم يعمل له والذى لا يريده . . . فكانت النتيجة أن أخفى قبر النبى عليه السلام وأن نهى عن الغلو فيه وفى قبره ، وعن اتباع آثاره ، وأن حرمت تماثيله وصوره وكل ما يمت

إلى ذلك . . . وكان أن نصبت تماثيل رجال الدنيا ، و رفعت قبورهم ، ودعى إلى عبادتهم . . . وكل ميسر لما خلق له .

فلا ريب أن دفن المسلمين نبيهم فى حجرته وحجرة زوجه حجة لا تنازع على أن القوم كانوا بعيدين عما ذهب إليه هؤلاء المخالفون العاكفون على الأجداث ، وعلى أنهم كانوا يعلمون أن زيارة القبر الشريف والعكوف عليه وانتيابه ، والطواف به ليست من مقاصد الدين ، ولا من أغراض الاسلام والمسلمين .

ويوضح هذا إحاطة القبر بالجدران وسد الحجرة

ويوضح هذا جداً أن عائشة رضى الله عنها لما توفيت وأدخلت حجرتها فى المسجد لما احتاجوا إلى توسيعه سدت الحجرة على القبور الثلاثة ، وحيل بين الناس و بينها . ثم لم يكتف بهذا بل أحيطت الحجرة بجدار «برانى» زاد الناس بعداً عن القبور الثلاثة وحيلولة بينهم و بينها. فصاروا لا يقدرون على الوصول إليها ولا على الوقوف بها وعليها . وصارت هذه مزية خاصة بقبر النبى وقبرى صاحبيه لحكمة عليا تدق على أفهام هؤلاء الذين لا يريدون أن يفهموا الشرع وحكمه وأسراره . . . فإن سائر القبور بارزة ظاهرة مكشوفة ، تستطاع زيارتها والوقوف بها والعكوف عليها والدنو منها . أما قبر النبى وقبرا صاحبيه فقد حال المسلمون بين الناس وبينها لسر عظيم يعلمه الله و يعلمه الراسخون فى العلم ، و إجابة لدعاء نبيه عليه الصلاة والسلام إذ قال : «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد» . فالذين يذهبون اليوم وقبل اليوم إلى المسجد النبوى و يزورونه هم لا يزورون القبر لأنهم لا يصلون إليه ، و إنما يزورون المسجد والجدران المحيطة بالقبر . والذين يظنون أنهم يزورون القبر غالطون واهمون . و إنما يزورون مسجده عليه الصلاة والسلام ومصلاه ومواضع عبادته . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » . وكل فضيلة تذكر فى زيارة النبى أو زيارة قبره إنما يراد بها

زيارة مسجده الذى بنى بأمره ، والذى شارك أصحابه فى بنائه بيديه الشريفتين ،
والذى شاده وعمره بالعبادة والتلاوة والتوحيد خير أهل الأرض إذ ذاك وهم صحابته
— رضى الله عنهم أجمعين .

فدفن المسلمين نبيهم فى بيته ، ثم سدهم الحجرة وتسويرها بالجدران دليلان
ظاهران على أنهم ما كانوا يريدون الاحتشاد على زيارة القبر والعكوف عليه ،
وعلى أنهم كانوا قد قصدوا الحيلولة بينه و بين الناس — حذر الغلو ، وحذر الضلال .

وثم أمور أخرى تساند ما ذكرناه

وهنالك دلائل أخرى كثيرة تساند هـذا الذى ذكرناه وذكرته عائشة
رضى الله عنها . من ذلك ما روى أن المسلمين فى غزوهم فارس وجدوا قبر
« دانيال » النبى طريا فأمرهم عمر رضى الله عنه بأن يحفروا عدة قبور وأن يدفنوه
فى أحدها لئلا يعرف مكانه فيقع المحذور . ومن ذلك قطع عمر شجرة الرضوان
التى بايع المسلمون نبيهم تحتها والتى ذكرها الله فى كتابه . ومن ذلك نهيه رضى
الله عنه عن تعمد الصلاة فى المسجد الذى صلى فيه رسول الله قائلا لهم : هكذا
هلك أهل الكتاب قبلكم : اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً · من عرضت له الصلاة
فيه فيصل و إلا فلا . وقد ثبت هذا عن عمر بالاسناد الصحيح ، رواه سعيد بن
منصور فى سننه من حديث أبى معاوية عن الأعمش عن المعرور بن سويد عن
عمر . وهذا إسناد مشرق كالشمس ، ورجاله كلهم أئمة عدول يسمون على النقد
والبحث والامتحان . وقد ذكر هـذا عن عمر أكثر الذين ألفوا فى البدع من
المتقدمين والمتأخرين . فذكره الحافظ محمد بن وضاع محدث المغرب فى وقته فى
كتاب « البدع والنهى عنها » . وذكره الشاطبى فى كتاب : « الاعتصام »
وذكره أبو شامة فى كتابه : « الباعث على إنكار البدع والحوادث » .
وذكره الطرطوشى فى كتابه « الحوادث والبدع » . وذكره غير هؤلاء من
القدامى والمحدثين .

الجمع بين ماذكره عياض فى الشفاء

وهذا كله يعرفه الامام مالك و يعرفه أصحابه ، لا يختلفون فيه . ولهذا لما عقد القاضى عياض فى كتاب « الشفا » فصلًا عنوانه : « فصل فى حكم زيارة قبره ﷺ وفضيلة من زاره وسلم عليه ، وكيف يسلم ويدعو » لم يذكر أن الزائر يستشفع به عليه السلام أو يسأله أن يدعو له : لم يذكر شيئا من هذا القبيل و إنما ذكر الصلاة والسلام عليه والدعاء له ولصاحبه ، وذكر ماقدمناه من الروايات المحفوظة عن مالك ، المتواترة عنه بين أصحابه من أن الزائر لا يقف على القبر طويلا ولا يدعو عنده . ولكن يسلم ثم ينصرف ، ويستقبل القبلة ويدعو . وذكر ماصح عن مالك أيضاً من كراهته لأهل المدينة زيارة القبر والوقوف به وقوله : إن ذلك لا يشرع إلالمن جاء من سفر أو أراد سفراً . أما أهل المدينة فلا يشرع لهم شئ من ذلك . وقد قال : إننا لم نجد أهل الفقه ببلدنا يفعلونه . وقال : لا يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها وصدرها. ولو كان من مذهب مالك أن الزائر يستشفع بالنبى عليه الصلاة والسلام لذكر ذلك عياض فى الشفا فى هذا الباب الذى ذكر فيه كل ما يشرع للزائر فى مذهب المالكية أن يفعله . ولذكره سواه من علماء المذهب . و يوضح هذا جيدا أن عياضا لم يذكر فى باب الزيارة الاستشفاع مع أنه هو الذى روى وذكر مناظرة المنصور لمالك التى فيها الأمر بالاستشفاع . وعياض لم يذكر هذه المناظرة ليستدل بها على جواز الاستشفاع بالنبى بعد موته ، و إنما ذكرها للاستدلال بها على أن حرمته ﷺ ميتاً كحرمته حيا . وقد ذكر المناظرة فى الفصل الذى عنوانه : « فصل ، واعلم أن حرمته عليه السلام بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته » . فالمناظرة مذكورة فى غير باب الزيارة لأنه ليس كل ما فيها يشرع للزائر فعله عند مالك وعند أصحابه كعياض وغيره . ومن الجائز أن تكون الحكاية عند عياض غير صحيحة الاسناد ، ولكن ساقها فى هذا الفصل استدلالا بها على أمر مجمع عليه

وهو وجوب توقير النبي وتعظيمه بعد وفاته كما كان ذلك في حياته . وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين . فالاستدلال عليه بالرواية الضعيفة لا بأس به ولا خلاف فيه. ولا ريب أن عياضاً لو كان يعلم أن الاستشفاع بالنبي في قبره مشروع للزائر في مذهب مالك ـ وعياض من علماء المالكية الكبار ـ لذكره في باب الزيارة ، ولما ذكر الروايات الثابتة الصحيحة الدالة كلها على إنكاره ونكرانه . فان الروايات التي ذكرها في كراهة الدعاء عند القبر و إطالة الوقوف به ، وكراهة استقبال القبر عند الدعاء وكراهة الزيارة لأهل المدينة . كل هذا قد ذكره القاضي عياض ، وكل هذا الذي ذكره يبطل رواية الأمر بالاستشفاع المحكية في مناظرة المنصور له. وهذا كله ينادي على كذب هذه المناظرة التي قيل فيها : « بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله » . ونزه الله مالكا أن يبتدع بدعة لم تؤثر عن أحد من السلف الصالح . وقد ذكرنا مرات كثيرة أنه لم يحفظ أن أحداً من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام استشفع به عليه السلام في قبره أو طلب منه الدعاء ، بل ما حفظت زيارة أحد منهم له حاش ما تقدم وصح عن عبد الله بن عمر من وقوفه بالقبور الثلاثة إذا جاء من السفر وسلامه عليهم . ومالك الذي قال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، والذي قال : من ابتدع بدعة في الاسلام فقد زعم أن محمداً خان الرسالة ، والذي كان من فرط محافظته على تراث السلف وسيرة المسلمين الأولين أنه كان يحتج بعمل أهل المدينة وما بقي لديهم من أعمال لعلمه أن عملهم لابد أن يكون متلقى عن رسول الله متصلا به و بصحابته لا ستبشاعه أن يبدل أهل مدينة الرسول وأن يغيروا وأن يميلوا عن سنة نبيهم بعض الميل : مالك الذي هذا مقدار محافظته على سيرة السلف وكراهته للابتداع والاختراع والخلاف لا يمكن أن يبتدع الاستشفاع بالنبي في قبره . و إننا نشهد لله شهادة لا نشك في صدقها و برها أن مالكا لم يقل ذلك ولم يخرج من بين شفتيه .

أقوال مالك تناقض هذا

شدة مالك في انكار البدع جملة

مالك الذى كره أن يقول القائل : زرنا قبر النبى لأن السلف لم يقولوا ذلك ، لا يمكن أن يأمر بالاستشفاع بالنبى فى قبره. وقد أنكر رضى الله عنه على عبد الرحمن ابن مهدى وضعه رداءه بين يدى الصف قائلا له: إنك قد أحدثت فى مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه ، وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « من أحدث فى مسجدنا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ». فبكى ابن مهدى وآلى على نفسه ألا يفعل ذلك أبدا فى مسجد النبى عليه السلام ولا فى غيره . ذكر ذلك عنه صاحب كتاب « الاعتصام » ، وهو من أئمة المالكية .

وقد روى الشاطبى عنه بعد هذه الحكاية ماهو أعجب وأغرب فى إنكاره على البدع والمبتدعين . فروى عنه أن مؤذن المدينة تنحنح فوق المنارة عند طلوع الفجر ، فسأله مالك عن ذلك . فقال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر . فنهاه عن ذلك . وقال له : لا تحدث عندنا ما لم يكن . فكف المؤذن عن ذلك زمانا ثم جعل يضرب الأبواب فسأله مالك عن فعله ، فقال : أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر ، فقال له ، لاتفعل ، لا تحدث فى بلدنا مالم يكن. (صفحة ٢٢١ ومابعدها من « الاعتصام » . الجزء الثانى . الطبعة الأولى) . وحكى عنه فى موضع آخر قال : « وحكى ابن العربى عن الزبير بن بكار قال: سمعت مالك ابن أنس، وأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، من أين أحرم ؟ قال : من ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله . فقال : إنى أريد أن أحرم من المسجد ، فقال : لا تفعل . قال : فانى أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر . قال : لاتفعل ، فانى أخشى عليك الفتنة ! قال : وأى فتنة فى هذه ؟ إنما هى أميال أزيدها . قال : وأى فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ؟ إنى سمعت الله يقول: « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» (صفحة ١٦٧ .الجزء الأول) .وحكى الشيخ أبوشامة

روايات اخرى عن مالك

ففى كتاب « الباعث على إنكار البدع والحوادث »؛ قال قال ابن وهب سألت مالكا عن الجلوس يوم عرفة ، يجلس أهل البلد فى مسجدهم ، يدعو الامام رجالاً يدعون الله للناس إلى غروب الشمس ، فقال مالك : مانعرف هذا ، وان الناس عندنا اليوم يفعلونه . قال : وقال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن جلوس الناس فى المسجد عشية عرفة بعد العصر واجتماعهم للدعاء ، فقال : ليس هذا من أمر الناس ، و إنما مفاتيح هذه الأشياء من البدع . ثم قال أبو شامة : قال مالك فى العتبية : وأكره أن يجلس أهل الآفاق يوم عرفة فى المساجد للدعاء . ومن اجتمع إليه الناس للدعاء فلينصرف . ومقامه فى منزله أحب إلى . فاذا حضرت الصلاة رجع فصلى فى المسجد . قال أبو شامة فى مكان آخر من كتابه المذكور: ذكر الطرطوشى فى كتاب « الحوادث » قال مالك : لا يجتمع القوم يقرءون فى سورة واحدة كما يفعله أهل الاسكندرية . هذا مكروه ، ولا يعجبنا . لم يكن هذا من عمل الناس . هذا مكروه ومنكر . فلو قرأ واحد منهم آيات ثم قرأ الآخر على إثر صاحبه ، والآخر كذلك لم يكن بذلك بأس . هؤلاء يعرض بعضهم على بعضهم

فمالك — وهذا موقفه ، وهذه صرامته ، وشدته إزاء البدع والمبتدعين — لا يمكن أن يبتدع الاستشفاع بالأموات ، ولا يمكن أن يكون السابق إلى هذه الضلالات والترهات يقيناً . وقد كان رضى الله عنه من أشد الناس كرهاً ومقتاً للمحدثات والزيادات فى الاسلام ، وكان من أعظم الأئمة محافظة على السنة ، وهدى السلف الصالحين الأولين . ولهذا كثر فى أصحابه واتباعه المؤلفون فى الرد على المبتدعين وفى إنكار المبتدعات . ومن قرأ ما كتبه أصحابه فى هذا الباب وجد العجيب ، ووجد أن السلف الصالح أعظم من الوهابين — كما يسميهم هؤلاء المبتدعون — تشددا وحربا للمحدثات والزيادات ، وتحدياً لها ولأصحابها .

﴿ الاستشهاد بقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية ﴾

الكلام على قوله الله « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك »

ويحسم كل تردد وشك في تكذيب الحكاية الاستشهاد فيها بقول الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله تواباً رحيما » . فان الاستدلال بهذه الآية الكريمة على زيارة القبر واستقباله والاستشفاع به لا يمكن أن يصدر عن مثل مالك . وهذا لا يعرف إلا عن أعرابي لا يعرف ، يقال : إنه جاء إلى القبر النبوي فبكى واستبكى وقال من ضمن ما قال : « ياخير الرسل ، إن الله قد أنزل عليك كتاباً صادقا قال فيه : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما » ، وقد جئتك مستغفراً من ذنبي ، مستشفعاً بك إلى ربي » . . وأنشد :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * وطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم استغفر وانصرف . قال الراوي عن هذا الأعرابي : فرقدت فرأيت النبي في نومي وهو يقول : « الحق الرجل وبشره أن الله غفر له بشفاعتي » فاستيقظت وخرجت أطلبه فلم أجده .

حكاية العتبي

وتعرف هذه الحكاية من طريق العتبي . قال السبكي واسم العتبي : محمد بن عبد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان الأموي . وقد ذكر الحكاية موفق الدين ابن قدامة الحنبلي في « المغني » قال : « ويروى عن العُتبي قال : كنت جالساً عند قبر النبي عليه السلام فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول ... » وذكر الآية وبقية الرواية . وذكرها صاحب الشرح الكبير الحنبلي بالنحو المتقدم عن العتبي نفسه . قال السبكي : وذكرها ابن عساكر في تاريخه ، وابن الجوزي في « مثير العزم الساكن » بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي ، قال : دخلت المدينة فأتيت قبر النبي وجلست

حذاءه فجاء أعرابى . وذكر الحكاية باللفظ السابق . وذكرها شيخ الاسلام ابن تيمية فى مواضع من كتبه ، وقال : إنها لا تعرف إلا عن هذا الأعرابى ، قال : وبها احتج من احتج من متأخرى الفقهاء من أصحاب الشافعى وأصحاب أحمد . وهذا صحيح فان صاحب « المغنى » وصاحب « الشرح الكبير » الحنبليين ، وهما من كبار الفقهاء ، حينما ذكرا هذا ذكراه عن العتبى عن الأعرابى . ولم يذكرا شيئا من ذلك عن مالك رضى الله عنه . ولو كانت الرواية محفوظة عندهما عن مالك لأسنداها إليه واحتجا بها ، ولكان هذا أفضل من الاحتجاج بفعل ذلك الأعرابى المجهول . ولكن هذا يدل على أنهم ما كانوا يعرفون شيئا من هذا النوع عن أمثال مالك . ثم هم يذكرون الرواية على وجه التوهين ، لا يذكرون لها سنداً ولا يصححونها ، ولا يقولون فيها غير : « يروى عن العتبى » مثلا . فهم لا يعرفون لها سنداً ، ولا يعرفون لها صحة أو ثبوتا . وإنما يسوقونها معللة موهنة مرسلة .

الاختلاف فى الحكاية

وقال ابن عبد الهادى فى « الصارم المنكى » : وهذه الحكاية يرويها بعضهم عن العتبى بلا إسناد ، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالى ، وبعضهم يرويها عن محمد بن حرب الهلالى عن أبى الحسن الزعفرانى عن الأعرابى . قال : وقد ذكرها البيهقى فى شعب الإيمان باسناد مظلم عن محمد ابن روح بن يزيد البصرى . حدثنا أبو حرب الهلالى ، قال : حج أعرابى فلما جاء إلى باب مسجد النبى أناخ راحلته وعقلها ، ثم دخل المسجد فأتى القبر . . . وذكر قريباً مما تقدم . . قال : وقد وضع لها بعض الكذابين إسناداً إلى على بن أبى طالب ، وهو ما رواه أبو الحسن : على بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الكرخى عن على بن محمد بن على حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائى قال حدثنى أبى عن جدى عن سلمة بن كهيل عن أبى صادق عن على بن أبى طالب

قال: قدم علينا أعرابى بعد مادفنارسول الله بثلاثة أيام، فرمى بنفسه إلى قبر النبى وحثا على رأسه من ترابه، وقال: يارسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فما وعينا عنك، وكان فى ما أنزل الله عليك: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفرلهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما». وقد ظلمت نفسى وجئتك لتستغفرلى. فنودى من القبر: إنه قد غفر لك. قال: وهـذا خبر منكر موضوع، وأثر مختلق مصنوع، لايحسن الاعتماد عليه، ولايصلح المصير إليه. وإسناده ظلمات بعضها فوق بعض. والهيثم جد أحمد بن محمـد بن الهيثم أظنه ابن عدى الطائى، فان يكنه فهو متروك كذاب، وإن لايكنه فمجهول. ثم نقل كلام الناس فى الهيثم ونقل عنهم أنه كان كذاباً يضع الحديث على الثقات تعمداً.

وهذا الاسناد ملآن بالعيوب وبألوان الضعف وألوان السقوط. فالهيثم بن عدى كذاب، وأبو صادق قال عبد الرحمن بن أبى حاتم: سألت أبى عنه فقال: روى عن على ولم يسمع منه. وأبو صادق فى نفسه مقبول الحديث حسنه. قال ابن سعد: كان ورعاً قليل الحديث يتكلمون فيه، روى لحـديثه النسائى وابن ماجه كما فى تهذيب التهذيب. وبقية رجال السند لايعرفون.

ليس للحكاية سند صحيح

فتلخص من هذا أن حادثة الأعرابى قيل فيها مرة: إن الراوى لها هو على ابن أبى طالب، وقيل مرة أخرى، وهى المشهورة: إنه العتبى، وقيـل ثالثة: إنه محمد بن حرب الهلالى، وقيل رابعـة: إنه أبو الحسن الزعفرانى.. ولـكن لايوجد لشئ من ذلك إسناد ينظر إليه، ولم تخرج فى كتاب من كتب الحديث المحترمة، ولم يصححها أو يحسنها أحد من أهل العلم والدراية. وإنما يذكرها من يذكرها بصيغة التمريض، فيقولون: يروى عن العتبى كذا. ومثل هذا لا يقول أحد من أهل العلم: إنه يجوز الاحتجاج به. فالحكاية باطلة الأساس. ولو فرض أنها صحيحة الاسناد لمادلت على شئ مما يذهبون إليه. وذلك أن هذا فعل أعرابى

ثم هذا فعل أعرابى لاحجة فى فعله

من نـكرات الأعراب ، والأعراب ليسوا حججاً فى دين الله : ولو أن العتبى نفسه الذى شهرت عنه الحـكاية فعل ذلك لما كان فعله حجة ولا مقبولا، فكيف بفعل أعرابى يروى عنه العتبى ؟ والعتبى ليس معروفا بالحديث ولا بالدين . وقد ذكره الخطيب البغدادى فى التاريخ وقال عنـه : « كان صاحب أخبار ورواية للآداب ، وكان من أفصح النـاس . . . » ولم يذكره بتزكية ولا بتوثيق ولا بحديث ، وإنما ذكره بالشعر وروايته .. وقال: بلغنى أنه مات سنة ٢٢٨ .

وكذلك لو فعل محمد بن حرب الهلالى الذى روى عنه القصة بعضهم . وأما الرواية التى قيل فيها : إن علياً هو الذى شاهد الأعرابى وشاهد فعله ، وهوالذى رُوى عنه ذلك فهى رواية موضوعة مكذوبة .

دلائل بطلان هذا عن مالك

أما أن مالـكا احتج بالآية فى هذا الموضوع فهذا هو الكذب والباطل من وجوه كثيرة ، من هذه الوجوه أن مالـكا كما تقدم كره لأهل المدينة أن يزوروا القبر الشريف ، وأن يقفوا به وأن يدعوا عنـده . وماأجاز من ذلك إلا الزيارة والسلام فقط لمن جاء من السفر أو أراده. ولما أن قيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سـفر ولا يريدونه يقفون على قبر النبى وعـلى قبرى صاحبيه ، فيصلون عـلى النبى ويدعون لصاحبيه فى اليوم مرة وأكثر، وربمـا وقفوا فى الجمعة أو فى الأيام المرة أوالمرتين أو أكثر عنـد القبر يسلمون ويدعون فقال : لم يبلغنى هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع . ولا يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها . ولم يبلغنى هـذا عن صدر الأمة وأولها . وقال : لا أرى أن يقف عند قبر النبى يدعو ولـكن يسلم ويمضى ... وكل هذا ثابت عند أصحاب مالك عنـه . فاذا كان يكره الوقوف بالقبر للدعاء مطلقاً للمدنى وللآفاقى ، ويكره للمدنى الذى لم يأت من سفر ولم يرده أن يزور القبر وأن يسلم على صاحبه ويدعو ، فـكيف يمكن أن يستدل بقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك

فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية .. على الوقوف بالقبر والاستشفاع به والعكوف عليه ؟ فإن الآية لو كانت نازلة فى الحض على المجئ لرسول الله يوم أن كان حياً ، وفى الحض على المجئ إلى قبره بعد الموت لكانت دالة على فضيلة مجئ أهل المدينة وغير أهل المدينة إلى القبر الشريف فى كل الأوقات وجميع الحالات،ولكل من ظلم نفسه من المدنيين والآفاقيين ، بل لدلت على إثم من ظلم نفسه من أهل المدينة فلم يبادر إلى مجئ القبر والدعاء عنده . فكيف يمكن أن يحتج مالك بالآية على المجئ إلى القبر ثم يكره زيارة القبر إلا لمن جاء من السفر، أو أراد السفر ، و يكره الدعاء عنده مطلقا ، للآتى من السفر وللمقيم الذى لم يبرح بلده ؟ وقد ذكر القاضى إسماعيل بن إسحاق فى كتاب «المبسوط » أن مالكا سئل عمن نذر أن يأتى قبر النبى عليه الصلاة والسلام فقال : إن كان أراد المسجد فليأته، و إن كان أراد القبر فلا يفعل للحديث الذى جاء : « لاتعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث . . . وقد ذكر معنى هذا فى سائر كتب المالكية ، ومعناه موجود فى الموطأ . فالسفر عند مالك إلى القبر النبوى لايجوز للحديث المشهور ، و زيارة القبر لأهل المدينة لا تجوز إلا لمن جاء من سفر أو أراده . هذا هو مذهب مالك رضى الله عنه . فكيف إذن يمكن أن يحتج بقوله تعالى « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية . . على ما يحتج له هؤلاء المخالفون ؟ وهى لو كانت نازلة فى الحث على مجئ قبره لكانت دالة على طلب السفر إليه والوقوف به والاستغفار عنده ، ولكانت دالة على أن من ظلم نفسه فلم يأت القبر، أين كان ، ولم يقف به ، و لم يدع عنده كان ظالما آثما مخالفا لأمر الله فى قرآنه . فالذى يحتج بالآية على الترغيب فى مجئ القبر والدعاء عنده لا يمكن أن تكون أقواله وآراؤه كأقوال مالك وآراء مالك . فإن هذه مفارقة واضحة جلية . فلا يمكن أن يكون مالك قد استدل بالآية على مجئ

القبر والدعاء عنده . فهذا وجه وجيه من وجوه الإبطال لهذه الرواية المزورة . .

إبطال الاحتجاج بالآية على اتيان القبر

وأيضا فالآية لا يمكن أن تدل على طلب المجيء إلى القبر لأمور كثيرة ، أول هذه الأمور أن الآية تطلب إلى المعنيين بها أن يجيئوا الرسول عليه السلام ، وتذمهم إذ لم يأتوه ، وهذا واضح . ولكن بعد موته عليه السلام لا يستطاع إتيانه ولا يمكن ، ولا يقدر أحد عليه . فلا يمكن أن يؤمر به . وإنما يستطاع إتيان مسجده ، وإتيان الحجرة التي تضم رفاته . ومن أتى مسجد النبي وحجرته والمكان الذي دفن فيه لم يقل : إنه أتى النبي ولا أنه جاءه لا شرعا ولا لغة . فإن مجيء الشيء ، حقيقة ، هو مجيء ذاته ومجيء شخصه ، لا مجيء ما يتصل به وما يضاف إليه من قبر ومكان ودار . . ولهذا فإن الزائرين للمقابر لا يقال : إنهم زاروا أهلها حقيقة ، أو إنهم أتوهم حقيقة . فمن زار قبر والده لا يصدق أنه زار والده حقيقة بالاجماع والضرورة . ولهذا جاء في الأحاديث الصحاح إضافة الزيارة إلى المقابر لا إلى الأموات المقبورين ، فجاء قوله عليه السلام « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم الآخرة » . وجاء قوله عليه السلام : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : زار النبي قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال : « استأذنت ربي في أن استغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي . فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبي المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » . وفي صحيح مسلم أيضا عن بريدة قال : كان رسول الله يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . نسأل الله لنا ولكم العافية » . وعن عبد الله بن أبي مليكة ، قال : أقبلت عائشة ذات يوم من المقابر فقلت لها يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخي

زيارة القبر ليست زيارة لصاحبه

عبد الرحمن ، قلت لها : أليس نهى رسول الله عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها . رواه الأثرم فى سننه . وفى الحديث الذى يستدل به هؤلاء المخالفون عن عبد الله بن عمر عن رسول الله قال : « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » . رواه الدار قطنى والبيهقى . وهو حديث باطل ضعيف . وقال الله فى كتابه « ألهكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ، وقال تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره » . والأخبار فى إضافة الزيارة إلى القبور لا إلى المقبورين كثيرة معلومة متواترة . والعلماء يبوبون لذلك فيقولون مثلا : « باب زيارة القبور » أو « باب زيارة القبر النبوى » ونحو ذلك . وهذا لأنهم لا يختلفون فى أن من زار القبور لا يقال له : إنه زار الأموات . وفى هاتين الآيتين وفى الأحاديث التى ذكرناها قد أضاف الله وأضاف رسوله الزيارة إلى المقابر . ولم تضف فى شىء من ذلك إلى الأموات ، ولم يأت شىء من هذا إلا أن يكون متجوزا فيه متوسعاً . وهذا لأن زيارة قبور الموتى ليست فى الحقيقة زيارة لهم بالاجماع . فزيارة الميت ليست ممكنة ، وإنما تمكن زيارة قبره فقط ، وامتناع زيارة النبى بعد موته أظهر من امتناع زيارة غيره من الموتى كما تقدم . فان غيره تمكن زيارة قبره لأنه ظاهر موصول إليه . أما قبر النبى عليه الصلاة والسلام فلا يمكن الوصول إليه ولا زيارته حقيقة ، لأنه محاط بالحجرة المسدودة عليه ، ولأن الحجرة محاطة بالجدار البرانى الذى أقيم عليها وسورت به . فزيارة الأموات غير ممكنة وإنما تمكن زيارة قبورهم . وإن أمكنت زيارتهم فزيارة النبى عليه السلام خاصة غير ممكنة . فاتيانه إذن غير ممكن . وإذا كان إتيانه غير ممكن فلا يمكن أن يطلب من الناس ما ليس ممكنا . وإذا لم يصح أن يطلب منهم لم يصح أن يكون قوله تعالى « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية أمرا بالمجىء إلى هذا الذى لا يستطاع ، ولا حضاً عليه بالبداهة والاجماع .

اتيان النبى بعد موته غير ممكن

فبطل الاستدلال بالآية على استحباب مجئ القبر .

وجه ثان فى بطلان الاستدلال بالآية

ثانيها : مما لاشك فيه أن الآية تذم هؤلاء الذين لم يأتوا الرسول عليه السلام ، وتؤاخذهم على ذلك مؤاخذة ظاهرة ، وتلحق بهم ذنبا عظيما جسيما ، وتنعتهم بأنهم قد تركوا واجبا من أعظم الواجبات ، وأنهم ارتكبوا جرما يستحقون عليه اللوم والتقريع العنيف ، وأنهم قد أغضبوا ربهم وأغضبوا نبيهم بما فعلوه ؛ وأنهم قد عدوا بذلك من العصاة المذنبين المشار إليهم بالتقريع والملامة المتلوة فى كتاب الله. هذا كله لا شك فيه . وقد أجمع المفسرون السابقون واللاحقون أيضاً على أن هؤلاء المعنيين بالآية قد تركوا واجباً من أجل الواجبات ، وتركوا شريطة من شرائط الايمان ، بتركها قرعهم القرآن ، وأنزل فيهم هذا الخطاب القوى الرائع .

و إذا كان هذا المجئ الذى أوخذ القوم بتركه واجباً من الواجبات ، وفريضة من الفرائض لم يصح الاستدلال به على زيارة القبر النبوى ، ولا على الحض عليها . فانه لاخلاف بين المسلمين فى أن زيارة قبر النبى ليست بواجبة ولا فريضة . وأشد الناس غلوا وحماسة فى هذا الباب لا يزعمون أن زيارة قبر من القبور واجبة من الواجبات ، يؤاخذ تاركها عند ربه . بل هم مجمعون على أنها سنة من السنن بشروطها ومستحباتها . و إن كان بعض الناس من أهل العلم قد كره زيارة القبور مطلقا كما ذكر ذلك السبكى فى « شفاء السقام » وهو من الخصوم الأوائل فى هذه المسائل . وكما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى مواضع من كتبه . والسبكى بلا شك لم يعلم الخلاف إلا من كلام شيخ الاسلام ، ولولاه لما علم من ذلك شيئاً فيما أظن . قال ابن تيمية فى بعض كتبه : « قال ابن بطال فى شرح البخارى : كره قوم زيارة القبور لأنه روى عن النبى أحاديث فى النهى عنها . وقال الشعبى : لولا أن النبى نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتى . وقال إبراهيم النخعى : كانوا

كراهة بعض أهل العلم لزيارة القبور

يكرهون زيارة القبور . وعن ابن سيرين مثله . وقال على بن زياد : سئل مالك عن زيارة القبور فقال : كان قد نهى عنها رسول الله ثم أذن فيها . فلو فعل ذلك إنسان ولم يقل إلا خيراً لم أر بذلك بأساً ، وليس من عمل الناس . وروى عنه أنه كان يضعف زيارتها » . كل هذا كلام شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد نقل بعضه السبكى فى كتابه « شفاء السقام » . وبعض هذا ثابت عمن عزى إليه بلا شك . وقد جاءت أحاديث صحيحة فى الوعيد لزائرات القبور . وبعض الناس لا يفرق بين الرجال والنساء فى هذه المسألة . ولكن زيارة القبور مستحبة بالاجماع خلا هذه الآراء الشاذة القليلة فى كراهتها . ولم يذهب أحد من علماء الاسلام الأجلة فيما نعلم إلى القول بوجوبها وتأثيم من لم يزرها . فالاحتجاج بالآية على زيارة القبر النبوى احتجاج ما أفسده ! ! ! لأن المجىء المذكور فيها مجىء واجب ، عاص تاركه . والزيارة غير واجبة . فمن احتج بالآية على المجىء إلى القبر فقد ذهب إلى القول بوجوب الزيارة ، والوجوب لم يقل به أحد من العلماء أهل البصر بالاسلام .

وذلك أن المحتج بالآية على زيارة القبر يرى أنها تدل على الزيارة إما بالنص وإما بالقياس . والذين يذهبون إلى القول بالنص يزعمون أن قوله : « جاؤك » شامل للمجىء إلى الرسول حيا وميتا . والذين يذهبون إلى القول بالقياس يزعمون أن الحث على مجيئه فى الحياة يدل على الأمر بمجيئه بعد الممات قياساً وجهه عموم العلة ، كما ذكر السبكى وغيره . وإذا كان الصواب هو القول الأول ، أى القول بأن الآية حث على مجىء الرسول حياً وميتاً ، كانت دالة على وجوب الزيارة ، وهذا لم يقل به أحد . وإذا كان الصواب هو القول بالقياس كانت أيضاً دالة على الوجوب ، لأن المقيس على الواجب واجب . فالاستدلال بالآية على الزيارة ينتج القول بوجوبها ، والقول بوجوبها باطل بالإجماع . فالاستدلال بالآية باطل .

إما أن يقولوا إن الزيارة واجبة وإما أن يخالفوا الآية

وليس أمام المخالفين إلا أمران : إما أن يزعموا أن المؤاخذة في الآية مؤاخذة على أمر غير واجب بل على أمر مستحب مسنون ، أو يزعموا أن الزيارة للقبر واجبة وفريضة . وكلا الأمرين باطل عند أهل العلم : أما القول بأن المؤاخذة في الآية مؤاخذة على غير واجب فأظهر القولين بطلانا . . . فإن قوله تعالى في ختام الآية « لوجدوا الله توابا رحيما » معناه لغفر الله لهم ولتاب عليهم ولرحمهم، فلم يعذبهم ولم يؤاخذهم على ما استحقوه من عذاب ونكال . . . و إلا فالله تواب رحيم أبداً قبل ظلم النفس و بعده وفي كل وقت . وسياق الآية المذكور يدل على أن الله لم يتب عليهم ، ولم يغفر لهم ، ولم يرحمهم لأنهم لم يجيئوا النبي عليه الصلاة والسلام . وتوبة الله عليهم ورحمته إياهم مشروطتان في الآية بمجيئهم إياه عليه السلام . وحرف «لو» حرف امتناع لامتناع كما يقولون . فكأن التوبة عليهم والرحمة لهم امتنعتا لامتناع المجيء الذي طلب منهم . فتفسير الآية الجلي هو : الله لم يتب عليهم ، ولم يرحمهم ، لأنهم لم يجيئوا النبي حينما أذنبوا وظلموا أنفسهم . وإذا لم يتب الله عليهم و يرحمهم كانوا بلاشك مستحقين للهلاك والعذاب . والمجيء الذي يستحقون على تركه عذاب الله ونقمته وسخطه ، و يستحقون عليه ألا يتوب عليهم ، وألا يرحمهم مجيء واجب بلا نزاع ولا تردد . فهذا المجيء الذي تركوه وليموا على تركه واجب من أعظم الواجبات ، وفريضة من أكبر الفرائض . فالقول بأن المؤاخذة في الآية مؤاخذة على غير واجب قول باطل .

أما القول بان الزيارة، زيارة القبر ،واجبة فقول يخالفه الاجماع ويخالفه الدين جملة ، وقول لا يقول به المخالف نفسه ، فلا تردد في بطلانه وفساده . . . ومن زعم أن زيارة القبر واجبة فقد افترى على الله ، وافترى على دينه ، وزعم زعماً ما أفظعه وأقبحه ! وذهب إلى إيجاب الحج إلى غير مكة المشرفة و إلى غير

لا يجب الحج إلى غير الكعبة

بيت الله الحرام . والمسلمون مجمعون على أن الحج لا يجب إلا إلى الكعبة ، أما غيرها من الأماكن ، ومن جملتها قبر الرسول ، فلا يجب الحج إليها عند أحد من أهل الفقه فى الاسلام والسنة . ولو صح هذا لكانت الشيعة من أترك الناس لهذا الواجب ، فانه يندر فيهم من يحج ، وبالتالى يندر فيهم من يزور المدينة المنورة . إذ قد استغنوا بقبور النجف وكربلاء وغيرهما عن مكة والمدينة وعن مسجد الله الحرام ومسجد نبيه عليه السلام . . . وقد كان رسول الله يقول بعد فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فالهجرة إلى المدينة فى حياة النبى بعد الفتح غير واجبة فكيف تجب بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ؟ ! هذا ما لا يكون وما لا يذهب إليه المسلمون . فالاستدلال بالآية على الزيارة استدلال منكر مفضوح .

وجه ثالث فى بطلان الاستدلال بالآية

ثالثها — : لو كان يقصد بالآية زيارة القبر الشريف نصاً أو قياساً لما شرط المجىء إليه بظلم النفس وبالذنب ، ولما قيل « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك » بل لقيل: ولو أنهم جاؤك . لأن المقصد على قول المخالفين الحث على زيارة النبى حيا وميتاً فى قبره وفى حياته . . وإذا كان هذا هو المقصود والمرمى للآية الكريمة لم يكن لشرط المجىء بالذنب والظلم معنى من المعانى . لأن تقييد الترغيب فى المجىء إليه عليه السلام بظلم النفس يخصص معناه العام الشامل .

فان قيل : إن تقييد المجىء بالظلم لم يكن للدلالة على أنه لا يشرع إلا لمن ظلموا أنفسهم وإنما كان ذلك للدلالة على فضيلة زيارة النبى وزيارة قبره ، وللتنبيه على ما فى ذلك من عظيم الأجر والثواب بأن يقال : إن زيارة النبى حياً وميتاً عظيمة جداً بحيث إن من ظلموا أنفسهم وفعلوا الاثم والذنب العظيم لو زاروا النبى حاملين ذنوبهم وخطاياهم وظلمهم لأنفسهم لغفر لهم ، ولوضعت عنهم الأوزار والخطايا ، فكيف لو زاره من لم يذنبوا ، ومن لم يظلموا أنفسهم ، ومن

أحسنوا أعمالهم وأقوالهم ، وطهروا ظواهرهم وبواطنهم ؟ إن أجرهم إذن لعظيم ::
إن قيل هذا قيل : هذا فاسد وبيانه :

وجه رابع فى بطلان الاستدلال بالآية

رابعها — : وهو أن يقال : لا يمكن أن تريد الآية الحث على زيارة القبر. لا نصاً ولا قياساً ، وذلك لأن الآية قد رتبت على المجىء إلى النبى عليه السلام. أجراً عظيما وفضيلة عظمى ، تتطاول إليها أعناق المتقين ، وتتسامى إليها أشواطهم. وينضون للوصول إليها مطايا جهودهم وأعمالهم : هذا الأجر العظيم ، وهذه الفضيلة العظمى هى وجدانهم الله توابا رحيما ، وهذا يكنى به عن التوبة والرحمة. ومن تاب الله عليه ورحمه فقد فاز وأفلح وأخذ بسبب من نجاته متين . وهذا الأجر لا يمكن أن يكون أجر من زار القبر وشد المطايا إليه ، فان زيارة القبر مهما بولغ فى تعظيمها وتكثير أجرها لا يمكن أن يبلغ ثوابها هذا القدر بحيث يغفر للزائر ويتاب عليه ويرحم ، وبحيث يترك له ظلمه وذنبه ، فان هذه المثوبات لا تنال إلا بالأعمال الجسيمة الصالحة ، لا بزيارة القبور والوقوف بها ، لأن فضيلة الزيارة إن كانت فى السلام على النبى والصلاة عليه فهذا يحصل ويدرك فى القرب والبعد ، ويناله القريب والقصى . ومن صلى على النبى مرة صلى الله عليه بها عشرا . وهذا لا فرق فيه بين من كان فوق القبر ، ومن كان فى الأندلس ، كما قال الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب لذلك الذى كان يتعمد زيارة القبر . وقد قال ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود والامام أحمد : « وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » . والمسلمون من كل مكان وفى كل مكان وكل زمان يقولون فى صلواتهم : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ». ويصلون ويسلمون عليه فى كل أوقاتهم وحالاتهم . وينالون بذلك أجر الصلاة والسلام عليه أين كانوا ووجدوا . وإن كانت فضيلة الزيارة فى مشاهدة الحجرة التى تضم رفات النبى وفى مشاهدة الجدار المحيط بها ، فهذا بذاته لا فضيلة فيه

حيثيَّــة بالإجماع والضرورة . و إن كانت الفضيلة فى إتيان المسجد والصــلاة فيه خرجت المسألة عن الزيارة و رجعت إلى زيارة المسجد وشد الرحال إليه . وهذا لاخلاف فيه ، ولــكن ليس هو ما يذهب إليه المخالفون .

وجه خامس فى بطلان الاستدلال بالآية

خامسها ـ : لو أن الآية تتناول الزيارة نصاً أو قياساً لــكان من المشروع لــكل من ظلم نفسه وعمل السوء أن يزور القبر النبوى ، وأن يشد المطايا والرحال إليه ، و إلا كان آثماً مجرماً ، لأن الآية تقول ـ مقرعة القوم ذامة لهم ـ « ولو أنهــم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرســول لوجدوا الله تواباً رحيما » . و إذا كان ذلك كذلك كانت زيارة القبر مشروعة بل واجبة عند كل ذنب مهما تعدد وتنوع و كثر . وذنوب الانسان لا تقف عند غاية ولا عند حد من الحدود . فــكان من المشروع إذن للمسلم ، بل من الواجب عليه أن يحج إلى القبر النبوى فى العــام الواحد عشرات المرات بل مئات المرات : كلما ظلم نفسه ، وعصى ربه . وهذا شيء كثير جداً . وعليه يكون الحج إلى القبر أعظم من الحج إلى بيت الله ! بل على هذا يكون من المشروع للمسلم الواجب عليــه أن لا ينفك مسافراً بين ذهاب و إياب ، راحلا إلى القبر فى حياته كلها . وهذا من أعظم الضلال وأبين المخالفــات لدين الله الاسلام ، ومن أعظم الوثنية التى جاء النبى لتقويض أبنيتها ، وهدم قواعدها ، ونقض آساسها . وفساد هذا ومخالفته لدين الاسلام بل لجميع الأديان لا يحتاج إلى إمعان فى النظر وكد للفكرة .

وجه سادس

سادسها — : أن يقال : لو كان هذا صحيحاً ، وكان هو المراد بالآية لــكان أصحاب النبى وأنصار الله من المهاجرين والأنصار من أزهــد الناس فى هــذه الفضيلة ، ومن أقلهم عملا بها ، والتفاتا إليها . . . وذلك أنهم — وقد تقدم هذا مرات — ما كانوا يرغبون فى زيارة القبر الشريف . . . ولا كانوا يتــدافعون إليها ، ولا يعنون بها بعض العناية ، بل ما صح عن أحد منهم زيارة القبر لا من

الآفاق ولا من المدينـة فى مانعلم إلا ما صح عن عبـد الله بن عمر أنه كان إذا قـدم من سفر زار وسلم وانصرف . لا يزيد على ذلك شيئا . أما غـيره كأبى بكر وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وغـيرهم من الأنصار والمهاجرين فلم ينقل عنهـم باسناد صحيح يقام له وزن أنهم كانوا يفعلون شيئا من ذلك لاحين حضورهم من الأسـفار والآفاق ، ولا عنـد دخولهم المسجد للصـلاة ولغيرها . وما صح عن أحـد منهم أنه زار القبر أو وقف عنـده أو طاف به ، أو دعا لديه . وقد كانوا يدخلون المسجد النبوى فى اليوم الواحد المرات ، وكانوا يدخلون على أم المؤمنين عائشـة حجرتها وفيها النبى وصاحباه . وما نقل عن أحـد منهم بسند صحيح أنه فعل شيئا من هذا الذى فعله عبد الله بن عمر فضلا عن الأشياء التى يفعلها هؤلاء المبتدعون والتى يدعون إليها الناس ، بل لقد جاء نهيهم عن ذلك كما تقدم فى حديث عـلى بن الحسين المعروف بزين العابدين ، وفى حـديث الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . وتقدم قـول أبى إسحاق إبراهيم بن سعد قال : ما رأيت أبى يأتى قبر النبى قط ، وكان يكره إتيانه . وسـعد هذا من سادات التابعين وأعـلامهم ، وهو سـعد بن إبراهيم ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى . وتقـدم قول عبيد الله بن عمر العمرى لما حدثه معمر أن عبد الله بن عمر كان يزور قبر النبى إذا حضر من السفر وقبرى صاحبيه ، فقال عبيد الله بن عمر العمرى : مانعلم أحداً من أصحاب النبى فعل ذلك غير ابن عمر . وعبيد الله ابن عمر القائل هذه المقالة إمام كبير من أئمة التابعين . وتقدم قول الشعبى : لولا أن رسـول الله نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتى . وتقـدم قول إبراهيم النخعى : كانوا يكرهون زيارة القبور . وعن ابن سيرين مثله. وتقدم أن مالـكا سئل عن زيارة القبور ، فقال : قـد نهى عنها رسول الله ثم أذن فيها ، فلو فعل ذلك إنسان ولم يقـل إلا خـيراً لم أر بذلك بأساً . وتقدم قوله : إن زيارة القبور

هل كان السلف يأتون القبر النبوى

ليست من عمل الناس . وروى عنه أنه كان يضعف زيارتها . وتقدم أنه قيل له : إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يقفون على القبر فيصلون عليه ويسلمون ، فقال : لم يبلغنى هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع ولا يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها. وتقدم قوله : ويكره ذلك إلا لمن جاء من سفر أو أراده . والإمام مالك يجيز ذلك لمن جاء من السفر ولمن أراده استدلالا بفعل عبد الله بن عمر. أما غيره فلم ينقل عنه شىء من هذا. ومن ثم احتج المولعون بهذه الأمور بحكاية العتبى عن ذلك الأعرابى النكرة المجهول . ولو كان عندهم شىء من هذا العلم عن أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على أو غيرهم من الصحابة وأئمة التابعين لما احتاجوا إلى حكاية العتبى عن الأعرابى النكرة ، ولما احتاجوا إلى الأحاديث الموضوعة مثل الرواية المعزوة إلى النبى القائلة « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » . وقد كانت عائشة رضى الله عنها ساكنة فى الحجرة التى فيها النبى وصاحباه ، وما حفظ عنها أنها كانت تقف بالقبور وتدعو وتسلم وتزور . وكان الناس يزورونها فى حجرتها ويدخلون عليها ، وما جاء عنها أنها أشارت على أحد من زائريها بالزيارة للقبر والطواف به والدعاء والسلام عليه . فالصحابة لم يفعلوا ذلك ، والتابعون لم يفعلوه ، بل قد جاء عنهم كراهته والازورار عنه ، لأنهم لم يجدوه من فعل الناس ولا من فعل صحابة النبى وناشرى رسالته من بعده.

فلو كانت الآية حثاً على زيارة القبر وترغيباً فيها لكان خيار الأمة وصحابة النبوة ومن تبعهم بالإحسان والايمان من أعصى الخلق ومن أبعدهم وأنآهم عن هذه الطاعة وعن تلك الفضيلة. ولكن حاش لله أن يقال فى خيار الأمة هذه المقالة . بل الصحابة أتقى الناس وأعلمهم بأوامر الله وأوامر رسوله ، وأقومهم بما يجب لرسول الله من التعظيم والاحترام والحب الصادق الصحيح . ولا خير فى ما تركوه ورغبوا عنه من أمور الدين وعبادة الله .

وجه سابع فى بطلان الاستدلال بالآية على اتيان القبر

سابعها — : لا خلاف بين الناس فى أن هذه الآية قد نزلت فى طائفة من الناس مقرعة لهم على إعراضهم عن الله وعن رسوله رغبة عما عند الله و زهدا فى النبوة والنبى . ولا خلاف فى أن الآية لم تكن خطاباً عاماً لجميع الناس ، ولا حضاً لهم كلهم على أن يأتوا الرسول . وقبل هذه الآية يقول الله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم يقول : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . و إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل و إلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً . وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما . . . » ، ثم يقول بعد هذا : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فى ما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما . ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا ، و إذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما . . . » . والآيات صريحة فى أنها نزلت فى طائفة من المنافقين دعوا إلى رسول الله ليعتذروا إليه وليتوبوا من نفاقهم ، و إساءتهم إليه فلم يفعلوا . وأصرح هذا قوله « و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » وهو مثل قوله تعالى من سورة « المنافقون » : « و إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون » . وهذا لا يحتاج

إلى زيادة تفصيل . فالآية نازلة فى جماعة من المنافقين بلاريب . فالذين يزعمون أنها عامة يلجأون إلى القياس لا إلى النص . فاذا كانت المسألة مسألة قياس قلنا :
أما الشيعة فانهم ينكرون القياس كله ، ولا يقبلون منه شيئا . وهم يفخرون على أهل السنة بهذا الانكار ، وينمونهم ويهجونهم لقولهم به ، وذهابهم إليه . فباطل إذن أن يقيسوا هنا . وأما غير الشيعة من القائلين بالقياس فيقال لهم : إن القياس فى هذه المسألة ـ خاصة ـ باطل ، ولو كان كل قياس فى الدنيا صحيحاً . وذلك أن القياس بالاجماع لا يكون صحيحاً مقبولا إلا إذا اشترك المقيس والمقيس عليه فى علة الحكم الثابتة للمقيس عليه التى زعم ثبوتها للمقيس ، فزعم صحة إعطائه حكم المقيس عليه تحليلا وتحريما ، فلا يقاس محرم على محرم إلا إذا وجدت علة التحريم فى الأمرين معا : المقيس والمقيس عليه ، ولا يقاس مستحب على مستحب ، ولا واجب على واجب إلا إذا اشتركا فى علة الاستحباب ، والوجوب . وهذا ركن من أركان القياس لا معنى له بغيره . والقياس فى المسألة التى معنا باطل لأن العلة فى المقيس عليه مفقودة من المقيس فلا يصح أن يشتركا فى الحكم . وبيان ذلك أن أولئك المنافقين قد أساءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام باحتكامهم إلى الطاغوت وبامتناعهم من التحاكم إليه ، وبصدودهم ورغبتهم عنه ، وبعصيانهم إياه وليهم رءوسهم عند دعوتهم إليه إعراضا وصدوداً عنه ، وكفرانا به واحتقاراً له . . . فكان كفارة ذلك كله أن يتوبوا فى أنفسهم ، وأن يذهبوا إليه عليه الصلاة والسلام فيعتذروا ويتوبوا بين يديه تكفيراً لجرم إساءتهم إليه وجرم خروجهم على ربهم وشرودهم عنه ، وليستغفروا لأنفسهم وليستغفر لهم الرسول لتقبل توبتهم وليغفر جرمهم العظيم .. . وهذا كله عنوان إقلاعهم عن نفاقهم وبراءتهم من كفرانهم .

لم يلاموا لانهم لم يزوروا الرسول ولكن ليموا لانهم كفروا ولم يتوبوا

فهم فى الحقيقة لم يلاموا على أنهم لم يجيئوا الرسول ولم يذهبوا إليه : ليس

هذا هو وجه ضلالهم وسبيل نفاقهم ، ولكن وجه ذلك وسبيله هو كفرهم المدلول عليه بإعراضهم عن رسول الله وصدودهم عنه وتحاكمهم إلى الطاغوت ، تاركين حكمه وشرعه وراء ظهورهم ، غير حافلين ولا مبالين ، نفاقا منهم وارتداداً .
وهذا لا ريب فيه . فهم إذن لم يطلب منهم المجيء إلى رسول الله زيارة ، ولا لأن المجيء إليه ذاته مطلوب . . . وإنما طلبت منهم التوبة ، وطلب منهم الايمان . وهم إذا كانوا يصدون عن رسول الله ، ويتحاكمون إلى الطاغوت ، ويعرضون عن حكمه ، ويجفلون منه ، فليسوا بمؤمنين ولا تائبين ولا مسلمين بلا شك . فالمجيء المطلوب منهم مجيء يحدوه الإيمان والتوبة والإخلاص لله ولرسوله . فهم مذمومون لأنهم منافقون غير مؤمنين وغير مسلمين ، لا لأنهم لم يأتوا الرسول ولم يزوروه أو يزوروا قبره . . . فالمعنى فى الآية الكريمة : ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم تابوا واستغفروا وتخلوا عن ظلمهم وجرمهم وكفرهم ، لوجدوا الله غفاراً لذلك كله . . . وهذه الآية مثل الآيات التى فيها قبول الله توبة التائبين مهما عظمت ذنوبهم وسيئاتهم وآثامهم . وإنما قيل فى الآية : « جاءوك » لأن مجيئهم إياه عليه السلام بتلك الحال عنوان لإقلاعهم عما لبثوا عليه ، وبرهان التوبة والصدق والإخلاص . فالمجيء ليس مطلوباً إلا للتوبة ولاعلانها وإعلان الاسلام والايمان والصدق فيهما . وإلا لو أنهم آمنوا وتخلصوا من نفاقهم ومما يحملون للاسلام وللنبى من العداوة والكراهة والبغضاء بالتوبة ثم لم يجيئوا الرسول عليه السلام ، لا كراهة له ولا بغضا ولكن لاشتغالهم بحياتهم وشئونها لما لبثوا على ذلك ولما طلب إليهم المجيء إلا إذا كانوا محتاجين للتعلم وأخذ دينهم عنه مباشرة ، أو كانوا مطلوبين للجهاد بين يديه والدفاع عنه ، أو نحو ذلك من الأغراض . ولهذا كان ﷺ يقول بعد فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ، لكن جهاد ونية » . . . ومن الدليل على أن المجيء ذاته ليس مطلوبا:

من الدليل على أن المجيء نفسه ليس مطلوبا مفروضا

ولا فضيلة أنه تعالى ذكره في هـذه الآيات ذاماً له ، منكره عليهم . وذلك في قوله تعالى : « ثم جاؤك يحلفون بالله : إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً » . وهذا ذم لأحد أفراد المجيء . وقال تعالى من سورة المنافقون : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » إلى آخر الآيات ، وهذا ذم لهم على مجيئهم بتلك الحال الكاذبة المنافقة . وقال في ذم أحد أفراد المجيء : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم » . ولا يصح الاستدلال بقوله تعالى : « ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك » الآية على استحباب المجيء إلى رسول الله بعد موته ، كما لا يصح الاستدلال بهذه الآيات المذكورة على ذم المجيء إليه حياً وميتاً . وإنما المدح والذم لما قارن ذلك بالضرورة والإجماع . وإذا صح للقوم أن يستدلوا بالآية التي نحن بصددها على استحباب مجيء قبر النبي ساغ لغيرهم أن يستدلوا بالآيات التي سقناها على كراهة المجيء إلى القبر . والاستدلالان في الحقيقة سواء .

فالعلة في طلب مجيء أولئك المنافقين إلى الرسول هي إعلان توبتهم وإيمانهم وبرهان براءتهم من نفاقهم وضلالهم ، ثم اعتذارهم الى الرسول ، لأنهم أساءوا اليه وتنقصوه ، ثم تحاكمهم الى شرعه وحكمه : هـذه هي العلة في طلب المجيء منهم ، وليست العلة هي الزيارة . وهـذه الأمور مفقودة في زيارة المسلم القبر الشريف . فالعلة التي طلب من أجلها المجيء موجودة في المقيس عليه دون المقيس . فالقياس اذن فاسد باطل . ولا يصح القياس حتى يزعموا أن العلة في طلب المجيء هي الزيارة . وهذا لا يقول به مسلم ولا عاقل غير مسلم . فظهر بهذا أن الاحتجاج بالآية في مكان بعيد من الرشاد والسداد .

وجه ثامن في بطلان الاستدلال بالآية

ثامنها — : لو صدق الاحتجاج بقوله تعالى « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم

جاءوك » الآية على زيارة القبر النبوى لصدق الاحتجاج بقوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم » على امتناع دعاء النبى وخطابه من حجرته حيا وميتا . فان الذين يدعون النبى عليه السلام بعد موته ويخاطبونه ، لا يدعونه ، ولا يخاطبونه إلا من وراء الحجرات ، إذ لا يمكن الوصول إليه كما تقدم لأنه مقبور فى حجرة زوجه عائشة رضى الله عنها ، والحجرة مسدودة ومحاطة بالبناء . فمن أراد اليوم أن يخاطبه وأن يدعوه عليه الصلاة والسلام لم يمكنه ذلك إلا من وراء حجرته ومن وراء البناء المحيط بالحجرة . وحينئذ تكون الآية دليلا ظاهراً على بطلان خطابه ودعائه بعد موته وبعد وضعه فى بيت أم المؤمنين عائشة . ودلالة هذه الآية على امتناع دعائه وخطابه ميتا أبين وأظهر من دلالة الآية التى نحن بصددها على استحباب مجىء القبر والسفر إليه . ولكن هؤلاء المخالفين ينازعوننا فى هذا الاستدلال ولا يسلمونه ، ويصرون على دعاء الرسول وخطابه والاستغاثة به ، وطلبه الحاجات من وراء الحجرات والجدرات غير مبالين بهذه الآية ولا بغيرها من الآيات . ولا مفر لهم من أحد الأمرين : إما الاستدلال بالآيتين معاً : بآية « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » الآية على استحباب زيارة القبر وشد الرحال إليه ، وبآية « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » الآية على تحريم دعاء النبى وخطابه ميتا — وإما ترك الاستدلال بالآيتين معاً ، فلا تدل هذه على استحباب السفر إلى القبر ، ولا تلك على تحريم خطاب النبى عليه الصلاة والسلام بعد الممات . . . وهذا أقل ما يوجبه الانصاف والعدل .

وجه تاسع فى بطلان الاستدلال بالآية على السفر الى القبر

تاسعها — : نقول : هبوا الآية نازلة فى الحث على زيارة القبر الشريف وشد الرحل إليه خاصة . ولكن لا ريب أن المعنيين بها قوم من أهل المدينة من

أهل النفاق والضلال . ونحن لا ننازع فى جواز زيارة القبور إذا كانت زيارة مجردة من السفر وشد الرحل و إعمال المطى ، بل لا ننازع فى أن زيارة القبور على وجه العموم مستحبة مطلوبة بالجملة كما قال عليه الصلاة والسلام : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا » . وفى رواية : « فإنها تذكركم الآخرة » .

فزيارة القبور لم نخالف نحن فى جوازها واستحبابها كما لم نخالف فى زيارة القبر النبوى إذا لم يسافر لأجل الزيارة خاصة . والآية الكريمة نازلة فى طائفة من أهل المدينة دعوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام فأبوا وصدوا وأعرضوا . . . فاذا كانت حقا دعوة إلى زيارة القبر النبوى أو إلى زيارة النبى نفسه حيا وميتاً لم تدل على شىء مما يذهب إليه المخالفون ، ولم تدل على شىء مما ننكره ونأباه . فان الذى فى الآية دعوة لطائفة من أهل المدينة ليأتوا إلى النبى أو إلى قبره على قول المخالف ، ودعوة أهل المدينة إلى النبى حياً وميتاً ، أو إلى زيارته وزيارة قبره ، لم ننكرها نحن . ولم نقل : إنها ممنوعة أو مكروهة أو غير مستحبة . و إنما ننكر من الزيارة ما كان بسفر أو ما كان مصحوبا بالابتداع والضلال . فقصارى ما فى الآية بعد كل شىء أن تدل على حث أهل المدينة المنورة النبوية على زيارة القبر النبوى ، ولكن ليس الكلام ولا الخلاف بيننا و بين المخالفين فى زيارة سكان المدينة للقبر ، و إنما ذلك فى شد الرحال و فى الأسفار إلى مجرد الزيارة . فنحن نسلم أن القرآن يدعو أهل المدينة عامة إلى زيارة رسول الله فى مدينته حياً وميتاً ، وأنه يحثهم على ذلك و يرغبهم فيه . وهذا ما لا خلاف ولا كلام بيننا و بين هؤلاء المخالفين فيه .

سؤال وجوابه

فان قالوا : إنه لا فرق بين أهل المدينة و بين سواهم فى هذا ، فاذا طلب القرآن من أهل المدينة أن يزوروا القبر كانت الزيارة بلا شك مطلوبة من سائر

المسلمين فى أقطار الأرض ، لأن ما طلب من طائفة من المسلمين كان مطلوباً من جميع المسلمين ، إذ لا يصح أن يشرع لقوم ما لم يشرع للآخرين ، فلا يحل لفريق ما حرم على فريق آخر ، ولا يوجب على فريق مالم يوجب على كل فريق . فالذى يطلب من أهل المدينة يطلب من غيرهم ، كما أن الذى يحرم على غيرهم يحرم عليهم . فلا يجوز فى شرع الله أن يكون هذا حلالا لأهل الحجاز أو لأهل المدينة ، حراماً على أهل مصر أو العراق أو الشام أو الهند أو أقصى بلاد الاسلام كما لا يجوز العكس . فلا يجوز أن تكون زيارة القبر النبوى جائزة أو مستحبة لأهل المدينة ، محرمة على أهل مصر أو أهل الشام أو أهل العراق أو أهل الأندلس أو غيرهم كما لا يجوز العكس . فاذا سلمتم أن الآية تدعو أهل المدينة إلى زيارة القبر النبوى فقد سلمتم أنها تدعو سواهم إلى ذلك لما ذكرنا من أنه لافرق بين المسلمين أمام أوامر الشريعة : حلالها وحرامها .

إذا قال المخالفون هذا قلنا : نعم ، لافرق بين أهل بلد و بلد آخر إزاء أوامر الدين وفروض الشريعة ، فلا فرق بين أهل المدينة و بين غيرهم من المسلمين فى هذه المسألة وفى سواها من المسائل ، فالمحرم على المدنى محرم على غير المدنى من المصرى والشامى والعراق والهندى وجميع المسلمين . والمحرم على المصرى والهندى والعراق والشامى والمشرق والمغربى من أمم الإسلام محرم على أهل المدينة بلا خلاف ولا نزاع ، والزيارة المطلوبة من أهل المدينة مطلوبة من غيرهم ، والمحرمة على غيرهم محرمة عليهم بلا شك . هذا كله نقوله ولا نخالف فى شئ منه . فالسفر لمجرد زيارة القبر النبوى ـ مجرداً من قصد الصلاة فى المسجد ـ منهى عنه : أهلُ المدينة وغيرهم من المسلمين ، و زيارة القبر الشريف وغيره من القبور مشروعة مستحبة لمن كان فى المدينة سواء أكان من أهل المدينة أم كان غريباً . فالمدنى إذا كان فى مكة أو فى مصر أو فى العراق أو فى الشام أو فى الهند منهى عن أن يسافر إلى المدينة

لأجل زيارة القبر . وغير المدنى إذا كان فى المدينة كان جائزاً له أن يزور القبر وأن يسلم على صاحبه وعلى صاحبيه ﷺ ، ورضى الله عنهما . فليست زيارة القبر مباحة لأهل المدينة ، محرمة على غير أهل المدينة ، ولم يحرم على المسلمين ما أحل لأهل المدينة ، ولكن السفر لأجل الزيارة منهى عنه الجميع : المدنيون وغير المدنيين ، والزيارة بغير سفر مستحبة للجميع : المدنيين وغيرهم . فالمسلمون إزاء ذلك سواء .

ونظير هذا عند المخالفين وغيرهم أن من كان فى مصر كان مباحاً له أن يصلى فى الأزهر أو فى غيره من المساجد . ولكن من كان فى المدينة المنورة أو فى مكة المكرمة أو غيرهما من الأقطار منهى بالاجماع عن أن يسافر إلى مصر لأجل الصلاة فى الأزهر أو فى غيره من مساجد القاهرة كجامع عمرو بن العاص . وكذلك يقال فى جميع المساجد ماخلا المساجد الثلاثة التى قال النبى فيها : « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد المدينة » . فكل المساجد مشروع قصدها للصلاة فيها ، ولكن لايصح السفر إليها لأجل الصلاة فيها عند المخالفين أنفسهم للحديث المذكور . وهذا مثل زيارة القبر النبوى بل جميع القبور ، فان زيارتها مشروعة استحباباً ولكن بلا سفر . فالصلاة فيها — بلا سفر — مأمور بها — وبالسفر منهى عنها ، والزيارة مشروعة مأمور بها — أمر استحباب — بلا سفر ، منهى عنها بالسفر .. ولم يقل أحد : إن فى هذا تحريماً على قوم ما أحل للآخرين ، ولا إحلالا لطائفة ما حرم على غيرها

ونظائر هذا كثيرة معلومة فى الشريعة : فأهل مصر مثلا إذا أرادوا الحج كان واجبا عليهم أن يمروا بما بينهم و بين مكة شرفها الله من البر والبحر . ولكن هذا ليس واجباً على من أرادوا الحج من أهل مكة وأهل الحجاز عامة ، لان وصولهم إلى الكعبة و إلى بيت الله لا يتوقف على ذلك . ولا يقول أحد فى هذا ، إنه أوجب

على أهل مصر مثلا مالم يوجب على أهل الحجاز . وكذلك يقال فى غير أهل مصر ممن بعدت دا عن الحجاز . وأهل مكة إذا صلوا فى الحرم وجب عليهم أن يتوجهوا إلى كل الجهات الأفقية ليولوا وجوههم شطر الكعبة . ولكن من كانوا فى بلدة أخرى وجب عليهم أن يتجهوا جهة واحدة ليصيبوا شطر المسجد الحرام . ولا يقال : إن فى هذا إيجاباً على قوم مالم يوجب على الآخرين ، ولا أن فيه تفريقاً بين طوائف المسلمين : هذا كله مفهوم معقول .

سؤال وجوابه

فان قال المخالفون : قد دلت الآية على طلب الزيارة من أهل المدينة فما دليلكم على أن هذا خاص بهم دون غيرهم ، والتخصيص لا يركن إليه و إلى القول به إلا بدليل ظاهر جلى قوى ، قلنا : الدليل عندنا على التخصيص قوله ﷺ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » « الحديث » ، ودلائل أخرى أيضا سوف يجئ بيانها وشرحها . وأيضاً المسوى بينهما هو المطالب بالدليل لأن التسوية بينهما تسوية بين مختلفين ، ومن سوى بين مختلفين كان مخطئا أو آتيا بدليل لا ينازع . وأيضا إذا رجع استدلال المخالفين إلى العمومات والتمسك بالأمور المطلقة المرسلة الشائعة فالأحسن أن يستدلوا بأحاديث الأمر بزيارة القبور العامة مثل قوله ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فانها تذكركم الآخرة » . وقد كان عليه السلام يزو . القبور . فيمكن حينئذ أن يستدل بزيارته التى بغير سفر و بالأوامر المطلقة ا. الزيارة التى تكون بسفر . فاذا رجعوا فى احتجاجهم إلى الاستمساك با[illegible] أرجأنا الجواب عن ذلك إلى الفصل الخاص بالسفر إلى زيارة القبر [illegible] اء الله .

وجه عاشر فى بطلان الاستدلال بالآية على إتيان القبر

عاشرها — : يقول الله فى [illegible] [illegible]ها : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » الآية . وظاهر[illegible] ن هذه الآية أن المطلوب فيها مجئ يستغفر بعده رسول الله لمن جاءه ، لأن قوله : « واستغفر لهم

الرسول » معطوف على قوله ، « واستغفروا الله » وهما ـ أعنى « واستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » معطوفان على قوله : « جاءوك » « بالفاء » والفاء للعطف والتعقيب على المشهور المنصور من مذاهب النحويين . فاستغفارهم واستغفار الرسول لهم بعد مجيئهم بنص الآية . و إذن فالمطلوب فى الآية مجيء يكون بعده — مباشرة و تسببا — استغفار من الرسول للجائى . . . أما المجيء الذى لا يعقبه استغفار من الرسول فليس مجيئاً مطلوباً ولا مشروعاً بنص الآية وظاهرها . وهذا فى ما أحسب جلى قوى . فعليهم اذن أن يثبتوا أولا أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستغفر لمن جاءوه زائرين فى قبره ليصح لهم الاستدلال بالآية التى استدلوا بها . فأن لم يقيموا الدليل على هذا لم يبق لهم حجة ولا شبهها فى الآية الكريمة. فاين دليلهم على أن من جاءوا القبر و زاروه استغفر لهم الرسول ؟ لا يصح أن يقولوا جوابا عن هذا السؤال : إن الرسول قد استغفر لجميع المؤمنين والمسلمين فى حياته لأن الله قد أمره أن يستغفر لهم على وجه العموم والإطلاق ، لأن المطلوب هنا استغفار يكون بعد المجيء لاقبله . ولا يصح أن يقولوا : إنه ﷺ دائما يستغفر لأمته لقوله عليه السلام : « تعرض على أعمالكم ، فان وجدت خيرا حمدت الله ، و إن وجدت شراً استغفرت لكم » لأن هذا الحديث أولا فيه كلام سوف يجيء بيانه ، ولأن المطلوب ثانيا استغفار يكون عقب المجيء لا عقب عرض الأعمال عليه عليه الصلاة والسلام . وظاهر الآية يدل على أن الاستغفار يكون عقب المجيء مباشرة، و يكون المجيء أيضاً سببه أو أحد أسبابه. والاستغفار المذكور فى حديث عرض الأعمال ليس فى شيء من ذلك . فالمجيء المطلوب فى الآية هو مجيء يستغفر بعده رسول الله للجائى . وكل مجيء لا يستغفر بعده الرسول لا يكون مجيئاً مطلوباً. فان استطاع المخالفون أن يقيموا البرهان على أن من زار الرسول فى قبره استغفر له بعد زيارته ساغ لهم الاحتجاج بالآية على ضعف ووهن ، و إن لم يستطيعوا

ذلك ــ وهم غير مستطيعيه ــ لم يسغ لهم أن يتعلقوا بها، ولا أن يفكروا فى الاحتجاج بها بعض التفكير .

أما فى حياته فانه ﷺ كان يستغفر لمن جاءوه معتذرين معترفين بظلمهم وظلماتهم وأخطائهم . كما جاء فى حديث كعب بن مالك يوم تخلف عن رسول الله فى غزوة تبوك قال فى حديثه : « فلما قدم رسول الله من غزوته جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه و يحلفون له . فقبل منهم رسول الله علانيتهم و بايعهم واستغفر لهم و وكل سرائرهم إلى الله » . والحديث فى الصحاح وغيرها . وهذا وارد فى أحاديث أخرى كثيرة . وفى سورة « المنافقون » « و إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم و رأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » . فاستغفار الرسول لمن جاءه فى حياته معلوم لا خلاف فيه . وأما بعد موته فعلى المخالفين أن يقيموا الدليل على أنه يستغفر فى قبره لمن جاءوه ليكون لاحتجاجهم بالآية وجه ولو ضعيفاً ولكنهم لن يجدوا دليلا واحدا على هذا .

هذه الأمور كلها تقدح فى الرواية المذكورة وتوهى إسنادها وعمادها . والله العليم بكل شئ .

لو صحت الحكاية لما دلت على قول المخالف

﴿ لو صحت الحكاية ﴾

ولو أنها كانت صحيحة ثابتة الاسناد لما دلت على ما يذهب إليه المخالفون . و بيان ذلك فى بيان ألفاظها .

أما قوله : « و إن حرمته ميتاً كحرمته حيا . . » فهذا حق ولكنه فى غير ما يذهبون إليه . فان المراد به أنه يجب تعظيمه ﷺ واحترامه وتوقيره وطاعته وحبه والانقياد لأوامره وأقواله فى كل الأوقات والحالات ، فى حياته و بعد مماته ، فى شهوده وغيبته ، فى قربه و بعده . . . ولكن شيئاً من هذا لا يدل على جواز

دعائه والاستغاثة به وسؤاله مالا يقدر عليه ومالا يقدر عليه إلا الله وحده . ولهذا لم يقل : «فانه فى قبره حى » أو : « إنه فى مماته مثله فى حياته » أو : « إن قدرته ميتاً كقدرته حيا » أو نحو ذلك من العبارات التى تدل على مايذهب إليه المخالفون من الخرافات والضلالات . .. بل إن هذه العبارة والمقالة بلفظها وصيغتها وروحها ومغزاها تدل على أنه بعد موته قد انقطعت الصلات به سوى صلة الاحترام والحب والاجلال والتوقير والتعظيم وهـذه المعانى من الطاعة والاتباع والانقياد لحكمه وشرعه مما يتعلق بالرسالة التى خلفها والدين الذى شاده وأقامه .

وأما قوله : « ولم تصرف عنه وجهك ؟ » فغاية مافيه أنه يدل على أن السنة استقبال القبر الشريف وقت الدعاء . والدعاء كما تقدم يحتمل أن يراد به الصلاة والسلام عليه والدعاء لصاحبيه . وقد سلف أن هذا يسمى دعاء . ونحن لا ننازع فى أن زائر القبر يستحب له استقباله وقت السلام والدعاء لصاحبه .

معانى كلمات ما
إذا صحت عن

وأما قوله : « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » فالمراد به أنه يكون يوم القيامة شفيعاً له ولآدم ولجميع الخلائق كما صحت بذلك النصوص. ولا ننازع فى شئ من شفاعاته ﷺ يوم القيامة ، بل نؤمن بها كلها ونرجو الله أن ينفعنا بها وأن يزيد فى نصيبنا منها ، ونسأله تعالى إياها ، ونتعرض لها ما استطعنا التعرض ، وقد تقدم الـكلام عليها فى فصل سابق . ولـكن هذا ليس فى محل النزاع والخلاف . وقول مالك هنا « وسيلتك ووسـيلة أبيك آدم يوم القيامة » يشعر بأنه قبل يوم القيامة ليس كذلك عـلى المعنى الذى يذهبون إليه ويدعونه ويدعون إلى الأخذ به . ولو كان ﷺ وسيلة عند مالك فى كل الأوقات - بمعنى أنه شفيع مسؤول الشفاعة كل وقت - لما قيد ذلك بقوله « يوم القيامة » بل لقال : « وهو وسيلتك ووسـيلة أبيك آدم » دون القيد المذكور ، أو قال : « وسيلتك ووسيلة أبيك آدم فى كل وقت » . فقوله إذن فى الرواية « وسـيلتك ووسـيلة

أبيك آدم يوم القيامة » ظاهر فى التفريق بين الوقتين : يوم القيامة وما قبلها من أيام البرزخ. وهذا هومانقوله وما ندعيه وندعو إليه ، لأنه ﷺ يكون يوم القيامة حيا حياة حسية صحيحة كاملة يخاطب بها و يدعى و يرجى و يستشفع و يشفع ،وليس كذلك فى حال الموت . وهذا هو ما تشير إليه هذه الرواية إشارة صريحة واضحة

وأما قوله : « واستشفع به فيشفعك الله » فقد قال بعض أهل العلم فيه قولا لا يبعد أن يكون صحيحاً . ذلك أنه قال : الاستشفاع بالنبى معناه التعرض لشفاعته والاتيان بالاعمال والأقوال التى بها تنال شفاعته . قال : وشفاعته تنال بطاعته واتباع سنته ، و بالاهتداء بهديه ، و بالصلاة والسلام عليه ، و بسؤال الله الوسيلة والفضيلة له كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال قلت يا رسول الله: من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه » ، وفى البخارى أيضا عن رسول الله قال : « من قال إذا سمع الدعاء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » . وفى صحيح مسلم عن رسول الله قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على فان من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا . ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وارجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

فالاستشفاع بالنبى عليه الصلاة والسلام فى قول مالك « ' . فى أقوال غيره هو طلب شفاعته عليه السلام ، وشفاعته لا تطلب إلا باتباعه وطاعته والاقتداء به ، والتمسك بسنته ، والعمل بشريعته . . . لا تطلب شفاعة النبى بغير ذلك . ومادة « الاستفعال » تعطى معنى الطلب والالتماس . فالاستنصار معناه طلب النصر ، والاستغفار طلب الغفر ، والاستفتاح طلب الفتح ، وكذلك « الاستشفاع »
...

معناه طلب الشفاعـة . فالاستشفاع بالنبى معناه طلب شفاعتـه . و بماذا تطلب شفاعته عليـه الصلاة والسلام ؟ إنها لا تطلب بالابتـداع ولا بتنكب سنته والازورار عن شريعته ، ولكنها تطلب باتباعه وطاعته . فاذا طلب الاسلام من المسلمين أن يلتمسوا شفاعـة نبيهم وأن يتعرضوا لها كان معنى هـذا أن يأخذوا بالطريق الموصلة إليها حقيقة ، المرضية لربهم . وقد بين الإسلام أن الأمر الذى تنال به الشفاعة لا يعدو جملة الإسلام : أقواله وأفعاله واعتقادياته ، وأن السبيل المفضية بسالكها إليها لا تكون إلا سبيل رسول الله عليه السلام وما جاء به من الهدى والدين والنور . وقد علم أمته أنها لن تنال الشفاعة إلا بالاخلاص والتوحيد وقول : لا إله إلا الله اخـلاصاً و إيمانا ، و إلا بالطاعات و بالصلاة والسلام عليه ، و بسؤال الله الوسيلة والفضيلة له كما فى الأحاديث السابقة . وهذا لأن الجزاء من جنس العمل . فمن سأل الله لنبيه عليه السلام سأل النبى له ، ومن شفع له وسأل ربه من أجله الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود شفع هو له عند ربه وسأله له النجاة والغفران والصفح الجميل . فالذى يشفع للنبى يشفع له النبى جزاء وفاقاً ، لأن الجزاء من جنس العمل .

معنى الاستشفاع وبماذا تنال الشفاعة

فالمسلمون ينالون شفاعة نبيهم وشفاعةغيره من الأنبياء والملائكة والصالحين بطاعة الله وطاعـة رسله وأنبيائه . فالاستشفاع بهم فى لسان الشرع ولسان أهله لا يعـدو الاتيان بالاعمـال والأقوال التى يرضاها الله و يشفع أنبياءه ورسله فى صاحبها ، الآتى بها. فقول الامام مالك هنا : « واستشفع به فيشفعك الله » معناه اعمل الأعمال التى تستحق بها الشفاعة ، وهى أن تطيعـه وتعظمه وتوقره وتصلى وتسلم عليه ،وتسأل ربك له الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعةوالمقام المحمود. وهذا هو ما يجعل العبد من أهل الشفاعة ، لا الاستشفاع به ﷺ ، ولا استغاثته ولا سؤاله ، ولا إثقاله بالمطالب والحاجات المختلفة . . . فان هذه الأمور كلها لا ينيل

شيء منها الشفاعة ولا الكرامة ، بل هي من الأمور المبعدة عن الله وعن رسوله :
ولهذا يقول ﷺ : « فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » ويقول :
« من قال آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود حلت له شفاعتى يوم
القيامة » . ولم يقل : « من سألنى الشفاعة فى قبرى أو فى حياتى حلت له شفاعتى »
بل قال : من دعا الله لى وسأله من أجلى الوسيلة والفضيلة شفعت له . فهو ﷺ يطلب
من المسلمين المؤمنين به أن يدعوا الله وان يشفعوا له ، لا أن يدعوه نفسه ويسألوه
فانه ﷺ مثلهم فى باب الفقر الى الله والاحتياج الى ما عنده ، وفى العجز عن
الضر والنفع . والأمر فى غاية الوضوح والظهور .

تخريج قريب لكلام مالك

وأما استشهاده بقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله
واستغفر لهم الرسول » الآية فهو إذا صح عنه ليس دالا على قول المخالفين .
وذلك أن المنصور حينما جادل مالكا كان فى المدينة فى المسجد النبوى كما فى
الحكاية . ونحن لا ننازع أن من كان فى مسجد النبى عليه السلام كان مستحبا له
أن يأتى الحجرة وأن يصلى ويسلم على رسول الله ويدعو لصاحبيه : أبى بكر وعمر .
وإنما نمنع أن يسافر لأجل ذلك قصدا وعمدا . والحكاية لم تدل على أن المنصور
كان قد سافر لأجل الزيارة المجردة . وإنما تدل ـ إذا صحت ـ على أن مالكا
قد طلب إليه وهو فى مسجد النبى أن يأتى القبر وأن يصلى ويسلم عليه ، غير أنه
لم يطلب إليه أن يسافر إلى القبر لمجرد زيارته . وهذا هو ما نمنعه وما يجيزه المخالفون
والرواية لا تؤيد مذهب المخالفين يقينا . ولعل الإمام مالكا كان يذهب إلى أن
الآية ترغيب لأهل المدينة أنفسهم وحدهم ولمن كان فيها من غير أهلها ـ دون
غيرهم ـ فى أن يأتوا النبى حيا ويأتوا قبره ميتا وإن كان يمنع السفر مطلقا لزيارة
القبور عامة كما تقدم لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة
مساجد » الحديث . ومالك رضى الله عنه يفرق بين الزيارة بسفر وبين الزيارة

بدون سفر ، فيمنع السفر لأجلها كما سبق ، و يستحبها لمن قدم من السفر سواء.
أ كان القادم من أهل المدينة أم من الغرباء . والمنصور حينما أمره مالك باتيان
القبر كان قد قدم من السفر . فاتيانه القبر موافق لمذهب مالك الذى رواه عنه.
جلة أصحابه . ومالك يعلم أن هذه الآية قد نزلت فى جماعة من أهل المدينة كانوا
قد أبوا إتيان رسول الله وقد دعوا إليه بعد أن ظلموا أنفسهم وأساءوا إليه عليه
السلام بنفاقهم وضلالهم وتحاكمهم إلى الطاغوت وتأبيهم حكمه وحكم الله . فهى
ليست دعوة للناس كافة إلى اتيان النبى واتيان قبره .

فالحكاية لو صحت لم تدل على ما يذهب إليه المخالفون . والحمد لله رب العالمين.

توسل الشافعى بآل النبى

﴿ الشبهة السادسة عشرة ـ توسل الشافعى بآل النبى ﴾

وأما قول الرافضى : إن الامام الشافعى قد توسل بآل البيت النبوى وقال :

آل النبى ذريعتى * وهم إليه وسيلتى
أرجو بهم أعطى غدا * بيدى اليمين صحيفتى

فالجواب أن نطالبهم أولا بصحة سند هذا الشعر إلى الشافعى رضى الله عنه .
فإنه ليس كل ما عزى إلى الشافعى أو إلى غيره من الأئمة يكون صحيحاً . ونقل
الهيتمى له فى كتاب « الصواعق المحرقة » أو غيره لا يكفى فى إثباته وثبوته.
وتصحيحه . فعلى المحتج به أن يذكر سنده إلى قائله رضى الله عنه . ونحن لا نعرف.
له سندا ، ولا نعرف أن أحدا من أهل العلم والبصر بالمنقول ذكره عن الشافعى.
وأقل ما يطالب به المحتج بالشئ أن يقيم الدليل على صحته وثبوته أو أن يورد له.
إسناداً يستطاع اختباره والتنقيب عنه .

ونحن لا نشك فى بطلان نسبة هذا الشعر إلى الامام الشافعى ، والشافعى.
أجل من أن يقول مثله : فإنه شعر ركيك هالك ، سخيف بارد ، لا يليق بأمثال.
الشافعى ، العربى القح الفحل ، البارع فى معرفة كلام العرب وفنونه بلشأته.

وبعوله وبعلمه وثقافته . وإنما يليق بجهلاء الفقهاء الذين لم يأخذوا من الأدب ، ولا من لسان العرب ، بسبب ولا ببعض سبب .

معنى هذا الشعر لو صح عن الشافعي

ثم يقال ثانيا : لو صح هذا الشعر ما دل على ما ذهبوا إليه . فإنه ليس فيه استغاثة بغير الله من الأموات ، ولا دعاء ولا طلب ولا سؤال . . . وإنما فيه الزعم أن آل النبي ذريعة ووسيلة إلى الله . والذريعة هي الوسيلة . والوسيلة قد تقدم الكلام عليها ، وتقدم أنها لا تعدو ما يتقرب به إلى الشيء ، فالوسيلة إلى الله لا تعدو مايتقرب به وما يقرب إليه تعالى .. فآل النبي – على مافي هذا الشعر – ذريعة ووسيلة إلى الله ، بمعنى أن المسلم يتقرب بهم إلى ربه ، أي يتوسل ويتذرع . ولكن ما معنى تقرب المسلم إلى ربه بآل النبي؟ يصح أن يراد التقرب بحبهم وولائهم واحترامهم والعطف عليهم والدعاء لهم إذا كانوا صالحين طيبين . . . ولا يصح أن يراد بذلك دعاؤهم ولا سؤالهم ولا استجداؤهم ولا العكوف على قبورهم لأن هذا كله ليس من الموالاة ، ولا من الاحترام والتعظيم لهم . والنبي ﷺ كان يسأل لهم الاحترام والتقدير والإجلال الصادق الصحيح . ولم يكن يأمر بأن يسألوا ويدعوا ويطلبوا . . . والشيعة تزعم أن الله يأمر بإعطائهم وبرهم والإحسان إليهم بأمثال قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه » وقوله : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » وقوله : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى » . . . فالله يأمر بالإحسان إليهم وبإعطائهم حقوقهم وبالبر بهم وبحبهم وموالاتهم لقرابتهم من رسول الله وانحدارهم من صلبه الشريف الطاهر إذا صلحوا وطابوا أنفساً وأعمالا وعقائد وأخلاقا ، وإلا فرسول الله نفسه يكون أول من يبرأ منهم ومن يكرههم ويتجافى عنهم طاعة لله وغيرة لدينه وخلقه .

. . . فمن قال من أهل الفقه والعلم والبصر بالدين : إن آل النبي وسيلة أو ذريعة

إلى الله كان مراده التقرب إلى الله بولائهم وحبهم والإخلاص لهم والدعاء من أجلهم كما فى تشهد الصلاة ، وإعطائهم حقوقهم التى فرضها الله لهم . ولا يصح أن يراد بمثل هذا القول دعاؤهم ولا الاستغاثة بهم ولا مخالفة أمر الله فيهم .

وقوله : « أرجو بهم أعطى غداً » يوضح ما ذكرناه ويقويه . فانه يريد « بغد » يوم القيامة . فمعنى هذا الشعر : أننى أحب آل النبى وأواليهم وأعظمهم رجاء أن ينفعنى الله بشئ من ذلك يوم القيامة ، ورجاء أن أكون من أصحاب اليمين . فهو بهذا الشعر لم يطلب ولم يرد منهم شيئاً . وإنما رجا أن يعطى بهم يوم القيامة صحيفته ـ وهى كتابه ـ بيمينه . ولفظة « بهم » هذه يراد بها بحبهم والاحسان إليهم والاحترام لهم لقرابتهم لرسول الله . ولهذا لم يقل : « أرجو أن يعطونى غداً صحيفتى بيمينى » ولا نحواً من ذلك . وإنما رجا الله وحده ـ شأن كل مسلم مؤمن بالله . فلا شئ فى هذا القول مما يذهبون إليه ، لو كان صحيحاً ، وهو غير صحيح

﴿ حديث الاستسقاء بالعباس ﴾

الكلام على حديث الاستسقاء بالعباس

وبقى من حجج المخالفين فى هذا الباب حديث الاستسقاء بالعباس بن عبد المطلب . وذلك ما رواه البخارى فى الصحيح عن أنس بن مالك أن عمر ابن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ». قال : فيسقون

قال المخالفون : وهذا الحديث يدل على جواز التوسل بالصالحين إلى الله .. والتوسل عندهم يشمل كل هاتيك المنكرات الفاشية فوق القبور . وقد احتجوا لذلك كله بهذا الحديث . ثم قالوا : ولا فرق بين الأحياء والأموات . فاذا جاز التوسل بالأحياء جاز كذلك بالأموات ، ولا فرق ، لأن المجيز للتوسل والحامل

عليه هو الصلاح والكرامة على الله . والصالحون لهم صلاحهم وكراماتهم عند ربهم أحياء وأمواتاً .

الحديث لا يدل على أقوال المخالفين

والجواب عن هذا الخبر فى مقامين : المقام الأول فى عدم دلالته على ما زعموا . والمقام الثانى فى دلالته على خلاف مازعموا . أما المقام الأول وهو التدليل على أن الحديث لا يؤيد شيئاً مما يزعمون ويذكرون ، فنقول : لاخلاف بين الناس فى أن العباس حينما استسقى به عمر كان حياً . وهذا لم ينازع فيه أحد من المخالفين ولا من غيرهم . فهو من التوسل بالحى ، أى من الاستشفاع به. ونحن لم ننازع قط فى جواز الاستشفاع بالأحياء وجواز التوسل الشرعى بهم ، بل لم ينازع أحد من المسلمين فى جواز طلب المخلوق ما يقدر عليه بالجملة ، ولا فى الاستغاثة به على ما يستطيعه عادة . بل هذا عندنا واجب أحياناً . والاستشفاع بالحى — وكذلك التوسل — مما يجوز ويشرع ، لأن الحى يقدر أن يشفع لمن استشفع به ، ويقدر أن ينفعه بعض النفع ، ويقدر أن يسمعه ، وأن يعلم حاله وسؤاله . فالتوسل بالعباس فى هذا الحديث هو من الاستشفاع بالحى ، والاستشفاع بالحى لا خلاف فى جوازه .

فقول عمر : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا . . . وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . . . معناه : اللهم إنا كنا نستشفع إليك بنبينا حينما كان حياً ، وإننا اليوم نستشفع إليك بالعباس عم نبيك . . . فالتوسل هنا هو الاستشفاع ، والاستشفاع هنا هو الاستسقاء . ويدل على هذا أمور كثيرة .

الدلائل على ان التوسل هنا هو طلب الدعاء

منها قول أنس : إن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس . وقد فسر هذا الاستسقاء بأنه كان يقول : وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . فذكر الاستسقاء أولاً ثم ذكر التوسل ثانياً ، وأحد اللفظين يفسر الآخر ، فالتوسل فى اللفظ الأخير هو الاستسقاء فى اللفظ الأول ، فهذا تفسير لهذا ، فهما بمعنى واحد . والاستسقاء

معناه طلب السقيا . فهم إذن طالبون من العباس ، أى مستشفعون .

ومنها أن التوسل فى هذا الحديث مذكور بالنبى عليه الصلاة والسلام و بالعباس فالتوسل بهما فى معنًى واحد . ولاشك أن التوسل بالنبى هنا معناه طلب الاستسقاء منه . وقد جاء هذا مفسراً فى الأحاديث الأخرى الكثيرة الصحاح ، فجاء فى غير ما حديث أن الناس كانوا حين الجدب يأتون رسول الله عليه السلام و يطلبون منه أن يستسقى لهم ، ويقولون : يارسول الله ادع الله أن يغيثنا . فيرفع يديه و يدعو لهم فيسقون ، فاذا كثر المطر طلبوا إليه أن يدعو الله بأن يمسكه وقالوا : ادع الله أن يمسك السماء فيدعو . وقد كان ﷺ إذا استسقوا به يستسقى لهم ويدعو بلا صلاة ، وأحياناً يأمرهم بالخروج إلى الصحراء والخلاء ، فيصلى بهم صلاة الاستسقاء و يستسقى و يدعو مع الصلاة . وهذا كله معروف مذكور فى الأحاديث الصحيحة . فالتوسل بالنبى عليه السلام فى هذا الحديث معناه الاستشفاع والاستسقاء المفسر فى غيره من الأخبار . ومثله التوسل بالعباس بلا ريب ، فانهما مذكوران فى حديث واحد . . . فاذا علم أن التوسل بالنبى معناه طلب الدعاء منه علم أن التوسل بالعباس مثله هو طلب الدعاء منه .

ومنها أن هذا قد جاء مفسراً فى بعض الروايات . قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : وقد روى عبد الرزاق من حديث ابن عباس أن عمر استسقى بالمصلى فقال للعباس : قم فاستسق ، فقام العباس . قال : وقد بين الزبير بن بكار فى الأنساب صفة ما دعا به العباس فى هذه الواقعة والوقت الذى وقع فيه ، فأخرج باسنادٍ له أن العباس لما استسقى به عمر قال : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث .وأخرج من طريق داود عن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال : استسقى عمر بن

الخطاب عام الرمادة بالعباس فخطب الناس فقال : إن رسول الله كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد . فاقتدوا أيها الناس برسول الله فى عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله . هذا كله كلام الحافظ ابن حجر . ثم قال فى الفتح بعد هذا : «ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والخير وأهل بيت النبوة ، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه» . وقال الشيخ المحب الطبرى فى كتابه « ذخائر العقبى » من فصل « ذكر استسقاء الصحابة بالعباس » : «قال أبو عمر: أجدبت الأرض على عهد عمر إجداباً شديداً سنة سبع عشرة ، فقال كعب : ياأمير المؤمنين إن بنى إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة أنبيائهم . فقال عمر : هذا عم النبى ﷺ وصنو أبيه ، وسيد بنى هاشم . فمشى إليه عمر ، فشكا إليه ما فيه الناس ، ثم صعد المنبر ومعه العباس وقال : اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا صنو أبيه ، فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين . قال عمر : قم ياأبا الفضل فادفع (كذا فى النسخة المطبوعة . ولعل الصواب « فادع ») فقام العباس وقال بعد حمد الله وثنائه عليه : اللهم إن عندك سحاباً ، وعندك ماء، فانشر السحاب، وأنزل الماء منه علينا ، واشدد به الأصل وأطل به الزرع ، وأدر به الضرع. اللهم إنك لم تنزل بلاء إلا بذنب ، ولم تكشفه إلا بتوبة . وقد توجه القوم بى إليك . فاسقنا الغيث . اللهم شفعنا فى أنفسنا وأهلنا . اللهم إنا شفعنا عما لا ينطق من بهائمنا وأنعامنا . اللهم اسقنا سقياً نافعاً طبقاً ، سحاً ، عاماً . اللهم لا نرجو إلا إياك ، ولا ندعو غيرك ، ولا نرغب إلا إليك. اللهم إنا نشكو إليك جوع كل جائع ، وعرى كل عار، وخوف كل خائف وضعف كل ضعيف . . . فى دعاء طويل . وكل هذه الألفاظ لم تجئ فى حديث واحد ، وإنما فى أحاديث متفرقة ، جمعت واختصرت . وفى بعض الطرق : فسقوا والحمد لله . وفى بعضها : فأرخت السماء عزاليها ، فجاءت بأمثال الجبال حتى

روايات الحديث وما دعا به العباس

استوت الحفر والآكام واخضرت الأرض وعاش الناس . فقال عمر : هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه . وعن ابن عمر قال : استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس ، وقال : اللهم هذا عم نبيك ﷺ نتوجه به إليك فاسقنا . فما برحوا حتى سقاهم الله . أخرجه إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي . . . قال أبو عمر : وروينا من وجوه عن عمر أنه خرج يستسقي ، وخرج معه العباس ، فقال : اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك ونستسقي به ، فاحفظ فيه نبيك كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما ، وأتيناك مستغفرين ومستشفعين . ثم أقبل على الناس وقال : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا » إلى قوله : « ويجعل لكم أنهاراً » . ثم قام العباس وعيناه تنضحان ، ثم قال : اللهم أنت الراعي ، لاتهمل الضالة . ولا تدع الكسير بدار مضيعة ، فقد تضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، أغثنا بغياثك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فانه لاييئس من روح الله إلا القوم الكافرون . فنشأت طريرة (سحابة صغيرة) من سحاب . فقال الناس : ترون ، ترون . ثم تلاءمت ثم هرت ودرت . . . » . ذكر هذا كله صاحب « ذخائر العقبى » . وألفاظ هذه الروايات بينة في مانقول . وقول العباس : « اللهم لانرجو إلا إياك ، ولا ندعو غيرك ، ولانرغب إلا إليك . . . » يرد على هؤلاء دعاءهم الأموات ، ورجاءهم المخلوقين ، ورغبتهم إلى الأجداث .

دلائل اخرى على ان الذى فى الحديث استشفاع بالاحياء

فالمسألة إذن مسألة استشفاع لاغير . ولذلك قال الفقهاء والعلماء : إنه يستحب الاستسقاء بأهل الصلاح والخير والدين ، مستدلين بهذا الحديث لأنهم لا يفهمون منه إلا أنه استسقاء واستشفاع . وهم يسمون هذا الحديث « حديث الاستسقاء بالعباس » . وهذا لايختلف الناس فيه . وقد قال شاعر العباسيين : أبو عبادة البحتري في امتداح أحد خلفاء بني العباس ـ مشيراً إلى هذا الحديث:

إن الفضيلة للذى استسقى به * عمر ، وشفع إذ غدا يستشفع

فالشاعر نفسه يعلم أن المسألة مسألة استشفاع وطلب دعاء ، لا كما يظن هؤلاء المخالفون . فالعلماء والشعراء ، وكل الناس لايفهمون من التوسل بالعباس فى هذا الحديث إلا أنه استسقاء واستشفاع ، ولايفهمون إلا أن عمر طلب من العباس أن يدعو للناس وأن يستسقى من أجلهم ، ويسأل ربه إنزال الغيث والمطر كما كانوا يسألون رسول الله ذلك حينما كان حيا إذا أجدبوا واحتاجوا إلى المطر .

وقد جاء هذا مفسراً فى بعض طرق حديث أنس . قال فى فتح البارى : وحديث أنس عن عمر جاء عند الاسماعيلى من رواية محمد بن المثنى عن الأنصارى بإسناد البخارى إلى أنس ، قال : كانوا إذا قحطوا على عهد النبى استسقوا به فيستسقى لهم فيسقون ، فلما كان فى إمارة عمر ... وذكر الحديث . وهذا صريح فى الاستسقاء : والاستسقاء هو الشفاعة والدعاء .

والذى يوضح هذا جيدا أن الراوى للحديث ، وهو أنس بن مالك ، قد سمى هذا التوسل استسقاء فقال : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس . والاستسقاء بالاجماع ليس له معنى إلا طلب السقيا . فهذا نص لا يتقبل الخلاف والجدال . وقوله فيه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك . . . الحديث تفصيل للاستسقاء المذكور . و « الفاء » تفصيلية تفسيرية .

ومن الدلائل على ما ذكرناه أن التوسل هنا لو لم يكن هو الاستشفاع وطلب الدعاء لما عدلوا عن النبى عليه الصلاة والسلام إلى العباس . فلو كان التوسل هو مايعنيه هؤلاء القوم من السؤال بالذات والجاه والحق ـ وإن لم يكن هناك دعاء ولا شفاعة من المسئول به ـ لما عدلوا عن النبى إلى سواه ، بل لتوسلوا بجاهه وبذاته وبحقه وإن كان عليه الصلاة والسلام فى الملأ الأعلى عند ربه ، وإن كان لايعلم من أمر من توسلوا به شيئاً ، لأن التوسل حينئذ بالذات والجاه والحرمة . وهذه الأمور ثابتة للنبى عليه الصلاة والسلام حيا وميتاً سواء أدعا أم لم يدع ، وسواء

أعلم أم لم يعلم . ولكن عدول الخليفة عمر بن الخطاب وغيره من الأصحاب عن التوسل بالنبي بعد وفاته دليل ظاهر على أن مرادهم بالتوسل الاستشفاع وطلب الدعاء . وهم لا يعلمون أن الميت يستشفع به ويطلب منه الدعاء .

دليل آخر جلي ظاهر

ومن الدلائل أيضاً أن قول عمر فى الحديث : وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . إما أن يراد به التوسل بذات العباس أو بما فيه من معانى الإيمان والإسلام والصلاح والتقوى ، أو يراد به التوسل بدعائه وشفاعته . . . أما التوسل بالذات المجردة فلا يمكن أن يراد لأنه لا معنى له . وذات العباس المجردة من معانيها وإيمانها وإسلامها وخلائقها لا فرق بينها حينئذ وبين سائر الذوات المجردة . وأما التوسل بما فى ذات العباس من معانى الإيمان والإسلام والصلاح والتقوى فلا يمكن أن يراد أيضاً ، لأن التوسل إلى الله بإيمان العباس وإسلامه وصلاحه ودينه ليس سبباً من أسباب قبول الله دعوتك ورضاه عنك وإجابته لك . لأن صلاح المرء ودينه ومعانيه الفاضلة الطيبة خاصة به وحده . ولا فرق بين أن تقول لمن تتوسل إليه : أسألك بصلاح الناس وبدينهم وفضائلهم وتقواهم ، وبين أن تقول أسألك بجمال الشمس والقمر وبعلوهما وإشراقهما ، وبنفاسة الذهب والفضة واللؤلؤ ، وبكل ما فى المخلوقات من جمال وجلال . . . فالسؤال بكلا الأمرين لا يقتضى أن تجاب ، والتوسل إلى حاجتك بهذا وبهذا باطل جاهل . وقولك : أسألك يارب بدين العباس ، وبصلاح فلان من الناس ، مثل أن تقول : أسألك يارب بجمال الشمس ، وإشراق النهار ، وهدوء الليل ، وروعة الظلام ، وبكل ما فى خلقك يا رب من جمال وجلال وروعة ، وبكل ما فيه من معان وحكم وعبر وأسرار . . . كلاهما جميل فى نفسه ، رفيع فى قدره ، رائع حسن . ولكن هذا لا يقضى لك بأن تتوسل بهما ، ولا يقضى لك بأن تجاب وتعطى إذا توسلت بهما . ولهذا لم يسأل أحد من أهل العلم والمعرفة بنحو الكعبة والمسجد الحرام والأماكن

المقدسة المفضلة ، ولا بالجنة ولا بالشمس ولا بالقمر ، ولا بغير ذلك من مخلوقات الله الباهرة الكبرى ، الجامعة بين الجلال والجمال وعظمة القدر والشأن . وهذا لأنهم يعلمون أن شرف الشئ وجلاله وجماله وحسنه لا يسوغ أن يسأل به ، وأن يتوسل إلى الحاجات بذكره مع ذكرها ، أى ذكر الحاجات . فالتوسل بصلاح العباس لا يصح أن يراد هنا . وأما التوسل بشفاعته ودعائه فهو الذى يجب أن يراد بالخبر ، وهو الذى لا معدى عنه . وذلك أن التوسل بالدعاء والشفاعة من أسباب الاجابة ، لأن الله سبحانه يجيب دعوة عبده سواء أدعاه بلسانه أم بلسان غيره ، وسواء أدعاه لنفسه أم لأخيه . فالمسلمون إذا طلبوا من العباس أو غيره من أهل الصلاح والدين أن يدعو الله لهم وأن يسقيهم الغيث فقد توسلوا إلى الله و إلى حاجاتهم بسبب صحيح ظاهر وهو شفاعة من استشفعوا به من أهل الصلاح والدين والخير ، لأن الله يقول فى الكتاب : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » وقال : « و إذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » و يقول : « أم من يجيب المضطر إذا دعاه . . . » الآية إلى غير ذلك من الآيات الواعدة للداعين المتقين بالاجابة والقبول كما قال تعالى « إنما يتقبل الله من المتقين » . ولهذا جاء فى غير ما آية وغير ما حديث أنهم كانوا يطلبون من أنبيائهم أن يدعوا الله لهم وأن يشفعوا من أجلهم . وجاء فى غير ما نص الترغيب فى طلب الدعوة والشفاعة من المؤمنين الصالحين الأبرار . ولم يأت عن أحد منهم التوسل والسؤال بالذوات المجردة و بالجاهات . وهذا كله معروف معلوم . فالتوسل بدعاء العباس و بدعاء الصالحين توسل صحيح عقلا وشرعاً . فعمر وغيره من الصحابة لا يمكن أن يكون توسلهم بغير دعاء العباس وشفاعته . وقد تقدم بيان لهذا فى الكلام على حديث الأعمى وحديث سؤال آدم ربه بحق محمد صلى الله عليهما وسلم . فليراجع .

المقام الثانى
دلالة الحديث
على خلاف قولهم

وأما المقام الثانى ــ وهو التدليل على أن الخبر يدل على خلاف ما ذهبوا إليه — فيقال : لا ريب أن عمر بن الخطاب وغيره من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام لم يعدلوا عن التوسل بالنبى إلى التوسل بالعباس إلا لسبب وجيه صحيح ، اقتضاهم أن يتركوا صفوة خلق الله ، وأقربهم إليه وسيلة ومكانا ، ومكانة ، صادفين إلى غيره من أصحابه وأتباعه ، قائلين : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . فاسقنا . وقد بين هذا الخبر أنهم كانوا حين القحط فى حياة النبى لا يعدلون عنه عليه الصلاة والسلام ، ولا عن التوسل به إلى التوسل بسواه . فدل ذلك على أنهم كانوا فى حياة رسول الله لا يتوسلون بغيره مطلقاً عند الاستسقاء ، وعلى أنهم بعد ذلك — أعنى بعد موته ـ ما كانوا يتوسلون به مطلقاً ، بل يتوسلون بغيره كالعباس بن عبد المطلب وكغيره . وقول أنس فى الرواية : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس يدل على تكرر ذلك وتعدده ، وعلى أنه لم يكن مرة واحدة فحسب .وقول عمر : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا . . . يدل على تكرر توسلهم به عليه الصلاة والسلام ، وعلى أن ذلك كان شأناً لهم وعادة . ومن مجموع الحديث يؤخذ أنهم كانوا لا يتوسلون بغير النبى فى حياته عند القحط ، ولا يتوسلون إلا بغيره بعد مماته حين ذلك . ولاشك أنه لابد من سبب صحيح وجيه فى عدولهم عن النبى إلى غيره بعد أن كانوا لا يتوسلون إلا به ، وبعد أن كانوا يتوسلون به ويسألون فيهبهم الله ما يسألون وما يطلبون . فما السبب فى هذا ؟ وما الحامل لهم عليه ؟ وما الصارف لأصحاب النبى عن نبيهم بعد أن كانوا لا ينصرفون عنه ولا يتوسلون بسواه ؟

جواب الرافضى
عن هذا

وقد أجاب الرافضى عن هذا السؤال بقوله : « إنا نقول : لا يلزم على الانسان دائماً توخى الأقرب إلى الاجابة فى التوسل والدعاء ، كما لا يلزم توخى

الأفضل فى العبادة ، بل له أن يختار ما يشاء . و يدل عـلى ذلك أن النبى طلب الدعاء من عمر ولم يطلبه من أبى بكر الذى هو أفضل من عمر . وأنه أمر عمر أن يطلب الاستغفار لنفسه من أويس . فلم لم يأمره أن يطلبه من أبى بكر الذى هو أفضل من أويس ، بل من النبى الذى هو أفضل الـكل . عـلى أن قول عمر : إنا نتوسل إليك بعم نبينا لايخرج عن التوسل بالنبى ، أى نتوسل بمن له عندك حرمة لـكونه عم نبينا المقرب عنـدك ، كما تقول لغيرك : أتوسل إليك بقرابة الملك أو بمرضعة ابنك أو بصهر أخيك أو نحو ذلك . ولذلك لم يقل : نتوسـل إليك بالعباس . وهذا كما فى قوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن » . ولم يقل على الوالد ، قصداً لبيان العلة فى ثبوت ذلك عليه وهى أن الولد له . و يرشد إلى ذلك قول العباس : وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك . وفى خـلاصة الـكلام : و إنما خص عمر العباس من بين الصحابة لإظهار شرف أهـل بيت الرسول ، ولبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، فان علياً كان موجوداً وهو أفضل من العباس . . . » .

فساد هذا الجواب بوجوه كثيرة قوية

هذا كله كلام الرافضى فى جواب السؤال وهو جواب باطل يقيناً ، و يعرف بطلانه بأمرين : مجمل ومفصل . أما المجمل فهو أننا نعرف بالبداهة والضرورة أن جماعة من الناس لو أصابهم القحط الشديد، وأرادوا أن يستسقوا بأحدهم لما أمكن أن يعدلوا عمن دعاؤه أقرب إلى الاجابة و إلى رحمة الله . ولو أن إنسانا أصيب بمكروه فادح ، وكان أمامه نبى وآخر غير نبى ، وأراد أن يطلب الدعاء من أحدهما لما طلبه إلا من النبى ، ولو طلبه من غير النبى وترك النبى لعد من الآثمين الجاهلين . ولو كان أمام أحدنا أبو بكر الصديق و رسول الله ، وأراد أن يستشفع برسول الله أو بأبى بكر الصديق لما أمكن أن يستشفع بأبى بكر ويترك النبى . أو لو كان أمامنا عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان، وكان ممكناً أن نطلب الدعاء من أحدهما

لما أمكن أن نطلبه من معاوية ونترك عمر . ولو فعل ذلك مسلم لكان جاهلا ملوماً . ولو أن أحد أصحاب النبى أتى النبى فى جماعة من فضلاء أصحابه لما أمكن أن يستفتى أحدهم ، وأن يستشفع به ويترك النبىّ ، لا يستفتيه ولا يستشفع به ، كما لا يمكن أن يقدموا واحداً منهم لإمامة الصلاة مع وجوده عليه السلام .

ويدل على بطلان هذا الجواب الذى ذكره الشيعى أن رسول الله لو كان موجوداً يوم أن استسقى عمر بالعباس لما أمكن أن يترك النبى وأن يستسقى بالعباس ، وأن المسلمين لا يمكن أن يريدوا صلاة الاستسقاء فى حياة نبيهم ووجوده بين أظهرهم ، فيخرجوا للصلاة ويستسقوا بواحد منهم ويأتموا به ، ويتركوا رسولهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لكانوا عين الضلال الجهلاء . وهذا كله يرد جواب الرافضى ردا لاحيلة له فيه . فالمسلمون ، مجتمعين ، لا يمكن أن يستشفعوا بغير النبى فى مثل صلاة الاستسقاء ودعائه ويتركوا نبيهم مع وجوده بين أظهرهم ومع إمكان أن يستشفعوا به . ولهذا لم يأتموا بغيره فى حياته عليه الصلاة والسلام لا فى صلاة الاستسقاء ودعائه ، ولا فى سائر الصلوات مع وجوده معهم . وقد ذهب ﷺ مرة ليصلح بين جماعتين من الأنصار تنازعتا ، فحانت صلاة العصر قبل أن يحضر فأذن وأقيمت الصلاة وتقدم أبو بكر الصديق إماماً بالناس ، فأتى رسول الله وهم فى الصلاة فتخلص حتى وقف فى الصف ، فرآه الناس فصفقوا بأبى بكر ليشعروه بحضور رسول الله . وكان أبو بكر لا يلتفت فى الصلاة ، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فرأى رسول الله فأشار إليه رسول الله : أن امكث مكانك ، فتأخر أبو بكر عن مكان الامامة حتى وقف فى الصف فتقدم النبى عليه الصلاة والسلام فصلى بالناس. فلما سلم قال لأبى بكر : « مامنعك أن تثبت إذ أمرتك ؟ » فقال أبو بكر : ما كان لابن أبى قحافة أن يصلى بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام . وقد تقدم مرة لإمامة الصلاة أبو بكر أيضاً فى مرض النبى بأمره ،

لا يمكن الائتمام بغير رسول الله مع وجوده

فوجد النبى فى نفسه قوة فخرج بين رجلين من أصحابه إلى الصلاة حيث يصلى الناس ، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأشار إليه رسول الله : أن مكانك ، فأتيا به عليه السلام حتى أجلساه عن يسار أبى بكر . فكان أبو بكر يصلى قائماً ورسول الله يصلى قاعداً . وكان رسول يصلى بالناس وأبو بكر يسمعهم التكبير . . .
والحديث متفق عليه . فقد كان عليه السلام يؤم الناس وهو مريض ، يصلى قاعداً ويصلون معه مؤتمين به . ولا يتقدم أحد منهم لإمامة الناس فى حضوره.
فمن الباطل والمحال أن يستسقى عمر وغيره من الأنصار والمهاجرين بالعباس أو بغيره من المسلمين مع وجود رسول الله . وأبطل من ذلك أن يتكرر استسقاؤهم بالعباس ثم لا يجىء أنهم استسقوا برسول الله مرة واحدة . والعاقل والمسلم لا يمكن أن يعدلا عن الأفضل الأكمل الأقرب إلى نيل المطلوب وإدراك الحاجة ، ويأخذا بغيره إلا لسبب صحيح وجيه ظاهر عندهما . وإلا فانه إذا كان أمامى أمران أحدهما أفضل من الآخر وأكمل لم يمكن أبداً أن آخذ بالمفضول الناقص وأدع الفاضل الكامل بلا سبب . والذى يفعل ذلك لا يكون عاقلا يقينا . وعلماء الكلام والفلسفة يقولون : إنه لا يمكن ترجيح أحد الأمرين المتساويين إلا بمرجح ، فكيف بترجيح المرجوح المفضول الناقص على الراجح الفاضل الكامل ؟ ومن خير بين مالين أو منصبين أو شرفين أو شيئين لم يمكن أن يختار أنقصهما ويدع أفضلهما وأكملهما بلا سبب إلا أن يكون غير عاقل .

لا يمكن ترجيح المفضول على الفاضل

نعم ، قد يختار كثيرون من الناس النقص والشر والباطل والضلال على الكمال والخير والحق والهدى ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً من ذلك بلا سبب بل يفعلونه لسبب قهار غلاّب ، تضعف عزائمهم وإنسانيتهم — أو حيوانيتهم — أمامه ، فيقعون بين يديه صرعى ، لا يستطيعون معه عزماً ، ولا قوة ولا رجولة. وهذا السبب هو الضعف البشرى الحيوانى ، أو الشهوة، أو الجهل، أو غير ذلك مما يقهر الانسان

كثيراً و يضطره إلى الأخذ بالنقص والجهل والغباوة والشر . وهذا لا يمكن أن ينازع فيه منازع . والمسلم لا يمكن أن يترك أبداً فاضل الأعمال و يأخذ بمفضولها بدون ماسبب بل لمجرد الرغبة فى النقصان ، والرغبة عن الكمال ، والانحطاط نحو الشر والباطل والضلال . فما السبب إذن فى عدول الصحابة عن التوسل برسول الله إلى التوسل بالعباس إذا كان ممكناً التوسل بالاثنين ، وكان المخالف معترفاً بأن التوسل بالنبى أفضل وأكمل ، وأقرب إلى الاجابة والقبول من التوسّل بالعباس و بسائر الناس . والصحابة لا يمكن أن يعدلوا عن الأكمل الأفضل لمجرد اتباع الهوى ، واتباع الباطل ، ولا يمكن أن يأخذوا بالسبب الضعيف ويتركوا السبب القوى لغير ماداع ولا اختيار ، ولا يمكن ان يصدفوا عن الدعاء الأقرب الى الإجابة وإلى إدراك الحاجة ، آخذين بالأبعد عن الاجابة وعن إدراك الحاجة . . هذا هو السؤال وهو لا بد له من جواب فما جوابه ؟

نحن نقول : ان السبب هو أن رسول الله بعد مماته لا يصح الاستشفاع به ولا طلب الدعاء منه ، ولا التوسل به . لهذا مالوا عنه إلى من يمكن ذلك منه ، و إلا لما مالوا عنه إلى سواه ألبتة . والمخالفون لا يذكرون من جواب سوى قولهم : إنه لا يلزم توخى الأفضل ، ولا الأخذ بالأكمل الأقرب إلى الاجابة . ولكن هذا جواب سطحى ، ينفيه التحقيق ، و يبطله الإمعان فى البحث والفهم ، و يذيبه المنطق الصائب ، وتزلزله الحجة الصحيحة . فما الجواب إذن ؟

الجواب عن طلب النبي الدعاء من عمر دون أبي بكر

أما ماذكره الشيعى من التدليل على أن المسلم قد يأخذ بالمفضول و يترك الفاضل فالجواب عنه ـ وهو الجواب المفصل ـ أن نقول : أما طلب النبى الدعاء من عمر دون أبى بكر وهو أفضل منه فانما كان ذلك عندما خرج عمر بن الخطاب معتمراً فقال له رسول الله : « لا تنسنا يا أخى من دعائك » إن كان الحديث

صحيحاً . فطلب النبي الدعاء من عمر لأنه خرج معتمراً قادماً على بيت الله . ودعوة المعتمر فى جوف بيت الله قد تكون أفضل وأقرب إلى الاجابة والقبول من دعوة غير المعتمر فى غير البيت وإن كان أفضل منه وأتقى لله . فدعوة عمر فى عمرته فى جوف بيت الله قد تكون أقرب إلى الاجابة والسماع من دعوة أبى بكر الصديق فى غير العمرة فى غير البيت وإن كان أبو بكر أفضل من عمر بلا خلاف ولا نزاع . وإنما يستقيم هذا الاستشهاد للرافضى لو أن أبا بكر وعمر دخلا على النبي – أو دخل عليهما – وكان فى حاجة إلى دعوة صالحة من عبد صالح ، فطلب الدعاء من عمر ولم يطلبه من أبى بكر لغير ما سبب ، أو لو كانا – أبو بكر وعمر – أرادا العمرة فطلب رسول الله الدعاء من عمر دون أبى بكر . فهذا هو الذى يستقيم للرافضى الاحتجاج والتمثيل به ، ولكن مثله لن يكون .

الجواب عن حديث طلب الاستغفار من أويس

وأما أمر النبي عمر أن يطلب من أويس القرنى الاستغفار إن استطاع فالسبب فى هذا الأمر أن أويساً كان رجلا صالحاً مجاب الدعوة قريبها من الله . وقد قال عمر فى روايته حديث أويس هذا كما فى صحيح مسلم : سمعت رسول الله يقول : « يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن . كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم . له والدة هو بها بر . لو أقسم على الله لأبره . فان استطعت أن يستغفر لك فافعل » . وفى رواية قال : إنى سمعت رسول الله يقول : « إن خير التابعين رجل يقال له أويس . وله والدة . وكان به بياض . فروه فليستغفر لكم » . رواه مسلم فى الصحيح .

فأويس هذا كان من الصالحين الأبرار الزهاد ، مجابى الدعوات ، ممن لو أقسموا على الله لأبر أقسامهم . وفى الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله قال : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره » . وهذا لا يدفع أن يكون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وجمهور الصحابة أفضل منه . فان

الفضيلة لاتوجب التفضيل، فقد يوجد فى المفضول من الفضائل مالا يوجد فى الفاضل . والتفضيل ينظر فيه إلى المجموع . ونحن إذا قلنا : إن فلانا أفضل من فلان أو أفضل من الجميع لم نعن بهذا أنه أفضل من فلان أو من الجميع فى كل شئ ، بل نعنى أن مجموع فضائله ومناقبه الخيرة الطيبة أكثر وأشهر وأقوى من فضائل الجميع المفضل عليهم . ولاريب أن فى جمهور صحابة النبى من هو أزهد فى الدنيا وأكثر صلاة وصياماً وانقطاعا الى الآخرة وعبادة الله وصدوداً عن الدنيا وعن رئاساتها وسلطانها ممن هو أفضل منه وأعظم وأجمع للخير وللمحاسن والحسنات ، ومثل هذا يقال فى غير الصحابة . ولا نشك مثلا فى أن خالد بن الوليد أشجع وأعظم إيقاعا بأعداء الإسلام وخصوم الرسالة المحمدية ممن هو أفضل عند الله منه ،ولا نشك أيضاً فى أن أبا هريرة أحفظ لسنة والنبى لأحاديثه عليه الصلاة والسلام ممن هو أفضل منه ،ولا نشك فى أن أباذر الغفارى أزهد وأتقى وأعبد لله وأدنى إلى خشيته ممن هو أفضل منه ، ولا شك فى أن عبد الله بن مسعود أقرأ لكتاب الله ممن هو أفضل منه ، ولا فى أن عمرو بن العاص أفضل أثراً فى الاسلام ممن هو أفضل منه ، ولا فى أن أو يساً هذا مجاب الدعوة أكثر ممن هو أفضل منه .

الفضائل مقسمة على الناس

والفضائل التى يهبها الله عباده مقسمة موزعة عليهم جميعاً ،لم تقدر كلها لواحد منهم ما خلا الأنبياء والمرسلين . ولكن لا ريب فى أنه قد قدر لصديق الأمة الأكبر أبى بكر العظيم من هذه الفضائل ما لم يقدر لسواه من المسلمين . ولا نرتاب مع هذا أنه قد يوجد فى جمهور الصحابة من دعاؤه أقرب إلى الاجابة من دعائه . وأويس هذا قد فضل على سواه بقرب دعوته من الاجابة والقبول لزهده فى الدنيا وهروبه منها ، وقطعه الصلات بها و بأهلها، وخلوصه لله ، وعبادته إياه . وهذا كالذى قال فيه رسول الله : « رب اشعث أغبر مدفوع بالأبواب ، لو أقسم

على الله لأبره » . وليس معنى هـذا أن ذاك الأشعث الأغبر الفقير المدفوع بالأبواب وعن الأبواب ، لهوانه عـلى الناس وعـلى الدنيا ، أفضـل من أهل عصره كلهم ، الذين ليسوا مثله فى إبرار أقسامهم على ربهم وإجابة دعواتهم . فالنبى عليه الصلاة والسلام إنما حث على طلب الاستغفار والدعاء من أويس لأنه كان مجاب الدعوة يقيناً ، وإلا فلماذا حث على ذلك ! ومن فهم هـذا فهماً جيداً علم أن فيه رداً لما ذكره الشيعى ، ونقضاً على قوله : « إنه لا يلزم توخى الأفضل الأقرب إلى الاجابة من الدعاء ، ولا الأفضل من الأعمال والعبادات » . واذا كان صحيحاً لا يلزم توخى الأفضـل من الأقوال والأعمـال ، بل قد يختارُ المفضول على الفاضل ، والناقص على الكامل بلا داع ولا سبب فلما ذا رَغَّبَ النبي عليه الصلاة والسلام فى طلب الدعاء من أويس وحث عليـه وقال : «مروه فليستغفر لـكم » ؟ وإننا لا نشك فى أن النبى ما رَغَّبَ فى دعوة أويس واستغفاره إلا لامتياز دعائه واستغفاره على دعاء غيره واستغفاره بقرب الاجابة والقبول . وإلا لو لم يكن السبب هو هذا فلماذا خص النبى أويساً الذى لو أقسم عـلى ربه لأبر به قسمه بذلك دون سـواه ؟ فهذا الذى ذكره الرافضى حجـة عليه لا له .

لا يصح قياس غير النبي على النبي

أما النبى ﷺ فلا يمكن قياس غيره عليه ولا به ، فانه أفضل الخلق على وجه الإطلاق والعموم ، وعلى وجـه التقسيم والتفصيـل أيضاً : فهو أشـجعهم وأعلمهـم وأصلحهـم وأتقاهم وأقربهـم إلى الله وإلى الإجابة ، ودعاؤه أسرع الدعوات صعوداً إلى الله وإلى سمائه . ولا يمـكن أن يسوى به سواه فى وجه من الوجوه ، ولا فى فضيلة من الفضائل ، ولا فى شئ من الأشياء . وعلى هذا لا يمكن تقديم غيره عليـه فى أمر من الأمور : لا فى طلب الدعاء والشفاعـة ، ولا فى الاستغناء ، ولا فى التعظيم والتوقير ، ولا فى الحب والاجـلال ، ولا فى أمر من

الأمور . فلماذا إذن عدل عمر ومن معه من الأصحاب عن التوسل به إلى التوسل بغيره وهم فى غاية الحاجة إلى رحمة الله ، وإلى غيائه ؟ إنه لاجواب عند المخالفين لهذا السؤال .

طلب الدعاء من رسول الله

أما قول الشيعى : فلماذا أمر عمر بأن يطلب الدعاء من أويس ولم يأمره أن يطلبه من النبى نفسه وهو أفضل من أويس ومن الكل ، فهو قول باطل وسؤال لا يعبأ به . وبيان ذلك أن النبى ﷺ قد أرسل رحمة للعباد خاصة وعامة ، وكان حريصاً على المؤمنين وعلى ما يقربهم من رضوان الله ومن جناته ، عزيزا عليه شقاؤهم وضلالهم وجهلهم وعنتهم . وكان أبر بهم من آبائهم ومن أمهاتهم ، بل أبر بهم من أنفسهم بهم ، لا يدع شيئا ينفعهم ويصلحهم إلا فعله ، ولا شيئاً يضرهم ويفسدهم إلا تركه وهجره وحذرهم إياه ، وخاف عليهم منه وذادهم عنه وعن الوقوع فيه . وقد قال الله فى صفته : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » ، وقال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤف رحيم » . وفى الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله قال : ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . فان ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى وأنا مولاه . ولقد كان ﷺ يحزنه الحرص عليهم حتى يكاد يقتله وحتى تكاد نفسه تذهب حسرات عليهم . وقد شهد الله عن ذلك فى كتابه فى آيات وقال له : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

الرسول يدعو للمؤمنين وإن لم يسألوه الدعاء لأنه أولى بهم من أنفسهم

فالنبى ﷺ كان أحرص على المؤمنين من أنفسهم وأولى بهم منهم . فكان يسعى فى ما يصلحهم وإن لم يسألوه ذلك ، بل وإن لم يريدوه منه ، فكان يعلمهم ويدلهم على الخير والفلاح وأسباب النجاح ، وكان يدعو لهم ويسأل

تربيه هدايتهم وإسعادهم وإن لم يطلبوه ، بل وإن أبوا ذلك وكرهوه ، لأنه عليه السلام كان قائماً على تربيتهم قيام الوالد البر الرحيم على تربية أولاده وقرة عينه ، بل كان أحرص على تربية المؤمنين وإصلاحهم وإسعادهم من الوالد الرحيم على واحده ، بل كان أرأف بهم من أنفسهم كما قال تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . وقد أمره الله أن يدعو للمؤمنين والمؤمنات فقال : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » ، وقال في النساء المؤمنات المبايعات : « فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » ، وقال تعالى: « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » . وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » . فأتاه أبي : أبو أوفى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » . فقد كان عليه السلام مأموراً بالدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات وإن لم يسألوه ذلك ، لأنه قد أرسل رحمة وعناية آلهية بهم ، ولأنه لا يمكن أن يدع شيئا ينفعهم في دنياهم ودينهم إلا فعله . فكان يدعو لمن يستحقون الدعاء ، ويستغفر لمن يليق بهم الاستغفار والغفران ، كما كان يبين لهم الحلال والحرام ، ويعلمهم وحي الله وشرائعه وإن لم يسألوه شيئاً من ذلك . وكان لا يدعو لمن لا يجوز أن يدعو له وإن سأله وألح في السؤال . وقد ثبت أن بعض الناس سأله ﷺ أن يدعو له بشيء فأبى . أما الذين يستحقون الدعاء والاستغفار فكان يدعو لهم ويستغفر . فكان طلب ذلك منه أحياناً عبثاً .

وقد استغفر ﷺ للأنصار ولذراري الأنصار وموالي الأنصار ، لأنهم كانوا جديرين بذلك . وفي الصحيح عن زيد بن أرقم قال قال رسول الله : « اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار » ، وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك أن رسول الله استغفر للأنصار ولذراري الأنصار

ولموالى الأنصار . وقد دعا ﷺ المحلقين قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا يا رسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا يا رسول الله وللمقصرين ، قال : اللهم اغفر للمحلقين . قالوا يا رسول الله والمقصرين ، قال وللمقصرين . وقال : « اللهم بارك لنا فى شامنا و فى يمننا » . الحديث المتقدم . وقال لعمه أبى طالب : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله قوله : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية . فهو ﷺ مأمور بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وأن يدعو لهم و إن لم يسألوه شيئا من ذلك ، وقد كان كذلك فلا يحتاج إلى أن يطلب منه . وهو فى هذا مثل الملائكة ، فإنهم مأمورون بالدعاء والاستغفار والشفاعة للمؤمنين و بالصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ، وهم لا يسألون ذلك كما قال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به و يستغفرون للذين آمنوا » الآيات . وقال : « هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما » وقال : « إن الله وملائكته يصلون على النبى » . وهذا من وظائفهم التى لا يصح أن يتركوها ولا أن يقصروا أو يخلوا بها . والنبى ﷺ كذلك كان مأموراً بالدعاء والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، وهو يفعل ذلك و إن لم يسأله كما تقدم فى الاخبار ، وكما جاء فى أخبار أخرى كثيرة . وفى الحديث الذى يحتج به المخالفون « حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم ، تعرض على أعمالكم ، فان وجدت خيراً حمدت الله ، و إن وجدت شراً استغفرت لكم » وقد كان ﷺ يقنت فى صلواته فيدعو لقوم و يدعو على قوم آخرين . وكان الناس بالجملة منهيين عن سؤاله الدعاء والاستغفار والشفاعة ، وكان هو لا يرغبهم فى شىء من هذا . بل كانت أقاويله ترشد على وجه العموم والتفصيل إلى أن الأحسن لهم ألا يفعلوا ، وألا يسألوه ، فكان أحيانا يرد على من يسأله الدعاء

إباء الرسول الدعاء لمن لا يستحقون

رداً جميلا كما فى قوله لذلك الذى قال يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال عليه الصلاة والسلام : « سبقك بها عكاشة » . وقال الأعمى الذى جاءه يسأله أن يدعو ليرد الله له بصره : « وإن شئت صبرت وهو خير لك » والحديث قد تقدم . وجاءته امرأة كانت تصرع وتتكشف ، فسألته أن يدعو الله لها ، فرغبها أن تصبر ، فقالت : إذن ادع الله لى ألا أنكشف ، فدعا لها . وقال فى الحديث الذى يحتج به المخالف والذى تقدم الكلام عليه : « اللهم بارك لنا فى شامنا وفى يمننا » ، قالوا يا رسول الله وفى نجدنا ، فأبى أن يدعو بالبركة وقال : « هناك الزلازل والفتن ، ومنها يخرج قرن الشيطان » . ونظائر هذا كثيرة معلومة . وما كان ﷺ يرغب أصحابه فى أن يسألوه الدعاء بل هذا الذى تقدم — وله نظائر كثيرة — يشير إشارة صريحة إلى أن الأحسن الانكفاف عن هذا. ولهذا لا نجد كبار الصحابة وفقهاءهم وخلفاءهم يسألون النبى ذلك ، فلا نكاد نجد أن أبا بكر الصديق أو عمر أو عثمان أو علياً كان يسارع إليه ، ويتهافت عليه ، بل قيل : إن أبا بكر الصديق لم يسأل النبى عليه السلام مطلقا شيئاً لنفسه خاصة. وعلى كل حال صح هذا القول أم لم يصح فالذى لا شك فيه أن صحابته المقربين لديه ، العارفين به وبقدره وبمنزلته عند ربه ما كانوا يحرصون على سؤاله ، لا الدعاء ولا غير الدعاء ، لأنهم قد عرفوا حقيقة نبيهم وعرفوا مقدار حرصه عليهم وعلى ما يصلحهم وينفعهم ، وعرفوا أنه لن يدع شيئا مما فيه صلاحهم وإسعادهم وخيرهم ، فكانوا يحجمون عن سؤاله لأن فى سؤالهم إياه شبه اتهام له بالتقصير والبخل عليهم بما يجب الجود به ، وعرفوا أن الجواد الكامل الجود هو الذى يعطيك حاجتك وما تريده قبل سؤاله وبدون سؤاله . والناس يمتدحون الجواد بأنه يعطى قبل أن يسأل وبدون أن يسأل ، وبأنه لا يحوج المحتاج إلى ذل السؤال ومشقته . ورسول الله أولى الخلق بهذا الجود والكرم ﷺ .

أكمل الجود الاعطاء قبل السؤال وبدونه

وهذا صحيح ، ولا يعترض عليه بسؤال الله ، لأن سؤال الله مقصود لذاته لما فيه من الذل والخضوع والخشوع والانكسار له تعالى . وهذه الأمور هي خلاصة العبادة . والعبد وظيفته أن يعبد ربه وأن يقوم بكل صور العبودية وضروبها وأشكالها ومظاهرها . والله يجازى على الدعاء الإجابة لأنه عبادة ، والله يتقبل من عباده المتقين ، ويعطيهم سؤلهم وحاجهم . أما الذل للمخلوق فليس مطلوباً لذاته بل منهى عنه لذاته نهياً شديداً صريحاً . ولهذا السبب نفسه ، ولأسباب أخرى كثيرة حرمت مسألة المخلوق ونهى عنها أشد النهى ، وطلبت مسألة الخالق ورغب فيها صنوف الترغيب ، بل لا يكون مؤمناً من لا يسأل الله ، ومن لا يذل له . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من لا يسأل الله يغضب عليه » . والدعاء لا يخفى مكانه من الاسلام والدين . فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يرغب فى سؤاله وطلبه الدعاء والشفاعات . فقول الشيعى هنا : لماذا لم يأمره أن يطلب من النبى الدعاء سؤال باطل لأن النبى لم يكن يرغب فى سؤاله بل كان يزهد فيه ضروب التزهيد كما تقدم لأنه أجود من أن يحوجهم إلى سؤاله وطلبه وهو الرحمة المهداة من السماء إلى الأرض وإلى أهلها وهو أحرص عليهم من آبائهم وأمهاتهم ومن أنفسهم وأولى بهم منهم .

ابطال لاشك فيه لما ذكره المخالف من الامثال

أما قوله : « إن قول عمر : وإنا نتوسل إليك بعم نبينا لايخرج عن التوسل بالنبى » فقول باطل كل البطلان . ولو كان صحيحاً لكان قول من قال : أسألك يا عبد الله سؤالا لله لالعبده ، لأنه أضاف المسئول إلى الله كما أضاف عمر العباس إلى النبى ، ولكان قول من قال : اعبدوا رسول الله واسجدوا لأنبياء الله ، لا يخرج عن قول من قال : اعبدوا الله واسجدوا له ، ولا تعبدوا أحداً سواه ولا تسجدوا لمخلوق ، لأنه قد أضيف هنا رسول الله وأنبياؤه إليه تعالى كما أضيف العباس فى حديث الاستسقاء به إلى « نبينا » ، ولكان أيضاً قول

من قال : أعطانى عبـد الملك ، أو وزير السلطان كذا مثـل أن يقال : أعطانى الملك أو السلطان كذا . وهذا كله فاسد لا يقول به عاقل ولا مسلم .

وإذا كان هذا الذى ذكره الرافضى صحيحاً ، وكان المراد من التوسل بالعباس التوسل بالنبى فلماذا لم يأتوا بالمراد صراحة ؟ ولماذا لم يتوسل عمر بالنبى مباشرة ؟ ولماذا أدخل كلمة العباس فى الوسط وهى غير مرادة ولا معنية ؟ ولماذا قال : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ؟ وقدكان الصحيح أن يقول : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا وإننا اليوم نتوسل اليك أيضا بنبينا فاسقنا . ولماذا أقحم العباس هنا إذا كان غيرمراد وغيرمنظور إليه ؟ ولمـاذا قال أنس بن مالك راوى الحـديث : إن عمر كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ، ولماذا لم يقل : استسقى بالنبى ؟ ولماذا سمى الناس جميعاً حتى المخالفين هذا الحديث : « حديث الاستسقاء بالعباس » ؟ كل هذه الأسئلة لاجواب لها عند الشيعى يقيناً .

أما قول القائل : أتوسل إليك بقرابة الملك فيقال فى الجواب : إن كان المراد بقرابة الملك أقاربه فـلا يمكن أن يكون التوسل بأقارب الملك توسـلا بالملك كما لا يمكن أن يكون التوسل به توسلا بأقاربه . وهذه أشياء غنية عن تطلب الحجج لها لوضوحها

أما قول القائل : أتوسل إليك بمرضعة ابنك فالتوسـل بمرضعة الابن ليس توسـلا بالابن كما أن إهانة المرضعة ليس إهانة للرضيع ، وكما أن ضربها لايكون ضرباً له ، وطردها لايكون طرداً له ، وسبها لايكون سباً له . وكذلك يقال فى قول القائل : أتوسل إليك بصهر أخيك فان التوسـل بصهر الأخ ليس توسلا بالأخ بالضرورة واليقين والاتفاق . فهـذه الأمثال التى أوردها احتجاجاً بها عـلى أن قول عمر رضى الله عنه : « وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » توسل بالنبى لابالعباس

أمثال باطلة ، لا تشهد لشيء مما ذهب إليه .

نعم ، نحن لا ننكر أنه قد يكون من أسباب التوسل بهذه الأشياء عند من يتوسلون بها إضافتها إلى من أضيفت إليهم ، فيكون من أسباب التوسل بأقارب الملك قرابتهم له ، ومن أسباب التوسل بمرضعة الابن إرضاعها للابن ، ومن أسباب التوسل بصهر الأخ مصاهرته للأخ : قد تكون هذه الإضافات من الأسباب ، أو تكون هي الأسباب في توسل من توسل بالأشياء المذكورة ، ولكن ليس معنى هذا أن التوسل بأقارب الملك توسل بالملك ، وأن التوسل بمرضعة الابن توسل بالابن ، وأن التوسل بصهر الأخ توسل بالأخ . وإنما غاية هذا الالتفات إلى السبب وإلى الإضافة . وهذا نسلمه ونسلم أن التوسل بالعباس توسل بالعباس نفسه ، وأن من أسباب التوسل به قرابته لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقربه منه مع كبر سنه ، مع صلاحه وتقواه ودينه وفضله وجلالة قدره هي أسباب التوسل به ، أي بشفاعته ودعائه . وغاية هذا أن تكون قرابة العباس للنبي من أسباب التوسل به . وهذا صحيح ، ولكن التوسل لم يخرج عن أن يكون توسلا بالعباس بلا ريب . ومثل هذا أنه يجب على المسلم أن يكرم أقارب النبي وأولاده ومن لهم به صلة نسب وقرابة ، ويجب أن يحبهم وأن يحترمهم ، وإن كان أفراد الإكرام والاحترام الواجب لأقارب النبي ولذريته لا يمكن أن يكرم به النبي بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . فإعطاء أقارب النبي الأموال والمغانم وأنواع التجارات واجب عند الشيعة لقرابتهم من النبي ، مع أنه لا يصح إعطاء النبي شيئاً من ذلك بعد وفاته . وكذلك استفتاء أولاد النبي المعصومين عند الشيعة واجب في حياتهم ، واستفتاء النبي بعد وفاته لا يجوز إجماعاً . وكذلك يقال في التوسل بالعباس هبوا أن سببه قرابته من النبي ، وهبوا أنه لا سبب له غيره : هبوا هذا كله صحيحاً فإنه لا يدل على جواز التوسل بالنبي الذي هو سبب

لماذا توسلوا بالعباس ؟

التوسل بالعباس بلا ريب ولا خلاف . ونظير هذا أن تكرم صديق أبيك لأنه صديق أبيك ، لا تكرمه لشيء غير ذلك ، ولكنه لا يصح لك أن تكرم أباك بعد موته أنواع الاكرام التى تكرم بها صديق أبيك . وقد تبر إنساناً لأن ذاهباً عزيزاً عليك كان يبره ، ثم لا يجوز لك أن تبر عزيزك الذاهب ذلك البر الذى تقدمه لذلك الانسان ، كما تبر أقارب النبى لقرابتهم من النبى ، ثم لا يجوز لك أن تبر النبى نفسه ذلك البر الذى تبره أقاربه . وهذه أشياء لا ينازع فى شىء منها من عرفها :

هل يراد به إظهار شرف آل النبى

أما قوله : « إن عمر خص العباس بالتوسل به لإظهار شرف أهل البيت النبوى ولبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل لأن علياً كان موجوداً وكان أفضل من العباس » فيقال فى الجواب : لو كان غير شيعى قاله . ثم هو قول لا طائل تحته وادعاء مجرد من العلم والبرهان والكتاب ، فلا يحفل به . ثم هو ظن بحت ، وقد ذم الله الظن والظانين فى كتابه . ولو كان صحيحاً زعمه أن عمر ما توسل بالعباس إلا لاظهار شرف بيت النبى لكانت هنالك وسيلة أخرى لاظهار هذا الشرف أولى وأظهر من هذه الوسيلة ، وهى أن يقول عمر ذلك قولا و يصفه وصفاً فيقول مثلا : إن أهل البيت النبوى أشرف الخلق وأكرمهم على ربهم وعلى خلقه ، و يقول : إن لهم من الشرف والمجد والفضل ما مقداره كيت وكيت . و بمثل هذا يعرف شرفهم وقدرهم أكثر وأظهر .

ولو كان هذا الذى ذكروه وزعموه صحيحاً لتوسل بالحسن أو بالحسين ، أو لتوسل بهما مع العباس ، أو لتوسل بآل النبى جميعاً : بالعباس و بالحسن والحسين وفاطمة وعلى و رقية وأم كلثوم وابنه عليه الصلاة والسلام إبراهيم و بغيرهم من أقارب النبى الأحياء والأموات ، لأن المراد فى ما زعموا : إظهار شرف البيت النبوى ، وهذا الذى ذكرناه أقوى وأبلغ فى إظهار شرفهم وما لهم عند الله من

الفضائل والمكانات . أما التوسل بالعباس فلا يدل على شئ من هـذا ، ولو دل لكان خفى الدلالة غامضها جداً .

على أن من القبيح الفاضح الواضح الذى لايجوز شرعاً ولا عقلا أن يترك عمر بن الخطاب ويترك الأصحاب معه نبيهم ﷺ ، وينصرفوا إلى عمه العباس لأجل إظهار شرف العباس وشرف أقربيه .

الدلائل على بطلان التوسل بالعباس مع امكان التوسل بالنبي

والذى يدل على بطلان هذا الزعم أن النبى عليه السلام لو كان حيا لما أمكن أن ينصرفوا عنه إلى سواه لهذا الغرض وهو غرض إظهار شرف المعدول إليه ، المتوسـل به . ولا ريب أنه لو كان الغرض إظهار شرف العباس وشرف أقاربه بهذا التوسـل لكان من الصحيح ومن الحسن الجائز أن يتركوا النبى فى حياته وأن يتوسلوا بالعباس ،أو يأتموا به فى الصلاة،أو يستفتوه مع وجود رسول الله و فى حضرته وحضوره ،لأجل أن يظهروا شرف العباس وشرف غيره من أهل النبى وأهل بيته . ولا شك أن فعل هـذا فى حياة النبى أدل على إظهار هـذا الذى زعموه و زعموا أن إظهاره هو الغرض من التوسـل بالعباس ومن ترك رسول الله .
ولكننا نعلم بالضرورة والبداهة الواضحة أن المسلمين لا يمكن أن يتركوا نبيهم مع وجوده وحضوره وأن يعرضوا عنه وعن التوسّل به ليتوسلوا بالعباس أو بغيره من أهله وآله إظهاراً لشرفهم وتقريراً له و إقراراً به .

على أن هنالك طريقة لاظهار شرف بيت النبى أوضح وأحسن من هـذه الطريقة لو صدق القوم فى ماقالوا و زعموا .هذه الطريقة هى أن يتوسـلوا بالعباس مع توسلهم بالنبى عليه السلام ،فيقرنوا بينهما فيقولوا مثلا : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا و بعم نبينا و بآل بيت نبينا ،كما يقولون : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد و بارك على محمد وعلى آل محمد وأمثال ذلك . ولا خلاف أن هذه الطريقة أقرب إلى بيان هذا الغرض الذى ادعوه مع المحافظة على التوسل بالنبى والاستسقاء به

على أن هذا الغرض الذى زعموا أنه هو الحامل لعمر على التوسل بالعباس يعارضه أمر آخر يجب تلافيه و رعايته . هذا الأمر هو أن التوسل بالعباس دون النبي يوهم أن التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته لا يمكن ولا يجوز . . فاذا أمكن أن يتوسلوا بالعباس لإظهار شرفه وشرف أهل بيته فلماذا لم يتوسلوا بالنبي لئلا يظن أن التوسل به بعد الموت وفى قبره لا يجوز ولا يمكن شرعاً وديناً ؟ ولا ريب أن ملاحظة هذا أولى من ملاحظة ذاك ، وأن دفع هذا الإيهام أولى من إظهار ذاك الغرض .

ثم إن بيان شرف العباس وشرف آل النبي ليس متروكا إلى عمر ولا إلى غيره من الصحابة أو غيرهم . و إنما بيان ذلك إلى الله و إلى رسوله .

وعمر عندهم كان خصماً لآل النبي وهذا يبطل قولهم هذا

ثم كيف يستقيم للرافضى هذا القول والرافضة يزعمون أن عمر بن الخطاب كان من أشد الناس خصومة وعداوة لآل النبي ، وكان من أشدهم حرباً عليهم و إيذاء لهم واغتصاباً لحقوقهم و إخفاء وجحوداً لها و وقوفاً فى سبيلهم ، و يزعمون أنه هو الذى سلبهم حقهم الذى أنزله الله فى كتابه ، وهو الذى أخرهم وأزالهم عن مكانهم وشرفهم المعلوم الواجب بمبادرته إلى مبايعة الصديق وتثبيت خلافته والخلافة من حقهم الذى نزل فى الكتاب وتواتر فى السنة ، و يزعمون أنه كان على اتفاق مع أبى بكر فى هذه القضية الجائرة ، وهذه الجريمة المنكرة ، ليكون الخليفة من بعده ، وليكون شريكه فى المغنم والصفقة . . . فاذا كان عمر عندهم بهذا المكان السحيق من المخاصمة والعداوة لآل النبي فكيف يقال هنا : إنه كان يتوسل بالعباس ليظهر شرفه وشرف هذا البيت الذى مازال يحاربه و يناوئه ، والذى مازال سداً منيعاً قوياً بينه و بين نيله حقه المنزل فى وحى الله ، والذى مازال يؤيد أعداءه عليه حتى أظهرهم عليه ، حتى استطاعوا أن يقتلوا جميع الأئمة المعصومين منهم وهم اثنا عشر إماماً ما خلا محمد بن الحسن الامام المهدى الثانى

عشر المنتظر المختفى منذ ولد سنة ٢٥٥ من الهجرة إلى اليوم و إلى الأبد . وذلك أن الشيعة تزعم أن جميع الأئمة المعصومين من ولد على وفاطمة قد ماتوا قتلا ما عدا المهدى المختفى : أما على والحسين فمعلوم أمر مقتلهما . وأما الباقون ـ وهم الحسن ، و زين العابدين ، والباقر ، والصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد الجواد ، وعلى الهادى ، والحسن العسكرى ـ أما هؤلاء فقتلوا جميعاً غيلة بالسم فى ما تزعم الشيعة . فالأئمة المعصومون كلهم عندهم قد قتلهم أعداؤهم المسلمون ماخلا المختفى فراراً من القتل . وهم يزعمون أن جميع هذه المصائب التى أحاقت بأهل البيت النبوى مرجعها ومصدرها الأقوى الأعلى عمر بن الخطاب ، لأنه هو الذى ساعد الصديق وعاونه على انتزاع هذا الأمر ـ وهو الخلافة والامامة ـ من أيديهم . وكل هذه المصائب والمظالم منشؤها وضع الخلافة أولا فى يدى أبى بكر الصديق ، والذى وضعها أولا فى يديه هو عمر بن الخطاب . ولهذا يزعمون أن الذى قضى على الشيعة وعلى أئمتهم بالتأخر هو عمر وحده ، وهم لذلك يخصونه بمزيد العداوة وعنيف الخصومة وقوى السباب .

زعم الشيعة ان جميع الائمة المعصومين قد قتلوا

فاذا كان هذا كله صحيحاً لدى الشيعة فأنى يزعمون هنا أن عمر كان يحتال لاظهار شرف هذا البيت النبوى الذى أذاقه كل هذا البلاء والهوان .

وهنا نقول : إن الشيعة تكذب فى زعمها أن جميع الأئمة المعصومين المذكورين قد قتلوا غيلة بالسم ما خلا عليا والحسين والثانى عشر المختفى .. والبرهان القاطع على كذبهم فى هذه الدعوى أنهم يعترفون بأنه لم يمت أحد من هؤلاء الأئمة شاباً ما عدا محمداً الجواد ، بل ماتوا كلهم باعترافهم وقولهم بعد ما تجاوزوا حدود الشباب . فبعضهم مات فى سن الستين ، و بعضهم مات فى سن الخمسين ، و بعضهم جاوز ذلك ، و بعضهم لم يصل إليه ، ولكن لم يمت أحد منهم عدا الجواد إلا بعد أن جاوز الأربعين . وهذه الحقيقة يعترفون بها ولا ينازعونها .

البرهان القاطع على كذب هذا الزعم

وهنا يقال لهم : لا ريب أن الملوك ـ أعنى خلفاء المسلمين كما يزعمون ـ لو كانوا هم الذين قتلوا هؤلاء الأئمة المعصومين اغتيالا خيفة منهم ومن منازعتهم إياهم الملك والخلافة لبادروا إلى قتلهم شبابا أقوياء ملتهبين ، ولما صح أن يمهلوهم فى الشباب ، وسن الفتوة والقوة ، وسن المغامرات والجنوح إلى المغامرات . فإنهم فى تلك السن ، سن الشباب والفتوة والقوة ـ أخطر ولا شك منهم بعد وأقوى وأنزع إلى الخروج و إلى الثورات ، وأشد على احتمال تبعات ذلك وأرزائه ومخاطره . وقد علم بالعادة الصادقة و بالتجربة المتكررة أن المخاطرات أكثر ما تكون وأصلب ما تكون وأعنف ما تكون وأنجح ما تكون فى سن الفتوة والشباب الطماح المغامر ، وعلم بالتجربة أيضاً أن الخصم أكثر ما يخاف خصمه وهو فى ميعان الشاب وأحلامه قبل أن تعرى أفراس الصبا و رواحله .

إذن لا شك أن الملوك والخلفاء لو كانوا يريدون اغتيال هؤلاء الأئمة ، أو لوكانوا قد اغتالوهم فعلا لا غتالوهم فى مطالع أعمارهم وفتوة حياتهم ، ولما جاز أن يمهلوهم جميعاً شباناً ثم يقتلوهم جميعاً شيوخاً وكهولا . فهذا يدل على كذب الشيعة فى هذه الدعوى .

ولا يصح أن يقال : إن الملوك والخلفاء قد أمهلوهم فى سن الشباب لأنهم لم يكونوا يخافونهم ولا يرهبونهم إذ ذاك ، و إنما قتلوهم بعد لاستكمالهم أسباب السيادة والقيادة والزعامة وشروط الإمامة ، وما كانوا كذلك وهم شبان : لا يصح أن يقال هذا القيل لأن الشيعة يزعمون أن الأئمة قد كملوا واستوفوا كل أسباب الفضائل وكل ما يليق بالسيد الإمام و بالخليفة المعصوم وهم شبان ، بل وهم أطفال، ويستدلون لذلك بقول الله : « وآتيناه الحكم صبيا » . إذن القوم كاذبون على التاريخ وعلى المسلمين وعلى خلفائهم وعلى أئمتهم. وجازى الله الكاذبين . وهنالك براهين أخرى لإبطال هذه الدعوى ، ولكننا اكتفينا بهذا البرهان المادى القوى . على أن هذه الأعمار التى عمرها الأئمة أعمار عادية لمن كانوا مثلهم من

ذوى الطموح والنزوع إلى مالا ينال ومالا يمكن نيله ، ومن ذوى المشاعر المعذبة المتحرقة بطغيان ذلك العصر ومظالمه ومفاسده كما تزعم الشيعة . فلا وجه إذن للقول بأنهم لم يموتوا و إنما قتلوا واغتيلوا ، وهذا برهان آخر على كذب الدعوى .

عشرة وجوه في بطلان ما ذهبوا إليه في التوسل بالعباس دون النبي

أما القول بأنهم ماتوسلوا بالعباس إلا لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل فقول لا يصح أيضاً . أولا لأنه لا دليل عليه ألبتة فلا يبالى به . ثانيا أن الذى يبين ذلك ليس هو عمر ولا غيره من الصحابة ولا غيرهم ، و إنما الذى يبينه الله و رسوله . وثالثا لو كان هذا هو الغرض والسبب لقاله عمر قولا ، ولكان فى هذه المسألة مقولا أوضح منه مفعولا . و رابعاً لو صح هذا لقرنوا بين التوسل بالنبى والتوسل بالعباس مثلا فقالوا : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا و بعم نبينا العباس . فكانوا بهذا يجمعون بين الأمرين المطلوبين : بين المحافظة على التوسل بالنبى ، و بين بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، وهو على وعثمان ، لأنهما أفضل من العباس المتوسل به . وخامساً إذا وجب أن يرعوا بيان هذه المسألة — أعنى جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل — وجب عليهم أن يرعوا أمراً آخر ذا بال . هذا الأمر هو أن توسلهم بالعباس وتركهم النبى يوهم أن التوسل بالميت لا يجوز . فكان واجباً عليهم أن يعملوا لدفع هذا الايهام إذا جاز أن يعملوا لبيان تلك المسألة ، مسألة جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، أو كان يجب عليهم ألا يوقعوا فى هذا الإيهام فى سبيل بيان هذه المسألة ، إذ لا ريب أن ورود هذا الإيهام أعظم إثما من جهل هذه المسألة عندهم ، لأنها فى ما يزعمون من الأمور التى أمر بها الكتاب ودعت إليها السنة . وسادساً لو كان هذا صحيحاً لجاز أن يتركوا النبى عليه الصلاة والسلام فى حياته وأن يتوسلوا وأن يستسقوا وأن يأتموا و يقتدوا بالعباس و بغيره من الناس ليبينوا أنه يجوز التوسل والاستسقاء والاقتداء بالمفضول مع وجود الفاضل ، ولجاز أن يفعل ذلك النبى نفسه ليبين المسألة لأنه هو الذى عليه

البيان والبلاغ . ولكننا نعلم بالضرورة واليقين والبداهة أن المسلمين وأن عمر وغيره من الأصحاب ما كانوا يتركون النبي ويتوسلون ويستسقون ويقتدون ويأتمون بغيره ليعلموا الناس أنه يجوز التوسل بغير الفاضل مع وجود الفاضل . ولا شك أن بيان الدين وبيان مسائله وشرائعه ، وأن التشريع والتقنين السماوى إنما كان فى حياة النبي لا بعد وفاته وانسداد باب الوحى . فاذا لم يوجد هذا فى حياة رسول الله - حينما كان التشريع قائماً وباب التنزيل والوحى مفتوحاً - لم يصح أن يوجد بعد وفاته وبعد أن وقف التشريع وقفل باب الوحى والتنزيل . والشئ الذى يكون كذلك لا يكون من الدين ولا من الشرع الذى أنزله الله . وسابعاً لا يصح أن يترك عمر ومن معه من المسلمين النبي ويتركوا سنته - وهى التوسل به ﷺ فى الاستسقاء - ليعلموا الناس أن ذلك الذى فعلوه يجوز فى الاسلام ودين الله . أن مثل هذا المنحى لم يعهد من الصحابة ولا يمكن أن يعهد . وثامنا التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل إما أن يكون لجوازه دليل شرعى يعلمه عمر والمسلمون الذين كانوا معه ، أو لا يكون له دليل شرعى . فان كان لذلك دليل يعرفه عمر ويعرفه الذين كانوا معه كان الواجب عليهم أن يبينوا ذلك الدليل الشرعى للناس ليعرفوا سنة رسولهم عنه . ولا شك أن المسلمين يرضون بقول نبيهم وفعله ويطمئنون بهما أكثر وأظهر من رضاهم واطمئنانهم بفعل عمر والذين كانوا معه .

بقية الوجوه العشرة

بل قد تشك طوائف منهم فى صواب كل ما يفعله عمر ومن وافقه . أما فعل النبي وقوله فلا يشك فيهما مسلم . فإيراد الدليل من فعل النبي أو قوله أحسن وأصدق وأقوى فى بيان هذه المسألة وبيان سواها من فعل عمر بلا نزاع بين المسلمين . فلا يصح إذن اللجوء فى بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل بفعل عمر دون اللجوء إلى ذكر قول رسول الله وفعله إذا كان معلوماً معروفا . أما إذا لم يكن عمر والصحابة معه يعلمون جواز ذلك من سنة رسول الله فلا يصح لهم ولا يمكن أن

يذهبوا ليبينوا للناس جواز مالا يعلمون جوازه من الدين ولا من سنة النبي الكريم . لأن عمر ومن معه من الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً لا يعرفون الدين إلا أنه المأثور عن النبي قولا أو فعلا أو رسالة يؤديها عن جبرائيل عن البارى . أما غير ذلك فليس من الدين عندهم ولا مما يجوز بيانه ولا الذهاب إليه . فهذا القول الذى ذهب إليه المخالف فى توجيه التوسل بالعباس دون رسول الله قول باطل سخيف . وثانياً الذى يشترط فى المتوسل به فى الاستسقاء أن يكون مجاب الدعوة ، قريبها من الله لصلاحه وفضله ، ولا يشترط فيه أن يكون أفضل الموجودين بالإجماع . فإذا فرض أن العباس بن عبد المطلب كان مجاب الدعوة أكثر ممن هو أفضل منه — وهذا لا مانع منه كما تقدم — كان الاستسقاء به أولى من الاستسقاء بعلى أو بغيره ممن هم أفضل منه . والمخالفون لا يستطيعون أن يقيموا الدليل على أن عليا وعثمان وغيرهما كانوا مجابى الدعوة أكثر من العباس ، ولا يستطيعون أن يذكروا ما يمنع من أن يكون العباس يوم استسقى به أقرب إلى الإجابة والقبول من سائر الموجودين ولو كان فى الموجودين من هم أفضل منه وأكثر مآثر وفضائل . وهذا الزعم الذى زعموه فى توجيه الاستسقاء بالعباس قائم على أن الاستسقاء بعلى أو بعثمان كان أولى من الاستسقاء به لظهور فضلهما عليه . أما إذا فرض أن الاستسقاء به أولى من الاستسقاء بغيره لقرب دعائه من الاجابة والقبول ومن السماء فقد فسد هذا الزعم الذى زعموه . وذلك أن الناس لا يتنازعون ولا يشكون فى أن الاستسقاء بمن هو أقرب إلى إجابة الدعاء أولى من الاستسقاء بمن هو دونه فى ذلك ، وإن كان أكثر منه فضلا وأجل قدراً . وهذا لا يحتاج المسلمون فى معرفته إلى فعل عمر ولا فعل سواه لظهوره ووضوحه . فلا يمكن أن يكون التوسل بالعباس لهذا الغرض الذى لا يخفى على أحد . وعاشراً لو صدق هذا الذى ذكروه لتوسلوا بالعباس تارة ليبينوا جواز التوسل بالمفضول مع وجود

الفاضل على ما ذكر المخالفون ، ولتوسلوا برسول الله تارات بعد موته لأن التوسل به الصحيح المشروع أفضل وأولى وأدنى إلى الإجابة والقبول والعروج إلى الله ، ولما صح أن يتكرر توسلهم بالعباس ويستمر تركهم النبي والتوسل به بعد موته . والتكرر والاستمرار ظاهران من قول أنس راوى الحديث : « كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى بالعباس » . فإن كلمة « كان » صريحة فى أنهم فعلوا ذلك مرات ، وأنه قد كان من شأنهم ودأبهم . ولو فعلوا هذا لكان فيه جمع بين الفوائد كلها : بين بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، وبيان جواز التوسل بالميت ، وبين المحافظة على التوسل برسول الله وعدم الانصراف عنه . ولكن عمر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين قد واظبوا على الانصراف عن رسول الله وعن التوسل به بعد وفاته وواظبوا على التوسل بغيره من الأحياء . فكان السبب وكان الأمر — ولا بد — غير ما ذكر المخالف يقيناً .

على أنه لو كان صحيحاً ما ذكروه لتوسلوا بأحد الأموات الذاهبين مثل حمزة ابن عبد المطلب أو خديجة أو إبراهيم ابن رسول الله أو غيرهم من الأموات ليدلوا على جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل الحى . ولو فعلوا هذا لكان أجمع لأشتات الفوائد وأوضح فى بيان المسألة من كل وجوهها مع عدم الإيهام واللبس الذى ذكرناه وأشرنا إليه . وهذه أشياء لا تترك للتأويل الذى ذكره المخالفون منفذاً إلى الحق والصواب ، ولا متنفسا . والحمد لله على ذلك .

أقبح تأويلا لحديث التوسل بالعباس دون رسول الله

ومن أعجب ما قيل فى توجيه الاستسقاء بالعباس قول بعض المحرفين من الخائضين فى هذه الحقائق مع الخائضين : « أما توسل عمر بالعباس دون الرسول فلكون ذلك سنة الاستسقاء ولكون العباس من ذوى الحاجة ، أو لكون عمر أراد أن يبين للناس أنه يجوز التوسل بغيره عليه الصلاة والسلام لفضله أو قرابته أو لخوفه على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل ، أو ليدلهم

على أن التوسل بالمفضول جائز مع وجود الفاضل . و إلا فعلى أفضل من العباس وكذا عمر . . . » انتهى قول هذا القائل .

وهذه آراء فى غاية السقوط والبطلان : أما الرأى الأول ـ وهو أنهم استسقوا بالعباس « لكون ذلك سنة الاستسقاء » فيقال ماذا يراد بهذا ؟ أيراد أن من السنة أن يستسقى بالعباس دون النبى ودون غيره ؟ أم يراد أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ؟ أم يراد أن من السنة ألا يستسقى بالنبى فى صلاة الاستسقاء ؟ هذا ما يحتمل أن يراد بهذا الرأى الذى ذكروه . وكل هذه الاحتمالات باطلة : أما الاحتمال الأول فباطل بالاجماع والضرورة والنص ، فقد أجمع المسلمون وجاء النص وعلم بالضرورة أنه يجوز ، بل يستحب الاستسقاء بأهل الصلاح والخير والدين فى حياة العباس و بعد وفاته وقبل وجوده وفى كل وقت . فالقول بأن من السنة الاستسقاء بالعباس دون النبى ودون غيره قول باطل بالاجماع والضرورة والنص ، و باطل بالحديث المذكور نفسه . وذلك أنه قيل فيه : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا» . فهم إذن كانوا يتوسلون أى يستسقون بالنبى عليه السلام إذا ما أجدبوا . وهذا مالا يختلف فيه المسلمون ، بل الاختلاف فيه عندهم من أبين الخطأ والجهل .

بيان بطلان هذا التأويل والوجوه التى يحتملها

وأما الاحتمال الثانى وهو القول بأن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات فيقال : نعم هذا حق ،وهذا هو مانقوله، وهذا هو مادل عليه الحديث المذكور ومادل عليه الدين:جملته وتفصيله ، ولكن يجب عليهم أن يعرفوا لماذا كان من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، ولماذا لا يجوز الاستسقاء بالموتى إذا كان يصح دعاؤهم ،وكان يمكن أن يسمعوا دعوة من دعاهم ،وكان يمكن أن يدعوا لمن طلب منهم الدعاء ؟ المخالفون يقولون : إن من الدين ومن السنة التوسل بالأموات وطلب الدعاء والشفاعة منهم ، ويقولون :إنه لا فرق بين

الأحياء والأموات فى باب التوسل والاستشفاع وطلب الدعاء ، و يقولون : إنه كل مايصح أن يرجى وأن يطلب من الأحياء يصح أن يرجى وأن يطلب من الأموات. و يحتجون لجواز الاستغاثة والاستعانة بالموتى بجواز الاستغاثة والاستعانة بالأحياء ، و يقولون : إذا جاز أن نقول للحى أغثنا جاز أن نقول للميت أغثنا. و إلا كنا مخطئين غالطين ، لأن فى التفريق بين الأحياء والأموات فى الدعاء والسؤال والطلب تفريقا بينهما فى القدرة والاستطاعة والعمل ، وهما لا فرق بينهما فى أن الكل لا يستطيع أن يوجد وأن يحدث ، وأن يضر وأن ينفع ، و إنما يستطيع أن يدعو وأن يشفع . وهذا لا فرق بين الحى والميت فيه ، فالحى والميت عاجزان عن الإيجاد والإحداث وعن الضر والنفع ، قادران على الشفاعة والدعاء والرجاء ، فلا فرق بينهما فى شئ من الأشياء . هذا كله يقوله المخالفون .

تفصيل الإبطال لما ذكروه

فان صدقوا فيما قالوا هنا لم يصدقوا فى قولهم : إن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، و إذا صدقوا فى هذا لم يصدقوا فى ذاك . ذلك أنه يقال لهم : من أين علمتم أن من السنة الاستسقاء بالحى دون الميت ؟! فان قالوا : علمنا ذلك من فعل عمر ومن معه ، ومن استسقائهم بالعباس دون النبى ، إذ لو كان من السنة الاستسقاء بالميت لما عدلوا عن النبى إلى العباس ولا إلى غيره من الناس ، قلنا لهم : وأيضاً قد صح أن عمر وسائر الصحابة كانوا يطلبون الدعاء من الأحياء بعد موت النبى ، وما جاء فى رواية صحيحة أن عمر أو غيره من الأصحاب وقفوا بقبر النبى أو بقبر غيره طالبين منه الدعاء والاستغفار أو غير ذلك ، كما لم يصح أنهم استسقوا به عليه السلام بعد موته فقولوا إن من السنة أن يطلب الدعاء والشفاعة من الأحياء دون الأموات ، أو إن من السنة ألا يدعى الميت والا يطلب منه شئ : لا دعاء ولا شفاعة ولا إغاثة ولا إعانة ولا شيء من هذه المطالب التى يطالبون بها سكان القبور .

وأما إن قالوا: إن نصوص الدين هي التي دلت على أن من السنة أن يستسقى بالحي دون الميت قلنا لهم : إن كل نص يدل على ذلك يدل كذلك على أن من السنة دعاء الأحياء والاستشفاع بهم دون الأموات . فإنهم إذا قالوا : إننا وجدنا المسلمين في حياة النبي و بعد وفاته يستسقون و يتوسلون إذا أجدبوا بالأحياء دون الأموات ، وما علمنا أنهم توسلوا بميت ولا استسقوا به ، وهذا يدلنا على أن التوسل بالميت من الخلاف على الدين وعلى السنة ، قيل لهم : وكذلك وجدنا المسلمين في حياة النبي و بعد مماته يدعون الأحياء و يطلبون منهم ما يقدرون عليه عادة ، و يسألونهم الدعاء والشفاعة ، وما علمنا أنهم ذهبوا إلى قبر يدعون صاحبه و يسألونه الغوث والمدد أو الدعاء والشفاعة ، فدل ذلك على أن دعوة الموتى ليست من الدين ولا من السنة . فإن قالوا : قد جاءت روايات في دعاء الأموات والاستشفاع بهم ، قيل لهم : وكذا قد زعمتم أنه قد جاءت روايات في الاستسقاء بالميت عند الجدب كما في الرواية المذكورة عن مالك الدار خازن عمر ، وقد تقدمت الرواية وتقدم الكلام عليها . فمن أين علمتم إذن أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ؟؟ وكيف يكون من السنة دعاؤهم والاستغاثة بهم وسؤالهم ضروب الحاجات في جميع الأوقات وعلى كل حال ، إلا عند الجدب وعند الرغبة إلى الله ، لينزل غيثه على عباده الأزلين ؟ وهل يعرف مثل هذا في العقل أو في الشرع ؟؟ وكيف يكون من السنة الواضحة لديكم التوسل بالنبي في كل وقت ولدى كل حاجة وعلى كل حال ثم لا يكون من السنة التوسل به حين القحط ؟؟ وهل لهذا نظير في الشرعيات أو في العقليات ؟ وكيف يعتقد أصحاب النبي : عمر ومن معه أن التوسل بالنبي سنة في كل وقت وعند كل حاجة وكل رغبة إلا عندما يجدبون فيرغبون إلى الله لكشف الجدب ؟؟ وهل يستسيغ هذا الشرع أو العقل ؟ وكيف يدأب أصحاب النبي على دعاء النبي وعلى التوسل به وعلى سؤاله

هذا لا يعقل ولا يعهد مثله في الشرع

ضروب الحاجات والشفاعات ، كما تدعون ، ثم لا يفعلون شيئا من ذلك حين الاستسقاء وحين طلب الغيث ؟؟

وقد تصاغ هذه الأسئلة بعبارات أخرى كأن يقال : لماذا استسقى الصحابة بالعباس ولم يستسقوا بالنبي؟ ! فان قالوا : لأن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الأموات ، قيل لهم : ولماذا كان من السنة أن يستسقى بهؤلاء دون هؤلاء ؟ إن السؤال لايزال قائما . وقيل لهم ثانياً: من أين علمتم أن من السنة الاستسقاء بالحى دون الميت ؟ إن قالوا من فعل عمر ، قلنا لهم : ولماذا استسقى عمر بالحى المفضول دون الميت الفاضل ؟ إن السؤال لا يزال قائما أيضاً .فما الجواب ؟ فان قالوا: لأنه لو كان من السنة الاستسقاء بالميت لما عدلوا عن النبي إلى العباس ولا إلى غيره ، قيل لهم: ولماذا عدلوا عن النبي إلى العباس؟ إن السؤال لا يزال باقياً أيضاً. فما جوابه؟ فان قالوا. لأن النبي وأصحابه لم يستسقوا بميت قط وهذا يدلنا على أن من السنة ألا يستسقى بالميت،قيل لهم: وكذلكم لم يثبت أن النبي وصحابته دعوا ميتا ولا استشفعوا به ولا سألوه حاجة قط، وهذا يدلنا على أن من السنة ألا يدعى الأموات ، فما الجواب.؟

إن السؤال لا يزال قائما

على أن هؤلاء غير صادقين فى مقالتهم هذه . وذلك أنهم يدعون الموتى لكل شئ : يستسقون بهم ويستشفعون ويستشفون ويسألونهم كل شئ كما يقولون وكما يفعلون .

نعم حق وصدق أن من السنة الاستسقاء بالأحياء دون الموتى ، وهذا لأن الدين والسنة يحرمان دعوة الأموات مطلقا فى الاستسقاء وغير الاستسقاء كما تقدمت الدلائل . ولو كان من السنة سؤال الأموات غفر الذنوب، وهداية القلوب وسؤالهم الدعاء والشفاعة لكان من السنة أيضاً سؤالهم السقيا والغيث بالضرورة والاجماع ، أو لو كان من السنة أن يتوسل بهم فى الاستعداء على الناس وفى طلب إحياء فلان وفلانة، وشفاء فلان و إسقام فلان ، وفى طلب التزيج والتمويل

والإعانة فى كل الأمور لكان من السنة أيضاً التوسل بهم فى طلب السقيا وفى طلب الغيث والمطر بالاجماع والبداهة .

وأما الاحتمال الثالث وهو أن يراد أن من السنة ألا يستسقى بالنبى فى صلاة الاستسقاء فهو احتمال باطل بالاجماع والنص والضرورة أيضاً . أما إن أريد به أن الاستسقاء بالنبى عليه السلام من غير السنة بعد موته لأن الميت لا يستسقى به فهو راجع إلى الاحتمال الذى قبله .

رأيهم الثانى فى توجيه الخبر وبطلانه

وأما الرأى الثانى فى توجيه الخبر ـ وهو أنه استسقى بالعباس لأنه كان من ذوى الحاجة إلى المطر ـ فالجواب أنه رأى باطل لأنه أولاً لم يذكر دليلا واحداً على أن العباس كان فى حاجة إلى المطر، وكثيراً ماتجدب الدنيا ويظل كثيرمن الناس فى غنى وسعة من العيش والثراء ، لايحسون الحاجة ولا الجدب . وثانيا ليفرضوا أن العباس حقا كان فى غاية من البؤس والاحتياج إلى الغيث فما دخل هذا فى التوسل به دون التوسل بالنبى عليه السلام فى طلب السقيا ؟؟ أيظنون أن الاستسقاء بالعباس أقرب إلى الاجابة وإلى إنزال الغيث لأنه محتاج من الاستسقاء بالنبى لأنه ليس محتاجا إلى ذلك ؟ إن كان هذا هو مايظنون فقد ظنوا إثما كبيراً وظنوا ما لا يظنه مسلم . إذ لايختلف المسلمون فى أن الاستسقاء المشروع برسول الله أفضل وأقرب إلى الجدوى والاعطاء من الاستسقاء المشروع بغيره كالعباس وغيره . ولعله قد انسرق إلى أوهامهم أن التوسل بالعباس كان أولى لأنه كان محتاجا والمحتاج لابد أن يخلص فى دعوته واستسقائه . وأما النبى فلا يلزم أن يخلص فى ذلك إذ لاحاجة تحمله على الإخلاص . وإذا كان هذا هو ماانسرق إلى أوهام القوم فقد أصيبوا فى دينهم قبل أن يصابوا فى عقولهم . نعم ليفرضوا أن العباس كان فى غاية الحاجة وفى غاية الفقر ولكن لماذا توسلوا به فى الاستسقاء ولم يتوسلوا بالنبى ، ونحن وهم متفقون على أن التوسل المشروع برسول الله أفضل

وأجدى وأقرب إلى الاجابة من التوسل المشروع بالعباس وبجميع الناس ، ونحن وهم والعقلاء جميعاً متفقون على أن الاستسقاء بمن استسقاؤه أقرب إلى القبول والاجابة أولى وأحجى من الاستسقاء بمن استسقاؤه أبعد عن القبول والاجابة ، بل ونحن وهم والعقلاء جميعاً متفقون على أن الصحابة كانوا فى استسقائهم وتوسلهم يتوخون الأفضل الأقرب إلى رضا الله و إلى غيثه وسقياه . فلماذا عدلوا عن النبي ونحن وهم والناس جميعاً متفقون على أن المحتاج الطالب لابد أن يمت إلى حاجته بأقوى الأسباب و بأفضلها إن لم يمنع من ذلك مانع ، ونحن وهم والعقلاء جميعاً متفقون على أنه لامانع يمنع عمر و يمنع الصحابة معه من أن يتوسلوا بنبيهم إذا كان ممكنا التوسل به فى قبره ؟ هذه الأسئلة لابد أن تبقى بلا أجوبة ماداموا يقولون بجواز التوسل بالنبي بعد مماته . وقد خفى على هؤلاء أنه كان من الممكن الجمع بين التوسل بالعباس المحتاج و بين التوسل بالنبي غير المحتاج ، لو كان التوسل بالميت جائزاً ممكنا . وخفى عليهم أيضاً أنهم كانوا كلهم يستسقون : العباس وعمر والجميع ، و إنما كان العباس كالامام لهم فى استسقائهم .

ولو صح ما ذكروه لتوسلوا بأفقر الناس

ولو كان هذا الذى ذكروه صحيحا لتوسلوا بأعظم الناس حاجة و بأكثرهم وأظهرهم بؤسا وفقراً إذا كان للاحتياج والفقر والبؤس دخل فى هذا التوسل وهذا الاستسقاء . ولتوسلوا أيضا بأعظم الناس حاجة وفقرا فى حياة النبي و بعد وفاته ، ولتوخى المسلمون دائما أهل الفاقة والحاجة فى توسلهم واستسقائهم . ولقال العلماء : « و يستحب أن يستسقى بأهل الفاقة والحاجة والفقر المدقع » لا أن يقولوا : « و يستحب الاستسقاء بأهل الصلاح والدين والتقوى » . ولو صدق هذا الذى ذكروه لكان توسل أحدهم بأحد أهل بيته المحتاجين أفضل عندهم وأولى من التوسل بالنبي و بأعظم الأولياء والمشايخ قدرا وجاهاً . ولكن كلا فان هؤلاء لايفكرون فى التوسل بالمحتاجين من أولادهم وأهليهم ، و إنما يتراكضون إلى أهل

الأضرحة والقبور البادية على قبورهم مظاهر الغنى والنعيم والثراء ، باسطين إليهم أكف الرجاء ، وأكف الحاجة والذل والسؤال عند كل ملمة . وما توسلوا بأولادهم ولا بمن هم محتاجون مثلهم ، كما توسل عمر بالعباس لأنه كان من ذوى الحاجات وترك النبي عليه السلام لأنه لم يكن محتاجاً .

ولو صح أيضاً هذا الذى ذكروه لكان من السنة تقديم الفقراء والمحتاجين في كل عمل يراد به رزق الله و يراد به عطاؤه ومنه . ولكن لا يختلف المسلمون في أن السنة تقديم الأفضل الأبر الاصلح الأقرب من الله .

زعمهم انهم توسلوا بالعباس لبيان جواز التوسل بغير النبي . وبيان بطلانه

وأما الرأى الثالث — وهو أن يكون عمر قد توسل بالعباس ليبين للناس جواز التوسل بغير النبي عليه الصلاة والسلام — فجوابه أنه رأى باطل فاسد أيضاً وذلك أنه لا يشك مسلم في جواز طلب الدعوة والشفاعة — وهذا هو التوسل هنا — من كل صالح بر . ولو لم يتوسل عمر بالعباس لما شك أحد من المسلمين في جواز هذا التوسل المشروع بأهل الخير والصلاح والدين غير النبي عليه السلام ، ولما قال أحد من أهل الإسلام : إن التوسل — على هذا المعنى الذى ذكرناه — لا يجوز ، أو يكره أو لا يستحب . فالمسلمون جميعاً لا يمكن أن يتنازعوا في جواز الاستشفاع وطلب الدعاء من الصالحين الأبرار الأحياء . فلا يمكن أن يكون عمر إنما أراد أن يبين جواز ذلك ، ولا يمكن أن يكون قد شك في معرفة المسلمين إياه ومعرفتهم جوازه ، أو شك في احتياجهم إلى بيانه وعلمه . فلا يصح هذا الذى ذكره المخالفون في توجيه الخبر .

و يقال ثانيا : إن بيان هذه الشئون والمسائل ليس إلى عمر ولا إلى غيره من أفراد الأمة . و إنما بيانها إلى الله و إلى رسوله .

و يقال ثالثاً : لو صح هذا الزعم لتوسلوا بالعباس و بغيره من الناس في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، بياناً لهذا الجواز .

ويقال رابعاً : لو كان هذا هو الغرض لتوسلوا بالعباس تارة و بالنبي تارة ليجمعوا بين فضيلة التوسل بالنبي و بين بيان جواز التوسل بغيره عليه السلام ولكن لم يصح أنهم توسلوا بالنبي بعد وفاته .

و يقال خامساً : لو صح هذا لقرنوا بين النبي و بين العباس وغيره في التوسل ولقالوا : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا وبعم نبينا مثلا ليعلم هذا الجواز ولتحرز فضيلة التوسل بسيد البشر ﷺ .

و يقال سادسا : لو كان هذا صحيحاً لقاله عمر قولاً وصرح به تصريحاً، ولكان مقولا أوضح منه مفعولا .

و يقال سابعاً : إذا صح لعمر وللصحابة معه أن يتوسلوا بالعباس لبيان جواز التوسل بغير رسول الله عليه السلام وجب عليهم أن يتوسلوا برسول الله ميتاً لبيان جواز التوسل به في قبره ، أو إذا صح لهم أن يلحظوا الرغبة في بيان جواز هذه المسألة ، وجب عليهم أن يلحظوا أن توسلهم بالعباس مع صدوفهم عن النبي عليه الصلاة والسلام يوهم أن التوسل به عليه السلام في قبره لايجوز ولا يشرع . وهذا الإيهام محذوراً أعظم من ذلك الجواز مرغوباً فيه .

ويقال ثامناً : لو كان هذا هو الغرض حقا لتوسلوا بأحد الأموات الذاهبين كحمزة أو جعفر أو فاطمة ابنة محمد عليه السلام أو إبراهيم ابن رسول الله أو غيرهم من الأموات ولو مرة واحدة ، ليدلوا على جواز التوسل بغيره ﷺ ، وليدلوا أيضاً على جواز التوسل بالأموات ، وليدفعوا توهم أن التوسل بالموتى لايجوز ولا يشرع .

و يقال تاسعا : إما أن يكون لدى عمر بن الخطاب دليل شرعي على جواز هذا الذي زعم المخالفون أنه أراد بيانه ، أولا يكون لديه دليل شرعي عليه . فإن كان لديه دليل كان الواجب عليه بيان ذلك الدليل وذكره ليعلم هذا الحكم من مصدره الأصلي الأول الصحيح ـ وهو قول الشارع وفعله . وليس من الرأي

الصحيح ولا من الحكمة أن يحاول عمر أو غيره من الصحابة أو غيرهم من المسلمين والأئمة المتبعين بيان حكم من الأحكام الشرعية بعمله وفعله هو . فان أحداً من من الناس ــ كائناً من كان ــ لايمكن أن يحاول بيان أحكام الله وأحكام شرعة نبيه بفعله وعمله إن لم يكن أحــد أنبياء الله و رسله . ومن حاول ذلك فليس على هدى من الله . وذلك أنه لامعصوم فى قوله أو فى فعله من البشر سوى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام . ومن ليس معصوماً لا يصح أن يتخذ فعله أو قوله حجــة من الحجج ، ولا يصح أن يعتقد هو أن فعــله برهان من براهين الله وبراهين شرائعه . هذا إذا فرض أن لدى عمر دليلا شرعياً على جواز هذا الذى أراد بيان جوازه فى مازعم المخالفون . و أما إذا لم يكن لديه دليــل فــلا يمكن أن يحاول بيان جوازه . و إذا حاول لم يصح أن يتبع فى ما لا دليل عليه . فهذا التوجيه الذى ذكروه فى الخبر توجيه باطل .

زعمهم أنهم توسلوا بالعباس خيفة على ضعفا المسلمين وبطلانه

وأما الرأى الرابع ــ وهو أن يكون عمر إنما توسل بالعباس دون النبى خيفة على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل به عليه الســلام فهو من أبطل الآراء وأسخفها . و بيان ذلك بأمور :

أولها ــ : أن فى هذا الرأى إساءة ظن بالمسلمين الأولين ، واتهاماً فظيعاً لخير القرون ولأفضلها بمالا يصح أن يتهــم به من توطنت فى صــدره جرائيم الايمان والاسلام . وفيه أيضاً اتهام لعمر بأنه كان يتهــم الصحابة والتابعين ــ وهما خير القرون ــ و يسئ الظن بهم ، و يخاف عليهم إذا توسلوا بالنبى فلم يجابوا أن يرتدوا و يضلوا ، أو يضعف اعتقادهم و إيمانهم بالله و بالنبى . وهذا من شر الاتهام وشر المقادح فى أوائل المسلمين الذين هم خير القرون وأفضلها وأتقاها وأصلحها وأبرها . وكيف يمكن أن يخاف على أولئك المسلمين إذا توسلوا بالنبى فلم يعطوا ونحن نشاهد هؤلاء الجهال من عامة المسلمين يدعون المشايخ والصالحين ، وهم لايجيبونهم طبعاً

ومع هذا لايزدادون إلا عكوفاً عـلى قبورهم ، وتملقاً بدعائهم ، ولهجاً بأسمائهم ، وانقطاعا إليهم . وماضعف إيمانهم بهم ،ولا تزلزل اعتقادهم بأنهم يجيبون وينفعون إذ لم يجابوا و إذ لم ينتفعوا بدعائهم شيئاً . فـكيف يمكن أن يظن أن عمر بن الخطاب كان يخاف على الصحابة وعلى التابعين الضلال أو الارتداد أو نقصان الإيمان إذا توسلوا بالنبي التوسل المشروع فلم يجابوا ؟ اللهم إنا نعوذ بك من هذا الرأى وهذا الظن الآثم .

ستة وجوه لبطلان هذا الزعم الذى زعموه

وثانيها — : كيف يمكن أن ينقدح فى ذهن عمر أنهم إذا توسلوا واستسقوا بالنبي عليـه الصلاة والسلام لايجابون ولايعطون ولايسقون وهو يجدهم يتوسلون و يستسقون بالعباس فيجابون و يعطون و يسقون كما فى الحديث المذكور ،وقد قال أنس بن مالك راويه : إن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال : فيسقون . فإذا كان عمر يراهم يستسقون بالعبـاس فيجابون و يسقون ، فـكيف يخاف أن يستسقوا برسول الله فلا يجابوا ، ولا يسقوا ؟

ثالثها — : لو صح هذا لتركوا التوسل بالنبي عليه السلام فى حياته ،ولتركوا التوسل بسائر الأنبياء ، بل ولتركوا دعاء الله والضراعة إليه وسؤاله والطلب منه خيفة الضلال والارتداد وضعف الإيمان إذا لم يجابوا و يعطوا ،ولتركوا عبادة الله مطلقاً لئلا يكون فى عبادته فتنة أو ردة أو سوء ظن به تعالى إذا أصيب عابدوه بشىء من الامتحان ، ومصائب الدنيـا ، و بأنواع من الابتلاء . وهذا لا يقوله مسلم ولا مؤمن بالله . فان النـاس لا يختلفون فى أن دعاء الله وسؤاله والضراعة إليه وعبادته أنواع العبادات أشياء واجبة على الجميع كائنة أحوالهم ما كانت . ولا يختلفون أنه لايجوز اجتناب التوسل بالنبي و بسائر الأنبياء التوسل المشروع الصحيح خيفة هذا الذى ذكروه .

رابعها — : إن نص الخبر نفسه يكذب هذا الوهم : وذلك أن عمر قد قال فيه : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ». إذن هم كانوا يتوسلون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، و إذن هم ما كانوا يدعون التوسل به خيفة الضلال والفتنة عند تأخر المطر ، و إذن ما كان عمر ولاكان غيره يخاف هـذا الذي ذكروا أن عمر خافه ، و إذن هذا الرأي رأي مرغوب عنه مهجور .

خامسها — : لوكان حقا هـذا الذي ذكروه وزعموه لكان من الحـق والهدى ، ومن الاقتداء بعمر وبالصحابة أن يجتنب المخالفون اليوم وقبل اليوم التوسل بالنبي ودعاءه والاستغاثة به واستشفاعه والعكوف عـلى قبره خيفة على أنفسهم وعلى من يقتدون بهم من العامة والجهلاء ذاك الذي خافه عمر بن الخطاب على الصحابة والتابعين ، خيفة أن يضلوا وأن يرتدوا وأن يضعف إيمانهم واعتقادهم إذا لم يجابوا و يعطوا ، ولكان من الصواب والهدى نهي المتوسلين ، ونهي المخالفين اليوم عن ذلك خيفة عليهم من الضلال والارتداد . ولكن المخالفون لا يوافقون على شيء من هذا ، بل يزعمون أن التوسل بالنبي في قبره من أفضل القربات وأقربها إلى الله ، وهم لا يدخرون وسعاً في حض الناس على التوسل بالنبي في قبره وعلى دعائه وسؤاله كل الحاجات

فيا هؤلاء كيف يخاف عمر بن الخطاب على الصحابة والتابعين عاقبة التوسل برسول الله ، وأنتم لا تخافون على أنفسكم ولاعلى هؤلاء الجهلاء العاكفين على الأجداث عاقبة ذلك ؟ أأنتم أذكى وأبصر وأعـلم بعواقب الأمور من عمر بن الخطاب ؟ أم أنتم وهؤلاء الجهلاء العاكفون على القبور أرسخ إيمانا و إسـلاماً وأقوى عقيدةً من أولئك الصحابة وأولئك التابعين الذين خيف عليهم عقبى التوسل بالنبي ؟ اللهم لاهذا ولا ذاك ، ولـكنها فتنتك تضل بها من تشاء

وسادسها — : لو صح ترك التوسل بالنبي خيفة الارتداد إذا تأخر المطر لصح

أيضاً ترك التوسل بالعباس خيفة هذا . وذلك أنهم ما استسقوا بالعباس إلا لصلاحه و إيمانه بالله و بالنبي و بدينه واقرابته من النبي أيضاً على قولهم . هذا هو وجه التوسل بالعباس والاستسقاء به . ومن ثم رجوا أن يسقوا وأن يعطوا ما سألوا . فاذا ما استسقوا على هذه الحال و بهذا الاعتبار بالعباس فلم يسقوا و لم يجابوا ولم يعطوا ما سألوه خيف عليهم الضلال أو الارتداد أو ضعف الايمان وتزعزعه ، وخيف عليهم أن يشكوا وأن يقولوا : هذا عم النبي — وعم الرجل صنو أبيه — قد آمن به وصدقه واتبعه وآمن بالله و بدينه وأطاعه وعبده قد توسلنا به إلى ربه فدعا لنا واستسقى من أجلنا ، و رغب إلى الله وكله أمل و رجاء ، و رغبنا معه وكلنا آمال و رجاء ، ومع هذا كله لم يجب ولم نجب ، و لم يشفع لنا ولا له صلاحه و إيمانه ولا شيبه في الاسلام ، ولا قربه من الله ولا قرباه من رسول الله ولا غير ذلك . . . وهنا يهتز إيمانهم و يتقلقل من مكانه ، و يخاف عليه التصدع والانهيار .

إذن هذه التوجيهات في حديث العباس توجيهات كلها باطلة ، وكلها لا يصح منها شيء ، فما الجواب ؟ إن الجواب الصحيح لا يعدو ما ذكرناه وهو أن الصحابة ما عدلوا عن النبي عليه الصلاة والسلام إلى العباس إلا لأنهم يعلمون أن التوسل بالميت لا يجوز ولا يمكن ولا يشرع .

ما في هذا الحديث من الفوائد

الفائدة الأولى

﴿ فوائد حديث الاستسقاء بالعباس ﴾

وحينئذ نستفيد من حديث الاستسقاء بالعباس جملة فوائد كبرى .

« الفائدة الأولى »

إن التوسل بالأشخاص كالتوسل بالنبي و بالعباس أو بغيره إذا أطلق في لسان السلف من الصحابة ومن بعدهم من أهل العلم و في عرف الشارع ونصوصه كان

معناه الاستشفاع وطلب الدعاء أو التقرب بالدعاء والشفاعة . فقول مالك فى الرواية المذكورة عنه المتقدمة : « وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة » يعنى به شفاعة رسول الله يوم القيامة . وقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث الأعمى المتقدم : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك . يا محمد إنى توجهت بك إلى ربك » يراد به التوجه بالدعاء والشفاعة . وقوله فى الخبر الذى نحن بصدده : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » يعنى به التوسل بالدعاء . وكذلك كل ما ورد من التوسل بالأشخاص والذوات فى ظاهر اللفظ لا يراد به إلا التوسل بالدعاء والشفاعات أو ما هذا معناه . والدليل عليه أن عمر ومن معه من الصحابة كانوا يتوسلون بالنبى عليه السلام فى حياته ، و بعد وفاته كفوا عن التوسل به وتوسلوا بسواه . وهذا لأن التوسل عندهم معناه طلب الدعاء والتقرب بالشفاعة . ومن مات لا يستشفع به ولا يطلب منه دعاء ولا غيره . ولو كان معنى التوسل عندهم كمناه عند هؤلاء المخالفين ـ ومعناه عندهم السؤال بالذوات والأشخاص والحقوق ـ لما عدلوا عن النبى ﷺ لا حيا ولا ميتاً ، لأنه يمكن التوسل بذاته وشخصه وحقه وجاهه حياً وميتاً ، لأن ذلك ثابت له عليه السلام وقت الحياة ووقت الممات وفى كل وقت . فالسؤال به دائماً ممكن فلا وجه للعدول عنه إلى العباس أو إلى غيره من الناس لو كان هذا هو الحق . ولكن التوسل بالشخص فى لغة القوم وخطابهم إذا أرسل وأطلق كان معناه الاستشفاع أو الشفاعة والدعاء ومايضارع ذلك . فحيث أطلق التوسل فى اللسان الصادق ذهب إلى الشفاعة والاستشفاع .

الفائدة الثانية

« الفائدة الثانية »

ونعلم من هذا الحديث أن أصحاب النبى وخلفاءه الراشدين ما كانوا يحاولون أن يسألوا النبى عليه الصلاة والسلام فى قبره شيئاً لا شفاعة ولا دعاء ولا إغاثة

ولا إعانة ولا أمناً من الأمور التي يسألها اليوم هؤلاء المسلمون كل من هب ودب من المشايخ والأموات ، وكل من أقيم على قبره قبة أو بناية أو زينة أو مسجد أو نوع من أنواع المعلقات المختلفة ، و إن كان ما تحت ذلك جسد حيوان أو جسد كافر أو منافق أو فاسق من الفساق . وذلك أننا لا نشك في أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ما عدلوا عن نبيهم إلى عمه في وقت حاجتهم وشدتهم وأزمتهم إلا لأنهم كانوا يعلمون أن الاتصال به على هذا الوجه أصبح غير ممكن وغير مستطاع ولا ميسور ، ولأنهم علموا أنه لا يصح أن يسألوه الشفاعة والدعاء فضلا عن أن يسألوه الغوث والمدد وقضاء الحاجات المختلفة ، أو يسألوه هداية القلوب وغفران الذنوب . وقد كانوا رضي الله عنهم حراصاً الحرص كله على أن يسألوه ذلك وأكثر منه لو كان ممكناً ومشروعاً مستطاعاً . لأن القوم كانوا جد مشتاقين إلى نبيهم و إلى الاتصال به الاتصال الممكن المستطاع كله ، وكانوا جد مشتاقين إلى الاغتراف من نهره علا ونهلا ، لأنهم قد شاهدوا فضله ، وشاهدوا ما أعطاه ربه من البركات والخيرات التي تمتعوا بها معه في حياته وتمتعوا بها بعده . ولو أنهم علموا أن شيئا من ذلك يشرع لبادروا إليه ، ولما صح أن يتركوه وأن يعرضوا عنه ، آخذين بوسيلة العباس أو بوسيلة غيره من الناس . وما نازع في هذا أحد ، ولا أقيم حوله جدال أو خلاف . فكأن القوم كانوا مجمعين عليه ، متفقين على فعل خليفتهم وخليفة رسولهم عمر وعلى فعله رضي الله عنه وعنهم . ولو أن أحداً منهم كا يذهب إلى إمكان التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته و إلى جوازه لقام في وجه عمر بن الخطاب ومن معه من الأصحاب ، ولقال له ولهم : كيف تتركون نبيكم وتتوسلون بسواه وهو حاضر معكم موجود بين أيديكم وأنتم في مسجده وفي بلده وأمام حجرته و بيته ، أما تستحيون منه ومن ربه ؟ كلا ، إنه يجب عليكم أن ترجعوا إلى نبيكم و إلى وسيلته وشفاعته وحجرته ،

فتستسقوا به وتسألوه ما تشاءو ن من السقيا والدعاء والوسـيلة والشفاعـة وكل ما ترجون وتؤملون عند ربكم ومنه .. . ثم لما كان من عمر ومن معه من الأصحاب إلا أن يصغوا لهـذا النداء ، وأن يلبوا ذاك الاعتراض ويقولوا جميعاً : حقا لقد عزبنا عن الصواب والسداد إذ تركنا نبينا ورجعنا إلى أتباعـه ، نطلب الوسيلة والسقيا ، ونحن بين يديه فى مسجـده وبلده . . . ولـكن لسانا واحداً لم يفه بشئ من هذا ، فدلنا على أن قلباً واحـداً من تلك القلوب لم يتردد على صفحاته شئ منه . وهذا لأنه لم يكن بين القوم خلاف فى أن سؤال النبى بعد الوفاة ضلال وحماقة كبرى جلية . وهذا من أعظم الحجج والبراهين على بطلان دعوة الأموات ، وبطلان سـؤالهم الشفاعات وغـيرها من المآرب والمطالب المختلفـة التى يسألهـا اليوم كل هالك أقيم حول قبره نصب من الأنصاب المختلفة .

الفائدة الثالثة

« الفائدة الثالثة »

أن نعلم من هذا أن كل الأخبار التى تروى فى دعاء النبى وسؤاله الشفاعة والدعاء وغير ذلك بعد مماته أخبار ـ إن وجدت ـ كاذبة غير ثابتة ولا صحيحة ، وأخبار ما كان يعرفها أصحاب النبى عليه السلام ولا يروونها . إذ لو كانت لديهم أخبار يروونها عن نبيهم فى جواز الاستشفاع والتوسل به ودعائه وسؤاله بعد وفاته لعملوا بها حين أزماتهم وحاجاتهم واستسقائهم ، ولما جاز أن يعدلوا عن التوسل بالنبى والاستسقاء به إلى التوسل والاستسقاء بالعباس . فانه لا شك أن القوم ما تركوا نبيهـم وتركوا الاستسقاء به وتركوا دعاءه وسؤاله وخطابه إلا لأنهـم لا يجدون دليلا يسوغ شيئاً من ذلك . فلو كان عمر بن الخطاب يعلم مثلا حديثا عن النبى فى جواز دعائه وسؤاله فى قـبره لدعاه ولسأله واستسقى به يوم جدبهم وقحطهم ، ولأغناه الرجوع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الرجوع إلى العباس وإلى

غيره . ولو كان يروى عن النبي عليه السلام حديث سؤال آدم ربه بحق نبيه محمد وغفران الله له ذنبه بهذا السؤال لسأل ربه السقيا بحق رسوله محمد ﷺ كما سأل آدم به ، ولقال : نحن أحوج إلى السؤال بحق نبينا من آدم ، ولقال : أسألك يارب بحق محمد لما سقيتنا ، كما قال آدم فى الخبر المروى عن عمر عن النبى : «أسألك يارب بحق محمد لما غفرت لى » . ومن المحال أن يكون هذا الحديث حديث سؤال آدم ربه بحق محمد ثابتا عن عمر ثم لا يسأل ربه بحقه ، بل يعدل عن ذلك إلى التوسل بالعباس . وما عن هذا من جواب إلا أن يقال : إن عمر كان ينسى حديث آدم هذا كلما استسقى بالعباس وكلما قحطوا ، بل وكل حياته . ولينظر هل يمكن أن يصح هذا وهل يجوز على عمر . ولو صح هذا كله وصح أن عمر كان ينسى الخبر عند استسقائه بالعباس لوجب أن ينبهه إليه من حدثهم به ومن سمعوه منه ومن عرفوه من الصحابة والتابعين إن كان أحد عرفه .

دلالة هذا الحديث على كذب جميع الاحاديث التى فيها ما يدل المخالفين.

وكذلك لو كان حديث الأعمى السابق ثابتاً عن عثمان بن حنيف مع القصة المذكورة فيه بين ابن حنيف وبين ذلك الرجل الذى كان يقصد عثمان بن عفان لحاجته فلا يلتفت إليه إلى آخر القصة السالفة : لو كان هذا الحديث ثابتاً عن ابن حنيف وكان دالاً على ما يذهب إليه المخالفون لقال عثمان بن حنيف ولقال غير ابن حنيف ممن يعلمون الحديث إن كان أحد يعلمه غيره لعمر ومن معه من الصحابة والتابعين : لا يصح أن تعدلوا عن النبى عليه الصلاة والسلام إلى سواه ، بل ارجعوا إليه واسألوه الشفاعة والسقيا والوسيلة ، واسألوه جميع ما تطلبون وتسألون ، ثم ذكروا لهم الحديث وقصة الأعمى والرجل الآخر فيه ، وأمروهم أن يتوضأوا وأن يصلوا وأن يدعوا ذلك الدعاء الذى علمه عثمان بن حنيف الرجل المتردد على الخليفة عثمان بن عفان . وإذا كان ابن حنيف قد علّم ذلك الرجل المتردد على عثمان فى حاجته الخاصة به أن يتوسل بالنبى وأن يدعوه ويخاطبه

ويسأله، فى مايزعمون، أن يشفع له فى قضاء حاجته، فكيف لاينبئ عمر ومن معه من الأصحاب والمسلمين بهذا الدعاء وهذا الأمر ليدعوا الله به كى يسقيهم، وكى يزيل جدبهم وقحطهم بشفاعة نبيهم والاستسقاء به وبجاهه وكرامته وبركته؟ وكيف طاب لابن حنيف أن يكتم هذا النبأ وهذا الخبر العظيم عن عمر وعن المسلمين معه وهم فى حاجة شديدة ملجئة إلى علمه ومعرفته لوكان ثابتا صحيحاً حقا عن عثمان بن حنيف؟

وكذلك أيضاً استسقاؤهم بالعباس وهى سند تلك الرواية المتقدمة، وهى ما ذكروا عن مالك الدار خازن عمر قال: أصاب الناس قحط فى زمان عمر فجاء رجل إلى قبر النبى عليه السلام فقال: يارسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا. فأتى الرجل فى المنام فقيل له: ائت عمر وأخبره أنهم مسقون. قال الحافظ العسقلانى فى فتح البارى (الجزء الثانى صفحة ٣٣٨. طبعة الخشاب): «وروى ابن أبى شيبة باسناد صحيح من رواية أبى صالح السمان عن مالك الدار، وكان خازن عمر، قال: أصاب الناس قحط فى زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبى فقال: يارسول الله استسق لأمتك فانهم قد هلكوا، فأتى الرجل فى المنام فقيل له: ائت عمر وأخبره أنهم مسقون. وقد روى سيف فى الفتوح أن الذى رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزنى أحد الصحابة» انتهى كلام العسقلانى. وهذه القصة إما أن تكون ضعيفة الاسناد أو محرفة اللفظ، أو يكون الآتى إلى قبر النبى عليه السلام، القائل له: استسق لأمتك مخطئاً غالطاً مخالفاً لما ذهب إليه الخليفة عمر ومن معه من المسلمين. والرواية التى ذكر الحافظ ابن حجر أن إسنادها صحيح لم يكن الذاهب فيها إلى القبر هو بلال بن الحارث الصحابى، وإنما هو رجل مبهم مجهول غير معروف الاسم ولا الحال. ولا يجب أن يكون فى فعله هذا راشداً مصيباً، فقد كان فى التابعين من ابتدعوا وضلوا. وأما الرواية التى

جاء فيها أن الذاهب إلى القبر النبوي القائل : استسق لأمتك هو بلال بن الحارث المزني الصحابي فهي رواية باطلة لأنها من طريق سيف بن عمر الضبي الأسدي الأخباري المشهور، مصنف « الفتوح » و « الردة » وغيرهما . وسيف هذا متهم ،اتهمه ابن حبان وغيره بالزندقة ، وأجمع الباقون على ضعفه في الحديث مع إجماعهم على غزارة علمه ومعرفته بالأخبار . فالرواية التي قيل فيها : إن الذاهب إلى القبر هو بلال بن الحارث الصحابي رواية ضعيفة ، لايحل الاحتجاج بها لضعف سندها واتهام راويها ومخرجها وهو صاحب « الفتوح » سيف بن عمر الضبي المؤرخ . أما الرواية التي قال الحافظ ابن حجر : إنه رواها ابن أبي شيبة بإسناد صحيح فلا حجة فيها ، لأن ذلك الفاعل القائل المستسقي ليس صحابياً . ونحن لانقول : إن كل ما يعمل في زمان التابعين أو زمان عمر الفاروق حق ودين وهدى .

وبالجملة فحديث الاستسقاء بالعباس المتفق على صحته يشهد شهادة صادقة واضحة بأن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ،وبأن الصدر الأول من المسلمين ما كانوا يروون أحاديث عن رسول الله في جواز دعوة الأموات أو جواز الاستشفاع بهم أو طلب الدعاء منهم أو التوسل بهم على الوجه الذي يذهب إليه المخالفون ، ويشهد شهادة لا ريب في صدقها على أن كل ما يروى عن عمر أو عن غيره من الأصحاب عن النبي في جواز دعاء النبي وجواز الاستشفاع به في قبره شيء لا صحة له ولا قيمة لسنده ، ويدل أيضاً دلالة ظاهرة على أن الأخبار الصحيحة الثابتة عنهم عن رسول الله لا تدل عندهم على جواز دعوة الأموات ولا جواز خطابهم وطلب الشفاعة والدعاء منهم فضلا عن طلب غير ذلك . فلا يدل عندهم حديث مخاطبة النبي ﷺ لكفار بدر بعد ماقتلوا ورموا في الطوى على أنه يجوز دعاء الأموات . وحديث خطاب رسول الله للقتلى من المشركين

دلالته على أن الاحاديث الصحيحة لاتدل على مذهب عباد الاموات

يوم بدر قد جاء من رواية عمر نفسه ، وجاء من غير روايته أنه كان حاضراً لرسول الله وسامعاً له حين خاطبهم وناداهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وقال لهم ما قال . وقد قال رضى الله عنه فى هذه الحادثة : يا رسول الله كيف يسمعون ـ أو أنى يجيبون ـ وقد جيفوا ؟ فعمر رضى الله عنه كان قد شهد خطاب النبى لقتلى المشركين ورآه يخاطبهم و يناديهم ذلك النداء المعروف . ولكنه لم يفهم من كل ذلك جواز دعوة الأموات ، الدعوة التى يراد بها الشفاعة ، أو يراد منها الإعطاء أو المنع، أو الضر والنفع . ولو كان قد فهم أن مخاطبة النبى لأولئك المشركين الموتى تدل على جواز دعوة الموتى مطلقا، وعلى جواز الاستشفاع بهم لخاطب رسول الله فى قبره حين الجدب ، ولطلب منه الدعاء والشفاعة ، ولاستسقى به ، ولما احتاج إلى العدول عنه عليه السلام إلى العباس أو غير العباس .

وكذلك أحاديث زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم لا تدل عندهم على صحة دعوة الأموات . وأحاديث زيارة القبور أحاديث مشهورة لديهم معلومة لهم . ولو كانت تدل عندهم على جواز دعاء أصحاب القبور لاحتجوا بها على جواز التوسل والاستسقاء بالنبى ودعائه وسؤاله ، ولما عدلوا عنه حينئذ إلى سواه فى الاستسقاء أو غيره .

وكذلك خطاب النبى فى تشهد الصلاة لا يدل عندهم على جواز نداء الموتى وسؤالهم . وقد كانوا يقولون فى تشهدهم كما علمهم رسول الله : « السلام عليك أيها النبى و رحمة الله و بركاته » . ولو كان هذا لديهم مبيحاً لأن يدعى الموتى و يسألوا ، لسألوا النبى ولدعوه ولتوسلوا به واستسقوا بشفاعته إذ أجدبوا .

وكذلك جميع الأخبار والأحاديث الصحيحة الثابتة لا تدل عندهم على إباحة ما يأتيه هؤلاء المبتدعون اليوم وما يقولونه و يلهجون به فوق قبور المشايخ والصالحين من الضراعات والشكايات والأدعية ، و إلا لو كانوا يفهمونها كما يفهمها

هؤلاء المخالفون لدعوا نبيهم فى قبره ولتوسلوا به واستسقوا حين الجدب وحين سواه من الأزمات والحاجات .

وكذلك يدل خبر الاستسقاء بالعباس على بطلان الأخبار السالفة فى دعاء من أضل دابة أوشيئاً وأراد عوناً وهو فى فلاة من الأرض ، وأنه ينادى و يقول : « ياعباد الله أعينونى ـ أوأغيثونى » . وقد تقدم الكلام على هذه الأخبار . فلو كانت ثابتة عن أصحاب النبى وكانوا يعرفونها و يروونها ، وكانت دالة لديهم على جواز دعوة الأموات والاستغاثة بهم وطلب العون منهم لاستدلوا بها على دعاء النبى والاستغاثة به فى قبره ثم لتوسلوا واستسقوا به يوم أن احتاجوا إلى أن يستسقوا و يتوسلوا بالعباس .

ولا يخفى على من أنصف الحق من نفسه وهواه وعلمه أنه لايمكن أن تكون هذه الأخبار معلومة لأصحاب النبى ، ثابتة عنهم ، وأن تكون دالة لديهم على ما استدل بها له المخالفون ، ثم لانجدهم يعملون بشئ منها ، لاعند قبره ﷺ ولا عند قبر غيره . بل نجدهم يستسقون ويتوسلون بالعباس و بغيره كما استسقى معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين بيزيد بن الأسود الجرشى أحد التابعين الصلحاء . وما فكر أحد منهم فى أن يذهب إلى أحد القبور فى يوم مايدعو و يستشفع أو يتوسل و يستسقى . وهل لهذا سبب غير أنهم لايعرفون هذه الأخبار المكذوبة ، وغير أن مايعرفونه منها لا يدل على ما استدل به عليه هؤلاء المخالفون المصابون فى عقولهم وفى ديانتهم ؟

الفائدة الرابعة

﴿ الفائدة الرابعة ﴾

أن نعلم أن التوسل بالجاه والحق والحرمة والبركة والذات والشخص شئ لا وجود له بين صحابة النبى وسادات المسلمين ، وشئ لا يعرفونه ولا يقولون به ولا يلتفتون إليه . فان هذا التوسل لو كان معروفا عندهم ، وكان من الدين والحق فيما

علموا وتعلموا من دينهم ونبيهم لتوسلوا بجاه النبى عليـه السلام ، أو بحرمته ، أو ببركته ، أو بذاته ،أو بغير ذلك مما يتوسل به المبتدعون و يزعمونه من الدين . ولكن صحابة النبى وحملة دينه وشرعته كانوا يعلمون أن الاسلام الذى تلقوه من محمد بن عبد الله رسول الله برئ من هذه الوسيلة ، ومن هذا التوسل الدخيل ، ومن هذا الدعاء الباطل . ولأجل هذا لم يعبئوا به ولم يرجعوا إليه ،بل توسلوا بالعباس لأنه كان يستطيع أن يدعو و يشفع و يستسقى لهم . وهذا هو التوسـل الصحيح المشروع . ولم يتوسلوا أو يستسقوا بنبيهم عليه الصـلاة والسلام فى قبره لأنه لا يصح أن يدعى ولا أن يسأل ولا أن يطلب منه شئ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعـلى . والتوسل الصحيح المشروع بالشخص لا معنى له غـير طلب الدعاء والشفاعة والاستشفاع . ولو كان من الدين الذى تلقوه من نبيهم التوسل بالذوات والسؤال بالجاهات والحرمات والبركات وغـير ذلك ، مما لا يعنى به الدعاء ولا الشفاعة ، لأمكن أن يتوسلوا بنبيهم بعـد وفاته فى قبره عند الاستسقاء وغـير الاستسقاء ، ولأمكن أن يقول الفاروق : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك أيضاً بنبينا ـ أى بجاهه وحرمته و بركته ـ فاسقنا » .

ولكن كلا لم يقل ذلك ،بل قال : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعـم نبينا فاسقنا . وهـذا لأنهم كانوا فى حياة النبى يتوسـلون بدعائه وشفاعته واستسقائه لهم ، أما بعـد موته فلا دعاء ولا استسقاء ، لهذا لم يتوسلوا أو يستسقوا به . والتفريق بين الحيـاة والممات فى هذا الأمر يدل دلالة ظاهرة على أن التوسل بالذات أو بالجاه أو بالحرمة أو بالحق لا يشرع ولا يعرف فى الدين ولا عنـد الصدر الأول من المسلمين ، و إنما هو أمر مبتدع مكذوب فى الإسلام .

هذا الحديث أصل من أصول الرد على المخالفين المبتدعين

فحديث الاستسقاء بالعباس الذى عده المخالفون من دلائلهم على مبتدعاتهم أصل من أصول الرد عليهـم وعلى ما ابتدعوه من ضلال وجهل و باطل . وهكذا

الشأن فى جميع مااستدلوا به : إما شئ ضعيف مكذوب، أو صحيح ولكنه لايدل لهم، وإنما يدل على خلاف قولهم كهذا الحديث، وكأحاديث الشفاعة يوم القيامة . وقد تقدم الكلام عليها وتقدم بيان دلالتها على خلاف ما ذهبوا إليه . وكأحاديث زيارة القبور، فإنها فى الحق ترد عليهم وتدل على خلاف قولهم. وذلك أن الرسول عليه السلام قد علم أصحابه مايقولون عند زيارة القبور من الأدعية والسلام والخطاب فكان كل مافيها ، بلا خلاف ولا اختلاف، دعاء لأصحابها بالسلام عليهم وطلب السلامة لهم ، وسؤال العافية من أجلهم ، ودعاء للزائر نفسه بالعافية وبالنجاة من أسباب الشقاء والشر . . ولا يخرج كل مافى أحاديث الزيارة الصحيحة عن هذين الأمرين : الدعاء لصاحب القبر والدعاء لزائره . وليس فى شئ منها لافى صحيحها ولا ضعيفها الأمر بدعاء أصحاب القبور ، أوسؤالهم . أو الاستشفاع بهم ، أو الدعاء بحقهم أو جاههم وحرماتهم أو نحو ذلك من هذه الأمور التى اخترعها المخترعون عند قبور المشايخ والصالحين ، بل وقبور الطالحين الفاسقين . وكذلك ليس فى أحاديث الزيارة الأمر بالتمسح بالقبور أو التقبيل لها أو لمسها أو استقبالها أو شئ من هذه الأمور ، بل مافيها غير الدعاء الذى هو السلام وسؤال العافية والأجر للزائر والمزور .

ولو كان هنالك شئ يشرع : يقال أو يفعل ، حين الزيارة ، لعلمه النبى أصحابه ولدلهم عليه حينما سألوه أن يعلمهم سنة ذلك ومايقولونه ومايفعلونه إذا مازاروا القبور ، فعلمهم الدعاء فقط : الدعاء لأنفسهم وللموتى الذين راح المغيرون للاسلام يدعونهم وقد أمروا بأن يدعوا لهم . وماعلمهم غير الدعاء شيئاً . وليس بممكن أن يكتم عنهم شيئاً يقربهم من الله يصح أن يفعلوه أو يقولوه حينما يزورون المقابر . وقد كان هو عليه الصلاة والسلام يزور فيقول مثل ماعلمهم أن يقولوا لازيادة ولا نقصان .

ومن زعم أن هنالك شيئا يقال أو يفعل حين الزيارة غير ما فى هذه الأخبار النبوية الصحيحة من السلام والدعاء فقد ذهب إلى اتهام النبى ، برأه الله ، بالكتمان والتقصير فى البلاغ والبيان . وحاش لله أن يكتم نبيه شيئاً أو يدخر وسعاً فى بيانه وبلاغه .

كيف تفهم أحاديث الزيارة بالنسبة الى هذا الحديث

فأخبار الزيارة رد على المخالفين بلا ريب . أما استدلالهم بلفظ الخطاب فى قوله : « السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » الحديث . فاستدلال ما أبطله . ذلك أن الخطاب هنا ليس خطابا حقيقيا يراد به الطلب أو الإسماع ، وإنما هو خطاب تصورى استحضارى يضاهى الخطاب فى قول المتشهدين : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . ولا يقول مسلم إن الخطاب فى التشهد خطاب حقيقى يراد به الطلب من النبى أو يراد به إسماعه وإعلامه أو نحو ذلك ، لأن الذى يسمع من كل مكان هو الله وحده ، ولا أحد من الخلق يستطيع ذلك . ويضاهى الخطاب فى قول النبى يرثى ابنه إبراهيم : « وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » . ولا يراد بهذا الخطاب الطلب ولا الإسماع بالاجماع . ويضاهى قول الصديق يرثى نبى الله بعد وفاته « بأبى أنت وأمى يارسول الله . لا يجمع الله عليك موتتين » . ويضاهى قول أم العلاء الأنصارية ترثى عثمان بن مظعون : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . ويضاهى قول النبى عليه السلام إذا سافر وأقبل الليل : « يا أرض ، ربى وربك الله . أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك » الحديث . رواه أبو داود فى سننه . وروى أنه ﷺ كان يقول إذا رأى الهلال : « هلال خير ورشد . هلال خير ورشد . آمنت بالذى خلقك » . ويضاهى قول نبى الله صالح لقومه بعد ما أهلكوا . « وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » وقال نبى الله شعيب خطابا لقومه الهالكين مثل قول صالح لقومه. وهذا النوع كثير جد

فى نصوص الشريعة . أما فى كلام النـاس شعرا ونثرا فلا يحيط به محيط . وقد تقدم بعض الكلام عليـه ، والخطاب فى زيارة المقابر من هذا النوع . وخطاب الأموات ، بل والجمادات ليس ممنوعا مطلقا ، و إنما يمنع منه ما كان مشتملا على الطلب و إرادة الإسماع وعلى الرغبة والرهبة . فأحاديث الزيارة مما يحتج به عـلى المخالفين وليست مما يحتج به لهم إلا عند الجانفين المحرفين .

حديث «حياتى خير لكم ومماتى خير لكم» بالنسبة إلى هذا الحديث

وكذلك الحـديث المشهور وهو قوله ﷺ « حياتى خير لـكم ومماتى خير لـكم ، تعرض على أعمالـكم ، فان وجدت خيرا حمدت الله ، و إن وجدت شراً استغفرت لـكم » إن صح . وقد روى مرسلا عن بكر بن عبد الله المزنى التابعى الثقة ، رواه القاضى إسماعيل بن إسـحاق فى فضل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام وروى أيضاً موصولا من حديث عبـد الله بن مسعود عن النبى عليـه الصلاة والسلام ، رواه البزار ، وقال الحافظ الهيثمى : رجاله رجال الصحيح ، ولفظه عنده فى مجمع الزوائد : عن عبد الله بن مسعود عن النبى عليه السـلام قال « إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » قال وقال عليه السلام « حياتى خير لكم ، تحدثون ويحدث لكم . ووفاتى خير لـكم ، تعرض عـلى أعمالكم . فما رأيت من خير حمدت الله عليه ، ومارأيت من شر استغفرت لكم » رواه البزار ورجاله رجال الصحيح . وقد تقدم سياق سنده عندالبزار . فهذا الحـديث إن صح عن النبى كان ردا على دعاة الأموات العاكفين على الأجداث . وذلك أن رسول الله قدأخبرأن أعمال أمته تعرض عليه عرضا: يعرضها الله ، أوتعرضها ملائكته وأنه بعد عرضها عليه إما أن يحمد الله و إما أن يستغفر . وهذا أمر لابد منه على مافى الحديث سواء أسألوه أم لم يسألوه ، فسؤالهم إياه لايجعله يفعل غير ما ذكر فى الخبر ، وتركهم سؤاله لايجعله يترك شيئاً مما فى الخـبر من حمد الله والاستغفار ، فسؤاله لايفعل شيئا ولا يقدم ولايؤخر ولا يفيد شيئاً ، فهو عبث والعبث باطل

والباطل ضديد الحق ، وضديد الحق منهى عنه مذموم. وقوله فيه « تعرض على أعمالكم » صريح فى أنه لايعلمها بنفسه ،وصريح فى أننا لانستطيع نحن أن نعرضها عليه ، وأننا لو عرضناها لما استطاع أن يعلمها ، فهو لايسمع دعاءنا ولا استشفاعنا ولا طلبنا الدعاء منه ، ولا ابتهالنا إليه ، ولالهجنا باسمه ، ولا يعلم شيئاً من ذلك ، لأنه فى عالم ونحن فى عالم آخر . ولهذا لايعلم من أعمالنا عملا إلا بعرضه عليه : بعرض الله أو بعرض ملائكته ، أو بعرض جند من جنده . و إذن لا يصح دعاؤه ولا خطابه لمحاولة إسماعه و إعلامه ، لأنه لن يسمع ولن يعلم من أمرنا شيئاً بواسطتنا نحن .

وقوله « فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت لكم » يدل على أن هذا الاستغفار وهذا الحمد لله أمران من أمور وظائفه التى لايخل بها ، فلودعوناه لمازاد ذلك فى استغفاره وحمده لله شيئاً، ولو تركناه لما نقص تركنا من ذلك شيئاً . فلا تأثير لدعائه فى وظيفته هذه : وظيفة الحمد والاستغفار .

وهذا مثل قوله عليه السلام : « وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » وقوله فى الخبر الآخر « إن لله ملائكة سياحين يبلغوننى عن أمتى السلام » ومعنى الخبرين أنه عليه السلام يبلغ صلاة أمته وسلامها عليه حيث كانوا، وحيث كان حين يصلون وحين يسلمون ، و إن كان لايسمع ذلك من المصلين المسلمين . وهذا لايقضى شىء منه بأن يدعى وأن يستشفع به وأن يطلب الدعاء منه ومثله أن الملائكة يصلون على المؤمنين و يدعون لهم و يسألون الله من أجلهم الغفران والتقريب من الجنة والإبعاد من النار . وهذه إحدى وظائف الملائكة ،ولكن مع هذا لا يجوز دعاؤهم ولا سؤالهم هذا الذى يسألونه ربهم للمؤمنين ولا طلب الشفاعة والدعاء منهم ، كما تقدمت الدلائل . ومثل هذا أيضا أن النبى عليه السلام يوم أن كان حيا كان كذلك يدعو للمؤمنين و يستغفر لهم و يصلى عليهم يسأل ربه لهم كل ضروب الاسعاد والفلاح ، وكل أسباب الخير والنجاة . ومع

ومثل هذا دعاء الملائكة للمؤمنين واستغفارهم لهم

هذا كله ما كان يصح لمن كان بعيداً عنه أن يطلب ذلك منه : فما كان يصح لمن كان فى مكة أن يخاطبه وهو فى المدينة وأن يقول له ادع الله لى أو استغفر من أجلى أو نحو ذلك ، فضلا عن أن يسأله هداية قلبه أو غفران ذنبه أو شفاءه من مرضه أو إنقاذه من بلوى حلت به . ولو أن أحداً فعل ذلك لعد من الطالين الجاهلين المؤاخذين . فكيف بمن يفعل ذلك بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى العالم الأخروى ، إلى الرفيق الأعلى ، إلى عالم الخلود والنعيم ؟؟ فهذا الحديث ، وهو من براهين المخالفين ، لو صح ، كان من الحجج عليهم ومن الدلائل القوية على بطلان دعاء الأموات والاستغاثة بهم وطلب الأشياء منهم : وهكذا جميع الأخبار الصحيحة التى يحتجون بها مآلها عند التحقيق و إعطاء الفهم حقه أن تكون حججا عليهم .

الآيات التى يحتج بها المخالفون بالنسبة الى هذا الحديث

وكذلك الآيات التى يحاولون التعلق بها : فمثلا هم يحتجون بقوله تعالى « أحياء عند ربهم يرزقون » الآية النازلة فى الشهداء . والآية عند التأمل رد عليهم . وذلك أنها قد أخبرت أنهم أحياء عند ربهم لا عندنا ولا عند دعاتهم ولا عند دعاة الأموات . ومعنى ذلك أنهم مقيمون فى السماوات ، مستقر الأرواح الطاهرة الصالحة ، ومأوى الملائكة والمقربين من الأنبياء والرسل والصالحين . و إذا كان ذلك كذلك فلا يمكن دعاؤهم ، ولا الاتصال بهم ، ولا محاولة إسماعهم و إعلامهم ، لأنهم فوق مافوق السماوات فى أعلى عليين . فلا يستطيع حينئذ أهل الأرض أن يتصلوا بهم بوجه من وجوه الاتصال التى يحاولها اليوم دعاة الاموات المبتدعون الضالون . وهم حينما كانوا أحياء فى الأرض لم يكونوا يدعون و يسألون فى مغيبهم ، ولم يكن يطلب منهم الغوث والمدد إلا فى حضورهم . فما كان المسلمون يدعون نبيهم ولا يخاطبونه ولا يسألونه فى غيبته أو غيبتهم هم شيئا ، ولا كانوا يفكرون فى هذا . ولو أن أحداً دعاه ﷺ فى مغيبه وقت حياته لعد من

الجهلاء الضلال . فدعوة الحى الغائب ممنوعة باطلة ، غير ممكنة ولا جائزة ولا مشروعة . فدعوة من هم أحياء عند ربهم حياة برزخية غيبية فى أعلى عليين أحق بالمنع والبطلان والتحريم .

فآية حياة الشهداء التى يستدلون بها على جواز دعوة الأموات هى فى الحق وعند التأمل الصحيح المخلص تدل على خلاف ما ذهبوا إليه ، وخلاف ما قالوه ، أى تدل على بطلان دعوة الموتى وعلى تحريم الاتصال بهم وتحريم سؤالهم واستجدائهم .

وهم يحتجون أيضاً بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » على جواز ما يذهبون إليه وما يقولونه من الباطلات والخرافات كالاستغاثة بالأموات ودعائهم . والآية فى الحقيقة صريحة فى فساد مذهبهم . وذلك أن الوسيلة فى نص الآية إما أن يراد بها الأنبياء والأولياء والصالحون — وهؤلاء وسائل عند عبدة القبور — وإما أن يراد بها القرب إلى الله والتقرب إليه وإلى مراضيه . أما الاحتمال الأول فباطل من نفس الآية . وذلك أنها تقول : « وابتغوا إليه الوسيلة » . فلو كانت الوسيلة هى من يدعى من الأنبياء والصالحين والمشايخ لكانت الآية أمراً بابتغاء هؤلاء الصالحين المدعوين ، والابتغاء معناه الطلب . فاذا كانت الوسيلة هى من يدعى من الصالحين — والابتغاء هو الطلب — كان معنى الآية هكذا : « اتقوا الله واطلبوا إليه الصالحين » . وهذا لا معنى له بلا ريب . وكلام الله يجل عن أمثاله . ولو كان هذا هو المراد من الآية الكريمة لقيل فيها : « وابتغوا من الوسيلة » . أو « وتقربوا بالوسيلة » . أو « وتوسلوا بالوسيلة » أو نحو ذلك . فالاحتمال الأول لا يمكن أن يكون مراداً بالآية وبالوسيلة فيها يقيناً . وأما الاحتمال الثانى — وهو أن يكون المراد بالوسيلة القرب والتقرب إلى الله — فهذا هو التفسير الصحيح للآية كما تقدم .

فالآية إذن أمر بالتقرب إلى الله ، والتقرب إليه تعالى غير التقرب إلى الأموات و إلى المشايخ والصالحين ، بل الأمر بالتقرب إليه تعالى ينافى اتخاذ الوساطات والوسائل من الخلق ومحاولة التقرب إليها والتقرب بها . فالآية إذن رد على عبدة القبور ، نقض لما زعموه وادعوه . وهكذا جميع الآيات وجميع الأحاديث الصحيحة التى يحتجون بها ، هى عندالتأمل الصائب القوى رد عليهم و إبطال لما يزعمونه و يدعونه . و بالله التوفيق .



﴿ كتاب ﴾

﴿ فصل الخطاب، فى تحريف كتاب رب الأرباب ﴾

مذهب الشيعة فى تحريف القرآن

وقع لى أخيراً كتاب ألفه أحد شيوخ الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية ، سماه « فصل الخطاب ، فى تحريف كتاب رب الأرباب » . والكتاب مطبوع طبعة حجرية ، كأنه مطبوع فى فارس أو فى الهند . قال فى أوله : « الحمد لله الذى أنزل على عبده كتاباً جعله شفاء لما فى الصدور ، ومهيمناً على التوراة والانجيل والزبور ، والصلاة والسلام على حامله نور النور ، والبيت الرفيع المعمور محل تدبير الأمور ، ومالك أزمة النشور [1] محمد المنتخب فى عالم السرور ، وعلى آله الصحف الناطقة بكل غائب ومستور ، والزبر المحتوية لما يكون أو مضى فى سالفات الدهور [2] ومصابيح الأنام فى ظلمات الغرور ، ومفاتيح خزانة العلم المسطور ، فى رق منشور ، خصوصاً على مختلف الملائكة فى الآصال والبكور [3] القطب الذى على مدار وجوده الأفلاك تدور ، المشرق نوره فى قلوب مواليه ، المحتجب عن أعين كل عديم الشعور ، إلى يوم ينفخ فى الصور ، ويبعث من فى القبور [4] وبعد فيقول العبد المذنب المسىء : حسين بن محمد تقى النورى الطبرسى — جعله الله من الواقفين ببابه ، المتمسكين بكتابه : هذا كتاب لطيف ، وسفر شريف ، عملته فى إثبات تحريف القرآن ، وفضائح أهل الجور والعدوان ، وسميته « فصل الخطاب ، فى تحريف كتاب رب الأرباب »

---

(١) النشور : البعث . يعنى انه عليه السلام مالك يوم القيامة

(٢) يعنى ان آل النبى عالمون بجميع الغيوب : الماضية والآتية

(٣) مختلف الملائكة مكان اختلافهم أى إتيانهم وذهابهم ويريدون ان عليا يوحى إليه

(٤) فى هذه العبارات تأليه ظاهر لعلى بن أبى طالب.

وجعلت له ثلاث مقدمات وبابين ، وأودعت فيه من بدائع الحكمة ما تقر به كل عين . وأرجو ممن ينتظر رحمته المسيئون ، أن ينفعنى به فى يوم لا ينفع مال ولا بنون . . . » .

وقال فى ختام الكتاب : « . . . وقد حان لنا أن نعطف عنان القلم ، إلى حمد من علم الانسان ما لم يعلم ، وأودع فى قلوبهم طرائف الحكم ، ونتوسل بالصلاة على النبى الأكرم ، والفاتح الخاتم البعيث على طوائف الأمم ، وعلى آله أولياء النعم ، ومصابيح الظلم ، وأسرار السجود لآدم . وقد فرغ من تنميق هذه الأوراق ، رجاء الانتفاع بها يوم يكشف عن ساق ، العبد المذنب المسىء المنسى ، حسين بن محمد بن تقى النورى الطبرسى ، فى مشهد مولانا أمير المؤمنين . شهر جمادى الأخرى من سنة ١٢٩٢ من الهجرة النبوية . . . » .

وقد ختم الكتاب بهذه العبارة : « وقد فرغت من تسويد هذا الكتاب العال ، بعون الملك المتعال ، فى ثانى عشر شهر شوال من شهور سنة ١٢٩٨ من الهجرة المقدسة النبوية ، على مهاجرها آلاف الثناء والتحية ، وأنا العبد العاصى الفانى ابن مرحوم ميرزا سيد محمد بن رضا أحمد الطباطبائى غفر الله لى ولأمى وأبى بجاه محمد وعلى . سنة ١٢٩٨ » .

والكتاب — كما يدل اسمه — موضوع للتدليل على أن القرآن محرف أنواع التحريف كلها ! بالزيادة ، و بالنقصان ، و بالترتيب ، و بالتبديل . وقد ذكر الدلائل على كل هذا من روايات الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية فى كتبهم عن أئمتهم . وقد زعم أن القول بالتحريف من ضروريات مذهبهم ، ومما تواترت دلائله . ونحن فى هذا الفصل ننقل بعض ما جاء فى هذا الكتاب الشنيع إتماماً للغرض الذى قصدناه وأردناه .

بوهم فى الزيادة قال صفحة ١٢٢ « اعلم أن وجود أصل الزيادة مقطوع به فى كلمات الأكثرين

حتى من المنكرين للتحريف ، كالصدوق وأتباعه . والأخبار فيه متواترة ، وستقف عليها . . » .

وقال صفحة ٢٣٦ « روى الثقة الجليل محمد بن مسعود العياشى فى تفسيره باسناده عن أبى جعفر عليه السلام قال : لولا أنه زيد فى كتاب الله ونقص ما خفى حقنا على ذى حجى . ولو قام قائمنا فنطق صدقه القرآن . قال المحدث البحرانى فى « الدرر النجفية » : يمكن حمل الزيادة فى هذا الخبر على التبديل حيث إن الأصحاب ادعوا الإجماع على عدم الزيادة ، والأخبار الواردة فى هذا مع كثرتها ليس فيها ما هو صريح فى الزيادة . فتأويل الخبر بما ذكرنا لابعد فيه . انتهى . وهو حسن ، إلا أنه تأتى الاشارة إلى زيادة بعض الحروف . ويأتى ذكره فى محله . وعن الصادق : لو قرىء القرآن كما أنزل لألفينا فيه مسمين . وقال أبو عبد الله : إن فى القرآن ما مضى وما يحدث ، وما هو كائن . كانت فيه أسماء الرجال فألقيت . وإنما الاسم الواحد منه فى وجوه لاتحصى ، يعرف ذلك الوصاة . وعن أبى جعفر قال : إن القرآن طرح منه آى كثير ، ولم يزد فيه إلا حروف أخطأت بها الكتبة وتوهمتها الرجال . وروى محمد بن إبراهيم النعمانى فى « غيبته » باسناده عن على بن أبى طالب قال : كأنى بالعجم [1] فى فساطيطهم فى مسجد الكوفة ، يعلمون الناس القرآن كما أنزل . قلت : يا أمير المؤمنين : أليس هو كما أنزل ؟ فقال : لا ، محى منه سبعون من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وماترك أبو لهب إلا للإزراء على رسول الله لأنه عمه . . » .

تحريم الشيعة على النار

وقال صفحة ١٥٦ « روى فرات بن إبراهيم الكوفى فى تفسيره باسناده قال على بن موسى الرضا عليه السلام : والله لايرى فى النار منكم اثنان أبدا ، لاوالله ولا واحد . قال : قلت أصلحك الله أين هذا من كتاب الله ؟ قال هو فى سورة

---

(١) هذه الرواية صريحة فى أن بناة المذهب الشيعى الغالى من الأعجام

الرحمن فى قوله تبارك وتعالى «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » .
قال : قلت : ليس فيها « منكم » قال : بلى والله ، إنه لمثبت فيها ، و إن أول من غير ذلك لابن أروى . وروى أحمد بن محمد السيارى فى كتاب القراءات بالاسناد عن الرضا قال : لا يرى فى النار منكم اثنان ، لا والله ولا واحد . ذلك فى كتاب الله. قلت: أين هو من كتاب الله ؟ فسكت عنى حولا، ثم اجتمعت معه فى الطواف فقال : ما أذن لى إلا الساعة ، قال الله تبارك وتعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » قلت : ليس « منكم » قال : بلى والله ، محاها ابن أروى . وروى الصدوق فى « بشارة الشيعة » ، على ما فى تفسير البرهان للسيد المحدث التوبلى باسناده عن الرضا عليه السلام قال : لا يرى منكم فى النار اثنان ، لا ولا واحد ، قلت : أين ذا من كتاب الله ؟ فأمسك عنى سنة ، قال : فانى معه فى الطواف ذات يوم إذ قال : أذن لى فى جوابك عن مسألتك كذا ، قلت: فأين هو فى القرآن ؟ قال فى سورة الرحمن وهو قول الله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان » فقلت له : ليس فيها « منكم » قال : إن أول من غيرها ابن أروى . وذلك أنها حجة عليه وعلى أصحابه . ورواه الشيخ شرف الدين النجفى فى تأويل الآيات عن الصدوق مثله . وأروى هى أم عثمان بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس » .

تواتر اخبار التحريف عند القوم

وقال صفحة ٢٥٠ « الدليل الثانى عشر الأخبار الواردة فى الموارد المخصوصة من القرآن ، الدالة على تغيير بعض الكلمات والآيات والسور بأحدى الصور المتقدمة ، وهى كثيرة جدا حتى قال السيد نعمة الله الجزائرى فى بعض مؤلفاته كما حكى عنه : إن الأخبار الدالة على ذلك تزيد على ألفى حديث . وادعى استفاضتها جماعة كالمفيد ، والمحقق ، والعلامة المجلسى ، وغيرهم ، بل الشيخ أيضاً صرح فى « التبيان » بكثرتها ، بل ادعى تواترها جماعة يأتى ذكرهم فى آخر

البحث . ونحن نذكر منها ما يصدق دعواهم مع قلة البضاعة ، ونبين فى آخرها ضعف بعض الشبهات التى أوردها جماعة . واعلم أن تلك الأخبار منقولة من الكتب المعتبرة التى عليها معول أصحابنا فى إثبات الأحكام الشرعية والآثار النبوية » .

ثم بعد هذا من صفحة ٢٥٢ إلى صفحة ٣٥٠ ذكر القرآن سورة سورة ، وأورد ما اطلع عليه مما حذف منه على زعمهم ناقلاً لذلك من كتب أسلافه الشيعة ، الامامية ، الاثنا عشرية .

ماحذف من سورة البقرة وآل عمران

قال فيما حذف من سورة البقرة : روى ثقة الاسلام الكلينى عن الكافى عن أبى جعفر عليه السلام قال : نزل جبرائيل بهذه الآية هكذا : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فى علىّ فأتوا بسورة من مثله » . وروى الكلينى أيضاً عن أبى جعفر أيضاً قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا : « فبدل الذين ظلموا آل محمد حقهم قولاً غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا آل محمد حقهم رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » . وذكر هذا أيضاً عن جماعات من شيوخ الشيعة . قال : وروى الكلينى عن أبى عبد الله فى قول الله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين بولاية الشياطين على ملك سليمان » .

وقال فى سورة آل عمران : هكذا نزل قول الله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وآل محمد على العالمين » . ونقل هنا رأيين أحدهما يقول : إن كلمة « آل عمران » لم تكن موجودة ، وإنما كان الموجود مكانها « آل محمد » ، فأزالوا آل محمد ووضعوا « آل عمران » بدلها . فتكون الآية مبدلة محرفة . والرأى الآخر يقول : إن كلمة « آل عمران » كانت موجودة وكان بعدها آل محمد فأزالوا آل محمد . وعلى هذا الرأى فالذى فى الآية نقصان . قال : وروى على

ابن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن سنان قال : قرأت على أبي عبدالله عليه السلام : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » فقال أبو عبد الله : خير أمة يقتلون أمير المؤمنين والحسن والحسين ! فقال القارئ : جعلت فداءك كيف نزلت ؟ قال « كنتم خير أئمة أخرجت للناس » . ألاترى مدح الله لهم « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله [1] » ؟ . قال : وروى النعماني في تفسيره عن الصادق عن أمير المؤمنين أنه قال : وأما ما حرف من كتاب الله. فقوله تعالى : « كنتم خير أئمة أخرجت للناس » فحرفت إلى « خير أمة » الخبر وهو طويل . وفي المجلد التاسع عشر من البحار : روى مشايخنا عن أصحابنا عن أبي عبد الله قال : قال أمير المؤمنين — وساق الحديث إلى أن قال : باب التحريف في الآيات التي هي خلاف ما أنزل الله مما رواه مشايخنا من العلماء عن آل محمد قوله عز وجل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . فقال أبو عبد الله لقارئ هذه الآية : ويحك « خير أمة » يقتلون ابن رسول الله ؟ قلت : جعلت فداءك فكيف هي ؟ فقال أنزل الله : « كنتم خير أئمة » ألاترى مدح الله لهم : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . فمدحه لهم دليل على أنه لم يعن الأمة بأسرها ، ألاترى أن الأمة الزناة ، واللاطة ، والسراق وقطاع الطريق ، والظالمين ، والفاسقين [2] أفترى الله مدح هؤلاء وسماهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ؟ كلا ، ما مدح هؤلاء ولا سماهم أخياراً بل هم الأشرار . قال : وقال علي بن إبراهيم في قوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » . قال أبو عبد الله : ما كانوا أذلة

---

(١) ومعنى هذا أن المسلمين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ولا يؤمنون بالله.

(٢) كذا بالنصب، وكذا عم الأمة بأنها الأصناف الفاسقة التي ذكرها . والاستدلال سخيف لأننا إذا قلنا : العرب نصروا الإسلام والنبي ، لم نعن كل عربي .

وفيهم رسول الله . و إنما نزل : « ولقـد نصركم الله ببدر وأنتم ضعفاء » . وقال في قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهـم أو يعذبهم فانهـم ظالمون » قال أبو عبد الله : إنما أنزل الله : « لك من الأمر شئ » . وعن محمد ابن جمهور عن بعض أصحابنا قال : تلوت بين يدى أبى عبدالله هذه الآية «ليس لك من الأمر شئ » فقال : بلى وشئ ! وهل الأمر كله إلا له ؟ قال : وروى النعمانى بالسند المتقدم عن أمير المؤمنين : وقال سـبحانه فى سورة آل عمران : « ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون لآل محمد » فحذفوا آل محمد .

المحذوف من سورة النساء

وقال فى سورة النساء : وعن البرقى عن الديلمى عن داود الرقى قال قال أبو عبد الله : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم وآل عمران وآل محمـد الـكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملـكاً عظيماً » ثم قال : نحن والله الذين ذكرهم الله فى كتابه ، ونحن والله المحسودون ثلاثاً . قال : وروى ثقة الاسلام فى روضة الـكافى بالإسناد عن أبى الحسن فى قول الله : « أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم فقد سبقت عليهم كلمة الشقاء وسبق لهم العذاب وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً [1] ». قال: وروى السيارى عن أبى عبدالله « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول ، وظلموا آل محمد حقهم لوتسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » . قال وعن على بن إبراهيم بالاسناد عن أبى جعفر عليه السلام قال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ياعلى فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجـدوا الله تواباً رحيما » هكذا نزلت . قال : وروى ثقة الاسلام عن العدة عن أبى عبد الله فى هذه الآية : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً ممـا قضيت فى أمر الولاية و يسلموا لله الطاعة تسليما » . وروى العياشى

(١) كذا ذكروا الآية مزيدة ومنقوصة .

عن جابر عن أبي جعفر : « فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فى ما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضى محمد وآل محمد ويسلموا تسليما » . وعن عبدالله بن يحيى الكاهلى عن أبى عبد الله قال : والله لو أن قوماً عبدوا الله وحده لاشريك له ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وحجوا البيت ، وصاموا شهر رمضان ثم لم يسلموا لنا لكانوا بذلك مشركين . . . ثم قرأ : « فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فى ما شجر بينهم مما قضى محمد وآل محمد » . وروى ثقة الاسلام عن أبى عبد الله : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم وسلموا للامام تسليما أو اخرجوا من دياركم رضا له ما فعلوه إلا قليل منهم . ولو أن أهل الخلاف فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا » . قال : وروى الكلينى بسنده عن أبى جعفر قال نزل جبرائيل بهذه الآية هكذا : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فى ولاية على فآمنوا خيراً لكم ، و إن تكفروا بولايته فان لله ما فى السموات والأرض » .

المحذوف من سورة المائدة

وقال فى سورة المائدة عن أبى جعفر عليه السلام فى قول الله : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » قال : إن الرسول عليه الصلاة والسلام عقد لعلى عليهم بالخلافة فى عشرة مواطن ثم أنزل الله : « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التى عقدت عليكم لأمير المؤمنين صلوات الله عليه » . قال : وروى ابن شهراشوب فى المناقب كما فى البحار عن عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده فى قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فى على و إن لم تفعل عذبتك عذاباً أليماً » فطرح عدوى اسم على عليه السلام [1] .

ما ذكروه فى سورة الانعام

وقال فى سورة الأنعام : وعن أبى عبد الله فى قوله : « والله ربنا ما كنا

(١) ولقد ذكر جنا روايات كثيرة حول هذا النقل مايدل على انهم يفضلون على بن ابى طالب على رسول الله بل ، كانهم يرونه خادما له .

مشركين بولاية على » . قل وروى الكليني باسناده عن أبي الربيع الشامي قال سألت أبا عبد الله عن قوله تعالى : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » فقال : الورقة : السقط ، والحبة ، الولد ، وظلمات الأرض : الارحام ، والرطب ما يحيا الناس به واليابس ما يغيظ ، وكل ذلك في إمام مبين . ثم ذكر عن الخاصة والعامة أن الامام المبين هو على بن أبي طالب .

ما ذكروا في سورة الأعراف وبراءة

وقال في سورة الأعراف : إن الله أنزل هذه الآية هكذا : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ومحمد رسولي وعلى أمير المؤمنين » . وهنا ساق روايات كثيرة .

وقال في سورة براءة : روى العياشي عن عبد الله بن محمد الحجال قال : كنت عند أبي الحسن الثاني ومعي الحسن بن الجهم فقال له الحسن : إنهم يحتجون علينا بقول الله : « ثاني اثنين إذ هما في الغار » قال وما لهم في ذلك ؟ فوالله لقد قال : « فأنزل الله سكينته على رسوله » وما ذكره (يعني أبا بكر) بخير فيها . قال قلت جعلت فداءك هكذا تقرءونها ؟ قال هكذا قرأتها . وعن زرارة قال أبو جعفر « فأنزل الله سكينته على رسوله » ألا ترى أن السكينة إنما نزلت على رسوله : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » فقال هو الكلام الذي تكلم به عتيق [1] . وروى الكليني بسنده عن الرضا : « فأنزل الله سكينته على رسوله وأيده بجنود لم تروها » هكذا نقرؤها وهكذا تنزيلها : وروى السيارى عن أبي عبد الله قال قال أبو جعفر : « فأنزل الله سكينته على رسوله » فقلت له « عليه » فقال « على رسوله »، ألا ترى أن السكينة نزلت على رسول الله . وعن أبي جعفر أنه قرأ « فأنزل الله سكينته على رسوله ، وأيده بروح القدس منه » .

(١) عتيق هو أبو بكر الصديق ، فهو الذي كفر وجعلت كلمته السفلى عند الشيعة .

قلت : ليس هكذا نقرؤها ، قال : لا ، هكذا فاقرأها لأن تنزيلها هكذا .

قال الرافضى : وللأصحاب كلام طويل فى المقام فى استهجان عود الضمير « عليه » إلى الصاحب . قال : والآية تدل على عدم إيمان الصاحب . والعامة قبحهم الله يفتخرون بها حتى إنى رأيت بعض مصاحفهم كانت الآية المذكورة مكتوبة فيها بماء الذهب . قال: وروى السيارى عن أبى عبد الله أنه قال: «ويلك» من كتاب الله . وعن مثالب بن شهراشوب عنهم عليهم السلام أن الآية المذكورة هكذا « ويلك لاتحزن » . قال : وروى الكلينى قال : قرأ رجل عند أبى عبدالله عليه السلام « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ، فقال: ليس هكذا وإنما هى : « والمأمونون » ونحن المأمونون . قال : وروى على بن إبراهيم قال نزلت : « يا أيها النبى جاهد الكفار بالمنافقين[1] » لأن النبى لم يجاهد المنافقين بالسيف قال الطبرسى : وروى فى قراءة أهل البيت « جاهد الكفار بالمنافقين » قالوا عليهم السلام لأن النبى لم يقاتل المنافقين ، وإنما كان يتألفهم ، لأن المنافقين لا يظهرون الكفر

ما ذكروه فى باقى سور القرآن

وقال فى سورة الرعد : كان التنزيل هكذا : « إنما أنت منذر ، وعلىّ لكل قوم هاد[2] » . وروى شمس الدين محمد بن بديع الرضوى فى الحبل المتين فى تفسير كازر والمولى فتح الله فى سياق الآيات المحرفة : وفى سورة الرعد : « إنما أنت منذر للعباد ، وعلىّ لكل قوم هاد »

وقال فى سورة الحجر : روى الكلينى بالإسناد عن أبى عبد الله قال : « هذا صراط علىّ مستقيم » . وقد أورد هنا روايات كثيرة

وقال فى سورة النحل : وعن أبى جعفر عليه السلام قال : أنزلت هذه الآية

---

(١) يعنون بالمنافقين الصحابة الذين كانوا يقاتلون مع رسول الله الكفار

(٢) ولاشك ان الهادى لكل قوم أفضل ممن هو منذر فقط .

هكذا : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم فى على قالوا أساطير الأولين » . وهناذكر عدة روايات . قال : وروى النعمانى فى تفسيره بالاسناد المتقدم عن أمير المؤمنين فى سياق الآيات المحرفة : ومنها قوله تعالى فى سورة النحل : « أن تكون أئمة هى أزكى من أئمتكم » فجعلوها « أمة » . وذكر هنا جملة روايات .

وقال فى سورة الاسراء : عن أبى جعفر قال : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك فى على » . وقد ساق هذا عن غير واحد من شيوخهم وعن غير كتاب من كتبهم . قال : وروى العياشى بالإسناد عن أبى جعفر قال نزل جبريل بهذه الآية على محمد هكذا : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين آل محمد حقهم إلا خساراً » . وروى محمد بن عباس بالسند عن أبى عبد الله قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا « فأبى أكثر الناس بولاية على إلا كفوراً » .

وقال فى سورة الكهف قال قال أبو عبد الله عليه السلام نزلت هذه الآية هكذا : « وقل الحق من ربكم فى ولاية على فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين آل محمد ناراً أحاط بهم سرادقها » . وقد أورد هنا جملة أخبار .

وقال فى سورة (طه) : وعن أبى الحسن : موسى بن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال سمعت أبى يقول : « وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً لآل محمد ﷺ » هكذا نزلت . وروى السيارى بالسند عن أبى عبد الله فى قول الله عز وجل : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل كلمات فى محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم فنسى » هكذا والله نزلت .

وقال فى سورة الأنبياء : وروى السيارى بالاسناد عن عمير وجابر : « وأسروا

النجوى الذين ظلموا آل محمد حقهم : هل هـذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون »

وقال فى سورة (الفرقان) : روى على بن إبراهيم بالسند عن أبى جعفر قال نزل جبريل بهذه الآية هكذا : « وقال الظالمون لآل محمد حقهم : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » . و روى السيارى بالاسنادعن أبى عبد الله أنه قال نزل جبريل بهذه الآية على رسول الله هكذا و إنها لفى مصحف على بن أبى طالب : « ليتنى لم أتخذ زفر خليلا » . وعن البرقى عن خلف عن أبى بصير عن أبى عبد الله قال: إن فى الكتاب لتغييراً كبيراً ، فان الله سبحانه قد سمى رجلا باسمه فقال القوم : « ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » فكنوا عن اسمه وسيظهر يوماً . وعن أبى جعفر : « و يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتا ليتنى لم أتخذ زفر خليلا » يقول الأول للثانى [1]

وقال فى سورة الأحزاب : روى على بن إبراهيم بالسند عن أبى عبد الله فى قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله فى ولاية على والأئمة من بعده فقد فاز فوزاً عظيما » هكذا نزلت

وقال من سورة التحريم : عن أبى عبد الله ، « إن تتوبا إلى الله مما هممتما به من السحر فقد زاغت قلوبكما »

وقال فى سورة الملك : روى السيارى بالسند عن أبى بصير قال سألت أبا عبد الله عن قول الله : « إن أهلكنى الله ومن معى » قال هذه الآية مما حذفوا وغيروا و بدلوا ، فان الله عز وجل لا يهلك محمداً رسوله ولا من كان معه من المؤمنين وهو خير ولد آدم ، ولكن قال الله : « أرأيتم إن أهلككم الله جميعاً [2] و رحمنا

(١) اى يقول ابو بكر لعمر . فالظالم فى الآية هو الصديق وزفر هو الفاروق

(٢) هذا يدل على أنهم يكفرون جميع الصحابة المخاطبين بالقرآن

فمن يجيركم من عذاب أليم ؟ »

وقال فى سورة « الجن » : عن محمد بن أبى بكر بالإسناد عن أبى جعفر فى قوله تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » قال هم الأوصياء والأئمة منا واحد فواحد : « فلا تدعوا إلى غيرهم فتكونوا كمن دعا مع الله أحدا » هكذا نزلت .

وقال فى سورة المزمل : روى الكلينى بالاسناد عن محمد بن الفضيل قلت : « واصبر على مايقولون فيك واهجرهم هجراً جميلا وذرنى يامحمد والمكذبين بوصيك أولى النعمة » قلت : إن هذا تنزيل ؟ قال : نعم .

لماذا سميت الشيعة ترابيا

وقال فى سورة (النبأ) : روى الشيخ الجليل محمد بن إبراهيم النعمانى فى تفسيره عن الصادق عن أمير المؤمنين فى أمثلة الآيات المحرفة قال عليه السلام : ومثله : « ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابياً » فحرفوها فقالوا « ترابا » . وذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يكثر من مخاطبتى بأبى تراب . وهنا أورد روايات كثيرة ، قال : وقال العلامة المجلسى فى تاسع بحاره : يمكن أن يكون ذكر الآية لبيان وجه آخر لتسميته بأبى تراب لأن شيعته لكثرة تذللهم له وانقيادهم لأوامره سموا « ترابا » كما فى الآية الكريمة ، ولكونه قائدهم ومالك أمورهم[1] سمى أبو تراب (كذا فى النسخة المطبوعة) . ويحتمل أن يكون استشهاداً لتسميته بأبى تراب ، أو لأنه وصف به على جهة المدح لاعلى مايزعمه النواصب لعنهم (كذا) حيث كانوا يصفونه به استخفافاً . فالمراد بالآية : « ياليتنى كنت ترابياً » . والأب يسقط فى النسبة مطرداً وقد تحذف الياء أيضاً كما تقول : تميم وقريش لبنيهما . . .

(١) وهذا تصريح من القوم جرئ بتأليههم عليا وباعتقادهم أنه مالكهم ومالك امورهم ، وهذا كثير فى كلامهم .

وقال فى سـورة « التكوير » : إن قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت » محرفة عن : « وإذا المودة سئلت » قال : ويراد بها مودة أهل البيت المضيعة.

وقال فى سورة الليل قال قرأ أبو عبد الله : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، الله خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، ولعلى الآخرة والأولى » قال هكذا نزلت . قال : وعن يونس عن علـى بن أبى حمزة عن فيض بن المختار عن أبى عبد الله أنه قرأ : « إن عليا للهدى ، وإن له للآخرة والأولى [1] » وهنا ذكر روايات كثيرة .

الآخرة والاولى لعلى بن ابى طالب

وقال فى سورة الانشراح : إن القرآن هكذا : « ألم نشرح لك صدرك بعلى ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، بعلى صهرك . فاذا فرغت من نبوتك فانصب علياً وصياً ، وإلى ربك فارغب فى ذلك » .

وقال فى (سورة) القدر : إن السورة هكذا نزلت : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وماأدراك ما ليلة القدر ! ليلة القدر خير من ألف شهر يملكها بنو أمية ليس فيها ليلة القدر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من عند ربهم على محمد وعلى أوصياء محمد وعلى آل محمد بكل أمر » .

وقال فى سوره الكوثر : إنها نزلت هـكذا : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك عمرو بن العاص هو الأبتر » .

هذه أشياء يسيرة قليلة من الأشياء الكثيرة التى نقلوها فى كتاب «فصل الخطـاب فى تحريف كتاب رب الأرباب » وزعموها من كلام الله . وقد ذكر صفحة ١٨٥ كلاماً طويلا على اعتباره سورة من السور المحذوفة قال : قال صاحب

(١) ولا ريب فى ان هذا كفر بواح نعوذ بالله .

كتاب « بستان المذاهب » بعد ذكره أصول عقائد الشيعة مامعناه : و بعضهم يقولون : إن عثمان أحرق المصاحف وأتلف السور التى كانت فى فضل علىوأهل بيته عليهم السلام منها هذه السورة :

كلام تزعمه الشيعة سورة محذوفة من القرآن

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« يا أيها الذين آمنوا آمنوابالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتى ويحذرانكم عذاب يوم عظيم ، نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم . إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله فى آيات لهم جنات النعيم ، والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وماعاهدهم الرسول عليه يقذفون فى الجحيم ، ظلموا أنفسهم وعصوا الوصى الرسول[1] أولئك يسقون من حميم . إن الله الذى نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك فى خلقه يفعل الله مايشاء ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم . إن أخذى شديد أليم : إن الله قد أهلك عاداً وثموداً (كذا بالتنوين) بما كسبوا وجعلهم لكم تذكرة فلا تتقون . وفرعون بما طغا على موسى وأخيه هارون أغرقته ومن تبعه أجمعين ليكون لكم آيته (كذا) وإن أكثركم فاسقون ، إن الله يجمعهم فى يوم الحشر فلا يستطيعون الجواب حين يسألون . إن الجحيم مأواهم ، وإن الله عليم حكيم . يا أيها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون. قد خسر الذين كانوا عن آياتى وحكمى معرضون[2] مثل الذين يوفون بعهدك إنى جزيتهم جنات النعيم[3] إن الله لذو مغفرة وأجر عظيم ، وإن علياً من المتقين ، وإنا لنوفيه حقه يوم الدين ، مانحن عن ظلمه بغافلين ، وكرمناه على أهلك أجمعين ،

---

(١) وهذا نص على انهم يعتقدون عليا رسولا مع الرسول أو هو الرسول .

(٢) كذا بالواو والنون . (٣) مثل هذه التراكيب الركيكة لا يقولها عربى ابداً فضلا عن أن يقولها الله تعالى عن ذلك . ولا شك ان هذا الكلام من تاليف الاعجام الجهلاء بلغة العرب . وهذا يقوى ما ذكرناه من ان مذهب الشيعة من وضع العجم دون العرب .

فانه وذريته لصابرون ، و إن عدوهم إمام (شكلت الميم بالنصب) المجرمين ، قل للذين كفروا بعد ما آمنوا : أطلبتم زينة الحياة الدنيا واستعجلتم بها ونسيتم ما وعدكم الله ورسوله ونقضتم العهود من بعد توكيدها . وقد ضربنا لكم الأمثال لعلكم تهتدون . يا أيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفاه مؤمنا ومن يتولاه من بعدك يظهرون. فأعرض عنهم إنهم معرضون (ما معنى هذا الهراء ؟) إنا لهم محضرون (شكاوه بفتح الضاد) فى يوم لا يغنى عنهم شئ ولا هم يرحمون . إن لهم فى جهنم مقاماً عنه لا يعدلون . فسبح باسم ربك وكن من الساجدين . ولقد أرسلنا موسى وهارون بما استخلف فبغوا هارون (ما معنى هذا ؟) فصبر جميل، فجعلنا منهم القردة والخنازير ولعناهم إلى يوم يبعثون. فاصبر فسوف يبصرون . ولقد آتينا بك الحكم (كذا) كالذين من قبلك من المرسلين. وجعلنا لك منهم وصياً لعلهم يرجعون . ومن يتولّ (وضعوا كسرة تحت اللام) عن أمرى فإنى مَرْجَعَهُ (كذا شكاوه) . فليتمتعوه بكفرهم قليلا فلا تسأل عن النا كثين . يا أيها الرسول قد جعلنا لك فى أعناق الذين آمنوا عهداً فخذه وكن من الشاكرين . إن علياً قانتاً بالليل ساجداً (كذا) يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه . قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعذابى يعلمون (يستوون هم ومن أيها العلماء) سيجعل الاغلال فى أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون (كذا كسرت الدال) إنا بشرناك بذريته الصالحين و إنهم لأمرنا لا يَخْلِفُون(كذا ضبطوه)فعليهم منى صلوات ورحمة أحياء وأمواتا يوم يبعثون،وعلى الذين يبغون عليهم من بعدك غضبى ؛ إنهم قوم سوء خاسرين (كذا بالياء والنون) وعلى الذين سلكوا مسلكهم منى رحمة وهم فى الغرفات آمنون . والحمد لله رب العالمين»

قال الرافضى بعد إيراده هذا الكلام على أنه سورة من القرآن : « قلت. ظاهر كلامه أنه أخذها من كتب الشيعة ولم أجد لها أثراً فيها غير أن الشيخ محمد

ابن على بن شهراشوب المازندرانى ذكر فى كتاب المثالب على ما حكى عنه أنهم أسقطوا من القرآن تمام سورة الولاية ، ولعلها هذه السورة . والله العالم . . » .
انتهى كلام الرافضى .

وهذا الكلام الذى يزعمونه من كلام الله لا يصح أن يكون من كلام عوام العرب وجهلائهم فضلا عن أن يكون من كلام الله ومن كلام رسوله أو من كلام أحد الأئمة المعصومين عندهم من آل البيت النبوى . و إنما هو من كلام الأعجام الذين لا يعرفون أساليب اللغة العربية ، ولا يعرفون نحوها ، ولا صرفها ولا مفرداتها ولا قواعدها . وهذا القرآن يضارع قرآن غلام أحمد القاديانى ، بل ذاك انظف وأفضل قرآناً . و إذا قيل فى الشعر :

هل من الاحسن الاعراض عن هذه الافات الاعتقادية

وهاج نفسه من لم يميز * كلامى من كلامهم الهراء

كان أهجى لنفسه ولعقله وذوقه وفطرته واستعداده ذاك الذى لا يميز كلام الله من كلام هؤلاء الأعاجم . ويخطئ الذين يحسبون أن من الخير والأحسن الاعراض عن مثل هذا الكلام والاعراض عن نقله وعرضه على القراء لئلا تحوم حول القرآن حائمة من الشبهات والريب . وهذا الزعم خطأ ظاهر . وذلك أن من الانتصار للقرآن أن نضع هذا الهراء إزاءه ليتبين فضله و إعجازه ، ولتظهر خيبة المعارضين له المتكذبين عليه إذ (و بضدها تتبين الأشياء) . والحق يزداد جمالا و وضوحاً وقوة حينما يوضع إلى جانبه الباطل ، والعالم يتبين فضله بإزاء الجاهل ، والنجوم الثواقب لا يتبين اشراقها ولألاؤها وجمالها إلا فى وسط الدجنات الحوالك .

وهذا الكتاب — أعنى كتاب (فصل الخطاب ، فى تحريف كتاب رب الأرباب) يقع فى ما يناهز أربعمائة صفحة كبيرة . وكله من هذا النوع الفاحش ، الذى يتبرأ إن شاء الله منه كل من يؤمن بالله و باليوم الآخر ، و يتبرأ

منه كل من يحب أمتــه وقومه ، بل يتبرأ منه كل عربى على وجه الأرض . إذ لا شك أن هذا كله من وضع المعادين للعرب وللاسلام والمسلمين ، الكائدين لله ولرسوله ولصحابته شنآنا من عند أنفسهم .

ويلاحظ مما نقلناه أن وضعة هذا الـكفر والالحاد كانوا يقصدون بما يضعون أمرين اثنين : أحــدهما الامعان فى ثلب الصحابة والمسلمين و تنقصهم وإكفارهم ووضعهم فى زمر الملحدين والمنافقين الذين لم يؤمنوا بالله ولا برسوله ولا بدينه قط ، والذين مازالوا يكيدون للاسلام ولأهل الاسلام ونبى الاسلام . وهذا الغرض ظاهر بارز فى الجمل التى نقلناها من كلامهم . . . وثانى الأمرين الامعان فى تعظيم على بن أبى طالب وآله المعدودين عندهم إلى حد أن جعلوهم أنبياء ورسلاً ، بل فوق الأنبياء والرسل . فإنهم جعلوا الملائكة والروح يتنزلون عليهم ليلة القدر بكل أمر ، وجعلوهم مختلف الملائكة ، أى موضع اختلافهم ، أى مجيئهــم وذهابهم ، وجعلوهم «الـكتب الناطقة بكل غائب ومستور ، والزبر المحتوية لما يكون أو مضى فى سالفات الدهور . . . ومفاتيح خزانة العلم المسطور فى رق منشور ، خصوصاً على مختلف الملائكة فى الآصال والبكور[1] ، القطب الذى على مدار وجوده الأفلاك تدور[2] . . . » كما تقدم فى خطبة الـكتاب . ولم يقفوا عند هذا الحد الأبعــد الفظيع بل تجاوزوه بمراحل وفراسخ حتى جعلوا عليا الهــدى ، وجعلوه المــالك للآخرة والأولى ، المالك لهم ولأمورهم كلها ، وجعلوا الرسول مالك أزمة النشور ، وجعــلوا الأمر كله له ، وزعموا قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شئ » محرفاً مبدلاً . ومن القبيــح أن صاحب هذا

---

(١) يعنون ان الملائكة تختلف الى على بن ابى طالب صباحا ومساء . والانبياء لا يزيدون عن هذا شيئا

(٢) وهذه هى المعضلة التى لا تفهم ، اذ ما معنى دوران الافلاك على مدار وجود على؟ لا معنى لهذا الا ان يراد انه هو مسير الافلاك ومسير العالم كله وجودا وفناء وتصريفا .

الكتاب — أعنى كتاب « فصل الخطاب » — يقول فى أثناء مباحث الكتاب هذه الجملة : « فأقول مستمداً من آل الرسول ! » كما يقول المسلم : « فأقول مستمداً من الله أو مستعيناً بالله »

ماذا ؟ وضعة هذا المذهب ومن يكونون

فوضعة هذا الكلام يقصدون من وراء ما وضعوا ويضعون أمرين : تنقص أوائل المسلمين ، ووضعهم فى أرذل طبقات المنافقين ، والضالين المجرمين ثم الغلو بآل النبى الغلو الأبعد المنكر إلى حد العبادة والتأليه . أما الأمر الأول فالحامل لهم عليه خصومة العرب وشنآن الاسلام ، لأنهم ليسوا عرباً ، ولأنهم لم يدخلوا حقيقة فى الاسلام . وأخص بهذا نفس وضعة هذا الكلام الذى نقلناه لا أتباعهم المقلدين لهم إذ قد يكونون مخدوعين بهم . وهذا عندنا ظاهر واضح. وأما الأمر الثانى فهو نتيجة للأمر الأول. فانهم عند ما امتلأت صدورهم بعداوة العرب وبشنآن الاسلام حاولوا حرب هذين العدوين الخصمين بلا خصومة منهما ، وحاولوا ضربهما الضربات القاتلة ، فكان السلاح الذى حملوه للانتقام من هذين الخصمين وللايقاع بهما هو الغلو فى آل النبى . والغلو فى آل النبى له أثران ونتيجتان : أحدهما إفساد الدين والتوحيد بعبادتهم وباعطائهم حق الله الخالص له . وثانيهما إفساد الدولة بالثورات والاضطرابات . وبهذين الأثرين أو النتيجتين يستطاع الانتقام من العرب بازالة ملكهم واكتساح سلطانهم ، ويستطاع الانتقام من الاسلام — وهو عز العرب — بافساد أصوله وعقائده ، ومزجه بالشرك وعبادة المخلوقين . فاذا زال ملك العرب وتناثرت عروشهم الواحد تلو الواحد ، وفسدت عقائد الاسلام وأصوله ، وأصابها ما أصابها ولابسها ما لابسها من الاشراك والضلال فقد تم الانتقام بأروع صوره ومظاهره .

وقد كنت سمعت من أحد الذين عرفوا بعض أغراض هذه الطائفة وألموا بشىء من أسرارها وأسرار دعوتها ودعاتها — لأنه كان معايشاً لهم مواطناً — انهم

يزعمون إيماء — وأحيانا تصريحاً — أن القرآن لم ينزل — كما يقول المسلمون جميعاً — لهداية الخلق ودعايتهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم . . . وإنما نزل لأجل التعريف بعلى وبآله ، ونزل للدلالة عليهم والحض على إكبارهم وتقديسهم ولهذا فإن الشرائع عندهم تؤخذ مما يروونه بكتبهم عن على وعن الأئمة المعصومين لا من القرآن ولا من السنة النبوية ، بل الكتاب والسنة لا وزن لهما عندهم وقد تقدمت الدلائل على ذلك .

مافائدة القرآن عند الشيعة

وقد تبين لى اليوم صدق هذا القائل إلا أنى أزيد عليه شيئا ، فأقول : إنهم يرون أن القرآن لم ينزل إلا لأمرين اثنين : أحدهما امتداح على وآله ، هذا الامتداح الأحمق المجنون أو الخادع المنافق . وثانيهما هجاء الصحابة وهجاء المسلمين وإكفارهم وإفساقهم وقذفهم بكل الأدواء النفسية والاعتقادية ، ورشقهم بتهمة النفاق الحاد المنكر . والدليل على ذلك زعمهم أن المحذوف من القرآن أكثر من النصف — وهذا مذكور فى هذا الكتاب وفى غيره . وقد زعموا أن المحذوف منه إما هجاء وإكفار للصحابة وللمسلمين ، وإما ثناء ومديح لعلى ولآله ، إلا الأقل النادر . وقد زعموا أيضاً أن الموجود من القرآن المبقى عليه يراد بالكثير منه امتداح على وآله وثلب الباقين من المسلمين . وقد زعموا كما تقدم أن القرآن قد نزل بمذمة ستين أو سبعين رجلا من رؤوس قريش مصرحاً بأسمائهم ، وبعلاماتهم الجلية الظاهرة ، وأن الصحابة المنافقين حذفوهم بعد رسول الله من القرآن رعاية لقريش المشركين . وإنما أبقوا على أبى لهب احتقاراً لرسول الله وازدراء به لأنه عمه . . . فكأن القرآن ما نزل عندهم إلا لهذين الغرضين : هجاء المسلمين بادئا بالصحابة ، وامتداح على وأولاده والتعريف بحقوقهم . وأغراضهم الحقيقية من وراء ذلك هى ما ذكرناه .

نحن لا نناقش القوم بهذه الكلمة ، وإنما ذكرناها ذكرنا لنقول : ألا يخجل قوم

هذا نصيبهم من عناد الإسلام وحرب المسلمين من أن يؤلفوا كتاب « كشف الارتياب ، فى أتباع محمد بن عبد الوهاب » ليضمنوه غيرتهم على دماء المسلمين وعلى أعراضهم وعقائدهم ، ولكى نعرف — معاشر المسلمين — أعداءنا من أصدقائنا ، لنقف من الفريقين موقفا صريحاً واضحاً ، يدفعنا إليه الإخلاص للاسلام ، والحرص على جماعات المسلمين . فما ينفعنا أن يكون عدد المسلمين أربعمائة مليون من أمثال هؤلاء ، وما يضرنا أن يكون عددهم مائة ألف مسلم أمثال المسلمين الذين توفى عنهم رسول الله . بل ما يضرنا أن يكونوا مسلماً واحداً مثل الصديق أو الفاروق . إن فخر الشعوب والأمم وقوتها ليس بالعدد ، ولكن بالعمل . والشواهد على هذا منظورة فى الوقت الحاضر ، مقروءة فى الزمن الغابر .

المسلمون أمس واليوم

وقد كان الصحابة يوم أن توفى رسول الله ﷺ لا يزيدون على مائة ألف ، وقد استطاعوا أن يبعثوا من عددهم هذا الضئيل عدة جيوش مختلفة إلى جهات مختلفة فيقهروا بها أقوى دول الأرض إذ ذاك . وكان عددهم فى غزوة بدر الفاصلة ثلاثمائة ، وقد استطاعوا أن ينتصروا بتلك الفئة القليلة أول انتصار حاسم للاسلام . وقد كان عددهم أقل من ذلك وأكثر . وكانوا فى تلك الحالات كلها أعز منهم اليوم وعددهم كما يقولون أربعمائة مليون . فأين غناء هذا العدد الهائل ؟

شعبان سنة ١٣٥٧ هـ　　عبد الله على القصيمى　　بالقاهرة

(تم الجزء الثانى ويليه إن شاء الله الجزء الثالث)

فهرست الجزء الثانى

﴿ من كتاب الصراع بين الاسلام والوثنية ﴾

صفحة

صفحة

صفحه

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحه

﴿ تم الفهرس ﴾

كتب المؤلف ـ وكلها مطبوعة

١ البروق النجدية فى اكتساح الظلمات الدجوية

٢ شيوخ الأزهر

٣ الفصل الحاسم بين الوهابيين ومخالفيهم

٤ مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها

٥ نقد كتاب « حياة محمد »

٦ الثورة الوهابية

٧ الجزء الأول من كتاب « الصراع بين الاسلام والوثنية »

٨ الجزء الثانى منه وهو هذا .

عبد الله القصيمي

قلب معسكر الأصلاح فى الشرق

بقلم فضيلة الاستاذ الشيخ حسن القاياتى

معسكر الاصلاح فى الشرق ، طليعته ابن خلدون ، باكورة الاجتماعيين ، وجناحاه السيد الأفغانى ، وتلميذاه محمد عبده والسيد الكواكبى ، أما قلبه فهو السيد القصيمى نزيل القاهرة اليوم ، نجدى فى جبته وقبائه ، وصمادته وعقاله ، اذا اكتحلت به عيناك لأول اللمحة ، قلت : زعيم من زعماء العشائر النجدية ، تخلف عن عشيرته ، لبعض طيته ، حتى اذا جلست اليه فأصغيت الى حديثه الطيب أصغيت الى عالم بحر يفهق بعلم دينى واجتماعى .

تعرفت الى العالم النجدى القصيمى ، فجلست الية مرة ومرة ، ثم شاهدته كرة ، فناهيك منه داعية اصلاح ، أكثر ما يلهج به الشرق وأدواؤه وجهله ودواؤه .

لم أقض العجب حين شهدت السيد القصيمى من عرق فى شمائله ، ملتف فى شملته ، يروعك منه عالم فى مدرسته ، كاذ يخيلنى شرقيا بغيرته الشرقية ، وقد بنيت مصريا .

حيا الله السيد القصيمى . ما أصدق نظرته الى الحياة . وأبعد مرماه فى الهداية . يقول الأستاذ القصيمى :

« شعبان هبطا هذا الكوكب الأرضى الواسع الأرجاء . فسار شعب تحت ضمان معرفته فى قوة لاتكبو ولاتضل . فاستغل واستقل . وشعب آخر هبط غريبا فى هذا الكوكب ، جاهلا نواميسه وقوانينه . فلم يدر كيف يأخذ ولا كيف يدع ، هذان شعبان ، فماذا عسى أن تكون النتيجة لاجتماعهما . ليس هناك ادنى ريب فى أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان »

مجلة المقتطف . العدد الصادر فى ١٠